الموسوعة الشاملة

في تاريخ الحروب الصليبية

المجلد الثالث



تأليف وتحقيق وترجمة

د. سهيل زكار

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (١)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الحادي عشر

دمشق

١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

المصادر العربية (مؤرخو القرن السادس)

١ ـ ابن القلانسي
٢ ـ العظيمي
٣ ـ ابن عساكر
٤ ـ ابن الازرق الفارقي
٥ ـ ابن الجوزي
٦ ـ العماد الصفهاني الكاتب (صاحب البستان الجامع)

دمشق ١٤١٥ / ١٩٩٤

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الفراغ من تقديم النصوص غير العربية الاصل ، نشرع الآن بتقديم النصوص العربية التي كتبها عدد من المؤرخين العرب ، عاصر بعضهم احداث الحروب الصليبية ، وبعضهم الآخر لم يعاصرها غير انه نقل عمن تقدمه ، ويلاحظ ان مواد المؤرخين العرب لا تمثل من بعض الجوانب وجهة نظر المسلمين مما حدث فحسب بل فيها تفاصيل وروايات ليست متوفرة لدى غير العرب ، وعليه لايمكن لاي باحث الاستغناء مطلقا عما كتبه العرب ، ومن هذا الباب جاءت جل الكتابات المعاصرة حول تاريخ الحروب الصليبية فيها عيوب كثيرة ونقص مشوه بحكم ان جل الاوروبيين لايعرفون العربية ، ففي فرنسا عد غروسية اشهر المؤرخين الفرنسيين المعاصريين ممن بحث في تاريخ الحروب الصليبية ، وفي انكلترا عد رنسمان بالمرتبة نفسها ، والعجب العجاب انهما لايعرفان العربية ، واقتصرت استفادتهما من المصادر العربية على بعض الترجمات .

واهتم المؤرخون العرب بقدوم الفرنجة وبما احدثوه ، ويروى أن حمدان بن عبد الرحيم الاثاربي صنف كتابا مفردا حول هذا الموضوع ، وهذا الكتاب بحكم المفقود ، لانعرف محتواه ولا منهج مصنفه .

وبعد عبد الرحيم ، او حتى في ايامه تحدث المؤرخون العرب عن الفرنجة واعمالهم ضمن منظومة اخبار الحوليات ، ولم يحاول ايا منهم السؤال : من اين جاء هؤلاء ، ولماذا قدموا ، وما هي أصولهم واوضاعهم الاجتماعية والسياسية وسواها ؟

لقد عالجوا اخبارهم منذ دخولهم الى بلاد الشام ضمن النسيج السياسي الشامي ، وليس في هذا قصور في الاهتمام انما اتباع لمنهج اعتادوا عليه ، فهكذا تعاملوا مع الغز والتركمان وسواهم .

في المصادر العربية مواد بالغة الاهمية ، يضاف إلى هذا إن المتمعن في ترييب الاخبار لا سيما كما ظهر فيما بعد لدى ابي شامة في الروضتين ، يمكن ان يتلمس معالم مدرسة عربية عالجت موضوع تاريخ الحروب الصليبية ، فمع أن أبا شامة أوقف كتابه ـ من حيث المبدأ ـ على الدوليتين النورية والصلاحية ، اهتم أولا وقبل كل شيء بماسلف ودعيته « مرحلة الموصل مع طور الاحتلال ، ثم انبرى للحديث عن مرحلة حلب وذور الدين ، ثم مرحلة دمشق وصلاح الدين وقام اثر هذا بالتذييل على الروضتين ، اي بالحديث عن بدايات مرحلة القاهرة .

لقد عاصر اصحاب نصوص هذا المجلد بدايات قيام الحروب الصليبية وتطوراتها اللاحقة ، وخدم توزعهم الجغرافي في تقديم المزيد من التفاصيل والروايات ، وفي تبيان اصداء الوقائع والاحداث في البلدان العربية وسواها ، لاسيما بلاد الكرج « جورجيا » فقد فتح الجورجيون جبهة صليبية شرسة ، كان لها أعمق الآثار ، وقد لايكون المرء مغاليا اذا ما قال لولا هذه الجبهة لما وجد صلاح الدين '

استخرجت اول نصوص هذا المجلد من تاريخ دمشق لابن القلانسي « الرئيس الاجل مجد الرؤساء . ابو يعلى حمزة بن أسد ابن علي بن محمد التميمي » صاحب أقدم تاريخ لمدينة دمشق وصل الينا ، وكنت قد قمت بتحقيق هذا الكتاب ونشره في دمشق سنة ١٩٨٣ . وعاش ابن القلانسي في الفترة الممتدة ما بين ٤٧٠ ـ ٥٥٥ هـ /١٠٧٧ ـ ١١٦٠م . عاش في دمشق ، وكان من كبار شخصياتها واعيانها ، فقد ولي ديوان المدينة اكثر من مرة ، والمعني هنا ديوان الانشاء ، لكنه لربما ولي ديوان الخراج ايضا .

وعاصر ابن القلانسي ما عرف باسم الحملة الصليبية الاولى والحملة الثانية ، وعاصره من الجانب اللاتيني وليم الصوري ، ولا شك أن رئاسته للديوان وصدارته وضعته وسط أخبار الوقائع والاحداث مع شيء من المشاركة ، ومكنته من الاطلاع على الوثائق الرسمية على مختلف انواعها وانماطها ، ولهذا رقت رواياته ومواده الى الدرجة الوثائقية العالية ، لكن وثائقية مثلث في كثير من الاحيان الموقف الرسمي او قامت بمداراة هذا الموقف ، وبتقديري أنه لولا هذا الموقف لكان بامكانه أن يودع كتابه اضعاف ما اودعه .

ولغة ابن القلانسي تدل على تمكنه وعلو ثقافته ، وهو وان شارك اهل عصره بالصنعة بالمترادفات ،الاانه لم يسرف في ذلك كما أسرف العماد الاصفهاني ، صاحب مواد المجلد المقبل . ومفيد ان أبين هنا ان مواد ابن القلانسي عن الحروب الصليبية سلف وان ترجمت - لاهميتها - الى كل من الانكليزية والفرنسية ، وانما اعتمادا على اصل غير محقق بشكل علمي دقيق .

وكان ابن القلانسي بالدرجة الاولى مؤرخا دمشقيا ، أولى دمشق جل اهتمامه ، وركز على مواجهتهاالمملكة اللاتينية في القدس ، ثم على سوى ذلك ، وعاصر ابن القلانسي عدد من المؤرخين الحلبيين لم يقلوا شأنا عنه ، ولكن اسوء الحظ لم تصلنا مصنفاتهم ، بل عرفناها من خلال بعض النقول والمختصرات ، ونذكر من هؤلاء الحلبيين حمدان بن عبد الرحيم الاثاربي (ت ١١٤٧ م)وعلي بن عبد الله بن ابي جرادة (ت ١١٥١ م) ومحمد بن علي العظيمي (ت حوالي ١١٦١ م) .

وكان حمدان طبيباوشاعرا كبيرا بالوقت نفسه ، عمل في الادارة الصليبية لمنطقة « الجزر » بين انطاكية وحلب ، كما عمل في ادارة زنكي ، وقد اوفده زنكي سفيرا عنه الى كل من أنطاكية ، ودمشق وبغداد ، والقاهرة ، حيث لقي الخليفة الفاطمي الآمر (١١٠١ - ١١٣٠ م) وكان حمدان مثله مثل اكثر اهل حلب شيعيا

اماميا ، ومع هذا فقد اتهمته أجهـزة القـاهرة بـأنه اسـماعيلي حشيشي ، والمهم هنا أن حياة حمدان في الشام الشمالي وأدواره قد زودته بمعلومات على درجة قصوى من الاهمية ، ولم يصلنا أي من كتب حمدان غير أننا سنطلع على بعض رواياته في نصـوص ابـن العديم في كتابه بغية الطلب .

وكان علي بن ابي جرانة صديقا لحمدان ، ينظم الشعر ، وله من الثقافة والمكانة الاجتماعية والدينية والسياسية ماأهله لشغل ادوار هامة وللاطلاع على معلومات ثمينة ، ولكن لسوء الحظ لم يصلنا أي من كتبه ، غير اننا سنتعرف على بعض مواد كتابه عن ملوك حلب في نصوص بغية الطلب الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم ، واسرة آل أبي جرانة هي أسرة ابن العديم نفسها .

وكان العظيمي من كبار شخصيات حلب : شاعرا ومعلما ، وقد كتب اكثر من كتاب في التاريخ العام والخـاص ، أوقـف أحـدهـا ـ على الاقل ـ على تاريخ مـدينة حلب وبقيتهـا على التـاريخ الاسـلامي العام ،مع اهتمام خاص بحلب والشام الشمالي ، ووصلنا مما كتبه العظيمي كتاب مختصر واحد لعله هو الذي سـماه « الموصـل على الاصل المؤصل » ومن هذا الكتاب نسخة فريدة لايعـرف في العـالم سواها موجودة في مكتبة بايزيد في استانبول (رقم ٣٩٨) .

والنصوص المختارة من تاريخ العظيمي جاءت في آخـر الكتـاب ، وحوت ما عاصره لا ما نقله من المصادر ولهذا لها اهميتها ومكانتها العالية ، ومفيد أن أذكر أن ابن العديم أثبـت في كتـابه بغية الطلب نقولا واسعة من كتب العظيمي الاخرى .

ولئن عددنا ابن القلانسي صاحب أقدم كتاب تاريخ يصـلنا حـول دمشق ، فان ابن عساكر هو أهـم وأشـهر مـن أرخ لهـذه المدينة العريقة ، وابن عساكر هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله .

ولد في دمشق سنة ٤٩٩ هـ / ١١٥٠ م ، وكانت اسرتـه اسرة

اشتهرت في دمشق بالعلم والتقوى ، لذلك اقبل منذ صباه على العلم والتعلم ، فأخذ عن اهله ، وعن عدد كبير من شيوخ دمشق ، ولم يقتصر عمله على ذلك ، بل عمل على مراسلة علماء في العراق وخراسان ، وكان الجامع الاموي أهم المراكز التي تردد اليها ابن عساكر للسماع من الشيوخ والتزام حلقات تدريسهم ، وبالاضافة الى الجامع الاموي اقبل على محاضرات عدد من مدارس دمشق ، وزوايا التعليم فيها ، كما كان يزور الشيوخ في بيوتهم ويأخذ عنهم .

وعندما بلغ ابن عساكر العشرين من عمره ، فقد والده ، فتحللت ارتباطاته الاسروية بعض الشيء ، فقرر الرحلة في طلب العلم ، وخاصة الحديث النبوي الشريف ، الذي سيطر على اتجاهاته منذ البداية ،فاتجه نحو بغداد العراق ،لانها كانت ماتزال مركز الثقافة الاول في العالم الاسلامي،وفيها كانت المدرسة النظامية نشطة جدا .

واقام ابن عساكر في بغداد مدة سنة حيث عاد الى دمشق ، فأقام قليلا ، ومن هناك توجه الى الحجاز ، وفي الحجاز قضى فريضة الحج والتقى بعدد من علماء الحجاز ، ومن جاء لاداء فريضة الحج ، فأخذ عنهم ، ومن جديد قرر التوجه الى العراق ، واقام هذه المرة خمس سنوات هناك ، درس خلالها في النظامية ، وزار مدن العراق ، فالتقى بها العلماء واخذ عنهم .

وعاد مجددا الى دمشق ، وقد ملك طاقات علمية كبيرة ، فلم يعد تلميذا يأخذ ، بل وصل الى حال يمكنه فيها العطاء وذلك بالاضافة الى متابعة الاخذ ، وشعر ابن عساكر بحاجته الى مزيد من التحصيل ، لذلك قرر مجددا التوجه شرقا ، فذهب الى العراق سنة ٥٢٩ هـ حيث اقام قليلا ، ثم اتجه الى خراسان ، فزار كبريات المدن هناك مثل همذان ، والري ، واصبهان ، ونيسابور ، وبيهق ، وتبريز ، وسرخس ، ولقي العلماء وأخذ عنهم .

وفي سنة ٥٣٣ هـ ، انهى رحلته وعاد الى بغداد ، ومضى الى

دمشق حيث اقر به القرار ،وبدأ يحدث في دمشق ويحاضر ، وذلك بعد شيء من التردد ، ويمكن ان نعد الفترة الواقعة ما بين ٥٣٣ هـ وسنة وفاته ٥٧١ هـ /١٢٢٣ م ، هي فترة العطاء الخصب في حياة ابن عساكر ، حيث صنف عددا كبيرا من الكتب ، واوقف وقته كله على العلم ، فأعرض عن مغريات الدنيا ، وصرف وجهه عن المناصب والوظائف ، واحتقر المال وعده من توافه الحياة التي ترفع عنها ، ولهذا أخذ نفسه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحظي بمكانة رفيعة جدا بين اهل دمشق ، واحترمه الناس جميعا من عوام وأصحاب السلطان .

وفي هذه الفترة ـ كما اشرنا ـ كانت الامة تعيش مرحلة الاستفاقة ، وروح الجهاد وحرب التحرير والعمل في سبيل الوحدة ، وخاصة وحدة شمال الشام مع جنوبه ، فمنذ قيام الحروب الصليبية كان دور دمشق في هذه الحرب يكاد يكون سلبيا ، وكانت مدينة حلب انشط مراكز المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ، وفي حلب استقر انذاك نور الدين محمود ، الذي تجمعت في شخصه الصفات المؤهلة للزعامة .

وحدث في سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م أن دخل ـ كما رأينا من قبل ـ نور الدين محمود مدينة دمشق ، وذلك بناء على رغبة من اهلها ، وهكذا توحد شمال الشام وجنوبه ، وصارت دمشق الآن مقر الجهاد ، وقاعدة انطلاق اعمال التحرير والجهاد والوحدة الكبرى ، ووضع نور الدين الخطط للتحرير وخوض معركة فاصلة مع الصليبيين ، مدركا ان شروط التحرير هي الوحدة والثقافة ، والامن الداخلي والاستقرار ، مع الاقتصاد القوي ، ومن هذه المنطلقات نمت العلاقات بين نور الدين وابن عساكر ، واعجب ابن عساكر بنور الدين ، كما ان نور الدين رفع من مكانة ابن عساكر ، وكان من نتائج العلاقات بينهما بناء دار الحديث النورية ، وهي اول جامعة من نوعها في التاريخ الاسلامي ، وقد اسندت اعمال التدريس بهذه الجامعة الى ابن عساكر ، هذا من جهة ومن جهة

اخرى شجع نور الدين ابن عساكر على انجاز كتابه في تاريخ دمشق ، ومعلوم ان نور الدين توفي سنة ٥٦٩ هـ ، وجاءت وفاة ابن عساكر بعد وفاة نور الدين بعامين ، ايام دولة صلاح الدين الايوبي وقد سار صلاح الدين الايوبي في جنازته حاسر الرأس متأسفا على فقدانه .

وكان ابن عساكر خصب الانتاج ، متخصصا في أعماله ، بحيث غلب عليه الحديث وما تعلق بعلومه ، فقد صنف « كتاب المعجم » لمن سمع منه أو أجاز له وكتاب آخر ذكر فيه من سمع منه من النسوان ، ومعجما بأسماء القرى والامصار التي سمع بها ، وجاء في سفر واحد ومعاجم بالمشيخات ، كما خاض معركة استفاقة السنة في مرحلتها الثانية ، لذلك دافع عن الاشعري بكتابه « تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام أبي الحسن الاشعري » وحيث ان العصر الذي عاشه كان عصر الجهاد ، فقد صنف في الحض على الجهاد وفي فضائل بيت المقدس ، وفي باب الفضائل صنف ايضا في فضائل العشرة الصحابة ، وفي فضل قريش ، وفضل مكة ، وفي فضائل الاوزاعي وأخباره .

ولم يتأت خلود ابن عساكر وشهرته من مؤلفاته العظيمة هذه ، بل بسبب . تصنيفه تاريخ مدينة دمشق ، فهو أوسع كتاب صنف لمدينة ، ولا عجب في ذلك فدمشق هي أعرق مدينة في التاريخ الانساني ، وجدت الحياة فيها منذ الازل ، ولم تنقطع او تتوقف ابدا ، وهذا الكتاب يشكل بحد ذاته ثروة رائعة في التراث العربي ، وحين نتحدث عنه ، لانعرف متى بدأ ابن عساكر بالتحديد في جمع مواده ثم كتابته ، فلعله شرع في ذلك عندما كان في خراسان ، او قبيل ذلك ، ويبدو ان العمل في الكتاب قد مر بثلاث مراحل :

أ ـ خرج الكتاب في المرحلة الاولى في (٧٧٥) جزءا اي ما يعادل ٥٧ مجلدة .

ب ـ وفي المرحلة الثانية حوالي سنة (٥٦١ هـ) أصبح الكتاب في سبعين مجلدة ،

ح ـ وفي المرحلة الثالثة ـ وهي الاخيرة ، وصل الكتاب الى ثمـانين مجلدة ، ويبدو أن ابن عساكر قد ادرك وجود بعض الثغرات في كتابه اراد تداركها ، لكن المنية حالت دون تنفيذ رغبته هذه ، لهـذا نجـده وقد ادرك انه لن يتاح له اعادة النظر في كتابه ، قـال : « هـذا مبلغ علمي وغاية جهدي »

إن الغالب على منهج ابن عساكر في كتابه هو صفة الجمع ، وقـد اتبع طرق المحدثين بذكر الاسانيد كلها مع الروايات المتعددة ، كمـا انه اهتم برجال الحديث وحملة العلم اكثر من سواهم ، وكتاب ابـن عساكر هو تاريخ الفباني ، وليس تاريخ حوليات أو أحداث متوالية أو منتقاة ، فهو قد أوقف مجلدة كتـابه الاولى للحـديث عن دمشـق بشكل عام ، فتحدث عن فضائل الشـام ، كمـا تحـدث عن الفتـح الاسلامي لها ، موردا جل الروايات التاريخية حول هذا الموضوع .

وتحدث ابن عساكر في قسم من المجلدة الثانية عن خطط دمشق ، وذكر مساجدها وأبوابها وكنائسها ، ودورها وانهارها واقنيتهـا ، وبعد هذا تحول الكتاب الى معجم للتراجم ، وجاء بذلك متوافقا مـع عنوان الكتاب وهو : « تاريخ مدينة دمشق ، وذكر فضلها ، وتسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها » .

لقد ترجم ابن عساكر لكل مـن عرف مـن الاعلام الذين ولدوا في دمشق مع جنوب الشام ، أو نشـأوا هناك او اقـاموا أو اجتـازوا المنطقة ، وذلك منذ ما قبـل الاسـلام وحتـى عصره ، واعلام ابـن عساكر هم : الانبياء ، والخلفاء والامـراء ، والولاة ، والحـكام ، والفقهـاء ، والقضـاة ، والعلمـاء ، والرواة ، والشـعراء ، والنحاة .... وقد توسع ابن عسـاكر في بعض التـراجم اكثـر مـن غيرها ، وانصب اهتمامه على رجـال الحـديث ، فـأولاهم الجـزء الاكبر من العناية .

إن الجمع هو الصفة الغالبة على كتـاب ابـن عسـاكر ، وابـن عساكر حين صنف كتابه ، لم يبدع طـريقته ، فهـو ـ كمـا هـو

مرجح – قد قلد الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد ، انما جاء عمله على درجة كبيرة من الكمال ، وبذلك فاق الخطيب البغدادي ، وكان كتابه افضل وأوسع .

لقد نال كتاب ابن عساكر شهرة كبيرة ، ومكانة عالية ، لهذا نيل عليه عدد من الكتاب كما اختصره عدد اخر وانتخبوا منه ، انما المنتخبات والمختصرات لاتغني عن الكتاب نفسه .

وكتاب ابن عساكر ليس تاريخا لمدينة دمشق وحدها او بلاد الشام فقط ، انه تاريخ لرجالات العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ، فيه تتجلى وحدة هذه الامة ، وتفاعل أحداثها ، فالذين ذكرهم ابن عساكر من غير أهل الشام هم اكثر بكثير من الشاميين ، ومواد هذا الكتاب المرتبطة بأحداث الحروب الصليبية ، عاصرها ابن عساكر ، وهذه هي المرة الاولى التي تنشر فيها هذه المواد .

وكان ابن الازرق الفارقي من معاصري ابن عساكر ، وهو احمد ابن يوسف بن علي ، ولد بمدينة ميافارقين سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م . ويرجح انه انتمى الى اسرة لها مكانتها في مدينته ، وانه أمضى طفولته في هذه الحاضرة الهامة ، وابن الازرق لم يحدثنا عن تفاصيل مراحل حياته ، بل أشار الى نفسه اشارات عابرة ، ومع ان عددا كبيرا من المؤرخين العرب استفادوا من تاريخه ، فان أيا منهم لم يترجم له ، ومنذ ان بات ابن الازرق شابا صار كثير الترحال ، سافر الى بلاد الشام خاصة الى دمشق ، وقصد العراق ، وقضى فترة من حياته في بلاد الكرج (جورجيا) .

ومن الواضح انه نال ثقافة عالية في الفقه والحديث والتفسير واللغة ، كما تولى العديد من المناصب ، وكان لهذا كله انعكاساته على معلوماته التاريخية وقد كتب ابن الازرق كتابا أرخ فيه لمدينتي آمد وميافارقين ، وربما كتب كتابا اخر واكثر ونحن لانعرف سنة وفاته بالتأكيد ، ونرجح انها كانت حوالي سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م .

ويوجد من كتاب « تاريخ آمد وميافارقين » أكثر من نسخة خطية ، منها واحدة في كمبردج وأخرى في اكسفورد ، واثنتان في المتحف البريطاني في لندن ، وسلف لبدوي عبد اللطيف عوض أن نشر في عام ١٩٥٩ القسم الاول من الكتاب الذي أرخ الدولة المروانية . ولدى عودتي لمخطوطتي المتحف البريطاني لاحظت أن احداهما أطول من الاخرى ، وان ما نشره الدكتور عوض ـ على اهميته ـ مما جمع ابن الازرق مواده ولم يعاصره ، وأن الموجود في النسخة الطويلة مما لم ينشر هو أخبار الحوادث التي عاصرها ابن الازرق ، وانفرد بروايتها ، ولهذا هي عالية القيمة لامثيل لها في مصدر آخر ، منها نعرف ان الدعوة الى حمل الصليب اثرت في جورجيا ، ففتحت هناك جبهة صليبية جديدة ، ومسألة وصول الدعوة الى حمل الصليب الى خارج اوربا هامة جدا ، فقد تبين لي انها لم تصل الى جورجيا فقط لابل حتى وصلت الى اثيوبيا ، وهذه مسألة قد يتاح لي السبيل فيما بعد القيام بمعالجتها .

وهذه هي المرة الاولى التي تنشر بها مواد ابن الازرق عن احداث عصره ، ويبدو لي انه حتى المخطوطة الطويلة في المتحف البريطاني هي مبتورة الآخر ، وغير كاملة ، وبنشر مواد ابن الازرق تكتمل لدينا صورة رقعة الاحداث وما تركته من اصداء ولقد اهتممت بتعقب أصداء ما جرى في بلاد الشام في العراق وبلدان المشرق ، ولقد وجدت ان مشاغل بغداد ظلت كما هي مشرقية خراسانية منذ يوم تأسيسها ، وخير ما يعكس ذلك ما أودعه ابن الجوزي في كتابه المنتظم عن اخبار أحداث الحروب الصليبية ، وهي احداث كان معاصرا لها .

وابن الجوزي هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي ، ولد في بغداد حوالي سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م وفيها توفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، وكان قرشي النسب ، تيمي العشيرة وبكري الاسرة ، يعتز بذلك ويفاخر بأنه من احفاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد نشأ في بغداد وفيها تعلم فنال ثقافة عالية ،

واوتي موهبة فائقة بالوعظ وبذلك بات علم عصره وأكثر الناس شعبيه في اوساط بغداد ، وقد تأثر بفقه مدرسة الامام أحمد بن حنبل ، فصار واحدا من فقهائها الكبار .

ومما ساعده على النجاح بالوعظ قوة الحجة لديه وسرعة البديهة ، ولذلك كان عظيم التأثير في الناس ، وصلنا جزء كبير من مواعظه ، فيها نرى صورة واضحة لمكانته ولاهتمامات اهل عصره ، وللعربية الدارجة آنذاك .

وكان ابن الجوزي غزير الانتاج ، واسع التصنيف ، من اهم كتبه في التاريخ كتاب « المنتظم في تواريخ الملوك والامم » وقد حققت هذا الكتاب مؤخرا ونشرته في بيروت وانتزعت منه ما حكاه ابن الجوزي عن أحداث الحروب الصليبية ، وليس في رواياته ما هو فريد أو مهم ، لكنها من هذا الواقع تعكس واقع الاهتمامات والمشاركة في المشاعر ، وهذا بحد ذاته جدير بالتسجيل ، هذا وسيورد ابو شامة في نيل الروضتين بعض أخبار ابن الجوزي ومحنته في أواخر سني حياته .

ومنذ سنوات طويلة خلت اطلعت في مكتبة احمد الثالث ـ في طوب قبي سراي في استانبول على مخطوط في التاريخ رقمه (٢٩٥٩) حمل عنوان « البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان » لمؤرخ اسمه محمد بن محمد الاصفهاني ، وكان يعرف بالعماد ، وهو غير العماد الاصفهاني كاتب نور الدين وصلاح الدين ، لكنه كما يبدو كان من معاصريه ، كتاب البستان الجامع وان كان مختصرا لايخلو من الفائدة لذلك اضفت ما حواه عن أحداث الحروب الصليبية الى نصوص هذا المجلد .

ولله الحمد والشكر ، والله أسأل العون والتوفيق والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين .

دمشق ١٠ / ٤ / ١١٩٥ سهيل زكار

من تاريخ دمشق لابن القلانسي

سنة تسعين واربعمائة

...وفي هذه السنة كان مبدأ تواصل الاخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية ، في عالم لا يحصى عدده كثرة ، وتتابعت الانباء بذلك ، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها ، وصحت الاخبار بذاك عند الملك (داود بن) سليمان بن قتلمش وكان اقرب اليهم دارا ، فشرع في الجمع والاحتشاد ، واقامة مفروض الجهاد ، واستدعى من امكنة من التركمان للاسعاد عليهم والانجاد ، فوافاه منهم مع عسكر اخيه العدد الكثير ، وقويت بذلك نفسه ، واشتدت شوكته فزحف الى معابرهم ومسالكهم وسبلهم (٧٣ و) فاوقع بكل من ظفر به منهم ، بحيث قتل خلقا كثيرا ، وعادوا اليه ، واستظهروا عليه ، وكسروا عسكره ، فقتلوا منهم واسروا ونهبوا وسبوا ، وانهزم التركمان بعد اخذ اكثر دوابهم ، واشترى ملك الروم من السبي خلقا كثيرا ، وحملهم الى القسطنطينية ، وتواصلت الاخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الاسلام ، فعظم القلق ، وزاد الخوف والفرق ، وكانت هذه الوقعة لعشر بقين من رجب .

وفي النصف من شعبان توجه الامير يغي سغان صاحب انطاكية والامير سكمان بن ارتق والامير كربوقا في العسكر الى انطاكية ، وقد وردت الاخبار بقرب الافرنج منها ، ونزولهم البلانة (١) وخف يغي سغان الى انطاكية ، وسير ولده الى دمشق الى الملك دقاق ، والى جناح الدولة بحمص ، والى سائر البلاد والاطراف بالاستصراخ والاستنجاد ، والبعث على الخفوف الى الجهاد ، وقصد تحصين انطاكية ، واخراج النصارى منها .

وفي اليوم الثاني من شوال نزلت عساكر الافرنج على بغراس واغاروا (٢) على اعمال انطاكية (٣) ، فعند ذلك عصى من كان في الحصون والمعاقل المجاورة لانطاكية ، وقتلوا من كان فيها وهرب من هرب منها وفعل اهل ارتاح (٤) مثل ذلك ، واستدعوا المدد من الافرنج ، وفي شعبان ظهر الكوكب ذو الذؤابة من الغرب واقام طلوعه تقدير عشرين يوما ، ثم غاب ، فلم يظهر ، وكان قد نهض من عسكر الافرنج فريق « وافر » يناهز ثلاثين الفا ، فعاثوا في الاطراف ووصلوا الى البارة (٥) وقتلوا فيها تقدير خمسين رجلا ، وكان عسكر دمشق وصل الى ناحية شيزر لانجاد يغي سغان ، فلما نزلت هذه الفرقة المذكورة على البارة ، نهضوا نحوهم ، وتطاردوا وقتل منهم جماعة ، وعاد الافرنج الى الروج (٦) ، وتوجهوا الى انطاكية ، وغلا سعر الزيت والملح ، وغير ذلك ، وعدم في انطاكية ، وتواصل ذلك اليها سرقة ، فرخص فيها ، وجعل الافرنج بينهم وبين انطاكية خندقا لكثرة الغارات عليهم من عسكر انطاكية ، وقد كان الافرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا اليه اول بلد يفتحونه ، ففتحوا نيقية وهي اول مكان فتحوا ، فلم يفوا له بذلك ولا سلموها اليه على الشرط (٧) ، وافتتحوا في طريقهم بعض الثغور والدروب ....

سنة احدى وتسعين واربعمائة

في آخر جمادى الاولى منها ورد الخبر بأن قوما من اهل انطاكية من جملة الامير يغي سغان من الزرادين عملوا على انطاكية وواطوا الافرنج على تسليمها اليهم لاساءة تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم ، ووجدوا الفرصة في برج من ابراج البلد ، مما يلي الجبل باعوه للافرنج ، واطلعوهم الى البلد منه في الليل ، وصاحوا عند الفجر ، فانهزم يغي سغان ، وخرج في خلق عظيم ، فلم يسلم منهم شخص ، ولما حصل بالقرب من ارمناز ، ضيعة بالقرب من معرة مصرين ، سقط عن فرسه على الارض ، فحمله بعض اصحابه واركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاود سقط ، فمات رحمه الله .

واما انطاكية ، فقتل منها واسر وسبي من الرجال والنسوان والاطفال ما لا يدركه حصر ، وهرب الى القلعة تقدير ثلاثة الاف تحصنوا بها ، وسلم من كتب الله سلامته ...

... وفيها توجه الافرنج الى معرة النعمان بأسرهم ، ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة ، وقاتلوهم ونصبوا عليها البرج والسلالم ، وبعد افتتاح الافرنج(٨) بلد (٧٤ و) انطاكية بتدبير الزراد ، وهو رجل أرمني اسمه نيروز في ليلة الجمعة مستهل رجب ، تواصلت الاخبار بصحة ذلك فتجمعت عساكر الشام في العدد الذي لا يدركه حصر ولا حزر ، وقصدوا عمل انطاكية للايقاع بعسكر الافرنج ، فحصروهم حتى عدم القوت عندهم حتى اكلوا الميتة ، ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف الى عساكر الاسلام وهم في الغاية من القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين ، وفرقوا

-٥٠٢٦-
جموعهم ، وانهزم أصحاب الجرد السبق ، ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالين في الرغبة في الجهاد ، وحماية المسلمين ، في ذلك ، في يوم الثلاثاء السادس من رجب في السنة (٩).

واهلت سنة اثنتين وتسعين واربعمائة

في المحرم منها زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية ، واسندوا البرج الى سورها ، وهو أعلى منه ، فكشفوا المسلمين عن السور ، ولم تزل الحرب عليه الى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرم ، وصعدوا السور ، وانكشف اهل البلد عنه ، وانهزموا بعد ان ترددت اليهم رسل الافرنج في التماس التقرير والتسليم واعطاء الامان على نفوسهم وأموالهم ، ودخول الشحنة اليهم ، فمنع من ذلك الخلف بين اهلها وما قضاه الله تعالى وحكم به ، وملكوا البلد بعد صلاة المغرب ، وقتل فيه خلق كثير من الفريقين ، وانهزم الناس الى دور المعرة للاحتماء بها ، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم ، ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على اهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ، ورحلوا يوم الخميس السابع عشر من صفر الى كفر طاب .

ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس آخر رجب من السنة ، وأجفل الناس منهم من اماكنهم ، ونزلوا أولا على الرملة فملكوها عند ادراك الغلة ، وانتقلوا الى بيت المقدس ، فقاتلوا اهله ، وضيقوا عليهم ، ونصبوا عليه البرج واسندوه الى السور ، وانتهى اليهم خروج الافضل من مصر في العساكر الدثرة ، لجهادهم والايقاع بهم ، وانجاد البلد عليهم وحمايته منهم ، فشدوا في قتاله ، ولازموا حربه الى آخر نهار ذلك اليوم ، وانصرفوا عنه ، ووا عدهم الزحف اليهم من الغد ، ونزل الناس عن السور وقت المغرب ، (٧٤ ظ) فعاود الافرنج الزحف اليه ، وطلعوا البرج ، وركبوا سور

البلد ، فانهزم الناس عنه ، وهجموا البلد فملكوه ، وانهزم بعض أهله الى المحراب ، وقتل خلق كثير وجمع اليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم ، وتسلموا المحراب بالامان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة ، وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام .

ووصل الافضل في العساكر المصرية ، وقد فات الامر ، فانضاف اليه عساكر الساحل ، ونزل بظاهر عسقلان في رابع عشر شهر رمضان ، منتظرا لوصول الاسطول في البحر والعرب ، فنهض عسكر الافرنج اليه ، وهجموا عليه في خلق عظيم ، فانهزم العسكر المصري الى ناحية عسقلان ، ودخل الافضل اليها ، وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين ، فأتى القتل على الراجل والمطوعة واهل البلد ، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ، ونهب العسكر ، وتوجه الافضل في خواصه الى مصر ، وضايقوا عسقلان الى ان قرروا عليها بعده للافرنج عشرين الف دينار ، تحمل اليهم ، وشرعوا في جبايتها من اهل البلد ، فاتفق حدوث الخلف بين المقدمين ، فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئا ، وحكي ان الذين قتلوا في هذه الوقعة من اهل عسقلان من شهودها وتنائها وتجارها واحداثها ، سوى اجنادها الفان وسبعمائة نفس .

سنة ثلاث وتسعين واربعمائة

وفي رجب منها خرج بيمند ملك الافرنج صاحب انطاكية الى حصن أفامية ونزل عليه ، واقام اياما واتلف زرعه ووصل الخبر بوصول الدانشمند (١٠) الى ملطية في عسكره من الاتراك ، في خلق عظيم ومن عسكر (قلج ارسلان بن) سليمان ابن قتلمش ، فعاد بيمند عند معرفة ذاك الى انطاكية ، وجمع وحشد ، وقصد عسكر المسلمين ، فنصر الله تعالى المسلمين عليه ، وقتلوا من حزبه خلقا كثيرا (٧٥ و) وحصل في قبضة الاسر مع نفر من اصحابه ، ونفذت الرسل الى نوابه بأنطاكية يلتمسون تسليمها ، في العشر الثاني من شهر صفر سنة ثلاث وتسعين واربعمائة .

وفيها وردت الاخبار بأن الآبار غارت في عدة جهات من اعمال الشمال ، والمنابع في أكثر المعاقل ، وقلت وتقلصت الاسعار فيها .

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

فيها جمع الامير سكمان بن ارتق خلقا كثيرا من التركمان ، وزحف بهم الى افرنج الرها وسروج ، في شهر ربيع الاول وتسلم سروج واجتمع اليه خلق كثير ، وحشد الافرنج ايضا ، والتقى الفريقان ، وقد كان المسلمون مشرفين على النصر عليهم ، والقهر لهم ، فاتفق هروب جماعة من التركمان ، فضعفت نفسه وانهزم ، ووصل الافرنج الى سروج ، فتسلموها وقتلوا اهلها وسبوهم ، إلا من افلت منهم هزيما ....

وفي هذه السنة وصل كندفري صاحب بيت المقدس الى ثغر عكا ، واغار عليه فأصابه سهم فقتله ، وكان قد عمر يافا وسلمها الى طنكري ، فلما قتل كندفري سار اخوه بغدوين القمص صاحب الرها الى بيت المقدس ، في خمسمائة فارس وراجل ، فجمع شمس الملوك دقاق عند معرفة خبر عبوره ، ونهض اليه معه الامير جناح الدولة صاحب حمص ، فلقوه بالقرب من ثغر بيروت ، فسارع نحوه جناح الدولة في عسكره فظفر به وقتل بعض اصحابه .

وفيها افتتح الافرنج حيفا ، على ساحل البحر بالسيف ، وارسوف بالامان ، واخرجوا اهلها منها ، وفي آخر رجب منها فتحوا قيسارية بالسيف وقتلوا اهلها ، ونهبوا ما فيها ، واعانهم الجنونيون عليها ...

وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف مع الامير سعد الدولة المعروف بالطواسي ووصل الى (٧٦ و) عسقلان لجهاد

الافرنج في أول شهر رمضان ، واقام بحيث هو الى ذي الحجة منها ، ورحل عن عسقلان ، ونهض اليه من الافرنج الف فارس وعشرة الاف راجل ، والتقى الفريقان فكسرت ميمنة المسلمين وميسرتهم وتبعوهم ، وبقي سعد الدولة المقدم في نفر يسير من عسكره في القلب ، فحمل الافرنج عليه ، وطلب الثبات ، فعاجله القضاء ، وكبا به جواده ، وسقط عنه الى الارض ، فاستشهد مكانه رحمه الله ، ومضى شهيدا مأجورا ، وعاد المسلمون على الافرنج ، وتذامروا عليهم ، وبذلوا النفوس في الكرة اليهم ، فهزموهم الى يافا ، وقتلوا منهم واسروا ، وغنموا وكانت العقبى الحسنة لهم ، ولم يفقد الا نفر يسير منهم....

سنة خمس وتسعين واربعمائة

....وفيها وصل قمص(١١) الرها ، مقدم الافرنج في عسكره المخذول الى ثغر بيروت ، فنزل عليه طامعا في افتتاحه ، وحاربه وضايقه وطال مقامه عليه ، ولم يتهيأ فيه مراد فرحل عنه .

ووردت مكاتبات فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يلتمس فيها المعونة على دفع ابن صنجيل النازل في عسكره من الافرنج على طرابلس ، ويستصرخ بالعسكر الدمشقي ، ويستغيث بهم ، فأجيب الى ما التمس ، ونهض العسكر نحوه ، وقد استدعى الأمير جناح الدولة صاحب حمص ، فوصل ايضا في عسكره ، فاجتمعوا في عدد دثر ، وقصدوا ناحية انطرطوس ، ونهد الافرنج اليهم في جمعهم وحشدهم ، وتقارب الجيشان والتقيا هناك ، فانفل عسكر المسلمين من عسكر المشركين ، وقتل منهم الخلق الكثير ، وقفل من (٧٦ وسلم الى دمشق وحمص بعد فقد من (٧٦ ظ) فقد منهم ، ووصلوا في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ....

وفي هذه السنة خرجت العساكر المصرية من مصر ، لانجاد ولاة الساحل في الثغور الباقية في ايديهم منها على منازليهم من أحزاب الافرنج ، ووصلت الى عسقلان في رجب ، ولما عرف بغدوين قمص بيت المقدس وصولهم ، نهض نحوهم في جمعه من الافرنج في تقدير سبعمائة فارس وراجل ، اختارهم ، فهجم بهم على العسكر المصري ، فنصره الله على حزبه المفلول ، وقتلوا اكثر خيله ورجالته ، وانهزم الى الرملة في ثلاثة نفر ، وتبعوه واحاطوا به ، فتنكر وخرج على غفلة منهم ، وقصد

يافا ، وأفلت منهم ، فكان قد اختفى في أجمة قصب حين تبع ، وأحرقت تلك الأجمة ، ولحقت النار بعض جسده ، ونجا منها ، وحصل بيافا ، فأوقع السيف في أصحابه وقتل وأسر من ظفر به في الرملة من رجاله وأبطاله ، وحملوا الى مصر في آخر رجب من السنة .

وفي هذا الوقت وصلت مراكب الافرنج في البحر ، تقدير أربعين مركبا ، ووردت الأخبار بأن البحر هاج بها ، واختلفت أرياحه عليها ، فعطب أكثرها ولم يسلم منها إلا القليل ، وكانت مشحنة بالرجال والمال .

سنة ست وتسعين واربعمائة

....وفيها ورد الخبر من حمص ، بأن صاحبها الأمير جناح الدولة حسين اتابك ، نزل من القلعة الى الجامع ، لصلاة الجمعة وحوله خواص اصحابه بالسلاح التام ، فلما حصل بموضع مصلاة على رسمه ، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ومعهم شيخ ، يدعون له ويستميحونه ، في زي الزهاد ، فوعدهم ، فضربوه (١٢) بسكاكينهم ، وقتلوه وقتلوا معه جماعة من اصحابه ، وكان في الجامع عشرة نفر من متصوفة العجم ، و غيرهم ، فاتهموا ، و قتلوا صبرا مظلومين في الوقت عن آخرهم .

و انزعج اهل حمص لهذا الحادث و اجفلوا في الحال و هرب اكثر سكانها من الاتراك إلى دمشق ، و اضطربت الأحوال بها ، و راسلوا الملك شمس الملوك بدمشق يلتمسون إنفاذ من يتسلم حمص ، و يعتمد عليه في حمايتها ، و الذب عنها قبل انتهاء الخبر الى الافرنج ، و امتداد أطماعهم فيها ، فسار الملك شمس الملوك و ظهير الدين اتابك في العسكر من دمشق ، ووصل إلى حمص ، و تسلمها ، و حصل في قلعتها ، ووافق ذلك وصول الافرنج إليها ، و نزولهم على الرستن لمضايقتها و منازلتها ، فحين عرفوا ذلك احجموا عن القرب إليها و الدنو منها ، و رحلوا عنها .

و قد كان المعروف بالحكيم المنجم الباطني ، صاحب الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب أول من أظهر مذهب الباطنية في حلب و الشام ، و هو الذي ندب الثلاثة النفر لقتل جناح الدولة بحمص ، وورد بهلاكه بعد الحادثة بأربعة عشر (١٣) يوما .

-٥٠٣٥-

... وخرجت العساكر المصرية من مصر الى البر ، و الاسطول في البحر مع شرف المعالي ولد الافضل شاهنشاه ، و كتب في استدعاء المعونة على(٧٧ ظ) الجهاد ، و بنصرة العباد و البلاد ، بانفاذ العسكر الدمشقي ، فأجيب الى ذلك ، و عاقت عن مسيرهاأسباب حدثت ، و صوادف صدفت ، ووصل اسطول البحر ، و نزل على يافا آخر شوال ، وأقام اياما و تفرق الاسطول و العساكر الى الساحل و كانت الاسعار قد ارتفعت ، و الاقوات قد قلت ، فصلحت بما وصل من الاسطول من الغلة و رخص الاسعار ، إلا أن غارات الافرنج متصلة عليها .....

سنة سبع و تسعين و أربعمائة

في رجب منها وردت الاخبار بوصول مراكب الافرنج في البحر من بلادهم إلى ظاهر اللاذقية مشحونة بالتجار والاجناد و الحجاج ، و غير ذلك ، وأن صنجيل المنازل لطرابلس استنجد بهم على طرابلس ، في مضايقتها و المعونة على ملكتها ، وانهم وصلوا إليه فاجتمعوا معه على منازلتها ومضايقتها ، فقاتلوها أياما ورحلوا عنها ، ونزلوا على ثغر جبيل فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالأمان ، فلما حصل في ملكتهم ، غدروا بأهله ، ولم يفوا بما بذلوه من الامان وصادروهم ، واستنفدوا أحوالهم وأموالهم بالعقوبات وأنواع العذاب

وورد الخبر باجتماع الاميرين : سكمان بن ارتق ، و جكرمش صاحب الموصل في عسكرهما(وأنهما) تعاهدا و تعاقدا على المجاهدة في اعداء الله الافرنج ، و بذل الطاقة و الاستطاعة في حربهم ، و نزلا في أوائل شعبان من السنة نفسها برأس العين ، و نهض بيمند و طنكري في عسكريهما من ناحية انطاكية إلى الرها لانجاد صاحبها على الأميرين المذكورين ، فلما قربا من عسكر المسلمين النازلين على الرها ، تأهب كل من الفريقين للقاء صاحبه ، فالتقوا في تاسع شعبان فنصر الله المسلمين عليهم ، و هزموهم و قتلوا منهم (٧٨ و) مقتله كثيرة ، و كانت عدتهم تزيد على عشرة آلاف فارس و راجل سوى السواد والاتباع ، و انهزم بيمند و طنكري في نفر يسير و كان نصرا حسنا للمسلمين لم يتهيأ مثله ، و به ضعفت نفوس الافرنج ، و قلت عدتهم ، و فلت شوكتهم و شكتهم و قويت نفوس المسلمين و ارهفت(١٤) عزائمهم في نصرة الدين ، و مجاهدة الملحدين ،

و تباشر الناس بالنصر عليهم ، و ايقنوا بالنكاية فيهم ، و الادالة منهم .

و في هذا الشهر ورد الخبر بنزول بغدوين ملك الافرنج ، صاحب بيت المقدس ، في عسكره على ثغر عكا ، و معه الجنويون في المراكب في البحر و البر وهم الذين كانوا ملكوا ثغر جبيل في نيف وتسعين مركبا ، فحصروه من جهاته وضايقوه من جوانبه ، ولازموه بالقتال الى أن عجز واليه ورجاله عن حربهم ، و ضعف أهله عن المقاتلة لهم و ملكوه بالسيف قهرا ، و كان الوالي به الامير زهر الدولة بنا (١٥) الجيوشي قد خرج منه لعجزه عن حمايته ، و ضعفه عن المراماة دونه ، وانفذ يلتمس منه الامان له و لاهل الثغر ، ليأسه من وصول نجدة أو معونة ، فلما ملك الثغر تم على حاله منهزما الى دمشق ، فدخلها و أكرمه ظهير الدين اتابك ، و احسن تلقيه ، و كان وصوله الى دمشق في يوم الخميس لثلاث بقين من شعبان ، و تقدم شمس الملوك دقاق و ظهير الدين أتابك في حقه ، بما طيب نفسه و اكد انسه ، و أقام بدمشق الى أن تسهلت له السبيل في العودة الى مصر ، فتوجه اليها عائدا ، ووصل اليها سالما ، و اوضح عذره فيما تم عليه من الغلبة ، فقبل عذره بعد الانكار عليه ، و الغيظ من فعله ....

و في هذه السنة ورد الخبر من ناحية طرابلس بظهور فخر الملك ابن عمار ، صاحبها في عسكره و اهل البلد ، و قصدهم الحصن الذي بناه صنجيل عليهم(١٦) و انهم هجموا عليه على غرة ممن فيه فقتل من به و نهب ما فيه ، وأحرق ، و اخرب ، و اخذ منه السلاح و المال والديباج والفضة الشيء الكثير ، و عاد الى طرابلس سالما غانما ، في التاسع عشر من ذي الحجة ، و قيل إن بيمند صاحب انطاكية ركب في البحر ، و مضى الى الافرنج يستصرخهم ، و يستنجد بهم على المسلمين في الشام ، و اقام مدة ، و عاد عنهم منكفئا الى انطاكية .

سنة ثمان و تسعين و اربعمائة

فيها عرض لظهير الدين اتابك مرض اشتد به ، ولازمه ، وخاف منه على نفسه ، واشفق على اهله وولده واصحابه و رعيته إن تم عليه ، وتواصلت مكاتبات فخر الملك بن عمار (٧٩ ظ) ورسله من طرابلس بالاستصراخ و الاستنجاد على الأفرنج النازلين عليها ، والبعث على تعجيل اعانته بمن يصل اليه من العساكر ، لكشف غمته ، وتفريج كربته ...

وفي هذه السنة وردت الاخبار بهلاك صنجيل مقدم الافرنج النازلين على ثغر طرابلس ، في رابع جمادى الاولى ، بعد أن كان الامر استقر بينه و بين فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس من المهادنة، على أن يكون ظاهر طرابلس لصنجيل بحيث لا (٨٠ و) يقطع الميرة عنها ، و لا يمنع المسافرين منها ...

و في أول شعبان توجه ظهير الدين أتابك الى بعلبك في العسكر ، و نزل عليها ... و رحل عنها متوجها الى ناحية حمص ، و قصد رفنية ، و نزل عليها ، ووفد عليه خلق كثير من جبل بهراء(١٧) فهجموا رفنية على حين غفلة من أهلها ، و غرة من مستحفظها ، و قتلوا من بها ، و بأعمالها ، و الحصن المحدث عليها من الافرنج ، و احرق ما أمكن من احراقه في الحصن و غيره ، و هدم الحصن ، و ملكت ابراج رفنية و قتل من كان فيها و عاد العسكر الى حمص

و في رجب خرج الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب و جمع خلقا كثيرا ، و عزم على قصد طرابلس لمعونة فخر الملك بن عمار على الافرنج النازلين عليه ، و كان الأرمن الذين في حصن ارتاح

قد سلموا اليه الحصن لما شملهم من جور الافرنج ، و تزايد ظلمهم ، فلما عرف طغدكين ذلك ، خرج من انطاكية لقصد ارتاح ، واستعادتها ، و جمع من في اعماله من الافرنج ، و نزل عليها ، وتوجه نحوه فخر الملوك في عسكره لابعاده عنها ، وقد جمع وحشد من أمكنة من عمل حلب ، والاحداث الحلبيين ، لقصد الجهاد ، فلما تقاربا نشبت الحرب بين الفريقين ، فثبت راجل المسلمين ، وانهزمت الخيل ، ووقع القتل في الرجالة ، ولم يسلم منهم الا من كتب الله سلامته ، ووصل الفل الى حلب واحصي المفقود من الخيل والرجل ، فكان تقدير ثلاثة آلاف نفس ، وحين عرف ذلك من كان في ارتاح من المسلمين ، هربوا باسرهم منها ، وقصد الافرنج بلد حلب ، فأجفل أهله منه ، ونهب من نهب ، وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان ، واضطربت احوال من بالشام بعد الأمن والسكون (١٨) .

وفي هذه السنة خرج من مصر عسكر كثيف يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل مع الأمير شرف المعالي ولد الأفضل ، وكوتب ظهير الدين اتابك بالاستدعاء للمعونة والاعتضاد الى جهاد الكفرة الاضداد ، فلم يتمكن من الاجابة الى المراد ، لاسباب عاقته عن المعونة والاسعاد ، وتوجه في العسكر الى بصرى ، فنزل عليها عازما على مضايقتها ، وفيها الملك ارتاش ابن تاج الدولة وايتكين الحلبي ، لانهما كانا عند الافرنج على ماشرح من امرهما اولا ، ثم استدرك الرأي واستصوب المسير الى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد ، فسار اليه ووصل (٨١ و) الى ظاهر عسقلان ، ونزل قريبا منه ، وعرف الافرنج الخبر ، فتجمعوا ، وقصدوا عسقلان ، والتقى الفريقان في رابع عشر ذي الحجة من السنة ، فيما بين يافا وعسقلان ، فاستظهر الافرنج على المسلمين ، وقتلوا والي عسقلان ، واسروا بعض المقدمين ، وانهزم عسكر مصر الى عسقلان ، وعسكر دمشق الى بصرى ، وقيل ان الذين قتلوا من المسلمين بازاء الذين قتلوا من

المشركين ، ولما عاد ظهير الدين والعسكر الى بصرى ، وجد الملك ارتاش وايتكين الحلبي لما يئسا من نصرة الافرنج لهما ، قد قصدا ناحية الرحبة ، واقاما بها مدة وتفرقا ، وراسل المقيمان ببصرى : أذوشتكين وفلوا من (١٩)ظهير الدين يطلبان منه الامان ، والمهلة لهما بالتسليم مدة اقتراحهما ، فأجاب الى ماالتمساه منه ، ورحل عنهما ، ولما بلغ الأجل منتهاه ، والوعد مداه ، سلما بصرى اليه ، وخرجا منها ، ووفى لهما بما وعدهما من الامان والاقطاع ، وزاد على ذلك ، وأقاما عليه مدة أيامه ٠

سنة تسع وتسعين واربعمائة

فيها خرج الافرنج الى سواد طبرية وشرعوا في عمارة حصن علعال (٢٠) فيما بين السواد والبثنية ، وكان من الحصون الموصوفة بالمنعة والحصانة ، فلما عرف ظهير الدين اتابك هذا العزم منهم ، أشفق من اتمام الامر فيه ، فيصعب تدارك الأمر وتلافيه ، فنهض في العسكر ، وقصدهم وهو على غفلة مما دهمهم ، فأوقع بهم ، وقتلهم بأسرهم ، وملك الحصن بما فيه من آلاتهم وكراعهم وأثاثهم ، وعاد الى دمشق برؤوسهم وأسرائهم وغنائمهم ، وهي على غاية الكثرة ، في يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر ....

وفي السادس والعشرين من جمادى الاولى ورد الخبر بقتل خلف بن ملاعب ، صاحب افامية قتله قوم من الباطنية نفذهم اليه المعروف بأبي طاهر الصائغ العجمي ، من حلب ، وهو الذي قام للباطنية مقام الحكيم المنجم الباطني ، بعد هلاكه ، بموافقة رجل (٨١ ظ) من دعاتهم يعرف بابن القنج السرميني (٢١) ، كان مقيما بافامية ، وقد قرر ذلك مع اهلها ، فنقبوا نقبا في السور حتى تمكنوا من الوصول اليه ، فلما قربوا منه ، واحس بهم لقيهم فوثب اليه بعضهم فطعنه في جوفه فرمى نفسه في القلعة يريد بعض دور اولاده (٢٢) فطعنه أخر طعنة ثانية فعاش ساعة ومات ، وصاح الصائح على القلعة و (حين نادوا بشعار الملك رضوان نجا اولاده وخاصته من السور)(٢٣) ، وملكوا عليهم الموضع وقتلوا من قتلوا ، وسلم ولده مصبح بن خلف ابن ملاعب ، وتوجه الى شيزر ، واقام هناك مدة فأطلق منها .

- ٥٠٤٢ -

ووصـل طغتكين الى افامية عقيب هـذه الكائنة طـامعا فيها ، ومعه اخ كان لابن القنج الداعي السرميني كان مأسورا في يده ، فقرر له شيئا دفعه اليه ، فرحل عنه ....

وورد الخبر بأن مصبح بن ملاعب الذي افلت من نوبة افامية التجأ الى طنكري صاحب انطاكية ، وحـرضه على العـود الى افامية ، واطمعه في اخـذها لقلة القـوت بهـا ، فنهض اليها ، ونزل عليها ، وضايقها الى ان تسلمها بالامان في الثالث عشر من المحرم سنة خمسـمائة ، فلما حصـل ابـن القنج السرميني الباطني في يده قتله بـالعقوبة ، وحمـل ابا طـاهر الصائغ معه واصحابه اسرى ، ولم يف لهم بمـا بـذل مـن الامان ، وكان القوت قد نفد من افامية ، ولم تزل الأسرى في يده الى ان فدوا نفوسهم بمال بذلوه له فأطلقهم ووصلوا الى حلب .

سنة خمسمائة

فيها تزايد فساد الافرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف ، وانتهت الاخبار بذلك وشكا اهلها الى ظهير الدين اتابك فجمع العسكر ، ومن انضاف اليه من التركمان ، ونهض بهم وخيم في السواد ، وكان الامير عز الملك الوالي بصور قد نهض منها في عسكره الى حصن (٢٤) تبنين من عمل الافرنج ، فهجم ربضه ، وقتل من كان فيه ونهب وغنم ، واتصل الخبر ببغدوين ملك الافرنج ، فنهض اليه من طبرية ، ونهض اتابك الى حصن بالقرب من طبرية فيه جماعة من فرسان الافرنجية ، فقاتله وملكه ، وقتل من كان فيه وانكفأ الى المدان (٢٥) وعاد الافرنج اليه ، فلما قربوا منه اندفع العسكر الى ناحية زرا (٢٦) ، وتلاقت طلائع الفريقين وعزموا على المصاف والالتقاء ، وقد قويت نفوس المسلمين ، فلما كان من غد ذلك اليوم ، ركب العسكر ، وقد تاهب اللقاء على تلك النية وزحفوا الى موضع مخيمهم ، فصادفوهم وقد رحلوا عائدين الى طبرية ، ثم منها الى عكا فعاد ظهير الدين عند ذلك في العسكر الى دمشق ....

وفي هذه السنة تتابعت المكاتبات الى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه ، من ظهير الدين اتابك ، وفخر الملك ابن عمار ، صاحب طرابلس بعظيم ما ارتكبه الافرنج من الفساد في البلاد ، وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل ، والفتك في المسلمين ، ومضايقة ثغر طرابلس ، والاستغاثة اليه ، والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة ، فندب السلطان لما عرف هذه الحال الامير جاولي سقاوه ، واميرا من مقدمي عسكره كبيرا في عسكر كثيف من الاتراك ، وكتب الى

بغداد ، والى الامير سيف الدولة صدقة بن مزيد ، والى جكرمش صاحب الموصل بتقويته بالمال والرجال على الجهاد ، والمبالغة في اسعاده وانجاده ، واقطعه الرحبة وما على الفرات ، فثقل امره على المكاتبين ، فدافعه ابن مزيد ، وسار نحو الموصل يلتمس من جكرمش ماوقع به عليه ، فتسوقف عنه ، فنزل(٨٥ و) على قلعة السن (٢٧) ونهبها ، واجتمع اليه خلق كثير ، وخرج جكرمش الى لقائه فظفر به جاولي سقاوه باستباح عسكره ، وانهزم ولده الى الموصل ، فلما عرف ولده ذاك كاتب قلج ارسلان بن قتلمش يستنجده من ملطية ، ويبذل له تسليم البلاد والاعمال التي في يده اليه ، وكان جكرمش قد جمع مالا عظيما من الجزيرة والموصل ، وكان جميل السيرة (٢٨) في الرعية ، عادلا في ولايته ، مشهورا بالانصاف في اعمال اياالته ، فلما عرف قلج ارسلان بن سليمان ماكتب به اليه ولد جكرمش ، اجابه الى ملتمسه ، وسار نحوه في عسكره ، ووصل الى نصيبين ، لانه كان في بعض عسكره وباقيه في بلاد الروم لانجاد ملك القسطنطينية على الافرنج ، ولما تقارب عسكر قلج من عسكر جاولي سقاوه ، والتقت طلائع الفريقين ، ظفر قوم من اصحاب قلج بقوم من اصحاب جاولي فقتلوا بعضا ، واسروا بعضا ، فرحل جاولي يطلب عسكر قلج ، وقد عرف انه قد انفذ يستدعي بقية عسكره من بلاد الروم ، وانه في قل ، وطلب ناحية الخابور ، وتوجه منها الى الرحبة ، ونزل عليها وضايقها ، وراسل محمدا واليها من قبل الملك شمس الملوك دقاق صاحب دمشق ـ وعنده الملك ارتاش بن تاج الدولة الهارب من دمشق بعد وفاة الملك دقاق اخيه مقيما ـ بالتسليم اليه ، فلم يحفل بمراسلته وايسه من طلبته ، فاقام عليها مضايقا لها مدة .

ووصل اليه الامير نجم الدين ايل غازي بن ارتق ، في جماعة وافرة من عسكره التركمان ، واستنجد عليها بالملك فخر الملوك

رضوان ، فوصل اليه في عسكره بعد ان هـادن طذكري صـاحب انطاكية ، فلما فصل عن حلب ، وعرف جوسلين صـاحب تـل باشر بعده عن حلب ، واصل الغارات على اعمـالها مـن جميع جهاتها ، ولم يزل جاولي مقيما على الرحبة منذ اول رجب وإلى الثاني والعشرين من شـهر رمضـان ، وزاد الفـرات زيادتـه المعـروفة ، فـركب اصـحاب جـاولي الزواريق وصعدوا (٨٥ ظ) طالبين سور البلد بمواطأة من بعض اهل البلد ، فلم يتهيأ لهم امر مع من واطأهم ، بل هجمـوا الســور وملكوا البلد ونهبوه ...

وقد كان قلج ارسلان انفذ بعض مقدمي اصحابه الى بلاد الروم ، في خلق كثير من التركمان ، لانجاد ملك القسطنطينية على بيمند ومن معه من الافرنج الواصلين الى الشام ، فانضافوا الى ملك الروم وماحشده من عسـاكر الروم ، فلمـا اجتمـع الفـريقين مااجتمع رتبوا (٨٦ و) المصاف ، والتقوا فـاستظهر الروم على الافرنج ، وكسروهم كسرة شنيعة اتت على اكثرهم بـالقتل والاسر ، وتفرق السالم الباقي منهم عائدين الى بلادهم ، وفصل اصحاب قلج ارسلان الاتراك الى امـاكنهم ، بعـد ان اكرمهـم ، وخلع عليهم ، واحسن اليهم ....

وفي هذه السنة وصل الى دمشق الامير الاصفهبذ التركماني مـن ناحية عمله ، فـأكرمه ظهير الدين ، واحسـن تلقيه ، واقـطعه وادي موسى ومآب والشراة والجبال والبلقاء ، وتوجه اليهـا في عسكره ، وكان الافرنج قد نهضوا الى هذه الاعمال ، وقتلوا فيها وسبوا ونهبوا ماقدروا عليه منها ، فلما وصل اليها وجد اهلهـا على غاية من الخوف ، وسوء الحال عما جرى عليهم من الافرنج فأقام بها .

ونهض الافرنج اليه لما عرفوا خبره من ناحية البرية ، ونزلوا

بازاء المكان الذي هو نازل به ؛ واهملوه الى ان وجدوا الفرصة فيه فكبسوه على غرة ، فانهزم في اكثر عسكره ، وهلك باقيه ، واستولوا على سواده ، ووصل الى عين الكتيبة من ناحية حوران ، والعسكر الدمشقي نازل عليها ، فتلقاه ظهير الدين متوجعا له بما جرى عليه ، ومسليا عما ذهب وعوضه ، واطلق له ماصلحت به حاله .

سنة احدى وخمسمائة

فيها جمع ملك الافرنج بغدوين حزبه المفلول ، وعسكره المخذول ، وقصد صور ، ونزل بازائه ، وشرع في عمارة حصن بظاهرها على تل المعشوقة ، واقام شهرا ، وصانعه واليه على سبعة الاف دينار ، فقبضها منه ورحل عنه .....

وفي شعبان من هذه السنة اشتد الامر بفخر الملك بن عمار بطرابلس ، من حصار الافرنج ، وتطاول أيامه ، وتمادى الترقب لوصول الانجاد ، وتمادى تأخر الاسعاد ، فأنفذ الى دمشق يستدعي وصول الامير ارتق بن عبد الرزاق ، احد امراء دمشق اليه ، ليتحدث معه بما في نفسه ، فأجابه الى ذلك ، واستأذن ظهير الدين في ذلك ، فأذن له ، وتوجه نحوه وقد كان فخر الملك خرج من طرابلس في البر في تقدير خمسمائة فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف اعدها السلطان عند مضيه اليه الى بغداد ، فلما وصل ارتق اليه واجتمع معه ، تقررت الحال بينهما على وصوله الى دمشق في صحبته ، فوصل اليها وانزل في مرج باب الحديد بظاهرها ، وبالغ ظهير الدين في اكرامه ، وتناهى في احترامه ، وحمل اليه امراء العسكرية ومقدموه من الخيل والبغال والجمال وغير ذلك ماامكنهم حمله واتحافه به ، وكان فخر الملك المذكور قد استناب عنه في حفظها ابا المناقب ابن عمه ، ووجوه اصحابه وغلمانه ، واطلق لهم واجب ستة اشهر ، واستحلفهم وتوثق منهم ، فأظهر ابن عمه الخلاف له والعصيان عليه ، ونادى بشعار الافضل بن امير الجيوش بمصر ، فلما عرف فخر الملك مابدا منه كتب الى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه ، وحمل الى حصن

الخوابي (٢٩) ، ففعل ذلك ، وتوجه فخر الملك الى بغداد ومعه تاج الملوك بوري بن ظهير الدين اتابك ....

فلما وصلا الى بغداد لقي فخر الملك من السلطان من الاكرام والاحترام مازاد على امله ، وتقدم الى جماعة من اكابر الامراء بالمسير معه لمعونته وانجاده على طرد محاصري بلده ، والايقاع بهم ، والابعاد لهم ، وقرر مع العسكر المجرد معه الالمام بالموصل ، وانتزاعها من يدي جاولي سقاوه ، ثم المصير بعد ذلك الى طرابلس ، فجرى ماتقدم به الشرح من ذلك ، وطال مقام فخر الملك ، طولا ضجر معه ، وعاد الى دمشق في نصف المحرم سنة اثنتين وخمسمائة .

..... واقام فخر الملك بن عمار في دمشق بعد وصوله اليها اياما ، وتوجه منها مع خيل من عسكر دمشق جردت معه الى جبلة ، فدخلها واطاعه اهلها ، وانفذ اهل طرابلس الى الافضل بمصر يلتمسون منه انفاذ وال يصل اليهم في البحر ، ومعه الغلة والميرة في المراكب لتسلم اليه البلد ، فوصل اليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب واليا من قبل الافضل ، ومعه الغلة فلما وصل آليها ، وحصل فيها ، قبض على جماعة اهل فخر الملك بن عمار واصحابه ، وذخائره والاته واثاثه ، وحمل الجميع الى مصر في البحر .

وفي هذه السنة اسرى ظهير الدين اتابك في عسكره الى طبرية ، وفرق عسكره فرقتين نفذ احداهما الى ارض فلسطين ، والاخرى غار بها على طبرية ، فخرج اليه صاحبها في رجاله المعروف بجر فاس ، وهو من مقدمي الافرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة (٨٨ و) والبسالة ، وشدة المراس ، يجري مجرى الملك بغدوين في التقدم على الافرنج ، فالتقاه واحاطت خيل الاتراك به وباصحابه ، فقتل اكثرهم واسر هو وجماعة معه ،

- ٥٠٤٩ -

وحملوا الى دمشق (٣٠) ، فانفذ بعضهم هدية الى السلطان وقتل جرفاس ومن كان معه في الاسر من اصحابه بعد ان بذلوا في اطلاقهم جملة من المال فلم يقبلها ...

وفي هذه السنة نهض بغدوين في عسكره المخذول من الافرنج نحو ثغر صيدا ، فنزل عليه في البحر والبر ، ونصب البرج الخشب عليه ، ووصل الاسطول المصري الدفع عنه ، والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية ، وعسكر البر ، واتصل بهم نهوض العسكر الدمشقي لحماية صيدا ، والذب عنها ، فرحلوا عنها عائدين الى اماكنهم .

سنة اثنتين وخمسمائة

فيها انفذ صاحب عرقة(٣١) الى ظهير الدين اتـابك رسـوله ، يلتمس منه المعونة على دفع الافــرنج عنهـا ، وانفــاذ مــن يتسلمها ، فندب بعض ثقاته فتسلمها ، واقـام واليهـا(٣٢) ، منتظرا وصول العسكر اليها ، والوفـاء بمـا وعد بـه مــن الخلع عليه ، والاحسان اليه ، فحـدث في (٨٨ ظ) الوقـت مـن الثلوج والامطار ماعاق المسير اليها ، وقل القوت بهـا ، وانقـطعت الميرة عنها ، فبادر الافرنج بالنزول عليها ، وتـوجه ظهير الدين عند ذاك اليها ، فصادفهم قد احاطوا بهـا ، ولم يتمـكن مــن دفعهـم عنها ، وعاد الى حصن الاكمة (٣٣) ، ونزل عليه وقـاتله فلمـا عرف الافرنج ذلك ، نهضوا اليه في تقدير ثلاثمائة فارس لانجاد مـن بالاكمة ، فوصلوا اليهم ليلا ، فقويت نفوسهم ، واقتضى رأي اتابك الرحيل عنها بحكم من صار فيها منهم ، فرحل كالمنهـزم ، وطمـع فيه ، وتتبع العسكر ، فغنم من الخيل والكراع غنيمة كبيرة وتفـرق العسكر في الشجر والجبال ، ووصلوا الى حمص على اقبح صـفة ، وا شنع صورة ، من غير لقاء ولامحاربة ، وعاد الافرنج الى عرقـة وعدم القوت فيها ، فملكوها بالامان ...

وفي شعبان من هذه السنة وصـل ريمند بـن صـنجيل ، الذي كان نازلا على طرابلس ، من بلاد الافرنج في جملة ستين مركبا في البحر مشحونة بالافرنج والجنويين ، فنزل على طرابلس ، ووقع بينه وبين السرداني ابن اخت صنجيل مشـاجرة ، ووصـل طنكري صـاحب انطاكية اليه لمعونة السرداني (٣٤) ، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقـدس في عسـكره فـأصلح بينهـم ، وعاد السرداني الى عرقة ، ووجد بعض الافرنج في زرعهـا ، فـأراد ضربـه فضربـه

الافرنجي فقتله ، ولما بلغ الخبر ريمند بن صنجيل ، وجه من تسلم عرقة من اصحابه ، .

ونزل الافرنج بجموعهم وحشدهم الى طرابلس ، وشرعوا في قتالها ومضايقة اهلها منذ اول شعبان الى الحادي عشر من ذي الحجة (٨٩ و) من السنة ، واسندوا ابراجهم الى السور ، فلما شاهد الجند والمقاتلة واهل البلد سقط في ايديهم ، وايقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم لاسيما مع اليأس من تأخر وصول الاسطول المصري في البحر بالميرة والنجدة ، وقد كانت علة الاسطول ازيحت ، وسير والريح ترده ، لما يريد الله تعالى من نفاذ الامر المقضي ، فشدد الافرنج القتال عليها وهجموها من الابراج ، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة ، ونهبوا مافيها ، واسروا رجالها ، وسبوا نساءها واطفالها ، وحصل في ايديهم من امتعتها ونخائرها ودفاتر دار علمها ، وماكان منها في خزائن اربابها مالا يحد عدده ، ولايحصر فيذكر ، وسلم الوالي بها وجماعة من جنده ، كانوا التمسوا الامان قبل فتحها فلما ملكت اطلقوا ، ووصلوا الى دمشق بعد ايام من فتحها ، وعوقب اهلها واستصفيت اموالها ، واستثيرت نخائرهم من مكامنها ، ونزل بهم اشد البلاء ومؤلم العذاب (٣٥) .

وتقرر بين الافرنج والجنويين على ان يكون للجنويين الثلث من البلد ، ومانهب منه ، والثلثان لريمند بن صنجيل ، وافردوا للملك بغدوين من الوسط مارضي به ، وكان طنكري لما لم ينل مااراد من نصرة السرداني ، قد عاد ونزل على بانياس وافتتحها وامن اهلها في شوال من السنة ، ونزل على ثغر جبيل وفيه فخر الملك بن عمار ، والقوت فيه نزر قليل ، فلم يزل مضايقا له ولاهله الى يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة ، فراسلهم وبذل لهم الامان ، فأجابوه الى ذلك ، فتسلمه بالامان ، وخرج منه فخر الملك ابن عمار سالما ، وقد وعده بإحسان النظر والاقطاع .

ووصل عقيب ذلك الاسطول المصري ، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس ، وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة ، مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل واهله ، ووصل الى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس ، وقد فات الامر فيها القضاء النازل بأهلها ، واقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها ، وتمسك به اهل صور وصيدا (٨٩ ظ) وبيروت ، وشكوا احوالهم وضعفها عن محاربة الافرنج ، ولم يمكن الاسطول المقام ، فأقلع عائدا عند استقامة الريح الى مصر .

وفيها وصل بيمند صاحب انطاكية من بلاد الافرنج ، عائدا الى مملكته في خلق كثير ، ونزل بالقرب من قسطنطينية ، وخرج ملكها اليه ومعه خلق كثير من التركمان المجاورين له فاقتتلوا اياما ، وطلب الروم تقبيحهم بكل نوع الى ان تفرقوا وتبددوا في البلاد ، واصلح بيمند امره مع الملك ، ودخل عليه ووطىء بساطه ، ومن معه وكفى الله ، وله الحمد امرهم وصرف عن الاسلام شرهم

وفيها ترددت رسل الملك بغدوين الى ظهير الدين في التماس المهادنة والموادعة ، فاستقر الامر بينهما ، على ان يكون السواد وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللافرنج والفلاحين الثلثان ، فانعقد الامر على هذه القضية ، وكتب الشرط على هذه النية .

وكان فخر الملك بن عمار ، لما ملك الافرنج جبيل ، خرج منها وتوجه الى شيزر ، فأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني ، واحترمه ، وجماعته ، وعرض عليه المقام عنده ، فلم يفعل ، وتوجه إلى دمشق عائدا الى ظهير الدين أتابك فأكرمه وانزله في دار ، واقطعه الزبداني واعمالها في المحرم سنة ثلاث وخمسمائة .

سنة ثلاث وخمسمائة

لما فرغ الافرنج من طرابلس بعد افتتاحها ، وتدبير أعمالها ، وتقرير أحوالها ، نهضوا إلى رفنية وعرف ظهير الدين ذلك من قصدهم ، فنهض في العسكر نحوها لحمايتها ، وخيم بإزائهم بحمص ، فلم يتمكن الافرنج من منازلتها ومضايقتها ، وترددت بينه وبينهم مراسلات ومخاطبات أفضت الى أن أجاب كل واحد من الفريقين (٩٠ و) الى تقرير الموادعة على الاعمال ، والمسالمة ، واستقر في ذلك على أن يكون للافرنج الثلث من استغلال البقاع ويسلم اليهم حصن المنيطرة(٣٦) وحصن ابن عكار (٣٧) ويكفوا عن العيث والفساد في الاعمال والاطراف وأن يكون حصن مصيات (٣٨) وحصن الطوفان (٣٩) وحصن الأكراد(٤٠) داخلا في شرط الموادعة ويحمل أهلها عنها مالا معينا في كل سنة الى الافرنج ، فأقاموا على ذلك مدة يسيرة فلم يلبثوا على ماتقرر وعادوا الى رسمهم في الفساد والعناد .

.... وقد كان ظهير الدين أتابك في عوده من وادي المياه ، قد اتصل به أن كمشتكين الخادم التاجي ، الوالي ببعلبك قد راسل الافرنج بالتماس المصافاة منهم ، وبعثهم عن شن الغارات على الأطراف ، وأنه قد سير أخاه بايتكين الخادم التاجي الى السلطان للتوصل بالمحال الى افساد الحال فحين سمع ظهير الدين هذا الخبر ودفونه ندب جماعة من العسكر وقرر معهم المصير إلى المسالك والطرقات التي لابد من عبوره فيها لمسكه وحمله اليه فلم يقف لبايتكين المذكور على خبر وسار ظهير الدين في العسكر من طريقه وكتب الى تاج الملوك يأمره بالخروج في العسكر الى بعلبك ، والنزول عليها ، فسارع الى امتثال امره ، وسار اليها ونزل عليها على غفلة من اهلها وغرة ممن بها ثم أرسل الخادم المذكور يلتمس منه الدخول في

الطاعة وتسليم الموضع إليه ويحذره من الاستمرار على المخالفة والعصيان ويخوفه الاقامة على مايفضي إلى سفك الدماء وبالغ في الاعذار له والانذار، فلم يجب الى المراد والايثار واصر على الخلاف والانكار،ووافى عقيب ذلك ظهير الدين في العسكر ومن جمعه من الرجالة،وزحف الى بعلبك مقاتلا لها،ونصب عليها المناجيق،وشرع في عمل آلة الحرب والنقوب لقصد الاماكن المستضعفة منها لانتهاز الفرصة فيها(٩١و)، وترامى اليه من الاحداث اهلها وأجنادها جماعة احسن اليهم وخلع عليهم ، وزحف الى سورها وقاتل من عليه ، فقتل جماعة منهم ، فحين شاهدوا الجد في القتال والصبر على النزال جنحوا إلى الدخول في الطاعة والتمس الخادم الاقالة ، وبذل تسليم البلد والحصن على شرط اشترطه ، واقطاع عينه ، وطلب بعض المقدمين للحديث معه والتوثق لنفسه ، فنفذ اليه الامير بلتاش لمحله من الدولة فتقررت الحال على ماإقترحه وسلم البلد والحصن الذي هو غاية في المنعة والحصانة ومن العجائب المذكورة والقلاع المشهورة ، وخرج إليه وجرى على عادته الجميلة في الصفح عمن أساء إليه وأظهر العصيان عليه ، وعوضه عن بعلبك حصن صرخد وهو مشهور بالحصانة والمنعة ايضا (٤١) ، وأعاد إليه ماكان قبض عنه من ملك وإقطاع (٤٢) بدمشق ، وسلم ظهير الدين اتابك ، بعلبك إلى ولده تاج الملوك بوري ، فرتب فيها من ثقات أصحابه من اعتمد عليه في حفظها وقرر أحوالها ، وكانت مدة المقام في منازلتها خمسة وثلاثين يوما وسلمت وتسلمت في اليوم الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وخمسمائة وأمر ظهير الدين بإزالة حوادث الظلم عن أهل بعلبك ، وتسويغ بعض خراجها (٤٣) أهلها ، وأعاد عليهم أملاكا كانت قد اغتصبت في قديم الزمان ، وكثر له الدعاء ، وتواصل عليه الثناء وعاد منكفيا إلى دمشق ، وورد عليه الخبر بعود السلطان من بغداد الى أصفهان في شوال من السنة ...

وفي هذه السنة خرج طنكري من انطاكية في حشده ولفيفه المخذول ، إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وماوالاها ، وأخرج صاحب ملك

الروم منها ، وعاد إلى انطاكية ، ثم خرج الى شيزر وقرر عليهـا عشرة آلاف دينار ، مقاطعة تحمل إليه بعد أن عآث في عملها ، ونزل على حصـن (٩١ ظ) الأكراد فتسـلمه مـن أهله وتـوجه إلى عرقة ، وكان الملك بغدوين وابن صنجيل قد نزلا على ثغر بيروت برا وبحرا ، فعاد طنكري إلى أنطاكية ، وسار جـوسلين صـاحب تـل باشر (٤٤) إلى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الافـرنج ، ويستنجد بهم على عسكر الأمير مودود النازلين على الرها ، وشرع الافرنج في عمل البـرج ، ونصـبه على سـور بيروت ، فحين نجـز وزحفوا به كسر بحجارة المناجيق وأفسد ، فشرعوا في عمـل غيره ، وعمل ابن صنجيل برجا آخر ، ووصل في الوقت من اسطول مصر في البحر تسعة عشر مركبا حربية ، فـظهروا على مـراكب الافـرنج وملكوا بعضها ، ودخلوا بالميرة الى بيروت فقويت بها نفـوس مـن فيها من الرعية ، وأنفذ الملك الى السويدية يستنجد بمن فيهـا مـن الجنوية في مراكبهم ، فوصل منها الى بيروت اربعون مركبا مشحنه بالمقاتلة ، فزحف الافرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال ، ونصبوا على السور برجين اشتدوا في القتال ، فقتل مقدم الاسطول المصري ، وخلق كثير من المسلمين ولم ير الافرنج من ماتقدم وتاخر أشد مـن حـرب هـذا ، وانخـذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلكة ، فهجم الافرنج على البلد آخر نهـار هذا اليوم ، فملكوه بالسيف قهرا وغلبة وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من اصحابه [ثم أمسك] وحمل الى الافرنج فقتـل ومـن كان، وغنموا ماكان استصحبه من المال ، ونهب البلد وسبي من كان فيه ، وأسر واستصفيت أموالهم وذخائرهم ، ووصل عقيب ذلك من مصر ثلاثمائة فارس نجده لبيروت ، فحين حصلوا بالاردن خـرجت عليهم فرقة من الافرنج يسيرة العدد ، فانهزموا منهم إلى الجبال ، فهلك منهم جماعة .

فلما تقرر أمر بيروت رحل الملك بغدوين في الافرنج ، ونزل على ثغر صيدا ، وراسل أهله يلتمس منهـم تسـليمه ، فـاستمهلوه مـدة

- ٥٠٥٦ -

عيذوها ، فأجابهم إلى المهلة بعد أن قــرر عليهــم ســتة الاف دينار تحمل اليه مقاطعة ، وكانت قبل ذلك ألفي دينار ، ورحــل عنهــا الى بيت المقدس للحج ...

وفيها كاتب السلطان غياث الدنيا والدين الامير ســكمان القــطبي ، صاحب أرمينية وميافارقين ، وشرف الدين مودود صاحب الموصــل يأمرهما بالمسير في العساكر الى جهــاد الافــرنج ، وحمــاية بــلاد الموصل ، فجمعا واحتشدا ، ونهضا ونزلا بجزيرة بني نمير إلى أن تكامل وصول ولاة الاطراف اليهما ، وخلق كثير من المتطوعة ووصل اليهما ايضا الامير نجم الدين ايل غازي بن ارتــق في خلق كثير مــن التركمان ، واجتمع المسلمون في عدد لايقوم بلقائه جميع الافــرنج ، واتفقت الاراء على افتتاح الجهاد بقصد الرها ومضايقتها ، إلى أن يسهل الله افتتاحها بحكم حصانتها ومنعتها .

فرحلوا باسرهم ونزلوا عليها في العشر الثاني من شوال، واحــاطوا بها من جهاتها كالنطاق ، ومنعوا الداخل والخارج بالمسير إليهــا ، وكان القوت بها قليلا فأشرف من بها على الهلاك ، وغلا بها الســعر وطالت مدة الحصر لها ، والتضييق عليهــا ، وحين عرف الافــرنج صورة هذه الحال ، شرعوا في الجمــع والاحتشــاد والتــاهب للذب عنها ، والاستعداد ، واتفقت الكلمــة بينهــم على هــذه الحــال ، واجتمع (٩٢ ظ) طنكري صاحب أنطاكية وابن صــنجيل صــاحب طرابلس ، والملك بغدوين ومقــدموا ولاة الاعمــال مــن الافــرنج ، وتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات في الحرب والمصابرة واللباث ، فلمــا اســتقرت الاحــوال بينهــم على البينة رحلوا بــأسرهم الى ناحية الرها .

واتصلت الاخبار بظهير الدين أتابك ، وعرف صورة الحال فيما تقرر بينهم فسار من دمشــق في العســكر وخيم على ســلمية ، وعرف ان الافرنج قد قصدوا في طريقهم رفنية ، وفيها الامير شمس الخــواص

واليها ، وانهم لما نزلوا عليها ظهر إليهم في خيله وقتل منهم جماعة ، ووصل الى المخيم بسليمة ، واجتمع إليه خلق كثير من الشام . ووصل الخبر بحصول الافرنج على الفرات عازمين على قطعه (قصد) الرها ، فرحل اتابك في الحال وتوجه الى ناحية الرقة وقلعة جعبر ، وقطع الفرات وتلوم هناك إلى ان عرف خبر الافرنج ، أنهم قد احجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الاسلامية وطلائعهم في سائر الجهات والمسالك إلى الفرات .

ولما عرف المسلمون قرب الافرنج منهم ، اتفقت الآراء فيما بينهم على الافراج لهم ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات ، ورحلوا عن الرها في آخر ذي الحجة منها ، ونزلوا أرض حران على سبيل الخديعة والمكر ، وكانت حران قد حصلت للامير مودود ، وسلمها إلى نجم الدين ايل غازي بن ارتق ، وتوقف المسلمون عن لقاء الافرنج إلى أن يقربوا منهم ، ويصل إليهم عسكر دمشق ، وفطن الافرنج لهذا التدبير والاتفاق عليه ، فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان ، واجفلوا ناكصين على الاعقاب إلى شاطيء الفرات ، وبلغ المسلمين خبرهم ، فنهضوا في إثرهم وأدركهم سرعان الخيل وقد قطع الفرات بعضا من مقدميهم ، فغنم المسلمون سوادهم وأثقالهم ، واتوا على العدد الدثر من اتباعهم قتلا وأ سرا وتمزيقا في الفرات ، وامتلأت الأيدي من الغنائم والاسلاب والسبي والدواب ، ولم يتمكن المسلمون من قطع الفرات للحاق بهم بحكم اشتغالهم بأمر الرها ، والعود إليها ، وكانوا قد اخرجوا منها كل ضعيف الحال ، ورتبوا جماعة من الارمن لحفظها ، وحملوا إليها ماصحب العسكر الواصل من الاقوات تقوية لها وخرج بغدوين الرويس (٩٣ و) صاحبها عنها وتوجه صحبة الافرنج المنهزمين ، واقام عسكر الاسلام على الفرات اياما نازلا بازائهم ، ورحل طالبا للعود الى منازلة الرها ، وعرف ظهير الدين اتابك خبر عودهم على تلك الصفة فعاد متكفئا الى عمله لحمايته منهم ، بعد أن نفذ شطرا وافرا من معسكره الى النازلين على الرها لمعونتهم ، ووصل الى دمشق واقام من كان أنهضه من عسكره الى الرها الى ان خلت

البلاد منهم وأذن لهم في العود الى اماكنهم بعد اكرامهم والاحسان اليهم (٤٥) .

وترددت بين اتابك ظهير الدين ، وبين الامير شرف الدين مودود مراسلات ، افضت الى استحكام المودة بينهما ، واتفاق الكلمة ، وتاكيد اسباب الالفة ، فطال مقام عسكر الاسلام على الرها لامتناعها وحصانتها ، وقل تواصل الميرة الى المخيم ، وعدم وجودها ، فدعتهم الحاجة الى العود عنها ، فتفرقوا بعد ان رتبوا من يقيم على حران لحصر الرها .

وحدث لنجم الدين ايل غازي بن ارتق استيحاش من سكمان القطبي لامر تجدد بينهما ، فاجفل من حران الى ماردين ، فقبض سكمان على ابن اخيه بلك ، وحمله معه الى بلده مقيدا .

وبعد تفرق العسكر الاسلامية عن الرها عاد اليها بغدوين الرويس صاحبها ، وحصل بها ، والغارات متواصلة على اطرافها ، وقد كان الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب لما عرف هزيمة الافرنج خرج الى اعمال حلب ، واستعاد ما كان غلب الافرنج عليه منها ، وغار على عمل انطاكية ، وغنم منه غنيمة وافرة ، ولما عرف خبر عودهم عاد الى حلب ، ووصل الافرنج عقيب ذلك فافسدوا في عمل حلب ، وقتلوا واسروا خلقا كثيرا ، وعاد طنكري ونزل على الاثارب(٤٦) ، وملكها بعد طول حصرها والمضايقة لها ، وذلك في جمادى الاخرة من السنة ، وآمن اهلها ، وخرج منها من أراد الخروج ، واقام من آثر المقام ، واستقرت الموادعة بعد ذلك بين الملك فخر الملوك رضوان وبين طنكري ، على أن يحمل اليه الملك من مال حلب في كل سنة عشرين الف دينار مقاطعة ، وعشرة أرؤس خيلا ، وفكاك الاسرى ، واستقرت على هذا القضية .

وفيها وصل الملك بغدوين صاحب (٩٣ظ) بيت المقدس الى

ناحية بعلبك وعزم على العيث والافساد في ناحية البقاع ، وتـرددت المراسلة بينه وبين ظهير الدين اتابك في هذا المعنى ، الى ان تقـررت الموادعة بينهما على ان يكون الثلث من استغلال البقـاع للافـرنج ، والثلثان للمسلمين والفلاحين ، وكتبت بينهما المواصفة بهذا الشرح في صفر من السنة ، ورحل عائدا الى عمله ، وقد فاز بمـا حصـل في يده وايدي عسكره من غنائم بعلبك ، والبقاع .

ووردت الاخبار فيها بوصول بعض ملوك الافرنج في البحر ، ومعه نيف وستون مركبا مشحونة بالرجال لقصد الحـج والغـزو في بـلاد الاسلام ، فقصد بيت المقدس ، وتوجه اليه بغدوين واجتمـع معـه ، وتقرر بينهما قصد البلاد ، فلما عادا من بيت المقدس نزلا على ثغـر صيدا في ثالث شهر ربيع الاخر سنة اربع وخمسمائة وضـايقوه بـرا وبحرا ، وكان الاسطول المصري مقيما على ثغر صور ، ولم يتمـكن من انجاد صيدا ، فعملوا البرج وزحفوا به اليها ، وهو ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ، ليمنع من الحجارة والنفـط ، وكانوا اذا احكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحتـه في عدة ايام متفرقة ، فاذا كان يوم الحرب وقرب من السور ، زحفوا به وفيه الماء والخل لطفي النار ، والة الحرب .

فلما عاين من بصيدا هذا الامر ، ضعفت نفوسهم ، واشفقوا من مثل نوبة بيروت ، فاخرج اليهما قاضيها وجماعة مـن شـيوخها ، وطلبوا من بغدوين الامان ، فاجابهم الى ذلك ، وامنهم والعسـكرية معهم على النفوس والاموال ، وإطلاق من أراد الخـروج منهـا الى دمشق ، واستحلفوه على ذلك وتوثقوا منه وخـرج الوالي والزمـام وجميع الاجناد والعسكرية ، وخلق كثير من اهـل البلد ، وتـوجهوا الى دمشق لعشر بقين من جمـادى (الاولى)(٤٧) اسـنة اربـع وخمسمائة ، وكانت مدة الحصـار سـبعة واربعين يومـا ، ورتـب بغدوين الاحوال بها والحافظين لها ، وعاد الى بيت المقدس ، ثم عاد بعد مدة يسيرة الى صيدا ، فقرر على من اقام بها نيفا وعشرين الفـ

دينار ، فافقرهم واستغرق احوالهم ، وصادر مـــن علم ان له تنبــه منهم .

سنة اربع وخمسمائة

(٩٤و) في هذه السنة وردت الاخبار بان جماعة من التجار المسافرين خرجت من تنيس (٤٨) ودمياط ومصر ببضائع واموال جمة ، كانوا قد ضجروا وملوا طول المقام ، وتعذر مسير الاسطول في البحر ، وحملوا نفوسهم على الخطر ، واقلعوا في البحر ، فصادفتهم مراكب الافرنج ، فاخذتهم وحصل في ايديهم من الامتعة والمال مايزيد على مائة الف دينار ، واسروهم وعاقبوهم ، واشتروا انفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها .

واما بغدوين فانه لما عاد من صيدا ، قصد عسقلان ، وغار عليها ، وكان واليها المعروف بشمس الخلافة يراسل بغدوين ، فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله اليه ، ويرحل عنه ويكف الانية عن عسقلان ، وكان شمس الخلافة ارغب في التجارة من المحاربة ، ومال الى الموادعة والمسالمة وايمان السابلة ، وقرر على اهل عسقلان سبعة الاف دينار تحمل اليه في مدة سنة وثلاثة شهور ، وانتهى الخبر بذلك الى الافضل صاحب مصر في شوال ، فانكر هذه الحال ، واسرها في نفسه ، ولم يبدها لاحد من خاصته ، وجهز عسكرا كثيفا الى عسقلان مع وال يكون مكان شمس الخلافة ، فلما قرب من عسقلان وعرف شمس الخلافة ذاك اظهر الخلاف على الافضل ، وجاهر بالعصيان عليه ، واخرج من كان عنده من العسكرية لخوفه من تدبيرهم عليه من الافضل لما يعلمه من الامور التي انكرها عليه ، ونقمها منه ، ومراسلته لبغدوين يلتمس منه المصافاة والمعونة بالرجال والغلال ، وإن دهمه امر ، وحزبه خطب ، سلم اليه عسقلان فطلب منه العوض عنها ، فلما عرف الافضل ذلك اشفق من تمام هذا الامر ، فكاتبه بما يطيب نفسه ، وغالطه واقطعه عسقلان واقر اقطاعه بمصر عليه ، وازال

الاعتراض لشيء مـــن مـــاله في ديار مصر مـــن خيل وتجـــارة واثاث ، وخاف شمس الخلافة من اهل البلد ، فاستدعى جماعة من الارمن فاثبتهم في عسقلان ، ولم يزل على هذه الحال الى اخر سنة اربع وخمسمائة ، فاذكر امره اهل البلد ، ووثب عليه قوم من كتامة وهو راكب فجرحوه ، وانهـزم الى داره فتبعـوه واجهـزوا عليه ، ونهبـوا داره ومـاله ، وتخـــطفوا بعض دور (١٩٤) الشـــهود والعامة ، وانتهى الخبـــر الى صـــاحب الســـتارة فبـــادر الى البلد ، فاطاع امره من بـــه ، وانفـذوا راسه الى الافضـــل الى مصر ، وانهـــوا جلية حـــاله ، فحســـن مـــوضع ذلك منه وموقعه ، واحسن الى الواردين بهذه البشرى ، ثم تقـدم بمـطالبة القوم القاتلين بما نهبوه من داره ، واستولوا عليه من ماله ، ومـال اهل البلد ، واعتقالهم ، وقبض جماعة من اهل البلد ، وحملهم الى مصر ، ولما وصلوا اعتقلوا فيها ....

وفيها وصل السلطان غياث الدين محمد بن ملك شاه من همـــذان الى بغداد ، في جمادى الاولى منها ، ووردت الكتب والرسل اليه من الشام بانهاء الحال ، وما جرى من الافرنج بعد عودهم عن الفرات ، ونوبة صيدا والاثارب واعمال حلب .

ولما كان اول جمعة مـــن شـــعبان حضر رجـــل مـــن الاشراف الهاشميين من اهل حلب ، وجماعة من الصوفية والتجار والفقهـــاء الى جامع السلطان ببغداد ، فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر ، وكسروه ، وصاحوا وبكوا لما لحق الاســلام مـــن الافـــرنج ، وقتـــل الرجال وسبي النساء والاطفـــال ، ومنعـــوا الناس مـــن الصـــلاة ، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بمـــا يســـكنهم مـــن انفـــاذ العساكر ، والانتصار للاسلام من الافـــرنج والكفـــار ، وعاودوا في الجمعة الثانية المصير الى جامع الخليفة ، وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب ....

وفي جمادي الآخرة منها ، وصل رسول متملك الروم بهدايا وتحف ومراسلات ، مضمونها البعث على قصد الافرنج ، والايقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الاعمال ، وترك التراخي في أمرهم ، واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل اعضال خطبهم واستفحال شرهم ، ويقول انه قد منعهم من العبور الى بلاد المسلمين ، وحاربهم ، فان طمعوا فيها ، بحيث تتواصل عساكرهم وامدادهم الى البلاد الاسلامية احتاج الى مداراتهم وإطلاق عبورهم ومساعدتهم عل مقاصدهم وأغراضهم ، للضرورات القائدة الى ذلك ، ويبالغ في الحث والتحريض على الاجماع على حربهم ، وقلعهم من هذه الديار بالاتفاق عليهم •

وفي هذه السنة نقض الملك بغدوين صاحب بيت المقدس الهدنة المستقرة بين أتابك وبينه ، وكتب الى ابن صنجيل صاحب طرابلس يلتمس منه الوصول اليه في عسكره ، ليجتمع معه في طبرية ، وجمع وحشد ، ورحل الى ناحية بيت المقدس لتقرير أمر كان في نفسه ، فحدث له في طريقه مرض أقام به أياما ، ثم أبل منه وافاق ، وقصد في حشده ناحية البثنية من حوران ، وقد أطرح كل من في الشام ، ولم يبق في عينه منهم أمر يحفل به من جهتهم ، فنهض ظهير الدين أتابك عند معرفته قصده في عسكره ، ونزل في المنزل المعروف براس الماء (٤٩) ، ثم رحل عنه الى اللجاة ، ونهض الافرنج في اثره الى الصنمين (٥٠) ، ففرق أتابك العسكر عليهم من عدة جهات ، وبث في المعابر والمسالك خيلا تمنع من حمل الميرة اليهم ، وضايقهم مضايقة ألجأتهم الى الدخول في حكم المسالمة والموادعة ، وترددت المراسلات في ذلك (٩٥ ظ) الى أن استقرت الحال بينهما على أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف والسواد والحباينة مضافا الى ما في يده ، ومن هذه الاعمال التي يليها في أيدي العرب من آل جراح ، وكتب بينهما هذا الشرط ، ورحل كل منهما منكفئا الى عمله في آخر ذي الحجة منها .

وقد كان الامر تقرر مع السلطان غياث الدنيا والدين على انهاض العساكر عقيب تلك الاستغاثة المقدم شرحها ببغداد ، والتقدم الى الأمراء بالتأهب للمسير الى الجهاد ، فتأهبوا لذلك ، وكان أول من نهض منهم الى أعمال الافرنج الامير الاسفهسلار شرف الدين مودود ، صاحب الموصل ، في عسكر الى شبختان (٥١) فافتتح تل قراد (٥٢) وعدة حصون هناك بالسيف والامان ووصل اليه الامير احمديل (٥٣) في عسكر سكمان القطبي من بلاد أرمينية وديار بكر ، فاجتمعوا في أرض حران ، وكتب اليهم سلطان بن علي ابن منقذ صاحب شيزر يعلمهم نزول طنكري صاحب انطاكية أرض شيزر ، وشروعه في بناء تل ابن معشر في مقابلة شيزر ، وحمل الغلال اليه ، ويستصرخهم ويبعثهم على الوصول الى جهته ، فحين عرفوا ذاك رحلوا الى الشام ، وقطعوا الفرات في النصف من المحرم وأقاموا عليه منتظرين وصول الامير برسق بن برسق صاحب همذان ، وكان قد أمر من السلطان بالتقدم عليهم ، فوصل اليهم في بعض عسكره ، وبه مرض من علة النقرس ، وسكمان القطبي ايضا مريض ، والاراء بينهما مختلفة ، وقاتل المطوعة والسوقة هذا الحصن ونقبوه ، فأنفذ جوسلين صاحب تل باشر الى الامير احمديل الكردي يلاطفه بمال وهدية ، ويبذل له الكون معه ، والميل اليه ، وكان أكثر العسكر مع أحمديل ، وسأله الرحيل عن الحصن وينزل اليه ، فأجابه الى ذلك ، على كراهية من باقي الأمراء ، واشتد مرض سكمان القطبي ، وعزم احمديل على العود طمعا منه في ان السلطان يقطعه بلاد سمكان ، وكان قد عقد بينهما وصلة وصهر ، فعادوا عن تل باشر الى حلب ، ونزلوا عليها ، وعاثوا في أعمالها وفعلوا أقبح من فعل الافرنج في الفساد ، وتوقعوا خروج (٩٦ و) الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب اليهم ، أو خدمة ينفذها لهم ، فلم يلتفت الى أحد منهم ، وأغلق أبواب حلب ، وأخذ رهائن أهلها الى القلعة ، ورتب الجند وأحداث الباطنية والطائعين لحفظ الاسوار ، ومنع الحلبيين من الصعود الى السور ، وأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر (٥٤)

وقـــد كان ظهير الدين اتـــابك عند اجتمــــــاع هؤلاء الامراء ، وعبورهم الفرات قد كاتبوه بالوصول اليهم ، ورد التدبير فيما يعتمدونه عليه اليه ، ووصل اليه كتاب الســلطان بمثــل هــذه الحال ، فاقتضت الصورة ، وصــائب الراي أن ينهض في العسـكر نحوهم للاعتضاد على الجهاد ، وتقوية النفوس على حمــاية هــذه البلاد من أهل الشرك والالحاد ، وجمع من أمكنه من رجــال حمص وحماة ورفنية وسائر المعاقل الشامية ، وسار اليهم ووصــلهم على ظاهر حلب ، فتلقوه بالاكرام والمزيد في الاحترام ، وقويت بـوصوله النفوس ، واشتدت الظهور ، وسروا بحصوله عندهم سرورا ، ظهر منهم وشــاع ، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهــاد ، ولاحمــاية بلاد .

واما سكمان القطبي فان المرض اشتد به ، واشفى منه ففصــل عنهم وعاد الى بلده (٥٥)، وورد الخبــر بـوفاته في طـريقه قبـل وصوله (٥٦) الفرات وأما بـرسق فـانه كان يحمــل في المحفـــة ولايتمكن من فعل ولاقول ، أما احمديل فان عزمه قوي على العــود بسبب بلاد سكمان وطمعه في اقتطاعها مــن الســلطان فـاستجرهم ظهير الدين اتابك الى الشام ، فرحلوا في آخر صــفر ونزلوا معــرة النعمان ، فاقاموا على ذلك المنهاج الاول ، وامتــار العســكر مــن عملها ماكفاهم ، وقصروا عن جملة العلوفات والاقـوات ، وظهــر لظهير الدين من سوء نية المقدمين فيه ما أوحشه منهم ، ونفر قلبــه من المقام بينهم ، وذكر له أن الملك فخر الملوك رضوان راســل بعض الامراء في العمل عليه ، والايقاع به ، فاتفق مع الامير شرف الدين مودود ، وتاكدت المصــافاة والمــاهدة بينهمــا ، وحمــل الى بقية الامراء ماكان صحبه من الهدايا لهم والتحف ، والحصــن العــربية السبق ، والاعلاق المصرية (٩٦ ظ) وقوبل ذلك منه بالاستكثار له والاستطراف والشــكر والاعتــراف ، ووفى له مــودود بمـــا بذله ، وثبت على المودة ، وجعــل اتــابك يحــرضهم على قصـــد طرابلس ، ويعدهم حمل مــايحتاجون اليه مــن الميرة مــن دمشـــق

وعملها ، وان أدركهم الشتاء أنزلهم في بلاده ، فلم يفعلوا وتفرقوا ايدي سبأ ، وعاد برسق بن برسق وأحمديل ، وتبعوا عسكر سكمان القطبي ، وتخلف منهم الأمير مودود مع أتابك ، فرحلا عن المعرة ونزلا على العاصي .

ولما عرف الافرنج رحيل العساكر ، وتفرقهم اجتمعوا ، ونزلوا أفامية بأسرهم : بغدوين وطنكري ، وابن صنجيل ، بعد التباين والمنافرة والخلاف ، وصاروا يدا واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله ، وساروا لقصدهم ، فخرج سلطان بن منقذ من شيزر بنفسه وجماعته ، واجتمع مع أتابك ومودود ، وحرضهما على الجهاد ، وهون عليهما أمر الافرنج ، فرحلوا وقطعوا العاصي ، ونزلوا في قبلي شيزر ، وصار سوق العسكر في سوق شيزر ، ونزل عسكر مودود حول شيزر ، وبالغ ابن منقذ وجماعته في الخدمة والمواصلة بالميرة ، وأصعد أتابك ومودود وخواصهما الى حصن شيزر ، وباشر خدمتهما بنفسه وأسرته ، ونزل الافرنج شمالي تل ابن معشر ودبر أمر العسكر أحسن تدبير ، وبث الخيل من جميع جهاتهم تطوف حولهم ، وتجول عليهم ، وتمنع من الوصول اليهم ، وضيقوا عليهم وحلاوهم عن (٥٧)الماء وذادوهم عن العاصي لكثرة الرماة على شطوطه وجوانبه من قبليه ، فما يدنو منه من الافرنج شخص الا وقد قتل ، وطمع الأتراك فيهم وسهل أمرهم عليهم ، وكانت خيل المسلمين مثل خيل الافرنج الا أن راجلهم أكثر ، وزحف الاتراك اليهم فنزلوا للحرب عن تل كانوا عليه ، فهجمت الاتراك عليهم من غربيهم ونهبوا جانبا من عسكرهم ، وملكوا عدة من خيامهم وأثقالهم ، وجالوا حولهم ، فعادوا الى مكانهم الذي كانوا به ، ورجعوا منه ، وذلك في شهر ربيع الأول ، ولايصل اليهم شخص ، وعاد المسلمون لصلاة الجمعة في جامع شيزر ، فرحل الافرنج الى افامية ولم ينزلوا فيها ، بل تعدوها ، وتبعهم المسلمون عند معرفة (٩٧ و) رحيلهم ، وتخطفوا أطرافهم ، ومن ظفروا به

- ٥٠٦٧ -

ســـائرا على آثـــارهم ، وعادوا الى شـــــيزر ، ورحلوا الى حماة ، واستبشر الناس بعود الافرنج على هذه الحال .

سنة خمس وخمسمائة

واستحكمت المودة بين ظهير الدين أتابك ، وبين الامير مودود .
وفي هذه السنة جمع بغدوين الملك من أمكنه جمعه من الافرنج ، وقصد ثغر صور ، فبادر عز الملك واليه وأهل البلد بمراسلة ظهير الدين أتابك بدمشق يستصرخون به ويستنجدونه ، ويبذلون تسليم البلد اليه ، ويسألونه المبادرة والتعجيل بانفاذ عدة وافرة من الاتراك تصل اليهم سرعة لمعونتهم وتقويتهم ، وان تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة الى تسليمه الى الافرنج ، ليأسهم من نصرة الافضل صاحب أمر مصر ، فبادر أتابك بانفاذ جماعة وافرة من الاتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين فرسانا ورماة أبطالا ، فوصلت اليهم ، وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة رغبوا في ذلك مع رجاله من دمشق ، وصلوا اليهم ، وحصلوا عندهم ، وشرع أتابك في انفاذه عدة أخرى ، فحين عرف بغدوين ما تقرر بين أتابك وأهل صور ، بادر النزول عليها فيمن جمعه وحشده في اليوم الخامس وعشرين من جمادى الاول سنة خمس وخمسمائة ، وتقدم بقطع الشجر والنخل ، وبنى بيوت الاقامة عليها ، وزحف اليها فقاتلها عدة دفعات ، ويعود خاسرا لم ينل منها غرضا ، وقيل ان أهل صور رشقوا في بعض أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم .

وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور ، وخيم ببانياس وبث سراياه ورجالة الحرامية في أعمال الافرنج ، وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والاخراب والحرق طلبا لازعاجهم وترحيلهم عنها ، فتدخل العدة الثانية الى صور ، فلم يتمكن من الدخول ، ونهض ظهير الدين الى الحبيس (٥٨) الذي في السواد وهو حصن منيع لا يرام ، فشدد القتال عليه ، وملكه

بالسيف قهرا ، وقتل من كان فيه قسرا ، وشرع الافرنج في عمل برجي خشب للزحف بهما الى سور صور ، وزحف ظهير الدين اليهم عدة دفعات ليشغلهم بحيث يخرج (٩٧ ظ) عسكر صور فيحرق البرجين ، وعرف الافرنج قصده في ذلك ، وخندقوا عليهم من جميع الجهات ، ورتبوا على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه ، وحفظ الابراج ، ولم يحفلوا بما يفعل وما يجري على اعمالهم من الغارات عليها ، والفتك بمن فيها ، وهجم الشتاء فلم يضر بالافرنج لانهم كانوا نزولا في ارض رملة صلبة ، والاتراك بالضد من ذلك كابدوا من مقامهم شدة عظيمة ، ومشقة مؤلمة ، الا انهم لا يخلون من غارة وفائدة ، وقطع ميرة عن الافرنج ومادة ، واخذ مايحمل اليهم .

وقطع الاتراك الجسر الذي كان يعبر عليه الى صيدا لتقطع المادة ايضا عنهم فعدلوا عند ذلك الى استدعاء الميرة في البحر من جميع الجهات ، ففطن ظهير الدين لذلك ، ونهض في فريق من العسكر الى ناحية صيدا ، وغار على ظاهرها ، فقتل جماعة من البحرية ، واحرق تقدير عشرين مركبا على الشط ، وهو مع ذلك لا يهمل اصدار الكتب الى اهل صور بتقوية قلوبهم ، وتحريضهم على استعمال المصابرة للافرنج ، والجد في قتالهم .

وتم عمل البرجين وكباشهما التي تكون فيهما في تقدير خمسة وسبعين يوما ، وشرع في تقديمهما ، والزحف بهما في عاشر شعبان ، وقربا من سور البلد ، واشتد القتال عليهما ، وكان طول البرج الصغير منهما نيفا واربعين ذراعا ، والكبير يزيد على الخمسين ذراعا .

ولما كان اول شهر رمضان خرج اهل صور من الابراج بالنفط والحطب والقطران والة الحرق ، فلم يتمكنوا من الوصول الى شيء منهما ، فالقوا النار قريبا من البرج الصغير بحيث لم يتمكن

الافرنج من دفعهـا فهبـت ريح ، والقـت النار على البـرج الصغير ، فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه ، والمكافحة العظيمة عنه ونهب منه زربيات كثيرة وطـوارق وغير ذلك ، واتصـلت النار بالبرج الكبير ، واتصل الخبر بالمسلمين بأن الافـرنج قـد هجمـوا خربة البلد ، للاشتغال بحريق البـرج ، فـانثنوا عن المقـاتلة على الابراج ، وشد الافرنج عليهم وكشفوهم عن البرج ، واطفـأوا مـا علق به من النار ، ورتبوا عدة وافرة مـن ابـطالهم لحفـظ البـرج والمنجنيقات من جميع الجهات (٩٨ و) ، وواظبوا الزحف اليهـا الى آخر شهر رمضـان ، وقـربوا البـرج الى بعض ابـراج البلد ، وطموا الثلاثة الخنادق التي امـامه ، وعمـد اهـل البلد الى تعليق حائط البرج الذي بـازاء بـرج الافـرنج ، واطلقـوا النار فيه ، فاحترق التعليق ، وسقط وجه الحائط في وجه البرج فمنع من تقديمه الى السور والزحف به ، وصار الموضع الذي قصدوه قصيرا وابراج البلد تحكم عليه ، وبطل تقديمه مـن ذلك الوجـه ، وكشـف الافرنج الردم وجروه الى برج آخـر مـن ابـراج البلد ، ودفعـوه اليه ، وقربوه من سـور البلد ، وصـدموا بـالكباش التـي فيه السور ، فزعزعوه ووقع منه شيء من الحجارة ، واشرف اهل البلد على الهلاك فعمد رجل من مقدمي البحرية عارف بـالصندقة (٥٩) من اهل طرابلس له فهم ومعرفة باحوال الحـرب الى عمـل كلاليب حديد لمسك الكبش ، اذا نطح به السور من راسه ومن جانبه بحبال يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشـب يميل مـن شـدة جـذبهم بها ، فتارة تكسره الافـرنج خـوفا على البـرج ، وتـارة يميل او يفسد ، وتـارة ينكسر بصـخرتين تلقيان عليه مـن البلد مشـدودة احداهما الى الاخرى ، فعملوا عدة من الكباش ، وهي تـكسر على هذه الصفة واحدا بعد واحد ، وكان طول كل واحد منها ستين ذراعا معلقا في البرج الخشب بحبال في راس كل واحد من الكبـاش حـديد يزيد وزنه على عشرين رطلا ، فلما طال تجديد الكبـاش ، وقـربوا البرج من السور ، عمد هذا الرجل البحري المقدم ذكره الى خشـبة طويلة جافية قوية اقامها في برج البلد الذي بازاء برج الافرنج ، وفي

راسها خشبة على شكل الصليب طولها اربعون ذراعا تدور على بكر بلولب كيف ما أراد متـوليها ، على مثـال مـا يكون في الصـواري البحرية ، وفي طرف الخشبة التي تدور سـهم حـديد ، وفي طـرفها الآخر حبال مدارة بها على ما يريد متوليها ، وكان يرفع فيها جرار القذر والنجاسة ، ليشـغلهم بـطرح ذلك عليهـم في البـرج عن الكباش ، وضاق الامـر بـالناس ، وشـغلهم ذلك عن امـورهم واشـغالهم ، وعمـد البحـري المذكور الى سلال العنب والقفاف ، فيجعل فيها الزيت والقير (٩٨ ظ) والسراقة (٦٠) والقلفونية وقشر القصب ، ويطلق فيه النار ، فاذا علقت بذلك وقـع ذلك في الآلة المذكورة حتى يوازي برج الافرنج ، فتقـع النار في اعلى البرج ، فيبادروا باطفائها بالخل والماء ، فيبادر برفع اخرى ، ومع هذا يرمي ايضا بالزيت المغلي في قدور صفار على البـرج ، فيعـظم الوقيد ، فلما كثرت النار ، وحمل بعضها بعضا ، وقـويت قهـرت الرجلين المتولين لرأس البرج ، وقتل احدهما وانهزم الآخر ، ونزل منه فتمكنت النار من رأسـه ، ونزلت الى الطبقـة الثـانية مـن رأسه ، ثم الى الوسطى ، وعملت في الخشـب ، وقهـرت مـن كان حوله في الطبقات ، وعجزوا عن اطفائها ، وهرب كل من فيه وحوله من الافرنج ، وخ[illegible]ج اهل صور اليه ، فنهبوا ما فيه ، وغنموا مـن السلاح والآلات و[illegible]عدد ما لا يحده وصف .

فعند ذلك وق[illegible]ـع يأس الافـرنج منه ، وشرعوا في الرحيل عنه ، واحـرقوا البيوت التـي كانت قـد عمـروها في المنزل لسكناهم ، واحـرقوا كثيرا مـن المراكب التـي كانت لهـم على الساحل ، لانهم كانوا اخـذوا صـواريها وارجلهـا والاتهـا للابراج ، وكانت عدتها تقدير مائتي مركب كبارا وصـغارا ، منهـا تقدير ثلاثين مركبا حربية ، حملوا في بعضـها مـا خـف مـن اثقالهم ، ورحلوا اربعة اشهر ونصف شهر ، وقصدوا عكا وتفرقوا الى اعمالهم .

وخرج اهل صور وغنموا ماظفروا بـه منهـم ، وعادت الاتـراك

المندوبون لاسعادهم الى دمشق ، وقد فقد منهم في الحرب نحو عشرين رجلا ، وكان لهم فيها الجراية والواجب في كل شهر ، ولم يتم على برج من ابراج الافرنج في القديم والحديث مثل ما تم على هذا البرج من احراقه من رأسه الى اسفله ، والذي اعان على هذا هو تساوي البرجين في الارتفاع ، ولو طال احدهما على الآخر لهلك اقصرهما ، وكان عدد المفقودين من اهل صور اربعمائة نفس ، ومن الافرنج في الحرب ايضا على ما حكى الحاكي العارف تقدير الفي نفس ، ولم يف اهل صور بما كانوا بذلوه لظهير الدين اتابك من تسليم البلد اليه ، ولم يظهر لهم في ذلك قولا ، وقال : انما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين ، ولا لرغبة (٩٩ و) في مال ولا مملكة ، فكثر الدعاء له ، والشكر بحسن فعله ، ووعدهم انه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع اليه ، وبالغ في المعونة عليه ، وعاد الى دمشق بعد مكابدة المشقة في مقابلة الافرنج ، الى أن فرج الله عن اهل صور ، وشرع أهل صور في ترميم ما شعثه الافرنج من سورها ، واعادوا الخنادق الى حالها ، ورسمها بعد طمها ، وحصنوا البلد ، وتفرق من كان فيه من الرجالة .

وفي الثاني من شعبان ورد الخبر بهلاك بدران بن صنجيل (٦١) ، صاحب طرابلس بعلة لحقته ، واقام ابنه في الامر من بعده ، وهو طفل صغير كفله اصحابه ، ودبروا امره مع طنكري صاحب انطاكية ، وجعلوه من خيله (٦٢)واقطعه انطرطوس وصافيتا ، ومرقية (٦٣) وحصن الاكراد .

وفيها وردت الاخبار بوصول الامير شرف الدين مودود صاحب الموصل في عسكره ، ونزوله على الرها ورعيه لزرعها في ذي القعدة منها واقام عليها الى المحرم سنة ست وخمسمائة ورحل عنها الى سروج ورعى زرعها ، وهو في غفلة غير متحفظ من عدو يطرق ومسلم يرهق ، ولم يشعر الا وجوسلين صاحب تل باشر في خيله من الافرنج ، ودواب العسكر منتشرة في المرعى ، هجم عليها من ناحية

سروج ، على حين غفلة مــن مــودود واصــحابه ، فقتلوا منهـــم جماعة ، واستاقوا اكثر كراعهم ، وقتل بعض المقدمين ، واستيقظ من كان من المسلمين غافلا ، وتأهبوا للقائه ، فعــاد الى حصــن سروج ....

سنة ست وخمسمائة

فيها اشتد خوف اهل صور من عود الافرنج الى منازلتهم ، فأجمعوا امرهم مع عز الملك انوشتكين الافضلي الوالي بها ، على تسليمها الى ظهير الدين اتابك ، بحكم ما سبق من نصرته لهم في تلك النوبة ، ومعاضدته اياهم في تلك الشدة ، وندبوا رسولا وثقوا به وسكنوا اليه في الحديث مع ظهير الدين اتابك في هذا الباب ، ووصل الى بانياس وواليها الامير سيف الدولة مسعود ، فتحدث معه ، وسار الامير مسعود مع الرسول الى دمشق لتقرير الحال بمحضر منه ، فصادف ظهير الدين اتابك قد توجه الى ناحية حماة ، لتقرير الحال فيما بينه وبين فخر الملوك رضوان ، صاحب حلب ، فأشفق الامير مسعود ان يتأخر الامر الى حين عود ظهيرالدين من حماة ،فيبادر بغدوين بالنزول على صور ، ويفوت الغرض المطلوب فيها ، فقرر مع ولده تاج الملوك بوري النائب عنه في دمشق ، المصير معه الى بانياس ، وانتهاز الفرصة في تسليم صور اليه ، فأجاب الى ذلك ، وتوجه معه الى بانياس ، وتم مسعود الى صور ، ومعه من يعتمد عليه من العسكر ، ولم ينتظر وصول اتابك، ووصل اليها وحصل بها ، وانتهت الحال في ذلك الى اتابك ، فانهض فرقة وافرة من الاتراك الى صور تقوية لها ، فوصلت اليها وحصلت بها ، واستقر امر الاتراك فيها ، وحمل اليهم من دمشق ما انفق فيهم ، وطيب نفوس اهل البلد واجروا على الرسم في اقامة الدعوة والسكة على ما كانت عليه لصاحب مصر ، ولم يغير لهم رسم .

وكتب ظهير الدين اتابك الى الافضل بمصر يعلمه : « إن بغدوين قد جمع وحشد للنزول على صور ، وان اهلها استنجدوا بي عليه ، والتمسوا مني دفعه عنهم ، فبادرت بانهاض من اثق

بشهامته لحمايتها ، والمراماة دونها اليه ، وحصلوا فيها ، ومتى وصل اليها من مصر من يتولى امـرها ، ويذب عنهـا ، ويحميهـا بادرت بتسليمها اليه ، وخروج ذوابي منها ، وأنا أرجو أن لايهمـل أمرها ، وانفاذ الاسطول بالغلة اليها ، والتقوية لها ».

وحين عرف بغدوين هذا الخبر رحل في (١٠٠ و) الحـال مـن بيت المقدس الى عكا ، فوجد الأمر قـد فـات ، وحصـل بهـا الاتراك ، فأقام بعكا ووصـل اليه مـن العـرب الزريقيين مـن بلد عسقلان رجل يعلمه « ان القافلة الدمشقية قد رحلت من بصرى الى ديار مصر ، وفيها المال العظيم ، وأنا دليلك اليها ، وتطلق لي مـن أسر مـن أهلي » فنهض بغـدوين مـن وقتـه عن عكا في طلب القافلة ، واتفق ان بعض بني هوبر تخـطف بعضـها ، وخلصـت منهم ، ووصلت الى حلة بني ربيعة فمسكوها اياما واطلقوها بعـد ذلك ، وخـرجت مـن نقـب عازب (٦٤) وبينه وبين بيت المقـدس مسافة يومين للفارس ، فلما حصـلت بـالوادي اشرفـت الافـرنج عليها ، فهرب من كان بها ، فالذي صعد منها الجبل سلم ، وأخـذ ماله ، وأخذت العرب أكثر الناس ، فاشتمل الافرنج على مافيها من الامتعة والبضائع ، وتتبعت العرب من أفلت منهم فأخذوه ، وحصل لبغدوين منها مايزيد على خمسين ألف دينار وثلاثمائة أسير ، وعاد الى عكا ، ولم يبق بلد من البلاد الا وقد أصيب بعض تجاره في هـذه القافلة .

وفي هذه السنة وصل ابن الملك تكش بن السـلطان الب أرسـلان أخي السلطان العادل ملك شاه ، الى حمص هاربا مـن ابـن عمـه السـلطان غياث الدنيا والدين محمـد ، ولم يمـكنه المقـام بحمص ولاحماة فتوجه الى حلب ، وكان فخر الملوك رضوان صاحب حلب في الدركاه السلطانية ، فأشفق من المقام بحلب ، فتـوجه الى طغتكين صاحب انطاكية فـاستجاره فـأجاره ، وأكرمـه وأحسـن اليه ، واجتمع اليه جماعة من الاتراك الذين مـع طغتكين ، فـأقام

عنده ، وخرج طنكري من انطاكية في أول جمادي الآخرة الى ناحية كريسيل (٦٥) ، مقدم الارمن وكان قد هلك طمعا في تملك بلاده ، فعرض له مرض في طريقه أوجب عوده الى انطاكية ، فاشتد به المرض ، فهلك في يوم الاربعاء الثامن جمادى الآخرة وقام في الأمر بعده ابن أخيه سير رجال (٦٦) فتسلم انطاكية وأعمالها ، واستقام له (١٠٠ ظ) الأمر فيها ، بعد أن جرى بين الافرنج خلف بسببه الى أن أصلح بينهم القسوس ، وطلب من الملك رضوان مقاطعة حلب المستقرة ، فأجابه الى ذلك ، ومبلغها عشرون الف دينار ، والخيل ، وطلب مقاطعة شيزر ، فأجاب صاحبها اليها ، وهي عشرة آلاف دينار ، وتواترت غارات بغدوين على عمل البثنية من أعمال دمشق ، وانقطعت الطريق ، وقلت الاقوات بها وغلا السعر فيها ، وتتابعت كتب ظهير الدين أتابك الى الامير شرف الدين مودود صاحب الموصل بشرح هذه الأحوال في هذه الاعمال ، وبعثه على الوصول اليه للاعتضاد على دفع المردة الأضداد ، والفوز بفضيلة الجهاد ، وكان مودود قد شنع عليه عند السلطان غياث الدنيا والدين ، بشناعات من المحال لفقها الحسدة الأعداء ، أوجبت استيحاشه منه وبعده عنه ، قيل في جملتها انه عازم على الخلاف والعصيان ، وأن يده ويد أتابك قد صارت يدا واحدة ، وآراؤهما متوافقة ، وأهواؤهما متوافقة ، فلما عرف ذلك سير والده وزوجته الى باب السلطان باصفهان للتنصل والاعتذار ، وابطال ما رقي اليه من المحال ، والتبريء مما افتري عليه وعزي اليه ، والاستعطاف له ، والاعلام بأنه جار على ما ألف منه على اخلاص الطاعة والعبودية والمناصحة في الخدمة ، والاهتمام بالجهاد .

ثم جمع عسكره من الاتراك والاكراد ومن أمكنه ، وتوجه الى الشام ، وقطع الفرات في ذي القعدة من السنة ، فحين اتصل خبره ببغدوين الملك قلق لذلك ، وانزعج لخبره ، وكان جوسلين صاحب تل باشر قد اختلف هو وخاله بغدوين الرويس ، صاحب الرها ، وصار

مع بغدوين صاحب بيت المقدس ، وأقطعه طبرية ، واتفقا على أن راسل جوسلين لظهير الدين أتابك يبذل المصافاة والمودة ، ويرغبه في الموادعة والمسالمة ، ويسلم اليه حصن تبنين المجاور لحصن هونين (٦٧) وجبل عاملة ، ويتعوض عن ذلك بحصن الحبيس الذي في السواد ، ونصف السواد ، ويضمن عن بغدوين الوفاء بذلك ، والثبات على المودة ، والمصافاة وترك التعرض لشيء من أعمال دمشق ، ولايعرض هو لشيء من أعمال الافرنج ، فلم يجب الى ذلك ، ونهض من دمشق في العسكر للقاء الأمير مودود ، والاجتماع به ، على الجهاد ، فاجتمعا بمرج سلمية ، واتفق رأيهما على قصد بغدوين (١٠١ و) وسارا وقد استصحب أتابك جميع العسكر ، ومن كان بحمص وحماة ورفنية ، ونزلا يوم عيد النحر بقدس (٦٨) ورحلا منها الى عين الجر (٦٩) بالبقاع ثم منها الى وادي التيم ، ثم نزلا ببانياس .

ونهضت فرقة من العسكر فقصدت ناحية تبنين (٧٠) فلم يظفر منها بمراد

ووصل اليها بغدوين وقد كان لما يئس من اجابة اتابك الى الموادعة ، واصل الغارات والفساد في الشام الى ان وصل عسكر المسلمين الى عمله ، وبالغ اتابك فيما حمله الى الأمير مودود واعظامه واكرامه وماحمله اليه والى مقدمي عسكره ، وخواصه من أنواع الملبوس والمأكول والمركوب ، ثم نهضوا معلمين على النزول على الاقحوانة ، ووصل الى بغدوين سير رجال صاحب انطاكية وصاحب طرابلس ، وأجمعوا رأيهم على النزول غربي جسر الصنبرة (٧١) ثم يقطعون الى الاقحوانة للقاء المسلمين ، وقد احتاطوا على اثقالهم وراء الجسر ، والمسلمون لايعلمون بذلك ، وانهم عارضوهم في المسير الى هذا المنزل فسبق الاتراك الى نزولهم في الاقحوانة وقطع بعض عسكر الاتراك الجسر لطلب العلوفات والزرع ، فصادفوا الافرنج قد ضربوا خيامهم وقد تقدم بغدوين للسبق الى هذا المنزل ، ونزل صاحب انطاكية وصاحب طرابلس وراءه يتبعونه اليه .

ونشبت الحـــرب بين المتعلقـــة وبين الافـــرنج ، وصـــــاح الصائح ، ونفر الناس ، وقطعوا الجسر ، وهم يظنون أنه جوسلين لأنه صاحب طبرية ، فوقف أتـــابك على الجسر ، وتسرع خلق كثير من العسكر الى قطع الجسر ، وقطع الأمير تميراك بن ارسلانتاش في فريق وافر من العسكر ، ونشبت الحرب بين الفـــريقين مـــن غير تـــــأهب للقــــــاء ، ولاضرب خيام ولا اســـــــــتقرار في منزل ، ولامجـــال ، واختلط الفـــريقان ، فمنح الله الكريم ، وله الحمد ، المسلمين النصر على المشركين بعد ثلاث كرات ، فقتل فيها من الافرنج تقدير الفي رجـل مـــن الأعيان ، ووجـــوه الأبـــطال والشجعان ، وملكوا ماكان نصب من خيامهم ، والكنيسة المشهورة (٧٢) ، وأفلت بغدوين بعد مـــاقبض ، وأخـــذ سـلاحه ، وملكت دواب الرجالة ، ومـــاكان لهـــم ، وغرق منهـم خلق كثير في البحيرة (٧٣) ، واختلط الدم ، وامتنع الناس مـــن الشرب منهـــا اياما حتى صفت منه وراقت ، والتجـــأ مـــــن نجــــا مـــــن الافرنج (١٠١ ظ) الى طبرية ، وأكثـرهم جـــرحى ، وذلك في يوم السبت الحادي عشر من المحرم ســـنة ســـبع وخمســـمائة ، وبعـــد انفصال الأمر وصل بـــاقي الافـــرنج اصـــحاب طنكري وابــــن صنجيل ، فلاموه على التسرع وفندوا رأيه ، ونصبوا ماكان ســـلم من خيامهم على طبرية ، وفي غد يوم الوقعة نهض فريق من عســـكر الاتراك الى ناحية طبرية ، واشرفـــوا على الافـــرنج بناحية طبـــرية وعزموا على النزول اليهم والايقاع بهم ، فخافهم الافرنج وأيقنوا بالهلاك واقام الاتراك على الجبـــل عامـــة نهـــارهم ،وانكفـــأوا الى معسكرهم ، وطلع الافرنج الى الجبل وتحصنوا به لصعوبة مرتقاه ، وهو من غربـــي طبـــرية ، والماء ممتنع على مـــن يكون فيه ، فعـــزم المسلمون على الصعود اليه ومواقعتهم ، واستدعى أتـــابك العـــرب الطائيين والكلابيين (٧٤) والخفاجيين ، فـــوصلوا في خلق كثير بالزادات والروايا والابل لحمل الماء ، وصعدت الطلائع الى الجبل من شماله ، وعرفوا أن هذا الجبل لايمكن الحرب فيه لصعوبته على الفارس والراجل ، وعلم المســـلمون ان الظفـــر قـــد لاحـــت دلائله

وأماراته ، والعدو قد ذل وانخزل ، وفل وانخذل (٧٥) ، وسرايا الاسلام قد بلغت في أنتهيض الى أرض بيت المقدس ويافا وأخـربت أعمالهم ودوختها ، واستاقت عواملها ومواشيها ، وغنمت ماوجدته فيها فانثنى الرأي عن الصعود ، ودامت الحال على هذه القضية الى آخر صفر .

وعقيب هذه النوبة ، وصل من حلب من عسكر الملك فخـر الملوك رضوان مائة فارس على سبيل المعونة ، خلاف ماكان قرره ، وبذله فانكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه ، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل اليه ، واقامة الخـطبة له ، وذلك في أول شهر ربيع الاول سنة سبع وخمسمائة ، وسيرا رسولا الى السلطان غياث الدنيا والدين الى مـــدينة اصـــفهان ، بـــالبشارة بهـــذا الفتح ، ومعه جماعة من أسارى الافـرنج ، ورؤوســهم وخيولهـم وطوارقهم ، ومضاربهم ، وانواع سلاحهم .

ثم ان العسكر رحل من المنزل الى وادي المقتول ونزل الافرنج عند ذلك عن الجبل الى منزلهم ، والتجأوا الى جبل في المنزل ، وتواصلت اليهم ميرهم وأزوادهم وامدادهم من أعمالهم ، فعاد اليهم عســكر الاتراك من منزلهم جرائد في بضع عشر كردوسـا ، ولزمـوا ايامـا يرومون ان يخـرجوا اليهـــم ، فلم يظهــروا للحـــرب ، ولازم بعضهم (١٠٢ و) بعضـــا الفـــارس والراجـــل في مـــكان واحد ، لايظهر منهم شـخص ، وجعـل الاتـراك يحملون عليهـم فيصيبون منهم بالنشاب مايقرب منهم ، ويمنعـون الميرة والعلوفـة عنهم وقد أحدقوا بهم كالنطاق أو هالة الآفاق ، فاشتد بهم فـرحلوا عن منزلهم في ثـلاثة ايام تقـدير فـرسخ عائدين ، فلمـا كان الليل قصـــــــــــــــــــــدوا الجبل الذي كانوا أولا عليه ملتجـئين اليه ومحتمين بـه ، وواظـب المسلمون قصدهم والتلهف على مـايفوت منهـم ، ومـن غنائمهـم بالاستمرار على الاحجام عن ظهورهم ، على ان مقـدمي العسـكر

منعوهم من التسرع اليهم والاقدام في منزلهم عليهم ، ويعدونهم بفرصة تنتهز فيهم ، فطال أمد المقام ، وضاقت صدور اصحاب مودودلبعد ديارهم ، وتأخر عودتهم ، وتعذر أوطارهم ، فتفرق أكثرهم وعادوا الى بلادهم ، فاستأذن آخرون في العود فأذن لهم ، وعزم مودود على المقام بالشام ، والقرب من العدو ينتظر مايصله من الأمر السلطاني ، والجواب عما أنهاه وطالع به ، فيعمل بحسبه ، ولم يبق في بلاد الافرنج مسلم ، الا وأنفذ يلتمس الأمان من أتابك ، وتقرير حاله ، ووصل اليه بعض ارتفاع نابلس ، ونهبت بيسان ، ولم يبق بين عكا والقدس ضيعة عامرة ، والافرنج على حالهم في التضييق عليهم ، والحصر على الجبل .

واقتضى الرأي عود اتابك ومودود ، فعادا الى دمشق في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسمائة ....

سنة سبع وخمسمائة

.... وقد تقدم من ذكر ماكان من نوبة صور ، وانتقال ولايتها الى ظهير أتابك ، واستنابته مسعودا في حفظها وحمايتها ، وتدبير أمرها وانفاذ رسوله الى الافضل بشرح حالها ، ولم يزل الرسول المسير الى مصر مقيما بها الى ذي الحجة من سنة ست وخمسمائة وظهر للأفضل صورة الحال فيها ، وجلية الامر بها ، وأعاد الرسول بالجواب الجميل ، وأن :« هذا أمر وقع منا أجمل موقع ، وأحسن موضع » ، واستصوب رأي ظهير الدين فيما اعتمده واحماد ماقصدة ، وتقدم بتجهيز الاسطول اليها بالغلة والميرة ، ومال النفقة في الاجناد والعسكرية ، ومايباع على الرعية من الغلات ، ووصل الاسطول بذلك الى صور – ومقدمه شرف الدولة بدر بن ابي الطيب الدمشقي ، الوالي كان بطرابلس عند تملك الافرنج لها – في آخر صفر سنة سبع وخمسمائة ، بكل مايحتاج اليه ، فرخصت الاسعار بها ، وحسنت حالها ، واستقام امرها ، وزال طمع الافرنج فيها ، ووصل في جملته خلع فاخرة من طرف مصر ، برسم ظهير الدين وولده تاج الملوك بوري وخواصه ، ولمسعود الوالي المستناب بها ، وأقام الاسطول عليها الى أن استقام الريح له ، فأقلع عنها في العشر الاخير من شهر ربيع الأول منها .

وأرسل بغدوين الملك الى الامير مسعود واليها يلتمس منه المهادنة والموادعة والمسالمة ، لتحسم أسباب الأنية عن الجانبين ، فأجابه الى ذلك ، وانعقد الامر بينهما على السداد ، واستقامت الاحوال على المراد ، وأمنت السابلة للمترددين والتجار والسفار الواردين من جميع (١٠٣)الاقطار ، وتوفي رحمه الله في عاشر شوال سنة سبع وخمسمائة وقد كان صاحب انطاكية لما فصل عن الملك بغدوين بعسكره عائدا الى انطاكية فسخ عنه ولد

الملك تكش بن السلطان ألب أرسلان ، وقصد صور ، وانفذ الى ظهير الدين أتابك في الوصول الى دمشق ، فأجابه بالاعتذار الجميل والاحتجاج المقبول ، ودفعه احسن دفع ، فلما أيسه توجه الى مصر ، ولقي من الافضل ماأحب من الاكرام والمزيد من الاحترام والانعام واطلاق مايعود اليه بصالح الحال ، وتحقيق الآمال ...

ولما حصل (بقاق بن تاج الدولة) في دمشق اتصلت بينه وبين بغدوين ملك الافرنج في ايقاع المهادنة والموادعة والمسالمة ، لتعمير الاعمال بعد الاخراب ، وتأمن (١٠٤ ظ) السوابل من شر المفسدين والخراب ، فاستقرت هذه الحال بينهما ، واستحلف كل منهما صاحبه على الثبات والوفاء واخلاص المودة والصفاء ، وامنت المسالك والاعمال ، وصلحت الاحوال وتوفر الاستغلال .

سنة ثمان وخمسمائة

.... وفيها وردت الاخبار من ناحية الافرنج بهلاك ملكهم بغدوين بعلة هجمت عليه ، مع انتقاض جرح كان اصابه في الوقعة الكائنة بينه وبين المصريين ، فهلك بها ، وقام مقامه من بعده من ارتضي به(٧٧) ....

سنة تسع وخمسمائة

في هذه السنة قويت شوكة الافرنج في رفنية ، وبالغوا في تحصينها وشحنها بالرجال ، وشرعوا في الفساد والتنا هي في العناد ، فصرف ظهير الدين همه الى الكشف عن احوالهم والبحث عن مقاصدهم في اعمالهم ، وترقب الفرصة فيهم ، ومعرفة الغرة منهم ، وتقدم الى وجوه العسكر ومقدميه بالتاهب والاستعداد ، لقصد بعض الجهات لاحراز فضيلة الجهاد ، والنهوض(١٠٥ و) لامر من المهمات ، ثم اسرى اليهم مغذا ، حتى ادركهم وهم في مجاثمهم غارو ن ، فلم يشعروا الا والبلاء قد احاط بهم من جميع جهاتهم ، فهجمت الاتراك عليهم البلد ، فملكوه وحصل كل من كان فيه في قبضة الاسر ، وربقة الذل والقهر ، فقتل من قتل ، واسر من اسر ، وغنم المسلمون سوادهم وكراعهم واثاثهم ماامتلات به الايدي ، وسرت به النفوس ، وقويت بمثله القلوب ، وذلك في يوم الخميس لليلة خلت من جمادى الاخرة من السنة ، وانكفأ المسلمون الى دمشق ظافرين مسرورين غانمين لم يفقد منهم بشر ، ولاعدم شخص ، ومعهم الاسرى ورؤوس القتلى ، فأطيف بهم في البلد بحيث تضاعف بمشاهدتهم السرور ، وانشرحت الصدور ، وقويت من الجند في الجهاد والغزو الظهور ...

سنة عشر وخمسمائة

في هذه السنة ورد الخبر بان بدران بن صنجيل (٧٨) ، صاحب طرابلس ، قد جمع وحشد ، وبالغ واجتهد ، ونهض الى ناحية البقاع لاخرابه بالعيث والفساد والاضرار والعناد ، وكان الاصفهسلار سيف الدين البرسقي ، صاحب الموصل ، قد وصل الى دمشق في بعض عسكره ، لمعونة ظهير الدين اتابك على الافرنج ، والغزو فيهم ، وبالغ اتابك في الاكرام له والتعظيم لمحله ، وصادف ورود هذا الخبر بنهضة الافرنج الى البقاع ، فاجتمع رأيهما على القصد لهما جميعا ، واغذا السير ليلا ونهارا ، بحيث هجموا عليهم ، وهم غارون ، في مخيمهم قارون ، لايشعرون فأرهقهم العسكر ، فلم يتمكنوا من ركوب خيلهم ، ولااخذ سلاحهم ، فمنحهم الله النصر عليهم ، واطلقوا السيف فيهم قتلا واسرا ونهبا ، فأتوا على الراجل وهم خلق كثير ، قد جمعوا من اعمالهم ، واسروا وجوه فرسانهم ومقدميهم ، واعيان شجعانهم ، وقتلوا الباقين منهم ، ولم يفلت منهم غير مقدمهم بدران بن صنجيل والمقدم كند اصطبل ، ونفر يسير معهما ، ممن نجا به جواده ، وحماه اجله ، واستولى الاتراك على العدد الجمة ، والخيول والكراع والسواد ، و ذكر الحاكي الشاهد العارف ان المفقود والمقتول من الافرنج الخيالة والسر جندية (٧٩) الرجالة ، والنصارى الخيالة والرجالة في هذه الوقعة مايزيد على ثلاثة الاف نفس ...

- ٥٠٨٥ -

سنة احدى عشرة وخمسمائة

... وفي النصف من المحرم منهما هجمت الافرنج على ربض حماة في ليلة خسوف القمر ، وقتلوا من اهلها تقدير مائة وعشرين رجلا . وورد الخبر بهلاك دوقس انطاكية (٨٠) ...

وفيها وردت الاخبار من القسطنطينية بموت متملك الروم الكرانكس (٨١) وقام في الملك بعده ولده يوحنا ، واستقام له الامر ، وعمل بسيرة أبية ، وفيها وردت الاخبار بهلك بغدوين ملك الافرنج صاحب بيت المقدس بعلة طالت به وكانت سبب هلاكه في ذي الحجة منها ، وقام بعده في الامر كند هو (الذي كان) الملك (بالرها) (٨٢).

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

في هذه السنة شاعت الاثار والاخبار من ناحية الافرنج ، بطمعهم في المعاقل والبلاد ، واجماعهم على قصدها بالعيث والافساد ، لغفلة الاسلام عن قصدهم بالغزو والجهاد ، وانهم قد شرعوا في التاهب لهذه الحال ، والاستعداد وكاتب ظهير الدين اتابك ارباب الجهات والمناصب ، وبعثهم على التعاون على دفع شر الملاعين ، بالتوازر والتواظب .

وورد الخبر بتوجيه الامير نجم الدين ايل غازي الى دمشق ، في عسكره ، للاجتماع مع ظهير الدين اتابك على اعمال الرأي في التدبير والتشاور في العمل والتقدير ، هذا بعد ان راسل طوائف التركمان بالاستدعاء لاداء فريضة الجهاد والتحريض على الباعث لذاك والاحتشاد .

ووصل الامير المذكور الى دمشق من حلب ، في بعض اصحابه وخواصه ، واجتمعا وتعاهدا وتعاقدا على بذل المكنة والاجتهاد في مجاهدة الكفرة الاضداد ، وطردهم عن الافساد في هذه المعاقل والبلاد ، ووقع الاتفاق بينهما على (مصير) (٨٣) الامير (١١٠ و) نجم الدين ايل غازي بن ارتق الى ماردين لانجاز امره ، وجمع التركمان من الاعمال ، وحضهم على النكاية في احزاب الشرك والضلال ، واقتضت الاراء مصير الامير ظهير الدين معه لتأكيد الحال ، وتسهيل الامال ، وسارا في العشر الاول من شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، وعاد ظهير الدين عنه بعد ان قررا مع طوائف التركمان اصلاح احوالهم والتأهب للوصول الى الشام بجموعهم الموفورة وعزائمهم المنصورة في صفر سنة ثلاث عشرة

- ٥٠٨٧ -

وخمسمائة ليقع الاجتماع على نصرة الدين واصطلام المردة الملحدين ، واقام ظهير الدين بدمشق الى حين قرب الاجل المضروب ، والوقت المرقوب ، وسار الى ناحية حلب في اول شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسمائة ...

ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

ولما وصل ظهير الدين اتابك الى حلب للاجتماع مع نجم الدين على الامر المقرر بينهما ، بعد مضي الاجل المعين بتدبيرهما ، وجد التركمان قد اجتمعوا اليه من كل فج ، وكل صوب في الاعداد الدثرة الوافرة ، والقوة الظاهرة ، كأنهم الاسود تطلب فرائسها ، والشواهين اذا حامت على مكاسرها ، ووردت الاخبار ببروز روجير صاحب انطاكية منها ، في من جمعه ، وحشده من طوائف الافرنج (١١٠ ظ) ورجالة الارمن من سائر اعمالهم واطرافهم ، بحيث يزيد عددهم على العشرين الف فارس وراجل ، سوى الاتباع ، وهم العدد الكثير ، في اتم عدة ، واكمل شكة ، وانهم قد نزلوا في الموضع المعروف بسرمدا وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب ، فحين عرف المسلمون ذلك طاروا اليهم بأجنحة الصقور الى حماية الوكور ، فما كان بأسرع من وقوع العين على العين ، وتقارب الفريقين حتى حمل المسلمون عليهم ، واحاطوا بهم من جميع الجهات ، وسائر الجنبات ضربا بالسيوف ، ورشقا بالسهام ، ومنح الله تعالى ، وله الحمد ، حزب الاسلام النصر على المردة الطغام ، ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الاول ، من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، الا والفرنج على الارض سطحة واحدة ، فارسهم وراجلهم ، بخيلهم وسلاحهم ، بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم ، ووجد مقدمهم روجير (٨٤) صريعا بين القتلى ، ولقد حكى جماعة من المشاهدين لهذه الوقعة ، انهم طافوا في مكان هذه المعركة ، لينظروا اية الله تعالى الباهرة ، وانهم شاهدوا بعض الخيول مصرعه كالقنافد من كثرة النشاب الواقع فيها ، وكان هذا الفتح من احسن الفتوح ، والنصر الممنوح ، لم يتفق مثله للاسلام ، في سالف الاعوام ، ولاالآنف من الايام ، وبقيت انطاكية شاغرة خالية من حماتها ، ورجالها ، خاوية من كماتها ، وابطالها ، فريسة

- ٥٠٨٩ -

الواثب ، نهزة الطالب ، فوقع التغافل عنها ، لغيبة ظهير الدين اتابك عن هذه الوقعة ، لتسرع التركمان اليها . من غير تأهب لها ، للامــر النافذ ، والقدر النازل ، واشــتغال الناس بــاحراز الغنائم ،التــي امتلأت بها الايدي ، وقويت بها النفوس ، وسرت بحسنها القلوب ، فتلك بيوتهم خاوية ، والحمد لله رب العالمين ....

- ٥٠٩٠ -

سنة أربع عشرة وخمسمائة

.. وفيها وردت الاخبار بوصول الكند (٨٥) هو ملك الافرنج ، في المراكب البحرية ، وملك اكثر المعاقل .

وفيها وقعت المهادنة بين نجم الدين ايل غازي بن ارتق صاحب حلب ، وبين الافرنج ، وتقررت الموادعة والمسالمة ، وكف كل جهة من الفريقين الاذية عن الاخر ....

سنة ست عشرة وخمسمائة

... وقيل ان الامير نجم الدين بن ارتق خرج من حلب في عسكره ، وقطع الفرات ، وصادف الافرنج ، فلم يلقوه فاتلف ماظفر به في اعمالهم ، وعاد منكفئا الى الفنيدق ، بظاهر حلب .

وفي هذه السنة وصل الاسطول المصري الى صور ، وهو مشحن بالرجالة البحرية ، وطائفة من العساكر ، وفي نفس الوالي ، العمل على الامير سيف الدولة مسعود ، الوالي بصور من قبل الامير ظهير الدين اتابك ، فلما خرج للسلام على والي الاسطول ، سألوه النزول فلما حصل في مركب المقدم ، اعتقله وتمت عليه المكيدة ، وحصل البلد في ايديهم ، ولما اقلع الاسطول ، ووصل الى مصر ، وفيه الامير مسعود ، اكرم وانزل في دار ، واطلق له مايحتاج اليه ، والسبب كان في هذا التدبير ان شكاوى اهل صور تتابعت (١١٣ ظ) الى الآمر بأحكام الله ، فاقتضت الاراء التدبير عليه ، وازالة ماكان من الولاية اليه ، وكانت عاقبة خروجه منها ، وسوء التدبير فيها ، خروجها الى الافرنج ، وحصولها في ملكتهم .

وفي هذه السنة ورد الخبر ، بان الامير نور الدولة بلك بن ارتق ، نهض في عسكره في ايام من رجب ، وقصد الافرنج بالرها ، واوقع بهم ، وكسرهم واسر مقدمهم جوسلين وابن خالته كليان (٨٦) ، وجماعة من مقدميهم عند سروج ....

-٥٠٩٢-

سنة سبع عشرة وخمسمائة

... وورد الخبر من ناحية حلب باستقرار المهادنة بين الامير بدر الدولة (سليمان بن عبد الجبار) بن ارتق (٨٧) صاحب حلب ، وبين الافرنج على تسليم قلعة الاثارب الى الافرنج فتسلموها ، وحصلت في ايديهم ، واستمرت الموادعة على هذا ، واستقامت احوال الاعمال من الجانبين ، وامنت السابلة المترددين فيها بين العملين ، في صفر من السنة .

وفيها ورد الخبر بنهيض بغدوين ملك الافرنج في عسكره الى ناحية حلب ، الى الامير بلك بن ارتق ، في تاسع صفر منها ، وهو منازل لحصن الكركر (٨٨) فنهض إليه والتقيا بالقرب من قنطرة(سنجة)(٨٩) فكسره واسره ، وحصل في يده اسيرا (١١٤ ظ) مع جماعة من وجوه عسكره ، فاعتقله في جب في قلعة خرتبرت مع جوسلين ومقدمي الافرنج ....

وفيها ورد الخبر بان اسطول مصر لقي اسطول البنادقة في البحر ، فتحاربا فظفر به اسطول البنادقة ، واخذ منه عدة (٩٠) قطع . وفي العشر الاول من شهر ربيع الاول منها ، ملك الامير بلك بن ارتق ، حصن البارة واسر أسقفها .

وفي هذه السنة ورد الخبر من ناحية خرتبرت بأن الملك بغدوين الرويس وجوسلين مقدمي الافرنج ، وغيرهم من الاسرى الذين كانوا في اسر الامير بلك ، المعتقلين في قلعة خرتبرت عملوا الحيلة فيما بينهم وملكوا القلعة .

-٥٠٩٣-

وهربوا (٩١) ٠٠٠٠ الملك بغدوين ونجا ولم يظفروا به وهــرب في ذلك اليوم أيضا أسقف البارة من اعتقاله ٠

وفي الشــهر المذكور تـوجه الأمير نور الدولة بلك في عســكره الى خرتبرت ، وضايق قلعتها الى أن استعادها مــن الافـرنج الواثبين عليها ، ورتب فيها من يحفظها ويتيقظ فيها ٠٠٠٠

سنة ثماني عشرة وخمسمائة

•••• وفيها ملك الافرنج ثغر صور بالامان ، وشرح الحال في ذلك : كان قد مضى من ذكر الذي أوجب إخراج الأمير (١١٥ و) سيف الدولة مسعود واليها منها ، وحمله في الأسطول الى مصر مالايحتاج الى الاعادة له ، والاطالة بذكره ، ولما حصل بها الوالي المندوب من مصر بعد مسعود ، طيب نفوس أهله ، وكاتب ظهير الدين بصورة الحال ، فأعاد الجواب بأن الأمر في ذلك لمن دبره ، والمرجوع الى مارتبه وقرره ، واتفق ان الافرنج لما عرفوا هذا الأمر ، وانصراف مسعود عن ولاية صور ، تحرك طمعهم فيها ، وحدثوا نفوسهم بتملكها ، وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها ، والمضايقة لها ، واتصل بالوالي صورة الأمر ، وأنه لاطاقة له بالافرنج ، ولاثبات على محاصرتهم ، لقلة من بها من الجند والميرة ، فطالع الآمر بأحكام الله صاحب مصر بذلك ، فاقتضى الرأي أن ترد ولاية صور الى ظهير الدين أتابك ، ليتولى حمايتها والذب عنها والمراماة دونها ، على ماجرى رسمه فيها ، وكتب منشور الولاية باسمه ، فندب لتوليها جماعة لاغناء لهم ، ولاكفاية فيهم ولاشهامة ، ففسد أمرها بذاك ، وتوجه طمع الافرنج حولها لاجله ، وشرعوا في النزول والتأهب للمضايقة لها ، ونزلوا بظاهرها في شهر ربيع الاول من السنة ، وضايقوها بالقتال والحصار ، الى أن خفت الاقوات فيها ، وعدمت الميرة ، وتوجه ظهير الدين في العسكر الى بانياس للذب عن صور .

ونفذت المكاتبات الى مصر باستدعاء المعونة لها ، وتمادت الايام بذلك الى أن ضعفت النفوس ، وأشرف أهلها على الهلاك ، وعرف اتابك جلية (الامر) (٩٢) وتعذر تلافيها ووقع اليأس من

المعونة لها ، فراسل الافرنج بالملاطفة والمداهنة ، والارهاب والارغاب الى أن تقررت الحال على تسليمها اليهم ، بحيث يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية ، بما يقدرون عليه من أحوالهم ، ويقيم من أراد الاقامة .

ووقف أتابك في عسكره بازاء الافرنج ، وفتح باب البلد ، وأذن الناس في الخروج ، فحمل كل منهم ما خف عليه ، وأطاق حمله ، وترك ما ثقل عليه ، وهم يخرجون بين الصفين ، وليس أحد من الافرنج يعرض لأحد منهم ، بحيث خرج كافة العسكرية والرعية ، ولم يبق منهم الا ضعيف (١١٥ ظ) لايطيق الخروج ، فوصل بعضهم الى دمشق ، وتفرقوا في البلاد ، وذلك في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ثماني عشرة وخمسمائة .

وفيها ورد الخبر باجتماع الافرنج من أعمالهم، ونزولهم على حلب ، وشروعهم في قتال من بها ، والمضايقة ، وتمادى الأمر في ذلك الى أن قلت الأقوات فيها ، وأشرف على الهلاك أهلها ، فلما ضاق بهم الأمر ، وعدم الصبر راسلوا الأمير سيف الدولة (آق) سنقر البرسقي ، صاحب الموصل بشكوى أحوالهم ، وشرح ما نزل بهم ، والسؤال له في انجادهم على الافرنج ، وانقاذهم من أيدي الكافرين ، فضاق لذلك صدره ، وتوزع سره ، وتأهب في الحال للمصير اليهم ، وصرف الاهتمام الى الذب عنهم .

فلما وصل اليهم في ذي الحجة من السنة ، وعرف الافرنج خبره ، وحصوله قريبا منهم ، وماهو عليه من القوة وشدة الشوكة ، أجفلوا مولين ، ورحلوا منهزمين ، وتبعهم سرعان الخيول يتلقطون من يظفرون به في أعناقهم ، ولم يلو منهم منهزم على متول ، الى أن حصلوا بأنطاكية ، وكانوا قد ابتنوا في منزلهم

-٥٠٩٦-

مساكن وبيوتا تقيهم الحر والبرد ، وأصروا على المقام ، ولطف الله تعالى ، وله الحمد بأهل حلب ، وخلصهم من البلاء ، وانتاشهم من اللأواء ، وكسب آق سنقر البرسقي بهذا الفعل الجميل جزيل الأجر والثناء ، ودخل حلب وأحسن السيرة بحيث صلحت أحوالها ، وعمرت أعمالها ، وأمنت سابلتها ، وتواصلت الرفق اليها ببضائعها وتجارتها .....

سنة تسع عشرة وخمسمائة

.... وفيها اتصلت الاخبار من ناحية بغدوين ملك الافرنج صاحب بيت المقدس ، بالاحتشاد والتأهب والاستعداد لقصد ناحية حوران من عمل دمشق ، للعيث فيها والافساد ، وشرع في شن الغارات على الجهات القريبة من دمشق ، والمضايقة لها ، وقطع الطرقات على الواردين اليها . فعند المعرفة بذلك والتحقق له ، شرع ظهير الدين أتابك في الاستعداد للقائه ، والاجتماع على جهاده ، وكاتب امراء التركمان ومقدميهم وأعيانهم ، بإعلامهم صورة الحال ، ويستنجد بهم عليهم ، ويبذل لهم الاحسان والانعام ، وبرز في عسكره وقد ورد عليه خبر قربهم من طبرية ، قاصدين أعمال البلد من مرج الصفر وشرخوب (٩٣) ، وخيم به ، وكاتب ولاة الاطراف بامداده بالرجالة ، واتفق وصول التركمان في ألفي فارس أولي بأس شديد ، ورغبة في الجهاد ، ومسابقة الى الكفاح والجلاد ، فاجتمع اليه خلق كثير ، وكان الافرنج حين عرفوا نزول أتابك والعسكر بمرج الصفر ، رحلوا اليها ، وخيموا بإزائه ، ووقعت العين على العين ، وتطاردت طلائع الفريقين ، فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي الحجة من السنة اجتمع للقضاء المقضي ، والحكم النافذ من أحداث دمشق والشباب الاغرار ، ورجال الغوطة والمرج والاطراف ، وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها والعقبة وقصر حجاج والشاغور خلق كثير ، رجالة وخيالة بالسلاح التام ، والناهض مع المتطوعة والمتدينين ، وشرعوا بالمسير للحاق المصاف قبل اللقاء ، وقد شاع الخبر بقوة عسكر الاسلام ، وكثرته واستظهاره على حرب الافرنج ، وشدة شوكته ، ولم يشك أحد في هلاك الافرنج في هذا اليوم وبوارهم ، وكونهم طعمة للمسلمين متسهلة ، (١١٦ ظ) واتفق

أن فرقة وافرة من عسكر التركمان ، غارت على أطراف الافرنج ونالت منهم ، واستظهرت عليهم ، وخاف الافرنج ، وعلموا أنه لاطاقة لهم بهذا الجمع ، وايقنوا بالهلكة ، ورحلوا بأسرهم من منزلهم الذي كانوا فيه ، عائدين الى أعمالهم على غاية من الخوف والوجل ، ونهاية من الذل والوهل ، ونشبت فرقة التركمان في فريق منهم ، وهم راحلون فغنمت من اثقالهم ودوابهم غنيمة وافرة ، وظفرت بالكنيسة المشهورة التي لهم في مخيمهم ، وطمع العسكر عند ذلك فيهم وحملوا عليهم ، وهم مولون لايدوون على تابع ولايقفون على مقصر لاحق ، وقد شملهم الرعب وضايقهم مضايقة الجاتهم الى رمي نفوسهم عليهم ، اما لهم واما عليهم ، فتجمعوا وعادوا على العسكر الاسلامي ، وحملوا عليه حملتهم المعروفة ، فكسروهم وهزموهم ، وقتلوا من أعقابهم من ثبطه الوجل ، وخانة الأجل ، وتم العسكر في الهزيمة على حاله ، وعادوا على جميع الرجالة ، وهم العدد الكثير والجم الغفير ، وأطلقوا السيف فيهم حتى أتوا عليهم ، وتتبعوا المنهزمين بالقتل حتى وصلوا الى عقبة سحورا (٩٤) وقربوا من البلد من شرخوب مع بعد المدى والمسافة ، وصبر خيولهم .

ووصل ظهير الدين أتابك والعسكر الى دمشق آخر نهار هذا اليوم وبدوا الامر بينهم على مباكرتهم في غد للايقاع بهم ، فصادفوهم قد رحلوا عائدين الى عملهم ، خوفاً مما عزم عليه من قصدهم ، وتتبعهم ، والله يحكم مايشاء ....

سنة عشرين وخمسمائة

وفيها قصدت الافرنج رفنية ، وضايقوها ، واستعادوها من ملكة المسلمين .

سنة احدى وعشرين وخمسمائة

... وفي شعبان من هذه السنة قصد بغدوين ملك الافرنج ، صاحب بيت المقدس في عسكره وادي موسى ، فنهب أهله وسباهم وشرد بهم ، وعاد عنهم ....

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

.... وأما اسماعيل الداعي المقيم ببانياس ، ومن معه فانهم لما سمعوا ماحدث من هذه الكائنة (٩٥) سقط في ايديهم ، وانخذلوا وذلوا ، واقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وتفرق شملهم في البلاد ، وعلم اسماعيل أن البلاء محيط به ان أقام ببانياس ، ولم يكن له صبر على الثبات ، فأنفذ الى الافرنج يبذل لهم تسليم بانياس اليهم ، ليأمن بهم ، فسلمها اليهم ، وحصل هو وجماعته في ايديهم ، فتسللوا من بانياس الى الأعمال الافرنجية على غاية من الذلة ، ونهاية من القلة ، وعرض لاسماعيل علة الذرب ، فهلك بها ، وقبر في بانياس في أوائل سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، فخلت منهم تلك الناحية ، وتطهرت من رجسهم .....

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

قد مضى ذكر نوبة الباطنية وغيرهم ، لما اقتضى سـوق الكلام فيه في سنة اثنتين وثـلاث ، ولما انتهـى الى الافـرنج خبـر الكائنة في الباطنية ، وانتقال بانياس عنهم ، اليهم ، احدث ذلك لهم طمعـا في دمشق واعمالها ، واكثروا الحديث في قصدها ، وبثوا رسـلهم الى الاعمال في جمع الرجال والاحتشاد ، فاجتمع اليهم سائر من حوته بلادهم ، من : الرهـا ، وانطاكية ، وطـرابلس ، والسـاحل ، ووصلهم في البحر ملك كند ، هـو الذي (٩٦)قـام مقـام بغـدوين الهالك في الافرنج ومعه خلق كثير ، فاجتمعوا ونزلوا على بـانياس وخيمـوا عليهـا ، وشرعوا في تحصـيل الميز والازواد للاقامة ، وتواترت الحـكايات عنهـم ، ممـن شـاهدهم واحصى عددهـم ، وانهم يزيدون على ستين الفا فارسا وراجلا ، واكثـرهم الرجالة .

فلما عرف تاج الملوك ذلك من عزمهم ، تاهب لهذا الامـر وصرف همه الى الاستكثار من العدد والسلاح ، والة الحرب ، ومـايحتاج اليه من الالات التي يحتاج اليها لتذليل كل صعب ، وكاتـب امـراء التركمان على ايدي رسله المندوبين اليهم بـالاستنجاد والاسـتغاثة بهم ، وبذل من المال والغـلال مـابعثهم على المبادرة الى اجـابة ندائه ، والسرعة الى دعائه ، ووصل اليه مـن طـوائفهم المختلفـة الاجناس ، كل ذي بسالة وشدة مـراس ، راغبين في اداء فـريضة الجهاد ، ومسارعين الى الكفرة الاضداد ، واطلق مايحتاجون اليه لقوتهم ، وقضيم خيولهم .

ورحـل الملاعين عن بـانياس طـالبين دمشـق ، على أناة وترتيب ، ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجـاور له في

....(٩٧)من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وخيموا هناك واصبح العسكر ، وخرج من دمشق وانضم اليه التركمان من منازلهم حول البلد ، والامير مرى بن ربيعة في العرب الواصلين معه ، وتفرقوا كراديس في عدة جهات ، ووقفوا بازائهم لتخرج منهم فرقة فيسارعوا اليها ، ويزحفوا فيبادروا الى لقائهم ، فلم يخرج منهم فارس ، ولاظهر راجل ، بل ضموا أطرافهم ، ولزموا مخيمهم واقام الناس على هذه الصورة اياما (١٢٣ ظ) يتوقعون زحفهم الى البلد ، فلا يشاهد منهم الا تجمعهم واطلافتهم حول مخيمهم ، وبريق بيضهم وسلاحهم ، وكشف خبّرهم ومالذي أوجب تاخرهم عن الزحف وتلومهم ، فقيل انهم قد جردوا ابطال خيلهم وشجعان رجالهم للمصير مع البغال الى حوران ، لجمع الميرة والغلال ، التي يستعان بمثلها على الاقامة والنزال ، وانهم لاحركة لهم ، ولاقوة بهم ، الى عودة المذكورين .

فلما عرف تاج الملوك هذه الحال ، بادر لتجريد الابطال من الاتراك الدمشقيين ، والتركمان الواصلين ، والعرب القادمين مع الأمير مرى ، واضاف اليهم الامير سيف الدولة سوار في عسكر حماة ، وقرر معهم نهوضهم آخر يومهم ، والجد في السير عامة الليل ، ووصولهم عند الصباح الى ناحية براق (٩٨) ، لان تقدير وصول الملاعين عند عودهم من حوران الى ذلك المكان ، فسارعوا الى العمل بما مثل لهم ، واصبحوا في ذلك المكان ، وهم على غاية من الكثرة والمنعة ، ومعهم سواد عسكرهم بأسره ، في عدد لايحصى كثرة ، فهجموا عليهم فلم يتكامل ركوبهم الا وقد قتل منهم جماعة بالنشاب ، وضربوا مصافا ، ووقفوا قطعة واحدة ، وحمل عليهم المسلمون ، فثبتوا ، ولم يزل عسكر الاسلام يكر عليهم ويفتك بهم ، الى أن فشلوا وانخذلوا ، وايقنوا بالبوار ، وحلول الدمار ، وولى كليام دبور (٩٩)مقدمهم وشجعاعهم في فريق من الخيالة منهزمين ، وحمل الاتراك والعرب حملة هائلة ، واحدقوا بهم ضربا بالسيوف ، وطعنا بالرماح ورشقا بالسهام ، فما كان الا

بعض النهار ، حتى صاروا على وجه الأرض مصرعين ، وبين أرجل الخيل معفرين ، وغنموا منهم الغنيمة التي امتلأت ايديهم بها ، من : الكراع ، والسلاح ، والاسرى ، والغلمان ، وأنواع البغال ، وهو شيء لايحصر فيذكر ، ولايحد فيعد ، ولم يسلم منهم الى معسكرهم الا القليل من الخيالة ، الذين نجت بهم سوابقهم المضمرة ، وعاد الأتراك والعرب الى دمشق ظافرين غانمين منصورين مسرورين ، وآخر نهار ذلك اليوم المذكور ، فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد ، والنصر الحميد ، وقويت به النفوس ، وانشرحت به الصدور ، وعزم العسكر على مباكرتهم بالزحف الى مخيمهم ، عند تكامل وصوله (١٢٤ و) وتسرع اليهم جماعة من الخيل وافرة ، وهم ينظرون الى كثرة النار ، وارتفاع الدخان ، وهم يظنون انهم مقيمون ، فلما دنوا من المنزل صادفوهم ، وقد رحلوا آخر تلك الليلة ، عندما جاءهم الخبر ، وقد أحرقوا أثقالهم وآلاتهم ، وعددهم وسلاحهم ، اذ لم يبق لهم ظهر يحملون عليه ، عندما عرفوه من حقيقة الأمر ، الذي لايمكن معه المقام ، مع معرفتهم بكثرة عسكر الاتراك ، ولاطاقة لهم به ، ولم يتمالكوا أن رحلوا لايلوون على منقطع ، ولايقفون على مقصر ، وخرجوا الى منزلهم فغنموا منه الشيء الكثير من أثاثهم وزادهم ، وصادفوا جماعة من الجرحى في الوقعة ، قد هلكوا من وصولهم ، ودفنوا في أماكنهم ، وخيولهم مصرعة من الجراح والكد ، ولحق أواخرهم العسكر ، فقتلوا جماعة من المنقطعين ، وأغذوا سيرهم في هزيمتهم خوفا من لحاق المسلمين لهم ، وأمن الناس وخرجوا الى ضياعهم ، وانتشروا في أماكنهم ومعايشهم ، وانفرجت عنهم الكربة ، وانكشفت الغمة ، وجاءهم من لطف الله تعالى وجميل صنعه مالم يكن في حساب ، ولاخطر في بال ، فلله الحمد والشكر على هذه النعمة السابغة ، والموهبة الكاملة ، حمدا يستديم جزيل نعمه ، ويستمد المزيد من منائحه وقسمه .

وعاد التركمان الى أماكنهم بالغنائم الوافرة ، والخلع

- ٥١٠٤ -

الفاخرة ، وتفرق جمع الكفرة الى معاقلهم ، على اقبح صفة من الذلة ، وعدم الكراع ، وذهاب الاثقال ، وفقد ابطال الرجال ، وسكنت القلوب بعد الوجل ، وامنت بعد الخوف والوهل ، وايقنت النفوس بان الكفرة لايكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل ، بعد فناء ابطالهم ، واجتياح رجالهم ، وذهاب اثقالهم ......

- ٥١٠٥ -

سنة ست وعشرين وخمسمائة .

في هذه السنة ، ورد الخبر من ناحية الإفرنج بهلاك بغدوين الرويس ملك الافرنج ، صاحب بيت المقدس بعكا ، في يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان منها ، وكان شيخا قد عركه الزمان بحوادثه ، وعاني الشدائد من نوائبه وكوارثه ، ووقع في أيدي المسلمين عدة دفعات اسيرا في محارباته ومصافاته ، وهو يتخلص منهم ، بحيله المشهورة ، وخدعه المخبورة ، ولم يخلف بعده فيهم صاحب راي صائب ، ولاتدبير صالح ، وقام فيهم بعده الملك القومص الجديد الكند انجور ، الواصل اليهم في البحر من بلادهم ، فلم يتسدد في رأيه ، ولااصاب في تدبيره ، فاضطربوا لفقده ، واختلفوا من بعده ....

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

في المحرم منها وردت الأخبار من ناحية الافرنج بوقوع الخلف بينهم ، من غير عادة جارية لهم بذلك ، ونشبت المحاربة بينهم ، وقتل منهم جماعة .

وفيها صادف جماعة من التركمان صاحب زردنا(١٠٠) في خيلة ، فظفروا به وقتلوه ، ومن معه ، واشتملوا على خيولهم وكراعهم ، وقيل ان ابن الدانشمند (١٠١) ، ظهر بفريق وافر خرج من القسطنطينية ، فأوقع به ، وقتل من كان فيه من الروم وغيرهم .

وفي سابع عشر جمادى الآخرة غار الأمير سوار (١٠٢) ، من حلب في خيله على تل باشر ،فخرج من فيه من ابطال الافرنج إليه ، فقتل منهم تقدير الف فارس ، وراجل ، وحمل رؤوسهم إلى حلب .

ولما عاد شمس الملوك من ناحية بعلبك ، بعد المقرر بينه وبين اخيه صاحبها ، مما تقدم ذكره وشرحه ، انتهى إليه من ناحية الافرنج ما هم عليه من فساد النية والعزم على نقض الموادعة المستقرة ، وشكا إليه بعض التجار الدمشقيين ان صاحب بيروت ، قد اخذ منهم عدة احمال كتان ، قيمتها جملة وافرة من المال ، فكتب الى مقدم الافرنج في رد ذلك على أربابه واعادته على من هو اولى به ، وترددت المكاتبات في ذلك ، فلم تسفر عن نيل مراد ، ولا نيل طلاب ، فحمله الغيظ والحنق على مقابلة هذا الفعل بمثله ، وأسر ذلك في نفسه ، ولم يبده لاحد من خاصته وثقات بطانته ، وصرف

همه وعزمه الى التاهب لمنازلة بانياس ، (١٣٠ و) وانتزاعها من أيدي الملاعين المتغلبين عليها ، ونهض إليها في أواخر المحرم من السنة ، ونزل عليها في يوم الأحد غرة صفر منها ، وزحف في عسكر إليها ، وفيه جماعة وافرة من الخيالة والرجالة ، فارتاعوا لما اتاهم فجاة ، وذلوا وانخذلوا ، وقرب من سورهم بالدرق الجفتيات والخراسانيين والنقابين ، وترجل عن جواده ، وترجل الاتراك باسرهم لترجله ، ورشقوا من على السور بالنشاب ، فاستتروا ولم يبق احد يظهر رأسه عليه لكثرة الرماة ، والزق الجفتيات إلى مكان من السور استرقه فنقبوه الى أن تمكنوا منه ، ثم هجموه ، وتكاثروا في البلد ، والتجا من كان فيه من الافرنج إلى القلعة والابراج ، وتحصنوا بها ومانعوا عن نفوسهم فيها ، وملك البلد ، وفتح بابه ، وقتل كل من صودف فيه من الافرنج واسر ، ولما رأى من بالقلعة والابراج من المنهزمين ما نزل بهم من تملك البلد ، والقصد لهم بالقتال ، ولا ناصر لهم ، ولا ممانع عنهم ، التمسوا الامان ، فاجيبوا إليه ، ونزلوا ، فاسروا جميعا ، ونهب ما كان في البلد ، وقرر فيه من الرجال الاجلاد من يحفظه ، ويذب عنه ، ورحل عنه في العسكر ، ومعه الاسرى ، ورؤوس القتلى ، وحرم الوالي الذي كان به ، واولاده والعدد الكثيرة ، ووصل الى دمشق في يوم الخميس لست ليال خلت من صفر من السنة ، وخرج الناس من البلد للقائه ، ومشاهدة الاسرى في الحبال ، والرؤوس في القصب ، وهم الشيء الكثير ، والجم الغفير ، فرأى الناس من ذلك ما اقر عيونهم ، وسر قلوبهم ، وشد متنهم ، وابتهجوا له ، وأكثروا من شكر الله تعالى على ما سناه من هذا النصر العزيز ، والفتح المبين ، وشاعت الأخبار بذلك في الافرنج ، فهالهم سماعه ، وارتاعوا لحدوث مثله ، وامتلأت قلوبهم رعبا ووجلا ، واكثروا التعجب من تسهل الامر في بانياس مع حصانتها ، وكثرة الرجال فيها في اقرب مدة ، وأسهل مرام ، وأسفوا على ما قتل من الخيالة الفرسان والرجالة .

وفي ذي الحجة منها وردت الاخبار بوصول عسكر وافر من

التركمان إلى ناحية الشمال ، وانهم غاروا على طرابلس ، واعمالها من معاقل الافرنج ، فظفروا بخلق كثير منهم قتلا واسرا ، وحصل لهم من الغنائم والدواب الشيء الكثير ، وان صاحب طرابلس بنص طلولا بن (١٠٣) بدران الصنجيلي خرج اليهم فيمن حشده من اعماله ، ولقي عسكر التركمان فكسروه ، واظفرهم الله بحشده المفلول ، وجمعه المخذول ، وقتل أكثر رجاله وجل حماته وابطاله ، وانهزم في نفر قليل من [أصحابه إلى] (١٠٤) الحصن المعروف ببعرين(١٠٥) ، فالتجأوا إليه ، وتحصنوا به ، ونزل عسكر الاتراك عليه ، واقاموا محاصرين له اياما كثيرة ، حتى نفد ما فيه من القوت(١٣٢ و) والماء بحيث هلك منهم ، ومن خيلهم الاكثر ، فأعملوا الحيلة ، واستغنموا الغفلة ، وانتهزوا الفرصة ، وخرجوا في تقدير عشرين ، مع المقدم ، فنجوا ووصلوا الى طرابلس ، وكاتب ملك بنص طلولا صاحبها ، ملك الافرنج بعكا يستصرخ به ويمن في اعماله ، ويبعثهم على نصرته ، فاجتمع إليه من الافرنج خلق كثير ، ونهضوا إلى التركمان لترحيلهم عن حصن بعرين ، واستنقاذ من بقي فيه منهم ، فلما عرفوا عزمهم وقصدهم ، زحفوا الى لقائهم فقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وأشرف التركمان على الظفر بهم والنكاية فيهم ، لولا أنهم اندفعوا إلى ناحية رفنية ، فاتصل بهم رحيلهم عنها ، وعودهم على طريق الساحل ، فشق ذلك عليهم ، واسفوا على ما فاتهم من غنائمهم ، وتفرقوا في اعمالهم .

وفي صفر من السنة نهض صاحب بيت المقدس ملك الافرنج في خيله ، إلى أطراف اعمال حلب ، ووصل الى موضع يعرف(١٠٦) بذواز ، فنهض إليه الأمير سوار النائب في حلب في عسكر حلب ، وما انضاف إليه من التركمان ، فالتقوا وتحاربوا اياما ، وتطاردوا الى أن وصلوا الى أرض قنسرين ، فحمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس ، فيهم جماعة من المقدمين المشهورين المذكورين (١٠٧) ، وقتل من الافرنج أكثر من ذلك ، ووصل الفل إلى حلب ، وتم الافرنج إلى

- ٥١٠٩ -

قنسرين ، ثم الى المقاومة(١٠٨) ثم الى انقرة الاحـرين(١٠٩) فعاود الأمير سوار النهوض اليهم من حلب في من بقي من العسـكر والاتراك فلقوا فريقا من الافرنج فـأوقعوا بـه وكسروه وقتلوا منه تقدير مائة فارس فانكفت الافرنج هزيما نحو بلادهم وعاد المسلمون برؤوس القتلى والقلائع إلى حلب فانجلت تلك الغمـة بتسـهل هـذه النعمة ، ووصل الملك الى انطاكية .

وانتهـى الى (١٣٢ ظ) سـوار خبـر [غارة] (١١٠) خيل الرهبان ، فنهض الأمير سوار وحسان البعلبـكي ، فـأوقعوا بهـم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال ، وأسروا مـن وقـع في ايديهـم حيا ، وعادوا الى حلب ظـافرين سـالمين ، ومعهـم الاسرى والرؤوس .

- ٥١١٠ -

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

...وفي ذي القعدة من السنة انتهت الأخبار الى شمس الملوك ، من ناحية الافرنج باعتزامهم على نقض المستقر من الهدنة ، وقبيح الموادعة المستمرة ، وتاهبهم للجمع والاحتشاد ، وقصد الاعمال الدمشقية بالعيث والفساد ، فحين عرف شمس الملوك هذه الحال ، شرع في جمع الرجال ، واستدعى التركمان من جميع الاعمال ، واتصل به نهوض الافرنج الى ناحية حوران فبرز في (١٣٣ ظ) العسكر ، وتوجه اليهم ، وخيم بازائهم ، وشرعوا في إخراب امهات الضياع الحورانية ، ووقع التطارد بين الفريقين ، وكان الافرنج في جمع كثيف من الخيل والرجل ، بحيث حصروهم في منزلهم ، ولايخرج منهم فارس ولا راجل ، إلا رشقته السهام ، واختطفه الحمام ، وأقامت المناوشة بين الفريقين عدة ايام ، ثم اغفلهم شمس الملوك ، ونهض في فريق وافر من العسكر ، وهم لايشعرون ، وقصد بلادهم : عكا والناصرة وما جاورهما ، وطبرية وما والاها ، فظفر بما لايحصى كثرة من المواشي والعوامل ، والنسوان والصبيان والرجال ، وقتل من صادفه وسبى من ظهر له ، واحرق ما وجده ، وامتلات أيدي التركمان من غنائمهم ، واتصل الخبر بالافرنج ، فانخذلوا وقلقوا وانزعجوا ، واجفلوا في الحال من منزلهم طالبين اعمالهم ، وعرف شمس الملوك ذاك ، فانكفأ إلى مخيمه على طريق الشعراء سالما في نفسه وجملته ، ظافرا غانما ووصل الافرنج الى أعمالهم ، فشاهدوا ما حل بها ونزل بأهلها من البلاء ، فساءهم ذاك وفت في اعضادهم وانفلت شكتهم ، وانقصفت شوكتهم ، وتفرق شملهم ، وذلوا وطلبوا تقرير الصلح بينهم ، وعاد شمس الملوك الى دمشق مسرورا في آخر ذي الحجة من السنة ....

-٥١١١-

سنة ثلاثين وخمسمائة

...وفي يوم السبت الثالث عشر من شعبان سنة ثلاثين وخمسمائة وردت الاخبار من ناحية الشمال ، بنهوض الامير مسعود سوار من حلب ، فيمن انضم إليه من التركمان الى الاعمال الافرنجية فاستولوا على أكثرها ، وامتلات ايديهم بما حازوه من غنائمها ، وتناصرت الأخبار بهذا الظفر من جميع الجهات ، والاستكثار لذلك ، والتعظيم له ، ولقد ورد كتاب من شيزر يتضمن البشرى بهذه النوبة ، وتصديقا لما وصف وذكر ، وهو :

إن المتجدد عندنا بهذه الناحية ، ما يجب علينا من حيث الدين أن ننيعه ، ونبشر به كافة المسلمين ، فإن التركمان ـ كثرهم الله ، ونصرهم ـ اجتمعوا في ثلاثة آلاف فارس جريدة معدة ، ونهضوا الى بلاد اللاذقية وأعمالها بغتة بعد اليأس منهم ، وقلة الاحتراز من غارتهم ، وعادوا من هذه الغزاة الى شيزر يوم الاربعاء حادي عشر رجب ، ومعهم زيادة عن سبعة آلاف أسير ، ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ، ومائة الف رأس دواب ، ما بين بقر وغنم وحمر ، والذي حازوه واجتاحوه يزيد عن مائة قرية كبار وصغار ، وهم متواصلون ، بحيث قد امتلأت الشام من الاسارى والدواب ، وهذه نكبة ما مني الافرنج الشماليون بمثلها ، وبعد هذا ما يبع منهم أسير إلا بثمنه ، ولا نقص السعر الاول ، وهم سائرون بهم الى حلب ، وديار بكر والجزيرة ....

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

في هذه السنة وردت الاخبار بظهور متملك الروم كياليانى(١١١) من القسطنطينية ، في ذي القعدة سنة ثلاثين وقيل ، بل اول المحـرم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ووصل الى جزيرة انطاكية ، وأقـام بها الى ان وصلت مراكبه البحرية بالاثقال والميرة والمال والعدد ، في عاشر نيسان ، ونزل على نيقية فملكهـا ، وقيل بـل هـادنه عليهـا اهلها ، ووصل إلى الثغور ، وتسـلم اذنه والمصـيصة وغيرهمـا ، وحاصر عين زربة وملكها عنوة ، وقيل في التـاريخ إن أمير المؤمنين المأمون بالله بن الرشيد بالله ، كان عمـر عين زربـه عند الاجتياز بها ، لما ورد الى هذه الجهات ، وانفق على عمارتها مائة وسـبعين الف دينار ، مع جاه الخلافة والسلطنة والقدرة ، وكان يعمـل فيهـا كل يوم أربعون الف فاعل ، سوى البنائين والحدادين والنجـارين ، وملك تل حمدون وحمل أهله الى جزيرة قبرص ، وكان صاحبه ابـن هيثم(١١٢) الارمني ، ثم عمر ميناء الاسكندرونة ، ثم خـرج الى انطاكية ، ونزل عليها ، وضايق اهلها في سلخ ذي القعدة ، وجـرى بينه وبين صاحبها ريمند بن بيدفين(١١٣) مصالحة ، ورحل عائدا إلى الدروب ، فافتتح ما بقي في يد ابن ليون الأرمني من الحصون ، وشتى بها .

وفي رجب من السنة نهض الامير في فـريق وافـر مـن العسـكر الدمشقي ، من التركمان ، الى ناحية طرابلس ، فظهر إليه قومصها في عسكر ، والتقيا فكسره بزواج ، وقتل منهم جماعة وافـرة ، وملك حصن وادي ابن الاحمر(١١٤)وغيره .

وفي رجب ايضا نهض ابـن صـلاح والي حمـاه في رجـاله الى (١٤٢ و) حصن الخربة فملكه .

وفي شعبان منها ورد الخبر بأن عماد الدين أتابك بن آق سنقر ، توجه في عسكره من ناحية الموصل ، وقطع الفرات في العشر الاول منه ، ووصل الى حمص ، وكان قد تقدمه إليها صلاح الدين(١١٥) في اوائل العسكر ، ونزلا عليها وضايقاها ، وفيها الأمير معين الدين انر واليها ، فراسله في تسليمها ، فاحتج عليه بانها للامير شهاب الدين ، وأنه نائبه فيها ، فنصب الحرب عليها والمضايقة لها اياما ، ولم يحظ منها بطائل ، فرحل عنها في العشرين من شوال من السنة ونزل على الحصن المعروف ببعرين لينتزعه من ايدي الافرنج ، فلما عرفوا ذاك تجمعوا ونزلوا قريبا لحمايته ومعونة من فيه منهم ، فحين عرف عماد الدين خبرها كمن لهم كمينا ، والتقى الجمعان ، فانهزم فريق من الاتراك بين ايدي الافرنج(١١٦) ، وقتلوا منهم جماعة وافرة عند عودهم إلى منزل مخيمهم ، وظهر عليهم عماد الدين في من كمن لهم من الكمناء ، واوقع بالرجالة ، وملك الاثقال والسواد ، وحين قربوا من المخيم وشاهدوا ما نزل عليهم ، وحل بهم انخذلوا وفشلوا ، وحمل عليهم عسكر عماد الدين ، فكسرهم ومحقهم قتلا واسرا ، وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير من الكراع ، والسواد ، والاثاث وعاد عماد الدين إلى حصن بعرين ، وقد انهزم اليه ملكهم كندايا جور (١١٧) ومن نجا معه من مقدمي الافرنج ، وهم على غاية من الضعف والخوف ، فنزل عليهم وحصرهم في الحصن المذكور ، ولم يزالوا على هذه الحال في المضايقة والمحاربة الى أن نفد ما عندهم من القوت ، فاكلوا خيلهم ، وتجمع من بقي من الافرنج في بلادهم ومعاقلهم وانضموا الى ابن جوسلين ، وصاحب انطاكية واحتشدوا ، وساروا طالبين نصرة المخذولين المحصورين في حصن بعرين ، وتخلصهم مما هم فيه من الشدة والخوف والهلاك ، فحين قربوا من عسكر اتابك ، وصح الخبر عنده بذاك ، اقتضت الحال أن آمنهم وعاهدهم على ما اقترحه عليهم من طاعته ، وقرر عليهم خمسين الف دينار يحملونها إليه ، وأطلقهم وتسلم الحصن منهم ، وعاد من كان اجتمع لنصرتهم(١١٨) ....

-٥١١٤-

وفي رجب من السـنة نهض الامير بـزواج في العسـكر مـن دمشق ، ومن حشده وجمعه من التركمان الى ناحية طـرابلس في الرابع منه ، فظهر إليه صاحبها في خيله من الافرنج ، فكمن لهـا في عدة مواضع ، فلما حصلوا بـالموضع المعـروف بـالكورة(١١٩) ظهرت عليهم الكمناء ، فهزموهم ، ووقع السـيف في أكثـرهم ، ولم يفلت منهم الا اليسير ، وهجم على الحصن الذي هناك فنهبه ، وقتل من فيه من المقدمين والاتباع ، وأسر من بذل في نفسـه المال الكثير ، وحصل له ولعسكره القيمة الكثيرة ....

وفي ذي الحجة منها ، ورد الخبر بعود متملك الروم في عسكره عن انطاكية الى ناحية بعرين(١٢٠) من عملهـا في الثـاني والعشرين منه (٣ ١٤٣ظ) وانفذ رسوله إلى عماد الدين اتابك ، وظفـر الامير سوار النائب عنه في حلب بسرية وافرة العدد من عسكر الروم ، فقتل بعضا ، واسر بعضا ، ودخل بهم الى حلب وفيها شرع اهل حلب في تحصينها ، وحفر خنادقها ، والتحصن مـن الروم بهـا ، لقـربهم منها ....

سنة إثنتين وثلاثين وخمسمائة

... وورد الخبر بان صاحب انطاكية قبض على بطركها الافرنجي ، ونهب داره ، وذكر ان السبب في ذلك ان ملك الروم لما تقرر الصلح بينه وبين ريمند صاحب انطاكية ، شرط في جملة الشروط ان ينصب بانطاكية بطركا من قبل الروم على ما جرى بمثله الرسم قديما ، ثم انتقض هذا الرسم فيما بعد ، وخرج ريمند صاحب انطاكية الى متملك الروم وهو مخيم في (١٤٤ و) عسكره بمرج الديباج ، وقرر معه الهدنة والموادعة ، وعاد الى انطاكية ....

وفي هذه السنة نقض الافرنج الهدنة المستقرة بين عماد الدين اتابك وبينهم ، واظهروا الشقاق والعناد ، وشرعوا في العيث والفساد بعد اصطناعه لمقدميهم ، والكف عنهم ، حين اظهره الله عليهم ، وقبضوا بانطاكية وثغور الساحل جماعة من تجار المسلمين واهل حلب والاسفار ، تقدير خمسمائة رجل في جمادى الاخرة .

وشتى ملك الروم بالثغور والدروب ، وخيم بمرج الديباج ....

وفي هذا (١٤٤ ظ) الشهر [شعبان] وردت الاخبار من ناحية الشمال ، بنزول ملك الروم في عسكره على شيزر ، محاصرا لها ، ومضايقا عليها ، ونصب عليها عدة من المناجيق ، واشتدت الحرب بينه وبين اهلها ، وقتل فيها جماعة من المسلمين بحيث اشرفت على الهلاك ، مع مبالغة الامير عماد الدين اتابك في إمدادها بالرجالة والسلاح والات الحرب ، وكونه بإزاء الروم يجول بخيله على اطرافهم ، ويفتك بمن يظفر به منهم ، ولم يزالوا على هذه القضية الى ان سئموا المقام عليها ، ويئسوا من بلوغ الغرض فيها ، ولطف الله تعالى باهل الشام ، وتداركهم برحمته ، وورد خبر رحيلهم عن شيزر الى انطاكية واستبشر الناس برحيلهم ، وعودهم خاسرين ،

غير ظافرين ، ومفلولين غير فالين ، فلله تعالى الحمد على هذه النعمة دائما ، والشكر متواصلا متتابعا ٠

قد مضى من ذكر الروم فيما اعتمدوه في هذه الايام ، ما قد عرف ، ونذكر بعد ذلك ، مبدأ احوالهم وخروجهم وافعالهم ، وذلك انهم ظهروا من ناحية البلاط في يوم الخميس الكبير من صومهم ، ونزلوا غفلة على حصن بزاعة بالوادي في يوم الاحد عيدهم ، وغارت خيلهم على اطراف حلب في تاسع عشر رجب من السنة ، واستامن منهم الى حلب جماعة من كافر ترك(١٢١) ، وانذروا من بحلب بالروم ، فحذروا وضموا اطرافهم وتحرزوا وتحفظوا لطفا من الله تعالى ورحمة ، وبعد هذا التحرز والاحتياط ، اشتمل الروم في عادتهم على جملة وافرة من اهل حلب وضواحيها ، وانفذ اهل حلب من اعيانهم من مضى الى عماد الدين اتابك مستصرخا به وهو مخيم على حمص ، فانهض اليهم من امكنة من الخيالة والرجالة والناشبة والنبالة ، والعدد الوافرة ، وحصل الجميع [بحلب](١٢٢) في السابع وعشرين من رجب من السنة .

ووردت الاخبار بتملك (ملك) الروم المذكورين حصن بزاعة ، بعد حصره ومضايقته ، ومحاربته بالمنجنيقات في يوم السبت الخامس والعشرين من رجب بالامان ، وغدر بأهله بعد تسلمه وايمانهم ، وجمع من غدر بهم واحصاهم ، وقيل انهم كانوا خمسة الاف وثمانمائة نفس ، وتنصر قاضي بزاعة وجماعة من الشهود (١٤٥ و) وغيرهم ، وتقدير اربعمائة نفس ، واقام الملك بعد ذلك بمكانه عشرة ايام ، يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة ، فهلكوا بالدخان .

وفي يوم الاربعاء الخامس من شعبان نزل الروم ارض الناعورة ، ورحلوا عنها في يوم الخميس ثامنه ، واجتازوا بحلب ، ومعهم عسكر انطاكية ومقدمهم ريمند صاحبها ، وابن جوسلين ، فنزلوا

حلب ، ونصبوا خيامهم على نهر قويق وارض السعدي ، وزحف الملك من غده في خيله ورجله من قبلي حلب وغربيها من ناحية قرنة برج الغنم ، وخرج اليهم فرقة واحدة من أحداث حلب ، فقاتلتهم وظهرت عليهم ، فقتلوا وجرحوا ، واصيب من الروم مقدم مذكور ، وانكفوا خائبين الى مخيمهم ، واقاموا على حلب اياما قلائل ، ورحلوا عنها غداة يوم الاربعاء ثامن شعبان مقتبلين الى ارض صلدع ، وخاف من بقلعة الاثارب ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النار في خزائنها ، وعرف الروم ذلك ، فنهضت منهم طائفة الى القلعة ، ونزلت عليها وملكتها ، وحازوا ما فيها ، والجاوا السبايا والاسرى الذين في ايديهم من حصن بزاعة الى ربض الاثارب وخندقها ، فحين عرف سوار النائب بحلب ذلك ، وانعزال الروم عنها ، نهض في عسكر حلب وادركهم بالاثارب ، فأوقع بهم وقهرهم ، واستخلص المأسورين والمسبيين الا اليسير منهم ، وذلك في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، وسر اهل حلب بهذه النوبة سرورا عظيما .

وفي يوم الخميس التاسع من الشهر ، رحل عماد الدين اتابك عن حماة الى سلمية ، وسير ثقله الى الرقة ، وبقي في خيله جريدة مخفا

وفي يوم الاثنين رحل ملك الروم عن بلد المعرة ، فهرب من كان مقيما في كفر طاب من الجند ، خوفا على نفوسهم ، وتناصرت الاخبار بعبور عسكر التركمان الفرات مع ولد الامير داود بن ارتق الى ناحية حلب ، للغزو في الروم ، ونزلوا بمجمع المروج ، ونهض فريق وافر من عسكر دمشق للغزاة ايضا في خدمة عماد الدين اتابك وكان سبب رحيل الروم عن شيزر ، ما انتهى اليهم من وصول التركمان ، وتجمع العساكر حاشرين ، وكانت مدة اقامتهم عليها ثلاثة وعشرين يوما ، ووصل ملك الروم الى انطاكية في عوده يوم الاحد (١٤٥ ظ) الثامن من شهر رمضان من السنة ، وتواصلت الاخبار باتمام الروم في رحيلهم الى بلادهم ، وسكنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها منهم ووجلها ...

- ٥١١٨ -

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

وفي هذا الشـــهر (محـــرم) غارت الافـرنج على ناحية بـــانياس ونهض شهاب الدين في العسكر في اثرهم فلم يدركهـــم وعاد الى البلد

سنة اربع وثلاثين وخمسمائة

... وزحف (عماد الدين اتابك) في عسكره الى البلد (دمشق) طامعا في خلف يجري بين المقدمين .... فينال بعض طلباته ، فكان الامر بالضد مما امل ، والحال بالعكس فيما ظن ، ولم يصادف من اجناد دمشق واحداثها الا الثبات على القراع ، والصبر على المناوشة والمصاع (١٢٣) ، فعاد منكفئا الى عسكره ، وقد ضعفت نفسه ، وضاق لهذا الامر صدره ، وكان تقرر الامر مع الافرنج على الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه ، والاختلاط في صده عن مراده ومنعه ، ووقعت المعاهدة على ذلك بالايمان المؤكدة ، والضمان للوفاء بما بذلوه ، والتمسوا على ذلك مالا معينا ، يحمل اليهم ليكون عونا لهم على مايحاولونه ، وقوة ورهانا تسكن بها نفوسهم وأجيبوا الى ذلك ، وحمل اليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين ، وشرعوا في التأهب للانجاد ، والاستعداد للمؤازرة والاسعاد ، وكاتب بعضهم بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد ، على ابعاد اتابك وصده عن نيل الارب من دمشق والمراد ، قبل استفحال أمره ، واعضال خطبه ، وقوة شوكته ، واستظهاره على عصب الافرنج وقصد بلادهم .

فحين تيقن صورة الحال في هذا العزم (١٤٨ ظ) وتجمعهم لقصده مع عسكر دمشق ، رحل عن منزله بداريا في يوم الاحد الخامس من شهر رمضان ، طالبا ناحية حوران ، للقاء الافرنج إن قربوا منه ، وطلبهم ان بعدوا عنه ، وأقام على هذا الاعتزام مدة ثم عاد الى ناحية غوطة دمشق ، ونزل بعذراء يوم الاربعاء لست بقين من شوال ، فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى حرستا التين ، ورحل يوم السبت تاليه متشاملا ، حين نزول الافرنج

بالميدان في جموعهم ، وكان الشرط مع الافرنج أن يكون في جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت ، وتسليمها اليهم فاتفق ان ابراهيم بن طرغت واليه ، كان قد نهض في اصحابه الى ناحية صور ، للاغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب انطاكية في قصده واصلا الى اسعاد الافرنج على انجاد اهل دمشق ، فالتقيا فكسره ، وقتل في الوقعة ومعه يسير من اصحابه ، وعاد من بقي منهم الى بانياس ، فتحصنوا بها ، وجمعوا اليها رجال وادي التيم وغيرهم ، من امكن جمعه من الرجال ، للذب عنها والمراماة دونها ، فنهض اليها الامير معين الدين في عسكر دمشق ، ونزل عليها ، ومعه فريق وافر من عسكر الافرنج عامة شوال .

ورد الخبر بأن الامير عماد الدين اتابك قد نزل على بعلبك ، وأخذ يستدعي التركمان من مظانهم ، في شوال لقصد بانياس ، ودفع المنازلين لها عنها ، ولم تزل الحالة جارية على هذه القضية الى آخر ذي الحجة من السنة .

... ولم تزل بانياس على حالها في المضايقة والمحاصرة ، الى ان نفدت منها الميرة ، وقل قوت المقاتلة فسلمت (١٤٩ و) الى معين الدين وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما ارضاه من الاقطاع والاحسان ، وسلمها الى الافرنج ، ووفى لهم بالشرط ، ورحل عنها منكفئا الى دمشق ظافرا بأمله حامدا لعمله في أواخر شهر شوال ...

- ٥١٢١ -

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها ورد الخبر من ناحية الشمال باغارة الامير لجة التركي ، النازح عن دمشق الى خدمة الامير عماد الدين اتابك ، على بلد الافرنج وظفره بخيلهم وفتكه بهم ، بحيث ذكر ان عدة المقتولين منهم تقدير سبعمائة رجل ...

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

... وفيها ورد الخبر بظهور صاحب انطاكية الى ناحية بزاعة ، وان الامير سوار ، النائب في حفظ حلب ثناه عنها وحال بينه وبينها (١٢٤) .

وفيها وردت الاخبار بظهور متملك الروم الى الثغور دفعة ثانية بعد أولى ، وبرز اليه صاحب انطاكية ، وخدمه وأصلح امره معه ، وطيب نفسه ، وعاد عنه الى انطاكية (١٢٥).
وفي شهر رمضان منها ورد الخبر بموت متملك الروم ....

-٥١٢٣-

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

...وفيها ورد الخبر من ناحية الافرنج بهلاك ملكهم الكند اجـور (١٢٦)ملك بيت المقـدس ، بعلة عرضـت له كان فيهـا اتـلاف نفسه ، واقيم ولده الصغير وامه مقـامه في الملك ، ورضي الافـرنج بذلك ، واستقامت الحال عليه .

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

...وفي شهر ربيع الآخر ورد الخبر بخروج عسكر الى فرقة وافرة من الافرنج ، وصلت الى ناحية بعلبك ، للعيث فيها ، وشن الاغارات فالتقيا فأظفر الله المسلمين بهم ، واظهرهم عليهم ، فقتلوا اكثرهم ، واستولوا على ما كان معهم ، وامتلأت ايدي المسلمين بغنائمهم ، وعادوا الى بعلبك سالمين مسرورين غانمين ، وعاد الباقون من الافرنج الى مكانهم مفلولين محزونين خاسرين .

وفي جمادى الاولى منها ، ورد الخبر من ناحية الشمال بأن عسكر حلب ظفر بفرقة كبيرة من التجار والاجناد ، وغيرهم ، خرجت من انطاكية تريد بلاد الافرنج ، ومعها مال كثير ودواب ومتاع وأثاث ، فأوقعوا بها ، واشتملوا على ما كان فيها ، وقتلوا من كان معها من خيالة الافرنج لحمايتها والذب عنها ، وعاد الى حلب بالمال والسبي والاسرى والدواب .

وفي هذه السنة وردت الاخبار من ناحية الشمال بأن الامير عماد الدين اتابك افتتح مدينة الرها بالسيف ، مع ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها ، والحماية على طالبيها من العساكر الجمة ومنازليها . وإن السبب في ذلك أن الأمير عماد الدين اتابك ، لم يزل لها طالبا وفي تملكها راغبا ، ولانتهاز الفرصة فيها مترقبا ، لا يبرح ذكرها جائلا في خلده وسره ، وأمرها ماثلا في خاطره وقلبه ، الى ان عرف ان جوسلين صاحبها ، قد خرج منها في جل رجاله واعيان حماته وابطاله لامر

اقتضاه ، وسبب من الاسباب الى البعد عنها دعاه ، للأمـر المقضي والقـــدر النازل ، فحين تحقـــق (٥١ ظ) ذاك بـــادر بقصدها ، وســارع الى النزول في العسكر الدثـر عليهـا لمضايقتها ، والحصر لمن فيهـا ، وكاتـب طـوائف التـركمان بالاستدعاء لهم للمعـونة عليهـا ، والاسـعاد واداء فـريضة الجهاد ، فـوصل اليه منهـم الخلق الكثير ، والجـم الغفير بحيث احاطوا بها من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصـل اليهـا من المير والاقوات ، والطائر لايكاد يقرب منها خوفا على نفسه مـن صوائب سهام منازليها ، ويقظة المضـيقين عليهـا ، ونصـب على اسوارهـا المناجيق ، ترمي عليها دائما ، والمحـاربة لأهلهـا مصرا ومـواظبا ، وشرع الخـرا سانيون والحلبيون العـارفون بمـواضع النقوب ، الماضون فيهـا ، فنقبـوا في عدة مـواضع عرفـوا امرها ، وتيقنوا دفعها وضرهـا ، ولم يزالوا على هـذه الحـال في الايغال في النقب ، والتمادي في بطن الأرض الى ان وصلوا الى تحت اساس ابراج السـور ، فعلقـوه بـالاخشاب المحـكمة ، والآلات المنتخبة ، وفـرغوا مـن ذلك ، ولم يبـق غير اطـلاق النار فيها ، فاستأذنوا عماد الدين اتابك في ذلك ، فأذن لهم بعد ان دخـل في النقب ، وشاهد حاله ، واستعظم كونه وهاله ، فلما اطلقت النار في تعليق النقوب تمكنت من اخشابها وأبـادتها ، فـوقع السـور في الحال ، وهجم المسلمون البلد بعد ان قتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم ، وقتل من الافرنج والأرمن وجرح ما اوجـب هـزيمتهم عنه ، وملك البلد بالسيف في يوم السبت سادس وعشرين من جمادى الآخرة منها ، ضحوة النهـار ، وشرع في النهـب والقتـل والأسر والسبي والسـلب ، وامتـلأت الايدي مـن المال والأثـاث والدواب والغنائم والسبي ، ما سرت بـه النفـوس ، وابتهجـت بـكثرته القلوب ، وشرع عماد الدين اتابك بعد ان امر برفع السيف والنهـب في عمارة ما انهدم ، وترميم ما تشعث ، ورتب من رآه لتدبير امرهـا (١٢٨) وحفـظها ، والاجتهـاد في مصـالحها ، وطيب بنفـوس اهلها ، ووعدهم باجمال السيرة فيهم ، وبسط المعدلة في اقـاصيهم

وادانيهم ، ورحل عنها وقصد سروج ، وقد هرب الافرنج منها ، فملكها وجعل لا يمر بعمل من اعمالها ، ولا معقل من معاقلها ، فينزل عليه الا سلم اليه في الحال (١٥٢ و).

وتوجه الى حصن البيرة من تلك الاعمال ، وهو غاية في الامتناع على طالبه ، والصعوبة على قاصده ، فنزل عليه وشرع في محاربته ومضايقته ، وقطع عنه سائر من يصل اليه بالقوت والميرة والمعونة والنصرة ، ولم يزل محاصرا له ومحاربا ومضيقا الى ان ضعف امره ، وعدمت الميرة فيه ، وورد على عماد الدين وقد أشرف على ملكه من خبر نائبه في الموصل الامير جقر بن يعقوب ، في الوثوب عليه وقتله ما ازعجه وأقلقه ، ورحله عنها لكشف الحال الحادثة بالموصل (١٢٩) ، مما يأتي شرح ذلك في موضعه ....

....وفي شهر رمضان منها ورد الخبر من ناحية الشمال بأن عسكر الافرنج المجتمع بناحية انطاكية لانجاد اهل الرها من جميع اعمالها ومعاقلها (١٣٠) .....

وكان عماد الدين اتابك قد انهض اليه جيشا وافر العدد ، من طوائف التركمان والاجناد ، فهجموا عليه بغتة وأوقعوا بمن وجدوه في أطرافه ونواحيه ، وفتكوا به ، فرحل في الحال وقد استولوا على كثير من الافرنج قتلا واسرا ، واشتملوا على جملة وافرة من كراعهم ، وتحكم السيف في اكثر الراجل ، وتفرقوا في اعمالهم ومعاقلهم مفلولين مخذولين خاسرين ....

سنة احدى واربعين وخمسمائة

....(فيها قتل عماد الدين اتابك على قلعة جعبر)....

ووردت الأخبار في اثناء ذلك في ايام من جمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين جمع الافرنج من كل ناحية ، وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها ، وقتل من فيها (١٥٦ ظ) من المسلمين فضاقت الصدور باستماع هذا الخبر المكروه ، ووردت الأخبار مع ذلك ، بأن الأمير نور الدين صاحب حلب نهض في عسكره ، ومن انضاف اليه من التركمان عند وقوفه على الخبر ، وتقدمه سيف الدولة سوار ، واغذوا السير ليلا ونهارا (وغدوا وابكارا) مع من اجتمع من الجهات ، وهم الخلق الكثير ، والجم الغفير زهاء عشرة آلاف فارس ، ووقفت الدواب في الطرقات من شدة السير ، ووافى البلد وقد حصل ابن جوسلين واصحابه فيه ، فهجموا عليهم ، ووقع السيف فيهم ، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل ، وانهزم (من انهزم) الى برج يقال له برج الماء ، فحصل ابن جوسلين في تقدير عشرين فارسا من ابطال اصحابه ، واحدق بهم المسلمون من جهاته ، وشرعوا في النقب عليهم ، ماكان الا بقدر كلا ولا ، حتى تعرقب البرج ، وانهزم ابن جوسلين ، وافلت منه في الخفية مع اصحابه ، واخذ الباقون ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها ، واستخلص من كان اسر من المسلمين ، ونهب منها الشيء الكثير من المال والاثاث والسبي ، وسرت النفوس بهذا النصر بعد الحزن ، والانخزال ، وقويت القلوب بعد الفشل والانخذال ، وانكفأ المسلمون بالغنائم والسبي الى حلب وسائر الأطراف .

وكان معين الدين (أنر اتابك دمشق) قد حصل الات الحرب والمنجنيقات ، وجمع من أمكنه جمعه من الخيل والرجل ، وتوجه الى ناحية صرخد وبصرى بعد ان اخفى عزيمته ، وستر نيته استظهارا لبلوغ طلبه ، وتسهيل اربه (١٥٧ و) ونزل غفلة على صرخد ، وكان المعروف بها بالتونتاش غلام امين الدولة كمشتكين الاتابكي ، الذي كان واليها اولا ، وكانت نفسه قد حدثته بجهله ، انه يقاوم من يكون مستوليا على مدينة دمشق ، وأن الافرنج يعينونه على مراده وما يلتمسه من انجاده واسعاده ، ويكونون معه على ما نواه من عيثه وافساده ، وكان قد خرج للأمر المقضي من حصن صرخد الى ناحية الافرنج للاستنصار بهم ، وتقرير احوال الفساد معهم ، ولم يعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين ، ولم يشعر بما نواه معين الدين من ارهاقه بالمعاجلة ، وعكس آماله بالمنازلة فحال بينه وبين العود الى احد الحصنين المذكورين ولم تزل المحاربة بين من في صرخد والمنازلين متصلة ، والنقوب مستعملة ، والمراسلات مترددة ، والتهديد ، إن لم يجب الى المطلوب ، ومعين الدين لا يعدل عن المغالطة والمدافعة ، وكان قد عرف تجمعهم وتأهبهم للنهوض اليه وازعاجه وترحيله (١٣١) عنها ، فاوجبت هذه الحال ان راسل نور الدين صاحب حلب يسأله الاتحاد على الكفرة الاضداد بنفسه وعسكره ، فاجابه ، الى ذلك ، وكان لاتفاق الصلاح مبرزا بظاهر حلب في عسكره ، فثنى اليه الاعنة ، واغذ السير ، ووصل الى دمشق في يوم الاربعاء السابع وعشرين من ذي الحجة من السنة ، وخيم بعين شواقة (١٣٢) ، واقام اياما يسيرة ، وتوجه نحو صرخد ، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ، ووفور عدته .

واجتمع العسكران وأرسل من بصرخد اليهما يلتمس الامان ، والمهلة اياما ، ويسلم المكان ، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة ، الى حين يصل عسكر الافرنج لترحيل النازلين

عليهم ، وقضى الله تعالى الخيرة التامة للمسلمين ، والمصلحة الشاملة لأهل الدين وصول من -أخبر بتجمع الافرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير الى ناحية بصرى ، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها ، فنهض العسكر في الحال والساعة عند المعرفة بذلك الى ناحية بصرى ، كالشواهين الى صيدها والبزاة (١٥٧ ظ) الى حجلها ، بحيث سبقوا الافرنج الى بصرى ، فحالوا بينهم وبينها ، ووقعت العين على العين ، وقربت المسافة بين الفريقين ، واستظهر عسكر المسلمين على المشركين ، وملكوا عليهم المشرب والمسرب وضايقوهم برشق السهام وارسال نبل الحمام ، وأكثروا فيهم القتل والجراح واضرام النيران في هشيم النبات في طرقهم ومسالكهم ، واشرفوا على الهلاك والدمار ، وحاول البوار ، وولوا الأدبار ، وتسهلت الفرصة في اهلاكهم ، وتسرعت الفوارس والأبطال الى الفتك بهم ، والمجاهدة فيهم .

وجعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدهم عن قصدهم ، والتتبع لهم في انهزامهم ، اشفاقا من كرة تكون لهم ، وراجعة عليهم ، بحيث عادوا على اعقابهم ناكصين ، وبالخذلان منهم منهزمين ، قد شملهم الفناء ، وأحاط بهم البلاء ، ووقع اليأس من فلاحهم ، وسلمت بصرى الى معين الدين بعد تقرير امر من بها ، وإجابتهم على ما اقترحوه من اقطاعاتهم ، ورحل عنها عائدا الى صرخد ، وجرى الأمر في تسليمها الى معين الدين على هذه القضية ، وعاد العسكران الى دمشق ووصلاها في يوم الاحد السابع والعشرين من المحرم سنة اثنتين واربعين ، واقام نور الدين في الدار الاتابكية ، وتوجه عائدا الى حلب في يوم الأربعاء انسلاخ المحرم من السنة المذكورة .

وفي هذا الوقت وصل التونتاش ، الذي خرج من صرخد الى الافرنج بجهله وسخافة عقله ، الى دمشق من بلاد الافرنج ، بغير

- ٥١٣٠ -

أمان ولا تقرير واستئذان ، تـوهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة ، والارتداد عن الاسلام فاعتقل في الحال ، وطالبه أخوه خطلج ، بما جناه عليه من سمل عينيه ، وعقد لهما مجلس حضره القضاة والفقهاء ، واوجبوا عليه القصاص ، فسمل كما سمل اخاه ، وأطلق الى دار له بدمشق فأقام بها ...

- ٥١٣١ -

سنة اثنتين واربعين وخمسمائة

....وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية ، وبلاد الافرنج والروم وما والاها ، بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منها المان والفنش ، وجماعة من كبارهم في العدد الذي لا يحصر والعدد التي لا تحرز ، لقصد بلاد الاسلام ، بعد ان نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم بالنفير اليها ، والاسراع نحوها ، وتخلية بلادهم وأعمالهم خالية ، سافرة من حمايتها والحفظة لها ، واستصحبوا من اموالهم ونخائرهم وعددهم الشيء الكثير ، الذي لا يحصى ، بحيث يقال ان عدتهم الف الف عنان ، من الرجالة والفرسان ، وقيل اكثر (١٦١ و) من ذلك ، وغلبوا على اعمال القسطنطينية ، واحتاج ملكها الى الدخول في مداراتهم ، ومسالمتهم ، والنزول على احكامهم ، وحين شاع خبرهم ، واشتهر امرهم ، شرعت ولاة الاعمال المصاقبة لهم ، والأطراف الاسلامية القريبة منهم ، في التأهب للمدافعة لهم ، والاحتشاد على المجاهدة فيهم ، وقصدوا منافذهم ، ودروب معابرهم التي تمنعهم من العبور والنفوذ الى بلاد الاسلام وواصلوا شن الغارات على اطرافهم ، واشتجر القتل فيهم ، والفتك بهم الى ان هلك منهم العدد الكثير وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر اذا وجد ما افنى الكثير منهم بموت الجوع والمرض ولم تزل اخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء اعدادهم الى اواخر سنة اثنتين واربعين وخمسمائة بحيث سكنت النفوس بعض السكون ، وركنت الى فساد احوالهم بعض الركون، وخف ما كان من الانزعاج والفرق مع تواصل اخبارهم*

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وأولها يوم الجمعة الحادي وعشرين من ايار ، والشمس في الجوزاء ، وفي أوائلها تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج ، المقدم ذكرهم الى ساحل البحر ، وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع من كان بها من الافرنج ، ويقال انهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائة الف عنان ، قصدوا بيت المقدس ، وقضوا مفروض حجهم ، وعاد بعد ذلك من عاد الى بلادهم ، في البحر ، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقي الماني أكبر ملوكهم ، ومن هو دونه ، واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية ، والاعمال الشامية الى ان استقرت الحال بينهم على منازلة مدينة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكتها ، وتبايعوا ضياعها وجهاتها ، وتواصلت الاخبار بذلك ، وشرع متولي أمرها الأمير معين الدين أنر في التأهب والاستعداد لحربهم ، ودفع شرهم ، وتحصين ما يخشى من الجهات ، وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ ، وقطع مجاري المياه (١٦١ ظ) الى منازلهم وطم الآبار ، وعفي المناهل ، وصرفوا أعنتهم الى ناحية دمشق في حشدهم وحدهم وحديدهم ، في الخلق الكثير ما يقال ، تقدير الخمسين الف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والابقار ما كثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ، وقصدوا المنزل المعروف بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوما فيه ، مقطوعا عنه ، فقصدوا ناحية المزة ، فخيموا عليها لقربها من الماء وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث واربعين ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الاجناد والاتراك الفتاك ، واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم

الغفير وا شتجر القتل بينهم ، وا ستظهر الكفار على المسلمين [بكثرة] الاعداد والعـــــدد ، وغلبــــــوا على الماء ، وانتشروا في البساتين ، وخيمـــــوا فيهـــــا ، وقـــــربوا مـــــن البلد ، وحصلوا منه بمكان لم يتمكن احد مـن العسـاكر قديما ولا حديثا منه ، وا ستشهد في هذا اليوم الفقيه الامام يوسـف الفندلاوي (١٣٣) المالكي رحمه الله ، قريب الربـوة على الماء ، لوقـوفه في وجوههم ، وترك الرجوع عنهم ، اتباعا لاوامر الله تعالى في كتـابه الكريم ، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى .

وشرعوا في قطع الاشجار والتحصين بها وهدم القناطر (١٣٤) وباتوا تلك الليلة على هذا الحال ، وقـد لحـق الناس مـن الارتياع لهول ما شاهدوه ، والروع بما عاينوه ، مـا ضـعفت بـه القلوب ، وحرجت معه الصدور ، وباكروا إليهـم في غد ذلك اليوم ، وهـو يوم الاحد تاليه ، وزحفوا اليهم ، ووقـع الطـراد بينهـم ، وا سـتظهر المسلمون عليهم ، واكثروا القتل والجراح فيهم ، وابلى الامير معين الدين في حربهم بلاء حسنا ، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره ، بحيث لايني في نيادتهم ولا ينثني عن جهادهم ، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم ، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم ، الى ان تتهيا الفرصة لهم الى ان مالت الشـمس الى الغروب ، واقبل الليل ، وطلبت النفوس الراحة ، وعاد كل منهم الى مكانه ، وبات الجند (١٦٢ و) بازائهم ، واهل البلد على اسوارهم للحرس والاحتياط ، وهم يشاهدون اعداءهم بالقرب منهم .

وكانت المكاتبات قد نفـذت الى ولاة الاطـراف ، بـالاستصراخ والاستنجاد ، وجعلت خيل التركمان تتواصل ، ورجـالة الاطـراف تتابع ، وباكرهم المسلمون ، وقد قويت نفـوسهم ، وزال روعهـم ، وثبتوا بازائهم ، واطلقوا فيهم السـهام ، ونبـل الجـرخ (١٣٥) بحيث تنتع في مخيمهم في راجل ، او فارس ، او فرس ، او جمل .

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها ، رجالة كثيرة من الرماة ، فزادت بهم العدة ، وتضاعفت العدة ، وانفصل كل فريق الى مستقره هذا اليوم وباكروهم من غده يوم الثلاثاء كالبزاة الى يعاقيب (١٣٦) الجبل ، والشواهين الى مطار الحجل ، واحاطوا بهم في مخيمهم ، وحول منجمهم ، وقد تحصنوا باشجار الزيتون ، وافسدوها رشقا بالنشاب ، وحذفا بالاحجار ، وقد احجموا عن البروز ، وخافوا وفشلوا ، ولم يظهر منهم الا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة ، خوفا من المهاجنة ، الى ان يجدوا لحملتهم مجالا ، او يجدون لغرة احتيالا ، وليس يدنو منهم احد الا صرع برشقة او طعنة ، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الاحداث والضياع ، وجعلوا يرصدونهم في المسالك وقد اينوا(١٣٧) فيقتلون من ظفروا به ، ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير .

وتواترت اليهم اخبار العساكر الاسلامية ، بالخفوف الى جهادهم ، والمسارعة الى استئصالهم ، فايقنوا بالهلاك والبوار ، وحلول الدمار ، واعملوا الاراء بينهم ، فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها ، والهوة التي القوا بنفوسهم اليها ، غير الرحيل سحر يوم الاربعاء التالي مجفلين والهرب مخذولين مفلولين(١٣٨) ، وحين عرف المسلمون ذلك ، وبانت لهم آثارهم في الرحيل ، برزوا لهم في بكرة هذا اليوم ، وسارعوا نحوهم في اثارهم بالسهام ، بحيث قتلوا في اعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير ، ووجد في اثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم ، وفاخر خيولهم ما لا (١٦٢ ظ) عدد له ولا حصر يلحقه ، بحيث لها روائح من جيفهم ، تكاد تصرع الطيور في الجو ، وكانوا قد احرقوا الربوة والقبة الممدودة في تلك الليلة ، واستبشر الناس بهذه النعمة التي اسبغها الله عليهم ، واكثروا من الشكر له تعالى ما اولاهم من اجابة دعائهم ، الذي واصلوه في ايام هذه الشدة ، فلله على ذلك الحمد والشكر .

واتفق عقيب هذه الرحمة ، اجتماع معين الدين مع نور الدين صاحب حلب ، عند قربة من دمشق للانجاد لها في اواخر شهر ربيع الاخر من السنة ، وانهما قصدا الحصن المجاور لطرابلس المعروف (بالعريمة) (١٣٩) وفيه ولد الملك الفنش احد ملوك الافرنج المقدم ذكرهم ، كان هلك بناحية عكا ، ومعه والدته ، وجماعة وافرة من خواصه وابطاله ، ووجوه رجاله ، فاحاطوا به ، وهجموا عليه ، وقد كان وصل الى العسكرين النوري والمعيني فرقة تناهز الالف فارس ، من عسكر سيف الدين غازي بن اتابك ، ونشبت الحرب بينهم فقتل اكثر من كان فيه ، واسر ، واخذ ولد الملك المذكور وامه ، ونهب ما فيه من العدد والخيول والاثاث ، وعاد عسكر سيف الدين(١٤٠) الى مخيمه بحمص ، ونور الدين عائدا الى حلب ومعه ولد الملك وامه ومن اسر معهما وانكفا معين الدين الى دمشق .

وقد كان ورد الى دمشق الشريف الامير شمس الدين ، ناصح الاسلام ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبيد الله الحسيني النقيب ، من ناحية سيف الدين غازي بن اتابك ، لانه كان قد ندب رسولا من الخلافة الى سائر الولاة ، وطوائف التركمان لبعثهم على نصرة المسلمين ، ومجاهدة المشركين ، وكان ذلك السبب في خوف الافرنج من تواصل الامداد اليهم ، والاجتماع عليهم ورحيلهم على القضية المشروحة ....

ووردت الاخبار في رجب منها من ناحية حلب ، بان نور الدين صاحبها ، كان قد توجه في عسكره الى ناحية الاعمال الافرنجية ، وظفر بعدة وافرة من الافرنج ، وان صاحب انطاكية جمع الافرنج ، وقصده على حين غفلة منه ، فنال من عسكره واثقاله وكراعه ما اوجبته الاقدار النازلة ، وانهزم بنفسه وعسكره ، وعاد الى حلب سالما في عسكره لم يفقد منه الا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج ، واقام بحلب اياما(١٤١) ، بحيث جدد ما ذهب له من اليزك(١٤٢) ، وما يحتاج اليه من الات العسكر ، وعاد الى منزله ، وقيل لم يعد ....

سنة اربع واربعين وخمسمائة

واولها يوم الاربعاء الحادي عشر من أيار، قد كان كثر فساد الافرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية ، بعد رحيلهم عن دمشق ، وفساد شرائط الهدنة المستقرة بين معين الدين وبينهم ، بحيث شرعوا في الفساد في الاعمال الدمشقية ، فاقتضت الحال نهوض الامير معين الدين في العسكر الدمشقي الى اعمالها ، مغيرا عليها وعائثا فيها ، وخيم في ناحية حوران بالعسكر ، وكاتب العرب في اواخر سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، ولم يزل مواصلا للغارات وشنها على (١٦٤ ظ) بلادهم واطرافهم مع الايام وتقضيها ، والساعات وتصرمها ، واستدعى جماعة وافرة من التركمان ، واطلق ايديهم في نهب اعمالهم ، والفتك بمن يظفر به في اطرافهم : الحرامية ، واهل الفساد ، والاخراب ، ولم يزل على هذه القضية لهم محاصرا ، وعلى النكاية فيهم والمضايقة لهم مصابرا ، الى ان الجاهم الى طلب المصالحة ، وتجديد عقد المهادنة ، والمسامحة ببعض المقاطعة ، وترددت المراسلات في تقرير هذا الامر ، واحكام مشروطه واخذ الايمان بالوفاء بشروطه في المحرم سنة اربع واربعين وخمسمائة ، وتقررت حال الموادعة مدة سنتين ووقعت الايمان على ذلك ، وزال الخلف ، واطمانت النفوس من اهل العملين بذلك ، وسكنت الى تمامه ، وسرت باحكامه .

ووافق ذلك تواصل كتب نور الدين صاحب حلب الى معين الدين ، يعلمه ان صاحب انطاكية جمع الفرنج ببلاده ، وظهر يطلب بهم الافساد في الاعمال الحلبية ، وانه قد برز في عسكره الى ظاهر حلب للقائه ، وكف شره عن الاعمال ، وان الحاجة ماسة الى معاضدته بمسيره بنفسه وعسكره اليه ليتفقا بالعسكرين عليه ، فاقتضت الحال أن ندب الأمير معين الدين ، الامير مجاهد الدين بزان بن

مامين ، في فريق وافر من العسكر الدمشقي ، للمصير الى جهتـه ، وبذل المجهود في طاعته و مناصـحته ، وتـوجه في يوم (السـبت) من العشر الأول من صفر مـن السـنة ، و بقـي معين الدين في بـاقي العسكر بناحية حوران ، لايناس حال العرب ، وحفـظ اطـرافهم ، وتطييب نفوسهم لنقل الغلال على جمالهم الى دمشق ، على جـاري العادة ، وحفظها والاحتياط عليها .

وفي صفر من السنة وردت البشائر مـن جهـة نور الدين ، صـاحب حلب ، بما اولاه الله وله الحمد مـن الظهـور على حشـد الافـرنج المخذول ، وجمعهـم المفلول ، بحيث لم يفلت منهـم الا مـن خبـر ببـوارهم ، وتعجيل دمـارهم ، وذلك ان نور الدين لما اجتمـع اليه ما استدعاه من خيل التركمان والاطراف ، ومن وصل اليه من عسكر دمشق مع الامير مجاهد الدين (١٦٥ و) بزان قويت بذلك نفسه ، واشتدت شوكته ، وكثف جمعه ، ورحل الى ناحية الافـرنج بعمـل انطاكية ، بحيث صار عسكره يناهز السـتة الاف مقـاتلة ، سـوى الاتباع والسواد والافرنج في زهاء اربعمائة فـارس طعـانة ، والف راجل مقاتلة ، سوى الاتباع ، فلما حصلوا بالموضع المعروف بـانب (١٤٤)نهض نور الدين في العسكر المنصور نحـوهم ، ولما وقعـت العين على العين حمل الكفرة على المسـلمين حملتهـم المشـهورة ، وتفرق المسلمون عليهم من عدة جهات ، ثم اطبقـوا عليهـم واختلط الفريقان ، وانعقد العجاج عليهم وتحكمت سيوف الاسلام فيهم ، ثم انقشع القتام ، وقد منح الله ، وله الحمد والشكر المسـلمين النصر على المشركين ، وقد صاروا على الصـعيد مصرعين وبـه معفـرين وبحربهم مخذولين ، بحيث لم ينج منهم الا النفر اليسير ممن ثبـطة الاجل ، واطار قلبه الوجل ، بحيث يخبرون بهـلاكهم واحتناكهـم ، وشرع المسلمون في اسلابهم ، والاشتمال على سوادهم ، وامتـلأت الايدي من غنائمهـم وكراعهـم ، ووجـد اللعين البلنس مقـدمهم (١٤٥) صريعا بين حماته وابطاله ، فعرف ، وقطع راسه ، وحمل الى نور الدين ، فوصل حامله بأحسن صلة ، وكان هذا اللعين مـن

ابطال الافرنج المشهورين بالفروسية ، وشدة البأس ، وقوة الحيل ، وعظم الخلقة ، مع اشتهار الهيبة ، وكبر السطوة ، والتناهي في الشر ، وذلك في يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة اربع واربعين ، ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية ، وقد خلت من حماتها والذابين عنها ، ولم يبق فيها غير اهلها مع كثرة اعدادهم ، وحصانة بلدهم ، وترددت المراسلات بين نور الدين وبينهم في طلب التسليم الى نور الدين ، وايمانهم وصيانة احوالهم ، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الامر لايمكنهم الدخول فيه الا بعد انقطاع امالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم ، فحملوا ماامكنهم من التحف والمال ، واستمهلوا فأمهلوا واجيبوا الى مافيه سألوا ، ثم رتب بعض العسكر للاقامة عليها ، والمنع لمن يصل اليها

ونهض نور الدين في بقية (١٦٥ ظ) العسكر الى ناحية افامية ، وقد كان رتب الامير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها ومحاربتها ، فحين علم من فيها من المستحفظين هلاك الافرنج ، وانقطع املهم ، من مواد الانجاد واسباب الاسعاد ، التمسوا الامان ، فأمنوا على نفوسهم ، وسلموا البلد ، ووفى لهم بالشرط ، فرتب فيها من رآه كافيا في حفظها والذب عنها ، وذلك في الثامن عشر من شهر ربيع الاول من السنة .

وانكفأ نور الدين في عسكره الى ناحية (انطاكية ، وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية) (١٤٦) الساحل الى صوب انطاكية ، لانجاد من بها وطلب نور الدين تسهل الفرصة في قصدهم للايقاع بهم ، فأحجموا عن الاقدام على التقرب منه ، وتشاغلوا عنه ، واقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم ، وتقرير ان يكون ماقرب من الاعمال الحلبية له ، وماقرب من أنطاكية لهم ، ورحل عنها الى جهة غيرهم ، بحيث قد كان في هذه النوبة قد ملك ماحول انطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل ، وغنم منها الغنائم الجمة ، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي ، وقد كان

له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور ، والذكر المشكور ، لما هو موصوف به ، من الشهامة واصالة الراي ، والمعرفة بمواقف الحروب ، ووصل الى دمشق سالما في نفسه وجملته في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الاخر من السنة ، ومن لفظه وصفته ، هذا الشرح معتمدا فيه على الاختصار دون الاكثار ،وفيه من تقوية أركان الدين وإذلال ما بقي من الكفرة الملحدين ما هو مشهور بين العباد ، وسائر البلاد ، مشكور مذكور ، والله تعالى اسمه ،عليه المحمود المشكور ...

... وورد الخبر بظهور الافرنج الى الاعمال للعيث فيها والافساد ، وشرعوا في التأهب لدفع شرهم ....

وقد كان الخبر اتصل بنور الدين بافساد الافرنج في الاعمال الحورانية بالنهب والسبي ، فعزم على التأهب لقصدهم ، وكتب الى من في دمشق يعلمهم ماعزم عليه من الجهاد ، ويستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس ، تصل اليه مع مقدم يعول عليه ، وقد كانوا عاهدوا الافرنج ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين ، فاحتج عليه ، وغولط ، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج، يبوس وبعض العسكرية (١٤٧) بيعفور ، فلما قرب من دمشق ، وعرف من بها خبره ، ولم يعلموا اين مقصده ، وقد راسلوا الافرنج بخبره وقرروا معهم (١٤٨) الانجاد عليه ، وكانوا قد نهضوا الى ناحية عسقلان لعمارة غزة ، ووصلت اوائلهم الى بانياس ، وعرف نور الدين خبرهم ، فلم يحفل بهم ، وقال : لاانحرف عن جهادهم ، وهو مع ذلك كاف ايدي اصحابه عن العيث والافساد في الضياع ، واحسان الراي في الفلاحين والتخفيف ، والدعاء له مع ذلك متواصل من اهل دمشق واعمالها ، وسائر البلاد واطرافها ، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والغوطة والمرج حتى نزح اكثر اهل حوران عنها للمحل واشتداد الامر ، وترويع سربهم ، وعدم شربهم ، فلما وصل الى بعلبك اتفق للقضاء المقدر ، والرحمة النازلة ان السماء ارسلت

- ٥١٤٠ -
عزاليها بكل وابل وطـل وانسـكاب وهـطل ، بحيث اقـام ذلك منذ الثلاثاء الثالث مـن ذي الحجـة سـنة اربـع واربعين الى مثله (١٦٧ ظ) وزادت الانهـار ، وامتـلأت ، بـرك حـوران ، ودارت ارحيتها ، وعاد ماصوح (١٤٩) من الزرع والنبات غضـا طـريا ، وضج الناس بالدعاء لنور الدين ، وقـالوا : هـذا ببـركته وحسـن معدلته وسيرته .

ودخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة

... وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب اعزاز واصحابه ، وحصوله في قبضة الاسر في قلعة حلب ، فسر بهذا الفتح كافة الناس .
وورد الخبر بان الملك (١٥٠) مسعود وصل في عسكره طالبا انطاكية ، ونزل على تل باشر ، وضايقها في ايام من المحرم ....

وقد كان نور الدين عقيب رحيله عن دمشق ، وحصول ابن جوسلين في قلعة حلب اسيرا ، توجه في عسكره الى اعزاز بلد ابن جوسلين ، ونزل عليها ، وضايقها وواظب قتالها ، الى ان سهل الله تعالى ملكتها بالامان ، وهي على غاية من الحصانة والمنعة والرفعة ، فلما تسرب رتب فيها من ثقاته من وثق به ، ورحل (١٦٨ ظ) عنها ظافرا مسرورا ، عائدا الى حلب ، في ايام من شهر ربيع الاول من السنة .

وفي رجب من السنة وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الافرنج النازلين بإزائه قريبا من تل باشر ، وعظم النكاية فيهم ، والفتك بهم ، وامتلات الايدي من غنائمهم وسبيهم ، واستيلائه على حصن (١٥١) (تل) خالد ، الذي كان مضايقه ومنازله ...

-٥١٤٢-

ودخلت سنة ست واربعين وخمسمائة

... واقام (نور الدين) على هذه الصورة ، ثم رحل الى ناحية الاعوج لقرب عسكر الافرنج ، وعزمهم على قصده ، واقتضى رأيه الرحيل الى ناحية الزبداني استجرارا لهم ، وافرق من عسكره فريقا يناهز اربعة الاف فارس ، مع جماعة من المقدمين ، ليكونوا في اعمال حوران مع العرب ، لقصد الافرنج ولقائهم وترقبا لوصولهم ، وخروج العسكر الدمشقي اليهم ، واجتماعهم (بهم) ثم يقاطع عليهم (١٥٢).

واتفق ان عسكر الافرنج وصل عقيب رحيله الى الاعوج ، ونزل به في اليوم الثالث من شهر ربيع الاول من سنة ست واربعين ووصل منهم خلق كثير الى البلد ، لقضاء حوائجهم ، وخرج مجير الدين ومؤيده في خواصهما ، وجماعة وافرة من الرعية ، واجتمعا بملكهم وخواصه وما (١٧٠ ظ) صادفوا عندهم شيئا مما هجس في النفوس من كثرة ، ولا قوة ، وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى ، لتملكه ، واستغلال اعماله .

ثم رحل عسكر الافرنج الى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي اليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ، ومن انضاف اليهم من العرب في خلق كثير ، ناحية الافرنج ، للايقاع بهم والنكاية فيهم ، والتجأ عسكر الافرنج الى لجاة حوران للاعتصام بي ، وانتهى الخبر الى نور الدين ، فرحل ونزل على عين الجر ، من البقاع ، عائدا الى دمشق ، وطالبا قصد الافرنج ، والعسكر الدمشقي ، وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي ، قد قصدوا بصرى لمنازلتها ومضايقتها

ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم ، وظهر اليهم سرخاك واليها في رجاله ، وعادوا عنه خاسرين ، وانكفأ عسكر الافرنج الى اعماله في العشر الاوسط من شهر ربيع الاول من السنة ، وراسلوا مجير الدين ومؤيده ، يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا : لولا نحن ندفعه مارحل عنكم .

وفي هذه الايام ورد الخبر بوصول الاسطول المصري الى ثغور الساحل في غاية من القوة ، وكثرة العِدة والعُدة ، وذكر ان عدة مراكبة سبعون مركبا حربية مشحنة بالرجال ، ولم يخرج مثله في السنين الخالية ، وقد انفق عليه على ماحكي ثلاثمائة الف دينار ، وقرب من يافا من ثغور الافرنج فقتلوا واسروا واحرقوا ماظفروا به واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والافرنج ، ثم قصدوا ثغر عكا ، وفعلوا فيه مثل ذلك ، وحصل في ايديهم عدة وافرة من المراكب الحربية والافرنجية ، وقتلوا من حجاج (الفرنج) وغيرهم خلقا عظيما ، وانفذوا ماامكن الى ناحية مصر ، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس ، وفعلوا فيها مثل ذلك .

ووعد نور الدين بمسيره الى ناحية الاسطول المذكور لاعانته على تدويخ الافرنجية ، واتفق اشتغاله بامر دمشق ، وعوده اليها لمضايقتها ، وحدث نفسه بملكتها لعلمه بضعفها ، وميل الاجناد والرعية اليه ....

وفي اخر شعبان ورد الخبر من ناحية بانياس بان فريقا وافرا (١٧٢ و) من التركمان غاروا على ظاهرها ، وخرج اليهم واليها من الافرنج في اصحابه ، ووافقهم ، فظهر التركمان عليهم ، وقتلوا منهم واسروا ، ولم يفلت منهم غير الوالي ، ونفر يسير ، واتصل الخبر بمن في دمشق ، فانكر مثل هذا الفعل بحكم انعقاد الهدنة والموادعة ، وانهض اليهم من العسكر الدمشقي من صادف بعض التركمان متخلفا عن رفقتهم ، فحصلوا منهم ماكان في ايديهم وعادوا بثلاثة نفر منهم .

ـ ٥١٤٤ ـ

وفي ايام من اوائل رمضان من السنة ، ورد الخبر بان اكثـر عسـكر الافرنج قصدوا ناحية البقاع ، على حين غرة مـن اهلهـا ، وغاروا على عدة وافرة من الضياع ، فاستباحوا مابها من رجـال ونسـوان وشيوخ واطفال ، واستاقوا عواملها ومواشيها ودوابهـا ، واتصـل الخبر بوالي بعلبك ، فانهض اليهم رجاله ، واجتمع اليهـم خلق كثير من رجال البقاع ، واسرعوا نحوهم القصد ، ولحقوهم وقـد ارسـل الله تعالى عليهم من الثلوج المتداركة ماثبطهم وحيرهـم فقتلوا مـن رجالتهم الاكثر ، واستخلصوا مـن الاسرى والمواشي مـاسلم مـن الهلاك بالثلج ، وهو الاقل ، وعادوا على اقبح صـفة مـن الخـذلان وسوء الحال ، بحمد الله ، ونصرة المسلمين (١٥٣) ٠

- ٥١٤٥ -

ودخلت سنة سبع واربعين وخمسمائة

واولها يوم الثلاثاء مستهل المحرم ، وفي المحرم منها ورد الخبر مـن ناحية نور الدين بنزوله على حصن انطرطوس في عسكره ، وافتتاحه له ، وقتل من كان فيه مـن الافـرنج ، وطلب البـاقون الامـان على النفوس ، فأجيبوا الى ذلك ورتب فيه الحفـظة وعاد (١٥٤) عنه ، وملك عدة من الحصون ، بالسيف والسـبي والاخـراب ، والحـرق والامان ...

ووردت الاخبار من ناحية عسـقلان ، في يوم الخميس العـاشر مـن المحرم بظفر رجال عسقلان بالافرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير ، وانهزم الباقون ...

ودخلت سنة ثمان واربعين وخمسمائة

... وتواصلت الاخبار من ناحية نور الدين سلطان حلب والشام، بقوة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الاعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشرك والطغيان، وبنصرة اهل عسقلان على النازلين عليها من الافرنج، وقد ضايقوها بالزحف اليها بالبرج المخذول، وهو في الجمع الكثير، والله يحرسها من شرهم، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق الى نور الدين، في جمهور عسكره، التعاضد على الجهاد، في يوم السبت الثالث عشر من المحرم، واجتمع معه في ناحية الشمال، واتفق بينهما وجماعة المقدمين من امراء الاعمال والتركمان، وهم في العدد الدثر، وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بأفاس (١٥٥) بالسيف بأمر قضاه الله وسهله ويسره وعجله، وهو في غاية المنعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الافرنج والارمن، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير.

ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في يوم السبت تاسع وعشرين صفر، وقد خلا من حماته وتسهلت اسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة اهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخلاف بينهم، والقتل وهم في تقدير عشرة الاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارق من الافرنج طرقهم ولاعسكر (١٧٤ و) ارهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالاعوج، وعزموا على معاودة النزول على بانياس واخذها، ثم احجموا عن ذلك من غير سبب ولاموجب وتفرقوا، وعاد مجير الدين الى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته، في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ربيع الاول من السنة، وعاد نور الدين الى حمص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الاخبار بوصول اسطول مصر الى عسقلان ، وقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال ، وظفروا بعدة من مراكب الافرنج في البحر ، وهم على حالها في محاصرتها ومضايقتها ، والزحف بالبرج اليها ..

ووردت الأخبار في اثناء ذلك بأن الافرنج النازلين على عسقلان قد (١٧٤ ظ) ضايقوها بمفاداة القتال ومراوحته ، الى ان تسهلت لهم اسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها ، فهدموه وهجموا البلد ، وقتل بين الفريقين الخلق الكثير ، والجأت الضرورة والغلبة الى طلب الأمان ، فأجيبوا اليه ، وخرج منها من أمكنة الخروج في البر والبحر الى ناحية مصر وغيرها ، وقيل ان في هذا الثغر المفتتح من العدد الحربية والاموال ، والميرة والغلال ما لا يحصر فيذكر ، ولما شاع هذا الخبر في الاقطار ساء سماعه ، وضاقت الصدور ، وتضاعفت الافكار بحدوث مثله ، فسبحان من لايرد نافذ قضائه ، ولايدفع محتوم امره عند نفوذه ومضائه .

ودخلت سنة تسع واربعين وخمسمائة

ثم ورد الخبر بعد ذلك بأن الامير فارس المسلمين ، طلائع بن رزيك ، وهو من اكابر الامراء المقدمين ، والشجعان المذكورين ، لما انتهى اليه الخبر ، وهو غائب عن مصر ، قلق لذاك ، وامتعض ، وجمع واحتشد ، وقصد العود الى مصر فلما عرف عباس الوزير بما جمع ، خاف الغلبة والاقدام على الهلكة ، اذ لاطاقة له بملاقاته في حشده الكثير ، ولم يمكنه المقام على الخطار بالنفس ، فتأهب للهرب في خواصه واسبابه ، وحرمه ووجوه اصحابه وماتهيأ من ماله وتجمله وكراعه ، وسار مغذا ، فلما قرب من اعمال عسقلان وغزة ظهر اليه جماعة من خيالة الافرنج ، فاغتر بكثرة من معه ، وقلة من قصده ، فلما حملوا عليه قتل اصحابه واعاذوا عليه ، وانهزم اقبح هزيمة هو وولد له صغير، واسر ابنه الكبير الذي قتل ابن السلار مع ولده وحرمه وماله وكراعه ، وحصلوا في ايدي الافرنج، ومن هرب لقي ممن الجوع والعطش ، ومات العدد الكثير من الناس والدواب، ووصل الى دمشق منهم من نجاه الهرب، على اشنع صفة من العدم والعري والفقر، في اواخر شهر ربيع الاخر من السنة، وضاقت صدور المسلمين بهذه المصيبة المقضية بيد الافرنج، فسبحان من لايرد له قضاء، ولامحتوم امر(١٥٦).

وفي ايام من جمادى الاولى من السنة ورد الخبر من ناحية مصر، بان عدة وافرة من مراكب الافرنج من صقلية وصلت الى مدينة تنيس، على حين غفلة من اهلها فهجمت عليها، وقتلت واسرت وسبت وانتهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام وتركها صفرا ، وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة ، ومن سلم ، واختفى وضاقت الصدور ، عند استماع هذا الخبر المكروه .

ودخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفي ايام من شعبان من السنة ، ورد الخبر من ناحية مصر بأن المنتصب في الوزارة فارس الاسلام ابن رزيك ، لما استقام له الامر عزم على مصالحة الافرنج ومهادنتهم ، واستكفاف شرهم ، ومصانعتهم بمال يحمل اليهم من الخزانة ، ومايفرض على اقطاع المقدمين من الاجناد ، فحين شاورهم في ذلك انكروه ، ونفروا منه ، وعزموا على عزله والاستبدال به من يرتضون به واختاروا مقدما يعرف بالامير .. مشهورا بالشهامة والبسالة وحسن السياسة ، وارتضى لتولية الاسطول المصري مقدما من البحرية شديد الباس ، بصيرا بأشغال البحر ، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الافرنج ، والبسهم لباس الافرنج ، وأنهضهم في عدة من المراكب الاسطولية ، واقلع في البحر لكشف الاماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم ، وتعرف أحوالها ، ثم قصد ميناء صور ، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة ، فيها رجال ، ومال كبير وافر ، فهجم عليها وملكها ، وقتل من فيها ، واستولى على ماحوته ، وأقام ثلاثة أيام ثم أحرقها ، وعاد عنها في البحر ، فظفر بمراكب حجاج افرنج ، فقتل واسر وانتهب ، وعاد مذكفئا الى مصر بالغنائم والاسرى .

وفي الشهر المذكور ، ورد الخبر من ناحية حلب ، بوقوع الخلف بين أولاد الملك مسعود بعد وفاته ، وبين اولاد قتلمش ، وبين أولاد قلج أرسلان ، وأن الملك العادل نور الدين صاحب دمشق وحلب دخل بينهم للصلح والاصلاح ، والتحذير من الخلف المقوي للأعداء من الروم والافرنج ، وطمعهم في المعاقل الاسلامية ، وبالغ في ذلك

بأحسن توسط ، وبذل التحــف والملاطفــات ، وصــلحت بينهـــم الاحوال .

ودخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة

وفي شوال تقررت الموادعة والمهادنة بينه (نور الدين) وبين ملك الافرنج مدة سنة كاملة أولها شعبان ، وأن المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية ، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمان بالمواثيق المشدودة ، وكان المعروف بأبي سالم ابن همام الحلبي قد ولي مشارفه الديوان بدمشق ، بعناية الامير أسد الدين النائب عن الملك العادل نور الدين ، فظهرت منه خيانات اعتمدها ، وتفريطات قصدها بجهله وسخافة عقله وتقصيره ، فأظهرها قوم من المتصرفين عند الكشف عنها ، والتحقيق لها ، فاقتضت الحال القبض عليه والاعتقال له الى أن يقوم بما وجب عليه ، فلما كان في يوم الأحد السادس عشر من شوال سنة إحدى وخمسين وخمسمائة خرج الأمر السامي النوري بالكشف عن سعاياته في فضول كان غنيا عنها ، فاقتضت الحال بأن تحلق لحيته ويركب حمارا مقلوبا ، وخلفه من يعلوه بالدرة ، وأن يطاف به في أسواق دمشق بعد سخام وجهه ، وينادى عليه :« هذا جزاء كل خائن ونمام » ثم أقام بعد ذلك في الاعتقال أياما ، ثم أمر بنفيه الى حلب بشفاعة من شفع فيه من مقدمي الدولة السعيدة ، فمضى على أقبح صفة من لعن الناس ، ونشر مخازيه ، وتعديد مساوية ...

وفي العشر الاخير من ذي الحجة من السنة غدر الكفرة الأفرنج ، ونقضوا ماكان استقر من الموادعة والمهادنة ، بحكم وصول عدة وافرة من الافرنج في البحر ، وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس ، وقد اجتمع فيها من جشارات خيول العسكرية والرعية وعوامل الفلاحين

-٥١٥٢-
فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب الفلاحين الشيء الكثير ، الذي لايحصى ، فيذكر ، للحاجة الى الرعي بها ، والسكون الى الهدنة المستقرة ، ووقع من المندوبين لحفظهم من الاتراك تقصير ، فانتهزوا الفرصة ، واستاقوا جميع ماوجدوه وافقروا اهله منه ، مع ماأسروه من تركمان وغيرهم ، وعادوا ظافرين غانمين آثمين ، والله تعالى في حكمه يتولى المكافأة لهم ، والادالة منهم ، وماذلك عليه بعزيز ...

ودخلت سنة إثنتين وخمسين وخمسمائة

وفي يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الاول ، توجه المولى نور الدين أدام الله ايامه الى ناحية بعلبك ، لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها ، وتواصلت الأخبارية اليه من ناحية حمص وحماة باغارة الافرنج الملاعين على تلك الاعمال ، واطلاقهم فيها أيدي العيث والفساد ، والله تعالى يحسن الادالة منهم ويعجل البوار عليهم ، والاهلاك لهم ...

وفي يوم الأحد الخامس عشر من شهر ربيع الاول ، ورد المبشر من المعسكر المنصور براس الماء ، بأن نصرة الدين أمير ميران ، لما انتهى اليه خبر الافرنج الملاعين بأنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد من أبطالهم (١٨٤) والموفورة العدد الى ناحية بانياس لتوليها وتقويتها بالسلاح والمال ، اسرع النهضة اليهم في العسكر المنصور ، وقد ذكر ان عدتهم سبعمائة فارس من أبطال الاسبتارية والسرجندية والداوية ، سوى الرجالة ، فأدركهم قبل الوصول الى بانياس ، وقد خرج اليهم من كان فيها من حماتها ، فأوقع بهم ، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الاتراك ، وجالت الحرب بينهم ، واتفق اندفاع المسلمين بين أيديهم في أول المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين وخذلانه على المشركين ، فتحكمت من رؤوسهم ورقابهم مرهفات السيوف ، بقوارع الحمام والحتوف ، وتمكنت من أجسادهم مشرعات الرماح وصوارم السهام ، بحيث لم ينج منهم الا القليل ممن ثبطه الأجل ، وأطار قلبه الوجل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح ، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وعدد سلاحهم وكراعهم وأموالهم وقراطيسهم

وأسراهم ، ورؤوس قتلاهم ، مالايحد كثره ، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الافرنج ، ومسلمي جبل عاملة المضافين اليهم ، وكان ذلك يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ربيع الاول ، ووصلت الاسرى والرؤوس من القتلى والعدد الى البلد المحروس ، وفي يوم الاثنين تاليه ، وأطيف بهم البلد ، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق الكثير ، والجم الغفير ، وكان يوما مشهودا مستحسنا ، سرت به قلوب المؤمنين ، وأحزاب المسلمين ، وكان ذلك من الله تعالى ذكره وجل اسمه ، مكافأة على ماكان من بغي المشركين ، واقدامهم على نكث ايمان المهادنة مع المولى نور الدين ، أعز الله نصره ، ونقض عهود الموادعة ، واغارتهم على الجشارات ومواشي الجلابين والفلاحين المضطرين الى المرعى في الشعراء ، لسكونهم الى الأمن بالمهادنة ، والاغترار بتأكيد الموادعة وكان قد انفذ المولى نور الدين الى بعلبك جماعة من أسرى المشركين ، فأمر بضرب أعناقهم صبرا « ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم» (١٥٩)«وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون (١٦٠) » .

وتبع هذا الفتح المبين ، ورود البشرى الثانية من أسد الدين ، باجتماع العدد الكثير اليه من شجعان التركمان ، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ، ظهرت من معاقلهم من ناحية الشمال ، فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به ، ووصل اسد الدين الى بعلبك في العسكر (١٨٤ ظ) من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد في أعداء الله المشركين ، وهم في العدد الكبير والجم الغفير ، واجتمع بالملك العادل نور الدين في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول ، من السنة ، وتقررت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها واقامة فرض الغزو والجهاد لمن بها ، والابتداء بالنزول على بانياس ، والمضايقة لها ، والجهاد في افتتاحها ، والله يسهل ذلك بلطفه ويعجله بمعونته .

ووصــل نور الدين الى البلد المحـروس في يوم الخميس السـابع والعشرين من شـهر ربيع الاول ، لتقـرير الامـر في اخـراج آلات الحرب ، وتجهيزها الى العسكر بحيث يقيم اياما يسيرة ، ويتوجه في الحال الى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهـاد في الكفرة الاضداد ، والله يسهل أسـباب الادالة منهـم ، ويعجـل البوار والهلاك لهم ، ان شاء الله تعالى .

وفي وقت وصوله شرع في انجاز مـا وصل لاجله ، وأمـر بتجهيز مايحتاج اليه من المناجيق والسلاح الى العسكر المنصور ، بالنداء في البلد المحروس ، في الغزاة والمجاهدين ، والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء ، بالتاهب والاستعداد لمجـاهدة الافـرنج أولي الشرك والالحاد ، وبـادر بـالمسير في الحـال الى عسـكره المنصور ، مغذا غير متلوم ، ولا متريث في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الاول ، وتبعه من الاحداث والمتـطوعة والفقهـاء والصـوفية والمتدينين العدد الكثير الدثر المباهي في الوفور ، والكثرة فالله تعالى يقرن اراءه وعزماته بالنصر المشرق المنار ، والظفر بـاخراب المردة الكفار ، ويعجل لهم اسباب الهلاك والبـوار ، بحيث لاتبقـى لهـم باقية ، ولايرى لهم رائحـة ، ولا غاشية ، ومـاذلك على الله تعـالى القادر بعزيز .

ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخـر ، تـالي اليوم المقـدم ذكره ، عقيب نزول الملك العـادل نور الدين على بـانياس في عسكره المنصور ، ومضايقته لها بـالمنجنيقات والحـرب ، سـقط الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس ، يتضمن كتابه الاعلان بورود المبشر من معسكر أسـد الدين بناحية هـونين في التـركمان والعرب ، بأن الافرنج خذلهم الله أنهضوا سرية من أعيان مقدميهم وأبطالهم ، تزيد على مائة فارس سوى أتبـاعهم ، لكبس المذكورين ظنا منهم أنهم في قل ، ولم يعلموا أنهم في ألوف ، فلما دنوا منهـم وثبوا اليهم كالليوث الى فرائسها ، فاطبقوا عليهم بـالقتل والاسر

والسلب ، ولم يفلت (١٨٥ و) منهم الا اليسير ، ووصلت الاسرى ، ورؤوس القتلى ، وعددهم من الخيول المنتجة والطوارق والقنطاريات الى البلد في اليوم الاثنين تالي اليوم المذكور ، وطيف بهم فيه فسرت القلوب بمشاهدتهم ، واكثروا الشكر لله على هذه النعمة المتسهلة ، بعد الاولى المتكملة ، والله المأمول لتعجيل هلاكهم وبوارهم ، وماذلك على الله بعزيز ، وتلو هذه الموهبة المجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء يتلو المذكور ، بذكر افتتاح مدينة بانياس قهرا ، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب ، واطلاق النار فيه ، وسقوط البرج المنقوب ، وهجوم الرجال فيه ، وبذل السيف في قتل من فيه ، ونهب ماحواه ، وانهزام من سلم الى القلعة وانحصارهم بها ، وأن أخذهم بمشيئة الله تعالى لايبطىء ، والله يسهله ويعجله .

واتفق بعد ذلك للأقضية المقدرة أن الافرنج تجمعوا من معاقلهم ، عازمين على استنقاذ الهنفري ، صاحب بانياس ، ومن معه من أصحابه الافرنج المحصورين بقلعة بانياس ، وقد أشرفوا على الهلاك ، وبالغوا في السؤال للأمان للمولى نور الدين ، ويسلمون مافي ايديهم من القلعة ، وساموه لينجو سالمين ، فلم يجبهم الى ماسألوه ورغبوا فيه ، فلما وصل ملك الافرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازلين على بانياس لحصارها ، والنازل على الطريق لمنع الواصل اليها ، اقتضت السياسة الاندفاع عنها ، بحيث وصلوا اليها واستخلصوا من كان فيها ، فحين شاهدوا ماعم بانياس من خراب سورها ، ومنازل سكانها ، يئسوا من عمارتها بعد خرابها ، وذلك في ايام من العشر الاخير من شهر ربيع الآخر .

وفي يوم الاربعاء التاسع من جمادى الاولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر المحروس النوري ، تتضمن الاعلام بأن الملك

العـادل نور الدين ، أعز الله نصره ، لما عرف أن معسـكر الكفـرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس ، نهض في عسكره المنصور من الاتراك والعرب ، وجد في السـير ، فلما شـارفهم ، وهـم غارون ، وشاهدوا راياته قـد أظلتهـم ، بـادروا بلبس السـلاح والركوب ، وافترقوا أربع فرق ، وحملوا على المسلمين ، فعند ذلك تـرجل (١٨٥ ظ) الملك نور الدين ، وتـرجلت معـه الابطال ، وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح ، فما كان الا كلا ولا ، حتى تزلزلت بهم الاقدام ، ودهمهم البوار والحمـام ، وأنزل الله العزيز القهار نصره على الاولياء الابرار ، وخـذلانه على المردة الكفار ، وتمكنا من فرسانهم قتلا واسرا ، واسـتأصلت السـيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير ، والجم الغفير ، ولم يفلت منهـم على ماحكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر ، ممن ثبطه الاجل ، وأطـار قلبه الوجل ، وقيل ان ملكهم لعنهـم الله فيهـم ، وقيل انه في جملة القتلى ، ولم يعرف له خبـر ، والطلب مجد له ، والله المعين على الاظفار به ، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما مـن الابطال المذكورين ، قتل أربعة من شـجعان الكفـرة ، وقتـل عند حضور اجله ، وانتهاء مهله ، والآخر غريب لايعرف ، فكل منهمـا مضى شهيدا ، مثـابا مـأجورا ، رحمهمـا الله ، وامتـلأت ايدي العسكرية من خيولهم ، وعددهم وكراعهم ، وأثاث سـوادهم الشيء الذي لايحصى كثرة ، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتهم المشـهورة ، وكان فتحـا مـن الله القـادر الناصر عزيزا ، ونصرا مبينا ، أعز الله بهما الاسلام وأهله، وأذل الشرك وحزبه .

ووصلت الاسرى ورؤوس القتلى الى دمشق ، في يوم الاحد تالي يوم الفتح ، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ، ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيهـا مـن جلود رؤوسـهم بشـعرها عدة ، والمقدمون منهم ، وولاة المعاقل والاعمال ، وكل واحد منهم على فرس ، وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية ، والرجـالة مـن السرجندية والدركبولية (١٦١) كل ثلاثة وأربعـة واقـل وأكثـر في

حبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم عدد ، من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان ، لمشاهدة مامنح الله تعالى ذكره ، كافة المسلمين ، من هذا النصر المشرق الاعلام ، واكثروا من التسبيح ، ومواصلة التقديس لله تعالى مولى النصر لاوليائه ، ومديلهم من أعدائه ، وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين ، المحامي عنهم ، والمرامي دونهم ، والثناء على مكارمه ، والوصف لمحاسنه ، ونظم في ذلك ابيات في هذا المعنى وهي :(١٨٦ و) ٠

مثل يوم الفرنج حين علتهم
ذلة الاسر والبلا والشقا

براياتهم على العيس زفوا
بين ذل وحسرة وعناء

بعد عز لهم وهيبة ذكر
في مصاف الحروب والهيجاء

هكذا هكذا هلاك الاعادي
عند شن الاغارة الشعواء

شؤم اخذ الجشار كان وبالا
عمهم في صباحهم والمساء

نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تاكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان فيه
من فساد بجهلهم واعتداء

- ٥١٥٩ -

حمى الله شملهم من شتات
بمواض تفوق حد المضاء

جزاء الكفور قتل واسر
وجزاء الشكور خير الجزاء

فلرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء

وشرع في قصد اعمالهم لتملكها وتدويخها ، والله المعين والموفق لذلك بمنه ولطفه ومشيئته ....

وفي العشر الثاني من جمادى الاخرة تواصلت (٥٦٨ ط) الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على انطاكية ، واوجبت الصورة تقرير المهادنة بين الملك العادل نور الدين وملك الافرنج ، وتكررت المراسلات بينهما ، والاقتراحات والمشاجرات ، بحيث فسد الامر ، ولم يسفر على مايؤثر من الصلاح ، ومرضي الاقتراح المقرون بالنجاح ، ووصل الملك العادل نور الدين ، اعز الله نصره الى مقر عزه ، في بعض عسكره ، في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة ، واقر بقية عسكره ومقدميه مع العرب ، بازاء اعمال المشركين ، خذلهم الله ....

قد تقدم من ذكر الملك العادل نور الدين في نهوضه من دمشق في عساكره الى بلاد الشام ، عند انتهاء الخبر اليه ، بتجمع احزاب الافرنج خذلهم الله ، وقصدهم لها ، وطمعهم فيها ، بحكم ماحدث من الزلازل والرجفات المتتابعة بها ، وماهدمت من الحصون والقلاع والمنازل في اعمالها وثغورها ، لحمايتها ، والذب عنها ، وايناس من سلم من اهل حمص وشيزر ، وكفر

- ٥١٦٠ -

طاب ، وحماة وغيرها ، بحيث اجتمع اليه الخلق الكثير ، والجم الغفير ، من رجال المعاقل والاعمال ، والتركمان ، وخيم بهم بإزاء جمع الافرنج في الاعداد الدثرة ، والتناهي في الكثرة بالقرب من أنطاكية ، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الاقدام على الافساد ....

ودخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

وأولها يوم الاثنين أول المحرم ، والطالع الجدي ، وفي أوائله تناصرت الاخبار من ناحية الافرنج ، خذلهم الله ، والمقيمين في الشام ، في مضايقتهم لحصن حارم ، ومواظبتهم على رمية (١٩١ و) بحجارة المناجيق الى أن اضعف ، وملك بالسيف ، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية ، واطلاق الأيدي في العيث والفساد ، في معاقلهم وضياعها ، بحكم تفرق العساكر الاسلامية والخلاف الواقع بينهم باشتغال الملك بعقابيل المرض العارض له ، ولله المشيئة التي لاتدافع ، والأقضية التي لاتمانع ....

وفي يوم الأحد التاسع من شهر ربيع الآخر من السنة ، برز الملك العادل نور الدين من دمشق الى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب ، مجدا في جهاد الكفرة المشركين ، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله في من جمعة من فرسان التركمان غار بهم على أعمال صيدع وماقرب منها ، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها ، وخرج اليهم ماكان بها من خيالة الافرنج ورجالتها ، وقد كمنوا لهم فغنموهم ، وقتل اكثرهم ، وأسر الباقون ، وفيهم ولد المقدم المولى حصن حارم ، وعادوا سالمين بالأسرى ، ورؤوس القتلى ، والغنيمة لم يصب منهم غير فارس واحد فقد ، ولله الحمد على ذلك والشكر .

.... وورد الخبر من العسكر المحروس بأن الافرنج خذلهم الله ، تجمعوا وزحفوا الى العسكر المنصور ، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر ، والتقى الجمعان ، واتفق أن عسكر

الاسلام حدث (١٦٢) لبعض المقدمين فشل ، فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع ، وبقي نور الدين ثابتا بمكانه ، في عدة يسيرة من شجعان غلمانه ، وابطال خواصه ، في وجه الافرنج ، واطلقوا فيهم السهام ، فقتلوا منهم ، ومن خيولهم العدد الكثير ، ثم ولوا منهزمين خوفا من (١٩٢) كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام ، ونجى الله وله الحمد نور الدين من بأسهم ، بمعونة الله تعالى له ، وشدة بأسه ، وثبات جاشه ، ومشهور بشجاعته ، وعاد الى مخيمه سالما في جماعته ، ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدي الافرنج ، وتفرق جمع الافرنج الى أعمالهم .

وراسل ملك الافرنج في طلب الصلح والمهادنة ، وحرص على ذلك ، وترددت المراسلات بين الفريقين ، ولم يستقر حال بينهما ، واقام العسكر المنصور بعد ذلك مدة ، ثم اقتضى الرأي السعيد الملكي النوري ، الانكفاء الى البلد المحروس ، فوصل اليه في يوم (١٦٣) من شعبان من السنة ....

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر رمضان من السنة ، وصل الحاجب محمود المسترشدي (١٦٤) من ناحية مصر بجواب ما تحمله من المراسلات من الملك الصالح متولي امرها (١٩٢ ظ) ، ومعه رسول من مقدمي امرائها ، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة الملكية النورية ، وأنواع الاثواب المصرية والجياد العربية ، وكانت فرقة من الافرنج خذلهم الله قد ضربوا لهم في المعابر فاظفر بهم ، بحيث لم يفلت منهم إلا القليل النزر ، ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري ، بظفره بجملة وافرة من الافرنج والعرب تناهز أربعمائة فارس ، وتزيد على ذلك ، في ناحية العريش من الجفار ، بحيث استولى عليهم القتل والاسر والسلب ، وكان فتحا حسنا ، وظفرا مستحسنا ، والله المحمود على ذلك المشكور ...

وكانت الأخبار قد تناصرت من ناحية القسطنطينية ، في ذي

الحجة من السنة ببروز ملك الروم فيها ، في العدد الكثير ، والجم الغفير ، لقصد الاعمال والمعاقل الاسلامية ، ووصوله الى مروج الديباج ، وتخييمه فيها ، وبث سراياه للاغارة على الاعمال الانطاكية وما والاها ، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم ، هذا بعد ان افتتح من اعمال (١٦٥) لاوين ملك الارمن عدة من حصونه ومعاقله ، ولما عرف الملك العادل نور الدين هذا ، شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل ، باعلامهم ما حدث من (١٩٣ و) الروم ويبعثهم على استعمال التيقظ ، والتأهب للجهاد فيهم ، والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم ، والله تعالى ولي النصر عليهم ، والاظفار بهم ، كما جرت عوائده الجميلة في خذلانهم ، والاظهار عليهم ، ورد بأسهم في نحورهم ، وهو تعالى على ذلك قدير ....

ودخلت سنة اربع وخمسين وخمسمائة

....وقد كان وصل من ملك الروم رسول من معسكره ، ومعه هدية اتحف بها الملك العادل ، من اثواب ديباج ، وغير ذلك وجميل خطاب ، وفعال (١٦٦)وقوبل بمثل ذلك ، وعاد اليه في أواخر صفر من السنة ، وحكي عن ملك الافرنج ، خذله الله ان المصالحة بينه وبين ملك الروم ، تقررت ، والمهادنة انعقدت ، والله يرد بأس كل واحد منهما الى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره ، وما ذلك على الله بعزيز....

ووردت اخبار من ناحية ملك الروم بـاعتزامه على انطاكية ، وقصد المعاقل الاسلامية ، فبادر الملك العادل نور الدين بالتوجه الى البلاد الشامية ، لايناس اهلها من استيحاشهم من شر الروم والافرنج ، خذلهم الله ، فسار في العسكر المنصور ، صوب حمص وحماة وشيزر ، والاتمام الى حلب الى ان اقتضت الحال ذلك ، في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الاول من السنة (١٩٤ ظ) وفي ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول من السنة ، وافت في انتصافه زلزلة هائلة ماجت اربع موجات ، ايقظت النيام ، وازعجت اليقظى ، وخاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه ، وعلى مسكنه ، ثم ....

وفي جمادى الاولى من السنة ، في اوله تناصرت الاخبار المبهجة ، من ناحية العسكر المنصور الملكي النوري بأعمال حلب ، بتواصل الامراء المقدمين ، ولاة الاعمال ، المجاهدة في احزاب الكفرة الضلال من الروم والافرنج ، لقصد الاعمال الاسلامية ، والطمع في تملكها ، والافساد فيها والحماية لها من شرهم ، والذب عنها من مكرهم ، في التناهي في الكثرة ، والاعداد

الدثرة ، فقضى الله بحسن لطفه بعباده ، ورحمته ، ورأفته ببلاده ، ان سهل للعزائم المنصورة الملكية النورية ، من صائب الرأي والتدبير ، وحسن السياسة والتقرير ، وخلوص النية لله تعالى ، وحسن السريرة ، بحيث المهادنة المؤكدة ، والموادعة المستحكمة بين العادل نور الدين وملك الروم ، مما لم يكن في الحساب ، ولا خطر ببال ، بحيث انتظمت الحال في ذلك ، في عقد السداد ، وكنه المراد ، بحسن رأي ملك الروم ، ومعرفته بما تؤول اليه عواقب الحروب ، وتيسر الأمل المطلوب ،بعد تكرر المراسلات ، والاقتراحات في (١٩٥ و)التقريرات ، وأجيب ملك الروم الى ما التمسه من اطلاق مقدمي الافرنج المقيمين في حبس الملك نور الدين ، واذفنهم بأسرهم ، وما اقترحه اليه ، وحصولهم لديه ، وقابل ملك الروم هذا الفضل ، بما يضاهيه ، افعال عظماء الملوك الاسداء ، من الاتحاف بالاثواب الديباج الفاخرة ، المختلفة الاجناس الوافرة العدد ، ومن جوهر نفيس ، وخيمة من الديباج ، لها قيمة وافرة ، وما استحسن من الخيول الجبلية ، ثم رحل عقيب ذلك في عسكره من منزله ، عائدا الى بلاده ، مشكورا محمودا ، ولم يؤذ احدا من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الاولى سنة اربع وخمسين وخمسمائة ، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها ، وأمنت عقيب خوفها وفرقها ، فلله الحمد على هذه النعمة حمد الشاكرين .

من تاريخ العظيمي

سنة اربع وثمانين واربعمائة

....وجاءت بالشام زلزلة ، خربت سور أنطاكية وكنائسها ، وظهر في أساس السور طلسم الفرنج في جرن ....

سنة ست وثمانين واربعمائة

... ومنع أهل السواحل حجاج الفرنج والروم العبور الى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم الى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها ....

سنة تسع وثمانين واربعمائة

...وكتب ملك الروم الكس الى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج . . .

سنة تسعين واربعمائة

ظهرت اساطيل الفرنج الى ميناء القسطنطينية في ثلاثمائة الف ، وملوكهم ستة ، وعاهدوا ملك الروم ان يسلموا اليه اول معقل يفتحونه ، فما وفوا له بذلك ، وواقعهم الدانشمند وابن سليمان ، واحرقوا بين ايديهم المعاقل ، وسدوا المناهل فهلك منهم خلق عظيم ، وفتحوا كل ما عبروا : نيقية والثغور والدروب ، ونزلوا على انطاكية لغر شوال ، وحصروها ثمانية أشهر ....وكانت الوقعة بين الفرنج و(قلج أرسلان) بن سليمان بن قطلمش في رجب وكسروه ، وتحولوا (الى) بغراس ، ثم الى حصار انطاكية .

سنة احدى وتسعين واربعمائة

فتح الافرنج انطاكية ، سلمها اليهم الزراد فيروز أصله أرمني مسيحي ، وانهزم صاحبها يغي سفان منها فمات في الطريق من العطش ، وتسلم الافضل بيت المقدس في شوال من ايدي بني أرتق ، واجتمع من المسلمين الخلق العظيم مع دقاق وطغتكين وكربوقا ووثاب بن محمود وجناح الدولة في اربعمائة الف ، فوجدوا انطاكية قد فتحت قبل وصولهم اليها ، فنزلوا عليها وحصروها وخلصوا من السويدية خلقا من الاسرى ، وخرج اليهم الفرنج وهم في الغاية من الضعف ، والمسلمون في القوة ، فانكسر المسلمون لسوء نياتهم في رجب ،وقد ملك انطاكية من الفرنج البيمند .

سنة اثنتين وتسعين واربعمائة

فتح الفرنج معرة النعمان في المحرم ، وتحولوا الى كفرطاب ، ثم الى حماه فلم يقدروا عليها ، ثم تحولوا الى القدس ففتحـوها مـن ايدي المصريين وملكها الكندفري ، وأحرقوا كنيسة اليهود ، ونزلت عساكر مصر مع امير الجيوش الافضل فكسره الافرنج ....

سنة ثلاث وتسعين واربعمائة

غارت المياه ، وجلا الخلق من الشـام ، ...وتسـلم الملك دقـاق ميافـارقين ، وتـواقع بيمند والدانمشـند فـاسر بيمند ، وحصرت افامية ، وكسرت الفرنج الملك رضوان على كلا في شعبان .

سنة اربع وتسعين واربعمائة

فتح سكمان بن أرتق سروج وكسره الفرنج ، وأغار الكندفري ملك القدس على عكا فأصابه سهم فقتله وملك بعده القدس أخوه بغدوين ... وتسلم دقاق وطغتكين جبلة في شعبان وكسروا الفرنج ، وقتل سعد الدولة صاحب عسقلان في ذي القعدة ، وفتحت الفرنج حيفا ، وكسر بغدوين دقاق ، ومات الملك دقاق بدمشق واستولى عليها طغتكين أتابك والتاش وكسر جناح الدولة رضوان على سرمين ، وفتحت الفرنج قيسارية بالسيف في رجب ، واشترى البيمند نفسه من الأسر .

سنة خمس وتسعين واربعمائة

.... وخرج للفرنج اسطول ثان وكسرهم قلج ارسلان بن قطلمش والدانشمند وأسروا بيمند ثانية ، وسلم ابن الصليحة جبلة الى طغتكين فولى بها ولده تاج الملوك ، ومات وثاب بن محمود في مصياث ، ونزل صنجيل في عسكره على طرابلس يحاصرها وعمر عليها حصنا وأطال حصارها ،وتسلم جبلة القاضي ابن عمار فخر الملك ، وفتحت انطرطوس في جمادى الآخرة ، ونزل القواس في عساكر مصر وكسرت الفرنج وقتل في الوقعة ....

سنة ست وتسعين واربعمائة

قتل جناح الدولة صاحب حمص بجامعها في رجب قتله جماعة في زي الصوفية وملكها بعده قراجه الحاجي ، وكانت وقعة القتار في شعبان واوقع سكمان بن ارتق وجكرمش بالفرنج واستدرجوهم في برية القتار وسدوا في طريقهم المناهل ثم عطفوا فقتلوا من الفرنج الخلق العظيم ومات الباقون عطشا ، ومات المستعلي خليفة مصر وجلس موضعه الآمر بأحكام الله ، ونزلت عساكر مصر الى عسقلان وكسروا بغدوين وحصروه بالرملة فكسر وخرج منها ونجا ، ووصل للفرنج اسطول ثالث ملا الساحل ، وفتح قلج ارسلان الرحبة من يد الجاولي ، وتسلم الملك رضوان حصن ارتاح ، وتسلم ملك الروم الكس لاذقية . وعبر سكمان بن ارتق في عشرة الاف فارس ليفرج عن طرابلس فمات في الطريق بالمناظر .واوقع قلج ارسلان بجكرمش وكسره ، وتسلم الموصل ، وأخذ منه بغدوين والجوسلين كانا اسيرين بها ، وفتح في طريقه حران ، وعاد الى ملطية واستنجد سقاوه بالملك رضوان وبايلغازي بن ارتق ، والتقوا قلج ارسلان على الخابور ففرق قلج ارسلان في النهر وانهزم عسكره وأخذ الجاولي سقاوه الموصل ، وباع بغدوين والجوسلين بستين الف دينار ، وقبض رضوان على نجم الدين ايلغازي واعتقله بحلب مدة ثم انصلح امره معه ، وملك التاش دمشق وخافه اتابك طغتكين فانهزم الى بعلبك وفتحت الرحبة في جمادى الآخرة .

سنة سبع وتسعين واربعمائة

فتح الفرنج جبيل بالأمان وعكا بالسيف وعمروا من الساحل الخراب كلها ، وركب البيمند البحر يستنجد الفرنج ، ونزل اسطول مصر وحصر يافا ، ورحل عنها ، وقوى طرابلس وعسقلان ، وعادوا الى مصر ، ومات الملك دقاق في رمضان واستولى عليها طغتكين .

سنة ثمان وتسعين واربعمائة

كسر الفرنج الملك رضوان على ارتاح ، وقتلوا من المسلمين عشرة آلاف ، وفتحوا حصن ارتاح ، ومات صنجيل الفرنجي محاصرا طرابلس وولي العسكر والحصار ابنه بعده ، وكسر اتابك طغتكين الفرنج وفتح بعلبك ، وفتح رفنيه وهدم ابرجتها وتحول الى حمص ، والتقت عساكر مصر والفرنج واتابك طغتكين وقتل الخلق العظيم ولم يكن كسره على احد الفريقين .

سنة تسع وتسعين واربعمائة

....وقتل التعليمية لابن مـلاعب في قلعـة افـامية ، وملكوهـــا وحصرتهم الفرنج بها حتى فتحوها منهم بالأمان ، وعمروا حصـــنا بناحية طبرية ففتحه اتابك طغتكين وقتـل كل مـن كان فيه وحمـل الرؤوس الى دمشق ، وفي هذه السنة تسلم بصرى .

سنة خمسمائة هجرية

فتح الجاولي سقاوه الرحبة ، وفتح الفرنج افـامية ، واشـترى البيمند نفسه من ابن الداذشمند ثالثة وتسلم الجاولي الموصل .

سنة احدى وخمسمائة

اوقع السلطان بصدقة بن دبيس ونهب الحلة وحمل رأسه الى بغداد وعاد السلطان الى بغداد ، وحصر بغدوين صور وعمر مقابلها حصنا ، وفتح مودود الموصل من يد الجاولي ، وخرج من طرابلس القاضي فخر الملك وولي فيها عمه ابو المناقب فعصى فيها فقبضوا عليه وحملوه الى حصن الخوابي وتولى اصحاب القاضي الامور ، وسار القاضي وتاج الملوك الى بغداد ووزر ابو النجم الاصفهاني لتاج الملوك ، واوقع اتابك طغتكين بالقومص جرفاس صاحب طبرية ، وتزوج نجم الدين ايلغازي بن ارتق بخاتون بنت جناح الدولة ، وقتل برقة علي بن سالم بن مالك قتله منصور بن جوشن ، واخت المقتول زوجة القاتل ، ونزل من مصر وال لقبه شرف الدولة اتى بالقوة والغلة والعدة فأخذوا ذلك منه ، وقبضوا عليه ،....

سنة اثنتين وخمسمائة

ماتت زوجة الملك رضوان ، وفتح الجاولي سقاوة بالس ، وفتح الفرنج طرابلس ثاني ذي الحجة بعد حصار سبع سنين ، وفتح اقسنقر البرسقي الرحبة واجتمع (هو) واتابك دمشق وكسروا فرنج طرابلس ، وفتح طغكريد حصن بلاناس وسلمه الى المازوير ، وفتحت جبلة بالامان واخذوا لاذقية بالامان من الروم ، ودخل ابن عمار دمشق ، ومات بدمشق بوري خان وعضب الدولة ابق .

سنة ثلاث وخمسمائة

فتح الفرنج بيروت بالسيف ، وفتح طنكريد حصن بكسرائيل ، وهجم ربض الاثارب وفتحوا القلعة تسليما ، وظهر في السماء في الفلك الشمالي كوكب بذنب قصير مات لاجله كل ذي ذنب حتى السمك في الماء ، ورعى مودود زرع الرها ، فخرج الفرنج اليه وكسروه ، وقتلو سقاوه ، وهرب ابن سكمان من عسكر السلطان ، وقتل ابن عمه ، وانكسر المسلكون على اللكمية تاسع عشر رجب ، وتسلم اتابك طغتكين بعلبك من الخدم في شهر رمضان .

سنة أربع وخمسمائة

فتح الفرنج صيدا ، ورعى الاتراك زرع الرها ، ونقض الملك رضوان هدنة الفرنج واغار على انطاكية ، فخرج الفرنج واغاروا على حلب وفتحوا الاثارب كما تقدم ، وتوفي الكيا الهراس .

سنة خمس وخمسمائة

فتح الفرنج المرقب ، ومات قراجة صاحب حمص ، ووليها ابنه خير خان في جمادى ، ونزلت عساكر الشرق بظاهر حلب ، وغلق الملك رضوان في وجوههم باب حلب ومات منهم خلق ، وتخطف منهم كذلك ، ومات فيها سكمان القطبي واختلفوا وعادوا الى الشرق ، ودخل تاج الملوك قلعة دمشق .

سنة ست وخمسمائة

مات طنكريد ، وولي انطاكية بعده ابن اخته روجـال ، وحصرت الفرنج صور فاستنجد اهلها بطغتكين ، وذفر الفرنج اليه فخرج اهل صور واحرقوا البرج ونهبوا بعض الخيم ، فـرحلت الفـرنج عنهـا ودخلها اتابك طغتكين وتسلمها من عز الملك وولى عليها مسعود .

سنة سبع وخمسمائة

مات الملك رضوان بحلب وملكها ابنه تاج الدولة الاخـرس ولولو الخادم اتابك في جمادى ، وسار الى دمشق بعد ان قتل جمـاعة مـن غلمان ابيه وخدمه ، ودخل دمشق في رمضان ، وعاد الى حلب ومعـه اتابك دمشق وصاحب حمص خير خان بن قراجا الحاجي ، وقتل له اخوان ، ووصل من الشرق مودود وكسر مع طغتـكين الفـرنج على طبرية ، ودخل دمشق فوثب عليه رجل لايعرف بجامع دمشق فجرحه جرحا موثقا ، فمات ليوم من ربيع الاخر ، ووثب صاعد بـن بـديع رئيس حلب على الباطنية بحلب وقتل منهـم جمـاعة مـلأ منهـم السجون ، وقتا من مقدميهم جماعة صبرا ، ووثبوا على قلعة شيزر ونصر اهلها عليهم فقتلوهم ، وعزل عن وزارة حلب ابو الفضل بـن الموصول ووزر ابو الرجا بن السرطان ، وتولى نظـر الديوان عبـد القاهر بن المنذر ، واستقرت الموصل لقسيم الدولة اتـابك اقسـنقر البرسقي .

سنة ثمان وخمسمائة

فتح المصريون مدينة صور بعد الحصار الشديد برا وبحرا ، وقتل تاج الدولة بقلعة حلب وولي الملك بعده اخوه سلطان شاه في ربيع الاخر ، وجاءت بالشام زلزلة عظيمة خربت القلاع وا سود الجو قبل الزلزلة ، ومات كرد صاحب حماه ، وقبض لؤلؤ الخادم على ابن السرطان الوزير واعاد الوزارة الى ابن الموصول ، وقبض خير خان على نجم الدين بن ارتق . وتسلم اتابك طغتكين دمشق ابرجة رفنية من شمس الخواص ، وتوفي شمس النهار (١).

سنة تسع وخمسمائة

عبرت عساكر الشرق الفرات ونزلوا وادي بزاعة ، ثم دانيث ونهض العسكر لفرض فاوقع الفرنج بالاثقل فنهبوه وعاد العسكر الى الشرق ، وكسفت الشمس في برج الاسد في صفر ، وقتل احمديل في دركاه السلطان ببغداد في المحرم ، وخرج من تدمر منية بن عوصة سلخ رمضان ، ومات برسق بن برسق ، ومدح مهذب الملك ابو الحسين بن منير الاطرابلسي تاج الملوك بدمشق بقوله :
جرى بمرادك الفلك المدار ....
ودخل رسول السلطان وعاد الى دمشق وهجم ربض حمص بنفسه .

سنة عشر وخمسمائة

خرج لؤلؤ الخادم لزيارة صفين ، فقتله الوشاقية عند قلعة (دير) حافر (٢) ، وتسلم اتابكية حلب يارقتاش الخادم شهورا وولي الاتابكية ابو المعالي ابن الملحي الدمشقي السلمي ......

سنة احدى عشرة وخمسمائة

تسلم الفرنج قلعة القبة وهادنوا حلب ، وطمع البرسقي اقسنقر في حلب ، فقاربها ولم يتم له امر فعاد ، وانخسف القمر وهجم الفرنج ليلة الخسوف ربض حماه ، وقتلوا جماعة من اهلها وعاد الناس عليهم بالسيف فأخرجوهم عنفا ، ومات دوقس انطاكية ، ودخل نجم الدين بن ارتق حلب ثم افسد حاله ، فخرج منها ، ورهن ولده تمرتاش ، ومات بدمشق السلار بختيار ، .....

واجتمع نجم الدين وطغتكين للغزاة وافترقا ، واجتمع طغتكين والبرسقي اقسنقر وكسرا الفرنج على البقاع ..... ، وسار اتابك الى عسقلان في صفر ، واغار بغدوين ملك القدس على اطراف ديار مصر وعاد فمات بالقدس بجرح انتقض عليه ، وعبر وسيق هذه الاجيئة على باب عسقلان مع اربعين فارسا ، فخرج اليهم عسكر عسقلان الخيل والرجال فكسرهم الاربعون وعبر الوسيق سالما ، وملك القدس بعده البغدوين بن الكند صاحب الرها ، ومات ملك الروم الكس وملك موضعه ابنه كليان ، وجاء سيل غرق سنجار ، وفتح روجال حصن بلاطس ، وقبض سلطان شاه ملك حلب علي ابن الملحي ، وحدثت زلزلة

-٥١٨٠-

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

وكسر الجوسلين لاتابك دمشق بالسواد ، وجالت عساكر الفرنج شهرا وافترقوا ، وفتح روجال صاحب انطاكية قلعة عزاز في شــهر رمضان ، وفتح الفرنج قلعــة الســن وقتلوا بهــا منيع بــن عطير النميري ، واستأمن اليهم مقلد بن شرف الدولة والملك تكش ، ورواية اخرى ان ملك الروم مات في هذه السنة ، ونادى الناس بشعار نجــم الدين بن ارتق وشرق اليه ابن الخشــاب ، وعاد صــحبة العســاكر الارتقية ، ونزلوا قبلي حلب في سنة ثلاث عشرة ، وقتل صــاعد بــن بديع وولداه بقلعة دوسر ، واكل الجراد غلة الشام والجزيرة واعقب الغلاء ، وفتح الافرنج حصن تل الفــراق مــن يد زنكي بــن قــراجة الحاجي صاحب حمص ، وكسر المسلمون بــوادي المقتــول ، وكسر مرى بن ربيعة الفرنج كسرة عظيمة .

- ٥١٨١ -

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

اوقع نجم الدين وابن حسام الدولة بافرنج انطاكية على تل عفرين بحيث لم يفلت من الفرنج احد ، قال العظيمي : عملت قصيدة انخي فيها نجم الدين على لقاء الفرنج منها :

الا ابلغ طغاة الشرك انك اخذ
بثاراتنا منهم عليها فرايد

وانهم لم ينج منهم مخبر
بحيث احاطتهم لديك المصايد

فكان الامر والله كما ذكرت ، وقال الشعر لايكذب ، فلم يفلت من الفرنج دون العشرة مجرحين ، فلما وصلوا انطاكية ماتوا ، ولم يقتل من المسلمين الا دون العشرة ، وتسلم نجم الدين قلعة الاثارب ، وحصر قلعة زردنا وفتحها ، وخرج الفرنج في جمع اخر والتقوا نجم الدين على دانيث فكانت وقعة عجيبة هلك اكثر الفرنج وماتوا ، وكسفت الشمس في المحرم وضرب الشط برد عظيم ، وكسر الفرنج بالسواد واسر الكبير اللحية فقتله اتابك ، وقبض على القاضي ابن عمار وصودر وحوسب ، وجاء سيل اهلك ارمينية واعمالها .

-٥١٨٢-

سنة اربع عشرة وخمسمائة

رفع نجم الدين مكوس الشام وزاد المكوك والرطل والذراع ، واخرب قلعة زردنا وقلعة الشريف بحلب ، واوقع بلك بن ارتق بعفراس الرومي ، وولى رئاسة حلب مكي بن قرناص الحموي ، وظهر من البحر ابن اخت ملك الفرنج وتغلب على اكثر البلاد ، وقتل مقبل بن حسام النميري لابن عمه منصور بن جوشن في قلعة نجم وملكها ....

سنة خمس عشرة وخمسمائة

هجم الافرنج ربض الاثارب ، وحصروا منبج ، وهادنوا نجم الدين ، وظهر ملك الكرج داود واجتمع عليه السلطان طغرل ونجم الدين ودبيس فكسرهم ، وقتل الافضل امير الجيوش بمصر ، وعصا شمس الدولة بحلب على ابيه نجم الدين ، فخف اليه ابوه وقبض عليه وكحل مكي بن قرناص وحاجبه ناصر ، وعمر الفرنج قلعة زردنا ودير الاثارب ، وكبسوا حلب فأوقع بهم عسكر حلب ، وظفروا بهم وفتح بغدوين خناصرة واخربها وبرج سبنا ، وولى رئاسة حلب الرئيس سلمان العجلاني ، وخرج الكرج ثانية فكسرهم طغرل وفتح الكرج تفليس بالسيف ، وهبت بمصر ريح سوداء ثلاثة ايام اهلكت خلقا ...

واخرب الفرنج حصن جوشن وكسرهم اتابك على كفر رحر ...

سنة ست عشرة وخمسمائة

... وهادن نجم الدين الفرنج وشرق الى ماردين ، ومــات وزير حلب ابو الفضل بن الموصول ، ودخل السيل قلعة جعبر ، وعبر نجم الدين الفرات وابن اخيه بلك وعزل عن الوزارة ابا الرجاء بن السرطـان ، وحصر زردنا وخرج اليه الفرنج فرحل اليهم فلم يكن لقاء ، ثـم عاد الى زردنا فعــاد الفـرنج اليه ، فـــرحل الى الفنيدق ونزلوا نواز ، وهجموا ربض الاثارب فاخربوه ، وبها يوســف الحــرامي ، ونزلوا زردنا ثم دانيث ، ثـم تفـرقوا وعاد نجـم الدين نزل زردنا وهـــدم احوا شها ، وعاد الفرنج خرجوا الى الدير فرحل اليهم ثانية فلم يكن لقاء فمرض فدخل يتدأ وى ، واغار دولات بــن قـطلمش على بـلاد اعزاز فقتله كليام صاحب عزاز ، واسر بلك البغدوين في صفر واسر الجوسلين في رجب سنة ســبع عشرة ، واســتعاد المصريون مــدينة صور ، وقبضوا بها (واليها سيف الدولة مسعود) (٣) ووليهــا القائد طلائع ، وولي قلعة حلب بـدر الدولة بــن ارتــق ، واوقــع بلك بالفرنج على سروج واسر الجوسلين وكليام ، وعاد السيل دخل قلعة جعبر فأخرب الربض ، ومات نجم الدين بميافــارقين وملكهــا ولده سليمان ، وملك ولده تمــرتاش مــاردين ، وحصر الفــرنج بــالس ، ورحلوا عنها ، وفتحوا حصن البيرة ، وفتح حسان صــاحب منبــج حصن المجد .....

سنة سبع عشرة وخمسمائة

... وسلم بدر الدولة قلعة الاثارب الى الافرنج وصالحهم ، وحصر حصن الكركر ، وكسر الفرنج على قنطرة صنجة واسر البغدوين ملك انطاكية وحبسه في جب خرتيرت مع الجوسلين ، وهجم طغتكين ربض حمص ونهض اليه ابن حسام الدولة الاحدب ، وصالح بينه وبين خيرخان ورحله عنها ، وحصر بلك حلب وفتحها في جمادى ، وتسلم القلعة من يد عمه بدر الدولة وصعد اليها ، وخرج اوقته ونزل عين سيلم وفي ربيع (الاول) تسلم حران ..... واستوزر بلك بحلب ابا الرجاء بن السرطان ، ونزل مسعود الى صور من مصر في سرية فأوقع بهم كليان الفرنجي وكسرهم ، واوقع اسطول البنادقة باسطول مصر فغرق منه في سمت تنيس عدة من المراكب ، واوقع بلك باسقف البارة واسره ، وهجم الحصن وتحول الى كفرطاب ، ووثب في خرتبرت الفرنج الاسرى وملكوا البغدوين فيها ، وخرج الجوسلين منها متنكرا ثاني جمادى الاخرة ، فجمع العساكر وبلغ بلك ذلك ، وفي الليلة التي وثب فيها الفرنج في خرتبرت هرب من عسكر بلك اسقف البارة ، وخلص وخف بلك الى خرتبرت فحصرها وفتحها واعاد الاسرى الى الجب ، واخرب مشاهدها فظهر الجوسلين في الفرنج وعبر بظاهر حلب ، وعاد خائبا لانه وجد القلعة قد استعادها صاحبها ، وقبض بلك على رئيس حران بركات بن ابي الفهم ، وهجم الفرنج ربض قلعة الجسر ، واخذ المسلمون عليهم المخائض ، فغرق منهم الخلق العظيم ، وهجم محمود بن قراجة صاحب حماة ربض افامية فضرب في عضده بسهم فمات منه ، وتسلم حماة زوجة المتوفي وسلمتها الى ابيها طغتكين بن ابي ......(٤) وتدبر مهذب الدولة فولاها للحاجب اسرائيل وعاد الى دمشق ، وتسلم مدينة صور من المصريين .

- ٥١٨٥ -

وظهر قطا اكثر من الجراد فاكل كل غلات الشام ، وقبض القاضي ابو الفضل بن الخشاب كنائس حلب وحولها مساجد للصلاة ، وحدثت زلزلة وغارت المياه بأنطاكية حتى جفت بساتينها ، وحصر الفرنج مدينة صور في ذي الحجة ، وعرس بلك بخاتون بنت الملك رضوان وجدد حصون الشام الخراب ، وسار علي بن حامد من دمشق رسولا الى مصر .

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

جلس على رئاسة حلب محمد بن سعدان الحراني وعزل عنها سلمان العجلاني ، وعبر في شيزر اعصار ريح قلعت الاشجار وتم الى حماة ثم الى الرصافة ، فحمل من رملها الاحمر رمى به قلعة دوسر ، وقيل قلعة جعبر ، وفتحت البنادقة مدينة صور في جمادى الاولى وفتحت بعد الحصار الشديد برا وبحرا ، واحتبس المطر بالشام كانونين وشباط ، وتلف الزرع ثم تدارك الغيث فزرع الناس واستوى الزرع وحصدوا واستغلوا ، وفتح ذلك حصن (منبج) (٥) المجدد وقبض على حسان ، وهجم ربض منبج وحصر الحصن وخرج الفرنج اليه والجوسلين فكسرهم ، وعاد الى منبج ظافرا فضربه سهم من الحصن فقتله وتفرق العسكر ، وملك ابن عمه تمرتاش حلب وحمله معه فدفنه بحلب ، وملك خرتبرت شمس الدولة ابن نجم الدين وتزوج زوجة بلك ، وملك داود بن سكمان بن ارتق بالو ، وتواقع داود بن سكمان القطبي وابن حسام الدولة فانكسر طغان وحصرت بدليس ، ووزر حلب ابو محمد بن الموصول وعزل عن رئاسة حلب الحراني وراسها فضائل بن بديع الحلبي ، وقبض تمرتاش على سلطان شاه بن ملك رضوان وحبسه بماردين فهرب منها الى داود ، وقتل بحلب الرئيس سلمان العجلاني ، وباع تمرتاش الملك بغدوين باموال ومعاملة بواسطة بني منقذ وسلمه اليهم ، وقبض على الوزير ابن الموصول وصادره ، واستوزر لها ابا الرجاء بن السرطان ، فلما خلص بغدوين غدر بالهدنة وجمع الفرنج وحصر حلب ، وكان تمرتاش خرج منها ، ومات اخوه شمس الدولة فاشتغل بملك بلاده عن حلب ، وطال حصارها واجتمع عليها ثلاث رايات ، الملك بغدوين ، ودبيس بن مزيد ، وسلطان شاه بن ملك رضوان ، فنهض لنصرة حلب قسيم الدولة اق سنقر البرسقي ، وقد

ـ ٥١٨٧ ـ

ابل من مرضه ، فوصل حلب في ذي الحجة ورحل الفرنج عنها وملكها ونزل في العساكر بمجمع المروج ، وقال العظيمي المؤرخ عبرت بالعسكر عند عودتي من دمشق ومدحت البرسقي بقولي :

عصمت العواصم ان تهتضم ....

- ٥١٨٨ -

سنة تسع عشرة وخمسمائة

مات بدمشق طرخان الشيباني ، وفتح كفرطاب البرسقي فسلمها الى صاحب حمص ، ونزل عزاز يحاصرها ومعه طغتكين اتابك ، فخرج الفرنج اليه وكسروه عليها ، ووصل الفل ، وقتل بحلب القاضي ابو الفضل بن الخشاب ، وشرق البرسقي وهادن الفرنج وعزل عن حلب سوتكين ، ووليها ابو بكر بن طلماس ودخل البرسقي الموصل واتابك دمشق .... ومات بقلعة دوسر صاحبها سالم بن مالك ، ووليها ولده شهاب الدين بن مالك ، وقتل بفاسفان ببالس داعي الخليفة رافع ، وانكسر المسلمون على شرخوب من عمل دمشق في ذي الحجة .

- ٥١٨٩ -

سنة عشرين وخمسمائة

تسلم الفرنج رفنية ، وتسم بهرام بانياس ، وتسلم طغتكين تدمر وكسر الفرنج ، وعبر البرسقي الفرات وحصر الاثارب ، وظهرت الفرنج فرحل عنها الى حلب وطغتكين الى دمشق ، وعزل ابو بكر عن ولاية قلعة حلب وولاها الخادم كافور ، وعزل ووليها مسعود بن البرسقي ، وشرق البرسقي الى الموصل فقتل في جامعها رحمه الله ، وكسفت الشمس وظهر في الفلك كوكب بذنب ، وولي تدمر محمود بن تاج الملوك ، وجدد لبهرام بدمشق دار دعوة ، ونزل اسطول مصر قوى عسقلان ، وعاد الى اسكندرية .... وظهر من البحر البيمند ومعه اسطول افرنج امتلت منه البلاد ، وتزوج بنت البغدوين ملك القدس ، ووقع بين الكرج ، وتغلب على الملك رجل من غير بيت الملك ، واوقع مسعود ملك قونية بابن الدانشمند واخذ عورة القسطنطينية ، وخرج مسعود بن البرسقي الى الموصل فملكها ، وسلم النميريون قلعة نجم الى حسان صاحب منبج ، ومات طراد بن وهيب امير عرب الجزيرة ، واوقع بمصر الآمر بغلامه امير الجيوش محمد المأمون البطائجي واخيه ، اتهمه انه أمر يانس الموفق بفصده بمبضع مسموم ، فوشى به اليه فسلم إليه موضعه .

سنة احدى وعشرين وخمسمائة

• • وأوقع البغدوين بوادي مـوسى وسـبى اهله ، وولي قلعـة تومان ووصلت سرية لتقوية حلب فمنعهم تومان الدخول .... ووقـع بينه وبين رئيس حلب فضائل بن بديع وداخلهم إليها ، ووصل الى حلب ختلغ أبه غلام السلطان محمود ومعه توقيع مسعود بحلب ، فلم يقبله تومان ، وعاد ختلغ به الى الرحبة وعليها مسـعود يحـاصرها وقد نزل إليه واليها ، فوجده قد مات فجاة ، فندم على التسليم وعاد ختلغ ابه على فوره إلى حلب فتسلمها من يد تومان آخر جمـادى ، وتغير على الناس فتعصبوا عليه ثاني العيد ، وقبضوا على رجـاله وحصروه في قلعة حلب والمقدم عليها بحلب بدر الدولة وفضـائل بـن بديع ، وقصد حلب ملك انطاكية والجـوسلين فصـانعوه على مـال فضايقوا القلعة ، فاحرق القصر ودخـل المدينة الملك ابـراهيم بـن رضوان ، وكان اتابك عماد الدين قسيم الدولة دخل الموصل مـالكها بتواقيع السلطان في عاشر رمضان من هذه السنة المباركة ، فبعـث إليه شهاب الدين مالك فاعلمه بذلك فسير إليها سرية ، ودخل الأمير صلاح الدين فأصلح الحال ، ونزل إليه ختلغ أبه وصـعد الى اتـابك الى القلعة .

- ٥١٩١ -

ابتداء ملك الشام للدولة الاتابكية العمادية القسيمية

سنة اثنتان وعشرين وخمسمائة

وصل اتابك الى حلب ، وصعد القلعة المعمورة يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاخرة والطالع فيها ذكروا السنبلة وقبض على ختلغ ابه ، وسلمه الى ابن بديع فكحله بداره وهرب إلى قلعة ابن مالك هاربا ، خائفا يترقب ، كما قال الله تعالى ، وولي رئاسة حلب الرئيس صفي الدين ابو الحسن علي بن عبد الرزاق العمادي العجلاني فسلك مع الناس اجمل طريقة ، وفي هذه السنة مات أتابك دمشق سابع صفر ، وماتت زوجته خاتون ام تاج الملوك .... وقتل بهرام الداعي مقدم وادي التيم ، وقرر الوزير علي المزدقاني على وزارة دمشق .

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

تسلم بيمند حصن القدموس ، واوقـع اهـل وادي التيم ببهـرام الداعي فقتلوه وكل من معه ، وولي حصن بانياس اسماعيل وضعف عن حفظه فسلمه إلى الفرنج ، ووطىء أتابك بساط السـلطان وعاد بالتواقيع السلطانية بملك المغرب كله ، ودخل الموصل سالما ، واوقع صاحب حصن كيفا بالجوسلين وهربه بباب الرهـا ، واوقـع الامير سيف الدين شجاع الدولة سوار بن ايتـكين بعسـكر كفـر طـاب فاستاصلهم وقط شـوكتهم ودخـل إلى حمـاة بـالقلايع والرؤوس والاسارى ، فبعثت أمدحه بالقصيدة التي اولها .

أبت عزمات جدك أن تسامى

وجل علو قدرك أن يراما

ومات سير الان صاحب الاثارب ، واوقـع تـاج الملوك بـدمشق بوزيره أبي علي المزدقاني ، فقتله وعاثت العـامة فقتلوا خلقـا مـن الباطنية وحماه ايضا . ووصل الى الساحل أسطول الفرنج وبلغهـم ضعف دمشق فنزلوها وحصروها في الامم العـظيمة ، ونهض منهـم للعلوفة صناديد العسكر ومعهم من الكراع والرجالة ما شـاء الله ، فنهض اليهم الامير سيف الدين سوار ومرى في سرية الاتراك والعرب فاوقع بهم وقتلهم باسرهم ، ولم ينج منهـم الا القليل ووصـل مـن الناجين من خبر العسكر ، فرحلوا عن دمشق هاربين واحرقوا أكثر الثقل ، وعاد سيف الدين بـالوسيق والكراع والاسرى والرؤوس ، فبعثت إليه أمدحه بالقصيدة التي اولها :

نات من سليمى بعد قرب ديارها

واقوت مغانيها وشط مزارها

سنة اربع وعشرين وخمسمائة

في اولها كسر الامير سيف الدين الفرنج ، ورحلهم عن دمشــق ، ومات بها ابن الاكفاني وابن الفيصل ، وأغارت الكرج ، فاوقع بهــم عسكر السلطان واسترد الغنائم ، وفتح اتــابك قلعــة الســن ورعى عسكره زرع الرها وعبــر الفــرات إلى حلب ، واوقــع الدانشــمند بالبيمند فقتلوه كان مغيرا على بلد تروس بن روبال ، ووزر بدمشــق الوجيه ابن الصوفي ، وتزوج اتابك بنت الملك رضوان ، ووصــل الى دمشق رسول الخليفة والسلطان ابن الحنبلي ، وعاد اليهــا شــجاع الدولة ابن الصوفي كان رســولا بمصر ، واســتوحش ســيف الدين سوار من خدمة تاج الملوك فورد حلب الى خدمة اتابك عمــاد الدين ، فاكرمه وشرفه وخلع عليه واجــرى له الاقــطاعات الكثيرة واقــطعه شحنكية حلب واعمالها ، ووصل إليه من حماه(٦) سونج بن تــاج الملوك للخدمة فقبض عليه وعلى جميع عسكره ، وخف الى حمــاه ، فملكها في شوال وقبض على خيرخان ، وخف الى حمص فهجم الى ربضها وامتنعت القلعة فحصرها وهجم الشتاء فعاد الى حلب في ذي الحجة ، وملكت انطاكية زوجة البيمند بنت الملك بغدوين ، واخرجت اباها من أنطاكية ووقع بين الفرنج ، وهجم المسلمون ربض الاثارب وربض معرة ....

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

شرق أتابك الى الموصل ، وملك البغدوين أنطاكية وأخرج الملكة الى الساحل ، وأجلس الطفلة بدار الملك ، وعاد الى القدس ، وكسر الجوسلين لسيف الدين بالشمال وقتل من أصحابه جماعة ، فعملت فيهم قصيدة اولها :

فداؤك من تخطفه الحمام

وصاحبك السلامة والدوام

... وهجم سيف الدين ربض الاثارب ونهبه ، ووقع بين الملك مسعود وأخوته بقونية ، ونكب عسكر دمشق على حصن السويق ، وملك أهل بهراء حصن بكسرائيل من يد المازوير ، ووثب على تاج الملوك رجلان من جند القلعة فجرحاه فقتلهما ، ووصل دبيس الى الشام وا ودع ابن السلطان لنجم الدولة مالك وا سند الى الفرنج ، وفتح اتابك قلعة بهمرد ، وسار دبيس نحو صاحبة صلخد ليتزوج بها ، فاضافه مكتوم بن حسان بن مسمار بالحلة ، وأبطن الى تاج الملوك وقيل بالاتفاق ، فخرج إليه عسكر دمشق ، فقبضوا على دبيس وادخلوه الى دمشق ففادى به تاج الملوك ابنه سونج الاتابك ، فتسلمه منه وسار لوقته مشرقا الى الموصل في شوال .... واجتمع الى أتابك ولدا السلطان محمود : الب ارسلان وفروخشاه ، واوقع بابن الانباري رسول المسترشد بارض الرحبة ونهبت القافلة الواصلة ، ومات الملك بغدوين وجلس موضعه صهره كليام ، ومات الجوسلين ، وملك بعده الشمال ولده .

سنة ست وعشرين وخمسمائة

فتح الملك كليام رام حمدان ، ومات والي قلعة حلب علي جكل وولي مكانه قراجه السعدي ، واوقع عسكر أنطاكية بعسكر طرابلس ، وتواقع أتابك وقراجه الساقي على المشوق ، ومات غازي صاحب أرزن ، ومات كليام ملك القدس ، ومات تاج الملوك واستولى ولده شمس الملوك اسماعيل على دمشق ، ورعى عسكر سيف الدين زرع حمص ، .... وعزل عن وزارة دمشق ابن الصوفي ، ووزرها كريم الملك المزدقاني .... وفتح قومص طرابلس حصن سلمية ، وقتل بحمص برغش لمولاه عين الدولة بن خير خان ، فوثب عليه اخوه ابن خير خان فقتله وملك القلعة ....

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

وقع بين الفرنج حتى قتل بعضهم بعضا وقتل صاحب زردنا ، وتغلب التركمان على بلد المعرة وكفر طاب وقسموا المغلات ، واجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد ، وفتحوا حصن القبة ، واسروا منه حريم ابن ملاعب بنت سالم بن مالك واخربوا الموضع ، واوقع ابن الدانشمند بقافلة القسطنطينية فاخذ منها ملكا ، واوقع الامير سيف الدين سوار بافرنج تل باشر ، وقتل منهم خلقا ومدحته بقصيدة اولها :

تقلد النصر واشدد خلفك العذبا

لايرجع الله في شيء اذا وهبا

-٥١٩٦-

وقتل قومص طرابلس رئيسها ، وقبض صاحب دمشق علي مرى واسامة فخلص اسامة بمال ، وهلك مرى ، واشــترى ابــو الفتــح الداعي من ابن عمرون حصن القدموس ....

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

وصل الملك الفلك بن الكند صاحب القدس الى انطاكية ، وجمع وظهر الى ذواز ثم قنسرين وكسروا اوائل عسكر حلب ، وقتلوا ابا القاسم التركماني وابا العلاء بن الخشاب ، والامير خليفة وشاهنشاه بن بلك ، وتحول الفرنج الى النقرة فصابحهم سيف الدين سوار والعسكر فاوقعوا بسرية منهم فقتلوهم ، وعادوا برؤوس وقلائع فسر الناس من يومهم عوض ما ساءهم من امسهم ، وعاد الملك الى انطاكية وصادر اهلها وغير الدوقس ، واوقع فيها ايضا حسان صاحب منبج وسيف الدين بخيل الرها الفريريه وهي متغيرة ببلد الشمال عابرة الى العسكر فقتلوهم باسرهم وحملوا الرؤوس والقلائع الى حلب من يد صلاح الدين كان قد عصا فيها ولاها شمس الخواص .... وقتل صاحب دمشق جماعة من عمومته واخوته ، واغارت العرب على دمشق فاستحضر صاحب دمشق مرى فضرب عنقه ، ووصل حسام الدين الى خدمة اتابك وسار معه للقاء داود بن ارتق فكسره بباب آمد ، وحصروها فصانعه صاحبها بمال فرحل عنها الى قلعة الصور ففتحها ، واغار سيف الدين على الجزر وحصن زردنا وشحن المعرتين ، واوقع بالفرنج على حارم ، وعاد بالوسيق الى حلب ، واغار على زردنا واوقع هناك بسرية من الفرنج .... ومات ايلغازي بن الدانشمند وملك موضعه ابنه ، واستوزر اتابك الوزير ضياء الدين ابا سعيد الكفرتوثي .... وحصر اتابك دمشق مدة ثم رحل عنها الى حلب ثم شرق الى الموصل ....

-٥١٩٨-

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

تواترت غارات التركمان على بلاد الروم ، وكثر السبي واحتبس الغيث شهرين وتـدارك ، وانخسـف القمـر في ربيع الاول ببـرج السرطان وتلك الليلة مات شهاب مالك قلعـة دوسر ، وملك مـوضعه ابنه بدران .... وعاد اتابك الى الشام .... وفتح حمـاه وردهـا الى صلاح الدين وعاد الى الموصل ، وقتل الرئيس الوجيه ابن الصـوفي بدمشق ، وظهر ملك الروم ....

سنة ثلاثين وخمسمائة

وعاد اتابك الى الموصل ....

سنة احدى وثلاثين وخمسمائة

ظهر ملك الروم من القسطنطينية واغار ملك انطاكية على بلد لاون بن اخي بسيل الارمني ، واسر لاون وادخله انطاكية ، واستولى ابنه على موضعه ومعاقله وكاتب الروم ، فكان آكد لخروجه ، وخلص لاون بمال وعاد الى بلاده .... وعبر اتابك الفرات وخيم بباب حلب رابع وعشرين شهر رمضان ، وخرج ملك انطاكية الى ملك الروم وعاد الى انطاكية ، واقبل اتابك الى نحو حماه ، وعيد في الطريق ، وقصد حمص ثاني شوال ، واخذ من حلب خمسمائة رجل لحصار حمص ، وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لأتابك ، فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بعرين فكسرتهم طلائع اتابك ، وفيها سيف الدين سوار فاجهز عليهم وحصرهم بالمناجيق حتى خربت القلعة فاستقر الحال على ان يفرج عنهم ، ويأخذ القلعة ففعل وتسلم بعرين وعاد الى حلب .... وتمت الهدنة بين اتابك وصاحب دمشق ، وتزوجت خاتون به على يد الفقيه برهان الدين البلخي ، واوقع سيف الدين بسرية من الروم فقتل واسر ، وادخل الاسرى الى حلب ، وفتح حسام الدين تمرتاش قلعة الهتاخ ، وشرع الحلبيون في عمارة اسوار حلب وخنادقها ، ودخل اتابك على خاتون بنت جناح الدولة بحلب ، وقبض على الوزير جمال الدين ابي المحاسن ، واستأمن اليه الامير علي بن وفاء الكردي من عند الفرنج ....

سنة اثنتان وثلاثين وخمسمائة

ورد رسول ملك الروم على اتابك وهو بالقبلة ، فرده ومعه هدية الى ملك الروم فهودا وبزاة وصقورا ، واقتبل نحو دمشق وجرد من اهل حلب ثمان مائة راجل للخدمة ، واقتبل نحو البقاع وفتح المجدل واقام بعين الجر ، وعاد الحاجب حسن من عند ملك الروم وهو يحاصر بلاد لاون ، وشتى اتابك بارض دمشق ، وورد عليه رسول السلطان والخليفة بالتشريف ، وقبض الفرنج على بطرك انطاكية ونهبوا داره وعولوا على نصب بطرك الروم وعادوا عن ذلك وهم ملك انطاكية بالتسليم الى ملك الروم فمنعه من ذلك الرجالة البرجاسية ، وخيم اتابك على حمص وجرد من حلب رجالها لحصارها ونقض الفرنج هدنة حلب ، وشتى السلطان مسعود ببغداد ، وهجم اتابك ربض حمص ونصب المناجيق على القلعة ، واقتبل القاضي بهاء الدين الى العسكر .

ذكر ظهور الروم

وانضاف الفرنج الى ملك الروم ، وظهر بغتة من طريق مدينة البلاط يوم الخميس الكبير ، ونزل يوم عيد النصارى على حصن بزاعة ، وانتشرت الخيل بغتة فما احس الناس الا برجل من كافر ترك ومعه جماعة قد تاهوا عن عسكر الروم ، فعرف الناس بظهور الملك واظهر انه مستامن فكانه كان من الملائكة فتخبر الناس وبلغ الخبر اتابك فرد الرجالة الى حلب والامير سيف الدين معه خمسماية فارس في اربعة من الامراء الاصفهسلارية ، فقويت نفوس الناس ، وذلك في سابع عشر من رجب يوم المبعث ، وحصرت بزاعة

سبعة ايام وفتحوها يوم السبت خامس وعشرين رجب بالامان ، وغدر باهلها واسرهم واقام الملك بالوادي عشرة ايام ، يدخن على مغائر الباب ، ورحل الى الناعورة ، ثم الى حلب في سادس شعبان ، وضرب خيمة قبلي حلب على نهر قويق ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء ورحل يوم الاربعاء ثامن شعبان مقتبلا ، وخاف من بالاثارب من الجند ، فانهزموا منها ليلة الخميس ، واحرقوا خزائنها فخف اليها سرية من الروم والفرنج ومعهم سبي بزاعة والوادي ، فملكوا القلعة والجؤوا السبي الى خنادقها واحواشها وهرب منهم قوم الى حلب فاعلموهم بذلك ، فنهض اليهم الامير فخلصوا السبي جميعة الا من كان قد اطلع الى القلعة ، فردهم الى حلب ما مقداره الف روح ، فكان ما عم الناس من امر الاثارب شيء للفرجة بخلاص السبي ، ورحل اتابك من حماة الى سلمية في يوم الاثنين ثالث عشر شعبان ، ورحل الملك عن بلد المعرة مقتبلا ، وهرب جند كفرطاب منها ، ونزل الروم شيزر يوم الخميس سادس عشر شعبان ، وقاتلوها وهجموا ربضها .

واوقع اتابك بسرية منهم وسيف الدين بسرية أخرى بأطراف (بعرين) ونصبوا المناجيق على قلعة شيزر ، واشتد الحصار وتحولوا الى تل أبي معشر ، وعبر الفرات ابن داود بن أرتق في عشرين ألف فارس نجدة للمسلمين ، فبلغ الروم ذلك وقد هاجموا ربض شيزر دفعات عدة ، والله تعالى يعطي النصر للمسلمين عليهم ، فرحلوا عنها سحرة السبت تاسع رمضان فكانت مدة الحصار ثلاث وعشرين ليلة ، ودخلوا مضيق افامية ثم انطاكية ، وسير اتابك وراءهم سرية من العسكر تتخطفهم ، هذا كله وأتابك لم يستحضر ابن داود ، ولم يجتمع به بل بعث اليه يأمره بالعود الى أبيه وأنه مستغن لم يلتفت اليه ، وتسلم اتابك قلعة حمص يوم الثلاثاء ودخلها يوم الخميس ثالث عشر شوال ، وهزم الفرنج على باب اطرابلس يوم السبت تاسع وعشرين شوال ، وأوقع الأمير سيف الدين بسرية داخلة الى الاثارب باقامة في العشر الأخير منه ، ونهض اتابك الى بلد عرقة ، وعاد الى

القدس (٨) واجتمع بخاتون زمرد ، وصلت اليه من دمشق ، واجتمع عنده رسل ملوك الارض ، ولبس التشريف الواصل اليه مع ابن الانباري بظاهر حلب ، ومات ابن حسام الدولة الاحدب ، وملك ابنه قرتي بدليس وأعمالها وخرج اليه السلطان سلجوك فكسره قرتي ورده على عقبه .

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

......وخرج من حلب جريدة رجالة برسم خدمة ركاب اتابك الى الشرق وفتح دارا ورأس العين ، وغلا سعر بلاد الروم ، وظهر بالشام جراد عظيم ، وضرب الشط برد عظيم الى أرض حران في شهر رمضان ، وعبر اتابك الفرات ووطيء الشام ، وفتح قلعة الاثارب وانقلبت قلعة الاثارب بكل من فيها ، ودامت الزلازل ، وكان يحدث دوي عظيم قبلها ثم ياتي بعده كذلك اربعة أشهر ، وقتل بدمشق صاحبها شهاب الدين ابن تاج الملوك ، وجلس بها في المملكة أخوه محمد صاحب بعلبك ، وافتتنت دمشق وقتل بها الذفيس ، وانهزم منها بهرام شاه أخو المقتول الى حلب ، وشرق الى خدمة اتابك ، وعبر الأمير الحاجب صلاح الدين الفرات ، واقتبل الى بلد حماة ، وعبر اتابك الفرات ونزل بالناعورة ، ودخل حلب ورحل الى حماة سابع ذي الحجة ورحل الى حمص ثم الى بعلبك .

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

أولها يوم الثلاثاء سابع عشر آب حصر اتابك بعلبك وضربها بالمناجيق ، وفتح البلد يوم الاثنين رابع عشر صفر ، وفتح الحصن يوم الخميس خامس وعشرين الشهر وتواقع الياروقية والروم ونصر الله المسلمين ، وفي رمضان حدثت بالشام زلزلة ... واقام أتابك بعين الجر .

- ٥٣٤ -

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

تفرق عسكر دمشق والفرنج بعد اجتماعهم ، ووقعت بحمص صاعقة على الحمام الجديد ، فاحترقت جماعة ، وانهزم الى دمشق من عسكر اتابك سنقر الجكرمشي صاحب بالس ، وبعث اتابك قبض على أولاده واسبابه ، وفي يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول دخل اتابك حمص ، وعادت خاتون الى حلب في عشرين منه ، ودخل الى حلب رابع وعشرين جمادى الاولى ، وشر ق اتابك ولقي قفجاق وكسره ، وفي شوال ظهر ابن الداذشمند الى بلاد مرعش وفتح حصنا ، وسبا أهله جوابا لفعل الفرنج ببلده مثل ذلك ، وقبض بحلب على المكين الحراني بن أبي الفهم الناظر ، وجرد من حلب ثلاثمائة راجل الى الشرق للخدمة ، وهزم الامير سيف الدين سوار الفرنج عن شيزر .

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

أولها يوم الاربعاء سابع أب ، وكسفت الشمس ثامن وعشرين منه ، وخرج الفرنج الى بلاد سرمين واخربوا ونهبوا ، ثم تحولوا الى جبل السماق ثم تفرقوا ، وأغار التركمان مع الأمير علم الدين ابن سيف الدين الى باب انطاكية وعادوا بالوسيق العظيم ...

وفي جمادى أغار بجة التركي على بلاد الفرنج وساق وسبى وذفر اليه ذفر من الفرنج فظفر بهم ، وقتل منهم سبعمائة وعاد بالغنائم والوسيق والقلائع ، وجرد من حلب رجاله ، وأقبل ملك انطاكية الى القدس ، ونهض الأمير سيف الدين في العشر الثاني من رمضان الى بلد انطاكية وعند الجسر جمع كثير ، وخيم مضروبة وقطعة من العسكر يخطفون الاطراف ، فخاض التركمان اليهم العاصي وكسروا هناك ، وقتلوا كل من كان بالمخيم ونهبوا وسبوا ، وعاد سيف الدين الى حلب بالوسيق العظيم والقلائع والرؤوس والاسرى ، ومات ابن الدانشمند وجلس موضعه ابنه ووائبه عمه على المملكة ....

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فتح اتابك قلعة اشب في ثالث وعشرين رمضان ليلة القدر . ومات ملك الروم بالثغور يوم الجمعة ثاني وعشرين رمضان وهـو تـاسع نيسان ...

وظهر ملك انطـاكية الى وادي بـزاعة فنهض اليه الأمير سـوار فردهم الى بلد الشمال ، واغار الجوسلين الى شط الفرات وسـبى اهل عكرمة باسرهم تسع مائة روح ، واخذ عورة السابورية ، ونزل اتابك مرج زعفران وعاد الى الجزيرة واجتمـع الأمير سـيف الدين والجوسلين ببلد الشـمالي في المعسـكرين واتفـق الصـلح بينهما ، وكان الجـوسلين وطـىء بسـاط ملك الروم قبـل موته ، واستوزر اتابك الوزير جـلال الدين ابـا الرضـا بـن صدقة ، وقبض حسام الدين على وزيره ابي الرجاء بـن السرطـان وقتل حذش في خيمته (٩) ، بعسكر اتابك قتله جماعة اكراد غيلة .

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فتح اتابك قلعة ازدون وبعدها قلعة حيزان ، وحصرت ملطية حصرها الملك مسعود (بياض) ووصل خبر بأن ملك الصين مات ، وفي خامس وعشرين صفر جاءت بالشام زلزلة لطيفة ، واغارت خيل باسوطا ورجالتها وسبوا كفر بسيل وسبوا بعض اهلها ، فنهض اليهم الأمير سيف الدين فلحقهم دون العقبة بدمشق وسبق في الطلائع علم الدين بن سيف الدين فشغلهم بالطراد حتى تتابع العسكر فأوقع بهم ، وقلع أكثر الخيالة ، وقتل الرجالة ، واسترجع الأجيدة وعاد بالقلائع والوسيق والرؤوس منصورا ، ودخل السلطان مسعود بغداد ... وسقط ملك القدس عن فرسه فاندقت عنقه ، فمات وجلس ابنه وتولته امه ، وأغارت الفرنج على بلد دمشق . فساقوا وسيقا عظيما ، ولجؤوا الى بانياس فخرج اليهم من دمشق معين الدين انر واسترجع الوسيق بالصلح وقبض بدمشق على الامير اكز وعلى جماعته واسبابه واستصفيت أمواله وكحل ، وعزل وزير دمشق نظام الدين ابو الكرام ، ووزر مؤيد الدين بن الصوفي ، وقبض بقلعتها على الحاجب عطا ، وجرد من حلب خمسمائة راجل الى الشرق ، وشدوا بالرحبة ، وبعضهم بسنجار ، وعادوا الى حلب في ذي القعدة ، وعاد أتابك دخل الموصل ، وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين ذي القعدة وقعت خيل تركمان نهضت من بلد حلب فأوقعت بخيل خارجة من باسوطا . فأوقعوا بهم وقتلوهم ، واسروا صاحب باسوطا وجاءوا به اسيرا الى حلب يوم الخميس سادس وعشرين ذي القعدة ، فسلموه الى سيف الدين فقيده ... والى هذه السنة انتهى تاريخ محمد بن العظيمي الحلبي رحمه الله .

تراجم من تاريخ دمشق لابن عساكر

-٥٢٠٩-

ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين اتابك ابو سعيد التركي

ولد ببعلبك ، وقدم دمشق مع ابيه محمد ، فلما مات ابوه ولي امرة دمشق يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة اربع وثلاثين وخمسمئة ، وكان اتابك زنكي بن اق سنقر صاحب حلب وبعض الشام والموصل والجزيرة محاصرا لدمشق ، فلم يصل منها الى مقصود ، ورحل عنها ، وكان ابق صغير السن ، واستولى على امره انر بن عبد الله ، الملقب بمعين الدين مملوك جد ابيه طغتكين ، والرئيس ابو الفوارس المسيب بن علي بن الصوفي ، فلما مات انر انبسطت يد ابق ، والرئيس ابو الفوارس يدبر الامور ، وبعد مدة دبر ابق وجماعة من بطانته على الرئيس حتى اخرجه من دمشق الى صرخد ، واستوزر اخاه ابا البيان حيدرة بن علي مدينة ، ثم استدعى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم من بعلبك ، وجعله مقدما على العسكر ، وقتل ابا البيان ، ثم قبض على عطاء وقتله ، ولم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى قدم الملك العادل محمود بن زنكي بن اق سنقر ، فحاصر البلد مدة يسيرة وسلم اليه بالامان يوم الاحد العاشر من صفر سنة تسع واربعين وخمسمئة ، ووفى لابق بما جعل له وسلم اليه مدينة حمص ، فأقام بها يسيرا ، ثم انتقل منها الى بالس – مدينة بناحية الفرات – فسلمت اليه بأمر الملك العادل ، فأقام بها مدة ، ثم توجه منها الى بغداد ، فقبله امير المؤمنين المقتفي لامر الله ، واخرج له ديوانا كفاه ببغداد ، وقد كان قبل ان يخرج ابق الصوفي من دمشق قد رفع الاقساط وما كان يؤخذ في الكوز من الباعة ، وكان كريما ، ومات ببغداد .

-٥٢١٠-

ـ ارتاش بن تتش بن الب ارسلان ويقال : ألتاش

كان اخوه دقاق قد انفذه الى بعلبك ، فاعتقل بها ، فلما هلك دقاق في سنة سبع وتسعين راسل طغتكين اتابك ، كبشتكين التاجي الخادم والي بعلبك في اطلاق ارتاش ، فوصل الى دمشق ، فاقامه في منصب اخيه يوم السبت لخمس بقين من ذي الحجة او ذي القعدة سنة سبع وتسعين واربعمئة .

فاقام الى ان خرج منها سرا في صفر سنة ثمان وتسعين لاستشعار استشعره من طغتكين وزوجته ام الملك دقاق ، ومضى الى بغدوين ملك الفرنج ، طمعا في ان يكون له ناصرا ، فلم يحصل منه على ما امل ، فتوجه عند اليأس منه الى ناحية الرحبة ، ومضى الى الشرق فهلك .

- ٥٢١١ -

اسماعيل بن بوري بن طغتكين

ابو الفتح ، المعروف بشمس الملوك

ولي امرة دمشق بعد قتل ابيه بوري ، المعروف بتاج الملوك ، في العشر الاخير من رجب سنة ست وعشرين وخمسمئة ، وكان شهما مقداما مهيبا ، استرد بانياس من ايدي الكفار في يومين ، وكانت قد سلمها اليهم الاسماعيلية ، واسعر بلاد الكفار بالغارات ؛ مد يده الى اخذ الاموال ، وعزم على مصادرة المتصرفين والعمال ، ولم يزل اميرا على دمشق حتى كتب الى قسيم الدولة زنكي بن اق سنقر يستدعيه ليسلم اليه دمشق ، فخافته امه زمرد فرتبت له من قتله في قلعة دمشق ، في شهر ربيع الاخر من سنة تسع وعشرين وخمسمئة ، ونصبت اخاه محمود بن بوري مكانه .

-٥٢١٢-

- ألب ارسلان بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان التركي

ولي إمرة حلب بعد موت أبيه رضوان في جمادى الاخرة سنة سبع وخمس مئة وهو صبي عمره ست عشرة سنة ، وتولى تدبير امره خادم لابيه اسمه لؤلؤ اليايا ، ورفع عن اهل حلب بعض ماكان جدد عليهم من الكلف وقتل اخويه ملك شاه ، واميركا ، وقتل جماعة من الباطنية وكانت دعوتهم ظهرت في حلب في ايام ابيه ، ثم كاتب أمير دمشق ، ورغب في استعطافه ، فأجابه طغتكين الى ذلك ، ودعا له على منبر دمشق في رمضان من هذه السنة . ثم قدم الب ارسلان في هذا الشهر دمشق وتلقاه طغتكين واهل دمشق في احسن زي ، وانزله في القلعة بدمشق ، وبالغ في اكرامه ، فأقام بها اياما ، ثم عاد الى حلب في اول شوال ، وصحبه طغتكين ، فلما وصل الى حلب لم ير منه طغتكين مايحب ، ففارقه ، وعاد الى دمشق ، وساءت سيرة الب ارسلان بحلب ، وانهمك في المعاصي ، وخافه لؤلؤ اليايا فقتله بقلعة حلب في ثاني ربيع الآخر سنة ثمان وخمس مئة ونصب اخا له طفلا عمره ست سنين وبقي لؤلؤ بحلب الى ان قتل في أخر سنة عشر وخمسمائة ببالس .

دقاق بن تتش

دقاق بن تتش بن الب ارسلان ابو نصر المعروف بالملك شمس الملوك ولي امرة دمشق بعد قتل ابيه تاج الدولة في سنة سبع وثمانين واربعمائة ، وكان بحلب ، فراسله خادم لابيه اسمه ساوتكين كان نائبا في قلعة دمشق ، سرا من اخيه رضوان بن تتش صاحب حلب ، فخرج دقاق الى دمشق وحصل بها ، واجلسه ساوتكين في منصب ابيه : ثم دبر هو وطغتكين المعروف بأتابك زوج ام الملك دقاق على ساوتكين فقتل .

واقام دقاق بدمشق ، وقدم اخوه رضوان فحاصرها فلم يصل منها الى مقصود فرجع الى حلب ، ثم عرض لدقاق مرض تطاول به وتوفي منه في الثاني عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين واربعمائة ؛ وان امه زينت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ، ثقبته بابرة فيها خيط مسموم ، وان امه ندمت على ذلك بعد الفوت ، واومات الى الجارية ان لاتفعل ، فأشارت اليه أن قد كان ، وتهرى جوفه فمات .

ـ ٥٢١٤ ـ

طغتكين اتابك دمشق

طغتكين ، ابو منصور ، المعروف باتابك ، كان من رجال (تاج) الدولة ، وزوجه بام ابنه دقاق ، وكان مع تاج الدولة لما ذهب الى الري لقتال ابن اخيه ، ثم رجع الى دمشق بعد قتل تاج الدولة ، وكان اتابك دقاق مدة ولايته فلما مات دقاق استولى على دمشق ، وكان شهما مهيبا ، مؤثرا لعمارة ولايته ، شديدا على اهل العيث والفساد ، وامتدت ايامه الى ان مات يوم السبت السابع ، ويقال الثامن من صفر ، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، ودفن عند المسجد الجديد قبلي المصلى ...

-٥٢١٥-

محمود بن بوري طغتكين أتابك ابو القاسم بن ابي سعيد ، الملقب شهاب الدين

ولي امرة دمشق بعد قتل اخيه اسماعيل الملقب بشمس الملوك . وكانت أمه المعروفة بزمرد خاتون الغالبة على امره والمدبرة له الى ان تزوجها اتابك زنكي بن قسيم الدولة وخرجت الى حلب فكان المدبر له بعد خروجها انر المعروف بمعين الدين احد مماليك جده طغتكين .

وابتداء ولايته في شهر ربيع الاخر سنة تسع وعشرين وخمسمئة ، وكانت الامور في ايامه تجري على استقامة الى ان وثب عليه جماعة من خدمه في ليلة الجمعة ثالث وعشرين او رابع وعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة ، فقتلوه ، وكتب الى اخيه محمد بن بوري صاحب بعلبك ، فقدم اخر نهار يوم الجمعة وتسلم القلعة والبلد ولم ينازعه احد .

- ٥٢١٦ -

محمود بن زنكي بن اق سنقر

ابو القاسم بن ابي سعيد قسيم الدولة ، التركي ، الملك العادل نور الدين وناصر امير المؤمنين

كان جده اق سنقر قد ولاه السلطان ابو الفتح ملكشاه بن الب ارسلان حلب ، وولي غيرها من بلاد الشام ، ونشأ ابوه قسيم الدولة بعده بالعراق ، وندبه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ابن الب ارسلان براي الخليفة المسترشد بالله امير المؤمنين لولاية ديار الموصل والبلاد الشامية بعد قتل اق سنقر البرسقي وموت ابنه مسعود ، فظهرت كفايته وظهرت شهامته في مقاتلة العدو ـ خذله الله ـ وثبوته عند ظهور متملك الروم ونزوله على شيزر حتى رجع الى بلاده خائبا .

وحاصر ابوه قسيم الدولة دمشق مرتين فلم يتيسر له فتحها ، وفتح الرها والمعرة وكفرطاب وغيرها من الحصون الشامية ، واستنقذها من ايدي الكفار ، فلما انقضى اجله ـ رحمه الله ـ قام ابنه نور الدين ـ اعزه الله ـ مقامه في ولاية الاسلام .

ومولده على ماذكر كاتبه ابو اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي المعري وقت طلوع الشمس من يوم الاحد سابع شوال سنة احدى عشرة وخمسمئة ؛ ولما راهق لزم خدمة والده الى ان انتهت مدته ليلة الاحد السادس من شهر ربيع الاخر سنة احدى واربعين وخمسمئة على قلعة جعبر ، وكان محاصرا لها ، ونقل تابوته الى مشهد الرقة فدفن بها .

وسير صبيحة الاحد الملك الب ارسلان بن السلطان محمود بن محمد الى الموصل مع جماعة من اكابر دولة ابيه ، وقال لهم : ان وصل اخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له ، وانتم في خدمته ، وان تأخر فانا اقرر امور الشام ، واتوجه اليكم .

ثم قصد حلب ودخل قلعتها المحروسة على اسعد طائر وايمن بركة ، يوم الاثنين سابع ربيع الاخر ، ورتب في القلعة والمدينة النواب ، وانعم على الامراء وخلع عليهم ، وكان ابن جوسلين قد عمل على اخذ الرها ، وحصل في البلد ، فوجه اليه امراء دولته حتى استنقذها منه وخرج هاربا .

ولما استتب له الامر ظهر منه بذل الاجتهاد في القيام بامر الجهاد . والقمع لاهل الكفر والعناد ، والقيام بمصالح العباد ، وخرج غازيا في اعمال تل باشر ، فافتتح حصونا كثيرة ، وافتتح قلعة افامية ، وحصن البارة ، وقلعة الراوندان ، وقلعة تل خالد ، وحصن كفر لاثا ، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم ، وقلعة عزاز ، وتل باشر ، ودلوك ، ومرعش ، وقلعة عين تاب ، ونهر الجوز ، وغير ذلك .

وغزا حصن انب فقصده الابرنس متملك انطاكية ، وكان من ابطال العدو وشياطينهم ، فرحل عنها ، ولقيه دونها فكسره وقتله وثلاثة الاف فرنجي كانوا معه ، وبقي ابنه صغيرا مع امه بأنطاكية ، وتزوجت ابن الابرنس الاول وهو بيمنت ووقع في اسره في نوبة حارم ، وباعه نفسه بمال عظيم انفقه في الجهاد .

واظهر بحلب السنة حتى اقام شعار الدين ، وغير البدعة التي كانت لهم في التاذين ، وقمع بها الرافضة المبتدعة ، ونشر فيها مذاهب اهل السنة الاربعة . واسقط عنهم جميع المؤن ، ومنعهم من التوثب في الفتن ، وبنى بها المدارس ووقف الاوقاف ، واظهر فيها العدل والانصاف .

وقد كان صالح المعين الذي كان بدمشق وصاهره ، واجتمعت كلمتها على العدو لما وآزره ، وحاصر دمشق مرتين فلم يتيسر له فتحها ، ثم قصدها الثالثة فتم له صلحها ، وسلم اهلها اليه البلد لغلاء الاسعار ، والخوف من استعلاء كلمة الكفار ، فضبط امورها وحصن سورها ؛ وبنى بها المدارس والمساجد ، وافاض على اهلها الفوائد ، واصلح طرقها ، ووسع اسواقها ، وادر الله على رعيته ببركته ارزاقها ، وبطل منها الانزال ، ورفع عن اهلها الاثقال ، ومنع ماكان يؤخذ منهم من المغارم كدار بطيخ وسوق البقل ، وضمان النهر والكيالة ، وسوق الغنم ، وغير ذلك من المظالم ، وامر بترك ماكان يؤخذ على الخمر من المكس ، ونهى عن شربه ، وعاقب عليه باقامة الحد والحبس ، واستنقذ من العدو - خذلهم الله - ثغر بانياس ، وغيره من المعاقل المنيعة كالمنيطرة وغيرها بعد الاياس . وبلغني انه في الحرب رابط الجاش ثابت القدم ، شديد الانكماش ، حسن الرمي بالسهام ، صليب الضرب عند ضيق المقام ، يقدم اصحابه عند الكرة ، ويحمي منهزمهم عند الفرة ، ويتعرض بجهده للشهادة لما يرجو بها من كمال السعادة .

ولقد حكى عنه بعض من خدمه مدة ، ووازره على فعل الخير ، انه سمعه يسأل الله ان يحشره من بطون السباع وحواصل الطير ، فالله يقي مهجته في الاسواء ، ويحسن له من الظفر بجميع الاعداء ؛ فلقد احسن الى العلماء واكرمهم ، وقرب المتدينين واحترمهم ، وتوخى العدل في الاحكام والقضايا ، والان كنفه واظهر رأفته بالرعايا ، وبنى في اكثر مملكته ادر العدل ، واحضرها القضاة والفقهاء للفصل ، وحضرها بنفسه في اكثر الاوقات ، واستمع من المتظلمين الدعاوى والبينات ، طلبا للانصاف والفصل ، وحرصا على اقامة العدل .

وادر على الضعفاء والايتام الصدقات ، وتعهد ذوي الحاجة من اولي التعفف بالصلات ، حتى وقف وقوفا على المرضى والمجانين ، واقام لهم الاطباء والمعالجين ، وكذلك على جماعة العميان ، ومعلمي

الخط والقرآن ، وعلى ساكني الحرمين ، ومجاوري المسجدين ، واكرم امير المدينة الحسين واحسن اليه ، واجرى عليه الضيافة لما قدم عليه ، وجهز معه عسكرا لحفظ المدنية ، وقام لهم بما يحتاجون اليه من المؤونة ، واقطع أمير مكة اقطاعا سنيا ، واعطى كلا منهما مايأكله هنيا مريا .

ورفع عن الحجاج ماكان يؤخذ منهم من المكس ، واقطع امراء العرب الاقطاعات لئلا يتعرضوا للحجاج بالنحس ، وامر باكمال سور مدينة الرسول ، واستخرج العين التي باحد وكانت قد دفنتها السيول ، ودعي له بالحرمين ، واشتهر صيته في الخافقين .

وعمر الربط والخانقاهات والبيمارستانات ، وبنى الجسور في الطرق والخانات ، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين ، واجرى الارزاق على معلميهم ، وعليهم بقدر مايكفيهم ، وكذلك صنع لما ملك سنجار وحران والرها والرقة ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر ، فما من بلد منها الا وله فيها حسن اثر . وما من اهلها احد الا نظر له احسن نظر .

وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها ، واقام عليها الحفظة من نقلتها وطلابها وأربابها ، وجدد كثيرا من قني السبيل ، وهدى بجهده الى سواء السبيل .

واجهد نفسه في جهاد اعداء الله ، وبالغ في حربهم ، وتحصل في اسره جماعة من امراء الفرنج ـ خذلهم الله ـ كجوسلين وابنه ، وابن الفونش ، وقومص اطرابلس ، وجماعة من ضربهم .

وكان متملك الروم قد خرج من قسطنطينية وتوجه الى الشام طامعا في تسلم انطاكية ، فشغله عن مرامه الذي رامه بالمراسلة ، الى ان وصل اخوه قطب الدين في جنده من المواصلة ، وجمع له

الجيوش والعساكر ، واذفق فيها الاموال والذخائر ، فأيس الرومي من بلوغ ماكان يرجو ، وتمنى منه المصالحة لعساه ينجو ، فاستقر رجوعه الى بلاده ذاهبا ، فرجع من حيث جاء خائبا ، ولم يقتل بالشام مع كثرة عسكره مقتله ، ولم يرع من زرع حارم ولا غيرها سنبلة ، وحمل الى بيت مال المسلمين من التحف ماحمل ، ولم يبلغ امله وضل ماعمل .

وغزا معه اخوه قطب الدين في عسكر الموصل وغيرهم ممن المجاهدين ، فكسر الفرنج والروم والارمن على حارم ، واذاقهم كؤوس المنية بالاسنة والصوارم ، فأبادهم حتى لم يفلت منهم غير الشديد الذاهل ، وكانت عدتهم ثلاثين الفا بين فارس وراجل ، ثم نزل على قلعة حارم ، فافتتحها ثانية وحواها ، واخذ اكبر قرى عمل انطاكية وسباها ، وكان قبل ذلك قد كسرهم بقرب بانياس ، وقتل جماعة من ابطالهم ، واسر كثيرا من فرسانهم ورجالهم .

وقد كان شاور السعدي امير جيوش مصر ، وصل الى جنابة مستجيرا لما عاين الذعر ، فأحسن جواره واكرمه ، واظهر بره واحترمه ، وبعث معه جيشا كثيفا يرده الى درجته ، فقتلوا خصمه ولم يقع منه الوفاء بما قرر من جهته ، واستجاش بجيش العدو ، طلبا للبقاء في السمو ، ثم وجه اليه بعد ذلك جيشا اخر ، فأصر على المسامقة له وكابر ، واستنجد بالعدو - خذله الله - فأنجدوه ، وضمن لهم الاموال الخطيرة حتى عاضدوه ، وانكفأ جيش المسلمين الى الشام راجعا ، وحدث متملك الفرنج نفسه بملك مصر طامعا ، فتوجه اليها بعد عامين راغبا في انتهاز الفرصة ، فأخذ بلبيس وخيم من مصر بالعرصة ، فلما بلغه ذلك تدخل جهده في توجيه الجيش اليها ، وخاف من تسلط عدو الدين عليها ، فلما سمع العدو - خذلهم الله - بتوجه جيشه رجعوا خائبين ، واصبح اصحابه بمصر لمن عاندهم غالبين ، وامل أهل اعمالها بحصول جيشه عندهم وانتعشوا ، وزال عنهم ماكانوا قد خشوا ، واطلع من شاور على

المخامرة ، وانه راسل العدو طمعا منه في المظافرة ، وارسل اليهم ليردهم ، ليدفع جيش المسلمين بجندهم ، فلما خيف من شره ومكره ، لما عرف من غدره وختره ، وانفتح الامر في ذلك واستبان ، تمارض الاسد ليقتنص الثعلبان ، فجاءه قاصدا لعيادته ، جاريا في خدمته على عادته ، فوثب جورديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاور ، واراحا العباد والبلاد من شره ، واما شاور فانه اول من تولى القبض عليه ، ومد يده الكريمة اليه بالمكروه ، وصفا الامر لاسد الدين وملك ، وخلعت عليه الخلع ، وحل واستولى اصحابه على البلاد ، وجرت اموره على السداد وظهر منه حميد السيرة وحسن الاثار ، (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) .(الرعد ٤٢) .

وظهرت كلمة اهل السنة بالديار المصرية ، وخطب فيها للدولة العباسية بعد الياس ، واراح الله من بها من الفتنة ورفع عنهم المحنة ، فالحمد لله على مامنح ، وله الشكر على مافتح .

ومع ماذكرت من هذه المناقب كلها ، وشرحت من دقها وجلها ، فهو حسن الخط والبنان ، متأت لمعرفة العلوم بالفهم والبيان ، كثير لمطالعتها ، مائل الى نقلها ، مواظب حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن ، مقتن لها بأوفر الاعواض والثمن ، كثير المطالعة للعلوم الدينية ، متبع للاثار النبوية ، مواظب على الصلوات في الجماعات ، مراع لادائها في الاوقات ، مؤد لفروضها ومسنوناتها ، معظم لقدها في جميع حالاتها ، عاكف على تلاوة القران على ممر الايام ، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام ، كثير الدعاء والتسبيح ، راغب في صلاة التراويح ، عفيف البطن والفرج ، مقتصد في الانفاق والخرج ، متحري في المطاعم والمشارب والملابس ، متبري من التباهي والتماريء والتنافس ، عري عن التجبر والتكبر ، بري من التنجم والتطير ، مع ماجمع الله من العقل المتين ، والرأي الصويب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حيز سمتهم ، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم .

حتى روى حديث المصطفى صلى الله وعليه وسلم ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ، حرصا منه على الخير في نشر السنة والتحديث ، ورجا ان يكون ممن حفظ على الامة اربعين حديثا كما جاء في الحديث ، فمن راه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره .

وقد حكى عنه من صحبه في حضره وسفره ، انه لم يكن يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره ، وان اشهى ماالیه كلمة حق يسمعها ، او ارشاد الى سنة يتبعها.

يحب الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم ، فاذا احتلم مماليكه اعتقهم ، وزوج ذكرانهم باناثهم ورزقهم .

ومتى تكررت الشكاية اليه من احد ولاته ، امر بالكف عن اذى من تكلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم الى العدل ، قابله باسقاط المرتبة والعزل ، فلما جمع الله له من شريف الخصال ، تيسر له جميع مايقصده من جميع الاعمال ، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ، ومكن له في البلدان والبقاع ، حتى ملك حصن شيزر وقلعة دوسر ، وهما من احصن المعاقل والحصون ، واحتوى على مافيهما من الذخر المصون ، من غير سفك محجمة من دم في طلبها ، ولا قتل احد من المسلمين بسببها ، واكثر ما اخذه من البلدان ، بتسلمه من اهله بالامان ، ووفى لهم بالعهود والايمان ، فأوصلهم الى مأمنهم من المكان .

واذا استشهد احد من اجناده ، حفظه في اهله واولاده ، واجرى عليهم الجرايات ، وولى من كان اهلا منهم للولايات ، وكلما فتح الله عليه فتحا وزاده ولاية ، اسقط عن رعيته قسطا وزادهم رعاية ، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس ، واتضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس ، ودرت على رعاياه الارزاق ، ونفقت عندهم

الاسواق ، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق ، وزال ببركته العناد والشقاق ، فإن فتكت شرذمة من الملاعين ، فلما علمت منه الرأفة واللين ، ولو خلط لهم شدته بلينة ، لخاف سطوته الاسد في عرينه .

فالله يحقن به الدماء ، ويسكن به الدهماء ، ويديم له النعماء ، ويبلغ مجده السماء ، ويجري الصالحات على يديه ، ويجعل منه واقية عليه ، فقد القى أزمتنا اليه ، واحصى علم حاجتنا اليه.

ومناقبه خطيرة ، وممادحه كثيرة ، ذكرت منها غيضا من فيض ، وقليلا من كثير ، وقد مدحه جماعة من الشعراء ، فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف الائه بل قصروا ، وهو قليل الابتهاج بالشعر ، زيادة في تواضعه لعلو القدر .

فالله يديم على الرعية ظله ، وينشر فيهم رافته وعدله ، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله ، ويختم بالسعادة والتوفيق اعماله ، فهو بالاجابة جدير ، وعلى مايشاء قدير. والله اعلم .

- ٥٢٢٤ -

يوسف بن أيوب بن شادي

الملك الناصر صلاح الدين

سلطان المسلمين ، وقامع المشركين ، فاتح البيت المقدس وبـلاد الساحل ، ومخلصها من ايدي الكافرين ، رحمه الله .

- ٥٢٢٥ -

يوسف بن دوناس بن عيسى

أبو الحجاج المغربي الفندلاوي الفقيه المالكي

قدم الشام حاجا ، فسكن بانياس مدة ، وكان خطيبا بهـا ، ثـم انتقل الى دمشق واستوطنها ، ودرس بها مـذهب مـالك ، وحـدث بالموطأ ، وبكتاب التلخيص لابي الحسن القابسي .

كان شيخا حسن المفاكهة ، حلو المحـاضرة ، شـديد التعصـب لمذهب اهل السنة ، كريم النفس ، مطرحا للتكلف ، قوي القلب .

قال الحافظ ابن عساكر:سمعت ابا تراب بن قيس بـن حسـين البعلبكي يذكر :

انه كان يعتقد اعتقاد الحشوية ، وانه كان شديد البغض ليوسف الفندلاوي لما كان يعتمده من الرد عليهم ، والتنقص لهم ، وانه خرج الى الحجاز ، وأسر في الطـريق ، وألقـي في جـب ، وألقـي عليه صخرة ، وبقي كذلك مدة يلقى اليه مـايأكل وأنه أحس ليلة بحس ، فقال : ناولني يدك ، فناوله يده ، فأخرجه من الجب ، فلمـا طلع اذا هـو الفندلاوي ، فقال : تب مما كنت عليه ، فتاب ، وصار مـن جملة المحبين له .

وكان ليلة الختم في شهر رمضان يخطب خاطب في حلقته بالمسجد الجامع ويدعو بدعاء الختم ، وعنده الشيخ ابـو الحسـن علي بـن المسلم ، فرماهم بعض من كان خارج الحلقة بحجر ، فلم يعرف من هـو لكثرة من حضر ، فقال الفندلاوي : اللهم اقطع يده ، فمـا مضى الا يسير حتى أخذ خضير الركابي مـن حلقـة الحنابلة ، ووجـد في صندوقه مفاتيح كثيرة قد اعدها لفتـح الابـواب للتلصص ، فـامر شمس الملوك بقطع يديه ، ومات من ذلك .

قتل الفندلاوي - رحمه الله - يوم السبت السادس من شهر ربيع الاول سنة ثلاث واربعين وخمسمائة بالنيرب تحت الربوة . وكان قد خرج مجاهدا للفرنج - خذلهم الله ، وفي هذا اليوم نزلوا على دمشق حماها الله ، ورحلوا بكرة يوم الاربعاء الذي يليه بعد اربعة ايام من نزولهم بارض قينية ، وكان رحيلهم لقلة العلوفة ، والحذر من العساكر المتواصلة لنجدة اهل دمشق من الموصل وحلب - ودفن تحت الربوة على الطريق ، ثم نقل الى مقبرة الباب الصغير ، فدفن بها ، وكان خروجه اليهم راجلا .

قال احمد بن محمد القيرواني :

رايت الشيخ الامام حجة الدين في المنام جالسا في مكانه الذي يدرس فيه بالجامع ، فاقبلت اليه وقبلت يده ، فقبل راسي ، وقلت له : يامولاي الشيخ ، والله مانسيتك ، وما انا فيك الا كما قال الاول :

فاذا نطقت فانت اول منطقي
وإذا سكت فانت في اضماري

فقال لي : بارك الله فيك . ثم قلت له : يامولاي الشيخ الامام ، اين انت ؟ فقال : في جنات عدن ، (على سرر متقابلين) «الحجر - الاية : ٤٧ »

من تاريخ آمد وميافارقين

لابن الازرق الفارقي

ذكر ولاية نجم الدين إلغازي وملكه ميافارقين(١)

قيل لما فتح ابن جهير ديار بكر، كان الامير ارتق معه (٢) ، فلما استقر ولم يبق له موضع انفصل عنه ومضى لما جاء ملكشاة الى الشام(٣) ، وملك بيت المقدس وما حوله ، واقام بالساحل ومات هناك ، وملك بيت المقدس بعده ولده الامير سكمان ، والامير نجم الدين الغازي(٤) مدة ، وسار نجم الدين الغازي الى السلطان محمد(٥) وبقي في خدمته واقطعه حلوان مدة ، ثم اعطاه سنجر(٦) العراق ، فاقام ببغداد ، وملك الفرنج الساحل وبيت المقدس فوصل الامير سكمان الى هذه البلاد وملك حصن كيفا ، وكان ملك الامير الياقوتي ماردين ، فوصل نجم الدين الغازي الى هذه البلاد ، ومات الياقوتي ، وكان فيها من قبل الياقوتي ، فدخل تحت طاعة سكمان ، من حصن كيفا ، وبقي بها وملكها قيل الى سنة ثمان وتسعين واربعمائة الامير سكمان وبقي فيها الى ان مات الامير سكمان ، وملك بعده ابنه الامير ابراهيم بن سكمان ، فنفذ الى ماردين شمس واخذ ابنا له رهينة وبقي عنده بحصن كيفا مدة ، ثم بلغه انه رشا الى ولده وجيشه ، فلما وصل نجم الدين الغازي سلمها اليه ، وبقي الامير ابراهيم مدة ثم مات بحصن كيفا ، وولي موضعه اخوه الامير داود بعد اخيه سكمان ، وبقي مدة ، وكان الامير شمس ببلد(٧) وماردين بيده لم يسلمها الى احد ، وحضر نجم الدين وسلمها اليه في سنة سبع وخمسمائة ، وحصلت للغازي واولاده من ذلك اليوم الى الان ، واما الامير شمس فاولد الامير سنقر ، واولد سنقر يوسف ، واولد يوسف رسول ، وقيل ملك ماردين في سنة سبع وثمان وخمسمائة على ان بقي بها الى سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، ثم نفذ السلطان يقول له ان ميافارقين خربت واضمحلت ، وهي بلد لايرى مثله ، فنفذ السلطان الى الدزبكي رسولا يأمره ان يسلم

ميافارقين الى نجم الدين الغازي ، فحضر وسلمها اليه ، فدخل اليها في رابع جمادى الاخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وملكها ، وخرج الدزبكي ونزل على الروابي ، واقام ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع وصل رسول مجد من السلطان يقول له : لاتسلم ، فوجد الامر قد فات(٨) ، واستقر نجم الدين بميافارقين ، واظهر العدل والاحسان الى الناس وازال عنهم الاثقال والاقساط والانزال من دورها ، وكان الناس من النزل في دورهم في شدة شديدة ، وكان اكثرها خراب لاختلاف الدول وتغير الاصحاب كل قليل ، ومن تملكهم يحيف عليهم ويظلمهم ويصادرهم لعلمه انه لايقيم ولايدوم ملكه ، ومن حيث ملك نجم الدين الغازي استقر وطابت قلوبهم واستقر الناس في دورهم ، وحصلت الاجناد التي مالهم دور ينزلون بها ويضربون لهم في خرابات المدينة خركاوات(٩) ، لان اكثر المدينة كانت خرابا ، وكانت الطرقات مخيفة من الحرامية وقطاع الطرق بحيث انه كان لاتقدر القافلة تمضي الى آمد الا ومعها الشحنة والخيل وكذلك الى ارزن(١٠) وحصن كيفا وحاني(١١) وماردين محتاجون من يخفرهم في المسافة القريبة لخراب البلاد والضياع ، فمن حيث ملك نجم الدين امنت الطرقات والبلادوانهزمت الحرامية وانعمرت الضياع ، وبدأت ميافارقين في العمارة ، وساس الناس احسن سياسة ، وبقي الى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وملك حلب ، ولقي الافرنج وكسرهم بطرق حلب وغنم اموالهم ، واسر منهم خلقا عظيما ، وهي كسرة البلاط .

واما حلب فانه اخذها من سلطان شاه بن الملك رضوان ، وكان اخذها من الامير ابن (١٢) بلك

قيل وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة احترق جامع آمد ، وفي سنة اربع عشرة وخمسمائة ملك نجم الدين نصيبين ، وسار اليه القاضي علم الدين بن نباتة وجملة من اهل ميافارقين ، فلقوه بها ، وهذوه بفتحها ، وخلع عليهم واحسن اليهم ، وعادوا الى ميافارقين .

قيل وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة نفذ اهل تفليس الى نجـم الدين الغازي يستدعونه ليسلموا اليه تفليس وكان ملكها بيد اهلهـا من مقدار اربعين سنة ، وكان ملاكها قوم مـن اهلهـا يسـمون بنو جعفر ، من مقدار مائتي سنة ، ثم انقرض كبارهم ، واضمحلوا فعاد امرها الى اهلها الى ها هنا ، وكان كل شهر يلي امرهم منهم واحد وبقوا بذلك مدة اربعين سنة ، وكان الملك داود ملك الابخـاز والكرج قد ضايقها مضايقة شديدة واضمحلت ، وكان قد نفذوا الى السلطان طغريل بن السلطان محمد ، وكان ملك جنزى(١٤) وارزن فنفـذ لهم شحنة ، وزادت مضايقة ملك الكرج(١٥) لهـم ، وبقـوا على هذا مـدة ، فـاتفقوا ان يحملوا له في كل سـنة عشرة الاف دينار ، ويكون عندهم شحنة معه عشرة فـوارس ، فبقـوا على ذلك مـدة ، ونفذوا الى نجم الدين الغازي يسـتدعونه ، فسـار ومعـه عشـائر عظيمة ، ومعه دبيس بن صدقة (١٦) ملك العـرب ، وكان صـهر نجم الدين على ابنته جهـان خـاتون ، وكان قـد وصـل اليه في تلك السنة ، فسار بالعساكر ونفذ الى شـمس الدولة طغـان ارسـلان صاحب ارزن وبدليس(١٧) ، وكان له مدينة دوين(١٨) ، وامره ان يدخل من شرقي تفليس ، وسار واخذ معه القاضي علم الدين ابن نباته ، ومعه ولده القاضي علم الدين ابـو الفتـح الكبير ، هـو الان قاضي ماردين ، والوزير ابي تمام ابن عبدون ، وسار معه ، فوصلوا الى ارزن الروم ، وتخلف القـاضي والوزير بـأرزن الروم ، ودخـل بالعساكر من ولاية الفرس وطريق بـرياليث ، واتفقـوا ان تجتمـع العساكر اجمع على باب تفليس ، ويحضر السـلطان طغـريل مـن ناحية جنزى ، وسار طغان بن سكمان الاحدب من دوين ، ووصـل نجم الدين الى ان بقي بينه وبين تفليس الجبل مقدار نصـف يوم ، وخرج الملك داود ومعه ولده ديميطري من جانب الغـرب في عسـاكر عظيمة ، وكان يحدر عليهم من الجبل وهم في لحفه ، ولم يكن وصلت عساكر السلطان طغريل ولا شـمس الدولة الاحـدب بمـن معـه ، وتقاتلوا قتالا عظيما ، وكسر نجم الدين وقتل معه خلق كثير ، وغنم الكفار منهم غنيمة عظيمة ، وخرج نجم الدين ودبيس في نفر يسـير بحيث ان بقي عندهم من الاسرى الى زماننا ، ولقـد رأيت مـوضع

الوقعة حين دخلت الى تفليس في سنة ثمـان واربعين وخمسـمائة ، فاقمت بها ثـم وصـلت الى خـدمة ملك الابخـاز ، وبقيت عنده ، وخرجت معه وسرت في ولايته معـه مقـدار نيف وسـبعين يومـا ، واجتاز الى اللان وطرف الدربند والى ولاية الابخاز ولقـد وصـلنا بعض الايام في ولاية الابخاز الى برج واسـع تحـت جبـل في قلعـة شامخة ، ونزل الملك هناك ، وقال لي ملك الابخاز : يافلان في هـذه القلعة رجل اسير مستعرب من نوبة الغازي ، فاصعد اليه من الغـد وابصره واسأله من اين هو ، فعولت على ذلك ، وقلت اطلب من الملك ليطلقه فبت تلك الليلة ، فلما كان مـن وقـت السـحر ضرب بـوق الرحيل ، لانه وصل اليه الخبر ان ارض ولايته قد تشوشت بغيابه ، فحين وصله الخبر رحل ، ورحل الناس ، ولم يقـدر لي الاجتمـاع بذلك الرجل ، وقيل في سنة خمس عشرة وخمسـمائة كانت ، والاول اصح ، الملك سكمان بحلب ، ولما كسر نجم الدين وعاد بمن بقي معه رحل ملك الابخاز بـالغنائم والاسرى ونزل على تفليس وحـاصرها مدة ثم هدم سورها من قبل الغرب ودخلها سيفا فـاحرقها وهـدمها وبعدثلاثة ايام أمن اهلها وطيب قلوبهم ووعدهم بـالجميل وأسـقط عنهم تلك السنة الاعشـار والمؤن ، والاقسـاط والخـراج ، وشرط المسلمين كل ما ارادوه من الشرط الذي هـو الان بـاق بهـا : انه لايعبر الى جانب المسـلمين بـالمدينة خنزير ولا يذبـح بهـا ولا في سوقها ، وضرب لهم الدراهم وعليها اسـم السـلطان والخليفـة في الوجه الواحد ، وفي الوجه الاخـر اسـم الله واسـم النبـي عليه السلام ، واسمه على جانب الدرهم ، ونادى في البلد : إن مـن آذى مسلما قد اهدر دمه ، وشرط لهم الاذان والصلاة والقراءة ظاهرا ، وان يخطب يوم الجمعة ويصلي ويدعي للخليفة والسـلطان ولايدعي لغيرهما على المنبر ، وشرط ان حمام اسـماعيل بتفليس لايدخلهـا كرجي ولاارمني ولايهودي ، ووصف خدمة(١٩) الكرجي في السنة خمسة دنانير ، وخدمة اليهودي اربعة دنانير ، وخدمة المسلم ثـلاثة دنانير ، واحسن الى المسلمين غاية الاحسان ، وجعل لأهـل العلم والدين والصوفية اكرم المنازل ، وماليس لهم عند المسلمين ، ولقـد رأيت هذه الشروط كلها لما دخلت الى تفليس في سنة ثمـان واربعين

وخمسمائة ولقد رأيت ملك الابخاز ديميطري الذي كنت في خدمته وقد نزل الى تفليس وأقام بها أياما ، ونزل ذات يوم جمعة الى الجامع وجلس على دكة تقابل الخطيب ، فوقف موضعه حتى خطب الخطيب . وكل الناس يسمع الخطبة جميعها ، ثم خرج وأطلق برسم الجامع مائتي دينار أحمر ، وكنت أرى العلماء والوعاظ والاشراف والصوفية والذين يصلون يكرمهم ويعطيهم ويحترمهم ، ويعتمد معهم ماليس بمثله ، ولقد كنت أرى احترامه للمسلمين مالو أنهم ببغداد مااحترموا تلك الحرمة .

وقيل في سنة خمس عشرة وخمسمائة تزلزلت مدينة جنزى وهي كنجة وانخسف طرف منها وانهدم سورها ، فسار الملك داود بأصحابه وخيله ورجله وقصدها ، ونهب أموالهم وماكان فيها ، وقتل منهم خلقا عظيما وسبى منهم خلقا عظيما لايحصى بحيث حملت الاسارى الى تفليس على العجل من كثرتهم وسيقوا المسلمين مثل قطعان الاغنام اسارى ، ودخل بهم الى تفليس فاشترى أهل تفليس أكثرهم واطلقوهم ، وقال لي جماعة من أهل تفليس انناماافتقرنا الا من تلك السنة .

قيل وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة قتل ممدود بجامع دمشق ودفن بالمرج ، قيل وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد نجم الدين الى ماردين ، وأقام بها سنة ست عشرة وخمسمائة وخرج الى أوشك الهينة (٢١)من باب ميافارقين واقام هناك ومعه زوجته الخاتون بنت طغرتكين (٢٢)صاحب دمشق ، فمرض وتوفي يوم الخميس سابع عشرين رمضان ، فحمل ليلا وركب ولده الامير شمس الدولة سليمان والخاتون ، ووصلوا متفرقين ليلا ، ووصلوا الى باب الهوة (٢٣) ، وأجلسوا الأمير على فرسه ومن ورائه رجل يسكنه ، وتقدموا وصاحوا فنزل الوالي وكان اسمه كنغلي ، ودخل شيخ ممن صحب الامير نجم الدين من أول زمانه ، وكلمه شمس الدولة والخاتون ، ففتح الباب فقالوا : ان

الأمير مريض ، فلما حصلوا في ارض القصر صاحوا وضجوا وقالوا : مات الأمير في هذه الساعة ، وأصبح الناس ، وصعد أهل البلد ومن كان بها من الجند الى القصر وغسل الأمير وصلي عليه ، ودفن بالسندلي مدة ، ثم أخرج ودفن في مسجد الأمير شرقي قبة السلطان ، فدفن هناك ، وكان نجم الدين الغازي قد تزوج بفرخبدا خاتون بنت الملك رضوان (٢٤)لما ملك حلب ، وحقد عليها ولم يدخل بها ولا رآها ، ومات ولم يرها ، تزوجها بعده الأمير بلك ابن بهرام بن أرتق .

قيل واستقر شمس الدولة سليمان بميافارقين ، واستوزر الوزير عبد الملك بن ثابت ورد الأمور اليه ، وأخذ خرتبرت(٢٥) من الأمير بلك وبقيت معه الى أن مات ، وأخذها الأمير داود ، وأخذ بلد حزة من الأمير داود وأخذ الضياع التي أخذها حسام الدين صاحب ارزن من بلد ميافارقين .

وفي سنة سبع عشرة قتل الافضل أمير الجيوش بمصر قتلته الباطنية (٢٧)وترك والي ميافارقين في برج الملك مملوكه ختلج (٢٨) شاه ونفذ خطب سيدة خاتون بنت السلطان قلج ارسلان بن سليمان بن قطلمش ، ومضى القاضي أبو سالم بن نباته أحضرها اليه من ملطية ، ودخلت وكان ملكه بميافارقين ، وكان لما مات نجم الدين بن السعيد حسام الدين تمرتاش وولده بماردين فملك ماردين وأرزن وكان معه الصاحب الحاجب شمس الحجاب محمد اكديش ، وكان زوجه نجم الدين الغازي بأم السعيد حسام الدين .

قيل وفي سادس عشرين ربيع الآخر مات القاضي علم الدين أبو الحسن علي بن يحيى بن نباته بميارفارقين ، وولى القاضي ولده تاج الدين القضاء ، وهو أبو سالم رحمه الله ، وخلع عليه شمس الدولة وأكرمه وولاه موضع ابيه ، واستقر في القضاء ، وكان ولد لشمس الدولة ابنا اسمه محمود ، ولقد رأيته بماردين وهو في اسوأ

حال من سوء طريقته وقبح سيرته في حق نفسه وخروجه عن طـاعة اهل بيته ورذالة نفسه ، وماأعلم ماكان منه .

وكان شـــمس الدولة أميرا عادلا حســن السريرة مقـــداما شجاعا ، وعاش الى الخميس ســادس عشر رمضــان وكان وقــت العصر ، فمات في سنة ثمــان عشرة وخمســمائة ودفـن عند أبيه في مسجد الأمير ، واستبد الوالي ختلج شاه بميافـارقين ، وحصـلت له ، وتحت حكمه .

ذكر ولاية حسام الدين

قيل لما مات شمس الدولة استبد ختلج شاه بميافارقين والوزير عبد الملك ، فوصل حسام الدين وحضر بباب المدينة ، ونزل في خيم ظاهر البلد ، وراسل ختلج شاه ، وكان الأمير داود بن سكمان ، صاحب حصن كيفا(٢٩) ، هم بالخروج ، فسبق السعيد حسام الدين، وراسل ختلج شاه ، وحلف له على الذي اراد ، وحلف ان لا يغير على اهل البلد شيئا ، وأن يستوزر الوزير عبد الملك ، فحلف على ما اقترحوا ودخل في شوال سنة ثمان عشر وخمسمائة ، واستوزر عبد الملك ، واستقرحاله ، وحصل له جميع ما كان لابيه نجم الدين ، واحسن الى الناس ، واحبوه ، واستبد بالملك ، وتزوج بزوجة اخيه الأمير اياس بن نجم الدين ، وكان له منها الاميرشهاب الدين محمد بن اياس ، وأولد منها بنتا هي صفية خاتون ، وهي أول أولاده ، وبقي مدة ، وتزوج بالخاتون بنت الامير غازي من أرزن الروم ، ووصلت الى ميافارقين ، وأولد منها الصاحب نجم الدين البي في سنة عشرين وخمسمائة ، ثم أولد الأمير جمال الدين سرتي في سنة احدى وعشرين وخمسمائة ، وملك حسام الدين البلاد ، ثم أولد هدية خاتون ، ثم أولد الامير صمصام الدين بهرام في سنة ....وخمسمائة

وملك حسام الدين حلب وبقيت معه مدة ثم أنه عاوضها ..(٣٠)..وسلم حلب وخرجت عن يده .

قيل وخرج السلطان محمود الى العراق ، وأراد الدخول فمنعه الخليفة المسترشد وجرى بينهما قتالا كثيرا ، وكسر المسترشد ونهب ما كان معه ، ودخل العراق بغير اذنه ، وبقي مدة واصطلحا جيدا .

قيل وفي سنة تسع عشرة وفي أول سنة عشرين وخمسمائة قتل البرسقي بجامع الموصل ، قتله الباطنية ، وولي ولده مسعود البلاد من ديار ربيعة وغيرها ، واجتمع بهاء الدين القاضي الشهرزوري ، ونصير الدين جقر وصلاح الدين اليغيساني وحصلوا خزانة وخدمة (٣١) ، ونزلوا الى بغداد ليخدم السلطان محمود ويقر الأمير مسعود ولد البرسقي في البلاد ، ولما وصلوا ارتأوا وقالوا : إن هذا صبي ، ولا يقوم بالملك ، وربما لا يدبر البلاد ويكون الحيف علينا ، فاقتضى رأيهم أن هم اجتمعوا بقسيم الدولة زنكي بن أق سنقر ، وكان شحنة بغداد في تلك المرة وقرروا معه ما أرادوا من مصالحهم ، واستحلفوه ان يكون لشهاب الدين قضاء الموصل وجميع البلاد وما فيها من القضاء والأمور الدينية له ، فحلف ان تكون الحجابة وامارة العسكر لصلاح الدين ، وأن تكون ولاية الموصل وجميع البلاد الى نصير الدين يولي فيها من يراه ، فحلف لهم على ذلك ، وتقرر الأمر اليهم بينهم

ثم انهم خدموا السلطان واصحابه والخليفة واصحابه بالمال الذي وصل معهم ، وطلبوا زنكي ، فسلم اليه السلطان ابنيه الب أرسلان والخفاجي وحصل أتابكهما ودفع له (٣٢)بالبلاد ، وسار الى الموصل ، وملك الموصل والبلاد أول سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

قيل وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قتل نور الدولة بلك على منبج بالشام ، وكان محاصرا لها ، فجاءه سهم فذبحه ، وملك بلاده : خرتبرت وكالوا ومنازكرد (٣٣)وما حولها الأمير داود ، وكان الأمير بلك قد اخذ هذه الولاية من بلاد جبق ، ومات ولم يعقب غير بنت ، تزوجها فخر الدين قراأرسلان بن داود .

قيل وفي سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة مات أتابك طغتكين بدمشق ، وولي ولده تاج الملوك بوري دمشق وما حولها .

قيل وفي خامس شوال سنة اربع وعشرين وخمسمائة مات السلطان محمود صاحب أصفهان ، ودفن بها ، وولي السلطان اخوه طغريل السلطنة مدة سنتين ثم مات في أوائل سبع وعشرين وخمسمائة وفيها قتل الوزير المزدغاني وبهرام والباطنية أجمع بدمشق .(٣٤)

وولي أخوه السلطان مسعود السلطنة ، قيل وكان خلف السلطان محمد أولاد جماعة منهم السلطان محمود ، ولي الامر وحده طغريل ، وسلطان سليمان شاه ومسعود ، وسلجوق شاه ، وبهرام شاه .

قيل وخلف السلطان محمود السلطان داود ، وكان أكبر أولاده وملك أذربيجان وقتل في تبريز (٣٥)في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتله الباطنية في وسط السوق ، ودفن بتبريز .

وخلف محمد شاه وملك السلطنة من عمه مسعود وتزوج ابنته ، وخلف ملكشاه وكان في حياة عمه مسعود معه في العسكر ، وملك خوزستان ، وخلف ألب ارسلان والخفاجي مع أتابك زنكي بالموصل ، وقتلا بالموصل ، وخلف بنتا من بنت السلطان سنجر كوهار ، وعاشت الى ما يقارب سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وأما سليمان شاه فمات ولم يعقب ، واما سلجوق فله ابن هو الآن بالموصل ، كان عند مسعود بطال بقلعة تكريت ، فلما أخذت نقلوه الى الموصل ، وهو الآن بها ، وله أولاد .

وأما السلطان طغريل فإنه خلف أرسلان شاه ، أمه زوجة الأمير الدكز ، وهو الآن السلطان من اصفهان وهمذان وأذربيجان وأران ، الى مدينة جنزى وسملكوا .

وفي سنة اربع وعشرين وخمسمائة كسر حسام الدين وداود على سرجه تحت دارا ، كسرهم أتابك زنكي (٣٦) .

قيل وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ماتت سعيدة خـاتون بنت قلج ارسلان بميافارقين ، ودفنت في القبة عند أبيها ، وكانت أمهـا زوجة الأمير ركن الدولة داود ، وبعد أيام حضر اخـوها السـلطان طغريل مـن حصـن كيفـا ـ وكان صـهر ركن الدولة داود على ابنته ـ الى ميافارقين ، واقام بالقبة ، واخذ دخلها جميعه .

قيل وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة مات الآمر بـأحكام الله خليفة مصر ، ولم يخلف ولدا ، وخلف امرأة حاملا .

قيل وفي هذه السنة نفذ السلطان سنجر الى زنكي أمره بـاطلاق دبيس فأطلقه ، فقصد السلطان مسعود .

وفي سنة ست وعشرين وخمسـمائة غرقـت مـراكب الاخـلاطية بالبحر بالقسطنطينية فقضى فيها جماعة من الاخلاطية .

وفيها مـات نور الدولة صـاحب فنك (٣٧) ، وولي ولده ابـو نصر .

وفيها تسلم الأمير داود قلعة قطلبس وباناسا (٣٨) .

قيل واختلف اهل مصر وماجوا وقـالوا : هـذا البيت لا يمـوت الامام منهم الا وقد خلف ولدا ذكرا منصوصا عليه بالامامة ، وهـذا لم يخلف ولدا ولا نص الا حملا ، وكان قبل موته نص على الحمـل فقالوا يجـوز النص على الحمـل ، ويمـكن أن يولد ذكرا فبقـوا ينتظرون الحمل الى ان وضـع ، فـوضعت بنتـا ، فـاختلف الناس ، وماجوا واخرجوا رجلا مـن القصر مـن أولاد المسـتنصر اسمه عبد المجيد ، ويكنى بأبي الميمـون ، ويلقـب بـالحافظ لدين الله ، في آخر سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، وقيل هو عبد المجيد ابن المستنصر ، وقيل هو عبد المجيد بن ابي القاسم المسـتعلي بـن المستنصر ، وقيل لم يلدغير المستعلي للمسـتنصر، فـولي الخـلافة وأجمعوا عليه .

وانقطع النص من قبل المستعلي وأولاده ، وهو قول الاسماعيلية ، وان النص في ايامهم متصل من المستنصر الى نزار الى الآن ، وهو مذهبهم ، (٣٩) وليس احدا منهم على الصحيح .

وبقي الحافظ في الخلافة واستقر منصب ملكه ، وليس خلافة الا في بني العباس لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حق العباس :« أنت أبو الاملاك من أمتي الى يوم القيامة »(٤٠) وأهل مصر والاسماعيلية على الباطل ، وانما أهل الأغراض والأهواء يقولون ذلك ، ولاامام ولاخليفة الا ببغداد من آل العباس .

قيل وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة ملك الامير داود : أسعرد (٤١)، وباهمرد (٤٢)، وباناسا .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة لقي أتابك زنكي حسام الدين والأمير داود ، وكسروا على سرجه (٤٣) وانتحوا الى دارا ، وسار زنكي الى الشام وملك حماة وماحولها ، وحمص وقصد دمشق ، وأخذ دبيس من دمشق وعاد الى الموصل ومعه دبيس مقيدا ،

قيل وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة قصد الخليفة المسترشد ، في شهر رمضان ، الموصل ، ونزل عليها وحاصرها مدة ، وكان بها نصير الدين جقر واليا ،

فقاتلهم الخليفة ، وكان حصنها وحفر الخندق ، وضيق عليها الخليفة ولم ينل منها مقصودا وعاد الى بغداد ، ودخلها في تاسع عشرين ذي القعدة .

قيل وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة مات الوزير عبد الملك

بميافارقين وولي نظر الديوان الناصح علي بن احمد الآمدي ، وكان متوليا بآمد ، فقبضه مؤيد الدين ابن نيسان وصادره بثلاثين ألف دينار ، وولي موضعه ، ووصل الى ميافارقين ، فضمن ولده أبو نصر السمرة ، وأعطى الناصح الوقف الى أن مات الوزير تولى نظر الديوان *

قيل وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وصل المؤيد أبو الحسن ابن مخطر الى ميافارقين من الجزيرة ، فبادره الوزير عبد الملك وعاقبه وأخذ منه مالا كثيرا ، وانتقل الى الجزيرة ، فلما مات الوزير عبد الملك عاد الى ميافارقين الى الاستيفاء مع الناصح .

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وصل شرف الدين جيش ابي طالب بن جيش من أهل العراق الى خدمة السعيد حسام الدين ، وأقام عنده على أحسن سبيل الضيافة ، وكان في خدمة صلاح الدين محمد اليغيساني بحماه الى ان قبضه وعاقبه وشد معه كلبا في غرارة، وكان يضرب الكلب وينهش بدنه .

وفي هذه السنة وصل الى ماردين المكين أبو البركات بن أبي الفهم الحراني منهزما من بني عمه من حران ، وأقام عند السعيد حسام الدين على سبيل الضيافة .

وقيل خرج في شعبان سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وقيل في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة خرج الخليفة المسترشد من بغداد ولقي السلطان مسعود بباب همذان الى موضع يسمى داي فنزل قريب من جبل بهستون ، ونهب العسكر ، وكان جمع السلطان خلقا عظيما ، ومعه صاحب خرتبرت ، بجيشه وعسكره ، وكان نفذ له عمه السلطان عسكرا عظيما فالتقوا ، فكسر الخليفة وأسروه وأسروا أرباب المناصب كلها ، ولقد سألت السعيد مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الانباري ، رحمه الله في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببغداد حين نزلت اليه في هذه السنة عن حال

المسترشد والوقعة وماجرى فقال رضي الله عنه : كان قد وقع بين السلطان والخليفة في أيام السلطان محمود وخرج وكسره مرتين ، فلما ولي مسعود استطال نوابه على العراق وعارضوا الخليفة في أملاكه فوقعت الوحشة ، وتجهز المسترشد وعزم على الخروج واتفق ان بعض الأيام دخل الوزير شرف الدين الزينبي علي ابن طراد على الخليفة وأنا معه ، وكمال الدين طلحة صاحب المخزن ، وكان الخليفة قد طرد أصحاب السلطان عن العراق ، ورتب صاحب المخزن على دار السلطان للمظالم والبلد ، فلما دخلنا ذلك اليوم ، فقال له الوزير شرف الدين : يامولانا في نفس المملوك شيء فهل يؤذن في المقال ؟ فقال : قل ، قال : يامولانا الى اين تمضي وبمن تعتضد ، والى من تلتجيء ، وبمن تنتصر ، ومقامنا ببغداد امكن لنا ، ولايقصدنا أحد الا وفينا نحن الظهر ، والعراق ففيه لنا الكفاية ، فان الحسين بن علي عليه السلام لما خرج الى العراق جرى عليه ماجرى ، ولو أقام بمكة مااختلف عليه أحد من الناس ، فقال له الخليفة : ماتقول ياكاتب ؟ فقلت يامولانا الصواب المقام ومارآه الوزير فهو الرأي فلا يقدر علينا أحد ، وليت بقي علينا العراق ، فقال لصاحب المخزن : ياوكيل ماتقول ؟ فقال : في نفسي مافي نفس مولانا ، وكان هو قد حمله على الخروج ، قال المسترشد :

واذا لم يكن من الموت بد
فمن الغبن ان تموت جبانا

ثم استعد وجمع ، وكان قد حصل في خدمته جماعة من أمراء الاتراك وبطائنهم ومالا عظيما ، ثم خرج وخرجنا ، فلما قاربنا همذان خرج السلطان مسعود فالتقوا في موضع يسمى داي قريب من جبل بهستون ، قريب من همذان ، فلما اصطفت العساكر وهموا بالقتال ، ففر من معسكرنا جميع الأمراء والأتراك الى جانب السلطان ، فانهزم الخليفة ومن بقي معه ، ونهب العسكر وقبض

الخليفة وأرباب المناصب ، وحمل الوزير وصاحب المخزن وأنا ونقيب العلويين الى قلعة سرجهان بالقرب من مدينة الري ، ولقد رأيتها في سنة تسع وأربعين وخمسمائة لما سافرت الى الري ، ورأيتها وهي تلوح على رأس جبل عال .

وأخذ السلطان المسترشد معه ، وطاف به في أذربيجان الى أن وصل به الى مراغه ، فنزل هناك فدخل عليه ثلاثة نفر من الملاحدة (٤٦) فقتلوه ، فرضي الله عنه ، وقتل معه رجل يصلي به يسمى ابن سكينة ، يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة شهور ، وكان ولي عهده ولده أبا جعفر المنصور الراشد بالله ، وكان تخلف ببغداد ، فلما وصل الخبر الى بغداد بقتله بايعوا الراشد بالخلافة ، وقيل ان السلطان سنجر نفذ اليه من قتله ، وقيل ان السلطان مسعود نفذ استأذن عمه سنجر فأذن له في قتله فرتب له ذلك فدخلوا عليه فقتلوه ، ودفن في مدينة المراغة (٤٧) ، وكان مع السلطان في معسكره دبيس بن صدقة بن مزيد .

ورحل السلطان بعد مدة الى باب تبريز ، وركب بعض الأيام ونزل ودخل اليه سيف الدولة دبيس فضرب عنقه ، وبقي السلطان أياما وتزوج بنت دبيس ، وكانت أمها شرف خاتون بنت عميد الملك ابن جهير من زبيدة بنت نظام الملك ، وحمل دبيس الى ماردين الى زوجته كهارخاتون ، فدفن بالمشهد عند نجم الدين الغازي رحمهما الله .

وكان قد قيل ان دبيس حمل السلطان على قتل المسترشد ، قال مؤيد الدين : لما قتل المسترشد جاء السلطان مسعود ، ونفذ احضرنا عنده ، فحضر الوزير شرف الدين وجمال الدين صاحب المخزن وأنا ، وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سرجهان ودفن هناك ، فلما حضرنا عنده قال : ما الرأي وما التدبير في أمر

الخلافة ، من تـرون ؟ فقـال الوزير : يامـولانا الخـلافة لولي العهد ، وقد بايعه الناس وجلس واستقر ، وقـد بـويع له بـولاية العهد ، والآن بعد قتل ابيه ، فقال : ماالى هذا سبيل أبدا ولاأقـره عليها فانه يحدث نفسه بالخروج مثل أبيه ، ونحن كل يوم مـن حيث ولي المسترشد لم يزل يخرج علينا ، وكان خرج على أخـي محمـود مرتين ، وعلي مرة ، وهذه أخرى ، ثم تـم عليه مـاتم وبقيت علينا شناعة عظيمة وسبة الى آخر الدهر ، ويقولون : قتلوا الخليفة وهم كانوا السبب في عود الخلافة الى هذا البيت ، ولاأريد يجلس الا من لايداخل نفسه في غير أمور الدين ولايجند ولايجمـع ولايخـرج علي وعلى اهل بيتي ، وفي الدار جماعة ، فـاعتمدوا على شـيخ منهـم صاحب عقل ورأي وتدبير ويلزم نفسه مايجب من طاعتنا ، ولايخرج من داره ولاتعرجوا عن هرون بـن المهتـدي ، فهـو شـيخ كبير ، ولايرى الفتنة ، وقد أشار به عمي سنجر .

وكان في الدار في ذلك الوقت سبعة أخوة من أولاد المقتدي ، ولهم أولاد وأولاد أولاد ، وبقي مـن السـبعة الى سـنة نيف وخمسـين وخمسمائة ، وكان في الدار مـن أولاد المسـتظهر سـبعة أخـوة منهم : الامير ابو عبد الله ، وأبـو طـالب ، وأبـو نصر ، وأبـو القـاسم ، وأبـو علي ، واسـماعيل ويحيى ، ولهـم أولاد جماعة ، وكان للمسترشد أولاد جماعة ، وللراشد ، وله مقدار نيف وعشرين ولدا ، أكبرهم أمير الجيش ، وكان ولد لأبيه ، وهو ابـن تسع سنين ، ولم ير مثل هذا قط .

ولقد حدثني بعض من أثق اليه ببغداد ممـن كان يدخـل الى دار الخلافة ويطلع عليهم ان المسترشد اشـترى للراشـد لما كان عمـره سبع سنين خمس جـواري ، وأمـرهم ان يلاعبنه ويمـكنوه مـن انفسهن ويحملونه على ذلك ،فكانوا معه على ذلك الى أن صار عمره تسع سنين بلغ مبلغ الرجال ، وكان فيهم جـارية صـفراء حبشـية فـواقعها ذات يوم فحملت منه ، فبلغ المسـترشد ذلك فـأذكره وأحضرها وهددها، فقالت : والله ماتقدم إلي سواه وانه بالغ مثل

جميع الرجال ، فسأل باقي الجواري ، فقالوا مثل ذلك ، فأمر أن تحمل الجارية قطنا ثم وطئها ، فما قام عنها أخرجت القطن والمني عليه ، وكذلك فعل بباقي الجواري ، فخرج المني ، ففرح المسترشد ، فلما تم حملها وضعت أبنا فسماه المسترشد أمير الجيش وسربه سرورا شديدا ، وهذا لم يسمع بمثله إلا بالحجاز ، ويقال إن نساء تهامة يحضن تسع ويبلغ صبيانهم تسع ، وأقرب ما رؤي بين أب وابنه ما رؤي بين عمر و بن العاص وبين ابنه عبد الله ، وكان ولد له وعمره اثنتا عشرة سنة ، ولم ير مثله إلا ما ذكرناه من امر الراشد ، وكان الراشد على طريقة أبيه .

وكان بايعه الناس في آخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان شهما من الرجال شريف النفس ذا رأي وهمة ، فلهذا انحرف السلطان عن توليته الخلافة .

قيل وفي ذي الحجة سنة سبع وعشرين وخمسمائة قتل السلطان مسعود صدقة بن دبيس بين يديه صبرا ، فأظنه وهما لأن الذي قتله كان قراجا منذكورس .

قيل ونفذ السلطان مسعود الى عمه سنجر يأخذ اذنه فيمن يولي ، فنفذ اليه يقول : لاتولي الا من يضمنه الوزير وصاحب المخزن وابن الانباري ، فاجتمع السلطان بهم وشاورهم ، واشار بهرون ، وعرفهم ما امرهم السلطان سنجر ، فقال الوزير اذا كان هذا الامر يلزمنا فنحن نولي من نراه وهو الزاهد ، العابد الدين ، الذي ليس في الدار مثله ، قال السلطان : من هو ؟ قال : الامير ابو عبد الله بن المستظهر ، فقال :
وتضمنون ما يجري منه؟ فقال الوزير : نعم ، وكان الأمير ابو عبد الله صهر الوزير شرف الدين على ابنته ، فانها دخلت ذات يوم في الدار في زمن المستظهر فرآها الأمير ابو عبد الله ، فطلبها من ابيه فزوجه اياها ، وكان شرف الدين إذ ذاك نقيب النقباء ، ودخل بها وبقيت عنده مدة وماتت عنده .

فقال السلطان ذاك اليكم واكتموا الحال لئلا ينمو الأمر فيقتل المقتفي ببغداد ، ثم رحل السلطان والجماعة الي بغداد والوزير ونحن اجمع في صحبته .

قيل وكان الراشد بعد قتل ابيه قد بايعه الناس ، فاستبد واستقر ، ونفذ الى اتابك زنكي الى الموصل ، واستدعاه وضمن له ان تكون السلطنة في الملك الب رسلان بن محمود الذي عند اتابك ، وتكون الاتابكية والخلافة بحكمه ، فنزل اتابك الى بغداد ونزل بالجانب الشرقي في احدى دور السلطنة ، وبقي الى أن وصله ان السلطان قد طلب بغداد فخيم في الجانب الغربي ، ولما قرب السلطان من بغداد قريبا من النهروان حقق الراشد الحال وانه لا بد من تولية غيره ، فجمع الامراء بأسرهم الذين كانوا في الدار من بين الخلفاء في سرداب ، وتقدم بأن يطبق السرداب ، ولقد حدثني زين الدولة ابو القاسم علي بن الصاحب ، وكان هو حاجب الباب هو وابوه وجده وكان بين يدي الراشد ، قال : لما جمع الراشد الامراء في السرداب استدعاني وقال : يا علي خذ هذا السيف ، وكان بيده سيفا ، وأقتل الجميع حتى لا يبقى من يصلح للخلافة ، فإن هؤلاء ربما دخلوا وغيروا وولوا غيري ، ثم أمر بفتح السرداب ، فالصائح جاءه فقال : ان اتابك زنكي نهب الحريم الطاهري ، وطلب الموصل في ذي العقدة .

وأما السلطان فوصل وعبر النهروان ، ولما حقق اتابك نزول السلطان بالنهروان انهزم ، فرمى السيف من يده ، ودخل الى الدار وأخذ معه من الجواهر ، ما لا يعرف له قيمة ، واعطاني مثل ذلك ، وخرج وأخرج معه قاضي القضاة الزينبي ، وكان قد استوزر رجاء الدين ابو الرضا صدقة ، فخرج وخرجنا ، ولحق اتابك زنكي على طريق الموصل .

قال السعيد مؤيد الدين رحمه الله : فلما كان بكرة ذلك اليوم دخل السلطان بغداد ودخلنا معه ، فنزل في داره ونزلنا نحن في

دورنا ، وكان دخـــولنا عاشر ذي القعـــدة ســـنة ثـــلاثين وخمسمائة ، فلما كان من الغد مضى الوزير الى دار السلطنة ونحن معه ، واستأذنه فيما يفعل ، فأخذ خطه وخطوطنا بـالضمان ، ثـم عدنا الى دورنا، وأصبحنا يوم الاثنين سابع عشر ذي القعـدة سـنة ثلاثين وخمسمائة ، وحضرنا عند الأمير ابـو عبـد الله ، وتحـدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرط عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه أننا قد ضمنا ذلك من السلطان جميع ما اقترحه عليك ، فرضي بذلك ، وانفصلنا عنه ومضينا الى السلطان واعلمناه ما جرى وانه رضي بما شرطت عليه ، فقال السلطان : إذا كان مـن الغد فبايعوه ، فلما اصبحنا صعدنا الى الدار ، واخرجنا من الدار اشياء من الآلات التي تصلح للغناء واشياء لا تليق ، فشهد جمـاعة من اهل الدار انه شرب الخمر ، فأفتى العلماء بخلعه ، واعتنق ذلك القاضي عماد الدين شرف القضاة ابو طـاهر احمـد بـن الكرجـي المحتسب ، وكان قاضي أصحاب الشـافعي رحمـه الله ، واجتمـع العلماء والاكابر فخلعوه .

ودخل اليه الوزير وصاحب المخزن وأنا وتحدثنا ، وناولتـه رقعـة فيها ما يسمى به من اللقـــب ، وكان فيهـــا : المقتفـــي لأمــــر الله ، والمستضيء بأمر الله ، والمستنجد بـالله ، فقـال : ذلك اليكم فقال الخليفة ما تـرى ؟ فقلت : المقتفـــي لأمـــر الله ، فقـــال : مبارك ، ثم مد يده فأخذها الوزير وقبلها ، وقال : بـايعت سـيدنا ومولانا المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين على كتاب الله وسنة رســول الله واجتهاده ، ثم اخذها صاحب المخزن وقبلها وبـايعه على مثـل ذلك ، ثم اخذت يده وقلت بعد أن قبلتها : بـايعت سـيدنا ومـولانا الامام المقتفي لأمر الله امير المؤمنين على ما بايعت عليه اباه واخاه وابن اخيه في ولاية عهده ، وكنت بايعت الامام المسـتظهر بـالله لما خدمته في وكاله الدار سـنة وتسـعين وبقيت الى سـنة سـبع وخمسمائة ، ثم وليت ديوان الانشاء وبايعت المسترشد والراشد .

ثم قمنا من عنده ودخـل الى الدار ، ودخـل العلمـاء فـالفقهاء

والقضاة وأكابر الناس أجمع فبايعوه ، وحضر السلطان مسعود بعد ثلاثة أيام وبايعه وبايعه جميع اصحابه من اخواجا والامير حاجب وجميع ارباب دولته ، واستبد له الأمر واستقر في الخلافة .

قيل وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة مات نجم الدولة بن مالك بالقلعة وولي بلد ، وفيها أخذ اتابك زنكي الرقة من مسيب بن مالك .

وكان وزراء المسترشد في أيامه جماعة منهم : أمين الدين اخواجا احمد بن نظام الملك مرتين ، وشرف الدين أنو شروان مرتين ، وجلال الدين ابو علي بن صدقة الى ان مات ، ووزر له شرف الدين الزينبي الى ان قتل واسر معه على ما ذكرناه

واما ما كان من الراشد فإنه خرج مع اتابك زنكي في صفر سنة احدى وثلاثين وخمسمائة الى الموصل ومعه قاضي القضاة الزينبي ، وجلال الدين ابو الرضا بن صدقة ، ابن اخ الوزير ابي علي ، وبقي عنده مدة ، فوصل معه الى باب نصيبين واقام اياما ، ثم انفصل عنه ومضى الى السلطان مسعود ليدخل عليه ، ويمضي الى السلطان سنجر ، وقيل قصد السلطان داود ودخل عليه حتى يرده الى الخلافة ، فلما قارب أصبهان خرج عليه قوم من الملاحدة ، ودخلوا عليه فقتلوه في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وحمل الى أصفهان فدفن بها في مدينة شهرستان من اصفهان على فرسخ ، ويقال انها من ابنية ذي القرنين على ما يعرف بزندورد (٤٨) على القنطرة .

وكانت خلافته من حيث بويع له بعد قتل أبيه الى أن بويع المقتفي احد عشر شهرا زائدا فناقصا ، وقيل إن السلطان نفذ من دخل عليه وقتله ، وخلف له في الدار نيفا وعشرين ولدا منهم الكبير امير الجيش ، ويقال إنه ولاه العهد قبل خروجه من بغداد .

وأما قاضي القضاة الزينبي رحمه الله فإنه عاد ونزل الى بغداد وعاد الى منصبه ، وأما جلال الدين ابو الرضا بن صدقة فإنه وزر لأتابك زنكي مدة وعزل وعاد الى بغداد ، وكان وزر لأتابك بعد موت ضياء الدين ابي سعيد الكفرتوثي .

واستقر المقتفي في الخلافة وتوطد أمره .
قيل وفي سنة اثنتين وثلاثين حاصر السلطان سلجوق شاه خلاط مدة ورحل عنها .

وفي سنة ثلاث وثلاثين خطب الامير داود للمقتفي الجمعة ثالث عشرين المحرم .

وفي سنة ثلاث وثلاثين أسر السناسنة (٤٩) صاحب خلاط ، وأطلق بسفارة حسام الدين في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين .

قيل وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة مات الملك طغريل بباب دمشق وحمل الى العراق .

قيل وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة سافرت من ميافارقين الى ماردين ، ولم اكن قبل ذلك خرجت من ميافارقين ، وبقيت بها مدة ، ووصل تابوت دبيس وانا بمادرين ودفن بالمشهد .

وهذه السنة ماتت فيها زوجة الأمير شهاب الدين محمد بن الياس ، وكانت زوجة الأمير حسام الدين ولدت منه صفية خاتون ، وكنت بماردين هذه السنة وتزوج السعيد حسام الدين بالملكة جوهر خاتون بنت الملك رضوان ، وكانت وصلت تلك السنة من حلب ، وكانت زوجة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن ارتق ، فمات بماردين ، ووصلت من حلب ومعها ولد اسمه كبك ، ويلقب مجد الملوك ، فبقيت مدة وتزوجها السعيد حسام

الدين ، وكان وصل هذه السنة تاج الدين ابو سالم بـن نبـاتة رضي الله عنه الى ماردين .

قيل وكان في سنة ثمان وعشرين وخمسـمائة نازل اتـابك زنكي وحسام الدين قلعة الصور ،(٥٠)فاخذها حادي، وعشرين رجـب وسلمها الى السعيد حسام الدين وقتل حمدان بن اسـلم وكان اميرا مقدما من اصحاب الامير داود ، وكانت الصور للأمير داود ، وفيها وصل اتابك زنكي الى تل شيخ(٥١) واجتمع بحسام الدين ولقـوا داود بباب آمد ، وكسروه ودخل الى الصور واخـذها ، وفيهـا ملك اتابك زنكي طنزه (٥٢) ونزل تل شيخ ، ووزر ضـياء الدين أبـو سعيد بن الكفرتوثي لاتابك زنكي وحصل في خدمته .

وفي تلك السنة مات شمس الدولة الاحدب ، وقيل وفي سنة ثلاثين امر حسام الدين بنقض الربض والمحدثة فنقضـا ، وكان قـد وقـع الخلف بين السـعيد حسـام الدين والامير داود (واجتمع) (٥٣)واتابك مع الامير حسام الدين فـكسروا الامير داود على باب آمد وساروا فملكوا جبل جور وبـالقرنين والسـيوان (٥٤) ، واخذت من الامير أرسلان بن عبـد الجبـار بـن ارتـق وسلمها أتابك الى السعيد حسام الدين ، وانهزم الامير ارسلان الى خدمة الامير داود .

قيل وفي سنة ثمان وعشرين نهب الامير داود ربض طنزة وسـبى من كان فيه ونهب اموالهم وهتك النساء بحيث لو غزته الافرنج مـا فعلت أكثر من ذلك .

وفي سنة ثمان وعشرين ملك السعيد حسام الدين الهتاخ على مـا ذكرناه(٥٥) ، وأخذها من الامير شمس الدولة عيسى بن احمد بـن نظام الدين بن مروان .

قيل وفي سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ملك السعيد حسام الدين

الى ميافارقين ومعه حبشي بن حبشي ، وعمل حساب العمال والمتصرفين ، وصادر اهلها وقلعهم واجحف باهلها ، ولقي الناس منه شدة لا توصف من الشتم والجور والظلم ، وسلك بهم اصعب الطرق من الحيف والقهر ، وقبض الناصح الآمدي ، وكان متوليا بديوان ميافارقين وقبض ابنه ابا نصر ، وكان المؤيد بن مخطر متوليا فانهزم من يدي حبشي ، ومضى الى الجزيرة، وقبض اخاه ابا سعيد ، وأخرج العميد ابا طاهر بن المحتسب من الحبس ، وكان له مدة محبوسا ، وأطلقه وولاه ، ولقي الناس منه شدة ومشقة لا توصف ، ومررت تلك السنة بالجزيرة واقمت بها مدة ، وعدت الى ميافارقين واجتزت بنصيبين ، ورأيت اتابك زنكي بقرب نصيبين .

قيل وفي سنة تسع وعشرين مات نجم الدولة مالك بن مالك بالقلعة (وأخذ اتابك زنكي الرقة من الامير مسيب ، وسار الى دمشق وحاصرها مدة ، ثم رحل عنها)(٥٦) وفي القلعة ولده بدران بعده ، وبقي الى ان دخلت سنة ثلاثين ، وقتله اخوه الامير علي بن مالك وولي القلعة

قيل وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ظهر عبد المؤمن بالمغرب ، وأنا اذكر من حاله ماوصل إليّ من أمره ، وهو أن محمد ابن تومرت كان من المصامدة ، وخرج الى بلاد المشرق ، وهو شيخ عبد المؤمن بن علي الكومي من جبال السوس الأقصى بالمغرب ، وكان محمد بن تومرت الادريسي الحسني خرج الى المشرق ، وبقي مدة ، ثم عاد الى المغرب في سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وأقام بمراكش واجتمع اليه جماعة من الفقهاء وناظرهم وجرى بينهم أشياء غير ماجرت به عادة المغاربة ، وخارجا عن طريقهم وأنكر عليهم وأنكروا عليه ، ثم انهم اجتمعوا الى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وقالوا له يخرج هو من بيننا والا أفسد الناس وأهلكهم ، فتقدم اليه بالخروج ، فخرج في سنة عشرين وخمسمائة ، ونفاه الى الجبل الى المصامدة ، وهم جنس من البربر ، وكانوا عشيرته فأقام بينهم وحملهم على ترك طاعة أمير المسلمين ، فخرج اليه أمير

المسلمين ، فلقيه فكسره وقتل راس العسكر عبد الله بن ماوية ، فخرج امير المسلمين بنفسه وجمع الجموع فلقيه وكسره

وتمكن في الجبل وهو يناوشه شهر في شهر ، وهو بجبل .درن (٥٧) بولاية مراكش والسوس ، واجتمع اليه خلق عظيم ، وبقي الى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، ومات محمد بن تومرت وولي موضعه علي الورنشي (٥٨) وجهز العساكر وحاصر مراكش في سنة أربعة وعشرين وخمسمائة ، فكسره امير المسلمين وأزاحه من مراكش ، فانهزم الى الجبل وتحصن به ، وبقي الأمر بينه وبين أمير المسلمين يزيد وينقص الى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، ومات علي الورنشي وولي موضعه عبد المؤمن بن علي الكومي ، وكان من جملة اصحاب محمد بن تومرت وتلاميذه وأصحابه ومعاضديه ، فجمع ولقي امير المسلمين وكسره وملك الجبل بأسره ، وملك ولاية أخرى .

وترك في سنة ثلاثين وخمسمائة الجبل وفتح أكثر بلاد أمير المسلمين ودانت له البقاع ، وفتح أكثر افريقية وبلادا من الاندلس ، وفتح أكثر بلاد أمير المسلمين وفتح من الفرنج مواضع كثيرة ، وبقي الى سنة أربعين وخمسمائة ، ولقي امير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف فكسره وقتل خلقا كثيرا ، وأسره وقتله وتوطدت له البلاد ، وفتح أكثر المغرب وهابه الناس ، وفتح أكثر المدن ، وكان لايفتح مدينة الا قتل كل من فيها ، وكان يقول : أنا صاحب الزمان ، وملك في سنة اثنتين وأربعين مدينة تونس ، وهي من أعظم مدن المغرب ، وقد ذكرت في كتاب المسالك والممالك أن دور سورها واحد وعشرين ميلا .

وفي سنة احدى وثلاثين ، في رابع ذي القعدة تسلم الأمير داود حاني من الأمير ساروخ ، وأعطاه اقطاعا واقام في ربض حاني الى أن مات ، ودفن في حاني .

قيل وفي سنة احدى وأربعين وخمسمائة ملك عبد المؤمن بن علي

ولاية بني حماد وأجلاهم عنها ، وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فتح المهدية وملكها ولم يبق له منازع ولا من يساويه ولا من يقاومه ، وبنى مدينتين عظيمتين احداهما مرسى وسماها المهدية والأخرى بريني (٥٩) ، واستقر في ملكه وبقي يفتح من بلاد الافرنج طرفا طرفا الى أن مات في سنة أربعين وخمسمائة ، وبقي اولاده من بعده في الملك ، ويقال انه خلف نيفا وأربعين ولدا ذكورا .

قيل وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة خرج ملك الروم من القسطنطينية الى الشام ، وملك بزاعة (٦٠) ، فانه حمل أهلها بأسرهم ، وسبى كل من فيها ، ونهب ماكان بها ، وحط على حلب وحاصرها ، ولقيه أتابك زنكي ، وبقي في وجهه ، وسارت اليه عساكر ديار بكر وديار ربيعة أجمع ، ونفذ الأمير داود ولده معه عساكر التركمان ، فرحل من حلب وعاد الى بلاده .

وفي هذه السنة مات بهاء الدين أبو الحسن بن علي بن الشهرزوري بالرقة ودفن بها ، ووصل نعيه الى الجزيرة ، وكنت بالجزيرة ، وفي هذه السنة اقمت بها مدة وعدت الى ميافارقين .

وفي سنة اثنتين وثلاثين اصطلح زنكي مع صاحب دمشق وتزوج بأمه ، وفيها تسلم زنكي حمص ،وقتل خيرخان صاحبها ، وفيها قتل شهاب الدين صاحب دمشق وولي ابنه .

قيل وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة نهب الامير داود ارزن ، وسبى اهلها ونهب أموالهم ، وأباح الجند كلها ،وكان بها ، وجرى عليهم أكثر مما جرى على أهل طنزة ، ولقي الناس منه مالا يوصف .

ووصل السعيد حسام الدين الى ميافارقين ، ووصل اليه حسام الدولة قرتي بن الاحدب صاحب ارزن .

قيل وفي شوال سنة ثلاث وثلاثين توفي شوتكين المرجي صاحب حران ، وقصدها أتابك وتسلمها .

وفي هذه السنة كسر حسام الدين الافرنج في شبختان ، وأخذ القافلة من باب الرها ، وكنت في هذه السنة بآمد .

وفي هذه السنة اصطلح السعيد حسام الدين وأتابك زنكي واخذ دارا ، وتزوج بصفية خاتون بنت السعيد حسام الدين ، وحملت في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة الى الموصل ، وكنت بها .

واقمت بميافارقين الى آخر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وانحدرت الى بغداد واجتمعت بالسعيد مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن الانباري رحمه الله ، ووصلتها في شهر ربيع الاول سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، لانني كنت أقمت بالجزيرة والموصل مدة ، واقمت ببغداد مدة ستة أشهر ، ورأيت الخليفة المقتفي لما بايعه اخواجا عن الملك ، ودخل الخليفة المقتفي بأخت السلطان ، فكنت ببغداد وحضرت باب الحجرة ، واملاك السلطان مسعود بابنة الخليفة المقتفي ، وخطب قاضي القضاة الزينبي ، وكمال الدين صاحب المخزن ، ورأيت جماعة من كبار أهل العراق ، وقرأت على الشيخ ابي المظفر بن الشهر زوري العطار الفرائض وقرأت الفصيح والعمدة على الشيخ ابي منصور الجواليقي ، وقرأت التنبيه على الشيخ أبي الحسن ولقيت الشيخ ابا منصور الحمال وجماعة الفقهاء من الشيخ عبد القادر بن الفراوي ، وأولاده قاضي القضاة الدامغاني ويوسف الدمشقي وجماعة من أصحاب الحديث منهم : القاضي أبو بكر قاضي البيمارستان ، وابن السمرقندي وعبد الوهاب الانماطي وجماعة كثيرة ، وسمعت عليهم وقرأت على الشيخ ابي محمد ابن بنت الشيخ القرآن ، وعلى الشيخ عبد الوهاب الخفاف ، واقمت ببغداد وزرت جميع المشاهد بها ، ونزلت الى المدائن وزرت قبر سلمان

الفارسي ، وأقمت ببغداد الى خامس محـرم سـنة خمس وثـلاثين وخمسمائة ، وكان شرف الدين الزينبـي في الوزارة ، فغضـب في آخر سنة أربـع وثـلاثين وخمســمائة ، ومضى الى دار الســلطان مغضبا ، وأقام بها ، ونفذ الخليفـة الى الســلطان خـادما اســمه نجاح ، استأذن في عزله ، وناب في الوزارة قاضي القضاة الزينبـي مدة ، وناب بعده مؤيد الدين سديد الدولة ، ووصل امـر الســلطان بعزله في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وولى الوزاوة نظام الدين أبا المظفر ابــن الزعيم بن جهير ، وكان اســتاذ الدار ، واســتقر بها .

قيل وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ملك اتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ، ثم سلموا اليه قلعة بصرى .

قيل واستقال صاحب المخزن كمــال الدين ومضى الى مــكة وولي موضعه قـوام الدين بــن صـــدقة ، ولزم شرف الدين الزينبـــي داره ، وكان صــاحب الديوان صـــفي الدين بـــــن الزوان الهاشمي ، واستقر نظام الدين في الوزارة ، ثم عدت الى ميافارقين في أوائل محرم سنة خمس وثلاثين وخمســمائة وعبـرت بـالموصل وحصن كيفا فصادفت الأمير داود وقد وقع بينه وبين السعيد حسام الدين ، ونهب بلد ميافارقين في محرم سنة ست وثلاثين ، ونزل على باب المدينة وأقام بها ثمانية أيام ثم رحـل الى تـل شـيخ وأخـذها واقطع البلد ، وكان السعيد حسام الدين قد خرب قلعة فشاط (٦١) وأخذها وسباها واقطع الجبـل جميعـه ، وبقـي كل يوم يغير مـن الموضعين الى بـاب المدينة وتـؤخذ ثياب الناس في النهـار ، وكان حبشي في البلاد والحـاجب يوسـف ينال في الولاية وسـاس الناس وحفظ البلد ، وبقي الأمـر كذلك الى آخـر سـنة خمس وثـــلاثين وخمسمائة ، وفي سنة ست وثلاثين اصــطلح الامير داود والســعيد حســام الدين ، ووصـل الأمير داود الى ميافـــارقين ، ودخـــل القصر ، واتفق ان وقع الاتفاق بينهما .

قيل وفي منتصف جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وخمسمائة مات الأمير سعد الدولة بالبلدي بن ابراهيم صاحب آمد ، وكان مؤيد الدين نيسان يتولى آمد ، فرتب ولده شمس الملوك محمود في الامارة وقررها ، وكانت أمه يمنى خاتون بنت نجم الدين الغازي ، وكان حسام الدين خاله ، وكنت في هذه السنة بآمد وكنت في صحبة والدي رحمه الله .

وقيل في سنة ست وثلاثين وخمسمائة قتل شمس الملوك بدمشق .

قيل وكان شرف الدين الحبشي والعميد أبو طاهر بن المحتسب لما عاد المؤيد أبو الحسن بن المخطر الى خدمة السعيد حسام الدين قبضه حبشي في سنة أربع وثلاثين ، وبقي في القبض ، فقتل أخاه الرئيس أبا سعيد تحت العقوبة وبقي الى أخر سنة ست وثلاثين ، ونفذ أتابك زنكي الى حسام الدين يقول : ان كان رسل تصلني منك او تصلك مني ، لاينصحوك ولاينصحوني ، فان اردت اتفاقنا فنفذ الي حبشي ، فنفذه اليه ومعه الحاجب ناصر ، ومعه جماعة ،فلما لقوه انزلهم ، وبقي ثلاثة أيام ، ثم ولى شرف الدين حبشي الاستيفاء وخلع عليه الجبة الأطلس والبردان بالذهب العراقي والفرس بالمركب ، وعادت الرسل الذين مضوا معه ، ثم انه تضمن لاتابك زنكي أخذ البلاد ، وقاطعه في ذلك فقال :لي من قد حلف لي ، ومتى وصلنا الى البلاد سلمتها اليك .

وفي هذه السنة قبض السعيد حسام الدين على الأجل أبو الوفاء ابن السرطان وحبسه مدة ، ثم قلع عينيه ، ورمى به من رأس قلعة ماردين الى الميدان .

قيل وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة صعد أتابك زنكي الى ديار بكر ، ودخل الى ولاية الأمير يعقوب بن السبع الأحمر فقصد حيزان

- ٥٢٥٧ -
والمعدن وايزون وبطليس ، (٦٢) واخذ جميع الولاية ، وكنت ، بالموصل في هذه السنة .

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة قصد اتابك زنكي البلاد ، ووصل الى بلد ماردين ونخل الى تل بسمى (٦٣)على أنه يدخل الى ولاية آمد وميافارقين ، وكان قد ملك حاني واسعرد وجبل جور وبالقرنين ، وجميع تلك الولاية أخذها بعد صلح الأمير داود ، ونزل في الزيتون الذي في تل بسمى ، فلما كان بعض الليالي دخل على حبشي في الخيمة : وشك الشافعي ومحمد ابن أبي المكارم الحلبي وضرباه بالسيوف ،(٦٤)واخذا رأسه وسارا به الى السعيد حسام الدين ، ووقعت الصيحة واختبط الناس والعسكر ، وأصبح اتابك من غدوه فرحل وعاد الى نصيبين

قيل وفي يوم الأحد تاسع عشر محرم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة مات الأمير داود بحاني ، وحمل الى حصن كيفا ، وعبر تابوته يوم الاثنين وحط بجامع المحدثة ،(٦٥) وخرج اليه الناس والقراء وحمل من غدوه الى حصن كيفا ، وملك بعده ولده الأمير فخر الدين قرا أرسلان حصن كيفا وخرتبرت وبالو (٦٦) وملك ولده ارسلان تغمش قلعة منازكرد ، وقصد اتابك ولاية الأمير داود فملك اسعرد وباهمود وطنزه وباناسا ، وجميع الولاية المتصلة بولاية المعدن ، وعبر الى الولاية الاخرى وذلك حاني وجبل جور وبالقرنين والسيوان ، فنزل وملك ارقتين والهالار وتل خوم ، وجرموك وجميع ذلك غير خرتبرت وبالو ومنازكرد وبقيت بيد أولاد الأمير داود(٦٧)

وفي هذه السنة قتل السلطان داود بسوق تبريز ، وفي هذه السنة تزوج ارسلان تغمش بن داود بهدية خاتون بنت السعيد حسام الدين ، وحملت إليه إلى منازكرد ، ووقع الخلف بين اتابك وحسام الدين

ومضى أتابك ونزل الى الرها وحاصرها مدة ، ثم فتحها عنوة في

خامس والعشرين من جمادى الآخــر ، وكان ثـالث عشرين كانون الأول سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكان أخــذتها الافــرنج بعــد موت تاج الدولة (٦٨) في سنة اثنتين وتسعين واربعمائة ،وكان لها بأيديهم سبع وأربعين سنة ، ثم رحل عنها بعدما رتب أمــرهـا ونزل الى البيرة (٦٩)فحاصرها مدة ،وكانت النصارى يقولون : إن اتابك يقتــل ليلة الميلاد ، وكانوا ينتـــظرون ذلك ، وكان فتحهـــــا ليلة الميلاد ، وسلم أتابك وكذبوا .

قيل وبقي يحاصر البيرة مدة فوصله الخبر ان نصير الدين جقــر وصل الى الموصل وقتل ، وكان قتله غلمانه في ثامن ذي القعدة ســنة تسع وثلاثين وخمسمائة فرحل اتابك عن البيرة ، ونزل الى الموصل وقرر حالها ، ورتب فيها زين الدين علي الوشك .

وكان في سنة تســع وثــلاثين مــات الأمير كرج غازي صــاحب البارعية (٧٠)بآمد ،وكان لقي الناس من نصــير الدين شــدة مــن الجور والظلم والقتل والمصادرات والاقساط ، فلمــا ولي زين الدين ازال ذلك جميعه فأحسن الى الناس والرعايا في جميع البلاد ، ورأى الناس منه كل خير الى أن مات في سنة اربع وستين وخمسمائة .

وكان في شهر رجب سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة اســتدعى علم الدين أبي الفتح محمد بن علي بن نبــاتة الى مــاردين وولاه الأمير حسام الدين قضاء مــاردين ، وولى أخــاه بهـــاء الدين خـــطابه ميافارقين ، وكان قاضي مـــاردين مجــد الدين داود بـــن القـــاضي السديد ، فعــزل في تلك الســنة وولي علم الدين ، وكان المؤيد أبــا الحسن بن مخطر المستوفي المتولي لذلك ، وبعد يومين ولي الخــطابة بماردين وكان بميافارقين له الخطابة ، فولي قضاء ماردين واستقر وأقام بها ، ونقل أهله وأولاده الى ماردين ، وهو بها الى الآن .

وكان وصل الى ماردين مكين الدولة ابراهيم بن منقــذ فــأقام في ضيافة السعيد حسام الدين مدة ، ثم إنه بعــد يومين مــن ولاية علم

الدين قضاء ماردين ولي حسام الدين الوزارة - سنتان - المهذب البغدادي ، وكان ناسخا بمشهد ماردين ، وهو أبو عبد الله محمد ابن محمد العراقي ، وكان يقول : أنا ابن بنت المعوج من اهل بغداد ، وكنت في هذه السنة بماردين ، وكان السعيد

حسام الدين في أول ولايته بميافارقين نقل شمس الدين الغازي وشمس الدولة أخاه من مسجد الأمير الى ماردين ، ثم دفنهم بقلعة ماردين في مسجد الخضر بالقلعة ، وكان في ذلك الموضع تربة فيها جماعة من مات في ايام الغازي ، فدفن الغازي وشمس الدولة هناك مدة ، ثم ان السعيد حسام الدين بنى تحت ربض ماردين عند عين باقيري (٧١)مشهدا مليحا . وبنى فيه تربة ، وغرم عليهما مالا عظيما ، ووقف عليها الوقف ، وحط المقابر اليها ، ودفنوا فيها جميع الذين كانوا بالقلعة أولا واخيرا ، ونفذ اليها البسط والستور والآلات وجمع فيها خزانة كتب ، وحصل فيها كتبا كثيرة ، وهي الى الآن بها .

قيل وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة انهدمت عمارة جسر اقرامان ، ومن سنة ثمان وأربعين ، وفيها انهدمت البدنة داخل ميافارقين ، وبنيت .

قيل وفي سنة أربعين قبض الوزير المصري ، وحبس في قلعة ماردين فحصل عنده في الحبس ثياب خام ، وخرج من الحبس وشدها في وسطه وتدلى من قلعة ماردين وانهزم ، فلما أصبحوا طلبوه فلم يصادفوه ورأوا الخام مشدودا ، فطلبوه فوجدوه في طرف الجبل ، فحملوه الى السعيد حسام الدين فأطلقه وصرفه ولم يسيء اليه .

قيل وفي سنة اربعين وخمسمائة كسر السعيد حسام الدين فخر الدين قرا ارسلان على بساغين (٧٢) وكان يوما عظيما مشهودا ، وكانت الكسرة والفتح لشهاب الدين محمد بن الياس بن الغازي ، فإنه كان رأس العسكر مع عمه حسام الدين .

وفي سنة اربعين وصل اتابك زنكي الى ميافارقين وأخذ تل شيح، وضايق ميافارقين مدة، ثم سار

قيل وفي سنة اربعين وخمسمائة وصل الشيخ نور الهدى سليمان ابن عمر العلوي من اسعرد الى ميافارقين، وكان حسام الدين بالبلد، فخرج أهل ميافارقين بأسرهم ولقوة مقدار فرسخ، وخرج الامير فلقيه عند قبة السلطان، وكان فاضلا عالما، ونزل عند تاج الدين رحمه الله في دار علم الدين، وبعد يوم نزل الأمير اليه، ولم يقم له، وجلس في الجامع ووعظ وتكلم وافتتن الناس به، وبلغ من الامير مبلغا عظيما، وكان في اوفى منزلة، وحصل اذا كان الأمير بميافارقين كان معه واذا سار الى ماردين سار معه، وكان يقيم حيث أقام الأمير، وحصل له الناموس العظيم بحيث انه مدة مقامه عند الأمير لم يقم له يوما قط، وحصل يبدو منه ما لايليق بمثله، ونقص في اعين الناس، وسار الى الشام، وبقي مدة، وأخذ قلعة ابي قبيس، ووقع بينه وبين الاسماعيلية، وعاد الى السعيد حسام الدين وأقام مدة وكان أطمع السعيد حسام الدين في عمل الكيمياء، ولم يصح منه شيء، ومضى الى اسعرد وأقام بها مدة الى شهر ربيع الأول سنة ست واربعين وخمسمائة، فدخل الى الجامع وكان يوم الجمعة، فوثب عليه رجلان من الاسماعيلية، وضربه احدهما بخنجر فضربه بسيف كان بيده فوثب عليه رجل فضربه بسكين فوقع واختبط الناس وقبض الذي ضربه ورفيقه، وبقي الى يومه ومات رحمه الله ودفن بأسعرد في مسجد الخضر عليه السلام وقتلوا الذين قتلوه.

قيل وفي سنة اربعين وخمسمائة اتصل المولى نجم الدين المالك الى خاتون بنت الامير احمد بن سكمان صاحب اخلاط وكانت اخت شاه ارمن لامه،وبنت، ووصل صفي الدين بن رشيق وأثير الدين عباد بن ابي الفتوح وسراج الدين بن كامل غازي، وجماعة من أكابر دولة بيت سكمان، واقاموا اياما بميافارقين وساروا الى ماردين وعادوا ومضى القاضي علم الدين ابو الفتح محمد بن نباته

ومعه لأكابر الدولة الى أخلاط في سنة احدى واربعين وخمسمائة وأحضروا الخاتون ، وكان العرس بماردين ، وحضر أكابر دولة اخلاط .

قيل وفي سنة احدى واربعين وخمسمائة شرع السعيد حسام الدين رحمه الله في بناء جسر أقرمان (٧٣) على القنطرة بتولي الزاهد ابن الطويل ، واستقرت قواعده من الجانب الشرقي وقلعة المد واخربه ، وضعف عمله وأخربه والزم الزاهد بعمارته ، فأخرج عليه ، ثم وليه الأمير سيف الدين شيرباريك بن محمد ، ودبر على ابن ارتق ، وشرع في عمارته بتولي ابي الخير الغاسول ، وأحضر اخشابا لم ير مثلها ، وابتدأ في عمارته ، وهو من العجائب التي بنيت في كل الزمان ، وبقي العمل فيه .

وفي سنة احدى واربعين وخمسمائة نازل اتابك زنكي قلعة جعبر ، وفيها سيف الدولة ابو الحسن علي بن مالك ، وضايقها مضايقة شديدة حتى أشرفت على الأخذ ، وكان جمال الدين سربي ولد السعيد حسام الدين في خدمته ، ومعه عسكر ، وكان قبضه وحبسه في بيعة ربض القلعة ، ولقد سألت الوالي الصدر الكامل قاضي القضاة كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري ادام الله ظله في سنة اربع واربعين وخمسمائة بالموصل عن قتل اتابك ، وما جرى فقال :كنا نازلنا القلعة مده ، فلما كان بعض الايام خرج بعض الأيام حسام الدين المنبجي وصاح :لدي ما أكلم الأمير علي فتراءى له من على السور وقال له : تعلم ما بيني وبينك ، وإنك تعرف ايش هو ، ومالك من تلتجيء اليه ، ولا من يصرفه عنك ، والرأي ان تسلم ، وإلا إن اخذها بالسيف يجري ما لاتقدر على دفعه ، وبعد هذا ايش تنتظر ؟ فقال له : يا امير حسان انتظر الفرج من الله تعالى ، وما انتظرت على منبج لما حاصرها الامير يلك وكفاك الله أمره ، فقال كمال الدين : والله ما كان الا تلك الليلة نصف الليل ، وكان ذلك اليوم الأربعاء خامس شهر ربيع الاول ـ وقيل تاسعه ـ سنة احدى واربعين وخمسمائة والصائح

من القلعة يصيح : قتـــل اتـــابك يا بـــــن حســـــام الدين لك البشرى ، فاختبط الناس وماجوا .

وكان ســبب ذلك ان الأمير اتــابك كان يبيت في الخيمـــة وعنده خادم ، فما كان يبيت عنده غيره ، فلما نام تلك الليلة قتله الخادم في الخيمة ، فأخذ السكين بــالدم وخــرج وطلع الى الربض الى تحــت القلعة وصاح اليهم : قتلت اتابك ، فلم يصدقوه فــأراهم الســكين وعلامة أخرى كان اخذها من عنده ، فــاصعدوه اليهــم ، وحققــوا الحال منه ، وصاحوا فاختبط الناس واختلفوا وقصدوا مخيم جمال الدين الوزير فنهب وانهزم وجاء الي ، وقصدني الأمــراء والكبــار وركبت وقالوا : ما رأي الملك ؟ فقصدوا وقصــدت خيمــة الملك الب ارسلان بن محمود ، وقلت:انا والناس واتابك غلمان الملك والبلاد له والكل خدمه ومماليك السلطان ، فاجتمع الناس على الملك ، واطلق جمال الدين سربي من البيعة وسيروه الى ماردين ، وتفــرق الناس فريقين : واخذ صلاح الدين محمود بن ايوب اليغســياني نور الدين محمود وعسكر الشام ومضوا الى الشام فملك حلب وحماه ومنبــج وحران وحمص وجميع ما بيد اتابك مــن الشــام ، وا ســتقر بــه ، وسرنا نحن مع الملك وعساكر ديار ربيعه فطلبنا الموصل ، فــوصلنا الى سنجار وانهزم الملك وطلب الجزيرة ، فلحقه اخي تاج الدين ابو طاهر يحيي رحمه الله ، وعز الدين ابــو بــكر الدبيسي ، وحلفــا له ورداه الى المعسكر .

ونزلنا الى الموصل ، ووصل سيف الدين غازي بن اتابك مــن بلد شهرزور وكانت اقــطاعة مـــن الســـلطان ، فملك ديار ربيعـــة بأسرها ، وحمل الملك الى قلعة الثلو عند ســنجار ، وملك الموصـــل وجميع البلاد ، وسيف الدين غازي استوزر جمال الدين محمد بــن الاصفهاني ، وكان مستوفي ديوان ابيه ، وأقطع الجزيرة لعز الدين ابو بكر الدبيسي ، واستقر في البلاد .

وتــــولى أمــــــر نور الدين صـــــلاح الدين وأســــــد الدين

شيركوه ، واحتجب مجد الدين أبا بكر بن الداية ، وكانت امـه داية ذور الدين ، وهي ربته ، وكان مجد الدين يخدمه من صباه ، فلمـا ولي الامير رد اليه الأمر ، وولاه حلب ، واستقر في الشام (٧٤)

وبعد ايام من قتل اتابك ، وثب أهل الرها من الارمـن على مـن كان بها من المسـلمين وقتلوا جمـاعة ، ووصـل عز الدين الدبيسي وحسان المنبجي وجماعة من التركمان ، وتكاثروا عليهـا ونهبـوها وفتحوها وقتلوا منها خلقا كثيرا ، واقام بها جماعة .

وكان عند قتل اتابك السعيد حسام الدين بميافارقين ، فـوصله الخبر العصر وهو في بستان المحوط ، فسار من وقته ، وكان قبـل ذلك اليوم وصله الخبر بقبض ولده جمال الدين فضاق صدره ، ثـم وصله الخبر بقتله ، وسار الى حاني فنازلها وبقي عليها مدة ، ثـم اخذها ، وكان فيها الأمير غازي بن المهري ، فتحها ثـالث عشرين شهر ربيع الآخر سنة احدى واربعين وخمسـمائة ، وسـار فـأخذ السيوان وجبل جور وبالقرنين ، ونزل فأخذ شـبختان الموزر وتـل موزر وجملين (٧٥) وراس عين الخابور ، وعاد .

وكنت في هذه السنة بماردين ، وسار فخر الدين قـرا ارسـلان وملك . أرقنين وجرفوك ، وتل خرم والهـالار ، وجميع الحصـون التي كان اخذ اتابك من ابيه الأمير داود ، وملك جانب الشرقي مـن اسعرد وبهمرد وباناسا وطنزه والروق ، وقطليس وبلد صاف وقلعة الهيثهم التي في جبل طور عبدين(٧٦) ونزل صاحب اخلاط شاه ارمن فملك حيزان والمعدن وايرون ، وجميع الولاية التي أخذ اتـابك مـن الامير يعقوب .

وفي هذه السنة اثنتين واربعين وخمسمائة ضرب السعيد حسـام الدين الفلوس الصفار ، ومضيت الى المعدن واشتريت صفرا برسم الفلوس .

وفي سنة ثلاث واربعين مات غلان تفمش بن الامير داود ، ونازل السعيد حسام الدين اسعرد اياما واخذ باناسا ، وكان وصل الى خدمته جمال الدين محمود صاحب آمد وجمال الدين ابو القاسم بن نيسان وكان معه على اسعرد فلما اخذها عاد الى ميافارقين ، وبعد مدة ردها الى فخر الدين ، وفي هذه المدة (ملك) فخر الدين قرا ارسلان منازكرد ، وعادت هدية خاتون الى ميافارقين .

وفي هذه السنة وقع الخلف بين السعيد حسام الدين ، وابن اتابك سيف الدين غازي ، ونهب بلد ماردين ، ونهب مماليكه جماعة .

وفي هذه السنة وصلت الخاتون بنت عز الدين سلتق صاحبة اخلاط الى حصن كيفا طالبة الحجاز ، فانزلها فخر الدين قرا ارسلان ، واحسن في اكرامها ، ووصل بهاء الدين الوزير ، وأثير الدين عباد ، وعلم الدين بن طبز قاضي أرجيش ونزلوا في دار المؤيد مخطر بميافارقين ، واقاموا أياما ، ونفذ السعيد حسام الدين الى فخر الدين ، ومنعوا الخاتون من المسير الى الحجاز ، وكان شاه ارمن سالهم ذلك ، فسالوا الخاتون حتى عادوا جميعا الى اخلاط .

وفي هذه السنة مات المؤيد المستوفي أبو الحسن المبارك بن مخطر ، وكان متولي الديوان ، وكان معه المهذب العراقي مشرفا ، ودفن في ماردين في البيعة التي بناها ، وولي موضعه ولده الاجل كريم الدولة أبو منصور خالد وتلقب لقب أبيه مؤيد الدولة ، كريم الملك ، وأقام بشرائط الخدمة وتابع ما فوض اليه ، واستقل وزاد على مايرجى منه ، وحصل الامور كلها بحكمه .

قيل وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة مات الخليفة الحافظ بمصر وولي موضعه ولده المنصور اسماعيل وتلقب بالظافر ، وكان

السلطان أمير الجيوش العادل السلارمن المختني ، وقرر أمر الدولة ورتب العساكر ، واستقر الظافر بالخلافة (٧٧)

وقيل في سنة اثنتين واربعين وخمسمائة قبض اتابك غازي على القاضي كمال الدين وتاج الدين ابني عبد الله الشهرزوري ، وكان أمر الدولة من حيث قتل اتابك زنكي اليه ، فسعى جمال الدين الوزير وزين الدين في ذلك وقبضا عليهما ، ورفعا الى قلعة الموصل ، واستحضروا القاضي نجم الدين ابا علي بهاء الدين بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري من الرحبة ، وكان بها متولي القضاء ، فانه لما مات بهاء الدين الشهرزوري في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بالرقة على ماذكرناه ، ولي قضاء بلاد اتابك اجمع ولده القاضي نجم الدين ابو الحسن بن علي ، وولي ابن أخيه شمس الدين أبو أحمد الموصل ، وولي كمال الدين قضاء نصيبين والعسكر ، وولي تاج الدين أبو طاهر قضاء الجزيرة ، وولي شرف الدين ، أخو بهاء الدين سنجار ، وكل منهم ولي مستقلا من غير نيابة ، فانهم كانوا جميعهم في هذه المواضع نيابة عن بهاء الدين ، فلما مات تولى هؤلاء هذه البلاد ، وولي نجم الدين ولد بهاء الدين باقي البلاد اجمع والقضاة ، وبقي الى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وتولى شمس الدين ابو أحمد موضع قاضي القضاة بالموصل ، وخدم (٧٨)نجم الدين ،فأخذ قضاء الموصل مضافا الى ماكان بيده ، وبقي الى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وقبض نجم الدين متولي نصيبين وصودر وحبس ، وعوقب عقوبة عظيمة ، وأخذ منه مصادرة مايقارب مائة وثلاثين ألف دينار أميرية (٧٩) ، وولي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري البلاد جميعها ، واستقر بالامر وحصلت الولاية من القضاء والبلاد والعساكر وجميع الامور مردودة الى كمال الدين الى أن قتل اتابك على ماذكرناه ، وبقي نجم الدين في الحبس مدة اربع سنين ، ثم ان القاضي كمال الدين توصل في اخراجه وولاه قضاء الرحبة ، فانه كان في أيام أبيه بهاء الدين وبقي فيه الى أن قبض كمال الدين على ماذكرناه ، وحضر وولي الموصل ورتب ولده الاكبر بهاء الدين على

ماذكرناه بالرحبة ، واستقر هو بالموصل ، وبقي كمال الدين وتاج الدين في حبس الموصل بالقلعة مدة ، فنفذ الامام المتقي الخليفة رحمة الله عليه جماعة رسلا الى الموصل ، فتوصلوا في اخراجهما الى دورهما ، ورتب على باب كل واحد منهما رجلين خراسانية بحيث لايدخلون ولايخرجون ، وأخذ ولد كمال الدين أبو أحمد الجلال ، وتاج الدين أبو الفضائل الضياء وحبسا في قلعة الموصل ، فاستبد نجم الدين بقضاء الموصل ، وأقطع عز الدين أبو بكر الدبيسي الجزيرة ، ورتب فيها قاضيا يعرف بابن حمزة من أهل دقوقاء مدة (٨٠)

قيل وكانت في سنة ست وثلاثين وخمسمائة ولي الوزير نظام الدين أبو جعفر ، وقتل المظفر شرف الدين الزينبي ، وولي قوام الدين بن صدقة المخزن على ماذكرناه ، وبقي الوزير الى سنة احدى وأربعين وخمسمائة في الوزارة ، ومضى الى مكة ، وعاد الى بغداد .

وفي هذه السنة حج بهاء الدين أبو طاهر بن عقيل بن طاهر بن نباتة من ميافارقين ودخل الى بغداد وحضر دار الخلافة ، وأورد فصلا بحضور الوزير نظام الدين ورشيد الدولة بن الأنباري رحمهما الله ، وجميع أرباب دولة الخليفة ، وعاد وخلع عليه الخليفة ، وكان صحبته عين القضاة أبو الفتح بن العمراني ، وبعد عود الوزير الى بغداد بقي مدة وعزل من الوزارة وولي قوام الدين ابن صدقة الوزارة ، وولي المخزن زعيم الدين بن جعفر ، وولي الديوان الأجل جمال الدين أبو المظفر بن هبة .

قيل وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ماتت الخاتون فاطمة زوجة الخليفة المقتفي ببغداد .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حضر الشيخ شرف الدين بن سعد بن عصرون من الموصل ، وعقد على زمرد خاتون بنت السعيد

حسام الدين لاتابك غازي وكان الاملاك بقصر ميافارقين على عشرين الف دينار ، وكان الوالي الشيخ عز الشيوخ أبو القاسم بن حبشي .

وفي شعبان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وصل عز الدولة ابو نصر بن نيسان الى ميافارقين ، وعقد على صفية خاتون بنت السعيد حسام الدين لجمال الدين شمس الملوك محمود بن ايلدي صاحب آمد على خمسين ألف دينار ، وكان الوالي الخطيب تاج العلماء الحصكفي ، وحملها في الخمس الاواخر من شعبان الى آمد ، وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حضر الامير بهاء الدين سيونج بن كجمش الوزير ضياء الدين من عند الامير فخر الدين دولت شاه بن طغان ارسلان صاحب أرزن وبدليس وعقد على نوره خاتون بنت السعيد حسام الدين على خمسين ألف دينار ، وكان الوالي وكان العقد بميافارقين .

وكان في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة مات حسام الدولة توفي بأرزن وولي الامارة أخوه شمس الدين ياقوت ارسلان الى سنة أربعين وخمسمائة وقصد اخاه دولت شاه الى خدمة اتابك زنكي ، لما عبروا أخذ بلاد الامير داود بعد موته ، ثم مات ياقوت ارسلان يوم السبت مستهل شهر رمضان سنة أربعين وخمسمائة .

وسار ضياء الدين أيوب الى معسكر اتابك فجاء بالامير دولت شاه ، ويلقب فخر الدين ، وعبر به على باب ميافارقين ، وسار الى أرزن وملك البلاد ، واستبد بالامارة وملك جميع ولاية ابيه وأخوته ، وكان ضياء الدين أيوب تزوج أمه ، واتصل الى السعيد حسام الدين ، وفي ذي الحجة وصلوا الى ميافارقين ، وأخذوا الخاتون وساروا بها الى أرزن وعمل العرس بميافارقين .

- ٥٢٦٨ -

وفي سنة ثلاث واربعين وخمسمائة سار تاج الدين ابو سالم طاهر بن نباتة الى الحجاز ، ودخل بغداد وحضر ديوان الخلافة .

وفي سنة ثلاث واربعين وخمسمائة عاد الوزير مكين الدين المصري الى ميافارقين وولاه السعيد حسام الدين الوزارة ، وبقي اياما ، وكنت في هذه السنة متولي اشراف ظاهر بلد ميافارقين وبقي مدة ، ثم انه قبض المؤيد والمهذب وعاقبهما بالقصر اياما ، ثم انه رتب العميد ابي طاهر بن المحتسب في عمل حساب الديوان ، فجلس يومين . لاغير ، ورسم السعيد حسام الدين بعزله وصفعه وحلق لحيته ، وركب حمارا ودورواه في البلد ، ونفي وأطرف عن البلد ، وبقي الوزير اياما ، ثم خرج بعد العصر ، وغلامه حوله ، وسير حول البلد ، ثم طلب طريق حصن كيفا ومضى ، فقيل للسعيد حسام الدين قد هرب ، فقال : ماأخذ منا شيئا ، فلا تطلبوه ، فمضى ، وفي بكرة الغد أعيد المؤيد والمهذب الى الديوان ، فاستقر أمرهما وعادا الى أول منزلة .

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة خرج ابن اتابك غازي الى باب نصيبين ، ونفذ الامير جلدك الخليفتي الى ماردين ، واخذ زمرد خاتون الى باب نصيبين ونزل معها صمصام الدين ، ومرض ابن اتابك سيف الدين غازي ، فحملت الى الموصل ونزلت في درب دراج في دار الخاتون بنت سكمان زوجة اتابك زنكي ، ودخل سيف الدين غازي وهو مريض على شدة ، واقام بالموصل ، ونفذوا الى بغداد فأحضروا الحكيم ابا البركات فحضر وعالجه اياما ومات في صفر سنة اربع واربعين وخمسمائة ، وولي الامارة اخوه قطب ممدود بن اتابك ، واستقر في الامارة ، ورتب الدولة جمال الدين الوزير ، وزين الدين وعز الدين ، ودفن سيف الدين غازي في المدرسة العمادية (٨١)

وبعد موت سيف الدين اطلق القاضي كمال الدين واخوه من دورهم ، واستدعيا الى الميدان ، وكنت في هذه السنة بالموصل في

خدمة السعيد حسام الدين في بيع الحديد وكنت حاضرا بالميدان ، وكان نفذ الوزير جمال الدين لهما بغلتين ، فركبا وحضرا الميدان داخل الموصل ، فلما دخلا باب الميدان وقد غيرا ثيابهما وركبا بغير طرحات ترجلا ، فلما رآهما اتابك قطب الدين طلبهما وترجل لهما ، ولقياه عزياه عن اخيه وهنياه بالامارة وركبا ووقفا من ناحيته ، وبقيا ساعة وعادا الى مقرهما ، وأزالوا الاجناد من على ابوابهما ، وحصلا يركبان في كل اسبوع الى خدمة اتابك ، وزين الدين وجمال الدين ، وبعد مدة نفذا وقررا الحال مع السعيد حسام الدين ، وعقد لاتابك قطب الدين على زمرد خاتون بعد انقضاء مدة الوفاة .

وفي آخر سنة اربعة واربعين نازل السعيد حسام الدين مدينة دارا وامتنع الوالي من تسليمها له فحاصرها مدة ثم سلمها اليه يوم الأربعاء ثاني عشر ذي الحجة وملكها ، ورتب فيها الحاجب ابن نفش الدنيسري ،وكنت بالمعسكر حتى فتحها في خدمة السعيد حسام الدين .

وفي هذه السنة سنة اربع واربعين احترق سوق القبة بميافارقين.

وفي هذه السنة في ذي الحجة وقع الخلف بين اولاد العميد تاج الدين ابي سالم بن نباته ، وسار ضياء الدين الى دارا ، فلقي السعيد حسام الدين ، وخدم واخذ القضاء ، وعاد الى ميافارقين .

وفي ثاني عشر محرم سنة اربع واربعين وخمسمائة ولد قطب الدين بن ايلغازي ولد المالك نجم الدين ادام الله ظلهما .

وفي سنة اربع واربعين وخمسمائة أخذت الافرنج المرية (٨٢) من المسلمين ، ونهبت وحمل نهبها وبيع بديار مصر والساحل والشام .

وفي سنة خمس واربعين وخمسمائة أملك صمصام الدين بهرام

ابن السعيد حسام الدين ببنت اتابك أخت قطب الدين ، وكنت وقت الاملاك في الموصل .

وفي سنة خمس واربعين وخمسمائة نهبت العرب بنوزغب وغيرهم وذباب وبطران لخر الحاج ، وأخذوا جميع ما كان معهم بين مكة والمدينة عند موضع يسمى سد ، وتلف خلق عظيم ، ولم يسمع بذلك الا من سنين بعيدة ، ولم يسلم الا الاقل من الناس ، وكنت في هذه السنة بالموصل مقيما .

وملك حسام الدين بأولاده جميع أمراء ديار بكر وديار ربيعة وارمينية واتصاله بهم ، ولم يبق بعد اتابك زنكي مستقل بنفسه من غير معارض ولا منازع ، ولا من يحكم عليه غير السعيد حسام الدين .

وفي سنة خمس واربعين وخمسمائة مات معين الدين أنر بدمشق ، وفيها لقي نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام الافرنج وكسرهم اقبح كسرة ، فأسر ابن جوسلين صاحب الرها وما حولها وملكت بلاده جميعها ، وملك نور الدين تل باشر وما حولها وتل خالد وما يليها ، وملك السعيد حسام الدين سميساط ، وفي سادس شهر ربيع الاول سنة خمس واربعين وخمسمائة ملك البيرة ، وفي سنة ست واربعين قتل في هذه الكسرة الحاجب عمر الخاص ، وكان في خدمة نور الدين وملك فخر الدين قرا ارسلان من ولاية ابن جوسلين حصن منصور وبالو ، وأخذ من الارمن قلعة كركر (٨٣) ،وملك السلطان قليج ارسلان مرعش وكيسوم وماجاورها ، ولم يبق لابن جوسلين من الولاية غير قلعة الروم (٨٤) ، ولو عاش السعيد حسام الدين لكان ملكها .

وفي سنة خمس واربعين وخمسمائة مات معين الدين انر بدمشق (٨٥) .

وفي سنة ست واربعين طهر السعيد حسام الدين اولاد الأمير جمال الدين سربي بميافارقين .

وفي سبع واربعين وصل الى السعيد حسام الدين منشور من السلطان والخليفة وقرىء على المنبر بالبلاد والخلع ، وبعد ليلتين وهي ليلة الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع واربعين ، انهدم الجامع بميافارقين موضع المنبر والأروقة ، وكنت ببغداد ، واجتمعت ببغداد بقطب الدين العبادي الواعظ وصحبته مدة وكتبت عنه شيئا كثيرا من مجالس ،

وكان سنة اربع واربعين في اخرها ولي وزارة الخليفة عز الدين المظفر محمد بن يحيى بن هبيره ، وعزل قوام الدين صدقة من الوزارة ، واستقر عز الدين ، وكان اليه ديوان الزمام والاستقياء ، وولي ديوان الزمام جلال الدين بن جعفر أخو صاحب المخزن ، وكان ابوهما من اهل قرية بعقوبا (٨٦) ، كان وزر لمجاهد الدين بهزور مدة حياته ، وبقي الخليفة مستقر الاحوال .

وفي سنة ست واربعين وصل السلطان مسعود الى بغداد ، وأقام بها جميع الشتوة ورايته في هذه السنة ببغداد ، ورأيت الفيل والببغة والقرد ، وسار السلطان الى باب همذان فمرض في جمادى الاولى سنة سبع واربعين وبقي ببغداد الى أول رجب من السنة ، وسرت الى ميافارقين ، فلما وصلنا الى تكريت وقع الخبر ان السلطان قد مات ، فاختبط الناس ، وسرنا الى الموصل ، وخرج الخليفة ونزل في دار السلطان ، وملك بغداد ، وهرب مسعود بلال الى تكريت وكان شحنة بغداد ، وكان قد عمل امارة الحاج سنين ، ولقي الناس منه كل خير وراحة ، وجند الخليفة الجنود والعساكر ، وأسقط المؤن والاعشار التي كان يأخذها اصحاب السلطان ، وأحسن الى الناس ، وعدل في الرعية ، وحصل العراق واستغل ارتفاع العراق جميعه ، فإنه كان للسلطان والخواتين

واصحاب السلطان بالعراق معيشة عشرين الف فارس ، فحصل الجميع للخليفة .

ولما مات السلطان مسعود بباب همذان كان السلطان محمد شاه بن محمود وكان صهره على ابنته في خوزستان ، وكان معه في المعسكر اخوه ملكشاه بن محمود فرتبه خاصبيك بن البلنكري في السلطنة مدة ، فلما سمع محمد شاه سار من خوزستان الى همذان ، فأخذ السلطنة ، وسار اخوه ملكشاه فملك خوزستان والاهواز وطرفا من البصرة ، وبقي مدة ، وقتل خاصبيك بن البلنكري ، واستبد بالسلطنة محمد شاه .

وكان السلطان مسعود رحمه الله سلطانا عادلا ، لين الجانب ، كبير النفس ، بحيث انه فرق ولايته اجمع على اصحابه ، وما كان له غير الاسم من السلطنة ، وكان مع لين جانبه ما حارب احدا الا ظفر به ، وقتل من الامراء الكبار ما لاقتل غيره منهم : منكورس ، وقراجا الساقي صاحب برس وشسيران (٨٧) . وقتل عباس صاحب الري ، وقتل الراشد والمسترشد ودبيس وبوزباه ، وعبد الرحمن بن طغريل ، وجماعة من الامراء الاسفهسلارية الكبار ، وسعد سعادة عظيمة ، ومات وخلف ثلاثة بنين صغار ، فاستقر محمد شاه في السلطنة ، وملك همذان واصفهان وما حولها ، من غير خطبة بالعراق .

قيل وفي سنة سبع واربعين ملك فخر الدين قرا ارسلان حصن كركر من الارمن

وفي سنة سبع واربعين وخمسمائة تزوج جلال الملوك كبك بن سليمان بن عبد الجبار بن ارتق بهدية خاتون بنت السعيد حسام الدين بسفارة أمه الملكة بنت رضوان زوجة حسام الدين .

وفي سنة خمس واربعين كان وصل الى ماردين الوزير زين

الدين اسعد بن عبد الخالق اخو المؤيد زين الدين ، وزير السلطان ، وأقام عند حسام الدين واستوزره ، وبقي في الديوان ومعه المؤيد المستوفي والمهذب ، واستناب رجلا كاتبا يلقب بالشهاب ، واستقر في الوزراة الى سنة ست واربعين وخمسمائة .

وكان في سنة اربع واربعين خرج السعيد حسام الدين ، ونازل آمد ، وطالبهم بصداق صفية خاتون ، وبقي مدة ، ورحل عن آمد الى ماردين ، وبقي اياما ، ونفذ ابن نيسان رجلين فاقاما بقلعة ماردين يعملان بالفاعل اياما ، ثم إن الوزير زين الدين ركب ذات يوم وصعد الى القلعة ، فجاز في موضع ضيق ، فخرج عليه اولئك الرجلان ، فضربه احدهما بفأس في رأسه فوقع ، فطلب جماعة كانوا بين يدي الوزير الرجلين فقالا لهم : ما تريدون نحن نصعد معكم الى الأمير ، فصعدا مع القوم الى باب القلعة والناس خلفهم ، ودخلا القلعة الى بين ايدي الأمير وقالا : نحن قتلنا الوزير ، فقال : ولم؟ فقالا :أمرنا بذلك ، وأكثر الناس قالوا : ان ابن نيسان دس عليه وقتله ، فأمر الأمير حسام الدين بضرب رقابهما على قبره ، وكان دفن بماردين ، وكان الرجلان من الملاحدة ، وعدا حسام الدين نزل على آمد ، وتحدث معه وسأله فيهم ، ثم دخل الى آمد واجتمع بمؤيد الدين بن نيسان ، وقرر معه الحال ، فخرج مؤيد الدين الى الأمير واستقر الصلح ، وخرج الآمدية الى السعيد حسام الدين ، وحصلوا من جملته وتحت أمره ورحل عنهم .

وفي العشر الاخر من شهر رجب سنة ست واربعين وخمسمائة ماتت نورة خاتون بنت حسام الدين عند صاحب ارزن ، وخلفت ابنا عاش بعدها اياما ومات ، ودفنت بأرزن ، وضاق صدر السعيد حسام الدين لموتها ، وبقي حسام الدين بعد قتل الوزير زين الدين بغير وزير ، واكتفى بالاجل مؤيد الدولة ابي منصور خالد بن المبارك ابن مخطر الى ان مات ، فقام بما فوض اليه أحسن القيام .

وبقي السعيد حسام الدين في الولاية الى يوم الخميس ثاني ذي القعدة سنة ثمان واربعين وخمسمائة ، وتوفي بماردين ، وكان مرضه من يوم السبت الى يوم الخميس ثاني ذي القعدة ، ودفن بالمشهد تحت ماردين ، وكانت ولايته ميافارقين ثلاثين سنة ، وماردين اثنتين وثلاثين سنة ، فرضي الله عنه ، وكان اميرا عالما مطلعا على جميع العلوم ، يحب اهل العلم ، ويخالطهم ، ويكرم ارباب الفضل ، وكان من اهل كل صناعة ، وكان كريما جوادا مفضالا ، لا يرى القتل الا عند الضرورة ، وكان له من الذمة والجوار ما لا كان للعرب العرباء ، ولقد قصده الأمير ابو بكر صاحب نصيبين منهزما من اتابك زنكي ، فذم له ، وطلبه اتابك ، فلم يسلمه اليه ، وجرى بينهما امر عظيم ، وأخذ اتابك دارا ونهب البلاد ، وخرج عن يد السعيد حسام الدين مالا عظيما ، ولم يسلمه ، وهو كان سبب الوحشة بين السعيد وبين اتابك ، ثم انفصل عنه ومضى الى السلطان مسعود فقبضه السلطان ودفنه الى اتابك فقتله .

وكان السعيد حسام الدين رحمه الله يراعي ارباب البيوت وينظر في احوالهم ولا يرى قلع البيوت الكبار ، وكان اذا وصله رجل من اصحاب العمائم والعلوم انزله وأكرمه وأحسن اليه ، وأوصل اليه جميع ما يحتاج اليه ، وكان اذا تحقق في رجل شيئا من اي العلوم كان ، قربه وادناه واعطاه وساله عما يعلمه من علم او صناعة .

وكنت لما مات بولاية الكرج في خدمة ملك الابخاز ديميطري بن داود ملك الولاية بأسرها ، فإني كنت دخلت في سنة ثمان واربعين الى تفليس ، ووصلت الى خدمته ، وسرت معه الى ولاية الان والابخاز والدربند ، وكنا ذات يوم قريبا من بلد الدربند ، وكان ذلك اليوم رابع المحرم سنة تسع واربعين وخمسمائة ، فاستدعاني وقال :إن صاحبكم حسام الدين قد مات ، وقد وصلني الخبر في هذا اليوم ، وكان ولي ميافارقين في ايامه جماعة من الولاة منهم : الحاجب ابو بكر ، وبيرم وعثمان بن خمرتاش الحاج ، كل منهم

مرة ، إلا الحاجب بيرم فولي مـرتين ، ثـم ولي الحـاجب عبـد الكريم ، ثم عزل ، وولي الحاجب يوسف ينال ثـم عزل ، وأعطـي تحت دارا اقـطاعا ، وأخـذه منه أتـابك زنكي ، وولى ميافـارقين مملوكا كان للأمير اسمه قزعلي مدة ومات ، وجلس في القصر الأمير قيماز الخادم ، والحـاجب بيرم مـدة ، ثـم ولي الحـاجب يرنقش مدة ، وعاد الحاجب يوسف ينال مرة ثـانية ، وبقـي في الولاية الى ثالث رجب سنة تسع وثلاثين ومات ، ودفن بميافـارقين ، ثـم ولي ناصر الدولة صندل في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ، وبقي الى شهر ربيع الاول سنة ثلاث وأربعين ومات ، وبقي ولده غرس الدولة ينال ببرج الملك ، وجلس الحاجب بيرم في القصر مـدة ، واسـتقل ينال بالولاية وبقي واليا الى ان مـات السـعيد حسـام الدين ، رحمـه الله ، على ما ذكرناه إن شاء الله تعالى .

وأنا أذكر نسب الأرتقين

وما وصل الي من أحوالهم ومن بقي من نسل الأمير ارتق رحمه الله

قيل لما مات الامير ارتق خلف اولادا جماعة منهم : الأمير سكمان ، ونجم الدين غازي ، وبهرام ، وعبد الجبار ، وسياوش ، وألب بارق ، وابنا لخر نذكر اسمه بكاش وابنا لخر اسمه البتاش ، وهؤلاء الذين اعقبوا وبقي نسلهم الى الآن بديار بكر ، وخلف غير هؤلاء ما سمعت ان لهم الآن عقب ، فاهملت ذكرهم .

فاما سكمان فإنه ملك حصن كيفا وبقي مدة ، ومات سنة ست وخمسمائة وخلف الامير ركن الدولة داود والامير ابراهيم وملك حصن كيفا بعد ابيه مدة ومات ، وملكها بعده ركن الدولة داود وآزر خاتون ، وملك ركن الدولة حصن كيفا بعده ، وملك غيرها بعد ذلك ، وأولد اربع بنين هم : أرسلان تغمش ، وقرا أرسلان ، وسليمان ومحمود ، وأما ارسلان تغمش فمات ، وكان ملك منازكرد ، وكان ملكها بعد ابيه وخلف ابنا من ابنة السعيد حسام الدين ، ومات بعد ابيه بمدة يسيرة ، وأما سليمان فإنه مات وخلف ابنا اسمه يعقوب هو الآن في خدمة الملك نجم الدين وابنا آخر هو في خدمة جمال الدين في حاني .

وأما محمود ملك طنزه والقريشة ومات ، وخلف ابنا يسمى داود ، وهو في خدمة اولاد عمه فخر الدين بحصن كيفا .

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه ملك البلاد جميعها التي كانت

لأبيه ، بعد موته على ماذكرناه ومات ، وخلف ابنين هما : نور الدين محمود وعماد الدين ابو بكر ، وولي الامر بعده نور الدين ، وهو الآن في الملك ، وخلف بناتا جماعة

وأما الأمير بهرام بن ارتق فإنه خلف الامير نور الدولة بلك وملك خرتبرت وبالو وما حولها ، وأخذها منه شمس الدولة سليمان بن الغازي ، وأخذها بعد ذلك الامير داود بعد موت سليمان ، وكان تزوج بالملكة برخندا خاتون بنت الملك رضوان بعد نجم الدين الغازي ، وهو دخل بها ، وملك طرفا من قريب الفرات ، وكان يغزو الافرنج ، وقتل على منبج على ما ذكرناه ، وخلف بنتا تزوجها فخر الدين قرا ارسلان ومات عنها .

وأما سياوش بن ارتق فإنه خلف الامير يونس الحرامي ، رأيته في خدمة السعيد حسام الدين رحمه الله ، وأولد اولادا رأيتهم في خدمة اولاد فخر الدين بحصن كيفا .

والامير سيونج ، وهو في حاني في خدمة جمال الدين أخو الملك نجم الدين ، وتزوج ببنت الامير شيرباريك ، وأولد منها ابنا اسمه شاه ملك ، وماتت وتزوج اخت لها اخرى

وأما الب ارسلان بن ارتق فإنه خلف اولادا منهم : الأمير علي ، ملك على جور ، وأولد الأمير محدود وهو شيرباريك ، وابنا آخر مات ، اسمه محمود ، وأولد ابنا اسمه ....وهو في خرتبرت ، وتزوج شاه ملك بنت شيرباريك في سنة سبع وخمسمائة و ولد شيرباريك : سيونج ، واسماعيل وطغريل ، وبناتا جماعة ، وأولد ابنا من جارية اسمه زنكي ، وبقي في خدمة ابيه مدة ، ومضى الى مصر وتوفي بها في ايام شاور ، وأما طغريل فمات بحصن كيفا وحمل الى ميافارقين ، وأما سيونج ، وكان اكبرهم ، وتزوج بصفية خاتون بنت الملك رضوان ومات ولم يعقب

وأما اسماعيل ، فله ولدين ذكور ، وهو في خدمة الملك نجم الدين ، وبقي شير باريك في خدمة الملك حسام الدين الى ان مات وانتقل الى خدمة فخر الدين قرا ارسلان ، وبقي عنده مدة وعادإلى خدمة الملك نجم الدين ومات في رجب سنة ست وستين وخمسمائة ، ودفن في قرية لهم في اسفل المقابر .

وأما عبد الجبار فإنه خلف ثلاثة بنين : أغسيان ، وأرسلان وسليمان ،أما اغسيان فانه انتقل وخدم بولاية اخلاط مع بيت سكمان ، واولد هناك ولدين : الأمير احمد ، والآخر يلقب عز الدين ، وانتقل الى خدمة فخر الدين قرا ارسلان بحصن كيفا ، وحصل عنده في أولى درجة ، وزوجه بنت اخيه ارسلان تغمش ، ومات بالصرع ، وخلف ابنا له هو في خدمة اولاد فخر الدين .

وأما البتاش فإنه خلف الامير علي الحرامي ، ومات في خدمة حسام الدين ، وخلف ولدين : أحدهما ابي بكر ، وقد لبس الصوف وهو فقير ، وعمر وهو في خدمة اولاد فخر الدين بحصن كيفا .

وأما الأمير ارسلان بن عبد الجبار فإنه ملك جبل جور وبالقرنين والسيوان ، وبقي مدة ، وأخذها منه السعيد حسام الدين ، وانتقل الى حصن كيفا الى خدمة ركن الدولة داود ، ومات في خدمته ، وخلف اولادا منهم ، بلاق ومحمود ، وبناتا ، وكان زوج بنتا في حياته من الأمير زعيم الدولة مسيب بن مالك صاحب الرقة .

وأقام الاولاد في خدمة فخر الدين ، وانتقل الأمير بلاق الى خدمة الملك نجم الدين ومات .

وأما سليمان ، كان يلقب بدر الدولة ، فإنه ملك حلب ، وتزوج بالخاتون الملكة بنت رضوان ، التي كانت زوجة الامير بلك ، وأولد منها ابنا سماه كبك ، ويلقب بجلال الملوك ، وأخذت منه

حلب ، ووصل الى خدمة السعيد حسام الدين ، واقطعه بلد قلب ، وحصنها وبقي في خدمته الى ان مات ، ووصلت الملكة الى ماردين بعد موته ومعها ولده ، فأقامت بماردين ، وتزوجها السعيد حسام الدين حسبما ذكرناه ، وزوج ولدها جلال الملوك من ابنته هدية خاتون في سنة سبع واربعين ، وبقي الى سنة اربع وخمسين وخمسمائة ، وتوفي بباب نصيبين على ما سنذكره ان شاء الله تعالى .

وأما الابن الآخر وهو بكباش فإنه اولد ارسلان طغمش ، وانتقل الى خدمة اتابك طغتكين صاحب دمشق ، فإنه كان عنده في اوفى منزلة ، وتزوج بعائشة خاتون ابنة اخي الوزير محمد الدويني ، وأقام بدمشق الى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة في خدمة اولاد طغتيكن ، وقصد الموصل فأقام في خدمة صاحبها مدة يسيرة ، ثم انتقل الى خدمة السعيد حسام الدين فأكرمه واقطعه اقطاعات كثيرة في آخر سنة اربع واربعين عند ما ملك دارا ، وبقي مدة يسيرة ومات وخلف ثلاثة بنين ، أحدهم كان يلقب شمس الدولة ، عاش في خدمة السعيد بعد ابيه مدة يسيرة ومات ، وبقي الابنان مسعود وبلك ، وبقي مسعود في خدمة المالك نجم الدين مدة ، وانتقل الى خدمة فخر الدين قرا ارسلان ، وأما بلك فإنه بقي في خدمة المالك نجم الدين الى سنة تسع وستين وتزهد وانقطع وجلس في مسجد ياقوت قريبا من باب الهوة في رأس الربض ، وهو الى الآن مقيم به .

وأما نجم الدين الغازي فإنه اولد اولادا جماعة ، أحدهم الياس واياز ، وقتلا في حياته ، وكهار خاتون ، وأما الياس فإنه ولد الامير شهاب الدين محمد بن الياس ، وبنتا من خاتون تزوجها سعد الدين ايلدي صاحب آمد ، وله منها ولد في آمد ، وأما شهاب الدين محمد فإنه نشأ في خدمة عمه السعيد حسام الدين ، واقطعه تل بسمة ، وكان عنده مكرما الى ان مات ، وبقي مدة بعد موته وانتقل

الى الشام الى خدمة نور الدين فأقطعه اقطاعات كثيرة وبقي في خدمته الى الآن

وله ثلاث بنين وهم الآن في خدمة نور الدين ، وأولد نجم الدين ابنا من جارية اسمه عمر ، زوجها بالامير أسفهسلار امروه ، ومات الولد ولم يعقب ، وأولد ابنا اسمه نصر من جارية زوجها بالحاجب عمر الخاص ، ومات ولم يعقب ، وزوج كهار خاتون من سيف الدولة دبيس ، وولدت منه الأمير عز الدين محمد ، وبقي عندها بماردين الى أن قتل دبيس ، ومضى الى الحلة ، وملك مع أخوته وبقي مدة ، وعاد الى خدمة المالك نجم الدين وتردد مرارا ، وتوفي بعد أمه ، وكانت توفت في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ودفنت بماردين .

وخلف عين الدولة ابنا هو الآن في خدمة شهاب الدين محمد بن الياس ، وأولد نجم الدين بنتا سماها عنيا خاتون تزوجها الامير ايلدي صاحب آمد ، وأولد منها جمال الدين شمس الملوك محمود ، وهو الآن صاحب آمد ، وماتت وتزوج بعدها بأخت شهاب الدين على ماذكرناه ، وأولد بنتا اسمها سفرى خاتون ، تزوجها حسام الدولة قوتي بن طغان ارسلان صاحب أرزن وبدليس ، ومات وخلف ابنا اسمه ياغي سيان وهو في خدمة فخر الدين دولت شاه عمه .

وأولد شمس الدولة سليمان ، وملك ميافارقين بعد أبيه ، وتوفي وخلف ابنا اسمه محمود ورأيته في ماردين ، وهو في أسوأ حال ، وما أعلم ماكان منه ،

وأما السعيد حسام الدين تمرتاش ، وكان عين البيت ، وسيد الأولاد ، فملك ماردين على ماذكرناه بعد أبيه وملك ميافارقين بعد أخيه ، وبقي الى أن مات وخلف من الأولاد : المالك نجم الدين ألبي ، وملك الملك بعد أبيه ، وجمال الدين سربي ، أعطاه أخوه

- ٥٢٨١ -

حاني والسيوان وحصن قلب ، وصمصام الدين بهـرام ، ملك دارا وهدية خاتون ، هي عند أخيها جمال الدين بحاني ، وزمرد خـاتون بالموصل مات عنها قطب الدين ممدود بن زنكي ، وخلف منها أربعـة أولاد : ملك الملوك سيف الدين غازي بن ممدود على مـا سنذكره ان شاء الله ، ومات في حياته صفية خاتون زوجة صاحب آمد ، وذوره خاتون زوجـة صـاحب أرزن على مـاذكرناه ، فـرحمة الله عليه ورضوانه لديه .

وهذا ماوصل الي من نسب من بقـي مـن الارتقية ، والله أعلم بالصواب .

ذكر ولاية المالك نجم الدين ألبي بن السعيد حسام الدين تمرمتاش ..

قيل لما مات السعيد حسام الدين رحمة الله بماردين ملك المالك بعد أبيه ، وكان سراج الدولة برغش الخاص بماردين ، فحضر المالك نجم الدين وملك ، وحضر أخوته لديه ، ودفن بالمشهد في أسفل ربض ماردين ، ثم ركب الحاجب سعد الدولة التوباش ، وكان حاجبا لنجم الدين من ماردين ، وسار الى ميافارقين وصبح البلد ، ولم يعلم به الا وهو على الباب ، ودخل وقصد القصر وجلس استأذن له الوالي ، ثم صعد خلف الراجل الى رأس درجة برج الملك ، ودخل الراجل الى غرس الدولة ينال ، ودخل سعد الدولة خلفه ، فلقيه واصرف من كان عنده فأعلمه بموت الأمير ، وأن المالك حصل نجم الدين ثم نفذ وأحضر أكابر الامراء والدولة والقاضي وأهل البلد ، وتقرر الحال مع الخطيب بهاء الدين ، وكان يوم الجمعة فخطب بالناس ، ودعا لنجم الدين ، ولم يكن أكثر الناس علموا بذلك ، ثم خرج المحتسب ودرب على الناس وسكنهم وعرفهم أن المالك نجم الدين ملك البلاد ، فاطمأن الناس ، وطيب قلوبهم ، ولم ينفسخ على المالك نجم الدين حال ولاعصى عليه أحد ، وملك جميع ولاية ابيه ، وما اختلف عليه احد ، ولم يسفك في ولايته دم ، واتفق أخوته معه ، وتوطدت له البلاد ، واستقر ملكه ، وراسل جميع الجوانب والملوك والاطراف واستحلفهم ، ونفذوا عزوه وهنوه بالملك ، ولقي الناس في ولايته كل خير ، وظفروا بالعدل والاحسان ، وسار بالناس أحسن سيرة ، وكف عن الناس الأيدي المتطاولة ، ولم ير ملك أعف منه ولاأكبر من نفسه عن أموال الرعية وحريمهم ، وحصل الناس في ولايته على أتم مصلحة ، واستقر في حجبته سعد الدولة التوباش ، وأعطي البوق والعلم والجاويش ، وأقطع

سميساط ،وترتب الحاجب شمس الدين سيونج بن ابي سعد بن الوزير أبي منصور الجويني في الحجبة ، واعطي البوق والعلم والجاويش ، واقطع شبختان ، ورتب في الديوان الاجل مؤيد الدولة كريم الملك أبا منصور خالد بن مخطر في الاستيفاء ، والمهذب العراقي في اشراف الديوان ورتب معهم المختص ظهير الدين أبا الفتح محمد بن قليدان في الديوان ، وكان يخدم الملك نجم الدين في ايام أبيه ، فاستقر الناس ، واجرى الناس على ما كانوا عليه في ايام السعيد حسام الدين من املاكهم وما كان لهم من المعاش والرسوم .

وبعد مدة يسيرة انفصل الامير شهاب الدين محمد بن الياس في خدمة نور الدين ملك الشام ، واعطى جمال الدين مدينة حاني ، وصمصام الدين دارا واستقروا ، وبعد مدة مضى سراج الدولة برغش الخاص الى البيرة فتسلمها ، وأقام بها مدة ثم عصى فيها ، ونفذ شهاب الدين محمد بن الياس ليحضره ويسلمها اليه فحضر وغدر به ، ولم يسلمها اليه ، فبقي عليها أياما وغدر به الجند وسلموها الى شهاب الدين ، وقبض سراج الدولة ، وملك البيرة وحصلت له بيده الى الآن ، وهو في خدمة نور الدين ، وبقي سراج الدولة مقبوضا مدة ، ثم اطلقه ومضى الى قلعة جعبر وبقي عند شهاب الدين صاحب القلعة مدة ، ثم انتقل الى اخلاط ، فأقام عند الخاتون الى سنة سبع وستين وخمسمائة ، ومات بخلاط .

قيل وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة أخذت الافرنج عسقلان من أهل مصر ، وكان الخليفة الظافر لما علم أن الافرنج تنازل عسقلان ، فحضر بها ونقل رأس الحسين بن علي عليهما السلام الى مصر ، وبنى عليه بمصر مشهدا غرم عليه مالا يحصى ، ونقل الرأس الى مصر وجميع ماكان بالمشهد بعسقلان من الآلات والستور وغير ذلك ، وبعد ايام ملك الافرنج عسقلان ، وهي بيدهم الى الآن ، وكان السعيد حسام الدين قد شرع في بناء جسر اقرامان

على نهر ساتيد وعمر أكثره الى أن بقي فيه بعض العمل في ختم عقد الطاق ، ومات رحمه الله ، وشرع الملك نجم الدين في اتمامه فبنى وجدد في ذلك ، فتم عقد القنطرة ، وكانت نيفا وستون ذراعا بالنجار ، وتم فليس في الدنيا مثلة (٨٨) .

وهو رضي الله عنه أول من بنى جسرا بديار بكر في هذا الزمان ، وبني بعده فخر الدين قرا ارسلان على دجلة بحصن كيفا ، وبني على شط بانارقن تحت اسعرد ، وبنى على شط اجوم شبوه بين أرزن وأسعرد جسرا آخر ، وتشبهوا بالسعيد حسام الدين ، وبنى جمال الدين وزير الموصل جسر الياريان تحت فذك فوق الجزيرة ، وشرع في بناء جسر على دجلة تحت الجزيرة في موضع يسمى البافتا ، فبنى منه خمس عينات ، وبقيت الوسطى ، ومات جمال الدين ولم يتم عمله ، وكان جسر أقرامان في أول شهور سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وبقي القالب الذي بني عليه الجسر وعقد الطاق ، وجبن الصانع عن نقضه ، فبقي ، ونقض منه طبقة عالية ، وبقي اياما يرتئي في نقضه ، فجاء مطر عظيم ومد لم ير الناس مثله في جانب الغربي والشمال ولم يجيء في جانب الشرق ، وأقرامان قنطرة واحدة ، فأخذ الماء القالب جميعه ونقضه ، ونزل السيل بالأخشاب الى تحت الجسر بفرسخ ، وكان هذا من سعادة الملك نجم الدين ، وكان في آب ، ولقد أخذ هذا السيل من قرنيحا طوبلة خيل كانت لمقطع القرية ، وأخذ صخرة عظيمة كانت بقرنيحا ينظر الناس لها لأجل الأطفال والحمة بها في ذلك الموضع من حيث قامت الدنيا ، وكنت لما جاء هذا السيل سائرا من أرزن الروم طالبا اخلاط ، وجاء هناك في ذلك اليوم من المطر مالا يوصف ، وسلم الجسر من السيل ، وتم في باقي أيام الملك نجم الدين دام مجده ،

قيل وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة قتل الظافر خليفة مصر ، وسبب ذلك ان أمير الجيوش العادل السلار علي بن اسحق وكان له ابن بنت يسمى نصر ويلقب عضد الخلافة ، وكان أبوه

أميرا مقداما يسمى عباس ، وكان عضد الخلافة مواددا للظافر ، وكانا جميعا ياكلان ويشربان ويتفرجان ، وكان يحبه محبة عظيمة بحيث ان الظافر كان لايصبر عن ابن بنت العادل ساعة واحدة فأغرى عباس ابنه بجده العادل فقتله ، وبقي مدة ، وقتل الظافر ثم دخل الى الدار عباس وابنه وقتّلوا بمن كان في الدار ، وأخذوا الاموال والجواهر مالايحصى قيمته ، وقتلوا ثلاث بنين للحافظ هم : جبريل ، وابراهيم ، ويوسف ، وخرج العباس وأخذ الاموال والجوهر ، وطلب الشام فأخذته الافرنج وجميع ماكان معه ، ثم ان أهل مصر ولوا عليهم الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك ، واخرج ابنا للظافر اسمه عيسى ، ويكنى بأبي القاسم ، ويلقب بالفائز ، فولوه الخلافة ،وقتل عضد الخلافة نصر ابن عباس ، واستقر الفائز في الخلافة ، وولى الملك السلطنة ، وكان فاضلا يحب العلماء والشعراء ، وكان له شعر مليح (٨٩)

قيل وكان أول ماوصل نجم الدين ، دام ظله الى ميافارقين بعد موت ابيه يوم السبت تاسع صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة وأقام بها اياما ، وعزل غرس الدولة ينال عن الولاية ، وولى الحاجب صارم الدولة ايالدش بن يوسف مرند في ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين ، وخرج فنزل اوسل حرف الهينة على تل شيح ، واجتمع بفخر الدين قرا أرسلان في العشر الثاني من شهر ربيع الاول ، وكان جرى بين فخر الدين وصاحب خلاط وحشه ، فسارا طالبين بلاد سكمان ، فوصلا ولاية طوغطاب من ناحية جبل جور ، فنهبها وأقام بولاية منازجرد اياما وما حولها ، فقرر الصاحب نجم الدين الصلح بينهما واتفقوا وعاد فخر الدين الى بلاده ، ودخل نجم الدين الى خلاط واجتمع بالخاتون وشاه ارمن وولده قطب الدين ، وكان مقيما عندهم بأخلاط ، وأقام اياما ، وعرفهم انه لم يمكنه مخالفة ابن عمه ، ثم سار الى ماردين فعبر الى ميافارقين ، ووصل يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الأولى من السنة ، وبعد ايام قلائل وصلت الى اخلاط، وكنت انفصلت عن خدمة ملك الابخاز وخرجت من تفليس ، وقصدت ا

الروم ، واجتمعت بنظام الدين ياغي سيان بن الدانشمند ، وجهد ان أقيم عنده ، وما فعلت وعدت الى اخلاط وصادفت المالك نجم الدين قد سار الى ميافارقين ، فأقمت بأخلاط اياما وسرت الى الري فاجتزت بأرجيش وبركري ، وذوشهر ، وقطور ، وخوري ، ومزيد ، وتبريز ، وزنكتان والنهر ، واقمت بالري (٩٠) وزرت قبر الكسائي ومحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، وقبر الخواص رحمهم الله ، ثم عدت الى اخلاط على الطريق الذي مضيت فيه وعند عود المالك نجم الدين الى ميافارقين في جمادي الاولى .

ووقع الخلاف بين ضياء الدين وبهاء الدين أولاد تاج الدين بن نباتة ، وعزلوا عن القضاء ، وولي محمد بن ابي يعلي الأسعردي ، وكان كاتبا على الضيع ، وولي بعد ذلك اشراف الوقف مدة ، ثم ولي القضاء يوم الاثنين حادي وعشرين جمادى الآخر سنة تسع واربعين وخمسمائة ، وكان القضاء في يد بني نباتة تسع وخمسين سنة من حين مات القاضي ابو بكر بن صدقة سنة تسعين واربعمائة ، وولي القضاء ابو القاسم بن نباتة الى هذه السنة ، واقام تاج الدين بعده بميافارقين أياما ، وخرج وصحبته بهاء الدين ابو طاهر ، فمضيا الى آمد ، فأكرمهما مؤيد الدين بن نيسان وأنزلهما وأحسن اليهما ، وفعل معهما كل جميل ، وولي محمد بن الكميت خطابة ميافارقين ، وكان لها من ايام سيف الدولة ابن حمدان في أول ايامه بأيدي هذا البيت لم يخطب بميافارقين سواهم لأنهم هم صنفوا الخطب التي لم يقدر احد على أن يأتي بمثلها ولا ببعض ما صنفه رجلهم الكبير خطيب الخطباء عبد الرحيم ابن نباتة .

وفي سنة تسع واربعين وخمسمائة ملك نور الدين دمشق وأخذها من مجير الدين بن طغتكين ، وكان قتل عطاء الخادم صاحب بعلبك ، فقتل زين الدولة بن الصوفي ، وخرج مؤيد الدين بن الصوفي الى صلخد ، وملك نور الدين دمشق وأقام بها ، وعاد مؤيد الدين

ابن الصوفي الى دمشق ، وبقي مدة ومات ، وسار مجير الدين وبقي في خدمة نور الدين مدة ، ثم وصل الى ميافارقين الى خدمة الملك نجم الدين ، وأقام عنده مدة ، ونزل في سنة خمسين الى بغداد ، وخدم مع الخليفة المقتفي ، وهو الآن مقيم ببغداد في خدمة المقتفي والمستنجد والمستضيء .

قيل ولم أر اعجب من سنة تسع واربعين وخمسمائة ولا أكثر من حوادثها ، منها : ماجرى بين أولاد تاج الدين وخروج القضاء عن ايديهم ، ومنها ان الأمير فخر الدين صاحب أنة نفذ خطب بنت عز الدين سلتق صاحب أرزن الروم ، وبقي مدة ثم زوجها أبوها من صاحب أرزن ،فنفذ شداد الى سلتق وقال :قد ضعفت عن آنة(٩١) فتحضر فتشتريها مني ، فما لي طاقة بالكرج ، ولا أقدر على دفعهم واكون في خدمتك فأسلمها إليك ، فلما وصل نفذ الى ملك الابخاز والكرج ديميطري ، وكان في جبل بازوي بينه وبين أنه مسيرة يوم أو أكثر ، يعلمه بوصول سلتق ، فوصل في عسكر الكرج ، فصبح مدينة أنة صباحا ، فأوقع بالعسكر وقتل منهم مقتله عظيمة ، وأسروا عز الدين سلتق واسر معه خلق عظيم ، واسر من المسلمين مالا يحصى ، وكان يوما على المسلمين عظيم ، ثم إن ملوك ديار بكر وديار ربيعة والشام راسلوا ملك الابخاز وتواصلوا واستقر حال عز الدين سلتق على مائة الف دينار ، وأطلق وعاد الى بلاده ، وخرج من بلاده مال لايحصى لأنهم اشتروا الاسارى الذين كانوا أخذوا معه .

ومنها اخذ نور الدين دمشق وقلع أولاد اتابك طغتكين وكانت بأيديهم مقدار خمسين سنة ،وانقراض بيت الصوفي(٩٢) ، وكان بيت مكرم .

ومنها ان صاحب صقلية قصد تنيس في اربعين مركبا ودخلها ونهب كل ماكان فيها وسبى أهلها اجمع واسرهم ، وابيع النهب في جميع الشام ، وبقي أكثر اهلها اسارى الى الآن بصقلية .

ومنها ان في سنة تسع واربعين جرى الخلف بأخلاط ، وخرج بهاء الدين الوزير وانفصل عن خدمة بيت سكمان والخاتون ، وابعد اهله اجمع وحبس اكثرهم ، وانهزم بهاء الدين اوس بن مسعود يطلب خوي ، فعبر على قلعة ذات الجوز شرقي اخلاط ، وبقي مدة ، وتوصل مؤيد الدين بن نيسان في خلاصه ، فأطلق ونزل الى ديار بكر ، وأقام بأسعرد ، ومضى الى فخر الدين قرا أرسلان ، وأقام عنده ، ثم حج وعاد الى حصن كيفا ، وأقام مدة ، ونزل الى الموصل ، وأقام بها مدة .

ومنها أن في سنة تسع وأربعين وقع الخلف بين بني الحدادي قضاة تبريز وترافعوا ، وجرى بين القاضي وأهله ماأوجب انهم عزلوا عن القضاة ، ووصل تاج الدين ولد نجم الدين الى مراغة ، فولي قضاء تبريز .

وفي سنة تسع وأربعين وصلت الى ميافارقين من الري على ماذكرته في شهر رمضان ،

وفي سنة خمسين ، في أخرها ، في شوال قبض الامير شير باريك والحاجب ، وفي منتصف شعبان سنة خمسين عاد تاج الدين رحمه الله من آمد الى ماردين ، وولي القضاء وعاد الى ميافارقين ، وتخلف بهاء الدين بآمد عند مؤيد الدين ، وعزل محمد ابن أبي يعلى عن القضاء ، وأعطي بهاء الدين نظر الوقوف بآمد .

وفي سنة خمسين وخمسمائة ولي الزاهد ابن الطويل الوقوف بميافارقين ، وشرع في عمارة الجامع وتتمة القبة والجسر بأقرامان .

وفي ذي القعدة سنة خمسين ضرب نجم الدين الفلوس النجمية ، ووصلت الى ميافارقين وتعامل بها الناس .

وفي سنة خمسين وخمسمائة وثب القسوس بمدينة أنة وأخذوا

مـن الأمير فخـر الدين شـداد منوجهـر وسـلمت الى أخيه الأمير فضلون ، وخرج الأمير شداد من تلك البلاد وطلب الشام ، وقصـد أسد الدين شيركوه ، وكان أبوه شادي من أتباع هذا البيت ، وهـو بيت قديم في هذا الطرف ، ويعرف ببيت ابـن ابـي الاسـاور بـن منوجهر ، وكان لهم جميع ولاية أران من جنزه ودرز وجميع البـلاد التي حولهم وتزوج اليهـم نصر الدولة بـن مـروان على ماذكرناه ، وأقام الأمير شداد في خدمة نور الدين مدة ، ثـم وصـل الى ماردين وقصد الملك نجم الدين فأكرمه واحسـن اليه وأعطـاه اقطاعات في جملتها الحصـن الجـديد ببلد ميافـارقين على حـد السناسنة ، وأقام مدة ورجـع الى بيت خـاله بمـدينة سرمـاري (٩٣) ، وأقام بها مدة واجتمعت به بميافارقين ، وكان اجتمعت به في ماكه بمدينة أنه لما دخلت الى تفليس ، واحسن الي احسانا كثيرا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

وفي سنة أحدى وخمسين وخمسمائة في غرة شعبان مـات مـؤيد الدين أبو علي بن نيسان بآمد ، وولي آمـد ولده جمـال الدولة أبـو القاسم ، واستقل ولده عز الدولة بحصن أكل(٩٤) وماكان فيه مز الخزائن والذخائر .

وعاد في هذه السنة بهاء الدين أبو طاهر بن نباتة من آمد ، وولي الخطابة بميافارقين .

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسـمائة تـزوج زين الدين بـالملكة زوجة حسام الدين .

وفي سنة احدى وخمسين وخمسمائة مات السلطان مسعود في بلد الروم ، وولي ولده الاكبـر قليج ارسـلان بعـد أبيه ، واسـتقر في الملك ، وملك بلاد أبيه جميعها .

وفي سنة احدى وخمسين مات الملك ديميطري ملك الابخاز ، وملك بعده ولده الاكبر داود ، وأطلق تركش بن أواني بن أبـي الليث مـن

السجن ، وكان صاحب دماذس (٩٥) وكان شحنة ملك الابخاز مدة ، وصعب ذلك على الأمير سنباطا من عساكر الكرج وعلى أولاده ، فيقال أن ابن سنباطا الاكبر سقاه ومات ، وولي بعده أخوه كركور ، وتلقب بلقب ابيه حسام المسيح ملك الملوك ، واستقر في الملك الى الآن .

وفي يوم الأربعاء غرة المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة عزل تاج الدين أبو سالم ابن نباتة عن القضاء ، وولي محمد بن أبي يعلى مرة ثانية .

وفيها قتل الشيخ سليمان بالجامع بأسعرد ، يوم الجمعة ، قتله الباطنية ، ودفن بمسجد الخضر عليه السلام بأسعرد .

وفي هذا اليوم عزل صارم الدولة أياطيش عن ولاية ميافارقين ، وولي الحاجب معين الدين كتيفش النجمي ، وكان استحضر من ولاية الصور ، فولي ميافارقين ، وسار بالناس احسن سيرة ، وكف المفسدين وقمعهم ولم يقدر أحد أن يتجاوز معه الواجب في مدة ولايته ، وبقي متوليا وأقام تاج الدين رحمه الله أياما ، وخر - الى ماردين ، وكان قد تمرض وتعافى فلما فصل الى ماردين وأقام مرض واشتد مرضه ومات بماردين رضي الله عنه في بيت أخيه علم الدين ، وكان عنده من أولاده بهاء الدين أبو طاهر ، وشمس الدين أبو عبد الله ، ومات يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وحمل تابوته الى ميافارقين ، ووصل معه علم الدين والجماعة ، وصلى عليه شيخ الشيوخ أبو الحسن بن المحور ، ودفن في الأزج مع أبيه وأمه رضي الله عنهم .

وفي سنة اثنتين وخمسين مات القاضي أبو جعفر محمد بن أبي العلاء قاضي حصن كيفا ، وولي ولده القاضي شمس الدين ابراهيم موضعه في القضاء ، وفيها مات القاضي ناصر الدين بن الطيب قاضي

اسعرد ، وولي القضاء صدر الدين أبو علي ولد القاضي ضياء الدين قاضي اخلاط ، وفيها مات القاضي نور الدين وسطان ، وكان اماما عالما فاضلا من أصحاب الشيخ أبي اسحق الفيروز أبادي

وفي منتصف شعبان من هذه السنة تمت قبة الجامع ، وصلى فيها ليلة النصف جميع الناس .

وكان في المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة اجتمعت العساكر والسلطان محمد شاه بن محمود ومعه البغش ومسعود بلال ، وزين الدين من الموصل ، ونزلوا على بغداد وحاصروها ، وكانوا خلقا عظيما وبقوا مدة ، وأخرب زين الدين خان صلاح الدين وكان فوق البستان المعروفة بالرقة مقابل دار الخليفة على الشط . ولم ير أحسن منها بنية ، ورحلوا عنها في جمادى الأولى من السنة .

وقيل كان قبل ذلك بمدة وصل الى بغداد السلطان سليمان شاه ابن محمد أخو مسعود ، وخلع عليه المقتفي ولقبه الملك المستجير واستحلفه ، وخرج بالعساكر واجتمع بألدكز وحضرت عساكر العراق اجمع من البطائح والبصرة ، فقصده السلطان محمد شاه ببلد بباب نقجوان (٩٦) والتقوا هناك على نهر الرس (٩٧) واقتتلوا ، وكسر سليمان شاه وعادت العساكر الى العراق ، ونزل سليمان شاه على دربند القراملي فأسره زين الدين ، وبقي مدة بالموصل وأطلقه زين الدين ، ومضى يطلب أصفهان وخراسان ، فمات في الطريق ، وبقي الخليفة متوليا على حاله بالعراق .

وفي سنة اثنتين وخمسين كانت الزلازل بالشام ، وأخربت شيزر وحمص وحماة وأكثر بلاد الشام ، وكانت في رجب ، وكانت بميافارقين مرتين : مرة قبل صلاة العصر ومرة بعد يومين قبل صلاة العصر ، وكانت أقل مما كان بالشام .

وفي شوال تاسع عشرة من السنة مات صلاح الدين محمد اليغيسياني بحمص .

وفي سنة اثنتين وخمسين وقع الخلاف بين الصاحب نجم الدين وفخر الدين قرا أرسلان ، ونزل على الشط بالأوسل ، وكان الصاحب نجم الدين بماردين ، ونفذ الى ميافارقين الحاجب شمس الدين سيونج ، ثم خرج الصاحب من ماردين ، فسار فخر الدين الى ولايته ، وسار نجم الدين الى جبل جور ، وخرج اليه شاه أرمن صاحب أخلاط بالعسكر لنصرته ، وسار بالعساكر الى ولاية فخر الدين ، وانهزم من بين ايديهم ، وتوسطوا بلاده ، ونهبوا وسبوا أهل تل خوم ، وكان التجأ اليها كل من في تلك الولاية ، وطلب فخر الدين جبل جور ، ودخل الى صحراء موش ، وكان نجم الدين قد نفذ الحشد الذي كان معه من أيام أبيه الى صحراء موش وضرب عليه ، وأخذه ونهب من بلد موش خمس قرايا ، ونزل في بدليس في قرب دربند بدليس الى أرزن ، وعبر الى حصن كيفا ، وعاد شاه أرمن من البلاد ونجم الدين الى ميافارقين ، وبقوا مدة واصطلحوا .

وفي سنة ثلاث وخمسين احترق سوق القبة بميافارقين ثانيا وفيها مات تاج العلماء الحصكفي بميافارقين ، وفي سنة اثنتين وخمسين مات الشيخ الزاهد علي التركي رحمه الله بجبل ميافارقين .

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ملكت الغز نيسابور بخراسان واخربتها وقتلت فيها خلقا عظيما ونهبتها ، وقتل الشيخ الامام محمد بن يحيى الفقيه ، وقتل جماعة من الفقهاء وكان يوما عظيما .

وفي سنة اربع وخمسين خرجت الروم الى الشام على بلدلاون (٩٨) واجتمعت العساكر مع نور الدين بباب حلب ، وخرج قطب الدين من الموصل ، وزين الدين الى باب نصيبين ، واقاموا

مدة ، ومات الامير عماد الدين ابو بكر الدبيسي هناك ، وملك اتابك ممدود الجزيرة ، وقيل إنه مات مسموما ، وفي هذه الايام مات جلال الملوك كبك بن بدر الدولة بماردين ، وحضرت امه ملكة خاتون بنت الملك رضوان من الموصل ، وكان تزوجها بعد السعيد حسام الدين الامير زين علي كوشك ، وبقيت اياما وعادت الى الموصل .

ثم سارت العساكر الى الشام ، واجتازوا بحران فحاصروها وملكوها ، وكانت لنصرة الدين اميران ولد اتابك زنكي ، وساروا الى حلب واجتمعوا بنور الدين ، وسمع ملك الروم ان عساكر الشرق قد وصلت ، وان الامراء من بني ارتق والتركمان قد اجتمعوا ، وان ابن الغازي قد حضر ، فوجم ملك الروم من ذلك ، لانه كان لبني ارتق الاسم الكبير ، ولهم من الروم والافرنج والروم المقامات القديمة من ايام ارتق ببيت المقدس ، وايام الغازي فنفذ ملك الروم رسولا الى نور الدين ، فجلس الصاحب نجم الدين للخطاب وسمع الرسالة ورد الجواب ، واسمع الرسول احسن جواب في الطف كلام ، فثبت في نفوسهم منه شيء عظيم اذ في نفوس الافرنج من هذا البيت الخوف والرعب من قديم الوقت ، فعاد ملك الروم ، وكان هذا الكلام سبب عوده .

وتفرقت العساكر ، وعاد نجم الدين الى ماردين ، وتوفي سعد الدولة التونتاش الحاجب بماردين ، والامير بالشام ، واقطع شمس الدين سيونج سميساط ، وجمال الدين صاحب حاني قلعة قلب ونواحيها ، وكانت اقطاع سعد الدولة ، واستقر شمس الدين سيونج في الحجبة وامارة العسكر .

ووصل الخبر ان يوم الاحد ثاني شهر ربيع الاول سنة خمس وخمسين وخمسمائة مات الامام المقتفي لامر الله ببغداد رحمه الله ، وكانت ولايته اربع وعشرين سنة وثلاثة اشهر ونصف ، وصلى عليه ولده وولي عهده الامير ابو المظفر ، وكان عقد اليه في سنة اربع واربعين وخمسمائة بالخلافة بعده ، وبايع الناس للامير

ابو المظفر يوسف ، ويلقب بالمستنجد بالله صبيحة يوم مات ابـوه ، وبايعه الوزير والفقهاء والاكابر والامـراء ، وكان الوزير عز الدين ابن هبيرة ، وملك العراق بعد ابيه ، واستقر في الخلافة واحسن الى الناس ، واسقط المؤن والكلف وسائر الاعشار والبوائق التي كانت في العراق ، وقبض ابن المرخم ، واستنفد منه مـا كان اخـذه مـن الناس ورده اليهم ، وسلك بالناس احسن طريق ، ونفذ الرسـل الى جميع البـلاد فخـطب له في جميع الولايات ، ووصـل رسـوله الى الصاحب نجم الدين الى مـاردين ، ووصـل معـه الخلع والتشريف والمنشور بالبلاد ، ولبس نجـم الدين الخلعـة ، وقـرىء المنشـور بماردين ، وكان يوما مشهودا ، ووصـل منه خلعـة لشـمس الدين الحاجب .

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة مات الخليفـة الفـائز بـن الظافر بمصر ، والسلطان اذ ذاك الملك الصالح بن رزيك ، واجتمعوا وولوا صبيا صغيرا من الدار اسمه عبد الله ، ويكنى بـابي محمـد ويلقب بالعاضد ، وهو ابن يوسف بن عبد المجيد الحـافظ ، وابـوه احد الثلاثة الذين قتلهم عباس بعد الظافر ، واسـتقر في الخـلافة ، وهو الخليفة الرابع عشر من حيث ولوا هذا البيت ، لان كل خليفـة ولي علقت منطقته بقبلة الجامع ، وتكون منطقة الذين قبله مكشوفة ، ومنطقة الحي مغطاة ، فاذا مات وولي غيره كشفت وعلقـت منطقـة المولى مغطاة ، وكمل في الجامع مع هذه الى هذه السنة اربـع عشر منطقة ، وحدثني بهذا جماعة ممن سـافروا الى ديار مصر ، وبقـي العاضد في الخلافة واستقر ، والصالح السلطان بالبلاد .

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة مات السلطان سنجر بمرو ، ودفن بها ، وكان خلص مـن الغـز في سـنة (٩٩) ... وخمسين وخمسمائة . وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة مـات السـلطان محمد شاه بهمذان ، وبقي مدة ومـات اخـوه ملكشـاه بخـراسان والاهواز .

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة حج زين الدين علي كوشك ، ونزل الى بغداد ، ودخل الى الخليفة من باب البشرى ، وحمل له مالا كثيرا ، وخلع عليه الخليفة ، وفيها حج اسد الدين شيركوه من دمشق على طريق خيبر وتيماء الى المدينة الى مكة ، وكان هذا الطريق له مدة لم يسلك ولم يحج فيه احد .

وفيها انتقل القاضي كمال الدين الى خدمة نور الدين ، واقام مدة ، واعطي قضاء دمشق وعزل القاضي ركن الدين ، وبقي مدة ، ورد اليه نور الدين امر دمشق من القضاء والوقوف والديوان والولاية وحصل الجميع تحت حكمه الى الان .

وفي شهر رمضان من السنة ولي ولده محي الدين ابو حامد بن محمد قضاء حلب وعزل ابن ابي جرادة وهو ابن العديم ، وولي شمس الدين ابو القاسم ابن اخيه قضاء حماه وعزل امين الدين بن جيش ، وبعد مدة عزل جعفر بن ابي هندي ، وولي حمص شرف الدين ابو المعالي بن شمس الدين ، وحصل الشام جميعة بحكم كمال الدين واهل بيته .

وفيها احترق سوق الباب بميافارقين اولا في سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة خمس وخمسين وخمسمائة وصل صدر الدين نصر بن جبريل من اخلاط الى ميافارقين متوليا على الديوان وناظرا على ميافارقين ظاهرا وباطنا .

وفي يوم الخميس سادس عشر من صفر سنة ست وخمسين وخمسمائة وصل صدر الدين ابو علي الحسن بن معاذ قاضي اخلاط الى ميافارقين ، وتولى القضاء بها وخلع عليه جبة اطلس وعمامة وطيلسان ، ونزل الى الجامع والناس معه ، وعزل محمد بن ابي يعلى ، وكانت سفارة الخاتون اذفذت احضرته من أسعرد ، وكان

قاضيا بها ، وولي قضاء اسعرد القاضي بدر الدين احمد القاضي ابا جعفر بن ابي العلي ، وفيها احترق سوق القبة ثالثا .

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة وثب الاكراد الملية على قلعة شاتان(١٠٠) وملكوها، وانصرف عنها الامير درباس الجوبي ، وكان من البيوت الكبار ، وانهزم الى الجزيرة وملك ومات في الطريق ، وحضر فخر الدين ارسلان وملكها واخربها ، ونازل حصن طالب (١٠١) وملكه في جمادى الآخرة .

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة وثب القسوس بمدينة أنه على صاحبها الامير فضلون بن منوجهر وانهزم ومضى الى قلعة تسمى بكران مجاور سر ماري وسلم القسوس أنه الى ملك الابخاز كركور وحضر وعساكره وملكها ونهب منها مالا عظيما ، وسبى جميع آل شداد وفضلون ، وفي شهر جمادى الاولى ولى ملك الابخاز فيها حاجبه سعدون وعاد الى تفليس .

وفي رجب من السنة اجتمعت العساكر جميعها من جميع اطراف شاه ارمن وعز الدين سلتق وفخر الدين صاحب ارزن وصاحب الفرس وسر ماري ، وساروا الى نهر الرس وخرج الصاحب نجم الدين يقصدهم ، فنزلوا على آنة في شعبان من السنة واناخوا عليها فقصدهم ملك كركور ملك الابخاز وكبسهم على باب انة ، ولما وصلت العساكر والملك انهزم الامير سلتق ، فانفصل عن المسلمين لانه كان ملك الابخاز ديميطري لما اسره ، كما ذكرنا واطلقه ، استحلفه انه لايضرب في وجهه بسيف ولا وجه اولاده ولا يلقى له عسكرا ولالأولاده ما عاش ، وطلب سلتق الفرس ، فلما انفصل الامير سلتق انهزمت العساكر من المسلمين ، ووقع فيهم السيف ، وقتل منهم خلقا عظيما وانهزم شاه ارمن من باب آنه وصاحب ارزن بفرسه ، واسر من المسلمين مالا يحصى ، ونهب بلد شاه ارمن وقتل اكثر اصحابه ، والمسعود من سلم من الواقعة ، واسر من المسلمين مقدار تسعة الاف فارس وراجل من عساكر بيت سكمان وغيرها ، واسر بدر

لدين اخو الخاتون صاحبة اخلاط لامهـا ، وخلقـا لايحصى ، وبلغ خبر الكسرة الصاحب نجم الدين ، وكان وصل الى ولاية مناز جرد ، فعاد ولم يجتمع بشـاه ارمـن ولاحضر الوقعـة ، ووصـل الى ميافارقين .

ونفذ الوزير جمال الدين وزير الموصل الى ملك الابخاز رسولا وشفع في الامير هلدري القرقطي صاحب اسباكرد وكان من اصحاب شـاه ارمن واسر في الوقت فاطلقه ، ونفذ خمسة الاف دينار واشترى بهـا اسارى من المسلمين ممن ليس له احد ولااهل ولا مـال ، واشـترى قوما حجازيين كانوا اسروا في الواقعة .

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة وصل الخبر ان قاضي القضاة ابن الدامغاني عزل من القضاء ببغداد وولي قضاء القضـاة شـمس القضاة ابن الثقفي قاضي الكوفـة ، وبقـي مـدة ومـات وولي ولده موضعه ، وأخذما في الدفعتين مقدار خمسين ألف دينار آمرية .

وفي شهر رمضان سنة ست وخمسـين وخمسـمائة عصى كوجـا بالبارعيه وقابل نجم الدين بالعصيان فنزل العسكر عليهـا فقـاتلوا مدة ، ووصل الملك نجم الدين وشمس الدين الحـاجب وحـاصروهـا مدة ، ووصل ناصر الدين ولد فخر الدين قرا أرسلان ومعه عسكر ونازلوها مدة ، ونفذ فخر الدين وأقام عنده مـدة ، الى خـدمة نور الدين فأقام عنده وهو في خدمته الى الآن ، ومضى ودخل مـع أسـد الدين شيركوه الى مصر وأقام مدة وعاد الى خدمة نور الدين في سنة ست وستين وخمسمائة .

وفي ذي القعدة سنة ست وخمسين وخمسمائة كان ببعلبك اسارى من الافرنج فوثبوا في بعلبـك فملكوها فقصـدها اسـد الدين شيركوه ، وتكاثر المسلمون عليها ، فاستنقذت منهم ، وانصرفـت الافرنج بالأمان الى الساحل ، وفي ذي الحجة من السنة كسر شهاب الدين محمد بن الياس بن الغازي بن ارتق الافـرنج كسرة عظيمـة

وقتل خلقا عظيما واسر البرنس وسلمه الى نور الدين ، وبقي في اسره ، وأسروا جماعة وجمعوا نهبا كثيرا .

وفي المحرم سنة سبع وخمسين وخمسمائة اتصل جمال الدين ابو القاسم بن نيسان الى أخت فخر الدين دولت شاه ابن صاحب ارزن ، وعبر القاضي ناصح الدين ، والامام أبو طاهر بن الجرجاني ، والقاضي علم الدين أبو الحسن بن البغل وجماعة الى ارزن ، وملكوا وعادوا ونزلوا بفندق خبق ، ولم يدخلوا المدينة ، وخرج اليهم القاضي صدر الدين والجماعة وعادوا الى آمد ، وفي جمادى الأولى عبرت العروس ومعها جماعة من أهل أرزن والحاجب أحمد بن الرغيهي ووصلت الى آمد خامس جمادى الأولى .

وفي صفر سنة سبع وخمسين مرض الصاحب نجم الدين – شفاه الله – بماردين ، ونفذ الامير شير باريك والأمير خبق وجماعة من الأمراء الكبار الى أخلاط لاحضار ولده قطب الدين ايلغازي ، وكان مقيما بأخلاط عند خاله شاه ارمن والخاتون منذ كان له ثلاث أو أربع سنين ، ولم يمكناه من العود الى ابيه وأمه ، فعادت الرسل أجمع ، ولم يمكن من العود ، فنفذ وأرسلا آخرين ، فنفذ شاه أرمن جريدة ، فوصل سابع صفر الى ميافارقين وأقام يومين ، وسار الى ماردين ولقي الصاحب نجم الدين ، ومن الله عليه بالعافية ، وحصل ولي عهد ابيه ، فطابت قلوب الناس بتوليته .

وفي شهر ربيع الأول من السنة سلم قراقفجاق غلام أخوا جا له قلعة الذال الى ابن حسان المذبجي ، وبقيت معه مدة وأعادها الى شمس الدين سيونج .

وفي سنة سبع وخمسين احترق سوق باب المدينة ثالثا ، وفي شهر رجب سنة سبع وخمسين وصل كتاب كمال الدين المهذب العراقي مشرف الديوان فسار الى اخلاط في رساله ، فوصل الى اخلاط

واقام اياما ، وعاد من أخلاط فوصل الى درب بدليس ، فوقع فوق دير البيرة من على بعض الجسور الى الشط ، فوقع على صخرة فاندقت رقبته ، وكان وقوعه يوم الجمعة خامس شعبان ، وحمل الى دير البيرة ، وفيه نفس فمات فحمل ودفن في صحراء مسجد اويس ، ثم حمل الى ماردين بعد مدة ، وترتب في الاشراف الكمال البغدادي ثم العبدي .

وفي شهر شعبان من السنة أغارت الكرج على مدينة دوين (١٠٢) ودخلت اليها ونهبوا جميع ماكان فيها ، وقتلوا خلقا عظيما واسروا من المسلمين خلقا لايحصى ، ونقضوا المنارة التي كان بناها قوتي بن الأحدب من جماجم الكرج في وقعة أوقع بهم ، واخربوا المساجد وأكثر الدور وعادوا الى تفليس ، والأسارى على العجل ، وغنموا غنائما لاتحصى .

وفي العشر الآخر من شوال من السنة كان بالشام زلازل كثيرة متواترة وخرب من حلب مقدار سبعمائة دار ، وخرب أكثر الساحل ، وخرب بعض جبلة وجبيل ، وماكان بقي من شيزر وبعض حمص وبعض حماة وأكثر الشام وتشعث .

وكان في شهر ربيع الآخر من السنة تزوج ناصر الدين ولد فخر الدين قرا أرسلان بنت فخر الدين دولت شاه وصاحب أرزن ودخل بها .

وفي سلخ جمادى الآخر من سنة ثمان وخمسين نزل فخر الدين قرا أرسلان على آمد وخيم عليها في عسكر عظيم ، ونزل اليه شمس الدين سيونج بعسكر الصاحب نجم الدين ، وحوصرت وضيقوا عليها مدة ، ونصب عليها برجا عمله له رجل مغربي ، فأخرج جمال الدولة جماعة من أهلها من اليهود والنصارى فسباهم فخر الدين وباعهم ، واقتتلوا عليها قتالا عظيما ، وبقي القتال والحصار والعساكر عليها .

وفي شهر رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قبض اتابك قطب الدين ممدود بن زنكي بسفارة زين الدين على الوزير جمال الدين بن ابي جعفر محمد بن علي الاصفهاني ، وحبس في قلعة الموصل ، ولم ير الناس من عهد البرامكة مثل كرمه وعطائه ، وكان أول زمانه وخدمته اتابك زنكي يلي اشراف الديوان ، وكان معه من الظلم والجور مالا يرى الناس مثله ، فلما ولي اتابك سيف الدين غازي وولي الوزارة انتقل من الشر الى الخير ، ومن الظلم الى العدل ، ومن الجور الى الانصاف ، ومن البخل الى الكرم ، وأظهر من الكرم وفعل الخير والصدق والعطيات والصلات مالم يعتمده أحد في هذا الزمان ، ونفذ مالا كثيرا الى مدينة الرسول فبناها وبنى سورها ، وبنى ماكان خرب بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبنى في المدينة مواضع كثيرة ، وبنى بمكة ماخرب من الحرم ومواضع كثيرة من الحرم ، وعمل جبل عرفات ، وعمل الدرج فيه من أسفله الى رأسه من جميع جوانبه وكبس (١٠٣) اليه الماء من موضع بعيد وساقه الى تحت الجبل موضع منزل وعمل الانابيب والأحواض برسم الحاج ، وكان يحمل كل سنة الى مكة والمدينة من الأموال والكسوة والنفقات للضعفاء والمساكين والمنقطعين لأهل هذين الموضعين مايقوم بهم مدة السنة ، وكان ينفذ للمجاورين المقيمين بمكة والمدينة كل سنة مايحتاجون اليه ، وكان له السبيل برسم سقي الحاج والمنقطعين وسقي الماء في الطريق وحمل من ينقطع من الضعفاء والرجاله ، وليس بلد من البلاد يمضي اليه من المسافرين من أهله الا يعطيهم ويجزيهم ويثبت ذلك في دستور عنده ، ويبقى ذلك رسما لهم في كل سنة يمضون يجدونه ، وقصده من أهل بغداد والعجم خلق عظيم من الاكابر والاولاد والوزراء والكتاب ارباب المناصب والاشراف ويعطيهم ويجريهم ، وحضر عنده ناس كثر من اهل اصفهان فاعطاهم وزاد العطية ، ونفذ الى مدينة القرنين سبعة الاف دينار وبنى سورها وكان انهدم وكانت مناخة الكرج ، ونفذ رسولا الى ملك الابخاز وسأله ان يبني بيمارستان في مدينة تفليس برسم المسلمين والمرضى والضعفاء بها ، فقال ملك الابخاز : انا ابني ذلك

من مالي ، ومرض الملك بعد مدة ومات ، وكان في كل سنة يبعث الى الشام ويشتري من الافرنج اسارى المسلمين ، ونفذ عند وقعة الكرج بشاه ارمن واشترى جماعة من الابخازي وخلص الامير هلدري ، وقد ذكرنا ذلك ، وغرم على جسر الياريار بين الجزيرة وفذك مالا عظيما ، وعقد اربع عينات احسن بنيه ، وبنى في نصيبين البيمارستان واوقف عليه الوقف ، وحصل فيه الحوائج والادوية ورتب الاطباء ، وحصل ينفق عليه في كل سنة شيئا كثيرا ، وجدد بالموصل ونصيبين المكتب برسم الايتام ، وجعل نفقاتهم وكسوتهم واجارة المعلم من ماله ، وبنى الجسر بباب الموصل عند باب الحصاة احسن بنية ، وجدد من الربض والمصالح ماليس بقليل ، وشرع في بناء جسر البافتاه على دجلة تحت الجزيرة ، وغرم عليه مالا عظيما ، ولم يبق فيه غير العينة الوسطى ، وقبض ولم يتم ، وكان كل يوم على باب داره من الضعفاء والمساكين خلق كثير ، وكان كل يوم يمضي وقد اخذ اما قليلا واما كثيرا ، ولما قبض جرى من المساكين والضعفاء من البكاء والاسف والحزن ما لايوصف ، وبقي في السجن الى العشر الاخر من شهر رمضان سنة تسعة وخمسين وخمسمائة ، ومات رحمة الله عليه ، وصلي عليه بالموصل ، وكان يوما عظيما من ضجيج الفقراء والمساكين والايتام حول جنازته بحيث انه لم يسمع بمثل ذلك اليوم ، ودفن بالموصل مدة الى سنة ستين وخمسمائة ، وحمل الى مكة ، وطافوا بتابوته حول البيت ، وحضر كل من بمكة وضجوا حول جنازته ، وحمل الى المدينة ، ودفن بالمدينة بعد ان طافوا به حول قبة الرسول وحضر كل من في المدينة ، ولم يحمل الى مكة والمدينة في هذا الزمان من مقدار مائة وخمسين سنة غير رامش الخادم التاجر ، وصاحب عون ، واخي الملك الصالح بن رزيك سلطان مصر ، وهذا جمال الدين الوزير ، وغره اليمن ، ولم يكن مثل جمال الدين وكرمه في هذا الزمان .

وفي يوم الاربعاء تاسع شعبان من سنة ثمان وخمسين وخمسمائة كسر شاه ارمن والسلطان ارسلان شاه بن طغريل وشمس الدين الدكز وفخر الدين صاحب ارزن ملك الابخاز والكرج

كسرة عظيمة ودخلوا الى حصن ارزن ، وكانت الوقعة هناك ، وكسروا اقبح كسرة ، وغنم منهم من الاموال مالا يوصف ولايحصى ، واخذ اصطبل الملك وكانت معالفه فضة ، واخذ الشراب خاناه وما كان فيه ، واخذت الدنان الفضة التي كانت فيه ، واحضر الدن الواحد بين يدى السلطان ، وكان الدن ورفيقه يحملان على عجلة ، فنفذه السلطان وانفذ من الغنيمةمقدار الفي دينار يشتري بها ، وحمل شربات ذهب وفضة وحمل الجميع الى جامع همذان للسبيل برسم شرب الماء ، واخذ التركمان الدن الاخر ، وقطعوه ، ونهبوا منهم نهبا عظيما وقتلوا خلقا كثيرا ، وانهزم ملك الابخاز الى غيضه عظيمة فيها خشب الصنوبر مسيرة ثلاثة ايام لايقع على احد فيها الشمس الا نادرا ، ولقد رأيت موضع الوقعة في هذه الغيضة لما كنت في خدمة ملك الابخاز في سنة تسع واربعين ، واخذ شاه ارمن ثلاثة جمال ، كان احدهم فيه انية ذهب وفضة ، والثاني كان عليه بيعة الملك فيه صلبانا ذهب وفضة مرصعة باذواع الجواهر ، وفيه اناجيل مصورة بالذهب مرصعة بالجواهر لايعرف قيمتها ولايؤخذ مثلها ، والثالث عليه خزانة الملك من ذهب وفضة وجوهر ما لايقوم بعضه كثرة ، بحيث انه قيل ان كتاب اخلاط بديوانها قوموا ما وصل الى شاه ارمن ، وكان مثل ما اخذ منه على باب انه عندما كسر ثلاثين ضعفا ، ولقد سمعت هذا من جماعة كثيرة من اهل اخلاط ممن كان بالواقعة ، وكنت اذ ذاك ببدليس ، ويوم وصل المبشر الى اخلاط بالكسرة كنت باخلاط وجماعة من الفارقية ، وكان يوما عظيما بحيث انه ذبح من البقر بعد يومين مقدار ثلاثمائة راس وفرق لحمها على المساكين والضعفاء ، وبعد ايام وصل شاه ارمن الى اخلاط واظهروا فيها كل شيء لايرى مثله من الاموال والتجمل ، ووصل صاحب بدليس اليها وزين البلد لقدومه في اول شهر رمضان ، وكنت ببدليس وكان فخر الدين قرا ارسلان هذه المدة جميعها محاصرا لآمد الى ثاني عشرين شوال سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكان سبب ذلك ان يعقوب ارسلان ابن الدانشمند قصد ولاية خرتبرت ونهبها ونهب ولاية شمشكازاك(١٠٤) وتوسط البلاد واخربها ، فرحل فخر الدين عن آمد يطلبه ، وخرج

المالك نجم الدين وسار اليه ، واخبر فخر الدين صاحب ارزن وساروا جميعهم الى خرتبرت وراسلوا يعقوب ارسلان واقاموا هناك مدة ، وعاد يعقوب ارسلان الى بلاده ، وعاد المالك نجم الدين الى ميافارقين واقام بها الى ثامن عشر ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، ووصله فخر الدين سنقر بن الب قرا أرسلان رسولا من الخليفة المستنجد ، وخرج اهل البلد فلقوه ، ونزل بالربض وبات ليلة ، واصبح فخرج الامير الى لقائه ، ولقيه بالميدان ، ولقي شمس الدين الحاجب ، ودخل المدينة ، ونزل في دار العجمية واجتمعت به ، واخبر ان مؤيد الدين سديد الدولة ابا عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الانباري توفي ببغداد في شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وصلى عليه الخليفة المستنجد بنفسه اماما ، فانهم احضروا التابوت الى الجامع الى المقصورة وحضر الخليفة وصلى عليه ، وصلى الناس عليه بامامته ، وكان يوما مشهودا ببغداد ودفن في مقابر قريش عند الامام موسى بن جعفر عليهما السلام ، ورضي الله عنه ، وترتب ولده شمس الدين شرف الدولة ابو الفرج في موضعه في ديوان الانشاء بديوان الخلافة .

وفي غرة المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وقع الخلف بين ناصر الدولة محمود بن ظفر خان وبين الارمن بالسناسنة ، وكان له قلعة فنيزاثا ، واغار عليهم ونهبهم نهبا عظيما ، وسبى مماليكا كثيرة ، ونهبت ارتحوا واحرقت ، ووصلت خيله واغارت رجاله على مواضع من بلاد الارمن من لم تصل اليه الغازية من اول الزمان والاسلام ولازم الغارة عليهم كل اسبوع ، وبقي يجد في طلبهم وقلعهم .

وفي شهر رمضان ، في اوله ، سار الصاحب نجم الدين الى ماردين ، وقصد جسر اقرامان وبات هناك واصبح وسار الى اوسل الهينة ، وبات ونفذ احضر الطشتي الى معز الدين الوالي بميافارقين ، وامره بالقبض على الحاجب شمس الدين ، وكان تخلف بعد الامير بميافارقين فقبض في رابع المحرم واعتقل بالقصر ،

وحمل كل ما كان في داره الى ماردين : الدواب والقماش والخزانة ، وبعد ايام ولي الحاجب صلاح الدين زكري بن يوسف ينال الحجبة الصاحب نجم الدين ، وردت الامور اليه .

وفي ثاني عشرين رجب من سنة تسع وخمسين وخمسمائة مات ناصر الدين ولد فخر الدين قرا ارسلان بحصن كيفا ، وكان اكبر اولاده ، ونال فخر الدين عليه امرا لايوصف ، وحضرت الخاتون وقطب الدين وكهار خاتون وشير باريك ، واكابر الدولة ، ولقد حدثني جملة من الثقات من أرباب دولة فخر الدين انه في هذه السنة وماقبلها منذ نزل فخر الدين على آمد الى بعض سنة تسع وخمسين وخمسمائة مات من أولاد فخر الدين سبعة أولاد ما فيهم غير بنت واحدة مع ابن لهذا ناصر الدين ، ومات قبل ابيه بمدة .

وفي الخميس غرة جمادى من السنة مات القاضي ناصح الدين ابو عبد الله الحسن بن محمد بن وهبان بأرزن ، وولي قضاء أرزن صارم الدين حسن ابن اخيه ، وولي قضاء بدليس المؤيد أبو طاهر عبد الله بن الخطيب ، وصلي عليه يوم الجمعة بميافارقين .

وفي شهر ربيع الاول وصل الخبر أنه احترق بسوق اخلاط مقدار سبعين حانوتا وبيوتا كثيرة ، واحترق كل ما فيها من المال والقماش .

وفي ثاني شهر ربيع الاول من السنة ابتدي في نقض البرج المعروف ببرج اريق بتولي الزاهد قراقوش الحسامي ، وكمل نقضه في مدة شهر ونصف ، وابتدي في عمارته في يوم الاربعاء خامس جمادى الاخر وكملت عمارته جميعها وانفق العمارة يوم السبت ثامن عشر ذي الحجة سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وكانت مدة العمل ، غير النقض ، مدته ستة اشهر وثلاثة وعشرين يوما ، ولم يعمر مثله قط في مثل هذه المدة اليسيرة ، وجاء احسن بنية ، وذلك

بسعادة المالك نجم الدين ، وهمة ياقوت الحسامي ، فقد اجتهد في العمل وبالغ في ذلك .

وفي شهر ربيع الاخر سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، مات الشيخ حجة الدين مروز رحمه الله بقرية من ولاية حصن طالب كرم الروذ ، وكان ضر ، وكان تسمى فقيها عالما فاضلا ، وكان في سادس نيسان في اول سنة تسع وخمسين ، خرج امير الجيوش شاور سلطان مصر الى نور الدين ، ولقيه فاجتمع به ، واقام عنده وتحدث معه واكرمه ونزل في جوسق معز الدولة ، ظاهر دمشق تحت القلعة ، واطمعه في مصر ، فتجرد اسد الدين شيركوه في ثمانية الاف فارس ، خيار العسكر ، وسار ليدخل مصر ، فخرجت الافرنج عليهم في الطريق ، واقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل جماعة من الافرنج ، ودخلوا الى بلد مصر فملك اسد الدين شيركوه ولاية العريش ، ومدينة بلبيس ، وهي مدينة صغيرة من اول ولاية مصر ، واقام بها وراسل اهل مصر ، فخرج امير الجيوش الذي ولي موضع شاور وكان اسمه ضرغام ، ومعه عسكر ، فلقوا اسد الدين فكسرهم وعادوا فجمعوا فكسرهم مرارا ، ثم ان اهل مصر نفذوا الى شاور ليعود فلم يفعل ، فنفذوا الى الافرنج فارغبوهم وجاءوا ، ولقوا اسد الدين فكسرهم ونهبهم ونهب اموالهم ، وعاد الى بلبيس واقام بها وحصل كل بها مقيما ثلاثة وتسعين يوما ، وقتل الضرغام ، وصالح رابع ذي الحجة ، وحصل كل أيام قلائل يلقاه الافرنج ويكسرهم ، فنفذ اهل مصر الى شاور وطيبوا قلبه ، وحلفوا له ، فعاد وولي السلطنة بمصر واستبد بها ، فنفذ الى اسد الدين وقال له : تعود من حيث جئت ، ونفذ اليه شاور ولده فقتله ، وعاد فخرج شاور بعسكر مصر ، فلقوه فكسرهم ، فلقد سمعت من جماعة أن أسد الدين لقي الافرنج واهل مصر في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ستة وثلاثين مرة وهو مقيم ببلبيس وجميعها ينصر أسد الدين عليهم .

ثم انه عاد الى الشام ، وبقي مدة ، ودخل ثانيا في العشر الثاني من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وخمسمائة وقيل رابعة ،

وهو الصحيح ، واخذ معه اجود العسكر ، وسار ودخل ولقي الافرنج فكسرهم ، وسار الى ولاية مصر فدخل اليها ، وجاءت الفرنج الى مصر واجتمعوا فلقوا أسد الدين فكسرهم ، ومضى نزل اسكندرية وحاصرها ، واجتمعت الافرنج بأهل مصر وضايقوا عليه ، واخذوا عليه الطرق ، فنفذ صلاح الدين بن نجم الدين الى الافرنج ، وقال : اتخذوا عندنا يدا وافتحوا لنا الطريق فقالوا : نحن بامركم اعبروا بالامان ، فرحل اسد الدين واصحابه ، وساروا في بلاد الافرنج امنين ونفذوا لهم العلوفة والاقامة في جميع بلادهم ، وخرجوا من الساحل الى الشام سالمين •

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة في جمادى الاول دخلت الكرج مدينة آنة واخلوها ، ووصل شمس الدين الدكز وملكها ، واقام بها اياما ، وعاد اليها بعض من بعد عنها ، وشرع في عمارتها ، وانصرف شمس الدين الدكز الى باب مدينة جنزى ، وعزم على لقاء الكرج ، وفي هذه السنة اوقع الامير ابراهيم صاحب سرماري بالكرج وقعة عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا ، واسر جماعة من كبرائهم ، وفي اخر السنة سلم شمس الدين الدكز آنة الى الامير شاهنشاه اخو الامير شداد وفضلون الذين كانوا اصحابها من اولاد منوجهر .

وكان الامير نصرة الدين اميران بن اتابك زنكي لما اخذت حران وصل الى حصن اخلاط واقام عند ابن نيسان مدة ، ثم سار الى الروم ، ودخل الى السلطان قليج ارسلان واقام عنده مدة ، ثم انه عاد الى الساحل وجيش الافرنج على المسلمين في هذه السنة .

ووصل الخبر ان في هذه السنة في جمادى الاخرة سابع عشرة كبست الافرنج نور الدين على رأس الماء ، وقتل من المسلمين ، وقتل اخو مجد الدين صاحب حلب ، وقتل الامير يونس الذي كان في خدمة الحاجب شمس الدين ، وكان انهزم من ماردين قبل قبض شمس الدين ، ومضى الى خدمة نور الدين ، وقتل في هذا اليوم ، وقيل اسر

وقتل ، وقتل واسر جماعة من الامـراء الكبـار وقصـدوا نور الدين واحاطوا به ، فحامى عنه شهاب الدين محمد بـن اياس بـن ارتـق ومعه جماعة ، وخرج شـهاب الدين وثبـت الى ان خلص نور الدين وكانت وقعة عظيمة ، وبعد مدة سار اتـابك قـطب الدين وزين الدين وعساكر ديار ربيعة الى الشام الى نصرة نور الدين .

وفي الاربعاء ثاني عشر جمادى الاخـر وصـل فخـر الدين قـرا ارسلان الى قلعة ماردين واجتمع بالصاحب نجم الدين .

وفي الخميس ثالث عشره ماتت كهارخاتون رضي الله عنها ، وشـهد فخر الدين موتها ودفنت بالمشهد في التربة ، واقام فخر الدين ثـلاثة ايام ، وقرر مع الصـاحب نجـم الدين المسـير الى ولاية يعقـوب وقصده ، ثم سار الى حصن كيفا ، وخرج نجم الدين الى شـاطىء دجلة واجتمعا وسارا الى خرتبرت ، ولحقهم فخـر الدين صـاحب ارزن ، وساروا فعبروا الفرات الى ملطية ، ونهبـوا بعض بلدهـا ، فلما سمع يعقوب ارسلان بوصولهم انهزم من بين ايديهم الى اقصى بلاده ، وساروا الى ان بقي بينهم وبين سيواس القليل ، فـوصلهم رسول من نور الدين ومن زين الدين يدعوهم الى الغزاة ، ويقـول : ان الافرنج قد خرجت وانتم المسلمون يقاتل بعضكم بعضاً ، ثم دخل بينهم في الصلح ، فاصطلحوا واعادوا اليه البلاد جميعا على جميع ماارادوا منه واختـاروا ، ودخـل تحـت حـكمهم ، وعادوا الى خرتبرت ، فسار فخر الدين بعسكره ومن كان معه الى الشـام الى الغزاة ، وعاد الملك نجم الدين الى البـلاد في اخـر شـعبان ، ونزل بقصر الشيبانية من ولاية ماردين ، وصام هناك شهر رمضان ، لانه موضع فيه الماء البارد والمروج والهواء الصحيح .

واما فخر الدين قرا ارسلان فانه سار الى الشام ، فصادف نور الدين والعساكر نزولا على قلعة حارم وهـم محـاصروها ، فـاقام عندهم اياما ، وعاد نصرة الدين اميران الى خدمة اخيه نور الدين ،

فاقاموا الى سابع عشرين شعبان ، وكان يوم الاربعاء سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، واغارت الافرنج وكبسوا المسلمين واقتتلوا قتالا عظيما وانهزموا حتى اشرفوا على الهلاك ، ثم عاد زين الدين وعسكر الموصل وثبتوا ، وعادت العساكر وفخر الدين ، واعطاهم الله النصر ، فعادوا على الافرنج فكسروهم ، وقتلوا خلقا عظيما مقدار ثمانية الاف واسروا مثلها ، وكانت الواقعة في موضع يسمى عم (١٠٥) من ارض ، الشام ، بين صلاة العصر والظهر ، ولم ير مثل هذه الواقعة منذ سنين ، واسروا صاحب طرابلس وصاحب انطاكية ، وصاحب حصن الاكراد والفطرك الاكبر ، الواصل الى الافرنج من ملك الروم ، وكان فتحا عظيما ، ولم ير الناس مثله منذ ملكت الافرنج الساحل ، وملكوا قلعة حارم ، وعادوا بالاسلاب والغنائم ، وبعد الكسرة انفصل فخر الدين وعاد الى خرتبرت ومعه الاسلاب والاسارى والغنيمة ، وقد قتل من عسكره جماعة من الاكراد .

وفتح المسلمون دير سمعان ، ونهب كل ماكان فيه ، ولم يذكر احد انه فتح منذ اول الاسلام ، واقام عسكر الموصل وزين الدين اياما بعد الكسرة ، وعادوا الى الموصل .

وفي العشر الثاني من شهر رمضان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة مات يعقوب ارسلان ودفن بسيواس ، وملك موضعه الامير اسماعيل بن ابراهيم بن الملك محمد بن غازي ابن الدانشمند ، وهو ابن ستة عشر سنة ، وعاد فخر الدين الى حصن كيفا اخر السنة .

وفي الخميس حادي عشر ذي الحجة وصل ولد فخر الدين ومعه الامير محمد بن عز الدين من الاقامة والضيافة والنزل شيئا كثيرا ، فمن غدوة ذلك اليوم ساروا الى حصن كيفا ، ويوم الاحد خامس محرم سنة ستين وخمسمائة وصل الملك نجم الدين وجمال الدين والجماعة الى ميافارقين ، وباتوا ليلتهم ، ويوم الاثنين سادسه

وصل الملك قطب الدين والخاتون بعد الظهر ، واقاموا الى يوم الجمعة عاشر المحرم ، وخرجوا الى اقرامان للقاء الخاتون صاحبة اخلاط ، ودخلوا الى المدينة يوم الثلاثاء رابع عشر المحرم ، وكان يوما مشهودا ، ودخلت بالتجمل والجنائب والسجوف والمراكب ، واحسن زي واكمله ، واخبروا ان صفي الدين ابا البركات رشيق الصوفي بخلاط توفي بها في رابع المحرم من السنة ، واقاموا الى سادس عشر المحرم ، وساروا الى حصن كيفا لاحضار العروس بنت فخر الدين قرا ارسلان للمولى قطب الدين ايل غازي بن الملك نجم الدين ، وسارت الخاتون بين صمصام الدين وقطب الدين وسيف الدين شيرباريك واكابر الدولة واعيانها من النساء والرجال ، وتخلفت خاتون اخلاط بقصر ميافارقين الى ان وصلوا ، وكان وصولهم يوم الجمعة سابع عشرين المحرم سنة ستين وخمسمائة ، وحضرت معهم العروس واخوها نور الدين ولد فخر الدين ومعهم أكابر دولة فخر الدين ووصل معها من الجهاز مالا يحصى ، ووصل الحاجب كوجي والحاجب ياغي ، وعز الدولة ابن نيسان ، ودخلوا بعد العصر وكان يوما مشهودا بحيث انه لم ير مثله اهل ميافارقين ، ونزلوا دار ابن موسك ، ومن غدوه عمل في القصر السماط اربعة ايام متوالية ، وبعد ذلك عملت خاتون اخلاط السماط سماطا عظيما ، وخلعت على اكابر الدولتين من الخلع مالا ينحصر ، ولم يبق احد من الحاشية والامارة والحجاب الا وخلع عليهم .

وفي الاثنين رابع صفر سارت خاتون اخلاط على طريق جبل جور ، وخرج الامير والجماعة لوداعها ، وفيه سار ولد فخر الدين واصحابه بعد ان خلع عليهم والخاتون خلعا كثيرة ، وفيها سار جمال الدولة ابو الحسن محمد بن نيسان الى آمد وخلع عليه وعلى اصحابه ، واقام الامير واصحابه ومكث الجميع بميافارقين خمسة وثلاثين يوما غير اليوم الذي ساروا فيه ، ولما عادت خاتون اخلاط الى اخلاط امرت ببناء جميع الجسورة التي كانت بدرب بدليس بالكلس والحجر ،

وكانت جميعها بالاخشاب مطروحة عليها ، فعمرت وغرمت عليها مالا عظيما ، وعملت جميع طريق درب بدليس من مسجد اويس الى بدليس ، وكانت عدتهاتسع مواضع فيها تسع جسورة ، وعملت عاقبة تحت بدليس عملا لايرى مثله ، وبنت تحتها جسرا وجعلت في الجسر من جانبه فندقا عجيبا بحيث يبيت فيه مقدار ثلاثمائة دابة بأحمالها واصحابها ، فلقد اثرت في هذا الطريق من الخير لم يعمل احد مثله .

وفي صفر من السنة وصل الخبر ان اسد الدين شيركوه عاد الى الشام من مصر وتلف اكثر عسكره ، ووصل في ذفريسير .

وفي الاحد رابع عشر صفر تزوج الامير صمصام الدين يعقوب بن سليمان بن داود بكوج خاتون بنت شهر باريك .

وفي الجمعة غرة شهر ربيع الاول وصل جماعة من الحاج واخبروا انهم في هذه السنة ماوصلوا الى مدينة الرسول عليه السلام لانه وقع الموت في الجمال ، وغلا عليهم السعر .

وفي ليلة الاثنين منتصف شهر ربيع الاول توفي الامير سيف الدين بن داود بطنزى (١٠٦) ، وسار جمال الدين من حاني الى العزاء الى حصن كيفا ، واقام اياما ، وعاد وصحبته اخته هدية خاتون ، وبات بالربض ، وسار الى حاني

وفي شهر ربيع الاخر سنة ستين مات المقدم الزعفراني ، وكان في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الاول مات نصرة الدين اميران بن اتابك زنكي بحصن كيفا عند فخر الدين ، فانه كان وصل اليه على سبيل الغضب على اخيه نور الدين ، واحسن اليه فخر الدين ، وكان له جنازة عظيمة مشهورة ، بحيث نزل فخر الدين وتبعها راجلا وجميع اهل دولته ودفن بحصن كيفا .

ووصل الخبر ان في ثاني شهر ربيع الاخر من السنة توفي الشيخ الامام جمال الاسلام ابو القاسم بن البرازي الفقيه بالجزيرة رحمه الله ، وكان فقيها عالما فاضلا لم يكن مثله ، ووصل الخبر ان امين الدولة ابو الحسن بن التلميذ الطبيب ، توفي ببغداد ، وكان نصرانيا ، وقد جمع من سائر العلوم مالم يجمع في غيره ، وكان موته يوم صوم النصارى ، ولم يبق من الجانبين من لم يحضر البيعة ، وشهد جنازته.

وفي جمادى الاول وصل الآمدية في خدمة فخر الدين ، وعبر القاضي ناصح الدين قاضي آمد الى حصن كيفا وقرر الصلح ، وحلف لهم فخر الدين وصاروا من جملته .

وفي جمادى الاخرة ولي النفيس بن مخطر ابن عم المؤيد ولده شمس الدولة خدمة الخاتون ، وقطب الدين ولد الصاحب .

وفي شهر رجب وصل تميم بن عادل عميدا بميافارقين ، وعزل المهذب بن سالم ، ووصل ابو الوفاء بن المهذب بن حيان مشرفا على الديوان ، ووصل الزكي حسن بن زيد محتسبا ، وعزل حسين بن ابي يعلى عن الحسبة .

وفي رجب وصل الخبر ان الوزير عون الدين بن هبيرة توفي ببغداد رحمه الله في جمادى الاولى ، وجلس قاضي القضاة ابن الثقفي ينوب في الوزارة ، وفي العشرين من شهر رمضان سار القاضي صدر الدين ابو علي الحسن بن مسعود الى الموصل ليسير صحبة عمه بهاء الدين اوس الى مكة .

وفي ذي القعدة من السنة عبر قطب الدين ، ومعه الحاجب زكري الى خلاط ، واقاما اياما الى ثالث عشر ذي الحجة ، وعادوا الى ماردين .

وفي ذي الحجة والمحرم وصفر سنة احدى وستين وخمسمائة كان

بالشام موت عظيم ووباء على اكثر البلاد بحيث قيل انه مات من سلمية وبلدها مقدر عشرة الاف نفس ، وخرب اكثر الضياع من بلد حماه وحمص الى دمشق .

وفي ثاني عشر صفر سنة احدى وستين وخمسمائة مات الامير محمود بن طرخان بميافارقين بدار العجمية ، ودفن عند قبة سوار على طريق ارزن ، وكان رحمه الله قد وصل من غزو السناسنة والارمن وقتل وغنم ، وكان له فيهم وقعات جماعة ، وبعد ايام اعطي حصن ماناثا متاخم السناسنة ، وعين لبدر الدين زين الحجاب ابي منصور بن ابي صالح .

وفي سلخ صفر وصل ابراهيم بن الحاج الماردي عميدا على ميافارقين ، وعزل تميم بن عادل ، وفي سابع شهر ربيع الاول وصل صدر الدين من الحجاز سالما ، واخبر ان عمه بهاء الدين اوس جاور مكة ، واخبر أن تابوت جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني رحمه الله حمل معهم الى مكة ، وصعدوا به الى جبل عرفات ودخلوا به مكة واطافوا به حول الكعبة في كل يوم مرارا عدة مدة مقامهم بمكة ، وحمل معهم الى المدينة ، وطافوا به حول قبة الرسول صلوات الله عليه ، ودفن بالبقيع عند الصحابة رضي الله عنهم وعنه ، وحكي ان يوم وصوله الى مكة كان يوما مشهودا بحيث كانوا يطوفون بالتابوت حول الكعبة لم يوجد لاحد موضع يضع قدمه ، واهل مكة يضجون ويبكون بحيث لم يسمع بمثل ذلك وكذلك عندما وصل المدينة ، ولقد سمعت من جماعة ممن يتردد الى مكة وممن هو من اهل مكة انهم اتفقوا انه لم يحمل الى مكة ميت منذ اول الزمان غير رامش الخادم ، وصاحب عمان ، وملكة عدن وهي الحرة ، وابن رزيك اخو الملك الصالح الذي كان سلطان مصر في ايام الفائز ، وهذا جمال الدين وزير الموصل رحمه الله ورضي عنه وعنهم .

وفي شهر ربيع الاول مات عز الدين موسى بن حمود قاضي ماكسين (١٠٧) مات بماكسين وكان اماما عالما من اصحاب الامام الشافي

(١٠٨)رحمهما الله وولي ولده موضعه ، وفي الاربعاء ثالث عشر شهر ربيع الاول سار الامير والخاتون والجماعة الى ماردين . وفي تاسع عشرين شهر ربيع الاول من سنة ستين وخمسمائة ابتدي في نقض برج المرأة عند باب القصر ليجدد .

وفي شهر ربيع الاخر من السنة مات شمس الدين سيونج الحاجب بالموصل ، وبعد مدة حمل الى ماردين ودفن بها .

وفي ثاني عشر جمادى الاول ، وفي الثلث الاول من الليل احترق سوق باب المدينة ،نوبة رابعة .

وفي جمادى الاول عزل جمال الدين الوزير بحصن كيفا نفسه عن الوزارة ، ولزم البيت والزاوية ، ورتب اخاه الأصيل في موضعه ، وولي الصفي يحيي بن عبد الواحد الاستيفاء بولاية فخر الدين جميعها .

وفي يوم الاربعاء ثامن عشر جمادى الاول وصل قطب الدين وشير باريك والعروس الى حصن كيفا ، وزين البلد ولقوهم احسن ملقى ، وجاء في دجلة زيادة عظيمة بحيث نفسخت قواعد الجسر بحصن كيفا ، واقاموا الى الاثنين غرة جمادى الآخر ، وساروا جميعهم الى ماردين .

وفي غرة جمادى الآخر من السنة ابتدي في عمارة برج المرأة ، وكان نقضه في شهر ويوم واحد ، وفتح باب قلوفح من المدينة لأجل العمارة ونقل الآلة .

وفي جمادى سار قطب الدين الى جبل جور ، وعزل الوالي وقبضه .

وفيها وصل الخبر أن مجد الدين وعساكر الشام كسروا الأفرنج كسرة عظيمة ، ونهبوا نهبا عظيما ، وكان فتحا مشهودا .

وفي سادس رجب ، قبل العصر امطرت ، وجاء على الكروم والبساتين بميافارقين من المطر مالا يوصف ، بحيث تالفت جميع الغلات من الفواكه وغيرها مع الكروم ، وحمل المد دوابا كثيرة ومواشي كانت ترعى ، وقلع الاشجار ، وكنس الاراضي ، وكان منه على الناس مضرة عظيمة ، وتلف ما يحصى .

وفي الاثنين رابع عشر رجب من سنة ستين وخمسمائة عبر الأمير والخاتون الى حامة وجبل جور ، وباتوا بقرية البازار ، وفي هذا اليوم عبر فخر الدين قرا ارسلان الى خرتبرت من حصن كيفا .

وفي الاربعاء سلخ رجب عند صلاة الصبح كانت زلزلة عظيمة بحيث جرى الماء من حنباص(١٠٩) ورأس العين وجميع الأعين طينا أحمر الى ضحى النهار ، وبعد ايام وصل الخبر أن أرزن كان(١١٠) وما حولها خربت من الزلزلة ، وكانت اول يوم من حزيران من السنة ، وخربت مواضعا جماعة من ناحية أرزن كان وما حولها .

وفي الخميس ثامن شعبان من السنة عاد الأمير من الحامة من جبل جور ونزل بالزبيبة من ناحية الحيز ، وخرج اليه جمال الدولة ابن نيسان والجماعة من آمد .

وفي شهر شعبان من السنة وصل شمس الدين بن القرباشي الواعظ ، وجلس يوم الجمعة بميافارقين بعد العصر ، وكان له مجلسا عظيما مشهودا .

وفي الاثنين ثالث عشر رمضان فرغ من بناء برج المرأة من السور ، وكان مدة بنائه ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوما .

وفي يوم الجمعة خامس عشر رمضان ابتدأ الزاهد ابو الحسن علي بن الطويل في بناء قاعدة من جسر الدمس .

وفي رابع عشرين شوال وصل الخبر انه ولد لقطب الدين بنت من جارية .

وفي سابع عشرين شوال من السنة عند الليل كان زلزلة عظيمة ، وكان ضحوه الغد أخرى أقل من الاولى .

وفي ليلة الجمعة تاسع عشر ذي القعدة سنة احدى وستين وخمسمائة توفي الشيخ شيخ الشيوخ ابو الحسن علي بن المحور ، رحمه الله عن ست وتسعين سنة لأنه كان مولده سنة ست وستين واربعمائة ، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة ، ودفن بالأزج على اجداده رحمهم الله ، وكنت مريضا ، ولم احضر الجنازة .

وفي ذي القعدة وصل الذفيس ابو طاهر بن السديد العارض بن الحديثي ناظرا على ديوان ميافارقين ، وبعد ايام وصل ابو سالم بن سكمان ، قبحه الله ، متوليا على اشراف الديوان .

وفي السبت ثاني المحرم سنة اثنتين وستين وخمسمائة سرت الى حصن كيفا ، وأقمت اياما وعدت الى ميافارقين ، ووليت اشراف الوقف بميافارقين في حادي عشر المحرم من السنة .

وفي صفر من السنة مات الشيخ خلف الزاهد بأسعرد ، وصلي عليه بميافارقين ، وفيه مات الشيخ الزاهد بن الزاهد عمر بن الأخوة ، وكان زاهدا تقيا ، وصلى عليه بهاء الدين بميافارقين .

وفي العشر الثاني من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وستين وخمسمائة دخل اسد الدين شيركوه الى مصر ومعه من العسكر ما لا يحد من الرجل والخيل ، ولقوا الافرنج ، ونازلوا الاسكندرية ، وانفذ أهل مصر واحضروا الافرنج وبذلوا لهم مالا عظيما لنصرتهم ، فحضروا ، وكان سلطان مصر شاور قد وصل الى

الشام لما خرج عليه الضرغام وقوي عليه ، وملك السلطنة ، وانهزم شاور ووصل الى دمشق واستنجد بنور الدين ، فسار معه أسد الدين ، فلما وصل الى مصر انهزم الضرغام ، وملك شاور الامر ، فنفذ الى اسد الدين ان يرجع ، وحمل له مالا كثيرا ، فلم يفعل ، ومضى فنازل الاسكندرية ، فنفذ شاور وأحضر الافرنج ، واحاطوا بأسد الدين ، وجرى بينهم قتال كثير ، ثم إن صلاح الدين نفذ الى ملك الافرنج وقال له : اتخذ عندنا يدا ، وأطلق لنا الطريق في بلادك ، فقال ذلك لكم ، فسار أسد الدين و جماعته في بلاد الافرنج على الساحل الى دمشق فوصلها ومن كان معه من أصحابه .(١١١) .

وفي تاسع وعشرين شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وخمسمائة وصل الأمير والخاتون والجماعة الى ميافارقين واقاموا بها .

وفي الجمعة سادس عشر شهر ربيع الآخر وصل القاضي صدر الدين بن القربة وبقي الى ليلة الاربعاء واشتد به ، ومات يوم الخميس ثاني عشرين شهر ربيع الآخر من السنة رحمه الله ورضي عنه ، ودفن في داره في الحجرة ، وعمل شمس الدين ابو الفتح بن طبرله العزاء والمجلس ، وحضرت الخاتون وغرمت من مالها شيئا كثيرا ، وكان له عزاء عظيم ، وكانت ولايته القضاء بميافارقين سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فرحم الله ذلك الشخص وفي الأحد عاشر جمادى الأول من سنة اثنتين وستين وخمسمائة ولي القضاء القاضي بهاء الدين ابو طاهر بن تاج الدين بن نباتة بميافارقين بسفارة امين الدين ورأي الخاتون ، واستبد له الأمر .

وفي ثامن عشر جمادى الأولى توفت زوجة الامير سيف الدين شيرباريك .

وفي غرة جمادى الآخر سار الامير والجماعة الى ماردين .

وفي عاشر شهر رمضان مات الشيخ مبارك الزاهد بآمد ، وصلي عليه بميافارقين .

وفي ثامن عشر شهر رمضان مات فخر الدين قرا ارسلان بن داود بخرتبرت ، وحمل الى حصن كيفا ، وعبر في بلد ميافارقين ، ودفن في التربة التي بنى بحصن كيفا .

وفي ليلة الاربعاء ثامن عشرين شوال كان زلزلة شديدة خربت بالشام مواضع كثيرة .

وفي آخر ذي القعدة احترق بدمشق سوق باب جيرون (١١٢) (واللبادين وباب الساعات) ودار سيف الدين وباب الجامع الشرقي ، وحضر اسد الدين وفتح باب الجامع وتكاثرت الناس وأطفيء الحريق بعد ان احترق شيئا كثيرا ، ونهب اكثر ما كان في تلك الناحية .

وفي شهر ربيع الاول سنة ثلاث وستين وخمسمائة ولي وزارة الخليفة المستنجد بالله ببغداد ابن البلدي ، وكان ناظرا بواسط ، يلقب بشرف الدين ، واظهر العدل والاحسان الى الناس ، وبعد مدة عزل قاضي القضاة ابن الثقفي عن القضاء ، ورتب العدل روح بن الحديثي بتولي القضاء

وفي جمادى سنة ثلاث وستين ولي امين الدين التونتاش الديوان والبلاد مع المؤيد ، واظهر العدل والاحسان ، وقام بالواجب فيما فوض اليه .

وفي حادي عشرين جمادى الآخر قبض المهذب منصور بن الحباب ، وأخذ جميع ماله ، وحبس مدة ، وانهزم بعدما ضمنه جماعة من اهل ماردين ، ومضى الى الرها ، ودخل أنطاكية ، وسار أكثر الضمان في طلبه الى حلب ، وكنت بها ، ولم يعد ، وبقي بعد

ذلك مدة ، وعاد الى دارا ، وأقام اياما ، وعاد الى ماردين فقبض وحبس ومات في الحبس .

وفي رجب سنة ثلاث وستين وصل نور الدين الى الرها ونازلها مدة واخذها من اولاد الأمير حسان ورتب فيها الشيخ اسماعيل الخازن واليا ، وعاد الى منبج فنازلها اياما واخذها وسلمها الى ابن حسان الآخر وعاد الى حلب .

وبعد ايام أغارت الافرنج على نواحي حمص وأخذوا تركمان وعرب كانوا هناك

وفي أول رجب وصل الخبر ان عز الدين سلتق صاحب أرزن الروم توفي وولي ولده الملك محمد موضعه .

وفي منتصف شهر شعبان سرت من ميافارقين الى دمشق ، واجتزت بالرها ومنبج وحلب وحمص وحماه ، ووصلت الى دمشق سابع عشر رمضان ، ولقيت المولى كمال الدين قاضي القضاة ابن الشهرزوري حرس الله ظله ، ولقيت منه كل احسان.
وأقمت بدمشق الى حادي عشر ذي القعدة ، ورد الي النظر في أوقاف دمشق بظاهرها ، وأقمت بدمشق .

وفي ثالث ذي القعدة وصلني الخبر أن القاضي شرف القضاة أبا علي سعيد توفي في ثاني شوال ، وهو ابن البقل الآمدي رحمه الله ، وكان عالما فاضلا ، من أكبر بيوت ديار بكر .

وفي ثالث عشر شوال قبض الحاجب زكري وحبس بميافارقين ، وبقي مدة وأخرج من الحبس ، وسار الى الموصل وأقام في خدمة قطب الدين بن أتابك وفي خدمتهم الى الآن .

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة توفي ضياء الدين بن عبيد

-٥٣١٩-
بالموصل ، وكان نقيب العلويين ، وتولى ولده شهاب الدين موضعه .

وفي ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحلت الافرنج جميعها الى مصر ونازلوها منازلة عظيمة وضايقوها ، فنفذوا الى نور الدين واستغاثوا به ، فرحل من حلب ونفذ أسد الدين وجميع التركمان من الرها ، وأطرف الغزاة ، ووصل نور الدين الى دمشق ثامن عشرين صفر سنة أربع وستين وأقام بها ، وأنفق في الجند مالا عظيما ، ورحل أسد الدين شيركوه ومعه جماعة من الامراء وولد أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ، وساروا الى مصر فوصلوا سابع عشرين شهر ربيع الاول سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها ، ورحلت الافرنج ودخل الى القاهرة ، وبقي الى سابع عشر شهر ربيع الآخر، وقتل شاور و ملك مصر ، وحصلت تحت حكمه وأمره ، وبقي الى حادي عشر جمادى الاول من السنة ، وأكل سمكا عظيما ولبنا وأكثر من أكله ، ومات من يومه ، ووصل الخبر الى دمشق بموته رابع جمادى الآخر ، وولي صلاح الدين يوسف بن أخيه نجم الدين موضعه ، وهاشت عليه السودان بعد أيام وقتل منهم خلقا عظيما ، وأقام وهاشوا عليه مرارا عديدة ، وهو يظفر بهم ، ويقتل منهم خلقا كثيرا ونهب ما لايحصى

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة خرج شهاب الدين ولد الامير علي بن مالك يتصيد من قلعة جعبر فأسره قوم وحملوه الى نور الدين وبقي في أسره مدة وتسلم منه القلعة وأعطاه سروج (١١٣) اقطاعا وضياعا في بلد حلب وغيرها ، وحصل في خدمة نور الدين ، وترتب في القلعة الامير علي أخو مجد الدين في سنة أربع وستين .

وولد لقطب الدين ولد ، وللصاحب ولد ذكر من جارية .

وفي سنة أربع وستين احترق جامع حلب ، وسوق حلب ، وبني احسن ماكان .

وفي سنة أربع وستين كان قد عقد جسر الدمس وبقي منه عينة واحدة وعقدت ، وعبر الناس عليه ، وبقي مدة وجاءت زيادة عظيمة وهدمت العينة الكبيرة وانقطع الجسر ، وخرب الجانب القبلي جميعه .

وفي سنة أربع وستين وخمسمائة وقع الخلف بين الصاحب نجم الدين وبين صاحب أرزن ، ووصل الى ميافارقين ، وجمع عساكر لاتحصى من الخيل والرجل ، وبقوا أياما ، ثم انه دخل تحت حكمه وصار في خدمته .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة رحلت الافرنج جميعهم والملك الى ديار مصر ، فنازلوا دمياط وحاصروها وضيقوا عليها أياما واخذوا من ديار مصر مواضع كثيرة ، واقاموا على دمياط واشرفت على الفتح ، فخرج صلاح الدين من قصره وأخوه شمس الدولة ، ومعهم جماعة من العساكر فاستداروا حول الافرنج وأخذوا عليهم الطرقات والمواضع بحيث لم يبق أحد من الافرنج يقدر ان يخرج من معسكره ، وبقوا اياما ، وأشرفوا على القبض ، وتقدم ملك الافرنج الى صلاح الدين يقول له : ان لي عندك وعند عمك يوم الاسكندرية يد ، واليوم أريد المكافأة فتفتح لي الطريق لانصرف ، فقال صلاح الدين : ذلك لك ، ورحلوا عن طريقه ، فرحل الملك وعسكره جريدة ، ومضوا الى بلدهم ، ونهب جميع مابقي منهم من البرك والثقل والخيم والمراكب ، وماكان فيها ، وكان قبل ذلك بأيام قد وصلهم في البحر ثلاثة مراكب من ملك القسطنطينية فيها من الزاد والعلوفه والسلاح والخيم ماليس بقليل ، فنهب جميعه ، وغنموا غنيمة عظيمة ، وعادوا راجعين خائبين ،

وبقي صلاح الدين بمصر مدة ، وخرج عليه رجل يسمى مؤتمن الخلافة ، وكان خادما للخليفة ، وتبعه جماعة وكثير من السودان وقاتلوا قتالا شديدا ، وظفر بهم صلاح الدين ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ونهب من مصر مالا يحصى وأخرج كل من كان بالقاهرة من اهل مصر وعسكر الخليفة وأنزلها الاتراك والأكراد بين عسكر صلاح الدين .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة مات عز الدولة نصر بن نيسان بقلعة أكل .

وفي سنة أربع وستين مات بهاء الدين عمر بن الداية والي حلب ، وولي أخوه سابق الدين عثمان .

وفي رابع عشرين جمادى الآخر سنة خمس وستين سار نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين الى مصر ، من دمشق ، بمرسوم نور الدين ، وسار معه خلق لايحصى من العسكر والرجال والنساء والأطفال الذين رجالهم بمصر ، وخرج في تجمل لايمكن أن يكون مثله ، وكان له بدمشق ثلاثة اهراءات من حنطة وشعير لا يعرف قدر ما فيها من كثرتها ، ففرقها جميعا على الفقراء والضعفاء و المساكين ، ولم يبع منها بدرهم فرد ، واستدان عليه مقدار عشرين الف دينار حتى حمل مايحتاج اليه ، ولم ير أنه يبيع الغلة ، وكانت تفي بما أخذ من الدين ، وأكثر من ذلك ، وسار معه جميع أولاده ، ولم يبق بدمشق غير النساء والاطفال ، وبعد أيام وصل الخبر أنه وصل الى مصر سالما ، وأن صلاح الدين خرج فلقيه في الذقوب (وخرج العاضد لاستقباله)(١١٤)وكان بمصر يوما عظيما مشهودا ، كما ذكر الله سبحانه في كتابه في قصة يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب :« ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين(١١٥)» ونزل نجم الدين بالقاهرة بدار تعرف باللؤلؤة واستقر بمصر هو وأولاده،
ومضى كل واحد منهم اقام بمدينة من مدائن ديار مصر ، وبعد أيام نفذ نجم الدين وولده صلاح الدين الى دمشق سبعة آلاف دينار

مصرية عينا الى الفقراء والضعفاء والعلماء وربط فيهـا الصـوفية والمجاورين بجبل دمشق ، فتفرقت عليهم ، وكان كل مـن أخذ له شيئا قد شد في صرة وختمت ، وكتب عليها اسـم صـاحبها ، فعند الوصول سلمت اليه واستقر بمصر .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة مات عز الدين أبـو بـكر بـن الداية بحلب ، وضاق صدر نور الدين لموته ولحقه من الحزن والكآبة ماليس بقليل .

وفي سنة ستين وخمسمائة مات العمادي صاحب بعلبـك ، وكان اميرا كبيرا من مقدمي أمـراء الشـام ، وضـاق صـدر نور الدين لموته ، وولى أولاده موضعه ، وفيها نفذ نور الدين ليستحضر سابق الدين عثمان أخا مجد الدين مـن حلب ، وحصـل أمير العسـكر بـالشام ، وولى أخيه شـمس الدين علي واليا على ديوان حلب ، وجميع الأمور من القضاء والديوان لمحيي الدين ابي حامد ولد المولى كمال الدين دام ظله .

وفي سـنة خمس وسـتين مـات زين الدين علي كوجـك بالموصل ، ووصل ولده الأصغر الى دمشـق ، وهـو علاء الدين الى خدمة نور الدين وأمه بانه الجيبية معه ، وبقي مـدة ، وأعطـاه نور الدين معيشة بدمشق ، ثم انه مرض ومات بدمشق ولحق أمـه عليه مالا يوصف ، ودفن في تربة كانت لأسد الدين وأهله .

وفي يوم الاثنين ثـاني عشرين شـوال مـن السـنة كانت الزلزلة بالشام ودمشق ضحى نهار ، وأخربت أكثر بلد بعلبك ، ومات منهم خلق عظيم ، وانهدم أكثر سورها ، ووصل الخبر بعد ايام ان سور حلب انهدم اكثره ، وخرب من المدينة ماليس بقليل ، ومـات تحت الردوم خلق لايحصى ، وانهدم البلد وناحية باب انطاكية وطـرابلس ومواضع كثيرة من بلاد الاسماعيلية ، وطرف السـاحل ، ولم يهلك بدمشق غير رجل واحد انهدم عليه شرافة من شرافات الجـامع مـن

الشرق ، ولم يهدم بدمشق غير شرافات الجامع من الشرق والغــرب وبعض الشمال ، وتواترت الزلازل وحصلت تحــدث في اليوم والليلة مرة ومرتين ، ومــازاد ، وخرج الناس أكثـرهم الى ظــاهر البلد والبساتين ، وأقاموا أياما وكنت اذ ذاك بدمشق .

وفي رجب سنة خمس وســتين وخمســمائة عزل معين الدين عن ولاية ميافارقين ، وولي قيماز مملوك الصاحب .

وفيها مات عز الدولة أبو نصر بن نيسان بآكل ، وولي ولده أبــو عمر موضعه .

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة، وصل أتابك ممدود صــاحب الموصل وأولاده الى قلعة ماردين لزيارة الصاحب نجم الدين ، فانه كان مريضا وتعافى ، وصعدوا الى القلعة وأقــاموا أيامــا ، وغرم عليهم من الضيافة وما يحتاج إليه ما ليس بقليل ، وتولى أمين الدين خدمته بنفسه وقام فيما احتيج اليه قياما مرضيا . وعمل مالم يقدر أحد أن يعمل بعضه ، وبقيوا ايامــا وخلع عليهــم وعلى جميع مــن وصل معهم خلعا لاتحصى ، واعتمد لأمين الدين من الخدمة مــاكان عجز عنه جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم .

وفي شهر ربيع الأول سنة ســت وســتين وصــــل الخبـــر الى دمشق ، ثم ان في صفر رسم صــلاح الدين ونجــم الدين الخــطيب بمصر ، وهو شمس الدين أبو أحمد بن أبي المضاء الوزير النظــام الذي كان بدمشق أيام معين الدين أن يخطب ويصلي على الصــحابة على منابر مصر ، فخطب وصلى على الصحابة بعد النبي صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين ، وكان يوما عظيما مشــهودا ، ولحــق أهل مصر من ذلك الحزن مــاليس بقليل ، وبعــد مــدة صــلى على العباس بعد الصحابة في الخطبة ، وكان هذا شمس الدين بن الوزير مقيما بدمشق ، فلما مضى نجم الدين سار معه في صــحبته ، فلمــا

وصـل الى مصر وولي النظـر في الوقـوف في جميع مصر ، وبقـي مدة ، وولي الخطابة ، وهو الى الآن بمصر .

وفي شهر شوال سنة ست وستين توفي أتابك ممدود ، أخـو ذور الدين بالموصل وولي الأمر ولده سيف الدين الغازي وعبـد المسيح الخادم متولي الولاية ، فانه ولي الموصل بعد زين الدين ، وبعد ايام سار ذور الدين فوصل الى حران وأخذها ورتب فيها الأمير ابراهيم ولد أخيه أميران ، وسار فملك الخابور موضعا مـوضعا ، ووصـل الى نصيبين فتسلمها من العلائي ، واقام بها مدة ، ثـم سـار الى سنجار فنازلها اياما وملكها واقام بها أياما ، ثم نزل الى الموصـل وراسل فخر الدين عبد المسيح مـدة ، ثـم أظهـر القـوة والجلد والاحتباس ، ثم بعد ايام خرج الى ذور الدين سيف الدين ابن أخيه واخوته وعبد المسيح ، ودخل الى الموصل وتملكهـا ، واقـام بهـا مدة ، ورتب سعد الدين كمش دكين الخـادم في القلعـة ، وانفصـل وعاد الى الشام وسلم البـلاد جميعهـا الى ولد أخيه الأمير سـيف الدين .

وفي تاسع ربيع الآخر سنة ست وخمسـين وخمسـمائة ، مـات الخليفة المستنجد أبو المظفر يوسف بن المقتفي ببغـداد ، وولي ولده أبو محمد الحسن الخلافة ، وبـويع له يوم مـات أبـوه ، وتلقـب بالمستضيء بأمر الله ، وأظهـر العـدل والاحسـان وأطلق مـن في السجون وفعل الخير ، ورد امـلاك الناس التـي اغتصـبت في أيام أبيه ، ورد مالا عظيما على الناس ممن كان صادره أبوه ، وفعل كل خير ، واستوزر استاذ الدار ابن رئيس الرؤساء ، ويلقـب عضـد الدين ، وكانت ولايته أحد عشر سنة وشـهر وسـبعة أيام ، وقبض على الوزير ابن البلدي وقطع يده وأذنه ، وكان قطع ابـن البلدي يد ابن السيدي ، وكان ابن عمته استاذ الدار ، وقطع انف عمه استاذ الدار ، فلما ولي قبضه وقطع يده وأذنه في سوق بغداد ، وبقي مـدة ومات وولي أخوه استاذ الدار موضعه .

وقد قيل ان المستنجد كان دخل الى الحمـام و خرج وثـب عليه اسـتاذ الدار ورمـاه تحتـه .
وخنقه ، وولي بعده الموضع ، فانه كان اساء الى الناس وظلمهم واخذ اموالهم وقتل خلقا عظيما من الامراء والكبار ، فاستوزر ابن البلدي ، واجحف بالناس ، وكان قدهم مرارا بقبض استاذ الدار ، وفي ايامه عزل ابن الثقفي عن قضاء القضاة والموضع الى اليوم(١١٦) لم يليه احد ، وينوب فيه العدل روح بن الحـديثي

وفي اوائل سنة ست وستين اغارت الافرنج على بلد الشام ، وحملت أهل قرية نخل (١١٧) باسرهم ،وما كان فيها من النساء والاطفال وجميع ما كان لهم ، ولم يفلت منهم الا الاقل ، وبعد ايام نزلوا على حصن يسمى عراق الامير(١١٨) واخذوه ، وبقوا مدة ،ثم صالحهم كمال الدين على اخرابه ، وقسم بلده على المسلمين والافرنج .

وفي العشرين من شهر ربيع الاخر سنة ست وستين سار الى مصر من دمشق قافلة لايمكن ان يجتمع مثلها في الدنيا ، وسارت بنت شمس الدولة نجم الدين واولاده واولاد اخوته وجماعتهم ونساؤهم واتباعهم ونساء الحاشية باسرهم ، ومن اهل دمشق خلق عظيم لايحصى بحيث قيل انه كان في القفل نيف وسبعين الف جمل ، ولقد رأيت ذلك اليوم عند مسير القافلة محارة على جمل وفيها ثمانية انفس ، ثلاث نسوة وخمسة اولاد صغار ، ووصلوا سالمين الى الذقوب ، وخرج صلاح الدين اليهم فلقيهم وسار بهم الى مصر سالمين ، ولقد حكي انه كان في يوم دخولهم الى مصر يوما عظيما .

ووصل الخبر الى دمشق ان صلاح الدين جمع العسكر في شهر ربيع الاول وعرضه ، فاعتد في اربعة عشر الف تركي وكردي ، ولم يبق من اجناد مصر احد .

وفي ثالث عشر جمادى الاول سنة ست وستين كان الخروج من دمشق ، وسرت فاجتزت بحمص وحماه وحلب ومنبج وحران ورأس

العين وماردين ، ووصلت الى ميافارقين يوم الاحد منتصف جمادى الاخر ، واقمت بميافارقين .

وفي جمادى الاخر نازل الصاحب نجم الدين والعساكر مدينة دارا وحاصرها وجمع عليها خلقا عظيما ، ثم وصل صمصام الدين ودخل عليه فرحل عنها ، وترك من العسكر جماعة منهم بكتمر رشيدي ، وصعد الصاحب نجم الدين الى ماردين .

وفي شهر رجب مات سيف الدين باريك ممدود بن علي بن الب بارق بن ارتق ، وكان اكبر من بقي من الارتقية بميافارقين ، ودفن في القبة تحت المقابر براس بستان الخردلي .

وفي شوال من السنة توفي شمس الدين بن الواسط بن حسن البغدادي بآمد وصلى عليه بهاء الدين بميافارقين .

وفي ذي القعدة توفي اخو سيف الدين صاحب الموصل ولد اتابك ، وسارت والدته زمرد خاتون الى مكة في منتصف شوال ، وفي يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة سنة ست وستين توفيت الخاتون زينب بنت الامير احمد بن سكمان زوجة الصاحب نجم الدين بماردين ، وكانت خرجت قبل ذلك بايام الى الصور لتسير الى اخلاط لزيارة اخيها شاه ارمن فمرضت وعادت الى ماردين وبقيت الى ذلك اليوم ، وماتت قبل العصر ، ودفنت بالدار بقلعة ماردين ، وسار بهاء الدين والجماعة الى ماردين الى العزاء فلقوا الامير في قرديس فعزوه ، فرسم لهم ان يسيروا الى التربة ، وكان امين الدين مقيما هناك ، فمضوا اليه وعزوه ، واقاموا اياما وعادوا الى ميافارقين ، ووصل الامير الى ميافارقين واقام بها اياما .

وفي خامس ذي الحجة من السنة عزل بهاء الدين عن قضاء ميافارقين ، وولي القاضي محمد بن ابي يعلى ، وكانت هذه ولاية ثالثة لقضاء ميافارقين ، واقام الامير والجماعة أياما وساروا الى

ماردين ، وأقاموا مدة وبقوا الى أول شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وخمسمائة ، ووصل الأمير والجماعة الى ميافارقين وأقاموا بها ، ومرض قايماز والوالي مدة ، ثم قصد الأمير والجماعة - إلا قايماز - والوالي صحبتهم الى ماردين في سلخ شهر ربيع الاخر ، واقاموا بماردين ، ثم كانت فتنة جرت بباب المدينة من الرعاع والغوغاء ، وكان تخلف في ولاية ميافارقين علي ، وكان صاحب قايماز وغلامه ، ووصل قايماز مريضا في خامس جمادى الاخر ، وتوفي في سحر يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاخرة ، ببرج الملك وحمل الى الجامع ، وصلى عليه ، ودفن في دار سراج الدولة بن غش .

وفي السبت ثاني عشرين منه وصل عز الدين داود من ماردين وأقام بالقصر من قبل الصاحب ، واقام الى ثالث رجب من السنة ، ووصل في رمضان السلاحي من ماردين ، وجلس في القصر ، وسار امير داود الى ماردين (١١٩)

والاطفال وبقي على ذلك ، فلما دخل شمس الدولة طلبه فانهزم من بين يديه ، وفتح بلادا جماعة وطلب قبر المهدي فملكه وهدم القبة ، واخذ جميع ما كان فيها من الاموال والجواهر والالات ، فيقال انه اخذ منها ستمائة حمل ذهب وفضة وجواهر وغيرها واخذ عظام المهدي الخارجي فاحرقها وذراها في الهواء ، وسار ومعه خلق عظيم في طلبه ، فكان كلما وصل الى موضع انهزم الى موضع من بين يديه ، وفتح ذلك الموضع ونهب ما كان فيه ، وامن الناس ، وسار خلفه الى الموضع الذي يكون فيه ، وفتح بلاد اليمن الى ان وصل الحاج الى بلادنا اخبروا انه افتتح اكثر بلاد اليمن ، ولم يبق من بلاد اليمن الا القليل ، وحلف شمس الدولة ان لايبرح من اليمن حتى يدرك ابن المهدي ويقتله ويذري عظامه - بعد حرقها - في الريح ، كما فعل بأبيه .

وكان قد بنى جسرا على دجلة ، وبقي فيه عينتان ، خرج الشيخ

الزاهد ابن الطويل لاتمام ذلك ، فبنى برجا وعقد عينتين اخيرتين ، ومرض ودخل الى المدينة ، وجاءت زيادة كثيرة ، وهدمت ثلاث عينات اخربتها الزيادة وانقطع الجسر ، وتوفي الشيخ الزاهد بميافارقين في عشرين من شهر ربيع للأول سنة سبعين وخمسمائة رحمه الله ، ودفن بالمدرسة بميافارقين رضي الله عنه ، ومضى ولده الى ماردين وتولى موضع والده في نظر الاوقاف ، وعاد الى الدمس ورم رؤوس تلك القواعد ، ورفع بعض الالات والاخشاب ، الذي بقي ودخل المدينة يوم الخميس غره جمادى الاول من السنة .

وفي ربيع الاخر توفي شهاب الدين محمد بن ارسلان بن ارتق ، وتولى ولده معين الدين موضعه على البيرة وكانت بيد أبيه .

وفي اخر شهر ربيع الاخر سنة سبعين وخمسمائة وصل الخبر ان صلاح الدين يوسف بن ايوب وصل في أول الشهر من مصر الى دمشق على طريق الذقوب ، فنزل في داريا اياما ، وخرج اليه ابن المقدم وجمال الدولة ريحان ولقياه ، ودخل الى دمشق ، ونزل في دار العقيقي (١٢٠) وكانت دار ابيه نجم الدين ، وازال المكوس والضمانات ، وما كان ازاله نور الدين رحمه الله ورضي الله عنه ، واذكر اعادتها غاية الانكار ، وقال من عارض ازالتها اهدرت دمه ، فاحسن الى اهل دمشق غاية الاحسان ، ووصل اليه صاحب بصرى وصلخد وبانياس وبعلبك ، ووصل الى خدمته فخر الدين بن الزعفراني ، وكان عند موت نور الدين بحماه ، فلما مات نور الدين طلبه اهل حماه ونهبوا داره وقتلوا جماعة من اصحابه ، فطلب بعرين(١٢١) فملكها وتحصن بها وهادن الافرنج وعصى على الملك الصالح في بعرين ، وبقي فيها ، واقام بها ، فلما وصل صلاح الدين ، وصل الى خدمته ، وبعد ايام وصل اسد الدين محمد بن أسد الدين من الرحبة الى خدمته ، ومعه ثلاثة الاف فارس ، وامره على ان يخيم على نهر الذبك بين حمص ودمشق ، وخرج الى حمص وحماه ، فملك حماه ، وفي عزمه الوصول الى حلب وترتيب امر الملك الصالح وكونه في خدمته وبين يديه .

وفي اخر شهر ربيع الاول من السنة وصل جماعة من بغداد ، واخبروا ان زعيم الدين بن جعفر نائب الوزارة توفي ببغداد وقبض على املاكه ، واعادها الخليفة على اولاده في يومهم ، وناب في الوزارة صاحب ديوان الانشاء شمس الدين ابو الفرج بن سديد الدولة بن الانباري ، وكان في شهر ربيع الاول من السنة مات قاضي القضاة روح بن احمد الحديثي ببغداد ، ومات ولده بعده ، وولي قاضي القضاة علي بن احمد بن الدامغاني ، وكان له مدة معزولا من اول ايام المستنجد بالله ، وبقي معزولا في مدرسته هذه المدة الى الان ، واعيد الى موضعه .

وفي هذه السنة عملت جارية الخليفة بنفشا على دجلة جسرا آخر ، وغرمت عليه مالا عظيما ، ونفذت احضرت من حاني سلسلة عظيمة بمقدار الف وخمسمائة دينار ، وانحدروا الى بغداد ونصبوا الجسر تحت تاج الخلافة ، ونصبوا الجسر العتيق عند باب درب ناجي عند مدرسة الموفق ، وحصل لاهل بغداد راحة كبيرة .

وبعد موت زعيم الدين بمدة يسيرة عزم الخليفة المستضيء على اعادة الوزير عضد الدين رئيس الرؤساء الى الوزارة ، وكره الامير قطب الدين قايماز ذلك ، واجتمع به وقال : يامولانا انت سنتك العدل وفعل الخير والاحسان الى الناس والانصاف ودولتك فلا تحمل وزارة هذا الرجل ، وهو رجل مقدام حسود ، بطاش ، ولايبقي على احد ، ولايصلح لدولتك ، فقال : لابد منه فخرج من عنده ، وجمع العسكر واغلق الابواب ببغداد ، واغلق ابواب دار الخليفة ، وحوصرت الدار ، وماج الناس ، واستقر الحال الى ان اخرج الوزير من داره بدار الخليفة الى داره بالحريم الطاهري من الجانب الغربي ، وخرج وبقي هناك ، وخلع الخليفة على قطب الدين قايماز ، وطيب قلبه ، واستقر في نيابة الوزارة شمس الدين بن سديد الدولة بن الانباري ، وولي ولده مؤيد الدين بن سديد الدولة ابو منصور موضعه بديوان الانشاء ، وزاد احترامه عند الخليفة ، وبقي الوزير في الحريم مقيما فحصل يدخل اليه جماعة من البذوية(١٢٢)

والعيارين ويترددون اليه ، فنفذ الخليفة وقطب الدين فاستحضراه من الحريم ، ورداه الى داره بدار الخليفة ورتبوا عليه من يجلس على بابه ، وبقي الى قطب الدين وشمس الدين النيابة وظهير الدين ابن العطار في المخزن .

وفي شهر ربيع الاول من السنة قصد الكرج أنه وحاصروها اياما واخذوها من الامير شانهشاه اخي شداد ونهبوها ونهبوا كل ما كان فيها ، ورتبوا فيها واليا من قبلهم ، وحصلت من ولاية الكرج .

وفي هذه السنة وصل الخبر ان ملك القسطنطينية توفي الى لعنة الله وأليم عذابه ، وتملك موضعه ولده خذله الله وأهلكه .

وفي آخر شهر ربيع الاول من سنة سبعين وخمسمائة وصل الى ميافارقين شاهنشاه اخو السلطان قليج ارسلان من الشام ، ونزل بالقبة التي لجده السلطان قرا ارسلان واقام يوما واحدا ، وسار الى اخلاط قاصدا الى شمس الدين اتابك الدكز .

وفي جمادى الاول مات القاضي علم الدين بن الطالقاني ، وهو ابو علي قاضي نصيبين ، وولي قضاء نصيبين والخابور ، وحران والرها ، وجميع تلك البلاد نظام الدين ولد شهاب الدين بن بهاء الدين الشهر زوري ، واستناب في نصيبين النظام ولد الرئيس ابي الفضل .

وفي هذه السنة ظهر كتاب حكم من بعض قرايا الموصل كان نفذ الى نصيبين ، واثبت من سنين ، ثم اثبت بعد ذلك بالموصل فظهر انه مزور اصلا ، وقبض والي الموصل على جماعة من الشهود والقاضي ، فوزنوا له مقدار عشرين الف دينار .

وفي جمادى الاول سنة سبعين وخمسمائة وصل صلاح الدين يوسف الى حلب ونازلها وضايقها وشدد على اهل حلب ، فقاتلوا قتالا شديدا ، وبقي عليها مدة ، ثم رحل عنها ، وسار وقصد حمص

ونازلها اياما . وفي رجب هاش اهل حلب على ابن عصرون ونهبوا داره وهدموا بعض المدرسة ، ومضى فاختفى عند الياروقية ، ونهبوا ما كان بقي من دور بني العجمي ، وقتل في تلك الايام جماعة كثيرة .

وفي الثلاثاء العشرين من جمادى الاول وصل الخبر الى ميافارقين ان في يوم الاحد ثامن عشر الشهر امر قطب الدين فقتل امين الدين الخادم التونتاش بماردين بين يديه في الدار بامر من سعد الدين بن الامير عميد الدين ، فضربه بخنجره في كتفه ، وضربه الحاجب الاخر بخنجر في جوفه ، فوثب الامير فضربه بسيف فرماه ، واحضروا المطبخي فقطع رأسه ، ورمى رأسه وخلفه تحت القلعة عند الباب ، ونفذوا في الحال والوقت بدر الدين أبي منصور وسعد الدين ومعهم رأس أمين الدولة وخاتم الامير الى سميساط والموزر والسبق فوصلوا وتسلموا الجميع ولم يعص عليهم موضع ، وحصلت البلاد جميعها بحكم قطب الدين ، واخذوا من امين الدين من الاموال والدواب والعدد والملبوس ماليس بالقليل ، واستدعى الشيخ ابو القاسم بن مهاجر الموصلي وكان مريضا ، فسألوه عن ماله فقال من أخذ كمران ؟ فاحضروا من أخذ الكمران ، فأحضروه وفتق وأخرجوا منه جوهر كثير وتذكرة فيها جميع ما يملك من مال ودار وملبوس وآلة وودائع وسمى فيها الموضع ، وماله عند ابن مهاجر مودوع بالموصل ، فأحضروا الحاجب اسماعيل بن أردم وكتب ابن مهاجر معه كتابا إلى داره وأخوته بالموصل ، وأن يسلم اليهم جميع ما كان عنده مودوعا ، فمضى إلى الموصل وتسلم جميع ما كان مكتوبا بخطه وأحضره إلى ماردين ، واعطي ولاية سميساط ، وسار فجلس فيها واليا ، واخذوا جميع ما كان له في جميع الاماكن وكان شيئا لاينحصر ولايعد ، وبقي الامير بماورين مدة ،ثم خرج فقصد ميافارقين ، فوصل إليها يوم سادس عشر جمادى الآخر ، ودخل قطب الدين قبل صلاة الصبح وجلس في القصر وكان وصله الخبر بوفاة ولد كان له في أخلاط عند خاله شاه أرمن، فجلس في العزاء وصعد اليه أهل البلد من القضاة والشهود والأعيان وحضر المقرئون والشعراء وأنشدوا وقرأوا وتكلم القاضي

بهاء الدين وبقي يفعل ذلك ثلاثة أيام، ودخل الصاحب نجم الدين ظهر ذلك اليوم والخاتون وجماعة العسكر والحاشية، وبعد ذلك بثلاثة أيام نهض الامير من العزاء وأقاموا بميافارقين ٠

وفي جمادي الآخر راسل عماد الدين ولد اتابك قطب الدين صلاح الدين ، فوعده بالجميل ، فعصا على أخيه سيف الدين غازي في سنجار ووقع الخلاف بينهما ، فخرج سيف الدين ونازل سنجار وحاصرها بعسكر كثير . ووصل عز الدين أخو سيف الدين الى ميافارقين وخرج قطب الدين والجماعة فلقوه ، ودخل الى المدينة ونزل في دار ابن موسك ، فلقي خاله الصاحب نجم الدين ، ولقي أباه وخلع عليه وعلى اصحابه ، وجردوا له عسكرا وسار جمال الدين صاحب حاني معه الى سنجار ونزلوا عليها واشتد القتال ، وبقوا عليها والقتال دائر ، كل يوم يقتل من الطرفين جماعة .

وفي رجب وصل الخبر ان ولد علي الدين بن دولت شاه بن الدانشمند عاد الى ملطية ، وكان قد ملكها بعد أبيه ، وبقي مدة ، ثم ان الاجناد هاشوا عليه وأخرجوه ورتبوا موضعه أخ له صغير ، فخرج منها ، وبقي يدور من موضع الى موضع الى الآن ، ثم انه دخل اليها في زي بعض المكارية وبين يديه جمل ، فدخل واختفى في دار هناك خراب الى الليل ، ثم خرج وقصد القلعة ، وكان له جماعة فصعدوه فهجم ودخل على أخيه وهو في الفراش نائم ، فقتله وملك الموضع ، واصبح فسمع الناس ، فصعدوا اليه واستقر بها وملكها ، وحصل له جميع ما كان لأبيه ، وتزوج بزوجة أخيه بنت فخر الدين .

ووصل الخبر في رجب ان في اوائل هذه السنة قصد البهلوان ولد اتابك الدكز خوزستان والاهواز ، ولقي الامير شملة ، وعملوا مصافا عظيما ، فقتل فيه شمله ، وانهزم العسكر والملك الذي كان مع شمله ، ولحق اخاه السلطان ارسلان شاه ودخل عليه واستجاربه ، فرده الى بلاده واقره عليها ، وحصلت خوزستان

والاهواز له ، وحصل تحت طاعة أخيه السلطان ارسلان شاه بن طغريل بن محمد .

واقام الامير واصحابه بميافارقين ووصل الخبر ان اتابك الدكز قصد الكرج فاقتتلوا قتالا عظيما وانهزم المسلمون وقتل جماعة واسر جماعة ، ونهب من المسلمين شيئا كثيرا ، وبقي أتابك مدة ثم جمع جمعا كثيرا وقصدهم فالتقوا في صحراء أو بين ، فما اختلط بعضهم ببعض ، ولا جرى بينهم قتال ، وعادت الكرج ولم يظفروا بشيء ، ودخل أتابك الدكز الى مدينة نقجوان هو وجميع العساكر ونفذ الى صاحب اخلاط وجماعة الامراء ليحضروا ويلقاهم والله يخذ لهم وهم الكرج .

وفي عشرين جمادى الآخر خلع الامير على القاضي بهاء الدين جبة وعمامة وطيلسان ونزل الى الجامع ، ونزل الجماعة بين يديه من الاجناد وغيرهم .

وفي شعبان خلع على جماعة من اصحابه واعطى كل منهم بوقا وعلما ، منهم الامير سعد الدين واقطع جملين والموزر لزين الحجاب أبو منصور بن العميد ، واقطع الموزر شمس الدين أخو هلدري القرطقي اقطاعا كثيرا للمهذب بن البابولي ، واعطى امارة الاكراد والازدلق ببلاد ماردين وشبختان واقام بميافارقين .

وفي رجب رحل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب بن شادي عن حلب بعد قتال شديد ، فنفذ اهل حلب الى الافرنج واستنجدوهم عليه ، واطلقوا من حلب جماعة كثيرة من الاقماص والروبس والبطارقةكل ذلك لينجدوهم على صلاح الدين ، فوصلوا الى صلاح الدين الى بلد حماه ، فعلم بهم ، فانفرج عن المخيم ، ثم جعل اكثر عسكره كمينا ، ورتب عسكره في المضيق الذي خرجوا منه عند حصن الاكراد ، ثم خرج باقي العسكر وناوشوهم ساعة ، ثم انهزموا بين ايديهم فطمعوا فيهم ولحقوهم ونهبوا بعض المخيم ، فخرج الكمين

عليهم فقتل خلقا لايحصى واسروا جماعة كثيرة وعاد اكثرهم منهزمين ، فطلبوا الطريق الذي جاء وا فيه ، فاخذوهم الذين قعدوا في المضيق بحيث لايفلت احد منهم البته الا فني الجميع قتلا واسرا وغنم صلاح الدين وعسكره منهم غنيمة عظيمة ، واقام صلاح الدين بحماه ، وقصد حمص ، فنزل على القلعة مدة وحاصرها وضايقها وتسلمها في رجب ، وحصلت حمص وحماه له ، واجتمعت عساكر حلب وماحولها جميعها بحلب ، وحضر صمصام الدين وعز الدين بن اتابك من الموصل ومعهما عسكرا كثيرا وراسلوا صلاح الدين يوسف وقالوا : لابد من المصاف ، فقال الى ان يخرج شهر رمضان ، فما الى القتال في شهر رمضان سبيل فبقوا على ذلك مدة ، وكان سيف الدين غازي قد احضر من نصيبين رأسا من رؤوس البذوية وامر بصلبه فصلب ، فهاشت البذوية ، وخرجوا من بلد الموصل ونصيبين وبلدها ، وساروا طالبين بالعدة الى صلاح الدين ، واجتازوا بالخابور ، فتبعهم خلق كثير من الخابور وطرف الفرات ، وعبروا فلما وصلوا الى قرية تسمى باب بزاعة على باب حلب ، وجميع من فيها اسماعيلية ، وبين البذوية والاسماعيلية عداوة عظيمة ، فلما اشرفوا بذلك الجمع صاح جميعم وكبروا فقتلوا منهم ونهبوا بعض مالهم ، واختفى منهم جماعة في مغاير لهم .

واتفق ان جماع من التركمان سمعوا بعبور البذوية فتبعوهم طمعا فيهم ، فلما وصلوا الى الباب ورأوا ماجرى شدوا جميعهم وصاحوا وصاحت البذوية على اهل الباب ، ونهبوا وسبوا منهم جماعة ، ودخلوا في المغائر ، فدخنوا عليهم وجلسوا على ابواب المغائر ، وكل من خرج منهم قتل ، وتلف اكثرهم في المغائر ، وسبوا النساء والاطفال واجتمع اليهم خلق كثير من منبج وبزاعة وجميع الذي حولهم الى باب حلب ، وقتلوا ونهبوا وسبوا منهم بحيث لم يبق منهم احد ، ومر الجميع تحت السيف والقتل والسبي ، ونهب منهم مالا يحصى ، وبقيت تلك الصحراء مدة لايستطيع احد يعبر من بين تلك الجيف ، ولقد حدثني جماعة من الواردين من الشام انهم كانوا

يعبرون وهم قتلى على كل ستين تسعين في موضع ، بعضـــهم فـوق بعض مثل الغنم ، وجرى عليهم مالم يجر على احد .

وبقي صلاح الدين على العاصي حوالي حماه ، واهل حلب كل يوم يذفذون اليه ويراسلونه وقالوا : لابد من المصــاف ، فقـال : الى ان يخرج رمضان ، فقالوا لانصبر ولابد من العناق ، ثـم انهـم رحلوا وقصدوه وهو نازل على العاصي على باب حماه ، فالتقوا يوم الاحـد تاسع عشرين رمضــان سـنة ســبعين وخمســمائة ، وكان عيد النصارى ، فلما التقوا شد عليهم صلاح الدين واصحابه وقصدوهم فانهزموا أقبح هزيمة ، فصعد صلاح الدين على رابيه ونادى : زنهار (١٢٣)من يضرب بسيف او يرمي بسهم او يقتل احد فخبز نور الدين عليه حرام ، فحصــلوا يضربـون الناس على اكتـافهم بــالرماح ويرموهم ويأخذون خيلهم وسلاحهم واسلابهم ، ونهب العسكر نهبا عظيما ، واسروا جماعة كثيرة ، فـأحضرهم صــلاح الدين بين يديه وخلع عليهم واطلقهم ، وعاد الناس الى حلب منهزمين مسـلوبين ، ودخل عز الدين اتابك الى حلب في خمسة نفر ، وبات صمصام الدين على باب حلب ، وسار فعبر الفرات ، ولقد حدثني رجـل راه عبـر الفرات ومعه اربعة نفر لاغير ، فعبر وسار ولحقه بعد ذلك اصـحابه الى دارا ، وبعد ايام ســار عز الدين الى الموصــل وعبـر الى اخيه سيف الدين وهو على سنجار يحاصرها ، وبقي صلاح الدين ايامـا بموضعه ، ثم رحل ونزل على تل الســلطان(١٢٤) والعساكر معه جميعها واقام الامير قـطب الدين بميافـارقين والجمـاعة الى يوم الجمعة ثالث عشرين رمضان ، واطلق المكس والعشر والمؤونة التــي كانت على باب المدينة ، من سائر الاشياء ، ونزل الخدم الى الجامع وقت الصلاة ، ودعا الخطيب على المنبر ، وضـج الناس بـالدعاء ، وكان يوما مشهودا ، فالله ســبحانه يطيل عمــره ، ويديم دولتــه ، ويلهمه العدل في رعيته وفعل الخير بمحمد وآله ، وفرح النـاس بـذلك غاية الفرح ، وزينوا البلد ثلاثة ايام ، ورســم وكتــب ذلك على بــاب المدينة اسقاطا ثـابتا ، وحصـلت التجـار ، واهــل البلد يدخلون باحمالهم إلى بيوتهم وقماشهم الى حـوانيتهم لايعــارضهم في ذلك

معارض ، واقام قطب الدين بميافارقين إلى يوم الأحد رابع شوال ، وسار إلى أخلاط وصحبتهم المؤيد والمهذب وجماعة من العسكر ، وأقام الصاحب نجم الدين بميافارقين حادي عشر شوال ، وسار إلى ماردين ومعه الخاتون والحجاب وباقي العسكر والحاشية والجماعة ، ولم يبق بميافارقين احد ، ووصلوا الى ماردين ، وبقي قطب الدين بأخلاط الى اوائل ذي القعدة ، وسار من أخلاط وعبر جور وحاني ، ولقي جمال الدين وعبرا لبازاربيلد ميافارقين الى ماردين ، ودخل المؤيد والمهذب الى ميافارقين ، وبقوا اياما ، وساروا الى ماردين .

وكان سيف الدين غازي منازلا سنجار هذه المدة كلها ، وبقي عليها إلى أوائل شوال ، ثم انه صالح أخاه عماد الدين ، واقطعه موضعا من بلد الخابور مجاور بلد سنجار ، ورحل عنها ، وعاد جمال الدين والعسكر الى ميافارقين ، وعبر الى حاني ، وكان اضطرب في سور ميافارقين مواضع ، فابتدي في نقض البدنة التي فوق الينبوع يوم الاثنين ثالث شعبان ، فنقضت إلى الارض ظاهرا وباطنا ، وتم النقض في ثاني شوال يوم السبت من السنة وابتدي في العمارة يوم الاثنين خامس شوال بسم الله اتمامه ، وتم البناء في تلك البدنة في شهور احدى وسبعين وخمسمائة .

وبقي صلاح الدين مقيما على تل السلطان والعساكر معه وراسل سعد الدين الخادم وحالف له ، وحالف لجماعة العسكرية ولجماعة من اهل حلب في شوال واصطلحا على ذلك ، ولم يدخل الى حلب ، والقى الملك الصالح وقبل الارض بين يديه ، وقال : انا المملوك والعبد ، انما جئت الى خدمتك ، واقام اياما ، واطلق بنو الداية ، واستقر الحال بينهم ان من حماه وحمص الى دمشق لصلاح الدين تحت يده، وهو تحت طاعة الملك الصالح ، وحلب وباقي المواضع تحت حكم سعد الدين والاكابر في خدمة الملك الصالح ، وحالفوا على ذلك الى اربع سنين الى ان يبلغ الملك الصالح ، وامره بالبلاد بما يراه .

وخرج صلاح الدين وقصد دمشق فدخلها ، وراسل الافـرنج وخـرج فنزل على رأس الماء (١٢٥) من بلد حوران ، وهو الان مقيم هناك .

وفي ذي القعدة عزم نور الدين قراآرسلان على العبور مـن حصـن كيفا الى خرتبرت ، فجفل بلد آمد منه وخافوا ، ولم يبق في الضـياع احد ، فلقد عبرت في ذي القعدة ببلد آمد سائرا الى الحامة (١٢٦) بجرموك وماالبلد احد والضياع فارغة ، فوصلت الى الحامة واقمـت بها اياما ، وسرت عنها إلى حـاني فـوصلتها يوم الخميس سـابع عشرين ذي القعدة ، وعبرت بدير الصليب(١٢٧) ذلك اليوم وأوائل عسكر فخر الدين قد عبرت ، وعبر يوم الجمعة ولم يؤذ أحـدا لابيلد آمد ولامن غيرها ، وسرت يوم السبت تاسع عشرين الى ميافارقين ، فوصلت يوم الاحد غرة ذو الحجة ، واقمت بميافارقين ثلاثة ايام .

ووصل الخبر من العراق أن قطب الدين قايماز صـاحب الخليفـة المستضيء بالله ، خرج على الخليفة ببغداد ، وجمع العسـاكر واغلق بغداد وابواب دار الخليفة اياما وحاصرها وضـج الناس مـن ذلك ، وصعد الخليفة فوق التاج وصاح بالناس ، فاجتمع خلق لايحصى من اهل بغداد فانهزم قطب الدين ، وخرج من بغداد ومعه عسكر عظيم ، وقصد الحلة ، حلة بني مزيد ، وكانت اقطاعه واقـام بهـا ، وبقـي الخليفة ببغداد ونهب العوام داركايماز وماكان فيها ، وخـربت الى الارض ، ومضى الى الحلة ، ونهب بعض الحاج ، وانكر ذلك ، وسار الحاج الى مكة ، وبعد ايام نفذ اليه الخليفة ، وامـره بـالخروج عن العراق ، فخرج من الحلة ، وسار الى الانبار ، وعبـر الى الرحبـة فوصلها ، واقام بها ، ونفذ الى دمشق يستأذن صـلاح الدين وروده عليه ، فلم يجبه الى ذلك ، وكتب اليه يقول : تقف موضعك حتى انفذ الى الخليفة واسأله واصلح عليك وتعود الى خدمته ، فبقي بـالرحبة مدة ومرض هو واصحابه مرضا شـديدا ، ومـات مـن اصـحابه ومماليكه جماعة كثيرة بالرحبة ، وبقي إلى ذي الحجة ، وسار مـن الرحبة الى الموصل ، فوصل الى سنجار وهو مريض مدنف ، وسار منها الى الموصل ومات بعلته ذلك اليوم بتـل يعفر (١٢٨) ،وحمل

تابوته الى الموصل ،فخرج سيف الدين والجماعة فلقوه ، ودفن بالموصل ، ووصل بعده خيله وبركه الى سنجار فنهبه جميعه عماد الدين صاحب سنجار ، واخذ كل ماكان معه ، ومات بعده من اصحابه جماعة بالموصل كثيرة ، ووصل الخبر الى الخليفة ، فبقي اياما .

وفي المحرم سنة احدى وسبعين وخمسمائة عاد الوزير أبو الفرج عضد الدولة بن رئيس الرؤساء الى الوزارة ببغداد ، وعاد الأمر اليه ، واستولى على الدولة ، وقبض على عز الدين الخادم ، وعلى بهاء الدين صندل ، وكان استاذ الدعر ، وقبض الخادم الزائلي على جماعة من الخدم ، واستقر في الوزارة ، وظهير الدين بن العطار في المخزن ، وكل منهما يضاد صاحبه ، وبقي الامر كذلك الى شهر ربيع الاول من السنة ، ومرض الوزير مرضا شديدا ، وعارضه فالج ، وانقطع في داره وحصل كل الامر الى ابن العطار ، ودست الوزارة بغير وزير وكان في ذي الحجة سنة سبعين انهزم ظهير المقرب شاه ملك وزير صاحب ارزن وبدليس من صاحبه ، واجتاز بحصن كيفا ، وعبر في بلد الطور (١٢٩)الى نصيبين ، وسار الى اربل ، واقام عند مجاهد الدين قايماز الخادم صاحبها ، وكان اخذ من ولاية ارزن وغيرها مالا عظيما ، ورتب أمين الدين نصر بن جبريل في الديوان مستوفيا بولاية ارزن وبدليس .

وفي المحرم سنة احدى وسبعين قصد اتابك الدكز ، والسلطان ارسلان شاه ، وشاه ارمن صاحب اخلاط ، وعساكر ديار بكر ، والبلهوان وولد الدكز ، ومعه عساكر اذربيجان وهمذان في خلق لايحصى ، ولاية الكرج ، واجتمعوا بباب نقجوان واخذوا بين ايديهم بلد كنجة ، وساروا في خلق لايحصى الى ان جاوزوا صحراء لوري ودومانيس ،وخرجوا الى اتشهر وهي مدينة نحل كاعاك وصحراء ترابليث ، فنهبوا تلك الولاية ، واخربوا الضياع وسبوا ما شيها وحرقوا الزروع ، ولم يبقوا في تلك النواحي عماره ، وجلس الملك في غيضة ...(١٣٠) وتحصن بها وما اليه طريق ، ولم يقدم ان يخرج

اليهم ، فبقوا اياما وعادوا اجمع .... والسلطان بدوين ، وعاد شاه ارمن وعساكر ديار بكر الى اخلاط ، ووصلوا في العشر من ربيع الاول ، ودخلوا الى اخلاط ، وزينوا البلد وكان يوما مشهودا واظهر اهل اخلاط من الاموال والزينة مالم ير مثله ببلد اخر ، وبقيت الزينة ثلاثة ايام ، وكنت في هذه الايام هناك ، ولما عاد شاه ارمن من المعسكر نفذ وزيره الموفق بن دشتق واميرا أخر رسلا الى نقجوان ، وبقوا عند السلطان والبلهوان واتابك اياما ، ومرض الموفق اياما وتوفي في نقجوان ، وحمل تابوته الى شهاب الحراني الصوفي واصحابه الى خلاط فوصل يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الاول سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وخرج كل في خلاط ، وكان يوما عظيما ، ولقوه ، ولقد شاهدت من اسف شاه ارمن واصحابه عليه مالم اقدر اصفه ، تردد الى التربة سبعة ايام غدوة وعشية وغلقت اسواق اخلاط ثلاثة ايام ، وبطلت النوبة (١٣١) يومين وطيب قلوب اولاده .

ورتب ولده مجد الدين محمد في الديوان ، وأخاه شمس الدين أبا الفضل امير حاجب والأمر اليه ، واستقروا على ذلك ، وبعد أيام وصل الخبر الى خلاط أن زوجة أتابك الدكز ووالدة السلطان ارسلان شاه توفت بنقجوان ، وجلس شاه أرمن بأخلاط في العزاء ، وغلقت الأسواق يومين .

كان في شهر ربيع الاول سنة سبعين وخمسمائة عبر بميافارقين الملك شاهنشاه اخو السلطان قليج أرسلان بن مسعود منهزما من اخيه ، وصعد الى أخلاط وقد ذكرنا ذلك أولا ، وسار من أخلاط الى أتابك الدكز ، وبقي عنده مدة ، وسار الى ملك الكرج ، فأكرمه وأحسن اليه ، وبقي عنده مدة ، وسار الى مدينة نجوم ، وركب منها في البحر الى القسطنطينية ، ودخل على ملك الروم واستجار به ، فأنزله وأكرمه ، ونفذ الى أخيه أن يرد عليه معيشته ، ولم يجبه الى ذلك ، وترددت المراسلة بينه وبين السلطان ، فلم يجبه الى

اي شيء مما طلب ، واتفق ان الأمير ذا النون بن الدانشمند لما أخذ السلطان بلاد عمه ياغي سيان ، ودخل الى ملك الروم استجار به ، فنفذ اليه رسالة وسأله أن يرد عليه بعض بلاد عمه ويكون في خدمته ، فلم يفعل ، وترددت الرسل بينهما في حق المذكورين مدة ، فلم يجبه الى شيء مما طلب ، فجمع عساكر الروم وخلقا لايحصى ، وخرج ومعه أخو السلطان وذا النون ، وعبر البحر واعتد في سبعمائة ألف فارس ومعهم فوق سبعين ألف عجلة ، وخرجوا الى ولاية الروم قاطع البحر وأقاموا هناك ، وبني مدينتين عظيمتين فجمع السلطان العساكر والتركمان ، وحصلوا يطرحون على جانب العسكر فينهبون ويقتلون ، ولايعلم الجانب الآخر ، فقتلوا منهم خلقا عظيما لايحصى ، ونهب منهم مالا لايوصف ،وخربت الولاية التي اليهم مجاور الاسلام ، وبنى الملك المدينتين وأخربهما وغرم من الأموال شيئا لايحصى ، وسبوا من تلك الولاية مقدار مائة ألف مملوك بحيث وصل السبي الى هذه البلاد والشام ونزل الى الموصل وبغداد مالا حد له ، وبقيت العساكر والملك على ذلك الى شعبان ، فدخل الملك الى البحر ، وبقيت العساكر وأخو السلطان وذا النون في هذه البلاد بلاد الملك من هذا جانب البحر ، وعسكر السلطان والتركمان كل يوم ينهب ويسبي موضعا وموضعا ، فبقوا على ذلك ولم يجر بينهم مصاف الى غاية شهر رمضان .

وكان في شهر ربيع الاول من هذه السنة صالح صلاح الدين يوسف بن نجم الدين الايوبي الافرنج وأطلق لهم جملة من الاسارى ، وأعطاهم عشرة آلاف دينار واشترط عليهم حمل غلات ديار مصر الى حلب والشام ، ويحمل الى دمشق من بلاد الافرنج لأنه ظهر في هذه السنة ببلاد حوران من الفار مالم يسمع بمثله ، فقطع أصل الغلات وأخرب الارض وأهلك ماكان فيها من الزرع ، بحيث كان الفارس يقف في حفر الفار وخرابه الى صدر الفرس ، وتلفت جميع الغلات ، فصالح الافرنج على حمل الغلات

مـــن ديار مصر الى دمشـــق ، وحضر جمـــاعة مـــن ديار مصر واخبروا ••• بمصر يســوى ســـبعة أحمـــال محملة بـــدينار مصري ، واثنا عشر حمـــلا ••• وخمســـة احمـــال عدس وحمص وباقلاء بدينار ، وهذا شيء لم يسمع بمثله ••• مـــن الزمـــان ••• فجعل الثمان عشرة على ذلك •••

وفي شهر ••• ومكه عساكره ••• في الشام وبقي ••• اياما بحران ••• ونفذ الى ابن فخر الدين يســـتنجدهما فنفـذ نور الدين ابن ••• الحاجب اسد الدين ومعه عسكره ، وسار من ••• صالح ولد نور الدين رحمه الله ، وسار الى حلب و ..(١٣٢) .

من المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي

ثم دخلت سنة احدى وتسعين واربعمائة

فمن الحوادث فيها :

انه في شهر ربيع الآخر كثر الاستنفار على الافرنج وتكاثرت الشكايات بكل مكان ، ووردت كتب السلطان بركيارق الى جميع الامراء يأمرهم بالخروج مع الوزير ابن جهير لحربهم ، واجتمعوا في بيت النوبة وبرز سيف الدولة صدقة فنزل بقرب الانبار، وضرب سعد الدولة مضاربه بالجانب الغربي ، ثم انفسخت هذه العزيمة ، ووردت الاخبار بأن الافرنج ملكوا انطاكية ، ثم جاءوا الى معرة النعمان فحاصروها ، ودخلوا وقتلوا ونهبوا ، وقيل: إنهم قتلوا ببيت المقدس سبعين الف نفس ، وكادوا قد خرجوا في الف الف .

وفي شعبان : خرج أبو نصر بن الموصلايا الى المعسكر الى نيسابور مستنفرا على الافرنج برسالة من الديوان .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

فمن الحوادث فيها :

اخذ الافرنج بيت المقدس في يوم الجمعة ثالث عشر شعبان ، وقتلوا فيه زائدا على سبعين الف مسلم ، وأخذوا من عند الصخرة نيفا واربعين قنديلا فضة ، كل قنديل وزنه ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنور فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، واخذوا نيفا وعشرين قنديلا من ذهب ، ومن الثياب وغيره مالايحصى ، وورد المستنفرون من بلاد الشام ، وأخبروا بما جرى على المسلمين ، وقام القاضي أبو سعد الهروي قاضي دمشق في الديوان ، وأورد كلاما ابكى الحاضرين ، وندب من الديوان من

يمضي الى العسكر ويعرفهم حال هــذه المصــيبة ، ثــم وقــع التقاعد ، فقال أبو المظفر الابيوردي قصيدة في هذه الحالة فيها :

وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحي مقيلهم
ظهور المذاكي او بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوان وأنتم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

الى أن قال :

وتلك حروب من يغب عن غمارها
ليسلم يقرع بعدها سن نادم

يكاد لهن المستجن بطيبة
ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم

ارى أمتي لايشرعون الى العدى
رماحهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولايحسبون العار ضربة لازم

اترضى صناديد الأعاريب بالأذى
وتغضي على ذل كماة الأعاجم

وليتهم ان لم يذودوا حمية
عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وان زهدوا في الأجر إذ حمي الوغى
فهلا أتوه رغبة في المغانم

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة

وفي هذه السنة خرج من الافرنج ثلاثمائة ألف فهزمهم المسلمون وقتلوهم ، فلم يسلم منهم سوى ثلاثة آلاف هربوا ليلا ، وباقي الفل هربوا مجروحين .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وأربعمائة

فمن الحوادث :

أن الافرنج اجتمعوا فحاربهم المسلمون فقتلوا منهم اثني عشر الف ، ورجعوا غانمين .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسمائة

فمن الحوادث فيها : أخذ الافرنج طرابلس

ثم دخلت سنة أربع وخمسمائة

فمن الحوادث فيها : انه وصل الخبر بأن الافرنج ملكوا الشام ، فقام التجار فمنعوا الخطبة في جامع السلطان ، فقال السلطان ، لاتعارضوهم ، وبعث عبيدا ومعهم ولد السلطان .

وخرج شيخنا أبو الحسن الزاغوني الى الغزاة ، ورافقه جماعة فبلغني انهم ساروا الى بعض الأماكن ورجعوا .

ثم دخلت سنة خمس وخمسمائة

فمن الحوادث فيها :
انه كان قد بعث السلطان محمد الى الافرنج الامير مودود في خلق عظيم ، فخرج فوصل الى جامع دمشق ، فجاء باطني في زي المكدين فطلب منه شيئا فضربه في فؤاده فمات .

ثم دخلت سنة سبع وخمسمائة

فمن الحوادث فيها :
الوقعة الكبيرة بين المسلمين والافرنج ، قتل من الافرنج الف وثلاثمائة ، وغنم المسلمون منهم الغنيمة العظيمة ، واستولوا على جميع سوادهم .

ثم دخلت سنة اربع وعشرين وخمسمائة

... ووصل الخبر بكسر الافرنج من دمشق ، وأنه قتل في تلك الوقعة عشرة آلاف نفس ولم يفلت منهم سوى اربعين نفرا .

ووصل الخبر بأن خليفة مصر الآمر بأمر الله وثب عليه غلام له ارمني ، فملك القاهرة وفرق على من تبعه من العسكر مالا عظيما ، وأراد ان يتأمر على العسكر فخالفوه ومضوا الى ابن الافضل الذي كان خليفة قبل المقتول فعاهد فعاهدوه ، وخرج فقصد

القاهرة فقتلوا الغلام الذي في القاهرة ، ونهبت ثلاثة ايام وملك ابن الافضل .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فمن الحوادث فيها :

... وجاء الخبر بفتح الروم بزاعة ، فقتلوا الذكور وسبوا النساء والصبيان ، وجاء الناس يستنفرون ، ومنع الخطبة والخطباء ببغداد وقلعوا طوابيق الجوامع ، وجرت محن .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فمن الحوادث فيها :

انه وصل الخبر يوم السبت خامس عشر جمادى الآخرة ان زنكي فتح الرها عنوة وقتل الكفار الذين فيها ، وذلك انه نزل عليها على غفلة ونصب المجانيق ، ونقب سورها ، وطرح فيه الحطب والنار فتهدم ودخلها فحاربهم ، ونصر المسلمون وغنموا الغنيمة العظيمة ، وخلصوا اسارى مسلمين يزيدون على خمسمائة .

ثم دخلت سنة احدى واربعين وخمسمائة

.... ووصل الخبر يوم الثلاثاء خامس عشر ربيع الآخر بأن ثلاثة من خدم زنكي الخواص قتلوه وقام بالامر ابنه غازي في الموصل ، وأكد الولاية ، وكان ابنه محمود في حلب .

ثم دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة

فمن الحوادث فيها :

انه وصل الخبر بأن ملوك الافرنج وهم ثلاثة انفس وصلوا الى بيت المقدس وصلوا صلاة الموت ، وانحدروا الى عكة ، وفرقوا الاموال في العساكر فكان تقدير ما فرقوا سبعمائة الف دينار وعزموا على قصد المسلمين ، فلما سمع المسلمون بقصدهم اياهم جمعوا الغلة والتبن ولم يتركوا في الرساتيق شيئا ، ولم يعلم اهل دمشق أن القصد لهم بل ظنوا انهم يقصدون قلعتين كانتا بقرب دمشق ، فلما كان يوم السبت سادس ربيع الاول لم يشعروا بهم الا وهم على باب دمشق ، وكانوا في اربعة الاف لابس وستة الاف فارس وستين الف راجل ، فخرج اليهم المسلمون وقاتلوا ، فكانت الرجالة التي خرجت اليهم سوى الفرسان مائة وثلاثين الفا فقتل من المسلمين نحو مائتين ، فلما كان في اليوم الثاني خرج الناس اليهم وقتل من المسلمين جماعة ، وقتل من الافرنج مالا يحصى ، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن زنكي الى حماه في عشرين الف فارس لنصرة صاحب دمشق ووصل اولاد غازي الى بالس في ثلاثين الفا فقتلوا من القوم مالا يحد .

وكان البكاء والعويل في البلد وفرش الرماد أياما . وأخرج مصحف عثمان الى وسط الجامع واجتمع عليه الرجال والنساء والاطفال وكشفوا رؤوسهم ودعوا فاستجاب الله منهم ، فرحل اولئك ، وكان معهم قسيس طويل بلحية بيضاء فركب حمارا أحمر وترك في حلقه صليبا وفي حلق حماره صليبا ، واخذ في يده صليبين ، وقال للافرنج :اني قد وعدني المسيح ان أخذ دمشق ولا يردني احد ، فاجتمعوا حوله واقبل يطلب دمشق ، فلما رآه المسلمون

غاروا للاسـلام وحملوا عليه بـأجمعهم فقتلوه وقتلوا الحمار ، وأخذوا الصلبان فاحرقوها.

ثم دخلت سنة اربع واربعين وخمسمائة

....ومن ذلك : أن محمود بن زنكي بن آقسـنقر غزا فقتـل ملك انطاكية ، واستولى على عسكر الافرنج وفتح كثيرا من قلاعهم .

ثم دخلت سنة اثنتان وخمسين وخمسمائة

....وكانت وقعـة عظيمـة بين محمـود بـن زنكي وبين الافرنج ، وفتح عسكر مصر غزة واستعادوها من الافرنج ، ووصل رسول محمود بتحف وهدايا ورؤوس الافرنج وسلاحهم واتراسهم .

ووصل الخبر في رمضان : بزلازل كانت بالشام عظيمة في رجـب تهدمت منها ثلاثة عشر بلدا ، ثمانية من بلاد الاسلام وخمسـة مـن بلاد الكفر اما بلاد الاسلام ، فحلب وحمـاة وشـيزر وكفـر طـاب وفامية وحمص والمعرة وتل حران ، وامـا بـلاد الافـرنج فحصـن الأكراد وعرقه واللاذقية وطرابلس وانطاكية ، فاما حلب فأهلك منها مائة نفس ، وأما حماة فهلكت جميعها الا اليسير ، وأما شيزر فما سلم منها الا امرأة وخادم لها ، وهلك جميع من فيها ، وأمـا كفـر طاب فما سلم منها أحد ، وأما فامية فهلكت وساخت قلعتها ، وأما حمص فهلك منها عالم عظيم واما المعرة فهلك بعضـها ، وأمـا تـل حران فانه انقسم نصـفين وظهـر مـن وسـطه نواويس وبيوت كثيرة ، وأما حصن الأكراد وعرقه فهلكتا جميعا ، وهلكت اللاذقية فسلم منها نفر ونبع فيها جوبة فيهـا حمـأة ، وفي وسـطها صـنم واقف ، وأما طرابلس فهلك اكثرها ، وأما انطاكية فسلم بعضها .

-٥٣٥١-

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

....وتوفي في هذه السنة محمود بن زنكي فتجدد بعد موته اختلاف بحلب بين السنة والشيعة فقتل من الطائفتين خلق ونهب ظاهر البلد فذهب خمسة آلاف خركاه وبيت من التركمان .

ذكر من توفي في هذه السنة من الأكابر

....محمود بن زنكي بن آقسنقر ، الملقب نور الدين

ولي الشام سنين وجاهد الثغور ، وانتزع من ايدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصن ، منها الرها ، وبنى مارستان في الشام انفق عليه مالا ، وبنى بالموصل جامعا غرم عليه ستين الف دينار ، وكانت سيرته اصلح من كثير من الولاة ، والطرق في ايامه امنة والمحامد له كثيرة ، وكان يتدين بطاعة الخلافة ، وترك المكوس قبل موته ، وبعث جنودا افتتحوا مصر ، وكان يميل الى التواضع ومحبة العلماء اهل الدين ، وكاتبني مرارا ، واحلف الأمراء على طاعة ولده بعده ، وعاهد ملك الافرنج صاحب طرابلس وقد كان في قبضته اسيرا على ان يطلقه بثلاثمائة الف دينار وخمسين ومائة حصان ، وخمسمائة زردية ومثلها تراس افرنجية ، ومثلها قنطوريات ، وخمسمائة اسير من المسلمين ، وانه لا يعبر على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة اشهر وسبعة ايام ، واخذ منه في قبضته على الوفاء بذلك مائة من أولاد كبراء الافرنج وبطارقتهم ، فان نكث اراق دماءهم ، وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال هذه السنة ، كانت ولايته ثمانية وعشرين سنة واشهرا .

ثم دخلت سنة اثنتان وسبعين وخمسمائة .

.... وجاء الخبر بنصر المسلمين على الافرنج في غرة جمادى الآخرة .

البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان

تصنيف

العماد الأصـــفهاني محمـــد بـــن محمـــد

(هو غير العماد الكاتب ، انما معاصر له)

سنة تسعين واربعمائة :

ـ نزل الفرنج على انطاكية ، وفيها كان الغلاء الكثير لا أعاده الله ، وفيها فتح قوام الدولة الرحبة ، وفتحت الفرنج سـميساط ، وفتـح الافضل بن أمير الجيوش دمشق . وولد الآمر بن المستعلي .

سنة احدى وتسعين واربعمائة .

ـ ملكت الفرنج الرها . والحدث ، ومرعش ، وكيسون ، وانطاكية ، وتسلم الافضل البيت المقدس .

سنة اثنتين وتسعين واربعمائة :

ـ اخذت الفرنج البيت المقدس والمعرة ، وخـطب لتتش بـالموصل ، وفيها نقل مصحف عثمان الى دمشق من طبرية ،وفيها تسـلم فـرنج الرها سروج ، وفيها توفي القاضي جلال الملك بطرابلس .

سنة ثلاث وتسعين واربعمائة

ـ فيها فتحت حيفا وفيها توفي عميد الدولة ابن جهير ، وابن جـزلة الطبيب ،

سنة اربع وتسعين واربعمائة

ـ احرقت رسائل اخوان الصفا ببغداد وقتل جماعة من الاسماعيلية بالمعسكر منهم عين القضاة الصوفي ، وفيها كانت وقعة نهر الكلب ، وفيها تسلم اتابك جبلة ، وفيها ملكت الفرنج قيسارية ، وفيها قتل سعد الدولة على عسقلان .

سنة خمس وتسعين واربعمائة

ـ جعلت البيعة الخضراء التي بتكريت جامعا ، وفيها توفي المستعلي خليفة مصر ، وكانت خلافته ثمان سنين وخلفه الآمر ، وكانت وقعة أنطرسوس وفيها نزل ابن صنجيل على طرابلس .

سنة ست وتسعين واربعمائة .

ـ مات جاسوس الفلك المنجم الحاذق وأبو المظفر الخجندي ، وفيها قتلت الاسماعيلية جناح الدولة بجامع حمص ، وفيها فتح دقاق الرحبة ، وفيها دخل الحاجب كمشتكين بعلبك .

سنة سبع وتسعين واربعمائة

ـ ولد تتش بن دقاق ، وفيها ملكت الفرنج عكا ، وفيها دخل الملك الياس الشرق ، وفيها مات الملك دقاق توفي سابع جمادى الآخرة ، وظهر في المغرب كوكب ابيض له ذؤابة من شرقة بعيدة عن الشمس نصف برج في الحوت طول ذؤابته مائة وخمسون ذراعا .

سنة ثمان وتسعين واربعمائة

ـ قران في برج الجدي ، وفيها ملك طغتكين دمشق ، وفيها تسلم بعلبك ورفنية ، وفيها قتل اياس غلام السلطان محمود ببغداد .

سنة تسع وتسعين واربعمائة

ـ استولى الملك رضوان على فامية ، وفيها مات يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، واستولى الملك طغتكين على بصرى وصلخد ، وفيها كسر سكمان بن أرتق بعساكر الشام الفرنج على ارتاح ، وفيها ظهر النجم المذنب ، وفيها توفي تتش بن دقاق .

سنة خمسمائة

ـ فيها قتل قليج ارسلان ، وفيهـا قتـل صـدقه بـن دبيس قتله السلطان محمد ، وفيها قتل سيف الدولة علي بـن سـالم صـاحب الرقة ، وفيها تسلمت الفرنج فامية من المسلمين ، وفيها تـوفي ابـن الشكوك ، وفيها ولد الشيخ محمد بن بري لخمس بقين من رجب .

سنة احدى وخمسمائة

ـ نزل الجاولي ببالس يوم الجمعة وفتحها بالسيف ونهبهـا لثمـان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ،وفيها سلم منصور بن جـوشن الى الملك رضوان الرقة واعطاه عوضا منها قلعـة الجسر وسـبعة آلاف دينار .

سنة اثنتين وخمسمائة

ـ سلمت الموصل لمودود ، وملكت الفرنج طرابلس وجبلة مـن ابـن عمار ، ومات ابن الحارث الخطاط واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين ، وفيها توفي الأمير بوري ، وفيهـا تـوفي غضـب الدولة ابق .

سنة ثلاث وخمسمائة

- تسلمت الفرنج بيروت .

سنة أربع وخمسمائة

- توفي قراجا صاحب حمص ، وتسلمت الفرنج صيدا ، ومات الوزير هبة الله بن الموصلي بحلب ، وفيها ملك صارم الدين جرجان .

سنة خمس وخمسمائة

- توفي ابو حامد الغزالي في جمادى الآخرة ، وعاش خمس وستين سنة .

سنة ست وخمسمائة

- تسلم أتابك صور من المصريين وفيها توفي علي كرد صاحب حماه ، وفيها قتل مودود بجامع دمشق قتله الاسماعيلية .

سنة سبع وخمسمائة

- وفاة الملك رضوان وملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان ،

سنة ثمان وخمسمائة

- كسر أتابك الفرنج على طبرية ، وفيها دخل أتابك صور ، وفيها غار طنطاش وعبر على قلعة جعبر وفيها توفي تاج الدولة الاخرس ابن رضوان وملك الخادم لؤلؤ حلب وفيها كانت زلزلة الاثارب وما حولها وخسفت سميساط ومرعش ، وفيها وصل جكرمش رسول السلطان الى دمشق ، وفيها سار أتابك نحو بغداد ، وفتح برسق حماه ،

سنة تسع وخمسمائة

- نزل أتابك على فامية ، وفيها قتل ابن بهيس بدمشق .

سنة عشر وخمسمائة

- احترقت النظامية وقتل احمديل صاحب اذربيجان ، وفيها خلع الخليفة والسلطان على أتابك ، وفيها رحل عن بغداد،وفيها توفي برسق ، وفيها هجم أتابك على حمص ، وفيها قتل الخادم لؤلؤ صاحب حلب بقلعة نيرحافر في الصيد قتله سنقر ، وملك بعده ابن الملحي حلب أياما ، وفيها قتل السلطان تبر ببغداد .

سنة احدى عشرة وخمسمائة

ـ قتل كامل بن مذقذ بشيزر ، وفيها نزل أتابك الى عسـقلان وخلع عليه خليفة مصر وفيها تـوفي الـسلار بختيار ، وفيهـا تـوفي الملك بردويل ، وفيها أخرب السيل سنجار ، وفيها كبس أتابك طبرية .

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

ـ تسلم إيلغازي حلب ، وملك الفرنج عزاز ، ومات المستظهر بـن المقتدي ، وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة اشهر وثـلاثة أيام وخلفه المسترشد ، وفيها كسر الفرنج بالسواد لأتابك دمشق .

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

ـ كسر سنجر لمحمود ابن اخيه ، وفيها انكسرت الفرنج على جبـل السماق .

سنة اربع عشرة وخمسمائة

ـ كسر السلطان أخاه مسعود ، وفيها توجه أتابك للقاء ايلغـازي ، وانتهب السلطان الحلة .

سنة خمس عشرة وخمسمائة

- قتل الافضل ابن أمير الجيوش بمصر ليلة عيد الفطر ، وفيها مات القاضي عماد الدين . ومات توفيق المهندس بدمشق . وفيها أحرقت الفرنج جرش . وفيها مات أبو محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات ، وفيها كسر الفرنج اتابك على تل حورين ، وفيها كسرت الفرنج ايلغازي .

سنة ست عشرة وخمسمائة

- مات ملك الخزر داود (١) وهو الذي فتح تفليس وكان له نظر عظيم في الاسلام وجرت له مناظرة مع القاضي الكنجي في الكلمة هل هي مخلوقة أم قديمة ، واكل القطا زرع الشام . وفيها كسر دبيس البرسقي ، وفيها توفي الحاجب فيروز . وفيها قبض المصريون على الامير مسعود سلار والي صور عن أتابك وتسلموا صور . وفيها توفي نجم الدين بن أرتق صاحب ماردين . وفيها تسلم سليمان بن عبد الجبار بن أرتق بعد عمه نجم الدين مدينة حلب . وفيها نزل الفرنج على بالس .

سنة سبع عشرة وخمسمائة

- فيها انكسر عسكر المصريين ، وفيها تولى المأمون بن البطائحي الوزارة بمصر وكان في ابتداء امره فراشا وشوهد في صغره وهو يرش بين القصرين ، وفيها توفي تميرك وفيها تسلم بلك قلعة حلب . وفيها توفي محمود بن قراجا ، فيها تسلم اتابك حماه .

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

ـ ملك البرسقي حلب ، وهبت ريح من أرض رصافة الى قلعة جعبر ، وفيها فتحت الفرنج صور وكان واليها عز الملك عم المأمون وزير مصر باعها بمال جزيل للفرنج ، وخاف من خليفة مصر فهرب الى دمشق ، فيها تسلم حسام الدين تمرتاش حلب بعد بلك ، وفيها قتل بلك على منبج بسهم نشاب ، وفيها مات حسن الصباح رئيس الاسماعيلية ، وكان رفيق الامام العارف أبي حامد الغزالي قدس الله روحه في قراءة بعض العلوم على بعض الفقهاء ، وفيها قتل القاضي الهروي وولده ببغداد ، وفيها توفي سليمان بن ايلغازي ، وفيها نزل سيف الدولة دبيس بن صدقة ومعه ملوك الفرنج على حلب ، وجاءهم البرسقي صاحب الموصل فرحلهم عنها ، وتسلمها وكانت الفرنج قد أشرفوا على أخذها لانها كانت قد خلت من الرجال والزاد ، ولم يبق فيها غير مائتين وستين رجلا ، وكانوا تحيلوا بالنساء ، وامهلهم الفرنج عشرة أيام فلما كان اليوم التاسع تشاور أهل حلب على انهم يخرجوا نساءهم ليلا ، فلما بعد العصر جاء مد عظيم في قويق ، وكان الفرنج نازلين عليه فأخذ خيامهم وجميع مالهم ، وغرق منهم جمع كثير ، ووصل البرسقي أول الليل وأصبح فقاتلهم فكسرهم . وفيها كان الغلاء .

سنة تسع عشرة وخمسمائة

ـ ومات ناصر الدولة بن طرخان الشيباني بحلب وهو دمشقي ، وقتل رافع البالسي داعي الخليفة بحلب ، وفيها قبض على المأمون بمصر وكان قد ارسل رجلا يعرف بابن الحسن نجيب الدولة رسولا الى اليمن ضرب له سكة وكتب عليها الامام المختار محمد بن نزار فقبض الآمر الخليفة عليه وعلى أخيه المؤتمن وعلى خمسة وثلاثين

نفسا معهم وصلبهم على رأس الطابية ، وفيها انكسر المسلمون ثم بمرج الصفر على ضيعة يقال لها شرخوب ، وقتل من أهل دمشق عشرون رجلا سوى الجند.وفيها نزل البرسقي على عزاز ، فرحله الفرنج عنها . وكسروه ، وقتل ذلك اليوم اولاد عامر النميري وعلي ابن صالح ، وفيها قتل محمود بن قراجا صاحب حماه على كفر طاب ، وفيها توفي علي بن سلام النميري .

سنة عشرين وخمسمائة

ـ فيها تسلم أتابك تدمر ، وفيها قتل البرسقي ، وفيها كان قران ، وفيها دخل محمد بن تومرت الى بغداد في طلب الفقه وقرأ على الامام العالم أبي حامد الغزالي قدس الله روحه عشرين مجلدا من جملته الوسيط ، والبسيط ، وتهافت الفلاسفة ، وفيها سلمت بانياس الى بهرام . وفيها توفي ابن بركات النحوي بعد استيفاء مائة سنة .

سنة احدى وعشرين وخمسمائة

ـ دخل أتابك الشهيد الموصل ، وفيها توفي مسعود بن البرسقي ، وفيها توفي شمس الخواص صاحب رفنية ، وفيها ملك مسعود بن البرسقي الموصل وأعمالها ونزل على الرحبة ، وفيها قتل حسن بن قرواش ، وفيها تسلم المختص الرحبة من حسن بن قرواش.وفيها استولى على الموصل والرحبة .

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

ـ فيها توفي اتابك طغتكين وملك ولده تاج الدولة وجلس الوزير ابـو علي بن المزدغاني ، وفيها تسلم شرف الدين الى حماه ، وفيها دخل اتابك الى حلب ، وملك ابن تومرت الجبل ، وقتل خواجا بهرام داعي النزارية بوادي التيم .

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

ـ قتل الوزير المزدغاني بدمشق وقتل معه من الاسـماعيلية مقـدار عشرين الف نفر سقيم وبري . وفيها كان قران المريخ وقلب الاسد . وفيها وصل الى الساحل اسطول الفرنج ، وفيهـا نزل الفـرنج على دمشق ووصل سوار ورسلان دغمش وكسروا الفرنج على دمشق .

سنة اربع وعشرين وخمسمائة

ـ خطب للسلطان محمود بألموت مقر ملك الاسماعيلية ، وقتل ابـن البيمند صاحب انطاكية ، وكان الرصد بظاهر بغداد بدار السـلطنة المدقق على الرصد محمود الراصـد وهبـة الله الاسـطرلابي أحـد منجمي بغداد وإلى غير بغداد ما نقـل ، وفيهـا قبض أتـابك زنكي بسونج بن تاج الملوك بوري ، وفيها قبض صمصام الدين خيرخـان صاحب حمص ، وصلخد وفيها قبض مكتوم بن حسان بن مسمار الكلبي لسيف الدولة دبيس بن صدقة ، استضاف به ، وسـلمه الى

تاج الملوك بوري فافتدى به عن ولده سونج أتابك زنكي ، وفيها قتل علي بن حامد ، وفيها تقلد الوزير محيي الدين الوزارة بدمشق ، وفيها قتل الأمر يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة في الجزيرة ، وكانت خلافته بمصر تسعا وعشرين ، وكان له ولد قد نص عليه بالخلافة واسمه أبو محمد قدس عليه الحافظ عبد المجيد رجلا اسمه ناصر الليثي ، ركاب دار الأمر ، فأخذه عنده ولم يظهر له خبر الى الآن بموت أو بغيره وجماعة من المصريين يقولون انه حي ويعتقدون فيه الامامة ، وفيها رحل أتابك عن حمص ، وفيها جلس الحافظ عبد المجيد بمصر فاعتقله أبو علي بن الافضل في خزانة ، وخطب القائم المنتظر سنة ونصف ، وجرت منه أسباب فأخفيت الا عن الله تعالى ، فأقام سنة وثمانية أشهر ، وقتله صبيان الخاص الذين كانوا للأمر ، واستوزر الحافظ بهزار الملوك .

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ـ فيها قبض تاج الملوك على الرئيس محيي الدين وقرابته ووثب الباطنية على تاج الملوك . وخرج الرئيس من الاعتقال ، ووزر له كريم الملك ، وفيها توفي السلطان مسعود، وفيها أخرج اتابك لابن صدقة من الحبس وعمل له بركا ، وساروا طالبين بغداد لحرب المسترشد ، فكسرهما الخليفة على تل عقرقوف ، وفيها ولد الملك الناصر يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان في الخامس والعشرين من جمادي الآخر بتكريت .

سنة ست وعشرين وخمسمائة

- وفاة عمر السلار بن بختيار ، وفاة تاج الملوك بوري من الجراح لان السكاكين كانت مسمومة وقام بعده ولده شمس الملوك ، وفيها فتح شمس الملوك بانياس ، وفيها وزر يانس للحافظ عبد المجيد وقتل من صبيان الخاص خمسمائة نفر وهرب الباقون الى الغرب ، وأقام تسعة أشهر ثم مات .

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

- نزل المسترشد على الموصل ، ورحل عنها عاشر ذي القعدة ، وفيها قبض نزار بن ربيعة ، وفيها توفي كريم الملك ، وفيها كسر أتابك زنكي لاولاد أرتق : داود وتمرتاش وأسر من رجالهم جمعا كبيرا ، وباع كل واحد منهم بكلب ، وفيها وصل رسول مصر بالخلع .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

- مات محمد بن تومرت وظهر عبد المؤمن وفيها مات أبو علي الحسن شيخ ابن عصرون ، وفيها قبض شمس الملوك على أخيه سونج وحبسه بين حيطين حتى أكل لحم كتفه ومات ، وخنق لدرا بن ربيعة ولولده في دار رضوان بقلعة دمشق ، وفيها تسلم أتابك زنكي البارعية من قرا ارسلان . وفيها سألت الاجناد الحافظ أن يجعل ولده الأمير حسن بينه وبينهم واسطة ، وأخرجوا حسن من القصر الغربي بغير اختيار الحافظ . وألزموه بأن يوليه ، فقال لهم :

رضيتموه؟فقالوا: نعم ، فكانوا في قوة ، فبقي تسعة اشهر ثم سلط السودان عليهم وكان لهم مقدم عبد يعرف بغلام الاجنادي فقتل عالما كثيرا من الجند وبدع فيهم وأخرجهم من دورهم وحشرهم في البرقية أياما ، واستولى السودان على القاهرة ، فخرج بعض الاجناد الى المحلة مستصرخا بالوالي ، وكان رجلا جيدا سليم الجانب الا انه كان ارمنيا باقيا على دينه يسمى تاج الدولة بهرام ، فانضوى اليه بعض العساكر واجناد الريف بذو قرة ، ووصل الى القاهرة واحرق باب القنطرة ، وباب الخوخة وباب السعادة ، وباب زويلة البراني ، والجواني ، وباب البرقية ، وركب السيف على السودان فقتل منهم خلقا كثيرا ، واما الامير حسن فانفق الذهب ، وكان يعطي الأسود فيخرج ويقتل ويؤخذ ما معه ، وقالت الاجناد للحافظ سلم الينا ولدك حسن فتمنع عليهم وعظم عليه أن يسلم اليهم ولده فسقاه سما وقتله ، ودخل الأجناد اليه خفية فجسوه بالمسل ، ووزر بهرام ،

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

- قتلت خاتون لولدها شمس الملوك قدامها وجعل يقول زنهار ، زنهار(٢) ، وهي واقفة عليه حتى قضى ، فجعلته في بساط ، وقالت للجند ادخلوا ابصروا سلطانكم ، واجلست أخا له صغير يعرف بشهاب الدين ، وانفذت الى الحاجب يوسف بن فيروز فأحضرته وسلمت اليه دمشق

فبقي مدة يسيرة واعترضه بزواش فقتله بخنجر كان في وسطه ، وتفرقت الأجناد فقوم مضوا الى بزواش ، وقوم مضوا الى منازلهم ، وكان أمين الدولة صاحب بصرى حاضرا قتلته ، وكان باطنيا جدا ، فخاف وتم هاربا على فرسه يتأدى بين وشاقين راكبين حتى وصل الى بصرى ونزل أتابك على دمشق وتقرر الصلح .

سنة ثلاثين وخمسمائة

- توفي شهاب الدين صاحب قلعة جعبر وملك ولده شرف الدولة . وفيها تسلم اتابك زنكي الرقة من زعيم الدولة مسيب، وفيها ظهر حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي الى دمشق في خدمة اتابك ، وفيها قتل الرئيس محيي الدين بن الصوفي ، وفيها كانت وقعة المسترشد والسلطان مسعود ، وقتل المسترشد ، وكانت خلافته سبعة عشر سنة وثمانية أشهر ، وخطب للراشد والمسعود بالحضرة ، ووصل مخلوعا ، وكانت خلافته سنة واحدة ، وفيها استولى تاج الدولة بهرام على ديار مصر ، وعزت طائفة الارمن ، وطمع أقاربه وأرادوا أن يغيروا الملة فخرج رضوان بن ولخشي من المحلة ، وحشد لواته وبني قرة المقطعين بالريف وهم خلق عظيم ، وحمل المصاحف على الرماح ، ووصل بهرام في عشرة آلاف فارس وراجل وطلب الصعيد ثم اتى أسوان ووزر رضوان بن ولخشي وقتل السبع الاحمر .

سنة احدى وثلاثين وخمسمائة

- استولى بنو الصوفي على رئاسة دمشق ، وفيها تقلد السلار زين الدين وأخوه عماد الدين شحنكية دمشق ، وفيها نزل ملك الروم على انطاكية .

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

– قتل الراشد وولي بعده المقتفي ، ومات شمس الدولة محمد بن خاروف ، وفيها رحل اتابك زنكي عن دمشق ، وفيها كسر شهاب الدين الفرنج ، وفيها قتل ابن البقش ، وفيها تسلم اتابك حمص ، وفيها سارت خاتون عن دمشق معه لما تزوج بها .

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

– زلزلت حلب والاثارب ،وخرج ملك الروم الى الشام ، وفتح براغة وسبا اهلها وأسر منهم مقدار عشرة آلاف نفس ، ثم رحل فجعلهم في خندق الاثارب يخرجوهم كل يوم يرعون في الباقلي الاخضر ، ورحل ملك الروم طالبا شيزر ، ونزل عليها ، فخرج سيف الدين سوار بن ايدكين في خيل من عسكر حلب فخلص الاسرى جميعهم ماخلا اليسير منهم ، خرج ضياء الدين حقوي من دمشق ، وفيها قتل شهاب الدين صاحب دمشق ، وجلس الامير بهرام شاه بعد أخيه شهاب الدين . وفيها وصل جمال الدين صاحب بعلبك وتسلم دمشق وفيها أخرج بهرام شاه أخاه من دمشق وهج في البرية ، وفيها دخلت خاتون بنت عضد الدولة الى دمشق ، وفيها تقلد ابو الكرم البعلبكي الوزارة بدمشق ، وفيها نزل أتابك زنكي على بعلبك ،وأمن أهل القلعة ، وحلف لهم ، ثم غدر بهم فقتل الجميع ، وكانوا ثلاثمائة وخمسين نفر .وفيها تسلم الملك زنكي بزاعة من الفرنج ، وفيها طلب رضوان بن ولخشي من الحافظ خليفة مصر جانبا من القصر يسكن فيه ، وجرت اسباب ، وثار عليه الاجناد وخرج هاربا الى الشام ، ونهبت دوره ، ووصل الى اتابك زنكي فأرسل معه الفي فارس وحشد عربان

- ٥٣٧٠ -

الحوف دومـا ، وجـذام وزريق ونزل على رأس الطـابية ، فـكسر العسكر ، وقتل خلقا عظيما ، ولم يدخـل الى القـاهرة فـأقام على الرصد ثمانية أيام ، ثم تفلل العسكر منه ، فعاد صـحبة العـرب ، وكتب الى الحافظ يطلب منه أمانا ، فـأمنه فلمـا حصـل في القصر مسكه وجعله في حجرة مكروما موكلا . وفيها تسلم اتابك حران مـن علي الكرجي

سنة اربع وثلاثين وخمسمائة

ـ كانت كسرة الزيتون قتل أتابك من أهل دمشـق عشرين ألف على تل الثعالب ، وفيها وفاة جمـال الدين وجلوس مجير الدين ، وفيهـا أغار أتابك زنكي على دمشق ، وفيها تسـلمت الفـرنج بـانياس ، وفيها استجار الزينبي بدار السلطان مـن خـوف ابـي عبـد الله المقتفي ، وكان قد اخرجه من وراء حائط وزوجه احدى بناته ، وغدر به وخطب بعد ذلك وهو في حالة الموت فاستشهد بيتـا مـن الشـعر وهو :

أتت وحياض الموت بيني وبينها
وجادت بوصل حين لم يذفع الوصل

ومات شرف الدين ابو العلاء قاضي الممالك ، وفيها تسـلم اتـابك بعرين .

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

- مات قراسنقر صاحب اذربيجان ومات ابن أفلح الشاعر وقاضي البيمارستان فيلسوف عصره وفيها نزل أتابك بمرج الزبداني ، ورحل الى البقاع ، وفيها خطب بجامع دمشق لاتابك ، وفيها دخل ربيع الاسلام أمين الدولة الى دمشق ، وفيها تسلم أتابك من ركن الدولة بهمرد ، وفيها كانت زلزلة بشيزر وأحرقت القلعة ، وكان صاحبها محمد بن منقذ حاضرا وأبوه وبنوه وبنو عمه واولاده فماتوا بجميعهم تحت الردم ما خلا خاتون زوجة الامير ، وفيها تسلم أتابك الموزر .

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

- وصل عز الدين أخو معين الدين الى دمشق ، وفيها دخل ظهير الدين دمشق ، وفيها توفي سني الدولة الكاتب الخياط ، وفيها كانت شرقي الفرات مطر ورعد ورمل ونزل مع المطر حيات وعقارب وضفادع ، وفيها مات شرف الاسلام عبد الوهاب بن الحنبلي ، وفيها ولد الملك العادل ابو بكر بن أيوب

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

- وفاة ملك الروم بانئة قتله خنزير في الصيد وكان معه ولده منويل ، ومضى على وجهه من انئة مع جماعة يسيرة الى القسطنطينية ، وفيها كبس سيف الدولة سوار الفرنج بكبسة فاطلع جسر الحديد وأخذ كند اصطبل.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

ـ فيها ولى الصالح طلائع بن رزيك بحيرة اسـكندرية فخـرج عليه لواتة فاعتصم بدمنهور الوحش ، ونصره الله عليهم فقتل محمد بن رافع اميرهـم وعلى بن المحجـب ، وفيهـا كان الغـلاء بمصر وبلغ القمح الديوكي ويبة ونصف بدينار وكانت سنة صعبة .

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ـ فيها نزل ابو الحسن عم الحـافظ الى صـاحب بـابه وقـال له تجعلني الخليفة؟فقال:ياعم لا تخف انت في امان الله وخـلاه مـوكلا عليه كغيره من الاقارب ، وفيهـا خـرج الرئيس مـؤيد الدين بـن الصوفي الى صرخد ، وفيها خرج كوكب الذنب ، وفيها خـرج مـؤيد الدولة من دمشق وأرسل الى معين الدين القصيدة التي اولها .
ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا .....

وأخرج ايضا الوزير البعلبكي ، وفيها نزل اتابك على الرها وفتحها بالسيف ، وفيها تسلم سروج من الفرنج ، وفيهـا نزل على البيرة ، وفيها مات تاشفين بن علي بن يوسف بـن تـاشفين ، ومـات داود وولي بعده فخر الدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا .

سنة اربعين وخمسمائة

ـ فيها ذقب رضوان بن ولخشي قصر مصر ، وخرج فقدم له فـرس فركبها ، وخرج من القـاهرة ونزل الجيزة على أمير مـن لواتـه ، واستنجد به فجمع له المغاربة والعرب ، وحشدوا ودخل الى القاهرة

فدس عليه فقتل في الجامع الشرقي بالركن المخلق ، وبعد ذلك خرج رجل آخر على الحافظ بالمغرب ادعى انه ابن نزار ، وكان كذابا فاخرجت اليه العساكر الى الحمامات ، وعادوا ، ثم انه بعد ذلك قتلته العرب واحضروا رأسه ويده اليمنى الى الحافظ ، وفيها فتح عبد المؤمن مراكش وكان البربر اصحاب محمد بن تومرت يأخذون الصبي الصغير فيذبحوه ،فقتلوا على هذه الصفة خلقا كثيرا وفيها توفي امين الدولة بدمشق ، وفيها نزل أتابك زنكي على قلعة جعبر

سنة احدى واربعين وخمسمائة

ـ ملك سيف الدولة غازي اتابك الموصل ، وملك نور الدين محمود ابن أتابك حلب ، وفيها وزر جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني المعروف بالمكرم لصاحب الموصل ، وفيها نزل معين الدين على بعلبك ، وفيها وصلت زمرد خاتون الى دمشق وحملت الى الجناح ، وفيها نزل معين الدين ومجير الدين على بصرى وصرخد ، وفيها سرق الفرنج الرها من المسلمين وأقاموا يحاصروا المطيعان وحصن ابن عطير يومين ، وأخذوا من كان فيه من اليهود والنصارى والمسلمين ، وطلعوا بهم سميساط ، فاجتمع عليهم عساكر المسلمين ومقدمهم سيف الدين سوار بن ايدكين فخلص الامم جميعهم وقتل منهم خلقا عظيما ، وفيها أحرقت بنو لام والشرفاء قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقتل عليه من المسلمين خلق كبير ، وفيها خرج بختيار طالبا للوزارة فانفذ اليه رجلا من لواته يعرف بسليمان بن يونس وتوجه الى الصعيد فاخذه وانفذه الى القاهرة فقتله الحافظ .

سنة اثنتين واربعين وخمسمائة

- كسرت الفرنج على الميدان ، وفيها تسلم معين الدين بصرى وصرخد . وفيها دخل نور الدين دمشق مع معين الدين . وفيها دخل معين الدين أنر الى دمشق . وفيها وصل ملك الفرنج الى أنطاكية . وفيها اجتمع مجير الدين ونور الدين ، وفيها تسلم نور الدين باسوطا ، وتسلم سيف الدين غازي حمص ، وفيها كسرت الفرنج نور الدين على يغرى . وفيها أخذت زعب وبنو حارث ، وبنو سنبس ، وقحطان حاج العراق والشام ، وهلك خلق كثير من الناس ، وفي تلك السنة أنزل الله عليهم وباء مات جميعهم وجميع عبيدهم ومواشيهم .

سنة ثلاث واربعين وخمسمائة

- فيها توفي جمال الدين بن الصوفي . وفيها كسرت الفرنج وقتل صاحب أنطاكية على إنب وأخذ نور الدين راس البرنس ضببه بفضة وبعثه الى السلطان ، وفيها نزل ملك ألمان على دمشق وخيم بقرب باب الجابية ، وكان في خلق عظيم يكون مقدار أحد عشر الف انسان وكان بدمشق ناس قلائل من الجند ، ولكن كان لهم سطوة وشجاعة مثل أنجق وطرلجق وبلق ومجاهد الدين بزان والذي غير الخواص والحرامي والنابلي والنصاروا والديوي والسليماني وغيرهم ، فحلفوا بالطلاقات أنهم لايغلقون بابا بدمشق ليلا ولا نهارا ولايحمل أحد منهم الا ويوصل الطين ، ثم إن الفرنج ثاني يوم شربوا وصلوا الصلاة للموت ، وركبوا جميعا وقدامهم قسيس راكب حمارا بين يديه الانجيل مفتوح ، وفي يده صليب ، وجعل يسير قدامه الى أن وصل إلى آخر القنوات قدام باب الجابية فضربه رجل يقال له كبل بن الدورسي بياسج (٣) في صدره فوقع وحمل عليه

رجل يقال له ابن خمار ، فطعنه وهو على الارض ، فرجعت الفرنج القهقرى ، وقتل أهل دمشق منهم خلقا عظيما ، ثم رحلوا في اليوم الثالث وهو يوم الاربعاء وكان نزولهم يوم الاحد لعنة الله عليهم . وفيها زاد نيل مصر حتى بلغ تسعة عشر ذراعا واربع اصابع وبلغ الماء الى الباب الجديد ، وفيها ولد العاضد .

سنة اربع واربعين وخمسمائة

ـ وفاة الحافظ خليفة مصر ليلة الاحد لخمس باقين من جمادي الآخر ، وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة ، وجلس الظافر ، وفيها توفي تاج الدولة قرواش بن شرف الدولة ، وتوفي سيف الدين غازي وتولى قطب الدين مودود ، وفيها وزر ابن مصال للظافر خليفة مصر وأقام شهورا ، وخرج عليه العادل بن السلار فهرب الى الصعيد ، وجمع فخرج عليه عباس والصالح فكسراه على دلاص ، وفيها تسلم نور الدين فامية ، وفيها مات معين الدين ، وفيها كانت الفتنة بدمشق وهربت السلارية ، وفيها نزل نور الدين دمشق وتقرر الصلح معه ، وفيها كسر نور الدين صاحب انطاكية على تل كشفهان واخذ ملوكهم في صفر . وفيها تسلم حارم وفامية من الفرنج ، وفيها نزل مسعود بن قليج أرسلان على مرعش وأخذها بالسيف من الفرنج وفيها توفي غازي أتابك ، وملك أخوه قطب الدين مودود ، وفيها أخذ التركمان جوسلين وسلموه الى نور الدين .

سنة خمس واربعين وخمسمائة

ـ خرج مجير الدين ومعه مؤيد الدين بن الصوفي ولبس خلعة نور الدين ، وفيها تقلد مجاهد الدين الشحنكية ، وفيها توفي بهاء الدين عبد الملك بن عبد الوهاب الحنبلي ، وفيها نزل نور الدين على

دمشق ، وتسلم من الفرنج قورص والراوندان ، وفيهـا تسـلم الملك مسعود بهسنا ورعبان والمرزبان وقونية وكيسون من الفرنج ، وفيها تسلم نور الدين تل باشر وأعزار .

سنة ست واربعين وخمسمائة

ـ تسلم نور الدين حمص من ابن أخيه ، وتسلم الملك مسعود قونية وعين تاب ، وفيها قويت شوكة العادل ابن السلار بمصر وكان يقال له دماغ البغل ، وقيل إنه كان من صبيان الحجر في أول أمره ، وأنه على صبا ه ماعرف له صبوة ولا ضحك في مجلس ولا يخالط لأحـد كان سني المذهب ، وفيها وفاة القاضي ابن أبي الحـداد الخـطيب بدمشق ، وفيها طلع ذو ذؤابة من المشرق .

سنة سبع واربعين وخمسمائة

ـ مقتل عباس ببغداد ، وفيها مات العبادي الواعظ ، وفيهـا تملك عبد المؤمن على ولاية بنى حمـاد . وفيهـا أكل الجـراد بـالموصل والجزيرة ودمشق ومكث سبع سنين وقحطت ديار بكر ، وفي أخـرها قتل العادل بن سلار الوزير بمصر قتله ابـن عبـاس في داره وجلس عباس في الوزارة ، وفيها توفي السلطان بخراسان .

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ـ أخذت الفرنج عسقلان ، سلمها اليهم عبـاس وزير مصر صـحبة الأمير تميم ، وقتـل زين الدين الرئيس وابتلي أهله ، وفيهـا قتـل

الحاجب عطا الخادم بدمشق ، وفيها عزل مؤيد الدين بن الصوفي عن الرئاسة ، وفيها تقلد ابن القلانسي الرئاسة بدمشق . وفيها هجمت الفرنج تنيس في خمسين مركبا فأخذوا جميع من فيها من الأقوياء وقتلوا الضعفاء وغنموا من الأموال مالا يوصف .

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

- فتح نور الدين بن زنكي دمشق ، وفيها وقع الحريق ببغداد في دار الخليفة بصاعقة . وفيها نزل الظافر خليفة مصر مع ولد عباس الوزير الى داره ليلا ومعه خادما صغيرا على سبيل الدعوة وان ولد عباس غدر به فقتله ، وقتل الخادم الصغير ، ورمى بهما في بئر ، وجرت بينهما أسباب ، وذلك ان ابن عباس كان من اجمل الناس ، وكان الظافر قد اتهم به وكان ينزل عنده في كل دعوة فكثر الحديث فيهما ، فقال له ابوه افضحتنا يا ولدي فطلع الى القصر وحاف عليه وقتله ، وظهر بعد ذلك وقيل ان عباسا طلع الى القصر فأحضر الخدام اليه فقال لهم : أين مولانا ؟ فقالوا : ما نعلم،فجمع الخدام ونصبوا له كرسيا وجلس عليه وقتل جماعة الاستاذين ، واحضر أخوة الظافر فقال لهم اين الخليفة فقالوا:ما أنت تعلم اين هو ، فأمر بقتلهم فقتلوا واستحضر ولد الظافر واسمه أبو القاسم عيسى ، وبايعه وقال له قاتل الله قاتل أبيك ، فكانت دعوة مستجابة ، ولقب بالفائز بنصر الله ، وكانت خلافة الظافر خمس سنين ، ثم هرب عباس وولده من القاهرة لما علم بحركة الصالح طلائع بن رزيك من ولايته وقصد عباس وولده الشام ، فمسكهما الفرنج بين الورادة والعريش ،وقتل عباس بايديهم وبقي ولد عباس عند الفرنج فنفذ الفائز اشتراه منهم بمائة ألف دينار واحضر من بلاد الفرنج الى القاهرة وعذبوه باشد العذاب ، وقتلوه ، واستوزر الصالح بن رزيك وظهر الظافر مقتولا ودفن بالقصر ، وفيها وردت مراكب من صقلية نهبت تنيس ، وفيها مات مؤيد الدين بن الصوفي

سنة خمسين وخمسمائة

- يقال ان الفائز حضر قتل عمومته ، وقتل الاستاذين ونهب الامراء الستور والتعاليق فلحقه من ذلك رجفة ، وافضت به الى الصرع ، وصار ذلك يأخذه في بعض الاوقات لصغره ، وبهذا المرض مات . وذكر انه لما نظر الفائز الى ولد عباس عند وصوله من الشام بين يديه في القفص قال لعمته ست القصور : ياعمة هذا قاتل أبي ؟ قالت: نعم ياأمير المؤمنين ، قال: واين قتله ؟ قالت في داره . قال: ولم ينزل من قصره ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، نجوه مما هو فيه من العذاب بالقتل ، فأخرجوه وصلبوه ، وفيها تسلم نور الدين عين تاب من السلطان مسعود ، وفيها زلزلت شيزر وخربت ، وفيها مات أبو الحكم الطبيب الاندلسي بدمشق ، وكان عالما شاعرا ظريفا .

سنة احدى وخمسين وخمسمائة

- خطب لسليمان شاه ببغداد ، ومات ابن نيسان بآمد ، وولي ولده أبو القاسم علي جمال الدولة ، وفيها كانت الزلزلة واخربت حماه ، وفيها كسرت الفرنج لنور الدين محمود بن زنكي على الحولة . وفيها كان الغلاء الصالحي ، وكان مدته سبعة اشهر .

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

- قبض زين الدين علي كوجك على سليمان شاه في دربند ابن القراملي ، واجتمع هو ومحمد شاه ورجعا الى حصار بغداد وضايقوها . وفيها استولت الغز على خوزستان ، وفيها اسر سنجر

وانقطعت خطبته ومات في ايدي الغز ، وفيهــا فتــح عبــد المؤمـــن المهدية ، وفيها مات الفائز الخليفة وكانت خلافته اربع سنين وخلف العاضد ابن عمه ، وفيها مات ابن منير الشاعر والقيسراني ـ ولد خالد ، وفيها كسر نور الدين الفرنج ، وفيها تسلم شــهاب الدين محمد بن نجم الدين البيرة ، وفيها تسلم نور الدين شيزر ، وفيهــا توفي صلاح الدين صاحب حمص وملك ولده ، وفيهــا نزلت الفــرنج على شيزر وسبوا اهلها وقتلوا خلقا عظيما ، وكان متــولى شــيزر مجد الدين ابو بكر بن الداية ، وفيهــا ســلم نور الدين ، الى أخيه نصير الدين حران .

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

ـ استولى الغز على خراسان ونهبوا مرو وســألوا عن نخــائر سنجر وفيها مــات صــدر الدين بــن عبــد الطيف الخجندي رئيس أصفهان ومفتيها ، وفيها تسلم نور الدين مدينة حارم وفيها خــرج ملك الروم الى الشام ووصل الى البيرة ، وفيها تســلم ملك الفــرنج حارم ، أقام عليها اثنين وعشرين يوما يحاصرها ، وفيهــا تــوفي امير جندار وولي ولده اسحاق ، وفيهــا خــرج الأمير تميم المصري على الصالح بن رزيك من مدينة اسيوط فانفذ اليه عسكرا فقتلوه .

سنة اربع وخمسين وخمسمائة

ـ مات شرف الدين بن صدقة ،ووصل زين الدين علي وجمال الدين الى دمشق ، وفيها وصل نصير الدين الى قلعة جعبر نزل بالغروب يريد العبور وعبر بعض عسكره ، وفيها وصلت عساكر المسلمين الى خدمة نور الدين ، ووصل الى خدمته قطب الدين وعلي كوجــك وداود ابن ارتق ونزلوا بالبيرة وأرسل نور الدين لملك الروم تقرر الصــلح

على ان يطلق نور الدين ابن اخت ملك القدس وثلاثين فـارسا ، وأن يحمل ملك الروم الى نور الدين سـتين الف دينار وفـرجية لولو وسبعمائة أسيرا ومائتي ثوب أطلس ، ورحـل ملك الروم . وفيهـا تسلم نور الدين من نصرة الدين حران ، وفيها تسلم نور الدين مـن اسحق بن مبارك الجندار الرقة .

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

- فوض الامر بدمشق الى القاضي كمال الدين بـن الشـهرزوري ، وفيها مات المقتفي وكانت خلافته ثـلاثا وعشرين سـنة وشـهرا . وخلف المستنجد ، ثم غرقت بغداد ووصل الماء الى قبلة جامع بغـداد وتساقطت جميع العمارة وفار الماء من البلاليع . وفيها أخرج قـطب الدين صاحب الموصل سليمان شاه من الحبس لما سمع بمـوت أخيه وحمل له بركا ، وسيره واستخلفه على ما يريد .

سنة ست وخمسين وخمسمائة

- فتح عبد المؤمن مدينة المرية ، وقتل من الفرنج مالايحصى ، وفيها هم الدكز بحصار بغداد فأمر المستنجد وزيره عون الدين ابن هبيرة أن يكتب الى ملك الخزر بأن يخرج الى مدينة دوين المسـماة بـدبيل فخرج وفتحها عنوة وقتل عالما من المسلمين ورجـع . وفيهـا قتـل طلائع بن رزيك الوزير بمصر وكانت عمـة الخليفـة قـد كمنت له في دهليز باب الذهب عدة رجال من السودان فاختفوا في حجرة في دهليز القصر وردوا عليهم طرف الضبة فتغلقت ولم يشـعر فلمـا سـلم الصالح وخرج وثب اليه رجلان فقال له الحسين الواسطة:ياطـلائع جاءوك . فصاح عليهم فضربه رجـل منهـم يعـرف بـابن الراعي ضربتين وارمي أمير يعرف بابن الزبير نفسه عليه فمشى السـودان

على ظهره ، ودخل الأمراء خلصوه فلما ركب وشدوا جراحه فتطلعت ست القصور رأته راكبا فقالت رحنا . فبقي ليلة ومات ودفن في دار الوزارة ، وكانت مدة وزارته اربع سنين وست شهور وعشرة أيام ، وقام مقامه ولده رزيك ، فلما استقل بالأمر بعث وطلب العمة من أهل القصر فسلمت اليه فخنقها بمنديل رومي قدامه ورثاه العرقلة بقصيدة من جملتها :

ناعي ابن رزيك لاحييت من ناعي
ولا برحت بأرض غير جعجاع

أين الذي كان يحمي آل فاطمة
يوم اللقاء ويعطي المال بالصاع

لانجحت بكم في الارض ناجحة
ولا رعيتم يابنى الراعي

وكانت سيرة وزارته حسن السير ، وكان فاضلا شجاعا كريما شاعرا ، وفيها تسلم نور الدين من سيف الدين بن مجاهد الدين صرخد ، وفيها حج أسد الدين شيركوه ، وفيها أغار ملك الفرنج على عين تاب وأخذ من الترك خلقا عظيما ، وعاد يريد انطاكية فوصل مجد الدين ومعه عسكر حلب فكسر الفرنج ، وأسر ملكهم ابرنس آرناط ، وخلص جميع ماأخذه ، ولم يدخل انطاكية من الفرنج الا قليل .

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

ـ مات ذو النون صاحب ملطية ، وفيها مات الخادم القصي .

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

ـ خرج شاور على رزيك بن الصالح فأرسل اليه عز الدين حسام ، فنزل على دجوه عند صلاة الظهر فلم يبق معه أحد فرجع وأما رزيك فانه خرج من القاهرة مع عمه فارس المسلمين وسيف الدين حسين فردهما واستجار برجل من العرب يعرف بابن البيض فأنزله عنده ، ووشى به الى شاور ، وان شاور ،قال له:ويلك قد كان لهم اليك سابقة خير فما دعاك الى تسليمه الينا وأمر ابا الهيجاء والي القاهرة فضرب عنق البدوي ، وصدق شاور قد كان لهم عليه منن وصنائع فمسكه وسلمه الغلام لشاور ، فأحضره الى شاور فاعتقله عنده ودخل عليه ولده المسمى بطيء فقتله ، ثم ان ضرغام خرج عليه لطلب الوزارة وأخرجه من القاهرة هاربا ، فأحضر ولده طي الى ضرغام فلعب عليه في دار سعيد السعداء ، وفيها استدعى ضرغام الوزير امراء مصر وأوهمهم انه يخلع عليهم وكان عدتهم اربعين أميرا فضرب رقابهم وخرب ديارهم وهتك حريمهم . وفيها خرج شمس الخواص أحد أمراء الاسكندرية طالبا للوزارة من الاسكندرية وكان واليا عليها فظفر به ضرغام الوزير فأركبه جملا وطوف به ثم صلبه على باب زويلة وذشبه ، وفيها ظهر عبد المؤمن صاحب المغرب ، وفيها راح نصرة الدين الى عند ملك الفرنج من عند قليج ارسلان ، ورجع الى أخيه نور الدين محمود ، وفيها وصل غازي من عند نور الدين ، وفي هذه السنة دخل شاور دمشق يستنصر الشهيد نور الدين بن زنكي

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

- توجه اسد الدين شيركوه الى مصر مع شاور بعساكر الشام والسلطان يومئذ نور الدين محمود فملك مصر ، وقتل ضرغام ، ثم غدر شاور بأسد الدين وكاتب ملك الفرنج فأتاه بسائر عسكره وأهل الساحل فخرج أسد الدين الى بلبيس فحاصرته الفرنج ستة أشهر وقتل بهاسيف الدين بن بزان مجاهد الدين ثم انه بحسن الاتفاق وسعادة البخت نصر عليهم . وفي هذه السنة كسرت الفرنج لنور الدين على البقيعة تحت حصن الاكراد بكبسه ، وقتل الامير عزيز بن مظفر الكردي وجماعة من الامراء ، وفيها وصل عسكر الموصل فنزل على حارم مع نور الدين وحاصروا حارم ووصل نصرة الدين الى أخيه وفيها كسر عسكر نور الدين الفرنج على حارم وقتل وأسر منهم ثلاثين الف انسان واخذ جميع ملوكهم وأخذ حارم وبانياس ، وفيها ورد الخبر بموت عبد المؤمن وقام بعده ولده ابو يعقوب ، وفيها توفي ابو طالب ، وفيها شرق نصرة الدين من عند نور الدين حردان الى صاحب حصن كيفا ، وفيها مات جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني وهو المعروف بالمكرم وحمل تابوته الى مكة ودفن بها ، وفيها مات عون الدين بن هبيرة .

سنة ستين وخمسمائة

- فيها ركب شهاب الدين صاحب قلعة جعبر نصف الليل يريد الشام ، فأصبح بأرض يقال لها الذورة ، فخرج عليه سابق الدين صاحب بالس ، وكان مالك قد فرق عساكره ، فانهزم وترك سيفه رهنا عندهم ، وركب معه بعض التركمان الى أن وصلوا الى الرصافة وأخذ معه من أهل الرصافة خفيرا ، فوصل الى قلعته وقدم له بكرة حصانا واكديش . وثياب عتابي ، وفروة سنجاب ، وقدم

له شهاب الدين مالك فرسا ادهما وخمس خلع ، وطلب منه قرية يقال لها عكين ، فوهبها له ، ومضى سابق الدين ، وفيها توفي نصرة الدين بحصن كيفا ، وفيها باع نور الدين البرنس صاحب انطاكية بمائة ألف دينار وخمسمائة أسيرا ، وفيها تسلم نور الدين من إينال حمص وسلمها الى غازي ابن أخيه وسلم الرقة الى إينال عوضا عن حمص ، وفيها عصى أهل الرصافة على مالك صاحب قلعة جعبر وكان مقدمهم سليمان بن قطن .

سنة أحدى وستين وخمسمائة

- فيها توفي سيف الدين اخو نور الدين ، وفيها توفي البزواشي صاحب حران وتسلمها علي كجك وفيها تسلم نور الدين حمص ، وفيها تسلم قليج ارسلان من نور الدين بهسنا ومرعش ، وفيها تسلم نور الدين الرقة من إينال ، وفيها كان قران وغيرت الاسماعيلية مذهبهم ، وشربوا الخمور ، واستحلوا أولادهم وشربوا في شهر رمضان ليلا ونهارا ، ولبسوا الرجال منهم مقانع صفراء، وتعصبوا ومشوا وسموا ارواحهم الصفاة وخربوا المساجد والجوامع في قلاعهم وبطلوا الأذان والصلاة

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

- فتح نور الدين المنيطرة وأخذ منها اسارى . وفيها طلع أسد الدين شيركوه الى ديار مصر ، وأرسل شاور خلف الفرنج وأعطاهم في كل مرحلة ألفي دينار ، فسبق أسد الدين تعدى نقب ايلة ، ووصل الى الديار المصرية ، واتفق عليه المصريون والفرنج ، وضبطوا عليه الطرق فجاء رجل يعرف بابن قلاوز وسلك به على وادي الغزلان الى

اطفيح فنزل الجيزة ، وجاءت الفرنجية والمصريون الى مصر وتقاتلوا اياما ، ثم أن أسد الدين بعث سريـه مـع ابـن بهـرام الى المحلة ، فاجتمع عليهم العرب وبعض عسـكر مصر ومـائتا قنطـارية مـن الفرنج ، فقتلوا جميع المسلمين بجـزيرة ابيار ، وعملوا مـن مصر جسرا بمراكب الى الجزيرة ، ورحل أسد الدين الى الفيوم ثم صـعد الى أن وصل الى دلجة ، ثم الى بابين فتواقع العساكر فكان أول النهار للفرنج فانهزم الجاولي وخطليا بن موسى الى الاسكندرية ، ثم ان الله تعالى نظر الى المسلمين وفتح بالنصر من الظهـر ، فلم تزل الغز بالطعن والضرب في أقفية الفـرنج والمصريين الى الليل ، وقتلوا عالما كثيرا لا يحصى عدده ، وغرق أكثر من ذلك واسر ما لا يحصى ، وأخذ من الياروقية جماعة وقتـل صـاحب قيسـارية وغيره ، وهلك منهم في النهر خلق كثير .

ثم مضت الاسرى والقلائع والرؤوس الى ثغر الاسكندرية حرسه الله فخرجوا للقائهم ، وكان ذلك يوم عيد عندهم ، ثم أن أسد الدين سلم الى أهل الثغر ابن أخيه صـلاح الدين رحمة الله عليه وجمـاعة عسكر مجرحين ، وانتقل العسكر ورجع الى الصعيد ، وأخذ شاور الفرنج ونزل على الاسكندرية يحاصرها ، وكان الوالي نجـم الدين ابن مصال ، والحاكم الأشرف ابن الحباب ، والفقيه ابن عون ،، والناظر الرشيد بن الزبير ، فتشـاوروا ، وأحضروا جميع القبـائل واتفقوا على انهـم لا يسـلمون نزيلا لهـم ، ولو كان كافـرا ، وتحـالفوا ، وأخـرجوا العـدة والمال والميرة

والرجال وأربعة وعشرون قوس زنبورك وغير ذلك ، وحملتهم الحمية والدين فوقف شاور اليهم من خارج السور وقال : لاتفعلوا سـلموا الغز إلي وصلاح الدين ، وأخلي لكم المكس ، وأعطي لكم الخمس ، وأضع عنكم الخراج ، فقالوا : معـاذ الله أن نسـلم المسـلمين إلى الفرنج والاسماعيلية ، هذا مالايكون أبدا وكان ابن مصـال الوالي وابن الحباب القاضي لايبرحان في الليل عند صلاح الدين .

وجرت أسباب واتفق الصلح بين الملك مري وبين صلاح الدين بغير علم من شاور ، ورحل إلى عند الملك مري ، فنظر إلى صلاح الدين قاعد الى جانبه فقال للملك في أذنه : سلمه إلي وأعطيك كل سنة خمسين ألف دينار ، فقال الملك : حلفت له بالانجيل والمسيح ، وأما اسد الدين شيركوه فانه بادر من قوص إلى مصر فتسلمها برضا من أهلها ، وهم بحصار القاهرة ، وكان بعض رجال الفرنج بها مع ابن بارزان ، فسمع شاور بالقضية فرحل هو والملك قاصدينه ، وخافوا من أسد الدين ، فلما فارقوا القاهرة رحل أسد الدين إلى بلبيس ، فأنفذ الملك إليه صلاح الدين ، وأرسل ثقله من الاسكندرية في المراكب إلى عكا ، ووصل إلى الشام .

وأما شاور فيحكى أنه دخل إلى الاسكندرية قبل مجيئه إلى القاهرة فاستتر منه ابن مصال وابن الحباب ، وهرب الزبير بن الرشيد ،ولم يظهر له - إلا الفقيه ابن عوف ، فراح إلى المنارة ورجع والقبائل حوله وصاحت العامة إليه وقالوا : اعذرنا ياأمير الجيوش ، فقال : ما فعلتم إلا فعل العرب وأنتم بذمتكم ، فاستخشن المدينة ، وولى ابن المحيلي الاسكندرية ، وقرر معه انه ينفذ إليه ابن الحباب والرشيد ابن الزبير، فاما ابن الزبير فإنه نفذ اخذ من دير الماء في طريق برقة من عند الرهبان وسيره وسير ابن الحباب إلى القاهرة إلى شاور فحملوا فيه أقاربه ذهبا إلى الكامل ولده فعفا عنه بعد ماضربه ، وأما ابن الزبير فانه بدع به ، وأركبه جملا وطوف به عريانا راكبا على الجمل علىهيئة يقبح ذكرها ، القاهرة ومصر وبعد ذلك ضرب رقبته ورقبة ابن قلاوز ، وجرت أسباب يضيق شرحها في هذا المختصر . وفي هذه السنة احترقت الساعات بدمشق المحروسة .

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

ـ أحرق شاور مدينة مصر مقابلة تسليمهم إياها لأسد الدين .
وفيها خرج يحيى بن الخياط على شاور طالبا للوزراء من قوص فلم يظفر بشيء ، فراح الى عند الفرنج هو وأمير يعرف بابن قرجلة

سنة أربع وستين وخمسمائة

ـ ركب شهاب الدين مالك صاحب قلعة جعبر يريد الصيد ، وكانت ليلة مطر ورعد فلقيه فريق من العرب يقال لهم بنو كلاب فجرحوه ثلاث جراحات وقتلوا من أصحابه جماعة واخذوه وسلموه إلى نور الدين فبقي أياما في أسره ، وتقرر بينهما تسليم القلعة إلى نور الدين وعوضه عنها سروج وباب بزاعه وأورم الكبرى ، والملوحية وعشرين ألف دينار .

وفيها خرج الفرنج خذلهم الله إلى ديار مصر فحاصروا القاهرة وهجموا بلبيس واسروا طيئا بن شاور ، وأخذوا جميع من في البلد ، واضطر أهل مصر إلى نجدة أسد الدين شيركوه ، فكتبوا إليه ومدوه بكل أمر ، فخرج وطلع الى ديار مصر بكل عساكر الشام ، وطرد الفرنج عنهم ، ثم إن شاور عزم على قتل أسد الدين وشهاب الدين ، وقطب الدين ، وجميع الأمراء الكبار فانفذ العاضد إلى أسد الدين رقعة فأعلمه بالقضية فبدا أسد الدين بشاور فقتله وملك ماكان معه ، وشرفه العاضد بخلع الوزارة ، وقلده إياها ومكث أربعين يوما ومات رحمه الله وملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب رحمه الله . وفيها كانت وفاة أسد الدين في الثاني

والعشرين مز جمادى الآخرة من هذه السنة رحمه الله تعـالى ، وفي شهر أيار كثرت الرياح والأهوية والغيوم بإربل وظهر في هـذا الغيم تنين عظيم أسود ، وكان يقرب من الارض ، ثـم يرتفـع ولم تـدرك حقيقته من الضباب ، ولم تزل الرياح تطرده إلى بحيرة أرمية مـن كورة أذربيجان فهلك هناك .

سنة خمس وستين وخمسمائة

- نزل الفرنج على دمياط في البر والبحر ، وغرق في تلك السـنة عسكر المصريين في بحيرة الاشـموم ، وهلك أكثـرها وكانت آخـر سعادتهم ، وفيها كانت سـنة الثـلاث بمصر ، وفيهـا زلزلت حلب وبعلبك وخربتا وهلك فيهما عالم عظيم ، حسب من مات تحت الردم بحلب فكان مقداره احد عشر الف من كهل وشـيخ وصـبي وامـرأة وجويرة ، وانشق جبل اللبنان المطل على بعلبـك شـقا لايعـرف له منتهى ودامت مرات ، وفيها بطل الاذان بحي على خير العمـل مـن بلاد مصر جميعا إلى أسوان .

سنة ست وستين وخمسمائة

- كانت كسرة السـودان ، وقتـل منهـم خلق كثير ، واخـرج الباقون من القـاهرة ، وكتـب الملك الناصر صـلاح الدين إلى ولاة الحرب ان يقتلوا كل اسود تقع العين عليه في جميع الاعمـال فقتلوا من وجدوه . وفيها ابتدأ صلاح الدين ببناء سور القـاهرة . وفيهـا ظهر ملك الخزر ففتح دوين وقتل من المسـلمين ثـلاثين الف نفر ، وفيها توفي المسـتنجد وكانت خـلافته احـدى عشر سـنة ، وجلس المستضيء ببغداد .

-٥٣٨٩-

سنة سبع وستين وخمسمائة

ـ قطعت خطبة العاضد بمصر ، وخطب للمستضيء العباسي يوم الجمعة مستهل المحرم وكان الخطيب الشريف العباسي المعروف بأبي الدلالات . وفيها توفي العاضد آخر خلفاء المصريين وعمره احدى وعشرين سنة إلا عشرة ايام ، ومدة ولايته إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثا وعشرين يوما واستولى الملك الناصر صلاح الدين على القصور ، واستخرج نخائرهم ظاهرا وباطنا ، وفيها انكسفت الشمس كسوفا كليا حتى ظهرت النجوم .

سنة ثمان وستين وخمسمائة

ـ قبض صلاح الدين على جماعة من أهل مصر ، وكانوا قد كاتبوا الفرنج حتى يطلعوا إلى مصر ، وضمنوا لهم أموالا عظيمة ، وكتبوا خطوطهم بذلك وقالوا لنجم الدين بن مصال : كن أنت الوزير ، فقال لهم : نعم ، وجاء أعلم السلطان بالقضية ، وذكر جماعة منهم زين الدولة شير ماأحد الدعاة والقاضي العوريس ، وضياء الدين بن كامل ، وعمارة الشاعر اليمني ،والقاضي عبد الصمد علم الدين ومصطنع الملك نجاح ، وقاضي القضاة عبد القوي والمنجم النصراني قال لهم أنتم تملكون بعد سبعين يوما ، فتقدم السلطان صلاح الدين بقتل الجميع ، وصلبهم بين القصرين ، وسوق القاهرة ، والشريف الجليس وابن عبد القوي قتلا تحت العقوبة .

وفيها حاصر الملك الناصر صلاح الدين الكرك ، ورحل عنها ولم يأخذها . وفيها ملك نور الدين محمود مرعش . وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب رحمه الله . وفيها فتح شمس

- ٥٣٩٠ -
الدولة تورانشاه ابريم من بلاد النوبة . وفتحت برقة وسنترية وجبل نفوسه بعساكر الشام على يد قراقوش التقوي ، وفتحت قفصة على يد ابراهيم ، وفتح اليمن على يد شمس الدولة .

وفيها مات فخر الدين صاحب حصن كيفا بن داود وولي بعده ولده نور الدين . وفيها كانت وقعت الكلمان مع مليح بن لاون فكسر الكلمان وقتل اكثر جيشه .

سنة تسع وستين وخمسمائة

- مات نجم الدين ايوب ابو صلاح الدين بمصر يوم الاربعاء ، تاسع عشر ذي الحجة من السنة وفيها مات نور الدين محمود بن زنكي في نصف شوال . وفيها ظهر رجل مغربي بضيعة من أعمال دمشق يقال لها مشغرا ادعى النبوة ، وقلب رؤوسهم ، وعصوا على دمشق ، وأرسل اليهم عسكرا من دمشق عاد بعضهم مجرحين ولم يظفروا به لأنهم في وعر جبل وملك السلطان صلاح الدين دمشق . وسار شمس الدولة الملك المعظم بن أيوب إلى اليمن وفتحه في هذه السنة .

سنة سبعين وخمسمائة

- ملك صلاح الدين دمشق في مستهل ربيع الآخر ، وملك حمص في العشر الأخير من شعبان ، وملك بعلبك في العشر الاول من رمضان . وفيها أرسل صلاح الدين رسولا إلى الذي ادعى النبوة فوجده عند ابن الفقيه بن عبد الدمشقي ، فحجبه ، وكان كثير المحال فخاف من الملك الناصر فهرب إلى حلب ، وفيها نافق الكنز

بصعيد مصر بقرية تعرف بطود ، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر فقتله بالمدينة المذكورة بطود وجميع مـن كان معـه . وفيهـا خرجت مراكب من صـقلية فحـاصرت الاسـكندرية ، وكان الظفـر للمسلمين ، وقتلوا عالما كثيرا ، ولم ينـج منهم إلا القليل ، وقتـل ابن البصار ولاغير . وفيها قتل قديم بالاسكندرية وكان يعرف شيئا من علم السيمياء استمال به جماعة من أهل الثغر وفيها خرج أبـو الفضل ابن الخشاب بحلب ، وهم بحصار القلعة مستهل المحـرم ، واجتمع إليه الحلبيون ثم خذلوه وتفرقوا عنه فـأخذه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالأمان وقتله بـالقلعة . وفيهـا صـلب نور الدين تورانشاه بن أيوب لعبد النبي بن مهـدي بـن علي صـاحب ، اليمن . وفيها ظهر المؤيد من خراسان إلى طبرستان فخرب جرجان واستراباذ وميشا والميزوان ومدينة الملك سـاوه ، وأحـرق هـذه المدن ، وقتل خلق لايحصى عددهم ورجع ، وقتل ملك طبرستان ونهب خزانته ، وفيها كسر صـلاح الدين العسـكر الموصـلي على تـل السلطان ، وأخذ الناس مـن الكسـب مـالا يحصى قيمتـه وكانت المواصلة أحد وعشرين ألف فارس .

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ـ كسفت الشمس حتى شوهدت الكواكب . وفي ذلك اليوم ظهـر رجل بكفرند من أعمال حلب ادعى النبوة ، وهـو الذي انتقـل مـن مشغرا ، فخرج اليه سعد الدين كمشتكين الخادم ببعض عسكر حلب فقتل ، وقتل معه ثلاثين الف انسان ، ونهب البلد واستغنى جماعة . وفيها قتل سيف الدولة لناشر بن هلال صـاحب عدن . وفيهـا قفـز الاسماعيلية على صلاح الدين وهو يحاصر اعزاز ونجاه الله منهم ، وقتل الاسماعيلية صاحب بوقبيس شهوة بالسلطان . وفيها قتـل نجم الدين بن منكلان قتله الاسـماعيلية في ذلك اليوم . وفيهـا كسر صلاح الدين لسيف الدين مودود صاحب الموصل كسرة ثانية ونهـب

عسكره . وفيها خرج المؤيد من خراسان يريد خـوارزم يحـاصرها فوصل من المفازة إلى حـد خـوارزم في طلب الماء ، فـأوقع بهــم وكسرهم ، وظفر بالمؤيد في ثلاث مائة مملوك وحمل رأسه على رمح وطيف به في ولاية خوارزم ، وفيها مات نجم الدين بن حسـام الدين ابن ايلغازي بن ارتق . وفيها عصى قليج صاحب تـل خـالد على الملك الصالح اسماعيل وارسل إليه عسكر حلب ففتحها بالامان . وفيهـا تسلم اعزاز من شهاب الدين الجفنية . وفيها وصل الفرنج إلى داريا وصحبتهم يوسف التاجي واحرقوا جامع داريا واخذوا بـابه . وفي ذلك اليوم قتل امـام الدكة لاغير ، ورحلوا مـن يومهـم واحـرقوا الحرجلة ومضوا . وفيها قتل الامير صديق بـن جـكو قتله ابـن اخيه ، وملك بعده بصرى وصرخد شهورا ، فـكاتبه شـمس الدولة تورانشاة بن نجم الدين أيوب وحلف له على نسخة كتبهـا قـاضي بصرى منتقضـة ، وكان قليل العلم ، ونزل إلى دمشـق فمسـكه وعوضه عنها بعشرين ضيعة من أعمال دمشق وأقامت معه شهورا .

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ـ مات شهاب الدين بن الشهرزوري بـدمشق ، ومـات الركن اتابك السلطان ، وفيها مات السلطان طغريل بن مسـعود ، وفيهـا قتل الاسماعيلية شهاب الدين ابا صالح بـن العجمي بحلب في بـاب الجامع ، وفيها كسرت الفرنج لشمس الدولة تـورانشاه بـن أيوب على بعلبك ، وأسروا جماعة من الامراء مثل ابن سلار وغيره .

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ـ هبت ريح شديدة ببلاد القبجق وصـلت إلى تفليس ، ثـم إلى همذان واصفهان واكثر بلاد كرمان ، فـأحرقت البيوت الضـعيفة ،

وقتلت الغنم والبقر والخيل ورئي رجل في دهستان خزري عليه زيهم زعم أنه كان البارحة في بلاد الخزر ومعه خيل يرعاهـا فهبت ريح حملته ورمت به في دهستان ولايعلم ماكان منه ولايدري كم المسـافة الا أنه بالتقريب نحو من خمسة عشر يوما .

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ـ قران زحل والمريخ في السرطان ، ومـات المسـتضيء ، وكانت خلافته ثمان سنين وسبعة أشهر وأياما ، وخلف الناصر ، وفيهـا كسرت الفرنج صلاح الدين على رملة وأسروا الفقيه عيسى الكردي . وفيها قتل الوزير أبو نصر بن العطار وكان حنبلي المذهب .

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ـ فتح قصريعقوب بالسيف، وكسرت الفرنج ، واخذت ابـطالهم وقتل منهم خلق كثيرة وفيها قتل الهذفري وسـتون فـارسا مــن الخيالة .

سنة ست وسبعين وخمسمائة

ـ توفي شمس الدولة تورانشاه مستهل صفر بالاسكندرية وقبـر بها . وفيها نافقت سليم بالبحيرة ، فخرج اليهم أبو الهيجاء السمين فكسرهم نصف النهار ، وكانوا في ستين الف فارس وأبو الهيجاء في الفين ، وبيع كل خمس جمـال بـدينار ، وكل خمسـين رأس غنم بدينار ، وفيها بنيت قلعة القاهرة . وفيها ولد الملك الكامل محمد بن

ابي بكر في مستهل جمادى الأولى بالقاهرة . وفيها مات الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي ، وفيها نافق خلدك الشهابي فخرج إليه قراقوش وأبو الهيجاء السمين فأخذاه سليما .

سنة سبع وسبعين وخمسمائة

– وفيها تسلم عماد الدين قلعة حلب من أخيه عز الدين ، وفيها مات الخطيب بحلب المسمى بهاشم وهو مصنف كتاب اللحن الخفي . وفيها خرج الملك محمد الغوري إلى الهند وعدة عسكره ثلاثمائة الف وتسعين سوى الرجالة ، وفي صحبته أربعمائة فيل ، ففتح من بلاد الهند عدة مدن . وفيها طلعت الفرنج على ايلة وعمرت مراكب وشواني وركبوا بحر القلزم وقطعوا البحر ، فوصلوا إلى عيذاب متاخم جدة فأخذوا عدة مراكب موسقة بهارا وبضائع وتجارا. وقتلوا من أهل عيذاب جماعة ، ومن النواتية لانهم ماتحققوا أنهم فرنج لأنهم لم يعهدوا مثل هذه القضية ، ولم يسمع بمثلها ، فبلغ ذلك السلطان فجهز أسطول المسلمين ، وعمره بالرجال والعدد ، وجعل مقدمه الحاجب حسام الدين لولو ، ثم رموا المركب من السويس وقصدوهم في البحر ، فصادفوهم في ميناء (رابغ)بأرض الحوراء فقاتلوهم قتالا شديدا ، ونزلوا من المراكب وطلعوا الى البر فلم يفلت من العدو أحد واحتاط المسلمون عليهم وعادوا بهم الى عيذاب ، ووصلوا بهم الى قوص ثم الى مصر وكان لوصولهم يوم عظيم وفتح مبين فلو والعياذ بالله سلموا بما معهم كانوا يفتخرون الى الأبد ، وكان العدو خذله الله عزم على مقصد آخر فما اوصله الله اليه فلله الحمد والمنة .

وفيها ظهر بالغربية عند ناحية تعرف بالكنيسة قريبا من المحلة تتاخم أرض قلين عين ماء ذكر رجل نصراني أنه رأى في المنام فيها معجزة وأن ماءها يبري من العلل ، وقصدها الناس من كل مكان

وعمل عليها سوق وركز عسكر ، ولم يكن ذلك الذي ذكر لأن عقول الجند ضعيفة

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

- نزل صلاح الدين رحمه الله الى الشام وحمل تابوت شمس الدولة تورانشاه أخيه وقبره بدمشق وعبر الفراه ثم إلى الجزيرة ، ففتح سروج ، والرها ، حران ، والرقة ، والبيرة ، وسنجار ، ونصيبين .

وكاتب عز الدين صاحب الموصل لشاه أرمن ، فجمع العساكر ، وقصد صلاح الدين ، فوصل إلى ماردين ومكث شهورا لايقدم الى صلاح الدين ، ثم إنه اجتمع مع عز الدين بقلعة ماردين ، وكان معهم عساكر لاتحصى وتأخر صلاح الدين إلى حران ، وكان خائفا منهم ، ثم أن شاه أرمن ، وعز الدين ، وقطب الدين صاحب ماردين اختلفوا ، فحاصر ماردين ، ثم رحل إلى أمد ففتحها وأعطاها لنور الدين ابن فخر الدين ، وكان قد حاصر الموصل ولم يقدر عليها ، وفيها فتح عز الدين دبوريه بالسيف وحبيس جلدك

وفيها عدى أبو يعقوب إلى الأندلس فنزل على شنتريه يحاصرها وعدة عسكره مائتا الف وستون ألف ، فخامر عليه وزيره ابن المالقى وقال للموحدين قد قال أمير المؤمنين تقدموه ، فرحل أكثر العسكر ، وبعث إلى ملك الفرنج ابن الديك ، وقال له قم أخرج عليه فما بقي عنده أحد ، فلم يشعر أبو يعقوب إلا وهو في أناس قلائل وخرج الملك وكسره ، وقتل خلقا كثيرا من المسلمين ، وطعن أبو يعقوب ، ووصل عسكره بعد يومين ومات وقام بعده أبو يوسف ولده . وفيها بلغ الملك الناصر صلاح الدين ا ن الفقيه ابن أبي العيش

- ٥٣٩٦ -

الحنفي صنف كتابا اسماه الذوري في شرح القدوري ، وذكر فيه أصحاب الحديث الشافعي بما لا يحسن ذكره ، فطلب السلطان منه الكتاب فانكره فقال له تحلف أن ما هو عندك فوقف ، وأحضر الكتاب فأمر السلطان صلاح الدين بغسله بجامع دمشق يوم الجمعة ، واذكر على ابن أبي العيش ، فسأل فيه الفقهاء فعفي عنه .

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ـ ملك صلاح الدين رحمه الله حلب وقتل أخوه تاج الملوك بوري بسهم نشاب وقع عليه ، ونزل عماد الدين من قلعة حلب في العشرين من ربيع الأول وتسلم عماد الدين سنجار والخابور عوضا عنها . وفيها مضى صلاح الدين على الكرك فحاصره وكتب لتقي الدين عمر بن شاهنشاه أخيه عهدا إلى مصر ، وكتب عهدا لسيف الاسلام إلى اليمن ، واستدعى أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر من مصر فأقطعه حلب . وفيها ظهر بضيعة مصر تعرف ببوصير السدر متاخم مصر القديمة بيت هرمس الثاني فتحه القاضي النظام بن الشهرزوري ، وأخرج منه أشياء من جملتها كباش وضفادع بازهر وقوارير دهنج وفلوس نحاس وفيها فضة وأصنام نحاس وموتى تناهز خمسة آلاف نفس من رجل وامرأة وأكفانهم سالمة لم تبلى ، وغلبهم السافي على الباقي فلم يصلوا إليه ، وأقول إن المطالب مدائن وقرى بعظيم الرمل والتراب ، ويكون فيها خبايا وغيرها فتوجد بعد حين من الدهر ، فيقال صبنا مطالب وكذلك الكيمياء إنما هي زغل ، وعند جميع أهل العلم أن الذهب معادن ، وفيها توفي تاج الملوك بن أيوب .

سنة ثمانين وخمسمائة

- فيها فتح سيف الدولة فتوحات باليمن ،ووقع بين الكرد والترك وقتل بينهم عالم عظيم ،وكانت الغلبة الترك ،وفيها مات الفقية أبو الطاهر بن عوف ، مدرس الاسكندرية (وكان) مالكي المذهب كبير في العلماء . وفيها أنفذ تقي الدين ابن أخي صلاح الدين أحد كتابه يعرف بالرضى ابن سلام إلى بحيرة الاسكندرية ليسير ارتفاعها فمضى ، وكتب شيئا لايجب من المظالم ، وضرائب قد بطلت فلما عاد ، فعند وصوله إلى معدية صاو ، وضعت بغلته يدها في المعدية ، وصاعقة قد نزلت عليها فأحرقت البغلة والخرج الذي فيه الرقائع ، وسلم الرجل بمشيئة الله تعالى ، وهذا أمر عجيب .

سنة احدى وثمانين وخمسمائة

- مات الفقيه علاء الدين الكاساني ، امام الحنفية بحلب .

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

- عبر صلاح الدين الفرات . وحاصر الموصل وضايقها ، ولم يفتحها ، وانتظم الصلح بينه وبين صاحبها عز الدين ، ومات شاه أرمن وقطب الدين صاحب ماردين ، ومات نور الدين صاحب آمد ابن فخر الدين ،واختلفت ديار بكر والجزيرة ، ووقع خلف كثير بين العالم ، وبين الترك والكرد ، وبين المسلمين والفرنج ، وبين الاسماعيلية والبذوية وقتل بينهم عالم عظيم بالباب والبارة من أعمال حلب ، وقتل في هذه السنة من سائر اجناس الامم مالايحصى عدته .

وفيها فتح صلاح الدين ميارفاقين وقتل عليها عالم كثير . ومـات من الامراء المشهورين مثل ناصر الدين بن أسد الدين صاحب حمص وقتلت الاسماعيلية لابن نيسان ، ومات محمـود بـن ايلدي وهـو شمس الملوك صاحب آمد لان صلاح الدين أخذ آمـد منه ، وسـلمها إلى نور الدين فأخرج صـاحبها منهـا بجميع مـاله فمضى إلى ملك الروم ومعه وزيره ابن نيسان (فقتل ابن نيسان) ومـات صـاحبها شمس الملوك ابن ايلدي بن ابراهيم .

وفي هذه السنة كان المنجمون قد أرجفوا في سـائر الارض بـأن يكثر الهواء ويهلك الخلق ، ويخرب ماعلى وجه الأرض ولاينجو الا من يأوي إلى مغارات ، حتى أن قلج أرسلان سلطان الروم والارمن عمل مغارات وسروبا تحت الأرض ، وسقفها بـالاخشاب وأحـرز فيها القوت ، وكذلك في عامة ملكة ، واشتد الارجاف، وكان بـدمشق رجل يقال له عباس الطبيب عمل له مغارة بجبل قـاسيون وأودعهـا جميع ما يحتاج اليه ، وعزم تلك الليلة بأن يبيت هو وعياله ، فبعث إليه الصفي بن القابض وأخذ منه مفتاح المغارة ، وقـال : مـاتسلم أنت ويهلك جميع الناس يكون لك أسوة بمـن في دمشـق فبـات تلك الليلة في هم طويل . ولم يحدث في تلك الليلة ضرر البتـة إلا سـكون الهواء حتى آذى الناس الكذب ، وفيها تسلم صلاح الدين شهرزور والبوازيج ، وفيها نزل الملك العادل سـيف الدين أبـو بـكر بـن أيوب من قلعة حلب وتسلمها منه الملك الظاهر ابن اخيه وفيهـا مضى الملك العادل الى مصر ، وفيها مات سعد الدين بن معين الدين .

سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

- اتفق طالعها العقرب ، وفيها خرج الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن ايوب رحمه الله بعساكر المسلمين من أهل مصر والشام والجزيرة وديار بكر والموصل ، وكان زحل والمشتري في الميزان ففتح مدينة طبرية عنوة وذلك يوم الخميس ثـالث وعشرين ربيع الآخـر ،

وكسر جميع الفرنج على تل حطين ، وقتل من الفرنج عالما لايحصى وأسر ملكهم الأعظم ، وسائر ملوكها ، وأمراءهم ، وأسر منهم مايزيد على العشرين ألفا ، ثم سار من بعد قتلهم واخذهم الى مدينة عكا فتسلمها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، ثم شرع في طلب بلاد الفرنج ، فتسلم قيسارية ، وحيفا ، ويافا ، وارسوف ، وتبنين ، وهونين ، والناصرة ، واسكندرية ، وبيسان ، والفولة ، وصفورية ، وجميع تلك البلاد ، ثم سار الى مدينة صيدا فتسلمها بعد حصارها يوم الاربعاء ثامن وعشرين جمادى الاولى ثم تسلم جبيل في جمادى الآخر ومايليها ، ثم رجع وسار إلى عسقلان فقاتلها قتالا شديدا ، ثم كسفت الشمس يوم الجمعة ثامن وعشرين جمادى الآخرة كسوفا كليا ، حتى أظلم الجو ، وشوهدت الكواكب ، ثم فتح عسقلان يوم السبت ، ثم تسلم غزة ، والداروم ، والرملة ، ونابلس .

ثم سار منها إلى البيت المقدس فتسلمها بعد قتاله إياها أياما قلائل ، اتفق تسليم البيت المقدس آخرها يوم الجمعة سادس عشر رجب ، وهو ثاني تشرين الأول سنة ألف واربعمائة وتسع وعشرين ، والطالع الحمل ، وقتل عز الدين صاحب سروج واستقر بين صلاح الدين وبين الفرنج شراء أرواحهم ، وأن يزن الرجل عشرة دنانير، ومن لم يقدر على شراء نفسه يؤخذ جميعهم أسارى ، وخلص في هذه السنة من أساري المسلمين الذين كانوا في أسر الفرنج في هذه البلاد التي فتحت عشرة آلاف نفس ممن كان له في الاسر السنة والعشرة والعشرين وكان الذي قبض من المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية ، وفيها توجه قراقوش مملوك تقي الدين إلى بلاد المغرب واستولى على بلاد قيروان ، والتقاه ابن عبد المؤمن صاحب المغرب بظاهر مدينة تونس ، وكسره قراقوش يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول ، واستولى على البلاد ، وخطب فيها لصلاح الدين يوسف بن أيوب ثم رجع ابن عبد المؤمن مفلولا فجمع اطرافه ، وحشد خلقا لايحصى عدده ، ورجع إلى قراقوش في هذه السنة فكسره ، وانفض عنه جيشه ، ومضى قراقوش فارا هاربا في البرية .

- ٥٤٠٠ -

وفيها قتل شمس الدولة بن المقدم أمير حـاج الشـام على جبـل عرفات قتله طشتكين أمير حاج العراق ، والخليفـة يومـئذ الناصر لدين الله أبو العباس أحمد .

- كسر صلاح الدين (الفرنج) على تل حطين يوم السـبت رابـع عشرين ربيع الأول ، وفتح عكا بتاريخ يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ، وفتح في هذه السنة حيفا وقيسارية ، وصفورية والناصرة وتبنين وبيروت وعسقلان وغزة والداروم وبيت جبريل والنطرون ، وتل الصافية ، وتل الجزر ، وفتح البيت المقدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب من هذه السنة .

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

- وفيها خرج صلاح الدين مستهل جمادى الآخـرة وخـرب مدينة انطرسوس ، وفتح جبلة واللاذقية ، وفتح حصن صـهيون ، وحصن بكاس ، وقلعة السرمانية ، وحصن شغر ، وحصـن بـرزية عنوة ، وقتل مقاتلته وسبى ذراريهم ، وفتـح دربسـاك ، وحصـن بغراس وتسلم الكرك بعد حصاره ومقـاتلته أشـد القتـال ، وكان بعض عسكر صلاح الدين نازلا من مدة سنة ، وفيها تسـلم صـفد ، وكوكب بعد القتال ، وفيها أطلق الملك الناصر صـاحب عسـقلان ، وفيها صالح البـرنس صـاحب أنطـاكية على أن يطلق كل أسـير بأنطاكية ، وكان عدتهم الف أسير ، وفيها مات شجاع الدين عيسى ابن بلاشو والي قلعة حلب ، وولي بعده أمير جندار الملك الظاهر اسمه محمد .

- ٥٤٠١هـ -

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ـ ظهرت الفرنج في الشام بحرا وبـرا ، وحـاصروا عكا ، وكان نزولهم عليها مستهل رجب والقمر بالدلو ، فلما علم صلاح الدين ذلك قصدهم بجميع العساكر ، فخندقوا على أنفسهم ، وكان المسلمون يقاتلونهم من عكا ، والعساكر مع السلطان يقاتلونهم من بـرا مـن وراء خنادقهم .

ثم انهم اجتمعوا يوم الأربعاء العشرين مـن شـعبان وخـرجوا بكليتهم إلى المسلمين ، والمسلمون يومئذ على غرة ، فوصلوا إلى خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من كان حول السرادق ، ثم نهبوا سـوق العسكر ، وقتلوا من لحقوا بـه ، وقتـل في ذلك اليوم ابـن رواحـه الشاعر الحموي والمكبس ، وظنوا أنهم قد ظفروا ، ثم رجـع صـلاح الدين ، وجمع العسكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقا عظيمـا ، وأمـر صلاح الدين أن يحصوا القتلى فحسب عدتهم ، فكانوا أربعـة آلاف وسبعمائة وستين نفرا ، ولم يفقد من المسـلمين إلا القليل ، وفيهـا تسلم الشوبك بعد أن كان بعض العسكر يحاصره مدة سنة . وفيها توفي الفقيه عيسى ليلة الثلاثاء تاسع ذي القعدة منها .

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ـ هذا والفـرنج مقيمين على عكا يحـاصرونها بـرا وبحـرا ، والسلطان يقاتلهم كما ذكرنا من وراء خنادقهم صـباحا ومسـاء ، وفيها تسلم صلاح الدين شقيف أرنون . وفيها قتل ابن قريش الموقع المصري قتله ابو الفضل بن خليل الدمشقي . وكان الفـرنج خـذلهم الله قد نصبوا ابرجة خشب ومناجيق ، ودبـابات ، ونقبـوا سـور

عكا ، وأصبح المسلمون على الهلاك ، ثم نصرهم الله ، فأحرقوا مناجيقهم وآلاتهم الخشب وذلك يوم السبت العشرين من شهر ربيع الاول ، ثم خرج المسلمون عقيب الحريق وقتلوا منهم خلقا عظيما ، ونهبوا من خيمهم ماقدروا عليه ، وأخذت الشواني في البحر .

وفي هذه السنة طلع ملك الالمان على قسطنطينية ، ثم إلى بلاد قليج ارسلان ، فمنعهم قطب الدين بن قليج أرسلان وضرب معهم مصافا فهزموه ، وهجموا قونية ، ونهبوها وقتلوا منها خلقا لايحصى عدده حتى أنهم أخذوا النساء من الحمامات ، ثم رحلوا عنها فهلك ملك المان في الطريق ، وقام مقامه ولده ، ووصلوا مدينة انطاكية وهم نحو من مائة الف انسان ، ومضوا إلى عكا وخرجوا إلى محاربة صلاح الدين يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة ،وهجموا خيام الملك العادل أخي صلاح الدين ، ثم تراجع المسلمون عليهم من كل جانب فردوهم ، وقد قتل منهم خلقا كثيرا ، حتى طبق وجه الأرض القتلى بالدم ، فأمر صلاح الدين باحصاء المقتولين من الفرنج ، فكانوا إثنا عشر الفا ، وكان عدد الذين خرجوا للقتال من الفرنج اثنين وستين الفا .

ثم وصلت في هذه السنة جميع ملوك الافرنجية في البحر ، وتوهم صلاح الدين خوفا لكثرتهم ، وكثرة عددهم ، فخرب طبرية وقيسارية ، وحيفا ، ويافا ، وصيدا ،وجبيل ، وارسوف وسائر بلاد الساحل على ضفة البحر ماخلا عسقلان .

وذكر أن الفرنج الذين اجتمعوا على حصار عكا في البر والبحر كانت عدتهم مائتي الف وأربعين الفا مع قلة خيلهم .

سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ـ أخذت السفينة التي أرسلها صلاح الدين ، وكان قد أوسقها بالمال والرجال والعدد والميرة ، فصادفها عشرون شينيا للفرنج فقاتلوها قتالا شديدا وتيقن المسلمون الغلبة فغلبتهم الحمية وكبر الذفوس ، فنزا منهم رجل حلبي يقال له غلام ابن شقويق بقادوم فخسفها فغرق من كان فيها جميعهم إلى رحمة الله .

ثم ضعفت عكا من الذخيرة والرجال وأكثروا القتال ، وهجمتها الفرنج يوم الخميس سادس عشر جمادى بالمناجيق من كل جهة ، وفتح فيها مواضع عدة حتى خربت وصارت مثل الطريق ، فغلب المسلمون ، وطلبوا الأمان وأخذها الفرنج يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة بالأمان ، ثم غدروا بهم وقتلوهم من آخرهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، وقتلوا المسلمين يوم الثلاثاء سابع وعشرين رجب رحمهم الله ، وأسر بهاء الدين قراقوش ، وسيف الدين علي المشطوب وابن باريك ، وجماعة من الامراء المشهورين ، وقتل بها قبل فتحها شمس الدين جكو بن زكريا ابن اخت أبي الهيجاء السمين رحمه الله ، وذكروا أن عدة من كان داخل عكا من المسلمين سوى من خرج في المراكب خمسة آلاف وسبعمائة

وطلب الفرنج عسقلان ، والسلطان معارضهم في الطريق إلى حيفا ، ثم إلى قيسارية ، ثم إلى ارسوف ، ثم إلى يافا ، ثم التقوا مع السلطان يوم السبت النصف من شعبان على يافا ، وقتل منهم وسار السلطان إلى مدينة عسقلان وخربها وخرب غزة ، والداروم ، ورد الرجال والعدة والذخيرة التي كانت بعسقلان إلى بيت المقدس .

وفيها أرسل إلى سليمان بن جندر أن يخرب حصن بغراس ، فخرب بعضه فبادر ابن لاون فرحله عنه وأخذه بلا تعب .

وفيها مات محيي الدين ابن الشهرزوري قاضي الموصل ، وكان كريم زمانه رحمه الله .

وفيها ظهر بجبل سمعان من أعمال حلب بضيعة تعرف بكفرتين امراة لها كلام دقيق في شرع الاسلام ، وحدس قوي ، بحيث انها تعلم القاصد لها في أي شيء جاء ، وبعث الملك الظاهر صاحب حلب إليها ضياء الدين ابن دهن الخصا ، وتكلم معها فراى معها شيئا عجيبا .

وفيها مات شرف الدين ابن عصرون قاضي دمشق وكان في الأربعة مذاهب أوحد عصره ، وفيها توفي علاء الدين أبو بكر الكاساني الحنفي بحلب ، وكان فريد عصره في مذهب أبي حنيفة رحمه الله .

وفيها ذكر رجل منجم يعرف بابن السنباطي لقوم من السودان ، والمصامدة أنكم تملكون ديار مصر من الغز في الليلة الفلانية بعد العشاء الأول ، وقلب رؤوسهم واستعدوا بقوارير نفط ، واجتمعوا بحارة تعرف بالهلالية بشارع القاهرة ، وشربوا المزر ، وخرجوا بعد العشاء ، ودخلوا باب زويلة ، وأخذوا العدة التي كانت عليه وهم يصيحون يا آل علي ، يا آل علي ، فوصلوا إلى السيوفيين فأسروا الدكاكينيين وأخذوا منها عدة ، وأتوا إلى خزانة البنود ليخرجوا منها الفرنج ليستعينوا بهم ، فركب الأمير بدر الدين موسك بعسكره فلم يبق لهم أمر ، ومسك المنجم وجماعة منهم بعد أيام قتلوا تحت الضرب .

وفيها تسلم تقي الدين ابن أخو صلاح الدين : الرها ، وسميساط ، والسويدا ، وبعض بلاد أخلاط وكسر بكتمر صاحب أخلاط ، وملك من بلاده عدة حصون ، وقصد منازكرد فحاصرها ثلاثة أشهر ، وتوفي فيها يوم الجمعة سابع عشر رمضان ، وحمل الى ميارفارقين وقبر بها . وفيها مات قزل صاحب بلاد خراسان ،

وملك ابن أخيه . وفيهـا تسـلم الملك الظـاهر غازي صـاحب حلب بهسنا ، وكيسون ، وقلعة جعبر ، وفيها توفي الشريف أبـو المكارم حمزة بن زهرة بحلب مصنف كتاب العتبة في منهب الامامية ، وفيها توفي ابن عمه أمين الملك أبو طالب نقيب العلويين . وفيها مات الفقيه نجم الدين ابن شرف الاسـلام ابـن الحنبلي بـدمشق ، ولم يكن في زمانه أسرع منه في الفتيا ، ولا أعلم منه . وفيها مات الموفق خالد بن القيسراني وزير نور الدين بحلب ، وفيها مـات ابـن الخلي بحلب . وفيها مات القاضي المؤتمن بن كاسيبويه بـدمشق ، وفيهـا أخـذت الفرنج القافلة على خويلفة ، وفقد المسلمون من الأمـوال مـالايحد وهلك من البضائع مالايحصى التجار والجند وكان الأمر عظيما .

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ـ وفيها قتل الفقيه شـهاب الدين السـهروردي وتلميذه شـمس الدين بقلعة حلب . أخـذ بعـد أيام ، وكان فقهـاء حلب تعصـبوا عليه ،ماخلا الفقيهين ابني جهبل فانهما قالا : هـذا رجـل فقيه ومناظرته في القلعة ليست تحسـن ، ينزل الى الجـامع ، ويجتمـع الفقهاء كلهم ويعقد له مجلس ، وكان له تصـانيف مـن جملتهـا : تفسير القران على رأيه ، وكتابا سماه بالرقم القدسي ، وكتاب آخر يقال له الالواح العمادية ، وفي الخلاف ماترجح لهم عليه حجة ، وأما علم الأصول مـا عرفوا أن يتـكلموا معـه وقـالوا له : أنت قلت في تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبيا ، وهذا مسـتحيل ، فقـال لهم : ماحد القدرة ، أليس القادر إذا أراد شيء لايمتنع منه ؟ قالوا : بلى ، قال : فالله قادر على كل شيء ، قالوا إلا على خلق نبي فإنه يستحيل ، قال : فهل يستحيل مطلقا أم لا ؟ قـالوا : قـد كفـرت ، وعملوا له أسبابا لانه كان بالجملة كان عنده نقص عقل لا علم ، ومن جملته انه سمى روحه المؤيد بالملكوت .

-٥٤٠٦-

وفيها تقرر الصلح بين صلاح الدين وبين الفرنج على شرط أن تكون الأيمان بينهم وبين أولاده ، وفيها مات الصفي بن القابض أبو الفتح ، وفيها خرج المشطوب من الأسر في مستهل جمادى الأولى .

سنة تسع وثمانين وخمسمائة

- فيها توفي الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله في صبيحة يوم الاربعاء سابع عشر صفر ، ووصلت التعزية من القاضي الأجل الفاضل رحمه الله إلى الملك الظاهر صاحب حلب ، وهي : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)(٤) كتبت وقد زلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، والدموع قد حفرت النواظر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعا لاتلاقي بعده ، وقبلت وجهه عني وعنك ، واسلمته إلى الله مغلوب الحياة ، ضعيف القوة عن النجاة ، راضيا عنه الله ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المغمدة مالم يدفع عنه القضاء ، ولم يملك رد البلاء ، وتدمع العين ، ويحزن القلب ، ولانقول إلا مايرضي الرب ، وإنا عليك يايوسف لمحزونون . وأما الوصايا فما تحتاج إليها ، وأما الاراء فقد أدهشتني المصائب عنها ، واما لائح الأمر فإنه ان وقع بينكم اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وان كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الأعظم »

وفيها قتلت الاسماعيلية بكتمر صاحب اخلاط ، وملك بعده اخلاط ، هزاربيناري ، وفيها مات سنان رئيس الاسماعيلية وقام بعده رجل يقال له نصر العجمي لايفهم ولايدري شيئا .

وفيها مسك ابن لاون البرنس صاحب انطاكية وذلك انه خرج إلى

ابن لاون ، ومعه امرأته وبنيه ليدعوهم ابن لاون ، فلما شربوا وسكروا غشيهم الليل ، قال ابن لاون للبرنس : لا آمن عليك أن تبيت هنا ، بل تطلع إلى الحصن ، فلما طلع مسكه ومسك امرأته وبنيه ، وبعث بهم إلى الحصون ، فبقي أشهرا يسيرة ثم خلصه ملك الفرنج صاحب قبرص الذي كان في أسر صلاح الدين ، وشرط عليهم أن لايسلموا إليه قلعة أنطاكية إلى ثلاث سنين ، وفيها هلك بطرق

قصير أنطاكية ، وفي تشرين الأول ظهر بداخل حمص عيون ماء حتى امتلأ الخندق ولم يعهد ذلك ، وشرب منها أهل حمص فوخموا ، وظهر عقيبة طاعون مات منه ثلث أهل البلد مع صحة الهواء وجودته .

وفيها حكي عن ابن العميد أنه ورد من ملك الحبشة كتاب إلى سيف الاسلام صاحب اليمن أن جبلا بالحبشة رمل يعرف بالأصم يبعد عن المدينة ثلاثة أيام ، تحملته الرياح والأهوية إلى باب المدينة ، وأن خليجا بتلك المدينة أصبح دما عبيطا .

وفيها ورد أن ذئبا كلبا هجم دنيسر بكرة فأكل اثنين وسبعين نفسا وماتوا جميعا ، وفيها دخل الأمير فرج أرزن الروم ، وتلقب بالملك المهدي ، وفيها توفي عز الدين صاحب الموصل وملك بعده نور الدين ، وفيها تسلم الملك العادل سروج ، وخرب المشرق ،وفيها فتح الرقة ، وفيها صالح صاحب سنجار ، ووصل إليه عسكر دمشق ، وحلب ، وقصدوا أخلاط ، وكان جماعة من أهل اخلاط كاتبوه ثم رجعوا عن ذلك • وفيها خرج السلطان طغريل بن ألب أرسلان من همذان ، فأخذ الري ، ونقض قلعتها حجرا حجرا ، وقتل جماعة أمراء . وفيها ضرب السلطان أبو بكر مصافا مع أخيه خوارزم شاه ، وفيها خرج ملك الخزر ، وفيها ضرب السلطان أبو بكر مصافا مع أخيه خطلوخ فكسره على باب توريز . وفي ليلة سابع عشر من رمضان المبارك رئي ببغداد عمود نار من الأرض إلى وسط

السماء عرضه ثلاث رماح ، ورآه الخليفة وجميع أهل بغداد ، وفيها ضرب ابن محيي الدين ابن زكي الدين قاضي دمشق رجلا يعرف بالفأفاء بسبب كلام أخطأ فيه ، وكان المضروب صاح بالله وبالمسلمين فلم يغثه أحد ، فصاح يا آل سنان ، فطالب الاسماعيلية بدمه القاضي محيي الدين بهذا الوجه فخاف القاضي منهم ، وعمل له سردابا تحت الأرض يخرج منه إلى الجامع ، وفيها أخذ الخليفة الناصر البوازيج من ابن زين الدين وأعطاها لصاحب الموصل ، وفيها مات سيف الدولة ابن منقذ بمصر ، وفيها وقع بأرض بالس في موضع يعرف بالوتيقي برد وزن كل حبة مائة وخمسون درهما وفيها كانت صاعقة بشيح الحديد من أعمال حلب ، وقتلت جماعة وبقي موضعها خلوا أربعين ذراعا ، وفيها كان بجبل ليلون من أعمال حلب مطر أهلك ضياعا كثيرة وكان خلاله برد كل بردة ست أواق بالحلبي فأهلكت الطير والوحش ، وأخذ أهل حارم منها شيئا كثيرا ، وأهلك الشجر والقطن ، وفيها كان بمصر برد عظيم لم تجر عادتهم بمثله حتى تعجب أهلها من ذلك . وفيها حمل السيل ضياعا فأصبح خشبها في نهر عفرين . وفيها كانت صاعقة بحلب في الياروقية ، ووقعت في اصطبل الحاجب انساقت فقتلت له تسعة من الخيل ، وقيل إنها دخلت من طاقة الاصطبل . وفيها ولدت امرأة بحلب بباب الجنان أربعة أولاد في بطن ، وفيها تسلم الظاهر صاحب حلب من أخيه صاحب دمشق جبلة ولاذقية . وفيها خسف القمر مرتين ، وفيها تسلم الملك العادل قلعة جعبر من ابن أخيه صاحب حلب بعد خطوب جرت وأسباب طرأت . وفيها مات ملك الفرنج بسيواس وحمل إلى بيت المقدس وقبر بزيتون الجلجلة .

سنة تسعين وخمسمائة

- وفيها مسك الظاهر صاحب حلب الياروقية؛ بدر الدين دلدرم وبكمش وبقطران والحاج ، وبلك وابن قيماز وجماعة منهم ، وأوهمهم أنه يخلع عليهم ، فلما حضروا أودعهم السجن ، وسير

بكمش إلى حارم بعد ماعذبه بالضرب ، وأراد أن يكحل دلدرم ، وطلب منه تل باشر ، ونزل عليها بعسكر حلب وحماة وشيزر أياما ، فجاء الخبر من دمشق بمجيء الملك العزيز ، فرحل في تلك الليلة فلم يصبح له أثر بموضعه ، وكان أهل تل باشر في ضائقة ، ووصل الملك العادل بعد يومين إلى تل باشر ، وطلع القلعة فأخرج في تلك الساعة بدر الدين دلدرم وأقاربه منها ، ومن الله عليهم بالفرج من غير تقرير ولا علم عنده بذلك ، ولم يكن الملك الظاهر أن يرد شفاعته فيهم بل الوقت خلع عليهم وأعطى بدر الدين علما ونزلوا جميعهم وبدر الدين دلدرم بين يدي الملك العادل يحجبه إلى دار أخته امرأة شهاب الدين ، فودعها وخرج كما هو مجدا إلى دمشق ، وتقرر الصلح بينه وبين الملك العزيز صاحب مصر ، ورجع إلى الديار المصرية ، وهو متمرض ، وخامر عليه بعض عسكره .

وفيها مات الفقيه أبو الحسن بن الطرسوسي بحلب ، وفيها مات الفقيه المقريء الشاطبي بمصر رحمه الله ، وكان من أهل العلم والعمل ، وفيها كان لنيل مصر أمر عجيب وذلك أنه زاد حتى بلغ اثنين وعشرين اصبعا من سبعة عشر ذراعا ، ثم نقص فزرع الناس أكثر غلاتهم وقرطهم وكتانهم ، ثم رجع بمشيئة الله زاد فغرق الجميع وأتلفه ، وهذا شيء لايعهد مثله من تقادم السنين ، وفيها وزر ابن الحصين الواسطي لصاحب حلب الملك الظاهر ، ولما تولى شرع في قطع أرزاق الناس فلا أوصل الله ظلمه .

وفيها مات بطريق بقلعة الروم ، وقام بمقامه ابن أخيه فاحتال عليه ابن لاون فأخذها منه . وفيها كانت زلزلة بحلب ، وفيها كان المد بحلب حتى دخل الماء من باب الجنان ، وفاضت الأودية وبطلت الرحا وخربت ، وأصبح الناس على خطر عظيم ، وغرقت من البقر والغنم عدة وجمال بأحمالها ، وغرقت جماعة من الناس ، وخربت ثلاثمائة دار ، وانشق من باب قنسرين إلى باب أنطاكية ، وبالجملة إنه كان شيئا عجيبا .

- ٥٤١٠ -

وفيها أخذ ابن عبد المؤمن المايرقـي على جبـل زوران أسـيرا ، وقتل معظم رجاله وأسر منهم مالايحصى عدده ، ورجـع إلى مـدينة مراكش ، فسمع بخروج ملك الفرنج ألفنس إلى بلاده في الأندلس في جميع العساكر ، وتشـاوروا واتفقـوا على المسـير إلى الاندلس في جميع العساكر ، وتبعته المراكب وجمع الأمـوال وعمـل السـلاح ، ونادي بالجهاد في سبيل الله تعالى ، وسنذكر في سنة احدى وتسعين ماجرى فيها بينه وبين ملك الفرنج وكيف كانت كسرته بمشـيئة الله تعالى وفيها مات بطريق اليعاقبة ابن زرعة بمصر .

وفيها قصد خوارزمشاه بعسـكر عظيم بغـداد ، وطلب الخـطبة والسكة ودار السلطنة فخامر عليه بعض عسكره فرجع .

وفيها تواقعت الحنابلة والشفعوية والحنفية بـأصبهان ، وقتـل منهم خلق كثير .

وفيها هرب السلطان طغريل من حبس الخليفة ، وقصد همذان ، واجتمع إليه الترك وبقي شهورا ثم قتل فـأرسل رأسـه إلى بغـداد فطيف به في شوارعها .

وفيها تسلم الملك العادل من ابن اخيه المعـروف بخضر المشـمر الرقة ، وامتنع من تسليمها الوالي ابن الزعيم اياما ، وفيها بـاعت الاكراد جبيل للافرنج بستة آلاف دينار وقتلوا الوالي .

وفيها نافق الكمال الكردي وطلب برقة ، واستولى على بلد قماري سنة ، وهي قريتين بموضع يقال لها البطنان ، وهي فـوق العقبـة الكبيرة بيومين دون برقة العلوية .

وفيها قتل صاحب قسطنطينيه ، قتله أخوه وبعث صورته وانجيلا مجوهرا إلى مصر وسألهم أن يذكروه في صلواتهم .

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها تجهز الملك العزيز ، وخرج في عسكر لايوصف في قوته وكثرته وحسن عدته وكثرة خيله حتى أن الجندي يكون معه عشرة مماليك ترك وأكثر وأقل ، وأعظمهم يعمل اقطاع الجندي العشرة آلاف دينار وأكثر ، وأقل ، حتى كان عدة الجيش سبعة آلاف ، فاذا عرض يكون خمسين ألف لقوته بالمماليك والجند ، وقصد حصار دمشق ، وفيها دخل الملك العادل إلى دمشق بالعساكر ، وكاتب الملك العزيز في الرجوع فأبي ، ووصل الفوار ، ثم إن بعض عسكره تقلبت قلوبهم فرحلوا إلى الملك العادل ليلا ، ثم إن الملك العزيز رحل بعدهم طالبا القدس ، ثم أسرع منه إلى الديار المصرية خوفا أن يسبقوه إليها ، فوصل في ايام يسيرة فنهب بعض دور الذين رحلوا .

ثم وافى الملك العادل عمه بعد أيام والاسدية صحبته إلى الخيس ، فأنفذ العزيز إلى بلبيس عدة امراء أركزهم فيها ، وقواها بالذهب والميرة والعدة والرجالة ، ثم إن عسكر العادل نزلوا عليها من جانب البساتين والرمل ، ولم يلحقوا بقتال لاهو ولاأهلها اياما عدة ، ثم أراد الملك العزيز أن يستظهر أهلها بالمال والعدة والسلاح والرجال فأرسل إليهم إثنين وسبعين مركبا موسقة بالمال والرجال والسلاح والأطعمة وجميع مايحتاج إليه ، فلما توسطت المراكب في الجزائر تجري بينها خرج عليها الأسدية وعسكر الملك العادل فأخذوا المراكب وجرحوا جماعة من الجند والجيش وغرق بها بهاء الدين بن النصارو ، ولم يسلم من المراكب إلا مقدار يسير ، فعظم على الملك العزيز ماجرى وعلى الملك العادل ، ثم إن جماعة من أهل بلبيس كتبوا إلى الملك العادل أن يرحل عنهم حتى يخرجوا إليه ، فخرجوا إلى البئر البيضاء فخرجت جماعة من اهل بلبيس خلفه ، وتسلل معه اثنا عشر أميرا الذين كانوا كاتبوه ، ثم إن الملك العزيز تقرر بينه وبين عمه الصلح على ماأراد ، فسانطفأت الفتنة وجمع

الكلمة ، وكان حلفهم رحمه الله ، ودخل الملك العادل إلى القاهرة وسكن في القصر ، وألف الله بينهم *

وفيها كان بمصر غلاء عظيم ، وفيها جدد الملك العزيز الصلح مع الفرنج ، وفيها عزل زين الدين أبو يوسف قاضي القضاة بمصر وولى محيي الدين أبو حامد بن أبي عصرون القضاء بمصر . وفيها عزل ابن كهدان والي المحلة ، وولي بعده ابن بهرام . وفيها كسر ابن عبد المؤمن الفرنج ألفنش وجميع ملوك تلك البلاد بالأندلس على مدينة طليطلة ، وأسر منهم مامقداره ستون ألف إنسان ، وقتل منهم مائة ألف ، وستة عشر ألف من الفرنج ، وأخذ من السلاح مالايحصى ، وذكر أن قسمته من الدروع ستون ألف زردية ، ومن الخيل ستون ألف حصان ومائة ألف أتان .

سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

فيها عزل العادل لمحيي الدين بن عصرون عن قضاء مصر وولى زين الدين ، وفيها عصى أبو الهيجاء السمين ببيت المقدس ، وفيها خرج الملك العزيز وعمه العادل وقصدوا دمشق وصحبتهم عسكر عظيم لايوصف من كثرة الرجال والعدد ، ونزلوا ميدان الحصى ، وجرى بينهم وبين أهل دمشق حروب وقتال عظيم مدة سبعة عشر يوما ، وكان الملك الافضل نور الدين علي قد عسف بأهل دمشق مرارا ، وخرق بهم حتى أسرف في ذلك ، وكتب إليهم الملك العادل ، ووعدهم بالعدل والانصاف ومناهم ، وكاتب عز الدين الحمصي ، وكان معه باب توما من البلد فاتفقوا على أنهم يسلمون المدينة ، فأصبح الملك العزيز عبأ العدة ، وهيأ الرجالة ، وقسم الأطلاب والفرسان وشرعوا في القتال من باكر إلى الظهر ، فمضى كل أمير لداره ، ثم تفلل أهل دمشق ، ورجع الملك العزيز وأمر العسكر أن يركبوا فركبوا وحملوا جميعا وفتح لهم الباب الذي كان عليه

وجماعة من أهل البلد ، ودخل الملك العادل والملك العـزيز المدينة ولم يفقد غير شرف الدين بن البصراوي صادفته رمية سهم فمات ، ثم إن الملك العزيز عوض لأخيه نور الدين علي صرخد ، ومسـك أخـاه خضر أياما ثم خيره في المقام فأبي ، فتـوجه إلى حلب ، وعاد الملك العزيز إلى القدس وتسلمه من أبي الهيجاء السمين بعـدما حلف له عن نفسه وماله . وفيها مات سابق الدين صاحب شيزر .

وفيها كان الغلاء بمصر ، وفيهاخـرج الملك العـزيز إلى الداروم وغزة وجدد الصلح مع الفرنج ثلاث سنين . وفيها عزل ابن الجويني عن الاسكندرية وتولاها سنقر الكبير . وفيها مسك ابـن المنذر بمصر وقيد لسبب رواحه إلى اليمن وفيها عزل ابن شكر صـاحب الديوان بمصر ، وتولى ابن حمدان وفيها جاءت ريح شديدة مـزعجة كثيرة الرمل بمصر .

وفيها مسك الملك الظاهر صاحب حلب العلم ابن ماهان وقطع يده وأنفه وأذنيه وأصابع يده اليمنى ، وركبه حمارا وأشهره بحلب ، وسبب ذلك أنه ولاه اللاذقية فعصى وحلف الأجناد له .

وفيها مات وزير الخليفة المعروف بابن القصاب ببغداد . وفيهـا أمر الملك العزيز بهدم الاهـرام بمصر فـابتدأ فيهـا بنقض الهـرم الصغير الغربي ، وهو صوان سماقي فهدموا بعضه ، وعجزوا عن باقية ، وسبب هدمهم حاجتهم إلى الحجارة الصوان ليبنوا بها برج دمياط .

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ـوفيها فتح المايرقي إفريقية ، وبجاية ، وقلعة ابن حماد ، وعدة مدن بسبب اشتغال ابن عبد المؤمـن ببـلاد الأندلس ، وأوغل حتـى وصل إلى القصبات متاخم لبلاد الأمان بعد ماكسر الفنش ، ووصل

الى طليطله وأشرف على أخذها ، وفتح عدة مدن من بلاد الفرنج ، وغنم المسلمون مالايحصى .

وفيها كانت زلزلة بمصر ، وفي جمادى الآخرة جاءت شديدة مزعجة ورمل كثير أصفر ليلا ، وكان الناس يرون في أثناء السماء نارا ، فأصبحوا على خوف عظيم ، وفيها مات أبو الهيجاء السمين ببلاد الشرق بعد انفصاله من الخليفة ، وفيها تولى عز الدين بن الجويني القاهرة ، وعزل ابن حمدان ، وأودع السجن هو وأخوته ، وطلب منهم أموالا وغيرها ، وفيها نزل سيف الدين بن يوسف الدمشقي عن القضاء بمصر ، وولى صدر الدين بن درباس .

وفيها نزل الفرنج بمرج عكا وخرج الملك العادل من دمشق وصحبته عسكر الشرق ، وأنفذ الملك العزيز العساكر من مصر فالتقوا الملك بمرج عيون ، واجتمع العسكران وشنوا الغارة على الفرنج ، وأخذوا منهم جماعة ، ثم إن العادل قصد مدينة يافا ببعض العساكر ، وأيد الله المسلمين ، ففتحوا يافا بالسيف ، وأخذوا منها مقدار عشرة آلاف نفس ، وأخذوا من العدة والميرة والمال شيئا لايحصى ، وأخذ ابن الست الذي كان بهاء الدين أسره بعكا وأنفذه السلطان إليه وظفر به .

وبها جهز الملك العزيز أسطول مصر ، واسكندرية ، ودمياط ، وأربعة غربان وقصدوا بلاد الفرنج ، فأخذوا عدة بطس ، من جملتهم ثلاثة بطس فيهم من الأموال والخيالة والعدد مايضيق شرحه في هذا المختصر ، وأحرقوا فيها مركبا كبيرا ، وأن ملوك الفرنج والبطريق الذي لهم ذكروا أن فيه خمسين صندوقا موسقة ذهبا وفضة ، وكان لهم مدة سبع سنين يجمعونها من سائر بلاد الفرنجية فغرقت في البحر ، ولم يقدر المسلمون على شيء منها ، ولا وصلوا إليها من كثرة النيران ، ثم أنهم أتوا بالجميع إلى الديار المصرية ، وكان لوصولهم يوم عظيم وفتح جسيم .

ـ ٥٤١٥ ـ

وفيها تجهز الملك الشمر وقصد الساحل ، وفيهـا مـات سـيف الاسلام أخو الملك الناصر ، وملك بعده اليمن ولده .

والى هاهنا انتهى

الحواشي

حواشي ابن القلانسي :

(١) كذا في الاصل ولم اجدها في المظان الجغرافية وسواها .
(٢) كذا بالاصل ، والاصح ، وأغارت،
(٣) كثيرون من سكان المنطقة كانوا من غير المسلمين ، من الارمن .
(٤) حصن منيع في منطقة الثغور كان من اعمال حلب . معجم البلدان .
(٥) مدينة كانت ذات شهرة كبيرة ، فيها آثار كثيرة ، وتتبع البارة اداريا لمنطقة اريحا في محافظة ادلب في سورية .
(٦) من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة . معجم البلدان
(٧) إن الاميرة اناكومينا افضل من تحدث عن وصول حشود الصليبيين الى القسطنطينية ووصف علاقاتهم بالامبراطور الكسيوس كومنين ، ثم قص خبر سقوط نيقية . وكيف آلت ملكيتها الى البيزنطيين ، وقد أودعت هذا كله في كتابها عن حياة ابيها الذي حمل عنوان «الالكسياد» . انظر الجزء المترجم من هذا الكتاب في الجزء السادس من موسوعتنا هذه .
(٨) هو فيروز في مصادر اخرى .
(٩) انظر تفاصيل هذا في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٨ ـ ٢٤٢ .
(١٠) انوشتكين الدانشمند ، وعند ابن العديم حدثت المعركة في ارض مرعش ، زبدة الحلب ٢ . ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

(١١) كان جوسلين هو كونت الرها ، وقد ارخ كاتب سرياني مجهول لملكة الرها حتى سقوطها ، ونص هذا المؤرخ هو بين محتويات موسوعتنا هذه .
(١٢) في ترجمة جناح الدولة حسين لابن العديم جاء ، وكان قتله ... بتدبير الحكيم ابي الفتح المنجم الباطني ، ورفيقه ابي طاهر ، وقيل كان بأمر رضوان ورضاه » . انظرها في كتابنا هذا .

(١٣) في بغية لابن العديم : « وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات » . انظرها في ترجمة جناح الدولة في كتابنا هذا .
(١٤) تكررت « وأرهقت بالاصل »
(١٥) كذا في الاصل ، وفي الذفس شيء منه ، ولم اجد في المتوفر من المصادر المتوفرة مما يفيد حوله ، ولعل العبارة « بنا » زائدة فحين أورد سبط ابن الجوزي الخبر قال « وكان واليها زهر الدولة الجيوشي » .
(١٦) اقيم هذا الحصن على تلة ابي سمرة الحالية الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا ، وهي كانت تعرف بتلة الحجاج . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي : ٩٥ ـ ٩٦ .
(١٧) جبال النصيرية او العلويين حاليا .

(١٨) هناك مطابقة شبه كاملة بين رواية ابن القلانسي هذه ، وما جاء عند ابن العديم في زبدة الحلب : ٢ ١٥٠ ـ ١٥١ ، وفي بغية الطلب يقدم ابن العديم في ترجمة رضوان تفاصيل اضافية ، انظرها في كتابنا هذا .
(١٩) كذا بالاصل ، ولم أهتد الى هذا الاسم .

الحواشي

حواشي ابن القلانسي :

(١) كذا في الاصل ولم اجدها في المظان الجغرافية وسواها .
(٢) كذا بالاصل ، والاصح ، وأغارت،
(٣) كثيرون من سكان المنطقة كانوا من غير المسلمين ، من الارمن .
(٤) حصن منيع في منطقة الثغور كان من اعمال حلب . معجم البلدان .
(٥) مدينة كانت ذات شهرة كبيرة ، فيها آثار كثيرة ، وتتبع البارة اداريا لمنطقة اريحا في محافظة ادلب في سورية .
(٦) من كور حلب المشهورة في غربيها بينها وبين المعرة . معجم البلدان
(٧) إن الاميرة اناكومينا افضل من تحدث عن وصـول حشـود الصـليبيين الى القسطنطينية ووصف علاقاتهم بالامبراطور الكسيوس كومنين ، ثم قص خبر سقوط نيقية . وكيف الت ملكيتها الى البيزنطيين ، وقد أودعت هذا كله في كتابها عن حياة ابيها الذي حمـل عنوان «الالكسياد» .
انظر الجزء المترجم من هذا الكتاب في الجزء السادس من موسوعتنا هذه .
(٨) هو فيروز في مصادر اخرى .
(٩) انظر تفاصيل هذا في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية · ٢٣٨ ــ ٢٤٢ .
(١٠) انوشتكين الدانشمند ، وعند ابن العديم حدثت المعركة في ارض مرعش ، زبدة الحلب ٢ . ٥٠٨ ــ ٥٠٩ .

(١١) كان جوسلين هو كونت الرها ، وقد ارخ كاتـب سرياني مجهـول لملكة الرهـا حتـى سقوطها ، ونص هذا المؤرخ هو بين محتويات موسوعتنا هذه .
(١٢) في ترجمة جناح الدولة حسين لابن العديم جاء ، وكان قتله ... بتدبير الحكيم ابـي الفتـح المنجم الباطني ، ورفيقه ابي طاهر ، وقيل كان بأمر رضوان ورضاه » . انظرها في كتابنا هذا .

(١٣) في بغية لابن العديم · « وبقي المنجم الباطني بعده أربعة وعشرين يوما ومات » . انظرها في ترجمة جناح الدولة في كتابنا هذا .
(١٤) تكررت ، وأرهفت بالاصل ،
(١٥) كذا في الاصل ، وفي النفس شيء منه ، ولم اجد في المتوفر من المصـادر المتـوفرة مما يفيد حوله ، ولعل العبارة ، بنا ، زائدة فحين أورد سبط ابن الجوزي الخبر قال « وكان واليها زهـر الدولة الجيوشي » .
(١٦) اقيم هذا الحصن على تلة ابي سمرة الحالية الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا ، وهي كانت تعرف بتلة الحجاج . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي · ٩٥ ــ ٩٦ .
(١٧) جبال النصيرية أو العلويين حاليا .

(١٨) هناك مطابقة شبه كاملة بين رواية ابن القلانسي هذه ، وما جاء عند ابـن العـديم في زبـدة الحلب : ٢ ١٥٠ ــ ١٥١ ، وفي بغية الطلب يقدم ابن العديم في ترجمة رضوان تفاصيل اضـافية ، انظرها في كتابنا هذا .
(١٩) كذا بالاصل ، ولم أهتد الى هذا الاسم .

(٢٠) يعرف هذا الموقع الآن باسم ، العال ، وهو واقع في محافظة القنيطرة ، منطقة فيق ، ويبعد عن فيق مسافة ٧ كم / وعن القنيطرة ٤٩ كم . انظر التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية . ط . دمشق ١٩٦٨ : ٤٠ .

(٢١) في الاصل ، بأبي الفتح ، وهي مصحفة صوابها ما أثبتنا ، وذلك عن خط ابـن العـديم في كتابه بغية الطلب في ترجمته لابن ملاعب .

(٢٤) في معجم البلدان تبنين في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٢٥) لم اجد هذا الموقع في المصادر المتوفرة ، وهو لا شك على مقربة من منطقة الشـيخ مسـكين الحالية في سورية .

(٢٦) هي بلدة أزرع الحالية في حوران ـ انظر معجم البلدان .

(٢٧) السن بليدة على دجلة في أعلى تكريت ، عندها يصب الزاب الاصغر الى دجلة . تقويم البلدان : ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٢٨) في الاصل ، الصورة ، وهي تصحيف صحح من مرآة الزمان حيث ينقل رواية ابن القلانسي هذه ـ اخبار سنة ـ ٥٠٠ هـ ـ .

(٢٩) سيكون بين حصون الدعوة الاسماعيلية في منطقة مصياف . انظر تقويم البلدان : ٢٢٩ .

(٣٠) تحدث وليم الصوري في تاريخه ـ الترجمة الانكليزية ١ ، ٥٣٨ ـ ٥٣٩ عن حمله طغتكين هذه لكنه لم يذكر جرفاس هنا بين رجال ملك القدس أو المدافعين عن طبرية .
واورد سبط ابن الجوزي هذا الخبر فقال : ، وفيها أغار طغتكين على طبرية ، وبها جرفاس مقـدم الفرنجة ، وكان من أكبر الملوك فخرج من طبرية ، والتقوا فقتل أتابك منهـم مقتلة عظيمـة ، وأسر جرفاس وخواصه ، فبذل في نفسه اموالا عظيمة ، فلم يقبل منه ، وبعث به وبأصحابه .

(٣١) كانت عرقة هي الخط الدفاعي الاول عن طرابلس ، تقـع على سـاحل البحـر وتبعـد عن طرابلس مسافة اثنتي عشر ميلا . تقويم البلدان : ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣٢) في الاصل ، واليا ، وهي تصحيف صوابه ما أثبتناه .

(٣٣) لم اجد هذا الحصن في المظان المتوفرة ، وفي الكامل لابن الاثير ٨ ، ٢٥٦ ما يفيد اثبـاته حول عرقه ، فقد ذكر ان حصن عرقه وهو من الحصون المنيعة ، انقـطعت عنه الميرة لطـول مـكث الفرنج في نواحيه ، فأرسل ـ صاحبه ـ الى أتابك طغتكين صاحب دمشق ، وقال له : ارسل مـن يتسلم هذا الحصن مني ، قد عجزت عن حفظه ، ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخرة مـن أن يأخذه الفرنج ، فبعث اليه طغتكين صاحبا له اسمه اسرائيل في ثلاثمائة رجل يتسلم الحصن ، فلما نزل غلام ابن عمار منه رماه اسرائيل في الاخلاط بسهم فقتله ، وكان قصده بـذلك أن يطلع اتـابك طغتكين على ما خلفه بالقلعة من المال وأراد طغتكين قصد الحصن للاطلاع عليه وتقويته بـالعساكر والاقوات والات الحرب ، فنزل الغيث والثلج مدة شهرين ليلا ونهـارا ، فمنعـه ، فلمـا سـمع ، الفرنج ...

(٣٤) من أجل النزاع بين وليم جوردان السرديني ، وبرتراند الابن الاكبر لريمـوند الصـنجيلي وعلاقة ذلك بحصار طرابلس ، انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي : ١١٧ ـ ١٣١ .

(٣٥) انظر كتاب طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ١١٧ ـ ١٣١ .

(٣٦) قال ياقوت عن المنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس .

(٣٧) قلعة صغيرة في شمالي لبنان (٢٥ ميلا تقريبا الى الشمال الشرقي من طرابلس) تـربض فوق جرف على السفوح الشمالية لجبل عكار .

(٣٨) قلعة ومدينة صغيرة في وسط سورية الى الغرب من مدينة حماة ، تقـع فـوق تـل متدرج الانحدار في الشعاب الشرقية لجبال النصيرية .

(٣٩) لم اجد هذا الحصن في المظان حتى احدد مكانه .

(٤٠) تعرف الآن باسم قلعة الحصن في وسط سـورية الى الغـرب مـن حمص في منطقـة وادي

النضارة ، موقعها ممتاز فوق ذروة مرتفعة تزيد عن ٢١٠٠ قدم وتحيط بها من جميع جهاتها مدرجات متوسطة الانحدار

(٤١) ترسم الآن ، صلخد ، وهي مركز منطقة تابعة لمحافظة السويداء ، وقد وصفها ابو الفداء في تقويم البلدان ٢٥٨ ـ ٢٥٩ بقوله وهي بلدة صغيرة ذات قلعة مرتفعة وكروم كثيرة ، وليس لها ماء سوى مايجمع من الامطار في الصهاريج والبرك ومن شرقها تسلك طريقا تعرف بالرصيف الى العراق

(٤٢) في الاصل ، الى دمشق ، وهو غير مستقيم المعنى قوم من مراة الزمان ـ اخبار سنة ـ ٥٠٣ ـ حيث نقل رواية ابن القلانسي هنه

(٤٣) في الاصل ، بعض خراج اهلها ، وهو غير مستقيم المعنى ، وفي مراة الزمان عن ابن القلانسي ، وحط بعض الخراج ، لذا تم التقويم

(٤٤) يعرف الان باسم ، تل باجر ، وهو تابع اداريا لمنطقة جبل سمعان ، احدى مناطق محافظة حلب .

(٤٥) كان جمع العساكر الاسلامية موسميا خاضعا لقواعد الاقطاع العسكري

(٤٦) هي قلعة حصينة بين حلب وانطاكية . اللباب في تهذيب الانساب لابن الأثير ط بيروت ١٩٨٠

(٤٧) اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير ٨ ٢٦٠

(٤٨) في تقويم البلدان ١١٨ ـ ١١٩ ، وتنيس جزيرة في مصر في وسط بحيرة تعرف ببحيرة تنيس قريبة من ماء البحر ، المتوسط

(٤٩) اسمه الآن نبع السريا قرب قرية فقيع بحوران بين جاسم ونوى ، جرت مياهه الى قرية الشيخ مسكين ويبعد عن دمشق مسافة ٧٠كم .

(٥٠) على الطريق الدولية التي تصل دمشق بدرعا ، وتبعد عن دمشق حوالي ١٥ ميلا

(٥١) في الاصل سنجتان ، وقد ضبطه امدروز سنجتان ولم أجد لهذا الموقع من ذكر في المصادر الجغرافية ووجدت في الباهر لابن الأثير ١٧٠ ، شبختان ، حيث قال ، فما بلغني منها ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بالشام ، ففتح في طريقه قلاعا من شبختان كانت للفرنج ، وشبختان كما يستنتج من ياقوت هي في بلاد الارمن في ديار ربيعة . انظر زبدة الحلب ٢ ١٥٨

(٥٢)في الاصل ،تل مراد ، وهو تصحيف صوابه ما اثبتنا . ففي معجم البلدان ، تل قراد حصن مشهور في بلاد الارمن من نواحي شبختان

(٥٣) احمديل الكردي صاحب مراغة أعظم بلاد اذربيجان وأشهرها ، ترجم له ابن العديم في بغية الطلب انظر محتويات هذه الترجمة في كتابنا هذا

(٥٤) انظر تفاصيل خبر هذا وآثاره في ترجمة رضوان في بغية الطلب لابن العديم . المنشورة في كتابنا هذا .

(٥٥) في الاصل ، ولده ، وهو تصحيف صوابه ما اثبتناه .

(٥٦) سكمان القطبي هو صاحب ميافارقين ، وكان قبل ذلك يمتلك اخلاط ، وتحدث الفارقي في تاريخه : ٢٤٧ ـ ٢٧٨ عن تسلمه لميافارقين ثم مشاركته في حملة مودود حتى وفاته . ورواية الفارقي لها اهمية خاصة لان حوادثها وقعت في منطقة هو مؤرخها ، يقول الفارقي: ، وفي الخميس العشرين من جمادي الاولى سنة اثنتين وخمسمائة نزل الامير سكمان صاحب اخلاط الى ميافارقين وحاصرها ، وكان تشرين الأول من السنة ، وحاصرها وضايقها وكانت شتوة صعبة ، وبقي يحاصرها سبعة أشهر ، ثم سلمها اليه اتابك تمر تاش بعد ذلك في شوال سنة اثنتين وخمسمائة ، ودخل ميافارقين ... واقام بميافارقين ، وازال عنهم الكلف والمؤن والأعشار والاقساط واسقط دار الضرب ، وما كان جدده المحتسب واتابك واتخذوه من الرسوم ، وحط عن الناس اشياء كثيرة ، واطلق العشر للسور ، واجرى الناس على املاكهم ، وخفف عنهم من

الخرج ، وازال عنهم جميع اسباب الظلم ، ونزل في القصر واليا مملوكه غزغلي وسلم البلد الى خواجا اثير الدولة ابو الفتوح ، وبقي الناس معه على كل خير .... وفي سنة اربع وخمسمائة نزل الامير سكمان الى ميافارقين ، وقصد الرها ومعه عساكر عظيمة فمات هناك ، ووصل تابوته الى ميافارقين ، وحمل الى اخلاط ودفن بها ... وفي سنة ست وخمسمائة نزل الامير سكمان الى ميافارقين ، وقصد الرها ومعه عساكر عظيمة فمات هناك ، ووصل تابوته الى ميافارقين ، وحمل الى اخلاط ودفن بها .... وفي سنة ست وخمسمائة وصلت خاتون زوجة الامير شط ساتيدما الى باب الشعب الى شط ارزن مقدار ستمائة ضيعه ، لماردين نجم الدين ايلغازي بلد العناضلة من قاطع دجلة الى جبل الصور مقدار ثمانين ضيعة ، واخذ الامير فخر الدولة ابراهيم صاحب امد مقدار ثلاثين ضيعة من شرقي نهر الحو ، واخذ الامير شاروخ صاحب حاني راس الجسر الاعلى ، واخذ الامير احمد صاحب ابن مروان (وهو ابن الامير نظام الدين) بلغ الهتاخ ، واخذت السناسنة مقدار ثلاثين قرية من غاب الجوز وما حوله داخل راس السلسلة ، واخذ حسام الدولة صاحب ارزن خمسا وعشرين قرية من بين النهرين ، وكان ذلك لاختلاف الولاة وتغير الدول .

وقال ايضا ان في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة نفذ السلطان الى الرزبيكي رسولا يامره أن يسلم ميافارقين الى نجم الدين ايلغازي ، فحضر وسلمها اليه ، وملكها وخرج الرزبيكي ونزل على الروابي ، واقام ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع وصله رسول من السلطان يامره أن لا يسلم ، فوجد الامر قد فات ، واستقر نجم الدين بميافارقين ، واظهر العدل والانصاف والاحسان الى الناس .

(٥٧) اي صدو هم وذفوهم . النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير .

(٥٨) كذا في الاصل ، وفي مرآة الزمان ـ اخبار سنة ٥٠٥ هـ ـ ، الجيش ، وفي الكامل لابن الاثير ٨ / ٢٨٤ ، في اخبار سنة ٥١٢ هـ اخذ الفرنج حصنا من اعمال طغتكين ، يعرف بالحبس ، ويعرف بحصن جلدك ، سلمه اليهم المستحفظ به ، وقصدوا اذرعات ، وهذا يفيد وجود هذا الحصن قرب درعا ، ومفيد هنا الاشارة الى الاسم القديم من درعا ، وهو اشبه بالقلعة يدعوه السكان هناك ، الكرك ، اي الحصن ....

(٥٩) في مرآة الزمان ـ اخبار سنة ٥٠٥ هـ ـ ، فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب ، فعمل كباشا في اخشاب ، تدفع البرج الذي يلصقونه بالسور . ثم تحيل في حريق البرج الكبير فاحترق ، وخرج المسلمون فاخذوا منه الات واسلحة فحينئذ ياس الفرنج ، فرحلوا واحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والاخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها ، وجاءهم طغتكين فما سلموا اليه البلد فقال : انا ما فعلت ما فعلت الا لله تعالى لا لرغبة في حصن ولا مال . ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي ، ورحل عنهم ، .

(٦٠) لعل المراد ، نشارة الخشب ، .

(٦١) كذا في الاصل . بدران ، وهو تصحيف صوابه برتران . انظر تاريخ طرابلس ١٤٦ ـ ١٤٩ ، ويلاحظ ان تعريب ابن القلانسي لاسماء قادة الصليبيين متفق على العموم مع القاعدة التي اعتمدها المؤرخون العرب .

(٦٢) جعله من خيله اي من فرسانه ، واسم ابن برتران ، بونز ، وترسمه المصادر العربية ، بنص ، انظر طرابلس الشام : ١٥٠

(٦٣) قال عنها ياقوت : قلعة حصينة في سواحل حمص ، ويستفاد من أبي الفداء ٢٩ انها كانت بين بانياس وطرطوس .

(٦٤) في الاصل ، غارب ، وهو تصحيف قوم من معجم البلدان ، والمقصود هنا صحراء الذئب .

(٦٥) كذا في الاصل ، وقد لحق الاسم تصحيف ، فهو ، طوروس الاول ، [١١٠٠ ـ ١١٢٢] بارون دولة أرمنية الصغرى التي قامت مع نجاح الحملة الصليبية الاولى . وتمركزت في المنطقة الواقعة فيما بين طرطوس وعين زربة . انظر القلاع ايام الحروب الصليبية ط . دمشق ١٩٨٢

٣١ ـ ٣٤ صفحات من تاريخ الأمة الارمنية لعثمان الترك ط حلب ١٩٦٠ ١٣٤ ـ ١٣٥
(٦٦) يرسمه ابن العديم في زبدة الحلب ٢ ١٦٣ روجار وهو اصح من رسم ابن القلانسي.

(٦٧) فراغ بالاصل ، وجميع الذين تعرضوا لهذا الموضوع لم يأت واحد منهم على ذكر هذه التفاصيل حتى وليم الصوري ١ ٤٩٧ ـ ٥٠٠ اكتفى بذكر اسباب الخلاف بين بلدوين صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر ، وبين انها اسباب مالية ، ووصف القاء القبض على جوسلين وطرده الى مملكة القدس ، وكذا فعل ابن الاثير في الكامل ٨ ٢٦٥ ـ ٢٦٦ الباهر ١٧ ـ ١٩ . ورسم الناسخ في هذه الصفحة اسم الحصن الاول مرة تصابين ومرة ثانية تمنين وحيث ان المنطقة هي جبل عاملة وجدت في كل من الاعلاق الخطيرة ـ قسم الاردن ١٥٢ وصبح الاعشى ٤ ١٥١ ـ ١٥٢ هونين وتبنين حصنان بنيا بعد الخمسمائة بين صور وبانياس بجبل عامل وهنا رجحت ان يكون اسم تمابين ، تمنين مصحف صوابه تبنين ، وبناء على هذا قدرت ان الاسم الساقط هو هونين
(٦٨) هي بحيرة قطينة قرب حمص
(٦٩) على مقربة من الحدود السورية اللبنانية بعد (المصنع) قرب قرية عنجر الحالية
(٧٠) في الاصل تمنين انظر الحاشية (٦٧) المتقدمة
(٧١) الصنبرة موضع بالاردن مقابل لعقبة افيق بينه وبين بحيرة طبرية ثلاثة اميال معجم البلدان

(٧٢) لم يذكر وليم الصوري هذه الواقعة حتى نحدد هوية الكنيسة هذه
(٧٣) بحيرة طبرية
(٧٤) كذا في الاصل وفي الدفن شيء منه ، فكلاب ديارها في شمال الشام وكلب في الجنوب
(٧٥) اي انقطع وانفرد النهاية لابن الاثير
(٧٦) لم اجده في المصادر
(٧٧) كذا وهذا التاريخ مبكر ، فوفاته كانت سنة ٥١٢ هـ ١١١٨م وسيذكره المؤلف ثانية في اخبار سنة ٥١٢ وبعدما توفي خلفه بلدوين الثاني صاحب الرها انظر حول هذا كله تاريخ وليم الصوري ـ بالانكليزية ١ ٥١٤ ـ ٥٢٢ الكامل لابن الاثير ٨ ٢٨٤
(٧٨) كذا في الاصل وهو وهم ، فبرتران كان توفي سنة ٥٠٥ هـ ١١١٢ م وخلفه ابنه بونز وقد سبقت الاشارة الى ذلك انظر كتاب طرابلس الشام ١٤٩ ـ ١٥٢
(٧٩) حوت جيوش الفرنجة عدة نوعيات من الاسلحة تقدمها سلاح الفرسان الثقال من طبقة النبلاء الاقطاعية ، وتلاهم السرجندية وهم رجالة ثقال كانت تجندهم الكنائس والديرة وتنفق هذه المؤسسات عليهم ، وغالبا ماكان السرجندية ضعف عدد الفرسان الثقال وبعد هؤلاء جاء الخيالة او الفرسان الخفاف التركبول ثم الرجالة العاديين والحجاج وكان الجزء الاكبر من الصنفين الاخيرين من المرتزقة افضل مصدر حول هذا الموضوع كتاب فن الحرب في الحروب الصليبية (بالانكليزية) تاليف ر سميل ط لندن ١٩٦٧
(٨٠) قتل في معركة قرب عفرين قادها ضده ايلغازي بن ارتق الكامل لابن الاثير ٧ ٢٨٨ ـ ٢٨٩
(٨١) هو الكسيوس كومنين افضل مصدر عنه كتاب الالكسياد لابنته الاميرة انا كومنينا
(٨٢) في الاصل كند هو الملك واضيف ما بين الحواصر كيما يستقيم السياق ، هذا وسبق المؤلف ان ذكر وفاة بلدوين الاول في اخبار سنة ٥٠٨
(٨٣) اضيف ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق
(٨٤) سبق للمؤلف ان اشار الى هذه الواقعة باختصار في اخبار السنة الماضية
(٨٥) كذا في الاصل ولم اجد بين المصادر من اتى على ذكر مجيء اسطول بحري يقوده كونت ما ، او حتى قيام بلدوين الثاني او سواه من قادة الفرنجة بالشام بعمل بحري كل ما هنالك ان وليم

الصوري تحدث عن قدوم اسطول البندقية على راسه الدوج دومنجو ميشيلي الى ساحل يافا في سنة ٥١٧ هـ ١١٢٣ م اي بعد ثلاث سنوات . وكان بلدوين الثاني اسيرا آنذاك لدى الامير الارتقي بلك . وسيذكر ابن القلانسي هذا كله

(٨٦) ذكر المؤرخ السرياني المجهول بالتفصيل واقعة اسر جوسلين وقريبه جاليران وسجنهما في حصن زياد (خرتبرت) وروى انه عندما غادر بلك حصن زياد قال لجوسلين سوف اجلب الملك بلدوين ليكون معك ان شاء الله وهكذا كان بعد سنة

(٨٧) في الاصل الامير بدر الدولة بن ايل غازي بن ارتق وهو وهم فسليمان بن ايل غازي تسلم ميافارقين . انظر زبدة الحلب ٢ ٢٠٩ ـ ٢١٠ الكامل لابن الاثير ٨ ٣١١

(٨٨) كركر حصن بين سميساط وحصن زياد ـ خرتبرت أو خربوط معجم البلدان

(٨٩) في الاصل بالقرب من منظرة وقد الم بالجملة سقط وتصحيف . استدرك ذلك من زبدة الحلب ٢ ٢١١ حيث جاء فيه بالقرب من قنطرة سنجة وفي معجم البلدان سنجة نهر عظيم لايتهيا خوضه لان قراره رمل سيال كلما وطئه الانسان برجله سال به فغرقه . وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر . وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي احدى عجائب الدنيا . وهي طاق واحد من الشط الى الشط

(٩٠) انظر الحاشية رقم ٤٩ المتقدمة

(٩١) كذا بالاصل . وهناك سقط بالرواية واضطراب . وذكر هذه الواقعة ابن العديم . زبدة الحلب ٢ ٢١٣ ـ ٢١٤ وسواه . إنما من الملاحظ ان معلومات المصادر العربية حول هذه الحادثة لاتفي بالغرض . ولحسن الحظ ان المؤرخ السرياني المجهول تحدث عنها باسهاب

(٩٢) اضيف ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق

(٩٣) لم اجد هذا الموقع في المعاجم والمصادر الجغرافية .

(٩٤) لم أقف على ذكر لهذا الموقع في المتوفر من المصادر

(٩٥) كان هناك تحالف بين الحشيشية وسلطات دمشق . انتهى هذه السنة بصدام بين الطرفين وبتوجيه ضربة قاصمة للاسماعيلية

(٩٦) هو فولك صاحب انجو . زوج ميليسند اكبر بنات بلدوين الثاني انظر تاريخ وليم الصوري ٢ ٤٧ ـ ٥١

(٩٧) فراغ بالاصل . ويبدو ان ذلك حصل في اواخر ذي القعدة حيث جاء في الكامل لابن الاثير ٨ ٣٢٩ ووصل الفرنج في ذي الحجة فنازلوا البلد . وارسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاغارة على البلاد

(٩٨) ذكر ياقوت اكثر من موقع يحمل هذا الاسم واكتفى عند احدها بقوله موضع بالشام . وبناء على معطيات المصادر العربية مع وليم الصوري . فان موقع براق هو في حوران . بعد منطقة مرج الصفر حيث كان معسكر الفرنجة . وفي منطقة ازرع التابعة لمحافظة درعا قرية ما تزال تحمل اسم براق . من المرجح انها المقصودة . وتبعد براق هذه عن درعا مسافة ١١٢ كم وعن ازرع ٨٢كم وعن مركز ناحية المسمية ٢٠ كم انظر التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ط دمشق ١٩٦٨ . ص ٥٠

(٩٩) هو وليم دي بري كان يمتلك موقعا على مقربة من صور قاد حسب وليم الصوري ٤٠ ـ ٤٢ . أكثر من الف من الفرسان انطلق بهم من مرج الصفر حيث كان معسكر الفرنجة . وقد وصف وليم مقتل هؤلاء الفرسان ثم هزيمة جيوش الفرنجة واحوال المناخ السيء آنذاك . ومع هذا تبقى معلومات ابن القلانسي اكثر دقة واوفى بالتفاصيل

(١٠٠) قال ياقوت زردنا بليدة من نواحي حلب الغربية . ويجعل كل من ابن الاثير في كتابه الباهر ٣٩ ـ ٤١ . والمؤرخ السرياني المجهول العملية احتلال لزردنا من قبل زنكي . انما مع اختلاف في التاريخ

(١٠١) هو محمد بن غازي خلف اباه سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م حسب رواية المؤرخ السرياني وفي

الكامل لابن الاثير ٨ ٢٤٤ قال في اخبار سنة ٥٢٨ - في هذه السنة اوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام . فقتل كثيرا منهم . ولم يذكر لا ابن الاثير ولا سواه الايقاع بفرنجة قادمين من القسطنطينية

(١٠٢) هو سيف الدين سوار من كبار قادة اتابك زنكي انظر زبدة الحلب ٢/٢٥١ . والحادث عنده سنة ٥٢٦ هـ

(١٠٣) هو بونز بن برتران - انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ١٥١

(١٠٤) اضيف ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق . انظر الكامل لابن الاثير ٨ ٢٤١

(١٠٥) بعرين الآن احدى قرى محافظة حماه . تابعة لمنطقة مصياف . وهي تبعد عن مدينة حماه ٢٤ كم وعن بلدة مصياف ١٧ كم التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ١٤٤

(١٠٦) في ياقوت هي احدى قرى جبل السماق من اعمال حلب

(١٠٧) ذكر بعضهم ابن العديم في زبدة الحلب ٢ ٢٥٢

(١٠٨) كذا بالاصل ولم اهتد الى هذا الموقع

(١٠٩) كذا بالاصل . والنقرة موقع خارج حلب . وقد اكتفى ابن العديم في زبدة الحلب ٢ ٢٥٢ بالقول . وتحول الفرنج الى النقرة فصابحهم سوار والعسكر فأوقعوا بسرية منهم فقتلوهم وعادوا برؤوسهم واسرى منهم

(١١٠) اضيف ما بين الحاصرتين توضيحا . انظر زبدة الحلب ٢ ٢٥٢

(١١١) كذا وهذا فيه بعض البعد عن الاصل جون - اويوحنا

(١١٢) هو ليو بن رافين انظر صفحات من تاريخ الامة الارمنية . ١٣٥ - ١٣٧

(١١٣) هو ريموند بن كونت بويتو انظر تاريخ وليم الصوري (بالانكليزية) ٢ ٥٩

(١١٤) لعله الحصن الذي نال اسم يحمور فاسمه بالافرنجية الحصن الاحمر انظر القلاع ايام الحروب الصليبية ط ١ دمشق ١٩٨٢ (ترجمة لكتاب فولفغانغ مولر - فينر) ص ٦٤ طرابلس الشام ١٥١ - ١٥٢

(١١٥) يريد به صلاح الدين محمد الياغيسياني انظر كتاب الباهر ٣٤

(١١٦) مع وضوح المعنى يبدو ان هناك سقط بالسياق

(١١٧) فولك اوف انجو

(١١٨) انظر الكامل لابن الاثير ٨ ٣٥٧ - ٣٥٨ وليم الصوري ٨٥ - ٩١

(١١٩) مازالت تعرف بهذا الاسم في منطقة طرابلس في لبنان

(١٢٠) كذا بالاصل . وهو مضطرب ويمكن ان يكون صوابه . في عسكره عن شيزر الى ناحية بعرين فالامبراطور البيزنطي حاصر شيزر . وهذا ما سيفصل خبره المؤلف بعد قليل . وهو ما اتت على ذكره جميع المصادر . هذا وسيشير المؤلف ايضا انه بعد عودة الامبراطور الى انطاكية . بعد ما اخفق في أخذ شيزر توجه من انطاكية نحو بزاعة حيث اخذها

(١٢١) كان قوام الجيوش البيزنطية من المرتزقة . وشكل الخزر الاتراك قسما كبيرا من هؤلاء المرتزقة

(١٢٢) اضيف ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق

(١٢٣) المصاع الجلاد والضراب النهاية لابن الاثير

(١٢٤) انظر زبدة الحلب ٢ ٢٧٧

(١٢٢٥) ذكر المؤرخ السرياني المجهول ان الامبراطور وصل الى طرطوس . ومعه جيش كبير . واخذ يعد الترتيبات لغزاة كبرى في سورية . واثناء ذلك خرج الى الصيد فأصيب ذراعه بجراح سبب له تورما شديدا دعا الى وفاته بعد أيام وقد قاد هذا الى عودة الجيش الى القسطنطينية

(١٢٦) هو فولك اوف انجو . آل الحكم بعد وفاته الى ولده بلدوين الثالث مع امه ميليسند انظر تاريخ وليم الصوري ١٣٦ - ١٤٠

(١٢٧) انظر زبدة الحلب ٢٠ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(١٢٨) عين زين الدين علي كوجك صاحب اربيل وشهر زور حاكما على الرها . هـذا مـا ذكره المؤرخ السرياني المجهول .

(١٢٩) اورد ابن الاثير في كتابه الباهر تفاصيل عظيمة عن حوادث الموصل الانقلابية ضد زنكي ٧١ ـ ٧٢ .

(١٣٠) الم بالنص سقط لم اتمكن من جبره من المصادر العربية المتـوفرة ، وقـد تحـدث المؤرخ السرياني أن أحد قادة جوسلين صاحب الرها . واسمه روبرت السمين قام بعدما انضـم اليه عدد من قادة الفرنج بالتوجه نحو البيرة لساعدتها فنال عظيم الاخفاق .

(١٣١) في الأصل « وترحيلهم » وهو تصحيف صوابه ما اثبتنا .

(١٣٢) لم أجدها في المصادر الجغرافية .

(١٣٣) هو « يوسف بن دوناس بن عيسى ، ابو الحجاج المغربي ، الفقيه المالكي ... قدم الشام ، وسكن بانياس مدة وانتقل الى دمشق فاستوطنها . ودرس بها بمـذهب مـالك ، وحـدث بـالموطأ وغيره ... وكان شيخا حسن المفاكهة ، حلو المناظـرة ... كريم النفس مـطرحا للتـكلف ، وقـوي القلب ، صاحب كرامات » . مرآة الزمان ١٠ / ٢٠٠

(١٣٤) في الاصل « العطاير » وهي تصحيف لعل صوابها ما اثبتنا .

(١٣٥) كانت هذه السهام تطلق من قسي خاصة ، قوية وبعيدة المدى ، وغالبا ما كانت تحمل مواد ملتهبة من النفوط وغير ذلك . انظر مادة جرخ في معجم دوزي . ١ / ١٨٢ ، وتنتج الدم خـرج مـن الجرح . القاموس .

(١٣٦) جمع يعقوب وهو الحجل . القاموس المحيط .

(١٣٧) الاين : الاعياء والتعب . النهاية لابن الاثير .

(١٣٨) وصف سبط ابن الجوزي احوال دمشق في اواخرايام الحصار بقوله : « ولما ضاق بـأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات بالاموال على قدر احوالهم ، واجتمع الناس في الجامع مع الرجال والنساء والصبيان ، ونشروا مصحف عثمان ، وحثوا الرماد على رؤوسـهم ، وبـكوا وتضرعوا ، فاستجاب الله لهم ، فكان للفرنج قسيس كبير ، طويل اللحية ، يقتدون به ، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق ، فركب حماره ، وعلق في عنقه صليبا ، وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع بين يديه الاناجيل والصلبان ، والكتب والخيالة والرجـالة ، ولم يتخلف من الفرنجية أحد الا من يحفظ الخيام ، وقال لهم القسيس : قد وعدني المسيح أنني افتح اليوم .

وفتح المسلمون الابواب . واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام ، وحملوا حملة رجـل واحـد . وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله . وقصد واحد من احداث دمشق القسيس ، وهو في أول القوم . فضربه فأبان راسه ، وقتل حماره . حمل الباقون . فانهزم الفـرنج ، وقتلوا منهـم عشرة الاف . واحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط . وتبعوهم الى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فـاصبحوا قد رحلوا ، ولم يبق لهم اثر » . مرآة الزمان : ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(١٣٩) فراغ بالاصل ، استدراك من الكامل لابن الاثير : ٩ / ٢١ . والعريمة كانت احدى قـلاع الساحل السوري تربض فوق جرف يتاخم السهل العريض الذي يجتـازه النهـر الكبير ، وتتحـكم بمدخل وادي الابرش ، القلاع ايام الحروب الصليبية . ٦٥ . وتمت الحملة ضد العـريمة بناء على اقتراح من ريموند الثاني صاحب طرابلس نظرا لاحتلال العريمة من قبل ارملة الفـونسو صـاحب تولوز وابنه ، وكان هذا الابن حفيدا لريموند صاحب تولوز ولهذا ادعى الحق ليس في ملك العـريمة فحسب بل في عرش طرابلس . انظر وليم الصوري . ٢ / ١٩٧ . وكتاب « الصـليبيون في المشرق » تاليف ستيفنسون . ط . بيروت ١٩٦٨ (بالانكليزية) ص : ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(١٤٠) ذكر سبط ابن الجوزي اثناء حديثه عن حصار دمشق : ٢ / ١٩٧ ـ ١٩٨ ، « وكان معين أنر كاتب سيف الدولة غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق ، يستصرخ بـه ويخبـره

دشدة ناس الفرنج . ويقول ادركنا عسار سيف الدين في عشرين الف فارس . عزل مجاور محيرة حمص

(١٤٣) فراغ في الاصل والسبت يقابل العاشر من صفر . ذلك ان ابن القلانسي دفسه وابن العديم في كتاب زبدة الحلب ٢ ٢٩٨ اوردا ان دور الدين اشتبك مع الفرنجة يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر انظر ايضا الكواكب الدرية ١٣٠

(١٤١) انظر الخبر مفصلا في الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه ط بيروت ١٩٧٢ ١٣٠ الروضتين ط مصورة بيروت ١ ٥٥

(١٤٢) في الاصل البرك وهو تصحيف صوابه ما اثبتنا . واليرك دوع من الحرس الطليعي الجيش انظر المادة في معجم دوزي

(١٤٣) فراغ في الاصل . والسبت يقابل العاشر من صفر . ذلك ان ابن القلانسي دفسه وابن العديم في كتاب زبدة الحلب ٢ ٢٩٨ اوردا ان دور الدين اشتبك مع الفرنجة يوم الاربعاء حادي وعشرين من صفر انظر ايضا الكواكب الدرية ١٣٠

(١٤٤) حصن من اعمال عزاز في جهات حلب ياقوت

(١٤٥) هو ريموند امير انطاكية . استمر في حكمه ثلاث عشرة سنة وقد خلف وراءه زوجته كونستانس مع اربعة اولاد ذكرين وابنتين تاريخ وليم الصوري ٢ ١٩٨ ـ ٢٠٠ الباهر ٩٨ ـ ١٠٠

(١٤٦) اضيف مابين الحاصرتين من الروضتين ١ ٥٨ . حيث نقل من ابن القلانسي وهو خبر اورده وليم الصوري في تاريخه ١٩٩ ـ ٢٠٠

(١٤٧) خارج دمشق تعرفان بهذين الاسمين

(١٤٨) في الاصل معه

(١٤٩) صوح النبات اذا يبس وتشقق النهاية لابن الاثير

(١٥٠) هو الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية وكان دور الدين زوجا لابنته انظر زبدة الحلب ٢ ٣٠١

(١٥١) اضيف ما بين الحاصرتين من زبدة الحلب ٢ ٣٠٢ . حيث تحدث عن سقوط عدد من الحصون لدور الدين . وفي معجم البلدان تل خالد . قلعة من نواحي حلب

(١٥٢) في الاصل واجتماعهم ثم تقاطع عليهم وقد زيد ما بين الحاصرتين وقومت العبارة من الروضتين ١ ٩٠

(١٥٣) كان والي دمشق ذلك الوقت ايوب بن شادي والد صلاح الدين . ومعيد ان دشير انه في هذه السنة التحق صلاح الدين بعمه اسد الدين فقدمه الى دور الدين الروضتين ١ ٨٣ ٨٤

(١٥٤) في الاصل وعادوا والتقويم من الروضتين ١ ٨٦ حيث الرواية عن ابن القلانسي

(١٥٥) لم اجده في المصادر الجغرافية وسواها

(١٥٦) يروي المقريزي دخول طلائع الى القاهرة ويذكر واما عباس فانه سار بمن معه يريد ايلة ليسير منها الى بلاد الشام فارسلت اخت الظافر الى الفرنج بعسقلان رسلا على البريد تعلمهم الحال . وتبذل لهم الاموال في الخروج الى عباس . واباحتهم ما معه . وان يبعثوا به الى القاهرة . فاجابوا الى ذلك اتعاظ الحنفا ٣ ٢١٥ ـ ٢٢٠

(١٥٧) في الاصل وهي صفر وهي تصحيف قوم من الروضتين ١ ٩٩ حيث رواية ابن القلانسي

(١٥٨) فراغ بالاصل . وقد اتى المقريزي على ذكر هذا الخبر دون ان يذكر اسم هذا الامير او المقدم وربما كان هو الامير الاوحد بن تميم انظر اتعاظ الحنفا ٣ ٢٢٤

(١٥٩) القران الكريم ـ المائدة ٣٣

(١٦٠) القران الكريم ـ الشعراء ٢٢٧

- ٥٤٢٦ -

(١٦١) فرسان خفاف غالبا ما كانوا من المرتزقة .

(١٦٢) اضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين : ١ ١٣٠ .

(١٦٣) فراغ بالاصل ، وحين روى صاحب الروضتين ١ ١٣٠ الخبر عن ابن القلانسي اختصر نهايته فلم يذكر تاريخ عودة نور الدين الى دمشق .

(١٦٤) في الاصل « محمود الدولة من ناحية مصر بجواب ما تحملنا » وقد اصاب بعض العبارات تصحيف تم تقويمه من الروضتين : ١ . ١٢١ . وكان المسترشدي رسول نور الدين ، وبصحبته الامير عز الدين ابو الفضل غسان بن محمد بن جلب وقد جهز الملك الصالح « رسول محمود بن زنكي بجواب رسالته ، ومعه هدية منها من الاسلحة وغيرها ما قيمته ثلاثون الف دينار ومن العين ما مبلغه سبعون الف دينار تقوية له على جهاد الافرنج » . اتعاظ الحنفا : ٣ . ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

(١٦٥) في الاصل : الاعمال ، والتقويم من الروضتين : ١ ١٢٢ .

(١٦٦) في الاصل :« وبغال » وهي تصحيف صوابه من الروضتين . ١ ١٢٣

حواشي العظيمي

(١) كذا في الاصل وقد ذكر ابن القلانسي ٣٠٦ ـ الخبر فلم يذكر شمس الخواص وإنما بين أنه تسلمها من الفرنج .

٢) في الاصل قلعة نادر وهو وهم والتصويب من ترجمة الب أرسلان بن رضوان الموجودة ضمن نصوص هذا الكتاب .

(٣) زيد مابين الحاصرتين من تاريخ دمشق لابن القلانسي ٣٢٩

(٤) فراغ الاصل ، وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ٣٣٥ . ولما عرف ظهير ذلك انهض الى حماة من تسلمها ، وتولى أمرها من ثقاته . .

(٥) بياض بالأصل ، وقدر مابين الحاصرتين من سياق الخبر .

(٦) في الاصل : حلب وهو تصحيف صوابه ماأثبتنا ـ انظر تاريخ دمشق ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

(٧) فراغ بالاصل والاضافة من تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤١٢ ـ ٤١٦

(٨) كذا في الاصل ، والعبارة اقوم بدون اداة التعريف ، وقدس هي منطقة بحيرة قطينة خارج حمص ومعروف ان اسمها في العصور القديمة (قدش أو قادش) .

(٩) الامير حذش قراقش من أمراء زنكي ، سيرد ذكره في ترجمة زنكي

حواشي ابن الازرق الفارقي

(١) بداية الجزء غير المنشور من كتاب تاريخ ميافارقين .
(٢) انظر تفاصيل ذلك في كتابي مدخل إلى تـاريخ الحـروب الصـليبية ـ ط دمشـق ١٩٧٥ ص ١٩٢ ـ ١٩٥
(٣) جاء سنة ١٠٨٦ ، انظر تفاصيل الخبر في كتابي مدخل إلى تـاريخ الحـروب الصـليبية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥
(٤) كذا جاء رسم هذا الاسم في الاصل المخطوط والرائج رسمه «ايلغازي»
(٥) غياث الدين محمد (٤٩٨ ـ ٥١١ ١١٠٥ ـ ١١١٨ م) .
(٦) استقر في خراسان وحـكم لطـول مـدة بين ابناء ملكشـاه (٥١١ ـ ٥٥٢ ١١١٨ ـ ١١٥٧ م) .

(٧) بلد مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ . معجم البلدان ، وشمس وهو شمس الدولة التاش.انظر تاريخ ميافارقين ط . القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٦٩ . الاعلاق الخطيرة لابن شداد ـ قسم الجزيرة ط . دمشق . ١٩٧٨ ج ٢ ص ٤١٦
(٨) لتفاصيل أوفى انظر الاعلاق ـ قسم الجزيرة . ٢ . ٤٢٨ ـ ٤٢٩ . ومصدر ابن شداد الرئيس هو كتابنا هذا الذي نحققه .
(٩) أي الخيم
(١٠) أرزن مدينة معروفة قرب خلاط ، وكانت اعمر مدن ارمينية . معجم البلدان
(١١) اسم مدينة مشهورة بديار بكر . معجم البلدان .
(١٢) أوفى التفاصيل في نصوص ابن العديم المنتزعة من كتابي بغية الطلب وزبدة الحلب .
(١٣) من جورجية في الاتحاد السوفييتي السابق ، وصفها ياقوت بانها ازلية تقع قرب باب الابواب دربندر .
(١٤) ويقال لها كنجة أيضا وهي الآن في القوقاز في الاتحاد السوفييتي السابق اسمها جلزوفسكا ،على مقربة من تفليس.الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة : ٢ : ٨٢٧ .

(١٥) أي ملك جورجيا
(١٦) انظر ترجمته الوافية المنتزعة من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم
(١٧) بدليس الآن في تركيا قريبة من بحيرة وان على مقربة من خلاط
(١٨) هي الآن من مدن الاتحاد السوفييتي السابق بقرب تفليس منها جاءت الأسرة الأيوبية .

(١٩) الخدمة هنا ضريبة الرؤوس السنوية ،مثل الجزية .
(٢٠) يرسم هذا الاسم « مودود » ، وكان الأمير مودود أميرا على الموصل ، قدم إلى بـلاد الشـام لتقديم العون في القتال ضد الفرنجة ، واغتيل بجامع دمشق من قبل الحشيشية .
انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي تحقيقي ـ ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ (حوادث سنة ٥٠٧) وأوضح ابن القلانسي أنه دفن ، في مشهد داخل باب الفراديس من دمشق .
(٢١) من قرى ميافارقين ، الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة : ٢ : ٧٥٧ .
(٢٢) كذا والرسم الاشهر طغتكين ، ظهير الدين مؤسس الدولة البورية ، او اتابكية دمشق ، وخير مصدر حول حكمه تاريخ دمشق لابن القلانسي .
(٢٣) من ابواب مدينة ميافارقين ـ الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة : ٢ : ٧٦٣ .

(٢٤) رضوان بن تتش ، انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب وماكتبت حول حكمه في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٣١ ـ ٢٤٨

(٢٥) خرتبرت أو حصن زياد ، في اقصى ديار بكر بينه وبين ملطية الفرات وبينهما مسيرة يومين معجم البلدان

(٢٦) حزة موضع بين نصيبين ورأس العين معجم البلدان

(٢٧) لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ مع مناقشة رواية قتله من قبل الحشيشية

(٢٨) يرد رسم هذا الاسم احيانا ، خلاط .

(٢٩) قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر معجم البلدان الاعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ١ ٤٧

(٣٠) فراغ بالأصل

(٣١) أي مالا وهدايا خاصة من الخلع

(٣٢) كذا بالأصل ، والأفضل ، وربما الأصح ، ووقع له .

(٣٣) بلدة قرب اخلاط عندها وقعت المعركة الحاسمة سنة ٤٦٣ هـ ١٠٧١ انظر كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٥ ـ ١٥١

(٣٤) أوفى التفاصيل لدى ابن القلانسي ص ٣٥١ ـ ٣٥٦

(٣٥) في زبدة التواريخ الحسيني ـ ط لاهور ١٩٣٣ ص ١١٤ سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

(٣٦) لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الباهر لابن الاثير ـ ط القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٨ ـ ٣٩

(٣٧) قلعة حصينة قرب جزيرة ابن عمر معجم البلدان

(٣٨) لم يرد ذكرهما لدى ياقوت ، ولم يتوصل محقق الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٢ ٨٢٠ ، ٨٢٣ إلى رأي حاسم حول التعريف بهما أو ضبطهما

(٣٩) في هذا اشارة إلى انشطار الدعوة الاسماعيلية بعد وفاة المستنصر إلى نزارية ومستعلية ، وإلى أن الذين حكموا بعد الأمر لم يكونوا أئمة

(٤٠) لم اجده بهذه الصيغة

(٤١) ويقال لها سعرت ، وأسعرت ، وسعرد وسعرز ، مدينة في تركية بالقرب من شط دجلة تبعد عن ميافارقين مسيرة يوم الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٢ ٧٥٥

(٤٢) باهمرد او بهمرد احدى قلاع ديار بكر الاعلاق ـ المصدر نفسه ٢ ٨٢٠

(٤٣) سرجة حصن بين نصيبين ودنيسر ودارا معجم البلدان

(٤٤) انظر ترجمته المنتزعة من بغية الطلب لابن العديم

(٤٥) قرية بهستون بين همذان وحلوان ، وجبل بهستون عال مرتفع ممتنع أملس كأنه منحوت معجم البلدان

(٤٦) اطلق اسم الملاحدة على أتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة في خراسان

(٤٧) اعظم بلاد أذربيجان واشهرها معجم البلدان

(٤٨) زندرود ، نهر مشهور عند أصبهان ، معجم البلدان

(٤٩) جماعة من ارمن المناطق الجبلية ورد ذكرهم أكثر من مرة لدى ميخائيل السوري

(٥٠) قلعة حصينة في الجبال قرب ماردين معجم البلدان
(٥١) انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٤٣٨
(٥٢) مدينة في تركية الآن ، هي من مدن ديار بكر الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٨٠٨
(٥٣) زيد مابين الحاصرتين من الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٤٣٦ حيث ينقل عن الازرقي
(٥٤) جبل جور احد حصون ديار بكر ، ويقع حصن القرنين إلى الشمال من ميافارقين حيث منبع دجلة . والسيوان قرب ماردين
انظر الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٧٧٦ ، ٧٨٣ ، ٨٠٤
(٥٥) قلعة وبليدة شمالي ميافارقين ، تسميها العامة أنطاخ . اللؤلؤ المنثور البطريرك أغناطيوس أفرام الأول ـ ط حلب ١٩٨٧ ص ٥٢٠
(٥٦) كذا بالاصل تداخل خبر تملك زنكي الرقة وسيره إلى دمشق مع أخبار قلعة جعبر ، لذلك وضعت أخبار زنكي بين حاصرتين

(٥٧) درن هو الاطلس الكبير
(٥٨) كذا بالاصل وهو وهم ، والمعني هنا البشير عبد الله بن محسن الونشريسي ، ام إن المعلومات عن عبد الله بن ماوية ليست سليمة انظر أخبار المهدي البيذق ـ ط الجزائر ١٩٧٤ ص ٨ ، ١٥ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٥٥ ، ١٧١ ، ١٧٩
(٥٩) كذا وهو وهم لم تذكره المصادر الموحدية ـ انظر الحلل الموشية ـ ط الدار البيضاء ١٩٧٩ ص ١٤٢ ـ ١٥٧
(٦٠) بزاعة بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان معجم البلدان
(٦١) لم اقف لهذه القلعة على ذكر في مصدر آخر
(٦٢) قارن بما جاء في الباهر لابن الاثير ص ٦٦ والأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٤٣٩ .

(٦٣) تل بسم أو بسمة بلد من نواحي ديار ربيعة شمالي غربي ماردين اللؤلؤ المنثور ٥ ـ ٥
(٦٤) في الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٤٣٩ ، دخل علي حبشي في خيمته مسؤل الشافعي ، ومحمد بن أبي المكارم وقتلاه . ومصدر ابن شداد هنا هو كتابنا هذا
(٦٥) جامع في ميافارقين أقامه نصر الدولة المرواني الأعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ٣ ٧٧٥
(٦٦) بالو احدى قلاع ديار بكر الاعلاق ـ المصدر نفسه ٣ ٨٢٠
(٦٧) انظر الاعلاق ـ المصدر نفسه ٣ ٤٤٠
(٦٨) تاج الدولة تتش بن الب ارسلان وتعرضنا لحكمة من قبل في الجزء الاول من المدخل
(٦٩) البيرة الآن في تركية اسمها بيرجك على مقربة من سميساط على الفرات
(٧٢) قلعة باغين احدى قلاع ديار بكر الاعلاق ـ المصدر نفسه ٣ ٨٢٠
(٧٣) تصحف هذا الخبر في الاعلاق ٣ ٤٤٠ ـ ٤٤١ بحيث اصبح جسر القرمان بالقيطوم ، بتولي الزاهد ابي الحسن علي ، وأسس قواعده من الجانبين ، فجاء المد فهدمه ليضعف عمله ، فالزم الزاهد الغرامة ، ثم وليه سيف الدين شيباريك مودود بن علي بن أرتق
(٧٤) هناك مزيد من التفاصيل في ترجمة زنكي المنتزعة من بغية الطلب .
(٧٥) جميع هذه المواقع من أعمال ما بين ديار مضر وديار بكر على مقربة من حران الاعلاق ٣ ٧٧٩ ، ٨٣٧
(٧٦) هذه المواقع قرب نصيبين اللؤلؤ المنثور ٥١٧
(٧٧) كذا بالاصل وفي العبارة غموض ووهم فقد توفي الحافظ سنة ٥٤٤ هـ ١١٤٩ وولي

الامـر من بعده ولده الاصغر ابو منصور اسماعيل بن عبد المجيد الحافظ ، ولقب بالظافر بالله وولي الوزارة امير الجيوش ابو الفتح بن مصال المغربي . تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٧٨ وفي شـعبان من السنة نفسها خلع الظـافر الوزارة على . أمير الجيوش ، شرف الاسـلام ، كافـل قضـاة المسلمين ،وهادي دعاة المؤمنين العادل الظفر ابو الحسن علي بن اسحق السلار ،وكان من أصـل كردي من الزرزارية الوزارة والوزراء في العصر الفـاطمي لمحمـد حمـدي المناوي ط القـاهرة ١٩٧٠ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

(٧٨) الخدمة هنا تقديم مبلغ من المال لنيل الوظيفة المطلوبة

(٧٩)نسبة الى الخليفة الفاطمي الامر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ ١١٠١ ـ ١١٣٠م)

(٨٠) مدينة بين اربل وبغداد معروفة معجم البلدان

(٨١) انظر الباهر ٩٢ ـ ٩٣

(٨٢) مدينة كبيرة من مدن البيرة في الاندلس . معجم البلدان

(٨٣) كركر او جرجر حصن وبلدة قرب ملطية بين سميساط وحصن زياد غربي الفرات اللؤلؤ المنثور ٥١٨

(٨٤) قلعة حصينة وبلد غربي الفرات مقابل البيرة . وكان اسم القلعة زوغمـا اللؤلؤ المنثـور ٥١٨

(٨٥) كذا ذكرر بالاصل

(٨٦) قرية مشهورة على عشرة فراسخ من بغداد معجم البلدان

(٨٧) انظر الباهر ٤٣ ـ ٤٥

(٨٨) تقدم الحديث حول بناء هذا الجسر ص ٢٦

(٨٩) انظر ابن القلانسي ٥٠٦ ـ ٥٠٧ الكامل لابن الاثير ط القاهرة ١٣٤٨ هـ ٩ ٤٣ اتعاظ الحنفا للمقريزي ـ ط القاهرة ١٩٦٧ ٣ ٢١٥ ـ ٢٢٠

(٩٠) ارجيش مدينة قرب اخلاط . ولم اقف لبركري على ذكر آخر . ونوشـهر اسـم لنيسـابور ونواحيها . ولم أقف لفطور هذه على ذكر، وخوي بلد من اعمال اذربيجان ، ومرند من مشاهير مدن اذربيجان بينها وبين تبريز يومان . ولم يذكر ياقوت زذكنان معجـم البلدان وبانت الري ضاحية لطهران فيها بعض المعالم التاريخية

(٩١) هي اني بين خلاط و كنجة ،معجم البلدان .

(٩٢) كانت اليهم رئاسة المدينة بـدمشق انظـر الوزير والرئيس في مـدن الشـام في العصر السلجوقي لاكسد هافمان ـ مجلة الاجتهاد ، العدد السادس ، بيروت ١٩٩٠ ص ٢١٠ ـ ٢١٤

(٩٣) سرماري قلعة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط معجم البلدان

(٩٤) بليبة في شمال ديار بكر الاعلاق ٢ ٨١٩ اللؤلؤ المنثور ٥٠٤

(٩٥) دمانس) مدينة من نواحي تفليس معجم البلدان

(٩٦) ويقال لها نخجوان ايضا ، وهي بلد بأقصى اذربيجان معجم البلدان

(٩٧) الرس وادي في اذربيجان معجم البلدان

(٩٨) اي دولة أرمنية في كليكية

(٩٩) فراغ بالاصل . ولايمكن الركون الى التواريخ المعطاة هنا . ذلك ان سنجر أسر سـنة ٥٤٨ هـ ١١٥٣ م

(١٠٠) وبقي في الاسر ثلاث سنوات هرب بعدها ، حيث وصل الى مرو ، وتـوفي فيهـا عام ٥٥٢ هـ ١١٥٧ م انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام . ط بيروت ١٩٧٥ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥

(١٠١) شاتان قلعة بديار بكر . معجم البلدان

(١٠٢) حصن طالب قلعة مشهورة قرب حصن كيفا معجم البلدان

(١٠٣) دوين بلدة من نواحي اران في اخر حدود اذربيجان معجم البلدان

(١٠٤) كبس الحفرة طمها ، وكبس رأسه في جيب قميصه ادخله فيه . اساس البلاغة

(١٠٥) قلعة شمشكازاك او جمشكازاك كانت من جملة قلاع ديار بكر ، وفي معجم البلدان شمشكازاد قلعة ومدينة بين امد وملطية لها ورستاق ، وهي قرب حصن الران . وواضح ان هذه المادة تصحفت في معجم البلدان او هناك خطأ مطبعي انظر الاعلاق الخطيرة . ٢ ٨٢٣

(١٠٦) قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وانطاكية . معجم البلدان .

(١٠٧) وترسم ايضا ، طنزة ، بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر . معجم البلدان .

(١٠٨) ماكسين بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق (الميادين حاليا) من ديار ربيعة . معجم البلدان

(١٠٩) لعله اراد محمد بن احمد ، ابو بكر الشاشي القفال الفارقي (٤٢٩ ـ ٥٠٧ هـ ١٠٣٧ ـ ١١١٤م) رئيس الشافعية بالعراق في عصره . الاعلام الزركلي .

(١١٠) عين يخرج منها نهر قصير في اطراف ميافارقين . الاعلاق .٢ ٨١٣

(٩٩) هي عند ياقوت ارزنجان . بلدة طيبة مشهورة نزهة من بلاد ارمينية قريبة من ارزن الروم

(١١١) سلف أن روى مؤلفنا هذه الواقعة بين حوادث سنة ٥٥٩ هـ

(١١٢) طمس بالاصل استدرك من مراة الزمان ١ ٢٧٠

(١١٣) سروج بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان

(١١٤) مابين الحاصرتين مطموس بالاصل وقد استدركت ما قد يكون المقصود من مفرج الكروب ١ ١٨٥

(١١٥) سورة يوسف ـ الآية ٩٩

(١١٦) في حاشية الاصل ما يفيد انه في نسخة أخرى ، الآن

(١١٧) موضع في طريق الشام من ناحية مصر معجم البلدان

(١١٨) لم يذكره ياقوت في معجم البلدان

(١١٩) سقط من الاصل ما لايقل عن ورقة ذلك ان بداية الورقة التالية تتحدث عن تتمة أخبار التوسع الايوبي في اليمن

(١٢٠) هي حيث المكتبة الظاهرية بدمشق الآن

(١٢١) تعرف الآن بهذا الاسم والرسم الافضل لاسمها ، بارين .

(١٢٢) من التنظيمات الاسلامية المعادية للاسماعيلية التي ظهرت في هذه الفترة

(١٢٣) كلمة فارسية تعني تنبيه ، تحذير كما وتعني امن ، أمان وتعهد

(١٢٤) على مقربة من حلب وكان هذا الموقع يعرف من قبل باسم الفنيدق

(١٢٥) هو نبع السريا الذي تشرب منه الشيخ مسكين حاليا في حوران سورية

(١٢٦) احدى حصون ديار بكر الاعلاق ٢ ٨٢١

(١٢٧) يعرف اليوم باسم دير صحراي الوادي بجانب قرية دفعة في طريق حصن كيفا الاعلاق المذكور ٥١١

(١٢٨) ويقال له تل اعفر وتل يعفور بلدة في العراق على طريق سنجار الاعلاق ٢ ٧٧٣

(١٢٩) لعله يريد طور عبدين . وهي بليدة من اعمال نصيبين الأعلاق ٢ ٨٠٩

(١٣٠) مع انتهاء المخطوط كثر الطمس في الورقة الاخيرة

) ١٣١) قرع الطبول على باب الحاكم

(١٣٢) ارجح انه سقط من اخر المخطوط اكثر من ورقة

- ٥٤٣٣ -

حواشي البستان الجامع

(١) كذا والمراد هنا الكرج . وهناك تفاصيل مفيدة في نص ابن الازرق الفارقي المتقدم
(٢) أي أمان ، أمان
(٣) رمح ذو سنين
(٤) سورة الاحزاب ـ الآية ٢١

المحتوى

٩٠ ـ سنة ثمان وعشرين وخمسمائة
٩١ ـ سنة ثلاثين وخمسمائة
٩٢ ـ سنة احدى وثلاثين وخمسمائة
٩٥ ـ سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة
٩٨ ـ سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة
٩٩ ـ سنة اربع وثلاثين وخمسمائة
١٠١ ـ سنة ست وثلاثين وخمسمائة
١٠٢ ـ سنة سبع وثلاثين وخمسمائة
١٠٣ ـ سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة
١٠٤ ـ سنة تسع وثلاثين وخمسمائة
١٠٧ ـ سنة احدى واربعين وخمسمائة
١١١ ـ سنة اثنتين واربعين وخمسمائة
١١٢ ـ سنة ثلاث واربعين وخمسمائة
١١٦ ـ سنة اربع واربعين وخمسمائة
١٢١ ـ سنة خمس واربعين وخمسمائة
١٢٢ ـ سنة ست واربعين وخمسمائة
١٢٥ ـ سنة سبع واربعين وخمسمائة
١٢٦ ـ سنة ثمان واربعين وخمسمائة
١٢٨ ـ سنة تسع واربعين وخمسمائة
١٢٩ ـ سنة خمسين واربعمائة
١٣١ ـ سنة احدى وخمسين وخمسمائة
١٣٣ ـ سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة
١٤١ ـ سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة
١٤٤ ـ سنةاربع وخمسين وخمسمائة
١٤٦ ـ من تاريخ العظيمي
١٤٨ سنة اربع وثمانين واربعمائة
١٤٨ ـ سنة ست وثمانين واربعمائة
١٤٨ ـ سنة تسع وثمانين واربعمائة
١٤٩ ـ سنة تسعين واربعمائة
١٤٩ ـ سنة احدى وتسعين واربعمائة
١٥٠ ـ سنة اثنتين وتسعين واربعمائة
١٥٠ ـ سنة ثلاث وتسعين واربعمائة
١٥١ ـ سنة اربع وتسعين واربعمائة
١٥١ ـ سنة خمس وتسعين واربعمائة
١٥٢ ـ سنة ست وتسعين واربعمائة
١٢٣ ـ سنة سبع وتسعين واربعمائة
١٥٣ ـ سنة ثمان وتسعين واربعمائة
١٥٤ ـ سنة تسع وتسعين واربعمائة
١٥٤ ـ سنة خمسمائة
١٥٥ ـ سنة احدى وخمسمائة
١٥٥ ـ سنة اثنتين وخمسمائة
١٥٦ ـ سنة ثلاث وخمسمائة

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

كتاب الاعتبار

لاسامة بن منقذ الكناني

(٤٨٨ ـ ٥٨٤ / ١٠٩٥ ـ ١١٨٨)

مدخل الى كتاب الاعتبار

تراجم اسامة من :

- تاريخ دمشق لابن عساكر
- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني
- معجم الادباء لياقوت الحموي
- بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم
- وفيات الاعيان لابن خلكان
- المقفى الكبير للمقريزي .

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتدت فيما تقدم من مجلدات ان يكون موضوع التـوطئة الاسـاسي الحديث عن حياة المؤلف أو المؤلفين ، وهذا ما سوف أبـدله في هـذا المجلد ، ذلك ان موضوعه الاساسي أشبه بمذكرات شـخصية فيهـا ترجمة لحياة المؤلفوتعـريف بـوسطه وعصره ، وهـذا المؤلف هـو الفارس العربي ، الشاعر الاديب والسياسي أسامة بن منقـذ ، الذي غالبا اذا ما أريد التعريف به قيل « صاحب كتاب الاعتبار ».

ويعد كتاب الاعتبار على رأس ادبيات عصر الحـروب الصـليبية وأهمها ليس لما حواه وانفرد به من مواد اخبارية ثمينة جدا فحسب بل لتميزه باللون العربي النقي ، فنحن لدى تعـاملنا مـع نصـوص المصادر العربية للحروب الصليبية نلاحظ أنهـا ركزت على افعـال الحكام والقادة الذين كان جلهم من أصل غير عربي ، تـركماني أو كردي أو غير ذلك ، وهمشـت دور العناصر العـربية السـياسية والقبلية ، حتى باتت صورة الصراع اشبه بصراع بين قـوى أجنبية مسلمة من جانب ومسيحية من الجانب الآخر على بلاد الشام ومصر والجزيرة .

وصحيح ان القوى السياسية العربية مـن التـكتلات القبلية قـد تأثرت كثيرا إثر قدوم السلاجقة ، وهو ما شاهدناه في الجـزء الاول من هذه الموسوعة ، لكن الآن من خلال ماكتبه اسامة مـع معـطيات أخرى يمكننا التأكيد على ان دور القوى العـربية والتـكتلات القبلية ظل فعالا واساسيا ، واذا ما أضيف لهذا حقيقة كون سـكان بـلاد الشام عربا في المدن والارياف . هنا يمكننا شطب مقولة الصراع بين

قوتين اجنبيتين ، واستبدالها باخرى بأن الصراع بين غزاة اجانب في كل شيء قدموا من اوروبا وبين أصحاب البلاد العرب .

وحتى تزداد الفائدة من كتاب الاعتبار صنعت له مدخلا وخاتمة ، اودعت في المدخل عدة تراجم لاسامة ، كما اودعت في الخاتمة ترجمتين لاثنين من الاعلام الذين كان لاسامة بهم علاقة مباشرة .

وعلي أن أشير إلى أن كتاب الاعتبار نشر اكثر من مرة ، اعتمادا على مخطوطة وحيدة مبتورة الاول كانت موجودة في مكتبة دير الاسكوريال قرب مدريد في اسبانيا ، ومن أشهر الذين عملوا على تحقيق هذا الكتاب فيليب حتي ، وقد نشرها في برنستون بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٠ ، وقد بذل الدكتور حتي جهودا كبيرة لدى تحقيقه لنص الكتاب ، لكنه اخفق في كثير من الاماكن في الوصول الى القراءة الصحيحة ، وتميز الدكتور حتي بأنه أودع في الحواشي رسم الكلمات التي لم يتوصل الى قراءتها بالشكل الصحيح أو شك بها ، وكان لهذا فوائده الجليلة ، لان مخطوطة الكتاب مفقودة الان ، وبعد الدكتور حتي أعيد نشر الكتاب كاملا او مختصرا اكثر من مرة وفي أكثر من مكان ، ومع هذا ظلت النجاحات هي هي .

ويخيل لي أنني في عملي الآن تمكنت من تقويم النص وازالة مشاكله ، وساعدني على ذلك عدة عوامل ، بينها الانتماء الجغرافي، والممارسة الطويلة والخبرة المعمقة بكتب التراث العربي ، ولتخصصي الآن وانقطاعي شبه الكامل للعمل في أحداث الحروب الصليبية .

ان لغة أسامة في كتابه « الاعتبار » واصطلاحاته ممازالت قائمة حتى الآن في بيئة مدينة حماه ، وهي مدينتي التي نشأت بها ، فضلا عن أنني عشت عدة سنوات في المنطقة القريبة من شيزر ، وكان لهذا فوائده .

الكتاب الآن بين يدي القراء جميعا ، وأملي كبير في أن أكون قد وفقت في عملي ، والله المستعان وله الحمد والمنة ، ومنه جل وعلا أسأل دوما التوفيق والسداد .

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

سهيل زكار

دمشق ٩ . ٤ . ١٩٩٥

اسامة بن مرشد بن علي

ابن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم
ـ ابو المظفر الكناني ، الملقب بمؤيد الدولة

(من تاريخ دمشق لابن عساكر)

له يد بيضاء في الادب والكتابة والشعر .
ذكر لي انه ولد سنة ثمان وثمانين واربعمئة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة ، وخدم بها السلطان وقرب منه ؛ وكان فارسا شجاعا ، ثم خرج الى مصر فاقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام وسكن حماة ؛ واجتمعت به بدمشق ، وانشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمئة .

قال لي ابو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الامير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهل الدهر ؛ مالك عنان النظم والنثر ، متصرف في معانيه ، لاحق بطبقة ابيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولايعبر عن شرحها بلسان ، قصائده الطوال لايفرق بينها وبين شعر ابن الوليد (١) ؛ غير محتفل في طولها ، ولايتعثر لفظه العالي في شيء من فضولها ، والمقطعات فاحلى من الشهد ، والذ من النوم بعد طول السهد ، في كل معنى غريب وشرح عجيب .
كتب على حائط دار سكنها بالموصل :

دار سكنت بها كرها وماسكنت
روحي الى شجن فيها ولاسكن

والقبر استر لي منها واجمل بي
ان صدني الدهر عن عودي الى وطني (٢)

وكتب الى اخيه :

عجمتني الخطوب حينا فلما
عجزت ان تطيق مساغا

افظلتني وسالمتني فقد عا
د حذاري امنا وشغلي فراغا

واخو الصبر في الحوادث ان لم
يلقه الحين مدرك ماراغا (٣)

وكتب على حائط جامع :

هذا كتاب فتى احلته النوى
اوطانها ونبت به اوطانه

شطت به عمن يحب دياره
وتفرقت ايدي سبا اخوانه

متتابع الزفرات بين ضلوعه
قلب يبوح ببثه خفقانه

تأوي إليه مع الظلام همومه
وتذوده عن نومه أشجانه

لكنه لا يستكين لحادث
خوف الحمام ولايراع جنانه

ألفت مقارعة الكماة جياده
وسرى الهواجر لاينى ذملانه

يومان اجمع دهره إما سرى
أو يوم حرب تلتظي نيرانه (٤)

أنشدنا أبو المظفر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باكي

وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي (٥)

وانشدني ايضا:

اصبحت لااشكو الخطوب وانما
اشكو زمانا لم يدع لي مشتكي

افنى اخلائي واهل مودتي
واباد اخوان الصفاء واهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي لاعليهم من بكى

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا (٦)

وانشدني ايضا :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
خوض المهالك والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما فكانما
انسانها بيد الفراق جريح

فكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح (٧)

وانشدني ايضا :

يامؤيسي بتجنيه وهجرته
هل حرم الحب تسويفي وتعليلي

يبدي لي اليأس تصريحا فتكذبه
طماعي وأرى والامال تملي لي

وقد رضيت قليلا منك تبذله
فما احتيالي اذا استكثرت تقليلي (٨)

وانشدني ماقاله في ضرس له قلعة :

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم يبد لي مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (٩)

وانشدني :

ومماذق رجع النداء جوابه
فاذا عرا خطب فابعد من دعي

مثل الصدى يخفى علي مكانه
ابدا ويملا بالاجابة مسمعي (١٠)م

وانشدني مما عمله بقيسارية :

اراني نهار الشيب قصدي وطالما
تجاوز بي ليل الشباب سبيلي

وقد كان عذري ان اضلني الدجى
فهل لي عذر والنهار دليلي (١١)

وانشدنا :

اذا ماعدا دهر من الخطب فاصطبر
فان الليالي بالخطوب حوامل

وكل الذي ياتي به الدهر زائل
سريعا فلا تجزع لما هو زائل (١٢)

وانشدني :

لاتخدعن باطماع تزخرفها
لك المنى بحديث المين والخدع

فلو كشفت عن الهلكى باجمعهم
وجدت هلكهم في الحرص والطمع (١٣)

وانشدني :

لادر درك من رجاء كاذب
يعترنا بورود لامع لال

ابدا يسوفنا بنصرة خاذل
ووفاء خوان وعطفة قال

ويرى سبيل الرشد لكن مالنا
عزم مع الاهواء والامال (١٤)

وانشدني مما قاله بمصر :

انظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الاول

تغاير من صروف الدهر معتبر
واي حال على الايام لم يحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
اضرمتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الاقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

امضي على الهول من ليل واهجم من
سيل واقدم في الهيجاء من اجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
على الحشايا وراء السجف والكلل

قد كنت اعفن من طول الثواء كما
يصدي المهند طول اللبث في الخلل

اروح بعد دروع الحرب في حلل
من الدبيقي فبؤسا لي والحلل

وما الرفاهة من رأيي وطري
ولاالتنعم من همي ولا شغلي

ولست ارضى بلوغ المجد في رفة
ولاالعلا دون حطم البيض والاسل (١٥)

وانشدني بعد ماقاله في خروجه من مصر ، قال :

اليك فلا تثني شؤونك شاني
ولاتملك العين الحسان عناني

ولاتجزعي من بغتة البين واصبري
لعل التنائي معقب لتداني

فللاسد غيل حيث حلت وانما
يهاب الثنائي قلب كل هدان

ولاتحملي هم اغترابي فلم ازل
غريب وفاء في الورى وبيان

وفيا اذا ماخان جفن لناظر
ولم يرع كف صحبة لبنان

ارى الغدر عارا يكتب الدهر وصمة
ويقراه مابين الملا الملوان

ولاتسأليني عن زماني فانني
انزه عن شكوى الخطوب لساني

ولكن سلي عني الزمان فانه
يحدث عن صبري على الحدثان

رمتني الليالي بالخطوب جهالة
بصبري على مانابني وعراني

فما اوهنت عزمي الرزايا ولالها
بحسن اصطباري في الملم يدان

وكم نكبة ظن العدى انها الردى
سمت بي واعلت في البرية شاني

ومااانا ممن يستكين لحادث
ولايملأ الهول المخوف جناني

وان كان دهري غال وفري فلم يغل
ثنائي ولاذكرى بكل مكان

وماكان الا للنوال وللقرى
وغوثا للهوف وفدية عان

-٥٤٥٧-

حمدت على حالي يسار وعسرة
وبرزت في يومي ندى وطعان

ولم ادخر للدهر ان راب او نبا
وللخطب الا صارمي وسناني

لان جميل الذكر يبقى لاهله
وكل الذي فوق البسيطة فان (١٦)

الأمير مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد

من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني

ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث ابن عامر بن مالك بن مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث بن ادم عليه السلام.

اسامة كاسمه، في قوة نثره ونظمه، يلوح من كلامه امارة الامارة، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة، نشر له علم العلم، ورقي سلم السلم، ولزم طريق السلامة، وتنكب سبل الملامة، واشتغل بنفسه، ومحاورة ابناء جنسه، حلو المجالسة، حالي المساجلة، ندي الندى بماء الفكاهة، عالي النجم في سماء النباهة، معتدل التصاريف، مطبوع التصانيف، اسكنه عشق الغوطة، بدمشق المغبوطة، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم، الى ايام ابن رزيك فعاد الى الشام، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام، حتى اخذت شيزر من اهله، ورشقهم صرف الزمان بنبله، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده، مؤثرا بلدها على بلده، حتى اعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين، ولم يزل مشغوفا بذكره، مستهترا باشاعة نظمه ونثره، والامير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه، ونديمه وانيسه، فاستدعاه إلى دمشق وهو شيخ قد جاوز الثمانين، وكنت قد طالعت

مذيل السمعاني ووجدته قد وصفه وقرظه ، وانشــدني العــامري له باصفهان من شعره ماحفظه ، وكنت اتمنى ابدا لقياه ، واشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق وسألته عن مولده ، فقال : سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة . وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له ، في قلع ضرسه :

وصاحب لا امل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد (١٧)

لو انصفت فهمك ان كنت منتقــدا ، فــرقيت عن مــرقب وهمــك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه ، لغنمت من فرائد درره ولآليه ، ولعلمت ان الشعر اذا لم يكن هكذا فلغــو ، وانه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو . ومــن الذي اتــى في وصــف الســن المقلوع ، بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه احد الى معناه ، وهــل ساواه في هذا النمط سواه .

وانشدني ايضا لنفسه ، في معنى قلع ضرسه :

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى ترديت رداء المشيب

لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من اخلاقه مايريب

افسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب

ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ، ومثلي ابدا لايصيب

فاعجب لها من فرقة باعدت
بين الفين وكل حبيب (١٨)

وانشدني لنفسه من قديم شعره :

قالوا نهته الاربعون عن الصبا
واخو المشيب يحور ثمت يهتدي

كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد

واذا عددت سني ثم نقصتها
زمن الهموم ، فتلك ساعة مولدي (١٩)

تعجب من مقاصد هـذه الكلم ، وتعـرض لموارد هـذه الحـكم ، واقض العجب كل العجب ، مـن غزارة هـذا الادب ، ولولا ان المداد افضل ماترقم به صحائف الكتـب ، لحـررت هـذه الابيات بمـاء الذهب ، فهذا ابلغ من قول ابي فراس بن حمدان:

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور

ايام عزي ونفاذ امري
هي التي احسبها من عمري (٢٠)

فالفضل للمتقدم في ابتكار المعنى وللمتأخر في المبالغة ، حيث ذكره في بيت واحد ولم يجعل له نصيبا من العمر الا ساعة مـولده . فجميع الحياة على الحقيقة نصب ، والم وتعب .
وانشدني ايضا لنفسه من قديم نظمه :

تجرم حتى مللت عتابة
واعرضت عنه لااريد اقترابه

اذا سقطت من مفرق المرء شعرة
تأفف منها ان تمس ثيابه (٢١)

وانشدني من قديم قوله في السلوان ايضا :

لم يبق لي في هواكم ارب
سلوتكم ، والقلوب تنقلب

اوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب

الام دمعي من هجركم سرب
فان ، وقلبي ومن غدركم يجب

ان كان هذا تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا ٢٢)

تأمل هذه المعاني والابيات ، بعين التأني والثبات ، تعرف ان قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الابية ، والهمم العلية ، وكل من يملكه الهوى ويسترقه ، قلما يطلقه السلو ويعتقه ، الا ان يكون كبيرا غلب عقله هواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه . وقوله : « فقد اعتقتني الريب » في غاية الجودة ونهاية الكمال ، اعذب من الزلال ، واطيب من السحر الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال .
وقوله ايضا من قديم شعره :

اذا اختفت في الهوى عني اساءته
ابدى تجنيه ذنبي قبل اجنيه

كذلك انسان عيني لايزال يرى
عيبي ، ولست ارى العيب الذي فيه (٢٣)

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن اساءتي العتاب

امرضت من اهوى وبأ
بى ان امرضه الحجاب

لو كنت تنصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٢٤)

قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر ، مخترع لبيه ومبتدع فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المغزى ، طريفة المعنى ، مقصدها سهيل ، ومورها سهل ، لو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل ، ولا شك ان حبيبه عند استنشاق هوائها ، فاز ببرء مهجته وشفائها .

هذه الابيات كنت نقلتها من تاريخ السمعاني فلما لقيت مؤيد الدولة قرأتها عليه ، وكنت اثبتها على هذا الوجه ، ابصر مني العينان ، وان لم يحط السمعان ، من انباء تاريخ السمعاني ، الحاوي للمعاني ، ابياتا رواها ، وناظمها بماء الحكمة رواها ، وقد بدتها في كتابي هذا غيرة من الملتقط ، وحفظا لها من العيي المشتط المشترط . واما اشعاره التي انشدنيها بدمشق سنة احدى وسبعين من نظمه على الكبر قوله حين قلت له : هل لك معنى مبتكر في الشيب

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
ارضيته وتركت خدي شائبا

لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا

ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا

وابيه ، ماظلم المشيب وانه
املي ، فقلت عساه عني راغبا

انا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا(٢٥)

وهذا معنى مبتكر في الشيب لم يسبق اليه :
وقوله

انستني الايام ايام الصبا
وذهلت عن طيب الزمان الذاهب

وتذكرت حالي فكل مآربي
فيما مضى ماهن لي بمآرب

وقوله :

نهار الشيب يكشف كل ريب
تكفل ستره ليل الشباب

ينم على المعايب والمساوي
كما نم النصول على الخضاب

فهل لي بعد أن ضحى بفودي
نهار الشيب ، عذر في التصابي

وقوله :

افدي بدورا تمالوا
على الملال ولجوا

قد كنت احسب اني
من هجركم لست انجو

هذا الذي كنت اخشى
فأين ماكنت ارجو

وقوله :

قل للذي خضب المشيب جهالة
دع عنك ذا فلكل صبغ ماح

او ماترى صبغ الليالي كلما
جددنه يمحوه ضوء صباح

وقوله في محبوس :

حبسوك والطير النواطق انما
حبست لميزتها على الانداد

وتهيبوك وانت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغماد

ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للاساد

وانشدني قوله في الشمعة :

انظر الى حسن الشمع يظهر للر
رائين نورا وفيه النار تستعر

ـ ٥٤٦٥ ـ

كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الهم منفطر (٣٦)

وقوله :

لارمين بنفسي كل مهلكة
مخوفة يتحاماها ذوو الباس

حتى اصادف حتفي فهو اجمل بي
من الخمول واستغني عن الناس

وقوله :

العجز لاينقص رزقا ولا
يزيده حول ولافحص

كل له رزق سيأتيه لا
زيادة فيه ولانقص

قدضمن الله لنا رزقنا
جاءت به الاثار والنص

فما لنا نطلب من غيره
لولا قنوط النفس والحرص

وقوله في نفاق الدهر :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق ، وقلبي كئيب مكمد باك

وراحة القلب في الشكوى ، ولذتها
لو امكنت ، لاتساوي ذلة الشاكي

قد تمكنت كلمة « لو امكنت » فما احسنها موقعا ، واجملها موضعا ، ثم قارن اللذة بالذلة وهما متجانسان .
وقوله :

انا حال حالك صبغ الشباب
سقى عهده الغيث من حائل

فماذا الغرور بزور الخضا
ب لولا التعلل بالباطل

وقوله من قديم شعره :

ألن غض دهري من جماحي اوثنى
عناني او زلت باخمصي النعل

تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنة في الصدر ابرزها الجهل

وهل انا الا السيف فل حده
قراع الاعادي ثم ارهفه الصقل (٢٧)

وقوله :

لاتوص عند الموت إل
لا بالوديعة والديون

ودع التشاغل بالحطا
م كفاك شغلك بالمنون

فوصية الاموات بالا
حياء من شعب الجنون

ومااحسن بيت المعري :

يوصي الفتى عند الممات كأنه
يمر فيقضي حاجة ويعود

ورأيته وقد اهدي له دهن البلسان ، فسألت عنه ، فقال : كتبت الى المهذب الحكيم ابن النقاش هذه الابيات على لسان :

ركبتي تخدم المهذب في العـلـ
ـم وفي كل حكمة وبيان

وهي تشكو اليه تأثير طول الـ
ـ عمر في ضعفها ومر الزمان

فبها فاقة الى ما يقويـ
ـها على مشيها من البلسان

كل هذا علالة ، ما لمن جا
ز الثمانين بالنهوض يدان

رغبة في الحياة من بعد طول الـ
ـ عمر ، والموت غاية الانسان

وقوله:

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت اسر مايؤول اله

واذا دعوت بطول عمر لامريء
فاعلم بانك قد دعوت عليه

وقوله

يارب عفوا عن مسـ
يء خائف ما كان منه

متيقن ان سوف يصـ
ي النار ان لم تعف عنه

لما انشدني في الشيب لنفسي

ليل الشباب تولى
والشيب صبح تالق

ما الشيب الاغبار
من ركض عمري تعلق

وقلت:
ما اظن اني سبقت الى هذا المعنى فانشد لبعضهم بيتين هما

قالوا غبار قد علا
ك فقلت: ذا غير الغبار

هذا الذي نقل الملو
ك الى القبور من الديار

قلت : ولكن حققت انه من غبار ركض العمر ، وهو معنى مبتكر .
وحضرت عند الامير مؤيد الدولة اسامة يوما اخر بدمشق سنة احدى وسبعين ، فانشدني قوله في القديم في استدعاء صديق الى مجلس المنادمة بالموصل وقد غاب عنها :

امهذب الدين استمع من عاتب ،
لولا ودادك لم يفه بعتاب

اتطيع في الدهر وهو كما ترى
يقضي علي بفرقة الاحباب

امللتني وجعلت سكرك حجة
ونهضت ، ام لم تستحل شرابي

قسما لئن لم تأتني متنصلا
متبرعا بالعذر والاعتاب

لاحرمن الخندريس واغتدي
متنمسا بالماء والمحراب

وتبوء معتمدا باثم تنسكي
وبعابه ، اعظم به من عاب

وقوله في الشوق والمكاتبة :

لو ان كتبي بقدر الشوق واصلة
تتابعت كدموعي او كانفاسي

وان وجدت سبيلا او قدرت على
خلاص عقل اسير في يد الكاس

اجريت اسود عيني فوق ابيضها
بمائها لامدادا فوق قرطاس

وقلت للشوق ياسحبان امل على
يدي ، اعيذك من عي وابلاس

حتى ابوح بما اشكو اليك كما
باح المريض بشكواه الى الاسي

وقوله في العذار :

انظر شماتة عاذلي وسروره
بكسوف بدري واشتهار محاقه

غطى ظلام الشعر من وجناته
صبحا تضيء الارض من اشراقه

وهو الجهول يقول هذا عارض
هو عارض لكن على عشاقه (٢٨)

وانشدني ايضا لنفسه :

ماانت اول من تناءت داره
فعلام قلبك ليس تخبو ناره

اما السلو او الحمام ، وماسوى
هذين قسم ثالث تختاره

هذا وقوفك للوداع وهذه
اظعان من تهوى وتلك دياره

فاستبق دمعك فهو اول خاذل
بعد الفراق وان طما تياره

فذر الدموع تقل عن امد النوى
ان لم يكن من لجة تمتاره

ليت المطايا ماخلقن فكم دم
سفكته ، يثقل غيرها اوزاره

ماحتف انفسنا سواها انها
لهي الحمام اتيح او انذاره

لو ان كل العيس ناقة صالح
ماساءني اني الغداة قذاره (٢٩)

وتناشدنا بيتـا للوزير المغـربي (٣٠) في وصـف خفقـان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الريح وهـو :

كأن قلبي اذا عن اذ كاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال الامير مؤيد الدولة اسامة : لقد شبهت القلب الخافق وبالغت في تشبيهه واربيب عليه في قولي من ابيات هي :

احبابنا ، كيف اللقاء ودونكم
عرض المهامه والفيافي الفيح

ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكأنما انسانها مجروح

والبيت المشار اليه :

وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له: صدقت ، فان الوزير المغربي قصد تشبيه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجـد بـاللهب ، وخفقـانه بـاضطرابه عند اضطرامه لتعاور الريح ، فقد اربيت بالفصاحة على ذلك الفصيح .
وانشدني ايضا من قوله ايام شبابه وهـو معتقـل وقـد جـرى ذكر الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بودنا مرتاب

نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب

مستشرف كالبدر خلف حجابه
او في الكرى ايضا عليك حجاب

ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الاسباب

ثبت فلا طول الزيارةناقص
منه ، وليس يزيده الاغباب

حظر الوفاء علي هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب (٣١)

قلت له احسنت . وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري في الخيال :

او حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وابلغ من هذا في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من امد النوى المتطاول

وعذرت طيفك في الجفاء فإنه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

ثم انشدني الامير اسامة قصيدة نونية ، لنفسه ، منها :

محيا ماأرى ام بدر دجن
وبارق مبسم ام برق مزن

وثغر ام لآل ام اقاح
وريق ام رحيق بنت دن

ولحظ ام سنان ركبوه
باسمر من نبات الخط لدن

ومنها :

فيامن منه قلبي في سعير
وعيني منه في جنات عدن

اذا فكرت في انفاق عمري
ضياعا في هواك قرعت سني

وآسف كيف اخلق عهد ودي
وآسى كيف اخاف فيك ظني

واعجب مالقيت من الليالي
وأي فعالها بي لم يسؤني

تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني (٣٢)

وانشدني لنفسه من قصيدة :

حتام ارغب في مودة زاهد
واروم قرب الدار من متباعد

والام التزم الوفاء لغادر
جان واسهر مقلتي لراقد

واقول هجرته مخافة كاشح
يغري بنا ، وحذار واش حاسد

- ٥٤٧٤ -

واظنه يبدي الجفاء ضرورة
وإذا قطيعته قطيعة عامد

ياهاجرا افنى اصطباري هجره
وابتز ثوب تماسكي وتجالدي

كيف السبيل الى وصالك بعدما
عفيت بالهجران سبل مقاصدي

ويلومني في حمل ظلمك جاهل
يلقى جوى قلبي بقلب بارد

يزري على صبري بصبر مسعد
ويصد عن دمعي بطرف جامد

اتراك يعطفك العتاب وقلما
يثني العتاب عنان قلب شارد

هيهات وصلك عند عنقا مغرب
ورضاك ابعد من سهى وفراقد

ومن العناء طلاب ود صادق
من ماذق وصلاح قلب فاسد(٣٣)

وانشدني لنفسه في الحباب من ابيات :

وقد علاها حباب
كاللؤلؤ المنظوم

رأيت شمس نهار
قد رصعت بالنجوم

واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ليلة ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال لي الامير اسامة : اما انشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات . فانشدني لنفسه :

- ٥٤٧٥ -

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ، ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وانشدني لنفسه ، وقد نظمه في غرض له في نور الدين رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش

ايامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي ، وفيها الجوع والعطش (٣٤)

وانشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

تشاغلتم بالهجر ، والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقى

كأنا اخذنا من صروف زماننا
امانا ومن جور الحوادث موثقا (٣٥)

وقال :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا

وتلهبت خجلا ، فلولا ماؤها
مترقرقا فيها لصار حريقا

وازور عني مطرقا فأضلني
أن أهتدي نحو السلو طريقا(٣٦)

وقال :

صد عني وأعرضا
وتناسى الذي مضى

واستمر الصدود وان
قطع الوصل وانقضى

واختفت في الهوى نذو
ب بدت حين أبغضا

صرح الان هجره
لي بما كان عرضا

كل عيب يبين في السـ
ـخط يخفى مع الرضا

وإذا استعطف الملو
ل تجنى وأعرضا

ليت من ملني وأز
حل جسمي وأمرضا

عاد بالوصل أو قضى
في العدل إذ قضى(٣٧)

وقال :

وأقول للعين في يوم الوداع وقد
فاضت بدمع على الخدين مستبق

تزودي اليوم من توديعهم نظرا
ثم افرغي في غد للدمع والارق(٣٨)

وقال في المعنى :

ياعين في ساعة التوديع يشغلك ال
بكاء عن آخر التسليم والنظر

خذي بحظك منهم قبل بينهم
ثم اجهدي بعدهم للدمع والسهر(٣٩)

وقال :

يامدعي الصبر عن أحبابه ، وله
دمع إذا حن ذكراهم يكذبه

خلفت قلبك في أرض الشآم وقد
أصبحت في مصر يامغرور تطلبه

هلا غداة النوى استصحبته وإذا اخـ
ـتار المقام فهلا كنت تصحبه

أفردته بالاسى في دار غربته
وعدت ، لاعدت ، تبكيه وتندبه

هيهات قد حالت الايام بينكما
فعز نفسك عما عز مطلبه

وقال :

صبري على فقد إخواني وفرقتهم
غدر ، وأجمل بي من صبري الجزع

تقاسمتهم نوى شطت بهم وردى
فالحي كالميت ما في قربه طمع

واصبحت وحشة الغبراء دونهم
من بعد أنسي بهم والشمل مجتمع

وعشت منفردا منهم وأقسم ما
يكاد منفرد بالعيش ينتفع(٤٠)

وقال :

ما حيلتي في الملول يظلمني
وليس إن جار منه لي جار

وداده كالسحاب منتقل
وعهده كالسراب غرار

آمن ما كنت منه فاجأني
بغدره ، والملول غدار

عوني عليه مدامع سفح
وزفرة دون حرها النار(٤١)

وقال :

أصبحت لا أشكو الخطوب وإنما
أشكو زمانا لم يدع لي مشتكى

افنى أخلائي واهل مودتي
وأباد إخوان الصفاء واهلكا

عاشوا براحتهم ومت لفقدهم
فعلي يبكي ، لاعليهم ، من بكا

وبقيت بعدهم كأني حائر
بمفازة لم يلق فيها مسلكا(٤٢)

وقال :

ونازح في فؤادي من هواه صدى
لم يرو غلته علي ولا نهلي

في فيه ما في جنان الخلد من درر
ومن رضاب ومن خمر ومن عسل

لو كنت أعلم أن البين يفجؤني
وريت ، قبل النوى ، قلبي من القبل(٤٣)

وقال :

إن يحسدوا في السلم منـ
ـزلتي من العز المنيف

فبما أهين النفس في
يوم الوغى بين الصفوف

لطالما أقدمت إقـ
ـدام الحتوف على الحتوف

بعزيمة أمضى على
حد السيوف من السيوف(٤٤)

وقال :

إلق الخطوب إذا طرقـ
ـن بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور

فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير(٤٥)

و قال :

بكاء مثلي من وشك النوى سفه
وأمر صبري بعد البين مشتبه

- ٥٤٨٠ -

فما يسوفني في قربهم أمل
وليس في اليأس لي روح ولارقه

أكاتم الناس أشجاني وأحسبها
تخفى ، فيعلنها الاسقام والوله

كانني من ذهول الهم في سنة
وناظري قرح الاجفان منتبه

اذنبت ثم احلت الذنب من سفه
على النوى ولبئس العادة السفه

اقمت طوعا وساروا ثم أندبهم
هلا صحبت نواهم حيث ماأتجهوا

اضر بي ناظر تدمى محاجره
وخاطر مذ نأوا حيران منشده

فما يلائم ذا بعد النوى فرح
ولا يروق لهذا منظر نزه

سقيا لدهر نعمنا في غضارته
إذ في الحوادث عما ساءنا بله

وعيشنا لم يخالط صفوه كدر
وودنا لم تشب اخلاصه الشبه

مضى وجاء زمان لاتسر به
كل البرية منه في الذي كرهوا(٤٦)

وقال في الزهد :

مثوبة الفاقد عن فقده
بصبره ، أنفع من وجده

يبكيه في حزن عليه فهل
يطمع في التخليد من بعده

ما حيلة الناس وهل من يد
لهم بدفع الموت أو صده

وروده لابد منه ، فما
يذكر ما لا بد من ورده

سهامه لم يستطع ردها
داوود بالمحكم من سرده

ولا سليمان ابنه ردها
بملكه والحشد من جنده

عدل تساوى الخلق فيه فما
يميز المالك من عبده

كل له حد إذا ماانتهى
إليه وافاه على حده

تجمعنا الارض ، وكل أمرى
في لحده كالطفل في مهده

أما ترى أسلافنا عرسوا
بمنزل دان على بعده

تبؤوا الارض ولم يخبروا
عن حر مثواهم ولا برده

لحادث أسكتهم امسكوا
عن ابتداء القول أو رده

لونطقوا قالوا التقى خير ما
تزود العبد إلى لحده

فارجع إلى الله وثق بالذي
أتاك في الصادق من وعده
للصابرين الاجر ، والامن من
عذابه ، والفوز في خلده(٤٧)

وقال :

إيها المغرور مهلا
بلغ العمر مداه
كم عسى من جاوز السـ
ـبعين يبقى كم عساه
أنسيت الموت أم ، أمـ
ـنك الله لقاه
تظلم الناس لمن تر
جوه او تخشى سطاه
انت كالتنور يصلي الـ
ـنار في نفع واه

وقال يرثي ولدا له :

أزور قبرك والاشجان تمنعني
من أن أرى نهج قصدي حين انصرف
فما أرى غير احجار منضدة
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف
فانني لست ادري اين منقلبي
كأنني خائف في الليل يعتسف
إن قصر العمر بي عن أن أرى خلفا
له ففي الاجر عند الله لي خلف

أقول للنفس إذ جد النزاع بها
يانفس ويحك أين الأهل والسلف

أليس هذا سبيل الخلق أجمعهم
وكلهم بورود الموت معترف

كم ذا التأسف أم كم ذا الحنين وهل
يرد من قد حواه قبره الأسف(٤٨)

وقال:

تقلب أحوال الزمان أفادني
جميل الاسى فيما ينوب من الخطب

إذا حل ما لايستطاع دفاعه
فما أجمل الصبر الجميل بذي اللب

وقال :

صبرا لأيام تنـــــــا
هت ، في معاندتي وعضي

فالدهر كالميزان ما
ينفك من رفع وخفض

هذا مع الافلاك مر
تفع وذا بحضيض أرض

وإلى الفناء جميع من
خفضته أو رفعته يفضي

وقال :

أرجأت كتبي إلى حين اللقاء فقد
أكدى رجائي ، وزاد الشوق إرجائي

والجأتني إلى صبري موانع أيـ
ـامي فلم يسلني سعيي وإلجائي

حتى أحاطت بي الأشواق واشتملت
علي واستحوذت من كل أرجائي

فهل سبيل إلى قرب يميط شجا
صدري فقد طال تبريحي وإشجاني

وقال :

حسن التواضع في الكريم يزيده
فضلا على الاضراب والامثال

يكسوه من حسن الثناء ملابسا
تنبو عن المترفع المختال

إن السيول إلى القرار سريعة
والسيل حرب للمكان العالي(٤٩)

وقال وكتب بها الى ولده الامير مرهف من حصن كيفا جوابا عن كتاب أنفذه إليه مع مستميح لم يتمكن من بلوغ مأثره من بره :

أبا الفوارس ، ما لاقيت من زمني
أشد من قبضة كفي عن الجود

رأى سماحي بمنزور تجانف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي

ـ ٥٤٨٥ ـ

صرت إن هزني جان تعود أن
يجني نداي راني يابس العود

وقال في المعنى :

أبا الفوارس إن أنكرت قبض يدي
من بعد بسطتها بالجود والكرم

الذنب للموت أرجاني إلى زمن
غلت أكف الندى بؤساه بالعدم

وقال :

حذرتني تجاربي صحبة العا
لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب
قلت ما لي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد لدى اليسـ
ـر ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم
راحة اليأس من حذار وذل

وقال :

سقوف الدور في خريرت(٥٠) سود
كستها النار أثواب الحداد

فلا تعجب إذا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد

بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور إلا في السواد

وذور الشيب مكروه، وتهوى
سواد الشعر أصناف العباد

وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وقال يرثي ولده عتيقا :

غالبتني عليك أيدي المنايا
ولها في النفوس أمر مطاع

فتخليت عنك عجزا ولو أغـ
ـنى دفاعي لطال عنك الدفاع

وأزالت جميل صبري فزالت
مطلبا في الخطوب لا يستطاع

وقال فيه :

كلما امتد ناظري رده الدمـ
ـع حسيرا عن أن يرى لك شبها

لم يرقني من بعد فقدك مرأى
فيه للعين مستراد وملهى

كنت عندي ألذ من رغد العيـ
ـش وأحلى من الحياة وأشهى

وقال في مدح الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام واليمن :

سمعت صروف الدهر قول العاتب
وتجنبت حرب المليك المحارب

وتجافت الايام عن مطلوبه
ومراده ، أكرم به من طالب

هو من عرفن فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بغياهب

وإذا سطا أضحت قلوب عداته
تلوى كمخراق(٥١) بكفي لاعب

من ذا يناوي الناصر الملك الذي
في كفه بحرا ردى ومواهب

وإذا سرى خلت البسيطة لجة
أمواجها بيض وبيض قواضب

ملك القلوب محبة ومهابة
فاقتادها طوعا بهيبة غاصب

وله في الشيب والانحناء والعصا :

حناني الدهر وأبـ
ـلتني الليالي والغير

فصرت كالقوس ومن
عصاي للقوس وتر(٥٢)

اهدج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر

كأنني مقيد
وانما القيدالكبر

والعمر مثل الماء في
أخره يأتي الكدر (٥٣)

-٥٤٨٨-

وله في الخيال:

ياهاجرا راضيا وغضبانا
ومعرضا هاجدا ويقظانا

هجرت اما لهفوة فرطت
مني اعلم الطيف بالذي كانا(٥٤)

وله:

يهون الخطب ان الدهر ذوغير
وأن أيامه بين الورى دول

وأن ما ساء أو ماسرمنتقل
عنا ، والا فانا عنه ننتقل

وله:

تناسبني الآجال كأنني
رنية سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني إذا رمت القيام كسير

أؤدي صلاتي قاعدا ، وسجودها
علي إذا رمت السجود ، عسير

وقد أنذرتني هذه الحال أنني
دنت رحلة مني وحان مسير

وله من قصيدة يصف ضعفه في كبره من قطعة :

فاعجب لضعف يدي من حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الاسد

وانشدني أيضا لنفسه :

لي مولى صحبته مذهب العمـ
ـر فلم يرع حرمتي وذمامي

ظنني ظله اصاحبه الدهـ
ـر على غير نائل واحترام

فافترقنا كأنه كان طيفا
وكأني رأيته في المنام(٥٥)

وللامير مجد الدين مؤيد الدولة ابن منقذ في مدح الملك الناصر :

لهفي لشرخ شبيبتي وزماني
وتروحي لفتوة وطعان

أيام لاأعطي الصبابة مقودي
أنفا ، ولايثني الغرام عناني

وإذا اللواحي ، في تقحمي الوغى
لا في المدام ولا الهوى ، تلحاني

وإذا الكماة على يقين انهم
يلقى الردى في الحرب من يلقاني

أعتدهم ، وهم الاسود ، فرائسي
فهم دريئة صارمي وسناني

والاسد تلقى مثلها مني إذا
لاقيتها بقوى يد وجنان

كم قد حطمت الرمح في لباتها
فتركتها صرعى على الأذقان

حتى إذا السبعون قصر عشرها
خطوي ، وعاث الضعف في أركاني

ابلتني الايام حتى كل عن
ضرب المهند ساعدي وبناني

هذا وكم للدهر عندي نكبة
في المال والأهلين والاوطان

نوب يروض بها إباي وقد عسا
عودي ، فما تثنيه كف الحاني

لاأستكين ولا ألين وقد بلا
فيما مضى صبري على الحدثان

فالآن يطمع في اهتضامي إنه
قد رام أمرا ليس في الامكان

والناصر الملك المتوج ناصري
وعلاه قد خطت كتاب أماني

قد كنت أرهب صرف دهري قبله
فأعاد صرف الدهر من أعواني

انا جاره ويد الخطوب قصيرة
عن أن تنال مجاور السلطان

ملك يمن على أسارى سيبه
فيعيدهم في الاسر بالاحسان

خضعت له صيد الملوك فمن يرى
أقلامه غرر على التيجان

ملأ القلوب محبة ومهابة
فخلت من البغضاء والشنآن

لي منه إكرام علوت به على
زهر النجوم ، ونائل أغناني

قرن الكرامة بالنوال مواليا
فعجزت عن إحصاء ما أولاني

فنداه أخلف ما مضى من ثروتي
وبقاؤه عن أسرتي أسلاني

فلأهدين إلى علاه مدائحا
تبقى على الأحقاب والأزمان

مدحا أفوق بها زهيرا مثلما
فاق المليك الناصر ابن سنان(٥٦)

ياناصر الاسلام حين تخاذلت
عنه الملوك ومظهر الايمان

-٥٤٩٢-

بك قد أعز الله حزب جنوده
وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشـــ
ـــيطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى ، لارغبة
في الملك بل في طاعة الرحمان

فضربتهم ضرب الغرائب واضعا
بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغضبت لله الذي أعطاك فصــ
ــل الحكم غضبة ثائر حران

فقتلت من صدق الوغى ، ووسمت من
نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعدما
ضرمت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد
ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض
عضب ، ويصدر وهو أحمر قان

ويخوض نيران الوغى ، وكأنه
ظمآن خاض موارد الغدران

قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى :
ماذا أتى بالاسد من خفان

لو أنهم صدموا الجبال لزعزعوا
أركانها بالبيض والخرصان

فهم الذخيرة للوقائع بالعدى
ولفتح ما استعصى من البلدان

أنت الذي علمتهم .....
.......فارس الفرسان

فاسلم مدى الايام يامن ما له
............ثان(٥٧)

واسعد بشهر الله فهو مبشر
لعلاك بالتأييد والغفران

في دولة عمت بنائلها الورى
فدعا لها بالخلد كل لسان

وله في الهزل:

خلع الخليع عذاره في فسقه

حتى تهتك في بغى ولواط

يأتي ويؤتى ، ليس يذكر ذا ولا
هذا ، كذلك إبرة الخياط

وله :

يا عاتبين عتاب المستريب لنا
لا تسمعوا في الهوى ما تدعي التهم

من لي بأن بسيط الارض دونكم
طرس واني في أرجائه قلم

أسعى إليكم على رأسي ويمنعني
إجلالي الحب أن يسعى بي القدم

وله قصيدة مشهورة كتبها إلى دمشق بعد خروجه منها إلى مصر في زمان بني الصوفي(٥٨) كتبها إلى الامير انر ، ويشير إلى بني الصوفي ، أنشدنيها لنفسه وهي ذات تضمين(٥٩) :

ولوا ، ولما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم

فليت شعري بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم

حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا

حرمت ماكنت ارجو من ودادهم
ما الرزق الا الذي تجري به القسم

محاسني ، منذ ملوني بأعينهم ،
قذى ، وذكري في آذانهم صمم

وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
هواك من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا

تبدلوا بي ولا ابغي بهم بدلا
حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا

اراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ أميري معين الدين مالكة
من نازح الدار لكن وده أمم

وقل له أنت خير الترك فضلك الـ
ـحياء والدين والاقدام والكرم

انت أعدل من يشكي إليه ولي
شكية أنت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم

ما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن المعارف في أهل النهى ذمم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وإن أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بعتبهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو انهم عدموك ، الويل والعدم

والله ما نصحوا لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من معان في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

اين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا انفت حياء أو محافظة
من فعل ما أنكرته العرب والعجم

أسلمتنا ، وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لايعتريه به شيب ولاهرم

وان جارك جار للسموأل لا
يخشى الأعادي ولاتغتاله النقم

وما طمان(٦٠) بأولى من أسامة بالـ
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

ألقيتهم في يد الافرنج متبعا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الأعادي ، وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الأعوان والخدم

إذا نهضت إلى المجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسم

حتى إذا ماانجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم

رشفت آخر عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش ، فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربوه ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
ومرتع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ، ضاق به
ذرع الرجال ، يد يسطو بها وفم

لكن رايك ادناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
وما لجرح إذا ارضاكم ألم

ولست آسي على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس فيه يدي
ثم انثنت وهي صفر ماؤها ندم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نعم(٦١)

وأردت أن أورد من نثره ما يزهو فجره ، ويبهر سحره ، فوجدت له جواب كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني(٦٢) إليه من مصر عند عوده إليها ، ونحن بدمشق سنة إحدى وسبعين ، وأثبت أولا الرسالة الفاضلية وهي أديبة غريبة ، صنيعة بديعة ، جامعة للدرر ، لامعة بالغرر ، وهي :

وصل كتاب الحضرة الشامية الاجلية ، المؤيدة الموفقة المكرمة ، مجد الدين ، قدوة المجاهدين ، شيخ الامراء ، أمين العلماء ، مؤيد الدولة ، عز الملة ، ذات الفضيلتين ، خالصة أمير المؤمنين ، لازالت رياض ثنائها متناوحة ، وخطرات الردى دونها متنازحة ، والبركات إلى جنابها متوالية ، والليالي بأنوار سعادتها متلالية ، والايام الجافية ، عن بقية الفضل بها متجافية ، وأحكامها الهافية ، تاركة للمجد فيها فئة تتحيز ، إليها المكرمات إذا لم يكن لها فية . فأنشده ضالة هوى كان لنشدانها مرصدا ، ورفع له نارا موسوية سمع عندها الخطاب وأنس الخير ووجد الهدى ، وكانت نار الغليل ، في فؤاده بخلاف نار الخليل ، فإنها لاتقبل ندى الاجفان بأن يكون بردا وسلاما ، ولاترى بمائها إلا أضرى ما كانت ضراما ، وشهد الله حوالة على علمه بما هو فيه ، لا إحالة بما يخالفه الضمير وينافيه ، لقد كان العبد ناكس الرأس خجلا ، غضيض الطرف حياء ، مقيد النظر إطراقا ، حصر القول تشورا(٦٣) منه ، فارقها على تلك الصفة فلا هو قضى من حقها فرائض لزمت ، والله وتعينت ، ولا الضرورة في مقامها بحيث تبلغه أنسها أذنت ، ولا مدت هذه الطيفية والسحابة الصيفية بالنوى المستأنفة ما اقتربت ، ولا الايام بالبعد ماأساءت فإنها بالقرب ما أحسنت .

- ٥٥٠٠ -

وإن امرءا يبقى على ذا فؤاده
ويخبر عنه ، إنه لصبور

ويعود إلى ذكر الكتاب الكريم ، وسجد لحرابه وسلم ، وحسب سطوره مباسم تبسم ، ووقف عليه وقوف المحب على الطلل يكلمه ولايتكلم ، وهطل جفنه وقد كان جمادى ودمعه وقد كان على صفحة المحرم ، وجدد له صبابة لايصحبها أمل ، وخاف أن لايدرك الهيجاء

حمل(٦٤) ، وقال الكتاب :
إنا محيوك فاسلم أيها الطلل(٦٥)

وعز ، والله ، عليه أن يدخل كاتبه القلوب ويخرج من المقل ، وأنشد نيابة عنها :

وإن بلادا ما احتلت بي لعاطل
وإن زمانا ما وفى لي لخوان

وما يحسب العبد أن الملك يعجز عن واحد وهو بالورى مستقل ، وأن السحاب يعرض عن ذكي الروض وهو على الفلا مستهل .

ولقد كتب في هذا المعنى بما يرجو أن لا يرجى ، وأنهى منه ما اقتضى الصواب أن ينهى ، والله المسؤول لها في عاقبة حميدة ، وبقية من العمر مديدة ، فإنها الآن نوح الأدب وطوفانها العلم الذي في صدرها ، ولاغرو أن يبلغ عمره بعمرها ، على أن يتحقق خلودها في الجنة بعملها ، وفي الدنيا بذكرها ، فإن الدارين يتغايران على عقائل فخرها ، ولايتغيران عن إجرائها على رفع قدرها ، وعلى أنها طالما أقامت الحد على الدنيا السكرى حتى بلغت في حدها من العمر الثمانين ، وأثنت الايام بسلاح الحرب من سيفها وسلاح السلم من قلمها تأنيب الجانين ، وما حملت العصا بعد السيف حتى ألقت

إليها السلم فوضعت الحرب أوزارها ، ولا استقلت بآية موسى إلا لتفجر بها أنوار الخواطر وتضرب بحارها ، وما هي إلا رمح وكفى بيدها لها سنانا ، وما هي إلا جواد يجنب السنين خلفها فتكون أناملها لها عنانا .

وعلى ذكر العصا فإن الكتاب المجموع فيها حسب أنه ثانية العصا ، واضيف إلى محاسنها التي لاتحصى أو يحصى الحصا .

وكان من مدة قد شاهد بحلب كتبا بخط المولى الولد دلت على مضض ومرض ، ولعله الآن قد عوفي من الامرين ، وقرت بوجهه العين ، وجددت عهدا بنظرة ، وقرت عليها لسانه إسناد خبره ، وبلت غلة الحائم ، ورأت منه هلال الصائم ، وطالعها وجه الزمان المغضب منه بصفحة المباسم ، وفي مواعيد الانس منه الضامن الغارم ، وهو يسلم عليه تسليم الندى على ورق الورد ، ويستثمر الوفاء من غرس ذلك العهد ، ولكتاب الحضرة العالية من الخادم موقع الطوق من الحمام يتقلد فلا يخلع ، ويعجبها فلا تزال تسجع ، يجليه طوقا على الاسى إلا أنه بدر الدمع مرصع ، ولايمنعه منه شعار السرور أن يحزن لفرقتها ويجزع ، فإذا أنعم به فمع ثقة ويخشى أن يكون هذا الشرط له قاطعا ، بل مع من اتفق فانه كالمسك لا يدعه العرف الضائع أن يكون ضائعا :

اكتبه تكتب لي أمانا ماضيا
وابعثه تبعث لي زمانا راجعا

إن أشتريه بمهجتي فقليلة
فاسمح به ، فمتى عرفتك مانعا

وجواب مؤيد الدولة ، وقرأته عليه فسمعه :

-٥٥٠٢-

وصل الكتاب أنا الفداء لفكرة
نظمت نفيس الدر فيه أسطرا
وفضضته عن جونة فتأرجت
نفحاته مسكا وفاحت عنبرا
واعدت فيه تأملي متحيرا
كيف استحال اللفظ فيه جوهرا

الخادم يخدم المجلس العالي الأجلي الاوحد الصدر الفاضل ، فضله الله برفع درجاته في الجنان ، كما فضله بمعجز البلاغة والبيان ، وبلغه من الخيرات أمله ، وختم بالحسنى عمله ، وجمل ببقائه الدنيا ، وأجزل حظه من رحمته في الاخرى ، بسلام يغاديه نشره ويراوحه ، ودعاء لايحجب عن الاجابة صالحه ، وثناء يضيق عن حصر فضائله منادحه ، وما عسى أن يقول مطريه ومادحه ، والفضل نغبة من بحره الزاخر ، وقطرة من سحابه الماطر ، تفرد به فما له فيه من نظير وسبق من تقدمه في زمانه الاخير ، فتق عن البلاغة أكماما تزينت الدنيا منها بالاعاجيب ، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تتلى في المحاريب ، إذا استنطقت ازدحمت عليها العقول والاسماع ، ووقع على الاقرار بإعجازها الاتفاق والاجماع ، فسبحان من فضله بالبلاغة على الانام ، وذلل له بديع كلام ما كانه من الكلام ، تعجز عن سلوك سبيله الافهام ، وتحار في إدراك لطف معانيه الأوهام ، هو سحر لكنه حلال ، ودر إلا أن بحره حلو سلسال .

ولايظن ، أدام الله ببقائه جمال الزمان واهله ، ويسر له إظهار مكتوم فضله ، أن الخادم يسلك سبيل النفاق في مقاله ، ولا إعارة شهادة في وصف كماله ، لا والله
ماذلك مذهبه ، ولاهو مراد المجلس العالي ولاأربه ، ولكنها شهادة ولايحل كتبها ، وقضية جرى بقول الحق فيها حكمها ، ولولا أن الخادم قد بقي فيه أثر من اقدام الشباب ، لاحجم عن اصدار

كتاب أو رد جواب ، لكنه على ثقة من كريم مساهلة المجلس العالي وحسن تجاوزه ، ويقين أن فضله جدير بستر نقص الخادم وسد معاوزه ، وهو يضرب عن ذكر ماعنده من الشوق الى كريم رؤيته ، والوحشة بمحبوب خدمته ، ويقتصر على ماقاله زهير :

ان تمس دارهم مني (٦٦) مباعدة
فما الأحبة الا هم وأن بعدوا

فأما ماانعم به من ذكر الخادم في مطالعاته فهو كذكر موسى أخاه هرون عليه السلام في مناجاته ، ولاسواء ، موسى ذكر شقيقه ، والمجلس العالي ذكر رفيقه ، وهذه اليد البيضاء مضافة الى سالف اياديه ، مقابلة بالاعتراف بالمنة السامية ، فلقد شرفه بذكره في ذلك المقام العالي ، وان كان لايزال على ذكر الانعام المتوالي ، تقريب مالك رقه واكرامه قد شرفاه ، وانعامه قد اغناه عن الخلق وكفاه ، ان سأله أجاب سؤاله ، بما يحقق رجاءه وآماله وان أمسك عن غني فضله بفضله ، فاجاه بتبرع مواهبه وبذله ، فالخادم من تشريف مالك رقه ذو تاج وسرير ، ومن غزير انعامه في روضة وغدير ، وذلك ببركات المجلس العالي ويمن نقيبته ، وجميل رأيه في الخادم وحسن نيته ، لكن يشوب ما هو فيه من إنعام لم تبلغه أمانيه أسف قد أقض لين مهاده ، وسلك من القلب حبة سواده ، على ذاهب عمره ، وقوة أسره ، واذا لم يكن أبلاهما في خدمة مالك رقه ، وبذل رأسه بين يديه ابانة عن صحة ولائه وصدقه ، والخادم يتسلى من الخدم في المهم ، بخدمته بصالح دعائه في الليل المدلهم ، والله سبحانه يتقبل من الخادم فيه صالح دعائه ، وينصره على جاحدي نعائمه ، بمحمد وآله

فأما ماانعم به من ذكر اصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقبيل قدمه ، والخادم يقول ماقاله أبو الفتيان ابن حيوس عن خدمة أبو الحسن رحمه الله لمحمود بن صالح .

-٥٥٠٤-

على أنه ، لافل غرب لسانه

مدى الدهر يحتاج مني مترجما (٦٧)

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام ، وجزيل الأنعام .

وأما ماتطول به من ذكر كتاب « العصا » وشرفه ، حتى تـوهم انه احسن فيما صنفه ، وعند وصوله من ديار بكر ، لايلقـى عصـا تسياره الا بمصر ، يقتفي اثر عصا الكليم ، الى جنابه الكريم ، الا أنه آية اقراره بالربوبية لفضله وافضاله ، ساجد سـجود السـحرة لتعظيمه واجلاله ، يتلقف مـن انعـامه حسـن التجـاوز عن نقصه ، ويعوذ بكرمه من منافثة علمه وفحصـه ، وتشريف الخـادم ولو بسطر واحد عند خلو البـال . والفـزع مـن مهـم الاشتغال ، يرفع من قدره ، ويوجده انه بالمكان المكين مـن حسـن ذكره ورأيه ، وأدام الله ايامه في ذلك أعلى ان شاء الله تعالى .

وكتب الي وقد رحلنا من دمشق في خدمة الملك الناصر الى حلب في شوال سنة احدى وسبعين :

عماد الدين أنت لكل داع
دعاك لعونه خير العماد
تقوم لنصره كرما اذا ما
تقاعد ذو القرابة والوداد
قضى لك بالعلى كرم السجايا
وماأوتيت من كرم الولاد
أبثك وحشتي لك واشتياقي
اليك ومالقيت من البعاد
واني في دمشق ، ومن حوته
لبعدك ذو اغتراب وانفراد
ومثلك ان تطلبه خبير
بهذا الخلق ليس بمستفاد

- ٥٥٠٥ -

أنار بك الزمان فلا علته
لفقد علاك أثواب الحداد

وكتب الي ايضا في ابتداء مكاتبه :

ياعمادي حين لامعتمد
وصدى صوتي في الخطب الملم
والذي بوأني من رأيه
في أعالي ذروة الطود الأشم
منذ فارقتك أنسي نافر
وسنا صبحي كليل مدلهم
فالى من اشتكي شيئا اذا
غاب عني مشتكي طارق غمي
واذا كنت معافى سالما
في اعتلاء وسعود هان همي

خادم المجلس العالي يخدم بالثناء والدعاء :

ويومىء بالتحية من بعيد
كما يومي بأصبعه الغريق

وعنده من الشوق مع قرب العهد الى شهي رؤيته ، والوحشة لخدمته ، مايعجز الاقلام شرحه ، ويحرق الطرس لفحه ، وهو ينحرف من مقام الاشتكاء ، الى مقام الدعاء ، ويرغب الى الله ان يكلاه بحفظه في سفره ومقامه ، ويجزل حظه من فضله وانعامه .

ووصلت منه مكاتبة الى الملك الناصر صلاح الدين في صفر سنة اثنتين وسبعين فقال لي القاضي الفاضل : خذها وأوردها في الخريدة والجريدة وهي :

لازلت ياملك الاسلام في نعم
قرينها المسعدان : النصر والظفر
تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم
وعونك الماضيان : السيف والقدر
فأنت اسكندر الدنيا ، بذورك قد
تضاءل المظلمان : الظلم والضرر
أعدت الدهر أيام الشباب وقد
أظله المهرمان : الشيب والكبر
وجاد غيث نداك المسلمين فمن
سحابه المغنيان : الدر والبدر
وسرت سيرة عدل في الأنام كما
قضى به الصادقان : الشرع والسور
فثق بنصر على الكفار انهم
يرديهم المهلكان : الغدر والأشر
تناهم اذ رأوا اقبال ملكهم
اليهم المزعجان : الخوف والحذر
ومالفرار بمنجيهم ، وخلفهم
من بأسه المدركان : السمر والبتر
وسوف يعفو غدا منهم بصارمه
وجيشه المخبران : العين والأثر
ولو رقوا في ذرى ثهلان اسلمهم
لسيفه العاصمان : الحصن والوزر
قضى بتفضيله عمن تقدمه
ماالستودع المخبران : الكتب والسير
عدل به أمن الشاء المهمل أن
يروعه الضاريان : الذئب والنمر
وجود كف اذا انهلت تفرق في
تيارها الزاخران : البحر والمطر
مكارم جمعت فيه ، توافق في
تفضيلها الأكرمان : الخبر والخبر

-٥٥٠٧-

فأسلمْ وعش وابق للاسم ماجرت ال
أفلاك والنيران : الشمس والقمر
بنجوة من صروف الدهر يقصر عن
منالها المفسدان : الخطب والغير

المملوك لبعده عن خدمة مولاه قد أنكر الزمـــان ، فمـــا هـــو الذي كان ، وأوهب الأيام ماأبقته من يسير قوته ، واسترجعت ماأعارته من ضعيف نهضته ، وأذاقته طعم الاغتراب ، وأدخلت عليه الهم من كل باب ، فهو في زاوية المنزل ، عن كلمات الناس فيه بمعزل ، فهو كما قال :

أنا في أهل دمشق ، وهم
عدد الرمل ، وحيد ذو انفراد
ليس لي منهم أليف وشجت
بيننا الالفة أسباب الوداد
يحسبوني ان رأوني وافدا
قد اتاهم من بقايا قوم عاد
وانفرادي رشد لي ، والهوى
أبدا يصرف عن سبل الرشاد

وقد ســألني ان انتجــز له مــطلوبا عند الملك الناصر فــكتب الي يستحثني :

عماد الدين ، مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الاماني
ولو كلفنه رد الشباب
وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه ، فما عذر الجواب (٦٨)

أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد

(من معجم الأدباء لياقوت)

ابن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار ابن زياد بن زغيب ، بن مكحول بن عمر بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات ابن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، هكذا ذكر هو نسبه ، وفيه اختلاف يسير عند ابن الكلبي ويكنى اسامة أبا المظفر ، ويلقب مؤيد الدولة مجد الدين ، وفي بني منقذ جماعة أمراء شعراء ، لكن اسامة اشعرهم واشهرهم ، وانا اذكر لكل واحد من أهله في ترجمته مايليق ولا أفرقهم ، ذكره عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني في كتاب خريدة القصر ، وجريدة العصر وأثني عليه كثيرا ، فقال : مازال بنو منقذ هؤلاء مالكي شيزر ، وهي حصن قريب من حماة معتصمين بحصانتها ممتنعين بمناعتها حتى جاءت الزلزلة في سنة نيف وخمسين ، فخربت حصنها ، وأذهبت حسنها ، وتملكها نور الدين محمود بن زنكي عليهم ، وأعاد بناءها فتشعبوا شعبا ، وتفرقوا أيدي سبأ .

قال ابن عساكر : ذكر لي أسامة أنه ولد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومات اسامة في ثالث عشري رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ودفن بجبل قاسيون .

قال العماد واسامة كاسمه في قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبارة ، حلو المجالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهه ، عالي النجم في سماء النباهة ، معتدل التصاريف مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة ، دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ، فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم ، الى أيام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاكرام حتى أخذت شيزر من أهله ، ورشقهم صرف

الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا ، مقيما بها في ولده ، مؤثرا لها على بلده ، حتى أعاد الله دمشق الى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة سبعين وخمسمائة ولم يزل مشغوفا بذكره ، مشتهرا باشاعة نظمه ونثره ، والأمير العضد مرهف ولد الامير مؤيد الدولة جليسه ، ونديمه وأنيسه .

قال مؤلف هذا الكتاب : وقد رايت انا العضد هذا بمصر عند كوني بها في سنتي احدى عشرة وستمائة ، واثنتي عشرة وستمائة وانشدني شيئا من شعره وشعر والده .

قال : فاستدعاه الى دمشق ـ يعني مؤيد الدولة ـ وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

قال : وأنشدني العامري من شعره بأصبهان وكنت أتمنى لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة احدى وسبعين بدمشق ، وسألته عن مولده ، فقال ولدت في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وانشدني لنفسه البيتين اللذين سارا له في قلع ضرسه .

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي سعي مجتهد
لم القه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الابد
وأنشدني لنفسه من قديم شعره :
قالوا نهته الاربعون عن الصبى
وأخو المشيب يحور ثمة يهتدي
كم حار في ليل الشباب فدله
صبح المشيب على الطريق الاقصد
واذا عددت سني ثم نقصتا
زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

قلت انا هذا كلام نفيس ، ومعنى لطيف ، ولكنه أخذ معنى البيت الثاني من قول ابن الرومي :

كفى بسراج الشيب في الراس هاديا
الى من اضلته المنايا لياليا
فكان كرامي الليل يرمي فلا يرى
فلما اضاء الشيب شخصي رمانيا

وأخذ معنى البيت الاخير من قول ابـي فـراس بـن حمـدان في مزدوجته

ماالعمر ماطالت به الدهور
العمر ماتم به السرور
ايام عزي ونفاذ أمري
هي التي احسبها من عمري
لو شئت مما قد قللن جدا
عددت ايام السرور عدا

ولكن قول اسامة ابلغ في المعنى وهذا ظاهر ، قال وانشدني مـن قديم شعره

لم يبق لي في هـواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب
اوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب
الام دعمي من هجركم سرب
قان وقلبي من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبدني ال
حب فقد اعتقتني الريب

-٥٥١٣-

احببتكم فوق ماتوهمه ال
ناس وخنتم اضعاف ماحسبوا

وقوله ايضا :

يادهر مالك لايصد
ك عن مساءتي العتاب
امرضت من أهوى ويأ
بى ان أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الأ
مراض لي وله الثواب
اخذ هذا المعنى من قول الشاعر
ياليت علته لي غير أن له
أجر المريض وأني غير مأجور

قال العماد : وهذا الذي أوردته من شعره نقلته من تاريخ السمعاني ، فلما وردت الى دمشق واجتمعت به قلت له هل لك معنى مبتكر في الشيب فأنشدني :

لو كان صد معاتبا ومغاضبا
أرضيته وتركت خدي شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشبيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الغواية صاحبي
فثنى العنان يريغ غيري صاحبا
وأبيه ماظلم المشيب فإنه
أملي فقلت عساه عني راغبا
أنا كالدجى لما تناهى عمره
نشرت له ايدي الصباح ذوائبا

-٥٥١٤-

ومن شعره ايضا في محبوس :

حبسوك والطير النواطق انما
حبست لميزتها على الأنداد
وتهيبوك وأنت مودع سجنهم
وكذا السيوف تهاب في الاغماد
ماالحبس دار مهانة لذوي العلى
لكنه كالغيل للآساد

ومنه قوله في الشمعة :

انظر الى حسن صبر الشمع يظهر لل
-رائين نورا وفيه النار تستعر
كذا الكريم تراه ضاحكا جذلا
وقلبه بدخيل الغم منفطر

وقوله ايضا :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لاتساوي ذلة الشاكي

وقوله ايضا :

لئن غض دهر من جماحي أو ثنى
عناني أو زلت باخمصي النعل
تظاهر قوم بالشمات جهالة
وكم احنه في الصدر ابرزها الجهل

- ٥٥١٥ -

وهل أنا الا السيف فلل حده
قراع الأعادي ثم أرهفه الصقل

وقوله ايضا :

لاتحسدن على البقاء معمرا
فالموت ايسر مايؤول اليه
واذا دعوت بطول عمر لأمرىء
فاعلم بأنك قد دعوت عليه

قال العماد : وتناشدنا بيتا للوزير المغربي في وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء الذي تخترقه الرياح وهو :

كأن قلبي اذا عن اذكاركم
ظل اللواء عليه الريح تخترق

فقال لي الأمير مؤيد الدولة أسامة : فقد شبهت القلب الخافق ، وبالغت في تشبيهه ، وأربيت عليه في قولي من أبيات وهي :

احبابنا كيف اللقاء ودونكم
عن المهامه والفيافي الفيح
ابكيتم عيني دما لفراقكم
فكانما انسانها مجروح
وكأن قلبي حين يخطر ذكركم
لهب الضرام تعاورته الريح

فقلت له : صدقت فان المغربي قصد تشبيهه خفقان القلب وانت شبهت القلب الواجب باللهيب ، وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه

-٥٥١٦-

لتعاور الريح فقد أربيت عليه ، وأنشـدني ايضـا مـن قـولـه ايام شبابه ، وهو معتقل ، في الخيال :

ذكر الوفاء خيالك المنتاب
فألم وهو بودنا مرتاب
نفسي فداؤك من حبيب زائر
متعتب عندي له الاعتاب
ودي كعهدك والديار قريبة
من قبل ان تتقطع الأسباب
ثبت فلا طول الزيارة ناقص
منه وليس يزيده الاغباب
حظر الوفاء على هجرك طائعا
واذا اقتسرت فما علي عتاب

قال : وتذاكرنا قول ابي العلاء المعري :

لو حط رحلي فوق النجم رافعه
الفيت ثم خيالا منك منتظري

وأبلغ من هذا قول المعري في بعد المسافة :

وذكرت كم بين العقيق الى الحمى
فجزعت من أمد المدى المتطاول
وعذرت طيفك في الجفاء فانه
يسري فيصبح دوننا بمراحل

وأنشدني :

واعجب مالقيت من الليالي
وأي فعالها بي لم يسؤني

تقلب قلب من مثواه قلبي
وجفوة من ضممت عليه جفني

قال : واجتمعنا عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بدمشق ، وكان يلعب بالشطرنج ، فقال الأمير أسامة الا أنشدك البيتين اللذين قلتهما في الشطرنج ؟ فقلت : هات ، فأنشدني لنفسه :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح الدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلاها ومافيها

وانشدني لنفسه في غرض له في نور الدين محمود رحمه الله :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش
ايامه مثل شهر الصوم خالية
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

قال وأنشدني لنفسه :

أأحبابنا هلا سبقتم بوصلنا
صروف الليالي قبل ان نتفرقا

-٥٥١٨-

تشاغلتم بالهجر والوصل ممكن
وليس الينا للحوادث مرتقا
كأنا أخذنا من صروف زماننا
أمانا ومن جور الحوادث موثقا

وقال ايضا :

قمر اذا عاينته شغفا به
غرس الحياء بوجنتيه شقيقا
وتلهبت خجلا فلولا ماؤها
مترقرقا فيه لصار حريقا
وأزور عني مطرقا فاضلني
ان اهتدي نحو السلو طريقا
فليلحني من شاء فيه فصبوتي
بهواه سكر لست منه مفيقا

وكتب اليه ابنه ابو الفوارس مرهف الى حصن كيفا فكتب اسامة جوابه :

أبا الفوارس مالاقيت من زمني
اشد من قبضة كفي عن الجود
رأى سماحي بمنزور تجاذف لي
عنه وجودي به فاجتاح موجودي
فصرت ان هزني جان تعود ان
يجني نداي رآني يابس العود

وقال ايضا :

سقوف الدور في خربرت سود
كستها النار اثواب الحداد

- ٥٥١٩ -

فلا تعجب انا ارتفعت علينا
فللحظ اعتناء بالسواد
بياض العين يكسوها جمالا
وليس النور الا في السواد
ونور الشيب مكروه وتهوى
سواد الشعر اصناف العباد
وطرس الخط ليس يفيد علما
وكل العلم في وشي المداد

وله في مدح صلاح الدين :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بالغياهب

وله في الهزل :

خلع الخليع عذاره في فسقه
حتى تهتك في بغا ولواط
يأتي ويؤتى ليس ينكر ذا ولا
هذا كذلك ابرة الخياط

قال العماد : وكان قد سألني ان انتجز له مطلوبا عند الملك الناصر صلاح الدين ، فكتب الي يستحثني :

عماد الدين مولانا جواد
مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الاماني
ولو كلفته رد الشباب

-٥٥٢٠-

وعذرك في قضا شغلي قضاء
يصرفه فما عذر الجواب

ولمؤيد الدولة بن منقذ تصانيف حسان منها كتاب العصا ، كتـاب الشيب والشباب الفه لابيه ، كتاب نيل يتيمة الدهر الثعالبي ، كتاب تاريخ ايامه ، كتاب في أخبار أهله رأيته .

ومن شعر الأمير الاجل مؤيد الدولة مجد الدين اسامة بن منقذ :

صديق لنا كالبحر قد أهلك الورى
ولم ينههم اخطاره عن ركوبه
موداته تحكيه صفوا وخبرها
كمشربه من حوبه وذنوبه

ومنه ايضا :

كنت بين الرجاء واليأس منه
اقطع الدهر بين سلم وحرب
التقي عتبه بأكرم اعتا
ب ويلتقى ذلي بتيه وعجب
فبدا للملوك أني لورم
ت سلوا لما سلا عنه قلبي
فتجني لي الذنوب ولا والـ
ـله مالي ذنب سوى فرط حبي

ومنه ايضا :

انظر بعينك هل ترى
احدا يدوم على المودة

لترى اخلاء الصفا
ء عدى اذا تأتيك شده

ومنه ايضا :

تذكرني الاخوان حتى ثقلتهم
وحذرني منهم نذير التجارب
كأني اذا أودعت سري عندهم
رفعت بنار فوق أعلى المراقب

قال العماد : وكتبها الى دمشق بعد خروجه الى مصر في ايام بني الصوفي يشير اليهم :

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
مامر يوما بفكري مايريبهم
ولاسعت بي الى ماساءهم قدم
ولاأضعت لهم عهدا ولاأطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى وذكري في آذانهم صمم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتي ومن
قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدلوا بي ولاأبغي بهم بدلا
حسبي بهم انصفوا في الحكم أم ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم

بلغ اميري معين الدين مألكة

من نازح الدار لكن وده أمم

هل في القضية يامن فضل دولته

وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعد ماشهدت

به النصيحة واذا شيدته هدموا

وأن عرتك من الأيام نائبة

فكلهم الذي يبكيك يبتسم

وكل ماملت عنه قربوه ومن

والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

اين الحمية والنفس الأبية اذ

ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا انفت حياء او محافظة

من فعل ماانكرته العرب والعجم

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة

ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت احسب من والاك في حرم

لايعتريه به شيب ولاهرم

وأن جارك جار السموءل لا

يخشى الأعادي ولاتغتاله النقم

هبنا جنينا ذنوبا لايكفرها

عذر فماذا جنى الاطفال والحرم

ومنها :

لكن رايك ادناهم وأبعدني

فليت أنا بقدر الحب نقتسم

ولاسخطت بعادي اذ رضيت به

ولالجرح اذا ارضاكم الم

تعلقت بحبال الشمس منك يدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

فراقك اساني وأسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكلما نالني من بؤسه نعم

ومن شعره ايضا :

الق الخطوب اذا طرق
ـن بقلب محتسب صبور

فسينقضي زمن الهمو
م كما انقضى زمن السرور

فمن المحال دوام حا
ل في مدى العمر القصير

وتوفي بعد الثمانين وخمسمائة*

ومنهم اخوه ابو الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقـذ سيد بني منقذ ، ورد بغداد حاجا بعد العشرين وخمسـمائة ، وقـد ذكره السمعاني في تاريخه وأنشد له :

ودعت صبري ودمعي يوم فرقتكم
وما علمت بأن الدمع يدخر

وضل قلبي من صدري فعدت بلا
قلب فياويح ماآتي وماأذر

ولو علمت ذخرت الصبر مبتغيا
اطفاء نار بقلبي منك تستعر

قال الامير علي بن مرشد سـمعت دربـابا يصـيح بـدرب حبيب (٦٩) فقلت فيه :

- ٥٥٢٤ -

ياطائرا لعبت أيدي الفراق به
مثلي فاصبح ذا هم وذا حزن
داني الأسى نازح الأوطان مغتربا
عن الأحبة مصفودا عن الوطن
بلا نديم ولاجار يسر به
ولا حميم ولادار ولاسكن
لكن نطقت فزال الهم عنك ولي
هم يقلقل احشائي ويخرسني
وكل من باح بالشكوى استراح ومن
أخفى الجوى بث عنه شاهد البدن
ارقت عيني بنوح لست افهمه
مع مابقلبي من وجد يؤرقني
ومابكيت ولي دمع غواربه
اذا ارتمت منه لم تنشق بالسفن

قال : وكتب الى صديق له :

مافهمت مع متحدث متشاغلا
الا رأيتك خاطرا في خاطري
ولو استطعت لزرت ارضك ماشيا
بسواد قلبي او باسود ناظري

وكتب الى أخيه مؤيد الدولة أسامة وهو بالموصل :

الا هل لمحزون تذكر الفه
فحن وأبدى وجده من يعينه
وعيشا مضى بالرغم اذ نحن جيرة
ترف على روض الوصال غصونه
لدى منزل كان السرور قرينكم
به فتولى إذ تولى قرينه

فلو اعشبت من فيض دمعي محوله
لما رضيت عن دمع عيني جفونه

قال وانشدني له ابن اخيه الامير مرهف بن اسامة

لاشكرن النوى والعيس اذ قصدت
بي معدن الجود والاحسان والكرم
فسرت في وطني اذ سرت من وطني
فمن رأى صحة جاءت من السقم
وقد ندمت على عمر مضى اسفا
اذ لم اكن لك جارا فيه في القدم
فاسلم ولازلت محروس العلا ابدا
مالاحت الشهب في داج من الظلم

وقال أخوه أسامه بن مرشد : ونقلت من خط أخي عز الدولة أبي الحسن علي بن مرشد من شعره ، وكان استشهد رحمه الله على غزة في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة في حرب الفرنج لعنهم الله ، قبل ان يكمل من شعره وكان تقنطر به فرسه على باب غزة ، واستعلى الفرنج على أصحابه فانكشفوا عنه، فقتل وبقي في المعركة وانشد له أشعارا منها قوله في مرض طال به :

ظننت وظن الالمعي مصدق
بان سقام المرء سجن حمامه
فان لم يكن موت صريح فانه
عذاب تمل النفس طول مقامه
وكم يلبث المسجون في قبضة الاذى
يجرب فيه الموت غرب حسامه

وانشد له قوله عند رحيله عن بغداد الى الحجاز :

-٥٥٢٦-

ترحلت عن بغداد لاكارها لها

وفي القلب منها لوعة وحريق

فسقيا لأيام تقضيت بربعها

اذا العيش غض والزمان انيق

باخوان صدق ليس فيهم مشاقق

وكلهم حان علي شفيق

وانشد له ايضا

ولما أعارتني النوى منك نظرة

أحب الى قلبي من البارد العذب

تعقبها البين المشت فليتنا

بقينا على تأميلنا لذة القرب

وانشد له :

ليت شعري علام صدك عنا

بعد ماكنت تدعي الأشواقا

لاتجار الزمان سبقا الى الهجـ

ـر فما زال صرفه سباقا

انت غر بغدره فلهذا

قد تعجلت بالصدود الفراقا

وأنشد له :

بني أبي أن عدا دهر ففرقنا

فهم نفسي بكم ماعشت مجتمع

هل تعلمون الذي في النفس من أسف

عليكم وحنين ليس ينقطع

نزحتم أدمعي حتى لقد محلت
جفون عيني ومات اليأس والطمع
وان دهرا رمى عن جيده دررا
امثالكم لزمان عاطل ضرع

ومنهم جده سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن منقـذ ، وكان من شرطه أن يقدم على بنيه ، قال : هو جـد الجمـاعة ، مـوفور الطاعة ، احكم أساس مجده وشادها ، وفضـل أمـراء ديار بـكر والشام وسادها ، وقال ابو يعلى حمزة بـن أسـد :في سـنة أربـع وسبعين واربعمائة في رجب ملك الأمير أبو الحسن علي بن المقلد بن منقذ حصن شيزر ، مـن الاسـقف الذي كان فيه بمـال بـذله له ، وأرغبه فيه الى أن حصل في يده ، وشرع في عمارته وتحصـينه والمصافعة عنه الى أن تمكنت حاله فيه ، وقويت نفسـه في حمـايته والمدافعة (٧٠) عنه .

والأمير سديد الملك ، هو ممدوح فحول الشعراء ، والذي امتدحه ابن حيوس بقصيدته التي أولها ــ وكتبها اليه من طـرابلس وهـو بحلب :

أما الفراق فقد عاصيته فأبى
وطالت الحرب الا انه غلبا
أراني البين لما حم عن قدر
وداعنا كل جد بعده لعبا(٧١)

قال : وسألت ابن ابنه الأمير اسامة بن مرشد بن علي عن وفـاة جده فقال : مات سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

قال : وأنشدني مجد العرب العامري بأصبهان قـال :انشـدني الأمير أبو سلامة مرشد لأبيه الأمير ابي الحسـن علي بـن مقلد في غلام له ضربه ، وقد أبدع في هذا المعنى واغرب :

اسطو عليه وقلبي لو تمكن من
كفي غلها غيظا الى عنقي
واستعبر اذا عاينته حذقا
وأين ذل الهوى من عزة العنق

قال وأنشدني له ايضا :

ماذا النجيع بوجنتيك وليس من
شرط الأنوف على الخدود رعاف
الحاظنا جرحتك حين تعرضت
لك أم اديمك جوهر شفاف

وقرأت له في مجموع :

اذا ذكرت أياديك التي سلفت
مع سوء فعلي وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني
علمي بأنك مجبول على الكرم

وله ايضا :

ومن كان يرضى بذل في ولايته
من خوف عزل فاني لست بالراضي
قالوا فتوكب أحيانا فقلت لهم
تحت الصليب(٧٢) ولا في موضع القاضي

وله ايضا :

ولاتعجلوا بالهجر ان الذوى
تحمل عنك منة الهجر

- ٥٥٢٩ -

وظاهرونا بوفاة فقد
اغناكم البين عن الهجر

وله ايضا :

القى المنية في درعين قد نسجا
من المنية لامن نسج داوود

ان الذي صور الأشياء صورني
نارا من الباس في بحر من الجود

وهذان البيتان يرويان لعبد المؤمن ملك المغرب ، ولسديد الملك من مجموع اسامة :

كيف السلو وحب من هو قاتلي
ادنى الي من الوريد الاقرب
اني لاعمل فكرتي في سلوة
عنه فيظهر في ذل المذنب

وله ايضا :

بكرت تنظر شيبي
وشبابي يوم عيد
ثم قالت لي بهزء
ياخليعا في جديد
لاتغالطني فمات
صلح الا للصدود

قال العماد انشدت هذه الابيات والقطع جميعها الامير مؤيد الدولة اسامة في سنة اثنتين وسبعين : فأذكر أن يكون لجده سوى البيتين اللذين أولهما :

لاتعجلوا بالهجر ان النوى

وأنشدني لجده وكان كتب بها الى القاضي جلال الملك أبي الحسن علي بن عمار صاحب طرابلس :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم
من الصبابة مالاقيت في ظعني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبسا
كالبر من أدمعي ينشق بالسفن

ومنهم الأمير أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ والد اسامة ، وولد المقدم ذكره ، له البيت القديم والفضل العميم من فروع الأملاك الفارعي الافلاك .

قال السمعاني في تاريخه : رأيت مصحفا بخطه كتبه بماء الذهب على الطاق الصوري ، مارأيت ولاأظن ان الرائين رأوا مثله ، فقد جمع الى فضائله حسن خطه ، وتقدم بحسن تدبيره على رهطه ، واسن وعمر ، وله أولاد نجباء أمجاد كرماء أجواد.وكان مولده سنة ستين وأربعمائة ، ومات بشيزر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فيما حكاه ولده أسامة للسمعاني ، وذكره مجد العرب أبو فراس العامري ، وقال : كنت مقيما مدة بشيزر في كنفهم ، حاظيا برفدهم ، ساميا بشرفهم ، وأثنى على خلفهم وترحم على سلفهم ، فقال : وكان الأمير حينئذ بقلعة شيزر أخوه أبو العساكر سلطان ، وهو ممدوحي الذي حباني الأكرام والاحسان ، والأمير مرشد يقربني ويكرمني ، وقال في أبياتنا منها :

لئن نسي امرؤ عهدا فاني
لعهد أبي الفوارس غير ناس
وماعاش الامير أبو فراس
فما مات الامير أبو فراس

كنية العامري أبو فراس ، وأبو فراس الآخر هو أبو فراس بن حمدان ، وكان العامري يتبجح بالبيتين .

وذكر السمعاني في تاريخه : انشدني ولده ابو عبد الله محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ من حفظه ، عند القبة قال : وأنا قائم اكتب ، وهو وغلمانه على الخيل ، قال : أنشدني والدي مرشد ابن علي لنفسه بشيزر :

ظلوم أبت في الظلم الا التماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا
شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى العلا
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا
ولاناسي مااستودعت من عهودها
وان هي ابدت جفوة وتناسيا

ومنها في العتاب :

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ فيهم عهدتي وذماميا
ويجزيهم مالم اكلفه فعله
لنفسي فقد اعددته من تراثيا
فاصبحت صفر الكف مما رجوته
ارى اليأس قد غطى سبيل رجائيا
فما لك لما إن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

-٥٥٣٢-

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتناسيا
على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي الشؤون ودانيا
فلا زعزعتك الحادثات فانني
أراك يميني والانام شماليا

قال وقرأت في بعض الكتب كلمة نظمها الخطيب ابو الفضل يحيى ابن سلامة الحصكفي ، في جواب رسالة وصلته من الامير علي بن مرشد من شيزر وهي :

حوى مرشد وابناه غر المناقب
وحاوا من العلياء اعلى المراتب
ذوائب مجد ماعلمت بأنهم
من العلم ايضا في الذرى والذوائب
اتت من علي روضة جاد روضها
سحائب فضل لاكجود السحائب
بأبيات شعر افحمت كل شاعر
وايات نثر أعجبت كل خاطب
وغر معان أعجزت كل عالم
واسطر خط أرعشت كل كاتب
ربيع بورد وافد لمطالع
وربع لوفد وارد بمطالب
وخود رمت بالسحر عن قوس حاجب
لها في العلى فخر على قوس حاجب(٧٣)
فلو قطبت لما قطبت لها
وجوه لا غطت على حكم شارب .

ومنهم حميد بن مالك بن مغيث بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ ابن نصر بن هـاشم ، أبـو الغنائم ، الملقـب بمـكين الدولة ، ولد

- ٥٥٣٣ -

بشيزر في تاسع جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين واربعمائة ، ونشأ بها ، وانتقل الى دمشق ، فسكنها مدة طويلة ، واكتتب في العسكر ، وكان يحفظ القرآن ، وله شعر جيد ، وفيه شجاعة وعفاف ، ومات في نصف شعبان سنة أربع ستين وخمسمائة بحلب، ومن شعره:

مابعد جلق للمرتاد منزلة
ولا كسكانها في الأرض سكان
فكلها لمجال الطرف منتزه
وكلهم لصروف الدهر اقران
وهم وأن بعدوا عني بنسبتهم
اذا بلوتهم بالود اخوان

وقال في أخيه يحيى :

بالشام لي حدث وجدت بفقده
وجدا يكاد القلب منه يذوب
فيه من البأس المهيب صواعق
تخشى ومن ماء السماء قليب
فارقت حتى حسن صبري بعده
وهجرت حتى النوم وهو حبيب

قال الحافظ علي بن الحسن بن هبه الله ، وأنشدنا لنفسه :

يذكرني يحيى الرماح شوارعا
وبيض المواضي جردت للوقائع
واقسم مارؤياه في العين بهجة
بأحسن من أوصافه في المسامع

قال وأنشد لنفسه :

وسلافة ازرى احمرار شعاعها
بالورد والوجنات والياقوت

جاءت مع الساقي تنير بكأسها
فكأنها اللاهوت في الناسوت (٧٤)

قال وأنشدنا لنفسه في صديق له يعاتبه

أتذو بودي وحظي منك يبعدني
هذا لعمرك عين الغبن والغبن
وان توخيتني يوما بلائمة
ورجعت باللوم ابقاء على الزمن
وحسن ظني موقوف عليك فهل
غيرت بالظن بي عن رأيك الحسن

ومنهم الأمير شرف الدين أبو الفضل اسماعيل بن أبي العساكر سلطان بن علي بن منقذ ، كان أبوه عم مؤيد الدولة اسامة بن مرشد أمير شيزر ، وكان شابا فاضلا ، سكن لما أخذت منهم شيزر بدمشق، ومات بها سنة احدى وستين وخمسمائة .

قال العماد وسمعت من شعره :

ومهفهف كتب الجمال بخده
سطرا يحير ناظر المتأمل
بالغت في استخراجه فوجدته
لارأي الا رأي أهل الموصل

وذكره ابن عمه الأمير مرهف بن أسامة ، وأثنى عليه وأنشدني له اشعارا منها بيتان في النحل والزنبور وهما :

- ٥٥٣٥ -

ومفردين ترنما في مجلس
فنفاهما لاذاهما الاقوام
هذا يجود بما يجود بعكسه
هذا فيحمد ذا فذاك يذام

يعني العسل من النحل وعكسه اللسع من الزنبـور ، وأنشـدني ايضا له :

سقيت وكأس الهوى علا على نهل
فلا تزدني كأس اللوم والعذل
نأى الحبيب فبي من نأيه حرق
لو لامست جبلا هدت قوى الجبل

ولو تطلبت سلوانا لزدت هوى
وقد يزيد رسوبا نهضة الوحل
عفت رسومي فعج نحوي لتندبي
فالصب غب زيال الحب كالطلل
صحوت من قهوة تنفي الهموم بها
لكنني ثمل من طرفه الثمل
أصبر النفس عنه وهي قائلة
مالي بعانية الاشواق من قبل
كم ميتة وحياة ذقت طعمهما
مذ ذقت طعم النوى لليأس والامل
والنفس إن خاطرت في غمر والت
منها وأن خاطرت في الوجد لم تئل
لها دروع تقيها من سهام يد
فهل دروع تقيها اسهم المقل
فانظر اليه تر الاقمار في قمر
وانظر الي تر العشاق في رجل

بأي امر سانجو من هوى رشأ
في جفنه سحر هاروت وسيف علي
إذا رمى طرفه باللحظ قال له
قلبي أعد لارماك الله بالشلل
أمن بني الروم ذا الرامي الذي فتكت
سهامه بالورى أم من بني ثعل
إن خفت روعة هجران الحبيب فقد
أمنت في حبه من روعة العذل

ومنهم الأمير أبو الفتح يحيى بن سلطان بن منقذ لقبه فخر الدولة ذكره الأمير مرهف بن اسامة وذكر انه قتل على بعلبك في سنة أربعين وخمسمائة • وانشدني من شعره ما كتبه الى ابيه عز الدين يطلب منه رمحا :

يا خير قوم لم يزل مجدهم
في صفحات الدهر مسطورا
عبدك يبغي اسمرا ذكره
مازال بين الناس مذكورا
مسدد والجور من شأنه
أن نال وترا صار موتورا
فان تفضلت به عاد عن
صدور اعدائك مكسورا

ومنهم الأمير عز الدولة ابو المرهف نصر بن علي بن مقلد بن نصر ابن منقذ عم مؤيد الدولة أسامة

قال العماد ، كنا حضرنا عند الملك الناصر ليلة بدمشق سنة احدى وسبعين والأمير مؤيد الدولة حاضر ، وتناشدنا ملح القصائد ، ونشدنا ضالة الفوائد ، وجرى حديث اقتضى انشاد الأمير اسامة بيتين لبعضهم في المشط الاسود ، والمشط

الابيض ، وهما لأبي الحسن احمد بن محمد بن الدويدة المغربي ، كان في زمن بني صالح .

كنت استعمل السواد ، من الاحـ
شاط والشعر في سواد الدياجي
اتلقى مثلاث بمثل فلما
صار عاجا سرحته بالعاج

ثم قال الامير ، وقد أخذ هذا المعنى عمي نصر وعكسه وقال :

كنت استعمل البياض من الاحـ
شاط عجبا بلمتي وشبابي
فاتخذت السواد في حالة الشيـ
ـب سلوا عن الصبى بالتصابي

وقال لي الامير اسامة: كان عمي نصر قد اخرج حجة عن والدته ، فرآها في النوم كأنها تنشده فأتيته والأبيات على حفظه وهي :

جزيت من ولد بر بصالحة
فقد كسبت ثوابا آخر الزمن
وقد حججت الى البيت الحرام وقد
اتيته زائرا يا خير محتضن
فلا تذك يد الأيام ما طلعت
شمس وما صدحت ورقاء في فنن

وكان نصر هذا صاحب قلعة شيزر بعد والده سديد الملك ، وكان كريما ذا أريحية ، حدثني الامير مرهف بن اسامة بحضرة والده ، قال كتب القاضي ابو مسلم وادع المعري الى الامير نصر في نكبة نالته :

- ٥٥٣٨ -

يا نصر يا بن الاكرمين ومن
شفع التلاد بطارف الفخر
هذا كتاب من اخي ثقة
يشكو اليك نوائب الدهر
فامنن بما عودت من حسن
هذا أوان النفع والضر

فكتب اليه نصر انه لم يحضرني سوى ما عندك مودع ، وهو ستة الاف دينار ، فاصرفها في بعض مصالحك واعذر ، وذكر ان نصرا كان برا بوالده سديد الملك ، فقال فيه سديد الملك :

جزى الله نصرا خيرا ما جزيت به
رجال قضوا فرض العلاء ونفلوا
هو الولد البر العطوف وان رمى
به حادث فهو الحمام المعجل
يفديك يا نصر رجال محلهم
من المجد والاحسان إن يقولوا
سأثنى بما اوليت بالموقف الذي
تقر به الاقدام او تتزلزل
والقاك يوم الحشر ابيض ناصعا
وأشكر عند الله ما كنت تفعل

وتوفي نصر بن علي في جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين واربعمائة بشيزر .

ومنهم الأمير عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ.

وقال مؤلف الكتاب: فارقته في جمادى الاولى سنة اثنتي عشرة وستمائة بالقاهرة يحيى ، ولقيته بها ، وهو شيخ ظريف واسع

الخلق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى مني كتبا ، وحدثني أن عنده من الكتب ما لايعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لي انه باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها ، وسألته عن مولده فقال ولدت سنة عشرين وخمسمائة ، فيكون عمره الى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد اقعد لايقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن والفطنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، الا ان سمعه فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعني من مكاثرته ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله قد اقطعه ضياعا بمصر ، فهو يصرفها في مصالحه ، وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل يحترمه ويعرف له حقه ، وأنشدني شيئا من شعره وشعر اهله لم يحضرني منه في هذا الوقت ما اورده ، وذكر له العماد في كتاب الخريدة ما ذكر انه سمعه منه وهو :

سمحت بروحي في رضاك ولم يكن
ليعجزني لولا رضاك المذاهب
وهانت لجراك العظائم كلها
علي وقد جلت لدي النوائب
فكان ثوابي عن ولائي لحبتكم
رمتني به منك الظنون الكواذب
فمهلا فلي في الأرض عن منزل العلى
مسار اذا اخرجتني ومسارب
وان كنت ترجو طاعتي باهانتي
وقسري فان الرأي عنك لعازب

وانشدني ايضا لنفسه قال : وهو حاضر عند والده ، وذكر انه مما كتبه الى والده:

رحلتم وقلبي بالولاء مشرق
لديكم وجسمي للعناء مغرب

فهذا سعيد بالدنو منعم
وهذا شقي بالبعاد معذب
وما ادعي شوقا فسحب مدامعي
يترجم عن شوقي اليكم ويعرب
ووالله ما اخترت التأخر عنكم
ولكن قضاء الله ما منه مهرب

ومات الامير عضد الدين بن مرهف في ثاني صفر سنة ثلاث عشرة وستمائة .

أسامة بن مرشد بـن علي بـن مقلد بـن نصر بـن منقذ

(من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم)

- ٥٥٤٣ -

ابن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب ابن مكحول بن عمرة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن ابي مالك بن عوف بن كنانة بن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرة بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، ابو المظفر بن ابي سلامة بن ابي الحسن بن ابي المتوج الكناني الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة .

ولد بشيزر ونشأ بها واخرجه عمه ابو العساكر سلطان بن علي خوفا منه على نفسه ، لما رأى من شجاعته واقدامه ، وقدم حلب مرارا متعددة ، وكان من الامراء الفضلاء الأدباء الشعراء الشجعان الفرسان ، له مصنفات عديدة ومجاميع مفيدة ، ومواقف مشهورة ، ووقائع مذكورة ، وفضائل مسطورة .

روى عن ابي الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السنبسي وابنه كامل بن علي ، ومؤدبه أبي عبد الله محمد بن يوسف بن المنيرة الكفرطابي ، ووالده ابي سلامة مرشد بن علي بن منقذ ، وأبي عبد الله محمد بن شافع بن الحسين بن العرار ، سمعهم بشيزر ، وابي بكر محمد بن مخلد بن عبد الله بن مخلد التميمي الاشبيلي ، سمعه بمصر ، والخطيب يحيى بن سلامة الحصفكي (٧٥) سمعه بميافارقين ، وأبي هاشم محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر ، سمعه بحماه ، وأبي القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الدولعي خطيب دمشق ، سمعه بدمشق ، وأخرين غيرهم ، وروى بالاجازة عن ابي الحسن علي بن أحمد بن قيس الغساني .

روى عنه الحافظان ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ، وابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، وعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصبهاني

الكاتب ، وعبد السلام بن يوسف الدمشقي ، وابو البركات محمد ابن محمد بن علي قاضي اسيوط ، والشريف ابو القاسم عبد الله بن علي بن زهرة الحلبي ، وولده العضد مرهف بن اسامة بن منقذ ، وجماعة غيرهم .

روى لنا عنه أبو اسحق ابراهيم بن شاكر بن عبد الله بن سليمان ، وأبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي ، وابو محمد عبد الله بن عمر بن علي الحموي ، والحكيم ابو القاسم هبة الله بن صدقة الكولي ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكافي بن علي الربعي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي وابو المعالي محمد بن الحسين بن اسعد بن العجمي .

أخبرنا القاضي بهاء الدين ابو اسحق ابراهيم بن ابي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ـ قراءة عليه بداره بدمشق ـ ، والشيخ تاج الدين أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي القرطبي الدمشقي بها ، وشمس الدين ابو عبد الله محمد بن الكافي بن علي الربعي ، قاضي حمص بحلب وبدمشق ، وأبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقصر الغربي بالقاهرة ، قالوا: أخبرنا مؤيد الدولة ابو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ الكناني قال :أخبرنا الشيخ ابو الحسن علي بن سالم بن الأغر بن علي السنبسي بثغر شيزر سنة تسع وتسعين واربعمائة قال : اخبرنا الشيخ ابو صالح محمد بن المهذب بن علي قال : حدثنا جدي ابو الحسين علي بن المهذب بن أبي حامد قال :حدثنا ابو حامد بن همام قال : حدثنا محمد بن سليم القبرسي قال : حدثنا ابراهيم بن هدبة عن انس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الا من بكى على ذنب في الدنيا حتى تسيل الدموع على حر وجهه حرم الله ديباج وجهه على جهنم ».(٧٦)

أخبرنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمي

قال:(٧٧) أخبرنا ابو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني الامام قال : أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري ، أبو المظفر المعروف بمؤيد الدولة من أهل شيزر ، قلعة بالشام من الثغر ، أمير فاضل غزير الفضل ، وافر العقل ، حسن التدبير مليح التصانيف ، عارف باللغة والأدب ، مجود في صنعة الشعر ، من بيت الامارة والفروسية واللغة ، سكن دمشق ، لقيته بالفوار (٧٨) بظاهر دمشق بحوران واجتمعت معه بدمشق عدة نوب ، وكان مليح المجالسة حسن المحاورة ، كثير المحفوظ ، كان يقول لي : كنت أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية ، علقت عنه من شعره شيئا ، وقال لي : دخلت بغداد وقت محاربة دبيس بن صدقة مع المسترشد بالله ، قال : ونزلت الجانب الغربي عند باب البصرة وما عبرت الى شرقيها ، سألته ـ أعني ابا المظفر ـ عن مولده ، فقال : ولدت في سنة سبع أو ثمان وثمانين واربعمائة ـ أنا الشاك .

اخبرنا زين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن فيما أذن لنا في روايته عنه قال : اخبرنا عمي الحافظ ابو القاسم على بن الحسن ، قال : اسامة بن مرشد بن علي بن المقلد ، بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم أبو المظفر الكناني الملقب بمؤيد الدولة ، له يد بيضاء في الأدب والكتابة والشعر ، ذكر لي انه ولد سنة ثمان واربعمائة ، وقدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وخدم بها السلطان ، وقرب منه وكان شجاعا فارسا . ثم خرج الى مصر ، فأقام بها مدة ، ثم رجع الى الشام ، وسكن حماة ، واجتمعت به بدمشق ، وأنشدني قصائد من شعره سنة ثمان وخمسين وخمسمائة (٧٩).

قرأت بخط مؤيد الدولة اسامة في كتابه الموسوم «بأزهار الانهار» (٨٠) وقد أجاز روايته مع غيره لجماعة اجازوا لنا ذلك عنه منهم : الشيخ ابو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان قال : ومما يخصني من

غرائب اللبن انني حين ولدت التمس لي من يرضـعني ، فقـدر الله سبحانه الرزق من امرأة كبيرة قد نيفت عن الستين سنة ، ليس لها ولد صغير ، فدرت علي وارضعتني الى حين فطمت وعاشـت بعـد فطامي نحوا من خمس عشرة سنة وكانت رحمها الله متـى عصرت ثديها طار منه اللبن كأنها مرضعة .

أنبأنا الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم بن أبي محمـد قال : قال لي أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الملحي : الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ شاعر اهـل الدهـر ، مـالك عنان النظم والنثـر ، متصرف في معـانيه ، لاحـق بـطبقة أبيه ، ليس يستقصي وصفه بمعان ، ولا يعبر عن شرحها بلسـان ، فقصـائده الطوال ،لايفـرق بينهـا وبين شـعر ابـن الوليد(٨١) ولا يذكر على منشدهـا نسبتها الى لبيد ، وهي على طرف لسانه بحسن بيانه غير محتفل في طولها ، ولا يتعثر لفـظه العـالي في شيء مـن فصـولها والمقطعات فأحلى من الشهد ، وألذ من النوم بعد طول السـهد في كل معنى غريب وشرح عجيب .

قلت: ولم يذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه احدا ممن تـأخرت وفاته عن وفاته غير اربعة او خمسة ، أبو المظفر اسامة بـن منقـذ هذا أحدهم ، وذلك لجلالته عنده ، وعلو منزلته .

وأنبأنا محمد بن اسماعيل بن عبد الجبـار بـن ابـي الحجـاج المصري قال : اخبرنا عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد حـامد الكاتب الاصـبهاني في كتـاب «خـريدة القصر وجـريدة العصر » تاليفه ، قال : اسامة كإسمه في قوة نثره ونظمه ، يلوح مـن كلامـه امارة الامارة ، ويؤسس بيت قريضة عمارة العبـارة ، نشر له علم العلم ، ورقي سلم السلم ، ولزم طريق السلامة وتنكب سـبل الملالة والملامة ، واشتغل بنفسه ، ومجاورة ابناء جنسه ، حلو المجـالسة حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجـم في سـماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، أسـكنه عشـق

الغوطة دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما ينبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر ،(٨٢) فبقي بها مؤمرا ، مشارا اليه بالتعظيم الى ايام ابن رزيك ، فعاد الى الشام ، وسكن دمشق مخصوصا بالاحترام حتى أخذت شيزر من اهله (٨٣) ورشقهم صرف الزمان بنبله ، ورماه الحدثان الى حصن كيفا مقيما بها في ولده ، مؤثرا بلدها على بلده حتى اعاد الله سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب في سنة سبعين ، ولم يزل مشغوفا بذكره ، مستهترا بأشعة نظمه ونثره ، والامير العضد مرهف ولد الأمير مؤيد الدولة جليسه وانيسه ، فاستدعاه الى دمشق ، وهو شيخ قد جاوز الثمانين.

وكنت قد طالعت مذيل السمعاني ، فوجدته قد وصفه وقرظه ، وأذشدني العامري له بأصبهان من شعره ما حفظه ، وكنت ابدا أشتهي لقياه ، واشيم على البعد حياه ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد سابع عشري جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعماية (٨٤).

وقرأت في كتاب «أنموذج الاعيان » لعبد السلام بن يوسف الدمشقي بخطه قال : الأمير الأوحد ، العالم ، مجد الدين ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الشيزري الكناني ، مبرز في علم الأدب ، عريق في النسب ، من بيت التقدم والامارة والسيادة في البداوة والحضارة ، مع عقل كامل وافر ، ورأي وجه العواقب عنده سافر ، لم يزل موصوفا بالاقدام والشجاعة ، معروفا باللسن والبراعة ، لقيته بدمشق في شهر جمادى الآخرة سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، واخبرني ان مولده في ثالث عشري جمادى الآخرة ، يوم الاحد ، سنة ثمان وثمانين واربعمائةوأنشدني من نظمه ما يضاهي نظام اللآلي ، ويكون قلادة في جيد الأيام والليالي .

قلت: كان في الأصل بخط عبد السلام بن يوسف سابع عشري

جمادى ، فضرب بخطه على سابع وكتب فوقه ثالث ، والذي يظهر لي ان المضروب عليه هو الصحيح ٠

وقرأت في كتاب الاعتبار تأليف أسامة بن مرشد : ولدت انا وهو - يعني ابن عمه سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد - في يوم واحد ، يوم الأحد سابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعمائة .

أخبرني ابو المعالي محمد بن الحسين بن أسعد بن عبد الرحمن الحلبي قال : سمعت اسامة بن مرشد بن منقذ ، مؤيد الدولة ، يحكي لنا بدمشق ان سبب اخراج عمه اياه من شيزر انه قتل اسدا ضاريا بناحية شيزر فأخرجه عمه - يعني ابا العساكر سلطان بن علي - منها خوفا على على نفسه منه. وقال لنا: جاء الخبر الى عمي بأن في بعض نواحي شيزر أسدا ضاريا قد أذى الناس في طريقهم ، فتقدم عمي الى عسكره كلهم ان يركبوا بكرة الغد من ذلك اليوم الذي تقدم اليهم للتأهب للقاء الأسد وقتله .

وقال: فاستدعيت غلامي وامرته باسراج دابتي وأخذ رمحي معه ، وركبت انا والغلام في اليوم الذي أمر عمي بالتأهب له ، وخرجت وغلامي معي حتى اتيت الموضع الذي فيه الأسد ، فخرج الأسد وحمل على فقاتلته وصرعته ، ونزلت اليه فقطعت رأسه ، وناولته الغلام ، وأمرته بتسميطه معه على الدابة التي تحته ، ودخلت شيزر وبت بها ، فلما أصبح الصباح ركب عمي وعسكره ، وخرجوا يطلبون الاسد ، فوجدوا جثته مطروحة بلا رأس ، فعجبوا من ذلك ، وأنا ساكت لا أتكلم .

قال : وتحدث غلامي مع الغلمان بذلك فشاع بينهم حتى علم عمي به ، فرجع ودخل شيزر ، وصعدنا على العادة الى قلعتها وبتنا تلك الليلة ، فقام عمي نصف الليل ، وطلبني ، وأمر من أسرج له مركوبا ، وأمرني بالركوب وقال : أريد ان تجيء معي الى موضع

سماه خارج شيزر في شغل ، فــركبت معــه حتـــى ابعـــدني عن شيزر ، ثم قال لي : يا بن اخي شيزر لك فهبها لي ، فوالله ما بقيت اقدر على مساكنتك ، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فــكري فيك ، إذا كان فعلك مع الأسد هذا الفعل فايش يكون معي لو سولت لك نفسك ان تفتك بي ؟ ومنذ رجعــت الى القلعــة ليس لي فــكر الا فيك ، ولم يأخذني نوم في ليلتي هــذه ولا قــرار الى أن بــادرت الى اخراجك فما اقدر ان اساكنك وانت على هذه الصفة!

قال : فامتثلت أمره ، وودعني ، وعاد الى شيزر ،قال: فخرجت منها وأقمت في مكان سماه لنا شذعني اسمه .

قلت: والى هذا اشار في قوله ، وقد أسن وارعشت يده ، وكتب خطا مضطرب الحروف .

فاعجب لضعف يد عن حملها قلما

من بعد حطم القنا في لبه الأسد (٨٦)

انشدنا افتخار الدين أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل بــن عبــد المطلب الهاشمي قال : انشدنا تاج الاسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني ، ح .

ثم انشدني تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر أحمد بــن علي الذكي بدمشق قالا : انشدنا أسامة بــن مــرشد بــن منقـــذ الشيزري لنفسه :

يادهر مالك لايصــ

ـــدك عن مساءتي العتاب

أمرضت من أهوى ويا

بى أن أمرضه الحجاب

او كنت تتصف كانت الا
مراض لي وله الثواب (٨٧)

قال العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب الاصفهاني — وقد أورد لاسامة هذه الابيات في خريدة القصر : قد قيل في مرض الحبيب كل معنى بكر مخترع بديه ، ومبتدع فكر ، الا ان هذه الابيات لطيفة المعنى ، ظريفة المغزى ، مقصدها سهيل ، وموردها سهل ، ولو سمعتها في البادية عقيل لم يثبت لها عقل . ولا شك ان حبيبته عند استنشاق هوائها فاز ببرو مهجته وشفائها (٨٨)

انشدنا أبو الحسن محمد بن أبي جعفر بن علي القرطبي قال : أنشدني أبو المظفر اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ الكناني لنفسه :

اذا الصب اشفى من جواه على شفا
أتى الياس مما يرتجي بشفائه
وقد زادني يأسي سقاما فكيف
بالشفاء لصب داؤه في دوائه(٨٩)

انشدني أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل النيلي قال : انشدنا مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه في كتاب العصا :

حناني الدهر وأب
ـلتني الليالي والغير
فصرت كالقوس ومن
عصاي القوس وتر
ادرج في مشيي وفي
خطوي فتور وقصر (٢٠٩ — ظ)

-٥٥٥١-

كانني مقيد
وانما القيد الكبر

والعمر مثل الكأس في
لخره يبقى الكدر (٩٠)

انشدنا محمد بن أحمد بن علي بدمشق قال : انشدني أبو المظفر أسامه بن مرشد بن منقذ لنفسه في ضرس قلعه .

وصاحب صاحبني في الصبا
حتى تربيت رداء المشيب
لم يبد لي ستين حولا ولا
بلوت من أخلاقه مايريب
أفسده الدهر ومن ذا الذي
يحافظ العهد بظهر المغيب
ثم افترقنا لم اصب مثله
عمري ومثلي أبدا لايصيب
فأعجب لها من فرقة باعدت
بين اليفين وكل حبيب (٩١)

انشدني الحكيم أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن عبد الله الكولي بالقاهرة قال : انشدنا مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ لنفسه بدمشق في سنة اربع وثمانين وخمسمائة في ضرس قلعه :

وصاحب صاحبته
ستين حولا مارأيته
حتى أنا عاينته
عاينت منه ماأبيته
والهجر فيه ـ راحة
من كل مصحوب قليته

وأنشدنا الحكيم أبو القاسم المذكور قال : انشدنا مؤيد الدولة اسامة بن منقذ لنفسه في مثله .

وصاحب لاتمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب ـ واوردهما في الخريدة ، لو انصفت فهمك ان كنت منتقدا وترقيت عن مرقب وهمك مجتهدا ، وغصت بنظر فكرك في بحار معانيه لغنمت من فرائد درره ولآليه . ولعلمت اذا لم يكن هكذا فلغو ، وانه اذا لم يبلغ هذا الحد من الجد فهجر ولهو ، ومن الذي اتى في وصف السن المقلوع بمثل هذا الفن المطبوع ، فهل سبقه أحد الى معناه ، وهل في هذا النمط ساواه (٩٢)

انشدنا أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل الحلبي قال : انشدنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، ح .

وأنشدنا محمد بن أحمد بن علي الفنكي قالا : انشدنا أبو المظفر أسامة بن علي الكناني لنفسه :

لم يبق لي في هواكم أرب
سلوتكم والقلوب تنقلب
أوضحتم لي سبل السلو وقد
كانت لي الطرق عنه تنشعب
إلام دمعي من هجركم سرب
فان وقلبي من غدركم يجب

- ٥٥٥٣ -

ان كان هذا لأن تعبدني السحـ
ـبا فقد اعتقني الريب

احببتكم فوق ماتوهمه الـ
ـخلق وخنتم اضعاف ماحسبوا (٩٣)

أورد أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب هذه الابيات في الخريدة وقال : تأمل معاني هذه الابيات بعين التأني والثبات تعرف أن قائلها من ذوي الحمية ، والنفوس الأبية ، والهمم العلية وكل من يملكه الهوى ويسترقه قلما يطاقه الساو ويعتقه ، الا أن يكون كبيرا غلب عقله هـواه ، واستهجن في الشهوات المذمومة نيل مناه ، وقول « قد أعتقني الريب » في غاية الجودة ، ونهاية الكمال ، أعذب من الزلال ، وأطيب من الحلال ، والعب بقلوب المتيمين من نسيم الشمال (٩٤)

أنشدنا شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن حموية قال : انشدنا مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد ابن علي بن مقلد بن منقذ لنفسه :

أيا تاج فرسان الهياج ومن بهم
ثبتت أواخي ملك كل متوج
قوم اذا لبسوا الحديد عجبت من
بحر يدافع في لظى متوهج (٩٥)

أنشدنا أبو الحسن بن أبي جعفر قال : أنشدنا أبو المظفر أسامة ابن مرشد لنفسه وقالها على لسان الشيخ ابي صالح بن المهذب رحمه الله ، وكانت فيه حدة مع فضل وعلم وتقي ، وكان نزل بشيزر فريق من العرب معهم جارية اسمها شوق مستحسنة ، وكتب الابيات ورمى بها نسخا بشيزر ، فوقع منها بيد الشيخ ابي صالح رحمه الله ، فقامت قيامته ، ولم يدر أحد من عمل الابيات ، فقال له

- ٥٥٥٤ -
الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله ، وهو مؤدبه هذه الأبيات التي قد رميت ما يحسن يقولها الا أنا ، أو القاضي أبو مرشد بن سليمان ، أو أنت ، وانا وأبو مرشد ماقلناها وماقالها غيرك ، وهي .

قولا لريم في حلة العرب
اليك اشكو ، ما يصنع اسمك بي
بم استجازت عيناك سفك دمي
وأخذ قلبي في جملة السلب
اولاك والدهر كله عجب
ماخفرت في ذمة العرب
جارك أولى برعي ذمته
إن أنت راعيت حرمة الصقب
هذا هوى كنت في بلهنية
عنه فيا للرجال للعجب
ايسترق الكريم ذا النسب ال
واضح عبد مستعجم النسب
ويحمل الثأر من به خور
عن احتمال الحجال والقلب
نشدتك الله في احتمال دمي
فمعشري مايفوتهم طلبي
مافات قومي آل المهذب من
قبلي ثار في سالف الحقب
فلا تريقي دما لذي ادب
يسطو بأقلامه على القضب (٩٦)

قلت : هذا أبو صالح ابن المهذب ليس هو ابو صالح الكبير محمد ابن المهذب بن علي بن المهذب فإن اسامة لم يدرك زمنه لأنه توفي سنة خمس وستين واربعمائة وهذا غيره ، ذكرنا ذلك لئلا يلتبس به .

- ٥٥٥٥ -

انشدنا ابو محمد عبد الله بن عمر بـن حمـوية قـال : انشـدنا اسامة بن منقذ لنفسه :

اساكن قلبي والمهامه بيننا
وانسا عيني والمزار بعيد
تمثلك الاشواق لي كل ليلة
فهي جديد والفراق مديد (٩٧)

أنشدنا محمد بن أبي جعفر بـن علي قـال : انشـدنا اسـامة لنفسه :

ابى لي ان ابالي بالرزايا
فؤاد لايروع بالخطوب
ونفس لاتسف لمستفاد
ولاتاس على وفر سليب
وعلمي أن ماأهوى واخشى
يزول بغير شك عن قريب (٩٨)

انشدنا الامام ابو محمد عبد الرحمـن بـن عبـد الله بـن علوان الأسدي قال :

يارب ان اساءتي قد سودت
بيد الكرام الكاتبين صحائفي
والخوف منك ومن عقابك مقلقي
فارحم مخافة ذي الفؤاد الراجف
من خاف شيئا فر منه هاربا
واليك منك مفر عبد خائف (٩٩)

وانشدنا محمد بن أحمد بن علي القرطبي قال : انشدنا اسامة ابن مرشد لنفسه .وكتبها على كتاب نسخه :

-٥٥٥٦-

يارب حسن رجائي فيك حسن لي
تضيع وقتي في لغو وفي لعب
وأنت قلت لمن اضحى على ثقة
بحسن عفوك إني عند ظنك بي (١٠٠)

قال لي أبو علي حسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي :توفي اسامة بن مرشد بن منقذ بدمشق في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، قال : وفيها دخلت دمشق .

أنبأنا الحافظ أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري قال – في ذكر من توفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، في كتاب التكملة لوفيات النقلة ، : وفي ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان توفي الأمير الأجل مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن أبي سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون ، وكان مولده بشيزر في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل في شهر رمضان منها ، حدث عن أبي الحسن علي بن سالم السنبسي وغيره ، سمع منه الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، وأبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي وأبو المواهب الحسن بن هبة الله بن صصرى ، وأبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد ، وحدثنا عنه ولده الأمير الأجل أبو الفوارس مرهف وغيره ، وهو من بيت الامارة والشجاعة ، وله اليد البيضاء في اللغة والكتابة والشعر ، وله مصنفات مشهورة وكان مشهورا بالشجاعة والاقدام ، ودخل بغداد ، والموصل ، ودمشق ومصر (١٠١)

ابو المظفر اسامة بن مرشد بـــن علي بـــن مقلد بـــن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقـــب مـــؤيد الدولة مجد الدين

من وفيات الأعيان لابن خلكان

من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم ، وشجعانهم له تصانيف عديدة في فنون الأدب.ذكره أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل ، وأثنى عليه وعده في جملة من ورد عليه ، وأورد له مقاطيع من شعره ، وذكره العماد الكاتب في الخريدة ، وقال بعد الثناء عليه : سكن دمشق ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمرا مشارا اليه بالتعظيم الى أيام الصالح بن رزيك ، ثم عاد الى الشام ، وسكن دمشق ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين .

وقال غير العماد : إن قدومه مصر كان في ايام الظافر بن الحافظ والوزير يومئذ العادل بن السلار فأحسن اليه وعمل عليه حتى قتل حسبما هو مشروح في ترجمته .

قلت ثم وجدت جزءا كتبه بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب الجنان وكتب عليه انه كتبه بمصر سنة احدى وأربعين وخمسمائة ، فيكون قد دخل مصر في ايامه ، وأقام بها حتى قتل العادل بن السلار اذ لاخلاف أنه حضر هناك وقت قتله،وله ديوان شعر في جزئين موجود في أيدي الناس ورأيته بخطه ونقلت منه قوله :

لاتستعر جلدا على هجرانهم
فقواك تضعف من صدود دائم
واعلم بأنك ان رجعت اليهم
طوعا والا عدت عودة راغم

ونقلت منه في ابن طليب المصري وقد احترقت داره

انظر الى الأيام كيف تسوقنا
قسرا الى الاقرار بالاقدار
ماأوقد ابن طليب قط بداره
نارا وكان خرابها بالنار

ومما يناسب هذه الواقعة أن الوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، كانت له بمصر دار موصوفة بالحسن ، فاحترقت فعمل نشء الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المعري الأصل المصري الدار والوفاة :

اقول وقد عاينت دار ابن صورة
وللنار فيها مارج يتضرم
وكذا كل مال أصله من مهاوش
فعما قليل في نهابر يعدم
وماهو الا كافر طال عمره
فجاءته لما استبطأته جهنم

والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم :« من أصاب مالا من مهاوش أذهبه الله في نهابر » والمهاوش الحرام والنهابر المهالك ، والوجيه المذكور هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي ابن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة ، وكان سمسارا في الكتب بمصر ، وله في ذلك حظ كبير ، وكان يجلس في دهليز داره لذلك ، ويجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ، ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده الى انقضاء وقت السوق ، فلما مات السلفي سار الى الاسكندرية لبيع كتبه ، ومات في السادس عشر من شهر ربيع الآخر سنة سبع وستمائة بمصر ، ودفن بقرافتها رحمه الله تعالى .

ولابن منقذ من قطعة يصف ضعفه :

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

ونقلت من ديوانه ايضا ابياتا كتبها إلى أبيه مرشد ، جوابا عن ابيات كتبها أبوه اليه وهي :

وما أشكو تلون أهل ودي

ولو أجدت شكيتهم شكوت

مللت عتابهم ويئست منهم

فما أرجوهم فيمن رجوت

إذا أدمت قوارضهم فؤادي

كظمت على اذاهم وانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا

كأني ماسمعت ولارأيت

تجنو إلي ذنوبا ماجنتها

يداي ولاأمرت ولانهيت

ولا والله ماضمرت غدرا

كما قد أظهروه ولانويت

ويوم الحشر موعدنا وتبدو

صحيفة ماجنوه وماجنيت

وله بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب الى بعض أهالي بيته ، في غاية الرقة والحسن وهما :

شكا ألم الفراق اناس قلبي

وروع الذوى حي وميت

وأما مثل ماضمت ضلوعي

فاني ماسمعت ولارأيت

والشيء بالشيء يذكر ، أنشدني الاديب أبو الحسن يحيى بن عبد العظيم المعروف بالجزار المصري لنفسه في بعض أدباء مصر ، وكان شيخا كبيرا وظهر عليه جرب فالتطخ بالكبريت قال : فلما بلغني ذلك كتبت اليه :

ايها السيد الأديب دعاء

من محب خال من التنكيت

-٥٥٦٢-

أنت شيخ وقد قربت من النا
ر فكيف ادهنت بالكبريت

ونقلت من خط الامير أبي المظفر اسامة بن منقذ المذكور لنفسه ، وقد قلع ضرسه وقال : عملتهما ونحن بظاهر اخلاط وهو معنى غريب ويصلح أن يكون لغزاً في الضرس :

وصاحب لاأمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لناظري افترقنا فرقة الأبد

قال العماد الكاتب وكنت اتمنى أبدا لقياه ، وأشيم على البعد حياه ، حتى لقيته في صفر سنة أحدى وسبعين ، وسألته عن مولده فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين واربعمائة ، قلت: بقلعة شيزر ، وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، بدمشق رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون ودخلت تربته وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عنده شيئا من القرآن وترحمت عليه .

وتوفي والده ابو اسامة مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة رحمه الله تعالى .

وشيزر – بفتح الشين المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها زاء مفتوحة ثم راء – قلعة بالقرب من حماة وهي معروفة بهم وسيأتي ذكرها في حرف العين عند ذكر جده علي بن مقلد ان شاء الله تعالى .

اسامة بن منقذ

من المقفى الكبير للمقريزي

- ٥٥٦٥ -

اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن محمد بن منقذ بن نصر بن هاشم بن سرار بن زياد بن زغيب بن مكحول بن عمرو بن الحارث بن عامر بن مالك بن أبي مالك بن عوف بن كنانة ابن بكر بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، أبو المظفر ، مؤيد الدولة الشيزري .

مولده :

ولد يوم الاحد سابع عشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة – وقيل : ثالث عشرينه ، وقيل : في شهر رمضان منها – والأول هو الصحيح وكانت ولادته بقلعة شيزر .

وتوفي بدمشق في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة اربع وثمانين وخمسمائة ، ودفن من الغد بجبل قاسيون .

وهو من أكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عديدة في فنون الأدب ، وله ديوان شعر في جزءين .

وانتقل من شيزر الى دمشق فسكنها مدة ، ثم سار منها الى مصر في خلافة الحافظ لدين الله هو واخوته ابو المغيث منقذ ، وشرف الدين مرشد وأولادهم ، والوزير نظام الدين أبو الكرام محسن ، لاستيحاشهم من الأتابك معين الدين انر لمجير الدين أبق صاحب دمشق ، وخوفهم منه ، وقدموا في جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فاستمر بها الى أن ولي العادل بن السلار الوزارة ، فاختص به .

تحريضه على قتل الظافر :

فلما خرج العسكر من القاهرة لحفظ عسقلان من الفرنج في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وعليه عباس بن تميم ربيب الوزير العادل علي بن السلار ، ومعه من أمراء الدولة ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ هذا ، وكان خصيصا بعباس ، ونزلوا على بلبيس ، تذاكر عباس واسامة مصر وطيبها وماهم خارجون اليه من مقاساة السفر ولقاء العدو ، فتأوه عباس أسفا على مفارقة مصر وأخذ يثرب على العادل كونه جرده ، فقال له اسامة : لو أردت كنت انت سلطان مصر .

فقال : كيف لي بذلك .

فقال : هذا ولدك نصر بينه وبين الخليفة ـ يعني الظافر ـ مودة عظيمة ، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك فانه يحبك ويكرهه ، فإذا أجابك فاقتل عمك .

فوقع كلامه من عباس بموقع ، وجهز ابنه الى الخليفة ، وكان من قتل ابن السلار وولاية عباس الوزارة ماتقدم في موضعه .

فلما استقل عباس بوزارة الخليفة الظافر ، وكره اختلاط نصر ابن عباس بالخليفة الظافر ، ثقل اسامة على امراء مصر ، واستوحشوا منه لعلمهم أنه هو الذي دبر قتل ابن السلار وتحدثوا بقتله ، وخيلوا للظافر منه كونه من أهل الشام ، وهواه مع بني العباس ، ومتى ترك وقع منه مالايتدارك ، وبلغه ذلك فخاف من الظافر ، وأخذ في الحيلة لنفسه ، وشرع يدبر في فتنه أخرى ، فأغرى عباس الوزير بابنه نصر ، وبالغ حتى قال له يوما : كيف تصبر على مايقول الناس في حق ولدك ، ومن أن الخليفة يفعل به مايفعل بالنساء ؟

فغضب عباس من ذلك وطلب ابنه وعذفه فلم يصغ لقوله واستمر على معاشرة الخليفة الى أن انعم عليه بناحية قليوب ، فقال له أسامة بحضرة ابيه: ما هي بمهرك غالية!

فامتعض عباس وشق عليه هذا القول ، وقال لاسامة : كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به ؟

فقال : هين ! هذا الخليفة يأتي في كل وقت إلى بيت ولدك خفية ، فمره إذا جاءه أن يقتله .

فما زال عباس بابنه نصر حتى قتل الخليفة كما ذكر في ترجمته .

فلما اقام عباس الفائز عيسى في الخلافة بعد قتل الظافر ، وقدم طلائع بن رزيك من الاشمونين لاخذ ثار الظافر ال أمر عباس إلى أن فر من القاهرة ، هو وولده نصر ، وأسامة ، في عدة من أصحابهم ، بعدما نهب لاسامة عند خروجه من مصر أربعون غرارة(١٠٩) جمالية مخاطة فيها من الذهب والفضة والكسوة شيء كثير ، وأخذ من اصطبله ستة وثلاثون حصانا وبغلة بسروجها ولجمها وعدتها ، وخمسة وعشرون جملا ، وأخذ من إقطاعه بكوم اشبين مائتا رأس بقر لبساتينه وأوسيته ، وأهراء غلة .

هروبه من الافرنج وخذلانه العباس :

فخرج عليهم الافرنج ، ففر أسامة وتبعه أصحابه ، وتركوا عباسا وابنه حتى قتل عباس وأسر ابنه نصر في يوم الجمعة خامس شهر ربيع الاخر ، وسار أسامة إلى دمشق في سنة تسع وأربعين وخمسمائة فاقام بها .

ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فاقام به حتى ملك السلطان

- ٥٥٦٨ -

صلاح الدين يوسف دمشق ، فاستدعاه وهـو شـيخ قـد جـاوز الثمانين .

قال فيه العماد الكاتب : وأسامة كاسمه في قوة نثـره ونظمـه ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف .

شعره :

ومن شعره في قلع ضرسه :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته

يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا

لناظري افترقنا فرقة الأبد

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها

مغالبا ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها

حتى إذا مات خلاها وما فيها

وقال :

لأرمين بنفسي كل مهلكة

مهولة يتحاماها ذوو الباس

حتى أصادف حيني فهو أجمل بي

من الخضوع وأستغني عن الناس

وقال قصيدته المشهورة التي كتبها إلى دمشق بعد خروجه منهـا الى مصر يعتب على الأمير معين الدين أنر ، وهي من غرر القصائد:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا اضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري ، بم استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا ، أغضيت حين جنوا
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
ما الرزق إلا الذي يجري به القلم
محاسني منذ ملوني باعينهم
قذى ، وذكري في آذانهم صمم
وبعد ، لو قيل لي : ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتي ، ومن
قلبي محل المنى ، جاروا أو احترموا
تبدلوا بي وما أبغي بهم بدلا
حسبي بهم انصفو في الحكم أو ظلموا
ياراكبا تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلغ أميري معين الدين مالكة
من نازح الدار ولكن وده أمم
وقل له : أنت خير الترك فضلك
الحياء والدين والإقدام والكرم

وانت أعدل من يشكى إليه ، ولي
شكية انت فيها الخصم والحكم

هل في القضية يامن فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم

يضيع واجب حقي بعدما شهدت
به النصيحة والأخلاص والخدم

وما ظننتك تنسى حق معرفتي
إن التعارف في أهل النهى ذمم

ولا اعتقدت الذي بيني وبينك من
ود ، وان أجلب الأعداء ، ينصرم

لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم
حتى استوت عندك الانوار والظلم

باعوك بالبخس يبغون الغنى ، ولهم
لو أنهم عدموك الويل والعدم

والله ما نصحوا فيما استشرتهم
وكلهم ذو هوى في الرأي متهم

كم حرفوا من مقال في سفارتهم
وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

أين الحمية والنفس الأبية إذ
ساموك خطة خسف عارها يصم

هلا انفت حياء أو محافظة
من فعل ماانكرته العرب والعجم

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة
ولم يرو سنان السمهري دم

وكنت أحسب من والاك في حرم
لا يعتريه به شيب ولا هرم

وأن جاركم جار السموأل لا
يخشى الاعادي ولاتغتاله الذقم

وما طمان بأولى من اسامة بال
ـوفاء لكن جرى بالكائن القلم

هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها
عذر ، فماذا جنى الأطفال والحرم

القيتهم في يد الافرنج مبتغيا
رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم

هم الاعادي وقاك الله شرهم
وهم بزعمهم الاعوان والخدم

إذا نهضت إلى مجد تؤثله
تقاعدوا ، فإذا شيدته هدموا

وإن عرتك من الايام نائبة
فكلهم للذي يبكيك مبتسم

حتى اذا ما انجلت عنهم غيابتها
بحد عزمك وهو الصارم الخذم

رشفت اجن عيش كله كدر
ووردهم من نداك السلسل الشبم

وإن أتاهم بقول عنك مختلق
واش فذاك الذي يحبى ويحترم

وكل من ملت عنه قربوه ، ومن
والاك فهو الذي يقصى ويهتضم

بغيا وكفرا لما أوليت من منن
وموقع البغي لولا جهلهم وخم

جربهم مثل تجريبي لتخبرهم
فللرجال إذا ما جربوا قيم

هل فيهم رجل يغني غناي إذا
جلى الحوادث حد السيف والقلم

أم فيهم من له في الخطب ضاق به
ذرع الرجال يد يسطو بها وفم

لكن رأيك أدناهم وأبعدني
فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وما سخطت بعادي إذ رضيت به
ولا لجرح إذا أرضاكم ألم

ولست آسى على الترحال من بلد
شهب البزاة سواء فيه والرخم

تعلقت بحبال الشمس من كبدي
ثم انثنت وهي صفر ملؤها ندم

لكن فراقك أساني وأسفني
ففي الجوانح نار منه تضطرم

فاسلم فما عشت لي فالدهر طوع يدي
وكل ما نالني من بؤسه نعم

فلما وقف عليها معين الدين ألزم الأديب أبا الثناء محمود بن نعمة بن رسلان الشيزري ، حتى أجاب عنها بأبيات أولها :

ياظالما ناره في القلب تضطرم
مهلا ! فلحظك تغشى نوره الظلم

كأنك القوس تردي وهي صارخة
وما ألم بها من غيرها ألم

تجني وتلزمني ذنبا أتيت به
ووجه غدرك باد ليس ينبهم

وقال(١٠٣) :

للخلق في يوم القيامة موقف
تجزي البرية فيه عن أعمالها

ومطوق الارضين غاصب حدها
فليهنا من قد حازها بكمالها

وقال :

ياليت أن ديارنا كانت كذا :
طورا تفرقنا وطورا تجمع
لكنها درست وأوحشها الردى
من أهلها فهي القفار البلاقع
لايرتجى لهم إياب جامع
أشتاتهم حتى يضم المجمع

وقال :

وسائل الدار عمن كان يملكها
هل آنست عنهم من بعدهم خبر
فلو أجابت لقالت وهي عالمة
بسيرة السلف الماضي ومن غبرا
أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا
فصيرتهم لقوم بعدهم عبرا

وقال :

وما أشكو تلون أهل ودي
ولو أجدت شكاتهم شكوت
ملت عتابهم ويئست منهم
فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادي
صبرت على اذاهم وانطويت

ورحت عليهم طلق المحيا
كأني ما سمعت ولا رأيت
ولا والله ما اضمرت غدرا
كما قد اضمروه ، ولا نويت
تجذوا لي ذنوبا ما جنتها
يداي ولا أمرت ولا نهيت
هم نقضوا مواثيقي وعهدي
ولم يوفوا ، وهاأنا قد وفيت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو
صحائف ما جذوه وما جنيت

كتبه :

وله عدة مصنفات ، منها : كتاب التاريخ البدري ، ذكر فيه أهل بدر ، وعدتهم ، وأسماءهم ، وانسابهم ، وأحوالهم . وذكر فيه مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وجميع أحواله من أول أمره إلى لخره ، واستقصى ذلك في خمس مجلدات كبار على حروف المعجم .
وكتاب الشيب والشباب ، ذكر فيه الخضاب وما جاء فيه ، ورتبه على سبعة أبواب في كل فصول . وكتاب ملحق به سماه« استدراك المرتاب » .

وكتاب الحنين الى الاوطان . وكتاب أخبار النساء ، بدأ فيه بحواء ، وذكر فيه أم موسى ، ومريم ابنة عمران وأخبارهن ، وأمهات العرب ، والاخوات ، والزوجات ، والبنات المنجبات ، والنساء التي سارت بذكرهن الاشعار ، واستقصى أخبار الجميع واشعارهن وما قيل فيهن . وكتاب وسائل السائل ، يتضمن الادعية وأوقاتها وماورد فيها . وكتاب المنازل والديار . وكتاب نصيحة الدعاة . وكتاب الاشارة . وكتاب زجر عمرو بن بحر الجاحظ ، فيه النهي عن الزنا واللواط والفواحش . وكتاب أزهار الازهار ، فيه

صفة الجنة ومنافع اللبن ومضاره . وكتاب العصا ، فيه ذكر عصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وما جاء في العصا . وكتاب النوم والاحلام . وكتاب التأسي والتسلي . وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين . وكتاب المحاسن . وكتاب نزهة الناظر في إملاء الخاطر ، وكتاب ردع الظالم ورد المظالم ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب تاريخ ذكر الحوادث من أول الهجرة إلى زمانه مختصرا ، وكتاب لباب الآداب ، وكتاب مكارم الاخلاق ، في عشرين مجلدة ، صنفه في مدة عشر سنين ، مدة مقامه بمصر ، وكتاب المنتخب من أشعار العرب ، وكتاب المختار من محدث الاشعار ، وكتاب المماثلة في الشعر ، وكتاب معونة المساعد على حصر الشواهد ، في الشعر أيضا ، وكتاب الاقسام ، في الشعر أيضا ، وكتاب أمان الخائفين ، في الزهد ، وكتاب الديرة والحصون ، وكتاب فيه شعر جماعة سأله ابن الزبير عنهم ، وكتاب المكارم والكرم ، ورعاية الذمم ، وكتاب الفرق ما بين المحبة والهوى ، وكتاب زور أبي العلاء ، وكتاب ضربة الولاء ، وكتاب اختيار شعر أبي تمام ، وكتاب التجارة المربحة ، وكتاب مختار شعر أبي نواس .

كتاب الاعتبار



الباب الاول

- ٥٥٨٠ -

حروب واسفار

معركة قنسرين ضد الفرنجة سنة ٥٣٠هـ

ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيرا ، وكان وصل من الامام الراشد بن المسترشد ، رحمهما الله ، ابن بشر(١) رسولا الى اتابك يستدعيه فحضر ذلك المصاف ، وعليه جوشن مذهب ، فطعنه فارس من الافرنج ، يقال له ابن الدقيق(٢) ، في صدره أخرج الرمح من ظهره ، رحمه الله ، بل قتل من الافرنج خلق كثير .

وأمر أتابك ، رحمه الله ، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن ، فكانت قدر ثلاث الاف رأس .

ثم ان ملك الروم عادخرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة ، واتفق هو والافرنج ، خذلهم الله ، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها ، فقال لي صلاح الدين(٣) « ما ترى ما فعله هذا الولد المثكل ؟ » يعني ابنه شهاب الدين احمد ، قلت : « واي شيء فعل ؟ » قال : « انفذ الي يقول ابصر من يتولى بلدك » ، قلت : « واي شيء عملت ؟ » قال : « نفذت الى أتابك أقول(تسلم موضعك)» ، قلت : « بئس ما فعلت ! اما يقول لك أتابك : لما كانت لحما اكلها ، ولما صارت عظما رماها علي ؟ » قال : « فأي شيء أعمل ؟ » قلت : « أنا اجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بأجالنا ، وانت معذور » ، قال : « ما قال لي هذا القول احد غيرك » .

وتوهمت انه يفعل ذلك ، فحملت الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر ، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال : « يقول لك صلاح الدين : نحن بعد غد سائرون إلى الموصل فاعمل

- ٥٥٨١ -

شغلك المسير » فورد على قلبي من هذا هــم عظيم وقلت : « أتــرك أولادي واخوتي في الحصار واسير إلى الموصل ؟» ، فاصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأذنته في الرواح الى شيزر لأحضر لي نفقــة ومالا نحتاج إليه في الطريق . فأذن وقال : « لاتبــطىء » ، فــركبت ومضيت إلى شيزر ، فبدا منه ما أوحش قلبي ، وعزل ابني مبــارك ونفذ إلى داري ، فرفع كل ما فيها مــن الخيام والســلاح والرحــل وقبض على ابن اختي ، وتتبــع أصــحابي ــ فـكانت نكبــة كبيرة رائعة .

(من شيزر إلى دمشق)

فاقتضت الحال مسيري الى دمشق ، ورسل أتابك تتردد في طلبي إلى صاحب دمشق ، فاقمت فيها ثماني سنين ، وشهدت فيها عدة حروب ، وأجزل لي صاحبها ، رحمه الله ، العطية والاقطاع ، وميزني بالتقريب والاكرام - يضاف ذلك الى اشتمال الامير معين الدين ، رحمه الله علي ، وملازمتي له ، ورعايته لاسبابي .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيري إلى مصر . فضاع من حوائج داري وسلاحي ما لم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكي ما كان نكبة لخرى . كل ذلك والامير معين الدين ، رحمه الله ، محسن مجمل كثير التأسف على مفارقتي ، مقر بالعجز عن أمري ، حتى أنه أنفذ إلي كاتبه الحاجب محمود المسترشدي ، رحمه الله ، قال : « والله لو أن معي نصف الناس لضربت بهم النصف الاخر ، ولو أن معي ثلثهم لضربت بهم الثلثين ، وما فارقتك . لكن الناس كلهم قد تمالؤوا علي ومالي بهم طاقة ، وحيث كنت ، فالذي بيننا من المودة على أحسن حاله(٤) » . ففي ذلك أقول :

معين الدين كم لك طوق من
بجيدي مثل أطواق الحمام

تعبدني لك الاحسان طوعا
وفي الاحسان رق الكرام

فصار الى مودتك انتسابي
وان كنت العظامي العصامي

الم تعلم باني لانتمائي
اليك رمى سوادي كل رام

ولولا انت لم يصحب شماسي
لقسر دون إعذار الحسام

- ٥٥٨٣ -

ولكن خفت من نار الاعادي

عليك فكنت إطفاء الضرام(٥)

(من دمشق الى القاهرة)

فكان وصولي الى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمس مائة ، فقربني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع علي بين يديه ، ودفع لي تخت ثياب ومائة دينار ، وخولني دخول الحمام ، وانزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش ، في غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة ، وآلتها من النحاس ، كل ذلك لايستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة ، إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج.

فوقع بين السودان ، وهم في خلق عظيم ، شر وخلاف : بين الريحانية ، وهم عبيد الحافظ ، وبين الجيوشية(٦) والاسكندرية والفرحية ، فكان الريحانية في جانب ، وهؤلاء كلهم في جانب ، متفقين على الريحانية ،وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص ، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم ، وغاب عنهم الحافظ ، وترددت إليهم رسله ، وحرص على ان يصلح بينهم . فما أجابوا إلى ذلك ، وهم معه في جانب البلد ، فاصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية ، فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش الف رجل حتى سدوا السويقة ، ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر .

وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، وكان مريضا على شفا ، فمات ، رحمه الله ، بعد يومين ، وما انتطح فيها عنزان .

وجلس بعده الظافر بأمر الله ، وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخا كبيرا ، والامير سيف الدين ابو الحسن علي بن السلار ، رحمه الله ، إذ ذاك في ولايته(٧) ، فحشد

وجمع وسار إلى القاهرة ، ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الامراء في مجلس الوزارة ، ونفذ إلينا زمام القصور(٨) يقول : « ياأمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمتثل أمره » فقال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » فرجع الزمام بهذا الجواب .

فقال أمير من الامراء شيخ يقال له لكرون : « ياأمراء ، نترك علي بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال : « فقوموا » فذفروا كلهم وخرجوا من القصر شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال : « اخرج إلى الحوف(٩) ، اجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار » فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوف قد جمع من لواته(١٠) ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقا كثيرا . وقد خرج عباس ركن الدين ، وهو ابن امرأة علي بن السلار ، ضرب خيمة في ظاهر مصر ، فغدت سرية من لواته ، ومعهم نسيب لابن مصال ، وقصدوا مخيم عباس ، فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلمانه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم .

وبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار ، وقال : « هؤلاء الكلاب ـ يعني جند مصر ـ قد شغلوا الأمير ـ يعني عباسا ـ بالفوارغ ، حتى عدا إليه قوم من لواته سباحة ، فانهزموا عنه ودخل بعضهم إلى بيوتهم بالقاهرة ، والأمير مواقفهم » قلت : « يامولاي ، نركب إليهم في سحر ، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى ، قال : صواب أبكر في

ركوبك ، فخرجنا إليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم إلا من سبحت بـه فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال ضربت رقبته .

وجمع العسكر مع عباس وسـيره الى ابـن مصـال ، فلقيه على دلاص(١١)، فكسرهـم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل ، وحملوا رأس ابن مصال إلى القـاهرة ، ولم يبق لسيف الدين من يعانده ولا يشاققه .

وخلع عليه الظـافر خلع الوزارة ولقبـه الملك العـادل ، وتـولى الامور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر ، فعمـل على قتله وقرر مع جماعة من صـبيان الخـاص وغيرهـم ممـن استمالهم وأنفـق فيهـم أن يهجمـوا داره ويقتلوه ، وكان شـهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بـالقرب مـن دار الملك العـادل ينتظرون توسط الليل وافتـراق اصـحاب العـادل ، وانا تلك الليلة عنده .

فلما فرغ الناس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين عليه ، أحضر رجلين من غلمانه وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار التي هم فيهـا مجتمعـون ، وكانت الدار ، لما أراده الله مـن سلامة بعضهم ، لها بابان : الواحد قريب من دار العادل ، والاخـر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من البـاب القـريب ، قبـل وصـول أصحابهم إلى الباب الاخر ، فانهزموا وخـرجوا مـن ذلك البـاب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجالة ، كانوا أصدقاء غلماني نخبئهم . وأصبح البلد فيه الطلب لاولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منهم قتل .

ومن عجيب ما رايت في ذلك اليوم أن رجلا مـن السـودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري ، والرجال بـالسيوف خلفـه ،

فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق(١٢) كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة ، فثبت عليها ، ثم نزل ودخل من كم(١٣) مجلس قريب منه فوطىء على منارة نحاس ، فكسرها ، ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه .

واشرف أولئك الذين كانوا خلفه ، فصحت عليهم وأطلعت إليهم الغلمان ، دفعوهم ، ودخلت الى ذلك الأسود ، فنزع كساء كان عليه وقال : « خذه لك » ، قلت « أكثر الله خيرك ، ما احتاجه » واخرجته وسيرت معه قوما من غلماني ، فنجا .

وجلست في صفة في دهليز داري ، فدخل علي شاب سلم وجلس ، فرأيته حسن الحديث حسن المحاضرة ، هو يتحدث وانسان استدعاه فمضى معه ، وذفذت خلفه غلاما يبصر لماذا استدعي ، وكنت بالقرب من دار العادل ، فساعة ما حضر ذلك الشاب بين يدي العادل أمر بضرب رقبته ، فقتل ، وعاد الغلام ، وقد استخبر عن ذنبه ، فقيل له : « كان يزور التواقيع » ، فسبحان مقدر الاعمار ، وموقت الاجال .

وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان .

وتقدم إلي الملك العادل ، رحمه الله ، بالتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين رحمه الله ، وقال : « تأخذ معك مالا وتمضي إليه لينازل طبرية ، ويشغل الفرنج عنا ، لنخرح من هاهنا نخرب غزة » .

وكان الأفرنج ، خذلهم الله ، قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان ، قلت : « يامولاي ، فان اعتذر أو كان له من الاشغال ما يعوقه ، اي شيء تأمرني ؟ » قال : « إن نزل على طبرية ، فأعطه المال الذي معك ، وإن كان له مانع ، فديون(١٤) من قدرت عليه من الجند واطلع إلى عسقلان أقم بها في قتال الافرنج ، واكتب إلي بوصولك لأمرك بما تعمل » .

ودفع إلي ستة آلاف دينار مصرية ، وحمل جمل ثياب دبيقي(١٥) وسقلاطون ومسنجب ودمياطي(١٦) وعمائم ، ورتب معي قوما من العرب ادلاء .

وسرت وقد ازاح علة سفري بكل ما احتاجه من كثير وقليل ، فلما دذونا من الجفر(١٧) قال لي الادلاء« هذا مكان لايكاد يخلو من الافرنج » ، فامرت اثنين من الادلاء ركبا مهرين ، وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبثا أن عادا ، والمهاري تطير بهما ، وقالا : « الفرنج على الجفر ! » ، فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورفاقا من السفارة كانوا معي ، ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت : « تقدموا ، وأنا في إثركم » ، فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد إلي واحد منهم وقال : « ما على الجفر أحد ، ولعلهم ابصروا عربانا » . وتنازع هو والادلاء . فنفذت من رد الجمال ، وسرت .

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود ، فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا رجلا آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهن مسكت ثوبي وقالت : « ياشيخ ، أنا في حسبك » ، قلت : « انت آمنة ، مالك ؟ » قالت « قد اخذ اصحابك لي ثوبا وناهقا ونابحا وخرزة » ، قلت لغلماني : « من كان أخذ شيئا يرده » .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، قالت : « هذا الثوب » .

واحضر آخر قطعة سندروس (١٨) قالت : « هذه الخرزة » ، قلت : « فالحمار والكلب ؟ » قالت : « الحمار قد ربطوا يديه ورجليه ، وهو مرمي في العشب ، والكلب مفلوت يعدو من مكان الى مكان » .

فجمعتهم ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم على عظامهم ، قلت « ايش أنتم ؟ » قالوا : « نحن من بني أبي » ، وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لايأكلون إلا الميتة ويقولون : « نحن خير العرب ، ما فينا مجذوم ولا أبرص ولازمن ولا أعمى » ، وإذا نزل بهم الضيف ذبحوا له واطعموه من غير طعامهم ، قلت : « ما جاء بكم الى هاهنا ؟ » قالوا : « لنا بحسمى(١٩) كثول ذرة مطمورة جئنا نأخذها » قلت : « وكم لكم هنا ؟ » قالوا : « من عيد رمضان لنا هاهنا ، وماراينا الزاد بأعيننا » ، قلت : « فمن أين تعيشون ؟» قالوا « من الرمة ، (يعنون العظام البالية الملقاة) ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونتقوت به » ، قلت : « فكلابكم وحمركم ؟» قالوا : « الكلاب نطعمهم من عيشنا ، والحمر تأكل الحشيش » ، قلت : « فلم لادخلتم إلى دمشق ؟» قالوا : « خفنا الوباء » ، ولا وباء اعظم مما كانوا فيه ! ، وكان ذلك بعد عيد الاضحى .

فوقفت حتى جاءت الجمال ، وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ، وقطعت فوطة كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين ، فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، وقلت:« لاتقيموا هاهنا يسبوكم الافرنج » .

ومن طريف ما جرى لي في الطريق أنني نزلت ليلة أصلي المغرب والعشاء قصرا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الارض وقلت للغلمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلي ، فأنا ما أزول من مكاني » ، فتفرقوا وركضوا كذا وكذا فما رأوهم ، فعادوا كلهم إلي وقالوا : « ما لقيناهم ، ولا ندري كيف مضوا » ، فقلت:« نستعين بالله تعالى ونسير على النوء » ، فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب .

وفي الادلاء رجل يقال له جرية فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم انا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحة وجعل يقدح ، وهو على

الجمل ، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم ، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

ومما جرى لي في تلك الطريق أن الملك العادل ، رحمه الله ، قال لي « لاتعلم الادلاء الذين معك بالمال » ، فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجنوب معي وسلمته إلى غلام ، وجعلت الفي دينار وذفقة لي وسرفسار(٢٠) ودنانير مغربية في خرج على حصان مجنوب معي وسلمته الى غلام ، فكنت اذا نزلت جعلت الاخراج في وسط بساط ، ورددت طرفيه عليها ، وبسطت فوقه بساطا آخر ، وأنام على الاخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، يجيء الغلامان اللذان معهما الخرجان فيتسلمانهما ، فاذا شداهما على الجنائب ركبت وأيقظت أصحابي وتهممنا بالرحيل .

فنزلنا ليلة في تيه بني اسرائيل ، فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركي البغل ودار يريد يشده بالسموط ، فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني : « اركب ، أركب » .

وركضت خلف البغل فما لحقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصاني قد أعيي من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت « اتبع البغل كذا » ، فمضى وقال : « والله يامولاي ، مارأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت اطلب ، والبغل أهون مفقود » .

ورجعت الى المنزلة واذا البغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف ، فكانه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار .

ووصلنا في طريقنا إلى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، على دمشق ، وقد وصـل إلى بصرى الأمير اسـد الدين شيركوه رحمه الله ، فسرت معه إلى العسكر فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت تحدثت مع نور الدين بما جئت به ، فقال لي : « يافـلان ، أهل دمشق أعداء ، والافـرنج أعداء ، مـا آمـن منهمـا إذا دخلت بينهما » ، قلت له : « فتأذن لي ان أديون من محرومي الجند قـوما آخذهم وأرجع ، وتنفذ معي رجلا من اصـحابك في ثـلاثين فـارسا ليكون الاسم لك » « قال : « أفعل » .

فديونت إلى الاثنين الاخر ثمانمائة وستين فـارسا وأخـذتهم ، وسرت في وسط بلاد الافرنج ننزل بالبوق ونرحل بالبوق .

وسـير معـي نور الدين الامير عين الدولة الياروقـي في ثـلاثين فارسا فاجتزت في طريقي بالكهف والرقيم(٢١) ، فنزلت فيه ودخلت صليت في المسجد ، ولم أدخل في ذلك المضيق الذي فيه ، فجـاء أمير من الاتراك الذين كانوا معي يقال له بـرسق ، يريد الدخـول في ذلك الشق الضيق ، قلت :« أي شيء تعمل في هذا ؟ صل برا » قال : « لا إله الا الله ، أنا حرام إذا حتى لاأدخـل في ذلك الشـق الضـيق ؟» قلت : « أي شيء تقول ؟» قال : « هذا الموضع ما يدخل فيه ولدزنا ، ما يستطيع الدخول » .

فأوجب قوله أن قمت دخلت في ذلك الموضع صـليت ، وخـرجت ، وأنا ـ الله يعلم ـ ما أصدق ما قاله ، وجاء أكثر العسكر فـدخلوا وصلوا .

ومعي في الجند بـراق الزبيدي معـه عبـد له أسـود دين كثير الصلاة ، أدق ما يكون مـن الرجـال وأذبهـم(٢٢) فجـاء إلى ذلك الموضع ، وحرص بكل حرص على الدخول ، فما قدر يدخل ، فبـكى المسكين وتوجع وتحسر ، وعاد بعد الغلبة عن الدخول .

-٥٥٩٢-
فلما وصلنا عسقلان سحر ، ووضعنا اثقالنا عند المصلى ، صبحونا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج الينا ناصر الدولة ياقوت ، والي عسقلان ، فقال : « ارفعوا ، ارفعوا اثقالكم » ، قلت : « تخاف لايغلبونا الافرنج عليها ؟» قال : «نعم » ، قلت : « لاتخف ، هم يرونا في البرية ويعارضونا ، إلى أن وصلنا إلى عسقلان ، ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟!

ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا إلى بلادهم جمعوا لنا وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منازلة عسقلان ، فخرجنا إليهم ، وقد خرج راجل عسقلان ، فدرت على سرب الرجالة وقلت : « ياأصحابنا ، إرجعوا إلى سوركم ، ودعونا وإياهم ، فان نصرنا عليهم فانتم تلحقونا ، وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم » ، فامتنعوا من الرجوع ، فتركتهم ومضيت إلى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها ، فاحتطنا بهم ، وأعجلناهم عن طي خيامهم ، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين .

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم من السوقيين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء ، فرجع الأفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ، فانهزمت الرجالة ، الذين رددتهم فما رجعوا ، ورموا تراسهم ، ولقينا الأفرنج ، فرددناهم ، ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قريبة من عسقلان .

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون ، وقالوا:« كان ابن منقذ أخبر منا ،قال لنا : ارجعوا ، ما فعلنا حتى انهزمنا وافتضحنا » .

وكان أخي عز الدولة ابو الحسن علي ، رحمه الله ، في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه إلى عسقلان ، وكان ، رحمه

الله ، من فرسان المسلمين يقاتل الدين لا الدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل(٢٣) وقتالها ، فوصلناها وقاتلناهم ، ورأيت عند رجوعنا على البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحناها في البيادر ، وصرنا نتنقل من موضع إلى موضع ، ومضى العسكر تقدمني ، فاجتمع الافرنج ، لعنهم الله ، من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمغاداة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا .

فجاءني فارس منهم يركض وقال : « قد جاء الافرنج !» فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج ، وهم ، لعنهم الله ، أكثر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء ، أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لاينزل إليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم في قلة ، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين .

ومازال الافرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم - والقتال بيننا - لايجدون في طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا .

وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم ، ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم ، كما نصروا علينا ، كنا أفنيناهم .

فأقمت بعسقلان لمحاربة الافرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يبنى(٢٤) وقتلنا فيها نحو مائة نفس وأخذنا منها أسارى .

وجاءني بعد هذه المدة كتاب الملك العادل ، رحمه الله ، يستدعيني . فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو الحسن علي ، رحمه الله ، بعسقلان ، فخرج عسكرها إلى قتال غزة

فاستشهد ، رحمه الله ، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار ، رحمه الله ، فإنه كان جهز عسكرا إلى بلبيس ، ومقدمه ابن امراته ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن باديس ، لحفظ البلاد من الأفرنج ، ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، رحمه الله ، فأقام مع أبيه في العسكر اياما ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى العسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة وللضجر من المقام في العسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورتب معه قوما من غلمانه ، يهجم بهم على العادل في داره إذا ابرد في دار الحرم ونام ، فيقتله .

وقرر مع استاذ من استاذي دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل جدته ، فهو يدخل إليها بغير استئذان .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الاستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذي هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه ، فقتلوه ، رحمه الله ، وقطع رأسه وحمله إلى الظافر ، وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفي دار العادل من مماليكه واصحاب النوبة نحو من الف رجل ، لكنهم في دار السلام ، وهو قتل في دار الحرم فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رفع رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين : فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ، وفرقة رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر بن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته(٢٥) .

واصبح والده عباس دخل القاهرة وجلس في دار الوزارة ، وخلع

عليه الظافر وفوض إليه الأمــر ، وابنه نصر مخــالطه ومعــاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه ، لعلمه بمذهب القــوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفنوهم ويحوزوا كلما لهم ، حتــى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعــاتبان ، وعبــاس يردد عليه الكلام ، وابنه مطرق كأنه نمر يرد عليه كلمة بعد كلمة يشــتاط منها عباس ويزيد في لومــه وتــأنيبه ، فقلت لعبــاس : « يامــولاي الافضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعــل الملامة لي ، فانا معه في كل ما يعمله ، مــا أتبــرأ مــن خــطأه ولا صوابه ، أي شيء هو ذنبه ؟ ماأساء إلى أحــد مــن أصــحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفســه حتــى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة » ، فأمسك عنه والده ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصــير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرتــه يومــا وقــد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثــم أغفله أياما وحمل إليه من الكسوات من كل نوع مــالا رأيت مثله مجتمعــا قبله ، وأغفله اياما . وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمســون ألف دينار ، وأغفله اياما . وبعــث إليه ثــلاثين بغــلا رحــــلا (٢٦) وأربعين جملا بعددها وغرائرها وحبالها .

وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مــع ابــن عباس لا يفسح لي في الغيبــة عنه ليلا ولا نهــارا ، أنام ورأسي على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جــاء مــرتفع بــن فحل ، فتحدث معه إلى ثلث الليل ، وأنا معتزل عنهما ثــم انصرف . فاستدعاني وقال : « أين أنت ؟» قلت : « عند الطاقة اقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغت اقرأ » ، فابتدأ يفــاتحني بشيء ممــا كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك ، ويريد بي أقوي عزمه على سوء ما قد حمله

عليه الظافر ، فقلت : « يامولاي ، لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئا تلعن عليه إلى يوم القيامة » . فأطرق ، وقاطعني الحديث ، ونمنا .

فاطلع والده على الأمر ، فلاطفه ، واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان في الليل متنكرين ، وهما اتراب ، وسنهما واحدة ، فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السيوفيين ، ورتب من أصحابه نفرا في جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجالس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر ، وقال : « ما لمولانا ما جلس للسلام ؟» فتبلد الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال : « مالك لاتجاوبني ؟» قال : « يامولاي مولانا ما ندري أين هو » ، قال : « مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » . فمضى ورجع وقال : « ما وجدنا مولانا » .فقال عباس : « ما يبقى الناس بلا خليفة ، ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد نبايعه» ، فمضى وعاد وقال : « الموالي يقولون لك : نحن ما لنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر ، والأمر لولده بعده ، قال : « اخرجوه حتى نبايعه » .

وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : « أخوته قتلوه » ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبي محمول على كتف استاذ من استاذي القصر ، فأخذه عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم

دخل به ، وهـو حـامله ، إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحـافظ : الامير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن اخيهم الامير أبو البقاء .

ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر مـن الف رجـل مـن المصريين ، فما راعنا إلا فوج قد خـرج مـن المجلس إلى القـاعة ، وصوت السيوف على إنسان ، فقلت لغلام لي أرمني : « أبصر مـن هذا المقتول » ، فمضى ثم عاد وقال : « مـا هؤلاء مسـلمون ! هـذا مولاي أبو الامانة ، يعني الامير جبريل ، قد قتلوه ، وواحد قد شـق بطنه يجذب مصارينه » ، ثم خرج عباس ، وقـد أخـذ رأس الامير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفـور منه ، وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عبـاس ، فـأدخلوهما ، في خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة .

وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي ، لما جرى فيه مـن البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق .

وكان من طريف ما جرى ذلك اليوم أن عباسا لما أراد الدخول إلى المجلس وجد بابه قد قفل من داخل ، وكان يتولى فتح المجلس وغلقه استاذ شيخ يقال له أمين الملك ، فاحتالوا في الباب حتـى فتحـوه ، ودخلوا فـوجدوا ذلك الاسـتاذ خلف البـاب ، وهـو ميت ، وفي يده المفتاح .

وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ ، رحمه الله ، ما فعـل جفـت عليه قلوب الناس ، وأضمروا فيها العداوة والبغضاء ، وكاتب من في القصر من بنات الحافظ فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رزيك ، رحمـه الله ، يستصرخون به . وحشـد ، وخـرج مـن ولايتـه(٢٧) يريد القاهرة ، فأمر عباس فعمرت المراكب ، وحمل فيها الزاد والسـلاح والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسـير معـه ، وذلك يوم

- ٥٥٩٨ -
الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين ، وأمر ابنه ناصر الدين بالمقام في القاهرة ، وقال لي : « تقيم معه » .

فلما خرج من داره متوجها الى لقاء ابن رزيك خامر عليه الجند وغلقوا أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والازقة : خيالتهم تقاتلنا في الطريق ، ورجالتهم يرموننا بالنشاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات ، ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى نهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهزموا ، ولحقهم عباس إلى أرض مصر فقتل منهم من قتل ، وعاد إلى داره وأمره ونهيه .

وأمر بإحراق البرقية (٢٨) لأنها مجمع دور الأجناد ، فتلطفت الأمر معه وقلت : « يامولاي إذا وقعت النار أحرقت ما تريد وما لاتريد ، وبعلت(٢٩) عن ان تطفئها » . ورددت رأيه عن ذلك .

وأخذت الامان للامير المؤتمن بن أبي رمادة ، بعد أن أمر بتلافه ، واعتذرت عنه ، فصفح عن جرمه .

- ٥٥٩٩ -

(أسامة يعود إلى دمشق)

ثم سكنت تلك الفتنة ، وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء ، وأنه لا مقام له بينهم ، وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام الى الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين ابن رزيك مترددة ، وكان بيني وبينه ، رحمه الله ، مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر ، فنفذ إلي رسولا يقول لي : « عباس ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه ، فهو بحاجته إليك في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لاتصحبه ، فأنت شريكي في كل خير أناله » . فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك ، أو توهمه لما يعلمه بيني وبين ابن رزيك من المودة .

فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الافرنج ، فإنه لما توهم من امري وأمر ابن رزيك ما توهمه ، أو بلغه ، أحضرني واستحلفني بالايمان المغلظة التي لامخرج منها أنني أخرج معه وأصحبه ، ولم يقنعه ذلك حتى نفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره ، وقال لي : « أنا احمل كلفتهم عنك في الطريق ، واحملهم مع والدة ناصر الدين » .

واهتم بأمر سفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة مجنوبة على أيدي الرجالة ، كعادتهم بمصر ، ومائتا بغل رحل ، وأربع مائة جمل تحمل اثقاله .

وكان كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الاول من السنة ، فحضرته وقد دخل عليه غلام يقال له عنبر الكبير ، وهو متولي أموره كبيرها وصغيرها ، فقال له : « يامولاي ، أي شيء مرجو من مسيرنا إلى

الشام ؟ خذ خــزائنك وأهلك وغلمــانك ومــن تبعـــك وسر بنا إلى الاسكندرية ، نحشد من هناك ونجمع ، ونرجع إلى ابن رزيك ومــن معه ، فإن نصرنا عدت إلى دارك وإلى ملكك ، وإن عجــزنا عنه عدنا إلى الاسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ، ويمتنع على عدونا » ، فنهــره وخطأ رأيه ، وكان الصواب معه .

ثم أصبح يوم الجمعة استدعاني من بكرة ، فلمــا حضرت عنده قلت : « يامولاي ، إذا كنت عندك من الفجر إلى الليل فمتــى أعمــل شغل سفري ؟» قال : «عندنا رسل من دمشــق ، تسـيرهم وتمضي تعمل شغلك » .

وكان قبل ذلك أحضر قوما مــن الأمــراء واســتحلفهم أنهـــم لايخونونه ولا يخامرون عليه ، واحضر جماعة من مقدمي العرب من درماء ، وزريق ، وجذام ، وسنبس ، وطلحة ، وجعفــر ، ولواتــه ، واستحلفهم بالمصحف والطلاق ، على مثــل ذلك ، فمــا راعنا ، وأنا عنده بكرة الجمعة ، إلا والناس قد لبسوا الســلاح ، وزحفــوا إلينا ورؤوسهم الامراء الذين استحلفهم بــالأمس ، فــأمر بشــد دوابــه فشدت وأوقفت على باب داره ، فكانت بيننا وبين المصريين كالسـد لايصلون الينا لازدحام الدواب دوننا .

فخرج إليهم غلامه عنبر الكبير الذي كان اشار عليه بذلك الرأي ، وهو زمامهم ، صاح عليهــم وشــتمهم ، وقــال : « روحـــوا إلى بيوتكم » ، فســيبوا الدواب ومضى الركابية والمكارية والجمــالون ، وبقيت الدواب مهملة . ووقع فيها النهب .

فقال لي عباس : « اخــرج أحضر الأتــراك ، وهــم عند بـــاب النصر ، والكتاب يدفقون فيهم » ، فلما جئتهم واستدعيتهم ركبــوا كلهم ، وهم في ثمانمائة فارس ، وخرجوا من باب القاهرة منهزمين من القتال ، وركب المماليك ، وهم أكثر من الاتراك ، وخرجوا أيضا من باب النصر ، ورجعت إليه عرفته ، ثم اشــتغلت بــاخراج أهلي

الذين كان حملهم إلى داره ، فاخرجتهم وأخرجت حرم عباس ، فلما خلت الطريق ونهبت تلك الدواب بأجمعها وصل المصريون الينا فاخرجونا ، ونحن في قلة ، وهم في خلق كثير .

فلما خرجنا من باب النصر وصلوا الى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فاخذوا من قاعة داري أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانا وبغلة سروجية بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسةوعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم اشفين مائتي رأس بقر للتنائين وألف شية(٢٠) وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس ، وقاتلونا من يوم الجمعة ضحى نهار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلونا النهار كله ، فإذا جن الليل ونزلنا أغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما ذقر من خيلنا وخرج إليهم اخذوه .

وانقطعت يوما عن اصحابي وتحتي حصان أبيض ، هو اردأ خيلي ، شده الركابي ولايدري ما يجري ، وما معي من السلاح غير سيفي ، فحمل علي العرب فلم أجد ما ادفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن الحصان واجذب سيفي ، أدفعهم » ، فجمعت نفسي لاثب ، فتتمتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه ، فوقف علي منهم قوم ، وانا جالس مكشوف الرأس ، غائب الذهن ، وسيفي مرمي بجهازه ، فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » وأنا لا أدري ما يقول ، ثم اخذوا حصاني وسيفي .

ورآني الاتراك فعادوا إلي ، ونفذ لي ناصر الدين ابن عباس

حصانا وسيفا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا اردت ماء ترجلت شربت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز داري على كرسي وعرضوا علي ستة عشر حمل روايا ، وما شاء الله سبحانه من القرب والسطائح .

وعجزت عن حمل أهلي ، فرددتهم من بلبيس إلى عند الملك الصالح أبي الغارات طلائع بن رزيك ، رحمه الله ، فأحسن إليهم وانزلهم في دار ، وأجرى لهم ما يحتاجونه ، ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا(٣١) إذا عدنا .

وسرنا إلى يوم الاحد ثالث وعشرين ربيع الاول ، فصبحنا الافرنج في جمعهم على المويلح(٣٢) فقتلوا عباسا وابنه حسام الملك واسروا ابنه ناصر الدين ، وأخذوا خزانته وحرمه ، وقتلوا من ظفروا به . واخذوا أخي نجم الدين ابا عبد الله محمدا ، رحمه الله ، أسيرا . وعادوا عنا ، ونحن قد تحصنا عنهم في الجبال .

فسرنا في أشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد ، لعنهم الله ، في وادي موسى .

وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة إلى أرض فسيحة ، ورجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرد قتلوه .

وتلك الناحية لاتخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين ، فسألت : « من ها هنا من الامراء بني ربيعة ؟» قالوا : « منصور ابن دغفل» ، وهو صديقي ، فدفعت لواحد دينارين وقلت : « امض إلى منصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه بكرة » ، وبتنا في مبيت سوء من خوفهم. فلما اضاء الصبح أخذوا

عدتهم ووقفوا على العين وقالوا: « ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش » وتلك العين تكفي ربيعة ومضر ، وكم في أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن ينشوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه ومنصور بن دغفل وصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا . وقال : « اركب » . فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر ، فنزلنا إلى الوطا سالمين ، وما كدنا نسلم ، فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه ، وعاد .

وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الافرنج وبني فهيد ، يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل ، وحسن دفاعه .

ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة أن الظافر كان أرسل إلى ابن عباس رهوارا (٣٣) صغيرا مليحا افرنجيا ، وكنت قد خرجت إلى قرية لي ، وابني أبو الفوارس مرهف عند ابن عباس ، فقال : « كنا نريد لهذا الرهوار سرجا مليحا من السروج الغزية » ، فقال له ابني : « قد وجدته ، يامولاي ، وهو فوق الغرض » . قال : « أين هو ؟ » قال : « في دار خادمك والدي ، له سرج غزي مليح » ، قال : « أنفذ احضره » ، فأرسل رسولا إلى داري أخذ السرج ، فأعجبه ، وشد به على الرهوار ، وكان السرج طلع معي من الشام على بعض الجنائب وهو مذبت مجرى بسواد في غاية الحسن وزنه مائة مثقال وثلاثون مثقالا .

ووصلت أنا من الاقطاع ، فقال لي ناصر الدين : « ادللنا عليك وأخذنا هذا السرج من دارك » ، فقلت : « يامولاي ، ما أسعدني بخدمتك !» فلما خرج علينا الافرنج بالمويلح كان معي من مماليكي خمسة رجال على الجمال أخذت العرب خيلهم ، فلما وقع الافرنج بقيت الخيل سائبة ، فنزل الغلمان عن الجمال واعترضوا الخيل

وأخذوا منها ماركبوه ، فكان على بعض الخيل التي أخذوها ذلك السرج الذهب الذي أخذه ابن عباس .

وكان حسام الملك ابن عم عباس ، واخو عباس ابن العادل قد سلما فيمن سلم منا ، وقد سمع حسام الملك خبر السرج فقال وأنا أسمع : « كل ما كان لهذا المسكين ـ يعني ابن عباس ـ نهب ، فمنه ما نهبه الافرنج ، ومنه ما نهبه أصحابه » ، قلت : « لعلك تعني السرج الذهب » ؟ قال : « نعم» .

فامرت باحضاره وقلت : « اقرأ ما عليه ، اسم عباس عليه واسم ابنه أو اسمي ؟ ، ومن كان في مصر يقدر يركب بسرج ذهب في أيام الحافظ غيري ؟ » ، وكان اسمي مكتوبا على دائر السرج بالسواد ، ووسطه منبت ، فلما قرأ ما عليه اعتذر وسكت .

ولولا نفاذ المشيئة في عباس وابنه وعواقب البغي وكفر النعمة كان اتعظ بما جرى قبله للافضل رضوان بن الولخشي ، رحمه الله ، كان وزيرا فقام الجند عليه بأمر الحافظ كما قاموا على عباس ، فخرج من مصر يريد الشام ، ونهبت داره وحرمه ، حتى أن رجلا يعرف بالقائد مقبل ، رأى مع السودان جارية فاشتراها منهم وبعثها إلى داره ، وكانت له أمراة صالحة ، فاطلعت الجارية إلى حجرة في علو الدار فسمعتها تقول : « لعل الله يظفرنا بمن بغى علينا وكفر نعمتنا » ، فسألتها : « من أنت ؟» فقالت : « أنا قطر الندى بنت رضوان » ، فنفذت المرأة إلى زوجها القائد مقبل أحضرته وهو على باب القصر في خدمته ، فعرفته حال البنت ، فكتب إلى الحافظ مطالعة ، فعرفه بذلك ، فنفذ من خدام القصر من أخذها من دار مقبل ورفعها إلى القصر .

ثم إن رضوان وصل إلى صلخد ، وفيها أمين الدولة كمشتكين الاتابكي(٣٤) ، رحمه الله ، فاكرمه وانزله وخدمه ، وملك الأمراء اتابك زنكي بن آقسنقر ، رحمه الله ، على بعلبك يحاصرها ،

فراسل رضوان واستقر أنه يمضي إليه ، وكان رجلا كاملا كريما شجاعا كاتبا عارفا ، وللجند إليه ميل عظيم لكرمه ، فقال لي الأمير معين الدين ، رضي الله عنه : « هذا الرجل إن انضاف إلى أتابك دخل علينا منه ضرر كثير » ، قلت : « فأي شيء ترى ؟» قال : « تسير إليه لعلك ترد رأيه عن قصد أتابك ، ويكون وصوله إلى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك » ، فسرت إليه الى صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحد وتحدثت معهما ، فقال لي الأفضل رضوان : « فرط الأمر مني ورهنت قولي عند هذا السلطان بوصولي إليه ، ولزمني الوفاء بقولي » ، قلت : « أقدمك الله على خير ! وأنا أعود إلى صاحبي ، فإنه ما يستغني عني ، بعد أن أخرج إليك بما في نفسي » ، قال : « قل » ، قلت : « إذا وصلت إلى أتابك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك إلى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟ » قال : « لا » . قلت : « فإذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك الى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوي عسكره ؟» قال : « لا » . قلت : « ذلك الوقت يقول لك : نسير إلى حلب نجدد آلة سفرنا » ، فإذا وصلتم إلى حلب قال : نمضي إلى الفرات نجمع التركمان ، فإذا نزلتم على الفرات قال : « إن لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التركمان » ، فإذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرق وقال : « هذا عزيز مصر في خدمتي » ، وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر عليها ، وتذكر حينئذ كلامي ، وتقول « نصحني ما قبلت » ، فأطرق مفكرا لايدري ما يقول ، ثم التفت إلي وقال : « ماذا أعمل ، وأنت تريد ترجع » ؟ قلت : «إن كان في مقامي مصلحة أقمت » ؟ قال : « نعم » ، فاقمت .

وتكرر الحديث بيني وبينه حتى استقر وصوله إلى دمشق ، وأن يكون له ثلاثون ألف دينار نصفها نقد ونصفها إقطاع ، ويكون له دار العقيقي(٣٥) ويخرج لأصحابه ديوان ، وكتب لي خطه بذلك ، وكان كاتبا حسنا ، وقال : « إن شئت سرت معك » ؟ قلت : « لا ، أنا

اسير ومعي الحمام من هاهنا ، فإذا وصلت واخليت الدار ورتبت الامر ، طيرت إليك الحمام وسرت أنا في الوقت الفاك في نصف الطريق ، وأدخل بين يديك » ، فتقرر ذلك وودعته وسرت .

وكان أمين الدولة يشتهي مصيره الى مصر لما قد وعده به واطمعه فيه ، فجمع له من قدر عليه وسيره بعد مفارقتي له ، فلما دخل حدود مصر غدر به الذين كانوا معه من الأتراك ونهبوا ثقله (٣٦)، والتجأ هو إلى حي من أحياء العرب ، وراسل الحافظ وطلب منه الأمان ، وعاد إلى مصر ، فساعة وصوله إلى مصر أمر به الحافظ فحبس هو وولده .

واتفق طلوعي إلى مصر وهو في الحبس في دار في جانب القصر ، فنقب بمسمار حديد أربعة عشر ذراعا وخرج ليلة الخميس ، وله من الامراء نسيب قد عرف أمره فهو عند القصر ينتظره ومصطنع له من اواته ، ومشوا الى النيل عدوا إلى الجيزة ، واختبطت القاهرة لهروبه ، واصبح في منظرة في الجيزة والناس يجتمعون إليه ، وعسكر مصر قد تأهب لقتاله ، ثم أصبح بكرة الجمعة عدى إلى القاهرة والعسكر المصري مع قيماز صاحب الباب مدر عين للقاء ، فلما وصلهم هزمهم ودخل القاهرة .

وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر ، قبل دخوله البلد ، فوجدت أبواب القصر مغلقة وما عندها أحد ، فرجعت نزلت في داري ، ونزل رضوان في الجامع الاقمر ، واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة ، وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا ، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا . فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح ، فرآه رجل من صبيان الخاص واقفا على باب الجامع فقال : « يامولاي ، ما تركب حصاني ؟» قال : « بلى » ، فجاء إليه يركض وسيفه في يده ، فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف ، فوقع ،

ووصله السودان قتلوه ، وتقاسم أهـل مصر لحمـه يأكلونه ليكونوا شجعانا ، فقد كان فيه معتبر ، وواعظ لولا نفاذ المشيئة .

وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشاميين جـراح كثيرة ، فجاءني أخوه وقال : « أخي تالف ، قـد وقـع فيه كذا وكذا جـرح سيوف وغيرها ، وهو مغمور مايفيق » . قلت : « ارجع أفصده » ، قال : « قد خرج منه عشرون رطل دم » ، قلت : « أرجـع أفصـده فانا اخبر منك بالجراح ، وليس له دواء غير الفصاد » ، فمضى غاب عني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر ، قال : « أنا فصدته ، وهو أفاق وجلس وأكل وشرب وذهـب عنه البـؤس » ، قلت : « الحمـد لله ! ولولا اني جربت هذا في نفسي عدة مرار ما وصفته لك » .

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين ، رحمـه الله ، وكاتـب الملك الصالح في تسـيير أهلي وأولادي الذين تخلفـوا بمصر ، وكان محسنا إليهم ، فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الافرنج ، وكتب إلي يقول : « ترجع إلى مصر وأنت تعـرف مـا بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتـابا بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بمـا تتقـوى بـه على محـاربة الحبشة ، فأسوان ثغر مـن ثغـور المسـلمين ، وأسـير إليك أهلك وأولادك » .

ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقـال : « يا فـلان ، مـا صدقت متى تخلص من مصر وفتنها ، تعود إليها ! العمر أقصر مـن ذلك . أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان مـن ملك الافـرنج وأسـير مـن يحضرهم » . فأنفذ رحمه الله ، أخذ أمـان الملك وصـليبه في البـر والبحر .

وسيرت الأمان مع غلام لي ، وكتاب الملك العـادل وكتـابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم في عشاري من الخاص إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، واقلعوا مـن

دمياط في بطسه من بطس الافرنج ، فلما دنوا من عكا والملك ، لارحمه الله ، نفذ قوما في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه .

فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه وقال له : « يامولاي الملك ، ما هذا أمانك ؟» قال : « بلى ، ولكن هذا رسم المسلمين ، اذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد » . قال : « فتسبينا ؟» قال : « لا » ، وأنزلهم ، لعنة الله ، في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم ، وقد كان في المركب حلي أودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين الف دينار ، فاخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائة دينار وقال « توصلوا بهذه إلى بلادكم » ـ وكانوا رجالا ونساء في خمسين نسمة .

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود(٣٧) رعبان وكيسون ، فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي ، وأحزننا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب ، فإنها كانت أربعة آلاف(٣٨) مجلد من الكتب الفاخرة . فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته ، وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفت بهلاك المال .

حروب مع الكفار والمسلمين

وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب مع الكفار والمسلمين مالا أحصيها ، وسأورد من عجائب ما شاهدته ومارسته في الحروب ما يحضرني ذكره ، وما النسيان بمستنكر لمن

طال عليه ممر الاعوام ، وهو وراثة بني آدم من أبيهم عليه الصلاة والسلام .

فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار ، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود بن قراجا ، صاحب حماة ذلك الوقت ، وكانت الحرب بيننا وبينه ما تغب ، والمواكب واقفة والطراد بين المتسرعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير ، وهو يبكي ، فقلت له : « ما لك ياأبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟» قال « طعنني سر هنك ابن أبي منصور » ، قلت : « وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون ؟» قال : « ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك ! ؟ والله إن الموت أسهل علي من أن يطعنني ، لكنه استغفلني واغتالني » ، فجعلت أسكنه وأهون الامر عليه ، فرد رأس فرسه راجعا فقلت : « إلى أين ياأبا محمود ؟ » قال : « إلى سرهنك ، والله لأطعننه أو لأموتن دونه » .

فغاب ساعة واشتغلت أنا بمن مقابلي ، ثم عاد وهو يضحك فقلت : « ما عملت ؟» فقال : « طعنته والله ، ولو لم أطعنه لفاظت روحي » . فحمل عليه في جمع أصحابه فطعنه وعاد(٣٩) ، فكأن هذا الشعر عنى سرهنك وجمعة بقوله :

لله درك ما تظن بثائـــــر
حران ليس عن التراث براقد
أيقظته ورقدت عنه ولم ينم
حنقا عليك وكيف نوم الجاهد
إن تمكن الايام منك وعلهـــا
يوما يكل لك بالصواع الزائد

وقد كان سرهنك هذا من الفرسان المذكورين مقدما في الاكراد ،

الا انه كان شابا وجمعة رجل كهل له ميزة بالسن والتقدمية في الشجاعة .

وذكرت بفعلة سرهنك ما فعله مالك بن الحارث الأشتر ، رحمه الله ، بأبي مسيكة الايادي .

وذلك أنه لما أرتدت العرب في أيام أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، وعزم الله سبحانه له على قتالهم ، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين ، فكان أبو مسيكة الا يادي مع بني حنيفة وكانوا اشد العرب شوكة ، وكان مالك بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فبرز له ، فقال : « ويحك ! ياأبا مسيكة ، بعد الاسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر ؟» فقال : « إياك عني يامالك ! إنهم يحرمون الخمر ، ولاصبر عنها » ، قال : « فهل لك في المبارزة ؟» قال : « نعم » . فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف .

فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمي الاشتر .

فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله ، واجتمع له قوم من أهله واصدقائه يبكون ، فقال لأحدهم : « ادخل يدك في فمي » ، فادخل أصبعه في فمه ، فعضها مالك ، فالتوى الرجل من الوجع ، فقال مالك : « لا بأس على صاحبكم ، يقال : إذا سلمت الاضراس سلم الرأس ، احشوها — يعني الضربة — سويقا وشدوها بعمامة » . فلما حشوها وشدوها قال : « هاتوا فرسي » ، قالوا : « إلى أين ؟» قال : « إلى أبي مسيكة » .

فبرز بين الصفين وصاح : « ياأبا مسيكة !» فخرج إليه مثل السهم ، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله ، ورجع مالك إلى رحله فبقي أربعين يوما لايستطيع الحراك ، ثم أبل وعوفي من جرحه ذلك(٤٠)

ومن ذلك ما شاهدته من سلامة المطعون ، وقد ظن أنه قد هلك ، أننا التقينا بوادر خيل شهاب الدين محمود بن قراجا وقد جاء إلى أرضنا وكمن لنا كمينا ، فلما تواقفنا نحن وهو انتشرت خيلنا ، فجاءني فارس من جندنا يقال له علي بن سلام نميري ، وقال : « أصحابنا قد انتشروا ، إن حملوا عليهم أهلكوهم » ، قلت : « أحبس عني أخوتي وبني عمي حتى أردهم » ، فقال : « ياأمراء ، دعوا هذا يرد الناس ولاتتبعوه ، وإلا حملوا عليهم قلعوهم » ، قالوا : « يمضي » ، فخرجت أناقل (٤١) حصاني حتى رددتهم ، وكانوا ممسكين عنهم ليستجروهم ويتمكنوا منهم .

فلما رأوني قد رددتهم حملوا علينا ، وخرج كمينهم وأنا على فسحة من أصحابي ، فرجعت مباريهم أريد أحمي أعقاب أصحابي ، فوجدت ابن عمي ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، قد حدب(٤٢) من وراء أصحابي من قبلي الطريق وأنا في شماليه ، فجئناهم ، فتسرع فارس من خيلهم يقال له فارس بن زمام ، رجل عربي فارس مشهور ، وجازنا يريد الطعن في أصحابنا ، فسبقني إليه ابن عمي ، فطعنه ، فوقع هو وحصانه وفقع الرمح فقعة سمعتها أنا وأولئك .

وكان الوالد ، رحمه الله ، أرسل رسولا إلى شهاب الدين ، فأخذه معه لما جاء لقتالنا ، فلما طعن فارس بن زمام ولم يبلغ منا ما أراد نفذ الرسول من مكانه بجواب ما سأل فيه ، ورجع إلى حماة ، فسألت الرسول : « هل مات فارس بن زمام ؟» قال : « لا ، والله ، ولافيه جرح » . قال : « ليث الدولة طعنه ، وأنا أراه ، فرماه ورمى حصانه ، وسمعت قعقعة كسر الرمح ، لما غشيه ليث الدولة من يساره مال على جانبه الأيمن وفي يده قنطارية(٤٣) . فوقع حصانه على قنطاريته وهي على وهدة ، فانكسرت ، وتذنب ليث الدولة برمحه ، فوقع من يده ، والذي سمعت قعقعة قنطارية فارس بن زمام ، ورمح ليث الدولة أحضروه بين يدي شهاب الدين ، وأنا حاضر ، وهو صحيح ما فيه كسر ، ولا في فارس جرح » . فعجبت

من سلامته ، وكانت تلك الطعنة طعنة فيصل كما قال عنترة :

الخيل تعلم والفوارس انني
فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ورجع جمعهم وكمينهم ما نالوا منه ماأرادوه :
والبيت المقدم من أبيات لعنترة بن شداد يقول فيها :

إني أمرؤ من خير عبس منصبا
شطري وأحمي سائري بالمنصـــل
واذا الكتيبة أحجمت فتلاحظـت
ألفيت خيرا من معم مخـــــول
إن المنية لو تمثل مثلـــــت
مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس انني
فرقت جمعهم بطعنة فيصـــــــل
ودعوا نزال فكنت أول نــازل
وعلام أركبه إذا لم انزل(٤٤)

ومثل ذلك ما جرى لي على افامية . فإن نجم الدين بن إيلغــازي ابن أرتــق ، رحمــه الله ، كسر الأفــرنج على البــلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثــلاث عشرة وخمســمائة(٤٥) وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه ، فســار إليه عمي عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمــه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله ، في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفامية بمن معي بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفــامية ، وكان قد هدف من العرب الينا خلق كثير .

فلما سار عمي نادى المنادي بعد يويمات من مســيره ، وسرت في نفر قليل ، ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن على يقين أن أفامية مــا

فيها خيالة ، ومعي خلق عظيم من النهابة والبادية ، فلما صرنا على وادي أبو الميمون ، والنهابة والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الأفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا .

فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع ينتهبونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان علي الموت لهلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتا .

ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا ، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالا قبل ذلك اليوم ، وتحتي فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم اجتن عنهم .

وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب أنا خائف منه لايكون جاذبا لي ليعود علي ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه ، فعلمت أنه قد أعيا ، فحملت عليه طعنته فنفذ الرمح من قدامه نحوا من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وأنا اظن أني قتلته . فجمعت أصحابي وهم سالمون .

وكان معي مملوك صغير يجر فرسا لي دهماء مجذوبة ، وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابي وقد مسكوا البغلة ، سألت عن الغلام فقالوا : « راح » ، فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد ، رحمه الله ، فدعوت رجلا من الجند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدي بما جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقـال : « أي شيء لقيتم ؟ » قال : « يامولاي ، خرج علينا الافرنج في الف ، وما أظـن أحدا يسلم إلا مولاي » ، قال : « كيف يسلم مـولاك دون الناس ؟» قال : « رأيته قد لبس وركب الخضراء ، وفيمـا هـو يحـدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ، ووصلت بعده ، فـاستخبرني ، رحمه الله ، فقلت : « يامولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الأفرنج قد وصلوا إلى الناس هان علي الموت ، فرجعت إلى الافرنج لأقتل أو أحمي ذلك العالم » ، فقال رحمه الله : متمثلا :

يفر جبان القوم عن أم رأسه

ويحمي شجاع القوم من لايلازمه

ووصل عمي ، رحمه الله ، من عند نجم الدين إيلغازي ، رحمـه الله بعد أيام ، فأتاني رسوله يستدعيني في وقت ما جرت عادته فيه ،

فجئته فاذا عنده رجل من الافرنج ، فقال:« هذا الفارس قد جاء مـن افـامية يريد أن يبصر الفـارس الذي طعـن فليب الفـارس ، فإن الافرنج تعجبوا من تلك الطعنة وانها خـرقت الزردية مـن طـاقتين وسلم الفـارس » ، قلت : « كيف سـلم ؟» قـال ذلك الفـارس الافرنجي : « جـاءت الطعنة في جلدة خـاصرته » ، قلت : « نعـم الاجل حصن حصين » ، وما ظننته يسـلم مـن تلك الطعنة ، قلت : يجب على من وصل إلى الطعن أن يشد يده وذراعه على الرمـح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة ، فإنه متـى حـرك يده بالرمح أو مدها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية .

وشاهدت فارسا من رجالنا يقـال له عدي بـن تليل القشـيري ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والافرنج وهو معرى مـا عليه غير ثوبين ، فطعنه فارس من الافـرنج في صـدره فقـطع هـنه العصفورة التي في الصدر وخرج الرمح من جانبه ، فرجع في صـدره وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرأ جرحه ،

لكنه لبث سنة اذا نام على ظهره لايقدر يجلس إن لم يجلسه انسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت ، وهو حي لايموت بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير (٤٦) .

كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه ابرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله لقد كان يئن في المدينة فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهارة صوته ، يموت من إبرة ، وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية تخرج من جنبه لايصيبه شيء .

نزل علينا صاحب أنطاكية ، لعنه الله ، بفارسه وراجله وخيامه في بعض السنين ، فركبنا ولقيناهم نظن أنهم يقاتلونا ، فجاؤوا نزلوا منزلا كانوا ينزلونه ، وهجعوا في خيامهم ، فرجعنا نحن إلى آخر النهار ، ثم ركبنا ، ونحن نظن أنهم يقاتلونا ، فما ركبوا من خيامهم .

وكان لابن عمي ليث الدولة يحيى غلة قد نجزت وهي بالقرب من الافرنج ، فجمع دواب يريد يمضي إلى الغلة يحملها ، فسرنا معه في عشرين فارسا معدين ، وقفنا بينه وبين الفرنج ، إلى أن حمل الغلة ومضى ، فعدلت أنا ورجل من مولدينا يقال له حسام الدولة مسافر ، رحمه الله ، إلى كرم رأينا فيه شخوصا ، وهم على شط النهر ، فلما وصلنا الشخوص التي رأيناها ، والشمس على مغيبها ، فاذا شيخ عليه معرقة امرأة ومعه آخر ، فقال له حسام الدولة وكان ، رحمه الله ، رجلا جيدا كثير المزاح : « ياشيخ ، اي شيء تعمل هاهنا ؟» قال : « انتظر الظلام واسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار » ، قال : « ياشيخ ، بأسنانك تقطع عن خيلهم ؟» قال :

« لا ، بهذه السكين » . وجذب سكينا من وسطه مشدودة بخيط مثل شعلة النار ، وهو بغير سراويل ، فتركناه وانصرفنا .

وأصبحت من بكرة ركبت انتظر ما يكون من الافرنج ، وإذا الشيخ جالس في طريقي على حجر والدم على ساقه وقد جمد ، قلت : « يهنئك السلامة ، أي شيء عملت ؟ » قال : « أخذت منهم حصانا وترسا ورمحا ، ولحقني راجل ، وأنا خارج من عسكرهم ، طعنني نفذ القنطارية في فخذي ، وسبقت بالحصان والترس والرمح » — وهو مستقل بالطعنة التي فيه كأنها في سواه ، وهذا الرجل يقال له الزمر كل من شياطين اللصوص حدثني عنه الامير معين الدين ، رحمه الله ، قال : «أغرت زمان مقامي بحمص على شيزر ، وعدت آخر النهار نزلت علي ضيعة من بلد حماه ، وأنا عدو لصاحب حماه ، قال : فجاءني قوم معهم شيخ قد أنكروه فقبضوه وجاؤوني به ، فقلت : يا شيخ ايش انت ؟ قال : « يامولاي ، أنا رجل صعلوك شيخ زمن ، وأخرج يده وهي زمنة ، قد أخذ لي العسكر عنزين جئت خلفهم لعل ان يتصدقوا علي بهما ، فقلت لقوم من الجندارية : « احفظوه إلى غد ، فاجلسوه بينهم وجلسوا على أكمام فروة عليه . فاستغفلهم في الليل وخرج من الفروة وتركها تحتهم وطار ، فعدوا في اثره ، سبقهم ومضى ، قال : وكنت قد نفذت بعض أصحابي في شغل فلما عادوا وفيهم جندار يقال له شومان قد كان يسكن بشيزر ، فحدثته حديث الشيخ ، قال :« واحسرتي عليه ! لو كنت لحقته كنت شربت دمه ، هذا الزمر كل » ، قلت : « فأي شيء بينك وبينه ؟» قال : نزل عسكر الفرنج على شيزر فخرجت أدور به لعل أسرق حصانا منهم ، فلما اظلم الظلام مشيت الى طوالة خيل بين يدي وإذا هذا جالس بين يدي ، فقال لي :إلى أين ؟ قلت : آخذ حصانا من هذه الطوالة ، قال : وأنا من العشاء انظرها حتى تأخذ أنت الحصان ! قلت : لاتهذ ، قال : لا تغتر ، والله ، ماأدعك تأخذ شيئا ، فما التفت إلى قوله ويممت إلى الطوالة ، فقام وصاح بأعلى صوته : وافقري ، واخيبة تعبي وسهري ، وصيح حتى خرج علي الافرنج ، فاما هو فطار ،

فطردوني حتى رميت نفسي في النهر ، وما ظننت أني اسـلم منهـم . ولو لحقته كنت شربت دمه ، وهو لص عظيم ، وما تبع العسـكر الا يسرق منه » .

فكان هذا الرجل يقول من يراه « ما في هذا يسرق رغيف خبـز من بيته » .

ومن عجيب ما اتفق في السرقة ان رجلا كان بخدمتي يقال له علي ابن الدودويه من اهل بتكين ، نزل يوما الافرنج ، لعنهـم الله ، على كفرطاب(٤٧) وهي إذ ذاك لصلاح الدين محمد بـن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، فخرج هذا علي بن الدودوية دار بهم وأخذ حصانا ركبه وخرج به من العسكر يركض ، وهو يسمع الحس خلفـه ويعتقـد أن بعضهم قد ركب في طلبه ، وهو مجد في الركض والحس خلفـه حتـى ركض قدر فرسخين والحس معه . فالتفت يبصر ما خلفه في الظلام ، واذا بغلة كانت تألف الحصان قد قطعت مقـودها وتبعتـه . فـوقف حتى شد فوطته في رأسها وأخذها وأصبح عندي في حماة بـالحصان والبغلة ، وكان الحصان من أجود الخيل وأحسنها وأسبقها .

كنت يوما عند أتابك وهو يحاصر رفنية(٤٨) وقد استدعاني فقال لي : « يافلان ، أي شيء من حصانك الذي خبيته ؟» وكان قد بلغـه خبر الحصان ، قلت « لا ، والله يامولاي ، ما لي حصان مخبـى ، حصني كلها في العسكر » ، قال : فـالحصان الافـرنجي ؟ » قلت : « حاضر » ، قال : « أنفـذ احضره » ، فـانفذت أحضرتـه وقلت الغلام : « امض به الى الاصطبل » ، قال أتابك : « اتركه السـاعة عندك » ، ثم اصـبح سـبق ، فسـبق ، ورده الى اصـطبلي . وعاد استدعاه من البلد وسبق به فسبق ، فحملته الى اصطبله .

وشاهدت في الحرب عند انتهاء المدة ، كان عندنا رجل مـن الجند يقال له رافع الكلابي ، وهو فـارس مشـهور ، اقتتلنا نحـن وبنو قراجا وقد جمعوا لنا من التركمان وغيرهم ، وحشدوا وبـاسطناهم

على فسحة من البلد ، ثم تـكاثروا علينا فـرجعنا وبعضـنا يحمـي بعضا ، وهذا رافع في من يحمي الأعقاب ، وهـو لابس كزاغند(٤٩) وعلى رأسه خوذة بلا لثام ، فالتفت لعله يرى فيهم فرصة فينحـرف عليهم ، فضربه سهم كسماء(٥٠) في حلقه ذبحه ، ووقع مكانه ميتا .

وكذلك شاهدت شهاب الدين محمود بن قراجا ، وقد انصلح مـا بيننا وبينه ، وقد نفذ إلى عمي يقول له : « تأمر أسامة يلقاني هـو وفارس واحـد إلى كفـراع (٥١) لنمضي نبصر مـوضعا نكمـن فيه لافامية ونقاتلها » ، فأمرني عمي بذلك : فـركبت ولقيتـه وأبصرنا المواضع .

ثم اجتمع عسكرنا وعسكره ، وأنا على عسـكر شـيزر وهـو في عسكره ، وسرنا إلى أفامية ، فلقينا فارسهم وراجلهـم في الخـراب الذي لها ، وهو مكان لاتتصرف فيه الخيل من الحجـارة والاعمـدة واصول الحيطان الخراب ، فعجزنا عن قلعهم من ذلك المكان ، فقال لي رجل من جندنا : « تريد تـكسرهم ؟» قلت : « نعـم » ، قـال : « اقصد بنا باب الحصـن » ، فـأراد ان يردني عن ذلك ، فـأبيت وقصدت الباب .

فساعة مارآنا الفرنج قاصدين الباب عاد إلينا فارسهم وراجلهم فداسونا وجازوا ، وترجل الفرسان داخل بـاب الحصـن واطلعـوا خيلهم الى الحصـن وصـفوا عوالي قنطـارياتهم في البـاب ، وأنا وصاحب لي من مولدي أبي ، رحمه الله ، اسمه رافع بن سـوتكين وقوف تحت السور مقـابل البـاب وعلينا شيء كثير مـن الحجـارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف في مـوكب بعيد منهـم على جـوبة الاكراد(٥٢)، فقد طعن صاحب لنا يقال له حـارثة النميري نسـيب جمعة في صدر فرسه طعنة معترضة ، ونزلت القنطـارية في الفـرس فتخبطت حتى وقعت القنطارية منها ووقعت جلدة صدرها جميعها ، فبقيت مسبلة على أعضادها .

وشهاب الدين بمعزل عن القتال ، فجاء سهم من الحصن فضربه في جانب عظم زنده فما دخل في جانب عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءني رسوله يقول : « لاتزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا في البلد ، فأنا قد جرحت ، وكأني أحس الجرح في قلبي ، وأنا راجع فاحفظ انت الناس » ، ومضى ورجعت أنا بالناس نزلت على برج خربة ، وكان الافرنج لهم عليه ديد بان يكشفنا إذا أردنا الغارة على أفامية .

ووصلت العصر إلى شيزر وشهاب الدين في دار والدي يريد يحل جرحه ويداويه ، وعمي قد منعه وقال : « والله ، ما تحل جرحك إلا في دارك » ، قال : « أنا في دار والدي » — يعني الوالد ، رحمه الله — قال: « إنن إذا وصلت دارك وبرأ جرحك دار والدك بحكمك » .

فركب المغرب وسار الى حماة . فاقام الغد وبعد الغد ثم اسودت يده وغاب عنه رشده ومات ، وما كان به إلا فراغ الأجل .(٥٣)

وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الافرنج ، خذلهم الله ، فارسا من أجنادنا يقال له تايه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة اضلاع من جانبه اليسار ، وثلاثة أضلاع من جانبه الايمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل ، ومات لساعته .

وطعن رجل من أجنادنا كردي يقال له مياح فارسا من الافرنج أدخل قطعة من الزرد في جوفه وقتله ، ثم إن الافرنج غاروا علينا بعد أيام ومياح قد تزوج وخرج ، وهو لابس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس ، قد تشهر به ، فطعنه فارس من الافرنج فقتله ، رحمه الله . « ياقرب مأتمه من العرس ! »

فذكرت به الخبر عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقد أنشد قول قيس بن الخطيم :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب(٥٤)

فقال النبي صلى الله عليه للحاضرين من الانصار ، رضي الله عنهم :« هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ »(٥٥) فقال رجل منهم : « أنا حضرته ، يارسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء ، فوالذي بعثك بالحق لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه »

ومن عجائب الطعن ان رجلا من الاكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي ، رحمه الله ، إلى أصبهان إلى دركاه السلطان ملكشاه فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد ، فقال له عمي عز الدين ، رحمه الله : « ياحمدات ، قد كبرت وضعفت ، ولك علينا حق وخدمة ، فلو لزمت مسجدك ــ وكان له مسجد على باب داره ــ وأثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك انت كل شهر ديناران وحمل دقيق وانت في مسجدك » ، قال : « أفعل ياامير » ، فأجري له ذلك مديدة.

ثم جاء إلى عمي وقال : « ياأمير ، والله ، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت ، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي » قال : « الأمر لك » ، وأمر برد ديوانه عليه كما كان .

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى غار علينا السرداني (٥٦) صاحب طرابلس ، ففزع الناس إليهم ، وحمدات في جملة الروع ، فوقف على رفعة من الارض مستقبل القبلة ، فحمل عليه فارس من الافرنج من غربية ، فصاح إليه بعض أصحابنا : « ياحمدات !» ، فالتفت رأى الفارس قاصده ، فرد رأس فرسه شمالا ومسك رمحه بيده وسدده الى صدر الافرنجي ، فطعنه نفذ الرمح منه ، فرجع الافرنجي متعلقا برقبة حصانه في آخر رمقه ، فلما انقضى القتال قال

حمدات لعمي : « ياأمير،لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هــذه الطعنة ؟»

فاذكرني قول الفند الزماني(٥٧)

أيا طعنة ما شيــخ
كبير يفن بالـــــي
تفتيت بها إذ كـــــ
ـــره الشكة امثالي

وكان الفند قد كبر وحضر القتال فطعن فارسين مقتربين فرماهما جميعا

وقد كان جرى لنا مثل ذلك : وهو أن فلاحا من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي ، رحمهما الله ، قال :« شاهدت سرية افرنج تائهين قد جاؤوا من البرية ، لو خرجتم إليهم أخذتموهم » ، فـركب أبـي وعمامي وخرجوا بالعسكر الى السرية التـائهة واذا بـه السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي ، وهـم رمـاة الافرنج ، فلما راوا أصحابنا ركبوا خيلهم واطلقوا على اصـحابنا هزموهم ، وتموا يطردونهم ، فأحرف عليهم مملوك لوالدي يقـال له ياقوت الطويل ، وابي وعمي ، رحمهما الله ، يريانه ، فطعن فارسا منهم إلى جانبه فارس آخر ، وهمـا يتبعـان اصـحابنا ، فـــرمى الفارسين والفرسين .

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات لايزال فد فعل فعلة يجب تأديبه عليها ، فكلما هم والدي به وبتأديبه يقول عمي : « ياأخـي ، بحياتك هب لي ذنبــه ولاتنس له تلك الطعنة » ، فيصــفح عنه لكلام أخيه .

وكان حمدات الذي تقدم ذكره ظريف الحديث . حــدثني والدي ،

رحمه الله ، قال : « قلت لحمدات ونحن سائرون في طريق اصبهان سحرا ، » أمير حمدات ، اكلت اليوم شيئا ؟ ، قال : نعم ياأمير ، اكلت ثريدة .

قلت : « ركبنا في الليل وما نزلنا ولا أوقدنا نارا ، من أين لك الثريدة ؟ قال : » يا أمير عملتها في فهمي ، اخلط في فمي الخبز واشرب عليه الماء يصير كالثريدة » .

وكان الوالد ، رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه ، وحضر يوما القتال وهو لابس وعليه خونة اسلامية بأنف فزرقه رجل بحربة ـ وكان معظم قتالهم مع العرب ذلك الزمان ـ فوقعت الحربة في أنف الخونة فانطوى وأدمى أنفه ولم يؤذه ، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف الخونة كان اهلكه .

وضرب مرة أخرى بنشابة في ساقه ، وفي خفه دشني(٥٨) ، فوقع السهم في الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه ، هذا لحسن دفاع الله تعالى . وشهد ، رحمه الله ، الحرب يوم الاحد تاسع وعشرين شوال سنة سبع وتسعين واربعمائة مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الاشهبي صاحب أفامية بأرض كفرطاب ، فلبس جوشنه ، وعجل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب ، فجاءه خشت (٥٩) فضربه في ذلك الموضع الذي أخل الغلام بستره فوق بزه الايسر خرج الخشت من فوق بزه الايمن ، فكانت اسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب ، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب .

فطعن ، رحمه الله ، في ذلك اليوم فارسا واحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون ، فحدثني قال : « حسست شيئا قد لدغ زندي ، فظننته من حرارة صفائح الجوشن ، إلا أن رمحي سقط من يدي ، فرددتها فاذا قد طعنت في يدي وقد استرخت لقطع شيء من الاعصاب » ، فحضرته ، رحمه الله ، وزيد الجرائحي

يداوي جرحه ، وعلى رأسه غلام واقف ، فقال : « يازيد ، اخرج هذه الحصاة من الجرح » ، فما كلمه الجرائحي . فعاد فقال : « يازيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح !» فلما اضجره قال : « أين الحصاة ؟ هذا رأس عصب قد انقطع » ، وكان بالحقيقة أبيض كانه حصاة من حصا الفرات .

وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلم الله حتى مات على فراشه ، رحمه الله ، يوم الاثنين ثامن شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة

وكان يكتب خطا مليحا ، فما غيرت تلك الطعنة من خطه ، وكان لاينسخ سوى القرآن ، فسألته يوما فقلت : « يامولاي كم كتبت ختمه ؟» قال « الساعة تعلمون » ، فلما حضرته الوفاة قال : « في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كل مسطرة ختمة ضعوها - يعني المساطر - تحت خدي في القبر » ، فعددناها فكانت ثلاثا وأربعين مسطرة .

فكان كتب بعدتها ختمات : منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب ، وكتب فيها علوم القرآن قراءاته وغريبه وعربيته وناسخه ومنسوخه وتفسيره ، وسبب نزوله وفقهه ، بالحبر والحمرة والزرقة ، وترجمه بالتفسير الكبير ، وكتب ختمه أخرى بالذهب مجردة من التفسير ، وباقي الختمات بالحبر مذهبة الأعشار والأخماس والآيات ورؤوس السور ورؤوس الاجزاء ، وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وإنما ذكرته لاستدعي له الرحمة ممن وقف عليه .

أعود الى ما تقدم :

وفي ذلك اليوم أصاب غلاما كان لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، رحمه الله ، يقال له موفق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، واتفق ان

عمي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج الدولة تتش إلى حلب ، فلما حضر بين يديه قال لغلمانه : « مثل هـذا يكون الغلمـان وأولاد الحلال في حق مواليهم » ، وقال لشمعون : « حـدثهم حـديثك أيام والدي وما فعلته مع مولاك » ، فقال : « يامولانا ، بالامس حضرت القتال مع مولاي فحمل عليه فارس يطعنه ، فدخلت بينه وبين مولاي لافديه بنفسي فطعنني قـطع مـن اضـلاعي ضـلعين وهي ــ ونعمتك ــ عندي في قمطرة » فقال له الملك رضوان « والله ما أعطيك الجواب حتى تنفذ تحضر القمطرة والاضلاع » .

فأقام عنده وارسل من أحضر القمـطرة وفيهـا عظمـان مـن اضلاعه ، فعجب رضوان من ذلك ، وقال لأصحابه : « كذا اعملوا في خدمتي »

فاما الأمر الذي سأله عنه أيام والدة تاج الدولة فإن جدي سـديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، سـير ولده عز الدولة نصرا ، رحمه الله ، الى خـدمة تـاج الدولة ، وهـو معسكر بظاهر حلب ، فقبض عليه واعتقله ووكل به مـن يحفـظه ، وكان لايدخل إليه سـوى مملوكه هـذا شـمعون والموكلون حـول الخيمة ، فكتب عمي إلى ابيه ، رحمهما الله ، يقول : « تنفـذ لي في الليلة الفلانية ــ وعينها ــ قوما من أصـحابه ــ ذكرهـم ــ وخيلا اركبها إلى الموضع الفلاني » ، فلما كانت تلك الليلة دخـل شـمعون خلع ثيابه فلبسها مولاه وخرج على الموكلين في الليل ، فما اذكروه ، ومضى إلى أصحابه وركب وسار ، ونام شمعون في فراشه .

وجرت العادة أن يجيئه شمعون في السحر بوضوئه فكان ، رحمه الله ، من الزهاد القائمين ليلهـم يتلون كتـاب الله تعـالى ، فلمـا أصبحوا ولم يروا شمعون دخـل كعـادته دخلوا الخيمـة فـوجدوا شمعون وعز الدولة قـد راح ، فـأنهو ذلك إلى تاج الدولة ، فـأمر بإحضـاره ، فلمـا حضر بين يديه قـال : « كيف عملت ؟» قـال :

« أعطيت مولاي ثيابي لبسها وراح ، ونمت أنا في فراشه » ، قال : « وما خشيت أن أضرب رقبتك ؟ » قال : « يامولاي ، إذا ضربت رقبتي وسلم مولاي وعاد إلى بيته فانا السعيد بذلك . وماا شتراني ورباني إلا لأفديه بنفسي » .

فقال تاج الدولة ، رحمه الله ، لحاجبه : « سلم الى هذا الغلام خيل مولاه » ودوابه وخيامه وجميع بركه ، وسيره يتبع صاحبه « وما انكر عليه وما احذقه ما فعل في خدمة مولاه ، فهذا الذي قال له رضوان : « حدث اصحابي ما عمله أيام والدي مع مولاك » .

أعود إلى حديث الحرب المقدم ذكرها مع ابن ملاعب

وجرح عمي عز الدولة ، رحمه الله ، في ذلك اليوم عدة جراح ، منها : طعنة طعنها في جفن عينه السفلاني من ناحية المأق ، ونشب الرمح في المأق عند مؤخر العين فسقط الجفن جميعه وبقي معلقا بجلده من مؤخر العين ، والعين تلعب لاتستقر ، وإنما الجفون التي تمسك العين ، فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولة لاتعرف العين المطعونة من الأخرى

وكانا ، رحمهما الله ، من اشجع قومهما . ولقد شهدتهما يوما وقد خرجا الى الصيد بالبزاة نحو تل ملح(٦٠) وهناك طير ماء كثير ، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه ، فرجعنا وكان الوالد (أبل) من أثر مرض ، فاما عمي فخف بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الافرنج ، وهم يرونه ، وأما الوالد فسار والحصان يخب به ، وانا معه صبي وفي يده سفرجلة يمتص منها ، فلما دنونا من الافرنج قال لي : « امض أنت ادخل من العسكر » وعبر هو من ناحية الافرنج .

ومرة اخرى شاهدته وقد اغارت علينا خيل محمود بن قراجا ،

ونحن على فسحة من البلد وخيل محمود أقــرب إليه منا ، وأنا قــد حضرت القتال ومارست الحرب ، فلبست كزاغندي وركبت حصاني وأخذت رمحي ، وهو ، رحمه الله ، على بغلة ، فقلت : « يامــولاي ما تركب حصانك !» قــال : « بلى » وســار كمــا هــو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفي عليه ألح في ركوبه حصانه ، إلى أن وصلنا إلى البلد ، وهـــو على بغلتـــه ، فلمـــا عاد أولئك وأمنا قلت « يامولاي ، ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لاتركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع !» قال : « ياولدي ، في طالعي أنني لاأرتاع » .

وكان ، رحمه الله ، له اليد الطــولى في النجــوم مــع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القــرآن ، وكان يحــرضني على معــرفة علم النجوم فأبي وامتنع ، فيقول : « فاعرفـ أسماء النجوم ، مــا يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنا أصــبحنا وقــت صلاة الصبح رأينا سربة من الافرنج ، نحوا مــن عشرة فــوارس ، جاؤوا إلى باب المدينة قبل ما يفتح . فقالوا للبواب : « أي شيء اسم هذا البلد ؟ » والباب خشب بينهما عوارض ، وهو داخــل البــاب ، قال : « شيزر » ، فرموه بنشاب من خلل الباب ورجعــوا وخيلهــم تخب بهم ، فركبنا فكان عمي ، رحمه الله ، أول راكب وأنا معــه ، والافرنج رائحــون غير منزعجين ، ولحقنا مــن الجند نفــر ، فقلت لعمي : « عن أمرك آخذ أصــحابنا واتبعهــم أقلعهـــم وهـــم غير بعيدين » ، قال : « لا ، وكان أخبر مني بالحرب ، في الشام أفرنجي لايعرفـ شيزر ؟ هذه مكيدة » .

ودعا فارسين من الجند على فــرسين ســوابق وقــال : امضــيا اكشفا تل ملح ، وكان مكمنا للافرنج ، فلما شارفاه خــرج عليهمــا عسكر أنطاكية جميعه فاستقبلنا متسرعيهم نريد الفرصة فيهم قبـل ركود الحرب ، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود ، وجمعة فــارسنا

وشيخنا ، فوقع ابنه محمود في وسطهم فصاح جمعة : « يافرسان الخيل ولدي » ، فرجعنا معه في ستة عشر فارسا طعنا ستة عشر فارسا من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم ، واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس ابن جمعة تحت ابطه ، فخلص ببعض تلك الطعنات .

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب باقدامه ، فوالله لقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، أغرنا على أفامية ، واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة فسيروها ، وعادوا ، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلا ، ورأيت جمعة النميري ، رحمه الله ، وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البداد إلى فخذه ، ونفذ إلى خلفه ، فانكسرت القنطارية فيه ، فراعني ذلك ، فقال : « لابأس ، أنا سالم » .

ومسك سنان القنطارية وجذبها منه ، وهو وفرسه سالمان .

فقلت : « ياأبا محمود ، اشتهي اتقرب من الحصن أبصره »قال : « سر » ، فرحت أنا وهو نخب فرسينا ، فلما أشرفنا على الحصن إذا من الافرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق ، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لاينزل منه إلا من تلك الطريق ، فقال لي جمعة : «قف حتى أريك ما أصنع فيهم » ، قلت : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت » ، قال : « سر » . فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا ، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن ، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشاب ، فرمانا ، ولا سبيل لنا إليه فهزمنا ، والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة ، ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم ، وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي

هزمنا حسرة « اللي » ما كان لنا إليه سبيل ، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج

وشهدت يوما وقد أغارت علينا خيل كفرطاب في قلة ففزعنا اليهم طامعين فيهم لقلتهم ، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم ، وانهزم الذين اغاروا فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد ، فخرج إلينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم ، فرأينا أننا إن إنهزمنا قلعونا كلنا ، فالتقيناهم مستقتلين فنصر الله عليهم ، فقلعنا منهم ثمانية عشر فارسا : منهم من طعن فمات ، ومنهم من طعن فوقع وهو سالم ، ومنهم من طعن حصانه فهو راجل .

فجذب الذين في الارض منهم سالون سيوفهم ووقفوا كل من اجتاز بهم ضربوه ، فاجتاز جمعة النميري ، رحمه الله ، بواحد منهم فخطا إليه وضربه على رأسه ، وعلى رأسه قلنسوة ، فقطعها وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة ، فلقيته ونحن في ما نحن فيه من الافرنج فقلت له : « ياأبا محمود ، ما تعصب جرحك » فقال : « ما هذا وقت العصائب وشد الجراح » ، وكان لايزالَ على وجهه خرقة سوداء وهو رمد وفي عينه عروق حمر ، فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكو من عينيه ، ولم يعد يناله منهما رمد و لا ألم

فربما صحت الاجسام بالعلل(٦١)

وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا ووقفوا مقابلنا ، فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة أبو القنا خطام ، رحمه الله ، فقال : « يابن عمي ، معك جنيبتان وأنا على هذا الفرس الحطم » ، قلت للغلام : « قدم له الحصان الاحمر » ، فقدمه له ، فساعة ما استوى في سرجه حمل على الافرنج وحده فافرجوا له حتى توسطهم وطعنوه رموه ، وطعنوا الحصان واقلبوا قنطارياتهم ، وصاروا يركشونه بها ، وعليه زردية حصينة ما تعمل

رماحهم فيها ، فتصايحنا : « صاحبكم ، صاحبكم » ، وحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم ، وأما الحصان فمات في يومه ، فسبحان المسلم القادر

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه ، فسبحان القائل :(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)(٦٢)

وقد جرى لي مثل ذلك ، كنت بالجزيرة في عسكر أتابك فدعاني صديق لي الى داره ومعي ركابي اسمه غنيم قد استسقى ودقت رقبته وكبر جوفه وقد تغرب معي ، فأنا أرعى له ذلك ، فدخل بالبغلة إلى اصطبل ذلك الصديق هو وغلمان الحاضرين ، وعندنا شاب تركي سكر وغلب عليه السكر ، فخرج إلى الاصطبل جذب سكينه وهجم على الغلمان ، فانهزموا وخرجوا . وغنيم لضعفه ومرضه قد طرح السرج تحت رأسه ونام ، فما قام حتى خرج كل من في الاصطبل ، فضربه ذلك السكران بالسكين تحت سرته فشق من جوفه قدر أربع أصابع ، فوقع موضعه . فحمله الذي دعانا ، وهو صاحب قلعة باشزى (٦٣) إلى داري ، وحمل الذي جرحه وهو مكتوف معه الى داري ، فاطلقته ، وتردد إليه الجرائحي فصلح ومشى وتصرف ، إلا أن الجرح ما ختم ، ومازال يخرج منه مثل القشور وماء اصفر مدة شهرين ، ثم ختم وضمر جوفه وعاد إلى الصحة ، فكان ذلك الجرح سببا لعافيته .

ورأيت يوما البازدار قد وقف بين يدي والدي ، رحمه الله ، وقال : « يامولاي ، هذا الباز قد لحقه حص(٦٤) وهو يموت ، وعينه الواحدة قد تلفت ، فتصيد به ، فهو باز شاطر وهو تالف » ، فخرجنا إلى الصيد وكان معه ، رحمه الله ، عدة بزاة . فرمى ذلك الباز على دراجة وكان يهجم في الذبح (٦٥) .فذبحت الدراجة في اجمة حلفاء ودخل الباز معها ، وقد صار على عينه كالنقطة الكبيرة ، فضربته شوكة من الحلفاء في ذلك النقطة ففقتها » ، فجاء به البازدار ، وعينه قد سالت وهي مطبوقة ، فقال : « يامولاي ، تلفت

عين الباز » ، فقال : « كله تالف » ثم مـن الغـد فتـح عينه وهـي سالمة ، وسلم ذلك الباز عندنا حتى قرنص قرناصين فكان من أشطر البزاة .

ذكرته بما جرى لجمعة وغنيم وإن لم يكن موضع ذكر البزاة ورأيت من استسقي وفصـدوا جـوفه فمـات ، وغنيم شـق ذلك السكران جوفه سلم وعوفي ، فسبحان القادر .

واغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم ، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي لعلي أنال منهـم فرصة ، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين ، فعبر علي في مـن عبـر محمود بن جمعة ، فقلت : « قف يامحمود » ، فوقف لحظة ثم دفـع فرسه ومضى عني ، ووصلني أوائل خيلهم ، فـاندفعت بين أيديهـم وأنا راد رمحي اليهم ملتفت انظـرهم لا يتسرع إلي منهـم فـارس يطعنني ، وبين يدي جماعة من أصحابنا ، ونحن بين بسـاتين لهـا حيطان طول قعدة الرجل ، فندس(٦٦) فرسي بصدرها رجـل(رجل) من أصحابنا ، فرددت رأس فرسي على يساري ، فضربتها بالمهاميز ففزت الحائط ، فضبطت حتى صرت أنا والافرنج مصـطفين وبيننا الحائط ، فتسرع منهم فارس عليه تشهير حـرير أخضر وأصـفر ، فظننت أن ما تحته درع ، فتركته حتى تجاوزني وضربـت الفـرس بالمهاميز ، ففزت الحائط ، وطعنته ، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه ووقع ترسه والرمح من يده والخونة عن رأسه ، ونحن قد وصلنا الى رجالنا ، ثم عاد انتصب في سرجه وكان عليه زربية تحت التشهير .

فما جرحته الطعنة ، وادركه اصحابه ثم عادوا ، وأخذ الرجـالة الترس والرمح والخونة .

فلما انقضى القتال ورجع الافرنج جاءني جمعـة ، رحمـه الله ، يعتذر عن ابنهمحمود وقـال : « هـذا الكلب انهـزم عنك » ، قلت : « وأي شيء يكون ؟ » قـال : « ينهـزم عنك ولايكون شيء ؟» قلت :

« وحياتك ياأبا محمودوانت تنهزم عني أيضا » ، قال : « ياشين والله إن موتي أسهل علي من أن انهزم عنك » ، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة فأخذوها لنا باقورة وحبسوها في جزيرة(٦٧) تحت الطاحون الجلالي .

وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة . فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة ماضي ـ مولد لنا ـ وكان رجلا شجاعا ، فقلت لهما : « نعبر الماء ونأخذ الدواب » ، فعبرنا ، فأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر ، فوالله ما رمحت ولا قلقت ولا كأنها احسست بالجرح ، وأما جمعة فرجع خوفا على فرسه ، فلما عدنا قلت : « ياأبا محمود ، ما قلت لك إذك تنهزم عني وأنت تلوم ابنك محمودا؟ » قال : « والله ما خفت إلا على الفرس .فانها تعز علي » واعتذر .

وقد كنا ذلك اليوم التقينا نحن وخيل حماة وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة ، فاقتتلنا نحن وهم ، وفيهم فرسان عسكر حماة : سرهنك وغازي التلي ، ومحمود بن بلداجي وخضر الطوط واسباسلار خطلخ ، وهم أكثر عددا منا ، فحملنا عليهم ، فهزمناهم وقصدت فارسا منهم أريد أطعنه واذا هو خضر الطوط ، فقال : « الصنيعة ، يافلان ! » فعدلت عنه الى آخر فطعنته فوقع الرمح تحت ابطه ، فلو تركه ما كان وقع ، فشد عضده عليه يريد يأخذ الرمح والفرس مسندرة(٦٨) بي فطار في السرج على رقبة الحصان ، فوقع . ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالي ، فضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل ، وحمدت الله سبحانه الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة لأنه كان غازي التلي ، وكان رحمه الله ، رجلا جيدا .

ونزل علينا عسكر أنطاكية في بعض الايام منزلا كان ينزله كلما نزل علينا ، ونحن ركاب مقابلهم وبيننا النهر ، فلم يقصدنا منهم أحد ، وضربوا خيامهم ونزلوا فيها ، فرجعنا نحن نزلنا في دورنا ،

ونحن نراهم من الحصن ، فخرج من جندنا نحو من عشرين فارسا الى بندرقنين قرية بالقرب من البلد يرعون خيلهم ، وقد تركوا رماحهم في دورهم ، فخرج من الافرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم ، فصادفا رجلا ، وعلى الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته ونحن نراهم من الحصن ، وركب اولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح ، فقال عمي : « هؤلاء عشرون لايخلصون أسيرا مع فارسين ، لو حضرهم جمعة رأيتم ما يعمل » ، هو يقول ذلك وجمعة لابس يركض إليهم ، فقال عمي « أبصروا الساعة ما يعمل » .

فلما دنا من الفارسين وهو يركض كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة ، فلما رأى عمي توقفه عنهما ، وهو على روشن له في الحصن يراه ، دخل من الروشن مغضبا وقال : « هنا خذلان !» ، وكان توقف جمعة خوفا من جورة كانت بين يدي الفارسين لا يكون لهم فيها كمين ، فلما وصل تلك الجورة وما فيها أحد حمل على الفارسين خلص الرجل والبهيمة وطردهما إلى الخيام .

وكان ابن بيموند صاحب انطاكية يرى ما جرى ، فلما وصل الفارسان انفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف الدواب ، ورمى خيمتهما وطردهما وقال : « فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الافرنج ، ما أنتم رجال ، أنتم نساء » .

واما جمعة فوبخه وحرد عليه لوقوفه عنهما أول ما وصلهما ، فقال : « يامولاي ، خفت يكون لهم في جورة رابية القرافطة كمين يخرج علي ، فلما كشفتها وما رأيت فيها أحدا استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما » ، فلا والله ما قبل عذره ولا رضي عنه .

والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، فهم اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم ، وقد

حاكمتهم مرة ، على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح ، وانا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلك بن فلك : « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم ، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد ان اتلفها » ، فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكما » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة ، فتوسل إلي ولعل(٦٩) علي ، وسألني حتى اخذت منه أربع مائة دينار ، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

ولقد قال لي الملك : «يافلان ، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما » ، قلت : «والله يفرح الملك بماذا فرحت ؟» قال : «قالوا لي انك فارس عظيم ، وما كنت اعتقد أنك فارس » ، قلت : « يامولاي ، أنا فارس من جنسي وقومي » ، وإذا كان الفارس دقيقا طويلا ، كان أعجب لهم .

وكان نزل علينا دذكري وهو أول اصحاب انطاكية بعد بيمونـد ، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فنفذ حصانا لغلام لعمي عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جوادا ، فنفقه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة دقيق ، ، ليسابق بالحصان بين يدي دذكري ، فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدي دذكري فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع فخلع عليه دذكري ، فقال له حسنون : « يامولاي ، أريدك تعطيني امانك انك ان ظفرت بي في القتال ، تصطنعني وتطلقني » ، فاعطاه امانه ، على ما توهم حسنون ، فانهم لايتكلمون إلا بالافرنجي ما ندري ما يقولون .

ومضى على هذا سنة أو أكثر وانقضت مـدة الصـلح ، وجـاءنا دذكري في عسكر انطاكية ، فقاتلنا عند سـور المدينة ، وكانت خيلنا لقيت أوائلهم ، فطعن فيهم رجل يقال له كامل المشطوب من أصحابنا كردي ، وهو وحسذون نظراء في الشجاعة ، وحسـذون واقـف مـع والدي ، رحمه الله ، على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار ويأتيه كزاغنده ، فأبطأ عليه واقلقه طعن كامل المشطوب فقال لوالدي : « يامولاي ، أمر لي بلباس خفيف » ، فقال : « هـذه البغال عليها السلاح واقفة . مهما صلح لك البسـة » ، وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي ، وأنا صـبي وهـو أول يوم رأيت فيه القتـال ، فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال فما وافقته ، وهـو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب ، فتقـدم على حجـرته ، وهـو معرى ، فاعترضه فارس منهم ، فـطعن الفـرس في قـطاتها(٧٠) فعضت على فاس اللجام وحملت به حتـى رمتـه في وسـط مـوكب الافرنج ، فاخذوه أسيرا وعذبوه أنواع العـذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دذكري ، لعنه الله : « اقلعوا عينه اليمين ، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فـلا يبقـى يبصر شـيئا » ، فقلعوا عينه اليمين كما امرهم وطلبوا منه ألف دينار وحصانا أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة جوادا مـن أحسـن الخيل ، فـاشتراه بالحصان ، رحمه الله .

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجـل كثير ، فحمـل عليهـم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم ، فحـرد دذكري وقـال : « أنتـم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند – يعني رجالة – ما تدرون تقلعونهم من موضعهم!» قالوا : « انما خوفنا على الخيل ، وإلا دسناهم وطعناهم » ، قال : «الخيل لي ، مـن قتـل حصـانه اخلفتـه عليه» ، فحملوا على الناس عدة حملات ، فقتل منهم سبعون حصانا وما قـدروا يزحـزحونهم مـن مواقفهم .

وكان بـأفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا (٧١) ،

فكان ابدا يقول : « ترى ما التقى جمعــة في القتــال؟ » ، وجمعــة يقول : « ترى ما التقى بدرهـوا في القتال ؟» .

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامــه في الموضــع الذي كان ينزله ، وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقــابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت مــوكبنا ، والماء بينه وبينهم ، وصاح بهم : « فيكم جمعة ؟» قالوا : «لا » ، والله ما كان حاضرا فيهم ، وكان ذلك الفارس بدرهـوا ، فــالتفت فــرأى أربعــة فوارس منا من ناحيته : يحيي بن صافي الاعسر ، وسهل بــن أبــي غانم الكردي ، وحارثة النميري ، وفارس أخر .

فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحــدا منهــم طعنه فشــلة مــاالحقه حصانه ليمكن الطعن ، وعاد الى الخيام

ودخل اولئك النفــر الى البلد فــافتضحوا ، واســتخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :« أربعــة فــوارس يهــزمهم فـــارس واحد ، كنتم افترقتم له فــكان طعــن واحــدا منكم وكان الثـــلاثة قتلوه ، ولاقد افتضحتم » ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري

فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم ، وشجاعة مــاكانوا يطمعون فيها ، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب ، وصاروا من الفرسان المعدودين ، بعد تلك الهزيمة .

وأما بدرهـوا فانه سار بعد ذلك من أفــامية في بعض شــغله يريد انطاكية . فخرج عليه الأسد من غاب في الروج في طريقه فخــطفه عن بغلته ودخل به الى الغاب أكله ــ لارحمه الله .

ومن اقدام الرجــل الواحــد على الجمـــع الكثير : فمــن ذلك ان اسباسلار مودود رحمه الله ، نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة خمس وخمس مــائة وقــد قصــده نذكري صــاحب انطاكية في جمــع كثير، فخــرج اليه عمـــي ووالدي ، رحمهمـــا

الله ، وقالا: « الصواب ان تـرحل - وكان نازلا شرقـي البلد على النهر - وتنزل في البلد ، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة وذاقى الافرنج بعد أن نحرز خيامنا واثقالنا » فرحل ونزل كما قالا له ، واصبحا خرجا اليه ، وخرج من شـيزر خمسـة آلاف راجل معدين ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه .

وكان معه ، رحمه الله ، رجـال جياد ، فصـقوا مـن قبلي الماء والافـرنج نزول شـماليه ، فمنعـوهم مـن الشرب والورود نهـارهم ، فلمـا كان الليل رحلوا راجعين الى بـلادهم والناس حولهم ، فنزلوا على تل الترمسي (٧٢) فمنعوهم مـن الورود كمـا عملوا بـالامس ، فـرحلوا في الليل ونزلوا على تـل التلول (٧٣) والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير ، فـاحتاطوا بـالماء ومنعـوهم مـن الورود ، ورحلوا في الليل متـوجهين الى افامية ، ففزع اليهم العسكر واحتاطوا بهم وهم سائرون ، فخـرج منهم فارس واحـد فحمـل على الناس حتـى تـوسطهم ، فقتلوا حصانه ، واثخنوه بالجراح ، فقاتل وهو راجـل حتـى وصـل الى اصحابه .

ودخل الافرنج أرضهم وعاد المسلمون عنهم .

ومضى اسباسلار مودود ، رحمه الله ، الى دمشق ، فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري صاحب انطاكية مع فارس معه غلمان وأصحاب يقول :« هذا فارس محتشم من الافرنج ، وصل حج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن اسيره اليكم يبصر فرسانكم ، وقـد نفـذته فاستوصوا به » ، وكان شابا حسن الصورة حسن اللباس ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفـرقه الى حكمته (٧٤) ، فسألت عنه فقالوا : « هذا الذي حمل على عسـكر اسباسلار مودود ، وقتلوا حصـانه ، وقـاتل حتـى رجـع الى اصحابه »، فتعالى الله القادر على مايشاء كيف شاء لايؤخر الأجل الاحجام ولايقدمه الاقدام .

ومن ذلك ماحكاه لي العقاب الشاعر ، رجـل مـن اجنادنا مـن المغرب ، قال :« خرج أبي من تدمر يريد سوق دمشق ومعـه أربعـة فوارس وأربعة رجاله وهـم يسـوقون ثمـانية جمـال ليبيعوها ، قال : بينا نحن نسير اذا فـارس مقبـل مـن صـدر البرية ، فجاء يسير حتـى صـار بـالقرب منا ، فقـال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فاطلق حصانه علينا ، فطعن منا فارسا رماه عن فرسه وجرحه ، فـطردناه فسـبق ، ثـم عاد الينا وقال : خلوا عن الجمال ، فصحنا عليه وشتمناه ، فحمـل علينا ، فطعن راجلا منا اوثقه بالجرح وتبعناه فسبقنا ، ثم عاد وقد بطل منا رجلان فأطلق علينا ، فاستقبله رجل منا ، فطعنه صـاحبنا فـوقعت الطعنة في قربوس سرجه فانكسر رمح صـاحبنا ، وطعنه الفـارس فجرحه ، ثم حمل علينا فطعن رجلا منا فصرعه ، وقال : خلوا عن الجمـال ، والا افنيتـكم ، قلنا : تعـال خـذ نصفها ، قال : لا ، احبسوا منها اربعة اتـركوها وقـوفا وخـذوا أربعة وامضوا ، ففعلنا وماصدقنا نخلص بما سـلم معنا ، وسـاق هو تلك الاربعة ونحن نراه مالنا فيه حيلة ولاطمع ، وعاد بـالغنيمة وهو وحده ونحن ثمانية رجال » .

ومن ذلك ان دنكري صاحب انطاكية اغار على شيزر ، فـاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى • ونزل على قرية يقال لها زلين فيها مغـار معلقة لايوصل إليها في وسط الجبل ، ما إليها من فوق منزل ولا إليها من أسفل مطلع ، إنما ينزل إليها من يحتمي فيها بالحبال ، وذلك يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وخمس مـائة فجـاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال :« اعمـل لي صـندوقا مـن خشب ، وأنا أقعد فيه ، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل أوثقـوها في الصندوق حتى لايقـطعوها بـالسيوف ، فـأسقط » ، فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقات الى المغـار ، فـأخذها وأنزل كل من كان فيها الى دنكري ، وذلك أن المغار بهو مافيه مـكان يسـتتر الناس فيه ، وذلك يرميهم بالنشاب فلا تقـع نشـابة الا في انسـان لضيق الموضع وكثرة الناس فيه .

وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من اصل جيد من العرب ، وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان ، رحمه الله ، قبل ذلك وهي في بيت أبيه ، فأرسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها إما لرغبة بذلوها لها وأما أروها غيرها ، فخطبها عمي وتزوجها ، فلما دخلت عليه رأى غير ماوصف له منها ، ثم هي خرساء ، فوفاها مهرها وردها الى قومها ، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم ، فقال عمي :« مادع امراة تزوجتها وانكشفت علي في أسر الأفرنج » ، فاشتراها ، رحمه الله ، بخمس مائة دينار وسلمها الى أهلها .

ومن ذلك ماحدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« أقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد اليها ، وبها جماعة من العيارين يقطعون الطريق ، والدي يصانعهم لخوفه منهم ولانتفاعه بشيء مما يأخذونه ، فنحن يوما جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجاريه راكبة فوق الخرج ، فنزل وأنزل الجارية فقال :يافتيان ، اسعدوني على حط الخرج ، فجئنا حططناه معه ، واذا به كله دنانير ذهب ومصاغ ، فجلس هو والجارية اكلا شيئا ثم قال :« اسعدوني على رفع الخرج » فرفعناه معه ، فقال لنا : كيف طريق الأنبار » ؟ فقال له والدي : الطريق هاهنا – وأشار الى الطريق – ولكن في الطريق ستون عيارا أخاف عليك منهم ، فضرط له وقال :« انا أخاف من العيارين !»

فتركه والدي ومضى الى العيارين أخبرهم خبره ومامعه ، فخرجوا حتى عارضوه في الطريق ، فلما رأهم أخرج قوسه وترك فيه سهما واستوفاه يريد يرميهم ، فانقطع الوتر ، فهجم عليه العيارين ، فانهزم ، واخذوا البغل والجارية والخرج ، فقالت لهم الجارية : ياشباب ، بالله لاتهتكوني ، وبيعوني نفسي والبغل ايضا بعقد جوهر مع التركي

قيمته خمس مائة دينار ، وخذوا الخرج ومـافيه ، قـالوا : « قـد فعلنا » قالت ابعثوا معي بعضكم حتى أتحدث مـع التـركي وآخـذ العقد، فبعثوا معها من يحفظها حتى دنت من التركي وقالت له : قـد اشتريت نفسي والبغل بالعقد الذي في ساق مـوزك خفـك اليسـار ، فادفعه لي ، قال : نعم » وانفسح عنهم واخرج الساق (٧٥) مـوزا واذا فيه وترقوس ، فركبه على قوسه ورجـع اليهـم ، فمـا زالوا يقاتلونه وهو يقتل منهم واحدا واحـدا حتـى قتـل ثـلاثة وأربعين رجلا ، ونظر فـاذا والدي في الجمـاعة البـاقين مـن العيارين فقال :« وأنت فيهـم ، فتشـتهي أعطيك نصـيبك مـن النشاب ؟ » قال « لا » ، قال : خذ هؤلاء السبعة عشر البـاقين امض بهم الى شحنة البلد يشـنقهم وانهم قـد نهـبوا ورمـوا سلاحهم ، وساق بغله بما عليه ومضى ، وقد ارسل الله تعـالى على العيارين منه مصيبة وسخطة عظيمة »

ومن ذلك ماحضرته في سنة تسـع وخمس مـائة وقـد خـرج والدي ، رحمه الله ، بـالعسكر الى اسـباسلار بـرسق بـن برسق ، رحمه الله ، وقد وصل بأمر السلطان إلى الغزاة ، وهو في خلق عظيم وجماعة من الأمراء : منهم أمير الجيوش اوزبه صاحب الموصـل ، وسـنقر دراز صـاحب الرحبـة ، والأمير كند غدي ، والحاجب الكبير بـكتمر ، وزنكي بـن بـرسق وكان مـن الأبطال ، وتميرك ، واسـماعيل البـكجي ، وغيرهـم مـن الأمراء فنزلوا على كفر طـاب وفيهـا أخـو ثيوفـل والافـرنج ، فقـاتلوها ، ودخلوا الخـراسانية في الخندق ينقبون ، والافرنج قد ايقنوا بالهلاك ، فـطرحوا النار في الحصـن فأحرقوا السـقوف ووقعـت على الخيل والدواب والغنم والخنازير والأسارى ، فاحترق الجميع ، وبقي الافـرنج معلقين في اعلاه على الحيطان .

فـوقع لي أن أدخـل في النقـب أبصره ، فنزلت في الخندق ، والنشـاب والحجـار مثـل المطـر علينا ، ودخلت

الذقب ، فرأيت حكمه عظيمة : قد نقبوا من الخندق الى الباشورة وأقاموا في جوانب الذقب قائمتين وعليهما عرضية تمنع من تهدم مافوقها ، ونظموا الذقب بالأخشاب كذلك الى اساس البرج ، والذقب ضيق ، إنما هو طريق الى البرج ، فلما وصلوه وسعوا الذقب في حائط البرج وحملوه على الأخشاب ، ويخرجون نقارة الأحجار اولا فأولا ، وأرض الذقب من النقش قد صارت طينا ، فرأيته وخرجت ولم يعرفني الخراسانية ، ولو عرفوني ماتركوني اخرج الا بغرامة كثيرة لهم .

وشرعوا في تقطيع الخشب اليابس وحشوا الذقب بذلك الخشب ، وأصبحوا طرحوا فيه النار ، وقد لبسنا وزحفنا الى الخندق لنهجم الحصن اذا وقع البرج ، وعلينا من الحجارة والنشاب بلاء عظيم ، فاول ما عملت النار صار يسقط ما بين الاحجار من تكحيل الكلس ثم انشق واتسع الشق ووقع البرج ، ونحن نظن انه اذا وقع تمكنا من الدخول عليهم ، فوقع الوجه البراني وبقي الحائط الجواني كما هو ، فوقفنا الى أن حميت علينا الشمس ورجعنا الى خيامنا ، وقد نالنا من الحجارة أذى كبيرا .

فمكثنا الى الظهر ، واذا قد خرج من العسكر راجل واحد معه سيفه وترسه فمضى الى حائط البرج الذي قد وقع ، وقد صارت جوانبه كدرج السلم ، فتوقل فيه حتى صعد الى أعلاه ، فلما رآه رجال العسكر تبعه منهم قدر عشرة رجال تسرعوا بعدتهم فصعدوا واحدا وراء واحد حتى صاروا على البرج والافرنج لايشعرون بهم ، ولبسنا نحن من الخيام وزحفنا ، فكثروا على البرج قبل ان يتكامل الناس عندهم .

ففزع اليهم الافرنج فرموهم بالنشاب ، فجرحوا الذي طلع في الاول ، فنزل وتتابع الناس في الطلوع ، وصاروا مع الافرنج على بدن من حيطان البرج ، وبين يديهم برج في بابه فارس لابس ومعه

ترسه وقنطاريته يحمي من دخول البرج ، وعلى البرج جماعة من الافرنج يقاتلون الناس بالنشاب والحجارة ، فصعد رجل من الاتراك ، ونحن نراه ، ومشى والبلاء يأخذه الى أن دنا من البرج وضرب الذي عليه بقارورة نفط ، فرأيته كالشهاب على تلك الحجارة اليهم وقد رموا نفوسهم الى الارض خوفا من الحريق ، ثم عاد .

وطلع آخر يمشي على البدن ومعه سيف وترس ، فخرج عليه من البرج الذي في بابه الفارس رجل منهم عليه زرديتان وبيده قنطارية وما معه ترس ، فالقيه التركي وفي يده سيفه ، فطعنه الافرنجي ، فدفع سنان القنطارية عنه الترس ومشى الى الافرنجي وقد دخل ، على الرمح ، إليه فولى عنه وأدار ظهره وأمال ظهره كالراكع خوفا على رأسه ، فضربه التركي ضربات ما عملت فيه شيئا ، ومشى حتى دخل البرج وقوي عليهم الناس وتكاثروا فسلموا الحصن ونزل الأسارى الى خيام برسق بن برسق .

فشاهدت ذلك الذي خرج بقنطاريته على التركي وقد جمعوهم في سرادق برسق بن برسق ليقطعوا على نفوسهم ثمنا يخلصون به ، فوقف وكان سرجنديا وقال:« كم تأخذون مني؟ » قالوا :« نريد ستمائة دينار » ، فضرط لهم وقال :« أنا سرجندي ، ديواني كل شهر ديناران من اين لي ستمائة دينار ؟» وعاد جلس بين أصحابه ، وكان خلقه عظيمة ، فقال الأمير السيد الشريف وكان من كبار الأمراء ، لوالدي رحمه الله :« ياأخي ترى هؤلاء القوم ؟ نعوذ بالله منهم ».

فقضى الله سبحانه ان العسكر رحل عن كفر طاب الى دانيث وصبحهم عسكر أنطاكية يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر وكان تسليم كفر طاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر فقتل الأمير السيد ، رحمه الله ، وخلق كثير من المسلمين .

وعاد الوالد ، رحمه الله ، وكنت فارقته من كفر طاب وقد كسر

العسكر ، ونحن في كفر طاب نحـــرزها نريد نعمـــرها ، وكان اسباسلار سلمها الينا ، ونحن نخرج الاسارى كل اثنين في قيد من اهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه ، وذا قد مات في النار ، فرأيت منهم عبرة عظيمة ، فتركناها وعدنا الى شيزر مع الوالد ، رحمه الله ، وقد أخذ كل ماكان معه من الخيام والجمال والبغال والبرك والتجمل وتفرق العسكر .

وكان ماجرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم صاحب حلب ذلك الوقت ، قرر مع صاحب انطاكية ان يحتال عليهم ويفرقهم ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم ، فأرسل الى اسباسلار برسق رحمه الله ، يقول : « تنفذ لي بعض الأمراء ومعه جماعة من العسكر أسلم اليه حلب ، فاني أخاف من أهل البلد أن لايطاوعوني على التسليم ، فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوى بهم على الحلبيين »، فنفذ اليه أمير الجيوش اوزبة ومعه ثلاثة آلاف فارس ، وصبحهم روجار لعنه الله ، كسرهم لنفاذ المشيئة .

وعاد الافرنج لعنهم الله ، الى كفر طاب عمروها وسكنوها .

وقدر الله تعالى أن خلص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفر طاب ، فان الامراء اقتسموهم وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم الا ما كان من أمير الجيوش فانه تقدم الذين طلعوا في سهمه ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه الى حلب ، وافترق العسكر ـ من سلم منهم من دانيث ـ وتوجهوا الى بلادهم ، فذلك الرجل الذي طلع وحده الى برج كفر طاب كان سبب أخذها .

ومن ذلك : كان في خدمتي رجل يقال له نمير العلاروزري ، راجل شجاع أيد ، نهض هو وقوم من رجال شيزر الى الروج الى الافرنج ، فعثروا في البلد على قافلة من الافرنج في مغارة ، فقال بعضهم لبعض :« من يدخل عليهم ؟» قال نمير :« أنا » فدفع اليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم ، فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه افرنجي معه

سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز ، فهو يرد عنه ، فلما قتل الرجل الذي تحته التفت الى صاحب السيف يريده ، فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا ، فتدلى جانب وجهه على صدره ، فخرج من المغارة الى اصحابه فشدوا جرحه ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة ، فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ماكان عليه ، الا أن عينه تلفت ، وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر وقد تقدم ذكرهم

وحدثني الرئيس سهري وكان في خدمة الأمير شمس الخواص آلتونتاش صاحب رفنية ، وكان بينه وبين علم الدين علي كرد صاحب حماة عداوة وخلف ، قال :« أمرني شمس الخواص أن أخرج اقدر بلد رفنية وأبصر زرعه ، فخرجت ومعي قوم من الجند قدرت البلد ، ونزلت ليلة عند المساء بقرية من قرى رفنية لها برج صعدنا الى سطحه تعشينا وجلسنا وخيلنا على باب البرج ، فما شعرنا الا برجل قد اشرف علينا من بين شراريف البرج فصاح علينا ورمى نفسه الينا وفي يده سكينة فانهزمنا ونزلنا في السلم الأول وهو خلفنا ، ونزلنا في السلم الثاني ، وهو خلفنا ، حتى وصلنا الباب ، فخرجنا وأذا قد رتب لنا رجالا على الباب فقبضونا جميعا وأوثقونا رباطا ودخلوا بنا الى حماة الى علي كرد ، فما فعل بنا ذلك كله رجل واحد »

ومثل ذلك جرى في حصن الخريبة ، كانت لصلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني ، رحمه الله ، وفيها الحاجب عيسى واليها ، وهو حصن منيع على صخرة مرتفعة من جميع جوانبه يطلع إليه بسلم خشب ، ثم يرفع السلم فلا يبقى اليها طريق ، وليس مع الوالي في الحصن سوى ابنه وغلامه وبواب الحصن وله صاحب يقال له ابن المرجي يطلع اليه في الوقت بعد الوقت في أشغاله ، فتحدث مع الاسماعيلية وقرر له معهم قرارا أرضاه من مال واقطاع ويسلم اليهم حصن الخريبة ، ثم جاء الى الحصن فاستأذن وطلع ، فبدأ

بالبواب قتله، ولقيه الغلام فقتله ، ودخل على الوالي قتله ، وعاد الى ابن الوالي قتله ، وسلمه الى الاسماعيلية وقاموا له بما كانوا قرروه له .

والرجال اذا قووا نفوسهم على شيء فعلوه .

ومن ذلك تفاضل الرجال في هممهم ونخواتهم ، وكان الوالد ، رحمه الله يقول لي:« كل جيد من سائر الأجناس ، من الرديء من جنسه مايكون بقيمته ، مثل حصان جيد يسوى مائة دينار ، خمس حصن رديئة تسوى مائة دينار ، وكذلك الجمال ، وكذلك أنواع الملبوس ، الا ابن آدم فان ألف رجل أردياء لايساوون رجلا واحدا جيدا »، وصدق رحمه الله .

كنت قد نفذت مملوكا لي في شغل مهم الى دمشق ، واتفق أن أتابك زنكي رحمه الله ، أخذ حماة ونزل على حمص ، فاستدت الطريق على صاحبي ، فتوجه الى بعلبك ومنها الى طرابلس واكترى بغل رجل نصراني يقال له يونان فحمله الى حيث اكتراه وودعه ، ورجع وخرج صاحبي في قافلة يريد يتوصل الى شيزر من حصون الجبل ، فلقيهم انسان فقال لأرباب الدواب :« لاتمضوا ، فان في طريقكم في الموضع الفلاني عقد حرامية في ستين سبعين رجلا يأخذونكم » قال : « فوقفنا لاندري ماتعمل ماتطيب نفوسنا بالرجوع ولانجسر على المسير من الخوف ، فنحن كذلك اذا الريس يونان قد أقبل مسرعا ، فقلنا ما لك ياريس ؟ قال سمعت ان في طريقكم حرامية جئت لاسيركم ،سيروا . فسرنا معه الى ذلك الموضع ، واذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحرامية يريدون أخذنا ، فلقيهم يونان وقال :« يافتيان ، موضعكم انا يونان ، وهؤلاء في خفارتي ، والله ما فيكم من يتقرب منهم ؟ » فردهم والله جميعهم عنا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز ، ومشى معنا يونان حتى أمنا ثم ودعنا وانصرف »

وحكى لي صاحبي هذا عن ابن صاحب الطور ، وكان طلع معي من مصر في سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة قال حدثني ابن والي الطور – وهي ولاية لمصر بعيدة كان الحافظ لدين الله ، رحمه الله ، اذا اراد ابعاد بعض الأمراء ولاه الطور ، وهو قريب من بلاد الافرنج – قال :« وليها والدي وخرجت أنا معه الى الولاية وكنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الافرنج فأخذوني ومضوا بي الى بيت جبريل فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع علي صاحب بيت جبريل ألفي دينار ، فبقيت في الجب سنة لايسأل عني أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب واذا قد رفع عنه الغطاء ودلي الي رجل بدوي ، فقلت :« من أين أخذوك ؟» قال :« من الطريق » فأقام عندي يويمات وقطعوا عليه خمسين دينارا ، فقال لي يوما من الأيام :« تريد تعلم ان مايخلصك من هذا الجب الا أنا ؟ فخلصني حتى اخلصك » فقلت في نفسي « رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص » فما جاوبته ، ثم بعد ايام اعاد علي ذلك القول : فقلت في نفسي « والله لأسعين في خلاصه لعل الله يخلصني بثوابه » فصحت بالسجان فقلت له :« قل للصاحب اشتهي أتحدث معك » فعاد واطلعني من الجب وأحضرني عند الصاحب ، فقلت له : لي في حبسك سنة ماسأل أحد عني ولايدري أنا حي أو ميت ، وقد حبست عندي هذا البدوي وقطعت عليه خمسين دينارا اجعلها زيادة على قطيعتي ودعني اسيرة الى ابي حتى يفكني قال :« افعل »، فرجعت عرفت البدوي وخرج ودعني ومضى .

فانتظرت مايكون منه شهرين فما رايت اثرا له ولا سمعت له خبرا ، فيئست منه ، فما راعني ليلة من الليالي الا وهو قد خرج علي من نقب في جانب الجب وقال :« قم والله لي خمسة (٧٦) اشهر أحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصلت اليك » فقمت معه وخرجنا من ذلك السرب وكسر قيدي وأوصلني الى بيتي ، فما ادري مم اعجب من حسن وفائه او من هدايته حتى طلع نقبه من جانب الجب » .

واذا قضى الله سبحانه بالفرج فما اسهل اسبابه .

كنت اتردد الى ملك الافرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله ، ليد كانت الوالد . رحمه الله . على بغدوين الملك والد الملكة امراة الملك فلك بن فلك ، فكان الافرنج يسوقون أساراهم الي لاشتريهم ، فكنت أشتري منهم من سهل الله تعالى خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام جينا في موكب له يغزي فأخذ مركبا فيه حجاج من المغاربة نحو اربع مائة نفس رجال ونساء ، فكان يجيء أقوام مع مالكهم فاشتري منهم من قدرت على شراه ، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لايتكلم ، فسألت عنه فقيل لي هو رجل زاهد صاحبه دباغ ، فقلت له : « بكم تبيعني هذا ؟ » قال « وحق ديني ماأبيعه الا هو وهذا الشيخ جملة كما اشتريتهما بثلاثة واربعين دينارا » فاشتريتهما واشتريت لي منهم نفرا ، واشتريت للأمير معين الدين رحمه الله ، منهم نفرا بمائة وعشرين دينارا، ووزنت ماكان معي وضمنت علي بالباقي .

وجئت الى دمشق فقلت للأمير معين الدين ، رحمه الله ، « قد اشتريت لك أسارى اختصك بهم ، وماكان معي ثمنهم ، والآن قد وصلت الى بيتي ، إن اردتهم وزنت ثمنهم ، والا وزنته انا »؟ قال :« لابل أنا أزن والله ثمنهم ، وأنا أرغب الناس في ثوابهم » ، وكان رحمه الله ، اسرع الناس الى فعل خير وكسب مثوبة، ووزن ثمنهم ، وعدت بعد أيام إلى عكا .

وقد بقي من الاسرى عند كليام جينا ثمانية وثلاثون اسيرا ، وفيهم امراة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي ، فاشتريتها منه ، وماوزنت ثمنها ، فركبت الى داره لعنه الله ، وقلت :« تبيعني منهم عشرة ؟» قال :« وحق ديني ماأبيع الا الجميع »، قلت :« مامعي ثمن الجميع ، وأنا اشتري بعضهم ، والنوبة الاخرى اشتري الباقي » قال: « ماأبيعك الا الجميع » فانصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة

جميعهم ، وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين اذا وصل اليهم الأسير أخذوه وأوصلوه الى بلاد الاسلام .

وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد ، واحسن الله سبحانه خلاصهم ، واصبح يطالبني بثمن المرأة التي كنت اشتريتها وماوزنت ثمنها وقد هربت في من هرب ، فقلت :« سلمها الي وخذ ثمنها » قال :« ثمنها لي من أمس قبل أن تهرب » وألزمني بوزن ثمنها ، فوزنته وهان ذلك علي لسرتي بخلاص أولئك المساكين .

ومن عجائب السلامة اذا جرى بها القدر وسبقت بها المشيئة ان الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن سقمان بن أرتق ، رحمه الله ، عمل على مدينة آمد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولايبلغ منها مقصودة ، وكان آخر ماعمل عليها ان أميرا من الاكراد كان مديونا بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقرر الأمر أن تصله العساكر في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالحبال ويملك آمد ، فعول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له افرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسو أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقي الامراء فتبعوه ، وتوانى هو في السير فسبقه الامراءإلى آمد ، فأشرف عليهم ذلك الامير الكردي وأصحابه من برج ودلوا اليهم الحبال وقالوا :« اطلعوا » ـ ماطلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا اقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » مادخلوا ، وكل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الامراء الكبار .

وعلم بذلك الامير كمال الدين علي بن نيسان والبلدية والجند ، ففزعوا اليهم ، فقتلوا بعضهم ، ورمى بعضهم نفسه ، وقبضوا بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم ، وهو نازل في الهواء ، يده كأنه يريد شيئا يتمسك به ، فوقع في يده حبل من تلك الحبال التي دلوا أول الليل وماطلعوا فيها فتعلق به ونجا

دون أصحابه ، وإلا أن كفيه انسلختا من الحبل ، هذا وأنا حاضر .

وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عماوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة انقذ الانسان من لهاة الأسد فذلك حق لامثل .

كان في حصن الجسر (٧٧) رجل من أصحابنا من بني كنانة يعرف بابن الأحمر ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب اشغل له ، فاجتاز بكفر نبودا (٧٨) وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر حربة تلمع ، فصاح اليه أهل القافلة :« ياصاحب الخشت (٧٩) البراق دونك الأسد » فحمله الحياء من صياحهم ان حمل على الأسد فحاصت به الفرس فوقع ، وجاء فبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شبعان ، فالتقم وجهه وجبهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم ، وهو بارك عليه لايؤذيه ، قال :« ففتحت عيني فأبصرت لهاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عني ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرآني وجاء خلفي ، فسبقت وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاني من الذر شيء عظيم على تلك الجراح - والذر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر - قال :« فرأيت الأسد قد قعد وانصب آذانه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول فاذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه الى بيته ، وكان اثر انياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار فسبحان المسلم

قلت : تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة (٨٠) رحمه الله ، يسمع فقلت له :« ياأستاذ ، لو ركبت حصانا ولبست كزاغندا وخونة وتقلدت سيفا وحملت رمحا وترسا ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الافرنج ، لعنهم الله ، يجتازون به - ماكان

يجوزك أحد منهم » ، قال :« بلى والله كلهم » ، قلت :« كانوا يهابونك ، ولايعرفونك » قال :« سبحان الله ، فأنا ماأعرف نفسي !» ، ثم قال لي « يافلان ، مايقاتل عاقل » قلت: « ياأستاذ تحكم على فلان وفلان وعددت له رجالا من أصحابنا من شجعان الفرسان أنهم مجانين !» قال:« ماهذا قصدت ، انما قصدي ان العقل لايحضر وقت القتال ، ولو حضر ماكان الانسان يلقى بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ، ماهذا شيء يقضي به العقل ».

وكان رحمه الله ، بالعلم اخبر مما هو بالحرب ، فان العقل هو الذي يحمل على الاقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدوثة ، ودليل ذلك ان الشجاع يلحقه الزمع والرعدة وتغير اللون قبل دخوله في الحرب لما يفكر فيه وتحدث به نفسه مما يريد يعمله ويباشره من الخطر ، والنفس ترتاع لذلك وتكرهه ، فاذا دخل في الحرب وخاض غمارها ذهب عنه ذلك الزمع والرعدة وتغير اللون ، وكل أمر لايحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل .

ومن ذلك ان الفرنج نزلوا مرة على حماة في أزوارها وفيها زرع مخصب ، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع ، وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يغيرون بعسكر الافرنج يسرقون منه ، فرأوا الخيام في الزرع ، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماة وقال :« الليلة احرق عسكر الافرنج كله » قال :« ان فعلت خلعت عليك » فلما امسى خرج ومعه نفر على رأيه طرحوا النار غربي الخيام في الزرع لتسوقها الرياح الى خيامهم ، فصار الليل بضوء النار كالنهار ، فرآهم الافرنج فقصدوهم فقتلوا أكثرهم ، ومانجا منهم الا من رمى نفسه بالماء وسبح الى الجنب الآخر ، فهذه آثار الجهل وعواقبه .

ورأيت مثل ذلك ، وان لم يكن في الحرب ، وقد عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، ومعه البطرك وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلون فيها يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد

فرش ارضها بالحلفاء والحشيش ، فكثرت البراغيث فطرح فيه النار ، وقد يبس ، فارتفعت ألسنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا ، فهذا لم يحضره العقل

وضده اننا ركبنا في بعض الأيام من شيزر الى الصيد وعمي ، رحمه الله ، معنا وجماعة من العسكر ، فخرج علينا السبع من قصباء دخلناها لصيد الدراج ، فحمل عليه رجل من الجند كردي يقال له زهر الدولة بختيار القبرصي سمي بذلك للطف خلقته ، وكان رحمه الله ، من فرسان المسلمين ، فاستقبله السبع فحاص به الحصان ، وجاءه السبع وهو ملقى ، فرفع رجله ، فتلقمها السبع ، وبادرناه فقتلنا السبع واستخلصناه وهو سالم ، فقلنا له :« يازهر الدولة ، لم رفعت رجلك الى فم السبع ؟» فقال:« جسمي كما ترونه ضعيف نحيف ، وعلي ثوب وغلالة ، وما في أكسي من رجلي ، فيها الرانات والخف والساق موزا ، فقلت :« اشغله بها عن أضلاعي أو يدي أو رأسي الى أن يفرج الله تعالى » فهذا حضره العقل في موضع تزول فيه العقول ، وأولئك ماحضرهم العقل ، فالانسان أحوج الى العقل من كل ماسواه ، وهو محمود عند العاقل والجاهل .

ومن ذلك ان روجار صاحب انطاكية كتب الى عمي يقول :« قد نفذت فارسا من فرساني في شغل مهم الى القدس ، أسأل أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية ويوصلونه الى رفنية ». فركب وارسل اليه من احضره ، فلما لقيه قال :« قد نفذني صاحبي في شغل وسر له ، لكني رأيتك رجلا عاقلا ، فانا أحدثك به » فقال له عمي :« من اين عرفت أني عاقل ومارايتني قبل الساعة ؟ » قال « لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك عامر ،فعرفت انك ماعمرته الا بعقلك وسياستك » ، وحدثه ماجاء فيه .

وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب إربل قال :« حدثني أبو الهيجاء وقال :« بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الى الشام

الى الامير ابن مروان صاحب ديار بكر يقـول :« أريد ثـلاثين الف دينار ، فاجتمعت بـه وأعدت عليه الرسـالة ، فقـال :« تسـتريح ونتحدث واصبح امر أن يدخلوني الحمام ، ونفذ آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب ، وقالوا لفراشي : كل آلة الحمام لكم ، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج ، فتركني أياما ثم أمـر لي بالحمام ومااذكر رد الحوائج ، وحملوا معى آلة الحمام افضـل من الآلة « الأولة » وبدلة ثياب افضل من البدلة «الأولة » وقـال الفراش لفراشي كما قال أولا ، فلما خرجت لبسـت ثيابـي ورددت الحوائج والثياب ، فتركني ثـلاثة اربعـة أيام ثـم عاد ادخلني الى الحمام وحملوا معي آلات فضة افضل مـن« الاولة» ، وبـدلة ثياب افضل من «الاولة »، فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الجميع ، فلما حضرت عند الامير قـال لي :« ياولدي»، دفـنت اليك ثيابـا مالبستها ، وآلة الحمـام مـاقبلتها ، ورددتهـا ، اي شيء سـبب هذا ؟ قلت : يامولاي ، جـئت بـرسالة السـلطان في شـغل ماانقضى ، اقبل ماتفضلت به وأرجع ومـاانقضى شـغل السـلطان فكأني ماجئت الا في حاجتي ، قال : ياولدي مارأيت عمارة بـلادي وكثرة خيرها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضـياعها أتـراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين الف دينار ؟ والله إن الذهب قـد كيسته من يوم وصولك ، وانما انتظرت أن يتجاوز السلطان بـلادي وتلحقه بالمال خوفا من أن استقبله بالذي طلب ، فيطلب مني اذا دنا من بلادي اضعافه ، فلا تشغل قلبك ، فشغلك قد انقضى ، ثم دفـذ لي الثلاث بدلات ، التي كان دفنها لي ورددتها ، مع جميع حـوائج الحمام التي دفنها لي في الثلاث دخـلات ، فقبلتهـا ، ولما تجـاوز السلطان ديار بكر ، أعطاني المال فحملته ولحقت به السلطان » .

وفي حسن السياسة ربح كثير من عمـارة البـلاد ، فمـن ذلك ان أتابك زنكي ، رحمه الله ، خطب بنت صاحب خلاط وقد مات أبوها وأمها مدبرة البلد ، ونفذ حسام الدولة بن دلماج خطبها لابنه ، وهو صاحب بدليس فسار اتـابك بعسـكر حسـن الى خـلاط على غير الطريق المسلوك لاجل درب بدليس فسلك فيها الجبال ، فـكنا ننزل

بغير خيام ، وكل واحد في موضعه من الطريق حتى وصلنا خلاط فخيم أتابك عليها ودخلنا قلعتها وكتبنا المهر .

فلما انقضى الشغل أمر أتابك أن يأخذ صلاح الدين معظم العسكر ويسري الى بدليس يقاتلها فركبنا أول الليل وسرنا وأصبحنا على بدليس ، فخرج الينا حسام الدولة صاحبها ، فلقينا على فسحة من البلد ، وأنزل صلاح الدين في الميدان ، وحمل اليه الضيافة الحسنة ، وخدمه وشرب عنده في الميدان وقال :« يامولاي ، اي شيء ترسم ؟ فقد تعنيت وتعبت في مجيئك » قال :« اتابك احذقه خطبتك للبنت التي كان خطبها ، وأنت بذلت لهم عشرة آلاف دينار نريدها منك » قال :« السمع والطاعة » فعجل له بعض المال واستمهله بباقيه اياما عينها ، ورجعنا وبلده بحسن سياسته عامر مادخل عليه خلل .

وهذا قريب مما جرى لنجم الدولة مالك بن سالم رحمه الله (٨١) وذلك ان جوسلين أغار على الرقة والقلعة فأخذ كل ماعليها وسبى وساق غنائم كثيرة ، ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات ، فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعة من غلمانه وعبر الفرات الى جوسلين وبينهما معرفة قديمة ، ولمالك عليه جميل ، وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك ، فجاءه واحد من الافرنج وقال :« هذا مالك في الزورق »، قال :« ماهو صحيح » ، فأتاه آخر قال :« نزل مالك من الزورق وهو جاءني يمشي »، فقام جوسلين والتقاه وأكرمه ورد عليه جميع ماكان أخذه من الغنائم والسبي ، ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلده .

اذا انقضت المدة لم تنفع الشجاعة ولا الشدة .

شاهدت يوما وقد زحف الينا عسكر الافرنج يقاتلنا ، ومضى بعضهم مع طغدكين أتابك الى حصن الجسر يقاتله ، وكان اتابك

اجتمع هو وايلغازي بن أرتق و الافرنج في افامية لمحاربة عساكر السلطان وكان وصل بها الى الشام اسباسلار برسق بن برسق ، وقد نزل حماة يوم الاحد تاسع عشر محرم سنة تسع وخمس مائة فأما نحن فقاتلونا بالقرب من سور المدينة ، فاستظهرنا عليهم ودفعناهم وانبسطنا معهم ، فشاهدت رجلا من أصحابنا يقال له محمد ابن سرايا وهو شاب شديد أيد ، قد حمل عليه فارس من الافرنج لعنه الله ، فطعنه في فخذه فنفذ القنطارية فيها ، فمسكها محمد وهي في فخذه ، وجعل الافرنجي يجذبها ليأخذها ومحمد يجذبها ليأخذها فترجع في فخذه حتى قورت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن اتلف فخذه ، ومات بعد يومين ، رحمه الله .

ورأيت في ذلك اليوم ، وانا في جانب الناس في القتال ، فارسا قد حمل على فارس منا طعن حصانه قتله ، وصاحبنا راجل في الارض ولاأدري من هو لبعد مابيننا ، فدفعت حصاني اليه خوفا عليه من الافرنجي الذي طعنه ، وقد بقيت القنطارية في الحصان وهو ميت قد خرجت مصارينه ، والافرنجي قد اعتزل عنه غير بعيد وجذب سيفه ووقف مستقبله ، فلما وصلته وجدته ابن عمي ناصر الدولة كامل بن مقلد ، رحمه الله ، فوقفت عليه وأخليت له ركابي وقلت :« اركب » فلما ركب رددت راس حصاني الى المغرب ، والمدينة من شرقينا ، فقال لي :« الى أين تروح ؟» قلت :« الى هذا الذي طعن حصانك ، فهو فرصة » فمد يده وقبض على عنان الحصان وقال :« ماتطاعن وعلى حصانك لابسان ، اذا اوصلتني ارجع طاعنه » فمضيت أوصلته وعدت الى ذلك الكلب ، وقد دخل في اصحابه.

وشاهدت من لطف الله تعالى وحسن دفاعه أن الافرنج ، لعنهم الله ، نزلوا علينا بالفارس والراجل ، وبيننا وبينهم العاصي وهو زائد زيادة عظيمة لايمكنهم ان يجوزوا الينا ، و لانقدر نحن نجوز اليهم ، فنزلوا على الجبل بخيامهم ، ونزل منهم قوم الى البساتين

وهي من جانبهم ، هملوا خيلهم في القصيل وناموا ، فتجرد شباب من رجالة شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذوا سيوفهم وسبحوا الى اولئك النيام ، فقتلوا بعضهم ، وتكاثروا على اصحابنا ، فرموا نفوسهم الى الماء وجازوا ، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ، ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد ابي المجد بن سمية فيه رجل يقال له حسن الزاهد ، وهو واقف على سطح يذوب في المسجد يصلي وعليه ثياب سود صوف - ونحن نراه ومالنا اليه سبيل ، وقد جاء الافرنج فنزلوا علي باب المسجد وصعدوا اليه ونحن نقول: لاحول ولا قوة الا بالله الساعة يقتلونه ، فلا والله ماقطع صلاته ولازال من مكانه ، وعاد الافرنج نزلوا وركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه ، ولاشك ان الله سبحانه اعماهم عنه وستره عن ابصارهم ، فسبحان القادر الرحيم .

ومن الطاف الله تعالى ان ملك الروم لما نزل على شيزر في سنة اثنين وثلاثين وخمس مائة خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال فاقتطعهم الروم فقتلوا واسروا بعضا في جملة من أسروا زاهد من بني كردوس من الصالحية ، من مولدي محمود بن صالح(٨٢) صاحب حلب ، فلما عاد الروم كان معهم مأسورا ، فوصل القسطنطينية ، فهو في بعض الايام فيها اذ لقيه انسان فقال: «أنت ابن كردوس؟» قال «نعم» قال «سر معي أوقفني على صاحبك» فسار معه حتى اراه صاحبه ، فقاوله على ثمنه حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ ارضاه فوزن له الثمن وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: «تبلغ بها الى اهلك ، وامض في دعة الله تعالى ، فخرج من القسطنطينية وتوصل الى ان عاد الى شيزر ، وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه ، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه .

وقد جرى لي ما يشبه ذلك لما خرج علينا الافرنج في طريق مصر وقتلوا عباس بن ابي الفتوح وابنه نصرا الكبير ، انهزمنا نحن الى جبل قريب منا ، فصعد الناس فيه رجالة يمشون يجرون خيلهم وأنا

على اكديش ولا استطيع المشي ، فصعدت وأنا راكب وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى كلما وطئة الفرس انهر تحت قوائمه ، فضربت الاكديش ليطلع فما استطاع ، ونزل والحصى والنقارة تنزل به ، فترجلت عنه واقمته ووقفت لا اقدر على المشي ، فنزل الي رجل من الجبل فمسك بيدي وبرذوني في يدي الأخرى حتى اطلعني ، ولا ، والله ، ما أدري من هو ولا عدت رأيته .

وقد كان في ذلك الوقت الصعب يمتن فيه بيسير الاحسان ، ويطلب المكافأة عنه ، ولقد شربت من بعض الاتراك شربة ماء اعطيته عنها دينارين ، وما زال بعد وصولنا دمشق يقتضيني حوائجه ويتوصل بي الى اغراضه لاجل تلك الشربة التي سقانيها ، وما كان ذلك الذي اعانني الا ملكا رحمني الله تعالى فأغاثني به .

ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبد الله المشرف قال «حبست بحيزان (٨٣) قيدت وضيق علي ، فأنا في الحبس والموكلون على بابه فرأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في النوم فقال: «اقلع القيد واخرج» فانتبهت جذبت القيد ، فخرج من رجلي ، وقمت الى الباب أريد افتحه ، فوجدته مفتوحا ، فتخطيت الرجال الموكلين الى مدفس في السور ما ظننت يدي تخرج منه ، فخرجت منه ، ووقعت على مزبلة ، فبقي فيها أثار وقوعي واثار رجلي ، ونزلت في واد حول السور ودخلت مغارة في سفح الجبل من ذلك الجانب وأنا اقول في نفسي: الساعة يخرجون يرون اثري ويأخذوني ، فأرسل الله سبحانه ثلجا غطى ذلك الاثر ، وخرجوا يطوفون علي ، وأنا اراهم نهارهم ذلك ، فلما امسيت وأمنت الطلب خرجت من تلك المغارة وسرت الى مأمني » ، كان هذا الرجل مشرفا على مطبخ صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسانياني رحمه الله .

ومن الناس من يقـــاتل كمـــا كان الصـــحابة ، رضـــوان الله عليهم ، يقاتلون الجنة لا لرغبة ولا اسمعة

ومن ذلك أن ملك الالمان الافــرنجي ، لعنة الله ، لما وصــل الشــام اجتمع اليه كل من بالشام من الافرنج ، وقصد دمشق ، فخــرج عسكر دمشق واهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي والشـيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحــولي ، رحمهمــا الله ، وكانا مــن خيار المسلمين ، فلما قاربوهم قال الفقيه إلى متى نحن وقوف؟» قال «سر على اسم الله تعالى » فتقدما قاتلا حتى قتلا رحمهما الله ، في مكان واحد .

ومن الناس من يقاتل للوفاء ، فمن ذلك ان رجلا من الأكراد يقال له فارس ، وكان كاســمه فــارسا وأي فـــارس . فحضر ابـــي وعمي ، رحمهما الله ، وقعة كانت بينهما وبين ســيف الدولة خلف ابن ملاعب عمل عليهم فيها وغدر بهم ، وقد حشد وجمع وهــم غير متأهبين لما جــرى ، وســبب ذلك انه راســلهم وقــال: «نمضي الى اسفونا(٨٤) وفيها الفرنج نأخــذها » فسـبقه اصــحابنا اليهــا وترجلوا وزحفوا الى الحصن نقبوه ، وهم في القتال وابــن مــلاعب وصل ، فأخذ خيل من كان ترجل مــن اصــحابنا ووقــع القتـــال بينهم ، بعدما كان للافرنج ، واشتد بينهم القتال ، فقــاتل فــارس الكردي قتالا عظيما وجرح عدة جراح ، وما زال يقاتل ويجرح حتى اثخن بالجراح ، وانفصل القتال ، فاجتاز به ابي وعمي ، رحمهما الله ، وهـــو محمـــول بين الرجـــال فـــوقفا عليه «وهنياه» بالسلامة . فقال «والله ما قاتلت أريد السلامة ، لكن لكم علي جميل وفضل كثير وما رأيتكم في شدة مثل هــذا اليوم ، فقلت «اقــاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأقتل قدامكم».

وقضي الله ســبحانه انه عوفي مــن تلك الجــراح ومضى الى جبلة وفيها فخر الملك بن عمار وفي اللاذقية الافرنج ، فخــرجت خيل مــن جبلة تريد الغارة على اللاذقية ، وخــرجت خيل مــن اللاذقية تــريد

الغارة على جبلة ، فنزل الفريقان في الطريق وبينهما رابية ، فطلع فارس من الافرنج من جانبهم يكشف الرابية وطلع فارس الكردي من الجانب الآخر كشف لأصحابه ، ، فالتقى الفارسان على متن الرابية فحمل كل واحد منهما على صاحبه فاختلفا طعنتين فوقعا ميتين وبقيت الحصن تتصاول على الرابية ، والفارسان قتيلان .

وكان لفارس هذا عندنا ولد اسمه علان من الجند له الخيل الملاح والعدة الحسنة ، ولكن ما كان كأبيه ، فنزل علينا دنكري صاحب انطاكية يوما وقاتلناه قبل ضرب الخيام ، وهذا علان بن فارس على حصان مليح باغز (٨٥) من احسن الخيل ، وهو واقف على رفعة من الأرض ، فحمل عليه فارس من الافرنج وهو كالغافل ، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية ، فشب الحصان رمى علان ، وعاد الافرنجي ، والحصان معارضه ، والقنطارية في رقبته ، كأنه يجنبه ، يتمختر بغنيمة حسنة .

وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ، فمن ذلك انه كان في جندنا رجل كردي يقال له كامل المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير ، رحمه الله ، وله حصان أدهم اصم مثل الجمل ، فالتقى هو وفارس من الافرنج فطعن الافرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر ، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة ، ولا فارسه ، فكنت ارى ذلك الجرح الذي في فخذه بعد ما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح ، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال ، فالتقى هو وفارس من الافرنج ، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع ، وسلم من تلك الطعنة الثانية ، فكانت بعد ان اختمت اذا اطبق الانسان كفه وادخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح ، وسعها.

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة ابا

الحسن عليا رحمه الله ، اشتراه من كامل المشطوب ، وكان ثقيل العدو ، فاخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من افرنج كفرطاب ، فبقي عنده سنة ثم مات ، فأرسل الينا يطلب ثمنه ، قلنا «اشتريته وركبته ، ومات عندك ، كيف تطلب ثمنه قال « انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة » فعجبنا من جهله وسخافة عقله .

وجرح تحتي حصان على حمص شقت الطعنة قلبه واصابه عدة سهام ، فاخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالفرلتين ، (٨٦)وما انكرت منه شيئا ، وبعد وصولي الى اصحابي مات .

وجرح تحتي حصان في بلد شيزر في حرب محمود بن قراجا ثلاثة جراح ، وأنا اقاتل عليه ، ولا اعلم ، والله انه قد جرح ، لأني ما انكرت منه شيئا .

وأما خورها وضعفها على الجراح ، فإن عسكر دمشق نزل على حماة ، وهي لصلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين ، وأنا بها ، وزحفوا الينا في جمع كثير ، ووالي حماة شهاب الدين احمد بن صلاح الدين وهو على تل مجاهد (٨٧) فجاءه الحاجب غازي التلي فقال :« قد انتشرت الرجالة ، والخوذ تتلامع بين الخيام ، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم » ، فقال « امض ردهم» فقال :«والله ما يردهم الا انت او فلان» ، يعنيني ، فقال لي : تخرج تردهم» ، فقلعت زردية كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبوس ، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل واتلعها ، فلما رددت الناس زحفوا الينا ، وما برا من سور حماة فارس غيري ، منهم من دخل المدينة وايقنوا انهم مأخوذون، ومنهم من هو مترجل في ركابي ، فاذا حملوا علينا اخرت الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم ، واذا عادوا مشيت خلفهم شبرة لضيق المجال

وازدحام الناس ، فضربت حصاني نشابة في ساقه خدشته ، فـوقع بي وقام ، ووقع ، وأنا اضربه حتى قال لي الرجال الذين في ركابي «ادخل الى الباشورة (٨٨) اركب غيره» فقلت« والله مـا انزل عنه» فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم اره من غيره.

ومن حسن صبر الخيل ان طراد بن وهيب النميري حضر القتـال بين بني نمير ، وقد قتلوا علي بن شمس الدولة سالم بن مالك والي الرقة وملكوها ، والحرب بينهم وبين اخيه شهاب الدين مـالك بـن شمس الدولة ، وتحت طراد بن وهيب حصان له من أجـود الخيل له قيمة كبيرة ، فطعن في خاصرته ، فخرجت مصارينه ، فشدها طراد في السموط لا يدوسها فيقطعها ، وقاتل حتى انقضى القتال ، فدخل به الى الرقة ، فمات .

قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمـد بن ايوب اليغسسياني ، رحمـه الله ، وذلك ان ملك الامـراء اتـابك زنكي ، رحمه الله ، نزل على دمشق في سنة ثـلاثين وخمس مـائة بأرض داريا وقد راسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بـوري ابن طغدكين ، رحمه الله ، في الوصول اليه ، وخـرج مـن بعلبـك متوجها الى خدمة اتابك ، فبلغـه أن عسـكر دمشـق خـرج يريد أخذه ، فأمر صـلاح الدين ان نركب للقـائه ودفـع الدمشـقيين عنه ، وهو قـد ركب ووقـف عند خيمتـه ، فـركبت في الوقت ، فقـال :« كنت قـد علمـت بـركوبي قلت :(لا والله » ، قال :« السـاعة نفـذت اليك ، فـركبت في الوقـت »! قلت :« يا مولاي حصاني يأكل شعيره ، ويلجمه الركابـي ويقعـد وهو في يده على بـاب الخيمـة ، وأنا البس عدتـي وأتقلد سـيفي وأنام ، فلما جاءني رسولك ما كان لي ما يعوقني ».

فوقف الى أن اجتمع عنده جماعة من العسكر ، وقال :« البسوا سلاحكم » ، وقد لبس أكثـر الحـاضرين وأنا الى جـانبه ، ثـم قال :« كم اقول لكم البسوا سلاحكم ؟» قلت :«يامولاي ، لا تكون

تعنيني »؟ قال :«نعم» ، قلت :«والله ما اقدر البس ، نحن في أول الليل ، وكزا اغندي فيه زرديتـان مـطبقتان إذا رأيت العـدو لبسته » ، فسكت

وسرنا فصبحنا عند ضمير ، فقال لي : « ماننزل نأكل شيئا؟ فقد جعت من السهر » ؟ قلت :« الامر لك » ، فنزلنا فما استقر على الأرض حتى قـال :« أين كزاغندك فـأمرت الغـلام فأحضره ، وأخرجته من عيبتـه وأخـرجت السـكين فتقتـه عند صدره ، وأظهرت جانب الزرديتين ـ وكان فيه زردية افـرنجية الى نيله وفوقها أخـرى الى وسـطه على كل زردية البطائن والبـد واللاسين ووبر الارنب ، فالتفت الى غلام له كلمه بالتركي ولا أدري ما يقول ، فاحضر بين يديه حصانا كميتا كان اعطاه اياه اتـابك في تلك الايام كالصخرة الصماء قدت من قنة الجبـل ، فقـال :« هـذا الحصان يصلح لهذا الكزاغند ، سلمه الى غلام فلان » ، فسلمه الى غلامي

قلت كان عمي عز الدين ، رحمه الله ، يتفقد مني حضور فـكري في القتال ، ويمتحني بالمسألة ، فنحن يوما في بعض الحـرب التـي كانت بيننا وبين صاحب حماة وقد حشد وجمع ووقف على ضيعة من ضياع شيزر يحرق وينهب ، فجرد عمي من العسكر نحو من سـتين سبعين فارسا وقال لي «خذهم وسر اليهـم» ، فمضـينا نتـراكض والتقينا بوادر خيلهم فكسرناهم وطعنا فيهم وقلعناهم من موضعهم الذي كانوا عليه ، ونفذت فـارسا مـن اصـحابي الى عمـي وابي ، رحمهما الله ، وهما واقفان ومعهما باقي العسكر وراجـل كثير اقول لهما :« سيرا بـالرجالة فقـد كسرتهـم » ، فسـارا الي ، فلما قربا حملنا عليهـم كسرناهـم ، ورمـوا خيلهـم في الساروت(٨٩) ، وعبـروه سـباحة وهـو زائد ، ومضـوا وعدنا بالنصر ، فقال لي عمي : أي شيء نفذت تقول لي ؟ قلت :« نفـذت اقول لك تقدم بالرجالة فقد كسرناهم » ، فقال :« مـع مـن نفـذت

الي ؟» قلت : « مع رجب العبد» ، قال :« صــدقت » ، مــا أراك كنت إلا حاضر القلب ، ما أدهشك القتال».

ومرة أخرى اقتتلنا نحن وعسكر حماة ، وكان محمود بن قراجا قد استعان على قتالنا بعسكر أخيه خير خان بـن قـراجا صـاحب حمص ، وكان قد ظهر لهم في ذلك الزمان حمل الرماح المؤلفة بوصل الرمح الى بعض رمح آخر بحيث يصير طوله عشرين ذراعا او ثمانية عشر ذراعا ، فوقف مقابلي موكب منهم ، وانا في سرية نحـو مـن خمسة عشر فارسا ، فحمل علينا منهم علوان العراقي ، وهـو مـن فرسانهم وشجعانهم ، فلما دنا منا وما تزعزعنا رجـع ورد رمحـه الى خلفه ، فـرايته كالحبـل مـطروحا على الأرض لايقـدر يرفعه ، فأطلقت حصـاني عليه ، فـطعنته وقـد وصـل إلى أصحابه ، وعدت وراياتهم على رأسي ، فلقيهم أصحابي وفيهم أخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، فـردهم وقـد انقـطع نصـف يرقي (٩٠) في كزاغند علوان ، ونحن بالقرب من عمـي ، وهـو يراني ، فلما انفصـل القتـال قـال لي عمـي :« أين طعنت علوان العراقي ؟» قلت :« اردت ظهره ، فمال الهواء بالبيرق فوقع الرمح في جانبه ».

قال :« صدقت ، ما كنت الا حاضر القلب ذلك الوقت ».

(مع الأسود وسائر الحيوانات)

وما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى في وأرى من اشفاقه وإيثاره لي ، ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن بغدوين ملك الافرنج على قطعية قطعها لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي ، رحمه الله ، فرسان افرنج وأرمن ، فلما وفوا ما عليهم وأرادوا الرجوع الى بلادهم نفذ خيرخان صاحب حمص خيلا كمنوا لهم في ظاهر شيزر ، فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم ، ووقع الصائح ، فركب عمي وأبي ، رحمهما الله ، ووقفا ، وكل من يصل اليهما قد سيراه من خلفهم ، وجئت أنا فقال لي أبي:«اتبعهم بمن معك ، وأرموا أنفسكم عليهم ، واستخلصوا رهائنكم » فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر النهار واستخلصت من كان معهم وأخذت بعض خيل حمص ، وعجبت من قوله: « ارموا نفوسكم عليهم ».

ومرة كنت معه ، رحمه الله ، وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد اخرجت رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار ، فوقف يبصرها ، فحملت سلما كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت اليها ، وهو يراني فلا ينهاني ، واخرجت سكينا صغيرة من سوطي ، وطرحتها على رقبة الحية وهي نائمة وبين وجهي وبينها دون الذراع ، وجعلت أحز رأسها ، وخرجت التفت على يدي ، الى أن قطعت رأسها والقيتها الى الدار ، وهي ميته .

بل رايته ، رحمه الله ، وقد خرجنا يوما لقتال أسد ظهر على الجسر فلما وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها ، فحمل على الخيل ، ثم وقف ، وأنا واخي بهاء الدولة منقذ ، رحمه الله ، بين

الأسد وبين موكب فيه ابي وعمي ، رحمهما الله ، ومعهما جماعة من الجند ، والأسد قد ربض على حرف النهر يتضرب بصدره على الارض ويهدر ، فحملت عليه ، فصاح علي أبي ، رحمه الله «لا تستقبله ، يا مجنون ، فيأخذك !» فطعنته . فلا والله ما تحرك من مكانه . ومات موضعه .

فما رأيته نهاني عن قتال غير ذلك اليوم .

خلق الله عز وجل خلقه أطوارا (٩١) مختلفي الخلق والطبائع : الابيض والاسود والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ، والقوي والضعيف ، والشجاع والجبان ، بمقتضى حكمته وعموم قدرته .

رأيت بعض أولاد الامراء التركمان الذين كانوا في خدمة ملك الامراء أتابك زنكي ، رحمه الله ، وقد اصابته نشابة ما دخلت في جلده مقدار شعيرة فاسترخي وانحلت اعضاؤه وانقطع كلامه وغاب ذهنه ، وهو رجل مثل الاسد ، اجسم ما يكون من الرجال ، فأحضروا له الطبيب والجرائحي . فقال الطبيب :« مابه بأس ، بل متى ما جرح ثانية مات ». فهدأ وركب وتصرف كما كان ، ثم اصابته نشابة اخرى بعد مدة احقر من « الاولة» وأقل نكاية ، فمات .

ورأيت ما يقارب ذلك ايضا ، كان عندنا بشيزر اخوان يقال لهما بنو مجاجو الواحد اسمه أبو المجد والآخر محاسن وهما ضمان رحاة الجسر بثمان مائة دينار ، وعند الرحا مذبح للغنم يذبح فيه جزارو البلد ويجتمع الزنابير على آثار الدم ، فاجتاز محاسن بن مجاجو يوما الى الرحا ، فلسعه زنبور ، فانفلج وانقطع كلامه وأشرف على الموت ، وبقي كذلك مدة ، ثم أفاق وانقطع عن الرحا مدة فعاتبه أخوه أبو المجد وقال له: «يا أخي ، ضمنا هذه الرحا بثمان مائة دينار ولا تشرف عليها ولا تبصرها؟ وغدا ينكسر علينا ضمانها ونموت في الحبس » ، فقال له محاسن :« أنت مقصودك ان

يلسعني زنبــــور أخـــــر فيقتلني ». واصـــــبح جــــاء الى الرحا ، فلسعه ، زنبور ، فمات فـأيسر الاشياء يقتـل اذا فـرغ الأجل ، والفأل موكل بالمنطق .

فمن ذلك أنه ظهر عندنا بأرض شيزر سبع ، فركبنا اليه فـوجدنا غلاما للأمير اسمه شـماس ، فقـال له عمـي :«أين الأســد ؟» قال : « في تلك الحلفاء » قال :« سر قدامي اليهـا ». قـال :« انت مقصودك ان يخرج الاسد يأخذني» ومشى قدامه ، فخرج الأسد كأنه مرسل الى شماس فأخذه ، فقتله دون الناس ، وقتل الأسد .

وشاهدت من الأسد مـالم أكن لأظنه ، ولا اعتقـدت ان الأســد كالناس فيهــا الشــجاع وفيهــا الجبـــان ، وذلك أن جوبان (٩٢)الخيل جاءنا يوما يركض وقال :« في اجمة تل التلول ثلاثة سباع » ، فركبنا فخـرجنا اليهـا ، وإذا لبــوة خلفهــا اسدان ، فدرنا في تلك الأجمة ، فخرجت علينا اللبوة ، فحملت على الناس ووقفت ، فحمل عليهـا أخـي بهـاء الدولة ابـو المغيث منقذ ، رحمه الله ، طعنها قتلها ، وتكسر رمحه فيها .

ورجعنا الى الأجمة ، فخـرج علينا احـد الســبعين فـطرد الخيل ، ووقفت أنا وأخي بهاء الدولة في طريقه عند عودته من طـرد الخيل ، فإن الأسد اذا خرج من موضع لا بد له من الرجوع اليه بلا شبهة ، وجعلنا اعجاز خيلنا اليه ، ورددنا رمـاحنا نحـوه ونحـن نعتقد انه يقصدنا فنذشب الرماح فيه فنقتله ، فمـا راعنا الا وهــو عابر علينا كالريح الى رجل مـن اصـحابنا يقـال له ســعد الله الشيباني ، فضرب فرسه رماها ، فطعنته وسـطت القنطـارية فيه فمات مكانه .

ورجعنا الى الأسد الآخر ومعنا نحـو مـن عشرين راجـلا مـن الأرمن الاجناد رماة ، فخرج السبع الآخـر وهـو أعظمهـا خلقـة يمشي ، وعارضه الارمن بالنشاب ، وأنا معارض الأرمـن انتـظره

يحمل عليهم يأخذ واحدا منهم فأطعنه وهو يمشي ، وكلما وقعت فيه نشابة قد هدر ولوح بذنبه فأقول: « الساعة يحمل» ثم يعود يمشي ، فما زال كذلك حتى وقع ميتا ، فرأيت من ذلك الأسد شيئا ما ظننته .

ثم شاهدت من الاسد أعجب من ذلك .

كان بمدينة دمشق جرو أسد قد رباه سباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس به ، فقيل للأمير معين الدين ، رحمه الله ، وأنا عنده: « هذا السبع قد آذى الناس . وهو في الطريق » ، وكان على مصطبة بالقرب من دار معين الدين في النهار والليل ، فقال : « قولوا للسباع يجي به » . فقال للخوان سلار (٩٣) « أخرج من ذبائح المطبخ خروفا اتركه في قاعة الدار حتى نبصر كيف يكسره السبع». فأخرج خروفا الى قاعة الدار ، ودخل السباع ومعه السبع ، فساعة رآه الخروف ، وقد ارسله السباع من السلسلة التي في رقبته ، حمل عليه فنطحه ، فانهزم السبع وجعل يدور حول البركة والخروف خلفه يطرده وينطحه ، ونحن قد غلبنا الضحك عليه ، فقال الأمير معين الدين ، رحمه الله : «ذا سبع منحوس» أخرجوه اذبحوه واسلخوه ، وهاتوا جلده ». فذبحوه وسلخوه ، وأعتق ذلك الخروف من الذبح .

ومن عجيب امور السباع أن أسدا ظهر عندنا في أرض شيزر ، فخرجنا اليه ومعنا رجالة من أهل شيزر فيهم غلام للمعند (٩٤) الذي كان يطيعه اهل الجبل ويكاد ان يعبد ، ومع ذلك الغلام كلب له ، فخرج الاسد على الخيل ، فجالت قدامه جافلة ، ودخل في الرجالة ، فأخذ ذلك الغلام وبرك عليه ، فوثب الكلب على ظهر الاسد ، فنفر عن الرجل وعاد الى الأجمة ، خرج الرجل الى بين يدي والدي ، رحمه الله ، يضحك وقال :« يا

مولاي ، وحياتك ، ما جرحني ولا آذاني ». وقتلوا الأسد ، ودخل الرجل فمات في تلك الليلة من غير جرح أصابه الا انقطع قلبه .

فكنت أعجب من اقدام ذلك الكلب على الأسد ، وكل الحيوان ينفر من الأسد ويتجنبه .

ولقد رأيت رأس الأسد يحمل الى بعض دورنا فترى السنانير تهرب من تلك الدار وترمي نفوسها من السطوحات ، وما رأت الاسد قط ، وكنا نسلخ الأسد ونرميه من الحصن الى سفح الباشورة فلا تقربه الكلاب ولا شيء من الطير ، واذا رأت العقبان اللحم نزلت اليه ثم دنت منه صاحت وطارت ، وما أشبه هيبة الأسد على الحيوان بهيبة العقاب على الطير ، فان العقاب يبصره الفروج الذي ما رأى العقاب قط فيصيح وينهزم ، هيبة القاها الله تعالى في قلوب الحيوان لهذين الحيوانين.

وعلى ذكر السباع كان عندنا أخوان من أصحابنا يقال لهما بنو الرعام رجالة يترددان من شيزر الى اللاذقية ـ واللاذقية لعمي عز الدولة أبي المرهف نصر ، وفيها اخوه عز الدين ابو العساكر سلطان ، رحمهما الله ـ بالكتب بينهما قالا: «خرجنا من اللاذقية فأشرفنا من عقبة المبة ، وهي عقبة عالية تشرف على ما تحتها من الوطا ، فرأينا السبع وهو رابض على نهر تحت العقبة ، فوقفنا مكاننا ما نجسر على النزول من خوف الأسد ، فرأينا رجلا قد أقبل ، فصحنا اليه ولوحنا بثيابنا إليه نحذره من الأسد فما سمعنا ، وأوتر قوسه وطرح فيه نشابة ومشى ، فرآه الأسد فوثب إليه ، فضربه به ما أخطأ قلبه ، فقتله ، ومشى اليه فتمم قتله ، وأخذ نشابته وجاء الى ذلك النهر فنزع زربوله وقلع ثيابه ونزل اغتسل في الماء ، ثم طلع لبس ثيابه ، ونحن نراه ، وجعل ينفض شعره لينشفه من الماء ، ثم لبس فردة زربوله واتكى على جنبه وطول في الاتكاء ، فقلنا: والله ما قصر ، ولكن على من يتيه؟ ، ونزلنا إليه وهو على حاله فوجدناه ميتا ما ندري ما أصابه ، فنزعنا فردة الزربول من رجله وإذا فيه عقرب صغيرة قد

لسعته في ابهامه ، فمات لوقته ، فعجبا من ذلك الجبار الذي قتل الأسد وقتله عقرب مثل الاصبع ، فسبحان الله القادر النافذ المشيئة في الخلق

قلت: قاتلت السباع في عدة مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منها ما شركني في قتلها احد ، سوى ما شاركني فيه غيري ، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري ، فمن ذلك ان الاسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن ادم ويهرب منه وفيه غفلة وبله ، ما لم يخرج فحينئذ هو الأسد ، وذلك الوقت يخاف منه ، وإذا خرج من غاب أو أجمة وحمل على الخيل فلا بد له من الرجوع الى الاجمة التي خرج منها ، ولو أن النيران في طريقه ، وكنت أنا قد عرفت هذا بالتجربة ، فمتى حمل على الخيل وقفت في طريق رجوعه ، قبل ان يجرح ، فإذا رجع تركته الى ان يتجاوزني وطعنته ، فقتلته·

فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد لخفتها وبعد وثبتها ، وهي تدخل في المغارات والمحاجر كما تدخل الضباع ، والأسد ما تكون الا في الغابات والآجام ، وقد كان ظهر عندنا نمر في قرية يقال لها معرزف(٩٥) من أعمال شيزر ، فركب اليه عمي عز الدين ، رحمه الله ، وأرسل إلي فارسا وانا راكب في شغل لي يقول: «الحقني الي معرزف » ، فلحقته وجئنا الى الموضع الذي زعموا ان النمر فيه ، فما رأيناه ، وكان هناك جب ، فنزلت عن حصاني ومعي قنطارية وجلست على فم الجب ، وهو قصير نحو القامة وفي جانبه خرق كالحجر . فحركت القنطارية في ذلك الخرق الذي في الجب فخرج النمر برأسه من ذلك الخرق ليأخذ القنطارية ، فلما علمنا انه في ذلك الموضع نزل معي بعض اصحابنا ، وصار بعضنا يحرك ذلك الموضع بالرمح ، فاذا خرج طعنه الآخر ، وكلما اراد الصعود من الجب اوثقناه بالرماح ، حتى قتلناه ، وكان خلقة عظيمة ، إلا انه كان قد أكل من دواب القرية حتى عجر عن نفسه ، وهو دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعا·

وقـد كان في كنيســة حناك (٩٦) طــاقة في ارتفــاع اربعين ذراعا ، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب اليها ينام فيهـا الى آخـر النهار ، ويثب منها ينزل ويمضي ، ومقطع حناك ذلك الوقت فـارس افرنجي يقال له سير آدم من شياطين الافرنج ، فأخبروه خبر النمر فقال:«إذا رأيتموه أعلموني» فجـاء النمـر كعـادته وثــب الى تلك الطاقة ، فجاء بعض الفلاحين أخبر السير آدم ، فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء الى الكنيسة وهي خـراب ، إنمـا فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة ، فلما رآه النمر وثب من الطـاقة عليه ، وهـو على حصانه فكسر ظهره وقتله ومضى. فـكان فـلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد .

ومن خواص النمر انه اذا جـرح الانسـان وبـالت عليه فــأرة مات ، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر ، حتـى أنه يعمـل له سرير يجلس في الماء ويربط حوله السنانير خوفا عليه من الفأر .

والنمر لايكاد يألف بالناس ولا يستأنس بهـم ، وقـد كنت مـرة مجتازا بمدينة حيفا من الساحل ، وهي للافرنج ، فقال لي افرنجي منهم : «تشتري مني فهدا جيدا؟» قلت: «نعم» ، فجاءني بنمـر قـد رباه حتى صار في قد الكلب ، قلت: «لا، ما يصلح لي ، هذا نمر مـا هـو فهد فعجبت من أنسه وتصرفه مع الافرنجي .

والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمـر طــويل مثــل وجــه الكلب ، وعيناه زرق ، والفهد وجهه مدور وعيناه سود ، وقـد كان بعض الحلبيين أخذ نمـرا وجــاء بــه في عدل(٩٧) الى صــاحب القدموس ، وهــو لبعض بني محــرز ، وهــو يشرب ، ففتــح العدل ، فخرج النمر على مــن في المجلس . فـأما الأمير فـكان عند طاقة في البرج دخل منها وغلق عليه الباب ، وجال النمر في البيت قتل بعضهم وجرح بعضهم الى أن قتلوه .

وسمعت وما رأيت ان في السباع الببر (٩٨) ، ومـاكنت أصـدق

- ٥٦٦٩ -

ذلك ، فحدثني الشيخ الامام حجة الدين أبو هاشم محمد بن محمد ابن ظفر ، رحمه الله ، قال: «سافرت من المغرب ومعي غلام شيخ كان لوالدي قد سافر وجرب الامور ، ففرغ الماء الذي معنا وعطشنا وليس معنا ثالث ، إنما نحن أنا وهو على نجيبين ، فقصدنا ماء في طريقنا فوجدنا عليه الببر وهو نائم فاعتزلنا عنه ، ونزل صاحبي عن جمله وأعطاني زمامه وأخذ سيفه وترسه وقربة معنا وقال لي: احتفظ براس النجيب ، ومشى الى الماء ، فلما رآه الببر قام ووثب مستقبله حتى تجاوزه . ثم صاح فثارت اليه مجريات له عدوا لحقوه .وما عارضنا ولا آذانا ، فشربنا وأسقينا ثم مضينا ».

وهكذا حدثني ، رحمه الله ، وكان من خيار المسلمين في دينه وعلمه .(٩٩)

(تجارب حربية)

ومن عجيب الآجال لما نزل الروم الى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل ، وتبلغ حجرها ما لا تبلغه النشابة ، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ، ولقد رموا مرة دار صاحب لي يقال له يوسف بن أبي الغريب ، رحمه الله ، بفلت فوق (١٠٠) فهدمت علوها وسفلها بحجر واحد ، وكان على برج في دار الامير ، قنطارية فيها راية منصوبة ، وطريق الناس في الحصن من تحتها ، فضرب القنطارية حجر المنجنيق كسرها من نصفها ، وانقلب كسرها الذي فيه السنان تنكس ووقع الى الطريق ، ورجل من أصحابنا عابر ، فوقع السنان من ذلك العلو وفيه نصف القنطارية في ترقوته خرج الى الأرض وقتله .

وحدثني خطلخ مملوك لوالدي ، رحمه الله تعالى ، قال : «كنا في حصار الروم جلوسا في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو وقال: « يا مسلمين الحريم! دخل الروم معنا » فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور ثغرتها المجانيق . فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ، وخرجنا خلفهم حتى أوصلناهم إلى أصحابهم ، وعدنا فتفرقنا ، وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا ، فوقف وأدار وجهه الى الحائط يريق الماء ، فأعرضت عنه ، فسمعت وجبة ، فالتفت وإذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرته والصقته بالحائط ، ومخه قد سال على الحائط ، فحملته وصلينا عليه ودفناه في مكانه ، رحمه الله »

وضربت حجر المنجنيق رجلا من اصحابنا كسرت رجله ، فحملوه

الى بين يدي عمي وهو جالس في دهليز الحصن ، فقال: «هاتوا المجبر » ، وكان بشيزر رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير ، فحضر وجلس يجبر رجله وهو في سترة خارج باب الحصن ، فضربت الرجل المكسور حجر في رأسه طيرته ، فدخل المجبر الى الدهليز فقال عمي : «ما اسرع ما جبرته »! ، قال: «يا مولاي ، جاءته حجر ثانية أغنته عن التجبير».

قصد الفرنج دمشق

ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار أن الافرنج ، خذلهم الله ، أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها ، فاجتمع منهم خلق كثير . وسار اليهم صاحب الرها وتل باشر وصاحب أنطاكية ، فنزل صاحب انطاكية على شيزر في طريقه الى دمشق ، وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها واشتراها البرجاسية ووزنوا لهم أثمانها وما عندهم شك في فتحها وملكها ، وكفر طاب اذ ذاك لصاحب أنطاكية ، فجرد من عسكره مائة فارس انتخبهم وامرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة ، فلما سار الى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب ، وأنفذوا رجلا من أصحابنا يقال له قنيب بن مالك ، فجس لهم كفرطاب في الليل ، فوصلها دارها وعاد وقال: «ابشروا بالغنيمة والسلامة»..

فسار المسلمون اليهم فالتقوا على بتكين ، فنصر الله سبحانه الاسلام وقتلوا الافرنج جميعهم ، وكان قنيب الذي جس لهم كفرطاب قد رأى في خندقها دواب كثيرة ، فلما ظفروا بالافرنج وقتلوهم طمع في اخذ تلك الدواب التي في الخندق ورجا ان يفوز بالغنيمة وحده ، فمضى يركض الى الخندق ، فرمى عليه رجل من الافرنج من الحصن حجرا فقتله ، وكانت له عندنا والدة عجوزكبيرة تندب في مأتمنا ثم تندب ولدها ، فكانت اذا ندبت على ابنها قنيب

تتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها ، فاذا فرغت من ندبهـا عليه وسكنت لوعتها عادت ثـديـاها كالجلدتين مـا فيهمـا قـطرة لبن ، فسبحان من اشرب القلوب الحنية على الاولاد .

ولما قيل لصاحب انطاكية وهو على دمشق: «قد قتـل المسـلمون اصحابك » ، قال: «ما هـو صحيح ، قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم ».

وقضى الله سـبحانه أن المسـلمين بـدمشق نصروا على الافرنج ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخذوا جميع دوابهم ، فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله ، والحمد لله رب العالمين .

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بـالافرنج انه كان في عسـكر حماة اخوان كرديان اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز ، وكان هذا عناز ضعيف النظر ، فلما كسر الافـرنج وقتلوا قـطعوا رؤوسـهم وشدوها في سموط خيلهـم ، وقـطع عناز راسـا وشـده في سموطه ، فرآه ، قوم من عسكر حماة فقالوا له: «يا عناز ، اي شيء هذا الرأس معك ؟» قال: «سـبحان الله لما جـرى بيني وبينه حتـى قتله » ، قالوا له: «يا رجـل ، هـذا رأس أخيك بـدر!» فنظـره وتأمله ، فإذا هو رأس أخيه ، فاستحيى مـن الناس وخـرج مـن حماة ، فما ندري اين قصد ولا عدنا سمعنا له خبرا ، وكان أخـوه بدر قتل في تلك الوقعة قتله الافرنج ، خذلهم الله تعالى .

اذكرني ضرب حجر المنجنيق رأس ذلك الشيخ رحمه الله ، ضرب السيوف الماضية ، فمن ذلك أن رجلا من اصحابنا يقـال له همـام الحاج التقى هو ورجل مـن الاسـماعيلية ، لما عملوا على حصـن شيزر ، في رواق في دار عمـي ، رحمـه الله ، وفي يد الاسـماعيلي سكين والحاج في يده سيف ، فهجم عليه الباطني بالسكين ، فضربه همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخـه على الأرض فانبسط عليها وتطاير ، فوضع همام السيف مـن يده وتقيأ مـا في

بطنه لما لحقه من نظـر ذلك المخ مـن الغشيان ، ولقيني في ذلك اليوم واحد منهم في يده سيخ وفي يدي سيف لي فهجم علي بالسيخ فضربته في وسط ساعده ، والسـيخ في يده قبضـته ونصـله لاصـق بساعده ، فقطع قد أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد مـن نصفه ، فأبانه ، وبقي أثر فم السيخ في حد السيف ، فـرآه صـانع عندنا فقـال: « انا أخـرج هـذا الثلم منه » ، قلت: « دعه كمـا هو ، فهو أحسن ما فيه » ، وهو الى الآن اذا رآه الانسان علم انه اثر سكين

ولهذا السيف خبر انا ذاكره

كان للوالد ، رحمه الله ركابي يقال له جـامع فـأغار الفـرنج علينا ، فلبس الوالد كزاغنده وخرج مـن داره ليركب ، فمـا وجـد حصانه ، فوقف ساعة ينتـظره ، فـوصل جـامع الركابـي بالحصان ، وقد ابطأ ، فضربه الوالد بهذا السـيف وهـو في غمـده متقلد به ، فقطع الجهاز والنعل الفضـة وبشتا(١٠)كان على الركابي وصوفية وعظم مرفقة ، فرميت يده • فـكان رحمـه الله يقـوم بـه وبأولاده بعد تلك الضربة ، وكان السيف يسـمى الجـامعي بـاسم ذلك الركابي .

ومن ضربات السيوف المذكورة أن أربعة أخوة من أنساب الأمير افتخار الدولة أبي الفتوح بن عمـرون صـاحب حصـن ابـو قبيس صعدوا اليه الحصن وهو نائم أوثقوه بالجراح ، وما معه في الحصن غير ابنه ، ثم خرجوا وهم يظنون أنهم قد قتلوه يريدون ابنه ، وكان هذا افتخار الدولة قد آتاه الله من القوة أمرا عظيمـا ، فقـام مـن فراشه عريانا ، وسيفه معلق في البيت معه ، فأخذه وخرج اليهم ، فلقيه واحد منهم وهو مقدمهم وشجاعهم ، فضربـه افتخـار الدولة بالسيف وقفز من مقابله خوفا مـن ان يصـل اليه بسـكين كانت في يده ، ثم التفت اليه فوجده ملقى قد قتله بتلك الضربة ، وصـار الى الآخر ضربة قتله.

وانهزم الاثنان الباقيان ، فرميا انفسهما من الحصن ، فمات احدهما ونجا الآخر .

وأتانا الخبر إلى شيزر . فنفذنا من هنأه بالسلامة . وطلعنا بعد ثلاثة أيام إلى حصن أبو قبيس لعيادته ، فان اخته كانت عند عمي عز الدين وله منها أولاد ، فحدثنا حديثه وكيف كان أمره ، ثم قال « متن كتفي يحكني ، وما أصل اليه » ، ودعا غلاما له ليبصر ذلك الموضع أي شيء قرصه فيه ، فنظر فاذا هو جرح وفيه رأس دشن(١٠٢) قد انكسر في ظهره ، وما معه منه علم ولا أحس به ، فلما قاح حكه .

وكان من قوة هذا الرجل أنه كان يمسك رسغ رجل البغل ويضرب البغل فلايقدر يخلص رجله من يده ، ويأخذ المسمار البيطاري بين اصابعه ويدفنه في دف خشب البلوط ، وكان أكله مثل قوته لا بل أعظم .

قد ذكرت شيئا من أفعال الرجال ، وسأذكر شيئا من أفعال النساء ، بعد بساط اقدمه .

وذلك أن انطاكية كانت لشيطان من الافرنج يقال له روجار ، فمضى يحج إلى البيت المقدس ، وصاحب البيت المقدس بغدوين الرويس وهو رجل شيخ ، وروجار شاب ، فقال لبغدوين « اجعل بيني وبينك شرطا ،إن مت قبلك كانت أنطاكية لك ، وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي » ، فتعاقدا وتواثقا على ذلك .

وقدر الله تعالى أن نجم الدين ايلغازي بن أرتق ، رحمه الله ، لقي روجار بدانيث يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة وخمس مائة فقتله وقتل جميع عسكره ، ولم يدخل انطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا .وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلمها .

وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما ، وكان إيلغـــازي اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما ، فشرب بعد كسر الافرنج وقتلهم ودخل في الخمار فما أفاق حتـــى وصـــل الملك بغـــدوين الرويس إلى انطاكية بعسكره .

فكان المصاف الثاني بينهما على الســـواء ، كسر بعض الفـــرنج بعض المسلمين ، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج ، وقتـــل مـــن هـؤلاء وهـؤلاء جماعة ، وأسر المسلمون روبـــرت صـــاحب صـــهيون وبلاطنس (١٠٣) وتلك الناحية ، وكان صديقا لاتابك طغدكين صاحب دمشق ذلك الوقت ، وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالافرنج في أفامية حين وصل عساكر الشرق مع برسق بن برسق ، فقال هذا روبرت الابرص لاتابك طغدكين : « مـــا أدري بـــأي شيء أضـــيفك ، ولكن قد ابحتك بلادي ، انفذ خيلك تغير عليها وتأخذ كلما وجـــدوه ، بس لايسبوا ولايقتلوا ، الدواب والمال والغلة لهم يأخذون ذلك مباحا لهم » ، فلما اسر روبرت ، وأتابك طغدكين حاضر المصاف في معونة ايلغازي ، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار فقال إيلغازي : « امضوا به إلى اتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة » ، فمضوا به وأتابك في خيمته يشرب ، فلما رآه مقبلا قـــام شـــمر أنيال قبـــائه في البند وأخذ سيفه وخرج إليه ضرب رقبته ، فنفذ إليه إيلغازي يعتـــب عليه وقال : « نحن محتاجون الى دينار واحد للتركمان ، وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار دفنته إليك تُفزعه لعله يزيدنا في القطيعة ، قتلته ! » قال : « انا ما احسن افزع الا كذا »

ثم ملك بغدونين الرويس أنطاكية . وكان لأبي وعمي ، رحمهمـــا الله ، عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك ، رحمه الله ، وصار بعد قتل بلك الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغـــازي ، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهمـــا الله بيعـــه ، فـــأحسنا إليه . فلما ملك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطعية ســـامحنا بهـــا . وصار أمرنا في أنطاكية نافذا .

فهو فيما هو فيه ، وعنده رسول من أصحابنا ، إذ وصل مركب الى السويدية فيه صبي عليه اخلاق ، فحضر عنده وعرفه انه ابن بيموند ، فسلم انطاكية إليه وخرج منها ضرب خيمه في ظاهرها ، فحلف لنا رسـ ـــــــــــ ولنا الذي كان عنده أنه – يعني الملك بغدوين – اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق ، وأهراء انطاكية ملأى من الغلة . ورجع بغدوين الى القدس .

وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن بيموند بلية عظيمة ، فنزل علينا يوما من الايام بعسكره ، فضرب خيامه ، ونحن قد ركبنا مقابلهم ، فما خرج إلينا منهم أحد ونزلوا في خيامهم ، ونحن ركاب على شرف نبصرهم ، وبيننا وبينهم العاصي ، فنزل من بيننا ابن عمي ليث الدولة يحيى بن مالك بن حميد ، رحمه الله ، يسير الى العاصي ، فظنناه يسقي فرسه ، فخاض الماء وعبر وسار نحو موكب للافرنج واقف بالقرب من خيامهم ، فلما دنا منهم نزل اليه فارس واحد ، فحمل كل واحد منهما على صاحبه ، وراغ كل واحد منهما عن طعنة الاخر ، فتسرعت أنا وأمثالي من الشباب ذلك الوقت إليهما ، ونزل الموكب وركب ابن بيموند وعسكره وجاؤوا كالسيل ، وصاحبنا قد طعنت فرسه ، فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم . وفي اجنادنا رجل كردي يقال له ميكائيل قد جاء في أوائل خيلهم منهزما ، وخلفه فارس أفرنجي قد لزه ، والكردي بين يديه ضجيج وصياح عال ، فلقيته ، فمال عن ذلك الفارس الكردي وزل عن طريقي وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا ، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه ، فلا يلحقه ، ولا الأفرنجي يلتفت إلي إلا يريد تلك الخيل المجتمعة الى ان وصل الى خيلنا ، وانا تابعه . فطعن اصحابي حصانه طعنة أوثقته واصحابه في إثره في جمع ما لنا بهم قوة ، فرجع الفارس وحصانه في آخر رمقه التقاهم فردهم جميعهم ، وعاد ، وهم معه ، وكان الفارس ابن بيموند » صاحب انطاكية وهو صبي قد امتلا قلبه من الرعب ، ولو ترك أصحابه هزمونا إلى أن يدخلونا المدينة .

كل ذلك وأمة عجوز يقال لهـا بـريكة مملوكة لرجـل كردي مـن أصحابنا يقال له علي بن محبوب واقفة بين الخيل على شط النهر في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس ، واكثر اصحابنا الذين كانوا على الشرف لما رأوا الافرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة وتلك الشيطانة واقفة لايروعها ذلك الامر العظيم .

وانا ذاكر شيئا من أمر هذه بريكة ، وإن لم يكن موضعه ، لكن الحديث شجون كان مولاها علي يتدين ولايشرب الخمر ، فقال لوالدي يوما « والله ، ياأمير ، ما استحل أكل من الديوان ولا آكل إلا من كسب بريكة » ، وهو الجاهل يظن ان ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذي هو مستأجر به .

وكانت هذه الامة لها ولد اسمه نصر رجل كبير ، وكيلا في ضيعة للوالد ، رحمه الله ، وهو رجل يقال له بقية بن الاصيفر .

حدثني قال : « دخلت في الليل إلى البلد أريد الدخول إلى داري في شغل لي ، فلما دنوت من البلد رأيت بين المقابر في ضوء القمر شخصا ما هو آدمي ولا هو وحش ، فوقفت عنه وتهيبة ، ثم قلت في نفسي : « ما أنا بقية ! ما هذا الخوف من واحد ؟ » فوضعت سيفي ودرقتي والحربة التي معي ومشيت قليلا قليلا ، وانا اسمع لذلك الشخص زجلا وصوتا ، فلما قربت منه وثبت عليه وفي يدي دشني فقبضته ، وإذا بها بريكة مكشوفة الراس قد نفشت شعرها وهي راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول ، قلت : « ويحك ! أي شيء تعملين في هذا الوقت هاهنا ؟» قالت : « أسحر » قلت : « قبحك الله وقبح سحرك وصنعتك من بين الصنائع ! »

اذكرني قوة نفس هذه الكلبة بأمور جرت للنساء في الوقعة التي كانت بيننا وبين الاسماعيلية ، وإن لم تكن سواء

لقي في ذلك اليوم مقدم القوم علوان بن حراز ابن عمي سنان

الدولة شبيب بن حامد بن حميد ، رحمه الله في الحصن ، وهو تربي ولدتي ولدت أنا وهو في يوم واحد يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة إلا أنه ما باشر الحرب حتى ذلك اليوم ، وأنا كنت قطبها ، فأراد علوان اصطناعه .

فقال له : « ارجع الى بيتك ، احمل منه ما تقدر عليه ورح لاتقتل ، فالحصن قد ملكناه » ، فرجع الى الدار وقال : « من كان له شيء يعطيني إياه ــ يقول ذلك لعمته ونساء عمه ــ فكل منهم اعطاه شيئا ، فهو في ذلك وإذا انسان قد دخل الدار عليه زربية وخونة ومعه سيف وترس ، فلما راه أيقن بالموت ، فوضع الخونة ، وإذا هي أم ابن عمه ليث الدولة يحيى ، رحمه الله ، فقالت : « أي شيء تريد تعمل ؟ » قال : « آخذ ما قدرت عليه ، وأنزل من الحصن بحبل ، وأعيش في الدنيا » ، قالت : « بئس ما تفعل ، تخلي بنات عمك وأهلك للحلاجين وتروح ؟ أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ، فعل الله بك وفعل » ، ومنعته ، رحمها الله ، من الهرب . وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك .

وفي ذلك اليوم فرقت والدتي ، رحمها الله ، سيوفي وكزاغنداتي ، وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن ، وقالت : « البسي خفك وإزارك » فلبست وأخذتها الى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن ،ونصرنا الله سبحانه عليهم ، وجئت إلى داري أطلب شيئا من سلاحي ما وجدت إلا جهازات السيوف وعيب الكزاغندات ، قلت : « ياأمي ، أين سلاحي ؟ » قالت : « يابني ، أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا ، وما ظننتك سالما » . قلت : « فأختي أي شيء تعمل هاهنا ؟ » قالت : « يابني ، اجلستها علي الروشن وجلست برا منها ، إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة » ، فشكرتها على ذلك

وشكرتها الاخت وجزتها خيرا ، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال .

وتلثمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدي الأمير أبي الحسن علي ، رحمه الله ، يقال لها فتون . فأخذت سيفا وخرجت إلى القتال ، ومازالت كذلك حتى صعدنا وتكاثرنا عليهم .

وما يذكر للنساء الكرام الانفة والنخوة والاصابة في الرأي .

ولقد خرجت يوما من الايام مع الوالد ، رحمه الله ، إلى الصيد ، وكان مشغوفا بالصيد عنده من البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغارية ما لايكاد يجتمع عند غيره ، ويركب في أربعين فارسا من أولاده ومماليكه كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص ، وله بشيزر متصيدان : يوما يركب إلى غربي البلد الى أزوار وأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والارانب والغزلان ويقتل الخنازير ، ويوما يركب إلى الجبل قبلي البلد يتصيد الحجل والارانب ، فنحن في الجبل يوما وقد حانت صلاة العصر فنزل ونزلنا نصلي فرادى ، وإذا غلام قد جاء يركض قال : « هذا الأسد » ، فسلمت قبل الوالد ، رحمه الله ، لكيلا يمنعني من قتال الأسد ، وركبت ومعي رمحي فحملت عليه ، فاستقبلني وهدر ، فحاص بي الحصان ووقع الرمح من يدي لثقله وطردني شوطا جيدا ، ثم رجع إلى سفح الجبل وقف عليه وهو من أعظم السباع كأنه قنطرة ، جائع ، وكلما دنونا منه نزل من الجبل طرد الخيل وعاد الى مكانه . وما ينزل نزلة إلا يؤثر في أصحابنا .

ولقد رايته ركب مع رجل من غلمان عمي يقال له سبتكين غرزة على وركي حصانه وخرق بمخالبه ثيابه وراناته وعاد الى الجبل ، فما كان لي فيه حيلة إلا أن صعدت فوقه في سفح الجبل ، ثم حدرت حصاني عليه فطعنته نفذت الرمح فيه وتركته في جانبه ، فتقلب الى أسفل الجبل والرمح فيه ، فمات الاسد ، وانكسر الرمح ، والوالد ،

رحمــه الله واقــف يرانا ومعــه أولاد أخيه عز الدين يبصرون مـــا يجري ، وهم صبيان .

وحملنا الاسد ودخلنا البلد العشاء ، واذا جدتي لابـي ، رحمهـا الله ، قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة ـ وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة ـ فما شككت انهـا قـد جـاءت تهنئني بالسلامة وتعرفني مسرتها بما فعلت ، فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب : « يابني ، ايش يحملك على هــذه المصــائب التــي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ، ويزداد قلب عمك منك وحشة ونفورا ؟ »قلت « يا ستي، إنما اخــاطر بنفسي في هــذا ومثله لاتقرب إلى قلب عمي » ، قالت : « لا والله ، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا » ، فعلمت أنها ، رحمهـا الله ، نصحتني في قولها وصدقتني ، ولعمري إنهن أمهات الرجال .

ولقد كانت هذه العجوز ، رحمها الله ، من صالحي المسلمين من الدين والذمة والصوم والصلاة على أجمل طريقة ، ولقـد حضرتهـا ليلة النصف من شعبان وهي تصلي عند والدي ، وكان رحمه الله ، مـــــــــــــــــن احســـــــــــــــــن من يتلو كتاب الله تعالى ، ووالدته تصلي بصلاته ، فـأشفق عليهـا فقال : « يا أمي لو جلست صليت من قعـود » ، قـالت : « يابني ، بقي لي من العمر ما أعيش إلى ليلة مثل هــذه الليلة ؟ لا والله ، مـا اجلس » . وكان الوالد قد بلغ السبعين سنة وهي قد شـارفت المائة سنة ، رحمها الله .

وشاهدت من نخوات النساء عجبا ، وهو أن رجلا من أصــحاب خلف بن ملاعب يقال له علي عبد بن أبي الريداء كان قد رزقــه الله تعالى من النظر ما رزق زرقاء اليمامة ، فكان ينهض مع ابن ملاعب يبصر القوافل على مسيرة يوم كامل .

ولقد حدثني رجل من رفاقه يقال له سالم العجائزي ، انتقل إلى

خدمة والدي بعد ما قتل خلف بن مـلاعب قـال : « نهضـنا يومـا وأرسلنا عليا عبد بن ابي الريداء بكرة يدبدب لنا(١٠٤) ، فجـاءنا وقال : « ابشروا بالغنيمة ! هذه قافلة كثيرة مقبلة ، فنظرنا ما رأينا شيئا ، فقلنا : « ما نرى قافلة ولاغيرها ، قال : « والله ، إني لأرى القافلة وقدامها فرسان مجنبـان يذفضـان معـارفهما ، فـأقمنا في الكمين إلى العصر ، فوصلتنا القافلة والفرسان المجنبـان قـدامها فخرجنا أخذنا القافلة » .

وحدثني سالم العجائزي قال : « نهضنا يوما وصـعد علي عبـد ابن أبي الريداء يدبدب لنا ، فنام ومادرى إلا أخذه تركي مـن سرية أتراك ناهضه وقالوا : « اي شيء أنت ؟» قال : « أنا رجل صـعلوك قد اكريت جملي لرجـل مـن التجـار في القـافلة ، أعطني يدك أنك تعطيني جملي حتى ادلكم على القافلة ، فأعطاه مقدمهم يده ، فمشى بين ايديهـم الى أن أوصـلهم إلينا إلى الكمين ، فخـرجنا عليهـم أخذناهم ، وتعلق هو بالذي كان بين يديه اخذ فرسه وعدته ، وغنمنا منهم غنيمة حسنة » .

فلما قتل ابن ملاعب انتقل علي عبد بن أبـي الريداء إلى خـدمة توفيل الافرنجي صـاحب كفـرطاب ، فـكان ينهض بـالافرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين واخذ مالهم وسـفك دمهـم حتى قطع سبل المسافرين ، وله امراة معه بكفر طاب تحت يدي الافرنج تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي ، فنفذت أحضرت نسيبا لها من بعض الضـياع ، وأظنه أخـاها ، وأخفتـه في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبـي الريداء قتـلاه ، واحتملا بجميع مالها .

واصبحت عندنا بشيزر ، وقالت : « غضبت للمسلمين ممـا كان يفعل بهم هذا الكافر » ، فأراحت الناس من هذا الشيطان ، ورعينا لها ما فعلت وكانت عندنا في الكرامة والاحترام .

وكان في أمراء مصر رجل يقال له بدي الصليحي في وجهه ضربتان الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه ، فسألته عنهما فقال . « كنت انهض وأنا شاب من عسقلان ، وأنا راجل ، فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس أريد حجاج الافرنج ، فصادفنا قوما منهم ، فلقيت رجلا معه قنطارية وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء . فطعني الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته فمشت إلي امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي .

ومن إقدام النساء أن جماعة من الافرنج الحجاج حجوا وعادوا الى رفنية ، وكانت ذلك الوقت لهم ، وخرجوا منها يريدون أفامية ، فتاهوا في الليل وجاءوا الى شيزر وهي اذ ذاك بغير سور ، فدخلوا المدينة وهم في نحو من سبع مائة ثمان مائة رجال ونساء وصبيان ، وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع ، رحمهما الله ، ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين ووالدي رحمه الله في الحصن ، فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل فرأى أفرنجيا ، فعاد أخذ سيفه وخرج قتله ، ووقع الضياح في البلد ، وخرج الناس فقتلوهم وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم .

وفي شيزر امرأة من نساء اصحابنا يقال لها نضرة بنت بوز رماط خرجت مع الناس أخذت أفرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت أخر ادخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج ، فاخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم .

ووصل عماي والعسكر في الليل ، وقد كان انهزم من الافرنج ناس وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد ، فصارت

الخيل تعثر في الليل في القتلى ، ولايدرون بماذا تعثر ، حتى ترجل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام ، فهالهم ذلك واعتقدوا أن البلد قد كبس .

وكانت غنيمة ساقها الله عز وجل إلى الناس ، فصار إلى دار والدي ، رحمه الله ، عدة من الجواري من سبيهم ، وهم ، لعنهم الله ، جنس ملعون لايألفون لغير جنسهم ، فرأى منهم جارية مليحة شابة فقال لقهرمانة داره : « ادخلي هذه الحمام ، واصلحي كسوتها ، واعملي شغلها للسفر » ، ففعلت ، وسلمها إلى بعض خدامه وسيرها إلى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه ، وكتب إليه يقول : « غنمنا من الافرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها » ، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما وتدلت من القلعة بحبل ومضى بها أؤلئك الى سروج ، وهي إذ ذاك للافرنج ، فتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر .

وكان في أولئك الذين صاروا الى دار والدي امرأة عجوز ومعها بنت امرأة شابة حسنة الخلقة وابن مشتد ، فاسلم الابن وحسن اسلامه فيما يرى من صلاته وصومه ، وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي ، فلما طال مقامه زوجه الوالد بامرأة من قوم صالحين ، وقام له بكل ما احتاجه لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين ، والغلام راؤول أبوهما مسرور بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته وأصبح بافامية عند الافرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، فالله تعالى يطهر الدنيا منهم .

(طبائع الافرنج واخلاقهم)

سبحان الخالق الباري ، إذا خبر الانسان أمور الافرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل ، وساذكر شيئا من أمورهم وعجائب عقولهم .

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأنس بي وصار ملازمي يدعوني « اخي » وبيننا المودة والمعاشرة ، فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : «ياأخي ، أنا سائر الى بلادي ، وأريدك تنفذ معي ابنك ، وكان ابني معي ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل » ، فطرق سمعي كلام ما يخرج من راس عاقل ، فإن ابني لو أسر ما بلغ به الاسر أكثر من رواحه إلى بلاد الافرنج ، فقلت · « وحياتك ، هذا الذي كان في نفسي ، لكن منعني من ذلك ان جدته تحبه وماتركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها » ، قال :«وأمك تعيش؟ » قلت :«نعم» قال :«لا تخالفها»

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة(١٠٥) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : « ما أسرع ما داويت المرضى !» قال : « أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم · « هذا ما يعرف شيء يداويهم » وقال للفارس: « أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟» قال : « أعيش برجل واحدة » قال : « احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا » . فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط

ساقه على قرمة خشب وقال للفارس : أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، وأبصر المرأة فقال : « هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها » فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقي لكم إلي حاجة ؟ قالوا : « لا » فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » .

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم يقال له برناد ، لعنه الله ، من ألعن الافرنج وأرجسهم ، فرمحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب أفرنجي فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان .

ومن عجيب طبهم أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له أبو الفتح ، له ولد قد طلع في رقبته خنازير ، وكلما ختم موضع فتح موضع ، فدخل انطاكية في شغل له وابنه معه ، فرآه رجل افرنجي فسأله عنه فقال : « هو ولدي » ، قال : « تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواء يبرئه ؟» فحلف . فقال : « تأخذ له اشنانا غير مطحون تحرقه وتربيه بالزيت والخل الحاذق وتداويه به حتى يأكل الموضع ، ثم خذ الرصاص المحرق وربه بالسمن ، ثم داوه به فهو يبرئه » ، فداواه بذلك فبرأ ، وختمت تلك الجراح . وعاد إلى ما كان عليه من الصحة .

وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء فنفعه وأزال ما كان يشكوه .

فكل من هو قريب العهد بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين .

فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس ، دخلت الى المسجد الاقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة ، فكنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه ، فدخلته يوما فـــكبرت

ووقفت في الصلاة . فهجم علي واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال :« كذا صل !» فتبادر قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني ، وعدت أنا الى الصلاة ، فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي الى الشرق وقال : « كذا صل !» ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إلي ، وقالوا : « هذا غريب وصل من بلاد الافرنج في هذه الايام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق » ، فقلت : « حسبي من الصلاة !» فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

ورأيت واحدا منهم جاء إلى الامير معين الدين ، رحمه الله ، وهو في الصخرة فقال : « تريد تبصر الله صغيرا ؟» قال : « نعم » ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : « هذا الله صغير » ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل في دار

رجل يقال له معز،دار ه عمارة المسـلمين لهـا طـاقات تفتـح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الاخر دار لرجل افـرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول : « فـلان التاجر قد فتح بتيه(١٠٦) من هذا الخمر . من اراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا » ، واجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة ، فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفـراش فقـال له : « أي شيء ادخلك إلى عند امرأتي ؟» قال : « كنت تعبـان دخلت اسـتريح » ، قال : « فكيف دخلت الى فراشي ؟» قال : « وجدت فراشا مفـروشا نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟» ، قال : « الفراش لهـا ، كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال :«وحق ديني ،إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي ، رحمه الله ، قال : « فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها ، فدخل اليها فارس منهم ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه ، فرآني ، وأنا قريب عهد بحلق عانتي ، فقال : « سالم ، فتقـربت منه ، فمـد يده على عانتي وقال : سالم ، جيد ! وحـق ديني اعمـل لي كذا » ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته فمـر يده عليه فاستوطأه(١٠٧) فقـال: « سـالم ، بحـق دينك اعمـل للداما » ـ والداما بلسانهم الست ـ يعني امرأته ، وقال لغلام له : « قل الداما تجيء ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلهـا ، فـاستلقت على ظهرها وقال : « اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ووهبني حق خدمتي » .

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم : ما فيهـم غيرة ولانخـوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الاحدوثة .

ومما يقارب هذا أنني دخلت الحمام بمدينة صور فجلست في خلوة

فيها ، فقال لي بعض غلماني في الحمـام : « معنا امـرأة » ، فلمـا خرجت جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام قد خـرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم اتحقـق أنهـا امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : « بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ » وأنا اقصد ان يسال عنهـا ، فمضى ، وأنا أراه ، رفـع ذيلهـا وطلع فيها ، فالتفت إلي أبوها وقال : « هذه ابنتي ، ماتت أمها وما لهـا من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسـها » ، قلت : « جيد عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبـرية ، وكان مقدما فيهم ، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا في الطـريق قـال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت ، فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فـلانا ؟ قال : « نعم »

ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي ، فلمـا رآه قال : « اعطوني شمعا ، فأحضرنا له قليل من الشمع ، فلينه وعمله مثل عقد الاصبع ، وعمل كل واحدة في جانب انفه ، فمات الفارس .

فقلنا له : « قد مات » قال : « نعم ، كان يتعذب سددت أنفـه حتى يموت ويستريح » .

دع ذا وعد القوم في هـرم

نرجع من حديث مجاريهم :

حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خـرج الفـرسان يلعبـون بالرماح وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفـوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخـر خنزيرا سـمطوه وطـرحوه على صـخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحـدة منهـن سرية مـن الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقعـن ويقعـن على كل خـطوة ، وهـم

يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها .

وشهدت يوما بنابلس وقد احضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : « هو دل الحرامية على الضيعة » ، فهرب . فنفذ الملك فقبض أولاده ، فعاد إليه وقال : « انصفني ، أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية » ، فقال الملك لصاحب القرية المقطع : « أحضر من يبارزه » ، فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فأخذه ، وقال له : «تبارز» اشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته ، فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلي و يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند(١٠٨) وهو شحنة البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة .

والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد ، وهو يتآخر حتى يلجئه الى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الامر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، واعيى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره ،فبرك عليه الحداد يداخل اصابعه في عينيه ولايتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله ، فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا وجروه شنقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف . وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله

ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس ، فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى

خدمته إلى دمشق ، ففعـل ، وسـألت عنه فخبـرت أن أمــه كانت متزوجة لرجل أفرنجي فقتلته ، وكان ابنهـا يحتـال على حجـاجهم ويتعاون هـو وأمه على قتلهـم ، فـاتهموه بـذلك وعملوا له حـكم الافرنج . جلسوا بتيه عظيمة وملأوها ماء ، وعرضـوا عليهـا دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورمـوه في البتية ، فإن كان بريا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحـرص ذلك لما رمـوه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه .

ثم إن الرجل وصل إلى دمشـق فـأجرى له الامير معين الدين ، رحمه الله ، ما يحتـاجه ، وقـال لبعض غلامـانه : « تمضي بـه إلى برهـان الدين البلخي ، رحمه الله ، تقول له : تأمر من يقـرىء هـذا القرآن ، وشيئا مـن الفقـه » ، فقـال له ذلك الاعمـى : « النصر والغلب ، ما كان هذا ظني » ، قال : « ومـا ظننت بـي ؟ قـال : « تعطيني الحصان والبغلة والسلاح وتجعلني فارسا » ، قال : « ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان » .

ومن الافرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصـلح مـن القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لايقاس عليه .

فمن ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطـاكية في شـغل ، وكان بهـا الرئيس تادرس بن الصفي وبيني وبينه صداقة ، وهـو نافذ الحكم في أنطاكية ، فقال لصاحبي يوما : « قد دعاني صديق لي من الافـرنج ، تجيء معي حتى ترى زيهم » ، قال : « فمضيت معه فجـئنا الى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الافرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكية ملك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاما في غاية النظافة والجـودة . ورآني متـوقفا عن الاكل ، فقال : كل طيب النفس ، فأنا ما أكل من طعـام الافـرنج ، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن . ولايدخل داري لحم خنزير ، فأكلت وأنا محتزر وانصرفنا .

- ٥٦٩١ -

فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول ، فاجتمع علي خلق من الافرنج ، فايقنت بالهلاك ، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : « ما لك ولهذا المسلم ؟» قالت : « هذا قتل أخـــي عرس وكان هــذا عرس فارسا بافامية قتله بعض جند حماة . فصاح عليهــا وقــال : « هذا رجل بــرجاسي ـ اي تــاجر ـ لايقــاتل ولايحضر القتــال ، وصاح على أولئك المجتمعين ، فتفرقوا واخــذ بيدي ومضى ، فــكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل» .

من عجائب القلوب

ومن عجائب القلوب أن الانسان يخوض الغمرات ويركب الاخطار ولايرتاع قلبه من ذلك ، ويخاف مما لايخاف منه الصبيان ولا النسوان .

ولقد رأيت عمي عز الدين أبا العساكر سلطان ، رحمه الله ، وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة ، وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ، وقام من الموضع الذي يراها فيه .

وكان في غلمانه رجل شجاع معروف بالشجاعة والاقدام اسمه صندوق ، يفزع من الحية حتى يخرج من عقله ، فقال له والدي ، رحمه الله ، وهو واقف بين يدي عمي : « ياصندوق ، أنت رجل جيد معروف بالشجاعة ما تستحي تفزع من الحية ؟» قال : « يامولاي ، وأي شيء في هذا من العجب ؟ في حمص رجل شجاع بطل من الابطال يفزع من الفأرة ويموت » ـ يعني مولاه ـ فقال له عمي ، رحمه الله : « قبحك الله ياكذا كذا »

ورأيت مملوكا لوالدي ، رحمه الله ، يقال له لؤلؤ ، وكان رجلا جيدا مقداما ، وقد خرجت ليلة من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم أريد أحمل عليها من الجبل خشبا قد قطعته هناك لناعورة لي ، فسرنا من ظاهر شيزر ونحن نظن أن الصبح قد دنا ، فوصلنا إلى قرية يقال لها دبين(١٠٩) وما تنصف الليل ، فقلت : « انزلوا ما ندخل الجبل في الليل »

فلما نزلنا واستقررنا سمعنا صهيل حصان ، فقلنا : « الافرنج !» فركبنا في الظلام وأنا أحدث نفسي أني اطعن واحدا منهم وأخذ حصانه ويأخذ دوابنا الرجال الذين مع الدواب ،

فقلت للؤلؤ وثلاثة من الغلمان :« تقدموا ، اكشفوا هذا الصهيل » ، فتقدموا يركضون ، فلقوا أولئك وهم في جمع وسواد كثير ، فسبق اليهم لؤلؤ وقال : « تكلموا ، والا اقتلكم كلكم » ، وهو رام جيد ، فعرفوا صوته وقالوا « حاجب لؤلؤ ؟» قال : « نعم » ، وإذا هم عسكر حماة مع الأمير سيف الدين سوار (١١٠) رحمه الله ، قد أغاروا على بلاد الافرنج وعادوا ، فكان هذا اقدامه على ذاك الجمع ، وإذا رأى في بيته حية خرج منهزما وقال لامرأته : دونك والحية ، فتقوم إليها تقتلها .

والمحارب ، ولو أنه الاسد ، أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق ، كما أصابني على حمص ، جرحت وقتل حصاني ، وضربت خمسين سيفا - كل ذلك لنفاذ المشيئة ، ثم لتواني الركابي في تركيب عنان اللجام ، فإنه عقده في الباشات (١١١) لم يشدّه فلما جذبته أريد الخروج من بينهم انحل العنان من عقدته في الباشات ، فنالني مانالني .

وقد كان صاح الصائح يوما بشيزر من القبلة ، فلبسنا وفزعنا ، فكان الصائح كذابا ، فرحل أبي وعمي ، رحمهما الله ، ووقفت بعدهما ، فوقع الصائح من الشمال من جانب الافرنج ، فركضت حصاني إلى الصائح ، فرأيت الناس في المخاض يركب بعضهم بعضا وقالوا : « الفرنج !» فعبرت المخاض وقلت الناس : «لا بأس عليكم ، أنا دونكم !» ، ثم طلعت أركض إلى رابيه القرافطه ، وإذا الخيل مقبلة في جمع كثير ، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة ، وقد دنا مني ، فقصدته استفرص بعده من أصحابه ، واستقبلني ، فحين حركت حصاني اليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فقمت إليه بلا ركاب ، فلما تدانينا ولم يبق غير الطعن سلم علي وخدمني وإذا هو السلار عمر خال السلار زين الدين اسماعيل بن عمر بن بختيار ، وكان نهض مع عسكر حماة إلى بلد كفر طاب ، فخرج عليهم الافرنج فعادوا الى شيزر منهزمين ، وتقدمهم الامير سوار ، رحمه الله .

فسبيل الرجل المحارب يتفقد عدة حصانه ، فـان أيسر الأشـياء وأقلها يؤذي ويهلك ، كل ذلك مقرون بمـا تجـري بـه الاقـدار والاقضية .

وقد شهدت قتال الاسد في مواقف لا أحصيها ، وقتلت عدة منهـا لم يشركني أحد في قتلها ، فما نالني من شيء منها أذى .

وخرجت يوما مع والدي ، رحمه الله ، إلى الصيد في جبل قـريب من البلد نصيد منه الحجـل بـالبزاة ، ويكون الوالد ونحـن معـه والبازيارية على الجبل وبعض الغلمان والبازيارية أسفل من الجبـل للتخليص من البزاة والوقوف على الذبح ، فقامت لنا ضبعة فـدخلت مغارة ، وفي تلك المغارة محجر دخلت فيه ، فصحت بغلام لي ركابـي اسمه يوسف خلع ثيابه واخذ سكينه ودخل في ذلك المحجـر ، وانا في يدي قنطـــــــــــــــــــــارية مستقبل الموضع إذا خرجت طعنتها ، فصاح الغـلام : « اليكم قـد خرجت !» فطعنتها اخطأتها لان الضبعة رقيقـة الحجـم ، فصـاح الغلام « عندي ضبعة أخرى !» فخرجت في إثرها ، فقمت وقفـت في باب المغارة وهي ضيقة الباب متعلية قدر قامتين انظـر مـا يعمـل اصحابنا الذين في الوطا بالضباع التي نزلت اليهم ، فخرجت ضبعة ثالثة ، وأنا مشغول بالنظر إلى الاوائل ، فندستني(١١٢) رمتني من باب المغارة الى القرارة التي تحته فكادت تكسرني ، فتأنيت بضبعة وما تأنيت بالسباع فسبحان مقدر الاقدار ومسبب الاسباب.

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم ما لا كنت أظنه بالنساء ، فمن ذلك أنني كنت يومـا على بـاب دار والدي ، رحمـه الله ، وأنا صبي عمري دون العشر سنين ، فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبيا مـن خـدام الدار ، فـانهزم منه وجـاء تعلق بثوبي ، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه ، فضربتـه بقضـيب كان في يدي فدفعني ، فجذبت من وسطي سكينا ضربته بها فوقعت في بـزه الايسر ، فوقع ، وجاءنا غلام كبير لوالدي يقال له القائد اسد فوقف

عليه ونظر الجرح واذا تنفس طلع منه الدم مثل فوا قع الماء ، فاصفر وارتعد ووقع مغشـيا عليه ، فحمـل الى داره وكان يسـكن معنا في الحصن على تلك الحال ، فما افاق من غشيته إلى اخر النهار ، وقد مات المجروح وقبر .

ومما يقارب ذلك : كان يزورنا إلى شيزر رجل من أهـل حلب فيه فضل وأدب يلعب بالشطرنج طبقة ، ويلعب بها غائبا ، يقال له أبـو المرجى سالم بن قانت ، رحمه الله ، فكان يقيم عندنا السنة والاكثر والاقل ، فربما مرض فيصف له الطبيب الفصاد ، فاذا حضر الفاصد تغير لونه وارتعد ، فاذا فصده غشي عليه فلا يزال في غشيه حتى يشد فصاده ثم يفيق .

ومما يضاد ذلك انه كان في اصحابنا من بني كنانة رجـل أسـود يقال له علي بن فرج طلعت في رجله حبة فتخبثت ، وتناثرت اصـابعه وأنتنت رجله ، فقال له الجـرائحي : « مـالرجلك إلا القـطع ، وإلا تلفت » ، فحصل عنده منشارا وجعل ينشر ساقه حتى يغلبـه فيض الدم ويغشى عليه ، فإذا هو افاق عاد إلى نشرها حتى قـطعها مـن نصف ساقه ، وداواها فبرات .

وكان ، رحمه الله ، من أجلد الرجال وأقواهم ، فـكان يركب في سرجه بركاب واحد ، وفي الجانب الاخر سـير تـكون فيه ركبتـه ، ويحضر القتال ويطاعن الفرنج وهو على تلك الحـال ، وكنت أراه ، رحمه الله ، لايستطيع رجل يشابكه ولايقابضه ، وكان خفيف الروح مع قوته وشجاعته .

فأصبح يوما من الايام ، وهو وبنو كنانة يسكنون حصننا حصن الجسر ، أرسل إلى رجال من وجوه بني كنانة فقـال : « اليوم يوم مطير ، وعندي فضـلة نبيذ ومـأكول تتفضـلون علي بـالحضور لنشرب » ، فاجتمعوا عنده ، فجلس في باب البيت وقال : « هل فيكم من يقدر يخرج من الباب إن لم أشأ ؟ » يشير إلى قوته ، قالوا : « لا

والله » ، قال : « هذا يوم مطير ، وما أصبح في داري دقيق ولا خبز ولا نبيذ ، وما فيكم إلا من في داره ما يحتاجه ليومه ، انفذوا الى دوركم أحضروا طعامكم ونبيذكم ، والبيت من عندي ، ونجتمع اليوم نشرب ونتحدث » ، قالوا كلهم : « نعم ما رأيت ياأبا الحسن » ، وأنفذوا احضروا ما في دورهم من طعام وشراب وقضوا نهارهم عنده ، وكان رجلا محترما ، فتعالى من خلق الخلق أطوارا ، أين جلد هذا وقوة نفسه من خور أولئك وضعف نفوسهم ؟ .

وقريب من هذا أن رجلا من بني كنانة حدثني بحصن الجسر أن رجلا في الحصن استسقى فشق بطنه فبرىء ، وعاد صحيحا كما كان ، فقلت أريد أبصره واستخبره ، وكان الذي حدثني رجل من بني كنانة يقال له أحمد بن معبد بن أحمد ، فأحضر ذلك الرجل عندي ، فاستخبرته عن حاله وكيف فعل بنفسه فقال : « أنا رجل صعلوك وحيد استسقى جوفي ، وكبرت حتى عجزت عن التصرف ، وتبرمت بالحياة ، فأخذت موسى وضربت به فوق سرتي في عرض جوفي ، شققته ، فخرج منه قدر طباختين ماء — يعني قدرين — ومازال الماء يفز منه حتى ضمر جوفي ، فخيطته وداويت الجرح فبرأ ، فزال ما كان بي » ، وأراني موضع الشق في جوفه أطول من شبر ، ولا شبهة إن هذا الرجل كان له في الارض رزق يستوفيه .

وإلا فقد رأيت من استشفى وفصد الطبيب جوفه فخرج منه من الماء كما خرج من الذي بزل نفسه ، إلا أنه مات من ذلك الفصد ، لكن الاجل حصن حصين .

النصر في الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير ، وقد كنت إذا بعثني عمي ، رحمه الله ، لقتال أتراك او افرنج اقول له : « يامولاي ، امرني بما اتدبر به إذا لقيت العدو » . فيقول : « يابني ، الحرب تدبر نفسها » ، وصدق .

وكان أمرني أن أخذ امرأته وأولاده خاتون بنت تاج الدولة تتش

والعسكر وامضى أوصلهم إلى حصن مصيات ، وهو إذ ذاك له ، وكان يشفق عليهم من حر شيزر ، فركبت وركب أبي وعمي ، رحمهما الله ، معنا إلى بعض الطريق ، وعادا وليس معهما الا المماليك الصغار لجر الجنائب وحمل السلاح ، والعسكر كله معي ، فلما قربا من المدينة سمعا طبل الجسر يضرب ، فقالا : « شيء قد جرى في الجسر» فدفعا خيلهما تناقلا ونخبا(١١٣) الى الجسر ، وكان بيننا وبين الافرنج ، لعنهم الله ، هدنة ، فدفذوا من كشف لهم مخاضة يعبرون منها الى مدينة الجسر ، وهي في جزيرة لايعبر اليها الا من جسر معقود بالحجر والكلس لايصل الافرنج إليه ، فدلهم ذلك الجاسوس على مخاضة ، فركبوا جميعهم من افامية فأصبحوا إلى ذلك الموضع الذي دلهم عليه ، عبروا الماء وملكوا المدينة ونهبوا وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السبي والنهب إلى افامية وملكوا الدور ، وعلم كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته .

فلما أشرف أبي وعمي ، رحمهما الله ، على الحصن كبر أهل الحصن وصاحوا ، فالقى الله سبحانه على الافرنج الرعب والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، فغرق منهم جماعة كثيرة ، كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب في الماء ويطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لايلوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وابي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان .

فاقام عمي بالجسر ورجع ابي إلى شيزر ، واوصلت انا وأولاد عمي إلى مصيات وعدت من يومي وصلت العشاء ، فأخبرت بما جرى ، فحضرت عند والدي ، رحمه الله ، وشاورته في أن أمضي إلى عمي إلى حصن الجسر ، قال : تصل في الليل ، وهم نيام . ولكن سر اليهم من بكرة » . فأصبحت سرت وحضرت عنده . وركبنا وقفنا على ذلك الموضع الذي غرق فيه الافرنج .

ونزل إليه جماعة من السباح فأخرجوا جماعة من فرسانهم موتى ، فقلت لعمي : « يامولاي ، ما نقطع رؤوسهم وننفذها الى شيزر ؟» ، قال : « افعل » .

فقطعنا منهم نحو من العشرين رأسا ، فكان الدم يسيل منهم كأنهم قد قتلوا تلك الساعة ، ولهم يوم وليلة ، وأظن الماء حفظ فيهم دمهم .

وغنم الناس منهم سلاحا كثيرا من الزرديات والسيوف والقنطاريات والخوذ والكاسات الزرد ، ورأيت رجلا من فلاحي الجسر ، قد حضر عند عمي ويده تحت ثيابه ، فقال له عمي يمزح معه : « أي شيء اعزلت لي من الغنيمة ؟» قال : « اعزلت لك حصانا بعدته وزرديته وترسا وسيفا » ، ومضى أحضر الجميع ، فأخذ عمي العدة وأعطاه الحصان وقال : « اي شيء بيدك ؟» قال : « يامولاي ، تقابضت أنا والافرنجي وما معي عدة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه قتلته به ، وتهرأ الجلد الذي على عقد اصابعي ، وورمت يدي فما تنفعني » ، واظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام اصابعه .

وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت اسمها رفول قد سباها الافرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه:« سبيت رفول !» فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا في جانب الماء سوادا ، فقلنا لبعض الغلمان : « اسبح ابصر ما هذا السواد » ، فمضى إليه فاذا ذلك السواد رفول عليها ثوب ازرق وقد رمت نفسها من على فرس الافرنجي الذي اخذها فغرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف .

فسكنت لوعة أبيها أبي الجيش ، فكانت الصيحة التي وقعت في الافرنج وهزيمتهم وهلاكهم من لطف الله عز وجل لا بقوة ولا بعسكر ، فتبارك الله القادر على ما يشاء .

وقد يكون الترهيب في بعض الاوقات نافعا في الحرب .

من ذلك أن أتابك ، وصل الشام وأنا معه في سنة تسع وعشرين وخمس مائة ، وسار قاصدا دمشق ، فلما نزلنا القطيفة قال لي صلاح الدين رحمه الله : اركب وتقدمنا الى الفستقية(١١٤) . أقم على الطريق لا يهرب أحد من العسكر الى دمشق». فتقدمت وقفت ساعة ، وإذا صلاح الدين قد أتى في قلة من أصحابه ، فرأينا في عذراء دخانا ، فأرسل خيلا تبصر ما هو الدخان ، فإذا هم قوم من عسكر دمشق يحرقون التبن الذي في عذراء ، فانهزموا ، فتبعهم صلاح الدين ونحن معه لعل في ثلاثين أربعين فارسا فوصلنا القصير وإذا عسكر دمشق جميعه في القصير قاطع الجسر ، ونحن عند الخان ، فوقفنا مستترين بالخان ويخرج منا خمسة ستة فوارس حتى يبصرهم عسكر دمشق ويعودون الى خلف الخان نوهمهم أن لنا كمينا .

ونفذ صلاح الدين فارسا إلى أتابك يعرفه بما نحن فيه ، فرأينا نحوا من عشرة فوارس مقبلين إلينا مسرعين ، والعسكر خلفهم متتابع ، فوصلونا واذا هو أتابك قد تقدم ، والعسكر في إثره ، فأذكر على صلاح الدين فعله وقال : « تسرعت الى باب دمشق بثلاثين فارسا لتكسر ناموسي » ، ولامه ، وهم يتكلمون بالتركي ولا أدري ما يقولون .

فلما وصلنا أوائل العسكر قلت لصلاح الدين:« عن أمرك أخذ هؤلاء الذين قد وصلوا ، وأعبر إلى خيل دمشق الواقفة مقابلنا أقلعهم » ، قال : « لا ، كذا وكذا ممن ينصح في خدمة هذا ، ما تسمع أي شيء قد عمل بي ؟» .

ولولا لطف الله تعالى ثم ذلك الترهيب والتخييل كاذوا قلعونا .

وجرى لي مثل ذلك وقد سرت مع عمي ، رحمه الله ، من شيزر نريد كفر طاب ، ومعنا خلق من الفلاحين والصعاليك لنهب ما على

كفرطاب من غلة وقطن ، فانتشر الناس في النهب وخيل كفرطاب قد ركبت ووقفت عند البلد ، ونحن بينهم وبين الناس المنتشرين في الزرع والقطن ، وإذا فارس من أصحابنا يركض من الطلائع قال : « جاءت خيل أفامية » ، فقال عمي : « تقف أنت مقابل خيل كفر طاب ، وأسير أنا بالعسكر ألقى خيل أفامية » ، فوقفت في عشرة فوارس في شجر الزيتون متوارين ، ويخرج منا ثلاثة أربعة يخيلون للفرنج ويعودون إلى شجر الزيتون ، والافرنج يعتقدون أننا في جماعة فهم يجتمعون ويصيحون ويدفعون خيلهم إلى أن يقربوا منا ونحن لانتزعزع فيرجعوا ، فما زلنا كذلك حتى عاد عمي وانهزم الافرنج الذين جاؤوا من أفامية .

فقال له بعض غلمانه : « يامولاي ، ترى ما فعل - يعنيني - تخلف عنك وما سار معك للقاء خيل أفامية » ، فقال له عمي : « لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفر طاب وراجلها ، كانوا أخذوا هذا العالم كله » .

فكان الترهيب والتخييل للافرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنا في قلة وهم في جمع كثير .

وجرى لي مثل ذلك بدمشق ، كنت يوما مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، فأتاه فارس فقال : « قد أخذ الحرامية قافلة في العقبة حاملة خام » ، فقال لي : « نركب اليهم ؟ » قلت : « الأمر لك ، أمر الشاوشية تستركب العسكر معك » ، قال : « أي شيء حاجتنا إلى العسكر ؟ » قلت : « وما يضرنا من ركوبهم ؟ » ، قال : « ما نحتاجهم » ، وكان ، رحمه الله ، من أشجع الفرسان ، ولكن قوة النفس في بعض المواضع تفريط ومضرة .

فركبنا في نحو من عشرين فارسا فلما أن ضحونا نفذ فارسين كذا ، وفارسين كذا ، وفارسا كذا يكشفون الطرقات ، وسرنا نحن في قلة فحانت صلاة العصر ، فقال لغلام

لي : « ياسونج ، اشرف مغربا إلى ما نصـلي » ، فمـا سـلمنا إلا والغلام يركض ، قال : « هذه الرجـالة ، وعلى رؤوسـهم شـقاق الخام ، في الوادي » ، فقال معين الدين ، رحمه الله : « اركبوا » ، قلت : « أمهـل علينا نلبس كزاغنداتنا ، فـاذا رايناهـم رميناهـم برؤوس الخيل ، وطعناهم فما يدرون كثيرا نحن أو قليل » . قـال : « إذا وصلنا إليهم لبسنا » .

وركب وسرنا اليهم ، فلحقناهم في وادي حلبون وهـو واد ضـيق لعل ما بين الجبلين خمسة أذرع ، والجبال من جانبيه وعرة رفيعة ، وطريقه ضيقة إنما يمشي فيها فارس خلف فارس ، وهم في سـبعين رجلا بالقسي والنشاب .

فلما وصلناهم كان غلماننا خلفنا بسلاحنا لايصلون إلينا وأولئك قوم منهم في الوادي ومنهم قوم في سفح الجبل ، فـظننت أن الذين في الوادي من أصحابنا فلاحي الضياع قد فـزعوا خلفهـم ، والذين في سفح الجبل هـم الحـرامية ، فجـذبت سـيفي وحملت على الذين في السفح . فلما طلع الحصان في ذلك الوعر إلا بآخـر روحـه ، فلمـا صرت اليهم وحصاني قد وقف ما بقي يندفع اسـتوفى واحـد منهـم نشابته في فوقه ليضربني .فصحت عليه وتهددته ، فمسك يده عني ، وعدت انزلت الحصان وما اصدق اخلص منهم .

وطلع الأمير معين الدين إلى أعلى الجبـل يظـن أن هناك مـن الفلاحين من يستنفزهم ، وصاح إلي من أعلى الجبل « لاتفـارقهم حتى أعود » ، وتوارى عنا ، فرجعت الى الذين في الوادي وقد علمـت انهم من الحرامية فحملت عليهم وحدي لضـيق المكان فـانهزموا ، ورموا ما كان معهم من الخام ، وخلصت منهم بهيمتين كانتا معهـم عليهما خام أيضا ، وطلعوا إلى مغارة في سفح الجبل ونحن نراهـم وما لنا إليهم سبيل .

وعاد الأمير معين الدين ، رحمه الله ، آخر النهار وما وجد من يستنقذه .

ولو كان معنا العسكر كنا ضربنا رقابهم واستخلصنا كل ما معهم .

وقد جرى لي مرة أخرى مثل هذا ، والسبب فيه نفاذ المشيئة ، ثم قلة المخبرة بالحرب ، وذلك أننا سرنا مع الامير قطب الدين خسرو ابن تليل من حماة نريد دمشق إلى خدمة الملك العادل نور الدين ، رحمه الله ، فوصلنا الى حمص . فلما عزم على الرحيل على طريق بعلبك قلت له : « انا أتقدم أبصر كنيسة تعنايل الى حين تصل » ، قال : « افعل » .

فركبت ومضيت . فأنا في الكنيسة جاءني فارس من عنده يقول : « قد خرجت رجالة حرامية على قافلة أخذوها ، فاركب والقني إلى الجبل » ، فركبت ولقيته ، فصعدنا في الجبل فرأينا الحرامية في واد تحتنا ، والجبل الذي نحن عليه محيط بذلك الوادي ، فقال له بعض أصحابه : « ننزل اليهم ؟» قلت : « لاتفعل ، ندور على الجبل ونصير فوق رؤوسهم نحول بينهم وبين طريقهم الى المغرب ، ونأخذهم » ، وكانوا من بلاد الافرنج ، فقال آخر :« إلى ما ندور على الجبل ، نكون قد وصلنا إليهم وأخذناهم » ، فنزلنا ، فلما رآنا الحرامية صعدوا في الجبل ، فقال لي : « اصعد اليهم » ، فحرصت على الطلوع ، فما قدرت .

وكان على الجبل منا خيالة ستة سبعة . فترجلوا اليهم ، وجاءوا يقودون خيلهم معهم ، وأولئك في جماعة ، فحملوا على أصحابنا فقتلوا منهم فارسين ، وأخذوا حصانيهما وحصانا آخر ، وسلم صاحبه ، ونزلوا من جانب الجبل الآخر بالغنيمة ، وعدنا نحن وقد قتل منا فارسان وأخذ منا ثلاثة حصن والقافلة ، فهذا تغرير لقلة المخبرة بالحرب .

فأما التغرير في الاقدام فما هو للزهد في الحياة ، وإنما سببه أن الرجل إذا عرف بالاقدام ووسم باسم الشجاعة وحضر القتال طالبته همته بفعل ما يذكر به ويعجز عنه سواه ، وخافت نفسه الموت وركوب الخطر ، فتكاد تغلبه وتصده عما يريد يفعله ، حتى يضطرها ويحملها على مكروهها ، فيعتريه الزمع وتغير اللون لذلك ، فإذا دخل في الحرب بطل روعه وسكن جأشه .

ولقد حضرت حصار حصن الصور(١١٥) مع ملك الامراء أتابك زنكي ، رحمه الله - وقد تقدم شيء من ذكره - وكان للامير فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق رحمه الله . وكان مشحونا بالرجال الجرخية ، وذلك بعد كسرته على آمد ، فأول ما ضربت الخيام نفذ رجلا من أصحابه صاح تحت الحصن : « ياجماعة الجرخية ، يقول لكم أتابك : ونعمة السلطان لئن قتل من أصحابي رجل واحد بنشابكم لاقطعن أيديكم » ، ونصب على الحصن المجانيق .

فهدمت جانبا منه وما بلغ الهدم منه بحيث تطلع اليه الرجال ، فجاء رجل من جندارية أتابك من أهل حلب يقال له ابن العريق ، طلع في تلك الثغرة وضاربهم ، بسيفه فجرحوه عدة جراح ورموه من البرج الى الخندق ، وتكاثر الناس عليهم في تلك الثغرة فملكوا الحصن ، وطلع نواب أتابك إليه فأخذ مفاتيحه نفذها الى حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن ارتق ، واعطاه الحصن .

واتفق أن نشابة جرخ ضربت رجلا من الخراسانية في ركبته قطعت الفلكة التي على مفصل الركبة ، فمات .

فأول ما ملك أتابك الحصن استدعى الجرخية ، وهم تسعة نفر ، فجاؤوا وقسيهم موتورة على أكتافهم ، فأمر بحز إبهاماتهم من زنودهم ، فاسترخت أيديهم وتلفت .

وأما ابن العريق فداوى جراحه وبرأ بعد أن شارف الموت ، وكان رجلا شجاعا يحمل نفسه على الاخطار .

ورأيت مثل ذلك وقد نزل أتابك على حصن البارعية(١١٦) وحوله صفا صخر لاتنضرب عليه الخيام ، فنزل أتابك في الوطا ووكل به الامراء بالنوبة ، فركب إليه أتابك يوما والنوبة للأمير أبي بكر الدبيسي وما معه أهبة القتال ، فوقف أتابك وقال لأبي بكر : « تقدم قاتلهم » . فزحف بأصحابه وهم أعراء ، وخرج اليهم الرجال من الحصن ، فتقدم رجل من أصحابه يقال له مزيد لم يكن قبل ذلك من المشهورين بالقتال والشجاعة ، فقاتل قتالا عظيما وضرب فيهم بسيفه وفرق جمعهم ، وجرح عدة جراح ، فرأيته قد حملوه الى العسكر وهو في آخر رمقه ، ثم عوفي ، وقدمه أبو بكر الدبيسي وخلع عليه وجعله من جملة جنداريته .

كان أتابك يقول لي : « ثلاثة غلمان : أحدهم يخاف الله تعالى ، وما يخافني – يعني زين الدين علي كوجك ، رحمه الله – والآخر يخافني وما يخاف الله تعالى يعني نصير الدين جقر ، رحمه الله ، والآخر ما يخاف الله ولايخافني – يعني صلاح الدين محمد بن ايوب اليغسياني ، رحمه الله –

وشهدت منه ، تجاوز الله عنه ، ما يحقق قول اتابك ، وذلك انا زحفنا يوما إلى حمص وقد أصاب الأرض في الليل مطر عظيم حتى ما بقيت الخيل تتصرف من ثقل الارض بالوحل ، والرجالة يتناوشون ، وصلاح الدين واقف وأنا معه ، ونحن نرى الرجالة بين ايدينا ، فعدا واحد من الرجالة إلى رجالة حمص اختلط بهم ، وصلاح الدين يراه ، فقال لواحد من أصحابه : « هات ذاك الرجل الذي كان إلى جانبه » ، فمضى احضره ، فقال له : « من هذا الذي كان انهزم من جانبك ودخل الى حمص ؟» قال : « والله ، يامولاي ، ماأعرفه » ، قال : « وسطوه » ، قلت : « يامولاي تعتقله وتكشف عن ذلك الرجل ، فإن كان يعرفه أو متعه بنسب ضربت

رقبته ، وإلا ترى فيه رأيك » ، فكأنه جنح الى قولي ، فقـال غلام له من خلفه : « يهرب واحـد يؤخـذ الذي كان جـانبه تضرب رقبتـه اويوسط » ، فاحذقه كلامه وقال : « وسطوه » ، فرفسوه كجـاري العادة ووسطوه ، وما له ذنب إلا اللجاج وقلة مراقبة الله تعالى .

وحضرته مرة أخرى بعد ما وصلنا من مصاف بغـداد ، وأتـابك يجتهد يظهر تجلدا وقوة وقد أمر صـلاح الدين بـالمسير الى الامير قفجاق يكبسه ، فسرنا مـن الموصـل سـتة أيام ونحـن في غاية الضعف ، فوصلنا موضعه وجدناه قـد تعلق في جبـال كوهسـتان ، فنزلنا على حصـن يقـال له مـاسر ، ونزلنا عليه طلوع الشـمس ، وامرأة طلعت من الحصن قالت : « معكم خـام ؟» قلنا : «أي وقـت هذا للبيع والشراء ؟» ، قـالت : « نريد الخـام نكفنكم بـه ، فإلى خمسة أيام تموتون كلكم » ، تريد أن ذلك الموضع وخم .

فنزل ورتب الزحف إلى الحصن من بكرة وأمر النقـابين يدخلون تحت برج من تلك البراج ، والحصن كله معمور بالطين ، والرجـال الذين فيه مـن الفـلاحين ، فـزحفنا اليه وطلعنا إلى تلة ، ونقـب الخراسانية برجا فوقع وعليه اثنان . أما الواحد فمات واما الاخـر فأخذه اصحابنا وجاؤوا به الى صلاح الدين ، قال : « وسـطوه » ، قلت : « يامولاي ، هذا شهر رمضان ؛ وهـذا رجـل مسـلم لاتتقلد أثمه » ، قال : « وسـطوه حتـى يسـلموا الحصـن » قلت : « يامولاي ، الحصن الساعة تملكه » ، قال « وسـطوه » ، ولج فيه فوسطوه ، وأخذنا الحصن في ساعتنا تلك ، فجـاء الى البـاب يريد قوما من أصحابه ومضى نزل في خيمته لحظة بقدر ما تفرق العسـكر الذي كان معه ، ثم ركب وقال لي : « اركب » . فـركبنا وطلعنا الى الحصن . فجلس وأحضر ناطور الحصن يعـرفه بمـا فيه ، وأحضر بين يديه نساء وصبيانا نصارى ويهود .

فحضرت عجـوز كردية ، فقـالت لذلك الناطـور : « رأيت ابني فلانا ؟ » ،قال : قتل، ضربته نشابة ، قالت : « فابني فلان ؟» قال :

وسطه الامير ، فصاحت وكشفت رأسها وشعرها كالقطنة المندوفة ، فقال لها الناطور : « اسكتي لاجل الامير » قالت : « وأي شيء بقي الامير يعمل بي ، كان لي ولدان قتلهما » ، فدفعوها .

ومضى الناطور فأحضر شيخا كبيرا مليح الشيبة يمشي على عصاتين سلم على صلاح الدين ، قال :« أي شيء هو هذا الشيخ ؟ » ، قال « إمام الحصن » ، قال : « تقدم يا شيخ تقدم » فتقدم ، حتى جلس بين يديه ، فمد يده قبض لحيته وأخرج سكينة مشدودة في بند قبائه وقطع لحيته من حكمته ، فبقيت في يده مثل البرجم(١١٧) فقال له ذلك الشيخ: « يامولاي ، بأي شيء استوجبت ان تفعل بي هذا الفعل ؟» ، قال : « بعصيانك على السلطان ، قال : « والله ، ما علمت بوصولكم حتى جاء الناطور الساعة أعلمني واستدعاني » .

ثم رحلنا نزلنا على حصن آخر للامير قفجاق يقال له الكرخيني(١١٨) .أخذناه فوجدوا فيه خزانه ملأى بثياب خام مخيطة صدقة لفقراء مكة ، وسبى من كان في الحصن من النصارى واليهود المعاهدين ، ونهب ما فيهما نهب الروم . فالله سبحانه يتجاوز عنه .
أقف من هذا الفصل عند هذا الحد متمثلا بقولي :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم
فينا يشيب ذكره المولودا(١١٩)

واعود إلى ذكر شيء مما جرى لنا والاسماعيلية في حصن شيزر اجتاز في ذلك اليوم ابن عم لي يقال له ابو عبد الله بن هاشم رحمه الله فرأى رجلا من الباطنية في برج من دار عمي معه سيفه وترسه ، والباب مفتوح وبرا منه خلق كثير من أصحابنا وما يجسر احد يدخل اليه ، فقال ابن عمي لواحد من أولئك الوقوف :« ادخل اليه » فدخل اليه ، فما أمهله الباطني ان ضربه فجرحه ، فخرج وهو مجروح ، فقال لآخر : « ادخل اليه » فدخل اليه ، فضربه

الباطني فجرحه وخرج كما خــرج صــاحبه ، فقــال ابــن عمــي :« يارئيس جــواد ادخــل اليه » فقــال له الباطني :« يامـؤاجر (١٢٠) انت ليش مـاتدخل ؟ تـداخل الى الناس وانت واقف ، ادخل حتى تبصر » فدخل اليه الرئيس جـواد فقتله ، وهذا الجواد حكم في الثقاف ، رجل شجاع ثقف .

ومامر عليه الا اعوام قليلة حتى رايته بدمشق سنة اربع وثلاثين وخمس مائة وهو علاف يبيع الشعير والتبن ، وقد كبر حتى صــار كالشن البالي يعجز عن دفع الفــأر عن علفــه ، فمــا بــال الرجال ؟ فكنت أتعجب من أول أمــره ، عندمــا صــار اليه أخــر امره ، وماحال من حاله طول عمره .

ولم ادر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغفله الحمــام ، فلمــا توقلت ذروة التسعين ، وابلاني مر الايام والسنين ، صرت كجـواد العلاف ، لاالجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالارض ، ودخل مــن الكبــر بعضي في بعض ، حتــى انكرت نفسي ، وتحسرت على أمسي ، وقلت في وصف حالي :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردا

لم يبق طول العمر مني منة

ألقى بها صرف الزمان اذا اعتدا

ضعفت قواي وخانني الثقتان
من بصري وسمعي حين شارفت المدا

فاذا نهضت حسبت أني حامل
جبلا وأمشي ان مشيت مقيدا

- ٥٧٠٨ -

وادب في كفي العصا وعهدتها
في الحرب تحمل اسمرا ومهندا

وابيت في لين المهاد مسهدا
قلقا كأنني افترشت الجلمدا

والمرء ينكس في الحياة وبينما
بلغ الكمال وتم عاد كما بدا (١٢١)

وانا القائل بمصر أذم مـن العيش الراحـة والدعة ومـاكان أعجـل تقضيه وأسرعه :

أنظر الى صرف دهري كيف عودني
بعد المشيب سوى عاداتي الأول

وفي تغاير صرف الدهر معتبر
واي حال على الأيام لم تحل

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت
ذكيتها باقتداح البيض في القلل

همي منازلة الاقران احسبهم
فرائسي فهم مني على وجل

امضي على الهول من ليل واهجم من
سيل واقدم في الهيجاء من أجل

فصرت كالغادة المكسال مضجعها
لى الحشايا وراء السجف والكلل

قد كنت أعفن من طول الثواء كما
يصدى المهند طول اللبث في الخلل

أروح بعد دروع الحرب في حلل
من الد بيقي فبؤسا لي وللحلل

وما الرفاهة من رامي ولاأربي
ولا التنعيم من شأني ولا شغلي

ولست ارضى بلوغ المجد في رفه ولا
العلى دون حطم البيض والاسل (١٢٢)

وكنت أظن أن الزمان لايبلى جديده ، ولايهي شديده ، وأني اذا عدت الى الشام وجدت به أيامي كعهدي ، وماغيرها الزمان بعدي ، فلما عدت كذبتني وعود المطامع ، وكان ذلك الظن كالسراب اللامع ، اللهم غفرا هذه جملة اعتراضية عرضت ، ونفثه هم اقضت ثم انقضت أعود الى المهم ، وأدع تعسف الليل المدلهم ، لو صفت القلوب من كدر الذنوب ، وفوضت الى عالم الغيوب ، علمت أن ركوب اخطار الحروب ، لاينقص مدة الاجل المكتوب .

فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والاسماعيلية في حصن شيزر معتبر يوضح للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل ، أن العمر موقت مقدر ، لايتقدم أجله ولايتأخر ، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال ، صاح انسان من جانب الحصن :« الرجال !» وعندي جماعة من أصحابي معهم سلاحهم ، فبادرنا الى الذي صاح ، فقلنا :« مالك ؟» فقال :« حس الرجال هاهنا » فجئنا الى اصطبل خال مظلم ، فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما ، فقتلناهما ، ووجدنا رجلا من أصحابنا مقتولا ، وهو على شيء ، فرفعناه وجدنا تحته رجلا من الباطنية قد تسجى ورفع

المقتول على صدره ، فحملنا صاحبنا وقتلنا الذي كان تحته ووضعنا صاحبنا في الجـامع بـالقرب مـن ذلك المكان وفيه جـراح عظيمة ، ولاشك أنه ميت لايتحرك ويتنفس ، وأنا والله كنت احرك راسه على بلاط الجامع برجلي ، ولاشـك أنه ميت كان الـسكين اجتاز بذلك الاصطبل فسمع حسـا ، فـادخل رأسـه ليحقـق السماع ، فجذبه واحد منهم وضربوه بالسكاكين حتى ظنوا أنه قـد مات ، فقضى الله سبحانه ان خيطت تلك الجراح في رقبته وفي جسمه وعوفي وعاد من الصحة الى ماكان عليه ، فتبارك الله مقدر الأقـدار وموقت الآجال والأعمار .

وشاهدت مايقارب ذلك وهو أن الافـرنج ، لعنهـم الله ، اغاروا علينا ثلث الليل الآخـر ، فـركبنا نريد نتبعهـم ، فمنعنا عمـي عز الدين ، رحمه الله من اتبـاعهم وقـال :« هـذه مـكيدة ، والاغارة ماتكون بالليل » ، وخرج من البلد رجالة خلفهم ماعلمنا بهم ، فوقع الافرنج ببعضهم عند رجوعهم قتلوهـم وسلم بعضهم .

وأصبحت أنا واقفا في بندر قنين قرية عند المدينة ، فرايت ثـلاثة شخوص مقبلة : أما اثنان فكالناس ، وأما الأوسـط فمـا وجهـه كوجوه الناس ، فلما دنوا منا واذا الوسـطاني منهـم قـد ضربـه افرنجي بسيف في وسط انفه فقطع وجهه الى اذنيه ، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين رجلين ، فدخل البلد وخاط الجـرائحي وجهـه وداواه ، فالتحم ذلك الجرح ، وعوفي وعاد الى مـاكان عليه الى أن مـات على فـراشه ، كان يبيع الدواب ويسـمى ابـن غازي المشطوب ، وانما سمي المشطوب بتلك الضربة ، فلا يظن ظـان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولايؤخره شدة الحـذر ، ففـي بقـائي أوضح معتبر ، فكم لقيت مـن الأهـوال ، وتقحمـت المخـاوف والاخـطار ، ولاقيت الفـرسان ، وقتلت الاسـود ، وضربـت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجـروخ - وأنا من الاجل في حصن حصين - الى أن بلغت تمام التسعين ، فـرأيت

الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم :« كفى بالصحة داء » فاعقبت النجاة من تلك الاهوال ، وماهو اصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كثة الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت مني الأيام بطول الحياة ، سائر محبوب اللذات ، وشاب كدر النكد ، صفو العيش الرغد ، فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

اذا كتبت بخطي جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وان مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذي عواقب طول العمر والمدد (١٢٣)

ضعفت القوة ووهت ، وتقضت بلهنية العيش وانتهت ، ونكسني التعمير بين الانام ، والى الخمول يؤول تسعر الظلام ، حتى اصبحت كما قلت :

تناستني الآجال حتى كانني
دريئة سفر بالفلاة حسير

ولما تدع مني الثمانون منة
كأني اذا رمت القيام كسير

- ٥٧١٢ -

أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها
علي إذا رمت السجود عسير

وقد انذرتني هذه الحال انني
دنت رحلة مني وحان مسير (١٢٤)

أعجزني وهن السنين ، عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم ، وقطعت أسبابي من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ، ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم ، لعلمي ان ضعف الهرم ، لايقوى على تكاليف الخدم ، وأن سوق الشيخ الكبير ، لاينفق على الأمير ، ولزمت داري ، وجعلت الخمول شعاري ، ورضيت نفسي بالانفراد في الغربة ، ومفارقة الأوطان والتربة ، الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الأسير على قده ، والظمآن ذي الغلة عن ورده ، فناداني اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الايمان ، قامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيي دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقائه ، وأيدهم بماضي سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله ، كما اصفى لهم من الأكدار موارد فضله ، وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه ، وحكم صوارمه في أعناق اعاديه ، برحمة

نقبت عني في البلاد ودوني الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لامال لدي ولاأهل فاستنقذني من انياب النوائب برأيه الجميل ، وحملني الى بابه العالي بانعامه الغامر الجزيل ، وجبر ماهاضه الزمان مني ، ونفق على كرمه ماكسد علي من سواه من علو سني ، فغمرني ربغرائب الرغائب ، وانهبني من انعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ، ماأسلفت سواه من الخدم ، فهو يعتد لي بذلك ويرعاه ، رعاية من كأنه

شـاهده وراه ، فعـطاياه تـطرقني وأنا راقـد ، وتسري إلي وأنا محتسب قاعد، فأنا من انعامه كل يوم في مـزيد ، واكرام كتـكرمة الاهـــل ، وانا أقـــل العبيد ، أمنني جميل رأيه حـــــادث الحادثات ، وأخلف لي انعـــامه مـــاسلبه الزمـــان بـــالنكبات المجحفات ، وافاض علي من نوافل فضله بعد تأدية فـرضه وسـنته مايعجز الاعناق عن حمل أيسر منته ، ولم يبق لي جوده أملا أرجـو نيله ، أقضي زماني بالدعاء له نهاره وليله ، والرحمة التي تدارك بها العباد ، وأحيي ببـركاتها البـلاد ، والسـلطان الذي أحيى سـنة الخلفاء الراشـدين ، وأقـام عمـود الدولة والدين ، والبحـر الذي لاينضب لكثرة الواردين ماؤه ، والجواد الذي لاينقـطع مـن تتـابع الوافدين عطاؤه ، فلا زالت الأمة من سيوفه في حمـى منيع ، ومـن انعامه في ربيع مـريع ، ومـن عدله في أنوار تـــكشف عنهـــم ظلم المظالم ، وتكف بسطة يد المعتدي الغانم ، ومن دولته القاهرة في ظل وارف ، وفي سعود متتابع آنف في أثـر سـالف ، ومـاتعاقب الليل والنهار ، ودار الفلك الدوار :

دعوت وقد أمن الحافظان
وذو العرش ممن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد
سلوني فاني سميع مجيب (١٢٥)

والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سـيدنا محمـد وعلى آله اجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

نكت ونوادر

-٥٧١٦-

الباب الثاني

نكت ونوادر

(ومابكم من نعمة فمن الله) (١٢٦)

فصل

قال أسامه بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين : هذه طرف إخبار حضرت بعضها وحدثني بعضها من أثق به جعلتها الحاقا في الكتاب ، اذ ليست مما قصدت ذكره فيما تقدم ، وابدأت منها بأخبار الصالحين ، رضي الله عنهم أجمعين .

حدثني الشيخ الامام الخطيب سراج الدين أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن ابراهيم خطيب مدينة اسعرد (١٢٧) بها في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وخمس مائة : قال حدثني ابو الفرج البغدادي (١٢٨) قال : « شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبد الله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة ، فقالت : ياسيدي انك كنت ممن شهد في صداقي ، وقد فقدت كتاب المهر ، واسألك أن تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم ، فقال : ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة ، فوقفت المرأة وهي تظن أنه يمزح بقوله ، فقال : لاتطلبي ، لاأمضي معك الا أن تأتيني بالحلاوة ، فمضت ثم عادت فأخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاسا فيه حلاوة يابسة ، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه ، فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس ، ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته ، فقال : خذي صداقك ، فهذا هو فاستعظم من حضره ذلك ، فقال : كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه ».

حدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قاسم الحموي بها يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة سبعين وخمس مائة قال : قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا ، قال : حدثني أبي قال : كنت أدخل على قاضي القضاة الشامي الحموي فيكرمني ويجلني فقال لي يوما : « أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم ، كنت بحماة وأنا شاب وقد توفي بها عبد الله بن ميمون الحموي ، رحمه الله ، فقالوا : أوص ، فقال : « اذا أنا مت وفرغتم من جهازي أخرجوني الى الصحراء ويطلع انسان على الرابية التي تشرف على المقابر ، وينادي : ياعبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون ، فاحضره وصل عليه » فلما مات فعلوا ماأمرهم به ، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي ، وجاء حتى صلى عليه ، والناس قد بهتوا لايكلمونه ، فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا اذ لم يتمسكوا به ويسألونه فسعوا في اثره ، ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة .

وقد حضرت مايقارب ذلك في حصن كيفا ، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له زاوية الى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ، ويعود الى زاويته ، وهو رجل من الأولياء ، فحضرته ـ وهو بالقرب من منزلي ـ الوفاة ، فقال :« كنت أشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي » فما جمع له جهاز غسله وكفنه الا وشيخه محمد البستي عنده ، فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه ، ثم نزل في زاويته فأقام بها مدينة وهو يزورني وأنا أزوره ، وكان رحمه الله ، عالما زاهدا مارأيت ولا سمعت بمثله ، كان يصوم الدهر ولايشرب ماء ولايأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، انما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ، ويأكل في الشهر مرة أو مرتين لقيمات من لحم مقلي ، فقلت له يوما :« ياشيخ أبا عبد الله ، كيف وقع لك أن

لاتأكل خبزا ولاتشرب ماء وأنت صائم أبدا ؟» قال :« صمت وطويت فوجدتني أقوى على ذلك ، فطويت ثلاثا وقلت : اجعل ماآكله كالميتة التي تحل للمضطر بعد ثلاث ، فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل وشرب الماء ، فألفت النفس ذلك ، وسكنت اليه فاستمررت على ماأنا عليه ».

وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل الشيخ زاوية في بستان جعله له ، فحضر عندي في أول شهر رمضان وقال :« قد جئت مودعا » قلت :« والزاوية التي قد أعدت لك والبستان ؟» قال :« ياأخي ، مالي حاجة فيهما ، ولا أقيم » وودعني ومضى ، رحمه الله ، وذلك سنة سبعين وخمس مائة .

وحدثني الشيخ أبو القاسم الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي بحماة في التأريخ المتقدم ، أن رجلا كان يعمل في بستان لمحمد بن مسعر ، رحمه الله ، أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة ، فقال :« سمعت الساعة عجبا !» قالوا :« وماهو ؟» قال :« مر بي رجل معه ركوة طلب مني فيها ماء فأعطيته فجدد وضوءه ، وأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما ، فقلت :« ان هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولمحمد ابن مسعر نصفه بالملك » فقال :« أحج العام ؟ » قلت :« نعم » قال : « البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه » فخرجوا في اثره ليستفهموا منه فرأوه على بعد لايمكنهم لحاقه ، فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال .

حدثني الأجل شهاب الدين أبو الفتح المظفر بن أسعد بن مسعود ابن بختكين بن سبكتكين مولى معز الدولة ابن بويه بالموصل في ثامن عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مائة قال :« زار المقتفي بأمر الله أمير المؤمنين ، رحمه الله ، مسجد صندودياء بظاهر الانبار على الفرات الغربي ، ومعه الوزير وأنا

حاضر ، فدخل المسجد وهو يعرف بمسجد امير المؤمنين علي ، رضوان الله عليه ، وعليه ثوب دمياطي وهو متقلدا سيفا حليته حديد لايدري أنه أمير المؤمنين الا من يعرفه ، فجعل قيم المسجد يدعو للوزير ، فقال الوزير :« ويحك !ادع لأمير المؤمنين ، فقال له المقتفي رحمه الله : سله عما يدفع ، قال له : ماكان من المرض الذي كان في وجهه ، فإني رأيته في أيام مولانا المستظهر ، رحمه الله ، وبه مرض في وجهه » وكان في وجهه سلعة قد غطت أكثر وجهه فاذا أراد الاكل سدها بمنديل حتى يصل الطعام إلى فمه ؟ فقال القيم : كنت كما تعلم ، وأن اتردد الى هذا المسجد من الانبار ، فلقيني انسان فقال : لو كنت تتردد الى فلان – يعني مقدم الأنبار – كما تتردد الى هذا المسجد لاستدعى لك طبيبا يزيل هذا المرض من وجهك ، فخامر قلبي من قوله شيء ضاق له صدري ، فنمت تلك الليلة فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وهو في المسجد يقول :ما هذه الخضرة ؟ – يعني خضرة في الأرض – فشكوت إليه مابي ، فاعرض عني ، ثم راجعته وشكوت إليه ماقاله لي ذلك الرجل فقال : أنت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة الى جانبي وقد زال ماكان بي ، فقال المقتفي ، رحمه الله : صدق ثم قال لي : تحدث معه وأبصر مايلتمسه واكتب به توقيعا وأحضره لأعلم عليه ، فتحدثت معه ، فقال :« انا صاحب عائلة وبنات ، وأريد في كل شهر ثلاثة دنانير » فكتبت عنه مطالعة وعنونها الخادم : قيم مسجد علي ، فوقع عليها بما طلب وقال لي : امض ثبتها في الديوان ، فمضيت ولم اقرأ منها سوى : يوقع له بذلك » وكان الرسم أن يكتب لصاحب المطالعة توقيع ويؤخذ منه مافيه خط أمير المؤمنين ، فلما فتحها الكاتب لينقلها وجد تحت « قيم مسجد علي » بخط المقتفي أمير المؤمنين – صلوات الله عليه : ولو كان طلب أكثر من ذلك لوقع له به »

وحدثني القاضي الامام مجد الدين أبو سليمان داود بن محمد بن الحسن بن خالد الخالدي ، رحمه الله ، بظاهر حصن كيفا يوم

الخميس ثاني وعشرين ربيع الأول سنة ست وستين وخمس مائة عن من حدثه ان شيخا استأذن على خواجا بزرك (١٢٩) رحمه الله ، فلما دخل عليه رآه شيخا مهيبا بهيا فقال :« من أين الشيخ ؟» قال :« من غربة » قال:« ألك حاجة ؟» قال :« أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك شاه » قال :« ياشيخ ، اي شيء هذا الحديث ؟» قال :« إن أوصلتني اليه بلغته الرسالة ، والا فأنا لاأزول حتى اجتمع به وأبلغه مامعي » فدخل خواجا بزرك على السلطان فأعلمه بما قاله الشيخ فقال : « أحضروه » فلما حضر قدم للسلطان مسواكا ومشطا وقال له :« أنا رجل لي بنات ، وأنا فقير لاأقدر على جهازهن وتزويجهن ، وكل ليلة أدعو الله تعالى أن يرزقني ماأجهزهن به ، فنمت ليلة الجمعة من شهر كذا ودعوت الله سبحانه بمعونتي عليهن ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم فقال لي :« أنت تدعو الله تعالى أن يرزقك ماتجهز به بناتك ؟» قلت : نعم يارسول الله ، فقال : امض الى فلان – وسماه – فمر ملك شاه – يعني السلطان – وقل له : قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم جهز بناتي ، فقلت · يارسول الله ، إن طلب مني علامة ما أقول له؟ قال : قل له بعلامة أنك كل ليلة عند النوم تقرأ سورة تبارك » فلما سمع ذلك السلطان فقال : هذه علامة صحيحة ، ومااطلع عليها غير الله تبارك وتعالى ، فان مؤدبي أمرني أن اقرأها كل ليلة عند النوم ، وأنا أفعل ذلك » ثم أمر له بكل ماطلبه لتجهيز بناته وأجزل عطيته وصرفه .

ويشبه هذا الحديث ما سمعته عن أبي عبد الله محمد بن فاتك المقرىء قال : كنت أقرأ يوما على أبي بكر بن مجاهد رحمه الله المقرىء ببغداد ، اذ ورد عليه شيخ عليه عمامة رثة وطيلسان وثياب رثة ، وكان ابن مجاهد يعرف الشيخ فقال له : ايش كان من خبر الصبية ؟ قال : « ياأبا بكر جاءتني البارحة ابنة ثالثة فطلبت مني اهلي دانقا يشترون به سمنا وعسلا يحنكونها به فلم اقدر

عليه ، فبت مهموما ، فرأت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فيما يرى النائم ، فقال : لاتغتم ولاتحزن ، واذا كان غدا فادخل على علي بن عيسى وزير الخليفة فأقره مني السلام وقل له : بعلامة اذك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا »

فقال ابو بكر بن مجاهد : ياأبا عبد الله في هذا فائدة ، وقطع علي القراءة وأخذ بيد الشيخ وقام فدخل به على علي بن عيسى ، فرأى علي بن عيسى مع ابن مجاهد شيخا لم يعرفه فقال : من أين لك ياأبا بكر هذا ؟ فقال يدنيه الوزير ويسمع منه كلامه ، فأدناه وقال : ماخطبك ياشيخ ؟ فقال الشيخ : ان ابا بكر ابن مجاهد يعلم أن لي ابنتين ، والبارحة جاءتني ثالثة ، فطلبت مني أهلي دانقا يشترون به عسلا وسمنا يحذكونها به ، فلم أقدر عليه ، فبت البارحة وأنا مهموم ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : لاتغتم ولاتحزن ، إذا كان غدا فادخل على علي ابن عيسى واقره مني السلام وقل له : بعلامة أنك صليت علي عند قبري أربعة آلاف مرة ادفع لي مائة دينار عينا ، قال ابن مجاهد : فاغرورقت عينا علي بن عيسى بالدموع ، ثم قال : صدق الله ورسوله وصدقت أيها الرجل ، هذا شيء ماكان علم به الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ياغلام هات الكيس ، فأحضره بين يديه ، فضرب بيده اليه فأخرج منه مائة دينار ، وقال : هذه المائة التي قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه مائة أخرى للبشارة ، وهذه مائة أخرى هدية منا لك ، فخرج الرجل من عنده ، وفي كمة ثلاثمائة دينار »

وحدثني القائد الحاج أبو علي في شهر رمضان في سنة ثمان وستين وخمس مائة بحصن كيفا قال : «كنت بالموصل جالسا في دكان محمد بن علي بن مامة ، فاجتاز بنا رجل فقاعي(١٣٠)ضخم

غليظ الساقين فدعاه محمد وقال : ياعبد علي بالله حدث فلانا حديثك قال : انا رجل أبيع الفقاع كما ترى ، فبت ليلة اربعاء وأنا

صحيح فانتبهت وقد انحل وسطي فلا اقدر على الحركة ويبست رجلاي ودقتا ، حتى بقيت الجلد والعظم فكنت أزحف الى وراء زين الدين علي كوجك رحمه الله ، فأمر بحملي الى داره فحملت ، وأحضر الأطباء وقال : أريد أن تداووا هذا ، فقالوا : نعم نداويه ان شاء الله، ثم اخذوا مسمارا فاحموه ثم كووا به رجلي فما حسست به ، فقالوا لزين الدين : مانقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة ، فوهب لي دينارين وحمارا ، فبقي الحمار عندي نحوا من شهر ومات ، فعدت قعدت في طريقه ، فوهب لي حمارا أخر فمات ، ووهب لي حمارا ثالثا فمات ، فعدت الى سؤاله ، فقال لواحد من أصحابه : اخرج بهذا فارمه في الخندق ، فقلت له : بالله ارمني على وركي فاني ماأحس فيها بما يكون ، فقال : ماأرميك الا على رأسك ، فاذا رسول زين الدين رحمه الله قد جاءني فردني اليه ـ وكان الذي قاله من رميي مزاحا ـ فلما أحضروني بين يديه أعطاني أربعة دنانير وحمارا .

فبقيت على ماأنا عليه الى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن رجلا وقف علي :و قال : قم ، قلت : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، فقمت وقفت ، فأنبهت امرأتي وقلت : ويحك ، قد أبصرت كذا وكذا ، فقالت : هاأنت قائم ، فمشيت على رجلي وزال ماكان بي ، ورجعت كما تراني ، فمضيت الى عند زين الدين الأمير علي كوجك رحمه الله فقصصت عليه منامي ورآني قد زال ماراه بي ، فأعطاني عشرة دنانير »

فسبحان الشافي المعافي

حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطاب عمر بن محمد بن عبد الله بن معمر العليمي بدمشق أوائل سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة قال : حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي ابن محمد الانصاري الفرضي ، المعروف بقاضي المارستان ، انه قال :« لما حججت ، بينا أطوف بالبيت اذ وجدت عقدا من اللؤلؤ فشددته في طرف احرامي ، فبعد ساعة سمعت انسانا ينشده في

الحرم وقد جعل لمن يراه عليه عشرين دينارا ، فسألته علامة ماضاع له فأخبرني ، فسلمته اليه ، فقال لي : « تجيء معي الى منزلي لأدفع اليك ماجعلته لك » فقلت : مالي حاجة الى ذلك ، ومادفعته اليك بسبب الجعالة ، وأنا من الله بخير كثير ، فقال :« ولم تدفعه الا الله عز وجل ؟» فقلت :« نعم » فقال:« استقبل بنا الكعبة وأمن على دعائي » فاستقبلنا الكعبة فقال :« اللهم اغفر له وارزقني مكافأته » ثم ودعني ومضى .

ثم اتفق انني سافرت من مكة الى ديار مصر ، فركبت في البحر متوجها الى المغرب ، فأخذت الروم المركب وأسرت فيمن أسر ، فوقعت في نصيب بعض القسوس ، فلم ازل أخدمه الى أن دنت وفاته ، فأوصى باطلاقي .

فخرجت من بلد الروم فصرت الى بعض بلاد المغرب ، فجلست اكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناء تلك المدينة (١٣١) فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانيء الى الخباز فقال « سيدي يدعوك لتحاسبه » فاستصحبني معه ومضينا اليه فحاسبه على رقاعه ، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي وسلم الي جباية ملكة وكانت له نعمة ضخمة ، وأخلى لي بيتا في جانب داره .

فلما مضت مديدة قال لي :« يااباابكر مارأيك في التزويج ؟» قلت :« ياسيدي انا لاأطيق نفقة نفسي ، فكيف أطيق النفقة على زوجة ؟» قال :« أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع مايلزمك » فقلت :« الأمر لك » فقال :« ياولدي ان هذه الزوجة فيها عيوب شتى ــ ولم يترك شيئا من العيب في الخلاقة من رأسها الى قدمها الا ذكره لي ، وأنا أقول :« رضيت ــ وباطني في ذلك كظاهري ، فقال لي : « الزوجة ابنتي » وأحضر جماعة وعقد العقد .

فلما كان بعد أيام قال لي :« تهيأ لدخـول بيتـك ، ثـم أمـر لي بكسوة فاخرة ودخلت الى دار فيها التجمل والآلات ، ثم أجلست في المرتبة ، وأخرجت العروس تحت النمط فقمت لتلقيها ، فلما كشفت النمط رأيت صورة مارأيت في الدنيا أجمل منها ، فهربت مـن الدار خارجا ، فلقيني الشيخ وسـألني عن سـبب هـربي ، فقلت :« إن الزوجة ماهي التي ذكرت لي فيها مـن العيوب مـاذكرت » فتبسـم وقال : ياولدي هي زوجتك ، وليس لي ولد سواها ، وانما ذكرت لك ماذكرت لئلا تستقل ماتراه ، فعدت وجليت علي .

فلما كان من الغد جعلت أتـأمل مـا عليها مـن الحلي والجـوهر الفاخر ، فرأيت من جملة ماعليها العقد الذي وجدته بمكة ، فعجبت من ذلك ، واستغرقني الفكر فيه ، فلماخرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي وقال :« جدع الحلال انف الغيرة » فشكرته على مافعله معي ، ثم استولى علي الفكر في العقد ووصوله اليه ، فقـال لي :« فيم تفكر ؟» فقلت :« في العقد الفلاني ، فـاني حججـت في السنة الفلانية فوجدته في الحـرم أو عقـدا يشـبهه ، فصـاح وقـــال :« أنت الذي رددت علي العقـــد ؟» قلت :« أنا ذاك » فقال :« أبشر ، فان الله قد غفر لي ولك ، فـاني دعوت الله سبحانة في تلك الساعة أن يغفر لي ولك وأن يرزقني مكافأتك ، وقـد سلمت اليك مالي وولدي وماأظن أجلي الا وقد قرب » ثـم أوصى الي ومات بعد مدية قريبة رحمه الله ».

-٥٧٢٥-

الشفاء بطرق غريبة

وحدثني الأمير سيف الدولة زنكي بن قراجا ، رحمه الله ، قال :« دعانا شاهنشاه بحلب ـ وهو زوج أخته ـ فلما اجتمعنا عنده دفعنا الى صاحب لنا كنا نعاشره وننادمه خفيف الروح طيب العشرة فاستدعيناه ، فحضر ، فعرضنا عليه الشرب فقال :« أنا محتم أمرني الطبيب بالحمية أياما حتى تشق هذه السلعة ، وكان في مؤخر رقبته سلعة كبيرة ، فقلنا :« وافقنا اليوم وتكون الحمية من غد » ففعل وشرب معنا الى اخر النهار ، فطلبنا من شاهنشاه شيئا نأكله ، فقال :« ماعندي شيء فلاججناه حتى أجابنا الى أن يحضر لنا بيضا نقليه على المنقل ، فأحضر البيض ، وأحضرنا صحنا وكسرنا البيض وأفرغنا مافيه في الصحن ، ووضعنا المقلي على المنقل ليحمى ، فأشرت الى ذلك الرجل الذي في رقبته السلعة أن يشرب البيض ، فرفع الصحن على فمه ليشرب بعضه فانساب جميع مافي الصحن في حلقه فشربه ، وقلنا لصاحب الدار : عوضنا عن البيض ، فقال: والله ماأفعل ، فشربنا ، ثم افترقنا .

فانا في السحر في فراشي والباب يقرع ، فخرجت جارية تنظر من بالباب ، فاذا هو صديقنا ذلك ، فقلت أحضريه فجاءني وأنا في الفراش وقال : « يامولاي ، تلك السلعة التي كانت في رقبتي ذهبت ، وما بقي لها أثر ، فنظرت موضعها فاذا هو كغيره من جوانب رقبته ، فقلت :« أي شيء اذهبها ؟» قال :« الله سبحانه ، وما عرفت أنني استعملت شيئا ما كنت استعمله غير شربي لذلك البيض النيء» فسبحان القادر المبلي المعافي.

وكان عندنا في شيزر اخوان اسم الاكبر مظفر والآخر مالك بن عياض من أهل كفر طاب ، وهما تاجران يسافران الى بغداد وغيرها من البلاد ، ومظفر أدركه قيلة عظيمة فهو منها في

تعب ، فسار في قافلة على السماوة الى بغداد ، فنزلت القافلة بحي من أحياء العرب ، فضيفوهم بطيور طبخوها لهم ، فتعشوا وناموا ، فانتبه انبه رفيقه الذي في جانبه وقال له :« انا نائم أو مستيقظ ؟» قال :« مستيقظ لوكنت نائما ماتحدثت » قال :« تلك القيلة قد ذهبت ومابقي لها أثر » فنظر فاذا هو قد عاد كغيره الى الصحة .

فلما اصبحوا سألوا العرب الذين أضافوهم أي شيء اطعموهم ، قالوا :« نزلتم بنا ودوابنا عازبة ، فخرجنا اخذنا فراخ غربان طبخناها لكم » فلما وصلوا بغداد دخلوا المارستان وحكوا للمتولي المارستان حكايته ، فنفذ حصل فراخ غربان واطعمها لمن به هذا المرض ، فلم تنفعه ولاأثرت فيه ، فقال :« تلك الفراخ التي أكلها كان زقها أبوها أفاعي فلذلك كان نفعها ».

ومما يشاكل ذلك ان رجلا أتى المختار بن بطلان (١٣٢) الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صنعة الطب ، وهو في دكانه بحلب ، فشكا اليه مرضه فرآه قد استحكم به الاستسقاء وكبر بطنه ، ودقت رقبته ، وتغيرت سحنته ، فقال له :« ياولدي ، مالي والله فيك حيلة ، ولابقي الطب ينجع فيك » فانصرف .

ثم بعد مدة اجتاز به وهو في دكانه وقد زال عنه ماكان به من المرض ، وضمر جوفه وحسنت حاله ، فدعاه ابن بطلان فقال :« ماأنت الذي حضرت عندي من مدة وبك الاستسقاء وقد كبر بطنك ودقت رقبتك ، وقلت لك : مالي فيك حيلة ؟» قال :« بلى » قال :« فبماذا تداويت حتى زال ماكان بك ؟» قال :« والله ماتداويت بشيء ، انا رجل صعلوك مالي شيء ولالي من يدور بي سوى والدتي عجوز ضعيفة كان لها في دنين خل ، فكانت كل يوم تطعمني منه بخبز » ، فقال له ابن بطلان « بقي من الخل شيء ؟» قال :« نعم » قال :« امش معي ارني

الدن الذي فيه الخـل » فمشى بين يديه الى بيتـه أوقفـــه على دن الخل ، فافرغ ابن بطلان ماكان فيه من الخل فوجد في اسفله افعيين قد تهرأتا فقال له :« يابني ماكان يقدر يداويك بخل فيه أفعيان حتى تبرأ الا الله عز وجل »

وكان لهذا ابن بطلان اصابات عجيبة في الطب فمن ذلك أن رجـلا أتاه ، وهو في دكانه بحلب ، والرجل قد انقطع كلامه فلا يكاد يفهـم منه انا تـكلم ، فقـال له :« مـاصنعتك ؟» قـال :« أنا مغربل » فقـال :« أحضر لي نصـف رطـل خـل حاذق » فأحضره ، فقال :« اشربه »، فشربه وجلس لحظة فـذرعه القيء ، فتقيأ طينا كثيرا في ذلك الخـل ، فـانفتح حلقـه واسـتوى كلامه ، فقال ابن بطلان لابنه وتلاميذه :« لاتداووا بهذا الدواء أحدا فتقتلوه ، هذا كان قد علق بالمريء من غبار الغـربلة تـراب مـاكان يخرجه الا الخل » .

وكان ابن بطلان ملازما لخدمة جدي الأكبر ابي المتوج مقلد بـن نصر بن منقذ فظهر في جدي ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بـن منقذ ، رحمه الله ، وضح وهو صـبي صـغير ، فـأقلق ذلك أبـاه واشفق عليه من البرص ، فأحضر ابن بطلان وقال له :« ابصر ماقد ظهر في جسم علي » ، فنظره وقال :« اريد خمس مائة دينار حتـى اداويه وأذهب هـذا عنه »، فقـال له جـدي :« لو كنت داويت عليا ماكنت رضيت لك بخمسس مـائة دينار » فلمـا رأى الغضـب مـن جدي ، قال : « يامولاي ، أنا خادمك وعبدك وفي فضـلك ، مـاقلت ماقلته الا على سبيل المزح ، وهذا الذي بعلي بهق الشـباب ، واذا أدرك زال عنه ، فلا تحمل منه همـا ، ولا يقـول لك سـواي :« أنا أداويه ويتسوق عليك ، فهذا يزول عند بلوغه » فكان كما قال .

وكان في حلب امرأة من وجوه نساء حلب ، يقال لها برة لحقهـا برد في راسها ، فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنوسة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على راسها عمامة كبيرة وهي تستغيث من

البرد ، فأحضرت ابن بطلان وشكت اليه مرضها فقال :« حصلي في غد خمسين مثقالا من كافور رياحي عارية او مكري من بعض الطيبيين ، فهو يعود اليه بأسره ،، فحصلت له الكافور ، ثم اصبح القى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ، ورد على رأسها ماكان عليه من الدثار وهي تستغيث من البرد ، فنامت لحظة وانتبهت تشكو الحر والكرب في رأسها ، فالقى عنها شيئا شيئا مما كان على رأسها حتى بقي على رأسها قناع واحد ، ثم نفض شعرها من ذلك الكافور ، وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد .

وقد جرى لي بشيزر مايقارب ذلك ، لحقني برد عظيم وقشعريرة من غير حمى وعلي الثياب الكثيرة والفرو ، ومتى تحركت في جلوسي ارتعدت وقام شعر بدني وتجمعت ، فاحضرت الشيخ ابا الوفاء تميما الطبيب فشكوت اليه ماأجد ، فقال :« احضروا لي بطيخة هندي » فاحضرت فكسرها وقال لي :« كل منها ما استطعت» قلت :«يا حكيم أنا في الموت من البرد ، والزمان بارد ، كيف آكل هذه مع بردها ؟» قال :« كل كما اقول لك » فأكلت : فما انتهى اكلي منها حتى عرقت وزال ماكنت أجده من البرد ، فقال لي :« الذي كان بك من غلبة الصفراء ماكان من برد حقيقي ».

وقد تقدم ذكر شيء من غريب الأحلام ، وقد أوردت في كتابي المترجم ب «كتاب النوم والاحلام» من ذكر النوم والاحلام ، وما قيل فيه وفي اوقات الرؤيا وفي أقوال العلماء فيها ، واستشهدت على اقوالهم بما ورد فيها من اشعار العرب ، ووسعت الشرح ، وأشبعت فيه المعنى ، فما حاجة الى ذكر شيء منه هاهنا ، لكنني ذكرت هذا الخبر واستظرفته .

كان لجدي سديد الملك ابي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، رحمه الله ، جارية يقال لها لؤلؤة ربت والدي مجد الدين أبا

سلامة مرشد بن علي ، رحمه الله ، فلما كبر وانتقل عن دار والده انتقلت معه . فرزقني ، فربتني تلك العجوز الى ان كبرت وتزوجت وانتقلت من دار والدي ، رحمه الله ، فانتقلت معي ، ورزقت الاولاد فربتهم ، وكانت ، رحمها الله ، من النساء الصالحات صوامة قوامة . وكان يلحقها القولنج وقتا بعد وقت ، فلحقها يوما من الايام واشتد بها حتى غاب ذهنها ، وآيسوها ، فبقيت كذلك يومين وليلتين ، ثم افاقت فقالت :« لا اله الا الله ، ما أعجب ماكنت فيه ، لقيت أمواتنا جميعهم وحدثوني بالعجائب وقالوا لي في جملة ماقالوا: « إن هذا القولنج ما يعود يلحقك » ، فعاشت بعد ذلك المدة الطويلة لم يلحقها قولنج .

وعاشت حتى قاربت المائة سنة ، وكانت محافظة لصلواتها ، رحمها الله .فدخلت اليها في بيت افردته لها من داري وبين يديها طست وهي تغسل منديلا للصلوات ، فقلت: «ما هذا ياأمي؟» قالت: «يا بني ، قد مسكو هذا المنديل وايديهم ذفرة من الجبن ، وكلما غسلته قد فاحت منه رائحة الجبن » ، قلت «اريني الصابونة التي تغسلين بها ». فأخرجتها من المنديل فاذا هي قطعة جبن ، وهي تظن أنها صابون ، وكلما عركت ذلك المنديل بالجبن قد فاحت روائحه ، قلت: «يا أمي ، هذه جبنة ! ما هي صابونة» ، فنظرتها وقالت: «صدقت ، يا بني ، ما ظننتها الا صابونا». فتبارك الله اصدق القائلين : «ومن نعمره ننكسه في الخلق» (١٣٣)

الاطالة تجلب الملالة ، والحوادث والطوارىء اكثر من ان تحصر ، والرغبة الى الله ، عز وجل في الستر فيما بقي من الحياة ، والرحمة والرضوان عند موافاة الوفاة ، فانه سبحانه أكرم مسؤول ، وأقرب مأمول .

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وسلامه .

الباب الثالث

أخبار الصيد

الباب الثالث

أخبار الصيد

توكلت على الله تعالى

ولله مني جانب لا اضيعه

وللهو مني والبطالة جانب

قد ذكرت من أحوال الحرب ، وما شاهدته من الوقعات والمصـافات والاخطار ما حضرتني ذكره ولم ينسنيه الزمان ومره ، فـان العمـر طال ولزمت الانفراد والاعتزال ، والنسيان من ارث متقادم من أبينا آدم ، عليه السلام .

وأنا ذاكر فصلا فيما حضرتـه وشـاهدته مـن الصـيد والقنص والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر ، ومن ذلك مـا حضرته مع ملك الأمراء أتـابك زنكي بـن آق سـنقر ، رحمـه الله تعالى ، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرتـه بمصر ، ومـن ذلك مـا حضرته مع الملك العادل نور الدين أبي المظفـر محمـود بـن أتـابك زنكي ، رحمه الله ، ومن ذلك ما حضرته بديار بكر مع الأمير فخـر الدين قرا أرسلان بن داود بن أرتق ، رحمه الله .

فأما ما كان بشيزر فكان مع الوالد ، رحمه الله ، وكان مشغوفا بالصيد لهجا بـه وبجميع الجـوارح ، ومـايستكثر مـايغرمه عليه لفرجته ، فإنه كان نزهته ، فليس له شغل سـوى الحـرب وجهـاد

الافرنج ونسخ كتاب الله ، عز وجل عند فراغه من أشغال أصحابه ، وهو رحمه الله ، صائم الدهر مواظب على تلاوة القرآن ، فكان الصيد كما جاء في الخبر «روحوا القلوب تعي الذكر» ، فما رأيت قط مثل صيده وترتيبه .

وقد شاهدت صيد ملك الأمراء اتابك زنكي ، رحمه الله ، وكان له الجوارح الكثيرة ، فرأيته ونحن نسير على الأنهار فيتقدم البازدارية بالبزاة ترميها على طيور الماء وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيد منها ما تصيد وتخطىء ما تخطىء ، ووراءهم الشواهين الكوهية (١٣٤) على أيدي البازدارية ، فاذا اصطادت البزاة وأخطات أرسلوا الشواهين الكوهية على الطيور وقد ابعدت دشت خيز (١٣٥) ، فتلحق وتصيد ، وترسل على الحجل فتلحق الحجل في طلوعها في سفح الجبل فتصيد ، فانها من سرعة الطيران على صفة عجيبة .

وشاهدته يوما ونحن في المغرقة بظاهر الموصل نسير في باذنجان وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق ، فطار ذكر دراج فأرسله عليه فأخذه ونزل ، فلما صار في الارض فرط الدراج من كفه وطار ، فلما إرتفع انتقل الباز من الأرض أخذه ونزل وقد ثبته .

ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات ، إذا اجتمعت الحلقة واجتمع فيه الوحش لا يقدر أحد يدخل الحلقة ، واذا خرج من الوحش شيء رموه ، وكان من أرمى الناس ، فكان اذا دنا منه الغزال رماه ، فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح ، وكان أول غزال يضربه في كل صيد أحضره ، يدفعه لي مع غلام من غلمانه وأنا معه .

وشاهدته وقد اجتمعت الحلقة ونحن في ارض نصيبين على الهرماس(١٣٦) ، وقد ضربوا الخيام ، فوصل الوحش الى الخيام ، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئا

كثيرا ، واجتمع في الحلقة ذيب فـوثب في وسـطها على غزال أخـذه وبرك عليه ، فقتل وهو عليه .

وشاهدته يوما ونحن بسنجار وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: «هاهنا ضبعة نائمة !» فسار ونحن معه الى واد هناك ، والضـبعة نائمة على صخرة في سفح الوادي ، فترجل أتابك ومشى حتى وقـف مقابلها وضربها بنشابة رماها إلى أسـفل الوادي ، ونزلوا جـاؤوا بها إلى بين يديه وهي ميتة .

ورأيته أيضا بظاهر سنجار وقد جلوا أرنبا ، فـأمر فـاستدارت الخيل حولها ، وأمر غلاما خلفه يحمـل الوشـق كمـا يحمـل الفهد ، فتقدم أرسله على الارنب ، فدخلت بين قوائم الخيل ، ومـا تمكن منها ، وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك يصيد .

ورأيت الصيد بدمشق أيام شهاب الدين محمود بـن تـاج الملوك الطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير ، فرأيته يوما وقد خـرجنا الى شعراء بانياس وفي الارض عشب عظيم ، فتصـيدنا كثيرا مـن اليحامير ، وضربت الخيام حلقة ونزلنا ، فقام من وسـط الحلقـة يحمور كان نائما في العشب فأخذ في وسط الخيام .

ورأيت ونحن عائدون رجلا قد رأى سنجابا في شجرة ، فأعلم به شهاب الدين ، فجاء وقف تحته ورمـاه مـرتين أو ثـلاثا فمـا أصابه . فتركه وسار شبه المغتاظ الذي لم يصبه ، فرأيت رجلا من الاتراك جاء رماه فوسط النشابة فيه ، فاسترخت يداه وبقي متعلقا برجليه والنشابة فيه حتى هـزوا الشـجرة فـوقع ، ولو كانت تلك النشابة في ابن آدم كان مات لوقته ، فسبحان خالق الخلق .

ورأيت الصـيد بمصر كان للحـافظ لدين الله عبـد المجيد أبـي الميمون ، رحمه الله ، جـوارح كثيرة مـن البـزاة والصـقور والشواهين البحرية ، فكان لهم زمـام يخـرج بهـم في الجمعـة

يومين ، واكثرهم رجالة على ايديهم الجـوارح ، فـكنت اركب يوم خروجهم الى الصيد لاتفـرج بنظـر صـيدهم ، فمضى الزمـام الى الحافظ وقال له: «إن الضيف فلانا يخـرج معنا »؟ كأنه يسـتطلع أمره في ذلك ، فقال :«اخرج معه يتفرج على الجوارح ».

فخرجنا يوما ومع بعض البازيارية باز مقرنص بيت أحمر(١٣٧) العينين ، فراينا كراكي ، فقال له الزمام: «تقدم ارم عليهـا البـاز الاحمر العينين» ، فتقدم رماه ، وطارت الكراكي فلحق منها واحدا على بعد منا فحطه ، فقلت لغـلام لي على حصـان جيد : « ادفـع الحصان اليه وانزل اغرز منقار الكركي في الأرض واكتفـه واتـرك رجليه تحت رجليك الى أن نصلك » فمضى وعمل ما قلت له ، ووصل البازيار ذبح الكركي واشبع الباز .

فلما دخل الزمام حدث الحافظ بمـا جـرى ، ومـا قلتـه للغلام ، وقال : «يا مولانا ، حديثه حديث صـياد» ، قـال :« واي شيء شغل هذا إلا القتال والصيد؟»

وكان معهم صقور يرسلونها على البلاشيب وهي طائرة ، فـاذا رأى البلشوب الصقر دار وارتفع ، والصقر يدور في جانب آخر حتى يرتفع على البلشوب ، ثم ينقلب عليه يأخذه .

وفي تلك البلاد طيور يسمونها البـج مثـل النحـام يصـيدونها أيضا ، وطيور الماء في مقطعات النيل سهلة الصيد ، والغزال عندهم قليل ، بل في تلك البلاد بقر بني اسرائيل وهي بقر صفر قرونها مثل قرون البقر وهي اصغر من البقر تعدو عدوا عظيما ، وتخرج لهم من النيل دابة يسمونها فرس البحر مثـل البقـرة الصـغيرة وعيناهـا صغيرتان وهي جرداء مثل الجاموس . لهـا أنياب طـوال في فـكها الاسفل ، وفي فكها الأعلى خروق لانيابها تخرج رؤوسها من تحـت عينيها . وصياحها مثل صياح الخنزير . ولا تبرح في بركة فيها ماء وتأكل الخبز والحشيش والشعير(١٣٨) .

وكنت قد مضيت مــع الأمير معين الدين ، رحمــه الله ، الى عكا الى عند ملك الافرنج فلك بن فلك ، فرأينا رجلا من الجنوية قد وصل من بلاد الافرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ، ومعه كلبــة صغيرة إذا أرسل الباز على الكراكي عدت تحته ، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فــلايقدر على الخــلاص منهــا ، وقــال لنا ذلك الجنوي : « ان الباز عندنا اذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصــطاد الكركي ». فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك .

فطلبه الأمير معين الدين ، رحمه الله ، من الملك فأخذه مــن ذلك الجنوي هو والكلبة واعطاه للامير معين الدين ، فجاء معنا ، فرأيته في الطريق يثب الى الغزلان كما يثب الى اللحم ، ووصــلنا بــه إلى دمشق ، فما طال عمره بها ولا صاد شيئا ومات .

وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الامير فخر الدين قرا أرسلان ابــن داود ، رحمــــه الله ، وهناك الحجـــــل والزرغ(١٣٩) كثير والدراج ، فأما طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمــكن البــاز منها ، وأكثر صيدهم الاراوي ومعزي الجبــل يعملون لهــا شــباكا ويمدونها في الاودية ويطردون الاراوي فتقــع في تلك الشــباك وهــي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد ، وكذلك الارانب .

وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله ، فحضرتــه ونحن بأرض حماة ، وقد جلوا له ارنبا فضربهــا بنشــابة كســماء وقامت وسبقت الى محجر بخلته ، فركضنا خلفها ، ووقف عليهــا نور الدين . وناولني الشريف السيد بهاء الدين رحمه الله ، رجلهــا قد قطعتها النشابة من فوق العرقوب وشقت جــوفها قــرنة النصــلة فوقع منها بيت الولد ، وسبقت بعد هذا وانحجرت ، فأمر نور الدين بعض الوشاقية نزل وقلع خفافه ودخــل خلفهــا ، فمــا وصــل اليها ، وقلت للذي معه بيت الاولاد وفيه خرنقات « شــقة واطمــرهم بالتراب» ، ففعل ، فتحركوا وعاشوا

وحضرته يوما وقد أرسل كلبة على ثعلب ونحن على قرا حصار بأرض حلب ، فركض خلفه وأنا معه ، فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها ، فصارت الكلبة تعوي ، ونور الدين رحمه الله يضحك ، ثم خلاها وانجحر. فما قدرنا عليه .

وجاءه يوما ونحن ركاب تحت قلعة حلب من شمالي البلد باز ، فقال لنجم الدين أبي طالب علي كرد(١٤٠) رحمه الله «قل افلان - يعنيني - يأخذ هذا الباز يلعب به» ، فقال لي ، فقلت «ماأحسن له» فقال نور الدين: «أنتم في الصيد ما كنتم تزالون ، ما تحسن تصلح الباز؟» قلت: «يا مولاي ، ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونه ويتصيدون بها قدامنا» ، وما أخذت الباز.

شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئا ما اتسع لي الوقت لذكره مفصلا ، وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وآلته وغيره . وما رأيت مثل صيد والدي ، رحمه الله ، فما أدري كنت أراه بعين المحبة كما قال القائل:«وكل ما يفعل المحبوب محبوب» ، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق ، وأنا أذكر شيئا من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه

وذلك أن والدي ، رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى ، فكان قد نسخ ستا وأربعين ختمة بخطه ، رحمه الله ، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن ، ويركب الى الصيد يوما ويستريح يوما ، وهو صائم الدهر .

ولنا بشيزر متصيدات : متصيد للحجل والارانب في الجبل قبلي البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والارانب والغزلان على النهر في الازوار من غربي البلد .

وكان يتكلف في تسيير قوم من أصحابه الى البلاد لشري البزاة ، حتى أنه انفذ الى القسطنطينية أحضر له منها بزاة ، وحملوا الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا أنه يكفي البزاة التي معهم ، فتغير عليهم البحر ، وتعوقوا حتى فرغ ما معهم من طعم البزاة ، فاضطروا الى ان صاروا يطعمون البزاة لحم السمك ، فأثر ذلك في اجنحتها صار ريشها ينكسر وينقصف ، فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة ، وفي خدمة الوالد بازيار طويل اليد في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم ، فواصل احنحتها واصطاد بها ، وقرنص بعضها عنده .

وكان اكثر ما يستدعي البزاة وبشاريها من وادي ابن الاحمر بالعلا (١٤١) ، فأحضر قوما من أهل الجبل القريب من شيزر من اهل بشيلي وبسمالخ وحلة عارا (١٤٢) ، وتحدث معهم في ان يعملوا في مواضعهم مصايد للبزاة ، ووهبهم وكساهم ، فمضوا وعملوا بيوت الصيد ، فاصطادوا بزاة كثيرة فراخا ومقرنصة وزرارق ، فحملوها الى الوالد وقالوا : « يا مولانا ، نحن قد بطلنا معايشنا وزراعتنا في خدمتك ، ونشتهي أن تأخذ منا كل ما نصيده وتقرر لنا ثمنا نعرفه لا تجاذب فيه» فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشرة دينارا ، وثمن الزرق المقرنص نصفها ، وثمن الباز المقرنص عشرة دنانير ، وثمن الزرق المقرنص نصفها ، وانفتح للجبليين أخذ دنانير بغير كلفة ولا تعب ، انما يعمل به بيتا بحجارة ، وعلى قدر خلقته ، ويغطيه بعيدان ويسترها بقش وحشيش ، ويجعل نافذة ، ويأخذ طير حمام يجمع رجليه على قضيب ويشدها اليه ، ويخرجه من تلك النافذة ، يحرك العود فيتحرك الطير ويفتح أجنحته ، فيراه الباز ينقلب عليه يأخذه ، فإذا أحس به الصياد جذب القضيب الى النافذة ومد يده قبض رجلي الباز ، وهو قابض للطير الحمام ، وأنزله اليه وخيط عينيه ويصبح من الغد يصلنا به ، ويأخذ ثمنه ويعود الى بيته بعد يومين .

- ٥٧٣٩ -

فكثر الصيادون وكثرت البزاة حتى صارت عندنا مثل الدجاج : فيها ما يتصيد به وفيها ما يموت على الكنادر (١٤٣) من كثرتها .

وكان في خدمة الوالد بازيار وصقارون وكلابزية ، وعلم قوما من مماليكه اصلاح البزاة فمهروا فيها ، وكان يخرج الى الصيد ونحن أولاد معه في اربعة رجال ، ومعنا غلماننا وجنائبنا وسلاحنا ، فإنا ما كنا نأمن من الفرنج لقربهم منا ، ويخرج معنا بزاة كثيرة من العشرة وما حولها ، ومعه صقاران وفهادان وكلابزيان ، مع أحدهما كلاب سلوقية ومع لآخر كلاب زغارية ، فيوم خروجه الى الجبل لصيد الحجل وهو بعيد من الجبل يقول لنا اذا خرج الى طريق الجبل : « تفرقوا ، كل من عليه قراءة يقرأها » ، ونحن أولاد حفاظ القرآن ، فنفترق نقرأ حتى يصير الى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا ، فإذا أخبرناه يقول : انا قرأت مائة آية ، أو نحوها ، وكان رحمه الله ، يقرأ القرآن كما أنزل .

فاذا صرنا في المتصيد أمر الغلمان فتفرق بعضهم مع البازيارية ، فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليه ، ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارسا أخبر الناس بالصيد ، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال الا اصطدناه ، وننتهي في الجبل نصيد الى العصر ، ثم نعود وقد اشبعنا البزاة وطرحناها على القلوت(١٤٤) في الجبل شربت واستحمت ، ونعود الى البلد بعد عتمة .

فإذا ركبنا الى طير الماء والدراج كان ذلك يوم فرجتنا ، نقع في

الصيد من باب المدينة ثم نصل الى الازوار فيقف الفهود والصقور برا من الزور وندخل اليه بالبزاة ، فان طارت دراجة أخذها الباز ، وإن قفزت أرنب أرسلنا عليها بعض البزاة ، فان أخذها والا خرجت الى الفهود ارسلوا عليها ، وان قفز غزال خرج الى الفهود ارسلوا

عليه . فان اخذ والا ارسلوا عليه الصقور ، فما يكاد يفلت منا صيد الا بفسحة الاجل .

وفي الازوار خنازير كثيرة تحـرج ، فنركض عليهـا ونقتلهـا فيكون فرحنا بقتلها اكثر من فرحة الصـيد .

وكان له ترتيب في الصيد كأنه ترتيب الحـرب والامـر المهـم ، لا يشغل أحد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر الارانب او الطير في اوكارها .

وكان قد صار بينه وبين بني روبال - تروس ولاون الارمن مـن أصحاب المصيصة وطرسوس واذنة والدروب - مصـادقة ومـكاتبة اكبر سببها رغبته في البزاة ، فكان ينفذون له كل سنة عدة من عشرة بزاة أو ماحولها على أيدي رجاله أرمن بـازيارية وينفـذون الكلاب الزغارية ، وينفذ لهم هو الحصن والطيب ، ومـن كسوة مصر ، فكان يجيئنا من عندهم بزاة .ملاح نادرة فـاجتمع عندنا في بعض السنين بزاة قد جاءت من الدروب فيها باز فرخ مثل العقاب وبـزاة

دونه وجاءنا من الجبل عدة فيها باز كأنه صـقر عريض فـرخ مـا يلحق بتلك البزاة ، والبازيار غنائم يقول: «ما في هذه البـزاة كلهـا مثل هذا الباز اليحشور(١٤٥) ما يترك شيئا الا يصيده » ، ونحن لا نصدقه ، ثم أصلح ذلك الباز ، فكان كما ظن فيه من أفره البـزاة وأطيرها وأشطرها ، وقرنص عندنا وخرج من القرناص أجود ممـا كان ، وعمر ذلك الباز وقرنص عندنا ثلاث عشرة سنة ، فـكان قـد صار كأنه من أهل البيت يصـطاد الخـدمة ، لا لما جـرت بـه عادة الجوارح أن يصيدوا لنفوسهم .

وكان مقامه عند الوالد ، رحمه الله ، لا يتركه عند البازيار ، لأن البازيار إنما يحمل الباز في الليل ويجوعه حتى يصـطاد بـه وذلك الباز كان يكفي من نفسه ويعمل مـا يراد منه ، فـكنا نخرج الى

صيد الحجل ومعنا عدة بزاة فيدفعه الوالد إلى بعض البازيارية ويقول: «اعتزل به ولا ترسله بالحملة وتستر في الجبل». فكلما خلوا أبصروا حجلة لابدة من شجرة قد أعلموه بها يقول: «هاتوا اليحشور» ساعة يقيم يده له قد طار من على يد البازيار، وقع على يده بغير دعو، ثم يستشرف برأسه ورقبته فيقف على الحجلة النائمة ويرميها بقضيب في يده فتطير، ويرسل عليها اليحشور فيأخذها في عشرة أذرع، وينزل اليه البازيار يذبح في رجله ويرفعه، فيقول: «اعتزل به» فاذا رأوا حجلة أخرى لا بدة عمل بها ذلك، حتى يصيد خمس ست حجلات، كذا يأخذها في عشرة أذرع، ثم يقول البازيار «اشبعه» فيقول له: «يامولاي، ما تدعه نتصيد به؟» يقول: «يا بني، معنا عشرة بزاة نتصيد بها وهذا قد صاد، هذه الاطلاق تقطع عمره»، فيشبعه ويعتزل به البازيار.

فاذا انهينا في الصيد واشبعنا البزاة وحططناها على الماء شربت واستحمت واليحشور على يد البازيار، فاذا استقبلنا البلد راجعين ونحن في الجبل قال: «هات اليحشور» حمله على يده وسار، إن طارت حجلة من بين يديه ارسل عليها صادها حتى يصيد عشرة اطلاق أو أكثر على قدر ما يطير له من الحجل، وهو شبعان لا يحط منسره في مذبح حجلة ولا يذوق دمها، فاذا دخلنا الى الدار قال: «هاتوا طاسة ماء» فجاؤوا بطاسة فيها ماء قدمها اليه وهو على يده، رحمه الله، فيشرب منها، وإن كان يريد يستحم خضخض منسره في الماء، فيدري انه يريد يستحم فيأمر باحضار جفنة كبيرة فيها ماء ويقدمه اليها، فيطير ينزل في وسطها ويدف في الماء حتى يكتفي من السباحة ثم يطلع، فيحطه على قفاز خشب، قد عمل له، كبير، ويقرب منه منقل نار، فيتمشق ويتدهن حتى ينشف من الماء، ثم يضع له فروا مطويا، فينزل إليه ينام عليه، فلا يزال بيننا على ذلك الفرو نائما حتى يتهور الليل، ويريد الوالد يدخل الى دار الحرم فيقول لاحدنا: «احمله» فيحمل كما هو نائم على الفرو حتى يحط الى جانب فراش الوالد رحمه الله.

وكان من عجائب هذا الباز ، وعجائبه كثيرة وأنا أذكر منها ما يحضرني ذكره ، فان الأمد قد طال وانستني السنون كثيرا من أحواله ، أن كان في دار الوالد حمام وطيور ماء خضر واناثها وبيضانيات(١٤٦) من التي تكون بين البقر لتلتقط الذبان من الدار ، وكان يدخل الوالد وهذا الباز على يده يجلس على دكة في الدار والباز على قفاز الى جانبه فلا يطلب شيئا من تلك الطيور ولا يثب اليها ، ولا كأنها مما جرت عادته بصيدها .

وكانت المياه تكثر في ظاهر شيزر في الشتاء فيصير برا من سورها نقاع كبئار ماء وفيه الطيور ، فيأمر الوالد البازيار وغلاما معه يخرجا الى قريب من تلك الطيور ، ويأخذ اليحشور على يده ويقف به على الحصن يريه الطيور وهو شرقي البلد والطيور غربيها ،فاذا أبصرها أرسله فينزل يشف على البلد حتى يخرج منه وينتهي الى الطيور ، فيدق له البازيار الطبل فتطير الطيور فيصيد منها وبينها وبين موضع ارسل منه مسافة بعيدة .

وكنا نخرج الى صيد طير الماء والدراج ، ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد ، فيقول الوالد: «هات اليحشور» ، فيأخذه وهو شبعان ويتقدم الى الطيور يدق الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها ، فان اصاد وقع بيننا نزل اليه البازيار ذبح في رجله ورفعه ، وان لم يصد وقع على بعض أكناف النهر فما نراه ولا ندري أين وقع ، فنخليه وندخل إلى البلد ، ويصبح البازيار من سحر يخرج اليه يأخذه ويطلع به إلى الحصن إلى عند الوالد ، رحمه الله ، ويقول له: «يامولاي» قد صدقل هذا الصقيع قفاه طول الليل ، وقد أصبح يقط البولاد(١٤٧) فاركب ابصر ايش يعمل اليوم!»

وما كان يفوت هذا الباز شيء من الصيد من السمانة الى الوز السمند والارنب ، وكان البازيار يشتهي ان يصيد به الكراكي والحرجل ما يتركه الوالد ويقول: «الحرجل والكراكي نصيدها

بالصقور » ، وكان هذا الباز قد قصر عما نعهده من صيده سنة من السنين ، حتى انه كان اذا ارسل واخطأ لا يجيء الى الدعو وهو عاجز ولا يستحم ولا ندري ما به ، ثم صلح عما كان من تقصيره وصاد .

واستحم يوما ، فرفعه البازيار من الماء وقد تفرق ريشه بالبلل عن جانبه ، واذا في جانبه سلعة في قد اللوزة ، فأحضره البازيار بين يدي الوالد وقال : «يا مولاي ، هذه التي قصرت بالباز وكانت تهلكه» ثم مسك الباز وعصرها خرجت مثل اللوزة ، وختم موضعها ، وعاد اليحشور الى الطيور بالسيف والنطع .

وكان شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة في ذلك الوقت يدفذ كل سنة يطلبُ الباز اليحشور يمضي إليه مع البازيار يقيم عنده عشرين يوما يتصيد به ويأخذه البازيار ويعود ، فمات الباز بشيزر.

واتفق انني كنت قد زرت شهاب الدين الى حماة ، وأصبحت يوما وأنا بحماة وقد حضر القراء والمكبرون وخلق عظيم من أهل البلد ، فسألت «من قد مات؟» قالوا : «بنت لشهاب الدين ، فأردت الخروج خلف الجنازة ، فماحكني شهاب الدين ومنعني ، وخرجوا قبروا الميت في تل صفرون ، فلما عادوا قال لي شهاب الدين : «تدري من هو الميت؟» قلت: «قالوا : ولد لك ، قال: «لا ، والله ، بل هو الباز اليحشور ، سمعت أنه مات أنفذت أخذته وعملت له تابوتا وجنازة وقبرته ، فانه كان يستحق ذلك »

وكان للوالد ، رحمه الله ، فهدة في الفهود مثل اليحشور في البزاة ، اصطادوها وهي وحشية ، من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها(١٤٨) وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزبد ، ويقدم اليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحوا من سنة ، فخرجنا يوما إلى الأزوار ، فدخلت

الخيل الى الزور وأنا واقف في فم الزور ، والفهاد بهذه الفهدة قريب مني . فقام من الزور غزال وخرج إلي ، فدفعت حصانا كان تحتي من أجود الخيل أريد أرده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان ندسه بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادته . فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت: «خذوا من الصيد ما أردتم!» فكانت مهما قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه ، ولا تقف كما تقف الفهود في طردها بل وقت ان يقول «قد وقفت» تجدد عدوا او تأخذ الغزال .

وصيدنا بشيزر الغزال الادمي ، وهو غزال كبير ، فكنا اذا خرجنا بها الى العلاة والأرض الشرقية ، وفيها الغزال الأبيض ، لا تترك الفهاد يركض بها حتى يمكنها الا تجذبه ترميه ، وتغير على الغزلان كانها كانت ترى انهم خشوف لصغر الغزال الأبيض .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد ، رحمه الله ، وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يجيء الفهاد بها من الصيد الى باب الدار يحطها وفيها المرفقة ، وتدخل الى الدار الى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجيء الجارية تربطها الى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار والله ، نحو من عشرين غزال أدمي وأبيض وفحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار ، فلا تطلبهم ولا تروعهم ، ولا تزول عن موضعها ، وتدخل الى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت الى الغزلان .

وشاهدت الجارية التي كانت تدور بها وهي تسرح جسمها بالمشط فلا تمتنع ولا تنفر ، ورأيتها يوما ، وقد بالت على تلك القطيفة المفروشة لها ، وهي تتلتلها وتضربها حيث بالت على القطيفة ، ولا تهر عليها ولا تضر بها .

ورأيتها يوما وقد أثارت من بين يدي الفهاد أرنبين ، وقد لحقت

الواحدة وأخذتها وعضتها بفمها وتبعت الاخرى فلحقتها وجعلت تضربها بيدها وفمها مشغول بالأرنب الاولة ، فوقفت عنها بعد أن ضربتها بيديها عدة ضربات ومضت الأرنب .

وحضر معنا في الصيد الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيبويه زمانه ، قرأت عليه النحو نحوا من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم بطرابلس ، فلما أخذ الافرنج طرابلس نفذ الوالد والعم ، رحمهما الله ، استخلصا الشيخ أبا عبد الله هذا ويانس الناسخ ، وكان قريب الطبقة في الخط من طريقه ابن البواب ، أقام عندنا بشيزر مدة ونسخ للوالد ، رحمه الله ، ختمتين ثم انتقل الى مصر ومات بها .

وشاهدت من الشيخ ابي عبد الله عجبا ، دخلت عليه يوما لاقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو: «كتاب سيبويه» ، و«وكتاب الخصائص» لابن جني «وكتاب الايضاح» لأبي علي الفارسي»
و«كتاب اللمع» ، و«كتاب الجمل».فقلت: «يا شيخ أبا عبد الله» ، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال: «قرأتها؟ لا والله الا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري: خذ جزءا وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطرا واحدا» ، فاخذت جزءا وفتحته وقرأت منه سطرا ، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها ، فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر .

هذه جملة اعتراضية لا موضع لها من سياقة الحديث .

وقد حضر معنا صيد هذه الفهدة ، وهو راكب في رجليه افدام(١٤٩) وفي الأرض شوك كثير وقد ضرب رجليه ادماهما . وهو مشغول ينظر صيد الفهدة ولا يحس بتألم رجليه ـ مشغول بما يراه من تسللها الى الغزلان وعدوها وحسن صيدها .

وكان الوالد ، رحمه الله ، محظوظا من الجوارح النادرة الفارهة ، وذلك انها كانت عنده كثيرة تيندر منها الجارح

الفاره ، وكان عنده في بعض السنين باز مقرنص بيت احمر العينين ، فكان من أفره البزاة ، فوصل كتاب عمي تاج الامراء ابي المتوج مقلد ، رحمه الله ، من مصر – و كان مقامه بها في خدمة الآمر بأحكام الله – يقول: «سمعت في مجلس الأفضل ذكر الباز الأحمر العينين ، والأفضل يستخبر الحدث عنه وعن صيده» ، فنفذه الوالد ، رحمه الله ، مع بازياره الى الأفضل ، فلما حضر بين يديه قال له: «هذا هو الباز الأحمر العينين؟» قال :«نعم يا مولاي» ،فقال: «أي شيء يصيد؟» قال: «يصيد السمانة والحرجلة وما بينهما من الصيد» ، فبقي هذا الباز بمصر مدة ثم أفلت وراح وبقي سنة في البرية في شجر الجميز وقرنص في البرية ، ثم عادوا اصطادوه ، فجاءنا كتاب عمي ، رحمه الله ، يقول: «الباز الأحمر العينين ضاع وقرنص في الجميز ، وعادوا اصطادوه وتصيدوا به ، وقد أرسل على الطير منه مصيبة عظيمة».

وكنا يوما عند الوالد ، رحمه الله ، وقد جاء انسان من فلاحي معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر ريش الاجنحة والذنب في قدر العقاب الكبير ، ما رايت قط بازا مثله وقال:«يا مولاي ، كنت اصلي الدلم (١٥٠) بالنادوف ، فضرب هذا الباز على دله في النادوف ، فأخذته وحملته إليك» ، فأخذه وأحسن إلى الذي أهداه ، ووصل البازيار ريشه وحمله واستجابه ، واذا الباز صائد مطابق مقرنص بيت قد أفلت من الافرنج ، وقرنص في جبل المعرة ، فكان من أفره الجوارح وأشطرها .

وشاهدت يوما وقد خرجنا معه ، رحمه الله ، الى الصيد وقد استقبلنا على بعد رجل معه شيء ما نتحققه ، فلما دنا منا واذا معه شاهين فرخ من أكبر الشواهين وأحسنها وقد خمش يديه وهو حامله ، فلاه ومسك سباقيه (١٥١) ورجليه – والشاهين مدلى مذشور الأجنحة ، فلما وصلنا قال: «يا مولاي ، اصطدمت هذا الطير ، وقد جئت به اليك» ، فسلمه الوالد الى البازيار فأصلحه ، ووصل ما انكسر من ريشه ، ولم يخرج مخبره مثل

منظره ، كان قد أتلفه الصياد بما عمل به ، والشاهين هو الميزان أدنى شيء يعيبه ويفسده ، وكان هذا البازيار صانعا مجودا في اصلاح الشواهين .

وكنا نخرج من باب المدينة الى الصيد ومعنا جميع آلة الصيد ، حتى الشباك والفؤوس ، والمجارف والكلاليب لما ينجحر من الصيد ، ومعنا الجوارح والبزاة والصقور والشواهين والفهود والكلاب ، فاذا خرجنا من المدينة أدار شاهينين فلا يزالان يدوران على الموكب ، فاذا خرج أحدهما عن القصد تنحنح البازيار وأشار بيده الى النحو الذي يريده فيرجع والله الشاهين من وقته الى ذلك النحو ، ورأيته وقد ادار شاهينا على قطعة من الصلاصل نازلة في مرج ، فلما اخذ الشاهين طبته دق لها الطبل فطارت وانقلب عليها الشاهين ضرب رأس صلصة قطعة ، وأخذها ونزل ، فدرنا والله على ذلك الرأس ما وجدناه ، واثره قد وقع على بعد في الماء لاننا كنا بالقرب من النهر .

وقال له يوما غلام يقال له أحمد بن مجير لم يكن ممكن يركب معه :« يامولاي ، اشتهيت ابصر الصيد » قال :« قدموا لأحمد فرسا يركبه ويخرج معنا » فخرجنا الى صيد الدراج ، فطار ذكر وتنزى (١٥٢) كما جرت العادة وعلى يد الوالد ، رحمه الله ، اليحشور ، فأرسله عليه فطار مع الأرض الأرض والحشيش يضرب صدره والدراج قد ارتفع ارتفاعا كبيرا ، فقال له أحمد :« يامولاي ، وحياتك كان يتلاهى به حتى أخذه »

وكان يجيئه من بلاد الروم الزغارية : كلاب جياد ذكور وأناث ، فكانت تتوالد عندنا ، وصيدها الطير طبع فيها .

شاهدت منها جروة صغيرة قد خرجت خلف الكلاب التي مع الكلابزي ، فأرسل بازا على دراجة فبنجت (١٥٣) في حلفاء في جرف النهر ، فأرسلوا الكلاب على الحلفاء لتطير الدراجة ، وتلك

الجروة واقفة على الجرف ، فلما طارت الدراجة وثبت الجروة خلفها من على ذلك الجرف فوقعت في وسط النهر ، وماتعرف الصيد ولاصادت قط .

ورأيت كلبا من هذه الزغارية وقد بنجت حجلة في الجبل في بنج صعب وقد دخل اليها الكلب وأبطأ ، ثم سمعنا حشكة في داخل البنج فقال الوالد ، رحمه الله :« في البنج وحش وقد قتل الكلب » ثم بعد ساعة خرج الكلب يجر رجل ابن آوى ، وكان في البنج قد قتله وجره أخرجه الينا .

وكان الوالد ، رحمه الله ، سار الى اصبهان الى دركاه السلطان ملك شاه ، رحمه الله ، فحكى لي قال :« لما قضيت اشغالي من عند السلطان وأردت السفر ، أردت استصحب معي جارحا ، اتفرج به في طريقي ، فجاؤوني ببزاة ومعها ابن عرس معلم يخرج الطيور من البنج فأخذت صقورا تصيد الارانب والحبارى ، واستصعبت مداراة البزاة في تلك الطريق البعيدة الشاقة ».

وكان عنده ، رحمه الله ، من الكلاب السلوقية كلاب جياد ، أرسل يوما الصقور على الغزلان والارض مطر ثقيلة بالوحل ، وأنا معه صغير على برذون لي ، وخيلهم قد وقفت من الركض في الطين ، وبرذوني لخفتي عليه مستظهر ، وقد صرعت الصقور والكلاب الغزال ، فقال لي :« ياأسامة الحق الغزال وانزل امسك رجليه الى أن نجيء » ففعلت ، ووصل هو رحمه الله ، فذبح الغزال ومعه كلبة صفراء جواد ، يسمونها الحموية صرعت الغزال ، وهي واقفة ، وانا قطعة الغزلان التي اصطدنا منها قد عادت عابرة علينا ، فأخذ ، رحمه الله ، قلادة الحموية و خرج يهرول بها حتى رأت الغزلان ، وأرسلها عليها اصطادت غزالا أخر .

وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنة وأنه لايزال صائما

يركض نهاره كله ، وكان لايتصيد الا على حصان أو اكديش جواد ، ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكل وهو لايضعف ولايكل ولايتعب ، ولايقدر وشاقي ولاصاحب جنيب ولاحامل سلاح يقصر في الركض على الصيد .

وكان لي غلام اسمه يوسف معه رمحي ودرقتي ويجنب حصاني ، فلا يركض على الصيد ولايتبعه ، فيحرد الوالد عليه ، فعل ذلك مرة بعد مرة ، فقال له الغلام :« يامولاي ، مايدفعك أحد من الحاضرين ،والعياذ بالله ، مثل ابنك هذا ، فدعني أكون خلفه بحصانه وسلاحه ، إن احتجته وجدته ، وأحسب أني ماأنا معكم » فما عاد يلومه ولايذكر عليه كونه مايركض على الصيد .

ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح ، فركب الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد وأخرهم ماأبعد عن البلد ، فتبعتهم خيلنا ، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد ، ووصل الافرنج الى البلد والوالد قد طلع على تل سكين (١٥٤) يراهم وهم بينه وبين البلد ، ومازال واقفا على التل الى أن انصرفوا عن البلد وعاد الى الصيد .

وكان رحمه الله يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر فصرع منها يوما خمسة أو ستة على فرس له دهماء تسمى فرس خرجي باسم صاحبها الذي باعها ، كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين دينارا ، فطرد أخر اليحامير ، فوقعت يدها في حفرة مما يحفر الخنازير فانقلبت عليه كسرت ترقوته ثم قامت ركضت قدر عشرين ذراعا وهو مطروح ، ثم عادت وقفت عند رأسه تنحب وتصهل حتى قام وجاءه الغلمان أركبوه ، فهذا فعل الخيل العربية .

وخرجت معه ، رحمه الله ، الى نحو الجبل لصيد الحجل ، فنزل

غلام له اسمه لؤلؤ ، رحمه الله ، لبعض شغله ، ونحن قريب من البلد من بكرة وتحته برذون ، فرأى ظل تركشه (١٥٥) اجفل منه فرماه وانفلت ، فركضت والله عليه وأنا وبعض الغلمان من بكرة الى بعد العصر الى أن ألجأناه الى جشار في بعض الأزوار ، وقام الجشارية مدوا له الحبل وقبضوه كما يقبض الوحش ، وأخذته وعدت والوالد ، رحمه الله ، واقف في ظاهر البلد ينتظرني مايصيد ولاينزل في داره ، فالبرانين بالوحش اشبه مما هي بالخيل .

حكى لي ، رحمه الله قال :« كنت أخرج الى الصيد ويخرج معي الرئيس أبو تراب حيدرة بن قطرميز رحمه الله ـ وكان شيخه الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربية ـ فكنا اذا وصلنا موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ، ونحن نتصيد حوله ، فاذا فرغنا من الصيد ركب وسار معنا ، فقال يوما :« ياسيدنا أنا جالس على صخرة واذا حجلة قد جاءت وهي تتهذكف وهي معيية الى تلك الصخرة التي أنا عليها ، دخلت واذا الباز قد أتى خلفها وهو بعيد منها ، فنزل مقابلي ولؤلؤ يصيح : عيذك عيذك ياسيدنا ، وجاء وهو يركض وانا اقول : اللهم استر عليها ، فقال : ياسيدنا اين الحجلة ؟ قلت : مارأيت شيئا ، ماجاءت الى هاهنا ، وترجل عن فرسه ودار حول الصخرة وطلع تحتها فرآها ، فقال : أقول الحجلة هاهنا تقول لا ، وأخذها ياسيدنا كسر رجليها ورماها الى الباز ، وقلبي يتقطع عليها ».

وكان هذا لؤلؤ رحمه الله ، اخبر الناس بالصيد ، شاهدته يوما وكانت جاءتنا من البرية أرانب جالية ، فكنا نخرج نصطاد منها شيئا كثيرا ، وكانت أرانب صغارا حمر فشاهدته يوما وقد جلى عشرة أرانب طعن التسعة بالبالة (١٥٦) اخذها ، ثم جلى أرنبا عاشرة ، فقال له الوالد ، رحمه الله ، :« دعها تقيموها الكلاب نتفرج عليها » فأقاموها وأرسلوا عليها الكلاب ، فسبقت الأرنب وسلمت ، فقال لؤلؤ : « يامولاي ، لو كنت تركتني طعنتها وأخذتها »

وشاهدت يوما أرنبـــا قد ثـــــورناها وأرســـــلنا عليهـــــا الكلاب ، فانجحرت في ارض الخبيبة (١٥٧) فدخلت كلبة سوداء خلفها في المجحر ، ثم خرجت في الحال وهي تتعوص (١٥٨) ثـم وقعت فماتت ، فما انصرفنا عنها حتى تفسـخت ومـاتت وتهـرأت وذاك أنها لسعتها حية في المجحر .

ومن عجيب مارأيت من صـــيد البـــزاة أنني خـــرجت مـــع الوالد ، رحمه الله ، عقيب مـطر قـد تتـابع ومنعنا مـــن الركوب اياما ، فأمسك المطر فخرجنا بالبزاة نريد طير الماء ، فرأينا طيورا ممرجة في مرج تحت شرف ، فتقدم الوالد أرسل عليها بازا مقرنص بيت ، فطلع مع الطيور اصاد منها ونزل فما رأينا معـه شـيئا مـن الصيد ، فنزلنا عنده واذا هو قد اصاد زرزور وطبق كفه عليه ، فما جرحة ولا آذاه ، فنزل البازيار خلصه وهو سالم .

ورأيت مـن الوز الســمند حمية وشـــجاعة كحمية الرجـــال وشجاعتها ، وذلك اننا أرسلنا الصـقور على رف وز سـمند ودققنا الطبول فطار ، ولحقت الصقور تعلقـت بـوزة حــطتها مـــن بين الوز ، ونحن بعيد منها ، فصاحت ، فترحل من الوز اليها خمسـة ستة طيور يضربـون الصـقور بـأجنحتها ، فلولا نبـادرهم كادوا خلصوا الوزة وقصوا اجنحة الصقور بمناقيرهم .

وهذا ضد حمية الحباري ، فانها إذا قرب منها الصقر نزلت الى الارض وكيف دار استقبلته بذنبها ، فاذا دنا منها ســلحت عليه بلت ريشه وملأت عينيه وطارت ، وان اخطأته بما تفعله به اخذها .

ومن اغرب ماصابه الباز مع الوالد ، رحمـه الله ، أنه كان على يده باز غطراف فرخ وعلى خليج ماء عيمة وهي طير كبير مثل لون البلشون (١٥٩) الا أنها أكبر من الكركي ، من طـرف جناحهـا الى طرف جناحها الآخر أربعـة عشر شـــبرا ، فجعـــل البـــاز يطلبه ، فأرسله عليه ودق له الطبل ، فطار ودخل فيه البـاز أخـذه

ووقعا في الماء ، فكان ذلك سبب سلامة الباز ، والا كان قتله بمنقاره ، فرمى غلام من الغلمان نفسه في الماء بثيابه وعدته مسك العيمة واطلعها ، فلما صارت على الارض صار الباز يبصرها ويصيح ويطير عنها، وماعاد يعرض لها ، ولارأيت بازا سوى ذلك اصطادها ، فانها كما قال أبو العلاء بن سليمان في العنقاء :« ارى العنقاء تكبر أن تصادا ».

وكان الوالد رحمه الله ، يمضي الى حصن الجسر ، وهو كثير الصيد فيقيم فيه أياما ، ونحن معه نصيد الحجل والدراج وطير الماء واليحامير والغزلان والارانب ، فمضى يوما إليه وركبنا الى صيد الدراج ، فأرسل بازا يحمله ويصلحه مملوك اسمه نقولا على دراجة ومضى نقولا يركض وراءه ، وقد بنج الدراج في حلفاء ، واذا صياح نقولا قد ملأ الاسماع وعاد يركض ، قلنا :« مالك ؟» قال :« السبع خرج من الحلفاء التي وقع فيها الدراج فخليت الباز وانهزمت » واذا السبع ايضا ذليل مثل نقولا لما سمع أجراس الباز خرج من الحلفاء منهزما الى الغاب.

وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير نهر صغير بالقرب من الحصن ، وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب ، فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جبة مثل الخشوت ، ولها في الجبة ثلاث شعب حديد طول كل شعبة ذراع ، وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود الى يده يقف على جرف النهر وهو ضيق المدى ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة التي فيها الحديد فما يخطئها ثم يجذبها بذلك الخيط فتطلع والسمكة فيها ، وآخر من الصيادين معه عود قدر قبضة فيه شوكة حديد ، وفي طرفه الآخر خيط مشدود الى يده ، ينزل يسبح في الماء ويبصر السمكة يخطفها بتلك الشوكة ويخليها فيها ويطلع ويجذبها بذلك الخيط يطلع الشوكة والسمكة ، وآخر ينزل يسبح ويمر يده تحت الشجر الذي في الشطوط من الصفصاف على السمكة حتى يدخل اصابعه في

خواشيم السمكة ، وهـــي لاتتحـــرك ولاتنفـــر ، ويأخـــــنها ويطلع ، فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة

وتوالى المطر والهواء علينا أياما ونحن في حصـن الجسر ، ثـم أمسك المطر لحظة ، فجاءنا غنائم البازيار وقـال للوالد :« البـزاة جياع جيدة الصــــيد ، وقـــــد طـــــــابت وكف المطر ،ماتركب ؟» قال :« بلى » فـركبنا فمـا كان بـأكثر مـن أن خرجنا الى الصحراء ، وتفتحـت أبـواب السـماء بـالمطر ، فقلنا لغنائم :« أنت زعمت أنها طابت وصـحت حتـى أخـرجتنا في هـذا المطر !» قال :« ماكان لكم عيون تبصر الغيم ودلائل المطـر ؟ كنت قلتم لي تكذب في لحيتك ما هي طيبة ولا صاحية!»

وكان هذا غنائم صـانعا جيدا في اصـلاح الشـواهين و البزاة خبيرا بالجوارح ، ظـريف الحـديث طيب العشرة ، قـد رأى مـن الجوارح مايعرف ومالايعرف .

خرجنا يوما الى الصيد من حصـن شـيزر فـراينا عند الرحـا الجلالي شيئا واذا كركي مطروح على الأرض ، فنزل غلام قلبه واذا هـو ميت وهـو حار مابرد بعد ، فرآه غنائم قال : « هذا قد اصـطاده اللزيق (١٦٠)».

فتش تحت جناحـه واذا جـانب الكركي مثقـوب وقـد أكل قلبه ، فقال غنائم« هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركي يلصق تحت جناحه يثقب اضلاعه ويأكل قلبه »

وقضى الله سبحانه انني صرت الى خـدمة اتـابك زنكي رحمـه الله ، فجاءه جارح مثل العوسق أحمر المنسر والرجلين جفون عينيه حمر ، وهـو من أحسن الجوارح ، فقالوا :« هذا اللزيق » مـابقي عنده الا اياما قلائل وقرض السيور بمنسره وطار .

وخرج الوالد ، رحمه الله ، يوما الى صيد الغزلان ، وأنا معـه

صغير فوصل وادي القناطر واذا فيه عبيد حرامية يقطعون الطريق ، فأخذهم وكتفهم وسلمهم الى قوم من غلمانه يوصلونهم الى الحبس بشيزر ، فأخذت أنا خشتا من بعضهم ، وسرنا في الصيد ، واذا عانة حمير وحش ، فقلت للوالد :« يامولاي ماابصرت حمير الوحش قبل اليوم ، عن أمرك أركض أبصرهم ، فقال :« افعل » وتحتي فرس شقراء من أجود الخيل ، فركضت وفي يدي ذلك الخشت الذي أخذته من الحرامية ، فصرت وسط العانة فأفردت منها حمارا وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئا لضعف يدي وقلة مضاء الحربة ، فرددت الحمار حتى رددته الى اصحابي ، فأخذوه ، وعجب الوالد ومن معه من عدو تلك الفرس .

فقضى الله سبحانه انني خرجت يوما اتفرج على نهر شيزر وهي تحتي ، ومعي مقرىء ينشد مرة ويقرأ مرة ويغني مرة ، فنزلت تحت شجرة ودفعت الفرس الى الغلام فعمل فيها شكالا وكان الى جانب النهر ، فنفرت ووقعت في النهر على جنبها ، وكلما ارادت تقوم تعود تقع في الماء لأجل الشكال ، وكان الغلام صغيرا لايقدر على تخليصها ، ونحن لانعلم ولاندري، فلما قاربت الموت صاح بنا فجئناها وهي في آخر رمق ، فقطعنا شكالها وأطلعناها ، فماتت ، وماكان الماء يصل الى عضدها الذي غرقت فيه ، وانما الشكال اهلكها .

وخرج يوما الوالد ، رحمه الله ، الى الصيد ، وخرج معه أمير يقال له الصمصام ، من أصحاب فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس على سبيل الخدمة ، وهو رجل قليل المخبرة بالصيد ، فأرسل الوالد بازا على طيور ماء فأخذ منها طيرا ووقع في وسط النهر ، فجعل الصمصام يدق يدا على يد ويقول:«لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف كان خروجي في هذا اليوم؟»فقلت له:«يا صمصام، تخاف على الباز أن يغرق؟» قال:«نعم قد غرق بطة هو حتى يقع في الماء و لا يغرق؟»فضحكت وقلت :«الساعة يطلع» فأخذ الباز رأس

الطير وسبح وهو معه حتى طلع به ، فبقي الصمصام يتعجب

من ذلك ويسبح الله سبحانه ، ويحمده على سلامة الباز .

ومنايا الحيوان ، مختلفة الالوان ، قد كان الوالد ، رحمه الله ، ارسل زرقا ابيض على دراجة ، فوقعت الدراجة في حلفاء ودخل معها الزرق .

وفي الحلفاء ابن آوى أخذ الزرق قطع رأسه ، وكان من خيار الجوارح وأفرهها .

ورأيت من منايا الجوارح وقد ركبت يوما وبين يدي غلام لي معه باشق ، فرماه على عصافير ، فأخذ عصفورا ، وجاء الغلام ذبح العصفور في رجل الباشق ، فنفض الباشق رأسه وتقيأ دما ووقع ميتا ، والعصفور في تافه مذبوح فسبحان مقدر الآجال .

واجتزت يوما من باب فتحناه في الحصن لعمارة كانت هناك ، ومعي زر بطانة ، فرأيت عصفورا على حائط أنا واقف تحته ، فرميته ببندقة فأخطأته ، وطار العصفور وعيني الى البندقة ، فنزلت مع الحائط وقد أخرج عصفور رأسه من نقب في الحائط فوقعت البندقية على رأسه ، فقتلته ، ووقع بين يدي فذبحته ، وماكان صيده عن قصد ولا اعتماد .

وأرسل رحمه الله ، يوما الباز على أرنب قامت لنا في زور كثير الشوك ، فأخذها وانفرطت منه ، فجلس على الأرض ، وراحت الارنب ، فركضت أنا فرسا دهماء تحتي من جياد الخيل لأرد الأرنب ، فوقعت يد الفرس في حفرة فانقلبت علي ، فملأت يدي ووجهي من ذلك الشوك وانفسخت رجل الفرس ، ثم انتقل الباز من الأرض بعدما ابعدت الأرنب لحقها اصادها فكأنه كان قصده اتلاف فرسي وأنيتي بالوقوع في الشوك .

فأصبحنا يوما في أول يوم من رجب صياما ، فقلت للوالد ، رحمه الله :« أشتهي أخرج أتشاغل بالصيد عن الصيام » قال :« اخرج » فخرجت أنا وأخي بهاء الدولة أبو المغيث منقذ ، رحمه الله ، ومعنا البزاة الى الأزوار فدخلنا في سوس ، فقام لنا خنزير ذكر فطعنه أخي جرحه ودخل ذلك السوس ، فقال أخي :« الساعة يكربه الجرح ويخرج ، استقبله اطعنه اقتله » قلت :« لاتفعل يضرب فرسك يقتلها » نحن نتحدث والخنزير خرج يريد زورا آخر ، فالتقاه اخي طعنه في سنامة انكسرت فيه عالية القنطارية التي طعنه بها ، ودخل تحت فرس شقراء تحته عشراء محجلة شعلاء ضربها رماها ورماه ، فأما الفرس فانفسخت فخذها وتلفت ، وأما هو فانفكت اصبعه الخنصر وانكسر خاتمه .

وركضت أنا خلف الخنزير ، فدخل في سوس مخصب وخناث فيه باقورة نائمة ماأراها من ذلك الغاب ، فقام منها ثور في صدر حصاني فنفسة ، فوقعت ووقع الحصان وانكسر لجامه ، وقمت أخذت الرمح وركبت ولحقته وقد رمى نفسه في النهر ، فوقفت على جرف النهر وزرقته بالرمح فوقع فيه وانكسر منه قدر ذراعين وبقيت الحربة ، وكسر الرمح فيه ،وسبح إلى ناحية النهر ، فصحنا بقوم من ذلك الجانب يضربون لبنا لعمارة بيوت في قرية لعمي ، فجاؤوا ووقفوا عليه وهو تحت جرف لايقدر يطلع منه ، فجعلوا يرمونه بالحجارة الكبار حتى قتلوه ، وقلت لركابي لي : « انزل اليه » فقلع عدته وتعرى وأخذ سيفه وسبح اليه تمم قتله ، وسحب برجله وأتى به وهو يقول :« عرفكم الله بركات صيام رجب ! استفتحناه بنجس الخنازير .

ولو كان للخنزير ظفر مثل الأسد كان اشد بأسا من الأسد ، فلقد رأيت منها خنزيرة قد اقمناها عن جريات لها ، واحد منها يضرب حافر فرس غلام معي بفمه وهو في قد جرو القط ، فأخذ الغلام من

تركشه نشابة ومال اليه طعنه بها ، ورفعه في النشابة ، فعجبت من قتاله وضربه حافر الفرس وهو بحيث يحمل في سهم نشاب .

وكان من عجائب الصيد أننا كنا نخرج الى الجبل الى صيد الحجل ، ومعنا عشرة بزاة نتصيد بها النهار كله ، والبازيارية مفترقة في الجبل ومع كل بازيار فارسان ثلاثة من المماليك ، ومعنا كلابزيان اسم الواحد بطرس والآخر زرزور بسانية وكلما أرسل البازيار على حجلة وبنجت قد صاحوا :« يابطرس !» يعدو اليهم مثل الهجين ، كذلك النهار كله يعدو من جبل الى جبل هو ورفيقه ، فاذا اشبعنا البزاة ورجعنا أخذ بطرس قلاعة وعدا خلف واحد من المماليك ضربة بها ، أخذ الغلام قلاعه وضرب بطرس ، فلا يزال يطارد الغلمان ماكأنه كان نهاره كله يعدو من جبل الى جبل .

ومن عجائب الكلاب الزغارية أنها ماتأكل الطيور ، ولاتأكل منها الا رؤوسها وأرجلها التي ماعليها لحم ، والعظام التي قد أكلت البزاة لحمها .

وكان للوالد ، رحمه الله ، كلبة سوداء زغارية يضع الغلمان بالليل على رأسها السراج ويقعدون يلعبون بالشطرنج وهي لاتتحرك ولاتزول حتى عمشت عيناها ، وكان الوالد ، رحمه الله ، يحرد على الغلمان ويقول : « قد أعميتم هذه الكلبة ! » ولاينتهون عنها .

واهدى الامير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك صاحب القلعة للوالد كلبة عروفا ترسل تحت الصقور على الغزلان فكنا نرى منها العجب .

وصيد الصقور بالترتيب ، يرسل في الاول المقدم فيعلق باذن غزال يضربه ، ويرسل العون بعده فيضرب غزالا آخر ، ويرسل العون الآخر فيفعل كذلك ، ويرسل الرابع كذلك ، فيضرب كل صقر منها

على غزال ، فيأخذ المقدم اثن غزال ويفرده من الغزلان ، فتـرجع الصقور جميعها اليه وتترك تلك الغزلان التي كانت تضربها ، وهذه الكلبة تحت الصقور لاتلتفت الى شيء مـن الغـزلان الا مـاعليه الصقور ، فيتفق ان يظهـر العقـاب فتحـل الصـقور عن الغزال ، فيمضي الغزال ، وتدور الصقور ، فكنا نرى تلك الكلبة قـد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور ، وهي تدور تحت الصـقور في الأرض كما تدور الصقور في الهواء حلقة ، ولا تزال تدور تحتهـا حتى تنزل الصقور الى الدعو ، فحينئذ تقف وتمشي خلف الخيل .

وكان بين شهاب الدين مالك وبين الوالد ، رحمهما الله ، مـودة ومواصلة بالمكاتبات والرسل ، فنفذ اليه يوما يقـول له :« خـرجت الى صيد الغزلان فاصطدنا منها ثلاثة آلاف خشف في يوم » وذلك ان الغزلان عندهم في ارض القلعة كثيرة ، وهـم يخـرجون وقـت ولاد الغزلان خيالة ورجالة فيأخذون منها ماقد ولد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث ، يقشونها كما يقش الحطب والعشب .

والدراج عندهم كثير في الازوار على الفرات ، واذا شـق جـوف الدراجة وازيل مـافيه وحشي بـالشعر لاتتغير رائحتهـا أيامـا كثيرة ، ورأيت يوما دراجة قـد شـق جـوفها وأخـرجت قانصتها ، وفيها حية قد أكلتها نحو من شبر .

وقتلنا مرة ونحن في الصيد حية خرج من جوفها حية قـد بلعتهـا صحيحة دونها بيسير ، ففي طباع جميع الحيوان اعتداء القوي على الضعيف

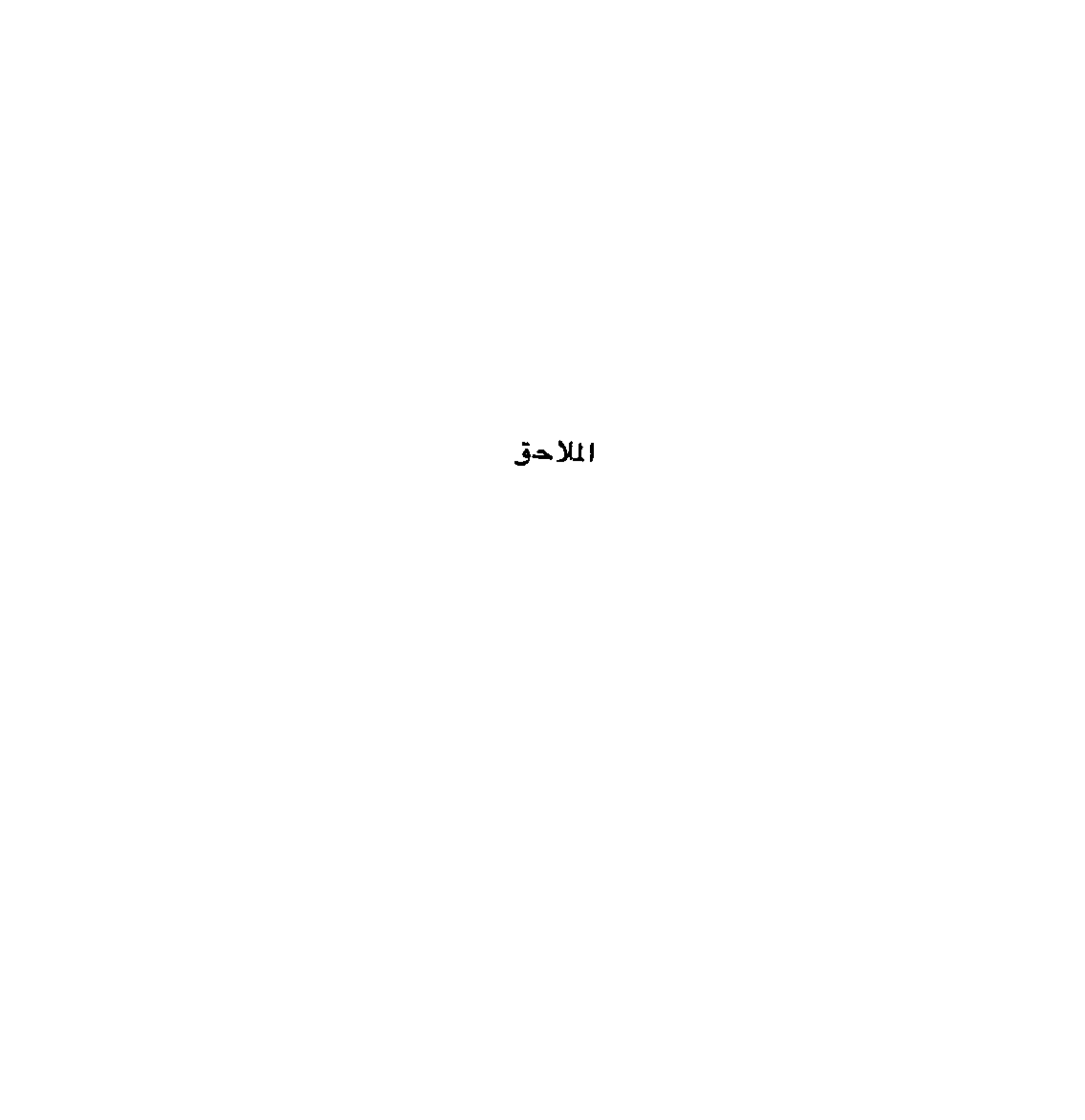
والظلم من شيم النفوس
فان تجد ذا عفة فلعلة لايظلم .

الخاتمة

حضر ذكر الصيد وقد شهدته سبعين سنة من عمري غير ممكن ولامستطاع ، وتضييع الأوقات في الخرافات ، من أعظم عوارض الآفات ، وأنا استغفر الله تعالى من تضييع الصبابة الباقية من العمر ، في غير طاعة واكتساب ثواب وأجر ، وهو تبارك وتعالى يغفر الخطية ، ويجزل من رحمته العطية، فهو الكريم الذي لايخيب أمله ، ولايرد سائله .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله الطاهرين أجمعين ، وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل وكان في آخر الكتاب مامثاله :

قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس على مولاي جدي، الأمير الأجل العالم الفاضل الصدر الكامل،عضد الدين،جليس الملوك والسلاطين،حجة العرب،خالصة أمير المؤمنين،أدام الله سعادته ، وسألته أن يجيزني روايته عنه فأجابني إلى ذلك وسطر خطه الكريم به،وذلك في يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة عشر وستمائة،صحيح ذلك،وكتب جده مرهف بن اسامة بن منقذ ، حامدا ومصليا .



الملاحق

-٥٧٦٢-

أبو الحسن علي بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين

(من وفيات الأعيان لأبن خلكان)

ورأيت في مكان آخر أنه أبو منصور علي بن اسحق ، عرف بابن السلار وزير الظافر العبيدي صاحب مصر ورأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كرديا زرزاريا وكان تربية القصر بالقاهرة ، وتقلبت به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره الى أن تولى الوزارة للظافر المذكور في رجب سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم وجدت في مكان آخر أن الظافر المذكور استوزر نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال في أول ولايته وكان ابن مصال من أكابر أمراء الدولة ، ثم تغلب عليه العادل بن السلار وعدى ابن مصال الى الجيزة ليلة الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما سمع بوصول ابن السلار من ولاية الاسكندرية ، طالبا للوزارة ، ودخل ابن السلار القاهرة في الخامس عشر من الشهر المذكور وتولى تدبير الامور ، ونعت بالعادل أمير الجيوش ، وحشد ابن مصال جماعة من المغاربة وغيرهم ، وجرد العادل العساكر القائه فكسره بدلاص من الوجه القبلي وأخذ رأسه ودخل به القاهرة على رمح يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، واستمر العادل الى أن قتل ، وهذا القول أصح من الأول والله اعلم .

وكان ابن مصال من اهل لك ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وهي بليدة عند برقة من أعمالها،وكان هو وأبوه يتعاطيان البيزرة والبيطرة وبذلك تقدما ، وكانت وزارة ابن مصال نحوا من خمسين يوما وكان ابن السلار شهما مقداما مائلا الى ارباب العقل

والصلاح ، عمر بالقاهرة مساجد ، ورأيت بظاهر مدينة بلبيس مسجدا منسوبا إليه ، وكان ظاهر التسنن شافعي المذهب ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفي رحمه الله تعالى إلى ثغر الاسكندرية المحروس ، واقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا احتفل به وزاد في اكرامه وعمر له هناك مدرسة فوض تدريسها اليه ، وهي معروفة الى الآن ولم ار بالاسكندرية مدرسة للشافعيين سواها ، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة ، وسطوة قاطعة يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقرات ، ومما يحكي عنه أنه قبل وزارته بزمان وهو يومئذ من احاد الأجناد ، دخل يوما على الموفق ابي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان ، فشكا اليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية ، فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم : والله إن كلامك مايدخل في أنني فحقد عليه ذاك فلما ترقى الى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مدة،فنادى عيه في البلد وهدر دم من يخفيه . فأخرجه الذي خبأه عنده ، فخرج في زي امرأة بازار وخف ، فعرف فأخذ وحمل الى العادل فأمر باحضار لوح من خشب ومسمار طويل فألقى على جنبه وطرح اللوح تحت أذنه ، ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى ، فصار كلما صرخ يقول له دخل كلامي في أذنك بعد أم لا ؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح ، ثم عطف المسمار على اللوح ، ويقال أنه شنقه بعد ذلك .

وكان قد وصل من إفريقية إلى الديار المصرية أبو الفضل عباس ابن أبي الفتوح بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وهو صبي ومعه أمه واسمها بلارة ، فتزوجها العادل المذكور ، وأقامت عنده زمانا ، ورزق عباس ولدا سماه نصرا ، فكان عند جدته في دار العادل والعادل يحنو عليه ويعزه ، ثم ان العادل جهز عباسا الى جهة الشام بسبب الجهاد وكان معه اسامة بن منقذ ، المذكور في حرف الهمزة فلما وصل الى بلبيس ، وهو مقدم الجيش الذي سار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وماهي عليه ، وكونه يفارقها ويتوجه للقاء العدو ، ويقاسي النكال فأشار عليه

اسامة ، على ماقيل ، بقتل العادل ويستقل هو بالوزارة ويستريح من النكال وتقرر بينهما أن ولده نصرا يباشر ذلك اذا رقد العادل فإنه معه في الدار ، ولاينكر عليه ذلك وحاصل الأمر أن نصرا قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة رحمه الله تعالى ، وتفصيل الواقعة يطول ، وقيل إنه قتل يوم السبت حادي عشر المحرم من السنة المذكورة،وكان والده في صحبة سقمان بن أرتق صاحب القس ، فلما أخذ الافضل أمير الجيوش القدس من سقمان ، كما هو مذكور في ترجمة أبيه أرتق ، وجد فيه طائفة من عسكر سقمان ، فضمهم الافضل اليه ، وكان في جملتهم السلار والد العادل المذكور ، فأخذه الافضل إليه ، وتقدم عنده وسماه سيف الدولة ، وأكرم ولده هذا وجعل في صبيان الحجر ، ومعنى صبيان الحجر عندهم أن يكون لكل واحد منهم فرس وعدة ، فاذا قيل له عن شغل مايحتاج أن يتوقف فيه ، وذلك على مثال الداوية والاسبتار ، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للامارة فترجح العادل بهذه الصفات وزاد عليها بالحزم والهيبة وترك المخالطة فأمره الحافظ ، وولاه الاسكندرية وكان يعرف برأس البغل،ثم تقدم وهذا نصر بن عباس هو الذي قتل الظافر اسماعيل ابن الحافظ صاحب مصر،وقد ذكرته في ترجمته .

عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي

(من كتاب المقفى للمقريزي)

عباس بن أبي الفتوح يحيى بن أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الحميري الصنهاجي :

قدم صغيرا على يدي أمه بلارة بنت القاسم مع أبيه أبي الفتوح الى الاسكندرية لما أخرجه أخوه أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم من افريقية فأمر الخليفة الآمر بأحكام الله بإكرامه فلم تطل أيام حياته بالاسكندرية ومات .

فتزوجت بلارة بعد وفاته بعلي بن السلار الملقب بالعادل الوزير ، فسعد بها وعلا شأنه ، وشب عباس فقدمه الخليفة الحافظ لدين الله وجعله صاحب الباب .

فلما مات الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة واستخلف من بعده ابنه ابو المنصور اسماعيل الظافر بأمر الله ، خلع على نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال وأقامه في الوزارة ، فأسخط ذلك المظفر علي بن السلار ، وهو يومئذ والي الغربية ، وسار فرافقه عباس وتوجه معه الى القاهرة واستقر في وزارة الظافر ، فخرج عباس بعسكر الى محاربة الوزير نجم الدين سليمان ابن مصال الى دلاص ، وقاتل ابن مصال حتى هزم من معه وحرق جامع دلاص ، وقد امتنع به قوم من لواته وكثير من السودان حتى أتلفهم ، وأسر ابن مصال وقتله وحمل راسه ، ودخل الى القاهرة، وولده نصر بن عباس يحمل الراس على رمح .

وأقام بالقاهرة ونعت بـ « ركن الاسلام » الى أن قوي الافرنج

ونازلوا عسقلان في البر والبحر ، فجهز العادل ابن السلار العساكر ، وسيرها مع ركن الاسلام عباس ، فخرج ومعه من الأمراء ملهم والضرغام واسامة بن منقذ في عدة .

وكان اسامة خصيصا بعباس ، فحسن له ، وقد نزلوا على بلبيس ، ان يعمل في أخذ الوزارة من العادل ، بأن يبعث ابنه ناصر الدين نصر بن عباس الى القاهرة ليتحدث مع الظافر في ذلك ، فوافق لهذا غرض عباس ، وبعث ابنه ، فكان من قتله العادل ما قد ذكر في ترجمته .

فكتب الظافر الى عباس فحضر من بلبيس وتقلد وزارة مصر بعد زوج أمه والأتراك قد استوحشوا من قتل ابن السلار ، فلم يجد سبيلا الى تلافي أمرهم ، وخرجوا يدا واحدة الى دمشق ، وبطل مسير العساكر الى عسقلان ، فسر الفرنج ما وقع بالقاهرة وقالوا لأهل عسقلان ، وهم على حصارهم : ان سلطانكم قد قتله ابنه ، فأنتم لمن تقاتلون ؟ ففترت عزائمهم عن القتال الى أن أخذ الفرنج عسقلان .

واستبد عباس بأمر الدولة وضبط الأمور وأكرم الأجناد ، وأحسن الى الأمراء الى أن قتل ابنه نصر بن عباس الظافر ، فصعد العباس الى القصر يوم الخميس على العادة وجلس في مقطع الوزارة ينتظر الخليفة الظافر حتى طال جلوسه فاستدعى بمفلح زمام القصر وقال له : ان كان لمولانا شغل عدنا اليه في الغد .

فمضى الزمام وهو حائر ، وأعلم أخوي الظافر يوسف وجبريل بالقصة ، فما شكا في قتل الظافر ، فعاد اليه ، وكان من اقامته عيسى بن الظافر ونعته بالفائز ، ما ذكر في خبره ، فظن أن الأمر قد استقام له ، فأتاه ما لم يحتسبه ، وأخذ أهل القصر في اعمال الحيلة عليه ، فاختلف عليه الأمراء والسودان ونافروه لما اشتهر من قتل

ابنه نصر بن عباس الخليفة الظافر ، وهاجت الفتنة وصارت العساكر أحزابا ، ولبسوا سلاحهم ، فخرج عباس لقتالهم في يوم الاثنين عاشر ربيع الاول سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكسرهم وقتل منهم جماعة .

فبعثت عمة الفائز إلى طلائع بن رزيك والي الأشمونيين والبهنسى تستدعيه لاخذ ثأر اخيها الظافر ، فحشد وسار من منية بني خصيب ، فبعث إليه عباس عسكرا في عاشر ربيع الاخر نزل على اطفيح فخالف عرب اطفيح على عباس ولحقوا بطلائع وهو على أبويط ، فسار بهم الى دهشور (١٦١) فاضطرب عباس وانحل عنه الناس يريدون لقاء طلائع ، وناكده أهل القاهرة بحيث انه مر في يوم فألقي عليه من طاق في الشارع هاوون ، ورمي مرة بقدر قد ملئت بطعام حار ، فقال :« مابقي بعد هذا من شيء » وهم بالفرار فوجد ابواب القاهرة مغلقة .

ثم دبر أمره وخرج ومعه ابنه نصر ، وأسامة بن منقذ ، ومعهم جميع أموالهم ، فأخذ طلائع القاهرة، ونهبت دور عباس وولده واتباعه .

وسار عباس على طريق أيلة ، فبعثت عمه الفائز الى الفرنج بعسقلان تعلمهم الحال وتبذل لهم المال ، فخرجوا الى عباس وقاتلوه ، ففر عنه أسامة بن منقذ ومعه أصحابه ، وبقي يقاتل حتى قتل يوم الثلاثاء سادس عشر ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، واسر ابنه نصر وحمل الى القاهرة .

وحكي ان عباسا جلس للمنادمة ، فلما أخذت الكأس منه قال : تبا لمن يعتقد امامة هؤلاء ، ويقول أنه لايكون امام الا بوصية ، والله لقد قتلت الظافر ولاعلم له بذلك حتى يوصي ، وقد استعرضت أقاربه كالغنم اهانة وذبحا ، وقدمت هذا الملقب

- ٥٧٦٨ -

بالفائز ، وعمـــره خمس ســـنين ، وعلى يدينا ذهبـــت دولتهـــم بالمغرب ، وكذلك تذهب بالمشرق ، فقتله الله وقتل ولده الظافر .

الحواشي والهوامش

حواشي المدخل إلى كتاب الاعتبار

١ ـ لعله أراد صريع الغواني مسلم بن الوليد .
٢ ـ ليسا في ديوانه المطبوع
٣ ـ ليست في ديوانه .
٤ ـ ديوان أسامة بن منقذ ـ ط . القاهرة ص ١٥٠ .
٥ ـ ديوانه ص ٩٤
٦ ـ ديوانه ص ٣٠٢
٧ ـ ليست في ديوانه .
٨ ـ ليست في ديوانه .
٩ ـ ديوانه ص ١٥٣
١٠ ـ ديوانه ص ١٥٣
١١ـ ليس في ديوانه .
١٢ ـ ديوانه ص ٢٥٦ .
١٣ ـ ديوانه ص ٢٥٣ .
١٤ ـ ديوانه ص ٢٥٧ .
١٥ ـ ديوانه ص ٢٥٥ .
١٦ ـ ديوانه ص ٢٢٨ .
١٧ ـ ديوانه ص ١٥٣ مع فوارق .
١٨ ـ ليست في ديوانه .
١٩ ـ ديوانه ص ٢٤٧ .
٢٠ ـ ديوان أبي فراس ـ ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٣٢٥ .
٢١ ـ ديوانه ص ١١٠ .
٢٢ ـ ديوانه ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
٢٣ ـ ليسا في ديوانه
٢٤ ـ ديوانه ص ٥٥ .
٢٥ ـ ديوانه ص ٢٦٥ .
٢٦ ـ ديوانه ص ٢٥٠ .
٢٧ ـ ديوانه ص ٢٤١ .
٢٨ ـ ديوانه ص ٣١
٢٩ ـ ديوانه ص ٧١
٣٠ ـ الحسين بن علي المغربي ، من أشهر رجالات السياسة والادب في مصر والشام والجزيرة والعراق في القرن الخامس . توفي سنة ٤١٨هـ ، له ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم .
٣١ ـ ديوانه ص ٣ . مع فوارق .
٣٢ ـ ديوانه ص ٤٦ ـ ٤٧ مع زيادات كبيرة .

٣٣ ـ ديوانه ص ١٢ ـ ١٣ مع زيادات كبيرة .
٣٤ ـ ديوانه ص ١٥٨ .
٣٥ ـ ديوانه ص ١٣٠ .
٣٦ ـ ديوانه ص ٣٠ .
٣٧ ـ ديوانه ص ٢٤ .
٣٨ ـ ديوانه ص ٩٠ مع فوارق .
٣٩ ـ ديوانه ص ٧٤ مع فوارق .
٤٠ ـ ديوانه ص ٣٠١ .
٤١ ـ ديوانه ص ٢١ .
٤٢ ـ ديوانه ص ٣٠٢ .
٤٣ ـ ديوانه ص ٩٥ مع فوارق .
٤٤ ـ ديوانه ص ٢١٢ .
٤٥ ـ ديوانه ص ٢٣٦ .
٤٦ ـ ديوانه ص ١٠٦ .
٤٧ ـ ديوانه ص ٢٧٩ مع فوارق .
٤٨ ـ ديوانه ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ .
٤٩ ـ في هامش الاصل : هذا النصف بعينه لابي تمـام ـ وأوله : لاتنكري عطـل الكريم مـن الغنى انظر ديوان ابي تمام ـ ط . دار المعارف ٣٠ ص ٧٧ .
٥٠ ـ هو حصن زياد اوخربوط ، ورد ذكره في نصوص موسوعتنا اكثر من مرة .
٥١ ـ المخراق : السيف .
٥٢ ـ في هامش الاصل :

كانما انا قوس وهي لي وتر
ارمي بها عن بنات الهم والهرم

٥٣ ـ في هامش الاصل :اخذه من قول الصابي :

والعمر مثل الكاس ير
سب في أواخره القذى

٥٤ ـ ديوانه ص ٥٠ مع فوارق .
٥٥ ـ ديوانه ص ٢٥٩ .
٥٦ ـ زهـير بن ابي سلمى ، وابن سنان هو هرم بن سنان الذي اكثر زهير من مدحه .
٥٧ ـ مطموس بالاصل .
٥٨ ـ جاءت اسرة آل الصوفي العربية من حلب إلى دمشق وتسلم زعماء منهـا رئاسـة دمشـق ودخلوا احيانا بصراعات مع حكام الدولة البورية . التي كان معين انذ من اخر المتحـكمين فيهـا .
٥٩ ـ ضمن اسامة اجزاء من قصيدة المتنبي المشهورة التي قالها في عتاب سيف الدولة :

واحر قلباه من قلبه شبم
ومن بجسمي وحالي عنده سقم .

٦٠ ـ كان طمان من رجالات زنكي وقد هرب منه والتجا إلى دمشق .
٦١ ـ وردت الابيات العشرة الاولى من هذه القصـيدة في الديوان المطبـوع في بـــاب الغـــزل ص ٤٠ ـ ٤١ .
ووردت الابيات الباقية في باب المكاتبات ص ١٤٦ ـ ١٤٨ ، كل ذلك مع فوارق .
٦٢ ـ وزير صلاح الدين ، عبد الرحيم بن علي البيساني .

٦٣ ـ تشوروا : خجلا .

٦٤ ـ انظر ما تمثل به الصحابي سعد بن معاذ يوم الخندق .

لبث قليلا يدرك الهيجا حمل

ما أحسن الموت إن حان الاجل

انظر سيرة ابن هشام ، تحقيقي ط . بيروت ١٩٩٢ ص ٧٠٩ .

٦٥ ـ للقطامي وهو لقب لشاعر كبير اسمه عيم بن شييم ، له ترجمة في الاغاني ـ ط . دار الكتب ٠ ٢٤ ص ١٧ ـ ٥٠ ، انظر بيته :

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل

وإن بليت وإن طالت بك الطيل

ص ٢٠

٦٦ ـ في شرح ديوان زهير . ط . القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٨٠ ، عنا ، .

٦٧ ـ تقدم ذكر هؤلاء جميعا في الجزء الاول من المدخل ، ومن أجل هنا انظـره في ديوان ابـن حيوس ج ٢ ص ٦٠٦ مع بعض الفوارق .

٦٨ ـ ديوانه ص ١١٤ مع فوارق كبيرة .

٦٩ ـ الدر باب طائر ، ودرب حبيب ببغداد قرب نهر معلى .

٧٠ ـ تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ١٨٤ مع فوارق ببعض الالفاظ .

٧١ ـ ديوان ابن حيوس ٠ ١. ص ٢٠ ـ ٢١ .

٧٢ ـ من اسماء الراية : الصليب .

٧٣ ـ حاجب بن زراره رهن كسرى قوسه حتى يعطيه طعاما يغيث به قبيلته .

٧٤ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٠ ٧ ص ٢٧٦ .

٧٥ ـ نسبة الى حصن كيفا . مدينة من ديار بكر (الانساب للسمعاني) .

٧٦ ـ لم اجده بهذا اللفظ ، انظر كنز العمال : ٣ / ٥٩١٢ .

٧٧ ـ ليس بالانساب ، أو التحبير للسمعاني .

٧٨ ـ مازال يحمل هذا الاسم على طريق دمشق خان ارنبة ، يبعد عن خـان ارنبـة / ١٥ / كم وعلى مسافة ٤ كم منه معسكر الطلائع .

٧٩ ـ تاريخ ابن عساكر : ٢ / ٣٥٢ ـ ظ ـ ٣٥٣ و .

٨٠ ـ لم يصلنا .

٨١ ـ اي صريع الغواني مسلم بن الوليد .

٨٢ ـ طلائع بن رزيك وزر في القاهرة لمة سبع سنوات (١١٥٤ ـ ١١٦١ م) وكان من اصل ارمني . انظر النجوم الزاهرة : ٥ / ٣٤٥ .

٨٣ ـ هدمت شيزر بفعل الزلزلة وقتل اهله بها ايام نور الدين سنة ١١٧٠ م .

٨٤ ـ الخريدة ـ قسم شعراء الشام : ١ / ٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

٨٥ ـ كتاب الاعتبار ط . برنستون ١٩٣ : ١٣٤ .

٨٦ ـ ليس بديوانه . انظر الخريدة : ١ / ٥٢٩ .

٨٧ ـ ديوانه ط . القاهرة : ٥٥ .

٨٨ ـ الخريدة : ٣ / ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

٨٩ ـ ليسا في ديوانه . وطبع ايضا في القاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون .

٩٠ ـ طبع كتاب العصا بحماه وطبع ايضا بالقاهرة في الجزء الثاني من كتاب نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون .

- ٥٧٧٣ -

٩١ ـ الخريدة : ١ / ٥٠٠ .

٩٢ ـ المصدر نفسه : ١ / ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

٩٣ ـ ديوانه : ١٠٩ .

٩٤ ـ الخريدة : ١ / ٥٠١ / ٥٠٢ .

٩٥ ـ ديوانه : ٢٠٩ . وبداية البيت الاول فيه « أنا تا ..... » .

٩٦ ـ ليست هذه الابيات في ديوانه .

٩٧ ـ ديوانه : ١١٨ .

٩٩ ـ ليست في ديوانه

١٠٠ ـ ديوانه : ٢٧٧ .

١٠١ ـ التكملة لوفيات النقلة : ١ / ١٥٨ ـ ١ (٥١)

١٠٢ ـ الغرارة الوعاء ـ الكيس ـ الكبير للحبوب وغير ذلك .

١٠٣ ـ اي اسامة .

حواشي كتاب الاعتبار

١ ـ هو ابو بكر بن بشر الجزري .
٢ ـ لعل اسمه كان « بندكت » .
٣ ـ صلاح الدين محمد اليغسياني صاحب زنكي وكان انذاك واليه على حماه .
٤ ـ فيما تقدم من نصوص تاريخ دمشق لابن القلانسي موضح لاوضاع هذه المدينة وذلك بالاضافة للدراسة المتقدمة عن الدولة النورية في المدخل .
٥ ـ ديوان اسامة بن منقذ ـ ط . بيروت عالم الكتب ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
٦ ـ مرجح ان هذه النسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المدخل .
٧ ـ الاسكندرية والبحيرة .
٨ ـ اي المسؤول عن ادارة القصور الخلافية .
٩ ـ في شرقي مصر .
١٠ ـ من قبائل الشمال الافريقي كانت في اطراف مصر .
١١ ـ بلدة في الصعيد . معجم البلدان .
١٢ ـ هو شجر السدر . معجم اسماء النباتات .
١٣ ـ اي مدخل أو دهليز .
١٤ ـ اي اتخذ ديوانا سجل فيه مرتزقة من الجند .
١٥ ـ نسبة الى دبيق ، وهي بلدة قرب دمياط .
١٦ ـ السقلاطون قماش من الكتان موشى والمستجي من فراء السنجاب ، والدمياطي حرير او كتان ملصب اشتهرت به دمياط .
١٧ ـ واحة بين فلسطين ومصر .
١٨ ـ فارسية تعني صمغ الشجر ، ولعلها كانت من معدن شابه الكهرمان .
١٩ ـ حسمى جبال بين بين العقبة وسيناء . معجم البلدان .
٢٠ ـ السر فسار هو الجزء الذي يقبض عليه الراكب من اللجام : معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي لمحمد احمد دهمان ـ ط . دمشق ١٩٩٠ .
٢١ ـ في منطقة البتراء ، وهناك دراسات اردنية معاصرة تذهب إلى أن اصحاب الكهف عاشوا في هذه المنطقة لا في افسوس ـ جنوب تركيا ـ كما هو رائج .
٢٢ ـ اي اطولهم .
٢٣ ـ بلدة على بعد ٢٦ كم شمال غربي الخليل . معجم بلدان فلسطين .
٢٤ ـ قامت يبنى على رابية تبعد عن البحر مسافة ٧ كم ، وكانت محطة للقطار بين فلسطين ومصر . معجم بلدان فلسطين .
٢٥ ـ لعباس ترجمة جيدة انتزعتها من المقفى للمقريزي والحقتها في آخر الاعتبار .
٢٦ ـ لعلها من انواع البغال السفرية او التنقل .
٢٧ ـ كانت ولايته منية ابي الخصيب ، وهي مدينة كبيرة على شاطىء النيل في الصعيد الادنى . معجم البلدان .
٢٨ ـ من احياء القاهرة في شرقيها ، نالت اسمها من سكانها من برقة .
٢٩ ـ استصعب .
٣٠ ـ اي شاة .
٣١ ـ اي وعدنا الا نؤذيهم إذا عدنا .
٣٢ ـ المويلح قرية وقعت إلى الشمال الشرقي من يافا . معجم بلدان فلسطين .

٣٣ ـ المرجح هنا الرهوان ، وهو البرزون اللين الظهر في السير ، من الرهو وهو السير السهل .
٣٤ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي .ط ، دمشق ١٩٨٣ ص ٣٩٨ ، ٤٢٧ .
٣٥ ـ حيث المكتبة الظاهرية حاليا في دمشق.
٣٦ ـ انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٢٧ .
٣٧ ـ ركن الدين مسعود الاول (٥١٠ ـ ٥٥١ هـ ، ١١٦ ـ ، ١١٥م) .
٣٨ ـ أفاد من هذه المكتبة وليم رئيس أساقفة صور لدى كتابته تاريخ اعمال أمراء الشرق ، ثم تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ، وقد ترجمته الى العربية .
٣٩ ـ لعل هذا كان عام ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٣٥ .
٤٠ ـ أورد أسامة هذه الحكاية في كتابه لباب الادب ـ ط . القاهرة ١٩٨٧ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ وهي غريبة فالمتداول أن إصابة الاشتر بالشتر تمت أثناء فتوح الشام لدى قطع الدروب إلى آسية الصغرى المرة الاولى . انظر بغية الطلب لابن العديم ـ ط . دمشق ١٩٨٨ج ١ ص ٥٦٩ ـ ٥٧١ .
٤١ ـ ناقل مناقلة : هو بين العدو والخبب . القاموس .
٤٢ ـ أي التف .
٤٣ ـ القنطارية قناة الرمح أو الرمح كله .
٤٤ ـ لم ترد هذه الابيات في ديوان عنترة المطبوع .
٤٥ ـ شمالي الاتارب ، وسيرد هنا في نص ابن العديم .
٤٦ ـ انظر سورة آل عمران ـ الايتان : ٢٦ ـ ٢٧ .
٤٧ ـ على مقربة من حماه الى الشمال الغربي منها .
٤٨ ـ قرب بارين تتبع محافظة حماه .
٤٩ ـ سترة سميكة تقوم مقام الدرع .
٥٠ ـ كسماء : أي سهم حربي أو ماض . القاموس .
٥١ ـ احد قرني حماه الى الشمال منها .
٥٢ ـ في الغاب قرية اسمها الان جوبة كرد لعلها هي .
٥٣ ـ كان هذا سنة ٥١٧ هـ . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٤٢٧ .
٥٤ ـ ديوان قيس بن الخطيم ـ ط . دار صادر بيروت ١٩٦٧ ٨٨ .
٥٥ ـ انظر لباب الاداب ص ٢٠٨ ويوم الحديقة من ايام الاوس والخزرج في الجاهلية .
٥٦ ـ هو وليم جوردان ـ انظر ما تقدم في تاريخ دمشق لابن القلانسي .
٥٧ ـ من شعراء ما قبل الاسلام اسمه سهل بن شيبان .
٥٨ ـ أي خنجر .
٥٩ ـ الخشت من انواع الحراب .
٦٠ ـ في محافظة حماه قرب محردة في احواز شيزر .
٦١ ـ ديوان المتنبي ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠٣ قوله :
لعل عتبك محمود عواقبه

فربما صحت الاجسام بالعلل

٦٢ ـ سورة البقرة ـ الاية : ٢١٦ .
٦٣ ـ قرب برقعيد قريبة من الموصل بين جزيرة ابن عمر ونصيبين . معجم البلدان .
٦٤ ـ مرض يفقد الطائر ريشه .
٦٥ ـ النباغ : الشديد الصوت ، والنبجة : الاكمة . القاموس .

٦٦ ـ ندس برجله الارض : ضربها .

٦٧ ـ الباقورة : جماعة من البقر ، والجزيرة كانت في وسط العاصي ، والجلالي من روافد العاصي .

٦٨ ـ أي مسرعة .

٦٩ ـ لعل : كلمة طمع واشفاق . القاموس .

٧٠ ـ قطاة الدابة : عجزها أو ما بين الوركين .

٧١ ـ لعل رسم اسمه باللاتينية Pedravant

٧٢ ـ المراد كما هو مرجح ، الترسيمة ، قرية الى الغرب من حماه ، تابعة لمحردة في أحواز شيزر .

وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٨٢ ، تل ابن معشر ، أي العشارنة حاليا ، أوالتريمسة تقع في سهل العشارنة وتبعد عن محردة ١٦ كم نحو الشمال الغربي . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

٧٣ ـ يحيط بالتريمسة عدة تلال عرف أشهرها بتل الدروع .

٧٤ ـ أي مقدم وجهه .

٧٥ ـ موزا ، موزة ، حذاء ذو ساق طويلة .

٧٦ ـ كذا من باب المبالغة مع أنه قال قبل قليل شهرين .

٧٧ ـ على مقربة من شيزر بناه الفرنجيون قبل الاستيلاء على شيزر .

٧٨ ـ على مقربة من قلعة المضيق في منطقة الغاب غربي حماه .

٧٩ ـ الخشت فارسية تعني الحربة او السهم .

٨٠ ـ من اهل كفر طاب ، هو من شعراء الخريدة ـ قسم بلاد الشام ١٠ ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤ . ترجم له ايضا ابن عساكر وياقوت والسيوطي في بغية الوعاة ، توفي سنة ٥٥٣ هـ .

٨١ ـ صاحب قلعة جعبر .

٨٢ ـ محمود بن نصر بن صالح ، صاحب حلب ، انظر ما تقدم حوله في الجزء الاول من المدخل .

٨٣ ـ في ارمينية . معجم البلدان .

٨٤ ـ اسفونا الان تل اثري في جبل الزاوية ، ناحية كفر نبل ، منطقة معرة النعمان ، محافظة ادلب مساحة التل ٢٥٠ هكتار ماتزال بقايا القلعة ماثلة عليه المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

٨٥ ـ اي نشيط .

٨٦ ـ الفرلة : مخاط كل ذي حافر . القاموس .

٨٧ ـ تشايرا في الحرب : تقاربا . القاموس .

٨٨ ـ ما يزال موقع الباشورة في حماه معروفا يحمل الاسم نفسه ملاصقا للسفوح الشرقية للقلعة .

٨٩ ـ من روافد العاصي .

٩٠ ـ اليراق : تركية معناها السلاح .

٩١ ـ انظر قوله تعالى في سورة نوح ـ الاية : ١٤ : « وقد خلقناكم اطوارا » .

٩٢ ـ اي راعي الخيل .

٩٣ ـ اي مدير المطبخ .

٩٤ ـ في هذا اشارة الى شيخ الجبل المسؤول عن الحشيشية من الاسماعيلية النزارية في المنطقة .

٩٥ ـ تعرف الان باسم معرزاف ، وهي تابعة لناحية محردة .

٩٦ ـ كان حصنا مكينا الى الجنوب الغربي من معرة النعمان . معجم البلدان .

٩٧ ـ اصطلاح ما يزال يستخدم في حماه يراد به وعاء منسوج من القطن (جوال) توضع فيه الحبوب وسواها .

٩٨ ـ الفهد المخطط

٩٩ ـ هو محمد بن ابي محمد بن محمد ، ولد في صقلية عام ٤٩٧ هـ ، ومات في حماه عام ٥٦٥ هـ صنف عدة كتب نشر منها كتاب انباه نجباء الابناء ـ بيروت ١٩٨٠ .

١٠٠ ـ قلت : سريع ، ورمينا فوقا : رشقا . القاموس .

١٠١ ـ البشت : عباءة .

١٠٢ ـ اي رأس خنجر .

١٠٣ ـ يعرف حصن صهيون الآن باسم قلعة صلاح الدين ، وبلاطنس الى الجنوب منها .

١٠٤ ـ اي يستطلع .

١٠٥ ـ قرب منبع نهر ابراهيم في لبنان .

١٠٦ ـ اناء واسع كالبرميل .

١٠٧ ـ اي وجده ناعما .

١٠٨ ـ اي Viscount

١٠٩ ـ في غربي سلمية منطقة تل سلحب اسمها تل دبين . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

١١٠ ـ عامل زنكي على حلب .

١١١ ـ الباشة : الحلقة .

١١٢ ـ ندس : قذف .

١١٣ ـ نجب في سيره : جد واسرع .

١١٤ ـ خان عذراء والقطيفة .

١١٥ ـ في ديار بكر . معجم البلدان .

١١٦ ـ من حصون ديار بكر .

١١٧ ـ شعر ذنب عجل البحر .

١١٨ ـ على مقربة من إربل .

١١٩ ـ ليس في ديوانه المطبوع .

١٢٠ ـ اهرت المرأة : اباحت نفسها بأجر . القاموس .

١٢١ ـ لم ترد هذه القصيدة في ديوانه المطبوع .

١٢٢ ـ ديوانه ص ٢٥٥ .

١٢٣ ـ ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٤ ـ ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٥ ـ ليست في ديوانه المطبوع .

١٢٦ ـ سورة النحل ـ الاية : ٥٣ .

١٢٧ ـ هي ايضا اسعرت ، في ديار بكر .

١٢٨ ـ هو ابن الجوزي صاحب المنتظم وغيره من الكتب

١٢٩ ـ اي الوزير نظام الملك . انظر ترجمته في ملاحق الجزء الاول من المدخل

١٣٠ ـ الفقاع شراب يحضر من الشعير .

١٣١ ـ اي صاحب املاك كبيرة في المدينة .

١٣٢ ـ كان في حلب ايام ثمال بن صالح ، له رحلة نقل عنها ابن العديم في بغية الطلب ، وياقوت والقفطي حين ترجم له في اخبار الحكماء ص ١٩٢ ـ ٢٠٨ .

١٣٣ ـ سورة يس ـ الاية : ٦٨ .

١٣٤ ـ اي الجبلية ، فكوه بالفارسية : جبل .

١٣٥ ـ دشت بالفارسية : واد ، صحراء ارض وسيعة ، وخيز : وقوف . نهوض ، ارتفاع ، رفرفة .

١٣٦ ـ من روافد نهر الخابور

١٣٧ ـ القرنصة سقوط الريش ، فاذا شرع الباز في القرنصة ينبغي ان يفرد له بيت لايدخله الغبار والدخان ، لهذا يفرش حوله الصفصاف .

١٣٨ ـ يدعوها المصريون الان « السيد قشطه » .

١٣٩ ـ على هامش الاصل : « وهو الطيهوج » .

١٤٠ ـ ابن علم الدين علي كرد صاحب حماه .

١٤١ ـ قرب منطقة القدموس .

١٤٢ ـ مازال القرى تحمل الاسماء نفسها ، وهي تابعة لناحية عين الشرقية ـ منطقة جبلة ـ محافظة اللاذقية .

١٤٣ ـ الكندر : مجثم البازي . القاموس .

١٤٤ ـ جمع قلت ، وهي النقرة في الارض ، يستنقع فيها الماء .

١٤٥ ـ اي الصائد . القاموس ـ مادة حشر .

١٤٦ ـ من انواع طيور الماء . انظر البيزرة لبازيار العزيز الفاطمي ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٥٦ .

١٤٧ ـ اي يقطع الفولاذ .

١٤٨ ـ انظر البيزرة ص ١١٨ ـ ١١٩ .

١٤٩ ـ استرخاء . القاموس .

١٥٠ ـ شيء يشبه الحية . القاموس .

١٥١ ـ سباقا البازي : قيداه .

١٥٢ ـ وثب .

١٥٣ ـ بنجت : اختبأت .

١٥٤ ـ قرية في سهل العشارنة تتبع منطقة محردة في محافظة حماه ، وتبعد عن محردة ١٢ كم باتجاه الغرب .

١٥٥ ـ كنانة أو جعبة .

١٥٦ ـ البالة : حربة أو سكين طويلة . تعريب كلمة « بالا » التركية .

١٥٧ ـ اي الحبل من الرمل اللاطيء بالارض ، وسهل بين حزنين .

١٥٨ ـ اي تتلوى .

١٥٩ ـ طائر يشبه مالك الحزين .

١٦٠ ـ لعله من أنواع البازي ، أو انه تصحيف : « الزرق » انظر البيزرة ص ٧٩ .

١٦١ ـ اطفيح وأبويط ودهشور من قرى الصعيد الادنى على النيل ،معجم البلدان .

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السادس (٣)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثالث عشر

دمشق
١٩٩٥ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السادس

ـ من البرق الشامي للعماد الاصفهاني
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ـ للعماد الاصفهاني

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلف لنا التعرف الى بعض المؤرخين المسلمين الذين عاصروا وصول الغزاة الفرنجة الى بلاد الشام ، ولدى استعراضنا لأخبار الصراع مع هؤلاء الغزاة ادركنا كم هي هامة السنوات التي تولى فيها قيادة المسلمين كل من نور الدين وصلاح الدين ، وأرخ لأحداثها من جانب الفرنجة وليم الصوري ثم صاحب الذيل على تاريخه ، وكان العماد الاصفهاني ـ وفيما بعد ابن شداد ـ قد شارك في صنعها والتأريخ لها ، وبناء عليه ان ما كتبه العماد فائق الاهمية ، لكن مما يؤسف له ان هذه الاهمية بددتها صنعة الكلام التي ابتلي بها العماد أكثر من سواه من معاصريه .

والعماد هو : محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني ، ولد في أصفهان سنة٥٩٧هـ / ١١٢٥ م ومات بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ١٢٠١م ، وهو بعمره المديد كان شاهد القرن السادس للهجرة الثاني عشر الميلاد .

انحدر العماد من اسرة رفيعة المكانة ، عمل رجال منها بالادارة ، وشهروا بسعة الثقافة ، واتقنوا العربية والفارسية ، وكان العماد قد نشأ في اصفهان ، وفيها تلقى علومه الاولى ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م التحق ببغداد حيث تولى بعض الأعمال الادارية ، وتمتع بالسلطة وعانى من تقلباتها ، وكانت كثيرة مفجعة أنذاك في بغداد ، وهكذا بعدما أمضى بالاعتقال قرابة العامين التحق بدمشق سنة ٥٦٢ هـ /١١٦٧ م ، وكان على معرفة بنجم الدين ايوب وبعدة شخصيات في دولة نور الدين ، مما هيأ له السبل للعمل في ادارة نور الدين ، وفي عام ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م ، تسلم ديوان الانشاء في دمشق ، وظل يعمل

به حتى وفاة نور الدين ، واثر هذا بـامد وجيز استخدمه صـلاح الدين ، وظل مرافقا لهذا السلطان العظيم وقريبا منه حتى وفاته .

وفي مواد موسوعتنا اشـارات مفصلة للعمـاد وللادوار التـي تولاها ، لابل حتى لاسماء بعض ما صنفه او ترجمه ، وكان العمـاد خصب الانتاج في ميداني الادب والتاريخ ، اهتم - بحكم كونه اتقـن نظم الشعر - بشعراء العربية في عالم الاسلام في ايامه شرقا وغربا ودون اخبارهم في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » ونيولها له . وفي حقل التاريخ كان اهم ما صنفه :

١ - كتاب « نصرة الفترة وعصرة القطرة » أرخ به لسـلاطين السلاجقة ووزرائهم واعيان دولهم ورجـالاتهم ، وبنى أصـل هـذا الكتاب على كتاب صنفه بالفارسية الوزير أنو شروان بـن خـالد ، وعنوانه « فتور زمان الصدور وصـدور زمـان الفتـور » ، ونظـرا لصعوبة التعامل مع لغة العماد فقد قـام الفتـح البنداري في العصر الايوبي بتهذيبه ، مثلما هذب غيره من كتبه ، والمتداول المطبـوع في ايدي الناس ، هذبه البنداري ، علما ان هناك نسخة خطية من اصل العماد محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس .

٢ - كتاب « الفتح القسي في الفتح القدسي » ويقال « الفيح القسي » وهي الذي نقدم له اليوم ، وواضح من عنوانه أن العمـاد اسـتهدف من تصنيفه التأريخ لفتح القدس وازالة المملكة اللاتينية من الوجود ، وفي الحقيقة ارخ به العماد الفترة الممتدة من سنة٥٨٣هـ / ١١٨٧ م حتى سنة٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ، السنة التي توفي بها صـلاح الدين ، وما دونه العماد في هذا الكتاب ، دونه بشكل او آخر في كتابه .

٣ - « البرق الشامي » ويفترض ان العماد جعـل هـذا الكتـاب في سبعة اجزاء ، ارخ فيها من تاريخ قدومه الى الشام سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ حتـى وفـاة صـلاح الدين ، اي ارخ فيه للدولتين النورية والصلاحية ، المهمة سيقوم بها بشكل اوسع ابـو شـامة في كتـابه الروضتين .

ولم يصلنا كتاب البرق الشامي بـاكمله ، بـل وصـل الينا مـن اجزائه الثالث والخامس ، وقطعة كبيرة تتضمن جـل المتبقـي مـن الكتاب ، وجرى نشر الجزء الثالث في عمان ١٩٨٦ ، وكذلك الخامس في السنة نفسـها والمكان نفسـه ، وذلك اعتمـادا على المخـطوطة الوحيدة لهما المحفوظة في مكتبة البودليان في اكسفورد ، ووقفت على القطعة المتبقية في الخزانة العـامة بـالرباط ، وهـي مصـورة على شريط ، كان قد أودعه فيها المرحوم المختار السـوسي ، ولانعـرف الآن مكان الاصل المصور ، ونشرت في مجلدنا هذا نموذجا من هـذه القطعة .

لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد هذا لصعوبة لغتـه ، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صنعه السجع الممل . مع ان بعض جمل هذا السجع رائعة التصوير ، دقيقـة جـدا ، لكن هذا نادر الوجود صعب التحصيل ، والاقدام على تحقيق هذا الكتاب مغامرة محفوفة بالمخاطر ، ربما سيكون الخطأ في قراءة النص اكثر من الصواب ، وبالنهاية ان المحصلات قليلة القيمة لاتسمن ولا تغني من جوع ، واضرب هنا مثلا انني قمت بمقارنة سريعة للصـفحات : ١٧٠ ــ ١٧٩ من الجزء الخامس المنشور في عمـان فـوجدت فيهـا « ١١٥ » كلمة صحفت ولم يحالف المحقق التوفيق في ضبطها مـع انه بذل جهودا طيبة في هذا المجال .

وقديما واجه ابو شامة وسواه مثل ابـن واصـل هـذه المصـاعب فاقتصرا بالنقل بتصرف من نصوص العماد ، وحاول الفتح البنداري حل هذه المعضلة فهذب كتاب البرق الشامي ، ودعا الكتاب الجـديد المهذب « سنا البرق الشامي » وسلف الباحث التركي رمضان ششن ان عثر منذ ثلاثة عقود من الزمن على مخطوطة غير كاملة مـن هـذا الكتاب فنشر الجزء الأول منها في بيروت عام ١٩٧١ ، ثم جرى نشر المخطوط كاملا في القاهرة عام ١٩٧٩ محققا بشكل معتدل من قبـل فتحية نبراوي .

وبناء على هذه المعطيات وجدت انني لن احقق فوائد تذكر في تحقيق الموجود من كتاب البرق الشامي ، وان الاقتصار على الفتح القسي فيه كفاية . والقارىء لما كتبه العماد يلاحظ مدى اعتداده بنفسه وبالادوار التي قام بها ، وافاد هذا حيث تولى وهو كاتب الانشاء ـ ايداع كتابيه عددا كبيرا من الوثائق ، ولحسن الحظ قام ابو شامة بنقل نصوص هذه الوثائق وغيرها واودعها في كتابه الروضتين كما اقتبس ماكتبه العماد عن الوقائع التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين وعليه لم نفقد شيئا بعدم نشر كتاب البرق الشامي .

سيكون مفيدا مقارنة ما كتبه العماد بما كتبه وليم الصوري وصاحب النيل على تاريخه وايضا بما كتبه ميخائيل السوري ، ففي هذا مجال لرسم الصورة بشكل اكمل واصح ، وهذا ما توفره موسوعتنا هذه للمرة الاولى للقارىء العربي ، وسواه .

من الله أسأل العون والسداد ، وله جل وعلا المزيد من الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى اله وصحبه اجمعين .

سهيل زكار

دمشق ١٦ ـ ذي القعدة ـ ١٤١٥ هـ
١٥ نيسان ـ ١٩٩٥ .

من

كتاب البرق الشامي

للعماد الأصفهاني الكاتب

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

وهي السنة المحسنة ، والعام الذي عامت بـه في بحـار الانعـام بالاخلاص والحمد القلوب والألسنة ، والزمان التـي تقضـت على انتظار احسـانه الازمنة ، والعصر الذي أحسـنت بـه الأمـة المؤمنة ، وظهـر فيه المكان المقـدس الذي سـلمت لسـلامته الأمكنة ، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة • وتمكنت من رقـاب أعداء الله بـه الأسـنة بـأيدي أوليائه المتماكة المتمكنة ، وتبسمت من غرار الغرور باحتباء حبرات الحبور الاجفان المتوسنة .

وفي هذه السـنة نزل نص النصر ، وكفـت كف الكفـر ، وعلت اعلام الاسلام ونفذت احكام الاحكام ، وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة واسارهم بالسفك ، والهتك ، وتمكنت فيهـم ايدي الأيد بالفتك ، وضاقت بهم رحاب الملك ، وطمـت للدين بـالسواحل بحـار الملك ، ونصرت الدولة الناصرية ، وخـذلت الملة النصرانية ، وحق الاعداء بالحق ، ودخل من قر فوق الأمرة من تلك الاسرة تحت الرق ، وطـالت الوية الأولياء ، وسـالت أودية الاوداء ، ونال الاحمـاء فضـل رب السـماء ، وتجلت مـذاهب النعماء ، وظهر سر السراء ، وتميز الطيب مـن الخبيث ، وانتقـم التـوحيد مـن التثليث ، ودنت للدين اعانة العين ، واغاثـة المغيث ، وشـاع في الدنيا بمحـاسن الأيام الصـلاحية حسـن الأحاديث ، وبلي الفرنج الفجرة بما أثاروه وأثـروه في البـلاء مـن التأثير والتأريث ، وأحسوا من المصيبات التـي فجـأتهم فعمتهـم بالكسر الكريث ، وافتضت بالذكور اليمانية في الحرب العوان الفتوح الابكار ، وحليت هدى الهدي ، في ندى الندي ، وحليت بحلى الحلي وتليت الاذكار ، واعترف من عادته الجحـود وأقـر مـن دأبـه

الانكار ، وملكت من معاقل الكفر على من باض فيها وفرخ الاوكار ، واعترى ليلهم يوم الاعتراك الاعتكار .

وتناهت بالفتوحات الممنوحات في هذا العام عشي ايامه والابكار ، وكانوا كما قال الله تعالى :« وترى الناس سكارى وماهم بسكارى » فبالله ذلك العذاب الشديد والاسكار ، وقد وصفت في الكتاب الموسوم بالفتح القدسي هذه الأحوال ، ووسعت ووشعت الاقوال ، وحليت الفتوح ، وامليت الشروح ، واهديت المذوح ، ونفخت في أجسام تلك الأيام باحياء ذكرها الروح

وانا أورد في هذا الكتاب مما أوردته جملته الجميلة وجلالته الجليلة ، وحالته الحالية ، وقيمته الغالية ، وفضيلته الفاضلة ، وعدالته الشاهدة وشهادته العادلة .

ذكر مقدمة لذلك مباركة ومكرمة من لطف الله متداركة .

كان السلطان قدم الكتب لاستقدام الكتائب واستدعت الغرائب بالرغائب وقرب جنحية الاقارب والأقاصي . . . ••• مظهرات مكرماته والجوهم على عادات علاء عداته (١)٠ ••• وسمات حسناته ، وواصل الموصل بالبر البري من المر ، وسنجار استجرى المذاكي الخلية الوهن ونصيبين للأسعاف نصيب الاسعاد ، وأمد ديار بكر بالامداد بعد الامداد ، واستدعى عساكر ممالك الشام من الاطراف والأوساط ، وأمرهم بالاحتياط ، وصانهم للاقتصاد في القضم من التفريط والافراط ، وبرز من دمشق يوم السبت أول محرم في العسكر العرمرم ، والعزم المصمم للفرض المحتم والرعب الى العدو والباس المقدم ، ومضى بأهل الجنة بالجهاد الى أهل جهنم . فلما وصل الى رأس الماء (٢) اتخذها منبع نحو الهيجاء ومضمار خيل الاجراء ومثار العجاج المكرر على نهار الروع ليل

الظلماء ، وجعلها مطلع فلق فيالقة ، ومحيط مضارب سرادقة ، ومجال رواعده على بوارقه ، ومجر سوابغه مجرى سوابقة ، ومجمع جموع خلائقه ، ومحمى حماة حقائقة ، ومحشر معاشرة ، ومربض أساده وقساوره ، ومخيم جيوشه ومجثم عساكره ، وأمر ولده الملك الافضل نور الدين عليا بالاقامة هناك ليستدني اليه الأمراء الواصلين والاملاك ، ويجمع الأعراب والاعاجم والأتراك ، ويداوم لما... (٣)فرط الاستدراك ولايفارق لما يلزمه الاحاطة بعمله الادراك ، ويضم لجمع الاجناد الاشتات ، ويجم لموسم الجهاد الأوقات ، وسار السلطان الى بصرى ، وخيم على قصر السلامة ، وقد استقبل من الله الكرامة ، والاستقامة .

ذكر السبب في ذلك

وقد سبق ذكر غدر ابرنس الكرك • وفسخه الهدنة • واعتماده من قطع الطريق واخافة السبيل كل مافي المكنة • وهو على طريق العسكر المصري والحاج • شديد الالتجاج • وفي بحر اللجاج • وكان في الحج حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين • ووالدته اخت السلطان مع جملة من الخواص المقربين ، وأقام الى تلقي الحجيج • واستقبل محيا لقائهم البهيج • وريا رؤاهم الأريج • وخلا من منعلم سره • وتجلى لبشرى سلامتهم بشره • وذلك في أخر صفر • ووجه صباحته لاسفار صبيحة الظفر سفر • ثم لما فرغ باله • جم الى الكرك استقلاله • وتقدم بمن معه من العساكر حتى نزل على حصنها نزول الحاص الحاصر • وأقمنا هناك نرعد ونبرق • ونوقد ونحرق • ونرمق ونومق ، ونهرق ونزمق ، ونفرب ونشرق ، ونضايق ونضيق ، ونجمع البلاء على تلك البلاد ونمزق ، حتى اجتثت اصولها وفروعها ، واستأصل كرومها

وزروعها ، وقطع ماوجده من لينة ، وأذهب ماراقه من زينة ، وفرى وقرى وفصم العـرى ، وابسـط الذرى ، وهجـم على ظهـر الثرى ، وحلب حر النجح هدى ، وشب الشوبك نار الوعيد باشارة رأس الوليد ، وقطف ثمر النصر من ورق الحديد ، ووصل العسكر المصري متصل المدد ، محتفل العـدد والعـدد متضـح الجـد والجدد ، ومضطرم للهام ، ملتهم الضرام ، ملتهب الجمر ، ملتهـج الجمع ، آخذة بـوارقه ورواعده ، بـالبصر والسـمع ، فقـوي الاستظهار واستظهرت القوى ، وساقت وراقـت مـزاينه المجلوبـة ومحـاسنة المجلوة ، وأقمنا على الحـالة الحـالية والجـلالة الجالية ، والمهابة المرهبة ، والمحبة المرغبة .

ذكر ظفر السرية التي بعثها الملك الأفضل وعودهـا بالنصر الأكمل والغنم الأجزل .

أما الملك الأفضل فانه اجتمعت عنده الجنود من كل فريق ، وأتوه من كل فج عميق وضاق بـوفودهم الفضـاء ، وفـاض بـوفورهم القضاء ، واجتمع من دجـى عثيرهـم ومشى بنورهـم الظـلام والضياء ، واشتبكت الأرض والسماء ، وطفا على بحار الرحـاب من القب والقباب الحباب ، وطما بأمواج العوامل وأفواج الجحـافل من الكمت والكماء العباب ، وانقضى من السنة شهران ، وطال بهم انتظار السلطان ، والدين يتقاضاهم بدينه ، والكفر يتحاماهم على حينه ، فرأى الملك الافضل ان يشـغلهم بغـزوة يعـودون منهـا بحظوة ، فأنهض منهم سرية سرية نخية على ذوي البسالة والبأس والشدة والمراس ، ورتب علي خيل الجزيرة ومن جـاء مـن الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبرى صاحب حران الأغلب الأعز ، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق ٠ وهو الذي بحماسته يرتق من الاسلام بالفتوح الرتوق ٠ وعلى عسكر دمشـق وبلادها صارم الدين قايماز ٠ وهو يفوق عضاء مضاربه الصـارم

الهرماز والعضب الجـراز • فـأسرجوا الخيل • وأدلجـوا الليل . وجروا من السـابريات الذيل • وأجـروا مـن الاعوجيات السيل • وجلبوا الى العداة الويل • وصبحوا صفورية في أواخـر صفر • وصباح النصر قد افتغر • فخرج اليهم الفـرنج في حشـود جهنـم وريويديلملـم • وجنود ابليس واسـود تحمـي العـريس.

وسراحين على سراحيب • وأهـاضيب تتحلحـل أهـاضيب • وتعتقـل انابيب وتشـتمل شآبيب • في الداوية بـأدواتها • والاسـبتار بـأسوائها • والبـارونية بـلاوائها • والتـركبولية وأرديائهـا • والفـرنجية بضرضائها • ووثبـوا في وثبـات الآسـاد • وحملوا في ثبـات الأجواد • فلولا ان الله قد اصحب اصحابنا التوفيق وهـدى أهـل هذه الطريق • لكاد الكفر ينجو والاسـلام لايعتـز بـالاجر • لكن أمـرائه الكرام اسـتطابوا الحمـام • فـلاقوهم بقلوب الصخور • وحبور الصـقور • وبـاشروا بصـدورهم صـدور الاسنة • وغامروا بنحـورهم نحـور الاعنة ، فآتـاهم الله النصر المني ، والظفر السـني ، وسـقوا منهـم حنين الحنايا • وأدركوا فيهم منى المنايا • وفازوا وظفروا • وحـازوا وانتصروا • وقتلوا وأسروا • وهلك مقدم الاسبتار • وحصل جماعة من فـرسانهم في قبضة الأسار • وعادوا سالمين سالبين • غانمين غالبين • وقـد كبسوا وكسبوا • وسحبوا نيول الاختيال بصدق ماحسبوا •وكانت تلك الذوبـة الحلوة • والخـطوة الصـفوة • بـاكوره البركات • ومقدمة مابعدها من ميامن الحـركات • واندرج ان الله يعلي لأوليائه الدرجـات • ويسـوق زمـر اعدائه الى الدركات • وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشـوبك ندور ونجول • ونجور ونذور وعلى الاعداء منا الدحور والثبـور • فلمـا قرأنا الكتب بالاستنهاض والانبجاث حللنا حبلى اللباث وعقدنا عزم الانبعاث • واستمهلنا مهول الأوعاث .

ذكر الاجتماع بالعساكر .

وعدنا واجتمعنا بالعساكر ، وانتظم عمل الاوائل والاواخر ، وخيمنا على عشترا ، والقدر يقول للسلطان تعيش وترى ، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى ، واشتمل المعسكر على فراسخ عرضا وطولا ، وملأ بالملأ حزونا وسهولا ، فما يرى الا خيل صفون رحض كأنها حصون ، وزعف موضون ، وعضب مسنون ، وفيض مكنون ، وحركة وسكون ، وركوب وركون ، وجنات وعيون ، وفلك في بحر من العسكر في البر مشحون، وضاقت الأيام عن عرضها ، وتقاضت الليالي بقرضها ، ونزلت جنود سمائها الى جنود ارضها ، فللمقانب مناقب، وللمواكب من الخرصان كواكب ، وللكتائب من الشجعان مناكب ، وللذوائل ذوائب ، وللعصب من البيارق عصائب ، وللريح سحائب ، وللوهج مشارق ومغارب ، وللمراكب مراقب وللسلاهب جنائب .وللحقائق حقائب، وللمواهب مذاهب ، وفي كل يوم انفاق وارقاد وارفاق ، واشراف واشراق ، واعتلاء واعتلاق ، واعتناء واعتناق ، واجتماع لاافتراق ، وانطلاق واندلاق ، وامتراء وامتراق ، وايلاف وائتلاف ، واستباق والتحاق ، واختفاق من ألوية الأولياء واصطفاق ، وضمر وعتاق ، وسمر ودقاق ، وبيض رقاق ، وعطاء حساب ، وكأس من الجود دهاق ، وعرض العسكر في اثني عشر الف مدجج ، في ليل العجاج مدلج ، يشتمل على عدة جنائب اسعاد أتت في الجري شمائل ، وجنائب سواغب تجري بها الرياح ، ورماح شيلها المراح ، ورواسي سواري ، وأعلام جواري ، من كل كاف بلام ، وراء لعين حمام ، وضارب بضرام وهام لهام لهام ، وضلغم ضرغام ، ومصمم بصمصام ، وحاسم بحسام ، ومقدام لهمام قمقام ، وفارس للأسد فارس ، وللروع ممار ممارس ، وللصبح بما يثيره حابس ، وباشر بالكريهة غير عابس ، قادح لسنا السنابك قابس ، مناف لعداة الاسلام في الدين

منافس ، وكل مجاهد بسر الصدق مجاهر ، ومظافر لأولياء الله مظاهر ، ولمعاشر الحق معاشر ، وباسل للبأس باسر ، وللفتح الكواسر كاسر ، ولكأس النجيع حاس وعن ساعد الجد حاسر ، ناصب لنصرة الدين ماله غير الله من ناصر .

ذكر الدخول الى الساحل للقاء الفرنج ، وكان الرحيل يوم الجمعة سابع عشر شهر ربيع الآخر

ولما انقضى العرض . اقتضى الفرض . وسالت بأفلاك السماء الأرض . والتطم البحر . والتمم الجمع * والتهب الجمر . واضطرب المجر . واحتبس الفجر . واقتبس الأجر . وقربت الضمر . وبرقت البيض والسمر . ووردت بالردى العداة الزرق المنايا الحمر . ونشرت للأواء بني الأصفر الألوية الصفر . وراقت لنضرة ثمر النصرة أوراق الحديد الخضر . وأنارت بالأيامن الغر الأيام الغبر . وتمكن في قلب الكفر من بأسنا الذعر . وانصف الدهر. واسعف النصر . وكان السلطان قبل يوم رحيله . وعزم الجهاد لله في سبيله . اركب العسكر بعدته وعدته . وحديده وحدته . وبيضه ومجره ولجبه . ورتبه اطلابا . وحزبه احزابا . وعين رجال القلب ومن يقف بالقرب . والميمنة وحماتها . والميسرة وولاتها . والجناحين وقوادهما من ذوي الاقدام . والمقدمة والساقة على سنن النظام . وعين مواقف الرجال ومواضع الأبطال . وعين الجاليشية من كل طلب ورماة احداقها وحذاق رماتها . وعين لكل امير موضعه . ولكل منير مطلعه . ولكل اسل مركزه ولكل سحبل منهزه . ولكل أسد عرينه . ولكل قرن قرينه . ولكل جحدم مقامه . ولكل مرام مرامه . ولكل عازم مذهبه ولكل حازم موكبه . وقرر مظانهن في الركوب والنزول والثبوت والحلول . ومعارج الصفوف . ومدارج الزحوف . ومناهج الحتوف . ومخارج المئين . وموالج الالوف .

وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر بـالعساكر . والأسـد القسـاور . والفتـخ الكواسر . والقضـب البـواتر . والفلك الدواخر • والسحب الواطـر • والسـحم الدياجـر • والحمس الزوائر • والغر السـوافر • والبيض الزواهـر • والسـمر الشواجر • والبيض المغـافر • والقـوم المعـاشر • والبـاد والحاضر • والخف والحـافر • والصـلب والمسـاجر • والأكارم والأكابـر • والسـاعي والسـائر • والعـالي والفاخر في عابيات سفره . رعن الرعن لعابيات كفره . حزن الحزن وهي . مفاوير هدى . دان لها التقـدير الخمـائر عدى . دنا منهـا التدمير . وسارت على ترتيبها وتعبئتها وتنكيبها وتنقيبها محشورة عصائبها منشورة ذوائبها . سائلة أوديتها . جائلة ارضها . فهـي تخرق الخرق . وتغرق الغـرق على الفـرق . تمـلأ الوهـاد بهوائها . وتكلأ من العوادي بعواديها . وأناخت ليلة السبت على خسفين والكفر مخسوف . والشرك مـكسوف . وكل جبـل بلجبهـا منسوف ونسيم النصر من قوتها مسوف . وللاقـدام في لج الاقـدام رسوب ورسوف . والدين في فضله وعدله والكفر عسـوف . وبـاتت تلك الليلة والرماح مـركوزه والصـفاح مهـزوزة . وللمقـربات تصال . وللمضروبات صقال . وللمنسوجات اجراء . وللشريجيات اغراء . وللعـوج رنان . وللأعوجيات رهـان . وللقسـاطل اقساط . وللصواهل أصوات . وللسـلامة امـراط . وللاسـتقامة صراط . ولأوراد المنايا فراط . ولأقطار الجو من جوانب الأسـنة اقراط . ولحكم الظفـر مـن مقتضـيات القـدر مناط . وللقيام اشتراط . وللقتـاد اختـراط ، وللعسـكر بسـاط . وللعثير اضباط ، وللهمم اعبـاط . وللدهـم ارتبـاط . وللبهـم اختباط . وللأمـم احتياط . وللعـزم نشـاط . وللحـزم يشاط . وللغماغم اختـلاط . وللصـوارم اشـتطاط . وللنجـم مماط . وللأفق منه سماط .

فلما بكروا ركبوا وكبروا . واخذ بحرهم في الالتجاج . وبرهم في الارتجاج والجو في الارتياج . والدو في الامتراج . وقلب الكفـر في

الانزعاج . وجند السماء والأرض في الامتزاج . والصبح في الانبلاج لولا معارضة العجاج . وخضرم الخضراء من غبرة الغبراء ذو الأمواج والأفواج . وتلتها افق العجاج . وقوس الترائك لامعة في الابراج . ومضايق الزحام داعية الى الانفراج . والأسد سابحة في غاب القنا الى الهياج . وأجنة الحنايا مشرفة على الاحراج . وأسنة المنايا مشرعة للانشاج . وأعنة السرايا مسرعة للادلاج . وليل الخيل داج . وطرف الغزالة ساج . ورعب الجيش يخامر الدهر شاج . وذقود الرواحل من عقود الرواغب في رواج . والشوارع نازعة لالجاء واسراء من الجام واسراج . ونزلوا بثغر الاقحوانة حروض راء . وعقد غير واء . وعزم غير باء . وعز متباء . وسعد متناء . وحكم أمر ناء . وعيون ذات اسباء . ووجوه نضر ذي اتجاء . ومضاء الفضاء مضاء . وشفار بيض لها مع الأعداء شفاء شفاء . وضربت الخيام . وغصت الوهاد والآكام . واشتد الغرام . وامتد الضرام . ووجد بالجد العرام . وتقدمت المساعي وسعت الاقدام . وعلت الأعلام الاعلام . وزها الاسلام . وأمكن من الكفر الانتقام . وحمي التحزب الحمام . وشد التخرم الحزام . وأقام الطيف . وطاب المقام . وزاد في الكف اكفاء الكفاح مراح الرماح . وتصافح الصفاح . وعرف كيف ركوب الجبال للرياح . ووعدت الظباء الظلماء بإروائها من الأرواح .

وأقام السلطان هناك خمسة ايام الى يوم الخميس . في ذلك الخميس بضراغم الخيس . وقساور العريس . وبنات قواعد التأسيس . وأساة المضايق بالتنفيس . وحماة الحقائق في طوري الايحاش والتأنيس . وولاة الفيالق المباشرة بالبشر يوم التعبيس . ورماة المآزق في ادارة العذاب البئيس من بلاد الشرك بدار الدربيس . واقتداح زناد الأفراح . وانهاض جناح النجاح . الى ارداء اهل الجناح . وكيف وأين ومتى يكون اللقاء . وهل يفترق الأحباب . وقد اجتمع الأعداء . ثم صممنا

العزائم على تثبيت الاقدام للاقدام . وسلب لبس السلامة من ملابس عداة الاسلام .

ذكر ما اعتمده الفرنج

أول ما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام . ووصول امداد العساكر المصرية والجزيرية الى الشام فرغوا من هجوم حين حينهم . وشرعوا في اصلاح ذات بينهم . وزحفوا عن التغاير والتنافس الى التضافر والتوادس . وقالوا :نحن انصار النصرانية . واصلاب الملة الصليبية . وقيام القيام بها . وعصب العصبية . وعمدة المعمودية . وداروا بدر افاويق الوفاق . ونزعوا الى نزع شقق الشقاق . وأثار القوم صلح القومص (٤) ووصلوا على مرابه مطلع امانيه بالمخلص. ثم تزاوروا وتوازروا. وتضافروا وتظاهروا . وحشدوا وحشروا . ونصروا واستنفروا . والتأموا واشلاموا . وتذمروا وتذمموا . وتخطوا وتورطوا . واخترموا واخترطوا . واشتطوا وافرطوا . وندموا على ما فرطوا . وخطبوا وخبطوا . وامتزجوا واختلطوا . وقبضوا وبسطوا وقسطوا وفي ايديهم اعطوا . وجمعوا عبدة الناسوت واللاهوت . ورفعوا صليب الصلبوت . وثار اليه كل ملتاح الى الثأر مرتاح . الى النار دار بالجب الجرار . وار يفلح الاوار . ضار بلا ضرار . مستمر مع اسرار . غمر من الاغمار . وكل مغو مغوار . وباد بادبار . وناز بزنار . وكافر فجار . وناكث غدار . وباسل ذي بأس • وفارس للأساد فراس • وداوي داء خبيثه عضال • واسبتاري له دون تباره نضال . وباروني يباري البوار . وتركبولي لا يترك الغوار ، وينزع النزاع الى الاوتار الاوتار . وكل متدرع بجلد أرقم يهز افعوانا . وكل شيطان يجر لهتخ ماء الارواح اشطانا . وكل متميز في الوغى متمرن على الردى مترنم . بصليل الظبا مترنح . بكعوب القنا متوقح . بضراورة الشر على ضاربي الشرى متوقد . يفض

الجمع الجم كأنه حمر الفضا . مقتحم للطبيعة النارية شواظ لظى . ضرب كالعضب المنتضى . تنحت كالشبا . وكل جحيمي جاحم . وضرامي ضارم . وجهنمي بجهامة . وممتري بصرامة . وناري يلفح . وحجري يقدح . ومارد مارج . وصرف الشر ممازج . وسعري ذي استعار . كأس من عار . حاس من دم جار . عاس على العجم جاس في الهجم . خاس في الرجم . قاف اثر الغي . كاف بعين البغي . جاف على الذشر والطي . حاف في الزعف راد بالزحف . ساق بالحتف .ناصب بالفعل جازم بالحذف ، وشارب نجيع شار ، وضريب قريع ضار ، وكل مجترم مجترح محترف للموت مقترح ، حقيق بالروع مصطبح ملتفع ملثم القطوب ملتفح مصطلم لاثلم الخطوب مصطلح ، وكل ذي فضفاض وسابغ ونضناض لادغ ، وعاو زائغ ، وعار في الدماء والغ ، وسالب باسل ، وطالب باطل ، وعامل ناصب ، وعاسل لاسع بعاسل ، وكلب نابح وثعلب ضابح ، وسرحان سارح ، وذئب جارح ، وزرق تمتش بزرق الاسنة ، وشقر تعبي الشقر بصرف الأعنة ، وكل رامح رام ، ونابل ناب ، وراحض عاب ، وحاضر غاب ، ومرتكب كبائر ، ومرتبك جرائر ، ومبتكر جرائم ومشرك عظائم رئبال ، وامعط مغتال ، وأمرط ضال ، فعاموا في بحر العمى ، وحاموا من الردى حول الحمى ، وغاروا للاقتحام الوغى ، وأصحروا بصحراء صفورية في غيل القنا ، وطلبوا في نهج المنايا نجح المنا ، ومشوا الى المداناة ، ونأوا عن الونى ، وطمى سيل خيلهم على الوهاد والثرى ، ودب راجلهم كرجل الدبا ، وحلوا لحب الموت الحبا ، وقال الظلال في ظلام العجاج ، وضاق الفضاء عن مجال الضحضاح ، وبدا خرق الصبح فوقى النقع بالوقع ، وشكا الثرى الى الثريا من الحواجر الحوافر شدة الوقع ، واحتابوا مواقع واجتنبوا سوابق ، والمعوا والبوارق · وأسمعوا الصواعق · وقربوا السوابق · وأبعدوا الخوانق · وحملوا الطوراق الطوارق ، وشبوا نار الفرق ، وأشابوا المفارق ، واعتقلوا القنطاريات قناطر العبور العير ، وانتزوا لحماية

_ ٥٧٩٩ _
السلب في العوامل كعاسلات النحل مسدساتها بالابر ، وطال الشر وطار الشرار ، وشق الامر ، وسقت المرار ، واخضرت الغبراء من الحديد ، واغبرت الخضراء من الصعيد ، وساحت السيول ، وسالت الشعاب ، وتفايضت البحار ، وتضايقت الرحاب ، وتموج بضراغمة الغاب ، وأرعبت ايماض البروق واصعاد الرعود ، فالكفر منهم ظلمات بعضها فوق بعض ، وختام القتام بالفضاء في فض ، وغدران الغران في فيض ، والنجوم في انقاض ، والرجوم في ارفضاض ، والذوابل في ارتفاض ، والعوامل في ارتعاض ، والعواهل في اضطراب ، والصواهل في اصطخاب والجيش شاك ، والعيش شاك ، والاشراك ناصب وا شراك وخاطب ادراك ، وطالب بوار ، وحاطب ليل خسار ، وثائر ثار ، ونيران المذاكي مذكي نار .

عاد الحديث الى افتتاح السلطان بفتح طبرية وذلك عشية الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وذكر المشاورات

ومازال السلطان لله مستخيرا ، وبعونه مستجيرا ، ولأعوانه مستشيرا ، فأشار الامراء ذووا الآراء بالصدود عن اللقاء والمحافظة على نضار الاسلام بصون الذماء وحقن الدماء وقالوا : لم يسبقك أحد الى مضايقة القوم ، ومحاققة المزم في الرقم ، ومابلغ الأملاك قبلك الا مابلغت ، ولم يريغوا من هذا المراد ماأرغت ، وهذه جمرة الاسلام ، ونخبة رجال الشام فلا تغركم تذقال المعركة ، ولاتلق بأيديهم الى التهلكة، وهذه بلادهم قد خلت منهم، ونأت بقربهم ضياعهم ، فنشتغل بالاغارة على بلادهم الخالية ونقدم بأقدامنا عطل احوالها الحالية ، ونرجع بالغنائم والسبايا والمرباع والصفايا ، ومانزال نزيدهم حتى نضعفهم بامداد البلايا ، ونخلص من انسانهم عاجلا أو أجلا ، بالقود والسبايا .

فقال السلطان : ان الأيام غير مأمونة ، والأعمار غير مضمونة ، والجهاد فرض فرضه رسول الله في أرضه وسمائه ، وندبر بطوله وعرضه عرضه ، ولابد من هذا اللقاء أما وإما وإن الله اصدق القائلين :« ولينصرن الله من ينصره » فقالوا : خصك الله وأفردك بهذه الفضيلة ونجح الوسيلة ، وحيث استخرت الله في الاقدام فانا نبذل المنح بين يديك للاسلام.

فلما أصبح يوم الخميس • سار الخميس • وزحف بأسده العريس.وطلبت اطلاب احباب لآله لقاء الأعداء • وجرت السوابق على الأردن أرديان الوديان في الاجراء،واعتضدت أملاك الارض بملائكة السماء • ولوت أولياء الله على العدى الوية اللأواء • ورمدت عين الفلك من ملابسة الأقذاء • وحارت غزالة الفلق من أسد الفيلق• وتقيد عنان الجو من عنان الجواد • ولاح سنا الموت الاحمر في السنان الأزرق • وأشرف على الفرنج في معسكرها العسكر • وقام الحشر • وعاث العير • وماج البيض والسنور • ومار المورد والمصدر • وغام اليوم الأغبر.وراغ الحديد الاخضر • وراق الأبيض والاسمر • ووقف مع المثير المعشر • وحال المغيث وهال المحضر • وهاب المنظر والمخبر • وظهر الحق وحق المظهر • وارتفعت الأصوات بقول :« الله الاكبر » فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف لكنهم ربضوا ومانبضوا • وقعدوا وما نهضوا وأخلدوا الى الارض • وشدوا نواجذ العض • ولم يدعوا مرابضهم في ذلك المكان • ولم يشيموا ما في الاجفان • وثبتوا ونبتوا ، وسكنوا وسكتوا • وأشفقوا في البروز من الخطر • وفي الخروج من الغرر • وحذروا من القدر لو دفع القدر بالحذر .

فلما عرف السلطان انهم لايبرحون • ومن قرب صفورية لاينزحون وأنهم لايهيجون الى الهياج • ولايخوضون معه بحر العجاج • امر امراءه أن يقيموا على مقابلتهم • ويذموا على عزم

مقاتلتهم • ونزل هو في خواصه العبسية على مدينة طبرية • وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا بالوصول اليها • فحينئذ يتمكن من قتـالهم • ويجهـد في اسـتئصالهم • فحضر طبـرية وحصرها • وابتدأ بها وابتدرها وجمع الرجال على احد أبـراجها واخلاها مما حمى أهلها من أعلاجها • فوقع ذلك البرج • وانتزع عنه الفرنج • ونصبت عليه سـلالم الاسـلام • ودخلوهـا في جنح الظلام • فاستضاءوا بما أعلق من الضرام • وعاد ليله معدودة من الأيام • ووقعت النار في مخازن كتان واهـراء غلال • فـاحترقت أمتعة بأموال • وكبسوا رباعا وكسبوا متـاعا • وارهجـوا وأوهجوا مرضا وضرمـا • واخـرجوا واخـرجوا نعمـا ونعما • وبقيت الدور فارغة شاغرة • وأفواه الأطمـاع الى ازدراد ماتحويها فاغرة • وتحصـنت القـومصية سـت طبـرية في قلعتها • ومعها بنوهـا وحمـوهابسيوفهم وعصـموها • ووقـع الاشتغال بحصارها • ونقب جـدارها وطـم جـوارها • وفصـم سوارها .

فجاء من أخبر بأن الفرنج قد بكروا وركبوا • وأجلبوا بخيلهـم ورجلهم وتحربوا وتحـزبوا وتصـلبوا وصـلبوا • وتعصـبوا وتصـعبوا • وثـاروا وفـاروا • ورازوا وزأروا • وجـاءوا واجئين • بالفجائع ماجئين • وفي ليل القتام مـدجين • وفي بحـر اللام ملججين مـدججين • والى حـزب التـوحيد بحـزب التثليث مخرجين • ومن كل جبـل تحـرقه الريح • ومشـيح شـعاره المسيح • وذمـر يخفـر الزمـان ويبيح ، ونصـب الى الموت يستريح • ومشتاق الى ملاقاة المذون قد حثه التبـريح • ومضـرج الى التورط في الردى من هول ماهوله يصـيح • ومـرتجج يؤنسه المارق اللجج . ويوحشه الفضـاء الفسـيح • ومـن كل بـطل مكره • وحبل مد مده ، وقرم قرم • وضرغام ضرم • وكل معاند للبلاء معاق وكل حان لثمر العناء جان .

- ٥٨٠٢ -

ذكر مسير السلطان لعزم اللقاء .

فلما سمع السلطان بحركتهم • أيقن بهلكتهم • وقال : الحمد لله الذي انجـــز وعده • وأيد جنده وأدنا مـــن مـــرادنا القطاف • وأصفى من مـرامنا النطـاف • واسـنى لنا الالطـاف ونهض بجباله الى جبـالهم • وبـرجاله الى رجـالهم • وسـار لقتالهم • وضيق عليهم سعة مجالهم • واخذ عليهم بذوي الاقـدام قدامهم • ووقف بصفوفه امـامهم • وصـد طـرقهم • وسـد فلقهم • ورد عن الزحـف فيلقهـم • واغرى غرامهـم • واضرى ضرامهم ذاك والله ذاك ، والجيش شاك والقيظ عليهم فيض • وما الغيظ منهم غيض وقد وقد الحر ، واسـتشرى الشر • ووقـع الكر والفر • وللأوار تأجج • وللاوام توهج ، والعدى شـعل • والردى شغل • والسـعير واقـد • والهجير عاقـد • والآل شـايط غرار • ومالآل الشيطان قـرار • والسراب طـافح • والظمـأ لافح ، والجو محرق • والجوى مقلق • ولاولئك الكلاب من اللهـب لهث • وبـالعيث عبـث ، وفي ظنهـم أنهـم يردون الماء • ويردون الدماء • ،فحـلأتهم الحـالة الحـالية • وغالتهـم الغلة الغائلة • واستقبلتهم جهنم بشرارها • واستظهرت عليهم الظهيرة بنظارها • وذلك يوم الجمعـة بجمـوع اهلهـا المجتمعـة • ووراء عسكرنا بحيرة طبرية • والورد عد وما فيه بعد • وقد قـطعت على الفرنج طـريق الورود • وبلوا مـن العـطش بـالنار « ذات الوقود » فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضـابرين ، فـكلبوا على ضراوتهم • وشربوا مافي اداوتهم • وشفهوا مـاحولهم مـن موارد المصانع • واستنزفوا حتى مـاء المدامـع • واشرفـوا على المصير الى المصارع • ودخل الليل وسكن السـيل • وبـاتوا على شغف البحيرة بحيرة • وحيقـت ظنونهـم • ولم يبـق بهـم غير غيرة • وباتوا بقريحة وقرح • وظماء برح • وقووا انفسـهم على الشدة • واستعدوا بالعزائم والضرائم المحتدمة المحتدة • وارتووا من ماء الفرند • واكتفوا بمـاء جـداول الاغمـاد مـن الورد

العد • وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم الى القواضيب القواضي • ونقتضي بحقوق الحقود أشد التقاضي • ونبليهم في برد الصباح بحر الكفاح • ونظهر لارواء الأرواح نجاح النجاح•وشدوا حزم الانتخاء • واعدوا حرم الغناء • وأجدوا عزم البلاء • وطلبوا البقاء بالتوسط في العناء • وأما عساكرنا فانها قد اجترأت • ومن كل مايعوقها برئت • وهذا اسنانه شاحذ • وهذا شهم موفق • وهذا لحده ممه • وهذا لحده منه • وهذا اسهمه مفوق • وهذا شهم موفق • وهذا مكثر للتكبير • ومنتظر للتبكير • وهذا مجر ضامر • ومعر بائر • ومغر مؤمن بكافر • وهذا يقول : أنا المبارز المناجز • والمحاجز الحاجز • وهذا ناج للسعادة • وهذا راج للسعادة • فيالله تلك من ليلة حرا سها الملائكة•ومن سحرة انعامها الطاف الله المتداركة • ومن دجنة أضاء بها نور الجنة • ومن دجية أنارت بها نجوم الأسنة • ومن هزيع تجره بالحق صديع • ومن ظلام مملة بالضياء جميع • ومن جنح كل جناح تحت مغافره مغفور • ومن ديجور مابعده لاشراق سنا النصر ديجور • ومن الوية أولياء الله عقدتها بخمرها الحور • وقد قابل بها فيها ظلمة الكفر من الايمان والنور • فهي ليلة القدر « خير من ألف شهر » تنزل فيها الملائكة والروح • وفي سحرها نشر الظفر يفوح • وفي صباحها الفتوح • فما ابهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله فيهم :« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وبتنا والجنة معروضة • والسنة مفروضة والكوثر واقفة سقاته • والخلد قاطفة جناته • والسلسبيل واضحة سبيله • والاقبال ظاهر قبوله • والظهور قائم دليله • والدين متقاضي بالشفا عليلة • راع رياض الرضا رعيله • والله ناصر الاسلام ومديله .

ذكر النشاب ووصفه .

وسهرالسلطان تلك الليلة ٠ حتى عين الجاليشية من كل طلب بأسماء رجالها ٠ وملأ جعابها وكنائنها عريات نبالها ٠ ومريشات نصالها ٠ وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل ٠ فنزل نص النصر منها على كل نصل ٠ ووقف سبعين جمازة في حومة الملتقي يأخذ منها من خلت جعابة ٠ وفرغ نشابه من تغالق تفتح من باب الجنة المغالق ٠ وتواضيح تخرق المضاعف النسيج٠ وناوكات ذوات نكايات ٠ وزيارات وزنبوركات ٠ ونبل عنده نبأ لكل تبل ٠ ونشاب في الأحداق ذي انشاب ٠ وجروخ الجروح ٠ وخروج الروح ٠ وسهام الاشهر سهام الحمام وتنفير اقرانها .... الثعام .ونصل وصالها تقطع اوصال نافق بسكل حمس صال.ومطالق نطاق بها سراح الارواح . ومعابل تكثر منها صعاب الجراح . ومهرقات موفقات مسدات ...الحارق...(٥) المبرردات وصائبات الى المقل صابيات . وذواجز تعيد السباع قنافذ .وتجعل النجيع مناجع . وللمنون منافذ . وبوارق تمزق اهب المارقه . وتطقم وتنتقم من المارد المارق . ومريشات اوكارها الحدق . واوكائها الحلق . وفاصلات ناضحات اربية الردى . وناحلات فاضحات اوردة العدى . وقاضبات قاضيات بحكم الردى . وحارقات رقعات خروق النواظر . وفاتقات راتقات فتوق الخواطر . وراشقات راشفات شفاء المقاتل . وقاذفات قانعات منذفار المناصل . وماضيات حاظيات بالاصابة . وساعيات داعيات للاجابة . وحفيفات ثقيلات الجنابة . ومخيفات قمينات النكاية . ومضميات مصممات الفتك . ومدميات مديمات البتك .وقريبات بعيدات المطار . وطالعات مطلعات على الاسرار . هاتكات للذماء . سافكات للدماء . مثريات للثرى . مفريات للفرى . جائرات بالجري . واثبات وثب الجراد. واريات وري الزناد . طائرات من الأكناد الى الاكباد . مرهفات من الهيف . مرعبات بالهفيف . خارجات من

طاوع الحنايا الى احناء الضـــلوع،مـــارجات لدى الروع الراد الروع . قارعات ابواب القراع . قالعات انياب القـلاع . بـالغات الشعور . عالقات بالتامور . محاقات للدحور . غاربات الغروب في النحـور . ورادات الصـدور الى الصـدور . قـاطعات للحجاب . واقعات بـالعذاب . مـدمجات على الالتهـاب. مغنيات بالدماء على الطعـان والضراب . ومـرا سيل تـروى امـام العوالي . ومعاريض مالها مندوحة من التوالي من كل فريض يؤدى به فرض الجهاد . ورميض يعوض بياضـه مـن العين في السـواد ومعتدل تحنو له العـوج . وبـرق خـاطف تحمس وراءهـا المهوج . ومنزع لنزع المهـج وقـطع الود . اخـطف مـن الوميض . والحق من المريض . وأنظم من القريض . واشجى مـن الحريض . واشبى من الطرف الغضـيض . وأعمـل مـن السـمر والبيض . والسـلطان يأمـر . والحنايا تـوتر . والمنايا تـؤثر . والأعنة تصرف . والأسـنة تـرهف . والحقـائب تنعض . والمقانب تعرض . والجاليشية تشـمر . والجـاووشـية تنصر . والسـوابق تضـمر . والسـوابغ تنشر. والصـلادم تنضى . والصـوارم تنتضى . والسـلاهب تجمـع . والجنائب تمرح . وايم الضراء تنساب . وغيم الغمـاء تنجـاب . والنفـوس مرتاحة الى التعب . والهمم مشتاقة الى النصب . والجد شاغل عن اللعب . والعزم غالب باللغب . وصب بالوصب .

ذكر يوم حـطين وهـو يوم السـبت الخـامس والعشرون من شهر ربيع الآخر.

واصـبح الجيش على تعبيتـه . والنصر على تلبيتـه . ووقـف العسكر في قلبه وجناحيه وميمنتـه وميسرتـه أطـلابا متقـاربة متباعدة . وانجادا متعاهدة متساعدة و الافا متضافرة . وأضعافا متضاعفة متظاهرة . وبـرز رجـال الجـاليش . وارتجـز دعاء

التحريض والتحريش . وصفا لبأس الناس على الكمي الكميش . وشرعت ثعالب الشرع في رعي الحشاشات رعي الحشيش . وتطاير في الجو على سنابك الهمام جراد النصال المريش . وكان طيور النصال ضلت ركونها فخربت حجب الارواح التقبيش . وقامت الحرب على ساقها . ووفت بميثاقها . وأسرعت اعنة عتاقها . واشرعت اسنة دقاقها . وأطالت رقاب رقاقها . وابانت غايات سياقها . واعلت رياحات احتفالها . واحلت مذاق مذاقها . واغلت أوساق أوساقها . واغرقت سهام اطلاقها . وأطلقت لهام اعراقها . ومدت ظلال رواقها . ودارت كؤوس اصطباحها للاعتباط باغتباقها . وتحملت بغرم اجتماعها لغنم افتراقها . وأذهبت فرق مذهبنا لساعة افراقها . ذلك والفرنج راكبة الجرد . متراكبة المدد . متكاثفة العدد . اخذة طريق البحيرة. بطوارق الحيرة. قد احاط رجلها بخيلها . جارية الى القرار بسيلها . أمواجها ملتطمة . وأفواجها مزدحمة . واطلابها منتظمة . ونيرانها ملتهبة ملتهمة . ودفعها مديد . ووقعها شديد . وحدها حديد . وجدها جديد . يأمدون المذون . ويجذون الجذون . ويجرون الشمول والحزون . فاعترضهم مدنا . واعتراهم صدنا . ووردت سيولهم بيضاتنا . وخيولهم عرابنا . ووقعت لنا برمم حبالنا . وشوتهم بنيرانها نصالنا . فعرفوا انه لا سبيل الى الحياة الا سلوك نهج الموت . وأنه لا مطمع في البقاء الا باستحلاء مطعم الفوت . والسلطان قد رفق قلبه . ووقف الى الوثوق بنصر الله قلبه . وهو يمضي بنفسه على الصفوف . ويحضهم على حظهم من الفتوح او الحتوف . ويعدهم من الله بنصره المألوف . ويغري المئين بالالوف . وهم بمشاهدته اياهم يجيدون ويجدون . ويصدون العدو ويردون . وكان له مملوك اسمه منكورس من اقمار الفلك . ومن شموس الترك . وأسود الفتك . ورماة الحدق . وكماء الخلق . قد علقته الحور العين لحسنه. واستبشر رضوان بيمنه . وقلوب القبول في رهنه . وعقود العقول في وهنه . والكواعب الاتراب يشتقنه في جهات عدة . وكان الله براي الاقامة منته . والمقام في جنته . ودعاه

الى قصور الجنان والحور الحسان . وكان ظريفا طـريفا . نظيفـا عفيفا . طاهر الذيل للنزاهة . ظاهر الميل الى النباهة . قد كمل الله له حسن الخلق والخلق . وفضله في الفروسية والسبق • وركب عذقه في الرق • وألهمه نصرة الحق • وهو راكب امام العسـكر . شـائم غمام العثير . ناشق عرف الكوثر مستغفر تحت المغفر • مسـتنير في سنا الستور مشرق كالقمر الأزهر . وأراد ان تكون له فضيلة السبق في الاقدام . فوثب بحصـانه وثـوب الضرغام . معتقـلا الى الردى ردينيا . ومشـتملا للتـرف مشرفيا . وممتـطيا للاسـتقامة اعوجيا . وحمل حملة جرى فيها عنانه . وفرس سنانه . وماد فيها ميدانه . وشكر لها احسـانه . ونكل عنهـا اقـرانه . ونفـذ طعانه . وظن انه موافق في الركض اعوانه . فجـذبه لقـوة رأسـه حصانه . وخلا خلانه . وخـانه اخـوانه . فلمـا رآه الفـرنج وحيدا . ووجدوا المدد عن نصرته بعيدا . عطفـوا عليه . وزحفـوا اليه . ورموه عن ظهر حصانه . وأحاطوا به في مـكانه . فـأثبت في مستنقع الموت رجله . وقاتل الى ان بلغوا قتله . فلما أخذوا رأسـه ظنوا انه احد اولاد السـلطان . وزعمـوا ظهـور الكفـر على الأيمان . فأما الشهيد فإنه انتقل الى جـوار الرحمـن في غرفـات الغفران . وأما عسـاكرنا فإنهـا لما شـاهدت اسـتشهاده وجلده وجلاده حميت حميتها . وأبت غير الغيرة ابيتها . وخلصـت لله في ارداء اعدائه بنيتها . وصممت الجاليشية تصمي سهامها وتشوي اهل النار بنار ضرامهـا وتلفحهـم بلوافحهـا . وتقـدحهم بقوادحها . وتسـقيهم بجداول مناصـلها . وتـرميهم بجنادل صواهلها . وترديهم بأردية رداها . وتغريهم بما يغرون مـن المذون عن مناها . وقد قست عليهم قلوب القسي لاوتار اوتارها . وتمـور من الضوامر بجبالها . وتموج في البواتر في بحارها . وبرح بالفرنج العـطش . وأبـت عثـرتها تنتعش . ولانت تتشـور وتتشوش . وتتحـرى وتتحـرش . وتتـوشح بـالضراء والضراب وتتوحش . وتنشط على أنهـا تبـطش . فتجـد الطـرق مصدودة . والسبل مسـدودة . والمسـالك محـدودة والمهـالك موررودة . وكان النسيم أمامها . والحشيش تحت اقدامها . فـرمى

بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش . فتأجج استعارها . وتوهج اوارها . فبلوا وهم اهل التثليث من نار الدنيا بالثلاثة الاقسام : في الاصطلاء والاصطلام نار الضرام ونار الأوام . ونار السهام . فخلصوا من ورطة الاحتواء والاجترام . وضايقت ذمائهم دماء الضراغم . وعارضت صقور بأستهم القشاعم . ولقيت العظائم العظائم . ودارت بمساعير الجحيم دوائر السعر الحواجم والجأناهم الى حملات اعجزوا بها وازعجوا . وهاجوا وأوهجوا . وماجوا وموجوا وأججوا وأججوا . وارهبوا وارهجوا . فما ضعضعوا رواسينا الرواسخ ولا خلخلوا من مقامنا الشم الشوامخ .

ونظر القومص يومئذ الامر الى غايته . واراه غيه انه متورط في غيايته وان القوم في عين الوقم . وان صحتهم مفضية الى السقم . وانه تداعى بنيانهم ودعاهم خذلانهم . وخانهم اخوانهم . واوهت اصلابها صلبانهم . فافكر القومص كيف ينجو ويتخلص . فقال لهم : انا اسبق بالحملة . وافصلهم من الجملة . فاجتمع هو ومؤازروه . وجملة من المقدمين هم مضافروه . وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان . وتوامروا على انهم يحملون ويلفون الطعان . فحمل القومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين . وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكن . ونجوا بنفوسهم . وخلصوا من باس القوم وبؤسهم . ولما عرفوا ان القومص اخذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة . وهنوا وهانوا ثم اشتدوا وما لاذوا . وثبتوا على ما كانوا . وقالوا : انما فر في شرذمة هم شر ذمة . وعصبة قليلة بغير عصبة . واستقتلوا واستقتلوا . واستلحموا وحملوا فما وجدوا للنجح نهجا . ولا اصابوا لمن جاء لمصابهم شجى . وحملوا حملات راضوا بها جماح الحرب . وخاضوا فيها غمار الطعن والضرب . وعدموا فيها استطاعة الغدر . بل طاعة القدر . واستعرنا النصر عليهم من النصل المستعر .

ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء . وصببنا ماء الحديد

للاطفاء . فزاد في الاذكاء . وافترت مباسم البيض من استعبار عيون مقاتلهم في البكاء . وعبت دأماء الدماء . وشبت شبا الهندية في الفرنجية ضرام الضراء . وباح لنا سر السراء . فحطوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين . فاعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام . وازللنا اقدامهم عن مداحض الاقدام .

وخاطبناهم بكلام الكلام . وزحفنا زحفا مرتزا . وحفزنا زحفا ملتزا . ونقضنا من اطرافهم . وحضضنا من اكنافهم . واحتست انية الظبا طلاء الطلى . وارتعت ثعالب القنا كلأ الكلا . واكتست عرائس الهدى للعلى من دم الكفر الحلى . وخالطهم الفريق المستطيل . والحريق المستطير . ومطروا وبل الوبيل . فالهب عليهم يومهم المطير . فما زالت اللجج تفيض . والمهج تفيظ . ومنابع الكفر تفيض . وملاحم الاسلام تغيظ . والنفوس تقع . والرؤوس تطير . والقضب تبير . والقب تغير . ورحى الحرب تدور . وقوى الشرك تغور وتبور . واسد الوغى تجول وتجور . ومراجل الراجل والفارس تفور وتثور . حتى كست اشلاء مهلوكيهم عرى العراء . وحست شفاه الشفار من افلاذ مملوكيهم احساء الدماء . ورست منا الهضاب حول ذلك التل . ورضيت اسدنا الغضاب بظهور القتلى بطون النمل . وتداعى جناب الاضطراب . وكشف الرائب شك الحجاب . وتفتحت ابواب الطعان والضراب . وكثر مرعى الثعلب والذئاب . وتقطعت اشراك الاشراك . وتوزعت منه اكتاف الفتاك . وانكسر من الصليبي صلبه . وبطل طلبه . وعليت وغلبت غلبه . وقلب قلبه . وخذل حزبه . وجرت الحرب عليه حزنه . وجيرت كماته وكمية وقبابه وقبه . واحتلأت بملأهم جهنم . وملك عليهم الصليب الاعظم . وذاك مصابهم الاعظم . ولما شاهدوا الصليب سليبا . ورقيب الردى قريبا . ايقنوا بالهلاك . واثخنوا بالضرب الدراك . فما برحوا يؤسرون ويقتلون ويخمدون ويحملون وللوثوب يخفون . وبالجراح يثقلون . ومن مصارع القتل الى معاصر الاسر ينقلون . ويردون وهم لايدرون . ويعقلون وهم لايعقلون . وقرم بقوي القواطع مطعون . وقوم بجوى الجوامع يوصلون . والحديد تارة

يحل الاعناق وتارة يغلها . واونه بالبري يعـرها . ومـرة بـالسبي يذلها . ونكبوا في ارواحهم وانفسهم . ووصلنا الى مقدمهم وملكهـم وابرنسهم . فتم اسر الملك . وابرنس الكرك . واخي الملك جفـري . واوك صاحب جبيل،وهنفري بن هنفري ، وابن صاحب اسكندرونة وصاحب مرقية . واسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها . ومن الاسبتارية ومعظمها . ومن البارونية مـن اخـطا بـه البـال لما عز الدين . ودر البأس . ودارت عليهم بعقار عقرهم الكاس * وقوي بنا الرجاء ومنهم اليأس * وعروا من ملابس العز . وضفا عليهـم مـن ملابس الصغار اللبـاس . وتعـرضت للسـوء في السـوا في طاول حسومهم الادراس . ووجبت في اجناس غنائمهم الاجناس . ولما جد بهم حكم القضاء لم يجـدهم الاحتـراز والاحتـراس . ورسـفت وارسفت الانفس والانفـاس . وانعقـد الاجمـاع بتحليل تـركيب جمعهم . ونص النصر وصح القياس . وجبر الاسـلام بـكسرهم . وقتلوا واسروا باسرهم . فمن شاهد القتلى قال : ما هناك اسـير . ومن عاين الاسرى قال : مـا هناك قتيل . ومـذ اسـتولى الفـرنج بساحل الشام ما شفي المسلمين كيوم حطين غليل . فالله عز وجـل سلط السلطان واقدره على ما اعجز عنه الملوك . وهداه من التوفيق لامتثال امره ، واقامة فرضه النهج المسـلوك . ونظـم له في حتـوف اعدائه والفتوح لاوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الاغر . والنصر الأبر . واليمن الاسر . والنجح الادر . ولو لم يكن له الا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة . فكيف ملوك العصر في السمو والسوم . غير ان هذه النوبة المباركة كانت للفتح القـدسي مقـدمة . ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة .

ومن عجائب هذه الوقعة . وغرائب هذه الدفعة . ان فارسهم مـا دام فرسه سالما لم يذل للصرعة . فانه من لبسه الزردي من قرنه الى قدمه كانه قطعة حديد . ودراك الضرب والرمـي اليه غير مفيد . لكن فرسه اذا هلك فرس وملك . فلم يغنم من خيلهم ودوابهـم ــ وكانت الوفا ــ ما هو سالم . وما ترجل فارس الا والطعن والرمي لمركوبه كالم وثالم . فما سلمت لهم دابة ولا ذابة . ولامـورد الـروح سـائبة

ولالنار الروح شابة . وغنمنا ما لا يحصى مــن بيض مــكنون وزغف موضون . وبلد وحصون وسهول وحزون . وابتذلنا منهم بهذا الفتح كل اقليم مصون . وذلك سوى ما اســتبيح مــن مــال مخـــزون . وا ستخرج من كنز مدفون . و .... حــاصلة . و ...(٦)تحقــق اهله . ومصاحبة قديمة . ومناصحة كريمة . ومراوحة في عمارة القلب .

واتفق انه سرقت لي في طريقنا الى حمص ثلاثة اجمال بما لها من عدة ورحال . وكنت قد سلوتها . وتمكن عني فوتها . فجــاءنا هــذا الامير بعد يومين . وقد اتانا من الجمال المسروقة بقطارين . وقال : لما سرتم عرفت ان وراءكم لصوصا وانهم ان ظفــروا بجناح غادروه محصوصا . ورتبت اصحابي على الطرق . وفي المواضع البعيدة من العمارة ليتوصلوا الخارجين من اهل الذعارة . فوجدوا هذه الجمال التي احضرتها . وقد حرمت على المفسـدين الحــركة وحــظرتها . فتاملتها واذا جمالي بــأعيانها . فشــكرت همتــه الكريمـــة على احسانها . ونشد كل من له ضالة . فوجدها لاجل امن الطرق التــي حفظ هذا الامير ورصدها . ولم تــزل الثغــور بسـداده مســـدودة والخطوب بصدده مصدودة . والظلال باشتماله ممــدودة . والرعايا بسياسته محروسة . والبلاد بحــراسته مســوسة . ورايات الكفــر بنكاياته منكوســة . وايات الدين بهــدايته مــانوسة . والمواضـــع معمورة . والمنافــع مــوفورة . والصــنائع مشـــكورة . والشرائع مشهورة .

وهــؤلاء الذين قــرضتهم ووصــفتهم وعرفتهــم وعرفتهــم تنكرت معرفتهم . وتكدرت صــفوتهم بعــد الايام الســلطانية . وانقلبـــت سجيتهم بعد الدولة الصلاحية . فهم صــادقوني لصــدق الحــاجة . وصادفوني مقدما للذب عنهم تحت العجاجة . غائصــا لاســتخراج جواهر مقاصدهم لجج اللجاجة . فلما استغنوا عني جهلوا معرفتي وانكروا عارفتي . وهذه سنة اخــلاء الدنيا في دين الاخــلال . ومله الملال . واستحالة الحال . وتعريض عرض الود لذلة الزوال . فمــا ابدعوا غريبا وما ابعدوا قريبا.ولا اعجبوا باديا.ولا ابدوا عجيبا (٧) .

كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي

للعماد الأصفهاني الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسأل الله من الحمد مايبلغ قضاء حقه وإن حقه لعظيم . ومن الرشد مايكتب سلامة نياتنا في الطريق إلى كرمه وإنه لكريم . ونشكر بسر القلب وجهر اللسان إحسانيه إلينا بأنهما حادث وقديم . ونستزيده ونستديمه نعمه ولن يخيب على الشكر والرضا مستزيد ومستديم . ونستعين به على الدهر وقد فعل فاذا وهو الذي بيننا (وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت : ٣٤) . والحمد لله الذي بدأ بنعمه متطولا . وبمزيده متفضلا . وعلمنا شكر فضله الموفور . وقبل منا عفو خواطرنا المنزور . فلا يكلفنا من الشكر فوق الطاقة . ولايطلع من النعم الطليعة إلا وراءها من المزيد الساقه . وقد وصف المشكور منه نفسه بأنه شاكر عليم . فرب غافل منا عن الشكر ما غفل عنه فضله العظيم . فلا عدمنا ينتاب منتابه راجيا وداعيا . ومستيقظا وساهيا . وصامتا ومتقاضيا . لنا منه على كل حال كل حال من مواهب ربما عطل عنها . لسان شكرنا وضمير ذكرنا، وباتت سارية إلينا لاطيفا بل حقيقة على نوم فكرنا . ثم إن الله سامحنا في حقه من الشكر فقبله من عيينا وبليغنا . ومتجرعنا ومسيغنا . فتارة يقبله ضميرا مجمجما . وتارة يحيط به قولا مترجما . ومرة يعلمه نظرا من قلب ينفذ نور الذكر من ظلمات ضلوعه . ومرة يسمعه همسا من لسان يناجي ملكه بنغمات مسموعه . وكيف لا (يعلم السر وأخفى) (طه : ٧) من بعينه مسارحه . وكيف لايعلم الغيب من عنده مفاتحه . ونرغب إليه في أن يحمل عنا حق نبيه صلى الله عليه وعلى اله وسلم فإنا لانرضى بعفو استحقاقه من الوصف جهدنا . فنصل إليه صلاتنا ونؤدي إليه ودنا . ونعظم موقعه حين كان منه كقاب قوسين أو أدنى . ونشكره على أن فتح علينا الدار التي كانت إلى الله طريقه ليلة أسري به . فانبعث صلى الله عليه وسلم سهما فكان كقاب قوسين في إقترابه .

ما كذب الفؤاد . ولا خاب المراد . ولاصدق المراد . وأين من أخبر عنه أنه رآه بالأفق الأعلى ممن امتن عليه بأذك بالواد . فمن كان في روض القرآن يسرح . فرق بين المنزلتين من رب اشرح وألم نشرح . ونصلي على آله وأصحابه ولاة الحق . وقضاة الخلق . ورتقة الفتق . وغرر السبق . وألسنة الفرق . وفتحة الغرب والشرق . منهم من رد ردة العرب عن اسلامها . ومنهم من استنزل أرجل العجم عن أسرتها وتيجانها عن هامها . وأخمد عبدة نيرانه أن يطعموها حطبا ولو وصلت إليهم لأكلتهم . وأخمد عبدة أوثانه عن أن يقعوا لها سجدا ولو وقعت عليهم لقتلتهم . ومنهم من أنفق في سبيل الله وجهز . ومنهم من قتل أعداء الله فأجهز . ومنهم الأشداء على الكفار . ومنهم الأسداء إذا زاغت الابصار . ومنهم الساجدون الراكعون . ومنهم السابقون ومنهم التابعون . ومنهم نحن أهل الزمن الآخر . وقد سلم علينا سلام الله عليه في زمنه الحاضر . وسمانا أخوانا . واشتاق إلى أن يلقانا . فنحن الآن إنما نرد عليه تحيته والبادىء أكرم . وإنما نرجو شفاعته بالمودة التي قدمها والفضل للاقدم .

هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون الى الغرر المتجلية . وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلي السير المتحلية . يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول . ويكون حظ المستخبر أن يسمع والاديب أن يقول . فان فيه من الالفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها . ومن غرائب الوقائع ما صار به لساننا من ألسنة العجائب التي نوردها . وانما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة لان التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى . وإما مستفتحة بمعقب من الدول الاخرى . فلا أمة من الامم ذوات المال . وذوات الدول . إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه . ويعولون عليه . ينقله خالفها عن سالفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام . وتنصب به معالم الاعلام . ولولا ذلك لانقطعت الوصل . وجهلت الدول . ومات في أيام الاخر ذكر الاول . ولم يعلم الناس انهم لعرق الثرى . وأنهم نطف في

ظلمات الاصلاب طويلة السرى . وأن اعمارهم مبتداة من العهد الذي تقادم . لآدم . وقد اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم . ذرياتهم . لما أراده من ظهورهم . فليعلم المرء قبل انقضاء عمره . وقبل نزول قبره . ما استبعده أهل الطي من حقيقة النشر . وتقبل في واحدة من الاطوار شهادة عشر . فقد قطع عمرا بعد عمر . وسار دهرا بعد دهر . وثوى وانشر في الف قبر . وإنما كان من الظهور في ليل إلى ان وصل من العيون إلى فجر . ولولا التاريخ لضاعت مساعي اهل السياسات الفاضلة . ولم تكن المدائح بينهم وبين المذام هي الفاصلة . ولقل الاعتبار بمسالة العواقب وعقوبتها . وجهل ماوراء صعوبة الأيام من سهولتها وماوراء سهولتها من صعوبتها . فأرخ بنو آدم بيومه . وكان أول من اشترى الموت نفسه وقام النزع مقام سومه . ثم أرخ الاولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها . ثم بالعام الذي بلبل الالسن وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ، ومعني هذا الاسم ملك الطين . فإليه ترجع الفرس بأنسابها . وعليه ينسق عقد حسابها . وهي الآن تؤرخ بيزدجرد آخر ملوكها وهو الذي بزه الاسلام تاج إيوانه . واطفأ نور الله بيت نيرانه . وأرخ اليونان من فيلبس أبي الاسكندر والى قلو بطره آخرهم وهؤلاء المسمون بالحنفاء وهم الصابئون ، وأرخ الروم بالاسكندر لعظم خطره . وشهرة أثره . وأرخ النبط بالعراق والقبط بمصر بتواريخ موجودة في الكتب التي خلدوها . والازياج التي رصدوها . وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم . وبعمارة البيت المقدس وبخرابه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم . وكانت العرب قبل ظهور الاسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتبابعة ممن يلقب بذو ويسمى بقيل . وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل . وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم عن الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها . وافترقوا عنها . ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل

وهي حرب البسوس ، ثم أرخـوا بحـرب عبس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داحس والغبراء ، وكانت قبل المبعث بستين سـنة . ثـم أرخوا بعام الخنان قال النابغة الذبياني :

فمن يك سائلا عني فإني
من الفتيان في عام الخنان

وأرخوا بعده من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعـام المخـالق وعام الذنائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار . وهي أربـع حـروب ذكرهـا المؤرخون . وأسندها الراوون ، وأدنى ما أرخوا به قبـل الاسـلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع . وبحلف المطيبين وهو قبل حلف الفضول . ثم بعام الفيل وهو الجار ذو القربى لتاريخ الاسلام . وبعده خرج امام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام . وأظهر الله على الأديان الدين القيم . ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم . فأمن وقوع الخلف الواقع في تواريخ الأمم .

وجبت الهجرة ما قبلهـا جـب الأذوار الظلم . ودفـع الله الناس بعضهم ببعض . واستدار الزمان كهيأتـه يوم خلق الله السـموات والارض . وسأل الله عباده على يد وكيل حقه من الأمـوال والأنفس ما يعيده إليهم مضاعفا من القرض . ووقت هذه الهجرة الوقت الذي أمر به أمر الاسلام . ويومها اليوم الذي مـا ولدت الليالي مثله مـن بنيها الأيام . وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعـد مـن عوام الأعوام .

وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الاولى بأن الاولى أمـدها بالقيامة معذوق . وبـأن مـوعدها الموعد الصـحيح غير المدفـوع والصريح غير المذوق . وهذه الهجرة هي هجرة الاسلام الى البيت المقدس وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسـف بـن أيوب وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق . وتسـفر عن أهلتهـا دادىء المداد وتنشق . وهي وإن كانت هجرة الاسـلام إلى القـدس

ثانية . فقد كان انثني عن وطنه منها لما ثنته يد الكفر ثانية . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين . وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين . فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت كأنه كسر ثم جبر . والحق أن نقول إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر . والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . والفرق بين فتوح الشام في هذا العصر وبين فتوحه في أول الامر . فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم فغير بعيد . والوحي ماكاد يتعطل في طريقه من السماء إلى الأرض بريد . والعيون التي شاهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسل سيوفها من أجفانها . والقلوب التي شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره في الفتح منها بعيانها . ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة . ونجدات السماء إلى الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومردفه . وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الارض زويت له مشارقها ومغاربها . وأنه سيبلغ ملك أمته المذوبة المرحومة ما ضمت عليه جوانبها . والروم حينئذ بغاث ما استنسر . والفرس يومئذ رخم ما استبصر . والحديد ما تنوعت أشكاله الرائعة . ولاطبعت سيوفه هذه القاطعة . ولانسجت ثيابه هذه المانعة . والبروج لاتعرف إلا مشيدة لامجلدة . والمنجنيقات لايتوثب ما يتوثب اليوم من خشبها المسندة . والأقران لاتتراجم بالنيران المذكاه. والأسوار لاتتناطح بالكباش المشلاه . وبصائر السلف الصالح رضوان الله عليهم يقاتل بها لو كانوا عزلا . والواحد منهم يسوق العشرة كما يساقون إلى الموقف حفاة عزلا . وكانوا أحرص على الموت منا على البقاء . وكان شوقهم الى لقاء الله باعثهم على لقاء الأعداء بذلك اللقاء . والشام الآن قد فتح حيث الاسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا . وهريق شبابه واستشن أديمه وقد عاد غريبا كما بدأ غريبا . وقد أطلع شرف الستمائة وهي الملك المعترك . وكثرت معاثره بما نصب الشرك من الشرك . وأخلق الجديدان ثوبه وكان القشيب . وذوى غصنه وكان الرطيب . ونصلت كفه وكانت الخضيب . وطال الأمد على القلوب فقست ورانت الفتن على

البصائر فطمست . وعرض هذا الأدنى قد أعمى وأصم حبه . ومتاع هذه الحياة قليل قد شغل عن الحظ الجزيل في الآخرة كسبه . والكفار قد خشنت عرائكهم . واتسعت ممالكهم . واستبصروا في الضلال . واستبضعوا للقتال . وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت . وقاتلوا جندا ورعية . واستباحوا الانفس متورعين فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعيه . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وأمدهم في طغيانهم يعمهون . ورفعوا التكليفات فلا ينزع الحديد لوضوء ولامسح . واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلا مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولامزج . شقرا كأنما لفحت النار وجوههم وهم فيها كالحون . زرقا كأنما عيونهم من فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون . قد نزع الله الرقة من قلوبهم . ونقلها إلى غروبهم . وعذب بهم لما يريده من تعذيبهم . واشتعلت نار جهلهم في فحم ذنوبهم . تستعيذ المردة من مردتهم . ويدعي للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ . جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ . (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (الاعراف : ١٧٩) . خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكني عنهم بوقود جهنم حين قال (وقودها الناس والحجارة) (البقرة : ٢٤) والا فالحجارة لاتستحق الوقود . إلا أن يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود . ومضت ملوك الاسلام . ومضت أيامهم كالبارق وإن لم تخلع الاظلام . وزانت أيامهم الأيام خبالا فتنازع الناس طرائف الاحلام . وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين . وبذلوا جهدهم فلا نقول انهم مظلومون بالعجز وما نسميهم ظالمين . اللهم غفرا (لكل أجل كتاب) (الرعد : ٣٨) و(كل يوم هو في شان) (الرحمن : ٢٩) ولكل مقدور أجل ولكل ما خلق له تيسير . ولكل ما تقدم الكتاب الموقوت تأخير . والايام تمخض وتمطل بالزبدة . والسور تتلى إلى أن تأتي بالسجدة .

والناس يريدون الخـروج ولكن مـا أعدوا له عدة . والعـذر على كل لسان لكل قوم مدة .

إذا عجزوا قالوا مقادير قدرت
وما العجز إلا ما تجر المقادير .

وأبى الله من يقبل عذرا صحيحا . وكفـى بلفـظة النبـوة لومـا صريحا . فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتهـا . وأظهـر الآية التي لا اخت لها فذقول هي أكبر من أختهـا . أفضـت الليلة الماطلة إلى فجرها . ووصلت الدنيا الحامل إلى تمـام شـهرها . وجـاءت بواحدها الذي تضاف إليه الاعداد . ومالكها الذي له السماء خيمـة والحبك أطناب والارض بساط والجبال أوتـاد . والشـمس دينار . والقطر دراهم . والافـلاك خـدم . والنجـوم أولاد . صـلاح الدنيا والدين ومهما دعونا له فإن الله قد سبق اليه كونا . ورأينا بين منانا وبين كرمه بونا . فهـو سـبحانه أكرم بـالنوال . منا بـالسؤال . والكريم بكرم الله مجزي . والساكت عن الدعاء له مكفي . فان قلنا احسن الله إليه فقد قال (إنا لانضيع أجـر مـن أحسـن عمـلا) (الكهف : ٣٠) وان قلنا جزاه الله بالاحسان فقـد قـال : (هـل جزاء الاحسان إلا الاحسان) (الرحمن : ٦٠) وان قلنا هداه الله سبيله فقد قـال : (والذين جـاهدوا فينا لنهـديهم سـبلنا) (العنكبوت : ٦٩) وان قلنا لاضيع الله عمله فقد قال (فـاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل) (آل عمـران : ١٩٥) وإن قلنا لاجعل الله لدهر عليه سبيلا فقد قـال : (مـا على المحسـنين مـن سبيل) (التوبة : ٩١) وإن قلنا زاده الله هدى فقد قال : (والذين اهتدوا زادهم هدى) (محمد : ١٧)

كل مسؤول سائل
في معاليه قد كمل

لايسل فيه سائل
سبق الجود ما سأل

- ٥٨٢١ -

وليصحح تأملا

يجد الله قد فعل

ونعود إلى ذكره أعز الله ذكره . فجـاد إلى أن لم يبـق مـال ولا أمل . وجاهد إلى أن لم يبق سيف ولا قلل . فلا كفتح على يديه فتـح وما هـو فتح واحد ما هـو إلا فتحان فتح والدم ذائب وفتـح والذهـب جامد . فما البلاد التي جمعها فاتحا . بأغرب من البلاد التي فـرقها مانحا . فقد استوعب بأسه أكثر مما ولدت المعادن جـديدا وزاد لأنه ضرب بالسيوف التي كسرها ثم ضربها . واستوعب جوده مـا ولدت المعادن ذهبا وزاد لأنه نقل إلى الأعداء ثمن سلع ثم نهبها فـوهبها . فكل معاد معادي إلا هذا المعاد . وكل مداد يكتب به أسـود إلا هـذا المداد . (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) (الطور : ٦٥) أما يرى الناس ما على وجه الصدق من قبول القرائح . وما على يد الجـود من قبل المدائح .

الناس أكيس من ان يمدحوا ملكا .

ولم يروا عنده آثار احسان

وإنا لنرجو أن نكون قد كتبنا بمدحه مع الصـادقين الذين أمـر الذين آمنوا ان يكونوا معهم . وأن نكون قد كتبنا مع المحسـنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده ولم يقطع بنا ما قطعهم . وإنا وإن كنا رعاياه لنرى أنفسنا ملوكا ونرى الملوك وهم له سوقه . وإن القلم في أيدينا ليهتز طربا لذكره كأنه جان وكأن السيف يشنع بـانه فروقه . ولسنا نسميه قصيرا وإن جدع أنفه . ولكنا نركبه كما ركب قصير العصا إلى وصف هذا السلطان ليدرك وصفه . ونقـول للقلم إذا فاخره السيف (إن شانئك هو الأبتر) (الكوثر : ٣) . ونريد إذا أوردناه وصف مولانا (أنا اعطيناك الكوثر) (الكوثر) . على أن هذا القلم يلزم الادب لذكره أعلاه الله فينكس رأسه . ويقبل بين يديه كما يقبل حامله الأرض قرطاسه . ولسـت ببعيد في تقييد هـذه المفاخر . وتشييد هذه المآثـر . مـن رجـال الطعـن والضرب الذين

فتحوا بين يديه . واوجبوا الحق عليه . بل حقي من حقوقهم أوجه واوجب . وقلمي من سيوفهم أضرى وأضرب . ومن رماحهم اخطى واخطب . ومن سهامهم انجي وانجب . ومن قسيهم أكسى وأكسب . ومن جيادهم أسرى وأسرب . ومدادي من نقعهم اغلى وأغلب . وقرطاسي من راياتهم اجلى وأجلب . وسيوفهم قد أغمدت وجردت منه مالا يغمد ولا يعمد . وآثار السيف من الجراح قد رقأ دمها وأثاري من الذكر لاتخمل ولاتخمد .

وما السيف أشوى ضربه من لسانيا .

فكل أثر خبر به غيري يموت الخبر بموته وينقطع صيت الأثر بانقطاع صوته . والذي أخبر أنا به عنه روض يزهو إذا أقلعت الايام سحبا . ونجم يبدو إذا أفاض الشفق على فضة النجوم ذهبا . فهو قول يذكر وينسى كل فعل وفاعله . لاقول يؤثر مهما عاش اليوم عالمه ثم لا يأتي في غد إلا جاهله . فهذه الكتب نهب الأعمار الثانية . وتفاخر الألسنة القائلة بها الأيدي الكاتبة البانية . فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه تجدوا الايوان قد خربت شعفاته . وعفرت شرفاته . وتجدوا سينية البحتري قد بقي بها اسم كسرى في ديوانه . أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه . وإنما نراوح بين الاوصاف الغالية . ونناوب بين السمات السامية . للاشارة إلى من ينبه على مسماه . وينوه بسيماه . فأما من يقول الله لاسمه أنت من معقبات حمدي . ويقول الدهر لذكره أنت الباقي من بعدي فانما يلزم الأدب بوصف فضله العظيم . ويرفع قدر القول بفضل وصفه الكريم ، ويسر الله هذه الفتوح . وأنزل بها الملائكة والروح . في أيام سيدنا ومولانا الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الامام المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن الامام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن الامام المقتدي بالله عبد الله بن الذخيرة محمد بن الامام القائم بأمر الله عبد الله بن الامام القادر بالله أبي العباس أحمد بن الامير اسحق بن الامام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن الامام المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق

بالله أبي أحمد طلحة بن الامام المتوكل على الله أبي الفضل جعفر ابن الامام المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن الامام الرشيد بالله أبي جعفر هرون بن الامام المهدى بالله أبي عبد الله محمد بن الامام المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين . وهي الايام التي زواهر أيامها ذواه ومضاء مضاربها القضاء مضاه . فما اجلها فضلا وأفضلها جلالا . واقبلها جدا وأجدها قبالا واقربها ندى ونوالا . وأبعدها مدى ومنالا . وما أعلى سني مجدها . وأحلى جني رفدها . وأفغم ريا رياض فضائلها . وأفعم حيا حياض فواضلها . واسح سماء سماحها أمطارا . واصح جناح نجاحها مطارا . والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ناصر دعوته . وداعي نصرته . ووليه الطائع . وسيفه القاطع والمحكم بأمره . والمؤمر بحكمه . فرأيت إبداء ميامن هذه الايام الغر على الآباد بغرر الآداب . وقيدت شوارد معانيها وسيرت محامد معاليها بهذا الكتاب . وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوأم در السحاب ودر السخاب . وسميته الفتح القدسي تنبيها على جلالة قدره . وتنويها بدلالة فخره . وعرضته على القاضي الأجل الفاضل . وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل . فقال لي سمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته . وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته . ولما كان هذا الفتح في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها . وانشأت رياض بسحبها . وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته . وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته . وما عنيت إلا بايراد ما عاينته ، ولا بنيت القاعدة الا على أس ما تبينته فبينته.وما توخيت إلا الصدق وما انهيت إلا الحق . ولا ذكرت كلمة تسقط . ولا اعتمدت إلا ما يرضي الله ولا يسخط . وبالله التوفيق والعصمة . وله الحمد ومنه النعمة

دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة:وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الاقطار والبلاد . يستدعي من جميع

الجهات جموع الجهاد . وأهـل للاسـتدعاء أهـل الاسـتعداد .
واستحضر الغزو . من الحضر والبدو . وبرز من دمشق يوم السبت
مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود . واستحشاد الحشود .
وإصحار الأسود . واحضار البيض والسود . مضيء العزم ماضي
العزم . صائب السهم ثاقب الفهم . ثابت السعود . كابت الحسود .
وخيم على قصر سلامة من بصرى وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج
اليد القصرى . وأقام علي ارتقاب اقتراب الحجاج . وقد رتب
الفرنج من الارصاد أفواجا على تلك الفجاج . لاسيما ابرنس
الكرك . فانه كان حريصا على الدرك . ناصبا شر الشرك نصب
الشرك . فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد . عاود دخول حصنه حذار
خروج روحه من الجسد . ووصل الحاج في أول صفر . وقد قضوا
حاجهم . ورضوا منهاجهم . وخرجوا عن فرضهم . ودخلوا إلى
أرضهم . وفرغ القلب من شغلهم . وخف مالزم من ثقلهم . وانتظر
السلطان وصول العسكر المصري المستدعي . ورعى منه حصول
العدد المسترعي . فأبطا عليه وروده . واختلفت في الاسراع وعوده .
فأمر ولده الأكبر الملك الافضل نور الدين عليا . ولم يزل مكانه عنده
عليا . أن يقيم على رأس الامراء برأس الماء . وتجتمع العساكر
الواصلة منه تحت اللواء . وتقدم السلطان في اتباعه وأشياعه . إلى
الكرك وضياعه . فأقام عليها يرهق ويزهق . ويحرب . ويحرق .
ويرعد بصاعقة بأسه ويبرق حتي ألحق الموجود بالمعدوم . وأتي
بالقطع على البساتين والكروم . ورعى الزروع وعرى الضروع .
واستأصل الأصول والفروع . حتي أقوت من الاقوات . واستعرت
الغلة بغلاء سعر الغلات . وحلت آجال الارزاق . وانحلت عرا
الأرماق . واقفر بلد الشرك . وامتلأ من الكرد والترك . وسار إلي
الشوبك فأسار به شوبا . وألحفه من عريه ثوبا . وأخلاه من زرع
ونبات . وفرغه من أقوات وقوات . وأذهب ضياء تلك الضياع .
وأزال بقاء تلك البقاع . وجاس الخلال . وداس الغلال . وقشر
الثرى وبشره . وحشر الردى ونشره . وسلب قرار القرى وسكون
مسكونها . وفجع الفرنج بكرمها وزيتونها . فقد عدم ليلها
المصباح . وصباحها الاصباح . ووصل عسكر مصر فتلقاه

بالقريتين . وفرقه على أعمال القلعتين . وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين . والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء . في جمع عظيم من العظماء . وعنده الجحافل الحافلة . والحواصل الواصلة والعساكر الكاسره . والقساور القاسره . والبواتر الواتره . والخضرم الضرم . والعرمرم العرم . والهمام الملتهم . والجيش الجائش . والترك والأكادش . والجنود والبنود . والاسود الاسود . والفيالق الفوالق . والبيارق البوارق . وبنات الاغماد قد برزن من خدورها حبا لمعانقة العدى . ظامئات إلى ورد الوريد وما أحسن حلي نجيع الكفر على عرائس الهدى . والعزم يستنهضه . والعز يحرضه . والدين يستبطيه . والنصر يستعطيه . والقدر يحركه . والظفر يدركه . والكفر قد مات من ذعره . والاسلام قد مت بعذره . وهو ينتظر أمرا من أبيه يأتيه بما يأتيه . ويكتب إليه ويقتضيه من رأيه بما رأيه يقتضيه . ولما استمر تأخر الامر إستمر التأخير وقدم في الاقدام التبكير والتكبير . وانتهز الفرصة واحرز الحصة . وانتحى وانتخب الاجناد الانجاد . وجرد الجرد واستجاد الجياد . وسرى السرية السرية . وأمرها بالغارة على الغرة بأعمال طبرية . ومظفر الدين بن زين الدين علي كوجك المقدم المقدام . والهمام الهمام . والأسد الأسد . والأرشد الأشد . وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي ، وعلى عسكر حلب دلدرم الياروقي . فساروا مدججين . وسروا مدلجين . وصبحوا صفورية (فساء صباح المنذرين) (الصافات : ١٧٧) . فخرج اليهم الفرنج في جمع شاك . وجمر ذاك . وقنطاريات طائرات . وسابريات سابغات . وللداوى دوي وللاسبتاري هوي . والباروني يقدم على البوار والتركبولي يلقي نفسه على النار . وقد ثاروا والثار قد وقد والجو قد عقد . وقد انصدع زجاج الزجاج . وارتجز عجاج العجاج . وانفض الفضاء وانقض القضاء . وكادوا يفلون الجمع ويجمعون الفل . ويحلون العقد ويعقدون ما انحل . فثبت قايماز النجمي في صدورهم . وأشرع الاسنة الى نحورهم . وروى اللهازم من تامورهم . وعطف مظفر الدين يشلهم ويفلهم . ولايكترث بكثرتهم ويستقلهم . ولقيهم دلدرم بالوجه الأبيض . والعزم الأنهض . والجد

الأجد . والحد الأحد . وانجلى الغبار . وقد عم الفرنج القتل والاسار . وفجع بقتل مقدمهم الاسبتار . وأفلت مقدم الداوية وله حصاص . ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك مناص . واخافت رنة السراء أنة الاسراء . وكانت هذه النوبة بلا نبوة . والهبة بلا هبوة . وسكنت القلوب بهذه الحركة . وركنت النفوس إلى هذه البركة . وسارت البشرى وسرت . ودارت النعمى ودرت . وعد ذلك من إقبال الملك الافضل . وفضل الملك المقبل . وحسنت الالسنة بالنصر . وأحسنت الالسنة في الشكر . هذا العساكر في كل يوم يغدون ويفيدون . وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يجدون ويجيدون . وجاءتنا البشارة ونحن بالكرك . فأيقنت الآمال بالنجح والدرك . وسار سلطاننا الملك الناصر صلاح الدين ووصل السير بالسرى وخيم بعشترا . فغصت بسيول الخيول الوهاد والذرى . واجتمع به ولده . وقر عينا بشبل العرين أسده . وما رأيت عسكرا أبرك منه ولا أكبر . ولا أكرث للكفر ولا أكثر . وكان يوم عرضه مذكرا بيوم العرض . وما شاهده الا من تلا (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح : ٤٠) . في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها . وبيارق كأنما حبها أنف الرياض بزهرها . ويوم كالليل عجاجا . وليل كاليوم ابتلاجا . ومناصل بالمنى صلت . وقساطل بالقسي طلت . وفيلق لهام يفلق . وقلوب يمانية رقاق في صدور الاغماد تقلق . وطيور سهام من أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تمرق . وسوابغ مفاضه . وسوابق مرتاضه . وهضاب راسيات . وهواضب ساريات . ولما تم العرض . حم الفرض . وتعين الجهاد . وتبين الاجتهاد . واضطربت السهول والوعوث . وانبعثت الهمم وهمت البعوث . وسمع الفرنج بكثرة الجمع الجم . وزخرة اليم الخضم . وبروز التوحيد إلى التثليث . وانتهاض الطيب لادحاض الخبيث . فخافوا وخابوا . وهبوا وهابوا . وعرفوا أن حزبهم مخذول . وأن غربهم مفلول . وأن حدهم مثلوم . وأن جندهم مهزوم . وأنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله . وأن الايمان كله برز إلى الشرك كله . وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث . وحلف منتكث . ووقوع نفار بين الأنفار . ووقود شرار بين الشرار . ولما استدنوا

حين حينهم . سعوا في إصلاح ذات بينهم . ودخل الملك على القومص . ليتقمص له بالود الاخلص . ورمى عليه بنفسه . واستبدل وحشته بأنسة . فاصطحبا بعدما اصطلحا . واصحبا بعد ما جمحا . وتزاور الفرنج وتوازروا . وتآمروا ما بينهم وتشاوروا . وقالوا هذا دين متى دنا منه الوها هوى . وعود إذا عاده الأذى ذوى . فالمسيح لنا . والصليب معنا . والمعمودية عمدتنا . والنصرانية نصرتنا . ورماحنا مراحنا . وصحافنا صفاحنا . وفي لوائنا اللاواء . ومع أودائنا الداوية الأدواء . وطوارقنا الطوارق . وببيارقنا البوائق . وسيف الاسبتار بتار . ولقرن البارونى من مقارنته بوار . ومعنا الدلاص والصلاد . والصعاب والصعاد . وفي كل قنطاري قنطار . ولكل سابري من اسنتنا مسبار . وقد عم بحرنا الساحل . وشددنا به المعاقد والمعاقل . وهذه الأرض تسعنا نيفا وتسعين سنة وما تضيق بنا في هذه السنة . وأرماحنا إلى هذه الغاية من الاسواء أسوار هذه البقاع والامكنة . وسلاطين الاسلام ما صدقوا أن يسالموا إلينا ويسالمون . ويبذلوا لنا القطائع ويقاطعونا . وطالما ناصفونا وما صافونا . وهادونا وهادنونا . وفي جمعنا تفريقهم . وفي وقعتنا تعويقهم . فقال القومص وكان محربا مجربا . متدبر متدربا . هذا صلاح الدين لايقاس بأحد من السلاطين لتسلطه . واقدامه على المخاوف وتورطه . وإن كسركم مرة فلا يصح لكم الجبر . وليس إلا المراوغه والمغاورة والصبر . والصواب أن لا نخالطه ولا نباسطه . ولا نخالفه ونقبل شرائطه . فقال له الملك :أنت قد قلبتك الآفه . وفي قلبك المخافه . وأنت الخور رخو . والخشية حشو . وأنا لابد أن أصدمه وأصده . وأكدمه وأكده . وأراده حتي أرده . واقيم صليب الصلبوت فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد . وأمد يد الأيد لجمعي فلا تمتد لأهل الجمعة يد . فقبل القومص قوله على مضض وصح ظاهره معه على ما كان في الباطن من مرض . ولما أحس منه الملك بالوفاء والوفاق . وعدم الشقاء ما وجدوه بينهما من الشقاق . اشتغلوا بالحشد والحشر والطي والنشر .

ذكر ما كان بين ملك الافرنج وبين القومص من الخلف

لما هلك الملك أماري بن فلك في آخر سنة تسع وخمسمائة خلف ولدا مجذوما، وكان مع الوجود معدوما • قد أعضل داؤه • وأيس شفاؤه • وطال بلاؤه • فوضع الفرنج التاج على رأسه • وتمسكوا مع امراضه بامراسه • ونفخوا في ضرمه • وتسنموا بورمه • وصحوا بسقمه، ورقوا في سلامه ، ورضوا بتقدمه • واكبروه وأركبوه • واقدموا به وقدموه • وهم يكرثون بجذا (١)ملكهم هذا ولا يكترثون بجذامه • ويحمون حماه ان يحم حلول حمامه • وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكا مطاعا • معارا من اشفاقهم واتفاقهم مراعى • فلما احس بهلاكه • وسكون حراكه . احضر البطرك والقسوس • والمقدمين والرؤوس • وكان له ابن اخت صغير • عن التطاول الى الملك قصير • وقال لهم الملك في هذا ولكن القومص (٢) يكفله مدة سني صغره • وهو يستقل به بعد كبره • فهو الان لايستبد • ومن أمر القومص يستمد • فقبل القومص الوصية • وجمع اليه الاطراف • الدانية والقاصية • وسكن بطبرية فان صاحبتها كانت تزوجت به ، وطمعت في قوته وقربه • وهلك الملك المجذوم • وظهر المكتوم وطمع القومص في الملك استقلالا فعدم موافقة الداوية • وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية فكفل بالامر وهو مغلوب • وتفقد اختياره فاذا هو مسلوب • ورغب في مقاربة السلطان صلاح الدين ليقوى بجانبه • ويحظى من مواهبه • فاشتد ازره واشتد امره • واستقل بنفسه ، واستولى على جنسه • حتى مات الملك الصغير • فانتقل الملك منه الى امه • وبطل ما كان في عزم القومص برغمه • وانتقل الملك اليها • واجتمع الفرنج عليها • فقالت لهم زوجي أقدر وهو احق بالملك واجدر • واخذت التاج من راسها فوضعته على رأسه • وعاش رجاءه بعد يأسه • وراش غناه بعد افلاسه • وانتاش إبليسه بعد ابلاسه • وقامت قيامة القومص باجلاسه • وطالبه الملك الجديد بحساب ما تولاه • فما اجاب دعوته

مرتمى • ولكل نام منتمى • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالي مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واذفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال النشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من مسلء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت وذبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراج للاسراء • والجم العراب العراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

مرتمي • ولكل نام منتمي • ولكل سام مسمى • ولكل اسم مسمى • وعين لكل امير موقفا في الميمنة والميسرة لاينتقل عنه • ولايغيب جمعه ولايبرح احد منه • واخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب • ووصى كل حزب بما بقربه من حزب • وقال اذا دخلنا بلد العدوفهذه هيأة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا • ومواضع اطلابنا • ومطالع ابطالنا • ومصارع اسنتنا • وشوارع اعنتنا • وميادين جردنا • وبساتين وردنا • ومواقف صروفنا • ومصارف وقوفنا • ومرامي مرامنا • ومجالي مجالنا • وقوى الآمال بما بذله من الاموال • وحقق في انجاز المواعد وانجاح المقاصد رجاء الرجال • وجمع العدد • وفرق العدد • ووهب الجياد واجاد المواهب • ورغب في العطايا واعطى الرغائب • ونثر الخزائن • ونثل الكنائن • واندفق النخائر • واستنفد كرائمها والاخاير وقسم احمال النشاب • فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب • واجرى الجرد واجنى الاجناد • واذكى المذاكي واشهد الاشهاد • واذال مناقب المناقب • واستمال معاطف المعاطب • وقوى القواطع • وروى الروائع • وعاد الى المخيم مسرورا محبورا • مقبولا مبرورا • موفورا مشكورا • وقد رتب وربت • وقنب وكتب وثبت ونبت • قد بر عمله وابر امله • وفاح نشره • ولاح بشره • وتأرج رياه • وتبلج محياه • وايقن بالظفر وظفر باليقين • وامن الى الدعوة المستدعية التأمين • وتيمن باوضاح عرابه الميامين • وايضاح اعرابه في اقتضاء دين الدين • وانس ببهجة الخيل ولهجة الخير • وسر سره بما سرى له من وجه السير • وشد حزم الحزم • وجد في العزم الجزم • وقدم الاسراج للاسراء • والجم العراب للعراء .

ورحل يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر والتوفيق مسايره • والتأييد مؤازره • والتمكين مضافره • والسعد مظاهره • والجد مكاثره • واليمن محاضره • والعز مسامره • والظفر مجاوره • والاسلام شاكره • والله عز وجل ناصره • وسار على الهيأة التي قدمنا ذكرها من المقانب المقنبة • والكتائب المكتبة • والمراتب

المرتبة • والمذاهب المهندية • والسلاهب المجنبة • والصوائب المجعبة • والقواضب المقربة • والثعالب المذربة • واللهاذم الهاذمة • والصلادم اللازمة • والضراغم الضاغمة • وخيم على خسفين . وقد ادنى الله الخسف بالعدو وخسوفه • وكسف الكفر بكسوفه • وبات والوجوه سافرة • والعيون في سبيل الله ساهرة • والايدي لسيوف الايد شاهرة • والالسن لانعم الله شاكرة • والقلوب بالاخلاص عامرة • والانفس للانس مسامرة • والاقدام بالاقدار متضافرة متظاهرة .

ثم اصبح سائرا ونزل على الاردن بثغر الاقحوانة . بعزم الصيال وعز الصيانة • واحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط • وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط • وبرزت الارض في قشب اثوابها • وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من ابوابها • ورست سفن المضارب على تلك الانباج • وطمت الاطلاب امواجا على امواج • وانعقدت سماء العجاج • وطلعت فيها انجم الخرصان والزجاج • واعاد الاقحوانة رياضا نضرة • وحدائق مزهرة • من فرس رد وفارس كالاسد الورد • ومشرفيات كبطاقات الرياحين • ويزنيات كأشجار البساتين • ورايات صفر تخفق بعذابات الياسمين • والوية حمر كشقائق النعمان • وموضوعة زغف كالغدران • ومصقولة بيض كالخلجان • ومريشة زرق كالاطيار • ومحنية عوج كالافنان • وبيض تلمع كثغور الاقحوان • وجبب ترائك على بدور الدارعين • وعقبان صواهل تروق وتروع الناظرين والسامعين • والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية • ولووا الالوية على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات • واوقدوا في ظلام القتام الثائر سروج السريجيات • وصوبوا الى صوب قرا الاقران نيات اليزنيات • واحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم • وحاطوا بواشرهم • وجمعوا الاوشاب والاوباش • ورتبوا الجيش • وثبتوا الجاش ، وحشدوا الفارس والراجل • والرامح والنابل • ونشروا الذوابل • وحشروا ابطال الباطل • ورفعوا صليب الصلبوت • فاجتمع اليه عباد الطاغوت • وضلال الناسوت

واللاهوت • ونادوا في نوادي اقاليم اهل الاقانيم • وصالبوا الصليب الاعظم بالتعظيم ، وماعصاهم من له عصا • وخرجوا عن العد والاحصا • وكانوا عدد الحصى • وصاروا في زهاء خمسين الفا ويزيدون • ويكيدون مايكيدون • قد تواقوا على صعيد • ووافوا من قريب وبعيد • وهم هناك مقيمون • لايرومون حركة ولايريمون • والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ويشرف عليهم • ويراميهم • وينكى فيهم • ويتعرض لهم ليتعرضوا له • ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله • فربضوا ومانبضوا • وقعدوا ومانهضوا • فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم • وعاينوا مقام صارعهم • في سوقهم الى مصارعهم • وفزعوا مما فيه وقعوا • وجبنوا عما له تشجعوا • فرأى السلطان ان يطيب ريه • من طبرية ويشرف على خطتها بالخطية والمشرفية • ويحوز حوزتها ويملك مملكتها • فجمر على الاردن اردان الربينيات • واطلع النقع المثار من البحر بحوافر الاعوجيات • واستسهل عليها ولم يستوعر عربيات العربيات • فأمر عساكره • وامراء جيشه واكابره • ان يقيموا قبالة الفرنج • ويضيقوا عليهم واسع النهج • فان خرجوا للمصاف بادروا الى الانتقام منهم والانتصاف • وان تحركوا الى بعض الجوانب . وثبوا بهم وثوب الاسود بالارانب . وان قصدوا طبرية لصونها وان يكونوا في عونها . عجلوا الاعلام ليعجل عليهم الاقدام .

ذكر فتح طبرية

ونزل على طبرية في خواصه ، وذوي استخلاصه . واحضر الجاندارية والنقابين . والخراسانية . والحجارين . واطاف بسورها • وشرع في هدم معمورها . وصدقها القتال . ومامىدف عنها النزال . وكان ذلك يوم الخميس . وهو يؤم الخميس . واخذ النقابون النقب في برج فهدوه وهدموه . وتسالقوا فيه وتسلموه .

ودخل الليل وصباح الفتح مسفر . وليل الويل على العدو معتكر . وامتنعت القلعة بمن فيها . من القومصية . ست طبرية وبنيها . ولما سمع القومص بفتح طبرية واخذ بلده . سقط في يده . وخرج عن جلد جلده . وسمح للفرنج بسبده ولبده . وقال لهم لا قعود بعد اليوم * ولابد لنا من وقم القوم * واذا اخذت طبرية اخذت البلاد * وذهبت الطراف والتلاد * ومابقي لي من صبر . ومابعد هذا الكسر لي جبر وكان الملك قد حالفه . فما خالفه . ووافقه . فما نافقه . وماحضه فما ماذقه ووادده فما رادده . وواعده فما عاوده . ورحل بجمعه . وبصره وسمعه . وثعابينه وشياطينه . وسراجينه وسراحينه . واتباع غيه . واشياع بغيه . فمادت الارض بحركته . وغامت السماء من غبرته . ووصل الخبر بان الفرنج ركبوا . وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا . وعبوا وعبوا . ودبوا حتى يذبوا . وشبوا النار . ولبوا الثأر . وقدموا للنزل بالدار البدار . وذلك يوم الجمعة رابع عشري ربيع الاخر فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه . بما سبق به حكمه .

وسر حين احاط بمسيرهم علمه . وقال : قد حصل المطلوب . وكمل المخطوب . وجاءنا ماتريد . ولنا بحمد الله الجد الجديد . والحد الحديد . والبأس الشديد . والنصر العتيد . واذا صحت كسرتهم . وقتلت واسرت اسراتهم . فطبرية وجميع الساحل . مادونها مانع . ولا عن فتحها وازع . واستخار الله وسار . وعدم القرار . وجاء يوم الجمعة رابع عشري شهر ربيع الاخر والفرنج سائرون الى طبرية بقضهم وقضيضهم . وكانهم على اليفاع في حضيضهم . وقد ماجت خضارمهم . وهاجت ضراغمهم . وطارت قشاعمهم . وثارت غماغمهم وسدت الافاق غمائمهم . وشاقت ضاربيها جماجمهم . وهم كالجبال السائرة . وكالبحار الزاخرة . امواجها ملتطمة . وافواجها مزدحمة . وفجاجها محتدمة . واعلاجها مصطلمة . وقد جوى الجو . وضوى الضو . ودوى الدو . والفضاء مذفض . والقضاء مذقض . والثريا قد استزار الثرى . وجر نيل الخيل قد برى البرى . والحوافر الحوافز للارض حوافر . والفوارس اللوابس في البيض سوافر . وذئاب النياد واجلاد الجلاد قد حملوا كل عده . وكملوا كل عدة . فرتب السلطان في مقابلتهم اطر اطلابه . وقصر على مقاتلتهم ارابه .

وحصل بعسكره قدامهم . ورقب على الحملة اقدامهم . وحجز بينهم وبين الماء . ومنع نمامهم على الذماء . وحلأهم عن الورد . وصدعهم بالصد . ذاك واليوم قيظ . والقوم غيظ . وقد وقدت الهاجرة . فوقدتها غير هاجرة . وشربت ماكان في اداوتها فهي على الظما غير صابرة . وحجز الليل بين الفريقين . وحجرت الخيل على الطريقين . وبات الاسلام الكفر مقابلا . والتوحيد التثليث مقاتلا . والهدى للضلال مراقبا . والايمان للشرك محاربا . وهيئت دركات النيران . وهنئت درجات الجنان . وانتظر مالك واستبشر رضوان . حتى اذا اسفر الصباح . وسفر الصباح . وفجر الفجر انهار النهار . ونفر النفير غراب الغبار . وانتبهت في الجفون الصوارم . والتهبت في الضوامر الضوارم . وتيقظت الاوتار . وتغيظت النار . وسل الغرار. وسلب القرار . خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار . ورنت القسي وغنت الاوتار . ورقصت مران المراد . لجلاء عرائس الجلاد . وبرزت البيض من ملائها في الملأ عارية . ورتعت السمر لكلئها من الكلى راعية . فرجا الفرنج فرجا . وطلب طلبهم المحرج مخرجا . فكلما خرجوا جرحوا . وبرح بهم حر الحرب فما برحوا . وحملوا وهم ظماء . ومالهم سوى مابأيديهم من ماء الفرند ماء . فشوتهم نار السهام وأشوتهم . وصممت عليهم قلوب القسي القاسية واصمتهم . واعجزوا وازعجوا . واحرجوا واخرجوا . وكلما حملوا ردوا وارادوا . وكلما ساروا وشدوا اسروا وشدوا . ومادبت منهم نملة . ولاذبت عنهم حملة . واضرموا واضطربوا . والتهفوا والتهبوا.

وناشبهم النشاب فعادت اسودهم تنفذ . وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذة . فأووا الى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار . فأحاطت بحطين بوارق البوار . ورشفتهم الظبا . وفرشتهم على الربا . ورشقتهم الحنايا . وقشرتهم المنايا . وقرشتهم البلايا . ورقشتهم الرزايا . وصاروا الردى درايا . وللقضايا رمايا . ولما احس القومص بالكسرة . حسر عن ذراع الحسرة . واقتال من العزيمة . واحتال في الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر . واحتداد الحرب واحتدام الحر . فخرج بطلبه يطلب الخروج . واعوج الى الوادي وماود ان يعوج .

ومضى كومض البرق . ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخـرق . وافلت في عدة معدودة . ولم يلتفت الى ردة مردودة . وغاب حـالة حضـور الوعي . ونابه الرعب الذي ذوى الهزيمة به وماونى . ثـم اسـتجرت الحرب . واشتجر الطعن والضرب . واحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا اليهم . ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم وضم نظامهم . فحطوا على حطين مضاربهم . وفلت حدود الرمـاة مضاربهم . واعجلوا عن نصب الخيم ورفعها . وشـغلوا عن اصـل الحياة وفـرعها . وتـرجوا خيرا فتـــرجلوا عن الخيل . وتجلدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل . واحاط بهم العسكر احاطة النار بأهلها . ولجأوا الى حزم الارض فبلغ حـزامهم الطبيين مـن سـهلها . واسر الشـيطان وجنوده . وملك الملك وكنوده . وجلس السلطان لعرض اكابر الاسارى . وهـم يتهـادون في القيود تهـادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية . ومعـه عدة كثيرة منهـم ومـن الاسبتارية . واحضر الملك كي واخوه جفري . واوك صـاحب جبيل وهنفري . والابرنس ارناط صاحب الكرك . وهو اول مـن وقـع في الشرك . وكان السلطان نذر دمه . وقال لاعجلن عند وجدانه عدمـه . فلما حضر بين يديه اجلسه الى جنب الملك والملك بجنبه . وقرعه على غدره وذكره بذنبه وقال له:كم تحلف وتحنث . وتعهد وتنكث . وتبـرم الميثاق وتنقض . وتقبل على الوفاق ثم تعرض . فقال التـرجمان عنه ان يقول قد جرت بذلك عادة الملوك . وماسلكت غير السنن المسلوك . وكان الملك يلهث ظميا . ويميل من سـكرة الرعب منتشـيا . فـأنسه السلطان وحاوره . وفثأ سورة الوجل الذي ساوره . وسكن رعبـه . وامن قلبه . واتي بماء مثلوج ازال لهثةوأزاح من العطش مـاكرثه . وناوله الابرنس ليخمد ايضا لهبه . فأخذه مـن يده وشربـه. فقـال السلطان للملك لم تأخذ مني في سقيه أذنا • فلا يوجـب ذلك له مني أمنا • ثم ركب وخلاهما • وبنار الوهل اصـلاهـما • ولم ينزل الى ضرب سرادقه • وركزت أعلامه وبيارقه • وعادت عن الحـومة الى الحمى فيالقه • فلما دخل سرادقه • استحضر الابرنس فقـام اليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه • وحين صرع . امر برأسه فقطع وجـر برجله قدام الملك حين اخرج . فارتاع وانزعج . فعرف السـلطان انه

خامره الفزع . وساوره الهلع وسامره الجزع . فاستدعاه واستدناه وامنه وطمنه . ومكنه من قربه وسكنه . وقال ذاك رداءته اودته . وغدرته كما تراه غادرته . وقد هلك بغيه وبغيه وذبازند حياته ووردها عن وريه وريه . وصحت هذه الكسرة . وتمت هذه النصرة يوم السبت وضربت ذلة اهل السبت على اهل الاحد . وكانوا اسودا فعادوا من النقد . فما افلت من تلك الالاف الا احاد . ومانجا من اولئك الاعداء الا اعداد . وامتلأ الملأ بالاسرى والقتلى . وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى . وقيدت الاسارى في الحبال واجبة القلوب . وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب . وحطت حطين تلك الجيف عن متنها • وطاب نشر النصر بنتنها • وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه • بالعراء عراة • ممزقة بالمازق • مفصلة المفاصل • مفرقة المرافق • مفلقة المفارق • محذوفة الرقاب • مقصوفة الاصلاب • مقطعة الهام . موزعة الاقدام .مجدوعة الآناف • منزوعة الاطراف • معضاة الأعضاء • مجزأة الاجزاء • مفقوءة العيون مبعوجة البطون • مخضوبة الضفائر • معضوبة المرائر، مبرية البنان• مفرية اللبان مقصومة الاضالع . مفصومة الاشاجع . مرضوضة الصدور . مفضوضة النحور . منصفة الاجساد .مقصفة الأعضاد • مقلصة الشفاه • مخلصة الجباه • قانية الذوائب • دامية الترائب• مشكوكة الاضلع مفكوكة الاذرع • مكسورة العظام • محسورة اللثام • بائدة الوجوه • بادية المكروه • مبشورة الابشار • معشورة الاعشار • منشورة الشعور• مقشورة الظهور • مهدومة البنيان • مهتومة الاسنان • مهرقة الدماء • مرهقة الذماء • هاوية الذرى • واهية العرى • سائلة الاحداق • مائلة الاعناق . مفتونة الافلاذ . مبتوتة الافخاذ . مشدوخة الهامات . مسلوخة اللبات • عديمة الارواح • هشيمة الاشباح . كالاحجار بين الاحجار . عبرة لاولي الابصار . وصارت تلك المعركة بالدماء أدماء • وعادت الغبرة حمراء . وجرت انهار الدم المنهمر . وسفر تلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر• فما اطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث • وما الهب عذابات العذاب في تلك الجثث • وما احسن عمارات القلوب بقبح ذلك الشعث • وما

أجزى صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث • هذاوحساب من قتل فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده • وأمـا مـن أسر فلم تـكف اطناب الخيم لقيده وشده• ولقد رأيت في حبل واحد ثـلاثين وأربعين يقودهـم فارس • وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهـم حـارس • وهنالك العتاة عناة • والعداة عراة • وذوو الاسرة أسرى • وأولو الاثرة عثرى • والقوامص قنائص • والفوارس فرائس • وغوالي الارواح رخائص • ووجوه الداوية الداوية عوابس . والرؤوس تحت الاخامص . ومطالع الاجسام ذوات المقاطع والمخالص . فكم اصـيد صيد . وقائد وقيد . ومشرك مكثر . وكافر مفكر . ومثلثـــ منصف • ومكيف مكتف • وجارح مجروح • وقارح مقروح • وملك مملوك • وهاتك مهتوك • ومتبر مبتور • ومحسر محسور • وكاب في الكبول • ومغتال في الغلول . وحر في الرق . ومبطل في يد المحق .

ذكر الصليب الاعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف

ولم يؤسر الملك حتى اخذ صـليب الصـلبوت . واهلك دونه اهــل الطاغوت . وهو الذي اذا نصب واقيم ورفع . سـجد له كل نصراني وركع . وهم يزعمون انه من الخشبة التي يزعمون انه صلب عليهـا معبودهم ومسجودهم . وقد غلفوه بالذهب الاحمـر . وكللوه بـالدر والجوهر . واعدوه ليوم الروع المشهود . ولموسم عيدهـم الموعود • فاذا اخرجته القسوس . وحملته الرؤوس . تبادروا اليه . وانثالوا عليه ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف . واخذه اعظم عندهم من اسر الملك وهو اشد مصاب لهم في ذلك المعترك . فان الصليب السليب مـاله عوض . ولا لهـم في سواه غرض والتأله له عليهم مفتـرض .فهـو إلههـم • وتعفـر له جباههم . وتسبح له افواههم . يتغاشون عند احضاره . يتعـاشون لابصاره . ويتـلاشون لاظهـاره . ويتفـاضون اذا شـاهدوه ، ويتواجدون اذا وجدوه . ويبذلون دونه المهج . ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثاله صلبانا يعبـدونها . ويخشـعون لهـا في بيوتهـم

ويشهدونها • فلما اخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم . ووهت اصلابهم . وكان الجمع المكسور عظيما . والموقف المنصور كريما . فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف احد من يومهم العصيب . فهلكوا قتلا واسرا وملكوا قهرا وقسرا . ونزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر . والقمر المبدر .

ذكر فتح حصن طبرية

وندب الي حصنها من تسلمه امانا . واسكنه بعد الكفر ايمانا . وكانت الست صاحبة طبرية قد حمته . وذقلت اليه كل ما ملكته وحوته . فأمنها على اصحابها واموالها . وخرجت بنسائها ورجالها ورحالها . وسارت الى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها . وغادرت طبرية آهلة آمنة باهل الايمان . وعين لولايتها صارم الدين قايماز النجمي ، وهو من الاكابر الاعيان . وهذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية . وقد طب البرية . وعسكره طبق البرية .

ذكر ما اعتمده في الاسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم واعطاء بشر الوجوه باعطابهم

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري شهر ربيع الاخر بعد الفتح بيومين . طلب الاسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين . وجعل لكل من يحضر منهما اسيرا خمسين . فأحضر العسكر في الحال مئتين . وامر بضرب اعناقهم . واختار قتلهم على استرقاقهم . وكان عنده جماعة من اهل العلم والتصوف . وعدة من ذوي التعفف والتعيف . فسأل كل واحد في قتل واحد . وسل سيفه . وحسر عن ساعد . والسلطان جالس . ووجه باشر والكفر عابس . والعساكر صفوف . والامراء في السماطين

وقوف . فمنهم من فرى وبرى وشكر . ومنهم من ابى ونبا وعذر . ومنهم من يضحك منه . ويذوب سواه عنه . وشاهدت هناك الضحوك القتال . ورأيت منه القوال الفعال . فكم وعد انجزه . وحمد احرزه . واجر استدامه بدم اجراه . وبر اعذق اليه بعذق براه . ونصل خضبه . لنصر خطبه . واسل اعتقله . لاسد عقله . وداء داواه لداوي ادواه . وقوة اهداها لهداة قواها .

ولواء نشره للاواء طواها • وكفر اماته لاسلام أحياه • وشرك هدمه لتوحيد بناه • وعزما مضاها • لامة ارضاها• وعدو قصمه • اولي عصمة• وسير ملك الفرنج واخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع اكابرهم المأسورين الى دمشق ليودعوا السجون • وتستبدل حركاتهم السكون• وتفرقت العساكر بما حوته أيديهم من السبي ايدي سبأ وخمد جمر جمع الكفر وخبا •

ذكر فتح عكا

ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهرا على اهل التثليث مديلا للطيب • مزيلا للخبث• وسار عسكره• وثار عثيره• وظهرت راياته• وبهرت آياته• ونعرت كوساته• وصاحت بوقاته• وجالت خيوله• وسالت سيوله• وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصاته وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه • وحفرت حوافر الصلاد م أصلاب الصلاد الصلاب• وفصحت باعراب الحماحم صواهل الجياد العراب• والاسنة مشرعة• والاعنة مسرعة• وبحور السوابح متموجة وغدران السوابغ مترجرجة• وبوارق البيارق متبرجة• وأوضاح الجرد وغررها كأوضاح النصر وغرره متبلجة• ونزل عشية بأرض لوبية لداعي الفتح ملبيا • ولجيش النصر معبيا• ولمولود الملك العقيم بتلقيح الحرب العوان مربيا • وبات بها معرسا بانيا على عروس الظفر البكر• جانيا ثمار الاماني من غروس البيض

والسمر، واصبح وقد اصحب جماح الدهر، وصح نجاح الامر، وحص جناح الكفر، واسفر فجر الفرج وسفر وجه البهج، وسار سارا سره بارا بأرباب الدين بره، زائرة أسوده، طائرة بنوده، ظاهرة جنوده زاهرة جدوده، سامية أضواؤه، هامية أنواؤه، رائعة مواكبه، رائقة مراكبه، مجنبة عتاقه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير للفقير الى نصرته من يشري به، وهذا الأمير عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا الحسني قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج وما برح مع الملك الناصر، مأثور المآثر، ميمون الصحبة، مأمون المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة فما تم فتح تلك السنين الا بحضوره، ولا أشرق مطلع من النصر الا بنوره، فرأيته ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني واسمعهما، ولاحت أعلام عكا وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام اليها من وعرها وسهلها، فلما قرب منها خيم وراء تلها، وأننت عروش معاشر الشرك بثلها، وعقود معاقدي الكفر بحلها، وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، فخرج أهل البلد يطلبون الامان، ويبذلون الاذعان فامنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الانفس والاموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونسائهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، واغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب الخاصة، واستغنى بالدخول الى البلد جماعة من ذوي الخصاصة.

فان القوم ما صدقوا من الخوف المزعج، والفرج المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بانفسهم أنهم يغنمون، فترك معظمهم المدينة، وعندهم انه ما كسب السكينة.

الا من ركب السفينة، وذلك ان الجند لما دخلوها، استولوا على الدور ونزلوها وركز كل منهم بيرقه على دار، وقال صاحبها كيف يصح المقام مع الاسد في غابه ولا مقام على زار، وكان السلطان جعل للفقيه عيسى الهكاري كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع،

ومواضع ورباع • فأخذها بما فيها من غلال ومتـاع. ووهـب عكا لولده الملك الافضل • فأجراها من نظـره على الاحسـن الاجمـل • ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فاقمنا بها الجمعـة • ووصلنا فريضتها المنقـطعة • وأعدنا الكنيسـة العـظمى مسـجدا جامعا • وعاد نور الهدى الخافي بالضلالة لامعا • وحضر القـاضي الاجل الفاضل فأمر بترتيب القبلة والمنبر ، وتبسم بميامنه للاسلام بعد الاظلام سني الصبح المسفر ، وخطب جمال الدين عبـد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب السـهروردي ، فإنه تـولى بهـا القضـاء والخطابة ، وملأنا بعـد الذئاب بـالآساد السـادة السـادة تلك الغابة ، وخلى سكان البلد دروهم ، ومخزونهم ومنخورهم وتركوها لمن أخذها ، ونبذوا ماحووه لمن حواها ماتبذها ، وافتقر من الفرنج أغنياء ، واستغنى من أجنادنا فقراء ، ولونخـرت تلك الحـواصل وحصـلت تلك النخـائر ، وجمـع لبيت المال ذلك المال المجمـوع الوافر ، لكان عدة ليوم الشدائد ، وعمدة لنجح المقاصد ، فرتعت في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروج الأطماع ، وطال لمستحليها ومستحليها الامتاع بذلك المتاع ، وأقام السلطان بباب عكا على التل مخيما ، وعلى فتح سائر بـلاد السـاحل مصـمما ، ولملكتهـا متمما ، وكان قد كتب الى أخيه الملك العادل سيف الدين أبـي بـكر وهو بمصر ، بما أتاحه الله من النصر ، وقيضه له مـن افتضـاض الفتح البكر ، فـوصلت البشرى بـوصوله بـاشرا ، وللواء الحمـد ناشرا ، ولاستفتاح مافي طريقه من الحصون مبـاشرا ، وأنه فتـح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمهـا غزوة ، وتسـلمها حظوة ، فقصده من عسـاكرنا القصـاد ، ووفـد اليه مـن عندنا الوفاد ، فحباهم بالحباء مـن السـبايا ، واتـاهم المربـاع والصفايا ، وخصهم من الحاصل بالذقود ، ووعدهم مما سـيحصل بالذسايا ، وشرع يستضيف حصنا فحصنا ، ويسـتفيض حسـنى وحسنا ، ويستزيد بلدا ، ويستزير مددا ، ويسـتزيل مـن الكافـر يدا ، ويستميل الى الهـدى هـدى ، والدين بسـيف سـيفه منصور ، والاسـلام بنصر ناصره مسرور ، والملك العـادل مـالك بعدله ، سالك نهج النجح بفضـله ، فـائز العـزيمة حـائز

الغنيمة ، ماضي الضريبة قاضي الكتيبة ، ميمـون النقيبـة مـأمول الرغبة .

ذكر فتح عدة من البلاد

وأقام السلطان بمخيمه ، ظافرا بمغنمه ظاهرا بكرمه ، شـاكرا عرام عرمرمه ، ملهبا ضرام مخذمه ، مـرويا أوار لهـذمه ، وأمـر امراءه بقصد البـلاد المجـاورة ، وأمـدهم بـالضراغم المراوغة المغاورة .

فتح الناصرة وصفورية

فسـار مـظفر الدين كوكبـوري الى الناصرة فـاستباح حماها ، واستبي دمـاها ، وحلهـا واسـتحلها ، وازالهـا وازلها ، وخف اليها واستخفها ، واستشفها وشـفها ، وشـافهها بشفار البواتر ، فشـفه منهـا مـوارد الذخـائر ، واجتلى عرائسـها ، واجتني مغـارسها ، وجمـع نفـائسها ونزع ملابسها ، واستدر طبيها ، واسترد سبيها ، واسـتقل منهـا بمـا استقل به مـن كل غانية عانية • ورقيقـة رقيقـة • ومصـابة مصيبة ، ومسـبية مصـبية ، ومجلوة مجلوبـة ، وسـالبة مسلوبة ، ودمية دامية ، وجارية لطيفة بالعنف جارية ، واسـيرة مـن أسره ، وحـاسرة عن حسره ، وثـاكلة لواحـدها ، وآكلة لساعدها ، وعاضة على يديها ، وفاضة ختم الدمع على خـديها • وناهدة متنهدة ، وفـريدة متفـردة ، وناعمـة شـقية ، وقينة نقية ، وعذراء مفترعة ، وحسـناء منتـزعة ، ومخـطفة ، وقـوية مسـتضعفة ، وعزيزة ذليلة ، وصـحيحة عليلة ، وسـاجية عبـرى ، وصـاحية سـكرى ، وغريرة غراء ، وظبية

ظمياء ، وغضيضة غضة ، وفضة منفضة ، وخمارة مخمورة ، وسحارة مسحورة ، ومخدرة مهتوكة ، وموقرة منهوكة ، وجاءوا بالاسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد ، مقودين في الاقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الأعناق والسوق وصفرت صفورية من سكانها فلم يوجد بها صافر ، وكان بها من الذخائر مبلغ وافر .

فتح قيسارية

وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء الى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وسلطوا على الأنفس بها حاكمي الحتف والحيف ، وسبوا ، وحبوا وسلبوا ، وجلبوا ° وجالوا ، ونالوا ووقذوا ، وأخذوا ، واحتووا وارتووا ، وربطوا ، وضبطوا واستفادوا ، وفرسوا الفوارس ، وكنسوا الكنائس ، واستبوا الأبكار العرائس ، والعون العوانس ، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف ، واستولى على تلك الشموس والاقمار الكسوف والخسوف ..

فتح نابلس

وسار حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس حاسما بحسامه داء الشرك ، مالئا بسهام الفتك جعاب الترك . تاليا آي الفتح . جاليا رأي النجح ، ووصل الى سمسطية فتسلمها ، وتعجل مغنمها . ووجد مشهد زكريا عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة ، واعادوها بالصور والآلات النفيسة اميسة . فاستخرج المصونات والمصوغات ، واستوعب العدد

والالات . وأعاده مشهدا ، ورده مسجدا ، ووضع فيه من بره بالاسلام منبرا ، واصبح الدين به مثريا والكفر مقترا ، ثم أناخ على نابلس وناب حده غير ناب ، وطرف جده غير كاب ، وحد بأسه طرير . وناظر الدولة به قرير . وكان من قبل سلب ساكنوها من الفرنج والنصارى السكون . وايقنوا أنهم ان اقاموا لايأمنون المنون ، فان المسلمين بها وبأعمالها نهضوا اليهم في مواطنهم ، فأجفلوا من مساكنهم ، وانتقلوا من أماكنهم ، وخلوا دورهم وأخلوها ، وتسللوا منها وسلوها ، وتحول الاقوياء الى قلعتها ، وتحصنوا بتلعتها . ونازلها حسام الدين وحاصرها . وطال عليه حصرها وصابرها ، ولم يزل عليها مقيما. ولقتالها مديما ، الى أن وثقوا بأمانه ، وعلقوا باحسانه . وسلموا وسلموا . واستأمنوا وأمنوا ، وخلصت له نابلس واعمالها . وحليت به احوالها . ولكون معظم اهلها وجميع سكان نواحيها مسلمين ، لم يسع الفرنج المتحصنين عند مضايقتهم الا ان يكونوا لحصنهم مسلمين ، فانمحى بالسعود رسم النحوس . ونزعنا عنها لبوس البوس ، واستبشرت وجوه اهلها بعد العبوس . وقام جاه الآذان وانكسر ناموس الناقوس .

فتح الفولة وغيرها

وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها . واملاها بالرجال والعدد واشحنها . وهي للداوية حصن حصين . ومكان مكين وركن ركين . وفيها مشتاهم ومصيفهم . ومقراهم ومضيفهم . ومربط خيولهم . ومجر نيولهم . ومجرى سيولهم . ومجمع اخوانهم . ومشروع شيطانهم . وموضع صلبانهم . ومورد حمتهم . وموقد جمرتهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم الى مصرعهم . واثقين بأن الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم . فلما كسروا واسروا . وخسروا وتحسروا . خلت طلول الفولة . بحدود

اهلها المقلولة . وماء داويتها المطلولة . ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة . ولم يبق بها الا رعايا رعاع . وغلمان واتباع . واشياع شعاع . فعدموا مكان حماية المكان . ووجدوا امنهم في الاستئمان . فسلموا الحصن بما فيه الى السلطان . وكانت فيه اخاير الذخائر . ونفائس الأعلاق . فوثقوا بما احكموه من الميثاق . وخرجوا ناجين . ودخلوا في الذمام لاجين . وللسلامة راجين . وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجينين وزرعين والطور واللجون . وبيسان والقيمون . وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات . والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومذوات .

فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والاعمال ، وقلصت من الضلال تلك الظلال ، وصفت الممالك ، ووفت المدارك ، أوعز السلطان الى ابن أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه تقي الدين بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله فيه ويستعين ، فالقى عليه جران بأسه ، ولقي بالتذليل حران ناسه ، وأخذ في مضايقته بأنفاسه ، ولمح مالمع من قبس فتحه فشفعت باقتباسه ، وسنح له قنصه فاشرأب باقتناصه وافتراسه ، وكتب الى السلطان يبعثه على الوصول اليه بعسكره ، والنهوض نحوه بأبيضه وأسمره • فضرب الكوس ، وسمت النفوس ، والنهوض في ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس ، واشتعلت من شبيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس ، وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشتبك على الآساد غيل القنا ، وسالت الاودية بالسابحات العتاق ، وطالت على السير أعناق الاعناق ، ومالت الى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق ، وجرت الفجاج ، وتموجت الأفواج ، وتفوجت الامواج وتحركت غدران السوابغ ، من رياح السوابق ، وتدركت ضوامن الضوامر بالأرفاد في اردافـ الحق اللاحق ، وأسفر من بريق

البيض والبيض فلق الفيالق ، وترنمت الصواهل ، وترنحت الذوابل وساح الساحل ، وراح الراحل ، ووصلنا الى تبنين في ثلاث مراحل ، فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الاثافي ، وأوطأناهم بشفاه الشفار على حدود الاشافي ، ونزلنا عليها بالنوازل ، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل ، فتبلدوا من الرعب ، وتجلدوا على الحرب ، ثم خاروا وحاروا ، وجأروا وجاروا ، ورغبوا ورهبوا ، وصحوا من سكر الجماح وأصبحوا ، وعجزوا فجزعوا ، وفزهم الحصر وفزعوا ، وشكوا الندوب.وندبوا فدانوا ودنوا ، وأذغنوا إذعنوا ، واعتذروا مما جنوا ، وراسلوا السلطان ،وسألوا الأمان ، واستمهلوا خمسة ايام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا ، وبذلوا رهائن من مقدميهم ووفوا بما بذلوا ، واقلع من بالقلعة عن الجهلة ، وتعلق لبت العلق بالمهلة ، وتقربوا باطلاق الاسارى المسلمين ، فخرج المأسورون مسرورين ، وأصبح الصحب المكسورين مجبورين ، محبوبين بالفرج بعد الشدة محبورين ، وسر بهم السلطان وسر بهم ، وأقرهم وقربهم ، وكساهم وحباهم ، وآتاهم بعد ردهم الى مغانيهم غناهم ، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه وملك يربحه ، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها ، ويعيد بعد عدمها وجودها ، ويحيي بعد اليأس آمالها ، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها ، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف اسير القيود الف ، ووقع في أسرنا من الكفار مائة الف ، ولما خلوا القلعة ، وأخلوا البقعة ، سيرهم ومعهم من العسكر المنصور ، من أوصلهم الى صور ، ورتب في الموضع مملوكه سنقر الدووي ، فأرشد به ذلك الصقع الغوي ، فان أعمال جبل عاملة مجبولة على الشر ، وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعوانا لأهل الكفر ، فوصى سنقر بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر ، وتأليف الجافل ، وتعريف الجاهل ، وقال له تبني بتبنين ماهدم بالمنجنيق ، وتجد لسورها وخندقها كل مايمكن من التوثيق والتعميق ، ورحل ومعه رفيق التوفيق ، وكان النزول على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الاولى وتسلمها يوم الاحد الثامن عشر منه .

فتح صيدا

يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى يوم النزول عليها . وسنحت له صيدا فتصدى لصيدها ، وكانت همته في قيدها وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها ، وسرنا وسرنا مرتاح ، ونصرنا متاح ، والجد جديد والمزاح مزاح والعزم جزم ، والحكم حتم ، ونفحات الفتوح لمناشق اهل الهدى تفوح ، ونفحات الردى لأعين العدى تلوح ، ونص النصر قد تنزل ، وقصد الصدق قد تعدل ، وفكر الكفر قد توزع ، وشرك الشرك قد تقطع وتقلع ، وظل الظفر ضاف ، وسر السرور غير خاف ، والقدر عون والمعين قادر ، والنظر سعيد والسعد ناظر ، واوجهنا وأوجه البشائر باشر ، وقد جفت أجفانها البواتر الواترة ، وجلت دياجير النقع من لمعان الحديد السوافر الوافرة ، واتصلت الممالك من الملائك أمداد النصرة المتواتية المتواترة ، ووصلنا في يومين الى صيداء الى منهل فتحها صادين ، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين ، ولما نزلنا من الوعر الى السهل سهل ماتوعر ، وصدفا من الأمر ماظن أنه تكدر ، فصرفنا الأعنة الى صرفند ، وأسمنا في مسارحها الجند ، وهي مدينة لطيفة على الساحل ، مورونة المناهل ، ذات بساتين ، وازهار ورياحين ، وأشجار النارنج والاترنج ، تعرب مسراتها لجناتها عن أشجان الفرنج ، فجسنا خلالها ، وكل قلب مشغول خلالها ، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية ، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية ، ولم نعرج عليها حتى خيمنا على صيدا وقد حصلنا على صيدها ، وخلصنا من كيدها ، وانطلقت هممنا من قيدها ، فقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصابيحها وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها ، وجلت غياهب تلك المذاهب بنوارها ، وفتحت أبوابها ، وانجحت آرابها ، وعادت معالمها

مأهولة ، بعد أن كانت مقفرة مجهولة ، وصدح منبـرها ، وصـدق مفخرها ، وربح متجرها ، ووضح منظرها ، وأقيمت بها الجمعـة والجماعة ، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة ،

فتح بيروت

وكان النزول عليهـا يوم الخميس ثـاني عشري جمادي الاول وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه

ولما فرغ من شغل صـيداء وتبنين ، وجمـع لهمـا التحصـين والتحسين ، قـال لعصـمة الله شـيدي مـابصيدا وتبنين تبنين ، والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ماتحفظين ، ولايطـرق ماتحمين ، ثم صرف عنانه ، وارهف سنانه ، ورحـل على سـمت بيروت ، مالئا بعسكره الآكام والمروت ، وسار على الساحل ، بتلك الجحافل ، يجر على البحـر مـائج ، ومجـر مجـر الى الهياج هائج ، ونقد من عقـد الجـد رائج ، وعزم على صـدق القصـد عائج ، ووصل اليها ونزل عليهـا ، وبنيت القبـاب ، وطفـا على خضم المعسـكر مـن الخيم الحبـاب ، وزحـف الى الأعداء الاخباب ، وضـويق البلد ، وفـورق الجلد ، وأحـاط الرجـال بأرجائه ، ورجمت بشـهب النصـال شـياطين الضـلال في سمائه ، وانقضت نجوم السهام من أبراجه ، وتـلاطم عبـاب ذلك الجمع الجم بأمواج أفواجه ، وترجل دونه الناس ، وتعجـل نحـوه الباس ، واصـطفت التـراس ، واشـتد المراس ، واحتـد القتال ، واحتدم النزال ، وامتد المصاع والمصال ، واتصل خـروج الجروخ للجروح ، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح ، ومدت الجفاتي ، كأنها أعناق البخاتي ، وأتى العاتي وعتا الآتي ، وأحمد النصر الموافي المواتـي ، ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخـذي

وهاتي ، وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل النفط ، واشتغل الرهط ، والتهم الزارق والتهب الحراق ، ومرق الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ، واتى الوادي فطم على القرى ، ودبت الدبابة بليوث الرجال ، وصبت الصبابة غيوث النبال ، وارتجزت رواعد الأبطال ، وأنجزت مواعد الآجال ، وجالت في الضمائر ضوامر الاوجال ، وهالت بالنوازل نوازي الاهوال ، ورعدت بوارق البوار ، واسعدت الاقدار ، بالاقدار ، وشغلت الرقاب، قواضي القواضب ، وحملت النواكب على المناكب ، وخفت للأثقال اكتاف الفتاك ، وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الاشراك ، ودام القتال اياما ، يتضاعف اصطلاء واصطلاما ، ويتظاهر اضطرابا واضطراما ، وبنات الحنايا هائجة ، وأمات المنايا ناتجة ، ورجمت بشهب النفاطات شياطين الداوية المردة ، وتعادت الاسود العادية ، على أولئك القردة ، حتى خرق الخندق وطرق ، وعلق النقاب بالسور فنقب وعلق ، وكاد النقب يتسع ، والبرج يقع ، والجدار ينقض ، والحجار بالحجار تنفض وترفض ، وسوار السور ينكسر ، وقناع النقع لاينحسر ، وخرج من البلد رجال ، الى الموت عجال ، وقفوا دون الباشورة مباشرين ، ولمعاشر أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين ، فتلاقوا بسلام السلام ، وكلام الكلام ، وتصافحوا بالصفائح ، وتجاروا بالجرائح ، وتواصلوا بالقواطع ،وتعانقوا بالمقامع ، وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا وتجالدوا وتواقدوا وتواقعوا وتعاقروا وتقارعوا ، والبيض يقد ، والبيض تقد ، والباسل يرد ، والباس يرد ، والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الاسلام يقوى ، ثم انحصروا في البلد ، وانحشروا على اللد ، وضافهم الرعب ، وضاق بهم الرحب ، وذلوا وخاروا ، وضلوا وحاروا ، ولما خام المقاتلة وخذلوا ، ظن أهل بيروت ان المسلمين دخلوا ، فأجفلوا الى البحر اذ عدموا سكينتهم ، ليركبوا سفينتهم ، ويخلوا مدينتهم ، فخرج أحد المقدمين يستدعي الامان ، ويستعدي الايمان ، ويطلب مثالا يعصمهم ، وذماما

يحرمهم ، وعهدا يسلمون به ويسلمهم ، وعقدا في عقد الأمن ينظمهم ، وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ، ومضض أجفاني ولعيون العواد ابرزني ، وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان ، فطلب السلطان كل كاتب في ديواني ، وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه ، فلم يرضه ماكتبوه ، ولم يكفه مارتبوه فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني ومرضت اذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني ، فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطي ، وكان الناس قد انسوا بما اسطره وأزبره ، وأنسوا سوى ماأذكره واحبره ، وألفوا الصحة فيه فألفوه ، ولقوا السقم في غيره فأنذفوه ، فلم يكن في ذلك التوقيع تعويق ، بل كله بتوفيق من الله توثيق ، فما فتح الا بمفتاحه ، ولارتق فتق الا باصلاحه ، ولاجلي ظلام الا باصباحه ، ولا وري زند الا باقتداحه ، وكانت يومئذ جمرة الحر متوهجة ، ووقدة القيظ متأججة ، وضرم مرضي ملتهب ، وروح روحي منتهبا ، وبقيت مضطربا ، ولقيت من ذلك الوصب نصبا ° وحصلت من الاقامة أو السفر على الخطر أو الحذر ، وتعذر المقام لعذر السقام ، واشتغلت عن الاء شغلي بالآلام،

وحملني اختلالي بنصبي ، على اخلالي بمنصبي ، وعزت علي مفارقة السلطان ، وهو باعزازي على مواصلة الاحسان ، فمضيت على مضض وانصرفت بمضرة ومرض ، وحملت الى دمشق في محفة ، وحصلت بفضل الله من طيب هوائها بعد الثقل ، بخفة ، فتفضل الله بالشفاء ، وبدل الكدر بالصفاء ، وعدت الى السلطان يوم فتح القدس ، وانتهت الوحشة الى الانس ، وتسلم السلطان بيروت يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى مطاع الامر ، مذاع السر في تضوع النشر ° وتوضح البشر ، مستفيض الزيادة ، ناجح الارادة ، راجح العبادة ، رابح المتجر ، واضح المفخر ، قد شب غرب الهدى ، وجب غارب العدى واستجدى من من الله منحا ، واستجد باستفتاحه فتحا ، واستفاد ملكا ، واستزاد ملكا ، وبر بيروت اذ برت ، وحفلت له اخلاف

الفتوحات فدرت • واستمرى صوب من عزائمه وصرائمه فاستمرت .

فتح جبيل

يوم الثلاثاء سابع عشري جمادى الأولى

ووصل كتاب الصفي ابن القابض . وهو يومئذ قد فوضت منه دمشق الى الكافي الناهض . يتضمن ان اوك صاحب جبيل اسر اليه في اسره . واستشاره في أمره . وقال له ان قنع مني بتسليم جبيل سلمت وسلمت . وابحتها لكم وتحرمت . واخرجتها من عصمتي وخرجت واعتصمت . فأنا اطلقها ان اطلقت . وازيلها من وثاقي اذا وثقت . فأجيب باحترازه من كيده . واحضاره في قيده . فأحضر في صفده وسمح ببلده . فخلص ناجيا وملص راجيا . وملكت مدينة جبيل وجرت عليها الفتوح النيل . ونحن يومئذ على بيروت حاضرون حاصرون . ولاعداء الله مصابرون مكابرون . وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين . مساكين لساكنة الفرنج مستسلمين . فذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة . وصدقت البشائر . وصدحت المنابر . وترنمت المحاريب . وترنحت المطاريب . وتليت الآيات . وجليت الغيابات . وخربت الكنائس . وعمرت المدارس وظهر غيب البيع . وشهر جمع اجمع . وقرىء القرآن . واستشاط الشيطان . ونطقت الأعواد . وحقت الأعياد . وخرست النواقيس . وبطلت النواميس . ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا نفوسهم . وانتعشوا من شكاة عثارهم . وانتفشوا من شوكة عارهم . وقروا في ديارهم . وقروا ابصار بانصارهم . وكان كل من استأمن من الكفار . يمضي الى صور محمي الذمار . وصارت

صور عش غشهم . ووكر مكرهم . وملجأ طريدهم . ومنجا شريدهم . ومأمن خاشيهم . ومكمن عاشيهم . وهي التي فر القومص اليها يوم كسرتهم . بل يوم حسرتهم .

ذكر هلاك القومص ودخول المركيس الى صور

ولما عرف القومص قرب السلطان منها اخلاها وخلاها . وآوى الى طرابلس وتوانى . فما متع بما ملك . وكان مما قيل :

راح يبغي نجوة   من هلاك فهلك

فما انجاه الفرار من القضاء . وفر من البلاء الى بلاده فوقع في البلاء. وظن ان صور خلت . وان مجانيها حلت . وان جماحها اذعن . وان كفاحها امكن. وان فرصتها انتهزت . وان حصتها احرزت . وان قيادها اطاع . وان مرتادها استطاع لكنها تعوضت عن القومص بالمركيس . كما يتعوض عن الشيطان بابليس .فادرك ذماء الكفر بعدما اشفى . وايقظ روع الروع بعدما اغفى . وضبط صور بمن فيها . من مهزومي الفرنج وبمذفيها . وكان المركيس من اكبر طواغيت الكفر واغوى شياطينه . وأضرى سراحينه . وأخبث ذئابه . وانجس كلابه . وانهش صلاله . وافحش ضلاله . واعوى اعوانه . واخون اخوانه . وأبغى بغاته . واجفى جفاته . وأرعى حماته . واحمى رعاته . وشر شراره . وأنكر نكاره . وافجر فجاره . واروغ ثعالبه . والسب عقاربه . واحذث معاهديه . وانكث معاقديه . وهو الطاغية الداهية . الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية . ولم يكن وصل الى بلاد الساحل قبل هذا العام . ولا خلف مقدمي الكفر غيره في الاقدام على خلاف الاسلام . واتفق وصوله الى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل . وعمن فيها من المسلمين ذاهل . فعزم على ارساء الشيني بالمينا .ثم

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة، ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض النيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقد في تعقدها .ولا متئد في توردها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن . فعطف الأعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محسور محصور . فلما أرخي من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعاقل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدها قد لان . وقد آتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . واباسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

الموثقة ويبرمه . ويجمع المفرق وينظمه . وسنذكر ما تجدد منه في أوقاته . وما فات من فرصة الامكان في دفع آفاته .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم والمعاقل التي يأتي ذكرها

وكان النزول على عسقلان يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة، ولما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل . ثنى عنانه يجر ويجري من العسكر والعثير على السماء والأرض الذيل والسيل . وعاد عابرا على صيدا وصرفند . وقد اورى فيهما باقتداح اقتراحه الزند . وجاء الى صور ناظرا اليها وعابرا عليها . غير مكترث بأمرها . ولا متحدث في حصرها .ولا معتقد في تعقدها .ولا متئد في تـوردها . وعلم ايضا انها ممتنعة . وعن سومها مرتفعة . فعمل بالحزم وعمد الى العزم . ودلته الفراسة على ان محاولتها تصعب . ومزاولتها تتعب . وليس بالساحل بلد منها أحصن . فعطف الاعنة الى ما هو منها أهون . وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية . وشرط معهما واستوثق منهما انه يطلقهما من الاسر والبلية . متى تمكن باعانتها من البلاد البقية . وعبر والعيون صور الى صور . والمركيس ما شك انه بها محسور محصور . فلما أرخي من وثاقه . واتسع ضيق خناقه . حلق في مطار اوطاره . وحرك لغواته أوتار أوتاره . واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل . واتفقا على طي المراحل ونشر القساطل . وحل معاقد المعاقل . وسل قواصم القواصل . ونزل عسقلان . وشديدها قد لان . وقد اتاها الله الخذلان . فتجلد من بها على الحصار . وتخوفت أسودها الخادرة من الاصحار . وتربصوا وتصبروا . وتترسوا وتستروا . وحاصوا وصاحوا . وحاذوا وناحوا . وابلسوا واسبلوا . واعولوا مما عليه عولوا . وشبوا وشابوا . وخبوا وخابوا . لكنهم استقبلوا الموت

واستقتلوا . وتعقدوا على الفتح وماتحللوا . واحزنوا في الاباء وما اسهلوا . وجهدوا وجهلوا . فأقام السلطان عليها مجانيق مجت نيقها . وفرجت بالحجار طريقها . ورجت بالتفريق فريقها . ووسعت بالتضييق ضيقها . وأضعفت بالتوثيق وثوقها . وجمع شمل الحجارة ب (النار التي وقودها الناس والحجارة)(البقرة ٢٤)ولفحتهم نيرانها وتوالت عليهم بعد الشرارة . وخربت منهم العمارة . ووجبت بالجسارة منا لهم الخسارة . وتهدمت الصخور بالصخور . ولزم عبث بورهم بالثبور . وجسر النقاب فحسر النقاب . وباشر الباشورة فرفع الحجاب . واشتد القتال .واحتد المصال . وراسلهم عند ذلك الملك المأسور . وقال قد بان عذركم حين نقب السور . وجرت حالات . وتكررت حوالات . وترددت رسالات . وقال لهم الملك الاسير . لا تخالفوا ما به اشير . واطيعوني ما استطعتم . واسمعوا مني اذا سمعتم . واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم . وحلية حالكم . ولا تخطروا غيري ببالكم . فاني اذا تخلصت خلصت . واذا استنقذت استنقذت . وخرج • مقدمون وشاوروا الملك . ونهجوا في التسليم نهجا سلك . وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين . واستوفوا بذلك الميثاق واليمين . وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة .وتلألأت السعود في أوجها بالاوجه السافرة . وممن استشهد على عسقلان من الامراء الكبراء ابراهيم بن حسين المهراني وهو اول امير افتتح بالشهادة . واختتم بالسعادة . وكان السلطان قد اخذ في طريقه اليها: الرملة،ويبنى،وبيت لحم.والخليل . واقام بها حتى تسلم حصون الداوية:غزة،والنطرون.وبيت جبريل . وكان قد استصحب معه مقدم الداوية وشرط معه انه متى سلم معاقلهم اطلقه • فسلم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ موثقه . واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر الملك العزيز عثمان . على عسقلان . بشارة وبشارة . وراية وآية . وهيأة وهيبة . وثرة وثروه . وهزة وعده . وجدة وجده .وشد وشدة . وحد وحدة . وضوغه . وروعه . ونخوه . وسطوه . وصوت وصيت . ومصاعيب ومصاليت . ومساعير .

ومغاوير . ودهم . وذهم . وشهب وكمت وصلاب وصلاد . وانجاب وانجاد . وجلب ولجب ، وبيض وبلب . وبيض وسود واساود وسود . وجرد . ومرد . وكهول . وفحول . ورقاق . وعتاق . وقود . واطلاب وابطال . وفوارس . ورجال . وخفاف وثقال . وعراب واعاريب . وسراحين وسراحيب . وجد لا يكل . وجد لا يمل . وجمر يتقي . وجمع لا يلتقي . ومعه رماة الاحداق كماة الاتراك . وهداة التوحيد عداة الاشراك . فقرت عينه بولده . واعتضد بعضده . ووضع يده بتأييد الله . في يده . وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر . بالفلك المواخر . وجاءت كأنها امواجا تلاطم امواجا . وافواجا تزاحم افواجا . تدب على البحر عقاربها . وتخب كقطع الليل سحائبها . وتجر بالذوابل ذوائبها . وتزاحم مناكب الاطواد مناكبها . والحاجب لؤلؤ مقدمها ومقدامها ، وضرغام غابها وهمامها ، فطفق يكسر ويكسب ويسل ويسلب . ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه . ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه . ويظهر في وقائعه حسن موقعه .

فتح بيت الله المقدس

ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا . وبالعزم غالبا . والنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا . قد اصحب ريض مناه . واخصب روض غناه . واصبح رائج الرجاء . أرج الارجاء سيب العرف . طيب العرف . ظاهر اليد . قاهر الايد . سني عسكره قد فاض بالفضاء فضاء . وملأ الملا فأفاض الآلاء . وقد بسط عثير فياقه ملاءته على الافق . وكأنما اعاد العجاج وأد الضحى جنح الغسق . فالارض شاكية من اجحاف الجحافل ، والسماء حاظية بأقساط القساطل ، وسار سارا بالاحوال الحوالي . مروية

احاديث فتوحه العوالي من العوالي . مطوية مدارج مناجحة على ماتنشره الآمال من الامالي . وقد حلت وعلت من مفارس النصر ومطالعة المجاني والمجالي . والاسلام يخطب من القدس عروسا . ويبذلها في المهر نفوسا ويحمل اليها نعمي ليحمل عنها بوسي . ويهدي بشرا .

ليذهب عبوسا . ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها . واجابة دعائها . وتلبية ندائها . واطلاع زهر المصابيح في سمائها . واعادة الايمان الغريب منها الى وطنه . ورده الى سكونه وسكنه . واقصاء الذين اقصاهم الله بلعنته من الاقصى . وجذب قياد فتحه الذي استعصى . واسكات الناقوس منه بانطا ق الاذان . وكف الكفر عنه بايمان الايمان . وتطهيره من نجاس تلك الاجناس . وادناس ادنى الناس . وافحام الافهام باخراس الاجراس . وطار الخبر الى القدس فطارت قلوب من به رعبا وطاشت . وخفقت افئدتهم خوفا من جيش الاسلام وجاشت . وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار انها ما عاشت . وكان به من مقدمي الافرنج باليان بن بارزان والبطرك الاعظم . ومن كلا الطائفتين الاسبتارية والداوية المقدم . فاشتغل بال باليان . واشتعل بالنيران . وخمدت نار بطر البطرك . وضاقت بالقوم منازلهم فكان كل دار منها شرك للمشرك . وقاموا بالتدبير في مقام الادبار . وتقسمت افكار الكفار . وايس الفرنج من الفرج . واجمعوا على بذل المهج .

ذكر كنيسة قمامة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس . ونسبك النفوس . ونسفك الدماء . ونهلك الدهماء . ونصبر على اقتراح القروح واجتراح الجروح . ونسمح بالارواح شحا بمحل الروح . فهذه قمامتنا فيها مقامتنا . ومنها قيامتنا . وتصحيح هامتنا . وتصحيح

ندامتنا . وتسيح علامتنا . وتسح عمامتنا . وبها غرامنا . وعليها غرامتنا . وباكرامها كرامتنا . وبسلامتها سلامتنا . وباستقامتها استقامتنا . وفي استدامتها استدامتنا . وان تخلينا عنها لزمت لامتنا . ووجبت ملامتنا . ففيها المصلب والمطلب . والمذبح والمقرب . والمجمع والمعبد . والمهبط والمصعد . والمرقي والمرقب . والمشرب والملعب . والمموه والمذهب . والمطلع والمقطع . والمربي والمربع . والمرخم والمخرم . والمحلل والمحرم . والصور والاشكال . والانظار والامثال . والآساد والاشبال . والاشباه والاشباح . والاعمدة والالواح . والاجسام والارواح . وفيها صور الحواريين في حوارهم . والاحبار في احبارهم . والرهابين في صوامعهم . والاقساء في مجامعهم والسحرة وحبالها . والكهنة وخيالها . ومثال السيدة والسيد . والهيكل والمولد . والمائدة والحوت . والمنعوت والمنحوت . والتلميذ والمعلم . والمهد والصبي المتكلم . وصورة الكبش والحمار . والجنة والنار . والنواقيس . والنواميس.قالوا: وفيها صلب المسيح . وقرب الذبيح . وتجسد اللاهوت . وتأله الناسوت . واستقام التركيب . وقام الصليب . ونزل النور . وزال الديجور . وازدوجت الطبيعة بالاقنوم . وامتزج الموجود بالمعدوم . وعمدت معمودية المعبود . ومخضت البتول بالمولود . وأضافوا الى متعبدهم من هذه الضلالات .ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات . وقالوا دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا نفوت . وعنها ندافع . وعليها نقارع . وما لنا لا نقاتل . وكيف لاننازع ولا ننازل . ولاي معنى نتركهم حتى يأخذوا . وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا . وتأهبوا وتباهوا . ومالنتهوا بل تناهوا . ونصبوا المجانيق امات الاسواء على الاسوار . وستروا بظلمات الستائر وجوه الانوار . واستشاطت شياطينهم . وسرحت سراحينهم وطغت طواغيتهم . واصلتت مصاليتهم . وذشرت طواميرهم . وتسعرت مساعيرهم . وهاج هائجهم . وماج مائجهم . ودعت دواعيهم . وعدت عواديهم . وسعت افاعيهم . وحضتهم

قسوسهم . وحرضتهم رؤوسهم . وحركتهم نفوسهم . وجاءتهم بجوى السوء جواسيسهم . واخبرتهم باقبال العساكر الناصرية منصورة الجنود . منشورة البنود . موصولة القواطع بالاشاجع مهجورة الغمود . مشهورة القواضب . مشهودة الكتائب . مقودة الضوامر الى نار العدى . موقدة الضمائر بنار الهدى . مشبوبة العزائم . مجذونة الصلادم . مسلولة الظبا . مطاولة الربا . مجذوبة أجنة اغمادها . مسنونة اسنة صعادها . مطلقة اعنة جيادها . محققة مغلقة طرادها . قد سالت الوهاد باكامها . وجالت الأعلام في اعلامها . وسدت الفجاج امواجها . وحجبت الغزالة عقبانها . والهبت الذبالة خرصانها . وجرت بالجبال رياحها . وجرت كالحبال رماحها واشتمل على الضراغم غيلها . واقبل بالعظائم قبيلها . ووافى كل واف بعهد ربه . كاف اكف خطبه . شاف لهم قلبه . ضاف بفيض شربه . خاف في لبوسه . باسل بباسه . عاسل بأمراسه . ناسل بنت الغمد من جفنه . غاسل نبت الحد بدم قرنه . واصل بيض الهند بسواعده . فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده جاد بجده . جاد بجده . وكل شاب لنار الحرب شاب . ورب دين لدين الرب راب . وكل جيش كالبحر عباب . وكل سال ذي ذباب عن الهدى ذاب . وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال . سائل من الله الشهادة عن حب البقاء سال . مائل في سبيل الله الى انفاق مال . واقبل السلطان باقبال سلطانه . وابطال شجعانه . واقيال أولاده واخوانه . واشبال مماليكه وغلمانه . وكرام امرائه . وعظام أوليائه . في مقانب بالمناقب مقتنبه . وكتائب بالمواكب مكتبة . وذوابل بالكواكب منصله . وجحافل بمضاء المضارب محفله . وألوية صفر للاواء بني الأصفر . وبيض وسمر تزرق زرق العدا من الموت الأحمر . وقباب وقبائل . وقنا وقنابل . وصوافن صواهل . وعوامل وعواسل . وفوارس فوارس . وكل من يبذل للشح بدينه النفوس والنفائس . وأصبح يسأل عن الاقصى وطريقه الادنى • وفريقه الاسنى • يذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى •

وصف البيت المقدس

وقال ان اسعدنا من الله على اخراج اعدائه من بيته المقدس فما اسعدنا .وأي يد له عندنا اذا ايدنا . فانه مكث في يد الكفر احدى وتسعين سنة . لم يتقبل الله فيه من عابد حسنه . ودامت همم الملوك دونه متوسنة . وخلت القرون عنه متخلية . وحلت الفرنج به متولية . فما ادخر الله فضيلة فتحه . الا لآل ايوب . ليجمع لهم بالقبول القلوب . وخص به عصر الامام الناصر لدين الله ليفضله به على الاعصار . ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الامصار . وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الاقوى . والمسجد الاقصى المؤسس على التقوى . وهو مقام الانبياء . وموقف الاولياء . ومعبد الاتقياء ومزار ابدال الأرض وملائكة السماء . ومنه المحشر والمنشر . ويتوافد اليه من اولياء الله بعد المعشر . وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج . ومنها منهاج المعراج . ولها القبة الشماء التي على راسها كالتاج . وفيه ومض البارق ومضى البراق وأضاءت ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق . ومن ابوابه باب الرحمة الذي يستوجب داخله الى الجنة بالدخول الخلود . وفيه كرسي سليمان ومحراب داود . وله عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوثر الحوض المورود . وهو اول القبلتين . وثاني البيتين . وثالث الحرمين . وهو احد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي انها تشد اليها الرحال . ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيده بنا الى احسن صوره . كما شرفه بذكره مع اشرف خلقه في أول سورة . وقال عز من قائل : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ». وله فضائل ومناقب لا تحصى . واليه ومنه كان الاسراء . ولأرضه فتحت السماء . وعنه تؤثر انباء الأنبياء وآلاء الأولياء . ومشاهد الشهداء . وكرامات الكرماء . وعلامات العلماء . وفيه مبارك المبار . ومسارح المسار . وصخرته الطولى . القبلة الاولى . ومنها

تعالت القدم النبوية . وتوالت البركة العلوية . وعندها صــلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين . وصحب الروح الامين . وصعد منها الى اعلى عليين . وفيه محراب مريم عليها الســلام الذي قــال الله فيه : « كلما دخــل عليهــا زكريا » . ولنهــاره التعبــد والليه المحيا . وهو الذي اسســه داود واوصى ببنائه ســليمان . ولاجــل اجلاله انزل الله « سبحان ».وهو الذي افتتحه الفاروق وا فتتحت بــه سورة من الفرقان . فما اجله واعظمه . واشرفه وافخمــه . واعلاه واجلاه . واسماه واسناه . وايمن بركاته وابرك ميامنه . واحسن حالاته واحلى محاسنه . وأزين مباهجه وابهج مزاينه . وقد اظهــر الله طوله وطوله .بقوله : «الذي باركنا حوله » . وكم فيه من الآيات التي اراها الله نبيه . وجعل مسموعنا من فضائله مرئية . ووصف السلطان من خصائصه ومــزاياه . مــا وثــق على اســتعادة آلائه مواثيقه والاياه . واقسم لا يبرح حتى يبر قسمه . ويرفــع بــأعلاه علمه . وتخطو الى زيارة موضع القدم النبوية قدمه . ويصــغي الى صرخة الصخرة .ويبغي بالبشرى بشر اسرة الاسرة . وسار واثقــا بكمال النصرة وزوال العسرة . وحسر الفرنج قناع الحسرة . ونزل على غربي القدس يوم الاحد خامس عشر رجب . وقلب الكفــر قــد وجب . وحزب الشرك قد شارف الشجي والشــجب . والقــدر قــد اظهر العجب . وكان في القــدس حينئذ مــن الفــرنج ســــتون الف مقاتل . من سائف ونابــل . وبــطل البـــاطل . وعاس عاســـل بالعاسل .قد وقفوا دون البلد يبــارزون ويحــاجزون . ويعــاجزون ويناجزون . ويرمون ويدمــون . ويحمــونه ويحمــون . ويحتــدون ويحتدمون ويضطربون ويضطرمون . ويذودون ويذبون . ويشــبون ويسبون . ويصرخون ويحرضون . ويلهثون ويتغــوثون . ويلوذون ويلوبون . ويجولون ويجوبون . ويقدمون ويحجمــون . ويتململون ويألمون . ويتعاوون . ويتضاعون ويحترقون البــلايا . ويقتــرحون المنايا . وقاتلوا اشد قتال . وناضلوا أحد نضــال . ونازلوا اجــد نزال . وطافوا بصحاف الصفاح . لارواء الظبا الظمــاء مــن مــاء الأرواح . وجالوا بالاوجال . واجالوا قداح الآجال . وصالوا لقطع

الاوصال . والتهموا . والتهبوا . وتأشبوا ونشبوا .واستهدفوا السهام . واستوقفوا الحمام . وقالوا كل واحد منا بعشرين . وكل عشرين بمئتين . ودون القمامة تقوم القيامة . ولحب سلامتها تقلى السلامة . ودامت الحرب . واستمر الطعن والضرب . فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب الى الجانب الشمالي وخيم هنالك . وضيق على الفرنج المسالك . ووسع عليهم المهالك ونصب المجانيق . ومري من آفاتها الافاويق . واصرخ الصخرة بالصخور . وحشر حشر السوء منهم وراء السور . فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس . الا ويلقون البوس . واليوم العبوس . ويلقون على الردى النفوس . فللداوية دوي . وللبارونية من البوار في الهاوية هوى . وللاسبتار تبار . وما للفريرية من الموت فرار . وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب . وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب . اذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة . والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة . والايدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة . والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة . وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالاحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة . فكائن المجانيق مجانين يرامون . ومناجيد لا يرامون .وحبال تجذبها حبال . ورجال تنجدها رجال . وأمات الدواهي والمنايا . وحوامل تلد البلايا . لا حجر عليها في حجر . ولا أمن عندها من حذر . ولا تخطر سهامها الا بالخطر . ولا خطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر . فكم نجم من سمائها ينقض . وصخر من ارضها يرفض . وجمر من شرارها ينفض . وما شيء كآفات كفاتها . وآيات نكاياتها . وركات اد راكاتها . ولفتات فلتاتها وجذبات عذباتها . فما زالت تقلع بمقالعها . وتقرع بمقارعها وتمتح بأشطانها .وتمرح في ارسانها . وتصدم . وتهدم . وتصرع . وتصدع . وتنهز بدلائها . وتجهز ببلائها . وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها . وتفل شمل المباني بتفريقها وتبديدها وتقوض القواعد بضربها من اساها . وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها . وتشفه

الموارد بشربها من كأسها . حتى تركت السور سورا . وجعلت الذاب عنه محسورا . وعاد العدو من نظمه المبتور مبتورا . وخرق الخندق وحفز الزحف . وظهر للاسلام الفتح وللكفر الحتف . واخذ النقب . وسهل الصعب . وبذل المجهود . وحصل المقصود . وكمل المراد . وكلم المراد . وثغر الثغر . وأمر الأمر . وأربى الارب . واستتب السبب وخاف القوم الوقم . واستعاضوا من الصحة السقم . واسلم البلد وقطع زنار خندقه . وبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه . وطلب الامان لقومه . وتمنع السلطان وتسامى في سومه . وقال لا أمن لكم ولا أمان . وما هو الا أن نديم لكم الهوان . وغدا نملككم قسرا . ونوسعكم قتلا . ونسفك من الرجال الدماء . ونسلط على الذرية والنساء السباء . وابى في تأمينهم الا الاباء . فتعرضوا للتضرع . وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع وقالوا اذا ايسنا من أمانكم . وخفنا من سلطانكم . وخبنا من احسانكم . وأيقنا ان لا نجاة ولا نجاح . ولا صلح ولا صلاح . ولا سلم ولا سلامة . ولا نعمة ولا كرامة . فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم . ونقابل الوجود بالعدم . ونقدم اقدام المستشري بالشر . ونقتحم اقتحام المستضري من الضر . ونلقي انفسنا على النار . ولا نلقي بأيدينا الى التهلكة والعار . ولا يجرح واحد منا حتى يجرح عشرة . ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى ايدينا بالفتك منتشرة . وانا نحرق الدروب ونخرب القبة . ونترك عليكم في سبينا السبه . ونقلع الصخرة . ونوجدكم عليها الحسرة . ونقتل كل من عندنا من اسارى المسلمين وهم الوف . وقد عرف ان كلامنا من الذل عزوف وللعز الوف . واما الاموال فإنا نعطبها ولا نعطيها . واما الذراري فانا نسارع الى اعدامها ولا نستبطيها . فأية فائدة لكم في هذا الشح وكل خسر لكم في هذا الربح . ورب خيبة جاءت من رجاء النجح . ولا يصلح السوء سوى الصلح . ورب مدلج اضله ظلام الليل قبل اسفار الصبح . فعقد السلطان محضرا المشورة . وأحضر كبراء عساكره المنصورة . وشاورهم في الأمر . وحاورهم في السر

والجهر . واستطلع خبايا ضمائرهم . واستكشف خفايا سرائرهم . واستورى زندهم . واستعلم ما عندهم . وراوضهم على المصلحة المترجحة . وفاوضهم في المصالحة المربحة . وقال ان الفرصة قد امكنت فنحرص في انتهازها . وان الحصة قد حصلت ونستخير الله في احرازها . وان فاتت لاتستدرك . وان افلتت لا تملك . فقالوا قد خصك الله بالسعادة . واخلصك لهذه العبادة . ورأيك حاشد .وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد . واستقر بعد مراودات ومعاودات . ومفاوضات وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات . على قطيعة تكمل بها الغبطة . وتحصل منها الحوطة اشتروا بها منا انفسهم وأموالهم وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم . على انه من اعجز بعد اربعين يوما عما لزمه . أو امتنع منه وما سلمه . ضرب عليه الرق . وثبت في تملكه لنا الحق . وهو عن كل رجل عشرة دنانير وكل امراة خمسة وكل صغير او صغيرة ديناران . ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والاسبتار في الضمان . وبذل ابن بارزان ثلاثين الف دينار عن الفقراء . وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء . فمن سلم خرج من بيته آمنا . ولم يعد اليه ساكنا . وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة . وردوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة . وكان فيه أكثر من مائة الف انسان . من رجال ونساء وصبيان . فأغلقت دونهم الأبواب . ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب . ووكل بكل باب أمير . ومقدم كبير . يحصر الخارجين ويحصي الوالجين فمن استخرج منه خرج . ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج . ولو حفظ هذا المال حق حفظه . لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنما تم التفريط . وعم التخليط . فكل من رشا مشى . وتنكب الامناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من ادلي من السور بالحبال . ومنهم من حمل مخفيا في الرحال . ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند . ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد . وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة . في عبادة

الصليب متصلبة . وعلى مصابها به متلهية . وفي التمسك بملتها متعصبة . انفاسها متصاعدة للحزن . وعبراتها منحدرة تحدر القطرات من المزن ولها حال ومال واشياء واشياع ومتاع واتباع . فمن عليها السلطان وعلى كل من معها بالافراج . واذن في اخراج كل مالها في الاكياس والاخراج . فراحت فرحى . وان كانت من شجنها قرحى . وكانت زوجة الملك المأسور ابنة الملك اماري . مقيمة في جوار القدس . مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها . ومن أدعى انه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الابرنساسة ابنة فليب ام هنفري اعفيت من الوزن . وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة ارمني ذكر انهم من بلده . وان الواصل منهم الى القدس لأجل متعبده . وطلب مظفر الدين بن علي كوجك زهاء الف ارمني ادعي انهم من الرها . فأجراه السلطان من اطلاقهم له على ما اشتهى . وكان السلطان قد رتب عدة دواوين . في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين . فمن اخذ من أحد الدواوين خطا بالاداء انطلق مع الطلقاء . بعد عرض خطه على من بالباب من الامناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله . انه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله . فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم . ويلبس امر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا امناء . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والدفع وبقي من بقي تحت رق واسار • ينتظر به انقضاء المدة المضروبة • والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة •

ذكر يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج . وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج . وزاد من الالسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج . وجلس السلطان للهناء . للقاء الأكابر والامراء والمتصوفة والعلماء . وهو جالس على هيأة

التواضع وهيبة الوقار . بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الابرار . ووجهه بذور البشر سافر . وأمله بعز النجح ظافر . وبابه مفتوح ورفده ممنوح . وحجابه مرفوع وخطابه مسموع . ونشاطه مقبل . ومحياه يلوح . ورياه يفوح . ومحبته تروق ومهابته تروع . وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع . ويده لفيض امواء السخاء . وفض افواه العطاء . ظاهرها قبلة القبل . وباطنها كعبة الامل . قد حلت له حالة الظفر . وكأن دسته به هالة القمر . والقراء جلوس يقرأون ويرشدون . والشعراء وقوف ينشدون وينشدون . والأعلام تبرز لتنشر . والاقلام تزبر لتبشر . والعيون من فرط المسرة تدمع . والقلوب للفرح بالنصرة تخشع . والالسنة بالابتهال بالله تضرع . والكاتب يذشي ويوشي ويوشع . والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع . فما شبهت قلمي الا بشائر أري البشائر . ولا وجهت كلمي الا لطائف وحي الطائف . وما ارسلت يراعي الا ليراعي الرسائل . ويشيع الفواضل . ويشبع القول . ويسبغ الطول ويطول بالحجة وان كان في حجمه قصر . ويصول باللهجة وان كان في هجمه حصر . ويسمن الملك به وهو نحيف . ويثقل الجيش به وهو خفيف . ويبدي بياض الغرة من سواد . ويجلو بهجة الضياء من محجة الظلمة . ويجري بالآجال والارزاق والمنع والاطلاق . والخلف والوفاق . والارقاق والاعناق . والعدة والانجاز . والجدة والاعواز والفتق والرتق . والرقع والخرق . وهو الذي يجمع الجيوش . ويرفع العروش . ويوحش المستأنس المستوحش . وينعش العاثر ويعثر المتنعش • يجري بالاعداء على الاعداء وبالايلاء للاولياء •. فبشرت باقلامي اقاليم البشر ، وعبرت باعاجيبي عن عجائب العبر وملأت البروج بالدراري والدروج بالدرر . ورويت تلك البشر حتى اطابت ريا الري وسمر سمر قند . واطربت وحلت حتى فاقت القنديد والقند . وعلقت بفتح القدس بلاد الاسلام وزينت . وشرحت فضيلتها وبينت . واديت فريضة زيارتها وتعينت .

ذكر حالي في العود الى الخدمة

وكنت قد انقطعت من الصحبة لما عرض لي في المرض من النوبة فاقمت بدمشق اداوي مزاجي واداري منهاجي واعالج تدبيري وادبر علاجي الى ان وصل الخبر بان السلطان نزل على القدس فوجدت خفة في النفس وانست بابلالي بعض الانس وامنت او ثوقي بالصحة والاستقامة من النكس ، فاوجهت الى تلك الجهة وسرت بطاعة النفس المتنزهة ، وعصيان الطبيعة المتكرهة واخترت تعب السفر على راحة الاقامة ورايت في ركوب طريق العطب وجه السلامة ووصلت بكرة السبت ثاني يوم الفتح بالسعد واليمن والنجح فوصلني السلطان عند وصولي باجلى بشاشة واحلى هشاشة وسرى عنه وسر وابر وبر وقال اين كنت. ولم ابطأت. وحيث اصبت في المجيء فما اخطأت وقد كنا في انتظارك. والسؤال عن اخبارك. وهذا اوان احسانك. فاين احسان اوانك. فاجر بنانك بجرأة بيانك. واجر في ميدانك. وما للبشائر الا واصفها. وللفرائد الا راصفها . وللفصاحة الا قسها . وللحصافة الا قيسها .

وكان قد جمع امس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها . واقتضاب معان وما اقتضاها ، وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز. فقال لهذا من هو اقوم به وعناني. فلما رآني ناداني واستدناني • فصرفت الى امتثال أمره عناني • وسلم إلى الكتب التي كتبوها . بالالفاظ التي رتبوها . وقال :

غيرها . ولاتسيرها . وغرضه اني اعدل معوجها . وابدل مثبجها . وافترع المعنى البكر للفتح البكر . واوشح ذكر اياته بايات الذكر . فاستجديتها فما استجدتها . واستجدبتها فما استملحتها . وشممتها وبها سهك . وكشفتها وسترها هتك . وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك . فشرعت في افتضاض الابكار . واقتضاء الافكار . واقتراح القريحة . واقتراء رحاب الكلم

الفصيحة . وافتتحت في بشرى الفتح . وكتاب الديوان العزيز واوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز . ووشحت ووشعت وشعبت واشبعت . واطلت واطنبت . وصبت واصبت . واعجزت واعجبت . واطربت واطربت . وابعدت وابدعت ورصعت وصرعت . وطابقت وجانست . ووافقت وانست وبينت فضل عصر الامام الناصر على الاعصار السابقة بالابصار الصادقة . وان هذا الفتح ادخره الله لزمانه ومكن منه لمكانه . وسلط عليه بسلطانه . وحسنه لنا بإحسانه . فقد عبرت القرون الماضية على حسرته . وظفر وهو واشياعه بمسرته . وما حصل لنا الا ببركة ايامه وحركة اعتزامه . وذكرت من هذا كل ماراق وشاق . ونور الافاق . وان هذه الفتوح تفوح بارج نشره . وتحيي بحيا برة . فما ايمن ايامنا بايامه . وما اسعد امالنا بانعامه . وكتبت الى كل ذي طرف بمعنى طريف . ولفظ فصيح حصيف . وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي . وحليت المعالي . وقرحت المعادي . وفرحت الموالي . وسارت شواردي الى المشرق والمغرب معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب . وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الاقصى وتلوت : (شرع لكم من الدين ماوصى)(الشورى ٤٢) وهنأت الحجر الاسود بالصخرة البيضاء . ومنزل الوحي بمحل الاسراء . ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء . ومقام ابراهيم بموضع قدم محمد المصطفى صلى الله عليه وعليهم اجمعين . وادام اهل الاسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم . والفتح العظيم فوفدوا لزيارته من كل فج عميق . وسلكوا اليه في كل طريق . واحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق . وتنزهوا من ازهار كراماته في الروض الانيق .

ذكر ماجرى عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الافرنج في بيع الامتعة واستخراج ذخائرهم المودعة . وباعوا بالمجان في سوق الهوان . وتقاعد الناس بهم فابتاعوها

بارخص الاثمان . وباعوا بأقل من دينار كل مـايساوي اكثـر مـن عشرة . وجدوا في ضم ماوجدوا من امـور لهـم منتشره. وكنسـوا كنائسهم . واخـذوا مـن نفـائسهم . ونقلوا منهـا الذهبيات والفضيات . من الاواني والقناديل والحـريريات والمذهبـات . مـن الستور والمناديل . ونقضوا من الكنائس الكنائن . واستخرجوا من الخزائن الدفائن . وجمع البطرك الكبير كل ماكان على القبـر مـن صفائح التبر ومصوغات العسجد ومصنوعات اللجين . وجمع ماكان في قمامة من الجنسين والنسجين . فقلت للسلطان،وهذه امـوال وافره. واحـوال ظـاهرة . تبلغ مـائتي الف دينار . والامـان على امـوالهم لاامـوال الكنائس والاديار . فـلا تتـركها في ايدي هؤلاء الفجار . فقال اذا تأولنا عليهم نسبونا الى الغدر وهم جاهلون بسر هذا الامر فنحن نجريهم على ظاهر الامان ولانتركهم يرمـون اهـل الايمان بنكث الايمان بل يتحدثون بمـا افضـناه مـن الاحسـان . فتركوا ماثقل وحملوا ماعز . وخف ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف وانتقل معظمهم الي صور .وكتفوا بالديجور . وبقـي منهم زهاء خمسة عشر الفا امتنعوا من مشروع الحـق فـاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا في تقـدير سـبعة آلاف فـانهم الفوا ذلا لم يكونوا به بالاف . فاقتسمتهم ايدي السبي أيدي سبأ . وتفرق الغانمون بجمعهم في الوهـاد والربـا . واحصـيت النسـاء والصبيان ثمانية الاف نسمة . عادت بيننا مقتسـمة • واصـبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة . فكم محجوبة هتكت . ومالكه ملكت . وعزباء نكحت . وعزيزة منحت . وبخيلة تسمحت . وخبيئة توقحت . ومجدة مزجت . ومصونة ابتذلت .وفارغة شغلت • وعقيلة امتهنت . وجميلة امتحنت . وعذراء افترعت . وشماء فرعت . ولمياه رشفت . وظمياء فرشت . وريضة أصحبت . ورضية أصبحت . فـكم تسرى منهن سري . وتجرأ عليهن جري . وقضى وطره عزب . ونفى نهمـه سـغب • وفثـأ سورته شـغب . وكم غانية اسـتخلصت . وغالية استرخصت . ووالية اعتزلت . وعالية استنزلت .ووحشية صـيدت، وعرشية قيدت . ولما تقدس القدس من رجس الفرنج اهل الرجز .

وخلع لباس الذل ولبس خلع العز . ابى النصارى بعد اداء القطيعة ان يخرجوا . وتضرعوا في ان يسكنوا ولايزعجوا . وبذلوا خدما وخدموا ببذول . وقابلوا كل مالزموا به بالتزام وقبول . واعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وشحت افواهم بما شجاهم فزاد شجاهم وهم فاغرون . ودخلوا في الذمة . وخرجوا الى العصمه . وشغلوا بالخدمه . واستعملوا في المهنه . وعدوا المنحة في تلك المحنة .

ذكر ماظهره السلطان في القدس من الحسنات ومحاه من السيئات

ولما تسلم السلطان القدس امر باظهار المحراب . وحتم به امر الايجاب . وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلة هريا . وقيل كانوا اتخذوه مستراحا عدوانا وبغيا . وكانوا قد بنوا من غربي القبلة دارا وسيعة . وكنيسة رفيعة . فاوعز برفع ذلك الحجاب . وكشف النقاب . عن عروس المحراب . وهدم ماقدامه من الابنية . وتنظيف ماحوله من الافنية . بحيث يجتمع الناس في الجمعة . في العرصة المتسعة . ونصب المنبر واظهر المحراب المطهر . ونقض ماحدثوه بين السواري . وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري . وعلقت القناديل . وتلي التنزيل . وحق الحق وبطلت الاباطيل . وتولى الفرقان وعزل الانجيل . وصفت السجادات . وصفت العبادات . واقيمت الصلوات . واديمت الدعوات . وتجلت البركات . وانجلت الكربات . وانجابت الغيابات . وانتابت الهدايات . وتليت الايات . واعليت الرايات . ونطق الاذان وخرس الناقوس . وحضر المؤذنون وغاب القسوس . وزال العبوس والبوس . وطابت الانفاس والنفوس . واقبلت السعود وادبرت النحوس . وعاد الايمان الغريب منه الى موطنه . وطلب الفضل من معدنه . وورد القراء وقرىء

الاوراد . واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد . وعبد الواحد .
ووحد العابد . وتـوافد الراكع والسـاجد . والخـاشع والواجـد .
والزاهي والزاهد . والحاكم والشاهد . والجاهد والمجاهد . والقائم
والقاعد • والمتهجد الساهد . والزائر والوافد . وصـدح المنبـر •
وصـدع المذكر . وانبعـث المعشر . وذكر البعـث والمحشر . واملى
الحفاظ . واسلى الوعاظ . وتذاكر العلماء وتناظر الفقهاء . وتحدث
الرواة . وروى المحـدثون . وتحذف الهـداة وهـدى المتحذفـون .
واخلص الداعوان ودعا المخلصون . واخذ بالعزيمة المتـرخصون .
ولخص المفسرون • وفسر الملخصون . وانتدى الفضـلاء وانتـدب
الخطباء . وكثر المتـرشحون الخـطابة . المتـوشحون بـالاصابة .
المعروفون بالفصاحة •الموصوفون بالحصافة فما فيهم الا من خطب
الرتبة • ورتب الخطبة . وانشأ معني شائقا . ووشى لفظا رائقـا .
وسوى كلاما بالموضع لائقا . وروى مبتكرا مـن البـلاغة فـائقا .
وفيهم من عرض علي خطبته . وطلب مني نصبته • وتمنى ان ترجح
فضيلته . وتنجح وسيلته . وتسبق منيته فيها امنيته . وكلهـم طـال
الي الالتهاء بها عنقه . وسال من الالتهاب عليها عرقه . ومامنهم الا
من يتأهب ويترقب . ويتوسل ويتقـرب . وفيهـم مـن يتعـرض
ويتضرع . ويتشوف ويتشفع . وكل قد لبس وقاره ووقـر لبـاسه .
وضرب في اخماسه اسداسه . ورفع لهذه الرياسة راسه . والسلطان
لايعين . ولايبين . ولايخص . ولاينص . ومنهـم مـن يقـول ليتني
خطبت في الجمعة الاولى . فلما دخل يوم الجمعـة رابـع شـعبان .
اصبح الناس يسـألون في تعيين الخـطيب السـلطان • وامتـلأ
الجامع • واحتفلت المجامع • وتـوجست الابصـار والمسـامع •
وفاضت لرقة القلوب المدامع • وراعت لحلية تلك الحالة وبهـاء تلك
البهجة الروائع • وشـاعت مـن سر السرور بلبس حبـر الحبـور
الشوائع • وغصت بالسابقين اليها المواضع • وتوسعت العيون •
وتقسمت الظنون • وقال الناس:هـذا يوم كريم • وفضـل عميم •
وموسم عظيم • هذا يوم تجاب فيه الدعوات • وتصاب البركات •
وتسال العبرات • وتقال العثرات • ويتيقظ الغـافلون • ويتعـظ
العاملون • وطـوبى لمن عاش • حتـى حضر هـذا اليوم الذي فيه

انتعش الاسلام وارتاش • وماافضل هـذه الطـائفة الحـاضرة • والعصبة الطاهرة • والامـة الظـاهرة • ومـااكرم هـذه النصرة الناصرية • والاسرة الامـامية • والدعوة العبـاسية • والمملكة الايوبية • والدولة الصلاحية • وهل في بلاد الاسلام اشرف من هذه الجماعة • التي شرفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة • وتكلموا فيمن يخطب • ولمن يكون المنصب • وتفاوضوا في التفـويض • وتحدثوا بـالتصريح والتعـريض • والاعلام تعلى • والمنبـر يكسى ويجلى • والاصوات تـرتفع • والجمـاعات تجتمـع • والافـواج تزدحم • والامواج تلتطم • والعارفين من الضجيج • ما في عرفات الحجيج . حتـى حـان الزوال . وزال الاعتـدال • وحيعـل الداعي (١) • واعجل السـاعى • فنصـب السـلطان الخـطيب بنصه • وابان عن اختياره بعد فحصه • واوعز الى القـاضي محيي الدين ابي المعالي محمد بن زكي الدين على القرشي بـان يرقـى ذلك المرقى • وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى • فأعرته من عندي اهبة سوداء من تشريف الخـلافة • حتـى تـكتمل له شرف الافـاضة والاضافة . فرقى العود . ولقى السعود . واهتزت اعطاف المنبـر . واعتزت اطراف المعشر . وخطب وانصتوا . ونطق وسكتوا . وافصح واعرب . وابدع واغرب . وابدع واغرب . واعجز واعجب .
واوجز واسهب . ووعز في خطيته . وخطب بمـوعظتيه . وابـان عن فضل البيت المقدس وتقديسه . والمسجد الاقصى من اول تـأسيسه . وطهيره بعد تنجيسه . واخراس ناقوسه واخـراج قسـيسه . ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقـوله تعـالى « ان الله يأمـر بـالعدل والاحسان . (النحل ٩٠) ونزل وصلى في المحراب . وافتتح ببسم الله من أم الكتاب . فائتم بتلك الامة . وتم نزول الرحمـه . وكمـل وصول النعمـة . ولما قضـيت الصـلاة انتشر الناس . واشـهر الايناس . وانعقد الاجتماع واطرد القياس . وكان قد نصـب للوعظ تجاه القبلة سرير . ليفرعه كبير . فجلس عليه زين الدين ابو الحسن علي بن نجا . فذكر من خاف ومن رجا . ومن سعد ومن شقي ومـن هلك ومن نجا . وخوف بالحجة ذوي الحجا . وجلا بنور عظاته مـن ظلمات الشبهات مادجا . واتى بكل عظه للراقدين موقظة . وللظالمين

محفظة . ولاولياء الله مرققة ولاعداء الله مغلظة . وضج المتباكون . وعج المتشاكون . ورقت القلوب . وخفت الكروب . وتصاعدت الزفرات . وتحدرت العبرات . وتاب المذنبون . واناب المتحوبون . وصاح التوابون . وناح الاوابون . وجرت حالات جلت . وجلوات حلت . ودعوات علت . وضراعات قبلت . وفرص من الولاية الالهية انتهزت . وحصص من العناية الربانية احرزت . وصلى السلطان في قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصله . والامة الى الله بدوام نصره مبتهلة . والوجوه الموجهة الى القبلة عليه مقبلة . والايدي الى الله مرفوعة . والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الاقصى خطيبا استمرت خطبته واستقرت نصبته .

وصف الصخرة المعظمة عمرها الله

واما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا . ولم يتركوا فيها للايدي المتبركة ولاالعيون المدركة ملمسا ولامطمحا . وقد زينوها بالصور والتماثيل . وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل . وكملوا بها اسباب التعظيم والتبجيل . وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة . باعمدة الرخام منصبه . وقالوا محل قدم المسيح . وهو مقام التقديس والتسبيح . وكانت فيها صور الانعام . مثبتة في الرخام . ورأيت في تلك التصاوير . اشباه الخنازير . والصخرة المقصودة المزوره بما عليها من الابنية مستوره .

وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة . فامر السلطان بكشف نقابها . ورفع حجابها . وحسر لثامها . وقشر رخامها . وكسر رجامها ونقض بنائها . وفض غطائها . وابرزها للزائرين . وأظهرها الناظرين . ونزع لبوسها . وزفاف عروسها . واخراج درها من الصدف . واطلع بدرها من السدف . وهدم سجنها وفك رهنها .

واراءة حسنها . واضاءة يمنها . وابداء وجهها الصبيح . وجلاء شرفها الصريح . وردها الى الحالة الحالية .

واشرقت القناديل من فوقها نورا على نور . وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد والاعتناء بها الى الان كل يوم في مزيد . ورتب السلطان في قبة الصخرة اماما من احسن القراء تلاوة . وازينهم طلاوة . وانداهم صوتا . واسماهم في الديانة صيتا . واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . واطيبهم في العرف والنشر . واغناه واقناه . واولاه لما ولاه . ووقف عليه دارا وارضا وبستانا . واسدى اليه معروفا دارا واحسانا . وحمل اليها والى محراب المسجد الاقصى مصاحف وختمات . وربعات معظمات . ولاتزال بين ايدي الزائرين على كراسيها مرفوعة . وعلى اسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة والبيت المقدس عامه • قومة تشمل مصالحها ضامه • فما ترتب الا العارفون العاكفون القائمون بالعبادة الواقفون • فما ابهج ليلها وقد حضرت الجموع • وزهرت الشموع • وبان الخشوع . ودان الخضوع . ودرت من المتقين الدموع • واستعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ويأمل بره . وكل اشعث اغبر لايؤبه له لو اقسم على الله لابره • وهناك كل من يحيي الليل ويقومه • ويسمو بالحق ويسومه • وهناك من يختم القرآن ويرتله . ويطرد الشيطان ويبطله . ومن عرفته لمعرفته الاسحار • ومن الفته لتهجده الاوراد والاذكار . وماا سعد نهارها • حين تستقبل الملائكة زوارها • وتلحف الشمس انوارها أنوارها • وتحمل القلوب اليها اسرارها • وتضع الجناة عندها اوزارها • وتستهدي صبيحة كل يوم منها اسفارها • ومااظهر من تولى اظهارها • واطهر من باشر اطهارها • وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعا وحملوا منها الى قسطنطينية . ونقلوا منها الى صقلية . وقيل باعوها بوزنها ذهبا . واتخذوا ذلك مكسبا . ولما ظهرت ظهرت مواضعها . وقطعها القلوب لما بانت مقاطعها . فهي الان مبرزة العيون بحزها . باقية على الايام بعزها .

مصونة للاسلام في خدرها وحرزها . وهـذا كله تـم بعـد انفصـال السلطان . والشروع في العمران • وامر بترخيم محراب الاقصى وان يبالغ فيه ويستقصي . وتنافس ملوك بني ايوب فيما يؤثـر بهـا مـن الاثار الحسنة . وفيما يجمع لهم ود القلوب وشـكر الالسـنة . فمـا منهم الا من اجمل واحسن . وفعل ماامكن . وجلى وبين وحلى وزين.
واشـفق واذفـق . واغنى واقنى . واعتني وابتني . ووف واوفي . واصفى واضفى . واتى الملك العادل سيف الدين ابو بكر . بكل صنع بكر . موجب لكل شكر . وكل فعل جميل ورفد جزيل . ومن جلى ومنح جليل . ومكرمة حميدة . ومحمدة كريمـة . وفضـيلة بهـا تـرجع . ووسيلة بها نجح . واتي الملك المظفر تقي الدين عمر . بكل ماعم بـه العرف وغمر . ونهى وامـر . وبنى وعمـر . ومـن جملة افعـاله المشكورة • ومكرماته المشهورة • انه حضر يوما في قبة الصـخرة . مع جماعة من السراة الاسرة . ومعه من ماء الورد احمال . ولاجـل الصدقة والرفد مال . فانتهز فرصة هـذه الفضـيلة التـي ابتـكرها بالافتراض . وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص . ثم غسـلها بالماء مرارا حتى تطهرت . ثم اتبع الماء بماء الورد صبا حتى تعطرت.
وكذلك طهر حيطانها . وغسل جدرانها . ثم اتـى بمجـامر الطيب فتبخرت . وتوضعت وتعرفت وفغمت مناشق أهل الهدى • وأرغمت أناف العدى • ومازال مع قوته • في تطهير البقعـة المبـاركة طـول يومه • حتـى تيقنت طهـارتها • وبينت عمـارتها • وراقـب نضارتها • ووقفت عليها الاستحسان نظارتها • ثم فـرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق • وافتخر بأن فـاق الكرام بـالانفاق • وجاء الملك الافضـل نور الدين علي .بـكل نور جلي • وكرم ملي • واحسان سني • وانعـام هني وعرف زكي وعرف ذكي • وعطـاء مبتدع • وانطلاق بحمده الالسن • وبسط بها الصنيعة وفرش فيهـا البسط الرفيعة • وهدي واهـدى • واعاد بعـد مـابدى • وانار واسدى • وافاض الندى • وفض الجدا • ونفض الاكياس • حتى خلنا به الانفاض والافلاس • وسيأتي ذكر مااعتمده من بناء اسوار القدس وحفر خنادقه • واعجز بما اعجـب مـن سـوابق معـروفة

ولواحقة ٠ مالم يشق احد فيه غبارة ٠ ولا ملك سابق فيه مضماره ٠
واما الملك العزيز عثمان ٠ فانه اتى بالاحسان الذي استظهر به
الايمان ٠ وذلك انه لما عاد الى مصر ٠ وقد شاهد الفتح والنصر ٠
ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ٠ ولم ير بعد حصولها به نقلها ٠
وكانت احمالا باموال ٠ واثقالا كجبال ٠ وذخائر وافية ٠ وعددا
واقية ودروعا سوابغ ٠ ونصولا دوامغ ٠ وخوذا وترائك ٠
ورماحات ونيازك ٠ وقنا وقنابل ٠ وصواقل وذوابل ٠ وجروخا
وقسيا ٠ ويمانيا وهنديا ٠ يزنيا ٠ وردينيا ومشرفيا ٠ وزيارات ٠
ونفاطات وقطاعات٠ وعدد النقوب . وجميع ادوات الحروب .
فاستظهرت بها المدينة . وتوثقت بها عراها المتينة . وكان من جملة
ماشرط على الفرنج ان يتركوا لنا خيلهم وعدتهم . ويخرجوا قبل ان
يستوفي الباقون في اداء القطيعة مدتهم . فتوفرت بذلك عدد البلد .
واستغني بذلك عما يصل من المدد .

ذكر محراب داود عليه السلام . وغيره من المشاهد الكرام وتبطيل الكنائس . وانشاء المدارس

واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الاقصى فانه في حصن
عند باب المدينة منيع-وموضع عال رفيع . وهو الحصن الذي يقيم به
الوالي . فاعتنى السلطان باحواله الحوالي ورتب له اماما .
ومؤذنين وقواما . وهو بمثابة الصالحين . ومزار الفادين
والرائحين . فاحياه وجدده . ونهج لقاصديه جدده . وامر بعمارة
جميع المساجد . وصون المشاهد وانجاح المقاصد . واصفاء الموارد
للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما
السلام . وكان ينتابهما فيها الانام . وكان الملك العادل نازلا في
كنيسة صهيون . واجناده على بابها مخيمون . وفاوض السلطان
جلساؤه من العلماء الابرار والاتقياء الاخيار في مدرسة للفقهاء
الشافعية . ورباط الصلحاءالصوفية . فعين للمدرسة الكنيسة

المعروفة بصند حنة عند باب اسباط • وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط . ووقف عليهما وقوفا . واسدى بذلك الى الطائفين معروفا . وارتاد ايضا مدارس للطوائف . ليضيفها الى ما اولاه من العوارف . وامر باغلاق ابواب كنيسة قمامة • وحرم على النصارى زيارتها ولاالالمامة • وتفاوض الناس عنده فيها •

فمنهم من اشار بهدم مبانيها .وتعفية آثارها . وتعمية نهج مزارها . وإزالة تماثيلها . وإزاحة أباطيلها . واطفاء قناديلها . واعفاء اناجيلها . واذهاب تساويلها . واكذاب اقاويلها . وقالوا اذا هدمت مبانيها . وألحقت باسافلها أعاليها . ونبشت المقبرة وعفيت . وأخمدت نيرانها وأطفيت . ومحيت رسومها ونفيت . وحرثت أرضها . ودمر طولها وعرضها . انقطعت عنها امداد الزوار . وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار . ومهما استمرت العمارة . استمرت الزيارة . وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها ولا هدها . ولايؤذن بصد ابواب الزيارة عن الكفرة وسدها . فان متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء . ولاينقطع عنها قصد اجناس النصرانية ولونسفت ارضها في السماء . ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان . ولم يأمرهم بهدم البنيان .

ومما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشارة بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهر زوري من رسالة :

قد سبقت البشائر بما من الله به من الفتح العظيم . والنصر العميم . والعرف الجسيم . والفضل الوسيم . واليوم الاغر الأعز الكريم . والشرف الذي نخره الله لهذا العصر ليفضله . على الاعصار . وأراد تأخير فخاره الى هذه الايام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد اعجز الملوك عن اقتضاء نصرته . وافتضاض عذرته . وخص من اجراه على يده بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس الى قدسه . وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع

الاسلام الغريب منه إلى داره . وخرج قمر الهدى بـه مـن سراره . وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الارض المقدسة الى مـاكانت موصوفة به من التقديس . وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس . وقد اقصي عن المسـجد الاقصى الاقصـون من الله الابعدون . وتـوافد اليه المصـطفون الاقـربون . والملائكة المقربون . وخرس الناقوس بزجل المسـبحين . وخـرج المفسـدون بدخول المصلحين . وقال المحـراب لاهله مـرحبا وأهـلا . وشـمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة مـاجمع للاسـلام فيه شملا . ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت مـن بـره أوفى نصيب . وتلت بالسنة عذبـة : « نصر مـن الله وفتـح قـريب» . (الصف ١٣) وغسلت الصخرة المباركة بـدموع المتقين مـن دنس المشركين . وبعد أهل الاحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسي من عهد المعراج النبوي . وقامت بدلالتها براهين الاعجـاز المحمدي . وصافحت الايدي منها موضع القدم . وتجـدد لهـا مـن البهجة والرسالة ما كان لها في القدم . فهو ثـاني المسـجدين . بـل ثالث الحرمين . فليهن البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر . واسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر. وتـطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الارجاس . وتضـوع أرج الرجاء في أرجائه بعد اليأس . فالحمد لله الذي أبدل الايحـاش بالايناس . ونزع عنه بافاضة خلع الرحمـة عليه لبـاس البـاس . وجعـل عصر مـولانا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه على الاعصر مفضلا . وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخـر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامـه فتـح البـلاد السـاحلية بأسرها . وعجل هلاك هذه الطائفة الطـاغية مـن الفـرنج بقتلهـا وأسرها . ولقد حـل الكفـر عروة عروة . وهـد ذروة ذروة وعادت حباله رثاثا . وعقوده انكاثا . ومساكنه اجداثا . وصار حديثا بعـد أن شوهد اهل الذمة أحـداثا . فـالرتاج مسـتفتح . والرجـاء مستنجح . والبلاد مستخلصه . والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة . والعقائل مفتضه . والمعاقل منفضـة . ومناهـل المنى

بمياه النجاح مرفضه . ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف
أهل الايمان منقضه . والثغور مبتسمه . والأمور منتظمة .
والحصون متسلمة . والخصوم مذعنة مستسلمة . وأرض الكفر
ينقصها الاسلام كل يوم من أطرافها . بل يستولى على اوساطها
وأكنافها ويعيد إلى الطاعة كرها مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها
وثمرها من رؤوس المشركين وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة
بحمد الله عظيمة . والموهبة وان خصت هذا الاقليم فهي في جميع
أقاليم المسلمين عميمة . فلو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة
ودلالة المكرمة لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى : « قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي
ولو جئنا بمثله مددا ». (الكهف:١٠٩) والقاضي ضياء الدين القاسم
الشهر زوري قد توجه لهذه النعمة واصفا . وعندما يأمر به من إنهاء
البشرى بها واقفا . وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه
عارفا . وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور
مصادر شرحه . ويفتح على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ماتسنى
من فتحه . ويحدث وهو الضياء بإسفار صبحه .

عاد الحديث الى ما جرى بعد فتح القدس

واقام السلطان على القدس حتي تسلم مابقربها من حصون .
واستباح كل ما للكفر بها من مصون . ورحل ولده الملك الافضل قبله
الى عكا عائدا . وعن حوزتها ببأسة وجوده ذائدا . ثم تبعه الملك
المظفر فرحل . وسار الى عكا . وبها نزل . ثم عمد السلطان الى ما
جمعه ففرقه . وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه . وفرضه
بعوارفه . وفضه في مصارفه . فسد خلة المعيل . وأسهم منه ابن
السبيل . وحمل به عن الغارم . واحيى به سنن المكارم . ووضعه
في اهله . وأحله في محله . وصرفه في حله . وقدم التوسعة على ذوي
الاضافة . والانفاق في أهل الفاقه . واجنى الاجناد منه مقاطف .

وجعل المجاهدين منه وظائف . وأبقاه بافنائه ذخرا للآخرة .
وكسبا المحامد الفاخرة . فاكثروا عذله على بذله . واستكثروا ما
فضه بفضله . فقال كيف أمنع الحق مستحقيه . وهذا الذي أنفقه هو
الذي أبقيه . واذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه . فانه
يخلصني من الامانة ويطلقني من وثاقها . فان الذي في يدي وديعة
احفظها لذوي استحقاقها . فما عاد الوفد إلا بوفر ودثر . والافاضة
في نظم من حمده ونثر . وحاز كل ذي فضيلة منه فضلا . وتفيأ كل
فئة ظلا . وكثر السائلون بالفضائل . والقائلون بالوسائل .
والقاصدون بالقصائد . والوافدون بالفوائد . والواردون بالفوارد .
والسابقون بالشوافع والشافعون بالسوابق . والسالكون للطرائق .
والمالكون للحقائق . فما ترى الا قارئا باللسان الفصيح . وراويا
للكتاب الصحيح . ومتكلما في مسألة . ومتفحصا عن مشكلة وموردا
لحديث نبوي . وذاكرا لحكم مذهبي . وسائلا عن لفظ لغوي .
ومعنى نحوي أو مقرضا بقريض . أو معرضا بتصريح أو مصرحا
بتعريض أو جالبا لمدحه . أو طالبا لمنحه . أو مستضعفا بفاقه . أو
مستسعفا بافاقه . أو ناشدا بنشيده . أو مسمعا بتغريب وتغريد .
وما فيهم الا من احظي بسهم . أو ارضي بقسم . وأصيب وأجيب .
واجيز بتقرير وتقريب ، فقيل له لو نخرت هذا المال للمآل . لشفيت
به مايقع من الاعتلال . وكفيت بالحقيقة ما يسنح من الاختلال .
فقال أملي قوي من الله الكافل بنجح الآمال . وجمع الاسراء
المطلقين . وكانوا ألوفا من المسلمين . فكساهم وأساهم .
وواساهم . وأذهب أساهم . فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره .
ناجيا من ضرره . ووضره ومكث السلطان عليه مقيما . للنظر في
مصالحه مستديما . فقيل ما قعودك عن صور . فأنهض اليها
عسكرك المنصور . وانت تدخلها يوم وصولك . وتحظى منها بمرادك
وسؤالك ، فآذن السير . وأخو الخير . وأحصر الخبر . واحظر
التأخير . وفي تعجيل النهضة . تحصيلها في القبضة . وفي بدار
الامام بدارها . بشرى أهلة الفتوح المقمرة بابدارها . فأسر
بالعسكر وأسرع . واقطع عن الكفر تلك الاعمال واقطع . واكثر من
كان يستحثه . وعلى النهوض يبعثه . الامير علي أبو أحمد المعروف

بالمشطوب . وكان من أكابر الامراء الكافين للخطوب . الكافين في الحروب . وكانت معه صيدا وبيروت . وهما بقرب صور وقد أشفق ان فتحها يفوت . فرأى الحظ في الحض . وحرض على الفرض . ولم يفكر في قوتها بانتقال رجال الساحل إليها . وأنه يشق في هذا الوقت النزول عليها . وكان المركيس عند اشتغالنا بالقدس باحكام صور مشتغلا . وعلى الاستهتار بتحصينها مشتعلا . وقد استجد قدامها من البحر الي البحر خندقا . وجعل الطريق اليها مضيقا . واحكم اسباب الاحكام . واخذ بالحزم في الاهتمام .

ذكر رحيل السلطان عن القدس على قصد حصار صور

ورحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان . وقد عنا لامره كل ناس وداني ودان . وودعه ولده عزيز مصر في اول منزله . وسايره لكراهية فراقه مقدار مرحلة . ثم اوصاه وشيعه واستصحب اخاه الملك العادل معه . مستظهرا بأخائه . ومستبشرا بآلائه . مستبصرا بآرائه . مستنصرا بمضائه مستغنيا بغنائه . وموفيا بوفائه . وهو بعقده يعقد وبحله يحل . وبشده يشد وبحلوله يحل . والعساكر بالفضاء فائضه . وللخطوب الريضة رائضه . والى استنهاض النصر لانصارها ناهضة ◦ ومن هواها انها في دأماء الدماء من أهل الكفر خائضة . فوصل الى عكا في أول شهر رمضان فخيم بظاهرها ظاهرا بخيمه . باهرا بتاخيره وتقديمه . قاهرا بشباه المبير . زاهرا بسناه المنير . جاهرا بسره . ظاهرا في بحره . وأقام اياما يتفكر ويتدبر . ويستشير ويستخير . والمشطوب يستعجله . ولا يمهله . ويحرض بالبعث . ويحذر من المكث . ويقول الفرصة تدرك بالحث . وتفوت باللبث . فسار لندائه ملبيا . ولجيش النصر معبيا . ولرأيه مقلدا . وبالله عز وجل

متأيدا . فوصل الى صور تاسع شهر رمضان يوم الجمعة . بالجحافل المحتفلة والجموع المجتمعة . فنزل بعيدا من سورها . سعيدا في ترتيب امورها . مضروبة قبابه . مجذوبة عرابه . محجوبة بالبنود والجنود أرضه وسماؤه . منشورة راياته منصورة آراؤه . خافقة على الاعداء عذبات عذابه . دافقة في ثرى النجح في الانحاء ثرات صوب صوابه.قد كست خيامه عري العراء . وفضت أشعة بيضه وسمره الفضة بالفضاء . واحتوت مضاربه المضيئة بالائه وارائه على مضارب المضاء . وباحت استباحه حمى المشركين الموحدين بسر السراء . فمكث أياما حتى تواصل المدد . وتكامل العدد . واستحضر آلات الحصار . واستكثر من المجانيق الصغار والكبار .ثم تقدم اليها وخيم عليها الثاني والعشرين من الشهر يوم الخميس .في خميس يسير في الوشيج كالاسد في الخيس .ونزلت النوازل المركسة من نزوله ونزاله بالمركيس .فوقع في الدرديبس .والعذاب البيئس . فكانما نفخ في صور صور . فحشر اهل جهنم وملأوا السور *. واتصلت زيارة الزيارات للجروح بالجروح . وتوافت مناجاة المجانيق بالخدوش والشدوخ . وارسلت الحجارات حاجرة جاجزه . والسنة اهل الرجس والرجز بالفحشاء راجزه . وكانت صور على السوء مستوية . وعلى كل من خرج من القدس وبلاد الساحل محتوية . فضجوا وارتجوا . وعاجوا وعجوا . ولجأوا ولجوا . ونصبوا على كل نيق منجنيقا .وشدوا من كل جانب ركنا وثيقا . وشدوا في الجبال . ومدوا في الحبال . ورموا من الشرافات الشرفات . بالشرور والافات . وسلب الحجار حجاها . وامت الامة وجاءها وجاها . فكم من رؤوس اطارت *
ونفوس ابارت . وبر خسفت . وبدر كسفت . وبحر نزفت . وطود نسفت . فحول السلطان الى قربها له خيمة صغيرة . وانهض بنات الحنايا بالمنايا عليها مغيرة . وصف الجفاتي . فصدف اتيها الاتي . وعارض بحرها بعرض بحره . ورد كيد الكفر من المنجنيق بما نصبه من المنجنيق في نحره . فاحبط اعمالهم باعماله . واهبط رجالهم برجاله . وقابل الابراج بالابراج . وحاول بالردى علاج العلاج . ووالاها حجارات وصخورا . حتى جعلت سور صور

سورا . وجد في امرها . واجاد في حصرها . ووصل اليه في تلك الايام . من قوي به ظهر الاسلام . ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . وهو الذي جل في سماحته وحماسته عن الموازن والموازي . فقدم مبارك القدم . متدارك النعم . عالي الهمم . غالي القيم . ومعه عسكر مجر لجب جلبه من حلب . قد استصحب البيض والاسمر والبيض واليلب . فظهر من الملك الظاهر ما ملك به قبول القلوب واغرى سيفه بسفك دم الكفر المطلول المطلوب ، ورأى نصب خيمته وراء خيمة ابيه المنصوبة ، وجد في استرجاع مدينة الاسلام المغصوبة ، وقدم بين يديه كل حجار راجح ، وكل نقاب ناجح ، لصم الصفاح مصافح ، وكل جاندار جان در الردى للكفار ، وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار ، وكل منجنيقي من جناته تقتبس ذبالة البسالة ، وكل جرخي رخي البال بالهدى لاصماء أهل الضلالة ، وكل رام رام النجم في الافق فراماه ، وكل همام هم بالخطب النازل فتحاماه ، وكل مقدام قرن دام ، وكل ضرغام صريعه في رغام ، وكل قمقام ضارب بصمصام ، وكل حام شارب بكأس حمام ، وكل نمر مشيح ، لذمار الكفر مبيح ، ولروح الجد مريح ، ولدماء المراح مزيح ، وكل فاتك لحبل الوريد باتك ، ولستر الحياة هاتك ، ولدم العداة سافك ، وكل شجاع الى الموت داع ، والى المجد ساع ، وللاسلام راع ، وللاشراك ناع ، وكل فارس للفوارس فارس ، وللذوابل في النحور غارس ، وفي اليوم العابس غير ناج ، وكل راجل لقهر العدو راج ، وبسر البأس مناج ، ومن شر الناس بشجاعته ناج، وبباغت المنون لمن يلاقيه شاج ، وكل عتال عات ، ونجار ونشار ونحات ، وحداد وقين وكل زائر للعدى بحين . فاجتمعوا وزحفوا . وجفوا على القوم ورجفوا واصموا وصمموا . وأوقدوا نارا واضرموا . وأطاروا من اعشاش الاقواس الى أوكار الاحداق افراخا . واستصرخوا الاقدار لاقدارهم فحبتهم حين أحبتهم اصراخا . وغلظوا على الرقاب الغلاظ بالرقاق . وأولوا الشقاء لاولى الشقاق . وتساعدوا وتناصروا وتطاولوا وماتقاصروا وما فيهم الا من أبان عن جد . وأبان بجد . والان الشديد . وأعان

السديد . وأفلح ففلح الحديد بـالحديد . أوجـد الجـديد ومـد المديد وصور مرتجة ابوابها. مرتجة اربابها. مغتصة جـوانبها . ومـرتصة عصائبها . مشحونة ابراجها مسجونة أعلاجها محصورة كلابهـا . محسورة ذئابها محشورة ثعالبها محشودة كتـائبها. والمركيس بهـا متجهم . وأبليس عليه متحكم . وقد سقط في يده . وسـخط لبلده . وارتبط بجلده واختلط بـكمده . وغلت مـراجل غلوائه وعدت غوائل عدوانه . وطـاش وجـاش وأوخش الاوبـاش والأوخـاش(٢) . وتوشح بالشر وتوحش . وترشح للردى وتحرش . واشتعل بجمره . وبعل بأمره وضرى بضره . وجال بوجله في مكر مكره . وكر في وكره وعشا عشه . وثبت على لجاجه . ونبت في اجاجه . وتعسر وتسعر . وتربص وتصبر . والسلطان مصيب حكمه . صائب سهمه . مـاض عزمه . قاض حزمه بارحده . ساطع سنى ايناسـه . قـد اتسـقت اسبابه . واتسعت رحابه . واجتمع اصحابة . فـازدحم على بـابه وحول قبابه كل مبارز بار . وكل ضارب ضار . وكل حجـار جـار . وكل رامح ورام . وكل حامل سلاح وحام . وكل سائف حائف . وكل عاصف قاصف وكل آكل للحرب شارب . وكل طالع بالضرب غارب . وكل هاجم هائج . وكل راجم رائج . وكل معتقل متقلد . وكل مجرب مجرد وكل ذكر مذكور . وكل غضنفر مشـكور . وكل ليث مـلاث . وكل غيث غياث . وكل سفاك لدم الكفر سفاح . وكل جـراد لسـيف الفتك جراح وكل مكتتم في درعه . مكتمن في ذقعه . ملتم بزغفه . مثلم بحرفه . مقنع بلامه . ملفع بقتامه . سابح في بحر الموت بسـابحة . سامع في الصباح صوت صائحه . فجمع اليه أمـراءه . واسـتحضر عظماء ملكه وكبراءه . وقالوا هذا بلد حصين . ومكانه مـن الارض مكين . في البحر ثلاثة ارباعه . وفي السماء ارتفاع بقاعه . وطـريقه الذي يسلك من البر اليه . قد احاط به البحر من جانبيه . وقد قطعو بخندق في عرضه . وعمقـوا ونزلوا في أرضـه . وكان مـن احـكام الحزم . واتمام العـزم . تـكميل الالات وتتميمهـا ، وتحصـيل المنجنيقات وتقديمها . وتركيب الأبراج والدبابات وتاليفها . وتقريب الجفاتي وتصفيفها ، وتسوية مناصب المجانيق وتسقيفها ، وتنحية اثقال العسـكر وتخفيفهـا ، وتنخية نخـب الرجـال

وتصريفها ، وتسنية الأسباب ، وتهيئة الأخشاب ، واستحضار كل مايراد للحصار ، واستنفار كل من يرام من الأنصار ، فاذا حضرت هذه الأشياء والأشياع ، وتيسرت وتوفرت الأصول والأتباع ، رحب الذرع في الحصر والمضايقة وطال الباع ، واذا حالت الاحوال وضاعت الأوضاع ، واختل واعتل النزال والنزاع ، وأمر السلطان بازاحة العلل ، وازاله الخلل ، وشغل الصناع بالعمل . ونقل الأمل الى طريق الأجل . وتقدم بقطع اشجار الغياض . وحمل مابتلك النواحي من الانقاض ، فاجتمع هناك كل آلة وآلة ، وذباب وذبالة ، وقضيب ومقضب ، ومجرب ومحرب ، وسم وشهم وشهب ودهم وأحمال ، وأثقال ، ونظمت الستائر من القضيب ، وصفت من سور صور بالمكان القريب ، وكمنت من ورائها الكماة ، واستترت بالجفاتي قدامها الرماة ، واشتغل كل صانع بصنعه ، وكل جامع بجمعه ، وكل دافع مانع بمنعه ودفعه ، فمن جان بمنجنيق ، ودان الى نيق ، وداب بدبابة ، وذاب بذبابة ، ونازع في حنيه ، وناز بمنيه ، وقاذف بشراره ، وحاذف بحجاره ، وهاتك من ستاره ، وفاتك بجساره ، وجاذب في حبال ، وجالب لوبال ، ومرو في قلع ومسو لقلاع ، ومدبر بايجاف،ومدمر بايجاع . ولم تزل المنجنيقات ترمي ، والحجارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروخ ، واطباق البرج تبني وتغطي بالسلوخ ، حتى امتد الزمان ، واشتد الحران ، وضاق الحصر واعتاق النصر ، وكان العسكر قد الف تيسر الفتح ، وتسرع النجح . فصعب عليه حين صعب ، وتبع هواه لما تعب ، ولم يألف الناس الا ارواء ظمأهم بنهله،والحصول على اكساب سهله ، وفتح مايقصدونه من البلاد بغير مهله ، فلما توقف هذا الفتح توقفوا ، وملوا وضجروا وتأففوا والسلطان مع ذلك يزداد في حده وجده ، وفي شده شدة ، وفي جده جدة ، يثبتهم بحثه ويحثهم على الثبات ، ويقويهم بجوده ويوجدهم القوات ، ويقول ان الله أمر بالمصابرة . ولامصابرة الا بالمثابرة . فاصبروا تفلحوا وصابروا تفتحوا .

ذكر ماتم على الاسطول

وكا ن السلطان قد نفذ من صور ، واحضر اليها من عكا مــاكان بها من مراكب الاسطول المنصور ، فوصلت منها عشر شوان ، على العدى جوان وللردى لهم جوان ، فعمرها بالرجال ، وجهزها للقتال واتصلت بها مــراكب لنا مــن بيروت وجبيل ، فــاستشعر المركيس واشياعه منها الويل ، وعمروا لهــم مــــراكب ، ورفعـــوا بهـــا مناكب ، وسفننا بــالساحل عندنا مــربوطة ، وبحفـظنا مضـــبوطة محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواريها ، وتجري سواريها وتسري جــواريها ، وتـــطير للقنص بـــزاتها ، وتغير للفــــرس غزاتها ، وتكسر بكواسرها ، وتدور بدوائرها ، وتــلاطم الأمــواج بامواجها ، وتزاحم الاثبــاج بــاثباجها ، وتــــرفع شرع الهـــداة بشراعها ، وتقلع عرش الغواه بــاقلاعها ، وتنقض على شــياطين الكفر شهبها ، وترفض بشآبيب الذعر سحبها ، فـكأنها الاســاود والسود ، وركبتهــــا الاســـــود ، مـــــن كل افعـــوان يحمله افعوان ، وشجاع امتــطته شــجعان ، وغراب بشــتات العـــدى ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيالهــا مــن اغربــة دارت بعقبان . واجنحــة طــارت بــظلمان .ورواس ســـوار ، وغواز بغوار ، وقد ملئت بــرماة الحــدق وحمــاة الحلق ، وزراقــي النار وطراقي الثار ، والخاطفين بــالخطاطيف . والقــاذفين بــالمقانيف والكالين بالكلاليب . والسالبين بالاساليب والحــاربين بــالمحاريب والراجمين بالرجام ، والمعلمين على الاعلام فانشقت مرائر الفرنج وازاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية . وتقلصــت جناة الجنوية ، وكرثت ادواء الداوية.وكثرت اسواء الاســبتارية . وزادت آلام الالمانية،وعادت أسقام الافرنسيسية . وصارت مراكبهم في الميناء لاتبين ، وشدتهم بشد شوانينا تكاد تلين . وقد ربطوا عندهـم السفن فلو خـــرجت كانت جبـــالا تســــفن . وأنس اصــــــحابنا بعلو الأمر ، وخلوا البحر.وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف.ودام

تطوا فهم، وا ستقام ايجافهم . وا غتروا بالسلامة، وسروا بـالاستقامة، وباتت لنا شوان خمس . لها بزوال الوحشة انس، وربـطت بقـرب مينا صور راصدة ، ولأخذ مايخرج من شوانيها قاصدة ، والدياجي مدلهمة والدواهي ملتمـة، وعيون الزهـر راقـدة، وعيون الكفـر ساهدة ، وللمكايد مصـايد، وللعـوادي عوائد، وللغـوائل طـوائل، وللمسائل دلائل ، وللمقادير مقـادر، ولا ولذلك المراد مـراد ، فحفـظ اصحابنا الى السحر الحرس ، وسـهروا الى أن شـارفوا الغلس وكل منهم لما استأنس نعس، وغاص في النوم وماتنفس، فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ونيرانهم محرقة . فـولجوا في البحـر والتجوا . وتطافروا (٤)الى الماء لينجوا وعدت العداة وأخذت تلك الشواني الشناة واسروا منها عدة، ولقـي البـاقون شـدة، فـاغتم السلطان بسبب هذه النكبة، وفرح الكفـار بتلك الضربـة، وكانت تلك اولى حادثة كرثت، وكارثة حدثت، ونائبة رابت، ورائبة نابت، فضـاقت القلوب، وضافت الكروب، وحصلت تجربة الغارين . واتصلت حـركة القارين . وا ستيقظ الناعس، وا ستوحش الآنس . وهب الراقـد، ودب الراكد ، وذاب الجامد . وشب الخامد، وهاج الزائر، ومـاج الزاخـر، وتحرك الساكن، وتورك الراكن، وعقل من غفل، وذهن من نهل، وتيقـظ من غفا ، وتحفظ من هفا، وتقبض من انبسط، وتقيد من نشط، وهـم من عف، والم من كف، ورجفت الآفـاق بـالمرجفين، وطـالت الســنة المعنفين، فمنهم من يؤنب ويذنب، ومنهم من يقـول ويطنب . والعـاقل ينجنب . ويقيم العذر لمن يذنب، ويقول هذه مـن الله مـوعظة، وآية لنا موقظة،

وا شار الناس بانفاذ الشواني البواقي، وقطعوا بان هذه القـطع لاتكفي لملاقاة في يلاقي ، فجهـزوها نهـارا وصـيروا سرهـا جهـــــــــــارا . وا مــــــــــــــروا بتسييرها الى بيروت . ورجوا ان تسبق وتفوت . وركب العسكر في الساحل يباريها . وهي بالقرب تجـارية في البحـر وهـو في البـر يجاريها . فابصر ملاحوها شـواني الفـرنج لمبـارزتها مبـرزة . وللاجهاز وراءها مجهزة . وكانوا رجالا من بحـرية مصر مجمعـه .

واصبحت قلوبهم بما جرى على انظـارهـم مـروعه . فتـوا قعوا الى الماء . وخافوا على دمائهم في الدأماء (٥) . وخرجوا الى البر على وجوههم . وخافوا مكرهم في مكروههم . وفروا وفـاروا . وطـاروا وثاروا . ولم يلفت احد منهم لبتا . ولم يزدهم دعاؤهم الى التجمـع الا تشتيتا . فظهر بهذه النوبة الواقعة . والنبوة الرائعـة . ان نواب مصر لم يجر منهم بالاسطول احتفال . ولم يرتـب فيه على مـا يراد رجال . وانما حشدوا اليها مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة . ومستضعفة غير آلفة ولا مـألوفة . فـلا جـرم لما شـاهدوا الروع ارتاعوا . ولما الزموا بالطاعة ما استطاعوا . وكان في جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل . وفيها بحرية من ذوي التجربة والتجري والتجرية ما لها حين ولا ميل . فطال بأسلحةالدفاع . وطار بأجنحة الشراع . وفاز بالسبق وفات . وهيهات ان يدرك هيهـات . فنجـا النجباء . وآب بهم الاباء . فبقيت المراكب البـاقية . وقـد اخـلاها حماتها الواقيه . فـرفعناها الى البـر . ورأينا الصـحة منهـا في الكسر . وفرغنا من شغل المراكب في البحـر . وهـذا والمنجنيقـات ترميهم . والمفوقات الموفقـات تعميهـم وتصـميهم . والقتـال قائم . والنزال دائم . والصخور تفلق . والصدور تقلق . والاحجار تقلقل . والاسوار تحلحل . والاطوار تضعضع ، والابـراج القيام تسجد وتركع . والاصـلاد تقـدح . والاجـلاد تقـرح . والالواح تصدع . والارواح بين أكفاء الكفاح مقسومة . والقروح بها قوارح القوارع مـوسومة . والحنايا واتـرة مـوترة . والمنايا مـأثورة مؤثرة . وظعائن الضغائن تحـدي بصـليل البـواتر . وصـهيل الضوامر . وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الاسنة،وعنت الاعنة مـن الغريم الكافر . والاوداج شـاخبة كالعيون البـواكي . والابشـار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي . وهناك العقـل معـزول بالتهور . والرأي مشـغول عن التـدبر . والعلم والحلم خـالطهما الجهل والسفاه والجرخي يبتدىء ببسم الله . والمنجنيقي يختم بـلا اله الا الله . والزراق بـالنار يطيب القـاروره . ويحـرق الساتورة . والسباق الى المضـمار يسـاور السـور ويبـاشر الباشورة .

ذكر خروج الفرنج القتال

ولما عثر الفرنج على تلك العثرة . ظنوا فينا الفتور لاجل تلك الفترة . وقالوا مراكبهم انحل تركيبها . وكتائبهم اختل ترتيبها . وستجرى بها عنا الندامة التي يحدثها تجريبها . وهم الآن على صوت لهم مخيف . وفوت بهم مطيف . فلا معنى لتقاعدنا عنهم . ولا وجه لتباعدنا منهم . فلوخرجنا صدمناهم . واقدمنا عليهم وهزمناهم . وخرجوا يوما قبل العصر . في عدة كالليل خارجة عن الحصر . قد التأموا واستلأموا وانضموا وانتظموا وتقدموا . واقدموا الطوارق حاملين . وللجمالات مسطرقين . وعلى الفرق مجتمعين . والجماعات مفرقين . وبالرهق جسادين . وبالجد مرهقين . وللعقود حالين . ومن الغمود سالين . وللمناصل منتصبين . والطوائل مقتضين . والسيوف مجردين . وللسيول مجرين ، وبالزغف ملتثمين . وفي الحتف مقتحمين . وبالقنطاريات طائرين . وبالزيارات زائرين . من كل مغوار وار . ومحضار ضار . وفجار جار . وجبار بار . وعدو عنود . وكند كنود . وداوي ذي دوي . وباروني غوي . ومن كل مصمم اذا وتر . مصم اذا اوتر . مصمم اذا نعر . مصر اذا ذعر . هائج اذا استعر . مائج اذا نخر . متنمر اذا زار . متذمر اذا زجر . فتناوبوا وتواثبوا . وتجاولوا وتجاوبوا . وبذوا من متارس المنجنيقات . وجذوا من مغارس الجنويات . وبنوا امرهم على ان الناس ناسون غارون . وان اهل البأس في خيمهم هاجعون قارون . فتلقاهم منا كل ضارب للهام . ضار بالحمام . وجار الى الاقدام . ملب الصوت . محب للموت . مشتهر باغناء . مشته للقاء . مستهتر بالبلاء . ماض بالمواضي . متقاض بالقواضب القواضي . وكل ابيض بالبيض ضراب وللبيض رضاض . واغلب المغلب قضقاض والى الحرب نهاض . وكل معتقل رماحه . معتقد مرحه . معتقد مزاحه . مهتز لطرب الشهادة . معتز بأرب

السعادة . متمن للمذون . متجن على الحذون . مضرم نار الحديد في ماء الوريد . مغرم في تفريق العدى بجمع العديد . مفرغ ماء الظبـاء على نار النجيع . مبلغ تلبية الهدى الى الصريخ السريع . قد تلثـم باللام . وتلفع بالاثام . وتقنع بالزرد . وتدرع بالجلد . وتجـوشن بالصبر . وتخشن بالزبر . وصال بالقضب .وجال بالهضب .وطال بالهندي على الفرنجي . وخاض من دم الشرك في البحر اللجي . فلم يسمع الا انين الحنية . لحنين المنية . ورنين الأوتـار . مـن كنين الأوتـار . وهفيف السـهام . لذفيف الهـام . وصـليل بنات الغمود . من غليل ابناء الحقـود . وهمهمـة الابـطال وغمغمـة الاقيال . وزئير الضرغام . وزفير الضرام . وقـرع الظبـا بالظبا . ووقع الشبا على الشـبا . وضـجة الحـديد مـن الحديد . وعجة الشديد . وجعجعة رحـى الحـرب . وقعقعـة اداة الطعن . والضرب . وجرجرة الفحول . وزمجرة النحول . وهـديل حمـام الحمـام . وهـدير قـروم الايدام . ووعوعة ذئاب الوغى . ومعمعة التهاب اللظى . ودعدعة صاع المصـاع . وجلجلة سباع القراع . وصـلصلة الزبـر . وولولة الزمـر . وحيعلة دعاة النصر . وهيضـلة رعاة الكفـر . ورفـرفة المريشـات الراشقة . وهسـهسة الطعنات الفـاهقة . وهـزهزة اعطـاف المران . وزهزهة اصوات الشجعان . ونعير الغـالبين . وصـخب السالبين . ولجـب الجـالبين . وزحير الطـالبين . ونهيت (٦) الأسـود . وقصـيف الرعود . وهـدة الأركان . ودهـدهة الرعان . وقهقهة الاقران . وقرقرة كوم البـكاء . وصرصرة بـزاة الغزاة . وكشيش صـلاص الضـلال . ونشـيش مـراجل الرجـال . وهـزيز ريح الياس . وهـزيم رعد المراس . وارنان المعـاجس . وارزام القناعس . وهيعـة الصـارخ . وصـيحة النافخ . وزعقة المسـتفزع . ونعقـة المسـتنزع . وشـعشعة الخرصان . وزهزمة النيران . وهينمة الاجل . وجمجمـة الزجـل وتـسـكبير المؤمنين . وتهليل المؤمنين . وصرير ابـواب الجنان للشـهداء . وصريف انياب الجنان للاعداء . والدعاء الى اللقاء . والنداء الى الارداء . وارتفعـت الاصـوات . واشـتبهت

الاحياء والاموات . ووقـــع اصـــحابنا فيهـــم وقـــوع النار في الحطب . واروهـــم في مـــرايا البيض وجـــوه العـــطب. وولوا مدبرين . بعد مـاتولوا مـدبرين وجذوبنا تشـــلهم . وجـــدودنا تفلهـم . ولتـــوتنا تـــرضهم . وليوثنا تفضـــهم . وعادوا الى البلد . عادمي الجلد . وفيهم ندوب وعليهـم نوادب . وايدي الردى بهم لواعب ومنهم لواغب . ودخـل الليل . وعمهـم الويل . واسرنا منهم مقدمين . ثبتوا على الموت مقدمين ، وممن اسر فخسر قومص عظيم . بل شيطان رجيم ، فترك في قيد اسار ، ليكشـف عن حـاله بالنهار . وكان الملك الظـاهر غازي . لم يحضر فيمـا تقـدم مـن المغازي . فرأى ان يحقـق اسـمه بقتله . فضرب عنقــه بحـد نصله . وكان للمركيس شبيها وفي الفرنج وجيها . فظنوا انه هـو لاشبه . وبات اهل الكفر بالعمى والعمه . ثـم عرف ان المركيس في نفسه لم ينكا ولم ينكب . ولما عطب اشـياعه لم يعـطب . وندم على ماقدم . ومن تقدم على غرة تندم .

ذكر مادبروه من الرأي ورأوه من التدبير

ولما امتنع البلد . وارتدع الجلد . وارتـج العـدو ولج . ضـجر العسكر وضج . واجتمع امراء . يحبون الاقـلات . ولا يكرهـون الفوات . وقالوا مطاولة ما نقصر عنه تتعب . ومـزاولة مـالايزول تصعب . ومحاولة الممتنع محـال . ومـطال غريم هـذا الفتـح مطال . وما يتسع لنا في هذه الحلبة الضيقة مجال . وهذا السلطان جلد على المصابرة . مجد في المكابرة . لايكترث بالكارث . ولا يدخل سمعه حديث الحادث . ولا يبالي بمن بلى ، ولا يفكر فيمـن ولي أو ولى ، ولا راحة له الا في التعب ، ولا يعلم له نصيب سلامة الا مـن النصب ، وكل مـا جـرى الى اليوم منا ومـن القـوم لم يرعه ولم يردعه ، وقد قيل اذا لم تستطع شيئا ، فدعه ، فكيف السـبيل الى

استعطافه ، وما التدبير في استسعافه . وبم نتوسل ونتوصل . واذا عرفناه ان الداء يعضل . والخطب يشكل لعله يحتوي الاقامة ويرحل . فاطلع على ما اسروه ، ومر به ما امروه ، وهمه ما به هموا . ولله ما به ألمواء فراسلهم بالهيبات وواصلهم بالصلات ورغبهم فيما عند الله من الزلفى ووعدهم بكل ما على أملهم اوفى . وقال لهم كيف نخلي هذا المكان . وما استفرغنا في شغله الامكان . وما استنفدنا في مضايقته الوسع ، ولا احسنا بعد في محاصرته الصنع ، ولا زحف اليه الجمع . ولا حفز منه المنع ، ولا اصابنا من مكر اهله مكروه ، ولا ورد الصبر منه بشفاه شفاهه مشفوه ، وكيف تجري بنا الخيل عنه قبل التجريب ، وهذا الارب ما يخطر بخاطر الاريب ، وما عذرنا الى الله والى المسلمين اذا تركناه ، وكيف نقول فاتنا هذا القنص وما ادركناه . والفرصة اذا فاتت لا تدرك ، والبغية اذا واتت فحقها تملك ، ونواظر الناس الى ما سيكون منا في صور صور ، وهذه الظلمة المدلهمة لا يجلوها الا نور . ومن لا يتعب لا يسترح ، ومن لا يحترق من الوجد لا يقترح . وان تجدوا تجدوا . وان تردوا عن المنهل العدى تردوا . وان تصبروا تصيبوا . فارجعوا الى الله وانيبوا . وهذا الراجل متواصل . والغرض به حاصل . ونحن نقسمه على المجانيق ونوبها . ونلزم كلا منهم ملازمة البقعة التي هو بها . وهذا البرج قد ارتفع . والوسع قد اتسع . وقد امتلات بالرجال طبقاته . وتوالت منها في الكفر شقاته . والنصر قد آن أن تطيب نشقاته . والمركيس ابعده الله قد قرب ان تخونه ثقاته . ورأينا طول الارواح . لا التطاول الى الرواح . وفي التثبيت على المقام . التوثب على المرام . ثم اخرج المال وصبه من اكياسه . وفرقه على ناسه . واذفقه في اهل باسه . وواصل البذل وهجر العذل . وملأ الايدي بالغنى . وروح الرجاء نجح المنى . وامر فامتثل وقال فقبل . ونادى فسمع . وحشر فجمع . وعادت عادة الحصار . واسعدت سعادة الانصار .

ذكر فتح حصن هونين

وورد الخبر عن هونين انها هانت . ودنا امرها ودانت . وان طريق فتحها بانت . وانها عنت فان الطاف الله اعانت . وانها بذلت ماصانت . ولم تبق للكفر على ماكانت وان شدتها لانت . وكان السلطان قد وكل بها بعض امرائه . وامده بمددي جنده وعطائه . فلبث الى هذه الغاية . يصبها بسهام النكاية حتى طلب اهلها الامان على الوفاء بما يشترطون . ويشطون منها ولايشتطون ، فاول ماقالوا امهلونا حتى نعلم مايكون من صور . ونكتشف هذه الامور ، فان اخذتموها اخذتم هذه . وشفعنا امر السلطان بنفاذه . وان خليتموها فياهوان هونين . ونحن نجعل على هذا عدة من الاصحاب مرهونين ، فندب السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي وهو من اكابر عظمائه ، واكارم امرائه ، وامره باستنزالهم واستزلالهم ، والامان لنسائهم ورجالهم ، فمضى ورغبهم في الامن والسلامة ، وخوفهم عقبى الحسرة والندامة ، وقال لهم انتم بين حصنين هما تبنين وبانياس ، وماذا تصنعون اذا خاب رجاؤكم وبان الياس ، واذا ابيتم التسليم عدمتم سلامتكم ، واقمتم قيامتكم . واستباحكم السلطان واستباكم . وكرهكم واباكم . وحل بالقتل حباكم . وفل شباكم . فما زال يرغب ويرهب حتى رغبوا ورهبوا . واخذوا الامان على ان يذهبوا . ووصل الخبر الى السلطان وهو على محاصرة صور مقيم . ولمقاتلة اهلها مستديم . والى ماعند الله من نصره مستنيم . وتسلمت هونين بما فيها من عدة ونخيرة . وقوة وميرة . والات وادوات كثيرة . وتسلمها بيرم اخو صاحب بانياس . واستشعر الفرنج منها الياس . وكانت قد بقيت من الحصون التي تعذر فتحها . وبرح بالقلوب برحها من عمل صيدا: قلعة ابي الحسن .وشقيف أرنون . ومن عمل طبرية والغور: صفد .وكوكب .وهما من احكم الحصون وقد وكل بهما اميرين ٠ من خواصه كبيرين . وقد ضيقا على من بهما من العلوج . ومنعا من

الدخول والخروج . واقام السلطان على صور محاصرا . والدين الحنيف ناصرا . وليد الشرك بمطاولته قاصرا . يقاتلها بكل سلاح . ويقابلها بكل كفاح . حتى كادت تستكين . وشدتها تلين وابيتها تدين وسريرها يبين . وكان قد دخل كانون . وظهر من سر الشتاء المكنون . وورقبض البرد الايدي عن الانبساط . واعدم الهمم دواعي النشاط . وعادت العزائم المتوهجة تبرد . والصرائم المتاججة تخمد . والنخوات المتحركة تجمد . والحميات المتيقظة ترقد . والضرام المحتدم يخبو . والحسام المخذم ينبو . والطباع تتكره . والسباع تتأوه . ومناوبة القتال تختل . ومعاقدة النزال تنحل . فلحاهم السلطان على مالاح .وعرفهم ان في الصبر الفلاح . وامرهم بالمقام والاستقامة على الامر . وانه لاظفر الا مع الصبر . وان الظلم تنجلي عند تجلي الفجر . وكان في الامراء جماعة منتجون منتخون . أبت أمانتهم في حمية الدين أن تخون مقيمون على الكريهة ولاكراهة منهم للمقام . ويحبون ان تقام وظيفة الانتقام ويؤثرون بانفسهم في طاعة الله وموافقة السلطان . وعصيان الشيطان في مفارقة المكان . فاذا ارجف بالرحيل رجفوا . وسخفوا راي المشير به وضعفوا . واضطربوا واضطرموا وتذمموا وتلوموا . وقالوا كيف نترك ماحويناه . ونعوج ماسويناه . وننشر كفرا طويناه ونهجر خيرا نويناه . ونداوي توحيدا شفيناه . ونشفي اشراكا ادويناه . ومااللراحة اليوم طالب . الا وهو غدا بالتعب مطلوب . ومن امسى وهو الآن غالب . يوشك اذا ولى ان يصبح وهو مغلوب . وهذه صورة صور قد تشوهت . وموارد قوتها شفهت . واذا تخلينا عنها وخليناها ترفهت واستفرهت . واذا حلمنا عنها سفهت . وهبت من غشية خشيتها وتنبهت . وتارك المصابرة مصاب . والاخذ بالمثابرة مثاب . فمنهم الامير طمان بن غازي ماطمأن يوما في الغزو ولاسكن . وعز الدين جرديك النوري كم جرد على اعناق المشركين سيفه الذي به تمكن . وهما همامان مقدمان مقدامان . من عادتهما الوثبات على ثبات العداة يرومان الثبات ولايريمان . وجماعة اخر بهما يتشبهون . وبالكريهة لايتكرهون . واما الباقون فانهم احبوا البقاء . وابغضوا اللقاء . واتقوا الاتقاء . وابوا الا الاباء . وقالوا قد

لفبنا . ومابلغنا . وجرحنا . ومارجحنا . فلورحنا استرحنا . ثم عجنا ورجعنا . ومانحن باول واضع للاصر . راجع عن الحصر . معتف العقل . مستعف من الثقل عامل بمحض الحزم . عالم بوقت العزم . هذا وقد علم ماعرا من ضروب الكروب . وثلم مابرى من غروب الحروب . وبقدر ماهدم من مباني البلد هدم اكثر منه مباني الجلد . فقال السلطان بل نجد في القتال اياما . ونقدم بأسا واقداما . ونزحف بجميع رجالنا . ونصدقهم في نزالنا . ونقاتلهم من جميع النواحي . فان تعذر لاح العذر للاحي . واصبح العسكر وقد استعد . وامتد قبالة البلد من البحر الى البحر والنصر استمد . وركب الامراء باجنادهم ووقفوا . واثمر لهم ورق الحديد الاخضر فقطفوا . وتناوبوا في الزحف . وتعاقبوا على الحتف . وكلما ترجلت طائفة قاتلت ثم رجعت . وجاءت الطائفة الاخرى فصدقت وقرعت . وصارعت وصرعت . فلم ير اشد من ذلك اليوم . في وقم القوم . واجترأ اصحابنا . وراض جماحهم اصحابنا . وخاضت خيلنا في البحر خلف منهزميهم . واقدم من احجم منا لاحجام مقدميهم . فحينئذ طارت للحين من السهام زنابيرها . واسعرت الحرب بضرام الضراب مساعيرها . وامتلأت السعير بقتلاهم وقالت هل من مزيد . وفتحت الجنة لمن باع نفسه بها فقالت هل من شهيد . وانقضى ذلك اليوم وقد كلت الاسلحة . وملت الاجنحة . وانهاضت قوادم الانهاض . وانفضت الجموع من اقواء القوى والانقاض . وبات الناس على ضجر وضجاج . ولجب ولجاج . فلو عاودنا البلد بمثل ذلك اليوم اياما . لذلنا من فتحة مراما لكنهم اصبحوا على سأم.

والموا بابداء الم . وقالوا: قلت كثرتنا . فلو اقيلت عثرتنا لانجبرت كسرتنا . وفينا الجريح والطليح . وحتى متى لانستريح . وقد توالت الامطار فلامطار . وعلينا هذا الحصار صار . وكانت الجراحات كثيرة . والاحتياجات بها مثيرة . ومنع البرد من العمل . وامتنع سد الخلة وتسديد الخلل . ومازالوا يراسلون السلطان ويشيرون بالرحيل . ويقولون لاتتعب على تحصيل المستحيل . ولاتذهب الايام في ابرام المستحيل . ودعنا نستجد دعه . ونسترد قوى عند لطف الله مودعه . ونشتغل بفتح الايسر وهو اكثر . ونؤخر التشاغل بما لعله

يتعسر . وكان السلطان في تلك المدة . انفـق امـوالا كثيرة على تلك الالة والعدة . ومالمكن نقلها . ولامكن من نقلها ثقلها . ولو ابقـاها لقوي بها الكفر . واشتغل بسببها الفكر . فـراى نقضـها . وفـك بعضها . واحرق منها ماتعذر حملها . وشتت بعد التجمع شـملها . وحمل بعضها الى صيدا وبعضها الى عكا . وجرت اعاجيب مـاتكاد تحكى . وسر ذلك الرحيل قوما وساء قوما فأضحك وابكى . وتـأخر السلطان وتبـاعد عن قـرب صـور الى المنزلة الاولى ويد ايده على جميع الاحوال طولي . فشرع العسكر في الانصراف .وتزود للاذفكاء والانكفاف . واخذ الجمع في الافتراق . وانتشر في الافاق . ونهـب من نهب على مـواعدة في المعـاوده . ومسـارعة في الرجـوع الى المساعدة . وودع الملك المظفر تقـي الدين مـن هناك . واوعد بـوعد عوده الاشراك . وسار على طريق هونين الى دمشق مغذا . وسارت معه عساكر الموصل وسنجار وديار بكر ، وكل طير منهم اشتاق الى وكره . وماعرفوا ان هذه الراحة القليلة تعقبهم تعبا كثيرا .وان هذا الهدو الذي مالوا اليه يصير لحثيث حركتهم مثيرا . وبقي السـلطان يتلهف على ماتركه . ويتأسف على الفتـح الذي مـاادركه . والذين اشاروا بهذا الراي يسهلون الصعب . ويهونون الخطب .ويقـولون نمضي ونعود . وتسـاعدنا السـعود . وتتجـدنا الجنود . وتتجـدد الجدود . ويورق العود . وتصدق الوعود . واذا اقبل الربيع . اقبـل الجميع . وطلب الزمان . ووفى الضمان . وامكن الاسـعاد وسـاعد الامـكان . ومـازالوا بنا حتـى رحلنا . وعلى الراي الرائب منهـم احلنا . ولو اقمنا لقمنا . وقمعنا العدو ووقمنا . لكن الله قدر وقدره محتوم . وسر غيبه المكتوب في اللوح المحفوظ مكتوم . واراد ولامرد لمراده . وقضى ولامحيد لما قضاه في عباده . وان تبقـى صـور في تلك الحالة للكفر وكرا . وللمـكر مـكرا وللشرك شركا . ولنار جهنم دركا . وقدمنا عن صور الارتحال . آخر شوال . غرة كانون الثاني وعم البرد في القاصي والداني . وتـوحمت السـماء مـن حـوامل السحائب . وتوحلت الارض مـن سـوائل المذانب . والتكب الرياح عواصف عواسـف . قـواصم قـواصف . والسـحب الدلاح (٧) هوامل هوامر رواعد رواعف . والبرد قارس . والماء جامد جامس .

والشتاء شتات بتات . وما مع مقامه وثباته مقام وثبات . وسرنا عبابيد في ابابيد . وبين جليد وجلاميد . على الناقورة وطريقها . والاثقال قد ازدحمت في مضيقها . والاحمال تتواقع . والاجمال تتقاطع . والسبل تنسد . والسابلة ترتد . وسلكت الخيل الجبل . وقطع العسكر طريقه الى المخيم ووصل . وتأخر الثقل . الى ان تخلص . وتقدم من سبق وتملص . ووصلنا الى عكا في ثلاث مراحل . وقد غطى بحر عسكرنا الساحل . وخيم السلطان على باب البلد بجانب التل . نامي الفضل . دائم الفكر في تدبير الامر وتدمير الكفر . واثقا من الله بانجاز النصر

ذكر الحادثة التي تمت على محمود أخي جاولي حتى استشهد هو وأصحابه

ويوم رحيلنا من صور نعي محمود أخو جاولي . وكان من جملة الامراء اعف ولي ولي . وعاش مجاهدا زاهدا وعيشه زهيد . وقضي صابرا مصابرا وهو سعيد شهيد . وسبب ذلك ان السلطان لعلمه ببيانته وامانته . وبأسه وبسالته . ويقظته ونهضته وحزامته . وكله بحصن كوكب الذي على الغور . وكانت فيها جمرة الاسبتارية القريبة الجور البعيدة الغور . وقد تمنعوا بشدتهم . واشتدوا بمنعتهم . وهو حصن لايرام . وركن لايضام . ومعقل لايسامى ولايسام . وذروة لاتفرع . ومروة لاتقرع . وعقيلة لاتفترع . وبكر لاتخطب . وقلعة لاتطلب . ولما ملك الساحل . وهلك الباطل . ونظمت الحصون في سلك الحصول . وظفر الاسلام بالفتح المأمون والمأمول . وافتتحت طبرية واعمالها . وتملكت اغوار تلك البلاد وجبالها . تمنعت قلعتا صفد بالداوية . وكوكب بالاسبتارية . وتعذر فتحهما . وتعسر منحهما . ووقف أمرهما . وأعدى البلاد ضرهما . فرتب على صفد جماعة يعرفون بالناصرية . من أهل الابية والنخوة والحمية . ومقدمهم مسعود الصلتي اصلتت سعادته منه سيفا

إصليتا . لايلفت عن لقاء العدو ليتا . ورتب على كوكب هذا محمودا . وكان بهما أمر الحفظ محمودا . وذلك بعد الكسرة . وصحة النصرة . فأحاطا بالحصنين واحتاطا . وظهرت كفاية كليهما بما تعاطى . وكان الحفظ مستمرا . والاحتياط مستقرا . حتى أنس محمود بضعف أهل الحصن . وظن أنهم في غاية الوهن . وسكن إلى سكونهم . واغمضت عينه لتوهم إغماض عيونهم . واسترسل فيما حزب . واستسهل ما صعب . وأخل بالحزم . وخلا من العزم . واحتقر عدوه . وحسب من العجز هدوه . وكان مقامه بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا . وقد أقام به جاما جامعا فيه ماأمر وحلا . وكان ذا دين متين . ومكان من النسك مكين . وهو يسهر أكثر ليله متهجدا . وقد جعل منزله مسجدا . وأصحابه من حوله . يحفظونه بقوة الله وحوله . فلما كان آخر ليلة من شوال . وهي ليلة ذات أهوال . مظلمة مدلهمة كافرة مكفهرة . ليلاء قتماء . باردة مقشعرة . أنوارها بائدة . وأنواؤها جائلة . وهزيم جنحها دجوجي . وهزيم ودقها لحي . وسحبها سحم . وأقطارها دهم . وصبيرها صيب . وصنبرها مشيب . لايفرق فيها السماء من الارض . ظلمات بعضها فوق بعض . خرج أهل كوكب وقت السحر . والناس رقود والحراس هجود . والجنود جمود . والانفاس خمود . والهمم ركود . والسيوف اسرار . أضمرتها الغمود • والعدم قد دنا منه الوجود • فما أحس محمود المحمود • وأصحابه الهمود الا بالفرنج وقد سلكوا اليهم . وبركوا عليهم . فقصروا عن الامتناع . ولم يقدروا على الدفاع . فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وبقي الامير حتى استشهد محصورا . وكان أمر الله قدرا مقدورا . ونقلوا الى القلعة ماوجدوه من سلاح ومتاع . وخيل وكراع فلما عرف السلطان ماأصابهم . احتسب عند الله مصابهم . وأحمد الى الجنة مآبهم . فندب الى كوكب صارم الدين قايماز النجمي الصارم المخدم . والحازم المقدم والعضب البتار . والندب المغوار . والأسد الاسد . والأحمى الاحمد . في خمسمائة فارس من ذوي النجدة . والبأس والشدة . فسد الطريق بمضايقتها عنها . ومنع من الدخول اليها والخروج منها . ولم يزل

عليها مقيما . ولحصرها مستديما . إلى أن يسر الله فتحها . وسهل للآمال فيها نجحها . وسنذكر ذلك في موضعه . وكيف أشرق صبح النصر من مطلعه .

ذكر ما جرى بعد نزول السلطان على عكا بعد عوده من صدور

استأذن الملك الظاهر والده في العود إلى حلب فأذن له وودعه . بعدما أمره بكل ما يجب تقديمه من الاستعداد فامتثله واتبعه . وودع الملك العادل واوجه إلى مصر . مستقبل الظفر والنصر . وأقام الملك الافضل بعكا مستقلا بالآراء . ومستهلا بالآلاء . مستبدا بتدبير أسباب الهدى . مستعدا لتدمير أحزاب العدى . وأقمنا بالمخيم لخدمة السلطان ملازمين . ولاقامة شرائطها مداومين . وكل يطلب اننا في الانصراف . ويستقيم على نهج الانحراف . حتى خف من عندنا من الجند . وثقل علينا عبء البرد وتناوحت الهوج . وتراوحت الثلوج . ورجت الدروج . ونجت الذؤوج . وارتجز عجاج الودق .(٨)وارتجس نجاح البرق . وجفت الحرجف . وطفح الاوطف . وتقطعت الخيام وتقلعت الاوتاد . وتجللت بابراد الجليد من البرد الآكام والوهاد . ومال بل وقع عمود السرادق . ودام تواصل البوارح والبوارق . ودخل السلطان الى المدينة . وسكن بها في كنف السكينة . مستقيما على المحجة المستبينة . مقيما للحجة المتينة . وشرع في إعداد العدد . واستمداد المدد . وابرام معاقد الحل والعقد . واحكام قواعد الدين والمجد . واحياء سنة السماح والفضل . واعلاء سناء الاحسان والعدل . وافادة الكرام واكرام الوفود . واعادة ما بدأ به من افاضة الجود . واجازة الراجين . واجارة اللاجين . واسعاف العافين . وابعاد العادين . وادناء أهل العلم . واغناء ذوي العدم . وانجاح المقاصد . وانجاز المواعد .

ذكر رسل وردوا في هذا التاريخ

وكانت رسل آفاق من الروم وخراسان والعراق . عاكفين على بابه . قاطفين جني جنابه . واقفين لرفع حجابه . مستسعفين لنعمائه . مستعطفين لابائه . متعرضين لثوابه . متضرعين في خطابه . وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته . وخصه بنجح وسيلته .

واقدره عليه وقد عجز عنه الملوك . وهداه الي سبيله وقد تعذر بهم اليه السلوك . وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الاولى . وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولي . فما منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه . ويقر بحكم النزيل له وينزل على حكمه . ويخطب الصداقة في الصدق . ويحقق المظاهرة لاظهار الحق . ويتقرب بالوفاء والوفاق . ويتباعد عن الشقاء والشقاق . ومن جملتهم رسول صاحب الري قتلغ اينانج بن بهلوان . ورسول قزل ارسلان المستولي على ممالك همذان واذربيجان واران . وهو عز الدين الطالبي الطالب للعز . الراغب في الفوز . فما من يوم يمضي . وشهر ينقضي . الا ويصل منهم رسول . ويتصل به سول . وتتجلى غمة . وتتجلى نعمة . وتتجه بشرى وتستبشر وجوه . ويكف مكر ويكفي مكروه . ونظر في احوال عكا فرتبها . وفي أمورها فهذبها . وفي مضارها فأذهبها . وفي منافعها فقربها . وولى عز الدين جرديك بها واليا . وأعاد عطلها بفضل ولده الملك الافضل حاليا . حاليا . ووقف بها وقوفا . واجنى المستحقين منها قطوفا . وأسدى معروفا . وأعطى ألوفا . وأرغم من الاعداء أنوفا . وكانت فتوحه لهم حتوفا . ووقف نصف دار الاسبتار رباطا للمتصوفه . وللوافدين من أهل الطريقة والمعرفة . ونصفها مدرسة المتفقهه . وللطلبة المتعففة المتنزهة . فجمع بين العلم والعمل . والنجح والامل . وكتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل . واتخذ لطلب مرضاة الله دار الاسقف بيمارستان المرضي . وأتى بكل مايحبه الله

وبه يرضي . فلم يبق سنة الا خلدها . ولامنة الا قلدها . ولا أجرا الا أجراه . ولاهدى الا أهداه . ولا أمرا الا أمره . ولا دارا الا أدره . ولا فريضة الا اداها . ولافضيلة الا اتاها . ولافرصة صواب الا انتهزها ولاحصة ثواب الا احرزها . ولارمم فواضل الا انشرها ونشرها . ولا امم فضائل الا حشدها وحشرها . وماترك قارئا الا قراه . ولاراويا الا اشبعه وأرواه . ولاحافظ حديث الا حفظه من الحدثان ولامحسن صنعة الا اصطنعه بالاحسان . ولاناظم مدائح . الا نظم له المنائح . ولاموافيا بقريض إلا وفى قروضه . واعجز عن القيام بحملي حمده نهوضه . وتقدم إلى الوالي بالتردد في الاعمال. وتفقد الأحوال . وسد الخلة وتسديد الاختلال وتعليل السقم وتسقيم المعتل . وتحليل العقد وتعقيد المنحل. فاستقرت بولايته الولاية . واستمرت لرعيته الرعاية . ودرت أفاريق الآفاق . ودارت أسواق الارزاق .

ذكر وصول أخي تاج الدين أبي بكر حامد من دار الخلافة للرسالة في العتب على احداث ذقلت . وأحاديث نقلت . ووشايات أثرت وأرثت . وسعايات في السلطان عثت . في الاحوال.وشعثت.وذلك في شوال . ونحن على حصار صور ونزاع ونزال. ذكر السبب في ذلك .

لما تم الفتح الاكبر . وخص وعم النجح الاظهر . وقطع دابر المشركين . وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين . أمرني السلطان بانشاء كتب البشائر الى الافاق . وتقديم البشرى به إلى العراق . فقلت هذا فتح كريم . ومنح من الله عظيم . وملك عقيم . وسمو وسيم . فلا يجب ان يكون مبشر دار الخلافة . بما انزله الله لنا من الرحمة والرأفة . الا من هو عندنا اجل وأجلى . وأعلم

واعلى . واجمع لفنون الفضائل . واعرف بأداء الرسائل . فلا يوجه بهذه الكرامة الا الكريم الوجيه . ولاينبه لهذه المقامة الا القويم النبيه . ولايرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع . فان الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع . فقال هذه نصرة مبتكرة بكرت . وموهبة ميسرة بدرت وندرت . فنحن نعجل بها بشيرا . ونؤخر للاجلال كما ذكرت سفيرا . وكان في الخدمة شاب بغدادي من الاجناد . قد هاجر للاسترفاد . وتوجه بعد وصوله . ونبه بعد خموله . فسأل في البشارة الى بغداد . وزعم انه يداوم اليها الاغذاذ . وشفع له جماعة من الاكابر حتى خص بأشرف البشائر . فقلت هذا لايحصل له وقع . ولايصل اليه نفع . والواجب ان يسير في هذا الخطير خطير . وفي هذه النصرة الكبرى كبير . فان الرسول من يندب للتفهيم والتفخيم . ويرتب في الامر العظيم للتعظيم . ثم سار المندوب . وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب . ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب . ونفذ بها كتاب . ووصل البشير الجندي . فلم تجل به على كفؤ الجلالة من الهدى الهدي . وحقروه . وما وقروه . فانه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين وحبوه بما يليق به من الرقة والعين . ونقم على السلطان ارسال مثله . وانه لم يعصب المنصب في تلك الرسالة باهله . وتسمح المندوب بكلام اخذ عليه . وبدرت منه أحاديث نسبت اليه . وقال في سكره . وحالة نكره . ما يعرض عن ذكره . فخيل وموه . وتنكر وتكره . وظن أن لكلامه أصلا . ولقطعه منا وصلا . وانهيت الى العرض الاشرف مقالاته . وعلمت جهالاته . وتجني على السلطان بارساله . وطرق الى هداه ماأنكروه من مقال المذكور وضلاله . ووجد الاعداء حينئذ الى السعاية طريقا . وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقا . واختلقوا اضاليل . ولفقوا اباطيل . وقالوا هذا يزعم انه يقلب الدولة . ويغلب الصولة . وانه ينعت بالملك الناصر نعت الامام الناصر . ويدل بما له من قوة والعساكر . فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه . وبرز الامر المطاع بارسال اخي واذفانه . وقالوا هذا تاج الدين أخو العماد . يكفل لنا في كشف سر الامر بالمراد فان اخاه هناك . مطلع على الاسرار . وهو منتظم في سلك

الاولياء الابرار . وعول عليه الديوان العزيز في السفارة . ورد معه جواب البشارة . وكتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العتب . ومكدرات موارد القرب . والمخاطبة فيها وان كانت حسنة خشنه . والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينه . ونشر الاعتاب في طي العتاب . وروح الارضاء في شخص الاغضاب . وبرد الموهبة في برد المهابة يرد ظن الخطأ الى يقين الاصابة .

وشرف من الديوان الاخ ، فسار وهو يبذخ وقد أصحب خيلا ، وأسحب من التشريف والانعام نيلا ، والحف من نور الاهبة العباسية نهارا وليلا ، فوصل السير بالسرى وقطع الوهاد والذرا وجاء الى دمشق بشارة رائقة وبشارة رائعة واشارة رادعة وشعار مهيب . وشرع مصيب . وهيبة روعة امامية ، وهيأة عصمة عصامية وفرند نبوي لاينبو ، وزند وري لايكبو ، ولسان في الصرامة جري ، وجنان بالشهامة حري.وبلاغة بابلاغ . ماليس بلاغ.وفئة وافية وصيغة بصياغة كل غريبة قول ، ورغيبة طول . وكافلة كافية وسني نور وقار يستعير منه سنير . وثبات خلق يتخلق به ثبير ، وكان قد عاد المندوب نادبا عانيا . جاحدا للنعمة شاكيا . ذاكرا أنه عدم الحفاظ . ووجد الاحفاظ . وأكثر الكلام فما حرك شمام . وقال أخو العماد قد وصل بكل عتب ممض . وخطب مقض . وغضب مغض . ولفظ فظ . وحض على غير حظ . ومعه الملامات المؤلمات . والظلامات المظلمات . فقلت له : اسكت واصمت ، وبمالك من وسم الوصم مت ، ولاتدخل هذا الباب واخرج ، وليس هذا بعشك فادرج.وقلت السلطان سمعا وطاعة لامر الديوان فان اظهار سر العتب لك من غاية الاحسان ، فقال : نعم ماقلت ، وقد طلت بارسال أخيك وطلت وماأسعدني اذا شرفت بالعتاب . واسعفت بالخطاب ، والمملوك يدفعه التأنيب . ويزعه التهذيب . على أننا لم نأت الا بكل ماوقى الهدى . وأضعف العدى . وكف الكفر . وأدنى الدين . ومازلنا في طاعة أمير المؤمنين مجدين . أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت . أما استأذنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد ان كانت سنين بسواها أرخت ، أما استخلصت اليمن

والدعي بها داع ، وللهدى فيها ناع . وللضلال منها راع ، أما ارحت من رق الشرك الساحل . اما ازحت عن حق الملك الباطل . أما فتحت البيت المقدس والحقتة بالبيت الحرام ، والحقته رداء الاكرام.واعدت الى الوطن منه غريب الاسلام . أما رعت الغرب بغرب عزمي . ووزعت الشرق بشرع حكمي ، وماتعبدت الا بالعبودية للدار العزيزة . وهذه الفطرة متمكنة مني في الغريزة . فأهلا وسهلا بالرسول . وبالسول وحبيا ومرحبا بالاقبال والقبول . ومااتى الا بالحب والحبور . ولامرار الامور . ولاظهار سر السرور . والبارق يشام اذا رعد ، والصادق يرام اذا وعد ، ومااسرنا بالواصل وأوصلنا بالمسرة ، وأبرنا بالجد واجدنا بالمبرة . وسمعت منه كل ماهدى سمعي . وابدى لمعي . وجمع شملي . وشمل بالعز جمعي ، ولما قرب اخي واصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله ، وتقدم لجلالة قدومه باجلاله ، ثم ركب وتلقاه بنفسه ، وخصه من تقريبة بأنسه ، ولم يزل حتى اراه مواضع الحصار ، ومضار الكفار ، ومواطىء اقدام ذوي الاقدام . ومواطن بسالة اهل الاسلام . ثم نزل وانزله بالقرب وعقد له بالحباء حبي الحب ، وسفر وجهه لوجاهة السفير . واحل محل التوقير والتوفير ، وتبلج له صبح التبجيل . وتأمل منه نجح التأميل . ثم حضر عنده . وقد اخلي مجلسه لي وله وحده ؛ وادى الامانة في مشافهته ، ووجه مقاصده في مواجهته واحضر التذكرة وقد جمعت المعرفة والنكرة ، فقراتها عليه بفصولها وفصوصها.والزمته حكمي عمومها وخصوصها • ووقفته علي ظواهرها ونصوصها • وكانت في الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة وخيلت سقطه ، وجلبت سخطه ، وقال ان الامام أجل ان يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ • والأسجاع الغلاظ فقد أمكن ابداع هذه المعاني في أرق منها لفظا وارفق وأوفى منها فضلا وارفق • ومعاذ الله ان يحبط عملي ، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض،ثم اعرض عما عرض ورجع الى الاستعطاف • وانتجع بارق الاستسعاف • وقال اما ماتمحله الاعداء وعدا به المتمحلون • وتنفق به المتقولون وتسوق

المبطلون • فما عرف مني الا الاعتراف بالعارفة • وماهززت منذ اعتززت اعطاف العز الا لما يعزني من العاطفة ، وان شرفي بالنعمة السالفة ، يوجب أنفي من هذه الآنفة ، وأما النعت الذي انكر ونبه على موضع الخطاء فيه وذكر • فهذا من عهد الامام المستضيء رضوان الله عليه وجرى لتحققه مني على الالسنة . ومتي عد سيئة ماعد من الحسنة ، والآن كل مايشرفني به امير المؤمنين من السمة فانه اسمي الذي هو اسمي واشرف . واطرأ واطرف وأرفع وأعرف . ومازاده ذلك العتب الاخلوص ولاء ، وخصوص اعتزاز واعتزاء . ثم قال كل ما اعتمده من نصرة الدين وقهر اعداء امير المؤمنين فإنما طلبت به وجه الله ورضاه وماتعبدت به سواه . فاني افترض الطاعة الامامية الدين لا الدنيا، وما أتقوى فيها الا بالتقوى . وما في عزمي الا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر المنافقين والمشركين . واذا عادت عواطفه عطفت علي في الحسن العوائد وقطفت الفوائد ، وصفت الموارد ، ووفت المقاصد ، وبعد الاباعد ، وبعد الحاسد الحاشد ، وهجر هجر الساعي ، واجرى اجر الداعي . وعلم جهل الواشي ، وعذر ذعر الخاشي . وجرب غش الغاشي . وخرب عش العشي . وذوت هموم ذوي الهمم ، وأوليت كرامة أولي الكرم ، ومازال السلطان مدة مقام أخي عنده ، يوري في اعظامه زنده ، ويأمر بإكرامه جنده ، فكنت اشفق من تكدر ذات البين بعود الانس والوصلة والى الوحشة والبين ، وان جماعة من الاكابر اجتمعوا بالسلطان وقالوا له:قد نسب حقك الى البطلان . ورميت بالبهتان ولحت طاعتك بعين العصيان . فكيف خفت وماعفت والفت وما انفت . ورغت وما غرت . وصبرت وماسبرت • وأغضيت لما اغضبت • وأعتبت لما عوتبت • وراقبت وماروقبت

فقال تذللي للديوان العزيز تعزز به أبين . وتوسلي إلى مرضاته توصل بالله فيه استعين . فتواضعي ترفع ، وتخشعي تورع ، وحبل حبي متين ، ومكان قربي مكين . ومما قلت له واوضحت له سبله ، انا كنا بطاعة امير المؤمنين نطول ونصول

ونزاول بها الملوك وعنها لانزول ، وهذه فضيلتنا التي رجحت . ووسيلتنا التي نجحت وكتابها مسعودين . وعليها محسودين . وقد شملت بها بركاتها . وكملت حسناتها . وصفت مشارع يمنها ، وضفت مدارع حسنها ، فلا تلتفت الى من يلفتك ، ولاتتثبت لمن لايثبتك ، واعرض عمن تعرض لمذهب الخلاف ، ولذوره اجتلي واجتني ، ثم ندب مع أخي من سار في خدمته لزيارة القدس ، وامر بأن يقف به على مواقف الطهر التي طهرت من أهل الرجز والرجس ، ثم ودعه واودعه من شفاهه كل ما في النفس وبالغ في ابداء التضرع والتذرع واظهار التخشي والتخشع ، وانشأت عنه الى الديوان كتبا معه وبعده ضمنتها كل ماحلا وجلا جدة وجده ، وكل مايبطل سوق المتدفقين ويعطل نفاق المتسوقين . ويهجن خلق المختلفين . ويزيل تلفيق الساعين . ويزيح سعاية الملفقين . ويتعرف الى العوارف الغزر بالشكر ، ويستعطف العواطف الغر بالعذر ، ويجتهد في استفراغ المجهود للاستغفار ، وينفض عن وجه البشر ماعليه من الغبار ، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضا ومضى ماأمضى وقضى من اعزاز الديوان قدر السلطان بما قضى .

وفي هذه السنة استشهد الأمير شمس الدين بن المقدم بالموقف في عرفة لابداعه رسما ماعرفه ، فذهب غلطا وعطب فرطا، وذلك ان امير الحاج طاشتكين انكر عليه ضرب الطبل فامتنع ، فندب اليه من به بأصحابه أوقع ، فتمت من هذه الفتنة فترة ونمت نفره ، ولما نمي الخبر الى السلطان لم يبد منه سوى الاذعان وقال لاشك ان طاشتكين طاش ، وقصد بعد الايناس الايحاش ، وعد الديوان العزيز هذا من ذنوب طاشتكين حتى عزله واعتقله بجرائمه بعد سنين .

نسخة كتاب جامع للفتح القدسي الأيمن انشأتها الى سيف الاسلام اخي السلطان باليمن ،

صدرت هـذه المكاتبـة الى المجلس السـامي ضـاعف الله علاءه ، وظاهر آلاءه وضـافر نعمـاءه ، وأظفـر بـالنجح رجاءه ، وأضعف حساده،وأعز أولياءه وأذل أعداءه ولا زالت أيامه بالايامن مسفرة ، ولياليه بالمحاسن مقمـرة ، ومـكارمه بـالمحامد مثمرة ، وعهود مواليه بشكر النعم محكمة ، ومعاهد معـاديه بقهـر النقم مقفـرة ، ودالة على البشرى بـالفتح الاكبـر ، والنجـح الأزهر ، والنصر الأشهر . والعصر الابهـر . والفضـل الأكثـر . والافضـال الأوفـر ، واليوم الأنور ، واليمـن الأنضر ، والفجـر الاسفر ، والفخر الأظهر والجد الأشـم الأشـمخ ، والمجـد الابلج الابلغ (٩) ، والعز الأسـمق الأسـمى . والنور الانم الانمـى . والظفر الأجل الأجلى . والوطر الأحـل الأحلى ، والشرف الاسـنم الأسنى . والعزم الاغنم الأغنى ، والسعد الأجد الأجدى . والصيت الأبدي الأبدى ، وهو الفتح الذي تفوح بمحابه مهاب الفتوح . وتبوح بسر روحـه وملكه سرائر الملائكة والروح . وتـروح وتغـدو غوادي النعم وروائحها الى روض الهدى المروح . وتلوح تباشير بشراه وفي لوح الدهر لكل مؤمن يتلقـاها بـالوجه السـافر والصـدر المشروح ، وتنوح ناعية الكفـر في كل ناحية ولكل نادبـة للأسى على قتيلها واسيرها ندوب في القلب المقروح ، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنة ، وطال في اسره سـجنه واستحكم وهنه ، وقـوى نكره وضـعف ركنه ، وزاد حـزنه وزال حسنة ، وأجدبت من الهدى ارضه ، وأخلف مزنه ، وواصله خـوفة وفارقه امنه ، واشتغل خاطر الاسلام آسببه وساء ظنه ، وذكر فيه الواحد الاحد ، الذي تعالي عن الولد ، وان المسيح ابنه وأربـع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه ، وأفرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه ودرج الملوك الاقدمون على تمني استنقاذه فأبى الشيطان غير اسـتيلائه باسفار صبح امرنا واشراق مطالع نفائه ، ونخر الله هذه الفضـيلة

لنا ولهـذا العصر . وأنزل على نصـــلنا نص النصر . وأطلع الليل عزمنا فجر الفخر ، ووفقنا لوصل اســباب الاســلام وقـطع دابــر الكفر ، وذلك انا استفتحنا سنة ثـلاث وثمـــانين بقمـــع اهـــل التثليث ، واصرخنا الاسلام بالجد المنجد والعزم المغيث ، وخــرجنا من دمشق في المحرم ، في العزم المصمم . والرعب المجهر الى الكفـر والبأس المقدم . وكنا اشفقنا على طريق الحج . من قصــد الفـرنج فشغلناهم عن القصد بقصدهم . وتصدينا لجهادهم بــردهم عن المراد وصدهم ، واقمنا بـظاهر بصرى مخيمين على ســمت الكرك ، وقدمنا الطـلائع الى المناهـــل ونظمنا ســـلك امـــدادهم في ذلك المسلك ، حتى وصل الحـاج ســـالما . وذل الكفـــر عن قصـــده راغما ، ولما فرغ القلب من شغله وفاز كل بجمع شمله بأهله ، سرنا الى الكرك في الامراء والمفردين الخواص . وشفعنا للجهاد في ســبيل الله الفاتحة بالاخلاص ، وقد كنا اســتدعينا العســاكر والجمــوع للجهاد من جميع الجهات . وترقبنا توافيهم للميقات ، وأمــرنا ولدنا الملك الافضل ان يقيم برأس الماء ، ويكون في خدمته جميع الامراء ، وسرنا الى الكرك والشـوبك فـــاخربنا عمـــاراتها ، وأحـــرقنا غلاتهـا ، وقـــطعنا ثمـــراتها ، وأزعجنا ســـاكنيها ، وأخفنا آمينهـا ، وأجلينا عنهـا فـــلا حياء . واقمنا النوائح عليهـــا في نواحيها ، ووصل الينا ونحن بالقريتين العسكر المستدعى من الديار المصرية ، فقويت به قلوب الأمة المحمدية ، واجتمع بالمخيم الافضلي برأس الماء من وصل من العساكر الشامية والفــراتية ، والجــزرية والموصـــلية والديار بـــكرية ، فـــانتهز ولدنا هناك فـــرصة الامكان ، وانهض الى الكفر سرية سرية من اهل الايمان ، فساروا سارين . واغاروا غارين ، واخذوا ونهبوا . وســبوا وســلبوا فلم يشعروا الا وجموع الكفر قد سدت عليهــم الطــريق ، واخـــذت دون خروجهم الى السعة المضـــيق ، فثبتــوا ثبــوت الجبـــال للرياح العـــواصف ، وشرعوا الى عرانين الكفـــر اســـنة الرمـــــاح القواصف ، وكان مقدم عسكرنا مظفر الدين بــن زين الدين ومعــه مملوكنا قايماز النجمــي صـــارم الدين ، فلقيا بصـــدريهما صـــدور العوامل ، وحملا في عســـكرنا على الفـــارس والراجــل ، وحصـــل

الفرنج منهم في دائرة الردى ، وخذل الضلال ونصر الهدى وكثر من الفرنج القتلى والأسرى ، وعاد المسلمون بالمسرة العظمى والمبرة الكبرى ، واتصلت بنا ونحن في بلاد الكرك البشرى ، وشكرنا الله على نصرته الأولى وقلنا هذه مقدمة الاخرى ، ولما قضينا الوطر من تلك البلاد ، ووفينا باحراق اقوات اهل النار بالنار حق الجهاد . فاجتمعنا بأصحابنا القادمين من مصر وتناصرت لدينا دلائل الظهور وتظاهرت امارات النصر . عدنا الى الشام . وقد تكاملت به جموع الاسلام . وزخر بحر الفضاء بأمواج الاعلام . وطفا على اتباع لجه حباب الخيام وقد فض الفضاء ختام الفتام وعلق بالفاق من ذلك الفيلق غرام الرغام . فخيمنا بعشترا (١٠) شهرا . وقد أعدنا بشهر بنات الغمود سرها جهرا . وخطبنا من الله الكريم فتح بكر جعلنا بذل المهج لها مهرا . وقد سمع الفرنج بجمعنا فجمعوا . ونادوا في بلادهم فأسمعوا . واجتمعوا على صفورية من صفر . وحشروا في تلك الاشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر . وأخرجوا صليب الصلبوت . وقائد اهل الجبروت . فتهافت الى شعلة ناره فراشهم . وتوالى الى ظلة ضلاله خشاشهم . وقاموا وقيامة رعبهم قائمة . وسوابح جردهم في بحر العجاج عائمة . وطلائعهم سارية وسراياهم طالعه . ومقدمات رعيهم منا السائرة لجنوبهم وقلوبهم مقضة خالعة . فلما تكامل منا الجمع . وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع . عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض . ويتلو مشاهده لتنزل الملائكة (ولله جنود السموات والأرض) (الفتح ٤٧) في رايات خافقة كقلوب الاعداء . عالية كهمم الاولياء . وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء . وسار في كتائبها نازل القضاء . وسحب ذيل الأرض بمثار نقعها . على السماء . وقطعنا الأردن . وتأييد الله مواصل . وقدره باقدارنا على الاعداء كافل . فسالمنا بطبرية حتى فتحناها بالسيف . ودخلناها دخول المغير لا دخول الضيف . وتسلمنا المدينة . ونازلنا قلعتها البكر الحصينة . وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر والخميس يوم الخميس . وأسد

الوغى قد اتخذت من وشيجها العـريس . هـذا والملك العـادل عنا غائب . ومعه ايضا بمصر كتائب . وتوفيق الله له مصـاحب . وكنا عزمنا قبل قصد طبـرية . ان نلاقـي الفـرنج على صــفورية . في مركزهم ومجتمعهم . ونلابسهم في مخيمهم . فحين نزلنا من الثغـر بــالاقحوانة (١١) . وتمســكنا مـــن الله بــــالاستنجاد والاستعانة . ركبنا قبـــل قصـــد طبــــرية الى الفــــرنج في مجمعهم . واشرفنا عليهم في مـوضعهم . فمـــا بـــرحوا مـــن مكانهم . ولا تحركوا برجالهم ولا فرسانهم . وارتـدنا في صـحراء لوبية مـــوضعا المصـــاف واســعا . وفضـــاء لمأزق الجمعين جامعا . وبتنا هناك باطلاب الابطال ميمنة وميسرة . ووجدنا بتأييد الله اســـباب الظهـــور ميسرة • وجـــئنا في خــــواصنا والجاندارية . ونزلنا في العدة المجردة على طبرية . واخذ النقـابون ساعة النزول في النقب . فصرع قائم سورها للجنب . ودخل الناس اليها ليلا للنهـب وكانت ليلة مـدلهمة معتمـــه . وارجـــاء المدينة مظلمة . فاشعلوا واوقدوا . ودخلوا الدور وتفقـدوا مـالم يفقـدوا وكانت بها حواصل من زفت وكتان علقت بها النار . فـاحترقت تلك المساكن والديار . وتحصـــن اهلهـــا بقلعتهـــا . وتمنعـــــوا بمنعها . فاصبحنا على حصرهـــا . وســـلكنا جـــدد الجـــد في امرها . فجاءت رسل الأمراء . ان الفرنج قد تحركت . وانزعجت لكون عقيلتهم من طبرية تملكت . وادركهـم الندم كيف تـركت ومـا ادركت . وأنها قد عبت جنودهـــا . وشـبت وقـودها . ولبـت نداء جموعها . وصبت عليها ماء دروعها . وغاضت في غدران سـوابغها السابرية . وفاضت ببحار سوابحها الاعوجية . وان جمـرهم قـد استعر . وان بحرهم قد زخر . وانهـم قـــد اتـــوا في عددهـــم وعديدهم . وحدهم وحـديدهم . وخيلهـم ورجلهـــم . وطلهـــم ووابلهم . وفارسهم وراجلهـم .واحـــزاب ضـــلالهم وابـــطال باطلهم . وانهم حين عرفوا استيلاءنا على طبرية . وسبقنا بفضيلة فتحها البرية . غاروا على العقيلة السبيه . واشعلت نخـواتهم نار الحمية . وســاقوا الى معتـرك الردى وملتقـى المنية . ولما عرفنا قربهم . قصدنا حربهم . وزحفنا اليهم . واشرفنا عليهم . واللجب

الساري كالجبل الراسي . وقد افاض الحديد من قلبه على الحجر القاسي . ولمعت بوارق بيارقه . وراعت طوارق طوارفه . وبرقت قوانس قوامصه . وارتعدت فرائص فرافصه . وأمكنت فرائس فوارسه . وباح الحديد على عوابسه بوساوسه . وماجت بحار سلاهبه . واشتعلت نيران قواضبه . وشدت الاجادل دون صوار صوارمه . وسدت بعرض افواجه فجاج مخارمه ، وقرنت الالفات بلاماته . وظهر من حشره يوم الحشر بعلاماته . فاغتنما الفرصة في اللقاء . وهجنا الى الهيجاء . واسرعت الاعنة . واشرعت الاسنة . ونقع النقع .(١٢) أوام الجو . واجاب الصدى دوي الدو . وجال الجاليش . وطار السهم المريش . وعصفت رياح السوابق . واستعبرت عيون البوارق ، ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جارم . وعوامل جوازم . وصواهل صلادم . وضراغم ضوار . وجوارح جوار . واسود قد اعتقلت اساود . وجياد قد حملت اجاود . وسوابح قد اقلت بحورا . وصقور قد ركبت صقورا . واوقفناهم نهار يوم الجمعة وساكنهم لا يتحرك . وبازلهم لا يبرك . وصفهم لا ينفض وجدارهم لا ينقض.وبنيانهم مرصوص . وطائرهم عن الطيران محصوص . حتى دخل الليل . وقر في الوادي ذلك السيل . وبات الفريقان على تعبيتهما . واجابة داعي الموت بتلبيتهما . واصبحنا يوم السبت واهل الاحد على حالهم ولم يريموا موضع قتالهم . ومازالت الحملات تتناوب . والاسلات (١٣)تتواثب وتتثاوب . والسواعد بقرع الظبي سواع . والرواعف في زرع الطلى رواع . والمنايا تئن . والبيض تصافح البيض صفاحها . والذكور لنتاج الحرب العوان بالفتح البكر عند اللقاء لقاحها . والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب . والصوارم لجوامح النيران شواب . وضمائر الغمود قد باحت باسرارها . ونواظر الجفون قد تخلت عن غرارها . ولما احسوا بأسنا . وامرار أمراسنا والهجير يتلظى وقد وقد عليهم بناره . والاوام يتوقد ولايتوقى احراقهم باواره . مالوا الى طلب الماء . واخذوا طريق البحيرة للارتواء • فاخذنا عدامهم ووقفنا امامهم • وحلأناهم عن

الورد . والجـــأناهم الى الردى بـــالرد . فـــاعتصموا بتـــل حطين . وصرنا بهـــم محيطين . وتحـــكمت فيهـــم قـــواضي القواضب . وذشبت من النشاب بهم نيوب النوائب . وكان جمعهـم جمرا وقد وقد . فصب عليهم السـيف نهـرا فخمـــد . وفضـــوا بالفضاء . وفرشوا بالعراء . وعب دأماء الدماء . وغصت الفجـاج بـالقتلى والاسراء . واسر الملك واخـوه . والابـــرنس الكركي ومؤازروه . ووجـــوه الكفـــر ومقـــدموه . ومقـــدم الداوية وأعوانه . وصاحب جبيل واعيانه . وهنفـري بـن هنفـري وابـن صاحب اسكندرونة وصـاحب مـرقية . ولم يفلت الا ابـن بـارزان والقومص (١٤) . وتم لهما مـن الورطـة المخلص وكان كلاهـمـا ملهما عند اللقاء بالقتال . وعند الفرار بالاحتيال . فاما القـومص فانه لما مر بطرابلس ادركه الموت في برجه المشيد . ونقله القدر المبيد الى عذابه المؤبد . وذل ذلك اليوم اهـل الجبـروت . وحيز صـليب الصلبوت . وبار وبـاد اولياء الطـاغوت . وهلك عبـدة الناسـوت واللاهـوت . وملك عليهم القدر كتـاب الاجـل الموقـوت . وقـدمنا الابرنس وضربنا رقبته وفاء بالنذر . وعجلنا به الى النار مأوى أهل الغدر . والحقنا بـه الداوية والاسـبتارية . وادرنا عليهـم صـبرا كؤوس المنية . وروينا ظماء الظبي من نجيعهم . وقربنا سيد الفـلا من صريعهم . وعدنا الى طبرية فتسلمنا قلعتهـا . وحللنا عقـدتها وفرعنا ذروتها . وافترعنا عذرتها . ثـم سرنا الى عكا ففتحناهـا بالامان . واعلنا بها شعار الايمـان . واسـتقربنا بعـدها البـلاد الساحلية من جبيل وحـد طـرابلس الى الداروم غير صـور فـانها امتنعت بسورها . ولم يبق في كأس الكفـر غير سـورها . وانهـا وجدت فسحة في ايام اشتغالنا بفتـح اخـواتها . وكاثفـت مـن عدد المحاصرة آلاتها . وكنا لما فتحنا عسقلان بدأنا بالنزول على القدس وذلك يوم الجمعـــة ثـــالث عشر رجـــب • فـــرجف

بها قلب الكفر ووجب . وظن اهلها انهم يعتصـمون . وانهـم مـن بأسنا يسلمون . فنصبنا عليهم منجنيقـات هـدت احجـار السـور بسورة احجارها . واذن ركوعها بسـجود الابـراج في اجبـارها .

ووفت الصخور باصراخ الصخرة . وعثرت تلك القلل لاقالة مادام
بها من العثرة . وكشف الذقب وثقب الاسوار . ورمت الجنادل
جوانب ذلك الجدار . وعلم الكفار لمن عقبى الدار . وأيقنوا بالقتل
والاسار . فخرج مقدموهم متذللين بالاذعان . مبتهلين في طلب
الامان . فأبينا كل الاباء . الا سفك الدماء من الرجال وسبي
الذراري والنساء . فخوفوا بقتل الاسراء . واخراب العمران وهدم
البناء . فأمناهم على قطيعة موازية لاثمانهم لو اسروا او سبوا .
فأمنوا . من ان يسلبوا وهم على الحقيقة قد سلبوا . ومن وفى منهم
بالقطيعة خرج بحكم العتق . ومن عجز عن ادائه دخل تحت الرق .
وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ورجع بنيانه من
التقوى الى تأسيسه . وزال ناموس ناقوسه وبطل بنص النصر
قياس قسيسه . وفتح باب الرحمة لاهلها ودخلت قبة الصخره
افضلها . وباشرت الحياة بها مواضع سجودها . وصافحت ايدي
الاولياء اثار القدم النبوية بتجديد عهودها . وشوهد مقام المعراج
وموطىء براقه . ورئي نور الاسراء ومطلع اشراقه . ودنا المسجد
الاقصى للراكع والساجد . وامتلأ ذلك الفضاء بالاتقياء الاماجد .
وطنت اوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس . وجليت
هدى الهدي من الصخرة المقدسة جلوة العروس . وزارها شهر
رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح وليل فطرها بالتراويح .
وشفى الله بسقيا هذا الفتح ماكان دهم القلوب لاجلها من تبار
التباريح . فالبيت الحرام مساو للبيت المقدس . مفدى منا كلاهما
من المهج والانفس بالانفس . وانه من المساجد الثلاثة التي تشد
اليها الرحال والرجال . ويضيق عن وصف شرفها في حلبة البيان
المجال . وهو للحرمين ثالث ولاتثليث في حرم توحيده . فتجدد جد
الاسلام بتجديده . ولما فرغ البال من تدبيره . وقضينا حق تقديسه
وتطهيره . صرنا الى صور . ونازلناها بعسكرنا المنصور . وفي
صور سؤر الكفر وبقيته . وقد تحصن بسورها ومنعته شر ذمته .
وهي مدينة حصينة . متوسطة في البحر كأنها سفينة . وقد نصبنا
عليها المنجنيقات فنكأت فيها . ورمت من اعاليها وهدمت من
مبانيها . ولم يبق في جبهة الكفر سوى نشابها . وان جمحت علينا

فنصرة الله وعوائد تأييده لنا تـؤذن بـأصحابها . واذا تسـلمناها تسلمنا بأذن الله كل بلد الفرنج باق . ومالهم من عذاب الله الواقـع بهم واق . ثم رأينا ان حصـار صـور يطـول . وان مسـألة بيكار (١٥) العسكر فيها تعول وان فتحها لايفـوت . وله وقتـه الموعود ووعده الموقوت . وكان العسكر قد ضجر ومل وأعيا وكل . وقد دخل الشتاء . وبرد الهواء . وجاءت السماء وتواترت الانواء . وتواصلت الانداء . ولابد مـن اسـتئناف جمـع العسـاكر في أيام الربيع . واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع . ورحلنا عنها بعد ان رتبنا حولها . في الثغور المجاورة لها . مـن يديم شـن الغارات عليها . ويواظب على النهوض اليهـا. وفسـحنا لاجنادنا في الاستراحة مـدة شـهرين الى النيروز . فـان في تلك الايام تتـوفر العزائم على المبارزة والبروز . وقد جـرت المواعدة على المعـاودة . والمعاقدة للمعاضدة . والمعاهدة للمسـاعدة . فليس في الفـرنج مـن يقاتل الان على الخيل . والنهـار عليهـم في اظـلام الليل . والعـز متقلص الظل عنهم والذل صافي النيل . وقد حزب حزبهم من حـربنا مثير الحرب والويل . وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة . والمعاقل المبينة . وهـي طبـرية . عكا . الزيب . معليا . اسـسـكندرونة . تبنين . هونين . الناصرة . الطور . صـفورية . الفولة . جينين . زرعين . دبورية . عفربلا . بيسان . حيفا . صرفند . صيدا . قلعة ابي الحسن . جبـل جليل . بيروت . جبيل . مجـدل يابـا . مجـدل حباب . الداروم . غزة . عسقلان . تل الصـافية . التـل الاحمـر . الاطرون . بيت جبـريل . جبـل الخليل . بيت لحـم . لد . الرملة . قبيتا . القدس . صوبا . هرمس . السلع . عفرا . الشـقيف . ولم نذكر ماتخللها من القرى والضياع والابـراج الحصـينة الجـارية مجرى الحصون والقلاع . ولكل واحدة من البـلاد التـي ذكرناهـا اعمال وقرى ومزارع . واماكن ومواضع . وقـد جـاس المسـلمون خلالها . واسترعوا ثمارها وغلالها . وقد كنا عند قصـدنا البـلاد . وعرضنا الجهاد الاجناد . كاتبنا اخانا الملك العادل سـيف الدين ان يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب . وينتظر كتابنا بنصر هذه الكتائب . فلما بشر بكسر الفرنج وفتح طبرية وعكا . والظفـر الذي

اضحك الاولياء وازعج الاعداء وابكى . وتلا عليه (قد افلح المؤمنون)
(المؤمنون ١) وقد (افلح من تزكى) (الاعلى ١٤) كان وصل
الى السواد في سواده وبياضه . وبحار جيشه وبراضة . وورد من
مورد النصر الى حياضه . فجاش بجيوشه . وجاز العريش
بعريشه . وزار دار الداروم بدمورها . واجفلت قدامه البلاد في كل
من اعتمد عليه بامورها . ووصل الى يافا ففتحها عنوه . ونال
العسكر منها بالنهب والسباء حظوه . ثم حضر مجدل يابا
وحصرها . وطلبت منه الامان فانظرها . وكتبنا اليه بالاقامة في ذلك
الجانب . ماضي العزائم قاضي القواضب . وان يستفتح من البلاد
مايتعجل فتحه . ويقدم من الرجاء مايتيسر نجحه . الى ان نفتح مافي
جانبنا من البلاد ونتسلمه . وننتهز فرصة الامكان فيما نحن بصدده
ونغتنمه . وقد كنا انهضنا الى كل بلد من الناصرة وصفورية .
وحيفا وقيسارية قسرا وتسلمت البواقي سلما . ورأى من كان فيها
سلامته غنما . ورضي بالغرم رغما . وتسلمنا نحن تبنين وبيروت
بالامان . بعد ان قاتلنا اهلهما قتالا شديدا الجأهم الى الاذعان .
فاما صيدا فان صاحبها اذعن الى التسليم . بعد ان بات منا بليلة
السليم . واما جبيل فقد سلمها صاحبها وخلص من الاسر . ورأى
خلاصه فيما تعجله من الخسر . وحينئذ سرنا واجتمعنا بالملك
العادل على عسقلان . وهان لنا كل ماا ستصعب منها ودان . وظهر
لنا منها وجه الفتح وبان . واصبنا فوائدها لمارميناها بمصائب .
واصمينا مقاتل الاسوار بسهام قسيها . وعاقبناها بحبالها
وعصيها . واقتنا بخزائم الكرة انف الطاعة من عصيها . وصافحنا
ببيض الصفائح يد الرضا من أبيها . وباشرت سهام المجانيق
بسواكها ثنايا الشرافات فهتمتها . ونهضت احجار الرماه الى
احجار البناء فهدتها وهدمتها . وغنى فيها معول النقاب . ولما ايقن
اهلها بالعطب . لاذوا بالضراعة والطلب . وخرجوا مسالمين
مستسلمين . وانقادوا مستكينين مذعنين . واسلم البلد واسلم
وجدع انف الكفر وارغم . وعاد منه الايمان الغريب الى وطنه . وقر
منه الاسلام القريب في مسكنه . وعند ذلك تسلمنا غزة . واعدنا اليها
العزة . واتينا على الرملة ولد والنطرون . وفتحنا بيت جبريل وجبل

الخليل وجميع تلك المعاقل والحصون . ثم ختمنا فتوحات هذه السنة بفتح الارض المقدسة . والحمد لله على نعمه المفرجة الكروب والطافه المذفسة . وقد جعلنا هذه البشارة القدسية . بما هناه الله من الموهبة السنيه . وسناه من المنحة الهنية . لمملوكنا حسام الدين سنقر الخلاطي وامرناه ان يسير فيها من اصحابه . من يقوم فيها بحق منابه . والمجلس السامي يشيع ميامنها ببلاد اليمن . ويجلو عروسها البكر في حسنها الحالي وحليها الحسن . ويشكر نعمة الله التي خصنا بها وعمت الامة . ويديم شكرها فان دوام الشكر يديم النعمه . لازال المجلس مشكور الشيمه عالي الهمه . منصور العزمه . ان شاء الله .

ودخلت سنة اربع وثمانين وخمسمائة

والسلطان مقيم بعكا وربيب الربيع رضيع . ووشي الروض وشيع . وصنيع القدر نصيع . وشمل الظفر جميع . وفضاء الروض وشيع . ومراد المراد مريع . ونسيم الاسحار لاسرار الازهار مذيع . واريج الجو العليل في شفاء غليل الجوي شفيع . والدهر قد ثمل وافاق . والزهر قد شمل الافاق . وللمحاب مهاب . وفي الشعاب اعشاب . وخدود الشقائق محمره . وثغور الاقاحي مفتره . وعيون النرجس مصفره . وشفاه المنابع مخضرة . واحداق الحدائق الناضرة ناظره . ووجنات الجنات الزاهية زاهرة . وعذبات المنابت متموجه . وحافات المناهل متدبجة . وجباه الغدران متغضنه . وجفون النوار متوسنة . والافنان مورقة والورق متفننه . وخد الخيري مورد . وحد العراد مجرد . وعرف البهار قد تأرج . ووجه الجلنار قد تضرج . وعذار البنفسج قد بقل . وعذر الزمان قد قبل . وشارب النبت قد طر . وهارب البرد قد فر . وسر الصيف قد سرى وسر . وطبي الطيب قد حفل ودر . وتقاضى السلطان غريم عزمه

بلين الدين . وان ان يصحر ليث بأسه الخادر من العـرين . فـأبرز مضاربه . وجهز كتائبه . وضرب سرادقه . وعرض فيالقـه . ونشر بيارقه . وحشر رواعده وبوارقه . واندفق خزائنه . وانفـد دفـائنه . وبذل في صون الدين ديناره . واشعل في حفظ ماء الهدى على العدى ناره . وسار على سمت حصن كوكب . وعن قصده ماتنكب . ونزلنا عليه في العشر الاوسط من المحرم . ومامنا الا من له بقتـال العـدى فيه لهج المحب المغرم . ولعزمه وهيج اللهيب المضرم . ووجدنا كوكب في سمائها كأنها الكوكب . وظن الفرنج انها لاتنكأ ولاتنكب . وهـي من المصاعيب التي لاتبرك ولاتـركب . فـأحطنا بـالحصن وخيمنا حوله . واستمددنا قوة الله وحوله . وزحف اليه الرجـال . وتناوب عليه القتال . وركب اليه السـلطان ورازه . واسـتصعب احتيازه . ورأى ان مقاتلته تـطول . وان مسـألته تعـول . وان محـاولته في مطاولته . ومصابه في مصابرته . واضاقته في مضايقته . وان مـافي هذه الحال اقتضى تعذر افتضاض عذرتـه . ولامـطمع الآن في فـرع ذروته . ولاقرع مروته . وكان في خواصه . واهل اسـتخلاصه . لم تتجمع عساكره . ولم تتموج زواخره . فاقام هناك بالتدابير مستغلا وللاشغال مدبرا . وبالاستظهار متأيدا . وبتـأييد الله مسـتظهرا . حتى رتب على قلعة صفد خمسمائة فارس . من كل محرب للحـرب ممارس . وسلمهم الى طغرل الجاندار . لرابطها بالليل والنهـار . ووكل بكوكب قايماز النجمي في خمسمائة مقاتل . من كل ناصر للحق وللباطل خاذل . وكان سـعد الدين كمشـبه الاسـدي بقلعـة الكرك موكلا . وبحفظها مكفلا .

ذكر حال الكرك من اول الفتح

وقد مضى ذكر وقوع ابـرنس الكرك في الشرك . بمعتـكر يومـه في المعترك . وافتتاح الفتح بحتفه . وبسط كتف الانتقام عليه بقبضـه وكفه . وانه اخذ رأسه . وقطعت انفاسه وقلعـت اسـاسه . وكانت

زوجته ابنة فليب صاحب الكرك بالقدس مقيمة . ولحفظ معاقلها مستديمة . وحصل ولدها هنفري بن هنفري في قبض الاسار وقيد الخسار . وغمه الانكساف والانكسار . فلما يسر الله فتح البيت المقدس . واصبح الاسلام عالي اليد والكفر راغم المعطس . خرجت صاحبة الكرك متعرضة الخضوع . متضرعة بالخشوع . وبرزت مسكينة مستكينة . متعطفة مراحم السلطان مستلينة . رافعة عقيرتها بالابتهال . شافعة في فك ولدها من الاعتقال . معفرة خدا من شأنه التصعر . مسفرة عن وجه من عادته التخدر . حاسرة حسرى . باسرة لحزنها بأسرى . والدة تنشد ولدها،والهة نخل الرعب خلدها . مطلقة ميسورها . مستطلقة مأسورها . ثانية عطف العطف لواحدها . رانية بعين الذل في خلاص ساعدها ، سائلة في فلذة كبدها . جائلة بجذوة كمدها . باسطة يدها . ناشرة خرزات دموعها . عاثرة بحزازات ولوعها . خافضة جناح استعطافها . ناهضة في نجاح استسعافها . راجزة بنوحها . عاجزة عن بوحها . وخرجت معها زوجة ابنها ابنة الملك . كأنها من بنات الفلك . باديا صبح وجهها اليقق (١٦) في ليل شعرها الحالك . مشرقة من اوجها . مشفقة على زوجها . محترقة على فداء الحليل . مقترحة به شفاء الغليل . خادرة قد اصفرت من مطالعها واصحرت . حادرة عبرة في مدامعها طحرت (١٧) . ناهدة متنهدة . واجدة متواجدة . معتزة متذللة . مهتزة متململة . باكية متلهفة . شاكية متأسفة . مستدعية مستعدية . عاطية مستعطية . ساكبة عبراتها . راكبة عثراتها . خامشة وجناتها . خادشة بشراتها . وحضرت الملكة في زوجها الملك خاطبة ولقرمها الندب نادبة . قد أذعنت وعنت لفكاك عانيها . وطابت بطلها الذي هو عامر دار عزها وبانيها . فاكرم السلطان وفادتهن . ووفر افادتهن . وقرب ارادتهن . وقرر زيادتهن . ووهب لهن ولاتباعهن واشياعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة . ووصلهن بصلاتة الرفيعة . وخصهن بمالاق بكرمه من حسن الصنيعة . ووثقهن بنجح الذريعة . وأما الملكة فانه مكن محلها . وجمع بالملك شملها . وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الشوبك والكرك . ودخولهما في معاقلنا وخروج

اصحابهما منهما في الدرك . فاستحضر ابنها هنفري من دمشق اليها واقر برؤيته عينيها . وسار معهم من الامراء الامناء من يتسلم منهم تلك المعاقل . ويحوز من تلك العقيلة العاقلة تلك العقائل ، فمضت اليها مع ولدها . حسنة الظن بأهل بلدها . فلما وصلت قاطعوها . ودافعوها عن حصونها ومانعوها . واخلفوا ظنها وخالفوها . حيث ما ألفوها كما ألفوها . وجنحوا وجمحوا . واجترأوا عليها واجترحوا . وعصوها واقصوها . وعدوا عليها الذنوب واحصوها . وافحشوا لها في خطأ الخطاب . وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب . وسبعوها وسبوها . والى موافقة الاسلام نسبوها . وكلما لاينتهم خاشنوها. وكلما قاربتهم باينوها فوجدت نبوة نوابها . وعدمت إصحاب أصحابها. وذكرتهم بحقوقها . وحذرتهم من عقوقها . ولاطفتهم فغلظوا . واسترضتهم فاحفظوا واسترعتهم العهد فما حفظوا . ونبهتهم لأمرها فما استيقظوا . وانفصلت عنهم خائبة مخفقة . هائبة مشفقة . تخشى من رد ولدها الى السجن . وعودها من الاصحاء الى الدجن .ومضت الى الحصن الاخر . فحصلت منه على صفقة الخاسر . فانها لما المت بالشوبك الت من شوب كدرها واملت دفعها فعادت بضررها . ولقيت من نوابها نوائب . وفي موارد المراد منها اقذاء وشوائب . فآبت بالامل الخائب والعمل العائب . والخوف الصادق والرجاء الكاذب . فلما رجعت قبل السلطان عذرها . وازال ذعرها . وأعلمها بأن ولدها محفوظ . وبالرعاية ملحوظ . وبالعناية به محظوظ . وهو في حصن السلامة الى ان تتسلم الحصون . واذا بذل مصونها بذلنا لك منه المصون . فسكنت الى الوعد . وسكنت بعكا في ظل الرفد والرقد . ثم انتقلت قبل خروجنا من عكا ٠ الى صور ٠ واستودعت السلطان ابنها المأسور . وأمد السلطان سعد الدين كمشبه في حصار الكرك والشوبك بامراء يساعدونه في الحفظ واليزك . فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها . ويفي بمصابرتها . ويلبث في مقابلتها . ولايعبث بمقاتلتها . فانها تبقى على قوتها مالم تقو (١٨) من قوتها . وتدوم على طغيانها مالم يذل عز طاغوتها . فلما رتب

السلطان هذه المراتب . ورب هـذه المآرب . أقـام حتـى وثـق باستمرارها وتحقق حق استقرارها .

ذكر مادبره في عمارة عكا

اختلفت الاراء في امر عكا فانها كانت مـدينة متخـرقة . وبيوتهـا متفرقة . وسورها غير معمور . ومعظمها بـلا سـور . ورأوا أن في ابقائها خطرا . وأن في اخلائها ضررا فمـن اصـحابنا مـن اشـار بخرابها وحفظ الحصون . وبناء قلعة القيمون . ومنهم من قـال اذا صينت عكا ملك البحر . وهلك الكفر . وكانت على البلاد الساحلية قفلا . وكانت بها بلاد الكفر غفلا . فمن قـائل بـابقاء بـرج الداوية لحفظ ميناها . ومن قائل نختصرها من أدناها . ومن قـائل نجـدد سورها . ونحكم أمورها . ونبقيها بحالها . ونعمرها بكمالها . على أن أسوار هذه البلاد سيوفها التي هي عند الفتوح مفاتيح اقفالها . واجالوا الفكر فيمن يجلي غوائلهـا . ويحلي عواطلهـا . ويتـوحد بتدبيرها . ويتفرد بتعميرها • ويجتهد في تسويرها .

ذكر وصول بهاء الدين قراقوش لتولي عمارة عكا

فقال السلطان:ماأرى لكفاية الامر المهم . وكف الخـطب الملم . غير الشهم الماضي السهم . المضيء الفهم . الهمـام المحـرب . الذقـاب المجرب . المهـذب اللوذعي . المرجـب الالمعـي . الراجـح الرأي . الناجح السعي . الكافي الكافل بتذليل الجوامح . وتعديل الجوانح . وهـو الثبت الذي لايتزلزل . والطـود الذي لايتحلحـل . بهـاء الدين قراقوش الذي يكفل جاشه بما لاتكفل به الجيوش . وهـو الذي ادار السور على مصر والقاهرة وفات وفـاق الفحـول بـاثار مسـاعية الظاهرة . فنامره ان يستنيب هناك من يستكفيه لتمام تلك العمارة .

- ٥٩٢١ -

وذؤمره لهذا الامر فهو جدير بالامر والامارة . وكوتب بـالحضور . لتولي الامور . وعمارة السور . فوصل متكفلا بـالشغل . متحمـلا للاثقل منشرح الصدربالعمل . منفسح السر والامل . مبتهجا بالأمر . ملتهجا بالشكر . وقدا ستصحب معه كل ما يفتقر اليه مـن اسـباب العمارة وآلاتها وأدواتها . وانفارها وأبقارها . ورجالها وعمـالها وعمارها . ومهندسـيها ومـؤسسيها . وحجـارتها ومعمـاريها . والاسارى والصناع . والنحات والقطاع والمال الكثير الدفقة والذهب الابريز والرقة • ومثـل بـالخدمة السـلطانية على كوكب . وحضر الموكب وشرف باسني الخلع وأعطـي الملبس والمركب وفـوض اليه وقلده • واسعفه من عنده واسعده• وقوى جانبه • واعذب مشاربه وأوضح مذاهبه • وانجح مآربه • وأجد جده . وكثر مدده • ووفـر عدده وعدده • وخصه بعطاياه • واستخلصه لوصاياه • فتوجه الى عكا وشغله متوجه • وعزمه متنبه وسره مترفه • وفـكره في رياض الهدى متنزه • وامره ماض وحكمه قاض • والله عنه راض • وقام بما أقيم له • ونهض بالعبء وحمله • ومشى بكفايته عمله • وشرع في التعمير والتسوير • وتسوية الأمور بحسن التـدبير • وسـياتي شرح ما جرى بعد ذلك في مكانه • وما ظهـر مـن حسـن ايالتـه واحسانه .

ذكر وصول رسول سلطان الروم قليج أرسـلان وغيره من الرسل .

لما شاع خبر السـلطان بـاستيلائه على البـلاد . واسـتعلائه في الجهاد . وتارجت الارجاء بعرف عرفه . وأرخت السـير بمحـاسن وصفه . عنت الامصـار لمصره . وأعنت الامـلاك لملكه • وانقـادت الامراء القادة لأمره . وعادت مهاب المحاب تفوح بما له من الفتوح . وشروح ايرانه واصداره تحـل في صـدر الزمـان المشروح فتهيبه بالضراعة كل عظيم . وتـأهب له بـالطاعة كل اقليم . ورهبـه ملوك الاطراف . وتعلق باستزادة الشرف منه اهل الاشراف . فـكاتبوه

مستسعفين . وخاطبوه مستعطفين . وراسلوه بالتحايا . وواصلوه بالهدايا . ورغبوا في امتراء خلاف الامتزاج . والاتشاح والالتحاف بحاف الاتشاح . وخطبوا الوصلة . وطلبوا الصلة . وكل يطلب لبلده منه امانا . ولبده وقدمه من تمكينه وتاييده امكانا ومكانا . ويتوصل ويتوسل . ويتلطف ويتطفل . ويرسل ويسترسل . ويترجى مواهبه . ويتخشى عواقبه . ويديم التردد للتودد . والقصد لبلوغ المقصد . فما يعود رسوله الا بسوله . ولايقبل عليه منه الا بقبوله . ومن جملة الملوك المتقربين بالوداد . المتسببين الى حصول الاتحاد . سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان . فانه بذل الاذعان . وسأل الاحسان . وادى في المودة الامانة . وابدى الرغبة الاستكانة . واستنهض في سفارته السفير الالب . وندب الندب . وانفذ اكبر أمرائه . وأعظم سفرائه . وهو اختيار الدين حسن بن غفراس . وكان في دولته مقدما . وفي مملكته محكما . وعند اهل ولايته معظما . وقد استعلى عليه واستولى . واستبد بالتدابير عليه كأنه بملكه أولى . ولاتصرف له في ملك ولامال الا بتصريفه . ولاتعرف له عن حادث وحال الا بتعريفه . فوصل هذا الكبير بنفسه لتمهيد القواعد . وتشييد المقاصد . وتجديد العهود . وتاكيد العقود . وقدم مكرما وأكرم قادما . وخدم حاضرا وحضر خادما . وقبل البساط وبسط وجه القبول . وتمثل له الشرف فتشرف بالمثول . وحيا تحية المماليك للملوك . وحفظ الادب ولم يتنكب فيه عن النهج المسلوك . فتلقاه السلطان بالبشر والترحيب . والبر والتقريب. وأعزه بنزوله في ذراه . وأوعز بنزله وقراه . ووسع عليه من الانعام بما ضاق عنه أمله . وواصله من الجميل بما راقت تفاصيله وجمله . وشفع رسالته بالاصغاء . ورفع مقالته عن الالغاء . وسمع ما جاء به وأجابه . وابعد بادناء مآربه مارابه . وشافهه بشفائه . وأرواه بروائه . وأولاه لولائه . وعرفه بالتعريف الى آلائه . ونصبت له خيمة مسردقه . شهادات الاقبال الناصري لها مصدقة . ووجوه الكرامات بها محدقة . وسحب المبرات لها مغدقة . فأقام أياما بايامن مقيمه . ومحاسن من احسان الشيم السلطانية مشيمه . فلما استقام أمره استقل . واستدر له بارق البر من سماء السماح

واستهل . ومارام حتى نال مارام . ووثق لاحكام المواثيق الاحكام .
ووصل في تلك المدة أيضا الصلاح قتلغ أبه . وهو اتابك قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا ارسلان وافيا موافيا • باحسان الخطبة وخطبة الاحسان • راغبا في تتميم الوصلة • وتعميم الصلة • اخذا لصاحبه ملك ديار بكر عهدا محكما • وعقدا من الميثاق مبرما • وقد أحضر قضاة بلاده شهودا • واقتضى لصاحبهم بحضورهم عهودا • وكان قد خطب لصاحبه ابنة الملك العادل • ومت بكثرة الشوافع والوسائل • وكان خائفا على آمد فانها من فتوح السلطان • ووهبها لأبيه نور الدين بن قر ارسلان • فاشفق من استرجاعها بالحق بعد وفاة والده . ورأى الامن عليها وعلى جميع بلاده من اكبر مقاصده . ورغب في المصاهرة المظاهرة . وان يفتح بها باب المزاورة للموازرة . فأواه الملك العادل الى ظل هذه الواشجة . وثبت بعقد المزاوجة حكم الممازجة . فتم أمنه . وعم يمنه . وزاد قربه . وزال رعبه . وجلس السلطان . وحضر عنده الاماثل والاعيان . ووكلني وكان وكيل أخيه الغائب . في انشاء العقد مع وكيل الزوج الراغب . فلما تم العقد باركانه . اعتضد ملك ديار بكر بمكانه . وسار صاحبه بالمسار مصحوبا . وعاد نيله بالفخار مسحوبا . وقال له:قد وجدت الحزن فلا تحزن . واشتد ركنك فالى سواه لاتركن . ومامن كبير أو أمير الا وقد وصل منه أكبر أمرائه . لينتظم بعهد السلطان في زمرة أوليائه .

ذكر رحيل السلطان صوب دمشق

واقمنا على كوكب الى اخر صفر . ننتظر منها بمن كفر الظفر . ثم راينا انه يطول حصرها . ولايفوت أمرها • وان الفتح يبطيء . وان كان السهم لايخطيء . فأمر الامراء الموكلين بها وبغيرها من الحصون . بالمقام عليها وابتذال سرها المصون . ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة ظاهر العزيمة . سامي اللواء . هامي

الانواء • نامي الانوار في مطالع المضاء . ودخل اليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الاول . بالصدر الارحب والباع الاطو ل . وتلقاه أهل البلد بوجوه لاقباله متهللة . والسنة بـالدعاء له مبتهلة . وعيون لانواره مجتليه وقلوب بولائه ممتليه . واسماع لامـره مسـتمعه . وايد إلى الله في نصره مرتفعة . وصدور بايامه منشرحة . وامـال في انعامه منفسحة . ونفـوس على طـاعة الله في طـاعته مجبـولة • واعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة . ودخل المدينة . وأدخل اليهـا السـكينة • فـوجدت الروح بسـلطانها . وعادت الروح الى جثمانها • وقرت به عيون أعيانها . واقرت له بحسنها واحسانها . وابتدأ بالجلوس في دار العدل . وبحضرة القضاة والعلماء من أهـل الفضل . واسترفع قصص المتظلمين . واستمع غصص المتـألمين . وكشف الظلامات المظلمة . وفصل الحكومات المستحكمة • وقرأ كل قصة . وقراها بكل حصة . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق • وأقـام للشرع السوق . وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق . وحـل بانصافه كل مشكلة . وطب باسعافه كل معضلة . واصحت سماء السـماح . واصحب جماح النجـاح • وأعدى المسـتعدي • واروى الصـدي . وحيا الحي واورى الردي . ومجد المجدي • ومهد الحـق حتـى قيل هو المهدي . فما انقضى ذلك اليوم . وانفض اولئك القـوم • الا عن مظلوم أجير بالحق . ومعلوم أجري من الرزق . وعالم أعين . وظالم أهين . وهـاد زين . وعاد شين . ومختل سدد ومنحل عقـد ومعتـل شفي ومعثر كفي • وما حل جيد • وأمـل زيد • وركن حـق شـد وشيد • وخدن باطل أبير وأبيد • وراح أدنى فـوزه . ولاح أسـني عزه • وجلس يوما أخر للاكابر والامـاثل . والاكارم والافـاضل . فاضاء النادي وفاضت الايادي • وغدق الندى وصدق الهـدى . وكر الكرم . وفر العدم . وحفل الدر ودر الحفل . وشمل النظام وانتـظم الشمل • وصان العلمـاء بـالبذل . واعان بـافضاله أعيان اهـل الفضل . وفاز بـالحمد وحـاز الثناء . واجـاز الشـعراء واكرم الكرماء . وروح الرجاء . واولى النعماء . ونعم الاولياء وتقـاضاه عزمه بالحركة لاستفاضة البركة . واسـتضافة المملكة الى المملكة . فلم تستقر به دار • ولم يدر به قرار . ولم يثبت في جفنيه غرار . ولم

يبت الاوبين جنبية لحب لقاء العدى اهل النار نار • وكان الصــفي ابن القابض قد استجد للســلطان على بعض أبــراج القلعــة دارا . وأذهب في نضارتها ذهبا ونضارا . وهي متطاولة بين البروج مــطلة على المروج ، مشرفة على موازاة الشرفين ، كاشفة غطاء النظر عن الغوطتين • صحيحة البناء ، فسيحة الفناء . بهية البهــو . شــهية الزهور . مجدة لأهل الجــد ذكرى اللهــو . فــرشها بمــاء الورد . وفرشها بالورد . وبسط بسطها وعلق ســتورها . واعلى ذورهــا . وحبر حبورها . وسرى سرورها . وسنى انواع نمارقها . وأســمى أنوار مشارقها . وتوصل الى حضــور الســلطان بهــا وجلوســه . وذهبت تباشير بشره بقطوب الزمان وعبوسه . واحضره كل مقــرظ بقريض . وكل مؤمل بتصريح وتعريض . وكل ناشد ضــالة رجــائه بنشيد . وكل قاصد جلالة ارجائه بقصيد . وكل مغرد مغرب • وكل مطر مطرب . وظن ان السلطان تــروقه تلك الحلية والحــالة . وتلك الجلوة والجلالة . وتلك البقعة المؤسسة . وتلك الرقعــة المقــدسة . وذلك المشرف العــالي . وذلك المشرف الحــالي . وانتــظر نظــر استحسانه لاحسانه . وتوقع تمكينه لموقع مكانه . فما اعاره لحظا . ولا لمحة بطرف استطراف . ولامنحه حرف استعطاف . بــل اعرض بنظرة عن تلك النضارة . وأغضى عن تلك الغضــارة . وغض عن تلك الغضاضة . واشتغل عن تلك الرياض بــالرياضة . فــالعاقل مــن لايتخذ من دار الدوائر معقلا . ولا يجد في منازل النوازل منزلا . ولا يركن الى فناء الفناء لبيب . ولا يسكن في غار الغرور اريب . وكيف يبني العمران والعمر الى الهدم . والغم في الدنيا الدنيئة عين الغرم . وقال:السعيد من يبني دار الآخــرة . وينجــو مــن امــــواج الدنيا الزاخرة .

ثم صرف في تلك الايام الصفي عن ديوانه . وابقاه في شغل الخــزانة على مكانه . وسمعته يقول في بعض محافله . وقد اجــرى له حــديث مــن يفــرح بمنازله : كان مــن ذنوب الصــفي عندي انه بنى لي تلك البنية . فدل على انه لم يوافق منه الامنية . وقال مايعمل بالدار مــن يتوقع المنيه . وماخلقنا الا للعبادة . والسعي للسعاده . ومــايخطر

لنا في هذه الدار خلود بالخلد . ومالنا وللمقام في البلاد والبلد . وماجئنا لنقيم . ومانروم (الا) ان لانريم . وماتحركنا الا للسكون . وماسهلنا الا العود الى الحزون . فما يجنى ثمر الراحة الا من مغرس التعب . ومايجنى نصيب المغنم الا من مغرم النصب . فأين الأين . الذي تقر به العين . ومايحصل السكون في المسكن . ولايكمل الوطر في الوطن . لاسيما والدين يطالبنا بدينه . والكفر يستقرب منا حين حينه . والبلاد سائبه . وللبلاء هائبه . فلا تفوح الفتوح الا بهبوبنا . ولاينزل النصر الا بركوبنا . وغدا الحزم متمما . والعزم مصمما . ووصل الخبر بوصول عسكر الشرق بالغرب الماضي ،والحد القاضي . والجمع الوافر الوافد . والجمر اللافح الواقد . وان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي قد اقبل بقبيله. ووصل برعيله . وقدم بجده ، واقدم بحده . وانه حل بحلب ثم سار عنها مسارعا . وجاء معه الجيش النجدة والجدة جامعا . فأرهف العزم السلطاني خبر وصوله . وحل بالشد للرحيل عقد حلوله . وكان القاضي الاجل الفاضل ذو الجلالة والفضل . والنباهة والنبل . متأخرا في بيته بدمشق لشكاة اقام في غبرها . واستقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال اثرها . والسلطان بنجح سعيه متبرك . وبنصح رأيه متمسك . وبطوله عالم وبقوله عامل . وبعبارته قائل . ولاشارته قابل . فأراد السلطان ان يقدم بلقائه الاجتماع . وبرأيه الانتفاع . ويستنير بنوره . ويستشيره في اموره . ويفاوضه في تفويضاته . ويقلده في تقليداته . ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته . فانه طالما اجتلى سني السعاده من مطالعه . واجتنى جني الارادة من صنائعه . وافتتح الاقاليم بمفاتيح اقلامه . وجاءه بالوجاهة في دينه ودنياه باسعافه واسعاده . وكان قد خرج الى جوسق الشرف الغربي الاعلى . ليتفرغ هناك للعبادة ويتخلى . فأصبح السلطان بكرة يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الاول على الرحيل . فقصده لابرام ماوجده في مملكته من الامر السحيل . واقام عنده في الجوسق الى الظهر . مستظهرا به على الدهر . حتى كشف مهمات مهماته ورشف شفاه مشافهاته، وانتجى معه في الاراء والاراب . وانتجع لربه من رأيه صوب الصواب . وارتجع سر الغيب

ممن عنده علم من الكتاب . ثم استودعه الله وودعه . ودعا له الاجل الفاضل وشيعه . وبات تلك الليلة مخيما بالعرادة . محتما بالسعادة راجح السيادة . ناجح الارادة . ثم سلك في جبل يبوس الى عين الجر الى الدلهمية . على البقاع . وهو مطيع امر الخالق ومتبعه والخلق تابع امره المطاع . واتى بعلبك المحروسة . وخيم بمرج عدوسه . واقام حتى امر امرها . وادر درها . وقسم لها من عدله . وعدل بها من قسمه . وحكم فيها بفضله . وأفضل عليها بحكمه . وكشف الظلم والمظالم . وصرف المكاره . وصرف المكارم . ورفع من المعالي المعالم . وأجرى رسوم الاجر والمراسم . وامر الرعاة برعاية امر الرعية . وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة الشرعية المرعية . ثم رحل على سمت اللبوة . معصوم النبوه . مصون الكتيبة من الكبة والكبوة . ثم اوجه الى الزراعة وزرع الظفر قد توجه . وشرع النصر الصافي الشرعة من الكدر قد تنزه ، وقد كحل عثير العسكر طرف الجو الامره ،(١٩) وقد آن لعين الشمس الراقدة من الهبوة ان تعاد الهبوة وتتنبه ، وزرع من الزراعة من السمر المركوزة والبيض المهزوزة نبات الخط . وقتاد الخرط وضاق ذلك الفضاء الواسع بحط رحال الرهط .

ذكر وصول عماد الدين صاحب سنجار والاجتماع به

ووصل الخبر بان عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وصل جامع من الاداني والاقاصي ، ونزل طائعا على العاصي . وخيم على قدس (٢٠) وخيمه قد تقدس ، والدين بدنوه تأنس ، والكفر بقدومه تعكس ، وانه ينتظر قدوم السلطان والاتفاق معه ، على قهر الشرك ونصر الايمان ، فركبنا وابن ذكاء في اسفاره ، والصبح قد زحف على الليل برايات انواره ، والفجر قد فجر انهار نهاره ، وسرنا بصدق النزاع ، وقصد الاجتماع ، فلقيناه قد ركب مستقبلا ، وقرب مقبلا ، ولما رآه السلطان حياه ، ولقيه بالكرامة واكرم ملقاه ، ونزلا

فتعانقا ثم ركبا وتوافقا وتساوقا ، وخيمنا بقرب مخيمه ، وجثمنا وحططنا هناك رجالنا ، وخلطنا برجاله رجالنا ، وتساعد الجندان ، وسعد الجدان. وجد السعدان ، وانتظم الجمعان ، واجتمع النظمان واتحدت الكم ، وأتأدت الهم ، وسأل السلطان ان يوازره ويزوره ، ويحضره بحضوره حبوره ، فساق معه الى سرادقه وارتفع في صدره . ورفع من قدره . وصار العسكران مختلطين . وجلسا منبسطين . ووقف الامراء والعظماء سماطين كالسمطين . وقرأ القراء واورد الشعراء . وتجاذب بينهم اطراف الطرف والاداب الفضلاء والعلماء . وكان مع عماد الدين شاعره السنجاري ابن الهائم . ومن عادته ايراد المدائح في مثل تلك المواسم . فأنشد مدحا . ونشد منحا ثم بسط السماط . وسمط البساط . ومدت الموائد . وعادت العوائد ونضد الخوان . وكونت الالوان . ولونت الالوان . وصفت الجفان . واحضر الطهاة من كل حاجة وباجه . وخروف ودجاجة . وحلو حامت (٢١) وحامز وحامض . وتفه (٢٢) وقابض . ومطبوخ ومشوي . ومصنوع ومقلي . ماطاب مذاق مذقه ومحضه . وطالت الايدي في بسطه وقبضه . فلما رفع من ناديه القرى . وفرع بأياديه الذرى . قدم ما اعده للهدايا . والتحف السنايا . من الجياد المقربة . والثياب المذهبة . والعدد المعجبة . والاسلحة المذربة . وكل مايروق ويروع . ويضيء ويضوع . ثم انفض النادي عن ندي منفض . وسدي لبكر الشكر مفتض . وعين السلطان يوما لحضور عماد الدين عنده . وانه يستضيف فيه خواصه وامرائه وجنده . فوسع سرادقه . ووشع نمارقة . وضرب بيت الخشب له لحسب بيته . واسميت الحسنى بحسن سمته وسمته . واحتفل بحفله . واجل لاجله . وارجت ارجاء النادى بالند . وراق مد النواظر النواضر في ذلك الرواق الممتد . وبسط على البسط ماحضر من الياسمين والورد . وفاح النشر . ولاح البشر ، وفرش الثرى . وشرف البرى . ورفع الحجاب . واشرعت القباب . وتوجهت الاسباب . وتنزهت الالباب . وتضوعت نوافح الذوافج . ووضحت مناهج المباهج . ووضعت المطارح والمساند . والاسرة والوسائد . وجاء عماد الدين في خواصه وامرائه وصحبه . فتلقاه

السلطان برحبه . وقرب له السرير وسر بقربه . واجلسه الى جنبه . وحباه بحبه . واقبل عليه بوجهه وقلبه . وجلس من جرى بالجلوس رسمه . وسما في الرؤوس اسمه . ووقف الامراء والحجاب . والعظماء والاصحاب . على مراتبهم في مواقفهم . ودب الاعتزاز في معاطفهم . وكان النادى مهيبا . والندي مجيبا . والذرا رحيبا . والقرى قريبا . والظل ممدودا . والفضل موردا . والحفل حافلا . والشمل شاملا . والبساط مقبلا . والنشاط مقبلا . والمرئي عاليا . والمسموع مطربا . والمجموع مغربا . والمنظر والمخبر جليلا جميلا . والمطلع والمطلب منيرا منيلا . والمكان عليا . والزمان جليا . والربيع في انتهائه . والصنيع في اشتهائه . والمصيف في ابتدائه . والمضيف في انتدائه والنعيم في نضرته . والاريب في اربه . والطروب في طربه . والضريب من الخلاق الحسن في ضربه . وكانت ايام المشمش وقد وصلت من دمشق احمالها . وحلت في تلك الحالة حالها . واقدم الجذل قدومها . وطلعت في ابراج الاطباق نجومها . كأنها كرات من التبر مصوغة . أو باورس مصبوغة . صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية حلاوذوقا . واحل شوقا . ولو نظم جوهره لكان طوقا . وهو احلى من السكر . واعبق من العبير . واحسن هيأة من النارنج الأحمر . والليمون المركب المدور . وقد زفت عروسه في الثوب المعصفر . والخمار المزعفر . كأنما خرط من الصندل . وخلط بالمندل . وجمد من الثلج والعسل . فهو الذي يضرب بضربه مثل الثمل . ويقضب من قضبه لقب القبل . ونظر منه ما نضر . وما حظر ما حضر . ورئي هناك لقطوفه قطاف . ولطوافيره طواف . ولعقوده مصارف . ولنقوده صيارف . فكأنها وجوه العشاق اكتست اصفرارا . أو جمرات تشتعل نارا وتبدي شرارا . وقد اعاد لجينها صواغ القدرة الالهية نضارا . بل هي احداق الحدائق . وقلوب البوارق . ووجنات الجنات صبغها بلونه البرق .وصفرها من خوفه الرعد ودورها بوقده الودق . لابل اصفرت من مهابة الجنات الجناه . وانتظمت من جواهر الحيا الحياة . واضطرمت لهاها شوقا الى فتح اللهاة . ثم صرفت

الاطباق . ونظفت الآفاق وبسط المكان . وسمط الخوان . ونبهت اجفان الجفان القدور الرقود . وشبهت المراجل لغليانهـا بصـدور ذوي الحقود . وتزيد مقال المقالي النشاشة . وتزينت مقار المقاري بالبشاشة . ومادت اعطـاف الموائد بـالالطاف . وتهـادت اكناف السرادق بموشي الافواف . وهناك المسموط والمسلوخ . والمخـطوب المطبـوخ . والمقلو المقلوب . والمحبـو المحبـوب . والاغنية والحمان .والاشوية والحمـلان . والالبـان والالوان . والجـوابي والروابي . والصواني والاواني . وقد صـفت البـوارد . وصـفت الموارد . وتنوقـت الطهـاة . وتنوعت المشـتـهاة . وحلت الاطعمة . وعلت الاسئمة . وجاش جـاش الجـاشنكير الرابـط . وعاش اخوان الخـوانسلار الغـابط . وتـداولوا وتناولوا الذوالات والحوالات . والحلاوات والحالات . وكان يوما مشهودا . وحوضا موردا . وروضا معهودا . ورواقا ممدودا ورواء مودودا . وجمعا مسعودا . وصـنعا محمـودا . ولما فـرغت الموائد . وبلغـت المقاصد . أحضر السلطان لعماد الدين هداياه . وحياه بأحسن من تحاياه . من خيل صفون . وحصن كحصـون . وعراب جياد مـن طوائف الطريفيات . وسـوابق سـوابح مـن العتـاق الاعوجيات . والمذاكي المنسـوبات . مـن كل مـطهم مـطهر الخيم . وكريم من نسل الكريم . وصافن صـافي الاديم . ومعـرب مقرب . ومجنب مكرب . وسكب مشذب . وفيض سـلهب . وبحـر جموم . وطرف لهموم . وسرحوب شيظم . ويعبوب صلدم . واجرد قؤود . وضامر قيدود . واقب نهـد . وجـواد ورد . ومسـح رفـل طمر . واشق امـق غمـر . ومفـرع طمـوح . وعتيق غير جموح . وهيكل عال . وعنجوج نيال . فاختار منها كل طرف . قد حط من قدره اذا قوم بألف . من كل اشـهب قـرطاسي . واشـعل سوسني . واغر صنابي . وادهم غيهبي . واحم احوى . واشـقر مدمى . وابرش مدبر . وكمين مضمر . واخضر وادبس . وسـمند اغبس . ثم احضر له ما يناسبها من التحـف اللائقـة . والطـرف الرائقة . والعدد الرائعة . والاسلحة المانعة والسابريات السابغات والدروع والزرديات . والرؤوس والرانات . والخـوذ

والترائك . والبواتر البواتك . والدلاص الموضونه . والنصال المسنونة . ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية . والملحم والدبيقي . والمصمت والمغربي والعراقي . ومن نسج تونة وتنيس . كل ثمين ونفيس . وما شاكله من انواع الطيب . على النمط والترتيب . ثم انصرف وعرف حمده متضوع . وعرف جده متنوع . وشدو شكره وعطف فخره مترنم مترنح . وامره متحبر متربح . ووده مترح مترجح .ودعاؤه صالح . وثناؤه صادح .ولسانه داع . وجنانه واع . وعهده راع . وسعده ساع . وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس . والتناجي بما في النفوس ، والتدبر فيما يقدم ويؤخر . ويقرب ويقرر . ويورد ويصدر . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده . ويوفي العزم فيها الجهاد حق جهده . واتفقوا على عرقا وعرقها وعقرها . والنزول بعقرها . وانها اذا ملكت ملكت طرابلس . واسفر عن صبح فتحها الغلس . واقام العسكر اياما على قدس . وبقبس النصر قد تأنس . ولسناء الظفر قد توجس . واتى العرب . وواتي الارب . واجتمعت الجيوش وجاشت الجموع . وآن لليل العزم المدلج من صبح النجح الطلوع . ونبعت الفيوض من النعيم وفاض الينبوع . واينعت ثمار المبار وطابت الينوع . ثم رحلنا اول شهر ربيع الآخر الى البقيعة تحت حصن الاكراد وخيمنا على الربا والوهاد . وصوبنا الى الجهاد هوادي الجياد . وادنينا قطاف الطاف الله لاجتناء الاجناد . وكانت الاعشاب بالاشعاب واصية . والشوائب من المشارب قاصية . والقضب للقرب في طاعة الله عاصية . وطار الرعب . وثار العجم والعرب . وخاف الكفر .وطاف الذعر . وقال ذفر الشرك نفر . ولانستقر . وتشوروا وتشاوروا . وحاوروا وتحاوروا . كأنهم في قبور حصونهم اموات . لا ترتفع لهم من الوهل والوله اصوات . واجمعنا على دخول بلد الساحل على التجريد للتجريب . وجوس خلال البعيد والقريب . ثم تجرد العسكر عن الاثقال .وتجرأ على اخذ اهبة القتال . وسار السلطان ومعه عماد الدين زنكي . وسيفه بصقاله يضحك وبدم الكفر

يبكي . ومظفر الدين كوكبوري . وهــو الذي حين يواري صــارمه المشهور في نجيع العدى لزند الظفر يوري . وصــحبه مــن فــرسان العرب كل فارس معــرب . ومـــن شـــجعان الاكراد كل فـــاتك محرب . ومن فتاك الاتراك كل قسور قاسر . ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر . وكل كمي كميش . واكيش على اكيش . وقارح على قارح . وخضم على سابح . وجــري جــار جــارح . وبهمــة وبطل . وجبل على جبل .وفحل على فحل . وذمر ذكل وورد على ورد ومرد على جرد . وحلس وحلبس . وباشر بالموت معبس . واهيس اليس . واحمى احمس . وغشمشم همام . وايهم مقدام . وبــاسل ذي باس . وعاسل عاس . ورئبــال على رئبــال . ومشــتمل على شكال . وبحر على بحـــر . وصـــقر على صـــقر . وركبـــوا سلاهبهم . وجذبوا جنائبهم . وجروا على الساحل سيولا . وجروا بالذوايل ذيولا . وطــار ابليس طــرابلس بخــوافي الخــوف . ودام الجوى في رعب اهلها بدم الجــوف . ومــا سار الا مـــن خـــف في نهضته . ونهض بخفته . واحس حصن الاكراد بالاكدار . وصــفت على صافيتا بوارق البوار . وقطع عرق عرقا وعقــرت . وتعــرمت العريمة وتعرقت . ومــزعت تلك الاعمــال ومـــزقت . وارهقـــت وازهقت . وذفرت اذفارها . وبقــرت ابقــارها . وملئت بــالدوائر ديارها . وسيقت مــواشيها . وحشــيت بــالنيران اوســاطها وحواشيها . ونزل السلطان على حصـــن يحمــور فمـــا قـــدروا يحمونه . وابتذل مصـــونه واســـتخرج مـــكنونه . وفتحـــه ومتحه . ومساه بالدمار وصبحه . واقــام في تلك الديار عشرة ايام يجوسها ويدوسها . وقد حيزت له نفائسها ونفــوسها . ثــم رحــل بمغنمـــه . وقفـــل الى مخيمـــه . وعاد العســـكر مسرورا منصورا . محبورا مــوفورا . قـــد اطلع مـــن تلك البـــلاد على العورات .و اضطلع بالغنائم في تلك الغارات . وذكا منها في الاعمار والعمارات .وانقضى شهر ربيع الآخر وذلك المرج يمــوج بــالعساكر موج البحر الزاخر . وقـــد وصـــل قـــاضي جبلة يحـــث على قصـــدها .ويحض على انجــاز وعدهــا . ويحـــرض على اعذاب وردها . ويحقق ان الظفر في هذه السنة يبتدىء من عندها . ويقــول

ان الاشتغال بطرابلس مع احترازها واحتراسها . وكثرة ناسها . وتدرعها بلباس باسها . واستعدادها الحصار . وتجنبها عن الاصحار . يذهب الزمان . ويفوت الامكان . وهذه جبلة وما وراءها من المعاقل . قنيصة الحابل . وفرصة المتناول . ولهنة للآكل . ونغبة الناهل . وامنية العاقل . لم يفترع عذرة امنها ذعر . ولم يفتأ سورة ذفعها ضر . ولم يقرع باب يسرها عسر . فان سلكنا سبيلها . ملكنا سلسبيلها . وان جزنا ساحتها . حزنا راحتها . وان استقدنا ملكها ملكنا قيادها . وان اعتدنا حواءها حوينا عتادها . وان افتتحنا بها فتحناها والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم . مؤملون ان يتبدل شقاؤهم منكم بالنعيم . فعرفناه بصحة نصحه . ورفعناه بحجة نجحه . واصغى السلطان الى قوله . واصغى له ورد طوله . واقبل عليه وقبله . واجزل له العطاء واكمله . وكان قد وصل له مقدمو جبل بهرا . فوفر لهم رواتبهم واجرى . وخلع عليهم وشرفهم . واسعدهم بالمواهب واسعفهم . فندبوا الى اتباعهم . وكتبوا الى اشياعهم . واجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر الجحافل . ورحل يوم الجمعة رابع جمادى الأول . حافل الجحفل سامي القسطل . ماضي المنصل . فسرنا في أجام مؤتشبه . وأكام معشبه وحزن وسهول . وشعاب وتلول . ومعالم ومجاهل . وروابي وهواجل . ومغايض وغياض . وارتفاع وانخفاض . حتى خرجنا الى ساحة الساحل . ونزلنا بها ومبارك مبارنا مواحي رسوم تلك النواحي المواحل . ومعنا احمال واوساق . واثقال واسواق . وازواد وامداد وعدد واعداد . والخيل عرمرم . والسيل عرم . والمجر لجب . والغيل اشب . والاسد في عريس من الاسل العراص . والفوارس الصلاد في غدران من السوابغ الدلاص . وقد نشأ العجاج كعجاج النشاص . فانحلت بحلولنا معاقد المعاقل . واعتلت باستيلاء فحولنا عقائد العقائل . وحلت لخطبه سيوفنا كرائم الحوالي والعواطل . ونحن في استباحة واستباء . واصطلام واصطلاء . وارتياد وارتياء . وفتك باعداء . وسفك لدماء . وبتك لرقاب ذوي الفجور . وهتك لحجاب

ذوات الخدور ، ننال من العدو كل نيل وتدبير عليه في داره دائرة كل ويل • فما نقطع الا واديا يغيظ الكفار ، ولانحضر الا ناديا نزيدهم به الدمار ، وسرنا الساحل الساحل ، في ثلاث مراحل ، حتى وصلنا الى أنطرطوس يوم الأحد سادس الشهر ، فاحدقنا بها من البحر الى البحر ، وزحف اليها الناس ، وحفز عليها الباس ، وخاب رجاء رجالها وخب نحوها الباس ، وقابلتنا ساعة ، فلم يجد اهلها الدفاع استطاعة ، ودخلت من جوانبها وتخالت من مذاهبها واصابتها نوائبها ، ونابتها مصائبها، وفل غريبها وجب غلالها ، وسبي من أخذ من نسائها واطفالها ، واعتصم من نجا ببرجين اعتصما بالامتناع ، وهما هناك من احكم القلاع ، وفي أحدهما الداوية جمرة الكفر ، ومعهم مقدمهم الذي اطلق من الاسر ، وفي البرج الآخر المنهزمون الناجون ، والفارون اليه اللاجون ، فنزل على هذا البرج مظفر الدين بن زين الدين ، فأبدى لمن استتر فيه وجه التأمين ، وحركهم الى الخروج بالتسكين ووثقوا بأمانه ، وأمنوا بميثاقه • ومكن كل منهم لسلامته من تسلم مكانه ، فلما ظفر مظفر الدين بالبرج هدمه وهده ، وحل من احكامه ما الكفر شده ، وركب الذقب على ركنه العالي ، ونكبة في ذلك اليوم بما تنكبت عنه نواكب الليالي ، وخرب الى اساسه سوره ، ورمي الى البحر صخوره ، وامتنع برج الداوية بدائها الدوي • واتبع مردتهم في التمرد هوى طاغوتهم الغوي ، وأقام العسكر حتى نقض اسوار انطرطوس وقوضها . وربضنا بها الى أن عفينا ربضها . ولما امتنع البرج تركناه ، وماكانت فيه فرصه لو ادركناه ، وكيف كنا نشتغل بفتح برج عن البلاد ، وللفرص أوقات هي لها بالمرصاد ، ومن يسلك الجدد اللاحب لايعرج على بنيات الطرق ، ولايستغني مدلج الليل بالدراري عن الفلق ، ورحلنا عنها رابع عشر الشهر ، شاهرين على الأعداء سيوف القهر ، ونزلنا على مرقية وقد خلت من أهلها وتخلت • وتشعثت عمارتها واختلت ، وكان جوازنا الى جبلة على الساحل تحت حصن المرقب ، وهو معقل للاسبتارية عالي المذكب ، سامي المرقى والمرقب ، ضيق المذهب عسر المطلب ، فلم

يكن بد من عبور ذلك المضيق ، وسلوك تلك الطريق ، وقد صفت الفرنج في البحر المراكب ، وسدوا المذاهب ، وردوا الراجل والراكب ، وفوقوا الجرخ للجرح ، وسددوا الزنبورك للقرح والطرح ، فعسر العبور ، وكثر العثور ، وامتنع الجواز ، ووجب الاحتراز ، وأعوز الظهور وظهر الاعواز ، وذلك ان صاحب صقلية ، رام ان يكشف عن الفرنج البلية ، فجهز اسطولا بجهازه مستطيلا ، وحمله من عدد القتال وعدد الرجال عبئا ثقيلا ، واتفق وصوله في تلك الايام في ستين قطعة ، تحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعة ، من كل شيني من شأنه شن الغارة ومن عادته العادية تشعيث العمارة ، مع طاغية يقال له المرغريط • قد عرف منه التوريط ، من أرجس الطواغيت ، وانجس العفاريت فوصل الى طرابلس بطوله واسطوله ، وصوله وصوله ، فما أحلي ولاأمر • ولانفع ولاضر ، ولااستقل ولااستقر ، ولانقض ولاأمر بل صار على الفرنج وبالا ، واحدث لهم بما يسومهم من مؤونته امحالا ، وماخفف عنهم بل زادهم على الثقل اثقالا ، ووجد الكفر في اوان توانيه فلم ينتفع ولم يرتفع شان شوانيه ، وصار الى صور ثم رجع الى طرابلس وتردد في البحر وتلدد وأبلس ، وتفرقت جماعته ، وتجبنت شجاعته ، واضطرب في البحر اشهرا ، ولايظهر له رأي ولايرى له مظهرا ، فتقطلت اقطاعه • وتتابعت في الفرار اتباعه ، حتى عاد في عدة يسيرة ، وشدة عسيرة ، وكان هذا الطاغية قد حضر يوم عبورنا تحت المرقب بمراكبه ، مصفوفة في البحر من جوانبه ، قد ضيق الطريق ، ولم يطرق المضيق ، فأمر السلطان بحمل الجفاتي الى هناك وتصفيفها ، والستائر وتأليفها ، والتراس وترصيفها ، واقعد من ورائها على مقابلة سفن القوم وازائها ، الكماة النخبة • والرماة الجرخية ، حتى تباعدت تلك السفن ، ودب اليها الوهن ، وتمت عليها المحن ، وأنحت الاحن ، ورحل العسكر فعبر آمنا وأمن عابرا ، وسار ظاهرا وظهر سائرا ، وجزنا على مدينة يقال لها بلنياس ، وقد أجفل عنها الناس ، ونزلنا في ارضها ، وخيمنا في طولها وعرضها ، وأنسنا بنهرها وزهرها في الارواء والرواء ، وحبسنا على نواضر رياضها

نواظر الارتضاء ، وبتنا ونفحات النادي مريضة ، وجنبات الوادي مريضة ، والنسيم العليل بليل ، والعـزم الصـحيح دليل ، ورسـم العدو محيل ، ولقدح الفوز من تأييد الله لنا مجيل ، واصـبحنا على الرحيل مبكرين ،(فسـاء صـباح المنذرين) ،(الصـافات ١٧٧) وسرنا وسرنا في سرور ، وسـفرنا في سـفور وجمعنا في اجتمـاع ، وجـدنا في ارتفـاع ، ونهجنا في اتسـاع ، وركننا في امتناع ، وعارضنا نهر عريض عميق ، مافيه طريق ، وهـو مـطرد من الجبل الى البحر ، فازدحم العسكر عند ذاك النهر ، وتـواقعت الاحمال والاثقـال عند العبـر ، وليس عليه الا قنطـرة واحـدة فتصادموا على ذاك الجسر ، وسار السلطان من فـوق على سـفح الجبل وعبر ، واستتبع من عسكره بعد الزمر والزمر ، ونزل عشية الخميس على بلده • وعانت الاثقـال في تخلصـها مـن الشـدة الشدة ، وتكامل نزولها حين انتصـف الليل ، ووصـل الى القـرار السيل ، وهذه بلدة كاسمها بلدة على شاطىء هذا النهر ، وسـاحل البحر ، حصـينة البناء ، مصـونة الفناء قـد حصـنها الاستبار ، وحسنها الاسـتظهار وقـطعوا عنهـا سـلوك الطـرق ، بتعميق ذاك النهـر المختـرق ، والفينا بلدة خـاوية على العروش • حاوية الوحوش • خالية من الانس والانس ،(وكأن لم تغن بـالامس) (يونس ٢٤)، وقـد انزعج اهلهـا ، وتشـتت شملها ، وتخوف آمنوها وعدم السكون ساكنوها .

ذكر فتح جبلة

وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر ، وقد اشـتهر موسم النصر ، واشتد على الكفر رهق القهر ، وكان قاضي جبلة قد تقدم في السابقة وسبق في المقدمة ، واقـدم على قصـدها بـالعزيمة المصممة ، فلما بصر مسلمو البلد بما وضح في الجد من الجدد وسنح من الظفر المتضافر المدد ، خرجوا مستسلمين مسلمين مستمسكين

بعـز الاســلام معتصـمين ، وعلت على الســور الرايات الناصرية المنصورة ، والتهجت بحمد الله الألسن الشاكرة وابتهجـت القلوب المحبورة ، وتحصــن الكفـرة مــن الحين ، ولجـأوا في التحين الى الحصين ، فمن لاذ بالحصن الذي على المينا ، قـال انه بحصـانته ومنعته يحمينا ، وعاذ معظمهم الأكثر بحصــن البلد وهــو المعقـل الأكبر ، وتوسط لهم قـاضي جبلة في أخــذ الأمــان بعــد قبض الرهائن ، على ان يعيدوا مــن اســترهنوه ، في انطــاكية مــن أهله ، ويجمعوا شملهم بشمله ويسلموا الينا كل مالهم مــن ســلاح وعده ، وخيل وذخيرة وغلة ، وتســـلمنا الحصـــين يوم الخميس ، وعادوا مأهولين من الاسلام بالأنس ، وكرمت بـالكرام جبلة جبلة ، وذفت عنهــا بــالفئة المقبلة ، الفـئة الشـــقية المختبلة ، وسعد أهلها بعد الشــقاء وتعــوضوا مــن الشــدة بــالرخاء ، وافضى اليأس بهــم الى الرجــاء ، وفــاؤوا الى الوفاء ، وانتقل أهــل الجبــل الى جبلة طــائعين بعــد العصيان ، مصافحين بـالمصافاة بـالايمان أيمــان أهــل الايمان ، وكان حصن بكسرائيل قد تسلم من قبل ، واتصل بفتحـه الحبل ، فرتب فيه من حكم على ذلك الجـانب وأهله وكانوا لقـاضي جبلة مذعنين بـايمانه مـؤمنين ولدعائه ملبين ، ولبقـائه محبين * ونجوا من العار والتبار ، وضيم الكفار ، وتناجـوا بـالاستبصار والاستغفار والاستذفار ، وأضت تلك الولاية لاحسانها والية ، وتلك الناحية على ســكانها حــانية ، وتلك المدينة لأهــل الدين دانئة دانية ، وتلك الجنة العـذبة الجني لورد دم الجناة مــن شـوك القنا جانية ، وتلك البنية لمعالم المعــالي في هــدم اســاس الاســاءة بانية ، وتلك الهضبة راســية ، والتــربة كاســية والرتبــة سامية ، والربوة رابية والذروة عالية ، والحــالة حـالية ، واقــام السلطان بها اياما حتـى أزال شـعثها * وأزاع خبثهـا ، وراب صدعها ورب ربعها ، وشاد ركنها ، وشــد حصـنها ، حتـى أزال كفرها ، وجبر كسرها ، وجــد بهــا جــدبها ، وحض بهــا خصبها ، وبالعدل عمرها ، وبالفضل غمرها ، وبـالرعاية مـلأها

والرعية كلاها ، وبجل قاضي جبلة وشرفه • وحبس عليه ملكا نفيسا ووقفة ، وصرفه في املاك آبائه ، وحكمه في ولاية حكمه وقضائه .

ذكر فتح اللاذقية

ورحل ثالث عشري الشهر يوم الأربعاء منشور اللواء ، منصور الاولياء • مشكور المضاد ، عالي القدر قادر العلاء ، ناجح الآراب راجح الآراء ، وسار برعب الى العدو يقدمه • وعزم على الغزو يصممه ، وأمر لامرار الأحكام يحكمه ، وجد على تدبير الدين يقفة ، وحد في تدمير المارنين يرهفة ، وسعادة تؤيده وتأييد من الله يسعده ، وسطوة على الكفار يرسلها ، وجذوة في أهل النار يشعلها ، وجيش للوثبات ينشطه ، وجاش بالثبات يربطة ، وهيبة تروع الخواطر ، وهيأة تروق النواظر ، وبتنا تلك الليلة بالقرب من اللاذقية معرسين ، وبات الكفرة مبلسين ، قد لاذوا من حصن اللاذقية بجبل عاصم • وعروة كل قلب لهم من الرعب في يد فاصم ، والخوف عليهم مستول • والذعر فيهم مستعل • والأفئدة منهم خافقة والاندية بهم متضايقة ، والمهج في سوق الردى نافقة ، ونحن طول الليل من السوابغ في جر الذيل ، ومن السوابق في اجراء الخيل ، ومن نشاط العزم في اهتزاز ، ومن احتياط الحزم في احتزاز ، ومن انتخاب الاجواء والجياد في انتخاء ، ومن انتقاد العتاق والرقاق في انتقاء ، ومن انتهاض الرياح بالهواضيب في انتهاء ، ومن اقتضاب الأرواح بالقواضيب في اقتضاء ، والمقربات تسرج والسريجيات تقرب ، والمقانب تكتب والكتائب تقنب والصوارم تنتضى • والصرائم تقتضى ، والقوارح تضمر ، والقرائح تخمر ، والضوامر تجرى • والبواتر تعرى ، والصلاد تلجم • والدلاص تستلأم • والحنايا توتر • والمنايا تؤثر • والجاليشية تعبي ، والجاوشية تلبي .

حتى أصبحنا يوم الخميس والخميس مصبح . والمتجر مربح .

والدفخر متوضح . والجاش فرح . والجيش مرح . وقرح العدو مقترح . وزند الفتح مقتدح • وباب السماء لنزول ملائكة النصر مفتتح . وأحدقنا بالقلاع وقلعنا الاحداق . وخطنا بابر السهام من موقها أماق . وأخرجنا منهم بالارهاق الارماق . وانهضنا اليها الحجار والنقاب والزراق . وأطرنا النشاب الى أوكار المقل . وأزرناهم رسل النصال بكتاب الاجل . وسمعنا من ضوضائهم زجل الوجل . ورأيناهم تغلي من صدورهم بنار الحقود مراجل الغلل . وأشرفوا من الشراريف قلقين متقلقلين مابين تلك القلل . وجدوا في القتال . وشدوا على الرجال . وسدوا مذاهب الاهواء بالاهوال . وهناك في الزنبورك بورك . فانه بالجرخ دورك . وقلنا للكفر اخرج لندخل الى دورك . وأي دار فيها التوحيد بأهل الشرك شورك . وطالما سكنت دارنا فاخرج . ودرجت اليها فادرج . ومازلنا نقاتلهم بسوادنا بياض النهار . ونغطي سني يومنا بليل الغبار . ونرفع من السور حجابه بالحجار . حتى فزنا بتمكن النقاب والحجار . وأخذت عليهم الذقوب . ووقذت منهم القلوب . وبلغ النقب من الشمال في الطول ستين ذراعا . واربعة اذرع في العرض اتساعا . وهي ثلاث قلاع متلاصقات . على طول التل متناسقات . كأنهن على رأس رأس راسخ . وذروة أشم شامخ . فسهل الله لنا فرعها . وشرعنا نستاصل أصلها وفرعها . وناوينا عليه القتال . وجاوينا بالنصال النصال . وأوضعت بنات الكنائن بظعائن الضغائن . وأثارت من مكامن الاحقاد كوامن الدفائن • ودام الرماء • ومريت الدماء • وانتجع النجيع • ووقع ذلك الرفيع • فاستبطيء السريع . وتخطي الصريع . وأبصروا مالا عهد لهم بمثله . وعاينوا ما عاذوه من غريم الموت المطل في مطله • وفتح الحتف بابه . وحفز الزحف اصحابه . وكشر الشرك نابه . وصادف الكفر لدمسه المطاول مصبه ومصابه . ونفر الناس اليهم • واستطالوا عليهم وطمعوا فيهم . والاجل يظهرهم والوجل يخفيهم . وهم من وراء أسوارهم • بواء في بوارهم . وويل الذيل هام . وأهل الجهد في ضراب وضرام . وجمر الجمع في التهاب والتهام . ووقع منهم الزمع • ومنافيهم الطمع . حتى ازدحم على التل الصغار والكبار . واستشعرا منا

وزال منا الاستشعار . وكان لي مملوك صغير قد زحف . وأرهق وارهف فقبل خده سهم . فرجع واذا وجهه طلق لاجهم • وهو بقرحه فرح . وللفرح بالشهادة مقترح . وقد عدله الجرح • وحسنه القبح • فلما عرفوا أنهم مدركون . وأنهم يؤخذون ولايتركون . صاحوا الامان . واستماحوا الايمان . وذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الأولى عشية . وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيه . فانه موضع ما فيه مطمع • ولم يكن للكفر غيره مفزع • وصعد اليهم قاضي جبلة يوم السبت غدوه . وكان ذلك الفتح صلحا أشبه عنوه • وطلع السنجق المنصور . وانجلت الظلمة وتجلى النور . وأشرق الفلق وزهق الديجور . وبدا الفجر وباد الفجور • وسرت القلوب وأقبل السرور . وسلموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة . وأسلحة وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم • وانصرفوا بنسائهم ورجالهم . وذريتهم وأطفالهم . وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة . وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون الى انطاكية . وايقنوا انهم وجدوا بعد رسوم السلامة العافية العافية . ورتب السلطان جماعة من خواص مماليكه • وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها التوحيد مصونا من الاشراك وتشريكه • ثم ولى بها سنقر الخلاطي مملوكه • وقد عرف حسن سيرته وأحمد سلوكه • فتولى الرعية كافة بالرعاية والكفاية • وانتهى الى غاية في نهى أولى الغواية • واقام جاليا للغاية • عالي الراي والراية • وركب السلطان الى البلد وطافه • وهز إلى إحسانه أعطافه • وادنى الى عدله قطافه • ووفر الطافه • وأصفى نطافه • وامنه بعد ماأخافه • ورأيتها بلدة واسعة الافنية • جامعة الابنية • متناسبة المعاني . متناسقة المغاني . قريبة المجاني • رحيبة المواني . في كل دار بستان . وفي كل قطر بنيان . وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان . أماكنتها مخرمة . واروقتها مرخمة . وعقودها محكمة . ومعالمها معلمة . ودعائمها منظمة . ومساكنها مهندسة ومهندمة . وأماكنها ممكنة . ومحاسنها مبينة . ومراتبها معينة . وسقوفها عالية • وقطوفها دانية . وأسواقها فضية . وآفاقها مضية . ومطالعها مشرقة .

ومرابعها موذقة . وأرجاؤها فسيحة . واهــواءها صــحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها • وأذهب نضـارتها • وأزعج سـاكنيها . وأخرج قاطنيها . وملك دوز المشركين للمـوحدين . وطهـرها مـن رجس الكفر وأظهر الدين . ووقع من عدة من الامـراء الزحـام على الرخام • ونقلوا منه أحمالا الى منازلهم بالشام . فشوهوا وجـوه الاماكن • ومحوا سني المحاسن . وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة . نفيسة قديمة . بأجزاء الاجزاع مرصعة . وبألوان الرخام مجزعة . واجناس تصـاويرها متنوعة . وأصول تمـاثيلها متفـرعة وهـي متوازية الزوايا . متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الاشباه . وصورت فيها أمواج الامواه . وزينت الاخـوان الشـيطان . وعينت لعبدة الصلبان . ولما دخلها الناس اخـرجوا رخـامها . وشـوهوا أعلامها . وحسروا لثامها . وكسروا أجرامها . وأهدوا الاسى لهـد أساسها . وأفاضوا عليها لباس ابـلاسها . وحـكموا بعـد الغنى بافلاسها . وافتقرت وأقفرت . وخـربت وتـربت . ثـم لما طـابت النفوس . وتجلى عن البلد بفتحه البوس . عاد الى هــذه الكنيسـة بالأمان القسوس وهي متشـوهة متشـعثة مسـتمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة • ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت . وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنما زاد سروري بـأنها عادت للاسلام مرابع . ولسر وحــه مــراتع . ولجمــوعه مجـامع . ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليها وحالتها . بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت . وكما أفاقت فاقت • وشأت البـلاد اذا شاءت . لكنها ساءت لما أساءت . ثم أعادها الاســلام إلى أحسـن حاله.وجلالها في السناء أسنى جلاله . ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والارمن . حبا للوطن وسكونا الي السكن . فأض مأمول الجني مأهول الجناب . وعاد بتجار البحار مملوء الرحــاب . وتبدل بالابدال الاخيار . والارباب الابرار . من بعد الكفار الفجار . والاشرار أهل النار . وكانت شواني صقلية . قد قـابلت في البحـر اللاذقية . طمعا في امتناعها . وطلبا لنيابه عنهـا ودفـاعها . فلمـا خابت خبت نارها . وباخ أوارها . وقصدت لجهلها اخذ مركب مـن يخرج من أهلها لكونهم شغلوا عن صــونها ببــذلها . فـامتنعوا عن

الانتقال . وأمنوا بعقد الذمة على النفس والمال . وكان السلطان يوم الرحيل من اللاذقية راكبا عند ميناها . وقد حصل من ترتيب العمارة مناها . فطلب مقدم ذلك الشواني أمانه . ليصعد ويشاهد سلطانه . فأمنه حتى صعد ! ولو أسلم ذلك الشقي لقلت سعد . ولما حضر الكافر عفر وكفر . وتروى ساعة وتفكر . وأحضرنا الترجمان . وأدى عنه البيان . وقال أنت سلطان عظيم وملك كريم . وملك رحيم * وقد شاع عدلك * وذاع فضلك وقهر سلطانك * وظهر احسانك * فلو مننت على هذه الطائفة الخائفة فأمنت وأفضلت عليها واحسنت * لملكت قيادها * اذا أعدت بلادها * وصاروا لك عبيدا * واطاعوك قريبا وبعيدا * وان أبيت غير الغيرة والاباء * ودمت على ارهاق الدهماء واهراق الدماء جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق * وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق . وثار الروم لروم الثار .. وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار . وسار ملوك ذوي الاقانيم . من سائر الممالك والاقاليم . واتي الآتي . ولايقاوم القدر الماتي . وهؤلاء أهون منهم . فاتركهم واصفح عنهم . فقال السلطان:قد أمرنا الله بتمهيد الارض . ونحن قائمون في طاعته بالفرض . وعلينا الاجتهاد في الجهاد . وامتثال أمره فيه بالانقياد . وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد . ولاتكترث الاساد بكثرة النقاد . ولو اجتمع اهل الارض . ذات الطول والعرض . لتوكلنا على الله في البقاء . ولم نبال بأعداد الأعداء . فلما سمع ما فهمه من نجهه . ذهب بعد أن صلب على وجهه . وركبْ بكربه وكر بركبه . ولم يغن خطابه عن خطبه .

ذكر فتح حصن صهيون

ورحلنا ظهر يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى . والهدى في نصره بين أنصاره يتهادى وقد تيقنا أن الفتح لايتمادى . وان العزم عن الفداء بالمهج في سبيل الله لايتفادى . وأخذنا على سمت صهيون . وهو حصن يفوق الحصون . ويفوت العيون وطلبنا كما

يطلب الدائن المديون . ونحن للكفر مميتــون . وللإســلام محيون .
وكان الطريق اليه في أودية وشعاب . ومنافذ صعاب . ومضايق غير رحاب . وأوعاث وأوعار . وانجاد وأغوار . وقطعنا تلك الطــرق في يومين . ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين . وخيمنا على صــهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين . ورزقنا الله التأييد والتمكين . وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين . بها محيطين من جــانبين . والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق وســور وثيق . والقلعــة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب . ممتلئة بذئاب سغاب ، وأســد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الاربعاء مــن نواحيهــا الاربــع . وهي ممتنعة علينا بالركن الامنع . والسمو الامتع . ونقل الســلطان خيمته الى جانب الجبل بــكرة اليوم . وشرع في محــاصرة القــوم . وقامت أسواق الاقواس للمذون في مغالاة السوم . وتــوفرت ســهام السهام من المقل . وتبــدت بنات الكنائن مــن الدم القــانيء حمــر الحلل . وأسقطت حوامل المنجيقات أجنة الصخور . وكشفت صدور الكنانيات أكنة الصدور . وظهر سرا لاسراء . وكثر مراء الرمــاء . وزخر دأماء الدماء ، وطــارت الحجــارات . وحجــرت الطيارات . ودارت حميا الحمــــام على أولئك . واســـتنجدت ملوكنا الملائك . وأدامت اليهم المجانيق والجروخ والقسي الرمي المتدارك . وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين ، ونهــج بهمــا مــن جــانب الوادي الى رديء الاعادي طريقين . وكان له في فتح هذه القلعة الجد العالي . والجد الوالي . والعزم الماضي . والحزم القاضي . والسعي الناجح . والرأي الراجح . والبأس البالغ . والسطو الدامغ . فــانه اتصل بنا قبل الوصول الى جبلة من طريق حماه . وقــد اســتصحب الكماة الحماة . ومعــه الرجــال الحلبية . والمنجنيقية والجــرخية . والجاندارية والخراسانية فأظهر على صهيون اليد البيضاء . وكسب الذكر والثناء . وأنار في فضاء الفضائل وأضاء . ودام القتــال على المكان من جانبه . ومن جانب السلطان . والملك الظــاهر في تــظاهر ملكه . وتضافر سلكه . وريعان اقباله . وعنفوان جلاله . وشــباب رهان مجاراته . وشبا برهان مبــاراته ، وابــراق عوده . واشراق سعوده . وغرة عزته، وميعه منعته ، وصدر تصدره ، وشرخ تأمره

وتشمره • وقد وصل في أول نشاطه • ونشـوء اغتبـاطه • وفتـاء فتوته • ورواء رويته • وارتقاء ارتفاعه • وايفاع بيفاعه • وترعرع سنه • وتعرعر ركنه • وتسامي سيادته • وتراقي سعادته • واجد لعز العزم الجد • وأعد لري الرأي العد • واسـتلذ في سـبيل الله نصبه • ورفع المنجنيق ونصبه • وجعل لرجاله نوبـا • ولأحـواله رتبا • والقم أفواه كفاته حجرا • وأجرى في الحق من الحجـارات الجاريات من منابعه نهرا • ورجم الحصن الزاني رجم المحصن • وأحسن الى الاسلام وأساء الى الكفر . فلله در المسيء المحسـن • ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي • والحنايا بسهام المنايا تصمي • حتى قتلت مقاتلة الحصـن • وهـان بمـا دب فيه مـن الوهن • وأصبحنا بكرة يوم الجمعة ثاني جمادى الاخرة • وطمـا بحر العسكر بأمواجه الزاخرة . وازدحم الناس في الزحف كأنهم في الحشر بالساهره . وهاج الشباب . وماج العبـاب . وتسـابق ذوو الجرأة والقوة . وتلاحق ذوو الحمية والنخوة . وكان في قرنة الخندق عند خرقة الى الوادي موضع لم يكمل تعميقـه . ولم يتـم تـوثيقه . فتطرقوا من تلك القرنة الى القنة . وتسـوروا السـور وتسـلقوا . وتقلعوا الى القلعة وتعلقوا . وتملكوا الذروة . وامسكوا العـروة . واستولى على أهلها الرعب . واستشرى بهم الكرب . فتعـادوا الى القلة . وتفادوا من الخوف لامن القلة . وملكت عليهم ثلاثة أسوار . بما فيها من متاع وشـوار (٢٥) . ونعـم وأبقـار . وصـاحوا الأمان • وبذلوا الاذعان . ونادوا مكنونا مـن السـلامة وتسـلموا المكان . فما امنوا على المال والنفس . حتى قررنا عليهم مثل قطيعة القدس . واغلقت دونهم الأبواب . وسير إليهم النواب . ومـا استقر خروجهم حتى استخرج منهم القرار . وجبي الدرهم والدينار . وعم الكبار والصغار الصغار . وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار ، ثم سلم حصن صهيون بجميع اعماله . وسائر ماحواه مـن ذخـائره وأمواله . الى الامير ناصر الدين منكورس بن خمار تـكين . اسـد العرين وامير المجاهدين . المقدام الهمام • والمطعام • فالفى الثغر سداده بسداده . وامرع به مراد مراده .

-٥٩٤٥-
ذكر فتح الحصون المذكورة والرحيل

وتسلم يوم السبت قلعة العيد • ويوم الاحد قلعة الجماهريين • ويوم الاثنين حصن بلاطنس وندب الى كل حصن من تسلمه . وسلكه في سلك الفتوح ونظمه .

ذكر فتح حصني بكاس والشغر

وسار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية ، ومشية الله جارية على موافقة ماله من المشية . ونزل على العاصي في طاعة الله والنصر قد نزل . والكفر قد انخذل . يوم الثلاثاء سادس الشهر . وبحور السوابح في غدران السوابغ مائجة على ذاك النهر . وحكم السلطان في القهر ماض باذن الله على الدهر . وتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وشكا الشرك نكاية حد بأسنا المشكور . وحول خيمة خفيفة الى الجبل ، لحصار قلعة الشغر • وهي قلة شامخة من أعلى القلل • على هضبة منقطعة . عالية مرتفعة • ومن نواحيها واد • خاف من العمق غير باد • في أعماق ووهاد • وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها • واخذ من العوادي موثقها • فما اليها طريق ولاعليها طروق • ولافيها للطمع علوق • ولاللسهم اليها مروق • ولاللزحف فيها مقطع • ولاللذر نحوها مطلع • ولاللطير في مراحها وكر • ولاللمكر في افتتاحها مكر • ولاللوهم في توقلها مجال • ولاللفهم من تصورها منال • ولالها بمن يحتفل بها احتفال • وماعليها للنازلين عليها قتال ولانزال • ولايتغير لها مع تغير الاحوال حال • وصعب شغل الشغر • واشتغل فكر الكفر • ولم ير السلطان طريقا غير الرمي من المنجنيق • لعله ينال جميعها بالتفريق • وداومها بالحجارات أياما • ولكم سدد بها مرمى ومراما • فلم تعبأ بأعبائها • فإنها

ترامت عن رمائها ، وابت الا ثباتها وثبتت على ابائها ، وأعيا اعضال دائها ، واستفحال بلائها ، وخام الرجاء بالارجاء عن ارجائها ، ولو لم يضجر حاميها لضجر راميها ، وسئم سائمها لتساميها ، لكنه وهي جلده ، وهوى خلده وخار قلبه ، وحار لبه ، وخاف من الاقامة ، وخاب من السلامه ، وارتاح الى الراحة ، وسما الى السماحة ، وعاج الى الانزعاج ، وعاد لداء خوفه في الاستئمان يطلب العلاج، ودعا الى الدعه ، والخروج من الضيق الى السعة ، فبينا نحن في ترو وتفكير ، وتخير للرأي وتدبر ، ونقول هذا حصر يشتد ، وأمر يمتد ، وعمل يصعب ، وأمل يتعب ، ومعقل لايختل ومعقد لايحتل ، ومقصد لايدرك ، ومورد لايملك ، ومكان لاامكان لفتحه ، ورجاء يطول الزمان في تطلب نجحه ، اذ خرج من الحصن من يضرع في الأمان ويمتري ضرع الامن ، فشكرنا الله على تسهيل المتوعر ، وتيسير المتعسر وتحصيل المتعذر ، وتلقيح الرجاء من الياس ، وتنقيح مناط حكم الصحة عند اضطراب علة القياس . وكان ذلك ثالث عشر الشهر يوم الثلاثاء ، وسالوا في مهلة ثلاثة أيام والارجاء ، ليخبروا صاحب انطاكية ويستأذنوا ، ويقبلوا عنده العذر ويخرجوا من الحصن ويسلموه فأصبحنا يوم الجمعة وصباح الجمع مسفر وجناب الشرك مقفر والشغر شاغر . والكفر صاغروفم القهر منا لهم فاغر . والاسلام قد ثلم ثغر من هو له مثاغر . والحصن البكر مفترع ، والدين المتأصل بشعب النصر متفرع ، وطلع العلم الى ذلك المعلم الطالع ، وانتقم الهدى الضليع من الضلال الظالع ، وكأنما عذبات تلك الراية مقاول الداعين ، وكأنما أبراج تلك القلعة مسامع الواعين ، وعاد الحصن أهل بأهل الاحصان ، وصافح بأيدي الأيد ايمان ذوي الايمان . فابتسم عن النصر ثغر الثغر . وفرغ القلب من شغل الشغر ، وسلم هو وحصن بكاس ، الى غرس الدين قليج الساقي عدوه الموت بكاس الباس . وانتقل السلطان يوم السبت الى مخيمه والاقبال جاثم في مجثمه ، وسرى ولده الملك الظاهر الى قلعة سرمانية ، وأرهق فيها الفجرة الجانية ، واستطلق منها البررة العانية . وقطف مجانيها الدانية ، واخلى مغانيها الغانية ، وماقطع

قرارها حتى قرر عليها قسطيعه . وكلفها ما كانت له من المال مستطيعة • ولم تزل عاصية بطوعها فصارت كرها مطيعه . ثم خرج حتى خربها عاليها • وعطل حاليها • وانجلى ثاويها • وانتأى جاليها • وبقيت دمنة دائرة • ودمية عائرة . ورسما عافيا • ورقما خافيا • وربعا باليا • وصقعا خاليا • وعادت دارا دارسة • مستوحشة بعد أن كانت آنسه • وكان فتحها في يوم الجمعة الثالث والعشرين . فأخلى الله من السباع الضواري ذلك العرين ومن نوادر ألطاف الله تيسير هذه الفتوحات الخمسة المتتالية • في أيام الجمع الخمس المتوالية • باء فيها لنصر اهل الجمعة بذل أهل السبت أهل الأحد واصبح التوحيد على التثليث قاهر الأيد . ظاهر اليد •

ذكر فتح حصن برزية

وسرنا الى قلعة برزيه • وسرنا سار • ودر الظفر لنا دار . وهي احصن القلاع وافرعها • واحسن التلاع وارفعها . واسمق الرواسي واسماها واسنم الرواسخ واسناها . وكان السلطان سبق اليها واشرف عليها . ثم استدعي الثقل واستحضر . وجمع بالفضاء تحتها العسكر . وذلك رابع عشري الشهر يوم السبت وقد تهيأت في العدو اسباب الكبوة والكبت . ثم تجرد يوم الاحد في العدد والعدد . ورقى الى الجبل . مع ابطاله النبل ، فرأيناها قلعة شماء في الذرى . لاتكاد من سموها ترى . وهي على سن من الجبل عال . مترامية في السماء ارتفاعا ،وقيل قدر علو ثلاثة فكان خمسمائة ونيفا وسبعين ذراعا، فأحدقنا بها وبالجبل . وقطعنا عنها متصلات السبل . ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح . فلم تصافحها صفائحها . وأبدت لنا صفحة الصفح . فقد بعد مرام مرماها . وحارت الاوهام فيها وقلنا ماأعلاها وماأسماها، وتحاجزت عنها الحجارة فلها من اجازتها بها الاجازه . فما بلغت الى القلعة قلائعها . ولاطلعت الى التلعة طلائعها . هذا والنجم يلامع بلامعها

وتقارن طوالعه طوالعها . فـكان الصـخور سـلم نحـورها . فإن سورتها تتكسر دون الوصول الى سـورها . ولما رأى السـلطان انه لاوصول الى نيقها بـالمنجنيق . وان الاشـتغال بـه يطيل زمـان التعويق . مال الى الزحف . ولاحف جموعه في ذلك اللحف . وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء . فقسـم الناس ثـلاثة اقسام على السواء . وجعـل النوبـة الاولى لعمـاد الدين صـاحب سنجار . الليث الهصار . والغيث المدرار . والبحر الزخار . والسيد الحلاحل (٢٦) . والملك العادل في صحابه الصباح ، كفاة الكفاح وعفاة الصفاح . ونفاة الهام . بثبات الاقدام في الاقـدام . وشـفاة الاوام بعلة الانتقام من الاقوام . واسـاة ذوي الاسـاءة بـاحسان الحسام . وكساة عرى العراء أردية القتام . ورقاة اراقـم اللهـاذم وسقاة حـوايم الصـوارم . والمزاق في حـومة الردى رداء المأذق . والسباق في حلبة الهدى بهوادي السوابق . من كل شارب ماء الوريد بشفاء الشفار . وضارب هام المريد ببتار التبـار . ولاسـع بحمـة الحمام في الاسل العاسل عاسل . ولابس لبـاس البـاس كالاسـد الباسر باسل . ومعتقد للدين الربيني معتقل . ومعتـد على العـدو بعادي معتدل . ومجتاب لبوس البوس على الموت العبوس مجتـاز ، ومجتب لحب المنون لرهون نفائس النفوس محتاز . فـانقضوا على الهضب . وعضوا على العضب . ودام الصفا يد هـده . والصـدى يقهقه . والزاحف يتقدم ويتقهقر . والحافز يخفى ويظهر . والرجال تتعالى . والحجار تتوالى ، والمصاعد ترقى . والمصـاعب تلقـى . والمضايق تولج . والبوائق تحرج . والاكام تفرع والرجـام تقـرع ، والصخور ترديد . والجـلاميد تميد . ومـازالت هـذه النوبـة تنازل وتقاتل وتناضل وتطاول . وترمي وتدمي . وتصمي وتصمي . وتـرد وترد . وتصد وتصد . وتصدم وتصدم . وتقدم وتحجـم . وتصـدع وتصدع . وتحمل وترجع . وتذكو وتنطفىء . وتبدو وتختفـي حتـى كلت وملت وانحلت وتخلت . وكانت غلبـت . لولا انهـا لغبت ، وسمت . لولا انها سئمت ، والغيت هـذه النوبـة خـاصة ، لاهـل الحصن حاصة ، فانهم تولوا بأجمعهم القتال . ولم يقصدوا التناوب الاستبدال . ولما ظهـرت في النوبـة النبـوة ، وكاد جـوادها تناله

الكبوة . تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية . والسطوة الدانية . والعزمه الناوية غير الوانية وخف في الثقال من الرجال . وزحف الى الجبل بالجبال . وتضافروا فتطايروا في الاوعار كالاوعال . وجروا كالسيول في تلك المسائل . وجروا نيول السوابغ ، على تلك الهواجل . وترقوا في ذراها . وقروا على قراها ، وتلبسوا بجوانبها ، وتوجسوا من مثاعبها ، وتدرجوا في مدارجها ، وعرجوا في معارجها ، وخرجوا في مداخلها، ودخلوا في مخارجها ، وصارت الجروح تجوزهم . والجروح لاتحوزهم . والسهام تعبرهم . والاكام تسترهم . والنخوة تحميهم . والحمية تنخيهم . وقد نشط السلطان لتسليطهم وتنشيطهم والتحذير من توريطهم وتفريطهم . فمن انقبض بسطه . ومن اعرض ضبطه . ومن أقبل أغبطه ، ومن أدبر أسخطه . ومن تقدم قرظة . ومن تقاعس أحفظه ، ومن تناعس أيقظه ، وكلما شاهدوا السلطان يشاهدهم تسلطوا . وكلما اغتبطوا بما فرعوه من تلك الفوارع ارتبطوا . فمنهم من تمكن من الطلوع . ومنهم من تكمن للولوع . وتقلبوا في تلك المخارم كالقلوب بين الضلوع . وعرا اهل الحصن العناء والعياء . وعمهم البلاء . وأدركهم الشقاء . فانهم مازالوا يقاتلون يومهم من غير مناوبة جميعا . فمنهم من صد صديعا . ومنهم من صار صريعا . وظهر فيهم الفتور . وبدا منهم القصور . وجاءت النوبة الثالثة تالية . واقدمت امدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الاولى لنشاطها . وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور . وتسلقوا كالنسور . وطلعت القلعة . وقلعت الطلعه . وافتضت العذره . واقتضيت النصره . وأعان القدر فقدر الاعوان . ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وان اهل القلعة لما ايقنوا انهم ملكوا . طلبوا الامان حتى لايهلكوا . فلما سمع اصحابنا بالامان صياحهم . وعرفوا الضراعة التياعهم والتياحهم . كفوا عنهم انتظارا لما يأمرهم به السلطان . واشفاقا من سبي من يشمله الامان ، وكان جماعة من دهاة الخواص . عارفين بطرق الاقتناص . فاظهروا ان السلطان امن اهل القلعة . وانه يدافع عنهم في هذه الدفعة . وجمعوهم في مواضع وكنائس .

واحرزوا الذقوس والذفائس . وعاد عنهم من حضرهم . على ظن ان السلطان امنهم وحظرهم . وبقي اولئك الافراد بهم متفردين . ولتجريدهم للسبي متجردين . وصار مابالقلعة ومن فيها لهم كسبا وسبيا . وماراوا لحق من شاركهم في السعي رعيا . وحرموا ماارتفقوا به وحرموا الرفقاء . وحازوا دون الغانمين النهب والسباء . وملك واحد مائة وحاز الري وحلا عنه رفقة ظمئة . ولما تسنى ذلك الفتح وتهنا . وتسهل ذلك الصعب وتهيأ . عاد السلطان الى خيامه . وعاذت الايامن بأيامه وكانت صاحبة حصن برزية اخت زوجة الابرنس صاحبة انطاكية وقد سبيت وخبئت فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها . وكانوا بعد هتك سترها ستروها . فمن عليها بالاعتاق من الارقاق . وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق . وأحضر أيضا ابنة لهما وزوجها وعدة من أصحابهم وأدخلهم معهم في الاطلاق . وجمع شملهم بعد الشتات . ووصل حبلهم بعد البتات . وشعبهم وقد تصدعوا . واشبعهم وقد تجوعوا . وحظرهم وقد استحلوا وكثرهم وقد استقلوا ، وحرمهم وقد استبيحوا . ومنعهم وقد استميحوا . وأحياهم بعدما هلكوا ، وعصمهم بعد ماهتكوا . وحواهم وأغناهم وقد افترقوا وافتقروا . وجبرهم ونعشهم وقد انكسروا وعثروا . وسير معهم إلى أنطاكية من أوفدهم على ستها . فسرت باختها . واعلنت بمقتها من سر مقتها . واذاعت من مضمر بغضها بمظهر حبها . وجاءها الفرح في غمها والفرج في كربها . وتشكت لأخذ بلدها . وتشكرت لترك أختها وولدها ، وانعم السلطان بهذا الحصن على عز الدين بن المقدم . الكريم المكرم والمقدام المقدم . والعظيم المعظم . والماجد الممجد . ابراهيم بن محمد . فإن هذه القلعة لثغر افامية الجارية . في اقطاعه متاخمة . وهي لها في السلم مقاسمة وفي الحرب مزاحمة .

وسرت هذه البشرى وسارت ودرت هذه النعمى ودارت .

وطارت كتب البشائر . وسرحت على جناح الطائر وفيما كتبت ان هذه البشرى بما اجده الله من الفتح العزيز . والنصر الوجيز بفتح حصن برزية الذي برزت له الارض في قشب اثوابها . وتفتحت له

السماء لتنزل الملائكة من ابوابها . بل سـفرت بـه عرائس الايام في حلى ايامها . واشرقت منه اقمار الليالي في انوار محاسنها . وهـذا الحصن لايمكن وصف ما هـو عليه من الحصـانه . وكان حجـره في حجر حضن الحضانة ، وقد عرف ما فتحناه من البلاد والحصـون ، وسلبنا اهل الكفر بها من السلامة والسكون ، وفتحنا كل مـرتج لم يكن فتحه مرتجي . ولم يجد من حصل في آسر الدهر بـه مخـرجا . حتى أتت ايامنا ، ودنى فيه مرامنا . فجاءه عصرنا ، وفجاه امرنا . ووصل الينا ما هـو في الازل نخرنا . وكمل بهذه الفتوحات فخـرنا . وذلك انا فتحنا من حدود طرابلس الى حد انطاكية . وسـقينا بمـاء الحديد الجاري في انهار دم اهل النار ، مفـارس الهـدى الزاكية . وجلونا بها ثغور الثغور الضاحكة وعيون العـدو البـاكية . وهـذه الحصون التي فتحناها . والمعاقل التي اسـتبحناها ، لو وكلنا الله الى اجتهادنا في فتح احـدها . لتعـذر ولو أنجـدت عسـاكر الدنيا بمددها . لكن الله سهل ويسر . وفتح ونصر . وانزل الظفـر ، وان حصن بزريه لم يكن عليه قتال . ولا للوهـم فيه مجـال . ولا منصـب عليه لمنجنيق . ولا مسلك اليه لسـالك طـريق . وحضرنا لحصره ، متوكلين على الله في امره غير طامعين في فتحه . ولا راجين لنجحه ؟ فانقاد جماحه . وانخفض جناحه ، وساء صاحبه ، وكل سـلاحه ، وتوقل الرجال في ذروته توقل النجوم في الافـلاك . ولنصر الله اهـل التوحيد على اهل الاشراك،وفتحناه بالسيف عنوة . ودجا يوم المثلث عليه يوم الثلاثاء ضـحوه . فـانا لما تـوكلنا على الله في منازلتـه . واستعنا به في مقاتلته . نظر الله الى النيات . واعان ذوي العـزائم والثبات . فتعلقوا في الجبل . وتسلقوا الى القلل . وسعوا الى الاجل. في طلب تسني الامل . فكان كما قال الله تعالى : (ومـا امـرنا الا واحدة كلمح بالبصر) (القمر ٥٠) حتى من الله بالظفر . واصفى الورد والصدر من الكدر . وقد بقيت انطاكية ومالها بقاء ، ولا لها في الاعتصام رجاء . وقد نقصـنا اطـرافها . واسـتبحنا اكنافهـا . وشفهنا نطافها . وعضدنا مـن رؤوس اهلهـا بحـدود الصـوارم قطافها ولم يبق من معاقلها الا القصير ودربساك وبغراس . وقـد تقدم اليها الفاتحان الرعب والباس .

-٥٩٥٢-

ذكر فتح حصن دربساك

ورحل السلطان وقد نجحت اماله . ورجحت اعماله . وحل اقباله
واقبل جلاله وعبر عند شقيف دركوش الى شرقي العاصي . وقد
دانت له المقاصد العواصي القواصي . واقام اياما على جسر الحديد
الجسارة . شديد الاستظهار بما ظهر للمؤمنين من الربح
والمشركين من الخسارة . ثم قصدنا دربساك . وجددنا بتأييد الله
في حصره الاستمساك . ووجدناه حصنا مرتفع الذرى . ممتنع
الذرا ، قد جاوز الجوزاء . وناجت ارضه السماء . وكان عش
الداوية بل عزيمتهم . وطالما أطال في التعدى أيديهم وعرانينهم .
وكانوا قد نزلوا منذ انزلناهم من ظهور الحصن بطون الحصون .
وركنوا بسكنى هذا المعقل الى السكون . فلما اشرفنا عليهم اشرفوا
على المذون . ونزلنا عليه يوم الجمعة ثامن رجب . وقلب الكفر قد
وجب. ووفرت المنجنيقات سهامهم من سهامها . وصوبت اليهم
مددات مراميها ومرامها . وراميناهم بها ليلا ونهارا وارسلنا اليهم
امثال قلوبهم ووجوههم احجارا . وكننا لا نذر في ارضها التي هي
في السماء من الكافرين ديارا . وتركنا ناسه بالحجارة صرعى .
واسمنا من نحورهم ووجوههم بيض النصال في حمر المرعى .
واصبحنا يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب وقد شارف الفرنج الشجا
والشجب . ووجه نجاتهم قد احتجب . وقد وقع بالنقب برج من
السور الخارج . وظهر فيه عروج الدارج ودروج العارج . فطلبوا
على مراجعه انطاكية الامان . وان ينزلوا ويتركوا بكل ما فيه
المكان ، فأجيبوا الى ذلك على قطيعه . وردوا ما كان للاسلام معهم
من وديعة . وتسلم الحصن بما فيه ثاني عشري الشهر يوم الجمعة
واصحب بهذا الفتح جماح الحصون الممتنعة .

- ٥٩٥٣ -

ذكر فتح حصن بغراس

وتوجهنا بكرة يوم السبت الى بغـراس وقـد ضـايقنا الاعداء وضيقنا منهم وعليهم النفوس والانفاس . وهي قلعة مـن انطـاكية قريبة . وانها في الشدائد لدعائها مجيبـة . ورأيناهـارا سخة على راس راس . شـامخة على عاص عاس . ارضـها في السـماء . وجوازها على الجـوزاء . متـوغلة في الشـعاب ، متـوقلة على الهضاب . منسحبة في السحاب . مضـببة بـالضباب ، مـربة على الرباب . متعلقة بالنيريـن . متسـلقة الى الفـرقدين . محلقـة الى النسرين . ولا مطمع نحوها لطالع . ولا مـطلع فيهـا لطـامع ، ولا مطمح للامح . ولا ملمح لطامح . وهـي للداوية وجـار ضـباعها . وغاب سباعها ودار دوائرهـا . وغار مغـاورها . وغيل غوائلهـا ومنزل نوازلها وجعبة نبالها . وهضبة رئبـالها ، ومـذب ذئابهـا ، ومدب ذبابها . وكوارة زنابيرهـا . ومغـارة خنازيرهـا . ومـرقب صقورها . ومرقد اسورها . ومكنس وحوشها . ومعرش جيوشها . فخيمنا بقربها في المرج . وقد انارت من مشرعات اسـنتنا في ظلمـاء نقع خيلنا مشعلات السرج. وتقدم من العسكر جمع كثير . وجمـع غفير ، وخيم بين انطاكية وبينها . ووكل بها ناظـر يقـظته وارقـد عينها ، فاقام على سبيل اليزك . ودخل في حفظ جـانبها في الدرك . وسار يركب كل يوم ويقف تجاه انطـاكية صـفا . ويسـومها مـن الغارات عسفا وليس بينه وبينها الا النهر ، ومقـابل رجسـها منه الطهر . وصعد السلطان في جريدة عسكره الى الجبل . ووقف بازاء الحصن وقوف المشتاق على الطلل . فنصب عليه المجانيق من جميع جهاته . وصوب لقم الحجر الى لهاته ووافق آمـريه بـالاذعان على خلاف نهاته . وقلنا للمقيم به خـذ الامـان وهـاته . ومـازالت الحجارات تناوبه ، وصدى الصفا بالنكاية يجاوبه . والصـخور فيه تتواقع ، والبلايا اليه تتابع . فما شعرنا الا بانفتاح بـابه . وألجـأ جماعة اصحابنا عليه جماحة الى اصحابه . وخـرج مقـدم الداوية يستأذن في الحضور . ويسأل الأمن مـن المحـذور والحـل مـن

-٥٩٥٤-
المحظور . ويقول انما قنينا بغراس بغراس القنا . وبنينا على حصونها من القنطاريات أحصن البنى . والمعاقل لايحميها الا معتقلوها . والبلاد لا يحفظها الا اهلوها . وما في هذا الحصن الا مقدمان . ومالنا بمقاومتكم يدان . وعاد الى اصحابه من السلطان بالامان . وتسلمت القلعة كما تسلمت أختها دربساك بالامس . وسلمها الداوية طائعين فعجبنا من انقياد اولئك الشمس . واباحوها لنا وكانوا يغارون عليها من طلوع الشمس . وأنار في مطلعها سني السجق المنصور . وآذن المتطاول فيها من تطاولنا بالقصور . وذلك في ثاني شعبان . وسر النصر فيه شار وبان . وسلم السلطان الحصنين دربساك وبغراس الى علم الدين سليمان . وكان صاحب حصن عزاز . وقد حاز الغنى به وفاز . وماكان في الامراء الا كابر من لا يدعي سواه الاعواز فالزمه بهما ليعتني بحفظهما ، وحضه من عصمتهما على حظهما ، فتسلمهما بذخائرهما . واطلع من الذفائن على مستودعات ضمائرهما وكانت حينئذ انطاكية قد اسعر غلتها سعر الغلة . وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة . والغرارة تساوى اثنى عشرة دينارا . والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا ، وحزرنا ما في بغراس خاصة من الغلة ، سوى ما فيها من تفضيل الاقوات والجملة . فكان تقدير اثني عشر الف غراوة . فحصل سليمان من منبع هذا الملك على غزارة عن غرارة . فقلت كأني به وقد نقل هذه الغلة الى انطاكية وباعها ، واعرض عن متاعب الاخرة وحوى من الدنيا متاعها . واذهب الغلة بذهب يغله . ويستحلي مر هذا السحت ويستحله ، ثم يستعفي من حفظ الثغر ويشير بتخريبه . ووقع لي فيه من الظن ما كان بعد سنين فكشف عنه علم تجريبه .

ذكر عقد الهدنة مع انطاكية

فلما فرغ السلطان من شغل الحصون وظفر من فتوحها بالسر المصون . عول على قصد انطاكية فإنها كانت مريضة على شفا

ورسم قوتها قد عفا . وخلق ثيابها قد اشفى . والدهر قد انتقم منها واشتفى . ووجه الفلاح عن اهلها قد اختفى . فلو صدقها وقصدها لحص (٢٧) دعائمها وحصدها ، وكان الابرنس صاحبها قد عجل بارسال اخي زوجته . يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته وسلامة مهجته ، وعقد الهدنة على بلده وأمن على ما في يده وذلك لثمانية اشهر من تشرين الى آخر أيار . ووافق من السلطان الاختيار لكون انقضاء الهدنة قبل ادراك الغلة واوان حصادها . فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها واعدادها ولم يكن له رغبة في اتمام هذا الصلح لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الاقامة . وأبدى السآمة . واراد السلم . وقيل بهذه المدة من الهدنة لاتزداد انطاكية قوة ولا تستجد جده ولا يرجى لها عدة منجدة ونحن نضرب للعود اليها مع انقضاء عدتها عده . واما حصونها فقد حصلنا على عسلها. وقتلنا نحلها. واما هي فنعمل فيها بقول الله تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (الانفال ٦١) وشرط على صاحب انطاكية اطلاق من في الاسر من المسلمين . واستوفى رسولها على عقد الهدنة اليمين . وسار رسولنا معه شمس الدولة بن منقذ للاسارى منقذا ، وللاوامر منفذا . وعلى المقاصد مستحوذا ، وسار السلطان ثالث شعبان على سمت حلب ، والاسلام قد غلب ، وفاز من الفتوح بما طلب ، واستغنى بما جمعه من السبي والغنيمة وسلب وخلب ،

ذكر وداع عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وعساكر البلاد . وعود السلطان الى دمشق بنجح المراد

ولما رحل من بغراس وقف لعماد الدين ودعاه لوداعه ، وشيعه بكرامة كرام اشياعه ، وخصه بعد ماسير له من الخيل والخير بخلع خواصه وأتباعه ، وأناله منه حسن اصطفائه وحسنى اصطناعه ، ولم ينفصل منهم الا من وصل بصلة ، وخلعة

مجملة ، وحرمة مكملة ، ووعد جميل يرغب في العود ، وجود جـزيل مذسكب الجود ، وذلك سوى ماغذموه مـن كسـب وكسـبوه مـن غذم ، واستطاقوه من رسم واستجزلوه من قسم ، وملكوه مـن رق سبي . وادركوه من حق سعي . وأجـدوه مـن غرض . وأدوه مـن مفترض . وأحيوه من حسـنة النصر ، وأمـاتوه مـن سـيئة الكفر ، واستضافوه من فتح ، واستفاضوا به من نجـح . وسـار السلطان في عسكره ، حامدا الله في مورده ومصدره ، وارتـاح الى العبور على ارتاح ، وامتار لها اليمن بافتقادها وامتـاح ، ووصـل الى حلب وحلب احتفالها بـوصوله حـافل ، والملك بهـا للاهتـزاز بقدومه في ملابس البهاء رافل ، ودخلناها وقد خـرج كل مـن بهـا للتلقي ، مستبشرين بالاقبال المتضاعف المتـرقي ، وشـاهدنا مـن النظارة عيونا للمحـاسن ناظـرة ، ووجـوها ناضرة ، وقلوبـا حاضرة ، والسـنا شـاكرة ، وأيديا في بسـطها الى الله للابتهـال بالدعاء متظاهرة ، واقتضت حركتنا الى الشهباء لساكنيها سـكون الدهماء ، وأقام بقلعتها اياما يسيره ، وألفى ولده الملك الظاهر أسر احسانا وأحسن سيرة . وقام به وبالعسكر مدة المقـام ، واتسـقت الامور بـأوامره على النظـام . ولم يرحـل الا وقـد خص عوامنا وخواصنا بالانعام الخاص والعام ، وأبان عن كل مذقبـه ، وأعان بكل موهبة ، فما رآه والده مذ حل بحلب الا في أجمـل حلية وأكمـل حاله ، وأجلى بهجة وأبهى جلاله ، وقد أجـد لعينه ولذفسـه قـرة وقرارا . وأعد لعزمه ولحزمه استنصارا واستبصارا ، ثم انفصلنا عن حلب منقطعين الى مواصلته بالدعاء ، قاطعين طـرقنا المتصـلة بدليلي الشكر والثناء ، وتنكبنا طـريق المعـرة ، بسـلوك طـريق المعرة ، وأوفيناها بالمبرة الموفية المبرة ، وتيمن السـلطان بـزيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقي . ابـي زكريا المغـربي . وهـو مقيم في مسجده ، عند قبر عمر بن عبد العزيز ومشهده ، وقصده السـلطان على فراسخ ، ولقي منه في الحلم والوقار الطود الراسـخ واهتـدى بسجاياه ، واقتدى بوصاياه ، ووصلنا الى حمـاة . وبتنا بهـا ليلة واحدة ، ولم نر رعيتها لما شملها من الرعاية جـاحدة ، فـان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بـن ايوب ، قـد كشـف عنهـا

بايالته الكروب ، وملك القبول من أهلها والقلوب ، وأعاد لها بالعمارة العمرية عمرا جديدا ، ومد عليها من مهابته ومحبته ظلا مديدا ، وكانت قلعة حماة لاتعد في القلاع المعدودة المحمية ، ولاتذكر مع المعاقل المرعية المرضية ، وهي ذات تل متبطح ، غير مترفع ولامتسفح ، فلما تولاها تقي الدين قطع من التل مساكان متواطيا ، وأتلع من التلعة جيدا عاطيا ، وعمق خندقها في الصخر وحصنها على الدهر . وبنى فيها الدور المرخمة ، والأروقة المهندسة المهندمة ، وحصنها وأعلاها ، وحسنها وحلاها ، وزينها بكل زينة ، وأعاد حماة ذات قلعة حصينة ، فاضلة في الشام كل مدينة ، فطلع السلطان تلك الليلة الى القلعة ، وسر بما رأى لها من الحصانة والرفعة ، ووقف الملك المظفر لعمه ، وجرى في الخدمة على رسمه ، وحضرنا وأمير المدينة النبوية معنا ، والسلطان قد أجلسنا بحضرته ورفعنا ، والنادي قد جمعنا ، والشادي قد اسمعنا ، والأغاريد تطرب ، والأناشيد تعرب ، فما انفصلنا تلك الليلة الا عن علم نشر ، وشرف انتشر ، وفضل سني . وعدل احيي . ورسم نائل السماح واجري ، وزند سائل بالنجاح أوري ، وسني جد أعلي ، وجني جود أحلي ، وقرا لذوي الحاجات القصص ، وأزال من الظلامات الغصص ، وأنال لذوي الخصاصات الحصص ، وأصبحنا على الرحيل ، ووصلنا العنق بالذميل (٢٨) ، وعبرنا مغذين على حمص وزدنا في الوصول الى دمشق على طريق بعلبك الحرص ، وجئناها قبل شهر رمضان بأيام ، وركنا الى ماآنسنا به من مقام ، وتجمع بنا شملها ، وتهلل باستهلالنا أهلها ، وقلنا نصوم مع القوم ، ونقيم مدة الصوم ، فما لبث السلطان ولامكث ، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث ، وقال لانبطل الغزوة ، ولانعطل هذه الشتوة ، وقد بقيت صفد وكوكب وأخواتها ، وبطول مضايقتها فنيت أقواتها ، وقواتها ، فنتهز فرصة فتحها التي لايؤمن فواتها ، وخرج من دمشق في أوائل شهر رمضان . وحد عزمه رميض . ولبارق سعده وميض ، وفضله مستفيض ، ووجوه الأيام لأياديه البيض بيض ، ولسان الدهر في ذكر سيره وتسيير ذكره

مفيض ، وجناح الكفر بجناح رجائه ورواج مناججه مهيض ، وحديث اقدامه القديم والحديث طويل عريض .

ذكر فتح الكرك وحصونه

ووردت البشرى بنجح الدرك ، في تسلم حصن الكرك ، وذلك ان مدة غيبتنا في بلاد انطاكية ، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية ، وكان الملك العادل اخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر ، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر ، مقويا للأمراء المرتبين على الحصون ، حافظا على الدهماء بحركته في الامور عادة السكون ، وكان صهره سعد الدين كمشبه الاسدي بالكرك موكلا ، وبأهله منكلا ، وقد غلق رهنه وبقي داؤه معضلا ، وأمره مشكلا ، حتى فنيت ازوادهم ونفدت موادهم ، ويئسوا من نجدة تأتيهم ، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم ، فتوسلوا بالملك العادل ، وابدوا له ضراعة السائل ، وتذرعوا بوسائل الرسائل فما زالت الرسالات تتردد ، والاقتراحات تتجدد ، والقوم يليذون والعادل يتشدد ، حتى دخلوا في الحكم ، وخرجوا على السلم ، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة ، وخلصوا باقامة عذرهم عند قومهم من الملامة ، وكتبت عن السلطان في بعض البشائر ، ماالهى بحلاوته عن أرى (٢٩) الشائر ، وهو انا لما عدنا الى دمشق رأينا ان لانستريح ، ولاتثني عن كسر العدو عزمنا الصحيح ، فقلنا نغتنم هذه الشتوة ، ونستكمل الحظوة ، ونواصل بالغزوة الغزوة ، ونستخلص هذه القلاع التي شغلت منا في هذا الجانب قلوبا وعساكر ، وأبقت لاهل البلاد في طريقها ندوبا ومعاثر ، وبيمن صدق هذه العزيمة ، والاستمرار في الجهاد على الشيمة ، وردت البشرى بأن حصن الكرك عاد إليه بعد الجماح الأصحاب ، وخرج منه الفرنج ودخله الاصحاب ، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز ، وقد نصب اشراك اشراكه منه على طرق

الاجتياز ، فأذقناه عام أول كأس الحمام ، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العـــام ، واضــــطر الكفـــر في اســـلامه الى الاسلام ، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام ، وقـد كان هـذا الحصن نذب الدهر في ذلك الفج ، وعذر أهله في ترك الحج وابتســم الاسلام حيث زيد ثغرا ، وساق الى عقائله الرجال مهرا ، فــالحمد لله على ماقدر من الحسنى ، ويسر من النعمى ، حمدا يكون لما قدر ازاء ، ولما يسر جزاء والحمد لله الذي انجز صادق عداته ، في كاذب عداته .

ذكر محاصرة صفد وفتحــه ، وادراك الســعي فيه ونجحه

وقطعنا مخــــاضة الاحـــزان خـــائضين في بحـــار المسرات المتواصلة ، راكضين الى مضمار المبرات الحافلة . والسلطان سائر والجنة تحت رايته مفتوحة ابوابها ، والنصرة فوق ألويته مشـدودة اسبابها ، في اطلاب ابـطال اذا أوعاهـــا الفجـر لم يســـعها الى عشائه ، واذا طلع عليها سرحان الصباح سقط مــن عجـاجها على عشائه . ونزلنا على صفد . والصــبر قـــد نفـــد . والنصر قـــد وفد ، والقدر قد رقد ، والعزم قد وقد ، وجاء الملك العـادل وظــاهر اخاه ، وضافره فيما توخاه ، وشــد بـالرأي والحــزم مــاالزمان أرخاه ، وبعث كل ذي عزيمــة على التصــميم ونخـــاه ، وشرعنا في مراومة القلعة ، ومساومة الســلعة، وجثـت المجـانيق لاجتثــاثها وحدثتها بألسنة احداثها ، ورمتها عن قسيها بالقاسيات ، وســمت الى هضاب تلك الابراج الراسيات ، وأمطرت عليها حجــارة ، ولم نعطهامن العذاب الواقع بها اجازة . فما رفع بهـــا الحصـــن الراسي رأسا ، ولاالحجــارة مســـت منه ركنا ولاالنقـــوب بـــاشرت أساسا ، ودامت المجانيق منصوبة قد قام دست شطرنجها ، والنقب لم يكشف نقب السور عن وجوه فرنجها ، ودمنا عليها ، الى ثــامن شوال ، ونوعنا في افتتــاحها الاحتيال ، حتــى اذن الله في الفتــح

فسهل ماتصعب ، وحضر ماتغيب ، وظهر ماتحجب ، وتيسر ماتعسر ، وامكن ماتعذر ، وتأتى ماتأبى ، وأجاب نداء الاسلام ولبى ، وعلموا ان صفد ان لم تخرج من ايديهم دخلت ارجلهم في الاصفاد ، وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالاساد ، ونزلوا من سماء العز الى ارض الهوان ، فأذعنوا الضراعة وتضرعوا بالأذعان ، وأخرجوا اسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الامان ، وصارت صفد المسلمين صدفا ، وكانت بالمشركين هدفا ، وعادت للاسلام سدا ، بعد ان كانت للكفر ردءا ومردا ، وطالما مكث فيها المشركون و (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) (البقرة ١١٦) (لقد جئتم شيئا اداء تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)(مريم ٨٩-٩٠) ، ولقد كانت مارنا للكفر جدع.ومرفقا الشر قطع.وناظرا العدو غض وقد شخص ، وجارحا له هيض وقد قنص ، ويدا للباطل شلت ، وقد امتدت ، وعقدة الضلالة حلت وقد اشتدت ، وتخلصت الداوية بادوائها ، وتملصت بأسوائها ، وصاروا في صدور ، وأبدوا بعد استطالتهم القصور .

ذكر ما دبره الفرنج في تقوية قلعة كوكب فانعكس عليهم التدبير

لما عرف من بصور من الفرنج ان صفد لنا صفت • وانها على الفتح الذي يشفي اشفت . قالوا لم يبق لنا الا كوكب . وان صلاح الدين عن قصدها لايتنكب . وقد أقوت من القوة . وهي تهي ان لم نعالجها بالنجدة المدعوة . وقد ضعف رجاؤها لضعف رجالها • وقل ظهورها لظهور اقلالها • وهذا أوان انجائها وانجادها . وهي مشرفة على العدم فدبروا في انجادها . فاذا قويناها وحميناها بقيت عدة في العواقب . وعصمة من النوائب • فقال مقدم الاسبتار هي كوكبنا المتلالي • ومذكينا العالي . ومعقلنا المحكم • ومعقدنا المبرم

وحصننا الحصين . ومكاننا المكين . ولنا منه المربع المريع . والمنبع
المنيع . والمحل المحلى • والمعلم المعلى • وهي قفل من البـلاء على
البلاد . وموئل من الخطوب الشداد • ولعلها تثبـت إلى أن توافينا
من البحر ملوكنا . وتعود الى عادة الانتظام سلوكنا • فما تبـطىء
جداتنا . وما تخطي نجداتنا • واجمعوا على تسيير مائتي رجل من
النخب • المعدين لدفاع الذوب . مـن كل جـرخي نخـي • وكمـي
أكمي • وجهم جهنمي . وسقر سقري . ووعل جبلي . وبطل باطلي .
وكلب كلب . وذئب سغب • وعاسـل معـاسر . وبـاسل بـاسر •
ومغوار مغو . ومتلوم متلو • ونمر متنمر . ونمر متنمـر . وسـبع
ضار . وشواظ من نار . وجمر من الجحيم . وحام من الحميم . من
شـياطين يجذون الجذون . ويمذون المذون . ويشـيدون الشـؤون .
ويهدون الهدون . ويحزون الحزون • ويفـوتون الفتـون . ويظنون
بالله الظنون . وقالوا لهم: كيف تمضـون وطـريق السـلامة مخيف
وطارق الاسلام مطيف . والشجامنيف . والشجب مضيف . فقـالوا
نحن نســـــير ونمـســـــير في ضـــــــمائر الكهـــــــوف
اسرارا . وعلى اجياد الاطواد أزرارا . وفي اوكار المغارات اطيارا .
وفي اعماق السيول اكدارا . وعلى ظهور الريود اوزارا . نسري ليلا
ونختفي نهارا . والليل للعاشقين ستر . ولكم ادلج من الوتر . والنهج
وان بعد فهو في قرب عزمنا فتر .. ومـن رام النفيس الخـطير رمـى
نفسه في الخطر . وطار الى الوطر . وغرب الى الغرر . ثـم عزمـوا
على ما زعموا . وعملوا بمـا عنه عمـوا . وخـطروا الى الخـطر .
وحاولوا بما لهم من القدر مزاولة القدر . وتوقلوا في الاكم . وتوغلوا
في الاجم . وتبـطنوا في الاودية . وتمـكنوا في الاقنية . واحتـرسوا
بالكمون . واحترزوا من العيون . وتحركوا على السـكون . وكادوا
يصلون الى الموضع . ويحصلون على المطمـع . ويدركون الطـلاب .
ويهتكون الحجاب . ويعيدون الى الحصن روحـه . ويأسـون بعـد
اليأس جروحه . فعثر بواحد منهم بعض المتصيدين فتصيده . وقاده
وقيده . واتى به الى صاحبه صارم الدين قـايماز واسـتغرب مـن
الافرنجي هناك الجواز . فأخبره بـالحال . وان بـالوادي مـكمن
الرجال . فركب اليهـم في اصـحابه . والتقـطهم مـن سرر الوادي

وشعابه . وركب الشجاع مسعود في طلب اولئك الاشقياء . وانتشر الناس في تلك الاكناف والارجاء فما نجا منهم ناج . ولا نجع راج . ولا عاش عاش . ولا حصل عاثر بانتعاش . فما شعرنا نحن على صفد الحصار . والسلطان مطل من بيت الخشب على من حوله من الانصار . حتى وصل صاحب قايماز بالاسارى مقرنين في الاصفاد . مقودين في الاقياد . وكان بهم مقدمان من الاسبتار . وقد اشفيا على التبار . فان السلطان ما كان يبقي على احد من الاسبتارية والداوية . فاحضرا عند السلطان للمنية . فانطقهما الله بما فيه حياتهما وناجيا بما به نجاتهما . وقالا عند دخولهما . وامام مثولهما . ما نظن اننا بعد ما شاهدناك يلحقنا سو . فعرفت ان بقائهما مرجو . وانتظرت امر السلطان فيهما . وايقنت انه يبقهما . فمال الى مقالهما . وامر باعتقالهما . فان تلك الكلمة حركت منه الكرم . وحقنت منهما الدم . واستبشرنا بانعكاس ما احكمه الكفر من التدبير . واتعاس من جردوه بالتدمير * وفتح الله علينا صفد ثامن شوال . فشكرناه على ان مدد النصر متوال . وسلمت القلعة الى شجاع الدين طغرل الجاندار فهو بها وال .

ذكر حصار كوكب وفتحها

وجئنا الى كوكب . ووجدناها في مناط الكوكب . كأنها وكر العنقاء . ومنزل العواء . قد نزلتها كلاب عاوية . ونزعت بها ذئاب غاوية . ونزت فيها سباع ضارية . وحمتها بحميتهما وابت النزول على امنيتنا ولو بنزل منيها . واختارت العطب على العطاء . وامترت خاف الخلف والشقاق للشقاء . وابت غير الاباء . وبصرت بالامر فصبرت على الضر . واصرت على تحمل الاصر . وترامت على التعامي بالمصائب . وتعامت عن الدرامي الصوائب . وقالوا لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار . وخلصه الى الابد من العار . ولا بد من عود الفرنج الى هذه الديار . فنتجلد للاصطبار * ونتشدد للانتظار . فقاتلوا اشد قتال . ونازلوا احد نزال وفوقوا الجروح

المصمية . وصوبوا الصخور المرنية ورفعوا المنجنيقات المؤجية . وتواترت زيارات الزيارات الموتره . وتناوبت ذوائب الزنبوركات المطيرة . واجترأوا على الاجتراح وجرى سيل الجراح • ودمنا في الدم . ورد الوجود الى العدم وتجرئه الرجال . والتجريد للقتال . وايتار الحنايا . وايثار المنايا • والرمي في المنجنيق . والجمع والتفريق . والرقع والتخريق . والنقب والتعليق . والحفر والتعميق . والحصر والتضييق . والهدم والرد والردم . والصد والصدم . وكان الوقت صعبا . والغيث سكبا . وتكاثرت السيول . وتكاثفت الوحول . ودامت الديم لدموعها مريقة . وبقيت الخيم في الطين غريقة فلا لمركب مبرك ولا مربط • ولا لسالك مسلك ولا مسقط . وكنا في شغل الشاغل من تقلع الاوتاد وتوتد الاقدام . ووهي الاطناب ووقوع الخيام وكأن الخيم مناخل الانداء

وعدمت الانوار لوجود الانواء • وفقد ماء الشرب مع سيل الماء • والروايا ما نهضت . ولا نزعت ولا غمضت • والرواحل في الطين باركه . وللحياة فاركة . وللعلف تاركة . والمطية مطينة وسبل السيل مستبينة • وقد كشر البرد بالبرد عن اسنان عضاضة بالذرد . والطرق زلقة لزقه وهي مع سعتها ضيقة . وللمشق (٣٠) ثقل • وللقلق عقل . وما ثم الامانيط بالطين • وصعب علينا بصعوبة هذا الامر امرا ولذلك الشياطين • فنقل السلطان خيمته الى قرب المكان . لتقريب وجوه الامكان • وبني له من الحجارة ما صار له كالستارة • فحضرت بين يديه والسهام تعبرنا ولا تذعرنا . والستائر تسترنا عنهم وعليهم تظهرنا والنقاب قد قلع وعلق • والجرخي قد هتك الحجب وخرق . وتجرد الجند . وانجد الجد . ونزلت الاثقال والخيم الى اسفل التل . فخفت الثقل بنقل النقل . وطاب المقام بالغور • وسهل بالسهل . وتحولت الشدة الى اللين وتحالت الى الطيب عقد الطين . وما زال السلطان ملازما للحصن . وهناك ظاهرة له منه اسباب الوهن . حتى علق بعض جدرانه . وطرق الهدم الى بنيانه . فتسلمه بامانه . واذهب سكون سكانه . فاخرجهم راغمين . واحرجهم غارمين . وتركوا الحصن بكل ما فيه . واصبحوا بعد مقاتلته للعفو والمعافاة معتفيه . وذلك في

منتصف ذي القعدة . وانتصفت الايام بحل تلك العقدة . ورجعت الليالي بالسكون الى طيب الرقده . وعرضت القلعة على جماعة فلم يقبلوها . وخلوها وابوا أن يلوها . وتخلوا عنها بهمم واهية فوليها قايماز النجمي على كراهية . بعزيمة عن مهامها لاهية • وانتقل السلطان الى المخيم بالفضاء . وحمد الله على قضاء التوفيق وموافقة القضاء . وودعه الاجل الفاضل على عزم مصر بعد ما استكمل لنا مقامه بصدق الكلمة وجد اعتزامه الفتح والنصر، ثم تحول السلطان الى ارض بيسان • وأزال البؤس • وزاد الاحسان • واقام بقية الشهر في تمهيد مجد يقيم في باقي الدهر . واظهر من الفضل ما لم يكن مستورا، وأعطى الأمراء والاجناد في إنفصالهم دستورا . وسار ومعه اخوه الملك العادل مستهل ذي الحجة واضح المحجة لائح البهجة . واوجها الى القدس في طريق الغور وزارا للبركة • وتبركا بالزور • ووصل يوم الجمعة ثامن الشهر وصلى في قبة الصخرة وخص ذوي الخصاصة بعميم المبرة • وعيد بها يوم الاحد الاضحى • وأضحى بعد ما ضحى ، وقد اصحب مراده واصحى.وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها ونظم أسباب احكامها • وتدبير احوالها . وترتيب رجالها • وأقام أياما يوضح الجدد،ويصلح ما فسد ويذشد من الذفع مافقد • ويخمد من الشر ماوقد • فاذا وجد شعثا لمه . وان الفى نشرا ضمه . وان صادف فتقا وثقة . وان لقي حقا حققه . وان عثر على باطل عفى اثره ، وان بصر بأمل خصه بعرفه وأثره.ثم ودعه اخوه الملك العادل واستقل الى مصر بعسكره ورحل السلطان على صوب عكا موفقا في مورده ومصدره • فما عبر ببلد الا قوى عدده • وكثر عدده وواصل بالرجال مدده • وكنت انفصلت عن خدمته الى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبني الامكان ، والحمد لله الذي وفر حصة الصحة وحول المحنة الى المنحة وكمل الشفاء بعد الاشفاء واهدى عند اليأس أرج الرجاء .

ودخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

والسلطان في عكا مقيم والامر مستقيم • والنهج قويم . وهو يبوب اسباب حفظها • ويسبب ابواب حظها ، ويهذب مراتب مصالحها ويرتب مذاهب • مناجحها . ويعدل جوانح امورها . ويذلل جوانح جمهورها ، ويقوي ما وهي • ويسري ماهوى ، ويحلي من الشان ما عطل ، ويعلي من المكان ما سفل • ويعيد نظم ماانتكث • ولم ما تشعث ، ويجيد كل مادعا إلى بعث مامات منه وبعث • ومكث بها لايريم القصر إلى ان وصل جماعة من مصر ، فأمرهم فيها بالاقامة محافظة على الحماية المستدامة • فأمر بهاء الدين قراقوش باتمام بناء السور ، واحكام احكام الامور . وولى الامير حسام الدين بشارة بعكا واليا ، ولم يزل لآثار الدولة في ايثار العدل تاليا . ثم خرج السلطان وسار على طبرية • ودخل دمشق مستهل صفر . وقد استكمل الظفر ووجه الدين به قد سفر • وعز من أمن وذل من كفر • وحزب الهدى قد انس ونفر الضلال قد نفر ، وجلس على سرير السرور • ولبس حبير الحبور وبدأ بحضور دار العدل فدر عدله للبادي والحاضر واقام سفور بشره للمقيم والمسافر . وأفاض الفضل • ومحا المحل • وأعلى أعلام العلماء • واحلى احلام الحلماء • وامضى احكام الحكماء وقضى باكرام الكرماء • واسدى المعروف واعدى الملهوف • وانكر المناهي ، ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر • واقام مدة الشهر . واولياؤه جناة النصر واعداؤه عناة القهر ، وايامه مسفرة ولياليه مقمرة ، ومغارس اياديه ثمار المحامد مثمرة • ومجالس اعاديه في ديار الشدائد مقفرة • والملك بزهوه زاه زاهر • والدين ببهائه مباه باهر والافاق منيرة والانوار مفيقة • والدولة حق مدال وحقيقة والجاه وافي جده والجود وفي عهده والسماح سماء تهمع والمراد مراد يمرع والوجود بالبشر بهجة ، وللالسنة في الشكر لهجة • وللشريعة شرعة

واضحة وللحق سنة لستر الباطل فاضحة • والصنائع راجحة والذراع ناجحة .

ذكر وصول رسول دار الخلافة والخطبة لولي العهد عدة الدين ابي نصر محمد ابن الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد امير المؤمنين

بتاريخ اوائل صفر وصل رسول منزل الرسالة ، ومقر الجلالة ، ومربع الامامة • وموضع الكرامة • ومطلع الهدى ومنبع الندى • ومشرق نور الايمان • ومشرع فيض الاحسان • ومرجع المرجين • ومفزع الملتجيين ومنجي الناجين • ومنتجي المناجين ومهبط الوحي • ومصعد الامر والنهي • ومقصد نجاح السعي ، ومخفض جناح الرحمة • ومقطف جني النعمة • ومجر نيول المناقب • ومجري سيول المواهب • ومزار املاك السماء • ومدار افلاك العلاء • ومحج ملوك الارض ومحجة سلوك الفرض • وموطن التنزيل . وموطيء جبريل ، ومقام الخلافة . ومدام الرأفة . ومحمل الامانة .ومحل الديانة . ومطاف الطائفين . ومعرف الواقفين . وموقف العارفين.وقبلة المقبلين . وموئل المؤملين . وكعبة القاصدين . ومثابة الوافدين.ومعفر وجوه العظماء . ومكفر ذنوب الكرماء . ومعصب السيادة القرشية . ومنصب الوراثة النبوية والسدة الشريفة الناصرية . ودار السلام . وقبة الاسلام . فابتهج السلطان بوصول الرسول وأيقن بحصول السول . وسر سره . وأبر بره . وصدر بذشر الانشراح صدره . وقدر على الاتسام بالتسامي قدره . واحتفل بأسباب التلقي قالحتف باثواب الترقي . وسأل عن الرسول المندوب . للسؤل المخطوب .
فقيل هو ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينه . وصل بالضياء والسكينة . والاحوال الحالية المزينة . وكان وزير الخلافة يومئذ معز الدين بن حديده • فعين لهذه الرسالة ابن سكينة حين عرف

اراءه السديدة • فتلقاه يوم دخوله الى دمشق السـلطان واولاده •
وكان يوم مشهودا حضره أعيان البلد ماثل العسـكر واشـهاده •
وانزله في دار الكرامة . ورتب له وظائف الاقامة • ثم جلس له في يوم
سعد صباحه . وبدت في جبهة الدهر البهيم غرره واوضاحه . وملات
طرفي الزمان والمكان افراحه • وجاء على وفق الآمـال اقتـراحه .
وختم باليمن والاقبال رواحه . وورد بكل مـا ابهج الاولياء • وأزعج
الاعداء . وخاطب السلطان عن الديوان العزيز بكل ما أعزه • وثنى
عطف تباهيه وهزه . ورسا له طـودا بـالوقار في ايراد الرسـالة .
وجلالة في مهب المهابة اذوار الجلالة . وتلفظ له بالتفضل . وتـطوق
منه بالتطول . وبشر بان امير المؤمنين فوض ولاية عهده • الى ولده
عدة الدين ابي نصر محمد من بعده • واخذ بـذلك العهـد على مـن
حضره من اعيان الامة . وحفظ عليهم بتوليته ما أولاهم الله به مـن
النعمة . واستظهر بما خص به من هذه المرتبة • وامر بذكر اسـمه
ونقشه في الخطبة وعلى السكة . وعاد الاسلام به ظاهر الشـوكة .
والشكة.وخطبنا لولي العهد بدمشق يوم الجمعة ثالث عشر صـفر .
ولم يبق من الامراء والاماثل والافاضل إلا من حضر • واحضر معه
الدنانير ونثر • وتولى ذلك الملك الافضل فـاظهر ابهـة ملكه وبهـاء
فضـله . وحصـل الاسـلام مـن ري رأيه على نهله وعله . وندب
للرسالة الى الديوان العزيز ضياء الدين الشهر زوري القـاسم بـن
يحيى . ليذشر به ما كاد يعفو من سنن الموافـاة ويحيي . وسـيرت
معه الهدايا . والتحف والطـرف الســنايا . وأســارى الفــرنج
الفوارس . وعددها الكوامل النفـائس . وتـاج ملكهـم السـليب
والصليب • والملبوس والطيب • واضفيت على رسول الامام ملابس
الاكرام . وقفل ناجح المرام . واصطحب الضـيآن لاضـاءة مـطالع
الايمان . بسفارة سافرة عن سني الاحسان . وبشارة شائرة جني
النحل من نحل الجنان . واهتزت الاعطاف . واعتزت الاطـراف •
وابتسمت ثغور الثغور لسـدادها . وانتـظمت امـــور الجمهـــور
لسـدادها . وسرت القلوب . وسريت الكروب . وخـزي الحـاسد
الحاشد . وقوي الساعد المساعد . وواصل في طريقة الاغذاذ . حتى
وصل الى بغداذ • فتلقي الرسول بـالسول • وقـوبل بـالقبول .

وخرج اليه الموكب الشريف واضيف له الى تالد جده القديم جده الجديد الطريف . ودخل البلد وأسارى الفرنج على هيأة يوم قراعها . راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها . وادراعها . وقد نكست بنودها واتعست انوفها . وهيئت على هيأة فتوحنا حتوفها . ووقف على العتبة الشريفة واستقبلها وقبلها • ثم عطف به الى دار الكرامة فنزلها . والفى الوزير ابن حديدة قد عزل . واقام في بيته واعتزل . وتصدر في الدست للنيابة . وسماع الخطاب والاجابة . من له المجد الاثير الصدر الكبير مؤيد الدين صاحب ديوان الانشاء . وقد خص بتولي الحل والعقد والاخذ والاعطاء . فتولى سماع الرسالة وجوابها . وأولى صوبها ووالي صوابها . وسياتي في موضعه ذكر ما انهت اليه الحال . وجرى به القال . وكيف شغلت العوائق وعاقت الاشغال .

فصل مما كتبته في المعنى عن السلطان الى الديوان العزيز مع الرسول

قد تقدمت خدمة الخادم بما قدمه من امتثال المثال . وأداه من فرض الاعظام والاجلال . وقام به من الامر الذي قام به أمر الدين والدنيا . وبادر اليه من استثمار طاعته التي دامت لها من نعمة الدار العزيزة في إزكاء مغارسها السقيا . وحل حبا الحب لما حل من حبائها • وعقد خنصر النصر لعزائمه على ما اعتقده من ولائها . وجمع شمل السعادة الشاملة بما جمع أمره من إسعادها . واستجد عهد الجد المورق المونق بما جاد ثراه من ثرات عهادها • ونهض من الملك بتقديم ما قدمه على الملوك الناهضين • وأبرم من عقد عبوديته الكاملة ما تقاصر عنه تطاول الناقصين الناقضين . ووثق لما وافق المراضي الشريفة ففاز بما حاز من شرف الرضا . واقتضى دين الدين الثابت وثبت على الوفاء في استيفائه بما قضى . وسبق الى ما سبق به جواد صدقه في جواد قصده • وافتتح فريضة طاعته في حلاوة

عبوديته بتلاوة فاتحة حمده . وانهى الى نهـاية النهـى • واطـاع ماأطاق فيما أمر الله به ونهى• وماوضع الكتاب من يده حتى رفـع بالدعاء يده . وسأل الله لمولانا وسـيدنا امير المؤمنين وافـد النصر ومدده • وان يعضده بولده ولي عهده المطـاع بـأمر الله عدة الدنيا والدين • ويقر به عيون المسلمين . فقد فاضت البـركات . وآضـت الحسنات . وأضاءت الكرامات • وراضت جماح الاماني المبـرات المبرات . وهاضت جناح الكفر الفتكات المربيات . وعمت الميامـن . وتمت المحاسن . وتمت النعم الظواهر والبواطن . وضمت بسـكون الدهماء اهلها المعاهد والمواطـن . وصـدحت المنابـر . وصـدقت المفاخر . وصدعت الاوامر . وصدفت الفواقر . وصدمت قلوب اهـل النفاق من بواعث الرعب والبـواعث البـوادر . ونقشـت صـفحات الدرهم والدينار .ونعشت عثرات الاخيار الاحرار . وفرشت مفوقات الاذواء والاذوار • وعرشت اسرة المبار والمسار . ورفعـت رغبـات الابـرار • وسـمعت دعوات الاسـحار . ونزل النصر . وفضـل العصر • ووجب الشكر . وشجب الكفر . ورحب الصدر • واصحب الدهر • وسحت سماء السماح . وصـح ارواء الارواح . وتضـوع نشر الانشراح • وتوضح صباح الصلاح . وطـال جناح النجـاح . وطاب جني الافراح . وعظم القدر . ونظم الامـر . وحسـن الذكر . وأمن الذعر . واهتزت اعطاف الاسلام . واعتزت اطراف الشـام . وتبلجت ايا من الايام . وتروجت امـاني الانام . وارجـت أرجـاء الرجال • وثبتت باسناء الأسناد رواية أمالى ري الامـال . وقـرت الاعين وابتهجت بالسعد الطالع • واقرت الالسن والتهجت بـالحمد الجامع . وقرت الأذفس وانتهجت بوسعها سنن العـز الواسـع • ونابت هذه الموارد العذبة المشارب الصافية المشـارع في نفـع الاوام (٣١) ونقع الانام مناب المنابـع • وأرخـت السـير وسـيرت التواريخ • وخلقت ملطفات البشائر ليوجب تفخيمهـا وتضـخيمها التضميخ . واشرق المغـرب مـن بشر البشرى . وانارت مصر مـن حسن هذه الحسنى . وبسـمت بسـمة الشرف منابـر الاقـاصي والاداني . موافقة لمنبـر المسـجد الاقصى . وتـطرزت الفتـوحات الفاضل عصرها • الشامل نصرها بهذا المذهب المذهب . وفاحت في

مهاب المحاب نفحات هذا الزمن الأطهر الأطيب . وعاد الزمــان الى اعتداله . وعاذ العدل بزمانه . وتاب الدهــر مــن عدوانه . وآب إلى احسانه . ورجع الدين إلى سناء سـلطانه . وفجــع الكفـر بعبدة صلبانه . وبطش الايمان بايمانه . وا ستخلص مــن الشرك بلدانه بلدانه . وتقاضى الربيع بقروضه . وضافت ضيوف فيوضه . وعتــب العزم على ربوضه . وحض الخط . على نهوضه . وحث الحب على اقامة ســــــنن الجهـــــــاد وفــــــــروضه . فقـــــــــد درت افــاويق الآفــاق . وذرت أشــعة الاشراق . وا فتـــرت نضرة الحدائق لنظـــرة الاحــــداق . ورا قـــت أورا ق الألوية كالتـــواء الاورا ق . وأزهرت البيض والسمر كازهــار الرياض . وأذف غرار الجفون في الاغماد من الاغماض . وتيقــظت الاقــدار للاقــدار على ايقاظ عيون البيض لاجراء دم الشرك المطلول . وتنزل البــركات في انتجاع المراق مــن تجيع المارقين لا تــزال نص النصر على النصــل المسلول . وقـــد آن ان تـــرعى الحشـــاشات منهـــم على رعي الحشيش . ويطير الى اوكار المقـل طير الســهم المريش . وتــرتع ثعالب العوامل في عشــب الكلى . ويطــن ذبــاب المناصـــل في اوح الطلى . وترن رقــاق المرهفـات في الرقـــاب رنين الخـــطب على الأعواد . وتذوب قلوب علوج الكفر مــن نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد . وتحمــل اشـجار القنا بثمـر الهمــام . ويجيش الفضاء المعشــب بـــزهر الجيش اللهـــام . ويقـــطف ورد الموت الأحمر . من ورق الحديد الاخضر . ويوقــف حــد الهندي الابيض على قصر بني الأصـــفر . ويجــري في ورد الوريد جــــد اول البواتر . وترمي من الحصون العابيات الى حصــون العـدا جنادل الحوافر . وتكفل بما وعد الله من الظفر الظاهر والظهور المضــافر ضوا من الضوامر . وتتلى عقبان رايات الفتح والكسر مــن عقبــان الجو بالفتخ الكواسر . ويعبق ذوب الدارع من ردغ الثــواب بســهك الماذي . وتعلق في ملتقى التقــي الفــات الســـمهري . بـــلامات السابري . ويظهر الحق بخذلان الباطل . ويحل بأيدي الأيد ما بقي مع الفرنج من معاقل المعاقل . ويغرق بحر المجر الجرار مــا تخلف

من ساحات الساحل . فلم يبق به من المدن المنيعة الا صور وطرابلس . ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة بعون الله تدرس . وأما انطاكية فانها بالعراء منبوذة . وعند الاتجاه اليها مأخوذة . على انها بوقم قومها عام أول موقوذة . وحدود العزائم اليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة . فانها قد نقصت من اطرافها . ودخل عليها من اكتافها . وجدعت بفتح حصونها عرانينها . وضيق على أسدها وسيدانها المحصورة المحشورة فيها عرينها . فهي نهزة لمفترض . وطعمة لمقتنص . وسلعة لمسترخص . وبلغة لمستفحص . وقد خرج الخادم ليدخل البلاد . ويستأنف بجهده الجهاد . ويستقبل الربيع بربيع الاقبال . ويستنزل ملائكة النصر من سماء الرحمة لاوقات النزال . وهو يرجو ببركة هذه الأيام الزاهرة من الله ان ينجد جند ارضه بجند سمائه . ويوفق الخادم لتصديق امله في تطهير الارض من انجاس اجناس المشركين بدمائهم وتحقيق رجائه . فالجحافل حافلة . واسراب الكفر بين يديها جافلة . ومعاطف الاسلام في لباس الباس رافله . ونصرة الله بانجاز عداته في قمع عداته كافله . والحمد لله الذي وفق عبد مولانا أمير المؤمنين في طاعته لنصر أمره . وإخلاص الولاء في سره وجهره . واقتناء كل منقبة حقق بها فضل عصره . وابتكار كل فضيلة سار بها حسن ذكره فما يفتح مرتجا الا بتقليدها . ولا يستنجح مرتجى الا بتأييدها .

ذكر خروج السلطان من دمشق لاجل شقيف ارذون وما جرى له مع صاحبه

واقام السلطان شهر صفر في دمشق . وقد اطاب لناشق الآمال من نشره النشق . ثم خرج منها في ثالث شهر ربيع الاول يوم الجمعة . بالمحبة المجتمعة والمهابة الممتنعه . متوجها الى شقيف ارذون . ليقر بفتحه العيون . ويصدق في استخلاصه الظنون . وأتى مرج برغوث . واقام به الى يوم السبت حادي عشر الشهر ينتظر من عساكره البعوث . ثم رحل على سمت بانياس . وقد اوقع رعبه بين اهل الكفر البأس . وأتي مرج عيون وخيم منه بقرب الشقيف . وجمع على من به من آلات الحصار اسباب التخويف . وذلك يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول في اواسط فصل الربيع . وأقام في ذلك المرج الوسيع . والروض الوشيع . واسمنا الخيل في اعشاب واصية . ورتعنا في الطاف من الله دانية غير قاسية . وكان الشقيف في يد صاحب صيدا ارناط . وقد أكمل في حفظه الاحتياط . فنزل الى خدمة السلطان لحكمه طائعا . ولأمره سامعا . ولرضاه تابعا . وفي موضعه شافعا . وعلى حصنه خاشيا ولاجله خاشعا . وسأل ان يمهل ثلاثة اشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من اهله ، وأظهر انه محترز من علم المركيس بحاله فلا يسلم من جهله . وحينئذ يسلم الموضع بما فيه . ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه . ويخدمه على اقطاع يغنيه . وعن حب أهل دينه يسليه . فأكرمه وقربه . وقضى اربه .وأجابه الى ما سأله . وقبل منه عزيز ما بذله بذله . وأمهى (٣٥)غرب رغبه وأمهله . وأخذ له وما خذله . وخلع عليه وشرفه . ورفعه في ناديه بنداه وعرفه . واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينه . ووجد اليه سكونا وعنده سكينه . فشرع ارناط في ازالة حصنه ، وازالة وهنه . وترميم مستهدمه . وتتميم مستحكمة . وتوفير غلاله . وتوفية رجاله . وتدبير احواله . وتكثير امواله . ونحن في غرة من تحفظه . وفي سنة من تيقظه . وفي غفلة

من حزمه . وفي غفوة من عزمه . وكان يبتاع من سوق عسكرنا الميرة . ويكثر فيه الذخيرة . وقد صدقنا كذبه . وحققنا اربه . وانهي الى السلطان ما هو مشتغل به من عمارة يجدها . وذخيرة يعدها . وثلمة يسدها . وقوة يشدها . وميرة يستمدها . وكان بالمذكور سديد الظن . شديد الضن . لا يقبل ما فيه يقال . ولا يظن به عثورا يقال : فلما كثر فيه القول . وتمكن من مسألته العول . لم يرد ان يبدي له ما قيل . ولم يصدىء بالتغير عليه وجه جاهه الصقيل . فأمر بالانتقال من المرج الى سطح الجبل . وتحويل الخيم اليه والثقل . وذلك ليلة الجمعة ثاني عشر جمادى الآخرة وأظهر ان المرج وخيم . والمقيم به سقيم . وأم الدهر فيه بالصحة عقيم . وكان المقصود ان الشقيف من عيانه يقرب . واخباره عنه لا تعزب . فلما علم صاحب الشقيف بقربه . شرع في ازالة ما في قلبه . وجاء الى الخدمة . واستمسك بالعصمه . وذكر انه متعزز ببذل الطاعة . وببذل الاستطاعة . وتضرع خاضعا . وتعرض خاشعا . وذكر انه تخلف له اهل بصور . وانه كان زمان غيبته يرجو منهم الحضور . وانه يترقب وصولهم . ويأمل عنده حصولهم . وشرع في تقرير هذا الحديث . وتمهيد عذره فيما يتوهم من عهده النكير النكيث . واقام يوما وعاد الى حصنه . وقد وجد من السلطان دلائل امنه . وكانت المدة قد دنا انتهاؤها . وقرب انقضاؤها . فانها الى اخر هذا الشهر . ولم يجد بدا من التسليم او الغدر فعاد بعد ايام . باكتئاب واغتمام . وحضر عند السلطان فقال ما اظهر به الابتهال . واستزاد الامهال . وذكر انه رقيق الامتنان . وعتيق الاحسان وانه العبد القن . وقد دخل عليه الوهن . وغلق به الرهن وانه يبقي اهله معتقلين بصور إن خرج منه الحصن . ومن انشأ غرسا سقاه فأبقاه . وأشكاه فأزكاه . وأسماه فانماه وقد اصطنعتني ورفعتني فلا تضع الرفيع . ولا تضع الصنيع . وسأل ان تكون المده سنه . وان يتبع الحسنة في حقه حسنه . وان يرخي بطوله طوله . وان يشفي بشفاء أمله أمله . فراقه قوله . فرق له طوله . ثم افكر في أمره . واستمر في فكره . فغادر على عزيمة

غدره . وجاهر بسر شره . بعد ان ماطله وطاوله . وزاوله على ما حاوله . واقام اياما يردده . ويخصه من الكرامة بما يجدده . ثم كشف له الغطاء . بعد ان أجزل له العطاء . وقال له قد قيل عنك ما لا نظنه فيك ولا نعلمه منك . فجحد ما عنه رقي . وانه كيف يلقى بالكفران ما من الانعام لقي . وانه لم يسعد بآماله في الشقيف شقي . ثم سأل في ندب من يوثق بأمانته . ويؤمن الى وثاقته . ليدخل الموضع ويلمحه . ويحضر بوصف ما شاهده ويشرحه . فرجع المندوبون بخبر ما أبصروه . وذكروا أن الحصن قد غيروه . وانه قد استجد في سوره باب . واستمدت له من احكام احكامه اسباب . فاستحكم به الارتياب . وعرف ان السرح قد حوته الذئاب . فوكل به وحفظ من حيث لا يعلم . وقيل لعله يحسن فلا يحوج الى معاقبته ويسلم . ثم قيل له قد بقي يومان من المدة المضروبة . والمهلة الموهوبة . فتقيم عندنا حتى تنتهي المدة وتنقضي . وتسلم الحصن وتمضي . فأبدى ضرورة وضراعه . وقال سمعا وطاعه . وكان له ملقى وملق . وفي لسانه زلق . وما عنده من كل ما يفرق منه فرق . وقال انا انفذ الى ذوابي في التسليم . وهو قد تقدم اليهم بالوصية والتعليم . فأظهروا عصيانه . وقالوا يبقي مكانه . فقال قد بقي من المهلة يومان فماذا العجلة التي يفوت بها الغرض . ويطول منها المرض . فصبر عليه الى يوم الاحد ثامن عشر جمادى الآخرة وهو آخر مدته . وأول شدته . وأوان انقضاء عدة عدته . وقد رتب على الشقيف يزك يمنع الخروج والدخول . والصعود والنزول . ويضايق غريمه المطول . قبل ان يمتد حصاره ويطول . وحمله جماعة من الامراء ووقفوا به ازاء حصنه . فناداهم في درك امره . وفكاك رهنه . فخرج اليه قس قاس . بأسرع ن باس . فحادثه في حادثه بلغته . ونافثه في كارثه بغلته . وتحاورا في السر . وتشاورا في الشر . وكأنما امره بالتجلد . وصبره على التشدد . وعاد القس الشقي الى الشقيف . وترك صاحبه عانيا بالعناء العنيف . فقيد وحمل الى قلعة بانياس . وبطل الرجاء فيه وبان الياس . ثم استحضره في سادس رجب وهدده وتوعده وبالغ في تخويفه . على

ان يبلغ المراد في شقيقه . فلمـــا لم يفــد خـــطابه . ولم يجـــد عذابه . سيره الى دمشق وسجنه . وألزمه شجاه وشجنه . وتحول السلطان من مخيمه الى اعلى الجبـل يوم الاربعـاء ثـامن رجـب لمحاصرة الحصن . ورتب له عدة من الأمراء . وامرهم بمـلازمته في الصيف والشتاء . الى ان تسلمه بعد سنة بحـكم السـلم . وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم .

ذكر ما تجدد للسلطان مدة المقام بمـرج عيون مـن الاحوال وماكان من غزواته ونهضاته ووقعاته في حرب الفرنج والقتال

اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص مـن الأسر ، وقالوا نحن في جمع جم خارج عن الحصر . وقد تـواصلت الينا امداد البحر . فثربنا للثار ، وأعرنا من هذا العار . وجاء من كان بطرابلس وخيمـوا على صـــور . وفـــارقوا بـــالاستطالة القصـــور . وجـــرت بين المركيس المقيم بهـــــا وبين الملك مراسلات . وحالت بين اتفاقهما حالات . فلم يمـكنه مـن دخـول البلد . ولج معه في اللد . واحتج بأنه من قبل الملوك الذين من وراء البحر . وانه منتظر لما يبرمونه من الأمر . ويصله من الأمـر . ثـم اتفقوا على ان يقيم بصور المركيس . ويدوم منه لملكهـم التـأسيس ولملكهم التأنيس . وانهـــم يجتمعـــون على حـــرب المســـلمين وقتالهم . يتساعدون على رم ما تشعث من احوالهم . ويتعـاقدون على حل اشكالهم . ويتعاضدون في تسديد اختـلالهم . ويقصـدون بلدا اسلاميا من الساحل . ويقيمون عليه بالنوازل اقـامة المنازل . والمركيس يمدهم من صور بالمدد بعد المدد . وبجميع مـا يحتـاجون اليه من الميرة والاسلحة والعدد . فأجمعوا على هذا الرأي . وبلغوا في الغى الى هذه الغـاي . وشرعوا فيمـا شرعوه . وفـرعوا ذروة الأصل الذي فرعوه . ووصل الخبر يوم الاثنين سابع عشر جمـادى

الاولى من اليزك . ان جمع الفرنج قد نهض كالليل المعتكر الى المعترك . وانهم على قصد صيدا الحصر . وقد جسروا على عبور الجسر . فركب السلطان في الحال فيمن خف من ثقال الرجال واقتال القتال . واطلاب الابطال . وانجاد الاجناد . واجلاد الجلاد . والباذلين المهج للجهد في الجهاد . ووصل الى الملتقى والشغل قد فرغ . والسيل قد بلغ . والصدمة قد وقعت . والوقعة قد صدمت . والثورة قد ثارة . والسورة قد اسأرت . فان اليزكية لما شاهدت جاهدت . وتعاقدت علي لقائهم وتعاضدت . وخالطتهم . وباسطتهم . وواقحتهم وواقعتهم وجالدتهم وجاولتهم وحاربتهم وحاولتهم وردتهم مفلولين مخذولين . وصدتهم منهزمين مثلومين . وقسرتهم وكسرتهم واسرت سراتهم . وبزت بزاتهم . وقنصت عقبانهم . وقصمت شجعانهم . وصادت صيدهم وفرست فرسانهم . ووقع في الاسر من سباعهم سبعة . وغودرت للنسور من اشلاء المارقين بالمازق شبعة . واستشهد من المماليك الخواص ايبك الاخرش . وقد كان شهما بالوقائع يتحرش . وثبتا بالروائع لا يتشوش وانيسا بالحوادث لا يتوحش . وكميا كميشا بالكوارث لا ينكمش . وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان . وكانت الدائرة على اهل الشرك والطغيان . وعاد السلطان الى خيم ضربت له بقرب اليزك . وقال لعلهم يعودون الي ذلك المعترك . فنستدرك ما فرط من استئصالهم واجتثاثهم . وقد ندم الفرنج على ما ندر من اجترائهم وانبعاثهم . واقام الى يوم الاربعاء تاسع عشر الشهر . والاسلام بقوة ظهوره على الكفر قوي الظهر . وركب في ذلك اليوم . ليطلع من الجبل على القوم . ولم يكن له نية القتال . فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال . وتبعه راجل كثير من غزاة البلاد بغير علمه . وظنوا ان السلطان انما ركب للقتال وعلى عزمه . وكان الفرنج قد بصروا بالراجل فطمعوا فيه . ثم ظنوا ان وراءه عسكرا في الكمين يحميه . ونفذ السلطان بعض الامراء الى الغزاة الرجالة ليعودوا فما قبلوا . وحمل عليهم العدو فأسروا وقتلوا . وختمت بشهادة اولئك السعداء تلك العشية . ونفذت من الله في استشهادهم

المشية . وحمل الحاضرون من الامراء والعسكرية على الفرنج حملة اردتهم وردتهم . وصدقهم عن الجرأة وصدتهم . وتزاحموا على الجسر . فغرق منهم زهاء ثمانين في النهر . وكان يوما علينا ولنا . جنى المنا واجنى املنا . والحرب رجال . والحرب سجال . ولم يكن لاولئك الغرباء بقتال الفرنج دربه . واقدامهم على العدو لله قربه . فخاضوا من الدم في اللجج . واعتاضوا الجنة من المهج . وممن لقي الله بالشهادة . وختم له بالسعاده . الامير غازي ابن سعد الدولة مسعود بن البصارو . وكان شابا لنار الحرب شابا . ولبين الرب رابا . ولما شاهد ما تم من الغزاة . انقض في اصحابه على الفرنج انقضاض البزاه . فدعته جنته . الى طعنة لبتها لبته . فاحتسبه عند الله والده . وكدرت عليه موارده . واوجد جمعنا الاسى على فقد ذلك الواحد . وساء عدم الساعد . وبتنا نشكر مساعي ذلك المساعد . وضاقت القلوب . وفاضت الكروب . والم البوس . وألمت النفوس . وهذه وقعة ندرت . وواقعة بدرت . ونذير حدث وحادثة انذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ اصيبوا غير هذه الكرة . واذاقونا بعد أن حلا لنا جني الفتوحات مرارة هذه المرة . فايقظتنا من رقدة الغرة . وأخذ الناس حذرهم . ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم . ثم رجعوا الى الله وقالوا بهذا وعد الله حيث قال : (فيقتلون ويقتلون) (التوبة ١١١) وعباده هم الذين يتبعون امره ويمتثلون . ثم قويت عزمة السلطان على قصدهم في مخيمهم . وكبسهم في مجثمهم . وعبور الجسر اليهم . والاحداق بهم من حواليهم . وشاع صيت هذا العزم وصوته . وسارع الناس الى موسمه . وخشي فوته . وتسامع اهل البلاد . بتصميم عزيمة الجهاد . فتباشروا وتبادروا . وتسابقوا وتسارعوا واتوا من كل فج . وجاءوا من كل نهج . وسالوا في كل واد . وجالوا في كل بقاع ووهاد . ووافت مطوعة دمشق وحوران . يجرون الى مر الموت ، ويجرون المران . وتوافد من بالمرج والغوطة . على الحالة المغبوطة . وقالوا هذا اوان احضار الضوامر المربوطة . واجتمعت بمرج عيون . جموع مرجت العيون . فخافت الفرنج من هذا الجمع . واناف على القمع . وتعكست الى سور

صور . وعاين اولئك البور البثور . وتحرزوا وتحرسوا . وتـوجلوا وتوجسوا . فاقتضت الحال تأخير قصدهم . ليتمكن على غرتهم حشدنا من حصدهم . وعاد العسكر الى المخيم وسار السلطان الى تبنين . صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين . لتفقد احوالها . وتأمل اعمالها . وعرض رجالها . ثم سار منها الى عكا جريدة . ورتب في عمارتها وولايتها احوالا سديدة . ووصى رجالها بالاحتياط والتحفظ . والاستظهار والتيقظ . واسرع عودته الى العسكر . عظيم المفخر كريم المعشر . موفق المورد والمصدر . مقرظ المنظر والمخبر . وأقام الى يوم السبت سادس جمادى الآخرة . وبحر مخيمه يموج بامواج العساكر الزاخرة .

ذكر ما تم من استشهاد عدة من امراء العرب

وانتهى الينا ان الفرنج ينتشرون في الارض . وينبسطون في موضع القبض . ولايتحفظون في الرفع والخفض . ويحتطبون ولايحاطون . ويحتشون ولا يختشون . ويجذون ثمار الحيل . ويجذون على ما يصادفونه بانواع الغيل . وهم في غرة من غاره . وفي جسارهم تعود عليهم بخساره . وفي غفلة تجر عقله . وفي ضله ترفع عليهم من العذاب ظله . وانهم اذا خرجوا للاحتشاش والاحتطاب . وانتشروا لضم الاعشاب من الشعاب . خرجت وراءهم خيل تلحظهم على بعد . وتحفظهم من متعد . وذفذ السلطان الى خيل تبنين . وامرهم بأن يصبحوا اولئك الملاعين . فاذا خرجت الخيل اليهم تطاردوا قدامها ووصلت بها الكمين . وذلك يكون في صباح الاثنين ثامن الشهر المذكور . وواعدهم على هذا السر المستور . وذفذ الى عسكر عكا ليكمن في موضع عينه . ولا يظهر مكمنه . حتى يكون من وراء القوم . مستعدا لما ينالهم من الوقم . وسار السلطان ليلة الاثنين على الموعد . مصدقا للمقصد . وصادف خيل تبنين قد اغارت واثارت وابرت وابارت . فعبر تبنين وكمن بين صور وبينها . وعين اليزكية

وأوقظ عينها . ورتب ثمانية اطلاب من الابطال . وكمن بتلك الارجاء كماة الرجال . وانتخب من كل طالب عشرين فارسا اجوادا على الجياد .واجلادا في الجلد على الجلاد . فامرهم بان يتراءوا للفرنج حتى تصل اليهم وتحمل عليهم . وهم يفرون قدامها . ولا يقرون امامها . ويجذبونها الى قرب الكمين ويوقعونها عليه . ويوا قعونها اذا حصلت بين يديه . ففعلوا ما به امروا . ولما حملت عليهم الفرنج ثبتوا وصبروا . وانفوا من ان يقال عنهم فروا . بل جالوا فيهم وكروا . واتصل القتال واشتد . واحتدم المصال واحتد . وطال زمان الحرب وامتد . وطارت جمرات الصفاح . وفارت غمرات الكفاح . وثارت غبرات البرى . ودارت عثرات الثرى . وانحلت عرى اللمم .وانحطت ذرى القمم . وعدم كل قرن قراره . وكل جفن غراره . ودام نهارنا يجري بانهار الدم انهاره . وعرف من بالكمين ان الحرب قد اشتبكت وان الاسد قد اعتركت . وان البرك قد ارتبكت وابتركت . فتواصل انجادا للانجاد . وتراسل امدادا بعد الامداد . فلما رأى العدو ان المدد يكثر والعدد يكذف . وان عساكرنا لا تتوقى ولا تتوقف . صمم العزيمة . على الهزيمة . وعلم ان النجاة عين الغنيمة . فثنى اعطافه . وضم اطرافه . ورد احلافه . وجرت بين الفريقين مقتله . عادت ارض المعركة بها وهي مثقلة وكان قد حمل العرب على وعد العود الى الكمين . والرجوع الى اسد ذلك العرين . ولم يكن لهم بالطريق خبرة . ولا عبرت من الطوارق بهم عبره . فتطاردوا بين يدي الفرنج في واد ما له نفاذ . ولا لسالكه الى منهج ملاذ . ورآهم العدو فعدا وراءهم . وسار بجمعه ازاءهم . فلما انتهوا الى الجبل ادركوا . ولم يقدروا ان يسلكوا . فقاتلوا حتى قتلوا . واقبلوا على الله فقبلوا . وهم الامير زامل بن تبل بن مرى بن ربيعة امير الذقره . وسري الاسره . والامير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة . والامير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرى بن ربيعة وآخر معهم . فهؤلاء اربعة من ربيعة بنيت لهم في جنة الخلد ربوع . وقدر لهم في رياض النعيم رتوع . وفازوا بالنعيم ونعموا بالفوز . وانتقلوا من العز

الفاني الى الباقي من العز . وكان معهم من المماليك الخواص . من ذوي الجد والاخلاص . تركي عربي النخوة . غضنفري السطوة . فلما حصل في المضيق . وأيس من الطريق . نزل عن فرسه على صخرة بنحوه . ونثل بين يديه كنانته . فارعا لذروه . وقد اوتر قوسه وسدد اليهم سهمه . وقبل قضاء الله وحكمه . وحن الى منيته من حنيته . واصاب منيته من اصماء العدو في المصاب بامنيته . فوقفوا عنه بعيدا حين خافوا قربه . ومازالوا يطعنونه ويرمونه حتى ظنوا انه قضى نحبه . فأصبح .وقد نزف دمه ، وترجح على وجوده عدمه ، ولما قيل انه استشهد وطلب ليلحد ، رمق وبه رمق ، وهو في دمه غرق ، فحمل على أنه من الاموات ولم يرج له فوات الوفاة ، فأحياه الله بعد ان أماته ، وجمع اعضاءه عليه وقد شارف منها شتاته ، وانشأه خلقا جديدا ، وأوجده في أجله مزيدا ، وهو ايبك الساقي زاده . ماجرى اجتراء على الاقدام ، واجراء الى مضمار الحمام ، فما سمع بعد ذلك هيعة الا طار اليها ولاأبصر للكفر ضيعة الا أغار عليها .

ذكر مسير الفرنج الى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان قبالتهم اليها

وصل الخبر يوم الاربعاء ثامن رجب ، ان العدو قد ركب ، واجلب بخيله ورجله ، وطار بجراد جرده . ودب دباه في رجله ، وسرحت ذئابه ونجت كلابه ، وجاش عرام جيشه العرمرم ، وطاش الى أهل الجنة بأهل جهنم ، وذوى القرب من الذواقير ، واضرم بنار السعير مساعي المساعير ، وهو على قصد عكا يجري الى المدى برأي جمعه المدامير ، وأن ذفرا منهم ذفر ، وسبق الى الذواقير وعبر ، ونزل باسكندرونة ، واستباح طرقها المصونة ، وهناك من المؤمنين رجال يجمون طرف الثغر ، ويضمون نشر الأمر ، ويصمون نحر الكفر ، ويجبون غارب

الشر ، ويجوبون جانب البحر ، ويطوفون للحراسة ، ويطولون بالحماسة ، فلما رأوا مقدمة الفرنج واقعوها ودافعوها وعاقروها وقارعوها ، وأهلكوا عدة وملكوا عدة ، ولما تكاثرت أعداد الاعداء ، استظهروا بالانكفاء عن الأكفاء ، وتدافعوا بعدما دافعوا ، وتراجعوا بعد ماراجعوا ، واطلع السلطان على خبرهم وعرف نفور نفرهم ، فكتب الى العساكر الدانية بالدنو ، وللعدو على العدو فتوافدوا للميعاد ، وتوافوا للاعتضاد ، وتوفروا للجهاد ، وتوافقوا في ابناء المراد بابعاد المراد ورحل الفرنج ثاني عشر رجب يوم الأحد ، وافية المدد . وافرة العدد ، ونزلت على عين بصة ، ولقد شاهد دركات جهنم من شاهد تلك الرحاب المغتصة.

ووصل اوائلهم الى الزيب . واجابوا داعية الصليب ، فأصبح السلطان يوم الاثنين على الرحيل ووصل العنق بالذميل . وكان الثقل قد سار من الليل وجرى على طريق الملاحة في الأودية جري السيل ، وسرنا على جب يوسف الى المنية ، آخذين بالحزم تاركين للونية . وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا ، وبتنا بها تلك الليلة وسكنا ، ثم اصبح يوم الاربعاء خامس عشر الشهر ونزل على جبل الخروبة . واطلع منها على الاسرار المحجوبة ، واشرف على العدو النازل ، ودنا حزب الحق من حزب الباطل ، وكان عدة من الأمراء ساروا على طريق هونين ، وللفرنج مقابلين مقاتلين ، فوصلوا في هذا اليوم وقد نالوا في طريقهم من القوم ، ونزلنا في ارض صفورية بالانفال ، وتجرد الرجال منها الى المخيم السلطاني للقتال ، وكان من رأي السلطان عند رحيل الفرنج على قصد عكا ، ولم يزل رأيه بنور فطنته وطيب فطرته أذكى وازكى ، ان يسايرهم في الطريق ، ويواقعهم عند المضيق ويقطعهم عن الوصول ، ويدفعهم عن النزول فانهم اذا نزلوا صعب نزالهم ، واتعب قتالهم . واذا نبذوا تعذر حصدهم ، واذا ثبتوا تعسر قصدهم . واذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد ، واذا خلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم وعند الانحصار يتمكن احتياطهم . فقالوا له بل نستقيم على السنن

القويم ، ونطلبهم طلب الغريم ، ومااهون قطعهم اذا وصلنا واعجل ادبارهم اذا أقبلنا ، والطريق قبالتهم وعر ، وللمقصر عن التطاول فيه عذر ، فنمضي على اسهل الطرق ، ونسد فلقهم بالفيلق ، وتبين لنا بالعافية ان الرأي السلطاني كان أصوب فان نزالهم عند نزولهم صار أصعب ، ونزل الفرنج على عكا من البحر الى البحر ، محتاطين بالانحصار . محيطين بها الحصر . وضرب الملك العتيق كي خيمته على تل المصلبة ، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه ، وبعث السلطان ليلة وصوله الى مدينة عكا بعثا دخلها على غرة من العدو ، وتواصلت البعوث اليها التي هي على التزايد والنمو ، حتى استظهرت بقوتها . وقويت باستظهارها . فلما اجتمعت العساكر . واتصلت بالاوائل الاواخر . كي جيشه طلبا طلبا ، وميمنة وميسرة وجناحا وقلبا ، وسار بهيأته وهيبته ، وانزل العسكر على تعبيته ، ونزل بمرج عكا على تل كيسان في ذوي اختصاصة ، وقد نصب من خيامه عليه اشراك اقناصه ، وامتدت الميمنة الى تل العياضية والميسرة الى نهر الماء العذب ، فدارت رحى الحرب ودام كر الكرب ، وطاب طعم الطعن والضرب ، وطافت كأس البأس بمدام الدم على الشرب ، ووافى للانجاد عسكر الشرق ماضي الغرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ، ورتبنا بالزيب والذوا قير رجالا يصدونهم عن سبلها ، ودمنا نصابحهم بالقتال ونماسيهم ، ونرا وحهم ونغاديهم ، ونعاودهم ونبادیهم ، ونقدم بعوادينا على عواديهم ، ونصدهم ونصدمهم ، ويوجدهم البحر ونعدمهم ، ومازالت مراكبهم تتواصل . ومناكبهم تتطاول ، وأهل الجزائر من أهل الجزائر متوافرون متوافدون ، مترادفون مترافدون ، قد لفعوا وجه البحر بنقب السفن ، وجذبوا بالقلوس على ثجبه عران الرعن ، والقوا على تياره بسط البطش . وحملوا على البحر أوزار النجس . وتبالهم وتعسا . فانهم زادوا على

رجسهم رجسا ، وبقي القتال بينهم وبين اليزكية ، كل بكرة الى العشية ، الى ان وصل الملك المظفر تقي الدين عمر ، ومظفر الدين كوكبوري الأسد الغضنفر ، فاستظهرنا بهما وبعسكرهما الدهم ، ووصل مقدموا الرجال في الجمع الجم ، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ، ولج اولئك العلوج في ضبط طريق الولوج ، وذلك في يوم الأربعاء والخميس آخر رجب لانسلاخه ، والاسلام ينادينا باستصراخه ، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد استهلت راياته ، واستقلت آياته ، وعز عزمه ، وعلا حكمه ، وماامنا الا من اسرج الجرد وجرد السريجيات ، وعاج بالاعوجيات . واشرف بالمشرفيات ، وبرز باعتقال الردينيات ، ورديان العقيليات ، وأزكى المذاكي وقرب المقربات ، وقد سن سنان لدنه ، وجن جنان قرنه ، وساف سيفه ردع الدم ، وضاف جوده مضيف العدم ، واقبلنا والنصر مقبل ، والظفر متهلل ، والميمنة والميسرة باليمن واليسر ممتدتان ، والقلب له من التأييد والتمكين جناحان ، واتفقت الآراء واجمع الأمراء على أن يكون اللقاء وقت صلاة الجمعة ، عند قبول الدعوات المرتفعة ، ومناب منابر الاسلام عن اهله في جميع بلاده ، واجماع الالسنة والقلوب في الضراعة الى الله في نصرة المجاهدين من عباده ، واحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم ، وكدر عليهم صفو مشاربهم ، وفل مضاء مضاربهم ، وهم في مواضعهم واقفون . وعلى مصارعهم عاكفون ، وفي مواطنهم ثابتون وعلى مواطئهن ثابتون كالبنيان المرصوص مافيه خلل ، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل ، وكالسور المحيط ماعليه متسلق ، وكالجبل الأشم مافية متعلق ، فزحفنا اليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها ، وانخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم ان يمتطوها ، ودامت الحرب قائمة ، وديمة الدم دائمة ، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه ، وخلف نظامه حتى دخل الليل وحجز ووعد النصر مانجز ، وحزب الحق ماعجز . فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما امسوا . وزادوا على ماجرى امس

واهلوا عنه وأذسوا ، فما طلعت شمس الظهيرة حتى طلعت شـمس الظهور ، واصبحت شمس الجمهور ، واستضاف نورها مستفيض النور ، وحمل الناس من جانب البحر شمالي عكا حملة شـديدة ، كانت لمن قـدامهم مـن الفـرنج مبيدة ، وفـرشوهم على تلك التلول ، وردوا مضاربهم من فلهم بادية الفلول ، وانهزم الفرنج الى تل المصلبة نحـو القبـة ، وثبتـوا عند الوثبـة ، وأخلوا ذلك الجانب ، وخلوا تلك المذاهب ، وقلعت خيامهم . وقطعت اطماعهم عنها ، وانفتـح لنا طـريق عكا . ودخلهـا الرجـال ،وحملت إليها الغلال ، ونقلت اليها الأحمـال ، ودخـل العسـكر اليهـا وخرج ، وانكشف ضيق حصرها واطلع السلطان على الفـرنج مـن سورها ، وشرع في تدبير أمورها ، وخرج عسكر البلد للموازرة على قتال العدو العادي ، وتـرك الهـوادة في قصر القصر ، والهـوادي والفرنج قد رهبوا ، ولو قـدروا هـربوا ، ولكن اصـحابنا راوا أن انفتاح باب البلد غنيمة ، وانهم أي وقت ارادوا كانت منهم عزيمة . ومن العدو هزيمة وتـوقفوا على الاتمـام ، وتقـدموا عن مقـام الاقدام ، ولو أنهم استمروا في الحرب على هيأتهم وهيبتهم ، لبـاء الاعداء لنجحنا بخيتبهـم ، فـان الصـدمة الاولى اخـسافت وحافت ، ونافت بقاء القوم وعلى هلكها انافـت ، ولكننا تـركناهم حتى عادت اليهم الأرماق ، وعاود فرقهم الافراق ، وابصروا مابين ايديهم وما خلفهم . وازالوا فيما بينهم بالموافقة خلفهم . واثبتوا في مستنقع الموت ارجلهم . ورأوا أن الوقت قد أمهلهم . وقال أمـراؤنا هـؤلاء قد سهل امرهـم ، وخمـد جمـرهم ، وقـد حص رياشـهم حصرهم ، وهـم في قبضـتنا اي وقـت اردنا ، واقصـدهم تجردنا ، وقالوا نصبر الى الظهـر ونمضي ونسـقي الخيل ونعـود وحينئذ يشتغل بهم العدم ويفرغ منهـم الوجـود . فـانصرفوا على وعد العود ، وتفرقوا في مراتعهم تفرق الذود . وبلع العـدو ريقـه ، ووجد الى الجلد طريقه وجمع بعد التفرق فريقه ، وضم عن الانتشار راجله ، وزم رامحه ونابله ، ووقفوا كالسـور مـن وراء الجنويات والتراس والقنطاريات ، وقد صوبوا الجروخ وفوقوها ، وجمعـوا العدد وعلى الرجال فرقوها ، كأنهم في الدروع أراقـم ، وفي المجان

علاجم ، وفي النهوض قشاعم ، وفي الضراوة ضراغم ، واختلفت الآراء مع العلم باحتراسهم وتسترهم بتراسهم ، فمنا من يقول نصبحهم بالزحف ، ونزورهم بالحتف ، ويترجل الامراء فيتبعهم الاصحاب . وتنشب من اسادنا في تلك الخنازير من النشاب الاظفار والأنياب ، ويتصل الطعان والضراب ، فننسفهم ولو انهم جبال ، ونطفيء نيرانهم فلا يقد لهم من بعدها ذبال.

ومنا من يقول يدخل راجلنا الى البلد . مستعدا بالاهب متأهبا بالعدد . فاذا زحفنا اليهم . واوجفنا عليهم . خرج من في البلد من العسكرية والراجل . ونازلناهم من امامهم ومن ورائهم بالنوازل . فلا تطرف لهم بعدها عين . ولايبقى للدين بعد درك الثار منهم دين . ومنا من يقول لابل نفرج عنهم . ونبعد منهم . فما دمنا على هذه المضايقة والمصابرة . والمحاقة والمحاصرة . والمكابدة والمكابرة . فانهم يتيقظون وينتبهون . ويتحفظون ولاينهون ويتحرزون ويتحربون ويتوجلون ويتوجمون . فاذا ارخينا طولهم واوسعنا املهم . استرسلوا بعدما استبسلوا . واستقبلوا الدعة بعدما ما استقلوا . واطمانوا فطمعوا، واذا ابطأنا تسرعوا واغتروا بانا على غرة فأغاروا . وظهرت لهم اثار ركوبنا عنهم فظهروا وثاروا . فحينئذ حينهم يحين ، وشينهم يشين . واذا ظهروا ظهرنا عليهم . ومتي اصحروا اصحرنا اليهم . وان بارزوا بارزناهم . وانجزنا عدة امانينا فيهم وناجزناهم ومنا من يقول : هؤلاء في عدد النمل . وكثرة الرمل . وظلام الليل . وعرام السيل . فما يقمهم الا العدد الكثير . ولايقمعهم الا الجمع الجم الغفير . والمصلحة ان نستنفر العساكر ونستحضر لابادتهم البادي والحاضر . ونستجيش الجحافل ونستثير الفارس والراجل ونلقاهم بامثالهم ونقدم عليهم مستظهرين في قتالهم ، وازوادهم عن قريب تفرغ . وامادهم في الصبر تبلغ . وامدادهم تنقطع . وانجادهم تمتنع . وموادهم تقل . وجوادهم تضل . ولمراكبهم في الشتاء شتات . ولحباثلهم وحبالهم انبتات ، فاما ان يضطروا الى الانفصال . واما ان يؤذن فناء ارزاقهم بحلول الاجال . ويهون علينا

حربهم في تلك الحال . (وكفى الله المؤمنين القتال).(الاحـزاب ٢٥)
فهذا عسكر الاسلام . وجند مصر والشام . وفي الاقدام به خـطر .
وفي المباشرة بحربه غرر . والمصـلحة العـامة تلحـظ . ورأس المال
يحفظ ومنا من يقول نستدعي من مصر الاساطيل ونستدفع بحقها
الاباطيل . ونستكثر من مراكبها . ونسـتعدي على هـذه الافـاعي
بعقاربها . ونستطيل على الشناة المستطيلة بشوانيها. ونعـدو على
عوادي الاعادي بعواديها واذا وصلت وقطعت عليهم طرق البحـر .
وصلت لنا اسباب النصر . وحينئذ نقاتلهم برا وبحـرا . ونوسـعهم
بمضايقتهم فيهما قتلا واسرا . ومازالت هذه الاراء بيننا متـداوله .
وخواطرنا في تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفـرنج جـاريه
وزناد الهيجـاء لاشـعال نارهـا واريه . وفي كل يوم نتصـافح
بالصفاح . ونتكافأ بالكفاح . وننطق فيهم بـكلام الكلوم . ونلحـق
منهم الموجود بالمعدوم. وللطلائع وقائع . وللسهام افـواق فـائقة .
وللحمام اسواق نافقة . وسرايانا في كل يوم وليلة تسري وتـأسر .
وتبري وتأبر . وتكبس وتكسب . وتسبي وتسلب . والسلطان يباشر
ذلك كله بنفسه .وهو يدأب في يومـه لغـده مجتهـدا في الزيادة على
امسه نائبا عن اعوان المسلمين وانصارهم .ساهرا لهـم في ليلهـم.
قائما بـأمرهم في نهـارهم .والعين السـاهرة في سـبيل الله
قريره .وتعب يوم واحد لله في اليوم الاخر ذخيرة

ذكر وقعة تمت يوم الاربعاء سادس شعبان

وركب الفرنج اخر يوم الاربعاء سادس شعبان بأجمعهم .وتقـدموا
من موضعهم .واشـتاقوا إلى مصرعهـم .وفـارقوا الحـزم في
تسرعهم .وخرجوا عن رجالتهم .وتجردوا بخيالتهـم .وحملوا على
الواقفين من اصحابنا حملة الرجل الواحد .فتحرك الصف الثـابت
الساكن امامهم كالبنيان اذا تحلحل من القـواعد .وتـراجع عنهـم
المسلمون استدراجا .وملأت الارض السماء عججا وعجاجا .وزخر

بحر الحرب على أمواج امواجا . فما قربوا من خيام اليزك . الا وقد اعتكر جو المعترك وعساكرنا قد أوجفت عليهم . وزحفت إليهم . وأردتهم بعقابهم . وردتهم على اعقابهم ووصلت الى رؤساهم فقطعت رؤوسا والحف بأسها ذلك الجمع بؤسا . وشت وجه الكفر عبوسا . وولوا مدبرين . وأدبروا مولين . والجريح بالقتيل عاير عاثر . والذمر الباسل باسم بالموت باشر . فلما جن الليل رجعت بما جنته الخيل . وبات الناس من الجانبين على غاية من التيقظ . وهمة متنبهة للتحفظ . وحراسة وحماية . وسياسة ورعاية . فلما اصبحوا عادوا الى عادتهم في اللقاء . وهاجوا بعاديتهم الى الهيجاء . هذا وابواب البلد مفتوحة . والصدور بطروق الظهر اليها مشروحة والفرنج قد ندموا على ماقدموا . وعدموا بصيرتهم بما صدموا . وعادوا لايفرطون ولايتورطون . وينقبضون ولاينبسطون .

ذكر وفاة حسام الدين طمان

انتقل السلطان ليلة الاثنين حادي عشر الشهر الى تل العياضية . ليكون به في الجهة المرضية . فان هذا التل بازاء تل المصلبه منزلة العدو . وهو مشرف عليهم العلو . وضربت خيام الميمنة ممتدة الى البحر ، وخيام الميسرة الى النهر ، واتسع مجالنا وضاقت الدائرة على الكفر . وكان الامير طمان صاحب الرقة مريضا ولم تزل وجوه الايام الغير في سبيل الله باحمرار بيضه بيضاء ؛ وهو الحسام الفاضل . والهمام الباسل . والقرم البازل والندب الحلاحل . والمحترق لحمية الدين . والمقترح لحماية المسلمين . ولما وافت وفاته . وفاته رجاؤه ولم يرجأ فواته . أسف على عمره . وأسي على أمره . وحزن كيف لم يقتل شهيدا . ولم يستشهد في الجهاد سعيدا . وقال:قدموا حصاني حتى اشهد الحرب واستشهد ، واجاهد الى ان اقتل واجهد ، فاني ارى موتي على الفراش عبثا . وقد عرفتم مني شجاعة لاجبنا ، وتوفي عصر الاربعاء

ثالث عشر شعبان ، وبواه الله الجنان ، وبشربه رضوان . وكان قد توفي بالقرب الامير الندب . فـارس الحـرب . ليلة الاثنين السـابع والعشرين من رجب . حسام الدين سنقر الخلاطي النجيب المنتجـب فنبت مضارب الدين باغماد الحسامين . وحلت الهموم لاجـل اجـل الهمامين ، فوجمت النفوس ، والمت القلوب وفاضت لغروب فيضها الغروب .

ذكر واقعة للعرب . أربت لنا بالأرب

انتهـــى الينا ان الفـــرنج . يتـــسطرقون ويتـــسطرفون . ويأمنون ولايتخوفون . ويخرجون للاحتشاش وينتشرون لضم الاعشاب مـن الاعشاش ، ويصلون الى طرفي النهر ، وهـم لمن يحلق عليهـم مـن فوقهم تحت القهر ، فانتدب جماعة من العربان ، وضراغم فـارسة من الفرسان ، فاغاروا وهـم غارون ، وســاروا الى جمعهـم وهـم بتجمعهم سارون .وحالوا بينهـم وبين خيامهـم ، وحشروهـم الى حمى حمامهم . وحملوا اليهم حين حملوا عليهم بـرؤسا ، وقـطعوا منهم لما اتصلوا بهم رؤوسا . واحضروها عند السـلطان فـاجتابوا بها خلع الاحتباء ، وبعثهم على الحمية والاباء ، وذلك يوم السـبت سادس عشر الشهر . وسر المسلمون واستبشروا بوقعة النهر . هذا والقتال بينهم وبين اصحابنا في عكا متصل ، وشرار الشر مشتعل ، والموت منهم منتقي وفيهم منتقـل . وفي كل يوم تقـوم الحـرب على ساق . والارواح في مساق ، والمصاع على اتسـاق ، وكم قتـل مـن حزب العدو واسر . وكم حمل ليكسر فكسر . وربما مل الحـزبان ، وكل الغربان . فتوافقا على الامان . وتواقفا يتكلمان . وربما اقدموا ثم نكصوا . وغذوا ورقصوا . واذا لغبوا لعبوا . واسـتراحوا الى الوقوف اذا تعبوا ومـن نوادر مـاجري وغرائبـه ، وملح مـاتم وعجائبه ، ان الطـائفتين في بعض الايام . ضـجرتا مـن مباشرة الحرب على الدوام ، فقال واحد من الفرنج الى متى هـذا القتـال . وقد فني الرجال ، فاخرجوا صـبيانكم الى صـبياننا . وليكونوا في

امانكم وامانتا ، فبرز منهم صبيان . ومن البلد اخـران . فقـاتلوا مليا ، والقوا نار الحرب صليا ، ثم وثب احد الصبيين المسـلمين . على احد الصـبيين الكافـرين . وضرب بـه الارض . وقفـز عليه وانقض . وقبضه كسيرا وجذبه اسيرا ، فافتداه بعضهم بدينارين . وعاد المسلم من ظهوره وسروره الى جنتين . والعدو من كفره وفكره الى نارين ، ومن الاتفاقات النادرة ، وامارات السعادة الظـاهرة . انه افلت من بعض مراكب الفرنج حصان . له عندهم صيت وشأن . فلم يقدروا على ضبطه ، كما عجزوا عن ربـطه . ومـازال يعـوم في البحر وهم حواليه . حتى دخل مينا البلد وتسارع اصـحابنا اليه . واهدوه الى السلطان ، وعده العدو من امارات الخذلان ، ورأيناه لنا من دلائل النصر والاحسان .

ذكر الواقعة الكبرى

واصبح الفرنج يوم الاربعاء العشرين مـن شـعبان . وقـد رفعـوا الصلبان ، وزحفت اسودهم في غاب المران . وطارت بهـم خيولهـم عقبانا على عقبان . وجرت بالجبال منهم رياح . وجالوا دون التـل كأنهم له وشـاح . وخـرجوا على التعبيه . وشـفعوا نداء الكفـر بالتلبية . وشفعوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتـزمين . وعزمـوا مصممين . وثاروا ثورة الشيطان . وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفـوا اطـلابا ، ودبـوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، واجروا سيول السوابق الى القرار . وجروا ذيول السوابغ الى الفـوار ، وتحـركوا وهـم هضاب ، وتدركوا وهم غضاب . ومازالت ميسرتهم تكثر وتـكاثف . وتعطوا (٣٣) وتعطف . وتفور وتثـور . وتـرود وتـدور . وتهـم وتهمهم . وتدمدم وتدوم . وقد عبى السـلطان ميمنتـه وميسرتـه ، وطلب من الله نصرته . وثبت قلبه وقلبه ثـابت . وحـزبه في صـف الحرب ثابت . ورعبه لكبة العدو كابت . وهو يمر بالصفوف . ويأمر

بالوقوف . ويحض على حفظ الابد . ويحث على الجلاد والجلد . ويثوب للوثوب . ويندب الى الندوب . ولما شاهد شروق بروقهم . وخروق مروقهم . وكثافة ميسرتهم . وحشو حشود كثرتهم . انهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب . وكان الملك المظفر تقي الدين من الميمنة على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح ، وكلما تقدموا تأخر يستجرهم . ويحذر مكرهم ومكرهم . فعرفوا انه لاقبل لهم بمقابلته ، وان هذا ليس ميقات مقاتلته ، فتركوه واستقبلوا القلب وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة ذوي حملة دوى منها الدو . واسود منها وجو الجو . ووصلوا الى جموع ديار بكر والجزيرة . وغاصوا في لجتها بغدران السوابح والسوابغ الغزيرة ، وكانت من القلب الى الجناح الطيران وجبالها على الرياح للجريان فعرفوها بالغر . واستضعفوها لدى الكر . وألموا بها فما ألمت . وهموا بها فما همت . واندفعت ومادفعت . وتراجعت وما رجعت . وتعكست وماعكست . وادبرت وماتدبرت . ولكونها غير عارفة بقتال الفرنج هابت وماهبت ولابت (٣٤) ومالبت . ورابت ومااربت . وجاؤوا الى القلب وقلبوه . وحاربوه وحربوه وخربوا حزبه . وخرقوا حجبه . وهناك استشهد كرام باعوا انفسهم بالجنة . واسنو نحورهم نحو الاسنة . منهم الامير مجلي بن مروان . وكأن مجليا في المروة . والظهير اخو الفقيه عيسى وكان ظاهر الفتوة . واخرون اعترفوا بذنوبهم فرحضوا بماء الشهادة دون حوبهم . وصعدوا الى مخيم السلطان . طامعين في استطالة حزب الصلبان . وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم . ووقفنا على التل نشاهد الوقعة وننتظر مايكون من القوم . وماظننا ان القوة بهي (٣٥) . وان الواقعة الينا تنتهي . فلما خالطونا في المخيم . وباسطونا في المجثم . وكنا على بغال . بغير أهبة قتال . استدركنا امرنا . واخذنا منهم حذرنا . ورأينا العسكر موليا . والمهزم عما تركه من خيامه ورحله متخليا . فوافقنا في الاندفاع . والفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع . فوصلنا الى طبرية فيمن وصل . ووجدنا ساكنها قد اجفل . فسقنا الى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقية . وكل منا ذاهل عن شبعه وريه . مفكر فيما يكون من امره .

منكسر القلب لما تم على الاسلام من كسره . لايألف مبيتا . ولايلفى بيتا ، ممسك بلجام فرسه . قد اذن ضيق نفسه بضـيق نفسـه . ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق . وهو غير مفيق . ومنهم من وصل الي دمشق غير معرج على طـريق . واقمنا بمـوضعنا على الخـوى والخيل واقفة بلجمها والطوى . والغمض غير طارق . والفـرق غير مفـارق . والقلوب مـرتاعة مـرتابه . والادعية الى الله مـرفوعة مستجابه . وتحدث الناس فيما بينهم بان الاسلام عاد جـده . وعدا جنده وان الكفر حاد فله وفـل حـده . وان الميسرة ثبتـت فثـاب اليسر . والاسدية انتصروا فـأسد النصـر . وكان هـذا الصـدى يقـوى . والصـدأ يروى . والبشرى تسري . والبـرد بهـا تجري . والناس بين مصدق ومكذب . وذاهب في مـذهب مـن الظـن مذهب مهذب . حتى عبر سحرا علينا خادم اسمه صـافي وقـد ورد مورد الظفر الصافي . فنادى أين العمـاد . فقـد جـاءه مـن النصر المراد . فأسرعنا إليه . واجتمعنا عليه . فقلنا ماالخبر . وكيف ضـفا الظفر (٣٦) . وصفا الكدر . وقدر السلطان وتسلط القدر . والى اين انت سار بالنبأ السـار . وفي اية دار تنزل بمنزل النصر الدار . فقال أنا بشير دمشق بالنبأ العظيم . والخبـر الكريم . فقلنا اهـلا بشائر البشائر وطائر الاوطـار . والسـائر بـالمسار والاخ البـار بالاخبار . والصديق الصادق . والموفق الموافق . ومرحبا بـالخصي الخاص لما مرحيا فحل بالخبر الفحل فحلا . وكم ام للنجـح امـلا وجلا وجلا . فأبنا محبورين مجبورين . وثبنا مثـابين مـأجورين . وندمنا على ماندمنا في الهزيمة . وعز علينا ترك الاخـذ بـالعزيمة . ولقينا السلطان وقد فتك وقتل . وجد وجدل . وانتقم من القوم ومـن مقامه ماانتقل . وقد شل الجموع وجمع الاشلاء وادام الاجراء حتى اجرى الدماء .

- ٥٩٩٢ -

ذكر حصة النصرة بعد صحة الكسره
وكيف ادال الله الاسلام واذل الكفر بتلك الكره

لما تمت الكسره . وعمت الفتره . وكرت الكره . وامـرت تلك المره . وصل جماعة من الفرنج الى خيمـة السـلطان وشـيم مـن عارض اعتراضهم شؤم شيمة الشيطان . وجالوا جـوله . وخـالوا دوله . وصالوا صوله . ثم رأوا عنهم انقطاع اشـياعهم . وعدمـوا اتبـاع اتباعهم . فشرعوا في اندفاعهم . وهابوا الوقوف على اجتمـاعهم . فانحدروا عن التل . وقد جاؤوا بقـوة العـز فـآبوا بضـعف الذل . واستقلهم اصحابنا فركبوا اكتافهم . وحكموا في رقابهم اسيافهم . وردوهم وأردوهم . وعدوا على شركائهم في الشرك فاعدوهم . وكان في ميسرتنا عسكر سنجار والاسدية فما زالوا ومازالوا . بل وصلوا وصالوا وصلوا . وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت بـالجبال الرياح . وخالطوها فودعت أجسامها الأرواح . وعاد مـن كان مـن الميمنة الاسلامية بالبعد . حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين . وقايماز النجمي والحسام بن لاجين . ومـن ثبـت مـن أبـطال المجاهدين . فكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وانهلوها من دمائها وأعلوها . ولفوها وفلوها . ولقـوها واقلوهـا . ووضـعوا فيهـا السيوف . وأوضعوا اليها الحتوف . واوسعوها قتلا ذريعا .

ومابطأ الوقت حتى صار مقدامها ضريعا سريعـا . فلم يفلت مـن الاعداء إلا أعداد . ولم ينج من الافها الا احاد . وامست لنا الحـرب فراشا . ولارض المعركة فـراشا . وتبعهـا اصـحابنا حتـى كلت سيوفهم وكلوا . وملت لدوتهم وليوثهم وملوا . وفرس زهاء خمسـة الاف فارس من كل ممار ممارس . ومستوحش بالموت انس . وممن اودى في الاقدام مقدم الداوية . ولم تحمه من الحمام ناره الحـامية لنار الحمية . وحكي عنه انه قال:عرضنا في مائة الف وعشرة الاف . احلاف الحاف والاف اتلاف بلا تـلاف فلمـا عجـزوا . وبـالخندق

احتجزوا . وقــف عنهــم اجنادنا . وبلغ المدى فيهــم جهــادنا واجتهادنا . ومن العجب ان الذين ثبتوا منا لم يبلغوا الفــا فــردوا مائة الف . واتاهم الله قوة بعد ضعف . وكان الواحد منا يقول قتلت من المثلثين ثــلاثين واربعين . وتــركتهم بــالعراء عراة مصرعين . ولا شك ان الله انزل المسومين . وكل يتحدث بعد ذلك ممــا شــهده . ويعهد الينا بما عهده . وحكى بعضهم قال كنت على فرس قــطوف . ماله منة سير ولا وقوف . وانا منهزم من فــارس مــدجج . في بحــر الحرب ملجج . وهو على جبل يجري به جري الريح . وينادى بشعار المسيح . وقد لز بقربي حصانه . وهز لصلبي سنانه . فما شــككت انه يشكني بلهذمه . ويفكني بمخذمه . وايست من البقاء . وانســت للشهادة واللقاء . واستعذت بــالله واســتعنت . وتشــاهدت ممــا شاهدت . ثم ابطأت على صدمته . واخطأتني حدمته . فالتفت فــاذا هو وحصانه ملقى كلاهما. ومــا وجدت بــالقرب احــدا اقــول انه ارداهما . فعرفت انه نصر الهي . وصنع رباني في مــذاق الايمــان شهي . وفي افاق الاحسان بهي . فايقنت ان النصرة مــاملكت ، الا الملائكة نصرت . وان الظهور ماسر الا لاسرار الله ظهرت .

ذكر مكاتبة انشأتها الى بعض الاطراف بشرح ما يسره الله في هذه الوقعة من الألطاف

قد سبقت المكاتبة بشرح الاحوال وذكرهــا . وشــكر الطاف الله الخفية وابداء سرها . ونشر مطاوي النعم باذاعة طيهــا واشاعة نشرها . وذكر فيها ماالفرنج عليه مــن اجتمــاع راجلهــا وفارسها . والاحتماء بخنادقها ومتــارسها . وان لنا كل يوم فيهــم نكاية بالغه . وسطوة دامغة . وثعالب عوامــل في دمــائهم والغــه . ومضارب مناصل لرؤوسهم فــادغة . ونيوبهــم عواســل مــاضغهم ماضغة .ونيول نقم عليهم في تقليص ضــلالهم ســابغه . وايدي ايد لصفحات البيض بنجيعهم القاني صابغه . وضمائر وضوامر عن كل

شغل سوى شغل الجهاد فارغه . وهممـا وعزائم لاتـرى عن وقـم القوم اهل الزيغ زائغة . ومابرح الفرنج في برح شـديد . وامـر غير سديد . وظل الذل مديد . وضيق حصر في كل يوم جديد جديد . حتـى ضاقت انفسهم وانفاسهم واخفق رجاؤهم . وظهر يأسـهم ووقـع بينهم بطول المقام باسهم . فاجمعوا امـرهم على انهـم يجـدون في اللقـاء . ويهجيون الى الهيجـاء ، ويلقـون الالوف بـالالوف . ويصدمون الصفوف بالصفوف . ويعرضون نحورهم ووجـوهم على الاسنة والسـيوف . ويكسـفون بشـبه التثليث ادلة التـوحيد . ويكشفون الضر عنهم بالجد الجديد . والحـد الحـديد . وبـرز ذلك الخميس يوم الاربعاء لعشر بقين من شـعبان . ورفعـوا الصـلبان واشرعوا الخرصان . واتبعوا الشيطان . ورتبوا الرجال . وطلبـوا الفرسان . وحملت لهم اطلاب تضم ابطالا . وتضمن بباطلها للحـق ابطالا . وتأمل لشملها المتفرق اجتماعا . وترجوا للصليب السـليب ارتجاعا . وعصفت رياحهـا الهـوج . واقبلت بحـار سـوابحها وسوابغها تموج . وكاد ان يثبت للشيطان قدم ، ويراق للايمان دم . فانها خرقت حجاب الصف . وفرقت شـمل الجمـع الملتـف . وزاغ جنان الجبان وهمه وهمه . وادبر موليا وعزمه زعمـه . فـظن مـن لايقين له ان الاسلام قد اسلم . وان نصر الله الموجود قد عدم . وان الكفر المتأخر قد تقدم . وان الصبح المتبلج قـد اظلم . وهناك عرف اهل الثبات . وثبت اهل العـرفان . ورقصـت المران على اشـاجع الشجعان . والتفت العنان بالعنان . والتقـى السـنان بـالسنان . وخطبت الصوارم على منابر الطلى . ورتعت اللهـاذم في كلا الكلي . وفتحت اليغالق مغالق الحتـف . وزحفـت الفـوارس الى فـوارس الزحف . وعطفت العساكر المنصورة طلابا لتلك الاطلاب . ووصـلت ضرب الاعناق بقطع الرقاب . ومازالت تشل الفرنج وتفلهم . وتحـل بعقدهم الوهن وتحلهم . وتروي ظمـأ الظبـا مـن ورد وريدهـم . وتخضب شيب البيض بدم طريدهم . حتى فـرشت بعـد ان سـلبت اشلاؤهم بالعراء عريا . وجرحت خيولهم وخيالاتهـم فلم تسـتطع اجراء ولم تطق جريا.حتى تثلمت وتلثمت بنجيعهـم صـفحات الصفاح . ووقفت اشباحهم وقفـة الوداع لفـراق الارواح . واعرب

حيث حادثهم عن جمجمة الجماجم الفصاح . وقتل من مقدميهم ومقدمي مقدميهم زهاء خمسة الاف . زهي الاسلام بما اتسع من عطن عطبهم . وحسن منقلبه بسوء منقلبهم . وعاش بما شاع من قتلهم . واشتغل العسكر المنصور بشغلهم . وطاب القلب المهموم بما تم من مأتم الكفر وعرس الدين . وقصم الهدى متن الضلال المتين . وهمت الرواعف الفوارع بحمل هامات الحاملين . وانجلى الغبار عن كل قتيل مالعاثره من مقيل . ولالقائله من مقيل.وعادت اعلام الاسلام ظاهرة . وأيمان باطنة قاهرة . وهدي الهدى على النصر مزفوفه . وعيون العدا عن النظر بالعمي مكفوفة . ولم ينج ممن حمل من حمل رأسه . ولم يقدم من اولئك الرجال الا من فقد رجاءه . ووجد يأسه . وعاد الفرنج الى خيامهم وقد فجعوا بتلك الالوف واصيبوا بمن صفا في تلك الصفوف . وتراءت وجوه الفتوح لنا من خلال تلك الحتوف . ودخل الليل عليهم . ووقفت العساكر حواليهم . وهم وان وهنوا لما اصابهم من الكسره . واخطأهم من النصره . وحل فيهم من الرزء . وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء . وفجع كلهم بالجزء . ونقص منهم العدد الكثير . وركد من ريحهم ذلك العاصف المبير . فانهم في حشد كالدبى . وجمع اغص الوهاد والربا . وقد اخلدوا الى الارض وشدوا على حب الموت الحبا . وودوا لو وجدوا مهربا . وتفرقوا ايدي سبا . وقد عادوا وتحصنوا وتصبروا . وتخيروا المقام على الحين حين تحيروا . واوسعوا الخنادق وعمقوها . واحكموا المتارس ووثقوها . وندموا على الحركة . فانها افضت بهم الى الهلكة . وانهم ماداموا رابضين . وعلى يد الصبر قابضين . يتعذر الوصول اليهم . والدخول عليهم ، وتطول ايام الاحاطة بهم من حواليهم . وفي تلك الحركة التي حلا بها للشجعان طعم الطعن . وغلب فيها للجبناء وهم الوهن . وتجافى عن الثبات من محبي الدنيا جنب الجبن . ارتاع عسكر الشرق من ذلك الغرب واختار المتسللون المتفالون منهم البعد على القرب . وماثبت الا عسكر سنجار فكله محرب مجرب للامور . سديد ساد الثغور . ومجاهد الدين يرنقش قد صدق نعته بالمجاهدة للدين . وجلا ظلمة الوهم بنور اليقين . وقرت عين طمان بالجنة باقدام الولد . وماذا

يقال في شبل ذلك الاسد . واذما الغرباء هابوا . وكانوا قد ضجروا من الحضور ففابوا . والفرنج الان في ذل وخسر . وفي عسر بغير يسر . وفي حصر بغير حصر . والمرجو من الله سبحانه ان يقدر على قطع دابرهم . واهلاك سائرهم عن اخرهم . وتحريك همم المؤمنين في تسكين سائرهم . وتخريب عمرهم وعامرهم . وانزال دوائر السوء بمنازل دوائرهم . ومادام البحر يمدهم . والبر لايصدهم . فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بادوائهم واسوائهم ملازم . وتدبيرها الان في التدمير على هذه الجموع . وسوقهم الى مصارعهم في ورطة الوقوع . فأين حمية المسلمين . ونخوة أهل الدين . وغيرة اهل اليقين . ومما يقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه . وتظاهره في اتساع مسلكه واتساق سلكه . وقعود المسلمين وتقاعدهم وتعاضلهم في تعاضدهم . وانحلال عقود تعاقدهم . فلا ملبي فيهم لمناد . ولا موري منهم في اجابة داع لزناد . فانظروا الى الفرنج اي مورد وردوا . واي حشد حشدوا وأية ضالة نشدوا . وأية نجدة انجدوا . وأية اموال غرموها وانفقوها . وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها . ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم . ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم واكابرهم . الا جارى جاره في مضمار الانجاد . وبارى نظيره في الجد والاجهاد . واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والارواح . وامدوا اجناسهم الانجاس بانواع السلاح مع اكفاء الكفاح . وما فعلوا ما فعلوا . ولا بذلوا ما بذلوا . الا لمجرد الحمية لمتعبدهم . والنخوة لمعتقدهم . وليس احد من الفرنجية يستشعر ان الساحل اذا ملك . ورفع فيه حجاب عزهم وهتك . يخرج بلد من يده . او تمتد يدإلى بلده . والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا . وغفلوا وكسلوا . ولزموا الحيرة . وعدموا الغيرة . ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان . او خبا سنى ونبا سنان. لما وجد في شرق البلاد وغربها . وبعد الافاق وقربها . من لدين الله يغار . ومن لنصرة الحق على الباطل يختار . وهذا اوان رفض التواني . واستدناء اولي الحمية من الاقاصي والاداني . على انا بحمد الله لنصره راجون . وله باخلاص السر وسر الاخلاص مناجون . والمشركون باذن الله هالكون . والمؤمنون امنون ناجون .

ذكر ما عرض للعسكر بعد ذلك من العذر
فصد عن قصد المباكرة لمناجزة اهل الكفر

وعاد السلطان الى مضاربه وقد عادت مضاربه الى عادة المضاء . وزادت مشاربه من مادة الصفاء . وامر بمواراة الشهداء . ومن جملتهم الفقيه ابو علي بن رواحه . وكان غزير الفضل قد اكمل الرجاحة والسجاحة . وهو شاعر مفلق . وفقيه محقق . من ولد عبد الله بن رواحة الصحابي الانصاري في الشهادة والشعر معرق . فطرفه الاعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار . وطرفه الاقرب يوم عكا في لقاء الكفار . ومنهم اسماعيل الصوفي الارموى المكبس . وكان سديدا عفيفا عاريا من العار لا يتدنس بالشبه ولا يتلبس . ومنهم شيخ من الحاشية في بيت الطشت . وغلام في الخزانة امين على البيت وأخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة . وفجأتهم الشهادة . وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة . وذهب قبل الرجعة . واجمع السلطان وذوو الآراء انه يصبح القوم . ويباكر في طلب ارواحهم السوم . وقال هؤلاء قد اضعفنا قوتهم . واعجزنا قدرتهم.
وفثأنا سورتهم . واخمدنا فورتهم . وقتلنا مقاتلتهم . وادوينا داويتهم . فان تركناهم بلعوا الريق . وبلغوا في الاحتراز والاحتراس الطريق . فنحن نوافيهم غدا . ونوفيهم ردى . ونكيلهم بصاع المصاع . ونذرعهم بباع السباع . ونقيهم بذراع اليراع . ونوسعهم قرى القراع . ونذيقهم حر الحرب ، ونسقيهم في طعم الطعن شرب الضرب . ونعين من عيونهم للسهام سهاما ، ونتخذ لارواح النصال من اجسامهم اجساما . ونغرقهم بماء فرند الهندوانيات . ونحرقهم بنار زند اليمانيات . ونوجد من عدمهم النصر ، ونطيب من نتفهم النشر . ونقطع دابرهم . ونلحق بأولهم آخرهم . فلما اتفقت الآراء على امضاء هذا العزم . واجراء هذا الحكم . تفقدوا العسكر فاذا هو قد غاب . لما ناب من الامر وراب . وذلك ان غلمان العسكرية وصحابها . واوباش الجمع وأوشابها . ظنوا تلك الفورة هزيمة . فنهبوا الاثقال والاحمال وعدوها غنيمة .

وانهزم من انهزم من الجند . وثبت من ثبت من اهل الجد . فمن عاد الى رحله وجده منهوبا مسلوبا . وكان ظنه انه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوبا فمضوا وراء الغلمان . وبلوا بسوء بين السودان. واصبحنا واذا العسكر غائب . والعازم عازب . والقاصم قاص . والطائع عاص . والجمع متفرق . والثابت قلق . والامن فرق . والغني معدم . والجرىء متندم . فهذا خلف ما ذهب من ماله ذاهب . وهذا لمن طلب الطريق باثقاله طالب . فتفتر ذلك العزم وتأخر ذلك الحكم . وانتعش الفرنج في تلك المدة . وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الاقصار . وفرغوا شغل الحصار . وجاءتهم في البحر مراكب اخلفت من عدم . وبنت ما هدم فكمل بالمدد . ما نقص من العدد . ولولا ان الله تعالى قدر بقاءهم لكنا عاوينا صباح تلك الليلة لقاءهم . فان الفرصة امكنت . والحصة تعينت . والجو خال . والضو عال . والحال جميلة والجمال حال . فقضى الله بما قضى . وعرانا المضض بما مضى . وبقيت هناك تلك الجيف منتنة منبتة مبتته . وتلك الجثث محينة مجتثة . تعرفنا ان نشورها من حواصل النسور . وان قدرها بطون الضباع والنمور . فشكونا نتن رائحتها . وشكرنا يمن جائحتها . فعجل السلطان حملها على العجل الى النهر . ليشرب من صديدها اهل الكفر ، فحمل الى الماء اكثر من خمسة الاف جثة . بعثت الى النار قبل يوم البعثة ، فما عبر بها الا من اعتبر واستشفى من اقبل بمن ادبر . وسلم الله من اسلم وكف ورد بالردى من كفر .

ذكر ما اعتمده السلطان في استرجاع ما نهب من الثقل واستدراك ما حزب من الخلل

تقدم الامر الى المقدمين والامراء . بعد النداء واعلام الجهلاء ، باحصاء كل ما نهب . واحضار كل ما سلب . وانه من لم يرد ما اخذه اخذ بالردى . واعتدي عليه بمثلما اعتدى . فاحضر كل ما

عنده وبذل في الكشف جهده . وجمعوا ما تفرق منه في الخيام في خيمة السلطان . وضاقت عن كثرته سعة ذلك المكان . وجلس السلطان يوم الجمعة لسبع يقين من شعبان . فكل من عرف من ماله شيئا اخذه بعد احلافه . وحلا في مذاق الشكر قطاف الطافة . وسعى في معاناة ذوي الاخلاق الصعبة على سهولة اخلاقه . وشفى العلل والغلل بالنهل والعلل من اشفاقة . وقمش ذلك القماش . وحصل من ذلك الوبل الرشاش . وصح بعد العري والعشار الارتياش والانتعاش . وكتب الى الولاة بالامصار والنواحي . والاقطار والضواحي . بحث البحث وجد الكشف . واستخلاص كل مايوجد ويؤخذ بالرفق والعنف . وتراجع الناس . وتتابع الايناس . وعادت مضارب العزائم الى مضائها . وقضاة القواضب الى اقتضابها . وغار الآنف وأنف الغيران . وتسلط العزم وعزم السلطان . وثار الحنق وحنق الثائر . وطار العلق وعلق الطائر . وطلبت الطلى نكاح بنات الخلل الذكور . واشرأب للشرب نبات الاسل الى ماء النحور . وحمي ذوو الحمية التقاضي . وقالوا حتى متى التراضي بالتغاضي

ذكر مجلس عقد ورأي عليه اعتمد وصواب افتقد وقد فقد

وحضرا أكابر الامراء عند السلطان . يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال:اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد أجلب بخيله ورجله . وأناخ بكلاكل كله . وقد برز بالكفر كله إلى الاسلام كله . وجمع حشده وحشد جمعه . واستنفد وسعه .وإن لم نعاجل الآن فريقه . والبحر قد منع طريقه . أعضل داؤه . وتعذر غدا لقاؤه . فانه إذا سكن البحر . واستسهل ركوبه السفر . تضاعفت أعداد الاعداء . فظهر الاعدام من الأعداء . وخرج الداء عن قبول الدواء ونحن ما وراءنا نجدة ننتظرها . ولا قوة نستحضرها . وما بلي بهذا المعشر إلا معشرنا . وما بازاء عسكر الكفر إلا عسكرنا .

وما في المسلمين من ينجدنا . وما في بـلاد الاسـلام مـن يعـدنا . وعساكرنا حاضره . وعزائمنا للتواني حاظرة . وعيون أسنتنا إلى الفتك بالعدا ناظره . وما يعوزنا إلا حضور أخينا الملك العادل سيف الدين . ولا بقاء للنقاد إذا أصحر منه ليث العـرين . فـالرأي كل الرأي في المناجزة . قبل وقوفهم على محاج المحاجزة . ثم قال ليشر كل منكم برأيه . ولايقدم على قول ورأيه من ورائه . فتجاذبوا حبـل الاضطراب . واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراب . وركب كل منهم هـواه . وأعلن بما نواه . ومنهم من قال هذا ثالث عشر تشرين الثاني لا الاول . وقد دفعنا إلى الخطب الاعضل والتعب الاطـول . والنائب الأعصى والناب الأعصل . وما نزلنا عن الخيل منذ خمسـين يوما . وما طعمنا في هـذه الليالي نومـا . ولا سـمنا لطـارق طيف غمضا . ولا شمنا الا لبارق سيف ومضا . ولكم قـذفتنا المنايا وقـد دخلنا لهواتها . وكأن أبا الطيب عنانا بقوله . « وكأنما خلقـوا على صهواتها » . وقد كلت الضوامر . وفلت البواتر . وملت العساكر . وهذا الشتاء قد أقبل . والعدو قد استقل . والشر قد استفحل . وما يتأتي قلعه الا لمن يتأتى . وبالصبر يدرك الاريب مـا يتمنى . وهـم بالمصابرة مصابون . ونحن على المثابرة مثابون . وهـؤلاء لايتمـكن منهم إلا بالجمع الجم . والسيل لايغلبه غير الخضم . والصواب أن نصابرهم . هذه الشتوه . ونستجد لنا ولخيلنا القوة . ونتـأخر عن هذه المنزلة . لتحصيل هذه المصلحة المؤملة . ونوكل بهم مناوبة مـن يمنعهم من الخروج . وإذا انقضى البـرد نرجـع إلى معـالجة هـؤلاء العلوج . ونعيد السريجيات إلى سـلها والسـلاهب إلى السروج . والصواب الأخذ بالاحتياط . وتقديم الكتب والرسـل إلى الاطـراف والاوساط . ومـكاتبة دار السـلام . واعلام الامـام عليه أفضـل السلام.بما دفع إليه الاسلام بالشام . فان المسلمين لا شك ينجدون . ويقومون بالنصر . ولايقعـدون . ولايتـرك استنفار التـركمان . وترغيبهم بالبر والاحسان . واستدعاؤهم بالعطايا . والتشريفـات السنايا . وينفذ إلى بلاد الشام القاصية والدانية . في تحريك الهمـم والعزائم الوانية . إلى ان تمتلىء بالجموع ساح السـاحل . وتغلى بنار الحميات بها مراجل الراجل . فحينئذ ينتهـي أمـد المصـابر .

ونصمم على المكابرة مع المكاثرة . ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر . ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر . وننسفهم ولو أنهم جبال . وننزفهم ولو أنهم بحار . ونعدمهم حتى لايطرق جفن بلد منهم خيال . ولايلم بجفن طارق لهم غرار . ومازلنا في مشاورة ومحاورة . ومجاذبة ومجاوبة ومناظرة ومساورة . حتى تنخل الرأي وتمخض . وخالوا أنه تبين الصواب وتمحض . ومالوا إلى الدعة . والخروج من الضيق إلى السعة . ومن نزال الحرب . إلى المنزل الرحب . ومن المعترك المعتكر . إلى المبرك المبتكر . فلم تعجبني هذه الحالة . ولم توافقني هذه المقالة . وقلت لعمري أتيتم بمصلحة . ولكنها غير مترجحة . فان الفرنج إلى الآن لم يتمكنوا من الحصار . ولم يحدقوا بجميع الاسوار . فإذا رحلنا وتنحينا عنهم أرخينا خناقهم . وأطلنا إلى مرادهم أعناقهم . وباب عكا من جانب البحر مفتوح . والمقيم بها منا بكاس تفقدنا إياه مغبوق مصبوح . والطريق إليها سابلة . والذخائر إليها في كل يوم داخله . والفرنج عن قطع الطريق عاجزه . وعزائمنا على مصابحتها ومماساتها لها دون قصدها محاجزه . فإن تأخرنا تقدموا . وان هونا احكموا . وإن نقضنا أبرموا . وإن قعدنا قاموا . وإن بعدنا حاموا . ومتي رمناهم تحفظوا . ومتى نمنا عنهم تيقظوا . وما دمنا نشغلهم فانهم لحصر البلد لايتفرغون . وإلى أمد الأمل لايبلغون . فقالوا هذا أمر هين . وما ذكرناه صواب متعين . ووجه الصلاح فيه بين . وما مقصودنا إلا أن ينتشروا ويخرجوا من مضاربهم ويصحروا . فإذا أنسوا بالرجاء،لم ييأسوا من الارجاء . أرخينا لهم حبل الانظار . حتى استمروا على الانتشار . وحينئذ نصبحهم على غرة . ونعاجلهم كرة بعد كرة . وننقض عليهم انقضاض البزاة على البغاث . ونصدهم بالباعث الباغث لهم عن الانبعاث . وكان السلطان متكرها لما أبدوه من الرأي الملتاث . لولا ما عرض لمزاجه من الالتياث .

-٦٠٠٢-

ذكر الرحيل إلى الخــــروبة . عند خيم الأثقـــــال المضروبة .

كان السلطان مع ما ألم بــه مــن الألم . غير مبـد وجـه الملل والسأم . وهــو في كل يوم يركب وعلى العســكر يطـوف . ويقــف مستطيلا على العدو ويطول منه الوقوف . ويعود وقت الظهر . وعليه أثر الضر مــن الصــبر . قليم على فعله . وخصــه الطبيب بعــذله . فانتقل الى الثقل ليلة الثلاثاء رابــع شــهر رمضــان ، وخلى المنزل الاول واخلى العســـــــــــــــــــــــــــــــــــكر ذلك المكان . وتقدم إلى من بعكا باغلاق الباب . وسلوك نهج الاحتــراس والاجتناب . وجرى الامر على ما كنت قلته . وتحقق مــن الخلل مــا خلته . فإن المركيس رحل وشغل الجانب الذي كان خاليا . ورخص عنه ما كان من سوم خوفه غاليا . وشرع الفرنج في حفر خندق على معكسرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر . واخــرجوا مــا كان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم تأتينا اليزكية بخبرهم . وبما ظهر مــن اثــرهم . والجــد في تعميق الخندق وتتميم محتفــرهم . والعسكر هاجم . كأنه واجم والظن فيه راجم . وشر الكفر ناجــم . وما فينا لعود الأمر عاجم،وقلت يوما للسلطان يركب العسكر إليهم . ويركض عليهم . فلعله ينال ظفرا . ويقضي من كسر العــدو وطــرا . فقال ما يعمل العسكر شيئا إلا إذا كنت معه راكبا . ولعمله شــاهدا مراقبا . ولقد صدق في مقاله . فانه كان أعرف برجاله . فإنهم كانوا يبذلون معه المهج . ويخوضون من بحر الحرب اللجج . ويوســعون لهزم العدو المازق الحــرج . وكان مــن قضــاء الله أنا أغفلناهــم . وامهلناهم بل اهملناهم . حتى عمقوا الحفور . ووثقوا من تــرابها السور . وملأوه بــالستائر . ومنعــوه مــن الطير الطــائر وبذوه واسدوه . وستروه وترسوه . ورتبــوا عليه رجــالا . ولم يتــركوا لواغل مجالا . وتركوا فيه أبوابا وفروجا . ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا . ولما فرغوا من هذا الامر اشتغلوا بالحصر . ونحن نقــول

لامبالاة بهم ولا اكتراث . وما أسهل إذا عزمنا عليهم لاصولهم الاجتثاث . وبسيول سيوفنا نغسل تلك الاخباث . وأي وقت قصدناهم وجئناهم وجأناهم . ونكأنا قرحهم ونكبناهم . وما فوارسهم لنا الا فرائس . وما خنادقهم لهم الارموس دوارس . وما حفروا الا قبورهم . ومادبروا الاثبورهم ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم منونهم . وامتلأت باشلائهم خنادقهم . وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم . وبيتتهم بوائقهم وتبت علائقهم .

ذكر رأي رائب عن النظر في الغاي غائب أسفر عن داء دائب وأبان عن غرارة بغرائب .

وقع لبعض الاكابر فثنى عليه خنصره . ووكل باتمامه سمعه وبصره .

لما تمت على الفرنج تلك المقتلة وعمت فيهم الهلكة . وضمت أشلاءهم المعركة . وشوهدت على الربا حجب نحورهم المهتكة . وخمدوا وخملوا . وأهلكهم الله بما عملوا . وقع لبعض الاكابر انه لم يبق للقوم انتعاش من تلك المعاثر . وانهم قد عدموا القرار . وعزموا الفرار . ولو قدروا على النجاة لخلصوا . ولو فتحنا طريقهم ما تصبروا ولا تربصوا . وقال السلطان:ارحلوا عنهم حتى تروا ما يكون منهم . فانهم يرهبون ويهربون . ويبعدون إلى صور ومن بعدها من عكا لايقربون . فمال قوم إلى مقاله . وتخيلوا مثل خياله . وأشار بقطع طريق البلد . والصدر عن ورد الرصد . والجد في تعمية الجدد . وان يفتح لهم ما سد من الطريق . ولايعوقهم فانهم كلاب تعوي من التعويق . ولما بلونا رأيه . وتلونا آيه ، أخلف ظنه . وبدا وهنه . ومازاد الفرنج الاثباتا ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتا . وكنا نتحدث بذلك الراي القائل . ونقول ما أعجب قبولنا لقول هذا القائل .

ذكر ما جرى بعد ذلك من الحوادث . وتجدد العزائم من البواعث .

أقام السلطان بالمخيم لاصلاح مزاجه . وايضاح منهاجه . ومداراة ألمه . ومداواة سقمه . فوهب الله له العافية . وكمل له عصمته الكافية . ومنته الشافية . ونعمته الوافية . وأبدى له ألطافه الخافية . وقوي قلبه على المقام . بنية الانتقام . وصرف الأجناد الغرباء ليرجعوا في الربيع . ويستريحوا في مرابعهم لوقت الرجوع . وأقام في مماليكه وخواصه . ورجال حلقته المنصورة من ذوي استخلاصه . ورتب بالنوبة على الفرنج يزكا ضمنه دركا . وأدار بهلاك القوم منه فلكا . وكان في مماليكه كل مقدم مقدام . وكل همام همام . وكل ليث ذي لوثه . وكل حدث محسن له حسن أحدوثه . وكل ضيغم ضاغم . وكل أسد عرين ليس الاعرنين قرنه براغم . وكل ريبال ذي بال . وكل بطل من ولاية الهيجاء غير بطال . وكل مغير للنصر مريغ . وكل مسيىء إلى العدو لكأس الحمام مسيغ . وكل تركي للرماء غير تارك . وللاصماء غير فارك . قوسه في ظفر الهدى مؤتر على الوتر . وسهمه من مقل العدا طائر إلى الوكر . وسيفه في رداء الردى حال بدم الكفر . وكل حميدي في الروع حميد . وبالحرب عميد وكل هكاري على القرن عكار . وفي الوغى كرار . وللقنا جرار . وكل زرزاري بالأسد زار . وللبسالة كاس ومن الغار عار . وكل مهراني في القتال ماهر . وللرجال قاهر . وعلى الابطال ظاهر . وكل كمي كميش واكديش . فما خلا يوم من وقعه . وما صار من بارزهم إلا إلى صرعه . وما عاد من نجا من زنابير سهامهم إلا بلسعه . وما حصلت شفاه شفارهم من طلاء من طاولهم إلا على لطعه . وما تبقى على لتوتهم ليت . ولصوتهم في النزال كل صباح ومساء حيت . وبلي الفرنج منهم بالمبير والمبيد . واعتاق بهم مراد العدو والمريد . ومازال هذا دأبهم في الركوب . ومباكرتهم ومراوحتهم إلى مواقف الكروب . فكم أقروا منا أعينا بأيديهم . وثبتوا عدل النصر بتعديهم . وصدوا شر الشرك بتصديهم . وحركوا

ما سكن وهدأ من عزائم الهداة بتهديهم . وفي يوم الاثنين ثالث شهر رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا . واجتلينا به من سني النصر مطلعا . وكان المركب محتويا على ثلاثين رجــلا وامرأة واحدة ورزمة من الحــرير وجــاءت حــظوة حلوة . وغنيمــة صفوة . ونشوة أعقبت صحوة . وصــيحة اسـتصحبت ضــحوة . وقوة من وهن العدو . ومحبة فكت رهن الســلو . فقــد كان انكسر نشــاطهم وانقبض انبســاطهم . وانخفض اغتبــاطهم . وفتــرت عزمتهم . وقصرت همتهم . وخمدت فورتهم . وركدت ثورتهم . فلما عثروا بالمركب انتعشــوا وانتفشــوا . وتنفعــوا وتنعشــوا . ودب الروح . وشب المروح . وتحرك الساكن . وتدرك الضامن . وصاروا يخرجون ويحرجون . ويقتلون ويجرحون . ويمســون على القتــال ويصبحون . ويكافحون ويدافعون . ويقارعون ويواقعون . والعسكر في المنزلة هــاجم . وجـم جمعــه واجـم . واليزكية زكية . والعيون زكية . والذوب راتبة . والعدة المعنية المعينة في كل يوم راكبة .

ذكر وصول ملك الألمان

ونمى الخبر بــوصول ملك الالمان إلى القســطنطينية في عدد دهــم دثر . ونظم من خيله ورجله ونثر . وهـو على قصد العبور الى بــلاد الاسلام . وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام . وانه في ثلاثمائة الف مقاتل . من كل سالب باسل . وطــالب بــاطل . وجهــم جهنمــي . وأشقري سقري . وأنمش أفعــواني . وصــل صــليبي صــلائي . وأرقش حذشي . ومستعر سعيري . ومحرب لظوي . ومفوار ناري . وضار بالقرن ضار . وجــار الدرع جــار . وكل ذئيب عاســل .ذاب بعاسل . وأزرق لأبيض مشتمل . وأصـــهب لأســـمر معتقــل . وكل جحيمي جاحم . وجمري فاحم . وحربي بحري . وبار بري . وقاطع في طريق الوصول . وراحل بقصد الحلول . وناز إلى النزال . وصال بنار الصــيال . ومشــمر على الموت متمــــرن . ومتحين إلى المذون متحين . وفيهم ستون الف فارس مدرع مقنع . ماله ســوى الســوء

من مقنع . وانه مع الالماني ملوك وكنود . وكل شيطان لربــه كنود .
وكتب صاحب قلعة الروم مقدم الارمن . وهو في قلعته على الفــرات
ومن أهل الذمة في المأمن . يبدي تنصــحا وإشــفاقا . وتخــوفا على
البلاد واحتراقا . ويقطع بان الواصلين في كثــرة . وان الناهضــين
الى طريقهم في عثره . وابــرق في كتــابه وارعد . وابــدع بخــطابه
وابعد . ولا شك انه الى جنسه النجس مائل . وبمــلاءة اهــل ملتــه
قائل . ولما وصل هذا النبأ وقيل انه عظيم . وورد هذا الخبــر وخيل
انه أليم . كاد الناس يضطربون . على أنهم يصــدقون ويكذبــون .
ومن طرف كل حبل من الراي يجذبون . وقلنا ان وضح هذا الخطر .
وصح هذا الخبر . فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون . ويغضبون لله
ولايرضــون انهــم لايعضــدون . على أن الله ناصرنا . ومــوازرنا
ومظاهرنا . وحققنا باظهار القوة لمن اســتوحش التــأنيس . وبثثنا
بــالارسال الى بــلاد الروم عيونا وجــواسيس . وندبنا رســـل
الاستنصار . وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الامصار والاقطار .
وقلنا ما هذه المرة الامرة ولايسيغها الا كل مرىء ابي . ومــا هــذه
الكرة مثل كره . ولايحضرها الا كل كميش كمي .

ذكر رسالة دار الخلافة

وعول السلطان على القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف بن رافــع
ابن تميم . ليكون كتابه الى الديوان العزيز مع رسول كريم . وقال له
ما احتاج اوصي . وانت تستوفي القول وتستقصي . وجعــل له الى كل
الذي طرف في طريقه رسالة . واودعه اليه مقاله . فسار من عندنا في
شهر رمضان مغذا . يبذ خيل العزم بذا . ويجذ حبل الســير جــذا .
ووصل الى حلب والقاضي ضياء الدين القاسم بن يحيي بن عبــد الله
الشهرزوري رسول الســلطان ببغــداد قــد عاد . وذكر انه قــد بلغ
المراد . وانه استجدى واستجاد . واستفاد واستزاد . وانه استكمل
العدة الاستنجاز والعدة الاستنجاد . فمــا هــذا الرســول الرائح .
وربما تعرضت لذلك الحوائج الجوائح . واذا اختلفت الحديث حــدث

الاختلاف . ومتى الف غير ما القى الغي الائتلاف . فما هذا العجل . ومم الوجل . فصدقه الملك الظاهر غازي صاحب حلب . عن كل ما ابان عنه واعرب . وكتب الى والده . بذكر مقاصده . وقال انا لا اقدر على صد من للخدمة تصدى . ولا رد من بثوب الرسالة تردى . وأنت تمضي الى السلطان . بما اوضحته من البرهان . وهو يحكم ويحكم . ويعقد ويبرم . ويقول فتسمع . ويأمر فتتبع . ولعلك تعود سريعا . وتجد شمل ما الفته جميعا . فوصل ضياء الدين الشهر زوري وهو مغتاظ . وسجايه السجاح غلاظ . وتغير علي . ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين الي . فانه كان مخاللي ومخالطي . ومجالسي ومباسطي . فازلت عنه كل ظن . واعتذرت اليه بكل فن . فما بسط عذر . ولا قبض ذعر . فاني على اسبابي ببغداد خائف . ودون رضا كل سائر اليها واقف . واسترضيته فما رضي . ومضيت اليه مرارا قبل ان يمضي . ثم اجتمع بالسلطان وندمه على ما قدمه . واعلمه بما علمه . وقال له الشغل قد فرغ . والمقصود قد بلغ . والسؤال قد اجيب . والسؤل قد اصيب . والمخطوب بزمامه نحوك مخطوم . وكل ملك سواك لاجلك من رضاع رضاهم مفطوم . فكن للامام يكن لك . واقبل امره ليقبلك . واجتمع بالسلطان دوني . واتفق بجماعة شاركوه وافردوني . وقرروا معه سرا امرا . وحذروه ان يصير جهرا . ولو كنت معهم لعرفتهم ان الامر الذي ابرموه غير مبرم . وأن الرأي الذي احكموا . غير محكم . ومازلت أوكد الأمر حتى يؤمن انتقاضة . واتعرض دون الرأي حتى لايمكن اعتراضه . وايقن ان الامر ما فيه خلاف . وان الوعد ماله اخلاف . فما فعل الرسول يتلبث ولا امهل يتمكث . بل جعل على المجاز لا الحقيقة مجازه . وزعم فيما دبر نجاحه ونجازه . وسلك فيما تقرر نهج العجب . واسرع العودة على النجب . فلما انفصل عن السلطان . بما وصله من الاحسان . جمع السلطان الامراء على المشورة . ووقفهم على المعنى والصورة . وقال لهم قد وعدت الخليفة على لسان الشهر زوري بشهر زور . واستدعيت عسكره المنصور . وربما قدم الينا الحضور . فيكمل لنا النصر والحبور . فقالوا هذا راي رائب . وشاو شائب . وامر عنه الصواب ناء . وكيف تعد

الامام بما لايقرن بوفاء . وكيف ينجــز هـــذا الوعد . وينجــح هـــذا القصد . ودونه ايحاش من هو في طاعتك . فكنت تبذل مـــا يدخـــل في استطاعتك . اما صاحب الموصل طلبها فمنع . وصاحب اربل عنهـــا دفع . ومملوكك بها لمن يجاوره خائف . وكل ايوائي لحدها وحقهـــا خائف . وما من هؤلاء الا من بذل عنها اموالا واحوالا . والتزم من الجنود والنقود انجادا خفـــافا وحمـــولا ثقـــالا . فـــاذا عرف انك اخرجتها لمن له الامر . دخل عليهم الضر . وملك مالك الامر امركم . وابدوا في انقطاعهم عنك عذرهـــم . وانقـــطع الواصـــل . وارتفـــع الحاصل . وما جاءنا من المذكورين فارس واحد . ولا ساعد على مـــا نحن فيه بعدها مساعد . اما هذا بـــكتمر في خـــلاط . قـــد جمـــع الاخلاط . وجهر بالعداوة . واقام على الغبابـــة والغبـــاوة . فقـــال السلطان الخليفة ملك الخليفة . وهو مالك الحـــق والحقيقـــة . فـــان وصل الينا اعطيناه هذه البلاد فكيف شهر زورو . وسيحدث الله بعد الامور الامور . ولما وصل ضياء الدين الشـــهر زوري الى بغـــداد . صادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد ، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد ، وقيل له جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره ، وننديـــه فيمـــا نتخيره ، وشرف بهـــاء الدين وأعيد ، وزين ضـــــياء الدين وزيد ، وذكر ماجرى فتم الاعتداد وتم الأحماد وسيأتي ذكر مـــا آلت اليه نوبته حين كانت أوبته .

ذكر وصول الملك العادل سيف الدين أخي السلطان والاستظهار بمجمـــوعه والاجتمـــاع بـــظهوره لنصرة الايمان .

ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصـــف شـــوال . في جيش وآل . وجمع حال . وشوكة رائعة . وشـــكة رادعة . وشـــارة سارة . وديمه من البأس داره . وعدة منتخية منتخبه . وعدة منتقاه مهذبه . من كل أجدل على مرقب . وأجود على جواد مقرب . وصـــاف

عتيق على صافن عتيق . وطود ونيق على نيق (٣٧) . وصقر على سوذنيق .(٣٨) وبحر على سابح . وجذع على قارح . ومن كل رئبال على تذقل(٣٩) . واغر محجب على أغر محجل . ومن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب . وكل أسمر باسل باسمر سلاب . وكل أروع يحمل يراعا ، وكل شجاع يعتقل شجاعا . وكل أحمس احمس . وكل أفرى أفرس . ومن كل أسد خادر . وقسور قاسر . وضيم ضاغم . وقمقام واقم . وليث به اوثه . وحدث له في الشهامة أحدوثه . واحضر معه من سودان مصر كل ذمر كانه العبسي عابس . وكل مغامر للموت مغامس . وكل غربيب حلكوك . وكل سرحان صعلوك . وكل ضرغام غريفي . ومقدام ريفي . وكل خارج لثار . وكل مارج من نار . وكل أسود سالخ . وكل رأس في الشر راسخ . وجاؤوا بالغبسة القبطية . والترسة الامطية . والصلال القفطيه . والالال الذوبية . والحراب الحربية والصعاد الصعيدية . والصوارم المذروبة . والصرائم المشبوبه . والاسنة المسنونة . والصوابغ الموضونه . والسراحين السارحة . والثعابين الجارحة . والتماسيح المزدرده . والشياطين المتوقدة . والزانات واليزنيات . والهنديات واليمانيات . وكان يوم وصول العادل مشهودا . لم يترك في كل ما يراد من القوة مجهودا . واقبل في روع ظاهر . وضوع باهر . وبشر ذائع . وذشر ضائع . وحبور تام . وسرور عام . وهزة وطرب . وعزة وأرب . وقلنا سيف الدين المنتضى . وناصر الاسلام المرتضى . وغياث الانام المرتجى . وسلطان جيوش المسلمين المجتبى . لقد نص النصر . وكف الكفر . وسلم الاسلام . ونام الانام . وأمن الايمان . وتسلط السلطان . وحليت الاحوال . وفرغ البال . وبلغت الآمال . ونيل رجاء الرجال . وازيل إبطاء الابطال . وورت زناد الأجناد . ورويت ظماء الصعاد . فما بعد اليوم . الابعد القوم . وادرك ما استقام من النهج . وهلاك من أقام من الفرنج . ونزل الملك العادل في مخيمه . وقدم اليمن بمقدمه . وتقدم السلطان إلى راجل دمشق والبلاد فحضر . وضايق الفرنج به وحصر . ولم يخل العدو في كل حين من حين . وفي كل وقت من مقت . وفي كل شأن من شين . وفي كل بقعة من وقعة . وفي كل صقع من صقعه . وفي كل ليلة

من بليه . وفي كل سحرة من كبسة بالنكاية فيهم مليه . والملك العادل يركب في كل يوم ويبلي . ومن جهده في القتال لايخلي . والفرنج على البلاء صابرون . وللعناء والعناد مكابرون . لايبرزون ولايبارزون . ولايجاوزون خنادقهم وهم فيها متحاجزون .

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الاحوال .

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل . ومجاولة اهل الغواية بالغوائل . ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل . وقد نزلوا على عكا المحروسة . براياتهم المنكوسة وآرائهم المعكوسة . وحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة . وظلال الضلال الممدودة . وأقدام الاقدام المصدودة المسدوده . وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه . وبسط الكفر جناحه . وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه . وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت . والروعات التي وقعت . اكثر من عشرين الف مقاتل . من فارس وراجل ورامح ونابل . فما أثر ذلك في نقصهم . ولا أرث الا نار حرصهم . وما فلل حد حديثهم الحادث . ولاقلل عدد كثيرهم الكارث . ولاغضوا عيون أطماعهم . ولا فضوا ختوم اجتماعهم . ولاردوا وجوههم عن مواجهة الردى . ولاقطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى . ولو قطعوا بالمدى . وهم لمواضعهم ملازمون . وفي مصارعهم جاثمون . وعلى الموت صابرون . وإلى الحمام سائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون . وبالطوارق معتصمون . وعندهم انهم للبلد محاصرون . وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محصورون . وإن جندنا لهم المنصورون . والعساكر الاسلامية فيهم كل يوم نكاية شديده . وفتكة مبيدة . ووقعة ناكية . وجمرة ذاكية . وصدمة صادعة . وحدمة رادعة (٤٠) . ولما امتنع الدخول عليهم . وتعذر

الوصول إليهم . جمع راجل البلاد . وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد . حتى نقاتل الراجل بالراجل والفارس بالفارس . ونفترع بقمع جمعهم بكر الفتح العانس . وقد وصل الأخ العادل وفقه الله المراضي الشريفة . بالجموع الكثيرة الكثيفة . ولعل الله أن يجعل حذف هؤلاء الفرنج فتحا لأبواب الفتح . ويعجل الليالي آمال المسلمين بطلوع صبح النجح . وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير . ويأتي عليه التدمير . وإنما هو كل من وراء البحر . وجميع من في ديار الكفر . فانه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولاجزيرة . ولاخطة صغيرة ولا كبيرة . الا جهزت مراكبها . وانهضت كتائبها . وتحرك ساكنها . وبرز كامنها . ونفضت خزائنها . وانفضت معادنها . وحملت ذخائرها . وبذلت اخايرها . وثار ثائرها . وطار طائرها . ونثلت كنائسها . واستخرجت دفائن نفائسها . وخرج بصلبانها أساقفها . وبطاركها . وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها . وتصلبت الصليب السليب . وتغضبت المصاب للمصيب . ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم . وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم . وأنه من خرج من بيته مهاجرا . وبحرب الاسلام مجاهرا . ولمتعبده مستردا . ولجده في النخوة لدينه مستجدا . فقد وهبت له ذنوبه . وذهبت عنه عيوبه . ومن عجز عن السفر . سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدره . فجاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد . وتواصلت منهم الامداد بالامداد . وتوالت أنجاد الانجاد . فهم على النقص يزيدون . وعلى الأبد يبيدون . وبالمهج يجودون . وعن اللجاج في حوض اللجج لايعودون . وهؤلاء الواصلون في البحر القاطعون أثباجه . المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت أخبارهم . بأن خلت منهم ديارهم . ورمتهم إلي أغراضهم البعيدة أوتارهم . وبهم يستفحل الشر . ويعضل الأمر . ويصول الكفر ويجول . ويتطاول الشرك ولكنه لايطول . فان لدين الله من خليفته ناصرا لايسلمه . ورازقا لايحرمه . وما تمسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه . وحاز السناء مدحه . وأسفر صبحه . ووفر نجحة . وبدا علوه . وباد عدوه . والخادم بقوة رجائه في العوارف

الامامية . والعواطف النبوية . وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرة الناصرية . الى أن يفرق الجمعين . ويجمع للفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر . ويقطع بقطع دابرهم دابر الكفر .

ذكر وصول الاسطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة في المراكب المستعدة المستبدة بالبأس والشدة وكانت عدته خمسين شينا .

كان السلطان منذ وصل الفرنج الى عكا قد كتب إلى مصر . بتجهيز الاسطول وتجزيه حياله . وتزجيه أمور رجاله . وتكثير عدده . وتوفير عدده . وإصلاح شؤون شوانيه . واسناء رواسي سواريه . فتولى حسام الدين لؤلؤ الشيخ أمره ؛ وشرح لايراده وإصداره صدره . وأنفق من ماله . ما جمع به شمل رجاله . وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته وشكرت في العدو نكاياته ، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيهاأحد . ولم يكن فيها على الاسلام لغيره يد . ما سلك نهجا الاملك . ولاطلب غاية الا أدرك . وهو ميمون النقبيه . مشكور الضريبة . وهو الذي رد الفرنج عن بحر الحجاز . ووقف لهم على الطريق المجاز . ولم يترك منهم عينا تطرف . ولم يبق لهم دليلا يعرف . وغزواته مشهورة . وفتكاته مذكورة . وأمواله مبذولة . وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلوله ، فتولى الاسطول . وجمع به الطول والطول . ووصل به وللفرنج من شوانيها على وجه البحر عقارب تدب ولواسب سوالب ما تغيب وما تغب . وسفن حمالة ومقاتلة . وبطس للازواد والميرناقلة . فصدمتها مراكبنا بمناكبها . وملأت معاطنها بمعاطبها . واستطال الاسطول المنصور على أساطيلها . وجاء حقه بازهاق أباطيلها . وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوما . وقذفت لشياطين الكفر رجوما . واقبلت سواريها بالرواسي . مبرمة الامراس محكمة

المراسي . وقطعت اللجة بأشباه أمواجها . وسدت فجاجها بأفواجها . ونكست أعلام الاعلاج عن أثباجها . ووافت أساودها السود بالأسود . وسدت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود . وطارت بقوادم المجانيف وخوافيها . وزارت بجوارح المقانيف وعوافيها . فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمر مر السحاب . وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب . فصدتها وصدعتها . وردتها وردعتها . فكأنما نعت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها . واناحت طعائن الضغائن على شواني . شوانيها . وعادت قوامص الفرنج فيها قنائص جوارح جواريها . فأول ما ظفر الاسطول المنصور . بشيني للفرنج عظيم الشأن . عاد طاغ بأهل الطغيان والعدوان فقتل مقاتلته . وتبع ما يليه . فوقعت بطشته الكبرى ببطسه كبيرة . تشتمل على ميرة لهم وذخيرة . وأمتعة كثيرة . وتفرقت سفن الفرنج أيدى سبأ . وأصلد زندهم وكبا . وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم . وايقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم . وسيرت بوصول الاسطول كتب إلى الاقطار . وبشر المسلمون بما حصل به من الاستظهار .

ذكر فصول انشأتها فيها

منها فصل:

ولما رأينا امدادهم في البحر متضاعفة . وجموعهم متكاثفة . استدعينا الاسطول المصري المنصور فجاءها فجاءة . وامتدا سطرا على طرس البحر اعيت متأملها قراءة . واقبلت جواريه جوارح من قنائصها القوامص . وصدمت شوانيه شواني الشناة فعادت مراكبهم وهي ذواكص . وطارت غربانا ببين أحبة الكفر أعداء الاسلام ناعبة . واطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لا

-٦٠١٤-
لاغبة . وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو معمرة . وألهبت في الماء على اهل النار كل نار النكال مسعره . وانقطعت طرق الفرنج البحرية فاستطالت بها أساطيلنا فذهبت وجاءت . وعملت ما شاءت . وتبعتهم مرارا وبالغنائم فاءت.وأعشت أعين الرائين كلما تراءت . فضاقت بها العداة ذرعا . ولم تجد من بعدها مطمعا ولا مرعى .

فصل من كتاب

صدر الكتاب بورود الاسطول المصري بالسطو الشديد والبأس القوي . فَارتاع الكفر من وصوله وصوله الرائع . وذل جمع الكفر لعزه الجامع . وجاء بكل شيني شاني . اشائن الدين واجيء مفاجع العدو بالهلاك مفاجيء . مفرق لمراكب الشرك المجتمعة . مضيق شاهج مضارها المتسعة . فطحن مناكب مراكبها . ووسع معاطن معاطبها . واستولى منها حالة وروده على عدة للملاقاة مستعدة . ولامداد اعانتها ممن وراءها مستمدة . وقتل من فيها من الرجال . وغنم ما وجد فيها من العدد والأموال .

فصل من مكاتبة أخرى:

وصل الاسطول المنصور في كل شيني شاني للشرك شائن . زائد لبهجة الاسلام زائن . زائر بكل اسد زائر . سائر بكل مقدام إلى مقام الاقدام سائر . وكانت الفرنج قد جهزت مراكبها . وارهقت غروبها وسنمت غواربها . وملأتها برجال أيديها على قوائم القواضب قوابض . وارجلها على الثبات في روابي متون سفنها روابض . وهم على انتظار الاسطول ليطاولوه . ويلقوه وبالمدافعة ويجاولوه . فلما وصل وصال . وراع أمره وهال . وجلا عليهم

- ٦٠١٥ -

الاوجال والآجال . بتوا المراسي والحبال . وانهزموا بسفنهم وأذنت قوتهم بوهنهم . واستولى على عدة منها بالعدد والرجال والذخائر والاحمال مملوءة وسلبهم كل ما أعدوه فيها من قوت وقوة .

والفصول كثيرة وإنما ذكرت منها ما وصف صورة الحال على جليتها . وأعرب عن حقها وحقيقتها .

ذكر ما اعتمده السلطان من تقوية البلد ونقل الرجال والذخائر والعدد .

ولما اشتد البرد وتوالت الغيوث . وتبحرت السهول . والوعوث . وحالت الاوحال ولاحت على خلاف المراد الاحوال . وتعذر الخروج إلى تلك المروج . وامتنع على السالك قصد أولئك العلوج . وزال حكم النزال . واستقال من استقل بالقتال . شرع السلطان فيما هو أنفع واجدى وأنجع وانجى . وارجع بالاحتياط والحزم وأرجى . وهو تقوية عكا بالميرة والذخيرة . والاسلحة الكثيرة . والرجال الحماة . والابطال الكماة . فنقل اليها في المراكب جماعة من الامراء الامثلاء بأجنادهم . فدخلوا اليها بعددهم وأزوادهم . واستظهر البلد أيضا برجال الاسطول ورؤسائه وقواده . فما دخل أحد فيه الا بزيادة في زاده . وكانوا زهاء عشرة آلاف بحري حربي . على الجري إلى الموت جري . فامتلا البلد بكل منتخب منتخ . مرخص مهجته الغالية للاسلام مصرخ . وانتفع بهم في جذب المنجنيقات . والرمي في العرادات . والحذف بالنفاطات . والاحراق بالزراقات . والزرق بالمحرقات . والقاء القوارير . واذكاء المساعير وتطريح النار . وتطويح الاحجار . ومواصلة القطاعات . والزيارة بالزيارات . وتوتير الجروخ والزنبوركات . وتطيير الناوكات . الذواكي من مقاتل العدو الى الوكنات . ومناشبة الفرنج في كل وقت بالأخذ والوقذ . والجد في الجد والجذ . وطروقهم ليلا على سبيل التلصص .

وسوقهم على وجه التصيد والتقنص . وكبسوا ليلة سوق الخمارات والسواهر . وسبوا عدة من المستحسنات الفواجر واستنصروا بذلك واستبشروا .واجترأوا منه على ما أجروا . وكذلك من عندنا يدخل اليهم الرجال متسرقين . ويأتونهم من كل جانب مجتمعين ومتفرقين . فمن قدر على حصان أخذه واخرجه . ومن تعذر عليه اخراجه عقره وبعجه . ومنهم من يهجم على الرجل في خيمته ويرهبه بمد مديته . ويسلبه سكونه بسكينه . ويجعله ان لم ينجذب معه من حينه على يقينه . فيقوده بخطام القهر . ويجذبه بخدام الاسر . ووقع القوم من هذا في بلاء مبل . وعناء عن حب الحياة مسل . فقد كثر اليهم الاجتياز ومنهم الاحتياز . وشق عليهم الاحتراس والاحتراز . وتحيل الناس في اغتيالهم بكل طريق . وازداد فرقهم من كل فريق . وأعدت الحال من الليل إلى النهار . والمكابرة والجهار . حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف الانهار . فاذا صادفوا فارسا ورد الماء فاجأوه بالقتل أو الاسار .

ذكر حال نساء الفرنج

وصلت في مركب ثلاثمائة امراة افرنجية مستحسنة . متحلية بشبابها وحسنها متزينة . قد اجتمعن من الجزائر . وانتدبن واغتربن لاسعاف الغرباء . وتأهبن لاسعاد الاشقياء . وتراقدن على الارفاق والارفاد . وتلهبن على السفاح والسفاد . من كل زانية نازية . زاهية هازية . عاطية متعاطية . خاطية خاطية(٤١) . متغنية متغنجة . متبرزة متبرجه . نارية متلهبه . متنقشة متخضبة . تائقه . فائقه . راقعة خارقة . مارقة رامقة . قاسرة سارقة . فارجة فاجرة . فاتنة فاترة . مشتهاة متشهية . ملهاة متلهية . متفننة متفتنه . ناشية منتشيه . متشوقة متسوقة . مقترحة محترقة . متحببة متعشقه . حمراء مرجاء . نجلاء كحلاء . عجزاء هيفاء . غناء لفاء . زرقاء ورقاء . متخرقة خرقاء . تسحب غفارتها .

وتسحر بنضارتها نظارتها . وتتثنى كأنها غصن . وتتجلى كأنها حصن . وتميس كانها قضيب . وتزيف وعلى لبتها صليب . وهي بائعة شكرها بشكرها . باغية كسرها في سكرها . فوصلن وقد سبلن انفسهن . وقدمن التبذل اصونهن وانفسهن . وذكرن أنهن قصدن بخروجهن . تسبيل فروجهن . وانهن لا يمتنعن من العزبان . ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان . وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت اليهن اترابهن من الحسان الشواب . وفتحن أبواب الملاذ . وسبلن ما بين الافخاذ . وبحن بالاباحة . ورحن إلى الراحة . وازحن علة السماحة . ونفقن سوق الفسوق . ولفقن رتوق الفتوق . وتفجرن بينابيع الفجور . وتحجرن بنزو الفحول منهن على الحجور . وعرضن الامتاع بالمتاع . ودعون الوقاح إلى الوقاع . وركبن الصدور على الاعجاز . وسمحن بالسلعة لذوي الاعواز . ودمن على تقريب خلاخلهن من الاقراط . ورمن فرشهن على بساط النشاط . وتهدفن للسهام . وتحللن الحرام . وتعرضن للطعان . وتضرعن للاخدان . ومددن الرواق . وحللن حين عقدن النطاق . وصرن مضارب للاوتاد . واستدعين النصول منهن إلى الاغماد . وسوين اراضيهن للفراس . واستنهضن الحراب الى التراس . واستنفرن المحاريث إلى الحرث . ومكن المناقير من البحث . وأذن للرؤوس في دخول الدهاليز . وجرين تحت راكبيهن على ضرب المهاميز . وقربن الاشطان من الركايا . وفوقن النبال في أعجاس الحنايا . وقطعن التكك . وطبعن السكك . وضممن الاطيار في أوكار الاوراك . وجمعن قرون كباش النطاح في الشباك . ورفعن الحجر عن المصون . وترفعن عن ستر المكنون . ولففن الساق بالساق . وشفين غليل العشاق . وكثرن الضباب في الوجار . وأطلعن الاشرار على الاسرار . وطرقن الاقلام إلى الادوية . والسيول إلى الاودية . والجداول إلى الغدران . والمناصل إلى الاجفان . والسبائك إلى البواتق . والزنانير إلى المناطق . والاحطاب إلى التنانير . وذوي الاجرام إلى المطامير . والصيارف إلى الدنانير . والاعناق إلى البطون . والاقذاء إلى العيون . وتشاجرن على الاشجار .

وتساقطن على الثمار . وزعمن أن هذه قــربة مــا وفــوقها قــربه .
لاسيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبه . وسقين الخمــر . وطلبــن
بعين الوزر الأجر . وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية . وعجبــوا
كيف تعبدوا بترك النخــوة والحمية . وأبــق مــن المماليك الاغبياء
والمدابير الجهلاء . جماعة جذ بهم الهــوى . واتبعــوا مــن غوى .
فمنهم مــن رضي اللذة بــالذلة . ومنهــم مــن ندم على الزلة فتحيل في
النقلة . فان يد من لايرتد لاتمتد . وأمر الهارب اليهم لاتهامه يشتد .
وباب الهوى عليه يستد . وما عند الفرنج على العــزباء إذا أمــكنت
منها الأعزب حرج . ومــا ازكاهــا عند القســوس إذ كان العــزبان
المضيقين من فرجها فرج . ووصلت أيضا في البحــر . إمــرأة كبيرة
القدر . وافرة الوفر . وهي في بلدهــا مــالكة الأمــر . وفي جملتهــا
خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم . وغلمانهم واشياعهم . وهــي
كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة . زائدة بما تنفقه فيهــم على
المعونة . وهم يركبــون بــركباتها . ويحملون بحمــلاتها . ويثبــون
لوثباتها . وتثبت ثباتها لثباتها .

وفي الفرنج نساء فوارس .لهن دروع وقوانس .وكن في زي الرجال .
ويبرزن في حومة القتال . ويعملن عمل ارباب الحجــا وهــن ربــات
الحجال . وكل هذا يعتقدنه عبادة . ويخلن أنهن يعقدن به ســعادة .
ويجعلنه لهن عادة . فســبحان الذي اضــلهن . وعن نهــج النهــى
ازلهن . وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة . لهن بالفرسان أســوة .
وفيهن مع لينهن قسوة . وليست لهن سوى السوابغ كســوة . فمــا
عرفن حتى سلبن وعرين . ومنهن عدة اســتبين واشــترين . وأمــا
العجائز . فقد امتلأت بهن المراكز . وهن يشــددن تــارة ويرخين .
ويحــرضن وينخين . ويقلن أن الصــليب لايرضى الا بــالاباء . وانه
لابقاء له إلا بالفناء . وأن قبر معبــودهم تحــت اســتيلاء الاعداء
فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجــال منهــم والنســاء . فهــن
للغيرة على الملة مللن الغيرة . وللنجاة مــن الحيرة ناجين الحيرة .
ولعدم الجلد عن طلب الثار تجلدن . ولما ضامهن مــن الامــر تبلهــن
وتبلدن

ذكر ماأهداه عز الدين مسعود

ابن مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل
من النفط الأبيض والرماح والتراس

ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العـدة . وتقوية النجدة . بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة . سير مـن أحمال النفط الابيض مع عزة وجوده مـا وجـده . ومـن التـراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده . وشـاع الاعتـداد . وذاع الاحماد . ودل ذلك على اتشاج الوداد . والامتزاج والاتحاد .

وكتبنا في شكره

وصل السلاح . وتم للاسلام مـن قـروح الكفـر الاقتـراح . واستجيدت التراس والرمـاح وفـارقت للقـائها أجسـام الاعداء الارواح واتصل بالنفط الواصل إلى أهل النار الاحتـراق . وطفـت وضربت منهم النحور والاعناق . وقـد هـدا بمـا أهـداه النصر إلى الهدى . والردى الى العداء . وأجود الاكارم وأكرم الاجاود من جـاد بما أجدى . واهدى ما هدى . وعاد من المكرمة بمـا بـدا . لاأخلى الله المجلس من يد يتخـذها . وأياد يسـيرها وينفـذها . ومحمـدة يستخلصها لنفسه ويستنفذها . وحمية الدين يقم بها حمـاة الشرك ويقذها . ونخوة للاسلام تمهي حدود الهمم النابية وتشحذها . ومـا طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة . والضرورة الشاقة . فان الحروب المتطاولة المدد . أتت على جميع العدد . فالسمر متحـطمة . والبيض متثلمة . ووجوه الصـفاح بلثـام النجيع متلثمـة . وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مقل الاقران رامقة مارقة . وحمـام الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت مـن حنايا المنايا السـائقة

سابقة . وقد أفنى المصال النصال . والنضـال الذبـال . والرمـاء الافواق . واللقاء العتاق . والمصاع المناصل . والقـراع الذوابـل . والصيال الصواهل . وعمل الجهاد الدائم العوامل . فلا ضـامر الا وهو وإن كان غالبا لاغب . ولاصارم الا وهو في دم العـدو الفـائض ناضب . ولاجارح إلا وهو مجروح . ولاقـارح الا وهـو مقـروح . ولاجامح الا وهو مصحب . ولاباشر الا وهو مقطب . فباية عدة مـن هذه العدد انجد . غار الحمد وانجـد . وتـاسس الشـكر لانعـامه وتمهد . ومن العجب أن العـدة تفنى ولاتفنى العـداة . وتنمـو على الحصاد وكأنها النبـات . ويتسـارع الى أمـدادها الموت والهـلاك ويخلفها في إبدالها الحياة . فان البحر يمدهم . والكفـر إلى الردى يردهم . وكلما اخلقتهم الايام فان الليالي تجـدهم . ومـا جمعهـم القدر إلا ليفرقهم . وما حمل أهل النار في الماء الا ليغرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

ذكر عماد الدين صاحب سنجار وما عزم عليه من تجهيز ولده

ورد الخبر بان عماد الدين قد جهز عسكره . وقدم عليه قـطب الدين ولده وسيره . فقال السلطان هذه أيام الشتاء . ولاينتصف فيها مـن الأعداء . ونحن محتـاجون الى العسـكر في الربيع . واسـتنهاض الجموع الى شمل النصر الجميع . فـكتب بتـاخيره . والتمهـل في تسييره . فتاثر قلب عماد الدين برد ولده . ورجوعه بعد المسير مـن بلده .

فكتب اليه السلطان من مكاتبة

كان لما انتهى اليه صدق اهتمام المجلس بامره . والتقـدم بتجهيز العسكر الى نجدته بكل مـا يعـود بسرور سره وانشراح صـدره .

وعرف مسيد قطب الدين ادام الله له مضاعفة العلاء . واقر باذواره عيون الاولياء . وظن انه لم يقدم حركته المقرونه بالحسنات . ولم يقرب من عبر الفرات . اشفق عليه من التعب . ليكون عسكره مستريحا عند الطلب . فإن الحاجة اليه في الربيع أدعى . ومصلحة الاسلام في ذلك الاوان أولى أن تراعى . ولو عرف أن الركاب القطبي قد دنا . لبشرته السعادة بنجح المنى . ولاستقبله بالنفوس والارواح . وتلقته القلوب بالقبول العبق بنشر الانشراح . وان اشتعل القلب بما فاته من حظ من الاستسعاد بوفوده . فقد بشر أمله بنضارة عود نجحه عند عوده ونجاز وعوده .

وفي آخر هذه السنة ندب الرسل الى الاقطار والامصار . للاستنفار والاستنصار . وبث الكتب وكتب بالبث . وحث الرسل وأرسل بالحث . وبعث المسرعين لاستبطاء البعث . وانهض للتبليغ كل بليغ . وجرع كأس التدبير في حسن السفارة كل مشيع مسيغ . وسرح عدنان النجاب الى سيف الاسلام باليمن . وشرح في الكتاب اليه ما جرى من حوادث الزمن . ووصفت له جلية الحال . وما نحن عليه من دوام القتال . وطلبت منه الاعانة بالمال . واستعين واستنجد . واستلين واسترفد . وحض على حظه من انجاد الاسلام . وان يكشف بسني طلوعه من الاظلام . وأرشد الى نهج السماح . وتسيير كل ما يقدر عليه من العدد والسلاح . وتجريد الجرد العتاق . وتوفير الحمول التي تخرجها في سبيل الله يد الانفاق . وكوتب قزل ارسلان بهمذان . بما دنا منه عزمه ودان . وحكم على كل ملك بحجة الايمان . وهدي إلى محجة الاحسان .

ذكر وصول رسول سلطان العجم ركن الدنيا والدين طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بالالتجاء الى ظل السلطان وارتجاء ماله من فضل الاحسان.

ورد من عند طغرل سلطان العجم . امير من خواصه هو أيلدكز أمير العلم . فضرب له من الخيم الخاصة سرادق . ووفرت في الضيافة له المنافع والمرافق . ومضمون رسالته أنه خانته من امرائه ومماليكه العامة والخاصة . وخصته في سفراته ونكباته الخصاصة . وان عمه اخا ابيه من أمه قد استولى على ممالكه . وضيق عليه سعة مسالكه . والجاه الى هذا الالتجاء . وهو بقوته من هذا الجانب قوي الرجاء . وقد وصل الى حد مملكتك بقرب اربل . واراد الوصول الى الموصل . لكنه نزل في بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق . ينتظر منكم الاصراخ والاشفاق . وعز الدين حسن من خدم دولتكم . والمستمسكين بعصمتكم . والمستوثقين بذمتكم . وانا عنده مقيم . وعلى سنن الأمل مستقيم . فان استقدمتني اليك قدمت . وأن أمرت أمراء أطراف ولايتك بمشايعتي وجدت من النصر ما عدمت . وانا الآن هزيل عامك . ونزيل إنعامك . ووصل معه كتاب بخطه . قد بث حزنه فيه بشرحه وبسطه . وأبدى الاستكانة . واستدعى الاعانة . واردف رسولا برسول . وكرر سؤالا فيما التمسه من سول . فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد الشاغل . وانه لامطمع مادام العدو ملازما لنا في مفارقة الساحل . فكتب إلى زين الدين يوسف صاحب اربل والى حسن بن قفجاق والى نائبه بشهر زور بالتوفر على خدمته . والارتياد لمصلحته واشاعة معونته . ثم ندب كبيرا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد،كونه نسيبي . ليكون القيام بهذا الامر من نصيبي . وسعى في المصلحة والمصالحة . والمصافاة على صفقة المودة والمصافحة وحفظ حرمة تضرعه وتذرعه . وسياتي ذكر ما آل اليه الامر في موضعه .

وتوفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بمنزل الخروبة سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ولقد كان من الاعيان . ومن مقربي السلطان . ومن أهل الجد في نصرة الايمان . فنقله الله الى الجنان . وحمل من يومه الى القدس فدفن به . وكانت في هذه السنة وفاة الفقيه الكبير شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن ابي عصرون بدمشق يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان . وهو شيخ المذهب الذي لم يخلفه مثله . ودفن معه فضله . وكان مولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين واربعمائة . وكانت وفاة الامير عز الدين موسك بن جكو بكرة يوم الجمعة النصف من شعبان منها وكان من الابرار الاخيار . والعظماء الكبار .

ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة . وكل من الملك العادل والملك الافضل والملك المظفر في خيمته المضروبة . وعكا محصورة . وجموع الفرنج الى حصارها محشورة . وعلى تعذرها عليهم محسورة . وخرجت هذه السنة والحصر مستمر . والسلطان في ملازمة القتال مستقر . وحيا النصر في الاحيان مستدر . وقد تسنت للاسلام مباهج . ووضحت للسعادة مناهج . وبانت للقتال مداخل ومخارج . وانقطعت بين الوشيج وأرحام الارواح وشائج . واشتدت لتباريح الاشواق الى لقاء الاعداء لواعج . وتآلفت في الاقدام مقدمات ونتائج . ولمناجح المنى منا في مدى الرجاء مدارج . ولخطباء الظبا في منابر الطلى معارج . وللجهاد جهات . وللعزمات أزمات . واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات . وكانت لنا مسرات هي لأعدائنا مساءات . ووقعت عجائب . واعجبت وقائع . وابدعت غرائب . واغربت بدائع . واجتمعت كتائب . ونابت نوائب . وصفت تارة وكدرت مشارب . وساعدت الاقدار . وتباعدت الاكدار . وهلك من الفرنج المحاصرين في الوقائع عدد لايقع عليه الحصر . ولكم أسفر صبح أصحب فيه جماح الظفر وسفر النصر . وسيرد حديث كل حادث بمفرده . ويجدد ذكر كل متجدد بمجرده .

ذكر وقعة الرمل

كان السلطان يركب احيانا للصيد . بعد ان يحذر على ما يظهر العدو من الكيد . وهو لايبعد من الخيم . ولايقرب من مسائل الديم . وركب يوما في صفر على عادته فتصيد . وطاب له قرب القنص فأبعد . واليزكية على الرمل وساحل البحر من الميسرة . على الحالة المحتاطة المستظهرة . فخرج الفرنج وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر . وتسامع أصحابنا بهم فزحفوا اليهم . وحملوا عليهم وطردوهم إلى خيامهم . وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم . ومازالت بينهم حملة وحملة . وشلة وشلة . وسلة وسلة . وركضة وركضة . ونفضة ونفضة . ومشقة ومشقة . ورشقة ورشقة . وجذبة وجذبة . وضربة وضربة . وشدة وشدة . وردة وردة . وضمة وضمة . ولة ولة . وأصحابنا ظاهرون . وبالمراد ظافرون . ولهم في كل دفعة من العدو قلائع . وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع . حتى فني النشاب وبقي الانتشاب . وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب . والفرنج لايعجزهم الا الرماء . ولايهتكهم إلا الاصماء. ولايذفرهم الا رنة الاوتار . ولاينذرهم الا أنة القسي بالدمار والبوار . فلما انسوا بخلو الجعاب . تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب . وحملوا حملة واحدة ردوا بها اصحابنا الى النهر . وكادت تعبث بهم يد القهر . فثبت من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان . واشرعوا الى نحور تلك الذئاب ثعالب الخرصان . واستشهد جماعة من الشجعان استحلوا طعام الطعان . وشاقهم جني الجنان . وذلك انهم لما ردوا الفرنج قلعوا فرسانا . وصرعوا اقرانا . فنزلوا بعد فرسهم . لسلب لبسهم . فمرت بهم الحملة في الاوبة . وأعجلتهم عن الركبة والوثبة . وأظلم الليل فافترق من معاركها الجمعان . واجتمع في مراكزها الفريقان . وكثر التاسف على من فقد . وكان الحاجب ايد غمش المجدي ممن استشهد . وزاد التلهف على فوات الفرصة . وكيف أغفل ذلك القنص عن تلك القنصة . فان العدو صار عرضة للصرعة في تلك

العرصة . ومن نوادر هذه الوقعة . وطرائف هذه الدفعة . ان مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر . وهو يتطاول في كل معترك ولايقصر . عثر به جواده . وثبت على الجراة فؤاده . ورجله عثاره . وأسلمه انصاره . فقبض من أسره شعره ليجذبه . وسل أخر سيفه ليضربه . فضرب يد قابض شعره فسيبه . وا شتد سرا سنقر يعدو ناجيا والخلاص راجيا . وهم يعدون وراءه ليمسكوه ويهلكوه . وفاتهم بعون الله فلم يدركوه . وهذا قذفته المذون من لهاتها بعد ازدراده . وانتضاه الحمام لمضاء غراره بعد اغماده .

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي يوم الاحد خامس عشر ربيع الاول تسلم بالامان شقيف ارنون . واستمر الحصار عليه منذ نزولنا في السنة الماضية بمرج عيون . وصاحبة ارناط صاحب صيدا في دمشق لاجله معتقل . وباب خلاصة دون فتح شقيفه مقفل . وذلك أن الشقي في الشقيف فني زاده . وعز اجتهاده . ومرد عليه في الحفظ مراده . وخانه في الصبر ارتياؤه وارتياده . فسلمه على أن يسلم صاحبه . وتخلص في النجاة مذاهبه . وخرج هو ومن معه وترك الشقيف بما فيه . وتركه للاسلام بما يحويه . وافرج عن صاحب صيدا وصار الى صور . ولبس من التشريف والتسريح حبير الحبور .

ذكر حال عكا ودخول العوامين اليها ووصول الكتب على أجنحة الطير منها

كان السلطان اغتنم هيجان البحر . وحضور مراكب الاسطول من مصر . فمازال يقوى عكا بتسيير الغلات والاقوات والقوات اليها في المراكب . وقد ملاها بالذخائر والاسلحة والكمات المساعير والحماة المحارب . فلما سكن البحر . وأمن غائلته الكفر . عادت مراكب

الفرنج الى مراسيها . ودبت عقاربها وأفاعيها وشدت مــراكبنا في موانيها . وانقطع عنا خبر البلد . وامتنع عليه دخول المدد والعــدد . فانتدب العوام للسباحة . وحملتهم الســباحة لهــم بــالرغائب على وضع المنهج في ميزان السماحة . وعلموا انهم اذا سبحوا ربحــوا . واذا سلموا فراحوا فرحوا . حتى صـــاروا يحملون نفقــات الاجناد على اوساطهم ويخاطرون بانفسهم مع احتياطهم . ويحملون كتبــا وطيورا . ويعودون بكتب وطيور . ونكتب اليهم ويكتبــون الينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور . ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور . وكان في العسكر مــن اتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل في منزلته . وعمل لها برجا من خشب . وهرادي من قصب . ويدرجهــا على الطيران مــن البعــد . ويوردها لشبعها وريها احب الحب واعذب الورد . وكنا نقول ماهذا الولع بما لاينفع . والوله بما لاينجــع . حتــى جــاءت نوبــــة عكا فنفعت . وشفت الغلل ونقعت . واتت بــالكتب شــارحة ســـارحة . ووفت بمفاتيح الغيب بالبشرى مفـــاتحه . فصرنا نحبــو صـــاحب الطيور بالاطراء . ونخصه بــالمدح والثناء . ونامــره بــالاستكثار . ونطلبهامنه مع الليل والنهار . حتـــى قــل وجــودها عنده لكثــــرة الارسال . وكنا نعرف بها جلية الاحوال . ونعلم ان الله علمــه ذلك البر . والهمه ذلك السر . فانه اطلع على مـــايدفع اهــل الاســلام . فحمى حمي هداهم بهداية الحمام . فانها امينة على الاسرار ضمينة بالاسفار . قمينة بكرامة الاحرار . مصونة من بين الاطيار . جريئة على الاخطار . بريئة من الاعذار . معدودة من الانخار . مودودة مع الاخيار . وحمام البلد الينا مع العوام محمـــولة . وعقــود الاكياس عليهم محلولة . والضرورة تحمل على تحمل الضرر . والغرارة تبعث على الانبعاث الى الغرر . والفقر يدعو الى ركوب الخــطر . وفيهــم من سلم مرارا من القوم . فاجترأت نفسه وأنس بالعوم . ولقد عطب عوامون . بالامانة قوامون . فما ارتدع الباقون . وما قالوا انهم لما لقي رفقاؤهم لاقون

-٦٠٢٧-

ذكر ما دبره السلطان عند انحسار الشتاء وانكسار البرد في الانتهاء

ولما انحسر الشتاء وانكسر . وانتشى الربيع وانتشر . أمر السلطان عساكره بالعود فتوافت أمداد أجوادهم توالي امداد الجود . فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة . وهو بأكمل العدة وأحسن الاهبة . وسابق الدين عثمان صاحب شيزر . وهو الذي ببسالته يقسر الليث القسور . وعز الدين ابراهيم بن المقدم المقدام . الهمام بن الهمام . والكريم بن الكرام . والاسد الضرغام والسيد القمقام . ووفد معهم جموع من الاجناد والاعيان . وحشود من العرب والتركمان . ففاض بهم الفضاء . واكتسى برياشهم العراء . وكثرت الجنود . وانتشرت البنود . وحلقت عقبان الالوية . وتلاحقت ذؤبان الاودية . ولمعت بوارق البيارق . وارتفعت عوائق البوائق . وحملت بواسق السوابق . وثبتت وثائق العلائق . وذبلت شقائق العقائق . ونظرت أحداق الحدائق . ويسرت طرائق الطوارق . واعجبت أزهار الرايات وانهت غايات الغايات . ونزلت بحسن الصنيع نصوص النصول . ودارت بيد الربيع فصوص الفصول . وعلت الاعلام . وحلت الاحلام . وومضت المواضي ومضت . واقتضت القواضب القواضي وقضت . وعريت البيض من الحلى . وغربت السمر بالكلى . واشتاقت لدات اللدان الى العناق . وتاقت شفاه الشفار الى لثم الاعناق وتحدث في المجاراة باجراء العتاق . وطالت رقاب الرقاق الى غلاظ الرقاب . وأعجم عن جمجمة الجماجم اعراب العراب ، وحمي عزم البطل . ومحي رسم الملل . وعاد الجد الى جدته . والحد الى حدته . وخرج البرد من عدته . وفاز النصر بعدته . وجليت بنت الغمد في زي الهند وري الفرند . وقطف ورد الورد للشد الى الورد . وقال الناس إلام ننتظر . وعلام نصبر ولم لانشتغل وكيف لانشتعل . وحتام القعود . ومم الركود . ولماذا الرقود . وقد نظرت السعود . ونضر العود . وصدقت من

أصحابنا الوعود . فرحل السلطان وتقدم . وعزم علي طلب العدو وصمم . ونزل على تل كيسان يوم الاربعاء ثامن عشر ربيع الاول . في الفصل الاعدل والفضل الاكمل . وتدانى العسكران . وتعالى العثيران . وتقارب القرنان . وتحارب الحزبان . وترتب العسكر الاسلامي في نزوله ميمنة وميسرة وقلبا . وفي ركوبه على تريب منازلهم طلبا طلبا . فكان الملك المظفر تقي الدين في آخر الميمنة الميمونة . والملك العادل في آخر الميسرة الميسرة المنصورة المصونة ، والملك الافضل في اول ميمنة القلب واخوه الملك الظافر في اول ميسرته على الجنب ، والكتائب مكتبة ، والمقانب مقنبة ، والسماء بالنقع الثائر منقبة ، والارض بوقع الحافر مثقبة ، والعساكر مترادفة مترافدة . متتابعة متواردة ، متسابقة متلاحقة ، متناسبة متناسقة . متوالية متوافية ، متجارية متبارية ، منقضة كالبزاه ، منفضة الى العداة ، داعية الى الانتصار ، عادية على الكفار .

ذكر وصول رسول دار الخلافة
مع ضياء الدين الشهر زوري في جواب رسالته

ووصل يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الاول رسول دار الخلافة ، بالنجدة والعارفة والرحمة والرأفة ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين بمدينة السلام . فتلقاه السلطان بالاحترام والاكرام ، واحتفل لوصوله . واستقبله لقبوله ، وتلقاه الامراء على الترتيب ، فمنهم من تقدم نحوه الى البعيد ومنهم من وقف له بالقريب . ثم اخوة السلطان وأولاده واحدا بعد واحد . وماجدا بعد ماجد . وبادئا بعد عائد . ثم ركب السلطان اليه عند القرب من سرادقه . وأدناه اليه بتعانقه ، ثم سار معه قليلا (٤٧) وأصحبه من خواصه وأمرائه قبيلا . حتى نزلوا به في بساركاه له مضروب ، وخصه بصنوف من الالطاف وضروب ، ووصل معه حملان من النفط الطيار . وحملان من القنا الخطي الخطار ،

وتــوقيع بعشرين الف دينار . تقتــرض على الديوان العــزيز مــن التجار ، وخمسة من الزراقين الدفاطين المتقنين صــناعة الاحــراق بالنار . فاعتد السلطان بــكل مــا احضره . واخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره . غير انه ابدى رد التوقيع مع الصنيع ، وقال كل مــا معي من نعمة امير المؤمنين وعارفته ، ولقد نعشني ما شــملني مــن عاطفته ، ولعل الله يوفقني للقيام بــالفرض ، ويغنيني عن الالتــزام بالقرض ، واركب الرسول مرارا معه واراه مبارك النزال . ومعارك القتال . ومصارع الرجال . ومجامع الابــطال . ومــطالع اللقــاء . ومواضع الهيجاء . ومصالت الاقدام . ومنابت الاقــدام . ومــواقف الصفوف . ومصافف الوقوف . واماكن البعوث . ومكامن اللبــوث . وتل الفضول . وبقية التلول . حتى يشــهد بمــا يشــاهد . ويبين له المجتهد والمجاهد . واراه ما لم يره لياثــر آثــره . ويخبــر بجملتــه ويجمل خبره . واقام الرسول طويلا . واقام له السلطان من طــوله دليلا . ووفر له عطاء جزيلا . وعرفا جميلا . حتى استاذن في العود فعاد . واستصحب الشكر والاحماد .

ذكر مقاتلة الفــرنج عكا بــالابراج والاعجــاز بهــــا والازعاج

وكان الفرنج منذ نزلوا الحصار . شرعوا في عمل الابــراج الكبــار ، وركبوها من الاخشاب الطوال . والعمد الثقال . وبنوها وقدموها ، ونصبوها واحكموها . وسقفوها طبــاقا . وســمروها بــالحديد . وجعلوا لها منه اطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثــاقا . ولبســوها بالسلوخ ، وملاوها بالجروخ . وزحفوا بهــا الى الســور وكشــفوا بـــــالرمي منهـــــا بعض ســـــــقوف الدور . وتســـــــاعدوا على طم الخنادق ، وتفتيح الطرائق ، ووصل من المدينة عوام ، يخبر بان التلف بها حوام . وان البلد قد اشرف . والخــطر قــد اسرف . والابراج علت . والاسوار خلت والبلاء قد عم . والخندق قــد طــم .

وأنتـــم إن تـــم هـــذا عراكم العـــار . واظلم على الدنيا والدين بليله النهار فاحتمي السلطان واحتد وشد واشـــتد وكرب وركب وكان يحسب هذا فجاء كما حسب . وزحــف الى الفــرنج ليشـــغلهم عن الزحف ويصرفهم عن الفتح بالحتف . وذلك في العشرين مـــن ربيع الاول يوم الجمعة . بـــالجحافل المجتمعـــة . والغمـــاغم المرتفعـــة . والصوارم الملتمعة . والصلادم الممتنعة . والأسنة المشرعة والاعنة المسرعة . والحوائم المنتجعة من النجيع . والبيارق المختفقة كأزهار الربيع ، واتفق في هذا اليوم وصول عماد الدين . صاحب دار محمود ابن بهرام الارتقي . بالجمع الوافر الوفي والعسكر النخي الذقـــي ، وسار الى القتال على حاله . بخيله ورجاله . وضـــايقهم الســـلطان مضايقة عظيمة . ولم تزل جادة الجد في مقاومتهم مستقيمة . حتـــى دخل اليل . ولغبـــت الخيل . فقـــوى تلك اليلة اليزك . والزمهـــم في الحفظ الدرك . ورجع الى مخيمه مساهدا ساهرا ، مجاهدا بالبكور نحوهم مجاهرا . فلما اصـــبح يوم الســـبت صـــبحهم بـــالحرب . وسبحهم على بحـــر الكر والكرب . ورجـــل الرجـــال اليهـــم . وانزل النوازل عليهم . وامتزج بياض النهار بسواد النقع . واتسع خـــرق الواقعة على الرقع . وانقضى اليوم . وقد انقرض القـــوم . وتفـــرق الجمعان وقت العشاء . عن قتيل غريق في الدمـــاء . أو جـــريح على بقية الذمـــاء . وبـــات الناس في الســـلاح شـــــاكين . وبنار المذاكي ذاكين . ولما تم منهم وعليهم حـاكين . ورجـــع الســـلطان الى خيمـــة ضربت له على تل العياضيه . وقد الزمته البسالة الطبيعية ، بالرتوع في رياض الاخلاق الرياضية . وأصبح يوم الاحد راجعـــا الى قتـــال أهل الاحد . واستن من الجد على انهج الجدد . وامر بانتقال السوق الى قربه ليقرب من العسكر ، وأيده الله بالنصر الاظهر . والظهـــور الانضر . واقام كذلك وهو في كل يوم يغدو وينازل . ويعد ويقاتل . ثم نقل يوم الاربعاء الخامس والعشرين الاثقـــال الى المخيم لئلا يغيب حاضر . ولايصاب عن الورد صادر . وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين . ولمعشر الكفر بادارة كؤوس الردى عليهـــم معـــاشرين . فانتدب منهم الى الحرب كل مجترىء للوقائع مجترح . وكل محتـــرق

على نار الهيجاء للهياج مقترح . وكل وقاح بـالحراب وقـاع . وكل صرار بارداء الكفرة دفاع . وكل غلام له من هيجان الحمية لغـام . وكل أسـ ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــد غدا الى

الشـد له في حـومة المأزق زئير وبغـام . وكل متـلاف الغيرة غير متلاف . وكل جاف عن سوى السوء متجـاف . واخـذوا مـن بيت السلاح السيوف والتـراس . وطلبـوا بقصـد العـدو الاقتناص والافتراس . وابلوا بلاء حسنا . واوضحوا بالنكاية في العدو سننا . ووصل في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين . عوام من البلد يخبر بقوة المشركين المحـاصرين . وان البلد ضـويق . وان العـدو المخذول يحيق به كيده وان حوقق . فتقدم السلطان ليشغل العدو عن قتال البلد بقتـاله . ويكفـه بنزاله عن نزاله . وجـدد الكتـب الى الامصار . بالاستنفار والاستنصار . فـاول مـن وصـل ولده الملك الظاهر صاحب حلب . وقد جمع وجلب . وتقدم عسكره يوم الجمعة وتفرد بوصوله . وحظي من نظر والده بسـوله . وذلك يوم الجمعـة السابع والعشرين ثم عاد الى معسكره . وجاء يوم السبت في حسن منظره واحسان اثره . في منظـر ناضر . ورونق حـاضر . وجمـع كثيف . وحشد لفيف . وبهجة رائعة وروعة مبهجة . وهيأة معجـزة وهيبة العدو مزعجة . وصولة دائلة . ودولة صائلة . ورقاق وذوابل . وعتاق وصواهل . وعوابس وعواسل . وشعوب وقبـائل . وقـدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك وهو صاحب حـران جـريدة . وقد استأذن للجهاد عزيمة جديدة . ثم عاد الى عسكره ليقـدم بـه . ويحضر بجنده وتركمانه وعربه

ذكر وقوع النار في أبراج الفرنج الثلاثة واحتراقها وتلف كل ما كان و من كان في طباقها .

ولما كان بعد الظهر من هذا اليوم وهو السبت الثـامن والعشرون تتابعت بـظهور دلائل النصر وتناصر اسـباب الظهـور المبشرون .

فنظرنا والنار من احد الابراج في السماء بشعلها متسامية . وفي الجو بشرارها مترامية . ومايدرى ماسبب هذا الحريق . وكيف تيسر هذا التوفيق واحدقت النار بالبرج فاذا هو كشجرة من نار . وقلوب المشركين لاستعارها في استعار . ووجوه المؤمنين لانوارها في استبشار . ثم راينا البرج الثاني وهو يحترق . والنار في اثنائه تحترق . ثم نظرنا الى البرج الثالث فاذا هو يشتعل . وبألسنة النيران يبتهل فما برحنا حتى سقطت ثلاثتها ، وبلغت الينا من صدماتها وحدماتها استغاثتها . وركب السلطان ونحن معه ونزلنا نكتب بشائر النار . ونسير بطاقاتها على أجنحة الاطيار والعجب ان الابراج كانت متباعدة غير متدانية . وقد أبعدها الفرنج لمسافات متنائية ، فكل واحد منها على جانب من البلد قد كشفه ، وخسف اسواره وكسفه ، فاحترقت على تباينها في وقت واحد . وقدر من الله وارد ، فلم يكن ذلك الاسرا الهيا . ولطفا ربانيا . وفرجا بعد الشدة . وثلجا لصدور المؤمنين بتلك الوقدة ، وكان سبب حريقها ان رجلا يعرف بعلي بن عريف النحاسين بدمشق كان قد استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد ، واقام فيها باذلا للاجتهاد ، وغري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره ؛ وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره ، وتقدير معاييره ، والناس يضحكون منه . ويغضون عنه . ويقولون هذا يضيع ماله فيما لايعنيه . وماهذا الهوس الذي وقع فيه . وهو يعد لذلك العمل الآلات ، ويجد في تلك الادوات ، ويكثر القدور . ويرتب الامور . فلما قدمت الى البلد تلك الابراج ، وحصل من الامتزاج الامتزاج . قوبلت بكل فن ، وادنى اليها من النفط كل قدر ودن . ورميت بكل قارورة محرقة . وكل نفاطة مرهقة . وبالغ في صنعته الزراق فلم يتم في شيء منها احتراق . ووقع الياس . واستسلم الناس . فمضى ابن العريف . بل ابن العريف . الى بهاء الدين قراقوش الامير وقال قد راينا ماا عترض من التدبير . وماعرض من التقدير . فافسح لي في رمي هذه القدور . فلعل الله يأتي منها بشفاء الصدور . فاذن له على كره . وقال ماارى لاحراق هذه البروج على يده من وجه . فان الصناع قد ابلسوا والزراقين العارفين بالصناعة يئسوا فلما وجد الاذن وزن القدور وعيرها

ورمى بواحدة منها الى احد الابراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها ثم لما استوت رمايته وصحت في الاصابة درايته . رمى بقدور نفط لانار فيها . وهو يصبها على اعالي البرج ويسقيها ، والفرنج يعجبون من البال ولايدرون بما وراءه من الشعل ، ثم قذف بقدر ناريه ، متشبعة بكل بلية فوقعت في الطاقة الوسطى ورمى اخرى فوقعت في السفلى . فاشتعل البرج من طرفيه الادنى والاعلى ، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين . فاحترقوا اجمعين . ودخل اليه ايضا جماعة لاستنقاذ مافيه فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم . وتقلبت الجحيم عليهم غيظا لاستبطاء حتوفهم . وتحول ابن العريف الى مقابلة البرج الثاني . ولم يلحقه في احراقه التواني ، وانتقل الى الثالث فأحرقه . وماكان ذلك بصنعته منه بل لان الله وفقه . ومازالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقادا حتى عاد جمرها رمادا ، وبياض نارها واحمرارها في السماء على الارض سوادا . واحترقت المجانيق والستائر التي كانت بقربها . (وبهت الذي كفر) (البقرة ٢٥٨) واسف على نصبه في نصبها . وخمد الكفار بذلك الضرام ، وسلوا عما كانوا فيه من غرام . وحبطت اعمالهم . وخابت امالهم . وركدوا بعد حربهم ، وركنوا الى خزيهم ، وضلوا في سعيهم . وتورطوا في بغيهم . وسقط في ايديهم بسقوط ايدهم وحيق مكرهم بهم ، وكيدوا بكيدهم ، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق وسدوا الثغر ، واظهروا بظهور القدر القدر ، وجاؤوا الى مواضع الابراج واماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها . ونبشوا الرماد عن الزربيات التي انسكبت ، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت . فاخذوا ماوجدوا وحصلوا على ماذشدوا وأترب من ترب من تراث ذلك التراب . وعمرت قلوب المسلمين بذلك الخراب . وبردت من حر تلك النار . وشفي أوامها بذلك الاوار . والحمد لله الذي جعل تلك النار لاوليائه بالبرد والسلام ابراهيمية . وعلى اعدائه بالحر والضرام جحيمية .

ذكر فصول أنشأتها من كتب البشائر بالنار

صدرت مبشرة بما اجده الله من الجد . وانجزه من الوعد . واجزله من الرفد . واعذ به حال الظما البرج مــن الورد . وذلك مــاظهر يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الاول من الاتفــاق الحســن . والنصر الذي يقصر عن وصفة ذوو اللسن وهو ان اصــحابنا بعــكا رمــوا بقدور النفط عدد العدو المدحــور . واحــرقوا جميع مــالهم مــن المنخور . واحترقت ثلاثة ابراج كانوا قدموها . ودبابات قــربوها . ومنجنيقيات نصبوها . ولهم منذ تســعة اشــهر يجمعــون هــذه الالات . ويستسهلون عليها الغرامات . حتى اقدموا ابراجا اعلى من ابراج السور بضعف ســمكها وقــربوها ناكية في الثغر المحــروس بفتكها . وشحنوا بالرجال المقاتلة طباقها . واطلوا على مناكب البلد اعناقها . فاشفق الاسلام مــن نكاياتهــا . واظلت الافــاق مــن غياياتها . وكشفت من البلد جانبا وجبت من سوره غاربــا . فــاقدر الله على احراق ماعمل في تلك المدة المديدة في ساعة ، وامسى العــدو بقلوب وافئدة مرتابة مرتاعة . ومافصح ألســن النيران . على تلك الاعواد خاطبه . ومابسط ايديها على من كان فيهــا مــن الرجــال للارواح ناهبة سالبة

فصل

هذه المكاتبة مبشرة بالظفر الذي ورت زناده . والنصر الذي قــرب ميعاده . وذلك ان اصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا . وصــبروا فانتصروا . ورموا من البلد ابــراج الفــرنج المنصــوبة عليه بقــدور النفط . وانزلوها من سماء الرفعة الى ارض الحط . واطالوا بهــا ألسن النار المنصرمة . ودبت مــن الابــراج المقــربة الى الدبــابات المقــدمه . وعلم العــدو ان كرتــه خــاسرة وان يده عن نيل المنى قاصرة .

فصل

هذه مبشرة بالظفر الهني . والنجح السني والنور اللامع من النار . والنصر الواري الزناد الطائر الشرار . وهو ظهور اصحابنا بعكا يوم السبت ثامن عشري ربيع الاول . وقد خصهم الله بالنجح الافضل الاكمل وقد كان العدو قدم ابراجه وسلك في المضايقة منهاجه . ولزم في الزحف الدائم لجاجه . فاستظهر الاصحاب عليهم وقت الظهر . ورموهم بقدور النفط المحرقة من الثغر . فطالت السنة النيران تدعو على اهلها بالبوار . وتبدي في تضرمها تضرعها الينا للاعتذار . وشاهد اهل النار ما اعد لهم في سقر . وتلونا قول الله سبحانه فيهم:كذلك نجزي من كفر (٤٣)

(فصل الى الديوان العزيز)

ولما كان ظهر يوم السبت ظهر اهل الجمعة على اهل الاحد ورمى اصحاب المحصورون المنصورون عدد العدو وابراجه بقدور النفط من البلد فخطبت ألسنة النيران على تلك الاعواد . بل على تلك الاطواد . والحقها رداء الردى والحقتها بالوهاد . وفرشت رمادها لما تم اولئك المراد . فكانت تلك النار على الكفر ضراما . وعلى الاسلام بردا وسلاما . واحترقت الابراج الثلاثة على معتقدي التثليث . ودبت النار الى الدبابات والمنجنيقات بصدمه المنجنيقات .ودبت النار الى الدبابات . بصدمة التأثير وحدمة التأريث.وماأطول ألسن النار . وافصحها بالدعاء على اهلها بالتبار . وقد ابدت الى الاسلام بتضرمها وتضرعها وجه الاستبشار . وماأحسنها وهي ترمي بشرر كالقصر . ويكسو سني لهيبها وجوه المؤمنين بشر النصر وماأقطعها لدابر المشركين وقد خصت باحراق تلك الالات عن البلد اجنحة الحصر . وبسم بعد عبوس البوس باسم الله ثغر الثغر .وقد بغتت هذه الفجيعة فجاة من

حوته تلك البروج . ودخل الى طبقاتها قوم لاطفاء النار فتعذر عليهم الخروج . وهلك فيها اكثر من ثلاثمائة دارع . وخرج من اهل البلد لما حق الفرج كل مسابق . الى الغنيمة مسارع . وكسبوا من الدروع والمناصل والسيوف . كل ما وجدوه خلل رماد تلك الحتوف . وكان القوم قد اعتصموا بالابراج وذوقا بوثاقها . واشتدوا بشدتها فيما علق بهم من علاقها . ووصلوا بها اجنحتهم . وذخروا فيها اسلحتهم فاخفقت ظنونهم . وسخنت عيونهم . وخسر هنالك المبطلون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون .

فصل من كتاب الى اليمن في وصف الابراج واحراقها

استنفد الفرنج اموالهم في عدد اعدوها . وآلات اجدوها . واحكموا ابراجا شامخات ومجانيق شادخات . وزاد غرامهم بالغرامات . واستقلوا على عمل الابراج كثرة الخسارات . ومكثوا مدة على لجاجهم . يطرقون بين يدي ابراجهم . ويمهدون الارض لتسوية مهاجهم . فلما قدموها بعد لأي . واحكموا باحكامها كل تدبير ورأي . واشرفوا منها على سور البلد بأمور ذات أسواء . وجاؤوا بآلات وأدوات أدواء . واشفى البلد من بلائها واشفق . ووجل كل قلب وفرق . واحتجنا لمزاولة هذا الخطب الجليل . ومداواة الامر العليل الى ان نشغلهم بحصرنا اياهم عن التفرغ للحصر . وتضرعنا الى الله في انزال ملائكة النصر . فكان من لطف الله مالم يكن في الحساب . واتى الله المجرمين بالعذاب . والهم اصحابنا ماداووا به المرض . وادركوا به الغرض . واظهرهم ظهر يوم السبت الذي خصهم فيه بالظهور . واقدرهم على رمي تلك الابراج بالنفط في القدور . وظهر من سر منع الله ما كان في المقدور . فتسلطت النار على عمل اهل النار وتصاعدت زفرات غيظها بانفاس الشرار . ولمع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان وكان كما قال الله تبارك وتعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) (الرحمن ٣٥) وعادت تلك الاكم وهادا . وذلك الجمر رمادا .

وتحلحلت تلك الجبال وتحال تركيبها . ولصــق بــالتراب تــرتيبها .
وتنكس منها صليبها .وكانت ثلاثة ابراج شاهقة فلعبت في مــلاعبها
النيران فاذا هي زاهقة .وتدقلت نجوم الشعل في تلك البروج . وعجز
شياطينها برجمات شهبها عن الخــروج .وتســلط الحضــيض على
يفاعها .وباد الدارعون فيها بادراعها .واضحك الله ثغر الثغر بمــا
اطابه من ارج الفرج . واخمد باشتعال ذلك الوهــج مــا اكرب قلوب
المؤمنين من الوهج . وصان مهج اهــل التــوحيد بمــا أرداه لأهــل
التثليث من المهج .

(فصل)

تقدم المشركون بالابراج الى البلد فقربوا من اسواره . والصــقوا
منها جدرانا بجداره . واشرف الثغر على الخطر العظيم من جواره .
فاظهر الله ما كان خفيا من سر أقداره . واحــرق عمــل اهــل النار
بناره . وكان اصحابنا عاينوا مــادهمهم وهمهــم . وخصــهم مــن
الخطب وعمهم .نصبوا مجانيق بازاء الابراج . وصدعوها بها صدع
الزجاج.ورموها منها بقدور النفــط فــاشتعلت رؤوســها وشــابت
وشبت . ومشت النار في اطرافها واعطافها ودبــت . وارســل الله في
تلك الساعة بعذابها ريحا بها هبت . فامست اجنحتها قــد حصــت
واسنمتها قد جبت .وسقط في ايديها ووجبــت جنوبهــا وكبــت على
وجوهها في النار وكبت ٠ فمــا افصــح الســنة النيران وقــد نادت
بنصرنا والفت منها قلوبنا بما الفت من نقع غليلها واحبت ٠ والحمد
لله على الطافه التي ماغابت ولاغبت ٠

وقصدنا بذكر هذه الفصول ذكر الاحــوال التــي جــرت بحقهــا
وحقيقتها . وحليتها وجليتها . فانه يشتمل كل فصل على تمــام مــا
اغفل في غيره . ومقصودنا استيعاب كل حادث بذكره

ذكر تاريخ وصول الاكابر في هذه السنة

وفي الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاخر . قدم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي يمن استنهضه من العساكر . وكان اول من استقبله حين ظهرت راياته . من العسكر كتابه وقضاته . ثم لقيه الملك المظفر تقي الدين بتل كيسان . ولقيه بعده الملك الظافر خضر و المعز اسحق ولدا السلطان . فنزل لهما ونزلا له . وتعمدا اعظامه واجلالة . ثم تلقاه الملك الافضل ادنى من ذلك فتعانقا على فرسيهما اعفاء له من النزول . وتلاقيا بالاقبال والقبول . ثم وصل اليه السلطان بالوجه الضاحك واللطف المتدارك . واعتنقا على ظهر . واتفقا على بشر وذشر . وكان الملك العادل تأخر فلحق . واظهر من ارج سجاياه ما بنشره عبق وبحبه علق . وسار مع السلطان باطلابه وابطاله . وحماته ورجاله . حتى وقف قباله العدو بصفوفه . ووقف عليهم طول الرعب وبطول وقوفه ثم رده السلطان الى خيمته على رسم الضيافة . وترفرفت الطافه عليه بالاطافه . ووقف ساعة مع الملك العادل حتى دخل السلطان سرادقه وجلس . وحضر الملك العادل بعماد الدين وبسط لفرشه ثوبا اطلس . واكرمه السلطان باجلاسه الى جنبه على الطراحة . وآنسه ببشر السماحة والسجاحة . ووقف الامراء والخواص والاولياء صفين . وانشد الشعراء من المدح والنسيب صنفين . ثم احضرت المائدة فماد نحوها الحضور . وعقد الحبا لهم الحبور . ثم رفع الخوان وارتفع الاخوان . وحسن الخبر والعيان . وخلا المكان وحلا الامكان . فأمر السلطان له باحضار عشرة من العتاق العراب . وخمس عشرة رزمة من كرائم الثياب . ثم نهض وهو بعبء الشكر ناهض . واوجه العذر عارض . ونزل في خيمته وقد ضربت على النهر بعد المضارب العادلية . وملأ تلك المروج بعساكره الملية . ثم وصل من بعده ابن اخيه معز الدين سنجر شاه ابن غازي بن مودود صاحب الجزيرة . بعساكره الكثيفة الكثيرة . وذلك يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى . بالايد الاطول واليد الطولى . فالتقاه السلطان واخوه واولاده على قاعدة عمه . وأجراه

في الضيافة والكرامة والنزول بالخيمة السلطانية على حكمه . لكنه لم يقصر في القاعدة عن رسمه . ونزل بخيمته في فناء السرادق العمادي . وقد استكثر من العسكر الجهادي. فكان ذلك المرج بحر امواجه الخيم والمضارب . أو سماء كواكبها ما اشرعته من صعادها الكتائب . أوغيل أساده في آجام القنا الفوارس . او غدير من السوابغ حبابه الترائك والقوانس. او سحاب بروقه الصوارم الرقاق . او وهاد اكامها الصواهل العتاق . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود . وهو كوالده مسعود مودود . وفي شهامته وصرامته مشكور محمود . وذلك تاسع جمادى الاول يوم الجمعة بالمحاسن المتنوعة . والمفاخر الاصيلة المتفرعة . والصنائع المبدعة والبدائع المصنعة . وجيشه للقوة ضابط . وجاشه على الحمية رابط . وبأسه ليد الايدباسط وجنانه على الكفر ساخط . وهو شاب اول ما بقل خطه . وابتهج بكماله رهطه ، وكان أبوه قد عزم على الوصول بنفسه . وانهاب وحشة الخطب الملم بانسه. ثم رأى المصلحة في الاقامة وتقديم ولد المشكور المشهور الشهامة. فانهض العسكر المجر معه ثم اتبعه بمن حشده وجمعه، فورد ورود السحاب الكنهور (٤٤) . وندور المطالع بسنى السندور (٤٥) واطلع بطلوعه على معنى البأس المصور . واحتفل السلطان بقدومه احتفاله بقدوم عمه . وحافظ من الكرامة على توفير سهمه . وانزله في سرادقه واضافه . وأهدى خيله والطافه . وامر بانزاله في الميمنة بين ولديه الملكين الافضل والظاهر . وضاق ذلك البر الواسع ببحر العساكر . ولم يبق في اهل السلطان الامن اقتدى به في الاحتفال بقدوم هؤلاء . واعتماد ما قام به البرهان على المخالصة في الولاء . والمسارعة الي الضيافة والاهداء . والاعانة الى المكارمة بعد الابداء .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل في شكره على تسيير ولده

الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بانصاره جمع شمله . ووفق اسد عرين الملك ان يحمي حوزة الاسلام بشبله . وللمجلس في طوله اليد الطولى . والمنة الثانية التي اربت على الاولى . حيث حث همته العليا . وحض لحظ دينه عزمته الماضية المضية . وشرف بولده علاء الدين من تقلد بوروده أوفى منه . وتعجل من وفوده أقوى منه . وأوفى جنه . فلقد ورد الى الساحل بحرا . وطلع في ليل القساطل بدرا . واصفر لمرتقبي صباح النصر فجرا . وجلا وجوه المؤمنين ببشاه بشرا . وملأ صدر الاسلام أمنا . وقلب الكفر ذعرا . ثم وصل زين الدين ويوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل يوم الاربعاء في العشر الاخر من جمادى الاول . ذو السماح المؤمل و المجد المؤثل . بجيش كالسحاب المسيل . فدوت اخلاف النصر بحقول ذلك الجحفل . وورد بكل ورد هني . وجدسني . وقدم بكل مقدام.وزار خيس الجيش بكل ضرغام . وزار بكل اهتمام بالمذون همام .ووصل بكل واصل لسبب النصر .قاطع دابر الكفر . ووفد بكل وافد باليمن الوافي . والنجح الكافي . والعز الصافي . والعزم الشافي . وطلع بكل طالع بالسنى . جامع المنى . فارع بالغنى . فارك للخنى . سافك دم الشرك بالظبا والقنا.وكان هذا اول يوم لقائه للسلطان . واحسن اليه بالاكرام وزاد في الاحسان . وكان يجمع بين الحماسة والسماحة . والبشاشة والرجاحة . والتودد الى الناس. والتشدد بالباس. والتواضع مع الكرم . وبذو الود مع علو الهمم .ماله مبذول .ونواله مأمول .وسيفه على الكفر مسلول .وامره بالطاعة في رعيته ومن في جملته مقبول .وهو مرجو مخشي .وكريم • "شي.ومهيب مرجو. ومحسن بسنى الحمد مجلو.وكان معه خلق كثير .في سلك الاتساق ومسلك الاتساع نظيم نثير .وانزل بقرب اخيه مظفر الدين في الميسرة .وتمكن الرعب بما تم من الجمع في قلوب الكفرة .

- ٦٠٤١ -

ذكر وصول الاسطول من مصر

كان السلطان قد امر بتعمير اسطول آخر من مصر تصل فيه الذخيرة والميره، والعدد الكثيرة .فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الاولى ظهر الاسطول .وتم بظهوره النصر المأمول .فركب السلطان في جحافله .وسدد سهام الردى الى العدو ومقاتله . واحدق به حول خنادقه . ليوسع عليه الهلاك في مضايقه . وليشغل الفرنج عن قتال الاسطول .ويسهل عليه بتشاغلهم طريق الصول .فعمر الفرنج اسطولا، وصف شوانيه على البحر عرضا وطولا . وقدر أنه يلاقي الاسطول المنصور . ويخطر بسد الطرق عليه وصدها العبور، فجاءت مراكبنا، ونطحت مراكبهم وطحنتها . واوهت متنها واوهنتها، واخذنا لهم مركبا واخذوا منا مركبا .وكان تقصير الرؤوساء في حفظه لأخذه سببا واتصل الحرب في البر الى حين غروب الشمس . وعاد المسلمون بحبور القلب وسرور النفس وقتل من الفرنج عدة وافية، وكلاءة الله لنا ولأصحابنا وافية .

ووصفت هذه الحالة في مكاتبة كتبها لتعرف منها وتكاشف القضية المستورة وهي :

هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني . وهناه من النجح السني . واجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني . وذلك بوصول الاسطول الثاني المصري المنصور . ظهر يوم الخميس متظاهرا بامداد الظهور . متوافرا بوفود الوفور، ودخوله سالما غانما الى ثغر عكا المحروس المعمور . فاثر البلد بعد انفاضه . واجتمع اليه مدد القوة بعد انفضاضه . واستجد جنة وافيه . وعصمة واقيه . وذخيرة كافية . وكان الفرنج عند وصول اسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها . وابرزت مناكبها . وحمت بالرجال

والعدد جوانيها وسنمت غواربها ورفعت هضابها وهواضبها . وسحبت على شبيج البحر سحائبها وادبت الى عقبان اساطيلنا الحلقة بعقابها وثعابينها وعقاربها . وظنت انها تستطيل على رواسي اساطيلنا بسواريها وانها تواجه عرائسها الحلوة بحور جواريها . فلما جاء الحق زهق الباطل ، وصال الواصل ، وحاص العدو من الحاصل . وانحل تركيب تلك المراكب . وحطت تلك المناكب بما احاط بها من النواكب . وتفرقت سفن العدو شذر مذر . وعذر حين ذعر فحذر . وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها. ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتهم. وكانت الفرنج حملت فيها تجائر ونخائر تطلب ربحها فخسرتها .

وصل الاسطول ظهر يوم الخميس ظاهرا خميسه . ثائرا بالاسد عريسه . في شوان للعدو شوائن . وشلنديات لشله وفله ضوامن . وحراريق لأهل النار بنارها محرقة . وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة . وسواري هواضب كرواسي هضاب . وسحاب بوائق كبوارق سحاب . ومن كل مركب للنصر مركب . ومفرد من الشدة والبأس مركب . وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة. وقلعة لاساس أهل الكفر قالعة . وتلعة في ذروة العزة تليعة . وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة ، وجاءت في البحر امواجا في الأمواج . ودخلت الى الثغر افواجا بعد الأفواج . وكان العدو قد أبرز أساطيله . وجهز أساطيله . وشب عواديه ودواعيه . وأدب عقاربه وأفاعيه . واسمي مناكب مراكبه . وجد في امهاء غروبه وتسنيم غواربه . ولما وصل الأسطول طال وصال . ولاح للعدو صده بحيلة حال فحال . وامتنع مراده واستحال . وأخذ الاسطول من مراكبه الكبار ست قطع قطعت اسبابها . وقصمت من عبدة الصليب اصلابها . وخيب حسابها .

فصل

وصل الاسطول الى البلد مستطيلا بالجلاد والجلد . واثري به الثغر بعد الانفاض.واجتمع به شمل الرجاء بعد الانفضاض . ودخل اليه ماخرج عن حد الحصر . من نخيرة وميرة توجب كثرتها قلة المبالاة بالحصر . فان الرايات المنصورة علت فجلت في الآفاق رياضا . والمراكب الاسلامية انقضت فقضت للمسلمين اغراضا . ووافت ووفت فأعادت جواهرها مراكب العدو اعراضا . وجاءت سواريها كالرواسي . وجواريها محكمة المراسي . ومن شيمة حراريقها شيم بوارق البوائق لاحراق أهل النار في الماء . ومن عمل مراكبها الحاف مناكب الكفار رداء الارداء . من كل جبل يمر مر السحاب . وضامر يشد شد الغراب . وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب . وغراب ناعب في اعداء الله بين الاحباب . وهضبة موفية على الهضاب . وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب . ومااحسنها وقد زفت عرائس . وجليت أوانس . وطلعت بأهل الايمان بواشر وعلى أهل الكفر عوابس . وعادت بها رسوم مراكب الفرنج دوارس . وخلا وجه البحر من سفن الضلال وتقلص مالها من الظلال . ولما شوهد الاسطول ساطيا . وجيد النصر منه عاطيا . وأخذ البحر من الاعداء بحقه . واشرق سنا النحج في افقه . ركب العسكر المنصور للقتال واخذ اهبة النزال . وزحف الرجال الى الرجال . والتقى الأبطال بالابطال . وشفيت بدم الكفر غلة المناصل والنصال . واحمرت البيض الظامئات ورويت من نجيع الزرق . وبشرت جياع العواسل من اليراع العاسل بعاجل الرزق . وظل أهل الضلال وقد كفهم الكفاح . وفكهم القتل والجراح . واقوى الاقوى من الثبات . وبطل بطلهم بما أثخنه من الجراحات . وبات المسلمون واثقين من الله بأن جمع الكفر قريب الشتات . وأدرك المشركين مافاتهم من الآفات .

- ٦٠٤٤ -

ذكر قصة ملك الألمان وصحة الخبر المتواتر بوصوله

صح الخبر ان ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج . وخطب في تلك المروج بمروجه الخطب المريج . وانه وصل بجمعه الى مضايق صعب عليه منها العبور . وعمهم في نهضاتهم العثور . فقيل انهم أقاموا في قفار ومواضع شهرا . عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلاضرا . وكان التركمان الاوجيه (٤٦) على طريقهم . يمتعون بغربهم (٤٧) من تشريقهم . فاضطروا الى المقام بغير زاد . وهم في جهد وضر واجتهاد . فصاروا يذبحون خيلهم ويأكلونها . ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها . فترجلت منهم الوف . ورغمت أنوف ، وكان ذلك في البردالشديد . وزمان الثلج والجليد . فجمدوا وخمدوا . وتجلدوا وتبلدوا . وعدموا دواب لحمل الاثقال . ونقل عدد الرجال . فدفنوا واحرقوا منها . وتركوها وسلوا عنها . وكان ذلك من الله لطفا . وأمست قوتهم ضعفا . وكانوا في خلق لايعد . وجمع لايحد ، فما أثر فيهم ذلك النصب . ولاصدهم عن مقصدهم ذلك التعب . ومازالوا يسيرون والأوجية تبدي لهم الوبال في أوجها أوجها . والافرنجية لاتنتهي حتي تبلغ الي مالها من منتهى . حتى بلغوا الى بلاد قليج ارسلان بن مسعود . ومسالكها دونهم غير مصدود ولامسدود . وقليج ارسلان محكوم عليه من ولده قطب الدين ملكشاه . وهو يدبر امره ويتولاه . ويسومه الاكراه ، فعارضهم لما قربوا وتعرض لقتالهم . وطاردهم ليضيق عليهم سعة مجالهم . ثم اندفع من بين ايديهم . وتعدى عن جانب تعديهم . ودخلوا قونية دار ملك المسعودية . واعتصم قليج ارسلان بقلعتها المحمية . وتراسل وهو ملك الألمان واتفقا في الباطن على ماكان بينهما من المواثيق والايمان . وحمل ملك الالمان له وفرا وافرا . واشبه المسلم بالكف عن الكافر كافرا . ووافقه على العبور الى الاقاليم الشامية . والبلاد الاسلامية . وعلى انه يسير في بلده الى بلد ابن لاون . واعطاه عشرين مقدما من اكابر امرائه ليكونوا معه حتي يصل الى المأمن

رهائن . وامر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه . وان يعاوضوهم من الخيل والعدة بمايرومونه . واقام لهم الاسواق وعرض عليهم الامتعة والاعلاق . فساروا في رقة ورفق وتقوبلا توق . فلما وصل الملعون الى بلاد الارمن غدر بالرهائن . وساقهم محمولين مع الظعائن . وتأول عليهم بان التركمان سرقوا منهم في طريقه . ونكث جميع مواثيقه ، ووصل ليفون بن اصطفانه بن لاون مقدم الارمن الى خدمته . ودخل في طاعته ، وكان بمفرده خاليا من عسكره بمجرده . وذلك في طرسوس . فتمكثوا بها ليريحوا بها النفوس ، وقيل عن لكلب الالمان ان يسبح في النهر . ويميط عنه ماعراه من الوضر والضر . وكان شيخا مسنا قد عاد لكبر سنة شنا . وحسب انه اذا سبح سحب نيل الاستراحة فكان موته في تلك الراحة . وهلاكه في تلك السباحة . فانه عام في الماء البارد . وتورط منه في اصعب الموارد . وخرج وبقي مريضا الى ان خرج من ثوب البقاء وتحول الى فناء الفناء . وتلقاه مالك بالزبانية . وحملوه الى نار الله الحامية . وسمعت نصرانيا يقول في معناه :كنت معه لما سلك فهلك واعجله مالك النار عما ملك . وذلك ان النهر ما كان فيه الا عبر واحد والعسكر فيه متزاحم متوارد . فقال ملك الالمان هل تعرفون موضعا يمكن فيه العبور ويؤمن فيه العثور فقال له واحد:ههنا مخاضة ضيقة من احترز فيها عن التيامن والتياسر عبر ولا يعبر فيها الا واحد بعد واحد اذا تثبت واستظهر . فبدر الى تلك المخاضة ذات الجرية الفياضة .ودخل الماء فطغى على ذلك الناري الطاغي . واعجل ذلك الباغي عن المباغي . ورماه في جريانه الى شجرة شجت جبينه وجبنت جاشه . وعثرته بحيث لم يؤمل انتعاشه فتعبوا في اخراجه . وايسوا من علاجة . ومات عدو الله شر ميتة وبلي شمله بتشتيته وحبله بتبتيته . وخلفه ولده على خلف من اصحابه واجناده . لمكان الولد الذي خلفه في بلاده وقيل انهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظمه . وتهرى لحمه . ثم جمعوا في كيس عظامه . ورامـوا بذلك اكرامه واعظامه ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة . ويدفنوه على ما كان اوصى به . ولما عرف ابن لاون بهلاكه . وسكون حراكه ، وما جرى من الاختلال والاختلاف بموته ، وانه لاتلافي لما

فرط من تلفه وفوته،فارقهم الى بعض قــلاعه . واتصــل الضربهــم لانقطاعه . ووصل كتاب من الكايا غيكوس صاحب قلعه الروم يرغب ويرهب ويبرق ويرعد . ويقــول ويعــدد ،ويدهده ويهدد . ويري انه ناصح . وللقصة شارح . وان الامر واضــح . وان الخــطب فــظيع فاضح . وان هذا الملعون اول ما خرج من بلده اوصى فيه الى ولده . ثم جاء الى بلد الهذكر فدخله غصبا واوسعه نهبــا . حتــى اذعن له وانقاد . وبلغ بطاعته المراد،وانه اخذ من ماله ورجــاله مــا اختــار ، وتزود من عنده وامتــار ، ثــم وطــيء ارض ملك الروم وداســها . وتوسط ديارها وجاسها وفتح بلادها وملك قيادهــا . واحــوج ملك الروم الى طاعته والزمه بما دخل في استطاعته .

واخذ منه من الذهب خمسين قنطارا ومن الفضة خمسين . ومــن الثياب الطلس المعدنية مابلغ الالوف وتجاوز عن المئين ، وأخذ على سبيل الرهائن اربعين من خلصائه . ومعروفي كبــرائه . وأخــذ كل سفينة غصبا ، وسحب على ذلك البحر في التعــدية . مــن مــراكبه سحبا . وأنه لما عبر وفرغ من الخــروج . تلقــاه بــالخيل والدواب والابقار والاغنام تــركمان الاوج . ثــم وقــع بين التــركمان وبينهم ، وجالوا حولهم ثلاثة وثلاثين يوما يرومون حينهم . وهم في طريقهم سائرون . وعلى مقاتلتهم صابرون . حتى قربوا من قونية فاعترضه قــطب الدين ولد قليج ارســلان . والتقــى الاقــران بالاقران . وهزمه ملك الالمان . ولما أشرف على قــونية خــرج اليه جموعها . وطالت اليه بالحرب بوعها . ثم اندفعــت حيث ضــم على الروع روعهــا . وأنه هجــم على قــونية عنوة . ونال منهــا حظوة . وأقام خمسة أيام حتى اســتقرت بينه وبين قليج ارســلان قاعدة اكيدة . وحصلت لكل منهما فائدة مهيدة ، وأخذ منه رهــائن عشرين . ومن أكابر دولته المتميزين . وقدم كتــابه الى ابــن لاون بالجواز في بلاده ، فتلقاه بما أعده لارفاده . ونزل حين وصوله الى طرسوس على بعض الانهار ونام ساعة بعد تناول الطعام . ثم انتبه وتشوق الى الاستحمام . فحرك عليه الماء البارد مرضا . وتشــكى اياما قلائل مضضا . ثم قضى . وانقرض اربــه وانقضى . وخلفــه

ولده بعده . واستمال جنده . وكان ابن لاون قد سار قاصدا اللقاء ابيه . فلما عرف موته وجلوس ولده اضرب عن تلقيه . وعرض عسكره في اثنين وأربعين ألف مجفجف . من كل سرحان أهرت وذئب اغضف . وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض . وغص بهم طول الأرض والعرض . وقد لبسوا الحديد الحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب . ولزموا المصاب. وداوموا الاكتئاب ، وهم صابرون على الشقاء والتعب . لأمل الظفر بالطلب .

ولما بلغت هذه الأخبار . اضطربت الديار . وارتاعت الانجاد والاغوار . وقالوا هذا جانب لا يطاق . واي جانب قصده عنه لا يعاق . ولا شك انه يتوسط بلاد الشام . ويثلم ثغور الاسلام . ويشغلنا عما نحن فيه من هذا الاهتمام . وعزم السلطان على استقبالهم بالردى والرد . وصدهم عن القصد . ثم ثبت على راي الثبات . وتنظر الاوقات بما يتجدد من الحادثات . وتقلقلت عزائم الذين بلادهم على طريق القادم . وانه يعود كل منهم الى مكانه أخذا بحكم الحازم . فأول من سار ناصر الدين محمد ولد الملك المظفر صاحب منبج ، ليجمع على طريق العدو ويزعج ويرهج . ثم عز الدين بن المقدم . الباسل المعلم . ثم مجد الدين بهرا مشاه صاحب بعلبك . ليجمع ويأخذ على العدو المسالك . ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر . الليث الهمام القسور . ثم اليار وقية اسد الهياج . ونجوم ليل العجاج . ثم رحل الملك الافضل وقد عرض له الم . ثم بدر الدين والي دمشق وقد الم به سقم . ثم سار الملك الظاهر صاحب حلب لاضطرابها بغيبته وبهذا الخبر . ولخوف الناس فيه انهم على الخطر . حتى غلت الاسعار واستعرت الغله . وخلت الاماكن وتمكنت الخله . ثم رحل الملك المظفر تقي الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة . ويثبت بقدومه عليها الرعية الخائفة المجفله . وكان هو آخر من سار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخره . ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة . وخفت الميمنة برحيل معظم من كان فيها مقيما . ولحفظ النوب في اليزك مستديما . فانتقل الملك العادل اليها . وجاء الى منزلة الملك المظفر

ونزل عليها . واستقام الترتيب وترتب المقام . واعتز الصادقون وصدق الاعتزام . ثم مرض اكثر العسكر وخام للوخم . والم بالبعد للألم . وكان بحمد الله المرض سليم العاقبة قريب العافيه . مستعقبا لألطاف الله الواقية الوافية ، ووقع المرض في الفرنج وكان المبيد المبير . والمدني لأصحاب السعير السعير . وعم فيهم الموت والوبا . وكثر عن ذبواتهم النبا . وتقدم السلطان بهدم سور طبرية . وهدم يافا وارسوف وقيسارية . وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلهما الى بيروت .

عاد حديث ملك الالمان

واما ولد ملك الالمان فانتحس . ومرض اياما في بلد الأرمن واحتبس . وهلك اصحابه جوعا ومنهم من عزم رجوعا ووقع الموت في خيلهم ، فاذن ذلهم بقلوص نيلهم ، وقدم الملك لمرضه . والتياث جوهره بعرضه جموعه قدامه . وساروا امامه . وخرجوا لكثرتهم في ثلاث نوب ، في بيض وسمر وبيض ويلب . ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير . غير عارفين بطريق ولا متحفظين في مسير . والناس يلتقطونهم ويتخطفونهم . ويتألفون على مسالكهم ويتلفونهم . ووصلوا الى انطاكية ووصل اليها الملك . بعد ان ضاق به وبجمعه اليها المسلك . وضاق به الابرنس صاحب انطاكية ذرعا ، ولم يجد لهم عنده مطعما ولا مرعى . وطلب منه القلعة فاخلاها له . ونقل اليها ماله واثقاله . وسأله ان يجعل طريقه على حلب فخاف . وابدى له الخلاف . وقبل وصوله الى انطاكية قلت جموعه وجنوده . وبليت بحشد التركمان حشوده . واجتازت الفرقة الأولى منهم تحت قلعة بغراس . فلقيت البوس والباس . وخرج رجالها عليهم على قلتها ، وصدمتهم ببسالتها ، واسرت منهم زائدا على مائتين ، وطمعت فيمن وراءهم من الفئتين ، وقيل انهم حسبوا ان بغراس باقية بحالهما مع الداوية . فجاؤوا اليها سحرا بأحمالهم واموالهم السنية . فلم يشعر واليها الا بالبغال على الباب

واقفه . والجني دان يرقب ان يكون له ايد قاطفه . فخرج اليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها اصحابها لما عرفوا الحال ولم يعرجوا على حرب . فاستغنى الوالي من ذلك اليوم . من مال القوم . ثم اذكر حتى لا يطالب بشيء منه . وغفلت الايام عنه . وذكر الامير علم الدين سليمان بن جندر في كتابه . انه انهض جماعة من اصحاب امراء حلب واصحابه . ليقتفوا آثارهم . ويكشفوا اخبارهم فوقعوا على خلق عظيم منهم فخالطوهم ولم يرجعوا عنهم . وانقضوا عليهم انقضاض البزاة على الحجل . وزأروا فيهم زئير الأسد في النقاد . وزاروهم بالأجل . واسر كل واحد من اصحابنا ثلاثة واربعه . وتركوهم متمزقة متمزعه . وعادوا بالأسارى الى حلب وباعوهم في الاسواق . وامتلات بالأسلاب منهم والاعلاق . فطابت قلوب الرعايا . وانست من الله بما ظهر من الطافه الخفايا . وطمع فيهم اهل القرى . والتقطوهم من الوهاد والذرى . وما صدقوا بالسلامة حتى آواهم الابرنس الى انطاكية . واراح من الامهما الالمانية . وذابوا في هذه الطرقات ذوبا . وصب عليهم العذاب صبا اذا اخذوا صوبا . وهلك بانطاكية الكند الكبير مقدم العسكر . وتبعه الى سقر كبير من ذلك المعشر . وحصل الابرنس بتلك الاموال المجتمعه . والذخائر المودعه . حتى قيل انه انما رغب في الوصول الى بلده . ليحصل على سبده ولبده . فأخلى له قلعته . لينقل اليها خزانته . ففصل ومارجع اليها . واحتوت يد الابرنس عليها . ثم ساروا على طريق الساحل . بالفارس والراجل ، وخرجت عليهم خيل جبلة واللاذقية . وسقتهم كؤوس المنية ، والقتهم على البوس والبليه . فأغذوا في السير حتى وصلوا الى طرابلس وقد نقص نصفهم . وتم بعواصف البلاء نسفهم . وبلغ امدهم وانتهى مددهم . وجبن الملك عن المسير على الطريق . لما لقيت جموعه في طرقاتها من التفريق . فركب البحر في عدد يسير لا يزيد على الف . برعب قلب وقصور يد ورغم انف . واختلط مع الفرنج على عكا فسقط اسمه . وسخط حكمه . وهلك بعد قليل . ولم يحظ

بذقع غليل ، وسالم بـذكر حـالاته في مـواضعها . وذكر مصـارف جماعته ومصارعها .

وكتبت الى الديوان العزيز فصلا بخبر ملك الالمان عند ارعاب الارجاف به

قد وصل الخبر بالداهية الدهياء . والغمـة الغمـاء . والنكبـة النكباء . والشدة الدهماء والليلة الليلاء . وهي ان ملك الالمان ومعه ملوك الافرنجية وحشـودها . وقـوامصها وكنودهـا . واحـزاب الشياطين وجنودها ، والوية اللأواء وبنودها . وصـل جـارا على السماء نيول قتامه . مجريا في الأرض سيول لهامه . ثائرا بأطلابه لطلاب ثاره . سـائرا بخيله ورجله كالسـيل الى قـراره . وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبه . واتباع شـياطين لارضـائها متغضبة . واسراب سراحين على سرح الاسـلام متـوثبة . وانه في مئين من الآلاف الآلاف للمذون . واقطاب الاعطـاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون . وقدا وقدوا للشر شرارا . واضرمـوا للشرك الداعي الى النار نارا . فإن حسرتهـم على قمـامتهم دائمة . وقيامتهم قـائمة . والموت يدعوهـم الى المقبـرة التـي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمناياهـم التـي يدعونهـا . وكان خبـر وصوله متداولا على السنة الاراجيف . وتشيعه اعداء الله من قبـل الترهيب والتخويف . واستعدت العساكر الاسلامية للتوجه الى بلاد الروم في الربيع . ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجمـوع باتفاق الجميع . وانتظر ورود خبـر صـحيح . ويقين نبـأ بـامر صريح . حتى اذا صح الخبر . سـار العسـكر ، ثـم انقـطعت الاخبار ، وتمادى الانتظار ، ومضت شهور الربيع اذار . ونيسان وايار . وكانت كتب سـلطان الروم قليج ارسـلان واولاده ورسـلهم متواصلة بما ينبيء عن التعاضد . ويبني امر الوفـاء والوفـاق منه على التعاون والتعاقد ، وهم بـانهاء مـا يصـح عندهـم واعدون . ويزعمـون انهـم في رد الواردين واردائهـم

مساعدين ، فأخلف ذلك الوعد . وضيع ذلك العهد ، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الاوان ، بما تأخر به الخبر عن العيان ، وقالوا:انهم قد توسطوا بلاد الاسلام . وانهم على قصد الشام . ثم ورد الخبر بانهم صالحوهم وصانعوهم ، واخلوا لهم الطريق ووادعوهم . ووسعوا لهم في المضايق . وسعوا في امن طرقهم من الطوارق . وهذا حادث كارث ، وباغت فاجيء فاجع لاهل الحمية في الدين باعث . وناكب لعقود العقول في تعاظم ضروره وتفاقم خطره ناكث . وقد تعين الجهاد على كل مسلم . وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم . والاهتمام بدفعه من افرض المهام واهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض . وهو واثق بان بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه . وان الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه . إن شاء الله .

فصل فيه في جواب امير

عرفنا خبر العدو المشؤوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذه هديه اهداها الله الينا ، وفضيلة خصنا الله بها حيث اقامنا في مقابلة اعدى اعدائه، واقدرنا على مقاتلة من نازعه في كبريائه ، وقد ساقهم الموت الى المقبرة التي يدعونها ، ولبتهم المنايا التي يدعونها ولايدعونها ، ومعاقلنا بحمد الله قوية . وصوارمنا من دماء اعداء الله روية ، فيجب ان يكون في جميع اموره محتاطا ، ويظهر بما يغنمه الله من اسلابهم واشلائهم اغتباطا

فصل من كتاب الاستنفار

قد عرف ان العدو الالماني المخذول قد وصل فما لقعوده عن هذا المقام معنى ، وما لمن تأخر عن نصرة الاسلام من ثمرة السعادة

مجنى ، وهذا وقت نهوضه بجميع أهل بلاده واوان بذل وسعه وجده واجتهاده ، فانه محضر لا يغيب عنه الا مسن ليس له عند الله خلاق ، وموقف يفي بعهد الله فيه من سبق له ، معه في السعادة ميثاق ، وانها لغنيمة اوفدها الله علينا . وهدية اهداها الله الينا وفضيلة خصنا الله بها واسعدنا بسببها ، بل هي بلية جلاوجه النعمة فيها ، بل قضية وفى الله في النجح بموعود توافيها ، بل ملمة اختارنا الله لدفعها . وطاغية استدعى اولياءه لقمعها . وثائرة كلفنا الله باطفاء جمرها . وارداء جمعها . فلينهض نهوض الكريم الى مساعدة الكرام . وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام . وليثب وثوب الاسد على الفريسة . ولينتخ للاسلام انتخاء ذوي الانفس الابية والهمم العلية النفيسة . وليكن اول سابق في مضمار الجد . واسعد طالع في افق الجلد . فان الاسلام في انتظاره . والمطالع مستشرفة الى اشراق انواره . لازالت الاقدار جارية في اسعاد الدين والدولة باقداره .

فصل من كتاب

قد احاط العلم بما عرا من الملم . وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو السائر . ونزل من النازلة التي هي ام النوازل . والدائرة التي هي ام الدوائر . وقد آن للاسلام ان يسلم . وللايمان ان يعدم . وللتثليث ان يعلن . وللتوحيد ان يكتم . وللكفر ان يقدم . وللهدى ان يحجم . فقد قذف البحر من الفرنج بزبده . والبر آتي أتيه من كل بلد للكفر بسبده ولبده . ووصل الالماني المخذول بعدده وعدده . وهذا خطب قد دهم . وعدو قد هجم . وشر قد نجم . وجمر داهية قد وقد . وجمع طاغية قد وفد . في جيوش جائشة . وجموع طائشة وجنود محشوره . وبنود منشورة . وخيول مجفجفه . وسيول مجحفه ، وهذا اوان تحرك ذوي الحمية . ونهوض اهل الهمم الابية العلية . فان القوم في كثرة ولايقاتلون الا بالكثرة .

وهم مغترون بعلوهم . معتزون بعثورهم . مستندون في طريق العثرة والسيل اذا وصل الى الجبل الراسي وقف . والليل اذا بلغ الى الصبح المسفر انكشف . والمجلس اولى من تولى تفريج هذه الغمة . وكشف هذه الملمة حتى تخلف اماني الالماني . وتبطش ايمان الايماني . وتخذل انصار النصراني . وتجني وتبر رؤوس الجذوي والبيزاني . فاين المؤدون فرض الجهاد المتعين . واين المهتدون في نهج الرشاد المتبين . واين المسلمون وحاشي ان يكونوا للاسلام مسلمين . واين المقدمون في الدين ومعاذ الله ان يكونوا في نصرته على الموت مقدمين . ولولا التقيد بهذا العدو الرابض . لأطلقت اعنه النهضة الى العدو الناهض . ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين ، واراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

فصل فيه

قد سد طريق الفلق فيلقه الطارق . وزحف الى الحق الثابت باطله الزاهق . وجال بالوجل وجاء بالوجيب . وثار لثار الصليب السليب . وقد وقد جمر جمعه . ورتق فتق الصبح رقع نقعه . ومافض الفضاء ختام قتامه . حتى ختم على ضوء نهار الهدى ليل الضلال بظلامه . والرجاء محقق ان الالماني مخفف بالمامه . والاسلام مشفق من اسلامه . والدين موفق بنصرة امامه . وعصمة الله الواقية الوافية من ورائه وامامه . والله الكافل باعلاء اعلامه . واحكام احكامه .

ذكر الواقعة العادلية

كان الفرنج لما صح عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد . وانه ملأ احشاء الربا والوهاد بالاحشاد . قالوا انه اذا جاء لايبقى لنا حكما . والصواب ان نشيع لنا قبل شيوع اسمه اسما . لاسيما وقد

خفت عساكر الاسلام . وقفل اكثرها الى الشام . فنحن ننتهز الفرصة . ونحرز الحصة . ونهتبل الغره . ونهجم عليهم هذه الكره . ونذيقهم المرة المرة . ونفرغ من شغلهم قبل مجيء القادم . ونمت بعز العزائم وذفل حدودهم بحدود الصوارم . فخرجوا ظهر يوم الاربعاء العشرين من جمادى الاخرة . في حشر يذكر بحشر الساهره . واسود بياض النهار من سوادهم . وتراءت الاجام لنا متوافية باسادهم . وامتدوا الى الخيم العادلية ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . في كل ذئب امعط . وسيد قد تورط . وسرحان سرح . وافعوان كلح ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي أقدم وما احجم ، وسعيري ناري استعار خدمة النار . وسقري قسوري عاد بعادة الاقتسار . وباروني طالب للبوار . واسبتاري راغب في التبار ، وداوي معضل الداء . وتركبولي غير تارك للبلاء . وسرجندي كرار . وفريري غير فرار . وفارس يفرس الرجال . وراجز يرجز الفرسان الابطال . وازرق رزقه الموت الاحمر . وانمشى يمشي واليوم اغبر . واشقر وهو اشقى . وابقع اذا غوى في الوغى ماترك ولاابقى . ودخلوا الخيم العادلية وتجاوزوها . وقد كانت اخليت قبل ان يجتازوها . ووقف الملك العادل بطلبه . وعن يمينه ويساره امراء الميمنه الذين بقربه . مثل صارم الدين قايماز النجمي وعز الدين جرديك النوري . وجماعة من المعروفين بالشهامة . والموصوفين بالصرامة . ولبث الملك العادل لبث المخادع المخاتل . حتى يطلع من العدو على المقاتل . فقادتهم الاطماع الى الانتشار . وافضى بهم الاعتزاز الى الاغترار . فحينئذ بدأ بالحملة ولده الاكبر شمس الدين مودود . وهو في كل وقعة يحضرها جاد مجدود . فعضده والده وولده مساعده وساعده . وحمل معه العسكر الحاضر قبل ان تتصل به العساكر . فكسر الفرنج كسرة فرشهم على الارض وذكرت الواقعة العارضة بوقوعهم في النار يوم العرض . وكانوا قد بعدوا اكثر من فرسخ . واجفلوا ولم يلتفت اخ الى اخ . وركبت العادلية اكتافهم . وفلوا فيهم اسيافهم . وعقروهم وعرقوهم وبجوهم وبعجوهم . وحكموا في الرقاب الغلاظ منهم الرقاق . وضربوا ممن اعتقوا اليهم الاعناق . واشبعوا

اللتوت من لحوم الليوث . وبثوا بعوث المنية في تلك البعـوث . حتـى رتعت في كلا الكلى صوار الصوارم . وارعد وابرق بصواعق بوائقهم غمام الغماغم . وتعلقت بذوائبهم ذوائب الذوابل . ووصلت بهم الى النجاح منى المناصل . فلم تترك اللهاذم لها ذماء . وغادرها شـلها بالعراء اشلاء . ورأيناها كانها اعجاز نخـل خـاوية . ومـا احسن اجسام اهل الهاوية وهي هاوية . فكم جثـة بـلا راس . وبنية بـلا اساس . ونحر قد نحر . ودم قد انهر . ويد قد بتت . وكبد قد فتت . وعذق قد قطع . وانف قد جدع وودج وجد مفريا . وظهـر قـد ظهـر مبريا وحلقوم قد حلق . وغلصوم قد فرق . وداوي قد دوي . وبالدم روي . وصليبي كسر صلبه . وقلب على صدره قلبه . وحربي اتـاه الحرب . وغرب في ذبح عينه النبع والغرب . وكان السلطان قـد ركب وخشي أن جانب الميمنة نكب . وسير جمـاعة مـن كمـاة المـاليك والامراء على مقدمته . وانتظر الميسرة لتنهض في خـدمته . فـوصل الى الوقعة سنقر الحلبي في العصبة العزيزية . وفـاز مـن الغـزوة بالحظوة السنية . وجاء علاء الدين ابـن صـاحب الموصـل في اثناء المعركة . فعرف بركة سرعة تلك الحركة . لانه اخذ حظا وافرا ولقي من النصرة وجها سافرا . وانقضى الحرب ولم يركب بعد من رجـال الميسرة احد ولم تمتد منها الى قتال الكفرة يد . ووصـل السـلطان وشاهد من مساءه الفرنج ماسره. وعرف لطف الله وبـره ونصره . وعاين هنالك مصارع الاعدا٠ . ومشارع البلاء . وكانوا مفروشين في مـــــــدى فـــــــرسخ

على الارض . وهم في تسعة صفوف مـن تـلال الرمـل الى البحـر بالعرض . وكل صف يزيد على ألف قتيل . وشاع القتل من الافرنج في كل قبيل . ولما وصل السلطان راى عمـاد الدين وابـن زين الدين وامراء الميسرة قد عزموا على الدخول اليهـم . والهجـوم عليهـم . فانهم ندموا على ترك الاسراع . فراموا اتباعهم ليأخـذوا بنصـيب الفتك بهم والايقاع . فصدهم السلطان وردهـم . وشـكر عزمهـم وقصدهم . وأشفق من مضرة تشوب . ومعرة تنوب . فـان الدائرة كانت على العدو . وقد فاز بالنصر الحلو . والصفو المرجـو . وكانت

الذوبة بلا نائبة . والغزوة بلا شائبه . وقتل منهم زهاء عشرة الاف . ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة . فاغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسره . ولما عرفت بالواقعة . والنصرة الجامعة . صدرت ثلاثين اربعين كتابا بالبشارات . بابلغ المعاني وابرع العبارات . وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضره . ولأرى البشائر شائره . وركبت انا والقاضي بهاء الدين بن شداد . لمشاهدة ماهناك من اشلاء صرعي واجساد . فما اعجل ماسلبوا وعروا . وفروا وفروا . وقد بقرت بطونهم . وفقئت عيونهم . ورأينا امراة مقتولة لكونها مقاتلة . وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة . ومازلنا نطوف عليهم ونعبر . ونذكر فيهم ونعتبر . حتى ارتدى العشاء بالظلام . فعدنا الى الخيام . واخذت الكتب التي نمقتها . بالبشائر التي حققتها . وجئت واذا السلطان قد استبطاني . وعدم اجابتي لما دعاني . فما صبر ولاانتظر . ولاترقبني ان احضر . ولاامهل ان اعطي البشارة حقها . واجلوا باذوار المعاني افقها . وابلغ بالبلاغة مداها . واسبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها وأصف بحدود الاقلام ماصنعته حدود السيوف . واروج نقودي عند السلطان واغنية عن الزيوف . فابصرت عنده مشرفي المطابخ والابيات . ومدوني الجرائد بالاثبات . وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة . بعبارات سخيفة . وقد عطلت الحسناء من حليتها . وعروها من بزتها . وشوهوا جمالها . واحالوا حالها . فذهب بها المبشرون . وسار القاصدون . فما كان لتلك الوقعة عند من وقف عليها وقع . ولاتم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع . وارادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها . ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها . وفي تلك الحالة التفت السلطان الي وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداد . وعجل بها الانفاذ . فقلت على سبيل العتب انتم ماتريدون ما اكتبه . ولاترغبون فيما ارتبه واهذبه . فقال كانك كتبت البشائر فهاتها . حتى تهدى الى طرقاتها . فقلت مافات فات . وهيهات هيهات . واخرجت له مابقي من بشارات البلاد التي أنشأتها . بالالفاظ والمعاني التي ابتدعتها وابتدأتها . فسارت فسرت البعيد والقريب .

وخصت من جداها بالخصب الجديب . وصدحت باسجاعها المنابر .
وصحت بسماعها المفاخر . وظهرت بعباراتها العبر . وبهرت
بزبرها الزبر . وعمرت بمعانيها المعاني . وعمت مباهجها مناهج
الاقاصي والاداني فما اصحها كسره . وما اسحها نصره . وما ابينها
محجه . وما اثبتها حجه . وما أفرجها مسرة . وما أسرها فرجه .
وما أبرحها بالكفر صرعه . وما أوضحها للاسلام شرعه .

فصل في ذكر حالهم

لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الاكابر . ومفارقة عدة كثيرة
من العساكر . خرجوا متجاسرين . وامتدوا متقاطرين . وانتشروا
متغاورين . واغاروا للواء اللاواء ناشرين . ووصلوا في الميمنة الى
الخيم العادلية فاخليت حتى دخلوها . وتفرقوا فيها بجموعهم
وتخللوها فركبنا اليهم . وحملنا اليهم . وتركناهم صرعي بالعراء .
فوضى بالفضاء . فما بكت عليهم الارض ولا السماء . ورويت
السيوف من دمائهم . قبل ان تشبع الوحوش من اشلائهم . وظهرت
لنا نعمة الله في بلائهم وحبي الاسلام بهلاكهم . وضمتهم اشراك
الردى برداء اشراكهم . وانجلت المعركة عن اكثر من عشرة الاف
قتيل كافر . وثبت حكم ادالة الاسلام وظهوره باوضح دليل ظاهر .
ولو اتفق خروجهم من مراكزهم باسرهم . لكنا فرغنا من شغلهم
واخلينا بالنا بتأييد الله من امرهم . والآن قمع انطفاء جمرتهم .
وصحة امزجة العزائم بكسرتهم . وتطرق القلة الى كثرتهم . نرجو
من الله ان يسهل امرهم العسير . ويهون خطبهم الخطير . وان
ظهورنا عليهم قطع ظهورهم . وعثور هذه الوقعة بهم حقق
عثورهم والله تعالى يحقق تبارهم ودحورهم .

فصل فيه

وصلوا الى الخيم العادلية في الميمنة الميمونة . وا شتغلوا باستباحة احوالها المصونة . فـاطلقنا عليهـم الاعنة . وشرعنا الى نحـورهم الاسنة . وبعنا النفـوس لنتسـلم ثمنهـا الجنة . وفـرشناهم على الارض . وابينا باردا نهم بعض الفرض . وانجلت المعركة عن عشرة الاف قتيل مشرك . وشملتهم المذون فكانهم جـاؤوا على مـوعد مهلك . وا روينا من دمائهم ظمأ السيوف . وجعلنا ا شـلاءهم قـرى الوحوش لاالضيوف . وامن الاسلام بحمد الله من المخوف . وادرك الله باخذ ارواحهم رمق الدين الملهوف . وهذا دليل ظاهر على ركود ريحهم . وخمود مصابيحهم .

فصل

حملت عساكرنا عليهم . واحاطت بهم مـن حـواليهم . ورضـتهم بالدبابيس واللتوت . وتركتهم صرعي بتلك المروت . وسـاحت بتلك الساحة دأماء الدماء . واكتسى عري العراء بتلك الا شـلاء . وافضى بذلك الفضاء جمرهم الى الانطفاء . وامرهم الى الانقضاء ورتعـت ثعالب الرماح من كلاء كلاهم في المرعى . وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة الاف . فترى القوم فيها صرعى . وطابت من نتـن جيوفهـم ريح النصر . وحنت من سماجة مرآهم وجـوه الدهـر . والآن الان الله شدة شكتهم . وقط شوك شوكتهم . وهبـت نكبـاء نكبتهـم . ونرجو أن يسهل من امرهم ما تصعب ويؤلف بصدعهم من الاسـلام ما تشعب .

فصل

وصلوا الى الخيم العادلية فدخلوها • وتفرقوا فيها بجمعهم وتخللوها • وكان ذلك قبل تكامل ركوب العساكر • وتموج بحارها الزواخر • فحمل الملك العادل ومن هو قريب منه من الامراء والمماليك كولدنا الحسام بن لاجين وصارم الدين قايماز النجمي وبشارة وجرديك وعطفوا عليهم عطفه صدتهم عن الانعطاف • وصرفتهم عن الانصراف • وثارت اثارهم بواتر البواتر • واحتوت عليهم الضوامر احتواء الضمائر على الاسرار بالحوافر الحوافر • وفضتهم بالفضاء وعرتهم من كسوة الحياة بالعراء • ولو لحقت الميسرة لتكمل قطع دابرهم • واتى القتل على اولهم واخرهم • وانجلت المعركة من الكفار عن عشرة آلاف قتيل • ملأت كل واد وسدت كل سبيل • وقد ذلت عزتهم وضعفت قوتهم • وعجزت قدرتهم • ولما انقضت هذه الوقعة • وتم الناهضين الينا الرجعه • رأيت احد مماليكي ونصله قد خضب • وعزمه قد رضي بعد ما غضب • فسألته كم قتل • والى اين وصل فقال:اما انا فما ابقيت . وخضت البحر وما توقيت . وهذا غلامي قتل تسعة • وشام من عارض نجيعهم نجعة . وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا اقل من الف فقتلوا اضعافا مضاعفة • وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة • وحكي من نوادر هذه الوقعه ان فرنجيا عقر فجثا الصرعه • فعثر به راكب برذون • بغير رفيق ولاعون • فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده . فنزل بجده مستنا في جدده . وقتل ذلك الفرنجي وروى من دمه الهندي . وحل من وسطه ثمانين دينارا • فانقلب ربحا ماعده خسارا.وامتلأت الايدي بالاسلاب والاكساب . وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب . وبيعت الزربيات ذوات الأثمان بالرخص ، وزادت ارباح اهل السوق بذلك النقص

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ورد في عصره نجاب من حلب بعد خمسة ايام . بكتاب يتضمن نجح كل مرام . وبخبر بان عسكرا مجرا من الكفار خرج للغارة على الأطراف والاقطار . فخرج اليه العسكر واخذ عليه الطريق ، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق . فلم يصح لهم رشد في منهاج . ولم ينج منهم ناج . فعضد ذلك الخبر هذا العيان . وقاموا بهوان الكفرة البرهان . وسر الخواص والعوام وخص وعم السرور . وانارت المطالع وطلع النور . وشرع الفرنج في الخداع . والمراسلة في امر الجانبين عام الانتفاع . وسألوا في الصلح . والخروج من ليل الحرب في السلم الى الصبح . واذن لهم السلطان في الخروج . للنظر الى اولئك الصرعى بتلك المروج . وهي قد تورمت وأنتنت وجافت ، وحميت الشمس على جيفها وحافت . وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت ، فساءهم ما سرنا ، ونفرهم ما اقرنا .

ذكر ما تجدد للفرنج من الانتعاش بوصول الكندهري بالمال والرياش وما اعتمده السلطان من الاحتياط اشفاقا من التفريط والافراط

وما زال الفرنج في وهن وضعف ، وتوزع بينهم وخلف ، حتى وصل في البحر .كند يقال له هري . وهو عندهم عظيم القدر . فكمل بمن وصل معه نقصهم . واحيا بعد موت نفوسهم حرصهم . وافاض عليهم بالاموال . وحلى منهم بعد عطلها الاحوال . ورصع بالرجال مراكز من صرع . وقرع السن ندامة على من قلع وقرع . وانفسخ عزمنا عما كان فيه شرع . فقد كان العزم بل الحزم ان نبادرهم على ضعفهم . قبل ان يمدهم البحر بضعفهم . فكان من تقدير الله تأخير ما وجب تقديمه والتواني فيما تعين تتميمه . ولما وصل هذا الكند وتمكن . وقوى اهل الكفر بكل ما امكن . اظهر انه يكبس عسكرنا ليلا على غره . وبدت منه امارات

كل شره وشرة . وشاع هـذا الخبـر على السـنة الجـواسيس والمستأمنين . فـاحضر السـلطان امراءه وخـواصه المؤمنين الميامين . واستشارهم فيما يقـدمة مـن الصـواب . ويفتحـه في المصالح الراجحة من الابواب . فاشاروا بايساع الحلقة . وادارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه . حتـى يؤنس الى الخروج لحربه . فـوافقهم السـلطان على هـذا الرأي وحسـن في قلبه . فرحل يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة الى منزله الاول بالخروبة . واشتغل بالتدبير في الفوز بـالنصرة . ونزل العسكر على تلك الهضاب وحـوالي سـفوحها . واحتـوت كل جثة خيمة ممن حل فيها على روحها . ورتـب اليزك في المنزلة الاولى كل الف فارس بالنوبة في يومين . وضويق باهل الصـدق منهـم اهـل المين . وتدبر الترتيب وترتب التدبير . وعرف في اليزك اوقات نوبته واوبته الصغير والكبير . واما عكا فـالكتب متـرددة اليهـا ومنهـا السباح . والحمام اليهـا ومنهـا تحمـل البـطاقات على الجناح ، والمراكب تدخل اليها وتخـرج ، واليهـا وعنهـا تعـوج وتعرج . واخبـار ملك الالمان متـواصله . بـأن انصـاره له خاذلة . وانه ضعف ووهي . وانه الى انطاكية انتهى . وانه تعـوق هناك . وتوقع من مرامه الادراك . وتوقف عن المسـير . واعتـاض التعسير من التيسير . ووقع الفناء في جمعه . وتعجل قمعه قبـل ان يصل الى محل قمعه . وانه قد اشتغل بالانفاق في رجال الاستجناد والاستنجاد . والاحتشاء والاحتشاد . وان اصـحابنا يأسرونهـم ويتلقونهم ويتلقطونهم . من الطرقات ويتخطفونهم . ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا . ويجمـع قـطافا ونطافا والطافا . ويذكر تمكينه من اقامة الجمعة في جامع المسـلمين بقسطنطينية والخطبة . وانه مسـتمر على المودة راغب في المحبـة . ويعتذر عن عبور الالماني . وانه قد فجع في طـريقه بـالاماني . وانه لاقى من الشدة . ونقص العدة . ووصل المشقة . وقطع الشقه . مـا اضعفه وأوهاه . والهبه والهاه . وانه لايصـل الى بـلادكم فينتفـع بنفسه أو ينفـع . ويكون مصرعه هناك ولا يرجـع . ويمـت بمـابه كاده . وانه بلغ في اذاه اجتهـاده . ويطلب رسـولا . يدرك بـه مـن

السلطان سولا. فأجيب في ذلك الى مراده . ووقع الاعتماد بما ذكره من اعتداده .

ذكر حريق المنجنيقات

وفي رجب من السنة اذفق الكندهري بعد وصوله ما وصل معه من المال والرجال . فأعطى عشرة آلاف راجل في يوم واحد ليجدوا معه في القتال . وضايق مدينة عكا اشد مضايقة . واخذ القومص والكنود بذلك . موافقه . ونصب عليها كل منجيق . من الرمي غير مفيق . رجومه للشهب بالشياطين . ونجوم الحجارة تنقض من أرض الكفر الى سماء الدين . فهي مجانيق مجانين . وميادين ثعابين . ومسارح سراحين . فاشتد على اصحابنا بالبلد وقعها . واحتد على صدقعهم صدقعها . وقالوا كيف نجد من مناصبها المناص . وهل ذاقي من شؤم خصائلها الخلاص . فأجمعوا على الاقدام وأقدموا على الاجتماع . وأخذوا بالارتياء في ترك الارتياع . وخرجوا بالفارس والراجل . وأموا بالحق أمة الباطل . وجاوزوا تلك المجانيق المنصوبة والستائر المضروبة الى خيامهم . وخلفوها من ورائهم واللقاء من قدامهم . فلما خلت المنجنيقات ممن يحميها . خرج الزراقون من البلد ورموا النار فيها . فاحترق جميعها . وغرق في بحر النار صريعها . وقتل في ذلك اليوم من الفرنج سبعون فارسا في اللقاء . وقطع الواصلون اليهم عليهم طريق البقاء . واسر منهم خلق كثير . من جملتهم اربعة من المعروفين فيهم فارس كبير . فما أمهلوه حين أخذوه . حتى قتلوه ونبذوه فطلبه منهم الفرنج بالأموال . ولم يعرفوا بالحال . فأخرجوه اليهم قتيلا . فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا . فباتوا يندبونه نوحا ، وينيحون سر تقدمه فيهم بوحا . فخمدوا بعد ذلك الضرام . وركدوا بعد هبوب ريح المرام . وضربت عليهم الذلة . وشجتهم عقودهم المنحلة وعقولهم المعتلة . وطمع فيهم الناس . وعرا طمعهم الياس . وصارت الخنادق تهجم . والستائر تهتك وتضرم والحدود بالمصال تثلم .

والخدود بالنصال تلثم الى ليلة شعبان من السنة . فأبت بالحالة الحسنة . فان اصحابنا خرجوا على غرة . ومضوا الى القوم باذكاء مضرة . وأحرقوا منجنيقين كبيرين قد نصبا بعد كل استظهار . وانفق على احدهما كند هري ألفا وخمسمائة دينار . وكانت الليلة الاولى من شعبان مباركة . ونعم الله لنا ونقم الله على العدو فيها متداركة .

ذكر وصول بطسة بيروت في العشر الآخر من رجب

قد تواردت الشكوى من البلد أن الذخيرة قد فنيت . وأن الأفكار باستدعائها عنيت . وأن الاجسام لفقدان قوتها ضنيت . وأبطأ على السلطان وصول البطس المستدعاة . من مصر بالغلات . فرأى ان ذلك من تقصير الولاة . وأفكر فيما يعجل به قوة وقوتا . ويجعل له اجلا موقوتا . فكتب الى والي بيروت عز الدين سامة . ان يهجر في كل مابه عز الدين السآمة . ويعطي ويتزكى ويحتال في انفاذ ميرة الى عكا . فعمر بطسة كبيرة واعدها . وأجد من عزيمته الماضية فيها جدها . وتولاها بخلق سمح . وملأها بأربعمائة غرارة قمح . ونقل اليها أنواع الطعام . واصناف الأدام . وقطيعا من الأغنام . وهذه بطسة من الفرنج مأخوذة . وهي بساحل بيروت منبوذة فأمر السلطان بترميمها وتتميمها . واخفاء البغية منها وتكتيمها . وأزيحت منها العلة . ونقلت اليها الغلة . ومانت بالشحوم واللحوم . وبكل ماتدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم . وحمل فيها من أحمال النشاب والنفط ما جمع به فيها بين القوة والقوت . ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت . وأرادوا ان تشتبه ببطس العدو في البحر . وأن لاينكشف الفرنج مالها من الستر فتصوروا رهبانا . وصوروا صلبانا . ومسحوا لحاهم ومسخوا حلاهم . وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا وشدوا زنانير واستصحبوا خنازير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين . والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين . والقوم

لجهلهم لايشكون انهم من أهلهم ونسوا الحادث وأنسوا بالحديث .
وتصور الطيب بصورة الخبيث . ولما حاذوا بها عكا صوبوها
نحوها والريح تسوقها . والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ماهذه
طريقها . وهي كالسهم النافذ قد سدد فوقها . وقد عقت رفقتها .
وهي تكاد تعوقها . وقد دخلت الثغر وأدخلت اليه كل خير . وعجب
الناس منها ومما تم لها من حيلة في سرها . واجتزا البلد بها
شهرا . ووجد منها لكل كسر جبرا . يالها من لطيفة قضينا منها
الارب ولم نقض منها العجب .

ذكر وصول بطس الغلة من مصر الى عكا
ظهر يوم الاثنين رابع عشر شعبان

كان السلطان قد كتب الى النواب بالاسكندرية على وجه
الاستظهار بأن يشرعوا في تجهيز البطس الكبار . ويملأوها بالغلات
واصناف الأقوات . ويعمروها بالكماة الحماة الرماة . ويرسلوها
عند موافقة الريح الى الثغر . فان خلصت اليه ولو واحدة منها أغنتة
بعد الفقر . وتمادت الأيام على هذا الأمر . واستبعد وصولها مع
امتلاء البحر بمراكب الكفر . وكاد اليأس يغلب . والرجاء
يضطرب . ووردت كتب اصحابنا بعكا انه لايبقى لنا ليلة نصف
شعبان قوت . ولاشك ان كتاب اجلنا الى هذا الامد
موقوت . فاشفقت النفوس واستشعر البوس . والمت القلوب وألمت
الكروب . ولجأنا الى الله الذي يجيب المضطر اذا دعاه . ولايخيب
من رجاه . ولايضيع من استرعاه.فلما كان ظهر يوم الاثنين رابع
عشر شعبان ظهرت من أقصى اللجة تلك بطس كأنهن الاعلام
واستبشر بظهورها الاسلام . وقد زفت عرائس جواريها الحسان
وخفت رواسي سواريها الثقال . وذكرت بقوله تعالى:(وهي تجري
بهم في موج كالجبال) (هود ٤٢) والريح تطردها طرد النعام .
والماء يرسلها على رغم أهل النار الذين هم اضل من الانعام . فما

تراءت حتى استقبلتها مراكب الفرنج وشـوانيها . واحـاطت بهـا تقاتلها من اقاصيها . وأدانيها . وهـي تشـق عليهـا وتشـقها . وتعوقها عنها وتعيقها . حتى برت منهـا البـر الإيمـان الايمـان . وهزات بتلك الاكمات المطيفة بها جبـالها الرعان.وعبـرت والكفـر خزيان ينظر ، ونهضت بالعز والعدو في نيل الذل يعثـر . ووصـلت الثلاث وهي سالمة ، والمثلثة راغمة والموحدة غانمة . وقد فرج الله بها غمة الثغر . ودفع ماالم به من الضر . وحمدنا الله على الموهبة التى ادركت الارمـاق . وأدرت الارزاق . وتـلافت الارواح مـن التلف . وحملت عن النفوس المشفية مشاق الكلف .

فصل من كتاب الى سيف الاسلام في هذا المعنى

كان كتب الينا اصحابنا بعكا اننا حسبنا وإلى ليلة نصف شعبان لايبقى لنا شيء نفقاته . وبقاؤنا ببقاء القوت وفواتنا فـواته . فبينا نحن في هذا المهم مفكرون . ومن هـذا الهـم متذكرون . اذ ظهـرت العيون بالقرة . والقلوب بالقرار والمسرة ثلاث بطس على ثبج البحر مستقرة . يبعثها لطف الله بعثا . وتحثها الريح القوية حثا . كأنهـا جبال باقبالها تروع ونسور اجنحتها القلوع . وشـعر الفـرنج بهـا فضاقت مذاهبها . وبرزت مراكبها . ودبت عقـاربها وقـربت مـن البطس شوانيها . وقويت في البطش أمانيها.وحمى مافيها من فيهـا من الرجال . وهي تجري بهم في مـوج كالجبـال . وكأن جـواريها عرائس يزففن بما لهن من الجهاز ، وكأن البحر المتموج ثـوب بتلك الاعلام المنشئات معلم الطراز . بل كأنها تجار تحمل الصـدقات الى ذوي الاعواز . فجاءت فجأة متسقة موسقة . وأتى الآتي بها موافقة موفقة . فلم يقدر على مقاربتها ومقارنتها شيني شـانيء . وكانت كلاءة الله وعصمته لها خيرا من كل كاليء . وجازت والكفر خزيان ينظر . وفازت بالعز والعدو بنيل الذل يعثر . وكان وصـولها أوان انفضاض الأزواد وانفادها . فملأت المدينة بغـلاتها . وأزوادهـا . وعصمت أرماقها . ودسمت امراقها . وقسمت ارزاقها . واشـبعت

جوعها . وشبعت صدوعها، وأنالت آرابها . وأزالت اجدابها . وخصتها بخصبها وصحت لها بسحبها . فأفاقت من الفاقة وافرقت من الفرق . وسكنت بعد القلق .

وعاد اليها بعد الفسق اسفار الفلق . والحمد لله المغني بعد الاعدام . المدني السني بعد الاظلام . المذفى باوليائه اعداء الاسلام

ذكر عيسى العوام وما تم عليه في العشر الاخر من رجب

وكان رجل يعرف بعيسى العوام . وقد تردد بالكتب والذفقات الى عكا ومنها في ذلك العام . وكان ناصحا امينا . بحفظ الاسرار ضمينا . يسبح ليلا في البحر . ويعبر على مراكب اهل الكفر ويصل بما معه الى الثغر . ولكم خاطر بنفسه فسلم . واعتورته اسباب المتالف والالام فما الم . واتفق انه عام ذات ليلة غير مكترث بما في طريقه من اخطار . وعلى وسطه ثلاثة اكياس فيها الفا دينار ومعه من ذفقات الاجناد وبائع . ومحقرات بضائع . فعدم ولم يسمع له خبر . ولم يظهر له اثر . فظنت به الظنون . وماتيقنت المذون . وكانت له لا شك عند الله منزلة . فلم يرد ان تبقى حاله وهي مجملة محتمله . فوجد في ميناء عكا ميتا قد رماه البحر الى ساحلها . وانهب حق اليقين من الظنون بباطلها . وبراه الله مما قالوا . واحال الذي عليه احالوا . فقد وجدت على وسطه تلك الاكياس . وتعجب من حاله الناس . فلم يذهب بذهابه الذهب الذي صحبه . وطهره الله من الرجس وعنه انذهب .

ذكر وصول ولد ملك الالمان الذي قام مقام ابيه الى الفرنج بعكا

ذكرنا حديث الالماني وملم حادثه ، ومااداه اليه من دواعي كفره وبواعثه . وكان مسيره من انطاكية يوم الاربعاء خامس عشري

رجب .ولقي في طريقه على اللاذقية الشجى والشجن والشجب .واذن ضعف خيلهم .بضعف ويلهم .ووجدت لهم مابين اللاذقية وجبلة ستون سبعون فرسا قد عطبت .وعلى اعواد عظامها سواد الغرابيب خطبت .وقد استقبله المركيس .وقصده التانيس .وان يهديه بضلاله الى الطريق التي تؤمن طوارقها .ويتسع عليه مجال الامن وان سلكت مضايقها .فوصل به الى طرابلس في العشر الاول من شعبان .ووصل خبر وصولهم في سادسه الى السلطان .وحزرهم من شاهدهم في الطريق بخمسة عشر الفا .وسمعنا في حزرهم بالقليل والكثير خلفا .ثم انتقل في البحر .الى عكا في موضع الحصر .ووصل اخر النهار سادس شهر رمضان .بعد ان عاين في البحر من اختلاف الهواء الهوان .فلم يبق له وقع .ولم يحصل لخرق القوم به رقع .واقام بين جنودهم .كأحد كنودهم .وقال الفرنج: ليته لم يصل الينا ولم يقدم علينا .فانه لو اقام في موضعه .وامدنا بفيضه من منبعه .لهيبت عظمته .وعظمت هيبته .وارعب روعه وراع رعبه ورجي منا وخشي من المسلمين قربه .وقد قطع بنا منذ وصل .وحص لنا جناح نجاح حصل .ووصل في البحر وحده .ولم يستصحب جنده .ثم وصل اليه الاصحاب .وتقطعت بهم الاسباب .ثم رام ان يظهر لمجيئه وقعا .ويبدي له نفعا .ويثير لنفع غلة ثاره نقعا .فقال: الام القعود عن القوم .ومابقي الا النهوض اليهم من اليوم .ولابد من ضرب المصاف معهم .واني على الخروج اليهم لادفعهم .فقالوا له انت ماارثت وهج قتالهم .ولااثرت نهج نصالهم .ولاحاربت بحربهم .ولاكربت بكربهم .ولو حزبت بحزبهم .لاصحب جماحك لجماح صحبهم .فابى ونبا .وشب الشبا .فلما عرفوا جهله . وان صعب الامر عنده ساوى سهله . قالوا له: نبتدىء بالخروج الى اليزك . فلعلنا نوقعهم عند الاحاطة بهم في الشرك . فدبوا في راجل كرجل الدبى . وخيل اغصت الوهاد والربا . ومرجوا في المرج . وطووا تلك المدارج طي الدرج . واشعلوا الخرصان في ليل النقع عوض السر . وقربوا من تل العياضية . وعليه خيم اليزكيه . والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصريه . والعصبة الموصلية . فلما

بصرت بهم ثارت اليهم . ودارت عليهم . وانهضت بنات الحنايا من خدودهم الى الجدور . واوردت ظماء الظبي منهم ماء التامور . وانبعث بالنبع من عيونهم العيون . واستخرجت بالضرب من اعناقهم الديون . وطيرت بإطارة السهام الى الاحداق بهم الاحداق . وخاطت الاماق وماخطأت الارماق . وصار كل سهم شهم . وخطر في محل خاطر اسرع من وهم . وركب السلطان من خيمته وتقدم الى تل كيسان . ووقف ينهض بعد الفرسان الفرسان . فلم تزل وجوه البيض تحمر . وثنايا السمر تفتر . وذيول النقع تنجر وصفحات الجو تغبر . وارجاء رجاء النصر تخضر . الى ان جن الظلام . وكف الكفر وسلم الاسلام . وكانت الدائرة على الكفره . فاعرضت بالوجوه المتنكرة . وابنا بالانوار المسفره . ومر الالماني متالما . ومن ظلمة حاله متظلما . وبكلوم قلبه متكلما . وقد عاين ماعاناه من العناء . وشق عليه ما شق مرائره من الشقاء . وبلي مما بلي به من البلاء . وعلم ماجهله . واستصعب ما استهله . وذاق ماضاق به ذرعه . وكاد يتم في القتلى رصعه لو تم صرعه . لكنه تجرع من الغصص ماسهل عليه الموت جرعه . وتاب وماثاب . وابى الرجوع الى اللقاء لما آب . وحينئذ جدوا في قتال البلد وحصاره . واتباع ليل الجد فيه بنهاره .

ذكر برج الذبان

وعند ميناء عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان . وهو في حراسة الميناء عظيم الشان . وهو منفرد عن البلد . محمي بالرجال والعدد . وقصد الفرنج حصاره قبل مجيء ملك الالمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها ومراكب عظام والات ابرزوها . ومكر مكروه ودبر دبروه . وبغي غي بلغوا غاياته وريب راي رفعوا راياته . وشر شرك الهبوا شراره . وايد كيد ارهفوا غراره . وعنان عناد اطلقوه ولسان ضرام اذلقوه . ويد بطش بسطوها وعقله معاقة انشطوها . واحد تلك المراكب قد ركب برج على . راس

صاريه . لايطاوله طود ولايباريه . وقد حشي حشاه بالنفط والحطب . وضيق عطنه لسعة العطب . حتى اذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته .أعدى اليه بآفاته . ورميت فيه النار فاحترق . واحترق من الستائر والاخشاب مابه التصق وتستولي النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها . ولم يقربوا منها . فسهل عليهم فيه التسلق . ولم يصعب به التعلق . وملأوا بطسه اخرى بأحطاب يسري فيها النفط ويسرع بالهاب . حتى يوقدوها . وعلى السفن التي لنا بالمينا و ردوها . فتعدي عدوانها . وتنير وتسدي فيها نيرانها وهم في مراكب من ورائها للحرب مستعدون . وللشر مستمدون .حتى اذا تم برجائهم في البرج والمينا مناهم . نالوا من الاستيلاء والاستعلاء غناهم فلما قدموا البطسة ذات البرج المعمور . وصار الصاري ملاصق السور . جاء الامر بعكس ماقدروه واخفق ظنهم للادبار فيما دبروه . فان الهواء كان شرقيا . فلم تجد نارهم في مطار برج الذبان رقيا . بل اشتعل برج الصاري وتراجعت ناره الى اهلها . وعاملت ذوي الجهل بجهلها . واوقدت بطسة الحطب من ورائها وتطايرت اليها شعل اذكائها . وعادت على الفرنج فالتهبوا . وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا . فانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا . والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يفرقوا . واحتمي برج الذبان فلم يطر من بعدها عليه ذباب . ولم يفتح للعدو في الكيد له باب .

فصل مشبع في المعنى من حصار برج الذبان مرة بعد أخرى من كتاب الي سيف الاسلام باليمن

وافكر الافرنج في امرهم واجالوا قداح الرأي في مكر مكرهم . وقالوا هذا البرج المعروف ببرج الذبان . منفرد عن البلد في وسط البحر منقطع المكان . فاذا اخذناه تسلطنا على مراكبهم التي في المينا . واذا لم نؤثر بمجيئنا تأثيرا فلأي سبب جينا . ومن حديث هذا البرج انه يحيط به البحر من جوانبه . وهو قفل مينا الثغر على

مراكبه . وقد رفعناه واعليناه . وبالعدد والرجال قويناه . وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه وبكلاءة الله وعصمته اياه عصمناه وكلاناه . وقد حاموا حوله حولا . فلم يجدوا على نيل غرض منه قدرة ولاحولا . فعمدوا الى اكبر بطسه واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم . وهو في مقدمها مركب مقدم . وقد جعلوها بحيث اذا قربت الى البرج ركب رأس السلم شراريفه . وصعد الرجال اليه في تجاويفه . وتعبوا في ذلك اياما وشبعوا أ توثيقا واحكاما . وهو بمرأى من الاصحاب ينظرونه ويبصرونه . ويستنجدون الله عليه ويستنصرونه والقوم قد اصبحوا بذلك البطسة زاحفين . وعلى ذلك السلم بعددهم واقفين . حتى اذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط . وتوالت امطار البلايا من الجروخ والحجارات والمنجنيقات على اولئك الرهط . ووجدت النار بسطة في البطسة ولم يسلم السلم . وناب القوم من فجيعتهم بها المصاب الذي الم بهم والم . وقتل منهم من باشر القتال . ونزل العذاب بمن حاول النزال . والحمد لله الذي ايات ظهور دينه متناصرة . ودلائل نصر اوليائه متظاهره . ثم عمل الفرنج برجا عاليا في اكبر مركب وحشوه بالحطب . وعملوا على رأس صاريه مكانا يقعد فيه الزراق . ويتأتى له فيه الاحراق . وقدموه الى برج الذبان وسلطوا على جوانبه جواني النيران . وقصدهم بذلك احراق ستائر البرج المنصور . ورأوا ان في ذلك هدم بنيانه المعمور وحسبوا ان الستائر اذا وقعت فيها النار . تعذر على رجاله القرار وتعجل منهم للحذار الفرار وكانت الستائر تشتعل والخواطر تشتغل . والحال تضطرب والبال يلتهب والقلوب تضطرم والكروب تحتدم . فأهب من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس . واكبت الفرنج على الوجوه الرؤوس . وتعس جدهم . وتعكس قصدهم . وانقلبت الريح التي لهم عليهم . وصوبت مرامي العذاب اليهم.

فصل في المعنى

ولما وقم الله القوم . قالوا لاطـاقة لنا اليوم وعادوا وقـد غرمـوا ورغموا . واخلف ماعزموا وزعموا واشـتغلوا بمـلء بـطس لهـم شحوما واحطابا وادهانا واخشابا واشعلوا فيها النار والهبوها . وارسلوها الى مراكبنا في يوم ريح عاصف وصوبوها .وادنوها منها وقربوها وكادت سفننا تحترق ومراكبنا تفترق. فانزل الله الفـرج وقت الشدة وامن من المخافة المحتدمة المحتده . وانقلبت الريح عليهم وعادت مخالفة لهم بعد ان كانت موافقه . وحالة تلك الحالة للعـادة خارقه فاحترقوا بنارهم . وشرقوا بعارهم . وجذبت بـطس اولئك الكلاب بالكلاليب . وتوالت الطاف الله في تلك الذوب المتناسقة مطردة الانابيب مستهلة الشآبيب

ذكر الكبش وحريقه
بعد تعب العدو في احكامه وتسوية طريقه

واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة . والة للغوائل غائلة . في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش . وله قرنان في طـول رمحين كالعمـودين الغليظين اقفال الاسوار المغلقة بها تفش . فـكم سـور اذا نطحتـه طحنته . وكم معقل حصنه الدهر وصحنته . وهـذه الدبسابة في هياة الخربشت الكبير وقد سقفوها مع كبشها بـاعمدة الحـديد . وكملوا لها اسباب الاحكام الشـديد . ولبسـوا رأس الكبش بعـد الحـديد بالنحاس . وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البـاس . فلم يبق للنار اليها سبيل . ولاللعطب عليهـا دليل . وشـحنوها بـكماة المصاع . وحماة القراع . ورماة الحـدق وكسـاة الحلق . وعفـاة الحتف . وجفاة الزحف . ومجتابي الزغف . ومجتبي العسف . من كل سرحان لاينظر الا من جلد أرقـم . وكل شـيطان لايقتحـم مـن الحرب الا جهنم . وكل شجاع لايعتقـل الا شـجاعا . ولايرى لغير

النجيع القاني اقتناء ولاانتجاعا . فلما استدفت لهم هـذه الدبـابه وماجت بالحديد لجتها العبابه . واطـافت بـذلك الكبش تلك التيوس النبابه . وامذوا عليها الحريق واموا بها الطريق . سووا بين يديها الارض . ومهدوا الطول منها والعرض . وصحبوها حتى سحبوها وقروا بها اعينا بل انفسا وقربوها . فجاءت صورة يزعج مـرآها . وروضة يعجز مرعاها . والة تروق هيأتها . وعدة تـروع هيبتهـا . وبلي البلد من دنوها بالبلاء الداني .وتغاشت وتعاشت دونهـا نفس الرامي وعين الراني . وقال اصحابنا هـذه مـافي دفـع خـطرها حيلة .ولالبارق الظفر بها مخيلة . فكيف العمل . وفيم الامل . ومن للكبش العظيم وقطع رأسه.ومن لبناء الحديد ونقض آسـاسه . فإن كانت هذه الدبابة دابة الارض فما هذا أوانها . وما حان زمـانها . ولقد قامت بها قيامة الحشر فقام بـرهانها ونصـبوا على صـوبها مجانيق . ورموا بالحجارات الثقيلة ذلك النيق . فابعدت رجالها من حواليها . وطردت المطرفين بين يديها .ثـم رمـوها الحـزم بحـزم الحطب حتى طموا مابين القرنين بجرزة . وقذفوها بالنار فتـرنم في اثنائها عجاج اللهب برجزه . ودخلت من باب الدبابة فاشتعلت نار ضلوعها . وشرع من فيها في الخروج بعد دخولها وشروعها . وجـاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالبينات . يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات . فاطفأوا نار الظـاهر ولم يعلمـوا بنار البـاطن . ولم يحسوا بما تمكن من أضلاعها من الحرق الكوامن . وحين أخمـدوا الجمر . احمدوا الامر . ورجعـوا ولم يزل اللهـب يأكل سـقوفها . حتى ترك على ما غطى الخشب من الحديد وقوفها . وحينئذ خسفها المنجنيق .فانهد ذلك النيق . وصوح ذلك الروض الانيق . ووهن ذلك التركيب الوثيق . وندفقت تلك الدابة واحترقت تلك الدبـابة . وخـرج من بالثغر المحروس. باشري الوجوه طيبي النفوس . وقطعوا رأس الكبش . واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش . وحمل كل من الحديد ما اطاق حمله . واستطاب لثلج صدره وبـرد يقينه حـره واستخف ثقله . وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار . فقـل في الة لبست بهذا المقدار وهو أعظم مقدار . وعاد أصـحابنا على عدوهـم

ظاهرين . ولحزب الكفر قاهرين . وكلهم ينشد وهو ينشيء وينشد جدا وجدا .

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقنط الكافر وكفر القانط . وسخط الشيطان واستشاط الساخط . وعلم الفرنج حين حبطت اعمالهم . وهبطت آمالهم . أن الشقاء ادركهم، والشقاق اهلكهم . وأن مدبرهم مدبر . وان ترتيبهم مدمر . وأن آلاتهم غير نافعة . وأن نهلاتهم غير ناقعة . والحمد لله ذي الطول العميم . والفضل الجسيم . الذي نعش . عثار الثغر بعد ان تل للجبين فتلينا قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الصافات : ١٠٧) وكان في يوم الاثنين ثالث عشر رمضان ، واحترقت البطسة يوم الاربعاء خامس عشره .

وفي هذا اليوم وهو يوم الاثنين قدمت عسكر الشمال . يقدمهم ذو القبول والاقبال وهو الملك الظاهر صاحب حلب . وقد استصحب معه الاجناد وجلب . فجاء عشية وجدد بلقاء والده عهده . ثم عاد وعاد بكرة الثلاثاء يقدم جنده . ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر . وقد استكثر معه واستظهر . وعز الدين بن المقدم . ذو القدر الافخم . والنجر الاكرم . وحسام الدين حسين باريك وجماعة من الامراء . من ذوي المكانة والبسالة والغناء . وقدم الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك . وقد استصحب غلمانه الاكاديش ومماليكه الترك . وكان لذلك اليوم رونق . وصفاء لم يشبه رنق . واتفق في يوم الاثنين هذا من العدو على البلد الزحف الشديد في الخلق العظيم . جحيمين يلتهبون بنار الجحيم . وتركهم اصحابنا حتى قربوا من السور . واقدم العدى إقدام المتهور الجسور . فلما ازدحموا وكثروا . واضطرموا واستعروا . غنت لهم الاوتار برنين القسي فطاشت لها السهام . ودعت اليهم الاقدار بحنين الحنايا فلباها في لباتهم الحمام . وزارتهم من الزيارات الجروخ . واخذت نيرانهم تبوخ . ورضتهم المجانيق بالاحجار . وأنت عيون نجيعهم بالانفجار . وخرج

اصحابنا عليهم فشلوهم الى الخيام . وفلوهم بحد الاقدام . وافضى الخرق بالعدو إلى الخرق . وأخلقت بجدة جدنا جدة أولئك الخلق

ذكر حوادث تجددت ومتجددات حدثت

وصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب انطاكية أغار على غره بشره وبشره . ووصل الجاسوس بخبره . وبما البلاد مشرفة عليه من خطره . فرتب اصحابنا له كمينا . ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا . فقتلوا أكثر رجاله . وافلت وباله في وباله . وانهاض من تلك النهضة . وضعف من تلك العضة . وفي ذلك التاريخ القت الريح إلى ساحل الزيب ، بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء للتغريب،وفيها امراة محتشمة . غنية محترمة . فاخذنا واخذوا وأخذت . وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت . وسرنا ما ساء العدو . وآتانا الله من احسانه المرجو .وفي عشية الاثنين تاسع عشر رمضان رحلنا الى منزل يعرف بشفر عم . وخص بهذا الرحيل النفع وعم .وكان سبب ذلك أنه كثر المستأمنون إلينا من الفرنج . واخبروا انهم في عزم الخروج الى المرج هائجين للثار ثائرين الى الهيجاء مائجين في دأماء الدماء لحب اللقاء . وصح هذا الخبر وصدق . ووضح الحق وتحقق. فاحضر السلطان الامراء الاكارم. ورجال الحقائق الضراغم . الذين هم له أعوان صدق لساعات أيامه .وذخائر نصر عند اعتزامه فاستشارهم واستثار كوامن سرائرهم . واستنبط دفائن ضمائرهم .واستكشف منهم الصواب . وتعرف من جانبهم الجواب فقالوا: الصواب ان يفتح لهم عن هذه المروج حتى يكون دخولهم اليها يوم الخروج . فنصحهم في اليوم الآخر ولايتعذر بهم احداق العساكر وانما لايقدرون على القصد دفعة واحدة . الا اذا كانت أيديهم . متساعدة وآراؤهم متعاقدة فان انفردوا عن الراجل وساقوا كسرناهم واسرناهم . وان توقفوا للراجل قصدناهم حيث نزلوا ولقيناهم وصددناهم .واجمعنا على أن نرحل الى شفر عم و

نخيم على هضابه . ونبطل على العدو ما كان من البيان في حسابه . فخيمنا هناك على أحسن تعبيه . وسنينا أسباب اللقاء أتم تسنيه و رحبت المنازل . وعذبت المناهل . وعادت معالم تلك المجاهل . و حللنا التلاع والآكام . وركزنا بتلك الاعلام اعلام . ونزلنا لمقام الشتاء مستعدين . ولاسباب التوقي من الامطار مستجدين.
وأضحينا على تلك الاطواد موطدين . وعند تلك الاوتاد موتدين . وتسنمت تلك الفروع وفرعت تلك الاشعة . وتمسكنت تلك البنى وبنيت تلك الامكنة . وتحركت تلك الجبال بسكانها . واحبت الرجال التوطن بها وسلت عن اوطانها . ودارت الاسواق . ودرت الارزاق . وانارت الافاق . وصهلت الصلادم على معالفها وصقلت اللهاذم لمراعفها . وذوب اليزك بحالها تدور وترويه وتعيد رسم الحفظ والحماية وتعود والحرب تتناوب. والزحف يتعاقب. والاقران تتواقع والوقائع تتقارن . والاعوان تتعاضد والاعضاد تتعاون . والعتاق بصهيلها لحب الطراد تحمحم . والرقاق بصليلها لشوق الجماجم تجمجم . والمقربات للاجراء صوافن والضوامر للشد ضوامن . ومنى المناصل صلة القطع . ورجاء الرجال نبع النصر في قرع النبع بالنبع . والتوحيد للتثليث منازل . والايمان للكفر مقاتل . ولاكارم الا الكلام . ولاسلام الا بالسلام . فلا يسمع الا اسرج والجم . وتقدم واقدم . وأصم وصمم . واضر وأضرم . ولاتله حتى تلهب . ولاتعج حتى تعجب . واقطع وصل . وأكتل بصاع المصاع وكل . ولاتقلق والق وقلقل . ولكل داع إجابة . ولكل ساع اصابة . ولكل سهم في المرمى فوق . ولكل شهم في المرام سوق . ولكل صعدة في الطعان صدعة . ولكل قعدة للرماء قدعه ، ولكل عقدة بالضرب حل ، ولكل عدة في الحرب فل ، ولكل عضب عض ، ولكل ذي حظ حض ، ومن له نصيب في الشجاعة نصب في التشجيع ، ومن له جراءة الهيجاء هاج الى الصريخ بالجد السريع ، والأيام منا على هذه الحالة مندرجة ، ومياه الصديد بأمواه الوريد ممتزجة ، والفرج منتظر والنواظر متفرجة ، وتباشير صباح الصفاح في دياجير القتام متبلجة ، ولله نعمة في كل بلية ، وسر في كل قضية .

ذكر وفاة زين الدين صاحب اربل

في ليلة الثلاثاء ثامن عشري شهر رمضان وماجرى بعده من الحال قد جرى ذكر هذا الأمير ، وماتجلى به من الكرم والخير ، وهو يوسف بنالتكين بن علي كوجك ، ومن سعادة جده ماطلب غاية في الكرم الا ادرك ، وماكان اسره يوم الحضور واحضره يوم وفاته السرور ، فلقد كان جارا للكتائب ، بارا بالاباعد و الأقارب ، سارا باسداء المواهب ، دارا بأخلاف الرغائب ، مارا في سبل المناقب ، قسارا على قلق النوائب ، وكان في ريعانه الرائع ، وشعاعه الشائع وشبابه الطري طرير الشبا ، وحبه لعقد السودد معقود الحبا ، فمرضت الأيام بمرضه اياما ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد امست مراضا ضراما ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة اخيه مظفر الدين في موضعه ، وأنه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على مايحبه ، وهو جاهل بمزاجه ذاهل عن علاجه فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ماازهى ازهاره ، وماانضر نضارة ، ونقله الله من جنات الحياة الى حياة الجنان ، وعجل به ليجازيه لاحسانه بالاحسان ، وحوله من بين الاتراب الى التراب ، ومن دار الاغترار والاغتراب الى موطن الثواء بالثواب ، وآذن الزمان بعد الاجداء بالأجداب ، ولزمه اخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وماظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه معزين على ظن انه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع مايحويه ، ووكل بالأمراء القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم بخمسين الف دينار حتى أخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها و سميساط والبلاد التي معه واعادها ، وزاده السلطان شهر زور ، وأحكم بمسيره الاسباب والامور فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين ، لينزل في

منزلته بجنده وصحبه الميامين فوصل يوم الاحد ثالث شوال ، فحلي بعد العطل الأحوال ، وكان قد انفصل صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه وذهب مغاضبا ، وكان السلطان له في الانفصال عاتبا ، فأعاده تقي الدين من الطريق ، وقبح له مااستحسنه في ترك الموافقة من عدم التوفيق ، وكان هذا سنجر شاه دخل يوم العيد بكرة للهناء ، فاستأذنه في الانكفاء ، فخرج على حالته وسار وتبعه اصحابه . ولج جماحه وتعذر اصحابه فلما اجتمع به تقي الدين رده ، وبذل في صيانه منزلته عند السلطان جهده ، وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام . وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام ، وصدق الاعتزام ، وتقرر ملاله ، وتكرر سؤاله فكتب اليه السلطان .

من ضاع مثلي من يديه فليت شعري ماا ستفادا .

فلما قرأ هذا البيت ماراوح في الخطاب ولاغادى ، وغلت الاسعار عند الفرنج واستعرت الغلل ، واعلهم ماعراهم وعرتهم العلل ، وباؤوا بالوباء ، وبلوا من البلاء ، وغلوا من الغلاء ، وتضوروا من الضراء ، وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة ، وعدموا الطاعة والاستطاعة ، وزاد جوعهم ، وزال هجوعهم وقصرت عن القرار بوعهم ، وامحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعثهم الرهب ، على الهرب ، والقحط على الشحط ، لكنهم اقاموا على الموت ، واستنامو الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة ، وقد بادوا من الضعف البادي ، واعداهم الضر العادي ، فمن سألناه عن مقتضى فراره ، ومقضى قراره ، يخبر انه طواه ، الطوى ، فنواه النوى حين التوى ، من حذر التوى ، وقد أنساه المحل النحل ، وأبغض اليه حب السلامة الولد والاهل ، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار والسعر من الزيادة لديهم في استعار ، فما جاء الا كل ضعيف لايقوى على النزاع والنزال ، ولا مسكة لاعتلاق رمقه من الاعتلال ، فقبلناهم واذقنا فيهم والفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم ، فتقوتوا وتقووا ، وأثروا بعد ماقووا ، فمنهم من أسلم

وخدم ، ومنهم من ند وتندم ، ومنهم من غدا بجريرة وعاد ، ومنهم من ناصح فاستفاد .

ذكر نوبة رأس الماء وخروجهم بعزم اللقاء

ولما ضاق بالقوم ذرعهم ، واشرقهم جرعهم ، وعرقهم قرعهم ، واخلفهم خلف عيشهم وضرهم ضرعهم . وعيل صبرهم وعال ضرهم قالوا: نخرج ونبلي . ونصل ونصلي ونقصد ونصدق ، ونلي ونقلق ، ونفل ونفلق ، ونعز ونعزم ، ونهز ونهزم ، ونحمي ونحمل ونقطع ونوصل ونزحف ونحفز ، ونزعج ونعجز ، ونجهد ونجهل ، ونعقر ونعرق ، ونخرج ونحرج ، ونلج ونلجج ونضري ونضرب ، ونغلي ونغلب ، ونجن ونجني ، وننيف ونفني ، ونرد ونرذي ، ونجد ونجدي ، ونقد ونقدم ، ونعدو ونعدم ، ونصد ونصدع ونقد ونقدع ونجد ونجدع ، ونصر ونصرع ، ونسل ونسلب ونروع ونرعب ونبدوا ونبيد ، ونتصدى ونصيد ، ونظهر ونظفر ، ونرهق ونقهر ونقسو ونقسر ، ونسكر ونكسر . فخرجوا في عدد خارج عن العد ، واستقاموا مع الاعوجاج على جدد الجد ، وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال ، وأخذوا معهم عليق اربعة ايام ، وزادها واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها ، وكان اليزك في تل العياضية فركبوا ، واشعلوا القوم بنيران النصال والهبوا ، فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا حفرناها عند نزولنا هناك ، والحمية الحامية المنبعثة على تلك البعوث ماتركت الاتراك ، فباتوا حول القوم يرمون ويدمون ، ويشوون ويصمون ، ولما اتصل خبرهم بالسلطان رحل الثقل الى ناحية القيمون ، وثبت الله القلوب على الامن والسكون ، وبقي الناس على خيلهم جرائد ، وقد استعذبوا من مر الكريهة الموارد ، وركب العدو يوم الثلاثاء سائرا ، وقد عب عبابه زاخرا ، وهب غابه زائرا ، وطما بحره مائجا ، وسما جمره مارجا ، وعساكرنا في احسن تعبيه ، ولدعاء القراع في اوحى

تلبيه ، وقد امتزجت زجرات الجاووش ، بنعرات الجيوش ، والميمنة الى الجبل ممتدة ، والميسرة الى النهر بقرب البحر وصفوفها مشتدة مستدة ، والسلطان في القلب كالقمر في الهالة ، عليه اكليل من أنوار الجلالة ، فسار حتى وقف على تل عند الخروبة ، على المهاب الحالية والحالة المحبوبة ، ومقدموا ميمنته ، عظماء دولته ، صاحب دمشق ولده المبجل ، الملك الافضل ، وصاحب حلب الملك الظاهر ، وصاحب بصرى ولده الملك الظافر ، وأخوه الملك العادل في آخرها ، والأمراء بعساكرها ، يلي حسام الدين بن لاجين ؛ قايماز النجمي صارم الدين ، والأمير بشارة صاحب بانياس ، وهو الذي لايرجو منازلته الا من فيه بسان الباس ، ثم بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر ، وقد طالما بشر الاسلام بما باشر ، وعدة كثيرة من الامراء يطول ذكرها ، على أنه يطيب نشرها ، وعظماء الميسرة ومقدموها ، وأمراؤها ومقدموها ، الملك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو العادل للاسلام وعلى الكفر جار ، وابن أخيه معز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة ، والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة المبيرة ، وسيف الدين علي المشطوب ، الذي نشب بناره الحروب ، ونصب على العدا منه الكروب ، والهكارية والمهرانية ، والحميدية والزرزارية ، وأمراء القبائل من الاكراد ، اقتال القتال وأجادل الجلاد ، ورجال الحلقة المنصورة واقفون في القلب ، لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب ، من كل فارس فراس ، وهرماس رماس ، وضيغم ضاغم ، وضرغام غارم ، وليث فضفاض ، ملوث بفضفاض ، وقسور قاسر ، وهزبر زابر زائر ، واسد في غاب الاسل ، وقارع في القراع بباب الأجل ، وقار ثعالب الخرصان وذباب الظبا من دم الاقران ، وقار على الثبات على قلق ثبات الشجعان ، وقارىء (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم) (التوبة ١١١) ثقة بوعد القرآن ، وقارن حج النجح بعمرة عمره وبذله في الجهاد للتمتع بعمر الجنان ، وسابق الى حلبة الشهادة ، وسامق على ذروة السعادة ، وملابس للروع مباسل وعاسل ، كالذئب الى ذب العدا

عن الهدى بعاسل ، وســـار الفـــرنج شرقـــي النهـــر لنا مــواجهين ، وللكريهــة غير كارهين ، حتــى وصـــلوا الى رأس النهر ، واشفقوا من بأس القهر ، فــانقلبوا الى غربية ونزلوا على التل بينه وبين البحــر ، والجــاليشية الرمـــاة منا حـــولهم جائلة ، وعيون اعيانهم على نصالنا ســائلة ، وجـرح في ذلك اليوم وهو الثلاثاء خلق من أهل التثليث،ومانبا عن كثير منهـم ناب النائب الكريث ، والسلطان في خيمة لطيفة بحيث يشاهد ، ولله منه الجاهد المجاهد ، واصبح الفرنج يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقــاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجــل مطيف محدق بهم كالاسوار ، واصحابنا قد قربوا منهم حتــى كادوا أن يخالطونهم ، وأرادوا يبــاسطونهم ، والســلطان يمـد الرمــاة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهــم ثــابتون نابتــون ، ســـاكنون ساكتون ، ونحـــن نقـــول لعلهـــم يحملون ، ويغضــــبون فيجهلون . فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم وتفريق جماعتهم . وتفريج الغمة بنزع جمتهم . واحس العدو بالضعف . وانه متــورط في الحتف . فسار موليا . ولعذره لذعره مبليا . ومضى على مضض . ومر بأشد مرض . والنهر عن يمينه والبحر عن يساره . وقد ايقــن ان صح منه الثبات بانكساره . وعســكرنا يصــافحهم بــالصفاح . ويكفهم بالكفاح . ويشعلهم بجمرات الســهام . ويلهبهــم بحــدمات الضرام . ويحرقهم ويشويهم . ويصميهم ويشــويهم . ويفيض على غدران السوابغ منهم جداول القواضب . ويخيض في دأمــاه الدمــاء منهم سوابح السلاهب . ويغيض في ماء الوريد منهم مــاء الفــرند . ويغيظ بني الكفر في الجمع بين الاختين عليهم ابنتي الغمد والزند . وادبروا مولين . وارخصــوا مــن مهجهــم مـــا كانوا له مغلين . وعسكرنا يتبعهم . ويعلق بهــم ويقلعهــم . وهـــم مجتمعـــون في مسيرهـم . محتمون في تقديمهم وتأخيرهـم . يتحــركون في ســكون . ويتظاهـرون في كمــون . ويتــطلعون في غروب . ويتقللون بغــروب . ويتذوبون في جمود . ويتلهبون في خمــود . وكلمــا صرع منهــم قتيل حملوه وستروه . وطموا مدفنه وطمروه . حتى يخفى أمرهـم . ولا

يصبح لدينا كسرهم . ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق . وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق . وابلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا . واتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا . وقام اياز الطويل في ذلك اليوم مقاما اقعد فيه من الكفرة كل قائم . وأنبه به من العزائم كل نائم . وكان مقداما همساما . واسدا ضرغاما . يطير وحده الى الروع اذا ابدى له ناجذيه . ويجيب المستصرخ ولا يسأله عما يدعوه اليه . وهو في كل يوم يصبح في سلاحه شاكيا . وبنار عزمه ذاكيا . ويقف بين الصفين . ويدعو إلى المبارزة والحين . فما يبرز اليه الا من يصرع ولا يصل اليه الا من يقطع . فعرفه الفرنج فتحاموه . فما رامـوه.بعد ذلك ولا رامـوه . وبذل هذا اليوم جهده وفل حدهم حده . واصابته جراحات . واصابتهم اجتراحات . وكذلك سيف الدين يازكوج ابلى في الجهاد ذلك اليوم . ووقم بنصاله ونضاله القوم وخرج وبه جرح . وفي قلب العدو وعينه من مهابة انتقامه واصابة سهامه قدح . وأصبحوا بكرة الخميس . وقد بكر الخميس . وحمي الوطيس . وسار في اسده العريس . فاشرفنا عليهم واذا هم داخلون الى مخيمهم سائرون الى مجثمهم.فعاد السلطان الى سرادقه حامدا ، خلائق خلائقه . مسفرا في ليل العجاج فلق فيالقه . واستعاد الاثقال . الى معسكره . واستزاد من الله له الاقبال في مورده ومصدره . وفخر بتفرده عن ملوك الأرض بعون ملائكة السماء وتفرد بمفخره .وكان مع الفرنج الخارجين المركيس والكند هري ، واقام ملك الالمان على عكا يبري ويفري .

فصل من كتاب في المعنى

خرج الفرنج يوم الاثنين حادي عشر الشهر . واثقين من ملوكهم الحاضرين بالظهور وقوة الظهر . وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر . فخرجوا الى شرقي النهر . وباتوا بالقرب من مخيمهم على البلد .وقد تخلف لحفظ حصره الوف من

اهل الجلد . ثم تصبحوا يوم الثلاثاء والنهر عن يمينهـم . والأسـد سائرة بـالأسل في عرينهـم . والحمية مشـتعلة في عيونهـم وعرانينهم .ونزلوا راس العين . وتطرق بها اليهم مـن عسـاكرنا المنصورة طارق الحين .ولما اصبحوا وجدوها بهم محدقة . وبنيران النصال والمناصل لهم محرقه . وكنا نقول انهم يتحركون للمصاف . والأمر بالخلاف . وانهم لسهام المنون من الأهداف . وما دارت بهم الا الجاليشية تجول وتصول . وتصيب وتصـوب وتـطيل وتـطول . وكانت الاطلاب واقفة تنتظر حملاتها وتستعد لوثباتها وثباتها . فلما ابصر الفرنج ما حل بهـم مـن العـذاب . عدوا الغنيمـة في الاياب. وشرعوا في طريق الذهاب . فعـادوا مـن غربـي النهـر راجعين . وساروا صوب خيامهم مسارعين . واصحابنا وراءهم يرمونهم ويشوونهم ويصممونهم . وقتل منهـم خلق.وسرى في حجـب حياتهم خرق . ونزلوا تلك الليلة على الجسر وقطعوه وباتوا خائفين هائبين . ورحلوا سـحرا خـاسئين خـائبين . وخيولهـم الناجية مجرحه . وقلوبهم الراجفة مقرحه . واشلاؤهم مـن كسـوة الحياة عارية وبالعراء مطرحه . وعرفوا ان حركتهم للهلكه .وان هلكتهم في الحركة . واقاموا على الضر والزاد معدوم . والبلاء لكل منهم منفرد وعليهم مقسوم . ولا طعم لهم الا مـن لحـوم الخيل . وهـم يدعون بالثبور والويل . ومـع كثـرتهم قلوا عناءا . وضـلوا رجـاءا وذلوا بلاءا . واعتلوا جدبا وغلاءا . ولما عاد الفرنج الى خيامهم . خافقين من مراميهم . مخفقين من مرامهم . وابصر المقيمون بها اصـحابنا وراءهم يطلبون اردانهـم . متعطشين الى دمـائهم . يرمـون ارواءهم ، وثبوا على جيادهم ، وثـاروا لمراد مـرادهم ، ولاقـوا اجمعنا بأجمعهم وفاضوا لفيضنا من منبعهم ، فـاندفع الاصـحاب حتى تبرزوا ، ثم ردوا عليهم الكرة فانحذوا واجهزوا . وقتل في تلك المعركة كند كبير . وشيطان لنار شره من سعيره متسعير . وطلبـوا بعد انفصال الحرب جثته فاعطوها . والتمسوا هامته فلم يجدوها . وكان رجلا يعد برجال . وسلبه قوم بأموال.ولولا ما ذفق مـن التياث مزاج السلطان . ما سلم من سلم من حـزب الشـيطان! ولله في كل قضية سر . وفي كل ليلة بر .

ذكر وقعة الكمين

وما زال السلطان موفقا في آرائه . ومشرقا بـلالاء آلائه . ومـن آرائه الراجحه . ومساعيه الناجحة .ومتاجره الرابحة . انه رأى ان يرتب على العدو كمينا . وعلم الله يكون لنجحه ضمينا . فجمـع يوم الجمعة الثاني والعشرين من شـوال منتخبـي رجـاله . ومنتجبـي ابطاله وخواص أتراكه . وعوام فتاكه . فانتخب منهم كل من عرفت سابقته . وسبقت معرفته واحمدت في الجلاد جلادته . وفي لقاء العدا عادته . وعلمت في الفتك جهالته . وامرهم بـأن يكمنوا على سـاحل البحر بقرب المنزلة العادلية القديمة . فمضـوا وكمنوا ليلة الســبت متنبهي الهمة . متيقظى العزيمة .وخرجت منهـم عدة يســيرة بعـد الصباح . منادية بحي على الفلاح . ودنوا من خندق القوم . ونادوا لا قعود بعد اليوم . ومطروهم سهاما . واسرعوهم ضراما . فـطمع الفرنج فيهم . وظنت انها تلاقيهم . وخالتهم صيدا قد سنح . وسربا قد سرح . فقطعت خنادقها . وبتت علائقهـا . وحثـت سـوابقها . واخاضت بحر الحرب سوابحها . وقد افاضت سـوابغها وشـامت صفائحها . وتجردت عن رجـالتها . وتفـردت بضـلالتها . وحملت بجهالتها . واقبلت بادلالها لا بدلالتها . وتطارد اصحابنا امـامها . وانهزموا قدامها . حتى وقفـوها على الكمين . واوقعـوها في الهلك المبين . فخرج الكمين عليها . وتبادر اليها . فلم يستطع فارس منها فرار . ولم يطـق مـن غرتـه ان يمضي غرارا . وكانت في مــائتي قنطاري ، من كل مقدم بـاروني وبـطل داوى واسـبتاري . فقتـل معظمهم . ووقـع في الأسر خـازن الملك وعدة مـن الافـــرنسيسية ومقدمهم ، وملكوا وسلبوا وملك سلبهم ، وتقـطع بهـم سـببهم . وماوصلهم اربهم . وجاء الخبر الينا . فركب السلطان وركبنا وسار ووقف على تل كيسان . فشاهد من الله هنالك الاحسـان . وجـاءه مماليكه يقـودون اولئك الاعزة بخـزائم الذل . ويجـــودون بمـــا استخلصوه من ذلك القل ، ويقدمون المقدمين من سراة الاسـاري . وتلونا لما شاهدناهم (وترى الناس سكارى ومـا هـم بسـكارى)

(الحج ٢) فقد رضتهم اللتوت وقضقضتهم الليوث . وبعثتهم الى مصارعهم الظاهرة من مكامن الآجال البعوث . وترك السلطان الاسلاب والخيول لآخذيها . وكانت بالأموال عظيمة . فما اعارها نظرة ولا تردد امره فيها . وفيها حصن كانها حصون . وزرد موضون . وخوذ منها مذهب ومدهون . وسيوف ذكور تتولد منها المنون . وملابس رائقات تحار فيها العيون . وابنا بالملوك مصفدينا . وحمدنا الله الذي بارشاده هدينا . وجلس السلطان في خيمته على دست ملكه . وقد انتظم له عقد النصر في سلكه . فمن كان عنده اسيرا احضره . فأنعم عليه وشكره . وكنت عند السلطان جالسا . ولحبير الحبور لابسا . وقد جمع اولئك الاسراء . وما اسعد الله إلا في تلك الساعة اولئك الاشقياء . ودامت محاورته لهم مشافهه . واطعمهم بعدما آنسوا فاكهة . ثم بسطهم ببسط الخوان واشبعهم وارواهم ثم احضر لهم كسوة وكساهم . والبس المقدم الكبير فروته الخاصة فقد كان الزمان قد برد . وفصل الشتاء قد ورد . وأذن لهم في ان يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره . ولاعلام من يؤثرون ان تعرف معارفه اخباره . ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال . وحفظهم بالقيود الثقال .

فصل من كتاب بشرح الحال ووصف المقام مع الاعتلال

ولما كانت ليلة السبت ثالث عشر من شوال كانت نوبة اليزك لاخينا الملك العادل فأشار بانفاذ عدة اليه تكون في الكمين . وتقيم في الكمين اقامة خدرات الأسود في العرين . فانفذنا اليه من مماليكينا سرية سرية سرت سرا واستسرت وسرت . وقرت في مكمنها الى ان طابت الانفس بصنعها وقرت . ولما اصبح الفرنج يوم السبت خرجوا على العادة عادين والمنايا الى ناديهم منادين.فاستطرد من حضر من العرب واليزكية قدامهم . واظهروا انهم قد ظهروا عليهم وهربوا .

ورهبوا اقدامهم. وما زالوا ينهزمون وهم وراءهم . يقومون فيهم رجاءهم . حتى ابعدوهم عن المأمن . وعبروا بهم عن المكمن . فخرج عليهم الكمين من خلفهم . وفتح عليهم أبواب حتفهم . وأروهم وجوه المنايا في مرايا غرر الجياد . ونزعوا عنهم لباس الجلد لباس الجلاد . وفلقوا البيض بالبيض . وفلحوا الحديد بالحديد . واشعلوا نار الظبا في ماء الوريد . وفضوهم بالفضاء . وعروهم بالعراء ولتوهم بالتوت . وبتوا اعناقهم من حبل الوتين المبتوت . فلم ينج منهم ناج . ولم يبق منهم للبقاء راج . واسرت عدة من مقدميهم . ومعروفيهم ومحتشميهم وكانت هذه بحمد الله نوبة بغير نبوه . وكرة بغير كبوة . وغزوة اننت بأوفر حظوه . ووقعة اننت بل اجنت كل نصره نضرة عذبة حلوه . والحمد الله الذي تزكو انعمه بسقيا الحمد ، وتوضح عوارفه لنا كربها جدد الجد . ولولا مرضنا في النوبة الاولى التي خرجوا فيها بأجمعهم . لما نجوا بحشاشاتهم بل تعجل مصيرهم الى مصرعهم . لكنا ماقدرنا في ذلك اليوم على الركوب . وجلسنا على تلعة قريبة من المعركة ننتظر مايكون من العسكر المندوب . والان بحمد الله قد توفرت حصة الصحة . ولزمت منة المنحة . وكذلك مرضنا عام اول شهرين . والحمد لله على المهلة في السنتين . فاقمنا مع السقام ، وسقمنا في المقام ، وصبرنا وصابرنا . وجاهدنا وجاهرنا . ومقامنا في هذه المدة المديدة في بلد الغور . والوخم فيه يقضي على ماء الصحة بالغور ، ومامنا الا من التاث . فأعانه الله بغيث فضله المديمة ديمته الالتاث . والحمد لله الذي أعان وأغاث .

ذكر هجوم الشتاء ومقام السلطان على الجهاد وعود من سار من العساكر الى البلاد على رسم الاستراحة والاستعداد

ولما تشتت شمل الصيف الرفيق . بشمول الشتاء العنيف . وانحرف حريف الخريف كانحراف مضيف المصيف . واشتعلت

رؤوس الجبال شيبا الثلج ، وحل الوحل المخيم جيشه المجر بالمرج .
والتحفت كل هضبة ببرد البرد . واكتست الغدران من الجليد بالزرد
السرد . ولبست سود الذرا بيض الفرا . وجر السيل النيل وجرى .
وطمر المطر هوادي الوهاد . وقبض انامل الانام عن البسط
للجهاد . وجمد الخمر . وخمد الجمر . وارتعدت الفرائص .
وارتدعت الاخامص . وقرست الايدي ، وامسى الجو بالجوى المسيء
يعدو ويعدي . وحل الهواء بالوهاد عقود القوى . وعقد المترفون على
حب الاصطلاء الحبا . واشتغل الملوك بملازمة المشاتي . ومنادمة
المواتي . ومناقلة المناقل . ومعالقة العقائل . ومعاقرة العقار .
ومسامرة السمار ، ومداناة الدنان . واجتناء الجنان . ومناغاة
الغواني . ومناجاة المثالث والمثاني . وملابسة السوالف والسلاف .
وملامسة اللطائف واللطاف . فلت نار عزم السلطان حد الشتاء
العاتي . ووقف مع عزائمه الماضية وهجر من مشى الى المشاتي .
وما صده البرد عن مقصده . ولا رده عن مورده ولم يحتفل
باحتفاله . ولم يبال ببلاله . ولم يكترث بكارثه . ولم يحدث امرا
لحادثة . فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره .
وجرى على عادته في مصابرة الاعداء والجري لها في مضماره . وما
لها عن الله ولا رفض فرضه . وسما الى سماء الآلاء وارضاه لما
طهر بدم انجاس اعدائه ارضه . واستمر على بذل جهده في الجهاد .
ووفى بعهده ولم يثنه جفاء العهاد . وقال انما أربأ بهذا الأرب .
وأرى راحتي في هذا التعب . ويقيني يقيني في ثلج صدري بلطف الله
عذف الثلج . وما يبرد قلبي مع تقلب الحر والبرد الا برد النصر
والفلح . لكنه رأى ان مقام العساكر بجمعها . وصرفها عن العود
الى البلاد ومنعها ، يوزن بملالها . واختلال امورها وانحلالها .
والفرنج قد امنت غائلتها . وتكفى في مداومة قتالها في نوبها
مقاتلتها . فاذن للجماعة في الانصراف على المواعدة في المعاودة في
الربيع . والرجوع الى مراد الروع المريع . وليأخذوا اسباب
الاستعداد لأوقات الاستدعاء . وليستكثروا من الرجال المحققين في
نصرة الحق الرجاء من اهل الغنى والغناء والمضارب
والمضاء . فسار صاحب سنجار عماد الدين زنكي خامس عشري

شوال يوم الاثنين . وتلاه صاحب الجزيرة ابن اخيه سنجر شاه ليكونا مصطحبين . وسار بعدهما ابن صاحب الموصل علاء الدين غرة ذي القعدة . وما انصرفوا الا بالتشريف والخلع المعدة . وشيعهم السلطان بكل مكرمة شائقة شائعه . وخلعه رائقه رائعه ، ومستعملات مصر . ومصوغات تبر . وخيل عتاق . وخير واطلاق .

فصل من كتاب الى صاحب الموصل عند عود ولده اليه وينعت بالملك السعيد علاء الدين

ماكان اسعدنا بقرب الملك السعيد،وما أجد جدنا بانارة نوره . واوفر حبور بحضوره ، وأصدق شهود صدق ولائه بحكم شهوده . وما ابهج الاسلام بنصرة ناصره ونجدة وليه ووروده . ولقد تمت بأيامن ايامه وبركات مقامه في العدو نكايات . وظهرت لأولياء الله من الطاف كفاياته آيات .ووقعت بالمشركين روعات . وراعت وقعات . وقد أردنا ان نستظهر بمرافقته . ونبني الامور على موافقته . فما ايمن سعده . وما اسعد يمينه . وما اقر وزنه واغزر مزنه ، لكنا عرفنا شوق المجلس الى اجتلاء سناه . بمقتضى آدابه التي استكمل بها ادوات الارتقاء في مطالع علاه ، فقد فاق بسداد رأيه الكهول . وما ازكى الفروع الطيبة اذا أشبهت الاصول . وما اسعد الملك بالملك السعيد علاء الدين ادام الله علاءه . وسر بفضائله اولياءه . وقد توجه والقلوب معه متوجهة . والنفوس لغيبته متكرهه . والعيون لترقب ورود البشائر عنه منتبهة . والأيام لظلمة الاستيحاش بالليالي متشبهة . والموارد الى ان يمن الله بعود الانس بعودته متسهنة . والالسن بذكر اخلاقه الطاهرة والافاضة في محاسنه الزاهرة متفوهه . والخواطر فيما تمثلته ايام الاستسعاد به من مبهجات الائه متنزهة ولا شك ان يصف بلهجته الفصيحة . ما اقتناه من المتاجر الربيحه . وقدمه من المساعي النجيحة ، واستنجحه في الغزاة من مغازيه الصحيحه . وله في كل

نصرة وهبها الله للاسلام اوفى نصيب . فقد امسى مقتل الكفر بكل سهم مصيب . وهو لستصرخ الهدى اسبق ملب واسرع مجيب . وان الله له بسفور صبح سعادته ووفور نجح ارادته افضل مثيب .

ذكر ما تجدد بعد ذلك في هذه السنة

لما هاج البحر وماج . واظهر الارتجاج والانزعاج ، نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها . واخلوا ساحل عكا من ارعابها وارهابها . وخلا لنا وجه البحر وغابت عن الساحل مراكب الكفر . فاشتغل السلطان بانفاذ البدل الى البلد . من الثابتين في الجلاد على الجلد . فانتقل الملك العادل بمخيمه الى جانب الرمل ونزل قاطع نهر حيفا في سفح الجبل . لتسهيل طريق من يسيره الى البلد من البدل . فان المقيمين في عكا شكوا امراضا معترضه . واعراضا ممرضه ،وكثرة السواد مع قلة النفقة والزاد . وكان في البلد زهاء عشرين الف رجل من امير ومقدم وجندي . واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال . وغلمان ونواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج فسكنوا . واذا عاينوا خوفا على الموضع .موهنا عاونوا وما وهنوا . فرأى السلطان ان يفسح لهم في الخروج رفقا بهم ورأفة.وما افكر أن في ذلك مخافة وآفة.فقد كان فيه امراء امروا الامر والفوا الصبر ومانعوا الحصر . واجترأوا وتجاسروا . وصبروا وصابروا . وحاربوا وخرجوا . وجاروا وجربوا . وزالوا وازالوا . وحاوروا واحالوا وعرفوا مكامن المكايد . وكشفوا كوامن المقاصد . واخذ كل موضعه في الحرص على الحراسة وشاعوا بالسماحة والحماسة . وكان فيهم من يطعم وينفق . ويجمع الرجال وقلوبهم بما عليهم يفرق . مثل حسام الدين ابي الهيجاء السمين . فانه انفق ما ادخره من الالوف والمئين ، مستمرا على انفاق لا تعتريه فيه خشية املاق وهناك ستون اميرا ومقدما . وكلهم يرى المغرم في سبيل الله مغنما . وكانوا ينتفعون بالعوام وكثرة الناس في جذب المجانيق . والاعانة على ما

يدفق في الحصر من التضييق فلما خرج الخواص خرج معهم العوام .
وتبدد بتبدد نظمهم النظام . والزم الســلطان جمــاعة مــن الأمــراء
بالدخول . فخدموا على ان يعفيهم بالبذول . فلم يقبل منهــم بــذلا .
والزم بنقل الأزواد لبعض سنتهم كلا . فلم يدخلوا الا بعدلأي . وقد
بلغــوا في غي الرأى الى اقصى غاي . واكثــرهـم صرفـ رجـــــاله
المعروفين المستخلصين . واقتنع بمــن اســتجد اســتخدامه مــــن
المسترخصين . واذهبــوا الايام بــالمدافعه . وابــطأوا عن فــرض
المسارعه . والملك العــادل هناك يحثهــم ويحضــهم ويحــرضهم .
ويعينهم على تحصيل المراكب لهم وينهضهم . حتى لم يبلغ من دخل
عشرين اميرا مقدمهم الأحمــد . ســيف الدين المشــطوب علي بــن
احمد . وامر السلطان بــالمناداة في الابــطال البــطالين . ليحضروا
لقبض الذفقات وكان يحضر الجاووش في كل يوم مــثين . ويصــبح
ذواب الديوان في امرهم مرتبين . لحــرصهم على تــوفير الدرهــم .
وبخلهم بالذفقة ويعدونها من المغرم . ومعظمهم مــن نصــارى مصر
ومن هو في نصرة النصارى . وفي تعسير ما يجب تسهيله وتعقيد مــا
يجب تحليله لايجارى ولا يبارى . وكل واحد منهم القبط قطب . وفي
الخبــط خــطب . وللشر شرك . وفي الحســن حســــك . وللمشرك
مشارك . وللدين تارك فارك . ولهم اخلاق اخلاق . وطباع بــالطبع
اغلاق . تأوي للبخل والتبجيل الى التأويل . وتقلي لتكثير الســوء في
الخير سوى التقليل . وهم جالبون للغي . طالبون للبغي . كاســبون
الذم . مناسبون للضم . والمسلم فيهم متولي الخزانة . يرى الشــح
بما يجود به السلطان من الأمانة . واصــنعهم في الكفــاية عندهــم
امنعهم للاطلاق واعذقهم بالحذق أقذعهم ، وأعقدهم للحق أقدعهم .
واجودهم أرداهم ، وأضلهم أهداهم . وهم متفقون فيما بينهم على
الخيانة . مختلفون في الظاهر لابداء الصــيانة . وكان يحضر هؤلاء
لعرض البطالين واستخدامهم . ويوحشــونهم بخــطابهم ويذفــرون
بكلامهم . ويقابلونهم بالجبه.ويعــاملونهم بــالنجه ، ويواجهــونهم
بالسوء ويســؤونهم في الوجــه . ويشــتطون في طلب الضــمان .
ويشـــــــــــــترطون مـــــــــــــــاليس في

الامكان . ويطـردونهم بقبيح الزجـرة . ويكسرونهـم في صـحيح
الاجرة . والسلطان يجود جـود السـحاب . ويأمـر بـالعطاء
الحساب . وبجد حث النواب . ويجد في بعث الأصـحاب . ويقـول
انفقوا ولا تخشوا اقـلالا . وانهضـوا الرجـال خفـافا
وثقـالا . ولاتـؤخروا شـغل اليوم الى غد. امهـالا او
اهمالا . ولاتقدموا على هذا الفرض فرضا ولانفلا . ولاتعتقدوا ان
لنا أهم من هذا الشغل شغلا . ونواب الديوان على عادة جهالتهم .
وعاية ضلالتهم . فما قبل العطاء غير مضطر فقير . ومادخل الثغر
الا قليل من كثير . وماصح من البـدل الا بعضـه . ومـا قضى حـق
الواجب المتعين فرضه . وكان هذا من أقـوى اسـباب الضـعف .
وأوفق دلائل الخلف . وسيأتي ذكر ذلك في موضعه في سـنة سـبع .
فانه عاد كل مادبر بضر على الثغر لاينفع . واقام الملك العـادل على
البحر لازاحة علل الداخلين . واراحة قلوب الواصـلين . حتـى عاد
الفرنج بمراكبهم . وانقطع بوصولهم الطريق من جـانبهم . واقتنع
البلد بمن اليه تحول . وعلى حفظه من الله بعصمته عول .

وبتاريخ يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصـلت مـن مصر بـالغلة
بطس سبع . وكان لها الحاجة اليها وقع . وقيل قد تم بها للجائعين
شبع . وانقلب أهل البلد الى البحر لمشاهدتها . ومعاونة جمـاعتها
ومساعدتها . ونقل مافيها من بضائع وحـوائج . وسـلع وروائج .
ومأكول ومطعوم . ومشروب ومشموم . فقد طال بذلك كله عهـدهـم .
وانتهى الى الغاية جهدهم . فلما تسامعوا بـالبطس تسـارعوا الى
الملتمس فعلم الفرنج بانقلاب اهـل الثغـر . الى جـانب البحـر .
فزحفوا زحفا شـديدا وحملوا جندلا وحـديدا . وأتـوا بسـلالم
لينصبوها على الأسوار . وصارت عكا وهـم حـولها كالمعصـم في
السوار . وترقوا في سلم واحد متزاحمين . والضـيق متصـادمين .
فاندق بهم السلم المنصوب . وسطا بعصابهم المعصوب بها لنصـب
سوط العذاب المصبوب . وتدارك الناس وتلافوا وتلاقوا . وتعاطوا
كؤوس المنايا وتسـاقوا . ورأوا غمـرات الموت فـزاروها . وداروا

حول رحى الحرب وأداروها . واستحلوا شهد الشهادة فشاروه . وألفوا الأجل كامنا فأثاروه . وتواثبوا عليهم تواثب السباع على الضباع . ورفعوا لقرى العواسل الجياع نار القراع . واطالوا بشبا العوالي للعوافي باع الاشباع . وانبعوا عيون النجيع من عيون الجميع جداول البيض . وافاضوا فيوض الدم القاني بالصارم المفيض . وقتلوا وسفكوا . وفتكوا وهتكوا . وردوهم على اعقابهم ناكصين . ومن حسابهم ناقصين . ولاشتغال الناس بكشف ماعرا من الغمة . وأظل من الظلمة . والتهائهم بثقل الغلة . عن نقل الغلة . وتركوا البطس بحالها . مملوءة بغلالها . حتى هاج البحر فضرب بها الحشف . وأذهب بكسرها كل مافيها واتلف . وغرق من كان فيها . وأتى الغرق على الامتعة التي تحويها . حتى قيل هلك بها زهاء ستين نفسا . وعدموا ولم نجد لهم حسا . وناموا والقدر منتبه . وذهلوا وحكم القضاء اليهم متوجه . وفي ليلة السبت سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا على فصيلها فهدمته . وثغرت الثغر وثلمته . فبان منها الضوء لأهل الظلمة . فتبادروا اليها طمعا في هجم الثلمة . فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وصدوا عنها بنحورهم . وبنوها بأبدانهم الى أن بنوا ذلك البدن . وعمروا ماخرب وقووا ماوهن . وقتلوا وجرحوا من العدو خلقا . واوسعوا بالمضايقة في كل ذي خرق خرقا . فانجلت الحرب عن طريح صريع . وجريح الى الهزيمة سريع . وطليح للعقير قريع . وعاد الثغر اقوى مما كان وأحكم . وكل ذلك بجد بهاء الدين قراقوش حيث كان المقدام المقدم . وهذا الأمير قراقوش لما ضجر الامراء وضجوا . وطلبوا الخروج ولجوا . اقام ولم يرم . ولم ينحل عقد ثباته ولم ينخرم . وفي ثاني عشر ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان بمرض الجوف . ولعله من عرض الخوف . وأدرك أباه في الدرك الاسفل من النار . وابصر في جهنم مصاير امثاله من الكفار . وزاد بهلاكه ألم الالمانية . وانسدت بموته فرج الفرنجية . وتبعه في السفر الى سقر . كند كبير يقال له كندتيباط دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالامراض المختلفة العدد الكثير . واشتعلت بهم الجحيم واشتعلت عليهم السعير . وفي يوم الاثنين ثاني عشري ذي الحجة

عاد المستأمنون من الفرنج الذين انهضهم السلطان في براكيس . ليغزوا في البحر ويكونوا ايضا لنا جواسيس . فرجعوا وقد غنموا وغلبوا . وكسروا وكسبوا . وسروا واسروا . وقسروا فظفروا . وذكروا انهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس . وفيها تجار فرنج ومعهم من المال الجليل النفيس . واسر التجار واخذ المال . وحيزت تلك المراكب وجذبت الى الساحل . فاذا هي مشحونة بالكرائم الجلائل . من كل آنية مطبوعة ذهبية . وحلية مصوغة نضارية . وآلة فضية وأباريق وأكواب واقداح . وأطباق وموائد وسبائك وصفاح . وكاسات وطاسات . ومرافع وشربات . فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب . ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب . واظهروا بهذه النهضة انهم مناصحون . وليمين الايمان مصافحون . فلما اكرموا بتلك المكرمة . اثنوا على اليد المنعمة . واسلم منهم شطرهم . وحسن بيننا ذكرهم . وببركات الكرم السلطاني كرموا . وانسوا وأسلموا وكانوا قد احضروا برسم الهدية مائدة فضية عظيمة وعليها مكبة عالية . ولها قيمة غالية . ومعها طبق يماثلها في الوزن . ويتعذر وجود ذلك للملوك في الخزن . ولو وزنت الفضيات قاربت قنطارا . فما أعارها السلطان طرفه احتقارا . وقال لهم خذوها فأنتم بها اولى . وكان أول من أسدى هذا المعروف وأولى . وكنت عنده جالسا . وبلطفه مستأنسا فقلت له ماأظن في الوجود ملكا يسمح بمثل هذا المال ، وخصوصا وقد اغنمه الله من الحلال . فتبسم لقولي غير معجب به . وما قضيت العجب مما قضاه كرمه من أربه . وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . فجلا لنا نصرا وعلا نجحا وحلا ظفرا . وفي الخامس والعشرين منه أخذ ايضا بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون منهم اربعة خيالة . ضمتهم من الأسر حباله ومعهم ملوطة . مكللة باللؤلؤ منوطة . وبأزرار الجوهر مربوطة . قيل انها كانت من ثياب ملك الالمان . واسر فيه رجل كبير قيل انه ابن اخته وهو كبير الشان . وفي هذا الشهر كان قدوم القاضي الأجل الفاضل رب الفضائل والفواضل من مصر فاشرقت المطالع . واشرقت الصنائع . وبشرت المطالب بنجاحه . وغزرت

المواهب بسماحه . وغابت بحضور مكارمه المكاره . ونزع بلبسة إفضاله لباس الخمول ذوو الفضل النابه . واعاد روح السلطان باعادة الروح الى سلطانه . وسر بمكانه واقترن احسانه باحسانه . وظهرت في وجهه به الطلاقة . وفي قلبه العلاقة . وروى رايه بري رأيه . وتلقن أيات النصر من نص آيه . وانتعش عثاري بمقدمه . وانتعش خط فخاري بكرمه . وحلى عطلي وحيا املي . وقوي عملي ووضح منهاج مناي . وصح مزاج غناي ونبه قدري ونوه بذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي .وسن غربي واسنى غاربي . واقرني وقربني . واستكتب الخطوط بالحظوظ كما كان إستكتبني فعشت ونعشت وفرشت بساط الغنى فرشت . ولولا انني قويت به لا قويت . ولولا انه أولاني عارفته لما عرفت ولاتوليت . فانا شاكر نعمه عمري . وعامر كرمه بشكري .

ذكر جماعة من المستشهدين في هذه السنة

استشهد في عكا سبعة من الأمراء كل منهم سبع . ومافي لقائه للقرن طمع . ومن جملتهم سوار من المماليك الخواص . ومن ذوي الاستخلاص . وكان هذا سوار في كل حرب مساورا . ولكل هول مباشرا . وبكل بوس عبوس باشرا . فجاءه سهم عائر . فاذا هو الى الجنة سائر وكذلك عدة من أمراء الأكراد . كانوا من الآساد . ففازوا بحظ الاستشهاد . وخرج اسطولنا في هذه السنة . وبشوانية المعجبة المحسنة . ليكبس شواني الفرنج في مواضع الربط . واحراقها بقوارير النفط . فخرجوا الى شوانينا بشوانيهم . ولقوا عواليها بعواليهم . وظفرت اساطيلنا وطالت . ووصلت اليها وصالت . ونالت من الظفر مانالت . وأحرقت الكفر شواني برجالها . وغرقتها بأبطالها . وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه آمير مبارز كالاسد الخادر لايصحر الا الفريسة ولايبرز . وهو يعرف بجمال الدين محمد بن اركز ، فشين الشيني وشأنه . وما اعانته أعوانه . وامتلات بالاعطاب أعطابه . واضطربت للانكار

آركانه . واضطرمت بأهل النار نيرانه فتواقع من فيه الى الماء ، واحترزوا من البلاء بالبلاء . ووقف الأمير على قدم جلده يجالد . ويجد ويجاهد . وقد اثقله بلبس البسالة الحديد . وخف به العزم الشديد السديد وقد دعاه الى أمنية المنية الذكر الحميد . والأجر العتيد . فما ارتاع للروع . ولا استطاع الانقياد بالطوع . ولامكن العدو من مكانه . وأخذ مع الشانيء بشنآنه . ولولا ان ملاحيه جبنوا وفروا . ومناصحيه خذلوه وماقروا . لجنى بسيفه ثمر النجاة . لكن الأجل قطع عليه طريق الحياة فاجتمعت على مركبه مراكب الجمع . وسدوا عليه سبل البصر والسمع . وقالوا خذ منا الأمان واستأسر . وهون الأمر عليك ولاتعسر ويسر . فالعاقل يختار البقاء على الفناء والوجود على العدم . وأنت في عين الهلاك أن لم تعطنااليد وثبت على هذه القدم . فقال ماأضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير . ولايخاطر الخطير الا مع الخطير . فسموا له كندا أرضاه . وأراد ان يشركه فيما الله قضاه . فلما دنا ليأخذ يده لزمه وعانقه . وقوي عليه ومافارقه . ووقع الى البحر وغرقا . وترافقا في الحمام واتفقا . وعلى طريق الجنة والنار افترقا . فارتوى الشهيد السعيد بماء النعيم . وصلي الكند الكنود . بنار الجحيم . واستشهد ايضا في ذلك اليوم الأمير نصير الحميدي جرح فمضى حميدا . وشهد مقامه في الجنة شهيدا . وسعى دهره حتى قضى سعيدا . ولم تخل وقائع هذه السنة من استشهاد جماعة من أمراء العسكر . وسعداء المعشر وكرماء المحشر . وندماء الكوثر . وحلفاء المفخر . واستشهد يوم تاسع جمادى الأولى القاضي المرتضى بن قريش الكاتب . وكان صدرا تجمل به المراتب . وجريا جاري القلم . بليغا بالغ الحكم . مهيبا يخشى مرهوبا لايغشى . وهو في أهبة من المهابة . وكتيبة من الكتابة . صوبه في الصواب منتجع وخطابه في الخطب مستمع . ولرأيه ري وريا . وتدبيره للأمور بتنفيذ الأوامر السلطانية دينا ودنيا . ولم يكن له في الكفاية كفء . ولم يزل لخروق الخطوب بقلامه رفء . وكان رجل دمشقي بنابلس له ملك بدمشق قد تركه . ورغب في ابتياعه القاضي المرتضى ليملكه . فتقاضى ديناره فانفصلا على التراضي . ونجح سعي القاضي للقاضي . وبكر البائع الى سلام

المشتري ووثب وثوب المجتري وطعنه بمديته . وهو آمن من في خيمته . وفتك به فتك اللعين ابي لؤلؤة بالفاروق . وخرج من الخيمة كالسهم في المروق فلقي قاضي نابلس فقتله . ومضى بسالك سبله . فادركه الناس وقتلوه . وكاد يفلت لولم يعاجلوه . ففجع المنصب بمصابه وناب عنه اخوه مع نوابه .

ودخلت سنة سبع وثمانين والشتاء لم يشمله شتات شمله . وعقد البرد لم يقرب محل حله . والغيث عيث ولزور الربيع ريث . وللسحب سح . والضح شح . ولعين الشمس غض . ولوجه الغيم ومض ولأيدي العارض بسط وقبض . ولنواظر البرق تنبه وغمض . ولنواجذ البرد كشر وعض . ولفص الفصل ختم وفض . وكل صاد في بحر كانون كذون . وكل ماء بالجليد كأنه زرد مسنون . وللأوحال أحوال . وللأهواء أهوال . وللشمال شمول . وما للقبول قبول . وللجنوب نذوب . وللدبور في ادبارها واقبالها هبوب . وللصبا صبابات وصبابات . وللندى الندي جنايات وسرايات . وللجو الجوي آيات ونكايات . وللغمائم غماغم . ولهام الربا من هامي الرباب عمائم . وللذكباء نكبات . ولشبا شباط شبات . وللرواعد رواعف . وللهواتن هواتف . وللأرواح رواح وغدو . وحركة وهدو ومحبة وسلو . ونزول وعلو . ونصفة وعتو . وللرعايا العرايا من الرياح الحيارى رذايا أذايا . وخبايا المروج الثابته في زوايا الثلوج النازلة خفايا . والعواصف القواصف عواص غير قواص . والعارض عارض للحب في العراص عراص . والقوارس قوارص . والخوالس خوالص . والبحر في هيجانه والغيم في هطلانه . والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم . ولطف الله به قد خص وعم . والملك العادل سيف الدين نازل على الساحل عند نهر حيفا . ولتجهيز البدل في المراكب الى عكا . والسفن تدخل اليها بالأزواد . وتعود وترجع اليها بالأجناد . ويحرص ويحرض ويرسل الى السلطان ويستنهض . والسلطان يفاوض النواب في ذلك واليهم يفوض . وفي كل يوم يعرض الرجال . وينفق فيهم الاموال . والأمر مستمر . والقرار مستقر . واليزكية زكية . وسنتهم في المناوبة

سنية . ولوا فح عزماتهم ذا كية وذوا فح مـكرماتهم ذكية . والممـاليك الخواص ومن خصهم وعمهـم الاسـتخلاص . يغـادرون بـه ولايبارحونه . والعدو على عكا حاشد . ولضـالة ضـلاله ناشـد . ويحتمون ويحمون . ويرامون ويرمون . ويذبون ويشبون . ويخبون الى الكفرة بسوط العذاب ويصبون . وقـد قسـموا الأسـوار على الاجناد والابراج على الامراء . واستقبلوا النعمة في البلاء والسعادة في المشقة التي تعدها الاشـقياء مـن الشـقاء . ان وجـدوا غرة اهتبلوها . او اسـتوعروا كرة اسـتسهلوها . او صـادفوا ملمـة صدقوها . أولقوا غمه كشـفوها ، او صرفـوا أوجههـم الى نائبـة صرفوها .

ذكر ماتجدد من الحوادث وتكرر للعزائم من البواعث

في يوم الأربعاء تاسع المحرم ، سـار الملك الظـاهر لقصـد بلد صافيتا بالعزم المصمم والرأي المحكم . وفي ثالث صفر عزم من بقي من اصحاب الأطراف السفر . فان السـلطان رخص لهـم في ذلك . فانتهجوا في عودتهم الى بـلادهم المسـالك . وأقـام السـلطان في اصحابه . وخواصه وملازمي بـابه . ومـلابسي جنابـه . ورجـال رجائه . وخلص أوليائه ومقربي امرائه . وفي هذا اليوم رحـل الملك المظفر تقي الدين ليتسلم مافي شرقي الفرات . من البلاد التـي كانت مع مظفر الدين . مضـافة الى ميافـارقين . فصـارت معـه جبلة واللاذقية والمعرة وحماة وسلمية والرها وحران وسـميساط والموزر وميافارقين . وشرط معه ان يحـافظ على عهـد صـاحبي آمـد وماردين . والبلاد المظفرية كانت قد بقيت الى هذه الغاية . مع كثرة الطالبين لتلك الولاية . مضنونا بها على الخطاب غير مسموح بشيء منها الطلاب . فانه مارامها من الملوك اخي السلطان وأولاده الا من يشترط الفسحة له في اسـتضافة ديار بـكر الى بـلاده . ويقـال له لاسبيل الى قصد أحد ولاانتزاع بلد ولاازالة يد . فان أرباب البـلاد اكثرهم لنا معاهد . وعلى ودنا معاقد . وفي شغلنا مساعد . فاما من

هو عنا متقاعد . ومنا متباعد . فما هذا أوان مكافأته ولا زمان كف آفاته . وهو منا في حصر مخافاته . وهذا العدو الكافر شغلنا به مستغرق وعزمنا في قمعه متحقق . فلا نؤثر علينا من المسلم الكاشح والحاسد الحاشد . ومن يشغلنا عن هذا المهم الفرض والرأي الراشد . فقال تقي الدين انا لي في ذلك الجانب ميافارقين فاذا أخذت حران وسميساط والرها . أدركت من تكثير العساكر وتقويتها المشتهي . وبلغت المنتهى . وأنا ادخل على الشرط وعنه لاأخرج وأجمع العساكر والى نصركم أورد في الروع ومصدر ، ومازال يستسعف السلطان عمه . ويسترهف في تخصيصه بتلك الولاية عزمه ويسأل ويتوسل ويرسل ويتوصل . حتى اخذ دستوره . واستكتب منشوره . وسار على انه يسرع ايابه ،ويحكم في العود اسبابه . وانما يلبث ريثما يقسم تلك البلاد على مقطعيها ، ويرسم ذوابه فيها . ثم يطلع علينا طلوع السحاب . ويأتي بالآتي العباب . ويعرض عساكر لاتدخل في الحساب . وسارع الى الرحيل وسار بعد ما استشار وله استخار .

وفي يوم السبت رابع صفر وصل كتاب الملك المجاهد . والجواد الماجد . أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وهو الجري الذي اذا جاري اضرابه من الملوك في حلبة المجد لم يدركوه ولم يشركوه . ومضمون الكتاب أنه خرج في آخر المحرم على جشير العدو بطرابلس واستاقه . ولم يطق الكفار لحاقه . واقتطع لخاصة منه اربعمائة رأس تلف منها في الطريق أربعون . غير ماكان اصحابه منها يقتطعون . وأنه غنم ايضا ابقارا وأب قارا . وسار بالغنيمة سارا . واهدى لي من ذلك بغلة سرجية عالية فارهة فرنجية . وقال رسوله لما ابصرها واستحسنها . قال تصلح للعماد فانه اذا ركبها زينها . وفي ليلة هذا اليوم وهو السبت . كبت الريح سفينة للفرنج على ساحل الزيب وغالها الكبت . وكان فيها من الفرنج خلق . فغرق في بحر الاسر من لم يسر اليه في البحر غرق . وفيهم امرأتان سبيتا . وماهديتا بل اهديتا . وشاهدت الاسارى . قدام السلطان وقد احضروا فردهم على الذين اسروا .

وفي اول ليلة من شهر ربيع الأول . خرج اصحابنا مـن البلد على العدو بالنائب الاعضـل والناب الاعصـل . وكبسـوه في مخيمـه . وخيموا عليه في مجثمه . فما انتبهوا لهم حتـى اسروا مـن الفـرنج وقتلوا جمعا . وأوسعوهم الى ان ضويقوا قمعا . وعادوا سـالمين غانمين . كاسرين كاسبين . ومعهم اثنتا عشرة امراة في السـبي . وعرف الله لهم حق ذلك السعي.وفي الاحد ثالث هذا الشـهر . شـهر سلاح الحرب اهل الكفر . وخرجوا على اليزك وكانت النوبة للحلقـة المنصورة خواص السلطان مساعير المعتـرك . وعظمـت الوقعـه . وفخمت الروعه . وصدمت الصدعه . واحتدمت على الفرنج بنارهـا الصرعه . وهلك منهم عالم كثير . وقتل منهم مقدم معـروف كبير . ولم يفقد منا الا خادم رومي صـغير عثـر بـه في الحملة فـرسه فلم ينتعش . واستشهد ليعيش في الآخرة من في الدنيا مات في سبيل الله ولم يعش . وهذا الخصي كان فحلا من الفحول . ناهضا على الكفـر للاسلام بحمل النحول . وانتهى الينا ان الفرنج على عزم الخروج . ليحتشوا ويحتطبوا مما حولهم من المروج . فلا مرعى لدوابهـم ولا علف . وان لم يتلافوها بالاحتشاش خشـوا عليهـا التلف . فـأمر السلطان اخاه الملك العادل . ان يذهب ويقصد السـاحل . ويكمـن بعسكره وراء التـل الذي كانت فيه قـديما منزلتـه . وهناك نصرت وقعته ووقعت نصرته . ومضى السلطان بنفسه في خواصه واجناده . وأقاربه وأولاده . فكمن وراء تل العياضية . في العصـبة المنصـورة الناصرية . وذلك يوم السبت تاسع شـهر ربيع الاول . مسـتظهرا بصحبة ولده الملك الافضل . ومعه ايضا اولاده الصغار ليسـتأنسوا بالحرب ويدمنوا على مبـاشرة الطعـن والضرب . فعـرف العـدو الخبر . فما اقدم على الخروج ولاجسر . فضربت للسلطان على التل خيمة حمراء . فبات فيها وحوله الملوك والامراء . ووصـل اليه مـن بيروت خمسة واربعون اسيرا من الفرنج . اخذوا بالمراكب في البحر من اللج . وفيهم شيخ هم هرم . عمره في الكفر منصرم . قد طعن في السن . ووهن كالشن . وانحنى كالحنية . ومـا أمـن مـن المنية . وتحاماه الحمام . وعامـت في بحـر لياليه وايامـه الاعوام . وهـو ممسوخ الحليه . ممسوح اللحية . قد بلى مما بلي . وقلي من طـول

مالقي . وسئم حياته وسئم . وعدم لذاتــه ولذاتــه ومــا عدم . وكم جاوز قرنا وعبره أري قرن . وبارز قرنا ونازله بعد قرن . حتــى لم يبق منه الا اهابه . ولم يرقب منه الا ذهابه . فتعجب السلطان مــن مجيئه من البــلاد الشــاسعه . واختياره الضــيق على الارجــاء الواسعة . فســأله كم بينه وبين وطنه . ولأي ســبب حــركته مــن سكنه . فقال اما بلدة فعلى مسافة شهور . وانمــا خــرجت بقصــد كنيسة القيامة لاظفر بالحج المبرور . فرق له ومن عليه بــالاطلاق . واخرجه من ذل الرق الى عز العتاق . ورده الى الفــرنج راكبــا على فرس . ولم ير قتله ولا اسره حيث رأى نفسا مرتهنة بنفس . وسأله خدام اولاده الصغار . ان يأذن لهــم في تجــريب ســيوفهم بجــرح الاسارى الكفار . فلم يأذن لهم في ذلك وابــاه . فــأرضى كل منهــم بامتثال الأمر الذي أباه . فقيل له:لأي سبب منعتهم من ثواب الجهاد المغتنم . فقال:لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم . فــانظر مــا تحت هذا القول من الرأفة والكرم .

ذكر جماعة وصلوا من عسكر الاسلام

اول من قدم من العساكر الاسلامية علم الدين سليمان بن جندر . وكان بحلب المقدم المؤمر . وهو شيخ له رأي وتجربة . ومنزلة كبيرة ومرتبة . ومعه حصنا عزاز وبغراس . وللسلطان بقربه ومجــاورته الاستئناس . فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره . وابيضه واسمره وبيضه ومغفره . وجني جنده وسني سنوره . وجلبه ولجبه . وزمره وعصبه . وبيارقه ويلبه . وبوارقه وسحبه . وقــدم في ذلك التــاريخ بقدومه الملك الامجد مجد الدين بهــرام شــاه صــاحب بعلبك وقــد استصحب معه مماليكه التــرك . وقــد ذوى بــالمشركين الفتــك . ولسترهم الهتك . ولدمائهم السفك . فوصل بقــواطعه وقــواضبه . وصدوا فنه وسلاهبه . وطلائعه ومقانبه . وحضر من المحاسن بكل ما يعرب عن مناقبه . وقد زين ليل القساطل من اسنه العوامل بكواكبه واظمأ جواده ليرد به دماء اهل الكفر فانه يعدها من مشاربه . فمــن

ذلك اليوم من القادمين والمستقبلين بذلك الفضاء جيش زرت الربا عليه جيوبها وغطته من العجاج بالرداء . وجرى ذلك الوادي مع الأجناد والأمراء بسيل خيلتردد أماء (٤٩) الدماء . وخرق ذلك الخرق أرعن في حافاته الخرق . ومن عاداته بعداته الحرق ، ومن آفاته عند موافاته من فرق الكفر الفرق . ومن علاقته عند الظماء ان لا يرويه الا العلق . ومن صبابته بالسير الى عناق الاعداء بسواعد سيوفه الخبب والعنق . ومن شيمته عوض التغلف بالعبير التضمخ بالنجيع . ومن ديمته وبل النبل من الاحداق والنواظر في نواضر حدائق الربيع . ومن صنعته اسماء حنين الحنية بسهمه . واسماع أنين المنية لخصمه . وجلونا في ذلك اليوم فوارس لاعرائس . وقوانس لا عوانس . وقدم بدر الدين مودود والي دمشق بعد ذلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر ، وبشر بورود العساكر ووصول الجمع الوافر

ذكر وصول ملك افرنسيس لنجدة الفرنج على عكا واسمه فليب

وفي ثاني عشر ربيع الأول وصل ملك افرنسيس الى القوم وصان حبلهم وشملهم من البت والشت . وكان وصوله في بطس ست حملت من الفرنج كل ذي شؤم ومقت . وقد كانوا يهددون بوصوله وصوله . ويقولون لنا من تهديده ووعيده ما يجري على قوله . وانه اذا جاء حكم واحكم . ونقض وابرم . وقدم ما قدم به من المال واقدم . ونحن منه على مواعدة . فهو يأتينا بكل نجدة مساعدة . ووجدة عن الفقر مباعدة . فقلنا لهم رب صلف تحت راعدة . وما هذه الأراجيف منكم بواحدة فلما وصل في العدد القليل ، والنظر الكليل ، اعجبتنا قلته ، وتشابهت عندنا عزته وذلته ، وقلنا ما يكاد تصل صولته او تدوم دولته .

نادرة

وكان مع هذا الملك باز اشهب . كأنه عند ارساله نار تتلهب . ففارقه يوم وصوله . بحيث عجز عن حصوله . وافلت من يده وطار . وحشا حشاه الباز الذي نار النار . ووقع على سور عكا . وحزن الملك يوم سروره بفراقه وابكى . واستجابه فما استجاب . وابى وما أب . وثبت وما شاب . فبصر به اصحابنا فأخذوه . والى السلطان انفذوه . فأبدى السرور به الاهتزاز وجمل بتشريفه بزة من بز الباز . واظهر به احتفالا . وعده للظفر والمنحة فألا . وبذل فيه الملك الف دينار فما اجيب . ولا وهب له ولا هيب . وما بيع ولا عيب .

خبر نادرة في غنيمة وافرة

كان المستأمنون من الفرنج الينا . تسلموا براكيس يغزون فيها . ويجرون بجواريها . وينهضون بسواريها ورواسيها . وينهشون بعقاربها وافاعيها . ووصلوا الى ناحية من جزيرة قبرس يوم عيدهم . وقد جمع القس في كنيسة لأهلها شمل قريبهم وبعيدهم . فصلوا معهم فيها صلاتهم . ثم اغلقوا ابواب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم . واسروهم باسرهم وسبوهم . وبغتوهم من البلاء بما اتوهم به وبلوهم . وكنسوا كل ما كان في الكنيسة . من الاعلاق النفيسة . وقسوا على قسيسهم وعادوا بها وبهم الى براكيسهم . ولاذوا باللاذقية وباعوا بها كل ما اخذوه من البيعة ومن الجملة عشرون نسوة سبايا . وصبيان وصبايا . فباعوها رخصا . واقتسموها خرصا . وزادوا بمانالوه حرصا . واستغنوا مما استغنموه . واثروا بما اثاروه . واثروه وفرحوا بما راحوا به من مغنم . وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم اربعمائة درهم . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر هجم جماعة من العسكرية السرية

فاقتطعوا من غنم الفرنج غنيمة . وخالطوهم في خيامهم وامطروهم من وبل النبل ديمه ، وركبوا باسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم . فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل .

خبر وصول ملك الانكتير واسمه ليجرت الى قبرس واستيلائه عليها

وصل الخبر ان ملك الانكتير وصل الى جزيرة قبرس في السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر . في الجمع الوافر . حاملا جموعا كالسيل الجارف في البحر الزاخر . وتقدمته الى الجزيرة . مراكب وشوان على قصد الجزيرة . فخرج صاحب قبرس اليها واستولى عليها وغنم اموالها وصدم رجالها فلما وصل أرهف حد عزمه . وأفضى فيض غيظه الى غيض حلمه . وهو مغضب غير مغض . مريض من الم الحقد ماله سوى التشفي شاف مرض . فلبث مفكرا . ومكث متحيرا . وتروى متخيرا . فرأى ان قبرس في يده فاستن من جده في جدد . وناشب القتال . وواظب النزال وقارع بالنصال النصال . وحلت المنايا حباها لاحتباء البيض بالاعناق . واعتناق الغلاظ مع الرقاق . ونفذ يطلب من الفرنج على عكا نجده . ليجد شدة ويوجد شده . فنفذوا له جفري اخا الملك العتيق . في جموع مترافقة الرفيق . وامتدت الحروب . واشتدت الكروب . ورأى ان فريضته تعول . وان حالته تحول . وان شغله يطول . واتفق ايضا انه كان رام الروم من الفرنج الفرج . وخطب كل واحد من ضيق الخطب المحرج المخرج . فتراسلوا في الصلح . وخرجوا من ليل الحرب المظلم في سنى السلم الى اسفار الصبح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الانكتير . واثقا بما تمن من التقريب والتقرير . وحمل له هدايا . وتحفا سنايا . ووسع له الازواد . وبذل له الامداد . فأخذه في مأمنه . وابرز له مكره من مكمنه . وغله ثم غله . وشده وما حله . وجازاه لما اعزه بأن اذله . وغادره بغدره .

في القد والقيد . ومابطشت يد عادمة الا يد كيد الكيد . واستولي بالاستيلاء عليه على تلك الجزيرة ، وغرق في جماء (٥٠) امواله الغزيرة . وسيأتي ذكر وروده ، وماتم به لاحزاب الشيطان وجنوده

وبتاريخ انسلاخ شهر ربيع الآخر يوم الاحد . وصلت من ثغر بيروت كتب مبشرة . وبالنجح متجددة . وهو ان اصحابنا اخذوا عند الثغر بمراكبهم الغازية في البحر من مراكب الانكتير خمسة وطرادة . ولم تكن لولا اباء رجالها الضيم معتاده . وبحزام القهر مقتادة . وكان فيها خلق كثير من نساء ورجال . ونخائر اخاير من عدة ومال ، واثقال وانفال . واخشاب والات واحمال واحوال . وفي الطرادة اربعون رأسا من الخيل الجياد . قد جلبوا البلاء بجلبها من البلاد . فحيزت وحيزوا . واجيزت الى بيروت واجيزوا . فأما السبايا فقد اخرجن على البيع بالنقود والنسايا . واما الاسراء فقد عمتنا بخصوص ضرائهم السراء .

وفي يوم الخميس رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد . بالجد والجلد . والعدد والعدد والمدى والمد والجمع المحتشد والجمر المتقد . والبيض واليلب . والبيض والقضب . والسمر السلب . والجب والجلب والصياح والضجيج . والعجاج والعجيج والوشيج بالوشيج والامر المريج . والقصد بالقصد . والزغف والزرد . والحديد والعديد . والقريب والبعيد . والاتباع والعبيد . والاوباش والاوشاب . والكلاب والذئاب . والسباع والضباع . والضواري الجياع . والاساود والاسود . والزرق والحمر والسود . ودبوا وذبوا . وشبوا وسبوا . وصابوا وصبوا . ونابوا ونبوا . وغبوا وعبوا وجابوا وجبوا . وزحموا ورجموا . واقدموا وتقدموا . وقدموا سبعة مجانيق وقربوها . ونصبوا فيها ونصبوها . فعلت كأنها قلاع . وارتفعت على التلاع كانها تلاع . وهي في الجو مترامية . وبالجو رامية . وفي السماء سامية . ولاهل النار الحامية حامية . مرتفعة على مرافعها . مقتلعة بمقالعها . منقضة احجارها لانقضاض الجدار . مدفضة اسوارها لانفضاض الاسوار . حاصرة حاصبه . عاملة ناصبه . قائمة قاعدة . بارقة راعدة . صادمة

صادعه . صارمة صارعه . حبال من الجبال آجنتها . وحنايا للحنين على سهامها من الحجارة رنتها . ومواضع في حجورها الاحجار . ومرابع تنهد بدوائرها الربوع والديار . حوامل على الطلق . صوائل بالفلق على الخلق . مطايا للمنايا . روايا لخباياها البلايا . في كفاتها افاتها . وفي حركاتها ادراكاتها . وللتعذيب عذباتها . وللترهيب جذباتها . وما اعظم جنايات جنادلها . واظلم غوايات غوائلها . وهي الروائم الروامي . والدوائم الحوامي . والهوادم بالهوادي . والصوادم الصوادي . ودواعي العوادي . وذواعي الذوادي . والذواعب بالنوى . والجوائب بالجوى . والصوائب بالمصائب . والذوائب بالشوائب . اذا جذبت جذت . واذا قذفت اقذت . واذا طوحت طرحت . واذا حلقت حلقت . واذا اطارت ابارت . واذا القت القمت . فشق على اصحابنا بالبلد شقاقها . وكادت تفتح اليه الطريق طوارقها وطراقها . فاستصرخوا بنا وانهضوا . وحضوا على حظنا وحظهم وحرضوا . واستنفروا . واستنصروا . واستعدوا . واستدعوا . فاصبح السلطان راكبا في العساكر . طالبا شغل العدو الكافر الحاضر الحاصر . وسير من كشف هل للعدو كمين . او كيد دفين . ثم وقفت العساكر عنه ومر الى تل الفضول بالقرب . وشاهد المجانيق وكيفية رفعها والنصب . ونكايتها في الضر والضرب . وعرف اماكن القتال . ومكامن الرجال . وكلما شاهد الفرنج عسكرنا قد اطل واظل . ذل جمعهم وكل . وترك الزحف واذل . واذا عادوا وعدوا . واناروا في الحرب واسدوا .

قصة الرضيع

كان لصوصنا في الليل استلبوا طفلا من يد أمه . وفطموه رضيعا له ثلاثة اشهر في غير أوان فطمه . واستحلوا بحكم الجهاد في جنح الظلام ظلمه . وفجعوها بواحدها وساعدها . وكدروا صفو

مواردها . وقطعوا عنها فلذة كبدها . واسعروا عليها جذوة كمدها . وحرموه در لبنها فدر دمعها . وابعدوه عن مناغاتها ومناجاتها فوقر عن كل حديث سمعها . فخرجت والهة . والحياة كارهة . وللخد خادشه . وللوجه خامشه . معولة مولوله . مذهلة مشتعلة . وقد شدهت ودهشت . وتاهت واستوحشت . قد سلب عقلها . مذ سلب طفلها . وغاب ذهنها . مذ غاب ابنها . وتكرر بالحنين والانين ترجيعها . وتردد للقلوب مما فجأها وفجعها من الكروب تفجيعها . وهي نائحة في كل ناحية نادبة في كل ناد . نادية لكل فؤاد . عانية في كل واد . فلم يشعر السلطان الا بامراة بالباب واقفه . وبالنحيب هاتفه . والدموع حادرة بتصاعد انفاسها . ومن الخلق مستوحشة لذهاب استئناسها . قارضة صدرها بتقطيعها . ضارعة لفقد رضيعها . معولة على الطفل معولة على اللطف . متذكرة من الذكر متعرفة الى العرف . فاحضرها السلطان وهي باكية . ونار اكتئابها ذاكية . تتحدر عبرانها . وتتصعد زفراتها . وتتلهب حسراتها . تبكي ببكائها . وتشكي من دائها . وتنشد ضالتها . وتطلب مهجتها . وتسأل عن حشاشتها . وتشتعل نار قلبها على فراشتها . فلما شاهد السلطان حريبة حزينة . مسكينة مستكينه . متجننة متحننة . مولعة مولهة . موجعة متوهه . سمع شكواها وفهمها . ورثى لبلواها ورحمها . ورق بلطفه للطفل الرقيق . وسلك بفضله طريق التوفيق . وطلب الرضيع . فقيل له انه بيع واضيع . فان آخذيه باعوه بثمن بخس . ولم يعرضوه في سوق بز ولا سوق نخس . فما زال يبعث ويبحث عنه . ويلوم بائله كيف لم يصنه . حتى جيء به في قماطه . وقد كاد يلف في عباءة اعتباطه . فلما بصرت واحدها . ضمت عليه ساعدها . ودعت وعدت . وشدت يدها به وشدت . فأعادها . وبذواله افادها . وبرد حرها برد روحها . وأسا ماأساء الاسى من جروحها وقروحها . وروحها بروحها . وفرع دوحها . واغناها بغنائها الشكر عن نوحها . وظهر سر سرورها عليها ببوحها . وشيع معها من اوصلها الى موضعها . وقد اجتمع شمل المرضعة بمرضعها . ومارد الطفل الا بعد ماا شتراه من مشتريه بثمن يرضيه . وهذه نادره من جملة اياديه .

- ٦١٠٦ -

ذكر انتقال السلطان الى تل العياضية

لما اصر الفرنج على مضايقة عكا في كل يوم . وخطبوا متاعبهم في ابتياعها بكل سوم . وواظبوا ركوب بحر الحرب بكل خوض وعوم . وداروا حول حمى دارها بكل حوم . ولم يكن بد من ركوب السلطان بالعساكر اليهم في كل بكرة وعشي . وارعاب النوم بكل حد مرهوب وجد مخشي . وكانت المسافة نائية . والآفة دانية . انتقل السلطان الى تل العياضية . بعساكره واثقاله بالكلية . بالعزائم والصرائم الماضية المضية . الراضية المرضية . ولم يكن انتقاله دفعة واحدة . بل مهد له قاعدة . فان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاولى بلغه ان القوم قد عادوا العوادي . ورفعوا من ضلالتهم الهوادي . وضايقوا البلد اشد مضايقة . وعالقوه أجد معالقه . فامر الجاووش حتى نادى . وباكر الغدو بالعساكر وغادى . ووصل بالفارس والراجل الى الخروبة وقوى اليزك . والزم المقدمين والامراء بحفظ نوبهم الدرك . وقدم جماعة من الخيل لعل العدو اذا عاين قلتها خرج بالكثرة . وتورط في العثره . فلم يشغل بها بالا ولم يلفت اليها جنانا . بل تصرف على عنانه ولم يصرف نحوها عنانا . واشتد على البلد زحفه . وامتد عسفه . فساق السلطان بالعساكر وهجم وترك العدو الحصار واحجم . فلما جاء الظهر رجع العدو الى مجثمه . والسلطان على قصد العدو الى مخيمه . ولما وصل الى تل الخروبة . ونزل في خيمة لطيفة لاجله مضروبة . وصل من اليزك من اخبره ان العدو لما علم انه قد انصرف . عاد الى اشد ماكان فيه وزحف . وانه قد ارعب وارعف . وأرهق وارهف . والهى والهف . وأرهب وارهج . واعجز وازعج . وثار وأثار . والحم الملحمة بناره وانار . فبعث السلطان هذا الخبر على ان بعث الى العساكر بالمخيم فأعادها . واستنهض الى الفريسة آسادها . واجرى في حلبة الحمية جيادها . ودعاها الى طعن يبرح بالذوابل . وضرب يرنح اعطاف المناصل . وامرها من الحرب بأمرها . وأدارها من مري اخلاف الدم بأدرها . ثم سار اخر ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى

الى تل العياضية قبالة العدو . وضرب خيمته باعلاه ظـاهر العلو . والعدو بالحصر والزحف مصر مضر . وعلى عنائه وعناده مستمر . والسلطان في كل يوم يصابح القوم بالقتال ويماسيهم . ويرواحهـم ويغاديهم . ويفاتحهم ويبادلهم . بضرب كما اشترطته حدود الظبا . وطعن كما اقترحته كعوب القنا . وفتك كما تمنته المنية . ورمي كمـا حنت اليه الحنيه . هذا ومجانيق الكفر على الغي مقيمـه . والرمـي مديمه . وبالاحجار متقاطره . وعلى الاقطار حـاجزة . والجـلاميد قارعه . والصخور بالصخور قالعه . وتمكن الفرنج بها من الخندق . فـدنوا منه دنو المحنق . وشرعوا في هجمـه . واسرعوا الى طمـه . ودامـوا يرمـون فيه جثث الامـوات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات . حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم . ويحملون اليه موتاهم . واصحابنا في مقابلتهم ومقاتلهم قد اقتسـموا فـريقين . وافتـرقوا قسمين ففريق يلقي من الخندق ماالقي فيه . وفريق يقـارع العـدو ويلاقيه .

ذكر وصول ملك الانكتير

وفي يوم السبت ثالث عشر الشهر المذكور . اشاع اشياع الكفر سر السرور وعقدوا حبا الحبور . ووصل ملك الانكتير . واظهروا انه في الجمع الكثير والجـم الغفير . وكانت معـه مـن الشـواني خمس وعشرون قطعة . كل واحدة منها تضـاهي تلعـة وتـوازي قلعـه . وأحدث في القلوب روعة . وأرث في النفـوس لوعة . ولمعـت لنا مـن خيامهـم تلك الليلة نيران زائدة . وأنفـاس الشرارة متصـاعدة . والسنة الشعل نضناضه . وأشعة على الجو مفاضه . فكانما اوردت الجحيم لقدوم وارد نارها نارها . وأوصلت لوصـول اولئك الشرار شرارها . وأورت لهم أوارها . وشاهدنا تلك البسيطة قـد بسـطت على أهل الدياجير الاضواء وهتكت عنها لهتك ستر الظلام ضـلالهم الظلماء . فعرفنا كثرتهم بكثرة نيرانهم . ولما كانوا مـن أهـل النار

ببرهانهم . واتتهم بـاتيانهم . وأضـافتهم في مـكانهم . وملك الملك بامره أمرهم . وأراهم أن بيده نفعهم وضرهم . وملأ عين الملاعين . وأطال لتطاولهم أشطان الشياطين . وحفر للمكايد آبارا . وأثـر في المكر آثـارا . وأرث للشر نارا . وانار لنصرة النصرانية ثـارا . وتحدث الناس بحادثه وحديثه . وبما تأثرت القلوب به مـن تـأثيره وتاريثه(٥١) . وارتابوا وارتاعوا . والتـاحوا والتـاعوا . وغدت الألسنة ترجف والقلوب تجـف . وكاد البـاسل يجبـن . والبـاطل يخشن . والحق يلين . والدين يدين والسلطان قـوي الجنان . روي الايمان . صاف يقينه . واف دينه . شاف نصـحه . كاف نجحـه . مثبت جيشه بثبات جأشه . عامل لمعاده . ونصر الحق في معـاشه . متأن في تفكره ، متأت في تدبره . متـوكل على ربـه في نصرة دينه . متوسل اليه في تأييده وتمكينه . لاتـروعه المخـافات ولاتخيفـه الرائعات . ولاتزعزع الخطوب طود وقـاره . ولاتفض النوائب خيم ذماره . ولايلين للشدائد . ولايستكين للروائع الرواعد . وكم سـكن الاسلام بحركاته . واخصبت الأيام ببـركاته ونام الأنام ليقـظاته ، وامنت مصر والشام بنهضاته . فما راعه ماعرا . وما درأ عزمـه لما دري . ولارد وجهه عما قصد . ولاصدف رأيه عما عليه اعتمد . بـل ازداد قوة بصيره . وازدان بسريرة لكشف اسرار الغيب مستنيرة . وعمد إلى السماء فاستعار من انجمها أسنة الذبل . ودلف في الارض فوهب تربها للقسطل . وأعلم ملك الانكتير ان جمع كفـره للتبتير . وان نشاط سره للتفتير . وان أسنة اهل التوحيد مولعة مـن نحـور أهل الاشراك بهتك الستير . وركب في مراكب حلت المنايا الحبـا في كتائبها . لتحتبي اعناق العدا وطلاها وتتصل بقواطعها وقواضبها . بخيل تأبى الضيم مثل إبائه . وفخر مشار النقـع يذوب عن لوائه . ووجه كالمع البرق في ضيائه . وقلب كصدر العضب في مضائه . وأقام السلطان على هذه الحـالة . سـاميا في مـطالع الجـلالة . لم ينض سلاحه . ولم يخفض جناحـه . ولم يركز رمـاحه . ولم يردع للروع مراحه .

ذكر غرق البطسة

كان السلطان قد عمر في بيروت بطسه . وزانها من العدد والالات . وأودعها من كل نوع ميره ، وكلأها غلة وذخيرة . وأركب فيها زهاء سبعمائة رجل مقاتلة لعكا . من كل من طهر وتزكى . وشكره الاسلام إذا الكفر منه تشكي . فلما توسطت ثبج اللجة . وتورطت على نهج المحجة . صادفها ملك الانكتير . بحكم قضاء الله والتقدير . وأحدقت بها شوانيه . وعدتها عوادية . وقاتلتها نصف نهار . وهي لاتذعن لاقتسار . فاكبت من العدو مراكب . وجبت لها غوارب . وأحرقت وأغرقت . وهتكت وخرقت وفرقت وما فرقت ، وقتل من الفرنج خلق عليها .وما امتدت يد عدوانهم اليها . فلما يئست من سلامتها . وزلت عن استقامتها . وجالت على الاصطلام . قال مقدمها : علام نسلمها والموت بالعز خير لنا من الحياة بالذل . والشح بالدين أحب الينا من البذل . فنزل إلى البطسة فخرقها ومانع عنها حتى اغرقها . وسعد أهلها . وافترقت وسيجتمع في دار النعيم شملها . ووصل الينا خبرها اليوم السادس عشر من جمادى الاولى . فقلنا الدهر يومان : نعمى وبؤسى . وما يزالان على ذلك حتى يزولا . وكانت هذه الوقعة اول حادثة الوهن محدثة . وللهم مورثه . ولنار الأسى مؤرثة .

ذكر حريق الدبابة

وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة . قد اظهرت لها في الشر غائله . ولها أربع طباق . شدها على الارتباط باق . ولها من الاحكام باس ولباس . وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . وقربوها الى ان بقيت بينها وبين البلد اذرع خمس . وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس . وبلي البلد منها بكل بلية . ورزي بكل رزية . وكانت هذه الدبابة على العجل . ليقربوا بتقريبها أسباب

الأجل . فباتت القلوب منها على الوجل . وكاد أصحابنا يطلبون الامان . وخضع كل أبي واستكان . فقارعوا عندها أشد قراع . وماصعوا أجد مصاع . وتوالت عليها من مساعير الرهط . قوارير النفط . وهي تضرب في حديد بارد . وتضرب عن كل شيطان مارد . وتنبو عن الاحراق وتنبي عن الاخفاق .حتى بدرت قارورة انقضت على شيطانها كالشهاب . فاخذت الدبابة وقلوبهم قبل جسومهم في الالتهاب . فعوذناها بسورة (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى) فجاء من انقلاب القارورة قرار القلوب . ومن حر انفاسها برد النفوس . وكشف شعاعها ظلام الكروب . ونزعت بشاشتها عن الوجوه لبوس العبوس . وأنارت نارها لنا بكل نور . ولهم ببوار قوم بور . ودبت شعلها في أضلاع الدبابة وجنوبها . فاحرقها الله احراق اهلها بذنوبها . وكما أضاءت الافاق بنيرانها . اظلمت بدخانها . فجلت لنا بياض النصر في السواد . فكانه سواد الناظر أو سويداء الفؤاد . بل سواد المداد يأتي من أنواره بالامداد . فجلا حريق هذه الدبابة صدأ قلوبنا المفتمة بالبطسة الغريقة . وأحمت نارها في حماية الحق حمية حماة الحقيقة . فانما احترقت الدبابة يوم وصول خبر غرق البطسة . فكان تشميتا لتلك العطسة .

ذكر وقعات في هذا الشهر

كانت العلامة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو دق الكؤوس . حتى اذا سمعناه جدنا في الزحف الى العدو بالنفائس والنفوس . ولما اصبحنا يوم السبت التاسع عشر من الشهر سمعنا من كوس البلد نعراته . ونظرنا من جانب العدو مثار غبراته . فعلمنا بزحفه . وعملنا في حتفه . وضرب الكوس السلطاني اصراخا لصراخ ذلك الكوس . فتمايلت أعطاف ذوي الحمية من حميا العزائم لامن حميا الكؤوس . وركب السلطان في كل مشمر للبرد . مضمر للجرد . قضقاض السرد . قضقاض كالاسد الورد . مشتاق الى الطرد . ملتاح من ماء الوريد الى الورد . من الترك والأكانيش

والعرب والكرد . يهوي الى الاقران هوي المصلتات الى الرقاب . ويظمأ الى إرواء الاسل الظماء فيطيل صدى الخيل العراب . وكل ذمل كأنه نزيف الحميا . يعيد السماء من الارض بركضه شاحبة المحيا . وكل ضرب تكاد تفيض مضارب نصله من خفة الطرب لولا وقاره . وكل طلاع مع الذوب لاينام ناره . ولايثبت في الجفن غراره . وكل منصلت ينير في ظلام العجاج بنجوم الاسنة . وكل مطرد يعيم السوابح السوابق في بحور الاعنه . وكل رام فروج المازق حتى تفرى بأيدي المذاكي . وكل شاك في السلاح مشكور في اشكاء الحق الشاكي . وكل مصمم مصمم درعه غير محقبه . وسهامه غير مجعبه . وسيوفه غير مقروبه . وقبابه لمداومة اجراء فيه غير مضروبة . وسار السلطان وقد اسودت لوقع السنابك جوانب جحفله . وابيضت بلمع الترائك مذاهب قسطله . واشتبهت في الدقع الوان خيله . وامتدت الى قرار اللقاء أعناق سيله . فكأنما غارت الشمس من شموس شمسه فتوارت بالحجاب . وعد الدقع في وبل الذيل من حساب السحاب . وولجت العساكر عليهم في خيامهم . وحملت ليالي القتام إلى أيامهم . وغلت الصدور بما فيها . حتى وصلوا الى القدور على اثافيها . وهتكوا وفتكوا . وادركوا وسفكوا . فتراجع الفرنج واصطفوا على خنادقهم . ووقفوا بقنطارياتهم وطوأرقهم . واجتمع عسكرنا لعلهم يحتمون ويحملون . ويعلون من دمائهم وينهلون . ودخل الظهر وحمي الحر . فافترق الفريقان . وتراجع الى خيامهم الجمعان .

وقعة اخرى

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من الشهر . ضايق أهل الكفر البلد على الحصر . وكانت الوقعة بالوقعة السابقة شبيهة . وكانت من اشدها واجدها كريهة . غير انه في هذه النوبة عرضت نبوة . وكادت تتم كبوة . فان الفرنج لما تراجعوا عن البلد وجدوا فئة من

عسكرنا داخل خنادقهم . فحملوا عليهـا بسـباق رجلهـم وراكبـي سوابقهم . فانتشب الحرب .واسـتجر الطعـن والضرب . وكثـرت الجراحات . وكرثت الاجتـراحات . واسـتشهد ممـن عرف مـن المسلمين اثنان تسلمهما رضوان الى الجنان . وقتل مـن المشركين جماعة اسرع بهم مالك الى النيران .

ومن عجائب هذه الوقعة . ان رجلا مـن مـازندران مـن اهـل الرفعة . وصل في تلك الساعة وافدا . واستأذن وقـت السـلام على السلطان ان يقدم مجاهدا . فحين شهد الوقعة استشهد . فلقي الله بعهده كما عهد .

وقعة أخرى

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر خرج العـدو فـارسا وراجلا . ورامحا ونابلا . وامتدوا مـن جـانب البحـر اطـلابا . وتحزبوا في ذلك الفضاء احـزابا . وركب السـلطان مـن مجـالس عادته . الى مجال سعادته . موقنا ان اداء عبادته . في إبارة العـدو وإبادته . وتقدمت المقدمة واقـدمت . وجحمـت نار اقـدامها ومـا احجمت . ومازالت نجوم النصول تنقض . وختوم النحـور تنفض . وعيون العيون ترفض . وديون النحول وحقوق الحقود تقتضي وابكار الدروع بحدود الذكور تفتض . في شعواء خضرها الثياب الغـائب ، ونكباء لها من الذوابل ذوائب . وبحر تسبح فيه السـوابح . وشرب بكاس المنية منها المهج غوابق صوابح . وغبراء اساود نبالها تتواثب عن عقارب القسي . وثعالب لهـاذم صـعادها تتلاعب في اراقـم السمهري . وذباب ظباها تطن في مسامع الذئاب وعقبـان راياتهـا تحلق إلى مطالع السحاب ، وغدران سوابغها تفيض عليها جـداول القواضب . وغران سوابقها تغيض في غطامط الغياهـب . وارواح اغمادها البارية عن الاجسام بريه . وقلوب اسادها الضـارية على

الردى جريه . حتى دخل على ليل النقع الليل . وجرى من ديمة الدم السيل . والتفت لما التفت بالخيل الخيل . وافرج المازق عن قتلى جرى عليها من السوافي الذيل . واستشهد من المسلمين بدوي وكردي . ولكم وقع من المشركين رد رديء . له في الهاوية هوي . وعليها من زفير جهنم دوي . واسر من العدو فارس بفرسه . ولامته وقونسه(٥٢) . وتفرق الفريقان عن المعترك عند معتكر الدجى . وقد عم من الشجب ماشجا .

وقعة اخرى

واصبح العدو يوم الاحد التاسع والعشرين . وقد اخرج من جانب النهر راجلا في عدد رمل يبرين . بقواطع يبرين . وقواضب يفرين . وطوالع غروب في الطلى يغربن وبالردى يغرين . وانتشروا ممتدين وامتدوا منتشرين . فلقيهم اليزك بكل من يزكيه عند شهوده مضاء كالقضاء . ويوا فقه القضاء في المضاء.وكل معتقل للرديني اخف الى الوغى من سنانه . وكل مشتمل للمشرفي خضيب الغرار ريانه . وكل ملتم بعثير حصانه . معتق لعطف مرانه . وكل صبح كالصباح نضارة وجهه في شحوبه مدفونة . وكل قارح على قارح شرارة عزمه في سكونه مكنونة . وامتد راجلنا امامهم . واثبتوا اقدامهم . وطال القتال وطارت النبال . وحاضت الذكور . وفاض التامور (٥٣) واعمى العثيرة وعم العثور . واسروا منا واحدا فاحرقوه فصحب نوره بين يديه الى دار القرار . واسرنا منهم واحدا فاحرقناه فشبت به تلك النار إلى النار . وشاهدنا النارين في حالة واحدة تشتعلان . والصفان واقفان يقتتلان .

وفي يوم السبت الماضي هرب خادمان ذكرا انهما لاخت ملك الانكتير وانهما كانا يكتمان ايمانهما في سر الضمير . واخبرا انها زوجة صاحب صقلية فلما هلك . صادفت في الاجتياز بها اخاها هذا الملك ، فالزمها بان تتبعه واستصحبها معه . وقدرا ما النجاة من تلك

الفاجرة نجاة الآخرة ، فـاكرم السلطان وفـادتهما . واجـزل بالاحسان افادتهما .

ذكر المركيس ومفارقته القوم ووصف السبب في ذلك

وفي الاثنين انسلاخ الشهر ذكر عن المرقيس أنه هرب الى صـور . وانه كشف للجماعة المستور . ونفذوا وراءه قسوسا . والقـوا عليه من الضلالة في الاستمالة دروسا . فنبا قبوله . وانقـطع وصـوله . وكان سبب نفاره . وموجب استشعاره . ان هنفـري كانت زوجتـه ابنة الملك الذي هلك والقدس في يده . وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده . وسـواء في هـذا الميراث . بين الذكور والاناث . فيكون الملك بعد الابن اذا لم يخلف ابنا للكبرى . فاذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى . وكان الملك العتيق كي اخذ الملك بسبب زوجتـه الملكة فعزلوه عن الملك لما احتوت عليها يد الهلكة. وبقيت هذه زوجـة هنفري . فاصبح المركيس عليه يجتري . ويقول لست من اهـل الملك لتكون الملكة لك زوجة . ولابد لي من تقويم هذا الامر حتى لاأبقي فيه عوجه . وغصبها منه وصرفها عنه واتخـذها له عروسـا . واحضر لنكاحها قسوسا . وقيل انهـا كانت حبلى ولم تخـرج مـن حبـالة الحبل . فما شغلتهم حرمة الرحـم المشـتغل . وادعى المركيس ان الملك انتقل بها اليه . وأن أمر الفرنج بشرعهم في يديه . فلمـا جـاء ملك الانكتير تظلم اليه هنفري والملك العتيق فـانفتح بـذلك له إلى مؤاخذة المركيس الطريق . فاستشعر المركيس منه وما قـر. وأخـذ معه الملكة وفر .

ذكر من وصل في هذا التاريخ من العساكر الاسلامية

وفي يوم الاثنين انسلاخ جمادى الاولى قدم عسكر سـنجار . وقـد سد بسواد عديده النهار . وافاض بيباض حديده الانوار . ومقـدمه

مجاهد الدين يرنقش الشهم الشديد . والسهم السديد . والالمعي اللوذعي . والكميش الكمي . والنقاب النقي . والعف التقي . وهو ذو همة في الغزو عالية . وعزمة بالمضاء المضي حالية . وقيمة في سوم السلطان لقربه غالية . وسريرة خالصة صافية من الكدر خالية . وأكرمه السلطان في استقباله بنفسه واقباله عليه بأنسه . وسار بعسكره الى ان وقف تجاه العدو من جانب البحر ممايلي الذيب . وقد احسن في عرضه التدبير والترتيب . ثم عاد في خدمة السلطان مكرما الى جنبه . مقدما على صحبه . فأنزله في خيمته وخصه بمواكلته . وتقدم اليه بالنزول في ميسرته . وفي يوم الاربعاء ثاني جمادى الاخرة . وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة . بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة . مثل علم الدين كرجي . الذي يسرع الى لقاء اقرانه ولايرجي . وكسيف الدين سنقر الدوري دي الزند الوري والسيف الروي وأمثالهما من المماليك الناصرية . والمساعير الاسدية . أسد العرين . الشم العرانين . الغر الميامين . وفي عصر هذا اليوم وصل علاء الدين ابن صاحب الموصل الى الخروبة ونزل بها . ليصل بكرة الى المعسكر بالعساكر في أحسن اهبها . فركب السلطان اليه ولقيه وعاد . وكمل لكرامته وضيافته الاستعداد . وأصبح يوم الخميس في خميسه . سائرا بآساده في عريسه . مقبلا بكل فارس من جيشه فارس من خيسه . في غلب كانهم اجادل والجياد مراقبها . وخيل كانها الظلماء والترائك كواكبها . ونقع كانه الاتي والمقربات قواربه . ومجر تصادم مناكب الاكام مناكبه . وتملا الوهاد طوالعه وغواربه . عاريات غروبه . عاليات غواربه - ثقال مذاكيه باعباء عواليه . كانما نهضت لاذكاء نار الهياج حواطبه . وعبرت علينا كتائبه وأعربت عن مناقبه مقانبه . وتلقاه من اولاد السلطان الملك المعز فتح الدين اسحق . وهو من جملتهم البحر بل الغيداق . والملك المؤيد نجم الدين مسعود ، وهو كاسمه مسعود مجدود ، وتلقاه الامراء والعظماء والخواص والاولياء . وساق على تعبيته . واجابته دعوة الاسلام وتلبيته الى جانب البحر . ليرعب اهل الكفر . وعرض وتعرض وعلم العدو بانه اليه نهض واستنهض ، ولما انفصل السلطان أخذه معه الى خيمته

واحضر له اسباب تكرمته . وآنسة بانبساطه . ونظمه مع اصـحابه في سمط سماطه . واجلسه الى جنبه . وعقد له حبـاحبه . وخصـه بخلع وثياب . وحصن عراب . ومايليق به مـن كل بـاب . وانصرف عنه ونزل على ميمنته . نزوله عام اول في منزلته . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الاخرة وردت من مصر كتيبة ثانية ، صارفة اعنة خيلها الى الجهاد ثانية . ساطية على الكفر بباسها جـانية . وقـد علمـت الوقائع انها لثمراتها اليانعة من ورق الحديد الاخضر جانية ، فمـا نزلت حتى عرضت على العـدو مقـانبها . وابـرزت لعينه قناهـــا وقواضبها . وارنت برسل المنية اليه قسـيها . ثـم جـاءت والقيت بمضاربها عصيها . وكانت العساكر تتوارد . والجموع تتوافد

ذكر ضعف البلد

والفرنج قد ضايقوا البلد مضايقة ايسـت منه . واسـلت القلوب عنه . والمجانيق قد رمت شرافته . وسمت اليهـا بآفـاته . واعادت جـــــــــــــــــوانبه مهـــــــــــــــــــدومة .
وذواجزه مهدومة . وانحطت بمقدار قامه ، فلم يتمكن احد مـن عليه من اقامه . وضعف البلد والجلد . وخـلا بـالهم عليه الخلد ، وقـد حفظ القوم من جانبنا خنادقهم . ووكلوا بهـا فيالقهـم . ونحـن لا نألوا في الجهاد جهدا ولانترك جدا . ولا نجد من مضايقهم بـكل نوع بدا . وجاء الخبر ان ملك الانكتير قد اشفى من المرض . واشرف من المضض ، حتى حلق رأسـه وحلق لحيتـه . واسـتلقى لانتـظار منيته ، فتثبط الفرنج وتثبتوا . وسـكنوا وسـكتوا ، الى ان يركب فيركبوا ويثب فيثبوا ، وكان في هذه الفترة البلد بقاء رمـق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة وانجبار كسره ، وانطفاء جمره ، وانسـداد ثغره .

-٦١١٧-

فصل من كتاب الى صاحب الموصل

في شكر وصول ولده ووصف الحال في ضعف البلد

قدم علاء الدين دام علاؤه في مقدمي الجنود الانجاد ، ووقف اجتهاده على موقف الجهاد ، وما اكرمه قائما في المقام الكريم . وعظيما خاطبا دفاع الخطب العظيم . ووصل فوصل جناح النجاح . واذشر الصدور بما صدر به لها من ذشر الانشراح . وجاء والكريهة ذاهبة بالارواح . والحرب ساقية طلاء الطلى في صحاف الصفاح . وشارك في الجهاد وشد الازر . وسدد الامر وازر وعضد . وظاهر واسعد . ولاخفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة واجتماع ملوكهم وكنودهم . وتوافد امداد حشودهم . وقد استشرى شرهم . واستضرى ضرهم . واعضل خطبهم واستفحل امرهم . واشتغلوا منذ وصلوا بنصب منجنيقات . وتركيب آلات ودبابات ، وزحفوا الى بلد عكا بجمعهم . ووقدوا بجمرهم . واخذوا فيه ذقوبا . وحكموا في الاسوار من الاسواء بضرب المجانيق ضروبا . والثغر الآن قد اشرف . والعدو بخندقه محتجز . والفرصة الغفلة عنه منتهز . ومن جذوم الموت عليه في مجذمه محتزر . ولم يبق الا ان يتدارك الله الثغر بلطفه . ويجريه على المعروف من عادة نصره وعرفه . والمجاهدون فيه قد هانت عليهم المهج . ووضح لم في ثبات جنانهم المنهج . وفي كل يوم يسدون باشلاء الهاجمين الثلم . ويجلون عنهم بما يشبون من نيران الظبا الظلم . والعدو قد لج . والحديد من قرع الحديد قد ضج . والبلد مشف . والبلاء عليه موف . والمأمول من الله ان يأتي من نصره بما ليس في الحساب وان يعيد ما جمع من امر الاصحاب الى الاصحاب . ويكفي هذه النوبة الصعبة فهو كافي النوب الصعاب .

-٦١١٨-

فصل في وصف عسكر عماد الدين

وصلت العساكر التي وفت بعدتها المناجده . ووافت بعدتها المنى جده . واقبلت اقبال الآساد في عرين الوشيج . وماجت موج البحار في غدير الزغف النسيج . واستهلت استهلال الرواعد البوارق . والمت بالعدا المام العوادي الطوارق . ولقد جاءت في وقتها منجدة من جده . موجدة للانتقام من الكفر بكل موجده . واستظهر الاسلام بظهورها . وسفرت وجوه النصر بسفورها . فأحجم الكفر باقدامها . وانتظمت احداق المشركين في عقود سهامها . وخيمت مضارب المضاء بمضارب خيامها . وفض بالفضاء ختام قتامها . وما اشكر الدين والاسلام لعزائم عماده وغياثه . وابعث امداد الظفر لاهتزاز نصل نصره وانبعاثه .

فصل في الاستنفار

قد عرف ان العدو قد احتشد بجميع ملوكه . وغصت مسالكه وطرق بطوارق سلوكه . وهو حديد الشوكه . شديد الشكه . قد لج في حصر الثغر ونصب آلاته . وركب عليه منجنيقاته . ووالى الضروب من الضرب . واخذ منه مواضع في النقب . وقد اشفى على خطر عظيم . وخطب جسيم . واذا لم يصل في هذا الوقت فمتى . ومن اتى في غير الوقت المحتاج اليه فما أتى . وهذا اوان رفض التواني . ونهوض المسلمين من الاقاصي والاداني . والوصول بكل ما يقدر عليه من العسكر . والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر والجد الأوفر . وهذا يوم الحاجة وأوان الضروره . والنهوض بعسكره الى نصرة عساكرنا المنصورة . فلا يجنح الى عذر فللاعذار اوقات ، ولا يلتفت الى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين الى سواه التفات . وكيف يتأخر عن هذا الموقف الكريم وهو كريم . ويتقاعد عن هذا المقام العظيم وهو عظيم .

ذكر خروج رسل الافرنج

كان قد خرج مذ ايام رسول ، وسأل ان يكون له الى السلطان وصول . فاجتمع والملكان العادل والافضل . وقالا له لا يمكن لقاء السلطان لكل من يرسل . وما كل مقصود نيه يعرض . ليعلم في الاول هل هو مما يقبل او عنه يعرض . فأعلمهما الحال . وعرفهما ما سبب الارسال . فأحضراه بالنادي السلطاني فمثل بين يديه . وأوصل تحية ملك الانكتير اليه . وقال هو يؤثر بك الاجتماع . ولخطابك الاستماع . فان اعطيته امانا حرج اليك . وأورد مقصوده عليك . أو شئت كان الاجتماع به في المرج ، خاليين من مقتضيات المرج . وكلاكما عن عسكره منفرد . ولحديثه في الخلوة مورد . فأجابه السلطان وقال لو اجتمعنا فهو لايفهم بلساني وانا لا افهم بلسانه . ونحيل بالبيان على ترجماني وترجمانه . فيكون ذاك الترجمان رسولا . فلعله يرد بسول ويصدر رسولا . فلما لح في الطلب . وألح في الارب ، استقر ان يكون الحديث مع الملك العادل . وان تنجح من عنده وسائل الرسائل . ودخل وقد اخذ أمانا . وانقطع بعد ذلك زمانا فشاع عندنا ان ملوكهم منعوه . ومن ركوب الخطر فزعوه . فأنفذ ملك الانكتير رسوله بعد ايام . يذكر ما شاع من تأمر الفرنج عليه واحكام . وقال الامور مفوضة الي . وأنا أحكم ولا يحكم علي ، وانما تأخرت بسبب مرض عرض . فأفاتني الغرض . ثم قال الرسول من عادات الملوك المهاداه . وإن دامت بينهم الحرب والمعاداه . وعند الملك ما يصلح للسلطان فهل تأذنون في حمله وقبوله . واخذه من يد رسوله . فقال الملك العادل نقبل الهدية بشرط المجازاة . واستدامة المكافاة للموازاه . فقال عندنا بزاة وجوارح . قد لقيتها في سفر البحر جوائح . وقد ضعفت فهي طلائح روازح ، ونريد طيرا ودجاجا (٥٤)تصلح لطعمها . فاذا استوت حملناها الهدية على رسمها . فقال العادل لا شك ان الملك مريض وقد احتاج الى دجاج وفراريج ، ونحن نحمل له منها كل ما اليه احتيج . فلا تجعل حاجة طعم البزاة في طلبها حجة . واسلك غير

هذه المحجة محجة . وانفصل حديث الرسالة على قول الرسول هـل لكم حديث . فقلنا انتم طلبتونا لا نحن طلبناكم وما لنا معكم حـديث قديم ولا حديث . ثم انقطع حديث الرسالة الى يوم الاثنين سـادس جمادى الآخرة فخرج من عند الملك في الرسالة مقدم . ومعـه اسـير مغربي مسلم . واحضره على سبيل الهدية واوصـل الى السـلطان ماحمل من التحية . فشرفه بخلعته . واعتد له بهديته . ثم خرج يوم الخميس تاسع الشهر رسل ثلاثة . وماكانت رسـالتهم تسـفر عن مقصود بل فيها رثاثة وغثاثه . وهؤلاء طلبوا للملك فـاكهة وثلجـا . ولم يسلكوا في غير الحاجة نهجا . فاكرمهم السلطان بما سـألوا . ووفر لهم منه فحملوا . وسألوا ان يتفرجوا في الاسواق . ففسح لهم فيه على الاطلاق .

ذكر ضعف الثغر من قوة الحصر

وكان غرض الافرنج من تكرير الرسـالات تفتير العـزمات وهـم مشتغلون بموالاة الرمي بالمنجنيقات وتسـوية المنصـوبات وتعبية الالات . وتعديل العرادات وتثقيل الحجارات . حتى تحلحل السـور وحان انهدامه . وتخلخل وبان انثلامه . وتزعزت اركانه . وتضعضعت ابدانه . وكاد يهي ليهوى . ولايقي ولايقـوى . كي يثـوى . واهـل المدينة قد كثر تعبهم لكثـرة الذوب ولقلة العـدد والحجـر هـاتك . والسـهر ناهـك . والعمـل دائم . والخلل لازم . والقلوب قلقـه . والظنون مخفقه . والمتاعب شاقه . والمشـاق متعبـه . والاحـوال متصعبه . والاهوال مرهبه . وكانت في البلد المنجنيقـات تنصـب . وتفيض بها قوى الرجال وتنصـب . فلمـا اشـتد الزحـف . وزاد الضعف . احتـاجوا الى رجـال المنجنيق للمقـاتلة . والتناوب على المنازله . وهناك ظهر ان العدد لايقـي ولايفـي . وان القليل لايكفـ ولايكفي . وان خروج من كان في البلد لاجـل دخـول البـدل لم يكن صوابا . وان تقصير الذواب ابتـداء في الاعطـاء جلب في الانتهـاء

اعطابا . ولما علم السلطان سابع جمادى الاخرة يوم الثلاثاء . بمـا عليه البلد من غلبة البلاء . زحف بعسكره ولج حتى ولج خنادقهـم . وطرق اليهم بوائقهم . ونهب مـن خيامهـم مـاتطرف . واسرف في ارهاقهم بما اشرف . وحمل الملك العادل بنفسه مرارا . واجرى من الدم انهارا . واراهم بالنقع النهـار ليلا وبـالبيض الليل نهـارا . وامسى السـلطان تلك الليلة سـاهدا لم يذق طعـاما . ولم يسـتطب مناما . ثم امر بدق الكوس سحرا حتى عادت العساكر الى الركوب والقساور الى الوثوب والفوارس الى الفرس والانداب الى الندوب . واعادت الى الطلوع غروبها بعد الغروب . بكل مـن يلقـي الجيوش على الجيوش . ويرمي الوحوش على الوحوش . ويرعف الصـدور بصدور الرواعف . ويشير بالامن عن مواقف المخـاوف . وكل مـن الضرب في جبينه شامة . والطعن في جبينه علامة . على خيل كامثال القنا تحمل القنا . وضمر كالحنايا تهوي هوى السهام إلى الوغى :

في غداة صباحها في حداد

نسجتها ايدي المطهمة القب

وظلام يجلوه بريق اليمانية القضب . فجرى ذلك اليوم من القتـال اشد مما كان امس . واتصل من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

وفي هذا اليوم وصلت من البلد مطالعة مضمونها ان العجز بلغ بهم الى غايته . وانتهى الضعف بهم الى نهـايته . ولم يبـق الا تسـليم البلد إن لم تعملوا شيئا.ولم تنجحوا في الذب عنه سعيا . فضقنا بهذا الكتاب ذرعا . وقلنا لاحول ولاقـوة الا بـالله لانملك لانفسـنا ضرا ولانفعا . والسلطان من هذا في امر عظيم . وهم مقعد مقيم . وهـو مجتهد في بذل وسعه . سائل من الله لطف صنعه . معاود الى الحرب في كل صباح . طائر الى اللقاء بجناح كل نجاح . وفي يوم الاربعاء . بعث العساكر على اللقاء . ودخل راجلنا الى خنادقهم وخالطوهم . وتقابضوا على بسيطة واحدة وباسطوهم . وذكر انه وقف في ثغـرة من تلك الثغر افرنجي . كانه جني مستشيط نجـي . وهـو يدافـع ويمانع . ويكافح على تلك الثغرة ويقارع . قد اتخذ طارقته لجسـمه صدفا . وصار اسهام المنية هدفا . وهو كانه مما نشب فيه النشاب

القذفذ . وتلك السهام من لبس الحديد لاتنفذ فلم يزل واقفا الى ان احرقه بقارورة النفط زراق . فأمسى وهو حراق . ووقفت ايضا امرأة بقوس من الخشب ترمي . وتديم اصماءها وتدمي . فلم تزل تقاتل حتى قتلت . والى سقر انتقلت .

ذكر خروج سيف الدين علي المشطوب الى ملك الافرنسيس

ولما تمكن الفرنج وتكاثروا على عكا من جانب . وعروه بكل نائب . ومل اصحابنا فيها لكثرة من استشهد وجرح . وقلة البدل الذي كان قد اقترح . ونقب العدو الباشورة حتى وقعت منها بدنه . وزادت المخافة فلم يبق معها امنه . خرج المشطوب الى ملك الافرنسيس بامان . وحضر عنده بترجمان . وقال له قد علمتم ما عاملنا كم به عند اخذ بلادكم . من النزول عند طلب اهلها الامان على مرادكم وانا كنا نؤمنهم . ومن المسير الى مأمنهم نمكنهم . ونحن نسلم اليك البلد على ان تعطينا الامان ونسلم . واذا فعلت هذا فقد حزت المغنم . فقال ان اولئك الملوك كانوا عبيدي . وانتم اليوم مماليكي وعبيدي . فأرى فيكم رأيي من وعدي ووعيدي ، فقام المشطوب من عنده مغتاظا ولم يلبث لحظه ، واغلظ له في القول عملا بقول الله تعالى (وليجدوا فيكم غلظه)(التوبه ١٢٣). وقال نحن لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، فيكون مصرعكم قبل مصرعنا ، ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسين . ومتى عرف ان الأسد يسلم العرين .

ذكر هرب جماعة من الأمراء والأجناد من البلد

ولما عرف رجوع المشطوب . ولم يظفر بالغرض المطلوب . قال جماعة من الامراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء ، هذا

الامير الكبير ، والمستشار والمشير ، قد اشتغل باله . فسواه ماباله . وعمروا بركوسا . ورأوا في هربهم رايا منكوسا وربحا في دار البقاء مبخوسا . وذلك ليلة الخميس التاسع . وقربوا عليهم الأمر الشاسع . وجاؤوا الى العسكر مختفين . ومن رفقائهم في نسب الوفاء . والوفاق منتفين . فنمى الى السلطان الخبر بهرب الجماعة . وانهم خرجوا لله وله عن الطاعه . وانهم جبذوا عن بذل الاستطاعة . وخفضوا عنهم صيت الشجاعة . وابدلوا الاضاءة بالظلمة والحفظ بالاضاعة . وكان فيهم من الامراء المعروفين . وذوي الشهامة الموصوفين . عز الدين ارسل . وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل . وحسام الدين تمرتاش بن جاولي . وهو شاب أول ما توفي والده وجاولي . وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر . ومقدمي العساكر . وكل منهم محظوظ بالاقطاع الوافره فقطع السلطان اقطاعاتهم واقطعها وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها . واستعاذ أرسل بالاسدية ثم بالملك الافضل . المفضل المؤمل . وتوسل ابن جاولي بالملك العادل . وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل فلم تعد معيشتهم . ولم تعذب عيشتهم . وعاديا ممقوتين . وبحدود ألسن الذم منحوتين . وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين . وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية ومقدمها . فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة ويتلزمها . فعاد في ليلته . واسقط عنه المذمة بأوبته . ووقع بعد ذلك في الاسار . واستفكه السلطان بعد سنة بثمانمائة دينار .

فصل من كتاب الى مظفر الدين صاحب اربل في المعنى ووصف الحال

قد سبقت مكاتبتنا اليه بشرح الاحوال ، وما نحن عليه من رجاء النصر الذي هو متعلق الآمال ، وأن ملوك الفرنج وجموعهم قد وصلوا ، ونازلوا الثغر واحتفلوا . والآن فان منجنيقاتهم . هدته

بكثرة الضرب . وكثرت ثلم السور في مواضع النقب . وعظم الخطب . واشتدت الحرب واشفى البلد واشرف . واشتفى العدو بما فيه واسرف . ولما لج العدو في الزحف . واستسهل في التطرف الى البلد طريق الحتف . ركبنا في عسكرنا اليه . وهجمنا عليه لكنه بسوره وخندقه محتم . والى مطمحه البعيد من أمره مرتم . ولما عاين اصحابنا بالبلد ماعليه من الخطر . وانهم قد اشفوا على الغرر . فر من جماعة الأمراء من قل بالله وثوقه . وأعمى قلبه فجوره وفسوقه . ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم . وباءوا بوبال غدرهم . وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم . ومأارهب قلوب الباقين من مقاتلته الا رهبهم . والمقيمون من أصحابنا الكرام . قد استحلوا مر الحمام . واجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف أعدادهم . وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم . وكانوا قد تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا ، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا ايديهم في القوم وبسطوا . فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب ، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب . ونحن وان كنا القوم مضايقين وبهم محدقين وعلى جموعهم من الجوانب متفرقين ، فانهم يقاتلوننا من وراء جدار ، ويعلمون انهم ان خرجوا الينا في تبار ، والهجوم على جمعهم مستصعب ممتنع ، والعسكر على مركزهم متألف مجتمع ، والله قدر لايرد ، وقضاء لايصد ، وسر لايشارك في علمه ، وأمر لايغالب في حكمه ، وعلى الله قصد السبيل ، ونجح التأميل وتدقيق الطاقة في دفع الخطب الجليل ، وماتوفيقنا الا بالله وعليه توكلنا وهو نعم الوكيل .

ذكر ماجري من الحال

وفي ذلك اليوم وهو الخميس زحف الخميس . وحمي الوطيس وتحرك بالضراغم الجيش واسود الجو . وانسد الضو ، وانقضت

القضب انقضاض الشهب . واشتبهت الدهم والكمت بالشقر والشهب ، واختضبت البيض وتألق من بوارقها الوميض ورقصت قدود السر على غناء الصواهل . وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل ، فللدروع من الضرب قعاقع ، ولعواصف الألوية زعازع ، ولغربان الرماح نعيب ، ولغران المقربات لتقريب النصر البعيد تقريب ، ولحريق الظبا معمعه ، ولرحى الحرب الزبون جعجعة . واللاحقيات سابقة ولاحقة ، والسريجيات راعدة وبارقة ، وشموس التراك على بدور الأتراك شارقة ، ونبال النبل من عيون أعيان الكفر مارقة . وأيدي الأسنة هاتكة لحرز النحور سارقة . وثعالب الأسل في لبة الأسد ضابحة . ونشاوى اللدان من نجيع الاقران غابقة صابحة . في رايات يجاذبها ذراع الفلك فتقود عقبانها العقبان . وصفاح يصافحها شعاع الشمع فيكسو لجينها العقيان . وتقدم السلطان الى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا . وهجموا على الضراغم في آجامها . واحوجوها بحد الأقدام الى احجامها . ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده . ووقف عنده بجلاده . وجلده . ووصل في ذلك اليوم عز الدين جورديك ومعه من النورية المماليك . فترجل وقاتل الليلة على الخيل تحت الحديد ، منتظرا لنجح الأمل البعيد فقد كنا تواعدنا مع أهل البلد أنهم يخرجون تحت الليل رجالة وعلى الخيل ، ويسرون بأجمعهم على جانب البحر سري السيل ، ويذبون عن انفسهم بسيوفهم ، وينجون بأذفهم وعز انوفهم ، ولوصح هذا الموعد ، لنجح المقصد ، ولكن الفرنج اطلعوا على السر ، فاضطلعوا بالشر ، وحرسوا الجوانب والابواب ، وارتابوا بما أراب ، وكان سبب علمهم اثنان من غلمان الهاربين ، خرجا الى الملاعين ، وأخبراهم بجلية الحال ، وعزيمة الرجال ، واصبح يوم العسكر الجمعة العاشر، وقد جمع من الخيل والرجل المعاشر . واقفة على ترتيبه صفوفه . ومرهفة على عدوه اسنته وسيوفه . ودام ذلك اليوم على التعبية وقوفه . ولم يتحرك من القوم ساكن . ولم يظهر من العدو كامن . بل خرج ثلاثة من الرسل واجتمعوا بالملك العادل . فعادوا بعد ساعات ولم يفصلوا قسما من

اقسام الرسائل . وانقضى النهار والعسكر بالعدو المحيط بالبلد محيط . ولاذى مقامه بمقامه مميط . وبتنا على تلك الحالة . وأهل الهدى مراصدون لأهل الضلالة . واصبحنا يوم السبت وقد ركبت الافرنجية وتدرعت . وتحزبت وتجمعت . وحتى ظننا أنهم على عزم اللقاء . فهاجت العزائم منا الى الهيجاء . وخرج من بابهم اربعون فارسا ووقفوا واستوقفوا . واستدعوا ببعض المماليك الناصرية فلما عطف اليهم . عطفوا اليه وأخبروه . ان الخارج صاحب صيدا في اصحابه . وهو يستدعي نجيب الدين ابا محمد العدل لخطابه ، وهذا العدل من أمناء السلطان . وقد انس الفرنج به لتردده في الرسالات نحوهم في سالف الازمان . فلما حضر أرسله الى السلطان . ليتحدث في خروج من بعكا بأنفسهم بحكم الأمان . وطلبوا في مقابلة ذلك مالايدخل تحت الامكان . وزادوا في الاشتطاط وتناهوا في الاشتراط • فانفذ السلطان الملكين العادل والافضل . ليفصلا المجمل . ويجملا اذا حزا (٥٥)المفصل فتردد العدل مرارا . ووجد منهم على الاضرار اصرارا . ولم تتحرر قاعدة ولم تظهر فائدة . وانفصلوا على غير قرار . وعادوا والامر بغير إمرار .

ذكر جماعة من العسكرية وصلوا

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر وصل سابق الدين صاحب شيزر ، وفي يوم الاربعاء بدر الدين أيوب بن كنان وقد حشد وحشر، وفي يوم الخميس أسد الدين شيركوه وقد ابهج بقدومه العسكر ، وفي هذا التاريخ ضعف البلد . وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه . ووقف كرام اصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم . وباشروا الاسنة المشرعة اليهم بنحورهم . وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا. حتى ينتقلوا اليه اذا شاهدوا العدو غالبا ،

-٦١٢٧-

ذكر ماطلبه الفرنج في المصالحة على البلد

وكانوا اشتطروا اعانة جميع البلد . واطلاق اساراهم من الاقياد . فبذل لهم تسليم عكا بما فيها دون من فيها فلم يفعلوا . وبذل لهم في مقابلة كل شخص اسير . فلم يقبلوا وسمح لهم برد صليب الصلبوت اليهم فانفصلوا عن الأمر ولم يفصلوا .

ذكر استيلاء الفرنج على عكا وكيفية دخولها

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة . ماجت الفرنج ببحور جموعها الزاخرة وسالت الى ثغر البلد سيل الآتي الى القرار . وطلعت في السور المهدوم . طلوع الاوعال في فرج الاوعار . وانحدر عليهم اصحابنا انحدار الصخور المدهدهة ، وفرسوهم فرس الاساد المحرجة المكرهة . وردوهم اقبح رد ، وصدوهم افظع صد ، ومازالت الكرات تتناوب والحملات تتعاقب حتى كلت الرجال وفلت النصال وعرفوا ان الفرنج يستولون وعلى احد منهم لايبقون ، ولايخلون فخرج سيف الدين علي بن احمد المشطوب وحسام الدين حسين بن باريك وأخذوا أمان الفرنج على أن يخرجوا بأموالهم وانفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار والف دينار للمركيس وأربعة الاف دينار لحجابه فلم نشعر الا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه ، واعطاف أعلامهم مهزوزة ، وماعندنا علم بما جرت عليه الحال وماأحد منا الا والبال منه قد عراه الوبال ، وعم البلاء ، وتم القضاء وعز العزاء وقنط الرجاء ، ولوت أعناق المسار اللأواء ، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله وقدره الى تقي الدين وماعن له في سفره ، فانه مضى على أن يعود بأضعاف عسكره فاشتغل بقصد خلاط وأثار في ديار بكر الاختباط ، والاختلال وتأخرت عساكرها عن القدوم فنتج تأخر نصف العساكر فوات الغرض المروم ، وكذلك لم يكن في البلد عدد

يفي بصونه ، وماكان يضبطه السلطان الى هذه الغاية او لم يكن الله في عونه ، ونقل الثقل تلك الليلة الى منزله الاول بشفر عم ، واقام بخيمة لطيفة متلهفا على ماتم ، ثم انتقل سحرة ليلة الأحد تاسع عشر الشهر الى المخيم ، صابرا على حكم القضاء المبرم ، وحضرنا عنده وهو مغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم ، فعزيناه وسليناه ، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله وقد استعادها عداه ، وقلت له ان ذهبت مدينة فما ذهب الدين ، ولاضعف في نصر الله اليقين ، وماوعكت بعكا القلوب ، الا ولكربها يوم النصر على الأعداء تنفيس ، ولو حشتها بعد الحادثة الموحشة تانيس ، ولهذا الدين وان تداعت قواعد بقعة من بقاعة بالعز ليفاعه تأسيس ، وخرج في هذا اليوم اقوش ، رسولا ندبه بهاء الدين قرا قوش يخبر ماقرروه من القطيعة ، ويصف كيفية الملمة الفظيعة ، وقال : ادركونا بنصف المال وجميع الاسارى وصليب الصلبوت قبل خروج الشهر ، وان تأخر شيء من ذلك بقينا تحت الاسر ، ونصف المال يصبرون به الى شهر اخر ، فأحضر السلطان الاكابر وفاوضهم في ذلك وشاور ، فقالوا اخواننا المؤمنون ورفقاؤنا المسلمون ، وهل لنا عذر ونحن لهم مسلمون ، فتقبل السلطان بتحصيله وتعجيله بجملته وتفصيله .

وأنشأت في استيلاء الفرنج على عكا هذه الرسالة وسيرت بها كتبا

قد عرف امر عكا وان العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها . وقابلها وقاتلها وبرك عليها بكلكلة . وحفل عندها بجحفلة . وتواصلت اليها جموعه افواجا . وجلب البحر نحوها على اثباجة أمثال أمواجه أمواجا . وجاءت رابضة أمامها . ضاربة خيامها . ملهبة بها غرامها . ملهبة فيها ضرامها وانتهت المدة الى عامين كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحارا . وبرد الماء

بأهل النار مستصحبين من مــاء الحــديد الجــامد نارا . وتصـــل مراكبهم كأنها الاعلام الســود . والامــواج ناشرة بيض اعلامهــا مالئة جبالها بأكامها . مازجة اصباحها باظلامها .

وتتنافس ملوكهـــــم البـــــاغية . وطـــــــــواغيتهم الطاغية . في الورود بنفوسها ونفائسها . والوصول بما نفضـت فيه كنائن كنائسها . مستخرجة ضمائر خــزائنها . مســتفرغة ذخــائر مكامنها . موضعة ظعائن ضغائنها . مســتبضعة متــاع متــاعها . مسرعة الى معاطن معاطيها . وتــرد بقناطير أمــوالها، وجمــاهير رجالها . ومساعير مصالها . ومشاهير ابطالها . ويحدقون بها من برها وبحرها . ويجثمون بين سحرها ونحرها . ومازالوا يقــاتلون أبراجها بالابراج . ويسومون جـدتها بـالانهاج . ويرومــون علاج كرامها بمراماة الاعلاج . ويقارعونها ليلا ونهارا . ويقلمون افــواه خنادقها أحجارا . ويناجونها بألسنة المجانيق الطــوال . ويطيرون إليها على حمام الحمام كتب الاجال . ويكافحونها قراعا، ويدبــون اليها المضايقة خطا وساعا . ويناطحونها بالكباش . ويعــاقرونها من حرابتهم وحرابهم بكلاب الهراش . وحيات النهاش . ويرامونها بكل منجنيق عظيم الخلق . كانه حــامل على الطلق . لاتلد إلا أمــات الدواهي . ولاتدع الراسخ الراسي إذا قابلته غير الواهن الواهــي . ويقتل الله منهم العدد الدهم . والجمع الجم . ويهلك ألوفــا . حتــى يعود نافرهم للمنون ألوفا . وقد تجاوزت عدة القتلى منهــم في هــذه المدة . سوى من هلك بالضائقة والشدة . خمسين ألفا قولا لايتسمح فيه المعبر بالبيان . بل يتصفحه المحرر بالعيان إلى هــذه الســنة . والحالة في تحقيق قمعهــم وتفــريق جمعهــم جــارية على الوتيرة الحسنة . واشتعلت في قلوب أهل النار نار البــواعث . وتحــدثوا في الحادث . وثاروا للثأر . وزاروا بالزار . وانبــرى ملكا افــرنسيس وانكتير . وملوك آخرون دبروا أحكامهم وأحكموا التدبير . وجاؤوا في مراكب بحرية حربية . وبطس حمالة فرنجية ، وأجروا في البحــر منها السيول . وجروا من ذوات الشراع عليها الذيول . وحملوا فيها الخيالة والخيول . ووصلت كل قطعة كأنها قلعة . وكل بطسة كانها تلعة . وكل سفينة فيها مدينة . وكل مجرة على سماء البحر بنجــوم

الرجوم مزينة . فاحدقت بالثغر من البر والبحر . واحاطت بمركز الاسلام دائرة الكفر . واطافت منها الاسوار بالاسوار . والظلماء بالادوار . ومنعت الداخل والخارج . وسدت على ناقل الميرة وحامل السلاح . الموالج والمناهج . وزاحفوه بكل منجيق كنيق . وكل برج وثيق . وكل دبابة كأنها دابة الارض التي تقوم عندها القيامة . وكل سلم لاترجي معه العلامة . وكل آلة آلت إن الفتح منها بالحتف . واقسمت أنها تقسم سهام سهامها لذوي الحفز بالزحف . هذا والعدو قد حفر من جانبنا وعمق . وسور وخندق . وتدرع بأسواره وخنادقه . وتستر عن طوارق البلاء بستائره وطوارقه . فلا يخرج منه إلى معاركه . ولايدخل إليه لضيق مسالكه . وهو متحرر متحرس . متستر متترس . عاص على الهجم . عاس على العجم . لايقتحم سده . ولايثلم حده . ولم تزل الحالة تتمادى والواقعة وليدها لاينادى . والمدى يتطاول . والمدد يتواصل . والقضية تترامى . والرمية تتقاضى . ومقاتلة الثغر صابرون مصابرون . مكابرون مضابرون(٥٦) . فمن مستشهد عدله الجرح . ومن مستنجد عطله القرح . ومن دام بالجرح رام عنه . ومن نازع في القوس نازع منه ، ومن متعرض للموت خوف عار عارض . ومن ناه عن السلم أمر بالحرب ناهض . ومن ندب فيه ندوب . ومن ضرب فيه من أثر الضرب ضروب . حتى ضج الحديد من قرع الحديد . ومجت الشفار الظامئة ورد الوريد . هذا وعدد المقاتلة في كل يوم ينقص . وظل المصابرة يقلص . والعدم يتمكن من الوجود . والقيام للاثخان في زي القعود . وكاد البقاء يودع الباقين . والمذون تلاقي الملاقين . فلم يشعروا إلا وبعض المقدمين المشهورين قد تاخر وتستر . واستشعر الذعر فتعذر وتحذر . واستبدل الجبن من الشجاعة . واستملى العجز من الاستطاعة . وقدم العصيان على الطاعة . وظن إنه لانجاح له في العزيمة . ولا نجاة له إلا في الهزيمة . وجنب امثاله من الجبناء . وجمع إلى امره جماعة من الامراء . فخرج بهم من الثغر فارا وذهب على وجهه معهم مارا . ورهب فهرب . وحسب فتحسب . فأضعف قلوب البقية استشعارا . واعدمهم عدم قراره قرارا . لكنهم ثابوا

إلى صبرهم . وثبتوا على أمرهم . ودفعوا مكر العدو بمكرهم . ومابرحوا على مصابرة ومكابرة . ومقارعة ومعاقرة . ومكافحة وملافحة . ومواقعة ومواقحة . ومطاحنة ومناطحة . وجلد على الخنادق التي طمت . ورمي في خروقها التراب ورمت . وطرقها العدو بالسوء إلى السور . وطرق الظلامة إلى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . وأشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبة . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو بالسوء الى السور . وطرق الظلمة الى الذور . وهجم على السني بالديجور . وكشف نقاب عروس البلد بالنقب . وأسعر بمساعيره حر الحرب . حتى ثلم حمى الثغر وكلم حامية . واشرفت مراميه . وكثرت ندوب نقوبه . وكرثت خطاب خطوبه . ودخل العدو في النقب فلم يجد لكونه مجدلا او مجرحا او مخرجا . وتوغل في الباب فوجد باب الخلاص المرتجى مرتجا . وكل من اصحابنا قد سد الثغرة بنفسه ولقي الوحشة بأنسه . وفارق لوصال أهل الجنة أهله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . ولم يزل النقابون يوسعون ويمشون . ويعلقون ويحشون ويخرقون ويحرقون . ويجمعون ويفرقون . حتى تساقطت الأبدان فعادت تلولا . وتعانقت الاسياف فزادت فلولا ، وتكشفت الوجوه لقبل الطعان وبردت بحرارة الدم قوائم اليمانية في الايمان . وبردت بمجالدة أجلاد الشرك أيمان أنجاد الايمان واصحابنا لايهولهم الهائل ولايميلهم الى الحذار الجدار المائل . ولايزعهم الخطب الوازع ، ولايردعهم الرعب الرادع . يواصلون بالقواطع ويتواقعون على الوقائع . ويردون بغربهم الطالع ، ويقدون بحدهم الدارع . اذا انتظموا مع العدو نثروه . واذا نهضوا له اقعدوه وعثروه . واذا صعد اليهم حدروه . واذا بادر اليهم بدروه وندروه . حتى أقاموا منه عوض أبدان السور أبدانا . وكم تركوا على تلك المصارع من جاثميها جثمانا . ومازالوا يقتلون ويقتلون . وينهلون من ورد النجيع وينهلون . ويصلون ويقطعون . ويشعبون ويصدعون . ويكيلون بصاع المصاع . ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع . ويتناجون بألسنة المناصل .

ويتقابلون بوجوه الصواقل . ويتشاركون بكلام الكلام . ويتلاقون بسلام السلام . ويتساقون بصحاف الصفاح . ويتماشون بمراح الرماح . ويستحلون ضرب الضراب . ويسجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب . الى أن انتقل القتال من السور الى الدور . ومن الستائر الى الستور . ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح . ومن المضايق الى السفاح . ومن المراقب الى السفوح حتى لم يبق من المجاهدين الا سبائك زحوف . وترائك حتوف . وبقايا طرائح . ورزايا طلائح . ومشوق (٥٧) جرائح . ومشوقو ضرائح . قد فصلتهم المشرفيات . وخاطتهم الخطيات . ورشقتهم القسي القاسية . ورشفتهم الظبا الظامية . ولاينهض قويهم من الكلول ولايفرى فريهم من الفلول . وقد شغلوا بسد تلك المضايق . ورد أولئك الخلايق . فما شعروا الا وقد دخلت من أقطارها . وتوغلت من اسوارها . وأزدحم العدو في مشارعها وسبلها . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . ولما عرف العدو الداخل . والعادي الواغل . أن القوم مستقلون والموت مستقبلون . وأنه لاطاقة له بمقاومتهم . ولا قوام له بطاقتهم . وانهم لايسلمون وهم يسلمون ولايبقون وهم يبقون . اعطاهم أمانا أخطر من المخافة ودخل على الاغارة باسم الضيافة ، وعز اصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا . وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا . ولامرد لما فيه الله من المراد . ولامدفع لحكمه في البلاد والعباد . وأن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين . وإن غاض معين فما غاب المعين . وان ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين . وإن فتح المرتج فما فات المرتجى . وإن أدلهم الديجور فلابد أن يسفر عن الصبح الدجى . ولايشمت عدو بما جرى . فعند الصباح يحمد القوم السرى .

فصل من كتاب
الى قطب بن ذور الدين بن قرا أرسلان

قد أحاط علم المجلس بما حشده الكفر في هذه السنة من مدد ماوكه . وكثر على نهار الاسلام باظلام ليل الكفر وحلوكه . فالاسلام يذشد ظهيره . ويطلب الدين لكشف غمته من ابن ذوره ذوره . وهذه عكا التي كنا عنها ندافع . وعن ثغرها نمانع ونجري دماء الواردين في البحر لقصدها في بحرها . ونرد الرد عنها مكايد العداة في نحرها . قد تمكن منها الكفر على كره من الاسلام . واجتاح من أبي اسلامها بعد أن صابر وصبر إلى الاسلام . وكانت مودودة فعادت مؤودة . وصارت مغصوبة بعد ان كانت عارية من الكفر مردودة . واذا أفكر من خذلها . وما اخذلها . وغاب عنها وما حضرها . علم أنها أسيرة إهماله . واخيذة إغفاله . وحاشى ان يكون المجلس بالغيبة عنا راضيا . وعن النجدة عند تحقق الحاجة اليها متغاضيا . ومابقي للفرنج مع استيلائها على الموضع . الا زائد قوة في المطمح والمطمع . وقد عزمنا على المصاف وصد صدمة الكافر بالجد الكافي الكاف والله كافل دينه بالنصر . والمردي بمكره أهل المكر وما هذا اوان الوني . بل هو زمان استنجاح المنى . فان العدو الخادر قد آن أن يصحر . وليل الهدى قد قرب أن يسفر .

ومن رسالة أخرى في استدعاء مظفر الدين من إربل تشتمل على حادثة عكا ووصف الحال الجارية فيها

قد علم مادهم المسلمون من العدو الكافر . والطاغية الحاشد الحاشر . وأنه ورد في البحر بكل من الكفر في البلاد والجزائر . وماقصده الا بيضة الاسلام وحوزته وان الله تعالى هو الذي تكفل بذلة اعدائه عزته . ولا شك انه عرف ماتم منه على عكا بعد ذبنا عنها

في هاتين السنتين . والمضايقة للفرنج ممن بعكا ومنا بين الحصارين . وانهم كلما دبروا أمرا دمرناه . وكلما حققوا كيدا ابطلناه . وكلما قدموا منجنيقا . اخرناه وعطلناه . وكلما ركبوا برجا أحرقناه . وكلما كشفوا حجابا خرقناه .وكلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، حتى لم يبق لمكرهم ولالكيدهم مجال ، ولم يتسق في هذه المدة لهم حال ، وقتل منهم في عدة دفعات زهاء خمسين الف مقاتل ، من فارس وراجل . ولم نشك في استيعابهم بالردى . وأن حزب الضلال قد أفناه حزب الهدى . وحسبنا انهم بائدون . فاذا هم زائدون ، وظننا أنهم هالكون . فاذا هم في نهج القتال سالكون . وهم حطب نار الحرب . وطعم الطعن والضرب . وكم بذلوا ارواحهم على حب المقبرة . وحصلوا تحت العجز لزعمهم انهم يأتون بما فوق المقدرة ، ولما دخلت هذه السنة اشفقنا على من في عكا ، من الأصحاب والأجناد . وقلنا هؤلاء قد بذلوا في الجهاد ماكان في وسعهم من الاجتهاد . ورأينا أن نجدد للبلد البدل . وأن نسد ونسدد بما نستأنفه الخلة والخلل ، وكان فيه أكثر من عشرة الاف رجل ، ومن كل نمر مشيح وكمي بطل . فخرج هؤلاء ولم يدخل اليه مثل تلك العدة ، ولم يكن ايضا من دخل بذلك الجد بتلك الشدة . فان البحر قبل استكمالها منع راكبه ، وحمى جانبه . ووصل العدو وعجل مراكبه فاكتفى البلد بمن فيه ومافيه كفاية واتكل على الله الذي عصمته من كل واقعة وقاية . وجاءت ملوك الفرنج خلاف كل عام . في جد واعتزام وحد واهتمام . وجمع لهام ونار تعجلها العدو من جهنمه وضرام وغرام بالواقعة وعرام . واحتداد للحادثة واحتدام . وباس واقدام . وناس واقوام . وحشد ملأت به سفنها، واخلت منه مدنها . ووصل ملكا افرنسيس وانكتير . وقد احكما التدبير . وأجلبا بخيلهما ورجلهما . واناخا بكلكل كلهما . وبركا بثقلهما . وزحفا بجهدهما وجهلهما . ووافوا بكل برج وثيق وكل منجنيق كنيق . وكل آلة هائلة . ودبابة للبلايا حاملة . ونصبوا ثلاثة عشر منجنيقا على موضع واحد . واهبطوا حجارات السور بكل حجر صاعد . وباشروا الباشورة بالهدم ، والخندق بالطم والسور بالنقب

والثلم . وخرج من نقابي البلد من ارتد عن الدين . وأعان نقابي الملاعين . حتى وقعت ابدان السور وأبراجه وتبادر الى الثلم أعلام الكفر وأعلاجه وأصحابنا مع ذلك ثابتون . ناكبون كابتون . قد سدوا تلك الثغر بنفوسهم . وجعلوا حجارات الفرنج وجراخاتها مغافر رؤوسهم . وكشفوا وجوههم لقبل السهام . وتلقفوا من وقع بيضها بحمر اللثام . ترشف شفاه الشفار دماءهم . وتشكر ملائكة السماء سماحهم بالمهج وكلما اجتمع به فرقوه بطعنهم وضربهم . وهم يواقعون ويواقحون . ويكافحون ويلافحون . وكل قد وقف في موقف الكرام وسل نصله . وأثبت في مستنقع الموت رجله . وودع للجنة في لقاء أهل النار أهله . فخانهم بعض الأمراء الجبناء . وأخذ للحياة بترك الحياء . وفر من البلاء الى البلاء . وحسب النجاة في النجاء . وهرب في بركوس قد أعده لذلك اليوم . وآثر على جراح السيف جراح السب واللوم . واستصحب أمثاله . واستتبع وأبعد في فراره وأبدع . وأضعف بضعف قلبه قلوب الباقين . وأمطى أفاعي الكفر في نهش الراقين . على أن الأصحاب ما أنذوا بالأصحاب . ولم يقابلوا الضراب بالاضراب . ومازالوا يواصلون بالقواطع . ولايرتاعون للروائع . ولايريمون مقام المقامع . ويطالبون من الأرواح بالودائع . حتى انتقل القتال من السور الى الدور ومن القوارع الى الشوارع . ودخل العدو المدينة على سلم بالحرب شبيهة . وأمن أخوف وأخطر من كريهة . وقطيعة فظيعة . كل منة لها غير مستطيعة . ولولا مااتفق بعد قضاء الله من الأسباب الموهنة . لم تكن عكا بالممكنة للعدو ولاالمذعنة . وأن ذهبت المدينة فالدين لم يذهب وان عطبت فالاسلام لم يعطب . وان ملكت واحتلت فما اختل الملك . وأن سلكت ووهت فما وهى السلك . وانما نبه الله بها العزائم الراقدة . وأجرى مياه الهمم الراكدة . وبعث الحميات الناعسة . وحرك النخوات المتنافسة . وكما أظهر عجزنا عن قدرته وقدره . وسيظهر عزنا بنصرته وظفره . ونحن الى الآن كما كنا محدقون بخنادقهم آخذون بمخانقهم . ونوسعهم الردى في مضايقهم ونجذبهم في كل يوم الى مصارعهم . ونكدر بعلق نجيعهم صفو

مشاربهم ومشارعهم ، فما خرج منهم من دخل . وما انقطع الا من وصل . وما اصحر الا من ندبه عريسه وعرسه . وما برز الا من واراه من بطون الخوامع رمسه ، فهم مقيمون لايريمون مخيمهم . ولايرومون ان يهجروا مجثمهم ، ومااذسوا بمرابض المضارب . الا لذفرتهم من مضارب القواضب ، وهم مع ذلك يرجفون تارة بالخروج الى المصاف ، وآونة بالنهوض الى بعض الأطراف . وفي كلا القصدين ان شاء الله دمارهم المعجل . وبوارهم المؤمل . فانا نعترضهم اين واجهوا ونواجههم أين اعترضوا . ونعثرهم اين نهضوا . ونثيرهم للموت أين ربضوا . وربما غرتهم عكا فطمحوا وطمعوا . واتفقوا على المصاف واجتمعوا . ووقعوا على نار الحرب وقوع الفراش . وتعوضوا مصارع امثالهم والثرى لهم وثير الفراش . فان برز العدو فالمذون له بارزة . والعزائم له مناجزة . والعساكر الاسلامية اليه وعليه زاحفة حافزة . والمجلس اولى من يتنخي ويحتمي . والى هذا المرام من قهر الكفر يرتمي وينتمي ويصل بجمعه اللهام الملتهم . وبجمره المحتد المحتدم . وبفيلقه الفالق ترائك العدا . السافك السابك في نار الوغى سبائك الظبا . الحاصي الحاصد بحدود الشفار سنابل الطلى . وهو لا شك ينهض ويستنهض من وراءه . ويستدعي من اذا ناداه اجابه وجاءه .

ذكر لطف من الله في حقي خفي

كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنه عمل ترجمة تفرد بها القاضي ابن قريش لمكاتبته الاصحاب . ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب . فلم يبق المكاتبة ابتداء وجوابا بخطي . وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطي . فقلت لاصحابي ماصرف الله قلمي عن عكا الا وفي علمه ان الكفر اليها يعود . وان النحوس تحلها وترحل عنها السعود . واستعانني الله من استعادتها . وردها الى شقاوتها بعد سعادتها . ولقد عصم الله قلمي وكلمي . وعرف شيم مخايل الطافه من شيمي . وهذا قلم جمعت به اشتات العلوم مدة عمري .

وماجراه الله الا باجري . فالحمد لله الذي صانه . وعظم شـأنه . وماضيع احسانه . وهو للفقـه والفتيا . ومصـالح الدين في الدنيا . وماعرف الا بعرف . فمـا صرف الا عن صرف . ومـاسفارته الا في نجح . وماسفاره الا عن صبح وماتجارته الا لربح فهو يمين الدولة واميـنها . ومعين الملة بل معينها . بمداده يستمد امدادها . وبسداده الثغور سدادها . ودواته دواء المعضلات . وبعقده حل المشـكلات . وبخطه حط عوادي الخطوب . وبقطة قط هوادي القطوب . وببـريه بره الامراض . وبجريه جـري الجياد للجهـاد . وبسـعيه سـعي الامجاد للانجاد ، وبحـركته سـكون الدهمـاء . وببـركته ركون الرجاء . فما كان الله ليضيعه في صون مـالا يصـونه . وعون مـن لايعينه . فخفت على عكا من وقوف قلمي عنهـا . وكان قـد الهمني الله فانه صـانه ولم يصـنها . وشـكرت الله على هـذه اللطيفـة . والعارفة الطريفه .

ذكر ماجرت عليه الحال بعـد اسـتيلاء الفـرنج على عكا من الوقائع

وفي يوم الخميس انسلاخ جمادى الاخره . خرج الفرنج من جـانب البحر بالعدة الوافرة . وانتشروا بالمرج الى الآبار التي كان حفرها العسكر . فضرب الكوس السـلطاني . فثـار المعشر وقـام المحشر وانهض السلطان الى اليزك من قواه . واتبعه بمدد تلاه . وقد طـار غراب الغبار . وتبرقعت بالتراب عراب المضمار . وشبت الوغى بكل شبوب تمانع سوى فارسها ركابهـا . وتعير الشـمس مـن نسـج حافرها نقابها . في غلب كالقواضب .يروون القواضب . وطوالع من الغروب يعدن في الغوارب غوارب . وحمل على ابطال الباطل حمـاة الحق . فردوا الكفر بذلك الخرق المتسـع متسـع الخـرق وانهـزم الفرنج فجالت العرب دونهم . وحالت بينهم وبين اسوارهم واحالت عليهم منونهم . وصرعوا زهـاء خمسين رجلا . كروا عليهم بكاسات

المذون نهلا وعللا . وردوهم الى مراكزهم ولم يبن اقـادرهم فضـل على عاجزهم . ثم كر الفـرنج على المسـلمين كرة عظيمـة . كادت تحدث هزيمة . فوقف اصحابنا وثبتـواثم وثبـوا . واسـعروا نار الحـــديد والهبـــوا . ونظمـــــــــوهم بالقنا . ونثروهم بالظبا . وفرشوا منهم قتلى على الربا . واحتبـت سيوفهم بالاعناق والطلى . وحلت من حياة العـدا الحبـا . ودخـل القوم الى خنادقهم ووقفوا وراء اسوارهم بـإثارة عثيرهـم وأثـار عثارهم . وانتصف الاسلام في ذلك اليوم بعض الانتصـاف . واخـذ يد النصر على المصافاة بمصافحة المصاف . وفي يوم الجمعة ثامن رجب جاءت الرسل في تقرير القطيعة المقـررة . لخـلاص الجمـاعة المستأسرة . واخبروا أن ملك افرنسيس صـار الى صـور، ورتـب الدوك نائبه وولاه الامور . وأنه قد عزم على العود الى بلاده . بعـد ما جرى الامر بعكا على مراده . وأنه وكل المركيس في قبض نصـيبه ورضي بتدبيره وترتيبه . فـانهض اليه السـلطان وراءه رسـولا بتحف تليق به . يستخرج ضمائره فيما هـو من اربه . ونقل خيمتـه يوم السبت العاشر الى تل بازاء شفر عم وراء التـل الذي كان عليه نازلا . وحلى الموضع الذي حله وخلى الذي اخلاه عاطلا . ومازالت الرسل تتردد . والرسالات تتجدد ، والاراء تجتمع وتتبـدد . حتـى احضر مائة الف دينار والاسـارى المطلوبين وصـليب الصـلبوت . ليوصـــل ذلك كله الى الافـــرنج في الاجـــل المضروب والوقــت الموقوت . ووقع الخلاف في كيفية التسليم والتسلم . وكيف يحصـل الوثوق بالكفار مع تحمل هذا المغرم . فقال السـلطان اسـلمه اليكم على ان تطلقوا اصحابنا اجمعين . وتأخذوا بباقي المال على سـبيل الرهن قوما معينين . فابوا الا اخـذ الجميع . في الزمـان السريع . والوثوق بأمانهم وامانتهم . والتفويض في اصحابنا الى خيرتهـم . فقلنا لهم تضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان . وساء فيهـم ظـن السلطان . وقال اذا سلم اليهم من غير شرط الاحتياط عليهم . كان فيه على الاسـلام غبـن عظيم . وعار الى الابـد مقيم . فلو أيقنا خلاص اصحابنا . وعرفنا بنجاتهم انتظام اسباتنا . سمحنا لهم في الحال ، بصليب الصلبوت والاسارى والمال . وبقي الامر واقفا الى

ان انقضى الاجل . وانتهي التـرم الاول . وجـاء الرسـل وابصروا الأسارى حضـورا . والمال مـوزونا مـوفورا . وظنوا ان صـليب الصلبوت قد ارسـل الى دار الخـلافة فليس له وجـود . فسـألوا احضاره وهم شهود . فلما احضر خروا له ساجدين . واقـروا بـه شاهدين . وعرفوا ان الشرط بالوفاء مقرون . وان الاداء بخـلاص اسارانا مرهون . وظهرت علامـات مـكرهم . ولاحـت امـارات غدرهم . وفي يوم الاربعاء العشرين من رجب اخـرج الفـرنج الى ظاهر المرج خياما ضربوها . وقبابا نصبوها . وخـرج ملك الانكتير الى خيمته . ومعه خلق من خيالته ورجالته .

ذكر غدر ملك الانكتير وقتل المسلمين المأخوذين بعكا

وفي عصر يوم الثلاثاء سادس رجـب ركبـت الفـرنجية بـأسرها وخرجت من مستقرها وسارت بخيلها ورجلها . وجحفلها وحفلها . وجاءت الى المرج الذي بين تل العياضية وتل كيسان . ونفـذ اليزك وأخبر السلطان . وركبت العسـاكر نحـوها متسـابقة متلاحقة . وشامت صوارم صادقة وعزائم صادقة . وكان الملاعين قد احضروا اسارى المسلمين . وفي الحبـال واقفين . وحملوا عليهـم وقتلوهـم بأجمعهم . والقوهم على مصرعهـم . فحمـل عليهـم العسـكر وهاجمهم . وضرب بأمواجه امواجهم . وقتل منهم خلقا . وأوسـع فيهم خرقا واستشهد منا كردي حميدي وبـدوي . وكلاهمـا مـن الموصوفين بالشجاعة وهو من ماء الرحمة على الكوثر روي . فلمـا انصرف العدو الى خيامـه ، وركد الروع بخـار قتـامه . شـوهد المستشهدون بالعراء عريا . وانما عروا ليكتسـوا مـن حلل الجنان التي اكرمهم الله بها وشيا . ومضى الناس اليهم فعرفوا معارفهم . ووصفوا في سبيل الله مواقفهم . وماأكرمهم رجالا . واحسـنهم في الشهادة والسعادة حالا . ولما غدر الفرنج بسفك الدماء . وهتك ستر الوفاء . تصرف السـلطان في ذلك المال . وبسـط فيه يد النـوال . واعاد اسارى الفرنج الى دمشق لتعاد الى اربـابها . وتـرجع الى

ايدي اصحابها . فانهم كانوا جمعوا من اهل البلد الحاجة اليهم . فلما استغني عنهم ردوا عليهم صليب الصلبوت الى الخزانة . لا للاعزاز بل للاهانة . فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد . والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد . وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا . وانفذوا بعد رسول رسولا . فما وجدوا قبولا ولاصادفوا سولا .

وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من رجب قوضت الفرنج خيمها وعبرت النهر . وقاربت البحر . وضربت بينهما الخيام . واثبتت من الرماح المركوزة على سباعها وضباعها الآجام . فقيل السلطان . ماحركة القوم الا لقصد عسقلان . فجاشت همومه وعب عبابه . واجتمع بنانيه لاجالة قداح الراي أصحابه . وسح سحابه وصح حسابه . وحكم فأحكم . وبرى فابرم . واستشار وأشار . واستثار وأثار . واستورى زناد الاراء . وامترى مراد الامراء . وقال هذا العدو طغى واستكبر . واصحى له الافق وافاق واصحر . وقد تحرك بعد سكونه . وظهر بعد سكونه . وظهر بعد كمونه. وغرته عكا فطمع في عسقلان . واسترق جانبنا الخشن الشديد عليه واستلان . وهذه جموعه بارزة . وكعوبه راكزة . وعوراته باديه . وثوراته عاديه . وذكراته معروفة . وغدراته موصوفة . وكنا نقول اذا برز نبارزه . واذا خرج نناجزه . واذا فارق مكانه نتمكن من تفريقه . واذا ركب الطريق نركب الى طريقه . واذا توجه الى موضع اوضعنا الى مواجهته . واغرينا ألسنة الاسنة بمشافهته ومسافهته . والان الان الله لنا الشديد . وادنى علينا البعيد . واخرج العدو من الضيق الى السعه . وابرزه من وراء الاسوار والخنادق الممتنعه . وان لم نلقه في طريق مسيره . ونجد في التدبير لتدميره . وصل الى عسقلان فصار لنا منها شغل عكا واصعب . وحينئذ نتعب . وصدعنا بها لايشعب . فقالوا هو يسير بالبحر محتميا . وعن النهج منتئيا . ويقصد الساحل الساحل . ويقتصر المراحل . والذي يلي الساحل في الطريق اما اجام وغياض غلقه متأشبه واما رمال وتلال ضيقه متكاثبه . وهناك مواضع يمكن فيها مضايقته على المضايق . ومواقعته

بالعوائق . فتقدم السلطان الى علم الدين سليمان بـن جندر . وامير من اهل الخبرة آخر بالمسير الى تلك المناهج . ومشاهدة مالها مـن المخارج والموالج . وكشف المواضع التي يلقى فيها العدو . ويؤمـل بمقاتلته فيها من الله النصر المرجو . فسارا يذقضـان تلك المسالك ويكشفان الاماكن التي تكون معارك . ونتخذها لمبار المرام مبارك . ولمدار المراد مدارك . وعادا وقد ظفرا بقاع وبقاع وعينا على امـاكن ومكامن . ومواطيء ومواطن . ووقع الاجمـاع على الاجمـاع على اللقاء والقراع . في مـذاهب تعينت . ومسـارب تبينت . وسـهول عرفت . ومروت وصفت . وصمم العزم على ان الفـرنج اذا سـاروا سرنا على عراضهم واسـتقمنا على جـدد الجـد في اعتـراضهم واعتراضهم .

ذكر رحيل الفرنج صوب عسقلان ورحيلنا للقاهم

وفي سحرة الاحد غرة شعبان . اضرم الفرنج في منازلهم النيران . واصبحوا على الرحيل . والاصوات مختلطة بـالصهيل . والارض مضطربه والسماء محتجبه . والقبـاب تقـوض . والعياب تنفض . والجعاب تنثـل . والهضـاب تنتقـل والذئاب تعسـل . والزغف تفاض ،(٥٨) والحتف يخاض . والخيل تسرح . والسيل يمرج . وذوائب الذوابـل تنتشر . واذيـات الذوائب تـكشر . ولواء اللاواء يعقد . وضرام الضراء يوقد . والبيارق تخنفق . والبوارق تـأتلق . والدو دو . والجو جو . والحديد تبوج والعديد تمـوج . وقـد ثـارت الجواء . وفارت الجأواء . ودجت الاضواء . ورجـت الضـوضاء . وسال الوادي . وعدت العوادي . وسار الاعادي . وعلم السـلطان تدبيرهم . وعرف مسيرهم . فـرعدت كوسـاته . وغردت بـوقاته . وصاحت طبوله . وساحت سيوله . وانسحبت ذيوله . واصـطحبت خيوله . وبرقت لوامعه . واشرقـت طـوالعه . ومضـت عزائمـه . ومضت صوارمه . وحلقت العقبان الى مـطار مـطارده . وتـألقت الخرصان في معاقل معاقده . وسار وارضه جردالضوامر . وسماؤه

نسج الحوافر . في بحار سوابح يموج على شكائمها اللعاب .
وغدران سوابغ كالزلازل لمعه الحباب . ومجر ملتهب الجوانب .
مشتعل القواضب . وقب معقودة السبائب . مقودة الجنائب .
معصوبة الهوادي هابيه العصائب . وعرب ملوية العمائم بالشهب
ملوثة البرود بالقضب . وترك كالاقمار في هالات التروك . ومماليك
في حالات الملوك . عتاق الوجوه على الوجيهيات العتاق قد خلقوا
للثبات مع قلق الاخلاق . واعاجم على العراب . هضاب على
هضاب . وكرد بحصون الدروع محتمين . وبقباب اليلب
مستعصمين . في مسرودة الحلق . مسدودة الحدق . تقهقر عنها
اللهاذم . وتقهقه اذا فلت بها الصوارم . وجيش يصيب العدو
ولايصاب . ويعيب الاقران ولايعاب . من كل ناصر الحق على ضامر
للسبق . خارق النقع راقع للخرق . فاتق راتق للفتق . معنق الى
الضرب ضارب العنق . وفيلق همه فلق الهام . وجحفل ملتهم
الجحفل اللهام . يحوي كل اغلب عبل الذراع . واشم رحب الباع .
خواض الكتائب . فياض القواضب . رواض الرعان . نضناض
السنان . موار العنان . فوار الجنان . قائد الخيل زائد السيل .

رائد الليل وهاجت العساكر وماجت الزواخر . فزرات القساور .
وأزهرت الزواهر . وتناوحت جذبات الحديد . وعذبات الحرير .
وأشبه سهك الماذي بعبيق العبير وكانت نوبة اليزك في ذلك اليوم للملك
الافضل وهو في نخبة الجحفل بدور ليل لقسطل . وشموس يوم
المحفل • فوقف لهم وقفا أثرهم وألهبهم بنيران النصال .
وأسعرهم . وقطع طريقهم • وقصد تفريقهم • وسطا على
أوساطهم ، ونادى بايراء زناد إيراطهم فانقطعت أواخرهم عن
أوائلهم وسدد سهام المنون إلى مقاتلهم وأرهق إليهم الاجل •
وأحرق عليهم العجل . وطرق نحوهم الوجل . وانهزم من تقدم
ولحق الأول . وتعكس من تأخر وانخذل وانخزل ، وأوقد نارا على
اهلها مشعلة . وترك تلك الوقعة للمجاهدين الحاضرين مشغله .
وذفذ الى والده يستنجده . حتى يسرع اليه مدده . ويقول ان امددت
بألف ما أبقيت من هؤلاء واحدا . ومتى تتفق مثل هذه الفرصة او ارى لي

مساعدا . وترددت الى السلطان رسل استنجاده واستمداده . وهو متحقق أنه لو ساعده القدر بالقدرة لدرى در النصر على مرائه . فسار من كان حاضرا من العسكر على عزم انجاده واسعاده . ثم قيل للسلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة . والناس قد سبقوا الى المنزلة . وهناك عند قيسارية الحرب امكن . والقلب الى انهاز الفرصة أسكن . وابطأوا عن الاصراخ . فآذن روح الفرنج بالافراخ . وعرف ملك الانكتير بما تم على ساقته . وان الذي وراءه في عاقته فصرف عنانه وصرف عناده . وعاد عاديا بحماته . فحمى بمدده امداده .

والملك الافضل قد بذل وسعه . واوضح في الجد بشرعه . وقتل من وصـــــــــــــــــــــلت اليه يده

ولقد كان يضعف عدد الاعداء لو تضاعف عدده . وبقي يتلهف على ما فاته من الفرصة . واعوزه في حصة تلك الحصة . فقد انهاض بانتهاضة جناح الكفر . وكان يفتح لارتجائه رتاج النجاح في النصر . ومن جملة من كان مع الملك الافضل من خواص الامراء والممالك . سيف الدين يازكوج وعز الدين جرديك . واتفق قولهم على ان العدو كان قد انكسر . وتبدد نظمه وتبتر . وانه لو اتصل بهم مدد . لم يبق من الأعداء أحد.ونزلنا تلك الليلة بالقيمون في الوقت الميمون . وعلى الساقة المنصورة لحفظ الاثقال لتؤمن على ما تخاف فيها من العدو الغاره . علم الدين سليمان وحسام الدين بشاره . ورحلنا يوم الاثنين ثاني شعبان ونزلنا بقرية يقال لها الصباغين وبتنا بمنزلة يقال لها عيون الاساود . وامر السلطان للمشورة بحضور أوليائه وأمرائه . الأماجد الأجاود . والفرنج لما وصلوا الى حيفا وقد وصل اليهم الحيف . وساق ساقهم السيف . وخلصوا من نواجذ النصال . وانياب النبال . اقاموا بها حتى يندمل جريحهم . ويستريح طليحهم . وتهب بعد الركود ريحهم . وركب السلطان الى الملاحة وهي بعد حيفا منزلة القوم . وكشف ما حولها بالحوم . وعرف هل عليهم منها مدخل . وهل يصاب منهم فيها مقتل . ثم عاد الى منزلته واقام بها يوم الثلاثاء . وسير الاثقال الى مجدل يابالية

الاربعاء . واصبح راحلا . فما حل حياه بسارض الا احيا مساحلا . ونزل على النهر الذي يجري الى قيسارية . وعسكره قد طبق تلك البرية . وكان العدو قد تحول الى الملاحة . ومكث بها للاستراحة . واقام السلطان بتلك الناحية يجول من رابية الى رابية . ويرهف للقاء الفرنج بحضه وحثه كل عزيمة نابية . واتى مرارا بأسارى خطفوا من مواقفهم وقطفوا من منابتهم ، وطرق الانكدار الى ثواقب ثوابتهم . فامر باراقة دمهم . واطاحة رممهم . واخبره بعض الأسارى انهم يوم رحلوا وصلوا الى حيفا حيارى وطرح منهم وجرح كثير ، سوى من اخذ فهو الآن اسير . وهلكت بين عكا وحيفا اربعمائة فرس . ونجوا منكم بانفسهم على اخر نفس . ولو انكم كبستم كسبتم . واعريتموهم من الحياة لو انكم بهم التبستم .

فصل من كتاب الى مظفر الدين

بذكر ما جرى بعد الرحيل من عكا الى هذه الغاية لاستدعائه

ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب ان كل بيضاء شحمه . وان كل سوداء فحمة . فرحل على صوب حيفا واقعا في حيفه . باحثا عن حتفه بظلفه . زاعما انه على قصد عسقلان خذله الله وخيبه في قصده وزعمه . وهو حاصل منا على صده ورغمه . وكان رحيلهم مستهل شعبان وملك انكتير قائدهم الى البوار . ووافد اهل النار الى النار . ولقيناهم من بواترنا بواتر التبار . وقد رحلنا في عراضهم لاعتراضهم . وتعثيرهم في طريق انتهاضهم . واقوا يوم رحيلهم من اليزكية الزكية كل نكاية فيهم شديدة . وكل روعة لهم مبيدة . فانهم قطعوا ساقه العدو عن اللحاق بمقدمته • وفلوا عن الحدة في الحركة حد عزمته • وقتلوا خيلا وخيالة • وفوارس ورجاله • وقدروا وتمكنوا • وجرحوا فاثخنوا . ونهبوا وسلبوا واخذوا رؤوسا قطعوها • ووقذوا نفوسا قلعوها . وغنموا أقمشة وأسلحة •

وحصدوا من اللاحقين بهم قوادم وأجنحة • ونزلوا على نهـر حيفـا
وقد تم عليهم الحيف • وتحكم في فلهم السيف . فـأقاموا إلى هـذه
الغاية لمداواة جريحهم ومـواراة طـريحهم • وإراحـة طليحهـم •
وإثارة ماركد من ريحهم • وقـد رحلنا وسـبقناهم الى طـريقهم •
عازمين على تبديدهم وتفريقهم • وتشتيتهم أيدي سبا وتمزيقهم •
فقد تمكنت بتأييد الله أيدي الأيد من سبيهم وقتلهـم ، والله يجمـع
شملنا لتفريق شملهم ، وما يجدده الله لنا بعد هذا اليوم من غبطة •
ولأعدائنا مـن عبـطة • الا ونبـادر ببشراه الى المجلس لتقـوى في
نصرتنا عزيمته ، وتشيم بارق التوفيق في مواقفنا شـيمته وتـروض
مواحل الامال مع اوان الديمة الربيعية ديمته ، ويغلو في سوق رواجه
من الدين ماظن أنه رخصت قيمتـه وكيف لايأخـذ ذلك الكريم بثـار
الاسلام وقد سبيت من عكا كريمته ، واذا تـأمل عرف أن الخـطب
عظيم وما لدفعه الا العظيم ، والهم مقيم وما لرفعه الا بأسه المقعـد
المقيم وسيقتضي دين هذا الدين الغريم الزعيم .

وقعة قيسارية

وفي غدوة الاثنين تاسع شعبان ، جاء مـن اخبـر بـرحيل الفـرنج
السلطان ، وأنهم سائرون ثائرون وعلى اجنحـة الجـرد طـائرون
وحول رجالهم بخيلهم دائرون . وهم في جمع لهام . وقـد انقسـموا
ثلاثة اقسام كل قسـم راجله بخيله محفـوظ . وبـأعين القسـمين
الاخرين من خلفه وقدامه ملحوظ . وكان السلطان تقـدم مـن الليل
بركوب الخيل . فركب في كل خواض للغمرات . فياض بـالعزمات ،
رواض للجامحات نهاض بالجانحات ملتئم مع اللئم بالنقع والدجى ،
ملتحف لولا الروع بالحلم والحجا ، مقتحم في حومة الوغى مضطرم
بجمرة الظبـا ، على نزائع يذقلن الردى على صـهواتها وصـواهل
يقذفن الحمام من لهواتها . ويكشفن الظـلام بجهـاتها . وبـارين
الصفاح بصفحاتها . وتعاسل الرماح باعناقها وطلائها ، وفيهم من
رجال الحلقة المنصورة كل سابق الى المذون على سابق ، وكل تـائق

إلى المازق مازق • وكل طائر في الغبـار على سـابح • وكل غابـق بالنجيع صابح ، في عراب متمطية بالعراب ، ورقـاق متخـطيه إلى الرقاب ، وسار العـدو وسرنا نبـريه ونبـاريه ، ونجتـري عليه ونجاريه . والجاليشيه ترمي وتدمي • وتصـمم وتصـمي ، وطيور السهام تقصد من الاحداق اوكارهـا • والاوتـار تنشـد بـالارنان اوتارها • وهم في لباس حديد سد على السهام المنافـذ • واشـتك النشاب فيهم فاشبهوا قنافذ . وكانت هناك بركة كبيرة . ومياههـا غزيرة . وهم على عزم ورودها . والاحاطة بحـدودها . فحـلأناهـم عنها . وأبعدناهم منها . وكان الحزم تـركهم حتـى يخـرجوا الى الفضاء . فيدخلوا من تمكننا منهم تحت القضاء . لكنهـم ارتـابوا وارتاعوا . وطلبوا النزول بهـا فمـا اسـتطاعوا . فـانحرفوا الى الساحل . وانصرفوا بالفارس والراجـل . واجتمعـوا سـارين . وساروا مجتمعين . ومازلنا نلزهم ونهزمهم ونحفـزهم ونحـزهم . حتى تمت مرحلتهم . وعمت مقلتهم . وتثلمت الصـفاح . وتحـطمت الرماح . واجرت الانهار الجـراح . وجـرى بـالارواح السـماح . وحضر السلطان مع الجاليشية . ناجح الارادة نافذ المشية ، ونزلوا على نهر يقال له نهر القصب . وقد انصبوا الى النصب ، وما كانوا يرجون . وما كادوا ينجـون . ولما نزلت بهـم في مسـيرهم النوازل نزلوا . وحين وليتهم نصالنا ومناصلنا انعزلوا .

مقتل اياز الطويل

واستشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام . الاسد الضرغام ، الطـاعن الضارب . الباسل السـالب . الغضـنفر الهـرماس . الفـارس الفراس . اياز الطويل وطالما عرض نفسه في سوق الشهادة ، واقدم اقدام الساعي إلى السعادة . وكان الى الصريخ اسـمع متنصـت . ولعطاس النقع اسرع مشمت . والى ضيف الحمام اسبق متلفـت . واسيف الاقدام ارشق مصلت . لايروعة الروع اذا حفزته عزمتـه . ولا يهولة الهول اذ همت به همته . وهو اول من يركب وآخر من ينزل

ويدبر سواه وهو يقبل . ويسابق الى المضار ولا يهمل . وهو ابـدا يدعو الى المبارزة . ويعدو على المناجزة . ويقف بين الصـفين على صافنه . ويرحـل على مـطايا الحنايا مـن بنات كنائنه الى مقـاتل المقاتلين ظعائن ضغائنه . فما برز اليه الا مـن بـرزت اليه منونه . وفاضت بالدم من عيونه عيونه . فكم كف الكفر كفها . وبكر المنصر زفها . واذف الشرك جدعه . وذي انف الفتك صرعه . ولبه للغضنفر ضبحت لثعالب رماحه . وطلبة المتقشمر طنت فيها انيه صـفاحه . واجفان للاقران ذبتت فيهـا أهداب سـهامه ، ووجـوه الشـجعان تفصلت في حساب حسامه . فلما جاءه الاجل مـا أجـل . ولكن الى الجنة به عجل . فان حصانه خانه·وما صانه·فعثـر بـه في حـالة الاقدام . وجلا قمره في هالة الحمام . ولم يخف لنقل الحـديد القيام وطعن وضرب واتاه مـن الكوثـر سـلسبيله فشرب ، ولما أدركه الأصحاب الفوه ، وقد فات ، ورافق في عليين الاحياء في سـبيل الله لا الاموات ، ونزلنا نحن بعد انقضاء الحرب على البركة ، شـديدي الشوكة حديدي الشكة ، ثم رحلنا ونزلنا على أعلى نهر القصـب في أوله ، وهو الذي نزل العدو في اسفله ، وتقاربت مـابيننا تلك الليلة المسافة ، وعندنا الامن وعند العدو المخافة ، ولما اصـبح السـلطان يوم الثلاثاء مكث على الثبات والهدو ، ينتـظر مـايكون مـن خبـر العدو ، وأقام الفرنج على حالهم ، لتعبهم وكلالهم ، ولأسباب منها جراحاتهم ، عدموا منها منهاج راحاتهم ، وكذلك ماملكهم من رعب الهلاك ، والابتراك في ارتباك .

وقعة لعز الدين بن المقدم

وكان عز الدين بن المقـدم في سـاقة اليزك ، مسـتيقظا الحفـظ والدرك ، فبصر بجمـاعة مـن الفـرنج مقبلين ، كبـوا بغير عدة مسترسلين ، ولاخبار عسكرنا مستشرفين . وهم مما تم عليهم غير متخوفين . فعبر اليهم النهر من ورائهم واستظهر عليهم في لقـائهم فقتل منهم عدة ، ولقوا منه شـدة ، واسر ثـلاثة ، قبـل ان ينالوا

اغاثة ، ثم ركب الفرنج اليه . وحملوا عليه وكانت وقعة عظيمة . جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة . واحضر الاسارى عند السلطان . بحزام الذل والهوان . فأخبروا أنه جرح بالامس منهم الف . وسرى فيهم وهن وضعف ، وقد جرى عليهم أمر عظيم ، وبلاء مقعد مقيم ، ورحلنا وقت الظهر وعبرنا شعراء ارسوف في الطريق الوعر ، ونزلنا وقت غروب الشمس بعد الخروج من تلك المذاهب ، على قرية يقال لها دير الراهب ، ومضى السلطان جريدة الى قرب ارسوف واطال هناك الوقوف ، حتى رأى أرضا في طريق العدو تصلح للقائه ، والاحداق به من امامه وورائه واقام يوم الاربعاء في ذلك المنزل ، والعدو في منزله الاول

ذكر اجتماع الملك العادل وملك الانكتير

كان في اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، قد ظهر فيه واستظهر ، وراسله العدو على أن يتحدث مع الملك العادل ويجتمع به ، وينزل على أربه ويعرب عن مطلبه فاجتمعا ، يوم الخميس ، على التأسيس ثم تحدثا في الحوادث ، وعوادي الحروب العوائث ، وان السلم متعينة والسلام فيها متبينة ، والمصالحة مصلحة ، والفائدة مترجحة ، قال وما جئنا الا لاصراخ اهل الساحل ، فوقعنا في الشغل الشاغل . فان اصلحتموهم واصطلحتم . استرحنا واسترحتم ، فقال له الملك العادل : ما الذي فيه تحاور وله تحاول ، فقال رد البلاد برد البلاء ، وسلوك مسالك الأسعاف والاسعاد ، فقال العادل : هذا لامطمع فيه ، وهذا رسم باطل حقنا معفيه ، ودون حدود البلاد حدود الحداد ، وخلط القتام وخرط القتاد وصرف عنان صرف العناء الى المتصرفين بالعناد ، وأدركه حكم الحمية والحفيظة ، وغلى مرجل غيرته في الكلمات الكالمات الغليظة ، وكان الترجمان بينهما هنفري بن هنفري ، فلما سمع ملك الانكتير ما اراعه ، ما استطاع سماعه ، وثار ثورة المحنق المحرق ، وآل اجتماعهما الى التفرق .

وقعة ارسوف

لما عرف السلطان من اخيه الملك العادل ماجرى بينه وبين ذلك الطاغية ، وأنه مصر على تلك المباغي الباغية ، جمع يوم الجمعة وقت الاصباح الأصحاب ، واستحضر من أسد غابة من غاب ، وأمر برحيل الأثقال ، وأقام في رعيل الرجال ، وركب في عجم انجاب وعرب على عراب ، وكرد على جرد ، وكل سابق ورد على سابق ورد ، على خيل من سماتها آثار الطعن ، وعلى جبهاتها أنوار اليمن ، بأكباد غلاظ على العدا ، ورقاق حداد على الطلى . ونبال مصمية لبان المصمم . ورماح لدتها ضغم الضيغم المعلم . فأقام العدو بسواد قومه بياض يومه ، وبات وقد فارق جفنيه غرارا نصله ونومه ، فلما اسفر صباح السبت رابع عشر شعبان ، ركب العدو على صدوب ارسوف وقد ضم الرجال والفرسان ، وهو سائر في ليل حالك ، وسيل سالك ، وخيل عالك ، وحزب الشيطان . وحرب الايمان ، واصحاب الجحيم ، واقطاب الضلال النهيم ، وخطاب الخطوب ، وانداب الندوب ، وكفاة الكفاح ، وصفاة الصفاح ، وأجناس الكفار ، وانجاس الداوية وأرجاس الاسبتار ، وكل غيران غيروان ، وأفعوان معتقل افعوان ، وكل ارقم في جلد ارقم ، وكل ازرق اشقر على أدهم ، فأحدقت به أحلاف عساكرنا احداق النار بالحلفاء ، وذقلت بذسور ضوامرها الأرض الى السماء ، وخاضت الغمرات ، وأفاضت الجمرات ، وأفاظت المهجات ، وشبت نيران الهنديات ، وأهبت رياح العربيات ، وألهبت شعل اليمانية . وألهت بها مقل الفرنجية ، وجال عليهم في الجاليش . الترك على الأكاديش ، وأحدقت سهامها كالأهداب بالاحداق ، وبرزت بيضها لمعانقة الأعناق ، ولمع شرار النصال في دخان العجاج ، وخرقت بنات الحنايا الخرق حجاب الحجاج ، وافضى ينابيع النبع الى اعجال الاعلاج ، فإن الفرنج اغذوا في سيرهم وجدوا ، واحتدموا وامتدوا وقربت منهم الاصلاب ، واختلط بهم الاصحاب وتعانقت

الرفاق والرقاب ، واحرج القوم وتقطعت بهم الاسباب ، وقربوا من ارسوف ، وقد لاقوا منا الحتوف والخسوف ، وضاق خناقهم ، وحاق بهم ارهاقهم ، ونشبت الجاليشية فيهم بالنشاب ، وشبت نيران المرهفة في أولئك الاوشاب ، فاحتملوا في جلودهم الجرح ، ومن اجلادهم الطرح ، ووجدوا الموت الغالي مسترخصا ، وايقنوا بالدمار ولم يجدوا مخلصا ، وعرفوا ان البلايا عليهم متصلة غير منفصلة ، وان قواهم لما فوق ما لقوه من النكاية غير محتملة ، فحملوا على الاطلاب المنصورة حملة واحدة زحزحتها عن مواضعها ، وكادت تحلئها شوارع القنطاريات عن مشارعها ، لكنها تحيزت الى القلب المنصور ، وفازت من وجوه النصر بالصفور ، واستشهد في تلك الفورة الثائرة ، والثورة الفائرة ، سعداء استقبلوا بالاسنة الاسنة ، واجابوا دعوة الله بأن لهم الجنة ، فما صرعوا حتى صرعوا ، ولما اشرعت اليهم الرماح اشرعوا ، ثم كرت عليهم نخب الرجال كرة اردتهم وردتهم ، وصدفتهم عن الاستنان في جدد تلك الحملة وصدتهم ، وفرست منهم فوارس ، واتعست معاطس ، وفرشت بالعراء لهم أشلاء ، واتخذوهم طعانا ورماءا . فنزلوا في ارسوف وقد كسروا وخسروا . وقتل قوم منهم وأسروا . وفي ذلك اليوم ثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين . وحمل في اصحابه اسد العرين وسدد الى نحورهم الشوارع وقلع منهم قلائع . وثبت عسكر الموصل . وكذلك قايماز النجمي في موضعه الاول ، وكانت العساكر في شعراء أشبه ، وشجراء منتشبة ، فلما رأى العدو اندفاع المسلمين قدامهم ، لم يأمن رجعتهم وإقدامهم ، فعاد وعبر ارسوف ونزل قريبا من الماء ، وبات السلطان تلك الليلة على نهر العوجاء ، واقام العدو يوم الاحد في موضعه ، مذكوبا بتعب تبعه ، ثم رحل يوم الاثنين سائرا الى يافا ، ليستدرك بها ورطه ويتلافى ، ونازلتهم العساكر بالنوازل الى ان نزلوا وقطعوا طرقاتهم حتى وصلوا.

-٦١٥١-

فصل من كتاب السلطان الى الديوان العزيز

يشتمل على ذكر الوقائع المذكورة بعد الرحيل من عكا

وسلكوا في مواضع ماالبزك عليهم فيها سبيل ولا لقداح القراع في مجالها مجيل، وعساكرنا تضايقهم في كل مضيق ، وتطرقهم بالبلاء بل المنايا في كل طريق ، وهم على البحر لا يفارقونه ، ومن المورد الى المورد في كل مرحلة لا يتجاوزونه ، فان المياه قريب بعضها من بعض ومسيرهم بمقدار مسافة مابين المنهلين ، واذا نزلوا لم يبعدوا بين المنزلتين ، وكانت لنا الى هذه الغاية معهم في كل بقعه وقعه ، وفي كل مرحلة مقتله ، وفي كل منزلة منازله ، وأوردناهم الردى في كل مورد ، وقصدناهم بالشدائد في كل مقصد . وسلبنا حماهم الحمام في كل سبيل ، وسار صباحهم منا في كل مغدي ومقيل ، وطريقهم على البحر كلها مضايق وأجم ورمال ، ومواضع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال ، وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم ، وأرهفنا حدود العزائم والصوارم وارهقناهم ،وجرت معهم عدة وقعات كاد الكفر فيها يبور . ودائرة السوء على اهله بنا تدير ، وماء اهل النار بفيض بأسنا عليهم يغور ، ولولا ان الله تعالى قد اخر موعده في نصر اوليائه ، وقهر اعدائه ، لوقع الفراغ من شغلهم ، وشملت نعمته لنا بتبديد شملهم ، فمنها يوم رحيلهم عن عكا ارهقتهم اليزكية الزكيه ، ونكأت فيها منهم الرمية بل المنيه ، وكان الولد الافضل يومئذ متولى اليزك-فتولى اسعار لهب المعترك .ووقف لهم في المضيق على الطريق . وباشر جمعهم بالتفريق . وقطع آخرهم عن اولهم. وعاق الساقة عن الوصول الى منزلهم وبتر وبتك ، وفتك وهتك ، وقتل وسفك ، وطلب وأدرك ، وعبر الفرنج نهر حيفا لما دهمهم من الامر ، واحتموا بالمنزل الوعر ، ووصل عسكرنا وقد تمنعوا بالنزول . وتجمعوا في الوعور عن السهول . ولم يبق اليهم

نهج الوصول ، واقام الفرنج في تلك المنزلة اياما ، وقد نالت معاطسهم ارغاما ، حتى استجدوا عددا ، واستنجدوا مددا ، واستجدوا ممن وراءهم عددا ، واحكموا التدبير ، واستأنفوا المسير ، ومنها يوم انفصالهم عن قيسارية ، بارتهم الرماة وبرتهم بالمبرية ، وانفذت اليهم رسل المنية ، وقتلت منهم مقتلة جيدة ، ولمن تزل السهام الى مقاتلهم مصوبة مسدده ، الى ان احتموا بالنزول وحلوا عقد تلك البلية عنهم بالحلول ، وقد قتلت من خيلهم عدة الف رأس ، لم ينفصل راكبها الا وهو من ثوب النجيع كاس ، ثم كانت المياه في طريقهم متقاربة المناهل ، والمسافات غير متباعدة المنازل ، فاذا نزلوا بالمنازلة ، ارتزوا الى المنزلة ، ولاذوا وهم اهل النار بالماء ، وقادهم العجز عن الاحتمال الى الاحتماء ، ثم استقلوا منتصف شعبان سائرين على البحر بعادتهم . وعاديهم شاكين في منهتهم ممتنعين بشوكتهم وشكيتهم . والخيل تجري بهم جريان السيل ، والراجل يلتف عليهم في مثل سواد الليل ، والعساكر الاسلامية جائلة في عراضهم ، مائلة الى اعتراضهم ، موفقة في مرامها ، مفوقة لسهامها محرقة أهل الجحيم بضرامها ، ولما نشب فيهم النشاب واعجزهم وازعجهم واحرجهم بكثرة النكاية فيهم وأرهجهم ، كابروا وصابروا الى أن وصلوا ارسوف ، وقد شارفوا الخوف وقاربوا الحتوف ، فحملوا بحملتهم حملة واحدة ، وجاؤوا كالسحاب بارقة وراعدة ، واندفعت الاطلاب الاسلامية امامها ، ولم تثبت قدامها ، حتى ابعدوا بحملتهم في جملتهم ، وتفردوا بحركتهم في معركتهم ، وظنها السلطان هزيمة ، وبانت بالعاقبة انها كانت عزيمة . فإن القلب المنصور ثبت فئة للمتحيز ، وموئلا للمتفرز المتحرز ، ووقف الأخ العادل ثابتا قلبه ، ثابتا طلبه ، وكر عليهم في حزبه ذوي الحمية ، والأنف والأبية ، والهمم العلية ، كرة ردتهم واردتهم ، وصدفتهم عن بلوغ الغاية وصدتهم ، فاستدركت ما فرط في النوبة من النبوة ، واستمسكت بما استأنفته في العزمه من القوة ، وقتلت منهم كندا كبيرا وعددا كثيرا ، وعاد نظيم هامهم بالعراء نثيرا .

ونزلوا بارسوف ، راغمي الأنوف . قد فل جندهم ، وقتل كندهم ، وهذا طاغوتهم الهالك بسيف سيف الدين ، كان مطاع أولئك الملاعين ، وابليس تلك الشياطين ، والمعروف بسير جاك ، واستمر حكمه قبل وصول ملوك الاشراك ، وتحت حكمه عدة كثيرة من القوامص والبارونية ، ونفذ امره على الداوية والاسبتارية ، وكان من عظم شأنه ، وفخامة مكانه أنه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين المحتشمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ، وجزع ملك الانكتير لصرعه ، وفزع من ورود مشرعه ، ونزلت العساكر الاسلامية على الماء وهو بعيد من مخيم الكفار ، وخيمت عليه بحكم الاضطرار ، ثم رحلوا وقصدهم العسكر فصادفهم بقرب يافا ، وكل منهم استدرك بقصده اياها تلفه وتلافى ، فحال دونهم لقدح مذونهم مجيلا ، ومن جمعهم بقمعهم مديلا ، وعلى قومهم بسوقمهم محيلا ، حتى بساسطهم في ميادينها ، وخالطهم في بساتينها ورابطهم بالأسود في عرينها ، واسرى الحين الى سراحينها ، فما وصلوا المدينة الا وقد تخطفوا من حولها ، واستولى الرعب على قلوبهم من بأس الحرب وهولها ، وخافوا من فريضة مسألة النكاية وعولها ، وما صدقوا كيف نجوا وافلتوا ، وسكنوا فيها بنية الاستيطان وتثبتوا ، وعلموا انهم ان خرجوا اخرجوا وان سلكوا هلكوا ، وزعموا انهم اذا صبروا ملكوا .

ذكر ما اعتمده السلطان بعد دخول الفرنج الى يافا

رحل السلطان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ونزل بالرمله ، واجتمعت الاثقال كلها به في تلك الرحله ، ورحل ليلا واصبح على يبنى ، وجاوزها الى نهر امر ان الخيام به تبنى ، وزرنا قبر ابي هريرة رضوان الله عليه ، وتبادر الناس للتيمن به اليه ، ورحل ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر ، وشرع فيما عزم عليه من الأمر .

-٦١٥٤-

ذكر خراب عسقلان

لما نزل بالرملة احضر عنده اخاه العادل واكبر الامراء ، وشاور في عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على ما بها ، ووافقه الجماعة ، وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة ، فان هذه يافا وقد نزلوا ولا تفي الحال بحماية البلدين ، فإن كل واحد منهما يحتاج في حفظه الى عشرين الف مقاتل ، والى الاستكثار لأجل ذخائره ، من كل حاصل ، فانظر الى اصوب الرأيين فقدمه ، وابصر اخطر الداءين فاحسمه ، واعمد الى اشرف الموضعين فحصنه واحكمه ، وتيقن ان عسقلان اذا وصلوا اليها هي سالمة تسلموها ، واستظهروا بها واحكموها ، وثقووا بها على سواها ، وبلغوا من بغيتهم وبغيهم الى منتهاها ، واقتضت الآراء ، اقامة الملك العادل بقرب يافا مع عشرة من الامراء ، حتى اذا تحرك العدو كانوا منه على علم ، ومن قصده على عزم ، ووصل السلطان الى عسقلان ، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان ، ولو حفظت لكان حفظها متيقنا ، وصونها ممكنا ، لكن وجد كل له متجنبا متجبنا. وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين . وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها . وحل عقد عزمه عن حلولها ، تدخلها انت أو احد اولادك ، فندخلها اتباعا لرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض اسوارها ، وغض انوارها ، وفض سوارها ، وتعفية آثارها ، ولو كان وقع الاعتناء بابتنائها ، مذ يوم فتحها واقتنائها ، لما تطرق الى ايدها خال ، ولا الى يدها شال ، ولا الى حدها فال ، ولا الى ودها ملك ، وقد كنت ركبت اليها وطفتها واستحسنها واستلطفها ، ورايت سورها قبل فصم سواره . ونورها قبل نيول نواره ، فما رأيت احسن منها ولا احصن . ولا احكم من مكانها ولا امكن . وسكانها كانوا في رفاهية . فانتقلوا منها على كراهية . وباعوا انفس الاعلاق

بابخس الاثمان . وفجعوا بالاوطار والاوطان . وساءت اسوا ؤها .
ونأت اذوا ؤها . واناخت لاوا ؤها . وباخت اضوا ؤها . وسـمع غناء
المعاول في مغانيها المعوله . ورئيت دائرة الزلزال في دورها المتزلزلة .
وناحت تلك النواحي . ومسحتها المساحي . وجـرفتها المجـارف .
واخافتها المخاوف . وذكرتها المعـارف . وبهـرجتها الصـيارف .
ونعتها الذواعب . ونابتهـا النوائب . ونزلتهـا النوازال . وغالتهـا
الغوائل . وسفتها السوافي . وعفتها العوافي . وخلت مدارس اياتها
من التلاوة . وتخلت مجالس مـكرماتها عن الطـلاوه . وصـوحت
مجاني مبانيها . وطوحت معاني مغانيها . ودجت معالي معـاليها .
وعادت مقاوي مقاريها . ووقفت على طاولها واستوقفت . وأسـيت
عليها واسفت . وتلهبت وتلهفت . وشاهدتها وقـد حسرت وحفيت .
ومحي سنا محـاسنها وخفيت . وبـكيت تلك الربـوع . وأهـديت
لسقياها الدموع . فلقد اصيب الاسلام بعروسها . وعبست الوجوه
لعبوسها . حين ثار نقع بوسها . فلما خلت مساكنها من سـكانها .
وتخلف بالبيوت رماد نيرانها . رحل السـلطان يوم الثـلاثاء ثـاني
شهر رمضان ونزل على يبنى . بعد ان ترك سور عسقلان وقد تعـذر
ان يبنى . ونزل يوم الاربعاء ثالث الشهر بالرمله . وتفضـيل جميله
باد على التفصيل والجمله . وامر بتخـريب حصـنها وتخـريب لد .
وبذل كل في ذلك الجهد . وركب جريدة الى البيت المقدس واتـاه يوم
الخميس . واعاد اليه رسم التأنيس . وخرج منه يوم الاثنين ثـامن
شهر رمضان بعد الظهر وبات في بيت نوبة . وقد نال بما رتبـه مـن
مصالح القدس المثوبة . وعاد الى المخيم يوم الثلاثاء ضحوه . وقـد
اكمل من كل مارامه حظوه . وفي يوم الاثنين ثـامن شـهر رمضـان
وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان . ملتجئا
من اخيه وابيه الى السلطان . فتلقـاه الملك العـادل . وجـاءت منه
الفواضل . واقام في الخدمة السلطانية مدة . واستجد بهـا جـدة .
وقوة وشدة . واستظهر بالمصاهرة . وقوي منها بالمضافرة . فـانه
تزوج بابنة العادل . وعاد بتاريخ مستهل ذي القعدة ناجح الوسائل .

وفي هذا التاريخ وهو الاثنين خرج ملك الانكتير في خيالته متنكرا . ليكون لحشاشة لهم وحطابة مخفرا . فخرج عليه الكمين . ونشب به اللعين . وجرى قتال عظيم . وكان لاصحابنا موقف كريم . وكاد الملك يؤخذ ويوقذ . والطعن في لبته ينفذ . ففداه فارس من اصحابه بنفسه . وشغل طاعته بما عليه من حسن لبسه . فاشتغل به واسره . وافلت اللعين واخفى أثره . وقتل واسر من خيالته جماعه . وانهزموا من امر تلك الكرة الخاسرة وقلوبهم مرتاعه ، وجرت ايضا يوم الجمعة ثاني عشر الشهر . حرب بين اليزكية وبين اهل الكفر . سفرت لنا بها وجوه النصر . وقتل مقدم لهم معروف بالشجاعة موصوف . ورحل السلطان يوم السبت ثالث عشره ونزل على تل عال عند النطرون . وهي قلعة منيعة معجبة الظنون والعيون . فأمر بهدها وهدمها . وفل غربها وثلمها . واشاع بها الاقامة . وافاض فيها على العسكر الكرم والكرامه . وتمكن الناس هناك من الاحتياط على الاثقال . وانفاذ الجمال لنقل الازواد والغلال .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في وصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح

قد نهك العسكر طول البيكار . وانضاه قتال الكفار بالليل والنهار . لاسيما في هذه السنين الاربع . فانه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولامربع . ولا شتا ولاصاف . الا حيث صف العدو وصاف . وقد تكررت عليه الزحوف . وتعثرت به الحتوف وتفللت منه السيوف . وتحلحلت به الصفوف . وتمخضت باحاده الالوف . وتمحضت لجني بيضه وسمره من ورق الحديد الاخضر القطوف . حتى سئم ومل . وضجر وكل . وكم عقد عزمه وحل . وانهل نصله من دم الكفار وعل . وامل النصر فقال عسى ولعل . واما خيوله فقد اجهدها الجهاد . وانضاها الطراد . وفرى جلودها الجلاد . وعزت منها لكثرة الجراح الجياد .

واعادت شهبها كمتا حدود البيض الحداد . وحيث داخلها الرعب من خروج الجروخ للجروح . وتفريق السهام منها بين الجسم والروح . صارت تنفر مـن رنة الحنيه . وانة المبـرية . كأن عندهـا للاوتـار اوتارا . ولطائرات النصال في لباتها اوكارا . أو كأنها لما رات أنها تباريها في المطار . وتجاريها في المضمار . ثارت لادراك الثار . وهذا سبب ماحدث من الذفار . وماعادت الان تدخل على راجل الكفـار . واما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت . وتكسرت وتحطمت . وتقصفت وتقصمت . وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت . واما الذشاب فانه قد فني . بعد ان اتخذ من اخشابه جميع مـاوجد واقتني . وقد عدمت اشجاره في منابتهـا . واعوزت اخشـابه مـن مناحتها . وذفضـت الكنائن . وانفضـت منه ومـن كل مـايذخر الخزائن . وماتبرح الصناع في الممالك بمصر والشام . ومـايجري معها من بلاد الاسلام . يبرون ويريشـون . وينصـلون ويعملون . ويكلمون ويحملون . واحتيج في هذه السـنين التـي اسـتمر فيهـا القتال . الى احمال كثيرة لايفي بها الصناع ولايرفعهـا العمـال . وحسبها ان نصولها اعدمت مـن حـديدها المعـادن . وخلت مـن نخائرها الاماكن . هذا والخادم قائم باداء هـذا الفـرض وحـده . مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحده . ومااستمر على مساعدته . وموازرته ومعاقدته . الا صـاحب الموصـل وسـنجار . وكلاهما عن سنن الاسعاف والاسعاد مـاجار . فهـو يحضر تـاره بذفسه وآونة بولده . ويستمر من جـد الموازرة على جدده . ويواظب بعدده وعدده . ومدده في مطاولة مدده .

ذكر ماتجدد لملك الانكتير مـن المراسـلة والرغبـة في المواصله

وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصـافاه . والمواتاة في الموافاه . ومـوالاة الاسـتمرار على الموالاة . والاخـذ بالمهاداة . والترك للمعاداة . والمظـاهره . بـالمصاهره . وتـرددت

الرسل اياما . وقصد التئاما . وكادت تحدث انتظاما . واستقر تزوج الملك العادل باخت ملك الانكتير . وان يعول عليها من الجانبين في التدبير . على ان يحكم الملك العادل في البلاد . ويجري فيها الامر على السداد . وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في اوجها . ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى . ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا . ولايقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان . ولهم منا امان واحسان . واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد . وجماعة من الامراء من اهل الرأي والسداد . وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا:تمضون الى السلطان . وتخبرونه عن هذا الشأن . وتسألونه ان يحكمني في هذه البلاد . وانا ابذل فيها ما في وسع الاجتهاد . فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب. ومااخر الجواب . وشهدنا عليه بالرضا . وحسبنا انه كمل الفرض وانقضى . وذلك يوم الاثنين تاسع عشري رمضان وعاد الرسول الى ملك الانكتير لفصل امر الوصلة . واراحة الجملة.وازاحة العلة . واعتقدنا ان هذا امر قد تم . وذشر انضم . وصلاح عم وصلح أذم . وحكم مضي . واستحكم به الرضا . وان الانثى تميل الى الذكر . وتزيل وساوس الفكر . وان بركوب الفحل . النزول عن النحل . وان الشكر يجلب الشكر . ويبذل بالعرف الذكر . وان الوقاع يؤمن من الوقائع . وان القراع ينقضي بانقضاض القارح القارع . وان الحرب بكسر الحاء وحذف الراء سلم . وان غرم العرس في العسر يسر وغنم . وان هذا الاخ لتلك الاخت كفو . وان هذا العقد للخرق المتسع رفو . وان الكدر يعقبه صفو . وان التزويج ترويج . وتقويم لما فيه تعويج . وشاع الذكر . وضاع النشر . وذاع السر . وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤوسهم . فقصوه على قسوسهم . وعسروا على عروسهم . فجبهوها بالعذل والذع . ونجهوها بالقدع والقذع . وقالوا لها كيف تفجئننا بافجع ملم مؤلم . وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم . فان تنصر تبصر . وان تسرع فما تعسر . وان ابى ابيناه . وان اتى اتيناه . وان خالف خالفناه . وان

حالف حالفناه . وأي وجه ههنا للائتلاف . ونحـن لاختلاف الدين ندين بالخلاف . فرهبت بعد مارغبت . وبطلت بعد ماطلبت . وسـلت بعد ماسألت . ونزت بعد مانزلت . وكرهت وكانت شرهـت . وكانت اكتحلت فودت انها مـرهت ، فـأرسلت الى الرسـول وا قبلت عليه القبول . ثم تصلبت في القسم بالصليب . انها مجيبـة الى التقـرير والتقريب . وانها مسـارعة الى التـكمين . لكن بشرط الموافقـة في الدين . فانف العادل وعدل عن استئناف الحديث . وأبى الله ان يجمع بين الطيب والخبيث . واعتذر الملك بامتناع اخته ، وانه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته . وكان قد استقر مع تمام العهد . وانتـظام العقد . مفاداة كل اسير بأسير . كبير بكبير.وصغير بصغير . وبشر اولياء الطاغوت بصليب الصلبوت فبطل التدبير . وعطل التقـدير . وذلك ثاني يوم العيد .

وفي يوم العيد الثلاثاء اعد السلطان مـن الليل خلع الاكابـر حتـى سارت اليهم بكره . واحـدث بحسـن احتبـائه لكل عين وقلب قـرة ومسرة . ثم استدعاهم الى سماطه . ونشر لهم بسـاط نشـاطه . وجلس الملك معز الدين قيصر شاه بن قليج ارسلان عن يمينه واعزه بتقريبه وتمكينه . ويليه حسام الدين خضر اخو صاحب الموصـل . واسمو منزلتـه دذو المنزل . وعلاء الدين ابـن اتـابك الموصـل عن يساره . وهـو يؤثره باختصاصه ويخصه بـايثاره . ومجـاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار جالس . والاكابر كلهم هناك في منزلتـه منافس . ثم تفرق الناس بـاذن جـامع . وعرف شـائع . وعرف ضائع .

ذكر نزول السلطان جريدة بالرمله ليقـرب مـن العدو ومواقعته له في كل يوم .

تواتر الخبر بان الفرنج على عزم الخروج . وانهم على الاجتماع في تلك المروج . فسار يوم الاثنين سابع شوال . وقـد اركب العسـكر

للقتال . فلما بلغ قبلي كنيسة الرمله . جميل الحال حالي الجملة . خيم وبات . وذوى البيات والثبات . وجاء الخبر في غد . بانه خرج العدو الى يازور في اوفر مدد ، وتسارع العسكر اليهم . وتكاثروا عليهم . وقربوا من خيامهم . واخذوا عليهم من ورائهم وامامهم . وناشبوهم بالنشاب . وكاثروهم بالاوباش والأوشاب . فركب الفرنج اليهم ركبة . أوجبت رهبة . وحملوا على الناس حملة واحدة . وحلت عجاجة عليهم عاقدة . فاندفعوا بين ايديهم . فادركوا ضعافا طمعوا فيهم ، وفقد من المسلمين ثلاثة بالشهادة . وكانت مسعاتهم الى السعادة . وكذلك في كل يوم ركب السلطان مايخلو من وقعه . ولابد للكفار فيها من صرعه .

ذكر وقعة الكمين

وفي ليلة الاربعاء سادس شوال امر السلطان رجال الحلقة المنصورة . بان يكمنوا في جهة عينها في المواضع المستورة . فكمنوا وامنوا وصبروا وانتظروا . وخرجت الفرنج للاحتشاش . وباشروا عثار انحصارهم في الاصحار بالانتعاش . ولقيتهم اعراب على عراب . بصوارم في ايمانهم كانها بروق في سحاب . فركبت اليها من الخيام . ورحبت في ترحيب صدورها بصدور الحمام ، فاندفعت العرب امامها . وحققت انهزامها . وماقدرت على قصدموضع الكمين . لانسداد الطريق بالاساد الشم العرانين دون العرين . فمرت العرب في جانب والكمين في جانب . والخيل تركض بسالب من سالب وناهب من ناهب . ونجا العرب . وفاتهم الطلب . وحضروا باسارى ونهاب . وافراس واسلاب . فاما اصحابنا في الكمين فانهم ابصروا الفرنج ناهضين وفي المعترك راكضين . فخرجوا على ظن انهم على قصدهم . فلما بصروا بهم نشبوا بردهم عن وردهم . وركضوا اليهم على بعد . فاتعبوا الخيل بما جدوا فيه من احضار وشد . ووصلوا الى الفرنج والجياد قد رزحت ، والقوى قد نزحت .

فاضطروا الى القتال وقاتلوا على الاضطرار . وقتلوا جماعة من كفاة الكفار ، واستشهد ثلاثة من المماليك الخواص الكبار . وهم اياز المهراني، وجاولي الغيدي، وصارو . وسروا في جنات النعيم بما اليه صاروا . واسروا من الفرنج فارسان معروفان واحضروا عند السلطان وانفصلت الحرب وقت الظهر وعاد حزب الاسلام عن حزب الكفر . وجلس السلطان والقلائع تعرض عليه . والخيل تقاد اليه . والاسارى يحضرون بين يديه . واخوه العادل عنده جالس . وكلاهما لأخيه مؤانس .

ذكر اجتماع العادل بملك الانكتير

وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لاجل ملك الانكتير ثلاث خيام . واعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام . وحضر ملك الانكتير وطالت بينهما المحادثة . ودامت المثافنة والمنافثة . ثم افترقا عن موافقة اظهراها ومصادقة قرراها . ومضى الملك واستصحب معه الكاتب العادلي المعروف بالصنيعة ليتفقد الأساري الذين بيافا . ويتدارك امرهم ويتلافى . وكان قد وصل صاحب صيدا من صور برسالة المركيس . وانه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وان يكون للسلطان مصالحا . وله على الطاعة مصافحا . حتى يقوى يده على ملك الانكتير . ويفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال . فوصل رسوله ايضا بالاحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيدا . الى المركيس على شرائط قررت ونسخ ايمان حررت واما مراسلة الملك فلم تسفر عن المقصود . ولم تجر من تلونه الا على المعهود وكلما ابرم عهدا نقضه ونكثه . وكلما قوم امرا عكسه وعاثه . وكلما قال قولا رجع عنه . وكلما استودع سرا لم يصنه . وكلما قلنا يفي خان ، واذا خلنا انه يزين شان ، وعن كل خزي ابان ، وفي يوم الاحد سابع عشر عاد السلطان الى المخيم بالنطرون . واقام على الثبات والسكون وفي يوم الخميس مستهل ذي القعدة سار ابن قليج

ارسلان صـــاحب ملطيه مـــودعا وركب الســـلطان وســـارمعه مشيعا ، وعقد له على ابنة الملك العادل بصـــداق مـائة الف دينار . ومضى وقد حصل على ذخائر من استبشار وافتخـــار . واســـتبصار واستنصار . ويسر ويسار .

ورحل الفرنج يوم السبت ثـالث ذي القعـدة وتقـدموا الى الرملة ونزلوا بها .وخيموا في اقطارها وسهوبها .ولم نشـك في انهـم على قصد القدس بأهل الرجز والرجس . واقام الســلطان وفي كل يوم له سرايا ، للكفر منهـا زوايا ، ولنا في كل يوم وقعـة شـديدة وفتـكة بالكفر مبيده . وما يخلو يوم من اسرى تقاد . وغنائم تستفاد ، ثم توالت الأمطار ، وتوعرت السهول ، وتوحلت الأوعار . فعـزم على الرحيل ، وامر بالتحويل .

ذكر الرحيل الى القـدس يوم الجمعـة الثـــالث والعشرين ذي القعدة.

وركب السلطان يوم الجمعة والغيث نازل . والنصر شامل وفضل الله متواصل . ونحن معه سائرون . ومن بركة الجهـاد الى بـركة القدس صائرون . والقاضي بهـاء الدين بن شـداد يسـايرني . وفي مسألة من الخلاف يباحثني ويناظرني حتى وصلنا الى القدس قبـل العصر . وقـد نشر الســلطان لواء النصر . ونزل بـدار الاقســاء المجاورة لكنيسة قمامه . ونوى بهـا الاقـامة . وشرع في تحصـين المدينة . لتحصيل السكينة . وصلى يوم الجمعة مستهل ذي الحجةفي قبة الصخرة . وضجت الالسنة في الدعاء له بالنصرة .

وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة وصل حسام الدين ابو الهيجاء من مصر ، بعسكر مجر . وتبعته بعد ذلك العسـاكر المصرية . ووصـل الخبر بنزول الفرنج بالنطرون . وآذن ذلك بتزاحم الافكار وتـراجم

الظذون وتزايل السكون . وجرت يوم الخميس سابع الشهر وقعة . تم على العدو بها صرعه . فان السلطان نفذ تلك الليلة الى اليزك قريب بيت نوبه . عدة من الفرسان مجدة لم يستصبحوا الا حصنهم المجذوبة . فوقعوا على سرية الفرنج فاستأصلوها . واسروها وقتلوها . ووصلوا بزهاء خمسين اسيرا الى القدس . وعاد ذلك منا ببرد القلب وطيب النفس . وكانت بشرى عظيمة . ونعمى كريمه . وحسنى عميمه . وكذلك سابق الدين صاحب شيزر . ومن معه من العسكر واقعهم يوم العيد فقتل من مقدميهم ستة واسر اربعة . وترك بالمعركة منهم مصرعه . وكسب منهم خيلا . وكسبهم ويلا .

يوم عيد الأضحى بالقدس

كانت الوقفة بمكة يوم الجمعة في هذه السنة وتضاعفت الحسنة على الحسنة غير ان العيد بالقدس كان يوم الأحد ، فلم ير ليلة الخميس الهلال احد . ونصب السلطان خارج قبة الصخرة الخركاه الخاص . وصلى الناس في القبة العيد حواليها العراص ، ثم انصرف السلطان وقد بر عمله . ودر امله ، ووفر اجره . واسفر فجره .

وقعة

في يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة اغار على طريق الفرنج بالرملة سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر وكلاهما يجد في الجهاد ولا يقصر . واخذا غنائم واموالا . وساقا خيلا وبغالا . وكسبا احمالا واثقالا . واسرا ممن كان مع القافلة ثلاثين . ووقفوا بين يدي السلطان على ركب الذل جاثين . وتوالى على الفرنج النهوض والنهوب وكسرت وكثرت منهم الكسوب . واستعرت فيهم الحروب . وزادت الكروب وضاقت عليهم الارض . واستولى على

عقود عزائمهم النقض ، ورأوا انهم قهروا فقهقروا ، واحاط بهم البلاء من الجوانب فما صبروا . ورحلوا الى الرملة عائدين . وبالسهول من الحزون عائذين ، فان الثلوج دامت على اولئك العلوج . وصدتهم عن الدخول والخروج . ونزلت بهم النوازل في تلك المنازل ، فنفروا راحلين الى السواحل . وذلك يوم الخميس الثامن والعشرين من ذي الحجة . فطابت قلوبنا بما وضح في النصر من المحجة . وثبت الحق على الباطل من الحجة .

ذكر ما اعتمده السلطان في عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سوره واعادة رونقه

وفي هذا اليوم وصل من الموصل جماعة من الحجارين . وعدتهم خمسون رجلا . اذا اجتمعوا قطعوا جبلا وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر . والقطع في الصخر . وقد سفرهم بنفقة . وجعلهم من الاحسان على ثقة . واصحبهم بعض حجابه . ونداهم بندى سحابة . وسير مع المندوب مالا يفرقه عليهم في رأس كل شهر . ويتعاهدهم في كل يوم بتفقد بر . واقاموا نصف سنه . واتوا في صنعتهم بكل حسنة . وصمم السلطان على حفر خندق جديد عميق . وانشاء سور وثيق وأحضر من اسارى الفرنج قريب الفين . ورتبهم في العمارتين . وجدد ابراجا حربية من باب العمود الى باب المحراب . وأنفق عليها من المال ما خرج عن الحساب . بناها بالاحجار الكبار الثقال ، فجاءت ارسي وارسخ من الجبال . وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور واذا تكملت العمارة على ما رتبه القدس المعمور . كان أمنا من قصد العدو المدحور . وفي عصمة الله من المخوف المحذور . وقسم بناء السور في مواضعة على اولاده واخيه الملك العادل وامرائه . وصار يركب كل يوم ويحض على بنائه . ويخرج الناس على حمل الحجر الى مواضع البناء . ويتولى ذلك

بنفسه وبجماعة خواصه الأمراء . ويجتمع لذلك العلماء والقضاة والصوفية . وحواشي العسكر والاتباع والرعية والسوقية . وكنت اركب في غلماني واتباعي واحفظ قلب السلطان في نقل الحجر واراعى . فبني في اقرب مدة ما تعذر بناؤه في سنين وبذل جهده في التحصين لتأمين المؤمنين .

ذكر من توفي من الأكابر والمعروفين في هذه السنة

وفاة تقي الدين

توفي الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ابن اخي السلطان . يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان . وهو على حصار ملاز كرد من عمل ارمينية وقد سبق ذكر مسيره الى بلاد الجزيرة . لاستمداد الامداد الكثيرة واستجناد الانجاد . والاستنجاد بالاجناد . والجمع من جميع الجهات للجهاد . والعود سريعا بالحشود الجامعة والجموع الحاشدة . والجيوش المترادفة المترافدة . والجنود المتوافرة المتوافده . والقواضب الفاصلة . والهواضب الهاطلة . والمصافحين بالصفاح . والمختالين في اعطاف المراح باطراف الرماح . والحاملين الجبال على الرياح . والمتعطشين الى انتجاع النجيع لارواء الأرواح . ومكث السلطان على انتظاره . متوجسا لأخباره . مستوحشا من ابطائه . متعطشا الى انبائه . منتظرا لوفائه . فلما اخذ الفرنج عكا نسب ذلك اليه واحتسب الله عليه .

فأما تقي الدين فانه عن له ان يمضي الى ميافارقين . واستصحب اليها عساكر ماردين . ونفذ الى السويداء وانتزعها من ايدي اصحابها . واستحوذ على جميع مسابها . وحاصر مدينة حاني فتملكها . وكانت له مقاصد في ديار بكر فأدركها . واقتطع بلادا من ولاية ابن قرا ارسلان واقطعها . وارعب القلوب بما ابتدأ به

وابتدعه وروعها . وتأخرت عنا بسبب ذلك عساكر ديار بكر .
وحصلت منه على عذر وذعر . وراعت هيبته ، وهبت روعته . ودبت
الى الخواطر مخافة اخطاره . وشبت في القلوب لوافح ناره .
وارتجت تلك الآجام من زاره . وازورت من مزاره . وبليت تلك البلاد
ببلائه . وهابت الاعداء هيبة اعدائه . وزلت الاقدام
لاقدامه ، وانخفضت الاعلام لاعلاء اعلامه . ففي عدله من جبل جور
جبلة الجور ، وانهب بنهابه اليها فوران
الفتنة على الفور ، ودخل قلب قلب ، وحكم في عداتها الغلب
القضب ، وقصد عسكره عسكر بكتمر فكرسه ، ثم سرح بالاحسان
وأطلق من أسره ، فغار بكتمر واشتعل بنار الانف انفه ، واعتلق
باذن الشنف شنفه ، وانتخت حميته ، وحميت نخوته ، وغيرته
غيرته ، وعيرته رعيته ، وأودعته الهم همته ، وحركته
عزمته ، فاجتمعت جماعته وأمته أمته ، ومارجا له نجح رجائه
رجاله ، ومالبطأ له عن اعانته ابطاله ، واجناه ثمر الطاعة
اجنادة ، وأنجاه بجهد الاستطاعة انجاده ، وجر عسكرا
مجرا ، وساق الى الحرب بحرا ، واوقد بالجمع جمرا ، وجلب
بيضا وسمرا ، ودهما وشقرا ، وصوارم بترا ، وصواهل
ضمرا ، وانهض كمته وكماته ، وحشد رعيته وذوي حميته
وحماته ، وساكني ولايته وولاته ، ونسوره وبغاثه ، وسمانه
وغثاثه ، ومتانه ورثاثه ، وشباعه وغراثة ، وجاء في سواد اسود
منه الجو ، وانسد بظلامه الضو ، وتحلى بنجومه ليل
العجاج ، وتجلى بسفوره صبح الهياج ، وأبرق وأرعد ، وتحدر
وتصعد ، وسار بين الاكام بالآكام ، وضاهى الاعلام
بالاعلام ، واذكى مذاكيه الجياد ، وأجرى ضوامره وهواديها قد
ملأت الوهاد ، وأدنى الى الآساد الآساد ، واغرى بالجلاد
الأجلاد ، وجذب الجماح عرانه ، وجلب الكفاح رعانه ، وضرع
المراح رماحه ، وأطلع في سني الصباح صفاحه وماجت غدران
دروعه ، وهاجت غران جموعه ، ومالت المران ، وجالت
الاقران ، وسال المرت ، ومرت السيول وتسهلت الوعور وتوعرت
السهول ، وانقض القضاء،وانفض الفضاء،واشتكت الارض من

الحوافر الحوافر وقعا فأثارت لفرط تألها على شرط تظلمها الى السماء نقعا ، وحثت في وجه الفلك ترابا ، وحثت الاتراب الاتراب طعانا وضرابا ، وخاف على خلاط واختلط من المخافة ، فقصر الى الملك المظفر طول المسافة ، فلما عرف اصحار خادره ، وانتشار بوادره • وانتهاض قوادمه ، وارتكاض صلادمه ، وانقضاض شهب قواضبه ، وانفضاض دهم سلاهبه ، اصطفى بمن اصطفاه من الأنجاد الأنجاب ، وفض على الفضاء سحاب الصحاب ، وبسط على البسيطة رداء الردى ، وأعدى بعلوه على العدا ، وركب في كل ضرب بعد الضرب ضربا من الضرب ، وكل بطل لحق المبطل محق الطلب ، وكل باسل سالب من كباش الاقران القرون ، وكل عاسل بعاسل يمين بالمنى ويمون المنون ، وكل شجاع اشاجعه وصائل القواطع ، وكل مقدام قوادمه عوائق الوقائع، وكل طائر بأجنحه السوابق ، زائر بأسلحه البوائق ، محلق بخوافي الخوانق ، مطرق لطوارىء الطوارق ، وكل نمر مشيح بالذمار شحيح ، وكل قاس قوسه عاطف ، وكل راع نصله راعف، وكل صاد عزمه صادق ، وكل رام لحظ سهمه الى المقاتل رامق ، وأيد رجاء الرجال بأياديه ، وقوى عزائم اوليائه لاضعاف اعاديه ، ورغب بالرغائب واملى ضيوف الآمال بفيوض أمواه المواهب ، ونخى المنتخين ، وانتخب المنتخبين ، وأقدم في كل مقدم مقدام ، وضيغم ضرغام ، وهمام همام ، ومعتقل اسمر يرشف ظلم القلوب ، ومشتمل ابيض يكشف ظلم الحروب ، وكل من يخال الطعن ضرب القداح والضرب بحد السوام ، وكل من ينال اعتزاز الجد بجد الاعتزام ، وكل من يعيد اقاحي البيض شقائق ، ويصل بها اذا فارقت اغمادها المرافق ، وكل من عنانه في يمين الجماح ، وسنانه مرود عيون الجراح ، وكل من ذبال سمهريه يلتهب ، وذباب مشرفيه يضطرب ، ووجوه صوارمه تبكي وتضحك ، وعيون تفتك وتبتك ، ولحاظ سهامه عن حواجب قسيه ترمي ، وسواعد سيوفه من أيدي الأيد تمد وتدمي ، وكل اشعث الهامة ذي همة ، تشعب صدع كل ملمة ، وكل شهم شيظمي • أباء حمي • مجرب محرب • مقرب على مقرب • مظهر على

مطهم * جار بمرجم ، باز بمخدم ضار بأرقم ، جواد حليم تحمد في الوغى جهلاته ، على جواد كريم ، تدعو الى الردى صـهلاته ، وكل بحر مسـتلئم بغـدير ، وكل مـن عنده اذا لبس الحـديد انه لابس حرير ، فلما بصر عسـكر خـلاط بعسـكره اختلط وتّلوا سـتدرك الغلط ، وجاش وطـاش ، ورام مـن عثـرته الانتعـاش ، وولى هزيما ، ولوى هشـيما ، وأغنم العسـكر التقـوي سـلاحه وخيله ، وجـر على تـراب الذلة نيله ، وظفـر الملك المظفـر بالملك ، واسلم العدا الى الهلك ، وقيد اليه امراء اسروا، واصـحاء كسروا ، فأطلق سراحهم ، وانهض بتشريفاته جناحهم ثم رحل من صحراء موش ، وساق الى خلاط الجيوش ثم بدا له من حصـارها فأقرها بسلب قرارها ، وعرج على قلعة شميران فتشمر لها ، وفتح مقفلها. وكان مجد الدين بن الموفق وزير خلاط بها محبوسا ، ومـن حياته يؤوسا فخلصـه واسـتخلصه ، وكسر حتـى طـار منه قفصه ، وانه لمن اعجب القصص لو شرحت قصصه ، ثـم راح الى ملار كرد ونازلها بالتضييق ، وقـاتلها بـالمنجنيق وحشـد اليهـا الأمداد ، واروى فيها من عزائمه الزناد ، وجـاءته عسـاكر أرزن الروم منجدة من جده ، موجدة لما لها مـن مـوجدة ، تقـدمها الملكة ماما خاتون بنت سلدق ، وكأنهـا في الاهبـة والأبهـة مـن ملوك سلجق ، ووفد الى تقي الدين الجذوذ، ووافقته السعود ، وخافته في غاباتها الأسود وغربت به العقول وعلقت به العقود وتوطدت له البلاد وتوطأت وتهيبت وتهيأت ، واستدنته الممالك القـاصية ، وأطـاعته المقاصد العاصية ، وتشنفت له مسامع الاقـطار بـافراط السـمع والطاعة ، وعم الامحال تلك المحال ففض بما افاضه مـن فـواضله مجاعة الجماعة ، ورجي وخشي واعتفـي وغشي وامتـلأت الطـرق بالوفود والجذود ، وتوالت اليه أمداد البأس والجود ، فبينا هـو في غفلة من القدر ، وغفوة من الكدر ، وغرة مـن الغير ، وقـد الهـاه حديث الدنيا عن الحـادث الداني ، وجني الحياة عن الموت الجـاني وزيادة الأمـــل ، عن زيارة الأجـــل ونزل المنى عن نوازل المنون ، وسكن الاتراب عن التـراب المسـكون ظهـر له سر الغيب المكتوم ، وأدركه القضاء المحتوم ، ومرض اياما ثم قضى وانقـرض

عهده وانقضى ، وكتم ولده الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته ، الى ان خرج من ذلك الاقليم وجاوزه وفاته ، وفتحت ملاز كرد بابها ، وسلم الرب اربابها ، وخرج ولد تقي الدين بعسكره وماله سالما ، وجد في مقام والده بإظهار شعاره قائما ، وجاءت رسله الى السلطان تسأله في ابقاء بلاد ابيه بيده ، حتى يبقى مستمرا على جده ، وطلب من السلطان الميثاق له بأغلظ الايمان فلم يقبل الشرط واشتط فشط وجلب له الشطط السخط ، وأقام على التباعد ولم يتدارك بالوصول ما منه فرط ، ونسبوه في استيحاشه الى العصيان ، وسعوا له في اسباب الحرمان ، حتى انتخى له الملك العادل فمضى لاحضاره وجرى الأمر على ايثاره، وسيأتي ذكر ذلك في حوادث سنة ثمان .

وتوفي في هذه السنة حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن اخت السلطان

توفي بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان يوم وفاة تقي الدين فأصيب السلطان بابن اخيه واخته في يوم واحد ، كلاهما له اقوى ساعد ، وأوفى مساعد ، فيالله من حسام أغمد ، وهمام الحد ، وركن وهن، وكنز دفن ، وبحر غاض ورزء هاض ، وصبح كسف ،وبدر خسف، لقد غامت الأيام لغمه ، وثكلته الدولة ثكل امه فانه كان واحدها وعضدها ومعاضدها وهو الذي فتح نابلس وأبقاها السلطان معه ، وابقى فيها من سنن العدل ما شرعه ، وقد سبق في الكرماء ماذكره ، وذكر في المكارم سيفه وقرظ حذقه ، ووصفت مقاماته ، وقمت بصفاته ، فان له مواقف في الجهاد مشكوره ، ومقاطف لجني النصر مشهورة ، فقطع الاجل عليه طريق الأمل ، وأعاد حلية الزمان به الى العطل ، وأوهن عقد شبابه الطري وحله ، وثلم حد شباه الطرير وفله ، ومازال في غزواته مثيرا للتراب الى أن سكن عليه التراب وسكنه ، وطالبه

الثرى بحق خلقه معـه فـاسترهنه، وغارت عليه الأرض بـانطلاق سموه ، الى السماء فـاعتقلته ، ووجـدته في اوج الفلك في النيرات فذقلته ، ومـاكان ازكاه واذكاه ، واصـحه واصـحاه ،وابهجـه وابهاه ، وأضوعه واضواه ، وأوعاه للفضائل وأحواه ، ولقد فجعت به صديقا صدوقا ، وشقيقا شفيقا ، ورفيقا رفيقا ، فلهفي عليه من شهم توطن التراب ، وسهم اصيب بعد ماأصاب.وجواد بلا حسـاب لم يخطر بالبال من رزئه حساب (لكل أجل كتاب)(الرعد ٣٨)

وتوفي في هذه السنة علم الدين سليمان بن جندر وقد سبق ذكره في غزواته ، ومواقفه ومقاماته ، وكان في الخدمة مقيما ، والسـلطان الى الأنس به مستنيما ، فعرض له مرض اسـتأذن لأجله في العـود الى وطنه بحلب ، وسمح له السلطان بجميع ماطلب ، وتـوجه مـن القدس سادس عشر ذي الحجة ، واسـتقام على المحجـة ، وقضى نحبه عند قربه من دمشق في قـرية غبـاغب ، وسـتر التـراب منه المناقب ، ووصـل الخبـر بـوفاته الينا يوم الخميس ثـامن عشري الشهر .

وفي هذه السنة فتك بأتابك مظفر الدين قزل ارسلان ابـن ايلد كز في همذان ليلة الأحد مستهل شعبان .

كان تولى الملك بعد وفاة أخيه المعـروف ببهلوان في سـنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ونجحت ارادته ، ورجحت سعادته ، وصـلحت عاداته ، وكان السلطان السلجقي طغـرل بـن ارسـلان تحـت حكمه ، وهو ابن أخيه لأمه ، وله اسم السلطنه ولقزل حكمها ، وله سموها ووسمها ، فأنف السلطان من كونه تحت حجـره ، وبحـكم نهيه وأمره ، فـانه لم يكن له صـاحب ولاغلام الا مـن عنده ، ولم ينفرد منذ تولى بحله وعقده فهرب وحده تحت الليل ، واتصل به بعد ذلك من انضم اليه مـن الخيل ، ودام غائبـا في نواحـي دامغـان مدة ، واشتد مصابه واصاب شده ، فاتصل بـه عدة مـن ممـاليك

بهلوان الخواص ، وسلكوا معه نهج الاخـلاص وأعادوه الى سرير ملكه ، وانتسق امره في سـلكه ، وقـويت يده . وتـأيدت قـوته . واجتمعت كلمته . وتكلمت في الامر والنهي جماعته . ورهبه قزل ارسلان ولازم ذعره . وأخذ منه حذره . وتنافس الأمراء ومماليك بهلوان الذين تبعوه . وأعلوا شأنه ورفعوه . وسعى بعضهم ببعض وقابلوا كل ابرام مـن مـكرهم بنقض . وقـالوا له هؤلاء البهلوانية يغتالونك . وبالسوء ينالونك . فابطش بهـم قبـل أن يبطشوا . وعثرهم قبل أن ينتعشوا . فسمع مقالهم . وتتبع محالهم . وقتلهـم بحضرته وهم غارون . وساءهـم بـاغتيالهم وهـم بـالمغالاة فيه سارون . فنفر منهم كل آنس . وحفظ نفسه مـن كل منافس . وزال بشره وبقي بوجه عابس . وفارقه بنو البهلوان بجنايته على مماليك أبيهم . ولقوه بتأبيهم . وقصده قزل ارسلان فأزعجه . وأخرجه مـن دار ملكه وأحرجه . واجلس سـلطانا آخـر مـوضعه . وكدر عليه بالشوائب والنوائب مشرعه . وخطب لمعز الدين سنجر بن سـليمان شاه وأطعمه طعمه . وأرضـاه بـالاسم . وأجـراه على الرسـم . وكاتب سلطاننا وعقد له الصداقة بصدق الاعتقاد . وانتظمت بينهما أسباب الانجاد . وكان السلطان طغرل إذا خلت همـذان مـن قـزل ارسلان يعود إليها . ويستولي عليها . ثم اذا عرف قـربه بعـد . واذا علم بعده قعد . وشرع يقتل أصحابه بالتهم . ويشتد في النهب اشدة النـهم . فقتل فخر الدين رئيس همذان . وبـث العـدوان . وقتل وزيره العزيز بن رضي الدين المستوفي لأمر توهمه . ولخاطر لم يكشف مهمه . فالجأ الزمان إلى الوصـول إلى الامير حسـن بـن قفجاق . وشكا إليه من أهله وأصحابه الشقاق . فخرج معه وآزره وضافره . وظاهره بعد أن صـاهره . وزوج أختـه منه . وحمـى جانبه وذب عنه . وراسل سلطاننا قزل ارسلان حتـى يصـالحه . ويصافحه على الوفاء ويسامحه . وكاد أن يتم الصلح . ويسفر بعد ليل الفتنة الصبح . فلما تقاربا للمصالحة تحاربا . واتهم كل واحد منهما الآخر فتواثبا . وأوقع قزل أرسلان به وبالتركمان . وعادت الفتن ملتهبة النيران . وساق السلطان طغرل الى همـذان . فمضى وراءه قزل ارسلان . فخرج اليه ثقة بما سبق من الايمان . فصرف

عنانه • وقبضه وأعرض عنه واعترضه • وحبسه في بعض القلاع •
وأبعد عينه وأثره عن الابصار والاسماع • فاتسقت له المملكة •
واستقر منه السكون والحركة • وكانت أصفهان منذ توفي البهلوان
قد اضطربت واحتربت • واقتربت الساعة بها وخربت • وقتل في
ثلاث أربع سنين منها في محاربة العوام ألوف • وتوالت بها حتوف
وزحوف . وكانت الشحن من جانب قزل على الشافعية • وقووا
ايدي الترابية في تخريب المدرسة النظامية • فاحوجت الضرورة إلى
أن اصحابنا دعوا بشعار السلطان • ووجدوا القوة به أمام قوته
والامكان • فلما اعتقل طغرل • واستمر أمر قزل • مضى إلى
أصفهان فاخذ رؤساء الأصحاب في المحال • وأجرى عليهم القتل
والاغتيال • ثم عاد الى همذان وقد قوي وروي . ونال ما هوي .
ونشر من أمره ما كان طوي . وجلس على سرير الملك وضرب النوب
الخمس . ووجد بعدم من يوحشه الانس . ولها ولعب . وشرب
وطرب . وغفل عن القضاء المشتبه . ونام عن القدر المنتبه . واغتر
بالعيش الرفه . وحلم عن الخطب السفه . وبات في قصره . وقد غاب
في سكره . وهو بين خدمه . وحشمه . وعسسه ، وحرسه . وعتقائه
وأرقائه ، ومستخصية ، ومستخلصية ، فوجد على فراشه وهو
قتيل ، ولم يذكر كيف قتل ولم يكن عليه سبيل ، فنسب قتله إلى
الاسماعيلية تارة وإلى الخاتون الانيانجية أخرى ، والله أعلم بما به
حكمه اجرى ، ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه وحل العقاب به دون
أربابه ، وجلس قتلغ اينانج بن البهلوان موضعه ، وجمع له ملكه
ومتعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى اذربيجان وأرانيه
سائقا إليها واستولى عليها . وأما السلطان فانه أيس منه . وسلا
من كان يواليه عنه . فتعصبت له أمراة متولي القلعة ودبرت في
خلاصة . وهونت على زوجها أمر استصعابه واعتياصه .
واستعانت بمن أعانها . وأعلت بإعلاء شأنه شانها . ولما برز نخل
مدينة تبريز . وكانما الكير أخرج الابريز • ثم جمع ومضى على
سمت همذان • فلقي قتلغ اينانج وعسكره بين أوه وزنجان •
فكسره وهزمه • وفل حده وثلمه • ومضى إلى همذان • وجلس على
سرير ملكه وذلك في سنة ثمان • وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله •

وتوفي في هذه السنة بدمشق من المعروفين من أصحاب السلطان صفي الدين أبو الفتح ابن القابض وكانت وفاته في الثالث والعشرين من رجب ولقد كان سريا . وبالحمد حريا * وفي حلبة المكارم جريا * ومن الخيانة في ولايته بريا * ومن العار عريا * ولم يزل زند مضائه وريا * وكانت له سياسة ورياسه * ونفس ونفاسه * ورأي وفراسه * وفطنة وكياسه . ومروة وفتوة . وثبات جنان وقوة . وكان قد خدم السلطان أيام عدمه . وهو في كفالة أبيه وعمه . فلما ملك مصر أمرجه في أموالها . وحكمه في أعمالها حتى نال المنى . ووجد الغنى . فقال له قد اكتفيت واستغنيت . وإن صرفت الان ما باليت . فاصرفني عن العمل . فقد نلت غاية الأمل . فعاش غنيا . ومات جشريا . وورث السلطان بعض ماله .وذلك ما فضل عن افضاله ، فانه فرق على مماليكه املاكه وماله ، واخفى بعد وفاته بما بذله حاله .

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول توفي الحكيم الموفق ابن مطران وكان بارعا طريفا ، نظيفا عفيفا ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال اسباب الاحترام ، وتقدم عند السلطان . وماشانه وهو كبير الشان ، وكانت له دراية ودراسة ، وذكاء وفراسه ، ولم يزل متلطفا في طبه ، متعطفا بحبه ، متحببا الى القلوب . متقلبا من قبوله في المحبوب ، صبيح البهجة فصيح اللهجة ، صحيح الحجة بوضوح المحجة ، ولم يزل له عند السلطان وذوي الجاه جاه ، ولجده انتباه ، ولدا واته بالشفاء شفاه ، حتى حان اجله . وخان امله وبان عنه حلى حاله وبان عطله . وكانت له عندي يد اذكرها واشكرها . وعارفة اعرفها ولا انكرها . وذلك انني في ذي القعدة سنة ثمانين كنت متوجها في خدمة السلطان وفي صحبته متوليا للانشاء منفردا بمرتبته . فلما وصلنا الى بعلبك انقطعت عنه بها لمرض عرض وشكا جوهري العرض ، وانتهى اليه بدمشق ما الم بي من الالم ، فتقسم فكره من خبر السقم ، وركب ووصل في يومه حتى ادركني ، ومرضني وما تركني وداواني حتى

ابللت ، وأزال الله انحراف مزاجي بطبه فاعتدلت ، وصحبني الى دمشق وسبق الى أوليائي بالبشرى وشكرت الله على النعمي ، وكذلك كان يطلب مرضاتي ، في جميع مرضاتي ، فلما مرض الطبيب لم ينجع في مرضه الطب ، وتوفاه الرب .

وفي آخر هذه السنة توفي الفقيه العالم الزاهد نجم الدين الحبوشاني بمصر وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الامام الشافعي رضوان الله عليه واحيا شعار التوحيد ، وبنى امره على التشديد والتسديد ، وحفظ شمل الشافعية من التبديد ، وكان السلطان مجيبا له الى كل ما يستدعيه ، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه ، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا واعطاه في بنائها الوفاء.فلما توفي طلب المدرسة جماعة من العلماء ، فلقوا بالاباء ، ثم شفع الملك العادل في صدر الدين على بن حموية وهو شيخ الشيوخ ، ويعرف في العلم والعمل بالرسوخ ، فكتب بها له ، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله ، وذلك في اواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة ، وبدلت الوحشة من الانسه .

فصل كتب الى بعض الأكابر في الدخول الى القدس

اتفق دخول الشتاء وتواتر الأنداء ، وتوفر الانواء وسح الأرض وشح السماء وانقطاع الجلب واتصال الغلاء ، وبعد الراحة لقرب الأعداء ، وملل العساكر لدوام الهيجاء ، والمقارعة واللقاء.وكانت مدينة القدس محتاجة الى توفر الهمم على شحنها بالرجال والميرة والقوة والعدة والذخيرة ورأيناها من أحسن المدن واحصنها واحكمها واوجدنا بها جدتها بعد عدمها ، ورتبنا بناء سوارها على جوانب اودية وسفوح ، متى تم لم يبق فيها لطمع من طموح ، وهذا امر الله وفي طاعته ولحفظ بيته ولنصرة دينه ولاعلاء كلمته ، ولحماية امته ، ومالنا فيه الا السمسرة ، وما رجاؤنا الا الأجر والمغفرة ، وما نصيب الا نصيب واحد من المسلمين المجدين .

والمؤمنين المعين للدين . فما اسعد من ساعد فيه . ووفى باسعاف عافيه . هذا والكفر قد اناخ بكلاكله . وحفل بجحفله وبرز الى الاسلام بكليته . وعراه ببليته . وقامت قيامته لقيامته . وثار لنار قمامته ، ورمى مهجته على الموت لمقبرته ، والبيت المقدس الذي شرفه الله وكرمه ، وعصمه كما عصم وحرم حرمه ، مقام الانبياء المرسلين ، ومقر الأولياء والصديقين . وموضع معراج سيد المرسلين ورسول رب العالمين . وفيه نزل جبريل بالبراق . وصعد المصطفى صلى الله عليه وسلم . الى السبع الطباق . واهدى الله ليلة الاسراء بحلول السراج المنير فيه الاشراق الى الافاق . وهؤلاء الملاعين قد اغذوا لقصده ، واعدوا لورود ورده ، وقد فرض في هذا الأوان رفض التواني ، واستدعاء ذوي الحمية من الاقاصي والأداني ، وان لم يتساعدوا في الربيع القابل ، على انهاض الجحافل ، صعب الأمر واشتد واحتدم الخطب واحتد ،

فصل في شكر صاحب الموصل على انفاذ الجصاصين لحفر الخندق

قد اصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرف عن فضيلة منجده ، ويفصح ،فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح ارجاءه ، الحامون بحفر خندقه ارجاءه ، وما فيهم الا من ابان عن جده ، وابان بحده والان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهده ، وهذه لا شك مقدمه لما وراءها من نتائج النجدات ، وجدوى سابقة للواحق في مناهج الجدات . وعارفة معرفة في قمع العداة باجراء العادات في انجاز العدات ، والعدو انتظار لنجدات بحرية وارتقاب . وومضات جمر تحت رماد كيده يوشك ان يكون لها التهاب ، والهمة السامية لاتفتقر في هذا الباعث الى باعث ، وعند عزائمه حديث كل حادث .

وفي شهر ربيع الآخر من هذه السنة كتبت منشور حسام الدين سياروخ النجمي بولاية القدس .

وكانت ولاية مذ يسر الله فتحه ، وحقق للامل فيه نجحه ، واطلع لليل النصر صبحه ، الى الفقيه ضياء الدين عيسى مفوضه . وصعاب اعماله وشعاب احواله بنصرة آرائه ونصرة آلائه مروضه ، وقد استناب فيه اخاه الظهير ظهيرا ، ولم يزل رواؤه وبهاؤه به شهيا شهيرا الى ان استشهد في شعبان سنة خمس وثمانين ، وتوفي الفقيه عيسى في ذي القعدة منها وانتقل الى عليين . فأبقى السلطان نوابه من بعده ، محافظة على عهده ، وكان الأمير سياروخ بالقدس مقيما . والنظر في مصالحه مستديما . ويضم من امره مايراه منشورا ، وكتبت له في التاريخ المذكور باستقلاله منشورا :

الحمد لله الذي اقصى من المسجد الاقصى من دناه من الكفر ودنسه ، ونزه البيت المقدس من رجس اعدائه المشركين بأيدي اوليائه الموحدين وطهره وقدسه ، وانطق محرابه ومنبره بتلاوة الذكر المبين واسكت الناقوس واخرسه نحمده على ما عصمه من الحوزة وحرسه . وفرجه من الشدة ونفسه ، ونسأله ان يصلي على نبيه محمد المصطفى الذي شرع الدين وشرحه،ومهد الشرع واسسه .وبطل الكفر وعطله . وارغم الشرك واتعسه ، وعلى آله واصحابه الذين اعلى الله بهم منار الحق . واضفى ملبسه واصفى مورده ، وازكى مغرسه ، وبعد فانا مذ فتح الله لنا بيته المقدس وخفض باعلاء اعلامنا راية الكفر ونكس ، وكسا بأيامن ايامنا وجه الدين البشر من بعد ما كان تعبس ، وخصنا بفضيلة فتحه وجعل لنا به الحظ الاجزل الافضل الأكرم الانفس ، مانزال نطلب وليا لله يكون له واليا ، ويعود عاطله بتأثير احسانه وحسن اثاره وايثاره حاليا ، ويرجع بنظره الشافي وتدبيره الكافي ما انخفض من منار الهدى عاليا ، ولا يزال على بال منا ان نحيي به من رسوم الايمان

ونجد من معالمه ماظل بمقام اهل الضلال فيه دارسا باليا ، وقد اختبرنا الامير حسام الدين فألفيناه لاهلية هذه الولاية جامعا ، والى مضمار السبق في هذه المكرمة مسارعا ، ووجدناه باعباء الامانة ناهضا ، ولزبد المناصحة والصحة فيه ماخضا ماحضا ، فاستخرنا الله تعالى وعولنا عليه في ولاية مدينة القدس واعمالها ، وعذقنا برايه الراجح وسعيه الناجح مهام اشغالها . وحكمناه في تحصيل مصالحها ، وتسهيل مناجحها ، وسداد ثغرها ، وسداد امرها . ورعاية امورها وعمارة حريمها وسورها ، وتطويل باع ساكنها ، وتأهيل ربـاع اماكنها ، واسكان مواطنها ، وتوطين مساكنها ، وتطهيرها من ادناس ادنى الناس . وتعميرها بالعدة والعدة والشدة والقوى والباس . فليتول ذلك بقوة ناهضة ونهضة قوية وروية مبصرة وبصيرة روية . وليستشعر تقوى الله التي تقوى بها العزائم . وتتوفر منها المحامد وتكمل المكارم . جاريا على مقتضى الشرع في كل ما يحله ويعقده . ويقدره ويمهده . ويصدره ويورده . والله عز وجل يوفقه ويسعده ويعضده .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بالقدس في دار الاقساء جوار قمامه ، واظهر بها لتقوية البلد الاقامة ، وقد قسم سور البلد على اولاده ، واخيه واجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد ، محدق به مديد ، وكان يركب كل يوم مصبح ، مشمس مضح ، فينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الاكابر والامراء في نقل الحجارات بنهجه ، فلو رأيته وهو يحمل حجرا في حجره . لعرفت ان له قلبا كم حمل جبلا في فكره . ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور ، وانشرح صدره لانضمامها الى صدره حتى باشر صدور ممالكه به الصدور ، وما تغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها ، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وكل بناء قفلت حجارته ، ووقفت عمارته ، ركب وبكر اليه ، وجمع الحجر بنفسه واجناده عليه ، فإذا اكتفى انتقل الى موضع آخر ونقل اليه الحجر ، ولقد بني به في غرفات الجنات

الحجر . وأثر رواة سيرته الحسنة منها الأثر ، وما أعمر احسانة واحسن ماعمر . وداوم البكور بالركوب وعرض وجهه الكريم للشحوب ، والتزم الأمر التزام الوجوب ، ولان له الصخر لين الحديد لداود . وجد في فض جدته وأفاض الجود . وكان حجر الخندق صلداً لايتأتى قطعة . ولايتهيأ بكل آلة صدعه . فاتخذ من الفولاذ قطاعات . واخترع على الحدادين آلات . فأمكن الصلد ووهن الجلد . وتيسر الصعب ولان الصلب . وصرخ الصخر لما حاف الحفر ، وضج الحديد لجلد الجلمود ، وصدفا قلب الصفا لاصاخة الصيخود ، واعولت المعاول ، وجدلت الجنادل ، وسمعت الصماء صوت السطو ، وخرج جرج الاساءة اليها عن الاسو . وفلقت القطع وقطعت الفلق ، واتسع الضيق وتعمق الخندق ، وطاب العمل وطال الأمل ، وحز الحزم وحزن الحزن ، وركنت القوة وقوي الركن ، فلا ترى الا سورا يعلو وخندقا يسفل ، وبناء يسمو وحفرا ينزل ، وبرجا يسقف ، وبدنا يشرف ، وحجارة تبني ، وعمارة تثنى ، وكلسا يحرق ، وأسا يوثق ، وطاقا يعقد ، ورواقا يمهد ، وطلاقات تطلق ، ومرامي تخرق ، وستائر تحجر ، وحفائر تقعر ومصاعد تهندس . وقواعد تؤسس . ومعارج تسفح . ومخارج تفسح . وموالج تسرب ومدارج ترقب . حتى احكم المكان بكل مافي الامكان . واتصلت الابراج بالابدان مشيدة الاركان . والسلطان يشرف في كل يوم . على عمل قوم . فيمدحهم باحسانهم ويجازيهم باحسانه . ويعير جنان المتولي من قوة جنانه . ويدركه بما يستأذفه من عمله . ويحلي بالفضل مايبدو له من عطله ، وكان ذلك دأبه مدة اقامته ، وقد جد غرامه بغرامته بل يرى ان كل مال يذفقه ذخر باق . وانه إن فاق كريم فبإنفاق ، وماعنده خشية املاق . بل يده جاريه باطلاق جوائز وارزاق . وانه تتجلى له اعماله الصالحة يوم يكشف عن ساق ، وان وفق الله واستمر مادبره في حفر الخندق وبناء السور ، بقي بيت الله المقدس مع الاسلام على ممر الدهور . ولايبقى عليه لمسلم فزع . ولا فيه لكافر طمع . ولو عاش بخت نصر لعرف عجزه . وسلب عز الاسلام عزه . ورأى من المعجزات

ماحيره . وقهقر عن البأس الذي ان ثبت له قهره . فسبحان الذي اقدر السلطان على ما عجز عنه الملوك وهداه من الفضل الى نهج ضلوا فيه السلوك .

ذكر الحوادث مع الفرنج في هذه السنة

رحل الفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة الى عسقلان ونزلوا يوم الاربعاء بظاهرها . وتشاوروا في اعادة عمائرها ، وكان سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر والاسدية نازلين في بعض اعمالها ، مجدين في نقل غلالها ، وركب ملك الانكتير عصر يوم الخميس ، ومعه حزبه من جند ابليس ، فشاهد دخانا على البعد ، وماعرف ماعنده من العسكر المعد ، فساق متوجها الى تلك الجهة وجد ، وتبعه عسكره وامتد . فما شعر اصحابنا الا بالكبسة وقد بغتت ، فما ارتاعت قلوبهم بل ثبتت ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الافطار . فارغة الافكار من شغل الكفار ، وكانوا نازلين في موضعين ، مقيمين في منزلين ، فلم ير العدو الا احد القسمين فقصده بحزبه ، واطلق عنانه لحزبه ، فعرف القسم الاخر هجوم العدو ، فهجروا مهاد الهدو ، وركبوا الى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودون ، واجتمعوا وهم المسعدون ، وردوا العدو شوطا . وصبوا عليه من عذاب القراع سوطا ، ثم تكاثر الفرنج عليهم ، وتواصلوا وسبقوا اليهم ، فاندفعوا من بين ايديهم ، والفرنج تباريهم ، وساقوا اثقالهم قدامهم ، وقد ثبتت حفظها على الاقدام اقدامهم . ومافقد من اصحابنا ممن عرف الا اربعة : ونجا الباقون وخواطرهم لاجل اولئك متوزعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها ، وبتاريخ الثلاثاء عاشر المحرم ركب السلطان على عادته في نقل الحجارة ، والجد في العمارة ، ومعه الملوك اولاده والامراء . والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والاولياء . وخرج كل من بالبلد . وجاء المدد بعد المدد . وهو قد حمل على سرجه . واستوى في نهجه . والناس ينقلون معه على خيولهم .

في قفافهم ونبولهم . ولما دخل الظهر نزل في خيمة ضربهـا ولده الملك الظافر بالصحراء . واحضر فيها السماط لمن يدعوه مـن الامـراء . فحضر على ذلك السماط . واحضر طعام مطابخه وبسـطه على ذلك البساط . وكنت قد مضيت فرنني . وبتقريبه امـدني . فلمـا فـرغ وفرغنا . وبلغ مرامه وبلغنا . صـلى هناك الظهـر وركب عائدا الى داره . آيبا بـايثاره وحسـن آثـاره . فـائزا بسرور اسراره،وخير اختياره .

ذكر ثلاث سرايا سرت وبرت

كان عز الدين جرديك تجـرد في سرية سرية . بـارية رقـاب ذوي الغلول من الغل بريه . فاغارت يوم الاربعاء الحادي عشر من المحرم على يبنى .وفيها الفرنج بنية السكني . فغنمت اثنى عشر اسيرا . وخيلا ودواب واثاثا كثيرا .

وفي يوم الثلاثاء ثاني صفر اغارت السرية وفيها جرديك . وعسكر القدس وجماعة من الممـاليك . على ظـاهر عسـقلان . واوفـدت بتناصرها على الكفر الخـذلان . وغنمـت ثـلاثين اسـيرا قيدت في الاغلال . سوى ماكسبته من الخيل والبغال .

سرية فارس الدين ميمون القصري

باتت ليلة الاحد رابع عشر صفر . بتل الجزر . وسرت حتى اصبحت على يبنى وكمنت . وصبرت الى ان استرسلت الفرنج الى الطـريق وامنت . ثم ظهرت على قافلة للفرنج عبـرت . فـكبست وكسـبت . وكسرت واسرت . واخذتها بأسرها مع رجالها . وبغالها واحمـالها واثقالها . ثم اغارت على يافـا فقتلت وفتـكت . وسـفكت دمـاء وهتكت ، وعادت بـالغنيمة والسـبايا ، واسـتغنت بنقـودها عن

النسايا . وعجز جماعة من الاسارى عن المشي فضربت اعناقهم ، واوجب ذلك للباقين في المسير اعناقهم ، وعادت سالمة سالبه ، غانمة غالبه .

ذكر خروج سيف الدين علي بن احمد المعروف بالمشطوب من الاسر

قرر على نفسه قطيعة خمسين الف دينار فأدى منها ثلاثين . واعطى رهائن على عشرين ووصل الى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر . فقام اليه واعتنقه وتلقاه بالوجه الباشر ، واقطعه نابلس واعمالها ، وحلى بايالته لهـا احوالها ، وعاش الى اخر شوال من هذه السنة ، وتوفي الى رحمة الله باعماله الحسنة ، فعين السلطان ثلث نابلس واعمالها لمصالح البيت المقدس . وتشييد ركن سوره المؤسس ، وابقى باقيها على ولده . وتركه في تصرفه ويده .

نكتة

لما خرج المشطوب من الاسر . تلقاه ولده روي الأسرى قوي الازر . فوجده على زي اولاد الاتراك مضفور الشعر . فبدأ منه الانكار والاكبار . وقال ماللاكراد في شعورهم هذا الشعار . فقطع ضفيرته ، وقصر وفرته ، فتطير الناس من قطع شعره على ابيه ، وقالوا هذا دليل مصابه الذي يأتيه .

هلاك المركيس بصور

اضافه الاسقف بصور يوم الثلاثاء ثالث عشر ربيع الاخر فاستوفى رزقه لموافاة اجله ، ووصل الى الباب قاطع امله ، وقد دعي الى

جهنمه ، ومالك على انتظار مقدمه ، والجحيم في ترقبه ، والدرك الاسفل من النار في تلهبه . والسعير في تسعره ، ولظى في تلظيها لتنظره . وقد قرب ان تكون الهاوية له حاويه ، والحامية عليه حاميه ، والزبانية في ايقاع العذاب به لمنزل الرجز بانيه ، وقد فتحت النار له ابوابها السبعة . وهي جائعة الى التهامه وهو ملته بالاكل يستوفي الشبعة . فاكل وتغذى ، ومادري أنه يتردى ، واكل وشرب ، وشبع وطرب ، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان . بل ذئبان امعطان . وسكنا حركته بالسكاكين ، ودكاه عند تلك الدكاكين . وهرب احدهما ودخل الكنيسة ؛ وقد اخرج النفس الخسيسه : وقال المركيس وهو مجروح وفيه بقية روح . احملوني الى الكنيسة فحملوه ، وظنوا انهم حاطوه لما نقلوه . فلما ابصره احد الجارحين . وثب اليه الحين . وزاده جرحا على جرح . وقرحا على قرح ، فاخذ الفرنج الرفيقين ، فالفوهما من الفدائية الاسماعيلية مرتدين ، فسألوهما من وضعكما على تدبير هذا التدمير . فقالا ملك الانكتير ، وذكر عنهما انهما تنصرا منذ ستة اشهر ، ودخلا في ترهب وتطهر . ولزما البيع . والتزما الورع . وخدم احدهما ابن بارزان والاخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس . واستحكما بملازمتهما اسباب التأنيس ، ثم علقا بركابه ، وفتكا به ، فقتلا شر قتله . وجهل عليهما اشد جهله . فيالله من كافرين سفكا دم كافر . وفاجرين فتكا بفاجر . فلما ظل المركيس مركسا . وفي جهنم منكبا منكسا . تحكم ملك الانكيتر في صور . وولاها الكندهري وعذق به الامور . ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته . وادعى انه احق بزوجته . وكانت حاملا فما منع الحمل من نكاحها. وذلك افظع من سفاحها ، فقلت لبعض رسلهم : الى من ينسب الولد . فقال يكون ولد الملكة ، فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركه،ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة . وان كان من طواغيت الضلالة . لانه كان عدو ملك الانكتير ، ومنازعه على الملك والسرير ، ومنافسه في القليل والكثير ، وهو يراسلنا حتى نساعده عليه ، وننزع ماأخذه من يديه وكلما سمع ملك الانكتير ان رسول المركيس عند السلطان ، مال الي المراسله بالاستكانة والاذعان ، واعاد الحديث في قرار الصلح ،

وطمع في ليل ضلاله باسفار الصبح ، فلما قتل المركيس سكن روعه وروعه ، ونضب ضوره وضوعه ، وطاب قلبه ، واب لبه ، واستوى امره ، واستشرى شره ، وكان قد تعصب لضانة المركيس للملك العتيق . فاظهر له ود الشفيق الشقيق . وولاه جزيرة قبرس واعمالها وسدد بسداده اختلالها . فلما هلك المركيس عرف انه قد اخطأ في تقويته . وخشي انه لايسلم من عاديته . ولايأمن من غائلته . فلما عدم عدوه . وجد هدوه . واب سكونه . وثاب جذونه . ولم يحدث مقاطعته . ومرى رسل مراسلته ورمى سهم مخادعته ومخاتلته . ولم ينزل عن ادعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته . وراسل في طلب المناصفة على البلاد سوى القدس فانه يبقى لنا بمدينته وقلعته . سوى كنيستهم المعروفة بقمامه . فانهم يعتقدونها لملتهم الدعامة . فابى السلطان أن يقبل هذا القرار . وأبدى لهم الانكار وسامهم ان ينزلوا عن يافا وعسقلان . ويأخذوا على مايبقي في ايديهم الامان .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة الداروم

وهذه قلعة الداروم على حد مصر . وكانت منها مضرة كبيرة لما كانت مع الكفر فلما فتحت حفظت وتركت وابقيت . وبالميره والذخائر والرجال مليت . وخربت عسقلان وغزة دونها . وتسلمها علم الدين قيصر على ان يصونها . فلما شرع الفرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا مرارا اليها . وداروا حولها واشرفوا عليها . وأذنق السلطان في جماعة وقواها بها . وشد بالنجدة قلوب اربابها . ثم نزل الفرنج عليها . بقضهم وقضيضهم . وسمرهم وبيضهم . وفارسهم وراجلهم . وصارمهم ونابلهم . ورابحهم ونابلهم . واشتد زحفهم عليها . ونهوضهم اليها . عشية السبت تاسع جمادى الاولى بعد ان اخذوا فيها نقبا وحرقوه . وحشوه واحرقوه . وطلب اهلها الامان فلم يجدوا . وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالي انهم مأخوذون . وانهم موقومون . عمد الى الخيل

والجمال والدواب فعرقبها . والى النخائر فاضرمها والهبها .
وفتحوها بالسيف . وعرضوا اهلها على الحيف ، واسروا منهم عدة يسيرة . وكانت هذه النوبة على الاسلام كبيرة . ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها . ورحلوا عنها وتنحوا عن نواحيها . ونزلوا على ماء يقال له الحسي . وقد طاش بهم الغي والبغي . وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر . وقد انسوا بما ظنوه من اسباب الغلبة والقهر .
ثم تركوا خيامهم وساروا على قصد قلعة يقال لها مجدل الحباب .
فخرجت عليهم اسد اليزكية المكمنة من الغاب . فقاتلتهم قتالا شديدا . وتركتهم بجد الحديد بديدا . وغادرت حبل قصدهم الجديد جديدا . وكرت عليهم فكررت في ردهم عن جهتهم ترديدا ، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير . واتاهم من مباريها لهم مبير . وعادوا مفلولين مثلومين . مخذولين مهزومين . مذلولين مهضومين . ثم رحل الفرنج من الحسي يوم الاحد سابع عشر الشهر وتفرقوا فريقين وبعضهم عاد الى عسقلان وبعضهم جاء الى بيت جبرين . فتقدم السلطان الى العساكر والامراء بان يكونوا لهم مبارين . وفي يوم السبت الثالث والعشرين نزلوا بتل الصافية ، بجموعهم الوافرة الوافية . ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون .
فأرجفت الالسنة بانهم على قصد القدس على حسب تراجم الظنون . وسرت اليهم السرايا . وتوالت عليهم البلايا . واظهر السلطان مقامه بالقدس . لتبعد وحشة المقيم فيه من قربه بالانس ، وفرق الابراج والابدان على الامراء والاجناد . وذوي القوة والاستعداد . وامرهم بنقل الازواد . ثم زال الرعب . وطاب القلب .
وخرج الناس الى خيامهم يتخطفونهم . ويعسفونهم ويتحيفونهم ، وجرت وقعة بعد وقعة ، وكبسناهم دفعة بعد دفعة ، ومن ذلك ان بدر الدين دلدرم كان في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين. فبعث من أصحابه والعسكر الى طريقهم من يافا من لزم الكمين ، فجازت بهم فرسان من الفرنج مستقيمون على النهج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا ، وفازوا ونصروا ، وفي يوم السبت نزل الناس اليهم وقاتلوهم في خيامهم ، والهبوهم بضرامه ، وركب العدو ساق الى قلونية وهي ضيعة من القدس على

فرسخين ، ثم عاد بأيد الشأن بادي الشين ، وعساكرنا قد ركبت اكتافه ، وهي تقطع اطرافه ، وتهز اعطاف البيض لتحز اعطافه ، وفي يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة ، خرج كميننا في طريق يافا على السابلة العابرة ، فظفروا وفازوا ، وحووا وحازوا وكسروا واسروا .

ذكر كبسة الفرنج عسكر مصر الواصل

كان السلطان يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله . ويدعوه نجدة لأهل القدس على الكفر واهله ، فضرب العسكر خيامه على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق ، وتهيأ لمن تأخر عن السابق اللحاق ، وانضم اليهم التجار ، وحصل لهم بكثرتهم الاغترار ، وللعدو لقدومهم الانتظار ، وعنده بجواسيسه الأخبار ، فجاء الخبر من اليزكية الى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ان العدو ملك الانكتير ركب في سبعمائة فارس وألف تركبول ومعه ألف راجل ، وسار عصر يوم الأحد سير مخادع مخاتل ، ولايدري اي جانب قصد ، ولأي نائب رصد ، وجرد السلطان اميرا آخر اسلم ، خوفا على الواصل ليسلم ، وندب معه الطنبة وعدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا بالناس في طريق البرية ، فعبروا على ماء الحسي ، قبل وصول العدو اليه ، واتصلوا بالقوم واخبروهم بأنهم كشفوا الماء وليس أحد عليه ، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين اخو العادل ولم يسأل عن المراحل والمنازل ، وقصد اقرب البرك ، وغفل عما يعرو من الفرق والفرق ، وترك الاحمال على برك اخرى سائرة ، ورأى الأمنة ظاهرة وأوجه السلامة سافرة ، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة ، والأماني تغره بالمواعيد المخلفة ، ونادى تلك الليلة انا جزنا مظان المخافة ، وفزنا بالسلامة من الآفة ، فلا رحيل الى الصباح ، فاغتر الناس بالنداء الصراح ، وناموا مسترسلين ، وباتوا متغفلين ، فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح

بالصدمة الشاقة والصدمة الحاقة ، وعاق ابن ذكاء باذكاء بنت الداهية العاقة ، فجاءهم فجاءة ، والصبح لم يبد اضاءة ، والخيط الابيض من الخيط الاسود لم يتبين ، وهبوب الأعين من هبوة الغفوة لم يتعين ، وكل غرار في جفنه قار ، وكل قلب بـأمنه سار ، وكل جنب على فراش ، وكل عاش له النعاس غاش ، فلما يفتوا بهتوا ، وطلبوا ان يفلتوا فما التفتوا ، وركب كل منهم على وجهه . وربما كر بكرهه ، وفيهم من ركب بغير عدة حصانه ، واسلم اخوانه وغلمانه ، وانهزموا نحو الاثقال ، فاوقعوا العدو وهو وراءهم على الجمال والاحمال . فوقع العدو في سوابقها ، واشتغل بها عن لواحقها ، فتفرقت في البرية وعاد معظمها الى الديار المصرية ، ومنهم من عاج الى طريق الكرك ، فلم يقع في الشرك ، ولم يحصل في الدرك ، فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، واحمالا لاتحد ، وكانت هذه نكبة عظيمة ، ونائبة عميمة ، ونوبة ذات نبوة ، وكبة ذات كبوة ، ووقعة ذات روعة ، وعولة ذات لوعة ، فظنت الظنون وارجفت المرجفون ، وقالوا قد حصل للفرنج من الظهر مايحملهم وينهضهم ، ومن المال مايبطرهم ويحرضهم ومن الآن يقابلهم ، وبأي عسكر وعدة نقاتلهم ، ووصل الجند مسلوبين ، ومنكوبين منهوبين ، فسلاهم السلطان عن أموالهم ، بما قوى من آمالهم ، وحضهم على الحظ من الاخذ بثارهم ، والجد في دمار القوم وبوارهم ، ولها الملاعين بما ملأ العين من المال ، عن القيل والقال والقتل والقتال ، وحلا لهم ماحاولوه من الحال ، وجرى هذا كله والملك الافضل والملك العادل غائبان ، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان .

-٦١٨٧-

ذكر سبب غيبة العادل والافضل وماجرى لهما من الأول

كان الملك الافضل طلب من والده البلاد قاطع الفرات ، ونزل عن جميع ماله من الولايات ، وأنه اذا عبر الى الرها وحران ملك تلك البلدان ، وعنا له من بها من ملوك الأطراف ودان ، ورحل من القدس في ثالث صفر وقد ازمع السفر ، ووجه عزمه الماضي المضيء قد سفر ، واقام في دمشق حتى استعد ، واستجدى من ابيه ماكمل به الخزانة واستجد ، واطلق له السلطان عشرين الف دينار ، سوى مااصحبه برسم الخلع والتشريفات من مستعملات ثياب ومصوغات نضار ، ثم سار في مجر مجر سيل خيله جار نيل نقعة على المجرة ، شاغل بالاسير والاسرى اسرار ذوي الأسرة ، بسانية على صفحات صفاحه نضرة النصرة ، ووصل الى حلب ، وقد مرى افاويق التوفيق وحلب ، واحتفل اخوه الملك الظاهر لقدومه ، وقام له بسنن الكرم ورسومه ، ورحب للترحيب به صدره وجنابه ، وسحب على روضه سحابه ، واصحب فيض فضله صحابه ، ووقف لخدمته مناثلا ، وهز عطف الابتهاج اليه مائلا ، واحضر له مفاتيح بلده ، وقدم له كل مافي يده ، ولم يبق من الجميل شيئا الا عمله ، ولاذوعا من الفضيلة الا كمله ، وعرض عليه الحصن العراب ، والتحف والثياب ، وخلع على خواص اصحابه وعوام اجناده ، وخصهم وعمهم من الجود بامداده ، وعول ان يسير معه الى الجهة التي يقصدها ، ويساعده على الضالة التي ينشدها ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه ، ودفع منه الى ماارهجه وارهقه ، ووصل رسوله الى الملك العادل وهو بالقدس لاجيا الى ظله ، وراجيا لفضله ، ولائذا بجنابه ، عائذا ببابه ، مستجيرا بارعائه ، مستجيبا لدعائه ، مفوضا ماحل به الى أذوار آرائه ، مروضا ماحل بانواء آلائه ، فاحتمى له واحتمله ، وقوى على تقويته امله ، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه ، وشفع في امره واستشفعه ، وقال أنا أمضي اليه

واستحضره وازمنه مما يحذرة ، وتبقى هـذه السـنة عليه حـران والرها ، وتشد من رجائه بذلك ما وهي ، وتعطيه في السنة الاخـرى حماة والمعرة ، وتكفى المضرة والمعرة ، ثم قرر السلطان مـع أخيه العادل ان يأخـذ تلك البـلاد ويحـويها ، ويملك حـوزتها ويحميها ، ويكف عنها ويكفيها ، واسـتقر ان ينزل عن اقـطاعاته بمصر ونصف خاصه ، واذا اخذ تلك البلاد فما يجـاوره يجتهـد في استخلاصه ، فأبدى على الرضـا بـذلك وجـه كراهيتـه واعتياصه ، واستزاد قلعة جعبر، فتمنع الملك الظاهر من تسـليمها حتى استظهر من ابيه بأضعافها واستظهر وتقرر مسير الملك العادل في العشر الاول من جمـادى الأولى . وكتـب السـلطان بعـود الملك الافضل فجاء هذا راجعا ، وذهب ذاك مسارعا ، ووصل الى حران والرها ، ففاز من تدبيره بالنجح المشتهى ، وبلغ من مراده الى أمد الأمل المنتهى ، وعاد في آخر جمادى الآخرة وقد استصحب ابن تقي الدين ، ووصل في هذا الشهر الى دمشق ابن صاحب الموصل مجاهد الدين يرنقش ، واجتمعت بدمشق في هذا الشهر عساكر بها الاسلام يأنس ، والكفر يستوحش ، وأقامت تنتظر مسير الملك العادل لتسير في خدمته ، وتتجلى راياتها في مطالع رايته .

ذكر رحيل ملك الانكتير صوب عكا مـظهرا أنه على قصد ثغر بيروت

لما تعذر على الفرنج قصد القدس ، وعرفـوا أن مـرضهم بـه في النكس ، ورأوا ان ثغر بيروت قد براهـم ، وعراهـم من القوة مـامنه عراهـم ، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمـراكبه ، وقـد فجعـوا بمصائبه ونوائبه فقالوا أخذ هذا البلد هين ، وقصـده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه وخـلا القـدس مـن جملة كتائبه وجمرة مضاربه ، فنبادر اليه من يافا وعسقلان ، مـن يجد في تملكه الامكان ، فلمـا عرف السـلطان مـاعزموا عليه مـن

القصد ، ودبروه من الكيد ، امر الملك الافضل بمبارة القوم في الرحيل ، وقطعهم بكل سبيل عن تلك السبيل ، وسبقهم الى مرج عيون ، وحتى اذا تيقن من قصدهم المخذون سبقت العساكر الى بيروت ودخلتها ، ونكت الفرنج ونكبتها وحولتها ، وكتب السلطان الى العساكر الواصلة الى دمشق ان يكونوا مع ولده وان يضموا أمدادهم الى مدده ، ونزل بمرج عيون والفرنج بعكا بعد ، تجاوز ولم تعد .

ذكر نزول السلطان على مدينة يافا وفتحها

ولما رحل ملك الانكتير وسار وخلى وراءه الديار ، ترك في مدينتي يافا وعسقلان ، جمعا من منتخبي الرجال والفرسان ، ووصاهم بالجلد ، في حماية البلد ، فانتهز السلطان فرصة الغيبة ، وأوفد الى مساغ رجائهم غصة الخيبة ، ونهض بعسكره الحاضر ولم يتمهل لا نتظار العساكر ، ووافى يافا ووفاها بكيل المنجنيق احجارا ، وأراق دماء وساق دمارا .

وزحف الناس وحفز الباس وفرعت المدينة ، ورفعت منها السكينة ، وقتل من بها ومسح وأخذ مابها وكسح ، ووجدت الاحمال المأخوذة من قافلة مصر فأخذت وحملت وعلت الأيدي والسيوف من الدماء والاموال ونهلت ، ونفضت كنائن ونظفت خزائن ، واستخرجت دفائن ، وولجت مكامن ، وحصل استمتاعنا بأمتعة ، وانتفاعنا بكل منفعة ، وامتلا البلد الكافر بالمسلمين ، وبقيت القلعة وطلب حماتها الامان ليكونوا لها مسلمين.وكان الناس قد سبقوا اليها ، وقرب ان يستولوا عليها وذلك يوم الجمعة العشرين من رجب . وقد شارف من فيها الشجب ، فلما طلب الامان رد الناس وكفوا، فظن ان الغنيمة تصدفوا، فانه خرج البطرك الكبير ومعه جماعة من المقدمين الاكابر ، على

-٦١٩٠-
أن يدخلوا تحت حكم الأسار ويسلموا جميع المال والعدة والذخائر على أن يطلق كل واحد منهم بأسير

ويفدى صغير بصغير . وكبير بكبير وشرعوا في الخروج احادا وعشرات . وعصبا متفرقات في ساعات حتى دخل الليل فاستمهلوا الى الصباح . وطلبوا واقترحوا من يقف لحفظهم فبذلنا لهم ماعينوه من الاقتراح . ومازال يخرج منهم من يستدعي زيادة التوثقة وتنفيس خناقهم بالمضايقات المرهقة . حتى وصل ملك الانكتير في البحر . في مراكب في سواد الليل بل ظلمة الكفر . ودخل هو القلعة من الجانب البحري ونادوا بشعار الغدر . فاكتفينا منهم بمن حصل في الاسر . وندمنا كيف خرجت اللقمة من الفم . ولانفع بعد فوات الفرصة الندم . ولو ان السلطان توقف في تأمينهم . واستمر على توهيمهم ، لقلعت اساس تلك القلعة ، ونفضت رقعة تلك البقعة . ولقد كان ذلك فتحا عظيما ، وفضلا من الله عميما . فقد امتلأت الايدي بغنائم تلك المدينة . ووهت اسباب قواهم المتينة . واستعيد ما نهبوه من الكبسة المصرية . وفزنا بالغنائم السنيه . وقتل من اقام بالبلد واسر وكشط جلد تلك المدرة وبشر . وحصل في اليد من مقدمي القلعةنيف وسبعون . وتركوا وهم بالثبور يدعون . وكان القصد في الاول رجوعهم عن قصد بيروت . وخشي على فرصة حفظها ان تفوت ، فمن الله تعالى بحصول المقصود . وفزنا بجني الجهاد بغير بذل المجهود . وجرى الامر على الوجه المحمود . وانما وقع التندم ؛ كيف لم يقع في اخذ القلعة التسرع والتقدم . فتعاصت بعد الاذعان . وتعذرت بعد الامكان ، وجمحت بعد الاصحاب . وجنحت بعد الاكثاب . وافلتت وقد وقعت في الحبالة . واستقلت بعد العثرة والاستقالة . وضعف الفرنج من تلك الكرة . واذن نشاطهم بالفترة ومالنتعشوا ولاانجبروا من تلك العثرة والكسرة . وعاد السلطان وخيم على النطرون . والعسكر قار القلوب قرير العيون وجاء اليه الملك الافضل ولده والملك العادل اخوه . واسفرت بالمسار الوجوه . وكان ولده الملك الظاهر ايضا قد وصل . وفي هذه الغزاة حضر وبينهما حصل . وكذلك كان قطب الدين سكمان بن محمد بن قرا

ارسلان حاضرا . واخذ من السعادة حظا وافرا . وحصل بيده جرح يئس ان يؤسى . وظن تلك النعمة بؤسى . ثم اندمل جرحه . وفـازت قداحه وحاز السني قدحه واقام السلطان حتى اجتمعت العساكر ولحقت اوائلها الاواخر . ووصل الملك المنصور ناصر الدين ابن تقيه في بيضه وسمره ومشرفيه وسمهريه . هذا والملك متاخر في المخيم . بسبب عارض السقم وملم الالم . ورحـل السـلطان ونزل بـالرملة والعساكر في عدد الرمل والاسـلام قـرير العين مـن اهله بجمـع الشمل . والفضاء قد امتلأ . والقضاء قد اجترأ . والقدر قد اسـعد والسعيد قد قدر . والنصر ابدى الصفو واذهب الكدر . وتلك البـرية قد حوت البريه . وجمعت العسكرية والكمت الجارية والكماة الجرية . والاعراب والعـراب . والمحـارب والحـراب . والاجـاود والجياد . والاسـاود والاسـاد . والبياض والسـواد . والعـدد والاعداد .

فصل في وصف الحال من كتاب الى الديوان العزيز

الخادم حاله على ماانهاه غير مرة في مرابطة اهل الكفر مستمرة . وافاويق النصر على حفولها تارة وبكئها اخرى مستدره . والحـرب سجال . وللاسلام في مضمار الظفر مجال . وقد تجاوزت القصة عن حد الانهاء . وكلما شارفت القضية الانتهاء . عادت الى الابتـداء . والحادثة متصله والواقعة مسـتقبله . والنعمـة مـن الله في اجـراء اوليائه على اجمل عاداته بانجاد عداته في قمع عداته مـؤمله . ومـا ينقضي يوم الا عن نصرةتتجدد ، ونعمة تتمهد . وجمع للعدو يتبـدد . وجمر لنكاية فيه يتوقد . وخد السيف من حده بـدم الشرك يتـورد . وفتح بكر من العوان بلقاح البيض الذكور يتولد . واخر ماتم في هذه الايام . من مرهـجات الكفر ومبهجات الاسلام . حظوة حلوة . ونوبة مالها نبوه . وهي ان الفرنج لما اعجزهم قصد البيت المقـدس . ولم يستقم لهم ما سولوه في الانفس عكسوا زعمهم . ونكسوا عزمهـم . وعادوا خائبين . ونكصوا هـائبين . واسـتأنفوا مـكيدة اخـرى .

وشرعوا في شر خلف الشرك به يمري . واجمعوا على قصد مدينة بيروت ، وتآمر على الاتجاه نحوها اعداء الله اولياء الطاغوت . فسارت العساكر الاسلامية على مباراتهم . لمضايقتهم في مضايق طرقاتهم . وتجرد الخادم في خواصه ووافى يافا . موقنا من الله تعالى ان مدد نصره اليه يتوافى . وحمل اليها من معتقلي نبات الاسل ومشتملي بنات الخلل الاسد والعرين .(فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين)[الصافات ١٧٧] فاخذها بالسيف عنوة . واعاد ضرام النيران بها جنح الليل ونزل البطرق والقسطلان والمرشان وجماعة من المقدمين خرجوا ودخلوا تحت القهر فبيناهم مشتغلون بالنزول . ومنقطعون الى الوصول .جاءهم الغوث في البحر. وظهرت منهم امارة الغدر . ورجع العدو عن مقصده ورده الله وخذله . ونصر الاسلام واخذ له . وسره بما يسره له واجذله . ونال سيف الدمار من سيب دمائهم عله ونهله . وكان المقصود ردهم عن موردهم . وصدهم عن مقصدهم . فابى ماقيضه الله من فتح الهدى وحتف العدا على الارب . واهتزت اعطاف البيض والسمر المنتشية من كاس نجيعها الطرب . والقوم الان قد اشتغلوا بمصابهم . واجتمعوا لضم ماانتشر من اسبابهم . وراسلوا في الصلح على ان تخلي لهم عسقلان فما اجيبوا . وعلموا بجهلهم انهم ماامابوا فيما دبروه لادبارهم فاصيبوا . والعساكر الاسلامية اليوم مجتمعة . ومسالك المهالك لضائقتهم ومضايقتهم متسعه . وقد آن ان تحل معاقد معاقلهم التي هي ممتنعه . وكل مايجده الله من علو يظهر . وعدو يقهر . ونصر يزهر . واصل بالظفر يشهر . فهو ببركات الاستمساك بطاعة المواقف الشريفة الامامية الناصرية . وبحمد الله ويمن ايامها وفضل انعامها دلائل النصر ظاهرة . واسباب الظهور متناصرة . ووجوه الامال بذشر نجاحها ويسر مافي اقتراحها سافرة،

ذكر الهدنة العامة

لما عرف ملك الانكتير ان شمل العساكر قد اجتمع . والخرق عليه قد اتسع وان القدس قد امتنع . وان العذاب به وقع . خضع وخشع . وقصر الطمع . وعلم انه لاقبل له بمن اقبل . ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل . فاظهر انه إن لم يهادن اقام واستقبل . والشر استقبل . وانه عازم على العودة الى بلاده . لامور مردها يعود الى مراده . والبحر قد آن أن يمنع راكبه ، ويسئم بالامواج غواربه ، فان هادنتم وطاوعتم تبعت هواي ، وان حاربتم وعصيتم القيت ههنا عصاي واستقرت ذواي ، وقد كل الفريقان ، ومل الرفيقان ، وقد نزلت عن القدس وانزل عن عسقلان ، ولاتغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات . فان جمعها في الشتاء الى الشتات ، ونحن اذا اقمنا على الشقاق والشقاء . رمينا انفسنا على البلاء ، فاجيبوا رغبتي . واصيبوا محبتي ، واودعوني العهد ودعوني .ووادعوني وو دعوني ، فاحضر السلطان امراءه المشاورين وشاورهم في الامر ، واظهرهم على السر ، واستطلع ماعندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادىء الى الغاي ؛ وقال لهم نحن بحمد الله في قوه ، وفي ترقب نصرة مرجوه ، فانصارنا المهاجرون الينا ذوو دين وكرم ومروه ، وقد الفنا الجهاد . والفينا به المراد ، والفطام عن المالوف ، وماتصدع الى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، ومالنا شغل ولامغزى الا الغزو ، ومانحن ممن يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ، واذا تركنا هذا العمل فما العمل ، واذا صرفنا عنهم الامل ففيم الامل ، واخشى ان يأتيني في حالة بطالتي الأجل ، ومن الف الحلية كيف يألفه العطل . ورأيي ان اخلف رأي الهدنة ورائي ، واقدم بتقديم الجهاد اعتزازي واليه اعتزائي • ومالنا بطالب البطالة • فارغب عن استحالة هذه الحالة • وقد رزقت من هذا الشيء فأنا الزمه . ولي بتأييد الله من الامر اجزمه واحزمه . فقالوا له الامر على ماتذكره . والتدبير ماتراه والرأي ماتدبره . ولايستمر الاماتمره من الامر • ولايستقر الا ماتقرره . وان التوفيق معك في كل ماتعقده

وتحله وتورده وتصدره . غير انك نظرت في حـــق نفســك مـــن عادة السعادة • وارادة العبادة . واقتناء الفضيلة الراجحــة • والاعتناء بالوسيلة الناجحة والانف من العطله • والعــزوف العــزله • وانك تجد من نفسك القــوة والاســتمساك . ويقينك يعــرفك بـــالاماني الادراك • فانظر الى احوال البلاد فانها خربت وتشعثت • والرعايا فانها تعكست وتعاثت . والاجناد فانها نصبت ووصـــبت • والجياد فانها عطلت وعطبت • وقد اعوزت العلوفـــات • وعزت الاقـــوات . وبعـــدت عنا العمـــارات • وغلت الغـــلات • ولاجلب الا مـــن الديار المصرية • مع ركوب الاخطار المهلكة في البرية • وهـــذا الاجتمـــاع مظنة التفريق • ولايدوم هذا الاتساع مع هـــذا الضـــيق فـــان المواد منقطعة • والجواد ممتنعه . والمترب قد ترب . والمعدم قد عطـــب • والتبن اعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالي الســـعر • وهؤلاء الفرنج اذا يئسوا من الهدنة بذلوا وسعهم في استفراغ المكنة واستنفاد المنه • وصبروا على المنية في طـــريق الامنيه • وابـــوا في الاقبال على دينهم قبول الدنيه • والصواب ان نقبـــل مـــن الله الاية التي انزلها وهي قوله (وان جنحوا للسلم فـــاجنح لهـــا) (الانفال ٦١) وحينئذ تعود الى البلاد سكانها وعمارها • وتـــكثر في مـــدة الهدنة غلاتها واثمارها • وتستجد الاجناد عدتهـــا وتستريح زمـــان السلم ومدتها • فاذا عادت أيام الحـــرب عدنا • وقـــد اســـتظهرنا وزدنا • ووجدنا القوت والعلف • وعدمنا المشـــاق والكلف • ففـــي ايام السلم نستعد للحـــرب • ونســـتجد ادوات الطعـــن والضـــرب • وليس ذلك تركا للعبادة • وانمـــا هـــو للاســـتجداء والاســـتجداد والاستجاده • على ان الفرنج لايفون • وعلى عهـــدهم لايقفـــون • فاعقد الهدنة لجماعتهم لينحلوا ويتفرقوا • وقد شقوا بمـــا لقـــوا • ومايقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة ، ويســـتقل بـــالملازمة . وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي • واجـــاب الى مـــا اقتضي . وكانت قد بقيت بين العســـكرين منزلة واحـــدة • والعجـــاجات على الطلائع متعاقدة • فلو رحلنا رحلناهـــم • وعلى الهلك احللناهـــم • لكن مراد الله غلب • واجيب ملك الانكتير من الصلح الى مـــاطلب • فحضرت لانشاء عقد الهدنة وكنت نســـختها ، وعينت مـــدتها وبينت

قضيتها ، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لاول ايلول لمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر ، وحسبوا ان وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر ، وتتصل امدادهم على الحشد والحشر ، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر والبدو والحضر . وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور . وابدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور . وادخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية . والاعمال الدانية والنائية .

فصل من كتاب الى الديوان العزيز في شرح نوبة يافا ثم افضاء الامر الى عقد الهدنة

قد سبقت مطالعة الخادم بانهاء حاله . وماهو لايزال مستمرا عليه من جهاد العود وقتاله . وماكان عليه الكفر من الجمع الملتهم والجمر الملتهب . والحشر والحشد المضطرم المضطرب . وانهم قد اجتمعوا على قصد البيت المقدس . وعزموا على بذل المصونين من النفائس والانفس . وسلكوا في القصد كل طريق . وتوافوا وتوافدوا من كل فج عميق . وبذوا على ظن ان جني الفتح لهم دان ، وان شبا الحتف عنهم وان . ولما قربوا عرفوا ان المرمى بعيد المرام . وانهم لايستطيعون مقاومة عسكر الاسلام . فنكصوا على اعقابهم . ونكسوا ماضربوه من ارائهم وارابهم . وعلموا عقبى ماجهلوه . وقطعوا من اسباب العزم ماوصلوه . ونكثوا من عقد القصد ماابرموه . وشرعوا في أمر آخر توهموه • ومضوا واستأنفوا الاستعداد . واستنهضوا الامداد ، وحصنوا بلادهم . وجمعوا فيها طرافهم وتلادهم . وشحنوا عسقلان ويافا بالقوة الجامعة . والعدة النافعة . والشوكة الرادعة . والشكة القاطعة . واستظهروا فيها بكل ماقدروا عليه من المنعة الحاميه . ورجال الصبر على النار الحامية • ثم ساروا بحشودهم المجموعة وجموعهم المحشودة .

وظلال الضلال الممدودة وصلال الصلادم المقودة . مستمطري شآبيب الانابيب . مستذفري سراحين السراحيب ، وتوجهوا على سمت ثغر بيروت بنية العصر . وغفلوا عما اجراه . الله لاوليائه على أعدائه من عوائد النصر . ولما نمى خبرهم . وطار شررهم . وخيف ضررهم . أنهض الخادم العساكر المنصورة إلى مقابلتهم . ومباراتهم ومقاتلتهم . ونزل في مماليكه وخواصه . ورجال الاقدام ذوي استخلاصه . على مدينة يافا فأخذها بالسيف عنوة . وجب بها من سنام الكفر ذروة . وحل منه بغزوته اليها عروة . واستكمل للاسلام . بتملكها حظوة . وقتل كل من حوته وسبى . وناب المشركين بما بنى مجده ومضى حده فيه وما نبا . وغنم من أموالها المسلمون ما خف وثقل . وأسر من وجد فيها وقتل . ونهب من آلات الحصر ما خرج عن الحصر . وابتذل كل ما صين من الغلال والعدد والمال الدثر النخر . وطلب أهل القلعة الامان من القتل خاصة دون الأسر . وشرطوا أنهم لايمكنون من الدخول اليهم من جاءهم للنجدة من البحر . وأخرجوا على سبيل الرهينة مائة رجل من محتشميهم . وكنودهم ومقدميهم . مثل البطرك الكبير والقسطلان والمرشان ومن يجرى مجراهم من الفرسان . فلما أصبحوا جاءهم ملكهم في البحر فغدروا . وامتنعوا بعد انقيادهم للعجز حين قدروا . وخيم العدو هناك في جموعه . وندب الى عسكره من يأمره برجوعه . ووافت في البر جحافلة حافلة . وتواردت في الاسراع إلى الصريخ ظلمانا جافلة . فاجرى الخادم على الرهائن حكم الاسترقاق . وسيرهم إلى دمشق في أقياد الوثاق . ورجع الى القوم فهزمهم وردهم الى عكا . بعد ما نكى فيهم وأضحك من دمائهم البيض وابكى . وعاد إلى العدو ونزل عليه . وكدر الموارد لديه حين زحف إليه . واجتمعت من أهل الاسلام العساكر . واقسعت على المشركين في المضايقة الدوائر . ورجا المؤمن وخاب الكافر . وجالت بأوجالها الضمائر لما جالت عليهم الضوامر . وعاينوا العذاب الواقع . وعدموا الدافع . وشاهدوا المصارع . فما زالت رسلهم تتردد بالضراعة . وبذل الطاعة . والنزول عن الاشتطاط . والدخول تحت الاشتراط . والغبطة بما هز له الاسلام

عطف الاغتباط . واحتوى عليه بيد الاحتياط . وكانوا لايجابون إلا بالاباء . ولاتلقى رسلهم إلا بتصميم عزم اللقاء . حتى حضر أكابر الدولة وامراؤها . واولياء الطاعة والباؤها . واشاروا بعقد الهدنة . والانتهاز فيها الفرصة الممكنة . واستقرت المهادنة على ما أعزه للاسلام الانوف وأذل من الكفر الرقاب . ورجح وأنجح من أهل الايمان الآراء والآراب . بعد أن نزلوا عن البلاد والمعاقل التي تملكوها . وبعدوا عن الطرق التي سلكوها . وسألوا الامان على الاماني التي استدركوها وما أدركوها . وسلموا عسقلان.وغزة. والداروم.ويبنى. ولد.وتل الصافية . وغير ذلك من الاعمال والاماكن الوافرة الوافية . واقتنعوا بيافا. وعكا. وصور . واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور . ورأوا عزهم في ذلهم . وصونهم في بذلهم . وسلامتهم في سلمهم . وغناهم في عدمهم . ولانوا بعد الاشتداد . ودانوا للانقياد . وهانوا بعد الاعتزاز وهابوا بعد الاغترار . واقروا بعد الانكار لتعود جفونهم الى الغرار . وامورهم الى القرار . وخلوا ديارهم وأخلوها . وما سألوا عن حب الاوطان والاوطار وسلوها . ومدة الهدنة التي اخذوا بها اليد واعطوا اليمين . ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها أول أيلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين . ووضعت الحرب أوزارها . ورحضت بماء السلم أوضارها.واخذت من أهل النار نارها . وقصدت الفرنج من وراء البحر ديارها . ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة . ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة . ويستجدون عزمة العودة . وقد شرع الخادم في تحصين الثغور . وإمرار الامور . وابرام معاقد المعاقل . وإحكام قواعد الحق بتعفية آثار الباطل . وإتمام أسوار القدس وخنادقه . حتى يبقى على الدهر آمنا من طروق العدو وطوارقه . وإعادة الاعمال والاحوال إلى عادة عمارتها . وحلية نضارتها . وإجمام العساكر واراحتها . ليوم تعبها الذي هو عين راحتها . ولقد كان الخادم للسلم متكرها . ولايرى أن يكون كشسيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها . لكنه أجمع من عنده من الامراء وذوي الاراء على ان المصلحة في المصالحة راجحة . وأن صفقه الكفر فيها خاسرة وصفقة الاسلام رابحة .

وان في اطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكونا عاما . وأمنا تاما . وتفريقا لجمع الكفار لشمل النصر عليهم ضاما . فهي سلم أذكى من الحرب فيهم . وانها تقصيهم من هذه الديار بل تنفيهم . والى متى تجتمع هذه الاعداد الهائلة لهؤلاء الاعداء . وتتفق هذه الامداد المتواصلة من أهل النار في الماء . وما صح لهم هذا الجمع على التكسير إلا في خمس سنين . وما وافى اليهم مددهم من الوفه سوى مئتين . وكل ما كان لهم من أموالهم في بلادهم نقلوه وانفقوه . وأيقنوا أن مرامهم صعب وتحققوه . فمتى انفضوا انقضوا . وقد آن ان يرفضوا ويرفضوا . وإلى أن يتفق مثل هذه الجموع . ويعزم ذاهبهم على الرجوع . يكون الاسلام قد استظهر بقوته . واستكثر من نجدته ومن جدته ، فرأى موافقة الاجماع . وقبل مناصحة الاشياع . وتفرق جمع الكفر وباخ جمره . وأمن نكره ومكره . وانشرح صدر الاسلام وتضوع نشره . وتوضح بسنى النصر فجره .

ذكر ما جرى بعد الصلح

عاد السلطان الى القدس وعادت عادة سعادته . واشتغل باتمام السور والخندق وتكميل عمارته . وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة . فجاؤوا ووجدوا الامن والسلامة . وزاروا ورازوا . ولما عجزوا أن يحتازوا سألوا ان يجتازوا . ففسح لفريق من بعد فريق . وتوافوا في طريق وراء طريق وقالوا إنما كنا نقاتل على هذا الذي وجدناه مع الصلح.ومازلنا سائرين في ليل القصد حتى وصلنا إلى الصبح . وكان ملك الانكتير راسل السلطان وسأل منع الزيارة الا لمن وصل معه كتابه أو رسوله . ورغب في أن يجاب سؤاله في ذلك ويصاب سوله . فقيل مقصوده انهم يرجعون إلى بلادهم على حسرة الزيارة . فيبقون على الاستنفار والاستثاره . ومن زار برد قلبه . وتنفس كربه . ولم يبق له في مشقة العود أرب . ولم يتصل له لهذه الديار سبب . فكان الامر كما حسب فاعتذر إليه في الجواب الذي

كتب . وقيل له أنت أولى بمنعهم . وردهم بردعهم . فانهم يصـــلون إلينا وافدين . ولزيارة الكنيسة قاصدين . وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود . ولانبلغ من يقصدنا المقصود . ومرض ملك الانكتير مرضا الهاه عما اشهاه . ولم يبلغ في هذا الغرض إلى منهاه . وركب البحر واقلع . وعجل في مفارقته وأسرع . وسلم الامر الى من يليه . وهـو الكند هري ابن أخته من أمه . وهو ابن اخت ملك أفرنسيس من أبيه وتبعه فرنج الجزائر . ولم يقف الاول على الاخر .

ذكر ما عزم عليه السلطان

عزم على الحج وصمم . وكتب الى مصر واليمن بما عليه عزم . وأمر بأن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه مـن الازواد والنفقـات . والثياب والكسوات . فقيل له لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمتـه بحجك وعرفته بنهجك . حتى لايظن بك أمر انت منه بريء ويعلم ان قصدك في المضي مضيء . والوقت قد ضاق ويبلغ الخبر الافـاق . ثـم هذه البلاد اذا تركتها على ما بها من الشعث . لم تبرم مـرر حبلهـا المنتكث . وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهـم الامـور . ولايغير بعقد الهدنة . فان القوم على ترقب المكنة . والغدر دابهـم . ومليء البغي إهابهم . فمازال الجماعة بالسلطان حتـى حلوا مـن العزم ما عقده . واطفأوا من نار جده فيه ماأوقده . فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته . وتهـذيب عمله ومعـاملته . وكان الوالي بالقدس حسام الدين سياروخ . وهـو تـركي يقتـدى بـه في زهادته وحســن سـيرته الشـيوخ . وكان فيه دين ولين . وحبله في الخير متين . ولم يزل مستوفيا لحق الامانة . مستعفيا مـن الولاية لطلب الصيانة . فانصرف حميدا أثره . كريما مورده ومصـدره . وفوض السلطان ولاية القدس الى عز الدين جرديك . وقال تهديك في الامور يغنيك عن ان نهديك . وإنما اعتمدنا عليك لاجتمـاع خـلال الكفاية والشهامة والديانة فيك . فتـول آخـذا بـالحزم في تثبتــك

وتأنيك . وتـرويك وتـأتيك . وولى علم الدين قيصر اعمـال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، فخرج اليها وتولاها . وأمـر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين . واعانة المقـطعين ، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر الى أعمال عسقلان . ليعيد إليها الزراعة والعمران . وسأل الصوفية عن أحوالهم وأذن سؤاله عنها بـاجابة سؤلهم وسولهم . فانه كان وقف دار البطرك مجـاورة قمـامة لهـم رباطا . وجعل لهم كل يوم فيه سماطا . وزاد في الوقوف . وحـكمهم في الانفاق بالمعروف . وكان قد جعـل كنيسـة صـندحنا عند بـاب الاسباط للفقهاء الشـافعية مـدرسة . وردهـا بنية على التقـوى مؤسسة . وزاد في أوقافها . ووفر مواد تلادها وطرافها . وأمر بان تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمـامة بيمـار سـتانا للمرضى . واتخذ فيها بيوتا فيها حاجات أصحاب الامـراض على اختلافها تقضى ، ووقف مواضع عليها . وسير ادوية وعقاقير عزيزة الوجود اليها . وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف الى القـاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم . وعول منه على أمين كريم .

ذكر خروج السـلطان على عزم دمشـق مـن القـدس وعبوره على الحصون

خرج السلطان من القدس ضحوة الخميس خامس شوال . وقد دبـر الاحوال . وأقام بعدله الاعتـدال . وأفـاض الفضـل والافضـال . وجاوز ناحية البيرة . وقد جلا جلاله سني راياته المنيرة . وبات على بركه الداوية . بـالهمة الروية والعـزمة القـوية . ونزل على نابلس ضحوة يوم الجمعة . وجمع شتات مصـالحها المتـوزعة . وكثـرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها . وانه قد طرق الرنق الى مشاربها . وزاد في رسومها ونوائبها . فاقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مـظالمها . واضـحك بـالعدل والاحسـان مباسمها . واسقط رسومها الجائرة . وأمـات سـننها الضـائرة .

واصفى بهـا شرعة الشريعـة . واضـفى ظـلال الرعاية الرعية في مراعيها المريعة . ورحلنا بعد الظهر . وبتنا ليلة الاحد عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بـالفريديسة . ورتعنا في مـروجها الانيسـة . واصـبحنا راجلين . ونزلنا ضـحوة على جيشن . وهناك ودعنا المشطوب وداع الابد . فانه انتقـل بعـد ايام الى رحمـة الواحـد الصمد . وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال . ورحلنا يوم الاثنين وجـئنا ضـحوة الى بيسـان . وازال حاول السلطان عنها البؤس واشـاع الاحسـان . وصـعد إلى قلعتهـا المهجورة الخالية . فابصر قللها العالية . وقال هذه اذا عمرت دامت في حضانة الحصانة . وكان جبلهـا لوثـوقه مسـتودع الامـانة . والصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب . ولم يزل حتـى بين كيفية بنائها ورتب . ووعد باحكامها ، وإعلاء اعلامها ، ثم ظهـر ظهـرا وبات على قلعة كوكب . وشاهدها وصعد نظر رأيه فيهـا وصـوب . ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بظاهر طبرية وقت العشاء . وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خـرج مـن الاسر . وتلقيناه بـالبشر والبر . واقمنا بها يوم الاربعاء لتـوافر الانداء . وتـواتر الانواء . ورحلنا بكرة الخميس ونزلنا بقرب قلعة صفد تحت الجبل . وصـعد السلطان اليها وامر بتسديد ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحبش . وهـي عامرة محتوية على سكانها . كأنهـا العش ، وسرنا منهـا وخيمنا على مرج تبنين . وبتنا باحوال قلعتها معتنين . واصـبح السـلطان حوالي حيطانها باحوالها محيطا . ممتطيا قـلة قلعتها ولاسـباب اختلالها مميطا . ووصى الوالي بعمارتها وجعل مصـالحها بـكفايته منوطة . وسدادها بسداده منوطا . ثم رحلنا بكرة السـبت وجـزنا على قلعة هـونين . ونزلنا مـن الجبـل . وبتنا على عين الذهـب واجتمعنا بالثقل . ورحلنا يوم الاحد وخيمنا بمـرج عيون . وجلس السلطان على عادتـه معنا في تـدبير الممـالك تلك الليلة وسـهرت العيون . ورحلنا عصر يوم الاثنين ووصلنا السير بالسرى . وقطعنا في الطريق الوعر الوهاد والذرا . وعبرنا بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى . وعرسنا على مـرج تلفياثـا

مقابل مرج القنعبة . ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة . ثم اصبحنا يوم الثلاثاء على الرحيل الى البقاع من تلفياثا فخيمنا على جسر كامد . والسلطان مشغول في طريقه من تقرير العمارات وتحرير سنن الحسنات باقتناء المحامد . ثم غدونا يوم الاربعاء وخيمنا بناحية قب الياس وقد اصحرنا الى الفضاء . وأقمنا ذلك النهار راتعين نت الفواضل السلطانية في النعماء . ولما جن الليل جمعتنا بالخضرة السلطانية الانوار . وسرت اسماعنا منه اسماء رجال الفضل والكرم وسنتهم لا الأسعار ، ودخل السلطان يوم الخميس الى بيروت ، وانجز بالوصول اليها وعدة الموقوت ، ونزلت الاثقال على مرح قلميطية بسالبقاع ، وأقامت خمسة أيام على الاستراحة والايداع .

ذكر وصول السلطان الى بيروت ودخول بيمند الابرنس صاحب أنطاكية عليه والاستجارة به وذكر سامة

ولما وصل السلطان الى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة ، بكل ما توفرت به الكرامة ، واستقبل الأصحاب بصدر رحيب وظل خصيب ، وسماحة اريب وسجاحة لبيب ، وفتحت الأهراء على غلاء الغلات بالثغر ورفع اغلاقها ، وسبلها وما قيد اطلاقها وقرى واضاف ، وادنى القطاف ، واصفى العطاف ، وتلطف في الهدايا وأهدى الألطاف ، وفرق على الصغير والكبير التحف ، واحضر للسلطان ولكل من معه الطرف ، واغنى واقنى ، واعدم في الجود الموجود واغنى ، واعطى الخيل والمماليك والجواري والملابس ، وبذل الذفائس ، وزف على اكفاء المحامد من ابكار المناقب العرائس ، واظهر في مكان الشدة الرخاء ، وفي مظنة الضن السخاء ، واهب في اعصار الاعسار لرجال الرجاء من سماء السماح الرخاء ، واحضر كل ما عنده مما كسبه في الغنيمة ، جريا

على كرم الشـــيمه ، ومـــن الجـــوخ الافـــرنجية والثياب البندقية ، والهنايات الفضـــية والاكواب اللجينية ، والسروج واللجـــم ، والاكســية والحـــزم ، والهـــاميز والملاليط والغفافير ، والعروض والدراهـم والدنانير ، ففـرق مـن ذلك مـا جمعه * ورفع الى كل منه ما اسمى قدره ورفعه . وما انفصـل عنه الاكل مواصل بشكره ، مسـاجل امثـاله بـذكره ، مضـوع كل ناد الكرام بذشره ، وقام بالسلطان وبكل من صحبه مدة مقامه ، واعجب واعجز ما صدق باهتمامه .

ذكر وصول الابرنس بيمند ودخوله على السلطان

ولما اراد السلطان عن بيروت الانفصـال ، وذلك في يوم السـبت الحادي والعشرين من شوال ، قيل له إن الابـرنس الأنطـاكي قـد وصل الى الخدمة ، مستمسكا بحمـل العصـمه . داخـلا حـكم الذمه . فثنى عنانه ونزل واقام ومـا ارتحـل ، واذن للابـرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بـالمثول ، وقـربه وآنسـه ، ورفـع مجلسه ، واظهر له البشاشة والهشاشة ، وسـكن مـن روع روعه الحشاشة ، وكان معه مـن مقـدمي فـرسانه اربعـة عشر بارونيا ، ووهب كلا منهـم تشريفـا سريا ، وأجـزل له ولهـم العطاء ، وابدى بهم الاعتناء،وكتب له من مناصفات انطاكية معيشة بمبلغ عشرين الف دينار ، وخص اصـحابه بمبـار ، واعجبـه استرساله اليه ودخوله عليه بغير امان ، فـلا جـرم تلقـاه بـكل احسان ، وودعه يوم الأحد وفارقه ، ووافـق مـراد السـلطان انه بمراده وافقـه ، وانصرف المذكور مسرورا ، بين اسرتـه مذكورا ، محبوا بالمنح والمنن محبورا .

ذكر وصول السلطان الى دمشق

لما خرج السلطان مـن بيروت يوم الأحـد بـات بـالمخيم على البقاع ، واحضرنا تلك الليلة في نادي فضله للمـؤانسة والامتـاع ٠ وتجاذبنا اطراف الآراء ، وهززنا منه اعطـاف الآلاء ، واسـتدنينا قطاف النعماء ، وقد قرب الدخول الى البلد ، والوصول الى الأهـل والولد ، وكل يقترح مقصودا ويقصد اقتـراحا ويظهـر الى سـكنه ومسكنه ارتياحا والتياحا . فرحلنا يوم الاثنين وعبـرنا عين الجـر وبتنا على مرج يبـوس ،،وقـد شرح الله الصـدر واطـاب النفوس ، ووصل الينا من اعيان دمشـق مـن سـبق التلقـي والاستقبال ، واظهـروا بقـدومنا أسـباب الاحتفـاء والاحتفال ، وجاءتنا فواكه دمشق واطايبها ، واغتصت بالواصلين الينا مسـالكها ومـذاهبها ، ورحلنا يوم الثـلاثاء وبتنا بالعرادة ، وجـرى التلقـون في التحفـي بـالتحف على العادة ، واصبحنا يوم الأربعاء ودخلنا الى دمشـق وقـد اخـرجت اثقالها ، وابرزت نساءها ورجالها ، وكان يوم الزينة ، وخـرج كل من بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، واشاعوا اسـتبشارا وفـرحا وكانت غيبة السلطان عن دمشـق اربـع سـنين في الجهـاد طالت ، فاهتزت بقدومه واختالت وقرت بفضائله الأعين ، واقـرت بفـواضله الألسـن ، وذاعت اسرار السرور ، ورقـت حبـرات الحبـور ، وطـابت الأنفس ، وغابـت الأبـؤس ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم ، وافتـرت المبـاسم وهنيت بمـوسمه المواسم ، وتهوديت التهاني ، وهديت الأماني ، وغنت المغاني ولذت المجاني ، وسـفرت المجـالي ، وظفـرت المعـالي ، وتحلت الأحـوال ، وتملت الآمـال ، وراج الرجـاء ، وارجـت الأرجاء ، وفاض الجود ٠ واستفاضت السعود ٠ وعم العدل ٠ وتم الفضـل ٠ واشرقـت الافـاق ٠ وآفـاق الاشراق ، وكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء .وحـل في القلعـة حلول الشـمس في برجها ، وقد جلت اوجه السعود بأوجها ، واخذت بحار سـماحه في

موجها ، وسلكت المناجح في نهجها ، وجاءت المنائح في فجها بفوجها ، وصفت شرعة الشرع لواردها ، وضفت حلة الكرامة على وافدها ، وفتحت مرتجات ابواب الآلاء لمرتجيها ، واستجدت عادات انجاز عدات الجوائز لمستجديها ، ويسر اليسار لاسعاف العافي ، وتمت على السن الأنام اوصاف الصافي ، وجلس السلطان في دار العدل فأعدى المستعدي ، ولبى المستدعي ، وأجاب واجار ، وأنال وانار ، وجاد واجاد ، وبدأ واعاد ، وفي هذا الشهر خلص بهاء الدين قراقوش من الأسر ، واجتمع بنا يوم وصلنا الى طبرية ، ولقي من السلطان الالطاف الخفية ، ووصل معه الى دمشق واقام الى ان خلص اصحابه من الاسر ، وتوجه الى مصر ، وقد صان نفسه ببذل ماله ، واخرج ثروته ودخل في اقلاله ، وخرجت السنة والسلطان في اسنى سنانه ، وابهى جلاله وأجلى بهائه ، والناس راتعون في رياض نعمائه ورسل الممالك الغربية والشرقية عنده يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وافتراره ، والتهاب زهر ازهاره ، وانتهاب سرح سلاح اسحاره ، وانتباه عيون بهاره ، واندلاق غرار عراره وائتلاق انواء انواره ، وانطباق نواظر ثماره ، واصطفاف اوراق اشجاره ، وانفتاق كمامه واتساق نظامه . وانتثار منظومه . وانتظام منثوره ، وانفجار صبح اسفاره ، وانفراج وجه سفوره ، واجتماع لفيف اعشابه ، واستماع حفيف اقصابه ، والتماع بريق سحابه واتساع طريق صحابه ، وانشقاق شقائقه ، وانعقاق عقائقه ، واشتمال شمائله ، واقتبال قبائله ، وتأرج صبا صباحه ، وتبلج صبا صبابه ، وتورد وجنات جناته ، وتوقد جمرات ثمراته ، وتنسم ضمير ضميراته ، وتصور خدود تفاحه ، وتدور نهود رمانه ، واخضرار آس عذاره ، واحمرار خد جلناره ، وتشنف اقطار النادي اقراط قطار الندى ، وتفوف حافات الوادي بالوشي الوشيع من حول الرباب حول الربا ، فإذا طاب النسيم ونسم الطيب ، ودعا البلبل ولبى العندليب ، وتعطر عبير الربيع وتصور الشقيق كأنه تخمر من عجين النجيع ، ووافق

مراد المرعي من المراد المريع ، وحلا الجني الجيني . وحلي النضير النضاري ، وبقل العذار البنفسجي . واشتعل الخد الجلناري الناري ، ونجم في الروض النجم السمائي المائي ، وابتسم الثغر الاقاحي ، وتنسم الضوع الصباحي ، وتحرك العرف السحري الشجري ، وتأرج النشر الروضي ، وتبلج البشر الوضي ، وانتشى النشأ الشكالي الشمولي . وانتعشت عاثرات اعشاب الشعاب ، وقابلت القبول خطبة الفضل بفضل الخطاب ، وصبت، الصبا في محل خطيئة المحل بصوب الصواب ، فحينئذ آل جماح الاصحاب الى الاصحاب ، وصرفت اشاجيع الشجعان وايمان أهل الأيمان كل مواج العنان رواج السنان ، ونزعت النزائع الى الحلاب ، ورشفت القواطع بشفاه ضرب الضراب ، واجتمعت العساكر وعسكرت الجموع ، وسرت الطلائع وسر الطاوع ، ونهض اهل الجد وجد النهوض ، وفاضت المنابع ونبعت الفيوض ، وضرب السرادق السلطاني حيث النصر ينزل ، والسعد يقبل ، واليمن يشمل ، والنجح يسهل ، والظفر يمثل ، والأمر يمتثل ، والجد يسمن . والهزل يهزل ، والعزم يولي،والوني يعزل ، ويعم العدل مع اعتدال الزمان كل مكان ، ولا يتنفس الا بحديث الطاعة من يحدث نفسه بعصيان ، واقمنا على هذا العزم الى آخر السنة ، والاجفان مغضوضة على طيب السنه ، وظل البرد الشديد مديد ، والجلد واه والهواء جليد ، وحد الشتاء في التشتيت حديد . والجبال قد اشتعلت رؤوسها شيبا ، والثلوج قد زرت على اعناق اطوادها جيبا ، والجوفي نظم ونثر ، والثرى من التراث مثر ، والهتون ناكب ناكت ، والهتوف ساكن ساكت ، والمزن مزين ، والحزن حزين ، وللسماء سماط ، وللنشاص نشاط ، وللسحاب حساب ، وللبرق والرعد انتحاء وانتحاب ، وللبرد من ثلجه برد . وللمطر في نهجه طرد ، وللغيث عيث ، وللوحل ريث ، وكانون قد اكن الربا • وشباط قد شب الشبا . والنار محبوبة مشبوبه ، وحدود الذكب مذروبه ، وخدود الترب مضروبه ، والسلطان مشغول بالصيد والقنص ، منتهز في العمر للفرص ، مبتز بالبزاة والصقور ، حشاشات الوحوش

والطيور ، بكل جار جارح ، وطائر طارح ، يدني اجل الحجل وحمام الحمام ، كأنه غريم لها لاهي الغرام ، وكل شهم ينقض انقضاض السهم ، ويبط بطن البط بالحزم ، واكثر الجلوس بدمشق في دار العدل ، واغزر لمنتجعيه در الفضل . وحكم وقضى ، واسخط بالحق وارضى ، ووقف وامضى ، وما منع بل اعطى ، واصاب وما اخطا ، وجاد واجاد ، وابدى واعاد ، ووا وفد وافاد ، واحسن وزاد ، واغنى واقنى واجدى واسدى ، وأولى وولى ، وأجار واجاز ، وحاز وفاز ، وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وتكلموا عنده في المسائل الشرعية ، وظفروا من جوده بالوسائل المرعية ، وماكان احسن الى الحق اصغاءه ، وأسرع للباطل إلفاءه • ولكل ذي فضل منه حظ • ولكل ذي حفظ منه حفظ • ولكل محروم منه رزق ، ولكل مرزوق الى حمده سبق ، ولكل فهم عنده سوق ، ولكل سهم عنده فوق ، ولكل أدب لديه داب ، ولكل عاتب عدم من جوده أعتاب ، ولكل مكرمة عنده باب ، ولكل دعوة عاف من اسعافه جواب ، ولكل مستجد اجداء ، ولكل مستهد اهداء ، ولكل سائل نائل ، ولكل ماحل وابل ، ولكل ظام ري ، ولكل حائم ورد هني ، فما اسح مزنه ، وماأصح وزنه ، وماأسمح يده ، وماأوضح جدده ، وماأعلى جده، وماأجد علاه ، وماأجدى كفه وماأكفى جداه ، وماأكثر حياءه واغزر حياه ، وأرج رباه، وأبلج محياه .

وممن توفي في هذه السنة من الملوك سلطان الروم قليج ارسلان بن مسعود بن قليج ارسلان ، وكانت وفاته يوم الخميس منتصف شعبان .

كان له عشرة من البنين فولى كلا منهم اقليما ، وقصد به لمناد امر ذلك الجانب تقويما ، فقوي كل منهم في ثغره ، واستقل بأمره ، ودب في طبعه حب الاستيلاء والاستبداد ، ومد عينه الى مافي يد صاحبه من البلاد ، وكان اكبر بنيه قطب الدين ملكشاه قد استحكمت قواه . واستطال هواه ، وهو حينئذ متولي سيواس ، فأطاع في التماك على ابيه ملكه الوسواس ، وسعى الى

أن أبعد من عند والده اختيار الدين حسن بن غفـراس ، وصـور له انه يريد ان يستولي على الملك ، وينفرد بـانتهاج المسـالك وانتـظام السلك ، وساعده صاحب ارزنكان وأمـن اختيار الدين الى المذكور واختاره ، واستأذن السلطان ان يقصد دياره ، ويقيم عنده الى أن يصلح أمره مع أولاده ، ويأذن له في العود الى بلاده ، فـاستصحبه صاحب ارزنكان ، وأوقع عليه في الطـريق التـركمان ، فقتلوه شر قتله ، ومثلوا به وبولده مثله ، فلمـا عرف ملكشـاه أن وجـه والده خلا ، وأنه عن حسن بـن غفـراس سـلا ، سـاق اليه ، وأخنى عليه ، ودخل قونية دار مملكته ، واستبد بحـوز حـوزته ، وقـوي بعـزته ، وعز بقـوته ، وقـال لوالده انا بين يديك ، واشـفق عليك ، وانفذ اوامرك ، وأوفـر مآثـرك ، وقتـل أمـراء كانوا لأبيه ، وألزم خدمته من لايشتهيه ، فبقي معه كالمعتقل ، يظن حاليا وهو في العطل ، واستكتبه أنه ولي عهده ، والقائم بـالسلطنة معـه ومن بعده ، وتصرف في خزانته وملك أقسرا ، وفرع وفرى ، وقـرع وقرا ، وقـطع وبـرى ، وقـد مضى حـديث ملك الألمان ، في ذلك الأوان ، وكيف وصل وعبر الى الشام ، وكيف قوي بهـم في وهـن الاسلام ، واسـتصحب معـه والده الى قيسـارية ولقسر اخيه نور الدين سـلطانشاه وحصره ، واظهـر انه بـأمر والده وأنه شـاد ظهره . وخرج عسـكر البلد وصـف ، ووقـف وكف ، ورأى قليج ارسلان ، أن ولده عنه مشغول ، وان عقد حراسته له محلول فخرج من الصف مفارقا للولد ، وانفصـل ملكشـاه الى قـونية وملك تلك الأمكنة ، وقد استبد بـالسلطنة ، وبقـي قليج ارسـلان يتـردد في بلاده ، وفي ضيافه أولاده ، وينتقل مـن بلد الى بلد ، ومـن ولد الى ولد ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صـاحب بـرغلو فقـواه وأزره وضـافره وظاهره ، وجمع وحشد له وأخذ له وما خذله.وجـاء بـه الى قـونية فدخلها ، وحلى به عطلها وخرج ليأخذ أقسرا فتعذرت وتمنعت عليه وتعسرت ، واسترغب الأوجيه ، وجمع العسكرية ، فمرض فجـاء به وقد توفي الى قونية في محفه ، ونزل يمشي قدامها ويظهر انه مـن المرض الثقيل في خفة ، حتـى دخـل المدينة وقلعتهـا ، واجتـازها

واجتاز مملكتها ، واستدعى الاعيان ، فاستحلفهم ، واستمالهم وتألفهم ، ثم اظهر لهم وفاة ابيه وأنه وارث ملكه ومتوليه ، وقوي على قطب الدين ملكشاه اخيه .

وتوفي في هذه السنة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش وكان من اهل الفضل ، والرياسة والنبل ، وهو قاضي العسكر الحاكم المحكم ، والكريم المكرم ، والسلطان يعول عليه في المهام ، وفي الامور العظام ، ويؤهله للرسائل وأخذ المواثيق والعهود ، وتولي الولايات والعقود ، ولما أخذ شهرزور سلمها اليه ، وعول فيها عليه ، ومابرح بها حتى انعم بها على صاحب اربل مظفر الدين فعاد القاضي شمس الدين فأرسله السلطان الى قليج ارسلان وأولاده ، ليصلح بينهم ويعيد امرهم الى سداده ، فتردد بينهم سنه . ولم تزل مساعيه مستنجحة مستحسنة . وعاد ووصل الى ملطية ، وقد استكمل من عمره الله العطية ، وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من السنة ، وانتقل الى الله بأعماله الحسنة .

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان مقيم بدمشق في داره ، وممالك الآفاق في انتظاره ، والايام مشرقة بمطالع أنواره ، والليالي مترقبة صباحها لاسفارة ، ورسل الامصار مجتمعون على بابه ، منتظرون لجوابه ، والوافدون قاطفوا جني جنانه . والضيوف في فيوض انعامه عائمون . وبفروض حقوقه قائمون ، والفقراء في رياض صدقاته راتعون ، وفي كلاء كلاءته راعون وادعون ، ودار العدل بالفضل داره ، واسرار المنى بالمنائح ساره ، والسلطان يجلس في كل يوم وليله لاسداء الجود وابداء السعود ، وبث المكارم وكشف المظالم وتنفيذ المراسم وامضاء العزائم ، وتشييد الدعائم وتقرير العظائم ، والاهتمام بمصالح الاسلام ، ومناجح الانام ، والاغتنام للمسلمين بما يتم في بلادهم من الخطوب ، ويتم من الكروب ، وبمجالسة العلماء ومساجلة

الفضـلاء ، ومـوالاة الأولياء ، ومصـافاة الأصـفياء ، واعداء الملهوف ، واسداء المعروف ، ومل ملازمة البلد ، وخـرج عن حـكم الجلد ، وبرز الى الصيد شرقـي دمشـق بـزاد خمسـة عشر يوما ، وأوسع من لم يوافقه على الخروج لوما ، واستصحب معـه أخاه العادل وأبعدوا في البرية ، وظهروا عن ضمير ضمير الى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ووافـق مـراده القنص ، ثـم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ، ووجه بشره قد سفر ، ووافـق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقـي ، وسـعاداته في التـرقي ، ولما لقـي الحجاج استعبرت عيناه ، وكيف فاته من الحج ماتمناه ، وسـألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها ، وخصبها ومحلها ، وكم وصـلهم من غلات مصر وصدقاتها ، وعن المجـاورين والفقـراء ورواتبهـا وادراراتها ، وسر بسلامة الحاج ، ووضوح ذلك المنهاج ، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام ، فتلقاه بـالاكرام وأنزله في كنف الاهتمام ،

ذكر وفاة السلطان رحمه الله بدمشق

جلس ليلة السبت سادس عشر صـفر في مجلس عادتـه ، ومجلى سعادته ، ونحن عنده في أتم اغتباط ، وأتم نشاط ، حتى مضى من الليل ثلثه ، وهو يحدثنا ونحن نحـدثه ، ثـم صـلى بـه وبنا إمامه ، وحان قيامه ، وانفصلنا باحسانه مغتبـطين ، وبـامتنانه مرتبطين ، واصـبحنا يوم السـبت وجلسـنا في الايوان ، ننتـظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام ، وأمر الملك الافضـل ان يجلس موضعه على الطعـام ، فجـاء وتصـدر وتـربع في دسته ، وجلس بسمته وسمته ، وتطيرنا من ذلك الحال وتفالنا بعد ذلك الفـال ، ودخلنا اليه ليلة الاحـد للعياده ، ومـرضه في الزيادة ، وتوفي بـكرة الأربعـاء السـابع والعشرين ، ونقله الله في دسته العالي الى أعلى عليين ، ومات بموته رجاء الرجـال ، وأظلم بغروب شمسه فضـاء الافضـال ، وغاضـت الأيادي ،وفـاضت

الأعادي ، وانقطعت الارزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن وخاب الآمل ، وقنط السائل وشحط النائل ، وطردت الضيوف ، وذكر المعروف ودفن بالقلعة في داره وفجع الزمان بأنواره ، وعدمت الأيام صباحها ، والآمال نجاحها ، ودفن معه الكرم ، وغلب بعد وجوده وجوده العدم والعدم ، وبقيت تلك الأيام لافرق بين الدجى والضحى ، ولاأجد قلبي من سقم الهم وسكره صح ولاصحا ، وحالت حالي وزال ادلالي ، وبطل حقي واتسع خرقي ، وتنازل جاهي ، وتنازق اشباهي واعضلت ادواء الدواهي وبقيت المعارف متنكره والمطالع مكفهرة ، والعيون شاخصة ، والظلال قالصه ، والأيدي يابسه ، والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطري عانسة ، ونجوم قرائحي وشواردها الآنسة خانسة كانسة ، وبقي باب كل مرتجي مرتجا ، ومنهج كل معروف منهجا ، وظن الغني عني ، واختلف في ضن الاحلاف بي ظني ، حتى تولى الملك الأفضل بدمشق مقام ابيه ، وقام بالامر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه ، فعرف افتقاره الى معرفتي وفقري ، والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب دري ونضارة حلي دري ، فكتبت له ، وحليت من الملك عطله ، ووشيت الكتب ووشعتها ، وجليت الرتب ووسعتها ، وهززت اليراعة • واغزرت البراعة ، وهجرت الجماعة ، ولزمت القناعة .

ذكر الملوك من أولاد السلطان وذويه بعده

خلف السلطان صلاح الدين رحمه الله سبعة عشر ولدأ ذكرا وابنة صغيرة ، وابقى له مآثر اثيرة ومحاسن كثيرة ، ولم يخلف في خزانته سوى دينارا واحدا وستة وثلاثين درهما ، فانه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما ، وكان يجود بالمال قبل الحصول ، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول ، فاذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وخص

الآحاد من ذوي الغناء في الجهاد بآلافه ، ولاجبه أحد بالرد اذا سأله ، بل يلطف له كأنه استمهله فانه يقول ماعندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطي وان كان يبطي . وإنه يصيبه بالنوال ولايخطي ، وكان ولي مجده بالشام الملك الافضل نور الدين علي ، وأنه كاسمه سام علي ، ونور فضله كسمته جلي ، وهو الذي حضر وفاته ، وفاز بملكه فما يقال حضر وفاته ، وقام بسنة العزاء ، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وادناء الأولياء ، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء ، وكان بالباب رسل ووفود وملوك ، ورجال لهم في مسالك الرجاء سلوك ، فخابوا وغابوا ، وذهبوا وما آبوا .

ذكر من تولى ممالكه بعده من اهله

تولى ولده الملك العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها . وابقاها على اعتدالها ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها . وأحيا سنتي الجود والباس . وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس . واطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة . وضاعف ما كان يطلق برسم العفاة . وجاد واجاد وابدى الكرم واعاد وبسط وقبض . وأبرم ونقض . وحل وعقد ، وبر وافتقد . ووضع ورفع ومنح ومنع . وابصر وسمع وضر ونفع . وقطع واقطع . واصل وفرع . ووعد وانجز . وأوعز بغنى من اعوز . وبرز وأبرز . وجاهد وجهز . وعرض الكتائب . وفرض المواهب . واجرى الصدقات . وتصدق بالجرايات . وادر وادار . واجاز واجار . وأغنى وأسعد . وأدنى وابعد . وقدم امر بيت الله المقدس . واعتمد في اعتماد الاشوس الأسوس . وعجل له بعشرة آلاف دينار مصرية . لتصرف في وجوه ضرورية . ثم امده بالحمل . وأفاض عليه من الفضل . وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته . وقوى يده برعايته ووالى حمل الغلات من مصر الى القدس وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس . وجلس في دار العدل

فقصل ووصل . وأحسن وعدل .وقضى وحكم . وامضى واحكم .
واحضر ذواب ديوانه في ايوانه . واستعرض منهم قوانين سلطانه .
واستقرى الضياع والاقطاع . وعمم الاصطفاء والاصطناع . وحل
من اقام بالشام . وألزم جند مصر بالخدمة والمقام . وما أبقى إلا ما
في يدي من الضياع . وصان حقوقي من الضياع . وأمر بتخليده .
واجد جدي بتجديده . فجاءني كتابه الكريم بكل كرم مكتوب .
ومحبوبه من الرفد محبوب . ورعى في عهد الوالد . واضاف الطارف
عندي من العرف الى التالد . هذا وأنا غائب . وبرائي رائب .
ولسواء كاتب ونائب . ومااحوجني في النوال الى السؤال . وأغناني
عن الارسال . ولم تفتقر مقاصدي ووسائلي الى تسيير القصائد
والرسائل . وما اغرب بدار فواضله حاول بدار الافاضل . ثم اشفق
من غدر الفرنج في فسخ الهدنة . فاتى من تجهيز العساكر الى البيت
المقدس بكل ما في المكنه . ثم سمع بحركة المواصلة ومن بايعهم .
وتابعهم وشايعهم . قد خرجوا في ايمانهم حانثين . ولعقد ايمانهم
ناكثين . فخيم ببركة الجب . واستشار امراءه . أهل الرأي واللب .
وجهز جيشا جائشا . وبعثنا لعثار الدولة ناعشا . في كل مقدم
مقدام . وهمام همام . وضيغم ضرغام . وقرم قمقام . فوصلوا الى
دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم . وهز منهم اعطاف
الاستكانة له بعد هزمهم . فراى ان الحمد اعود والعود أحمد .
وسيأتي ذكر ذلك في مكانه ، عند ذكر الملك العادل ومارفع الله من
شأنه .

ذكر دمشق وما يجري معها ومن تولاها

وتولى الملك الافضل نور الدين ابو الحسن علي ولد السلطان
دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد ونفذت البلاد أوامره .
ونفدت في الرجال نخائره . ورتب الامور أجمل ترتيب . وهذب
الشؤون اكمل تهذيب . وجلا السرير السلطاني بنوره . واسفر
صباح الاقبال باقبال سفوره . وهدى وهدأ وملا بالبشر المتبلج

والنشر المتأرج الملا . وهذب وانهب . ورغب وارهب . ورتب وربت واصلى واصلت . وأثر وأرث . ولم الشعث . وابهى وابهج . وأجد المنهج المنهج . ورجح ونجح . ومن وشح ، وارسى وارسخ . وبذ وبذخ . ووعد واوعد . وجدد الجدد . واذاع بحميته سر حمايته واعاذ . ووجد الملاذ من وجد منه الملاذ . وامر وأمر . ونضر ونظر . وعز واعز . وحاز وحز . وساس وراس وملك الباس والناس . واشاع البر واعاش . واشبع الجياع وروى العطاش . واستخلص ذوي الاختصاص . واختص اهل الاخلاص . ونهض واستنهض . وعرض واستعرض . وربط عزمه الرباط واحاط علمه وحاط . وحفظ أولي الحفائظ . ولاحظ العرف وعرف انه لا حظ لغير اللاحظ . وصنع واصطنع . وابدى وابدع . ومد الظل واسبغ . وسوى الفضل وسوغ . واهمى العوارف . وامهى الرواعف . وحقق الحقوق . ورتق الفتوق . وضم الملك ونظم السلك . وجلس في دار العدل ، وأتى بالحكم الفصل ، وحزم وجزم ، وعزم والتزم ، وزاد وزان . وأغاث واعان . وابر ارباب الهوى . وامر من ارباب التقوى القوى . وحمى النابه . ومحا المكاره . وفاض بغزارة العطايا . واستفاض بطهارة السجايا . وآوي اليه اخوته . وضم جماعته . وجهز اخاه الملك الظافر مظفر الدين خضرا . واصحبه عسكرا مجرا . وانهضه لانجاد عمه الملك العادل . فانار في فضاء الفضائل . وسار الى الجحفل الحافل . فالتزم الشروع . وهزم الجموع . وقارع القروم . وكان الهازم والعدو المهزوم .

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها في المملكة الافضلية داخلة . وامداد طاعات الولاة والاولياء بها متواصلة . وصاحب حمص والرحبة الملك المجاهد اسد الدين شيركوه بن محمد ابن شيركوه ابن ابن عم السلطان وهو اثير الشأن اثيل المكان .

فوصل الى دمشق مطيعا . واسر صدقه ونشر صداقته مذيعا مشيعا . فأحلى له الملك الافضل جنى شهياءواحله جنابا وسيعا .

وعقد له حبا الحب ، وحياه بكل ما سفر عن سـفور مـودة القلب . ووفور مواد القرب .

وكذلك وصل صاحب بعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن ايوب طائعا . وللأمر الافضـلي تـابعا . فأدناه واجناه . واحبه وحباه . وأسناه واسـماه . وآواه وآسـاه . فتأكدت بينهم القرابة المتشـجه . وتشـبكت اللحمـة المنتسـجه . وتمهدت الأصرة الممتزجة . وتفتحت أبواب الالفة المرتجه . وتوافوا على التوافق . وتصادقوا على التصـادق . وتعـاضدوا على الأخـذ بالتساعد . وتعاقدوا على ترك التقاعد .

ذكر حلب وما يجري معها

وتولى حلب واعمـالها وحصـونها ومعـاقلها . وكرائم البـلاد وعقائلها . الملك الظاهر غياث الدين ابو الفتح غازي . وهو برجاحته وسماحته الطـود والجـود الموازن الموازي . وتلك مملكة اقـطارها واسعه . وامصارها شاسعة . فحواها وحمـاها . وبمـاء العـدل رواها وقواها . واعز رجال الرجاء . وهز اعطاف العطاء . ورحـب لوراده ورواده رحابه . وسـحب بحيا الاحياء سـحابه . وابـرت مبراته . واثرت مأثراته . وسح وصح غيثـه وغياثه . ورعى رعيتـه فشبعت ورويت ظماؤه وغرائه . وزخرت امواجه . وزهرت بثـواقب المناقب ابراجه . وصابت سماء سماحه . وطابت صـبا صـباحه . وعزت بسيرته كتب التـواريخ . وعزى قلمـه وسـبقه الى عطارد والمريخ . وسعدت وفوده . ووفدت سعوده . وآثر من امره النفـاذ . وكثر بظله اللياذ . وادنى الأبـرار . واقصى الأشرار . وخص الأعزة الخواص . وتمهد لسلطانه الاساس . واطـرد لاحسـانه القياس . ووجد من عثر من ايد يده الانتعاش . وعشـا الى جـدواه المجتـدي وعاش . وفرض القرص . ورفض الرخص . وأدى الفروض . وقضى القروض . واستدنى من المناجح شاحطها . واستدرك من المصـالح

فارطها . وملك خلق التحفظ . وسلك طرق التيقظ . وفرق وجمع . وخرق ورقع . وغلب وبلغ . ودمي اهل الكفر والنفاق ودمغ . وشفى واشتفى . وكفى واكتفى . وراع وراق . وفات وفاق . وطلب وادرك . وأخذ وترك . وفاض بالفضل . وراض بالعدل . وقدم الحزم . وصمم العزم . وأحيا السنن . وأولى المنن . ولها بالجد عن اللهو. وانتهى بالعدو الى اليأس المر وبالولي الى النائل الحلو . وأمر ونهى . وأوهن معاقد ذوي المكايد وأوهى . ووفى للوفي . وصفا الصفي . وأقر البيره واعمالها وما يجري معها على اخيه الملك الزاهر مجير الدين داود . ولم يزل مقبولا امره غير مردود . ودخل في امره صاحب حماه . وأعزه وحماه . وهو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين واتسع الملك واتسق السلك . وكاتب الجوانب وراسل . وفارق من رأى وواصل . وطال باعه . واطاع اشياعه . وهمت همته بالزيادة وسمت اسمت السيادة .

ذكر الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب اخي السلطان وما جرى له بعد وفاة اخيه

كان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته . وكان موافقه ومرافقه في مقتنصاته . فلما عاد السلطان الى دمشق ودعه ومضى الى حصنه بالكرك للاستراحه، غير مطلع في سر الغيب في الاقضية المتاحة . فنابه النائب . ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب . فلما عرف وصل الى دمشق بعد ايام ولم يقم لتنفيس كرب الحادث ولم يحدث نفسه بمقام . ولم يرم ثلاثا ولم يرم لباثا . ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة . حذرا عليها من اهل الجريرة . وكان السلطان جعل له كل ما في شرقي الفرات . من البلاد والولايات . ومضى كما ومض بارق . وتخوف ان يطرق بلده طارق . فلما وصل الى الفرات . وجد مما خافه دلائل الفترات . فأقام بقلعة جعبر . ولم يحشد ولم يستحضر العسكر رغبة في السلم والسلامة . ومحبة للدعة المستدامة . وسير الى الولايات الولاة . ووصى برعاياه الرعاه .

واستناب في: ميافارقين.وحاني.وسميساط.وحران.والرها . وشحنها بالشحن واستقام امرها وحسب ان الاعداء اذا سمعوا بسمعه . جمعوا لجمعه وتدافعوا لدفعه . وسكن وسكت وتبين وتثبت . وعلم العدا أنه في خف فخفوا وعرضوا وصفوا . وما كفاهم ماهم فيه فهموا وماكفوا . وسافوا تراب الطمع واسفوا . فجرت حركتهم وهلكتهم . واذهب الله عند مجيئهم بركتهم .

ذكر اهل الشمات وماقدر الله لجمعهم من الشتات

كان الامير بكتمر صاحب خلاط . قد هجر الاحتياط ووصل النشاط . وضرب البشائر لرزء صلاح الدين . وظهر في النوب الخمس بشعار السلاطين . وتلقب بالملك الناصر . وحدث امله بجر العساكر . وراسل صاحبي الموصل وسنجار . وطير اليهم كتب الاستنفار . وضم اليه من ماردين ، ماردين ، وطار وطاش . وارتاش وانتاش . وخلط من خلاط الاوشاب والاوباش . فبينا هو في اتم غرور . وانم سرور . واحب حبور . واشب سفور . وارقد عين . واغفل قلب . واذهل لب . واطول امل في اقصر امد ، واكثر مدد في اقل مدد . وقد خرج من الحمام . ولم يدر انه داخل الى مغتسل الحمام ، استشهد على ايدي الاسماعيلية . ولعل الله غفر له ونقله بشهادته الى جنته العليه ، وذلك بخلاط يوم الاثنين رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة . وكأن ايامه كانت احلاما رؤيت في السنة . واول بادىء بالخروج متولى ماردين فانه مرد . وحشد المدد ، ونزل على حصن الموزر . بالعزم المزور والجد المزور . وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن اعمال ماردين . حين كان اهله عليه ماردين . فلما صالحهم استبقاه واستثناه . واضافه الى نائبه بالرها واعطاه . ثم تحرك عز الدين اتابك مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل . وخرج في الجحفل الحفل . واضافه اخوه عماد الدين زنكي بنصيبين وخرجوا لنداء اللقاء مجيبين . وقدموا الرسل الى الملك العادل سيف الدين . وقالوا : تخرج من بلادنا .

وتدخل في مرادنا . فكتب الى بني اخيه يستنجدهم ويستنفرهم . ويستصرخهم ويستنصرهم . فانجدوه بالامداد . وامدوه بالانجاد . فجاؤوه من كل فج ووافوه فوجا بعد فوج . وكان انجاد حلب اقرب . ولدر الاسعاف احلب . ولما عرف الملك الافضل اغتنم واهتم . وجمع عسكره وضم . وخص وعم . وكتب الى صاحبي حمص وبعلبك . واستدعى عسكرهما الترك . فسار اخوه الملك الظافر مظفر الدين خضر . وروض عسكره بورق الحديد الاخضر نضر . والملك العادل لقدومه منتظر . واما المواصلة فانهم ماسرعوا بل ابطأوا ، وماصابوا بل أخطأوا . وسمعوا ان الامداد العادلية الوافية متوافيه . وان فئته كافة كافيه مكافيه . فتجذبوا وتجبذوا وكانوا قد وصلوا الى رأس عين فأقاموا وسكنوا . والملك العادل مخيم بظاهر حران في جموعه وجنوده . واعلامه وبنوده . ومساعيه وسعوده . وعزمه على اللقاء مصمم ، وقلبه بحب الظفر متيم وجده غالب . وحده سالب . وجده لظباء النصر جالب . ولطيب الذكر جالب . وسيف سيف الدين باتر واتر . ولحظ الشمس من غبار خيله الساتر فاتر . وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه . ورجال اليزك تتناجى وتتناجه . وكان من قضاء الله المحتوم ، وسر قدره المكتوم . تقليل غروب القوم وتقليلهم . وحار تأملهم وخار تأميلهم . وجفل رألهم ورتع رعيلهم . وذلك بما قدره الله من مرض اتابك صاحب الموصل . ولم يطق الاقامة بالمنزل . واشفى على الخطر . واشرف صفو حياته على الكدر . فعاد الى الموصل في محفه . ورجا ان يتبدل ماالم به من ثقل الم بخفه . وقهقر عماد الدين راجعا ولمن وثق به اشياعه فاجعا . وتضرع صاحب ماردين وتذرع . وتشفع بالامراء والاكابر وخضع . حتى وقع عنه الرضا . وصفح له عما مضى . واجري على القاعدة السلطانية معه . وكان قد ضاق به الفضاء الرحب لولا العفو عنه وما وسعه . ورأى عماد الدين ان القوم خانوا واستكانوا . ومارعوا له العهد كما كانوا . فاضطر الى الانكفاء وكف عن اللقاء . فخلا الجو . وجلا الضو . وعلا الذو . وأتى الملك العادل الخبر بوصول ابن اخيه الملك الظافر الى الفرات . في عسكر دمشق أهل الثبات . فكاتبه بمنازلة سروج وهي من اعمال

عماد الدين . وامده بابن تقي الدين وابن المقدم عز الدين ليث القرين . فنزلوا على سروج يوم السبت ثامن رجب وفتحوها يوم الاحد تاسعة واستولوا على البلد واماكنه ومواضعه . ورحل الملك العادل منتصف رجب الى الرقة وتسلمها في العشرين منه . وكانت اليد البيضاء فيها للملك الظافر على ماذكر عنه . ثم رحل وتملك بلد الخابور جميعه ، وعاد كل من عصاه من مقطعيه مطيعه . وجاء الى نصيبين ونزل بظاهرها . وشرع في ضم ذخائرها . فجاءت الرسل العمادية في طلب الصلح . واسفر ليل الحرب بسنى السلم عن الصبح . ورحل ونزل دارا . وكان صاحبه دار مع القوم ومادارى . فبسط عذره . وقبض ذعره . واتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده من بعده . الى نور الدين رسلان شاه ولده . وجرى بينه وبينهم صلح . وكان له في كل سفرة تجارة وربح . وكتب الينا ان اهل خلاط كاتبوه . وعلى تأخره عنهم عاتبوه . وان كل صاحب حصن قد ضبط موضعه . وانتظر مطلعه . فانه تولاهم بعد بكتمر المعروف بالهزار ديناري . فلم يرضوا بايالته لخلاط ولم يروه كفوا لذلك الهدي . ثم اشرف العادل على خلاط . فوجد اهلها قد كملوا الاحتياط . ورأى ان البرد يشتد . وامد الحصر يمتد . فعاد الى حران والرهاء واعرض عن مخالطة خلاط وتأخر الى الربيع امرها .

فصل في المعنى أنشأته الى الديوان العزيز في اخر رجب عن الملك الافضل

لا شك في احاطة العلم الاشرف بحال الذين الذين حالوا عن الانصاف بالانصاف ومردوا ومروا لخلاف الخلاف . وعادوا عن خلق التلافي الى الاتلاف . وبدوا بالانتظام في سلك الغدر شمل الائتلاف . ونكثوا بعد ايمانهم . حتى قيل كفروا بعد ايمانهم . وباءوا في بغيهم بغيهم . وابدوا قوتهم في وهبهم وعزموا انهم اذا زعموا نالوا فرصة . ووجدوا اذا جدوا في العزيمة رخصة . وجاؤوا

الى البلاد التي للخدم من انعام امير المؤمنين صلوات الله عليه ليتملكوها . واستسهلوا سبل الضلالة بعد الهدى فسلكوها . واغتروا باعتزازهم واعتزوا باغترارهم . واصيبوا اذ لم يصيبوا ببصائرهم وابصارهم . ودخلوا في دائرة السوء وخرجوا من ديارهم . واجتمع صاحب الموصل واخوه صاحب سنجار وصاحب ماردين وحسدوا وحشدوا وماالظن بشر الحاسدين الحاشدين . ووعدهم الشيطان فصدقوا كذب الواعدين ، وكان العم الملك العادل سيف الدين قد توجه الى تلك البلاد ؛ لابقاء امورها على السداد . واثقا منهم بالمواثيق . محتفلا بالوفاق الحافل الافاويق . وهو في خواصه . وذوي استخلاصه . لم ينتظم عسكره ولم ينضم اليه معشره . ولم يصدف لدفع الشوائب وردع الذوائب مورده ومصدره . فلما عرف ذكرهم . وعلم في مكرهم مكرهم . توافت اليه الجموع . وحنت على قلبه الضلوع . وحنت الى اصله الفروع . وتوافد اليه بنو اخيه في الجذود . وتوافوا نجدة ساعدت السعود وامد الاخ الملك الظاهر من حلب بالامداد المتظاهرة . والانصار المتناصرة . وندب الخادم اخاه الظافر خضرا وانهضه . وسار معه عسكره الذي بدمشق عرضه . وسمع الاخ الملك العزيز خبر القوم . وانهم من حول ورد الردى على الحوم . فاخرج المضارب وابرزها . وانفق في العساكر وجهزها . وذكر عدة النجدة فانجزها . واهتبل فرصة الفريضة وانتهزها . واقبل على ذخيرة الفضيلة فاحرزها . وتحركت السواكن . وثارت الكوامن . وهاجت الاقطار . وماجت البحار ، وشابت الاكدار ، واصابت الاقدار . واظهر الله قبل الاجتماع معجز اياته في اهل الشمات . وخص جمعهم بالشتات وحبلهم بالبتات ، وحص من تلك الثبات اجنحة الثبات ، وشغل كل منهم بوباله وباله ، وحطه من بقاع اعتلائه الى حضيض اعتلاله . واعادهم على اعقابهم ناكصين ، وبعقابهم ناكسين ، وفي ارائهم واراءبهم ناقصين واظهر الله في كل واحد من اعداد الاعداء اية للعادة خارقة . وقدرة لاقدار الاولياء السعادة خالقه . وقتلهم وماقاتلوا ، وقابلهم وماقابلوا . و غادر الغادرين عبرة للمعتبرين ، وعظة المتفكرين . وعلم صاحب ماردين انه اخطأ وماأصاب ، فابان عن ندمه واناب ،

وتعرض للعفو عنه وتضرع ، وتشفع بالامراء في امره وتذرع ، فأبديت له صفحة الصفح ، وعادت له بعد عائبة الخسر عائدة الربح ، واجري على القاعدة المستقرة له في عهد الوالد رحمة الله عليه . فرضوا بما فرضوه من الطاعة وثابوا اليه . وكان الاخ الملك الظافر خضر قد وصل الى الفرات . حين حكم الله لجموع اولئك بالشتات ، فعبر الى سروج يوم السبت ثامن رجب . وقلب العدو من الفتح الذي وجب وجب ، وفتحها يوم الاحد ضحوة . وجاءت هذه المنحة من الله حظوه . ورحل الملك العادل بالعساكر الى الرقة لاسترجاع وديعتها المستحقة . وهذه ببركات استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة وبيمن الائتمار بأوامرها . وسفور الوجوه لمواجهة سوافرها . وماالسعادة الا لمن شملته سعودها . وماالجد الا لن وصله جودها ، وماالكرامة الا لمن كرمت عنده بالوفاء عهودها ، ومــاالعصمة الا لمن لزمت في حمده النعماء عقودها .

ذكر سيف الاسلام باليمن

واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن ايوب اخي السلطان ، وهو هناك سلطان عظيم الشأن ، مستول على جميع البلدان . مختص في مكانه بالامكان . وكان قد وصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بايام . فلم يظفر بمرام . ووصل كتابه الى اخيه . وهو غير عالم بتوفيه . فلما استقر الملك الافضل على سرير ابيه كاتب عمه سيف الاسلام بغمه . وهم في كتابه بما كتب الله من همه . والكتاب بانشائي عن الملك الافضل يشتمل على شرح ماالم . وخص به الرزء وعم .

وهذا كتاب يشتمل على سيرته وكتبته جميعه وهو: صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم . والخطب الجسيم . والرزء العميم . والحادث الاليم . والكارث المقعد المقيم . والنائب الباغت . والمصاب الساحت . والفجيعة الفاجية . والنكبة الناكية . والطارقة الطارية .

والملمة المؤلمة والبلية البـارية . والواقعـة الرائعـــة . والصـــدمة الصادعه . والحدثة اللافحه . والروعة الفادحة . والغمة التي غامت بها الايام . وغم لها الانام . واعتل منها الاسلام . واحتل النظام . فقد عدمت المطالع ضياءها . والمشارع صفاءها والثغور ســدادها . والامور سدادها . والعيون قرتها والنفوس قرارها . والقلوب ثباتها والجفون غرارها . والايدي أيدها والوجوه ســفورها . والصــدور انشراحها . والاسرار سرورها . فقد فقدت الدنيا بهجتها . وضـلت العلياء محجتها . واهتـدى الضـلال الى الهـدى . واقــوى نادي الندى . واقفرت مغاني الغنى . واكفهرت مجالي السنى . وأمـرت مجاني المنى . وخفيت مناهــج المناجـح . وعطلت مناهــل المنائح . وعميت مذاهب المواهب .واظلمت مطالع المطالب . وارتجت ابـواب الفتوح . ودجت أضواء الوضوح ودرست معالم المعالي . وطمسـت زواهر الليالي . واضطربت الدهماء . واضــطرمت الدهياء وبـطلت مواسم الحق . وأبهمت مظالم الخلق . وانقطعت مسالك الجهـاد . وتفجعـت ممــالك البـلاد . وأخلفـت عدات الاعداء على الاعداء . وانكسفت أنوار آمال الاولياء . وذلك بما اجـراه الله مـن قضـائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر روح الله روحه . وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه . فقد عظم الخطب وجـل . وحـل عرى الجلد حين حـل . وثلم غرب الصبر وفل . وأجرى غرب الدموع . وازكى كرب الضـلوع . وبـت حبـل اللاجين . وشـت شــمل الراجين . واعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث . وحبـاؤها غثـاث . وعقـودها انكاث . وســهولها أوعاث . وقصورها اجداث . وسرورها غرور ومـواهبها احـداث . وسكونها قلق . وامنها فرق . وصحتها سقم . وأملها ألم . وغبطتها ندم . ووجودها عدم . وبقـاؤها فناء . ونعيمهـا بـلاء . وراحتهـا عناء . وملكها هلك . وسترها هتك . واخذها ترك . وسلمها حـرب وصلحها فتك . ووفـاؤها غدر . ووفـاقها مـكر . وعرفهــا نكر . ووصلها هجـر . وخيرهــا شر . ونفعهـا ضر . وجبــرها كسر . ومتاعها قليل . وباعها في التطاول طويل . ومـالعثارها مقيل . ولا في ظلها مقيل . ولارب فيهـا لأريب . ولا البـاب فيهـا للبيب . فـان

ظلها قالص . وفضلها ناقص . وعمرها قصير . وغنيها فقير . وريها جرع . وزيها خدع . وحليهــا عطــل . وســعيها زلل . وإجــداؤها إجداب وإعطاؤها إعطاب . وإصحابها إظلام . وإرغابهــا إرغام . وسماحتها بخل . وسجاحتها عتل . وعقــدها مفســوخ . وعهــدها منسوخ . وربحها خسار . وجرحها جبــار . ويســارها إعســار . وخصبها محال . وحبها محال . وعمارتها شــعث . وشــيمتها عيث وعبث . وترابها تراث . ولالسكنها اســاس ولالســاكنها اثــاث . ولاكيدها في كبدها يد . ولالكرها في جد مكرها جدد . والسعيد مــن استعد في معاشه للمعاد . واستكثر مدة مقامه في الدنيا لسفر الاخرة من الازواد . ومن نظر اليهــا بعين القلي . وعرف انهــا دار البــلاء والبلي . وتقوى فيها بالتقوى . وجد في الاعراض عن جدواها للفوز العرض بالجدوى . ولقد كان السلطان الســعيد قــدس الله روحــه بحقيقتها عارفا . ولزخرفها عائفا . ومن ملكها انفــا . وعن مــالها متعففا . فاشتغل عن الدنيا بــالدين . وخصــه الله بتــاييده في علم اليقين . واقتدى بسنة النبي صلوات الله عليه فمــا زاغ بصره ومــا طغى . (ونهي النفس عن عن الهــوى . فــان الجنة هــي المأوى) (النازعات : ٤٠ ـ ٤١) ووقف حياته على احياء معالم الهــدى . والاعلان بشعار التقى . وإعلاء منار الجهاد . واشاعه سنن العــدل والاحسان في البلاد والعباد . وافاضة سجال الفضــل والافضــال . حتى كفل جــوده بفيض الارزاق ووفى بنجــح الامــال . واخلص لله عمله . ولاملك ملكا ولاتمول مالا الا في سبيل الله انفقه وبذله . وكان كما قال النبي صلى الله عليه وســلم: (مــن كان لله كان الله له) . فلا جرم اذل الله له الملوك الأعزة . ووهب لاعطاف الدولة التبــاهي بملكه الهزة . وملكه الاقاليم والامصار . واجرى باقداره الاقــدار . فازال عن مشارع الشريعة الاكدار . وعطل البــدعة بمصر واليمــن والشام . وقمع اعداء الاسلام . ومد الله في عمره حتــى بلغ المراد . وفتح البلاد . ووفى في حق الجهاد الجد والاجتهاد . وقــدر على مــا أعجز عنه الملوك . ونهــج في نصره الدين نهجــا اعوز مــن قبله فيه السلوك . واخرج الفرنج عن الساحل وابادها . وملك عليها ديارهــا وبلادها . واوهى على الكفرة معاقد معــاقلها . وطــال بحقــه على

بـاطلها . واقصى عن المسـجد الاقصى مـدنسيه . وازال عنه ايدي
غاصبيه . واصرخ الصخرة المطهرة وطهرها من الارجاس . وابعـد
عنها اجناس الانجاس . وقهـر الكفـر وخـذله . ونصر الايمـان
واخذله . واحيا للكرم كل سنة حسنة . واستمرت محـاسن ايامـه
سنة بعد سنة . وتعدلت بعدله الجوانح . وتذللت بباسه الجـوامح .
ودانت ودنت له الممالك القاصية . واذعنت إذعنت لحـكمه الامـاني
العاصية . وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته . وعمت الخواص
والعوام عارفته وعاطفته . ونفـذت في الشرق والغـرب مـراسمه .
وقامت بالحمد والشكر مـواسمه . ووفـت بـامل الداني والقـاصي
والطائع والعاصي مكارمه . واسعده الله وامهله . حتى حقق في ذويه
امله . وولى في كل اقليم من يعمل لله في العدل والاحسان عمله . ثـم
توفاه حميد الاثر . كريم الورد والصدر . ظافر الرجاء رائج الظفر .
صالح العمل . ناجح الامل . طاهر القطرة . ظاهر النصرة . كاسيا
من الفخار . عاريا من العار . مرتديا بثوب الثواب . مـرتويا مـن
صوب الصواب . مبتهجـا بنصرة النعيم . متـارجا بعـرف نسـيم
التسنيم . وما كان ابهـج الايام بـايامنه . والاعصـار بمـزاينه .
والامصار بمحاسنه . والاسلام بسلطانه . والآفاق بسني احسانه .
وما كان اسعدنا بجدوده . واجدنا بسعوده . واغنانا بعدله وجوده .
فقد فقد الصباح فلا سنى . ودفن السـماح فـلا جـدوى ولا جنى .
وغاض البحر فلاغنى . وهو الطود فلا ثبـات . وذوى الروض فـلا
نبات . ووهى الركن فلا سند . وانتهى اليمن فلا جد • وغلب الكمد
فلا جلد . وعز العزاء فلا عزه . ولاقوة ولا عضـد . إنا لله وإنا اليه
راجعون . ولأمره تـابعون ولحـكمه طـائعون . ولا راد لارادتـه .
ولاصاد لمشيئته . ولاصادف لصادف قضـائه . ولا صـارف لصرف
بلائه ولقد كادت الانوار تغرب . والانواء تعزب . والمنابـع تغـور .
والصنائع تبور . والاحوال تحول • والاهـوال تهـول . واضـواء
المعارف لاتضيء . وافياء العواطف لاتفيء . وزهر السماء لاتشرق .
وازهار الروض لاتؤنق . ومعـاقد الاسـلام تهـي . وميامـن الايام
تنتهي . لولا ان الله تدارك الارمـاق بـالطافة . وتـلافى الامـال
باسعافه . وجلا وجه النعمى من خلال البؤس . واهدى البشر بعـد

العبوس . وانزل السكينة عند الزلزال . على النفوس . واجرى الدولة على احسن العوائد . وارشد المقاصد واثبت القواعد . من استمرارها على الائتام . واستقرارها في النظام . واستدرارها بافاويق الوفاق . واهلال بدورها غب المحاق . وطلوع شموسها من الافاق . وارتفاع فروعها في سماء السمو . وامتداد اصولها في منابت النمو . وانفتاح احداقها النواظر عن نور الابصار . وانفتاق حدائقها النواضر عن نوار الازهار . حتى اجتمعت الكلمة المتفرقة واتحدت . وانتظمت الالفة المتبددة وتاكدت . وسكنت القلوب الراجفة وانست . وسكتت الالسنة المرجفة وخرست . وانارت الخواطر المظلمة . وافاقت الظنون الراجمة والافكار المتقسمة . وزاد الرونق وزال الرنق . وانجلى الغسق . وتجلى الفلق . واستقامت الامور . واستنامت الى حفظها الثغور . ووصلت الكتب العزيزية والظاهرية من مصر وحلب . بكل ما انجح الارب ووصل السبب ومرى در النصر وحلب . وبكل ما اظهر القوة وقوى الظهر • وشد الازر . وامر الامر . وسر السر . ونصر الحق وحقق النصر . من الموافقة والموافاة . والموالاة القاضية من الجدة المنجدة بالموالاة . والمتابعة والمشايعة في كل امر يبرم . وكل حكم يحكم . وكل عزم في قمع العدا يصمم . وكل عقد في نصر الهدى يلزم ويتمم . ووصل المولى الملك العادل فتولى امر المملوك بكل ما اوفق ايثاره . واشاع على عادة الوالد رحمه الله تعالى شعاره ورفع مناره . واخلى من كل شاغل باله ورفه اسراره . واراح افكاره . وما في الجماعة الا من خطب الجمعية وخطب في الجمع ، واعرض عن الهوى للحق المتبع . فالكلمة متحدة وإن كانت الانفس متعددة ، وما اخلقت هذه الدولة بل استمرت على تجدد الايام متجددة . وانما اشفقت في حال الصدمة الاولى وبدء الرزية الطولى على بيت الله المقدس . ومن غدر الفرنج بقصدها فان الغدر شيمة لهم في الانفس . فوقى الله شرهم . ودفع مكرهم . واوهى امرهم ، ولم يزل من قلوبهم الرعب . ولم يؤثروا على الصلح الحرب . بل طلبوا بقاء السلامة بابقاء السلم . وخطبوا اجراءهم في الوفاء بعقد الهدنة على الرسم . وبركات نية المرحوم شملت . ووصاياه نفذت وكملت . وتوجه الملك العادل الى بلاده

الجزرية . شرقي الفرات لاصلاح تلك الولايات . واخراس شقاشق الهادرين بالارجاف من اهل الشمات . ويرد بالباس مكايد الحاسد الحاشد . والحمد لله الذي اجد الامن وقد عرت المخافة . وانزل الرأفة وقد فجأت الافة . وابقى الاسلام بعزه والكفر بذله . وثبت قواعد الملك الناصري بجمع شمل اهله . واحيا بهم سنن احسانه وعدله . وشيمتي افضاله وفضله . وفي دوام اقبال المجلس السامي دوام اقبالهم . ونظام احوالهم . وسبوغ ظلالهم وبلوغ امالهم .

ذكر ما افترضه الملك الافضل من خدمة دار الخلافة المعظمة وانفاذ رسوله بعدة والده مع هدايا وتحف سنايا

لما استقر الملك الافضل بدمشق في مقام والده . وشفع طارف ملكه بتالده . واضاف موروث الفضل الى مكتسبه . واكرم نسبه بكرم حسبه . بدا بالاهم الافرض . والاتم الامحض . فقدم الى الديوان العزيز النبوي نجابين بالكتب . وانهى الحال فيما الم من الخطب . ثم ندب ضياء الدين القاسم بن الشهر زوري في الرسالة . الى منزل الرسالة وموقف الجلالة . واصحبه عدة والده في الغزاة . اوان لقاء العداة . وسيفه ودرعة وحصانه واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه . فما تهيا مسير الرسول الا في اواخر جمادى الاخرة . حتى حصل كل ما اراده من الهدايا الفاخرة . وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله . حتى لايظن انه انفرد بسوله . وقصد مدارة اخوته . وفضل بفضل نخوته . وذلك بعد ان جدد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين . وولي العهد عدة الدين . وامرني باذشاء الكتب وتحريرها . وتقريب المقاصد فيها وتقريرها .

فصل من الكتاب الى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء

اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء . وقلبه معمور بالصفاء . ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء . ولسانه ناطق بشكر النعماء . وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء . وطرفه مغض من الحياء . ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء . وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء . وهو للارض مقبل . وللفرض متقبل . وبالطاعة ماثل . وللاستطاعة باذل . وللجهد والاخلاص . عارض ضارع . وفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع . وهو يمت بما قدمه من الدوات . واسلافه من الخدمات وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات . واتخذه عصمة من النائبات . وعونة من الطارقات . ومؤلفا للشمل عند شمول الشتات وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات . وسلوة من الاسى واسوا الجراح المصيبات . ولاخفاء بما اخافه . وفاض له من بحر البرح وضافة . واغاض نطافه . وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه . لولا ان الله تداركه بفضله واولاه الطافه . فانه دهمه ما هدمه وفجأه ما فجعه . وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه . ونابه مارابه . وجرعه مصابه صابه . ووافاه من وفاة والده رحمه الله ماكدر صفو الحياة . ومحا عن صفحة صبحه اية الآياه والم بالم الأمل . وأحال الحلي الى العطل . وحلاً عن النهل والعلل . وأذهب بهجة الأيام . واشمت الكفر بالاسلام وسر الشرك منه ماساء التوحيد . وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد . وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة على أنها ماشبت الا لتخمد . وشام حدود العتاة على انها ماشيمت الا لتغمد . وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه . واثاروا كوامن الثار وحركوا سواكن الاوتار بتأثيره وتأريثه . وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق . وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق . ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى . مستلئما من عدد أيامها ومسدد انعامها بالدرع الاقوى الاوقى . فانه لايحتفل بحفول

اخلاق أهل الخلاق . ولايتحلحل طود حجاه الراسي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف . وقد أحاطت العلوم الشريفة مجدها الله بأن الوالد السعيد . الشديد السديد . المبير للشرك المبيد . لم يزل أيام حياته والى ساعة وفاته . مستقيما على جدد الجد . مستنيما في صون فريضه الجهاد الى بذل الجهد . مستنفدا في كل مايحوز به المراضي الشريفة وسعه . ومستفرغا طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه . فكم قبض يدا بسطتها بالفتنة الفئة العادية . وكم فرض سنة أعلنت سناها للمجتلين وأحلت جناها للمجتنين الدعوة الهادية . ولكم أخرس دعاة الأدعياء وحرس ولاياته الأولياء وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم اقاليد . ولم تزل جذود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد،وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب . وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما أناب عن أعوادها انابيب وأسعرها من كماة الوغى وحماة الورى بمساعير وأنجدها بضوامره . ضوامن الظفر بمضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع . وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة،والانجاد والاغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس من فتوحاته . والملك العقيم من نتائج عزماته . وتوفره على العبودية لمالك رقة سيدنا أمير المؤمنين أوفر حسناته . وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته . ومازال ظاهرا على العدا . ناصرا للهدى معليا معالم العلى . محييا مواسم التقى . مسنيا سنن الشرع وفروضه مديما بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها . وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها . وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها . وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها . ونظم اسبابها وسد الثغور . وسدد الامور وأذل للدار العزيزة كل عدو . وأخذ لها على يد كل ذي عتو . واستمرت على الأيام مساعية في الخدمة ناجحة . ومعانيه على موازين الموازين راجحة.وسيرته حسنة وحسناته سائرة ومحاسنة ظاهرة • وسريرتهطاهرة • وختم الله له بالسعادة،وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة . وقضى وقد

قضى من آرائه آرابه وقدم بين يديه أعماله الصالحة ووفاه حسابه . وقبض وعدله مبسوط ، وأمره محوط . ووزره محطوط . وعمله بالصلاح منوط . وأمله بالنجاح مشروط . وملكه بحفظ الله وكلائته مضبوط . والمذاهب مهذبة والمراتب مرتبة • والاسباب محكمة والاحكام مسببة . والاحوال حالية . والاعمال راضية . والمصالح مصونة . والمناجح مضمونة . والرعية مرعية . والعوائد مرضية والقواعد متأثلة . والمقاصد متحصلة والثغور مسدودة . والخطوب مصدودة . واصول الدولة ثابتة . وفروع الدوحة نابتة . وماترك أمرا بعده غير مستقيم ولانهجا غير قويم ، ولاخلف لمن خلفه مايحتاج الى تقريبه وتقريره . ولاأبقى لمن بقي له مايفتقر الى ترتيبه وتدبيره . وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل . ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها . والاستعداد لعيادتها ، وما بنيت القواعد الا على اساس وصاياه . ولاأمضيت العوائد الا على قياس سجاياه ، ولاأبرم الا ماعقده ، ولاأحكم الا ماأكده . واقتفيت آثاره ،

واجتليت أنواره . واتبع ايثاره . واتمرت في ائتمار الأوامر الشريفة أوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصرة . ومايفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار . وبعثه من آلائها الغزار . ونعشه برفعة من العثار . وعرفه بعرفه المبر المبار . ولايتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك . ولايوصل الى السعادة الابدية الا مسلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك أولاده وأخوه في مقامه ، والأمر في كل مكان بالأمن والسكون جار على نظامه . والكفر مغلول الغرب . مخذول الحزب . مجبول على الرعب • مغلول بقيد السلم عن الحرب • فان الله أجرى المشركين مع كثرتهم علي حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن علي الهدنة ، وهم لايؤمنون اذا احسوا بالمكنة فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في

غرائزهم مغروز ، والعبد أخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم متيقظ لخوف غدرهم متحفظ من مكر مكرمهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل مايفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان . مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في أموره . مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره . ظاهر بقوته من ايدها وأياديها قوي بظهوره . مدل بما له من المواد الأكيدة . والسوابق الحميدة . والشوافع المقبوله . والذرائع الموصولة . وموقن ان الرعاية تدركه . وأن العناية تملكه ، وأن اختصاصة بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص . وان فاتحة الحمد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول . وانه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول . عول على القاضي ضياء الدين في الدثول بالخدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله . والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ، ونجح المقاصد ونصح العقائد . وشرح الاحوال في المصادر والموارد . وأن بلاغته وفية بالابلاغ ، وملية باشباع القول في اعتفاء الطول المليء بالاسباغ . وقد فاوضه فيما فوضه اليه . واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه . ولازالت ايادي الدار العزيزة دارة غزيرة . سارة أولياءها وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله تعالى

ذكر بعض مناقب السلطان رحمه الله

كان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق . موقوفا عزمه في الاعداء بافناء الآجال وفي الاولياء باجراء الارزاق . وما عقر في سبيل الله فرس أو جرح الا وعوض مالكه بمثله . وزاده من فضله . وحسب ماوهبه من الخيل العراب والاكاديش الجياد ، للحاضرين معه في صف الجهاد . مدة ثلاث سنين مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين الى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

وثمانين . فكان تقديره اثني عشر الف رأس من حصان وحجر • وأكديش طمر وذلك غير ماأطلقه من المال . في اثمان الخيل المصابة في القتال • ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب او موعود به وصاحبه ملازم في طلبه • وماحضر اللقاء الا استعار فرسا فركبه وهجر جياده فاذا نزل جاء صاحبه فاستعاده • فكلهم يركب خيله . ويطلب خيره . وهو يستعير جوادها . ويستمر في الجهاد اجتهادا ، وكان لايلبس الا مايحل لبسه ، وتطيب به نفسه . كالكتان والقطن والصوف .

وكسوته يخرجها في اسداء المعروف . وكانت محاضره مصونة من الخطر . وخلواته مقدسة بالطهر . ومجالسه منزهة من الهزء والهزل . ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل . وما سمعت له قط كلمة تسقط . ولا لفظة فظة تسخط . يغلظ على الكافرين الفاجرين . ويلين المؤمنين المتقين . ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد . وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد . وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء . ومشاركة القضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية . والاسباب المرضية والأدلة المرعية . وكان من جالسه لا يعلم انه جليس السلطان . بل يعتقد انه جليس اخ من الاخوان . وكان حليما مقيلا للعثرات . متجاوزا عن الهفوات . تقيا نقيا . وفيا صفيا . يغضي ولا يغضب . ويبشر ولا يتقطب . مارد سائلا ، ولاصد نائلا ، ولا اخجل قائلا . ولا خيب أملا .

ومن جملة مناقبه انه تأخر عنه في بعض سفراته . الأمير ايوب ابن كنان مشتغلا بمهماته . فلما وصل سأله عن سبب تخلفه . وما الذي وقفه عن موقفه . فذكر ان غرماءه لجوا والحوا . وضجوا باطلاقه وشحوا . فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وتكفل بالعين . وامرني بأن احيلهم على مصر فحسبتها وهي اثنا عشر الف دينار مصرية وكسر . فقدم نوابه وفاءها على الحمل لما عرفوا فيه من بغض صون المال وحب البذل للفضل .

ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب اليه سيف الدولة ابن

منقذ من مصر وهو بها نائبه . وقد وضحت في الكفاية مذاهبه ان واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي دينار وتسحب . وربما وصل الى الباب وتحيل وتمحل وخيل وكذب . فجاء الى السلطان من اخبره ان الرجل على الباب وخال انه اليه به تقرب . فقال قل له ان ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه . فعجبنا من حلمه وكرمه بعد ان قلنا قدم الرجل بقدمه الى حينه . ومما اذكره له في أول سفري معه الى مصر سنة اثنتين وسبعين . ووردت بها من فضله العذب المعين.أنه حوسب صاحب ديوانه . عما تولاه في زمانه . فكانت سياقة الحساب عليه سبعين الف دينار باقية عليه فما طلبها ولاذكرها . واراه كأنه ماعرفها على ان صاحب الديوان ما اذكرها . وكان يرضى من الأعمال بما يحمل عفوا صفوا . ويحصل عذبا حلوا . وكله يخرج في الجود والجهاد . ورعاية الوفاد والقصاد ثم لم يرض لصاحب ديوانه المذكور بالعطلة . ولم ير انزواءه في بيت العزلة فولاه ديوان جيشه واولاه ما دنت له به مجاني جاهه وعيشه .

ولما كنا بظاهر حران في سنة احدى وثمانين عم بصدقاته الفقراء والمساكين وكتب الى نوابه في الولايات باخراج الصدقات وقال لي اكتب الى الصفي بدمشق ان يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية فقلت له الذهب الذي عنده مصري . قال : فيتصدق بخمسة آلاف مصرية . واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما . ويرتكب في كسب الأجر آثاما . فسمح ومنح وتاجر الله وربح . وسمعت بعد ذلك الصفي . وكان في الخير مجلي كل مضمار يقول:قد احصيت فقهاء المدارس بدمشق وكانوا ستمائة فأطلقت لهم ستمائة دينار.

ولما عزم على الرحيل من حران . أفاض بها الفضل وبث الاحسان وقال لي يوم الرحيل . انظركم بقي بالباب من الوافدين ابناء السبيل . وهذه ثلاثمائة دينار اقسمها عليهم بالقلم . وفضل على اقدارهم في القسم . وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة . ولم

تجده ميسره . فعينت لكل اسم قسما . وعنيت بهم خلقا مني ورسما فبلغ اربعمائة دينار . ثم وقفت افكر وارند النظر اليه واكرر فسألني ما الذي عملت . وهل قسمت المبلغ وكملت فقلت جرى قلمي بقسمة اربعمائة دينار . فهل انقص من كل اسم ربعا ؟ فقال اجري ما جرى به القلم واحسن صنعا ،

وكان رحمه الله اذا اطلق لعارف عارفة ، وقلت له هذه ما تكفيه ردها مضاعفة . وكان اصحاب المظالم وارباب المطالب . والراغبون في الرغائب والذاهبون في المذاهب . يحضرون عندي . ويعرفون في انجاز امرهم وانجاح قصدهم بذل جهدي . فأكتب لهم توقيعات بمتوقعاتهم . وانتهي في الاملاء بنهاية مأمولاتهم . فيجريها ويمضيها . ويضع علاماته فيها ويرتضيها . واذا الفى توقيعا بخطي علم فيه . ولم يقف بنشره على سر مطاويه . الفا بما الفه من صحبتي ومناصحتي . وكفاء الملمات وكفاية للمهمات بكفايتي . وكان يأمرني باجابة كتب الملوك واصحاب الاطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم . وهي تشتمل على اسباب متنوعة وآراب متفرعة . بحسب الحوادث المتجددة ، والبواعث المتمهدة ، فإذا قلت له بماذا اكتب وما الذي اخطب . فيقول انت اعرف . وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف فاكتب من عندي بالاجابة . وتوافق منه الاصابة فقد كنت مطلعا على سره . مضطلعا بأمره ، ما يخفي عني مراده . وانا اتيقن لمن ولاؤه ووداده . فأتي بمداناة الاغراض ومداواة الاعراض وموازنة الجواهر والاعراض . والتمييز بين اهل القبول واهل الاعراض . فكم اصلح قلمي بينه وبين من عاداه .وراض الجامح من سخطه وقاده الى مدى رضاه .

وكان يغضب للكبائر . ولا يغضي عن الصغائر . ويرشد الى الهدى ويهدي الى الرشاد . ويسدد الامر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه بل امراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد . ورأى يوما لي دواة . بالفضة محلاة . فاذكر حل الحلية . وادعى حظر القنية . فقلت على سبيل المدافعة . وطريق المناظرة والممانعة .

أوليس تحل حلية السلاح . واستصحابه في الكفاح . فدواء دواتـي انجع . ومدد مدادي ادفع . ويراع براعتي القصير اطول ، وسـلاح قلمي أجذ واحد وافتك واقتل ، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية الا بقلمي ولا تفرقت جموع الكفر الا بكلمها من جوامع كلمي . فقال ما هذا بدليل ولا يعيد تحريما الى تحليل . حتى قلت له ان الشيخ ابا محمد والد الامام ابي المعالي قد ذكر وجها في جوازه ونحن نتبعه فلا وجه مع هذا الوجه المحال لمن يحظره ويمنعه . ثم لم اكتـب بعـدها عنده الا من دواة الشبه . وتجنبت طـرق الشـبه وتـركت المحـلاة مخـلاه . وعادت الشـبهية مجتبـاه مجتناه . وكان محـافظا على الصلوات الخمس في أوائل اوقاتها . مواظبا على اداء مفـروضاتها ومسنوناتها . فما رأيته صلى الا في جماعة ولم يؤخر له صلاة مـن ساعة الى ساعة .

وكان له امام راتب ملازم مواظب . فان غاب يوما صلى به مـن حضره من اهل العلم . اذا عرفه متقيا متجنبا للاثم . وكنت لملازمتي اياه يقدمني اماما في الصلوات . ومسـتشارا في المشـورات . وكان يأخذ بالشرع ويعطي به . وينفق مـن حـل المال وطيبـه . ويجـود بالموجود وبالمعدوم في الحال رجاء الوجـود . فمـا تتجـدد جـدة الا ويستوعبها انجاز الوعود . ولم يكن الى المنجـم مصـغيا . ولم يزل لقوله ملغيا . فما عنده منجا لمن جاء بمين المنجمين ولا قبـول لمنطـق المنطقيين . فلا يفضل يوما على يوم ولا زمانا على زمان الا بتفضيل الشرع واستقصاء الدين في كل قـاص ودان . ولا يتعيف ولا يتـطير ولا يعين وقتا ولا يتخير . بل اذا عزم تـوكل على الله . واقبـل على محكم امره واعرض عن مظان الا شـتباه . فـكم فـل سـفه ذي الفلسفة . ودل بمعروفه في المعرفة . ومازال ناصرا التوحيد . قاهرا جمع اهل البدع بالتبديد . مستجليا سنى السـنه . مسـتحليا جنى الجنه . شافعي المذهب اصولا وفروعا . معتقدا له معقولا ومسموعا يدني أهل التنزيه . ويقصي اهـل التشـبيه . ويديم اسـتفادة فقـه الفقيه . واستزادة نبـاهة النبيه . ووجـاهة الوجية . فـالعادون في عدله . والعاملون في فضله والبلاد في امنه . والعباد في منه . والبرية

- ٦٢٣٥ -

في برسعيه ، والاسلام في حمـــاية حميتـــه . والدين في ادالة دولتـــه . وشرعة الشريعة صافية بصفائه . ومـــائة المودة له وافية بـــوفائه . وقامت بعده طريرة طريه . ومـــن العـــار عريه ، وببر البـــرية مـــن الشائبات والشائنات بريه . وبالحرية حرية . وبسرور السر سريه . فقد عزت وفضلت وظهرت بعزيزها وافضـــلها وظـــاهرها، وفخـــرت بمفاخرها . ورويت برواتهم آثار مآثرها ، وتبجلت الآفاق وتأرجت بحسن تباشيرها وطيب بشائرها ، وبرزت الأرض في ازهارها . والسماء في زواهرها . والحمـــد الله مجـــري الاقـــدار ومصـــفي الاكدار ، ومدبر الليل والنهار ، ومدبر الايراد والاصـــدار ، وســـلم تسليما كثيرا آمين

- ٦٢٣٧ -

الحواشي والهوامش

البرق الشامي

(١) مطموس بالاصل .

(٢) موقع ما يعرف اليوم باسم نبع السريا في حوران الذي تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .

(٣) مطموس بالاصل

(٤) ريموند الثالث صاحب طرابلس .

(٥) طمس بالاصل بثلاثة اسطر .

(٦) مطموس بالاصل .

(٧) النسخة التي اعتمدت عليها هي نسخة وحيدة لايعلم الآن مكان وجودها ، سوى أنه سبق المرحوم المختار السوسي ان أودع عنها شريطا مصورا في الخزانة العامة بالرباط . وقد لحق النسخة بعض الطمس ، وخطها مغربي من الصعب التعامل معه ، وهذا الحال اضاف لي لغة العماد معوقات وعراقيل جعلتني رغم ما بذلته من جهد غير مطمئن تمام الاطمئنان . ولقد اكتفيت بهذا النص كنموذج ، وفيما وجد ابو شامة - صاحب الروضتين .. التعامل مع البرق الشامي امرا صعبا ، ولعله لم يكن قادرا على قراءة النص الكامل للكتاب أو وجد قلة الفائدة في ذلك لهذا اقتبس منه بضع فقرات من هنا وهناك .. انظر الروضتين : ٢ ، ٧٤ ـ ٨٢ . وخيرا فعل الفتح البنداري فيما بعد حين اقدم على تهذيب بعض كتب العماد ، وكان منها البرق الشامي هذا .

(الفتح القسي)

١ ـ الحيعلة : قولك حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، القاموس
٢ ـ الوخش : الرديء من كل شيء ، ورذال الناس ، القاموس .
٣ ـ كرثة الغم : اشتد عليه ، القاموس .
٤ ـ طفر : قفز ، القاموس
٥ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .
٦ ـ النهيت : الزئير . القاموس .
٧ ـ سحابة دلوح : كثيرة الماء ، القاموس .
٨ ـ الريح تحركت فهي ذؤوج ، وللريح نئيج : اي مر سريع ، القاموس .
٩ ـ بلخ : تكبر ، القاموس .
١٠ ـ بظاهر بلدة نوى في حوران سورية
١١ ـ في وادي الاردن قرب عقبة أفيق .
١٢ ـ الاوام : الدخان ، القاموس .
١٣ ـ السلت : القطع والاستئصال .
١٤ ـ ابن بارزان هو بالين صاحب يبنى ، والقومص هو ريموند الثالث صاحب طرابلس .
١٥ ـ البيكار فارسي معرب يعني الحرب .
١٦ ـ يقق ، ابيض القاموس .
١٧ ـ طحرت العين : قذاها ، القاموس .
١٨ ـ اي تنعدم الاقوات فيها .
١٩ ـ الأمره : الابيض ، القاموس .
٢٠ ـ اي بحيرة قطينة خارج مدينة حمص .
٢١ ـ حامت : شديد الحلاوة ، القاموس .
٢٢ ـ الأطعمة التفهة : ماليس لها طعم حلاوة أو حموضة أو مرارة ، القاموس .
٢٣ ـ المدنر : فرس فيه نكت فوق البرش ، القاموس .
٢٤ ـ السمند : الفرس ، والغبسة : الظلمة أو بياض فيه كدرة رماد ، القاموس .
٢٥ ـ الشوار : اللباس والسمن والزينة ، القاموس .
٢٦ ـ الحلاحل : السيد الشجاع ، القاموس .
٢٧ ـ المصن : حلق الشعر ، القاموس .
٢٨ ـ العنق سير فيه تبختر والذميل السير اللين ماكان فوق العنق ، القاموس .
٢٩ ـ الارى العسل ، القاموس .
٣٠ ـ لثق يومنا : ركدت ريحه وكثر نداه ، القاموس .
٣١ ـ الأوام : العطش ، القاموس .
٣٢ ـ أمهى السمن والشراب : أكثر ماءه ، وامهى الحديدة : احدها وسقاها الماء ، القاموس .
٣٣ ـ انعطف العود : تثني من غير كسر ، القاموس .
٣٤ ـ اللوب : العطش ، أو استدارة الحائم حول الماء وهو عطشان لايصل اليه ، القاموس .
٣٥ ـ أبهى الخيل : عطلها من الغزو ، والباهي من البيوت : الخالي المعطل ، القاموس .

٣٦ ـ الضفو : السبوغ والكثرة وفيضان الحوض ، القاموس .

٣٧ ـ رجل نيق : كيس ، والنيق : أرفع موضع بالجبل ، القاموس .

٣٨ ـ السونثيق : الصقر أو الشاهين ، القاموس .

٣٩ ـ تتفل : أزبد ، القاموس .

٤٠ ـ حدمة النار : شدة اشتعالها ، القاموس .

٤١ ـ خطا لحمه : اكتنز ، القاموس .

٤٢ ـ باركاه : فارسية تعني خيمة ملكية ، أو جناح استقبال ملكي .

٤٣ ـ كذا بالأصل وهو وهم فلعله أراد قوله تعالى « كذلك نجزي كل كفور » (فاطر٣٦) ولم يرد قوله جل وعلا « كذلك نجزي من شكر » (القمر ٣٥)

٤٤ ـ الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم منه ، القاموس .

٤٥ ـ السني : ضوء البرق والنار ، والسنور : الدروع أو السلاح . القاموس اللسان .

٤٦ ـ اي الثغرية أو المدوبية .

٤٧ ـ الغرب : النشاط والتمادي والحدة ، القاموس .

٤٨ ـ السنور جملة السلاح ، القاموس .

٤٩ ـ الدأماء : البحر ، القاموس .

٥٠ ـ الجماء : المغفير النهاية لابن الاثير .

٥١ ـ التأريث : الاغراء بين القوم وايقاد النار ، القاموس .

٥٢ ـ القونس : مايوضع على أعلى الراس ، القاموس .

٥٣ ـ التامور : علقة القلب ودمه ، النهاية لابن الاثير .

٥٤ ـ الوج : القطا والنعام ، القاموس .

٥٥ ـ حزا : خمن أوحزر وقدر ، القاموس .

٥٦ ـ ضبر : وثب ، القاموس .

٥٧ ـ الدشق : السرعة في الطعن والضرب ، القاموس .

٥٨ ـ الزغفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل ، القاموس .

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (١)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الرابع عشر

دمشق

١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

١ ـ ابن جبير
٢-عبد اللطيف البغدادي(نصوص من تاريخه ورحلته)
٣ ـ ابن الاثير الجزري(الباهر في الدولة الاتابكية)

دمشق ١٤١٤ / ١٩٩٤

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا الادب الجغرافي العربي غناه بكتابات الرحالة ، والرحالة وإن انتموا من حيث المبدأ الى الجغرافيين ، هم في الواقع ينتمون بصورة اكثر التصاقا الى التاريخ ، لأن مدوناتهم وثائقية لهم قيمة سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة ، وفي تاريخنا العربي جاء جل الرحالة من الغرب الاسلامي، من الاندلس وبلدان الغرب ، ومعظم الرحلات بالأصل حجازية ، ثم تفرعت فصارت شامية وعراقية وجزرية ومصرية.

لقد جاء معظم المغاربة والاندلسيين برا وبحرا الى المشرق طلبا العلم واداء فريضة الحج ، ويلاحظ ان عدد هؤلاء الذين زاروا المشرق في فترة الحروب الصليبية لم يكن كبيرا ، مقارنة بعدد الأوربيين الكبير الذين حجوا آنذاك الى الأراضي المقدسة ، وسأقوم ـ انشاء الله ـ في فترة لاحقة بترجمة كتب الرحلات الأوربية.

ومع اندلاع احداث الحروب الصليبية غادر المشرق الامام ابو بكر ابن العربي وذكرت من قبل أنني اطلعت على نسخة خطية في المغرب من هذه الرحلة ، ومع ذلك اودع ابن العربي في كتابه عددا من المشاهدات خاصة في كتابه العواصم من القواصم ، وبعد ابن العربي، يعد ابن جبير اهم الرحالة الذين زاروا المشرق اكثر من مرة ايام نور الدين أولاثم ايام صلاح الدين ولفتت رحلة ابن جبير انتباه المؤرخين والباحثين اليها منذ القرن الماضي ، ومازال موضع اهتمام المؤرخين وسواهم وابن جبير:

هو محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي ، البلنسي الاصل ، الغرناطي الموطن ، ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، او قبيل ذلك بسنة ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وكان شاعرا اديبا من علماء الأندلس فقها وكرم نفس واخلاق ، اخذ العلم عن علماء عصره في الاندلس ثم في الحجاز والشام والعراق ، وقام ابن جبير بثلاث رحلات الى المشرق ، كانت اولاها سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م وهي التي اودع مشاهداته خلالها في كتاب رحلته المتداول ، ثم قام بالرحلة الثانية سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، وذلك انه سمع بنصر حطين ، فجاء ليقدم تهانيه وبيعته لصلاح الدين ، وسنرى في الروضتين لابي شامة نص القصيدة التي نظمها بهذه المناسبة ، وامضى هذه المرة عامين في المشرق ثم عاد الى غرناطة ، ثم رحل ثالثة اثر وفاة زوجته ، فحج وجاور طويلا ثم قدم الى الاسكندرية حيث توفي فيها.

وسنرى في مواد موسوعتنا صورة الاحداث المأساوية التي عانت منها بلاد الشام والجزيرة ومصر بعد وفاة صلاح الدين ، وذلك بسبب الصراعات بين ابناء البيت الايوبي ، وقد حسم الصراع بعد امد لصالح الملك العادل ابو بكر بن ايوب – اخو صلاح الدين – واشار المؤرخون الى ان مصر عانت منذ السنة التي تسلم العادل السلطة فيها من القحط الشديد ، وادى هذا القحط الى مجاعة هائلة ، وصف بعض صورها عبد اللطيف البغدادي.

وهو موفق الدين – ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ابن علي وعرف بابن اللباد ، كان موصلي الأصل ، بغدادي المولد ، ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، ونشأ نشأة جسدية حيث انصرف منذ طفولته نحو طلب العلم في بغداد اولا ثم في دمشق ، وقد اهتم اهتماما كبيرا بصناعة الطب ، والطب احترف في دمشق.

وقد حدثنا نفسه عن قدومه الى دمشق بقوله: « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق في بغداد من يأخذ بقلبي ،

ويملأ عيني ، ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل ، فلم اجد فيها بغيتي.. ولما دخلت دمشق وجدت فيها من اعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كبيرا ، وشارك البغدادي في نشاطات دمشق العلمية ، ثم ارتحل الى معسكر صلاح الدين قرب عكا ، قال:« ثم اني توجهت الى زيارة القدس ، ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا ، فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد ، قاضي العسكر يومئذ ، وقد اتصلت به شهرتي بالموصل ، فانبسط الي واقبل علي وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه ، وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة ، وقال: هذا كتاب الى بلدكم ، وذاكرني في مسائل من علم الكلام ، وقال: قوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرايت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه... وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات ، فقلت: اريد مصر ، فقال السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا ، وقتل المسلمين بها ، فقلت : لابد لي من مصر ، فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها .

فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله – وهو ابن سناء الملك – وكان شيخا جليل القدر ، نافذ الأمر ، فانزلني دارا قد ازيحت عللها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب... وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس ،فقادتني الضرورة الى التوجه اليه... وتوجهت الى القدس فرايت ملكا عظيما يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، واصحابه يتشبهون به يتسابقون الى المعروف كما قال الله تعالى:« ونزعنا ما في صدورهم من غل» واول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم ، يتذاكرون في اصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع ، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ،

يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء ، والاقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف اكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا ، فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع ،واطلق لي اولاده رواتب حتى تقدر لي في كل شهر مائة دينار».

ورجع البغدادي الى دمشق ، وكان فيها عندما عاد صلاح الدين اليها ، وشهد هناك مرض صلاح الدين ووفاته وما حدث بعد ذلك قال:« ثم إن صلاح الدين دخل دمشق ، وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحم فقصده من لاخبرة عنده ، فخارت القوة ،ومات قبل الرابع عشر ، ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء ، ومارأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لانه كان محبوبا يحبه البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، ثم تفرق اولاده واصحابه ايدي سبأ ، ومزقوا في البلاد كل ممزق».

واقام البغدادي بدمشق حتى حاصرها العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وقد خرج اليه ، ورافقه الى مصر ، وظل مقيما بالقاهرة حتى ما بعد وفاة العزيز عثمان الى استيلاء العادل على القاهرة ، وقد قام البغدادي بوصف مصر ودون اخبار المجاعة التي تعرضت اليها ايام العادل ، وبعد هذا غادر مصر الى القدس ، ثم الى دمشق ، وبعد ذلك الى حلب ، وزار بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد الى حلب فاقام بها مدة طويلة وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة السفر الى العراق ليحج ، فمرض ببغداد ، واخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات ـ كما شاء الله ـ في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة»(١٢٣٢ م) وكان البغدادي غزير الانتاج متنوعه ، من ذلك الحديث واللغة والطب والحساب والنبات ، والتاريخ ، ووصلنا من تاريخه بعض النقول اخترت منها ماارتبط بموضوع الحروب الصليبية ، كما اخترت فصلين مما وصف به المجاعة بمصر.

واعود للتأكيد إن لمواد ابن جبير ومواد البغدادي اهمية تقترن بما كتبه العماد الاصفهاني وابن شداد ،وتغني صورة الأحداث ، لاسيما من الجوانب غير العسكرية والسياسية.

وينتمي الى عصر ابن جبير والبغدادي مؤرخ كبير ، عاش ايضا عصر صلاح الدين ، لابل حضر بعض معاركه ، ومع ذلك لم يكن كبير الاعجاب بصلاح الدين ولامؤثرا له ، لأنه جزري المولد ، موصلي الاقامة ، اتابكي الهوى ، إنه ابن الاثير الجزري .

عدت منطقة الجزيرة بين اقدم الامصار التي ازدهرت فيها الحضارة العربية ففي مدنها توفرت المدارس والمكتبات ، وعاش فيها الكتاب والشعراء ، وصنف الجزريون في مختلف فنون المعرفة بالسريانية حينا وبالعربية في غالب الاحيان ، وسلف لنا التعرف الى عدد من المؤرخين السريان ، ولاسيما الذين ارخوا لأحداث الحروب الصليبية ، واكثر من السريان واعظم شهرة الذين ارخوا بالعربية ، وتعرفنا من قبل على ابن الأزرق وتعاملنا مع مواده التي اودعها في كتابه« تاريخ آمد وميافارقين».

واعظم شهرة من ابن الازرق واخصب انتاجا ابن الاثير ، وهو عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني وقد ولد عز الدين(٥٥٥ ــ ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) في جزيرة ابن عمر ، وكانت من اعمال الموصل ، وفيها عاش الى ان انتقل مع والده واسرته الى الموصل سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وكان والده من اعيان العاملين في الدولة الاتابكية بالموصل ، وغالبا ما اشار اليه ابنه في كتاباته.

وكان لابن الاثير اخوين ، واحد اسن منه ، هو مجد ابو السعادات المبارك ، ولد سنة٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وعرف الاصغر منه باسم ضياء الدين نصر الله، وكان قد ولد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ، واتجه كل واحد من الاخوة الثلاثة نحو

اختصاص تميز به ، فقد شهر مجد الدين بالعلوم الدينية ، واختص ضياء الدين بالأدب ، وسيرد معنا ذكره كثيرا ، اثناء وزارته للأفضل علي بن صلاح الدين ، ومثل ضـياء الدين خـدم مجـد الدين في ادارة الاتابكة في كتابة الانشاء بالموصل ، لكن عز الدين مؤرخنا ـ كمـا يرجح ـ لم يدخل في خدمة الاتابكة ولعله لم يتسلم أية وظيفة لديهم ، مع ان صلاته بهم كانت وثيقة ، ومكانته لديهم عالية حتى انه سـفر لبعضهم الى بغداد وربما الى غيرها ، وتتلمذ مـؤرخنا على علمـاء عصره وحصل على معارف واسعة خاصة في ميدان التاريخ وصـنف اربعة كتب وصلتنا ونشر بعضها اكثر من مرة وهي :

١ ـ اللباب في تهذيب الانساب
٢ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة
٣ ـ الكامل في التاريخ
٤ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل

وقد هذب في الاول كتاب الانسـاب للسمعاني ، ولان السمعاني اقتصر اهتمامه على الانتساب الجغرافي ، فقد عدا كتاب اللباب لابن الاثير جغرافيا تاريخيا ، وعليه اعتمد ابو الفداء في تصنيفه لكتـابه تقويم البلدان.

ويعد كتاب اسد الغابة من اهم معاجم تراجم الصحابة عليهم السلام اما كتاب الكامل في التاريخ ، فهو من اهم مصـادر تـاريخ الاسلام . اختصر فيه ما اورده الطبري في تاريخه ثم اكمل اخبار الاسلام حتى ايامه ، لكنه وإن اعتمد على الطبري بشكل اساسي فـانه اسـتدرك عليه وسـد الخلل في معلوماته وراعى التـوازن بين اخبـار المشرق والمغرب.

وصنف ابن الاثير كتابه الباهر التأريخ للأسرة الاتـابكية التـي عاش وذووه في كنفها ، وكان والده مصـدر الكثير مـن معلومـاته ، وكذلك مشاهداته وسماعاته من معـاصريه ، وبحـكم الانتمـاء الى

الاتابكة أقبل على الثناء عليهم جميعا ، ولدى تـأريخه الصراع بين

صلاح الدين وأتابكة الشام والموصل تحزب للاتابكة وحـرم صـلاح الدين من الثناء ان لم نقل انتقد افعاله ، ومـع هـذا يظـل كتـابه هذا بين اهم مصادر اخبار الجزيرة والحروب الصليبية ، يكمل حلقة موادنا التي حصلنا عليها مـن ابـن الازرق الفارقي والمصـادر السريانية ، اما موقفه من صلاح ففي مواد العماد الاصفهاني وابن أبي طي وابن شداد وسواهم ما يعدل الصورة ويوازن المعلومات.

لكتاب الباهر نسخة خطية واحدة معروفة بالعالم ، محفـوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم/ ٨١٨ / ، وقد وقعت في / ٢٣٢ / ورقة ، احتوى كل وجه منها على ثلاثة عشر سطرا ، في كل سـطر مـا بين سبع الى عشر كلمات ، وسلف ان نشر هـذا الكتـاب مـن قبـل المستشرق الفرنسي دي سيلين عام ١٨٧٦ م وترجم الى الفرنسية ثم اعيد تحقيقه ونشر بالقاهرة عام ١٩٦٣ م ، محققا مـن قبـل عبـد القادر احمد طليمات ، حيث كان موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة عين شمس عام ١٩٦٢ .

وبذل السيد طليمات قصارى جهده لضـبط نص مخـطوط هـذا الكتاب الهام ، واسـتدرك كثيرا مـن التصحيفات على طبعـة دي سيلين ، لكن ضعف خلفياته التـاريخية حـول السـلاجقة وفتـرة الحروب الصليبية وعدم تعمقه بالتعامل مع المخـطوط العربي جعله يصحف العديد من الكلمات ، لابل اكثر من ذلك جعله يقـوم بحـذف الصحيح من متن المخطوط وايداعه بالحاشية واستبداله بما وهـم انه الصحيح ،ودفعني هذا الى العودة الى تحقيق الكتـاب وادخـاله ضمن مواد موسوعتنا.

من الله اسأل العون، والسداد ، واتوجه اليه جـل وعلا بـالثناء والحمد والشكر.

-٦٢٥٧-

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ٢١ - ذي القعدة ١٤١٥ هـ

٢٠ - نيسان - ١٩٩٥ م

سهيل زكار

مشاهدات

ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة

ذكر مدينة الموصل حرسها الله تعالى

هذه المدينة عتيقة ضخمة، فخمة، قد طالت صحبتها الزمن، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاما، لقرب مسافة بعضها [من بعض]، وباطن الداخل منها بيوت، بعضها على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته، وسعة وضعه، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية، هي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة، قد رص بناؤها رصا، ينتظمهما سور عتيق البنية، مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان، وقد فصل بينهما وبين البلد، شارع متسع، يمتد من أعلى البلد الى اسفله، ودجلة شرقي البلد، وهي متصلة بالسور، وابراجه في مائها.

وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق، واحدث فيه بعض أمراء البلدة ـ وكان يعرف بمجاهد الدين ـ جامعا على شط دجلة، ما أرى وضع جامع أحفل منه، بناء يقصر الوصف عنه، وعن تـزيينه وترتيبه، وكل ذلك نقش في الآجر. وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة، ويطيف به شبابيك حديد، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا احسن، ووصفه يطول، وإنما وقع الالماع بالبعض، جريا الى الاختصار. وامامه مارستان حفيل، من بناء مجاهد الدين المذكور.

وبنى ايضا داخل البلد، وفي سوقه، قيسارية للتجار، كأنها الخان العظيم، تنغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف، الذي لامثيل له. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها، وللمدينة جامعان: احدهما جديد، والآخر من عهد بني امية، وفي صحن هذا الجامع قبة، داخلها سارية رخام قائمة، قد

خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل السوار من جرم رخامها ، وفي اعلاها خصة رخام مثمنة ، يخرج عليها انبوب من الماء ، خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، كأنه قضيب من البلور معتدل ، ثم ينعكس الى أسفل القبة ، ويجمع في هذين الجامعين القديم والحديث ، ويجمع ايضا في جامع الربض . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة ، فتلوح كأنها القصور المشرفة ، ولها مارستان حاشى الذي ذكرناه في الربض .

وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها « مشهد جرجيس صلى الله عليه وسلم » وقد بني فيه مسجد ، وقبره في زاوية من احد بيوت المسجد ، عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر ، يجده المار الى الجامع من باب الجسر عن يساره ، فتبر كنا بزيارة هذا القبر المقدس ، والوقوف عنده ، نفعنا الله بذلك .

ومما خص الله به هذه البلد ، أن في الشرق منها ، اذا عبرت دجلة على نحو الميل ، « تل التوبة » وهو التل الذي وقف به يونس عليه السلام بقومه ، ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب . وبمقربة منه ، على قدر الميل ايضا العين المباركة المنسوبة اليه ، ويقال : إنه أمر قومه بالتطهر فيها واضمار التوبة ، ثم صعدوا على التل داعين ، وفي هذا التل بناء عظيم ، هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ، ومقاصر ، ومطاهر ، وسقايات ، ويضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر ، وينغلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : إنه كان الموضع الذي وقف فيه يونس صلى الله عليه وسلم ، ومحراب هذا البيت يقال : انه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عظما فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ، ويتعبدون فيه . وحول هذا الرباط قرى كثيرة ، ويتصل بها خراب عظيم ، يقال: انه كان مدينة « نينوى » وهي مدينة يونس عليه السلام ، واثر السور المحيط بهذه المدينة ظاهر ، وفرج الابواب فيه بينة ، واكوام أبراجه مشرفة ، بتنا

بهذا الرباط المبارك ليلة الجمعة السادس والعشرين لصفر ، (ثم) صبحنا العين المباركة ، وشربنا من مائها ، وتطهرنا فيها ، وصلينا في المسجد المتصل بها ، والله ينفع بالنية في ذلك ، بمنه وكرمه ، وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون اعمال البر فلا تلقي منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم . فكان مقامنا في هذه البلدة أربعة ايام .

ومن أحفل المشاهد الدنياوية المريبة ، بروز شاهدناه يوم الاربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين : أم عز الدين صاحب الموصل ، وبنت الامير مسعود المتقدم ذكرها ، فخرج الناس عن بكرة ابيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك ، واكثرهن راكبات ، وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج امير البلد للقاء والدته ، مع زعماء دولته . فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة ، قد جللوا اعناق إبلهم بالحرير الملون ، وقلدوها القلائد المزوقة . ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها ، وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الاكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ؛ مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره ، وكان مشهدا ابهت الابصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار ، لا شريك له .

واخبرنا غير واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، انها موصوفة بالعبادة والخير ، مؤثرة لافعال البر ، فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا الى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما ، وهي تحب الصالحين والصالحات ، وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كله على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك . والله يهدي من يشاء من عبادة .

وفي عشي اليوم الرابع من المقام بهذه البلدة ، وهـو يوم الجمعة السادس والعشرين لصفر المذكور ، رحلنا منهـا على دواب اشتريناها بالموصل ، تفاديا من معاملة الجمـالين ، على ان القدر المحمود لم يسبب لنا الا صحبة الا شبه منهم ، ومـن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة شرفها الله الى الموصل . فأسرينا ليلة السبت الى بعيد نصف الليل ، ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل ، ورحلنا منها ضحوة يوم السبت المذكور ، وقلنا بقرية تعرف « بعين الرصد »،وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحدر فيه الماء ، وكان مقيلا مباركا . وفي تلك القرية خان كبير جديد ، وفي محلات الطريق كلها خانات ، واتفق مبيتنا تلك الليلة بالقرية المذكورة ، وأسرينا منها ، وبتنا بقرية كبيرة تعرف « بجدال » لها حصن عتيق . وفي يومنا هذا رأينا ، عن يمين الطريق ، « جبل الجودي » المذكور في كتاب الله تعالى ، والذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ، وهو جبل عال مستطيل ، ثم رحلنا في السحر الاعلى ، من يوم الاثنين التاسع والعشرين لصفر . فكان مبيتنا بقرية من قرى « نصيبين » ومنها اليها مرحلة ، ويعرف الموضع المذكور « بالكلاني » .

شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ، عرفنا الله بركتة

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة الثاني عشر من يونيه ، ونحن بالقرية المذكورة ، فرحلنا منها سحر يوم الثلاثاء المذكور ، ووصلنا « نصيبين » قبل الظهر من اليوم المذكور .

ذكر مدينة نصيبين ، حرسها الله

شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة

المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد امامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد اجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفي ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوما فطبت لها
ياليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، اندلسي الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتألق عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر اليه ، لاتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا مشحة جمال ، وهذا النهر يتسرب اليها من عين معينه ، منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلل البلد منها جزء فيتفرق على شوارعها ويلج في بعض ديارها ، ويصل الى جامعها المكرم منه سرب يخترق صحنه ، وينصب في صهريجين : احدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقي منه ، ويفضي الى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر المذكور ، جسر معقود من صم الحجارة ، يتصل بباب المدينة القبلي ، وفيها مدرستان ، ومارستان واحد ، وصاحبها معين الدين أخو عز الدين صاحب الموصل (١) ، ابنا أتابك ولمعين [الدين] أيضا مدينة « سنجار » وهي عن يمين الطريق الى « الموصل » .

ويسكن في احدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم ، الشيخ ابو اليقظان الأسود الجسد ، الابيض الكبد ، أحد الاولياء الذين نور الله بصائرهم بالايمان ، وجعلهم من الباقيات الصالحات في الزمان ، الشهير المقامات ، الموصوف بالكرامات ، نضو (٢) التبتل والزهادة ، ومن اخلقت جدته العبادة ، قد اكتفى بنسج يده ، ولايدخر من قوت يومه لغده ؛ أسعدنا الله بلقائه ، وأصحبنا من

بركة دعائه ، عشي يوم الثلاثاء مستهل ربيع الأول ، فحمدنا الله عز وجل على أن من علينا بـرؤيته ، وشرفنا بمصـافحته ، والله ينفعنا بدعائه ، إنه سميع مجيب لا اله سواه .

فكان نزولنا بها في خان خارجها ، وبتنا بها ليلة الاربعاء الثـاني من ربيع الاول . ورحلنا صبيحة في قافلة كبيرة من البغال والحمير : حرانيين ، وحلبيين ، وسواهم من أهل البلاد ، بلاد بكر ومايليها ، وتركنا حاج هذه الجهات وراء ظهورنا على الجمال ، فتمادى سيرنا الى اول الظهر ، ونحن على أهبة وحذر مـن اغارة الا كراد ، الذين هم آفة هذه الجهات من الموصـل الى نصـيبين الى مـدينة دنيسر؛ يقطعون السبيل ، ويسعون فسادا في الارض ، وسـكناهم في جبـال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة ، ولم يعـن الله سـلاطينها على قمعهم ، وكف عادتهم ، فهم ربما وصلوا في بعض الاحيان الى باب نصيبين ، ولادافع لهم ولا مـانع الا الله عز وجـل . فقلنا يوم الاربعاء المذكور ، ورأينا ذلك اليوم ، عن يمين طريقنا ، بقرب مـن صفح الجبل ، مدينة « دارا » العتيقة ، وهي بيضاء كبيرة ولها قلعة مشرفة ، ويليها بمقدار نصف مرحلة ، مدينة « ماردين » ، وهـي في صفح جبل في قنة قلعة لها كبيرة ، هي من قـلاع الدنيا الشـهيرة ، وكلتا المدينتين معمورة .

ذكر مدينة دنيسر ، حرسها الله

هي في بسيط من الارض فسـيح ، وحـولها بسـاتين الرياحين والخضر ، يسقى بالسواقي ، وهي مائلة الطبـع الى البـادية ، ولا سور لها ، وهي مشحونة بشرا ، ولها الاسواق الحفيلة ، والارزاق الواسعة ، وهي مخطر لاهل بلاد الشام ، وديار بكر ، وآمد ، وبلاد الروم التي تلي طاعة الامير مسـعود ، ومـايليها ، ولهـا المحـرث الواسع ، ولها مرافق كثيرة . فـكان نزولنا مـع القـافلة ببـراح

ظــاهرها ، وأصــبحنا يوم الخميس الثــالث لربيع [الأول] بهـــا فريحين ، وخارجها مدرسة جديدة ، بقية البناء فيها ، ويتصل بهـا حمام ، والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومأذنة وصاحب هذه البلدة قطب الدين ، وهو أيضا صاحب مدينة « دارا » ومدينة « مــاردين » و « رأس العين » وهو قريب لابني اتابك(٣) .

وهذه البلدة اسلاطين شتى كملوك طوائف الاندلس ، كلهــم قـد تحلى بحلية تنسب الى الدين ، فلا تسمع الا ألقابا هائلة ، وصفات لذي التحصيل غير طائلة ، قــد تســاوى فيهــا السوقة والملوك ، وا شترك فيها الغني والصعلوك ، ليس فيهم من ارتســم بســمة بــه تليق ، او اتصف بصفة هو بها خليق إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن ، والمشتهر الفضل والعدل ، فهذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فـزعازع ريح ، وشهادات يردها التجريح ، ودعوى نسبة للدين برحت بــه أي تبريح !

القاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد(٤)

ونرجع الى حديث المراحل ، قربها الله :

فكان مقامنا بدنيسر الى أن صلينا الجمعة ، وهــو اليوم الرابــع لربيع[الاول] ، تلوم اهل القافلة بها لشهود سوقها ، لان بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد بعدها سوق حفيلة ، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بهــا ، لأن الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، ويســمون هذه السوق المجتمع اليها من الجهــات البــازار ، وأيام كل ســوق معلومة .

ورحلنا اثر صلاة الجمعة ، فاجتزنا على قرية كبيرة لها حصن ،

تعرف « بتل العقارب » هي للنصارى المعاهدين الذميين ، ذكرتناهذه القرية بقرى الاندلس حسنا ونضارة ، تحفها البساتين والكروم وأنواع الاشجار ، ويتسرب بازائها نهر ترف الظلال عليه ، وخطها متسع ، والبساتين قد انتظمته ، وشاهدنا بها من الخنابيص (٥) امثال الغنم كثرة وانسا بأهلها . ثم وصلنا عشي النهار الى قرية اخرى تعرف « بالجشر » هي الان لناس من المعاهدين ، وهم فرقة من فرق الروم . فكان مبيتنا بها ليلة السبت الخامس لربيع المذكور ، ثم اسحرنا منها ، ووصلنا مدينة « رأس العين » قبيل الظهر من يوم السبت المذكور .

ذكر مدينة رأس العين ، حرسها الله

هذا الاسم لها من اصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات ، وذلك ان الله تعالى فجر أرضها عيونا ، واجراها ماء معينا ، فتقسمت مذانب ، وانسابت جداول ، تنبسط في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت حافتيها الى اخر انتهائها من عمارة بطحائها ، وأعظم هذه العيون عينان : احداهما فوق الاخرى ، فالعليا منهما نابعة فوق الارض في صمم الحجارة ، كأنها في جوف غار كبير متسع ينبسط الماء فيه حتى يصير كالصهريج العظيم ، ثم يخرج ويسيل نهرا كبيرا كأكبر ما يكون من الانهار ، وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها ، وهذه العين الثانية عجب من عجائب مخلوقات الله عز وجل ، وذلك انها نابعة تحت الارض من الحجر الصلد ، بنحو أربع قامات او ازيد ، ويتسع منبعها حتى يصير صهريجا في ذلك العمق ، ويعلو بقوة نبعه حتى يسيل على وجه الارض ، فربما يروم السابح القوي السباحة ، الشديد الغوص في اعماق المياه ، ان يصل بغوصه الى قعره ، فيمجه الماء بقوة ، انبعاثا من منبعه ، فلا يتناهى في غوصه الى مقدار نصف مسافة

العمق او أقل شيئا ؛ شاهدنا ذلك عيانا . ومـاؤها اصـفى مـن الزلال ، واعذب من السلسبيل ، يشف عما حواه ، فلو طرح الدينار فيه في الليلة الظلماء لما اخفاه ، ويصاد فيها سمك جليل من اطيب مايكون من السمك ، وينقسم ماء هذه العين نهرين : احدهما أخذ يمينا ، والآخر يسارا ، فالأيمن يشق خانقاه مبنية للصوفية والغرباء بازاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا ، والايسر ينسرب على جانب الخانقاه ، وتفضي منه جداول الى مطاهرها ومرافقها المعدة للحاجة البشرية ، ثم يلتقيان اسلفها مع نهر العين الأخرى العليا . وقد بنيت على شط نهرهما المجتمع ، بيوت ارحاء تتصل على شط موضوع وسط النهر ، كأنه سد . ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور .

وبمقر به من هذه الخانقاه بحيث تناظرها ، مدرسة ،بازائها حمام ، وكلاهما قد وهى وأخلق وتعطل ، ومارأى كان في موضوعات لدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء ، والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب ، والمدخل اليها من جانب واحد . وأمامها ووراءها بستان ، وبازائها دولاب يلقي الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر ، وشأن هذا الموضع كله عجيب جدا ، فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، ان يكون لها مثل هذا الموضع جملا ، او تتحلى بمثل هذه العيون ولله القدرة في جميع مخلوقاته .

وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء ، وللحضارة عنها استغناء ، لاسور يحصنها ، ولادور انيقة البناء تحسنها ، قد ضحيت (٦) في صحرائها كأنها عوذة لبطحائها . وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ، ولها جامعان حديث وقديم ، فالقديم بموضع هذه العيون ، وتنفجر أمامه عين معينة هي دون اللتين ذكرناهما ، وهو من بنيان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، لكنه قد اثر القدم فيه ، حتى آذن بتداعيه ، والجامع الآخر داخل البلد وفيه يجمع أهله ، فكان مقامنا بها ذلك اليوم نزهة ، لم نختلس في سفرنا كله مثلها .

فلما كان عند المغيب من يوم السبت الخامس لربيع المذكور ، وهو السادس عشر ليونيه ، رحلنا منها رغبة الاسراء ، وبرد الليل ، وتفاديا من حر هجيرة التأويب ، لأن منها الى حران مسيرة يومين ، لاعمارة فيها ، فتمادى سيرنا الى الصباح ، ثم نزلنا في الصحراء على ماء جب ، وارحنا قليلا . ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد ، وسرنا ونزلنا قريب العصر على ماء بئر ، بموضع فيه برج مشيد وآثار قديمة ، يعرف « ببرج حواء » . فبيتنا به ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة ، واسرينا الى الصباح ، فوصلنا مدينة « حران » مع طلوع الشمس من يوم الاثنين السابع لربيع المذكور ، والثامن عشر ليونيه ، والحمد لله على تيسيره .

ذكر مدينة حران ، كلاها الله

بلد لاحسن لديه ، ولاظل يتوسط برديه ، قد اشتق من اسمه هواؤه ، فلا يألف البرد ماؤه ، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وارجاؤه ، ولاتجد فيه مقيلا ، ولا تتنفس منه الا نفسا ثقيلا ، قد نبذ بالعراء ، ووضع في وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة .

استغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا وفضلا أنها البلدة العتيقة المنسوبة لابينا ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، وله بقبلها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك ، فيه عين جارية ، كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليهما ، ومتعبدا لهما ببركة هذه النسبة ، قد جعل الله هذه البلد مقرا للصالحين المتزهدين ، ومثابة للسائحين المتبتلين . لقينا من افرادهم الشيخ أبا البركات حيان بن عبد العزيز ، حذاء مسجده المنسوب اليه ، وهو يسكن منه في زاوية بناها في قبلته ، وتتصل بها في آخر الجانب زاوية لابنه عمر ، قد التزمها واشبه طريقة ابيه فما ظلم ، وتعرفت منه شنشنة أعرفها من اخزم .

فوصلنا الى الشيخ ، وهو قد نيف على الثمانين ، فصافحنا ودعا لنا وامرنا بلقاء ابنه عمر المذكور . فملنا اليه ولقيناه ، ودعا لنا ، ثم ودعناهما وانصرفنا مسرورين ، بلقاء رجلين من رجال الآخرة .

ولقينا ايضا بمسجد عتيق الشيخ الزاهد سلمة ، فلقينا رجلا من الزهاد الافراد ، فدعا لنا وسألنا ، وودعناه وانصرفنا ، وبالبلد سلمة آخر ، يعرف بالمكشوف الرأس ، لايغطي رأسه تواضعالله عز وجل حتى عرف بذلك ، وصلنا الى منزله ، فأعلمنا أنه خرج البرية سائحا .

وبهذه البلدة كثير من أهل الخير ، وأهلها هيذون معتدلون ، محبون للغرباء ، مؤثرون للفقراء . وأهل هذه البلاد ، من الموصل لديار بكر ، وديار ربيعة الى الشام ، على هذه السبيل من حب الغرباء ، واكرام الفقراء ؛ وأهل قراها كذلك . فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زادا ، لهم في ذلك مقاصد في الكرم مأثورة ، وشأن أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب ، والله ينفعهم بما هم عليه ، وأما عبادهم وزهادهم والسائحون في الجبال منهم ، فاكثر من ان يقيدهم الاحصاء ، والله ينفع المسلمين ببركاتهم ، وصوالح دعواتهم ، بمنه وكرمه .

ولهذه البلدة المذكورة أسواق حفيلة الانتظام ، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها بالخشب ، فلا يزال أهلها في ظل ممدود ، فتخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع ، قد بني عند كل ملتقى أربع أسواق منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص ، هي كالمفرق لتلك السكك . ويتصل بهذه الأسواق جامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية الحسن ، وله صحن كبير ، فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن ايضا قبة رابعة عظيمة ، قد قامت على عشر سوار من الرخام ،دور كل سارية تسعة أشبار ،وفي وسطالقبة عمود من الرخام عظيم الجرم ، دوره خمسة عشر شبرا . وهذه القبة من بنيان الروم . واعلاها مجوف كأنه البرج المشيد ، يقال : إنه كان مخزنا

لعدتهم الحربية ، والله أعلم ، والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط ، وسعته خمس عشرة خطوة ، وهو خمسة ابلطة . وما رأينا جامعا اوسع حنايا منه . وجداره المتصل بالصحن ، الذي عليه المدخل اليه ، مفتح كله ابوابا ، عددها تسعة عشرة بابا : تسعة يمينا ، وتسعة شمالا ، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله بهي المنظر ، جميل الوضع ، كأنه باب من ابواب المدن الكبار . ولهذه الابواب كلها اغلاق من الخشب البديع الصنعة والنقش ، تنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور ، فشاهدنا من حسن بناء هذا الجامع ، وحسن ترتيب اسواقه المتصلة به ، مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه .

ولهذه البلدة مدرسة ومارستانان . وهي بلدة كبيرة ، وسورها متين حصين ، مبني بالحجارة المنحوتة ، المرصوص بعضها على بعض ، وفي نهاية من القوة ، وكذلك بنيان الجامع المكرم . ولها قلعة حصينةمما يلي الجهة الشرقية منها ، منقطعة عنها بفضاء واسع بينهما ، ومنقطعة ايضا عن سورها بحفير عظيم يستدير بها ، قد شيدت حافاته بالحجارة المركومة ، فجاء في نهاية الوثاقة والقوة . وسور القلعة وثيق الحصانة ، ولهذه البلدة نهير ، مجراه بالجهة الشرقية ايضا منها بين سورها وجبانتها ، ومصبه من عين هي على بعد من البلد .

والبلد كثير الخلق ، واسع الرزق ، ظاهر البركة ، كثير المساجد ، جم المرافق ، على احفل ما يكون من المدن . وصاحبه مظفرالدين بن زين الدين وطاعته الى صلاح الدينوهذه البلاد كلها من الموصل الى نصيبين الى الفرات ، المعروفةبديار ربيعة وحدها من نصيبين الى الفرات مع ما يلي الجنوب من الطريق ، وديار بكر التي تليها في الجانب الجوفي كآمد وميا فارقين وحاني وغيرها مما يطول ذكره ، ليس في ملوكها من يناهض صلاح الدين ، فهم الى طاعته

وإن كانوا مستبدين ، وفضله يبقي عليهم ، ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

فكان نزولنا ظاهر البلد بشرقيه على نهيره المذكور ، واقمنا مريحين يوم الاثنين ويوم الثلاثاء بعده ، واثر الظهر منه كان اجتماعنا بسلمة المكشوف الرأس ، الذي فاتنا لقاؤه يوم الاثنين ، فلقيناه بمسجده فرأينا رجلا عليه سيما الصالحين ، وسمت المحبين ، مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر ، فآنسنا ودعا لنا ، وودعناه وانصرفنا حامدين الله عز وجل ، على ما من به علينا من لقاء اوليائه الصالحين وعبادة المقربين .

وفي ليلة الاربعاء التاسع لربيع المذكور ، كان رحيلنا بعد تحويم ساعة ، فأسرينا الى الصباح ، ونزلنا مريحين « بتل عبده » ، وهو موضع عمارة ، وهذا التل مشرف متسع ، كأنه المائدة المنصوبة ، وفيه اثر بناء قديم . وبهذا الموضع ماء جار ، وكان رحيلنا منه عند المغرب ، واسرينا الليل كله ، واجتزنا على قرية تعرف « بالبيضاء » فيها خان كبير جديد ، وهو نصف الطريق من حران الى الفرات ، ويقابلها على اليمين من الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة ، « سروج » التي شهر ذكرها الحريري بنسبة أبي زيد اليها ، وفيها البساتين والمياة المطردة ، حسبما وصفها به في مقاماته .

فكان وصولنا الى الفرات ضحوة النهار ، وعبرنا في الزواريق المقلة المعدة للعبور ، الى قلعة جديدة على الشط ، تعرف «بقلعة نجم » وحولها ديار بادية ، وفيها سويقة يوجد فيها المهم من علف وخبز ، فأقمنا بها يوم الخميس العاشر لربيع الأول المذكور مريحين خلال ما تكمل القافلة بالعبور ، واذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام ، وسرت في طاعة صلاح الدين الى دمشق . والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر ، وعن يسار الطريق ، في استقبالك الفرات الى الشام ، مدينة « الرقة » وهي على الفرات ، وتليها

« رحبة مالك بن طوق » وتعرف « برحبة الشام » ، وهي مـن المدن الشـهيرة ، ثـم رحلنا منهـا عند مضي ثلث الليل الاول ، واسرينا ووصلنا مدينة « منبج » مع الصباح من يوم الجمعـة الحـادي عشر لربيع المذكور ، والثاني والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة منبج ، حرسها الله

بلدة فسيحة الارجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتـد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ، ومجتلاها جميل ، ونسـميها أرج النشر عليل ، نهارها يندى ظله ، وليلها كما قيل فيه : سـحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار ، مختلفة الثمـار . والماء يطرد فيها ، ويتخلل جميع نواحيهـا ، وخصص الله داخلهـا بآبار معينة ، شهدية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تـكون في كل دار منها البئر والبئران ، وارضها أرض كريمة ، تستنبط مياها كلها ، واسواقها وسككها فسيحة متسعة ، ودكاكينها وحـوانيتها كأنهـا الخانات والمخازن اتساعا وكبرا ، وأعالي اسواقها مسقفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات ، لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الاحقاب ، حتى أخذ منها الخـراب ؛ كانت مـن مـدن الروم العتيقة ، ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها . ولها قلعة حصينة في جوفيها ، تنقطع عنها وتنحاز منهـا ، ومـدن هـذه الجهات كلها لاتخلو من القلاع السـلطانية . واهلهـا اهـل فضـل وخير ، سنيون شافعيون ، وهي مطهرة بهـم مـن أهـل المذاهـب المنحرفة ، والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الاكثر من هذه البـلاد ، فمعاملاتهم صحيحة ، واحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضـحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة .

فكان نزولنا خارجها ، في أحد بساتينها ، وأقمنا يوما مريحين ، ثم رحلنا نصف الليل . ووصلنا « بزاعة » ضحوة يوم السـبت الثـاني عشر لربيع المذكور .

ذكر بلدة بزاعة كلاها الله عز وجل

بقعة طيبة الثرى ، واسعة الذرى تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، بها سوق تجمع بين المرافق السفرية ، والمتاجر الحضرية ، وفي اعلاها قلعة كبيرة حصينة ، رامها أحد ملوك الزمن فغاظته باستصعابها ، فأمر بثلم بنائها حتى غادرها عورة منبونة بعرائها ، ولهذه البلدة عين معينة ، يخترق ماؤها بسيط بطحاء ترف بساتينها خضرة ونضارة ، وتريك برونقها الانيق حسن الحضارة .

ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة ، تعرف « بالباب » هي باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الاسماعيلية لايحصي عددهم الا الله فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيل فسادهم واضرارهم ، حتي داخلت أهل هذه البلاد العصبية ، وحركتهم الانفة والحمية ، فتجمعوا من كل أوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكومت بهذه البطحاء جماجمهم ، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرهم ، وأحاق بهم مكرهم ، والحمد لله رب العالمين . وسكانها اليوم قوم سنيون . فأقمنا بها يوم السبت ببطحاء هذه البلدة مريحين ، ورحلنا منها في الليل ، واسرينا الى الصباح ، ووصلنا مدينة « حلب » ضحوة يوم الاحد الثالث عشر لربيع الاول والرابع والعشرين ليونيه .

ذكر مدينة حلب ، حرسها الله تعالى

بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم اهاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام او

تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الارض مستديرة ، منحوتة الارجاء ، موضوعة على ذسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من احكم تقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها ، عتيقة في الازل ، حديثة وإن لم تزل ، قد طاولت الايام والاعوام ، وشيعت الخواص والعوام . هذه منازلها وديارها ، فأين سكانها قديما وعمارها وتلك دار مملكتها وفناؤها ، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ اجل ، فني جميعهم ، ولم يأن بعد فناؤها ! فياعجبا للبلاد تبقى وتذهب املاكها ، ويهلكون ولايقضى هلاكها ، تخطب بعدهم فلا يتعذر ملاكها (٧) وترام فيتيسر بأهون شيء ادراكها ، هذه حلب ، كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت بظرف الزمان بالمكان ، انث اسمها فتحلت بزينة الغوان ، ودانت بالغدر فيمن خان وتجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات ! هيهات ! سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها ، وتتطرق جذبات الحوادث اليها ، حتى يرث الله الارض ومن عليها ، لا إله سواه ، سبحانه جلت قدرته .

وقد خرج بنا الكلام عن مقصده ، فلنعد الى ما كنا بصدده ، فنقول : ان من شرف هذه القلعة ، انه يذكر انها كانت قديما في الزمان الاول ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ، بغنيمات له ، فيحلبها هنالك ، ويتصدق بلبنها ، فذلك سميت « حلب » والله أعلم . وبها مشهد كريم له ، يقصده الناس ويتبركون بالصلاة فيه . ومن كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع ، ان الماء بها نابع ، وقد صنع عليه جبان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظما أبد الدهر ، والطعام يصبر فيها الدهر كله ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبين المذكورين ، سوران حصينان من الجانب الذي ينظر البلد ، ويعترض دونهما خندق والحسن اعظم من أن تنتهي الى وصفه . وسورها الاعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلالي المنيفة ، والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقانا . وكل برج مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة الملوكية .

واما البلد فموضوعه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من [سماط] صنعة الى سماط صنعة أخرى ، الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب ، فسكانها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الابصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا ، وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا ، مطيفة بالجامع المكرم ، لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ، ولوكان من المرائي الرياضية . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة ، وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش ، وتفتحت كلها حوانيت ، فجاء منظرها أجمل منظر ، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ، وهذا الجامع من احسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله ابوابا قصرية الحسن ، الى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين بابا ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع ، رائق الانشراح . وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبرا على شكله ، وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسنا ، على تلك الصـــفة الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف وقد قوس اعلاه ، وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرضع كله بالعاج والآج واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب ، مع ما يليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم اكثر من ان يوصف .

ويتصل به من الجانب الغربي ، مدرسة الحنفية تناسب الجامع حسنا واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من احفل ماشاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة ، ومن

اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتـا وغر فـا ، ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بـطول الجـدار عريش كرم مثمر عنبا ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسـطها مـن ذلك العنب متدليا امامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئا دون كلفة ولا مشقة ، وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو اربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان .

وامرها في الاحتفال عظيم ، فهي بلدة تليق بالخلافة ،وحسنها كله داخل لاخارج لها الا نهير يجري من جـوفيها الى قبليها ، ويشـق ربضها المستدير بها ، فإن لها ربضا كبيرا ، فيه من الخانات مـالا يحصى عدده . وبهـــــــــــــــذا النهـــــــــــــــر الارحاء ، وهي متصلة بالبلد ، وقائمة وسط ربضـه وبهـذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله ، وكيفما كان الامر فيه داخلا وخارجا ، فهو من بلاد الدنيا التي لانظير لها ، والوصف فيه يطول .

فكان نزولنا بربضه في خان يعرف بخان ابي الشكر ؛ فاقمنا بـه أربعـة أيام ، ورحلنا ضـحوة يوم الخميس الســابع عشر لربيع المذكور ، والثـامن والعشرين ليونيه ، ووصـــلنا « قنسرين » قبيل العصر ، فأرحنا بها قليلا ، ثم انتقلنا الى قـرية تعـرف « بتـل باجر » . فكان مبيتنا بها ليلة الجمعة الثـامن عشر منه . وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان ، لكنها خربت وعادت كأن لم تكن بالأمس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ، ورسومها الطـامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لانها على محـرث عظيم مـد البصر عرضـا وطولا ، وتشبهها من البلاد الاندلسـية جيان ، ولذلك يذكر أن أهـل قنسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيان ، تأنسا بشـبه الوطـن وتعللا به مثلما فعل في اكثر بلادها ، حسب ماهو معروف .

ثم رحلنا من ذلك الموضع ، عند الثلث الماضي من الليل ، فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مـريحين بمـوضع يعـرف « بباقدين » في خان كبير يعرف بخان التركمان ، وثيق الحصـانة

وخانات هذا الطريق كأنهـا القـلاع امتناعا وحصـانة ، وابـوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية . ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف « بتمنى » في خان وثيق ، على الصفة المذكورة .

ثم اسحرنا منه يوم السـبت التـاسع عشر لربيع الاول المذكور ، وهو آخر يوم من يونيه ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور . بلاد « المعرة » ، وهي سواد كلهـا : بشـجر الزيتون والتين والفسـتق وانواع الفـواكه ، ويتصـــل التفـــاف بساتينها ، وانتظام قراها ، مسيرة يومين ، وهي من اخصب بـلاد الله ، واكثرها ارزاقا ، ووراءهـا جبـل «بهراء» وهـو ســامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ، وفي صـفحته حصون الملاحدة الاسماعيلية ، فرقة مرقت مـن الاسـلام ، وادعت الالهية في أحد الانام ، قيض لهم شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات مـوه عليهـم بـاستعمالها ، وسـحرهم بمحالها ، فاتخذوه الها يعبدونه ، ويبذلون الانفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردي مـن شـاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل في مرضاته الردى ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء بقدرته ، ونعـوذبه سـبحانه مـن الفتنة في الدين ، ونسأله العصمة مـن ضـلال الملحـدين ، ولا رب غيره ، ولامعبـود سواه . وجبل بهراء المذكور هو حد بين بلاد المسـلمين والافـرنج ، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما مـن بـلادهم ، اعادهـا الله المسلمين . ويغيرون منه على حماة وحمص ، وهـو بمـرأى العين منهما ، فكان وصولنا الى مدينة « حماه » في الضحى الاعلى ، مـن يوم السبت المذكور ، فنزلنا بربضها في احد خاناته .

ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى

مدينة شهيرة في البلدان ، قـديمة الصـحبة للزمـان ، غير فسـيحة الفناء ، ولا رائقة البناء ، اقطارها مضمومة ، وديارها مـركومة ،

لايهش البصر اليها ، عند الاطلال عليهــا ، كأنهــا تــكن بهجتهـــا وتخفيها ، فتجد حسنها كامنا فيهــا ، حتــى اذا جســت خــلالها ، وذقرت ظلالها ، أبصرت بشرقيهــا نهــرا كبيرا ، تتســع في تــدفقه اساليبه ، وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طـرتيه ، بســاتين تتهدل اغصانها عليه ، وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه ، يذسرب في ظلالها ، وينساب على سمت اعتــدالها ، وبـأحد شــطيه المتصــل بربضها مظاهر منتظمة بيوتا عدة ، يخترق الماء من أحد دواليبــه ، جميع نواحيها ، فلا يجد المغتسل اثر اذى فيها ، وعلى شطه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير ، قد فتح جداره الشرقي عليه ، طيقانا تجتلى منها منظرا ترتاح النفس اليه ، وتتقيد الابصار لديه ، وبازاء ممر النهر بجــوفي المدينة ، قلعــة حلبية الوضــع ، وإن كانت دونها في الحصانة والمنع ، سرب لها من هذا النهر ماء ينبع فيهــا ، فهي لاتخاف الصدى ، ولا تتهيب مرام العــدى . ومــوضوع هــذه المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة ، كأنهــا خندق عميق ، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطــل ، والمدينة العليا متصــلة بصفح ذلك الجانب الجبلي ، والقلعــة في الجــانب الآخــر في ربــوة منقطعة كبيرة مستديرة ، قد تولى نحتهــا الزمــان ، وحصــل لهــا بحصانتها من كل عدو الامان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصـــلة بالجانب الذي يصب النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان ، وســـور المدينة العليا يمتــد على رأس جــانبها العلي الجبلي ويطيف بهــا . وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثــلاثة جــوانب ، لأن جــانبها المتصل بالنهر لايحتاج الى سور ، وعلى النهر جسر كبير ، معقــود بصم الحجارة ، ويتصل من المدينة السفلى الى ربضها . وربضـــها كبير فيه الخانات والديار ، وله حوانيت يســتعجل فيهــا المســافر حاجته ، الى ان يفرغ لدخول المدينة ، وأسواق المدينة العليا احفــل وأجمل من أسواق المدينة السفلى ، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات ، وموضوعها حسن التنظيم ، بديع الترتيب والتقسيم ، ولها جامع أكبر من الجامع الاســفل ، ولهــا ثــلاث مــدارس ، ومارستان على شط النهر ، بازاء الجامع الصغير . وبخارج هــذه البلدة بسيط فسيح عريض ، قد انتظم اكثــره شــجرات الاعناب ،

وفيه المزارع والمحارث ، وفي منظره انشراح للنفس وانفساح ، والبساتين متصلة على شطي النهر ، وهو يسمى « العاصي » لأن ظاهرة انحداره من سفل الى علو ، ومجراه من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها .

فكان مقامنا بحماة الى عشي يوم السبت المذكور ، ثم رحلنا منها ، وأسرينا الليل كله ، وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور ، على جسر كبير معقود من الحجارة . وعليه مدينة رستن التي خربها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآثارها عظيمة ، ويذكر الروم القسطنطينيون أن بها أموالا جمة مكنوزة ، والله أعلم بذلك ، فوصلنا الى مدينة « حمص » مع شروق الشمس من يوم الاحد الموفي عشرين لربيع [الاول] وهو أول يوليه ، فنزلنا بظاهرها بخان السبيل .

ذكر مدينة حمص ، حرسها الله تعالى

هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الارض عريض مداه ، لايخترقه النسيم بمسراه ، يكاد البصر يقف دون منتهاه أفيح أغبر ، لاماء ولا شجر ، ولاظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظماءها ، وتستقي على البعد ماءها ، فيجلب لها من نهيرها العاصي ، وهو منها بنحو مسافة الميل ، وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها ، وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة بصفح جبل ، فوقها بمرحلة بموضع يقابل « بعلبك » أعادها الله ، وهي عن يمين الطريق الى دمشق ، وأهل هذه البلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو ، لمجاورتهم إياه ، وبعدهم في ذلك اهل حلب . فأحمد خلال هذه البلدة هواؤها الرطب ، ونسيمها الميمون تخفيفه وتجسيمه ، فكأن الهواء النجدي في الصحة شقيقه وقسيمه ، وبقبلي هذه المدينة قلعة حصينة منيعة ،

عاصية غير مطيعة ، قد تميزت وانحازت بموضوعها عنها ، وبشرقيها جبانة فيها قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، هو سيف الله المسلول ، ومعه قبر ابنه ومعه قبر ابنه عبد الرحمن ، وقبر عبيد الله بن عمر رضي الله عنهم . واسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود ، وابوابها ابواب حديد ، سامية الاشراف ، هائلة المنظر ، رائعة الاطلال والاناقة ، تكتنفها الابراج المشيدة الحصينة ، واما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خاقة الارجاء ، ملفقة البناء ، لا اشراقا لآفاقها ، ولا رونق لأسواقها ، كاسدة لا عهد لها بنفاقها ، وماظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويحرق اذا يطير شراره ، ويتعهد اذا شاء كل يوم مغاره ، وسألنا أحد الاشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن الجهات ؟ فقال ، وقد انكر ذلك:حمص كلها مارستان ! وكفاك تبيينا شهادة اهلها فيها ! وبها مدرسة واحدة . وتجد في هذه البلدة عند اطلالك عليها من بعد ، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة « اشبيلية » من بلاد الاندلس ، يقع الحين في نفسك خياله ، وبهذا الاسم سميت في القديم ، وهي العلة التي اوجبت نزول الاعراب أهل حمص فيها ، حسبما يذكر ، وهذا التشبيه ، وان لم يكن بذاته ، فله لمحة من إحدى جهاته .

وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ، ويوم الاثنين بعده ، وهو الثاني ليوليه ، الى أول الظهر ، ورحلنا منها وتمادينا الى العشي ، ونزلنا بقرية خربة تعرف « مشغرى » ، فعشينا بها الدواب ، ثم رحلنا عند المغرب ، وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا الى الضحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور . ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين ، تعرف « بالقارة » ليس فيها من المسلمين أحد ، وبها خان كبير كانه الحصن المشيد ، في وسطه صهريج كبير ، مملوء ماء يتسرب له تحت الارض من عين على البعد ، فهو لايزال ملآن ، فارحنا بالخان المذكور الى الظهر ، ثم رحلنا منه الى قرية تعرف « بالنبك » بها ماء مار ومحرث

متسع ، فنزلنا بها للتعشية ، ثم رحلنا منها بعد اختلاس تهويمه خفيفة .

واسرينا الليل كله ، فوصلناالى خان السلطان مع الصباح ، وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام ، وهو في نهاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها ، واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ، ولها منافس ينصب منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص في سرب في الارض ، والطريق من حمص الى دمشق قليل العمارة الا في ثلاثة مواضع او أربعة ؛ منها هذه الخانات المذكورة . فأقمنا بها يوم الاربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور ، مريحين ومستدركين النوم الى أول الظهر ، ثم رحلنا وجزنا « بثنية العقاب » ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين : احداهما التي جئنا منها ، والثانية آخذة شرقا في البرية على السماوة الى العراق ، وهي طريق قصد لكنها لاتدخل الا في الشتاء ، فانحدرنا منها بين جبال في بطن واد الى البسيط ، ونزلنا منه بموضع يعرف « بالقصير » فيه خان كبير ، والنهر جار أمامه ، ثم رحلنا منه الصبح ، وسرنا في بساتين متصلة لايوصف حسنها ، ووصلنا دمشق في الضحى الاعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول ، والخامس ليوليه ، والحمد لله رب العالمين .

شهر ربيع الآخر

استهل هلاله يوم الاربعاء ، بموافقة الحادي عشر ليوليه ، ونحن بدمشق ، نازلين فيها بدار الحديث ، غربي جامعها المكرم .

ذكر مدينة دمشق ، حرسها الله تعالى

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ، قد تجلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها الى ربوة ذات قرار ومعين ، ظل ظليل وماء سلسبيل ، وتنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم :هلموا الى معرس للحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب(٨) » ، قد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد النظر ، ولله صدق القائلين عنها : « إن كانت الجنة في الارض فدمشق لاشك فيها ، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » .

ذكر جامعها المكرم ، عمره الله تعالى

هو من أشهر جوامع الاسلام حسنا ، واتقان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين . وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه لاتنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولاتلم به الطير المعروفة بالخطاف ......

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائما ، ومثله اثر صلاة العصر

لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرأون فيهـا مـن سـورة الكوثـر الى الخاتمة . ويحضر في هذا المجتمع الكوثـري كل مـن لايجيد حفـظ القرآن . والمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه ازيد مـن خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فـلا تخلو القراءة منه صباحا ولامسـاء . وفيه حلقـات للتـدريس الطلبـة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . وللمالكية زاوية التدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومـرافق هذا الجامع المكرم للغرباء ، واهل الطلب ، كثيرة واسـعة ، واغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصـورتين القـديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس ، ابصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية ، يعرف بـالمرادي . وعند فـراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا ، يستند كل انسـان منهـم الى سارية ، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن . وللصـبيان ايضـا على قراءتهم جراية معلومة ، فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية ٠

وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد ، ولهـا وقـف كبير ، يأخـــــــــــــــــذ منه المعلم لهـــــــــــــــــم ما يقوم به ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم ؛ وهذا ايضا من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد . وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها ، انما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها ، تنزيها لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالاثبات والمحو . وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتـب على حدة فينفصل مـن التلقين الى التـكتيب ، لهـم في ذلك سـيرة حسنة . ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخـط ، لان المعلم له لايشـتغل بغيره ، فهو يستفرغ جهـده في التعليم ، والصـبي في التعلم كذلك ، ويسهل عليه لانه بتصوير يحذو حذوة ......

وبآخر هذا الجبل [جبل قاسيون] المذكور ، في آخـر البسـيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الربوة المبـاركة المذكورة في كتـاب

الله تعالى : مأوى المسيح وامه صلوات الله عليهما ، وهي من ابدع مناظر الدنيا حسنا ، وجمالا ، واشراقا ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرف وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج ، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلى الخضر صلى الله عليه وسلم ، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين ، ولاسيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير أحسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، ومساؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير أحسن من منظره . وخلف ذلك مطاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائة ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار ، يأخذ كل نهر طريقه ، واكبر هذه الانهار نهر يعرف « بثورا » ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان او الرجال من أعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسربة تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي مخاطرة كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية في البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسنا وجمالا واتساعا مسرح للابصار ، وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها ، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلق مدحه ، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطيرة كبيرة .

ويتصل بها اسفل منها ، بمقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالنيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم ير أحسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيخيل لناظره أنه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء

رائقة الحسن ، ومطهرة لهـا عشرة أبـواب ، يجـري الماء فيهـا ، ويطيف بها ، فوقها لجهة القبلة قـرية كبيرة ، هـي مـن أحسـن القرى ، تعرف « بالمزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة ، وبقرية النيرب حمام ، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات .

وفي الجهة الشرقية من البلد ، عن يمين الطريق الى مولد ابراهيم عليه السلام ، قرية تعـرف « ببيت لاهية » يريدون الآلهـة ، وكانت فيها كنيسة هي الآن مسجد مبارك . وكان آزر أبو ابراهيم ينحـت فيها الآلهة ويصورها ، فيجيء الخليل ابـراهيم صـلوات الله عليه وعلى نبينا الكريم فيكسرها ، وهي اليوم مسجد يجتمـع فيه أهـل القرية ، وسطحه كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتـظم كله خواتيم واشكالات بديعة ، يخيل لمبصرها أنها فرش متقنة مزخرفة ، وهو من المشاهد الكريمة ، وللربوة المبـاركة اوقـاف كثيرة ، مـن بساتين وارض بيضاء ورباع . وهي معينة التقسـيم اوظائفها : فمنها ما هو معين باسم الذفقة في الأدم للبائتين فيهـا مـن الزوار ، ومنها ما هو معين للاكسية برسم التغطية بالليل ، ومنهـا مـا هـو معين الطعام ، الى تقاسيم تسـتوفي جميع مـؤنها ، ومـؤن الامين الراتب فيها برسم الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ؛ ولهم على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من أعظم الخطط .

والامين فيها الآن مـن بقية المرابـطين المسـوفيين(٩) ومـن أعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابـراهيم بـن مـالك ، وله مكانة من السلطان ووجـوه الدولة ، وله في الشـهر خمسـة دنانير حاشى فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرتسم بـه ، وهـو متعلق بسبب من اسباب البرفي ايواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعـايش مـن الامـامة في مسـجد ، او سكنى بمدرسة تجري عليه فيها الذفقة ، أو التزام زاوية مـن زوايا المسجد الجامع يجبي اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقـوم به من أوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل

المباركة مما يطول شرحه ، فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه ، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له ايضا أسباب غريبة من الخدمة : إما بستان يكون ناطورا فيه ، أو حمام يكون عينا على خدمته وحافظا الاثوابها داخلية ، أو طاحونة يكون أمينا عليها ، أو كفالة صبيان يؤديهم آلى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء ، لانهم قد علالهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، وأهلها لا يأتمنون البلديين. وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وإن شاء احد المتعلقين بأسباب المعارف التعرض هنالك السلطان ، يقبله ويكرمه ويرتبه ، ويجري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديما وحديثا . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه .

وبغربي البلد جبانة (١٠) كبيرة ، تعرف بقبور الشهداء ، فيها كثير من الصحابة والتابعين الائمة الصالحين رضي الله عنهم . فالمشهور بها من قبور الصحابة ، رضي الله عنهم ، قبر ابي الدرداء ، وقبر زوجته أم الدرداء رضي الله عنهما ، وموضع مبارك فيه تاريخ قديم مكتوب عليه « في هذا الموضع قبر جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، منهم فضالة بن عبيد ، وسهل بن الحنظلية ، من الذين بايعوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ، وخال [أمير] المؤمنين معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه » وقبره مسنم في الموضع المذكور . وقرأت في فضائل دمشق : أن أم المؤمنين أم حبيبة أخت معاوية رضي الله عنهما ، مدفونة بدمشق . وقبر واثلة بن الاسقع من أهل الصفة ، وفي الجهة التي [تلي] هذا الموضوع المبارك ، تاريخ فيه مكتوب : « هذا قبر أوس ابن أوس الثقفي » . وحول هذا الموضع المذكور ، على مقربة منه ، قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رأس القبر المبارك تاريخ باسمه رضي الله عنه ، والدعاء في هذا الموضوع المبارك مستجاب ، قد جرب ذلك كثير من الأولياء وأهل الخير المتبركين بزيارتهم ، الى قبور كثيرة من الصحابة وسواهم من الصالحين ، ممن قد ذهب اسمه وغبر ذكره ، ومشاهد كثيرة لأهل البيت رضي الله عنهم رجالا ونساء ، وقد احتفل الشيعة في البناء عليهم ، ولها الاوقاف الواسعة .

ومن احفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن ابي طالب ، رضي الله عنه ، قد بني عليه مسجد حفيل ، رائق البناء ، وبازائه بستان كله نارنج والماء يطرد فيه من سقاية معينة . والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار ، وفي المحراب حجر عظيم ، قد شق بنصفين ، والتحم بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه انشق لعلي رضي الله عنه : إما بضربة بسيفه ، أو بأمر من الامور الالهية على يديه . ولم يذكر عن علي ، رضي الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم الا إن زعموا أنه كان في النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم ، اذ لا تصح لهم جهة اليقظة ، وهذا الحجر اوجب بنيان هذا المشهد . وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم اكثر من السنيين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى .....

وسلط الله على هذه الرافضة طائفة ، تعرف بالبنوية ، سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها ، وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرمونه [ويلبسونه] السراويل ، فيلحقوه بهم ، ولايرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة برقسمه ، وهم يقتلون هؤلاء الروافض ، اينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف .

ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو بقرية تعرف « بالمنيحة » شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه ، وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء ، والقبر في وسطه ، وعند رأسه مكتوب :

« هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم : مشهد أم كلثوم ابنة علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ، ويقال لها زينب الصغرى ، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي صلى الله عليه وسلم لشبهها بابنته أم كلثوم رضي الله عنها ، والله اعلم بذلك ، ومشهدها الكريم بقرية قبلى البلد تعرف « براوية » على مقدار فرسخ ، وعليه مسجد كبير ، وخارجه مساكن ، وله أوقاف ، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم ، مشينا اليه ، وبتنا به ، وتبركنا برؤيته ، نفعنا الله بذلك .

وبالجبانة التي بغربي البلد ، من قبور أهل البيت ، كثير رضي الله عنهم ، منها قبران عليهما مسجد يقال : إنهما من ولد الحسن رضي الله عنهما ومسجد آخر فيه قبر يقال : إنه لسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما ، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت ، ومن المشاهد ايضا قبر بجامع النيرب ، في بيت بالجهة الشرقية منه ، يقال : إنه لأم مريم رضي الله عنها ، وبقرية « داريا » قبر أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه ، وعليه قبة هي علامة القبر ، وبها ايضا قبر ابي سليمان الداراني رضي الله عنه . وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال ، وهي لجهة الغرب منه ، ومن المشاهد الكريمة ، التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ونوح عليهما السلام ، وهما « بالبقاع » وهي على يومين في البلد . وحدثنا من ذرع قبر شيث فألفىفيه أربعين باعا ، وفي قبر نوح ثلاثين ، وبازاء قبر نوح قبر ابنه له . وعلى هذه القبور بناء ، ولها أوقاف كثيرة ، ولها قيم يلتزمها ، ومن المشاهد المباركة ايضا ، بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجابية ، قبر اويس القرني رضي الله عنه ، وقبور خلفاء بني امية رحمهم الله ، يقال : انها بازاء باب الصغير ، بمقربة من الجبانة المذكورة ، وعليها اليوم بناء يسكن فيه ، والمشاهد المباركة بهذه البلدة اكثر من ان تنضبط بالتقييد ، وانما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم .

ومن المشاهد الشهيرة ايضا ، مسجد الاقدام ، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة ، على قارعة الطريق الاعظم الآخذ الى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر ، وفي هذا المسجد بيت صغير ، فيه حجر مكتوب عليه : « كان بعض الصالحين يرى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فيقول : ههنا قبر اخي موسى صلى الله عليه وسلم » . والكثيب الأحمر على الطريق ، بمقربة من هذا الموضع ، وهو بين غالية وغويلية كما ورد في الاثر ، وهما موضعان ، وشأن هذا المسجد في البركة عظيم ، ويقال : ان النذور ماخلاقط من هذا الموضع الذي يذكر ان القبر فيه ، حيث الحجر المكتوب . وله اوقاف كثيرة . فأما الاقدام ففي حجارة في الطريق اليه ، معلم عليها ، تجد اثر القدم في كل حجر ، وعدد الاقدام تسع ، ويقال : انها اثر قدم موسى عليه السلام ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا اله سواه .

شهر جمادى الأولى ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الجمعة ، بموافقة العاشر لشهر اغوشت العجمي

ذكر جمل من احوال البلد ، عمره الله بالاسلام

لهذه البلدة ثمانية ابواب : « باب شرقي » ، وهو شرقي ، وفيه منارة بيضاء يقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها ، لما جاء في الاثر انه ينزل بالمنارة البيضاء شرقي دمشق ، ويلي هذا الباب « باب توما » وهو ايضا في حيز الشرق ، ثم « باب السلامة » ، ثم « باب الفراديس » ، وهو شمالي ؛ ثم « باب الفرج » ، ثم « باب النصر » ، وهو غربي ؛ ثم « باب الجابية » كذلك ، ثم « باب الصغير » ، وهو بين الغرب والقبلة .

والمسجد الجامع مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، والارباض به مطيفة الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها مـن القبلة يسـيرا . والارباض كبار ، والبلد ليس بمفـرط الكبـر ، (و) هـو مـائل الطول ، وسككه ضيقة مظلمة ، وبناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقـات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثـر بـلاد الدنيا خلقا ، وحسنة كله خارج لاداخل .

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهـم أفضـل منهـا ، وهـي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعتراض عليهم فيها .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم وحديث ، والحديث احفلهما وأكبرهما ، وجرايته في اليوم نحو الخمسـة عشر دينارا ، وله قومه بأيديهم الازمة المحتوية على أسماء المرضى ، وعلى الذفقـات التـي يحتـاجون اليهـا في الادوية والاغذية وغير ذلك ، والأطبـاء يبـكرون اليه في كل يوم ، ويتفقـدون المرضى ، ويأمـرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية ، حسبما يليق بكل انسـان منهم ، والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد اكثر ، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم . وللمجـانين المعتقلين ايضا ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ، ونعوذ بالله مـن المحنة وسوء القدر ، وتندر من بعضهم النوادر الظريفة ، حسبما كنا نسمع به ، ومن اعجب ما حدثت بـه مـن ذلك : ان رجـلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ، ممن أوتي مسـحة جمال ، واسمه نصر الله ، وكان المعلم يهيم به . فزاد كلفـه حتـى اختبل ، وادي الى المارستان ، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي ، وربما كان يدخله أبوه اليه ، فقيل له : اخـرج وعد لما كنت عليه مـن القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأي قراءة بقيت لي ؟ مـا

بقي في حفظي من القرآن شيء سوى « اذا جاء نصر الله » فضحك منه ، ومن قوله ، ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى توفي سمح الله له .

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ، والمدارس كذلك . ومن احسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره نوره الله . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله ، وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية ، وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش ، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا .

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير أجمل اشرافا منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزها لاحد ملوك الاتراك فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الامر لنور الدين ، فلم يزل حتى

استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤبدا لهم . فبطال العجب من السماحة بمثله ، وبقي اثر الفضل فيه مخلدا لنور الدين رحمه الله . ومناقب هذا الرجل الصالح كبيرة ، وكان من الملوك الزهاد ، وتوفي في شوال سنة تسع وستين وخمس مئة ، واستولى بعده على الأمر صلاح الدين ، وهو على طريقة من الفضل شهيرة ، وشأنه في الملوك كبيرة ، وله الاثر الباقي شرفه من ازالة المكوس بطريق الحجاز ، ودفعه عوضا عنها لصاحب الحجاز ، وكانت الأيام قد استمرت قديما بهذه الضريبة اللعينة ، الى أن محا الله رسمها على يدي هذا الملك العادل ، اصلحه الله .

ومن مناقب نور الدين رحمه الله تعالى : أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك ،أوقاف كثيرة ، منها طاحونتان ، وسبعة بساتين ، وارض بيضاء ، وحمام ودكانان بالعطارين ، وأخبرني أحد المغاربة الذين كانوا ينظرون فيه ، وهو ابو الحسن على بن سردال الجياني المعروف بالأسود : أن هذا الوقف المغربي يغل ، اذا كان النظر فيه جيدا ، خمس مئة دينار في العام ، وكان له رحمه الله بجانبهم فضل كبير ، نفعه الله بما اسلف من الخير ، وهيأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها .

ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، ولاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب ، فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جدا ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر ، والاتساع أوجد ، فمن شاءالفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان واهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لايتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا

المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والاولاد وتقرع سن الندم على زمن التضييع ، والله يوفق ويرشد ، لا اله سواه ، قد نصحت ان الفيت سامعا . وناديت إن اسمعت مجيبا ، « ومن يهد الله فهو المهتدى (١١) ، جلت قدرته ، وتعالى جده . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها الا مبادرة أهلها لاكرام الغرباء ، وايثار الفقراء ، ولاسيما أهل باديتها،فانك تجد من بدار الى بر الضيف عجبا ، كفى بذلك شرفا لها . وربما يعرض احدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها ، فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله في خيرا لاكل الفقير طعامي ، لهم في ذلك سر شريف .

ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركابهم ، ومن اغرب ما حدثناه من ذلك : أن الحاج الدمشقي مع من انضاف اليهم من المغاربة عند صدورهم الى دمشق في هذا العام ، الذي هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم : الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ، ويتمسحون بهم ، واخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، واخرجوا اليهم الاطعمة ، فاخبرني من ابصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ،ويناولنهم الخبز . فاذا عض الحاج فيه اختطفنه من ايديهم ، وتبادرن لاكله - تبركا بأكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، الى غير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب في ذلك . وصنع بنا في بغداد عند تلقي الحاج بها مثل ذلك او قريب منه ، ولو شئنا استقصاء هذه الامور لخرجت بنا عن مقصد التقييد ، وانما وقع الالماع بلمحة دالة ، يكتفى بها عن التطويل ، وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم إن احب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال ، ويذثال الخير عليه من أهل الضيعة ويلتزم الامامة أو التعليم أو ما شاء ، ومتى

سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان ، أو الى جبل الجودي ، فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل ، فيقيم معهم ماشاء ، وينصرف الى حيث شاء .

ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان ، اذا رأوا به احد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت ، وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة ، وقلما يخلو من التبتيل والزهادة . واذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة ، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ! ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ؛ ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم .

شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الاول ، ومن ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين ، لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا ، وهو شرارة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، ويذكر أنه ينتهي الى اربع مئة قرية ، فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره . واختلاف القوافل من مصر الى دمشق ، على بلاد الافرنج ، غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار النصارى أيضا لايمنع أحد منهم ولايعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم : وهي من الأمنة على غاية . وتجار النصارى ايضا يؤدون في بـــــــــــــــــلاد
المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الاحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ، هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم ، وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولاالتجار ، فالامن لايفارقهم في جميع الاحوال سلما أو حربا ، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه والله يعلي كلمة الاسلام بمنه .

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من أبواب البلد ، وبها جامع السلطان يجمع فيه وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغيضة عظيمة من الدور متصلة بهما ، وهما من أبدع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيهما بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة . وبهذه البلدة ايضا قرب مئة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين دارا للوضوء ، يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب ، لان المرافق بها كثيرة . وفي الذي ذكرناه من ذلك كفاية ، والله يبقيها دار اسلام بمنه ، واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد ، واحسنها انتظاما ، وابدعها وضعا ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور ، وكل قيساريةمنفردة بضبتها واغلاقها الجديدة ، ولها ايضا سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل من باب الجابية الى باب شرقي وفيه بيت صغير جدا قد اتخذ مصلى ، وفي قبلته حجر يقال : ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع .

وحديث الدار المنسوب لعمر بن عبد العزيز – التي هي اليوم للصوفية ، وهي في الدهليز الذي في الباب الشمالي المعروف بباب الناطفيين ، وقد تقدم التنبيه عليها قبل هذا – حديث عجيب ؛ وذلك ان الذي اشتراها ، وبناها ، وجعل لها الاوقاف الواسعة ، وأمر

بأن يدفن فيها ، وان يختم على قبره القرآن كل جمعة ، وعين من تلك الاوقاف لمن يحضر ذلك كل جمعة رطلا من خبز الحواري — وهو ثلاثة ارطال من أرطال المغرب — رجل من العجم يعرف بالسميساطي — وسميساط بلدة من بلاد العجم — وكان موصوفا بالورع والزهد . وأصل يساره وتموله ، فيما ذكر لنا ، انه الفى يوما من الايام بالدهليز المذكور ازاء الدار المذكورة ، رجلا أسود مريضا ، مطروحا بموضعه ، غير ملتفت اليه ولا معتنى به ، فتأجر فيه ، والتزم تمريضه وخدمته ، والنظر له اغتناما للثواب من الله عز وجل . فحانت وفاة الرجل ، فاستدعى ممرضه السميساطي المذكور ، فقال له : « انت قد احسنت الى وخدمتني ، ولطفت في تمريضي ، واشفقت لحالي وغربتي ، فأنا اريد أن اكافئك على فعلك بي ، زائدا الى مكافأة الله عز وجل عني في الآجل ، إن شاء الله ؛ وذلك ابي كنت جن احد فتيان الخليفة المعتضد العباسي ، ومعروفا بزمام الدار ، وكانت لي حظوة ومكانة ، فعتب على بعض الامر ، فخرجت طريدا ، فانتهيت الى هذه البلدة ، فاصابني فيها من أمر الله ما اصابني ، فسببك الله لي رحمة ، فأنا أقلدك أمانة ، وأعهد اليك فيها عهدا ، اذا انامت وغسلتني ، فانهض على بركة الله تعالى الى بغداد ، وتلطف في السؤال عن دار صاحب الزمام فتى الخليفة ، فاذا أرشدت اليها فصرف الحيلة في اكترائها ، وارجو ان الله يعينك على ذلك. وإذا سكنتها فاعمد الى موضع — سماه له فيها ، وذكر له أمارة عليه — فاحفر فيه مقدار كذا ، وانزع اللوح الذي تجده معترضا تحت الارض ، وخذ الذي تجده مدفونا تحت الارض ، وصرفه في منافعك ، وما يوفقك الله اليه من وجوه البر والخير ، مباركا لك في ذلك ، ان شاء الله » ثم توفي الرجل الموصي رحمه الله ، وتوجه الموصى اليه بعهده الى بغداد ، فيسر الله له في اكتراء الدار ، وانتهى الى الموضع المذكور فاستخرج منه نخائر لاقيمة لها ، عظيمة الشأن ، كبيرة القدر ، فدسها في أحمال متاع ابتاعها ، وخرج الى دمشق من بغداد ، فابتاع الدار المذكورة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبناها خانقاه للصوفية ، واحتفل فيها ، وابتاع لها الاوقاف ضياعا ورباعا ، وجعلها برسم الصوفية ،

واوصى بأن يدفن فيها . وأن يختم القرآن على قبره كل جمعة ، وعين لكل من يحضر ذلك ماذكرناه . فوجد الغرباء والفقراء في ذلك مرفقا كثيرا ، فتفص الخانقة بالقرأة كل جمعة ، فاذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا ، واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز ، على الصفة المذكورة . وبقي للمتوفي جميل الاثر والخير رحمة الله ورضوانه عليه .

والكوثرية التي ذكرناها ايضا بالجامع المكرم ، والمقروءة كل يوم بعد العصر ، المعينة لمن لايحفظ القرآن كان أصلها أيضا أن احد ذوي اليسار توفي ، واوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم ، وأوقف وقفا يغل مئة وخمسين دينارا في السنة برسم من لايحفظ القرآن ، ويقرأ من سورة الكوثر الى الخاتمة . فيذقسم له اربعون دينارا في كل ثلاثة اشهر من السنة ، ويذكر ان احد الملوك السالفين توفي ايضا ، وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع المكرم ، بحيث لايظهر ، وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الالف دينار وأربع مئة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن كل يوم ، وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم ، اثر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، ويقال : إن في ذلك الموضع هو القبر المذكور . وقراءة السبع لاتتعدى ذلك الموضع ، متصلا مع جدار القبلة الى الجدار الشرقي ، والله عز وجل لايضيع أجر المحسنين . وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الايام ، ذفع الله بهما راسميها ، وناهيك فيها من بلاد يهدى فيها لهذه الصنائع المزلفة لرضوان الله عز وجل ، وللفقراء الملتزمين الجلوس في الجانب الشرقي من الجامع المكرم ، الذين ليس لهم مأوى يأوون اليه ، وقف وضعه بعض المتأجرين الموقفين برسمهم ، الى مايطول ذكره من المآثر الاخراوية الصدقية ، التي كفل الله بها غرباء هذه الجهات .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد المستحسنة ، المرجو لهم فيها من الله عز وجل قبول ، أنهم في كل سنة يتوخون الوقوف يوم

عرفة بجوامعهم ، اثر صلاة العصر ، يقف بهـم ائمتهـم كاشـفي رؤوسهم ، داعين الى ربهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها وفد الله عز وجل وحجيج بيته الحرام بعرفات فـلا يزالون واقفين ، داعين ، متضرعين الى الله عز وجـل ، وبحجـاج بيتـه الحــرام متوسلين ، الى أن يسقط قرص الشمس ، ويقدروا نفـر الحـاج ، فينفصلوا باكين على ماحرموه من ذلك الموقـف العـظيم بعـرفات ، وداعين الى الله عز وجل في أن يوصلهم اليها ، ولايخليهم من بـركة القبول في فعلهم ذلك .

ومن أعظم ماشاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ،وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصـنعة والاتقـان ، المعتـرف لوصـفها بالتقصير لسان كل بيان : الصعود الى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقييد ، القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ الاعتبار في بديع وضعها ، مع القبـة التـي في وسـطها كأنها كرة مجوفة داخلة وسط كرة أخرى أعظم منها : صـعدنا اليه في جملة من الاصحاب المغـاربة ضـحوة يوم الاثنين الثـامن عشر لجمادى الأولى المذكورة ، من مرقى في الجانب الغـربي مـن بـلاط الصحن كان صومعة في القديم ، وتمشينا على سطح الجامع المكرم ، وكله الواح رصاص منتظمة ، كما قد تقـدم الذكر لذلك ، وطـول كل لوح أربعة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وربما اعترض في الالواح نقص أو زيادة ، حتى انتهينا الى القبة المذكورة ، فصعدنا اليها على سلم منصوب ، وريح الميد تكاد تطير بنا ، فحبـونا في الممشى المطيف بها ، وهو من رصاص ، وسعته ستة أشـبار ، فلم نسـتطع القيام عليه لهول الموقف فيه ، فأسرعنا الولوج في جوف القبة ، على احـد شراجيها المفتحة في الرصاص ، فابصرنا مرأى تحار فيه العقـول ، وتقف دون ادراك هيبة وصفه الافهام ، وجلنا في فرش من الخشـب العظام ، حول القبة الصـغيرة الداخلة في جـوف الرصـاصية على الصفة التي ذكرناها ، ولها طيقان يبصر منها الجـامع ومـن فيه ، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصـبيان في المحـاضر ، هـذه القبـة مستديرة كالكرة ، وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشـب

الضخام ، موثقة بنطق من الحديد ، ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، وداخل هذه القبة ، وهو مايلي الجامع المكرم ، خواتيم من الخشب ، منتظم بعضها ببعض ، قد اتصل اتصالا عجيبا ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب ، مزخرفة التلاوين ، بديعة القرنصة ، يرتمي الابصار شعاع ذهبها ، وتتحير الالباب في كيفية عقدها ووضعها لافراط سموها أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة ، لم يكن طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة ، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دور كل واحد منها شبر أو شبران الغاية لعظم سموها ، والقبة الرصاص محتوية على هذه القبة المذكورة ، وقد شدت ايضا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام ، موثقة الاوساط بنطق الحديد ، وعددها ثمان وأربعون ضلعا ، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار ، قد انعطفت انعطافا عجيبا ، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب اعلاها ، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة ، وهي مئتا شبر وستون شبرا ، والحال فيها اعظم من أن يبلغ وصفها ، وانما هذا الذي ذكرناه نبذة يستدل بها على ماوراءها ، وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر ، الذي تحت هاتين القبتين ، مدخل عظيم ، هو سقف للمقصورة ، بينه وبينها سماء جص مزينة ، وقد انتظم فيه من الخشب مالايحصى عدده ، وانعقد بعضها ببعض وتقوس بعضها على بعض ، وتركبت تركيبا هائلا منظره ، وقد ادخلت في الجدار كله دعائم للقبتين المذكورتين ، وفي ذلك الجدار حجارة ، كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ، لاتنقلها الفيلة فضلا عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من الهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة ، ومعينهم على التأني لما ليس موجودا في طبائعهم البشرية ، ومظهر آياته على ايدي من يشاء من خلقه ، لا اله سواه ! والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة . قد قامت فوقها ارجل قصار ضخام من الحجارة الصمم الكبار . وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية ، واستدارت الشمسيات باستدارتها ، والقبتان

في رأي العين واحدة ، وكنينا عنها باثنتين لكون الواحدة في جوف الاخرى ، والظاهر منها قبة الرصاص .

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أن لم نجد فيهما عنكبوتا ناسجا ، على بعد العهد من التفقد لهما من احد ، والتعاهد لتنظيف مساحتهما ، والعنكبوت في امثالهما موجود كثير ، وقد كان حقق عندنا ان الجامع المكرم لاتنسج فيه العنكبوت ، ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف ، وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقييد ، فانصرفنا منحدرين ، وقد قضينا عجبا عجابا من هذا المنظر العظيم شأنه ، المعجز وضعه ، المترفع عن الادراك وصفه ، ويقال : إنه ماعلى ظهر المعمور أعجب منظرا ، ولا أبعد سموا ، ولا اغرب بنيانا ، من هذه القبة ، الا ما يحكى عن قبة بيت المقدس ، فانها يحكى انها ابعد في الارتفاع والسمو من هذه . وجملة الامر ان نظرها ، والوقوف على هيئة وضعها ، وعظيم الاستقدار فيها عند معاينها بالصعود اليها ، والولوج داخلها ، من اغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا ، والقدرة لله الواحد القهار ، لا اله سواه .

ولأهل دمشق وغيرها من هذه البلاد في جنائزهم رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ، يرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الآذان بأدمع الأجفان ، وجنائزهم يصلى عليها في الجامع ، قبالة المقصورة ، فلا بد لكل جنازة من الجامع ، فاذا انتهوا الى بابه قطعوا القراءة ، ودخلوا الى موضع الصلاة عليها ، الا ان يكون الميت من ائمة الجامع أو من سدنته ، فان الحالة المميزة له في ذلك ان يدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه ، وربما اجتمعوا للعزاء بالبلاط الغربي من الصحن ، بازاء باب البريد ، فيصلون افرادا افرادا ، ويجلسون وأمامهم ربعات من القرآن يقرؤونها ، ونقباء الجنائز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء ، من محتشمي البلدة وأعيانهم ، ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين ،

فتسمع ماشئت من صدر الدين ، او شمسه ، أو بدره ، او نجمه ، او زينه ، او بهائه ، أو جماله ، او مجده ، أو فخره ، أو شرفه ، أو معينة ، أو محييه ، أو زكيه ، أو نجيبه ، الى مالا غاية له من هذه الالفاظ الموضوعة ؛ وتتبعها ولاسيما في الفقهاء بما شئت ايضا من سيد العلماء ، وجمال الائمة ، وحجة الاسلام ، وفخر الشريعة ، وشرف الملة ، ومفتي الفريقين ، الى مالانهاية له من هذه الالفاظ المحالية . فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبا انياله من الكبر ، ثانيا عطفه وقذاله ، فاذا استكملوا وفرغوا من القراءة ، وانتهى المجلس بهم منتهاه ، قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ، ونبه على خدع الدنيا وحذر ، وانشد في المعنى ما حضر من الاشعار ، ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفى ، ثم قعد ، وتلاه آخر على مثل طريقته الى أن يفرغوا ويتفرقوا ، فربما كان مجلسا نافعا لمن يحضره من الذكرى .

ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي أحد منهم آخر مسلما يقول : جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطيا ، والجد عندهم عنقاء مغرب ، وصفه سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هويا . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء فياعجبا لهؤلاء الرجال ، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه ، واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه ! لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل . فياللعجب منهم ، اذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟لقد تساوت الاذناب عندهم

والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس ! فسبحان خالق الخلق ، اطوارا ، لاشريك له ، ولامعبود سواه .

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وايديهم الى خلف ، قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للاسلام على تلك الحالة المشبهة باحوال العناة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا ، واوثقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة لهم تمييزا لهم في ذوي الخصوصية وتشريفا ، ويزعمون أنهم يجدون بها نشاطا في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحتشم منهم من يسحب نيله على الارض شبرا ، او يضع خلفه اليد الواحدة على الأخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سننا ، وكل منهم قد زين له سوء عمله ، فرأه حسنا ، استغفر الله منهم ! فان لهم من أداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم يستعملونها اثر الصلوات ، ولاسيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة العصر ، واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء اقبلوا عليه بالمصافحة ، واقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذاالتقييد أنهم يستعملونها عند رؤية الأهلة ، ويدعو بعضهم لبعض ، بتعرف بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير فيه ، وفيما يعود عليه من أمثاله ؛ وتلك ايضا طريقة حسنة ، ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضا رحمة من الله تعالى ونعمة .

وقد تقدم الذكر ايضا في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات « صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن ايوب » ، وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على الجهاد اعداء الله ، لانه ليس أمام هذه البلدة بلدة للاسلام ، والشام اكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه

الجهات ، فهو لايأوي لراحة ، ولايخلد الى دعة ، ولا يزال سرجه مجلسه ؛ إنا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين ، وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك ، وقد تقدم الذكر ايضا له ، وهو عليه محاصر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه ، وسمعنا أحد فقهاء هذه البلدة ، وزعمائها المسلمين بسدة هذا السلطان ، والحاضرين مجلسه ، يذكر عنه في حضرة محفل علماء البلد وفقهائه ، ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه ، رأينا إثباتها هنا : إحداها أن الحلم من سجاياه ، فقال ، وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه :« أما أنا فلأن أخطي في العفو أحب الي من أن اصيب في العقوبة » . وهذا في الحلم منزع احنفي (١٣) وقال ايضا : وقد تنوشدت بحضرته الاشعار ، وجرى ذكر من سلف من اكارم الملوك واجودهم : « والله لو وهبت الدنيا للقاصد الآمل لما كنت استكثرها له ، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضا مما اراقه من حر ماء وجهه في استماحه اياي » . وهذا في الكرم مذهب رشيدي او جعفري (١٤) وحضره أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة والاثرة ، مستعديا على جمال ذكر انه باعه جملا معيبا ، او صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : « ماعسى ان أصنع لك ، وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، واوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته » . والشحنة عندهم صاحب الشرطة « فالحق يقضي لك او عليك » . وهذا في العقد مقصد عمري (١٥) وهذه كلمات ، كفى بها لهذا السلطان فخرا ، والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين ، بمنه .

شهر جمادى الآخرة ، عرفنا الله بركته

استهل هلاله ليلة الاحد التاسع من شهر شتنبر العجمي ، ونحن بدمشق حرسها الله ، على قدم الرحلة الى عكة ، فتحها الله ، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى ، وفي مراكبهم المعدة لسفر

الخريف المعروف عندهم بالصليبية ، عرفنا الله في ذلك معهود خيرته . وتكافلنا بكلاءته وعصمته ، بعزته وقدرته ، انه سبحانه الحنان المنان ، ولي الطول والاحسان ، ولارب غيره . وكان انفصالنا منها عشي يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور ، في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة .

ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج ، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين ؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا امرا عجيبا ، وذلك ان صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك ، المتقدم الذكر في هذا التاريخ ، قصد اليه الافرنج في جميعهم ، وقد تألبوا من كل اوب وراموا ان يسبقوه الى موضع الماء ، ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين . فصمد اليهم ، واقلع عن الحصن بجملته ، وسبقهم الى موضع الماء . فحادوا عن طريقه ، وسلكوا طريقا وعرا ذهب فيه اكثر دوابهم ، وتوجهوا الى حصن الكرك المذكور ، وقد سد عليهم بنيات الطرق القاصدة الى بلادهم ، ولم يبق لهم الا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ، ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه ، فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرة ، وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة ، فدهم مدينة نابلوس وهجمها بعسكره ، فاستولى عليها ، وسبى كل من فيها ، وأخذ اليها حصونا وضياعا . وامتلأت ايدي المسلمين سبيا لايحصى عدده من الافرنج ، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسمرة منسوبة الى السامري . وانبسط فيهم القتل الذريع ، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، الى ما اكتنفت من الامتعة ، والذخائر ، والاسباب، والاثاث ، الى النعم والكراع ، الى غير ذلك . وكان من فعل هذا السلطان الموفق ، أن أطلق ايدي المسلمين على جميع ما احتازته ، وسلم لهم ذلك ، فاحتازت كل يد [ما] حوت ، وامتلأت غنى ويسارا ، وعفى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مر عليها من بلاد الفرنج ،

وأبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والاياب ، وتخلصوا من اسرى المسلمين عددا كثيرا وكانت غزوة لم يسمع بمثلها في البلاد .

وخرجنا نحن من دمشق ، واوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم ، كل بما احتواه وحصلت يده عليه ، وكان مبلغ السبي الافا لم نتحقق احصاءها ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الاقرب ليوم انفصالنا ، واعلمنا انه يجم عسكره قليلا ، ويعود الى الحصن المذكور ، فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته ، وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين ، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ، فكان مبيتنا ليلة الجمعة بداريا ، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف ، ثم رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده الى قرية تعرف « ببيت جن » ، هي بين جبال ، ثم رحلنا منها صبيحة يوم السبت الى مدينة بانياس ، واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم ، متسعة التدويح ، واعلمنا انها تعرف بشجرة الميزان . فسألنا عن ذلك ، فقيل لنا : هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحراميه الافرنج ، وهم الحواسه والقطاع ، من اخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو شبر أسر ، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الافرنج بقدر ذلك اطلق سبيله ، لهم في ذلك عهد يوفون به ، وهو من اظرف الارتباطات الافرنجية واغربها .

ذكر مدينة بانياس ، حماها الله تعالى

هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ، ويفضي الى احد أبواب المدينة ، وله مصب تحت أرحاء . وكانت بيد الافرنج ، فاسترجعها نور الدين رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة ، يشرف عليها حصن للافرنج ، يسمى « هونين » ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة

فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الافرنج وبين المسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها . فرحلنا عنها عشي يوم السبت المذكور ، الى قرية تعرف « بالمسيه (١٦) بمقربة من حصن الافرنج المذكور ، فكان مبيتنا بها ، ثم رحلنا منها يوم الاحد سحرا ، واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف الشجر ، واكثر شجرة الرند ، بعيد العمق كأنه الخندق السحيق المهوى ، تلتقي حافتاه ، ويتعلق بالسماء اعلاه ، يعرف « بالاسطبل » ، لوولجته العساكر لغابت فيه ، لامنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه ، المهبط اليه والمطلع عنه عقبتان كئودان ، فعجبنا من أمر ذلك المكان . فاجزناه ومشينا عنه يسيرا ، وانتهينا الى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف « بتبنين » وهو موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهي ام الملك الخنزير صاحب عكة ، دمرها الله ، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن ، ومكس الناس تمكيسا غير مستقصى ، والضريبة فيه دينار وقيراط ، من الدنانير الصورية على الرأس ، ولااعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار اربعة وعشرون قيراطا .

وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين ، وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها أن طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون ، فكان لهم في اخذه غنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ، الزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم ،وقال الافرنج : ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا ، وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا ، وجب ان نضع هذه الضريبة عليهم . فللمغاربة في أداء هذا المكس

سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو ، يسهله عليهــم ، ويخفــف عنتهم عنهم .

ورحلنا من تبنين دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطــريقنا كله على ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة ،سكانها كلها مسلمون ، وهــم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بــالله مــن الفتنة ، وذلك أنهــم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قــراريط ، ولايعتــرضونهم في غير ذلك ، ولهــم على ثمــر الشجرة ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ، ومساكنهم بــأيديهم وجميع احــــــــــــــوالهم متــــــــــــــروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج مــن المدن بسـاحل الشــام على هــذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القــرى والضــياع ، وقــد اشربت الفتنة قلوب اكثرهم ، لما يبصرون عليه اخوانهم مــن أهــل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لانهم على ضد أحوالهم مــن التــرفيه والرفق ، وهذه من الفجائع الطــارئة على المســلمين : ان يشــتكي الصنف الاسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضــده وعدوه المالك له من الافرنج ، ويأنس بعدله ، فالى الله المشتكي مــن هــذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية مــا جــاء في الكتــاب العــزيز : «إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء »(١٧) .

فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضــياع عكة ، على مقــدار فرسخ ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فأضاف جميع أهــل القــافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا في غرفة متســعة بمنزله ، وانالهم الوانا من الطعام قدمها لهم ، فعمهــم بتــكرمته وكنا فيمــن حضر هذه الدعوة .

وبتنا تلك الليلة ، وصبحنا يوم الثلاثاء العــاشر مــن الشــهر المذكور ، وهو الثامن عشر لشتنبر مدينة عكة دمــرها الله ، وحملنا الى الديوان ، وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بــابه مصــاطب

مفروشة ، فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس المذهبة الحلى ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان والضامن له يعرف بالصاحب ، لقب وقع عليه لمكانه من الخطة ، وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند ، وكل ما يجبى عندهم راجع الى الضمان ، وضمان هذا الديوان بمال عظيم ، فانزل التجار رحالهم به ، ونزلوا في اعلاه ، وطلب رحل من لا سلعة له ، لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه وأطلق سبيله ، فنزل حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل ، فنزلنا بها في بيت اكتريناه من نصرانية بازاء البحر ، وسألنا الله تعالى حسن الخلاص ، وتيسير السلامة .

ذكر مدينة عكة ، دمرها الله واعادها

هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجواري المنشئات في البحر كالاعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطىء الاقدام ، تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذره ،انتزعها الافرنج من ايدي المسلمين في العشر الاول من المئة السادسة ، فبكى لها الاسلام ملء جفونه ، وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بايدي المسلمين مسجدا صغيرا ، يجتمع الغرباء منهم فيه لاقامة فريضة الصلاة ، وعند محرابه قبر صالح النبي ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ، فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ، ببركة هذا القبر المقدس !

وفي شرقي البلدة العين ، المعروفة بعين البقر ، وهي التي اخرج الله

منهـــــــا البقــــــــر لآدم صـــــــــلى الله عليه وســــــــلم والمهبط لهذه العين على ادراج وطية ، وعليها مسجد بقي محـرابه على حاله ، ووضع الافرنج في شرقيه محرابا لهم ، فالمسلم والكافـر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصــلاه ، وهــو بـأيدي النصارى معظم محفوظ ، وابقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين .

فكان مقامنا بها يومين ، ثـم تـوجهنا الى صـور يوم الخميس الثاني عشر لجمادي المذكور والموفي عشرين لشتنبر المذكور على البر، واجتزنا في طريقنا على حصن كبير ، ويعرف « بالزيب » ، وهـو مطل على قرى وعمائر متصـــلة وعلى قـــرية مســــورة تعـــرف « بالاسكندرونة » ، وذلك لمطالعة مركب بها ، اعلمنا أنه يتوجه الى بجاية طمعا في الركوب فيه . فحللناهـا عشي يوم الخميس المذكور ، لان المسافة بين المدينتين نحو الثلاثين ميلا ، فنزلنا بها في خان معد لنزول المسلمين .

ذكر مدينة صور ، دمرها الله تعالى

مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، لاتلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد اعدها الافرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لامانهم ، هي انظف من عكة سككا وشوارع ، وأهلها الين في الكفر طبائع ، وأجرى الى بر غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخـلائقهم اسجح ، ومنازلهم اوسع وأفسح ، واحوال المســلمين بهـا أهــون وأسكن ، وعكة أكبر وأطغى وأكفـر . وامـا حصـانتها ومناعتهـا فأعجب ما يحدث به ، وذلك أنها راجعة الى بابين : احدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فـالذي في البـر يفضي اليه ، بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشـيدة محيطة بالباب ، وأما الذي في البحـر ، فهـو مـدخل بين بـرجين مشيدين الى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجـب وضـعا منهـا ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها مـن الجـانب

الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال المراكب الا عند ازالتها ، وعلى ذلك الباب حراس وأمناء ، لايدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لاتحمل السفن الكبار حمل ذلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل واجمل وأحفل .

فكان مقامنا بها أحد عشر يوما ، ودخلناها يوم الخميس ، وخرجنا منها يوم الاحد الثاني والعشرين لجمادي المذكور وهو آخر يوم من شتنبر ، وذلك ان المركب الذي كنا أملنا الركوب فيه استصغرناه ، فلم نر الركوب فيه .

ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها ، زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء ؛ واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوي أرحامها ، وهي في أبهى زي ، وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب ، قد حفت بشبكة منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر ، مشي الحمامة او سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى ، في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في انفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين ، يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ؛ فساروا بها حتى

ادخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومها ذلك في وليمة ، فأدانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه .

ثم عدنا الى عكة في البحر ، وحللناها صبيحة يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى المذكورة ، وأول يوم من شهر اكتوبر ، واكترينا في مركب كبير ، نروم الاقلاع الى مسينة من بلاد جزيرة صقلية ، والله تعالى كفيل بالتيسير والتسهيل ، بعزته وقدرته . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بايدي المسلمين . ولهم فيها مساجد أخر ، فأعلمنا به احد أشياخ أهل صور من المسلمين . أنها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلها باثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المسغبة عليهم ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها وانهم حملتهم الأنفة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم ، غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدمونهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضي الله قضاءه، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك ، وتفرقوا في بلاد المسلمين ، ومنهم من استهواه حب الوطن ، فدعاه الى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها ، والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت في البرية مشيئته ، وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر الا مجتازا ، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم : منها الذلة والمسكنة الذمية ؛ ومنها سماع مايفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لاسيما من أراذلهم وأسافلهم ؛ ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات ، الى غير ذلك مما لاينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسؤول حسن الاقالة والمغفرة من هذه الخطيئة ، التي زلت فيها القدم ، ولم تتداركها الا بعد موافقة الندم ، فهو سبحانه ولي ذلك لارب غيره .

ومن الفجائع التي يعانيها من حل ببلادهم اسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الأفئدة ، ولا يغني الاشفاق عنهم شيئا ، ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة ، بهذه البلاد الشامية الافرنجية ، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها ، وانما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة ، لبعدهم عن بلادهم ، وأنهم لامخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل ، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين ، والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما يذفقون أموالهم في هذه السبيل . وقد كان نور الدين رحمه الله نذر في مرضة اصابته تفريق اثني عشر ألف دينار ، في فداء أسرى من المغاربة ، فلما استبل من مرضه ارسل في فدائهم ، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة ، وكانوا من حماة من جملة عمالته ، فأمر بصرفهم ، واخراج عوض عنهم من المغاربة وقال : « هؤلاء يفتكهم اهلوهم وجيرانهم ، والمغاربة غرباء لاأهل لهم » فانظر الى لطيف صنع الله تعالى لهذا الصنف المغربي .

وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسر التجار ، وكبرائهم ، واغنيائهم المنغمسين في الثراء : احدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي ، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الافرنجي ، ولاذكر فيه لسواهما ، ولهما الامناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما ، وأموال ذوي الوصايا ، لانهما المقصودان بها ، لما قد اشتهر من امانتهما ، وثقتهما ، وبذلهما أموالهما في هذه السبيل . فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر الا على ايديهما ، فهما طول الدهر بهذه السبيل يذفقان أموالهما ، ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين ، من

ايدي اعداء الله الكافرين ، والله تعالى (لايضيع أجر المحسنين (١٨)) .

ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، انه صبحنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربي من « بونة » عمل « بجاية » ، كان أسيرا فتخلص على ايدي ابي الدر المذكور ، وبقي في جملة صبيانه ، فوصل في قافلته الى عكة ، وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم ، فمازال الشيطان يستهويه ويغريه ، الى ان نبذ دين الاسلام فكفر ، وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس (١٩) ورجس ، وقد عقد الزنار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسحيق المآب ، نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الدنيا والاخرة ، ولا يعدل بنا عن الملة الحنيفية ، وأن يتوفانا مسلمين ، بفضله ورحمته .

وهذا الخنزير صاحب عكة ، المسمى عندهم بالملك ، محجوب لايظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام ، قد شغلته بلواه في صباه ، عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) (٢٠) . وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس ، وهو صاحب المجبى ، واليه ترتفع الأموال ، والمشرف على الجميع بالمكانة ، والوجاهة ، وكبر الشأن في الافرنجية اللعينة ، القومس اللعين ، صاحب طرابلس وطبرية ، وهو ذو قدر ومنزلة عند الافرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيرا عند نور الدين ، نحو اثنتي عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص بمال عظيم بذل في نفسه مدة صلاح الدين ، وعند أول ولايته ، وهو معترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق ، لسهولة طريقها . ويقصد بقوافل البغال على تبنين لوعورتها وقصد طريقها ، وبحيرة طبرية مشهورة ، وهي ماء عذب ، وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو

أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ ، والاقوال فيها تختلف سعة وضيقا ، وفيها قبور كثيرة ، من قبور الانبياء صلوات الله عليهم كشعيب ، وسليمان ، ويهوذاءوروبيل ، وابنة شعيب زوج الكليم موسى ، وغيرهم صلوات الله وسلامه [عليهم] أجمعين وجبل الطور منها قريب . وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ، وبين دمشق وبينه مقدار ثمانية أيام ، وهو بين المغرب والقبلة من عكة الى جهة الاسكندرية ، والله يعيده الى أيدي المسلمين ، ويطهره من أيدي المشركين ، بعزته وقدرته .

وهاتان المدينتان ، عكة وصور ، لابساتين حولهما ، وانما هما في بسيط من الارض افيح ، متصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليهما من بساتينهما التي بالقرب منهما ، ولهما عمالة متسعة ، والجبال التي تقرب منهما معمورة بالضياع ، ومنها تجبى الثمرات اليهما ، وهما من غر البلاد ، ولعكة في الشرق منها ، مع آخر البلد ، واد يسيل ماء ، ولها مع شاطئه ، مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظرا ، ولا ميدان للخيل يشبهه ، واليه ركوب صاحب البلد كل بكرة وعشية ، وبه يجتمع العسكر ، دمره الله ، ولصور عند بابها البري عين معينة ، ينحدر اليها على ادراج ، والآبار والجباب بها كثيرة لاتخلو دار منها ، والله تعالى يعيد اليها والى اخواتها كلمة الاسلام بمنه وكرمه .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكورة ، والسادس لاكتوبر ، صعدنا الى المركب ، وهو سفينة من السفن الكبار ، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد ، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الافرنج . وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لايحصى ، ينتهي الى أزيد من ألفي انسان أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ، ومأمول التسهيل والصنع الجميل ، بمنه وكرمه لامعبود سواه . ونحن به منتظرون موافقة الريح ، وكمال الوسق ، بمشيئة الله عز وجل .

شهر رجب الفرد ، عرفنا الله بركته ويمنه

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر ، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه ، والاقلاع باسم الله تعالى ، وبركته ، وجميل صنعه ، وكريم مشيئته ، وتمادى مقامنا فيه مدة اثنتي عشر يوما ، لعدم استقامة الريح .

وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لاتهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون الا فيهما ، والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل ، بحسب ما يقضي الله تعالى به ، والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وانما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوما ، واكثر واقل،وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية اكثرها دواما ، فالمسافرون الى المغرب ، والى صقلية ، والى بلاد الروم ، ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين ، انتظار وعد صادق فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه .

وكنا طول هذه المدة ، التي اقمنا فيها على ظهر المركب ، نبيت في البر ، ونتفقد المركب في الاحيان . فلما كان سحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور ، والثامن عشر لاكتوبر ، اقلع المركب ، وكنا على عادتنا في البر بائتين ، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر ، فضيعنا الحزم ، ونسينا المثل المضروب في اعداد الماء والزاد ، وأن لا يفارق الانسان رحله ، فاصبحنا والمركب لاعين له ولا اثر فاكترينا للحين زورقا كبيرا ، له أربعة مجانيف ، واقلعنا نتبعه . وكانت مخاطرة عصم الله منها ، فأدركنا المركب مع العشي ،

فحمدنا الله عز وجل على ما من به ، وكان أول ذلك اليوم يوم شـدتنا في هذا السفر الطويل ، وآخره والحمد الله يوم فرجنا ، ولله الحمـد والشكر على كل حال .

واتصل جرينا ، والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها ، دافعة في وجه المركب . فـأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجذوي ، وكان بصيرا بصنعته ، حـاذقا في شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا ، وتارة شمالا ، طمعـا ان لايرجع على عقبه ، والبحر في اثناء ذلك رهـو(٢١) سـاكن ، فلما كان نصف الليل ، أو قـريب منه ، ليلة السـبت التـاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لاكتـوبر ، تـرددت علينا الريح الغربية ، فقصفت قرية الصاري المعروف بالاردمون ، والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله مـن وقـوعها في المركب ، لانها كانت تشبه الصـوارى عظمـا وضـخامة . فتبـادر البحريون اليها ، وحط شراع الصـاري الكبير وعطـل المركب مـن جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للعشـاري المرتبـط بـالمركب ، فقصدوا الى نصف الخشبة الواقعـة في البحـر ، واخـرجوها مـع الشراع المرتبط بها ، وحصـلنا في أمـر لايعلمـه الا الله تعـالى .

وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، واقاموا في الاردمون شراعا يعرف بالدلون ، وبتنا بليلة شهباء ،الى أن وضح الصباح ، وقد من الله عز وجل بالسلامة ، وشرع البحريون في اصلاح قرية أخرى ، من خشبة كانت معدة عندهم ، والريح الغربية على اول لجـاجها ، ونحـن بين اليأس والرجاء نتردد ، مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعـالى وحفي لطفه ، ومعهود فضله ، سبحانه ، هو أهل ذلك جلت قـدرته ، وتناهت عظمته ، الا إله سواه .

وفي يوم الاربعـاء الثـالث والعشرين منه ، تحـركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا ، فاستبشرت النفـوس بهـا رجـاء في نمـائها

وقوتها ، فكانت نفسا خافتا ، ثم بعد ذلك غشي البحر ضباب رقيق ، سكنت له امواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الاربـــــــــــــــــع نفس يتنســـــــــــــــم .فبقينا

لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين وهـــذا الهـــواء الذي يســـميه البحـــريون الغليني ، وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور ، وهو أول يوم من دونبـــر العجمي ، كان للنصارى عيد مذكور عندهـــم ، احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخلو احد منهم صغيرا او كبيرا ، ذكرا أو انثـــى ، من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم الصـــلاة في المركب بهـــم ، ثـــم قاموا واحدا واحدا لوعظهم ، وتـــذكيرهم بشرائع دينهـــم ، والمركب يزهر كله اعلاه واسفله سرجا متقدة ، وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة . ثم اصبحنا بمثل ذلك الهواء الســـاكن ، واتصـــل بنا ذلك الى ليلة الاحد السابع والعشرين منه ، فتحركت ريح شمالية ، فعاد المركب بها لجريته واستبشرت النفوس ، والحمدلله .....

من

تاريخ عبد اللطيف البغدادي ورحلته

- ٦٣٢١ -

الخليفة الناصر

كان الناصر لدين الله شابا مرحا عنده ميعة الشباب ، يشق الدروب والأسواق أكثر الليل والناس يتهيبون لقياه ، وظهر التشيع بسبب ابن الصاحب ثم انطفىء بهلاكه وظهر التسنن المفرط ، ثم زال وظهرت الفتوة والبندق والحمام الهوادي ، وتفنن الناس في ذلك وبخل فيه الاجلاء ثم الملوك ، فالبسوا الملك العادل واولاده سراويل الفتوة وكذا البسوا شهاب الدين الغوري ملك غزنة والهند وصاحب كيش وأتابك سعد صاحب شيراز، والملك الظاهر صاحب حلب ، وتخوفوا من السلطان طغريل وجرت بينهم حروب ، وفي الآخر استدعوا تكش لحربه وهو خوارزم شاه فخرج في جحفل لجب والتقى معه على الري واحتز رأسه وسيره الى بغداد ثم تقدم نحو بغداد يلتمس رسوم السلطنة فتحركت عليه أمة الخطا فرجع الى خوارزم وما لبث ان مات •

وكان الناصر لدين الله قد خطب لولده الاكبر ابي نصر بولاية العهد ، ثم ضيق عليه لما استشعر منه وعين أخاه ، ثم امر ابا نصر بأن يشهد على نفسه أنه لايصلح وأنه قد نزل عن الامر ، وأكبر الاسباب في نفور الناصر من ولده هو الوزير نصير الدين بن المهدي العلوي ، فإنه خيل الى الخليفة فساد نية ولده بوجوه كثيرة ، وهذا الوزير أفسد على الخليفة قلوب الرعية والجند وبغضه اليهم والى ملوك الأطراف وكاد يخلي بغداد عن أهلها بالارهاب تارة وبالقتل تارة اخرى، ولا يقدر أحد أن يكشف الخليفة حال الوزير حتى تمكن الفساد وظهر ، فقبض عليه برفق ،

وفي اثناء ذلك ظهر بخراسان وما وراء النهر خوارزم شاه محمد ابن تكش وتجبر ، وطوى البلاد واستعبد الملوك الكبار، وفتك بكثير منهم وأباد أمما كثيرة من الترك ، فاباد أمة الخطا وأمة الترك ،

وأساء الى باقي الامم الذين لم يصل اليهم سيفه ، ورهبه الناس كلهم ، وقطع خطبة بني العباس من بلاده ، وصرح بالوقيعة فيهم وقصد بغداد ، فوصل الى همذان وبوادره الى حلوان ، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوما فغطاهم في غير ابانه ، فاشعره بعض خواصه أن ذلك غضب من الله حيث يقصد بيت النبوة ، والخليفة مع ذلك قدجمع الجموع وأنفق النفقات واستعد بكل ما يصل المكنة اليه وسره أن الله رده على عقبيه، وقد سمع ان أمم الترك قد تألبوا عليه وطمعوا في البلاد لبعده عنها فقصدهم فقصدوه ، ثم كايدوه وكاثروه الى أن مزقوه في كل وجهة، وبلبلوا لبه وشتتوا شمله ، وملكوا عليه اقطار الارض حتى ضاقت عليه بما رحبت ، وصار اين توجه وجد سيوفهم متحكمة فيه ، فتقاذفت به البلاد حتى لم يجد موضعا يحويه ولا صديقا يؤويه فشرق وغرب وأنجد وأسهل وأصحر واجبل ، والرعب قد ملك لبه، فعند ذلك قضى نحبه ، قال : وكان الشيخ شهاب الدين لما جاء في الرسالة خاطبه بكل قول ولاطفه ولايزداد الا طغيانا وعتوا •

ولم يزل الامام الناصر مدة حياته في عز وجلالة وقمع الاعداء واستظهار على الملوك ، لم يجد ضيما ، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ، ولا مخالف إلا دمغه ، وكان من أضمر له سوءا رماه الله بالخذلان وأباده ، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك لايخفى عليه شيء من احوال كبارهم وصغارهم ، واصحاب اخباره في اقطار البلاد يوصلون اليه احوال الملوك الظاهرة والباطنية حتى يشاهد جميع البلاد دفعة واحدة ، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لايفطن لها أحد، يوقع الصداقة بين ملوك متعاديين وهم لايشعرون ، ويوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لايفطنون •

قال:ولو اخذنا في نوادر حكاياته لاحتاجت الى صحف كثيرة ، ولما دخل رسول صاحب مازندران بغداد كانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل ، فصار يبالغ في التكتم والورقة تأتيه فاختلى ليلة بامرأة دخلت من باب السر فصبحته الورقة بذلك وفيها ، كان عليكم دواج فيه صورة الأفيلة ، فتحير وخرج من بغداد وهو لايشك أن

الخليفة يعلم الغيب لأن الامامية يعتقدون أن الامام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل وما وراء الجدار ، وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم فقيل ارجع فقد عرفنا ما جئت به فرجع وهو يظن انهم يعلمون الغيب، ووصل رسول آخر فقال الرسالة معي مشافهة الى الخليفة فحبس ونسي ثمانية أشهر ثم أخرج وأعطي عشرة آلاف دينار ، فذهب الى خوارزم شاه وصار صاحب خبر لهم ، وسير جاسوسا يطلعه على أخبار عسكر خوارزم شاه لما توجه الى بغداد وكان لا يقدر أحد أن يدخل بينهم الا قتلوه فابتدأ الجاسوس وشوه خلقته وأظهر الجنون وأنه قد ضاع له حمار فأنسوا به وضحكوا منه ، وتردد بينهم أربعين يوما ، ثم عاد الى بغداد فقال هم مائة وتسعون الفا إلا أن يزيدوا الفا أو ينقصوا الفا ٠

وكان الناصر إذا أطعم أشبع ، وإذا ضرب أوجع ، وله مواطن يعطي فيها عطاء من لايخاف الفقر ، ووصل رجل معه ببغاء يقرأ قل هو الله أحد تحفه للخليفة من الهند ، فأصبحت ميتة وأصبح حيران فجاء فراش يطلب منه الببغاء فبكى وقال الليلة ماتت فقال : قد عرفنا ماتها ميتة ، وقال كم كان في ظنك ان يعطيك الخليفة قال خمسمائة دينار فقال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها اليك أمير المؤمنين ، فإنه علم بحالك منذ خرجت من الهند، وكان صدر جهان قد سار الى بغداد ومعه جمع من الفقهاء، وواحد منهم لما خرج من داره من سمرقند على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد، فقال الخليفة لايقدر أن يأخذها مني ، فأمر بعض الوقادين انه حين يدخل بغداد يضربه ويأخذ الفرس ويهرب في الزحمة ففعل ، فجاء الفقيه يستغيث فلا يغاث ، فلما رجعوا من الحج خلع على صدر جهان واصحابه سوى ذلك الفقيه ، وبعد الفراغ منهم خلع عليه وأخرج الى الباب وقدمت له فرسه وعليها سرج من ذهب وطوق ، وقيل له لم يأخذ فرسك الخليفة إنما اخذها أتوني، فخر مغشيا عليه واستجل بكراماتهم ٠

قال الموفق عبد اللطيف : وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث ، واستناب نوابا في ذلك ، فأجرى عليهم جرايات وكتب الملوك والعلماء اجازات ، وجمع كتابا سبعين حديثا، ووصل على يد شهاب الدين الى حلب ، وسمعه الملك الظاهر وجماهير الدولة ، وشرحته شرحا حسنا، وسيرته صحبة شهاب الدين وسبب انعكافه على الحديث أن الشريف العباسي قاضي القضاة نسب اليه تزوير ، فأحضر القاضي وثلاثة شهود فعزر القاضي بأن حركت عمامته فقط ، وعزر الثلاثة بان أركبوا جمالا وطيف بهم المدينة يضربون بالدرة فمات واحد تلك الليلة ، وآخر لبس لبس الفساق ونخل بيوتهم والثالث لزم بيته وادعى وهو البندنيجي رفيقنا ، فبعد مدة احتاج وأراد بيع كتبه فتبين أحد الأجزاء فوجد فيه اجازة الخليفة من مشائخ بغداد فرفعها فخلع عليه ، وأعطي مائة دينار وجعل وكيلا عن أمير المؤمنين في الاجازة والتسميع .

وأقام سنين يراسل جلال الدين حسن صاحب الموت يراوده أن يعيد شعار الاسلام من الصلاة والصيام وغير ذلك مما رفعوه في زمان سنان ، ويقول إنكم اذا فعلتم ذلك كنا يدا واحدة ، ولم يتغير عليكم من احوالكم شيء ، ومن يروم هذا من هؤلاء فقد رام منال العيوق، واتفق أن رسول خوارزم شاه بن تكش ورد في أمر من الامور فزور على لسانه كتب في حق الملاحدة يشتمل على الوعيد وعزم الايقاع بهم وانه سيخرب قلاعهم ، ويطلب من الخليفة المعونة في ذلك ، وأحضر رجل منهم كان قاطنا ببغداد ووقف على الكتب وأخرج بها وبكتب أخرى على وجه النصيحة نصف الليل على البريد ، فلما وصل الموت ارهبهم فما وجد مخلصا الا التظاهر بالاسلام وإقامة شعاره ، وسيروا إلى بغداد رسولا معه مائتا شاب منهم ودنانير كبارا في منجوق وعليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، وطافوا بها في بغداد وجميع من حولها يعلن بالشهادتين ، وكان الناصر لدين الله قد ملا القلوب هيبة الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ، ثم ماتت بموته ، ولقد كنت بمصر والشام في خلوات الملوك والاكابر ، وإذا جرى ذكره حفظوا أصواتهم هيبة وإجلال ، وورد

بغداد تاجر معه متاع دمياط المذهب فسالوه عنه فأذكر فأعطي علامات فيه من عدده والوانه وأصنافه فازداد إذكاره ، فقيل له من العلامات أنك نقمت على مملوكك التركي فلان فأخذته إلى سيف بحر دمياط خلوة وقتلته ودفنته هناك ولم يشعر بذلك أحد .

أما مرض موته فهو وسنان بقي به سته اشهر ولم يشعر احد من الرعية نكبة حاله حتى خفي على الوزير وأهل الدار ، وكان له جارية قد علمها الخط بنفسه ، فكانت تكتب مثل خطه فتكتب على التواقيع بمشورة قهرمانة الدار ، وفي اثناء ذلك نزل جلال الدين محمد خوارزم شاه على ضواحي بغداد هاربا منفضا من المال والرجال والدواب فافسد بقدر ما كانت تصل يده إليه ، وكانوا يدارونه ولايمضون فيه أمرا لغيبة رأى الخليفة عنهم إلى أن راح إلى أذربيجان ونهب في ذهابه دقوقا واستباحها ، وكانت خلافته سبعا واربعين سنة ، توفي في سلخ رمضان وبويع لولده أبي نصر ولقب بالظاهر بأمر الله ، فكانت خلافته تسعة اشهر .

المستنصر

بويع أبو جعفر ، وسار السيرة الجميلة وعمر طرق المعروف الداثرة ، وأقام شعار الدين ومنار الاسلام ، وعم بسخائه وبذله ، واجتمعت القلوب على حبه والألسنة على مدحه ، ولم يجد أحدا من المتعيبة فيه معابا ، قد اطبقوا عليه ، وكان جده الناصر يقربه ويحبه ويسميه القاضي لعقله وهديه واذكاره ما يجد من المذكر ، والناس معه اليوم في بلهنية وعيشة مرضية ، وسير إليه خوارزمشاه يلتمس منه سراويل الفتوة ، فسير إليه فرس النوبة فسر بذلك وابتهج ، وقبل الارض مرارا شكرا لله على هذه المنزلة التي رزقها وحرمها أبوه ، ثم إنه أذعن عن العبودية والطاعة .

سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م

قال الموفق عبد اللطيف إن الفرنج عاثوا في سوق العسكر ، فرجع عليهم السلطان فطحنهم طحنا ، وأحصي قتلاهم بأن غرزوا في كل قتيل سهما ثم جمعوا السهام ، فكانت اثني عشر الفا وخمسمائة ، والذين لحقوا بأصحابهم هلك منهم ثمانية وأربعين الفا ، وبلغت الغرارة عندهم مائة وعشرين دينارا . وخرجوا مرة فقتل منهم ستة آلاف ونيف ، ومع هذا فصبرهم صبرهم ، وعملوا على عكا برجين من خشب كل برج سبع طبقات بأخشاب عالية ، ومسامير هائلة يبلغ المسمار نصف قنطار ، وضببات على هذا القياس ، وصفح كل برج منهما بالحديد ، ولبس الجلود ثم اللبود المشربة بالخل ، وجال بشباك من حبال القنب لترد حدة المنجنيق ، وكل واحد يعلو سور عكا بثلاث طبقات ، وزحفوا بهما على السور ، وفي كل طبقة مقاتلة ، فيئس المسلمون بعكا ، فقال دمشقي يقال له ابن النحاس : دعوني أضربها بالمجانيق ، فسخروا منه فطلب قراقوش ان يمكنه من الآلات ، ورمى البرج بحجارة حتى خلخله ، ثم رماها بقدر نفط ثم صاح الله اكبر وعلا الدخان فضج المسلمون وبرزوا من عكا وعملت النار في أرجائه والفرنج ترمي اسهمها من الطبقات ، وا شتغلوا فاحرق المسلمون الستائر والعدد فانكسرت صولتهم ، ثم اجتمعت همتهم وقوتهم وعملوا كبشا هائلا رأسه قناطر من الحديد لينطحوا به السور فينهدم ، فلما سحبوه وقرب من السور ساخ في الرمل لثقله وعجزوا عن تخليصه وكان المسلمون في عكا ، في مرض وجوع قد ملوا من القتال ما يحملهم سوى الايمان بالله ، وقد هدمت الفرنج برجا وبدنة ، ثم سد ذلك المسلمون في الليل ووثقوه ، وكان المسلمون اول راكب وآخر نازل .

راشد الدين سنان

كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نور الدين ، فاجتمع اليه محبوه على ما ذكره الموفق عبد اللطيف لكي يقتلوه ، فقال لهم : لم تقتلوني ؟ قالوا : لترجع إلينا صحيحا فانا نكره أن

تكون فينا أعرج ، فشكرهم ودعا لهم فقال اصبروا علي فليس هـذا وقته ولاطفهم ، ولما أراد أن يحلهم مـن الاسـلام ويسـقط عنهـم التكاليف لأمر جاءه من الموت على عهد الكيا محمد نزل إلى مصيات في شهر رمضان فأكل فيها فأكلوا معه ، واستمر امرهم على ذلك .

الملك العزيز

كان العزيز شابا حسن الصورة ظريف الشمايل قويا ذا بـطش وأيد وعفة حركة ، حييا كريما عفيفا عن الامـوال والفـروج ، وبلغ مـن كرمه انه لم يبق له خزانة ولاخاص ولابرك ولا فـرش ، وأمـا بيوت أصحابه فتفيض بالخيرات ، وكان شجاعا مقداما ، وبلغ من عفتـه أنه كان له غلام تركي اشتراه بألف دينار ، يقـال له ابـو شـامة ، فوقف على رأسه خلوة فنظر إلى جماله فأمره أن ينزع ثيابه وأجلسه معه مقعـد الفـاحشة ، وأدركه التـوفيق ونهض مسرعا إلى بعض سرارية فقضى وطره ، وخرج والغـلام بحـاله فـأمره بـالالبسة والخروج ، واما عفته عن الاموال فلا أقـدر أن أصـف حـكاياته في ذلك .

الملك الظاهر

كان جميل الصورة رائع الملاحة مـوصوفا بـالجمال في صـغره وفي كبره ، وكان له غور ودهاء ومكر ، وأعظم دليل على دهائه مقـاومته لعمه الملك العادل ، وكان لايخليه يوما من خوف وشـغل قلب ، وكان يصادق ملوك الأطراف ويباطنهم ويلاطفهم ويوهمهم أنه لولا هو لقد كان العادل يقصدهم ، ويوهم عمه أنه لولا هو لم يطعـه أحـد مـن الملوك ويكاشفوه بالشقاق ، فكان بهـذا التـدبير يسـتولي على الجهتين ويستعبد الفريقين ، ويشغل بعضهم ببعض ، وكان كريمـا

معطاء ، يغمر الملوك بالتحف والرسل بالنحل والشعراء والقصاد بالصلات ، وتزوج بابنة العادل وماتت معه ، ثم تزوج بأختها وكان له عرس مشهور ، وجاءت منه بالملك العزيز في أول سنة عشر ، واظهر السرور بولادته ، وبقيت حلب مزينة شهرين والناس في أكل وشرب ، ولم يبق صنفا من أصناف الناس إلا أفاض عليهم النعم ووصلهم بالاحسان ، وسير إلى المدارس والخوانك الغنم والذهب ، وامرهم أن يعملوا الولائم ، ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان والخدم ، وعمل للنساء دعوة مشهورة أغلقت لها المدينة ، وأما داره بالقلعة فزينها بالجواهر وأواني الذهب الكثيرة ، وكان حين أمر بحفر الخراب حول القلعة وجد عشرين تبنة ذهب فيها قنطار بالحلبي ، فعمل منها أربعين قشوة بحقاقها ، وختن ولده الاكبر احمد وختن معه جماعة من أولاد المدينة ، وقدم له تقادم فلم يقبل منها شيئا رفقا بهم ، لكن قبل قطعة سمندل طول ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت وأوقدوها حتى نفد الزيت وهي ترجع بيضا فالتهوا بها عن جميع ما حضر ، وكان عنده من أولاد أبيه وأولاد أولادهم مائة وخمسة وعشرون نفسا ، وزوج الذكور منهم بالاناث ، وعقد في يوم واحد خمسة وعشرين عقدا بينهم ، ثم صار كل ليلة يعمل عرسا ويحتفل له ، وبقي على ذلك مدة رجب وشعبان ورمضان ، وكان بينه وبين سلطان الروم عز الدين كيكاوس بن كيخسرو صداقة موكدة ومراسلات ، ومرض نيفا وعشرين يوما واوصى أن يكون الخادم طغرل دزدار القلعة ، وأن يكون شمس الدين ابن أبي يعلى الموصلي وزيرا كما كان ، ولايخرج أحد عن أمره ، وسيف الدين بن جندر أتابك الجيش ، وكان القاضي بهاء الدين بن شداد مسافرا إلى العادل بمصر ، فقدم بعد ثلاث فحل جميع ذلك بالتدريج والخفية وأعانه مرض الوزير ، فلما عوفي وجد الأمور مختلفة فسافر إلى الروم ، ثم انتكس ومرض ومات في السنة ، وأما ابن جندر فتزل عن الاتابكية وجعلوها للملك المنصور – يعني الذي كان تسلطن بمصر بعد والده العزيز – قال : فبقي أياما وعزلوه ثم ولوه ثم عزلوه غير مرة وتلاعبت بهم الاراء ، وكان قصدهم أن يكون الطواشي شهاب الدين طغريل هو الاتابك فسعوا إلى أن تم ذلك ، ثم

انفوا أن يحكم عليهم خادم فاختلفت نياتهم ورأوا أن يملكوا الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ، وعزم الامراء على التوثب بحلب ، ثم قوي أمر طغريل وثبت وقد هموا بقتله مرات ووقاه الله ، ولو ساق الأفضل لملك حلب ، ولما اختلف عليه اثنان ، لكنه كاتب عز الدين صاحب الروم وحسن له أن يقصد حلب فحشد وقصدها ، ونازل تل باشر فأخذها وأخذ عين تاب ورعبان ومنبج ، وكاتبه أكثر رؤساء حلب والأمراء ، فلما رأى طغريل والخواص ذلك طلبوا الملك الأشرف فجاء ونزل بظاهر حلب مع شدة خوف ، وجاءت طائفة من العرب ومعهم عسكر يتولعون بعسكر الروم ، فسير اليهم عز الدين كبراء دولته فساقوا بجهل وامعنوا الى بزاعة في تلك البرية فخارت قواهم وذبلت خيلهم ، واختطفهم العرب سبايا كما تؤخذ النساء ، فخار قلب عز الدين ورجع الى تل باشر ثم الى بلاده ، ولحقه غبن وأسف حتى مرض ومات ، وأما الملك الأشرف فانه تمكن من اموال حلب ورجالها وقوي بذلك على الموصل حتى مرض ، وعظم عند ملوك الشرق .

الملك العادل

كان أصغر الاخوة وأطولهم عمرا ، وأعمقهم فكرا ، وأنظرهم في العواقب وأشدهم امساكا وأحبهم للدراهم ، وكان فيه حلم وأناة وصبر على الشدائد ، وكان سعيد الجد علي الكعب مظفرا بالأعداء من قبل السماء ، وكان أكولا نهما يحب الطعام واختلاف الوانه ، وكان أكثر أكله في الليل كالخيل ، وله عندما ينام آخر الأكل رضيع ، ويأكل رطل بالدمشقي خبيص السكر يجعل هذا كالجوارش ، وكان كثير الصلاة ويصوم الخميس وله صدقات في كثير من الأوقات وخاصة عندما تنزل به الآفات ، كان كريما على الطعام يحب من يؤاكله ، وكان قليل الأمراض قال لي طبيبه بمصر أني أكل خبز هذا السلطان سنين كثيرة ولم يحتج الي سوى يوم

واحد احضر اليه من البطيخ أربعــون حمــلا ، فــكسر الجميع بيده وبالغ في الأكل منه ومن الفواكه والأطعمة فعرض له تخمة ، فأصبح فأشرت عليه بشرب الماء الحار وأن يركب طويلا ففعل واخر النهــار تعشى وعاد الى صــحته ، وكان نكاحــا يكثــر مــن اقتناء السراري ، وكان غيورا لايدخــل داره خصي الا دون البلوغ ، وكان يحب ان يطبخ لنفسه مــع أن في كل دار مــن دور حــظاياه مــطبخ دائر ، وكان عفيف الفرج لايعرف له نظر الى غير حلائله ، نجب له أولاد مــن الذكور والأناث ســلطن الذكور وزوج البنات بملوك الاطراف ، آخر ماجرى من ذلك بعــد وفــاته أن ملك الروم كيقبــاذ خطب الى الملك الكامل أخته واحتفل احتفالا شــديدا ، واجتمــع في العرس ملوك وملكات ، وكان العادل قد أوقع الله بغضــته في قلوب رعاياه والمخامرة عليه في قلوب جنده ، وعملوا في قتله اصــنافا مــن الحيل الدقيقة مرات كثيرة ، وعندما يقال ان الحيلة قد تمت تنفســخ وتنكشف وتحسم موادها ، ولولا أولاده يتولون بلاده لما ثبــت ملكه بخلاف أخيه صلاح الدين فانه انما حفــظ ملكه بــالمحبة له وحســن الطاعة ، ولم يكن رحمه الله بالمنزلة المكروهة ، وانما كان الناس قد الفوا دولة صــلاح الدين وأولاده فتغيرت عليهــم العــادة دفعــة واحدة ، ثم أن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم وتفنن ، ومــن نياتــه الجميلة أنه يعــرف حــق الصــحبة ولايتغير على اصــحابه ولايضجر ، وهــم عنده في حــظوة ، وكان يواظــب الى خــدمة أخيه صلاح الدين ، يكون أول داخل وآخر خارج وبهــذا خابــه ، فــكان يشاوره في أمور الدولة لما جرب من نفوذ رأيه .

ولما تسلطن الأفضل بــدمشق والعــزيز بمصر قصــد العــزيز دمشق ، وذاق جنده عليها شدائد فرحل عنها ثم حاصرها نوبة ثانية ومعه عمه العادل ، فــأخذها وعوض الافضــل بصرخــد ، ولم يزل العادل يفتل في الذروة والسنام حتى أقطعه العزيز دمشــق ، وهــي السبب في أن تملك البلاد كلها وأعطى ابن أبي الحجاج يعني كاتــب الجيش لما جاءه بمنشورها ألف دينار ، ثم أخذ يدقــق الحيلة حتــى يستنيبه العــزيز على مصر ويقيم هــو بــدمشق يتمتــع في

بساتينها ، ففطن بعض اصحابه فرمي قلنسوته بين يديه وقال ألم يكفك أنك اعطيته دمشق حتى تعطيه مصر فنهض العزيز لوقته على غرة ولحق بمصر ، ثم شغب الجند وجرت أمور الى أن اجتمع الأفضل والعادل وقصدا مصر، وخامر جميع الأجناد على العزيز وصاروا الى الافضل والعادل ، حتى خلت مصر والقاهرة منهم وتهدمت دولة العزيز ، ثم اصبحت وقد عادت احسن مما كانت ، وصار معه كل من كان عليه ، ورجع الملك العادل في خدمته:

ورد الأفضل الى الشام ، ثم إن العادل توجه الى الشام وحشد وعبر الفرات ونازل قلعة ماردين يحاصرها وبذل الأموال ، وأخذ الربض.ثم إن الملك الافضل وجد فرصه ونزل هو وأخوه الملك الظاهر صاحب حلب على دمشق يوم الثلاثاء فأصبح الملك العادل خارجا من أبواب دمشق فانقطعت قلوبهم وتعجبوا متى وصل ، وكان لما سمع بنزولهم استناب ابنه الكامل وسار على النجائب في البرية فلحق دمشق قبل نزولهم بليلة ، ومع هذا فضايقوه ، وكان أكثر أهل المدينة معهم عليه الى أن اختلف الأخوان ايهما يملكها وتنافسا فتقاعسا ، ورحل الملك الظاهر وضعف الافضل ورحل ، وبلغت نفقة العادل عليها وعلى ماردين ألف ألف دينار .

وسعد العادل بأولاده فمن ذلك أمر خلاط فان ملكها شاه ارمن ملك مملوكه بكتمر ومات بعد صلاح الدين بنحو شهرين فقتلته الملاحدة ، وملك بعده هزارديناري مملوكه وبقي قليلا ومات ، وتملك بعده ولده بكتمر وكان جميل الصورة حديث السن فاجتمع اليه الأراذل والمفسدون وحسنوا له طرقهم ، فغار الأخيار وملكوا عليهم بلبان مملوك شاه ارمن وقتل ولد بكتمر او حبسه ، وكانت أخته بنت بكتمر مزوجة بالملك المغيث طغرل بن قلج ارسلان صاحب ارزن الروم ، وبين بلبان والمغيث معاقنة ومعاضدة ، ولابن بكتمر جماعة يهوونه ، فكاتبوا الملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين ، فقصد خلاط فسار المغيث لينصر بلبان فانكف الاوحد وطمع المغيث في خلاط فاغتال بلبان ، قتله ابن حق باز ، وتسلم المغيث خلاط فحصل لأهلها غبن اذ غدر بملكهم فمنعوه ، ثم أنه قبض يده عن

الاحسان المذسي الضغائن ، وقال له بعض الأمراء أبـذل قـدر ألف دينار وأنا ضامن بحصول البلد ، قال : أخاف ان لايحصل ويضيع مالي فعلموا أنه صغير الهمة ، فتفرقوا عنه وكاتبوا الاوحـد فجـاء وملكها ، ثم اختلفوا عليه ونكثوا فبذل فيهـم السـيف ، وانهـزمت طائفة ، فقال لي بعض خواصه انه قتل في مدة يسيرة ثمـانية عشر الف نفس مـن الخـواص ، وكان يقتلهـم ليلا بين يديه ويلقـون في الآبار ، ومالبث الا قليلا واختل عقله ومات ، وتوهم أبوه أنه جـن فسير اليه ابن زيد المعزم وصدقة الطبيب من دمشق ، وتملك خـلاط بعده أخوه الأشرف .

ومات الظاهر قبله بسنتين فلم يتهن بالملك بعده ، وكان كل واحد منهما ينتظر موت الآخر ، فلم يصف له العيش لأمراض لزمته بعـد طول الصحة والخوف من الفرنج بعد طول الامن ، وخرجوا الى عكا وتجمعوا على الغور فنزل العادل قبالتهم على بيسان وخفي عليه ان ينزل على عقبـة فيق ، وكانوا قـد هـــدموا قلعــة كوكب وكانت ظهرهـم ، ولم يقبل من الجواسيس ماأخبروه بما عزم عليه الفـرنج من الغارة فاغتر بما عودته المقادير من طـول السـلامة ، فغشـيت الفرنج عسكره على غرة ، وكان قد أوى اليهم خلق من اهل البـلاد يعتصمون به ، فركب مجدا ورماح الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفا ، وهم بدخولها فمنعه المعتمد وشجعه وقال : المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق ، وأما الفرنج فاعتقدوا ان هزيمته مكيدة فرجعوا من قريب دمشق بعدما عاثـوا في البـلاد قتـلا واسرا ، وعادوا الى بلادهم وقصدوا دمياط في البحر ونازلوها ، وكان قد عرض له قبـل ذلك ضعف ورعشة وصار يعتريه ورم الأنثيين ، فلما هـربت الخيل على خلاف العادة ودخله الرعب لم يبق الا مدة يسيرة ومات بـظاهر دمشق .

وكان مـع حـــرصه يهين المال عند الشـــدائد غاية الاهـــانة ويبذله ، وشرع في بناء قلعة دمشـق فقسـم أبـرجتها على أمـراءه وأولاده ، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة فخرج

من تحته خرزة بئر فيها ماء معين ، ومن نوادره ان عنتر العاقد بلغه ان شاهدا شـــهد على القـــاضي زكي الدين الظـــاهر بقضـــية مزوره ، فتكلم عنتر في الشاهد وجرحه ، فبلغ العادل فقـــال : مـــن عانة عنتر الجرح ، وتوضأ مرة فقـــال : اللهـــم حـــاسبني حســـابا يسيرا ، فقال له رجـــل مـــاجن : يامـــولانا ان الله قـــد يسر حسابك ، قال : ويلك وكيف ذاك ؟ قال اذا حاسبك فقل له المال كله في قلعة جعبر لم أفرط في قليل ولا كثير ، وكانت خزانته بالكرك ثـم نقلها الى قلعة جعبـــر وبهـــا ولده الملك الحـــافظ ، فســـول له بعض اصحابه الطمع فيها فأتاها الملك العادل ونقلهـــا الى قلعـــة دمشـــق فحصلت في قبضة المعظم ، فلم ينازعه فيها اخوته ، وقيل ان المعظم هو الذي سول لأخيه الحافظ الطمع والعصيان ففعل ولم يفطن بأنها مكيدة لترجع الأموال اليه ، ثم انه أخرج سراري ابيه مـــن دمشـــق واستصفى أموالهن وحليهـــن ، وشرع يضـــع على امـــلاك دمشـــق القطائع والخراجات الثقيلة ، الخمس على البســـاتين والثمـــن على المزدرعات .

الوزير ابن شكر

هو رجل طوال تام القصب فخمـــا ذي اللون مشرب بحمـــرة ، له طلاقة محيا ، وحلاوة لسان ، وحسن هيئة ، وصحة بنية ، ذو دهاء في هرج ، وخبث في طيش مع رعونه مفرطة وحقد لاتخبو ناره ، ينتقم ويظن أنه لم ينتقم ، لاينام عن عدو ، ولايقبل منه معـــذرة ولا إنابة ويجعل الرؤساء كلام أعداءه ، ولا يرضى لعـــدوه بـــدون الاهـــلاك ، ولاتأخذه في نقماته رحمة ولايتفكر في آخرة ، وهو من دميرة ضـــيعة ببيار مصر ، واستولى على العادل ظاهرا وباطنا ، ولم يمكن أحـــدا من الوصول إليه حتى الطبيب ، وأي وكيل والفراش عليهم عيون ، فلا يتكلم أحد منهم فضل كلمة خـــوفا منه ، ولما عزل دخـــل الطبيب والوكيل وغيرهما فانبسطوا وبكوا وضحكوا فأعجب السلطان ذلك ،

وقال : ما منعكم أن تفعلوا هذا فيما مضى ؟ قالوا : خوفا من ابن شكر ، قال،فأنا كنت في حبس وانا لا أشعر ، وكان غرضه إبانة أرباب البيوتات وتقريب الأراذل وشرار الفقهاء ، مثل الجمال المصري الذي صار قاضي دمشق ، ومثل ابن كسا البلبيسي ، والمجد البهنسي الذي وزر للأشرف ، وكان هؤلاء يجتمعون حوله ويوهمونه أنه أكتب من القاضي الفاضل ، بل ومن ابن العميد والصابي ، وفي الفقه أفضل من مالك ، وفي الشعر أكمل من المتنبي وأبي تمام ، ويحلفون على ذلك بالطلاق وأغلظ الأيمان ، وحلف لايأكل من الدولة ولا فلسا ويظهر أمانه مفرطة ، فإذا لاح له مال عظيم احتجنه ، وعملت له قبسة العجلان فأمركاتبه أن يكتبها ويردها وقال : لانستحل أن نأخذ منك ورقا ، وكان له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام إلى خلاط ، وبلغ مجموع ذلك مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان يكثر الادلال على العادل ويسخط أولاده وخواصه ، والعادل يترضاه بكل ما يقدر عليه ، وتكرر ذلك منه إلى أن غضب منه على حران ، فلما سار إلى مصر وغاضبه على عادته فأقره العادل على الغضب وأعرض عنه ، ثم ظهر منه فساد وكثرة كلام ، فأمر بنفيه عن مصر والشام ، فسكن آمد وأحسن إليه صاحبها ، فلما مات العادل عاد إلى مصر ووزر للكامل وأخذ في المصادرات وكان قد عمر ٠

ورأيت منه جلدا عظيما أنه كان لايستكين للنوائب ولايخضع للنكبات ، فمات أخوه ولم يتغير ، ومات أولاده وهو على ذلك ، وكان يحم حمى قوية ، ويأخذه النافض ، وهو في مجلس السلطان ينفذ الأشغال ولايلقي جنبه إلى الأرض ، وكان يقول ما في قلبي حسرة إلا أن ابن البيساني ـ يعني القاضي الفاضل ـ ما تمرغ على عتباتي ، وكان يشتمه وابنه حاضر فلا يظهر منه تغير وداراه أحسن مداراة ، وبذل له أموالا جمة في السر ٠

وعرض له اسهال دمور ورخية وأنهكه حتى انقطع ويئس منه الأطباء ، فاستدعى من حينه عشرة من شيوخ الكتاب فقال أنتم

تشمتون بي وركب عليهم المعاصيروهو يزجر وهم يصيحون إلى أن أصبح وقد خف ما به ، وركب في ثالث يوم ، وكان يقف الرؤساء والناس على بابه من نصف الليل ومعهم المشاعل والشمع ، ويركب عنه الصباح فلا يراهم ولايرونه . لأنه إما ان يرفع رأسه إلى السماء تيها وإما أن يعرج على طريق أخرى والجنادرة تطرد الناس . وكان له بواب اسمه سالم يأخذ من الناس أموالا عظيمة ويهينهم إهانة مفرطة ، واقتنى عقارا وقرى .

الحاجب لؤلؤ

كان شيخا أرمنيا في الاصل من أجناد القصر ، وخدم مع صلاح الدين مقدما للاسطول ، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم ، ادركته وقد ترك الخدمة وكان يتصدق كل يوم اثني عشر الف رغيف مع قدور الطعام وكان يضعف ذلك في رمضان ، ويضع ثلاثة مراكب كل مـــــــــــــركب طـــــــــــــوله عشرون ذراعا مملوة طعاما ، ويدخل الفقراء أفواجا وهو مشدود الوسط قائم بنفسه وبيده مغرفة ، وفي الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب اليهم الطعام ، ويبدأ بالرجال ثم بالنساء ثم بالصبيان ، ومع كثرتهم لايزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم ، فإذا فرغوا بسط سماطا للاغنياء يعجز الملوك عن مثله ، ولما كان صلاح الدين على حران توجه فرنج الكرك والشوبك لينبشوا الحجرة النبوية وينقلوه اليهم ويأخذوا من المسلمين جعلا على زيارته ، فقام صلاح الدين لذلك وقعد ولم يمكنه أن يتزحزح من مكانه ، فأرسل إلى سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر أن جهز لولو الحاجب فكلمه في ذلك ، فقال حسبك ، كم عددهم ؟ قال : ثلاثمائة ونيف كلهم أبطال ، فأخذ قيودا بعددهم وكان معهم طائفة من مرتدة العرب ولم يبق بينهم وبين المدينة الا مسافة يوم فتداركهم وبذل الأموال فمالت اليه العرب للذهب فاعتصم الفرنج بجبل عال فصعد

- ٦٣٣٦ -
اليهم بنفسه راجلا في تسعة أنفس فخارت قوى الملاعين بأمر الله تعالى ، وقويت نفسه بالله فسلموا أنفسهم فصفدهم وقدم بهم القاهرة ، وتولى قتلهم الفقهاء الصالحون والصوفية .

الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي

له قصة عجيبة ، وهي أنه كان به حمى ربع أقامت به سبع سنين ، فلما حضر حال السابع وضع بين أرجل الخيل وضرب بالدبابيس حتى أثخن ، فأقلعت الحمى عنه .

أخو القاضي الفاضل

كان له هوس مفرط في تحصيل الكتب وكان عنده زهاء مائتي كتاب من كل كتاب نسخ

أبو الفضل محمد بن محمد بن بنان القاضي الكاتب الأنباري المصري

كان رقيقا طوالا أسمر عنده أدب وترسل وخط حسن وشعر لابأس به ، وكان صاحب ديوان مصر في زمن المصريين والفاضل ممن يغشي بابه ويمتدحه ويفتخر بالوصول اليه ، فلما جاءت الدولة الصلاحية قال القاضي الفاضل هذا رجل كبير القدر يصلح أن يجري عليه ما يكفيه ويجلس في بيته ففعل ذلك .

ثم أنه توجه إلى اليمن ووزر لسيف الاسلام ، وأرسله الى الديوان العزيز ، فعظم ببغداد وبجل ، ولما صرت إلى مصر وجدت ابن بنان في ضنك من العيش شديد ، وعليه دين ثقيل وأدى أمره إلى

- ٦٣٣٧ -

أن حبسه الحاكم بالجامع الازهر ، وكان ينتقص بالقاضي الفاضل ويراه بالعين الاولى ، والفاضل يقصر في حقه فيقصر الناس مراعاة الفاضل ، وكان بعض من له عليه دين المجبى جاهلا ، فصعد إليه إلى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته وضربه ، ففر وألقى بنفسه من سطح الجامع فتهشم ، فحمل إلى داره وبقي أياما ومات ، فسير القاضي الفاضل بجهازه خمسة عشر دينارا مع ولده ، ثم إن القاضي مات فجأة بعده بثلاثة أيام رحمه الله ٠

الفصل الثاني

في حوادث سنة سبع وتسعين وخمس مائة

ودخلت سنة سبع مفترسة اسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع ، وضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا في البلاد ايادي سبأ ، ومزقوا كل ممزق ، ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل وبيء الهواء ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ، ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيرا ما يعثر عليهم

ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل ، ورأيت صغيرا مشويا في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهم ابواه فأمرباحراقهما ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل ، وبقي قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة كل من آثر الاطلاع على علم التشريح .

وحين ماذشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعا لامره وتعجبا من وقوعه ، ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخرا وتفننوا فيه ، وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر ، فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع ، واستهجن الكلام فيه والسماع

له ، ولقد رايت امرأة مشججة يسحبها الرعاع في السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها مقبلون على شؤونهم ، لم أر فيهم من يعجب لذلك أو يذكره ، فعاد تعجبي منهم اشد ، وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المالوف الذي لايستحق ان يتعجب منه .

ورايت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا ، وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه .

وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيا ، وحكى لي عدة نساء أنه يتوثب عليهم لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن .

ورايت مع امرأة فطيما فاستحسنته واوصيتها بحفظة فحكت لي انها بينما تمشي على الخليج انقض عليها رجل جلف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى أدركها فارس فطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله ، وأن الولد بقي مدة مريضا لشدة تجاذبه المرأة والمفترس .

ونجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين في جميع اقطار البلاد ، وازقة الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم ، وإنما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ ، واكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء ، وما اظن العلة فيه الا ان النساء اقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار ، ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، ورأيت امرأة قد احضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي ، فضربت اكثر من مائتي سوط على أن تقر فلا تحير جوابا بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ، ثم سحبت فماتت على المكان ،وإذا

احرق آكل اصبح وقد صار ماكولا لانه يعود شواء ويستغني عن طبخه .

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى تفانى أكثرهم ، ودخل في ذلك جماعة من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ومنهم يفعله استطابة ، وحكى لنا رجل انه قد كان له صديق ادقع في هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله ليأكل عنده ما جرت به عادتهما قبل فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين ايديهم طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الادمي وباللحم الطري ، فارتاع وخرج فارا .

وظهر من هؤلاء الخبثان من يتصيد الناس باصناف الحبائل ويجتابونهم الى مكامنهم بأنواع المخاتل وقد جرى ذلك لثلاثة من الاطباء ممن ينتابني ، اما أحدهم فان اباه خرج فلم يرجع ، وأما الآخر فان امراة اعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها ، فتركت درهميها وانسلت .

واما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضة في الشارع بزعمه وجعل في اثناء الطريق يصدق بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب، ومع ذلك فحسن الظن يغلبة وقوة الطمع تجذبه حتى ادخله دارا خربة ، فزاد استشعاره وتوقف في الدرج وسبق الرجل فاستفتح فخرج اليه رفيقه يقول له هل مع ابطائك حصل صيد ذفع ، فجزع الطبيب لما سمع ذلك والقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها لسعادته ، فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت بأن اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالختل .

ووجد باطفيح عند عطار عدة خوابي مملوءة بلحم الادمي وعليه

الماء والملح فسألوه عن علة اتخانه والاستكثار منه ، فقال : خفت اذا دام الجدب ان يهزل الناس ، وكان جماعة من الفقراء قد اودى الى الجزيرة وتستروا ببيوت طين يتصيدون فيها الناس ، ففطن لهم وطلب لهم قتلهم فهربوا ووجد في بيوتهم من عظام ادم شيء كثير ، وخبرني الثقة أن الذي وجد في بيوتهم أربع مائة جمجمة ، ومما شاع وسمع من لفظ الوالي ان امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر انها قابلة ، وأن قوما استدعوها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة ، مكمل التوابل فالفتة كثير اللحم مباينا الحم المعهود فتقززت منه ، ثم وجدت خاوة ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم فقالت : ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وهاهي معلقة اربا فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها انابير لحم ، فلما قصت على الوالي القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها ، وهرب صاحب المنزل ، ثم صانع عن نفسه في الخفية بثلاثمائة دينار ليحقن بذلك دمه .

ومن غريب ما حدث من ذلك ان امرأة من نساء الاجناد ذات مال ويسار كانت حاملا ، وزوجها غايب في الخدمة ، وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبيخ فطلبت منه كما من عادة الحبالى ، فالفته لذيذا فاستزادتهم فزعموا انه نفد فسألتهم عن كيفية عمله ، فأسروا اليها أنه لحم بني آدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها وضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواريها خوفا منها ، فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك ، فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد في جوفها .

ولو اخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانة وانما هو شيء صادفناه اتفاقا ، بل كثيرا ما كنت افر من رؤيته لبشاعة منظره .

وأما من يتحيزذلك بدار الوالي فانه يجد منه اصنافا تحضر مع اناء الليل والنهار وقد يوجد في قدر واحدة اثنان واكثر ، ووجد في بعض الايام قدر فيها عشر ايد كما تطبخ اكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الاطراف مطبوخا بقمح واصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء ، وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالهم شيخ كتبي بدين ممن يبيعنا الكتب فافلت بجريعة الذقن ، وكذلك بعض قوام جامع مصر في حباله قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله خصاص ، واما من خر . عن اهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير .

وحكى لي من اثق به انه اجتاز على امراة بخربة وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه ، فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها وكثيرا ما يدعي الآكل ان المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ، ورؤي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بان قالت انما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن اكله أنا خير من أن يأكله غيري ، وأشباه هذا كثير جدا حتى أنك لاتجد احدا في ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى ارباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع ايضا نبش القبور ، وأكل الموتى ، وبيع لحومهم ، وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس بلد الا وقد اكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص ، والفيوم ، والمحلة ، والاسكندرية ، ودمياط ، وسائر النواحي .

وخبرني بعض اصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك ، واعجب ماحكى لي انه عاين رؤوس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة ، وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف وان كنت قد اسهبت اعتقد أني قد قصرت .

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ولاسيما طريقي الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب

يرخصون الاجرة على الركاب ، فإذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالي منهم بجماعة فمثل بهم ، واقر بعضهم عندما أوجع ضربا ان الذي خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار .

واما موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لايطيق علمه الا الله سبحانه وتعالى ، وانما نذكر منه كالانموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الامر فالذي شاهدنا بمصر والقاهرة وما تأخر ذلك أن الماشي اين كان لايزال يقع قدمه أو بصره على ميت ، أو من هو في السياق او على جمع كثير بهذه الحال ، وكان يرفع من القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمس مائة ، واما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون ثم بآخره عجز عن رميهم فبقوا في الاسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها ، والميت منهم قد تقطع والى جانبيه الشواء والخباز ونحوه ، واما الضواحي والقرى فانه هلك اهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الامهات والقرى والكبار كقوص والاشمونين والمحلة ونحو ذلك ومع هذا ايضا فلم يبق فيها الا تحلة القسم ، وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ، وتجد البيوت مفتحة واهلها موتى متقابلين بعضهم قد رم وبعضهم طري وربما وجد في البيت أثاثه وليس له من يأخذه ، حدثني ذلك غير واحد كل منهم يحكي مايعضد به قول الآخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا في الارض ولا في السماء ، فتخللنا البيوت فالفينا اهلها كما قال الله عز وجل:(جعلناهم حصيدا خامدين) (الانبياء ١٥) فتجد سكن كل دار موتى فيها الرجل وزوجته واولاده ، قال:ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا انه كان فيه اربع مائة دكان للحياكة فوجدناها كالتي قبلها في الخراب وان الحايك في بير حياكته ميت واهله موتى حوله ، فحضرني قول الله تعالى (إن كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون) (يس ٢٩) قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذي قبله ليس به أنيس ، وهو مشحون بموتى أهله ، قال : واحتجنا الى الاقامة به لاجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى

مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال : ولكن قد بذلت البلاد بالذئاب والضباع ترتع في لحوم أهلها ، ومن عجيب ما شاهدت أني كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا في نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير ان نتقصد رؤيتهم ولاأحطنا بعرض البحر ، وفي غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا اشلاء الموتى في الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بانابيش العنصل ،وخبرت عن صياد بفرضه تنيس أنه مر به في بعض نهار اربع مائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، واما طريق الشام فقد تواترت الاخبار أنها صارت مزرعة لبني آدم بل محصدة ، وأنها عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع ، وأن كلابهم التي صحبتهم من منجلاهم هي التي تأكل فيهم ، واول من هلك في هذه الطريق اهل الحوف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا في هذه المسافة مع طولها كالجراد المحسوس ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغداد وخراسان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا في البلاد كل ممزق ، وكثيرا ما كانت المرأة تتملص من صبيتها في الزحام فيتضورون جوعا حتى يموتوا ، وأما بيع الاحرار فشاع وساع عند من لايراقب الله حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض علي جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احداهما بكر ينادى عليهما احد عشر درهما ، وسألتني امرأة أن أشتري ابنتها ،وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها ان ذلك حرام ، فقالت خذها هدية ، وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم او يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ، ووصل سبيهم الى العراق واعماق خراسان وغير ذلك ، واعجب من جميع ما اقتصصناه ان الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على اصنام شهواتهم لايرعوون ، منغمسون في بحر ضلالاتهم كأنهم هم المستثنون ، فمن ذلك اتخاذهم بيع الاحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم انه افتض خمسين بكرا ، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر ، وأما خراب البلاد والقرى وخلو المساكن والدكاكين فهو مما يلزم

هذه الجملة التي اقتصصناها ، وناهيك ان القرية التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها نفر وربما لم يوجد وأما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون اصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة في زحمة من الناس ، حتى أن الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة وخيارها اكثرها خال خراب ، وأن ربعا في اعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى اربعة بيوت اسكنت من يحرس الموضع . ولم يبق لأهل المدينة وقود ، تنانيرهم وافرانهم وبيوتهم إلا خشب السقوف والابواب والزروب ، ومما يقضي منه العجب ان جماعة من الذين مازالوا محدودين يتبعوا في دنياهم هذه السنة ، فمنهم من اثرى بسبب متجره في القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لابسبب معروف فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل في هذه السنة فانه احترق في برمودة احترا قا كثيرا وصار المقياس في ارض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجيزة ، وظهر وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات ابنية وتغير الماء في ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ، ثم انكشف امره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الايام ظهرت وكثرت كالتي ظهرت في أبيب من السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ، ثم تناقصت الى ان ذهبت وبقي في الماء أجزاء نباتية منبثة فقط ، وطاب طعمه وريحه ، ثم أخذ في رمضان ينمو وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه فقاس فيه ابن ابي الرداد قاع البركة فكان ذراعين ، واخذ في زيادة ضعيفة أضعف منها من السنة الخالية ، ولم يزل في زيادة ضعيفة الى ثامن ذي القعدة وهو السابع عشر من مسري ، فزاد اصبعا ، ثم وقف ثلاثة ايام فايقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ، ثم اخذ في زيادات قوية اكثرها ذراع الى ثالث ذي الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة اصبعا ، ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ومس بعض البلاد تحله القسم

فكانما زارها طيف خياله في الحلم ، وانما انتفع به ماكان من البلاد مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها غير ان القرى عالية عن فلاح او حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى (فـاصبحوا لايرى الا مساكنهم) (الاحقاف ٢٥) وإنما ارباب الجدات يجمعون شذاذهم ويلتقطون افرادهم ، وقد عز الحراث والبقر جدا ، حتى يباع الثـور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك ، وكثير من البـلاد ينحسر عنها الماء بغير حقه ولغير وقته اذ ليس بها من يمسك الماء ويحبسـه فيها فتبور لذلك مع ريهـا ، وكثير ممـا روي يبـور لعجـز اهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع اكلته الدودة وكثير ممـا سـلم منهاأضوى وعطب ،ونهاية سعر القمح في هذه السنة خمسـة دنانير الاردب والفول والشعير باربعة دنانير ، وأما بقوص والاسـكندرية فبلغ ستة دنانير ، ومن الله سبحانه يرجى الفرج ، وهو المتيح للخير بمنه وجوده .

الفصل الثالث

في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

ودخلت هذه السنة والاحوال التي شرحناها في السنة الخالية على ذلك النظام أو في تزيد الى زهاء نصفها ، فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب ، وتناقص أكل بني آدم ثم انقطع خبره اصلا ، وقل خطف الأطعمة من الاسواق ، وذلك لفناء الصعاليك وقلتهم من المدينة وانحطت الأسعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول ، وخفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة ، وألف الناس الغلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعي ، وحكي لي انه كان بمصر تسع مائة منسج للحصر ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جرت العادة ان يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الاصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقي من الحصريين أو أقل من ذلك ، وأما الدجاج فعدم رأسا لولا أنه جلب منه شيء من الشام ، وحكي لي أن رجلا مصريا شارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجا بستين دينارا وباعها بالقاهرة على القماطين بنحو ثماني مائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم اربعا واستمر على ذلك ، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يباع الفروج بدينار فصاعدا ، وأما الافران فانما توقد باخشاب الدور فيشتري الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ، ثم يشتري آخر وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا وربما تقفر الدار بمالكها ولايجد لها مشتريا فيفصل اخشابها وابوابها وسائر الاتها فيبيعها ثم يطرحها

مهدومة وكذلك ايضا يفعلون بدور الكراء ، واما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها انيس ، وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشها ، وكثيرا من اهلها موتى فيها ، ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر في غاية العمارة واهلها في غاية الكثرة ، واما الضواحي وسائر البلاد فيباب رأسا ، حتى ان المسافر يسير في كل جهة أياما لايصادف حيوانا الا الرمم مـا خـلا البـلاد الكبار كقـوص واخميم والمحلة ودمياط والاسكندرية فان فيها بقايا ما عدا هذه وامثالها فان البلد الذي كان يحتوي على ألوف خال أو كالخالي .

وأما الاملاك ذوات الأجر المعتبر فان معظمها خلا ولم يبق داب أهلها الا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالقها أو اسكانها من يحرسها باجره ، اللهم الا ما كان مـن الملك في قبضـة المدينة فـان بعضه مسكون باخف اجرة ، وأعرف ربعا في اعمر موضع بـالمدينة كانت أجرته في الشهر مائة وخمسين دينارا ، فعادت في هذه السـنة الى نحو عشرين دينارا وآخر في مثل موضعه كانت أجرته في الشـهر ستة عشر دينارا فعادت الى فويق الدينار ، وجميع مـالم نذكره على هذا القياس افهمه ، والذي دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن وجرى له اسم في الديوان وضـمته الميضـأة في مـدة اثنين وعشرين شهرا اولها شوال من سنة ست وتسعين وآخرها رجب مـن سـنة ثمان وتسعين مائة الف نفس وأحد عشر الفا أحـادا ، وهـذا مـع كثرته نزر في جنب الذين هلكوا في دورهم وفي أطراف المدينة واصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر في جنب من هلك بمصر ، وما تـاخمها ، وجميع ذلك نزر في جنب من أكل في البلدين وذلك نزر جدا في جنب مـن هلك او اكل في سائر البلاد والنواحي والطرقات ، وخـاصة طـريق الشام فانه لم يرد أحد من ناحيته فسـألته عن طـريق الا ذكر انهـا مزروعة بالاشلاء والرمم ، وهكذا وهكذا ما سلكته منها .

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية مـوتان عظيم ووباء شديد ، ولاسيما عند وقت الزراعة فلعله يموت على المحـراث

الواحد عدة فلاحين ، حكي لنا أن الذين بـذروا غير الذين حـرثوا ، وكذلك الذين حصدوا. وباشر زراعة لبعض الرؤساء ، فـأرسل مـن يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فـأرسل عوضـهم فمات أكثرهم هكذا مرات في عدة جهات .

وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعـة على سبع مائة جنازة ، وان تركة واحـد انتقلت في مـدة شـهر إلى أربعة عشر وارثا وان طائفة كبيرة من اهلها تزيد على عشرين الفـا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت في زمن اليازوري ، وعلى يديه وكان وزيرا ظـالما ، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية وكأن هذا الحـادث تقاصي في الطبيعة .

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهـود مصر ممـن ينتـابني سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل من زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصـل في المنزل اغلق البـاب ووثـب عليه فجعل في عنقه وهقا ، وضربه المريض ، غير أنه لم يكن لهما معـرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضـجيجه فتسـامع ودخلوا فخلصـوا الشيخ مرتثا وبه رمق يسير ، وقد وجئت خصيتاه وكسرت ثنيتـاه وحمل الى منزله مغشيا عليه ، وأحضر الفاعل الى الوالي فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : الجوع فضربه ونفاه .

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شـعبان وهـو الخامس والعشرين من بشنس أن حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لهـا الناس وهبوا من مضاجعهم مدهوشين ، وضجوا الى الله سـبحانه ولبثت مدة طويلة ، وكانت حركتها كالغربلة أو كخفـق جناح الطير ، وانقضت على ثلاث رجفات قـوية مـادت بهـا الابنية واصـطفقت الابواب ، وصرصرت السقوف والاخشاب وتداعى من الابنية ماكان واهيا أو مشرفا عاليا ثم عاودت في نصف نهار يوم الاثنين الا انها لم يحس بها اكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان في هـذه الليلة

برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفي نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الانفاس ويأخذ بالكظم ، وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الاخبار تتواتر بحدوث الزلزلة في النواحي النائية والبلاد النازحة في تلك الساعة بعينها ، والذي صح عندي انها حركت في ساعة واحدة طائفة من الارض من قوص الى دمياط ، والاسكندرية ، ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا ، وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها اثر ، وهلك من الناس خلق عظيم ، وامم لاتحصى ، ولا أعرف في الشام بلدا احسن سلامة من القدس ، فانها لم تنل منه الا مالا بال به وكانت نكاية الزلزلة في بلاد الافرنج اكثر منها في بلاد الاسلام كثيرا وسمعنا ان الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرس وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفرق في مواضع ، وصارت فرقة كالاطواد ، وعادت المراكب على الارض ، وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ثم وردت كتب من الشام ومن دمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة ، ومما اتصل بي كتابان اوردتهما بلفظهما نسخة الكتاب الوارد من حماه « ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان ، حدثت زلزلة كادت الارض تسير سيرا والجبال تمور مورا ، وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة ، وأتت دفعتين في ذلك الوقت ، اما الدفعة الاولى فاستمرت ساعة أو تزيد عليها ، وأما الثانية فكانت دونها ، ولكن أشد ، وتأثر منها بعض القلاع فأولها قلعة حماه مع اتقانها وعمارتها ، وبارين مع اكتنازها ولطافتها ، وبعلبك مع قوتها ووثاقتها ، ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع البازخة الى الآن ما أذكره ، ثم حدث في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى في عملها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت في هذا اليوم ايضا وقت صلاة العصر ، ووصل الخبر من دمشق بان الزلزلة أفسدت

فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الكلاسة والبيمارستان جميعه ، وعدة مساكن تساقطت على اهلها فهلكوا » .

نسخة الكتاب الوارد من دمشق :« والمملوك ينهي حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان ، وقت انفجار الفجر ، وأقامت مدة قال بعض الاصحاب انها مقدار ماقرأ سورة الكهف ، وذكر بعض المشايخ بدمشق انه لم يشاهد مثلها فيما تقدم ومما اثرت في البلد سقوط ست عشرة شرافة من الجامع ، واحدى المواذن وتشقق أخرى ،وقبة الرصاص ، يعني النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ، ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة ، وسقط بالبلد عدة ادؤر ، وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقطت بعضها ، وصفد كذلك ، ولم يبق بها الا من هلك سوى السمرة ، ويذكر ان القدس سالم والحمد لله .

اما بيت جن فلم يبق منه ولا اساس الجدران الا وقد اتى عليه الخسف ، وكذلك اكثر بلاد حوران غارت ، ولم يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية ، ويقال ان عكة سقط اكثرها ، وصور ثلثها وعرقه خسف بها وكذلك صافيتا وأما جبل لبنان ففيه موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يجمع منه الريباس الاخضر فيقال الجبلين انطبقا على من بينهما ، وكانت عدتهم تناهز مائتي رجل ، وقد اكثر الناس في حديثها ، واقامت بعد ذلك اربعة ايام تحدث في النهار والليل ، ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

ومن عجيب ماشاهدنا أن جماعة من ينتابني في الطب وصلوا الى كتاب التشريح ، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فاخبرنا ان بالمقس تلاعليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى ،به بحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية

اتصالها وتناسبها واوضاعها ما افادنا علما لانستفيده من الكتب ، وإما أنها سكتت عنها اولا يفي لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع ، فان جاليذوس وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس اصدق منه ، ثم بعد ذلك يتخيل لقوله نخرج ان امكن ذلك عظم الفك الاسفل فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل انما نعني به ههنا جاليذوس وحده هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ، ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والباقي لم يخرج الى لسان العرب ، والذي شاهدنا من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولادرز اصلا ، واعتبرناه ماشاء الله من المرات في اشخاص كثيرة تزيد على الفي جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظيما واحدا من كل وجه ، ثم اننا بجماعة متفرقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه ، وكذلك في أشياء أخر غير هذه ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ماشاهدناه وما علمناه من كتب جاليذوس ، ثم اني اعتبرت هذا العظم بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ماحكيت ليس فيه مفصل ولادرز.ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان ان تظهر ، وتتفرق وهذا الفك الاسفل لايوجد في جميع احواله الا قطعة واحدة ، واما العجز فقد ذكر جاليذوس انه مؤلف من ستة اعظم ، ووجدته انا عظما واحدا ، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ، ثم اني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة اعظم كما قال جاليذوس ، وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال الا في جثتين فقط فاني وجدته فيهما عظما واحد ،وهو في الجميع موثق المفاصل ،ولست واثقا بذلك كما انا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل ، ثم اننا دخلنا مصر فرأينا فيها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر سبيل في الاحايين ، وأن المار فيها ليستوحش ، ومع ذلك فقلما يذفك قسطر منها عن جثة او عظام متفرقة ، حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا

الاقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم وغلبت على الآكام بحيث جللتها وكادت تغلب ترابها ، ورأينا في

هذه الاسكرجة ، وهي وهدة عظيمة حين مااشرفنا عليها الجماجم بيضا وسودا ودكنا بعضها على بعض طبقات ، وقد اخفض كثرتها وتراكمها سائر العظام ، حتى كأنها رؤوس لم يكن معها أبدان يشبهها من ينظرها ببطيخ قد قطع وجمع ، حتى صار كالبيدر ثم رايتها بعد أيام وقد حرقتها الشمس وابيضت فشبهتها ببيض النعام المتراكب ، ولما رأيت خلو تلك الحارات والاسواق من الناس وامتلاء تلك الصحارى والآكام خيل الي انه سفر ارتحل فأخلى مكانا وشغل اخر ، هذا مع انه اي جهة نحاها القاصد صادف فيها ما حكينا واضعافه ، ووجد في ذي الحجة بمصر امراة ذبحت صبيا لتأكله ، فاخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها ، ولم يوجد سوى هذه المراة .

ومن عجيب الكائنات في هذه المدة ان مولودا في سنة سبع وتسعين ولد براسين ، وولد مولود آخر ابيض الشعر ، ورأيته وليس هو كبياض الشيب بل يميل الى صهوبة ما ، وولدت في السنة بغلة ولدا ميتا ، وبقي في دار الوالي اياما كثيرة .

وفي سنة ثمان وتسعين وجدت سخلة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط دقيق وأحضرت بدار الوالي مرات ، وآخر ما احضرت وعمرها اربعة اشهر .

واما خبر النيل في هذه السنة فنحن نسوقه باختصار أما اولا فانه احترق في طوبة ، ثم تزايد حتى صار مخاضات للناس والدواب وظهرت الخضرة فيه في جمادى الآخرة الكائن في برمهات وتزايدت جدا في رجب حتى ظهرت في لونه وطعمه وريحه ، ثم تناقصت حتى ذهبت اصلا وانتهى احتراقه في رمضان ، وانحسر عن المقياس نحو ثماني اذرع وطالع ابن ابي الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان

القاع ذراعا ونصــفا وكان في الســنة الخــالية ذراعين ، وابتـــدأ بالزيادة في السنة الخالية هذا اليوم ، فاما في هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد في هذه المدة ســوى اربع اصابع حتى ســاءت ظنون الناس وشــملهم اليأس فـظنوا ان حادثا وقع بفوهته وعند مبدأ جريته ، ثم أخذ في الزيادة حتى انسلخ ابيب ، وهو على ثــلاث اذرع ووقـف يومين ، فـاشتد هلع الناس لخروجه في التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع بقــوة قــوية وزيادات متداركة ، وجبال من المياة متدافعة فزاد ثماني اذرع في مــدة عشرة ايام منها ، ثلاث اذرع متوالية ، وانتهى في رابع توت وهــو الثــاني عشر من ذي الحجة الى ســت عشرة ذراعا تنقص اصــبعا واقــام يومين ثم اخذ ينحط متباطئا وينصرف رويدا .

فهذا ما قصد اقتصاصه من أحوال هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنهى الكلام .

والحمد الله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبي الامي وعلى آله الطيبين الطــاهرين ، كتبــه مــؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي في رمضــان ســنة ستمائة بالقاهرة .

الباهر في الدولة الاتابكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي النعم الباهرة ، والآلاء الظاهرة ، والمنن الزاهرة ، الذي امتن على عباده (بالاهتداء)(١) ، وبتمليك الملوك وتامير الامراء ، فجعلهم سببا لكف القوي عن الضعيف ، والاخذ للمشروف من الشريف ، نحمده على ما أنعم فأجزل ، وأحسن فأفضل ، ونصلي على (سيدنا محمد وعلى آله وصحبه) .

اما بعد : والذي غمرنا من إنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة (٢) ، والايام الاتابكية الزاهرة ، وشملنا من إحسانها ، وانالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبرة ، وطار ذكره في الافاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسديها ، ونعمة توليها ، ودرجة في العلا ترفع بضبعنا اليها ، ومرتبة في الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضاءل دونها درجات المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصين . وكان اكثر الموالى السعداء ــ قدس الله أرواحهم ــ إنعاما علينا ، وإحسانا إلينا ، المولى السعيد الملك العادل نور الدين ارسلان شاه(٣) رضي الله عنه وأرضاه ، وأكرم في الاخرة نزله ومثواه .

والبس الله هاتيك العظام وإن
بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحا وريحانا

فانه طال ما انعم علينا وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا واصطفانا ، وإلى أعلى مراتب الكرامة أعلانا ، مازال يوالينا الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا الى حضرته العلية ، ويدنينا من سدته السنية ، وباسراره يخصنا ، ولمشورته يستخلصنا ، لم يخل يوما من بر رغيب ، وإنعام لنفاسته غريب ، وكان ما يمدنا به من

طوله بحرا ، يقذف بالغنى ، ويجود بما لايبلغه المنى . فلهـذا كانت حياتنا من سيب أنعمـه غدق الحياض ، مـونقة الرياض ، ولم نزل نقابل قديم إنعامهم وحـديثه بـاخلاص الدعاء ، وصـدق العبـودية والولاء ، وإظهار الشكر والثناء ، ونصحه بمحضه ، ونؤدى مسنونه ومفترضه . كل ذلك صادر عن نيات في العبودية صادقة ، وطويات في الولاء غير ممانقة . وكنت عازما على أن أدون أخبـارهم ، وأجمـع اثارهم ، وأذكر ما من الله سبحانه على الاسـلام والمسـلمين ومـا حفظ من ثغورهم بجلادهم ، وما صب بهم على الفرنج من العـذاب بايديهم ، واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن اعمالهم على ممر الدهور ، وتعاقب السنين والشـهور ، جـزاء لاحسـانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت الاعذار تحول بيني وبين ما أؤمله من هذا الغـرض ، والعـوائق تحيل جـواهر أمـكاني الى العرض ، ولما استاثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين ـ تغمده الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه ـ وقام بالملك بعه ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العـالم المؤيد المنصـور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ابو الفتح مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مـودود بـن زنكي بـن آقسـنقر ، ناصر أمير المؤمنين ـ نسب كأن عليه من شـمس الضـحى نورا ، ومـن فلق الصباح عمودا ، لازالت الاقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إيثاره ، ولابرحت الحوادث عن جنابـه الشريف مصروفـة ، وأعين الكوارث عن دولته القاهرة مطروفة ـ ومـلأ ذلك الدسـت ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل في عزيمة الاسد :

وأنت من القوم الذين هم هـم
إذا زال منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

أضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وما زال منهم حيث كانت مهالك
تسير المنايا حيث سارت كتايبه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العــزم ، واحببـت أن أجلو مناقب الموالي الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر مــن مشــاهدهم في نصرة الدين ، وذبهــم عن حــوزة المسلمين ، ما انتهى اليه علمي ، وأثبته قلمي : شعر

اخبار قوم بذوا وما نقضوا
فالذكر يحيا وإن هـم قبضوا
جادوا فما قصرت اكفهم
عن غاية في الندى ولا عرضوا
وانتهزوا فرصة التمكن إذ
تصوروا أن مكثها عرض
في دولة القاهر الملك عز الـ
دين عن كل من مضى عوض

قال : ليعلم قدر نعمة الله تعالى عنده أولا وآخرا ، ويقتدى بافعالهم واردا وصــادرا ، وليتيقنن أنه لم يكن لاحــد مــن الملوك المتقــدمين والخلفاء الراشدين ، مذقبة دينية ودنيوية وتجربه في حفــظ الممــالك والرعايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف ــ ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده ــ ما يضاهيها ، وظهــر عنهــم مــا يماثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضــل العظيم(٤) . لابل والله من قاس غيرهم بهم قاس الثمد الى البحر ، والمخشلب(٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الربيع ، والارض الجرز (٦) بنضرة الروض المريع ، ولكان القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الارض ملوكا مثلهم
ولا اظلتها السماوات العلى

- ٦٣٦٠ -

معاد كل راغب وراهب
إذا أتى ديارهم ألقى العصى
لاينطق العوراء في ناديهم
ولا يحلون الى الجهل الحبى
لايصطلى بنارهم عند اللقا
ويصطلى بنارهم عند القرى
هم النجوم طالع وآفل
يعلولهم غرس إذا غرس ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى
هم البحور ليس يعلوها القذى
إن سئلوا لم يبخلوا أو عاهدوا
لم يغدروا أو ذكروا طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدي رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فاتني كثير مما سمعته منه ، لانني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته ، ولم أثبته بقلمي في حياته ، ومع هذا فانني تعمدت ترك الاكثار ، لميل الناس في زماننا الى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه ، لانه اول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين زنكي قدس الله روحه ، ولم اذكر أحدا غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقي وولاية غيره ، إذ الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

قال صاحب التاريخ(٧) . كان قسيم الدولة تركيا من اصحاب

السلطان جلال الدولة ركن الدين(٨) ملكشاه بن الب ارسلان واترابه ، وممن ربي معه في صغره وصحبه الى حين كبره ، فلما افضت السلطنة بعد ابيه إليه ، وافاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من اعيان امرائه ، واخص أوليائه ، فصادف الاحسان اهله ، فرفع قدره واعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وافضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به وثوقا حسده عليه سائر امرائه واجناده ، لما راى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايناس ، وزاد قدره علوا الى ان صار يتقيه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الاعوان ، فاشار على السلطان بان يوليه مدينة حلب واعمالها ، ويحكمه في عساكرها واموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الالقاب حينئذ مصونة لاتعطى الا لمستحقيها ، حتى ان السلطان ـ مع جلالة قدره ـ لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة ايضا يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه احد ، وصار ذلك ايضا لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضي الله عنهما يقف

عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين ابن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما الى همذان ـ وبها حينئذ السلطان الب ارسلان بن طغرل بن محمد ، واتابكه البهلوان ، هو أخو السلطان لامه ، والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه ـ وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامة ، وقال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لاحد غيركم أن يقف فيه مع حضوركم وكل هذا يدل على ماذكرناه من جلالة قدر قسيم الدولة وعلو محله •

ذكر مسير قسيم الدولة

مع فخر الدولة بن جهير الى الموصل بامر السلطان ملكشاه

في سنة سبع وسبعين واربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة الى ديار بكر ليتملكها ويجلي عنها بني مروان على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ ، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير – وكان زوج ابنة نظام الملك – الى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسيم الدولة اقسنقر ، وتقدم الى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره برأي قسيم الدولة ، لمعرفته بتدبير الجيوش وحصر البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقيهم في الطريق الامير أرتق بن أكسب التركماني – جد ملوك الحصن (٩) وماردين يومنا هذا – ومعه خلق كثير من التركمان فاستصحبوه معهم – وكان مشهورا بالعقل والدين – فلما وصلوا الى الموصل حصروها وضيقوا على من بها وأرسل أرتق الى من بها يشير عليهم بالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا واصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه واذعنوا له واطاعوا وسلموا البلد ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة واهله وذخائره . وكان السلطان عازما على اخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج اخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فارسل مؤيد الملك بن نظام الملك الى شرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له ان أباه نظام الملك قد شفع فيه الى السلطان فأجاب شفاعته ، وامره بالمسير معه الى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السلطان بالبوازيج (١٠) فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما اخذ له من اهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر باخيه .

ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت انطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . ولم يزالوا بها الى سنة سبع وسبعين واربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردروس (١١) فسار عنها الى بلاد الروم ، فكتب اهلها الى سليمان بن قتلمش - وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وغيرها - وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ماكان يأخذه من الروم ، وتهدده وخوفه عاقبة ، معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعادته ، والخطبة والسكة له في ، ولست بكافر حتى أعطيك ماكنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهدده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستغاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم احوجني إلى مافعلته ، وإلا فليس من عادتي اخذ مال مسلم ورد عليهم ماأخذ منهم.فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقيه سليمان في أول أعمالها ممايلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزما وذاق عاقبة بغيه وكان ملكه من السندية بالعراق على نهر عيسى إلى منبج ومابينهما من البلاد الفراتية : كهيت ، والانبار وغيرهما ، وملك الموصل ، وديار ربيعة ، والجزيرة بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة.ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها فارسل اليه اهلها : اذا انفصل الامر بينك وبين تاج الدولة تتش ، سلمنا اليك البلد . وكان تاج الدولة له

مدينة دمشق ونواحيها قد اقطعه اياها اخوه السلطان ملكشاه ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه ارتق بن أكسب - وقد اقطعه تاج الدولة البيت المقدس - فلما ارسل اهل حلب الى سليمان ماذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلت الحرب عن هزيمة عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة الى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكاتب اهلها السلطان ملكشاه ليسلموها اليه وهو بالرها ، وكان سبب مسيره اليها ، ان ابن عطير النميري كان قد باعها من الروم بعشرين الف دينار وسلمها اليهم ، فدخلوها واخربوا المساجد واجلوا المسلمين عنها ، فسار ملكشاه اليها هذه السنة فحصرها وفتحها واقطعها الامير بزان ، فلما اتاه رسل اهل حلب بالتسليم اليه ، سار اليهم فلما بلغ خبر مسيره الى تاج الدولة رحل عن حلب الى دمشق ، ووصل السلطان الى حلب ، وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي - وهو ابن عم شرف الدولة - فسلمها الى السلطان بعد قتال ، واعطاه السلطان عوضا عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر القشيري وكان شيخا كبيرا أعمى ، فبقيت بيد سالم واولاده الى ان اخذها منهم الملك العادل نور الدين ابو القاسم محمود بن زنكي رضي الله عنهما ، على مانذكره ان شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، ارسل اليه الامير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر ر ودخل في طاعته وسلم اليه لاذقية ، وفامية ، وكفر طاب فاجابه ملكشاه الى الصلح وترك قصده .

ثم إن نظام الملك اشار على السلطان بتسليم حلب واعمالها ، وحماه ، ومنبج ، ولاذقية ، ومامعها الى قسيم الدولة اقسنقر فاقطعه الجميع ، فبقيت بيده الى ان قتل سنة سبع وثمانين واربعمائة ، على مانذكره ان شاء الله تعالى .

واقطع السلطان مدينة انطاكية ياغي سيان ، وهو صاحب صلاح

الدين محمد الياغسياني الذي صار امير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكي .

ولما استقر قسيم الدولة في الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده ، وان السلطان استدعاه الى العراق فقدم اليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشا الى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر اهل التواريخ انه ليس من مشهور العرب من قتل هو وابوه وجده وجد ابيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ، فان عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضي الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد في الجاهلية ، وليس مشهور الترك من هو هكذا ، غير قليج ارسلان فقد قتله جاولي سقاووا بالخابور غريقا ، وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . واما ابوه قتلمش بن ارسلان يبغو بن سلجق فقتله صاحب مدينة استوا (١٣) لانه جمع خلقا كثيرا من الاتراك وخرج عن السلطان الب ارسلان ، فلقيه صاحب استوا فقاتله ، فانهزم قتلمش وسقط عن فرسه فمات . واما ابوه ارسلان يبغو بن سلجق ، فان صاحب غزنة من اولاد محمود بن سبكتكين (١٤) اخذه فقتله ، واخذ ابن قتلمش حتى خلصه الملك داود والد السلطان الب ارسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين واربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق ، قتله صبي ديلمي بعد الافطار ،

وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والامراء والفقراء وغيرهم من اصناف الناس ، وحمل في محفة لنقرس كان به الى خيمة الحرم ، فلقيه صبي ديلمي مستغيثا به فقربه منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي ايضا ، فعدمت الدنيا واحدها الذي لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، انه رأى النبي صلى الله وعليه وسلم في المنام كانه أتاه واخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، واظهر السرور به ، وقال : هذا أبغي واياه اطلب ، وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم يذله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، دينا ، خيرا ، متواضعا عادلا يحب اهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لانه اشتغل بالفقه في حداثته مدة .

واما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر — التي في زاوية من الارض لايؤبه لها — بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الان تعرف بمدرسة رضي الدين .

واعماله الحسنة ، وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولاادركه من كان بعده ، رحمه الله ورضي عنه .

وكان من جملة عباداته انه لم يحدث الا توضا ، ولاتوضأ الا وصلى. وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على اوقات الصلوات محافظة لايتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى انه اذا اغفل المؤذن أمره بالاذان ، واذا سمع الاذان امسك عن كل ماهو فيه ، واشتغل باجابته ثم الصلاة .

واما ابتداء امره ، فانه كان يحب التصرف ، فاتصل بامير كان صاحب بلخ يعرف بالامير ياخر — وكان مقدم عسكر الملك جغري

بك داود جد السلطان ملكشاه - وكان ياخر لايعطيه الا مايقوم بــه حسب ، وفي اخر كل سنة يصادره بما يفضل معه فضجر من هذه الحال ، واخفى اولاده - وكان له فخر الملك ومــؤيد الملك - وركب فرسه وهرب . وكان فرسه بطيئا ، فدعا الله تعالى ان يرزقه فــرسا يخلصه عليه ، فلم يسر الا قليلا حتى لقيه تركماني تحته فــرس جيد فسلمه اليه واخذ فرسه عوضه ، وقال له : ياحسن اذكر هذه . قــال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسي ، وعلمت ان السعادة قــد جــاءت ، ووصــلت الى مــرو ، ودخلت على الملك داود فــاخذ بيدي وسلمني الى ولده الملك عضد الدولة الب ارســلان وقــال : تســلمه واتخذه والدا لاتخالفه • ثم ان الامير ياخر سأل عني فلم يجدني واخبر بهربي ، فسار بنفسه في طلبــي حتــى دخــل على الملك داود فطلبني منه ، وقال : اخذ مالي وهرب ، فقال له داود : حــديثك مــع ولدي ألب أرســلان ، فلم يجسر يخــاطبه فيه . ووزر نظــام الملك السلطان الب ارسلان قبل ان يلي السلطنة في حياة عمــه الســلطان طغرلبك ، فلما توفي طغرلبك ســعى نظــام الملك في أخــذ الســلطنة لصاحبه الب ارســلان ، وقــام المقــام الذي تعجــز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه الى ان تــوفي . ثــم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه الى ان قتل . وكان قد تحكم عليه الى حد لايقدر السلطان على خلافه لكثرة مماليكه ومحبة الامراء والعســاكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم اليه بحسن سيرته وعدله.

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرســلان رضي الله عنه

في منتصف شوال سنة خمس وثمانين واربعمائة توفي السلطان ركن الدين ملكشاه رضي الله عنه . وسبب وفاته انه اكل لحم صيد فــاكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفي منها (١٥) وكان مولده في جمادى الاولى سنة سبع واربعين واربعمائة ، فكان عمره ثمــانيا وثــلاثين سنة وستة اشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان احسن الناس صورة ومعنى ويكفيه ان من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقاربة . حكى لي والدي رحمه الله تعالى - ثم اني رايت ماحكاه بعد ذلك مذكورا في كتب التاريخ - قال : ان السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك في شيء فعله بعض أولاده ، وقال له في جملة عتبه : ان كنت شريكي في الملك فعرفني ، وان كنت وزيري فاسلك مايسلكه الوزراء والااطبقت دواتك وعزلتك ، فقال للرسول : قل للسلطان عني : ان كنت ماتعلم انني شريك فاعلم ، واذكر مافعلت معك حين خرج عليك اعمامك واخوتك ونازعوك في الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسي ، وقمت المقام الذي تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف ، فردها نظام الملك بالرأي والحرب ، فان كان هذا كلامه ذلك الوقت . واما قوله انه يطبق الوقت دواتي فقل له : اعلم ان هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التي على رأسه ، فمتى اطبق هذه سقطت تلك.فيقال ان هذا كان سبب قتل نظام الملك ، وان السلطان وضع ذلك الديلمي حتى قتله ، وصح قول نظام الملك ، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوما ومات . وكان هذا كالكرامة لنظام الملك .

وكانت مملكة السلطان ملكشاه قد اتسعت اتساعا عظيما ، اطاعته البلاد جميعها وملكها ، وخطب له من حدود الصين الى الداروم من ارض الشام ، واطاعه اليمن والحجاز ، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة ، واطاعه صاحب طراز واسبيجاب ، وكاشغر ، وبلاساغون وغيرهما من الممالك البعيدة ، وملك سمرقند وجميع ماوراء النهر . ثم ان صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان اليه ، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه ، ولم يزل حتى ظفر به واحسن اليه واستصحبه معه الى اصفهان .

وعمل السلطان من الخيرات وابواب البر كثيرا ، منها مااصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة ، وحفر من الانهار ، وبنى مدرسة عند قبر الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة . وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر

ثم سار الى نصيبين فحصرها ، فسبه اهلها ففتحها عنوة وقهرا ، وقتل بها خلقا كثيرا ، واستناب بها محمد بن شرف الدولة العقيلي .

وراسل ناصر الدولة ابراهيم بن قريش بن بدران — وهو صاحب الموصل حينئذ — يأمره بالخطبة له وان يعطيه طريقا الى بغداد ، فامتنع عليه ، وسار كل واحد منهما الى صاحبه ، فالتقيا بالمضيع من بلد الموصل ، وكان على ميمنة تاج الدولة ، قسيم الدولة اقسنقر ، وعلى ميسرته بوزان ، فحملت العرب على بوزان فانهزم ، وحمل قسيم الدولة على العرب مما يليه فهزمهم ، أسر ابراهيم وجماعة من أمراء العرب ، فقتلهم تاج الدولة صبرا وملك بلادهم جميعها ، الموصل وغيرهما .

وسار في ربيع الآخر من هذه السنة الى ميافارقين فملكها وسائر بلاد ديار بكر .

ثم سار منها الى اذربيجان فقصده الملك ركن الدين بركياروق — وكان قد ملك كثيرا من البلاد منها : الري وهمذان ومابينهما — فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : انما اطعنا هذا الرجل لننظر مايكون من أولاد صاحبنا ، والان فقد ظهر بركياروق ، والرأي والمروءة تقتضي بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصار معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع الى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله اسماعيل بن ياقوتي ثم اطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث فاعلمهم انه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم امرهما ركن الدين بالعود الى الشام ليمنعا تاج الدولة عن البلاد ان قصدها فعادا .

مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيع وبنى مثلها بسمر قند ايضـا .
ولما مات ضبطت زوجته تركان خاتون العسكر ، وكتمت مـوته فلم يلطم احد وجها ، ولم يشق عليه ثوب ، ولم يسمع بسلطان مثله توفي فلم يصل احد عليه . ولم يجلس اصحابه للعـزاء سـواء . وارضـت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود ، وعمـره اربـع سـنين ، وسارت الى اصفهان .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه ـ وهو الاكبر ـ فطلب السلطنة فأخذها وتوفي محمود . ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشـاه ، فنازع اخاه بركياروق ، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت حـوالي اثنتـي عشرة سنة ، الى ان توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد .

وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج الى الساحل ، وملكوا انطـاكية اولا ثم غيرها من البلاد ، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ

ذكر صلح قسيم الدولة اقسنقر

وتاج الدولة تتش بـن الب ارسـلان ومـا شهده مـن الحروب معه

قد ذكرنا ان السلطان ملكشاه كان قد اقطع اخاه تاج الدولة مدينة دمشق واعمالها وماجاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرهما ، فلما توفي ملكشاه واختلف اولاده وهم صغار ، جمع تاج الدولة العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة اقسـنقر ، فعلم قسـيم الدولة ان اولاد صاحبه صغار ، وان الملك لايسـتقيم لهـم لصـغرهم وللخلف الواقع بينهم ، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة ، فصـالحه وخـطب له بحلب ، وراسل نور الدين بوزان صاحب حران وياغي سيان صاحب انطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة فملكهـا ، وخـطب لنفسـه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين واربعمائة .

- ٦٣٧١ -

ذكر وفاة امير المؤمنين المقتدى بامر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم من سنة سبع وثمانين واربعمائة ، توفي الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين رضي الله عنه فجأة . واسمه ابو القاسم عبد الله بن الامير محمد بن القائم بامر الله . وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة اشهر .

وانشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الازج ، والحلبة ، والاجمة ، ودرب القيار ، والمقتدية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية .

وهو استوزر فخر الدولة ابا نصر محمد بن محمد بن جهير ، وهو من الموصل .

وكانت خلافته بعهد من جده القائم بامر الله امير المؤمنين ، وامه تركية .

وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وقد علم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة . وكتمت القهر مانة شمس النهار موته ، واحضرت الوزير واعيان الدولة وجددت البيعة لولده ابي العباس احمد المستظهر بالله امير المؤمنين ، فلما بايعوا اظهرت وفاة المقتدي .

ولما بويع المستظهر بالله ارسل الى السلطان بركياروق لاخذ البيعة — وكان ببغداد — فانفذ بركياروق وزيره عز الملك بن نظام الملك والامير برسق وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ، ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان احضر الغزالي والشاشي وغيرهما من

العلماء فبايعوا . ثم ارسل الى غزنة ، وماوراء النهر ، وكرمان ، والشام لاخذ البيعة .
ولما استخلف اقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله

هو المستظهر بالله ابو العباس احمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الامير الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس احمد بن الامير أبي احمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي اسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، بينه وبين العباس عشرة خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فاما الخلفاء : فالمقتدى ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .
واما وليا العهد : فالذخيرة محمد بن القائم – وهو والد المقتدي بامر الله – والموفق الناصر لدين الله ابو احمد بن المتوكل – وهو جد المقتدر بالله .

واما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فاسحاق – والد القادر بالله – ، ومحمد – والد المنصور – ، وابوه علي ، وعبد الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بنى العباس من غير اباء المستظهر سبعة عشر خليفة ، وهم : ابو العباس عبد الله بن محمد السفاح – اول خلفاء بني العباس – ، والهادي موسى بن المهدي ، والامين محمد والمامون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق – وهو اخو المتوكل . ثم

المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم - وهو ابن اخي المتوكل - ثم المهتدي محمد بن الواثق بن المعتصم. وولي المكتفي علي بن المعتضد بالله واخوه القاهر بالله. ثم ولي الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم. ثم ولي المكتفي بالله عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد بالله. ثم ولي المطيع لله ابو القاسم الفضل، وولده الطائع لله ابو بكر عبد الله.

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضي الله عنه

في جمادى الاولى من سنة سبع وثمانين واربعمائة، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران. وكان سبب قتلهما، ان تاج الدولة تتش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من اذربيجان الى الان، فكثر جمعه، وعظم حشده، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وامدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالامير كربوقا - وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق، تقدموا نحوه والتقوا بروبان على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ، واقتتلوا واشتد القتال، فخامر بعض عساكر قسيم الدولة وانهزموا وتبعهم الباقون، وثبت قسيم الدولة فاخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة، فقال له: لو ظفرت بي ماكنت صنعت. قال: كنت اقتلك. قال: فانا احكم عليك بما كنت تحكم علي فقتله صبرا. وسار نحو حلب، وكان قد دخل اليها الامير كربوقا وبوزان فحفظاها منه، ولج في قتالها حتى ملكها واخذهما اسيرين، وأرسل الى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبوزان - فامتنع من بهما من التسليم لبوزان اليه - فقتل بوزان وانفذ رأسه وتسلم البلدين. واما كربوقا فانه أرسله الى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل ابيه تاج الدولة.

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وامن واسع ، وكان شرط على أهل كل قرية في بلاده ، متى اخذ عند احدهم قفل أو احد من الناس ، غرم أهلها جميع مايؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحدث الركبان بحسن سيرته .

واما وفاؤه وحسن عهده فيكفيه فخرا انه قتل في حفظ بني صاحبه وولي نعمته .

ذكر حال ولده عماد الدين زنكي بعد والده رضي الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة اقسنقر ، لم يخلف من الاولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه مماليك والده واصحابه ،وفيهم زين الدين علي ، وهو صبي ايضا .

ثم ان الامير كربوقا خلص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه الى حران ـ وقد اجتمع معه عسكر صالح ـ فملكها . ثم صار الى نصيبين فملكها ايضا . ثم الى الموصل فملكها وازال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي ، فانه كان مالكا لها وسار نحو ماردين فملكها ايضا .

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق فلما ملك البلاد احضر مماليك قسيم الدولة اقسنقر وامرهم باحضار عماد الدين زنكي . وقال : هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده ، فاقطعهم الاقطاعات السنية وجمعهم على عماد الدين زنكي ،

واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها ، فلم يزالوا معه .

ثم ان كربوقا توجه إلى آمد وصاحبها من امراء التركمان ، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق - جد صاحب الحصن يومنا هذا - ، فجمع من التركمان خلقا كثيرا وسار نحو امد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا ، فرأى كثرة التركمان فخافهم ، فاخذ عماد الدين زنكي والقاه بين مماليك والده ، وقال لهم : قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد قتالهم وحمي الوطيس فهزموا سقمان وأسروا ياقوتي ابن أخيه ، فحبسه كربوقا ثم أطلقه . وكان هذا أول مصاف حضره الشهيد عماد الدين زنكي بعد قتل والده . ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة اربع وتسعين واربعمائة .

وملك بعده موسى التركماني من اصحابه ، فلم تطل ايامه وقتل .
وملك الموصل شمس الدولة جكرمش - وهو ايضا من مماليك السلطان ملكشاه واخذ الشهيد عماد الدين وقربه واحبه ، واتخذه ولدا لمعرفته بمكانة والده ، فبقي الى ان قتل سنة خمسمائة .
ولاجرم ان الشهيد قدس الله روحه ، رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرهما من البلاد ، فانه أخذ ولده ناصر الدين كوري ، فاكرمه وقدمه واقطعه اقطاعا كثيرا ، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهرا .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاووا فاتصل به عماد الدين زنكي وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة والشهامة ، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد ، وكان جاولي قد عبر الى الشام ليملكه من الملك رضوان ، فأرسل السلطان الى الموصل الأمير مودود واقطعه أياها سنة ثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه الشهيد وغيره من الامراء ، وفيهم الأمير التونتاش الابري ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك

أكرمه وأعظمه وأكثر اقطاعه ، فحكى لي والدي قال : كنت أراه الى جانب المولى الشهيد لايتقدم عليه أحـد مـن الأمـراء ، وله عقـب بالموصل الى الآن في خدمة الدولة القاهرة .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل بـه الشـهيد عمـاد الدين عرف له ذلك ، مضافا الى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد في اقطاعه وشـهد معـه حـروبه ، فممـا بلغني منها ، ان الأمير مودودا سار الى الغزاة بـالشام ففتـح في طـريقه قلاعا من شبختان وكانت للفرنج وقتل من بها منهم ، ثم سـار الى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادخرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة
عن الملوك الى أعلاهم حسبا

ابهرهم فضلا ، أغمرهم بذلا
أفخرهم أبدا فعلا ومنتسبا

أشم أشوس مضروبا سرادقه
على الممالك مرخى دونها الحجبا

ممتنع العز ، معمور الفناء به
مظفر العزم ؛ والآراء منتخبا

من معشر طالما شبوا بكل وغى
نارا يظل أعاديهم لها حطبا

ثم ان الأمير مودودا رحل عنها وعبر الفرات الى الشام ، فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضا ، ثم سار عنهـا الى معرة النعمان فحصرها ، وجـاء إليه الأمير طغـدكين صـاحب

دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف ان يأخذ منه دمشق فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا عن قتال المسلمين لكثرتهم فان السلطان محمدا ، كان قد أمد الامير مودودا بعسكر مقدمهم الأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فمرض سكمان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس فأخذ اصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعترضهم إيلغازي بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه وجعلوا تابوت سكمان في القلب كما كان حيا ، وقاتلوا فظفروا ، وانهزم ايلغازي وعادوا الى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، وصلح طغدكين للفرنج ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، واذن لعسكره في العود والاستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل مودود طغدكين واصلحه وجمع العساكر وعاد الى الشام ، وحضر عنده اتابك طغدكين وساروا جميعا الى طبرية وحصروها وقاتلوها قتالا شديدا وظهر من أتابك الشهيد رضي الله عنه شجاعة لم يسمع بمثلها فمنها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن انهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رمحه الى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحدا حمى نفسه وعاد سالما ، فعجب الناس من اقدامه اولا ومن سلامته آخرا ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل صاحب القدس ، وعكا وصور وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث عشر محرم (سنة ٥٠٧) عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم

الفرنج لعنهم الله . ووصلوا الى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم المسلمون ، فلما كان من الغد وصل الى الفرنج عسكر قوي من انطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوما ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان ، فنزل اليهم الفرنج وتواقفوا خمسة ايام ، وانقطعت المادة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا الى مرج الصفر ، وأذن الامير مودود للعسكر في الرجوع الى بلادهم والاجتماع اليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها ، فخرج يوما يصلي الجمعة، فلما صلاها وخرج الى صحن الجامع ويده بيد طغدكين ، وثب عليه انسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائما فحمل إلى دار طغدكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لالقيت الله الا صائما فإنني ميت لامحالة سواء أفطرت أو صمت ، وتوفي في بقية يومه رحمه الله.فقيل ان الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغدكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيرا عادلا حسن السيرة ، فحدثني والدي رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج الى طغدكين يقول له : ان أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق على الله أن يبيدها فلما قتل الامير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمير جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعودا الى الموصل ، ثم انه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره الى قتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة مالا يوصف ، ولاسيما بعد مافعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار الى الرها في خمسة عشر الف فارس ، فحصرها وقاتل من بها من الفرنج والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل الى سميساط وهي ايضا للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد الى شبختان

فأخرب مافيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاء حسنا ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وماظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي الى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة (ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله) (١٧) .

قال : وفيها غرقت سنجار من سيل المطر وهلك منها خلق كثير ، ومن أعجب مايحكى ان السيل حمل مهدا فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل ، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها ايضا زلزلت اربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل ، فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلدا ، وكانت الأراجيف قد كثرت واكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذي الحجة ايس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محمودا – وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة – فلما راه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره ان يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : انه يوم غير مبارك – يعني من طريق النجوم – فقال : صدقت ، ولكن على ابيك ، وأما عليك فمبارك هو

بالسلطنة ، فخــرج وجلس على التخــت ، ولبس التــاج ، وتــوفي السلطان محمد من ليلته ، واظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والاحسان ، وكان مولد السلطان محمد ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمــائة ، وكان عمــره ســبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام ، وأول ماخطب له بالسلطانة ببغداد في ذي الحجة ســنة اثنتين وتســعين وأربعمــائة ، وقــطعت خطبته عدة مرار ، ولقي من المشاق والاخطار مالم يلقه أحــد ، الى أن توفي أخــوه الســلطان ركن الدين بــركيارق فحينئذ اســتقرت له السلطنة وصفت له ، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة اشهر .

وكان عادلا حسن السيرة ، شجاعا ، واطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد ، ومن عدله انه اشترى عدة مماليك من بعض التجار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خوزستان ، فــأوصل البعض ومــطل بالباقي ، فحضر التاجر مجلس الحكم ، وأخذ غلام الحاكم ووقــف بطريق السلطان واستغاث اليه ، فأمر من يستعلم حاله ، فلما سأله عن حاجته ذكرها له ، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم واخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطالب بماله، فعاد الحــاجب وأعلم السلطان حاله ، فعظم عليه وضــاق صــدره ، وأمــر في الحــال ان يحضر عامل خوزستان ، ويلزم بمال التاجر ، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمطل هو ولا غيره بمال يحال عليهم ، ثم انه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيرا : لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بــي غيري ، ولم يمتنع أحــد عن اداء الحق ، وهذه الفضيلة ايضا مما دخرها الله تعالى لهــذا البيت الشريف الاتابكي ، فــان الملك العــادل نور الدين محمــود بــن زنكي ، فعل ماندم السلطان محمــد على تــركه ، ولما علم الامراء وغيرهم (أن) من خلق السلطان محبة العدل واداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله ، اقتدوا (بــه) وامــن الناس ، وظهــر العدل .

ثم ان السلطان محمودا أقام بالسلطنة، وجـرى بينه وبين عمـه السلطان سنجر حرب ، انهزم فيهـا محمـودا وعاد الى عمـه بغير عهد ، فأكرمه واقطعه من البلاد من حد خراسان الى الداروم بأقصى الشام ، وهي من الممـالك : همـذان ، واصـفهان وبلد الجبـال جميعه ، وبلاد كرمان ، وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجـان وارمينية وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مصر وديار ربيعة والشام وبلد الروم الذي بيد أولاد قلج ارسلان ومابين هذه الممـالك من البلاد.ورأيت منشورة بذلك .

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر ، ولا شـهدها ليسـتقصى ذكرها فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا اليها لتعرف .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله
وخلافة المسترشد بالله

قال ، وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سـنة اثنتـي عشرة وخمسمائة ، توفي الامام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العبـاس أحمد بن المقتدي بأمر الله من تراقي ظهرت به (١٨)

وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام .
وخلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما .
ومضى في ايامه ثلاثة سلاطين خطب لهم ببغـداد ، وهـم : تـاج الدولة تتش (١٩) ، وركن الدين بركيارق بن ملكشـاه ، واخـوه غياث الدين محمد بن ملكشاه .

وكان رضي الله عنه كريم الاخـلاق ، لين الجـانب، مشـكور المساعي ، يحب العلم والعلماء ، وصنفت له التصـانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرها .

وكان يسارع الى أعمال البر والمثوبات ، ولايرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق الى من يوليه الاعمال ، لايصغي الى سعاية ساع .

وكانت ايامه ايام سرور وأمن للرعية ، وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره ، واذا تعرض سلطان أو غيره الى اذى أحدهم بالغ في انكار ذلك والزجر عنه .

وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات لايقاربه فيها أحد ، تدل على فضل غزير وعلم واسع ، ولما توفي صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن في حجرة كانت له يألفها ، ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية ، وكان المتولي لأخذ البيعة قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ، وممن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردي ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والاحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود واخيه الملك مسعود وما أثر عن عماد الدين فيها

قال: لما ولي السلطان محمود السلطنة ، اقر أخاه الملك مسعود على الموصل مع اتابكه جيوش بك ، فبقي مطيعا لاخيه الى سنة اربع عشرة وخمسمائة ، فحينئذ خرج عن طاعته ، وكان سبب ذلك ان دبيس بن صدقة الاسدي ، كان في عسكر السلطان محمد ، وقد اخذ بلد الحلة منه ، فلما ملك السلطان محمود اقطعه الحلة واعاده اليها ، فلما وصل الى الحلة كاتب الأمير جيوش بك

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ما ناله ابوه سيف الدولة صدقة فاختلاف السلطانين بركيارق ومحمد ، وقد ذكرناه في المستقصي — وكان الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك ايضا ، وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية اذربيجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك الى السلطان محمود ، فأرسل اليه والى اخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الاحسان أن عاودا الطاعة ، ويتهددهما أن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوي طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة ، وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا الى قوله ، وبلغ قوله الى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعودا وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقلة عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب اليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر الف فارس ، والتقوا عند عقبة اسد آباد في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم الى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، واسر جماعة من امراء عسكرهما والاعيان ، منهم الاستاذ ابو اسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال: قد صح عندي فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز ستين سنة .وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمنيت ان القاك في الدهر مرة
فلم أك في هذا التمني بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم مني
أنالت وما قامت بها آملا سوقي

فياليت ان الدهر كل زمانه
وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان بينه وبين الوقعة اثني عشر فرسخا فاختفى فيه ، وارسل ركابيا كان معــه إلى أخيه يطلب الأمان ، فأرسل إليه البرسقي بأمانة وتطييب قلبه ، فأحضره معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهــم بلقــائه وأكرمــه واحســن اليه ، ولما لقيه بكى كل واحد منهما الى صاحبه ، واعتذر مســعود فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل اموره .

وأما جيوش بك فانه سار وانتظر الملك مسعودا فلم يره ، فســار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بهــا فلمــا بلغــه خبــر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم انه لامقــام له ، فســار جريدة الى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه واقــره على اذربيجان .

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم ان السلطان اقــطع آقســـنقر البــرسقي بلد الموصـــــل واعمالها، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها في صفر ســنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وامره بحفـظ عمــاد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته ، فسار الى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه مــن العقــل والشجاعة ، وتقــدم والده في الايام الركنية وكانت ســيرة ملكشــاه عندهم كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهــم اكثــرهم اتبــاعا لسيرته .



ذكر اقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، اقطع اتابك عماد الدين مدينة واسط وولي شحنكية البصرة ، وكان سبب ذلك ان الامير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان (محمود) وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه الى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالانحدار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة دبيس ، فانحدر اليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقيه دبيس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال ، وسبب ذلك انه رأى خللا في مسيرته وبها الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين القيت الخيمة رات الميسرة ذلك فظنت الهزيمة فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي ، وقيل بل اعطي رقعة فيها أن جماعة من العسكر يريدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد الى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي لم يعرض دبيس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل الى الخليفة انه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج الذواب الى الأعمال .

ثم أن السلطان ولى البرسقي شحنكية العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت جهان والدة اخيه الملك مسعود ، واقام البرسقي ببغداد الى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين دبيس في الصلح فلم يتم ذلك ، فأرسل دبيس عسكرا الى واسط - وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه - فلما سمع من بها بمسير عسكر دبيس اليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التونتاش الأبري وبعماد الدين زنكي واقطعه البلد ، وامرهم بطاعته ، فصافوا عسكر دبيس فهزموهم واسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى دبيس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط ، وارسل البرسقي إليه أيضا فولاه شحنكية البصرة وأمره بحمايتها ، فوليها وحماها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها والاغارة عليها مرة بعد اخرى ، فلما سكنها لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه احد ، فازداد شأنه عظما .

وتجنب دبيس قصد ولايته لعلمه انه لا ينال منها غرضا ، وأنفذ عسكرا نحو المدائن ، فخاف اهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازما على قصد دبيس ، وناهيك هذا شرفا لعماد الدين ، حيث يترك دبيس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها .

وبطل الحج هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة دبيس وعسكر بغداد وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد دبيس وعساكره الى المدائن وعبر البرسقي الى الجانب الغربي ليسير اليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله الى دبيس ينهاه عن العصيان ، ويتهدده ان اصر على المخالفة بقصد بلده ، فغضب دبيس وحلف ليقصدن بغداد وليخربنها ويقتل اهلها ، وجمع العرب واطمعهم في نهب بغداد فكثر جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء اسود وعمامة سوداء وطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيده القضيب ، وعبر في الزبزب ومعه وزيره نظام الملك احمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء وشيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل ، وقاضي القضاة الزينبي وغيرهم ، فلما سمع البرسقي

بمسير الخليفة ركب وعاد الى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الارض ، فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقي والامراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة – وقد تأخر دبيس عن المدائن – فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل ، ورتب البرسقي عسكره ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكي في عسكره ، والامير أبا بكر الياس البكجي ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء بين يديه ، والمصاحف منشورة وتقدم إلى أهل بغداد بقراءة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم الف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما تواقفت العساكر ، حملت ميسرة دبيس – ومقدمها عنتر بن ابي العسكر – على الأمير أبي بكر الياس ومن معه ، فتراجعوا على اعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر ايضا حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، واشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكي ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر واصحابه ، وأطبقوا (عليه) من خلفه ، وعاد الأمير ابو بكر ، فبقي عنتر ومن معه في الوسط ، فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير ، وكان البرسقي قد جعل له كمينا ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر دبيس ، فانهزمت العرب ومن معهم ودبيس ، فألقوا نفوسهم في النيل ، فغرق منهم خلق كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقي ، وأن من بها قد اشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكي فلما تم الظفر ، قدمت الاسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبرا .

وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارس واثني عشر الف راجل ، وعسكر الخليفة والبرسقي ثمانية الاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارسا .

ووقع نساء دبيس وسراريه في الأسر ، غير زوجته ابنة ايلغـازي ابن ارتق وابنة عميد الدولة ابن جبير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الوقعـة في اول المحـرم سـنة عشرة وخمسـمائة وعاد المسترشد الى بغداد فدخلها يوم عاشوراء •

وثار العامة ببغداد ، فنهبـوا مشـهد بـاب التين ومـاعند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكا العلويون ذلك إلى الخليفة فأنكره ، وسير نظر الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتنكيل به ، ففعل بهم ماأمر ، واسترد مـن النهيب مـاأمكنه ورده على أصحابه .

وأما دبيس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصيا على أخيه السـلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي واتصاله بالسلطان محمود

قال : ولما فارق دبيس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الافـرنج ، وولى شـحنكية بغـداد يرنقش الزكوي ، فعـاد البرسقي في سنة سبع عشرة وخمسمائة •

وكان أتابك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معـه إلى الموصـل . فحـدثني والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشـهيد ، قـالوا : جمـع

الشهيد أصحابه وقال لهم : قد ضجرنا مما نحن فيه . وتارة بالموصل ، وتارة ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام فبم تشيرون أصنع ؟
فقال له زين الدين علي بن بكتكين — وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحبة له — فقال : يامولانا ، التركمان تقول في أمثالها : إذا أاراد الانسان (أن) يضع على رأسه حجرا فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لابد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ماكان يرجوه ، وأنفق ماكان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : ياعلي ، قد وضعنا على رؤوسنا حجرا عظيما كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تخت السلطان لايتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجو كان بيده ، واستدعى عماد الدين زنكي وناوله إياه ، وقال له : إلعب معنا ثم قال السلطان للأمراء معاتبا لهم وموبخا : أما تستحيون ، يجيء إليكم فلان — وهو من عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة — فلم يكن فيكم من يحمل له شيئا ولا يعمل له دعوة ، والله لقد تركته لم أرسل إليه نفقة ولاأعطيته إقطاعا لانظر فعلكم . وبالغ في لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك إمرأة الأمير كند غدي ، وأمر له بمال . وكان هذا كند غدي من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله(السلطان محمود) مع اخيه الملك طغرل اتابكا له ومدبرا لدولته فحسن له العصيان على اخيه السلطان محمود وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه ، فاتفق أنه مات في تلك السنة ، وخلف ولدا صغيرا وزوجة ، ومن الأموال والبرك (٢) والسلاح مالا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إنني قد زوجتك بعماد الدين زنكي ، فامتنعت ثم أجابت . فقال . فركب زنكي من غد بدخوله بها ومعه ولد كند غدي ، وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كند غدي ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ماليس لأحد في العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه في ذلك الوقت الخبر بأن العــرب قــد اجتمعـت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بــالمسير إليهــا ، وأقــطعه إياها لما كان بلغه عنه من الحماية لهــا في العــام الماضي ــ وقــت اختلاف العساكر والحروب ــ وأمره بالحفظ والاحتياط .

وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة .قد باشر الحرب وأحب جمع العساكر ، وخوف ناحيته ، فتقدم إلى عماد الدين بمــراعاة أحــوال واسط والتطلع إلى معرفة حالها ، فإن قصدها عسكر من الخليفــة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحســن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، فصار يرســل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فــأمنت البــلاد والطــرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتــى لم يخــف عليه منهــا شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنكية بغداد

كان قد جرى بين يرنقش الزكوي شــحنة بغــداد وبين الخليفــة المسترشد بالله نفره ، فتهدده المســترشد ، فســار عن بغــداد إلى السلطان في رجب سنة تســع عشرة وخمســمائة ، شــاكيا مــن المسترشد بالله ، وحذر السلطان جــانبه ، وأعلمــه أنه قــد جمــع العساكر عازما على منعه عن العراق ،

وقال له : إن تاخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان الى العراق ، فــأرسل إليه الخليفــة يطلب منه أن لايأتــي بغداد هذه الدفعة لخراب البلاد والغــلاء الذي بهــا ، وبــذل له على تاخره مالا كثيرا ، فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر الى الخليفة عبر هو واهله وحرمه وأرباب المناصب الى الجانب الغربي في ذي القعدة . مظهرا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان . فلما خرج من داره بكى الناس بكاء عظيما ، واتصل الخبر بالسلطان فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فاعاد الجواب : إنني أمرتك بالتاخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الاقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فنحن راحلون عنه بالاهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل الى بغداد ، فلما كان عيد النحر ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السرادقات والمنبر ، واحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيما .

ثم إنه أرسل عفيفا الخادم في عسكر الى واسط ، وبها عماد الدين زنكي ، وكان قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت إليه ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربي من واسط ، فعبر إليه الشهيد وقاتله قتالا شديدا ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعا إليه ، وسد أبواب الخلافة سوى باب الذوبي ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه . ووصل السلطان الى بغداد في عشرين من ذي الحجة ، ونزل بالشماسية ، ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس ، ولم يزل السلطان يراسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح وهو يمتنع ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة ، والعامة من الجانب الغربي يسبون السلطان أفحش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في المحرم

سنة عشرين وخمسمائة ، ونهبوا التاج وحجر الخليفة ، وضج اهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى باعلى صوته : يآل هاشم ، وامر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار الف رجل مختفين في السراديب فظهروا ـ وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب ـ فاسروا جماعة من الامراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الامراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم اوحد الزمان الطبيب ، وقتل منهم خلق كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة .

وعزم عسكر الخليفة على تبييت عسكر السلطان ، فغدر بهم الامير أبو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان .

وكان السلطان قد ارسل الى عماد الدين زنكي يامره ان يحضر بنفسه ، ومعه المقاتلة في البر والماء ، وان يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة الا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الاعلام ، واظهر السلاح ، واخرج بعض من في السفن الى البر فامتلات الارض والماء رجالا وسلاحا ، فرأى لناس منظرا عجيبا وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملأ قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لان البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها ، فاخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض اليها أحد باذى .

وكان الخليفة - لما هرب الامير ابو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين - قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يجيء ويقاتلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاتلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلبا في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا الى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان مما جرى . وكان حليما يسمع سبه باذنه ولايعاقب عليه . وعفا عن أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار باحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لاتساوي العراق بعض هذا .
ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد الى عاشر ربيع الاخر ، وحمل الخليفة اليه كل ما استقرت القاعدة عليه من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما اراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنكية بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الامور ، فلم ير في امرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه من الاتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنكية العراق مضافا الى ما بيده من الاقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة ، قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديدا ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة ايام ، فقال : لاأترك الجمعة لشيء أبدا ، وكان يشهدها في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ،

فثار به من الباطنية مـا يزيد على عشرة أنفس ، فقتـل بيده منهـم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيرا عادلا ، لين الاخلاق ، حسن العشرة مع اصحابه . حكى لي والدي رحمه الله تعـالى ، قـال : حـكى بعض الغلمـان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صـلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولايسـتعين بـأحد ، قـال : فـرأيته بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبـر صـغيرة وبيده ابريق نحاس وقد قصد دجلة ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأيته قمت إليه لآخذ الابريق من يده ، فمنعني وقال : يا مسكين إرجع الى مكانك فإنه برد ، فاجتهدت به لآخذ الابريق من يده فلم يفعـل ، ولم يزل حتى ردني الى مكاني ، ثم توضأ ووقف يصلي . وذكر لي مـن أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقي ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود ، وارسل الى السلطان يطلب ان يقرر البلاد عليه ، فاجابه الى ذلك واقره على ما كان لأبيه من الاعمال ، فضبط البلاد وقام فيها المقـام المرضي ، وكان شابا عاقلا ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهـم ، وكان يدبـر الامر بين يديه الامير جاولي ـ وهـو مملوك تـركي مـن ممـاليك أبيه ـ وكان أيضا عاقلا حسن السيرة ، فجرت الامور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه في عنفوان شبابه حمامه وتوفي سـنة إحدى وعشرين وخمسمائة ، فولي بعده أخوه الاصغر ، وقام بتدبير دولته جاولي أيضا ، وأرسل إلى السـلطان يطلب أن يقـرر البـلاد عليهم ، وبذل أموالا كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل وسائر بلاد الجزيرة

نبتدىء قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف اهلها من كف عاديتهم ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدرة ، وسماء عزهم منفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الايمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين ، وشبختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماه ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستاصلوا ما لأهلها من أثاث وعين .

وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ويخاطرون بالقرب من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتـى جعلوا على كل بلد جـاورهم خراجا وأتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعـوا بذلك ، حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والارمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود الى أوطانهم ، والرجوع إلى أهليهم واخـوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله اخـذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارا ، وللكافرين قدرة واقتسارا .

واما حلب فانهم اخذوا مناصفة اعمالها حتى في الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

واما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعـالى الى ملوك البـلاد الاسـلامية وأمـراء الملة الحنيفية ، وما هـم فيه مـن العجـز عن نصرة الدين ، والوهـن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهـم لهـم وشـدة صـوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله ووبله ، إرتاع للاسلام واهله ، واذف لهم من ذلال عدوهم لهم واسره وقتله ، فحينئذ اراد ان يسـلط على الفرنج من بسوء افعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصـلبان رجوما منه تهلكها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوي الراي والنجدة والشهامة من اصفيائه ، فلم ير فيها أقوى على هـذا الامر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا امضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الثغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول القائل :

رماها بحرب منه حتى كانما
بدعوة نوح في العصاة رماها
اخي الحرب يصليها بنفس كانما
تزاحم في ضنك الوغى بسواها
كتائب تزهى بالفتوح كأنما
تباري النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخـذ للمـوحدين منهـم بثـأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارهـا ، ومـا س المسـامون في حلل مـن النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهـل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بمـا اسلفوا مـن الدخـول والطوايل ، والقى التوحيد بالديار الجزرية والشاميةجرانه ، وبث فيها أنصاره واعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، ياأهـل الشرك لاعاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسـترى مـا أجملناه مفصـلا ، ومـا اختصرناه مطولا ، هذا سوى مكارم أخلاق أدرع جلبابها ، وحسـن سياسة إعتلاق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سـنة إحـدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زنكي بن آقسـنقر الموصـل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سـبب ذلك أن عز الدين مسعود بن البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده اخـوه ، وتولى امره جاولي ، أرسل إلى السـلطان محمـود يطلب أن يقـرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهـاء الدين أبـا الحسن على بن الشهر زوري وصلاح الدين محمـد الياغيسـياني ، فحضرا بغداد ليخـاطبا السـلطان في ذلك ، وكانا يخـافان جـاولي ولايرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر ــ الذي كان أعظم اصحاب اتـابك زنكي منزلة ــ وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين مـا قدم له ، فخوفه نصير الدين ، من جاولي وتحـكمه على صـاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البـلاد لعمـاد الدين فهـو الراي ، لان السـلطان صـورة وأنا وأنت معنى ، فـأجابه إلى ذلك وأخـذه إلى القاضيبهاء الديناين الشهروزري وتحدثا معـه ووعده نصـير الدين ومناه ، وضـــــــــــــــــــــــــــــــمن

له عن عماد الدين مـن الامـلاك والاقـطاع والوقـوف على اختياره ماجاوز أمله ، فأجاب بهاء الدين ايضا ، وركب هو وصـلاح الدين الى دار الوزير – وهو حينئذ أنو شروان بن خالد – فقال له : قـد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجـزيرة والشـام قـد اسـتولى الفرنج (عليها) وتمكنوا منهـا وقـويت شـوكتهم ، وقـد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهـم ، وهـذا ولده طفل ، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهينا الحـال إليك ، لئلا يجـري خلل أو وهـن على الاسـلام والمسلمين ، فنحصل نحـن بـالاثم مـن الله ، واللوم مـن السلطان ، فأنهى الوزير ذلك الى السلطان، فقـال : مـن تـريان يصلح لهذه البلاد ، فقد نصحتما لله تعالى والمسـلمين ، فـذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي ، وعظما محله أكثر مـن غيره فمـال السلطان الى توليته ، لما علم من شهامته وكفايته وعقله ولما تولاه ، وأمرهما بالحضور عنده ، وفصل الحال في خدمة يحملها ، واستقر الحال وولاه البلاد جميعها ، وكتب منشوره الى بغداد .

وسار زنكي الى البوازيج ليملكها ويتقوى بها ، ويجعلها ظهره إن صده جوالي عن البلاد ، فلما اسـتولى عليهـا سـار عنهـا الى الموصل ، فحين أن اتصل خبر وصوله بجاولي ، خـرج إلى لقـائه ومعه العسكر جميعه ، فلما رأى الشـهيد ، نزل عن فـرسه وقبـل الارض ، ثم قبل يده وعاد في خـدمته ، فـأقطعه الشـهيد الرحبـة وأعمالها وسيره إليها ، وأقام هو بالموصل إلى أن يصـلح أمـورها ويقرر قواعدها ، فولى نصير الدين دزدارية الموصل وفوض إليه أمر الولاية جميعها ، وجعل الدزدارية في البلاد لنصير الدين أيضا وجعل صلاح الدين الياغيسياني أمير حاجب ، وجعل بهـاء الدين قـاضي قضاة بلاده جميعها ومايفتحه مـن البـلاد ، ووفى لهـم بمـا وعدهـم ، وكان بهـاء الدين أعظـم الناس عنده منزلة وأكثـرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الامور على أحسـن حـال وأحـكم قاعدة .

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر

لما فرغ الشهيد رضي الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعدها (حشد)الجذود واقطع العساكر(ثم) سار نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض مماليك البرسقي ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظنا منه أنهاتحميه ، فراسله عماد الدين وبذل له ورغبه فلم يصغ الى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، ايقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا الى عماد الدين ـ وكان قد عبر دجلة أيضا مع عسكر ـ وطلبوا منه الامان وقاعدة تقرر بينهم ، فأجابهم الى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق الماء بسور البلد وصعد فيه أكثر من قامة ، واستترت الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد الى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينج منهم أحد ، فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته وعلموا أن امورا ـ هذه بدايتها ـ لعظيمة .

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها الى نصيبين ـ وكانت لحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وغيرها ـ فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين الى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده على

دفع أتابك عن نصيبين ، فوعده النجـدة وجمـع عسـاكره ، وعاد حسام الدين الى ماردين ، وسـير رقـاعا على أجنحـة الطيور الى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام ، فبينما أتابك الشهيد في خيمته إذ رأى طائرا قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيده فاصطيد ، فرأى فيه رقعـة ففتحهـا ، واذا هـي الرقعـة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إنني قد قصدت ابن عمـي ، وقـد وعدني بـالنصرة والمسـير في العساكر ، ومايأتخر وصوله الينا أكثر من عشرين يوما ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلمـا رأى من فيه الرقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجـزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعوه وسـلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش مـاكانا عزمـا عليه ، وقـد جرى مثلها للمولى السعيد نور الدين ارسـلان شـاه على نصـيبين أيضا سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرهـا إن شـاء الله تعالى في موضعها .

قال : فلما تسلم الشهيد نصـيبين ، سـار عنهـا إلى سـنجار فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثـم إنهـم سـلموها إليه واتصـلوا بخدمته ، وسير منها الشحن الى الخابور فملكه جميعه ، ثم سـار إلى حران ـ وكانت الرهـا وسروج وغيرهمـا مـن ديار الجـزيرة للفرنج لعنهم الله ـ وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البـلاد من حام يذب عنها أو سلطان يمنعها فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، واذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلمـوا انهم قد أتاهم نصر مـن الله وفتـح قـريب ، فـأرسلوه بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحـوهم مجـدا حتى نزل بسـاحتهم ، فـاستبشروا بقـدومه وخـرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

وارسل الى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البـلاد التـي بيد

الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء ، على مابقي له من البلاد الشامية والجزرية ، واصلاح شأنها ، والفراغ من اقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم .

وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على مااختاره .

ذكر ملكه مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الاسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوا محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوي طمعهم في ملك مابقي في يد المسلمين من البلاد ، لايعلمون ماأعده الله سبحانه في سر الغيب ، وماقدره من الانتقام منهم وادالة المسلمين عليهم ،ليذهب (غيظ قلوبهم) (ويشف صدور قوم مؤمنين) (التوبة ١٤ ـ ١٥)

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا بباب الجنان، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة ، فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلما عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة وسار الى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به مالايعلمه إلا الله سبحانه تعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ،

ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتابك طغدكين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متى حصروا

حلب وغيرها جمع طغدكين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم لله بنصر دينه ، ولطف الله بالمسلمين بعده ، وولي الشهيد قدس الله روحه ، ولما ملكها أقام بها ليقرر قواعدها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ماخرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها ، ففرغ من جميع ماأراده .

وفي سنة ثلاث وعشرين (وخمسمائة) سار الى حماة فملكها .

ذكر الحرب بين الشهيد أتابك وبين الملوك الأرتقية وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما .

وفي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره ، وحسام الدين تمرتاش بن ايلغازي – وهو ابن عم داود – وانضم اليهما صاحب آمد وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم الى جمعه ومن العساكر والتركمان، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن نشابته كانت اذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ، وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا – وهي لهم أيضا – فاقتتلوا قتالا شديد ، صبر (فيه) عسكر الشهيد – وهم نحو اربعة الاف فارس – لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، ثم انجلت الوقعة عن هزيمة الارتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا • فحكى لي والدي ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصد بلد جزيرة ابن عمر فنهبه وأخربه ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد

أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطـريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخـاف أن يمسـك عليه المضـايق وينالـه أذى ، ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم .

ذكر فتح حصن الأثارب من الفرنج

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصـالحهم وأمن ناحيتهم وسار إلى الشام وقد جمع واحتشد وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصلبان ، وقصـد إلى حصـن الأثـارب ونازله ، وأنزل بأهله التثريب ، وعم بلادهم بالنهب والاحراق والتخـريب .
وكان هذا الحصن أضر شيء على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه مـن الفرنج مابين حزب وحرب ، وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هـو من أخطر ثغورهم ، وهـو من المسلمين في نحورهم ، فتابع الشهيد ، وأدمن نزالهـم ، وصـب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذ من به من سـطوته وبـأسه بالجدران ، وعمهـم الرعب فصـاروا يحسـبون كل صـيحة أنى يسلكون ، وسقط في أيديهم وضـل عنهـم مـاكانوا يفتـرون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واسـتشارهم في الذي يصنعون ، وبأي حيلة في دفعه عن بلادهم يدافعون فأما أهل الغـرة والجهل فهو ذوا حاله ، وبذلوا من انفسهم قتاله ، ظنا منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لايستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتمـاء بعريض الأسوار لابحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوي الرأي والتجـربة مـن طـواغيتهم ، وقال : إني أرى شرار سيكون له ضرام ، ودخانا تحتـه شـواظ ، أليس هذا الغضنفر الذي أثر في طبرية بمفرده ماأثر ، فكيف به اليوم وهـو في عدة وعديد ، ومتـطوعة وجنود ، فـالقوا قناع التـواني ،

ولاتسيروا إلى دفعه سير السواني(٢٣) ، فلابد لهذا العارض أن يملأ بسيله الوادي ، ولهذه النار أن تعم بشررهـا النادي ، ولهـذا الاقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادي ، ولئن لم نلقه بجمـوع ننتصف منه بها ، ونلحقه بمن تقدمه من مقـدمي الجيوش ، ليكونن لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن المسلمين منا بأوفر نصـيب ، فحينئذ إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من في أطراف البلاد ، وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعـاصي ، واقبلوا في جمـوعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلأ منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخـوف قـد عم رئيسـهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون في مسيرهم رجلا ويؤخـرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنمـا يسـاقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى الشـهيد وزراءه وأمـراءه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاولة الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة خسف تجرئهم علينا ، وتطمعهم فيمـا لدينا ، لكن الرأي أن نستعين بالله عليهـم ونلقـاهم ، فإمـا لنا وإمـا علينا ، وتأهب للقائهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتـى وافـاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتـاهم ، ونشـبت الحـرب بين الفـريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمـي الشـهيد للاسـلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهـم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطما ، ويستأصل أركانهم هدما ، ويحرض أصحابه ويدمنهـم وبتتـابع الحمـلات عليهـم يأمرهم .

فحيث راى الفرنج ماقد أحاط بهم من البلاء ، وعمهم من الشدة واللاواء ، علموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك

وقد علقت معالقها وصر الجندب (٢٤) وحيل بينهم وبين مايشتهون ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل ٠

فلما تعذرت عليهم الهزيمة ، حموا انفسهم اللئيمة ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والاخوان والأخوات ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقماصتهم وفرسانهم وداويتهم وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالانهزام ، فطلبهم بصدق القتال والاقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محتسب للآخرة .

فاثبت في مستنقع الموت رجله
وقال لها من تحت أخمصك الحشر

ففلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الوقعة عن رؤوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغمادا ، وأدركت خيله منهم ثأرا واحسنت جلادا ، وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ، ومنع من الأسر واعطاء الامان ، فملات جثث القتلى تلك الصحراء في الطول والعرض ، وتأول قوله تعال (ماكان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض (٢٥) وقصد ان يملأ قلوبهم رعبا ، ويذعرهم عن البلاد سربا سربا ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملا أو ابتغى بالاختفاء بين القتلى موئلا. فلما استمر له النصر ، وآل به الى الظفر الصبر ، رجع الى الحصن فملكه عنوة وقهرا ، وعم كل من فيه قتلا وسبيا وأسرا ، ولقد سمعت من يحكي ان عظام القتلى لم تزل بتلك الارض مدة طويلة ، ولما ملك الحصن أخرب به ومحا أثره ، وأزال من تلك الأرض ضرره ، كما قال فيه الشاعر حيث يقول :

ماربع مية معمورا يطيف به
غيلان ابهى ربي من ربعها الخرب

ولاالخدود وان ادمين من خجل
اشهى الى ناظري من خدها الترب (٢٦)

قال : ثم رحل الى حصن حارم فحصره ، فأنفذ من لم يحضر المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما يسألون الصلح ، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم ، فأجابهم الى ذلك، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتل ، فأراد أن يستريحوا ويريحوا ، فهادنهم وعاد عنهم وقد ايقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر ، وسيرت البشائر الى البلاد ، وأعلنت في الحاضر والبادي .

ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطان محمود بهمذان ، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة ، وكانت ولايته ماتقارب أربع عشرة سنة ، وكان حليما كريما عاقلا عادلا كثير الاحتمال ، ووزر له أبو القاسم الانسابا ذي ، وهو الذي سعى بالعزيز المستوفي حتى قبض وسلم الى بهروز شحنة العراق فسجنه بتكريت ثم قتل سنة ست وعشرين .

ولما توفي السلطان محمود ، طلب السلطان مسعود بن محمد السلطنة ، وطلبها أخوه سلجوق شاه بن محمد ، والملك داود بن السلطان محمود ، وكان بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين ـ قدس الله روحه ـ فيها اثر وفعل ، ونترك الباقي اذ هو خارج عن غرضنا .

ذكر ملك السلطان الملك العادل مسعود والحروب الحادثة الى ان ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير الانساباذي وأتابك سنقر الاحمديلي على (تولية) ولده الملك داود بن محمود ، وخطبوا له في جميع بلاد الجبل واذربيجان ، وساروا الى زنجان .

وكان السلطان مسعود بكنجة - وهي له - فلما بلغه موت أخيه سار الى تبريز فملكها ، فسار إليه الملك داود فحصره بها ، ثم افرج عنه حتى خرج منها وقصد بلاد الأمير قفجاق ، فاجتمعت العساكر عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في عشرة آلاف فارس ، وسار قراجة الساقي صاحب خوزستان وفارس إلى بغداد ، ومعه الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد ، وقراجة يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعودا الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وارسل السلطان مسعود الى الشهيد عماد الدين - قدس الله روحه - يستميله ويستنجده ، فأجابه الى ما طلب منه ، وسار عن الموصل الى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجة وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى تكريت ، عبر قراجة الى الجانب الغربي ، وأسرى الى تكريت في عسكره جميعه ، ولم يخاف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل تكريت في يوم وليلة ، فواقعه الشهيد فهزمه قراجة وأسر اكثر اصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة الى الموصل فجمع العساكر وانفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق شاه مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر الى نواحي همذان ـ وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه الملك طغرل ابن السلطان محمد ليرتبه في السلطنة ـ فلما اتصل خبر وصوله ارسل الخليفة المسترشد بالله الى السلطان سنجر ، فأقام وترددت الرسل واستقر الصلح على ان تكون السلطنة ، لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده وعاد السلطان مسعود الى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر اخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعا الى قتال عمهما السلطان سنجر ، والزما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فتهدده قراجة الساقي ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر الى الشهيد يأمره ان يقصد بغداد هو ودبيس بن صدقة ملك العرب ـ وكان دبيس عند الشهيد على ما نذكره ان شاء الله تعالى ـ ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه ابنا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعلا على المقدمة يرنقش بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من اكابر

الامراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بداي مرج ، فرجعوا الى كرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قماج ، ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعودا ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقماج ، وعلى ميسرته خوارزمشاه ، وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقي ، والأمير قزل ، وكان قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن في عسكر السلطان مسعود ، فلما التقى العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهزم ، واختلطت العساكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوما مشهودا ، وحمل قراجة الساقي على القلب ـ وفيه السلطان سنجر في عشرين الف فارس ، هم اعيان العسكر وشجعانهم وبين يديه الأفيلة ـ فلما تقدم الى القلب ، حمل طغرل وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار في الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل كثير من اصحابه واخذ اسيرا ، وانهزم السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين أوزبك في المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه الى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه واستدعاه اليه ، فحضر عنده وعاتبه على اقدامه عليه ، فاعتذر ونسب ذلك الى ايتكين الخادم ، فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالمسير الى كنجة . فحكى لي والدي عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال : أحضر السلطان سنجر قراجة الساقي وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : اذا حاربني اولاد اخي فليس يبعد ان يطلبوا السلطنة ، وأما انت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكب الناس على قتالي ، أكان يصير لك من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال : كنت أرجو أن اظفر بك واقتلك ويكون أولاد أخيك بحكمي ، اقيم من أريد وأعزل من أريد . فغضب

السلطان سنجر منه وامر بقتله ، فقتل ، وأمر ان يشق صدره عن فؤاده فما رأى اكبر منه ، فألقى عليه حجرا كبيرا فلم يبعجه ، فقال : من يكون هذا فؤاده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطغرل ابن اخيه بالسلطنة في همذان ، واصفهان ، والري ، وسائر بلاد الجبل .

وجعل في وزارته ابا القاسم الأنساباذي وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد الى بغداد وهزيمته

ولما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمته وقتل قراجة ، رجع الى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول اتابك الشهيد عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة الى بغداد ، فأسرع العود اليها ، وعبر الى الجانب الغربي فيمن معه من العساكر ، وكان فيهم كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فحكى لي والدي عن جماعة من أصحاب الشهيد ممن حضر المصاف ، قالوا : اشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكبا بسواده وبيده سيف مسلول ، فكلهم قالوا لما رأيناه : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الثبات فانهزمنا ونحن لا نعقل ، وكان ابتداء الهزيمة من دبيس فانه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعا وسار إليها، وبها جمال الدولة اقبال المسترشدي ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم دبيس أيضا .

ذكر السبب في مصير دبيس عند الشهيد رضي الله عنه

كان دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد (٥٣) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه الى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيرا إبعاده عن العراق .

وكان شريرا خبيث الطوية ، وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين واكثرهم وقيعة فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، عازما على قصد الشام ، الى حصن صرخد ليملكه . وسبب ذلك ان صرخد كانت بيد امير اسمه مكتوم ، فتوفي وخلف زوجة حدثت نفسها انها تملك الحصن ، فقال لها بعض اصحابها : إن هذا لا يتم لك الا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الاتصال بدبيس ، فأرسلت اليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقيه سوء نيته . فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه الى تاج الملوك (بوري) بن طغدكين أتابك ، صاحب دمشق ، فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهدده أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه اليه . فلما صار عنده ، جازى اساءته باحسان ، وأنعم عليه وخوله واعطاه المال والخيام والسلاح والخيل وكل ما يحتاج اليه الملوك ، وبالغ في اكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير دبيس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل الى تاج الملوك مع سديد الدولة بن الأنباري صاحب ديوان الانشاء ببغداد ، يطلب منه ان يسلم دبيسا اليه ، فلما وصل دمشق وعلم بمصير دبيس عند الشهيد ، تسمح وذكره بما يكرهه ، فاتصل ذلك

بالشهيد — وكان له في كل بلد مــن يطــالعه بــالأخبار — فــامتعض لذلك ، وأرسل الى البرية وشحنها بالرجال ، وأمرهم بــأخذ ابــن الانباري وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل الى الشــهيد فحبسه بالموصل ، فأرسل الخليفــة المســترشد بــالله يشــفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير امــره ، واذا اســتأذنه رســول في العبــور في بلاده ، أرسل اليه من يسيره ولا يتركه يجتمــع بــأحد مــن الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منهــا ، ولم يعلم من احواله شيئا البته .

وفي هذه السنة — اعني ســنة ســت وعشرين وخمســمائة — ملك الشهيد قلعة بهمرد من ديار بكر . فانظر الى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الامور العظيمة واختــلاف الســلاطين وانهــزامه دفعتين . ولم يشــغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثــل هــذا الحصــن العسير .

ذكر حصر المسترشد بالله امير المؤمنين الموصل

في ربيع الاول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد الى الرحبة ، فنزلها وجمــع العســاكر ، وكان قــد قصده عدة أمراء مــن العســاكر الســلطانية للخلف الواقــع بينهم ، فقوي بهم المســترشد واســتبد بــالعراق وجبــى الاموال ، وأرسل الامــام ابــا الفتــوح الاســفرائيني الواعظ الى الشهيد ، فأغلظ له في القول ، فأهانه الشهيد غاية الاهانة وعاد إلى المسترشد بالله ، فعند ذلك سار الى الموصل في ثلاثين الفــا ، فلمــا بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وتــرك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد

بظاهر سنجار ، فحدثني والدي قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين احسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة محاصرا لها نحو ثلاثة اشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضا ، فقيل كان سبب عوده أن السلطان مسعودا أرسل إليه مع نصر الخادم – أمير الحاج – يشير بالعود ، فعاد وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد وقيل غير ذلك ، وبالجملة فلو رأى أمارة ظفر وفتح لم يرحل.وكان عوده في الشباره وراسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع الحميدية

وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، استولى الشهيد رضي الله عنه على سائر قلاع الاكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر وقلعة شوش وغير ذلك وسبب قصدها أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدي على ولايته ، ولم يعترضه في شيء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده في جنده وجموعه ، وأمده بالأقوات وغيرها مما يحتاج اليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديداإلى أن فتحت في هذه السنة ، واطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فانهم كانوا معهم في خطة خسف.

وفي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد الى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها واستوزر ضياء الدين بن الكفرتوثي .ثم رحل

عن أمد الى الشام فحصر مدينة دمشق . وفيها توفيت والدة الشهيد بالموصل .

في ذكر قتل امير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله وخلافة الراشد .

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف امره وقوي امر اخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل. فراسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على أخيه طغرل ، فاجيب إلى ذلك ، وامده بالأموال والرجال فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لان عمه السلطان سنجر ، كان يقوي أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع اخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الامر ثانيا وكرر ذلك ، فلم يتحرك ، فأرسل إليه أخيرا جاولي القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقا له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة ان يلقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الامر ، عظم عليه ونادى في العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، واذ قد ورد الخبر بوفاة السلطان طغرل . وكانت وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأسرع السير الى همذان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد.

ثم وقع الخلف في عسكره واستوحش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخر ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيني والي همذان ، وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، واقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار اليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم

يرنقش بازدار ، وقزل آخر ، وسنقر الخمارتكيني ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعدوه النصر والمساعدة عن انفسهم وعن جماعة من أكابر الامراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم الى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . واتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة اقبال في ثلاثة الاف فارس ، وراسل أصحاب الاطراف ، المسترشد بالله يبذلون له الطاعة ، فتريث في الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل اصلاحهم في نحو ثلاثة الاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفا ، وأرسل إليه اتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة الى داي مرج ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعبأ الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيني ، وبرسق بن برسق والغلمان الدارية . وكان في ميسرته جاولي وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فغدرت ميسرة الخليفة ومالت الى السلطان ، واحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر في عسكر الخليفة ، وافضى الأمر إلى أن أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض ايضا الوزير شرف الدين الزينبي ، وقاضي القضاة ، وكمال الدين بن طلحة صاحب المخزن ، وابن الانباري كاتب الانشاء ، وخلق كثير ورفعوا الى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما في العسكر .

وأنفذ السلطان (بك ابه المحمودي) (٢٨) شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثارت الفتنة ببغداد ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنة ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله في القبض إلى سادس عشر ذي القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل الى السلطان

مسعود ، فخرج الى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة اربعة عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، واخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينة ، وإنسان هاشمي . ووقع الخبر في العسكر ، فركبوا في السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب اربعة عشر . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه الى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الاحمديلي .

وكتب السلطان مسعود الى شحنة بغداد ــ وهو الامير بك ابه ــ ، يأمره بالبيعة للأمير أبي جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الاثنين السادس والعشرين من ذي القعدة .

وحضر بيعته عشرون رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدي بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله أخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . ولقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

قال . كان مولده في شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما شجاعا ، مقداما ، فصيحا .

وتمكن في خلافته تمكنا عظيما ، لم يره احد ممن تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله الى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي بالله ، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ،

ولم يزالوا كذلك الى ملك الديلم واستيلائهم على العـراق ، فـزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الديلم ، فلمـا ملك السـلجقية جددوا من هيبة الخلافة ماكان درس لاسيما في وزارة نظـام الملك ، فانه أعاد الناموس والهيبـة إلى أحسـن حـالاتها ، إلا أن الحـكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العمداء وضمان البـلاد ، ولم يكن للخلفاء إلا اقطاع يأخذون دخله ، وأما المسـترشد بـالله فـانه استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخـطبة ، واجتمعـت عليه العسـاكر ، وقـاد الجيوش وباشر الحروب . وقـد أتينا على ذكر ذلك في المسـتقصى في التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله أمير المؤمنين إلى الموصل مـع أتابك

في سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله الى الموصل صحبة أتابك عماد الدين زنكي ملتجئا إليه . وكان سبب ذلك ، أن العسـاكر السلطانية اختلفـت على السـلطان مسـعود ، وكذلك أصـحاب الأطراف ، وتراسلوا في الاجتمـاع على قتـاله وإقـامة سـلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد ، فسار أتابك الشهيد من الموصل الى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أذربيجان ، وورد إليها يرنقش بازدار في عسكر قـزوين . وكان مـع الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الحلواني يدير امـره ، فلمـا اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربته ، فأجابهم الى ذلك ، وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صـدقة الذي صـار وزيرا لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على العزم في صفر سنة ثـلاثين وخمسمائة . وظهر من الراشد بـالله تنقـل في الاحـوال ، وتلون في الآراء ، وقبض على جماعة من أعيان اصحابه ، منهم : استاذ الدار

ابو عبد الله الحسين بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدي ، واراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، فركب في موكبه إلى أتابك الشهيد ، فنزل في خيمه ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف مقابل التاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاعة تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا إقبال ، وسلم إقبال المسترشدي إلى الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى خيمه أكرمه واحترمه وأحسن اليه ، ولم يجازه على ماكان منه قديما من عداوته . ثم إن قاضي القضاة الزينبي خاف من الخليفة أيضا ، فالتجأ إلى الشهيد فأمنه واحسن إليه ، وقرر مع الملك داود أن يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الاخر .

ثم ورد الخبر ، ان الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل الى واسط في جمادى الاولى في عسكر كثير ، فانحدر اتابك الشهيد أليه ليحاربه ، فوقع الخلف بين سلجوق شاه وبين أتابكه البقش ، وراسل البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فمال إيه ، وسار هو وجماعة من الامراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد واصلح امر الوزير ومعه البقش وجماعة الامراء ، فازداد اتابك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لايصدرون الا عن امره ورأيه .

ثم عاد الشهيد واصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع الراشد ، وإعادته إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا الحريم الطاهري ، وشارع دار الرقيق ، وكثيرا من بلد دجيل ، وبعض طريق خراسان ونهبت الاموال ايضا ببغداد علانية لامانع لهم من ذلك .

ثم أن السلطان مسعودا سار نحو العراق ، فبلغ الشماسية في عسكر كثير ،فأراد من ببغداد من الملوك والامراء قتاله ، ثم خافوا لما راوا ماعندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذي معولهم عليه ، وتقدم

السلطان مسعود إليهم فحصرهم نيفا وخمسين يوما ، فقتل عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ، فوصله بالنهروان طرنطاي صاحب واسط ، واخبره بما معه من السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود اليها وعبر فيها تحت بغداد ، وعبرت العساكر التي كانت ببغداد الى الجانب الغربي لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم الى بلده وولايته .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد ملتجئا إليه ، ومعه وزيره ابن صدقة وجماعة من الخدم والأتراك وسار معه إلى الموصل ، واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل مايريدوه ، وبالغ في ذلك ، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآلات مالا حد عليه . وأقام بالموصل إلى أن سار على مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين رضي الله عنهما اجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد ودخلها السلطان مسعود عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره بالخلافة ، ووافقه على ذلك الأمراء وأرباب المناصب فاحضر القضاة والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضرا شهدوا فيه بما أوجب خلعه ، فافتى الفقهاء أن من هذه صفته لايصلح للخلافة وحكم القاضي ابن الكرخي قاضي الحريم بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل السلطان مسعود عمن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف الدين الزينبي ، بابي عبد الله بن المستظهر بالله ، واشار غيره

بالعدول عنه ، وقال : انه رجل كبير قد جرب الامور وعرفها ، وان من الرأي للسلطان ان يبايع فتى صغيرا ليست له تجربة ولا سن عليه ،(ويأبي الله إلاأن يتم نوره ولوكره الكافرون) ، فوقع الاتفاق على أبي عبد الله ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفي لامر الله ، فلما استقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره كمال الدين الدركزيني ، يسأله مايحتاج أليه ليقام به ، فقال للوزير : ماادري قدر مانحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة ـ مع قربها منا ـ من بكرة إلى أخر النهار للشرب لايستعمل منه في غيره شيء ، فانظروا حينئذ ماوراء هذا فقوموا لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان الرأي في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الامور مقدرة ، وقد رأيت من هذا الرجل مادل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسلا رسولين إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز ، فاما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما رسول الشهيد فأنه أكرم كثيرا ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فحكى لي والدي عنه انه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لي تبايع امير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وانتم والناس قاطبة في شرق الارض وغربها ، وقد علمتم ماقيل في من يبايع أخر ، وطال الكلام وعدت الى منزلي ، فلما كان الليل ، جاءتني امراة عجوز سرا ، وابلغتني عن المقتفي لامر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ماكان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال ، قال ، فقلت : غدا يظهر اثر خدمتي . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لي في أمر البيعة فقلت : إن الراشد له في اعناقنا بيعة ، ولايجوز النكث إلا بما يوجب خلعه ، وانا فقيه لايجوز لي

فعل ماينافي الشرع ، فتثبتون مايوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبايع عني وعن صاحبي ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد به الشهود ، خلع الراشد وبايع المقتفي لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار اليه خلافة الله في ارضه ، والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويجمع عليه الجموع ، ونحن فلا بد لنا من هذا الدعوى نصيب ، فرفع قوله الى الخليفة (٣٠) فامر الخليفة ان يجري في اقطاع الشهيد من خاصه صريفين و« درب هارون » ويزاد في القابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لاحد من زعماء الاطراف ، ان يكون له في العراق اقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عما في نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى اتابك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فسار إلى أذربيجان ثم إلى همذان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان اليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس وانهزم الراشد وقصد اصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن باصفهان .

ذكر خروج ملك الروم الى الشام ومافعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، فخافه الناس خوفا عظيما ، وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لايمكنه مفارقة الموصل ، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها – وهي على مرحلة من حلب – وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر – وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة – فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من في الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب عنها ، وكانت حينئذ للأمير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني المنقذي ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجده – وكان على عزم المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه – فجد السير في عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ، ثم يعود اخر النهار ، وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقي شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فان ظفرتم أخذتم لشيزر وغيرها ، وأن ظفرت بكم ارحت المسلمين من شركم – ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم – فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره مايعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يراسل افرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم انه إن ملك بالشام حصنا واحدا أخذ البلاد التي بايديهم منهم . وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه ان الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صحبته ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوما ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقه العسكر فغنم منهم وقتل واسر ، واخذ جميع ماخلفوه ورفعه الى قلعة حلب (وكفى الله المؤمنين القتال) (٣١)

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا ان الروم ان ملكوا حصن شيزر ، لايبقى لمسلم معهم مقام ، لاسيما بمدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ، وممن مدحه المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي فقال من قصيدة اولها :

بعزمك أيها الملك العظيم
تذل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها
الم تر ان كلب الروم لما
تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا
كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه
ودان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لايدوم

وأبصر في المفاضة منك جيشا
فأحرن لايسير ولا يقيم

كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم

-٦٤٢٢-
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم (٣٢)

وهي طويلة .

ومن عجيب ما يحكى في هذه الحادثة ، ان الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الامير مرشد بن علي – اخو صاحبها – وهو ينسخ مصحفا فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من انزلته عليه ، إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .

ولما عاد الروم الى بلادهم ، سار أتابك إلى حصن عرقه – وهو من اعمال طرابلس – فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالما غانما .

وفيها توفي القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهر زوري ، قاضي الممالك الأتابكية . وكان أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال من يد قفجاق بن أرسلان تاش التركماني

وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم ، يرون طاعته فرضا حتما ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده التركمان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتابك الشهيد عنه

ما اقتضى أن يقصد بلاده ، فحذره أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علما منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضيق عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاورا لولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه ، وسير إليه عسكرا كثيفا ، فجمع قفجاق من التركمان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده من الكثرة ما سد بهم الفضاء ، وتلقاهم عسكر الشهيد وقاتلهم ، وصبر عسكره وتابعوا الحملات على التركمان حتى هزموهم واستباحوا عسكرهم ، فمضوا منهزمين لا يلوي أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكر عقب الهزيمة ودخلوا بلادهم ، فملكوا شهر زور وغيرها من البلاد واضافوها إلى مملكته ، واصلح الشهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لايرى المقام بل لازال ظاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصد بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر(٣٣) السروج آثر عنده من وثير المهاد ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد وأسد ، وأصوات السلاح ألذ في سمعه من غناء القينات ، وإلقاء القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما ذكرته وأذكره دليل على صحة ذلك .

ذكر حصار دمشق وبعلبك

وفي هذه السنة أيضا ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد في جنوده بعد ما ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغدكين .

وكان محمد محكوما عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جده طغدكين ، وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهر زوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها ،

واستمالتهم وإطماعهم في الرغائب والصلات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوما يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأيا ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، وربما كثر المقاتلون لنا والمحاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلونا على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره ، ومن العجب ان محمد بن بوري صاحب دمشق توفي واتابك يحاصره ، فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك واحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه - وكان صغيرا - فمشى الحال بتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين إلى دمشق ، أقطع بعلبك لمعين الدين انر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وقهرا ، وترك بها نجم الدين أيوب دزدارا ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق وقد خطب له فيه وصار أصحابه (٣٤) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار أتابك الشهيد رضي الله عنه ، إلى بلاد الفرنج واغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقيهم بالقرب من حصن بارين(٣٥) - وهو المسمى حينئذ بعرين - وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الاوغاد ، ورتب أطلابه ، وحرض أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا

الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمي الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرؤوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد اللزام ، وعظم الزحام ، وأديرت مترعة كؤوس الحمام ، وبطل العامل(٣٦) وعمل الحسام ، فمن ضربة تقط ، وأخرى تقد ، وثارت عجاجة كادت تحجب الشمس ، وخفت الاصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان صبرا لم يسمع بمثله في سالف الدهور إلا مايحكي عن ليلة الهرير(٣٧) ، ونصر الله المسلمين نصرا عزيزا ، وأحلهم من عارفته محلا حريزا ، وأجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم ، وسلموا عدتهم وعتادهم ، وكراعهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاح ، ونصول السهام والرماح ، (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٣٨))

ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقابله ، فرأى حصنا محلقا في الهواء ، مقارنا هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سموا ، وقد تشمخ بأنفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يضام ، فلا ترمقه الابصار إلا عادت حسيرة ، ولاتؤمه الطيور إلا أضحت أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لاتنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لاتنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة (ولات حين مناص)(٣٩) ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)(٤٠) ، وأنى يكون ذلك وقد أحدقت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن دين الله تعالى ودينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لاينال بالتواني ،

ولايبلغ قتله بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشمر في قتاله عن ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لاتعجز عنه ، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض العين بسواد البصر . ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق حتى كادت تحجب الهواء ، وتحول بينهم وبين السماء ، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق ، ووقع الاحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يمطر المنايا ، وينبت الحتوف والرزايا ، فحينئذ استخذى الحصن وانخذل ، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم يدفعه حصانته وكثرة عدده وعدده ، كما قال فيه بعضهم :

بادي المعالم أطرقت شرفاته
إطراق منجذب القرينة عان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت
انصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولانقيصة على من اذعن لصولة الموت الاحمر ، فما كل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد ، ولما عاين من به الهلاك راسلوا في طلب الامان ليسلموا ، وسألوا في حقن دمائهم ليستسلموا ، وهو لايصغى الى مقالتهم ، ولايسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهرا ليملك بهم سائر بلادهم ، ويريح المسلمين بعد هذه الوقعة من قراعهم وجلادهم . فبينما هم كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، السالمين من الهلكة ، قد ساروا الى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقمامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدوا ، فحينئذ جد في الحصار وأذكى العيون ، وعمل على التضييق ، على من بالقلعة ومنع كل شيء عنهم حتى الاخبار ، وأقبلت الامداد من سائر انواع النصرانية إلى

الساحل من كل حدب ينسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون .

هذا ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فأعادوا لمرا سلته في طلب الامان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الامداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله فلما أجابهم إلى الامان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لايصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوما ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعنفوهم ، وقالوا : عجزتم عن حفظه يوما أو يومين .

فحلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الان ، فلما عميت الاخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن وافتدينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد ــ رضي الله عنه ــ هذا الضرر العظيم .

وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جندا إلى المعرة وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

ذكر حصار الروم والافرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج الى الشام لازالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج وراوا الامر قد فات ، لم يروا أن يخلو سفرتهم من أثر يؤثرونه في حماية دينهم ويرجعوا بخفي

حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والاغارة عليها ، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري الى السلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكى لي والدي عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد لما أرسلني : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فاذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة ، وعدني السلطان بانفاذ العساكر ، ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه شيء ، وكتب الشهيد متصلة الى يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا ـ وهو فقيه وكان ينوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدي ـ قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، واذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، واإسلاماه ، وادين محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا أخر مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه والقى عمامته عن راسه وصاح ، وتبعه اولئك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع الامن قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم الى دار السلطان ، وقد فعل اولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر قاطبة عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الامر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل :

إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة . فقال : أحضروا ابن الشهر زوري . قال : فحضرت عنده وانا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت (عليه) قال : ياقاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم بينه وبين العدو ، إنما بينكم نحو اسبوع ، وأن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كانه ينظر إليهم . فقال : اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت من عسكره عشرين الف فارس . وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر ، وانه لم يبق غير المسير ، واجدد استئذانه في ذلك . فامر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر الى الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، واذا قد وصل نجاب من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ومخاطبة السلطان في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج واخذها منهم وإزاحتهم عنها ، وكان قصده بذلك ان تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . قال : فلم أزل اتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد . فأنظر الى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة الآف فارس ، رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل ، يرغبهم ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والدي ، قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة الآف دينار أميريه ، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة الف دينار ، وكان كما قال رضي الله عنه .

ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة سار اتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الاكراد وقد اكثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر كان قد ملك كثيرا من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني – وهي من أعظم قلاعهم واحصنها – فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية(٤١) عوضا عنها . وكانت هذه العمادية حصنا كبيرا عظيما ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الاكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : اذا عجز الاكراد عن هذا الحصن فانا لا أعجز عنه ، فامر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ امر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة إلى لقبه عماد الدين .

وفيها ايضا خطب لاتابك الشهيد بآمد ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته والخطبة له ، فان أجاب وإلا قصدها وحصرها ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته .

وفيها ايضا ملك الشهيد مدينة حديثة وعانة(٤٢) .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود وأتابك الشهيد رضي الله عنهما

قال كان السلطان مسعود لما افضت السلطنة اليه ، لايزال الأمراء الأكابر وأصحاب الاطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، وقد تقدم ذكر بعض ذلك ، وكان كلما

انفتق عليه فتق نسبه الى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلمه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر ، وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك ، فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر واظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان ، وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها ، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، إنه قيل له أن تلك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين ، فانها قد وليها قبله مثل جاولي سقاووا ، ومودود ، وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولايقدرون على حفظها ، ولايزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد الى أن وليها أتابك ، فلم يمده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذ فقد فتح من العدو عدة حصون وولايات ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الاسلام به ، ومن الاسباب المانعة له أيضا ،ان الشهيد رحمه الله كان لايزال ولده الاكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل اليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضا ، فهرب سيف الدين وجاء الى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير الى والده فمنعه ايضا ، وقال له : ترسل الى والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل اليه فأعاد جوابه : إنني لاأريدك مهما كان السلطان ساخط عليك وألزمه بالعود ، وأعاده ومعه رسول الى السلطان

يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير اذن فلم اجتمع به وردته الى بابك ، فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا واجـاب الى مـا أراد الشـهيد ، ولما اسـتقر المال حمـل منه عشرين الف دينار ، أكثرها أجناس وعروض ، ثـم ان الأمـور تقلبـت وعاد أصحاب الأطراف وخـرجوا عليه ، فـاضطر الى مـداراة الشـهيد وأطلق له الباقي استمالة له واستصلاحا لقلبه .

ذكر ملكه عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشـهيد الى ديار بـكر قاصدا فتحها ومحاصرا لها ، ففتـح عدة بـلاد ، منهـا : مـدينة طنزة ، واسعرد وملك مدينة المعدن الذي يعمـل منه النحـاس مـن أرمينية ومـدينة حيزان وملك ايضـا حصـن الزوق وحصـن فطليس ، وحصن باتاسا، وحصن ذي القرنين .

وأخذ من أعمال مـاردين عدة مـواضع ، ورتـب امـور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سـار عنهـا وقصـد مـدينة آمد ، ومدينة حاني فحصرهمـا وملك مـدينة حـاني فـدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصرا لها ، وقصده استطلاع حال الرها على مانذكره إن شاء الله تعالى في :

ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

وفي جمادى الآخرة من سنة تسع وثـلاثين وخمسـمائة ، فتـح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفـرنج ، وكانت لجـوسلين عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهـم قـد اذعن له بالنهاية في الشـجاعة ، فهـم يخضـعون له ببـذل الطاعة ، وكانت مدة حصارها ثمانية وعشرين يوما ، وأعادها الى

حكم الاسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الايمان ، وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية (ثم رومية) والقسطنطينية ، والرها، وكان هذا فتح الفتوح حقا ، واشبهها ببدر صدقا ، ومن شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائي (٤٤) لعلم إنه أولى بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب

لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم اليها جسيم ، إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها ، وانضاف اليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين والموزر والقرادي وسن ابن عطير وغير ذلك،وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ونصيبين ورأس عين والرقة وأما حران فكانت في الخزي ، كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته ان يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الاسلام خلال الديار ، وكان يعلم انه لاينال منها غرضا ، ولايمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضا مادام بها جوسلين وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصرا لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه فعدل الى إعمال الحيل والخداع ، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع .

والرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني (٤٥)

فعدل عن قصدها الى ماجاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين ، كحاني وجبل جور وآمد على ماتقدم ذكره فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو يسر حسوا في ارتغاء (٤٦) فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من أساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده ، فلما رأى

جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لا فراغ له إليه ، وأنه لايمكنه الاقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد نخائره وأمواله فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظه وحاميه ، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير وتهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لايقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر الى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ، وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب ، فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا(« لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (٤٧) ») فأبى الله الا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، وجزاء بغيهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبته رؤوسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعديده ، وبمواكبه المنصورة ، وجموعه المحشورة ،وبنوده المنشورة وكما قال فيه :

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننا بحرا من سلاح

وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح

وأرع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود الصباح

صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح مابين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل والنهار بسواد الليل يسربل,وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار ، يتهافتون إلى القتال تهافت الفراش في النار ، وأخذا بقول (من) يقول :

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليما من إخراب أسواره ، وإخلاء دياره ، وضنا منه على مثله ان يصبح خاويا على عرشه ، وان يلتحق سماؤه بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الاذعان ، فاستخار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ونصب المجانيق وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفا أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه ، وبلغ الخبر الى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر الى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل اليها ، ولم يزل (الشهيد) يزحف اليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقابون الي سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا ، وشرا ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل

وأسير ، وجريح وكسير ، وملا الناس أيديهم من النهب والسبي ، ومن كل مال نفيس وغلام رائق وبكر كالظبي عاتق ، وأصابهم من النكال ماهو لهم عتيد (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد (٤٨)) ثم انه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، وأخلاه من أهله، غير مستحسن من مثله ، فأمر باعادة ماأخذ منه من اثاث ومال ، وسبي ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم الا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامرا بعد أن كان داثرا ، وأهلا وأمنا بعد ان كان للذئاب والخامع (٤٩) مسكنا ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ماكان بيد الفرنج في هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها واخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الايمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون ادبارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خوف العطب وكلهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادي : (جاء الحق وزهق الباطل (٥٠)) والقى الاسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (٥١))

فهي لهم الى يوم العرض وكان فتحا عظيما لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الابرار والأصفياء. حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله ابن علي بن مهران الفقيه الشافعي ـ وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة ـ ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الارتياح مالم يروه

أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض اخواننا ، أن أتـابك زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معــه فتحهــا يومنا هــذا ، ثــم قال : مايضرك يازنكي مافعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هــذا القــول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح ، ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند الشيخ ، وقالوا : منذ رأيناك على الســور تـكبر أيقنا بالفتح ، وهو يذكر حضوره وهم يقسمون انهم رأوه عيانا .

وحكى لي ايضا بعض العلماء بالأخبار والانساب – وهــو أعلم من رأيت بها – قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحــت الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وانسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ،ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلمــا كان الوقــت الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى إفريقية ، فنهبوا واغاروا واسروا ، وجاءت الأخبار الى الملك وهــو جالس ، وعنده هذا العالم المغـربي ، وقــد نعس وهــو شــبه النائم ، فأيقظه الملك وقال له : يافقيه قد فعل أصحابنا بـالمسلمين كيت كيت ، اين كان محمد عن نصرهم ؟ فقال : كان قد حضر فتــح الرها ، فتضاحك من عنده من الفرنج فقال لهم الملك : لاتضــحكوا، فـوالله ماقال عن غير علم واشتد هذا على الملك فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلو منزلة الرها عند النصرانية .

وحكى لي أيضا غير واحد أثــق بــه : أن رجــلا مــن الصالحين ، قــال : رأيت الشـهيد بعـد قتله في المنام في أحســن حال ، فقلت له : مــافعل الله بــك ؟ فقــال : غفــر لي ، فقلت : بماذا ؟ قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها ، والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات سار الى قلعة البيرة ، وهو حصن حصين مطل على الفرات ، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوحهم ، وقطع عنهم الميرة حتى اشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج الى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين عسكرا ، فسلمها الفرنج اليهم ، خوفا من الشهيد ان يعود اليهم فيأخذها .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك الب ارسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية ، وكان سبب قتله ، ان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب أرسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان اذا ارسل رسولا ، أو أجاب عن رسالة ، فإنما يقول ، قال : الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك ، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين ـ وهو ينزل اليه كل يوم يخدمه (ويقف) عنده ساعة ثم يعود ـ فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلته

ملكت الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحا ، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه والقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم ان اصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه وأصحاب (أتابك) الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دور الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة ، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء ، وكان من جملة من حضر ، القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها ليملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد ، فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن جأشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جنانه حتى أقام بها الذواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين علي قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل اتابك الشهيد ، شرف الدين ابن اخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل ، فسار حتى وصل إلى الموصل ، وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، اغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن اخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : أرسل إلي منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته اذنت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب ، ثم أرسل أنا إلى اتابك من أثق إليه أستأذنه في تسليم الامر اليك ، فإذا أذن فعلت ، وإن لم يأذن أخرجتك منها ، فترددت الرسل بينهما حتى أذن له في دخول القلعة

على القاعدة المذكورة ، فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غبرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قد انكشفت عن زين الدين علي (ابن بكتكين(٥٢))قد جاء مجدا ليكون نائبا في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين ـ وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه ـ فوصل الموصل في تلك الحال ، فقال له النقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن اخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأذنه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين وتمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر . فاطمأن الناس وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة .

حصر حصن فنك

هذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها ، فلما كان سنة أربعين وخمسمائة ، تقدم أتابك إلى زين الدين علي بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فحصروه ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعوهم الميرة وهم صابرون ، فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهيثم ، وجديدة نصيبين ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٥٣) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال:كانت هذه قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه الى الأمير سالم بن مالك العقيلي على ماذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى هذه السنة ــ وهي سنة احدى وأربعين وخمسمائة ــ فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فنك أن لايبقى في وسط بلاده ماهو لغيره ــ وإن قل ــ للحزم الذي عنده والاحتياط ، وأقام عليها يحصرها بنفسه • ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ما حكى لي والدي قال : أرسل الشهيد الأمير حسان إلى صاحب القلعة لمودة بينهما في معنى تسليمها اليه ، وقال له : تضمن له عني الاقطاع الوافر والعطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم والا فقل له : والله لاقيمن محاصرا لك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لاأبقي عليك ، ومن الذي يمنعك مني فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم اليه ، فامتنع ، فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وماالذي يمنعك مني فقال : قل له ، يمنعني منه الذي منعك يا حسان من الأمير بلك ، فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكتم عنه هذا ، فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها

قال وكانت قصة حسان مع بلك ، ان حسان كان صاحب منبج فحصره بلك وهو ابن اخي ايلغازي بن ارتق ــ وضيق عليه ، فبينما هو في بعض الأيام يقاتله ، اذ جاءه سهم لا يعرف من اين جاء ، فقتله وخلص حسان منه .

ذكر قتل الشهيد زنكي رضي الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتالها ، فلم يزل

كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم الى القلعة (ولم يشعر اصحابه بقتله ، فلما صعد اولئك النفر الى القلعة)(٥٤) صاح من بها الى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر اصحابه اليه ، فأدركه اوائلهم وبه رمق

حدثني والدي عن بعض خواصه ، قال : ادركته وهو في السياق ، فحين رآني ظن اني أريد قتله ، فأشار إلى بإصبعه السبابة ، فوقفت من هيبته ، وقلت له: يا مولانا من فعل بك هذا حتى اقتله ، فلم يقدر على الكلام ، وختم الله بالشهادة أعماله ، وفاظت (٥٥)منه نفسه وسكن رمسه ، وأصبح معدوما كأن لم يغن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلاك ، ولم يغن عنه اصحابه وعساكره ، ولاحماة أمواله ودساكره ، ولا أخر الأجل مماليكه وأجناده ، ولازحزح عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما قال فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فاعجب لمن قاد الجيوش ونفسه
قسمان بين الكر والاقدام

يلقى الكتايب مفردا بكتايب
من نفسه وليوم يكدر حامى

لا يرعوي عن ان يقارع وحده
الفا بأبيض صارم صمصام

يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه
وبرأيه وبعزمه المقدام
حتى اذا الأجل انقضى مستكملا
ماخط في الألواح بالاقلام

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
ان الحمام سيبتلى بحمام

واضحى وقد خانه الامــل ، وادركه الاجــل ، وتخلى عنه العبيد والخول ، فأى بدر مكارم غرب ، وأي أسد افترس ، ولم ينجــه قلة حصن ولا صهوة فــرس ، فــكم أتعــب نفســه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أذابها في حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك مــا أراد ، واستكمل في سعة الملك وشـدة الهيبـة وزاد ، وهــانت عليه المصاعب ، وزالت المتاعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت لهيبته الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الامم ومفنيهــا في الحــدث والقدم ، ومهلك العرب والعجــم ، فــأخذ مــن العــالم سره وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه ، وزال عنه سلطانه ، وبعد عنه حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلانه ، وأخذه من جميع ما يملك وحيدا ، وجعله فريدا ، واصــاره بعــد القهــر الخــلائق مقهورا ، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا ، رهين جدث لا يدفعه الا ماقدم ، ولا يقبل من ســاكنه فيه الندم ، وقــد طــويت صحيفة عمله ، ونشرت جريدة أجره ، ونسخت آية عمــره ، وبليت سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة الهباء ، ولا سطرت حرب الالاء ، ولو نظرت فتكاته لانسيت البراض والجحاف ، أو عد صرعى ســيفه لكاثــرت هلكى الجحــاف (٥٦) وحين اختــرمته المنية ، وخانته الامنية ، اضــحى الاســلام لفقــد ناصره عبــوسا ترحا ، والكفرلعدم خاذله جذلا مرحا ، وما علما ان لهما مــن الملوك أبنائه جابرا وكاسرا ، ومؤيدا وقاهرا ، بل من يربو نصره للتوحيد عليه ، ويزيد في هدم منار التثليث وتعجل الثار اليه :

زاد على ما قام اباؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

اقصر اهل العصر عن شأوه
حسرى وطال الكل اذ طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويجبر هـذا الوهن .

ولما قتل دفن بصفين (٥٧) عند أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد بلغني انه اجتاز بهاوزار مشاهدها ثم قال : وددت أني شهدت صفين بعسكري مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حتى كنت اريه القتال الذي يعجز اصحابه عنه ، ولكل امرىء ماذوى

فإن والدي حكى لي ، قال : كان حسن الصورة اسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبه من رأيت به ، حفيده السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود بن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتم قامة منه ، وخلف من الأولاد : سيف الدين غازي ـ وهو الذي ولي الملك بعده ـ ونور الدين محمود الملك العادل ، وقطب الدين مودود أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير ميران ، فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والاناث ، وعقب نور الدين من الذكور ، ولم يبق الملك الا في عقب قطب الدين ، وخلف الشهيد أيضا بنتا ، ولقد أنجب رحمه الله ، فإن اولاده الملوك لم يكن مثلهم.وسنذكر من اخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضي الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك واكثرها حزما وضبطا للأمور ، كانت رعيته في امن شامل لعجز القوي عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير ذلك ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وان من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيه من ذلك ، وحينئذ تقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك انصافه بين القوي والضعيف . حدثني والدي رضي الله عنه ، قال : قدم الشهيد - قدس الله روحه - إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين - وكان الزمان شتاء - فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة امرائه الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي - وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوي الرأي عنده - فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار انسان يهودي وأخرجه منها . واستغاث اليهودي إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفا والدبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى الدبيسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد .

ولم تكن الارض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته جعلوا على الارض تبنا ليقيموها وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافا .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الاملاك ويقول : مهما البلاد لنا فاي حاجة بكم إلى الاملاك ، فإن الاقطاعات تغني عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الاملاك تذهب معها ، ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . رحمه الله ورضي الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لاخلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الايدي المتطاولة إلى اهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لي والدي قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في اول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبالين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركماني ، وهو قريب من الطبالين ، وكان الجامع العتيق أيضا بلا

عمارة البتة . وكانت جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لايقدرون على المشي الى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الامير ناصر الدين كوري بن جكرمش ، فانه طلب من الشهيد أن ياذن له ليبني دارا قريبا من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الاولى ، وهي اليوم مدرسة وقفتها أم الملك الصالح ، ثم بنى بعد ذلك داره الاخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذي ذكرناه عن خراب البلد كثيرا جدا ، فلما طالت الايام الشهيدية ، وحمى البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الاقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصده الناس واتخذوا بلاده دارا ، فانه من أكرم ارتبط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا . وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد فيه مايقارب مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضا بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل أولا بغير سور ، فأول من عمل لها سورا شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلا ولا خندقا ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكرمش بنى فصيلها وحفر لها خندقا وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسمائة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين ، فهذا السور ، وهذا الخندق هو على الحال التي عملت في الايام الشهيدية . وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب .

قال المؤرخ : وكانت الموصل اقل بلاد الله فاكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة ، فالرمان يبقى إلى ان يدرك العتيق

الجديد ، وكذلك الكمثري ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الاطـرافـ ومـا يجري لاصحابها حتى في خلواتهم ، ولاسـيما دركاه السـلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهـزل وجـد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدي رحمه الله : وكان مع اشتغاله بـالامور الكليات مـن أمور الدولة لايهمل الاطـلاع على الصـغير . وكان يقـول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت الى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بـأيام ، وقصـدت خيام جمـال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهـو يسألني عن طريقي ، وإذ قد جاءه مملوك تركي مـن عند الشـهيد وقـال له بالعجمية كلاما لا أعلمه . فقال لي جمـال الدين : متـى وصـلت ؟ فقلت : الساعة . فقال : هذا عجب تجيء السـاعة ويسـمع أتـابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلي ، وقد أرسل يقـول : سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل اليهم مـن الجامكيات والسلاح وجميع الاحوال . قال : فحـدثته بجلية الحـال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ، إن كنت تعلم ان هناك نقصا في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرفنا حتى نزيله ونفعل مـا يجب ؟ فقلت : ليس هناك الا ما يحب المولى وزدته شرحا ، فـانظر الى هذه الهمة ، والا فاي محـل لفنك في سـعة مملكتـه الطـويلة العريضة .

قال : وأصغر من هذا انه بلغه ان جمـاعة مـن فـلاحي مـدينة

الموصل رحلوا الى بلد ماردين ، فأرسل إلى حسـام الدين يطلب منه أن يعيدهم ، فرد الجواب : إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفـف عنهم ، ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم انتم مثل فعلنا لم يفارقوكم . فقال الشهيد لرسوله : قل لصاحبك ، إذا أخذت أنت من كل مائة سهما واحدا كان كثيرا لك ، لأنك مشغول بلذتـك في رأس ماردين . وأما أنا فاذا أخذت الثلثين كان قليلا ، لما أنا بصدده من قصد الاعداء والجهاد ، ولولاي لطال عليك أن تشرب الماء آمنا في ماردين ، ولكان الفرنج ملكوها ، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخـذت كل فلاح في بلد ماردين إلى بلد الموصل ، فأعادهم . فهذا مالا مـزيد عليه في معرفة أحوال المملكة .

قال : ومـن جملة رأيه الحسـن ، أنه كان يتعهـد أصـحابه ويمتحنهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذي يستحقه ولايضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه ، فمن ذلك أنه كان له طشـت دار يسمى سبلتوه فسلم اليه يوما خشكنانكة(٥٨) وقال : إحفـظ هذه ، فبقي نحو سنة لاتفارقه الخشكنانكة خـوفا أن يطلبهـا منه ، فلما كان بعد ذلك قال له : أين تلك الخشكنانكة . فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن ، وأمر له بدزدارية قلعة كواشي ، فبقي فيهـا إلى أن قتل أتابك .

ومن آرائه : أنه كان لايمكن أحدا خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هـو خارج السياج يهاب الدخول ، فاذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمـع العـدو فيهـا زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها . فمن ذلك انه (٥٩) هـرب منه امير كبير يقال أبو بكر ــ وكان مقـدم البـكجية ، وهـو مقـطع نصيبين ــ فهرب منه الى حسام الدين تمرتاش بماردين ، فـأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه ، فنازل ماردين وحصرها ، فلما عجـز حسام الدين عن منعه سيره الى دركاه السلطان مسعود ، فلمـا بلغ

الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم اليه فسجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب الراي الجيد ما فعله من نقل طائفة من التركمان الايوانية مع الامير اليارق الى الشام واسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرا وحونهم ، وأخذوا كثيرا من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الاموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل بيني وبينه ، استعين على سد الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك شجاعته وهيبته الهيوبة

واما شجاعته واقدامه فإليه النهاية ، وبه كان يضرب المثل . أما قبل ان يملك فمشاهده معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصوله الى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها ايضا حملته على اصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبلها الى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا ، وأما بعد ان ملك ، فمن عرف حاله واحاطة الاعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلائه مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والاقدام . والذي حكى لي والدي من ذلك ، قال : كان الشهيد – قدس الله روحه – قد أحدق الاعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم امير المؤمنين المسترشد بالله ، قد كان الحال بينهما ظاهرا ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها ، ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد

جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم عساكر ، وأشدهم كراهة للشهيد ، ثم الى جانبه أعمال أرمينية - وهي لبيت سكمان - ولهم العساكر الكثيرة والبلاد الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان ، والمعدن وغيرهما . ثم الى جانب بيت سكمان ، ركن الدولة داود بن سقمان ابن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيرا من ولايته ، منها : جزيرة ابن عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من بلادهما كثيرا ، ثم الى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب دمشق ، قد جاوروا بلاده من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، وهم أشد ما كانوا قوة واكثر جمعا . ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب دمشق قد جاوروه بها ، ومع هذا فهو يأخذ ايضا من بلاده ، فكان لايستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره - ما عدا السلطان مسعود - فإنه كان لايباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الاطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان اليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر الى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في التركمان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضا مع هذا شجاعا مقداما لاتضره الهزائم شيئا ، بل يفارق المعركة مهزوما ، ثم يعاود الحرب بعد ايام .

وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم واكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفا منهم ، فلما ملك البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيما . وحكي لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى الرها حين فتحها ، أحضر طعاما وقال لأصحابه : لايتقدم إلي ،

ولاياكل معي الا من يحمل غدا معي على الرها ، فلم يتقدم اليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فمنعه أصحابه ، فقال : اتركوه فإنني اتوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب أول الناس ومقدمها الى سور الرها .

واما صدقاته رضي الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرا مع من يثق إليه . حكي لي : انه ركب يوما فعثرت به دابته ، فكاد يسقط عنها فاستدعى أميرا كان معه اسمه بليمان ، فقال له كلاما لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على ان يستفهم منه ، فعاد عنه الى بيته فودع أهله عازما على الهرب . فقالت له زوجته : ما ذنبك ، وما الذي حملك على هذا الهرب ؟ فذكر لها الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فأذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك ، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوي عزمه على القول لنصير الدين فرجع الى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير وأحملها إليه فهي التي اراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لابأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال : أمعك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق كل يوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلي يأخذه من الليل . وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط الى الارض وأرسلك إلي ، فعلمت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، والى هذه الهيبة الشديدة التي منعت ذلك الامير عن المراجعة ، وبها امتنع القوي عن الضعيف

وحكى لي والدي من شدة هيبته ما هو أشد من هذا ، قال والدي : خرج يوما الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحركوه فوجدوه ميتا .

واما قوة عزمه ، وقلة تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضي الله عنه قليل التلون والتنقل ، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا ، هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحاققة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر الى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوما : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية ، ما أرى منها الآن شيئا ؟ فقال لي : الآن ما عندي كفاية ؟ فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية ان يسلك الانسان في كل زمان ما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لايتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولايتلون بأقوال أصحابه فحفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذي أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية في الركاب لهم الجامكيات

الوافرة ، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة ، ففي بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيرا ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئا ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له ، فقال لهم : اشكوتم إلى الديوان ؟ قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب ؟ قالوا : لا . قال : فلاي شيء أعطي الديوان مائة الف دينار ، وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا اتولى الامور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتم حالكم الى الديوان ، فإن اهملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتم الجميع إلي حتى كنت أعاقبهم على اهمالكم ، وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتاديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي ، وبهم من الحاجة الى الذفقات في اسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عني ، وانكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا في الاجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للامور ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجمل ونفاذ الامر وعظم الحاشية والخرج . قال والدي : كان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا ، فإن كان جنديا اشتمل عليه الاجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فراى من توفرهم عليه ، ونظرهم في مصالحه ما يكون كأنه في أهله . وان كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بني الشهر زوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون اليه ويؤنسون غربته فيعود أهلا ، وسبب ذلك

جمعية إنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية ، والاراء الصائبة ، والأنفس الأبية ، ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف .

واما غيرته

فكان الشهيد رحمه اله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، ولا سيما نساء الأجناد ، فان التعرض اليهن كان من الذنوب التي لايغفرها ، وكان يقول : أن جندي لايفارقوني في اسفاري ، وما يقيمون عند أهليهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض الى حرمهم هلكن وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزدارا بقلعة الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطي ، وكان من خواصه واقرب الناس اليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض الحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسياني ان يسير مجدا ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار صلاح الدين مجدا ، فلم يشعر البربطي الا وقد وصل الى البلد ، فخرج الى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد ان يعلي قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين هاهنا ، فتجهز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلا ولاكثيرا الا نقله الى السفن ليحدرها الى الموصل في دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك ، اخذه صلاح الدين وامضى فيه ما آمربه ، وأخذ جميع ماله لم يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده احد على سلوك شيء من افعاله ، فاعجب من حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر من في دولته ، وأخفى أمره خوفا من جهل ذلك الدزدار ان يحمله على العصيان ، أو على أمر يتعب في تلافيه . ثم انظر من صلاح الدين ، كيف خدع ذلك المسكين باكرامه ووعده بالاعمال السنية حتى أخرج

ذخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئا . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأميرك الجاندار خوفا من صلاح الدين الياغيسياني لعداوة كانت بينهما ، وفي تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود - وكان مع الشهيد - واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ماكان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقا يبقى به الملك في أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لاحسانه إلينا ، فإن الملك قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر ، ولئن لم نتلاف هذا الامر في أوله ، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولايمكن رقعه ، فأجابه صلاح الدين الى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فظهر حينئذ جمال الدين من الاختفاء ، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطعمه فيها ومعه صلاح الدين ، وقالا له : إن أتابك كان نائبا عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه ، فقبل قولهما وظنه حقا ، وقربهما طمعا في ان يكونا عونا له على تحصيل غرضه ، وأرسلا الى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد ، ويأمرانه بالارسال الى سيف الدين غازي - وهو ولد زنكي الاكبر - واحضاره الى الموصل ، وكان بشهرزور - وهي اقطاعه من أبيه - ففعل زين الدين ذلك . وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده الى حلب فملكها ، وقال جمال الدين للملك : إن من الرأي ان يسير صلاح الدين الى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره ، فأمره بذلك ، وكان هذا أمرا تقرر بين جمال الدين وصلاح الدين ، وهيأ مسير صلاح الدين الى الشام ، وتقرير أمر نور الدين ، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج في شيء منها ، وكانت مدينة حماة اقطاع صلاح الدين ، فرغب

بالشام لهذا السبب ، وانه ظـن أن أمـر الملك يقـوى ويملك البـلاد ولايبقى لاولاد الشهيد شيء شرقي الفرات . وكان احب الاشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضا ، لانه لم يأمن منه . فلمـا أمـر الملك بمسير صلاح الدين الى الشام سار ، وبقي جمال الدين وحـده مع الملك ، فأخذه وقصد الرقة ، فحسن له جمـال الدين الاشـتغال بشرب الخمـرة والخلوة بـالنساء ، وارسـل اليه عدة جـوار كن للشهيد ، وشيئا مـن المال يهبـه المغنيات ، وهـون عليه أمـر ملك البلاد ، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده فاشتغل الملك بـذلك ، وأراد أن يعطي الامراء ، فمنعه خـوفا مـن أن تميل قلوبهـم إليه ، وقال : لهم منك الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة . وشرع جمال الدين يستميل العسكر ويحلف الامراء لسيف الدين بـن اتـابك الشـهيد واحدا بعد واحد ، وكل من يحلف يأمره بالمسير الى الموصل هـاربا من الملك ، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام ، ثـم سـار الى مـاكسين (٦٠) ، فتركه بها عدة أيام أيضا ، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، وكان سيف الدين قد دخل الموصل فاستقر بها ، فقوي حينئذ جنان جمال الدين (ووصل هـو والملك الى سنجار) (٦١) وارسل الى دزدارها وقال له : لاتسـلم البلد ولاتمكن أحدا من دخوله ، ولكن أرسـل إلى الملك وقـل له : أنا تبع الموصل ، فمتى دخلت الموصل سلمت إليك . ففعل الدزدار ذلك.

فقال جمال الدين للملك : المصـلحة انا نسـير إلى الموصـل ، فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج الى الخدمة وحينئذ تقبض عليه وتتسلم البلاد ، فساروا عن سـنجار ، وكثـر رحيل العسـكر هـاربين من الملك فبقي في قلة مـن العسـكر ، فسـاروا الى مـدينة بلد (٦٢) وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سـار جمـال الدين الى الموصل فدخلها ، وارسل الامير عز الدين أبا بكر الدبيسي في عسكر الى الملك ، وهو في نفر يسـير ، فـأخذه وأدخله الموصـل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين علي على ماكان إليه من ولاية الموصـل ، وجعـل جمـال الدين وزيره ، وارسلوا إلى السلطان مسعود فـاستحلفوه لسـيف الدين فحلف ، وأقره على البلاد وارسـل له الخلع . وكان هـذا سـيف الدين لازم

السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا . وكان السلطان يحبه كثيرا ويأنس به وينشطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدومه واحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، فلقد قال من قال : الناس ألف منهم كواحد ، وهو معذور فانه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك اطاعته جميع البلاد ، ماعدا ماكان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعرد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانيا

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي – الذي كان صاحب الرها – في ولايته غربي الفرات في تل باشر وماجاورها ، فراسل أهل الرها – وكان عامتهم من الارمن – وواعدهم يوما يصل إليهم فيه ، فأجابوه الى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر الى نور الدين – وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده – فسار مجدا اليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى اهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من اهلها ولم يبق منهم بها الا القليل. وكان من بالقلعة قد ارسلوا الى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد الى ولاية الموصل ، فلقي عز الدين أبا بكر الدبيسي وقد سار الى الجزيرة ليتسلمها اقطاعا ، فسلك طريق البقعاء (٦٣) متصيدا ، فلقي القاصد فاخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصدا مسرعا ينهي إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر

فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحا ثانيا ، وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجيبة

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من غنائمها إلى الامراء وغيرهم ماجرت به العادة . وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ما ارسل اليه عدة من الجواري فحملن الى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم ، فغاب عنهم قليلا ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جرى لي اليوم أعجوبة ، وهي أننا لما فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم ، وكان مهيبا مخوفا ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفا من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني زنكي

لما فرغ سيف الدين من أصلاح أمر السلطان وتحليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه ، فلم يزل يراسله ويستميله ، وكلما طلب شيئا أجابه إليه إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ، ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل

الارض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟ والله لم يخطر ببالي ماتذكره ، فلمن أريد البلاد ومع من اعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع اخي واحب الناس إلي ؟!

فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد الى حلب فتجهز ، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود ونزل بعسكره عنده ، وقال له : لاغرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه الى ان قضيا ماكانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها ومافعله سيف الدين حتى رحلوا عنها

في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة ، خرج ملك الالمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الافرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عددا وأوسعهم بلادا ، وملكهم اكثرهم عددا وعددا ، وأن كان غير ملكهم اشرف منه عندهم واعظم محلا ، «والسيف اصدق أنباء من الكتب» . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وليس له من الامر شيء ، وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر ، وكان عاقلا خيرا دينا حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الاول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه ، وكان فيمن

خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن دوناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ، فقال : قد بعت واشترى ، فلا نقيله ولانستقيله يعني قول الله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم) (٦٤) الآية . وتقدم وقاتل الافرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيدا (٦٥) . وقوي أمر الفرنج وتقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين ، يستغيث ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فأنا إن جئت اليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا ، لايسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن القاهم واقاتلهم ، فتسلم البلد الى من أثق إليه ، وانا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرنج إنني لاأخذ دمشق ، ولاأقيم بها إلا مقدار مايرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي ، فماطله معين الدين لينظر مايكون من الفرنج .

وارسل سيف الدين الى الفرنج الغرباء يتهددهم ، ويعلمهم انه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وارسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من اولئك الفرنج الخارجين الى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء بدمشق لايبقون عليكم مابايديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فانتم تعلمون انكم لاتقدرون على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق ، فأجابوه الى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا

بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع امداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم الى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ، قال : حكى لي بعض الائمة العلماء ، أنه رأى الفندلاوي في المنام ، فقال له اين انت . قال : في جنات عدن (على سرر متقابلين .) (٦٦).

ذكر فتح نور الدين حصن العريمة

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر الى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش صاحب طليطلة ، خرج مع ملك الالمان الى الشام وتغلب على العريمة واخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العريمة ، هو الذي غزا افريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب فلما استولى هذا على العريمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسار [illegible]يه مجدين فصبحاها ، وكتبا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجده ويطلبان المدد ، فامدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين ا[illegible] بكر الدبيسي ، فحصروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع به [illegible] حماه ، فزحف المسلمون اليه ، وتقدم النقابون الذين مع نور الد[illegible] نقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، اذعنوا واستسلموا ، والقوا مابايديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش ؛ واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضي الله عنه ملك دارا (٦٧) وبقيت بيده إلى أن قتل ، فلما قتل أخذها حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين اليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها ، عازما على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ماأخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضي الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها إلى مايفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولاأخذوا كفا من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت فيه فلما
صرت في غيره بكيت عليه

ثم أنه راسل سيف الدين وصالحه على ماأراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهزت خاتون وسيرت اليه ، فوصلت الى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

-٦٤٦٣-

ذكر غزو الفرنج بيغرى وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة : سار نور الدين محمود بن الشهيد رضي عنهما إلى بيغرى ، وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم ، وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا اشد قتال ، ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، وإنهزم الفرنج واخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتيل واسير واما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني (٦٩) في هذه الوقعة من قصيدة في اولها :

ياليت ان الصد مصدود
اولا فليت اليوم مردود

الى متى يعرض عن مغرم
في خده الدمع اخدود

ومنها في ذكره :
وكيف لانثني على عيشنا ال
محمود والسلطان محمود

وصارم الاسلام لاينثني
الا وشلو الكفر مقدود

مناقب لم تك موجودة
الا ونور الدين موجود

وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود

والقوم اما مرهق صرعة
أو موثق بالقد مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الاخرة من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن اقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحد الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه اعرف منه بالطب فلما رأى شدة مرضه علم أن الاغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو اربعين سنة . وكان من احسن الناس صورة ، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل ، وخلف ولدا ذكرا اخذه عمه نور الدين محمود ورباه واحسن تربيته ، وزوجه بابنة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وادركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه الله

كان رحمه الله تعالى كريما شجاعا ، عاقلا ، ذا حزم وعزم ، ولما توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين علي على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد اقطاعه واعلى محله ، واقطع عز الدين أبا بكر الدبيسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرهما ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

حكى لي والدي : أنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر

النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأسا من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل على رأسه سنجق من اصحاب الاطراف ، فانه لم يكن فيهم من يفعله لاجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لايركب أحدهم الا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركابه سفرا وحضرا ، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر ، فلما أمر هو عسكره ، اقتدى به غيره من أصحاب الاطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الاتابكية العتيقة ، وهي من أحسن المدارس وأوسعها ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضا رباطا للصوفية بالموصل وهو الرباط المجاور لباب المشرعة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الدبيسي ، قد اتفقت كلمتهم في ايامه ، واضطر الى مداراتهم ، لانهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير الى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من اقرب الناس الى السلطان ، ومنزلتي عنده مشهورة ، ولابد من المسير اليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبقي عليهم ، فكانوا لايزالوا يمنعونه عما يريده من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريما ، قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها يقول « شعر »

الام يراك المجد في زي شاعر
وقد نحلت شوقا فروع المنابر

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميري ، سوى الاقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع

في ذكر ملك اخيه قطب الدين

لما توفي سيف الدين غازي ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على تمليكه طلبا للسلامة منه ، فانه كان لين الجانب ، حسن الاخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر في الملك ، واطاعه جميع ماكان لاخيه سيف الدين ، لان المرجع كان في جميع المملكة الى جمال الدين وزين الدين ، ولما ملك واستقر في الملك ، تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على مانذكره . ولم يملكها من اولاد قطب الدين احد من غير اولادها

في ذكر فاطمة ابنة عبد الملك

معرفة حسنة تذكر

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وامها عاتكه بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ــ جد امها وابيها ــ ، وابنه يزيد ــ وهو جدها لامها ــ ، ومعاوية بن يزيد ــ وهو خالها ــ ، ومروان بن الحكم ــ وهو جدها لابيها ــ ، وعبد الملك بن مروان ــ وهو أبوها ــ ، والوليد ، وسليمان ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك ــ وهم أخوتها ــ ، وعمر ابن عبد العزيز ــ وهو زوجها ــ والوليد بن يزيد بن عبد الملك ــ وهو ابن أخيها ــ ، ويزيد وابراهيم ابنا الوليد بن عبد

الملك - وهما ابنا اخيها - ايضا . ولم يبق من بني أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها ان تضع خمارها عنده ، الا مروان ابن محمد ، المعروف بالحمار لاغير . وهذه الخاتون كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا ، وهم : نجم الدين ايلغازي بن ارتق - وهو جدها لابيها - ، وسقمان بن أرتق - وهو عم ابيها - ، وحسام الدين تمرتاش - وهو أبوها - ، ونجم الدين البي - وهو أخوها - ، وقطب الدين ايلغازي بن البي - وهو ابن أخيها - وحسام الدين ، وناصر الدين - وهما اولاد قطب الدين - وسيف الدين غازي ، وقطب الدين مودود ابنا الشهيد زنكي - وهما زوجاها - وعماد الدين الشهيد - وهو حموها - وولداها سيف الدين غازي ، وعز الدين مسعود - ابنا قطب الدين مودود - وذور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود - وهو ابن ابنها - وابنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن ذور الدين ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي - وهو ابن ابنها - وابنه معز الدين محمود ، وعماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود - وهو ابن زوجها - وولده قطب الدين محمد .

ذكر ملك ذور الدين محمود بن الشهيد مدينة سنجار وماكان بينه وبين أخيه قطب الدين

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي ، كان ذور الدين محمود بحلب - وهو أكبر من قطب الدين - فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه اليهم ، وكأنهم حسدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم ، وكان فيمن كاتبه ، المقدم والد شمس الدين ابن المقدم - وهو حينئذ دزدار سنجار - واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار ذور الدين جريدة في سبعين فارسا في أكابر دولته ، منهم ، أسد الدين شيركوه ، ومجد

الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل الى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللبابيد ، فلم يعرفهم الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة واخبروه بوصول نفر من الاجناد وكأنهم تركمان ، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجدا إلى سنجار ، فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير من شدة تعبه وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله ، وكان المقدم قد استدعي إلى الموصل ، لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضروه فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فسار الى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له : أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني فلما فارق سنجار وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا مجدا إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط في يده وخاف فوات الأمر ، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليعفر ، فعاد إلى سنجار وسلمها الى نور الدين ، فكاتب نور الدين فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده ولما سمع اتابك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجار ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر وأرسلوا إلى نور الدين يذكرون عليه اقدامه وأخذه ماليس له ، ويهددوه بقصده واخراجه عن البلاد قهرا ان لم يرجع اختيارا فأعاد الجواب : إنني أنا الاكبر وإني أحق ان أدبر أمر أخي منكم ، وماجئت الا لما تتابعت الي كتب الامراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم ــ يعني زين الدين وجمال الدين ــ فخفت أن يحملهم الغيظ والانفة على اخراج الامر عن أيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال ، فأنا لاأقاتلكم إلا بجندكم ــ وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم ــ فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر

للفرنج أنه يحكمنا ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من ذلك ، وتلك انفع له من هذه ، والرأي ان نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار ، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه وأكرامه وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلي في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ماتريد ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما ، وأجاب نور الدين إلى ماطلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين حمص ، وسلم سنجار إلى أخيه وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ماكان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لابد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل مالأخي ، وأنا أحوج اليك منه ، فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ماتستغني به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ماعند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك ، فقال له جمال الدين : انت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها ، فكان نائب جمال الدين يقبضها ، كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت أراؤهم فكان كل واحد منهما لايصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال : فلما مات سيف الدين وتولى أخوه قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار – وكان هذا شمس الدين خصيصا بسيف الدين – وسبب وصلته به أنه لما قصد سيف الدين خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحدا منهم ، ومعه ولد له مليح الصورة ، فكلف به وأ حبه واستصحبه معه إلى الموصل ، ولما افترق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين الى الموصل استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره وحلفه على أنه لايمكن والده من تسليم سنجار الى غيره ، فحلف له ثم هرب من عند قطب الدين إلى سنجار ، فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت له المملكة كتب عبد الملك لنور الدين أن يسلمها اليه ، ويعلمه ان خزائن بيت أتابك جميعها في سنجار فلما بلغ قطب الدين ذلك ، سير اليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل مااقترحا عليه ، وحلفا له بمحضر من قاضيها وأعيان شهودها ، واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هاربا منه ، فاتفق إلى خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس ، فنفذ شمس الدين الى والده المقدم عبد الملك يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخاير الذخائر مايعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد اليه ، على أن لايطالبه بشيء مما

اخـــذه ، فـــأجابه إلى ذلك ، وتســـــلم البلد يوم الاثنين عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على ما في يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين ما اتفق بعث وزيره جمـــال الدين الأصـــفهاني ليفرغ ماكان في الخزائن من الأموال والأقمشة والجـواهر ، ومعـــه جريدة مايتضمن ذلك المال (وعند لقائه بنور الدين (٧١)) قـــال له : هذا مال المســـلمين ولايحـــل لك اطـــلاق شيء منه ، فقـــال نور الدين : إن كان اخذ شيئا من مال المسلمين بالغدر ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصـــلح بين نور الدين وبين أخيه قـطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخـذ الرقة والرحبة وحمص ويعطيه سنجار وتبقى الرهـــا في يد نور الدين على ماكانت أولا .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب ، ومعه خزائن سنجار على ســـتمائة جمـــل ، مـــاخلا البغـــال ومافرقه على أولاد الملوك والأمراء ــ وستة وتســـعين بغـــلا محملة ذهبا (٧٢) .

ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ســـار نور الدين إلى حصـــن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرب ربضه ونهب سواده .

ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره ، فـــاجتمعت الفـــرنج مـــع البرنس صاحب انطاكية وساروا اليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا ، وظهر مـــن نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه مـــا تعجـــب الناس منه . فانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقـــا

كثيرا وفيمن قتل ، البرنس صاحب انطاكية ، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والملك .

ولما قتل البرنس خلف ابنا صغيرا وهو بيمند ، فبقي مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه بابرنس آخر ، وأقام معها بانطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند ابن المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة اخرى ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوا ، فهزمهم وقتل منه وأسر فكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند ، فلما أسره تملك بيمند انطاكية بلد أبيه وتمكن منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس فممن قال فيه : القيسراني الشاعر قصيدته المشهورة التي أولها هذه الأبيات :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لاما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب

مازال جدك يبني كل شاهقة
حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب

-٦٤٧٣-

ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب

حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تختطب

والخيل من تحت قتلاها تقربها
قوائم خانهن الركض والخبب

والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

والسيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو دومة فيها ولا اليلب

والنبل كالوبل هطالا وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب

وللظبا ظفر حلوا مذاقته
كأنما الضرب فيما بينها ضرب

وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب

ذو عزمة ما سمت والليل معتكر
الا تمزق عن شمس الضحى الحجب

افعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جدا . ومما قال فيها بعض الشاميين وانسيت اسمه :

اقوى الضلال واقفرت عرصاته
وعلا الهدى وتبلجت قسماته

وانتاش دين محمد محموده
من بعد ما علت دما عبراته

ردت على الاسلام عصر شبابه
وثباته من دونه وثباته

أرسى قواعده ومد عماده
صعدا وشيد سوره سوراته .

واعاد وجه الحق أبيض ناصعا
إصلاته وصلاته وصلاته (٧٣)

وهي أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة سار نور الدين الى حصن أفامية ، وهو للفرنج ايضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، ومن أحصن القلاع وامنعها ، وكان من به من الفرنج يغيرون على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين اليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال ليمنعهم الاستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوه ليزحزحوه عنه فلم يصلواإليه وقد ملك الحصن ، وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم ، فحين رأوا جده في لقائهم ، رجعوا القهقرى واجتمعوا ببلادهم ، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ ومدحه الشعراء فأكثروا ، فمن ذلك قول ابن منير في قصيدته التي أولها :

اسنى الممالك ما أطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دسارها

وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا
مختار أمة أحمد مختارها

عارية الزمن المغير سما لها
منك المغير فاسترد معارها .

صارت نجومك فوقها وربما
باتت تنافثها النجوم سرارها

امست مع الشعرى العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها (٧٤)

وهي طويلة

ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهـــزام نور الدين رضى الله عنه في ســنة (ســـــت وأربعين وخمسمائة) (٧٥)

فيها سار نور الدين إلى بلاد جوسلين ، وهي القلاع التي شمال حلب ، منها تل باشر ، وعين تاب ، وعزاز وغيرها مـن الحصـــون فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، فكانت بينهم حرب شديدة اجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، وأخــذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيرا ، وأخــذ مــا معــه مــن السلاح فأنفذه الى السلطان مسعود بن قليج أرســلان الســلجوقي صاحب قونية وأقصرا وغيرها من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفـذت لك ســلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعـظمت هــذه الحـالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما نذكره .

في ذكر أسر جوسلين وملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال ســلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعـد ، وهجـــر الراحـــة للأخـــذ

بثأره ، وأزكى العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الاقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين اما قتلا أو أسرا ، لأنه علم إن هو جمع العساكرالاسلامية لقصده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخذ الى اعمال الحيلة ، فاتفق ان جوسلين خرج متصيدا متنزها في نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركمان فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه الى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركمان ، وكان نور الدين بحلب فأعلمه الحال ، فسير معه عسكرا أخذوا جوسلين من التركمان قهرا ، وكان نور الدين حينئذ بحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن من جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ومكره (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله)(٧٦) .

فما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها : تل باشر ، وعين تاب ، وأعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر سوت وحصن بسر فوث بجبل بني عليم ، ودلوك ، ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ، وكان نور الدين رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصنا لا يرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين ، خوفا من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، فمن ذلك قول القيسراني من قصيدة ، أولها هذه الابيات حيث يقول :

دعا ما ادعى من غرة النهى والامر
فما الملك الا ما حباك به القهر

ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر

كما أهدت الأقدار للقمص اسره
وأسعد قرن من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على غلوائه
فأوثقه الكفران ، عداوه والكفر

وأمست عزاز كاسمها بك عزة
تشق على النسرين لو أنها وكر

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة
فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر

كأني بهذا العزم لافل حده
واقصاه بالأقصى وقد قضي الامر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طهر (٧٧)

وقال بعض الشاميين أيضا في هذا المعنى هذه الابيات :

هيهات بعصم من اردت حذار
اني ومن أوهاقك الأقدار

-٦٤٧٩-

همم تحلك كل يوم رتبة
تسري فيصبح دونها الاقمار

ومطامح في العز إذ هي صوبت
فلهن في الفلك الاثير قرار

طلعت عليك بجوسلين ذريعة
لا سحل انشأها ولا امرار (٧٨)

وسعادة مازلت تمرى خلفها
فيشف وهو الناتق المدرار

فارتك ما يجني الوفي وفاؤه
وارته كيف يحين الغدار (٧٩)

وهي طويلة

ذكر المصاف بين نور الدين والافرنج بدلوك

لما سار نور الدين الى قلاع جوسلين ليتملكها ، ملك بعضا وبقي بعض ، فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمنعه منه ، وصدو، أنه يمتنع باجتماعهم ولايقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار اليهم ، وصمم العزم على لقائهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أتت على كثير منهم وسلم الباقون ، واستولى نور الدين على داوك وغيرها ، وفي ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين قصيدة فيها :

- ٦٤٨٠ -

اعدت بعصرك هذا الأنيق
فتوح النبي وأعصارها

فوطأت ياحبذا أحديها
واسررت من بدر أدوارها

وكان مهاجرها تابعيك
وانصار رأيك انصارها

فجددت إسلام سلمانها
وعمر جدك عمارها

ومايوم إنب إلا كتيـ
ـك بل طال بالبوع اشبارها

وأيامك الغر من بعده
تعيد إلى الطي أغرارها

ويوم على الجون جون السرا
ة عز فسعطها عارها

صدمت عريمتها صدمة
اذابت مع الماء أحجارها

فصبحت بالخمس احفاضها
ومسيت بالخمس أبكارها

وفي تل باشر باشرتهم
بزحف تسور أسوار ها

وإن داالكتهم داوك فقد
شددت فصدقت أخبارها (٨٠)

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقي بهمذان

في سنة أربع (٨١) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب له ببلاد الجبل . وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك ابن بلنبكري ، فقام بـامر ملكشـاه ولم يمهله غير قليل حتـى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بـن السـلطان محمـود وهـو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضا ، ويخلو وجهـه مـن منازع مـن السـلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمدا أجابه إلى الحضور عنده ، وسار اليه وهو بهمذان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خـدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد مـن يوم وصـول الملك محمد ، دخل اليه خـاصبك فقتله محمـد والقـى رأسـه إلى أصحابه فتفرقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واسـتولى على بـلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان واربعين وخمسـمائة ، وقتـل معه زنكي الجاندار . وبقي خاصبك مطروحا حتى اكلته الكلاب . وكان ابتداء حـاله ، انه كان مـن اولاد بعض التـركمان ، فخـدم السلطان فمال اليه وقدمه حتى فاق سائر الامـراء ، فتقـدم تقـدما عظيما ، واستولى على أكثر البـلاد . وهـو كان السـبب في اكثـر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فـان الامـراء الاكابـر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان والتكبر عليهم . وفيها : اعني سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصـل اياز قفجاق - وهو من أكابر أمراء العجم - شاكيا مـن شـمس

الدين ايلدكز ، ومستغيثا عليه ومستشفعا اليه لانجاده بعساكر يفتح بها مابيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الامير قراجة تجنه ، مقطع بلد الهكارية ، فوصلوا الى سلماس وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه ايلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولي على همذان واصفهان وسائر بلاد الجبل .

وفيها توفي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، وولي بعده ابنه نجم الدين ألبي .

في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك . وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها ، أن الفرنج ملكوا في السنة الخالية مدينة عسقلان وهي مدينة فلسطين حصنا وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلهف ولايقدر على ازعاجهم عنها ، لأن دمشق في طريقه ، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوي الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجيء الى دمشق ويجبيها من أهل البلد . ثم اشتد البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه صار اليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع انسان منهم يقال له مؤيد الدين بن الصوفي (٨٢) ، فلما كانت الامور بها هكذا ، خاف اهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف مابهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده اليه ، واحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقا نور الدين محمود ، فحسن له السعي في ملك البلد والقاه في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لان صاحبه كان متى رأى شيئا من ذلك ، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم . وكان ابغض الاشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لانه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له فكيف إذا أخذها وقوي بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن

الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل الى اعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه ، ثم صار يكاتبه في بعض الاوقات ويقول له ان فلانا - ويذكر بعض الامراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره ، فتارة يأخذ اقطاع احدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الامراء ، قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم ، وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه امر دولته ، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : ان الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني ، واستبقيني فانه سيظهر لك ما أقول ، فلم يصغ إلى قوله وقتله ، فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم ، فأجابوه الى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة ايام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين .

واما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الاحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي ، فدخله بالامان عاشر صفر * وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الاقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فاجاب الى تسليم القلعة فسلمها اليه وسار الى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع اهله مكرمة عظيمة ، واظهر فيهم عدلا عاما سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند ذكر سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . والقى الاسلام بدمشق جرانه ، وثبت اوتاده ، وايقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين .

وإما مجير الدين فإنه اقام بحمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة

الفتنة ، فأنهي الامر الى نور الدين ، فخاف إن يحدث مايشق تلافيه بل ربما تعذر ، لاسيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حمص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن الشام الى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى دارا مجاور المدرسة النظامية وتوفي بها .

ذكر القبض على سليمان شاه وحمله الى الموصل

في جمادى الأولى من سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين علي كوجك نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله الى الموصل فسجنه بها . وسبب ذلك ان سليمان شاه استأذن الامام المقتفي لأمر الله في قصد خدمته . وسأل ان يشرف ويخطب له ويمد بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب الى ذلك واذن له ، فسار الى بغداد فوصل اليها في المحرم سنة احدى وخمسين وخمسمائة ، واحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه الخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الامير قويدان وجعل الامير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل عازما على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة الى حلوان ، وارسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه الفا فرس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالاموال والعدد .

وبلغ الخبر الى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقي سليمان شاه وملكشاه بقرب همذان وتصافوا ، فانهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما ومامعهما وعادوا منهزمين الى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهر زور قاصدا نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل إلى أتابك قطب الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى موافقته ، وسار زين الدين نجدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وان سليمان شاه قد سار على شهرزور ، وهي لزين الدين ونائبه بها الامير بوزان ، فوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل اليه اخذه وقبض عليه ، وحمله ، إلى الموصل فحبسه بها مكرما معظما ، وكانت الخطبة له ببغداد .

في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود الى قلعة حارم ، وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية فحصرها - وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من انطاكية - وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون واحصنها في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون الى قوله ، فأرسل اليهم يعرفهم قوتهم ، وانهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء . وقال لهم : ان لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم انفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ماامرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على ان يعطوه حصة من أعمال حارم ، فابى أن يجيبهم الا على مناصفة الولاية ، فأجابوه الى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء ، من ابيات له فيها يقول « شعر » :

البيت دين محمد يانوره
عزا له فوق السها أساد

مازلت تمسكه بمياد القنا
حتى تثقف عوده المياد

لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه
عدد يراع به ولا استعداد

إن المنابر لو تطيق تكلما
حمدتك عن خطبائها الاعواد

ولئن حمت منك الاعادي مهلة
فلهم الى المرعى الوبي معاد

ملق باطراف الفرنجة كلكلا
طرفاه ضرب صادق وجلاد

حاموا فلما عاينوا خوض الردى
حاموا فرائس كيدهم اوكادوا

ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة
حرما بحارم والمصاد مصاد

عجبا لقوم حاولوك وحاولوا
عودا فواتاهم اليه مراد

من منكر أن يخسف السيل الربى
وأبوه ذاك العارض المداد

أو أن يعيد الشمس كاسفة السنا
نار لها ذاك الشهاب زناد

لاينفع الاباء ماسمكوا من الـ
ـعلياء حتى ترفع الاولاد (٨٣)

وهي طويلة .

في ذكر الزلزلة التي جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة ، أخربت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر ، فإنهما خربتا بمرة ، وكذلك ماجاورهما كحصن بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه الا الله تعالى ، وتهدمت الاسوار والدور والقلاع . ولولا ان الله من على المسلمين بنور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال ولاحصار

ولقد بلغني من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ، وأشباه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جدا .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هذا الوقت الذي ملكه نور الدين فيه ، فنقول : هذا الحصن قريب من حماه ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود اليه ، وكان لآل منقذ

الكنانيين ، يتوارثونه من أيام صالح بـن مـرداس (٨٤) إلى أن إنتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بـن نصر ابن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي ، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسـعين وأربعمـائة . وكان شجاعا كريما صواما قواما ، فلمـا حضره الموت اسـتخلف أخـاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : والله لاوليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالما بـالقرآن والادب ، كثير الصـلاح ، فولاها أخاه الآخر أبا العساكر سلطان بن علي ، وكان أصغر منه ، فاصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة اولاد ذكور ، فكبروا وسادوا ، منهم: عز الدولة ابو الحسـن علي ، ومـؤيد الدولة اسـامة ابن مرشد وغيرهما ، ولم لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ، وكان كلما رأى صـغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده ، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على اشياء بلغته عنه فاجابه بـابيات جيدة في معناها ، رأيت اثبات بعضها ، وهي هذه الابيات ، شعر :

ظلوم ابت في الظلم الا تماديا
وفي الصد والهجران الا تناهيا

شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا

وطاوعت الواشين في وطالما
عصيت عذولا في هواها وواشيا

ومال بها تيه الجمال الى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا

ولاناسيا ماأودعت من عهودها
وإن هي أبدت جفوة وتناسيا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه لي والمعانيا

وكنت هجرت الشعر حينا لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وأين من الستين لفظ مفوف
إذا رمت أدنى القول منه عصانيا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا

ويجزيهم مالم أكافه فعله
لنفسي فقد أعددته من تراثيا

فمالك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارما كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منهم جفوة وتنائيا

فاصبحت صفر الكف مما رجوته
أرى الياس قد عفى سبيل رجائيا

على أنني ماحلت عما عهدته
ولاغيرت هذي السنون ودائيا

فلا غرو عند الحادثات فانني
أراك يميني والأنام شماليا

تهن بها عذراء لو قرنت بها
نجوم سماء لم تعد دراريا

تحلت بدر من صفاتك زانها
كما زان منظوم اللالي الغوانيا

وعش بانيا للجود ماكان واهيا
مشيدا من الاحسان ماكان هاويا

وكان الامر فيه في حياة الامير مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لاولاده ظهر المجن ، وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الايام بينهم إلى أن قوي عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الاسباب في إخراجهم ، ماحدثت به عن مؤيد الدولة اسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والاقدام على ماقدعلمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذ قد أتاني انسان ، فأخبرني أن برمله ، يقاربها ، أسدا ضاريا . قال : فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لاقتله ، ولم أعلم احدا من الناس لئلا أمنع من ذلك ، فلما قربت من الاسد ، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه ، فلما رآني قصدني ووثب على ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت الى شيزر ، ودخلت على والدتي والقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال ، فقالت : يابني تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لايمكنك عمك من المقام ولاأحدا من اخوتك ، وأنتم على هذه الأحوال من الاقدام والجراءة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده ، والزمنا به الزاما لامهلة فيه فتفرقنا في البلاد . فقصدوا الملك

العادل نور الدين ، وشكوا إليه مالقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والاخذ بثأرهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، ولخوفه من أن يسلم شيزر الى الفرنج ، وبقي في نفسه منه أثر . وتوفي الامير السلطان وولي بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد مافي نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها وملكها واضافها الى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وإعادها كأن لم تخرب . وكذلك ايضا فعل بمدينة حماة وكل ماخرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ماكانت .

ذكر وفاة عز الدين الدبيسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، توفي الامير عز الدين أبو بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن الشهيد إليها ، ظنا منه أنها لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الدبيسي إقطاعا منه، فلما وصل إليها رأى انه قد تغلب عليها مملوك للدبيسي اسمه أغلبك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الدبيسي لم يخلف ولدا، فلهذا تغلب بعده • وأقام أتابك قطب الدين محاصرا المدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالاسراع في ملكها ، ثم تسلمها وترك بيد اغلبك القلاع المختصة بها وهي : كواشي (٨٥) ، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرهما . وعاد اتابك الى الموصل بعد الاستيلاء على الجزيرة ، وكان الدبيسي من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، حكى لي والدي ، انه لم يضع علامته على اطلاق مال أبدا قل أم كثر . وكان عاقلا حازما ، ذا رأي وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين

دار السلام بغداد

في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود الى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى اتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه ان ينجده بارسال العساكر . فجهز إليه عسكرا كثيفا ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه في جميع بلاده وسيرهم اليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحي حربي ، وساروا في الجانب الغربي الى بغداد فوصلوها في ذي القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتفي لامر الله ، فأمر بإخراب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمي ، ونهب أصحابه ما وجدوا في الدور من الاموال والاثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، والتوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا (٨٧) ، ولم يتعرض أحد للكرخ وباب البصرة ، وخرج أهلهما الى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الاموال الكثيرة . وجد المقتفي لامر الله في حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسرا على دجلة ، وعبر أكثر العسكر إلى الجانب الشرقي وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربي ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال في الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين الا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيرا ، وأمر المقتفي لامر الله فنودي ببغداد : من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحا ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لاتستحق عليه شيئا ، فعاد الى القتال فضرب في جوفه فخرجت امعاؤه ، فعاد الى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عالجه .

ولم يزل الخليفة يراسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضا ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الاطراف المجاورين الملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف مايليه منها ، فتحرك أصحاب الاطراف .

وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل الملك محمد منها غرضا ولا غلا بها سعر ، لان الوزير كان يعطي الاجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت الاسعار لاتزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن اخاه ملكشاه قد قصد همذان ودخلها في عسكر كثير ونهبها ، وأخذ نساء الامراء الذين معه وأولادهم فاختلط العسكر وتفرقوا وعاد الملك محمد نحو همذان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل امير الى بلاده على عزم العود الى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتفي لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلة التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الاخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأمه أم ولد تدعى ياغي ، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين .

ولما توفي جددت البيعة لولده ابي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله وكان قد عهد اليه قبل وفاته ، وبايعه الامراء ، والقضاة ،

والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب الى الآفاق باخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك ، وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

في ذكره مسير سليمان شاه الى همذان

في اوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الامراء الاكابر من بلاد الجبل الى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت الرسل في ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا ، وقطب الدين اتابكه والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الاموال والثياب والخيل والآلات مايصلح للسلاطين ، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو همذان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسالا ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل ايضا ، لانه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب ماأوجب الخوف ، فعاد عنه الى الموصل . فحين فارقه زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ماأراد .

حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه ، وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فتعود الى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضي اشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك نائبي بالعراق ، قال : فسرني ذلك من وجه وساءني من اخر ، الا انني لم ار من طاعته بدا ، قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي : عد الى بلدك ، فان سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته وعدت .

وفيها اعني سنة خمس وخمسين ، حج زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره اصحابه من الحج لاجل مساعدة الملك محمد في حصر

بغداد ، فلم يلتفت الى قولهم وسار ، فلما وصل بغداد اكرمه الخليفة المستنجد بالله ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة - وكان هو قصير جدا - فمد يده الى كمرانة وأخرج ماشد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الامير والجندي لامثالكم ، فلما دخل عليه قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد ان حادثه بالتركية - وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيدا - فلما خرج نظر اليه المستنجد من شباك ، وكان زين الدين قد أخرج شيئا من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيدا وهو يومىء برأسه - يعني انه غير جيد - فأرسل إليه سيفا آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتالها ، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، واعدوا واستعدوا ، وساروا وتلطفوا الحال معه . فلما رأى انه لايمكنه أخذ الحصن ولايجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

وممن كان معه في هذه الغزوة ، الامير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ - وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها - فلما عاد الى حلب ، دخل مسجد سيرين - وكان قد دخله

-٦٤٩٧-
في العام الماضي سائرا الى الحج ــ فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول : شعر

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديت مفروضي واسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

في ذكر انهزام نور الدين بحصن الاكراد وماجرى له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقيعة تحت حصن الاكراد ــ وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما الناس في بعض الايام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم اجتمعوا واتفق رأيهم علي كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونوا أمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر يزك (٨٨) المسلمين الا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ، وارسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ، فرهقهم الفرنج واخذوهم بين ايديهم ، فوصلوا معا إلى العسكر النوري ، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم ، فكان أقصى رأيهم الانهزام ، ووضع الافرنج فيهم السيف وأكثروا

القتل والاسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا خيام الملك العادل نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلا بغير قباء فركب فرسا هناك النوبة ، واسرعته ركبه وفي رجله شبحة ، فنزل انسان من الاكراد فقطعها ، فنجا نور الدين وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان ، ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن اليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين الى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها مافيها من الخيام ونصبها على بحيرة قدس (٨٩) على فرسخ من حمص ، وبينهما وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لايظنون إنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله اشجع من ذلك وأقوى عزما .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع اليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه واسكته وقال : اذا كان معي الف فارس لاابالي بهم قلوا أم كثروا والله لا استظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الاموال والدواب والاسلحة والخيام وسائر مايحتاج اليه الجند فاكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وامامن قتل أو أسر فإنه أقر اقطاعه على اولاده ، فإن لم يكن ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه احد .
وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لانها أقرب البلاد اليهم ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي

الف بينار حمر ، سوى غيرهما من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم الى ديوانه ان يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ومهما ذكر شيئا أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئا كثيرا علم النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فارسلوا الى نور الدين ينهون اليه القصة ، ويستأذنوه في تحليفه على ماادعاه ، فأعاد الجواب : لاتكدروا عطاءنا بالاذى ، فاني أرجو الثواب والاجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : ان لك في البلاد ادرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله لاأرجو النصر الا باولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا في فراشي بسهام لاتخطيء ، واصرفها الى من لايقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تخطيء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال اصرفه اليهم ، كيف اعطيه غيرهم ، فسكتوا .

تلك المكارم لاقعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

هكذا هكذا والا فلا لا.

ثم ان الفرنج ارسلوا الى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم اليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

في ذكر القبض على جمال الدين الوزير ابن علي الاصفهاني

في هذه السنة أيضا ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن علي الاصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية

وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكيما لامزيد عليه . فحكى لي والدي ، قال : أرسلني دزدار الجزيرة الى الوزير ضياء الدين الكفرتوثي - وهو وزير الشهيد والحاكم في بلاده قبل ان اتصل انا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه - يقول له : قد بلغني أن جمال الدين يقصدني ويريد أن يعزلني ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابكما ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لي : ماسمعت من جمال الدين شيئا من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلي ويخرج بعدي ، فلم أعلم مايكون منه . ولم يزل كذلك الى ان قتل الشهيد ، وكان منه ماقد تقدم ذكره في حفظ الدولة ، ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق ، وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم ، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمنا لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتابك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه ان يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لان خواص أتابك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض انبسطوا في الامر والنهي على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسمائة سار أسد الدين شيركوه بن شاذي - وهو من أكابر الأمراء الذين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - الى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها الى المملكة النورية .

ونحن نبتدىء قبل مسيره وماكان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب – وهو أكبر ابناء شاذى – من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم (٩٠) واصلهما من الاكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة فجعله دزدار تكريت ، وهي له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك الشهيد رضي الله عنه بالعراق من قراجة الساقي على ماذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ثم ان أسد الدين قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتابك الشهيد ، فأحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما ، واقطعهما اقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه ، فلما قتل الشهيد حصره عسكر دمشق ، فأرسل الى الملك سيف الدين غازي – وقد قام بالملك بعد والده – ينهي الحال اليه ويطلب العسكر ليرحل صاحب دمشق عنه ، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في بداية ملكه ، وهو مشغول باصلاح السلطان واصحاب الاطراف الذين يجاورونه ، فلم يتفرغ لبعلبك ، وضاق الامر على من بها من الحصر ، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف ان تؤخذ قهرا وعنوة وينالَه أذى ، أرسل في تسليم القلعة وطلب اقطاعا ذكره فأجيب الى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسلم القلعة ، ووفى له بما حلف عليه من الاقطاع والتقدم وصار عنده من أكابر الامراء ، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد – وكان يخدمه في أيام والده – فقربه نور الدين واقطعه ، ورأى منه في حروبه ومشاهده اثارا يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده اقطاعا وقربا ، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ايوب – وهو بها – في ذلك ، وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب الى مايراد منه ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرهما ، فبذل لهما ماطلب منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، الا نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير ان يؤمر بذلك .

فلما كان هذه السنة وعزم نور الدين على ارسال العساكر الى مصر ، لم ير لهذا الامر الكبير أقوم ولا أشجع من اسد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاور السعدي – وزير العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر – عزل من الوزارة ، فسار الى الملك العادل نور الدين ، فوصل إليه وهو بدمشق ، والتجأ إليه واستجاربه ، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه ، وانعم عليه انعاما غمره به . وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وطلب منه ارسال العساكر الى مصر ليعود اليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره ، ونور الدين يقدم في ذلك رجلا ويؤخر اخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور •

(بابه) وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الافرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج،ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه ، وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالايبالي بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاور الى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا ، فصار الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل

أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمكن من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ماكان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود الى الشام . فانف اسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ماكان استقر ، فلم يجبه شاور اليه . فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون ، فلما ارسل شاور اليهم يستنجدهم ويطلب ان يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا الى تلبية دعوته والمبادرة الى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه ، فتجهزوا وساروا ، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره الى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين الى مصر ، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به ، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر ، وقد أمتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغاديهم القتال ويرا وحهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولانالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، اتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في ايديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلهم يدركون بانياس قبل اخذها ، فلم يدركوها الا وقد ملكها على مانذكره إن شاء الله تعالى وراسلوا

أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم مابيده منهـا الى المصريين ، فـاجابهم الى ذلك لأنه لم يعلم بمـا فعله نور الدين بالفرنج في الساحل ، فحدثني من رأى أسد الدين حين خـرج من بلبيس ، قال : رايته وقـد أخـرج أصـحابه بين يديه وبقـي في أخرهم ، وبيده لت حديد يحمـي سـاقتهم ، والمسـلمون والفـرنج ينظرون . قال : فأتاه افرنجي من الفرنج الغرباء ، فقـال له : أمـا تخاف أن يغدر بك هـؤلاء ـ المسلمون والفرنج ـ وقد أحاطوا بك فلا يبقى لك معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتـى كنت تـرى مالم تر مثله ، كنت والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ـ وقد ضعفوا وفني أبطالهم ـ فيملك بلادهم ويملك من بقي منهـم ، ووالله لو أطـاعني هـؤلاء ـ يعني أصحابه ـ لخرجت إليكم أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلّب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجـب مـن فـرنج هـذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والان فقد عذرناهم . ثم رجع عنه ، وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما ٠

في ذكر فتح حصن حارم من الأفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج ، والسبب في هـذا الفتـح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ماذكرناه قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثـاره ، وغزو العـدو في عقـر داره ، وليرفـو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين بـالموصل ، وفخـر الدين قـرا أرسـلان بالحصن ، ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم .

فاما قطب الدين أتابك ، فانه جمع عساكره وسـار مجـدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه ، واما فخر الدين قرا أرسلان فبلغني

عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أي شيء عزمت ، فقـال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهـو يلقي نفسه والناس معه في المهالك . فكلهم وافقه على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ، فارقناك بالامس على حال بدا الآن ضدها ؟ .

فقال : إن نور الدين قد سلك معي طريقا ، إن لم أنجـده ، خـرج أهل بلادي عن طـاعتي ، وأخـرجوا البـلاد عن يدي ، فإنه كاتـب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا ، يذكر لهم مالقي المسـلمون من الفرنج ، ومانالهم فقد قعد كل واحـد مـن أولئك ومعـه أتبـاعه وأصحابه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، ويلعنونني ويدعون علي ، فلا بد من إجابة دعوته ، ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فانه سير عسكرا ، فلما اجتمعت العساكر سـار نحو حارم ، في كل بـطل بسـلاحه شـاكي ، ولشـدة المراس غير شاكي ، (كما) يقول (الشاعر) :

في كل اروع يرتاع المذون له
إذا تجرد لانكس ولاجهد

يكاد حين يلاقي القرن من حنق
قبل السنان إلى حوبائه يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس(٩١) ، وكل منهم في بيض الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرقت عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتلالات الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسي والمجانيق سهامها وحجرها .

وبلغ الخبر الى الفرنج من بقي منهم بـالساحل لم يسر الى مصر ،

فجاءوا في حدهم وحديدهم ، وعددهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا إنهم رزق الذئاب والخوامع ، وأقبلوا إليه رجالا وعلى كل ضامر ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، وقد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم لكثرتهم من كل حدب ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين – وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، والدوك – وهو رئيس الروم ومقدمها – وجمعوا معهم من الراجل مالا يقع عليه الاحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرض نور الدين أصحابه ، وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم الى أرتاح ، وهو إلى لقائهم قد ارتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم» (٩٢) ، وهو على الحقيقة تصحيف مالقوه من الغم ، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا الى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وحلت اليهم كل وهن وضير ،فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، وتهيأوا النزال ، وتدانت الخطى ، وكشف الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وركنوا إلى الفرار وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ،وهو أن يبعدوهم عن راجلهم ، فيميل عليهم من يبقى من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون اليه ، ولا وزرا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون في اثارهم ، يكسعون أدبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيجعل لهم بوارهم وحتفهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ماقدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين في عسكر الموصل على

راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفا على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين ، وبدمائهم مضرجين فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون اعنتهم ، وعادوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمي الوطيس ، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو باقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من ايس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم اللزام ، وبطل العامل وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الاسلامية عليهم انقضاض الصقور على أناث الطيور ، فمزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، والقى الفرنج بايديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فاكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم مناهل الفناء والهلك ، فزادت عدة القتلى على عشرة الاف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس بيمند صاحب انطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى انطاكية ليملكها لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها اليه ، ومجاورة بيمند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا (٩٣) وغير ذلك وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقتهم .

في ذكر خبر الوقعة التي جرت في حرب قلعة حارم

قال صاحب التاريخ : وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد ـ رحمه الله ـ لما كسرت ميسرة عسكره ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : ياالهي وسيدي ومولاي ، من محمود عبدك ابن زنكي بن اقسنقر حتى لاتخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذي أظهرته لنبيك الذي أرسلته ، استجب دعائي ، وأحسن منقلبي ومثواي ولاتشمت بي أعدائي ، ولم يزل متضرعا باكيا ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه ، الى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب الاتفاق ، ماحكاه كمال الدين ابن العديم في كتاب «اخبارحلب» أن الزكي أحمد بن مسعود الموصلي المقريء اخبرني ، قال : كنت الم بعلم الدين سليمان بن جندر ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين ابو بكر بن الداية ـ داية الشهيد رحمه الله ـ وصلاح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم ويعطيني إياها نيابة . فقال صلاح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها . ثم قال : تمن انت ايضا بما تريد ، قلت : يامولاي ، إذا كنت انت صاحب مصر ومجد الدين صاحب حارم ، ماضيع بينكما . فقالا : لابد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولابد من ذلك ،فأتمنى « عم »

(وبينما) نحن في الكلام ـ والله تعالى قاض بما أراد في حكمه ـ فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الافرنج وفتح حارم ، وأعطاها مجد الدين بن الداية ، وأعطاني قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، اسد الدين شيركوه الى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الامر إلى أن ملكها صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على مانذكر إن شاء الله تعالى

لرحمن في وقته ، وتملك مصر ، والشـــام ، والشرق والكرك ، واليمـن ، وبـلاد الشرق وعارض الملوك والسـلاطين ، وحـاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الاجناد ، وهذه الجراكسة التـي هـي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي الحرمين الشريفين ، مماليك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبـي لمعالي ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بـن أيوب ، أبـو الملوك الأيوبية .(٩٤)

وفاة جمال الدين الوزير

في شعبان من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفي الوزير جمال الدين محبوسا . وكان له نحو سنة مذ مرض فمضى لسبيله .

وكان عظيم القدر والخطر ، كريم الورد والصدر ، عديم النظير في سعة نفسه . لم يرو في كتب الأولين ، أن أحدا من الوزراء اتسـعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقـد كان عظيم الفتوة ، كامل المروة ، وسيرد من أخباره ماتعلم منها صحة قولي .

حكى لي جماعة عن الشيخ ابي القـاسم ـ وهـو رجـل مـن الصالحين ، كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـ قال : لم يزل جمال الدين مشغولا بأمور أخرته مدة حبسـه ، وكان يقـول : كنت أخشى أن انقل من الدست الى القبر . قال : فلما مـرض ، قـال لي بعض الايام : ياأبـا القـاسم ، إذا جـاء طـائر أبيض إلى الدار فعرفني ، قال : فقلت في نفسي ، قد اختلط عقله ، فلما كان الغـد ، أكثر السـؤال عن ذلك الطـائر ، وإذا طـائر أبيض لم أر مثله قـد سقط ، فقلت له : جاء الطائر ، فاستبشر ثم قال : جاء الحق وأقبـل على الشهادة وذكر الله تعالى ، وتوفي . فلما توفي طار ذلك الطـائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئا في معناه . ودفن بـالموصل نحـو سـنة . وكان قد قال للشيخ أبي القاسم : أن بيني وبين أسد الدين شيركوه

عهدا ، من مات منا قبل صاحبه حمله الحي إلى المدينة على ساكنها السلام ، فدفنه بها في التربة التي عملها ، فإذا أنامت فامض إليه وذكره فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في المعنى ، فاعطاه مالا صالحا ليحمله به الى مكة والمدينة ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلاد الصلاة عليه ، ففعلوا ذلك ، فكان يصلي عليه في كل مدينة خلق كثير ، فلما كان « بالحلة » ، اجتمع الناس للصلاة عليه ، وإذا شاب قد أرتفع على موضع عال ، ونادى بأعلى صوته ملعلعا يقول :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونايله

يمر على الوادي فتثني رماله
عليه وبالنادي فتبكي أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم . ثم وصلوا به إلى مكة ، وطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم وحملوه إلى المدينة وصلوا عليه أيضا . ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها ، بينه وبين قبر النبي ، نحو خمسة عشر ذراعا .

في ذكره شيء من اخباره رحمه الله

كان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلا للمال ، رحيما بالناس متعطفا عليهم ، عادلا فيهم ، فمن أعماله الحسنة ، أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا جزيلة عظيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة ، ورأيت اسمه عليه ، ثم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وزخرف الكعبة بالذهب والذقرة ، فكل مافيها من ذلك ، فهو عمله

إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك ، أرسل إلى الامـام المقتفـي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه ، وأرسل إلى أمير مكة ، عيسى ابن أبي هاشم ، خلعا سنية وهدية كثيرة حتى مكنه .

وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمـل الدرج التـي يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة في صعودهم .

وعمل بعرفات مصانع الماء ، وأجـرى الماء إليهـا مـن نعمـان (٩٥) في طرق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغـرم على ذلك مالا كثيرا ، وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا ، أنه بنى سورا على مـدينة النبي صلى الله وعليه وسـلم ، فـانها كانت بغير سـور تنهبهـا الأعراب ، وكان اهلها في ضنك وضر معهم ، رأيت بالمدينة انسـانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل من بـالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا في ضر وضيق ، ونكد عيش مـع العـرب ، لايتـركون لأحـدنا مايواري عورته ، ولامايشبع جوعته ، فبنى علينا سورا احتمينا بـه ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا فكيف لاندعو له وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته : اللهم صن حريم من صـان حـرم نبيك بـالسور ، محمد بن علي بن أبي منصور . فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفـاه فخرا ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الارض وغربها .

وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التـي يخـرجها على بـاب داره للفقراء سوى الادرارات والتعهـدات ، قـال : كان له كل يوم مـائة دينار يتصدق بها على باب داره .

ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلهـا ، الجسر الذي بناه

على الدجلة عند جزيرة ابن عمـر بـالحجر المنحـوت والحـديد والرصاص والكلس ، إلا أنه لم يفرغ لأنه قبض قبل فـراغه . وبنى أيضا جسرا على نهر الياريار عند الجزيرة أيضا .

وبنى الربط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها . وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أنه الذي احتاج إليه ابن الخجندي رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان ، وابـن الكافي قـاضي همـذان وقصداه ، فأخرج عليهما مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما من الصدور ، والعلماء ، ومشايخ الصوفية .

وصارت الموصل في أيامه مقصدا وملجأ . وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات ، فكان يضيق على نفسه وبيته ليتصـدق . حكى لي والدي قـال : كنت يومـا عنده وقـد أحضر بين يديه قندزا ليعمل على وبر له ليلبسه بخمسة دنانير ، فقال : هذا كثير ، اشتروا لي قندزا بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير ، قال : فراجعناه غير مرة فلم يقبل . (وحكى لي من أثـق إليه مـن العـدول بـالموصل : إن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل من الصالحين ، يقال له الشيخ عمر الملاء ، فـأحضره جمـال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هـذا المال على مسـتحقه ، وكلما فرغ أرسل إلي لانفذ غيره فلم تمض إلا أيام يسـيرة ، حتـى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأرسل إليه يعرفه بنفاد ذلك المال ، فـــانفذ له شـــيئا آخـــر ففني ، ثم أرسل يطلب ما يخرجه ، فقـال جمـال الدين للرسـول : والله ما عندي شيء ، ولكن خـذ هـذه المحـافر (التـي في داري) وتصدقوا بثمنهـا (إلى أن يأتيني شيء آخـر فنرسـله إلى الشـيخ عمر ، فبيعت وتصدقوا بثمنها (٩٦)) وعرفوه ذلك ، فلم يكن عنده ما يرسله ، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مـع العمـامة التـي على رأسه وأرسل الجميع ، وقال للرسول ، قـل للشـيخ ، لايمتنع مـن الطلب فهذه أيام مواساه ، فلما وصلت الثياب إلى الشـيخ عمـر ، بكى وباعها وتصدق بثمنها *

وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل ، قال : أحضرني الشيخ وقال لي : إنطلق إلى مسجد الوزير – وهو بظاهر الموصل – واقعد هناك ، وإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن احضر عندك ، ففعلت ، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام ، وإذا جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ، ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدد كثير من الجمال ، فقال لي : تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا أحضر لك فلانا العربي توصل (اليه) هذه الرزمة الاخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل اليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها السلام ، توصل إلى وكيلي فلان هذه الاحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليها اسم المدينة ليخرجها بمقتضى ما في هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدق به وكيلي بها على ما في هذه الجريدة الأخرى .

قال : فسرنا كذلك إلى وادي القرى ، فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري – والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادي – فلما رأوا الطعام والمال ، اشتروا كل سبعة أصوع بدينار ، فضج أهل المدينة بالدعاء له ، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا .

وحكى لي والدي ، قال : رأيت جمال الدين بالرقة ، وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيرا وطلب شيئا ، وتردد إليه عدة أيام ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن أبواب الكلاب ، وكرر ذلك غير مرة ، ثم سأل عنه فقيل : إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين ، ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت واضجرت وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

-٦٥١٤-

ذكر فتح قلعة بانياس

في سنة ستين وخمسمائة فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، فأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها ، فسار نور الدين مجدا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ، ونازلها وضيق عليها وقاتلها ، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران (١٤٦ ـ ب) فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ، وجد في حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها ، على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا .

وعاد نور الدين إلى دمشق ، وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر ، فسقط من يده في شعراء بانياس ـ وهي كثيرة الأشجار ملتفة الاغصان ـ فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه ، وقال : أظن أنه هناك ضاع ، فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، أظنه ابن منير من أبيات يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة وعود الجبل الياقوت . شعر :

إن يمتر الشكاك فيك بانك المـ
ـهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل(٩٧) الذي أضللته
بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية
ردت مطال الفال غير مطال

-٦٥١٥-

لم يعطها إلا سليمان وقد
ذلت الرباء بموشك الاعجال
زجر جرى لسرير ملكك إنه
كسريره عن كل حد عال
فلو البحار السبعة استهوينه
وامرتهن قذفنه في الحال (٩٨)

ولما فتح الحصن ، كان ولد معين الدين أنر - الذي سلم بانياس إلى الفرنج - قائما على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن اليوم برد الله جلدة والدك من نار جهنم .

ذكر فتح المنيطرة على يد الشهيد رحمه الله

في سنة إحدى وستين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن المنيطرة(٩٩) - وهو أيضا للفرنج - ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجد في قتالها وأخذها عنوة وقهرا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن من بها فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون) (١٠٠) ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا إليه ، إنما لم يظنوا إلا أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

ذكر عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر مرة أخرى

في ربيع الآخر من سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، عاد أسد الدين وسار إلى مصر . وكان بعد عوده من مصر ، لايزال يحدث نفسه

بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها ، يتحدث به مع كل من يثق إليه . وكان مما يهيجه على العود ، زيادة حقده على شاور وما عمل معه . فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها ، وسير معه الملك العادل نور الدين محمود جماعة من الأمراء ، فجد في السير على البر ، وترك بلاد الفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية ، فقصد إطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة مقابل مصر ، وتصرف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين ، قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم ، فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري ، فجدوا على الاسراع في المسير ، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم ، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد ، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين ، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه ، فادركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، وكان قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه ، فعزم على لقائهم وقتالهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر ، الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا — وهو الذي لا شك فيه — فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمي ، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا ، ويحق لعسكر عدتهم ألفا فارس — قد بعدت ديارهم ونأى ناصرهم — أن ترتاع من عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . فلما قالوا ذلك ، قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش — وكان من الشجاعة بالمكان المشهور — وقال : من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحا أو في بيته

مع النساء ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلا عذر تعذرون فيه ليأخذن إقطاعكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مذ خدمتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرقون من عدوهم ، وتسلمون مثل الديار المصرية تتصرف فيها الكفار ، فقال أسد الدين : هذا رأيي وبه أعمل ، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال . فاجتمعت الكلمة على اللقاء ، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فتنهبها أهل البلاد . ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب ، فهم يجعلون جمرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فاذا حملوا عليكم ، فلا تصدقوهم القتال ولاتهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم في الميمنة ، فلما تقابل الطائفتان ، فعل الفرنج ماذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظنا منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم فتبعوهم ، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على القلب ـ من المسلمين والفرنج ـ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن الجراح ، وأكثر القتل والاسر وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب ، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس بها منهم ديار ، فانهزموا أيضا . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

ذكره ملك أسد الدين ثغر الاسكندرية

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرايا والسواد من الاموال ،

ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بغير قتال ، سلمها أهلها إليه . فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبى أمواله ، وأقام به حتى صار شهر رمضان .

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا الى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا وحشدوا وساروا إلى الاسكندرية - وبها صلاح الدين - في عسكر يمنعونها منهم ، فقد أعانهم أهلها خوفا من الفرنج . فاشتد الحصار ، وقل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك .

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم - وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان - ووصلته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ، فأجابهم إلى ذلك . وشرط أن الفرنج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية تعاد إلى المصريين ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة ، وتسلم المصريون الاسكندرية في النصف من شوال .

وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين ، أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا جميعه يجري بين الفرنج وشاور . وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء ، ولايعلم بشيء من ذلك ، قد حكم شاور عليه وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل الملك العادل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي - وهو من اكابر أمرائه ، وخال

صلاح الدين يوسف - ينهي محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمره بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ويجمع كلمة الاسلام ، وبذل مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا ، فبقي الامر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

عصيان غازي

في هذه السنة عصى الامير غازي بن حسان المنبجي (صاحب منبج) بها على نور الدين - وكان هو اقطعه إياها - فارسل إليه نور الدين عسكرا حصروه بها وأخذها منه ، واقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيرا حسن السيرة ، فبقي بها إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ذكر مفارقة زين الدين الموصل ووفاته وولاية فخر الدين عبد المسيح قلعة الموصل

في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، سار زين الدين علي بن بكتكين ، نائب اتابك قطب الدين عن الموصل ، إلى إربل ، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين ، فمن ذلك سنجار ، وحران ، وقلعة عقر الحميدية ، وقلاع الهكارية جميعها ، وكان نائبه بتكريت الامير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ، ولابد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي ، فما أمكن محاققته لاجل مجاورة بغداد . وأما شهرزور فكان بها الامير بوزان ، فقال مثله أيضا ، فأقرت بيده ، وكان في طاعة اتابك قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين ، أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل

إلى أن توفي بها من سنته وكان قد استولى عليه الهرم ، وضعفت قوته ، وكان خيرا عادلا ، حسن السيرة ، جوادا محافظا على حسن العهد واداء الامانة ، قليل الغدر بل عديمه ، وكان إذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله وإن كان فعله خطيرا ، وكان حاله من أعجب الاحوال ، بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته ، حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ، فأخذ ذلك الذنب أيضا غيره من الاجناد وأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس ، فتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرسا ، فلما أحضره آخرهم ، قال له : أما تستحيون مني كما استحي منكم ، قد احضر هذا الذنب عندي إثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل احدكم ، أتظنون أنني لاأعرفه ، بلى والله ، إنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير ، فلم تتركوني ، وأمر له بفرس آخر ، كما قال بعضهم في شانه :

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

وكان يعطي كثيرا ويخلع عظيما ، وكان له البلاد الكثيرة فلم يخلف شيئا ، بل أنفد جميعه في العطاء والانعام على الناس ، فكان يلبس الغليظ ، ويشد على وسطه كل ما يحتاج الجندي إليه من سكين ، ودرفش ، ومطرقة ، ومسلة ، وخيوط ، ودستترك (١٠١) وغير ذلك . وكان من أشجع الناس ، ميمون النقيبة لم تهزم له راية ، وكان يقوم المقام الخطر فيسلم منه بحسن نيته . وكان تركيا أسمر اللون ، خفيف العارضين ، قصيرا جدا . وبنى مدارس وربطا بالموصل وغيرها ، بلغني أنه مدحه الحيص بيص ، فلما أراد الانشاد قال له : أنا لاأدري ما تقول ، لكنني اعلم انك تريد شيئا ، وامر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرسا وخلعا وثيابا ، يكون مجموع ذلك نحو ألف دينار . ومكارمه كثيرة نقتصر على بعضها .

ولما توفي كان الحاكم باربل خادمه مجاهد الدين قايماز والمتـولي لامـورها ، وولي بعـد زين الدين ولده الملك المعـظم مـظفر الدين كوكبوري مدة ، ثم فـارقها ، لخلف كان بينه وبين مجـاهد الدين ، وجرت أمور يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدين الموصل ، إستناب أتابك قطب الدين بـالقلعة بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طـريق زين الدين ، فكرهـه الناس وذموه ، فلم تطل أيامه ، وسيجيء ذكر عزله سنة ست وستين وخمسمائة إن شاء الله تعالى .

ملك نور الدين

قلعة جعبر من صاحبها وكيف

في أول سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدين قلعة جعبـر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مـالك العقيلي ، فكانت بيده ويد آبائه قبله من أيام السلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك . وهي من أمنع الحصـون وأحسـنها ، مـطلة على الفـرات ، لايطمع فيها بحصار .

وأما سبب ملكها ، فإن صاحبها نزل منها يتصـيد ، فـأخذه بنو كلاب أسيرا وحملوه إلى نور الدين في رجـب سـنة ثـلاث وسـتين وخمسمائة ، فاعتقله بحلب وأحسن إليه ، ورغبه في الاقـطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ، فعدل إلى الشـدة والعنف وتهـدده فلم يفعل ايضا ، فسير إليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن أبي علي بن الزعفراني فحصروها مدة فلم يظفروا منهـا بشيء ، فامدهم بعسكر جرار ، وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية ـ وهو رضيع نور الدين ، وهو واحـد

امرائه - فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا ، فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ العوض من نور الدين مدينة سروج وأعمالها والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة ، وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لاحصن فيه ، وتسلم نور الدين القلعة في أول هذه السنة ، ولما اخذها نور الدين سلمها إلى مجد الدين بن الداية . وكان هذا آخر ملك بني مالك ولكل أمر أمد ، ولكل ولاية نهاية ، (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء) (١٠٢) (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(١٠٣) بلغني أنه قيل لشهاب الدين : أيما أحب إليك وأحسن مقاما ، سروج والشام (أم) القلعة ؟ فقال : هذه أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقناه .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ثالثة وملكها وقتل شاور وتملك أسد الدين سلطنة مصر

في ربيع الاول من سنة أربع وستين أيضا ، سار أسد الدين شيركوه في العساكر النورية إلى ديار مصر وملكها واستولى عليها . وسبب ذلك ما ذكرناه من استيلاء الفرنج على البلاد بمصر ، وأنهم جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وأبواب البلدين قد سكنها فرسانهم والمفاتيح معهم ، وتحكموا تحكما كثيرا ، وحكموا على المسلمين حكما جائرا ، فنال المسلمين منهم اذا شديدا ، وجورا عظيما ، وقهرا زائدا ، وطمعوا فيهم وأرسلوا حينئذ إلى ملكهم ، وهو « مرى » ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا الى الشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأي عندي أننا لانقصدها فإنها طعمه لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فان صاحبها وعساكرها وعامة أهل بلاده

وفلاحيها لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لامانع لها ولاحافظ ، وإلى أن يصل الخبر الى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم الينا ، نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد ، وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا واظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص ، فلما سمع نور الدين (بذلك) كاتب عساكره واجناده وأمرهم بالقدوم عليه .

وجد الفرنج في السير إلى مصر فقدموها ، ونازلوا مدينة بلبيس وحصروها ، فملكوها قهرا ونهبوها وسبوا أهلها مستهل صفر ، وكان جماعة من أعيان المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة قد كاتبوا الفرنج .

وساروا من بلبيس إلى مصر ، فنزلوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ، فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه ، فلو أن الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ، لكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقضي امرا كان مفعولا ، وكان شاور قد أمر باحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفا عليها من الفرنج ، فبقيت النار فيها تحرقها اربعة وخمسين يوما ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب ديار مصر الى الملك العادل نور الدين يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل في الكتب شعور النساء ، وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ، فقام نور الدين لذلك وقعد ، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على من فيها ، وشاور هو متولي أمر البلد والعساكر والقتال ، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم ، فأخذ إلى إعمال الحيلة ، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة ، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد ، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه ، ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين ، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية ، يعجل البعض ويؤخر البعض ، واستقرت القاعدة على ذلك . ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم ، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين ، وقالوا : نأخذ المال نتقوى به ، ونستكثر من الرجال ونعود الى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولا غيره ، (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)(١٠٤) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال ، فرحلوا قريبا .

وعاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه مالقي المسلمون من الفرنج ، ويبذل له ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجا عن الثلث الذي لنور الدين .

وكان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد ، قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص – وهي إقطاعه – فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها ، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضا وصلته في المعنى ، فسار إلى نور الدين وهو بحلب واجتمع به ساعة وصوله ، فعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والالات والاسلحة وغير ذلك ، وحكمه في العسكر والخزائن ، فاختار من العسكر ألفي فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين إلى دمشق ، فوصلاها سلخ صفر ، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء ، وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع

أسد الدين عشرين دينارا معونة له على طريقه ، غير محسوبة من القرار الذي له ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء والمماليك ، منهم مماوكه عز الدين جرديك ، وعز الدين قليج ، وشرف الدين بزغش ، وعين الدولة الياروقي ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه ، (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)(١٠٥) ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه ، وسيرد ذلك إن شاء الله تعالى عند موت شيركوه .

ثم إن أسد الدين شيركوه سار مجدا من رأس الماء منتصف ربيع الأول ،فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما أملوا ، وسب ملكهم كل من أشار عليه بقصد مصر ، وبلغ خبر عودهم نور الدين فسره ذلك وأظهر الاستبشار ، وأمر بضرب البشائر في سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق مبشرا به ، والحق بيده ، فإنه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لسائر بلاد الشام وغيرها .

وأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع ربيع الاخر ودخلها ، واجتمع بالعاضد لدين الله ، فخلع عليه وعاد إلى خيامه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والاقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه ، (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (١٠٦) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الامراء ويقبض عليهم ، فنهاه ابنه الكامل ، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الامر لأعرفن أسد الدين ، فقال أبوه : لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعا ، فقال : صدقت ، لئن نقتل ونحن

مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارسا واحدا ويملكون البلاد ويظهرون الفساد ، فترك ماكان عزم عليه فلما رأى العسكر المطل من شاور ، إتفق صلاح الدين بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم ، فقالوا : إننا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله ، فأذكر ذلك ، فاتفق أن بعض الايام سار أسد الدين إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العساكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : نمضي اليه ، فسار وهما معه قليلا ، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه فهرب أصحابه فأخذ أسيرا ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعا ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاور في يومه وهو السابع عشر من ربيع الاخر ، وحمل رأسه الى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ، فقصدها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة – وهي التي كان فيها شاور – فلم ير فيها ما يقعد عليه ، واستقر في الامر وغلب عليه ، ولم يبق له منازع ولامناوىء ، وولى الاعمال من يثق إليه واستبد بالولاية ، وأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه إليها .

- ٦٥٢٧ -

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة)(١٠٧) لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه ، وخلا وجهه ممن يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنجة ، أتاه أمر الله الذي لامحيد عنه ولامفر منه ولايحتمي عليه ملك بكثرة رجال ، ولايمنع عنه المعاقل والمال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الاخرة سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين ايوب ابن شاذي ، قد سار معه على كره منه • حكي لي عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين ، أحضرني وأعلمني الحال ، وقال : تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ، تأمره بالحضور وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : ففعلت ، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز للسير ، فامتنع خوفا من غدرهم اولا وعدم ما ينفقه في العساكر ثانيا ، فأعطاه نور الدين الاموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلي عمي أسد الدين ، وقال : تجهز يايوسف قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبدا ، فقال عمي لنور الدين : لابد من مسيره معي فترسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لابد من مسيرك مع عمك ، فشكوت

إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت بــه فكانما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيبــا مخــوفا مــع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطــاني الله مــن ملكها مالا كنت اتوقعه . هذا حكي لي عنه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الامــراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهــم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل - وهـو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربــل - ومنهــم : سـيف الدين علي بن أحمد الهــكاري - وجـــده كان صـــاحب قـــلاع الهكارية - ومنهم : شهاب الدين محمود الحــارمي - وهـــو خـــال صلاح الدين - وكل من هـؤلاء يخطبها وقد جمــع ليغــالب عليهــا ، فأرسل الخليفة العــاضد لدين الله صــاحب مصر إلى صــلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الامر بعــد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صــلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين - وليس له عسكر ولا رجــال - كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولايجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فاذا صار معه البعض خــرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفــرنج ونور الدين « اردت عمــرا واراد الله خـــارجة »(١٠٨) فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزمه بــه وأخــذ كارها ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بــالسلاسل » ، فلمــا حضر في القصر خلع عليه خلعــة الوزارة ، الجبــة والعمــامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفســهم ولاخدموه ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمــر لايصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمــال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقــال له : إن هـــذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك وقد استقام الامر له ، فلا تكن

أول من يسعى في إخـراجه عنه ولايصـل إليك ، ولم يزل بـه حتـى أحضره أيضا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقـي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين ان اصله مـن الاكراد ، فـلا تخرج الامر عنه إلى الاتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صـلاح الدين أيضا ، وعدل إلى عين الدولة الياروقي - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا - فلم تنفعه رقاه ولانفذ فيه سحره ، وقـال : أنا لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعـه غيره فـأنكر عليهـم فراقه ، وقد فات الامر (ليقضي الله امرا كان مفعـولا) ،(الأنفـال (١٤٢)) ، وثبتت قدم صلاح الدين ، ورسـخ ملكه ، وهـو نائب عن الملك العـــــــــــــــــــــــــــــــادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلهـا ، ولايتصرفـون إلا عن أمـره ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالامير الاسـفهسلار ، ويكتـب علامته في الكتب تعظما أن يكتب اسمه ، وكان لايفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخـرجه فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقـويت نفسـه على القيام بهذا الامر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالبـاحث عن حتفه بظلفه ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسير إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهـم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسـيروا إلى مصر ، فسـير نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شـمس الدولة توران شاه بن أيوب - وهو أكبر من صلاح الدين - فلمـا أراد أن يسير ، قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر ، فإنك تفسـد البـلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بمـا تسـتحقه ، وإن كنت تنظـر إليه أنه صاحب مصر وقائم مقامي ، وتخدمه بنفسك كما تخدمني ، فسر إليه وأشدد أزره وساعده على ما هو بصدده . فقال : أفعـل معـه مـن

الخدمة والطاعة مايتصل بك (خبره) إن شاء الله تعالى . فكان معه كما قال .

ذكر حصر الافرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالاندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتعدوا النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به ديار مصر ، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا)(١٠٩) .

فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الافرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ، ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وساروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضا .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين لم يظفروا

بشيء ، وهذا موضع المثل : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعـادت بـلا أذنين . فوصلوا إلى بلادهم فراوها خاوية على عروشها ، وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما ، أخرج فيها صلاح الدين أمـوالا لاتحصى ، حكي لي عنه أنه قال : مارايت أكرم من العاضد ، أرسـل إلى مدة مقـام الفـرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري ، سـوى الثياب وغيرها .

ذكر حصر نور الدين رحمه الله الكرك

وفي هذه السنة سار نور الدين إلى بلاد الفـرنج فحصر حصـن الكرك في رجـب . وكان سـبب حصره ، أن نجـم الدين أيوب والد صلاح الدين سـار عن دمشـق إلى مصر ، وسـير معـه نور الدين عسكرا ، واجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة مالا يعد ، فخاف نور الدين عليهـم ، فسـار إلى الكرك ونزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبـر أن الفـرنج قـد جمعـوا وساروا إليه وأن ابن الهنفري ، وفيليب بن الرفيق ـ وهما فـارسا الفرنج في وقتهمـا ـ في المقـدمة إليه ، فـرحل نور الدين نحـوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق ، بهما باقي الفـرنج ، فـكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم مـن الراجـل عالم كثير ، فلمـا قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم مـن الفـرنج ، وقصـد نور الدين الشام في وسط بلادهم ، ونهـب مـا كان على طـريقه إلى أن وصل الشام فنزل بعشترا (١١٠) وأقـام ينتـظر حـركة الفـرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفا منه ، وأقام هو حتـى أتـاه خبر الزلزلة الحادثة بحلب وأعمالها وسائر بلاد الشام فرحل .

ذكر الزلزلة التي جرت بالشام وما فعله نور الدين

وفي هذه السنة أيضا في ثاني عشر شوال ، كانت زلزلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت اكثر البلاد من الشام ، ومصر ، وديار الجزيرة ، والموصل ، والعراق وغيرها ، إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين ، وحلب وغيرها من البلاد ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك منهم مايخرج عن الحد والاحصاء ، فلما أتاه هذا الخبر ، سار الى بعلبك ليعمر ما أنهدم من أسوارها وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماه ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبته ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهارا . وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ، وكانوا لايقدرون على أن يأووا إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفا من الزلزلة ، فانها عاودتهم غير مرة . وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها ، أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها ، فأخرج من المال مالا يقدر قدره .

وأما بلاد الفرنج فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريبا من هذا ، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده .

ذكره غزوة لسرية نورية

كان شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب

قلعة ألبيرة ، وقد سار في عسكره – وهم مائتا فارس – إلى الخدمة النورية وهو بعشترا ، فلما وصل إلى اللبوة – وهي من أعمال بعلبك – ركب متصيدا ، فصادف ثلاثمائة فارس للفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام ، وذلك سابع عشر شوال من هذه السنة ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان لاسيما المسلمون ، فان ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج ، وكثر القتلى بين الطائفتين ، فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر ، فلم يفلت منهم الا من لايعتد به . قال تعالى : (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا)(١١١) . ثم إن شهاب الدين سار بالاسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو والعساكر الى لقائه واستعرض الاسرى ورؤوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد ، وكانت الافرنج تعظمه لشجاعته ودينه ، ولانه شجا في حلوق المسلمين ، وكذلك رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فازداد سروره ، (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين (١١٢))

في ذكر وفاة أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكي بن آقسنقر رضي الله عنه وملك ابنه سيف الدين

في شوال من سنة خمس وستين وخمسمائة ، توفي أتابك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكي بن آق سنقر رضي الله عنه بالموصل ، وكان مرضه حمى حادة . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي – وهو أكبر أولاده وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لانه كان قد أكثر المقام عن عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته وكان نور الدين يبغض فخر الدين لظلم

كان فيه ويذمه ، ويلوم اخاه قطب الدين على توليته الامور ، فخاف فخر الدين أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش - زوجة قطب الدين - فردوه عن هذا الرأي ، فلما كان الغد أحضر الامراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره اربعين سنة . وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون واسع الجبهة ، جهوري الصوت ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا .

ولما توفي استقر سيف الدين في الملك ، ورحل عماد الدين الى عمه نور الدين شاكيا مستنصرا ، وكان فخر الدين هو الذي يدبر أمور سيف الدين ويحكم في مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، فانه كان في عنفوان شبابه وغرة حداثته .

حادثة تحث على العدل

من جملة أعمال جزيرة ابن عمر ، قرية تسمى العقيمة تقابل الجزيرة ، يفصل بينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ولامساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالممسوح منها لايحصل لأصحابه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين .

فحكى لي والدي قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة - وانا اتولى حينئذ ديوانها والحكم إلي فيه على ما شوهد - يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ، قال : فشق ذلك علي لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولي بهم أنس ، وهم فقراء . قال : فراجعته ، وقلت له : لاتظن أنني أقول هذا لأجل ملكي ، لا والله ، إنما اريد أن يدوم الناس على الدعاء

المولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه . قال : فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ، ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطلق لك مايكون عليه ، قال : فأظهرنا الأمر ، وشرع الذواب يمسحون ، وكان بالعقيمة رجلان صالحان وبيني وبينهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، قال : فحضرا عندي وتضررا من هذه الحال ، وسألاني المكاتبة في المعنى ، فأظهرت لهما كتاب فخر الدين جوابا عن كتابي ، فشكراني ثم قالا : وأيضا تعود تراجعه . فعاودت القول ، فأصر على المساحة فعرفتهما الحال . قال : فلما مضى عدة أيام ، عدت يوما إلى داري راكبا ، وإذا هما قد صادفاني على الباب ، فقلت في نفسي : عجبا لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني مالا أقدر عليه . قال : فسلمت عليهما وسلما علي ، وقلت لهما : والله إنني أستحي منكما كلما جئتما في هذا الامر ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . قال : فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل من يشفع لهما ، فدخلت داري وأدخلتهما معي ، وسألتهما عن الحال كيف هو ومن الذي سعى لهما ، فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال شكونا إليه حالنا فقال : قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم . قال : فوقع عندي من هذا فكر ، تارة أصدقهما لما أعلم من صلاحهما ، وتارة أعجب من سلامة صدريهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعا لا شك فيه . قال : فلما كان بعد أيام وإذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة ، وإطلاق كل مسجون وبالصدقة . فسألنا القاصد عن السبب ، فقال : إن أتابك شديد المرض . قال : فأفكرت في قولهما وتعجبت منه ، ثم توفي بعد يومين من هذا ، ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه ويحترمه ويقضي أشغاله ، واتخذهما أصدقاء .

فصل في ذكر بعض سيرة أتابك قطب الدين رضي الله عنه

كان رحمه الله ورضي عنه من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم كثير الانعام عليهم ، محبوبا إلى صغيرهم وكبيرهم ، عطوفا على مأمورهم وأميرهم ، حليما عن المذنبين منهم ، قليل المؤاخذة لهم على زللهم ، كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم ، فكأن القائل أراده بقوله إذ يقول :

خلق كماء المزن طيب مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع
عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث إلا أن وابل جوده
أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة
والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان رضي الله عنه سريع الانفعال للخير ، بطيئا عن الشر . حدثني والدي قال : إستدعاني يوما وهو بالجزيرة وكنت أتولى أعمالها له ، فلما حضرت عنده قال لي : بلغني أنك تهمل هذه الجنايات(١١٣) ولاتحفظها ، فقلت له : إنني أعجز عن حفظها لأنني أكون في بيتي والدزدار يفعل في القلعة مايريد ، ثم التفاوت ليس بعظيم وأخاف من الاستقصاء فيها ، او دعي على بعض هؤلاء الملوك – وأومأت إلى أولاده – لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعاف هذا . فقال لي : جزاك الله خيرا ، فلقد نصحت وأديت الامانة ، واشرع في عمارة هذه الأماكن التي تحتمل العمارة . قال : ففعلت وكبرت منزلتي عنده ، ولم يزل يثني علي .

قال : وكان السلطان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه ، لقد صبر من نوابه زين الدين وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه .

وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والانجاد بنفسه وعسكره وأمواله ، حضر معه المصاف بحارم وفتحها ، وفتح بانياس ، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف .

وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعا من غير طلب منهم ولاتعريض . حكى لي والدي قال : دخلت إليه مرة ، فسألني عن ما أتولاه من الأعمال وأحوال الرعية فيها وأنا أخبره . ثم سألني عن القرايا التي خاصة ومن يتولى قسمتها واستخلاص أموالها ، فقلت له : أنا أفعل ذلك بنفسي ، فقال : وما الذي قرر لك عليها في مقابل تعبك ؟ فقلت : لي من إنعام مولانا مالا حاجة لي إلى تقرير شيء آخر ، ثم المقرر لي من الجامكية والرسوم إنما هو على أعمال من جملتها هذه القرايا ، فقال : لايجوز تتعب بدون فائدة . ثم أمر لي بعمالة الخاص جميعها في بلد الجزيرة ، فدعوت له . ولما خرجت رأيتها كثيرة يحصل منها مايزيد على سبعمائة دينار أميري ، وليس لي بها من العمل كثير أمر . فقلت في نفسي : ربما لايعلم مقدارها ، فإذا علمه يظن أنني اغتنمت غرته ، فأرسلت إليه مع حاجبه أقول له : إن هذه العمالة يتحصل منها في هذا الرخص كذا وكذا دينار ، وأنا أقنع ببعض ذلك ، قال : فلما سمع قولي ضحك ، وقال : هذا كلام رجل عاقل والجميع له . قال : وكان يدخل إلى الخزانة بعض الاوقات ونحن فيها - إذ كنت أتولاها - فلا يخرج منها إلا وقد وهب كلا من الحاضرين منها شيئا صالحا ، وربما أرسل إلى من غاب ، سهمه .

قال : وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله من أصحابه ، فمن ذلك أن نائبين كانا له بالجزيرة اختصما وترافعا

إليه ، فذكر أحدهما عن الآخر أنه قد كان خان السلطان في ماله ، وأخذ من أموال الرعية أيضا رشا على مالا يجوز له فعله ، قال : فاحضرهما بالوصل وأرسل إليه . وهما في ديوانه يقول : قد قلت عن فلان كذا وكذا ، فإن صح عليه أنه أخذ من أموال رعيتي دينارا واحدا صلبته ، فإنني قد وسعت عليه وكثرت إقطاعه لئلا يمد عينه إليهم ، وإن لم يصح عليه شيء عاقبتك على كذبك ، فلم يصح عليه قول شيء فأعاده إلى شغله ، وقال الاخر : لولا أن لك علي حق خدمة لكنت عاقبتك على كذبك ، فعزله .

وكان رضي الله عنه واسع الكرم ، كثير البذل للمال ، يكثر تعهد أصحابه وذوابه ، بالصلات السنية والعطايا الجزيلة ، ففرق أموالا لاتحصى ولاتحد ، فمنها : ما كان جمع في الأيام الشهيدية • والايام السيفية ،وما كان قد ادخره نصير الدين جقر ، وما تحصل له هو من البلاد في أيامه .

أعطى فأكثر واستقل هباته
فاستحيت الانواء وهي هوامل
فاسم الغمام لديه وهو كنهور
آل(١١٤) وأسماء البحار جداول
لم تخل أرض من نداه ولا خلا
من شكر ما يولي لسان قائل

وكان رضي الله عنه يقول لمن ينهاه عن كثرة الانفاق وإخراج الاموال : متى سمعتم أن ملكا حبسه القاضي ، وإذا لم يظهر إحساني على من يخدمني فمن الذي يحسن إليهم ؟ وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد الشهيد عماد الدين زنكي : سيف الدين ، ونور الدين ، وقطب الدين ، وما جمع الله سبحانه فيهم من مكارم الاخلاق ، ومحاسن الافعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الاسباب التي يحتاج الملك إليها ، أظن أن القائل أرادهم بقوله : شعر

هيذون ليذون أيسار بذو يسر
سواس مكرمة أبناء أيسار
لاينطقون على العوراء إن نطقوا
ولايمارون إن ماروا بإكبار
من يلق منهم يقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

واذكر قول بعضهم — وقد سئل عن أولاد المهلب بن أبي صفرة — أيهم أفضل، فقال: هم كالحلقة المفرغة. وقول فاطمة ابنة الحريث — وقد سئلت عن اولادها الكملة أيهم خير — فقالت: فلان، بل فلان، ثم قالت: ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم خير. وهكذا كانوا رضي الله عنهم.

ذكر وفاة المستنجد بالله أمير المؤمنين وخلافة ولده المستضيء بامر الله. رضي الله عنهم

توفي الامام المستنجد بالله أمير المؤمنين في تاسع شهر ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة. واسمه يوسف بن المقتفي لأمر الله. وتمام نسبه عند وفاة المستظهر بالله رضي الله عنه.

وامه ام ولد اسمها طاووس رومية. ومولده مستهل ربيع الاخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته احدى عشرة سنة وستة أيام. وكان أسمرا، تام القامة، طويل اللحية *.

وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه، وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز — وهو من مماليك المقتفي لامر الله — وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد، وله من الاتباع مثل علاء الدين تنامش ويزدن وغيرهما، وكان محسنا الى الاجناد، فلما اشتد مرض المستنجد بالله اتفقا

ووضعا الطبيب على ان يصف له مايؤذيه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع المستنجد بالله لضعفه ، ثم ادخله واغلق عليه الباب الى أن مات . هكذا سمعته من غير واحد ممن يعلم الحال .

وكان وزيره حينئذ شرف الدين أبا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي ـ وهو الحاكم في الدولة ـ وبينه وبين أستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوة مستحكمة ، لان المستنجد بالله كان يأمره فيما يتعلق بهما بأشياء فيفعلها ، فكانا يظنان أنه هو الذي يسعى بهما ، فلما مرض المستنجد بالله وارجف بموته ، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعدة الكاملة فلم يتحقق عنده خبر موته ، وأرسل إليه استاذ الدار يقول : إن أمير المؤمنين قد خف مابه من المرض واقبلت (عليه) العافية . فخاف الوزير أن يدخل إلى دار الخلافة بالجند فربما جرى عليه عتب واذكار ، فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه . وكان استاذ الدار وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير (خوفا منه) إن دخل الدار (ان ياخذهما (١١٥) ، فلما عاد أغلق استاذ الدار ابوابها وأظهر وفاة المستنجد ، واحضر هو وقطب الدين ابنه ، أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضيء بأمر الله ، وشرطا عليه شروطا ، منها : أن يجعل عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار ، ويجعل قطب الدين أمير العسكر ، فأجابهم إلى ذلك . وعلم شرف الدين بن البلدي الحال ، فصفق يدا على يد ، وقرع سنه ندما على مافرط في عوده الى داره ، حيث لايذفعه الندم ، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء ، فمضى الى دار الخلافة ومعه زعيم الدين ابن جعفر ، وهو صاحب المخزن ، فلما دخلها صرف الى موضع من الدار وقتل وقطع قطعا والقي في دجلة ، رحمه الله تعالى . وأرسل عضد الدين وقطب الدين الى داره فحمل جميع ماله فيها من مال وغيره ، فرأيا في ذلك خطوط المستنجد بالله اليه يأمره فيها بالقبض عليهما ، وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه ، فلما وقفا عليه ، علما براءته مما كانا يظنان فيه ، فندما حيث لم يذفعهما

- ٦٥٤١ -
ندمهما . واما زعيم الدين جعفر ، فان عماد الدين بن الوزير عضد الدين شفع فيه ، وهذا عماد الدين كان قد تصوف وترك الاعمال .

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ، عادلا فيهم ، كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيرا ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس . بلغني أنه قبض على انسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السعايات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة الاف دينار ، فقال : أنا أعطيك عشرة الاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله أحبسه لاكف شره عن الناس ولم يطلقه .

فصل في ذكر ملك نور الدين الموصل وغيرها من البلاد الجزرية وتقرير الموصل على سيف الدين غازي

لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين رضي اله عنهما ، وملك ولده سيف الدين بعده . واستيلاء فخر الدين عبد المسيح واستبداده بالامور وحكمه على سيف الدين غازي ، انف لذلك وكبر لديه وشق عليه ، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة ، وكان رحمه الله لينا رفيقا عادلا ، فقال: أنا أولى بتدبير بني اخي وملكهم ، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل محرم سنة ست وستين وقصد الرقة ، فامتنع النائب بها شيئا من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقترحه ، فاستولى نور الدين عليها وقرر امورها .
وسار الى الخابور فملكه جميعه .

ثم ملك نصيبين واقام بها يجمع العسكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن

وديار بكر ، واجتمعت عليه العساكر فكان قد ترك اكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره واطرافه من الفرنج وغيرهم فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الامراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى عماد الدين زنكي ابن اخيه قطب الدين . ثم سار إلى الموصل فاتى مدينة بلد ، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل . ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سورالموصل بدنة كبيرة . وكان فخر الدين قد سير المولى عز الدين مسعود بن أتابك قطب الدين رضي الله عنهما إلى أتابك شمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل ، وأذربيجان ، وأران وغيرها يستنجده ، فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته - وكان بسنجار - فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، أنا أرفق ببني اخي منك فلم تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين ، فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله ، وكاتبه الامراء يعلمونه أنهم على الوثوب بفخر الدين وتسليم البلد إليه ، فلما علم فخر الدين ذلك ، راسله في الصلح والدخول في طاعته ، وإبقاء الموصل على سيف الدين ، ويطلب لنفسه الامان وإقطاعا يكون له . فأجابه إلى ذلك ، وقال : لا سبيل إلى مقامك في الموصل بل

تكون عندي بالشام ، فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي ، فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الاولى من سنة ست وستين وخمسمائة ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازي على الموصل ، وولى بقلعتها خادما له يقال له سعد الدين كمشتكين وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه اتابك قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة الامام المستضيء بأمر الله فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين .

وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري فبني ، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوما وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود . فقال : قد تغير قلبي فيها ، فإن لم أفارقها ظلمت ، ويمنعني أيضا أنني (ههنا)(١١٦) لاأكون مرابطا للعدو وملازما الجهاد .

ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر ، وأقطع جزيرة ابن عمر لسيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعا كثيرا .

ذكر غزوة إلى بلد أنطاكية وطرابلس الشام

في سنة سبع وستين وخمسمائة ، خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين منها مملوءين من الامتعة والتجار وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم

فذكثوا ، فلما سمع نور الدين الخبر إستعظمه ، وراسل الفرنج في اعادة ما أخذوه فغالطوه ، واحتجوا بأمور منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضي الله عنه لايهمل أمرا من أمور رعيته فلم يردوا شيئا ، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة وبث السرايا في بلادهم ، بعضهم نحو انطاكية وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العساكر إلى حصني صافيتا وعريمة فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ، ونهب وخرب ، وغنم المسلمون الكثير وعادوا اليه وهو بعرقة ، فسار في العساكر جميعها الى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب .

وأما الذين ساروا الى أنطاكية ، فانهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ماأخذوه من المركبين ، وتجدد معهم الهدنة فأجابهم الى ذلك فكانوا في ذلك كما يقال ، اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم ، وكذلك الفرنج ماأعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن ، فلما نهبت بلادهم وخربت أعادوها .

نادرة غريبة في زماننا هذا

قد علم الناس قلة الأمانه [illegible] د الآ[illegible] بل عدمها ، فلما أخذ الفرنج هذين المركبين ، كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين فلما أعادوا الى الناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير ، وكان يحمل المتاع الى نور الدين ويحضر التجار ، فكل من اسمه على ثوب أخذه ، وكان في الناس من يأخذ ماليس له ، فكان احد هذين المضاربين فيه أمانة – وكان نصرانيا – فلم يأخذ الا ماعليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا كثير بهذا السبب ، وكان الذي حصل له من مالنا أكثر من الذي له ، فلما عاد

-٦٥٤٥-

إلينا سلم الذي له إلى والدي ، فامتنع من أخذه وقال خذ أنت الجميع فإنك أحوج اليه ، وأنا في غنى عنه ، فلم يفعل ، فلما كان بعض الأيام ، واذا قد جاء ذلك الغلام ومعه عدة من الأثواب السوسي وغيرها ، وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم ، وسبب حضوره أن انسانا فقاعيا (١١٧) من أهل تبريز كان معنا في المركب ، وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها ، فلم يسهل عليه مردها ، وسأل عني وقصدني وهي معه ، وحضر عندي الساعة وسلمها الي ، وقال : قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي ، وأخذنا نحن ماعليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدي الرجل ، وسأله ان يقيم عندنا ليسلم اليه مالا يتجر فيه فلم يفعل ، وعاد الى بلده وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان .

ذكر انقراض الدولة العلوية بمصر واقامة الخطبة العباسية بها

في المحرم من سنة سبع وستين وخمسمائة ، قطعت خطبة العاضد لدين الله العلوي صاحب مصر ، وخطب فيها للامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين .

وكان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لما ثبت قدمه في مصر ، وزال المخالفون له ، وضعف أمر الخليفة بها ، العاضد ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد ، كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود ، يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، واقامة الخطبة العباسية ، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب اهل مصر ، وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى العلويين ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاما لا فسحة له فيه ، واتفق ان العاضد مرض — وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له — فاستشار امراءه كيف الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك ، الا أنه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين ، وكان قد دخل الى مصر انسان عجمي يعرف بالأمير العالم — وقد رأيناه بالموصل كثيرا — فلما رأى ماهم فيه من الاحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد فلما كان الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد واقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه

بذلك ، وقالوا : ان سلم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ، ولم يعلم .

ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على قصره وعلى جميع مافيه ، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد ، بهاء الدين قراقوش - وهو خصي - لحفظه وجعله كأستاذ دار العاضد ، فحفظ مافيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل اهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل اولاده وعمومته وأبناءهم في ايوان في القصر وجعل من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء ، فأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض ، وأخلى القصر من أهله وسكانه ، فسبحان من لايزول ملكه ولايغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور .

ولما اشتد مرض العاضد ارسل يستدعي صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض اليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

وكان ابتداء الدولة العلوية بافريقية والمغرب في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأول من ظهر منهم ، المهدي ابو

محمد عبد الله وهو (الذي) بنى المهدية وملك إفريقية جميعها ، وقام بالأمر بها بعده ، ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد ، ثم ابنه المنصور بالله أبو الطاهر اسماعيل بن محمد ، ثم ابنه المعز لدين الله أبو تميم معد - وهو الذي سير العساكر الى مصر مع مولاه جوهر ، ففتحها وملكها في شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبنى القاهرة - وخرج المعز من إفريقية ، فأقام بمصر وأولاده بعده الى أن انقرضت دولتهم الآن ، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين ، وملك منهم أربعة عشر خليفة ، وهم : المهدي ،

والقائم بأمر الله ، والمنصور بالله ، والمعز لدين الله ثم ابنه العـزيز بالله ، ثم الحاكم بـأمر الله ، ثـم الظـاهر لاعزاز دين الله ، ثـم المستنصر بالله ، ثم المستعلي بالله ، ثم الآمـر بـأحكام الله ، ثـم الحافظ لدين الله ، ثم الظافر بالله ، ثـم الفـائز بنصر الله ، ثـم العاضد لدين الله ، وهو آخرهم ، ولقد اتينا على ذكر ماأجملناه في المستقصى في التاريخ ، وانما نذكر ههنا ماتدعو الحاجة اليه .

ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره ، اختـار منه ماأراد ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا وكان فيه من الجوهر والاعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طـول السنين وممر الدهور ، فمنه : القضيب الزمرد طوله نحـو قبضـة ونصف ، والجبل الياقوت وغيرهما ، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

ولما خطب المسـتضيء بـأمر الله بمصر ، ارسـل نور الدين اليه يعرفه ذلك ، فحل عنده أعظم محل ، وسـير اليه الخلع الكاملة مـع عماد الدين صندل المقتفوي اكراما له ، لأن عماد الدين كان كبيرا في المحل في الدولة العباسية ثبتهـا الله تعـالى ، وكذلك ايضـا خلعـا لصلاح الدين ، الا أنها أقل مـن خلع نور الدين ، وسـيرت الاعلام السود لتنصب على المنابر ، وكانت هـذه أول هبـة عبـاسية دخلت مصر بعد استيلاء العلويين عليها .

-٥٦٩-

ذكر الوحشة بين نور الدين
وصلاح الدين باطنا

وفي سنة سبع وستين ايضا ، جرى ماأوجب نفرة نور الدين مـن صلاح الدين وكان الحـادث أن نور الدين ارسـل الى صـلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى بلد الفرنج ، والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هـو ايضـا عسـاكره ويسـير اليه ، ويجتمعـا هناك على حـرب الفـرنج والاسـتيلاء على بلادهم ، فبرز صـلاح الدين مـن القـاهرة في العشرين مـن المحرم ، وكتب الى نور الدين يعرفه ان رحيله لايتـأخر ، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك ، رحـل عن دمشـق عازما على قصد الكرك فوصل اليه ، وأقام ينتـظر وصـول صـلاح الدين اليه ، فأتاه كتـابه يعتـذر فيه عن الوصـول اليه بـاختلال البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد اليها ، فلم يقبـل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه مـن الاجتمـاع فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده ، وعزم على الدخول الى مصر واخـراج صـلاح الدين عنهـا ، فبلغ الخبـر الى صلاح الدين ، فجمـع أهله وفيهـم والده نجـم الدين أيوب وخـاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم مـابلغه مـن عزم نور الدين قصده وأخذ مصر منه ، فاستشارهم فلم يجبه أحـد منهم بشيء ، فقام تقي الدين عمـر ـ ابـن أخـي صـلاح الدين ـ وقال : اذا جاءنا قاتلناه وصـددناه عن البـلاد ، ووافقـه غيره مـن أهله فشـتمهم نجـم الدين ايوب وأنكر ذلك واستعظمه ـ وكان ذا رأي ومكر وعقل ـ وقال لتقي الدين : اقعـد وسبه ، وقال لصـلاح الدين : أنا أبـوك ، وهـذا شـهاب الدين

خالك ، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا ، فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فاذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الامراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وان أراد عزلك فأي حاجة له الى المجيء ، يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد .

وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مايريد ، فتفرقوا على هذا ، وكتب اكثرهم الى نور الدين بالخبر ، ولما خلا ايوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على مافي نفسك ، فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهم الامور اليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وكانوا اسلموك اليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون اليه ويعرفونه قولي ، وتكتب أنت اليه وترسل في المعنى وتقول : اي حاجة الى قصدي ، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي ، فهو اذا سمع هذا عدل عن قصدك ، واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن ، ففعل صلاح الدين ماأشار به والده ، فلما رأى نور الدين الامر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

في ذكر اتخاذ نور الدين حمام الهوادي

وفي سنة سبع وستين ، أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام

الهوادي ، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها ، واتخذت في سائر بلاده .

وكان سبب ذلك انه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد الذوبة الى باب همذان ، لايتخللها سوى بلاد الفرنج وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور ، فالى ان يصل الخبر ويسير اليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به الى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيها ، فوجد بها راحة كثيرة ، كانت الاخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا ، كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل الى المدينة التي هو منها في ساعته ، فتنقل الرقعة منه الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين ، وهكذا الى أن تصل الاخبار اليه ، فانحفظت الثغور بذلك حتى ان طائفة من الافرنج نازلوا ثغرا له ، فأتاه الخبر ليومه، فكتب الى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج آمنون ، لبعد نور الدين عنهم ، فرحمه الله ورضي عنه ، ماكان أحسن نظره للرعايا والبلاد .

ذكر قصد نور الدين الشهيد بلاد قلج أرسلان

في سنة ثمان وستين وخمسمائة ، سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان السلجقي ، وهي ملطية وسيواس وقونية ، واقصرا ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك ، أن ذا الذون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من البلاد ، قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده

وأخرجه عنها طريدا ، فسار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا الى ظله ، فأكرم نزله وأحسن اليه ، وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ، ووعده النصرة والسعي في رد ملكه إليه ، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين الا ضرورة ، إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما ، فلما قصده ذو النون ، راسل قلج ارسلان وشفع اليه في اعادة ماغلب عليه من بلاده فلم يجبه الى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بحصني بهسنا ، ومرعش فملكهما ومابينهما من الحصون ، وسير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده ، قد سار من أطرافها التي تلي الشام الى وسطها ، خوفا وفرقا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الافرنج ماأزعجه فأجابه الى الصلح وكان في جملة رسالة نور الدين اليه : انني اريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا اترك ثلاثة اشياء : أحدهما أنك تجدد اسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام ، فانني لاأعتقدك مؤمنا - وكان قلج أرسلان يتهم باعتقاد مذهب الفلاسفة - والثاني ، اذ طلبت عسكرا الى الغزاة تسيره ، فانك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الاسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم .

فاما أن تنجدني بعسكر لا قاتل بهم الافرنج وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم والثالث ان تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي ، وذكر أمورا غيرها ، فلما سمع قلج ارسلان الرسالة قال : ماقصد نور الدين الا الشناعة علي بالزندقة ، وقد اجبته الى ماطلب أنا أجدد اسلامي على يد رسوله ، واستقر ذي النون، فبقي العسكر بها الى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها وعاد قلج ارسلان وملكها .

-٥٥٣-

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن أقسنقر بدمشق ، يوم الاربعاء حادي عشر شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، بعلة الخوانيق ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل عنها الى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين .

وكان قد شرع يتجهز للمسير الى مصر لأخذها من صلاح الدين ، فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها في الشام تمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره الى مصر وكان المانع لصلاح الدين من الغزو خوف نور الدين ، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمي : بهم عليه ولايؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لايرى إلا الجد في غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه ، تجهز للمسير اليه ، فأتاه أمر الله الذي لايرد .

حكى لي طبيب دمشقي يعرف بالرحبي — وهو من حذاق الأطباء —قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه — وهو في بيت صغير بقلعة دمشق — وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته ، فكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه ، فلما دخلنا اليه ورأينا مابه ، قلت له : كان ينبغي أن تنتقل عن هذا الموضع الى مكان فسيح فله اثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ، ومات عن قريب رضي الله عنه .

وكان أسمر ، طويل القامة ، ليس له لحية الا في حنكه ، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة حلو العينين .

ولما توفي كان قد اتسع ملكه جدا ، فملك الموصل ، وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام ، والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر الى اليمن فساروا ـ ومقدمهم شمس الدولة بن أيوب أخو صلاح الدين ـ فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة ، وكان مولده تاسع عشر شوال من سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وطبق ذكره الأرض لحسن سيرته وعدله ، وأنا أذكر من حاله ماتعلم أن الله تعالى كمله ، وأنه لم يكن مثله الا الشاذ النادر .

في ذكر ولاية ابنه الصالح اسماعيل رضي الله عنه

لما توفي نور الدين ، جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ولم يبلغ الحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها ، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه فيها ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم .

وحكى لي البقة قتلغ الكمالي ، قال : لما توفي نور الدين قال صاحبي كمال الدين (محمد الشهرزوري) للأمراء ومنهم شمس الدين بن المقدم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة نشاوره فيما نفعله ، ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح ، فلم يوافق اغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجون ، قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يهنئه بالملك ويعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، ويعرفه ان الخطبة له والطاعة كما كانت لوالده ، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين

وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الامـراء الى صلاح الدين ولاأعلموه الحال ، كتب الى الملك الصـالح يعتبـه حيث لم يعلمه قصـد سـيف الدين بـبلاده ليحضر في خـدمته ويكفه ، وكتـب الى كمـال الدين والى الأمـراء يقـول : ان الملك العادل ، لو علم أن فيكم من يقوم مقـامي أو يثـق اليه مثـل ثقتـه بي ، لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهـد الى أحـد بتـربية ولده والقيام بخـدمته سواي ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاي دوني ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه حتـى أخـذت بلاده ، فقال لهم كمال الدين : هذا الذي كنت حذرتكم ، فأقام الملك بدمشق ومعه جماعة من الأمراء ولم يمكنوه من المسير الى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية ، فانه كان أكبـر الامـراء النورية ، وانما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعـد وفـاة نور الدين لمرض لحقه ، وكان هو وأخوته بحلب ، وأمرها اليهم ، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة ، أرسـل إلى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمنع البـلاد مـن سـيف الدين ابـن عمه ، وارسل الى كمال الدين والأمراء يقول لهم : إن سـيف الدين قد ملك الى الفرات ، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح الى حلب ، حتى يستجمع العساكر ويسترد ماأخذه منه ، والا عبر سـيف الدين إلى حلب ، ولانقوى على منعه ، فلم يرسـلوه ولامـكنوه مـن قصـد حلب ، فكان من سيف الدين في ملك البلاد الجزرية مانذكره ان شاء الله تعالى .

في ذكره بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبـل الاسـلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا

أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا العدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مماكته مايستدل به على ماذكرنا ونحن نذكر ههنا مايعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد .

فأما زهده وعبادته فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه ، الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحل له من ذلك ، فأخذ ماأفتوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة ، ولم يلبس قط ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومن ادخالها الى بلد ما ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين ووزيرها ، قال : كان نور الدين اذا جاء اليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لاتتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه الى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنه وكان يصلي فيطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار فاذا جاء الليل وصلى العشاء نام ، ثم يستيقظ نصف الليل ويقوم الى الوضوء والصلاة والدعاء الى بكرة ، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة قال : وإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ماكان قد قرره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ، أما يكفيها مالها ؟! والله لاأخوض نار جهنم في هواها ، ان كانت تظن أن الذي بيدي من الاموال هي لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق ان كان من عدو

الاسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكا قد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان رحمه الله لايفعل فعلا الا بنية حسنة ، كان رجل بالجزيرة من الصالحين كثير العبادة والورع ، شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويرجع الى قوله ويعتقد فيه حسنا ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب اليه يقول له : ماكنت أظن أنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية ، فكتب اليه نور الدين بخط يده يقول له : والله ماحملني على اللعب بالكرة ، اللهو والبطر ، وانما نحن في ثغر والعدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس اذ يقع الصوت فنركب في الطلب ، ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا ، شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب ، ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

فانظر الى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقل في اصحاب الزوايا المنقطعين الى العبادة مثله ، فإن من يجيء إلى اللعب ويفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات ، يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعل شيئا الا بنية صالحة ، وهي افعال العلماء الصالحين العاملين .

وحكي لي عنه ، انه حمل اليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده ، فوصفت له فلم يلتفت اليها ، وبينما هم معه في حديثها ، واذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له ، فقيل : انها لاتصلح لهذا الرجل ، ولو أعطي غيرها لكان انفع

له ، فقال : اعطوها له ، فـإني أرجـو أن أعوض عنهـا في الآخرة ، فسلمت اليه ، فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار اميري أو سبعمائة دينار ، أنا أشك أنها كانت تساوي اكثر .

وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري رحمه الله تعالى – وكان خصيصا لخدمته قد صحبه من الصبا وأنس بـه وله معه انبساط – قال : كنت معـه يومـا في الميدان بـالرها نسير والشمس في ظهورنا ، فكلما سرنا تقدمنا ظلنا ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهـو يلتفت وراءه ، فقـال لي : اتـدري لأي شيء أجـري فـرسي والتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبهت مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن طلبها وتطلب من هرب منهـا ، وكان رحمـه الله يصـلي كثيرا مـن الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولايزال كذلك الى أن يركب .

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ماأحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام ابـي حنيفـة ، وليس عنده تعصب بل الانصاف سجيته في كل شيء ، وسمع الحـديث وأسـمعه طلبا للأجر ، وعلى الحقيقة فهـو الذي جـدد للملوك اتبـاع سـنة العدل ، والانصاف ، وترك المحرمات مـن المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ، فانهم كانوا قبله كالجـاهلية ، همـة أحـدهم بـطنه وفرجه ، لايعرف معروفا ولاينكر منكرا . حتـى جـاء الله بـدولته فوقف مـع أوامـر الشرع ونواهيه ، وألزم بـذلك اتبـاعه وذويه ، فاقتدى به غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم مـاكانوا يفعلونه ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد مـن له الممـالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكرني الله سـليمان بـن داود عليه السلام مع ملكه ، وهـو سيد الزاهدين في زمـانه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قـد حـكم على حضرمـوت ، واليمـن

والحجاز وجزيرة العرب جميعها من حدود الشام الى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين ، وانما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها .

وأما عدله

فانه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعد لهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة لامكسا ولاعشرا ، بل اطلقها جميعها في بلاد الشام ، والجزيرة جميعا والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارا ، فأطاقها ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يجري العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، فكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولايكل ذلك الى حاجب ولاأمير فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

ومن عدله

أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند احكامها ، ويقول : نحن شحن لها نمضي أوامرها فمن اتباعه احكامها أنه كان يوما يلعب بالكورة بدمشق ، فرأى انسانا يحدث آخر ويومىء بيده اليه ، فأرسل اليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل خصومة وهذا غلام القاضي ليحضره الى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد اليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل وغالطه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان وسار الى القاضي يقول : إنني قد جئت محاكما ، فأسلك معي ماتسلكه مع

غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نورالدين حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ فقالوا : لا فقال : اشهدوا انني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وانما حضرت معه لئلا يظن انني ظلمته ، فحيث ظهر ان الحق لي وهبته وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الاحسان وهي درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة الى الحق ، الواقفة معه .

قال صاحب التاريخ : ومن عدله قدس روحه ونور ضريحه من نور فسيحه ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي جرت بها عادة الملوك في هذه الأعصار على الظنة والتهمة ، بل يطلب الشهود على المتهم ، فان قامت عليه البينة الشرعية، عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

وحكي لي من أثق به ، أنه دخل يوما الى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه فقيل :ان القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا ، فقال ان هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر بإعادته إلى كمال الدين ليرده الى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده إلى الخزانة مرة أخرى وقال : اذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني ، انه له ، فدخل نور الدين الى الخزانة مرة أخرى فرآه ، فأنكر على النواب ، وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على اصحابه ، فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا (المال) وأما أنا فرقبتي دقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولا واحدا فأعاده .

وكان اذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين (١١٩) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها ، سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري - الفقيه الشافعي - وهو يقول ذلك ، فقال له : بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، وإن أصبت والعياذ بالله في معركة ، لايبقى من المسلمين أحد إلا وأخذه السيف ، وأخذت البلاد ، فقال له : ياقطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو .

وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ماملكه من بلادهم به ، ومن جيد الرأي ماسلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فانه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفرا وحضرا ، وكان يقاتل به الفرنج ، وكان يقول : إنما حملني على استمالته ، أن بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الاسلام ، فاذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا ، وساعدنا على الفرنج وحين توفي نور الدين وسلك من بعد غير هذا الطريق ، ملك المتولي للأرمن بعد مليح كثيرا من بلاد المسلمين وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه .

ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده ، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدا ، أقر الاقطاع عليه ، فان كان الولد كبيرا ، استبد بنفسه ، وإن كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون ، هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك سببا عظيما ، من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان

أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلاحهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد ، ويقول : نحن كل وقت بصدد النفير ، فاذا لم يكن اجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الاسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ماخافه عيانا .

وأما مافعله من المصالح

الذي فعله من المصالح في بلاد الاسلام مما يعود الى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، ونحن نذكر طرفا منه ، فمن ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، حماة ، وحمص ، ودمشق ،وبارين ، وشيزر ، ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها ، وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس .

وبنى أيضا المدارس بحلب ، وحماة ، ودمشق ، وغيرها للشافعية والحنفية .

وبنى الجوامع في جميع البلاد ، فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان ، ومن أحسن ماعمل فيه ، أنه فوض أمر عمارته والخرج عليه الى الشيخ عمر الملا رحمه الله ــ وهو رجل من الصالحين ــ فقيل له : إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل ، فقال : اذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم انه يظلم في بعض الأوقات ، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم ، فإذا ظلم كان الأثم عليه لاعلي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبنى أيضا بمدينة حماة جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم إما بزلزلة أو بغيرها .

ومن عدله ايضا بعد موته - وهو أعجب مايحكى عنه - أن انسانا كان بدمشق غريبا قد استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي وملكها صلاح الدين ، كان اجناده وأمراؤه يفعلون مايريدون ولايمنعهم ، فتعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم ينصفه صلاح الدين ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه ، وهو يقول : يانور الدين ، لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمتنا ، اين عدلك عنا ، وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالايحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر الى صلاح الدين ، وقيل له : احفظ البلد والرعية والا خرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيب قلبه ، ووهبه (شيئا) وانصفه ، فبكى اشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ فقال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين وهذا هو الحق ، وكل مايرى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

فصل في ذكر بنائه دار العدل

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

كان الملك العادل نور الدين رضي الله عنه ، أول من بنى دارا لكشف المظالم وسماها دار العدل ، وكان سبب بنائها ، أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم اسد الدين شيركوه - وهو أكبر امير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك - واقتنوا الاملاك فأكثروا ،وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الانصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال الى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين ذلك ، احضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء هذه الدار إلا

بسببي وحدي ، وإلا فمن هــو الذي يمتنع على كمــال الدين ، والله لئن حضرت الى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه ، فامضوا الى كل من بينكم وبينه منازعة فافصلوا الحال معه ، وارضــوه بــأي شيء امكن ، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي ، فقالوا له : ان الناس اذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال : خروج املاكي عن يدي اســهل عندي مــن أن يراني نور الدين بعين أني ظــالم ، أو يســاوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة .

فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم ، وأرضوا خصــماءهم وأشهدوا عليهم ، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحــكومات ، وكان يجلس في الأســبوع يومين وعنده القـــاضي والفقهاء ، فبقي كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو مــن اســد الدين ، فقال لكمال الدين : ماأرى أحدا يشكو من شيركوه ، فعرفه الحال ، فسجد فشكر الله تعالى وقــال : الحمــد لله إذ اصــحابنا ينصفون من انفسهم قبل حضورهم عندنا ، فانظر الى هذه المعــدلة مااحسنها ، والى هذه الهيبة مــااعظمها ، وإلى هــذه الســياسة مااشدها ، هذا مع أنه كان لايريق دما ، ولايبالغ في عقوبه ، وانمــا كان يفعل هذا صدقة في عدله وحسن نيته .

وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهــاية إليه فيهمــا ، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحســنهم مــكيدة ورأيا ، وأجــودهم معرفة بأمور الاجناد واحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لااحصيهم يقولون انهــم لم يروا على ظهــر الفرس أحسن منه ، كأنه خلق لايتحرك ولايتزلزل .

وكان من أحسن الناس لعبــا بــالكرة واقــدرهم عليهــا ، لم ير جوكانه يعلو على رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة فتعلوا ، فيجــري الفــــــرس ويتناولهــــــا بيده مـــــــن الهواء ويرميها إلى اخــر الميدان ، وكانت يده لاتــرى والجــو كان فيها ، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب .

وبنى البيمارستانات في البلاد ، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنه عظيم كثير الخرج ، بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب ، بل على كافة المسلمين من غني وفقير ، ولقد جرى لي مع طبيبه ما أذكره ، وذلك أنني قدمت من زيارة بيت المقدس – بعد أن فتحه المسلمون – مريضا ، فسألت عن طبيب فدلوني على مغربي فأتيته ووصفت له مرضي ، فوصف لي وصفة لم يرضني قوله ، فعاودته القول فتركني ومضى ، فأنفت نفسي وضاقت الدنيا في عيني ، وعزمت على أن لا أعالج نفسي الا بما تنتهي إليه معرفتي ، واشتد مرضي لما نالني من الغيظ ، فلما كان الغد ، قوي عزمي على قصد طبيب يعالجني ، فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدللت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا المرضى الذين به ، فلما رآني قد قاربته ، أقبل علي بوجه منبسط وسايلني عن حالي فوصفته له ، فكتب لي نسخة ، وقال لي : يحمل غلامك مبافي هذه النسخة ، فقلت : لاحاجة بي إلى ذلك ، فقد أغناني الله عن مزاحمة الفقراء ، فقال : يامولاي ، لاأشك أنك في غنى عن هذا ، ولكن لايأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه ، والله إن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ، فقلت : أنا لاأرى ذلك ، فقال : أنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم ، فوجدت في نفسي بكلامه انبساط ، فحكيت له حكاية ذلك الطبيب ، فقال : يامولاي ، مغربي وقد أقام بالشام لايكون إلا هكذا ، وأما أنا فما تراه في من أدب الناس فمن عندكم وبلادكم ، فإني سافرت إلى الموصل والعراق ، فشكرته وعدت عنه ، رضي الله عنه .

وبنى أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر .

وبنى أيضا الابراج على الطرق ، وبين بلاد المسلمين

والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدو منهم غرضا ، وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا ، رحمة الله تعالى .

وبنى أيضا الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدر عليهم الادرارات الصالحة ، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه ، وكذا أيضا كان يفعل بالعلماء ، من التعظيم والتوقير والاحترام ويجمعهم عنده للبحث والنظر ، فقصدوه من البلاد الشاسعة ، من خراسان وغيرها ، وبالجملة فكان أهل الدين عنده في أعلى المنازل وأعظمها ، فكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون فيهم عنده فينهاهم ، واذا نقلوا عن انسان عيبا يقول : ومن المعصوم ، وانما الكامل من تعد ذنوبه .

بلغني ان بعض الأكابر من الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي — وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان اليه — فحسده ذلك الأمير فنال منه يوما عند نور الدين ، فقال له : ياهذا إن صح ماتقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ، ففيكم أضعاف ماذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبك من غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا احتمل سيئة هذا — إن صحت — مع وجود حسنته ، على أنني والله لاأصدقك فيما تقول : وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأونبنك ، فكف عنه ، هذا والله هو الاحسان والفعل الذي يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها

من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه .

وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن ، ووقف على الأيتام الذين يقرؤون بها القرآن ، وهذا فعل لم يسبق إليه .

بلغني من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة - كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعي ظاهرا وباطنا ، فإنه وقف ماانتقل إليه وورث ثمنه أو من ماغلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

فصل في ذكر وقاره وهيبته
قدس الله روحه ونور ضريحه

فإليه النهاية فيهما ، فلقد كان كما قيل : شديد في غير عنف رقيق في غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره ، فإنه ضبط ناموس الملك حتى مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها ، كان يلزمهم بوظائف الخدمة ، الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود ، وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم ، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي إلى بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، ويقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس اليه ، وكأن إذا اعطى أحدهم شيئا ، يقول : إن هؤلاء لهم بيت المال حق ، فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا .

وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم ، وهكذا كان مجلسه ، لايذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين ، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولايتعدى هذا .

بلغني ان الحافظ أبا القاسم ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه ، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق رأى فيه من اللغط وسوء أدب الجلوس فيه مالاحد عليه ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة اختلاف المتحدثين وقلة استماعهم ، فقام وبقي مدة لايحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه ،فقال: نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايستمع به إلى قائل ولايرد جواب متكلم ، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل : كأنما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، وإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه انهم لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ فهكذا كانت أحواله جميعها ـ رحمه الله تعالى ـ مضبوطة محفوظة .

وأما حفظه أصول الديانات

فإنه رحمه الله تعالى كان مراعيا لها ، لايهملها ولايمكن أحد من الناس من اظهار مايخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ، ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ماينافضه ، وهو الأصل .

حكي لي أن انسانا كان بدمشق يعرف بيوسف بن آدم ، كان

يظهر الزهد والنسك - وقد كثر اتباعه - اظهر شيئا من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه وطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق فسار عنها وقصد حران ، وأقام بها الى أن مات ويسوق الله القصار الأعمار الى البلاد الوخمة .

فصل من كلام عماد الدين الكاتب فيه

رحمه الله تعالى

قال العماد محمد بن حامد الكاتب - وقد ذكر نور الدين في بعض مصنفاته - فقال : كان ملك بلاد الشام وممالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين أعف الملوك وأتقاهم ،وأثقبهم رأيا وأنقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأجهدهم ، وأطهرهم وأظهرهم ، وأقواهم وأقدرهم ، وأصلحهم عملا ، وانجحهم أملا ، وأرجحهم رأيا وأوضحهم أيا ، وأصدقهم قولا ، وأقصدهم طولا ، وكان عصره فاضلا ، ونصره واصلا ، وحكمه عادلا ، وفضله شاملا ، وزمانه طيبا ، واحسانه صيبا ، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية ، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية ، وأموره مقتبلة ، وأوامره ممتثله ، وجده منزه عن الهزل ، وذوابه في أمن من العزل ، ودولته مأمولة مأمونه ، وروضته مصوبة مصونة ، والرياسة كاملة ، والسياسة شاملة ، والزيادة زائدة ، والسعادة مساعدة ، والعيشة ناضرة ، والشيعة ناصرة ، والانصاف صاف ، والاسعاف عاف ، وأزر الدين قوي ، وظمأ الاسلام روي ، وزند النجح وري ، والشرع متبوع ، والحكم مسموع، والعدل مولى والظلم معزول ، والتوحيد منصور والشرك مخذول والتقي شروق ،ومالفسوق سوق ، وهو الذي أعاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام ، وقد غلب الكفر ، وبلغ الضر ، فاستفتح مغالقها ، واستخلص معاقلها ، واستخلص

عقائلها ، وأشاع بها شعار الشرع في جميع الحل والعقد ، والابرام والنقض ، والبسط والقبض ، والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الشام قطائع فقطعها ، وعفى رسومها ومنعها ، ونصره الله عليهم مرارا حتى أسر ملوكهم وبدد سلوكهم ، وصان الثغور منهم ، وحماها عنهم ، واحيا معالم العلوم الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات الصوفية وكبرها ، في كل بلد وكثر وقوفها ووفر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنابه قطوفها ، وأجد الاسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الربط والخانات ، فضاقت ضيوف الفضايل وفاضت فيوض الفواضل ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها ، وأنشأ دولتها ورجالها (١٢٠) .

ولو ذكرت ماقال العلماء فيه لكان مجلدات ، ولكن الاختصار اليق بما نحن فيه والسلام .

في ذكر استيلاء أتابك سيف الدين غازي على البلاد الجزرية بعد وفاة نور الدين

كان نور الدين قبل أن يمرض ، قد أرسل الى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها ، فسار سيف الدين غازي ابن اتابك قطب الدين صاحب الموصل في عساكره ، فلما كان ببعض الطريق ، أتاه الخبر بموت عمه الملك العادل نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى بلد الخابور فاستولوا عليه ، وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام ، وكان بها مملوك نور الدين في قلعتها اسمه قايماز الحراني ، فامتنع فيها ، ثم أطاع على أن تكون حران له ، ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه ، وسار الى الرها فحصرها وملكها ، وأرسل الى

مدينة الرقة فملكها ، وكذلك سروج ، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر .

وكان بمدينة حلب وقلعتها الأمير شمس الدين علي بن الداية – وهو من أكبر الأمراء النورية – وهو مريض فلم يمكنه منع سيف الدين عن البلاد الجزرية ، فأرسل إلى دمشق يطلب أن يرسل إليه الملك الصالح في العساكر التي معه بها ، ليمنع سيف الدين عن البلاد ، فلم يفعل شمس الدين بن المقدم – وكان هو المربي للملك الصالح والقائم بأمره – وخاف أن يرسله فيأخذه أولاد الداية ويسير معه الى دمشق ويزيلوا ابن المقدم عما يتولاه .

فمكن حينئذ سيف الدين من ملكها ، فلما استقام له ملك البلاد الجزرية ، قال له فخر الدين عبد المسيح – وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين ، وقصد سيف الدين ظنا منه أن سيف الدين يرعى له خدمته ، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ماذكرناه أولا ، فلم يجن ثمرة ماغرس ، وكان عنده كبعض الامراء – فقال له : ليس بالشام من يمنعك ، فاعبر الفرات وأملك البلاد . فأشار أمير أخر معه – وهو أكبر أمرائه – يقال له عز الدين محمود المعروف بزلف دار : قد ملكت أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ، فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل (ليقضي الله أمرا كان مفعولا)(١٢١) ،(وكان ذلك في الكتاب مسطورا) (١٢٢) .

وأما أحوال من بالشام ، فان نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزدارا لها وهو سعد الدين كمشتكين – بعض خدمه الخصيان – فلما سار سيف الدين الى الشام كان في مقدمته على مرحلة ، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين في اثره فلم يدرك ، فنهب بركه ودوابه وسار الى حلب ، فتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته ، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح ، فسار

اليها ، فأخرج اليه ابن المقدم عسكرا فنهبوه فعاد منهزما الى حلب ، فأخاف عليه شمس الدين بن الداية ماأخذ وجهزه وسيره الى دمشق - وعلى نفسها تجني براقش - فلما وصلها سعد الدين دخلها ، واجتمع بالملك الصالح والأمراء وأعلمهم مافي مسير الملك الصالح الى حلب من المصالح ، فأجابوا الى تسييره فسار اليها ، فلما وصلها وصعد الى قلعتها ، قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب والذي يتبعه من أحداثها ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ، ولاجرى من ذلك الخلف والوهن شيء (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (١٢٣)

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل ، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ، ويقصده ابن عمه من وراء ظهره ولايمكنه الثبات ، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار مااخذه بيده ، وبقي الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبر أمره ، وتمكن منه تمكنا عظيما يكاد يقارب الحجر عليه .

في ذكر وصول صلاح الدين يوسف بن ايوب الى دمشق دار العشق وتملكها من يد ولد مولاه

لما خاف من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح فيعاملهم بما عامل به بني الداية ، راسلوا سيف الدين ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن ايوب بمصر ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين محمد بن المقدم - ومن اشبه أباه فما ظلم - (١٢٤) فلما أتته الرسل بذلك لم يتوقف ، وبادر إلى الاجابة وسار إلى الشام ، فلما

وصل دمشق ، سلمها إليه من بها مـن الأمـراء ودخلهـا واسـتقر بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح وإنما أظهر : أني إنمـا جـئت لأخدم مولاي وابن مولاي ، واسترد له بـلاده التـي أخـذها ابـن عمه ، وجرت أمور قد شوهدت فلا حاجة إلى ذكرهـا ، كمـا قـال بعضهم :

فكان ماكان مما قد سمعت به
فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر

وفي آخر الأمر اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح كل منهـم على مابيده بعـد حـروب ومخـامرات ، قـد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكره ولاية مجاهد الدين قلعة الموصل ووزارة جلال الدين أبي الحسن علي

وفي ربيع الآخر من سنة إحدى وسبعين وخمسـمائة ، اسـتوزر أتابك سيف الدين ، جلال الدين أبا الحسن علي بـن جمـال الدين رحمهما الله تعالى ، ومـكنه في ولايتـه ، وفـوض إليه أمـور دولته ، فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول ، وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمـور واطـلاع على دقـائق الحسـابات ، وعلم بصـناعة الكتـابة الحسـابية حيرت العقول ، ووضع للناس في كتابة الانشاء وضعا لم يعـرفوه ، وشرع لهم منها شرعا استحسنوه ، وبذل بذلا استعظموه ، وكان عمـره حين ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة ، ثـم قبض عليه في شـعبان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وشفع فيه كمال الدين بن نيسـان وزير صاحب آمد ــ وكان قد زوجه ابنته ــ فأطلق من الحبس وسار إليه فبقي بآمد يسيرا مريضا ، ثم فارقها وتوفي بدنيسر سـنة أربـع

وسبعين وخمسمائة وحمل إلى الموصل ودفن بها ، ثم حمل منهـا في موسم الحج إلى المدينة فدفن عند والده ، وكان أحسن الناس صورة ومعنى ، رضي الله عنه .

ثم ان سيف الدين استناب دزدار بقلعة الموصل ، الأمير مجـاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة احدى وسـبعين وخمسـمائة ، ورد اليه أزمة الأمور في الحل والعقد ، والرفع والخفض ، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ، ومعه فيها ولد صغير لزين الدين علي ولقبـه أيضـا زين الدين ، وكان البلد لولد زين الدين اسـما لامعنى تحته ، ولمجاهد الدين صورة ومعنى .

وفي سنة اثنتين وسبعين ، شرع مجاهد الدين في عمارة جـامعه بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجـوامع ، ثـم بنى بعد ذلك الرباط والمدرسة والبيمارستان وكلها متجاورة .

ذكر عصيان ابن بوزان وعوده الى الطاعة

ثم ان الأمير شهاب الدين محمـد بـن بـوزان صـاحب شهرزور ـ وهو في طاعة سيف الدين ـ أظهـر التجني على سـيف الدين سنة اثنتين وسـبعين وخمسـمائة ، وجعـل عذره في تـرك الحضور في الخدمة بنفسه ، الخوف من مجاهد الدين لعداوة بينهما محكمة القواعد ، وقال : إن مجـاهد الدين هـو الآن مـدبر الدولة والحاكم فيها ، ولا آمنه على نفسي ، فأرسل إليه جلال الدين الوزير رسولا عن نفسه وكتب إليه كتابا ليس مثله في معناه ، فلمـا وصـل الرسول والكتاب إلى شهاب الدين بـادر إلى الحضـور في الخـدمة السيفية .

ذكر القبض على سعد الدين كمشتكين النوري

قد ذكرنا حال سعد الدين كمشتكين وأنه استولى على دولة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين ، وحكم عليها ، فلما كان سنة ثلاث وسبعين ، قبض عليه الملك الصالح وطلب منه أن يسلم اليه قلعة حارم ـ وكانت اقطاعه ـ فلم يفعل ، فأرسل الملك الصالح إلى مستحفظها بأمره بتسليمها إلى نائبه فلم يسلمها ، فسار الملك الصالح إليها من حلب ومعه سعد الدين فحصر القلعة ، وعاقب سعد الدين ليأمر من بها بالتسليم فلم يجب إلى ماطلب منه ، فعلق منكوسا ودخن تحت أنفه فمات ، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها ، ثم إنه أخذها بعد ذلك .

ذكر الغلاء والوباء

وفي سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، أشتد الغلاء وعم أكثر البلاد : العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضى اكثر سنة خمس وسبعين وخرج الناس في سائر البلاد يستسقون فلم يسقوا ، ثم إن الله تعالى رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث ، وأرخص الأسعار ، ومن عجب مارأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة ، وقد قصدت مدرسة بها أسمع على مدرسها شيئا من حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا جالس عند فقيه في بيته أنتظر مدرسها ، وإذا قد أقبل انسان تركماني قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر ، فبكى وشكا الجوع ، فأرسلت من اشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه ، وهو يبكي ويتمرغ على الأرض فتغيمت السماء وجاءت تنقط المطر متفرقة ، وضج الناس ، ثم جاء فأكل ذلك التركماني وأخذ الباقي معه ومشى ، واشتد المطر ، ودام من ذلك

الساعة ، فرخصت الأسعار ، ووجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة ، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير ، وكان مرض الناس شيئا واحدا ، وهو برسام (١٢٥) فمات فيه من كل بلد أمم لايحصون كثرة ، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله ، ثم ان الله تعالى رفعه عنهم في سنة ست وسبعين وخمسمائة وقد ضعضع العالم .

فصل في ذكر وفاة أمير المؤمنين

المستضيء بأمر الله الخليفة العباسي

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، توفي الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله ، وقد تقدم باقي نسبه ، وأمه أم ولد : (ارمنية تدعى غضة) وكانت خلافته (نحو تسع سنين وسبعة أشهر) (١٢٦) .

ذكر شيء من سيرته قدس الله روحه

وكان عادلا حسن السيرة ، كثير البذل للمال ، غير مستقص في أخذ ماجرت العادة بأخذه ، وكان الناس معه في أمن وسكون لم يروا مثله ، وكان رحمة الله عليه كريم الأخلاق ، كثير العفو ولا يرى المعاقبة بل يعفو ويصفح ، ووزر له عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل أوائل ذي القعدة من سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وكان قد سار إلى الحج ـ وكنت حينئذ ببغداذ عازما على الحج ـ فعبر عضد الدين دجلة في شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه مابين راكب وراجل ، فتقدم اليه بعض العامة ليدعو له ، فمنعه أصحابه فزجرهم وأمرهم ان لايمنعوا عنه أحد ، فتقدم

إليه الباطنية فقتلوه بـــالجانب الغـــربي ، وقتـــل البـــاطنية وأحرقوا ، وحمل مـــن مـــوضعه إلى دار له بقـــطفتا بـــالجانب الغربي ، فتوفي بها رحمة الله تعالى ، وتـولى الأمـــور بعـــده ظهير الدين بن العطار وحكم في الدولة حكما نافذا .

ذكر وفاة الملك سيف الدين غازي بـــن قـــطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر

في صفر من سنة ست وسبعين وخمســمائة ، تـــوفي الملك ســـيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن اتابك الشـــهيد زنكي رضي الله عنهم ، وكان مرضه السل فطال به ، ومـــن العجـــائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالموصل سنة خمس وسبعين وخمسمائة الغـــلاء الحادث في البلاد ، خرج سيف الدين في موكبه فثار الناس وقصـــدوه مستغيثين به ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمـــر فـــأجابهم الى ذلك ، فدخلوا البلد وقصـــدوا مســـاكن الخمـــارين ، وخـــربوا أبوابها ودخلوهـــا ونهبـــوها وأراقـــوا الخمـــور ، وكسروا الأواني وعملوا مالايحل ، فـــاستغاث أصـــحاب الدور الى نواب الســـلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصـــالحين يقـــال له أبـــو الفـــرج الدقاق ، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل ، إنما هـــو اراق الخمور ، ولمارأى فعـــل العـــامة نهـــاهم عنه فلم يســـمعوا منه ، فلما شكا الخمارون منه ، أحضر بالقلعة وضرب على رأســـه فسقطت عمامته ، فلما أطلق لينزل من القلعة ، نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل ، وقال : والله حتى ينتقم الله لي ممن ظلمني فلم يمض غير قليل حتى توفي الدزدار المبـــاشر لأذاه له ، ثم بعقبه مرض سيف الدين ودام مرضه إلى أن توفي ، وكان عمـــره نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

ذكر صفة سيف الدين وذكر شيء من سيرته

كان رحمه الله من أحسن الناس صورة ، تام القامة ، مليح الشمائل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، متوسط البدن بين السمين والدقيق ، وكان عاقلا ، وقورا ، قليل الالتفات إذا ركب واذا جلس ، عفيفا ، لم يذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة ، وكان غيورا شديد الغيرة ، لم يترك أحدا من الخدام يدخل دور نسائه إذا كبر ، إنما يدخل عليهن الخدم الصغار ، وكان لايحب سفك الدماء ، ولاأخذ الأموال مع شح فيه .

في ذكر مملكة المولى السعيد عز الدين بن قطب الدين مودود

لما اشتد المرض بسيف الدين ، أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك ، لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته ، وامتنع أخوه المولى السعيد عز الدين من الاذعان والاجابة إلى ذلك ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز ، بأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن أولا والشجاعة والعقل وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما الى المولى عز الدين والمتولي أمرهما مجاهد الدين ففعل ذلك ، وحلف الناس لأخيه • فلما توفي سيف الدين ، كان مجاهد الدين هو المدبر الدولة والنائب فيها ، والمرجع إلى قوله ورأيه ، فركب إلى الخدمة العزية وعزاه ، وركبه إلى دار المملكة ومشى في ركابه راجلا ، فدخلها وجلس للعزاء ، وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لاقدامه وجرأته وحدة كانت فيه ، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمرا ، فلما ولي تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقا بالرعية ، محسنا

إليهم ، قريبا منهم ، فكان في ذلك كما روي ، أن ابابكر الصديق رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة ، خافه الناس لما عرفوا من شدته وفظاظته ، فقال بعض الصحابة لأبي بكر : ما تقول لربك إذا قدمت عليه وقد استخلفت علينا عمر؟ فقال : أقول له استخلفت عليهم خيرهم ، فلما توفي أبو بكر وولي عمر ، رأى الناس من رقته عليهم ، ورفقه بهم ، وشفقته عليهم ما هو مشهور مدون في الكتب

ذكر وفاة الملك الصالح اسماعيل بن العادل نور الدين الشهيد بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر الملك شاهي

في رجب من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، توفي الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين زنكي رضي الله عنهم بمدينة حلب ، ولم يبلغ عشرين سنة .

ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداويا بها ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء .وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة ، وكان يعتقد فيه اعتقادا حسنا ويكرمه ، فاستفتاه ، فأفتاه بجواز شربها . فقال له : يا علاء الدين ، إن كان الله سبحانه قد قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر ؟ قال :لا ، قال: والله لا لقيت الله تعالى وقد استعملت ما حرمه علي . فلما أيس من نفسه ، أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين رضي الله عنه ، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها اليه . فقال بعضهم :إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان الى الفرات ، فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك لكان أحسن ، ثم هو تربية أبيك وزوج أختك ، فقال:إن هذا لم يغب عني ، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى مابيدي ، ومتى

سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام ، وإذا سلمتها الى عز الدين ، أمكنه ان يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وامواله ، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته ، وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلما توفي ، أرسل دزدار حلب — وهو شاذ بخت — وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه ، فورد الخبر ومجاهد الدين قايماز قد سار إلى ماردين لهم عرض ، فلقي القاصدين عندها فأخبروه الخبر ، فسار إلى الفرات ينتظره ، فسار أتابك مجدا ، فلما وصل المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه ، وأرسل الى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له فسار حينئذ الى حلب ودخلها وكان يوما مشهودا .

ولما عبر الفرات ، كان تقي الدين عمر — ابن أخي صلاح الدين — بمدينة منبج ، فسار عنها هاربا إلى مدينة حماة ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك ، وكان صلاح الدين بمصر ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية ، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي ، فلم يفعل وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ، ثم سار منها الى الرقة فأقام بها .

وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب ان يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ، ولج عماد الدين ، وقال :إن سلمتم إلي حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه ، وكان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لج في تسليمها إلى عماد الدين ، فلم يمكن أتابك عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره

وبلاده ، فوافقه وهو كاره ، وسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار وعاد إلى الموصل .

وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود الى الشام ، فلما بلغه أخذ عماد الدين حلب ، برز في يومه عن القاهرة إلى الشام ، فلما سمع أتابك بوصوله إلى الشام ، جمع عساكره وسار عن الموصل خوفا على حلب من صلاح الدين ، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال الى صلاح الدين وعبر الفرات اليه ، فلما رأى أتابك ذلك ، لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه ، إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه ، فعاد إلى الموصل .

وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية ، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها ، فعاد الى حلب وحصرها ، فسلمها اليه عماد الدين وأخذ سنجار والخابور ونصيبين عوضا عنها . وكان سبب هذا جميعه تسليم حلب الى عماد الدين ، فإنه كان مضرة محضه .

فصل في سبب قضية القبض على مجاهد الدين قايماز وماتبعه من الوهن (١٢٧)

في جمادى الاولى من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، قبض المولى المرحوم أتابك عز الدين رضي الله عنه على مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى ، وهو حينئذ نائبه في بلاده ، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر في مضرة صاحبه وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلف دار ، وشرف الدين احمد بن أبي الخير - الذي كان أبوه صاحب بلد الغراف - وهما من أكابر الأمراء ، فلما قبضه كان بيده إربل ، وشهرزور ، ودقوقا وجزيرة ابن عمر وكان بها معز الدين بن سيف الدين صغيرا ، والحكم فيها الى مجاهد الدين ، وله أيضا قلعة العقر ، فحين قبض امتنع زين

الدين يوسف بن زين الدين علي باربل ، وكان فيها لا حكم له مع مجاهد الدين ، وامتنع معز الدين بالجزيرة ، وأرسل الخليفة الناصر لدين الله عسكرا حصر دقوقا فملكوها ، ولم يحصل للمولى عز الدين من جميع ما كان بيد مجاهد الدين إلا شهرزور ، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أضر شيء على الموصل ، وبقي مجاهد الدين مقبوضا نحو عشرة أشهر ، وندم أتابك على قبضه فأخرجه ، وخلع عليه وأعاده الى ولاية قلعة الموصل ، إلا أن الذي أخذ من البلاد لم يعد الى طاعته ، وقبض أتابك على عز الدين زلف دار وعلى شرف الدين أحمد ابن صاحب الغراف ، عقوبة لهما على ماأشارا به من قبض مجاهد الدين ، وعلى الحقيقة فليس على الدول شيء أضر من ازالة بيشكاه (١٢٨)مدبر لها وإقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب الحاذق العارف بمزاج الانسان ومرضه وعلاجه ومايوافقه ويؤنيه ، ويكون الثاني — وإن كان كافيا — بمنزلة الطبيب الذي لايعرف مزاج الانسان ولا مايوافقه ويؤنيه ، فإلى أن يعرف حاله يفسد أكثر مما ينصلح .قال :

في ذكر حصر الجزيرة

في شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سار المولى السعيد عز الدين — قدس الله روحه — إلى جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها معز الدين سنجر شاه ابن أخيه سيف الدين غازي وهو صاحبها ، وكان سبب ذلك أن معز الدين كان سيء السيرة مع المرحوم عز الدين ، خارجا عن طاعته ، مساعدا للأعداء عليه ، ينتقل عنه إلى الملوك المجاورين لبلاده ما يوحشهم منه ، الى غير ذلك من الاسباب التي بعضها يخرج الوالد عن محبة ولده ، ولم يزل المرحوم يرفق به ويستميله وينعم عليه ، وهو لا يزداد إلا سوء معاملة وادب ، فبقي كذلك من أوائل سنة تسع وسبعين إلى

الآن ، فلما طال الامر عليه وأيس من اصلاحه ، سار إليه فحصره بها وضيق عليه ، وعزم على أخذها منه فلما نازله ادركته رقة الوالد فلم يقاتله ، بل نزل عليه من غير قتال إلا شيئا لا يبالي به المحاصر ، فبقي كذلك إلى رجب ، فلما رأى معز الدين ضعف حاله ونفاد أمواله وتغير رجاله ، خضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه إلى ذلك وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وخرج معز الدين إلى خدمته ، فأحسن إليه وأنعم عليه وأمنه ، وعاتبه على ما يبدو منه ، فاعتذر بأعذار علم المرحوم أنه غير صادق فيها ، إلا انه تغمد اساءته بعفوه ، وزلته بصفحه عنها ، وأقره على بلده وعاد عنه الى الموصل ، فعاد معز الدين إلى حالته الأولى ، فتجاوز عنه واطرحه ، وقال : ما يمنعني عن أخذ بلده والحجر عليه ، إلا الخوف من ظن الملوك انني فعلت هذا شرها على مابيده ، وإلا كنت فعلت معه ما يستحقه .

ذكر وفاة المولى السعيد المرحوم عز الدين رضي الله عنه

توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب في السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، فلما وصل خبر وفاته إلى الموصل ، إلى المولى المرحوم عز الدين رضي الله عنه ، جمع من يرجع إلى رأيه واستشارهم في الذي يفعله ، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات رحمة الله عليه ، بالاسراع في الحركة وقصد البلاد الجزرية فإنها لا مانع لها منه ، فقال مجاهد الدين قايماز : ليس هذا برأي أننا نترك وراءنا مثل عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين صاحب الجزيرة ، والملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل وذسير ، إنما الراي أننا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون فقال أخي : إن كنتم تفعلون ما يشيرون به عليكم ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون الا هذا لأنهم لا يؤثرون

حركتكم ولا قوتكم ، إنما الرأي أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ويعلمهم أنه على الحركة ، فليس فيهم من يمكنه يخالف خوفا أن يقصد ولايته ، لاسيما إذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام ، فهم لا يشكون أنه يملكها سريعا ، فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الانسان يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت افعاله ، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة اقدم ، وان كان العكس احجم ، فظهرت امارات الغيظ على مجاهد الدين ، فسكت أخي لانه كان هو المخدم الجميع على الحقيقة والحاكم فيهم ، واتبع المرحوم عز الدين - قدس الله روحه - قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل عدة شهور يراسل المذكورين ، فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال غير أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما ، فالى ان انفصل الحال ، وصل الملك العادل ابي بكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك ، وجاءته العساكر من دمشق وحلب وحمص وحماة ، وامتنعت البلاد به .

وسار المرحوم عز الدين عن الموصل الى نصيبين ، وقد ابتدأ به اسهال بنزيف ، فوصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وعماد الدين ، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان يقصدون الرها ، فأرسل الملك العادل حينئذ يطلب الصلح ، وأن تكون البلاد الجزيرية : الرها ، وحران ، والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من المرحوم عز الدين فلم يجبه الى ذلك ، وقوي المرض به بتل موزن واشتد إلى أن عجز عن الحركة ، فعاد الى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر ومعه مجاهد الدين وأخي مجد الدين ، وترك سائر العساكر مع أخيه عماد الدين ليفصل الحال ويقرر الصلح مع الملك العادل ، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديد ، فأحضر أخي كتب وصيته ، ثم سار الى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال ، وبقي كذلك إلى أن توفي سابع وعشرين شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولم اسمع عن أحد من الناس بمثل

حاله في مرضه ، فإنه كان لا يزال ذاكرا الله تعالى ، حتى إنه كان إذا تحدث مع انسان يقطع حديثه مرارا ويقول : أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وأشهد (ان محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله) وأشهد ان الموت حق (وعذاب القبر حق ، وسؤال منكر ونكير حق ، والصراط حق ، والميزان حق) (١٣٠) وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من القبور ويقول لمن يخاطبه : اشهد لي بهذا عند الله تعالى ثم يعود الى حديثه ، وأحضر عنده من يقرأ القرآن ، فلم يزل كذلك الى ان توفي رضي الله عنه . وأصاب الناس من رعاياه كلهم بموته فجيعة لم يصبهم مثلها ، وأظهروا من الغم والحزن مالا كان يظنه احد ودفن بالمدرسة التي انشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة . وكان عمره (١٣١). .. وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر . وكان اسمر ، مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضين . وحكى لي والدي ، قال : هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه . وكان ربعة اذا مشى ، فإذا ركب لم يعله احد .

ذكر شيء من سيرته رحمه الله تعالى

كان رضي الله عنه لين الجانب ، كريم الاخلاق ، كثير الاحسان الى الناس ، يتعهدهم بالنفقات والسؤال عن أحوالهم ، لاسيما من يعلم أن له خدمة متقدمة في دولتهم ، فإنه كان يعظمه ويحترمه ويعلي محله ، فمن ذلك أنه كان في دولته الامير بهاء الدين علي بن الشكري ، وكان رجلا كبيرا له خدمة سالفة ـ فكان يبالغ في احترامه إلى حد أنه كان إذا لعب معه بالكرة ، يعطيه من دوابه الخاص ما يركبه ويلعب عليه . ومن ذلك أيضا ، انه لما عاد من حصار الجزيرة العمرية سنة سبع وثمانين ، فلما وصل إلى الموصل أمر أن لا يدخل أحد إلى البلد ، ونزل هو في المغرقة في الكشك الذي

بالميدان ، ونزل الناس متفرقين . وكان في جملة الواصلين معه ، أخي مجد الدين رحمهما الله تعالى ، وكان ينزل بالقرب منه ، فنصبت خيمة أخي بزاوية الميدان من داخله ولم يدخل الموصل ، فخرجت أنا إليه أبصره ، فركب المرحوم عز الدين رضي الله عنه فرأى الخيمة ، فاستدعى أخي وقال له : أرى خيمتك ههنا ؟ قال: لأنك رسمت أن لايدخل أحد قال : الا أنت ، فإن والدك اثير الدين له مدة ما رآك ، ولا شك إنه قد اشتاقك ، فتدخل إليه وتسلم عليه وتسأله الدعاء ، ولاتجيء الينا الى ثلاثةايام ، فامتنع من ذلك ، وقال : انا ابصره واعود إلى الخدمة ، فلم يرخص له في ذلك ، وألزمه بقصد والده والاقامة عنده ، فأنظر إلى هذا الرفق واللطف الذي لا يفعله الانسان الا مع أهله لا سيما الملوك .

وكان رحمه الله تعالى حييا كثير الحياء ، كما قيل ، أشد حياء من العذراء في خدرها ، لم يحدث أحدا قط إلا وهو مطرق ، فمن حيائه أنه أمر طائفة من عسكره بالتجهيز للغزاة ، وكان فيهم مملوك لم يكن له محل ، إنما هو بمفرده ، فحضر في خدمته وقال : لي مهم أريد أقوله ، فأذن له في القول ، فقال : بلغني انني في جملة العسكر المسير إلى الغزاة ، وعجب من مولانا كيف يسمح بمثلي ويرسلني ويبعدني عن خدمته ، ولا شك أن المولى لا يعرف محلي ، وإلا فما كان أمر بذلك . فقال له : صدقت ، مثلك لا ينبغي أن يفارقنا مع علو محلك وارتفاع قدرك فلما خرج من عنده أظهر الانكار ، وقال : قد صار مثل هذا المدبر المنحوس يقول لي هذا القول ، ومن هو وما محله وقد سيرنا في هذه الغزاة جماعة من أكابر الأمراء ، أليس له بهم أسوة . فقال له بعض الحاضرين : لم لا أمر المولى بتأديبه واقامته من خدمته ، وكيف استمع حديثه ؟ فقال : استحيت منه ، فقالوا: أفلا تؤدبه وتعرفه ذنبه ؟ فقال : قد أحسن الظن بنفسه فلا نعاقبه عليه .

وكان رحمه الله تعالى رفيقا رقيق القلب ، كثير الرحمة لرعيته ، حكى عنه اخي مجد الدين رحمه الله تعالى ، انه ركب يوما

فقال له ولمن معه : إنني هذه الليلة ما نمت الى سحر ، فقـالوا له : وما سبب ذلك ؟ قال : كنت سمعت أن ابـن فـلان مـريض ـ وذكر انسانا بائعا ، بـالموصل ـ فلمـا كان الليلة سـمعت صـوت مأتم ، فظننت أنه تـوفي فضـاق صدري ـ وكان بلغني بانه ليس لأبويه غيره ـ فشق ذلك علي ، وقمت مـن الفـراش الى أطـراف السطح ، لعلي أعلم مـن هـو الميت ، فـطال الأمـر الى ثلث الليل الأخير ، فقلت : لم أعذب نفسي ، فأرسلت خادما وفتح أبواب الدار وأرسل من الاجناد من يستعلم لنا من الميت ، فعاد وذكر انه شخص لم أعرفه ، فحينئذ نمت ، فاعجب لهذه الشفقة والرقة على رجل من الرعية ليست له صحبة ولا خدمة .

قال: وكان رحمة الله عليه دينا خيرا ، قد ابتنى في داره مسـجدا فيخرج اليه في الليل ويصلي فيه أورادا كانت له ، ولبس فـرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي ويصلي بهـا ، وكان قـد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور ، وكان من الصالحين.

وكان رضي الله عنه يقوي يد من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. كان بالموصل رجل من الفقراء الاخيار من بـاجبتري(١٣٢) اسـمه حرب ، فكان كثيرا ما يأمر بـالمعروف وينهـي عن المنكر ، فـاجتاز يوما على الجسر فلقي دوابا تحمل الخمر لانسان هـو اقـرب الناس الى المرحوم عز الدين واخصهم به ، فالقاه الفقير عن الدواب واراقة بعد ان ضرب ، فبلغ الخبر اليه ، فأحضر الفقير وامره بازالة جميع مـا يراه مـن المنكرات واطلق يده ، وانكر على ذلك الأمير وامـره باحضار غلمانه الذين ضربوا الفقير ، فبعد الجهد ان تركهم.

وكان رحمه الله تعالى يأمر بـالانتصاف مـن اقـرب الناس اليه واعظمهم منزلة عنده ، ويقوي يد صاحب الحق ، فمـن ذلك انه كان بالموصل انسان من اعيان الدولة ، وهـو مع ذلك يتولى امر الخـاتون والدة المرحوم رضي الله عنه ، وله بها اعظم جاه واعلى منزلة ، ولها

به اتم عناية واكثر حماية لقديم خدمته ، وكان له قرية تجاور قـرية الانسان عجمي مقيم بالموصل ، فـأخذ شـيئا مـن ارض قـرية العجمي ، وطال النزاع بينهما ، ففي بعض السنين جاء الى الموصل واعظ ، فأحضره المرحوم عز الدين بـداره ليعـظ عنده ، وامـر ان لايحجب احد ، فاجتمع عالم كثير ، فتـكلم ذلك الواعظ ، فقـام ذلك العجمي وصاح واستغاث وبيده رقعة يشكو بها حاله ، فأمر السعيد عز الدين بالجلوس الى ان يفـرغ المجلس ، فلمـا جلس ، واحضر القاضي وامره بالحكم بمقتضى الشريعة المطهرة فحكم بينهما ، فظهر الحق للعجمي ، فأمر الحاكم بالاسجال له والاثبات لحقه والاشـهاد عليه به ، وارسل معه اوصل حقـه اليه واسـخط والدتـه في اتبـاع الحق.

وكان رضي الله عنه حليما ، فمن حلمه ، ان انسانا فقيرا من اهل الموصل من اصحاب الزوايا بـظاهر البلد ، لما وصـل صـلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل محاصرا بها(١٣٣) اجتمع به واكثر التردد اليه واخذ صلته ، وقال: ما تحتمل الملوك بغضة الى احد ، فلمـا عاد صلاح الدين ، احضر المرحـوم عز الدين هـذا الفقير واذكر عليه ، وامر بتخريب زاويته ، ثم احضره بعد ايام واعتذر اليه واسـتحله ، واعطاه مائة دينار وامره بتجديد زاويته ، وقال: أن أردت شيئا أخر ذلـــنه

اك ، فعمر غير زاويته وأكبر منها وأحسن ، وغرم عليهـا جملة وافرة ، وكلما فرغ بالنفقة أنفذ له شيئا آخر الى أن فرغت ، وكان بعد ذلك يتردد إليه ويزوره ويواصـله بـالعطاء ، وكان يتـردد إلى الصالحين ويزورهم ويصلهم .

قال : وهو الذي ابتنى المدرسة الغربية بباب دار المملكة ، وهـي مدرسة حسنة ، جعلها للفريقين الحنفية والشافعية ، وقرر الفقهاء ماليس بمدرسة أخرى من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والاعياد والشيرج للوقود والفحم وغير ذلك ، وقـرر في وقفهـا مـن

الصدقات كل أسبوع وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئا كثيرا .

وهو الذي فتح الباب الغربي في الموصل - وهو بين باب كندة وباب العراق - ولم يكن هناك باب فجاء حسنا ، وانتفع به أهل ذلك الصقع .

في ذكر ملك ولده السعيد نور الدين بن عز الدين ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي

قد ذكرنا عود المرحوم - قدس الله روحه - من تل موزن مريضا وانه كتب وصيته بنديسر ، وكان في جملة الوصية أنه أوصى بالملك لولده المولى نور الدين أرسلان شاه ، قدس الله روحه ، وأوصى بغير ذلك ، وكان الوصي فيها مجاهد الدين قايماز ، رحمه الله تعالى .

فلما وصل الى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه شرف الدين بن قطب الدين مودود يطلب أن يجعل الملك له ، وأرسلت أيضا والدته الخاتون في المعنى وبالغت ، لأن شرف الدين أيضا ولدها ، وجمعا لهما جموعا وجندا ، وأظهر شرف الدين أن أحدا لايقدر يملك الموصل معه ، وحدث نفسه بشيء وظنه حقا (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (١٤٣)) وقال شرف الدين : ان ملكني أخي بعده ، والا أثرت فتنة في البلد وأخذته قهرا فان عجزت سرت الى الملك العادل بن ايوب ، وأرعد وأبرق ، وكان عمر المولى المرحوم نور الدين - قدس الله روحه - حينئذ نحو عشرين سنة ، وهو

ينظر إلى عمه ويظنه يفعل مايريد وكان الملك العادل سيف الدين بـن أيوب حينئذ قد نزل نصيبين ، فلهذا قوي جنان شرف الدين ظنا منه أن أخاه يملكه اذ هو كبير (البيت(١٣٥)) ليقوم برد العادل عن نصيبين ، فخاب ظنه فقال عز الدين لمجاهد الدين ليحلف الناس لولده نور الدين ، وقال : أخاف ان أموت وليس لكم ملك مستقل بالملك ، والعادل في البلاد ، فيحدث ضرر لايمكنكم تلافيه ، فلم يقدم مجاهد الدين على ذلك خوف الفتنة ، وكان يحب السلامة ، فأرسل الى شرف الدين يأمره ويشير عليه بأن يحلف لولد أخيه ووعده الزيادة (والاقطاع) فلم يجب الى ذلك وتهدد وقال ، فتوقف مجاهد الدين في تحليف الناس ، ثم إن المرحوم نور الدين ، رضي الله عنه ، أرسل إلى أخي مجد الدين ـ رحمه الله ـ مع خادم لوالده ، وهو أمين الدين يمن ، يطلب منه أن يشير على مجاهد الدين بتحليف الناس له وترك التواني فيه ، ووعده الزيادة والاقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل إليه معه خاتما ، فرد الخاتم ، وقال : خاتم المولى إنما يعطى على بلاد ، وأما هذا الامر اليسير فهو أحقر من أن يؤخذ عليه خاتمه ـ وكان أخي هو الذي يصدرون عن رأيه على ماشاهده الناس ـ وأما مارسمت به فأنا مشدود الوسط فيه ولايشكرني المولى على هذا ، فإنني افعله خدمة لوالدك الذي أنا في خدمته اذ هو هكذا يريد ، ولو اراد غيره لاتبعته ولم يبد مني الا مايوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث ارادة والدك موافقة لارادتك فاذا خدمت خدمة وافقت الغرضين ، وأماما وعدت به من انعام وزيادة مرسوم ، فليست لي رغبة في شيء من هذا ، فلي من نعمتكم مايفضل عني ، ثم ركب من

وقته واجتمع بمجاهد الدين بالقلعة فرآه مفكرا ، فشكا اليه مجاهد الدين وقال : هذا شرف الدين يريد الفتنة والمولى عز الدين يريد ولده ، والعادل بنصيبين ، والفتنة قد رفعت راسها ، فبينما هما في الحديث ، واذا قد جاء قاصد من المرحوم عز الدين يقول لمجاهد الدين : قد ضجرت مما اقول لك لتحلف الناس لولدي وأنت تهمل الامر والعدو بالقرب منكم وانتم بغير سلطان ، وانا فما أظن أنني

أعيش يوما آخر فما تنتظر ؟ فتضجر مجاهد الدين ، وأعاد ماكان يقوله لأخي من الشكوى فقال له أخي : أنت تفعل هذا جميعه بنفسك وبالدولة ، معك ولو شئت لم يكن منه شيء ، والرأي أن تأمر باحضار الأمراء ، وأرباب المناصب ، والمقدمين ، وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، فاذا فعلت هذا ، حينئذ يندم شرف الدين وما عسى أن يفعل ، وإن بدا منه مايخالف هذا ، أخذناه قهرا ووكلنا به ، ومهما الأمر على هذه الحال بغير يمين لنور الدين ، ولايركب ليراه الناس ، ويعلموا أن لهم سلطانا ، لانزال مع شرف الدين مصدعين فأمر مجاهد الدين باستدعاء الجماعة الذين ذكرهم أخي فحضروا ، وحلفوا بالنسخ التي كتبها أخي - رحمه الله - لهم ، وحلف مشايخ المحال وعرفاء الاسواق فسمع من جمعهم شرف الدين فخافوا وتفرقوا عنه ، فأرسل الى مجاهد الدين يعاتبه حيث حلف الناس قبله ، وقال : أردت أن أخدم المولى نور الدين واتولى القيام بأمره ، ثم ان مجاهد الدين ركب السعيد نور الدين من الغد في موكب والده ، وحمل السنجق على رأسه ، ومشى مجاهد الدين في ركابه راجلا قد حمل الغاشية ، فلم يلبث المرحوم عز الدين بعده غير يومين حتى توفي رضي الله عنه وأرضاه ، واستقر السعيد نور الدين - قدس الله روحه - ولم يتغير بالناس حال ، ورعى هذه الخدمة لأخي رحمه الله تعالى ، فكان عنده واحد دولته ، والمرجع الى قوله ورأيه ، ولم يزل كذلك الى أن فرق الموت بينهما رضي الله عنهما .

-٦٥٩٢-

ذكره وفاة عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود .

وفي (المحرم(١٣٦)) من سنة اربع وتسعين وخمسمائة ، توفي الملك العادل عماد الدين زنكي بن السعيد أتابك قطب الدين مودود بن الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر رضي الله عنهم ، صاحب سنجار ونصيبين والخابور وقد تقدم كيف ملكها ، وكان عمره ٠٠٠(١٣٧)وولي بعده ابنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده ، مجاهد الدين يرنقش ، وكان دينا خيرا ، الا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعي رضي الله عنه ، يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، فمن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنيفة بسنجار ، وشرط ان يكون النظر في وقوفها الى الحنفيين من أولاده دون الشافعيين وهذا غاية التعصب .

ذكر ملك السعيد نور الدين مدينة نصيبين

في (جمادى الاولى) (١٣٨) من سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، سار المولى السعيد نور الدين ارسلان شاه الى مدينة نصيبين – وهي لقطب الدين ابن عمه عماد الدين – فملكها ، وسبب ذلك ان عمه عماد الدين زنكي ، رحمه الله ، وكان له نصيبين ، فتطاول نوابه بها ، واستولوا على عدة قرايا من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل ، وهي مجاور ولاية نصيبين .

فبلغ الخبر الى مجاهد الدين قايماز ، فلم يعلم مخدومة نور الدين الخبر ، لما يعلم من علو همته وابائه فخاف أنه ربما حمله الغيظ على أن يبدو منه مايوجب اختلافا بينه وبين عمه ، فأرسل

من عنده رسولا الى عماد الدين في المعنى وقبح هذا العمل ، وقال:
لا شك أن النواب قد فعلوا بغير أمره ، فأعاد الجواب : انهم لم يفعلوا (الا) ماأمرتهم به ، وهذه القرايا هي من أعمال نصيبين ، ولم يعدها ، فرد مجاهد الدين برسالة ثانية يقول له : ماتساوي هذه وأضعافها أن تخرج ولدك نور الدين عن يدك ، فانه الى الآن ماخالفك في شيء ، وما أعلمته بهذه الحال لعلمي أنه لايصبر عليها ، وليس هو مثل والده ، إن علم يخرج الأمر عن يدي ولاأقدر أمنعه ، فلم يلتفت عماد الدين فحينئذ أنهى مجاهد الدين الحال إلى السعيد نور الدين ، فغضب لذلك وأنكر حيث لم يعلمه أولا وقال : وهذا هو الذي أطمعه ، ثم أحضر أميرا من مشايخ دولتهم ، يقال له بهاء الدين علي بن الشكري ممن خدم الشهيد رضي الله عنه ، وأرسله إلى عماد الدين يقول : قد بلغني كذا وكذا ، وأن مجاهد الدين راسلك مرتين ولم ترد ملكنا إلينا ، فلو أنك أرسلت تطلب جميع الولاية وغيرها لكان أحب الأشياء الي ، وأما بأن تأخذ مني قرية واحدة مراغمة لي واطراحا لجانبي فلا أصبر على هذا ، فتأمر بإعادتها قولا واحدا

فمضى الرسول فأدى الرسالة وعماد الدين قد مرض ، فاغتاظ من ذلك وامتنع من الاجابة ، فقال الرسول من عنده نصحا له ، واشار عليه بالمصلحة ، لأنه كان عند جميع البيت الشريف الاتابكي مقبولا، فلم يصغ الى قوله ، وقال ماجرت العادة أن تقوله المرضي ، فعاد الرسول الى الموصل وأخبر مجاهد الدين جلية الحال ، فأمره أن يكتم مايغيظ نور الدين ، فلم يفعل وحكى للمرحوم نور الدين جلية الحال ، فغضب وعزم على المسير الى نصيبين وملكها ، ومجاهد الدين يمنعه فتوفي عماد الدين والحال على ذلك فجلس للعزاء .

ثم أرسل إلى قطب الدين محمد بن عماد الدين في المعنى ، فلزم ماكان والده عليه ، فسار حينئذ نور الدين عن الموصل إلى نصيبين ، فلما سمع قطب الدين سار عن سنجار في عساكره فسبقه

اليها ونزل بظاهرها ، وعزم على منعه من النزول عليها ومن محاصرتها ، فلما وصل نور الدين ، لم يعبأ بقطب الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينه وبين قطب الدين نهر ، فلما قرب نور الدين (من) النهر ، عبر الأمير فخر الدين عبد الله بن عيسى المهراني النهر – وهو من أكبر الامراء النورية – وقاتل من بازائه ، فلم يثبتوا له ، وعبر العسكر النوري وقد تمت الهزيمة على قطب الدين ولم يقاتله غير فخر الدين عبد الله ، واحتمى هو ونائبه مجاهد الدين يرنقش وغيرهما بقلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى ديار بكر ، ثم منها الى حران .

وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها – وكان بدمشق – وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد اليهم نصيبين ، وأقام أتابك نور الدين بمدينة نصيبين ، فمرض كافة أمرائه وأكثر عساكره فعادوا إلى الموصل وتوفي أكثرهم ، وأقام هو بنصيبين وقد تضعضع العسكر بعود الامراء وكثرة الأمراض . ووصل الملك العادل إلى الديار الجزرية ، فحينئذ فارق السعيد نور الدين نصيبين وعاد إلى الموصل لاستيلاء المرض على كافة العسكر وعودهم ، فلما فارقها تسلمها قطب الدين بن عماد الدين .

وتوفي جماعة من الأمراء المواصلة ، منهم عز الدين جورديك وفخر الدين عبد الله بن عيسى ، وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم المهرانيان وظهير الدين (يولق) (١٣٩) بن بلذكري الدكزي ، ومجاهد الدين قايماز ، وجمال الدين محاسن وغير ذلك من ذكرنا ، وأما من هو أقل من هذه الطبقة فلا نطول الكتاب بذكرهم فهم كثير .

ولما عاد المرحوم نور الدين الى الموصل ، قصد الملك العادل بن ايوب قلعة ماردين فحصرها واستولى على ربضها ، وحصر القلعة

وضيق على من بها ولم يبق غير ملكها ، فأنقذها الله تعالى على يد نور الدين على ماننذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى

في (ربيع الأول)(١٤٠) من سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله تعالى بقلعة الموصل ، وهو متوليها والحاكم في الدولة الأتابكية النورية ، وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحجة من سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فأعيد الى ولايتها بعد الافراج عنه على ماذكرناه ، وبقي الى الآن . وكان اصله من القرادي من أعمال شبختان واخذ هو منها طفلا ، وكان عاقلا ، دينا ، خيرا ، فاضلا ، يعلم الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئا كثيرا ، الى غير ذلك من المعارف الحسنة ، وكان يكثر الصوم ، وكان يصوم رجب وشعبان ورمضان ، وشيئا من شوال ، وعشر ذي الحجة ، وعشر المحرم ، وكل اثنين وخميس ، والأيام البيض من كل شهر الى غير ذلك ، وكان له ورد يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة .

وبنى عدة جوامع منها الذي بظاهر الموصل ، وبني عدة خانقاهات ، منها التي بالموصل ، ومدارس ، وقناطر على الأنهار الى غير ذلك من المصالح ، ومناقبه كثيرة فلا نطول بذكرها لئلا نخرج عن ما قصدناه من الاختصار .

-٥٩٦-

ذكر ما فعله المرحوم نور الدين عفا الله بماردين

في سنة خمس وتسعين وخمسمائة في رمضان ، سار الملك السعيد نور الدين - قدس الله روحه - إلى ماردين لازاحة العسكر العادلي عنها وابقائها على صاحبها حسام الدين ، وكان سبب ذلك أن الملك العادل حصرها في العام الماضي على ما ذكرناه ، فبقي محاصرا لها أحد عشر شهرا ، فعدمت الاقوات وغيرها بها ، وأصاب أجنادها مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام ، ولم يبق غير الاستيلاء عليها ، فبينما الملك العادل يحاصرها ، إذ توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الديار المصرية ، وكان عسكره مع عمه الملك العادل على ماردين ، فلما توفي ، ملك بعده أخوه الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، وكان بينه وبين عمه نفرة قد ذكرناها في المستقصى .

فلما ملك مصر ارسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته والعود إلى مصر فعادوا ، فقل جمعه وعسكره ، إلا أن أهل ماردين قد ضعف من بها واستكانوا ، ولم ينفعهم قلة العسكر عليهم ، لأن الراجل كان كثيرا ويكفي في حصرهم .

ثم ان الملك الافضل أرسل الى السعيد نور الدين يطلب منه الموافقة على الملك العادل ، فأجاب إلى ذلك ، وخرج الافضل من مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه ، لأنه كان أخذها منه ، فلما سمع الملك العادل الخبر سار عن ماردين جريدة في نفر يسير إلى دمشق ليحفظها من الأفضل ، وترك ابنه الكامل محمد مع العسكر على ماردين يحاصرونها .

وبرز المرحوم نور الدين عن الموصل وسار إلى ماردين أواخر شعبان ووافقه قطب الدين ابن عمه عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين ، ووافقه ايضا معز الدين ابن عمه سيف الدين - وهو

بشرط أن يعطي خبزا يرضيه ، وحضر سـنقر المشـطوب ، وحلف وا شترط أن يرضي وحضر أيبـك الا فـطس رحمـه الله وا شـترط رضاه ، وحضر حسـام الدين بشـارة ، وحلف وكان مقـدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهـم بـل حلف هؤلاء التقرير ، ونسخة اليمين المحلوف بهـا مضمونها : إنني من وقتي هذا صفيت نيتي ، وأخلصت طويتي ، للملك الناصر مـدة حياتـه ، وإنني لاأزال بـاذلا جهـدي في الذب عن دولتـه بنفسي ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الافضل علي وورثتـه ، ووالله إنني في طـاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجـالي ، وأمتثـل أمـره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ماأقول وكيل .

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر ، وفي الثـانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمـر في أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقـاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكي ، ولم يكن عادته الحضـور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الافضل ، وأمـر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد وربما نهـب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشـيخ أبـي جعفر أمام الكلاسة ، وهو رجل صالح ليبيت بـالقلعة ، حتـى إذا احتضر رحمـه الله بـالليل حضر عنده وحـال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعـل ذلك ، ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة على حـال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقـرأ عنده القـرآن ، ويذكره الله تعـالى ، وكان ذهنه غائبـا مـن ليلة التـاسع لايكاد يفيق إلا في أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى إلى قوله تعالى (هـو

صاحب جزيرة ابن عمر ، فساروا ، فلما وصلوا الى ماردين نزلوا اسفل جبلها ، وشرع نور الدين بجمع الرجالة ليزحف الى ربض ماردين ويقاتل العسكر العادلي من تحت ويقاتلهم أهل ماردين من فوق ، لعلهم يظفرون بهم ويزيلونهم قهرا ومكابرة ، مع تعذر الصعود في الجبل الى الربض ، إنما همته كانت عظيمة لا يعتقد انه يعجزه شيء . فاتفق ان العسكر العادلي نزل عن الربض الى قتال العسكر النوري ، ونزل الرجالة في الربض ليمنعوا القلعة من النزول ، فجاء امر لم يكن في الحساب ، فالتقوا واقتتلوا .

وكان قطب الدين صاحب سنجار قد واطأ العسكر العادلي على أن ينهزم بين أيديهم ولم يعلم بذلك احدا ، فقدر الله تعالى ، انه لما نزل العسكر العادلي واصطفت العساكر ، ألجأت قطب الدين الضرورة والزحمة الى ان وقف في شعب بجبل ماردين ، ليس اليه طريق للعسكر العادلي ، ولا يرى الحرب بينهم وبين العسكر النوري لينهزم ، وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له ، والتقى العسكران واقتتلوا واشتد القتال ، وكان السعيد نور الدين في القلب وإلى جانبه أخي مجد الدين على بغلة ، فقال له : في مثل هذا اليوم تركب بغلة ؟ فقال: الساعة نأخذهم برقابهم إن شاء الله تعالى ، فحمل العسكر العادلي على القلب النوري فزحزحوا عن موقفهم قليلا ، فقال أخي للسعيد نور الدين : تقدم قليلا ليراك الناس فيتقدموا وتشتد انفسهم ، فأخذ الرمح وحمل إلى المعركة ولم يشعر أخي به الا وقد حمل ، قال أخي : ولقد ندمت حيث قلت له ليتقدم حيث لم ينفعني الندم ، فحين رآه الناس قد حمل القوا نفوسهم على العادلية فأخذوهم باليد ، وانهزم الباقون مصعدين في الجبل الى الربض ، وحمل الأسرى الى بين يدي نور الدين ، فرأى فيهم أميرا من اعيان العسكر وهو مكشوف الراس ، فقام اليه واعتنقه ، وأخذ شيئا كان على رأسه فألبسه إياه بيده وأقعده إلى جانبه ، وأحسن الى المأسورين جميعهم ووعدهم الاطلاق إذا فرغوا من أمر ماردين .

وأما الملك الكامل والعسكر الذين معه ، فإنهم لما جنهم الليل

رحلوا عن ماردين ، فتقطعوا في ذلك الجبل وساروا نحو ميافارقين ، وأصبحت الارض منهم بلقعا لا أنيس بها ، واتى الخبر الى السعيد نور الدين رضي الله عنه ، فقال له بعض أصحابه ، اصعد الى الربض فليس دون ملك القلعة مانع لضعف من بها فتملكها صفوا عفوا ، ويكون هذا الموضع المثل : رب ساع لقاعد فقال : حاشا لله ان يتحدث الناس عني ان ناسا اعتضدوا بي واستنصروني فأغدر بهم ، ثم قال لأخي مجد الدين وهو عنده : ماتقول؟ فقال : الغادرون كثير ، وقد أودعت الكتب غدراتهم فهي باقية الى يوم القيامة ، وإنما لم يؤرخ عن أحد من الناس انه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وانعاما واحسانا . قال فقال لي : أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه الى ولايته وقراياه — وكان قد اقطعها للعساكر التي معه ، وأمر بكف أيديهم عنها وتسليمها إلى صاحبها — قال : فقلت له :إن اصحابنا لم يأخذوا درهما واحدا لتأخر ادراك الغلات ، فلو بقي الاقطاع بأيديهم إلى أن يأخذوا منها ما ينفقون منه على بيكارهم لكان مصلحة . فقال : لا نكدر انعامنا واحساننا اليهم ، ونحن نكفي اصحابنا . قال : فأرسلت الى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها وارسل اليها النواب ، وهذه سيرة لم يؤرخ عن أحد من الناس مثلها .

وكان في عزمه المسير إلى حران وما والاها من البلاد الجزرية للاستيلاء عليها ، فمرض وعاد إلى الموصل ، ولو سار اليها لملكها ، لأن الملك الكامل وعسكره لما فارقوا ماردين قصدوا ميافارقين لعلمهم ان السعيد نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفا منه .

-٦٦٠٠-

ذكر عوده رضي الله عنه الى بلاد العادل والصلح بينهما

قد ذكرنا فيما تقدم عود المولى السعيد نور الدين رضي الله عنه عن ماردين مريضا فلما وصل إلى الموصل بقي أياما ثم عوفي فلما قوي ، عاد وجمع عسكره وسار الى البلاد الجزرية التي بيد العادل في سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وعزم على حصرها ، وكان بها حينئذ الملك الفائز ولد الملك العادل ومعه عسكر كثير قد سيرهم والده اليه لحفظ البلاد من نور الدين ، فلما وصل الى رأس عين ، جاءته رسل الفائز ورسل من معه من أكابر الأمراء يرغبون في الصلح ويشيرون به ، فاقتضت المصلحة إجابتهم الى ماطلبوا فصالحهم على مابأيديهم ، وضمنوا ان يحلفوا له الملك العادل ، وحلفوا له على ذلك ، فأرسل الى العادل بالذي تقرر ، وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده فحلف له واتفقا واستقرت القواعد وامنت البلاد ، وعاد السعيد نور الدين الى الموصل

في ذكر حصر العادل مدينة سنجار وما فعله المولى نور الدين في حفظها وضبطها

في سنة ست وستمائة ، سار الملك العادل أبو بكر بن أيوب من الشام إلى سنجار في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر فحصروها ، وبها صاحبها قطب الدين بن عماد الدين - وهو ابن عم المرحوم نور الدين قدس الله روحه فأرسل قطب الدين ولده الى الخدمة النورية مستجيرا ومستنصرا ، ثم سار إلى إربل ، الى الملك المعظم مظفر الدين (كوكبري (١٤٣)) في المعنى ، فأرسلا إلى العادل يشفعان في أمر سنجار ويطلبان ابقاءها على صاحبها وترك التعرض إليها ، فاعتذر عن الاجابة ، وذكر لصاحبها ذنوبا

تقتضي قصده وحصره ، فجمع السعيد نور الدين عساكره ، ووصل إليه الملك المعظم مظفر الدين في عساكر إربل وشهر زور وأعمالها ، واجتمعا بالموصل بعد طول افتراق ، واتفقا بعد اختلاف ، ووثق كل واحد منهما بصاحبه وثوقا لامزيد عليه ، إلى حد أن مظفر الدين كان يبيت في قلعة الموصل ونور الدين بظاهرها في المعسكر ، وهذا غاية الائتلاف والاتفاق ، وعزما على المسير الى سنجار ولقاء العادل ومحاربته ، وانما منعهما عن ذلك ، أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله اعز الله سلطانه ، أرسل رسولا ، وهو بهاء الدين بن الضحاك استاذ الدار العزيزة في اصلاح الحال ، وناهيك بهذا شرفا وجلالة وقدرا لنور الدين عند أمير المؤمنين اذ ينفذ مثل استاذ داره العزيزة ليسعى في اغراضه ، فأشار بهاء الدين بترك الحرب ، وقال : اي الطائفتين انهزمت ، كان وهنا عظيما في الاسلام لا يجبر وخرقا لا يرقع ، فسمعا واطاعا ، وسار إلى سنجار واجتمع بالعادل ، وجرت أمور ، وترددت الرسل ، واستقرت القاعدة على الصلح وابقاء سنجار على قطب الدين فرحل العادل عنها .

ذكر وفاة المولى السعيد نور الدين قدس الله روحه

توفي المولى السعيد نور الدين - قدس الله روحه ونور ضريحه - في رجب من سنة سبع وستمائة ، وكان كثير الأمراض منحرف المزاج ، واختلف الأطباء في مرضه الذي توفي به . فقيل لوث مزاج ، وقيل قرحة وقيل غير ذلك . تنوعت الأسباب والداء واحد .

وكان رضي الله عنه قوي النفس في مرضه ، لم يغفل عن تدبير الملك وسياسته الى ان فارق الدنيا ، ولما اشتد مرضه انحدر في شبارة الى الحامة المعروفة بعين القيارة (١٤٤) فلم يجد بها راحة ، فأصعد الى الموصل فأدركه أجله ليلا قبل الوصول إليها ، وكان معه المولى بدر الدين فتاه ، فكتم موته من طبيب وملاح وخادم

الى ان وصل الى البلدفأدخله الدار ميتا وتركه بالمكان الذي كان فيه مريضا ، ووكل ببابه من يمنع من الدخـول إليه ، وأمضى في نهـاره ذلك ماكان وصاه به في طريقه الى أن توفي فلمـا فـرغ مـن جمعيه ، أظهر موته أخر النهار ودفن أول الليل بالمدرسة التي انشأها بباطن الموصل ، وقام في حفـظ البلد المقـام المرضي ، بحيث أن أهـل البلد الرجال والنساء باتوا يترددون عامة الليل الى الدار السلطانية ،فلم يفقد من أحد منهم المحبة الفرد . وا شتد الحزن عليه ، ولم يذفعهـم اشتراكهم في المصيبة بـــه ، لأنه كان رفيقـــا بهـــم ، مشــفقا عليهم ، ناظرا في مصالحهم . وأكثر الشعراء مراثيه وتأبينه .

قال فيه البليغ ما قال ذو العـ
ي وكل بوصفه منطيق

وكذاك العدو لم يعد ان
قال جميلا كما يقول الصديق

ولما توفي كان عمره (ثمانيا وثلاثين سنة (١٤٥)) وكان ملكه سبع عشرة سنة واحد عشر شهرا . وكان أسمر ، خفيف اللحية والعارضين بالمرة ، مليح الوجه ، وقد أسرع إليه الشيب .

ذكر شيء من سيرته

كان رضي الله عنه بعيد الهمــــــــــــة ، كبير النفس ، كريم الأخلاق ، حسن الصحبة مع مماليكه ، يمازحهم وينبسط معهـم ، كثير الاحتمال لما يبدو منهم ، فمن ذلك أنني أعلم أنه بقي عدة سنين يشكو من بعض أصحابه ويذمـه إلى أن قـال : ابتـلاه الله تعـالى بمخالفتي ، إن احببت انسانا ابغضـه ، وإن قـدمته أخـره ، وإن أعطيته حرمه ، ومع هذا جميعه ، فكان يحتمله ويحلم عنه ولا يظهر له شيئا من ذلك .

وكان رضي الله عنه يحلم عن نوابه ويتغافل عنهم مع علمه بحركاتهم وسكناتهم ، ولقد قال يوما لمن يثق اليه : ماأجهل هؤلاء نوابي ، يخدمني أحدهم وليس له شيء وعليه دين ، فما ينقضي عليه سنة حتى يوفي في دينه ويعمر الدور والاملاك ويرسل إلي يطلب أن يشتري مني قرايا ، ولو أن لهم عقلا ادخروا الاموال واشتروا بها أملاكا من غيري ، فإنهم يعلمون أنني أعرف أحوالهم قديما وحديثا ، ومع هذه المعرفة فكان يغضي عنهم كأنه لايعلم بشيء من أمرهم .

وكان – قدس الله روحه – كثير الاحسان الى رعيته والرفق بهم والقرب منهم ، سريع الانفعال للخير

حكي لي أخي مجد الدين رحمه الله تعالى – وكان غاية الخبر به – قال : ما قلت له في شيء قط من عدل وبذل مال أو غير ذلك من الصلاح ، فقال لا ، وحكي لي أيضا عنه قال :كنت معه في بعض اسفاره ، وكان له سردار بالموصل يكون معه مفاتيح داره ، فبلغه ان ولد السرداد قد سرق من داره شيئا ، فأرسل الي ليلا يأمرني أن اكتب كتابا الى الموصل بقطع يده ، فأعدت الجواب : إنني ماأكتب هذا الكتاب الليلة ، وإذا اجتمعت به غدا أعرفه ماعندي في هذا فأعاد ، مرة ثانية وثالثة وأنا امتنع من ذلك ، فاستدعاني ، فحضرت عنده فقال لي : لم لا تكتب كتابا ؟ فقلت له : عادتي معكم انني لا اكتب الا ما تجيزه الشريعة ، فقال لي : هذا سارق توجب الشريعة المطهرة قطع يده ، فقلت له : لا قطع عليه ، لأنه من غير حرز لأن المفاتيح بيده ، فعفا عنه .

ومن رفقه برعيته وتعطفه عليهم ، أنه كان له غلام قد خدمه قديما في صباه واوجب عليه حقا ، وكان يؤثر ان يقدمه ويفوض إليه أمرا ، فولاه ولاية الموصل ، فسلك مع اهلها سيرة فيها بعض الخشونة ، فكتب إليه بعض أهلها يذكر له شيئا مما يفعله هذا النائب فعزله ، وبقي مدة معزولا ثم حمله طول خدمته له على ان

ولاه غيرها ثانية ووصاه بالاحسان والرفق . فغلبت عليه عادته ، فعزله ثانيا ميلا في هوى رعيته واستمالة لقلوبهم وحفظا لهم ، ومن ذلك انه مرض مرضا شديدا غير مرضه الذي توفي فيه وعظم مرضه ، فكان الناس على طبقاتهم يحضرون كل يوم باب داره محبه له ، فبطلت معايشهم ، فكان يتكلف في بعض الأوقات العقود لهم ، ويأمر بادخالهم جميعهم إليه ففي بعض الأيام حضر أخي مجد الدين والناس على الباب مجتمعون ، فحين رأوا أخي استغاثوا وقالوا : نريد نبصر صاحبنا ، فلما دخل رآه وبه قوة ، فأشار عليه بالقعود لهم والانتقال الى مكان فسيح لكي أن يدخل إليه جميع الناس ، ففعل وتكلف الحركة واحتمل المشقة طلبا لرضاهم ، إذ علم انهم يؤثرون أن يروه .

وأما وقاره ، وهيبته في حركاته وسكناته وملبوسه فالى النهاية ، لم يكن يلبس إلا مالا يعيبه به أحد ، فلم يكن يلبس الذهب والحرير والألوان التي يستحسنها الشباب ، ولا يترك على دابته حلية من ذهب ولا غيرها ، بل ترك ما كان يسلكه غيره من قواعد السلطنة وألقاه تحت قدمه ونزه نفسه عنه أنفة منه .

وأما شجاعته ، فالذي ذكرنا من حاله يدل على غاية الشجاعة وقوة النفس ، وزيادة الاقدام ، ونحن نذكر ههنا نكتة ، وهي انه رضي الله عنه عزم على قصد بلاد العادل مما يليه ، وكذلك أيضا عزم الملك الظاهر بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، والسلطان غياث الدين وغيرهما ، كل منهم يقصد ما يليه منها ، فأقام العادل بحران ليكون في الوسط ليبادر الى من يسبق الى التقدم ، فاتفق ان السعيد نور الدين كان منحرف المزاج وزاد به ذلك ، فرأى مصالحة العادل فصالحه ، وكان العادل لا يزال يراسله سرا يستميله ، فلما تم الصلح بينهما سار العادل عن حران الى دمشق ، فقيل له لو اقمت حتى ينفصل الحال مع الباقين لكان جيدا ، فقال : ليس فيهم من يفكر فيه ، إنما الذي يخاف ويرجى هو نور الدين ، ومن عداه

فليس بشيء ، وسار ولم يقم فكان كما قال ، ليس فيهم من يحــرك (ساكنا) ومن ذلك أن العادل كان له ديار مصر ، والشام ، وديار الجزيرة وبلاد ارمينية ، وبعض ديار بكر وباقيها في طاعته ، ومعــه ايضا صاحب سنجار ، والملك المعظم صاحب إربــل ، ومعــز الدين صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان المرحوم نور الدين رضي الله عنه كل قليل قد انشب الحرب معهم ويقصد بلادهم ، فكان العادل بســببه لا يزال يستميل أصحاب الأطراف المجاورين لبلاده والأمــراء الذين في عسكره بمصر والشام ، ليســتعين بهــم عليه ، وخــوفا أن يميلوا إليه ، وبلغني ان العادل قال ـ وقد بلغه خبر حركته ـ : أي رجــل هو نور الدين ، أنا خصمه بهذه البــلاد جميعهــا وهــذه العســاكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معي عليه وقــد احــدقنا بــه مــن جميع جهاته ، ومع هــذا فــلا يقنع منابــالسلامة ، بــــل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله تعــالى أعاننا بــكثرة أمـــراضه لعجـــزنا عنه ، وبلغني أيضا أنه قال لما توفي السعيد نور الدين ـ قــدس الله روحه ـ : ذهب من كان يخاف ، ومــن ذلك أنه ذكر عنده يومــا ملك والده الســـعيد قلعـــة حلب ، وانه ســـلمها إلى أخيه عمــــاد الدين ، فقال : والله ما أذكر هذه الحال إلا أعجــب منهــا ، والله لو ملكتها لجالدت صلاح الدين بالسيف بباب مصر .

وأما علو همته

فمن ذلك ما فعله بماردين من انقــاذها مــن العســكر العــادلي وإبقــائها على صـــاحبها ، ولو أن ذا القـــرنين فعــــل ذلك لكان عظيما ، وما ذكرناه من طلب ملك البــلاد فمــن علو الهمــة وكبــــر النفس .

وأما عقله وحسن آرائه

فإليه النهاية : سمعت أخي مجد الدين رحمه الله غير مرة ، يقول : ليس عند هذا المولى نور الدين مثله ، والله إنه أعلم بالمصلحة من كل ما رأيناه ، ولقد رأيت كثيرا من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيهم اسرع إدراكا ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة خاطر . ولو رمت ذكر جياد آرائه لاحتجت الى كثير من الاوراق ، لكن المقصود التنبيه من كل خلق على بعضه .

وأما حسن عهده ومراعاته لحقوق خدمه ومماليكه في حياته

فأنا أذكر ما رأيته منه . فمن ذلك أن أخي مجد الدين – رحمة الله عليه – توفي سلخ ذي الحجة من سنة ست وستمائة ، فأرسل المولى المرحوم نور الدين – رضي الله عنه – إلي ذلك اليوم عدة مرار يقول : لا تخرجه إلى الجامع الصلاة عليه حتى اقول لك ، فإنني أريد أصلي عليه – وكان الزمان صيفا ، وكان رضي الله عنه ذلك اليوم غير طيب النفس وهو مدعوك البدن – فلما كان العصر وفتر الحر ، أرسل إلي يأمرني بحمله الى الجامع ، وانحدر هو فسبقنا ، فلما رأى الجنازة ، بلغني عنه انه بكي كثيرا وأظهر التأسف ، ولما قصدنا خدمته بعد ذلك اظهر لنا من الهم بسببه شيئا كثيرا ، وحملنا له ما جرت العادة وفيه سجادة الصلاة ، فرده وسألني عن شيء كان بلائه بنفسه ، فأومأت إلى السجادة ، فمد يده واخذها ، (حدث) هذا جميعه وهو شديد الوعك . ولم يزل بعد ذلك يزداد مرضا إلى أن توفي بعده بسبعة أشهر ، رضي الله عنه .

ومن محاسن أعماله المدرسة التي أنشأها بباطن الموصل مقابل

دار المملكة ، وهي أحسن المدارس ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفا على ستين فقيها من الشافعية ، سوى ما فيها من الصدقات الدارة والتعهدات الصوفية والفقراء .

ذكر ملك ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره

كان المولى السعيد نور الدين ــ قدس الله روحه كما نور ضريحه ــ قد عهد الى ولده المولى الملك القاهر العالم العادل المؤيد المنصور المظفر المجاهد المرابط عز الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، ناصر أمير المؤمنين ، ابي المظفر مسعود أعز الله سلطانه ، وأعلى شأنه ، ونصر جنده وأعوانه ، وخذل عدو دولته وأهانه .

وهذا دعاء لو سكت كفيته
لأني سألت الله فيك وقد فعل

قبل وفاته بعدة سنين ، لأنه كان يرى الدنيا بعينه ، ويسمع منها بأذنه ، ويستهل صعاب الامور منه ، ويستجلي بقربه ، ويستلذ نسم الهواء به ولم يزل في حجره ، وبين سحره ونحره ، فلما اشتد بالمرحوم المرض ، ورأى أن جوهر حياته قد استحال إلى العرض ، جدد العهود له ، وأمر بأخذ الميثاق على كافة الاولياء من الاجناد والأمراء والأعيان والأماثل والعلماء والافاضل .

ساد الملوك لسبع عشرة حجة
ولداته إذ ذاك في اشغال

قعدت بهم هماتهم وسمت به
همم الملوك وسورة الأبطال

فلمــا تــــوفي الســـــعيد رضي الله عنه وأرضـــــاه ، وأكرم نزله ومثواه ، قام مقامه ، وحفـظ مــن الملك نظــــامه ، وتـــلافى ذلك الفتق ، ورقع ذلك الخرق ، واقتفى اثر السعيد بــأبيه ، في كل مــا يذره

زاد على ماشاد آباؤه
به وقد شاد الذي أثلوه

اقصر كل الخلق عن شأوه
حسرى وطال الكل إذ طالوه

واضحت الدولة باسمة ، بعد أن كانت باكية ، وشاكرة ، بعد أن كانت شاكية ، ومستبشرة ، بعد ان كانت باسرة ، وعاودها بهاؤها وروعتها ، وفارقها عبوسها وروعتها .

ولما فرغ من وظيفة العزاء ، بذل من الأموال والتشريفات مــالم يسبقه مــــن مضى ولا يدركه مــــن هـــــوات ، عمـــــت الأمير والمأمور ، وشملت الصغير والكبير ، وأظهر من الجود ما عير على حاتم وكعب ، وحير كل ذي عقل ولب ، وهذا مـــوضع المثــل : ليس السرف في الشرف ، وحين استقر في الدست ظهر عليه من علو الهمة الى معالي الأمور ، ومحبة العدل في سياسة الجمهور ، ومن الغرام بمكارم الأخلاق من الحلم والسخاء ، والعفو والاباء ، مالم يجساره فيه احد الا وسبقه ثانيا من عنانه ، ولم يباره ملك الا وجاء ســـكيتا (١٤٦)في ميدانه ، واشتهر عنه من العدل مــالو رآه كسرى لعــاد خجلا يتعثر بأذياله ، ولاستتر حياء من وراء حجاله .

من كان ذاك ابوه كان لجده
ان يستطيل وأن يشاد بناؤه
من كان من نجل البدور ونجرها
لم يعدها إشراقه وعلاؤه

- ٦٦٠٩ -

ملك إذا افتخرت بآباء العلى
أولادها فخرت به آباؤه
من رام مشبهه سوى أسلافه
في المكرمات الغر خاب عناؤه
ملك الجلال فأشرقت لألاؤه
وحبى الجميل فأعرقت آلاؤه

ولو رمنا شرح مفردات محاسن أفعاله وحكم أقواله لطال الكتاب ، ولكنا نقتصر على حادثة واحدة يستدل بها على نظائرها ، وهي ، أنه ـ خلد سلطانه ـ جلس في دار العدل للانصاف ، والأخذ للضعفاء من الاقوياء والأشراف ، فحضرت امرأة عمياء ادعت أن بعض الملوك من عمومته ضربها ببندقية عند الجلابين رماها ، كانت سبب عماها ، فأمر باحضاره الى الحاكم وهو عنده ، فحضر وساوى خصمه وقيل له الدية أو القصاص ، فقام فزعا قد أيس من الحياة ، وهو لا يصدق بالنجاة ، فأرضى خصمه بمال بذله ، وعن القصاص استنزله ، فعادت الامرأة وذكرت انها قد رضيت وعفت عن حقها ، وهذه حالة لم يسمع بمثلها ، ولم يدون في كتب التواريخ عدلها .

يا ليت شعري من هذي مكارمه
ماذا ترى ببلوغ النجم ينتظر

أجرى الله على يده الشريفة كل صالحة ، ودفع عن حضرته العلية كل فادحة ، ووفقه للصواب في الأقوال والأفعال ، ولازال سلطانه قاهرا ، وفلك سعادته دائرا ، ولابرح جد عدوه عاثرا ، وذكره خاملا داثرا .

لما فرغ المولى السعيد المرحوم نور الدين أسكنه الله

جنانه ، وأفاض عليه عفوه ورضوانه ، وملا ضريحه روحه وريحانه ، من تقرير قواعد ولده المولى الملك القاهر أعز الله أنصاره ، أراد أن يشد ازره بمن يجعله له وزيرا ، وعلى ما فوض إليه من أعباء المملكة ظهيرا ، ليكون مدبرا لدولته ، وناظرا في مهام مملكته ، ونائبا عنه في ولاية رعيته ، فاعتبر خواصه وأولياءه ، ومماليكه وأصفياءه ، وكفاته وامراءه ليختار منهم من يكون أهلا لهذا الأمر الكبير ، وقيما بهذا الشأن الخطير ، فلم ير فيهم أقوم سيرة ، ولا أخلص سريرة ، ولا أتم وفاء ، ولا أعلى همة وأكثر سخاء ، ولا أغزر حياء ومروة ، ولا أغنى غناء ولا أعظم فتوة ولااحسن اصطلاحا ، ولا اكثر للحق اتباعا ، ولا أعدل منه احكاما ، ولا أعلم بما يكسب الدولة انتظاما ، من المولى الامير اصفهسلار الكبير العادل الكامل الاسعد المقبل بدر الدين (لؤلؤ (١٤٧)) عضد الاسلام وسيد الأمراء ، حسام امير المؤمنين اسبغ الله ظله ، واعلى محله ، وقهر عدوه وأذله .

أوحده الله فما مثله
لطالب ذاك ولا ناشد

ليس على الله بمستنكر
ان يجمع العالم في واحد

فحيث ، وجد ماكان ينشده ، وظفر بما كان يريده ويقصده ، تقدم إليه بخدمة ولده ، وحكمه في أمواله ورجاله وبلده ، ورأى أنه قد أسند هذا المهم إلى الولي الوافي ، وفوض هذه الزعامة إلى المخلص الكافي ، وقد كان - رضي الله عنه - يتفرس في هذا الأمير ، إستحقاق التقدم والتدبير ، فلم يزل يدرجه بين الطافه وكرامته ، وولاياته واقطاعاته ، من رتبة إلى اخرى هي أعلى منها مكانا ، وارفع شأنا ، الى أن ولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر .

ولما استأثر الله تعالى بالمرحوم ، قام في خدمة المولى الملك القاهر

مقاما يحمده عليه الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، والبادي والحاضر ، والمنجد والغائر ، ولقد جاء على حين فترة من الكرام ، وكثرة من اللئام ، فجدد من أعلام السيادة ما كان دارسا ، وأضحك من ثغور المروءة ماكان عابسا ، واختالت الدولة من حسن تدبيره اختيال العروس ، ورفلت من صائب آرائه في أحسن لبوس ، وافتخر به دهره على سائر الدهور .

إذا نحن اثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحه
لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني

هذه نبذة يسيرة من محاسنه تليق بهذا المختصر ، وقطره من بحر مكارمه تناسب هذا المعتصر، ولو أوردتها مفصلة لخرجنا عما اعتمدناه ، وتركنا ما قصدناه ، ونحن إن شاء الله تعالى نأتي على كثير من ذلك في المستقصى في التاريخ ، والله الموفق للصواب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم تسليما كثيرا .

حواشي ابن جبير

١ ـ كذا ... ن صاحب الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين بـن زنكي ، وصـاحب سـنجار أخوه ... ين زنكي الثاني . وتضبط معلومات ابن جبير على مـا أورده ابـن الاثير في البـاهر وع... جاء في المصادر الاخرى في موسوعتنا .
٢ ـ أي أصابه الهزال بسبب التبتل .
٣ ـ قطب الدين ايلغازي بن البي الارتقي ، تقدم ذكره في تاريخ آمدوميافارقين .
٤ ـ انظر المعجب لعبد الواحد المراكشي ـ ط . القاهرة ١٩١٤ ص ٤٠ حيث نسـبه للحسـن بـن رشيق .
٥ ـ أي الخنازير لاسيما الاناث منها .
٦ ـ أي برزت .
٧ ـ الملاك هنا : الزواج
٨ ـ سورة ص ـ الآية : ٤٢
٩ ـ مسوفة احدى قبائل المرابطين . انظر الحلل الموشية ص ١٧ .
١٠ ـ المقصود هنا مقبرة باب الصغير .
١١ ـ سورة الاسراء ـ الآية :٩٧
١٢ ـ كذا وهو وهم ، لان سميساط مدينة على شاطىء الفرات . معجم البلدان والسميساطي هو أبو القاسم علي بن محمد ، وكان من أعيان دمشق .
١٣ ـ نسبة الى الاحنف بن قيس التميمي الذي عاصر الامام علي وأوائل خلفـاء بني أمية وشـهر بالحلم .
١٤ ـ رشيدي نسبة الى الخليفة هرون الرشيد ، والجعفري نسبة الى جعفر المتوكل .
١٥ ـ عمري : نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
١٦ ـ كذا بالاصل .
١٧ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ١٥٥ .
١٨ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٩٠
١٩ ـ أي عمد تعريب كلمة Baptize
٢٠ ـ سورة طه ـ الآية : ١٢٧
٢١ ـ الرهو : السكون . القاموس

حواشي كتاب الباهر

١ - أضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق .
٢ - الاشـــارة هنا إلى عز الدين مســـعود صـــاحب الموصـــل (٦٠٧ - ٦١٥ هـ / ١٢١٠ - ١٢١٨ م) الذي حمل لقب القاهر .
٣ - صاحب الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م)
٤ - سورة الحديد - الاية : ٢١
٥ - المخشلب . قطع الزجاج المتكسر او الخزف . القاموس
٦ - الارض الجرز : التي لانبات فيها فهي مجدبة . النهاية لابن الاثير .
٧ - لم يذكر اسمه ولعله صاحب ملك نامة
٨ - كذا وهو شاذ لان المتداول : « جلال الدين » .
٩ - حصن كيفا ، وتمت معالجة هذه المسائل من قبل في الجزء الاول من كتاب المدخل .
١٠ - بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الاسفل . معجم البلدان .
١١ - هذا لقب رتبة بيزنطية عسكرية وليس اسما لعلم من الاعلام .
١٢ - بين بغداد والانبار . معجم البلدان .
١٣ - كورة من نواحي نيسابور . معجم البلدان

١٤ - كذا بالاصل وهو وهم صوابه حذف « من أولاد » كما تقدم معنا في الجزء الاول من المدخل .
١٥ - يرجح انه مات مسموما .
١٦ - طراز من بلاد ما وراء النهر ، وأيضا كاشغر ، وكذلك بلاساغون . معجم البلدان .
١٧ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين لابي شامة .
١٨ - التراقي نوع من أنواع الدمامل تظهر بالحلق .
١٩ - من غير المؤكد انه خطب لتتش بالسلطنة في بغداد بل انه رام ذلك وأخفق .
٢٠ - من أنواع القوارب النهرية .
٢١ - كان أنذاك علي بن طراد الزينبي ، وكان من أبرز شخصيات عصره .
٢٢ - المتاع الخاص من أقمشة وملابس .
٢٣ - السانية الناقة التي يستقى عليها .
٢٤ - الجندب : الجراد ، وصر : صوت وصاح شديدا . القاموس .
٢٥ - سورة الانفال - الاية : ٦٧ .
٢٦ - ديوان أبي تمام - ط . القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٢١
٢٧ - من أنواع المراكب النهرية .
٢٨ - هكذا سيذكره بعد أسطر .
٢٩ - سورة الانفال - الاية : ٣٢ .
٣٠ - اضيف ما بين الحاصرتين لاستقامة السياق ومنه .
٣١ - سورة الاحزاب - الاية : ٢٥ .
٣٢ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني ، قسم بلاد الشام ، ج ١ - ط دمشق ١٩٥٥ ص ٤٧٠ - ٤٧٣ مع فوارق
٣٣ - الميثرة : الثوب الذي تجلل بـه الثياب فيعلوهـا ، وهنا كهيئة المرفقـة تتخـذ السرج القاموس .

٣٤- أي في بلد دمشق .

٣٥ - بعرين الان (بارين) قرية تتبع ناحية عوج - منطقة مصياف ، محافظة حماه في سورية . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .

٣٦ - اي الرمح

٣٧ - من أيام معركة القادسية .

٣٨ - سورة الاحزاب - الاية : ٦٣ .

٣٩ - سورة ص - الاية :٣ .

٤٠ - سورة النساء - الاية : ١٢٠

٤١ - وقعت العمانية في شمالي الموصل وهي من أعمالها . معجم البلدان

٤٢ - مازالان تحملان الاسم نفسه في عراق اليوم .

٤٣ - انظر ما تقدم حول هذا الامر نفسه لدى المصادر السريانية ولدى ابن الازرق الفارقي

٤٤ - ابو تمام الشاعر .

٤٥ - ديوان المتنبي - ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢٧٣ .

٤٦ - أي يبطن أمرا ويظهر سواه .

٤٧ - سورة الاعراف - الاية : ١٤٩ .

٤٨ - سورة هود - الاية : ١٠٢

٤٩ - الخامع : الضبع .

٥٠ - سورة الاسراء - الاية : ٨١ .

٥١ - سورة النور - الاية : ٥٥ .

٥٢ - اضافة من السياق نفسه .

٥٣ - الزوزان كورة بين اخلاط واذربيجان وديار بكر والموصل معجم البلدان

٥٤ - اضافة مما نقله صاحب الروضتين كما سيمر معنا .

٥٥ - فاظ : مات . القاموس .

٥٦ - يوم الهباءة من ايام العرب قبل الاسلام بين عبس وذبيان . وكان البراض بن قيس من فتاك العرب قبل الاسلام وهو الذي تسبب بحرب الفجار . والحجاف هو ابن حكيم ، كان من فتاك العرب في الاسلام وهو الذي أوقع بتغلب يوم البشر . والجحاف هو سيل جحف كل شيء بمكة سنة ثمانين للهجرة .

٥٧ - على مقربة من الرقة عند موقع أبي هريرة .

٥٨ - نوع من الفطير المصنوع من السكر والفستق والزبد .

٥٩ - زيادة اقتضاها السياق .

٦٠ - بلد قريب من الرحبة . معجم البلدان .

٦١ - أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين .

٦٢ - مدينة على دجلة فوق الموصل . معجم البلدان .

٦٣ - بقعاء الموصل . انظر مادة الموصل في معجم البلدان .

٦٤ - سورة التوبة - الاية : ١١١ .

٦٥ - على مقربة من خانق الربوة خارج دمشق .

٦٦ - سورة الصافات - الاية : ٤٤ .

٦٧ - بين نصيبين وماردين . معجم البلدان

٦٨ - وقعت يغرى في منطقة العمق .

٦٩ - هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني ، من شعراء الخريدة - قسم بلاد الشام - ج ١ ص ٩٦ - ١٦٠ .

٧٠ - هو سعد بن محمد بن صيفي التميمي (ت ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م) انظر ترجمته في بغية

الطلب لابن العديم ـ ط . دمشق ١٩٨٨ ص ٤٢٦٢ ـ ٤٢٧١ . وقد طبع ديوانه في بغداد عام ١٩٧٤ .

٧١ ـ زيادة اقتضاها السياق ومنه اخذت .

٧٢ ـ لاتتوافق هذه التفاصيل مع الخبر المتقدم .

٧٣ ـ هذه الابيات لابن منير الطرابلسي ، انظر ديوانه ـ ط . طرابلس ١٩٨٦ ص ٢٠٨ ـ ٢١٤ .

٧٤ ـ ديوانه ص ٢١٥ ـ ٢١٨ .

٧٥ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص : ٢٩ .

٧٦ ـ سورة فاطر ـ الآية : ٤٣ .

٧٧ ـ انظر الخريدة ـ قسم بلاد الشام ـ ج١ ص ـ ١٥٧ ـ ١٥٩ ، هذا وجميع المواقع المذكورة في نواحي حلب .

٧٨ ـ السحل الثوب الذي لايبرم غزله او الحبل ، والامرار القوة والاحكام .

٧٩ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

٨٠ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢١٥ ـ ٢١٨ مع فوارق كبيرة .

٨١ ـ في الكامل ج ٩ ص ٣١ « سبع واربعين » ، وهو الاصح كما هو واضح من السياق .

٨٢ ـ كانت رئاسة دمشق آنذاك لرجال من آل الصوفي غالبا ما كانوا على غير وئام مع أمراء الدولة البورية .

٨٣ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي ص ٢٦٢ ـ ١٦٣ .

٨٤ ـ كذا وهو وهم ، فقد ظهر بنو منقذ اولا في كفر طاب ، وذلك مع بدايات تاريخ الدولة المرداسية ، ثم جاء الاستيلاء على شيزر مع سقوط حكم بني مرداس في حلب ، وسلف لي معالجة هذا كله في الجزء الاول من كتاب المدخل من موسوعتنا هذه .

٨٥ ـ قلعة لاترام في الجبال التي إلى شرقي الموصل . معجم البلدان .

٨٦ ـ أورد ابن الجوزي أخبار هذه الاحداث في كتابه المنتظم في حوادث سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وقد قمت بتحقيق كتاب المنتظم وهو قد شارف على الانتهاء طباعة .

٨٧ ـ محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد . معجم البلدان .

٨٨ ـ اليزك لفظ فارسي معناه الطليعة .

٨٩ ـ هي بحيرة قطينة الحالية .

٩٠ ـ أضيف ما بين الحاصرتين من الروضتين ومفيد مقارنة هذه المعلومات مع المواد التي ستمر معنا في نص البدر العيني .

٩١ ـ المشهور أن جيش الطواويس هو الجيش الذي أرسله الحجاج بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث للقتال ضد رتبيل صاحب كابل .

٩٢ ـ عم قرية بين انطاكية وحلب . معجم البلدان .

٩٣ ـ في منطقة صافيتا التابعة لمحافظة طرطوس قرية اسمها السويده ، تبعد عن طرطوس مسافة ٣٢ كم ، فلعلها المقصودة هنا .

٩٤ ـ ليس لواحد من هؤلاء ترجمة فيما وصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم الذي كنت قد حققته وطبعته في دمشق ١٩٨٨ .

٩٥ ـ واد بين مكة والطائف . معجم البلدان .

٩٦ ـ الاضافات من الروضتين .

٩٧ ـ تطلق العرب على فص الياقوت ، اسم جبله

٩٨ ـ ديوان ابن منير ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

٩٩ ـ المنيطرة حصن قرب طرابلس . معجم البلدان .

١٠٠ ـ سورة الأعراف ـ الآية : ٩٥ .
١٠١ ـ الدرفش : المخرز ، والدرسترك : منشار صغير .
١٠٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٢٦ .
١٠٣ ـ سورة الرعد ـ الآية : ٣٩ .
١٠٤ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٤
١٠٥ ـ سورة البقرة ـ الآية :٢١٦
١٠٦ ـ سورة النساء ـ الآية: ١١٩ .
١٠٧ ـ سورة الانعام ـ الآية : ٤٤
١٠٨ ـ قال هذا الخارجي الذي حاول اغتيال عمرو بن العاص فاخفق .
١٠٩ ـ سورة الأحزاب ـ الآية : ٢٥
١١٠ ـ في احواز بلدة نوى في حوران
١١ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
١١٢ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٤٩
١١٣ ـ الجنايات هنا ماكان يفرض من قبل السلطة من ضرائب وغرامات تاديبية
١١٤ ـ الكنهور : من السحاب قطع كالجبال ، او المتراكم منه ، والآل : السراب . القاموس
١١٥ ـ الاضافات من الكامل ج ٩ ص ١٠٩ .
١١٦ ـ الاضافة من الروضتين
١١٧ ـ بائع فقاع . والفقاع شراب يتخذ من الشعير .
١١٨ ـ الاضافة بين الحاصرتين من الروضتين .
١١٩ ـ التركش بالفارسية : الجعبة .
١٢٠ ـ قال هذا العماد في مطلع كتابه البرق الشامي ، انظر سنا البرق الشامي . ط . القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦ .
١٢١ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
١٢٢ ـ سورة الاسراء ـ الآية : ٥٨
١٢٣ ـ سورة الاحزاب , لآية ٣٨
١٢٤ ـ كان والد ابن المقدم هو الذي سلم من قبل سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م سنجار لنور الدين ، وذلك خروجا عن امر سيده صاحب الموصل .
١٢٥ ـ البرسام : علة يهذى . فيها . القاموس .
١٢٦ ـ الاضافتان من الكامل ج ٩ ص ١٤٨
١٢٧ ـ جاء هذا العنوان بالاصل مشوشا هكذا : « فصل في سبب قضية الذي جرت في ذكر القبض على مجاهد بن قايماز وماتبعه من الوهن » ولعل ما اثبتناه هو الصواب .
١٢٨ ـ بيشكاه فارسية معناها : صدر المجلس رئيس . ذو مقام عال .
١٢٩ ـ تل موزن بلد بين راس عين وسروج . معجم البلدان
١٣٠ ـ الاضافات من الروضتين .
١٣١ ـ بياض بالاصل
١٣٢ باجبارة : قرية على نحو ميل من الموصل الى الشرق منها . معجم البلدان
١٣٣ ـ حاصر صلاح الدين الموصل اكثر من مرة
١٣٤ ـ سورة الصف ـ الآية :٨
١٣٥ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من مفرج الكروب لابن واصل الحموي ج ١ ـ ط . القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٣ .
١٣٦ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٩ .
١٣٧ ـ فراغ بالاصل .

-٦٦١٨-

١٣٨ ـ اضيف مابين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠

١٣٩ ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٠

١٤٠ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٢٤٨

١٤١ ـ كان صاحب ماردين انذاك يولق بن ايلغازي بن ارتق . انظر الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ .

١٤٢ البيكار كلمة فارسية معناها الحرب والمحاربة .

١٤٣ ـ الاضافة من الكامل ج ٩ ص ٣٠١

١٤٤ ـ لعلها التي بين اسعرت وجزيرة ابن عمر . معجم البلدان .

١٤٥ ـ استخرج هذا الرقم تقديرا مما تقدم . فقد جاء مكانه بياض بالاصل .

١٤٦ ـ السكيت : آخر خيول الحلبة . القاموس .

١٤٧ ـ اضيف ما بين الحاصرتين من الكامل ج ٩ ص ٣٠٤

المحتوى

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٢)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الخامس عشر

دمشق

١٩٩٥ ـ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

١ ـ ابن شداد ـ سيرة صلاح الدين
٢ ـ سبط ابن الجوزي ـ من مرآة الزمان

دمشق ١٤١٥ / ١٩٩٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتمد السلطان صلاح الدين في ادارته لدولته على ثلاثة اعلام مدنيين ، كان أولهم القاضي الفاضل ، وثانيهم العماد الاصفهاني ، وثالثهم ابن شداد ، وأما القاضي الفاضل فكان لكل مهم ، وأما العماد فكانت اليه كتابه الانشاء ، وأما ابن شداد فكان قاضي عسكر صلاح الدين والفقيه الأول لديه ، وفقط القاضي الفاضل كان من اصل شامي وأما العماد فقد جاء - كما رأينا - اصلا من اصفهان . وتعرف صلاح الدين الى القاضي الفاضل في بداية صعوده السياسي في مصر ، ورأينا أن العماد عمل أولا في دولة نور الدين ، ثم التحق بصلاح الدين بعد وفاة نور الدين ، والتحق ابن شداد بخدمة صلاح الدين متأخرا بعض الوقت وعمر طويلا بعده .

ويلاحظ ان هؤلاء الثلاثة كتبوا بالتاريخ ، ومن المؤسف أنه لم يصلنا مماكتبه القاضي الفاضل سوى بعض النقول ، وماتزال رسائله مجموعة لم تنشر بعد ، ولا شك انها تحتوي على مواد ثمينة جدا .

وكتابات هؤلاء العلماء الثلاثة مضاف اليها مادونه سواهم من معاصريهم ، ولا سيما ابن ابي طي يحيى بن حميدة الحلبي هامة بلا حدود وتغطي عصر صلاح الدين بشكل ممتاز ، ويمكننا التعرف الى ابن شداد من خلال السيرة التي صنفها عن حياة صلاح الدين ومن خلال التراجم التي أعدها عن حياته معاصروه وتلاميذه ولا سيما ابن

خلكان ، وسنطلع فيما يلي في موسوعتنا هذه على ماكتبه ابن خلكان ، ولذلك سأكتفي هنا بتقديم عرض موجز عن حياته .

هو بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، شهر بابن شداد ، نسبة الى أخواله ، ولد بمدينة الموصل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م ، وفيها نشأ ونال علومه الأولى ، ثم التحق ببغداد لاكمال تحصيله بالنظامية ، حيث أعاد فيها مدة اربع سنوات ، ثم رجع الى الموصل ، حيث علا نجمة وبات واحدا من ابرز اعلامها .

وكنت اشرت في الجزء الأول من موسوعتنا هذه الى المكانة الرفيعةالتي احتلها علماء الدين الاسلامي لدى حكام السلاجقة ، ونظرا لهذه المكانة ولأن السلاجقة والأيوبيين بعدهم كانوا بالأصل أعاجم امتهنوا العمل العسكري ، فقد أخذوايكلفون العلماء بالمهام الدبلوماسية من سفارات ومفاوضات ، وبهذه الوساطة تعرف ابن شداد الى صلاح الدين أثناء الصراع حول ميراث نور الدين ولدى محاولة صلاح الدين احتلال الموصل ، وانتهى الصراع هذا ، وانصرف صلاح الدين بالامكانات الكبيرة التي توفرت لديه نحو جهاد الفرنجة ، فكانت حطين وتحرير القدس ، وبتحرير القدس أخذت اعداد كبيرة من المسلمين تقصد هذه المدينة المقدسة الصلاة في أولى القبلتين وثالث الحرمين ، وكان من هؤلاء ابن شداد ، فبعدما قضى فريضة الحج ، توقف في دمشق ، ثم توجه منها الى القدس ، وفي الطريق علم أن صلاح الدين قائم على حصار قلعة كوكب ، فعرج نحو معسكره لزيارته ، واستقبله صلاح الدين ورحب به وآنسه ، وكلف العماد الاصفهاني أن يطلب منه القدوم لزيارته ثانية بعد الفراغ من زيارة القدس ، وهذا ما فعله ، وهنا رغب إليه صلاح الدين الالتحاق بخدمته فاستجاب ، ورافق منذ ذلك الحين سلطانه العظيم — وشاركه الام حصار عكا والتصدي لما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومابرح معه حتى يوم وفاته ، فالتحق بعد أمد قصير بالظاهر غازي ابن صلاح الدين ، واسهم في ادارة شؤون مملكة

حلب والتعليم فيها ،عالي المكانة، عظيم الاحترام موفور الكرامة حتى توفي سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م.

وصنف ابن شداد عدة كتب نشر منها « دلائل الأحكام في الاحاديث الت استنبطت منها الأحكام » في أربعة مجلدات ، ومهم بالنسبة لي من كتبه كتابين هما الكتاب الذي نقدم له اليوم عن سيرة صلاح الدين واسمه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وكتاب في « فضائل الجهاد » صنفه لصلاح الدين ، أنا موعود بنسخة مصورة عنه ، وكان لكتب الجهاد وفضائل المدن ، لاسيما فضائل القدس أوسع الاثار على المسلمين في عصر الحروب الصليبية .

وفيما يختص بسيرة صلاح الدين ، هو أهم كتاب كامل وصلنا في بابه ، أهم مما كتبه العمادالاصفهانيلانه كتب بدون تكلف ولا صنعة كلامية ، فيه أمانة وبساطة نادرتين ، وفيه اعتدال وعقلانية المؤلف الذي كان هادئا عميق الايمان والتفكير ، يشير أحيانا الى نفسه والى أدواره ، لكن ليس من باب التبجح والدعاية للذات .

واتخذ ابن شداد في عرض مواده اسلوبا خاصا به ، استوحاه من الفراغ العظيم الذي نتج عن وفاة صلاح الدين ، واستهدف به احتذاء المثل الاعلى الذي ضربه صلاح الدين ، وكأنه بذلك كان يتوجه باللوم الى بني أيوب الذين عاشوا بعد صلاح الدين للملذات الفردية والصراعات الداخلية ، ومع أن ابن شداد رأى في صلاح الدين مثلا أعلى الحاكم المسلم الملتزم بعقيدته المنصرف نحو الجهاد وتحرير الارض ، الكريم بلا حدود والشجاع الصابر المتواضع بلا تكلف ، فانه لم يخترع شخصية بطله أو حاول صقل صورته ، بل دون الحقيقة لأن صلاح الدين كان عظيما مثلما وصفه ابن شداد لابل اكثر عظمة ، كان الابن البار لمثالية الاسلام ، وعلى عكسه تماما كان قادة الصليبيين ولاسيما أرناط وردشارد قلب الأسد ، وانها لمتعة حقيقية أن نقرأ في أيامنا هذه سيرة صلاح الدين ونستلهم منها.

وكنا فيما مضى تحدثنا عن المؤرخ الكبير ابـن الجـوزي ، ورأينا كيف ان دمشق نور الدين وصلاح الدين قـد جـذبت اليهـا علمـاء المسلمين في المشرق والمغرب ، وكان فيمن جذبته اليهـا مـن المشرق سبط ابن الجوزي شمس الدين -ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي وكان ابن الجوزي قد رزق بثلاثة أولاد وبعدد من البنات منهن واحدة حملت اسم رابعة ، زوجها أبوها المرة الثـانية ، بعـد وفـاة زوجها الأول ، من حسام الدين قزاوغلي بن عبد الله ، وكان تـركيا من مماليك الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة .

وكانت رابعة كأخواتها سمعت الحديث على أبيهـا وعلى غيره مـن المحدثين ، وأنجبـت ابنهـا يوسـف سـنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ولما ترعرع يوسف أخذه جده اليه وتكفل بتعليمـه ، فغدا أشبه الناس به ، لاسيما في مجال الوعظ والتـأثير الشـعبي ، وعندما غدا يوسف شابا يقارب العشرين من عمره ، كان جـده قـد توفي ، فقرر ان يفارق بغداد ويقصد بلاد الشام .

عندما نقرأ ذيل الروضتين لابي شامة سنلتقي مرارا باخبار سـبط ابن الجوزي ونشاطاته في بلاد الشام ، فهو قد حظي بمكانة رفيعـة بين علماء دمشق وأقبل الناس على على مجالس وعظه ، ونشأت له علاقات جيدة بابناء العادل الايوبي ولم تقتصر نشاطاته على الميادين العلمية ، بل جند جيشا من المتطوعة غزا به الأراضي التي كان يحتلها الفرنجة في فلسطين .

وجذب ميدان التاريخ اليه سبط ابن الجوزي فصنف فيه « مـرآة الزمان في تاريخ الاعيان » وقد سارفيه على خطة جده في المنتـظم ، بعرض المواد الاخبارية وفق طريقة الحوليات أخبار كل حـولية على حده أولا وبعد ذلك تراجم لوفيات تلك الحـولية ، ورأيت في مـكتبات العالم أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، ووضح لدي ان سـبط ابـن الجوزي كتب مؤلفه ـ أو بعض أجزائه ـ أكثر من مرة ، لذا تحتوي بعض النسخ على مواد اكثر من سواها ، وكنت قد صورت من هـذا

الكتاب قطعة كبيرة من المكتبة الوطنية في باريس فيها اخبار القرن الخامس للهجرة ، كما صورت من مكتبة احمد الثالث (٢٩٠٧ ـ ب) في استانبول الاجزاء التي تبدأ بأخبار سنة / ٣٠٠ هـ / وتنتهي مع نهاية الكتاب . وبودي لو أصور بقية النسخة هذه مع غيرها ، ومن ثم أعمل على تحقيقه ، لانه من اهم الموسوعات التاريخية وكتب التراجم بالوقت نفسه .

لقد أكثر ابو شامة من النقل عن سبط ابن الجوزي ، واختصر ابن تغري بردي مواد مرآة الزمان وبنى عليها كتابه النجوم الزاهرة .

واشرت قبل قليل الى وطيد العلاقات التي قامت بين سبط ابن الجوزي ، وأبناء العادل الايوبي لاسيما الملك الاشرف ، وأكثر منه الملك المعظم عيسى ، وكان أبناء العادل مثل سواهم من أفراد البيت الايوبي قد انشغلوا في صراعاتهم الداخلية ، ولم يتورع بعضهم عن الاستعانة بالفرنجة في هذا الصراع ، الذي تطور الى حد التضحية بمنجزات صلاح الدين والتخلي عن القدس للفرنجة الامر الذي كان له ردات فعل شديدة ، أفسدت العلاقات ما بين سبط ابن الجوزي والملك الاشرف ، فقد انتقد سبط ابن الجوزي الاشرف مع أخيه السلطان الكامل لتخليهما عن القدس وتسليمها للفرنجة ، وعد ذلك خيانة ، وبعد موعظة شديدة على منبر دمشق قال فيها : « انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، ياوحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الاماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك الاماكن من دمعة ، تالله لوصارت عيونهم عيونا لما وفت ، ولوتقطعت قلوبهم أسفا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، ياخجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات » . بعد هذه الموعظة افتى بشرعية قتال الكامل والاشرف لعقدهما صفقة تسليم القدس للامبراطور الالماني فردريك الثاني بشكل شائن .

واضطر سبط ابن الجوزي الآن الى مغادرة دمشق والالتجاء الى قلعة الكرك . حيث مكث فيها من سنة ٦٢٦ الى سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٢٩ ــ ١٢٣٦ م ، ثم رجع الى دمشق حيث مكث قليلا ، وأخذ يتردد ما بين دمشق والقدس والكرك ، ثم قصد مصر سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ، واقام بها حتى سنة ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، حيث عاد الى بلاد الشام ، فزار حماه لفترة وجيزة ثم رجع الى دمشق حيث توفي فيها سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م .

من يقرأ المنتظم لابن الجوزي يتيقن أنه كان شخصية بغداد الاولى في قرنه ، وكذلك فعل سبطه الذي اقتدى به بكل سبيل ، فكان شخصية الشام وشارك سبط ابن الجوزي السلطان العظيم صلاح الدين في اسمه واستعار منه لقبه « ابو المظفر » واستلهم سيرته وشجاعته ، فآثر مصالح الأمة على منافعه ، وفضل آخرته على دنياه .

ولا شك ان هذا الاستلهام مع المصداقية قد انعكسا على عمله التاريخي ومنحا لكتابه مرآة الزمان مكانة عالية ، وقام سبط ابن الجوزي مثل غيره من المؤرخين باستقاء أخباره ممن تقدمه من المؤرخين ، لاسيما من ابن القلانسي ، ومع هذا لديه بعض التفاصيل غير الموجودة لدى ابن القلانسي ، وغالبا ما حذقت نقوله عن ابن القلانسي كما وحذقت بعض الاخبار التي لاعلاقة لها بالحروب الصليبية وكذلك بعض ، لابل غالب التراجم .

أرجو من الله التوفيق والعون والسداد ، وله جلا وعلا الحمد والشكر والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين .

دمشق ٢٤ ــ ذي القعدة ــ ١٤١٥ هـ
٢٣ ــ نيسان ــ ١٩٩٥ م

سهيل زكار

كتاب

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي

تأليف

القاضي بهاء الدين بن شداد

ت ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من علينا بالاسلام ، وهدانا بالايمان الجاري على احسن نظام ، وانعم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الأولين عبرة لأولي الافهام ، وتقلبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام ، كيلا يغتر ذو جمال حسن ولاييأس من لعبت بأحواله أكف السقام ، واشهد إن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تشفي القلوب من لظى الأوام ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي فتح للهداية أبوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ببقاء الأيام .

وبعد فإني رأيت أيام مولانا السلطان ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان ، رافع على العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي سقى الله ضريحه ذوب الرضوان ، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الايمان ، قد صدقت من أخبار الأولين ماكذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روي من نوادر الكرام الأجواد ، وحققت وقعات شجعان مماليكها ماقدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان ، ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره في ذات الله ماقوى بها الايمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنها جنان ، وجلت نوادرها أن تحد ببيان لسان ، أو أن تسطر في طرس ببنان ، وكانت مع ذلك من قبيل لايمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولايسع المطلع عليها إلا أن تروي عنه أخبارها وأنباؤها ، ومسني من رق نعمتها ، وحق

محبتها وواجب خدمتها ، مايجب علي بـه إبـداء مـاحققت مـن حسناتها ، ورواية ماعلمت من محاسن صفاتها .

رأيت أن أختصر من ذلك على ماأملاه علي العيان ، أو الخبر الذي يقارب مظنونه درجة الايقان ، وذلك جـزء مـن كل ، وقـل مـن جل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير ، وسميت هـذا مـن مختصر تـاريخها (النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية) وجعلته قسمين أحدهما في مولده رحمه الله ومنشـئه وخصـائصه وأوصـافه وأخـلاقه المرضية ، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفية ، والقسم الثاني في تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك أيام حياته قدس الله روحه ، والله المستعان في الصيانة عن هفـوات اللسـان والقلم ، وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم ، وهو حسـبي ونعـم الوكيل .

القسم الأول في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله رحمة الله عليه

كان مولده رحمه الله تعالى على مابلغنا من السنة الثقات الذين تتبعوه حتى بذوا عليه تسيير مولده على ماتقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت .

وكان والده أيوب بن شاذي رحمه الله تعالى واليا بها ، وكان كريما أريحيا حليما حسن الأخلاق مولده بدوين ، (١) ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة ، وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترما هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي ، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدة ، فنقل ولده المذكور إلى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ، ولاحت لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى وعول عليه ، ونظر إليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة وذهابه إليها . وسيأتي ذكر بيان ذلك مفصلا مبينا أن شاء الله تعالى .

ذكر ماشهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية .

ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله وعليه وسلم انه قال « بني الاسلام على خمس : شهادة إن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، وفهم من ذلك مايحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء ، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع مايحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها للصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

وأما الصلاة : فانه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجملة ، حتى أنه ذكر يوما أن له سنين ماصلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الامام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح ، ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه ، ولقد رأيته قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما ، وماترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما الزكاة : فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ماتجب عليه به الزكاة .

وأما صدقة النفل : فإنها استرقت جميع ماملكه من الأموال فانه ملك ماملك ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة واربعين درهما ناصرية ، وجرما واحدا ذهبا ولم يخلف ملكا ولادارا ولاعقارا ولابستانا ولاقرية ولامزرعة ولاشيئا من انواع الأملاك .

وأما صوم رمضان : فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام ، وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ، ومع كون الصوم لايوافق مزاجه الهمه الله تعالى الصوم واقدره على ماقضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وانا اثبت الأيام التي يصومها لان القاضي كان غائبا ، وكان الطبيب يلومه وهو لايسمع ، ويقول : لاأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما مايراد به رحمه الله تعالى .

وأما الحج:إنه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل ، فقضى الله ماقضى ، وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام .

وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالما بعلم القرآن العظيم متقنا لحفظه ، وكان يستقرىء من يحرسه في الليل وهو في برجه (٢) الجزئين والثلاثة والاربعة وهو يسمع ، وكان يستقرىء وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ، ولقد اجتاز

على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسب قراءته فقربه ، وجعل له حظا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة .

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته ، وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، إذا سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لايطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه .

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين ، يقول ببعث الاجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة ، والمسيء بالنار مصدقا بجميع ماوردت به الشرائع ، منشرحا بذلك صدره مبغضا للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي ، قيل عنه انه كان معاندا للشرائع مبطلا ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله فطلبه أياما فقتله .

وكان قدس الله روحه حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الانابة اليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ماأحكيه ، وذلك إن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من

القدس الشريف حرسها الله تعالى ، بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا (٢) على العدو محيطا به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل (٤)عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ماقد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الاقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لامصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ، ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه أنه إن لم يقم لم يقم احد ، فلما انصرف الامراء الى بيوتهم جاء من عندهم

من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل ، أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم ، والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الاقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته ، ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه ، حتى أخذني الاشفاق عليه ، والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعة لعله ينام ساعة ، فقال رحمه الله : لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي واخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال : ما أخذني النوم أصلا ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأني مانمت ، ومابقي وقت للنوم ، ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ماكنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع واظنه مفيدا إن شاء الله تعالى ، فقال : وماهو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والانابة إليه ،

والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالاقصى موضع مسرى النبي صلى الله وعليه وسلم ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الآذان والاقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : « ياإلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل » ، فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت على جانبه على العادة ، وصلى الركعتين بين الآذان والاقامة ، ورأيته ساجدا ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولاأسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الافرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك ، ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسيسة إلى أنهم لابد لهم من محاصرة القدس ، وذهب الانكتار وأتباعه إلى أنه لايخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ماحول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم انهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأي شيء أشاروا به لايخالفونهم ، ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر انهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة ، فهذا ماشاهدته من آثار استنباطه واخلاده إلى الله تعالى رحمه الله .

ذكر عدله رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله وعليه وسلم قال : « الوالي العادل ظل الله في أرضه ، فمن نصحه في نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لاظل إلا ظله ، ومن خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه »(٥)

ولقد كان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ، ناصرا للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل في كل اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا ، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع مايعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصدا للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة أما في الليل او في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصدا أبدا ولامنتحلا ولاطالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه ، ولقد كان رؤوفا بالرعية ناصرا للدين مواظبا على تلاوة القرآن العزيز عالما بما فيه عاملا به لايعدوه أبدا رحمة الله عليه ، وماا ستغاث اليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين (٦) ابن اخيه ، فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، فما خالصه إلا أن شهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول ، أنه وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين – قاضي حماه – في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان وأقاما الشهادة عندي في مجلسه – رضي الله عنه – بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم فلما ثبتت الوكالة أمرت أبا القاسم بمساواة

الخصم ، فساواه – وكان من خواص السلطان رحمه الله – ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقي الدين وانقضى المجلس على ذلك ، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي ، وذلك أني كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه ، فسألته : من خصمك ؟ قال : خصمي السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك لاتحابي ، قلت : وفي أي قضية هو خصمك ؟ فقال إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وإنا مطالبه بها ، فقلت له : ياشيخ وما اقعدك إلى هذه الغاية ؟ فقال الحقوق لاتبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه وجه ما ، وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل : لايسعني سماع الدعوى بلا وجود الخصم ، وأنا أعرفه وأعرفك ماعنده ، فرضي الرجل بذلك ، واندفع فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال : كنت نظرت في الكتاب ؟ فقلت : نظرت فيه ورايته متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهود مغروفون ، فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية مايقتضيه الشرع ، ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي فقلت له هذا الخصم يتردد ولابد أن تسمع دعواه ، فقال : أقم عني وكيلا

يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم وآخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا ، ففعلت ذلك ، ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت الى جانبه ، ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ماشرح أولا ، فأجابه السلطان إن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعتقته وتوفي وخلف ماخلفه لورثته ، فقال الرجل : لي بينة تشهد بما ادعيته ، ثم سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه ، فلما سمع السلطان التاريخ قال عندي من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه ، فابلس الرجل ، فقلت له : يا مولاي هذا الرجل مافعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ولايحسن أن يرجع خائبا للقصد ، فقال هذا باب آخر ، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عني مقدارها ، فانظر إلى مافي طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضع والانقياد إلى الحق ، وارغام النفس والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صلى الله وعليه وسلم أنه قال : « ان الله يحب الشجاعة ولو علي قتل حية » (٨) ، ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ولايهوله أمر ، ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونجدهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لايزداد الا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لايزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان ـ رحمه الله ـ يعطي دستورا في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمه يسيرة في مقابلة عددهم الكثير ، وقد سألت باليان بن بارزان ، وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم انعقاد الصلح عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه : انه يقول : كنت أنا وصاحب صيدا ، وكان ايضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور ، فلما أشرفنا عليه تحازرناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف ، أو قال عكس ذلك ، قلت : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ، ومارجع من هذا العالم إلا الأقل .

وكان لابد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين ، إذا كنا قريبا منهم .

وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله ، ولقد قرىء عليه جزآن من الحديث بين الصفين ، وذلك اني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى

أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا ، فأذن في ذلك فأحضر جزأه كما أحضر من له به سماع ، فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشي تارة ونقف أخرى .

ومارأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الاقسام كلها ، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولاغضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكوس والعلم ، وهو رضي الله عنه ثابت القدم في نفر يسير حتى إنحاز إلى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم ، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابرا لهم ، وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، ونحن لانتوقعها ، وكانت المصلحة في الصلح وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الالهية والأقدار مافي مكنونها .

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الآذان الى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره ، قدس الله روحه ونور ضريحه

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) (٩) ونصوص الجهاد كثيرة ، ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف انه ماأنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولادرهما الا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه ، ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى علي قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ماكان له حديث الا فيه ، ولانظر الا في آلته ، ولاكان له اهتمام الا برجاله ، ولاميل الا الى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولايزيد ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما .

وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد وانا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل اية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيرا مايطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل عز نصره ،

ولأحكين عنه ما سمعت منه ، وذلك انه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، واعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود الى مصر وكان مقدمه أخاه الملك العادل عز نصره ، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وسرنا في خدمته ، ولما صلى العيد في القدس وقع له ان يمضي الى عسقلان ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ، ويرتب أحوالها ، فاشاروا عليه ان لايفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقى في

عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت رحمه الله ، وودع اخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا في خدمته الى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، (١٠) وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم امر البحر عندي ، حتى خيل لي اني لو قال لي قائل قادر : ان جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا لما كنت افعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاء دينار او درهم ، واستحسنت رأي من لايقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه ، فبينا انا في ذلك اذ التفت إلي رحمه الله ، وقال : اما : أحكي لك شيأ في نفسي أنه متى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم وأتبعتهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت ، فعظم وقع الكلام عندي حيث ناقض ماكان خطر لي ، وقلت له : ليس في الارض أشجع نفسا من المولى ولاأقوى منه نية في نصرة دين الله تعالى ، فقال : وكيف؟ فقلت : اما الشجاعة فلان مولانا مايهوله أمر هذا البحر وهوله ، وأما نصرة دين الله فهو ان المولى مايقنع بقلع اعداء الله من موضع مخصوص في الارض حتى يطهر جميع الارض منهم ، واستأذنت أن أحكي له ماكان خطر لي ، فحكيت له ثم قلت : ماهذه الا نية جميلة ، ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغي له ان يخاطر بنفسه ، فقال : انا استفتيك ماأشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله ، فقال : غاية مافي الباب ان اموت أشرف الميتات فانظر الى هذه الطوية ماأطهرها ، والى هذه النفس ماأشجعها وأجرأها ، رحمة الله عليه ، اللهم أنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه .

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى : (ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . (١١) ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه بحيث لايستطيع الجلوس ، وانما يكون منكبا على جانبه إن كان بالخيمة وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابرا على شدة الألم ، وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : اذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

واقد مرض رحمه الله ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعا في أن ينالوا شيئا من المسلمين ، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الى الابار التي تحت التل ، فأمر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر الى جهة الناصرة ، وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضا أيضا فأذن له ان يتأخر مع الثقل ، واقام هو ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقي الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما في القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبهم ، وأول مانزل من التل أحضر بين يديه افرنجي قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه واباءه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير الى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولاينصب له خيمة حتى لايرى العدو ضعفا ، ولم يزل

كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم الى أن دخل الليل ، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت الى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو ونحن في خدمته الى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبتنا تلك الليلة اجمع انا والطبيب نمرضه ونشاغله ،وهو ينام تارة ويستيقظ اخرى حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائدا الى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده الا انا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بايديهم الاعلام والبيارق لاغير ، فيظن الرائي لها عن بعد ان تحتها خلقا عظيما ، ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لايبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الامر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الافرنج متى نزلوا الى الارض ايس المسلمون من بلوغ غرض منهم لانهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة ، وبقي رحمه الله في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو الى اخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم ، وعدنا الى منزلنا في الليلة الماضية ، وعاد العسكر في الصباح الى ماكان عليه بالامس من مضايقة العدو ، ورحل العدو ، وسار على مامضى من القتل والقتال حتى دنا الى خيامه ، وخرج اليه من أنجده حتى وصلوا الى خيامهم .

فانظر الى هذا الصبر والاحتساب والى اي غاية بلغ هذا الرجل ! اللهم انك الهمته الصبر والاحتساب ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه ياارحم الراحمين .

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف احدا ولم نعرف حتى سمعناه

من غيره ، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى انه لما قرأ الكتاب دمعت عينيه .

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : لاننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته قدس الله روحه في الذ مفاكهة ، وارغد عيش ، والرسل تتواصل تخبره بان قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا حتى اتى الصباح وقد فرغ منها ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من اطول الليالي واشدها بردا ومطرا .

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ، ونحن في مقابلة الافرنج جريدة على الرملة ، وفي كل ليلة تقع الصيحة ، فتقلع الخيام والناس تقف على ظهر الى الصباح ، ونحن بالرملة ، والعدو بيازور ، بيننا وبينهما شوط فرس لاغير ، فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان بن جندر ، وسابق الدين بن الداية ، وعز الدين ابن المقدم ، وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه : توفي تقي الدين ، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدت الى نفسي فقلت : استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين وفيم أنتم ، وأعرضوا عما سواه ، فقال رحمه الله : نعم أستغفر الله ، واخذ يكررها ، ثم قال : لايعلم بهذا أحد ، واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم أشخص الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك حتى عاد الى يافا وعدنا نحن الى النطرون وهو مقر ثقلنا .

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه ، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله

تعالى ، اللهم أنه تـرك ذلك كله ابتغـاء مــرضاتك فــارض عنه وارحمه .

ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال سبحانه وتعالى : (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، (١٢) ولقد كان متجاوزا قليل الغضب . ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها وكان من عادته ان يركب في وقت الركوب ، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ، ثم ينهض الى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة ، وانا في خدمته نقرأ شيئا من الحديث ، أو شيئا من الفقه ، ولقد قرأ علي كتابا مختصرا تصنيف الرازي يشتمل على الارباع الاربعة من الفقه ، ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد الى الجلوس وقال : نصلي وننام ، ثم جلس يتحدث حديث مضجر ، وقد اخلى المكان ، الا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : انا الان ضجران اخرها ساعة فلم يفعل ، وقدم القصة لقريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه فقال : رجل مستحق ، فقال : يوقع المولى له ، فقال : ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاه بحيث لايستطيع احد الدخول اليها والدواة في صدرها ، والخركاة كبيرة ، فقال له المخاطب : هذه الدواة في صدر الخركاه ، وليس لهذا معنى الا أمره اياه باحضار الدواة لاغير ،فالتفت رحمه الله فرأى الدواة ، فقال والله لقد صدق ، ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى أ حضرها ووقع له ، فقلت : قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (وانك لعلى خلق عظيم) (١٣) ومالرى المولى الا قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ماضرنا شيئا قضينا حاجته ، وحصل الثواب ، ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل

ذلك ، وهذا غاية الاحسان والحلم ، (والله لايضيع أجر المحسنين) . (١٤)

ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص ، وهو لايتأثر لذلك ، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وانا راكب في خدمته فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم رحمه الله ، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير الى القدس الشريف وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ماكان عليه ، وهو يتبسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ مايمكن أن يسمع ، ويلقى ذلك بالبشر والقبول ، وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها ، وذلك انه كان قد اتجه نحو أخو ملك الافرنج خذلهم الله الى [illegible] ، فإن العسكر كان قد رحل عنهم وبعد ، وتراجع الى النطرون ، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد ، وثلاث معتادة ، وجمع رحمه الله العسكر ومضى الى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منها غرضا ، وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك ، وكان بها الانكتار ومعه جماعة فجهز معظم من كان عنده في المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي الانكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم وبعد العسكر ، ولما وصل رحمه الله الى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت الى البلد واحتمت به ، وعلم انه لاينال منهم غرضه سرى من ليلته [illegible] أول الليل الى آخره حتى اتى يافا صباحا ، والانكتار في سبعة عشر فارسا وثلاثمائة راجل نازلا خارج البلد في خيمة له فصبحه العسكر صباحا فركب

الملعون وكان شجاعا باسلا صاحب راي في الحرب ، وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد ، فاستدار العسكر الاسلامي بهم إلا من جهة البحر وتعبى العسكر تعبية القتال وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازا للفرصة ، فأجابه بعض الاكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير في اقطاعه ، فعطف رحمه الله عنان فرسه

كالمغضب لعلمه أنهم لايعملون في ذلك اليوم شيئا وتـركهم وانصرف راجعا ، وأمر بخميته التـي كانت منصـوبة أن قلعـت وانفضـوا متيقنين ان السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة ولقـد حـكى لي

ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه في ذلك اليوم ، حتى أنه لم يتجـاسر أن يقـع في عينيه مـع أنه حمـل في ذلك اليوم ، وأوغل ، ولم يزل سائرا حتى نزل بيازور ، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومـن يعتقـد أنه مـأخوذ مسـخوط عليه ، قال : ولم تحـدثني نفسي بـالدخول عليه خيفـة حتـى استدعاني ، قال : فدخلت عليه وقد وصله مـن دمشـق المحـروسة فاكهة كثيرة ، فقـال : اطلبـوا الأمـراء حتـى يأكلوا شيئا ، قال : فسرى عني ماكنت أجده ، وطلبت الأمراء ، فحضروا وهـم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهـم الطمـأنينة والأمن والسرور ، وانصرفـوا على عزم الرحيل كأن لم يجـر شيء أصلا ، فانظر إلى هذا الحلم الذي لايتـأتى في مثـل هـذا الزمـان ولايحكي عمن تقدم من أمثاله رحمه الله عليه .

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلى الله وعليه وسلم : « بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لايترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك ، ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لايرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، ولايخاطبه بشيء إلا وينجزه ، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا .

ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية ، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من القدس إلى دمشق ، عرض له في الطريق وطلب منه شيئا فأعطاه العمق ، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لانغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه ، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب توريز ، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل ، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة ، فلقيته ورحبت

به ، وسألته عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل ، فاستحضره وروي عنه حديثا ، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة ، فلما صليت الصبح أخذ يودعني ، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك ، وقال : قد قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته ، ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ، وشدد النكير علي في ذلك ، فما وجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسنت له فيها العود ، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فما أحسست به إلا وقد عاد إلي فرحب به السلطان وانبسط معه ، وأمسكه أياما ، ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه إمارات الخوف والجزع ، فقال الترجمان : من أي شيء يخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى إلا الخير ، فرق له ومن عليه وأطلقه .

ولقد كنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة

إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لي الملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك وماأعرف ابنتي إلا منك ، فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الارض تعفر وجهها في التراب ، والناس يبكون على مانالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ، ولانعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ، ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أن صرفهم من عملهم لاغير .

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الأفرنج بالساحل لما أسرهما في واقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والواقعة تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعالى ، وكان قد أمر بإحضارهما ، وكان أرناط هذا اللعين كافرا عظيما جبارا شديدا ، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ، ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة ، وذكروا له حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم ، فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ، فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوي عزمه على قتله وفاء بنذره ، فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحا من شراب فشرب منه ، ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ، ولاأطعمه من طعامي ، فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لاأوذيه ، ثم ضرب عنقه بيده وفاء

بنذره ، وأخذ عكا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله ، هكذا بلغني على ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرة منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بخير ، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع من أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط ، وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط ، وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفيه ، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته .

وكان لايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه .

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة ، وماسطرت إلا ماشاهدته ، أو أخبرني الثقة به وحققته ، وهذا بعض مااطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسير فيما أطلع عليه غيري من طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الأديب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن في القسم الثاني من الكتاب في

- ٦٦٦٤ -

بيان تقلبات أحواله ووقـائعه وفتـوحاته في تـواريخها قـدس الله روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه .

القسم الثاني

في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها

ذكر حركته إلى مصر في الدفعة الأولى صحبة عمه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل ، وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على المكان وولي الوزارة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعة وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وماكان يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال ، فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد في طلب الشام قاصدا خدمة نور الدين بن زنكي ، مستصرخا به مستنصرا على أعدائه بعسكره ، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه بالخروج إلى مصر المحروسة قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وحفظا البلاد ، وتطلعا إلى أحوالها ، وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فتأهب أسد الدين شيركوه ، وسار إلى مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى مصر ، وشاور معهم ، في الثاني من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ، ونصر شاور على خصمه وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده واستقر أمره ، وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

وكان ابتداء رحلته عنها متوجها إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة ، وكان لايفصل أمرا ولايقرر حالا إلا بمشورته ورأيه لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبرا لأمره مفكرا في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثا بذلك نفسه ، مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين بن زنكي إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر عودته إلى مصر في الوقعة الثانية

وهي معروفة بوقعة البابين

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ، فداخله الخوف على البلاد من الاتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد ، وأنه لابد له من قصدها ، فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ، ويمكنهم تمكينا كليا ، ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها ، وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار ، استولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر ، وألزم السلطان رحمه الله المسير معه على كراهية منه لذلك .

وكان توجههم في اثني عشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج إليها ، واتفق مع الافرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم ، وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الافرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين ، وكان سبب عود الافرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلاد الافرنج ، وأخذ المنيطرة ، وعلم الافرنج بذلك فخافوا على بلادهم وعادوا ، وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الافرنج والمصريين ، وماعانوه من الشدائد وعاينوه من الاهوال ، وماعاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر ، وعاد إلى الشام في بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الافرنج لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لايشعر بذلك .

ذكر عوده الى مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها وجرى ماجرى في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين في رجب وخرب قلعة أكاف بالبرية ، وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماه للغزاة وساروا إلى بلاد الافرنج فضربوا هونين في شوال منها .

وفي ذي القعدة كان عود أسد الدين إلى مصر ، وكان سبب ذلك أن الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد .

فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد ، أما نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من الافرنج ، ولأنه قد حدث نظره إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين بن بكتكين ، فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وتسلم ماكان في يده من الحصون إلى قطب الدين ماعدا إربل فانها كلها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله ، فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر .

واما أسد الدين فبسيفه وماله وأهله ورجاله ، ولقد قال لي السلطان قدس الله روحه : كنت أكره الناس بالخروج في هذه الواقعة ، وماخرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (١٥) ، وكان شاور لما أحس بخروج الافرنج إلى مصر على تلك القاعدة انفذ إلى

أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعا ، وكان وصولهم إلى مصر في اثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة .

ولما علم الافرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان ، وكان وعدهم بمال مقابلة ماخسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا ، وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد ، وعلم أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وترددهم إليها في كل وقت لايفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى ، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه أن خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به .

وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم ، فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه ، وذلك إنه لما سار اليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه ففروا ، ونهبهم العسكر وقبض على شاور وانزل إلى خيمة مفردة ، وفي الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة فيمن قوي منهم على صاحبه ، فحزت رقبته وانفذ رأسه إليهم ، وانفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيرا ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة ، ودام آمرا ناهيا ، والسلطان رحمه الله مباشر الأمور مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الاكل ، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ، وفوض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام ، وبذل المال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وماعاد عنه ولاازداد إلا جدا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ، ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الافرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما ، وغشي الناس من سحائب الافضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع القوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس في أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لايخيب قاصدا ، ولايعدم وافدا ، ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين ، وذلك في رجب من سنة أربع وستين .

ذكر قصد الأفرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ماجرى من المسلمين وعساكرهم ، وماتم للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية ، خافوا أن يملك بلادهم ، ويخرب ديارهم ، ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك ، فاجتمع الافرنج والروم جميعا ، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ، ولما سمع أفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكار ، من المسلمين ، وأسروا صاحبه وكان مملوكا لنور الدين يسمى خلطج العلم دار وذلك في ربيع الآخر منها ، ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلغه نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصرا لها في شعبان من هذه السنة ، فقصده أفرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي أخربت كثيرا من البلاد المذكورة ، فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر ، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل ، ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ماأمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم ، ثم نزل الافرنج في التاريخ المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها وهو يشن الغارة عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصر الله المسلمين ، وأيدهم وحسن قصدهم في نصر دين الله واسعدهم وأنجدهم حتى بان للأفرنج الخسران ،

وظهر على الكفر الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم ونهبت ، وقتل منهم خلق كثير ، وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فل حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

ذكر طلبه والده

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، وتجري القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء ، فوصل والده نجم الدين إليه في أثناء جمادى الأخرى من سنة خمس وستين ، وسلك معه من الأدب ماكان عادته ، والبسه الامر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، ولاينبغي أن يغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها ، ولم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فانه أخذ الرقة في المحرم سنة ست وستين ، وسار منها إلى نصيبين فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها ، ثم قصد الموصل ، وقصد أن لايقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن ، وراسل ابن أخيه عز الدين غازي صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى ، وقرر صاحبها فيها ، وزوجه ابنته ، وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار ، وخرج من الموصل قاصدا نحو الشام فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

ذكر موت العاضد

وكان موته يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك للسلطان .

وكان خطب لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حي ، وكانت الخطبة ابتداؤها المستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها ، ولايبقي لنفسه شيئا ، وشرع السلطان في التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده ، وأما نور الدين فانه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر الى خدمته ، وكانت غزاة عرقة وأخذها في المحرم سنة سبع وستين .

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على قدم بسط العدل ، ونشر الاحسان ، وإقامة الاحسان على الناس إلى سنة ثمان وستين ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك ، وإنما بدأ بها لانها كانت أقرب اليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصدا لها فحاصرها وجرى بينه وبين الافرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الواقعة وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنا في ذي الحجة منها .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين ، فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس ، وكان رحمه الله شديد الركض ولعا بلعب الكرة ، بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس ، وكانت وفاته في شهور سنة تسع وستين ، ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد إخوته ، وقوة بأسهم ، وكان بلغه إن باليمن إنسانا استولى عليها ، وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمي بعبد النبي بن مهدي ، ويزعم أن ينتشر ملكه في الأرض كلها ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم توران شاه ، وكان كريما أريحيا حسن الأخلاق ، سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه ، وكان توجهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجي الذي كان بها ، واستولى على معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا .

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته إيضا عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الاربعاء في الحادي والعشرين من شوال سنة تسع وستين ، في قلعة دمشق ، وقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل .

واقد حكى لي السلطان قال : كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم وأقول لايجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

ذكر منافقة الكنز بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين

والكنز انسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية ، وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ماتستصغر هذه الافعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر ، وقصدوا قوص وأعمالها ، وانتهى خبره إلى السلطان فجرد له عسكرا عظيما شاكي السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم ، وقدم عليهم اخاه الملك العادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقيهم بمصاف ، فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك ، واستوت أموره ولله الحمد والمنة . (١٦)

ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالى

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الاحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع في البلاد ، وجردوا عساكرهم في البحر ، وكانوا ستمائة قطعة مابين شيني وطرادة وبطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا على ماذكر ، ونازلوا الثغر وذلك في أثناء صفر في السابع منه من هذه السنة ، وهي سنة سبعين ، فأمده السلطان بالعساكر المنصورة ، وتحرك وأدخل الله في قلوبهم من

الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه ، وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديدا ، وعصمه الله منهم .

ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم مالبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم والتهم ، فخرج أهل البلد إلى نهبها وإحراقها ، وكان أمرا عظيما ، ومن أعظم النعم على المسلمين وإمارة كل سعادة .

ذكر خروج السلطان الى الشام وأخذه دمشق

وأما نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصالح اسماعيل وكان بدمشق ، وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين علي وشاذ بخت ، وكان علي قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرم ، ومعه سابق الدين ، فخرج بدر الدين للقائه فقبض عليه سابق الدين ، ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن ، وفي ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك .

ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين ، وكان ولده طفلا لاينهض بأعباء الملك ولايستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الاسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسببا لتغير قلوب الناس عن الصبي ، فاقتضى الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ، ووصل البلاد مطالبا بالملك الصالح ، ليكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله ، فيقوم له مااعوج من أمره ، فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها .

وكان أول دخـوله إلى دار أبيه ، واجتمـع الناس إليه وفـرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مـالا طـائلا ، وأظهـر الفـرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به ، وصعد القلعـة واستقر قدمه في ملكها ، فلم يلبث أن طلب حلب ، فنازل حمص فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتـى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهـي الوقعـة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ، علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدى الأمر اليه ، فجهز عسكرا وافرا وجيشا عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا ، وساروا يريدون لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ورده عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائدا إلى حماه ، وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى حلب وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم ، ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه (١٧) وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الاكبر ، والمقصود الأوفر والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لايشعرون ، وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضا ، ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة .

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان واعتصم بذلك ، واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصلح فصالحه ، ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها ، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامي .

وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها إلى العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به ، وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة واعتنقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة (١٨) وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم ، وصعد القلعة جريدة وأكل بها خبزا ونزل وسار راحلا إلى تل السلطان (١٩) ومعه الديار البكرية وجمع كثير ، والسلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم وهم لايشعرون أن في التأخير تدبيرا حتى وصل عسكر مصر ، فسار رحمه الله حتى أتي قرون حماه ، فبلغهم أنه قارب عسكره ، فاخرجوا اليزك وجهزوا من يكشف الاخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان وتفرق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، (ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا) (٢٠) فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال .

وأصبح القوم على مصاف وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين ، فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر فانه كان في ميمنة سيف الدين ، وحمل السلطان عليه بنفسه فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الامراء منهم فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم وأطلقهم ، وعاد سيف الدين الى حلب المحروسة فأخذ منها خزانة ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ، وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ، ففرق الاصطبلات ، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لعز الدين فرو خشاه

وسار إلى منبج وتسلمها في بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها وذلك في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين ، وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ، ولم يفل ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة ، وسار حتى نزل على حلب في سادس عشر منه ، فأقام مدة ، ثم سار عنها فأخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه أعزاز فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى الديار المصرية وتوفي بالاسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين .

ثم أن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين ، واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها ، وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الافرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدم الافرنج البـرنس ارناط ، وكان قـد بيع بحلب ، فإنه كان أسيرا بها من زمـن نور الدين ، وجـرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السلطان صـورة الكسرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة ان تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهـة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقـدر الله كسرتهـم فـانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهـة الديار المصرية ، وضلوا في الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى ، وكان وهنا عظيما جبره الله بوقعة حطين المشـهورة ولله الحمد .

وأما الملك الصالح فإنه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صـاحب دولته وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله ، ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك في جمادى الآخرة سنة ثـلاث وسبعين ، وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الافرنجية ، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها إلى الملك الصـالح في العشر الاواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الملك الصالح الى حلب ، ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خـالد فـأخرج إليه العسكر وذلك في عاشر المحرم سنة ست وسبعين ، ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ، وكانت وفاته في ثـالث صفر من هذه السـنة ، وولي مـكانه أخـوه عز الدين مسـعود في الخامس منه ، وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، واقام بها ريثما لم الناس شعثهم ، علم بتخبط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده الغزاة فوصله رسول قليج ارسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الارمن ، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره حصار ، واخذ عسكر حلب في خدمته لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على النهر الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، وعبر منه إلى النهر الأسود وطرف بلاد ابن لاون ، وأخذ منهم حصنا وأخربه ، وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ، ثم راسله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح وحلف السلطان في عاشر جمادى الاولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة وديار بكر ، وكان ذلك على نهر سنجة وهو نهر يرمي إلى الفرات ، وسار السلطان نحو دمشق .

ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلى حلب

وفي سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه في تاسع رجب ، وفي ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعى الأمراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل ، وفي الخامس والعشرين منه توفي رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس ، ولما توفي سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من الوصية إليه وتحليف الناس له فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان ، وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين ، وصاحب سروج ، ووصل معهما من حلف جميع الأمراء له وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة ، وفي العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة .

ذكر مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد

ثم اقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس شوال ، وعلم أنه لايمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لاجل السلطان ، والح عليه الأمراء في طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عطنه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز ، وكان ضيق العطن لم يعتد بمقاساة أمراء الشام ، فرحل من قلعة حلب طالبا الرقة وخلف ولده مظفر الدين بها ، وسار حتى اتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهم ، واستقر مقايضة حلب بسنجار ،وحلف عز الدين لاخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال ، وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب الدين من تسلم سنجار ، وفي ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين الى قلعة حلب .

ذكر عود السلطان من مصر

وأما السلطان فانه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد إلى الديار المصرية واستخلف بن أخيه عز الدين فروخشاه واليا ، ولما بلغ السلطان قدس الله روحه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفا على البلاد من الافرنج ، وبلغه أيضا وفاة فروخشاه في يوم الجمعة مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فاشتد عزمه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم انشأ التأهب لغزاة بيروت ، فإنه عبر على الافرنج في

عوده من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ، ودخل إلى دمشق ، وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله ، فأخذ في التأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعرهم بالخبر ، ويستحث العساكر .

وسار السلطان حتى نزل على حلب في ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأقام ثلاثة أيام ورحل في الحادي والعشرين يطلب الغزاة ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين ، وكان صاحب حران ، وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر الى قاطع الفرات ، وقوى عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، ودخل الرها والرقة ونصيبين وسروج ثم شحن على الخابور وأقطعه .

ذكر نزوله على الموصل

وكان نزوله عليها في هذه الوقعة في يوم الخميس حادي عشر شهر رجب ، وكنت إذ ذاك في الموصل فسيرت رسولا إلى بغداد قبيل نزوله بأيام قلائل ، فسرت مسرعا في الدجلة ، وأتيت بغداد بعد يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الانفاذ إلى شيخ الشيوخ وكان في صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ، ويتلطف الحال معه ، ويسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستنجدونه ، فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ، ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم أنه بلد عظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا

الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وما حوله من البلاد وإضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها .

ذكر أخذه سنجار

ونزل على سنجار في سادس عشر شعبان ، وأقام يحاصرها ، وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى محروسة الموصل ، وأعطاها ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط لنصرتهم ونزل بحرزم ، وسير إلى عز الدين صاحب الموصل أعلمه ، فخرج إليه وذلك في الخامس عشر من شوال ، فسار حتى اجتمع به صاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان ، وأرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه في الصلح بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعا إلى بلاده ، وعاد عز الدين إلى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمد ، فنزل عليها وقاتلها وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أول محرم سنة تسع وسبعين ، وأعطاها نور الدين بن قرا أرسلان ، ومن على ابن نيسان بجميع ماكان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب ، وفي هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة أعزاز ، وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكتمش ، فأنه كان قد

-٦٦٩٣-

صار مع السلطان في الثاني والعشرين من جمادي الأولى من السنة المذكورة ، وقاتل تل باشر وكان صاحبها دلدرم الياروقي قد صار مع السلطان ، فلم يقدر عليها وجرت غارات من الأفرنج في البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى ، وتسلم الكرزين(٢١)ثم عاد إلى حلب .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها وقاتلها وأخذها في الثاني والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ، ثم سار طالبا حلب فنزل في السادس والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين وخمسمائة وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ، وسير المقاتلة يقاتلون فيباسطون عسكر حلب ببانقوسا وباب الجنان غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جرح أخوه تاج الملوك رحمه الله .

ذكر أخذه حلب قدس الله روحه

ولما نزل على حلب استدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديدا ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له قبل ، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء وجبههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العساكر حتى تم الأمر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه فأعلمهم ، وأذن في تدبير أنفسهم ، وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك النوري وزين الدين فقعدوا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك في السابع عشر من صفر .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدموا حلب ، وخلع عليهم وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى السادس والعشرين من صفر .

وفيه توفي تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه ، وشـق عليه أمـر موته ، وجلس للعزاء .

وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه ، وتقررت بينهمـا قواعد وأنزله السلطان عنده في الخيمة وقدم له تقـدمه سـنيه وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وصار عماد الدين من يومـه إلى قـرا حصـار سـائرا إلى سنجار ، وأقام السلطان بالمخيم بعد سير عماد الدين غير مـكترث بـأمرها ، ولامسـتعظم شـأنها إلى يوم الاثنين سـابع عشري صفر ، ثـم في ذلك اليوم صـعد السـلطان قلعـة حلب مسرورا منصورا ، وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية ، وكان قد تخلف لاخذ ماتخلف لعماد الدين من قماش وغيره .

ذكر أخذه حارم

وكان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها ودافعهم الوالي وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه ، فحلف لهـم ، وسـار مـن وقتـه إلى حارم ، فوصلها في التاسع والعشرين من صفر وتسلمها ، وبات بها ليلتين ، وقرر قواعدها ، وولى فيها ابراهيم بـن شروه ، وعاد إلى حلب ودخلها في ثالث ربيع الاول ، ثم أعطى العساكر دستورا وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ، ويدبر أمورها .

ذكر غزاة عين جالوت

ولم يقم في حلب إلا إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر ، وأنشأ عزما على الغزاة فخرج في ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى ، فاقام بها متأهبا إلى السابع والعشرين منه ، ثم برز في ذلك اليوم ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام به تسعة ايام ، ثم رحل في ثامن جمادي الآخرة ، وسار حتى أتى الفوار (٢٢) وتعبى فيه الحرب ، وسار حتى نزل القصير فبات به ، وأصبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ماكان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها ، فنهبها العسكر وغنموا وحرقوا مالم يمكن أخذه ، وسار حتى أتى الجالوت وهي قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها ، وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص وأحد يدعى بهرام الشاووش ، فوصل إليه في بقية الكسرة وهو العاشر من جمادي الآخرة ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر ، ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر إليه أن الافرنج قد اجتمعوا في صفورية ، فرحلوا إلى الفولة وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلك تعبى اللقاء ، ورتب الأطلاب يمنة ويسرة وقلبا ، وسار اللقاء العدو ، وسار الافرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين في العين ، وأخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الافرنج وجرى قتال عظيم ، وقتل العدو جماعة ، وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمي راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف ، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، ونزلوا

عليها ، ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف وهم لايخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة ولما رأى أنهم لايخرجوا رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم مصاف ، فرحل نحو الطور ، وذلك في السابع عشر من هذا الشهر ، فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة ، وأصبح الافرنج في الثامن عشر راحلين راجعين على أعقابهم ناكصين ، فرحل رحمه الله نحوهم ، وجرى من رمي النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم ، فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتخريب عفر بلا وقلعة بيسان وزرعين ، وهي من حصونهم المذكورة ، وخربت عليهم قرى عديدة ، فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الفوار ، وأعطى الناس دستورا من اثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحا مسرورا في يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

فانظر إلى هذه الهمة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة كما وفقه للاعمال المرضية في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ثم انه أقام بدمشق الى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مرارا نحو الكرك ، وكان قد سير إلى الملك العادل ، وهو بمصر ، يتقدم اليه بالاجتماع به على الكرك ، فبلغه خبر حركته من مصر ، فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك رابع شعبان من هذه السنة ، وكان قد بلغ الافرنج خبر

خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحـو الكرك الدفـع عنه ، ولما انتهى ذلك إليه سـير الملك المظفـر تقـي الدين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شعبان ، وفي صبيحة السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك ، وتزخزح السـلطان عنه بعـد أن قـاتله قتـالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين برغش النوري شهيدا رحمـه الله في ثامن عشري رجب .

ذكر إعطائه أخاه الملك العادل حلب

ثم رحل السلطان مستصحبا أخاه الملك العـادل معـه إلى دمشـق ليأسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها ، فدخل دمشق في الرابـع والعشرين من شعبان وأعطى أخاه الملك العـادل حلب بعـد مقـامه بدمشق إلى ثاني يوم شهر رمضان ، وكان بهـا ولده الملك الظـاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره ، وابن العميد في البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب الاولاد إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحسن السمت والشغف بالملك وظهور ذلك عليه ، وكان أبر الناس بوالده وأطـوعهم له ، ولكن أخـذ منه حلب لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما دخـل الملك العـادل هـو ويازكج سائرين إلى خدمة السلطان ، فدخل دمشق يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ، فاقام في خدمة أبيه لايظهر له إلا الطاعة والانقياد ، مع إنكسار في باطنه لايخفى عن نظر والده ، وفي ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل ، وكنا قـد تـوسلنا إلى الخليفـة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان ، فسـيره معنا مـن بغـداد ، وكان عزيز المروءة ، عظيم الحرمة في دولة الخليفـة وفي سـائر البـلاد ، وكانت مـكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام .

ذكر وصولنا إلى خدمتة رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولا وسار منهـا في صحبة القاضي محيي الدين بن كمال الدين ، وكان بينهم صحبة مـن الصبا ، وكنت مع القوم وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ، ونحن في خدمته ، فلقيه عن بعـد ، وكان دخـولنا إلى دمشق يوم السبت حـادي عشر ذي القعـدة مـن هـذه السنة ، ولقينا مـن السـلطان كل جميل فيمـا يرجـع إلى الاكرام والاحترام ، واقمنا أياما نراجع في فصل حـال فلم يتفـق صـلح في الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السـلطان الى وداع الشيخ إلى القصير ، واجتهـدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شـغل فلم يتفق ، وكان الوقوف من جانب محيي الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين لابد مـن ذكرهمـا في النسـخة فـوقف الحال ، وكان مسيرنا سابع ذي الحجة سنة تسع وسـبعين وفي تلك الدفعـة عرض على السـلطان مـوضع البهاء الدمشقي بمصر على لسان الشـيخ ، فـاعتذرت ولم أفعـل خوفا من أن يحال بوقف الحال علي ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصل رسول سنجر شـاه صـاحب الجزيرة ، فاستحلفه لنفسه في الانتماء إليه ، ورسول إربـل وحلف لهما وسارا ، ووصل إليه أخوه الملك العـادل يوم الاثنين رابـع ذي الحجة ، فأقام عنده وعيد وتوجه إلى حلب المحروسة .

ذكر غزاة أخرى إلى الكرك

وسير السلطان - قدس الله روحه - إلى العساكر يطلبها ، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين الى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، وأصعده إلى القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق في السادس والعشرين منه ، وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول قرا أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عين الجر (٢٣) بالبقاع وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل ، فتأهب للغزاة وخرج مبرزا إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول ، وفي الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قرا أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يلتحقان بالسلطان : ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة ، رحل السلطان الملك الناصر من رأس الماء طالبا الكرك فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل إلى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزانته ، فسيرهم إلى الملك العادل ، وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك ، وذلك في رابع جمادى الاولى ، وركب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضا مع ابن قرا أرسلان .

ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر .

ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكرك ، وسير الثقل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو ، وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ، ورحل منها إلى موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جمادي الاولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم إلى اخر النهار ، ولما رأى قدس الله روحه تصميم الافرنج على الكرك أمر العساكر أن دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا مافيها ، ولم يبق فيها إلا حصناها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ، واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الاخرى ومعه الملك العادل ونور الدين بن قرا أرسلان فرحا مسرورا ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع ، فلبسها السلطان ، والبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعا جاءت لهم ، وفي الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قرا أرسلان ، وأعطاه دستورا ، وأعطى العساكر دستورا ، وسار ابن قرا أرسلان في تاسع عشر جمادى الآخرة طالبا بلاده .

وفي ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على إربل ، وأنهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم .

ذكر خروج السلطان إلى جهة الموصل في الدفعة الثانية

ولما سمع االسلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتي حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في الثاني عشر من محرم سنة إحدى وثمانين ، وتقدم السلطان إلى سيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العساكر إلى رأس العين ، ووصل السلطان حران الثاني والعشرين من صفر ، وفي السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه وأنكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد إليه قلعة حران وبلاده التي كانت بيده وإعادة إلى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك ، فرحل السلطان يطلب دنيسر ، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ، ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين ، فالتقاهم واحترمهم ، ثم رحل من دنيسر حادي عشر نحو الموصل حتى نزل موضعا يعرف بالاسماعيلات قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستورا طمعا في ملك أخيه فأعطاه دستورا .

ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين توفي شاه أرمن صاحب خلاط ، وولي بعده غلام له يدعى بكتمر ، وهو الذي وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصونا في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه ، ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز ، فلما بلغه ذلك سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه واندراجه في جملته وإعطائه مايرضيه ، فطمع السلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجها نحوها وسير إلى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جدا ، فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان إصلاحه وزوجه ابنة له ، وولاه وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة ، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها وقاتلها قتالا شديدا ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها رجل يقال له الأسد وماقصر في حفظها لكن الأقدار لاتغلب ، فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادى ، ولما ليس من أمر خلاط عاد إلى الموصل فنزل بعيدا عنها وهي الدفعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار ، وكان الحر شديدا ، فأقام مدة .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به فأعاده إلى بلده ، ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته ، فرحل طالبا حران وهو مريض ، وكان يتجلد ، ولايركب محفة ، فوصل وهو شديد المرض وبلغ إلى غاية الضعف ، وأيس منه وأرجف بموته ، فوصل إليه أخوه من حلب ومعه أطباؤها ·

ذكر صلح المواصلة معه

وكان سبب ذلك أن عز الدين أتابك ، صاحب الموصل ، سيرني إلى الخليفة يستنجده ، فلم يحصل منه زبدة ، وسير إلى العجم ، فلم يحصل منهم زبدة ، فلما وصلت من بغداد وأبيت جواب الرسالة أيس من نجدة ، فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا سرعة إنقياده و رقة قلبه في ذلك الوقت ، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلي أمر النسخة التي حلف بها ، وقالوا أمضيا مايصل إليه جهدكما وطاقتكما ، فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان ، وكان وصولنا في اوائل ذي الحجة ، فاحترمنا احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين ، وكان أخذها من سنجر شاه ، فأعطاها المواصلة ، وحلفته يمينا تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل ــ ومات قدس الله روحه ــ وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه ، وسرنا وهو بحران وقد تماثل ، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص ، وكانت وفاته يوم عرفة ، وجلس الملك العادل للعزاء ، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان مع الأكراد وقتل بينهم خلق عظيم ، وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكز ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكانت يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل نحو دمشق ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن

شيركوه بتل السلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة ، فمن عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ، ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والاكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقتل من الفئتين خلق عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه ، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من الراوند وقد سلمها الى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمة السلطان ، وفي سابع عشر وصل الملك الافضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر ووصول الملك الظاهر إلى حلب

وذلك أن السلطان رأى ذهاب الملك العادل إلى مصر ، فانه كان انس بأحوالها من الملك المظفر ، فما زال يفاوضه بذلك وهو على حران مريض ، وقد حصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنه كان يحب الديار المصرية ، فلما عاد السلطان إلى دمشق ، ومن الله بعافيته ، سير يطلب الملك العادل إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدة في الرابع والعشرين من ربيع الاول ، وسار حتى أتى دمشق ، فأقام بها في خدمة السلطان فجرت بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرير إلى جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر وتسليم حلب ، وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب ، وكان الملك الظاهر أيده الله ، والملك العزيز بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر ، استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز وسلمه ولده إليه يربي أمره ، وسلم الملك العادل حلب إلى الملك الظاهر .

ولقد قال لي الملك العادل : أنه لما استقرت عليه هذه القاعدة ، واجتمعت بخدمة الملك العزيز والظاهر وجلست بينهما ، وقلت للملك العزيز : يامولاي إن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغدا لايخلون ممن يقول عني مالا يجوز ويخوفونك مني ، فإن كان لك أنن تسمع فقل لي حتى لاأجيء ؟ فقال : لاأسمع ، وكيف يكون ذلك ، ثم التفت وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع في أقوال المفسدين ، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه ، فقال : مبارك ، وذكر كل خير ، ثم إن الملك الظاهر سيره والده إلى حلب وأعادها عليه ليعلمه أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته ، ولهذا دأبت في طلبها ذلك الدأب ، ولذا جعلت أعرض عما غيرها من بلاد المشرق ، وأقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد ، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته ، فسار إليها حتى العين المباركة ، وسير في خدمته الشحنة حسام الدين بشارة ، وواليا عيسى بن بلاشوا ، فنزل بعين المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة تاسع جمادى الأخرى ، وصعد القلعة ضحوة نهار ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، ومد على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وابل فضله .

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرر حالتهما ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز ، وهو صحبة عمه ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة ، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه ان عمه السلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه وفرح بوصوله فرحا شديدا ، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان ، وأعطاه حماه وسار

إليها ، وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ، ودخل بهـا في الســادس والعشرين مـن شـهر رمضان ، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من السنة المذكورة المباركة .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصـد الكرك فسـير إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبـرز مـن دمشـق في منتصـف محرم ، فسار حتى نزل بـرأس الماء منتـظرا اجتمـاع العسـاكر المصرية والشامية ، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشـن الغـارات على ما في طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك وأقـام بـأرض الكرك حتى وصـل الحـاج الشـامي إلى الشـام ، وأمنوا غائلة العدو ، ووصل قفـل مصر الشـتوي ، ووصـل معـه بيت الملك المظفر ، وما كان له بالديار المصرية ، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالافرنج بأرض الأرمن من بلاد ابـن لاون ، وذلك أنه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك ، وكان الملك المظفـر بحماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرته ، وكأن وصول تقي الدين إلى محروسة حلب في سـابع عشر المحرم سـنة ثـلاث وثمـانين ، فنزل في دار عفيف الدين بـن زريق فأقام بها إلى ثالث صفر وانتقل إلى دار طمان .

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر إلى محروسة حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجـانب ليس بمهمـل ، فعـاد السـلطان إلى الشام ، ونزل بعشترا في السابع عشر من ربيع الاول ، ولقيـه ولده الملك الافضل ، ومظفر الدين بن زين الدين ، وجميع العساكر .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي مع الافرنج

ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد ، فصالحهم في العشر الاواخر من ربيع الاول ، وتوجه إلى حماه يطلب خدمة السلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته وهم عسكر الموصل مقدمهم مسعود بن الزعفراني ، وعسكر ماردين ، فلقيهم السلطان في العشر الاوسط من ربيع الآخر فاقرهم واكرمهم ، وفي منتصف هذا الشهر عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل ، وتقدم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم والى أصحاب الميسرة بذلك وإلى القلب بمثله - قدس الله روحه - فما كان أحرصه على نصر الاسلام .

ذكر وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وكانت في يوم السبت رابع وعشرين ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وذلك ان السلطان رأى ان نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك ، وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى إقامة قانون الجهاد ، فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا في التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع ، سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب إلى الاجابة ، فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا وقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا أن الافرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم ، وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين، فلما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو ، ونازل طبرية ، وزحف عليها ، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها ، ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية ، لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلامية الامراء بحركة الافرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية

من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين ، وحال الليل بين الفئتين فتباتيا على مصاف شاكي السلاح إلى صبيحة الجمعة في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية ، وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الامر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم في غد زوار القبور ، ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والأمور الجسيمة ، مالم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة ، وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض ، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لاينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين (٢٤) ، (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (٢٥) وكان القومص ذكي القوم ، وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال

المسلمين فلم ينج منها واحد ، واعتصمت الطائفة الاخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وعلى سائر الانبياء ، فضايقهم المسلمون على التل وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفا من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم : الملك كي ، والبرنس أرناط وأخو الملك جفري ، والبرنس هو صاحب الشوبك ، وابن الهنفري ، وابن صاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ومقدم الاسبتار ، وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه .

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم .

فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم ، أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها ، وأما مقدم الاسبتار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم ، وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم ، وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ، ومن وجدوه من المقدمين ، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك كي ، وأخاه جفري والبرنس

أرناط ، وناول الملك كي شربة من جلاب بثلج فشرب منهــا ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقــال السلطان للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته ، وأمــا أنا فما سقيته ، وكان على جميل عادة العرب وكريم اخلاقهم ، أن الأســير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بــذلك ، جــريا على مــكارم الأخلاق ، ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهــم ، فمضــوا وأكلوا شيئا ، ثم عادوا فاستحضرهم ، ولم يبق عنده ســوى بعض الخدم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل ثم سل النمجاة (٣٦) وضربــه بهــا فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر ، وعجــل الله بــروحه إلى النار ، فأخذ ورمي على باب الخيمة ، فلما رآه الملك قد خــرج بــه على تلك الصورة لم يشك أنه يثني به ، فاستحضره وطيب قلبه ، وقــال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، تــرتفع أصواتهم بــالحمد لله والشــكر له ، والتــكبير والتهليل حتــى طلع الصبح في يوم الأحد ، وتسلم قدس الله روحه في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ثم رحل طــالبا عكا وكان نزوله عليهــا يوم الأربعــاء ســلخ ربيع الآخر ، وقــاتلها يوم الخميس مســتهل جمــادى الأولى فــأخذها واستنقذ من كان فيها من الاســارى ، وكانوا زهــاء أربعــة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأمــوال والذخــائر ، والبضــائع والتجائر ، فإنها كانت مظنة التجار ، وتفــرقت العســاكر في بــلاد الساحل يأخذون الحصون والقــلاع والأمــاكن المنيعــة ، وأخــذوا نابلس ، وحيفــا وقيســارية ، وصــفورية ، والناصرة ، وكان ذلك لخلوها عن الرجال بالقتل والأسر .

ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الغانمون أموالها وأساراها ، سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد ثاني عشر جمادى الاولى وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ونصره الله عليهم ، وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقي بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى صيدا ، فنزل عليها ، ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها .

ثم سار حتى أتى بيروت ، فنازلها في الثاني والعشرين ، وتسلم أصحابه جبيلا ، وهو على بيروت .

ولما أفرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها ، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئا ، وكانوا قد ضرسوا من القتال ، وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صور كل افرنجي بقي في الساحل ، فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر ، ونازلها في السادس والعشرين من جمادى الآخرة ، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة : كالرملة ، ويبنا ، والدارون ، وأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا ، وتسلمها سلخ هذا الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه : غزة وبيت جبرين ، والنطرون ، بغير قتال وكان بين فتوح عسقلان ، وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها في سبعة وعشرين من جمادى الاخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والاماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمدا على الله مفوضا أمره إليه ، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث عليه صلى الله عليه وسلم بقوله :« من فتح باب خير فلينتهزه فإنه لايدري متى يغلق دونه » (٢٧) وكان نزوله عليها في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين الفا ما عدا النساء والصبيان ، ثم انتقل رحمه الله لمصلحة راها إلى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف القتال ، وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور ممايلي وادي جهنم في قرنة شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لايندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد القي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والاسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ ، علموا انهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم ، مقتولون ، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الامان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين

وكان تسلمه القدس قدس الله روحه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلة كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القران المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الاسراء بنبيهم صلى الله عليه

وسلم ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحا عظيما ، شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم مايسر الله على يده من فتوح الساحل ، وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة ، وكان شكلا عظيما ، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل أمراة خمسة دنانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيرا ، وفرج الله عمن كان أسيرا من المسلمين ، وكان خلقا عظيما زهاء ثلاثة الاف أسير ، وأقام رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور ، ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مئتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

ذكر قصده صور يسر الله فتحها

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائرا إليها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجها إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ونزل قريبا منها ينتظر وصول آلات القتال .

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لا شتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه في الثامن عشر من شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسر بوصوله سرورا عظيما .

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها في الثامن والعشرين ، وضايقها وقاتلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر ، وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقر قواعده ، فاستدعاه فوصل إليه في خامس شوال ، وسير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال .

ذكر كسرة الأسطول

وذلك أنه قدم على الأسطول إنسان يقال له الفارس بدران ، وكان ناهضا جلدا في البحر ، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن ، وكان قد أكد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة ، فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور ، وكبسوهم ، وأخذوا المقدمين مع خمس قطع وقتلوا خلقا عظيما من الأسطول الاسلامي ، وذلك في السابع والعشرين من شوال ، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء وتراكمت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جديدا ، فرأى ذلك رأيا ورحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها وأحرق ما لايمكن نقله ، وكان رحيله ثاني ذي القعدة من هذه السنة ففرق العساكر ، وأعطاها دستورا ، وسار

كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين .

ذكر نزوله على كوكب

ولما دخلت عليه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم ، مما يضعف قلوب من في صدور ، وينهي أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب في أوائل محرم ، وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة ، فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفر بلا ، وقتلوا مقدمهم ، وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخي الجاولي ، وأخذوا أسلحتهم ، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه ، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا وعاد أخوه إلى مصر وولده إلى حلب ، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد ، فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدة .

وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين ، وكانت وقعة ابن المقدم وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كمشتكين على ضرب الكوس والدبدبة ، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الغزاة ، فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة ، ثم حمل إلى منى مجروحا ، ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر ، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودفن بالمعلا ، وهذا من أتم السعادات ، وبلغ ذلك السلطان فشق عليه .

ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته ،

والجمع بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة ابـراهيم عليه الصلاة والسلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خـرجت إلى القـدس ، فبلغه خبر وصولي ، فظن اني وصلت من جانب الموصل في حـديث ، فاستحضرني عنده وبالغ في الاكرام والاحترام ، ولما ودعته ذاهبـا إلى القدس خرج لي بعض خواصه وأبلغني تقدمه إلي بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فـظننت انه يوصـيني بمهـم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس يوم رحـيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصـنا قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الأول .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إليها عائدا من القـدس ، وأقـام بهـا خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهرا .

وفي اليوم الخامس بلغه خبـر الافـرنج أنهـم قصـدوا جبيلا واغتالوها ، فخرج مسرعا ساعة بلوغ الخبر ، وكان قـد سـير إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيلا ، فلمـا عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ، ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغـزاة ، فسار نحو حصن الاكراد في طلب الساحل الفوقاني

ذكر دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجبلة وغيرهما

ولما كان مستهل ربيع الاخر نزل على تل قبالة حصن الاكراد ، ثـم سير إلى الملك الظاهر ، والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية ليحفظا ذلك الجانب ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان في هذه المنزلة ، ووصلت إليه بها على عزم المسـير

إلى الموصل متجهــزا لذلك ، فلمـــا حضرت عنده فـــرح بـــي واكرمني ، وكنت قد جمعت له كتابا في الجهاد بدمشق مــدة مقــامي فيها يجمع أحكامه وآدابه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته ، ومازلت أطلب دستورا في كل وقت وهــو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقــت ، ويبلغني على ألســنة الحاضرين ثناءه علي وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته ربيعــا الآخر جميعه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد ، وحــاصره يوم مجيئه بها ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العســاكر من الجوانب وأغار على بلد طــرابلس في الشــهر دفعتين ، ودخــل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها مــن العســاكر ، وتقــوية العســـاكر بالغنائم،ثم نادى في الناس في أواخر الشهر ، إنا داخلون الساحل ، وهـو قليل الازواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجــوانب ، فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إلي مع الفقيه عيسى ، وكشــف إلي أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه الجهاد فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى سنة أربــع وثمــانين ، وهــو يوم دخـــوله الساحل ، وجميع ما حكيته قبل إنما هو روايتي عمن أثق بــه ممــن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته ، او اخبرني به مــن أثق به خبرا يقارب العيان والله الموفق .

ولما كان يوم الجمعة رابع جمادى الاولى رحل السلطان على تعبية لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولا ومقــدمها عمــاد الدين زنكي ، والقلب في الوسط والميسرة في الآخر ، ومقدمها مظفر الدين ، وسار الثقل في وسط العسكر حتــى أتــى المنزل ، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو ، ثم رحل ونزل على العريمة ، فلم يقــاتلها ، ولم يتعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ، ورحــل عنهــا يوم الأحد .

ذكر فتح أنطرطوس

وكان وصوله - رحمه الله إلى انطرطوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الاولى سنة أربع وثمانين ، فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجبلة فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو في موضعه وصارت العسكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان ، وركب هو وقارب البلد ، وأمر الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا الامة الحرب والقتال والزحف وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور ، واخذوها بالسيف ، وغنم العسكر جميع من بها ، وخرج الناس والاسرى واموالهم بأيديهم ، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله نتغدى بانطرطوس إن شاء الله ، وعاد الي خيمته فرحا مسرورا.

وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومسد الطعام ، وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه ، وأخذ من كان فيه ، وأمر السلطان بإخراب سور البلد وقسمه على الامراء ، وشرعوا في إخرابه وأخذوا يحاصرون الآخر ، وكان حصنا منيعا مبنيا بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء وفيه جروخ كثيرة يجرح الناس منها عن بعد ، وليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد في إخراب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة ، وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار في أدره وبيوته

والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فـاقام عليهـا يخـربها إلى الرابع عشر وسار يريد جبلة ، وكان عرض له ولده الملك الظـاهر في أثناء طريق جبلة ، فأنه طلبه وأمره أن يحضر معـه جميع العسـاكر التي كانت بتيزين فحضر وهم بالخدمة .

ذكر فتوحه جبلة واللاذقية

ووصل إلى جبلة في الثامن عشر ، وما استتم نزول العساكر حتـى أخذ البلد ، وكان فيه مسـلمون مقيمـون فيه ، وقـاض يحـكم بينهم ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ، وبقيت القلعة ممتنعـة ، فاشتغل بقتالها فقاتلت قتـالا يقيم عذرا لمن كان فيهـا ، وسـلمت بالأمان في التـاسع عشر ، وأقـام عليهـا إلى الثـالث والعشرين ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

وكان نزوله عليها في الرابع والعشرين ، وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور ، وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل محدقا بالبلد ، وأخـذ العسـكر منازلهـم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهمـا إلا مـن ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعـت الأصـوات ، وقـوي الضجيج إلى آخر اليوم المذكور ، وأخـذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، ففـرق بين الناس الليل وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا في أخذ النقوب ، وأخذت النقوب من شمالي القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حـكي لي من ذرعه ستين ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشـتد الزحـف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السور وتـواصل القتـال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد ، فلما رأى عدو الله ما حـل

بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر ، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرر لهم الأمان ، فاجيبوا إلى ذلك .

وكان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به رفقا ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت ، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر ، وآلات السلاح ، والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم ، ورقي عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية ذلك اليوم ، وأقمنا عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الاولى .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون ، واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا أو أكثر ، وهو نقر في حجر ، ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة ، وكان على قلعتها علم طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الاسلامي شاهدته قد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلموا أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب منجنيقا قريبا من سورها فقطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي إليه منها ، ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات أن تتوالى بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم

الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على الأسوار التي للربض ، واشتد الزحف وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الربض ، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها ، وهم يقاتلون ، وانضم من كان في الربض إلى القلعة وهم يحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة ، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الأمان وانعم عليهم ، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ، ومن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة ، وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وقلعة الجماهريين وبلاطنس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب ، فإنها كانت تتعلق بصهيون .

ذكر فتوح بكاس

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الآخرى بكاس وهي قلعة حصينة على جانب العاصي ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان المنزل على شاطيء العاصي ، وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهي على جبل يطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى تاسع الشهر ، ويسر الله فتحها عنوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها ، وكان لها قليعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لاناصر لهم فطلبوا الأمان في الثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية ، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني عليها يوم الجمعة سادس عشر ، ثم عاد السلطان الى الثقل ، وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية ، فقاتلها قتالا شديدا وضايقها مضايقة

عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر ، فاتفقت فتوحات الساحل على جبلة الى سرمانية في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين ، وسعادة السلطان حيث يسر الله لنا الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في تاريخ .

ذكر فتوح برزية

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، تحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا ، وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر ، بحيث لايفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار ، فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقي الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة

وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا الامان وقد تمكنت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا) (٢٨) ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد أوى اليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوما عظيما ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم الى صاحب انطاكية استمالة فانهم يتعلقون به ومن أهله .

ذكر فتوح دربساك

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، وهي قلعة منيعة قريبة من انطاكية ، فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها ، وتمكن النقب منه حتى وقع ، وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف في الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام في عرض الجدار مكشفون ، فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الامان ، واشترطوا مراجعة انطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير ، ورقي عليها العلم الاسلامي في الثاني والعشرين من رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر ، وسار عنها في الثالث والعشرين منه .

ذكر فتوح بغراس

وهي قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دربساك ، وكانت كثيرة العدة والرجال ، فنزل العسكر في مرج لها ، وأحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يزك في تلك المنزلة يحفظ جانب أنطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يزك الاسلام على باب أنطاكية بحيث لايشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان في اليزك في بعض الأيام لرؤية البلد ، وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان انطاكية ، ورقى العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين ، وفي بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله الى المخيم الاكبر وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لاشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور ، وعقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الأفرنج لاغير على ان يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد الى السلطان ، ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة ايام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر الا من ناله من نعمته منال ، وأكثر ظني أنه اشفق عليه والده ، وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين ، واصعده الى قلعة حماه ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جبلة واللاذقية ، وسار على طريق بعلبك حتى أتاها وأقام بمرجها ودخل الى حمامها ، وسار منها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما أمكنه ، وكان قد بقي له القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها : كصفد ، وكوكب ، فرأى أن يشغل الوقت بفتح المكانين في الصوم .

ذكر فتح صفد

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صـفد ، ولم يلتفت الى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الانسان أين كان فيجتمع فيه بأهله ، « اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما » .

فسار حتى أتى صفد وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحدق العسكر بها ونصب عليها المناجيق في أثناء شهر رمضان المبارك ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جده ، ولقد كنت عنده في خدمته ليلة ، وقد عين مواضع خمس مناجيق ، فقال ما ننام حتى تنصب الخمسة ، وسلم كل منجنيق الى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح ، وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح وبشرته بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :« عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الاسر ، وكان قد أسر في وقعة حطين المباركة ، ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوال .

ذكر فتوح كوكب

ثم سار يريد كوكب فنزل على الجبل ، وجرد العسكر ، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوزه نشاب

العدو ، وبني له حائطا من حجر وطين يستتر وراءه حتى لايقدر أحد يقف على باب خيمة الا إن كان ملبسا ، وكانت الأمطار متواترة ، والوحول عظيمة ، وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه ، وقتل وجرح جماعة ، ولم يزل راكبا مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو المخذول أنه مأخوذ طلب الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم ، وتسلمها في منتصف ذي القعدة ، ونزل على الفور إلى الثقل ، وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال شخصية حتى هل هلال ذي الحجة ، واعطى دستورا وسار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه فإنه كان عائدا الى مصر ، فوصلا اليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، وصلينا الجمعة في قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد الاعظم بها أيضا يوم الأحد ، وسار حادي عشر طالبا عسقلان لينظر في حالها ، فأقام بها أياما يلم شعثها ويصلح أحوالها ، فودع أخاه ، وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان ، وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ، ويمر على البلاد يتفقد أحوالها ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فأقام بها معظم محرم سنة خمس وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والاطناب فيه ، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكا بصدد حفظها ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

ذكر توجهه الى شقيف أرذون
وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل في ربيع الاول ثلاثة ايام ، ووصله في اثناء ربيع الاول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بـالخطبة لولده ولي العهد ، فخطب له .

وجدد عزمه على قصد شقيف أرذون ، وهو موضع حصين قـريب من بانياس ، وكان تبريزه في الثـالث ، فسـار حتـى نزل في مـرج فلوس ، وأصبح يوم السبت راحلا حتى أتى مرج برغوث فنزل بـه ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتابع الى حادي عشر ، ورحل حتى اتى بانياس ، ثم رحل منها حتى اتى مـرج عيون في السـابع عشر فخيم به ، وهو قريب من شقيف أرذون ، بحيث يركب كل يوم يشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، فاقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف والعساكر الاسلامية في كل يوم تصـبح متزايدة العدد والعدد ، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقـن معـه عدم السلامة ، فرأى إن اصلاح حـاله معـه قـد تعين طـريقا الى سلامته ، فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل فـاحترمه وأكرمـه ، وكان مـن كبـار الافرنجية وعقلائها ، وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على كل شيء من التواريخ ، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمـه ، وكان عنده ثان ، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته ، وانه يسلم المكان اليه من غير تعب ، واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق ، فإنه بعـد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج ، واقطاعا بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشـهر مـن تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور ، فأجيب الى ذلك كله ، وأقام يتردد الى خدمة السلطان في كل

وقت ، ويناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة ومتادبا في كلامه ، وفي اثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك ، وكان قد اقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالامان .

ذكر اجتماع الأفرنج لقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمـر الملك من بها بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحـن على حصـن الأكراد مـن أنطرطوس ، واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفا أبـدا ، ويكون غلامه ومملوكه وطليقه أبدا ، فنكث لعنه الله ، فجمع جموعا وأتـى صور يطلب الدخول إليها ، فخيم على بـابها يراجـع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت ، وكان المركيس اللعين رجلا عظيمـا ذا رأي وبأس شديد في دينه ، وصرامة عظيمـة ، فقـال : إنني نائب للملوك الذين وراء البحـر ، ومـا أذنوا لي في تسـليمها اليك ، وطـالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهمـا على أن يتفقـوا جميعـا على المسلمين ، وتجمع العساكر بصـور وغيرهـا مـن الافـرنجية على المسلمين وعسكروا على باب صور .

ذكر الواقعة التـي اسـتشهد فيهـا أيبـك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاولى من السـنة المذكورة ، بلغ السلطان من اليزك ان الافـرنج قـد قـطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وبقيت الأرض التـي نحـن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاووش فركب العسـكر يريدون نحو اليزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة ، وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليزك الاسـلامي ، وكانوا في قوة وعدة فقاتلوهم قتالا شديدا ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ورموا في النهر جماعة فغرقوا ونصر الله الاسلام ، وأهله ولم يقتل من المسـلمين الا مملوك للسـلطان يعـرف بـأيبك الأخرس ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعا باسلا مجـربا

في الحرب فارسا ، تقنطر به فرسه فلجا الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان الى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين

وأقام في تلك الخيم الى عشر من جمادى المذكور ، وركب يشرف على القوم على عادته فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة ، وحرص في ردهم ، فلم يفعلوا ولقد أمر من ضربهم ، فلم يفعلوا وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الافرنج خلق عظيم وهم لايشعرون وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان ، فإنه كان بعيدا عنهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، وإنما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ، ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الأمر قد فرط ، والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان ، وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة ، وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا ، وقتل ايضا من الافرنج عدة عظيمة ، وغرق أيضا منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية ، وكان عندهم عظيما محترما ، واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصار وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعه على ما ذكر جماعة لازموه ، وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها في هذه الوقائع التي

حضرتها وشاهدتها ، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة في هذه المدة .

ذكر مسيره جريدة الى عكا وسبب ذلك

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين في تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم ، وقدر معهم أنه يهجم على الأفرنج ، ويعبر الجسر ويقتلهم ، ويستاصل شافتهم ، وكان الأفرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما صمم العزم على ذلك ، أصبح يوم الخميس سابع عشر ، وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائدا وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا أن الأفرنج رحلوا راجعين إلى صور ملتجئين إلى سورها معتصمين بقربها ، وانهم لما بلغهم ذلك عادوا ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي ، فمضى الى عكا ورتب احوالها ، وأمر بتتمة عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد الى العسكر المنصور إلى مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله .

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتطبون ، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم وياخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراءهم ايضا خيلا تحفظهم ، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ، ثم انفذ إلى

عسكر تبنين وتقدم اليهم أن يخرجوا في نفر يسـير غائرين على تلك الرجالة ، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهـم ، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخـرة ، وأرسـل إلى عسكر عكا أن يسير حتـى يكون وراء عسـكر العـدو ، حتـى إذا تحركوا في نصرة أصحابهم قصـدوا خيمهـم ، وركب هـو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكي السلاح متجـردين ليس معهـم خيمـة الى الجهة التي عينها لهزيمة عسـكر تبنين ، ورتـب العسـكر ثمـانية أطلاب ، واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان الجياد الخيل وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهـروا إليهـم ويناوشـوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك ، وكان قد بلغهم الخبـر ، وتعبوا تعبية القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتـال شديد ، والتزمت السرية القتال وأنفـوا عن الانهـزام بين ايديهـم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العـدو الكثير بـذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جـرى ، واتصـل الخبـر بالسلطان في اواخر الامر وقد هجم الليل فبعث إليهـم بعـوثا كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الأمر ، ولما بصر الافـرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصـين على أعقـابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكانت القتلى من الافـرنج على ما ذكر مـن حضر ـ فإني لم أكن حـاضرها ـ زهـاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة انفار ، إثنان مـن اليزك وأربعـة مـن العرب منهم الأمير زامل ، وكان شابا تاما حسـن الشـباب مقـدم عشيرته ، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففـداه ابـن عمـه بفرسه ، فتقنطرت به ايضا واسر هو وثـلاثة مـن أهله ، ولما بصر الافرنج بالمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة ، ومـن نوادر هـذه الوقعـة أن مملوكا مـن مماليك السلطان أثخن بالجراح حتـى وقـع بين القتلى وجـراحاته تشخب دما ، وبات ليلته أجمع على تلك الحـالة ، الى صـبيحة يوم الثلاثاء ، ففقده اصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فأنفذ من

يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هـذه الحـالة ، فحملوه ونقلوه إلى المخيم على تلك الحال وعافاه الله ، وعاد السـلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصورا ، فرحا مسرورا .

ذكر أخذ صـاحب الشقيف وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد فيه تدفع الزمان ، وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الأبـواب ، وغير ذلك ، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقـرب مـن المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة إليه ، وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان والفرار من وخم المرج ، وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثاني عشر من الشهر ، وقد مضى من الليل ربعه ، فمـا أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة وبقـي بعض العسـكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم أنه بقي من المدة بقية جمادى الآخرة ، حـدثته نفسـه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ويستعطفه ويستزيده في المدة ، وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتـم ، فنزل إلى الخـدمة ، وعرض المكان ، وقال : المدة لم يبق منها إلا اليسير وأي فرق بين التسـليم اليوم أو غدا ، وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصور ، وأنهـم على الخروج منها في هذه الايام ، وأقام في الخـدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وصعد القلعة ولم يظهر له السـلطان شـيئا ، وأجـراه على عادتـه ومقتضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفـراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان ، وسال منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فماطله وما أيسه ، وقال نتفـكر في ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهـم ، ومـا ينفصـل الحـال عليه نعرفك ، وضرب له خيمة قريبة مـن خيمتـه ، وأقـام عليه حـرسا لايشعر بهم ، وهو على غاية من الاكرام والاحتـرام له والمراجعـة

والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الايام ، وطـولب بتسليم المكان فكشف له إنك أضـمرت الغـدر ، وجـددت في المكان عمائر ، وحملت اليه نخائر ، فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقة يتسـلم المكان وينظـر هـل تجدد فيه شيء من البناء أم لا ، فمضـوا إليه فلم يلتفـت أصحـابه المقيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدد بـابا للسـور لم يكن ، فـأقيم الحرس الشديد عليه وأظهر ذلك ومنع الدخول الى الخدمة ، وقيل له قد انقضت المدة ولابد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ، وبدا فـح عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة ، وفيه اعتـرف بـانتهاء المدة ، قال : انا أمضي وأسلم المكان ، وسار معـه جمـع كثير مـن الامراء والاجناد حتى أتى الشقيف ، وأمـرهم بـالتسليم فـأبوا ، فخرج إليه قسيس وحدثه بلسانه ، ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس إليهم فـظن أنه أكد الوصـية على القسـيس في الامتناع ، وأقـام ذلك اليوم والحـديث يتـردد فلم يلتفتـوا وأعيد إلى المخيم المنصور وسير من ليلته إلى بانياس وأحيط عليه بقلعتها ، فـأحدق العسكر بالشقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقـام صـاحب الشـقيف ببانياس الى سادس رجب ، واشـتد حنق السـلطان على صـاحب الشقيف بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسـكره ، ولم يعملوا فيها شيئا ، فاحضر إلى المخيم وهدده ليلة وصوله بأمور عظيمـة ، فلم يفعل ، وأصبح السلطان ثامن رجب ورقـي إلى سـنام الجبـل بخيمه ، وهو موضع مشرف على الشقيف مـن المكان الذي كان فيه أولى وأبعد من الوخم ، وكان قد تغير مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك إن الافرنج بصور ومن كان مع الملك قـد سـاروا نحو الذواقير يريدون جهة عكا ، وان بعضهم نزل بـالاسكندرونة ، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسـلمون نفرا يسيرا وأقاموا هناك .

ذكر واقعة عكا

وذلك انه لما بلغ السلطان حركة الافرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف ، لاقصد المكان ، فأقام مستكشفا للحال إلى ثاني عشر رجب ، فوصل قاصده وأخبر إن الافرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الى الزيب فعظم ذلك عنده ، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بتقدم الى العساكر الاسلامية بالمسير إلى المخيم المحروس ، وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائرا إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق تبنين يستطلعون العدو ، ويواصلون باخباره ، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار فنزل بها ساعة ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له المنية صباح الرابع عشر ، وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر ، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه .

وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ، فإنه كان وأعدهم إليه ، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية ، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير ، وعدد وافر ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان في أوائل مرج عكا ، وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية ، وكان اخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية ، فاحتاط العسكر الاسلامي المنصور بالعدو المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت

العساكر الاسلامية ، واجتمعت ، ورتب اليزك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدو ، وحصر العدو في خيامه من كل جانب بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد الا ويجرح أو يقتل .

وكان معسكر العدو المخذول على شطر من عكا ، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريبا من باب البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، ومارأيت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لاينقطع ، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل ، والملوك والأمراء من الاقطار تتتابع ، فاول من وصل الأمير الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه ، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سنقر الأخلاطي ، وأسف المسلمون عليه أسفا شديدا فإنه كان شجاعا دينا .

ثم إن الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك في يوم الخميس سلخ رجب ، ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الراي من دولته وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح الباب والطريق الى عكا ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان ، وسار مع العسكر وقد رتبه للقتال ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة ، وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة ، واتصل الحرب الى إن حال بين الفئتين هجوم الليل .

وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكي السلاح ، تحرس كل

طائفة نفسها من الطائفة الأخرى إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان

ذكر فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا ، ولم يكن هناك للعدو خيم ، لكن العسكر كان قد امتد جريدة إلى البحر ، فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانكف السالمون منهم إلى خيامهم ، وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، ووقف اليزك الاسلامي مانعا من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل ، وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش ، الذي جدده ، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا ورقي على السور ، ونظر إلى عسكر العدو تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السلطان ، واستدار العسكر الاسلامي حول العسكر الافرنجي وأحدقوا بهم من كل جانب .

ولما استقر به ذلك تراجع عن القتال وذلك بعد الظهر لسقي الدواب واخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظا من الراحة عادوا الى القتال لمناجزة القوم ، وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا الى القتال في ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو في خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الاحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى أن يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو في خيامه ، فلما تهيأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الأثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو ومن ورائه ، وتركب العساكر الاسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يوالي هذه الامور بنفسه ويكافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات.، وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه ، وفعلوا ما كان عزم عليه واشتدت منعة العدو ، وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس والنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

ذكر تأخر الناس عن تل العياضية

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم ،فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول ، وساروا الهوينا غير مفرطين في أنفسهم ولا خارجين من راجلهم ، حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا خيام اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم ، شدوا وتنازعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان بالعساكر الاسلامية : ياللاسلام ، فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على

العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبية والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح ، والعاطب طريح مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ، ولاتلوي الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم واذكفوا عن القتال أياما ، وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم ، واستقر فتح طريق عكا ، والمسلمون يترددون إليها ، وكنت ممن دخل ورقي على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ، ودام القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار حتى كان الحادي عشر من شعبان ، ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو ، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان ، وكان من الشجعان ، ودفن في سفح هذا التل ، وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لخفتهم على خيلهم ، وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقا عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوسا عديدة بين يديه ، فخلع عليهم وأحسن اليهم ، وكان ذلك في يوم السبت السادس عشر من شعبان ، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم ، قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الامر بين الفئتين ، وما يخلو يوم من قتل وجرح وسبي ونهب ، وأنس البعض بالبعض بحيث أن كان الطائفتين تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص

البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة ، وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا : إلى كم تقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم ، فأخرج صبيان من البلد ، إلى صبيين من الافرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين الى أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيرا ، فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا : هو أسيرك حقا ، فأخذ الدينارين وأطلقه ، وهذه نادرة غريبة ، ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ، ووقع في البحر ومازال يسبح ، وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون .

ذكر المصاف الأعظم على عكا

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الافرنج حركة لم يكن لهم بمثلها عادة : فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفي القلب الملك ، وبين يديه الانجيل محمولا مستورا بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدي الملك ، وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الاسلام من أولها إلى آخرها ، وكذلك ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا الى آخرها وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الاسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أن نادي في الناس : يالالاسلام ، وعساكر الموحدين ، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدي خيامهم ، وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضا ، وكان رحمه الله قد أنزل

الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبية الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب ، وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين ابن لاجين صاحب نابلس ، ثم الطواشي قايماز النجمي ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر ، وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره ، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ، ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه ، هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم في نصر دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى فيه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ، وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضا ، فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفا ، وأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو ، واجتمعت على تل مشرف على البحر ، ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ، ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ، وهم يسبقون حينا ، وجاءت الحملة على الديار البكرية ، كما شاء الله تعالى ، وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي

العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله.

وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها ، وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد ، وينادي فيهم : باللاسلام ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ، ويخرق الصفوف ويأوي إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم الى الاقحوانة قاطع جسر طبرية ، وأم منهم قوم محروسة دمشق ، فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم الى العياضية ، فلما رأوهم قد صعدوا الى الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين الى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فإن السوق كان عظيما ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر ، ثم رأوا ميسرة الاسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لاتتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان فانه كان واقفا تحت التل ، ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأوا الأفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فامرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصاح في الناس ، فحملوا عليهم

فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم ، فلما رأوهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ، ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وأنهم إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال ، وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ونصر الايمان ، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون الى عسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب ، كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ، ودمائهم إلى خيامهم فرحين مسرورين ، وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ، ولقد رايته وهو جالس يضحك ، والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ، ويقول هذا يوم الهناء لايوم العزاء ، وكان قد وقع عن فرسه وأركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي ، هذا الذي قتل من المسلمين .

وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطيء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم ، ورأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم ، فان العسكر انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا ، فظنوا أن الكسرة تتم ، وأن العدو ينهب جميع ما في الخيام ، فوضعوا أيديهم في

الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها ، ونهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة ، سارع إلى الكتب والرسل في رد المنهزمين ، وتتبع من شذ من العسكر ، والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ، وأخذوهم بالكرة إلى عسكر المسلمين ، فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته وهو جالس ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا ، وحلف عليه يسلم إليه ، وهو يلقى هذه الاحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه منبسط ، ورأي مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى وقوة عزم في نصرة دين الله .

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم ، وطرحت مقدموهم ، وفقدت ملوكهم ، فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل انه أخذ خيطا ، وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة ، فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور ، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم ، فانه ولي أمرهم غيره ، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم ، وأخذ السلطان في جمع الاموال المنهوبة ، وأعادها إلى أصحابها ، وأقام المناداة في العساكر ، وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الاقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف

الآخر ، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء ، فحضر الخلق ، وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف وأخذه من الحبل والمخلات إلى الهميان والجوهر ، ولقي من ذلك مشقة عظيمة ، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ، ويسابق بيد القبول اليها .

ولقد حضرت يوم تفرقة الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان ، وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها ، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة ، خشية على العسكر من روائح القتلى ، وآثار الوخم من الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلا فيه بقليل ، وذلك في التاسع والعشرين ، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قال بسم الله ، والحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلادنا ، وقد وطىء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي في هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ، وانتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك ، وكان ذلك في ثالث تشرين من الشهور الشمسية ، وامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة ، وأن يبقي العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع النفوس إليهم ، فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها

ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ، وسنعيد من شذ من العساكر ، ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة ، وكان بالسلطان التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام فوقع به ما قالوه ورأوه مصلحة ، وكان انتقال العسكر الى الثقل ثالث رمضان ، وانتقال السلطان تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر وينتظر أخاه الى عاشر رمضان .

ذكر وصول خبر الألمان

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر ، عز نصره ، يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة ، قيل مائتا الف ، وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية ، فاشتد ذلك على السلطان ، وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد وأعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستدعاني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعاهم الى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة ، وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول الى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم ، فأجابوا بنفوسهم ، وسار عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة ، وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر عسكره ، وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره ، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره ، وحضرت الديوان السعيد ببغداد ، وأنهيت الحال كما رسم ، ووعد بكل جميل ، وعدت الى خدمته رحمة الله عليه ، وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الاول من شهور سنة ست وثمانين ، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وباهتمامهم بالمسير ، فسر بذلك وفرح فرحا شديدا .

ذكر وقعة الرمل التي على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل في الصيد ، وبلغ ذلك العدو ، فأخذوا غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامي ، فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم وجرت مقتلة عظيمة ، قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ، ولم يقتل من معروفي المسلمين إلا مملوك للسلطان يقال له أرغش ، وكان رجلا صالحا استشهد في ذلك اليوم ، وبلغ الخبر إلى السلطان فعاد منزعجا فوجد الحرب قد انفصل ، وعاد كل فريق إلى حزبه ، وعاد العدو خائبا خاسرا ولله الحمد والمنة ، وهذه الوقعة لم احضرها فإني كنت مسافرا ، وما مضى من هذه الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي معرفة خاصة في هذه الأمور .

ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكا كان للسلطان يدعي قره سنقر ، وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما ، وفتك فيهم ، فأخذوا قلوبهم من نكايته فيهم وتجمعوا له وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، فوثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه فإنه كان قتل له أقرباء ، فوقعت الضربة في يد الممسك بشعره ، فقطعت يده وخلي سبيله فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه ، واعداء الله يشتدون عدوا خلفه لم يلحقه منهم احد ، وعاد سالما (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) (٢٩)

ذكر وفاة الفقيه عيسى

وهي مما بلغني ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مـرض مـرضا كان يتعاهده وهو ضعيف النفس ، وعرض له إسهال أضعفه ، فلم يقطع صلاته ، ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، وكان رحمـه الله كريمـا شجاعا ، حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ، تـوفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة ، مـن شـهور سـنة خمس وثمانين .

ذكر تسليم الشقيف سنة ست وثمانين

ولما كان يوم الأحـد خـامس عشر ربيع الأول علم الافـرنج المستحفظون بالشقيف إنهم لا عاصم لهم من أمـر الله ، وأنهـم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم ؛ فطلبوا الأمـان ، وجـرت مـراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قـد عذب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ، ويترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر ، فتسلم في التاريخ المذكور ، وكان الحديث قد جرى مرارا حتى استقرت القاعدة في التـاريخ المتقـدم ، وعاد صـاحب صـيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف الى صور ، ولما رأى السلطان مـن اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بـالمكان وتصـويب عزائمهـم نحوه ، اغتنم الشتاء وانقطاع البحـر ، وجعـل في عكا مـن الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعـالى ، وتقدم الى النواب بمصر أن عمروا لها اسطولا عظيما يحمـل خلقـا كثيرا ، وسار حتى دخل عكا مكابرة العدو ومـراغمه له ، وأعطـى العساكر دستورا طول الشتاء يستجمون ويستريحون ، وأقام هـو

مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شدة الوحول وتعذر بذلك وصول بعضهم إلى بعض .

طريفة

كان لما بلغ خبر العدو ، وقصده عكا ، جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع ، وكان رأيه أن قال : المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول الى البلد ، وإلا فإن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم ، وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم ، وخيف على البلد منهم ، وكانت إشارة الجماعة انهم اذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد ، وكان الامر كما قال السلطان ، والله لقد سمعت هذا القول ، وشاهدت الفعل كما قال السلطان ، وهو يوافق معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتي لمحدثين ومكلمين وإن عمر لمنهم » .

ذكر وصول رسول الخليفة

ولم يزل السلطان مجدا في الانفاذ الى عكا بالميرة والعدد والاسلحة والرجال ، حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال ، فكتب الى العساكر يستدعيها من الأطراف ، ولما تواصل أوائل العساكر ، وقوي جيش الاسلام رحل السلطان نحو العدو ، ونزل على تل كيسان ، وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ، ورتب العسكر قلبا وميمنه وميسرة ، وأخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر ، فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ، ووصل معه حملان من النفط ، وجماعة من النفاطين والزراقين ، ووصل معه من الديوان العزيز النبوي مجده

الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها .

وفي ذلك اليوم بلغ السلطان إن الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد ، وقاتلهم قتالا شديدا الى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق الى أصحابه ، ورأى السلطان قوة العساكر الاسلامية ، وبعد المكان عن العدو ، فخاف أن يهجم البلد ويتم عليه أمر ، فرأى الانتقال الى تل العجول بالكلية ، فانتقل بالعسكر والثقل في الخامس والعشرين ، وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدو بعض الخندق ، وقوي عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فجدد الكتب الى العساكر بالحث على الوصول ، وعبى العسكر تعبية القتال ، وزحف الى العدو ليشغله عن ذلك.

ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي صاحب حلب جريدة الى خدمته معاجلة البر ، وترك عسكره في المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه ، وعاد الى عسكره في الثامن والعشرين ، وسار حتى وصل في ذلك اليوم بجحفلة ، وقد اظهروا الزينة ، ولبسوا لامة الحرب ونشرت الأعلام والبيارق ، وضربت الكوسات ، ونعقت البوقات ، وعرض بين يدي والده ، وكان قد ركب الى لقائه في المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ،وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم ، وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضا مسارعة الخدمة ، ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب ، فعرضهم السلطان حتي وقف بهم على العدو ، وكان ما يقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو ، وينزل بهم في خيمته يمد لهم الطعام وينعم

عليهم بما يطيب به قلوبهم إذا كانوا اجانب ، ثـم تضرب خيامهـم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

لطيفة تـدل على سـعادة ولده الملك الظـاهر عز نصره

وذلك ان العدو كان قد اصطنع ثـلاثة أبـراج مـن خشـب وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر ، بحيث لا تنفـذ فيها النيران ، وكانت هذه الابراج كانهـا الجبـال نشـاهدها مـن مواضعنا عالية على سور البلد ، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفـر على مـاقيل ، ويتسـع سـطحها لأن ينصـب عليه منجنيق ، وكان ذلك قـد عمـل في قلوب المسلمين ، واودعها من الخوف مالا يمكن شرحـه ، وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان فرغ مـن عملهـا ولم يبق الا جرها الى قريب للسور ، وكان السلطان قد أعمل فـكره في أحراقها واهلاكها ، وجمع الصـناع مـن الزراقين والنفـاطين وحثهم على الاجتهاد في إحراقها ، ووعدهـم عليه بـالأموال الطـائلة والعطايا الجزيلة ، وضاقت حيلهم عن ذلك ، وكان مـن جملة مـن حضر شاب نحاس دمشقي ذكر بين يديه أن له صناعة في إحـراقها وأنه إن مكن من الدخول الى عكا وحصلت له الأدوية التـي يعـرفها أحرقها ، فحصل له جميع ماطلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الادوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمـرة نار ، ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحدا بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعـت فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصـار كالجبـل العـظيم مـن النار ، طالعة ذؤابته نحـو السـماء ، واسـتغاث المسـلمون بالتهليل ، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثانية ، فما كان الا أن وصلت اليه واشتغلت كالتي قبلهـا ، فـاشتد ضـجيج الفـئتين

وانعقدت الأصوات إلى السماء ، ومـا كان إلا سـاعة حتـى ضرب الثالث ، فالتهب ، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حـرك ذوي الاحلام والنهى منهم حركة الشـباب الرعناء ، وركبـت العسـاكر ميمنة وميسرة وقلبا ،وكان أواخر النهار وسار حتى أتـى عسـكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجـزهم عمـلا بقـوله صـلى الله عليه وسلم : « من فتح له بابا من الخير فلينتهزه » ، فلم يظهر العدو من خيامهـم ، وحـال بين الطـائفتين اليل ، وعاد كل فـريق الى حزبه ، ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ، واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك بيمن صلاح سريرته ، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم وهـم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الاسـلامية تتـواتر وتتواصل

ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره

ولما كان الثاني والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكي ابن مودود صاحب سنجار ، يجر عسكره ،ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ، ولقيه السـلطان بـالاحترام والتعـظيم ، ورتـب له العسكر في لقائه ، وكان أول من لقيه من العسكر المنصـور قضـاته وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم صـار بـه حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه الى خيمتـه وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم ، فحضر هـو وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف والطائف ما لايقدر غيره عليه ، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مسـتقلة الى جـانبه ، وبسـط له ثـوب أطلس عند دخوله ، وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهـر ، ولما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجرشاه ابن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ، ووصل في عسكر

حسن ، فلقيه السلطان واحترمه وأكرمه وانزله في خيمته وأمـر أن تضرب خيمته إلى جانب عماد الدين ، وفي تاسع الشهر وصـل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدما على عسكره ففرح السلطان بقدومه فرحا شديدا ، وتلقاه عن بعد هو وأهله ، وا ستحسن أدبـه وأنزله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمـة ، وقـدم له تحفـا حسـنة ، وأمـر بضرب خيمتـه بين ولديه الملك الأفضـل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته وجها مضيئا

ولما كانت ظهيرة ذلك اليوم ظهـرت في البحـر قلوع كثيرة ، وكان رحمه الله في نظره وصول الأسطول مـن مصر ، فإنه كان قـد أمـر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، فركب السـلطان وركب الناس في خدمته ، وتعبى تعبية القتال وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصـد الاسطول ، ولما علم العدو وصول الأسـطول اسـتعدوا له وعمـروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا ، وخرج أسطول العدو وا شـتد السلطان في قتاله من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقـوية للأسطول وايناسـا لرجـاله ، والتقـى الاسـطولان في البحر ، والعسكران في البر ، واضطرمت نيران الحرب ، وا ستعرت وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، ورجح حياتـه الأبـدية على حياته الدنيوية .

وجرى بين الأسطولين قتال شديد انقشـع عن نصرة الاسـطول الاسلامي ، وأخذ من العدو شيني وقتل مـن بـه ونهـب جميع مـا فيه ، وظفر من العدو بمركب ايضا واصلا من قسطنطينية ، ودخـل الأسطول المنصور الى عكا ، وكان قد صحبه مراكب مـن السـاحل فيها مير ونخـائر ، وطـابت قلوب أهـل البلد وانشرحـت صدورهم ، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم ، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد الى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق الى خيامه ، وقد قتل من عدو الله وجـرح خلق كثير عظيم ، فإنهـم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم

عن الاسطول أيضا ، والاسطولان يتقاتلان ، والعسكر يقاتلهم من البر ، وكان النصر للمسلمين في الاماكن كلها .

ثم كان وصول زين الدين صاحب إربل في العشر الأواخر من جمادى الاولى ، وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين ، قدم بعسكر حسن ، وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان ، وأكرمه وأنزله في خيمته ، وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب أخيه مظفر الدين .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواترت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان ، وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه ، وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم ، وكان قليج أرسلان أظهر شقاقه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون ، وأنفذ معه أدلاء ، واعتراهم في الطريق جوع عظيم حتى ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عددا كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدرا واحدا ، وأضرموا فيها النار لتتلف ، ولا ينتفع بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك تلا من حديد ، وساروا على هذا الحال حتى أتوا إلى بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأما ملكهم فعن له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله .

ولما رأى ما حل به أوصى الى ابنه الذي كان في صحبته ، ولما مات

أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل ، وجمعوا عظامه في كيس على أن يحملوه إلى القـــدس الشريف حـــرسه الله ، ويدفنوه في القدس ، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه ، فان ولده الاكبر كان قد خافه في بلاده ، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه ، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمة العسكر .

ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل ، وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ، رأى أن لايلقي بنفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الامر ، وهم أفرنج وهو أرمني ، فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة .

صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس ، وهو مقدم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات ، نسخة هذه ترجمتها : كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس ما أطلع به علم مولانا ، ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلمة الايمان ، رافع علم العدل والاحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف إجلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا ، غصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم انه دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها وأقام بها وأحوج ملك الروم الى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفرا من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارا فضة ، وثياب أطلس بمبلغ عظيم ، واغتصب المراكب ، وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهائن

إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، ورد الرهائن وبقي سائرا ثلاثة أيام وتركمان الأوج (٣٠) يلقونه بالأغنام والبقر والخيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر ، وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين ، وهجم على قونية بالسيف ، وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليج أرسلان منه الأمان ، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل ، وقبل منه ، وقبل وصوله الى هذه الديار نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد يجتاز هذه الديار اختيارا أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم (٣١) وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه ، وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير ، وأعادوا عليه الجواب عرفوه الأحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهار وأكل خبزا ، ونام وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك ، وخرج ، وكان أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات ، أما ابن لاون فإنه كان سائرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا لجرى ، هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه في الحال ، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك ، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه هرب رسل ابن لاون ، فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال أن أبي كان شيخا كبيرا وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا بدأت قصد

دياره ، واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة ، وبالجملة فهو في عدد كثير .

ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفا (٣٢) ، وأما الرجالة فما يحصي عددهم ، وهم أجناس متفاوتة وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم ، وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له ، وجاوز الحد في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموا ما حل ، ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء ، والذل والتعب في حال عظيم .

طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى ، هذا كتاب الكاغيكوس ، ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسمه بركري كوربن باسيل .

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد في طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد ابن لاون ، وقربه إلى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته ، وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر بعضه يسير إلى البلاد

المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور ، وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين بن تقي الدين ، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما ، ثم مجد الدين صاحب بعلبك ، ثم صاحب شيزر سابق الدين ، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ، ثم عسكر حماه ، وسار ولده الملك الأفضل مع مرض عرض له ، ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضا ، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب لابانة الطريق وكشفا لأخباره ، وحفظا لما يليه من البلاد ، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدبير أمر العدو المجتاز ، وكان آخر من سافر في ليلة السبت التاسع من جمادى من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة .

ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فإن معظم من سار منها ، فأمر رحمه الله الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة ، ووقع في العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشفي ، ومرض بعده الملك الظافر ، وشفي ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن المرض كان سليما بحمد الله ، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ، وكان مقرونا بموتان عظيم ، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدو .

ذكر تمام خبر ملك الألمان

وذلك أن ولده الذي قام مقامه مرض مرضا عظيما ، أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داويا ، وجهز عسكره نحو إنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كند عظيم عندهم ، وأن عسكر بغراس مع قلته أخذ

منهم مئتي رجل قهرا ونهبا وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات ، ولما اتصل هذا الخبر بالذواب في البلاد الشامية ، أنفذوا إليهم عسكرا يكشف أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء خمسمائة نفس ، ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كاغيكوس بين يدي السلطان ، وهو يذكر خبرهم ، ويقول : هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة ، وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة ، قال : ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولارمحا إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم اياما فقل زادنا واحطابنا ، وأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب ، وأما الكند الذي وصل إلى أنطاكية في مقدمة العسكر ، فإنه مات ، وذكر أن ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى أنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تخلف معه ، وان البرنس صاحب أنطاكية لما أحس منهم بذلك ارسل الى ملك الألمان التقطه إلى أنطاكية طمعا في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر .

ذكر الوقعة العادلية

ولما كان يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت ، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سافر كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ،

وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار وامتـدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانبثوا في الأرض ، وكانوا عددا عظيما ، واستخفوا طـرف الميمنة ، وكان فيها مخيم الملك العادل ، فلما بصر الناس بهـم قـد خرجوا في تعبية القتال ، صاح صائحهم ، وخـرجوا مـن خيامهـم كأسـود مـن آجـامها ، وركب السـلطان ، ونادى مناديه : ياللاسلام ، وركبت الجيوش وطلبت الاطـلاب ، وكان رحمة الله عليه ، أول راكب ، ولقد رأيته رحمـه الله قـد ركب مـن خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهـو كالفاقدة ولدها ، الثـاكلة واحـدها ، ثـم ضرب الكوس واجـابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الافرنج فإنهم سارعوا في القصد إلى الميمنة حتـى وصـلوا الى خيمة الملك العادل ، ودخلوا في طاقه وامتدت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا الى خيمة الخـاص ، وأخذوا من شراب خاناتها شيئا .

وأما الملك العادل فانه لما علم بـذلك ركب وخـرج مـن خيمتـه ، واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي ، ومن يجري مجراه من أسود الاسلام ، ووقف وقوف مخادع حتـى يوغل بهـم طمعهم في الخيم ، ويشتغلوا في النهب وكان كما ظـن فإنهـم عاثـت أيديهم في الخيام والاقمشة والفواكه والمطاعم . فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين ، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة واتصـل الامـر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل ، وهجموا على العدو هجمـة الاسود على فريستها ، وأمكنهم الله منهم ، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين ، وعلى أعقابهم ناكصين ، وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح ، ويفصل بين الاجساد والرؤوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس .

ولما بصر السلطان باصطلاء الحـرب قـد ارتفـع ممـايلي خيام

أخيه ، ثارت في قلبه نار الاشفاق ، وحركت الحمية إخوته ، وأنهضت الرغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته ، وصاح صائحه في الناس : ياللاسلام وإبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه ، فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي ، وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الابطال ، ووقف هو رحمه الله في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضا ، فتواصلت العساكر ، واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة حتى رايت القوم (صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٣٢) وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم ، أولهم في الخيم الاسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ، وصرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر منهم حتى شبعت ، وأظهر الله كلمته ، وحقق لعبده نصرته ، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخا وربما زاد على ذلك ، ولم ينج من القوم الا النادر ، ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت في أن اعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لي من شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان ، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير ، فإن السلطان كان أمر الناس أن لايستبقوا أحدا ، هذا كله في الميمنة ، وبعض القلب ، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الأمر ، وقضى القضاء على العدو ما بين الظهر والعصر ، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل ، ثم إنه — رحمة الله عليه — أمر الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الربح ، حيث قتل من العدو ، ما قتل من هذا الخلق العظيم ، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين .

ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من الوقعة ، فإنهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالي السور ، خرجوا إلى مخيم العدو المخذول من البلد ، وجرت بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصرة للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعا من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام ، و وصل كتاب من المدينة يخبر بذلك ، (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٣٣) ، واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف ، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو ، ولقد لقيت إنسانا جنديا عاقلا يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له : كم عددت ؟ فقال لي : هاهنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا ، وكان قد عد صفين وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقي ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الاسلام .

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرون من جمادى المذكور ، ورد في عصره نجاب من حلب له خمسة أيام يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ، ونهض العسكر الاسلامي من حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، ولم ينج منهم إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعا عظيما ، وضربت البشائر ، ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه الصبيحة ، وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك قايماز الحراني ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم ، ولم يزل عدو الله في حينه مكسور الجناح من الجانبين ، حتى وصلهم كند يقال له كند هري .

ذكر وصول الكند هري

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم ، وصل في البحر في مراكب عدة ، ومعه من الاموال والذخائر والميرة والاسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوي بوصوله عزمهم واشتد أزرهم ، وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامي المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على السنة المستامنين والجواسيس ، فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأي انهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه ، فيمكن الله منهم ، ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله في قلبه ، فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأخرى ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو .

هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده ، وما قد عراهم من الموت والمرض ، وأنهم قد اجتمعوا بأنطاكية ، وأنهم قد بقوا رجالة ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ، ومن يخرج منهم .

ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه ، بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية ، فمضى الرسول والقى الخطبة ولقى احتراما عظيما

واكراما زائدا ، وكان قد انفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء ، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ، ورقي الخطيب المنبر ، واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية ، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدة ، ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان عنه ، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه زيهم الذي يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكره والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل الى ملك قسطنطينية خبر وفاته ، فانفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك ، وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ، ووصفه أنه كان كتابا مدرجا عرضا ، وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة ، وضع فيها الختم ، والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع ، على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر دينارا ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته :

من إيساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الاله ، المتوج من الله المنصور العالي ابدا ، أففقوس المدبر من الله القاهر الذي لايغلب ، ضابط الروم بذاته أذكلوس ، الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين ، فهذا : صورة ماكتب عليه من الترجمة باطنا وظاهرا ، وأما مافسر من الكتاب فهذا : المحبة والمودة ، قد وصل حظ نسبتك الذي انفذت إلى ملكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي ، وحزنا عليه حيث أنه توفي في بلد غريب وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي وأمره أن يتحدث به مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولابد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكي مع رسولي المتوفي والقماش الذي خلفه ويوجد بعد موته نعطيه أولاده وأقاربه ، وما اظن أنه سمع من نسبتك أخبارا ردية ، وأنه قد سافر في بلادي الألمان ، ولاعجب فإن الأعداء يرجفون باشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا

أكثر مما أوذي فلاحوا بلادك ، وقد خسروا كثيرا مـن المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفـوا وبـالشدة قـد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث إنهم لايصـلون إلى بلادك ، وإن وصلوا ، كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة ، لايقـدرون يدفعون جنسهم ولايضرون نسبتك ، وبعد ذلك كيف نسيت الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفت للملكي شيئا من المقاصد والمهمات ؟

ماربح ملكي من محبتك إلا عداوة الأفرنج وجنسهم ، ولابد لنسـبتك كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي نفذت إلينا من إنفاذ رسـول حتـى يعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم مـن الحـديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ولاتحمل على قلبـك مـن مجـيء الأعداء الذين قـد سمعت بهم ، فإن ادبارهم على قدر نيتهم وآرائهم ، وكتـب في أيام سنة الف وواحد وخمسمائة .

فوقف ـ رحمة الله عليه ـ وكرم الرسول ، وأحسن مثـواه ، وكان شيخا حسـن الخلق مهيبـا ، عارفـا بـالعربية والرومية والافرنجية .

ثم أن الافرنج اشتدوا في حصار البلد وضايقوه ، لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهري ، فإنه وصل على مـا ذكر والله أعلم في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلتهم نجدة أخـرى في البحـر قـويت بهـا قلوبهم ، ونازلوا البلد بالقتال

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو لما أحس في نفسه بقوته بسـبب تـوالي النجـدات عليهم اشتد طمعهم في البلد ، وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميهـا ليلا ولانهـارا ، وذلك في أثناء رجب .

ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو ، وتعلق طمعهم بهم ، وحركتهم النخوة الاسلامية وكان مقدموه حينئذ : أما والي البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم العسكر فالأمير الكبير الاسفهسلار حسام الدين أبو الهيجاء ، وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم في عشيرته ، ومضاء في عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك وفتحت الابواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل ، وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل ، وهجم الاسلام على الكفر في منازله ، وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون لخيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقذوفة ، وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة ، فلم تكن إلا ساعة حتى اضطرمت فيها النيران ، وتحرقت منها بيدها ما شيده الأعداء في المدة الطويلة في اقرب آن ، وقتل من العدو سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة الأسرى رجل مذكور منهم ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، ولما انفصل الحرب سأل الافرنج عنه هل هو حي أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير فيهم ، وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه فسارع وقتله ، وبذل الافرنج فيه أموالا كثيرة ، ولم يزالوا يشتدون في طلبه ويحرصون عليه حتى رميت اليهم جثته ، فضربوا بنفوسهم الأرض ، وحثوا على رؤوسهم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ، وكتموا أمره ، ولم يظهروا من كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون الى ليلة نصف شعبان ، وكان الكندهري قد انفق على منجنيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس والمستامنون ألفا وخمسمائة دينار ، وأعده ليقدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه في ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد لم يقدم بعد إليه ، ولما كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزراقون والمقاتلة تحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الليل

حتى أتــوا المنجنيق المذكور ، وأضرمــوا فيه النار فــاحترق مـــن ساعته ، ووقع الصياح من الطائفتين ، وذهل العــدو فإنه كان بعيدا من البلد ، وخافوا أن يكونوا قد أحيط بهــم مــن الجــوانب ، وكان نصرا من عند الله ، وأحرق بلهيبه منجنيقا لطيفا إلى جانبه .

ذكر الحيلة في إدخال بطسه بيروت إلى البلد

وذلك أنه — رحمــة الله عليه ـ كان قــد أعد ببيروت بــطسه ، وعمرها ، وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ، ووضــع فيهــا مـــن الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة .

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن تدخلها مراكب المسلمين ، وكانت قد اشتدت حاجة من فيهــا إلى الطعام والميرة ، فـــركب في بطسة بيروت جمـــاعة مـــن المسلمين ، وتزيوا بزي الافرنج ، حتى حلقوا لحــاهم ، ووضـــعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصــلبان وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتــى خــالطوا مــراكب العـــدو ، فخرجوا إليهم واعتــرضوهم في الحــراقات والشـــواني وقـــالوا لهم : نراكم قاصدين البلد ، واعتقدوا أنهم منهــم ، فقــالوا : أو لم تكونوا قد أخذتم البلد ؟

فقالوا : لم نأخــذ البلد بعــد ، فقــالوا : نحــن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هــوائنا فــأنذروهــمحتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة إفرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها ينذرونها ، فاشتدت البــطسة الاسلامية في المسير ، واستقامت لهــا الريح حتــى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحا عظيمــا ، فإن الحــاجة كانت قــد أخذت من أهــل البلد ، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب .

ذكر قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الوقعة ومحـاسنها ، أن عوامـا مسـلما يقـال له عيسى ، وصل الى البلد بالكتب والنفقـات على وسـطه ليلا على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجـانب الآخـر مـن مـراكب العدو ، وكان ذات ليلة شـد على وسـطه ثـلاثة أكياس فيهـا ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام في البحـر ، فجـرى عليه أمـر أهلكه وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادتـه إذا دخـل البلد أطـار طيرا عرفنا بوصوله ، فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه ، ولما كان بعد أيام بعـد بينا الناس على طرف البحر في البلد إذا هـو قـذف شـيئا غريقـا ، فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب ، وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته ، وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب أيضا .

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة ، حاكمة على السور ، وأن حجارتها تواترت حتـى أثـرت في السـور أثـرا بينا ، وخيف من غائلاتها ، فأخذ سـهمان مـن سـهام الجـرخ العظيم ، فأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، واجتهد العدو في إطفائهما فلم يقدر على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصلت لهبتـه بالآخر فأحرقته ، واشتد نارهما بحيث لم يقدر احد أن يقرب مـن مكانهما ليحتال في أطفائهما ، وكان يوما عظيمـا اشـتد فيه فـرح المسلمين ، وساءت عاقبة الكافرين .

ذكر تمام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها المركيس

وكان من حديثه أنه بعد أن استقر قدمه في انطاكية - يسر الله فتحها - أخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره ، فأخذ قلعتها منه غيلة وخديعة ، وأودعها خزائنه ، وسار عنها في الخامس والعشرين من رجب متوجها نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس ، وكان قد سار إليه من معسكر الافرنج يلتقيه المركيس صاحب صور ، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع من وراء البحر

وذلك أنه صور القدس في ورقة ، وصور فيه صورة القمامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، وصور على القبر فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح ، وبال الفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الاسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلق لايحصى عددهم إلا الله ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق ، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماة ثار بهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب ، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فإن الملك المظفر قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا ، وهجم عليهم هجوما عظيما أخذ فيه من أطراف عساكره ، وكان قد لحقهم بأوائل

عسكره ، ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضي عليهم ، ولكن (لكل أجل كتاب) (٣٤) واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب ، فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف ، بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه ، ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت ، وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع ، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا واسرا حتى أتوا طرابلس ، ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، هذا والسلطان ثابت الجاش راسخ القدم لايرده ذلك عن حراسة عكا ، والحماية لها ، ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات عليها ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مفوضا أمره الى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلا ببره من يفد إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء ، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه وأجد منه من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري ، وأتيقن معه نصرة الاسلام وأهله .

ذكر وصول البطس من مصر

ولما كان العشر الاوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الأسطول والحاجب لؤلؤ يذكران السلطان انه لم يبق بالبلد ميرة الا قدر يكفي الى ليلة النصف من شعبان لاغير (فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) (٣٥) لخاص ولا لعام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، فتضعف به قلوب المسلمين ، وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدم والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت في

البحر تتوخى الذوتية بها الريح ، حتى ساروا بالريح التي تحملهـا الى نحو عكا ، ولم يزالوا كذلك حتى وصـلوا الى عكا ليلة النصـف من شعبان المذكور ، وقد فني الزاد ولم يبق عندهـم مـا يطعمـون الناس في ذلك اليوم ، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعسـاكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقـد كشف المسـلمون رؤوسـهم يبتهلون الى الله تعـالى في القضـاء بتسليمها الى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشـاهد القتال ، ويدعو ربه بنصره ، وقد علم من شدة القـوم مـا لم يعلمـه غيره ، ما في قلبه ، والله يثبته ، ولم يزل القتال يعمل حول البـطس من كل جانب ، والله يدفع عنها ، والريح يشـتد والأصـوات قـد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخـرق الحجـب ، حتـى وصـلوا سالمين الى ميناء البلد ، وتلقـاهم أهـل عكا ، تلقـي الأمـطار عن جدب ، وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها عصر يوم الاثنين رابع عشر شعبان المذكور ، من السنة المذكورة .

ذكر محاصرة برج الذبان

ما كان الثاني والعشرون من شعبان جهـز العدو بـطسا متعـددة لمحاصرة برج الذبان ، وهـو برج في وسط البحر مبني على الصخر ، على باب ميناء عكا ، يحرس به الميناء ، ومتـى عبـره المركب أمـن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخـول اليه بشيء .

من البـطس ، فتقـطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صـواري البطس برجا وملأوه حطبا على أنهم يسيرون البطس ، فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري والصـقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ، ويقتـل مـن عليه مـن المقـاتلة ويأخذوه ، وجعلوا في البطسه وقودا كثيرا حتى يلقـى في البـرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبوا بطسه ثانية وملأوها حطبا ووقـود على

انهم يدفعون بها الى أن تدخل بين البطس الاسلامية ، ثم يلهبوها فتحرق البطس الاسلامية ، ويهلك ما فيها من الميرة ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمذوا وقدموا البطس نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعدا لهم ، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا أن يحرقوا بها من على برج الذبان ، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد واشتعلت البطسة التي كان بها بأسرها واجتهدوا في إطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة إلا من شاء الله ، واحترقت البطسة التي كانت معدة لاحراق بطسنا ووثب أصحابنا عليها فأخذوها اليهم ، وأما البطسة التي كانت فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع ، واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما ، فانقلبت وهلك جميع من كان بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله ، وأندر العجائب في نصرة دين الله ، وكان يوما مشهودا

ذكر وصول الألمان الى عسكرهم المخذول

عدنا الى حديث ملك الالمان ، وذلك انه أقام بطرابلس حتى استجم عسكره ، وأرسل الى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه اليهم ، وقد حموا من ذلك لأن المركيس صاحب صور هو رب مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالعسكر وهو الذي يرجع اليه في الامور فعلم أنه مع قدوم الألماني لا يبقى له حكم ، ولما كان العشر الآخر من شعبان أزمع رأيه على المسير في البحر لعلمه أنه إن لم يركب البحر نكب ، وأخذت عليه الطريق ، والمضايق ، فأعدوا المراكب وأنفذت إليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم ، وساروا يريدون العسكر

فلم تمض إلا ساعة من النهار حتي قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة ، وعاد الباقون يرصدون هواء طيبا فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح ، وصاروا حتى أتوا صور ، فأقام المركيس والألماني بها وأنفذوا بقية العساكر الى المعسكر النازل في عكا ، وأقاما بصور الى ليلة السادس من رمضان ، وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، ولقد كان لقدومه وقع عظيم من الطائفتين ، وأقام أياما ، وأراد أن يظهر لمجيئه أثر فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه أن يضرب مصاف مع المسلمين ، فخوفوه من الاقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال لابد من الخروج على اليزك ليذوق قتال القوم ، ويعرف مراسهم ، ويتبصر بأمرهم فليس الخبر كالعيان ، فخرج على اليزك الاسلامي ، واتبعه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوطأة التي بين تلهم وتل العياضية ، وعلى تل العياضية خيم اليزك ، وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم وقاتلوهم واذاقوهم طعم الموت ، وعرف السلطان ذلك ، فركب من خيمه بجحفلة وسار حتى أتى تل كيسان ، فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم ، عاد ناكصا على عقبه ، وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم ، وهم هاربون حتى وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين اثنان ، وجرح جماعة كثيرة ، وكانت الكسرة على اعداء الله ، ولما عرف ملك الألمان ما جرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر ، وهو جزؤ من كل رأى أن يرجع الى قتال البلد ، ويشتغل بمضايقته ، فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه ، فأحدثوا آلة عظيمة

تسمى دبابة يدخل تحتها من المقـاتلة خلق عظيم ملبسـة بصـفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها من المقـاتلة حتى ينطح بها السور ، ولهـا رأس عظيم بـرقبة شـديدة مـن حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجـال يسحب كذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التـي يحـرث بها ، ورأس البرج مدور وهـذا يهـدم بثقله وتلك تهـدم بحـدتها وثقلها ، وهي تسمى سنورا ، ومـن السـتائر والسـلالم الكبـار الهائلة ،وأعدوا في البحر بطسة هـائلة وضـعوا فيهـا بـرجا بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذي ينقلب عليه ، تمشي عليه المقـاتلة ، وعزمـوا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به .

ذكر حريق برج الكبش وغيره من آلات

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت ، شرع في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم في نصرة دين الله وقويت قلوبهم على المصـابرة ، ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ، وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام .

ذكر قدوم الملك الظاهر

فقدم الملك الظاهر ولده -صاحب حلب المحروسة - بجحفله وعسكره ، وهو من كبار أولاده ومقدميهم ومهذبيهم ، وهو يعتمـد عليه في كثير من اموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثـابرة على خدمة والده ومعاجل في أمره ، ثم كر عاد حتى لقي عسكره ، وقدم

معهم بكرة الثلاثاء يرتب أطلابه ويهذبها ، ففرح بمقدمه وسر به سرورا عظيما ، رضاء عنه بما رتب وجمع من العساكر والجحافل ، وقدم في ذلك اليوم سابق الدين - صاحب شيزر - وعز الدين بن المقدم ، ومجد الدين - صاحب بعلبك - وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زي وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة في ذلك اليوم .

وكان السلطان الناث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب في ذلك اليوم ، وكان عيدا من وجوه متعددة ، وفي ذلك اليوم زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذووا الآراء المثقفة من مقدمي المسلمين حتى نشبت مخاليب أطماعهم في البلد ، وسحبوا الاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة وأطلقوا عليهم سهام الجروخ وأحجار المنجنيق وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق وأوقع الله الرعب في قلب العدو ، وأعطى ظهره للهزيمة وأخذوا مشتتين هاربين ، على أعقابهم ناكصين ، يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلق عظيم وقع فيه السيف وعجل الله بأرواحهم الى النار .

ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقا شنيعا ، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر للقوي الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها الى السنور فاحترق ، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة في السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ألقي

الماء عليه حتى برد حديده بعد ايام ، وبلغنا مـن اليزك أن وزن مـا كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربع رطـل ، ولقـد أنفـذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبتـه ، وشـكله على مثل السفود الذي يكون بحجر المدار قيل إنه ينطـح بـه فيهـدم مـا يلاقيه ، وكان ذلك من أحسـن أيام الاسـلام ، ووقـع على العـدو خذلان عظيم ، ورفعوا ما سلم من الاتهم ، وسكنت حركاتهم التـي ضيعوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستبشر السلطان بغرة ولده واستبرك بها حيث وجـد النصر مقـرونا بقـدومه مـرة اخرى ، وثانية بعد أولى

ولما كان يوم الأربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العـدو ، وضربـوا البـطسة المعدة لأخذ برج الذبان بقوارير نفط فاحترقت ، وارتفـع لهيبهـا في البحر ارتفاعا عظيما ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتـكبير وكف الله شرهـا (ورد الذين كفـروا بغيظهـم لم ينالوا خيرا) (٣٦) وحزن الألمان كذلك حزنا شـديدا ، وغشـيتهم كآبـة عظيمة ، ووقع عليهم خذلان عميم .

ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طـائر في طي كتاب وصل من حماه ، قد طاربه الطائر مـن حلب يذكر فيه أن البرنس صاحب أنطاكية خرج بعسكره نحو القرى الاسلامية التـي تليه لشن الغـارات عليهـا ، فبصرت بـه العسـاكر ، ونواب الملك الظاهر ، فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم إلا والسـيف قـد وقـع فيهم ، فقتل منهـم خمسـة وسـبعون نفـرا ، وأسر خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيحا ، حتـى اندفعـوا وسار الى بلده .

وفي أثناء العشر الأوسط ألقـت الريح بـطستين فيهمـا رجـال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة ، قـاصدين نحـو العـدو

فغنمها المسلمون ، وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد ، فأخذوه فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحيا لذلك وجابرا لها ، ولم تزل الأخبار بعد تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين أن العدو قد عزم على الخروج الى العسكر الاسلامي خروج مصاف ومنافسة ، والتاث مزاج السلطان بحمى صفراوية ، فاقتضى الحال تأخر العسكر الى جبل شفرعم ، وكان انتقاله تاسع عشر رمضان ، فنزل السلطان على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل ، وفي ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل مرضا شديدا بحمتين مختلفتي الأوقات ، واستأذن في الرواح ، فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال الى الناصرة ، فأذن له في ذلك اليوم وأقام بالناصرة أياما عديدة يمرض نفسه فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال وضم اليه بلد شهرزور أيضا واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه ، جابرا لخلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين .

ذكر قصة معز الدين

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ابن زنكي ، وهو صاحب الجزيرة اذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر للجهاد ، وقد ذكرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق بحيث ترددت رسله ورقاعه الى السلطان في طلب الدستور ، والسلطان يعتذر اليه بأن رسل العدو متكررة في معنى

الصلح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألوا جهدا في طلب الدستور الى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، وحضر سحر ذلك اليوم في باب الخيمة السلطانية ، فاستأذن في الدخول ، فاعتذر اليه بالتياث كان قد عرى مزاج السلطان ، فلم يقبل العذر ، وكرر الاستئذان ، فأذن له في الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأذن في الرواح شفاها ، فذكر له السلطان العذر بذلك ، وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها ، فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا القدور فيها الطعام ، وقلعوا الخيم وتبعوه ، فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها: « إنك أنت قصدت الانتماء إلي ابتداء ، وراجعتني في ذلك مرارا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك ، فقبلتك وأويتك ونصرتك ، وبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فأنفذت اليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته ، واتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدة المديدة ، وقلقت هذا القلق فانظر لنفسك وابصر من تنتمي اليه غيري ، واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالي الى جانبك التفات » وسلم الكتاب الى نجاب ، فلحقه قريبا من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه ، وكان الملك المظفر تقي الدين قد استدعي الى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين ، على ما سبق شرحه ، فلقيه في الطريق في موضع يسمى عقبة فيق ، فرآه محثا ولم ير عليه امارات حسنة ، وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له ، ففهم الملك المظفر انفصاله من غيردستورمن السلطان وأنه على خلاف اختياره ، فقال له المصلحة لك أن ترجع الى الخدمة وتلازم الى أن يأذن لك ، وأنت صبي ولم تعلم غائلة هذا الأمر ، فقال : ما يمكني الرجوع ، فقال : ترجع عن غير يد فليس في الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا ، فأصر على الرواح فخشي عليه ، وقال : ترجع من غير اختيارك ، وكان تقي الدين شديد البأس مقداما على الأمور ليس في عينه من أحد شيء ، فلما علم أنه

قابضه إن لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل ونحن في خدمته الى لقاء الملك المظفر ، فوجدناه معه فدخلا به على السلطان وسأله الصفح عنه ، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه ، فأذن له فأقام في جواره الى حين ذهابه .

ذكر طلب عماد الدين الدستور

وذلك أن عماد الدين زنكي عم المذكور الح في طلب الدستور ، وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسلطان يعتذر اليه بأن الرسل متواترة بيننا وبين العدو في الصلح ، وربما انتظم فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأي مشترك ، واستأذن في أن يحمل اليه خيام الشتاء فلم يفعل ، وتكررت منه الرسل الى السلطان في المعنى ، والسلطان يكرر الاعتذار ، ولقد كنت بينهم في شيء من ذلك ، وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح ما يجاوز كل وصف ، وعند السلطان من إمساكه الى أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد ، وآل الأمر الى ان يكتب عماد الدين بخطه ، ويطلب فيه الأذن في الرواح وتلين فيها وتخشن ، فأخذها السلطان وكتب في ظهرها بيده الكريمة : من ضيع مثلي من يده ، فليت شعري ما استفاد ، فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية .

ذكر خروج العدو الى رأس الماء

وتواترت الأخبار بضعف العدو ، ووقوع الغلاء في بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة من القمح بلغت في أنطاكية ستة وتسعين دينار صورية ، ولا يزدهم ذلك الا صبرا وإصرارا وعنادا ، ولما

ضاق بهم الأمر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ، عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض السلطان ، فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادي عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين أزوادا وخياما الى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام ، فأخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك ان يتراجع من بين أيديهم الى تل كيسان ، وكان اليزك على العياضية وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان قد أمر الثقل في أول الليل أن يسيروا الى الناصرة والقيمون ، فرحل الثقل ، وبقي الناس ، وكنت في جملة من أقام في خدمته ، وأمر العسكر أن يركب ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال ، وركب هو وصاح الجاويش بالناس فركبوا ، وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة ، وابتدأت الميمنة بالمسير فسارت حتى بلغ لخرها الجبل وسارت الميسرة حتى بلغ لخرها النهر بقرب البحر ، فكان في الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق ، وولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وولده الظافر صاحب بصرى ، وولد عز الدين صاحب الموصل ، والطواشي قايماز النجمي ، وعز الدين جرديك النوري ، وحسام الدين بشاره صاحب بانياس ، وبدر الدين دلدرم ، وجمع كثير من الأمراء ، وكان في الميسرة عماد الدين زنكي صاحب سنجار ، وابن اخيه معز الدين صاحب الجزيرة ، وفي طرفها الملك المظفر تقي الدين ابن أخيه ، وكان عماد الدين زنكي غائبا مع الثقل لمرض كان ألم به ، وبقي عسكره ، وكان في الميسرة سيف الدين على المشطوب ، وجميع المهرانية والهكارية ، وخشترين وغيرهم من الامراء الاكراد ، وفي القلب الحلقة السلطانية ، وتقدم السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، وأن يدوروا حول العسكر واليزك معهم ، وأخفى بعض الاطلاب وراء التل ، عساهم أن يجدوا غرة من العدو ، ولم يزل عدو الله يسير ، والناس من جميع

جوانبه ، وهو سائر على شاطىء النهر من الجانب الشرقي حتى رأس العين ، وداروا حوله ، حتى عبروا الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الابطال ، ويصرع منهم الرجال ، وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه الى النهر ، وجرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضا جماعة ، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه ، وهم سائرون حتى لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وتراجعت العساكر الى مواطن المصابرة ، ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان الى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم بقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلا ، وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال ، وسار هو رحمه الله ونحن في خدمته الى رأس جبل الخروبة ، فنزل في خيمة لطيفة ، والناس حوله في خيم لطاف بمرأى من العدو ، واخبار العدو تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح ، ولما كان الصبح في يوم الأربعاء ثالث عشر شوال ، وصل من أخبر أنهم تحركوا الركوب فركب هو ورتب الأطلاب ، وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد أحوالهم ، وكان رحمه الله ملتاث المزاج ضعيف القوى ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة الى أن تضاحي النهار ، وسار العدو إلى شاطىء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب فإنه كان يطير إليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم ، بحيث لم يظهر منهم أحد في ذلك اليوم أصلا ، والكوسات تخفق والبوقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير تعلو ، هذا والسلطان يمد الجاليش بالاطلاب ، والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ، ونحن نشاهد الاحوال ، وعلم العدو مرتفع

على عجلة هو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال ، وهم يذبون عن العلم ، وهو عال جدا كالمنارة خرقته بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة جسر دعوق ، وقد الجمهم العطش ، وأخذ منهم التعب ، واثخنتهم الجراح ، واشتد الامر بهم من شدة الحر ، ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوما عظيما واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لايظهرون من رجالتهم ولا يحملون وكان الفعل معظمه للحلقة في ذلك اليوم ، فإنهم أذاقوهم طعم الموت ، وجرح منهم جماعة كاياز الطويل فإنه قام في تلك الحرب العظيمة اعظم مقام ، وجرح جراحات متعددة ، وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ، ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق ، وقطعوا الجسر ، وأخربوه خوفا من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطان الى تل الخروبة واقام عليهم يزكا يحرسهم ، وأخبارهم تتواتر حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب ، ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل ، فركب السلطان ورتب الاطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يقتالوا فان العدو كان قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى خيمه ، وكان ممن خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهري والمركيس وتخلف ابن ملك الالمان في الخيم مع جمع كثير منهم .

ولما دخل العدو الى خيمهم كان لهم فيها أطلاب ، مستريحة ، فخرجت الى اليزك الاسلامي وحملت عليه ونشب القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل من

العدو شخص كبير فيهم مقـدم عليهـم ، وكان على حصـان عظيم ملبس بالزرد الى حافره ، وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبـوه مـن السلطان بعد انفصال الحرب فدفع إليهم جثتـه ، وطلب رأسـه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه ، وأعاد الثقل إلى مكانه وعاد كل قوم إلى منزلتهم ، وعاد عماد الدين ، وقد أقلعـت حمـاه ، وبقـي التياث مزاج السلطان ، وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيته وهـو يبـكي في حـال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ، ورأيته وهـو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمكافحة الأمر ، ومخالطة الحـرب ، ولقـد سـمعت منه وقائل يقول : إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثـر في الطائفتين ، ينشد متمثلا .

أقتلاني ومالكا

واقتلا مالكا معي

يريد بذلك أنني قد رضيت أن أتلف إذا تلف أعداء الله ، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العسكر الاسلامي

ذكر وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال رأى السلطان أن يضع للعدو كمينا ، وقوي عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا مـن كمـاة العسـاكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهـم أن يسيروا في الليل ويكمنوا في سفح تل هـو شمالي عكا بعيد من عسـكر العدو ، وعنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسـوبة إليه ، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسـير ، وأن يقصـدوه في خيمـه ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحـو المسـلمين ، ففعلوا

ذلك وساروا حتى اتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه ، ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهـــم نفـــر يســـير على جياد مـــن الخيل ، وساروا حتى اتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب وحـركوا حميتهم بالضرب المتواتر فانتخى لهم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا إليهم شاكي الســلاح على خيل جياد بعـدة تـامة وأســلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم احد راجـل ، وداخلهـم الطمـع فيهـم لقلة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم وهم يقـاتلونهم ويقتلون حتـى اتـوا الكمين فثارت عند وصولهم الابـطال وصـاحوا صـيحة الرجـل الواحد ، وهجموا عليهم هجمة الأســود على فـرائسها ، فثبتـوا وصبروا بالسيف حتى افنوا منهم جمعا عظيما واسـتسلم البـاقون للأسر ، فأسروهم واخذوا خيلهم وعددهـم ، وجـاء البشـير الى العسكر الاسلامي ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتـكبير ، وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت في خـدمته حتـى أتـى تـل كيسان ، فلقينا أوائل القوم ، فـوقف هناك يتلقـى العـائدين مـن المجاهدين ، والناس يتبـركون بهـم ويشـكرونهم على حســن صنيعهم ، وهو يعتبر الاسرى ويتصفح أحوالهم ، وكان ممـن أسر مقدم عسكر الافرنسيس ، فإنه كان قـد أنفـذ نجـدة قبـل وصوله ، وأسر خازن الملك أيضـا ، وعاد السـلطان بعـد تـكامل الجماعة الى مخيمه فرحا مسرورا ، وأحضر الأسرى عنده ، وأمـر مناديا ينادي مـن أسر أسـيرا فليحضره ، فـأحضر الناس أسراهم ، وكنت حاضرا ذلك المجلس ، ولقد أكرم المقـدمين منهـم وخلع عليهم وعلى مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديدا وكان قـد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة تضرب قـريبا من خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الاوقات ، وأمـر بتقييدهـم وحملهـم الى دمشـق فحملوا مكرمين ، وأذن لهم في أن يراسلوا صاحبهم وأن يحضروا لهم مـن عسكرهم مـا يحتـاجون اليه مـن الثياب وغيرهـا ، ففعلوا ذلك ، وساروا الى دمشق .

ذكر عود العساكر عن الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأمن العدو أن يضرب مصاف وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها ، أذن السلطان للعساكر في العود الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة ، وتجم خيولهم الى وقت العمل ، وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار لما كان عنده من القلق في طلب الدستور ، وكان مسيره خامس عشري شوال ، وسار عقبيه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في مستهل ذي القعدة مشرفا مكرما معه التحف والطرائف ، وتأخر الملك المظفر الى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر إيضا الملك الظاهر ، وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين ، وسار الملك المظفر في ثالث صفر ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفندار فتلقاه وأكرم مثواه ، ووضع له طعاما يوم قدومه وباسطه مباسطة عظيمة وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور ، فوقع بإعادتها الى يده واجراء الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة ، وخلع عليه وشرفه ، وسار فرحا مسرورا شاكرا لأياديه

ذكر ارتحال السلطان لادخال البدل الى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ، ورفع ما كان له من الشواني في البحر الى البر اشتغل السلطان في إدخال البدل الى عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدد إليها وإخراج من كان بها من

الامراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء الأمير سيف الدين على المشطوب دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين ابو الهيجاء واصحابه ومن كان بها من الأمراء واعيان من الخلق ، وتقدم الى كل من دخل أن يصحب ميرة لسنة ، وانتقل الملك العادل بعسكره الى حيفا على شاطيء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب فتدخل الى البلد ، وإذا خرجت تخرج اليه ، فاقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يعترضها ، وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة ، وتقدم السلطان بتعبيتها من مدة مديدة ، وكان دخولها ثاني ذي الحجة من السنة الخالية ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب من الميناء ، فانقلب كل من البلد من المقاتلة لتلقي البطس ، ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا الى البلد في جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الاسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها ، قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم وأحرج السلطان بذلك حرجا عظيما ، فاستخلف ذلك في سبيل الله تعالى (وما عند الله خير وأبقى)(٣٨) وكان ذلك أول علامات أخذ البلد والظفر به .

ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية قضى الله وقدر أن وقع من السور قطعة عظيمة فوقعت بثقلها على الباشورة فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، وهي العلامة الثانية ، وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف هياجا عظيما وجاؤوا

الى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب ، فتحـــايا الناس في البلد وثارت هممهم ، فقتلوا من العدو وجرحوا خلقا عظيمـــا وقـــاتلوهـم قتالا شديدا حتى ضرسوا وأيســوا مــن أن ينالوا خيرا ، فــوقفوا كالاسد في موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا جميع مــن في البلد مــن البنائيين والصناع ، ووضعوهم في ذلك الموضع ، وحموهم بالنشاب والجروخ والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن مما كان واقوى وأتقن ، والحمد لله .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم ، اخرجهم الجــوع إلينا وقالوا للسلطان : نحن نخوض البحر في براكيس وبطس الى العــدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين ، فــأذن لهــم في ذلك واعطــاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو ،وهي قاصدة الى عسكرهم وبضــائعهم معــظمها فضـــة مصوغة وغير مصوغة ، فوقع عليهـــا البــركوس وقـــاتلوهم حتـــى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهــم ، وأحضروهـــم بين يدي السلطان ، وذلك في ثـــالث عشر ذي الحجــــة مـــن الســـنة المذكورة ، ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة مــن فضـــة ، فــأعطاهم الســلطان الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئا ، وفــرح المســلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان

وذلك أن العدو لما دخـــل الشــــتاء عليهــــــم ، وتـــــواترت الانداء ، واختلفت الاهـواء وخم المرج وخما عظيمـا ، وقــع فيهــم

بسبب ذلك موتان عظيم ، وانضم الى ذلك الغلاء الزائد ، وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمائتان على ما قيل وقيل أكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الالمان مرضا عظيما ، وعرض له مع ذلك مرض الجوف ، فهلك به في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثمانين ، وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما ، وأشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا وأشعلت فيها النار ان والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نار ، وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده ، وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط ، ومرض الكندهري وأشرف على الهلاك ، وفي الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيهما نيف وخمسون نفرا ، وفي الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع ما فيه ، وكان من جملة ما فيه ماوطة مكللة باللؤلؤ وهي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن اخته وأخذ أيضا .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين ، هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السلطان كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الافرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له إن افرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قد قرر مع عسكره قصدهم ، فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم من الخيل اربعمائة رأس ومئة من البقر ، فهلك من الخيل اربعون ، وسلم الباقي ، وعاد الى البلد ، ولم يفقد من أصحابه احد ، ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر من سنة سبع وثمانين .

وفي ليلة هــذا اليوم ألقــت الريح مــركبا للعــدو على الذيب فــكسرته ، وكان فيه خلق عظيم فبصر بهــم أصــحابنا ، فــوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم ، ولقد حضرت ، وقــد عرض منهــم على السلطان رحمة الله عليه ، خمسة عشر نفرا ، وليلة هلال ربيع الاول من هذه السنة خــرج أصــحابنا مــن البلد ، وهــجمــوا على العدو ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعــا عظيما ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ماقيل .

ذكر وقائع عدة في هذه السنة

وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة الســلطانية ، وخــرج مــن العدو اليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قتل فيها مــن العدو جماعة وقتل منهم رجــل كبير على مــاقيل ، ولم يفقــد مــن المسلمين الا خادم للسلطان يسمي قراقوش ، وكان شجاعا عظيمــا له وقعات عظيمة كثيرة استشهد في ذلك اليوم ، وفي تاسع الشهر بلغ السلطان إن العدو يخرج منه طائفة يتفسحون لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخــاه الملك العــادل ، وفي خــدمته خلق عظيم ، مــن العساكر الاسلامية ، وأمره أن يكمن العدو وراء التل الذي كانت فيه الواقعة المعروفة به ، فسار هــو وجمــع كان مــن كبــراء أهله واصحابه ، فكمن وراء تل العياضية ، وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفــر تقــي الدين ، وابنه ناصر الدين محمــد ، والملك الافضل ولده ، ومعــه صــغار أولاده الملك الاشرف محمــد ، والملك المعظم تورانشاه والملك الصــالح اســماعيل ، وكان مــن المعممين القاضي الفاضل والديوان ، وكنت في الصــحبة في ذلك اليوم ، وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشــوا العــدو ، فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكان قــد وشي اليهــم بجلية الامــر إلا أن ذلك اليوم لم ينفك إلا بنوع نصر ، فإنه وصل في أثنائه خمسة وأربعــون نفرا من الافــرنج ، كانوا قــد أخــذوا في بيروت وســيروا الى السلطان ، ووصلوا في ذلك اليوم الى ذلك المكان ، ولقد شاهدت منه

رقة قلب لم ير أعظم منها وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة الا مقدار تحرك لا غير ، فقال للترجمان:قل له : ماالذي حملك على المجيء ، وأنت في هذا السن ، وكم من ههنا الى بلادك ؟ فقال : بلادي بيني وبينها عدة أشهر ، وأما مجيئي فإنما كان الحج الى القمامة ، فرق له السلطان ، ومن عليه ، وأطلقه وأعاده راكبا على فرس الى عسكر العدو ، ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يفعله فسألته عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم بما طلبوه ، فقال : لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر ولا يخفي ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين – رأف الله به ورحمه – ولما أيس من خروج العدو عاد الى المخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الاول سنة سبع ، فرحا مسرورا .

ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر ، وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر الى الجهاد من الطائفتين ، فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر ، من أمراء الملك الظاهر ، وكان شيخا كبيرا مذكورا له وقائع ، ذا رأي حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قدم صحبة ، ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه وهو صاحب بعلبك ، وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل صوب ، وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم الملك افرنسيس ، وكان عظيما عندهم ، مقدما محترما من كبار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم في ست بطس تحمله تحمل ميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

نادرة وبشارة

وكان صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس ما رأيت بازا أحسن منه ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان ،وقد كان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به ، فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الافرنج فيه ألف دينار ، فلم يجابوا ، وقدم بعد ذلك كند فرند ، وكان مقدما عظيما عندهم مذكورا ، فذكروا أنه حاصر حماه وحارم في عام الرملة ، ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن كان جماعة من المتسأمنين قد أعطوا براكيس ليكسبوا عليها في البحر من العدو فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد وانهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من في البيعة من الرجال والنساء وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحملوهم وألقوهم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية ، وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة ، وأموال عظيمة فتقسموها فوصل الى كل واحد على ماقيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة ، وقدم بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر ، وهجم أصحابنا على غنم العدو ، فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا فركب في طلبها الراجل والفارس فلم يظفروا منها بشيء .

ذكر ملك الانكتار

وهذا ملك الانكتار شديد الباس بينهم عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون

الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة ، وكان من خبره أنه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما وقاتلهم قتالا شديدا ، فأنفذ الانكتار الى عكا يستنجد منهم الجماعة ، ليعينوه على مقصوده ، فأنفذ إليه الملك كي أخاه ومعه مائة وستون فارسا ليعينوه على مقصوده ، وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين ، وفي سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب وطرادة ، فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فارسا ، وكان ذلك فتحا عظيما استبشر به المسلمون ، وفي رابع جمادى الأولى زحف العدو الى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ، ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو وعنهم ، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو ومقاربته ، وأصبح على أهبة المسير الى العدو ، ورتب العساكر ، ثم أنفذ من كشف حال العدو ، وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه في نفر يسير من مماليكه الى خنادقهم ، وصعد جبلا يعرف بتل الفضول قريبا من العدو مشرفا على خيمهم ، وشاهد المنجنيقات ، ومايعمل منها وماهو بطال ، ثم عاد الى مخيمه وأنا في خدمته ، وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قد أخذ من أمه سرقة .

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا الى خيمة السلطان ، وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه

يعرضونه عليه فيخلع عليهم ويعطيهم ماأخذوه ، ولما فقدته أمه باتت مستغيثه بالويل والثبور طول الليل ، وحتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا : انه رحيم القلب ، وقد أذنا لك بالخروج فاخرجي ، واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث إلى اليزك ، فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا في خدمته ، وفي خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديدا ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها فأخبروه ، فرق لها ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع في السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ، ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها ، فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم أنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك يا ذا الجلال والاكرام ، وانظر إلى شهادة الاعداء له بالرأفة والكرم شعر :

ومليحة شهدت لها ضراتها
والحسن ليس لحقه من مذكر

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكري ، وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ، ولما عاد السلطان الى مخيمه لم يلبث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته نحو البلد ، وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين .

ذكر انتقال السلطان إلى تل العياضية

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغ السلطان ان

الافرنج قد ضايقوا البلد ، وركبوا المناجيق ، فأمر الجاويش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، حتى أتى الخروبة ، وقوى اليزك بتسير جماعة من العسكر إليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد ، فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدو إلى خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان الى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل فيها من الشمس فنزل لها لصلاة الظهر ، والاستراحة ساعة ، وقوى اليزك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيم ، لاخذ جزء من الراحة ، وكنت في خدمته ، فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا الى الزحف لما احسوا بانصرافه عنهم ، أشد ما كانوا أولا ، فأمر من نبه الناس ، وأمر بالعود فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابا ، وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب ، وأقام هو وهناك على عزم المبيت ، وفارقت خدمته لخر نهار الثلاثاء ، وعدت الى الخيم ، وبات هو وجميع العسكر على تعبية القتال طول الليل ، وأصر طائفة منهم بمضايقة العدو ، ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر الشهر إلى تل العياضية قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ، وأمر الناس أن ينزلوا على التل حوله على العادة في منازلهم العام الماضي لكن جرائد ، مع بقاء الثقل على الخروبة ، ونازل العدو في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب المبرح المتواتر الذي لايفتر شغلا لهم عن الزحف على البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنفسه ـ رحمه الله ـ يدور بين الأطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدو عن مضايقة البلد ، ولما رأى العدو تلك المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم في خيمهم ، فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم ، ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة إذا رجعوا الى الزحف ، كل ذلك والعدو على إصراره في مضايقة البلد والزحف عليه .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الأمر الى أن كانوا يلقون فيه موتاهم ، وكانوا إذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة القوه فيه ، بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد ، وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساما ، قسم ينزلون في الخندق يقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جلد ، وكانوا يصبرون (والله مع الصابرين) (٣٩) هذا والسلطان لايقطع الزحف عنهم والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا ، حتى يشغلهم عن البلد ، وصوبوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلا ونهارا ، حتى أثرت فيه الأثر البين ، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد هو في قتالهم ، وكبس خنادقهم والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه ، فلما أخبر السلطان بذلك قال :إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا فأما نحن فليس لنا إليكم حاجة ولا شغل ، ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكتار .

ذكر وصول الانكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر ، قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص ، والاستيلاء عليها ، وكان لقدومه روعة عظيمة ، ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال

والسلاح والعدد ، واظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة في خيامهم ، ولقد كانت مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون أن يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٤٠) .

ذكر غرق البطسة الاسلامية وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعبينها وتسييرها من بيروت ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل البلد مراغمة العدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فأغرقها الانكتار في عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعا ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا في قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهوا ، فقاتلوها قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، واغرقوا العدو شانيا كبيرا فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ، وانهم لابد وأن يقتلوا قال والله لانقتل إلا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جا نب أبوابا فامتلأت ماء ، فغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدو منها بشيء ، وكان اسم المقدم المذكور يعقوب ، من رجال

حلب ، وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه الى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق ، وانفذوه الى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزنا شديدا ، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله ، والصبر على بلائه و (الله لا يضيع أجر المحسنين) (٤١) .

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة ، أربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وكان يركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة اذرع على ما يشاهد برأي العين ، وأخذ أهل البلد في تولية ضربها بالنفط ليلا ونهارا حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، فاشتدت الأصوات بالتهليل والتكبير ورأى الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران جبرا من ذلك الوهن ، ومحوا لذلك الأثر ، ونعمة بعد نقمة وايناسا بعد يأس ، وكان ذلك في يوم غرق البطسة ، فوقع من المسلمين موقعا عظيما ، وكان مسليا لحزنهم وكآبتهم .

ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، زحف العدو على البلد زحفا عظيما وضايقوه مضايقة شنيعة ، وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم ، فضربوا بكوسهم

فأجابت كوس السلطان ، وركبت العساكر ، وضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتـــى هجـــم المســـلمون عليهـــم في خيامهم ، فجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور ومـا فيهـا ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان ، وأنا حاضر ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه وأخذ فتـراجعوا عن قتال البلد وشرعوا في قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشي الناس مـن الحـر أمـر عظيم من الجانبين ، وتراجعت الطائفتان إلى خيامـهم وقـد أخـذ منهم التعب والحر وانفض القتال في ذلك اليوم.

ولما كان يوم الاثنين الثـالث والعشرين دق كوس البلد فجـاوبه كوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ، ولج العدى في مضـايقة البلد ظنا منه أن الناس لا يهجمـون على خيمهـم وأنهـم يهابونها ، فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضا ونهبوا منها ، فتراجع العدو الى قتالهم ، ووقع الصياح فيهم فلحقوا مـن المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهـم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرح جمـاعة ، وقتـل جماعة من العدو ، وأعجب ما في هذه الوقعة أنه كان وصل في هـذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل مـازندران يريد الغـزاة ، فـوصل والحرب قائمة فلقي السلطان ، فاستأذنه في الجهاد ، وحمـل حملة شديدة واستشهد في تلك الساعة ، ولما رأى العدو دخـول المسـلمين الى خنادقهم ، وتـوغلهم الى داخـل اسـوارهم ، داخلتهـم الحمية ، وبعثتهم النخـوة ، فـركب فـارسهم صـحبة راجلهم ، وخرجوا الى ظاهر أسـوارهم ، وحملوا على المسـلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما لم يتحـركوا من أماكنهم ، والتحم القتال من الجـانبين ، واشـتد الضرب مـن الطائفتين ، وصـبر المسـلمون صـبر الكرام ، ودخلوا في الحـرب بالتحام ، فلما رأى العدو ذلك الصـبر المعجـب ، والاقـدام المزعج أنفذوا رسـولا في غضـون ذلك ، يسـتأذنون بـالرسول في الوصـول ، فـأذن له فـوصل الرسـول أولا الى الملك

العادل ، فاستصحبه ووصل به إلى الخدمة السلطانية ، ومعه أيضا الملك الافضل فأدى الرسالة ، وكان حاصلها أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع بالسلطان ، فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها في الحال من غير تفكر ولا ترو بأن قال : إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق به في الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن بيننا ذلك الترجمان ، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى

ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالي البلد ، وعلم السلطان ذلك فركب وركب العسكر ، وانتشب القتال بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين بدوي وكردي ، وقتل من العدو جماعة وأسروا واحدا بسلاحه وفرسه ، ومثل بين يدي السلطان ، ولم يزل القتال يعمل حتى طال الليل بين الطائفتين

ولما كان الأحد التاسع والعشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطيء النهر الحلو فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجالة من المسلمين الى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه ، وأسر المسلمون منهم واحدا فقتلوه وأحرقوه ولقد رأيت النارين تشتعلان في زمان واحد ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوى من ملازمته قتالهم ليلا ونهارا ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الاعمال المختلفة عليهم من جزيرة قدوم الانكتار ، ثم مرض مرضا شديدا أشفى فيه على الهلاك ، وجرح الفرنسيس ولم يزدهم ذلك إلا إصرارا وعتوا .

وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان في الباطن ، كانا في خدمتها في صقليه ، وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات

ومر اخوها بالبلد اخذها وأصحابها معه إلى العسكر ولما وصل الخادمان الى العسكر ، وقارب المسلمين ، هربا إلى العسكر الاسلامي ، فقبلهما السلطان ، وأنعم عليهما إنعاما عظيما .

ذكر هرب المركيس الى صور

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى قوي استشعار المركيس انه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صور الملك القديم الذي كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح ، ولما صح ذلك عنده هرب إلى صور ، فأنفذوا خلفه قسوسا ليردوه فلم يفعل ، وسار في البحر حتى أتى صور، وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فإنه كان ذا راي وشجاعة وخبرة .

ذكر وصول بقية عساكر الاسلام

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جمادى الاولى قدم فيه عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين يرنقش ، فلقيه السلطان واحترمه ، وكان دينا عاقلا محبا للغزو ، فأنزله السلطان في الميسرة بعد أن أكرمه وأنزله في خيمته ،وفرح بقدومه فرحا شديدا في ذلك الوقت ، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر ، كعلم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة كثيرة ، ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل وعسكره ، فلقيه السلطان بالخروبة ونزلوا هناك الى بكرة اليوم الثاني من جمادى الآخرة ، وأصبح سائرا حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، وعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان في خيمته ، وحمل له من التحف ، وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، وأنزله في الميمنة ، وفي يوم الجمعة الثالث قدمت طائفة من عسكر مصر أيضا ، واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الافرنج شدته عن الزحف ، وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فإن

البلد كان قد ضعف ضعفا عظيما ، وضاق بهم الخناق ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا واللصوص يدخلون الى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ، ويأخذون الرجال في غفلة بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظوه ، ويقولوا له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ، ويحملوه ويخرجوا به إلى العسكر ، وجرى ذلك مرارا ، وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب حتى تكامل وصولها

ذكر وصول رسولهم الى السلطان

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان ، وانقطع الرسول ، وعاد معاودا في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل ، ثم هو يلقيه الى السلطان ، واستقر أنه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان ، فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لاتظن تأخري بسبب ما قيل فإن زمام قيادي مفوض الي ، وأنا احكم ولا يحكم علي ، غير أني في هذه الأيام اعترى مزاجي التياث منعني من الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير ، وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم ان يتهادوا ، وعندي ما يصلح للسلطان ، وأنا استخرج الأذن في إيصاله إليه ، فقال له الملك العادل ، قد اذن لك في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية ، فرضي الرسول بذلك ، وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر ، وقد ضعف فيحسن أن يحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل ، وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث

الرسالة في الآخر على ان قال الرسول : من الذي أردتم منا إن كان لكم حديث ، فتحدثوا به حتى نسمع ، فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع ، وانقطع حديث الرسالة إلى سادس جمادى الآخرة ، فخرج رسول الانكتار إلى السلطان ومعه إنسان مغربي قد أسروه من مدة طويلة ، وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان ، فقبله وأحسن إليه وأعاده مشرفا مكرما إلى صاحبه ، وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك ايضا .

ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الاسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم ، وكثرة الاعمال ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم ، وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ، ولما أحس العدو بذلك ، وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه ، شرعوا في الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما ، وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم استراح ، وقام غيره مقامه ، وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهارا .

ولما علم السلطان ذلك بإخبار من يشاهده ، وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكوس ركب وركب العسكر إليهم ، وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب الى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا

أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادي : يا للاسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر الى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البته ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، وتأخرت عن حضور هذا الزحف لالمام مرض شوش مزاجي لما عراني ، فكنت في الخيمة في تل العياضية ، وأنا اشاهد الجميع ، ولما هجم الليل عاد رحمه الله الى الخيم بعد العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو .

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكوس أن دقت ، وركب العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه ، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها :إنا قد بلغ منا العجز الى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئا نطلب الامان ، ونسلم البلد ، ونشتري مجرد رقابنا ، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، وانكى في قلوبهم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر ، وجميع البلاد الاسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام ، كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ، وغيرهما ، وكان قراقوش ملتزما بحراستها منذ نزل العدو عليها ، وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله ، وخيف على مزاجه التشويش ، وهو لا يقطع ذكر الله ، والرجوع إليه في جميع ذلك صابرا ، محتسبا ملازما مجتهدا ، و (الله لا يضيع اجر المحسنين) فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم ، فصاح في العساكر الصائح ، وركبت الابطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو ، فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب ، من وراء اسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب ، ولقد حكى بعض من دخل

عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد أفرنجي صعد سور خندقهم ، واستدبر المسلمين ، والى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق ، وقال:إنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا ، ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه ، ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل ، قال:وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناه الى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ، ولم يزل يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح ، حتى فصل بينهما الليل .

ذكر ما آل اليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والأفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليها من كل جانب ، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع ، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها ، وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفرا وصاعدا ، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لا تقتلوني حتى أرحل الأفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى ، وفي الغد نادى الأفرنج احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الأفرنج لذلك حزنا عظيما وأبطلوا الزحف بعد ذلك اياما ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه الى ملك الفرنسيس

بالامان وقال له قد أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا سألونا الامان فأعطيناهم وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد وتعطينا الأمان على أنفسنا ، فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا ، وأنتم أيضا مماليكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي ، وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول ، وقال أقاويل كفيره في ذلك المقام منها : إنا لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يقتل منا واحدا حتى يقتل خمسون نفسا من كباركم وانصرف عنه .

ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا في البلد ، فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي منهم أرسك وابن الجاولي وسنقر الوشاقي ، فأما أرسك وسنقر فأنهما تغيبا في العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان ، وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانة .

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعرا انه يواصل كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : نخاطر بالاسلام كله ولا مصلحة في ذلك .

وفي ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة ، وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح ، غير أن السلطان أكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

وفي ذلك اليوم تقدم الى صارم الدين قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه الى أسوارهم ، وترجل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ، ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار ، ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك

الذوري ، وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديدا ، واجتهد الناس اجتهادا عظيما .

وفي العاشر أصبح القوم ساكتين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم ، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين عسى أن يمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من الافرنج فيكسروهم ، ويخرجوا يحمي بعضهم بعضا ، ويخرج العساكر يجاريهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبروا العدو بذلك ، فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة .

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك وتحادثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا ولم ينفصل الحال ، وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة بحيث أنهم اعتقدوا ربما كان مصاف ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكروا أنه صاحب صيدا ، طليق السلطان ، فحضر العدل وجرى مبادي أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا ، واشتطوا في ذلك اشتطاطا عظيما ، وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الاحد ثاني عشر وصلت كتب يقولون فيها : إنا قد

تبايعنا على الموت ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ، ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتليذوا لهم ، فإنا نحن قد فات أمرنا ، وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الافرنج أن عسكرا عظيما عبر إلى عكا وسلم ، وصار فيها ، قال : وجاء إنسان افرنجي فوقف تحت السور وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له بحق دينك الا ما اخبرني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة ، يعني ليلة السبت ، وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال له ألف فارس ، فقال لا ، لكنه دون ذلك ، أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا .

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الأيام بعد أن كان قد اشرف البلد على الأخذ ، فقدم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابق الدين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء خامس عشرةبدرالدين دلدرم ، ومعه تركمان كثير ، وكان قد أنفذ إليه السلطان رحمه الله ـ ذهبا أنفق فيهم ، ويوم الخميس سادس عشرة أسد الدين ، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه ، واشتد ثبات الافرنج على أنهم لايصالحون ، ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسارى الذين في أيدي المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم ، وبذل لهم تسليم البلد ، وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا ، وبذل لهم أيضا مع ذلك صليب الصلبوت ، فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . (٤٢)

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ، خرج العوام

من الثغر ، ونطقت الكتب عنهــم أن أهــل البلد ضـــاق بهـــم الامر ، وكثرت الصعوبات وعجزوا عن الحفظ والدفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أخـذت البلدة عنوة ضربـت أعناقهـم عن اخرهم ، وأخذ جميع ما فيه مـن العـدد والاسـلحة والمراكب وغير ذلك ، فصالحوهم على انهم يسلمون إليهم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والعـدد والمراكب ، ومـئتي الف دينار ، والف وخمسـمائة فارس اسير مجاهيل الاحوال ، ومائة فارس معينين مـن جـانبهم يختارون وصـليب الصـلبوت ، ويخـرجون بـأنفسهم سالمين ، ومامعهم من الاقمشـة المختصـة بهـم وذراريهـم ونسائهم ، وضمنوا للمـركيس عشرة الاف دينار لانه كان واسـطة ولاصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك .

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها ، أنكر ذلك إنكارا عظيما ، وعظم عليه هذا الامر وجمع أرباب المشـورة ، وشـاورهم فيما يصنع ، واضطرب الامراء وتقسم فكره وتشوش ، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العـوام وينكر عليهـم المصـالحة على هـذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال فما أحس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخـرة سـنة سـبع وثمـانين وخمسمائة ، وصاح الافرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصـيبة على المسلين ، واشتد حزن الموحـدين ، وانحصر كلام العقـلاء مـن الناس في تـلاوة (إنا لله وإنا اليه راجعـون) (٤٣) وغشي الناس بغته عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصـياح والعـويل والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ في ذلك قـدر ايمـانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته ، وانقشعت الحال على أنه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الافرنج على ذلك الحـال المتقـدم ، وأن المركيس دخـل البلد ومعـه أعلام الملوك

فنصب علما على القلعة ،وعلما على مأذنة الجامع في يوم الجمعة ، وعلما على برج القتال ، عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون الى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه ، ومثلت في خدمة السلطان ، وهو اشد حالة من الوالدة الثكلى ، والمولهة الحراء ، فسليته بما تيسر من التسلية ، واذكرته في الفكر فيما يستقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية ، والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك ، واعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وذلك ليلة السبت الثامن عشر ، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنزلة مصلحة ، فإنه لم يبق في المضايقة معنى ، فتقدم بنقل الاثقال ليلا إلى المنزلة التي كان عليها أولا بشفر عم ، وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو ، وحال أهل البلد ، وأقام هو راضيا راجيا من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج اليه والهجوم عليه ، فينال منهم غرضا ويلقي نفسه عليهم ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئا من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكن منه ، فأقام الى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل الى الثقل ، وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش ، وكان رجلا عاقلا ، مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا الى دمشق يبصرون الاسارى في الحادي والعشرين ، وانفذ السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر ، شمالي البلد ، وانتشروا انتشارا عظيما راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلابا للقتال ، فأخبر اليزك بذلك السلطان ، فدق الكؤوس

وركب ، وأنفذ إلى اليزك وقواه ، برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الاسلامية واجتمعوا ، فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك ، وكان اليزك قد قوي بما أنفذ إليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانهزمت الخيالة ، وسلمت الرجالة ، وظنوا أن وراء اليزك كمينا فارتدوا نحو خيامهم ، ووقع اليزك في الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفرا ، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم

وفي ذلك اليوم وصل الافرنج الذين ساروا الى دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ، ووصل معهم من مميزي أسراهم أربعة نفر ، ووصل في عشيته أيضا رسل السلطان في تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب

خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من اصحاب الانكتار ، فأخبر أن الملك افرنسيس سار إلى صور ، وذكروا في تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وأنه في العسكر أو حمل إلى بغداد ، فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم ، ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار إليه إلى صور بهدايا سنية ، وطيب كثير وثياب جميلة .

وفي صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه

إلى تل ملاصق لشفرعم ، ونزلت العساكر في منازلها على حالهم قريبا من منزلته الاولى ليس بينهما إلا الوادي ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى و المال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ومائة الف دينار وستمائة أسير وانفذوا ثقلهم وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكملوهم ، حتي يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ، ثم انفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتستلموا الذي عين لكم من هذ الترم ونعطيكم رهائن على الباقي تصل إليكم في ترومكم الباقية ، وأما أن تعطونا رهائن على ما نسلم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابنا ؟ فقالوا لا نفعل شيئا من ذلك ، بل تسلمون إلينا ما يقتضيه هذا الترم وتقنعون بأيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه انهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ، ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد ينجبر .

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والاسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين ، وكان قد صالحهم ، وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر اطلاقهم بأموالهم ونسائهم وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى ، فغدرهم الملعون ، واظهر ماكان أبطن ، وفعل ماأراد ان يفعله بعد أخذ المال والاسرى على ماأخبر به عنه أهل ملته فيما بعد ، وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم والتراكبلي في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى الآبار التي تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا

المرج بين تل كيسان وبين العياضية ، ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، ففشي المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديد ، ولم يبقوا الا رجلا معروفا مقداما أو قوي يد لعمائرهم ، وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم في مقابلة من قتل منهم ، وقيل إن الانكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه والله أعلم

ذكر مسير العدو الى عسقلان وانتقاله الى طرف البحر من جانب الغرب

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ركب الافرنج بأسرهم ، وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي ، وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطيء البحر ، وأمر الانكتار باقي الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ماانهدم منه ، وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار ، وجمع عظيم من الرجالة والخيالة .

ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو في سحر ذلك

اليوم ، وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل اشعلوا نيرانهم ، وأخبر اليزك بحركتهم ، فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوقة ، ولم يكن معهم خيل ولاظهر يحمل جميع ماعندهم ، لأن كل انسان كان يحصل مايحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السوقة عنده ماينفد من منزل الى منزل في مرار متعددة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم .

ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا كثيرة كل قطعة تحمي عن نفسها ، وقوى السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا ، وأنفذ ولده الملك الافضل يخبر أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ، ولقد نازلناهم بالقتال ، ولو قوينا لاخذناهم ، فسير السلطان خلقا عظيما من العسكر ، وسار هو بنفسه ، وأنا في خدمته حتى أتى أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الاولى ، ومعظم القوم عبروا نهر حيفا ، وقد نزلوا والباقون قد لحقوا بهم ، وليس للمسير وراءهم حاصل إلا إتعاب العسكر ، وضياع النشاب لاغير ، فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم ، ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطماعة ، وسار هو حتى وصل الى القيمون عصر ذلك النهار فنزل ، وضرب له الدهليز وشقة دائرة حوله لاغير واستحضر الجماعة فأكلوا شيئا واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني : اتفق رأي جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد ، هذا وقد رتب حول الافرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره ، ولما كان صبح ثاني شعبان رحل السلطان الثقل ، وأقام هو بترصد أخبار العدو ، فلم يصله منهم شيء إلى أن علا النهار ، فسار في أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها

الصباغين ، فجلس ساعة يترقب أخبار العدو ، وكان قد خلف جرديك قريب العدو ، وبعث خلقا عظيما باتوا قريب العدو ، فلم يصله خبر أصلا ، فسار حتى أتى الثقل في منزلة يقال لها عيون الأساود ، ولما بلغنا المنزل رأى خياما فسأل عنها ، فقيل أنها خيام الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته ، وفقد الخبز في هذه المنزلة بالكلية ، وغلا الشعير حتى بلغ درهما ، وبلغ رطل البقسماط درهمين ، ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى موضع يسمى الملاحة ، يكون منزلا العدو إذا رحلوا من حيفا ، وكان قد سبق ليتفقد المكان هل يصلح المصاف أم لا ، ويتفقد اراضي قيسارية بأسرها الى الشعراء وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب ، وسألته عما بلغه من خبر العدو ، فقال وصل إلينا من أخبرنا أنه مارحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا ، يعني ثاني شعبان ، وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها ، وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيما بتل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى الجاويش بالعسكر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف واهبته ، ولما علا النهار نزل السلطان في خيمته وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ، ومثول جماعة من الأمراء إلى خدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة ، من مائة دينار إلى مائة وخمسين دينارا وزائد وناقص ، فما رأيت أفسح صدرا منه ، ولا أبسط وجها في العطاء ، واتفق الرأي على رحيل الثقل في عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا .

المنزل الثالث : وأقام هو جريدة بالمنزل إلى الصباح رابع الشهر ، وركب وسار في رأس الشهر الجاري إلى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربع الشعير درهمين ونصفا ، والخبز لم يوجد أصلا ، ونزل في خيمتة وأكل خبزا وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو لتجديد ارتياده في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءا من

الراحة ، ثـم عاد وركب ، وأمـــر الناس بـــالرحيل ، ورمـــى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر النهار .

المنزل الرابع : وكان الرحيل إلى رابية متـأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضا ، فنزل هناك الثقل وعاد هو مـن ركوبـه بعيد المغرب ، وفي ذلك المنزل أتي باثنين من الافرنج قـد تخـطفهم اليزك فأمر بضرب رقابهم فقتـلا ، وتـكاثر الناس عليهمـا بـــالسيوف تشفيا ، ثم بات هناك وأصبح مقيما بالمنزلة لانه لم يصح عن العـدو رحيل ، وأنفذ إلى الثقل حتى يعود إليه في تلك الليلة ، مما طرأ على الناس من الضيق في المأكل والقضم ، وركب في وقت عادته الى جهة العدو ، وأشرف على قيسارية وعاد الى الثقل قريب الظهـر ، وقـد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحة ، وأحضر عنده اثنان أيضا قد أخذا من أطراف العدو فقتلا شر قتلة ، وكان في حدة الغيظة لما جرى على أسرى عكا ، ثم أخذ جزءا من الراحـة ، وجلس بعـد صلاة الظهر ، وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فـارس مذكور قد أخذ وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ، فأحضر تـرجمانا وبحث عن أحوال القـــوم وســـأله كيف يســـوى الطعـــام عندكم ؟ فقال : أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشـبع بسـتة قراطيس ، فلم يزل السعر يغلو حتـى صـــار يشـــبع بثمـــانية قراطيس ، وسأل عن سبب تأخرهم في المنازل؟ فقال : لانتظار المراكب بـــالرجال والميرة ، فســـأل عن القتلى والجـــرحى في رحيلهـم ، فقـال : كثير فســـأل عن الخيل التـــي هلكت في ذلك اليوم ، فقال مقدار أربعمائة فرس ، فأمر بضرب عنقه ، ونهى عن التمثيل به ، فسأل الترجمان عما قـال السـلطان ، فـأخبره بمـا قال ، فتغير تغيرا عظيمـا وقـال : انا أخلص لكم أسـيرا مـــن عكا ، فقال رحمه الله بل أميرا ؟ فقال : لاأقدر على خـلاص أمير فشفع الطمع فيه وحسن خلقه ، فإني مارأيت أتم خلقا منه مع ترف في الأطراف ورفاهية ، فأمر ان يترك الآن ويؤخـر أمـره فصـفده وعاتبه على مابدا منهم من الغدر وقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحـده ، وركب السـلطان بعـد صـلاة

العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور ، وأتي بعده بإثنين فأمر بقتلهما وبات في ذلك المنزل المذكور ، وذكر له في السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

المنزل الخامس : فرحل ورحل الناس إلى قريب التل الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضربت الخيام ، ومضى هو يرتاد الأراضي الكائنة في طريق العدو ، ولينظر أيها أصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، واخذ جزءا من الراحة ، وأذن الظهر فصلى وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره ، وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا ، فأمر بقتلهما فقتلا ، ثم أتي باثنين اخرين فقتلا أيضا ، وجيء في أواخر النهار باثنين فقتلا أيضا ، وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته ، واستدعى أخاه وصرف الناس وخلى به إلى هزيع من الليل ، ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لاغير ، وركب إلى جهة العدو ووقف على تلول مشرفة على قيسارية ، وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة سادس شعبان ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب الى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر ، وأخذ جزءا من الراحلة ، وجلس وأتي بأربعة عشر من الافرنج وامرأة افرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد اخذتها ، فأطلقت المسلمة ، ورفع الباقون إلى الزرد خانة ، وهؤلاء اتي بهم من بيروت أخذوا في مركب من جملة عدة كثيرة ، فقتلوا كل ذلك في نهار السبت سابع الشهر ، وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس : ولما كان صبيحة يوم الاحد الثامن ركب السلطان على عادته ، ثم نزل و وصله من أخيه أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها ، فأمر بمد الطعام ، وأطعم الناس ، فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا

فأمر بالكؤوس فدقت وركب وركب الناس معه ، وسار وسرت في خدمته حتى أتى العدو، وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم ، واخرج الجاليش فكان النشاب بينهم كالمطر ، وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله كالسور ، وعليهم اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولايتأثرون ، وهم يرموننا بالزنبورك ، فيجرح خيل المسلمين وخيالتهم ، ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشر ، وهو يسير على هيئة من غير انزعاج ، وثم قسم أخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم المستريح ، واستراح القسم المقاتل ، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لاغير ، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام ، القسم الاول الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة ، والانكتار والفرنسيس معه في الوسط ، وأولاد الست أصحاب طبرية ، وطائفة أخرى في الساقة ، وفي وسط القوم برج على عجلة وعلمهم على ماوصفته من قبل أيضا كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيرا رفيقا ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر الى أن أتوا منازلهم ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم ، فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة عن غير دين ولادفع ، وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها .

المنزل السابع : ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر أن

العدو قد ركب سائرا فركب السلطان أول الصبح ، وطلب الأطلاب ، وأخرج من كل جانب جاليشا ، فسار يطلب القوم فأتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، وطاف الجاليش حولهم من كل جانب ، ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذي حكيته ، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه ، وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال بينهم شديد ، والسلطان يقرب الأطلاب ، ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجاليش ونشاب القوم يجاوزه ، وليس معه إلا صبيان بجنبيه لاغير ، وهو يسير من طلب إلى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوس تدق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو ، هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم ولايتغيرون ولاينزعجون ، وجرت حالات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب ، ولم نزل حواليهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين أيدينا ويفرون إلى أن أتوا نهرا يقال له نهر القصب ونزلوا عليه ، وقد قامت الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام وشجعانه أياز الطويل بعض مماليك السلطان ، وكان قد فتك فيهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الأوائل وصار بحيث إذا عرفه الأفرنج في موضع يخافونه ، تقنطرت به فرسه واستشهد ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، ودفن على تل مشرف على البركة وقتل عليه مملوك له ونزل السلطان بالثقل على البركة وهي موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام في تلك المنزلة إلى مابعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزا واستراحوا ساعة ، وثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه أيضا ، فشرب منه قليلا من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة ، وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم ، والخبز موجود كثيرا ، وسعره بالرطل

بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الافرنج حتى يرحل في مقابلتهم، فباتوا وبتنا أيضا .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامي كانوا يتشوفون على العدو ، فصادفوا جماعة منهم يتشوفون أيضا على العسكر الاسلامي ، فظفروا بهم وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، واحس بهم عسكر العدو فثار إليهم منهم جماعة ، واتصل الحرب وقتل أيضا من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ، ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فأخبروا أن ملك الانكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامي ، وذلك الذي أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالامس - يعني يوم الاثنين - رأى من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وأنه جرح زهاء ألف نفر ، وقتل جماعة وأن ذلك هو الذي أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ماأصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما ، وأقمنا في ذلك اليوم في تلك المنزلة لاقامة العدو بها وهو الثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن : ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، فدق الكوس ورحل الناس ، ودخل في شعراء أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب ، فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا في الشعراء وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادي عشر من شعبان المذكور وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك .

ومن أخبار العدو في تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك

اليوم أيضا ، وانه لحقته نجدة من عكا في ثمان بطس كبار ، واليزك الاسلامي حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم ، وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال وجرح من الطائفتين .

ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من سمع كلامهم ، وكان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ومضى وبات تلك الليلة في اليزك وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم أنه قد طال بيننا القتال ، وقد قتل من الجانبين الرجال الابطال ، وإنا نحن جئنا في نصرة افرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه ، وكتب السلطان إلى أخيه في صبيحة يوم الخميس الثاني والعشرين رقعة يقول له فيها :« إن قدرت أن تطاول الافرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا » .

ذكر اجتماع الملك العادل والانكتار

ولما علم الانكتار وصول الملك العادل إلى اليزك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، فاجتمعا بفرقة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهم ابن الهنفري ، وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ، ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه محلوق اللحية على ما هو شعارهم .

وكان الحديث بينهما أن الانكتار شرع في ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : أنتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم

فيه ، حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان ، فقال له الانكتار: القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم فأخشن له الجواب وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم .

ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ، ووقف هو وعبى الناس تعبية القتال ، ووقف يتنسم مايرد إليه من أخبار العدو ، وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان بعودهم إليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبط الناس تلك الليلة تخبطا عظيما واستدعى أخاه ليعرفه ماجرى بينه وبين الملك ، وخلا به لذلك وذلك في ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر .

وأما العدو فانه سار ونزل على موضع يسمى البركة ايضا ، يشرف على البحر ، وأصبح السلطان في يوم الجمعة متطلعا إلى أخبار العدو ، فأحضر عنده اثنان من الأفرنج قد تخطفهما اليزك ، فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك ، فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان في هذا الأمر ، ومايصنع مع العدو ، وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

ذكر وقعة أرسوف وهي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو أرسوف ، فركب ورتب الأطلاب للقتال ، وعزم على مضايقتهم في ذلك اليوم ومصادمتهم ، وأخرج الجاليش من كل طلب ، وسار العدو حتى قارب شعراء أرسوف وبساتينها فأطلق عليهم الجاليش النشاب ولزمهم الأطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون ردأ ، ويضايق العدو مضايقة عظيمة ، والتحم القتال واضطرمت ناره من الجاليش ، وقتل منهم وجرح ، فاشتدوا في السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا ، واشتد بهم الأمر ، وضاق بهم الخناق ، والسلطان يطوف من الميمنة إلى

الميسرة يحث الناس على الجهاد ، ولقيته مرارا ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الأمر يشتد بالطمع بالعدو ، وطمع المسلمون فيهم طمعا عظيما حتى وصل أوائل راجلهم الى بساتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخيالةوتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لاينجيهم إلا الحملة .

ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رجالتهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين ايديهم ، واتفق أني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما ، فنويت التحيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إلي ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، وفرت أشد فرارا من الكل ، فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان ردأ الاطلاب كلها كما جرت العادة ، ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لاغير ، وأخذ الباقون إلى القتال ، لكن الأعلام كلها باقية ثابتة والكوس تدق لاتفتر ، وأما السلطان فانه لما رأى مانزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى الى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليل ، فوقف فيه والناس يذفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق بحيث لايفترون ، وكلما رأى فارا يأمر من يحضره عنده ، وفي الجملة ماقصر الناس بفرارهم فإن العدو حمل حملة ففروا ، ثم وقف خوفا من الكمين ، فوقفوا وقاتلوا ، ثم حمل حملة ثانية ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ، ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ إلى رؤوس رواب هناك ، وأعالي تلول ، ففروا إلى أن وقف العدو فوقفوا ، وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس تدق يستحيي أن يجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب فاجتمع في القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي ، والسلطان واقف في طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها ، وخاف العدو أن يكون في الشعراء

كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة ، وعاد السلطان إلى تل في أوائل الشعراء ونزل عليه في خيمته ، ولقد كنت في خدمته أسليه وهو لايقبل السلو وظلل عليه بمنديل ، وسألناه أن يطعم شيئا ، فأحضر له شيء لطيف ، فتناول شيئا يسيرا وبعث الناس للسقي فإن المكان كان بعيدا ، وجلس ينتظر الناس من العود من السقي ، والجرحى يحضرون بين يديه ، وهو يتقدم بمداواتهم ، وحملهم وقتل في ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين ، وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشي أيماز النجمي والملك الافضل ولده ، وصدم في ذلك اليوم وانفتح دمل كان في وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في ذلك كله ، وثبت أيضا طلب الموصل ومقدمه علاء الدين ، وشكره السلطان على ذلك ، وتفقد الناس بعضهم بعضا فوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعا معروفا ، وقايماز العادلي ، وكان مذكورا ، واقوش وكان شجاعا وجرح خلق كثير وخيول كثيرة ، وقتل من العدو جماعة ، وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه ، وأخذت منهم خيول أربعة ، وكان قد تقدم رحمه الله إلى الثقل أن يسير إلى العوجاء ، وذكر إن المنزل يكون على العوجاء ، فاستأذنته وتقدمت إلى المنزل ، وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر ومايرد من أخبار العدو ، وكان العدو قد نزل على أرسوف قبليها .

المنزل التاسع : وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل ، وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ، ووصل السلطان قاطع المنزلة أواخر النهار ، وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد إلى الخيمة ، وأمر الجاويش أن ينادي في العسكر بالعبور إليه ، وكان في قلبه من الوقعة أمر لايعلمه إلا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد ، وجريح القلب ، وأقام السلطان إلى سحر الخامس عشر ودق الكوس وركب وركب الناس ، وسار راجعا إلى جهة العدو حتى وصل إلى قريب أرسوف وصف الأطلاب للقتال رجاء خروج العدو

ومسيره حتى يصاف ، فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، وأقام قبالتهم إلى آخر النهار وعاد إلى منزلته التي بات فيها .

ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكوس وركب وركب الناس وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالبا جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الاطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحدق العسكر الاسلامي بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ماكاد يسد الافق وقاتلت قلوبهم قتال الحذق ، وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ، ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتو نهر العوجاء ، وهو النهر الذي منزلتنا أعلاه ، فنزل في أسفله وعبر بعضهم إلى غربي النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقي ، فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السلطان إلى الثقل ونزل في خيمته ، وأطعم الطعام وأتي بأربعة من الافرنج قد أخذتهم العرب ، ومعهم امرأة فرفعوا إلى الزردخانات ، وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبر أنه قتل من العدو يوم أرسوف خيول كثيرة ، وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان أن رحلت الجمال ، وتقدمت إلى الرملة وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير ، وسار يريد الرملة ، وأتي باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ، ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا ، وسار السلطان الى أن اتى الرملة ، وأتي باثنين من الافرنج أيضا فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما ، وفي أنفسهم عمارتها ، وشحنها بالرجال والعدد ، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان ، وأنها هل تخرب أو تبقى ، واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه

طائفة من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم وإيصالها وأن يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولي عليها الافرنج ، وهي عامرة ، فيقتلوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا بها طريق مصر ، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا ، وماجرى على من كان مقيما بها ، ويخيفوا الناس عن الدخول إلى عسقلان ، فادخرت القوة في عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان ، فسار الثقل والجمال من أول الليل ، وتقدم إلى ولده الملك الافضل ، أن سار عقيب نصف الليل ، وسار هو وأنا في خدمته سحر الاربعاء .

المنزل الحادي عشر : وهو على عسقلان ، ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان إلى يبنا ، فنزل بها ضحى ، وأخذ الناس راحة ، وسار حتى أتى ارض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهموما بسبب الخراب ، وما نام الا قليلا ، ولقد دعاني في خدمته سحرا ، وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الافضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى ، ولقد قال لي : والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحدا ، ولكن إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ، ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها ، فاستحضر الوالي قيصر بها ، وهو من كبار مماليكه ، وذوي الآراء منهم فأمره بجمع المال فيها ، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من الناس والعسكر بدنة معلومة وبرجا معلوما ، يخربونه ، ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء ، وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع مالايمكن حمله ، فبيع مايساوي عشرة دراهم بدرهم

واحد ، واختبط البلد ، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج ، وبذلوا في الكراء أضعاف مايساوي ، قوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام وقوم يمشون إذ لم يقع لهم كراء ، وجرت أمور عظيمة ، وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا ، وكان هو بنفسه وولده الملك الافضل يستعملان الناس في الخراب والحث عليه خشية أن يسمع العدو فيحضر ولايمكن خرابها ، وبات الناس في الخيام على أتم حال من التعب والنصب ، وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الافرنج تحدثوا معه في الصلح وأنه خرج إليه ابن الهنفري وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد الساحلية ، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة ، لما راى في أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة ، وكثرة ماعلاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح في الحديث في ذلك وفوض أمر ذلك إلى رأيه ، وأصبح في العشرين على الاصرار على الخراب واستعمل الناس فيه وحثهم عليه ، وأباحهم الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الافرنج ، وأمر بحريق البلد فأضرمت النار في بيوته ودوره ورفض أهله بواقي الاقمشة للعجز عن نقلها ، والاخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا ، وكتب الملك العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وأنه سوف القوم ، وطول الحديث ، لعلنا نتمكن من الخراب ، وأمر بحشو أبراج البلد بالاحطاب وان تحرق واصبح الحادي والعشرون فركب يحث الناس ، ودام يستعملهم على التخريب

ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين ، وأخبار العدو تتواصل إليه في كل وقت ، ويجري بينهم وبين اليزك والعسكر وقعات وقلبات ، وهو يواظب على الحث على الخراب ، ونقل الثقل إلى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم في ذلك ، فخرب من السور معظمه ، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع وفي مواضع عشرة أذرع ، وذكربعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض السور الذي ينقبون فيه مقدار رمح ، ولم يزل

التخريب والحريق في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها ، فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غرتهم ، فعزم على الرحيل ، وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضونهم في الخراب ، ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء يقرب من لاتعمل فيه المعاول ، وإنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه ، وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه في البرج حتى امتلا ، ثم أطلقت فيه النار فاشتعل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ، ولم يركب السلطان في ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لي أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، ولقد تردد إلى من سأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم ، فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته .

ذكر رحيله الى الرملة

ثم رحل السلطان ثاني رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ، ووصل يبنا ضحوة النهار ونزل خيمة أخيه ، واستعلم منه أخبارهم ساعة ، ثم ركب ونزل في خيمته وبات في تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا إلى جهة الرملة فسار حتى أتاها ضحوة النهار ، ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وأطعم الناس الطعام وأخذ جزءا من الراحة ، وركب بين صلاتي الظهر والعصر وسار إلى لد ورآها

ورأى بيعتها وعظم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب في الموضعين في ذلك اليوم ، وفرق الناس فرقا لتخريب المكانين ، وأباح ما فيها من التبن والشعير في الأهراء السلطانية ، وأمر من كان فيها من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة وما كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، وظل الناس يخربون إلى أن أمسى المساء ثم عاد إلى خيمته وأصبح رابع رمضان فأقام الحجارين في المكانين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك ، وهو يتردد عليهم في الأصائل حتى جاء وقت المغرب فمد الطعام ، وأفطر الناس وانفصلوا إلى خيمتهم ، ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القدس ، فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ، ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف أخاه في العسكر يحث الناس على الخراب ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك ،وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماز بنفر من النصارى ، ومعهم كتب قد كتبها الوالي إلى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها أعواز البلد الغلة والعدة والرجال ، فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم ، ومازال يتصفح أحوال المكان ، ويأمر بسد خلله إلى الثامن ، وخرج سائرا إلى العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة ، وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه مستنصرا به على أخوته وأبيه فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه ، فلقيه الملك العادل قاطع لد فاحترمه وأكرمه ، ثم لقيه الملك الأفضل ، وضربت خيمته قريبا من لد .

وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليزك ، ووصل الخبر إلى معسكرهم فخرج إلى نصرتهم خيالة ، وجرى بينهم وبين اليزك قتال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الانكتار وإن مسلما قصد طعنه فحال بينه وبينه أفرنجي فقتل الافرنجي وجرح هو ، هكذا ذكروا والله أعلم .

ولما كان التاسع وصل رحمه الله إلى المعسكر ، ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ولقيه ابن قليج أرسلان فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته ، وأقام يحث الناس على التخريب وتتواصل اخبار العدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، ويسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم .

ذكر وصول رسول المركيس

وفي غضون ذلك وصل رسول يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، وعلى أن يجاهر الافرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ، ويأخذها منهم واشترط أن يبذل السلطان اليمين على ذلك ابتداء فسير العدل النجيب ، وحمله الاجابة إلى ملتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه كان خبيثا ملعونا ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهي صور ، فانحاز عنهم ، واستعصم بصور ، وهي منيعة ، فقال ذلك القول لهذا السبب .

وسار النجيب العدل مع رسوله في الثاني عشر ، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها وإطلاق من بها وبصور من الأسرى ، وعند ذلك يسلم إليه الموضعان .

وفي عشية ذلك اليوم خرج رسل ملك الانكتار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصلح .

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان أن يتأخر العسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإنا كنا على الرملة قريبين من العدو ، ولا يمكن التفريط في الدواب خشية المهاجمة ، فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير ، وجميع العساكر ما عدا اليزك على العادة ، وذلك بعد خراب الرملة ولد ، ولما نزل هناك دار حول النطرون ، وأمر

بخرابها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في خرابها .

وترددت الرسل بين الملك العادل والانكتار يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك العادل وأخلد اليه ، وخرج في عشرة أنفس إلى اليزك فأخبروه بأخبار طيبة وكتب بها إلى السلطان في السابع عشر ، وكان مما أخبره به أخوه أن الملك أفرنسيس مات وكان موته بأنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الانكتار عاد إلى عكا ، وكان سبب عوده أنه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان ، وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا ، فعاد هو إلى عكا لفسخ هذه المصالح واسترجاع المركيس إليه ، فركب السلطان إلى اليزك واجتمع بأخيه في لد ، وسأله عن الاخبار ، وعاد إلى المخيم وقت العصر ، وأتي باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فأخبروه بصحة موت الافرنسي ، وعود الانكتار إلى عكا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر في عمارته ، وكان الملك العادل قد عاد من اليزك ، وعلم بعد مسير مقدمي الافرنج عنا فرأى أن يكون هو الذي يسير ، فسار في هذا اليوم لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصبا للسلطان طغريل ، وجرى بسبب قتله خبط عظيم في بلاد العجم ، وكان قتله في أوائل شعبان من هذه السنة .

ولما كان الحادي والعشرون من رمضان قدم الملك العادل من القدس ، وفي هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوي يذكر فيه قصد الملك المظفر تقي الدين خلاط ويذكر فيه العناية ببكتمر ، ويشفه في حسن بن قفجاق ، والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين باربل ، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال وفصل أمر ، وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه ، ويكتب إلى تقي الدين

ذكر اخبار يزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان الثاني والعشرون احضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهما منهم وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال احيانا ، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولايتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم ، ويؤخذ أسيرا ، وتكلم منهم جماعة فنحروا ، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم ، واختاروا الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح .

وفي تاريخ اليوم وصل من اليزك المرتب على عكا في موضع يقال له الزيب ، خبر أسارى مع رسول من اليزك اخبر أنهم خرجوا من عكا يتفسحون ، وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم إحدى وعشرين نفسا ، وأن الأسرى أخبروهم بصحة عود الانكتار إلى عكا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم .

وفي هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل أنها وصلت من

عكا ، وأن فيها الانكتار قد عاد بجماعة عظيمـة ليقصـد عسـقلان ويعمرها ، وقيل ليقصد القدس والله أعلم .

ولما كان الرابـع والعشرون وصـل الأسرى المذكورون مـن الزيب ، وكان وصولهم فـرحا للمسـلمين مبشرا بـكل خير ، وفيه وصل رسول من الانكتار معه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان انفذها إليه ، وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بـدمشق لمرض كان اعتراه ، فصعب على السلطان موته وشـق عليه ، وفيه وصل كتاب مـن سـامة يذكر فيهـا أن البـرنس أغار على جبلة واللاذقية ، وأنه كسر كسرة عظلية وقتـل منه جمـاعة وعاد إلى انطاكية

ذكر رسول الملك العادل إلى الانكتار

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك للعادل ، فطلب الانكتار رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة وهو كاتبه ، وكان شابا حسنا فـوصل إليه وهو في يازور قد خرج في جمع كثير من الرجـالة انبثـوا في تلك الأرض ، فاجتمع به وسار معه زمنا طويلا وحادثه في معنى الصـلح وقال لا أرجع عن كلام أتحدث بـه مـع أخـي وصـديقي ، يعني العادل ، وذكر له كلاما ، وعاد وأخبر به ، فـكتبه الملك العـادل في رقعة وانفذها إلى السلطان ، وكان يتضمن انك تسلم عليه وتقول له إن المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البـلاد وخـرجت مـن يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقـد أخذ هذا الامر حقه وليس هناك حـديث سـوى القـدس والصـليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ، ما ، ننزل عنه ولو لم يبـق منا إلا واحد ، وأما البلاد فيعاد ما هو قاطع الأردن ، وأما الصـليب فهـو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن بـه السـلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب .

ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب ، والذي رآه السلطان أن قال القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما ، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله ونتنفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها ، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل .

ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيرا

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكا ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الحادي والعشرين وذلك أنه كان ادخر له حبلا في مخدته ، وكان الأمير حسن بن باريك ادخر له حبلا في بيت الطهارة واتفقا على الهرب ، ونزلا من طاقة كانت في بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول وعبر شيركوه من الباشورة أيضا ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سليما ، فرآه وقد تغير من الوقعة ، فكلمه فلم يجبه ، وحركه فلم يتحرك ، فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر ، فعلم انه إذا أقام عنده أخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هربا في قيوده حتى أتى تل العياضية ، وقد طلع الصبح ، فأكمن في الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى أتى المعسكر ، ومثل بخدمة السلطان ، وكان من أخباره أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع على نفسه قطيعة

عظيمة من خيل وبغال وأنواع الأموال ، وأن الملك الانكتار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشـة ، ولم يبـق له منهـا شيئا ، وأن فلاحي الجبل يمدونه بالميرة مددا عظيما ، وأن طغـرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه .

ذكر رسالة سيرني فيها الملك العادل الى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعاني الملك العادل في صـبيحته وأحضر جمـاعة مـن الأمـراء : علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بـن المقـدم ، وحسـام الدين بشارة ، وشرح لنا ماعاد به رسوله مـن الانكتـار مـن الرسـالة والكلام ، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن يتـزوج الملك العـادل بـأخت الانكتار ، وكان قد استصحبها معه من صقلية ، فإنها كانت زوجـة صاحبها ، وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فـاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس ، وأن أخـاها يعـطيها بلاد الساحل التـي بيده مـن عكا إلى يافـا وعسـقلان إلى غير ذلك ، ويجعلهـا ملكة الساحل ويجعله ملك السـاحل ، ويكون ذلك مضافا الى مافي يده من البـلاد والاقـطاع وأنه يسـلم إليه صـليب الصلبوت ، وتـكون القـرى للداوية والاسـبتار ، والحصـون لهما ، واسرانا تفك ، وكذلك أسراهم ، وأن الصـلح يسـتقر على هذه القاعدة ، ويرحل الانكتار طالبا بـلاده في البحـر ، وينفصـل الأمر ، هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار ، ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن اسـتحضرنا عنده ، وحملنا هـذه الرسـالة إلى السلطان ، وجعلني المتكلم فيها ، والجماعة يسـمعون ، ونعـرض عليه هذا الحديث ، فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسـلمين شـهدنا عليه بالاذن في ذلك والرضا به ، وأن أباه شـهدنا عليه أن الحـال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية وأنه هو الذي رأى ابطاله فلما مثلنا

بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث ، وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقدا أن الانكتار لايوافق على ذلك أصلا فإن هذه منه مكر وهزل ، فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات ، وهو يقول : نعم ويفرح ، ويشهد على نفسه به ، فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرفناه بما قال - وعرفه الجماعة أني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصر على الاذن في ذلك واستقرت القاعدة عليه .

ذكر عود الرسول الى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان ثاني شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ، ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل الى مخيم العدو ، وأنفذ من عرف الملك بقدومه ، أنفذ إليه من قال له : إن الملكة عرض عليها أخوها النكاح ، فسخطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وانكرت ذلك انكارا عظيما ، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لاتفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها : إن الملك العادل يتنصر ، وأنا أتم ذلك ، وترك باب الكلام مفتوحا ، فكتب الملك العادل إلى السلطان رحمه الله وعرفه ذلك .

ولما كان خامس شوال وصل الخبر أن الأسطول الاسلامي استولى على مراكب الافرنج ، وفيها مركب يعرف بالمسطح قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خلق عظيم ، واستبقي منهم أربعة مذكورين ، وسر المسلمون بذلك ، وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر ، فلله الحمد والمنة .

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من دولته ، وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد

تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامي ، فانفصل الرأي بين ذوي الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرج الافرنج كانوا على لقائهم .

وفي عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين ، واخبرا أن العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء عشرة الاف فارس ، وذكرا أنهم لايعرفون قصدهم ، وهرب اسير مسلم من جانبهم ، واخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه

ولما تحقق السلطان أمر الجاويش أن ينادى في العسكر حتى يتجهز جريدة ، وشدت الرايات وحقق عزمه واتفق على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار في يوم الاثنين السابع مؤيدا منصورا حتى أتى قبلي كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلته .

ذكر خروج الأفرنج من يافا

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الاطلاب للقتال ، وسلم اليزك للملك العادل ، وتبعه من يريد من الغزاة ، وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة ، فخرجوا في جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم وأنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكبهم ، ورموا عليهم النشاب ، فرآهم الغزاة والواصلون من الروم فاغتروا بإقدامهم ووافقوهم في فعلهم وقاربوا عسكر العدو ، فلما رأى الافرنج تلك المضايقة والمنازلة ، ثارت هممهم وحركتهم نخوتهم ، فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا في جمع كثير فنجا من سبق به جواده وقدر في القدم نجاته ، وظفروا بجماعة ، فقتل منهم ثلاثة

نفر ، ونقلوا خيامهم الى يازور ، وأقام السلطان في تلك الليلة بمنزله إلى الصباح .

ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر

ولما كان الحادي عشر ركب السلطان الى جهة العدو فأشرف عليهم ، ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخيه بأن يحضر معه علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين ابن المقدم ، فلما مثل الجماعة بين يديه أمر خادما أن يخلي المكان عن غير الحاضرين ، وكنت في جملتهم ، وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا من قبائه وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ، ماهو ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر ، فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته ، ثم ذكرته الله تعالى وإمضاء قضائه وقدره ، فقال استغفر الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم قال المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله ، ثم احضر الطعام فأكل الجماعة ، وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه ، وهو غير الكتاب الواصل الى حماة بنعية في طي كتاب وصل من النائب بها ، وكانت وفاته بطريق خلاط عائدا إلى ميافارقين . فحمل ميتا إلى ميافارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحمل إليها وزرت ضريحه ، وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان الثاني عشر من شوال من السنة ، وصل من دمشق كتاب من النواب بها ، في طية كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي

مجده الله ، يتضمن فصولا ثلاثة الأول الانكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر ، وبولغ فيه ، حتى قيل إن الديوان العزيز لايسلمه ، والفصل الثاني يتضمن الانكار على مظفر الدين في أمساك حسن بن قفجاق ، والأمر بإعادته إلى الكرخاني ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها وكانت قصة حسن بن قفجان أنه قصد أرمية إلى السلطان طغريل ، فإنه كان قد نزل به في معونته لما هرب من ديار العجم ، واستنصر به وتزوج أخته ، ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ويملك به البلاد ، فقصد أرمية فقتل أهلها على ماقيل ، وسبي نساءهم وذراريهم ، وتعرض للقوافل ، وكانت معقلة الكرخاني ، فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه ، وعاد إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الارض والتعرض للقوافل على ماقيل ، فاستعطفه مظفر الدين صاحب إربل حتى عاد إليه ، وانخرط في سلك أصحابه ، وقبض عليه ، وانفذ إلى الديوان العزيز ذلك في معناه لاستيلاء مظفر الدين على بلاده ، ولعله تشفع إلى الديوان ، فاقتضت عاطفته ذلك في حقه ، وأما الفصل الثالث : فكان يتضمن التقدم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولا لتقرر معه قواعد وتكشف إليه أسباب ، هكذا كان مضمون الكتاب .

وأما الجواب عنه فإن السلطان أجاب عن الفصل الاول بأنا لم نأمره بشيء ، من ذلك ، وإنما عبر لجمع العساكر ، ويعود إلى الجهاد ، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعود عنه ، وأما الفصل الثاني فأجاب عنه بأنه عرفهم حال ابن قفجاق وماتصدى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى الشام فيقطعه فيه ، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفصل الثالث فأنه اعتذر عن القاضي الفاضل بأنه كثير الامراض وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق ، فهذا كان حاصل الجواب .

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور ، وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث مترددة حاصلها أنهم ينقطعون عن الافرنج ونصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت المركيس مع الملوك ، بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخي الملك كي ، وفتح نكاحها بأمر اقتضاه بينهم ، فاضربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور ، وأخلد إلى السلطان والاعتضاد به، وكان في ذلك مصلحة المسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج ، فإنه كان أشدهم بأسا ، وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم في التدبير أساسا ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان ، أمر بإجلاله واحترامه ، فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش مايليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه إياس المهراني

ولما كان سادس عشر شوال من السنة أمر السلطان الحلقة ان كمنت للعدو في بطون أودية هناك ، واستصحبوا جماعة من العرب ، وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريبا من مخيمه فبصر العرب بهم ، فضربوا عليهم ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب ، فانهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، والعدو يتبعهم طمعا حتى قاربوا الكمين، فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا من بين أيديهم

نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقتل جمع من الطائفتين ، وأسر وجرح جمع من العدو ، وأخذ منهم خيل كثيرة ، وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة ، فأنفذ أمراء أخر : أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجري مجراهما ردءا المسلمين ، وقال إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الأطلاب الاسلامية قد صوبت نحوه أعنه خيلها ، ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر ، وكان السلطان قد ركب متشوفا أخبار الكمين ، وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ، ومعهم خمس رؤوس من الخيل قد أخذوها ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب ومازالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل من العدو زهاء ستين نفرا ، وجرح من المسلمين جماعة منهم إياز المهراني ، وكان شجاعا معروفا وجاولي غلام الغيدي وكما صرع إياز المعظمي وجرح عدة جرائح ، وحمل إلى المسلمين وأسر من العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما ، وعاد السلطان إلى خيمته فرحا مسرورا معوضا من قتل فرسه ، متلطفا بالجريح مترحما على الشهيد .

وفي بقية هذا اليوم وصل رسولا الانكتار إلى الملك العادل يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به.

ذكر ماجرى الملك العادل والانكتار واجتماعها

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل إلى اليزك ، وضربت له فيه نوبتيه عظيمة ، وسار ومعه من الأطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ماجرت العادة أن يحمل من ملك إلى ملك ، وهو إذا تجمل في ذلك لايغلب ، وسار الانكتار إلى خيمته وحضر عنده على

ماقيل ، فاحترمه احتراما عظيما ، ووصل مع الانكتار إلى خيمتـه وأحضر شيئا من طعامهم الذي يختصون به فأتحف به الملك العادل على وجه المطايبة ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وقدم إليه ماكان حمل إليه ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا على تواد ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أنفذها الانكتار إلى السلطان

وفي ذلك اليوم سأل الانكتار الملك العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماع به ، والمثول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسالة شاور السلطان الجماعة في الجواب فما منهم من وقع له ماوقع للسلطان ، وذلك أنه قال الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فاذا انتظم أمر حسن الاجتماع ، والاجتماع لايكون إلا لمفاوضة في مهم ، وأنا لا أفهم بلسانك ، وأنت لاتفهم بلساني ، ولابد من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به ، فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة ، قال الرسول ولما سمع الانكتار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لايقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضي السلطانية .

ذكر حضور صاحب صيدا بين يدي السلطان وأداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت التاسع عشر من شوال من السنة المذكورة جلس السلطان واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته ، وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، وكنت حاضرا المجلس ، فأكرمه إكراما عظيما ، وحادثهم وقدم بين أيديهم

ماجرت به العادة ، ولما فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا ، وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته ، وكان من شروط الصلح معه إظهار عداوة الأفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السلطان الموافقة على شروط ، قصد بها الايقاع بينهم ، وأن يقتل بعضهم بعضا ، فلما سمع السلطان حديثه وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم

ذكر وصول رسول الانكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم وصل رسول ملك الانكتار وهو ابن الهمفري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم ، وصل رسولا وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه ، وكانت رسالته أن الملك يقول إني أحب صداقتك ومودتك ، وأنك قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكما بيني وبينه ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لايكون عليه لوم من المسلمين ولاعلي لوم من الافرنجية ، فأجابه في الحال بوعد جميل ، ثم أذن له في العود في الحال ، وتأثر بذلك تأثرا عظيما وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح فقالوا : ان كان صلح فعلى الجميع ، وأن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيء ، وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح فإنه التفت إلي في آخر المجلس بعد انفصالهم ، وقال : متى ماصالحناهم لاتؤمن غائلتهم ، فإنني لو حدث بي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الافرنج

فالمصلحة أن لانزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت ، هذا كان رأيه قدس الله روحه ، وانما غلب على الصلح .

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس

ولما كان حادي عشر شوال ، جمع السلطان الامراء والأكابر ، وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها ، وهي أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الافرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان، وذكر ماالتمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضيع معينة ، وتكون لنا الجبليات بأسرها أو تكون القرى كلها مناصفة ، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه ، وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للأمراء ، واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الجانبين : الانكتار والمركيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مصافات الافرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غير مأمونة الغائلة ، وانفض الناس ، وبقي الحديث مترددا في الصلح والرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح ، وأصل القاعدة أن الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما ، فأما الافرنجية فلها من جانب أخيها ، والاسلامية له من جانب السلطان ، وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال : إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علي ، وضع أختي تحت مسلم ، بدون مشاورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ، ومقدمه ، وها أنا أسير إليه رسولا يعود في ستة

أشهر ، فإن أذن فيها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنه أخي ، وما أحتاج إلى إذنه في ذلك .

وهذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازم ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، ويشرف على الافرنج ، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوال من السنة المذكورة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى تل الجزر

ولما كان ذلك اليوم أصبح السلطان على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثه وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان ابن الهمفري يترجم بينه وبين البحريين ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ، ومن جانب العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به ، وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد تم ، وإن لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك ، وهي بكر ، وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إذنه في تزويج الثيب من بنات الملوك ، وأما الابكار فيزوجها أهلها ، وانفصل الحال على ذلك ، وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ، ليجهز رسول السلطان ، ويلحقه ، ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير ، وخرجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة ، وسار رحمة الله عليه إلى تل الجزر لارتياد اليزك ، وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ونزلنا بتل الجزر ولما عرف الافرنج بعود السلطان ، رحلوا عائدين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم رحل

إلى جهة القدس الشريف ، ورحل الأفرنج إلى جهة بلادهم ، واشتد الشتاء ، وعظمت الأمطار ، وسار السلطان إلى القدس الشريف ، وأعطى العسكر دستوراً ، وأقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد العدو إلى بلاده ووصل الانكتار وعساكره إلى يافا ، وعاد إلى عكا ينظر في أحوالها ، فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول إني أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين ، فقد بلغني أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل ، فاتفق الرأي في مضي الملك العادل ، على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي ، ويحدثه ويقول له : إن الحديث جرى بيننا مرارا ، وماأسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلاحاجة إلى الحديث ، وأن كان الغرض بت حال ، فقارب الحال ، وأنا لاأجتمع بك إلا أن أرى مايقارب فصل الحال ، وقرر مع الملك العادل أن راى مايمكن معه فصل الحال وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء مايفصل الحال عليه ، فكتب تذكرة فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها ، وأن نعطي صليب الصلبوت ، ويكون لهم في القمامة قس ، ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لايحملوا السلاح ، وكان الحامل على ذلك ماأخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة ، وكثرة الديون والبعد عن الأوطان ، فإن من الناس من كان لايفارق السلطان ، ولايمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم وصل كتابه من بيسان يخبر أنه لقيه إبن الهمفري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الانكتار يقول : إنا قد وافقنا على قسمة البلاد ، وأن كل من في يده شيء فهو

له ، فإن كان ما في أيدينا زائدا أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا ، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكون القدس لنا ، ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب ، فأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل ، وهو مصلحة ، وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك .

ولما كان حادي عشر ربيع الأول وصل الحاجب أبو بكر ، صاحب الملك العادل ، يخبر أن الانكتار سار إلى يافا من عكا ، وأن الملك العادل مارأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا ، والباقي مناصفة ، وأن لايكون في البلد منهم مذكور ، وأن تكون قرى القدس وباطنه مناصفة ، ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول من الغور ، ولقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر .

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر أن الافرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأنهم أخذوا منهم زهاءألف رأس غنم ، فعظم ذلك على السلطان ، وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقه .

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس ، يلتمس الصلح من المسلمين ، فاشترط رحمة الله عليه شروطا منها أن يقاتل جنسه ويباينهم ، ومنها أن مايأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له ، وماناخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، ومانتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ، ويكون لنا مافيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من

الأموال ، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته ، ومنهـا إن فوض الانكتار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ، وماعدا عسقلان ومابعدها فإنه لايدخل في الصلح .

وتكون الساحليات له ، وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط مناصفة ، وسار رسوله على هذه القاعدة ، ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الأول ، وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، ووصل جريدة مقدما على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، دخل على السلطان بغتة ، وعنده أخوه الملك العادل ، فنهض له واعتنقه، وسر به سرورا عظيما ، وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو ، وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكتار سكت عنه .

وفي هذا اليوم كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل أن يسير الى قاطع الفرات ، ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ، ودخل في إمرة الملك العادل وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث في أمره ، وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظا عظيما ، وكيف يكون هذا الأمر من أهله ، ولم يكن أحد من أهله خاف منه ، ولاطلب يمينه ، وهذا كان السبب في توقف الانكتار في الصلح فإنه ظن أن هذا خلاف يكدر على السلطان شرب الغزاة ويحوجه إلى الموافقة على مايرضاه ، فأنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة أن أخاه إن احتاج إلى معونة عاونة ، وجهزه بحملة كبيرة ، وسار

باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب ، واكرمه أخـوه الملك الظـاهر إكراما عظيما وعمل له ضـيافة تـامة ، وقـدم بين يديه تقـدمة سنية ، وعدنا إلى حديث العدو .

ذكر عود رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر مـن سـنة ثمـان وثمـانين وخمسمائة ، وصل يوسف مـن جـانب المركيس يجـدد حـديث الصلح ، ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الافرنجية فإن نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيسية في البحر ، وأن تـأخر بـطل الحديث في الصلح بالكلية فرأى السـلطان الصـلح مـع المركيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصـل ابـن تقي الدين ببكتمر فيحـدث مـن ذلك مـايشغل الخـاطر عن الجهاد ، فأجاب إلى ملتمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ماتقدم وسار يوسف الرسول تاسع ربيع الآخر .

ذكر قتل المركيس

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من العدل الرسول المنفذ إلى المركيس كتاب ، أن المركيس قتـل ، وعجـل الله بـروحه إلى النار ، وكانت صـورة قتله أنه تقـدم يوم الثـلاثاء ثـالث عشر عند الأسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان مـن أصـحابه بـالسكاكين وكان خفيفا من الرجال ، فمازالا يضربانه حتـى عجـل الله بـروحه إلى النار ، وأمسك الشخصان وسئلا عن هـذا الأمـر ومـن حضـهما عليه ، فقالا : إن الانكتار حملنا عليه وقـام بـالأمر اثنان فحفـظا القلعة إلى إن اتصل الخبر بالملوك ، وانعقد الأمر وتدبر المكان .

ذكر تتمة خبر الملك المنصور وماجرى له

وذلك أنه لما بلغه موجدة السلطان عليه أنفذ إلى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ، ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط ، وإما حماة ومنبج وسلمية والمعرة مع كفالة أخوته ، فراجع الملك العادل السلطان مرارا فلم يجبه إلى شيء عن ذلك ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت شجرة رأفته فرجع إلى خلقه النبوي ، وحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفراتـه اعطي المواضع التي اقترحها ، ويكفل أخوته ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ، ودخلت تحت ضمان الملك العادل ، ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانيا ، ولج عليه ، فمزق نسخة اليمين في التاسع والعشرين من ربيع الآخر ، وانفصل الحال ، وانقطع الحديث ، وكنت المتردد بينهما في ذلك ، وأخذ الغيظ السلطان ، كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب أولاد أولاده .

ذكر قدوم رسول ملك الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتقي بالاحترام والاكرام ، ومثل بالخدمة السلطانية في ثالث الشهر ، وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها صليب الصلبوت ، ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس ، ومنها أن يكون الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه ، وأن يوافق على قصد جزيرة قبرص ، فأقام عنده يومين ، ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية ، وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل إن

الصليب قد بـذل فيه ملك الكرج مـئتي ألف دينار ، فلم يجـب الى ذلك .

ذكر ماجرى للملك العادل في البلاد التي هـي قـاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الافضل ، رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقي الدين ، وقد كثر الحديث في معناه ، وأنفذني السلطان لمشاورة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعتهم في خـدمته فذكرت لهم ماأرسلني فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسـام الدين أبـو الهيجاء الجواب ، وقال : نحن عبيده ومماليكه وذلك صبي ، وربما حمله خوفه أن انضاف إلى جانب آخر ، ونحن لانقدر على الجمـع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أراد أننا نقاتل المسلمين صـالحنا الكفـار وسرنا إلى ذلك الجـانب وقـاتلنا بين يديه ، وأن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسـلمين وسـامحهم ، وهـذا كان جـواب الجميع ، فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين ، وحلف له بها ، وأعطاه خطه بما استقر من القاعدة .

ثم أن الملك العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابـن تقي الدين بعد استقلاله ، وجـرت مـراجعات كثيرة في العـوض عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر مـا استقر أنه يسـلم تلك البلاد ، وينزل عن كل ماهـو شامي الفرات وماقطعها مـاعدا الكرك والشوبك والصـلت والبلقـاء وخـاصه بمصر بعـد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسـلطان مـن الصـلت والبلقـاء الى القـدس والمغـل في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغل قاطع الفرات في هـذه السـنة للسلطان أيضا ، وأخذ خط السلطان بذلك ، وسار بنفسه ليصـلح ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيره في ثامن جمادى الأولى .

ذكر استيلاء الفرنج على الدارون

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر دستورا ، وتفرقت العساكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه ، وكان بيد علم الدين قيصر ، وفيه نوابه ، ولما كان يوم تاسع جمادى الاولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارسا ، وكان الانكتار قد استنقذ من نوبة عكا نقابين جبليين ، فتمكنوا من نقب المكان ، وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان ، فلم يمهلوهم واشتدوا في القتال عليه ، فأخذوه عنوة ، واستشهد فيه من قدر الله له ذلك ، وأسر من قدر له ذلك ، وكان ذلك (قدرا مقدورا) (٤٤)

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا بعد أن قرروا أمره ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسي ، وهي قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جمادي الأولى ، فأقاموا عليه ، ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة ، وخلفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر اسلامي ، فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كند مذكور ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، كان سبب قتله أنه وقع رمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب ، وانضم إليهم من عكا خمسون ، وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، وقتل من العدو خمسة عشر نفرا ، ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين خاسرين ولله الحمد .

ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد

ولما رأى السلطان ماجرى من العدو من التبسط ، سير إلى العساكر من سائر الأطراف أن يسابقوا إلى الحضور ، وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان ، فلقيه السلطان واحترمه ، ووصل بعده عز الدين بن المقدم في سابع عشر جمادى الأولى بعسكر حسن وآلات جميلة ، ففرح به السلطان .

وأما العدو فإنه رحل من الحسي ونزل على مفرق طرق منها طريق عسقلان ، وطريق إلى بيت جبرين وإلى غير ذلك من الحصون الاسلامية ، ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء السمين ، وبدر الدين دلدرم ، وابن المقدم ، وتتابعت العساكر وتخلف هو في القدس لذوع التياث كان عرض له ، فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر الاسلامية عاد خائبا خاسرا ناكصا على عقبيه ، ووصلت الكتب من الأمراء مخبرين برحيل العدو إلى عسقلان .

ذكر تعبية العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، وصل قاصد من العسكر يخبر أن العدو قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم ، وخيم على تل الصافية ، فسير السلطان إلى العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها ، واستدعي الأمراء جريدة إليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية إلى جانب النطرون فنزل شماليه ، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الأولى ، وكانت قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، وصلوا إلى السلطان ، وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وتواترت الأخبار من جانب العدو انه مقيم بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم مايحتاجون إليه ، قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى ، وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان المشطوب عندهم تحدث في معنى قراقوش ويتحدث في معنى الصلح .

ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطاة بين جبال يبنا بينه وبين القدس مرحلة

رحل العدو من النطرون يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الأولى ونزلوا ببيت نوبة ، ولما عرف السلطان ذلك استحضر الأمراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأي ان تقسم الأسوار على الأمراء ، ويخرج ببقية العسكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا ، فان دعت

الحاجة إليهم خـرجوا وإن دعت الحـاجة إلى مـلازمة مـواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء .

وكانت طريق يافا سـابلة لمن ينقـل الميرة إلى العـدو ، فـأمر السلطان من في اليزك أن يعمل معهم مايمكنه ، وكان في اليزك بـدر الدين دلدرم ، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة ، فمر بهم جمع خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهم ، فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل منهـم ثلاثون نفرا وأسر جماعة ووصل الأسارى في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى القدس وكان لدخـولهم وقـع عظيم وجـرى على العدو من ذلك وهن كبير ، وقويت قلوب اليزكية ، وانبعثت هـممهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا إلى أطراف الخيم ولله الحمد .

ولما علم المسلمون أن القوافل لاتنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرة وكمنوا كمينا واجتـازت القـافلة ومعهـا جمـاعة كثيرة ، فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فـانحدروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتـراك عليهـم فـأخذوا منهم وقتلوا ، وجرح من الأتـراك جمـاعة وذلك في ثـالث جمـادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالى

وذلك أنه كان قد تقدم إلى عسـكر مصر بـالمسير ، وأوصـاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يترقب أخبـارهم ، ويتـوصل إليهـا بـالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو خبر القوافل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجـل بـالاحتياط

والتحفظ ، وسار حتى دنا من تل الصافية ، فبات ثم سار حتى أتى تل الصافية ثم علق على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال له الحسي ، واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فأنفذ بنذير للقافلة ، وكان المندوب لذلك الامير أخر أسلم ، والطنبا العادلي وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالقافلة في البرية ، ويتباعدوا من العدو ماأمكن ، فاتفق أن العسكر وصل الحسي قبل وصول العدو إليه فلم يقيموا عليه ، وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصري ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بأنهم لم يجدوا فيه ذاعرا ، ولاأحسوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قرب الطريق ، وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا إلى ماء يقال له الخويلفة ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس الحسي فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل ، لامه فأشار أسلم بالمسير ليلا قطعا للطريق واستظهارا بالصعود الجبل ، فخاف فلك الدين انه إن رحل بالليل جرى أمر على القافلة لتبددها فنادى في الناس أن لايرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكتار فبلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدقه ، وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله في صورة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبغت الناس ، ووقع عليهم بخيله ورجله ، وكان الشجاع هو الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانهزم الناس إلى جهة القفل .

والعدو يتلوهم ، فلما رأوا القفل أعرضوا عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة اقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة العرب أيضا ، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ماكان معهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة .

وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين كحسين الجراحي ، وفلك الدين ، وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين ، وقتل من العدو زهاء مئتي فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير ، فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى ، وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ماأمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال ، وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل ، وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ، ثم سار حتى أتى الحسي ، ولقد حكى لي من كان أسيرا معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن عسكر السلطان قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة ، وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ، ولما انكشف لهم إن العسكر لم يلحقهم عادوا إلى الرحل ، وهرب في تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين ، وكان الحاكي منهم ، فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثة آلاف ، والأسارى خمسمائة ، وتقرب من ذلك عدة الخيل .

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ، ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة ، وكنت جالسا في خدمته ، وأوصل الخبر شاب من الاصطبلية ، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه ، ولاأكثر تشويشا لباطنه ، وأخذت في تسكينه وتسليته ، وهو لايكاد يقبل التسلية .

وكان أصل هذه القضية أن الأمير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا الجبل فلم يفعلوا ، فصعد هو وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم يصل إليه أحد من العدو ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة الافرنج ، وأقام الرجالة منهم يستولون على ماتخلف من المسلمين من الأقمشة ، ولما تحقق الأمير

أسلم أن الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل إليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد .

ثم سار العدو يطلب خيامه ، فكان وصوله إلى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرى ، وكان يوما عظيما عندهم ، واظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطأة على بيت نوبة ، وصح عزمهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي كانت تحمل الميرة والزاد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة ، وأنفذوا الكند هري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس ، ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد إلى الاسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه بظاهر القدس ، وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا ، وأطنب في ذلك أطنابا عظيما ، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر بها فيها ماء معين لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب ، وسير إلى العساكر يطلبها من النواحي والبلاد .

ذكر قدوم الملك الأفضل وأمره بالعود عن تلك البلاد وكان قد وصل إلى حلب المحروسة

ولما وصل أمر السلطان إليه بالعود عاد مع إنكسار في قلبه وتشويش في باطنه ، فوصل إلى دمشق مستغتبا ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الأفرنج سير إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر ، فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق ، وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جمادى

الأخرى ، ولقيه السلطان قريبا من العازريه ، فترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لأمره ، وسار في خدمته أخوه الملك الظافر ، وقطب الدين إلى ظاهر القدس.

ذكر عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرى استحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت مايسره الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه .

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والاسلام »

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله لايرجع أحد

منا عن نصرتك إلى أن نموت فقال : الجماعة مثل ماقال ، فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا ، وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام ، حتى كانت العشاء الآخرة ، وجميعنا في خدمته على العادة وسهرنا حتى مضى من الليلة هزيع وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء ، وكانت العشاء هي الدستور العام ، فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فاستدعاني فلما جلست في خدمته ، قال لي علمت مالذي تجدد ؟ قلت : لا ، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إلي اليوم وقال : إنه اجتمع عنده جماعة من المماليك وأنكروا علينا موافقتنا على الحصار ، وقالوا لامصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نحضر ويجري علينا مثل ماجرى على عكا ، وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي أن نلقى مصاف ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى يسلم العسكر ويمض القدس ، وقد حفظ الاسلام بعساكره مدة بغير القدس ،

وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ، فشقت عليه هذه الرسالة وأقمت تلك الليلة في خدمته ، وهي من الليالي التي أحييتها في سبيل الله .

وكان مما قالوه في الرسالة : إن أردت أن نقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك ، وإلا فالأكراد لايدينون للأتراك ، والاتراك كذلك ، فانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فروخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ، ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام ، فلما أن قارب الصبح ، وأشفقت عليه ، خاطبته في أن يستريح ساعة ، وانصرفت عنه ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له : قد وقع لي واقع أعرضه ، قال : وماهو ؟ قلت : من كثر اهتمامه بما قد حمل على

نفسه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية ، ينبغي له أن يرجع إلى الله ، وهذا يوم الجمعة ، وهو أبرك أيام الاسبوع فيه دعوة مستجابة ، ونحن في أبرك موضع ، فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لايشعر أحد أنها منه ، ويصلي بين الأذان والاقامة ركعتين يناجي فيهما ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف بالعجز عما تصدى له ، فلعل الله يرحمه ، ويستجيب دعاءه ، وكان حسن العقيدة تام الايمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد .

ثم انفصلنا فلما جاء وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الاقصى ، فصلى ركعتين ، ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاة ، ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كانت عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك ، وكان في اليزك ، وكان جملة مافيها : أن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا على التل وقت الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم .

ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى ، يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا ، وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس أو الرحيل إلى بلادهم فذهبت الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكتار : إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب ؟ فقالوا له : نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال : كيف نذهب إلى السقي ؟ فقالوا : ننقسم قسمين قسم يركب إلى السقي ، وقسم يبقى على البلد في المنازلة ، ويكون الشرب في اليوم مرة ، فقال الانكتار : إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية .

فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم

الثلاثمائة أثني عشر منهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهــم ، وقــد باتوا على حكم الثلاثة ، فما أمروا به فعلوه ، فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم يمكنهم المخالفة وأصبحوا في بكرة الحــادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكسين ، ولله الحمد ، ومضى عسكرهم شــاكيا الســلاح ، ولم يبـق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا الرملة ، وتــواترت الأخبــار بـــذلك ، فـــركب السلطان ، وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح ، ولكن السلطان ـ قدس الله روحه ـ خاف على مصر المحروسة ، لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكتــار مثــل هــذا الحـــديث مرارا .

ذكر رسالة الكندهري

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهري يقول إن الانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية ، وهــي الآن لي فــأعد علي بلادي حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك ، فغضب الســلطان لذلك غضبا عظيما بحيث أنه كاد يبطش به ، فأقيم من بين يديه ، فســأل أن يمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك فقال : نقول إن البــلاد في يدك فما الذي تعطيني منها ؟ فانتهره وأقامه .

ولما كان اليوم الثالث والعشرون حضر الرسول ، وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ماكان مع المركيس ، ثم وصل بعد ذلك إلى الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الأفرنج وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهري وأخلى المجلس وقال له : قل لصاحبك إنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ولا ينبغــي أن تعتقد أن ذلك لضعف مني ، بل للمصلحة ، ولاتغتر بتــأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح ، وأن يكون هو الواسطة بينهــم وبين السلطان ، وأنفذ مع الحــاجب شــخصين يســمعان الكلام مـــن المشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام في إطلاق بهاء الدين قــرا قوش

وباطنه في معنى آخر ، وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا ، وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر ، فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب إلى الكندهري : أن نعطي عكا ، ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد .

وكان رحمه الله قد جعل في مقابلة عكا عسكرا خشية خروج العدو إلى النواحي التي تليها ، فلما كان الثاني والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على مايليها من البلاد والرساتيق ، فثارت عليهم الكمينات من الجوانب ، وكان قد شعر العسكر الاسلامي بخروجهم ، فكمن لهم فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ولله الحمد .

ذكر عود رسولهم في معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب ، وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهي أن ملك الانكتار يقول : إني راغب في مودتك وصداقتك ، وأنه لايريد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولايظن ذلك فيك ، ولايجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولايجوز لي أن أهلك الافرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشدق سمعوا وأطاعوا ، ويقول : إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وانا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني قرية أو خربة قبلتها .

فلما سمع السلطان هذه الرسالة ، جمع أرباب الرأي وأصحاب

مشورته ، وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة ، فما منهم إلا من أشار بالمحاسنة ، وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمون من الضجر والتعب وعلاهم من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب :

إنك إذ دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان (٤٥)) إن ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ماأفعل معه ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة، وأما بقية البلاد فنقسمها : فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والذي بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، ومابين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وماوراءها يكون خرابا لالنا ولالكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان .

وانفصل الرسول طيب النفس ، في ثاني يوم قدومه ، وهو الثامن والعشرون ، واتصل الخبر بعد وصول الرسول إليهم أنهم راحلون إلى عسقلان ، طالبون جهة مصر ، ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان أن البابا قد وصل إلى القسطنطينية في خلق لايعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارسا ، ويقول تقدم إلى من يستلم بلادي مني فإني قد عجزت عن حفظها ، فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به .

ذكر عود رسول الافرنج ثالثا

ولما كان التاسع والعشرون ، وصل الحاجب صاحب المشطوب ، ومعه جفري رسول الملك ، فقال إن الملك شكر إنعام السلطان وقال : إن الذي أطلبه منك أن يكون لنا في القدس عشرون رجلا ، وأن من سكن من النصارى والافرنج لايتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم .

وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ، ماعدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح وأن الانكتار لابد له من الرواح إلى بلده ، وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه في هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان .

فاستحضر الأمراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة ، وانفصل الحال على هذا الجواب ، وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، فقال الرسول : وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم ؟ فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد كعسقلان وماوراءها فلا بد من خرابه ، فقال الرسول : قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فقال المشطوب للسلطان : المصلحة أن تجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارتها ، فأجاب : وأن الدارون وغيره تخرب وتكون بلادها مناصفة ، وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة ، هكذا جواب رسالته ، وسار في يوم الثلاثاء مستهل رجب ، ومعه الحاجب يوسف ، وكان قد طلب رسولا مذكورا يحلفه إن استقرت القاعدة ، فأخر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هدية في مقابل هديتهم ، وماكان يغلب في الهدايا .

ذكر عود الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب ، فحضر الحاجب ليلا ، وأخبر السلطان الخبر ، وحضر الرسول في بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة ، وهي : إن الملك يسأل ويخضع لك ان تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها في ملكك وعظمتك ؟ وما من سبب لاصراره عليها إلا إن الافرنج لم يسمحوا بها ، وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولاقسوس إلا في القمامة وحدها ، فأنت تترك هذه البلاد ، ويكون

الصلح عاما ، فيكون لهـم كل مـاقي أيديهـم مـن الداروں إلى انطاكية ، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ونروح ، وإن لم ينتظم الصلح فالافرنج لايمكنونه من الرواح ، ولايمكنه مخالفتهم ، فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض بـاللين تـارة وبـالخشونة أخـرى ، وكان لعنه الله مضـطرا إلى الرواح ، وهـذا عمله مـع اضطراره ، والله الولي في أن يقي المسلمين شره ، فما بلونا أعظـم حيلة ، ولاأشد اقداما منه .

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الامراء ، وأرباب الرأي من دولته ، وسألهم عن الجواب مايكون فكان خلاصة الرأي هـذا الجواب ، وهو :« إن أهل انطـاكية لنا معهـم حـديث ، ورسـلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فـلا ، وأمـا البلاد التي سألها فلا يوافـق المسـلمون على دفعهـا إليه وان كانت لاقدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة مـاخسر عليه لدا في الوطأة » وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب . .

ولما كان الخامس مـن رجـب وصـل ولده الملك الظـاهر عز نصره ، وكان كثير المحبة له والايثـار لجـانبه ، لما يراه فيه مـن أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك ، فخرج السلطان إلى لقائه فلقيه من قـاطع العـازرية ، ونزل له عند لقـائه ، واحتـرمه وأكرمه وضمه إليه وقبله بين عينيه ، ونزل في دار الاسبتار .

ولما إن كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : لايمكن أن نخرب من عسقلان حجرا واحدا ، ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأمـا البـلاد فحـدودها معـروفة ولامناكرة فيها ، وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العـدو ، وأظهـر القوة ، وشدة العزم على اللقاء .

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان أن الافرنج رحلوا طالبين نحو بيرت فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية في بكرة الحادي عشر ، فدخل الصخرة وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان ، ثم إن السلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، وبعث إلى العسكر في القدس يحثهم على الخروج واللحاق به ، ولحقت السلطان في بيت نوبة فإني كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ، ثم رحل في يوم الأحد الثالث عشر إلى الرملة ضحوة نهار على تلال بين الرملة ولد ، فأقام بها بقية الأحد ، ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جبرين ، فأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا ، واتفق الراي على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا ، فخيم عليها ضحوة النهار ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان طرف الميمنة على البحر ، وطرف الميسرة على البحر ، والسلطان في الوسط ، وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره ، وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما .

ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس إليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ، ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع في السور مما يلي الباب

الشرقي ، وشرع النقابون في السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف ، فأخذ النقابون النقب من شمالي الباب الشرقي إلى الزاوية بطول البدنة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول وبناه الافرنج ، وتمكن النقابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس في أخذ البلد في هذا اليوم ، هذا وأمر العدو في ازدياد ، وكان الملك قد توجه من عكا الى بيروت ، وهذا الذي حمل السلطان على نزوله على يافا ، ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ماأضعف قلوب الناس ، هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم ، فلما قارب الفراغ أخذ العدو في خسف النقب عليهم فخسفوه في مواضع عدة ، وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه ، فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البدنة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان في تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل ثلثه ، وعاد إلى الثقل ، وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالته ، وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث في بقية النهار ، وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس إلا الفتور ، بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم أن المنجنيق لايعمل إلا بعد أيام ، ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف ، فالتحم القتال واشتد الامر ، وأذاقوا العدو مر الحرب ، فأشرف البلد على الأخذ وأيقنت النفوس به وطمعت في ذلك طمعا شديدا ، وضعف العدو إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد ، فمنهم : الحاجب أبو بكر ، وختلخ – والي بعلبك – وأصيب بعينه وطغرل التاجي ، وقد استقر في وجهه ، وهما من مقربي المماليك وأناز جركس في يده ، وهو من كبارهم .

ولما رأى العدو المخذول ماقد حل به أرسل رسولين نصرانيا

وافرنجيا يطلبان الصلح ، ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم النجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الإنظار ، فعاد الرسول ، ثم رجوا يسألونه الإنظار ، فأبى ذلك ، وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا إلى الدعة على جاري العادة ، فأمر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ، ففعلوا ذلك ، ووضعت النار فيه فوقع نصف البدنة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار في النقب ، وعلم إن ذلك المكان يقع فعمد إلى أخشاب عظيمة وهيأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فمنعت من الدخول إلى الثلمة ، ثم أمر السلطان الناس فزحفوا ، وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، فلله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لهم بابا ، ولم يزالوا يقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين ، ولم نقدر على البلد في ذلك اليوم حتى بعد حرق النقوب في باقي البدنة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجبهم إلى الصلح، وبات تلك الليلة في المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، تضرب بعضها البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وماجرى فيه من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأودية والأماكن البعيدة لعدم الحجر في ذلك المكان ، وظلت ترمي البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عز نصره زحفا شديد ، وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة ، فإنه كان مريضا وارتفت الأصوات وضربت الكوسات ، ونعقت البوقات ، ورمت المنجنيقات ، وأحاط بهم

الويل ، واشتد عزم النقابين في إيقاد النار فما مضى من النهار ساعتان إلا ووقعت البدنة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس ألا أن البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولاقلب من العدو إلا أرعد ورجف ، هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم ، وذلك أنها لما وقعت علالها دخان وغبار ، وأظلم الافق وعميت عين النهار ، وماتجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار ، فلما انكشفت الظلمة ظهرت اسنة قد نابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة حتى غيبت نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق عليه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه متصديا لمثل مالحق صاحبه في ساعة أسرع من لمح العيون ، بحيث لم يفرق بينهما فارق .

ولما رأى العدو ما آل الأمر إليه سيروا رسولين إلى السلطان يلتمسون الأمان فقال رحمه الله الفارس بالفارس ، والتركبلي بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز على قطيعه القدس ، فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة اشد من إضرام النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : لااقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا إلى القلعة ويتركوا الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقي دونه مانع ، فعاد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العدو إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة ، ودخل البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش ، مما نهب من القافلة المصرية ، واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان .

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايماز النجمي ، وكان في طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذي في

عكا ، يخبر فيه أن الانكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت ، وعاد إلى قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة وكنت ممن لم ير الامان لانه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بمغنم بوثبهم عليه ، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على إخراج العدو من القلعة ، وتسلمها خوفا من لحوق النجدة ، وكان السلطان يشتهي خروجه غير أن الناس قد اقعدهم التعب عن إتمام الامر ، وأخذ منهم الحديد وشدة الحر ودخان النار ، بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة ، وأقام السلطان يحثهم إلى هوي من الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار إلى خيمته إلى الثقل وسار الناس إلى خدمته ، ثم نزل في خيمته ، وعدت إلى خيمتي ، وعندي من الخوف ماأقلقني عن النوم .

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نعق ، فعلمنا بوصول النجدة ، قد وصلت في البحر ، فاستدعاني السلطان من وقته ، وقال : لا شك إن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم من النزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر ، وتقول له أن يقف بظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجوا القوم وتستولوا على ما فيها من الأموال والاسلحة وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيرها إلي وسير معي لتقوية اليد على ذلك عز الدين جرديك ، وعلم الدين قيصر ، ودرباس المهراني ، فسرت من ساعتي ، ومعي شمس الدين عدل الخزانة حتى اتيت الملك الظاهر ، وهو نائم على شقته على تل قريب البحر في اليزك ، وعليه كراغندة ، وهو بلامة حربية ، فلاضيع الله صنعهم في نصرة الاسلام ، فأيقظته فقام والنوم في عينيه ، وسرت في خدمته ، وهو يستفهم مني رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ، ودخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة ، وأمرنا الافرنج بالخروج فأجابوا إلى ذلك وتهيأوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

وكان ذلك في بكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين .

ولما أجابوا إلى الخروج قال عز الدين جرديك لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفهم الناس ، وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد ، وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار وأنا الومه وهو لايرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت الوقت كاد يفوت قلت له : إن النجدة قد وصلت ، والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، والسلطان قد أوصاني بذلك ، فلما عرف السبب في حرصي أجاب إلى إخراجهم ، ومضينا إلى باب القلعة القريب من الباب الذي الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا تسعة وأربعين نفرا بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون وحدثتهم نفوسهم بالعصيان ، وكان سبب خروج من خرجوا أنهم استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكتار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا ، فقويت نفوس الباقين في الحصن وظهرت عليهم أمارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجنويات وعلوا على الأسوار ، وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد ، فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك نزلت من التل الذي كنت واقفا عليه ، وهو ملاصق لباب القلعة ، وقلت لعز الدين جرديك ، وهو مع عسكره في الأسفل مع جمع من الأجناد : خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد في خدمة الملك الظاهر إلا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد وأخرجوا من كان في البلد من

الاجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقي في بعض الكنائس جماعة من اتباع العساكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم واسروا ، وسيرني الملك الظاهر إلى والده السلطان اعرفه بالحال ، فامر الجاويش أن ينادي في العسكر ، وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد وحشروا العدو في القلعة ، فأيقنوا بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفا عظيما ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان (٤٦) وكان ذا خلقة هائلة رسولين إلى السلطان يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الاولى فخرجا إلى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ، ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فإنها بلغت نيفا وخمسين مركبا ، منها خمسة عشر شانيا فيها شاني الملك علموا أن النجدة ظنت أن البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكانت رملا فلم يصبه شيء ، واشتد عدوا حتى أتى البحر، فخرج له شاني وأخذه إلى شاني الملك فحدثه بالحديث ، فلما شعر الانكتار أن القلعة مع أصحابه ، اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شاني ألقى من فيه بالبر شانيه ، وكان أحمر ورقبته حمراء ، وبيرقه أحمر ، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى الميناء ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك ، ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ، وكان تحتي فرس فسقته إلى السلطان وأخبرته الخبر ، وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الامان فعرفته في إذنه ماجرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح في الناس ، فركبوا وقبض على الرسولين ، وأمر بترحيل الثقل والاسواق إلى يازور ، فرحل الناس ، وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من

يافا لم يقدوا على نقله ، ورحل الثقل ، وبقي السلطان جريدة في الليل ، وبات ليلته هناك ، وخرج الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لضيق البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه معظم سواده ، فاجتمع به جماعة من المماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة .

ذكر حديث الصلح

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وحضر عندهم أيبك العزيزي ، وسنقر المشطوبي وغيرهم ، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة، وكان قد صادق من الأمراء كيدر الدين دلدرم وغيره ، فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ، ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم ، ومافي هذه الأرض للاسلام أكبر ولا أعظم منه ، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي ، والله مالبست لأمة حرب ، ولاتأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر فكيف تأخر ؟! ثم قال والله العظيم الكريم ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين ، ثم قال لأبي بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادي وراء البحر ، ومافي دوام هذا مصلحة لالنا ولالكم .

ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان ، وعرفه ماقاله ، وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب ، فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب هو :« إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان ، والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور إلى قيسارية » فمضى إليه وعرفه ماقال فرده إليه ومعه رسول أفرنجي وقال يقول : « أن قاعدة الافرنج أنه إذا

أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلامه ، وانا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما في خدمتك دائما ، وانا احتجت إلي وصلت اليك في أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتي » فكان جواب السلطان : « حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك بأن نجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وماوراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها » ثم سار الرسولان ورحل السلطان إلى الثقل ، وكان المخيم بيازور ورتب النقابين لذلك واليزك عندهم ، وسار حتى أتى الرملة فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر ، فأمر بإكرامه والاحسان إليه ، وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا ، وتجديد السؤال في عسقلان ويقول : إنه إن وقع الصلح في هذه الايام سار إلى بلاده ، ولايحتاج أن يشتي هاهنا ، فأجابه السلطان في الحال بقوله :« أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيته هاهنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها اخذت بالضرورة ، كما تؤخذ ايضا إذا أقام إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، أفلا يسهل علي أن اشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي وعندي أولادي وأهلي ، ويأتي إلي ماأريد ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني ، والعسكر الذين يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف ، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات ، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء »

فلما سمع الرسول ذلك طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأذن له في ذلك فسار إليه مع جماعة ، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا للانجاد ، فجمع أرباب الرأي ، وعقد مشورة في قصدهم ، فاتفق الرأي على أنهم يقصدونهم ويرحل بالثقل إلى الجبل ويقصدونهم جريدة ، فإن لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا عنهم ، وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر

العدو ، ونرحل إلى الجبل في صورة منهزمين ، وأما إذا وصلنا الآن ففي صورة طالبين ، فأمر السلطان الثقل أن يسير إلى الجبل عشية الاثنين الحادي والعشرين من رجب ، وسار هو جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء ، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه إن الانكتار ، قد نزل خارج يافا في نفر يسير بخيم قليلة ، فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضا ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق إلى أن أتى في الصباح الى خيام العدو فوجدها تقريبا عشر خيم ، فداخله الطمع ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فثبتوا في أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب فارتاعوا فوجموا من ثباتهم ودار العسكر حلقة واحدة ،

ولقد حكى لي بعض الحاضرين ، فإني كنت تأخرت مع الثقل ، ولم أحضر هذه الوقعة لالتياث مزاجي ، أن عدة الخيل كان يحرزها المقل سبعة عشر ، والمكاثر تسعة عشر ، والرجال دون الألف فمن قائل ثلاثمائة ، ومن قائل أكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الأطلاب يحثها ، فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب قل لغلماذك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون وكان في قلوب العسكر من صلح يافا غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة ، وماكان كان وجرى ماجرى وأثر هذا الأثر .

فلما رأى السلطان ذلك رأى أن وقوفه في مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة في حقه ، وقد بلغني إن الانكتار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له أحد ، فغضب السلطان ، ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور كالمغضب ، ونزل وذلك في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب ، وبات العسكر باليزك ، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون ونزل به ، وأنفذ إلى العسكر فأحضره

عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين ، فبات به ، ثم أصبح يوم الجمعة فسار إلى أخيه العادل يفتقده ، ودخل القدس ، وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم العساكر

كان أول من وصل علاء الدين بن أتابك صاحب الموصل ، وكان وصوله ضحاه نهار السبت السادس والعشرين من رجب ، فلقيه السلطان عن بعد ، واحترمه وأكرمه وانزله عنده في الخيمة ، وعمل همة حسنة ، وقدم له تقدمة جميلة ، ثم سار إلى خيمته

وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم ، فان الملك العادل قد حمله رسالة مشافهة إلى الملك ، وعاد مع الحاجب أبي بكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم وأخبره أن الملك لم يتركني ادخل يافا ، وخرج إلي وكلمني في ظاهرها ، وكان كلامه إلي : كم أطرح نفسي على السلطان ، وهو لايقبلني وأنا كنت احرص أن أعود الى بلادي والآن قد هجم الشتاء ، وتغيرت الأنواء ، وقد عزمت على الاقامة ، ومابقي بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله تعالى .

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر ، فخرج السلطان إلى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدين هلدري ، وسيف الدين يازكج ، وجماعة الأسدية ، وكان في خدمته الملك المؤيد مسعود ، وقد أظهروا الزينة ، ونشروا الأعلام والبيارق فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنده ، ومد الخوان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

ذكر قدوم الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التي وعد بها ، وكان وصوله إلى خدمة الملك في يوم السبت حادي عشر شعبان ، فنزل عنده بماء صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل في ذلك اليوم إلى السلطان يخبره بوصوله ، وسأله في احترامه وإكرامه وإطلاق الوجه له ، ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور استأذن والده في لقائه ، وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما ببيت نوبة فنزل عنده وخرج إلى لقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد ، وأخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه فاحترمه ونهض إليه ، فاعتنقه وضمه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبر نفسه حتى غلبه الأمر ، وغشيه من البكاء مالم ير مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ثم باسطه وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في خيمة الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جليل ، فقرت عين السلطان ، ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة .

ذكر رحيله رحمه الله إلى الرملة

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت ، جمع أرباب الراي وقال : ان الانكتار قد مرض مرضا شديدا ، والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير إلى يافا فإن وجدنا فيها مطمعا بلغناه ، والا عدنا تحت الليل إلى عسقلان فما تلحقنا النجدة إلا وقد نلنا منها غرضا فرأوا ذلك رأيا ، وتقدم إلى جماعة من الأمراء كعز الدين جرديك ، وجمال الدين فرج وغيرهما

بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان ، حتى يكونوا قريبا من يافا في صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ، ثم يعرفونه ذلك فساروا ، هذا ورسل الانكتار لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، ووقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل ، والذي انكشف من الأخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ، ومئتي فارس علي قول المقل ، وأن الكندهري يتردد بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا ، وأنهم لاعناية لهم بسور البلد وإنما عنايتهم بعمارة سور القلعة وكان الانكتار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، وكان له معه انبساط عظيم .

فلما تحقق السلطان الأخبار أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة الرملة فنزل بها ضاحي نهار ، ووصل الخبر من المغيرين يقولون إنا أغرنا على يافا فلم يخرج إلا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال ، فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على إنعامه بالفواكه والثلج ، وذكر أبو بكر أنه تفرد به ، وقال له : قل لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ، ويستوهب لي منه عسقلان ، وأمضي أنا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الافرنج وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ، فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها .

فلما سمع السلطان ذلك سيرهم إلى الملك العادل وأسر إلى ثقة عنده أن يمضي إلى الملك العادل ويقول له إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجروا ملازمة البيكار (٤٧) ، والنفقات قد نفدت ، فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان .

ذكر الاجابة إلى النزول عن عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور ، انفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول : بإنه قد خرج إلينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا ان لهم معنا حديثا ، فهل أسمع حديثهم أولا ؟ فأذن له السلطان في ذلك ، ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه واخبر ان حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ، وقد صح مقصوده في الصلح ، فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ، ويقول : إن السلطان قد جمع العساكر ومايمكنني أن أحدثه هذا الحديث إلا بأن أثق أنك لاترجع ، وبعد ذلك أحدثه وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى .

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان ، أنفذ بدر الدين ، وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به ، وأن حدود البلاد على مااستقر في الدفعة الأولى مع الملك العادل ، فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج الرملة ويبنا ومجدل يابا ، ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها ، وحيفا وأعمالها ، وعكا وأعمالها ، وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب ، وأنفذه على يد طرنطاي مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين في عصر السبت ، وقال للرسول هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فمبارك قد أعطيتم يدي ، وليذفذ الملك من يحلف ويكون ذلك في غداة غد ، وإلا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ، ويكون الأمر قد انفصل من بيننا وساروا في بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الاحد وصل من أخبر بوصول طرنطاي ومعه الرسول ، واستأذن في حضورهما فأذن رحمه الله في

حضور طرنطاي وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأذكر أنه نزل عن العوض ، فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بين يدي دلدرم أنه نزل عن ذلك ، فقال إذا أنا قلته فلا أرجع عنه ، قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة ، وقد رجعت إلى مروءتك فإن زدتني شيئا فمن فضلك وانعامك ، ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا إلى بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضر عند السلطان أرباب المشورة واستقر الأمر ، وانفصلت القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين دلدرم إلى الملك العادل ، وأخذ الرسل معه في صورة من يسأل في زيادة الرملة ، وعاد في عشاء الآخرة ليلة الاثنين وكتب المواضعة ، وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ، ويزاد فيها الرملة لهم ولد ايضا ، وسير العدل وقال له : ان قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتهما فافعل ، ولايكون لهم حديث في الجبليات ، ورأى السلطان ذلك مصلحة لما عرا الناس من الضعف ، وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا فخاف أن يحتاج إليهم فلايجدهم فرأى أن يجيبهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا إليها ، ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من الآلة ويتفرغ لعمارتها .

وكان من القاعدة أن عسقلان تكون خرابا ، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها ، فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحناهم عليه واستقر الحال على ذلك ، وسارت الرسل وحكم عليهم أن لابد من فصل الحال اما الصلح واما الخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل احاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة .

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبذل الطاعة والموافقة وسير العساكر ، وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الزيارات التي لهم في القدس وعمارتها ، وشكوا أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان أن يردها إلى نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم ، فقال لا طاقة لي بالوقوف عليها وأنا قد صالحت وهذه يدي ، فاجتمعوا بالكندهري والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة ، وبجميع ما في النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء لأنهم كانوا قد أكلوا شيئا ، وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر أن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك ، ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهري ابن أخته ، المستخلف عنه في الساحل ، وباليان بن بارزان صاحب طبرية ، ورضي الاسبتار والداوية وسائر مقدمي الافرنجية بذلك ، وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنفري وابن بارزان ، وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا ، وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكى ماجرى .

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل في خدمة

السلطان ، وأخذوا بيده الكريمة، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة ، واقترحوا حلف جماعة ، وهم : الملك العادل ، والملك الافضل ، والملك الظاهر ، عز نصرهم ، والمشطوب وبدر الدين دلدرم ، والملك المنصور ، ومن كان مجاورا لبلادهم : كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم ، وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس ، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا فلا يدخلوا في الصلح .

ثم امر المنادي أن ينادي في الوطاقات والاسواق إلا أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم ان يدخل الى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل ، وأشار - رحمة الله عليه - أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، وأمر السلطان أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان ، معهم أمير كبير، ولاخراج الافرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الافرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامرا .

وكان يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى ، والله العظيم إن الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي في بعض محاورته في الصلح : أخاف أن أصالح ، ومالدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته ، يعني حصنه ، وقال : لاأنزل فيهلك المسلمون ، هذا كلامه ، وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ، وكانت مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته

بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعادة له .

ذكر خراب عسقلان

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان ، وسير معه جماعة من النقابين والحجارين ، واستقر أن الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ، ويخرج الافرنج منها ، فوصلوا إليها من الغد ، فلما أرادوا التخريب اعتذر الأجناد الذين بها بأن لنا على الملك جامكية لمدة ، فإما أن يدفعها إلينا ونخرج أو ادفعوها أنتم إلينا فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ، ووقع التخريب فيها في السابع والعشرين من شعبان ، واستمر يضربها ، وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب ، وأعطى كل واحد قطعة معلومة في السور ، وقيل له دستورك في تخريبها .

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان إلى النطرون ، واختلط العسكران ، ونهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الافرنج ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح أن لايؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابه ، وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم ، واهتموا في الحج ، فكان يرد منهم في كل يوم جموع كثيرة مقدمون ، وأوساط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان في إكرام مـن يرد ومـد الطعـام ومبـا سطتهم ومحادثتهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بـأن قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم ، ثم اشتد المرض بـالملك فـرحل في ليلة التـاسع والعشرين وسار هـو والكندهري وسائر العدو الى جانب عكا ، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ونفر يسير .

ذكر عود العساكر الاسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الامر استقرت القواعد ، وأعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر إربل ، فإنه سار في مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثانية عسـكر الموصـل وسـنجار والحصن ، وأشاع أمر الحـج ، وقـوى عزمـه على بـراءة الذمة ، وكان هذا مما وقع لي ، وبدأت بالاشارة به فوقع منه موقعا عظيما ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت إسمه ، حتى يحصر عدة من يدخل معنا في الطريق ، وكتب جـرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغيرها ، وسيرها إلى البلاد ليعدوها .

ولما أعطى الناس دستورا ، وعلم عود العدو مدحورا ، إلى ورائه رأى الدخول إلى القدس الشريف ، لتهيئة أسباب عمارته ، والنظر في مصالحه ، والتأهب للمسير إلى الحج ، فرحل من النطرون يوم الاحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى ماء صمويل يفتقد الملك العادل ، فوجده قد سار إلى القدس، وكنت عنده رسولا من جـانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم ، والعدل ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه ، وكان قد تماثل فعرفناه مجـيء السـلطان إلى ماء صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتـى لقيه

في ذلك المكان ، وهو أول وصوله إلى ماء صمويل ولم ينزل بعد ، فلقيه ونزل ، وقبل الأرض ، وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعا حتى أتينا القدس الشريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ، وانصرف إلى الكرك عن دستور من السلطان لينظر في أحواله ، ويعود إلى البلاد الشرقية يدبرها فإنه كان قد أخذها من السلطان ، وكان قد ودع السلطان ، فلما وصل العازرية نزل بها مخيما ، فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل إليك فأنفذ إلى السلطان وعرفه فذكر له أن يجتمع ويطالع ما وصل فيه ، فلما كان السبت الرابع والعشرون دخل إلى الخدمة السلطانية ، وذكر أن الرسول قد وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة الوزارة ببغداد ، ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخول بينه وبين الديوان العزيز ، والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة ، واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز في تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها ، وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة إذا قرر ذلك ، وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، ومايشبه هذا الفن ، فحدثت عند السلطان فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل في البين ، وزاد الحديث ونقص ، وطال وقصر ، وقوي العزم السلطاني على إنفاذ الضياء الشهرزوري ، وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه إجابة السلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الديوان العزيز ، وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك ، وسار

الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان .

ذكر توجه ولده الملك الظاهر الى بلاده ووصية السلطان له

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر ، عز نصره ، بعد أن ودعه ونزل إلى الصخرة فصلى عندها ، وسأل الله تعالى ماشاء ، ثم ركب وركبت في خدمته ، فقال لي : قد تذكرت أمرا احتاج فيه مراجعة السلطان مشافهة ، فأنفذ من استأذن له العود إلى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني ، وأخلى المكان ، ثم قال : أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فإن الدم لاينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت مابلغت إلا بمداراة الناس ، ولاتحقد على أحد فإن الموت لايبقي على أحد ، واحذر مابينك وبين الناس فإنه لايغفر إلا برضاهم ، ومابينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم ، وكان ذلك بعد إن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضي وهذا ماأمكنني حكايته وضبطه ، ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذن له في الانصراف ونهض له ليودعه ، فقبل وجهه ومسح على رأسه ، وانصرف في دعة الله ونام في برج الخشب الذي للسلطان ، وكنا نجلس عنده في الأحيان إلى بكرة وانصرفت في خدمته إلى بعض الطريق وودعته وسار في حفظ الله .

ثم سير الملك الأفضل ثقله ، وأقام يراجع السلطان على لساني في أشغال كانت له حتى دخل في شوال أربعة أيام ، وسار في ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغور .

ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف

واقام السلطان يقطع الناس، ويعطيهم دستورا، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية وانقطع شوقه عن الحج، وكان من أكبر المصالح التي فاتته، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار متوجها إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويفتقد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخل دمشق المحروسة ويقيم بها أياما قلائل، ويعود إلى القدس الشريف سائرا إلى الديار المصرية يفتقد احوالها، ويقرر قواعدها، وينظر في مصالحها، وامرني بالمقام في القدس الشريف، لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي انشأها فيه إلى حين عوده، وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال، وودعته الى البيرة، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم اتى بعض طريق نابلس فبات فيه، ثم اتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال، فلقيه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب، ويتضورون من سوء رعايته لهم، فاقام يكشف عن احوالهم إلى عصر يوم السبت، ثم رحل ونزل بسبصطية يتفقد احوالها، ثم اتى في طريقه الى كوكب ونظر في احوالها وسد خللها وذلك في يوم الاثنين عاشره .

وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوال، ومثل في الخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديدا، وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، واستأذن السلطان في المسير إلى تحصيل القطيعة، فأذن له في ذلك، وكانت القطيعة على مابلغني ثمانين الفا والله أعلم .

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب انطاكية مسترفدا، فبالغ في احترامه وإكرامه ومباسطته وأنعم عليه

بالعمق وزرعان ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار ، وكان قد خلف المشطوب في القدس من جملة العسكر المقيمين به ، ولم يكن واليه ، وإنما كان واليه عز الدين جرديك ، وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده إلى القدس بعد أن شاور فيه الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر ، على اساني ، وأشار به أهل الدين الصلاح ، لأنه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لأهل الخير ، فأمرني السلطان أن أوليه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ووليته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضوع حسن اعتقاد السلطان فيه ، وانعقد الأمر ، وقام به القيام المرضي ، وأما المشطوب فإنه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، ودفن في داره بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى رحمه الله .

ذكر عود السلطان الى دمشق المحروسة

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها وشحنها بالأجناد والرجال ، ودخل دمشق بكرة الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس الناس في بكرة الخميس السابع والعشرين منه ، وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة ، حتى كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان ، فودعه في تلك الليلة مرارا متعددة وهو يعود إليه ، ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر

فيها من بديع التجمل وغريبة مايليق بهمتــه ، وكأنه أراد مجــازاته عما خدمه به حين وصوله إلى حلب ، وحضرها أرباب الدنيا وأبناء الآخرة ، وسأل السلطان الحضور فحضر جبرا لقلبه .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك ، وأمــر بإصــلاح مــا قصد إصلاحه منه ، عاد طالبا البلاد الفراتية ، فوصل أرض دمشــق يوم الاربعاء سابع عشر ذي القعــدة وكان الســلطان قــد خــرج إلى لقائه ، وأقام يتصيد حــوالي غبــاغب إلى الكســوة (٤٨) حتــى لقيه ، وسارا جميعا ، وكان دخولهما إلى دمشــق آخــر الحــادي والعشرين ، وأقام السلطان بــدمشق يتصــيد هــو وأخــوه وأولاده ، ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الصــبا ، وكأنه وجــد راحة مما كان فيه من مــلازمة التعــب وســهر الليل ، ونصــب النهار ، ومــاكان ذلك إلا كالوداع لأولاده ، ومــرابع تنزهــه وهــو لايشعر ، ونسي عزمه المصري ، وعرضت له أمور أخرى وعزمــات غير ذلك ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خــدمته ، وكان شتاء شديد ، ووحل عظيم ، فخرجت مــن القــدس الشريف في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ســنة تســع وثمــانين ، وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تســع ، وكان وصل أوائل الحج على طــريق دمشــق ، واتفــق حضــوري والملك الأفضل حاضر في الايوان الشمالي ، وفي خدمته خلق مــن الامــراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخــدمته ، فلمــا شــعر بحضوري استحضرني هو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فــدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء مارأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه .

ذكر لقائه الحاج

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده ، فسألني عمن في الايوان ، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال ، ولما كانت بكرة الخميس استحضرني فحضرت عنده في صفة البستان ، وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل الافرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير وكان كثيرا مايميل إليه يسمى الأمير أبا بكر ، وكان حاضرا وهو يداعبه ، فلما وقع بصره على الافرنج ورأى أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى ، فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم وقال : إن لي اليوم شغلا ، وكانت عادته هذه المباسطة ، ثم قال احضروا لنا ماتيسر ، فأحضروا أرزا بلبن وماشابه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل وكنت أظن أنه ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر الى الناس لثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ملتاثا ممتلئا وعنده كسل ، فلما فرغنا من الطعام قال : مالذي عندك ، من خبر الحاج ؟ فقلت : اجتمعت بجماعة منهم في الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم غدا يدخلون فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم ، وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه في الطرق والأنهار ، وانفصلت من خدمته ، ولم أجد عنده من النشاط ماكنت أعرفه ، ثم ركب في بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ، ثم لقيته ، وقد لقي الحاج وكان فيهم سابق الدين وقرالا الياروقي ، وكان كثير الاحترام للمشايخ ، فلقيهم ، ثم لحقه الملك الأفضل وأخذ يحدثني ، فنظرت إلى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده ، وماكان له عادة يركب بدونه وكان يوما عظيما وقد اجتمع

فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر

دون أن سرت إلى جانبه ، وحدثته في إهمال هذا ، فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزردكاش ، فوجدت لذلك أمرا عظيما ، وقلت في نفسي السلطان يطلب مالا بد منه في عادته ولايجده ، ووقع في قلبي تطير بذلك ، فقلت له : أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير ؟ فقال : بلى ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيبع ، وسرنا في خدمته وقلبي يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة فعبر على الجسر إلى القلعة وهو طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركابة رحمة الله عليه ، وقدس روحه .

مرضه رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهرة ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ودخل ولده الملك الافضل وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الافضل ، ولم يكن القاضي عادته ذلك ، فانصرف ، ودخلت أنا إلى الايوان ، وقد مد الطعام ، والملك الافضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشا ، وبكى جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه .

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرفي النهار ، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطي الطريق في بعض الايام التي يجد فيها خفة ، وكان مرضه في رأسه ، وكان من إمارات انتهاء العمر ، إذ كان قد ألف مزاجه

سفرا وحضرا ، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابـع ، فـاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقـد جلسـنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتر ليشربـه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعـة فشربـه ، فـوجده شـديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصـخب ، ولم يقـل سـوى هـذه الكلمات : سبحان الله ، الا يمكن أحدا تعديل الماء ، فخـرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضي الفـاضل يقول لي : أبصر هذه الأخـلاق التـي قـد أشرف المسـلمون على مفـارقتها والله لو أن هـذا بعض الناس لضرب بـالقدح رأس مـن أحضره ، واشتد مرضه في السـادس والسـابع والثـامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التـاسع حـدثت عليه غشـية وامتنع مـن تناول المشروب ، فاشتد الخوف في البلد وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشـة من الأسواق ، وغشي الناس مـن الكآبـة والحـزن مـالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعـد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثـم نحضر في بـاب الدار فإن وجـدنا طريقنا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا ، وإلا عرفونا أحواله وكنا نجـد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعـرفوا أحـواله مـن صفحات وجهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حقـن دفعتين وحصـل مـن الحقـن راحه ، وحصل بعض خفة وتناول مـن مـاء الشـعير مقـدارا صالحا ، وفرح الناس فرحا شديدا ، فـأقمنا على العـادة إلى أن مضى الليل هزيع ، ثـم أتينا الدار فـوجدنا جمـال الدولة إقبـالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد ، فدخل وأنفـذ إلينا مـع الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعـالى أن العـرق قـد أخـذ في ساقيه ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسـنا منه أن يمس بقية

قدمه ويخبرنا بحاله في العرق فتفقده ، ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو السادس والعشرون من صفر ، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايدا عظيما وخارت فيه القوة واستشعر الأطباء .

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده ، وتحقق الناس موته ، تسرع في تحليف الناس في دار رضوان المعروفة بسكناه ، واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، ومايعلم مايكون ، ومايفعل هذا إلا احتياطا على جاري عادة الملوك ، فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة ، فبادر إلى اليمين من غير شرط ، ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون ، وزاد أن الحصن الذي في يده له ، وحضر سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ماحلف به ، ثم حضر خشترين حسين الهكاري وحلف ، وحضر أذو شروان الزرزاري وحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه ، وحضر علكان ومكلان وحلفا ، ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف ، وحضر ميمون القصري رحمه الله ، وشمس الدين الكبير ، وقال نحن نحلف بشرط أن لانسل في وجه أحد من أخوتك سيفا ، لكن رأسي دون بلادك ، هذا قول ميمون القصري ، وأما سنقر فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : كنت حلفتني على النطرون وأنا عليها وحضر سامة ، وقال ليس لي خبز ، فقل لي : على أي شيء أحلف ؟ فرجع فحلف وعلق يمينه

الله الذي لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة (٤٩)) سمعه وهو يقول رحمة الله عليه : صحيح ، وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر في وقت وفاته ، ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه .

ولقد حكي لي إنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى (لاإله إلا هو عليه توكلت (٥٠)) تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه .

وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وماسمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفدي بالنفس .

ثم جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص والامراء والمعممين ، وكان يوما عظيما وقد شغل كل إنسان ماعنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة ، من أن ينظر إلى غيره ، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ ، وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس ، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام الحال على هذا إلى مابعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين ، وغسله الدولعي الفقية ، ونهضت إلى الوقوف على غسله ، ولم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب

فوط ، وكان ذلك وجميع مـا احتاج إليه مـن الثياب في تـكفينه قـد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه ، وارتفعت الاصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج حتى أن العـاقل يتخيل أن الدنيا كلهـا تصيح صوتا واحدا ، وغشي الناس من البكاء والعـويل مـا شغلهم عن الصلاة ، فصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ، ثم اعيد إلى الدار التي في البسـتان وكان متمرضا بها ودفن في الضـفة الغـربية منهـا ، وكان نزوله في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريبا من صـلاة العصر ، ثـم نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزى الناس فيه ، وسـكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشـتغال بـالنهاب والفساد ، فما وجد قلب الاحزين ، ولاعين إلا باكية إلا مـن شـاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يعد أحد منهـم في تلك الليلة إلا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن .

واشتغل في ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه واخوته يخبرهم بهذا الحـادث ، وفي اليوم الثـاني جلس للعـزاء جلوسـا عاما ، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر ، ثم انفض المجلس في ظهر ذلك اليوم ، واسـتمر الحـال في حضور الناس بكرة وعشية ، وقراءة القرآن والدعاء له رحمـة الله عليه ، واشتغل الملك الافضل بتدبير أمره ومراسلة اخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم احلام

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله .

هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفر يوسف بن أيوب – رحمة الله عليه – فرغت من جمعها يوم وفاته – رحمة الله عليه – وقصـدت بذلك وجـه الله تعـالى في حـث الناس على التـرحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته مـن بعـده ، ويجـزيه مـا هو أهله بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

قال مولانا الصاحب المصنف ، أدام الله علوه :

ذكر المدن والحصون التي يسر الله فتحها على يديه رحمة الله عليه – من ديار الفرنج – خذلهم الله تعالى – من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين .

طبرية على بحر الاردن بالسيف ، عكا على البحر الكبير بالامان ، حيفا على البحر بالامان ، الناصرة التي تنسب إليها النصارى ، الرملة ، قيسارية بالسيف ، أرسوف بالأمان ، يافا بالسيف « مدينتها » عسقلان بالامان ، غزة بالامان ، الداروم ، صيدا على البحر ، بيروت بالامان ، جبيل ، هونين ، جبيل ، تبنين ، انطرطوس « دون أخذ برجها » بالسيف ، جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالامان » ، اللاذقية ، مدينتها بالسيف وقلعتها بالامان ، السرفند مدينة القدس الشريف ، خلصه الله تعالى ، نابلس ، البيرة بأرض القدس ، صفورية ، الطور ، حصن دبورية ، الفولة ، حصن عفربلا ، حصن جينين ، سفسطية ، كوكب ، حصن عفري « شمالي القدس » بيت لحم ، حصن العازرية بأرض القدس ، البرج الاحمر « قريبا منه » ، حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين ، تل الصافية ، حصن مجدل يابا ، قلعة الجيب الفوقاني ، « الجيب » التحتاني ، النطرون ، الحصن الاحمر ، لد بأرض الرملة ، قلنوسة « قريبا منها » يبنى ، القاقون والقيمون ، قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » قلعة الشوبك « بعد حصار سنتين » قلعة السلع ، الوعيرة ، قلعة الجمع ، قلعة الطفيلة ، قلعة الهرمز ، جميع ذلك في وادي موسى والسراة ، قلعة صفد ، حصن يازور ، شقيف أرنون ، حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » قلعة ابي الحسن « بأرض

صيدا » صيدا أيضا حصن بلدة بالساحل الاعلى ، المرقية « على البحر » حصن يحمور بأرض عكا ، بلنياس بين جبلة والمرقب ، صهيون ، بلاطنس ، حصن الجماهريين ، قلعة العيد ، بكاس الشغر ، بكسرائيل ، السرمانية ، قلعة برزية ، دربساك ، بغراس « قريبا من أنطاكية » الدامور بأرض بيروت ، الشرفند قريبا من صيدا ،

آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه ، ووافق الفراغ منه ثاني عشر رجب المبارك سنة ست وعشرين وستمائة ، على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

من مرآة الزمان لسبط ابـــن الجـــوزي يوســـف بــــن

قزاوغلي

السنة التاسعة والثمانون والاربعمائة

فيها ... تواترت الأخبار بخروج ملك الروم من بلد الروم بخلق لايحصى ، فأخرج يغي سغان النصارى من أنطاكية ، واستصرخ بحلب ودمشق ، والشرق على الفرنج ، وجاءت عساكر الفرنج في شوال ، فنزلت على بغراس ، وأغارت على أعمال أنطاكية ، وقتلت ونهبت وسبت ، وقيل إنها وصلت إلى المعرة ..... .

السنة التسعون والأربعمائة

فيها .. فتحت الفرنج نيقية ، وهي أول بلد فتحوه ، ثم فتحوا حصون الدروب شيئا بعد شيء ، ووصلوا إلى البارة ، وجبل السماق ، وفامية ، وكفر طاب ونواحيها .... .

السنة الحادية والتسعون والاربعمائة

فيها ... كثر الاستنفار على الفرنج ، وتواترت الشكايات منهم ، وكتب السلطان بركياروق إلى العساكر يأمرهم بالخروج مع عميد الدولة للجهاد ، ويجهز سيف الدولة صدقة ، وبعث مقدماته إلى الأنبار ، ثم وردت الأخبار إلى بغداد ، بأن الفرنج ملكوا أنطاكية ، وصاروا إلى معرة النعمان فقتلوا ونهبوا ، وكانوا في ألف ألف انسان .

ذكر شرح ذلك :

كان خروجهم أولا إلى بلد أنطاكية ، فلم ينازلوها ، وجاءوا إلى

المعرة ، فنصبوا عليها السلالم ، فقتلوا من أهلها مائة الف انسان ، وسبوا مثل ذلك ، ثم دخلوا كفر طاب ، وفعلوا مثل ذلك ، وعادوا إلى أنطاكية ، وكان بها الأمير يغي سغان ، وكان على الفرنج صنجيل ، فحاصرها مدة ، فنافق رجل يقال له فيروز ، وفتح لهم في الليل شباكا ، فدخلوا منه ، ووضعوا السيف ، وهرب يغي سغان ، وترك أهله وأمواله ، وأولاده بها ، فلما بعد عن البلد ندم على ذلك ، فنزل من على فرسه ، فحثا التراب على رأسه وبكى ، ولطم ، وتفرق عنه أصحابه ، وبقي وحده ، فمر به رجل أرمني حطاب فعرفه ، فقتله ، وحمل رأسه إلى صنجيل (خبر عن ابن القلانسي) .... وكان افتتاح المعرة في ذي الحجة ، بعد فتح أنطاكية .

وفيها اجتمع ملوك الاسلام بالشام : رضوان صاحب حلب ، وأخوه دقاق ، وطغتكين ، وكربوقا صاحب الموصل ، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين ، وأرسلان شاه صاحب سنجار ، فنازلوا أنطاكية ، وضيقوا على الفرنج ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وكان صنجيل مقدم الفرنج فيه دهاء ومكر ، فرتب مع راهب لهم حيلة ، قال : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، وقال (قل) للفرنج : رأيت المسيح في منامي ، وهو يقول : في المكان الفلاني حربة مدفونة ، فاطلبوها فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي فصوموا ثلاثة أيام ، وصلوا وتصدقوا،وجاء وهم معه إلى المكان فنبشوه ، فظهرت الحربة ، فصاحوا وصاموا ، وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين فدفعوهم عن البلد ، وثبتت جماعة فقتلوا عن أخرهم .... وكتب دقاق ورضوان والامراء إلى الخليفة يستنصرونه ، فأخرج الخليفة أبو نصر بن الموصلايا إلى بركياروق ، إلى الري يستنجده (خبر عن ابن القلانسي) ....

السنة الثانية والتسعون والأربعمائة

فيها في يوم الجمعة ثالث وعشرين شعبان استولى الفرنج على

البيت المقدس ، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كندهري (غود فري) في ألف ألف منهم خمسمائة ألف مقاتل ، والباقون رجالة وفعلة وأرباب مجانيق وعرادات وغيرها من آلة القتال ، وجعلوا طريقهم على الساحل ، وكان بها افتخار الدولة من قبل المصريين ، فأقاموا يقاتلون أربعين يوما ، وعملوا برجين مطلين على السور ، أحدهما بباب صهيون ، والآخر بباب العمود ، وباب أسباط ، وهو برج الزاوية ، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه ، وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور وحكموا به على البلد ، وكشفوا من كان عليه ، ورموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون ، فنزلوا البلد ، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى ، فاحتموا بهما ، فهجموا عليهم ، فحكي أنهم قتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثله ، وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وسبوا النساء ، وأخذوا من في الصخرة والأقصى ، سبعين قنديلا منها عشرون ذهبا ، في كل قنديل ألف مثقال ومنها خمسون فضة ، في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي ، وأخذوا تنورا من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من الأموال مالا يحصى ، ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة .

وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفا ، وجد في السير ، فوصل يوم ثاني فتحه ، ولم يعلم وقصده الفرنج فدخل عسقلان وقتل من أصحابه عدد كثير ، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان ، وقطعوا أشجارها ، وعادوا إلى القدس (خبر عن ابن القلانسي) ....

ولما تمت هذه الحادثة ، خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي ، فوصلوا بغداد ، وحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من

يمضي إلى العسكر السلطاني ، ويعــرفهم هــذه المصــيبة ، ووقــع التقاعد ....

السنة الثالثة والتسعون والاربعمائة

فيها ... وفي رجب خــرج بيمند (بــوهيموند) زعيم الروم صــاحب أنطاكية فعاث في أرض حلب ، وبلغه أن الدانشمند وصــل إلى ملطية في جيش كثيف من الاتراك ، وعسكر (قلج أرسلان بن سليمان بــن قتلمش) ، فعاد بيمند إلى أنطاكية ، وجمع وحشد ، وعاد والتقــاه المسلمون فأسروه ، وقتلوا من أصحابه مقتلة عظيمة ....

وفيها خرج سعد الدولة القوامي من مصر بعسكر كثيف فــالتقى الفرنج على عسقلان ، وكان في القلب ، وقاتل قتالا شديدا ، فكبا به فرسه فقتل وثبت المســلمون وحملوا على الفــرنج ، فهــزموهم إلى قيسارية ، فيقال إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثمائة ألف ، ولم يقتل مــن المسلمين سوى سعد الدولة ونفر يسير ...

السنة الرابعة والتسعون والأربعمائة

فيها ...(خبر عن ابن القلانسي) .

السنة الخامسة والتسعون وأربعمائة

فيها ... وأما اخبار الشــام فنزل ابــن صــنجيل الفــرنجي على طرابلس ، فكتب ابن عمار إلى دمشق يستنجدهم ، فسار عســكرها مع جناح الدولة صاحب حمص إلى أنطــرطوس ، والتقــوا فــانهزم

جناح الدولة إلى حمص ، وعاد فل المسلمين إلى دمشق في جمادى الآخرة ، ومات المستعلي صاحب مصر ، وقام ولده أبو علي مقامه ، وجهز الأفضل العساكر المصرية إلى الساحل ، ووصلوا إلى عسقلان في رجب مع نصير الدولة يمن ، وخرج بردويل (بلدوين) من القدس في سبعمائة راجل وفارس ، وكبس العسكر المصري ، فثبتوا وقتلوا معظم من كان معه ، وانهزم في ثلاثة نفر إلى الرملة واختبأ في أجمة قصب ، فاحتاط المسلمون به ، وأحرقوا القصب ، فوصلت النار إليه فاحترق بعض جسده ، وافلت إلى يافا ، وأسر رجاله ، وحملوا إلى مصر في رجب ، وعاد الفرنج إلى طرابلس ، فعاد ابن عمار كتب إلى دمشق وحمص ، فجاءوا ودفعوا الفرنج عنه ....

السنة السادسة والتسعون والاربعمائة

فيها ... وفي رمضان خرجت العساكر المصرية في البر ، والاسطول في البحر مع شرف الدولة ولد الأفضل ، وكتب إلى دمشق وغيرها باستدعاء العساكر للجهاد ، فجاءت العساكر ونزلت على يافا ، وتفرقت في السواحل .

وفيها خرج قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش من بلاد الروم طالبا أنطاكية ، فوصل مرعش ، (وجرى بينه وبين) الأمير الدانشمند (صاحب ملطية خلف ومنازعة ، أوجبت عوده عليه ، وايقاعه به وفل عسكره(١) وقتل رجاله ، وانكفأ عن ملطية ، وكتب إلى حلب يلتمس الاقامة والميرة لعساكره ، وانه قاصد أنطاكية ، فتباشر الناس ....

السنة السابعة والتسعون والأربعمائة

فيها ... وفي رجب وردت مراكب من الفرنج إلى اللاذقية مشحونة

بالمقاتلة والتجار ، وغيرهم ، فنزلوا على طرابلس مع صنجيل ، فأقاموا أياما ، ورحلوا إلى جبيل ، فأمنوا أهلها ودخلوها ثم غدروا بأهلها فقتلوهم .

وفيها نزل الامير سكمان بن أرتق صاحب ماردين والأمير جكرمش صاحب الموصل على رأس العين في شعبان عازمين على لقاء الفرنج وقتالهم ، ونهض بيمند وطنكري (تانكرد) من أنطاكية إلى الرها بالعساكر لينجدا صاحبها ، وعرف المسلمون فساروا إلى قريب الرها فصادفوهم ، والتقوا فنصر الله المسلمين عليهم ، فقتلوا منهم عشرة آلاف ما بين راجل وفارس ، وانهزم بيمند وطنكري في نفر يسير ، فقويت قلوب المسلمين .

وفيها نزل بغدوين صاحب القدس على عكا في البر والبحر في نيف وتسعين مركبا فحصروها من جميع الجهات ، وقاتل أهلها حتى ضعفوا ، وكان واليها زهر الدولة الجيوشي ، فعجز عنهم ، فطلب الأمان له وللمسلمين ، فلم يعطوه وأخذوها بالسيف في رمضان ، وقتل في شعبان ، وجاء زهر الدولة منهزما إلى دمشق ، فأحسن إليه طغتكين ، ثم مضى إلى مصر وكان صنجيل قد بنى على طرابلس حصنا ليأخذها به ، وشحنه بالرجال والأموال والسلاح ، فخرج القاضي ابن عمار في عسكره في ذي الحجة ، وهجم هذا الحصن على حين غرة ، فقتل من فيه ونهبه ، وأخذ من المال والسلاح والمتاع شيئا كثيرا وهدمه ، وعاد إلى طرابلس سالما غانما .

وفيها خرجت الفرنج من الرها ، وانقسموا قسمين ، قسم قصد حران ، والآخر الرقة ، فنزل سكمان من ماردين ، وكان سالم بن بدر العقيلي ، في بني عقيل نازلا على عين العروس ، فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، وأسر سالم ، وكانت الدبرة على الفرنج ، فانهزموا وقتل منهم خلق كثير ...

- ٦٩٠٩ -

السنة الثامنة والتسعون والأربعمائة

فيها ... هلك صنجيل ، وكان قد صالح ابن عمار بطرابلس وهادنه أن يكون لصنجيل ظاهر طرابلس ، ولايقطع الميرة والمسافرين عنها ....

وفي رجب خرج فخر الملك رضوان من حلب في خلق عظيم قاصدا طرابلس ينجدها على الفرنج النازلين عليها ، وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموه إلى رضوان ، لما شملهم جور الفرنج ، وخرج طذكري من انطاكية ليخلص حصن أرتاح ، فالتقى رضوان واقتتل الفريقان ، فانهزم فرسان المسلمين ، وثبتت الرجالة واحداث حلب ، فحصدهم الفرنج ، وفقد من الفرسان والرجالة ثلاثة آلاف ، ورجع رضوان إلى حلب ، وهرب المسلمون من حصن ارتاح ، وتسلمه الفرنج .

وفيها عاد أرتاش وايتكين الحلبي إلى بصرى من الرحبة ، فخرج طغتكين بالعساكر ونازل بصرى ، وحصرهما فيها ، واتفق خروج العسكر المصري في عشرة آلاف مع الأمير شمس المعالي ولد الأفضل ، وكوتب طغتكين بالمسير معه إلى قتال الفرنج ، وكان نازلا على بصرى ، فامتنع ، ثم رأى تقديم الجهاد ، فسار إلى العسكر المصري ، والتقى المسلمون والفرنج فانهزم عسكر المصريين إلى عسقلان وعسكر طغتكين الى بصرى ، فوجد أرتاش وايتكين قد خرجا منها إلى الرحبة ، فأمن أهل بصرى ، وسلموها إليه ، فلم يتعرض لهم وطيب قلوبهم .

السنة التاسعة والتسعون والأربعمائة

فيها ... خرج الفرنج إلى سواد طبرية ، وشرعوا في عمارة حصن

بين السواد والبثنية يقال له عال ، وكان منيعا ، وبلغ طغتكين ، فسار في عسكره فبيتهم ليلا ، فقتلهم وأسرهم وأخذ الحصن بما فيه من آلة وغيرها، وعاد إلى دمشق بالأسارى والغنائم في جمادى الآخرة .... وفيها ملكت الاسماعيلية حصن أفامية ، وقتلوا خلف بن ملاعب صاحبه بأمر أبي طاهر العجمي الصائغ المقيم بحلب ، مقام المنجم ، وكان بفامية رجل من دعاتهم يقال له ابن القنج السرميني ، فقرر ذلك مع أهلها ، فنقبوا السور ، وهجموا على ابن ملاعب فطعنوه بحربة ، فمات ونادوا بشعار رضوان صاحب حلب ، وكان رضوان قد بنى لهم بحلب دار دعوة ، وهو أول من عملها ، وبقي الحصن في أيديهم حتى أخذه الفرنج منهم سنة خمسمائة ....

السنة الخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في أعمال السواد وحوران وجبل عوف ، فجمع طغتكين العساكر من التركمان وغيرهم ، وخيم في السواد ، وكان الأمير عز الملك والي صور قد نهض إلى حصن تبنين ، فهجم ربضه وقتل من فيه ونهب ، وبلغ بغدوين ملك الفرنج ، فرحل من طبرية قاصدا صور ، وعاد طغتكين إلى دمشق ....

السنة الحادية والخمسمائة

فيها ... سار بغدوين إلى ظاهر صور ، ونزل قريبا منها ، وشرع في بناء حصن على تل المعشوقة ، وأقام شهرا ، فقاطعه والي صور على سبعة آلاف دينار ، فأخذها ورحل ، وفي شعبان اشتد الأمر بفخر الدولة صاحب طرابلس من مجيء الفرنج ، وتمادى العساكر إليه ، فخرج من طرابلس في خمسمائة فارس وراجل ، ومعه هدايا وتحف أعدها الخليفة والسلطان ، فجاء إلى دمشق فنزل بظاهرها والتقاه طغتكين وأكرمه وخدمه وحمل إليه الهدايا والألطاف ، وكذا

جمع الأمراء ، وكان لما خرج من طرابلس استناب ابن عمه أبا المناقب ، ووجوه أصحابه في حفظها ، واطلق له واجب ستة أشهر واستحلفهم وتوثق منهم ، فعصاه ابن عمه وأظهر شعار الأفضل ، وعلم فخر الملك ، فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي ففعلوا به ذلك ، وسار فخر الملك إلى بغداد ومعه تاج الملوك بوري بن طغتكين ، وكان جماعة ممن يحسد طغتكين قد سعوا به إلى السلطان ليفسدوا حاله عنده ، فاصحب ولده من الهدايا والتحف والخيول والثياب وغير ذلك ما يحسن انفاذه ، واستوزر له أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع الذي كان مستوفيا لتاج الدولة وجعله مدبرا لأمره ، وسفيرا بينه وبين من أنفذ إليه ، وتوجها في رمضان ، فلما وصلا بغداد لقي فخر الملك من السلطان من الاكرام والاحترام مازاد على أمله ، وتقدم إلى جماعة من أكابر الامراء بالمسير معه لمعونته وانجاده ، وأمرهم بالالمام بالموصل وانتزاعها من يد جاولي سقاوة ، ثم المسير إلى طرابلس .

وطال مقام فخر الملك طولا ضجر معه ، وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ، وأما تاج الملوك بوري ، فإنه لقي من السلطان كل ما يسره ، وخلع الخليفة والسلطان عليه ، وعاد إلى دمشق في آخر ذي الحجة ، ولما عاد ابن عمار الى دمشق أقام بها أياما ، وسار الى جبلة فدخلها ، وأطاعه أهلها ، وأنفذ أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون انفاذ والي يصل إليهم من البحر ، ومعه الغلة والميرة ، ويتسلم البلد ، فبعث إليهم شرف الدولة ابن أبي الطيب ، فلما حصل بها قبض على جماعة فخر الملك بن عمار وأصحابه وذخائره وأمواله وبعث بها إلى مصر .

وفيها خرج بغدوين من القدس ، فنزل على صيدا وضايقها ، وجاء الاسطول من مصر فدفعه عنها ، فعاد إلى القدس .

وفيها أغار طغتكين على بحيرة طبرية وبها جرفاس مقدم الفرنجية ، وكان من أكبر الملوك فخرج من طبرية ، والتقوا فقتل

أتابك منهم مقتلة عظيمة ، وأسر جرفاس وخواصه ، فبذل في نفسه أموالا عظيمة ، فلم يقبل منه ، وبعث به وبأصحابه هدية إلى السلطان .

السنة الثانية وخمسمائة

فيها ... أخذت الفرنج طرابلس ، وقيل في السنة الآتية ، اجتمع عليها ملوكهم : ريمند بن صنجيل في ستين مركبا في البحر مشحونة بالمقاتلة ، وطنكري صاحب أنطاكية وبغدوين صاحب القدس ، وشرعوا في قتالها وضايقوها منذ أول شعبان إلى حادي عشر ذي الحجة ، وأسندوا أبراجهم ألى السور ، فلما رأى من بها من العسكر وأهل البلد ذلك سقط في أيديهم ، وأيقنوا بالهلاك مع تأخر اسطول مصر عنهم ، وكان كلما سار الاسطول نحوهم ردته الفرنج إلى مصر ، فلما كان يوم الاثنين هجمها الفرنج ونهبوها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها ، وأخذوا أموالها وذخائرها ما لا يحصى ولايحصر ، واقتسموها بينهم ، وساروا إلى جبلة وبها فخر الملك بن عمار فتسلموها بالامان في ثاني عشرين ذي الحجة ، وخرج منها ابن عمار سالما ، ووصل حينئذ الاسطول المصري ، ولم يخرج فيما تقدم من مصر مثله ، فوجدوا البلد قد أخذ ، فعادوا إلى مصر ، وجاء ابن عمار إلى شيزر فأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن منقذ ، واحترمه وعرض عليه المقام عنده ، فأبى وتوجه الى دمشق فأكرمه طغتكين وأنزله في دار ، واقطعه الزبداني وأعماله ، ووقعت مهادنة بين بغدوين صاحب القدس ، وبين طغتكين على أن يكون السواد وجبل عوف مثالثة : الثلث للفرنج ، والباقي للمسلمين .

السنة الثالثة والخمسمائة

فيها ... نهضت الفرنج الى رفنية ، وعرف طغتكين ، فسار بالعسكر

وتغريقا في الفراه ، وامتلات الايدي من الغنائم والسبي والدواب ، وعاد الفرنج الى مراكزهم ، وكان طغتكين على عزم ان يلقاهم مع المسلمين ، فلما رجعوا عاد الى دمشق خوفا عليها ، وعاد المسلمون الى الرها ، فطال عليهم منازلتها فتقربوا الى بلادهم ، ولما عاد بغدوين جعل طريقه على البقاع ، فأسر وقتل ، ثم عاد الى صيدا ونازلها ، ونصب عليها الابراج ، فايقنوا بأخذها ، فاخرجوا اليه قاضيها وجماعة من شهودها ، فطلبوا منه الامان ، فامنهم ، وخرج الوالي والعسكر واهل البلد الى دمشق ، ولم يتعرض لاحد منهم ، وعاد الى القدس ، وقيل إنما فتحت صيدا سنة أربع وخمسمائة ...

السنة الرابعة والخمسمائة

فيها ... قدم تجار من الشام الى بغداد ، وكسروا المنبر ، ومنعوا الخطيب من الخطبة يوم الجمعة بجامع السلطان ، واستغاثوا ، فقال السلطان : مالهم ؟ فقالوا : قد استولى الفرنج على الشام ، وقتلوا واسروا وسبوا ، فقال السلطان : نسير العساكر اليهم .

وفيها قصد بغدوين عسقلان ، وكان واليها شمس الخلافة ، فراسل بغدوين واتفقا على مال ، وقرر على صور سبعة الاف دينار ، وبلغ الافضل ذلك ، فأسره في نفسه وبعث جيشا الى عسقلان ، فعصى واليها عليه ، واخرج من كان معه في البلد من العسكر خوفا منهم ، وراسل بغدوين يستمده على (الافضل) ووعده إن غلب سلم إليه عسقلان ، ويعوضه عنها ، وعلم الافضل ، فكاتبه وطيب قلبه ، واقطعه عسقلان وأقر عليه اقطاعه بمصر ، فاستدعى جماعة من الأرمن ، فاسكنهم البلد ، فأنكر أهل البلد ذلك ، ووثبوا عليه فقتلوه ، ونهبوا داره ، وبعثوا برأسه إلى مصر ...

وفيها غدر بغدوين ، ونزل على طبرية ، وخرج طغتكين ، فنزل راس الماء ، ثم استقر ان يكون ما كان من البلاد مثالثة ومناصفة .

وفيها جهز محمد شاه العساكر الى الشام لقتال الفرنج ، منهم : شرف الدين مودود صاحب الموصل . وقطب الدين سكمان صاحب ديار بكر ، واجتمعوا في حران وكتب اليهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر يعرفهم ان طفكري نزل أرض شيزر ، وشرع في بناء تل (ابن معشر(١)) حصنا بمقابلة شيزر ، فقطعوا الفراه ، ونزلوا على تل باشر ينتظرون البرسقي صاحب همذان ، فوصل وهو مريض ، واختلفت آراؤهم ، ومرض سكمان صاحب ارمينية وخلاط وديار بكر وطمع أحمديل في بلاده ، وراسله صاحب الحصن(٢) وهاداه ، فقصر فعادوا الى حلب ، وعاثوا في اعمالها ، وفعلوا اقبح من فعل الفرنج ، وتوقعوا خروج رضوان اليهم ، وخدمتهم ، فما التفت ، واغلق أبواب حلب ، وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة ، واستعد للقتال ، وقد كانوا لما قطعوا الفرات ، كاتبوا طغتكين بالوصول اليهم ، وكتب إليه السلطان بمثل ذلك ، فجمع رجاله ، ورجال حمص ، وحماه ، ورفنية ، وسار في جمع كثيف طالبا الجهاد ، فوصل اليهم على حلب ، فسروا بوصوله وقويت نفوسهم ، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولاحماية بلاد .

وأما سكمان القطبي ، فإنه عاد الى بلاده ، وقد أشفى ، ومات قبل وصوله الى الفرات ، وأما البرسقي ، فكان به نقرس ، ويحمل في محفة ، ولا قول له ولا فعل ، وأما أحمديل فعزمه قوي على العود لطمعه في بلاد سكمان واقطاعها له من السلطان ، فقال طغتكين : ارحلوا الى المعرة ، فرحلوا على كره ، فقال : انزلوا طرأبلس ، فتوقفوا ثم تسللوا ، وتفرقوا أيدي سبأ ، ولم يبق منهم سوى مودود ، وكان مصافيا لاتابك صديق صدق ، ونزلا على العاصي ، وكان الفرنج قد تفرقوا الى مواضعهم ، فلما تفرق المسلمون ، ورجعوا اتفق الفرنج وصاروا يدا واحدة على الاسلام ، ونزل سلطان بن علي بن منقذ من شيزر الى طغتكين ومودود وخدمهما ، وحمل اليهما ، وجاء الفرنج فنزلوا على تل (ابن) معشر مقابل شيزر ليبنوا عليه حصنا ، فنازلهم طغتكين ومودود ، وطمع بهم الترك وخطفوهم ومنعوا أحدا منهم ان يخرج من خيمة ، وقتلوا

واسروا ، فلما رأوا احوالهم ناقصة ، انكفأوا راجعين إلى أنطاكية وطرابلس ، واليزك في آثارهم قتلا وأسرا ، واستحكمت المودة بين طغتكين ومودود .

وفيها توفي سكمان بن أرتق ، صاحب خلاط وديار بكر ، فذكرنا أنه جاء الى الرها ومرض ، فحمل في محفة فمات بميافارقين ، وحمل تابوته الى خلاط فدفن بها ، وكان عادلا مجاهدا ، وأبوه أرتق مات بالقدس ، وكان قد دخل الرمل خوفا من ملكشاه ، ولما عاد ملكشاه عن الشام رجع أرتق الى القدس ، ومات به ، ونجم الدين ايلغازي بن أرتق ، أخو سكمان مضى الى السلطان محمد شاه ، فولاه شحنكية العراق ، ثم أخذ ماردين في سنة ثمان وخمسمائة وميافارقين في سنة عشرة ، ثم أخذ حلب ، وله وقائع مع الفرنج ، سأذكرها إن شاء الله فيما بعد .

السنة الخامسة والخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين وحشد مقصد صور ، فكتب واليها وأهلها الى طغتكين يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج ، لانهم يئسوا من نصر مصر ، فبعث إليهم الفرسان والرجالة ، وجاءهم من جبل عاملة ، وسار اليها بغدوين في الخامس والعشرين من جمادى الاولى ، فقطع أشجارها وقاتلها اياما ، ويعود خاسرا ، وخرج طغتكين من دمشق ، وخيم ببانياس ، وجهز الخيالة والرجال الى صور نجدة ، فلم يقدروا على الدخول ، فسار الى السواد فنزل على الحبيس ، وهو حصن عظيم ، وحاصره ففتحه عنوة ، وقتل كل من فيه ، وشرع بغدوين في عمل الابراج والزحف على صور ، وخف اليهم اتابك ليشغلهم ، فخندقوا عليهم ، وهجم الشتاء ، ولم يبال الفرنج لانهم كانوا في أرض رمله ، والمادة تصل إليهم من صيدا في المراكب ، فسار إليها اتابك طغتكين وقتل جماعة من البحرية ، وغرق المراكب ، وواصل المكاتبة إلى أهل صور يقوي قلوبهم ، وعمل

الفرنج بـرجين عظيمين طـول الكبير منهمـا زيادة على خمسـين ذراعا ، وطول الصغير نيفا واربعين ذراعا ، وزحفوا بهمـا أول يوم من شهر رمضان ، وخرج أهل صور بالنفط والقطران ، ورموا النار فهبت الريح فاحرقت البرج الصغير بعد المحاربة العـظيمة ، ونهـب منه زرديات وطـوارق وغير ذلك ، ولعبـت النار في البـرج الكبير ، فاطفأها الفرنج ، وطموا الخندق ، وأكثـروا الزحـف طـول شـهر رمضان ، وأشرف أهل البلد على الهلاك ، فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب ، فعمل كباشا في أخشاب يدفع البرج الذي يلصقونه بالسور ، ثم تحيل في حريق البرج الكبير فاحترق ، وخرج المسلمون فاخذوا منه الات وأسلحة ، فحينئذ يئس الفرنج ، فرحلوا واحـرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على السـاحل والاخشـاب والعمـاير والعلوفات وغيرها ، وجاءهم طغتـكين ، فمـا سـلموا اليه البلد ، فقال : أنا ما فعلت ما فعلت الا لله تعالى ، لارغبـة في حصـن ولا مال ، ومتى دهمكم عدو جئتكم بنفسي ورجالي ورحل عنهم .

وفيها نزل مودود على الرها ، ورعى زرعها ، ورحل الى سروج ، ففعل بها كذلك .

السنة السادسة والخمسمائة

فيها ... اشتد خوف أهل صور من نزول الفرنج عليهم مرة ثـانية ، فاتفقوا مع واليها عز الملك أنو شتكين الأفضـلي على تسـليمها إلى ظهير الدين طغتكين بحكم ما سبق من نصرته لهم ، ومـا عانى مـن الشدة في دفع العدو عنهم ، فراسلوا طغتكين في هذا المعنى ، فجـاء الرسول إلى بانياس ، وواليها سيف الدولة مسعود فأخبره ، فسار مسعود الى دمشق فوجد أتابك قد مضى إلى ناحية حماه ليتفـق مـع رضوان صاحب حلب على أمر ، فخاف مسعود أن يتأخر الأمـر إلى حين عود أتابك من حمـاه ، فيسـتبق بغـدوين فينزل على صـور ، فيفوت الغرض ، فتحدث مع تـاج الملوك بـوري بـالمسير معـه الى

بانياس ، فأجابه وسار معه الى بانياس ، وتم مسعود ومعــه مــن يعتمد عليه من العسكر ، وبلغ أتابك ، فبعث قطعة من الاتــراك الى تقوية صور ، فساروا إليها ودخلوها ، وانفق فيهم اتابك ، وطــابت نفوسهم ، وأجروا على الرسم على الخطبة والسكة لصاحب مصر ، وكتب أتابك إلى الافضل : إن الفرنج نزلوا على صــور ، وشــارفوا أخذها ، وبعث أهلها إلي يســتنجدوا بــي ، وإنني أنجــدتهم بنفسي ومالي ورجالي ، وسألوني بعد ذلك انفاذ عســكر إليهــم ، فبعثــت رجالي ، ومتى وصل إليها من مصر من يذب عنها سلمتها إليه ، فلا تهمل حال الاسطول ، وانفاذ الغلة والقوة .

وجاء بغدوين الى عكا ، فبلغه الخبر ، فتوقف ، وفات غرضــه ، ولما فات غرضه شرع في الغــارات على حــوران والســواد ، وكثــر فساده ، فكتب أتابك الى مودود يخبره ويطلب نجدته وكانا قد اتفقــا وتصادقا ، فسار مودود بعساكره فقطع الفرات ، وخرج إليه أتابك ، فالتقيا على سلمية ، واتفق رأيهما على قصد بغدوين ، وسار مــن حمص بعساكر الشرق وحماه وحمص ودمشق وأعمــالها ، وجــازا على البقاع فنزلا الغور على الحابين(٣) ، وجمع بغدوين ونزل على جسر الصنبرة ، فتقدم بعض الغلمــان ، وقــطع الجسر العلوفــة ، فالتقوا الفرنج ، ونشب القتال ، وجاء أتابك فقطع الجسر واقتتلوا ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم نحو ألفــي فــارس مــــن الشــــجعان والابطال ، وغنموا أثقالهم ، وأفلت بغــدوين بعــدما قبض ، وأخــذ ســلاحه ، وغرق أكثــرهم في البحيرة بحيث صــارت دمــا ، وامتنع الناس من الشرب منها أياما ، وبعث أتابك ومــودود إلى الســلطان محمد يخبرانه بهذا الفتــح ، وبعثــا بــالاساري والهــدايا ورؤوس الفرنج وخيولهم وسلاحهم ، ثم أغار المسلمون على الضــياع التــي بين القدس وعكا ، وأخربوا ونهبوا وقتلوا وعادوا الى دمشق ، فنزل مودود في حجرة الميدان الاخضر ، وبذل اتــابك المجهــود في خــدمته وخدمه بنفسه ، وواصلا الصلاة في جامع دمشق ، والتبــرك بنظــر المصحف ، قال ابن القلانسي : وهذا المصحف حمله عثمان بن عفان

رضي الله عنه من المدينة الى طبرية ، وحمله أتابك طغتكين من طبرية الى دمشق ....

السنة السابعة والخمسمائة

فيها ... عاد جواب الافضل الى طغتكين يتضمن الشكر له في حديث صور ، ويقول : إن هذا الامر وقع منا أجمل موقع ، وأحسن موضع ، وبعث بالاسطول فيه الميرة ومال النفقة للعساكر والغلات ، وكان يقدمه شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي الوالي كان بطرابلس عند تملك الفرنج ، فرخصت الاسعار ، واستقامت الامور ، وكان معه خلع فاخرة من صاحب مصر لطغتكين وولده تاج الملوك بوري ولخواصه ، ولمسعود والي صور ، وراسل بغدوين مسعود يسأله الموادعة ، وانعقد الامر بينهما على السداد ، واستقامت الامور ، وامنت السبل ، ودب التجار من جميع الاقطار ، وكان ابن السلطان تكش بن ألب أرسلان قد هرب من محمد شاه الى الشام ، فلم يقبله رضوان ولا طغتكين ، فتوجه الى مصر فلقي من الافضل ما أحب من الاحسان والاكرام ، فأقام عنده .

وفيها عامل جماعة من الباطنية من أهل فامية ومعرة النعمان ، ومعرة مصرين على حصن شيزر في فصح النصارى ، فوثب به مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن وأخرجوهم منه ، واغلقوا ابوابه ، وكان بنو منقذ قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى ، وبلغهم الامر فجاءوا ، ودلى الحرم الحبال من القلعة ، واستبقوا الرجال ، وفتحوا الباب وصعد الامراء بنو منقذ فقاتلوهم ، فذلوا فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا كل من كان على رأيهم في البلد من الباطنية ، ووقع الاحتراز من مثل ذلك ، وقيل إن بني منقذ كانوا يخرجون الى الصيد فقالت الباطنية : الصواب أن يتخاصم منا اثنان ، ويصعدا الى القلعة ، ولنا بها جماعة ، فلما صعدا فطن الناس ، فغلقوا الابواب ، وقتلوهم ، ثم احترز بنو منقذ ، فما كان

يغيب واحد إلا ويحضر آخر ....

وفيها توفي ... مودود الامير صاحب الموصل .

وقد ذكرنا انه جاء الى الشام لمساعدة أتابك طغتكين ، وكسر الفرنج وعاد مع أتابك الى دمشق ، ونزل في الميدان الاخضر ، وكان يدخل كل جمعة إلى دمشق ، فيصلي بالجامع ، ويتبرك بمصحف عثمان رضوان الله عليه ، فدخل الجامع على عادته ومعه أتابك والغلمان حوله بالسيوف المسللة ، وأنواع السلاح وأتابك بين يديه خدمة له ، فلما حصلا في صحن الجامع وثب رجل من الناس لايؤبه له ولايحفل به ، فقرب من مودود كأنه يدعو له ويتصدق منه ، فلزم بند قبائه وضربه بخنجر أسفل صرته ضربتين احداهما نفذت الى خاصرته والاخرى الى فخذه ، والسيوف تأخذه من كل ناحية ، وقطع رأسه ليعرف شخصه ، فما عرف وأحرق ، وعدا أتابك وقت الكائنة ، وأحاط به أصحابه ، ورجع إلى مودود وهو يمشي فتماسك ، ووقع عند الباب الشمالي من الجامع ، وحمل الى دار أتابك ، وخيط جرحه ، فعاش ساعات يسيرة ، ومات في يومه ، فقلق أتابك لوفاته على هذا الوجه ، وحزن حزنا شديدا ، وكذا سائر الناس ، ودفن في مشهد داخل باب الفراديس ، وشرع أصحابه في العود الى الموصل وغيرها من البلاد ، وأمر لهم أتابك باطلاق ما يستدعونه لسفرهم ، واستصحبوا معهم أمواله وجواريه وأثقاله ، ولم يزل مدفونا حتى بعثت زوجته وولده من الموصل في شهر رمضان من حمله في تابوت الى الموصل ، وشيعه أتابك الى الثنية ، وكان سأله أتابك يوم خرج أن يفطر ، وكان صائما فلم يفعل ، وقال : والله لالقيت الله إلا صائما ، وكتب بغدوين ملك الفرنج الى طغتكين : إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها ، وقيل إن هذه الواقعة كانت سنة خمس وخمسمائة .

وذكر بعضهم أن أتابك خاف منه ، فوضع عليه من قتله ، وليس بصحيح ، فإنه كان أحب الناس له ، وحزن عليه حزنا عظيما ،

وشق ثوبه عليه ، وجلس في عزائه سبعة أيام ، وتصدق عنه بمال جزيل ، وبلغ السلطان ما جرى ، فأقطع الموصل والجزيرة لآق سنقر البرسقي ، وأمره بتقديم عماد الدين زنكي ، والرجوع الى اشارته ، لما ظهر منه من النهضة والكفاية ويمن النقيبة .

السنة الثامنة والخمسمائة

فيها ... مات بغدوين صاحب القدس لجرح أصابه في الوقعة المتقدمة على طبرية ، فأقاموا من اختاره من أصحابه .

...وفيها توفي الامير احمديل صاحب مراغة كان في خدمته خمسة الاف فارس واقطاعه اربعمائة الف دينار ، وكان شجاعا جوادا ، ولما قدم اتابك طغتكين الى بغداد ، وكان يحضر كل يوم الى دار السلطان مع الامراء للخدمة ، فبينما هو ذات يوم جالس في الدار والى جانبه أحمديل الروادي تقدم رجل ومعه قصة ، فسال احمديل إيصالها الى السلطان ، فتقدم فمد يده ليأخذها فضربه بسكين فأخذه احمديل وتركه تحته وجاء أخر فضرب احمديل ، وقال شاباش كانه استحسن فعل الاول ، وجاء ثالث وصاح شاباش ، وضربه وقتلوا ، وظن الحاضرون أن المراد طغتكين ، وكان أحمديل قد انكى في الباطنية فقتل وتفرق الناس ، وهذا اقدام من الباطنية لم يتقدموا على مثله في دار السلطان ، وعاد طغتكين الى الرملة غربي بغداد فنزل في مخيمه ، وبكى الناس على احمديل وأحرق غلمانه خيامه ورحله ، وطلب طغتكين دستورا الى دمشق فسار بالخلع ومراكب الفضة ، والذهب ، ووعده السلطان أن ينفذ إليه عسكرا ، وكتب السلطان الى البرسقي الى همذان ليحضر ، فحضر في عسكره فسار الى الشام فلاقاه طغتكين وأكرمه ، وكان ابن صنجيل صاحب طرابلس قد خرج ، فنزل عين الجر وأخرب البقاع ، فخرجا إليه فجاءاه ليلا وقتلا من اصحابه ثلاثة الاف ، وأسرا مثلهم وعادوا الى دمشق ، وانهزم ابن صنجيل في نفر يسير ، وعاد البرسقي الى

العراق بعد أن خدمه أتابك وأكرمه ، وتأكدت الصداقة بينهما والمودة .

السنة التاسعة والخمسمائة

... قويت شوكة الفرنج في رفنية وبالغوا في تحصينها وشحنوها بالرجال وشرعوا في الفساد ، فأظهر طغتكين أنه قاصد بعض الجهات وسار اليها مغذا فبغتهم وأحاط بهم وقتل وأسر وغنم أصحابه منهم ما أمتلات به الأيدي وذلك في جمادى الاخرة ، ثم عاد الى دمشق ومعه الاسرى ورؤوس القتلى ، ولما شاع عنه ما رزقه الله من الجهاد والعدل والاحسان الى الرعية حسده القوم وطعنوا عليه وراموا فساد حاله ، وكتب اليه بذلك من أصدقائه من يؤثر إصلاح حاله فاقتضت الحال أن سار بنفسه الى بغداد ومعه الهدايا والتحف مايليق بالخليفة والسلطان ، فبولغ في اكرامه واحترامه وفعل في حقه ما قدمناه ، وتشرف بالخلع الخليفية والسلطانية وكتب له المنشور السلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على حسب اختياره ...

وفيها صالح بردويل صاحب القدس الافضل امير الجيوش ، وكان بردويل قد أخذ في السبخة المعروفة بسبخة بردويل قافلة عظيمة جاءت من مصر ، فرأى الأفضل مهادنته وأمن الناس ....

السنة العاشرة والخمسمائة

فيها ... ورد الخبر بأن بدران بن صنجيل صاحب طرابلس قد جمع ونهض الى ناحية البقاع ، وكان سيف الدين سنقر البرسقي صاحب الموصل ، قد وصل دمشق في بعض عسكره لمعونة طغتكين ، فاتفقا على تبييت الفرنج ليلا ، فأغذا السير حتى هجما على خيامهم ،

وهم غارون ، فوضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا ، وهرب بدران ، وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم وأموالهم وعادوا الى دمشق ، وتوجه البرسقي إلى بلده ، بعد استحكام المودة بينه وبين أتابك .

السنة الحادية عشر والخمسمائة

فيها ... خرج آق سنقر البرسقي من الرحبة فأتى الى حلب وفيها يارقتاش الخادم بعد لؤلؤ ، فنزل البرسقي عليها فلم يظفر بطائل وعاد الى الموصل .

وفيها هجمت الفرنج على ربض حماة في ليلة خسوف القمر وقتلوا من أهلها مائة وعشرين رجلا .

وفيها وصل الامير نجم الدين ايل غازي بن أرتق الى حلب في عسكره وتولى تدبير أمرها مدة شهر وفسد عليه ماأراده فخرج منها وبقي ولده تمرتاش حسام الدين فيها وكان أمرها مردا الى أبي المعالي ابن الملحي الدمشقي ....

السنة الثانية عشر وخمسمائة

فيها ... كثر فساد الفرنج في بلاد المسلمين ، فجاء الامير نجم الدين ايل غازي الى طغتكين ، فاتفقا على الجهاد للفرنج وتحالفا وتعاقدا وأن ايل غازي يمضي ويجمع التركمان ويكون اللقاء في صفر على حلب سنة ثلاث عشرة .

السنة الثالثة عشرة وخمسمائة

فيها ... اجتمع أتابك طغتكين ونجم الدين ايل غازي على حلب ، للموعد الذي كان بينهما ، ومعهما من التركمان خلق كثير ، وخرج صاحب أنطاكية في عشرين ألفا والتقوا في ربيع الاول ، فهزم الله الكفار ، وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا بحيث أتوا على بعضهم ، ولم يبق بانطاكية من يحميها ، فوقع التغافل عنها ، وقيل إن طغتكين (كان غائبا) لأن التركمان تسارعوا الى القتال قبل مجيئه وقيل بل أدركها في آخر الامر ، فصادف خاتون صفوة الملك أم دقاق مريضة ، فأوصت إليه فقبل وصيتها ، وتوفيت يوم الأحد سلخ جمادى الاولى ، ودفنت عند ولدها دقاق في الطبقة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الاخضر ، وكانت كثيرة الصدقات غزيرة الخيرات ، وحزن طغتكين عليها وانفذ وصيتها ....

وذكر غير ابن القلانسي من أهل الشام ، أن في هذه السنة مات بردويل صاحب القدس ، فضبط الامر برشان الرهاوي إلى أن وصل الملك كندهري من قبل البابا خليفة الفرنج ، وأغار على أذرعات وأطراف الشام ، وكان أتابك طغتكين بالثنية فبعث بولده بوري مع عسكر ، وأقام هو موضعه ردءا لهم ، فالتقوا فظهر الفرنج على بوري ، فعاد الى أبيه ، ودخلا دمشق ومضى طغتكين الى حلب مستصرخا بنجم الدين ايل غازي بن أرتق ، وكان أول ما ملكها ، فأقام طغتكين عنده ، وشرع في جمع العساكر ، واغتنمت الفرنج غيبته ، فقصدوا الشام ، ووصلوا إلى حوران فالتجأ أهله الى اللجاة ، وكان بين أهل القرية المعروفة بالشقراء وأهل القرية المعروفة بسر(؟) عداوة ، فحمل أهل الشقراء على أن دلوا الفرنج على طريق سهلة ، فجاؤوا وقتلوا أهل بسر ، ودخلوا الى اللجاة فقتلوا وأسروا ودخلوا الى القدس ، ولما بلغ أصحاب انطاكية هذا جمعوا وحشدوا ، وقصدوا بلد حلب ، ونزلوا على مكان يقال له أرتاح في خمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل ، واشاع نجم الدين

ايل غازي أن أتابك طغتكين واصل من دمشق ، وما كان الا جـريدة عنده ، فخرج ايل غازي ، وعمل كمينا ، فلما التقى الفـريقان ظهـر الكمين وضربوا البوقات والطبول فظنوه أتابك طغتكين فـانهزموا ، وعمل فيهم السـيف قتـلا واسرا ، وافلت بـرجار بـن طنكري ملك الفرنج مجروحا ....

السنة الرابعة عشرة والخمسمائة

فيها ... رفع ايلغازي عن اهل حلب المكوس ، وما جـدده الظلمـة ، ووادع الفرنج ....

السنة الخامسة عشرة والخمسمائة

فيها ... كسر أتابك طغتكين الفرنج على زحر العقبة ، فقتل وسـبى وغنم وكانت كسرة عظيمة ....

السنة السادسة عشرة وخمسمائة

وفيها ...

السنة السابعة عشرة وخمسمائة

فيها ... دخل الاسطول المصري الى صـور وهـو مشـحن بـالمال والرجال البحرية والعسكرية ، وكان في نفس الوالي بصور من قبـل المصريين ، أن يعمل على سـيف الدولة مسـعود الوالي مـن قبـل

طغتكين ، فلما خرج للسلام على والي الاسطول سألوه النزول في المركب فاعتقلوه ، وبعثوا به الى مصر ، فأكرم فأنزل في دار واطلق له ما يحتاج إليه ، وكان السبب في اعتقاله أن الشكاوى من أهل صور كثرت الى صاحب مصر منه ، وأنه يكلفهم ما لم تجر به العادة ، وكان قد أضر بهم ، فاقتضى التدبير اعتقاله ، لكن كان في ضمن خروجه منها ، أخذ الفرنج لها .

وفيها : سار الامير نور الدولة بلك بن أرتق الى الرها ، في رجب فخرج إليه منها جيش كثيف ، فيه جوسلين وابن خالته كليان ، والتقوا على سروج فهزمهم وأخذ جوسلين وابن خالته وأعيان الفرنج أسارى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

...وفيها سلم صاحب حلب الاثارب الى الفرنج ، وجرت موادعة .

وفيها سار بغدوين ملك الفرنج الى نور الدين بلك بن أرتق وهو على قلعة المنيطرة ، فكسره بلك وأسره ، واعتقله مع جوسلين ، وكان قد أسر جوسلين في هذه السنة ، ونزل بلك بن أرتق على حمص ، وأخذها عنوة ، وسار إلى حصن البارة فملكه وقتل أسقفه .

وفيها أعمل بغدوين وجوسلين وأصحابه الحيلة ، وهربوا من حبس بلك وكانوا في قلعة خرت برت ، فوصلوا الى الرها ، وكان بلك ابن أرتق مشغولا بالشام ، وكانوا قد غلبوا على خرت برت ، وعاد بلك فاستنقذها منهم ، وعاد الى حلب وبها عمه بدر الدولة بن ايل غازي فحصره وأخذها بالامان ، وكان حسان صاحب منبج بحلب فاعتقله ، وأخوه عيسى بمنبج ، فطلب بلك بن أرتق من حسان منبج فلم يعطه إياها فسار بلك بن ارتق فحاصر منبج ، وقاتل فجاءه سهم من الحصن فذبحه ، فحمل الى حلب في تابوت ، وكان معه

سكمان بن أرتق ، فعقد له العسكر الامارة ، واطلق حسانا ، فعاد الى منبج ، واقام سكمان بحلب ....

السنة الثامنة عشرة وخمسمائة

فيها ... كاتب أهل حلب آق سنقر البرسقي الى الموصل ، فسار إليها فسلمها إليه أهلها ، وهرب سكمان ، فلحقه البرسقي بمنبج فقتله . وسنذكره .

وفيها استولت الفرنج على صور بالامان ، ذكره أبو يعلى بن القلانسي وما تعرضوا لاحد من أهل البلد ، ومن اشتهى الاقامة من المسلمين أقام بالبلد ، ومن اشتهى أن يرحل فليرحل ، ومضى بعضا من المسلمين الذين كانوا فيها الى دمشق ، وكان دخول الفرنج الى صور في الثالث والعشرين من جمادى الاول ....

السنة التاسعة عشرة وخمسمائة

فيها ... جمع بغدوين صاحب القدس وحشد وقصد حوران ، وشرع في الغارات على الاماكن القريبة من دمشق ، فجمع طغتكين التركمان ، وكاتب الاطراف ، ووصل اليه من التركمان نحو من ألفي فارس طالبين للجهاد ، وخرج من دمشق في خلق كثير ، ونزل مرج الصفر في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وخرج من دمشق أحداثها ورجال الغوطة والمرج وقصر حجاج وعقيبة وغيرها بالسلاح التام ، وقالوا نلحق المصاف ، ولم يشك احد في ذلك اليوم أن النصر للمسلمين ، وجاء الفرنج الى مرج الصفر ، والتقت الطلائع فلما شاهد الفرنج ذلك الجمع العظيم علموا أنهم لاطاقة لهم بهم ، فعادوا الى خيامهم ومنزلتهم فتبعهم طائفة من التركمان والاحداث ، وتفرق العسكر في نهب خيام الفرنج ، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا فحملوا

على المسلمين فكسر وهم من أواخر مرج الصــفر ، وهــزموهم الى عقبة سحورا ، فقتلوا جميع الرجالة والتركمان إلا من نجا بفرسه ، وانهزم طغتكين الى دمشق فوصلها اخر النهار ، وقد قتــل رجــاله وأسر أبطاله ، وغنم الفرنج غنيمة لم يغنمــوا مثلهــا ، وبــاتوا على عقبة سحورا عازمين على منازلة البلد ، واســتعد أتــابك للحصــار وأصبحوا وقد رحل الفرنج الى منزلتهم ....

وفيها استشهد آق سنقر البرسقي صــاحب الموصــل ، وكان شجاعا عادلا في الرعية ، وهو الذي رحــل الفــرنج عن حلب ، وكان الخلفاء والملوك يحترمونه وكان بين يدي الخليفة ، ولما كبر ونشــأ ، وكان قد احترز من الباطنية بالرجال والسلاح والجندارية وغيرهم ، فدخل يوم الجمعة جامع الموصل ليصلي فجاء الى المقصورة ، وفيها جماعة من الصوفية لهم عادة يصلون فيها فما استرابهم ، فدخل في الصلاة ، وتأخر عنه أصــحابه فــوثب عليه ثلاثة في زي الصــوفية فضربــوه بــالسكاكين فلم تعمــل في جســده للدرع الذي كان عليه ، فضرجوا رأسه ووجهه ، وضربوه حتى قتلوه ، وحزن عليه لأنه كان محسنا إليهم ، وأقاموا ابنه مسعودا مقامه .

السنة العشرون وخمسمائة

فيها ....

السنة الحادية والعشرون وخمسمائة

فيها .....

السنة الثانية والعشرون وخمسمائة

فيها ... توفي ...

ابو منصور ظهير الدين ، أتابك صاحب الشام ، مملوك تاج الدولة تتش ، كان مقدما ، عنده زوجه أم ابنه دقاق ، ونص عليه في اتابكية دقاق ، وقد ذكرنا وقائعه ، وكان شجاعا شهما عادلا ، ولما أحتضر أوصى الى ولده تاج الملوك بوري بحسن الطريقة ، والتزام العدل ، واقامة منار الاسلام والجهاد ، والاحسان الى الرعية ، ومراجعة العلماء وأرباب الخبرة بما يتجدد ، وتوفي يوم السبت ثامن صفر ، ودفن في تربته التي بناها قبلي دمشق عند المسجد الجديد ، وهي قائمة إلى هلم جرا ، وحزن أهل دمشق عليه ، وعملت المآتم له في كل محلة وسوق ، لأنه كان حسن السيرة ، ظاهر العدل ، كثير الاحسان ، مدبرا للممالك ، فحسنت آثاره وعمرت البلاد في أيامه ، واقام حاكما على الشام خمسا وثلاثين سنة .

وجلس بوري مكانه ، فسار بسيرته مدة ، وأقر الولاة على حالهم ، ثم تغيرت نيته ، واظهر السوء لاصحاب أبيه ، والظلم للرعية ، وقبض على خواص أبيه واحدا بعد واحد ، فاستترابوا به ، ونفرت القلوب منه ، وتمكن وزيره المزدقاني من أهل دمشق ، وصادق الباطنية واستعان بهم ....

السنة الثالثة والعشرون وخمسمائة

فيها ... كانت فتنة الاسماعيلية بدمشق ، وكان ابن محرز قد سلم اليهم حصن القدموس لأن بوري قصده ليأخذه منه ، فسلمه إليهم ، لان الوزير أبا علي طاهر بن سعد المزدقاني بدمشق يكاتبهم ويهاديهم ، خوفا من بني الصوفي ، فشرع وجيه الدين الفرج بن الحسن بن علي الصوفي رئيس دمشق مع تاج الملوك بوري في الاغراء

بالاسماعيلية ، وهون عليه أمرهم ، وساعده الحاجب فيروز ، ثم اتفقوا على قتل الوزير المزدقاني ، واستدعاه تاج الملوك الى قلعة دمشق سابع شهر رمضان ، فجلس عنده ، فلما قام ليخرج وثب عليه جماعة من الاجناد فقتلوه في دهليز القلعة ، وقطعوا رأسه ، واحرقوا جسده في باب الحديد ، ثم مضوا الى دار الدعوة ، وقتلوا كل من بها ، وثار عوام دمشق على الاسماعيلية ، فقتلوهم شر قتلة ذبحا ورميا بالاحجار والسيوف ، وصلبوا منهم جماعة على سور دمشق ، فكان عدة من قتل منهم عشرة الاف على ما قيل ، ولم يتعرضوا لحرمهم ولا لأموالهم .... وكان ببانياس العجمي فسلمها الى الفرنج خوفا من المسلمين ، فقويت نفوس الفرنج على قصد دمشق ، واستعدوا لها ، وبلغ تاج الملوك بوري فراسل ملوك الاطراف ، وبعث بالفقيه عبد الوهاب ابن الحنبلي الى بغداد رسولا عنه ، وعن أهل دمشق

يذكر استيلاء الفرنج على بانياس ، وأن قصدهم دمشق ، وقد أشرفوا عليها ، فخلع عليه ووعد بانفاذ العساكر ، وجاءت الفرنج فنزلوا على جسر الخشب ، وأخرج بوري عسكره من باب شرقي بالليل الى ناحية براق ، فوقعوا على جماعة من الفرنج كانوا قد مضوا الى حوران يطلبون الميرة ، فقتلوهم وأسروا الباقين ، فبلغ الفرنج فرحلوا نحو حوران والمسلمون خلفهم ينهبون ويقتلون حتى وصلوا الى طبرية .

السنة الرابعة والعشرون وخمسمائة

فيها ... وصل زنكي بن آق سنقر الى حلب من الموصل ، وقد أظهر أنه على عزم الجهاد ، وراسل بوري يلتمس منه المعونة على محاربة الفرنج ، فأرسل إليه من استحلفه الايمان المغلظة واستوثق منه لنفسه ولصاحب حمص وحماه وأصحاب الاطراف ، وكان سونج بن بوري بحماه ، فبعث إليه من دمشق خمسمائة فارس ، وأمره بالمضي الى خدمة زنكي ، وكان في عسكر بوري أعيان

الامراء ، فسار سونج من حماه الى حلب ، فأحسن زنكي لقاءهم وأكرمهم وغافلهم أياما ، وقبض عليهم وسونج في الجملة ونهب خيامهم وأثقالهم ، وهرب منهم من قدر وجاء في يومه الى حماه فاستولى على ما فيها لخلوها من الرجال ، ورحل الى حمص ، وكان صاحبها خير خان معه ، وهو الذي حسن له الغدر ، فحين حصل على حمص اعتقله ونهبه ، وطلب منه تسليم حمص فأبى من في القلعة وقاتلوه ، فاقام أياما ورحل الى الموصل ومعه سونج بن بوري ، واعتقل الباقين في حلب وقيدهم ، والتمس منهم خمسين ألف دينار فشرع بوري في تحصيلها ، ولما بلغ الملوك فعل زنكي لعنوه وسبوه ، ونفروا منه ، وساءت سيرته ، وبلغ السلطان فجهز إليه جيشا ....

السنة الخامسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السادسة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة السابعة والعشرون وخمسمائة

فيها ... فتح شمس الملوك صاحب دمشق بانياس ، وكان الفرنج لما أخذوا بانياس ، طمعوا في المسلمين وقووها بالرجال والسلاح وعزموا على نقض الهدنة ، وبلغ شمس الملوك ، فسار اليها بخيله ورجله وقاتلهم قتالا شديدا ، فلما كان يوم الاحد عشرة صفر زحف اليها ، وترجل وترجلت العساكر بأسرها وطموا الخندق ، وهجموا

البلد ، وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا ، والتجأ الخيالة والفرسان إلى الحصن ، فحصرهم فصاحوا الامان فأمنهم ونزلوا بأسرهم جميعا ، وعاد الى دمشق لست ليال خلون من صفر بالأسارى والغنائم والاسرى في الحبال والرؤوس على الرماح والقصب ، وكان فتحا عظيما لم ير أهل دمشق مثله ، وسار شمس الملوك الى حماه وبها نواب زنكي فأقام عليها أياما وحصرها فقاتلوه ، ففتحها عنوة ، وقيل بالأمان ، وكان ذلك في رمضان ....

وفيها نزل صاحب القدس على الساحل وجمع الفرنج وقصد حلب ، ووصل الى قنسرين ، فخرج اليه الامير سوار نائب زنكي في العسكر ، فالتقوا فقتل من الفريقين نحو من مائتي رجل من الاعيان ، وانهزم سوار إلى حلب ، وتبعهم الفرنج ، وجاء من حلب جماعة فرجع سوار على الفرنج ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وانهزموا الى أنطاكية .

السنة الثامنة والعشرون وخمسمائة

فيها ... نقض الفرنج الهدنة ونزلوا حوران وخرج شمس الملوك اليهم في حشده وجمعه وخيم بازائهم وكانوا في جمع عظيم ، فلما رأى شمس الملوك أنه لا طاقة له بهم غافلهم في الليل وسار نحو ساحل طبرية وعكا وصور وتلك البلاد ، فقتل وسبى وغنم غنائم كثيرة ، وعاد الى دمشق على طريق الشعراء ، ورحل الفرنج الى بلادهم فساءهم ما رأوا من خراب البلاد ونهبها فذلوا وتفرقوا وذلك في سلخ ذي الحجة .

السنة التاسعة والعشرون وخمسمائة

فيها ...

السنة الثلاثون وخمسمائة

فيها ...

السنة الحادية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... خرج ملك الروم من القسطنطينية في مائة الف ، فنزل على انطاكية فصالحه صاحبها على مال ، فرحل عنها الى بزاعة من أعمال حلب ، فافتتحها بالسيف ، وقتل من فيها ، وقطع زنكي الفرات ، فنزل على بعرين ، وهي للافرنج ، فلم يقدر عليها ، فسار الى بعلبك ، فحصرها فسلمها اليه كمشتكين الخادم ....

وفيها توفي الامير مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن مقلد صاحب شيزر ، كان مرشد عالما بفنون العلوم والاداب صالحا كثير التلاوة القران ، وكان أخوه نصر بن علي قد ولاه شيزر ، فقال والله لا ادخل في الدنيا ، وولاها أخوه سلطان على أولاده ، فمات مرشد في هذه السنة ، ثم اخرج سلطان أولاده من شيزر ، وسنذكر القصة في سنة اثنتان وخمسمون وخمسمائة ، وذكره العماد في الخريدة فقال : فولد أبو سلامة مرشد بن علي في سنة ستين واربعمائة وتوفي في سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ، واثنى عليه ثناء كثيرا ، وذكره الحافظ ابن عساكر ، وقال : ولد أبو سلامة سنة ستين وأربعمائة ، ودخل طرابلس غير مرة وسافر الى بغداد وأصبهان ، وكان حافظا القرآن حسن التلاوة كثير الصوم ، شديد البأس والنجدة في الحروب ، وكانت له يد طائلة في علم العربية والكتابة والشعر ، وكان له خط حسن ، كتب بخطه سبعين مصحفا ، وكذا ابنه محمد بن مرشد ، قال : وكان أبي يكتب مصحفا فتذاكروا بين يديه خروج الروم ، فرفع المصحف وقال : اللهم بحق من أنزلته عليه إن كنت قضيت بخروج الروم فخذ روحي ولا أراهم ،

فمات عقيب ذلك في رمضان ودفن بشيزر ، وخرجت الروم بعد ذلك في شوال سنة اثنتان وثلاثون ، فحاصروا شيزر أربعة وعشرين يوما ، ونقسموا عليها ثمانية عشر منجنيقا ، ثم رحلوا عنهـا يوم السبت تاسع عشر رمضان .

السنة الثانية والثلاثون وخمسمائة

فيها ... قدم أهل حلب وبزاعة النساء والصبيان والرجال وكسروا المنابر ومنعوا الناس من الصلاة في الجوامع بسبب ما جرى عليهم ببزاعة من الروم .

السنة الثالثة والثلاثون وخمسمائة

فيها ...

السنة الرابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... عاد أتابك زنكي من بعلبك بعد أن أفنى من قاتله بها ، ونفرت القلوب منه ، ونزل على داريا ، وخرج إليه بعض عسكر دمشق وأحداثها فقاتلوه ، فظفر بهم ، وأطلق فيهم السيف قتلا واسرا ، وراسل جمال الدين محمد صاحب دمشق ، وأن يعطيه حمص وبعلبك وما يحتاج ، فمال الى الصلح طلبا لحقن الدماء ، فما وافقه أمراؤه وابتدى به مرض طال ، وتوفي في شعبان ، وكان نزول أتابك عليها في ربيع الاول ، واتفق موت محمد في الوقت الذي أصيب فيه أخوه محمود في تلك الساعة ، ودفن في تربة جدته بباب الفراديس ، وأقاموا ولده عضب الدولة أبو سعيد بن محمد مكانه ،

وأخذت له الايمان على الطاعة ، وعرف زنكي ذلك ، فزحف بعسكره الى البلد طامعا فيه ، وظن أن الخلف يجري بين المقدمين ، فجاء الامر بالعكس(وخرج العسكر) وأحداث دمشق وقاتلوه قتالا شديدا ، وقالوا : هذا كذاب غدار سفاك ، وقد رأيتم ما فعل بأهل بعلبك ، وقام بقتاله معين الدين أنر ، فضعفت نفس أتابك ، ورجع الى داريا ، وكان أنر قد بذل للفرنج مالا ليدفعوا زنكي عنهم ، وحمل اليهم المال والرهائن من أقارب المقدمين ، فاجتمعوا من الحصون والبلاد ليصدوه عن دمشق ، فلما تحقق ذلك رحل عن دمشق في رمضان ، طالبا حوران على نية لقاء الفرنج إن جاءوا ، ثم عاد في شوال الى غوطة دمشق ، ونزل بمرج عذراء ، فاحرق عدة ضياع من المرج والغوطة منها : حرستا ، وبلغه نزول الفرنج بالدان في جموعهم ، فرحل الى بعلبك ، وخرج أنر في العسكر وحاصر بانياس ، وفتحها في آخر هذه السنة ، وسلمها الى الفرنج ، وكان ذلك في صلح الفرنج ، وأنهم يسلمونها اليهم ، وبعث زنكي من بعلبك يستدعي التركمان من أماكنهم ، وخرجت السنة على هذا ، ولما عاد أنر الى دمشق ما رأوا يوم السبت سابع ذي القعدة إلا وزنكي قد صبحهم جريدة على حين غرة ، وقرب من السور ، وعلم الناس فتركوا الاسوار ، وفتحوا الابواب وخرجوا إليه فردوه ، فنزل تل راهط ، وساق من الخيل والغنم والجمال والدواب مالا يحصيه إلا الله تعالى ، ورحل نحو الشمال .

السنة الخامسة والثلاثون وخمسمائة

فيها ..

السنة السادسة والثلاثون وخمسمائة

فيها ....

السنة السابعة والثلاثون وخمسمائة

فيها .....

السنة الثامنة والثلاثون وخمسمائة

فيها .....

السنة التاسعة والثلاثون وخمسمائة

فيها ... فتح زنكي الرها ، كان في قلبه منها أمر عظيم لكونها وسط بلاد الاسلام ، ومعقل ممتنع للكفار ، فطرح العيون على جوسلين صاحبها ، فاتفق أنه خرج منها بعساكره نحو حصن منصور ، فحال زنكي بينه وبينها وحصرها وضربها بالمجانيق وحشد التركمان والنقابيين الحلبيين وغيرهم ، ونقب سورها ، وعلق الاخشاب وضربوا بالنار ، فوقعت منه قطعة ، فدخلها عنوة بالسيف فقتل وأسر ، وأخذ منها أموالا عظيمة ، وكان بها من أسارى المسلمين الف وخمسمائة ، فخلصوا ، وقيل كانوا خمسمائة ، ثم رم السور ، وكتب النصارى أمانا وأحسن الى الرعية ، وأراد أن يبني بها جامعا ، فقال له أصحابه اجعل الكنيسة جامعا ، فقال : نعم ، وشرع في اصلاح الكنيسة وهيأها ، ولم يبق إلا موضع المحراب ، فجاء ومعه أرباب دولته والصناع ، واتفقوا على موضع المحراب اليوم ، فحفروا اساسا عميقا ، وإذا بصخرة ظهرت مكتوب عليها سطران بالسريانية ، فجاء شيخ يهودي فحلها ، ونقلها الى العربية وهما :

أصبحت خلوا من بني الاصفر
اختال بالأعلام والمنبر
مطهر الرحب على أنني لولا
ابن آق سنقر لم أظهر

فاشتد تعجب أتابك والجماعة .

وكان عند ملك طليطلة رجل من علماء المسلمين ، وكان الملك يحبه ويكرمه ، فجهز جيشا الى جهة إفريقية ، فقتلوا واسروا من المسلمين وعادوا ، وعاد العالم عند الملك جالس ، وقد نعس ، فايقظه الملك وقال : أما ترى ما قد فعل اصحابنا بالمسلمين ، وأين كان محمد من نصرتهم ؟ ، فقال الرجل : كان قد حضر فتح الرها ، فعجب الملك والقوم ، واستهزوا به ، فقال الملك لاتضحكوا فوالله ما قال شيئا إلا وأصاب ، فوصل الخبر بعد ذلك بأن الرها فتحت في ذلك التاريخ(٤) .

وسار أتابك ففتح سروج وما حول الرها من الحصون ، وجاء الى حصن البيرة فنازله وضايقه ، ولم يبق الا فتحه ، فجاءه الخبر بأن نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد قتل ، فعاد الى الموصل ....

السنة الاربعون وخمسمائة

فيها ...

السنة الحادية والاربعون وخمسمائة

فيها ... توفي زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي ، ولقبه أتابك عماد الدين ، وآق سنقر أبوه لقبه قسيم الدولة ، وكان من أصحاب السلطان ملك شاه ، ولما قتل آق سنقر ، لم يكن له من الأولاد إلا

زنكي ، وكان ابن عشر سنين ، فاجتمع اليه مماليك أبيه ، وأقام زنكي إلى سنة ست عشرة وخمسمائة ، فاقطع واسطا والبصرة ، وقيل أعطي شحنكية البصرة ، ورجع تولى زنكي بلادا كثيرة ، ولاه إياها السلطان ، فقام بها أحسن القيام ، وفتح بلادا كثيرة بإربل وجزيرة ابن عمر وسنجار والرحبة ، وغيرها وعبر الفرات فأخذ حلب وحماه وحمص وبعلبك ، وعاد الى الشرق ففتح دارا في سنة أربع وعشرين وخمسمائة وفتح العقر وسوس في سنة سبع وعشرين وخمسمائة وسار الى بغداد لنجدة الراشد وخرج به من بغداد سنة ثلاثين وخمسمائة ، وجرى ما ذكرنا ، وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أخذ شهرزور من ابن قفجاق التركماني ، وحصر دمشق مرارا ، وبنى العمادية في الهكارية ، وكان فساد الاكراد قد عم فانزجروا بها ، وفتح الرها وطبرية والمعرة وحران وحانى وغيرها ، وكان ينهى أصحابه عن شراء الاملاك ، ويقول الاقطاع تغني عنها ومتى كانت لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك معها ، ومتى كانت لأصحاب السلطان تعدوا على الرعية وظلموهم ، وكانت له عناية بأخبار البلاد ، ويغرم عليها الاموال فكان يقف على أخبار الملوك ساعة بساعة ، وإذا جاءه رسولا لايمكنه من الحديث مع أحد من الرعية لئلا يخبر بأخبار البلاد ، واودع بعض اصحابه خشكاذكة فأقامت عنده سنة ثم طلبهامنه ، فأحضرها وقال مثلك يصلح للحفظ ، وولاه قلعة كفراشب ، وهي قلعة عظيمة ، وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد ، ولايجعلها في مكان واحد ، ويقول إذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث ، وأنا في موضع آخر لم انتفع بها ، وذهبت ، وإذا كانت متفرقة لم يحل بيني وبينها ورجعت الى بعضها ، وكان مهيبا ــ بلغه أن بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وقطع ذكره ، فخاف الولاة وانزجروا .

ذكر مقتله

كان قد نازل قلعة جعبر ، وبها شهاب الدين سالم بن مالك العقيلي وكان ملك شاه أعطاه إياها لما أخذ منه حلب ، وقد ذكرناه فقاتلها زنكي ونصب عليها المنجنيقات وضايقها ولم يبق إلا فتحها ، فلما كانت ليلة الثلاثاء سابع عشر ربيع الآخر اتفق على قتله ثلاثة من خدامه وكان مغرى بخصي أولاد الناس ، وخصى جماعة ، فلما كان في هذه الليلة ذبحوه في فراشه ، وهربوا الى القلعة ونادوا بالحراس : عرفوا شهاب الدين بأنا قد جئنا في مهم ، فأحضرهم فأخبروه ، فقال الحراس : صيحوا على عسكره ملحوه ملحوه ، فصاحوا ، فدخل أصحابه عليه فوجدوه مذبوحا ، فحملوه في سفينة الى الرقة فدفنوه بها ، وقد صار موعظة العالمين .

ذكر ما تجدد من الحوادث بعد مقتله

منها أنها كانت معه أولاده الثلاثة : مودود ، وغازي ، ومحمود ، ولقب مودود قطب الدين ، ولقب غازي سيف الدين ، ولقب محمود نور الدين ، وكان لزنكي ولد آخر اسمه أمير ميران لقبه نصرة الدين ، وليس له عقب ، ونور الدين محمود كان له اسماعيل مات ، وانقرض عقبة بعده ، والعقب لقطب الدين مودود ، وسار غازي الى الموصل وبها زين الدين علي كوجك ، فامتنع عليه أياما حتى تقررت الأمور ، ثم دخل الموصل ، وهذا هو المشهور ، ورايت في بعض تواريخ الموصل أن سيف الدين غازي لم يكن مع أبيه لما قتل ، وكان بشهر زور ، وكان أبوه قد أعطاه إياها ، فأرسل إليه زين الدين علي ، وكان زنكي قد عهد إليه أن الموصل لغازي ، فلما جاء استحلفه على أشياء ، ثم دخلها .

وأما نور الدين محمود فان اليغيسياني ويلقب صلاح

الدين — وسيف الدولة سوار أخذاه ، ومضيا به الى حلب فدخلها

ومنها أن الخادم يرنقش القاتل لزنكي انفصل من قلعة جعبر في جمادي الآخرة ، لخوف صاحبها من طلبه ووصل الى دمشق ظنا منه أنه قد أمن ، ومدلا بما فعل فقبض عليه ، وبعث به الى حلب فبعث به نور الدين الى الموصل ، فقتل أشر قتلة ، ومثلوا به أقبح مثلة .

ومنها أن جوسلين صاحب الرها لما قتل زنكي راسل من كان بها من الارمن ، ووعدهم يوما بعينه يصل اليهم فيه ، فأجابوه ، فجاء فدخل البلد ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وبلغ الخبر نور الدين وهو بحلب ، فسار إليها بعساكره ، فهرب جوسلين ، ودخلها نور الدين فقتل من بها من الارمن ، وغنم أموالهم ، واستقرت في يد نور الدين ، ولم يعارضه أخو نور الدين سيف الدين غازي .

ومنها اجتماع نور الدين بأخيه غازي ، لما ملك سيف الدين الموصل راسل أخاه نور الدين في الاجتماع به ، فاعتذر بالفرنج خوفا على نفسه منه ، فحلف له واتفقا على أن يجتمعا في الجزيرة ، ويكون مع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فخرج سيف الدين من الموصل ، وقطع نور الدين الفرات ، ووصل الخابور فالتقيا في الليل ، ولم يعرفه نور الدين ، فلما عرفه ترجل وقبل الارض بين يديه ، وترجل سيف الدين وتعانقا وبكيا ، وجلسا يتحدثان فقال له سيف الدين : ما الذي منعك من المجيء الى عندي أكنت تخاف مني ، والله ما خطر لي ما تكره وأنا فلمن أريد الناس ، وبمن انتصر إذا فعلت مع اخي وأعز الخلق علي ما يكره ؟! فطاب قلب نور الدين وكان سيف الدين الاكبر .....

السنة الثانية والاربعون وخمسمائة

فيها ... فتح نور الدين حصن أرتاح وكفر لاثا من بلد حلب ....

السنة الثالثة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي ربيع الاول نزلت الفرنج على دمشق خرج ملك الالمان من البحر في جيوش لاتحصى ، واجتمع عليه ملوك الساحل وكذودها ، واجتمعوا في البيت المقدس ، وصلوا صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العساكر ، وكان مقدار ما فرقوه تسعمائة الف دينار ، ولم يظهروا أنهم يريدون دمشق ، وورّوا بغيرها وهرب المسلمون من بين أيديهم ، وجمعوا الغلال والاتبان وأحرقوها ، وكان صاحب دمشق مجير الدين بن محمد بن بوري بن طغتكين ومدبر الامور معين الدين انر ، فلما كان يوم السبت سادس ربيع الاول ، لم يشعر أهل دمشق إلا وملك الالمان قد ضرب خيمته على باب دمشق في الميدان الاخضر ، واختلفوا في عددهم ، فقال قوم في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل ، ونزل الكنود والخيالة على الشرف القبلي في مائة ألف راجل ، واجتهد المسلمون في احصائهم فلم يقدروا ، وخرج اليهم معين الدين أنر ومجير الدين ابق في مائة الف راجل ، سوى الفرسان ، فقاتلوا في اليوم الاول قتالا شديدا ، فقتل من المسلمين نحو من مائتين منهم الفندلاوي ، وسنذكره في موضعه ، وكان القتال يعمل ليلا نهارا وضايقوا البلد ، ونزلوا على أبوابه ، وكان معين الدين أنر كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ، ويقول:أدركنا ، فسار سيف الدين في عشرين ألف فارس ، فنزل بحيرة حمص ، وبعث الى معين الدين يقول قد حضرت بجند عظيم ، ولم اترك ببلادي من يحمل السلاح ، إن انا جئت إليك ولقينا الفرنج ، وكانت علينا الهزيمة ، وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا احد وأخذت الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أحببت أن أقاتلهم فيسلم البلد إلى من أثق به ، وأن احلف لك إن كانت النصرة لنا عليهم أنني لا أدخل الى دمشق ، وارجع الى بلادي فمطله معين الدين أنر وبعث الى السواحلة يقول : هذا ملك الشرق نازل على حمص ، وليس لكم به طاقة إن رحلتم وإلا أسلمت

دمشــق اليه ، وهــو يبيدكم ، وأنا أعطيكم بــانياس ، فــأجابوه ، وحسنوا للغرباء بالرحيل فــأفهموهم ، وكان زمــان الفــواكه فنزل الفرنج الوادي فأكلوا منها شيئا كثيرا فأخلت اجوافهم ومات منهم خلق كثير ، ومرض الباقون ، ولما ضاق بأهل دمشق الحال أخرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم ، واجتمــع الناس في الجــامع الرجال والنساء والصــبيان ، ونشروا مصــحف عثمــان ، وحثــوا الرماد على رؤوسهم ، وبكوا وتضرعوا ، فاستجاب الله لهم ، فكان مع الفرنج قسيس كبير ، طويل اللحية يقتدون به ، فــأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشــق ، فــركب حمــاره ، وعلق في عنقــه صليبا ، وجعل في يديه صليبين ، وعلق في عنق حماره صليبا ، وجمع الاقساء بين يديه بالاناجيل والصلبان والكتب ، والخيالة والرجالة ، ولم يتخلف من الفرنجة أحد إلا مــن يحفــظ الخيام ، وقــال لهــم القسيس ، قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم دمشق وفتح المسلمون الأبواب ، واستسلموا للموت ، وغاروا للاسلام ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكان يوما لم ير في الجاهلية والاسلام مثله ، وقصــد واحــد من أحداث دمشق القسيس وهــو في أول القــوم ، فضربــه فــأبان رأسه ، وقتل حماره ، وحمل الباقون ، فانهزم الفرنج ، وقتلوا منهم عشرة آلاف ، واحرقوا الصــلبان والخيالة بــالنفط وتبعــوهم إلى الخيام ، وحال بينهم الليل ، فأصبحوا قد رحلوا ، ولم يبق لهم أثر ، وبعث الفرنج يطلبون من معين الدين أنر بانياس ، فقال انما وعدتكم بها إذا رحلتم ، وهذا فعل الله ، فقالوا نحن نعود الى دمشــق ونقيم عليها فلا نرحل حتى نأخذها ، وكانوا قد حرقوا الثنيات والربــوة ، وقطعوا الاشجار ، ودرسوا ظاهر دمشق ، فــرأى معين الدين مــن المصلحة بقاء دمشق ببانياس وكان سيف الدين قــد طمــع فيهــا ، فأعطاهم بانياس ، وبقيت في أيديهم حتى فتحها نور الدين محمود ، وكان قد وقع في دمشق في أيام الحصــار طــاعون .... وعاد ســيف الدين غازي الى بلاده ....

وفيها توفي الفندلاوي ، واسمه يوسف بن دوناس بن عيسى أبــو الحجاج المغربي الفقيه المالكي ، ذكره جدي والحافظ ابن عساكر ،

قال : قدم الشام ، وسكن بانياس مدة ، وانتقل الى دمشق فاستوطنها ودرس بها بمذهب مالك ، وحدث بالموطأ وغيره ، وقال الحافظ علقت عنه أحاديث يسيرة ، وكان شيخا حسن المفاكهة حلو المناظرة شديد التعصب لأهل السنة ، كريم النفس مطرحا للتكلف قوي القلب صاحب كرامات .

ذكر مقتله

لما كان في اليوم السادس من شعبان ، أول قتال الفرنج دمشق ، خرج الفندلاوي راجلا ومعه أصحابه، فالتقاه معين الدين أنر فقال للشيخ:إن الله قد عذرك ليس لك قوة على القتال ، ونحن نكفيك فارجع ، فقال قد بعت واشترى فلا والله لا أقيله لا أستقيله ، وقرأ : (إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم) الآية ، ومضى نحو الربوة ، فتلقاه طلب بين الربوة والنيرب فقتلوه فقال ابن الحكم الاندلسي هذه الأبيات :

بشط نهر داريا
أمورا ما تواتينا
أتانا مائتا ألف
عديدا أو يزيدونا
ورايات وصلبان
على مسجد خاتونا
فقلنا إذ رأيناهم
وقد جاؤوا يريدونا
وشيخا فندلاويا
فقيها يقصد الدينا
ولكن غادروا القبـ
ـس تحت الارض مدفونا

قال الحافظ ابن عساكر : أقام مدة ببانياس خطيبا ، وكان شيخا كبيرا ، ودرس بدمشق في حلقة المالكية ، ولما قتل حمل الى الباب الصغير فدفن به ، وقبره من جانب المصلى قريبا من الحائط ، وعليه بلاطة مذقور فيها شرح حاله ، ورآه بعض أصحابه في المنام في تلك الليلة فقال : ما فعل الله بك . فقال : في جنات عدن(على سرر متقابلين) . [الصافات ٤٤]

السنة الرابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... جمع الفرنج من الساحل ليقصدوا بلد حلب ، فسار اليهم نور الدين بعساكره ، وجمع كبير من التركمان ، وكتب الى معين الدين أنر يستنجده ، فبعث إليه الامير بزان في عساكر دمشق ، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وخرج الى انطاكية ، خرج إليه البرنس ، وكانت بينهم وقعة عظيمة كسرهم نور الدين الكسرة المشهورة ، وقتل من كنودهم ألفا وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه الى نور الدين فعاد إلى حلب بالغنائم الكثيرة والاسرى فبعث ببعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق وإلى الملوك ....

وفيها فتح نور الدين حصن أفامية ، وكان على أهل حمص وحماة منه ضرر عظيم ، كانوا يشنون الغارات منه على البلاد .

وكان جوسلين الفرنجي صاحب تل باشر وأعزاز وعينتاب والراوندان ودربساك وكفرسود وليلون وبهسنا والبارة ومرعش ، وكفر لاثا وحصن منصور وغيرها من الحصون شمالي (حلب) ، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم ، فجهز اليه نور الدين سلاحداره في جيش فظهر عليه جوسلين وأسر السلاحدار ، وبعث به هدية الى صاحب الروم ابن قليج أرسلان ، وقال نفذت اليك سلاحدار

صهرك ، وسأبعث إليك بعد هذا غيره ، وكان نور الدين قد صاهر ابن قليج أرسلان ، وبلغ نور الدين قوله فعز عليه فدس جماعة وقال من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد ، فجاءت طائفة منهم فنزلوا في بلد عينتاب ، وخرج جوسلين ليغير عليهم ، فاستحسن امرأة فخلا بها تحت شجرة ، وكمن له التركمان فأخذوه اسيرا ، وكان نور الدين بحمص فحملوه اليه فأعطى من جاء به عشرة آلاف دينار ، وكان أسره من أعظم الفتوح في الاسلام ، لأنه كان شجاعا مقداما غدارا ، غدر غير مرة بالمسلمين ، ولما حصل بيد نور الدين أخذ منه جميع ماذكرناه من القلاع والبلاد بعد ذلك وأمن الناس شره .

وفيها توفي معين الدين أنر بن عبد الله ، مملوك أتابك طغتكين ، والي دمشق ، وكان صاحب أمرها نيابة ، عن أولاد طغتكين ، وكان صالحا عادلا محسنا كافا عن الظلم ، متجنبا للمآثم ، محبا العلماء والفقراء ، أوقف أوقافا كثيرة على أبواب البر ، وبذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين ، فلما مات في ثلاث عشري ربيع الآخر ، شرع أمر مجير الدين ابق في الانحلال ، وآل أمره إلى الاضمحلال ....

السنة الخامسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وقع الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق ، وقد ذكرنا أن نور الدين تأخر عن دمشق ، فلما سكنت الامطار ، عاد فنزل عليها وضايقها ، ثم إنه أشفق من سفك دماء المسلمين ، فراسلوه ، وخرج إليه مجير الدين أبق والرئيس أبن الصوفي ، وبذلا له الطاعة ، وأن يخطب له على منبر دمشق بعد الخليفة ، وينقش اسمه على الدينار والدراهم ، فرضي وخلع على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين ، وعلى الرئيس خلعة الوزارة ، وطيب

قلوبهما ، وخرج ، ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره ، وكان ذلك في المحرم من هذه السنة .

ووصل الملك مسعود قاصدا انطاكية ، ونزل على تل باشر وضايقها في المحرم أيضا ....

...وفيها أسر ابن جوسلين ، وحمل الى قلعة حلب ، وسار نور الدين ففتح قلعة أعزاز ، ورحل الملك مسعود من تل باشر بعد أن اشرفت على الاخذ ....

وفيها ملكت الفرنج عسقلان ، لانهم ضايقوها ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، وعجز من فيها ، فطلبوا الامان ، فأمنوهم ، وكان بها الذخائر والعدد والغلال ما لا يحصى ، وقيل إن اهلها كانوا في ضائقة يرتقبون كل يوم الاسطول والنجدة من مصر ، فبيناهم في آخر نفس ، وإذا بمركب صغير قد أقبل من مصر ، فاستبشروا ، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من مصر الى الوالي يقول ساعة وقوفك على هذا الكتاب ، تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظا تجعلها شبابات ، فقال للرسول : نعم الى غداة غد ، ثم خرج في الليل الى الفرنج ، وأخذ أمانا لأهل البلد ، فلما طلع الفجر فتح الابواب ، ودخل الفرنج البلد ، فأحضر القاصد بالكتاب ، وقال : هذا هو الجواب ....

السنة السادسة والاربعون وخمسمائة

فيها ... في المحرم عاد نور الدين الى حصار دمشق ، فجاء فنزل عيون الفاسريا وامتد عسكره الى ما بين عذراء والقصير ، وأرسل الى مجير الدين يقول قد كنت اتفقت معكم ، وحلفت لكم ، والان قد صح أنكم ظاهرتم الفرنج ، فإن اعطيتموني عساكركم لأجاهد في سبيل الله ، رجعت عنكم ، فلم يردوا عليه جوابا ، فرحل نور

الدين ، فجاء فنزل مشهد القدم ، وأحاطت عساكره بالبلد ، وضايقه ، ولم يزحف خوفا من سفك دماء المسلمين ، وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجير الدين ، فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولم تزل المناوشات تعمل في كل يوم الى ثالث وعشرين صفر ، فرحل الى داريا مستعدا للقاء الفرنج ، وكان عسكره يزداد كل يوم قوة ، وعسكر دمشق يضعف ، ومع هذا فما كان يأذن لأحد في قتال المسلمين ، وما خرج عسكر دمشق إلا وعادوا مفلولين مكسورين ، وقرب الفرنج من داريا ، فأشار على نور الدين خواصه بالرحيل ، وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق ، فارتفع الى الزبداني ، ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل ، وخرج مجير الدين والمؤيد إليهم ، واجتمعوا بملكهم فما صادفا عندهم من العدة ما كانا يظناه ، فاتفقوا على نزول الفرنج على بصرى فإنها عصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وأرسل نور الدين أربعة الاف فارس إلى حوران ، وبلغ نور الدين فعاد الى دمشق ، وقيل نزل بعين الجر من البقاع ، وضايق الفرنج بصرى ، فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم ، وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال عن ترحيلهم نور الدين عن دمشق ، وقالوا لولانا ما رحل .

وعرض نور الدين عسكره بالبقاع ، وكان من عين الجر الى الدلهمية ، فكانوا ثلاثين ألفا من عسكره والتركمان ، وغيرهم ، فعاد الى دمشق ، وقد أطمعته نفسه فيها ، فنزل ارض كوكبا من غربي داريا في ربيع الاول ، ثم رحل فنزل جسر الخشب ، ثم رحل الى مسجد القدم ، فنودي في دمشق بالعسكر والاحداث بالخروج الى قتاله ، فلم يخرج إلا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج .

وبينما نور الدين على دمشق وصله كتاب من الامير حسان المنبجي أنه افتتح مدينة تل باشر ، بالامان في ربيع الاول ، فضربت البوقات والطبول في عسكر نور الدين بالبشائر ، وأقام نور الدين

على دمشق من غير قتال ولا زحف ، خوفا على المسلمين ، وقال لاحاجة لي إلى إراقة دمائهم بأيدي بعضهم بعضا ، وإنما أرفههم ليبذلوا نفوسهم في قتال الكفار ، ثم ترددت الرسائل بينه وبين مجير الدين وابن الصوفي على يد برهان الدين علي البلخي ، وأسد الدين شيركوه ، وأخيه أيوب نجم الدين ، وتقارب الامر الى تجديد أيمان وعهود وشروط اشترطها عليهم ، ورحل عنهم في العاشر من ربيع الاخر ، وسار بعض عسكر نور الدين نحو بصرى لأن واليها عصى على المسلمين ، وبعث فاعتضد بالفرنج ، فاستدعى نور الدين من دمشق المناجيق وآلة الحصار ، وبعث نور الدين إليه قطعة من عسكره .

وجاء نور الدين الخبر بأن عسكر الرقة أغار على قلعة جعبر ، فخرج الامير عز الدين علي بن مالك في أصحابه إليهم ، وقد أغاروا على أطراف أعماله ليخلص ما استاقوا ، فالتقى الفريقان وأصابه سهم من كمين ظهر عليه فقتله ، فرجعوا به الى قلعة جعبر ، واجلسوا ولده مالك بن علي في منصبه واستقام أمره ، وفي رجب توجه مجير الدين في جماعة من عسكره وخواصه الى حلب بقصد خدمة نور الدين ، وطاعته ، فالتقاه وأكرمه ، وخلع عليه وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه ، ثم عاد عنه الى دمشق مسرورا فدخلها في آخر شعبان .

وفيها قصدت الفرنج بقاع بعلبك على غرة من أهلها ، ونهبوا ما فيها من المواشي ، وسبوا النساء واسروا الرجال ، ولم يبقوا على أحد ، وكان ببعلبك عطاء الخادم فبعث الرجالة في إثرهم ، واجتمع اليهم من البقاع خلق عظيم واتبعوهم فلحقوهم ، وقد أرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما أبطأهم عن الوصول الى بلادهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وخلصوا الاسارى والمواشي ، ومن سلم من الثلج .

السنة السابعة والاربعون وخمسمائة

فيها ... وفي المحرم فتح نور الدين محمـود رحبـة إنطـرطوس عنوة ، فطلبوا الامـان على النفـوس فـامنهم ، وملك عدة مـن الحصون ؛ منها المرقب ، وكان على الاسلام منه ضرر عظيم ...

السنة الثامنة والاربعون وخمسمائة

فيها ... ضـايقت الفـرنج عسـقلان ، فبعثـوا الى نور الدين يستصرخون به ، والى مجير الدين ابق صـاحب دمشـق ، فتـوجه مجير الدين أبـق الى نور الدين وعند نور الدين تـركمان كثير ، فاتفقوا على النزول على بانياس ليشـغلوا قلوب الفـرنج بـالناس النازلين على عسقلان ، فساروا إليها يوم السـبت تاسع وعشرين صفر ، وليس فيها من الفـرنج مـن يحميهـا ، فـوقع الخلف بين المسلمين ، فعاد مجير الدين الى دمشق ونور الدين الى حمص ....

السنة التاسعة والاربعون وخمسمائة

وفيها ملك نور الدين محمود دمشق وسببه ما ظهر من مجير الدين من الظلم ومصادرة أهلها وسفك دمائهم ، وأخذ أموالهم ، وقبضـه على جماعة من الاعيان ، واستدعى سيف الدولة ابن الصـوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما اخرج اخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ، ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ، ونهـب أمـوالهم ، وتـكاثرت مكاتباته الى الفرنج يستنجدهم ويطمعهم في البلاد ، وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق أنه كان في عزمه خلاص القدس من الفـرنج ، وبلاد الساحل ، وكانت دمشق في طريقه ، وطمـع الفـرنج في مجير الدين ، وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى باب

دمشق فيقتلون ويأسرون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذها منهم ، وأذل الاسلام وأهله في أيامه وساءت سيرته وكثر فساده ، فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نور الدين يقولون : الغياث ، وقالوا : إن شئت حصرناه في القلعة ، فرأى نور الدين أخذ مجير الدين باللطف ، وقال إن أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد ، فيكون وهنا عظيما على الاسلام .

وكان من أشد الامور على الفرنج أن يأخذ نور الدين دمشق ، لأنه كان احرق قلاعهم وخرب بلادهم ، وكان ليس له دمشق ، فكيف وقد صارت له ، فإنه يتقوى بها ، فعدل الى ملاطفة مجير الدين ، ومكاتبته وبعث اليه بهدايا ، فأنس به ، وصار يكاتبه يستشيره ، فكان نور الدين يكتب إليه بأن فلانا يكاتبني وفلانا يكاتبني ، فتارة يقبض مجير الدين عليهم ، وتارة ينفيهم ، فخلت دمشق من الامراء ، ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلمي ، وكان صاحب بعلبك ، قد رد إليه مجير الدين أمر دولته ، وكان ظالما ، فكتب نور الدين الى مجير الدين يقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه ، وعلم نور الدين أنه لايتم له أمر في دمشق مع وجود عطاء ، فقبضه مجير الدين ، وأمر بقتله ، فقال له عطاء: لاتقتلني فإن الحيلة قد تمت عليك ، وذهب ملكك ، وسترى ، فلم يلتفت إليه وقتله ، فحينئذ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى احداثها وأعيانها ، فأجابوه فسار إليها ، ونزل عليها ، وكتب مجير الدين الى الفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم بعلبك وأموالا كثيرة ، وبلغ نور الدين ، فارسل الى الاحداث ، ففتحوا له الباب الشرقي ، فدخلها عاشر صفر وقيل سلخ ذي الحجة .

وحصر مجير الدين في القلعة وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا ، وقال أبو يعلى بن القلانسي : ووصل اسد الدين شيركوه الى غوطة دمشق في ألف فارس ، فنزل على النقب في المرج على أنه رسول من نور الدين فلم يخرج إليه أحد من دمشق ، وذلك في الثاني من المحرم فلما كان يوم الاحد ثالث صفر وصل نور الدين بعسكره وخيم بعيون الغار

شيئا ثم رحل من الغد فنزل بيت الابـار(٥) وزحـف على البلد مـن شرقيه وزحف اليه من عسكر دمشق واحـداثه الخلق الكثير ووقـع الطراد بينهم أياما ، فلما كان يوم الاحـد عاشر صـفر زحـف نور الدين وظهر إليه العسكر من دمشق على العادة ، ووقع الطراد بينهم فدفعهم نور الدين الى باب كيسان ولم يبق على السور احـد لسـوء تدبير مجير الدين ، وجاء واحد مـن رجـالة نور الدين الى السـور وعليه امرأة يهودية فدلت له حبلا فتسلق فيه وتبعه الرجالة واصعدوا علما ، فصـاح أصـحاب نور الدين : نور الدين يامنصـور وامتنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجير الدين وظلمه ، وعسفه للرعية ، ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره وبادر بعض قطاع الخشب بفأس الى الباب فكسر اغلاقه وفتحه ، ودخل العسـكر فلم يقف بين أيديهم أحد ، ودخـل نور الدين وعسـكره ، ودخـل مجير الدين إلى القلعة ومعه خواصه وأغلق بابها ، فأرسل إليه نور الدين بأمان أهل البلد على نفوسهم ودورهم وأموالهم ، وتقرر الامر بينه وبين مجير الدين على حمص ، وكتب له منشور بذلك ، وخرج إليهـا بـأمواله وأشـيائه ، وأحسـن نور الدين إلى الناس واطلق المكوس والضمانات ودور البطيخ وسوق الخيل وما يؤخذ من الانهـار وغير ذلك ، وكان مجاهد الدين بزان محبوسا في القلعة ، ووصـل الرئيس مؤيد الدين بن الصـوفي إلى داره غير متعرض لشيء مـن الولايات وكان في نيته فساد فسر الناس بموته .

فصل

وفيها قتل الظـافر صـاحب مصر ، واقـام مجير الدين بحمص وكاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة ، وبلغ نور الدين فأعطاه بالس ليبعده من دمشق ، فلم يرض بها ، ورجع إلى بغداد فبنى دارا مقابل النظامية ، وأقام بها حتى مات وسنذكره .

وفيها وصلت مراكب الفـرنج الى تنيس فقتلوا وأسروا ونهبـوا وعادوا .

السنة الخمسون وخمسمائة

وفيها ....

السنة الحادية والخمسون وخمسمائة

وفيها ....

السنة الثانية والخمسون وخمسمائة

وفيها كانت زلازل عظيمة بالشام وحلب وحماة وشيزر وأفامية وكفر طاب والمعرة وحمص، وأنطاكية وطرابلس، ودمشق، وجميع العواصم، وهلك خلق عظيم، حتى روي ان معلما كان بحماة في كتاب، فقام من الكتاب يقضي حاجته، ثم عاد وقد وقع المكتب على الصبيان فماتوا بأسرهم، وأعجب من هذا أنه لم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب ووقعت أبراج القلاع وغيرها، وهلك جميع من في شيزر الا امرأة واحدة وخادم وساخت قلعة أفامية، وانشق تل جيرون نصفين وظهر فيه بيوت وعمائر ونواويس، وانشق في اللاذقية موضع وظهر فيه صنم قائم في الماء، وخربت صيدا وبيروت وطرابلس وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج.

وفيها ملك نور الدين محمود حصن شيزر وزال عنها ملك بني منقذ الكنانيين.

السنة الثالثة والخمسون وخمسمائة

وفيها نازل نور الدين قلعة حارم وأقام بها أياما فلم يقدر عليها ، فرحل عنها ، ثم جاء بعد ذلك فحصرها وفتحها وسنذكره .

وفي سلخ صفر نزلت الفرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها ، وكانوا قد جاؤوا بغتة ، وخرج اليهم أحداث دمشق فقاتلوهم الى الليل فأحرقوا جامعها وآذوا أهل الاقليم .

السنة الرابعة والخمسون وخمسمائة

وفيها حشد ملك الروم وجمع ، ووصل الى الشام ، وجمع نور الدين عليه العساكر ، وقلت ميرتهم فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون ،

وفيها نزل نور الدين محمود على حران وأخذها من أخيه أمير ميران وأعطاها زين الدين علي اقطاعا ، وسببه أن نور الدين لما مرض وقع الا ياس منه ، وكاتب أخوه أمير ميران الجند ، وطمع في الملك فشق على نور الدين

السنة الخامسة والخمسون

وفيها .....

السنة السادسة والخمسون وخمسمائة

وفيها في رَبيع الاول نقل المقتفي الى الرصافة ليلة الاربعاء ، وانزل تابوته في الزبزب ومعه جميع ارباب الدولة .

وفيها قتل طلائع بن رزيك بمصر .

فصل

وفيها توفي الصالح طلائع بن رزيك ، أبو الغارات ، وزير الديار المصرية ، أقام وزيرا سبع سنين على أحسن الوجوه ، وبسط العدل والاحسان ، فلما كان العاشر من رجب وثب عليه بساطني بين القصرين ، فضربه بسكين في رأسه، ثم في ترقوته ، فحمل الى داره ، وقتل الباطني ومات طلائع من الغد ، فحزن الناس عليه ، وبكوا وأقيمت المأتم بين القصرين والشوارع ومصر ، لأنه كان جوادا محسنا مشفقا على الرعية دينا صالحا كاسمه ، كثير الصدقات ، حسن الآثار بنى جامعا على باب زويلة ولاخر بالقرافة في سنة أربعين وخمسمائة ، وبنى تربة الى جانبه وهو مدفون بها ، وعمر المساجد وكان يفتقد أرباب البيوت وكان فاضلا شاعرا وله ديوان مليح ، ورثوه الشعراء وقام بعده ولده رزيك بن طلائع بأمر الوزارة ولقب بمجد الاسلام بن الصالح طلائع سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وقتل في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة

السنة السابعة والخمسون وخمسمائة .....

وفيها حاصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم ، واجتمع الفرنج وراسلوه ولاطفوه ، وكانوا خلقا عظيما ، فرجع الى

حلب ، وكان معه مؤيد الدين اسامة بن مرشد بن منقذ الذي أخرجه عمه من شيزر ونزل بدار الى جانبها مسجد ، وكان قد نزل بها عام أول وحج ثم عاد الى المنزل بعد عوده من الغزاة فكتب على حائط المسجد :

لك الحمد يامولاي كم لك منة
علي وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المقام اذ كنت قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشباب على ظهري (٧)

وفيها توفيت زمرد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقاق بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، وأم شمس الملوك اسماعيل ، وشهاب الدين محمود ابني بوري بن طغتكين .

قرأت القرآن على أبي محمد بن طاووس ، وأبي بكر القرطبي ، وسمعت الحديث من نصر بن ابراهيم المقدسي وغيره ، وكانت محبة للعلماء وأهل الخير حنفية المذهب ، وهي التي بنت مسجد خاتون على الشرف بأرض صنعاء من دمشق ، وأوقفت عليه الأوقاف الكثيرة ، وليست خاتون التي بنت خانقاه الصوفية على الشرف القبلي من القبلة ، تلك بنت معين الدين أنر زوجة نور الدين محمود بن زنكي ، وتزوجها صلاح الدين ، وسنذكرها بعد الثمانين وخمسمائة ، ودفنت بجبل قاسيون ، وهي التي بنت مدرسة خاتون بدمشق .

وأما صاحبة هذه الترجمة فهي التي ساعدت على قتل ابنها شمس الملوك اسماعيل لما كثر فساده وسفكه للدماء وقتله خواص

أبيه ومصادرات الناس ومواطأة الفرنج على بلاد المسلمين ، فأراحت منه العباد ، وطهرت منه البلاد .

وقال الحافظ ابن عساكر : دبرت عليه حتى قتل بحضرتها ، وأقامت أخاه محمودا مكانه ، وقد ذكرنا ذلك ، وتزوجها أتابك زنكي طمعا في دمشق فلم يظفر بطائل ، ونقلها الى حلب ، ولما قتل أتابك على قلعة جعبر عادت الى دمشق فأقامت مدة ، ثم حجت على طريق العراق ودخلت بغداد وعادت الى الحج فجاورت بها سنة حتى توفيت ، ودفنت بالبقيع ، وكان قد قل ما بيدها فبلغني أنها كانت بالمدينة تغربل القمح والشعير وتتقوت بأجرهما ، وكانت كثيرة البر والصدقات والصوم رحمها الله تعالى .

وفيها أقام نور الدين بحمص اياما ، ثم نزل بلاد الفرنج فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد عازما على حصار طرابلس ، ومعه خلق عظيم وضربوا خيامهم ، ولم يكن المسلمين يزك ولاطليعة ظنا من نور الدين أنهم لايقدمون عليه ، فبينما الناس وسط النهار لم يرعهم الا ظهور الصلبان من وراء الجبل الذي عليه الحصن ، فالسعيد من ركب فرسه ونجا ، وخرج نور الدين من خيمته وعليه قباء فركب نور الدين فرس النوبة وفي رجله شبحة قطعها كردي فنجا نور الدين ، وقتل الفرنج وأسروا خلقا عظيما ، واستولوا على العسكر بما فيه ، وكان من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ، ولم يستظهروا باليزك والطلائع ، وجاء نور الدين الى حمص فلم يدخلها ، واجتمع اليه من نجا من المعركة ، وأرسل الى حلب ودمشق ، وأحضر الخيام والسلاح والخيل وفرقها في الناس ، ومن قتل أبقى اقطاعه على ولده ، والا فأهله وكان من عزم الفرنج قصد حمص ، فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا : مافعل هذا الا عن قوة فتوقفوا وفرق في يوم واحد مائتي الف دينار ، وجاء رجل وادعى أنه ذهب له شيء كثير وكان الامر بخلافه ، فكتب الذواب الى نور الدين أنه مبطل في دعواه ، فكتب اليهم لاتكدروا عطاءنا فاني أرجو من الله الاجر على القليل

والكثير ، وكتب اليه الذواب ان الادارات والوقوف كثيرة في البلاد على الفقراء والفقهاء والصوفية ، ولو حملناها اليك في هذا الوقت لاستعنت بها وتعيد العوض ، فغضب وكتب اليهم : (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)(٨) وهل أرجو النصر الا بهؤلاء ، وهل تنصرون الا بضعفائكم . فكتب الذواب اليه فاذا لم تغير عليهم شيئا ، وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا لاقترضنا من أرباب الأموال مانستعين به على جهاد العدو فقد نفدت الخزائن ، ويطمع العدو في الاسلام ، فبات مفكرا وقال في نفسه نقترض ثم ندفع العوض ثم قال ماأفعل ، وبات قلقا الى وقت السحر فنام فرأى انسانا ينشد :

احسنوا مادام أمركم
نافذا في البدو والحضر
واغنموا أيام دولتكم
انكم منها على خطر

فقام مرعوبا مستغفرا مما خطر له وعلم ان هذا تنبيه من الله تعالى ، فكتب اليهم لاحاجة لي في أموال الناس وعاد الفرنج الى بلادهم .

السنة التاسعة والخمسون وخمسمائة

وفيها حارب أمير ميران أخاه نور الدين فكسره نور الدين وسنذكره في ترجمة أمير ميران في السنة الآتية .

وفيها فتحت خارم في شهر رمضان في هذه السنة وكان السبب فيه ان نور الدين لما اصابه بالبقيعة ما اصابه بعث الى ملوك الاطراف : الى أخيه قطب الدين بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ، ونجم الدين البي بماردين ، وغيرهم يطلب النجدة ، فأخبره نجم الدين بأنه جمع العساكر مجدا وعلى مقدمته

زين الدين علي كوجك ، وأما فخر الدين قرا أرسلان فقال له اصحابه : على أي شيء قد عزمت ؟ قال : على القعود فان نور الدين قد أثر فيه الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك ، فوافقوه .

فلما كان من الغد نادى في عسكره بالمسير الى الغزاة فقيل له في ذلك فقال : ان نور الدين قد كاتب زهاد بلادي المنقطعين عن الدنيا وذكر لهم ماجرى على المسلمين من الفرنج ، وطلب منهم الدعاء وسألهم أن يحثوا المسلمين على الجهاد ، وقد قعد كل واحد معه جماعة يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويدعون له وعلي ، فان تأخرت خرج أهل بلادي عن طاعتي ، ثم سافر بنفسه ، ولما اجتمعت العساكر على حلب سر نور الدين بقدومها ، وسار على حارم فنازلها ، فبلغ الفرنج فحشدوا وجاؤوا في ثلاثين ألفا وفيهم البرنس صاحب انطاكية ، والقومص صاحب طرابلس وابن جوسلين والدوك ، وهو رئيس القوم ، وكان فيهم من الرجالة مالا يحصى ، ولما تراءى الجمعان صعد نور الدين على تل عال فشاهد من الفرنج ماأذهله وهاله ، فنزل وانفرد عن العساكر ، ونزل عن فرسه وصلى ركعتين ومرغ وجهه على التراب وبكى ، وقال : ياسيدي هذا الجيش جيشك ، والدين دينك ، ومن محمود في الناس ، افعل مايليق بك .

وحملت الفرنج على الميمنة وفيها عسكر حلب فاندفعوا بين أيديهم ليبعدوا عن الراجل ، وتبعهم الفرنج ، فعطف نور الدين على الرجالة فحصدهم بالسيف ، ورجعت الفرنج فلم يروا الا الرجالة على الارض فانخلعت قلوبهم ، وأحاط بهم المسلمون فذلوا وخضعوا ، وعمل فيهم السيف فلم يبق منهم الا من نجا به فرسه ، واسر نور الدين ابن جوسلين من ملوكهم وستة آلاف من أكابرهم ، وغنم ماكان معهم من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك ، وفتح حصن حارم في حادي عشرين رمضان يوم الجمعة ، وعاد الى حلب بالاسارى والغنائم وامتلأت حلب منهم

فبيع الأسير بدينار وفرقهم نور الدين على العساكر واعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة ، وعادوا الى بلادهم ، ثم فاداهم نور الدين وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم : يقتل الجميع ، وقال آخرون : يفادى بهم ، فمال نور الدين الى الفدية ، فأخذ منهم ستمائة الف دينار معجلا وخيلا وسلاحا وغير ذلك ، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع مابناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع ماوقفه منها ، وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

السنة الستون وخمسمائة

فصل

..... فيها فتح نور الدين بانياس عنوة وكان معه أخوه نصرة الدين أمير ميران فأصابه سهم فأذهب احدى عينيه ، فقال له نور الدين لو كشفت عما اعد لك من الأجر لتمنيت ذهاب الأخرى ، وكان ولد معين الدين الذي سلم أبوه بانياس للفرنج قائما على رأس نور الدين ، فقال له نور الدين : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ، ولك فرحتان ، قال : يامولانا ولم ؟ قال : لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم .

وفيها فوض نور الدين شحنكية دمشق الى صلاح الدين يوسف ابن أيوب على ماقيل فأظهر السياسة وذفنت الامور فقال عرقلة (٩) :

رويدكم يالصوص الشآم
فاني لكم ناصح في مقالي

وإياكم من سمي النبي
يوسف رب الحجى والجمال

فقطع أيدي النساء
وهذا يقطع أيدي الرجال

فصل

وفيها توفي امير ميران بن زنكي أخو نور الدين محمـود اصـابه سهم على بانياس في عينه ، وقد ذكرنا أن نور الدين لما مرض كاتب امير ميران الأمراء ، فلما برأ نور الدين سار إليه وأخذ حـران منه فطرده فمضى الى صـاحب الروم ، وجيش الجيوش في سـنة تسـع وخمسين وخمسمائه ، وانضـم اليه خلق كثير وكان نور الدين نازلا على راس الماء فالتقوا فكسر نور الدين وقتل أخـو مجـد الدين بـن الداية ونهب عسـكر نور الدين ، ورجـع أمير ميران الى صـاحب حصن كيفا مستجيرا به ، فيقال إنه مات عنده ، ويقال انه شفع فيه نور الدين فقبل شفاعته ، ومات بدمشق .

السنة الحادية والستون وخمسمائة

وفيها فتح نور الدين العـريمة وصـافيتا وهـدم قلعتـاهما وسورهما ، ومضى اليه غازي بن حسان صاحب منبـج ، وأعطـاه الرقة

السنة الثانية والستون وخمسمائة

.....وفيهـا عاد اسـد الدين شـيركوه الى مصر ، وهـي المرة الثانية ، وسببه أن العاضد كتب الى نور الدين محمـود يسـتنجده

على شاور ، وأنه قد اشتد الامر وظلم وسفك الدماء ، وماكان في قلب نور الدين من شاور لأنه غدر بأسد الدين واستنجد الفرنج ، فسار أسد الدين من دمشق منتصف ربيع الأول ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فنزل الجيزة غربي مصر على البحر ، وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الاقطاعات ، وأنزلهم دور القاهرة ، وبنى لهم أسواقا ، وكان يتقدمهم الملك مرى وابن بيرزان ، فأقام أسد الدين على الجيزة شهرين ، ثم عدى الى بر مصر والقاهرة في خامس عشرين جمادى الآخرة .

ذكر وقعة البابين

ولما عدى أسد الدين صعد الى البابين ، وخرج شاور والفرنج ورتب العساكر ، فجعل الفرنج في الميمنة مع ابن بيرزان ، وعسكره في الميسرة ، وأقام الملك مري في القلب في شوكة الفرنج والخيالة ، ورتب أسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة ، والأكراد في الميسرة ، وأسد الدين في القلب ، فحمل الملك مري على القلب فتعتعه ، وكانت أثقال المسلمين خلفهم ، فاشتغل الفرنج بالنهب ، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره ، وفرق جمعه ، وعاد أسد الدين الى صلاح الدين ، فحملا على الفرنج فانهزموا فقتلوا منهم ألوفا ، وأسروا مائة وسبعين فارسا ، وطلبوا القاهرة ، فلو ساق أسد الدين خلفهم لملك القاهرة ، وانما حول الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين ، وولى عليها ابن أخيه صلاح الدين ، فأقام بها وسار أسد الدين إلى الصعيد ، واستولى عليه ، وأقام يجمع أمواله ويجبي خراجه ،

وخرج شاور والفرنج من القاهرة فحصروا الاسكندرية ، فأقاموا عليها أربعة أشهر ، وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين ويقوونه بالمال ، وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد ، وسار الى الاسكندرية ينجد صلاح الدين ، وعاد شاور الى

القاهرة ، وراسل أسد الدين وأعطاه اقطاعا بمصر وعجل له مالا فعاد الى الشام ، وصلاح الدين يتبعه ، واعتذر الى نور الدين بكثرة الفرنج والمال ورأى صلاح الدين مافعله أهل الاسكندرية ، فلما ملك أحسن اليهم وسنذكره .

ثم أن الفرنج طلبوا من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة وتكون أبوابها بأيدي فرسانهم ، ويحمل اليهم في كل سنة مائة ألف دينار ، ومن سكن منهم القاهرة يبقى على حاله ، ويعود بعض ملوكهم الى الساحل ، وكان نور الدين ينظر من ستر رقيق ، ويخاف على مصر غلبة الفرنج عليها فسار بعساكره الى الساحل وفتح المنطيرة ، وقلاعا كثيرة ، فخاف من كان بمصر من الفرنج ، فعادوا الى الساحل في سنة أربع وستين وخمسمائة ، وسنذكره .

السنة الثالثة والستون وخمسمائة

وفيها .....

السنة الرابعة والستون وخمسمائة

وفي المحرم ملك نور الدين محمود قلعة جعبر ، خرج صاحبها ابن مالك العقيلي فأخذه بنو كلاب وذهبوا به الى نور الدين ، فأحسن اليه وأكرمه وقال أنت عاجز عن حفظها فاختر ماسميت من البلاد والاقطاعات فامتنع ، فأرسل اليها نور الدين فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني ومجد الدين ابن الداية فحصراها ، فلم يقدرا عليها ، ثم ان صاحبها طلب من نور الدين سروج وأعمالها ومالا فأعطاه وتسلمها ، وهذه القلعة مازالت في يد بني مالك من أيام السلطان ملك شاه الى هذه السنة ، وبلغ نور الدين انهم كان لهم رجال يقطعون الطريق .

وفي صفر خرج الفرنج من عسقلان والساحل طالبين الديار المصرية ، فنزلوا على بلبيس وأغاروا على الريف فقتلوا وأسروا ، فأخرج شاور من كان بالقاهرة من الفرنج ، وقتل البعض وهرب الباقون ، وأمر شاور أهل مصر أن ينتقلوا الى القاهرة وأحرق مصر ، وسار الفرنج من بلبيس فنزلوا على القاهرة في تاسع صفر ، وضايقوها وضربوها بالمناجيق ، فلم يجد شاور بدا ان كتب لنور الدين بأمر العاضد ، وكان الفرنج لما وصلوا الى مصر في المرتين الاولتين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها ، وعلم نور الدين فاسترجع وخاف عليها ، وجاءته كتب العاضد وشاور ، فقال نور الدين لأسد الدين : خذ العساكر وتوجه اليها ، وقال لصلاح الدين اخرج معه فامتنع وقال : يامولانا يكفي مالقينا من الشدائد ، فقال : لابد من خروجك ، فما أمكنه مخالفة نور الدين فساروا الى مصر ، وبلغ الفرنج فرجعوا الى الساحل ، وقيل ان شاور أعطاهم مائة ألف دينار ، وجاء أسد الدين فنزل على باب القاهرة ، فاستدعاه العاضد الى القصر وخلع عليه في الايوان خلع الوزراء ، وسر أهل مصر بوصوله .

وقيل انه لم يستدعه وانما بعث اليه بالخلع والأموال والاقامات ، وللامراء الذين معه ، وأقام مكانه وأرباب الدولة يترددون الى خدمته كل يوم وشاور لم يقدر على منعهم لكثرة العساكر وكون العاضد مائلا الى أسد الدين ، فكاتب الفرنج واستدعاهم وقال يكون مجيئكم الى دمياط في البحر والبر ، وبلغ أعيان المصريين فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا : شاور هو فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الاسلام ، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فشرع في عمل دعوة لأسد الدين والأمراء ويقبضهم فنهاه ابنه الكامل وقال : والله لئن لم تنته من هذا لاعرفن أسد الدين ، فقال له شاور والله لئن لم أفعل هذا لذقتلن كلنا ، فقال له ابنه لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج ،وكان اسد الدين قد شارط لشاور ثلث البلاد ، فأرسل أسد الدين يطلب منه المال

فجعل يتعلل ويماطل وينتظر وصول الفرنج الى البلاد فقتلوه ، وسنذكره في موضعه ، ولما قتل بعث العاضد منشورا بالوزارة لأسد الدين بخط الفاضل وعليه بخط العاضد نسخة الايمان إلى اسد الدين ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه بالوفاء والطاعة والصفاء ، فتصرف أسد الدين شهرين ومات ، ولما احتضر أوصى لابن اخيه صلاح الدين ، فاختلف عليه جماعة من الأمراء وسنذكره في عقيب وفاة أسد الدين ، وبلغ نور الدين اتفاق الأمراء على صلاح الدين في ذلك . انتهى .

فصل

وفيها توفي صاحب دمشق وهو مجير الدين بن محمد بن بوري بن آتابك طغتكين ببغداد ، ودفن بداره التي عند النظامية ، وبلغ نور الدين فجلس له في العزاء ، وقد ذكرنا سيرته .

فصل

وفيها قتل شاور كما ذكرنا وقائعه الى هذه السنة ، وكان جبارا لاينظر في عاقبة الأمور سفاكا للدماء ، ممدوحا قد مدحه عمارة اليمني الشاعر بقصائد .

ذكر مقتله

عزم على عمل دعوة لأسد الدين والامراء ثم يقتلهم وأن ابنه الكامل نهاه ، واختلفوا في كيفية مقتله على أقوال :

احدها : ان الأمراء اتفقوا على قتله لما علموا بمكاتبته

الفرنج ، وأن أسد الدين تمارض ، وكان شاور يخرج اليه كل يوم والطبل والبوق يضرب بين يديه على عادة وزراء مصر ، فجاء ليعود أسد الدين فقتلوه .

والقول الثاني : أن صلاح الدين وجرديك اتفقا على قتله فأخبرا أسد الدين فنهاهما ، وقال : لاتفعلا فنحن في بلاده ومعه عسكر عظيم فسكتا ، واتفق أن أسد الدين ركب الى زيارة الشافعي ، فأقام عنده ، وجاء شاور على العاده لأسد الدين ، فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالا : انزل هو في الزيارة فامتنع ، فجذباه فوقع الى الأرض فقتلاه

والقول الثالث : انهما لما جذباه لم يمكنهما قتله بغير امر أسد الدين وسحبه الغلمان إلى الخيمة ، وانهزم اصحابه الى القاهرة ليجيشوا عليهم ، وعلم أسد الدين فعاد مسرعا ، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور ، وتتابعت الرسل ، وكان أسد الدين قد بعث الى شاور مع الفقيه عيسى يقول : لك في رقبتي أيمان وأنا خائف عليك من الذي عندي فلا تجيء ، فلم يلتفت وجاء على العادة فجذبوه بالقوة عن فرسه وأدخله جرديك إلى الخيمة ، وحز رأسه ، فلما عاد أسد الدين استرجع ، وبعثوا برأسه إلى العاضد فسر به ، ودعا العاضد ولد شاور الكامل فقتله في الدهليز ، وقتل أخاه ، واستوزر أسد الدين على ماذكرنا ، وقتل شاور في ربيع الآخر .

وفيها توفي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، أقام في الوزارة شهرين وأياما لأنه وزر في ربيع الآخر ، وتوفي فجاءة يوم السبت ثاني عشرين جمادى الآخرة ، وكانت وزارته شهرين وخمسة أيام ، وكان كثير الأكل للحوم الغليظة ، وكان يواتر التخم والخوانيق ، فاعتراه خانوق عظيم فقتله ، ودفن بظاهر القاهرة الى أن مات اخوه نجم الدين أيوب ، فحملا جميعا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفنا في رباطيهما ، ولما مات كان قد أوصى الى ابن

اخيه صلاح الدين ، فاختلف الامراء عليه ومنهم عز الدين الياروقي راس الاتراك ، وسيف الدين علي بن احمد الهكاري المشطوب ملك الأكراد ، وشهاب الدين محمود صاحب حارم وهو خال صلاح الدين وجماعة وكل واحد منهم رام أن يكون له الأمر ، فبادر العاضد واستدعى صلاح الدين ، وخلع عليه في الايوان خلعة الوزارة ، وكتب عهده كما فعل بأسد الدين ، ولقبه الملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضيء بعد ذلك ، وشرع الفقيه عيسى في تفريق البعض عن البعض ، واصلاح الامور لصلاح الدين ، وبذل صلاح الدين الاموال واحسن الى جميعهم ، واقام نائبا عن نور الدين يدعو لنور الدين على المنابر بعد العاضد ولصلاح الدين بعدهما ، .

وذكر الحافظ ابن عساكر أسد الدين فقال : قد ولي دمشق ، واقام يحارب الفرنج ، وفتح حصونا كثيرة ، وكان شجاعا مقداما صارما مهيبا ، وحج سنة خمس وخمسين وخمسمائة وذكر فتوح مصر .

انتهت ترجمة أسد الدين والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم .

السنة الخامسة والستون وخمسمائة

وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر ، وجدوا في القتال ، واقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمناجيق ويزحفون اليها ليلا ونهارا ، ووجه صلاح الدين اليها العساكر مع شهاب الدين خاله وتقي الدين ، وطلب من العاضد مالا فبعث بشيء كثير ، فكان صلاح الدين يقول : مارأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها .

وأشعل نور الدين بلاد الفرنج بالغارات ، ووقع فيهم الوباء

والفناء ، فرحلوا بعد أن مات منهـم خلق كثير ، وكان رحيلهـم في ربيع الآخر ، وفي شعبان ســار نور الدين الى الكرك فنازله وضربـه بالمناجيق ، وجمع ملوك الساحل فجاءوه فتأخر إلى البلقاء .

وفي شوال كانت بالشام زلازل هائلة بحيث وقـع معـظم دمشـق وشرفات الجامع وسقطت رؤوس المنابر ، وكانت تهتز مثـل النخـل في ريح عاصف ، وكانت بحلب أعظـم بحيث وقـع نصـف القلعـة والبلد ، فهلك من أهلها ثمانون ألفا تحت الهدم ، وتهدمت أســوار جميع القلاع وخرج أهلها الى البراري ،ووقعت قلعة حصن الأكراد بحيث لم يبق للسور أثر ، وكذا حمــاة وحمص ، فلولا أن نور الدين كان بالبلقاء والفرنج في قتاله سار واخـذ حصـن الأكراد ، وجـاءه ما شغل قلبه من ناحية الشرق ودمشق ، أما من ناحية المشرق فوفاة أخيه ، قطب الدين مودود بالموصل ، وأما من دمشق فوفاة العمادي وكان نائبه في حلب وغيرها ، وكانت له بعلبك وتـدمر ، وكان عزيزا عند نور الدين وصاحبه وحاجبه ، وبلغه ايضا وفاة مجد الدين ابـن الداية بحلب وكان صاحب بره .

وسار نور الدين الى حلب خوفا عليها من العدو ، لأن اســوارها تهدمت ، وفرق نور الدين العساكر في القـلاع خـوفا عليهــا مــن العدو ، ولأنها بقيت بغير اسوار ، وكانت هذه الزلزلة عامة في الدنيا وأخربت قلاع المسـلمين وبـلادهم بـــالشام وحلب والعـــواصم وأنطــاكية ، ونزلت الى اللاذقية وجبلة وجميع بـلاد الســاحل الى الداروم ، ويقال انه لم يمت من دمشق الا رجل واحد اصابه حجـر وهو على درج جيرون ، لأن أهلها خرجوا الى الصحراء .

ثم امتدت الزلزلة وقطعت الفرات فوصلت الى الموصل وســنجار ونصيبين والرها وحران والرقة وماردين وغيرهــا ، وامتـدت الى بغداد وواسط والبصرة وجميع بـلاد العــراق ، ولم ير الناس زلزلة من أول الاسلام مثلها أفنت العالم .

وفيها أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديما عند قبة أبي سليمان الداراني ، فأحرقوه لما نزلت الفرنج على داريا في أيام مجير الدين ، أمر أن يعمر – نور الدين – في هذه السنة هذا الجامع في وسط القرية ....

فصل

وفيها توفي مودود بن زنكي صاحب الموصل ، ولقبه قطب الدين أخو نور الدين محمود ، كان أسمر اللون ، وتام القامة ، وعادلا منصفا ، ولما احتضر أوصى الى ولده زنكي ولقبه عماد الدين ، وكان أكبر ولده وأعزهم اليه ، وتوفي قطب الدين ، وقد جاوز الأربعين وكانت ولايته احدى وعشرين سنة .

وفيها توفي أبو بكر ابن الداية ، ويلقب مجد الدين من أكابر أمراء نور الدين كان شجاعا دينا بنى بحلب خانقاه ، وهي باقية الى هلم جرا ، واتفق موت العمادي في هذه السنة وكان من أعظم أمرائه ، ولما مات بكى نور الدين وقال : قص جناحاي ، وأعطى أولاد العمادي بعلبك وقدم على العساكر سابق الدين عثمان ابن الداية أخا مجد الدين ، ودفن مجد الدين بحلب والعمادي بقاسيون في تربة قريبة من تربة شركس شمالها وهي أول تربة بنيت في الجبل واسمه مكتوب على بابها وقفت على باب التربة وعليها مكتوب « هذه تربة العمادي محمد »

السنة السادسة والستون وخمسمائة

وفي أول المحرم سافر نور الدين الى سنجار ففتحها ، وسلمها الى عماد الدين زنكي ابن أخيه ، وسار فنزل على الموصل وأخذها من عبد المسيح وكان بها ، وأزال من الموصل الضمانات

والمكوس ، وعدل وأحسن الى أهله ، وأعطى عمر الملا ستين ألف دينار من فتوح الفرنج ، وأمر بعمارة الجامع النوري وسط البلد ، وأعطى جزيرة ابن عمر والموصل لابن أخيه سيف الدين ، وأقام عشرين يوما ، وكان يحب الموصل ، فقيل له : لو أقمت بها ، فقال : ومن يجاهد الكفار ويحفظ بلاد المسلمين ، ثم رحل نحو الشام ومعه عبد المسيح ، وقد أحسن اليه وأقطعه اقطاعا كبيرا ، وكان قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ماكان يعمل شيئا حتى يستأذنه ، ثم قال نور الدين لعبد المسيح : ويحك ماهذا الاسم القبيح ، أما كان في الدنيا مسلم يغيره وكيف وافقك عليه أخي قطب الدين ؟

فصل

وفيها بعث الخليفة (المستضيء) رسولا الى نور الدين محمود يعرفه بخلافته ، ويطلب البيعة له ، فبعث نور الدين الى الخليفة شرف الدين بن أبي عصرون نائبا عنه في الخدمة .

وفيها بنى صلاح الدين بالقاهرة المدرسة الصلاحية الشافعية وكان موضعها حبس المعونة ، وبنى بها أيضا مدرسة المالكية بالقرب من دار العدل ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي القضاء بالقاهرة ومصر وأعمالها ، وفي جمادى الأولى خرج صلاح الدين بالعساكر الى الشام فأغار على غزة وعسقلان والرملة ، ومضى الى ايلة ، وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج ، والتقاه الاسطول في البحر فافتتحها وقتل من فيها ، وشحنها بالرجال والعدد ، وكان على الحاج منها خطر عظيم ، ثم عاد الى القاهرة في جمادى الآخرة .

السنة السابعة والستون وخمسمائة

وفيها خطب لبني العباس بمصر بعد انقطاع الخطبة عن بني العباس فيها مائتي سنة وثماني سنين .

وفيها بعث الخليفة الخادم صندل المقتفوي، وهو أكبر الخدم الى نور الدين جواب ابن أبي عصرون بالخلع لنور الدين ،وفيها طوق فيه ألف دينار ، والفرجية والعمامة ، ولصلاح الدين دونها ، وبعث لنور الدين سيفين قلده ، سيفا للشام ، وسيفا لمصر ، وزينت بغداد وضربت القباب .

وفي هذه السنة اخذ نور الدين الحمام الهوادي في جميع البلاد في الابراج تنفذ اليه الاخبار ، وسببه اتساع مملكته ، فكانت من حد بلاد النوبة الى همذان ، وكان أهم ما عنده قلع الفرنج من الساحل ، فكان اذا تحرك الفرنج لقصده ، أو تحرك لقصدهم ، كتب الكتب على أجنحة الطيور الى البلاد البعيدة ، يستدعي العساكر ، فيأتون اليه بسرعة .

فصل

وفيها توفي العاضد واسمه عبد الله بن يوسف بن الحافظ ابو محمد ، ولم يل أبوه الخلافة ، وقد ذكرناه ، وأمه أم ولد يقال لها ست المنى، ولد سنة اربع وأربعين وخمسمائة وبويع في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن احدى عشرة سنة ، وكانت أيامه احدى عشرة سنة وشهورا ، واختلفوا في سبب وفاته على أقوال :

أحدها : أنه تفكر في اموره فرآها في ادبار ، فأصابه ذرب عظيم فمات منه .

والثاني : أنه لما خطب لبني العباس بلغه فاغتم فمات ، وقيل ان أهله اخفوا عنه ذلك وقالوا : ان سلم فهـو يعلم ، وان مـات فـلا ينبغي ان ينغص على هذه الايام التي بقيت من عمره .

والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته كان في خاتم له فص مسـموم فمصه فمات ، وختم صلاح الدين على مـافي القصر مـن الأمـوال والذخائر والتحـف والجـواهر والعبيد والخـدم والخيل والمتـاع وغيره ، وكان في القصر من الجواهر النفيسة مالم يكن عند خليفـة ولاملك ، مما قد جمع على طول السنين ، فمنها القضـيب الزمـرد وطوله قبضة ونصف ، والجبل الياقوت الأحمر ، والدرة اليتيمة مثل بيض الحمام ، والياقوتة الحمراء ، وتسمى الحافر ، وزنها أربعة عشر مثقال ، ومن الكتب المنتخبة بـالخطوط المنسـوبة مـائة الف مجلد ، ووجد عمامة القائم وطيلسـانه بحـساله ، بعـث بهمـا البساسيري الى المستنصر ، ووجد أموالا لاتحد ولاتحصى ، وأفـرد اهل العاضد ناحية عن القصر وأجرى عليهم جميع مايحتاجون اليه وسلمهم الى قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم وفرق الأموال التي اخذها من القصر في العساكر وبـاع بعض الجـوارى والعبيد وأعطى القاضي الفاضل من الكتـب مـاأراد وبعـث الى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهـدايا وتحفـا وطيبـا ومـائة الف دينار ، وكان نور الدين بحلب فلما حضرت بين يديه قال والله ماكان بنا حاجة الى هذا ماوصل الينا عشر معشار ماانفقناه على العساكر التي جهزناها الى مصر وماقصدنا بفتح مصر الا فتح الساحل وقلع الكفار منه ، وانقضت أيام المصريين بموت العاضد وعددهم أربعـة عشر على عدة بني أمية إلا أن أيامهم طالت فملكوا مائتين وثمـاني سنين وبنوأمية ملكوا نيفا وتسعين سنة وقد ذكرنا سـيرة المصريين على وجه التفصيل وتقلب الأحوال .

السنة الثامنة والستون وخمسمائة

وفيها بعث صلاح الدين الى نور الدين هـدية فيهـا فيل وحمـار

عتابي ، فبعث بهما نور الدين الى بغداد ، وخرج الناس للقائها ، وعجبوا من خلقة الحمار ، وكان بمحلة العتابيين رجل نحوي قاصر في كل شيء ، قد تعلق بطرف من النحو ، وكان يدعي دعاوى عظيمة ، فخرج مع الناس يتفرج وراه بعض الظراف ، فقال : ياقوم ليس بعجب ان يحمل الفتى حمار عتابي ، عندنا عتابي حمار ، فضحك الناس .

وفيها سار نور الدين الى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه وسط البلد ، وتصدق بمال عظيم ، ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه الى الموصل خرج بعساكر مصر فحصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها ، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار الى الفرنج واذا اغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين ، وقتل البعض، وأجلى من بقي منهم عن أرض الكرك ، وكتب إلى نور الدين كتابا يخبره بما جرى من العربان وأن لايبقى منهم أحد وأن يدرك ديارهم فانهم آفة على المسلمين ، ودليل الكفار على الاسلام ، فلذا أبدتهم بحيث أن العدو اذا نهض لايجد بين يديه دليلا ، ولايستطيع حيلة ، ولايهتدي إليه سبيلا ،وهو كتاب طويل .

ثم عاد صلاح الدين الى مصر ، قيل هي أول غزاة ، وذكر القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ، ويعرف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله في سيرة صلاح الدين الكرك والشوبك لانهما في طريق الديار المصرية ، وكانوا يغيرون على القوافل منها ، فقصد تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض ، فحصرهم في هذه السنة ، فلم يظفر منهم بطائل وتأخر فتحهما الى مابعد الفتوح .

وعاد نور الدين من الموصل ، وقطع الفرات وقصد بلاد الروم ففتح نور الدين بهسنا ومرعش وقلاعا من أعمال قليج أرسلان ، وبينما نور الدين يفتح هذه القلاع اذ جاءه خبر من حمص

بأن الفرنج قد نزلوا عليها ، فرجع الى الشام ومعه ابن الدانشمند قد وعده بخلاص بلاده ، فلما أخذ نور الدين بهسنا ومرعش والمرزبان خاف منه قليج ارسلان ، فأجابه الى ماأراد ، ورد بلاد الدانشمند ، وشرط عليه نور الدين تجديد اسلامه ، لانه كان يتهم بالزندقة ، وأنه متى طلب منه النجدة بعساكره ينجده ، وأن يزوج ابنته بابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ففعل ، وبعث نور الدين فخر الدين عبد المسيح مع ابن الدانشمند الى ملطية وسيواس ومعه عسكر في خدمته فأقام عنده حتى توفي نور الدين ورجعت البلاد الى قليج ارسلان .

وفيها قدم القطب النيسابوري (١٠) من حلب الى دمشق بعثه نور الدين مدرسا بالمدرسة الامينية ، وقيل لم يدرس بالامينية بل بالزاوية الغربية بجامع دمشق زاوية الفقيه نصر ، وشرع نور الدين لبناء مدرسة للشافعية الى جانب الجاروخية ، فأدركه أجله دون بنائها ، وكان قد وضع نور الدين المحراب وبعض البنيان ، وهيأ أمرها على حاله ، فجاء العادل أبو بكر بن أيوب فأزال ذلك البناء وبناها البناء المحكم ودفن بها (١١) .

وفيها بعث تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين جيشا الى المغرب مع مملوك له اسمه قراقوش فالتقاه عسكر من عند عبد المؤمن، فهزمه بعد أن أقام الدعوة العباسية بافريقية ، فعاد الى القاهرة مهزوما .

فصل

وفيها توفي نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان وكان عاقلا شجاعا حليما رحيما جوادا ، عاطفا على الفقراء والمساكين ، محبا الصالحين قليل الكلام جدا لايتكلم الا عن ضرورة ، ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى ، فكان يلعب بالاكرة دائما .

قال القاضي ابن شداد : كان شديد الركض بالخيل يلعب بالأكرة ، ومن يراه يلعب بها يقول : مايموت الا من وقوعه عن الفرس ، وركب يوما من داره ، وخرج من باب النصر يريد الميدان ، فشب به فرسه ، فوقع على رأسه فحمل الى داره ، فمكث ثمانية ايام ، وتوفي ليلة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة ، دفن الى جانب أخيه أسد الدين في بيته بالدار السلطانية ، ثم نقلا بعد سنين الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبره في الطريق فحزن عليه وتأسف حيث لم يحضره .

فصل

خلف من الذكور ستة : صلاح الدين ، وأبا بكر العادل ، وتوران شاه شمس الدولة ، وشاهنشاه ، وطغتكين سيف الاسلام وبوري تاج الاسلام ، وهو الأصغر ،وشمس الدولة الأكبر ، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون .

السنة التاسعة والستون وخمسمائة

وفيها كتب صلاح الدين الى نور الدين يستأذنه في انفاذ جيش الى اليمن ، فأذن فبعث أخاه توران شاه شمس الدولة ، فسار اليها في رجب ، وكان باليمن رجل يقال له عبد النبي يلقب بالداعي من أصحاب المصريين ، وكان ظالما فاتكا ، فحصره شمس الدولة في قصر زبيد مدة ، ثم طلب الأمان ، فأمنه ، فلما نزل اليه وكل به ، وسار شمس الدولة ففتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن ، فيقال انه فتح ثمانين حصنا ومدينة واستولى على أموالها وذخائرها وقتل الخارجي وعبد النبي بن مهدي ، وولى على

زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ أبا الميمون ، وكان مــن الفضــلاء جوادا ممدحا .

وفيها أكثر نور الدين الصــدقات والصــلوات وزاد في الأوقــاف وكسا اليتامى وزوج الارامل وأغنى الفقراء ، وكشف المظالم بحيث لم يبق في بلاده مظلمة الا وردها ، وبعث محمد بن خــالد القيسراني أمينا على مال القصر ، ومستوفيا لحواصل البلاد ، فأكرمه صــلاح الدين ، وقال : نحن مماليك نور الدين افعل ماأمرك ، الا أن جماعة من الأكابر قد تصرفوا في أماكن لايمكن انتزاعها منهــم ولايرضــون بأن ينقص انتفاعها ، فعلم ابن خالد ان طاعته انما هــي مخــادعة ومراوغة ، فسكت ولم يشافهه ، ومات نور الدين في شــوال وبــطل ذلك الأمر .

وفيها قبض صلاح الدين على جمــاعة مــن أعيان الدولة المصرية مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما ، بلغه انهــم يجتمعــون لاثارة الفتن ، واتفقوا على الســودان وكاتبــوا الفــرنج ، وأنهــم يريدون قتل صلاح الدين والغز ، ورتبوا مع السودان يبكروا وينادوا بشعار المصريين ، وكان زين الدين ابن نجية الواعظ قــد اطلع على ذلك ، فخاف من صلاح الدين ، فأنهى اليه الحال ومــادبروا فقبض عليهم ، وقتل داعي الدعاة وصلب عمارة وسنذكره .

فصل

وفيها توفي عبد النبي بن مهدي

وقفت على تاريخ بمصر فــرأيت أن شــمس الدولة لما ســار الى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه أن يبعــث اليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صــاحبها الى أبي قبيس فتحصــــن عليه بقلعــة بناهــــا ، وأغلق بـــاب الكعبة ، وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصــلى

ركعتين ، وصعد الى باب الكعبة ، وقال : اللهـم ان كنت تعلم أني جئت الى هذه البلاد لاصـلاح العبـاد ، وتعهـدها فيسر علي فتـح الباب ، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فـلا تفتحـه ، ومـد يده فجذب القفل فـانفتح ، فـدخل شـمس الدولة الى البيت وصـلى ودعا ، فلما بلغ أمير مـكة ذلك نزل الى خـدمته وحمـل المفـاتيح واعتذر ، وقال خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك ، فقـال : اذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصـحابه وطيب قلوبهم ، وسار الى اليمن ، فانهزم عبد النبـي بين يديه الى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتـح البـلاد ، وقتـل خلقـا كثيرا ، وشق بطون الحوامل وذبح الأطفال على صـدورهن ، وكان يرى رأي القـرامطة ، ويظهـر انه داعية لأهـل مصر ويسـتتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبي ، ففعل باليمن مافعله أبـوه وسـبى نسـاءهم واستعبدهم ، وكان أبوه لما مـات بنى عليه قبـة عظيمـة وصـفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمـل في الدنيا مثلها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد الى حضرموت أن يحجوا الى الكعبة ، وأمرهم بالحج الى قبر أبيه ، وكانوا يحملون اليها الأمـوال في كل سـنة مـالايحد ولايحصى ، ويطوفون حولها مثل مايطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشحر ، فـاجتمع فيهـا أمـوال عظيمة ، وأقام عبـد النبي على الظلم والفسـق والفجـور وذبـح الاطفال وسفك الدماء وسبي النسـاء الى أن دخـل شـمس الدولة اليمن ، وجاء الى زبيد فيقال أنه حصر عبد النبي فيها وابنه وقيده وقتله ، وقد ذكرناه ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء الى قبة أبيه فهدمها وأخذ مـافيها مـن المال والجـواهر والفضـة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبـر وأحـرق عظـام أبيه وذراهـا في الريح ، ومضى الى صنعاء ، فحلف شمس الدولة لاينتهي عنه حتـى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه فـرجع الى زبيد ، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به فأخذ ماكان معه ، وقتله .

فصل

وفيها توفي أبو القاسم نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر ، الملك العادل .

أعلم أن سيرة نور الدين أولى ماصرفت العناية اليها ، واعتمد في اقتناء الفضائل عليها ، تحث الطالب على نيل المطالب ، وتعدل بهمة الراغب على تحصيل الرغائب ، وقد ذكر العلماء سيرته ، وسطر الفضلاء ترجمته ، وقد جمعت في كتابي هذا ماتفرق في تواريخهم من محاسن اخباره ، وأتيت على معظم مآثره وآثاره .

فصل

في صفته وطرف من اخباره

ذكر الحافظ ابن عساكر أنه ولد في سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وكان معتدل القامة ، أسمر اللون ، واسع الجبهة حسن الصورة بلحيته شعرات خفيفة في حنكه .

قال : ونشأ على الخير والصلاح ، وقراءة القرآن ، والعبادة ، وكان قليل المحافظة للجند ، وكان أبوه زنكي يقدمه على أولاده ويرى فيه مخايل النجابة ، قال : وفتح نيفا وخمسين حصنا ، منها تل باشر ، وأعزاز ومرعش وبهسنا وتل خالد وحارم والمرزبان ورعبان وكسيون والرها ، وكسر برنس انطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ منه ثلاثة آلاف دينار وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة اسير ، واتسع ملكه ، ففتح : الموصل والجزيرة ، وديار

بكر ، والشام والعـواصم ، ودمشـق وبعلبـك وبـانياس ومصر واليمن ، وخطب له في الدنيا ، واظهـر السـنة بحلب وأزال الاذان بحي على خير العمل ، وبنى بها المدارس وأوقف الأوقـاف ، وبنى سور دمشق والمساجد والمدارس ،وأسقط ماكان يؤخذ من دار بطيخ وسـوق الخيل والغنم والكيالة وجميع المكوس ، وعاقـب على شرب الخمر ، وكان في الحرب ثابت القـدم حسـن الرمـي يتقـدم أصحابه ، ويتعرض للشهادة ، ويسأل الله أن يحشره مـن بـطون السـباع وحـواصل الطير ، ووقـف أوقـافا على المرضى والمجـانين ، وبنى المكاتـب لليتـامى ، وبنى المارسـتان بدمشق ، ووقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا الحجاج ، وأمر باكمال سور المدينة ، وأجرى اليهـا العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة ، وهيأ الربط والجسور والخانات والقناطر ، وجدد كثيرا من قنى السـبيل ، ووقـف كتبـا كثيرة في مدارسه ، وكان حسـن الخـط ، كثير المطـالعة للكتـب الدينية ، متبعا للآثار النبوية ، مـواظبا على الصـلوات الخمس في الجماعات ، عاكفا على تـلاوة القـرآن ، حـريصا على فعـل الخيرات، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا في الانفـاق ، متحـريا في المطعم والمشرب والملبس ، لم يسمع منه كلمة فحش قـط في رضـاه ولافي غضبه ، هذا الى مـاجمع الله فيه مـن العقـل المتين والرأي الصائب الرزين ، والاقتداء بسنة السلف الصـالحين ، حتـى روى حديث المصطفى وأسمعه ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعـه حرصا على الخير في نشر السنة والحديث ، ورجاء به ان يكون ممن حفظ على الأمـة اربعين حـديثا ، كمـا جـاء في الحديث ، فمن رآه شاهد مـن جـلال السـلطنة وهيبـة المملكة مايبهره ، فاذا فاوضه رأى من نصافته وتواضعه مايحيره ، يحـب الصالحين ويوافيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم،هذا قـول ابن عساكر،وذكر كلاما طويلا .

وقال الجزري في تاريخ الموصل (١٢) : قـد طـالعت تـواريخ الملوك المتقدمة من قبل الاسلام الى يومنا هـذا ، فلم أر فيهـا بعـد

الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز ملكا أحسن سيرة من نور الدين ، ولاأكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، ثم ذكر من عدله وزهده وفضله وجهاده واجتهاده من احسن ماذكره الحافظ ابن عساكر .

قال : وكان لاياكل ولايلبس ولايتصرف فيما يخصه الا من ملك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار ، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال ، فأفتوه من جهات عينوها ، فلم يتعد الى غيرها ، ولم يلبس حريرا قط ولاذهبا ولافضة ، ومنع من بيع الخمر في بلاده ، وكان يحد شاربه عند الناس ، وكان كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتمم أوراده ، وكان قد تزوج الخاتون بنت معين الدين ، فطلبت منه زيادة نفقة فقال : قد فرضت لها مايكفيها والله لاأخوض جهنم بسببها ، وهذه الأموال ليست لي وانما هي للمسلمين ،وانا خادمهم فلا أخونهم فيها ، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها ، وكان يحصل منها قدر يسير .

قال وكان يلعب بالاكرة كثيرا ، فكتب اليه بعض الصالحين ينكر عليه ويقول : تتعب الخيل في غير فائدة فكتب اليه نور الدين بخطه : والله مااقصد اللعب ، وانما نحن في ثغر والعدو منا قريب ، فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر ، واذا طلبنا العدو أدركناه ، ولو تركناها بحالها لصارت جهاما لاينتفع بها ، فنيتي في لعب الأكرة هذه .

قال واهديت اليه عمامة مذهبة من مصر فوهبها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حموية (١٣) فبعث بها الى العجم فبيعت بألف دينار قال : وكان عارفا بمذهب أبي حنيفة ، وليس عنده تعصب على أحد .

قال : وكان يوما يلعب بالأكرة في ميدان دمشق فجاءه رجل فوقف بازائه وأشار اليه ، فقال للحاجب : اسأله ماحاجته فسأله فقال : لي مع نور الدين حكومة ، فرمى الصولجان من يده فجاء الى مجلس القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي قد قال : لاتنزعج واسلك معه ماتسلكه من آحاد الناس ، فلما سوى بينه وبين خصمه كآحاد الناس ، فلم يثبت له عليه حق ، وكان يدعي ملكا له في يد نور الدين ، فقال نور الدين القاضي والعدول : هل ثبت له علي حق ؟ قالوا : لا، فقال : اشهدوا أني قد وهبت الملك له ، وقد كنت أعلم أن لاحق لك عندي ، وانما حضرت معك لئلا يقال عني أني دعيت الى مجلس الشرع فأبيت .

ودخل يوما الى خزائنه فرأى مالا كثيرا فقال : من أين هذا ؟ قال : بعث به القاضي كمال الدين (١٤) من مال الأوقاف ، فقال : ردوه اليه وقولوا له : ان رقبتي رقيقة لاأقدر على حمله غدا ، رقبتك غليظة تقدر على حمله ، قال ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق ، وسماها دار الكشف ، وسببه أن الأمراء لما قدموا دمشق اقتنوا الأملاك ، واستطالوا على الناس وخصوصا أسد الدين شيركوه ، وكثرت الشكاوى الى القاضي ، فلم يقدر على الانتصار من أسد الدين ، فأمر ببناء دار العدل .

واحضر أسد شيركوه أصحابه وديوانه ، وقال : ان نور الدين مابنى هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني ، والا فمن هو الذي يمتنع عن كمال الدين ، والله لئن احضرت لدار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه ، فان كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه بمهما أمكن ، ولو أتى على جميع مافي يدي ، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني نور الدين بعين ظالم ، ويسوي بيني وبين آحاد العوام ، ففعلوا وأرضوا الخصوم ، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي : ماأرى أحدا يشكو من شيركوه ، فأخبره الخبر فسجد وقال : الحمد لله الذي جعل اصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا ، فكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل

اسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه .

قال : وكان نور الدين إذا حضر الحرب شد تركاشين وحمل قوسين وساس الحرب بنفسه فقال له القطب النيسابوري : لاتخاطر بنفسك فأنت عماد الاسلام والمسلمين فلو أصبت في معركة والعياذ بالله لايبقى من يقوم مقامك ونهبت البلاد ، فقال له : من محمود حتى يقال له هذا ، ومن حفظ البلاد قبلي الا الله تعالى .

قال : وكان اذا مات أحد من جنده أو قتل وله ولد ، فان كان كبيرا أقر الاقطاع عليه ، وان كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره حتى يكبر فكان الاجناد يقولون : هذه أملاكنا ، ونحن نقاتل عليها لاننا نتوارثها ، قال : ماكان يكل الجند على الامراء بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يفضي الامر الى خفضهم ، ويقول : نحن كل وقت في النفير فاذا لم تكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام .

قال : وبنى جامعه بالموصل ، وفوض عمارته الى الشيخ عمر الملاء ، وكان من الصالحين فقيل له : إنه لايصلح لمثل هذا ، فقال : اذا وليت بعض الأجناد ، أو بعض العمال لايخلو من الظلم ، وبناء الجامع لايفي بظلم رجل مسلم ، واذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم ، فاذا كان الاثم عليه لاعلي .

وكان عمر الملاء من الصالحين ، وانما سمي الملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر ويأخذ الأجرة ، فيتقوت بها ، وكان ماعليه مثل القميص والعمامة مايملك غيره ، ولايملك من الدنيا شيئا ، وكان عالما بفنون العلوم ، وجميع الملوك والعلماء والأعيان ، يزورونه ويتبركون به ، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه

وسلم ، وكان يعمل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل سنة ، ويحضر عنده صاحب الموصل والاكابر ، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه ، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ما شرع أحد في عمارتها الا وقصر فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعا فاشتراها ،وانفق عليها أموالا كثيرة ، قيل ستين ألف دينار ، ويقال ثلاثمائة ألف دينار ، فتم في ثلاث سنين ، ولما تم جاء نور الدين الى الموصل وهي المرة الأخيرة، فصلى فيه ، ووقف عليه قرية بالموصل ، ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها ، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة فترك بين يديه دساتين الخرج وقال : يامولانا أشتهي أن تنظر فيها ، فقال نور الدين : ياشيخ نحن عملنا هذا لله ، دع الحساب الى يوم الحساب ، ثم رمى بالدساتين في دجلة .

قال : وبنى جامع حماة على العاصي ، وهو من أحسن الجوامع ، وقال : وقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ، ففدى نفسه بمال عظيم ، فشاور نور الدين أمراءه فأشاروا عليه ببقائه في الأسر خوفا من شره ، فأرسل نور الدين اليه يقول : أحضر المال ، فأحضر ثلاثمائة الف دينار ، فأطلقه نور الدين ، فعند وصوله الى مأمنه مات ، فطلب الامراء سهمهم من المال ، فقال نور الدين : ماتستحقون منه شيئا لانكم نهيتم عن الفداء ، وقد جمع الله لي الحسنيين الفداء وموت اللعين ، وخلاص المسلمين منه فبنى بذلك المارستان بدمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق ، ووقف عليها الأوقاف .

حكى ابن الاثير قال : وبلغني أن وقوف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة تغل كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك فيه كلام ، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا صحيح الشراء .

قلت : رحم الله المجد أشار الى ذلك ، أما في زمـاننا هــذا فقـد تشعث وقفه وتغيرت صفاته ، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته .

حكى ابن الأثير أيضـا أن بعض الأمــراء كان يحسـد القـطب النيسابوري على قربه من نور الدين فنال منه ، فقال يامسـكين لو نظرت في عيب نفسك لشغلك عن عيوب الناس ، وإن صح ماقلت فله حسنة ، واحـدة يغفـر الله له بهـا كل زلة وهـي العلم ، وأنت واصحابك ليست عند الله حسنة ، والله لئن عدت الى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبنك ، فكف عنه .

قال : ماكان أحد من الامراء يتجاسر ان يجلس عنده من هيبتـه فاذا دخل عليه فقير أو عالم أو رب خرقة قام ومشى اليه واجلسه إلى جانبه ، ويعطيه الاموال ، فاذا قيل له في ذلك ، يقول : هؤلاء لهـم حق في بيت المال ، فاذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا .

وذكره العمـاد الكاتـب في أول البـرق الشـامي وأثنى عليه ، وقال : وفي سنة تسع وستين وخمسمائة وهي التي توفي فيها نور الدين أكثر من الصـدقات والأوقـاف ، وعمـارة المسـاجد المهجورة ، وتعفيه آثار الآثـام ، واسـقاط كل مـاكان فيه الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج ومـايحصل مـن قسـمة الغلات على قويم المناهج .

قال : وأمرني أن أكتب مناشير لجميع أهل البلاد ، فكتبت أكثر من ألف منشور ، وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور ، فكان ثلاثين ألف دينار ، وكان له برسم نفقته الخاصة في كل شهر مـن الجـزية مايبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومـأكوله ، حتـى أجرة خياطه وجامكية طباخه ، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر ، وقيل ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما ، وقيل كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار .

قال : وماكان يصل اليه من الهدايا وغيرها يبعثه الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ، ولايتناول منه شيئا ، وأمر باحصاء مساجد دمشق فاحصيت ، فكانت مائة مسجد ، فأوقف الاوقاف على جميعها ، وذكر العماد جملة من فضائلة ولمعة من فواضله ، ومن المساجد جامع قلعة دمشق ، ومسجد عطية بباب الجابية ، ومسجد الرياحين ، ومسجد سوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ ، ومسجد العباسي ، ومسجد بجوار بيعة اليهود ، ومسجد الكشك وأشياء أخرى .

قلت : وذكره جدي في المنتظم بكلمات يسيرة فقال : ولي الشام سنين ، وجاهد الكفار ، وكان أصلح من كثير من الولاة ، وكان يتدين بطاعة الخليفة ، والطرق أمنة في ايامه، والمحامد كثيرة،وذكر بناء المارستان بدمشق ، وجامع الموصل ، وكان يميل إلى التواضع ، ويحب العلماء وأهل الدين ، وقد كاتبني مرارا ، وذكر أسره لملك الفرنج وأنه أخذ منه ثلاثمائة الف دينار ، وشرط عليه ان لايغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة ايام ، وأخذ منه رهائن على ذلك ، هذا ماذكره جدي في المنتظم في ترجمة نور الدين .

قلت : وقد صنف كتابا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك ، وصنف نور الدين ايضا كتابا في الجهاد وهو بدمشق .

قلت : وقد نقل ذكره علماء السير مما وقع لهم من سيرته ومايستدل به على صالح سريرته ، وقد وقع لي مآثر لم يذكروها ومفاخر لم يسطروها ، ولم تكن لغيره من ملوك الجاهلية ولاالاسلام ، ولاراوها ولو في احتلام ، وكان مشغولا بالصيد ويصيد الغزلان ، فمن ذلك أنه كان في عزمه ان يفتح بيت المقدس ، فعمر منبرا وقبله بجامع حلب على اسم القدس فتوفي قبل الفتوح ، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس حمل المنبر اليه وأبقى القبلة بجامع حلب .

ومنهـــا أنه كان له عجـــائز بـــدمشق وحلب فـــكان يخيط الكوافر (١٥) ويعمل السكاكير للأبواب ويبيعها العجائز ولايدري أحد ، فكان يوما يصوم ويفطر على اثمـانها ، وحـكى شرف الدين يعقوب ولد المعتمد رحمه الله ان في دارهم سكرة من عمـل نور الدين بخوزستان ، وهي باقية الى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها .

ومنها ماحكاه الشيخ أبو عمـر شـيخ المقـادسة رحمـه الله قال : كان نور الدين يزور والدي الشيخ أحمد في المدرسة الصـغيرة التـي على نهـر يزيد المجـاورة للدير ، ونور الدين الذي بنى هـذه المدرسة ، والمصنع والفرن ، قال : فجاء يوما لزيارة جدي ، وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة ، فقال له بعض الجمـاعة : يانور الدين لو كشفت السقف وجددته ، فنظر الى الخشبة وسكت ، فلمـا كان من الغد جاء معماره ومعه خشـبة صـحيحة فـزرقها مـوضع المكسورة ومضى ، فعجب الجماعة ، فلما عاد الى الزيارة قال بعض الحاضرين : يانور الدين مـاتعذبنا بـه في كشـف سـقف فقال : لاوالله ، وانما الشيخ رجل صـالح ، وانمـا أزوره لانتفـع به ، ومااردت أن أزخرف له المسجد وأنقض ماهو صحيح ، وهـذه الخشبة يحصل بها المقصود ، فدعوني مع حسـن ظني فيه ، فلعـل الله ينفعني به .

ومنها ماحكاه لي رجل صالح من أهل حران فقيه الشيخ حياة في سنة خمسين وستمائة قـال : لما قتـل أتـابك زنكي على قلعـة جعبـر ، وملك نور الدين قلعـة حلب تصـدق وأزال المكوس ، ورد المظالم ، وأنا حديث عهد بعـرس ، وقـد ركبني دين ، فقـالت لي زوجتي : قد سـمعت أوصـاف نور الدين واحسـانه الناس ، فلو قصدته وأنهيت اليه حـالك لقضى دينك ، قـال : فخـرجت مـن حران، وليس معي سوى درهمين ، فتركت عندها درهما وتـزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القائلة فعبرت جسر منبج ، وأبعدت عن اعين الناس ، وخلعت ثيابـي ونزلت وتـوضأت للصـلاة وصـليت ركعتين واذا على جانبي شـخص ملفـوف في عبـاءة ، فقـال لي : يافقير مـن أين أنت ؟ قلت : مـن حـران ، قـال والى

اين ؟ قلت : إلى حلب ، قال فما تصنع فيها ؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغني احسان نور الدين الى الخلق ، فقصدته لعله يقضي ديني ، فقال : فأين أنت من نور الدين ، ومن يوصلك اليه وكم عليك دين ؟ فقلت : خمسون دينارا ، فأخرج يده من العباءة ، وبحث في الرمل وأخرج منه قرطاسا وألقاه الي ، وقال : خذ فاقض به دينك وارجع الى أهلك ، قال فأخذته فعددته واذا به خمسون دينارا والتفت فلم أره ، فبهت ، وبت في مكاني أتفكر هل أرجع الى حران أم أمضى الى حلب ، وترجح عندي المضي الى حلب ، وقلت في نفسي : فهذه أوفي بها ديني ، فمن أين أتقوت ، ثم قمت وقصدت طريق حلب فبت بباب بزاعة ونمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، فصليت وقعدت تحت القلعة ، واذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أهبة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء الى الميدان ، فلما أراد أن يدخل نظر الي فرمقني طويلا ، فأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلي وقال : قم فأخذني وصعدني القلعة ، قال : فندمت على مجيئي إلى حلب وقلت : ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح ولعل نور الدين توهم اني اسماعيلي .

قال : فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين الى القلعة ، وجلس في الديوان ، ومد سماط عظيم ولم يمد يده إليه واذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم ، وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل ، فوضعه بين يديه وفيه عصارة عليها رغيف ، فتأملتها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئا وأكل الناس وأكلت معهم ، وصرف الناس ، وبقيت قاعدا خائفا فأومأ إلي فقمت إلى بين يديه وأنا خائف أرعد فقال : من أين أنت ؟ قلت : من حران ، قال : وماالذي أقدمك ؟ قلت : علي دين وبلغني احسانك فقصدتك لتقضي ديني ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون دينارا قال : أما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين دينارا ، هلا رجعت الى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر ، واذا حصل القوت للفقير فما يطلب شيئا آخر ، مايضيع تعبك ورفع سجادته

وكانت زرقاء واذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة ، قال : فبكيت بكاء كثيرا وقلت : لا آخذ شيئا حتى تخبرني بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لايلزمك ، فقلت : يامولانا أنا غريب وضيف ولي حرمة فبالله عليك ، فقال : احلف أنك لاتتحدث بهذا في حال حياتي ، فحلفت له فكشف القباء واذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير ، فقلت : ماالذي أعطاك هذه المنزلة ، بأي شيء وصلت الى هذا فقال بقوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) (١٦) ولابد من السبب ، لما التقينا بالافرنج على حارم ، ونصرنا الله عليهم ، وعدت الى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ، وقال : يامحمود انت من الأبدال وقد أعطاك الله الدنيا فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ثم علمني كلمات ، وقال اذا طلبت أمرا فاذكرها ، فقلت له : بالله من أنت ؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عني ، فاذا عزمت على أمر وأردت أذهب الى مكة أو الى المدينة أو الى أي بلد شئت ، لبست العباءة ، وتكلمت بتلك الكلمات ، وأغمض عيني فما افتحها الا وأنا في تلك البقعة .

قلت وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام ، أحد عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله ، قال : ملك الأشرف بن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة ، وأفرده عن الدور ، ودخلت عليه يوما وهو فيه فقال لي : يانجم الدين كيف ترى هذا المسجد قد عمرته وأفردته عن الدور ، وماصلى فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء ، الى الآن ؟ فقلت له : الله الله يامولانا ، مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات الخمس ، فقال : من أين لك هذا ؟ فقلت : حدثني والدي ، وكان من أكابر عدول دمشق ، وكان أبوه يلقب بالسعيد ، أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها أشرفت على الاخذ ، فأقام نور الدين عشرين يوما صائما لايفطر الا على الماء ، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيبا لايتجاسر أحد يخاطبه في ذلك ، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير

يصلي به في هذا المسجد ، وكان يقرأ القرآن ، وله عنده حرمة ، فاجتمع اليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا : خفنا على السلطان ونحن في هيبة لانقابله ، وانت تدل عليه ، ونحن نسألك أن يتناول مايحفظ به من قوته ، فقال : نعم اذا صليت به غداة الفجر سألته ، قال : فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يايحيى بشر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط قال : فقلت يارسول الله ربما لايصدقني واريد له أمارة، قال : قل له بعلامة يوم حارم ، قال : وانتبه يحيى وهو ذاهب العقل ، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم ، شرع يدعو ، ففاته أن يتحدث معه ، فقال له نور الدين : يايحيى ، قال : لبيك يامولانا ، قال : تحدثني أو أحدثك ؟ قال : فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أحدثك رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة ، وقال لك كذا وكذا ؟ فقال : نعم يامولانا ، مامعنى قوله عليه السلام بعلامة يوم حارم ؟ فقال له نور الدين : لما التقينا خفت على الاسلام لأني رأيت من كثرة الأفرنج ماهالني ، فانفردت عن العسكر فنزلت ومرغت وجهي على التراب ، وقلت : ياسيدي من محمود في الفئتين ، الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم هو فافعل مايليق بكرمك ، قال فنصرنا الله عليهم .

قلت : وحدثني شهاب الدين النابلسي عم جمال الدين البانياسي ، وكان على ديوان جامع دمشق ، أول ماقدمت الشام اجتمعت به في درب العشاريين في قاعة الوزير صفي الدين بن شكر (١٧) وزير العادل ، وكان هناك جماعة ، فاشتغل الوزير بالحديث معهم ، وكان الشهاب الى جانبي ، فتذاكرنا نور الدين ، فقال : كان أبي يخدم نور الدين في أسفاره ومقامه يتصيد في ارض قطنا ويعفور وأنا معه ، فبينما أنا ذات يوم وقد ركب من الخيم ليذهب الى الصيد ، واذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ، وكان معه خيل ومماليك ، وكان تاجرا ، فلما وصل الى نور الدين ، وكان صديقه ، فقال : أين أرمغان ؟ فقال : حاضر

ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه فأحضر قماشا وعدة مماليك ، وفيهم مملوك مستحسن جدا فقبل المملوك ورد الباقي ، وكان له خادم أبيض اسمه سهيل قد رباه فقال له : ياسهيل خذ هذا المملوك اليك وادفع الى التاجر خمسمائة دينار وخلعة وبغلة ، قال أبو الشهاب : فحدثني سهيل قال : لما قال لي كذا قلت في نفسي : إنا لله وانا إليه راجعون ، هذا ما اشترى مملوكا قط يساوي خمسين دينارا يشتري مملوكا بخمسمائة دينار ، قال : ففعلت ماأمرني به فتركني أياما ، وقال : ياسهيل أحضر المملوك كل يوم مع المماليك يقف في الخدمة ، قال : فأحضرته ، فلما كان بعد أيام قال لي : أحضره وقت العشاء الآخرة الى الخيمة ونم أنت واياه على باب البرج ، قال : فقلت في نفسي : هذا الشيخ في زمن شبابه ماارتكب كبيرة ، ولما ارتفع سنه يقع فيه والله لأقتلنه قبل أن يقع في معصية ، قال : فعمدت الى كانة لي فاصلحتها وقلت والله لأقتلنه قبل ان يصل اليه ، وجئت بالمملوك الى الخيمة وأنا قلق ، فسهرت عليه الليل ونور الدين في أعلى البرج ، فلما كان وقت الصبح غلبتني عيناي فنمت ، ثم انقلبت فوقعت يدي على خد الغلام ، واذا به مثل الجمرة قد أخذته الحمى ، فأخذته ومضيت به الى خيمتي فلما أصبحت أحضرت الطبيب ، قال : هذا مرض سماوي ، فلما كان وقت الظهر مات فغسلته وكفنته .

فلما كان اليوم الثاني دعاني نور الدين فدخلت عليه فقال : اقعد فقعدت ، فقال ياسهيل :« ان بعض الظن اثم » قال : فاستحييت ، فقال : قد عرفت حالي وانت ربيتني ، هل عثرت لي على عثرة ؟ قلت : حاش الله ، قال : فلم حملت الكانة وحدثتك نفسك بالسوء ماأنا معصوم ، ولما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار ، فقلت انه من تسويل الشيطان فقلت لك : اشتره لعلي يذهب عني ماأنا فيه ، فلم يذهب فقالت لي نفسي : أريد أن أراه كل يوم فأمرتك باحضاره ، فقالت : ما اقنع الا بأن تحضره فلما كان في تلك الليلة ماتركتني أنام ، وبقيت أنا واياها

في حرب الى وقت السحر ، فهممت أن أفتح باب البرج أصـــعده الى عندي ، فجاءتني اليقظة ، وكشفت رأسي وقلت : الهي محمود عبدك المجـاهد في ســبيلك ، الذاب عن دينك ودين نبيك صـــلى الله عليه وسلم ، عمر المدارس والربط ، وأوقف الأوقاف وفعل ما فعل أيختم له بمثل هذا ؟ قال : فسمعت هاتفا يقول : يامحمود قد كفيناك أمره لابأس عليك فعلمت انه قد حدث ، وأما أنت ياسهيل جزاك الله عن الصحبة خيرا ، والله القتل أهون علي من الوقوع في المعصية ، ثـم قدم سهيلا واحسن اليه .

وحكى لي الكمال ابن البانياسي ، ابن أخي الشهاب قال : حكى من يتولى أوقاف نور الدين أنه أجر بعض بساتينه لرجل من دمشــق على ستمائة درهم ، فأصاب البساتين جائحة ، فجـاء ذلك الرجـل يتضرر ، فاسقطوا عنه ثلاثمائة درهم ، فلمـا كان بعـد أيام جـاء الرجل ومعه ســـتمائة درهـــــم ، وهـــــو يبــــــكي ، فقلنا له : مالك ؟ قال : رأيت في المنام وقد خرج علي نور الدين من القبر وبيده جــــوكان ، وقــــال : أنت تـــكسر وقفـــي وأراد ان يضربني ، فقال : أنا تائب ورمـــى بـــالدراهم ، فقلنا له : خـــذها فقال : لا والله أخاف أن يضربني .

وحكى شيخنا تاج الدين الكندي ، رحمه الله ، قـــال : مـــاتبسم نور الدين إلا نادرا ، وحكى لي جماعة من المحدثين انهم قرأوا عليه حديث التبسم ، وكان يرويه فقالوا له : تبسم ، فقال : لااتبسم من غير عجب .

وحدثني رجل من أهل حران قال : خـــرج يومـــا نور الدين مـــن حران قاصدا الى الرها ، فـــاجتاز على نهـــر وفقير نائم على جنب النهر فوقف وسلم عليه ، فـــرفع اصـــبعا واحـــدة ، فحـــرك الفقير اصبعين ، ومضى نور الدين باكيا ، فقيل له : ماهذا ؟ قال : أشار الفقير إلي ، وقال في أي شيء أنت ، هذا كله لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد ، فأشار الي بـــاصبعيه فـــأنا آكل كل يوم رغيفين وأنا

مثاك ، وذكر الاستاذ الجزري في تاريخه قال : كان نور الدين قد جمع العساكر من الموصل والجزيرة وديار بكر ليتركها بالشام في مقابلة الفرنج ويتوجه بنفسه الى مصر ، فإنه رأى من صلاح الدين فتورا في غزو الفرنج ، وكان المانع لصلاح الدين خوفه من نور الدين ، فكان يقصر في غزوهم ، وماكان يرى نور الدين الا خلاص القدس منهم واستئصالهم من السواحل ، فمضى الى دمشق وأقام يتجهز فأدركه أجله وهو على هذه النية .

ذكر وفاته

كان ختن ولده اسماعيل يوم الفطر ، وهنيء بالعيد والطهور ، ومدحه الشعراء ، وخرج نور الدين يوم الاحد الى المصلى بالأمراء والأجناد ، والقدر يقول : هذا آخر الأعياد ، فمرض وبدأ به الخوانيق ، وماكان يرى الطب ، قال الرحبي الطبيب : فاستدعانا ، فدخلنا عليه ونحن جماعة من الأطباء وهو في قلعة دمشق في بيت صغير ، كان يتعبد فيه ، وقد استحكم منه المرض واستحكمت الخوانيق على حلقه ، فما كان يسمع له صوت فشرعنا في مداواته ، فلم ينجع فيه الدواء مع حضور أجله ، وكانوا قد أشاروا عليه بالفصد في أول المرض ، فامتنع وكان مهيبا فما روجع ، وكانت وفاته يوم الاربعاء حادي عشر شوال ، ودفن بالقلعة ، ثم نقل الى مدرسته التي انشأها مجاورة الخواصين ، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز ، وقيل دار سليمان بن عبد الملك ، وعاش ثمانيا وخمسين سنة ، وكانت أيامه ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وقال عرقلة في مدرسة نور الدين :

ومدرسة سيفنى كل شيء
وتبقى في ذمي علم ونسك

تضوع ذكرها شرقا وغربا
بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق
بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي
وهذا في المدارس بيت هلكي

ورثاه رحمه الله تعالى جماعة من الشعراء فقال العماد الكاتب فيه :

عجبت من الموت كيف اهتدى
الى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستديـ
ـر في الارض والأرض وسط الفلك

وقال ايضا :

ياملك ايامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخرة
ملكت دنياك وخلفتها
وصرت تملك بها الآخرة

وحكى أبو اليسر شاكر بن عبد الله قال : تعدى بعض أمراء صلاح الدين على رجل وأخذ ماله ، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيده فجاء الى قبر نور الدين فشق ثيابه وحثا التراب على رأسه ، وجعل يستغيث : يانور الدين بن أتابك ، ويبكي ، وبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله ، فازداد بكاؤه فقال له صلاح الدين : مايبكيك وقد انصفناك ؟ فقال : انما أبكي على ملك انتصفت ببركاته بعد موته ، كيف يأكله التراب ، ويفقده المسلمون .

ذكر ألقاب نور الدين

السلطان الملك العادل ، العالم ، العامل ، الزاهد ، العابد الورع المجاهد المرابط ، نور الدين ، وعدته ، وركن الدين وسيفه ، قسيم الدولة وعمادها ، اختيار الخلافة ومعدها ، رضي الامامة وأميرها ، فخر الملة ومجيرها وشمس المعالي وملكها ، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها ، محيي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين .

وذكر ألفاظا أخر ، ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي ، وروى أنه كتب رقعة بخطه الى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له به على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ماليس فيه ، فكتب ابن القيسراني (١٨) كلاما ، ودعا له فيه ، ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر ، اللهم واصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر ، ناصر أمير المؤمنين ، قال : هذا مايدخله كذب ولاتزيد ، فكتب نور الدين بخطه على رأسه ، مقصودي أن لايكذب على المنبر ، انا بخلاف كلما يقال أفرح بما لاأعمل إنه عمل عظيم ، الذي كتبت به جيد ، اكتب به نسخا الى البلاد ، فكتب ، وكان يقول لأصحابه حرام على كل من صحبني ، ولايدفع الي قصة مظلوم لايستطيع الوصول الي .

وذكر ابن الاثير في تاريخه وقال : كان مجلس نور الدين مثل مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لايسمع لأحد فيه كلمة الا مفيدة ، فلما ملك صلاح الدين دمشق حضر الحافظ ابن عساكر مجلسه ، فسمع لغطا كثيرا وكل واحد يتحدث مع الآخر ، وليس

المجلس هيبه ، فبكى الحافظ وقال : يرحم الله نور الدين ، فلقد حضرت مجالسه مرارا فما سمعت أحدا ينطق الا جوابا ، فما هذا اللغط ؟ فبلغ صلاح الدين فقال : اذا حضر الحافظ عندنا فلايتكلم أحد بكلمة .

ذكر ماجرى بعد وفاته

كان ولده الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكانه ، وحضر القاضي كمال الدين الشهرزوري وشمس الدين بن المقدم (١٩) وجمال الدين ، وريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح ابن العجمي (٢٠) أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا أن تكون ايديهم واحدة ، وأن شمس الدين المقدم اليه تقدمه العساكر وتربية الملك الصالح ، ووصل كتاب صلاح الدين من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه : أدام أيام مولانا الملك الصالح ورفع قدره ، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره ، اصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة ، وفيه اقيمت الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح بذكره في الموسم العظيم ، والجمع الذي لالغو فيه ولاتأثيم ، وأشبه يوم المملوك فيه أمسه في الخدمة ووفى بما لامه من حقوق النعمة ، وجمع كلمة الاسلام لعلمه أن الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلد ملك مولانا السلطان الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه ، ويديم النعماء عليه ، وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية .

ولما بلغ الفرنج وفاة نور الدين قصدوا بانياس طمعا في البلاد ، فراسلهم شمس الدين بن المقدم ، وخوفهم بأس صلاح الدين ، فلم يلتفتوا فصالحهم على مال ودفعه اليهم في ذلك الوقت ، وبلغ صلاح الدين فشق عليه ، وكتب الى شرف الدين ابن أبي عصرون يقول : لما بلغني وفاة المرحوم ، خرجت من مصر لقصد الجهاد وتطهير البلاد من أهل الكفر والعناد فبلغني حديث الهدية

المؤننة بذل الاسلام ، وشـين شريعـة المصـطفى صـلى الله عليه وسلم ، وسيدنا الشيخ أولى من جرد لسانه في انكار هذا الأمر فان بلسانه تغمد السيوف وتتجرد الحقوق ، واما سيف الدين غازي فقد كان سـار عن الموصل لنجدة عمه نور الدين ، ووصل الى حران فبلغه وفاة عمه فاستولى على الجزيرة بأسرها ماخلا قلعة جعبر ، وكان نور الدين قد أبطل المكوس والخمور من الجزيرة ، فأعادها سيف الدين وأقام منانيا ينادي في الاسواق وبيده باطية خمر وقدح وهو يشرب ، فكثر التـرحم على نور الدين ، وأراد سـيف الدين العبـور الى الشـام والاستيلاء على حلب فقال له الامراء : ارجـع الى بلدك فقـد ملكت الجزيرة ولم يملكها ابـوك ، وصـلاح الدين بين يديك ، فـكتب الى أمـراء نور الدين يلومهـم حيث ملكوا سـيف الدين الجزيرة ، ويقول : سوف أصل الى خدمة ابن مولاي وأجازي انعام والده علي ، وماعاملني به ، وكان شمس الدين بـن الداية في قلعـة حلب حاكما عليها هو وأخواه مجد الدين ابو بـكر (٢١) وسـابق الدين عثمان ، وكانوا أعز الناس على نور الدين ، وكان نجم الدين أبو بكر رضيع نور الدين ، وكانت شـيزر لشـمس الدين علي بـن الداية ، وقلعة تل باشر لأخيه سابق الدين عثمان وحارم لبدر الدين احمد أخيهما ، وكان نور الدين قد اسكنهم معه بقلعة حلب ولايصدر الا عن رأيهم ، فلما مات نور الدين لم يشكوا أنهم أحق بتربية ولده من غيرهم ، وكان أوجههم شـمس الدين ، وكان بـالقلعة معـه شاذبخت الخادم ، فلما وصل سيف الدين الى الفرات ارسل شمس الدين الى دمشق فطلب الملك الصـالح ليدفـع بـه سـيف الدين ، فقالوا : ان سيرتموه اليه استولى على تربيته ، فـاعتذروا اليه ، وأقام الملك الصالح بدمشق تمام هذه السنة .

انتهت ترجمة نور الدين رحمة الله عليه وصلى على أشرف خلقـه محمد وآله .

السنة السبعون وخمسمائة

فصل

ملك صلاح الدين .....

لما انقضت نوبة الاسطول فسار اليها بعساكره ، وكان ابن المقدم قد كاتبه والقاضي كمال الدين بن الشهرزوري ، وابن الجاولي والأعيان ، وكان بالقلعة ريحان الخادم فعزم على قتاله فجهز اليه عسكر دمشق ، وركب صلاح الدين من الجسور والتقاه أهل دمشق بأسرهم وأحدقوا به ، فنثر عليهم الدراهم والدنانير ، وجاء صلاح الدين فدخل دمشق ، ولم يغلق في وجهه باب ولم يمنعه مانع .

وقال القاضي الفاضل ، فملكنا دمشق عناية لا عنوة ، وكان عسكر دمشق لما رأوا فعل العوام بصلاح الدين انكفؤوا راجعين الى القلعة ، ونزل صلاح الدين بدار العقيقي وكانت دار أبيه ، ونزل أخوه شمس الدين بدار عمه أسد الدين شيركوه ، وتمنعت عليه القلعة أياما ، ثم سلمها إليه ريحان الخادم ، وأحسن صلاح الدين الى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري ، ومشى الى دار كمال الدين (٢٢) فانزعج وخرج الى لقائه ، ودخل صلاح الدين فجلس وباسطه ، وقال : ياكمال الدين لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات — وكان كمال الدين يكرهه فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر احكامه — فقال له صلاح الدين ما مشيت اليك الا لأزيل ما في خاطرك من الوهم ، وأعرفك ان ما في قلبي لك ماتكره ، فطب نفسا وقر عينا ، فالامر أمرك والبلد بلدك .

قلت : ومشي صلاح الدين الى دار كمال الدين من أحسن ما سطر في السير ، وهو دليل على تواضعه وعفوه بعد ما قدر ، فيا طوبى لمن جاء بعده ان فكر واعتبر ، وعرف قدر انعام الله عليه فحمد

وشكر ، وأكثر الشعراء في اخذ صلاح الدين دمشق ، ثم ان صلاح الدين اسكن أخاه طغتكين قلعة دمشق ، وطغتكين هو سيف الاسلام ، ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتابا يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي مايجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وماقصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج ، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد ابن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي ، فأشاروا اليه بأن يكاتبه بالغلظة ، فكتب اليه منكرا عليه ، وينسبه الى كفر النعمة ، وجحد احسان والده وأوعده وهدده ، وبعث بالكتاب مع ينال بن حسان صاحب منبج ، فأغلظ لصلاح الدين في الجواب وقال : السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك ، وأشار الى سيفه فغضب صلاح الدين وقال : والله لولا أنك رسول لضربت عنقك ، والله ماجئت الى هاهنا شرها ولاطمعا في الدنيا ، وفي مصر كفاية ، وماجئت الا لأستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك ، فأنتم سبب زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد الى حلب واستناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ، وسار الى حمص فأخذها ، وفتح حماة ، وسار الى حلب فاستغاثوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم ضياعا ومالا فأرسلوا اليه جماعة من فتاكهم ورآهم ناصر الدين خمارتكين صاحب ابي قبيس فعرفهم ، لأنه كان منازعا لهم ، وأنكر عليهم مجيئهم ، وسبق الى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة ، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين ، وكان أمير جنوده سيف الدين طغريل ، فجذب السيف وقتل واحدا منهم ، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم ، ورحل صلاح الدين عن حلب في أول رجب وجاء الى حمص ، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريحاني ، ووصل عسكر الموصل الى حلب ، وانضاف اليهم عسكر حلب ، ونزلوا تل السلطان فساق عليهم وبغتهم وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي ، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا الى حلب ، وغنم أثقالهم وأسر رجالهم ، فجاء فحصر

حلب وهي المرة الثانية من حصار حلب والمرة الاولى من كسرة الموصل ، ورجع صلاح الدين فنازل حصن بارين واخذه من ابن الزعفراني ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ولقبه فخر الدين واسمه مسعود ، وأعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود ، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وجاءته رسل حلب ، واتفق الحال أن يكون بدمشق نائبا عن الملك الصالح ابن نور الدين فأجابهم ، وشفع في بني الداية وقال : لابد منهم فلهم علينا حقوق كثيرة ، فقالوا : نعم ، وفارقوه على ذلك وجاءته الخلع والتشريفات من الخليفة ولأهله ، ولقب بالملك الناصر .

فصل

وفيها وصلت البذوية من العراق بين عشرة آلاف فارس وراجل فنزلوا بزاعة والباب فقتلوا ثلاثة عشر الفا من أمراء الاسماعيلية ، وسبوا نساءهم وذراريهم ، وعادوا الى العراق ومعهم الغنائم والرؤوس على رماحهم وعلى القصب عشرون الف أذن ، وبعث صلاح الدين العساكر فأغاروا على البلاد الاسماعيلية وأحرقوا سرمين ومعرة مصرين ومصيات ، وضياع جبل السماق وقتلوا معظم أهله .

وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر ، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له : تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد فقال : مالي عنك مندوحة أنت كاتبي ووزيري وقد رأيت على وجهك البركة فاذا سلمت غيرك تحدث الناس ، فقال الفاضل : هذا يحل التراجم وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك ، فاذا غبت قام مقامي وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية ، فاستكتبه .

وفيها استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن علي بن جلال الدين الوزير الاصبهاني فظهر منه من الكفاية والنهضة وحسن التدبير والكتابة مالم يكن في أحد، وكان عمره خمسا وعشرين سنة ....

السنة الحادية والسبعون وخمسمائة

وأما أخبار الشام فان الحلبيين نقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين ، وسببه أن سيف الدين غازي لامهم على ذلك ، وأرسل رسولا ، ووقع له كتابين أحدهما الى صلاح الدين ليأخذ منه عهدا للمواصلة ويكشف ماعنده ، والكتاب الثاني الى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه مقبل بعساكر الشرق ، وكان صلاح الدين بدمشق فبدأ به الرسول وقد ربط الكتابين في منديله لتغفله ، فلما دخل على صلاح الدين غلط فناوله كتاب الحلبيين لسعادة صلاح الدين فتأمله وعلم أن الرسول غلط فلم يقل له كلمة وفهم الرسول ، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك ، وكتب صلاح الدين إلى مصر لأخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية الى الشام سرعة ، وجمع سيف الدين العساكر من الجزيرة ، وكان أخوه عماد الدين زنكي بسنجار عاصيا له مائلا الى صلاح الدين ، فصالحه وجاء سيف الدين فقطع الفرات ونزل عليها وبعث الى أمراء حلب وكمشتكين الخادم وتقرر بينهم أمر ، وسار الى حلب والتقاه الملك الصالح بن نور الدين فاعتنقه سيف الدين وبكى ، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة ، وصعد القلعة جريدة ، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته ، ثم رحل الى تل السلطان ومعه عساكر الشرق وديار بكر والحلبيين فكانوا عشرين ألفا مابين فارس وراجل ، وبلغ صلاح الدين ، وهو بدمشق ولم يكن عنده سوى ستة آلاف ومارأى التخلف عن لقائهم وكان في انتظار العسكر المصري فسار ونزل

حماة وترك اثقاله بها ، وسار الى جباب التركمان ، وجاءه رسول الحلبيين يخوفونه بأسهم ويأمرونه بالرجوع الى مصر .

قال رسولهم : فوافيته وهو في خيمة صغيرة على بساط لطيف ، وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة الى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه معلق في عمود الخيمة ، فلما رأيته وقع في خاطري انه المنصور ، لأنني فارقت سيف الدين والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق والخواطي تعمل ، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج العسكر بصوت الآذان ، وفي كل خيمة امام فقال لي : الحق بأصحابك وقل لهم يستعدوا للقائي فاني عند طلوع الشمس نازل عليهم (ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين) (٢٣) .

قال : ففارقته وأنا على بصيرة من نصره وخذلانهم ، وسقت عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى ، فطلبت سيف الدين فقيل هو نائم قال : والله ماانتظر الشمس الا واعلام صلاح الدين قد اقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام فقاموا مسرعين وكان يوم الخميس عاشر شوال وكان على ميمنة صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى ميسرته ابن زين الدين صاحب إربل وصاحب بصرى وهو في القلب ، وكان في ميمنة المواصلة مظفر الدين ابن زين الدين صاحب إربل ، وعلى ميسرته الحلبيون وسيف الدين في القلب ، وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين ، وحمل الحلبيون على ميمنته فدعتعوها ، فنزل اليهم واتفق وصول العساكر المصرية في تلك الساعة مع تقي الدين عمر ، وعز الدين فرخشاه وناصر الدين محمد ابن أسد الدين فهال ذلك الحلبيين من دق الكوسات ، وكثرة الأطلاب ، والعدد الوافرة والخيل العربية ، فانخذلوا وولوا منهزمين ، وساق صلاح الدين خلفهم وأسر أمراءهم ، ونجا سيف الدين بنفسه ، وعاد صلاح الدين الى خيامهم فوجد سرادق سيف

الدين مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره ، والخمور تروق ومطابخه بقدورها ، وفيه اقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات ، فأرسل صلاح الدين بما كان في السرادق والمغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول قل له : اشتغالك بها اليق من مباشرة الحروب ، ولاتعد الى مثلها ، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على اصحابه وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا ، ثم سار صلاح الدين فنزل على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان فقاتله ، واتفق وقوع ثلمة في السور وطلب الأمان على نفسه فأمنه ، فخرج سليبا ، وخرج صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة الف دينار وعرض عليه المقام عنده فامتنع وكان بينه وبين صلاح الدين شنأن قديم ، فأنف ان يكون تبعا له ، فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين الرقة ، وسار السلطان افتتح حصن بزاعة ، ونازل أعزاز فأقام عليه ثمانية وعشرين يوما ، وفتحه في ذي الحجة .

فصل

وفيها وثبت الاسماعيلية على صلاح الدين وهو على أعزاز ، جاءه ثلاثة في زي الأجناد ، فضربه واحد بسكين في رأسه وكان في عمته زرد مدفون فلم يجرحه وخدشه السكين في خده وقتل داود بن مسكلان وقتل الثلاثة ، فرحل صلاح الدين فنزل على حلب ، فبعث الملك الصالح اخته الخاتون بنت نور الدين الى صلاح الدين في الليل ، فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض وبكى على نور الدين ، فسألت أن يرد عليهم أعزاز فقال : سمعا وطاعة وأعطاها اليها ، وقدم إليها من الجواهر والتحف والمال شيئا كثيرا ، واتفق مع الملك الصالح أن له حماة ومافتحه إلى مصر ، وأن يطلق الصالح أولاد الداية .

وســـار الى بـــلاد الاســـــماعيلية فنصـــــب المناجيق على مصيات ، ونهب العســاكر بـلادهم ، وقتلوا وســبوا وكان مقــدم الاسماعيلية سنان بن محمد ، وارســل الى شــهاب الدين محمــود صاحب حماة خال صلاح الدين يقول له : نحن جيرانك وقد فعل ابن اختك مافعل ، والمصــلحة رحيله عنا ، فـاشفع اليه ، فمـا امــكنه مخالفتهم ، فأخبر صلاح الدين وقال اخــاف على نفسي فــرحل الى دمشق .

فصل

وفيها قدم شمس الدولة اخو صلاح الدين من اليمن الى دمشق في سلخ ذي الحجة ، وفيها فوض سيف الدين غازي أمر الموصــل الى مجاهد الدين قيماز الخادم ، وكان قبل ذلك نائب سيف الدين .

السنة الثانية والسبعون وخمسمائة

.....وفيها تزوج صــلاح الدين بــالخاتون عصــمة الدين ، بنت الامير معين الدين انر زوجــة نور الدين محمــود ، وكانت بقلعــة دمشق ، زوجها منه شرف الدين بن ابي عصرون .

وفيها كانت نوبة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع كل أسود بـــالصعيد ، وســـار إلى القـــاهرة في مـــائة الف ليعيد الدولة المصرية ، فخرج اليه الملك العــادل ســيف الدين ، وأبــو الهيجــاء الهكاري وعز الدين موسك ، وقتل الكنز بمن معــه ، ويقــال انهــم قتلوا منهم ثمانين الفا ، وعادوا الى القاهرة فقال العماد الكاتــب : قتل الكنز وما انتطح فيها عنزان .

وفيها سار صلاح الدين الى مصر واستناب أخاه شــمس الدولة

على الشام ، وجـاءت الفـرنج الى داريا فـأحرقوها ، ونهبـــوا وعادوا .

وفيها أمر صلاح الدين قراقوش بعمارة سور على القاهرة ومصر وضيع فيه أموالا كثيرة ، ولم ينتفع به أحد .

وفيها أبطل صلاح الدين الخفارة التي كانت تـؤخذ مـن الحـاج بجدة مما يحمل في البحر ، وعوض صاحب مكة في كل ســنة ثمـانية آلاف اردب قمح تحمل إليه في البحر ، ويحمل مثلها فتفـرق في أهـل المارستان في القصر ، ووقف عليهما الأوقاف وعلى اهل الحرمين ..

السنة الثالثة والسبعون وخمسمائة

فصل

...وفيها كانت وقعة الرملة في جمادي الآخرة خرج صـلاح الدين من مصر بالعساكر على عسقلان ثم رحل يريد تل الصافية فازدحمت العساكر على الجسر يريدون العبور ، فلم يشعروا الا وقد خـالطهم الفرنج فبعث تقي الدين عمر وقاتل ، ثم قتل من المسلمين خلق كثير وانهـزمت عسـاكر الاســلام وأسر كثير ، منهـــم الفقيه عيسى وغيره ، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد ، وسار صـــلاح الدين في الليل الى مصر مـــن غير دليل ولا مـــاء ، ولا زاد ، وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع أبلت في الاسلام فأوهنت صلاح الدين ، لأنه كاد أن يتلف جوعا وعطشـا ، ونهبـت خـزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله ، وكان مقدم الفـرنج ارناط وكان مـن أكبر ملوك الفرنج ، وكان نور الدين قد أسره في وقعة حارم وحبسه في قلعة حلب ، فـأطلقه الملك الصـــالح فجـاء ومعــــه ملوك الفرنج ، وماأتلف عســكر المســلمين إلا انهـــم تفـــرقوا في الغارات ، وكانو زيادة على عشرين الفا ، ووقعت الكسرة ومعظمهم

لم يعلم فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين ولم يكن لهم حصن يأوون اليه فدخلوا الرمل ، وتبعهم الفرنج قتلا وأسرا ، ومن سلم منهم مات جوعا وعطشا وكان يوما عظيما على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين .

ورجع أرناط بجمعه الى حماة فأناخ عليها ، وبها شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، وهو يومئذ مريض ، وعنده سيف الدين المشطوب فقاتلهم العسكر وأهل حماة قتالا عظيما ، ولولا المشطوب لملكوها وقطعوا أشجارها وأحرقوا ضياعها ، ورحلوا إلى حارم وبها كمشتكين الخادم عاصيا على الملك الصالح اسماعيل ، فنصبوا عليها المناجيق وقاتلوها أياما فلجأت الضرورة الى مصالحة الملك الصالح فبعث اليه النجدة فرحلوا الى أنطاكية وقتل كمشتكين وأبو صالح بن العجمي ، وبلغ صلاح الدين نزول الفرنج على حماة ، فجمع العساكربمصر ، وسار الى الشام فقدم دمشق وبها أخوه شمس الدولة مشغول بلذاته ولهوه ، وكان قد بعث الى الفرنج بمال مصانعة ، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله ، وقال انت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين ، وكان وصول صلاح الدين الى دمشق في شوال ، واستناب بمصر أخاه العادل ابا بكر ...

فصل

وفيها توفي كمشتكين الخادم خادم نور الدين محمود وكان من أكابر خدمه ، ولاه قلعة الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب الى حلب ، وخدم شمس الدين بن الداية ، ثم جاء الى دمشق وأخذ الملك الصالح ، وجاء به الى حلب وقد ذكرناه وأقطعه الملك الصالح حارم وأقام بها ، وعصى عليه ، فلما حصره الفرنج صالحه وقد ذكرناه .

واختلف في قتله على قولين : أحدهما ان كمشتكين حسد ابا صالح بن العجمي وزير الملك الصالح ، فوضع عليه الاسماعيلية فقتلوه ، واستقل كمشتكين بالأمر فقيل للملك الصالح ما قتل وزيرك الا الخادم ليستبد بالامر ، فحبسه وطالبه بتسليم قلعة حارم ، فكتب الى نوابه ان يسلموها قال العماد الكاتب فلما طال أمره قصر عمره .

والثاني أنهم لما امتنعوا من تسليم قلعة حارم خرج اليها الملك الصالح من حلب ومعه الخادم فقال: مرهم بتسليمها فلم يقبلوا ، فعلقه منكوسا وبخن تحت أنفه ، فمات ، وعاد الملك الصالح الى حارم فأخذها وسلمها بعد ذلك الى مملوك أبيه جرديك ...

فصل

وفيها توفي شهاب الدين محمود خال صلاح الدين ، كانت له حماة فنزلت عليه الفرنج وهو مريض فتوفي ، وأعطاها صلاح الدين لناصر الدين منكورس بن خمارتيكن صاحب صهيون ، وقيل انما اعطى صلاح الدين حماة لتقي الدين عمر ، وقيل في السنة الآتية ، وكان ناصر الدين نائبا عن تقي الدين ......

السنة الرابعة والسبعون وخمسمائة

فصل

وفيها عصى شمس الدين ابن المقدم ببعلبك وكان صلاح الدين قد أعطاه اياها ، وقدم صلاح الدين دمشق فأرسل الى ابن المقدم

يطلبه ، فـاعتذر خـــوفامن شـــمس الدولةلانه طلب منه بعلبـــك فامتنع ، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك وأقام تسعة أشهر يحاصرها فنفد ما عنده ، فأرسل الى السلطان يطلب العـوض فأعطاه بارين وكفر طاب وخرج شمس الدين بن المقدم اليها وسـلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة. وفيها مات الهذفـري ملك الفرنج ، بلغ صلاح الدين انه يريد ان يغير على دمشق فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعسكر دمشق الى عين الجـر وقـال: تقيم هناك الى مرج عيون ، فان جاؤوك ، فـأرسل كتـب الطيور الي ولا تواقفهم حتى آتيك ، فسار فنزل مرج عيون فلم يشـعر الا بـطلائع الهذفري قد خالطوه ، فـاضطر الى القتـال فـاقتتلوا أشـد قتال ، فجرح الهذفري واثقلته جراحه فأوثقوه وأخذوه ، وانهـزموا وغنمهم فرخ شاه ومات هنفري بعد أيام ، وجاء صـلاح الدين فنزل قصر يعقوب وبعث السرايا والغارات الى بلد الفرنج ...

السنة الخامسة والسبعون وخمسمائة

وفيها كان السلطان نازلا على تل القاضي ببانياس ، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم ، ويستوعبوا ما بقي في ايديهم من الغلات في يوم واحد ، ثم رجعوا فرحلوا صوب البقاع ، فنهضوا ليلة الاحد ثاني عشر محرم ، فلما اصـبح جـاءه الخبر بأن الفـرنج قـد خـرجوا فـالتقاهم ، وأنزل الله نصره على المسلمين ، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وانهزمت رجـالتهم في أول اللقاء

فأسر مقدم الداوية والاسبتار ، وصاحب طبـرية وابـن بيزران صاحب الرملة ، وابن القـومصية ، وقسـطلان يافـا ، وصـاحب جينين ، وصاحب جبيل ، وكانت وقعة عظيمـة ، فخلص بعضـهم ومات بعضهم في الأسر وخلص الفقيه عيسى ، وكان قـد أخـذ مـن الرملة وقد ذكرناه ، وحسب من القطيعة بسـتين الف دينار ، وقيل

إن وقعة مرج عيون كانت في المحـرم ، وهـذه وقعـة مخـاضة بيت الاحزان .

وفيها سار السلطان في ربيع الاول الى حصن يعقـوب ويسـمى قصر يعقـوب وبيت الاحـزان عند المخـاضة ، فنصـب عليه المناجيق ، وخلع على النقابين ، وبـاشر القتـال بنفسـه فعلقـوا النقوب ، وأحرقوا الأخشـاب فسـقطت الابـراج ، فصـاحوا الامان ، وعاجلهم المسـلمون ففتحـوه عنوة ، وكان عرض سـوره عشرة أذرع وطوله أربعون ذراعا فقتـل المسـلمون منهـم الفـا وخمسمائة ، وخلصوا من اسارى المسلمين مائة اسير ، وكان بيت الاحزان الذي يزعمون أن يعقوب كان ينفرد فيه ويبكي على يوسـف كنيسة ، فجعله السلطان مسجدا وذكر الشعراء هذا الحصن فقـال احمد بن نفانة الدمشقي ويلقب بالنشو :
فقال :

هلاك الفرنج اتى عاجلا
وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قدنا حتفها
لما عمرت بيت أحزانها

وكتب الفاضل الى بغداد كتاب كسر الفرنج ، فأمر الخليفـة بضرب البوقات والدبادب على أبواب الامراء ما عدا طبـول الخليفـة ، ولم يشهد تقي الدين هذه الغـزاة ، وسـببه ان قليج ارسـلان نزل على حصن رعبان في عشرين ألفا وادعى انه له ، فسار تقي الدين إليه في ألف فارس وهزمه ، فكان تقي الدين يدل بهذه الوقعـة حيث هـزم الوفا بألف ، انتهى .

وفيها ختن السلطان ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين ، ويعرف بابن المجاور معلما وتسلم فرخشاه بعلبك ومـات المستضيء ...

السنة السادسة والسبعون وخمسمائة

فصل

وفيها توفي سيف الدين صاحب الموصل

وفيها سار صلاح الدين الى بـلاد الروم ، وسـببه ان نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سكمان بن أرتق صاحب حصن كيفا قـد انتمى اليه ، وكان عز الدولة قليج ارسـلان بـن مسـعود بـن قليج ارسلان قد زوجه ابنته فأساء العشرة معهـا ، فـكتبت الى ابيهـا تشكوه فبعث اليه ، إما ان تحسن عشرتها ، وإما ان تفارقها ، فلم يلتفت اليه ، وكاتب صلاح الدين فسار في نجدته فالتقاه ابـن أرتـق على نهر يقال له الأزرق بين بهسنا وحصن منصور ، ثم عبـرا منه الى النهر الأسود ، وجاءت رسل قليج وتقرر الصلح وعاد السلطان الى بلاد ابن ليون فـأخربها ونهبهـا ، فصـالحه على مـال واسارى ، فرجع الى دمشق ....

وفيها توفي الملك المعظم شـمس الدولة أخـو صـلاح الدين لأبيه ، واسمه توران شاه ، ولقبه فخر الدين وكان أكبر من صلاح الدين ، وقد ذكرنا اخباره ودخوله الى اليمن وأخذه لبعلبـك ، وكان جوادا سمحا حسن الأخلاق ، الا انه كان في نفسه مـن الملك ويرى انه احق به من صلاح الدين ، ، وكانت تبـدو منه كلمـات في حـال سكره ، وبلغ صلاح الدين فأبعده الى اليمن فسـفك الدمـاء وقتـل الأرامل وأخذ الأموال ، وأعطاه بعلبك ، فبلغه عنه اشياء فخاف منه فأبعده عنه إلى الاسكندرية ، فـأقام بهـا منعـكفا على لهـوه ولعبه ، ولم يحضر حروب أخيه صلاح الدين ، فتوفي بالاسكندرية في هذه السنة ، فأرسلت أخته ست الشام وكانت شـقيقته فحملتـه في تابوت الى دمشق فـدفنته في تـربتها التـي انشـأتها على الشرف الشمالي عند العوينة ، وبنت عليه قبة وبهذه التربة ولدهـا حسـام

الدين بن لاجين ، وزوجها ناصر الدين محمد بن اسد الدين شيركوه ، ودفنت هي بعد الكل ، (٢٤) وسنذكرها إن شاء الله تعالى .

فصل

وفيها توفي سيف الدين غازي بن مودود بن غازي بن آقسنقر صاحب الموصل ، ابن اخي نور الدين ، وكان من أحسن الناس صورة عاقلا وقورا غيورا للدماء مع شح كان فيه ، قال المجد ابن الأثير : كان قد علق عليه سل ، وطالت علته ، وأجدبت البلاد قبل موته ، وخرج الناس يستسقون وخرج سيف الدين معهم ، فاستغاث اليه الناس وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟ فقال: قد ابطلتها ، ورجع البلد وفيهم رجل صالح يقال له ابو الفرج الدقاق ، فأهرق الخمور لاغير ، ونهب العوام دكاكين الخمارين ، فاستدعي الدقاق الى القلعة وقيل له: أنت جرأت العوام على السلطان ، وضرب على رأسه ، فانكشف رأسه واطلق ، ونزل مكشوف الرأس ، فقيل له غط رأسك ، فقال : لا والله لا أغطيه حتى ينتقم ممن ظلمني فمات الزردار والذي ضربه بعد قليل ومرض سيف الدين وتوفي .

ذكر حكايته مع الشيخ ابي احمد بن الحداد الزاهد :

كان أبو احمد قد انقطع في قرية من بلاد الموصل يقال لها الفضيلية ، ومنها أصله ، وهي على فراسخ من الموصل

حدثني ابو بكر القديمي واسماعيل الشعار ، وكانا قد صحبا الشيخ أبا احمدقالا : كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد ، فقال

له : يا سيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات وتمكس المسلمين ، فان كنت تدع هذا والا فلا تجيء الى عندي ، فقال: ياسيدي أنا تائب الى الله من جميع ما قلت ، وترك الجميع وعاد الى ماكان عليه .

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق ، قال: فبينما نحن عنده ذات يوم واذا بسيف الدين قد أقبل وصعد إلى الدرج ، فقال لي أبو أحمد: أغلق الباب في وجهه ، وقل له ما لك عندي شغل ، وادفعه الى أسفل الدرج ، قال ابو بكر القنيمي : فخرجت فاستحييت منه ، فقال لي سيف الدين: يا شيخ افعل بي ما أمرك الشيخ وأدار ظهره إلي فدفعت في ظهره حتى انزلته إلى أسفل الدرج ، فقعد يبكي وقد صاح الجند بأسرهم ، فأشار اليهم ان اسكتوا، ثم قال لي: يا شيخ أبا بكر اصعد إلى الشيخ وقل له :مالي توبة؟ قال: فصعدت اليه واخبرته فقال: قل له : يجوز قد أذنت له ، قال : فخرجت وقلت: له بسم الله ، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وتاب الى الله تعالى ، وعاد الى الموصل ، فأقام مدة يسيرة ، ومات يوم الأحد ثالث صفر ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهورا .

وأراد ان يعهد الى ولده سنجر شاه ، فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك ، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الامراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا وسنجر شاه صبي لا رأي له وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة ، اعهد اليه واجعله وصيا على أولادك ففعل ، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدته ، فلما ولي تغيرت أخلاقه فصار رفيقا بالرعية قريبا منهم محسنا اليهم .

ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم ، فأرسل اليه مجاهد الدين قيماز الفقيه ابا شجاع بن الدهان البغدادي ، يطلب منه ان يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف

الدين ، ويبقي عليه الجزيرة وما بيده من حران والرها والرقة والخابور ونصيبين وقاطع الفرات ، فقال صلاح الدين :أما ما خلف عليه من بلاد الموصل فهو باق على حاله ، واما ما ذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط ان يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر ، أما الآن فالخليفة قد فوض امرها الي ، لا أفعل فيها الا ما أراه من المصلحة .....

السنة السابعة والسبعون وخمسمائة

وفيه عاد صلاح الدين من دمشق الى القاهرة واستناب بدمشق ابن اخيه عز الدين فرخشاه بعساكر الشام فبلغ قريبا من تيماء ، وبلغ البرنس فرجع الى الكرك ، وأمر صلاح الدين أخاه سيف الدين بالمسير الى اليمن فأقام يتجهز .

وفيها توجه صلاح الدين الى الاسكندرية فخيم بظاهرها عند عمود السواري ، وقال: نقم تجاه الشيخ ابي طاهر السلفي ونسمع من ابن عوف موطا مالك بزاويته على الطرشوشي ، وتم له ولأولاده السماع ، وكان واليها فخر الدين قراجا

وكان في هذه السنة بالمزة خطيب يقال له العالم ، زور على صلاح الدين خطأ بزيادة في جامكيته ، ووقف عليه فرخشاه فعلم باطن الحال ، فهم بالايقاع به فهرب الى القاهرة واستجار بالسلطان فأجاره ، وقال: ما أخيب قصدك ، وكتب له توقيعا بما طلب

وحج بالناس من العراق طاشتكين .

فصل

وفيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب حلب ، وكان مرضه بالقولنج بدأ به في رجب .

وذكر ابن الاثير في تاريخه: أنه لما اشتد به المرض ، وضعف وصف له الأطباء قليل خمر ، لا أفعل حتى أسأل الفقهاء ، فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز ، وسأل العلاء الكاشاني فأفتاه أيضا ، ولم يفعل وقال:إن كان الله قرب أجلي أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا ، قال: فوالله لا لاقيت الله وقد لقيت ما حرم علي ، فمات ولم يشربه .

قلت: أخطأ الكاشاني فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة وجميع اصحابنا للتداوي ، وكذا عند مالك وأحمد ، وعند الشافعي يجوز للضرورة ،، عندنا ان الله لم يجعل شفاء الامة فيما حرم عليها .

ولما اشتد مرضه أحضر الأمراء واستحلفهم لعز الدين صاحب الموصل ، فقيل له: لو أوصيت الى ابن عمك عماد الدين صاحب سنجار ، وهو تربية أبيك ، وزوج اختك ، وشجاع كريم ، وعز الدين له من الفرات الى همذان؟ فقال: إن هذا لم يخف عني ، ولكن قد علمتم استيلاء صلاح الدين على الشام ومصر واليمن ، وعماد الدين لايثبت له ، وعز الدين له العساكر والأموال فهو اقدر على حفظ حلب ، ومتى ذهبت حلب ذهب الجميع ، فاستحسنوا قوله .

وتوفي في الخامس والعشرين من رجب ، ولم يبلغ عشرين سنة وكانت أيامه ثماني سنين وشهرا ، وأقام الحلبيون النوح عليه والمأتم ، وفرشوا الرماد في الأسواق وأقاموا مدة على ذلك ، وجرى عليهم ما لم يجر على أحد ، لأنه كان صالحا كما سمي ، عادلا منصفا حسن السيرة على اسلوب أبيه ، وتزوج عز الدين ام الملك الصالح في شوال ، وأقام في قلعة حلب الى سادس عشر شوال ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لملازمته الشام ، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات ودلوا عليه لأنهم اختاروه ، وضاق عليه ، فسار الى الرقة ، واتفق مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، وتقايضا ، ورحل عماد الدين الى حلب في سادس عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكتب صلاح

الدين الى الخليفة يستأذنه في الاستيلاء على حلب ، ويقول بأن جماعة الاتابكية يسعون في تفريق الكلمة ، ويستنهضون الفرنج لقتال المسلمين ، ويستعيذون علينا بالاسماعيلية ، واقام بمصر منتظرا الجواب .....

السنة الثامنة والسبعون وخمسمائة

وفي المحرم سار سيف الدين طغتكين الى اليمن ، فنزل بزبيد وبها حطان (٢٥) ، فأمره أن يسير الى الشام ، فجمع أمواله وذخائره واسبابه فنزل بظاهر زبيد ، فقبض عليه سيف الاسلام وأخذ جميع ما كان معه ، وكان قيمته ألف ألف دينار ، ثم قتله بعد ذلك ، وكان عثمان الزنجبيلي بعدن ، فلما بلغه ذلك سار الى الشام بعد ان اثر في اليمن أثارا كثيرة ، وأوقف أوقافا ، وله مدرسة بمكة ، ورباط بالمدينة وغيرها .

وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر ، فنزل البركة قاصدا الى الشام ، وخرج أرباب الدولة لوداعه ، وأنشده الشعراء ابياتا في الوداع فسمع قائلا يقول في ظاهر الخيم:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

وطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان ، وتطير الحاضرون فكان كما قال اشتغل السلطان بالشرق والفرنج ، ولم يعد بعدها الى مصر ، وسار السلطان على ايلة والحسي ووادي موسى ، وكان فرخشاه بدمشق فبلغه ان الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان ، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية فقصدوه فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم الوفا واسر ، وساق عشرين الفا من الانعام وغيرها ، وفتح حصنا مشرفا على السواد على شقيف

يقال له حصن جلدك ، وقتل من فيه ، وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع ، وساق الى بصرى ، فالتقى السلطان عندها فسر به ودخلا دمشق في صفر .

وفيها كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج ، خرج البرنس صاحب الكرك الى ايلة فأقام بها ، ومعه الأخشاب على الجمال والصناع بعمل المراكب ، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر ، فلما تم عملها ركب فيها ووصل الى عيذاب في بحر القلزم ، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسر ، وسار يريد جدة ، وبلغ الخبر الى سيف الدين العادل أخي السلطان ، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ ، فركب في بحر القلزم وسار خلفهم ، وساعده الريح فأدركهم ، وقد اشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهرب بعضهم في البر ، وأسر الباقين ، فأخذ مائة وسبعين اسيرا ، وخلص أموال التجار ، وردها إليهم ، واستولى على مراكبهم ، وعاد الى القاهرة وكتبوا الى السلطان بذلك ، فقال: تضرب رقاب الاسارى بعضهم بالقاهرة وبعضهم بمكة والمدينة ففعلوا ، وكتب القاضي الفاضل الى الخليفة كتابا في هذا المعنى : وكان الفرنج قد ركبوا من الامر ذكرا ، وافتضوا من البحر بكرا ، وعمروا مراكب شحنوها بالمقاتلة والازواد ، وضربوا بها سواحل تهامة وأوغلوا في البلاد ، وما ظن المسلمون إلا ان الساعة قد نشر مطوى شروطها ، وطوى منشور بساطها ، فثار غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام انبيائه المعظم ، وضريح نبيه المفخم ، صلى الله عليه وسلم، وزخر من فضل الله أنه كان البيت إذ قصدوه أصحاب الفيل ، ووكلوا الامور الى الله ، فكان حسبهم ونعم الوكيل ، فلم يبق من العدو خبرا ولا أثر (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) (٢٦) ....

السنة التاسعة والسبعون وخمسمائة

وفي يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان أمد ودخل اليها وجلس في دار الامارة ، ثم سلمها وأعمالها الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان ، وكان وعده بها لما جاء الى خدمته ، ولما اخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالها وحريمها الى الموصل ، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما ، فحملا ما خف حمله ، وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة .

وفي المحرم عاد السلطان فقطع الفرات قاصدا الى حلب ، واجتاز في طريقه بعين تاب ، وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين ، ونزل اليه ، وقام بالضيافة ، فأبقاها عليه ، وجاءه ابن الساعاتي فأنشده :

وانهض الى حلب في كل سابقة
سيوفها تغني عن الفلك
ما فتحها غير إقليد الممالك
والداعي الى جميع الخلق والملك

فنازل حلب في سادس عشر المحرم ونزل بالميدان الاخضر وباشر القتال بكرة وعشيا وزحف يوما أخوه تاج الملك بوري فجاءه سهم في عينه ، فوقع مريضا ، ومات في الثالث والعشرين من صفر ، ثم علم عماد الدين زنكي أنه لا طاقة له به ، وضج من اقتراح الامراء عليه ، فقال لحسام الدين طمان : اخرج الى صلاح الدين وسله في الصلح فخرج سرا ولم يعلم به أحد ، فقرر الصلح وان يرد اليه سنجار وأعمالها ، والخابور ، ونصيبين ، وأنه يسلم اليه قلعة حلب ، وعلم الناس بالصبح ، فخرجوا الى صلاح الدين فخلع

عليهم ، وجعل اهل حلب تحت القلعة اجانة وثيابا وصابونا ، وصاحوا على عماد الدين: يا فاعل ، يا صانع ، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث ما يصلح لك غير هذا ، وعملوا فيها الاشعار وتغذوا بها في الاسواق ، ومنها :

وبعت بسنجار خير القلاع
ثكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم العشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان ، فحزن عليه حزنا عظيما وجلس للعزاء ، ونزل اليه عماد الدين فالتقاه السلطان وأكرمه وخدمه ، وقدم له الخيول والتحف الجليلة ، وعاد عماد الدين الى القلعة وأقام السلطان كئيبا حزينا وكان يبكي ويقول : ما وفت حلب بشعرة من أخي ، وقيل انه قال ما غلت حلب ببوري ، والاول اليق بالسلطان لانه ما كان في البيت مثل بوري ، وسار عماد ، الدين من يومه الى سنجار ، وأقام السلطان في المخيم غير مكترث بحلب لما جرى عليه من وفاة اخيه، ثم صعد القلعة سلخ صفر ، فأنشده القاضي ابن زكي الدين محمد بن علي القرشي ، قاضي القضاة بدمشق ابياتا منها .

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر .
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام ، فكان كما قال ، ولكن بعد اربع سنين ، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان ، وولى السلطان القضاء بحلب محي الدين بن الزكي والقلعة سيف الدين يازكيج ، والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد وأعطى تل باشر وتل خالد لبدر الدين دلدرم ، ابن بهاء الدين ياروق ، وأعطى قلعة أعزاز لعلم الدين سليمان بن جندر ، ثم رحل عن حلب يوم السبت ثاني عشرين ربيع الآخر ، ودخل

دمشق ، وكان دخوله دمشق ثالث جمادى الاولى فاقام بها أياما ثم خرج الى الفوار ، فأقام بها على رأس الماء .

وفيها بعث الخليفة عسكرا الى دقوقا فأخذها

وفيها كانت غزاة بيسان ، ورحل السلطان من الفوار في جمادى الآخرة ، فنزل بيسان وقد هـرب أهلهـا فقدم بين يديه جـرديك النوري ، وجاولي الاسدي وجماعة مـن النورية فجاؤوا الى عين الجالوت والفرنج الى الفولة ، فصادفوا على عين جالوت طائفة من الفرنج فقتلوا منهم مقتلة عظيمـة وأسروا مـائة فـارس ، ورحـل السلطان الى الفولة يطلب المصاف فتحصن الفرنج في الداخل ، ولم يخرج منهم أحد ، فلمـا كان في الليل سـاروا طـالبين عكا ورحـل السلطان خلفهم يقاتل الساقة فقتل منهم جمـاعة فـدخلوا عكا وعاد السلطان على صفورية فنهب وأحرق وعاد الى دمشق .

ثم خرج في رجب الى الكرك ، وكان أخوه سيف الدين العادل قـد كتب اليه يطلب منه ان يعـوضه بحلب عوض مصر ، فـكتب اليه ان يوافيه على الكرك ، فالتقيا على الكرك ، ونصب السـلطان عليهـا المناجيق ، وحشد الفرنج ونزلوا الوالة ، قريبا من الكرك ، فـرأى السلطان أن حصار الكرك يطول فعاد الى دمشق ومعـه اخـوه الملك العادل ، فأعطاه حلب ، فسار اليها وبها ولده السلطان الملك الظاهر غازي ، وسيف الدين يازكيج ، فسلمها اليه ، وقدم الظاهر دمشق مع يازكيج في شوال ، وأقـام الظـاهر في خـدمة ابيه راضـيا في الظاهر ، وفي الباطن فيه ما فيه .

وفيها وصل عبد الرحيم شيخ الشيوخ من بغداد رسولا الى صلاح الدين ومعه محي الدين أبو حامد محمد ابن قـاضي القضـاة كمـال الدين بن الشهزوري رسولا من المواصلة ، فأغلظ محي الدين على السلطان وقال: تحلف لعز الدين ان هذه الجزيرة وما يقطع الفـرات مـن ناحية الشرق يكونوا مضـافين الى عز الدين ولا تعلق لك بهـم ، والا جـاء البهلوان وملوك العجـم اليك ، واتفقـوا

عليك ، فغضب السلطان وقال: أنا قاصد اليكم ، فإذا فرغت منكم سرت الى البهلوان ....

وفيها توفي تاج الملوك بوري - كما ذكرنا - ابن ايوب أخو صلاح الدين ، وكنيته أبو سعيد ، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة وكان الله عز وجل قد جمع فيه مكارم الأخلاق ، ولطف طباع وكرما وشجاعة ، وفضلا وفصاحة ، وكان أديبا وشاعرا مترسلا ، وله ديوان شعر ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه وأنشد مقطعات من شعره .....

السنة الثمانون وخمسمائة

وفيها كتب زين الدين بن نجية الواعظ من مصر الى صلاح الدين يشوقه اليها ، وكان السلطان بدمشق : أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد والنصر والتسديد ، أو ما يشتاق مولانا الى مصر ونيلها وخيرها وساسبيلها ، ودار ملكه ، ودارة فلكه وبحرها وخليجها ونشرها واريجها ، ومقسم مقاسمها ، وأنيس أبياتها ، وقصور معزها ، ومبارك عزها ، وجيزتها وجزيرتها ، وبركها وبركتها ، وتعلق القلوب بقلوبها ، واستئلاف النفوس لاسلوبها ، وملتقى البحرين ، ومرتقى الهرمين ، وروضة جنانها ، وجنة رضوانها ،ومشاهدها ومجامعها ، ومساجدها وجوامعها ، ونواضر بساتينها ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وليات فضائلها ؟!.

وذكر ابن نجية كلاما طويلا من هذا الجنس فكتب اليه السلطان:

ورد كتاب الفقيه زين الدين أدام الله توفيقه ، لا ريب ان الشام أفضل وأن أجر ساكنه أجزل ، وإن القلوب اليه أميل ، وإن زلاله البارد أحلى وأنهل ، وإن الهواء في صيفه وشتائه أعدل ، وإن

الجبال فيه أجمل ، والجمـــال بـــه أكمـــل ، وإن القلب بـــه أروح ، والروح به أقبل ، ودمشق فعاشقها بها مستهام ، وما على محبها ملام ، ومـــا في ربـــوتها ريبـــة ، ولكل نور فيهـــا سيبه ، وساجعاتها على المنابر الورق ، وهزاراتها وبلابلها تعجـم وتعرب ، وكم فيها من جواري ساقيات وسواقي جاريات ، وثمـار بلا أثمان ، وروح وريحان وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وكون الله تعالى أقسم (والتين والزيتون) يدل على فضله المكنون ، وقـال صلى الله عليه وسلم: الشام صفوة الله من بلاده ، يسوق اليها خير أمة من خلقه ، وعامة الصحابة اختـاروا المقـام بـالشام ، وفتـح دمشق بكر الاسلام ، وما يذكر ان الله تعالى ذكر مصر ، ولكن على لسان فرعون بقوله: (أليس لي ملك مصر) (٢٧) لكن هذا أخرج مخرج العتب له والذم ، الا ترى أن يوسف عليه السلام نقـل منهـا الى الشام ، ثم المقام بـدمشق أقـرب الى الربـاط وأوجـب للنشاط ، وأين قطوم المقطم من النيربين ، وأين دار منيف من ذروة الشرف المبين ، وأين لبانة لبنان من الهرمين ، وهل همـا الا مثـل السلعتين ، وهل للنيل من طول نيله وطول نيله بـرد بـردا في نقـع الغليل ، وما لذاك الكثير مـن طـلاوة هـذا القليل ، وإن فـاخرتنا بالجامع وفيه البشر ظهر بذلك قصر القصر ، ولو كان لهم بانياس لما احتاجوا الى قياس المقياس ، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الايمان ، ونحـن لا ننكر ان اقليم مصر إقليم عظيم الشـأن ، ولن نقـول كمـا قـال المجلس الفاضلي : ان دمشق تصلح ان تكون بستانا ولا نشك ان أحسن ما في البلاد البستان ، ولعل زين الدين يرجع الى الحق ويوافق على ما هو الاحق .

قلت : عاب السـلطان على ابـن نجية كون اصـله ومنشـأه بدمشق ، وفضل عليها مصر ، وليس من طارفه ولا تـلاده ، وكان أولى أن يتشوق الى السلطان من غير وصف لما فيه مضـاهاة لوطنه وبلاده .

فصل

وفيها هجم السلطان نابلس كانت عساكر الشرق وصلت اليه لنجدته فيها : نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحصن وأمد وديار بكر ، ومظفر الدين بن زين الدين ، والعادل من حلب ، وتقي الدين عمر ، فخرج من دمشق ونزل الكرك ونصب عليها المناجيق ، وكان أعظم مهماته فتحه ، لكونه على طريق مصر ، وبلغ الفرنج فجمعوا الفارس والراجل وقصدوه ، ونزلوا الواله قريبا من الكرك ، فاغتنم السلطان خلو الساحل منهم ، وسار على البلقاء ونزل الغور وهجم نابلس فقتل وسبى ونزل على سبسطيه وبها الرهبان والاقساء وعندهم الودائع فطلبوا منه الامان ، وأن يطلقوا ما عندهم من الاسارى ، فأمنهم ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق ، وعاد الى دمشق ، وكان عنده رسل الحلبية شيخ الشيوخ ، وشيخ الشيوخ بالرحبة ، وحج بالناس من العراق طاشتكين .

فصل

وفيها توفي ايلغازي بن آلبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ، ولقبه قطب الدين صاحب ماردين وكانت وفاته في جمادى الآخرة ، وخلف ولدين صغيرين ، وكان جوادا شجاعا عادلا منصفا عاقلا ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السنة الحادية والثمانون وخمسمائة

وفيها قطع السلطان الفرات ، ونزل على حران سادس عشرين

صفر ، وسار السلطان ونزل على الموصل ، وضـايقها وخـرج اليه اهلها العوام والخواص فقاتلوه وظهـروا عليه ، وجـاءه الملوك زين الدين صاحب إربل ، وسنجرشاه صاحب الجزيرة ، وعسـكر ديار بكر ، وكان القتـال يعمـل كل يوم وتخـرج المواصـلة اليه عراة يقاتلون ، فبينما هو على ذلك جاءه الخبر بوفاة شاه أرمن صـاحب اخلاط ، وجاءت كتب مقدميها يطلبونه ، فشاور الامـراء فـأشاروا إليه بقصد أخلاط ، لما رأوا أنهم لاطمع لهم في الموصل ، وقالوا: ما تفوت الموصل فسار الى اخلاط وفي مقدمته ناصر الدين محمـد بـن أسد الدين شيركوه ، وتقي الدين عمر فوصلوا ميافـارقين ، وبهـا الاسد يرنقش ، مملوك صاحب آمد فـامتنع عليهـم وقـال:انا وصي يتامى أستاذي قطب الدين وبعـد هـذا فـالأمر للخـاتون والدتهم ، فأرسل اليهـا صـلاح الدين خـادما ووعدهـا ان يتزوجها ، ويزوج ابنه احـدى بناتهـا ، فـأجابت وسـلمت اليه ميافارقين وأعطاها الهتاخ ، وأعطـى يرنقش جبـل جـور ، وكان الحاكم على اخلاط الوزير مجد الدين بن الموفق ، وهو الذي كاتـب السلطان فبعث اليه الفقيه عيسى ليكشف الحال ، فغالطه وقال : في القلعة سيف الدين بـكتمر ، وبهـا ابنة البهلوان زوجـة شـاه ارمن ، وربما جاءالبهلوان بعساكر أذربيجان وهمذان والشرق فنزل قريبا من اخلاط وارسل الى السـلطان يقـول: هـذه البـلاد لابنتي ، وهـي في القلعـة ، والمصـلحة تبقـى المودة بيننا ودوام الصداقة ، فرجع السلطان الى الجزيرة ، ورجع البهلوان الى بلاده بعد ان حمل اليه سيف الدين بكتمر اموالا وهدايا ، وولى السـلطان على ميافارقين وديار بكر مملوكه سنقر الخلاطي .

وعاد الى الموصـل ، وهـذه المرة الثـالثة ، وهـي الاخيرة فنزل الاسماعيليات ، وقيل نزل على كفر رمان بدجلة ، وعزم ان يشـتي بذلك المكان ، واستعد المواصلة للحصار ، فأشار أمـراء عز الدين عليه أن يخرج اليه النساء بكتاب يتشفعن اليه فخرجوا معهـن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان ، وقـرر عمـاد الدين الصلح وخطب السلطان بالموصل ، واعطى شـهرزور والبـوازيج ،

ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد ، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة .

قال العماد وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان ، واشتد الحر ، وقيل إنه قد رد النساء اللائي خرجن يشفعن ، فندم على ردهن فمرض مرضا شديدا فتناثر شعر رأسه ولحيته ، وقيل إنه سقي وضعف ضعفا خيف عليه منه وأرجف بموته ، وأقام على نصيبين وقد ايسنا منه ، ثم تماثل فحمل في محفة الى حران ، ونزل بظاهرها وبنى بها دارا سماها دار العافية .

فصل

وكانت المنجمون قد حكموا بأن يهب رمل هواء مزعج يهلك الناس ، فحفروا سراديبا واختفوا ، وظهر كذب المنجمين .

فصل

وفيها توفيت عصمة خاتون بنت معين الدين زوجة السلطان صلاح الدين ، وكانت قبله زوجة السلطان نور الدين محمود ، وكانت من أعف النساء واكرمهن وأحزمهن ، ولها صدقات وبر عظيم ، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة في حجر الذهب قريبة من حمام أركش وتعرف بمدرسة خاتون ، وبنت للصوفية رباطا على الشرف القبلي خارج باب النصر على بانياس وبنت تربة بقاسيون على نهر يزيد ودفنت بها ، ووقفت على هذه الأماكن أوقافا كثيرة ، وكانت وفاتها في رجب ، وبلغ السلطان وفاتها وهو مريض بحران ، فتزايد مرضه ، وحزن عليها وتأسف وكان يصدر عن رأيها ، ومات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن

معين الدين انر في هذه السنة ،وكان من أكابر الأمراء زوجه السلطان أخته ربيعة خاتون لما تزوج اخته الخاتون ، فلما توفى مسعود بن أنر تزوج ربيعة الخاتون مظفر الدين بن زين الدين .

وفيها توفي محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولقبه ناصر الدين ابن عم صلاح الدين كان السلطان يخافه لأنه يدعي أنه أحق بالملك منه ، وكان يبلغ السلطان عنه هذا ، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء الى حمص ، وكان زوج أخت السلطان ست الشام ، وكانت وفاته بحمص يوم عرفة بقي يتناثر لحمه ، وقيل إنه سم ، وقيل مات فجأة فنقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالعوينة شمالي دمشق ، فدفنته بها عند اخيها شمس الدولة ، ولما بلغ السلطان وفاته أبقى على ولده أسد الدين شيركوه حمص وتدمر والرحبة وسلمية ، اقطاع ابيه ، وخلع عليه وكتب له منشورا بها ، والحمد لله وحده وصلى على أشرف خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

السنة الثانية والثمانون وخمسمائة

فصل

قطع السلطان الفرات ، ووصل الى حلب ، وخرج منها يريد الشام فتلقاه أسد الدين صاحب حمص وأخته سفري خاتون بتل السلطان ، ومعها الهدايا العظيمة ، وسار الى حمص فأطلق المكوس وأزال الضمانات ، وقال لأخيه العادل أبي بكر: اقسم التركه بينهم على فرائض الله تعالى ، وكان قد خلف شيركوه وسفري وزوجته ست الشام ، فصعد العادل الى قلعة حمص وأقام أياما فقسم التركة ، وكان قد خلف اموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة ، فكان مبلغ التركه الف الف دينار ، وكان القاضي نجم الدين بن أبي عصرون حاضر القسمة ، فقام يوما فوقعت من

تحت نيله منطقة مجوهرة ، فنسبه العادل الى مالايليق ، وكان نجم الدين منزها عن ذلك ، لانه كان عفيفا جوادا شريف النفس فحلف للعادل أنني ما علمت بها ، وصدق ، وإنما الحساد وجدوا طريقا للقول .

وفيها دخل سيف الاسلام الى مكة ، ومنع من الأذان بحي على خير العمل ، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس ، وأغلق أمير مكة باب البيت وصعد الى ابي قبيس فارسل اليه وطلب المفتاح فامتنع من انفاذه فقال سيف الاسلام قل لصاحبك ان الله نهانا عن أشياء فارتكبناها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تأخذوا المفتاح من بني شيبة ، فنأخذه ونستغفر الله تعالى ، فبعث اليه بالمفتاح .

وفيها قسم السلطان البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل ، فانه لما مرض أشار عليه بذلك .

وفيها ظهر الخلاف بين الفرنج ، وتفرقت كلمتهم ، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام .

وفيها غدر ابرنس صاحب الكرك ، واسمه ارناط ، وكان أخبث الفرنج وأشرهم ، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر الى الشام ، وفيها خلق عظيم ومال كثير ، فاستولى على الجميع قتلا واسرا ونهبا ، فأرسل اليه السلطان يوبخه على ما فعل ، ويقول أين العهود والمواثيق ، رد ما أخذت ، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم ، فنذر السلطان دمه وأقام السلطان بدمشق بتجهز للقاء العدو ، واستدعى العساكر من الشرق والغرب .....

السنة الثالثة والثمانون وخمسمائة

وفيها فتح البيت المقدس ، وعكا وحصون الساحل وسببه وقعة حطين ، خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام فنزل بصرى يرتقب وصول اخته ست الشام وابنها ابن لاجين ، وكان قد بلغه ان البرنس يرتقب وصولهم فخاف من غدره ووصل الحاج في أواخر المحرم ، وخلا سر السلطان منهم ، فسار الى الكرك فقطع الاشجار ، ورعي الزرع ، وفعل بالشوبك مثله ، وأقام ينتظر عسكر مصر وكان عند مسيره الى الكرك أمر ولده الأفضل أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ، ينتظر باقي عسكر الشرقية ، فأنهض الأفضل طائفة للغارة على طبرية ، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين بن زين الدين وعلى عسكر الشام صارم الدين قيماز النجمي فنازلوا طبرية ، وتقدم بدر الدين دلدرم مقدم عسكر حلب الى طبرية ، فخرج اليه مقدم الداوية والاسبتار بجماعة معهم فقاتلوهم فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم ، وسار الى صفورية ففعل كذلك ، وعاد بالاسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب وجاء السلطان الى تسيل – قرية غربي نوى – وصعد تلها وعرض العساكر ، وسر بما رأى ، واندفع يوم الجمعة سابع عشرين ربيع الأول نحو فيق ورحل الافضل معه فالتقوا على الاقحوانة ، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركا بأدعية الخطباء ، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفا من الفرسان ، فأما الرجالة فيقال انهم كانوا في ثمانين الفا بين فارس وراجل ، فنزلوا الصفورية ، وتقدم السلطان الى طبرية فنصب عليها المناجيق ، ونقب اسوارها ، ففتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر ، وتمنعت القلعة عليه وبها الست زوجة القومص ، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس ، وملك المسلمون عليهم الماء ، وكان يوم حارا ، والتهب الغور عليهم ، واضرم مظفر الدين بن زين الدين النار في الزرع ، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم ، فلما طلع الفجر يوم

السبت قاتلوا الى الظهـر ، وطلعـوا الى تـل حـطين والنار تضرم حولهم ، فهلكوا وتساقطوا من التل ، وكان القومص معهم ، فحمل وفتح له السلطان دربا فصعد الى صفت وعملت السيوف في الفـرنج قتلا وأسرا ، وأسر من الملوك كاي وأخـوه جفـري وبـرنس الكرك والهنفـري ، وصـاحب جبيل وبيروت وصـيدا ، ومقـدم الداوية والاسبتار ، وغيرهم وجيء الى السلطان بصليب الصلبوت ، وهـو مرصع بـالجواهر واليواقيت في غلاف مـن الذهـب ، وهـو عند النصارى مثل المسيح والذي اسر الملك درباس الكردي ، والذي اسر البرنس ابراهيم غلام المهراني .

فلما رآهم السلطان نزل وسجد لله تعـالى ، وجـاء الى خيمتـه فاستدعاهم ، فجلس الملك عن يمينه ، وبـرنس الكرك الى جـانب الملك ، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشا ، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشرب منه وسقى البرنس ، فقال ما أنت في سقيه ، وكان السلطان قد نذر ان يقتل البرنس بيده ، فقال له: غدار حلفت وغدرت ونكثت ، وجعل يعدد عليه غدراته ، ثم قام اليه فضربه بالسيف على كتفه ، وتممه المماليك ، وقطعوا رأسه وأطعموا جثته الكلاب .

فلما رآه الملك قتيلا ، خاف وطار عقله ، فأمنه السلطان ، وقال: هذا غدار كذاب ، غدر غير مرة ، ثم عرض السلطان الاسـلام على الداوية والاسبتار فمن أسلم منهـم اسـتبقاه ، ومـن لم يسـلم قتله ، فقتل خلقا عظيما ، وبعث بباقي الملوك والأسارى الى دمشق الى الصفي بن القابض ، فاعتقل الاعيان في القلعة ، وباع الاسارى بثمن بخس ، حتى باع بعض الفقراء أسيرا بنعـل فقيل له : هـذا ثمن بخس ، فقال اردت هوانهم .

ودخل القاضي ابن ابي عصرون الى دمشـق وصـليب الصـلبوت منكسـا بين يديه ، وعاد السـلطان الى طبـرية ، فـأمن صاحبتها ، فخرجت بنفسها ومالها الى عكا ، وولى طبرية قيمـاز

النجمي ، وأما القومص فانه خرج من صفت الى طرابلس فمات بها .

فقيل انه مات من جراحات كانت بـه ، وقيل ان امـرأته سـمته ، وقيل هذا كان سببا في هلاك دين النصرانية وأكثر الشعراء في هذه الوقعة .

ذكر فتح عكا

وفيها لغتان المد والنسبة اليها عكاوي ، وعكه بالهاء .

وسار السلطان من طبرية فنازلها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ، وليس بها من يحميها لان وقعة حطين أبادتهم ، وكانوا ثلاثين ألفا ، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرون على حمله ، فأمنهم ودخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وبها من الأسارى المسلمين أربعة آلاف ، فاستنقذهم وجعل الكنيسة جامعا وولاها ولده الأفضل ، وولى القضاء والخطابة والامامة عبد اللطيف ابن ابي النجيب الشهرزوري ، وغنم المسلمون اموالا لا تحصى ، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها وما فيها ، وأعطى السلطان الفقيه عيسى جميع ما يختص بالداوية ، ولم يحضر هذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان ، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا ويافا ، وحضره الملك العزيز لأنه تقدم مع العسكر المصري ، ومضى الى مصر وما عاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان ، والسلطان على صور .

وكتب العماد الكاتب الى بغداد كتابا اوله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون) (٢٨) والحمد لله على انجاز هذا الوعد ، وعلى نصرة هذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وأحدث من بعد أمر أمرا ، وهون هذا الأمر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه

صبرا ، وخوطب النبي بقوله: (ولقد مننا عليك مـرة اخـرى) (٢٩) فالاولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخـرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكتابة ، والزمان كهيئتـه قـد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر قـد رد مـا عنده مـن الشعار ، والخادم يشرح مـن هـذا الفتـح العـظيم ، والنصر الكريم ، مـا يشرح صـدور المؤمنين ، ويسـوء وجـوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به في يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سـلخه ، وتلك سـبع ليال وثمـانية ايام حسوما عدموا فيه نفوسا وجسـوما ، فـأصبحوا قـد هـووا في الهاوية (كأنهم اعجاز نخل خاوية) (٣٠) واصبحت البلاد الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت بالكفر بـاكية ففـي يوم الخميس الأول فتحت طبرية ، والجمعة والسبت كانت الكسرة التي ما ابقت منهم بقية لا يقوم لهم بعدها قائمة ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة) (٣١)

وفي يوم الخميس سلخ الشهر فتحت عكة بالأمان ، ورفعت بهـا أعلام الايمان وهي ام البلاد ،وأخـت ارم ذات العمـاد ، وصـليب الصلبوت عندنا مأسور ، وقلب الكفـر الأسـير بخشـبه المكسـور مكسور ، وأنصار الصليب وأعوانه قد أحاطت به يد القبضة ، وعلق رهنه ، فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، .وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، وهو خير يوميها ، وصـارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بـالله واليوم الآخر ، وصـارت المذابـح مواقف لخطباء المنابر ، وعد الحصون التي فتحت .

وقال في آخر الكتـاب ـ ومـا يتـأخر النهـوض الى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقـد آن أن يسفر فيه الهدى عن صحة السلام .

ذكرما فتح السلطان في هذه السنة من بلاد الفرنج وطبرية وعكا

· لما فتح عكا راح الى تبنين ، وتسلمها وتسلم صيدا وبيروت وجبيل وغيرها والداروم والرملة ويبنا وبيت جبرين والخليل وعسقلان ، فكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها خمس وثلاثون سنة ، لأنهم ملكوها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن ، وتسلم السلطان هذه الأماكن في اربعين يوما ، اولها ثامن عشرين جمادى الأولى وآخرها الثامن من رجب .

ذكر فتوح القدس

سار اليه السلطان فنازله يوم الاحد منتصف رجب ، وكان المنجمون قد قالوا له: تفتح القدس ، وتذهب عينك الواحدة ، فقال رضيت أن أفتحه وأعمى ، وكان قد نزل على غربيه اولا ، ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذه الفرنج ، وكان مشحونا بالبطارقة والخيالة والرجالة ما يزيد على ستين الفا ، غير النساء والذرية ، فنصب عليها المناجيق وآلة القتال ، وتعلق النقابون بالسور ، وقاتل الفرنج قتالا شديدا ، فلما رأوا ان المسلمين قد ظهروا عليهم سقط في ايديهم وايقنوا بالخذلان ، فصاحوا الأمان ، فبطل عنهم القتال واستقر الأمر على ان يخرجوا بأنفسهم واموالهم وذراريهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح ، بعد ان يؤدي كل واحد منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصبي أربعة دنانير ، وعن الطفل دينارا ، ومن عجز منهم كان رقيقا سيملك ، ومن أراد من النصارى

الاقامة ، فليقم وتؤخذ منه الجزية ، وأقر بأيديهم القمامة ، وعينوا اماكن يزورونها ، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج ، فكان استيلاء الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة لأنهم اخذوه في سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وفتح في هذه السنة وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ودخل السلطان الصخرة وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكي ، ومحا الصور منها ، وكسر الصلبان ، وأحرق دار الداوية ، وعمر المسجد الأقصى ، وفرق الأموال التي أخذها من الفرنج ، وكانت نيفا وثلاثمائة ألف دينار على العلماء والفقهاء والصوفية ، وكان قد حضر معه هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الأجناس ، وتطاول جماعة من الأعيان على الخطابة ، فذكر السلطان قول ابن زكي الدين :

وفتحه حلبا بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

قال الفاضل : إنه أنطق الله السلطان بالغيب ، فأعطاه الخطابة وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق .

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس ، وهو وهم منه ، وخلص السلطان من القدس ثلاثة آلاف من أسارى المسليمن ، وبعث مع الفرنج الذين كانوا في القدس من أوصلهم الى صور ، وكان بها مركيس .

قلت : ولقد ضيع السلطان الحزم بتسيير الفرنج الى صور ، ولم ينظر في عواقب الامور ، فان اجتماعهم بصور كان سببا لأخذهم البلاد ، وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأجناد الاسلام ، وقد كان الواجب عرضهم على الاسلام فإن أبوا فالسيف ، « وهو أصدق انباء من الكتب » وأنى وكيف ، وما اشبه هذه القضية بفدية الأسارى يوم بدر حيث اشار بعض الصحابة بأخذ ذلك

القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وماصدر ذلك الرأي إلا عن صدر ، فلا جرم قتل منهم يوم أحد سبعون ، وأسر سبعون من المسلمين كما فعلوا يوم بدر بالمشركين .

وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضا لم يحضر هذا الفتح ، فأمر السلطان العماد الكاتب ان يكتب كتابا الى بغداد بالفتح ، فكتب في أوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٣٢) ، والحمد لله الذي انجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به من بعد المخافة ، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوي ، ومنحه أخلص اوليائه ، وأخص اصفيائه بعد ان انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه ، وفوات ترجيه ، وتقاصرت عنه الهمم وتخاذلت عنه ملوك الأمم فلله الحمد الذي حقق بفتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ما حيا ذل أمس ، وأسكنه العالم والفقيه بعد البطرك والقس ، وعباد الصليب ومستقبلي الشمس ، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قل هو الله احد ، وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم الى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج الى نابلس وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع لباس اليأس عنها بافاضة ثواب المحسنين ، ورجع الاسلام غريبه منه الى داره ، وطلع قمر الهدى من سراره ، وعادت الأرض المقدسة الى ما كانت عليه من التقديس ، وأمنت المخاوف بها ، وفيها فصارت صباح السرى ، ومناخ التعريس ، وأقصي من المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد اليه المصطفون المقربون ، وخرس الناقوس برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، ورفعت الأعلام الاسلامية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت

بألسنة عزتها (نصر من الله وفتح قريب) (٣٣) وغسلت الصخرة بدموع المتقين من نذس الكافرين ، وأبعد اهل الالحاد من قربها بقرب الموحدين

وذكر بها ماذني من عهد المعراج النبوي والاعجاز المحمدي ، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس الى تقديسه ، ورجع بيت الله من التقوى الى تأسيسه ، وذكر العماد فصولا في هذا المعنى (٣٤)

فصل

وفي شعبان سار السلطان الى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة ، وهي في البحر مثل السفينة ، والبحر محيط بها ، من جوانبها وليس لها طريق في البر الا من مكان واحد فيه سبعة ابراج ، وبه المركيس ، وكان شجاعا حازما ، وقد انطوى اليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج ، واقام السلطان ينتظر الاصطول من مصر ، فوصل فقاتلهم في البر والبحر ، واتفق ان الاصطول غفل ليلة فكبسه الفرنج فأخذوا المراكب ، ورمى بعضهم نفسه في البحر ، فتأخر السلطان في سلخ شوال ، ووصل اليه من بغداد تاج الدين ابوبكر حامد أخو العماد الكاتب ، فالتقاه السلطان وأكرمه ، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على اسباب . منها: ان الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي ويلقب بالرشيد ، وكان صبيا ببغداد ، ولا يؤبه له فخرج الى الشام ، واتصل بصلاح الدين ، وقيل له هذا من بيت كبير ...

السنة السادسة والثمانون وخمسمائة

وفي سابع المحرم دخل ألب ارسلان بن السلطان طغريل الى بغداد وهو صبي صغير وعليه كفن وبيده سيف مشهور كأنه يطلب عفو

الخليفة وجاء فنزل بباب النوبي ، وباس العتبة فبكى اهل بغداد ، ورق له الخليفة ، وأنزله دار ابن العطار مقابل المخزن ، وأكرمه وأحسن نزله ، وعفا عن جرائم ابيه وما فعل ابن يونس ، واستدعاه الى باب الحجرة وخلع عليه خلعة السلطنة ، وطوقه بطوق من ذهب ، واجتمع بولي العهد ابي نصر محمد .

وفيها تسلم الخليفة قلعة الحديثة ، بعد حصار كثير ، وفيها بنى الخليفة دار الفلك ، ورتب فيها ابنة السيد العلوي ، ويقال لها ست الجدود .

وأما حديث السلطان ، فإن هذه السنة دخلت وهو مرابط على الخروبة ، وفي ربيع الآخر تسلم شقيف أرنون بالأمان بعد الحصار الطويل ، وضيق على صاحبها ارناط ، بدمشق فسلمه ، ومضى الى صور ، وفي هذا الشهر قدمت العساكر الاسلامية على السلطان ، وفيهم الملك الظاهر صاحب حلب ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ، وعز الدين ابراهيم بن المقدم وغيرهم ، فتقدم السلطان الى تل كيسان وعزم على لقاء الفرنج ، وقد وصل رسول الخليفة فخر الدين نقيب العلويين بمشهد التين ومعه خمسة أحمال نفط ، وتوقيع بعشرين الف دينار تقترض من التجار على الخليفة فشق على السلطان وقال : أنا في يوم واحد أخرج مثل هذا وأضعافه ، وماأنا مضطر ، ورد عليه الجميع ، فأشار عليه بعض اصحابه بأخذ النفط للغزاة فأخذه ، ورد التوقيع ، وقال:يرحم الله العاضد وصل إلي منه في عشرين يومابمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ، ومثلها عروض .

حديث حريق الابراج

كان للافرنج ثلاثة ابراج من الخشب والحديد ، والبسوها جلود البقر المسقاة بالخل والخمر لئلا تعمل فيها النار ، وطموا خندق عكا ، وسحبوا الابراج على العجل الى السور ، فأقبلت مثل الجبال ، وأشرفت على البلد ، وفي كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد ، وقد حيل بينهم وبين السلطان ، والعساكر ، واجتهدوا في الوصول الى البلد فلم يقدروا ، ورماهم الزراقون الذين في البلد بالنفط فلم يحترق منها شيء ، وكان بعكا شاب دمشقي يقال له ابن النحاس ، ليس له في الديوان اسم ، وكان عارفا بالنفط والحريق ، فهيأ ثلاثة قدور ، وقال لقراقوش : انصب لي منجنيقا ، فانتهره وقال : قد عجز الصناع فمن أنت ؟ فقال : قد عملت قدورا الله تعالى وما اريد منكم شيئا ، وما يضركم ان ارمي بها في سبيل الله ، فإن دفعت والا فاحسبني واحدا منهم ، فقال قراقوش : ما يضرنا ذلك ، ثم نصب له المنجنيق فرمى قدرة واحدة في البرج ، فاحترق بمن فيه ، ثم فعل ذلك بالثاني والثالث فكبر المسلمون وسمع السلطان وكبر العساكر ، وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والأموال ، فلم يأخذ منها شيئا ، وقال : انا فعلت هذا لله تعالى ، وكان ذلك صبيحة يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول .

قلت وقد اجتمعت بابن النحاس في حلب سنة ثلاث وستمائة وحكى لي صورة الحريق ، وكان يحضر مجالسي ، فطاب قلبه يوما فقال للناس : اشهدوا ان نصف ثوابي في حريق الابراج لفلان عني .

وبعد يومين من حريق الابراج وصل عماد الدين زنكي صاحب سنجار الى خدمة السلطان ، فالتقاه وتعانقا وسار به السلطان الى خيمته ، فترجل عماد الدين قبل السلطان ومشى في خدمته بمقدار ما

لبس السلطان زرموجته ، ودخل السلطان الخيمة ، وقدم له السلطان من الطرف ما يقدم لمثله وبسط له الثياب الاطلس ، فمشى عليها ، وأنزله في طرف الميسرة .

حديث ملك الألمان

وفي هذه السنة قطع الألمان خليج القسطنطينية الى بلاد قليج ارسلان في ستمائة الف جاؤوا من أفرنجة ، فخاف منهم ملك القسطنطينية ، فقالوا: لا تخف نحن ما جئنا الا لنخلص القدس ، وصليب الصلبوت ، ونملك بلاد المسلمين ، فلما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن له بهم طاقة فاحتاج الى مسالمتهم ، وكتب الى السلطان يعتذر بالعجز عنهم ، وساروا طالبين ووقع فيهم الوباء ، فدفنوا كثيرا من سلاحهم ظنا منهم اذا عادوا اخذوها ، فهلكوا ، وأخذ المسلمون ما دفنوه ، ووصلوا الى نهر طرسوس فتخلص منهم ابن ليون بقلاعه لأنه أرمني ، وهم روم فأراد الملك ان يسبح ، وكان ماؤه بادرا فنهوه ، وقالوا : لا تفعل فأنت متعوب ، فقال : لابد فسبح فأخذته الحمى ، فأقاموا على النهر بسببه ، فأوصى الى ولده الذي كان في صحبته ومات ، فسلقوه في خل وحملوا عظامه ليدفنوه في القدس .

ولما مات اختلفوا على ولده ، لأنه كان له لخر أكبر منه فكانوا يميلون إليه ، فتأخر عنه أكثرهم ، ودخل أنطاكية في جيش قليل ، وسأل البرنس أن يخلي له القلعة ليضع أمواله واثقاله فيها ، وكان في البرنس خبرة فأجابه الى ذلك ظنا منه أنه لا يتفق عوده اليها ، وكان كما ظن ما عاد ، وأخذ البرنس الجميع .

ثم سار الى طرابلس ، وجعل أهل الجبال يقتلونهم وينهبونهم ، فما وصلوا طرابلس الا في نفر يسير ، فأقاموا أياما ، وساروا إلى عكا فلقيهم الافرنج واستبشروا بهم ، ووصل

رسول ملك القسطنطينية يعتذر الى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب للخليفة والسلطان بقسطنطينية ، وانقطعت اخبار عكا عن السلطان ، فندب اقواما للسباحة وأعطاهم المال في أوساطهم ، والطيور في أعبابهم فترد الأخبار ، ثم احترز الفرنج بعد ذلك بشباك نصبوها في المساقاة ، فاذا جاء سابح وقع فيها ، فامتنع الناس .

وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب لهم السلطان بطسة كبيرة وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا ، فقال : ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدين الفرنج ، ففعلوا ذلك ، فخرج اليهم الفرنج في الشواني ، فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، فقالوا ما أخذتموه بعد ؟ قالوا : لا ، فقالوا : وراءنا بطسة اخرى ردوها عن البلد ، فذهبوا ، عنهم ، فردوا القلوع الى البلد ودخلوا الميناء، وكبر المسلمون وامتاروا أياما .

واما ابن ملك الألمان فانه اعد دبابة عظيمة ، فدخل تحتها الوف من الناس، و لها رأس عظيم برقبة طويلة اذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته ، وعمل بطسة لها خرطوم طويل ، اذا ارادوا قلب السور انقلب بالحركات ، وزحفوا الى برج الذبان ، فأحرق المسلمون جميع ذلك ، وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادها ، فقال السلطان: في هذه الحالة اصبروا الى زمان الشتاء ، فاما عماد الدين صاحب سنجار فأقام وأما سنجر شاه صاحب الجزيرة ، فأصر على الرحيل ، ودخل على السلطان فقبل يده ، وسار من ساعته ، وكتب السلطان وراءه كتابا يقول فيه ، وفي اوله كلاما منه :

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق ، فقال :له الى اين ؟ فأخبره فقال : ارجع ، فقال ما ارجع ، وكان تقي الدين مقداما فقال: ارجع ياصبي والا رجعت مقهورا فرجع فسأل تقي الدين السلطان فعفا عنه.

وفيها كتب السلطان الى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، أمير الغرب ، كتابا يستنجد به على يد شمس الدين بن منقذ (٣٥)
ودخل فصل الشتاء فأعطى السلطان العساكر دستورا وأقام في نفر يسير .

وفي ذي الحجة مات ابن ملك الالمان ، واستشهد بعكا جماعة ، منهم جمال الدين محمد بن أركز خرج في شيني يقاتل ، فاحتاطت به مراكب الفرنج وعرضوا عليه الأمان ، فقال ما أضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير ، فجاء اليه المقدم الكبير ، فأخذ بيده وعانقه وألقى نفسه واياه في البحر فغرقا .

وفيها تسلم صلاح الدين الشوبك بعد حصار شديد بالأمان ، وفيها ملك سيف الدين صنعاء ، واعطاها اولده شمس الملوك الذي ادعى الخلافة ، وحج الناس من بغداد طاشتكين ....

وفيها توفي يوسف بن علي بن بكتكين صاحب إربل ، ولقبه زين الدين وهو أخو مظفر الدين ، وزين الدين ، كان عند السلطان في هذه السنة على الخروبة ، فمرض في رمضان ، فارتحل من الخروبة الى الناصرة ، فأقام يمرض نفسه ، وكان عنده اخوه مظفر الدين يمرضه فيقال انه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين امارات ذلك ، فانه لم يكترث بموته ، ولا تأسف عليه ، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه ، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته .

وقال العماد : اتينا مظفر الدين نعزيه ظننا منا انه قد حزن عليه

حزن الأخ على اخيه ، فكأننا جـئنا نهنئه ، واذا بـه مشـغول عن العزاء بحيازة أمواله وا سبابه ، والقبض على عماله وكتـابه ، ثـم أرسل مظفر الدين الى السلطان يطلب منه إربـل وينزل عن حـران والرها ، فأجابه الى ذلك ، وسأله كتابا إلى صاحب إربـل في هـذا المعنى ، والله تعالى اعلم .

السنة السابعة والثمانون وخمسمائة

وفيها استيلاء الفرنج على عكا ، اشتد عليها الحصار في جمادى الآخرة ، وطـم الفـرنج الخنادق ، ونصـبوا المناجيق والدبـابات والسلالم ، ومل المسلمون من السهر والتعب والقتال وكثرت فيهـم الجراح ، وكان الفرنج قد صنعوا تلا من تراب يقدمونه يسيرا يسيرا ويقاتلون من ورائه ، لأن المسلمين أحـرقوا أبـراجهم ومناجيقهـم ودباباتهم ، فعملوا هذا التل وشرفـوه ، فصـار للمقـاتلة مثـل الحائط ، وجاء كتاب أهل عكا الى السلطان يقولون قد عجزنا ومـا بقي الا طلب الأمان والتسليم ، فلم يرد على السلطان خبر أشد من ذلك ، لأنه كان قد نقـل الى عكا جميع سـلاح السـاحل والقـدس ودمشق وحلب ومصر ، فقال:إني هـاجم على القوم من البر ويخـرج المسلمون من البلد ، فقالوا : ماهذا مصلحة فقد نرى مـا بين ايدينا من الخنادق والرجالة كالسور ، ويعدهم الخيالة ، وهـم اضـعاف عددنا ، ولم يوافقـوه ، ولما كان يوم الجمعـة سـابع عشر رجب ، والسلطان قد ركب والعساكر بأسرهـا ، وإذا بأعلام الفرنج قد ظهرت على عكا وقت الظهـر ، وصـاح الفـرنج صـيحة عظيمة ، وطلع علم على القلعة وآخر على مأذنة الجـامع ، ومـلأوا الابراج بالأعلام ، ودخلوا عكا وأسروا من كان بهـا ، واسـتولوا على جميع ما كان فيها ، وكانوا قبل ذلك قرروا على اهلهـا مـائتي الف دينار ، وألفي أسير ، وصليب الصلبوت ، ويخرج من بها مـن المسلمين سالمين بأموالهم وأهلهم ، وأخبروا السلطان ، فـأجابهم فقال الفرنج : سلموا الينا المال والاسارى ، واقنعوا بأماننا حتـى

نسلم إليكم اصحابكم ، فقال السلطان: وأي أمانة لكم ، ونخاف من غدركم ، والبلد وما فيه قد صار بأيديكم ، وتوقف الحال .

فلما كان يوم السبت سابع عشرين رجب خرج الفرنج من عكا ، ووقفوا وسط المرج بين تل كيسان والعياضية ، وأحضروا المسلمين موثقين في الحبال ، وكانوا زهاء عن ستة آلاف مسلم ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ضربا وطعنا ، فقتلوهم فنزل المسلمون يشاهدونهم ولا يعلمون ما يصنعون بهم لبعدهم عنهم ، فعادوا وأخبروا السلطان فبكى بكاء شديدا ، ويقال انه لطم على رأسه ونتف لحيته ، ووقع العويل والبكاء في العسكر ، ورحل السلطان من منزله .

ذكر ما جرى بعد انفصال امر عكا

ولما كان غرة شعبان يوم الأحد رحل الفرنج من عكا ومقدمهم الانكلتار ، وكان ملكا عظيما ، فسار في البر بالفارس والراجل ، والمراكب في البحر ، ومعهم فيها ازوادهم ، فنزلوا على نهر القصب ، وكانو ثلاثة اقسام: الملك العتيق واسمه كاي في المقدمة مع الساحلية ، والانكلتار والفرنسيسية معه في الوسط وأولاد الست أصحاب طبرية في الساقة والسلطان في اعراضهم ، وجرى بينهم قتال على نهر القصب قتل فيه اياز الطويل ، مملوك السلطان ، وكان فارسا عظيما في دبوسه عشرة أرطال حديد ، وكان يضرب الفارس ويهشمه ، فقاتل في ذلك اليوم قتالا عظيما ، وقتل من الفرنج جماعة ، فتقنطر به فرسه فقتلوه ، فحزن السلطان عليه ودفن على تل عال مشرف على بركة

وطلب الانكلتار الاجتماع بالملك العادل سيف الدين ، وركبا كل واحد في نفر يسير فقال له الانكلتار .انما جئنا لنصرة أفرنج

الساحل ، فردوا عليهم ما أخذتم ، واحقنوا دماء الفريقين فقال العادل : حتى اجتمع بالسلطان .

ذكر وقعة ارسوف

لما كان السبت رابع عشر شعبان أصبح الفرنج على نصبة ، وصف السلطان عساكره ، فاندفع جماعة من المسلمين ، وثبت العادل وقيماز النجمي وعسكر الموصل وكان مقدمهم خرم شاه ولقبه علاء الدين ولد عز الدين مسعود ، فلقبه السلطان في ذلك بالملك السعيد ، ثم غارت عليهم عساكر المسلمين ، فلولا حيطان أرسوف لحل بهم الحتوف .

وذكر محمد بن القادسي في نيله وقال: انهزم صلاح الدين في ذلك اليوم ورجع في عسكر الموصل ، وكانوا فوارس .

وقد حكى القاضي ابن شداد ، وكان حاضرها ، وليس المخبر كالمعاين ، فقال : ما انهزم السلطان ، انما بقي في سبعة رجال ، واعلامه واقفة وكوساته تخفق ، فلما رأى ما نزل بالمسلمين ، صاح فيهم وحرضهم ، ووقف في ظلته ، فلما رآه الناس في ظلته ثابتا أتت العساكر اليه ، فتراجع الفرنج الى منزلته ، وقتل من الفريقين جماعة ، وأما قول ابن القادسي انه قتل من الانكلتار مائة ألف وأربعين ألفا ، فإن الفرنج ما بلغت عدتهم يوم أرسوف ثلاثين الفا ، قال القاضي قتل منهم خمسون افرنجيا وقيل أقل .

حديث خراب عسقلان

وسار السلطان من أرسوف ، فنزل عسقلان ، فأجمع الأمراء

على خرابها ، فبكى السلطان على خرابها ، وقال : والله ان فقد اولادي اهـون علي مـن خـرابها ، أو أن انقض منهـا حجرا ، فقالوا : اخربها والا جرى عليها ما جرى على عكا ، وهذه بين يافا والقدس ، ولا يمكن حفظ الموضعين ، واختر ايهما شيء ، وجاء الخبر نزول الفرنج على يافا ، فأمر بخرابها ، وكان فيها شيء كثير فأجابه المسلمون فنهبوها ، وأخربوا بعض السور والسلطان يبكي وينتحب ، ، وبعث الانكلتار يعرض على العادل ان يزوجه بأخته ، فأجاب العادل ، فاجتمعوا واوقفوا الأمر ، وقالوا: ان تنصر العادل ودخل في دينها ، والا غضب المسيح على الانكلتار ، فتوقف الحال على ما ذكر الاقساء ، وكان الانكلتار يجتمع بالعادل في كل وقت ، ويتهاديان ، وكان خديعة من الاثنين ، وبعث الانكلتار الى السلطان يقول : لا بد من القدس ، وصليب الصلبوت فادفعهما إلينا ولك من قاطع الأردن إلى ناحية الشرق ، فقال السلطان: أما القدس فهو اعظم عندنا مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومجمع الملائكة ، فلا يتيسر ان ننزل عنه ، وأما صليب الصلبوت فهلاكه عندنا قربة عظيمة فلا يجوز ان نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي اوفى منه ، فقال: الانكلتار للعادل: اجمع بيني وبين السلطان ، فقال: الملوك اذا اجتمعوا تقبح الحرب بينهم بعد ذلك ، فاذا انتظم الصلح حسن الاجتماع ، وعاد الفرنج الى الرملة ، وطلع السلطان إلى القدس في ذي القعدة ، واخذ في تحصينه ، وشرع ينقل الحجارة هو وأولاده ، على أكتافهم وامراؤه وأجناده ، والقضاة والفقراء والعلماء ، والعامة والخاصة .

وفيها عزل السلطان ابا حامد محمد بن عبد الله بن أبي عصرون عن قضاء دمشق ، وولى محيي الدين بن زكي الدين قالوا ، سبب عزل ابن أبي عصرون عن قضاء دمشق مداخلته الجند ، واشتغاله بما اشتغل به الامراء من اتخاذ الخيول والمماليك والبرك ، ومباشرة الحروب ، ومعاملة الامراء ومداينتهم ، فتبرم السلطان منه وعزله .

وفيها حج بالناس من بغداد طاشتكين .

فصل

وفيها توفي أسعد بن المطران الطبيب ، ويلقب بالموفق ، وكان نصرانيا اسلم على يد السلطان ، وكان غزير المروءة ، حسن الاخلاق كريم العشرة جوادا مهيبا متعصبا للناس عند السلطان ، ويقضي حوائجهم ، وكان قد صحبه صبي من المسلمين اسمه عمر ، وكان حسن الصورة فأحسن إليه ، وكان الموفق يحب أهل البيت ، ويبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه ولقبح هجائه وثلبه لأعراض الناس ، ويحرض السلطان على نفيه من البلاد ، وقال اليس هو القائل :

سلطاننا أعرج وكاتبه
أعمش والوزير منحدب

فهجاه ابن عنين وقال

قالوا الموفق شيعي فقلت لهم
هذا خلاف الذي للناس منه ظهر

فكيف يجعل دين الرفض مذهبه
وما دعاه الى الاسلام غير عمر

وكان الموفق يعود الفقراء المرضى ، ويحمل اليهم من عنده الاشربة والأدوية حتى أجرة الحمام ، وزوجه السلطان بجارية له يقال لها جورة ، وكانت من حظايا السلطان ، ونقل معها جهازا عظيما ، وقال ليلة عرسها احملوا اليه المطبخ ، فنزل الموفق جامع دمشق ليصلي العصر ، فجاء اليه صوفية الخانكاه وطلبوا منه سماعا بالخانكاه ، فقال: سمعا وطاعة ، وقام فدخل الى الخانكاه الصميصاطي واستدعى مطبخ السلطان من دار العقيقي ، واحضر المغاني والحلاوة الكثيرة الى الخانكاه ، ونزلت العروس مع حظايا

السلطان الى دار العقيقي ، فأقمن طول الليل ، وهو عند الصوفية ، وهم يرقصون ، وما علموا انها ليلة عرسه فاستحى ان يعرفهم ، فلما كان في آخر الليل قيل الصوفية ايش عملتم الرجل الليلة عريس على جارية السلطان ، والساعة يبلغ السلطان فيغضب فجاؤوا اليه بأجمعهم ، واعتذروا وسألوه ان يمضي فقال: لا والله الى الصباح ، وبلغ السلطان فقال: الام على هذا وتقريبه ، فكانت وفاته في ربيع الأول بدمشق ، ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته جورة ، ولما مات اشترت زوجته دارا وبنت الى جنبها مسجدا ، وبنت له تربة وهي تعرف اليوم بتربة جورة ولما قدمت الشام سنة ثلاث وستمائة كانت جورة ، باقية وكانت صالحة عابدة .

فصل

وفيها توفي القاضي أبو القاسم قاضي حماه ، واسمه الحسين ، ابن حمزة بن الحسين كان فاضلا جوادا سمحا لا ينزل قدره عن النار ، يضيف الخلائق من الخاص والعام ، وما اجتمع احد بحماة من الأكابر الا وأضافه ، وكان صلاح الدين يحبه ، وكذا العادل وتقي الدين ، وبلغني ان العادل اجتاز بحماة فأرسل الى القاضي يقول له: اريد الحمام خلوة ، فأخلاه فما خرج العادل من الحمام الا وقد جهز له من الفواكه ، وكان قد تزوج بدمشق خطلخ خاتون بنت سودكين فأولدها ابنة وسماها زينب ومات القاضي وهي صغيرة ، فلما بلغت تزوجها رجل من أهل حماة يقال له اسماعيل ابن العرباض ، ثم مات عنها ، قلت فتزوجتها في سنة عشرين وستمائة وتوفيت في سنة ثلاث واربعين وستمائة وانا ببغداد ، فدفنوها بتربتي بقاسيون ، وخلف ابو القاسم ولدا ذكرا ، وللولد أولاد ، ومات القاضي وهو على قضاء حماة رحمه الله تعالى .

وفيها توفي الامير سليمان بن حندر من أكابر أمراء حلب ومشايخ

الدولتين النورية والصلاحية، وهو والد صديقنا علم الدين بن سليمان ،وشهد سليمان مع السلطان حروبه كلها ، وهو الذي أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس ، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان فطلب المسير إلى حلب فأذن له السلطان ، فسار فتوفي بغباغب في أواخر ذي الحجة وحمل الى حلب فدفن بها .

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، ابن أخت صلاح الدين صاحب نابلس ، واسمها ست الشام ، وكان شجاعا مقداما جوادا ، توفي ليلة الجمعة تاسع رمضان بدمشق ، وبينه وبين وفاة تقي الدين ساعات ، ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في يوم واحد ، ودفن بالتربة التي أنشأتها والدته بالعوينة بظاهر دمشق .

وفيها توفي الصفي بن القابض وزير صلاح الدين ، واسمه نصر الله ، وكان قد خدم السلطان لما كان بشحنكية دمشق ، وأمده بالمال ، فرأى له ذلك فلما ملك استوزره ، وكان شجاعا ثقة دينا امينا ، فلما نزل الفرنج داريا ، والسلطان في الشرق جمع من أهل دمشق سوادا عظيما ، وخرج الى ظاهر البلد ، فظنوهم عسكرا فرحلوا وكان كثير المعروف ، وكتب املاكه لمماليكه لانه لم يكن له ولدا ، وبنى بالعقيقة مسجدا ودفن به في رجب ، ويعرف اليوم بمسجد الصفي...

السنة الثامنة والثمانون وخمسمائة

وفيها في ربيع الأول ولي جدي مدرسة الشيخ عبد القادر ، فذكر الدرس بها

وقال ابن القادسي:وفي جمادى الأولى جلس الشيخ أبو الفرج بن

الجوزي عند تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي ، فتاب مائة وثلاثون شخصا ومات ثلاثة في المجلس بوجدهم .

وفيها حبس الخليفة طاشتكين امير الحاج ، وكان في قلبه منه من ذوبة ابن يونس وتقصيره في القتال ، ونقل إلى الخليفة انه يكاتب صلاح الدين ، وكبر عنه ابن يونس ، فاعتقله تحت التاج واختفى خبره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر .

وفيها كانت ذوبة الخويلفة ، وكان السلطان قد كتب الى مصر يستدعي العساكر ، فاجتمع على بلبيس خلق عظيم وقافلة عظيمة فيها اموال الدنيا ، وكان الانكلتار يترقب مجيئهم فبعث السلطان يحذرهم وقال ابعدوا في البرية ، وبلغ الانكلتار قربهم ، فركب من تل الصافية في ألف فارس مردفين بألف راجل ، وساروا حتى نزلوا ماء يقال له الحسي ، وجاء الانكلتار فكبسهم بغتة قبيل الصبح وهم غارون ، فالسعيد من نجا بنفسه ، وكانت ذوبة لم يجر مثلها في الإسلام ، ساقوا من الجمال ثلاثة آلاف جمل ، ومن الخيل ألفا وخمسمائة فرس ، ومن البغال مثلها ، ومن المسلمين خمسمائة اسير ، ومن العين ألفا ألف دينار ، ومن الثياب مثلها ، وكان في القافلة فلك الدين أخو العادل لأمه ، فنجا على فرسه وعاد الفرنج إلى تل الصافية في سادس عشر جمادى الآخرة وبلغ السلطان فاسقط في يده وقال : الأمر لله .

ولما حصل ذلك بيد الافرنج ، عزموا على قصد مصر ، ثم عدلوا الى القدس ، وبعث الانكلتار الى البلاد الساحلية ، فاستدعى الفارس والراجل ، فجاءه خلق عظيم ، فسار من الرملة الى بيت ذوبة ، ووصل الانكلتار الى القبيبة في نفر يسير ، وشاهد القدس ، وعاد الى بيت ذوبة .

وكان السلطان في القدس ، فشاور الامراء ، وقال انتم جند الاسلام ومنعته ودماء المسلمين واموالهم واهاليهم متعلقة

بكم ، فان خفتم طووا البلاد طيا ، وكنتم المطالبين بذلك ، فقالوا: نحن مماليكك وما تطير رؤوسنا الا بين يديك ، وافترقوا على هذا ، فلما كان في الغد اختلفوا فقال بعضهم : ما نقيم حتى يكون السلطان معنا ، نخاف ان يجري علينا ما جرى على أهل عكا .

وبلغ السلطان فبعث اليهم يقول: هذا مجد الدين فرخشاه ابن أخي يكون عندكم ، وأكون أنا من وراء أذنب عذكم ، فقالوا: ما هذا برأي وانما نخرج ونصدقهم الحملة ، فإن قهرناهم والا نسلم العسكر ونمضي الى دمشق ، فعز عليه ذلك خوفا على القدس ومن فيه من المسلمين ، وبات ليلة الجمعة ساهرا باكيا متضرعا ، وبعث بالصدقات الى الفقراء ، وطلع الفجر فجلس الى الضحى يدعو ومضى الى المسجد الاقصى ، فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع الى الله تعالى .

وكان جرديك في اليزك ، فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم ، وبات السلطان ليلة السبت قلقا لم يعرف المنام ، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعا فقال السلطان: يهنيك رحلوا نحو الرملة ، فسجد السلطان وانكشفت اخبارهم ، وسبب رحيلهم ذلك لأن السلطان كان أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس ، فقال لهم الانكلتار : ومن أين نشرب؟ قالوا : من العيون التي حول القدس ، فقال يتخطفوننا فحكموا منهم ثلاثمائة من علمائهم ، وحكم الثلاث مائة اثني عشر ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل ، فباتوا يتشاورون فترجح عندهم الرحيل ، وقالوا: السلطان حاضر ، ومعه العساكر ،فارحلوا فرحلوا طالبين عكا ، وكانوا قد اخذوا يافا وحصنوها .

فأقام السلطان بالقدس حتى تيقن وصولهم الى عكا ، فخرج فنزل على يافا وحصرها وتعلق النقابون في الاسوار ، وملك المدينة وأشرفوا على أخذ القلعة فصاح أهلها الأمان ، ونهب المسلمون البلد فوقف مماليك السلطان على الأبواب كل من خرج ومعه شيء

أخذوه وعز ذلك على الأمراء والاكراد ، وسلموا القلعة ، وبعث السلطان لها جماعة من أصحابه وبقي فيه من الفرنج أربعون رجلا ، فبينما هم على ذلك اذ لاحت مراكب يسيرة ، فرأوا علم السلطان عليها فظنوا أنه قد أخذها فتوقفوا ، وقويت نفوس الفرنج الذين في القلعة ، وعلموا أنها مراكب الانكلتار فرمى واحد نفسه في الماء ،وسبح اليهم وقال: تقدموا فارسوا إلى المينا ، وكانت خمسة وثلاثين مركبا ، ووصل الانكلتار ، فهرب المسلمون من البلد وتأخر السلطان الى يازور ، وجاء الانكلتار فنزل في منزلة السلطان ، ولم يكن معه سوى عشرين فارسا ، وثلاثمائة راجل ، وعشرين خيمة ، والسلطان في الوف ، فبعث الى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش الكثير ، ومعظم عساكر المسلمين ، فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي ، وليس عندي احد ، ولا طلعت من البحر الا بزربولي ، فغضب السلطان ، وبات على غضب ، فلما أصبح ركب وركبت العساكر والانكلتار نازل على حاله لم يصل اليه من الفرنج أحد ، فحمل اليه المسلمون ، وهو في عشرين فارسا وثلاثمائة راجل ، فلم يتحرك ، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة ، فلم يجبه أحد وقال له الجناح أخو المشطوب:قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالامس وأخذوا كسبهم ، ويقال ان الانكلتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة ، فلم يعترض أحد وساق السلطان من حينه الى النطرون .

ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد ، ولم يتجاسر أحد أن يكلمه ، وجاءت رسل الانكلتار إلى السلطان يقول: قد هلكنا نحن وأنتم وما طلبت الصلح لتقصير وضعف مني بل حرصا على المصلحة العائد نفعها علينا وعليكم .

ثم وقع الاتفاق على أن البلاد الساحلية التي بأيدي الفرنج هي لهم ، والبلاد الجبلية التي فيها القلاع تبقى بأيدي المسلمين ، وما بين العملين يكون مناصفة ، واختلفوا في عسقلان ، ثم اتفقوا انها

تكون للفرنج خرابا لاتعمر ، وأعطاهم السلطان القمامة ، وكتبوا كتاب الصلح ، واتفقوا ولم يؤاخذ السلطان الجناح بل عفا عنه ، وكان عفوه من كمال عفو السلطان ، لأن الناس كلوا وملوا وعلتهم الديون وذلوا ، وخاف السلطان ايضا على البيت المقدس ، وانعقد الصلح ، وارتفعت أصوات الفريقين وضجوا فرحا وسرورا ، وكان يوما عظيما ، واختلط الفريقان وزال بينهم الشنآن ، وسار الانكلتار في البحر طالبا بلاده ، فمات قبل أن يصل اليها ، وعاد السلطان إلى دمشق ، وعزم على الحج فقيل له : البلاد خراب ، وما نأمن من غدر الفرنج فتوقف .

فصل

ووصل الى السلطان كتاب في غرة السنة من اليمن أن ثلاثة أنهار من الحبشة تغيرت ، كانت عذبة فصار الواحد أجاجا ، والآخر لبنا والثالث دما .

وحج بالناس من بغداد فلك الدين ، ومن الشام درباس الكردي .

فصل

وفيها توفي سنان بن سليمان ، صاحب الدعوة بقلاع الشام ، وأصله من البصرة ، وكان في حصن الموت ، فرأى منه صاحب الأمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة ، فسيره الى حصون الشام ، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في استجلاب القلوب ، وكان مجيئه الى الشام في أيام نور الدين محمود ، فأقام واليا ثلاثين سنة ، وجرت له مع السلطان قصص ، وبعث اليه جماعة فوثبوا عليه ، وقد ذكرناه وفي عزم السلطان قصده ، ولم يعطه طاعة قط ، ولما صالح السلطان الافرنج وعزم على قصده توفي .

ويحكى عنه الغرائب والعجائب ، وفي الجملة أنه كان كما وصفنا ولم يقم أحد بعده مقامه.

فصل

وفيها توفي سيف الدين المشطوب ملك الهكارية ، واسمه علي بن أحمد الهكاري ، كان شجاعا صابرا على الحرب مطاعا في قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث ، وشهد فتح مصر ولزم خدمة السلطان ، فكان ممن أسر بعكا ففدى نفسه بخمسين ألف دينار عجل منها عشرين ألفا ، وأعطاهم رهائن بالباقي ، واطلق فأحسن السلطان إليه وأعطاه نابلس وأعمالها فجار ديوانه على أهلها ، فاتفق أن السلطان اجتاز بنابلس من القدس في عوده إلى دمشق ، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا فقال : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يتظلمون من المشطوب ، وهو راكب بين يديه ، فقال : ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك حتى يسمع الله ، فكيف وهم يدعون عليك .

واختلفوا في وفاته ، فقال العماد الكاتب : مات المشطوب في نابلس في آخر شوال ، وقال القاضي ابن شداد : مات في القدس ، وصلي عليه في المسجد الاقصى ، ودفن بداره .

وفيها توفي قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، صاحب بلاد الروم ولقبه عز الدين .

وفيها توفي المركيس صاحب صور ، قدم عليه راهبان فلزما الكنيسة وتعبدا عبادة زائدة ، وبلغه خبرهما فقربهما ، ولم يكن يصبر عنهما ، فأغفلوه ليلة وذبحاه فأخذا وقررا فقالا : نحن من الاسماعيلية ، فقتلا وسر الانكلتار بقتله ، لانه كان يضاهيه ويضاده ، ويراسل السلطان في الاعانة عليه ، فلما قتل استقل

الانكلتار بالامر ، وزوج الانكلتار زوجة المركيس بكندهري ابن اخت ملك الانكلتار من أبيه ، وابن اخت ملك الافرنسيس من أبيه ، واقام الانكلتار كندهري موضع المركيس ، وكانت امرأة المركيس حاملا منه فدخل بها كندهري وهي حامل ، وما ذاك عيب عندهم في دين النصرانية ، ويكون الولد منسوبا لامه ، وكان الملك في المملكة فأقام كندهري ملك الافرنج سبع سنين .....

السنة التاسعة والثمانون وخمسمائة

ويقال لها سنة الملوك مات صلاح الدين ، وبكتمر شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل .....

وفيها توفي بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط ، مات شاه أرمن ولم يخلف ولدا ، فاتفق خواصه على بكتمر ، فضبط الأمور وأحسن الى الرعية ، وعدل فيهم ، وصاحب العلماء والصوفية ، وكان حسن السيرة متصدقا صالحا دينا جاءه أربعة من الصوفية ، وكان لايمنع صوفي ، فتقدم إليه واحد فمنعه الخازندارية ، فقال دعوه فتقدم وبيده قصة فأخذها منه فضربه بسكين فشق جوفه ، فمات من ساعته ، فأخذوهما وقرروهما فقالا : نحن من الاسماعيلية ، وكانوا قد شفعوا إليه في أمر لايليق ، فلم يقبل شفاعتهم فعملوا هذا ، فأحرقوا ، وذلك في جمادى الاولى وخلف بكتمر ولدا صغيرا .....

فصل

وفيها توفي عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن اقسنقر صاحب الموصل ، كان خفيف العارضين أسمر مليح اللون ، عادلا منصفا محسنا عاقلا جوادا ، صبر على حصار صلاح الدين للموصل ثلاث مرات حفظا على البلاد ، وفرق الاموال وداري حتى سلم له الملك ،

وكان قد بنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل ، ويصلي فيه أورادا كانت له ، ويلبس فرجية أهداها له الشيخ عمر السنائي الصوفي فيصلي فيها ، وكان قد خرج من الموصل في جهاد ، لقتال الملك العادل سيف الدين بن أيوب ، وكان على حران بعد موت صلاح الدين ، ثم عاد في سابع عشرين شعبان مريضا فاحتضر فجعل يتشهد ويذكر الله تعالى ويقر بالشهادتين ، وعذاب القبر ، ومنكر ونكير والصراط والحساب والميزان ، وتوفي ودفن بمدرسته التي أنشاها بالموصل بمقابر دار السلطنة ، وكانت أيامه ثلاث عشرة سنة وستة أشهر ، وأوصى بالملك إلى ولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه ، وكان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة ، فصرفها عنه أخوه عز الدين إلى ولده نور الدين أرسلان شاه ، وقام بالامور مجاهد الدين قيماز أحسن قيام .....

فصل

وفيها توفي الملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان ، من أولاد خلفاء بني أمية ، وذكر ابن القادسي ، أن شاذي مملوك بهروز، وهذه من هنات ابن القادسي ، وما كان شاذي مملوكا قط ولا جرى على أحد من بني أيوب رق ، وإنما شاذي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت ، استنابه فيها وقد ذكرناه .

ذكر طرف من اخباره

ولد صلاح الدين بتكريت في سنة اثنتان وثلاثين وخمسمائة ، ونشأ في حجر أبيه أيوب ، وربي في الدولة النورية ، وولاه نور الدين دمشق ، وخرج مع عمه أسد الدين إلى مصر فملكها ، وقد ذكرنا ذلك أولا ، وكان شجاعا سمحا جوادا مجاهدا في سبيل الله ، يجود بالمال

قبل الوصول إليه ، ويحيل به ، ومتى عرف وصول حمـل وقـع عليه بأضعافه ، وما خيب أحدا بالرد وإن لم يكن عنده شيء لطف بـه كأنه غريم يستمهله ، وكان مغرما بالانفاق في سبيل الله وحسب ما اطاقه

ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطا الفرنج مـن رجـب سـنة خمس وثمانين وخمسمائة الى يوم انفصاله عنها في شـعبان سـنة ثمـان وثمانين وخمسمائة ، مدة ثلاث سنين وكسر ، فكان اثني عشر الف رأس من الخيل العـراب والاكاديش الجياد ، للحـاضرين معـه في الجهاد ، والقادمين عليه من البلاد ، غير ما أطلقه مـن الامـوال في أثمان الخيل المصابة في القتال .

وقال العماد : ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، ولاجاءه قود إلا وهو مطلوب وما كان يلبس الا ما حـل لبسـه وتـطيب بـه نفسه ، كالكتان والقطن والصوف ، ويخرج عالي أثمان كسـوته في أثمان المعروف ، ومجالسه منزهة عن الهـزء والهـزل ، ومحـافله حافلة بأهل العلم والفضل ، وما سمعت منه قط كلمة فحش ولا كلمة تسقط ولا لفظة تسخط ، ويؤثر سماع الاحاديث بالاسانيد ، ويتكلم عنده في العلم الشرعي المفيد ، ويلين المـــــــؤمنين ويغلظ على الكافرين ، ومن جالسه لايعلم أنه جليس سلطان ، بل يعتقـد أنه أخ من الأخـوان ، وكان حليمـا ، مقيلا للعثـرات ، متجـاوزا عن الهفوات ، تقيا وليا صفيا ، مارد سائلا ، ولا صد نائلا ، ولا أخجل ولا خيب أملا .

قال : وشكا إليه أيوب بـن كنعـان دينا ، مبلغـه اثنا عشر الف دينار ، فقضاه عنه ، قال : وكتب إليه سيف الدولة بن منقذ ، نائبـه بمصر ، أن بعض الضمان انكسر عليه مال كثير ، وربما وصـل إلى الباب ويتمحل ، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجـل إلى البـاب ، وتمحل وبلغ السلطان ، فأرسل إليه يقول احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ .

قال العماد : ورأى معي يوما دواة محلاة ، فأنكر علي ، وقـال :

ما هذا ؟ فلم اكتب بعد بها عنده أبدا ، قال : وكان محافظا على الصلوات في أوقاتها ، مواظبا على مفروضاتها ومسنوناتها ، ومارأيته يصلي إلا في جماعة ، ولم يؤخر صلاة من ساعة إلى ساعة ، ولايلتفت إلى قول منجم ، وإذا عزم على أمر توكل على الله الذي يقدم ويؤخر .

وذكره القاضي ابن شداد في السيرة وأثنى عليه ، وحكى عنه العجائب ، فمن ذلك انه قال : كان حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، وإذا جاء وقت الصلاة ، وهو راكب نزل فصلى وماتركها إلا في مرضه ، الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط فيها ذهنه ، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري ، وعلمها أولاده الصغار ، ليرسخ في أذهانهم من الصغر وكان يأخذها عليهم .

وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط ، وأما صدقة النوافل فاستنفدت أمواله كلها ، وكان يحب سماع القرآن ، واجتاز يوما على صبي صغير بين يدي أبيه ، وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته ، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة .

قال : وكان شديد الحياء ، خاشع الطرف ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، شديد الرغبة في سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية ، وكان ممن يحضر عنده استحضره ، وسمع عليه ، وأسمع اولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماعه إجلالا له ، وإن لم يكن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك ، سعى اليه وسمع منه ، وروى عنه ، وتردد اليه ، ومضى إلى الاسكندرية ، وسمع الحديث الكثير من الحافظ السلفي ، ومن ابن عوف الموطأ ، وكان مبغضا لكتب الفلاسفة ، وأرباب المنطق ، ومن يعاند الشريعة ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله ، وكان محبا للعدل له اثنان وخمسون مجلسا للعلم تحضره القضاة والفقهاء ، ويصل إليه الصغير والكبير والشيخ والعجوز ، وما استغاث إليه أحد إلا وأجابه وكشف ظلامته ، واستغاث اليه زهير الدمشقي على تقي

الدين عمر وقال : ما يحضر معي مجلس الشرع ، فأمر تقي الدين بالحضور معه ، وكان أعز الناس عليه تقي الدين .

قال : ولقد ادعى رجل على السلطان أن سنقر الخلاطي مملوكه مات على ملكه ، قال : فأخبرته فأحضر الرجل ، وتزحزح عن طراحته وساواه في الجلوس ، فادعى الرجل ، فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الشيوخ من الأمراء الخيار ، وهم وقوف على رأسه ، فقال : لمن تعرفون سنقر الخلاطي ؟ قالوا : نشهد أنه مملوكك ، وأنه مات على ملكك ، ولم يكن للرجل بينة فأسقط في يد الرجل ، قال : قلت يامولانا رجل غريب ، وقد جاء من خلاط في طمع ونفدت نفقته ، وما يحسن أن يرجع من المولى خائبا ، فقال : ياقاضي هذا إنما يكون على غير الوجه ، ووهب له خلعة ونفقة وبغلة وأحسن إليه .

قال : وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان ، واجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال ، وفرق ثمنها فيهم ، قال : وسألت ابن بير زان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس ، فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة ألف إلى ستمائة ألف ، قتل منهم أكثر من مائة ألف ، وغرق معظمهم ، وكان يوم المصاف يدور على الاطلاب ويقول : هل أنا إلا واحد منكم ، وكان في الشتاء يعطي العساكر دستورا وهو نازل على برج عكا ، ويقيم طول الشتاء في حلقته في نفر يسير ، قال : وكنا على الرملة فجاءه كتاب بوفاة تقي الدين ، فقال : وقد خنقته العبرة : مات تقي الدين ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو ، ولقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح فما قال له كلمة وقد استدعاه فأيقن بالهلاك ، وارتقب الناس أن يضرب رقبته فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق وسقاه ماء وثلجا ، قال : وكان المسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبيا فباتت أمه تبكي طول الليل ، فقال لها الفرنج : إن السلطان رحيم القلب فاذهبي إليه ، فجاءته وهو على تل الخروبة

راكب ، فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فأخبروه بقصتها فرق لها ودمعت عيناه ، وتقدم إلى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفا حتى أحضره ، فلما رأته بكت واخذته وارضعته ساعة ، وضمته اليها ، وأشارت الى ناحية الفرنج ، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

وقال : وكان حسن العشرة ، طيب الخلق ، حافظا لانساب العرب ، عارفا بخيولهم ، طاهر اللسان ، والقلم ، فما شتم أحد قط ، ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم ، وما حضر بين يديه يتيم إلا ويترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه ، فإن كان له كافل وإلا كفله ، وسرق من خزانته يوما ألفا دينار ، وجعل في الكيسين فلوس فما قال شيئا ، وذكر القاضي من مناقبه الغرر وسطر من فضائله مازين به التواريخ والسير .

قلت : حكى لي المبارز سنقر الحلبي قال : كان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ، ومعه قصص فقدم له قصة ، وكان السلطان قد مد يده اليمنى على الارض ليستريح ، فداسها سنقر الخلاطي ، ولم يعلم ، وقال له : علم عليها فلم يجبه ، فكرر عليه القول ، فقال له : ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي ؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم ، ثم قال السلطان : هات القصة فعلم عليها ، ومازال السلطان على هذه الاخلاق حتى توفاه الله تعالى إلى مقر رحمته ورضوانه .

ولما كان السادس عشر من صفر وجد كسلا ، وحم حمى صفراوية ، وكان قد ركب فالتقى الحاج ، فركب وبكى ، وتأسف حيث لم يكن معهم ، وأصبح يوم السبت والحمى بحالها ، وتزايد به المرض حتى ضعف ، وأجمع الاطباء على أنه لايفصد فخالفهم الرحبي وفصده ، فكان سبب وفاته ، وحجب عن الرجال ، وتولاه النساء واحضر الأفضل والامراء ، سعد الدين مسعود ، أخو بدر

الدين مودود ، وشحنة دمشق ، وناصر الدين صاحب صهيون ، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ابن الداية ، وميمون القصري وايبك الفارسي ، وأيبك فطيس ، وحسام الدين بشارة ، وسامة الجيلي ، وغيرهم فاستحلفهم لنفسه ، وكان عنده أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن ، فلما انتهى الى قوله تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(٣٦) وقد كان غاب ذهنه فقال صحيح ، وكانت وفاته يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر السابع والعشرين من صفر ، وغسله الخطيب الدولعي ، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي ، وبعث إليه القاضي الفاضل الاكفان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه .

قال ابن القادسي : ودفن معه سيفه ، قال الفاضل هذا يتوكأ عليه في الجنة ، وهو وهم من ابن القادسي ، لان سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد ،وسنذكره .

وعمل الأفضل العزاء ثلاثة أيام وحزن الناس عليه حزنا لم يحزن قبله مثله على غيره .

قال العماد : دخلنا عليه ليلة الأحد العيادة ، ومرضه في زيادة ، وفي كل تضعف القلوب ، وتتضاعف الكروب ، ثم انتقل من دار الفناء الى دار البقاء سحرة يوم الاربعاء ، ومات لموته رجاء الرجال ، واظلم لغروب شمسه فضاء الافضال ، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه ، ودفن جماع الكرم والفضل في مدفنه ، ورثاه الشعراء ، وبكاه الفصحاء ، فمن ذلك قصيدة ذكرها العماد في البرق الشامي ، عددها مائتان وعشرون بيتا ذكرت ههنا غررها ، وسطرت دررها فأولها يقول :

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء واقلعت حسناته

ومنها

بالله أين الناصر الملك الذي
له خالصة صفت نياته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوة وثباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاته
مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي مازال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته
اين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
لاتحسبوه مات شخصا واحدا
بل عم كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبدا لماذا أسلمته حماته
قد اظلمت مذ غاب عنا دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تنشر بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه واقفرت ساحاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل
محفوفة بوفوده حافاته
من لليتامى والارامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
من ذكره في ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إنخلت
من سلها وركوبها عزماته

ياوحشة الاسلام حين تمكنت
من كل قلب مؤمن روعاته

ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته

ياراعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب واسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا
دينا تولى مذ رحلت ولاته
فارقت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكا باقيا راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته

وكتب الفاضل الى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقـول فيه : (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)(٣٧) الاية : كتبت الى الملك الظاهر أحسن الله عزاءه في مصابه ، وجعل الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه ، والدموع قد حفرت النواظر ، والقلوب قد بلغت الحناجر ، فإني قد ودعت أبـاك مخـدومي وداعا لانلتقـي بعـده ، واسلمت الى الله طالبا فضله ورفده ، ولم تدفع عنه جنوده القضاء ، ولاردت عنه الاسـلحة والخـزائن البـلاء ، والعين تـدمع والقلب يخشع ، ولانقول ما يسخط الرب وإنا عليك يايوسف لمحزونون :
وفي آخر الكتاب : فان اتفقتم ما عدمتم إلا شخصه ، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلية هولها عظيم .

قلت : قد فات الفاضل شيئان أحدهما النعيم ، والثاني عند قوله هولها عظيم ، كان ينبغـي أن يقـول : (ذلك تقـدير العـزيز العليم)(٣٨) .

ذكر ما خلفه ، واختلفوا فيه

ذكر القاضي ابن شداد في سيرة السلطان وقال توفي ، ولم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحدا صوريا ذهبا ولم يخلف دارا ولا عقارا ولاضيعة ولابستانا ولا سقفا ولاغيره ،

وقال العماد الكاتب : لم يخلف في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهما ، ودينارا واحدا ذهبا ـ ذكر بمعنى ما ذكر ابن شداد .

ذكر فتوحاته :

اول ما فتح الديار المصرية ، والحجاز ومكة والمدينة ، واليمن من زبيد الى حضرموت متصلا بالهند ، وفي الشام : دمشق وبعلبك وحمص وبانياس وحماة وحلب واعمالها ، ومن حصون الساحل بلاد القدس وغزة والداروم وتل الصافية وعسقلان ويافا وقيسارية وحسي وعكا وطبرية والشقيف وصفد وكوكب والكرك والشوبك ونابلس وصيدا وبيروت وجبيل وجبلة واللاذقية والشغر وبكاس وصهيون وبلاطنس وحصن برزية وقد ذكرنا تلك الحصون .

ومن الشرق حران والرها والرقة ورأس العين وسنجار ونصيبين وجملين والموزر ، وسروج وديار بكر وميافارقين وآمد وحصونها وشهرزور والبوازيج ، وخطب له على المنابر من باب همذان الى الفرات ، ومن الفرات إلى حضرموت ، ومن المغرب إلى إفريقية .

ويقال انه فتح ستين حصنا ، وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس ، والساحل وبلاد الفرنج ، وديار بكر ، ولو عاش لفتح الدنيا شرقا وغربا وبعدا وقربا ، وإن كان مبدأ فتوحه مصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله ، وبينهما

مقاربة في السيرة والعدل والايام واجتناب الاثـام وكلاهمـا لم يبلغ ستين سنة ولا خلا من فضيلة ومنقبـة حسـنة ، وقـد ذكرنا ان نور الدين ولد في سنة احدى عشرة وخمسمائة ، وتوفي سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولد صلاح الدين سنة اثنتان وثلاثين وخمسمائة وتوفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقد ذكرنا ذلك .

ذكر اولاده

كانوا ستة عشر ذكرا وابنة واحدة ، وكان اكبر اولاده الافضل علي ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة يوم عيد الفـطر ، واخـوه لابيه وأمه خضر الملقب بالظافر ، ولد بمصر سـنة ثـلاث وسـبعين وخمسمائة واخوهما لابيهما وأمهما موسى ويلقب قـطب الدين ، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وخمسـمائة ، وعثمـان الملك العـزيز ولد بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة ، واخـوه لابيه وأمـه يعقـوب الاعز ، ولد بمصر سنة اثنتان وسبعون وخمسـمائة ، وغازي الملك الظاهر ولد بمصر سنة ثمـان وسـتين وخمسـمائة ، واخـوه لابيه وامه . الزاهر داود ولد بمصر سنة ثـلاث وسـبعين وخمسـمائة ، والمعز اسحاق ولد سنة سبعين وخمسمائة ، والمؤيد واسمه مسعود ولد بدمشق سنة احدى وسبعين وخمسمائة ، والاشر ف محمـد ولد بالشام سنة خمس وسبعين وخمسـمائة ، واخـوه لابيه وأمـه ملك شاه ، ويلقب بالغالب ولد بالشام سنة ثمان وسبعين وخمسـمائة ، واخوهما لابيهما وامهما ابو بكر ، ويلقب بالنصرة ولد بحران بعـد وفاة أبيه في سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

واما البنت فاسمها مؤنسة خاتون ، تزوجها الكامل محمـد بـن العادل ماتت عنده ، وكان لصلاح الدين ولد اسمه اسماعيل مـات في حياة ابيه .

ذكر قضاته ووزرائه وكتابه

القاضي كمال الدين بن الشهر زوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ومحيي الدين بن زكي الدين ، ووزيره صفي الدين بن القابض ، وكتابه : الفاضل ، والعماد ، وكان الفاضل حاكما على الجميع ، وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الامور إلا بمضائه .

ذكر ما تجدد بعد وفاته

كان أخوه العادل سيف الدين لما توفي بالكرك ، فقدم دمشق معزيا للافضل ، فأقام ثم رحل إلى الجزيرة إلى البلاد التي أعطاه إياها السلطان ، وهي : حران والرها وسميساط ، والرقة وقلعة جعبر ، وميافارقين ، وديار بكر ، وكان له بالشام : الكرك والشوبك ، وبعث الافضل ضياء الدين بن الشهر زوري رسولا الى الخليفة ، ومعه زردية السلطان وسيفه وحصانه وكزاغنده ، ودبوسه وتحفا كثيرة ، وعاب الناس عليه بحيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد ، وكتب كتابا إلى الخليفة بيد ابن الشهر زوري ، فمنه : أصدر العبد خدمته هذه ، وصدره معمور بالولاء ، وقلبه مغمور بالصفاء ، وذكر كلاما طويلا ، فقيل لابن الشهر زوري(لله الامر من قبل ومن بعد)(٣٩) ، وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه ، واستثاروا عز الدين صاحب الموصل وأصحابه ، فأشار عليه المجد ابن الاثير بالخروج ، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام ليظهر حقائق الامور ، ويراسل جيرانه : ابن زين الدين صاحب إربل ، وسنجر شاه صاحب الموصل ، وعماد الدين صاحب سنجار ، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران ، فاستنجد العادل بأولاد أخيه ، فجاءته عساكر الشام ، ومصر ومرض عز الدين على

نصيبين بالاسهال وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع الى الموصل جريدة فمات بها ، ثم إن الملك العزيز قدم الى الشام وتقدم في منزلته ، وقدمت معه العساكر على الأفضل ، وبعث إليه العادل ارحل إلى مرج صفر ، فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد لتصل العساكر ، فوصل الظاهر من حلب ، والمنصور من حماة ، وشيركوه من حمص ، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل ، فقال العادل : قد تقرر أنه يرجع إلى مصر ، ويقع الاتفاق ، وتعود الامور إلى ما كانت عليه ، وا شتد مرض العزيز ، ولولا مرضه ما صالح ، فأرسل العزير كبراء دولته فخر الدين شركس وغيره ، فحلف الملوك وطلب مصاهرة العادل ، فزوجه ابنته خاتون ، ورجع كل واحد إلى بلده ، وذلك في شعبان .

وقال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته فسمي : الملك النوام ، وفوض الأمر الى وزيره ابن الجزري ، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي فأفسدا عليه الأحوال ، وكانا سببا لزوال دولته ، وا ستبدلا بكبراء الأمراء والأجناد أراذل الناس ، ففسدت أمور العباد .

حواشي المحاسن اليوسفية

١ ـ ذكرنا من قبل انها بلدة في اذربيجان ، وتقارن هذه الروايات مع ما جاء حول اني ودولة منوجهر هناك وقضاء الكرج عليها .
٢ ـ بعد ما تعرض صلاح الدين للاغتيال احترز فصار يبيت ويقيم في برج خشبي محصن .
٣ ـ اليزك : الاستطلاع
٤ ـ القتايل : الكتائب ، واراد هنا المنجنيقات والات الرمي الاخرى .
٥ ـ انظر كنز العمال ج ٦ ص ٤ ـ ١٤ .
٦ ـ ابرز قادة البيت الايوبي ايام صلاح الدين ومؤسس الدولة الايوبية بحماة .
٧ ـ لم اجده بهذا اللفظ
٨ ـ انظره في موسوعة اطراف الحديث ـ ط . بيروت ١٩٨٩ ج ٣ ص ٢١٦ .
٩ ـ سورة العنكبوت ـ الآية : ٦٩
١٠ ـ اراد قوله تعالى في سورة هود ـ الآية: ٤٢ : « وهي تجري بهم في موج كالجبال »
١١ ـ سورة النحل ـ الآية: ١١٠
١٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ١٣٤ .
١٣ ـ سورة القلم ـ الآية : ٤
١٤ ـ سورة يوسف ـ الآية : ٩٠
١٥ ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢١٦ .
١٦ ـ لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دولة الكنوز الاسلامية لعطية القوصي ـ ط . القاهرة ١٩٧٦ ص ٦٨ ـ ٨٠
١٧ ـ قرنا حماه هما جبل زين العابدين وجبل الهاشمية الى جواره حاليا .
١٨ ـ خارج حلب
١٩ ـ عرف من قبل باسم الفنيدق .
٢٠ ـ سورة الانفال ـ الآية : ٤٢
٢١ ـ قلعة من نواحي حلب بين نهر الجوز والبيرة . معجم البلدان
٢٢ ـ قرب زيزون بجوار شلالات تل شهاب في محافظة درعا ـ سورية .
٢٣ ـ هي عنجر حاليا في بقاع لبنان على مقربة من الحدود مع سورية .
٢٤ ـ انظر سورة الاحزاب ـ الآية : ٢٦ .
٢٥ ـ سورة الروم ـ الآية ٤٧
٢٦ ـ من انواع الخناجر المعكوفة والطويلة .
٢٧ ـ لم اجده بهذا اللفظ
٢٨ ـ سورة غافر . لآية : ٨٥ .
٢٩ ـ سورة الاحزاب ـ الآية ٢٥ .
٣٠ ـ الأوج : الحدود او الثغور ، والهنكرهم الهنغار .
٣١ ـ اي هيثوم ملك ارمينية الصغرى .

٣٢ ـ اي فارسا .
٣٢ ـ سورة الحاقة · الآية ٧
٣٤ ـ سورة الفرقان . لآية ٢٦ .
٣٥ ـ سورة الرعد ـ الآية ٣٨ .
٣٦ ـ سورة يوسف ـ الآية ٧٧
٣٧ ـ سورة الاحزاب ـ الآية : ٢٥
٣٨ ـ القيمون : حصن قرب الرملة .
٣٩ ـ سورة القصص ـ الآية: ٦٠
٤٠ ـ سورة الانفال ـ الآية :٦٦
٤٠ ـ سورة الطلاق ـ الآية ٣ .
٤١ ـ سورة هود ـ الآية : ١١٥ .
٤٢ ـ سورة آل عمران ـ الآية : ٥٤ .
٤٣ ـ سورة البقرة ـ الآية : ١٥٦ .
٤٤ ـ سورة الاحزاب ـ الآية : ٣٨ .
٤٥ ـ سورة الرحمن ـ الآية : ٦٠
٤٦ ـ اي قائد القلعة
٤٧ ـ بالفارسية البيكار · الحرب
٤٨ ـ ماتزان تحملان الاسم نفسه الى الجنوب من دمشق .
٤٩ ـ سورة الحشر ـ الآية : ٢٢
٥٠ ـ سورة الرعد ـ الآية . ٣٠

حواشي مرآة الزمان

١ ـ ربما تل معشر هو تل صلبي الحالي وهو يقع على ارتفاع يمكن منه مراقبة شيزر
٢ ـ جوسلين صاحب حصن تل باشر . ابن القلانسي : ٢٧٩ .
٣ ـ كذا في الاصل ولا وجه لها ، وفي تاريخ دمشق : ٢٩٤ ، « كان النزول على الاقحوانة » .
٤ ـ الخبر عند ابن الاثير في الكامل ، على انه حدث في صقلية
٥ ـ في غوطة دمشق قرب جرمانا حيث هناك تل اثري كبير .
٦ ـ تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٥٠٣ ـ ٥٠٦ حيث المزيد من التفاصيل .
٧ ـ ديوان اسامة بن منقذ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ مع فوارق ، واسم المسجد مسجد سبرين
٨ ـ سورة الرعد ـ الاية : ١١

٩ ـ عرقلة الكلبي ، حسان بن نمير [ت ٥٦٧ ها] له ديوان شعر منشور .
١٠ ـ مسعود بن محمد بن مسعود توفي سنة ٥٧٨
١١ ـ هي المدرسة العادلية ومقر مجمع اللغة العربية من قبل .
١٢ ـ اي كتاب الباهر لابن الاثير الجزري .
١٣ ـ هو عمر بن علي بن محمد بن علي بن حموية شيخ الشيوخ المتوفي سنة ٥٧٧ .
١٤ ـ محمد بن عبد اله بن القاسم المتوفي سنة ٥٧٢ .
١٥ ـ الكوافر جمع الكافر ، وهو ثوب يلبس فوق الدروع
١٦ ـ سورة الانبياء ـ الآية . ١٠١
١٧ ـ عبد اله بن علي توفي سنة ٦٣٠ .
١٨ ـ محمد بن نصر الخالدي توفي سنة ٥٤٨ .
١٩ ـ محمد بن عبد الملك قتل سنة ٥٨٣ .
٢٠ ـ توفي سنة ٥٧٣ .
٢١ ـ مجد الدين مات سنة ٦٦٥ .
٢٢ ـ محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري .
٢٣ ـ سورة الاعراف ـ الآية : ٨٧ .

٢٤ ـ هي المدرسة الشامية البرانية ، قيد الترميم حاليا في دمشق .
٢٥ ـ حطان بن كامل بن منقذ الكياني (٥٧٨ هـ)
٢٦ ـ سورة الزمر ـ الآية : ٧١
٢٧ ـ سورة الزخرف ـ الآية : ٥١ .
٢٨ ـ سورة الانبياء الآية : ١٠٥
٢٩ ـ سورة الصافات ـ الآية:٣٧ .
٣٠ ـ سورة الحاقة ـ الآية :٧
٣١ ـ سورة هود ـ الآية : ١٠٢
٣٢ ـ سورة النور ـ الآية : ٥٥

٣٣ - سورة الصف الآية : ١٣

٣٤ - مزج المصنف في نصه اكثر من رسالة من رسائل العماد وجه كل منها الى جهة

٣٥ - هو عبد الرحمن بن محمد ابن اخي اسامة بن منقذ ، انظر ترجمته المستخرجة مـن المقفـى المقريزي .

٣٦ - مات سنة ٥٨١

٣٦ - الشهرزوري .

٣٧ - سورة الاحزاب - الآية ٢١

٣٨ - سورة يس - الآية : ٣٨ .

٣٦ - سورة الحشر - الآية : ٢٣ .

٣٩ - سورة الروم - الآية : ٤

المحتوى